فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩].

قال رسول الله ﷺ :

« إن هذا القرآن مأدبة الله فخذوا منه » رواه الدارمى.

مقدمة المحقق

تمهيد :

نحمدك الله حمداً يوافى نعمك ويكافئ مزيدك ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائك وصفوة خلقك سيدنا محمد ، وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الهداة الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

اللهم إنا نبرأ إليك من الحول والطول، ونسألك التوفيق لما ترضاه من العمل والقول، ونعوذ بك أن نتكلف ما لا نحسن ، أو نقول ما لا نعلم ، أو نمارى فى الحق ، أو نجادل عن الباطل ، أو نتخذ العلم صناعة أو الدين بضاعة .

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) .

يطيب لنا أن نقدم للأمة الإسلامية بعامة كتاباً من أنفس الكتب فى فنه ألا وهو« فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية » من علم التفسير للإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى .

أما عن المؤلف : فهو عملاق من عمالقة الإسلام ، ومفكر ألمعى ، له فى دنيا المعرفة صولات وجولات ، وغواص ماهر ، كان دائما يغوص فى بحار الكتب وفى أعماق المؤلفات ، يفتش عن الجواهر المكنونة ، والكنوز المدفونة ، وعالم من علماء التفسير استطاع بكتابه هـذا أن تكون له بصمات مضيئة على جبهة التاريخ، التى دائما ترصد أعمال العباقرة، وتسجل أفكار المبدعين.

يصفه أحد رجالات الفكر قائلاً :

« كان إماما يعول عليه ، ورأسًا يرحل إليه ، فريدًا فى عصره ، ونادرة لدهره ، وقدوة لغيره ، بحراً فى العلم لا يجارى ، ومفسرا للقرآن لا يبارى ، ومحدثا لا يشق له غبار ، ومجتهدًا لا يثبت أحد معه فى مضمار » .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) الحشر : ١٠ .

أما عن الكتاب : فيعتبر أصلاً من أصول التفسير، ومرجعًا مهمًا من مراجعه ؛ لأنه جمع بين التفسير بالرواية ، والتفسير بالدراية .

التفسير بالرواية ــ والذى يسمى : « التفسير بالمأثور» ــ وهو يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن ، وما كان تفسيرا للقرآن بالسنة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وبعض المروى عن التابعين .

والتفسير بالدراية ــ والذى يسمى : « التفسير بالرأى » ــ وهو عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم فى القول ومعرفة الألفاظ العربية، ووجوه دلالتها ، وخبرته بالشعر العربى ، ووقوفه على أسباب النزول ، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم، ثم الموهبة وهى علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمكم اللَّهُ**﴾(١)، وقال الرسول ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم».

قال صاحب البرهان : « اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا تظهر أسراره وفى قلبه بدعة ، أو كبر ، أو هوى ، أو حب دنيا » .

قال الله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ (٢) .

قال ابن عيينة : أنزع عنهم فهم القرآن .

والإمام الشوكانى ــ رحمه الله ــ حباه الله ــ سبحانه وتعالى ــ بكل ذلك ، فكان هذا التفسير الذى جمع بين صدق الرواية ، وعمق الدراية .

وإذا كان ذلك كذلك ، فيطيب لنا أن نقدم بين يدى القارئ فى هذه المقدمة النقاط الآتية :

١ ــ الحالة السياسية فى عصر الشوكانى .

٢ ــ الحالة العلمية فى عصر الشوكانى .

٣ ــ التعريف بالإمام الشوكانى .

٤ ــ حياة الشوكانى العلمية وجهاده فيها .

٥ ــ التدريس ، والإفتاء ، والقضاء .

٦ ــ التعريف بشيوخه وتلاميذه.

٧ ــ مؤلفاته .

٨ ــ منهج الشوكانى فى التفسير.

٩ ــ عملنا فى هذا الكتاب .

ونرجو من الله العلى القدير أن يعيننا على ذلك، وأن يلهمنا الرشد والصواب، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) البقرة : ٢٨٢ . (٢) الأعراف : ١٤٦ .

الحالة السياسية فى عصر الشوكانى

الباحث المدقق فى حياة اليمن السياسية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، يرى أن اليمن كانت تعيش فى حالات من القلق والاضطراب الدائم ، والفتن المستمرة ، والثورات التى لا ينطفئ لهيبها ؛ وذلك لسببين :

أولهما : النزاع المستمر، والمصادمات التى تسيل فيها الدماء وتزهق فيها مجموعة من الأرواح والتى كانت تقام بين الأسرة الحاكمة ورؤساء العشائر والقبائل من آونة لأخرى .

ثانيهما : طمع كثير من الدول الكبرى فى اليمن ومحاولة الاستيلاء عليها ، باعتبارها لقمة سهلة يمكن ازدرادها بسبب كثرة التناحر بين أبنائها والمتطلعين إلى الوثوب فى الحكم فيها.

من ذلك أن أوربا أعدت العدة،وجيشت الجيوش الكثيرة لاحتلال جنوب الجزيرة العربية.

ثم فكرت الدولة العثمانية فى غزو اليمن لأسباب تكاد تكون غير معروفة عام ٩١٥هـ، فأعدت العدة ، وجيشت الجيوش بقيادة سليمان باشا لتلك الحملة ، وسارت السفن الحربية حتى رست فى جزيرة قمران قرب الحديدة ، بأمر السلطان سليمان بن سليم العثمانى . وقضت تلك الحملة وما بعدها من حملات على جميع السلطات باليمن حاشا الدولة الزيدية ، واستمرت الحرب بين الدولة العثمانية ، وبين الأئمة الزيدية، إلى أن انتهت فى عهد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين عام ١٣٣٥هـ .

ولقد كانت هناك مكاتبات ومعاهدات بين الدولة العثمانية والأئمة الزيدية ، انتهت بإيقاف الحرب بعد أن أفنت القوة الضاربة فى اليمن الكثير من جيوش الدولة العثمانية على أرض اليمن حتى أطلق عليها بعض المؤرخين : مقبرة الغزاة .

ولكن مما يؤلم النفس ويجرح القلب ، أن الدولة العثمانية المسلمة عندما فكرت فى ترك دولة اليمن سلمت منطقة عدن إلى القوات البريطانية والتى ساعدها ذلك على استعمار المنطقة كلها ، ثم أشاعت الفرقة والخلاف بين أبناء الوطن الواحد ، الأمر الذى أدى إلى تقسيم اليمن إلى شطرين ، والذى يعرف اليوم باليمن الجنوبية ، واليمن الشمالية . ولقد كان فى عصر الشوكانى علاقات جوار طيبة بين دولة اليمن ودولة الأشراف فى مكة وتهامة .

وكان بين الدولتين المتجاورتين رسائل ومكاتبات للتعاون بينهما فى مجال السياسة والاقتصاد، ومحاربة العدو المشترك . واستمر الوضع على ذلك حتى أرسل محمد على باشا ــ والى مصر فى ذلك الوقت ــ جيشا كثيفا استولى به على مكة وغالب الجزيرة العربية .

والمرء يعجب من ذلك ويحاول أن يبحث عن المبررات والأسباب التى أوجدت هذا التقاتل. لقد كانت سيوف المسلمين مشرعة للخارج ، وكانت تلك السيوف لها غاية وتعمل

لهدف،وهو نشر دين الله،والدعوة إلى توحيد الخالق المبدع ، وكان لتلك السيوف دورها الكبير فى أربعة أركان الأرض ، فما بال تلك السيوف التى كانت بالأمس عامل إيمان وإسلام قد تحولت على ساحة اليمن إلى عوامل هدم وتدمير ونزاع وشقاق بين أخوة الدين والعقيدة ؟!

ولقد سجل الشوكانى ، بقلمه الفذ وعقله الألمعى ، الكثير من المواقف المبكية المضحكة فى آنٍ واحد على صفحات كتابه :« البدر الطالع »، والحق يقال : إنه وثيقة حية يجب أن يعيها المسلمون فى كل أرض ومصر حتى لا يكونوا طعمة للذئاب . . . فهل تراهم يسمعون ؟! نرجو من الله ذلك .

الحالة العلمية فى عصر الشوكانى

يقول الرسول ﷺ: « أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبًا وأرق أفئدة، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » [١] .

لقد وصف الرسول ﷺ أهل اليمن بالحكمة ، ووصفهم فى حديث آخر بالأمانة ، ولقد كانوا هكذا فى عصر النبوة ؛ جاؤوا إلى الرسول ﷺ ليتفقهوا فى الدين ، ويأخذوا القرآن ، ويتعلموا سنة الرسول ﷺ ، ثم عادوا إلى بلادهم لنشر العلم وتفقيه غيرهم امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ** ﴾[٢] ،حتى أصبحت اليمن كعبة لحديث الرسول ﷺ ، ومدرسة كبرى لتدريس السنة والتفقه فى أمور الدين . ومن العلماء الأئمة الأجلاء الذين ذهبوا إلى ساحة اليمن : محمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وابن المبارك ، وابن معين ، ومحمد بن يحيى النيسابورى ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم كثير.

ثم ماذا . . ؟

تحولت هذه القلعة الحصينة إلى ساحة مباحة لكثير من المذاهب الهدامة وغيرها من المذاهب المعتدلة ، فكان يعيش على أرض اليمن فى عصر الشوكانى : الزيدية أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ وكان الشوكانى فى بداية أمره على مذهب الزيدية .

وأيضا كانت المعتزلة أتباع واصل بن عطاء ، والأشاعرة أتباع الأشعرى ، الذى يتصل نسبه بأبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله ﷺ والذى ينتسب إلى الأشعريين باليمن ، والذى قال فيهم رسول الله ﷺ :« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم . .؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة » . ثم نزل رسول الله ﷺ . فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قالوا : الأشعريون .

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت أقواما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا . .؟ فأعاد عليهم ما ذكره فى خطبته : «ليعلمن قوم جيرانهم أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا ».

فقالوا: يا رسول الله، أنفطن غيرنا ؟ فأعاد عليهم ما قاله ، فقالوا : يا رسول الله ، أمهلنا

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى فضائل أهل اليمن . (٢) التوبة : ١٢٢ .

سنة ، فأمهلهم (١) ، وقرأ عليهم قول الله تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (٢) .

وكان على أرض اليمن الباطنية: وهى فرقة تدعى أنها من الشيعة، ظاهرها التحلل وباطنها الكفر الصراح ، تؤول نصوص القرآن الكريم حتى يتوافق مع ما تدعو إليه ، وتشكك فى الأحاديث المروية عن طريق أهل السنة والجماعة وتستبيح المحرمات ، وتستحل سبى المسلمات من غير فرقتهم ، وتكفر الصحابة إلا القليل منهم .

وهذه الفرقة عاش أصحابها فى العراق فترة ، وكانوا يطلقون عليهم أسماء عدة ، فهم الباطنية مرة ، والقرامطة أخرى، والمزدكية ثالثة، وكانوا يسمون بخراسان : تعليمية وملحدة .

ويقال بأن تعاليم هذه الفرقة دخلت إلى اليمن سنة ٢٩١هـ ، حيث بعث ميمون القداح إلى اليمن اثنين من دعاته ، فلما وصلا إليها أظهرا الزهد والورع والتقشف حتى مال الناس إليهما ، وقصدهما العامة من كل مكان للتبرك بهما ، وجمعوا لهما المال ، وعظم شأنهما ، وأظهرا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحصنا الحصون ، وبنيا القلاع ، وبدءا بتنفيذ الخطة ، واستوليا على اليمن بأسره إلا القليل منه .

ولما تم لهما ما أرادا أظهرا مذهبهما الخبيث، ويقال بأن على بن الفضل ــ أحد الرجلين اللذين أرسلهما ميمون القداح ــ أظهر الكفر البواح فى بعض ما يقوله من الشعر ، من ذلك :

خذى الدف يا هذه واضربى ... وغنى هزا ربك ثم أصربى
تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب
لكل نبى مضر شرعه ... وهاتى شريعة هذا النبى
أحل البنات مع الأمهات ... ومن فضله زاد حل الصبى
قد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام فلم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن أمسكوا فكلى واشربى (٣)

إن هذه الأبيات تدل على الكفر البواح ، وعلى الارتداد عن الإسلام بالكلية ، لقد حارب الخليفة أبو بكرالصديق الذين امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقالاً كانوا يعطونها لرسول الله ﷺ لحاربتهم عليه ». فما بالك بهؤلاء الذين يرفضون كل تعاليم الإسلام وينصبون لهم نبيا جديدا بعد قول الرسول ﷺ : « أنا خاتم النبيين ولا نبى بعدى ». وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ؟!(٤).

(١) راجع : أضواء على البحث والمصادر للمحقق . (٢) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .
(٣) راجع : الإمام الشوكانى مفسراً للدكتور محمد حسن الغمارى :ص ٤٢ بتصرف .
(٤) الأحزاب : ٤٠ .

وكان يعيش على أرض اليمن أيضاً جماعة المتصوفة . والتصوف إذا كان الهدف منه تصفية النفس وتطهيرها عن طريق ما شرعه الله تعالى لعباده وأوحى به لنبيه ﷺ من كثرة النوافل والعبادات ، فهذا لا غبار عليه ؛ لقوله تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه : « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، وإن استعاذنى لأعيذنه» .

إذا كان التصوف هو تجنب الحرام ، وأداء التكاليف والتوكل على الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نقول: إذا كان ذلك كذلك ، فنعم العبد الذى يأخذ نفسه بهذا ، ولكن واقع الأمر فى عصر الشوكانى أن تحول التصوف إلى التحلل من التكاليف الشرعية ، والتقرب إلى الأموات بالنذور، وأن يطلب منهم النفع والضر، والإحياء والموات . وهذا الشىء خارج عن نطاق الإسلام .

وهؤلاء كان لهم فى اليمن باع طويل ، ودولة وصولجان،فندد بهم الشوكانى، وطالب العامة بالانفضاض عنهم بعد أن كشف لهم زيفهم وضلالهم ، ثم وضع لهم كتابه « قطر الولى » فارقا فيه بين التصوف وأدعياء التصوف ، ولا شك أن هذه الاختلافات الكثيرة ، والفرق المتعددة التى كانت تعيش على أرض اليمن ، دفعت العلماء إلى شحذ قرائحهم وشرع أقلامهم للدفاع عن دين الله الحنيف ، فكانت حركة علمية ناهضة وسوقا للمعرفة رابحة ، الأمر الذى دفع الإمام الشوكانى إلى نزول الميدان وخوض هذه المعمعة الضارية ، بالتعليم مرة ، وإصدار الفتاوى أخرى ، والحكم الصارم على هؤلاء المارقين مرة ثالثة ؛ فإذا خلا إلى نفسه تناول قلمه ، وأخذ يؤلف ويجتهد ويخرج للأمة الإسلامية لب الشريعة ، وحقيقة الدين ، ويطالبهم بالسير على الصراط المستقيم حتى يكونوا جديرين بقول الله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

التعريف بالإمام الشوكانى

١ ــ نسبه ومولده :

هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ثم الصنعانى . والشوكانى نسبة إلى هجرة شوكان ــ قرية بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم ــ وهى نسبة والده ، والصنعانى نسبة إلى صنعاء عاصمة اليمن .

ولد بهجرة شوكان ــ كما سجل والده ــ فى وسط نهار يوم الإثنين الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ١١٧٣هـ(١) .

وقد ترجم الشوكانى لوالده : على بن محمد بن عبد الله ، وانتهى بنسبه إلى أحد زعماء اليمن فى عهد الإمام الهادى إلى الحق : يحيى بن الحسين بن القاسم الرسمى ويسمى : « الدعام » ، وأشار الشوكانى إلى أن الهادى ذكره فى إحدى خطبه على أنه من أنصاره الذين أعانوا على قدومه إلى اليمن. ثم يتتبع هذا النسب فى مظانه المختلفة حتى يصل به إلى أرحب، ثم إلى بكيل ، ثم أخيراً إلى آدم عليه السلام .

٢ــ نشأته وطلبه العلم :

نشأ كما ينشأ أترابه بمدينة صنعاء ــ إحدى العواصم العربية ــ والتى كانت مركزاً من مراكز المعرفة ، وقلعة يهفو إليها طلاب العلم ، وكيف لا تكون كذلك ، وهى موطن الملوك الصيد، ومملكة بلقيس الملكة المحنكة والسياسية البارعة ، والتى ما كادت تقرأ خطاب سليمان ــ عليه السلام ــ وينطق لسانها بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى أظعنت إليه ، ووقفت بين يديه، وأعلنت إسلامها ، والإقرار بتوحيد خالق الأرض والسموات ، قال الله تعالى حاكياً قولها : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

على هذه الأرض الطيبة ، وبين الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء والخضرة اليانعة الممتدة أمام البصر ، والتى تغطى مساحات كبيرة من هذا البلد المعطاء ــ عرفت قدماه السير فى دروبها ، ولم تنعم طفولته كثيرًا باللهو واللعب ، ولكنها كانت طفولة جادة متفتحة ، فعرف الطريق إلى المسجد مبكرًا ليجلس مع لداته وأترابه فى مسجد صنعاء الجامع ، يقرأ القرآن ، ويستظهره على يد أحد مشايخها ، ولم يمض وقت طويل من عمر الزمن على الطفل الطلعة ، حتى حفظ القرآن الكريم ورتله .

وكان والده فى ذلك الوقت قاضى صنعاء ومن العلماء البارزين فيها ، يمتاز بالصلاح والتقوى ، عادلا فى أحكامه فقيهًا واعيا وعلى دراية كاملة بعلوم الشريعة . فلمس النجابة فى

(١) راجع : البدر الطالع ١/ ٤٨١ .

(٢) النمل : ٤٤ .

ابنه والذكاء فى عقله، فأخذ ينحله النصيحة ، ويقدم له خلاصة علمه وتجاربه، وقدم له مكتبته التى جمعها فى سنوات عمره الطويلة ، وكانت مكتبة الوالد حافلة بكل المعارف والفنون ، فعكف عليها حافظاً لمتونها ، وفاحصاً ومنقبا عن جواهرها .

ولقد كان الشوكانى فى المرحلة الأولى من حياته متفرغا تفرغا كاملا لطلب العلم ، ولم يكن هناك عائق يشغله عن طلب العلم . أما متطلبات الحياة وتكاليف المعيشة فكان الوالد متكفلاً بها بالكامل . وكان فى حياته الدراسية لا يكتفى بدراسة الكتاب مرة ، بل يتتبع بالكتاب الواحد عدداً من الأساتذة حتى يستفرغ ما عندهم من علم ، كما فعل بكتاب «شرح الأزهار » الذى قرأه على أربعة من العلماء أحدهم والده وآخرهم شيخ شيوخ الفروع فى وقته الإمام أحمد بن محمد الحرازى والذى لازمه الشوكانى ـ كما يقول عن نفسه ـ ثلاثة عشر عاماً وتخرج على يديه.

ولم يكتف الشوكانى بشيخ أو بعدة شيوخ ، ولكنه كان دائما باحثا ومنقبا عن البارزين من علماء عصره ، والمتخصصين فى مختلف العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ، والرياضية والفلكية ، وكان يلازمهم ملازمة كاملة حتى يستفرغ كل ما عندهم من علم ، فإذا عاد إلى منزله عكف على مكتبة والده مقارناً بين ما كتبه العلماء السابقون وما يسمعه مشافهة من العلماء الدارسين.

والذى يقرأ ما كتبه عن نفسه فى طلب العلم، وما استوعبه من كتب ومؤلفات ، يشعر للوهلة الأولى أن الشوكانى درس دراسة واسعة واطلع اطلاعا يندر أن يحيط به غيره من معاصريه . وليس من المستطاع فى هذه المقدمة أن نقدم بين يدى القارئ ثبتا بكل ما درسه من كتب ، أو استجازه من مراجع ، ومن يرجع إلى كتابه « إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر » يدرك مدى ما كان عليه هذا الرجل من تنوع فى الثقافة ، واتساع فى فنون المعرفة . الأمر الذى جعله عالم عصره، وفارس ميدانه.

وإذا كان ذلك كذلك ، فيطيب لنا أن نلقى بعض الأضواء على حياته العلمية وجهاده فى هذا المضمار .

حياة الشوكانى العلمية وجهاده فيها

قلنا آنفا : ومن يرجع إلى كتابه « إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر» يدرك مدى ما كان عليه هذا الرجل من تنوع فى الثقافة ، واتساع فى فنون المعرفة ، الأمر الذى جعله عالم عصره ، وفارس ميدانه .

عندها أخذ يفتش فى مجتمعه فى اليمن،وكذلك فى بلاد المسلمين من حوله دارساً وباحثاً ومنقباً وراصدا لمعتقدهم إزاء الإسلام وأهله .

وأسلمته المقدمات إلى النتائج التى تتمثل فى الجمود المغيم ، والتقليد الموجه الذى يسوق أبناء الأمة الإسلامية إلى حالة من الفوضى القاتلة المنبثقة من التقاليد البالية والشعبذات المريضة، التى أبعدت الناس عن صفاء العقيدة وجعلتهم يلهثون خلف كل دجال يدعى أن فى القبور من يخلصهم من مشاكلهم ، ويحقق لهم السعادة والهناء. أو بليد الإحساس يدور فى فلك الحواشى والتعليقات ، وبعضهم سار خلف أدعياء العلم الذين جمدوا على آراء السابقين ، واتخذوا التشيع عقيدة ، والتصوف ـ المنحرف ـ منهجًا ومسلكا .

فرفع « الشوكانى » معول الهدم لتحطيم هذه المعتقدات البالية ، وكسح هذه الترهات المتعفنة ، ووضع أمام أبناء الأمة الإسلامية ـ على أنقاض هذا الهدم ـ العلاج النافع والشفاء العاجل ، وذلك بالعودة إلى كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ .

وأفرغ منهجه هذا منهج الإصلاح فى كتابه العظيم :« الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل» (١) .

والمتصفح لهذا الكتاب يرى أن الشوكانى قال للأمة الإسلامية : إن البلاء لاينزل على البلاد إلا بسبب المعاصى التى يرتكبها أهلها. ومن هنا كانت وصية عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ للجيش المحارب قائلاً : « آمركم بتقوى الله على كل حال ، فإنها أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، وإلا ننصرعليهم بفضلنا وديننا لم نغلبهم بقوتنا » (٢) .

ويقول الشوكانى : « فقد سلط الله على المسلمين طوائف من عدوهم عقوبة لهم ، حيث لم ينتهوا عن المنكرات ، ولم يحرصوا على العمل بالشريعة المطهرة ، كما وقع من تسليط

(١) تم طبع هذا الكتاب فى مكتبة النهضة بالقاهرة.

(٢) راجع : كتاب « هذا هو الطريق » للمحقق : ص ٢٧ . ط . دار اللواء ، الرياض .

الخوارج ، ثم تسليط القرامطة ، والباطنية ، ثم تسليط الترك ، وكما يقع كثيرًا من تسليط الفرنج ونحوهم » (١) . ثم نراه يصنف أفراد الأمة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام :

أ ــ أتباع الحاكم وحاشيته وجنده .

ب ــ سكان البادية والقرى .

جـ ــ سكان المدن والحضر.

أما القسم الأول ، فيقول عنه :« رعايا يأتمرون بأمرالدولة ، وينتهون بنهيها ، وأكثر هؤلاء لا يحسنون الصلاة ، فمنهم من تركها كلية ، ومنهم من أداها بطريقة غير مقبولة، وكذلك الصيام ، فربما لا يكمِّل شهر رمضان صوماً إلا القليل ، وكثيراً ما يأتى هؤلاء بألفاظ كفرية كالحلف بالطلاق ، والحلف بالخروج من الدين ، والاستغاثة بغير الله تعالى من نبى أو رجل من الأموات » (٢) .

هذه هى حال الطائفة الأولى : منهم من ترك الصلاة التى هى عماد الدين والتى قال عنها الرسول ﷺ :« العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» ، ومنهم من سها عنها ولم يقم بها كما أمرالله تعالى فوقع تحت قوله تعالى :﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ (٣) .

والقسم الثانى :« الذين لم يسكنوا المدن ، وهؤلاء الأمر فيهم أشد وأفظع ، فإنهم جميعاً لا يحسنون الصلاة ولا القراءة ، وبالجملة فالفرائض الشرعية بأسرها من غير فرق بين أركان الإسلام الخمسة وغيرها مهجورة عندهم ، بل كلمة الشهادة قد ضاعت من ألسنتهم فضلاً عن قلوبهم ، وسط الانشغال بأوليائهم من أصحاب القبور، ومن يدعون الصلاح فيهم » .

إن هذا القسم هم المسلمون عن طريق الميراث ، أو بعبارة أوضح : مسلمون عن طريق شهادات الميلاد ، أما عن التكاليف التى شرعها الله فتكاد تكون معطلة بالكامل فى هذا المجتمع الذى أوشك أن يعود إلى ما كانت عليه الجاهلية الأولى ، والتى كانت تنحصر تكاليفها فى الطواف حول الأصنام وتقديم القرابين إليها ، وتلقى الأوامر من الكهنة وأدعياء الألوهية المزيفة.

والقسم الثالث :« وهم الساكنون فى المدن ، فهم لايحسنون أركان الصلاة ، ويتعاملون فى بيعهم وشرائهم بطرق يخالفون فيها المسلك الشرعى ، وكثيراً ما يقع منهم الربا ، ويتكلمون بالألفاظ الكفرية ، وينهمك كثير منهم فى معاصى صغيرة وكبيرة ، ومع ذلك فهم أقرب الناس إلى الخير، وأسرعهم قبولاً للتعليم إذا وجدوا من يعزم عليهم بعزيمة مستمرة ودائمة» (٤).

(١) رسالة الدواء العاجل : ص ٦٥ ، ضمن مجموعة طبع السنة المحمدية.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٦ . (٣) الماعون : ٤ ،٥ .

(٤) رسالة الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل: ص٧٠ .

ثم ماذا بعد هذا الأمر الذى عم وطم ـ كما يقال ـ لقد أعد للأمرعدته ، وقرر أن ينزل إلى المجتمع آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ، وموضحاً للأمة الإسلامية تعاليم دينها ، ومطالباً لها بالعودة إليه ، بعيداً عن ضلال المضلين وتزييف المزيفين وتهويمات المغالين. وبدأ عمله ذلك بتوجيه النداء والنصيحة إلى حاكم المسلمين باعتبار أنه المسؤول المباشر عن الرعية . فقال: «والواجب على إمام المسلمين وعلى أعوانه تفقد هؤلاء ، والبحث عن مباشرتهم وعن كيفية معاملتهم ممن يتولون عليهم . . » .

ثم يختم هذه الرسالة قائلاً :

« والله المأمول أن يلهم إمام المسلمين ـ أقام الله به أركان الدين ـ القيام بما أرشدناه إليه فى هذه الرسالة ، وإبلاغ الجهد فى أحوال هذه الأحكام التى ذكرناها ، فإنه إن فعل ذلك صلحت له أحوال الدين والدنيا ودفع الله عن رعاياه كل محنة ، ولم يسلط عليهم عدواً قط كائناً من كان » (١) .

يقول الدكتور إبراهيم هلال : ويمكن أن نتبين أبعاد هذه الحياة العلمية العملية فى ثلاثة خطوط بارزة :

١ـ دعوته إلى الاجتهاد ونبذ التقليد .

٢ـ دعوته إلى العقيدة السلفية فى بساطتها أيام الرسول ﷺ والصحابة ـ رضوان الله عليهم.

٣ـ دعوته إلى تطهير العقيدة وتنقيتها من مظاهر الشرك الخفى (٢) .

وإذا كان ذلك كذلك ، فيطيب لنا أن نلقى بعض الأضواء على جهاده فى هذه الميادين الثلاثة .

دعوة الشوكانى إلى الاجتهاد ونبذ التقليد :

إن الإمام الشوكانى بدعوته إلى الاجتهاد أراد أن يخرج الأمة الإسلامية من جمودها الذى كانت تعيش فيه ، ويوقظها من سباتها ومن عكوفها على آراء فئة من العلماء اجتهدوا لعصرهم، وأخذوا من كتاب ربهم ومن سنة نبيهم ما يتلاءم مع حياتهم ومتطلبات ظروفهم .

والشوكانى يرى أن لكل عصر ملابساته ، وما يجد فيه من معاملات ، وما يحدث فيه من أعراف تقتضى تعديل الأحكام الاجتهادية لتتلاءم مع الأوضاع الجديدة ؛ ولذلك قال الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ : « تحدث للناس فتاوى بقدر ما أحدثوا » (٣) . وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ : « تحدث للناس أقضية على قدر ما أحدثوا من الفجور » (٤) .

(١) المصدر السابق : ص ٧٢ .

(٢) راجع : مقدمة كتاب: ولاية الله والطريق إليها .تحقيق د . إبراهيم هلال : ص ٨ .

(٣) راجع : السياسة الشرعية مصدر للتقنين : دكتور عبد الله القاضى : ص٢٨٤.

(٤) المرجع السابق : ص ٢٨٥ .

وإذا كان ذلك كذلك ، فما هو الاجتهاد فى عرف فقهاء الإسلام . . ؟

يرى الإمام الآمدى فى كتابه « الإحكام » : « أن الاجتهاد هو بذل الجهد للوصول إلى الحكم الشرعى من دليل تفصيلى من الأدلة الشرعية » (١) .

ويشترط فى المجتهد شروطاً من أهمها :

أ ـ علمه باللغة العربية وطرق دلالتها .

ب ـ علمه بالأحكام الشرعية التى جاء بها القرآن الكريم وبالآيات التى نصت على هذه الأحكام ، وعلمه بالسنة النبوية وبالأحكام التى وردت بها السنة النبوية ، وعلمه بدرجة هذه السنة من الصحة أو الضعف فى الرواية .

جـ ـ وأن يكون على دراية بالقياس ، ويعرف المسالك التى مهدها الشارع لمعرفة علل أحكامه ، ويكون خبيرا بأحوال الناس ومعاملاتهم ، إلى غير ذلك من الشروط التى تطلب فى مظانها .

ولكن الإمام الشوكانى : يرى أن المجتهد لايحتاج إلى كل هذه الشروط، فنراه يقرر قائلاً: « والذى أدين الله به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشىء من النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه فى ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز أو السنة المطهرة ، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأى سواء كان قائله واحدا أو جماعة أو الجمهور» (٢) .

وإذا ادعى المقلدون أن الله تعالى تفضل على السابقين من الصحابة والتابعين بالعقل الراجح والموهبة الكبيرة ، الأمر الذى جعل لديهم القدرة على استنباط الأحكام والاجتهاد فى شرع الله ، نراه يشجب هـذه المقالة مبطلاً هذا الادعاء بقوله: « قد ادعوا أن الله قد رفع ما تفضل به على من قبلهم من الأئمة من كمال الفهم وقوة الإدراك ، والاستعداد للمعارف ، وهذه دعوى من أبطل الباطلات،بل هى جهالة من الجهالات، فإن نهاية العالم ليست كبدايته ، بل هو سائر فى طريق التطور والكمال والنضج العقلى عن طريق ازدياد المعارف وتطورها » (٣).

ويقول أيضا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾(٤): «وهذه الخصلة [التقليد] هى التى بقى بها اليهودى على يهوديته والنصرانى على نصرانيته والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا لكونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية والبدعية . . . وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص ، فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ٤/ ١٦٢، وعلم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف : ص ٢١٨.

(٢) راجع : البدر الطالع ٢/ ٨٤ ومابعدها نقلاً من كتاب ولاية الله : ص١٣.

(٣) المرجع السابق : ص ١٢.

(٤) الأعراف : ٢٨ .

المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة وتستمر على هذه الضلالة ».

ثم يقول : « ولوكان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بتعدد أهل الرأى المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به ، وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله ﷺ ، ووجود من يأخذونهما عنه ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم»(١).

ولقد وضع لهذه الغاية ـ الدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد ـ العديد من المؤلفات منها : «أدب الطلب ومنتهى الأرب » الذى يقول فيه :

يا غارقين بشؤم الجهل فى بدع ... ونافرين عن الهدى القويم هُدوا
ما باجتهاد فتى فى العلم منقصة ... النقص فى الجهل لاحياكم الصمد
لا تنكروا موردا عذبا لشاربه ... إن كان لابد من إنكاره فردوا

وكتابه :« القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد » وكتابه :« السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار» والذى قال عنه ـ أثناء إعداده ـ : « وهذا الكتاب إن أعان الله على تمامه فسيعرف قدره من يعترف بالفضائل وما وهب الله لعباده من الخير» .

وكتابه : « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، والذى قال عنه : « فإنه لما شاع على ألسن جماعة من (الرعاع) اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق فى العلوم دون خلفها ، حتى اشتهر عن جماعة من أهل هذه المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون . . . حدانى ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغنى خبره إلى عصرنا هذا .

ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله تعالى ـ وله المنة ـ قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف ، بل ربما كان فى أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظره من أهل العصور المتقدمة كما سيقف على ذلك من أمعن النظر فى هذا الكتاب » (٢) .

وبعد : هل نجح الشوكانى فى دعوته إلى الاجتهاد ؟ وهل استجاب لدعوته عامة الأمة وعلمائها ؟ إن الإجابة على ذلك يوضحها حال الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر ، وما تفرزه العواصم الإسلامية من خلل واضطراب فى كثير من دواوينها ومؤسساتها ، والله المستعان .

---

(١) راجع : فتح القدير: سورة الأعراف آية رقم ٢٨ . (٢) راجع : مقدمة البدر الطالع ١/ ٢، ٣ .

دعوة الشوكانى إلى العقيدة السلفية:

لقد دعا الشوكانى إلى الرجوع إلى عقيدة السلف ، ولكن قبل أن نتعرف على منهجه فى الدعوة إلى ذلك ، ما موقفه من علماء الكلام . . ؟

هل كان له موقف واضح محدد منهم كالموقف الذى وقفه قبله الإمام مالك ؟ حيث رفض منهجهم وعاب سلوكهم،وأوصى أصحابه بالبعد عنهم قائلا:«إياكم والبدع».قيل:يا أبا عبد الله وما البدع . .؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولايسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان »(١) .

وهل يتفق الإمام الشوكانى مع الإمام الشافعى فى حكمه الذى أطلقه على علماء الكلام حيث قال :« حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ، وينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام» ؟(٢).

وأخيراً : ما رأى الشوكانى فى طرق ومناهج المتكلمين ؟

يرى الإمام الشوكانى:« أن طرق المتكلمين لا توصل إلى يقين ، ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه ؛ لأن معظمها قام على أصول ظنية لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل، والفرية على الفطرة ، فكل فريق منهم قد جعل له أصولاً تخالف ما عليه الآخر ، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هوصحيحاً من حكم عقله الخاص المبنى على نظره القاصر، فبطل عنده ما صح عند غيره ، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام الله ورسوله فى الإلهيات ، وما يتصل بها من العقائد ، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقده الآخر، وكل منهم يزعم أن العقل يقتضى ما يعتقده ، وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغير ما فطره الله عليه أن يتعقل الشىء ونقيضه ، فإن اجتماع النقيضين محال عند جميع العقلاء . فكيف تقتضى عقول بعض العقلاء أحد النقيضين ، وعقول البعض الآخر النقيض بعد ذلك الاجتماع ؟ وما هذا الأمر إلا الغلط البحت الناشئ عن العصبية » .

ثم يقول :« ثم جعلوا هذه الأصول معيارا لصفات الرب تعالى ، فأثبتوا لله تعالى الشىء ونقيضه ، ولم ينظروا إلى ما وصف الله به نفسه ، وما وصف به رسوله » .

ثم يقول : « وإن كنت تشك فى هذا ، فراجع كتب الكلام ، وانظر المسائل التى قد صارت عند أهله من المراكز، كمسألة التحسين والتقبيح ، وخلق الأفعال وتكليف ما لايطاق ، ومسألة خلق القرآن ، فإنك تجد ما حكيته لك بعينه» (٣).

وما قاله الشوكانى فى تلك الطائفة قاله الغزالى من قبله عند وصفه لهم فى كتابه« فيصل

(١) راجع : تمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبد الرازق : ص ١٥٥، ط . ثالثة ١٩٦٦.

(٢) راجع : تلبيس إبليس لابن الجوزى ، وصون المنطق والكلام للسيوطى ، ومقدمة كتاب الرد على الجهمية والزنادقة للمحقق ، ط . دار اللواء : ص ٢٩.

(٣) راجع : كتاب : كشف الشبهات : ص٢٢ ، ٢٣ .

التفرقة بين الإسلام والزندقة »: « من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفة من المتكلمين كفَّروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم ، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التى حرروها فهو كافر» .

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة من المتكلمين ، ثم جهلوا ما تواترمن السنة .

ثانيا : إذا ظهر لهم فى عصرالرسول ﷺ وعصرالصحابة ـ رضى الله عنهم ـ حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ، ولم يشتغلوا بعلم الدليل ، ولو اشتغلوا به لم يفهموه ، ومن ظن أن مدرك الإيمان ـ الكلام ـ والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد ضيق حد الإيمان . بل الإيمان نور يقذفه الله فى فلوب عبيده » (١).

ولم يكتف أبو حامد بهذا الكلام ، بل يقدم الدليل على صدق ما يقول ويتجه إلى صدر الإسلام حيث مجالس الرسول وصحابته فيقول : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ جاحدا منكرا له فما وقع بصره على وجه الرسول ﷺ إلا و رآه يتلألأ بأنوار النبوة فنطق قائلاً : والله ما هذا بوجه كَذاب . وسأله أن يعرض عليه الإسلام فأسلم .

وجاء آخر إليه عليه الصلاة والسلام ، وقال :أنشدك الله. آلله بعثك نبيا ؟ قال عليه السلام : « إى والله ، الله بعثنى نبياً» فصدقه بيمينه وأسلم .

وهذه وأمثالها ،أكثر من أن تحصى،ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعلم الأدلة، بل كان يبدو نور الإيمان بمثل هذه الأشياء فى قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد إشراقاً بمشاهدة تلك الأجوبة السديدة وتلاوة القرآن الكريم وتصفية القلوب . يقول الإمام الغزالى : « فليت شعرى متى نقل عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن قالوا لمن جاءهم مسلماً : الدليل على أن العالم حادث أنه لا يخلو عن الأعراض ، وما لا يخلو عن الحوادث حادث ؟

إن ذلك لم يحدث قط ولم يتواترعن أحد منهم ،إن علم الكلام لم يأمربه الرسول ﷺ ، ولاتناوله الصحابة من بعده حتى قال الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ ناهياً عن ذلك : « لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك خيرله من أن ينظرفى علم الكلام » (٢) .

والشوكانى الذى يدعو إلى عقيدة السلف أومذهب السلف فى العقيدة لايقلد أحدا فى دعوته تلك وإنما يفعل ذلك عن اقتناع بما يدعو إليه بعد معايشته للمذاهب الكلامية، ومدارسته للمدارس الفلسفية ، وما أفرزته هذه المدارس من طلاسم وألغاز فترة ليست قصيرة من عمر الزمن ، يقول الشوكانى مؤكداً هذه الحقيقة : « ولتعلم أنى لم أقل هذا تقليداً لبعض من أرشدك إلى ترك الاشتغال بهذا الفن كما وقع لجماعة من محققى العلماء ، بل قلت هذا بعد

(١) راجع : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبى حامد الغزالى تحقيق الدكتور سليمان دنيا: ص ٨٩ .
(٢) المصدر السابق : ص ٨٩، وراجع : مقدمة الرد على الجهمية والزنادقة للمحقق : ص٣١ ، ٣٢ .

تضييع برهة من العمر فى الاشتغال به ، وإحفاء السؤال لمن يعرفه ، والأخذ عن المشهورين به، والإكباب على مطالعة كثير مختصراته ومطولاته ، حتى قلت عند الوقوف على حقيقته من أبيات منها :

وغاية ماحصلته من مباحثى ... ومن نظرى من بعد طول التدبر
هو الوقف مابين الطريقين حيرة ... فما علم من لم يلق غير التحير
على أننى قد خضت منه غماره ... ولم أرتض فيه بدون التبحر (١)

وما قاله الشوكانى عن علم الكلام قاله من قبله أبو المعالى الجوينى : « لقد خليت أهل الإسلام وعلومهم الظاهرة وركبت البحر الأعظم ،وغصت فى الذى نهوا عنه كل ذلك فى طلب الحق وهربا من التقليد،والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق».وكان يقول لأصحابه: « يا أصحابنا ،لا تشتغلوا بالكلام فلوعرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ما تشاغلت به».

ويروى عن أحمد بن سنان قال :« كان الوليد بن أبان الكرابيسى خالى ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحدا أعلم بالكلام منى ؟ قالوا : لا . قال : فتتهموننى ؟ قالوا : لا . قال : فإنى أوصيكم أتقبلون ؟ قالوا : نعم . قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإنى رأيت الحق معهم » (٢) .

دعوة الشوكانى إلى تطهير الاعتقاد :

جاء الرسول ﷺ برسالة التوحيد ،توحيد الخالق ، فلا إله إلا الله ، وتوحيد العقيدة ، فلا دين إلا الإسلام ، وتوحيد البشرية « كلكم لآدم وآدم من تراب ».

وجاء الرسول ﷺ لتحرير الوجدان البشرى،تحريره من الخارج فما لأحد عليه غير الله من سلطان،وما من أحد يميته أو يحيه إلا الله،وما من أحد يملك ضرا ولا نفعا،وما من أحد يرزقه من شيء فى الأرض ولا فى السماء،وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ (٣) ،وقال: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (٤) .

والله وحده هو الذى يستطيع والكل سواه عبيد :﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ (٥) .

وإذا كان ذلك كذلك ، فلابد من إخلاص العبادة له فلا يشرك معه غيره،ولايطلب الدعاء من أحد سواه ، قال تعالى:﴿ **فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾(٦) ،وقال أيضا:﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ**

---

(١) راجع : التحف فى مذهب السلف : ص ٥٤، وكشف الشبهات: ص٢٣ ،٢٤.

(٢) راجع : تلبيس إبليس لابن الجوزى :ص ٨٤ ، ٨٥ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٣/ ٦٠، ومقدمة الرد على الجهمية والزنادقة للمحقق : ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) غافر : ٦٠. (٤) البقرة : ١٨٦.

(٥) الأنعام : ١٨. (٦) الجن :١٨ .

يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾(١)، وقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

فالخوف على الرزق لا يصدر ممن يقول: لا إله إلا الله ، قال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣) ، وقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ (٤) .

والخوف على الجاه ، والخوف على المنصب ، والخوف على الوظيفة ليس داخلا فى دائرة لا إله إلا الله ، قال تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥) ،وقال أيضاً: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (٦) .

هذا هو المعتقد الذى دان به المسلمون الأول ، دانوا بكلمة التوحيد ، كلمة لا إله إلا الله ، آمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ورفضوا كل الألوهية المزيفة التى كانت تعبد فى الجاهلية الأولى كالشمس والقمر ، والكواكب والنجوم والجن والبشر ، والأوثان والأصنام ، عندها خرجوا إلى الدنيا والظلام شامل والجهل حاكم والعقائد زيف وأباطيل ، فمدنوا الدنيا ، وهذبوا العالم ، وقرروا أن لا إله إلا الله .

وجاء الشوكانى فوجد المجتمع الإسلامى فى عصره يقترب من الجاهلية الأولى عن طريق :

أولا : الشرك الخفى :

الذى يتمثل فى رفع القباب وتجصيص القبور ، والاعتقاد أن أصحابها بيدهم النفع والضر والإحياء ، والإماتة ، وأن التقرب إلى هؤلاء الأموات وتقديم القرابين إليهم من الدين الحق الذى أمر به الإسلام ، متجاهلين قول الرسول ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد»(٧) .

وأيضاً الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى على ـ رضى الله عنه ـ : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته (٨) . وأيضاً ما جاء فى الصحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾(٩) ، قال: هذه أسماء رجال من قوم نوح لما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم يعبدوا حتى إذا هلكوا ونسى العلم عبدت . وقال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم (١٠) .

(١) الرعد : ١٤.   (٢) إبراهيم : ١١ .   (٣) الذاريات : ٢٢ .
(٤) التوبة: ٢٨ .   (٥) آل عمران : ٢٦ .   (٦) المؤمنون : ٨٨ .
(٧) رواه الإمام البخارى فى صحيحه .   (٨) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .   (٩) نوح : ٢٣ .
(١٠) راجع : الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد : ص ١١ ، والدرارى المضيئة للشوكانى ١/ ٢٤٨ .

ثانياً: أدعياء التـصوف :

وأدعياء التصوف لهم دور كبير فى تعطيل شرع الله وإيهامهم العامة أن الإنسان إذا وصل إلى درجة من الصفاء سقطت عنه التكاليف الشرعية ، وهؤلاء أخطر الأبالسة على شرع الله ؛ لأن الإمام الجنيد ـ رأس الطائفة المتصوفة ـ يقول : « إذا رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء ولا يؤدى التكاليف الشرعية فهو شيطان رجيم » (١) .

ويطيب لنا أن نسوق رأى الإمام الغزالى فى قوم أرادوا أن يتركوا التكاليف الشرعية من صلاة وصيام بحجة أنهم وصلوا إلى درجة الصفاء والطهر وليسوا معه فى حاجة إلى إقامة التكاليف .

يقول الإمام الغزالى : ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن مثل رجل بنى له أبوه قصرا على رأس جبل ، ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ألا يخلى هذا القصر من هذا الحشيش طول عمره ، وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه . فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين وطلب من البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة ، فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح فقال : لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته. والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق علىَّ المكان فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض ثقب القصر حية هائلة وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك فتنبه حيث لم ينفعه التنبه أن الحشيش كان من خاصته دفع هذه الحية المهلكة، وكان لأبيه بالوصية بالرياحين غرضان: إحداهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله. والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته . وذلك مما قصـرعـن دركـه بصيرة الولد، فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾(٢) ، وقال أيضا: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾(٣) .

والغرور: من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه فهو منتـف فى نفسه. ولقد قال العلماء : « إن قلب الآدمى كذلك القصر، وأنه معشعش حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطرق خاصة هى المكتوبات والمشروعات بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾(٤) كتاباً موقوتاً على المؤمنين فى كل عصر ومصر ، وكتاباً موقوتاً على الأمة الإسلامية ، وكتاباً موقوتاً على المجتمع فلايشذ عن هذه القاعدة أحد ، يقـول الرسول ﷺ :

---

(١) راجع : الرسالة القشيرية تحقيق د :عبد الحليم محمود .

(٢) النجم : ٣٠ . (٣) غافر: ٨٣ . (٤) النساء : ١٠٣ .

« العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » [١] .

ثم ماذا . . ؟

يرى الإمام الشوكانى أن العمل بكلمة التوحيد والقيام بتكاليفها على الوجه الأكمل هو العامل الأول فى نهضة المسلمين وعودهم إلى عزهم ومجدهم فنراه يقول :« إن التزام المسلم بكلمة التوحيد هو الطريق إلى أداء العبادات ، ثم أداء الأعمال اليومية على وجهها بمراقبة الله فيها ، وأن المجتمع لا يمكن أن يستفيد من إيمانه وإسلامه فى حياته الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية إلا إذا كانت هذه الشهادة خالصة من مظاهر الشرك ، فهنا يمكن أن ينتفع الإنسان من هذه الشهادة ديناً ودنيا ، وأنه ما أخر المسلمين ، وقعد بهم عن الاستمرار فى نهضتهم وعزتهم إلا تحريف هذه الشهادة ،وحيلولة مظاهرالشرك بينها وبين حلولها فى القلب، أو حلولها ولكن بزيغ وتشويه ، وأن هذه هى ملة المسلمين اليوم ، والتى وراء كل جمود وتأخر وذلة » [٢] .

فهل وصلت هذه الصيحة التى أطلقها الشوكانى إلى قلوب المسلمين،وهل عملوا بما فيها ، أم أنهم لا يزالون يعيشون فى سبات عميق ، ويلفهم ليل ليس له آخر . .؟ إن هذا الواقع المر الذى يمر به المسلمون فى عالمنا المعاصر يكذب أنهم سمعوا صوتاً أو وعوا قولاً .

(١) رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦٢١) والنسائى فى الصلاة (٤٦٣) وأحمد فى المسند ٥/ ٣٤٦ كلهم عن بريدة الأسلمى .

(٢) راجع :رسالة الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل: ص٦٢، ٦٣ ، ٦٨ ومابعدها نقلاً عن كتاب ولاية الله والطريق إليها .

قيام الشوكانى بالتدريس والإفتاء وتوليه منصب القضاء

أ ــ التدريس :

يندر أن يوجد عالم من علماء المسلمين لم يشتغل بالتدريس ولم تكن له حلقة ، يلتف الطلاب حوله ، يستمعون ويسجلون عليه ما يلقيه عليهم ، وما يفيض الله تعالى عليه من فتوح .

والشوكانى أحد العلماء النجباء الذى بدأ التدريس مبكراً ، بدأه مع لداته وأترابه ، فكان إذا ذهب إلى أحد العلماء ـ وسمع منه علما أو قرأ عليه كتابا أو وضح له مسألة غامضة ـ عاد إلى هؤلاء التلاميذ ، شارحا لهم ما سمعه ، قارئا عليهم ما عرفه ، واقفا بينهم أو جالسا بين أيديهم يشنف آذانهم بعلمه ، ويصقل عقولهم بمعرفته .

ولقد عرف أترابه وزملاء الحلقة منه ذلك ، فكانوا يتابعونه فى حله وترحاله ، فى ظعنه وإقامته ، حتى كبرت حلقته، وتجمع فيها صفوة من طلاب العلم وعشاق المعرفة ، وعندما رأى الشوكانى ذلك ، تفرغ لهذه الحلقة قارئاً لهم الكتب وشارحا ما يغلق منها . ومضيفاً إليه ما يجب أن يضيفه وما يفتح الله به عليه .

يقول الدكتور إبراهيم هلال :« وكان فى أثناء دراسته يلقى ما يأخذه من مشايخه إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه وهو لا يزال فى دور الطلب الأول ، ولذلك كانت دروسه تبلغ فى اليوم والليلة ثلاثة عشر درساً منها ما يأخذه عن أساتذته، ومنها ما يلقيه على تلاميذه ثم تفرغ لإفادة طلاب العلم ، فكانوا يأخذون عنه فى كل يوم زيادة على عشرة دروس ــ كما قال ــ فى فنون متعددة كالتفسير ، والحديث ، والأصول ، والمعانى ، والبيان ، والمنطق » (١) .

ب ــ الفتوى :

إن للفتوى شروطاً وقواعد ، ولا يتقدم للفتوى إلا من بلغ شأواً بعيداً فى علوم الشرع ، هذا بالإضافة إلى معرفته بتفسير القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ ، وغير ذلك من الشروط والقواعد التى اشترطها العلماء فى وظيفة المفتى والتى تطلب فى مظانها .

ولقد قام الشوكانى بوظيفة الإفتاء فى سن مبكرة وتصدر لها وهو فى نحو العشرين من عمره ، ويقال بأن الفتاوى كانت ترد عليه من خارج صنعاء وشيوخه وأساتذته لا زالوا أحياء ، ولكن الإفتاء فى هذه المرحلة المبكرة من عمره كان مقصوراً عليه ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على سعة علمه ، وتمكنه من علوم الشريعة ، وما رزقه الله تعالى من موهبة بزَّ بها الأقران وتفوق بها على علماء عصره .

(١) راجع :مقدمة ولاية الله : ص٤ .

جـ ـ توليه القـضاء :

كيف تولى الشوكانى وظيفة القـضاء فى اليمن ؟

أسعى إلى ذلك سعياً حثيثا حتى كلل مسعاه بالنجاح ؟ أم أن ذلك كان قضاء وقدراً ؟ أم أن الأسرة الحاكمة فى اليمن أرادت أن تتستر وراء شهرته الدينية ، وأن يشغلوا الناس بالآراء التى ينادى بها ؟

يقول الشوكانى ـ معبراً عن الطريقة التى تولى بها منصب القضاء فى اليمن ـ:«وكنت إذ ذاك مشتغلاً فى علوم الاجتهاد والإفتاء،والتصنيف،مجتمعاً عن الناس لاسيما ولاة الأمور وأرباب الدولة فإنى لا أتصل بأحد منهم كائناً من كان،فلم أشعر إلا بطلاب الخليفة بعد موت القاضى يحيى بن صالح الشجرى السحولى بأسبوع يطالبوننى بتولى منصب القضاء،فترددت لفترة طويلة ثم تلقيت إلحاحاً من كبار العلماء والأعيان ، وأجمعوا على أن الإجابة واجبة وأنهم يخشون أن يدخل هذا المنصب من لا يوثق بدينه وعلمه فقبلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه» (١) .

إن هذا العالم الجليل الذى ملأت شهرته الآفاق ووهب نفسه للدعوة إلى الاجتهاد وتصحيح العقيدة الإسلامية فى قلوب أصحابها والتى أدخلوا عليها الكثير من الترهات والأباطيل ، وشرع قلمه لتحبير الرسائل وتأليف المصنفات .كيف سمحت له نفسه أن يترك موقعه هذا فى التوجيه والإرشاد ، فى التصحيح والتعديل إلى منصب القضاء ؟

إن تلامذة الشوكانى والمحبين له يبررون قبوله لهذا المنصب لعدة أسباب من أهمها :

١ـ أن الشوكانى رأى فى منصب القضاء فرصة أكبر لنشر السنة وإماتة البدعة ، والدعوة إلى منهج السلف الصالح .

٢ـ أن منصب القضاء قد يقلل من الحرب المشنة عليه من التيارات المعادية والتى أوشكت أن تشل حركته تماماً .

٣ـ أن للسلطان قوة وجبروتاً ، وقد طلب منه هذا الطلب لمنفعة السلطة والحكم ، وقد يكون لرفضه نتائج لاتحمد عقباها .

هذه أهم المبررات التى حدت بالشوكانى إلى قبول منصب القضاء ،بالإضافة إلى أن منصب القضاء يعد مكسبا كبيرا لطلاب الحق والعدل ، وهذا ما فعله الشوكانى طوال توليه هذه الوظيفة ، فقد أقام بنود العدل ، وأنصف المظلومين ، وأبعد الرشوة ، وخفف من غلواء الولاة تجاه الرعية .

ولقد طالت مدة توليه القضاء حتى شملت حياة ثلاثة من الأئمة،أولهم : المنصور على بن المهدى عباس (ت ١٢٢٤هـ) ، وثانيهم:ابنه المتوكل على بن أحمد بن المنصـور (ت ١٢٣١هـ)،

---

(١) راجع : البدرالطالع ١/٤٦٥ ، ٢/٣٣٣ ، ٣٣٤ .

وثالثهم : المهدى عبد الله بن عبد الله بن المتوكل (ت ١٢٥١هـ).

وفاة الشوكانى :

ثم ماذا ؟ لكل بداية نهاية ، ولكل أجل كتاب ، فقد آن لشمس هذا العالم الجليل أن تغرب ولنجمه أن يأفل ، وهذه سنة الله تعالى فى خلقه، ولقد صدق ربى فى قوله : ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ (٢) .

ففى عام ١٢٥٠هـ جاءه أجله ، وفارقت روحه جسده ، وفقد العالم الإسلامى بفقده عالماً عاملاً أدى ما عليه من أمانة تجاه ربه ودينه ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جناته بمقدار ما قدم من علم وفضل للإسلام والمسلمين .

(١) الرعد : ٣٨.

(٢) الأعراف : ٣٤ .

شيوخ الشوكانى وتلاميذه

أ ــ شيوخ الشوكانى :

كان من نعم الله ــ سبحانه وتعالى ــ على الأمة الإسلامية التى وسمها الله تعالى فى كتابه بأنها خير أمة أخرجت للناس، أن رزقها بعدد يفوق الحصر والعد من العلماء الأتقياء ، العاملين الأوفياء ، الذين استجابوا لدعوة الله تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾(١). فنفروا إلى العلم ، وهاجروا فى أربعة أركان الأرض باحثين ومنقبين عن فقه الدين وقواعد الشرع ، طالبين ذلك فى مظانه وأماكنه حيث الحرم المكى والمدنى وبخارى وسمرقند ، والأزهر الشريف والجامع الأموى فى دمشق ، وجامع الزيتونة والقيروان ، وغير ذلك من بيوت الله والتى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وكانت دائما تعج بطلاب العلم وعمالقة العلماء .

وكان يخفف متاعب السفر عن كبيرهم ، ووعثاء الطريق عن ضعيفهم ، ويطوى المسافات البعيدة تحت أقدامهم ما وعوه من حديث الرسول ﷺ، الذى رواه الترمذى من حديث أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفرله مَنْ فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » (٢) .

والشوكانى حباه الله ــ سبحانه وتعالى ــ بعدد وفير من هؤلاء العلماء الذين نصبوا أنفسهم للعلم ووهبوا حياتهم له . ومن هؤلاء العلماء :

١ــ أحمد بن عامر الحدائى : الفقيه الفرضى ، عالم عصره ، قرأ عليه الشوكانى بعض الشروح فى الفقه والفرائض . وكان معروفاً بالصدق والأمانة والزهد والإخلاص فى الدين ، توفى عام ١١٩٧هـ .

٢ــ إسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن : كان يسمى « سيبويه » عصره ، برع فى اللغة العربية صرفها ونحوها ، أثنى عليه الشوكانى ، وقرأ عليه الكثير من المطولات ، توفى عام ١٢٠٦هـ .

٣ــ أحمد بن محمد الحرازى: شيخ الفروع وأستاذ الفقه والأصول، لازمه الشوكانى فى الفقه ثلاث عشرة سنة، وقرأ عليه الفرائض أيضاً، كان فقيهاً فى علمه، متواضعاً مع غيره

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه ، وراجع : تفسير القرطبى ٨/ ٢٩٦ .

مستظهراً لكتاب ربه يمتاز بالألمعية والذكاء ورجاحة العقل ، توفى عام ١٢٢٧هـ .

٤ــ صديق بن على المزجاجى الحنفى : شيخ الشوكانى بالإجازة فى الحديث وغيره ، قرأ وتفقه فى حديث الرسول ﷺ حتى صار علماً فى هذا الفن وحجة فى علوم الحديث ، توفى عام ١٢٠٩هـ .

٥ــ عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر: من سلالة الإمام المهدى أحمد بن يحيى ، محدث مجتهد من علماء الزيدية باليمن ، ولد عام ١١٣٥هـ ووفاته عام ١٢٠٧هـ بصنعاء ، ونشأ بكوكبان وإليها نسبته وتنقل فى اليمن ، وسافر إلى مكة والمدينة ، وأخذ من علماء كل بلد ، واستقر فى كوكبان زمناً ، وهو أستاذ الشوكانى ، وقد بالغ فى الثناء عليه ، له كتب منها : مسند فى أسماء شيوخه ، وشرح نزهة الطرف للأخفش الصنعانى ، وفلك القاموس مدخل له ، وحواشى على ضوء النهار ، ورسالة فى تحقيق بعض العقاقير الطبية وله نظم (١) .

٦ــ عبد الله بن إسماعيل النهمى : لازمه الشوكانى فترة ، وقرأ عليه بعض المؤلفات فى النحو والصرف ، والمنطق والحديث والأصول . وصفه الشوكانى بالكرم وحسن الخلق ، ولكن ما لبث أن اختلف التلميذ وأستاذه وباعدت بينهم الآراء والأفكار ، فكان من جملة الذين هاجموا الشوكانى وأعلن الحرب عليه، توفى عام ١٢٢٨هـ .

٧ــ على بن إبراهيم بن على بن عامر : وصفه الشوكانى بقوله : كان إماماً فى جميع العلوم ، محققاً ومدققاً لكل فن منها ، فيه سكينة العباد ، ووقار العلماء ، وتبتل من ينطبق عليهم ورثة الأنبياء ،قرأ عليه الشوكانى صحيح البخارى وبعض السنن ، توفى عام ١٢٠٧هـ .

٨ ــ يحيى بن محمد الحوتى :كان عالماً فى أكثر من علم وفن وتعدى علوم الشرع إلى بعض الفنون الأخرى ، ودرس عليه الشوكانى : الفرائض والحساب ، والضرب والمساحة قال عنه الشوكانى : فاق فى ذلك أهل عصره وتفرد به ولم يشاركه فى ذلك أحد ، توفى عام ١٢٤٧هـ .

ولا نستطيع فى هذه العجالة أن نلم بكل مشايخ الشوكانى وأساتذته ، فهم كثير، ولقد لازم بعضهم ــ كما ذكرنا سابقاً ــ أكثر من ثلاث عشرة سنة ، ولا شك أن للشيخ دوره الكبير فى تكوين عقلية الطالب ، ودفعه إلى الانتقالية ، وتكوين الرأى ، وهذا ما جعل الشوكانى عالم عصره ، وأستاذ جيله الذى نبذ التقليد ورفع على أصحابه معول الهدم ، ودعا إلى الاجتهاد مقرراً ومؤكداً أن الإسلام صالح لكل عصر ومصر ؛ لأن منزله هو الذى خلق فسوى ، والعالم بمتطلبات خلقه ، الخبير بخلجات نفوسهم وبكل ذرة من ذرات كيانهم ، وبما يصلحهم فى دينهم ودنياهم ، ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (٢) .

---

(١) راجع : البدر الطالع ١/ ٣٦٠ ــ ٣٦٨، ونيل الوطر ٢/ ٤٤ .
(٢) الملك : ١٤ .

ب ــ تلاميذ الشوكانى :

كما أن النحلة الدؤوب ، التى تلف على الأزهار اليانعة والورود المتفتحة لتمتص الرحيق وتذوبه فى داخلها لتخرجه إلى الناس عسلاً صافياً وشهداً هانئاً ، فكذلك العلماء الذين خاضوا فى بحار المعرفة ، وعاشوا بين طيات المراجع والملفات ووعوا كتاب ربهم ، وأخذوا نفوسهم بحديث نبيهم ، لا شك أنهم يخرجون فى النهاية عسلاً وشهداً .

عسلاً يتمثل فى تلاميذهم وطلابهم ، وشهداً تحويه كتبهم ومؤلفاتهم، ولقد كان للشوكانى الأعداد الكبيرة من الطلاب، الذين جلسوا بين يديه وأخذوا من علمه ومن فقهه الشيء الكثير، والبعض الآخر تتلمذ على كتبه وعكف على مؤلفاته حتى أصبح من العلماء الأجلاء الذين أثروا الحياة الفكرية وأضافوا الجديد إلى المكتبة الإسلامية ، ومن هؤلاء التلاميذ الذين نهلوا من فيض علمه :

١ــ محمد بن حسن الشجنى الذمارى القاضى : سمع من شيخه الشوكانى ودرس عليه ، وأجازه ، إجازة عامة فى رجب سنة ١٢٣٩هـ ، ويعتبر من أوائل الذين ترجموا للشوكانى فى كتابه :« التقصار فى جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار » وقسم هذا الكتاب ثلاثة أقسام:

الأول: فى ذكر ولادة شيخه الشوكانى ونشأته وطلبه العلم وخصاله وذكرمؤلفاته وبعض رسائله ونظمه .

الثانى : فى تراجم مشايخه ومن تلقى عليهم العلم .

الثالث : فى تراجم تلامذته وطلابه .

ويقال: كان شاعراً أديباً بليغاً ، ووصفه بعضهم بقوله :فهوالفرد الكامل ، والعماد الفاضل، بل ألقت إليه البلاغة زمامها ، توفى سنة ١٢٨٦هـ (١) .

٢ــ السيد محمد بن محمد زيادة الحسنى اليمنى الصنعانى : صاحب كتاب «نيل الوطر»من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر ، ساهم مساهمة فعالة فى نشر بعض مؤلفات الشوكانى فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية . ويعتبر من الجيل الثانى من تلاميذ الشوكانى ، توفى عام ١٣٨١هـ .

٣ــ أحمد بن عبد الله الضمدى: ولد عام ١١٧٤هـ نسبة إلى بلدة « ضمد » جلس إلى الشوكانى وأخذ منه ، وانتقل إلى شيوخ غيره ، ولكن صلته بالشوكانى كانت أكثر. ثم عاد إلى بلده ، وأصبح المرجع لأهلها فى التدريس والإفتاء، وتسامع الناس به فجاءته الوفود من البلاد المجاورة . وله أسئلة عديدة إلى أستاذه الشوكانى أجاب له عنها فى رسالة سماها « العقد المنضد » ، وتوفى عام ١٢٢٢هـ (٢) .

---

(١) راجع : نيل الوطر ٢/ ٢٥٧ المطبعة السلفية .

(٢) راجع : البدر الطالع ١/ ٧٧.

٤ـ علي بن أحمد : هاجر الصنعاني ، ولد قريباً من سنة ١١٨٠هـ، وقد تبحر في العلوم العقلية وأتقنها ودرس على أستاذه الشوكاني علم المنطق وغيره .قال الشوكاني :بعد أن أخذ عنه علم المنطق ، وهو يفهمه فهماً بديعاً ويتقنه إتقاناً عجيباً. . ثم قال : قل أن يوجد نظيره مع صلابة في الدين . . ، توفي عام ١٢٣٥هـ .

٥ ـ أحمد بن محمد الشوكاني : ولد في سنة ١٢٢٩هـ ،وانقطع للاشتغال بمؤلفات والده ، حتى جاز من العلم السهم الوافر، وانتفع به عدة من الأكابر، وتولى القضاء العام بمدينة صنعاء وله مؤلفات جيدة ومفيدة ، وكان يعد أكبر علماء اليمن بعد والده، توفي سنة ١٢٨١هـ (١).

٦ـ الحسن بن محمد السحولي : حاكم تعز، ولد سنة ١١٩٠هـ وتوفي سنة ١٢٢٤هـ . قرأ على الشوكاني الحديث والفقه، وبعض مؤلفاته في العربية والأصول . ووصفه بلطف الشمائل ورقة الطبع وكرم الأخلاق(٢).

٧ـ الحسين بن محمد العنسي : ولد سنة ١١٨٨هـ وتوفي سنة ١٢٣٥هـ، قرأ على الشوكاني في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول وبعض مؤلفاته ، وقد وصفه الشوكاني بأنه قليل النظيرفي فهم الدقائق وحسن التصور ، وقوة الإدراك (٣) .

٨ ـ سيف بن موسى بن جعفر البحراني : وفد إلى صنعاء في محرم سنة ١٢٣٤هـ ، وغادرها في شوال سنة ١٢٣٤هـ ، وقد قرأ على الشوكاني في الفقه والحديث والتفسير والأصول وعلم الكلام والحكمة والإلهيات (٤) .

ونكتفي بهذا القدر من تلاميذ الشوكاني لأنهم أعداد كثيرة ، وقد استطاع الإمام الشوكاني أن يجمع العدد الكبير منهم في كتابه (الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام).

لقد كان الشوكاني صاحب مذهب ومفكرا ألمعيا ، نبذ التقليد ودعا إلى الاجتهاد ، وكأن الأمة الإسلامية بعامة ، ورجال العقيدة والشريعة بخاصة كانوا في انتظار العالم الجرىء الذي ينادي بهذه الدعوة ، وما كاد الشوكاني يعلن دعوته حتى كان له مادح وقادح ، ولكن ما كان أكثر المادحين وأقل القادحين لهذه الدعوة المباركة ، الأمر الذي جعلها تنتشر في كثير من بلاد المسلمين ، وخصوصاً في باكستان والهند على يد تلميذه الشيخ عبد الحق بن فضل الهندي وأيضا تلميذه المتحمس لدعوته السيد محمد صديق حسن خان أمير مملكة (بهوبال) بالهند .

وإذا كان ذلك كذلك، فيطيب لنا أن نلقي بعض الأضواء على مؤلفات الإمام الشوكاني .

(١) راجع : نيل الوطر١/ ٢١٥ .
(٢) راجع نيل الوطر ١/ ٣٥٤ ، والتقصار :ص١١٠.
(٣) البدر الطالع ١/٢٦٩، ونيل الوطر ١ / ٣٨٣، والتقصار: ص١١٠ .
(٤) البدر الطالع ١/ ٢٣٧، ونيل الوطر ١/ ٤٠٥، والتقصار:ص١١٠ .

مؤلفات الإمام الشوكانى

قلنا فى كلمة سابقة : إن العلماء العاملين لدينهم ، تراهم كالنحلة الدؤوب، تنتقل من زهرة إلى زهرة ، ومن وردة إلى غصن، تمتص الرحيق لتخرجه فى النهاية عسلاً وشهداً، عسلاً يتمثل فى طلابهم الذين يحملون الرسالة من بعدهم ، وشهداً يتمثل فى كتبهم ومؤلفاتهم التى أخرجوها لتكون زاداً لطلاب العلم والمعرفة من بعدهم ، وضياء يضىء لهم الطريق ، يرشدهم إلى ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم .

والإمام الشوكانى ــ رحمه الله ــ قدم للمكتبة الإسلامية زاداً زاخراً وعلماً نافعاً، ومؤلفات تربو عن الحصر والعد ، ولم تكن هذه المؤلفات فى فن واحد من فنون المعرفة أو علم واحد من علوم الشرع ، ولكنه كان نتاجاً شاملاً تناول أكثر المعارف فى عصره ، والفاحص لهذه المؤلفات يجد أنه تناول فيها :

قضايا التوحيد ، وناقش علماء الكلام ، وهدم الكثير من قواعدهم وأدلتهم ودعاهم إلى نبذ الخلافات والعودة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، حتى تتخلص كتب العقائد من طلاسمهم وألغازهم .

ثم كتب فى الحديث وعلومه ، وكان كتابه العظيم « نيل الأوطار » خير شاهد على تمكنه فى هذا العلم ، والذى أسهب فى شرح سنة الرسول ﷺ ، وجلاها فى صورة واضحة بينة ، ودعا المسلمين إلى الاهتمام بها ؛ لأنها من كلام خاتم المرسلين الذى لا ينطق عن الهوى ، ولأنها المفسرة لكتاب الله تعالى؛ لقوله عليه السلام : «أعطيت القرآن ومثله معه » .

وعندما وجد الشوكانى الخلافات بين الفقهاء فى عصره لا تقف عند حد دعاهم إلى نبذ الخلافات وأمرهم بالاجتهاد حتى لا يتوقف شرع الله تعالى ، ولأن لكل عصر ظروفه ودواعيه، وحتى لا تكون دعوته دعوة ثائرفقط أو مقولة كاتب فحسب نراه فتح الطريق إلى الاجتهاد بكتابه القيم « السيل الجرارعلى حدائق الأزهار»[1] وغيره من المؤلفات ، وكأن هذا الكتاب كان إشارة البدء لغيره من العلماء بالاجتهاد وتقديم الصورة المثلى لفقه الإسلام وشرعه الذى أنزله الله تعالى ليكون للبشرية هادياً فى كل عصر ومصر .

ثم وضع الأسس والقواعد لمنطق إسلامى فى كتابه القيم « أمنية المتسوق فى تحقيق علم المنطق » ، ناهجاً فيه نهج أستاذه ابن تيمية فى كتابيه « نقض المنطق » و« الرد على المنطقيين ».

ثم كانت له مؤلفات كثيرة ورسائل عديدة فى فن البلاغة وعلم الاشتقاق .

(١) تم طبع هذا الكتاب عن طريق المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ، وتوجد نسخة مخطوطة بمكتبة صنعاء بخط الشوكانى ، انتهى منها سنة ١٢٣٥هـ .

ثم كان مؤلفه العظيم فى التفسير« فتح القدير» الذى نحن بصدد الحديث عنه ، ويطيب لنا أن نقدم فى هذه المقدمة ثبتاً ببعض كتبه المخطوط منها والمطبوع وعلى الله قصد السبيل .

أولا: الكتب المخطوطة :

١ـ التفسير :

١ـ بحث فى الرد على الزمخشرى فى استحسان بيت المرية فى سورة « سبحان » (١) .

٢ـ البحث الملم المتعلق بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ (٢) .

٣ـ بحث فى شرح قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (٣) .

٤ـ مطلع البدرين ومجمع البحرين فى التفسير، وهو أصل فتح القدير فى ستة مجلدات كبار(٤).

٥ـ النشر فى فوائد سورة العصر (٥).

٢ـ الحديث :

١ ـ الأبحاث الوضية فى الكلام على حديث : « الدنيا رأس كل خطية » (٦) .

٢ ـ إتحاف المهرة على حديث :« لاعدوى ولاطيرة » (٧).

٣ ـ بحث فيما اشتهر على ألسن الناس :« أنه لاعهد لظالم» (٨) .

٤ ـ بحث فى حديث :« إنما الأعمال بالنيات» (٩) .

٥ ـ بحث فى حديث : « فدين الله أحق أن يقضى» (١٠) .

٦ ـ بحث فى حديث : « الصوم لى وأنا أجزى به» (١١).

٧ ـ بحث فى الكلام على حديث : « إذا اجتهد المجتهد فأصاب. . .» إلخ (١٢) .

٨ ـ بحث فى شرح حديث :« بنى الإسلام على خمس» (١٣) .

٩ ـ بحث فى شرح قوله ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» (١٤) .

١٠ـ بحث فى مؤاخاة الرسول ﷺ بين الصحابة(١٥).

١١ـ رفع الباس عن حديث : النفس والهم والوسواس .

---

(١) رقم ٨٣ مجموع ٥٠ متوكلية .
(٢) النساء :١٤٨ .
(٣) الأنعام : ١٥١.
(٤) راجع : ولاية الله :ص٥١ .
(٥) البدر الطالع ٢/ ٢٢١ .
(٦) يقال : بأن هذا الكتاب طبع فى النهضة المصرية .
(٧) مكتبة الجامع بصنعاء رقم:٤ من مجاميع المتوكلية .
(٨) الفتح الربانى ٣٨ .
(٩) الفتح رقم ٥٩/٩ من مجاميع المتوكلية .
(١٠) راجع: البدر الطالع ٢/ ٢٢٣.
(١١) راجع : التقصار:ص٢٣ .
(١٢) الفتح الربانى رقم (١) الجامع المقدسى .
(١٣) الفتح الربانى رقم٨٣ مجاميع الجامع المقدسى .
(١٤) رقم ٥٠ متوكلية.
(١٥) رقم ٣١ من مجاميع المتوكلية ٥٩ .

١٢ــ القول المقبول فى رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول .

١٣ــ نثر الجوهر فى شرح حديث أبى ذر .

١٤ــ نزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى على شرحه نيل الأوطار .

١٥ــ كشف الدين عن حديث ذى اليدين .

٣ــ العقيدة :

١ــ الإثبات فى التقاء أرواح الأحياء والأموات [١].

٢ ــ الإيضاح لمعنى التوبة والإصلاح [٢].

٣ ــ بحث فى الاستدلال على كرامات الأولياء [٣] .

٤ ــ بحث فى التصوير. وقد بين فيه المؤلف عدم جوازه مطلقاً ضمن مجموع ٨٣ .

٥ ــ بحث فى أن إجابة الدعاء لاينافى القضاء [٤] ، وهو بحث يقع فى ست صفحات تقريباً يثبت فيه المؤلف أن كون الله تعالى أمرنا بدعائه وأن الرسول حببنا فى الدعاء : لا ينافى هذا مع سبق القضاء من الله سبحانه فإنه من الممكن أن يمحو الله ما يشاء ويثبت بناء على الدعاء .

٦ ــ بحث فى الكلام على الذكر والجهر به . مجموع ٨٣ مجاميع الجامع المقدسى بصنعاء .

٧ ــ بحث فى حال الأموات فى البرزخ [٥] .

٨ ــ بحث فى الرد على من قال : إن علوم الناس تسلب عنهم فى الجنة .

٩ ــ بحث فى مستقرالأرواح بعد الموت . رقم ٣٧من مجموع ٥٩ متوكلية.

١٠ــ بحث فى وجوب محبة الله. رقم ٣٢مجاميع متوكلية [٦] .

١١ــ البغية فى مسألة الرؤية [٧] (أى رؤية الله تعالى)، أثبت فيه إمكان رؤية الله فى الآخرة ، ورد فيه على المعتزلة الذين أنكروا ذلك .

١٢ــ تنبيه الأفاضل على ماورد فى زيادة العمر ونقصه من الدلائل [٨] أثبت فيها أن العمر يزيد وينقص ثم بين المراد من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا

---

(١) مكتبة الجامع بصنعاء رقم ٢٢من الفتح الربانى مجاميع المتوكلية .

(٢) فى عشر صفحات ضمن مجاميع المتوكلية رقم ٥٩وهى تدور حول المراد من توبة الذين يرمون المحصنات ، وهو جواب عن سؤال من تلميذه لطف الله بن أحمد جحاف .

(٣) رقم ٤٠ من مجموع ٥٩ متوكلية وذكره فى تفسير فتح القدير سورة الجن : آية رقم ٢٦ ، ٢٧.

(٤) رقم ٤١ من مجاميع ٥٩ وذكره فى ولاية الله.

(٥) الفتح الربانى رقم ١مجاميع .

(٦) ط . دار النهضة سنة ١٣٩٦هـ وتوجد نسخة مخطوطة رقم ٣٢ من مجاميع ٥٩ .

(٧) راجع : تفسير فتح القدير سورة القيامة : آية رقم ٢٣.

(٨) ضمن مجموع ٥٩ .

يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

١٣ـ التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظروالدجال والمسيح (١).

١٤ـ جواب سؤال عن الصبر والحلم (٢) . وهو رد على سؤال من السيد العلامة إبراهيم بن محمد بن إسحاق قد وجهه إلى المؤلف بقوله:(هل الصبر والحلم متلازمان ؟) .

١٥ـ رسالة فى توحيد الله ــ عز وجل ــ (٣) .

١٦ـ كشف الأستار فى إبطال كلام من قال بفناء النار .

١٧ـ المختصر البديع فى الخلق الوسيع ذكر خلق السموات والأرض وما فوقهما وما دونهما والجن والإنس والملائكة والعوالم أجمع (٤) .

١٨ـ العذب النمير فى جواب عالم عسير فى التوحيد وفاتحة الكتاب (٥) .

١٩ـ المقالة الفاخرة فى بيان اتفاق الشرائع على الدار الآخرة (٦) .

٢٠ـ إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات (٧) .

٤ـ الفقه :

١ـ الأبحاث البديعة فى وجوب الإجابة إلى أحكام الشريعة .

٢ـ إشراق الطلعة فى عدم الاعتداد بالركعة من الجمعة .

٣ـ إشراق النيرين فى بيان الحكم إذا تخلف أحد الخصمين .

٤ـ اطلاع أرباب ذوى الكمال على ما فى رسالة الجلال من الاختلال .

٥ـ إقناع الباحث بدفع ما ظنه دليلاً على جواز الوصية للوارث .

٦ـ إيضاح الدلالات لأحكام الخيارات .

٧ـ إيضاح الدلائل على ما يجوز بين الإمام والمأموم من الحائل .

٨ ـ بحث فى بيع المشاع من غير تعيين .

٩ ـ بحث فى بيع وقف الذرية .

---

(١) ضمن مجموع ٥٩ .

(٢) رقم ٢٥ ضمن مجموع ٥٩ ومجموع ٣٢ الجامع بصنعاء .

(٣) الفتح الربانى رقم ١من مجاميع ١٨٣ الجامع المقدسى بصنعاء .

(٤) البدر الطالع ٢/ ٢٢٠. (٥) ولاية الله : ص٤٨. (٦) تم طبع هذه الرسالة .

(٧) نسخة بخط المؤلف مجموع رقم ٥٩ مجاميع المتوكلية جامع صنعاء، وقد دار هذا المؤلف حول اتحاد الشرائع السماوية كلها فى أمور ثلاثة: توحيد الله وإثبات النبوات ، وتصديق بعضها بعضاً، وإثبات البعث الحسى ، وقد رد بهذا على (موسى بن ميمون) اليهودى الأندلسى فى إنكاره لعلم الله بالجزئيات ونفيه اللذة الجسمانية وقوله بالبعث الروحى فقط . وهو يقع فى ثمان وخمسين صفحة تقريباً وقد انتهى من تأليفه سنة ١٢٣١هـ . راجع : قطر الولى تحقيق د . إبراهيم هلال .

١٠ـ بحث فى سؤال يتعلق بالصلاة .

١١ـ بحث فى السجود المنفرد .

١٢ـ بحث فى تحريم الزكاة على الهاشمى .

١٣- بحث فى امتناع الزوجة حتى يسمى المهر .

١٤ـ بحث فى نجاسة الدم من الخيل ومن بنى آدم .

١٥ـ بحث فى الربا .

١٦ـ الأبحاث الحسان المتعلقة بالعارية والشركة والتأجير والرهان .

١٧ـ بحث فى الطلاق المشروط .

١٨ـ بحث فيمن وقف على أولاده دون زوجته .

١٩ـ الأبحاث الوفية فى الشركة العربية.

٢٠ـ بحث فى رضاع الكبير هل يقتضى التحريم أو لا ؟

٢١ـ بحث فى العين المسروقة إذا وجدها المالك .

٢٢ـ بحث فى إخراج أجرة الحاج من رأس المال ولم يجزه إلا إذا تبرع الورثة.

٢٣ـ بحث فى قاذف الرجل وما عليه من الحد .

٢٤ـ بحث فى مسائل الوصايا التى يترتب عليها الضرر .

٢٥ـ بحث فى نقض الحكم إذا لم يوافق الحق .

٢٦ـ بحث فى صلاة السفر وهو جواب عن سؤال .

٢٧ ـ بحث فى وجوب الإمساك إذا دخل رمضان ولم يعلموا ذلك إلا نهاراً هل يجب الإمساك أم لا ؟

٢٨ـ بحث فيمن أجبر على الطلاق فقال فيه مذهبان : الأول :يقع ، والثانى : لا يقع وهو مذهب أهل البيت وهو الراجح .

٢٩ـ بحث فيما يقتضى التحريم من الرضاع واختار أنه لا يحرم إلا خمس رضعات.

٣٠ ـ بحث فى دفع من قال : إنه يستحب الرفع فى السجود .

٣١ ـ بحث فى يمين التعنت التى يطلبها المتخاصمان .

٣٢ـ بحث فى شفعة الجار .

٣٣ - بحث فيمن أوصى بالثلث قاصداً إحرام الوارث .

٣٤ـ بحث فى كون الولد يلحق بأمه كابن الملاعنة والأمة ومجهول النسب .

٣٥ـ البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر .

٣٦ـ بحث فى الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى الصلاة .

٣٧ـ بحث فيما يتعلق بعورات النساء .

٣٨ ـ بحث فى العمل بقول المفتى.

٣٩ ـ تحريـر الدلائل على مقدار ما يجـوز بين الإمـام والمأموم فى الصلاة من الارتفاع والحائل وهى شرح لرسالته . إيضاح الدلائل .

٤٠ ـ تنبيه الأمثال على عدم وجوب الاستعانة من خالص المال (١) .

٤١ـ تنبيه ذوى الحجا على حكم بيع الرجاء .

٤٢ـ جواب سؤال عن نجاسة الميتة .

٤٣ـ الدفعة فى وجه ضرر القرعة .

٤٤ـ رسالة القول المحرر فى حكم لبس المعصفر وسائرأنواع الأحمر.

٤٥ـ رسالة فى أحكام لبس الحرير .

٤٦ ـ رسالة فى جواز استناد الحاكم فى حكمه إلى تقويم العدول .

٤٧ـ رسالة فى حكم الطلاق البدعى هل يقع أم لا؟ .

٤٨ ـ رسالة فى اختلاف العلماء فى تقدير النفاس.

٤٩ـ رسالة فى التحلى بالذهب للرجال .

٥٠ ـ رسالة فى التسعير هل يجوز أولا ؟

٥١ـ رسالة فى نفقة المطلقة ثلاثاً .

٥٢ـ رسالة فى الكسوف هل يكون فى وقت معين على القطع أم ذلك يختلف ؟

٥٣ـ رسالة فى القراءة التى يهدى ثوابها إلى الميت من الأحياء .

٥٤ـ رسالة فى أسباب سجود السهو .

٥٥ـ رسالة فيمن حلف ليقضين دينه غداً إن شاء الله.

٥٦ـ رسالة فى بيع الشىء قبل قبضه .

---

(١) رقم ١١ من مجموع (٥٩) المتوكلية.

٥٧ــ رسالة هل الخلع طلاق أو فسخ ؟

٥٨ــ رسالة فى حكم بيع الماء .

٥٩ــ رسالة فى حكم أن الطلاق لا يتبع الطلاق على الراجح .

٦٠ــ سؤال عن الوصية للوارث.

٦١ــ سؤال فى التحيل لإسقاط الشفعة .

٦٢ــ سؤال فى إجبار الجار على البيع لأجل الغرر .

٦٣ــ شفاء العلل فى زيادة الثمن لأجل الأجل .

٦٤ــ الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية فى الرد على من زعم أن غسل الفرجين من أعضاء الوضوء من الزيدية .

٦٥ــ ضرب القرعة فى شرطية خطبة الجمعة .

٦٦ــ القول الجلى فى لبس النساء للحلى .

٦٧ــ القول الصادق فى حكم إمامة الفاسق .

٦٨ــ القول الواضح فى صلاة المستحاضة .

٦٩ــ كشف الأستار عن الحكم فى الشفعة بالجوار .

٧٠ــ اللمعة فى الاعتداد بإدراك ركعة من الجمعة .

٧١ ــ هفوات الأئمة الأربعة .

٧٢ــ بحث فى تكثير الجماعات فى مسجد واحد.

٧٣ــ هل يجوز قضاء المقلد؟

٧٤ــ بغية المستفيد فى الرد على من أنكر الاجتهاد والتقليد .

٥ــ المنطق :

١ــ أمنية المتسوق فى تحقيق علم المنطق .

٢ــ دفع الاعتراضات على إيضاح الدلالات .

٣ــ فتح الخلاف فى جواب مسائل عبد الرزاق الدهلوى الهندى فى علم المنطق .

٦ــ التصوف :

١ــ بحث فى التصوف تحت اسم الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات فى ذوى الإلحاد .

٢ــ الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد .

٧ــ أنواع متفرقة فى بعض العلوم والفنون :

١ــ إبطال دعوى الاختلال فى حل الإشكال .

٢ــ أدب الطلب ومنتهى الأرب (١) .

٣ــ إرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد .

٤ــ إفادة السائل فى العشرالمسائل .

٥ــ بحث فى الإضرار بالجار .

٦ــ بحث فى تبادل اللفظ عند الإطلاق .

٧ــ بحث فى الصلاة على النبى ﷺ ، هل يكفى الرمز إليها خطاً أو لابد من كتابتها كاملة ؟.

٨ ــ بحث فى وجوب الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة وغيرها .

٩ــ بحث فى حفلة المولد النبوى . قال : لم أجد فى جوازه دليلاً وأول من اخترعه السلطان المظفر أبو سعيد فى القرن السابع، وأجمع المسلمون أنه بدعة .

١٠ــ بحث فى التعليق على الفوائد لابن القيم .

١١ــ بحث فى النهى عن مودة أهل السوء .

١٢ــ بحث فى كون سبب التفرق هو علم الرأى.

١٣ــ جواب عن أسئلة وردت من كوكبان .

١٤ــ جواب أسئلة وردت من بعض علماء اليمن .

١٥ــ جواب أسئلة وردت من الفقيه قاسم بن لطف الله .

١٦ــ جواب سؤالات وردت من تهامة .

١٧ــ جيد النقد فى عبارة الكشاف والسعد .

١٨ــ حل الإشكال فى إجبار اليهود على التقاط الأزبال .

١٩ــ در السحابة فى مناقب القرابة والصحابة .

٢٠ــ رسائل على مسائل من السيد على بن إسماعيل .

٢١ــ رسالة جواب على مسائل لبعض علماء الحجاز .

٢٢ــ الروض الوسيع فى الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع .

٢٣ــ رسالة فى حكم أجاب بها على الشريف إبراهيم بن أحمد بن إسحاق .

---

(١) نسخة بخط المؤلف ومن وقفه على مكتبة الجامع المقدسى بصنعاء رقم ٣٠٢ ، وقد حكى فيه ما وقع له مع المقلدين، وتاريخ حياته كاملا فى طلب العلم، وما الذى يجب أن يكون عليه طالب العلم وما يجب أن يحصله .

٢٤ـ زهر النسرين الفائح بفضائل العمرين .

٢٥ـ الطود المنيف فى الانتصار للسعد بن الشريف .

٢٦ـ طيب النشر فى المسائل العشر .

٢٧ـ القول الحسن فى فضائل أهل اليمن .

٢٨ـ منحة المنان فى أجرة القاضى والسجان .

٢٩ـ نزهة الأحداق فى علم الاشتقاق .

ثانياً : الكتب المطبوعة :

١ـ إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر ، ط. حيدر أباد سنة ١٣٢٨هـ .

٢ـ إبطال دعوى الإجماع على مطلق السماع ، ط . حيدر أباد سنة ١٣٢٨هـ .

٣ـ إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات ، ط. النهضة العربية بمصر تحقيق د . إبراهيم هلال سنة ١٣٩٥هـ .

٤ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، ط . المطبعة المنيرية ١٣٤٧هـ ، ط. السعادة سنة ١٣٦٥هـ ، وط . الحلبى سنة ١٣٥٦هـ .

٥ـ إرشاد السائل إلى دليل المسائل ، ط . دار النهضة ١٣٩٥هـ .

٦ـ إشكال السائل إلى تفسير ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ، ط . دار النهضة ١٣٩٥هـ .

٧ـ الإعلام بالمشائخ الأعلام والتلامذة الكرام ، معجم لشيوخه، ط . ١٣٢٨هـ (حيدر أباد) .

٨ ـ الإيضاح لمعنى التوبة والصلاح ، ط.دار النهضة ١٣٩٥هـ .

٩ـ بحث فى وجوب محبة الله ، ط . دار النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

١٠ـ بحث فى الاستدلال على كرامات الأولياء ، ط . دار النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

١١ـ بحث فى إجابة الدعاء لاينافى سبق القضاء ، ط . دار النهضة ١٣٩٥هـ .

١٢ـ بحث فى الكلام على أمناء الشريعة ، ط . دار النهضة ١٣٩٥هـ .

١٣ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ط.السعادة ١٣٥٠هـ ، ط. دار المعرفة بيروت بدون تاريخ « أثبت فيه أن القرون المتأخرة عمرت بالعلماء المجتهدين، ولم يخل قرن من القرون من جماعة من هؤلاء ؛ لأن خلو عصر من أمثال هؤلاء ضياع الشريعة بلا مرية وذهاب الدين بلا شك، وهو تعالى قد تكفل بحفظ دينه ، وليس المراد :حفظه فى بطون الصحف والدفاتر بل إيجاد من يبينه للناس فى كل وقت وعند كل حاجة » (١) .

---

(١) مقدمة البدر الطالع .

١٤ــ تحفة الذاكرين في شرح (عدة الحصن الحصين) ، ط. مصطفى الحلبي سنة ١٣٥٠هـ ، قال في مقدمته : « وبعد: فإنه لما كان كتاب (عدة الحصن الحصين) في الأذكار الواردة عن سيد المرسلين من أكثر الكتب نفعاً ، وأحسنها صنعاً ، وأتقنها جمعاً وأحكمها وضعاً ، بقي فيه ما بقي الدين من العين، وإن لم يكن فيه شين ، وهوعدم التنبيه على ما في بعض أحاديثه من المقال ، وعدم الانتباه لعزوه إلى مخرجيه إلى الكمال ــ إلى أن قال ــ ولم نقف إلى الآن، ولا سمعنا عن أحد من أهل العرفان ، أنه شرح هذا الكتاب بشرح يشرح صدور أولي الألباب، ويتبين به القشر من اللباب ، ولا أنه حام أحد حول هذا المقصد النفيس، والغرض الذي هو لطالب هذا الكلام على فوائد الحديث كالرئيس» (١) . . . إلخ.

١٥ــ التحف في مذاهب السلف ، ط . المنيرية سنة ١٣٨٣هـ ، والحلبي ١٣٥٠هـ .

١٦ــ تنبيه الأفاضل على ما ورد من زيادة العمر ونقصه من الدلائل ، ط . النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

١٧ــ تنبيه الأعلام على تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام ، ط . مصر مطبعة المعاهد سنة ١٣٤٠هـ تحت اسم (كشف الشبهات عن المشبهات)(٢) .

١٨ــ جواب سؤال يتعلق بما ورد في الخضر عليه السلام ، ط . النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

١٩ــ جواب السائل عن تفسير تقدير القمر منازل ، ط .النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

٢٠ــ جواب عن سؤال الصبر والحلم ، ط . النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

٢١ ــ جواب عن سؤال كيف أن الفاء في قوله تعالى : ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ واقعة في موقع الدليل ، ط . النهضة ١٣٩٥هـ .

٢٢ــ جواب عن سؤال عن نكتة التكرار في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾، ط . النهضة ١٣٩٥هـ .

٢٣ــ الدراري المضيئة في شرح الدرر البهية ، ط . مصر الحرة سنة ١٩٢٨هـ .

٢٤ ــ الدرر البهية : متن الدراري المضيئة ، ط . مصر الحرة سنة١٩٢٨هـ .

٢٥ــ الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ، ط المنيرية ١٣٤٨هـ .

٢٦ــ الدواء العاجل في دفع العدو الصائل ، ط .المنيرية ١٣٤٣هـ .

٢٧ــ رفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة، ط. المنيرية ١٣٤٢هـ ، و١٣٤٨هـ .

٢٨ــ السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهــار ،ط. الشـؤون الإسلامية بمصر سنة ١٣٩٠هـ ،

---

(١) من مقدمة تحفة الذاكرين .

(٢) راجع : مقدمة ولاية الله للدكتور إبراهيم هلال ، تحقيق كتاب قطر الولي للشوكاني .

وط . دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان ــ قال فى مقدمته : « فإن مختصرالأزهار لما كان مدرس طلبة هذه الديار فى هذه الأعصار ومعتمدهم الذى عليه فى عباداتهم ومعاملاتهم المدار ، وكان قد وقع فى كثير من مسائله الاختلاف بين المختلفين من علماء الدين والمحققين من المجتهدين ، أحببت أن أكون حكماً بينه وبينهم ثم بينهم أنفسهم عند اختلافهم فى ذات بينهم، فمن كان أهلاً للترجيح ومتأهلاً للتقسيم والتصحيح فهو إن شاء الله سيعرف لهذا التعليق قدره، ويجعله لنفسه مرجعاً » إلخ .

٢٩ــ شرح الصدور فى تحريم رفع القبور ، ط . المنيرية سنة ١٣٤٧هـ .

٣٠ــ العقد الثمين فى إثبات وصاية أمير المؤمنين ، ط.المنيرية سنة ١٣٤٨هـ .

٣١ــ عقود الزبرجد فى جيد مسائل علامة ضمد ، ط . دار النهضة سنة ١٣٩٥هـ .

٣٢ــ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ، ط . فى الهند سنة ١٢٠٣هـ، ثم بمصر، ط . المحمدية سنة ١٣٨٠هـ ثم قام بتحقيقه عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمنى ١٣٩٨هـ. قال فى مقدمته : « وبعد : فلما كان تمييز الموضوع من الحديث عن رسول الله ﷺ من أجل الفنون ، وأعظم العلوم ، وأنبل الفوائد من جهات يكثر تعدادها ولولم يكن منها إلا تنبيه المقصرين فى علم السنة على ما هو مكذوب على رسول الله ﷺ ليجنبوه، ويحذروا من العمل به، واعتقاد ما فيه وإرشاد الناس إليه ، كما وقع لكثير من المصنفين للفقه» إلخ(١).

٣٣ــ قطر الولى على حديث الولى ، تحقيق الدكتور إبراهيم هلال ، ط .دار الكتب الحديثة سنة ١٣٩٥هـ. قال فى مقدمته : « فإنه لما كان حديث « من عادى لى ولياً » قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها وتدبرها كما ينبغى ، أحببت أن أفرد هذا الحديث الجليل بمؤلف مستقل، أنشرمن فوائده ما تبلغ إليه الطاقة ويصل إليه الفهم ، وما أحقه بأن يفرد بالتأليف ، فإنه قد اشتمل على كلمات كلها درر ، الواحدة منها تحتها من الفوائد ما ستقف على البعض منه ، وكيف لا يكون كذلك وقد حكاه عن الرب سبحانه من أوتى جوامع الكلم ، ومن هو أفصح من نطق بالضاد ، وخيرالعالم بأسره ، وأجل خلق الله ، وسيد ولد آدم ﷺ »إلخ(٢) .

٣٤ــ القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد ، ط. المنيرية سنة ١٣٤٨هـ ، وط . دار القلم تحقيق عبد الرحمن عبد الخالق، وتحقيق محمد عثمان الخشت ، ط .مكتبة القرآن القاهرة. قال فى مقدمته : « طلب منى بعض المحققين من أهل العلم أن أجمع له بحثاً يشتمل على تحقيق الحق فى التقليد أجائز هو أم لا، على وجه لا يبقى بعده شك ولا يقبل عنده تشكيك، ولما كان هذا السائل من العلماء المبرزين كان جوابه على نمط علم المناظرة . فنقول وبالله التوفيق » إلخ (٣).

(١) راجع : مقدمة كتاب الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة .
(٢) راجع : مقدمة قطر الولى : ص٢١٧. (٣) راجع :مقدمة القول المفيد : ص ١٨ .

٣٥ـ المسك الفائح فى حط الجوائح ، ط .النهضة سنة١٣٩٥هـ .

٣٦ـ نزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى ، مختصر من نيل الأوطار ، ط . بالهند سنة ١١٩٧هـ .

٣٧ـ نيل الأوطار (شرح منتقى الأخبار) ،ط . الحلبى سنة ١٣٤٧هـ ، وط .العثمانية ١٣٥٧هـ ، وط. المكتبات الأزهرية القاهرة ١٣٨٥هـ قال فى مقدمته : « وبعد : فإنه لما كان الكتاب الموسوم بالمنتقى من الأخبار فى الأحكام مما لم ينسج على بديع منواله ، ولاحرر على شكله ومثاله أحد من الأئمة الأعلام ، قد جمع من السنة المطهرة مالم يجتمع فى غيره من الأسفار، وبلغ إلى غاية فى الإحاطة بأحاديث الأحكام تتقاصر عنها الدفاتر الكبار ، وشمل من دلائل المسائل جملة نافعة تغنى دون الظفر ببعضها طوال الأعمار ، وصار مرجعاً لجلة العلماء عند الحاجة إلى طلب الدليل لاسيما فى هذه الديار والأعصار » إلخ .

٣٨ـ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من التفسير - وهو موضوع هذا التحقيق ـ ويوجد أصله فى الجامع الكبير بصنعاء ويقع فى ستة مجلدات كبار تحت رقم ٧٩ تفسير بعنوان مطلع البدرين ومجمع البحرين،وقد أخطأ د. هلال عندما اعتبر كتاب مطلع البدرين مؤلفاً آخر للشوكانى فى علم التفسير(١) ، والصحيح أن المطبوع بعنوان (فتح القدير) والمخطوط بعنوان : مطلع البدرين فينبغى الالتفات إلى ذلك (٢) .

يقول الدكتورعبد الغنى قاسم : « ولايزال المجال مفتوحاً أمام الباحثين للتنقيب عن سائر مؤلفاته، والتى يمكن العثور عليها فى المكتبات المنزلية للأسر اليمنية التى توارثت ملكية مخطوطات علماء اليمن وفى مكتبات كل من الهند حيث يوجد تلاميذه وتركيا (اسطنبول) وإيطاليا وبريطانيا وسائر متاحف ومكتبات أوربا الغربية والشرقية ، حيث تتواجد الكثير من المخطوطات التى تسربت إلى خارج اليمن ، ويقدر الباحث عدد أبحاث ورسائل المجموع (المفقود) . الذى كان بحوزة السيد العلامة محمد المنصور عضو مجلس الشعب حالياً باليمن بما لايقل عن ٧٠بحثاً ورسالة قياساً على مجاميعه الأخرى التى قام الباحث بالاطلاع عليها، وأشار إليها الإمام الشوكانى بأنها مجلدات كبيرة تحمل عنوان (الفتح الربانى) (٣) . وإذا كان ذلك كذلك، فيطيب لنا أن نقطع شوطاً آخر فى منهج الشوكانى فى التفسير .

(١) راجع : قطر الولى .
(٢) الإمام الشوكانى حياته وفكره :د. عبد الغنى قاسم : ص٢٠٠ .
(٣) المصدر السابق :ص ٢٢٩، ط .مؤسسة الرسالة . بيروت ، والجيل الجديد ــ صنعاء .

منهج الشوكانى فى التفسير

ما المنهج الذى سار عليه الشوكانى فى تفسيره ؟ :

أسلك المناهج المعبدة ، والطرق المجهدة التى سلكها رجال التفسير قبله ؟

أم كانت له طرقه الخاصة ، وقواعده الدقيقة التى قعدها لنفسه، وسار عليها حتى قدم كتابه العظيم « فتح القدير» ؟ أم أنه بعد الاطلاع والتنقيب، والفحص والتمحيص فى كتب المفسرين اختار مفسراًمعيناً فتابعه فى منهجه ، واتخذه دليلاً للسير عليه ؟

إن القارئ المدقق لكتب التفاسير السابقة على الشوكانى يرى أن بعض المفسرين قد اهتم اهتماماً كبيرا باللغة، وبعضهم قد اهتم بالأحكام ، وبعضا ثالثا قد أكثر من المسائل الفلسفية وآراء علماء الكلام ، إلى غير ذلك من الاتجاهات ، والتى يعبر عنها صاحب « كشف الظنون » بقوله :

« فالنحوى تراه ليس له إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه ، وإن كانت بعيدة وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه ، وخلافياته كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر والنهر ، والإخبارى ليس له شغل إلا القصص ، والإخبار عمن سلف ، سواء كانت صحيحة أو باطلة ، والفقيه يكاد يسرد الفقه جميعاً ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية أصلاً . والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبى وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام الرازى قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة » إلخ .

وإذاكان ذلك كذلك أترى الشوكانى قد أعجبه شيخه ابن جرير الطبرى فسار على نهجه ، واتبع أصوله التى قعدها لنفسه فى التأويل والتفسير والتى لخصها بقوله:

« تأويل جميع القرآن على أوجه ثلاثة :

أحدها : لا سبيل إلى الوصول إليه وهو الذى استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن جميع خلقه .

الثانى : ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ دون سائر أمته وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجة ، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ لهم تأويله .

الثالث منها : ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه لاتوصُّل إلى علم ذلك إلا من قبلهم .

فإذا كان ذلك كذلك، فأحق المفسرين بإصابة الحق فى تأويل القرآن أوضحهم حجة فيما تأول وفسرمما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه إما من جهة النقل المستفيض ـ فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض .وإما من جهة نقل العدول الأثبات فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض ، أو من وجه الدلالة المنصوبة على

صحته. وأوضحهم برهاناً فيما ترجم وبيَّن من ذلك مماكان مدركاً علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة ، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة (١) .

أترى الشوكانى أعجبه هذا المنهج فتعرف على كلياته وجزئياته وشمر عن سواعده وسار عليه حتى وضع كتابه ؟ أم ترى أن هذا المنهج الذى وضعه شيخ المفسرين لا يفى بما عزم عليه، وما أراد الوصول إليه فى عصر جدت فيه متطلبات كثيرة ، ومتغيرات متلاحقة ، الأمر الذى يقتضيه أن يقطع رحلة متأنية فى أغوار كتب التفاسير ليخرج من ذلك بمنهج آخر يفى بحاجة المسلمين فى القرن الثالث عشر الذين وفدت إلى بلادهم فى هجمة بربرية طلاسم الفلاسفة ، وتهويمات المتصوفة ، وتعقيدات الباطنية ، أترى يتجه بشراعه إلى تفسير القرطبى المسمى : (الجامع لأحكام القرآن) عله يجد بين دفتيه طلبته أويفتح أمامه الطريق إلى إملاء تفسير يجد فيه جماعة المسلمين فى عصره ما يتواكب مع متطلباتهم ، ويغريهم بالعودة إلى كتاب ربهم ؟

إن صاحب (الجامع) يلخص منهجه بقوله: « رأيت أن أكتب تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير واللغات والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعا بين معانيهما ومبيناً ما أشكل منهما بأقاويل السلف ، ومن تبعهم من الخلف . . . » ثم يقول: « وشرطى فى هذا الكتاب : إضافة الأقوال إلى قائليها وكثيراًمايجىء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مبهماً لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم)ثم يقول مكملاً منهجه بقوله :« وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لابُدّ منه ولا غنى عنه للتبيين ، واعتضت(٢) من ذلك تبيين آى الأحكام بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم » (٣) .

أترى هذا المنهج فى تفسيرالقرطبى يرضى طلبته ويحقق رغبته ويفى بمايريده فى تفسيره ، وما تتطلبه نفسه الطلعة. .؟ أم أن الشوكانى يريد شيئاً جديداً لم يسبق إليه وتفسيراً فريداً تتسابق العقول عليه ؟

وإذا كان ذلك كذلك ، أترى يجد طلبته فى كتاب « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية الأندلسى . إن شيخ الإسلام ابن تيمية يعرف لهذا الكتاب قدره ويفضله على غيره من كتب التفاسير، ويقول عنه : «تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى ، وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» (٤) .

---

(١) راجع : مقدمة التفسير : ص٣١ .

(٢) أى قصدت وأردت من ذلك . (٣) راجع : مقدمة التفسير: ص ٣ ، ط . دار الكتب المصرية .

(٤) راجع : مقدمة التفسير لابن تيمية : ص ٨٩ ، ٩٠، ط . دار القرآن الكريم .

إذا كان ذلك كذلك ، فليمخر بشراعه إلى هذا التفسيرويغوص فى أعماقه ويتعرف على جواهره وكنوزه ، ويضع يده على منهجه ودليله يقول صاحب « المحرر الوجيز» :

« ففزعت إلى تعليق مايتنخَّل [١] لى فى المناظرة من علم التفسير وترتيب المعانى وقصدت أن يكون جامعاً وجيزاً ، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به ، وأثبت أقوال العلماء فى المعانى منسوبة إليهم ، على ماتلقى السلف الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ كتاب الله تعالى من مقاصده العربية ، السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز ، وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم ، وسردت التفسير فى هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم أو نحو ، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبع الألفاظ حتى لايقع طفر[٢] كما فى كثير من كتب المفسرين»، ثم يقول: « وقصدت إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها ، واعتمدت تبيين المعانى وجميع محتملات الألفاظ كل ذلك بحسب جهدى ، وما انتهى إليه علمى » [٣] .

ثم ماذا ؟ أترى الشوكانى وقف عند هذا التفسير؟ وألقى رحله فى كنفه ؟ ووجد طلبته عند صاحبه؟

إن المتتبع لحياة الشوكانى العلمية يرى أنه نخل المكتبة الإسلامية وعايشها معايشة كاملة ، وتعرف على كل ما أنتجته العقول من كتب التفاسير ووضع يده عليه ، ثم قرأها قراءة الفاحص المدقق ، قراءة الناقد البصير ، والصيرفى الألمعى الذى يعرف الجوهر الأصيل من البهرج الزائف، ، والعالم القدير بكتاب ربه الذى تحدى به الثقلين بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [٤] .

وبعدها قدم منهجه فى التفسير منهجا جامعا شاملا ، فريداً فى بابه ، حوى جواهر ابن جرير ، وعمق القرطبى ، وإيجاز ابن عطية ، وتدقيق ابن كثير، ودرر السيوطى ، وألمعية الشوكانى ،ويعرض منهجه فى التفسير بقوله :

« وطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة ، وهأنا أوضح لك منارها ، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول : إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين ، وسلكوا طريقين :

الفريق الأول : اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية .

والفريق الثانى : جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية ، وما تفيده العلوم الآلية ، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً ، وإن جاؤوا بها لم يصححوا لها أساساً .

وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لايتم بدونه كمال الانتصاب ».

---

(١) نخل الشيء ينخله نخلاً ، وانتخله : صفاه واختاره ، تنخلت : اخترت أجوده . اللسان ٦٥١/١١.
(٢) أى الوثب والقفز، والمراد عدم تتبع ألفاظ الآيات . اللسان ٥٠١/٤ .
(٣) راجع :مقدمة التفسير : ص ١٠، ١١، ط الشيخ خليفة بن حمد آل ثان .
(٤) الإسراء : ٨٨ .

ثم قال :

« وبهذا تعرف أنه لابد من الجمع بين الأمرين ، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه ، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله ، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه ، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب ، والحرص على إيراد ما ثبت من التفاسيرعن رسول الله ﷺ ، أو الصحابة ، أو التابعين ، أو تابعيهم أو الأئمة المعتبرين ، وقد أذكر ما فى إسناده من ضعف ، إما لأن فى المقام مايقويه ، أولموافقته للمعنى العربى .

وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد ؛ لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك ، كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى ، وابن كثير والسيوطى وغيرهم ، ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفاً ولا يبينونه ، ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه: إنهم علموا ثبوته ، فإن من الجائز أن ينقلوه دون كشف عن حال الإسناد ، بل هذا هو الذى يغلب به الظن ؛ لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك ، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحسن ،فمن وجد الأصول التى يروون عنها ، ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها فلينظر فى أسانيدها موفقاً إن شاء الله .

واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بـ « الدر المنثور » قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ وتفاسير الصحابة من بعدهم ، وما فاته إلا القليل النادر ، وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير ، مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى .

وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها ، وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية ، أومن الفوائد التى لاحت لى من تصحيح ، أوتحسين أو تضعيف أوتعقب ، أو جمع أو ترجيح .

وهذا التفسير ــ وإن كبر حجمه ــ فقد كثر علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه ، واشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد مع زوائد فرائد ، وقواعد شرائد ، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم أنظر فى هذا التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب اللباب ، وعجب العجاب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مآرب أولى الألباب » (١) .

هذا هو المنهج الإجمالى الذى ارتضاه الشوكانى لنفسه وسار على قواعده التى قعدها حتى انتهى من كتابة التفسير ، والذى نوضحه فيما يلى :

أولاً : الجمع بين التفسير بالرواية والدراية ، والمقارنة بين التفاسير التى سبقته والترجيح

(١) راجع :مقدمة التفسير : ص ١٢ ، ١٣، ط. دار المعرفة ، بيروت .

بين آرائها .

ثانياً : العناية باللغة أشد العناية ؛ لأن اللغة العربية بما فيها من إعراب للكلمات وبيان لمواقفها ، وتوضيح للاتصال بينها، وتصريف للمشتقات منها هى أهم الأسلحة التى يجب أن يتسلح بها من يريد أن يقدم على تفسير كتاب الله تعالى . والشوكانى له فى ذلك باع طويل ، ولقد قدم للمكتبة العربية كتابه: « نزهة الأحداق فى علم الاشتقاق » . مما يدل على اهتمامه باللغة وحرصه عليها ، والتزاماً بما جاء عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأله: أى علم القرآن أفضل ؟ فقال النبى ﷺ : « عربيته فالتمسوها فى الشعر » (١) . وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه، فإن الله يحب أن يعرب» (٢) .

ولقد رجع الشوكانى إلى العديد من مصادر اللغة العربية مثل : كتاب الزاهر لابن الأنبارى محمد بن القاسم بن محمد ٢٧١ـ ٣٢٨هـ ، وكتاب تهذيب اللغة للأزهرى محمد بن أحمد ٢٨٢ـ ٣٧٠ هـ، وكتاب الجوهرة لابن دريد محمد بن الحسن ت ٣٢١هـ ، وكتاب الصحاح فى اللغة للجوهرى أبو نصر إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣هـ ، وغير ذلك كثير.

ثالثاً : عنايته بالبيان والبديع؛ ولهذا يقول صاحب الكشاف :« لا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى ، وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقيب عنهما أزمنة »(٣) .

ولا شك أن الشوكانى استفرغ الجهد فى هذين العلمين وقدم لنا كتابه القيم : « الروض الوسيع فى الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع » .

رابعاً : الاهتمام بإيراد ما ثبت عن الرسول ﷺ ، والمتصفح لتفسيره يرى أن الأخبار المرفوعة إلى النبى ﷺ والتى صح سندها قليلة بالنسبة إلى جانب المأثور عن الصحابة والتابعين، وأكثر مروياته فى التفسير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ثم عن على ـ رضى الله عنه ـ وتأتى الرواية عن بقية الصحابة بعدهما ، وجل اعتماده على تفسير ابن جرير وابن أبى حاتم وعبد الرزاق وعبد بن حميد ، ومن المتأخرين يعول على تفسير ابن كثير والدر المنثور للسيوطى.

خامساً : الاهتمام بذكر كل القراءات الصحيح والشاذ ، ويبدأ بذكر القراءات الصحيحة ثم يذكر القراءات الشاذة ، وينبه دائماً على شذوذها ، ونراه فى كثير من الأحيان يعلل وينتقد ويستند فى ذلك على رده لها إلى قواعد اللغة أو قواعد النحو، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة

---

(١) يشهد لذلك ما رواه ابن الأنبارى عن أبى بكر الصديق قال : لأن أعرب آية من القرآن أحبُّ إلىَّ من أن أحفظ آية ، وروى البيهقى فى الشعب عن مالك قال : لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً .

(٢) رواه أبو يعلى والبيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعاً: « أعربوا القرآن يدلكم على تأويله ». والإعراب: البيان . ولنظام الدين النيسابورى تفسير سماه : غرائب القرآن ورغائب الفرقان .

(٣) راجع : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ١ /١٦ ، ط . دار الفكر العربى ١٣٩٧هـ ـ١٩٧٧م .

فى كتابه .

سادساً : يقرر أن كتابه هذا اشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد مع زوائد فرائد ، وقواعد شرائد .

وإذاكان ذلك كذلك، فما هو المنهج التفصيلى الذى اتبعه فى تفسيره حتى جاء بالزوائد الفرائد والقواعد الشرائد ؟

يقول الدكتور محمد حسن بن أحمد الغمارى : « درج فى شرح الآية أو الآيات على أنه يفصل القول على الترتيب التالى :

أ ــ بيان كون السورة من المكى أو المدنى .

ب ــ الدلالة على فضلها .

جـ ــ بيان الحروف المقطعة .

د ــ الاهتمام باللغة وأسباب النزول ثم الإعراب .

هـ ــ المعنى الإجمالى للآية .

و ــ الختم بالرواية وإيراد بعض الآثار (١) .

وعلى هذا ، فتفسير الشوكانى وحيد من حيث جمعه وترتيبه ، وحسن أدائه واستيعابه لأنواع علوم القرآن وجمعه بين الدراية والرواية . هذه أهم المميزات التى امتاز بها الشوكانى بالإضافة إلى أشياء كثيرة يلمسها الباحث عند استعراضه لقراءة هذا التفسير . منها نقده لمدرسة الاعتزال وبعض آراء الزيدية وهو منهم ، وإنصافه للكثير من الآراء التى نادت بها المدرسة السلفية، وإذا كان ذلك كذلك، فما موقف الشوكانى من تفسير آيات الصفات ؟ والتناسب بين الآيات ؟ ومن الأحاديث الضعيفة ؟ ومن الإسرائيليات ؟ هذا ما سنوضحه فيما يلى :

١ــ الشوكانى وقضية الصفات :

ما موقف الشوكانى من قضية الصفات ؟ أتراه كان معتقده فى ذلك معتقد المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة ؟ وهم يقولون : إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه ، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً ، وأنه انقلب من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى .

أم كان هواه مع ابن كلاب والأشعرى ومن وافقهما فى قولهم : إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه ، وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة بل هو شىء واحد لازم لذاته (٢) .

أم تراه واكب أبا حنيفة فى فقهه الأكبر ، وما نادى به نعيم بن حماد وإسحاق بن راهويه ؟

---

(١) راجع : الإمام الشوكانى مفسراً للدكتور محمد حسن الغمارى : ص ١٤٩ .

(٢) راجع : شرح العقيدة الطحاوية بتحقيقنا ١/ ١٤٤ .

إن الإمام أبا حنيفة يقول : لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه، ثم قال : وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا . .

وقال نعيم بن حماد : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله ﷺ تشبيه .

وقال إسحاق بن راهويه : من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله، فهو كافر بالله العظيم .

وقال علامة جهم وأصحابه :دعواهم على أهل السنة والجماعة ـ ما أولعوا به من الكذب ـ أنهم مشبهة بل هم المعطلة[١]. أم أنه سار على ما سارت عليه المدرسة السلفية فى إثبات الصفات وإجرائها على ظواهرها ونفى الكيفية عنها كما قال الإمـام مالك ـ رضى الله عنه ـ: « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب » .

إن الفاحص المدقق لما كتبه الشوكانى فى تفسيره وفى غيره من المؤلفات والمصنفات يرى أنه تابع المدرسة السلفية فى كثير من آرائها وخصوصاً ما قررته فى الصفات والأسماء .

ويطيب لنا فى هذه العجالة أن نقدم نموذجاً لمعتقد الشوكانى فى الصفات عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢].

قال الشوكانى : قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً :وأحقها وأولاها للصواب مذهب السلف الصالح : أنه استوى سبحانه عليه بلا كيـف ، بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه . والاستواء فى لغة العرب :هو العلو والاستقرار .قال الجوهرى : استوى على ظهر دابته : أى استقر ، واستوى إلى السماء : أى صعد . واستوى: أى استولى وظهر ، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق [٣]

وفى قوله تعالى :﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [٤] قال أحمد بن يحيى : قال ثعلب: الاستواء : الإقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء . وقيل : هو كناية عن الملك والسلطان ، والبحث فى تحقيق هذا يطول .

ثم يقول : والذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى : أنه سبحانه مستو على عرشه بغيرحد ولا كيف ، وإلى هذا سبقه الجماهير من السلف الصالح الذين يمرون الصفات كما وردت من

(١) المصدر السابق ١/ ١٣٢. (٢) الأعراف : ٥٤ .
(٣) راجع : فتح القدير ، سورة الأعراف: آية رقم ٥٤ . (٤) طه : ٥ .

دون تحريف ولا تأويل [١] .

ومن هنا نرى أن الشوكانى واكب مدرسة السلف فى باب الصفات حيث إنهم يثبتون ماأثبته الله ورسوله، وينفون ما نفاه الله ورسوله .

قال أبوداود الطيالسى : كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة : لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون يروون الحديث ولا يقولون : كيف ؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر [٢] .

قال أبو حنيفة ــ رضى الله عنه ــ: له يد ووجه ونفس كما ذكر تعالى فى القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف ولا يقال : إن يده قدرته ونعمته ؛ لأن فيه إبطال الصفة. انتهى .

وهذا الذى قاله الإمام رضى الله عنه ثابت بالقرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [٣] ، وقال : ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [٤] ، وقال تعالى : ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [٦] وقال : ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾[٧] ، وقال : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ [٨] ،وقال تعالى :﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾[٩] ، وقال تعالى : ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ [١٠].

وكل هذه الأشياء تدل دلالة قاطعة على أن الشوكانى سلفى المعتقد فى تفسيره ، ولقد كان المصنفان شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، وتفسير ابن كثير الذى رجع إليه فى كثير من الأحيان أثره الكبير فيما ذهب إليه من آراء وقعده من قواعد وأفكار .

٢ــ الشوكانى وتناسب الآيات والسور :

ما هى قضية تناسب الآيات والسور التى أثارها الشوكانى فى تفسيره ؟

أهى قضية جديدة ، وعلم مبتكر لم يعرفه رجالات التفسير فى العصور السابقة ؟

أعنى أن هذا العلم لم تعرفه الطبقة الأولى من المفسرين أمثال : عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، ولم تعرفه الطبقة الثانية من التابعين أمثال : سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك ، ولم يعرفه شيخ المفسرين الذى قال عنه أبوحامد الإسفراييني : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً .ولم يعرفه صاحب المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز الذى قال عنه أبوحيان : أجل ما صنف فى علم

(١) فتح القدير، سورة طه: آية رقم ٥ .
(٢) راجع : شرح الطحاوية بتحقيقنا ١/ ٢٨٤ . (٣) ص : ٧٥ . (٤) الزمر : ٦٧ .
(٥) المائدة: ١١٦ . (٦) الأنعام : ٥٤ . (٧) طه : ٤١ . (٨) آل عمران : ٢٨ .
(٩) القصص : ٨٨ . (١٠) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧.

التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح والتحرير ، وهل البقاعى صاحب هذه الفكرة ؟ وهل هو أول من كتب عنها وتناولها من المفسرين والمؤولين ؟

إن القارئ للمقدمة التى كتبها البقاعى لكتابه : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » يشعر للوهلة الأولى أنه فارس حلبتها وعملاق فكرتها ؛ لأنه يقول :« وبعد : فهذا كتاب عجاب ، رفيع الجناب فى فن ما رأيت من سبقنى إليه ولا عول ثاقب فكره عليه ، أذكر فيه ــ إن شاء الله ــ مناسبات ترتيب السور والآيات أطلت فيه التدبر، وأنعمت فيه التفكر لآيات الله امتثالاً لقوله: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

ولكن صاحب كتاب « البرهان فى علوم القرآن » يضع فى كتابه فصلاً عنونه بقوله : معرفة المناسبات بين الآيات . قال فيه : « وقد أفرده بالتصنيف الأستاذ أبو جعفر بن الزبير فى كتابه « البرهان فى مناسبة ترتيب القرآن» وتفسير الإمام فخر الدين الرازى فيه شىء كثير من ذلك .

ثم يقول : « واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول . والمناسبة فى اللغة : المقاربة ، وفلان يناسب فلانا ، أى يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب ، أى القريب المتصل ، ومنه المناسبة فى العلة فى باب القياس : الوصف المقارب للحكم . وفائدته : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط . ويقول فخر الدين الرازى : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط » (٢) .

وإذا كان ذلك كذلك، فماذا ينقم الشوكانى من هذا العلم ؟

قال الشوكانى عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٣) :

« اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم فى فن لايعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الأنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه ، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعى فى تفسيره ، ومن تقدمه حسبما ذكر فى خطبته ، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ ، إلى أن قبضه الله ــ عز وجل ــ إليه .

---

(١) ص : ٢٩ . (٢) راجع : البرهان فى علوم القرآن : ص ٣٥ ، ٣٦ . (٣) البقرة : ٤٠ .

وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد تكون متناقضة لتحريم أمر كان حلالاً ، وتحليل أمر كان حراماً ، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله .

وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحيناً فى عبادة ، وحيناً فى معاملة ، ووقتاً فى ترغيب ، ووقتاً فى ترهيب ، وآونة فى بشارة، وآونة فى نذارة ، وطوراً فى أمر دنيا ، وطوراً فى أمر آخرة ، ومرة فى تكاليف آتية، ومرة فى أقاصيص ماضية . وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون ، والماء والنار ، والملاح والحادى ؟ وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك ، وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض ، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور ؟ .

فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لابد منه ، وأنه لا يكون القرآن بلاغياً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة، وتبين الأمر الموجب للارتباط ، فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون فى ذلك فوجده تكلفاً محضاً وتعسفاً بيناً انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة .

هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن فى المصحف ، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب ، وأيسر حظ من معرفته يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك ؟

ومن شك فى هذا — وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم — رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول ، المطلعين على حوادث النبوة ، فإنه ينثلج صدره ويزول عنه الريب بالنظر فى سورة من السور المتوسطة فضلاً عن المطولة ؛ لأنه لامحالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة ، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها، وما نزل فيها فى الترتيب ، بل يكفى المقصر أن يعلم أن أول مانزل: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾(١) ،وبعده : ﴿ **يأيها المدثر**﴾ (٢) ، ﴿ **يأيها المزمل**﴾(٣) . وينظر أين موضع هذه الآيات والسور فى ترتيب المصحف؟

وإذا كان الأمر هكذا ، فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً ، وتأخر ما أنزله الله متقدماً ، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة ، وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته ، وأحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات ، وإنفاق الساعات فى أمر لا يعود بنفع على فاعله ، ولا على من يقف

---

(١) العلق : ١.   (٢) المدثر: ١ .   (٣) المزمل : ١ .

عليه من الناس وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ماقاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاءاته ، أو إلى ما قاله شاعرمن الشعراء من القصائد التى تكون تارة مدحاً ، وأخرى هجاء ، وحيناً نسيبا ، وحيناً رثاء ، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدى إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه ، ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد ، والخطبة التى خطبها فى الحج ، والخطبة التى خطبها فى النكاح ونحو ذلك ،وناسب بين الإنشاء الكائن فى العزاء ، والإنشاء الكائن فى الهناء وما يشابه ذلك لعد هذا المتصدى لمثل هذا مصاباً فى عقله متلاعباً بأوقاته ، عابثاً بعمره الذى هو رأس ماله .

وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة ، وهو ركوب الأحموقة فى كلام البشر، فكيف تراه يكون فى كلام الله سبحانه الذى أعجزت بلاغته بلغاء العرب ، وأبكمت فصاحته عدنان وقحطان ؟

وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربى وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم فى الكلام ، وجرى به مجاريهم فى الخطاب .

وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون متخالفة ، وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين ، فضلاً عن المقامات ، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً وكذلك شاعرهم .

ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى تعثر فى ساحاتها كثير من المحققين ، وإنما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن؛ لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر ــ آدم عليه السلام ــ فإذا قال متكلف :كيف ناسب هذا ما قبله . . ؟

قلنا : لا كيف .

فدع عنك نهبا صيح فى حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل (١)

هذا ماقاله الشوكانى فى تناسب الآيات والسور ، وشرح فيه وجهة نظره ، وانتهى فى النهاية إلى عدم جدوى هذا الفن الذى سار فيه البقاعى ومن سبقه من العلماء .

وهذه النتيجة التى توصل إليها الشوكانى فى علم تناسب الآيات والسور قد سبقه إليها سلطان العلماء ــ العز بن عبد السلام (٢) ــ حيث قال : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر .

قال : ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض ، إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله فى

(١) راجع : فتح القدير سورة البقرة : آية رقم ٤٠ .
(٢) هو الإمام عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز ، ولد سنة ٥٧٧ هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ . راجع : ترجمة وافية له فى طبقات الشافعية ٥/ ٨٠ ــ ١٠٧ .

خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب ، كتصرف الملوك والحكام والمفتين ، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة ، وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض ، مع اختلافها فى نفسها واختلاف أوقاتها » .انتهى .

هذه هى وجهة نظر العالم الكبير العز بن عبد السلام ، حيث يرى أن التناسب بين الآيات والسور مركبٌ صعب ، ويكاد يكون من الأمور المتعسرة بل والمستحيلة .

وإذا رجعنا إلى الإمام بدر الدين الزركشى فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » نراه يؤيد هذا العلم ويطالب به ويقدم الأدلة على إمكانه من ذلك : « قلت: وهو مبنى على أن ترتيب السور توقيفى ، وهذا [هو] الراجح كما سيأتى ، وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ، ويظهر أخرى . كافتتاح سورة الأنعام بـ﴿الحمد ﴾ فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وكافتتاح سورة فاطر بـ﴿ الْحَمْدُ ﴾ (٢) أيضاً، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ (٣) .

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح . قال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) ،فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به . قال تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥) .

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة .

فذكر هنا فى مقابلة البخل ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (٦) ،أى الكثير، وفى مقابلة ترك الصلاة ﴿ فصل ﴾ أى دُمْ عليها، وفى مقابلة الرياء ﴿ لربك ﴾ أى لرضاه لا للناس ، وفى مقابلة منع الماعون ﴿ وانحر﴾ وأراد به: التصدق بلحم الأضاحى، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة.

وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح ، وسورة الكهف بالتحميد ؛ لأن التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد، يقال : سبحان الله والحمد لله (٧) .

هذه أهم الحجج التى ذكرها صاحب « البرهان فى علوم القرآن » ، ولا شك أن ما ذكره الشوكانى هو حق وصدق والنفس بفطرتها تميل إليه، وكذلك ما ذكره الزركشى ، لايقبل النقض بعد أن قدم الدليل عليه وصدق ربى فى قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٨) .

---

(١) الزمر: ٧٥ . (٢) فاطر : ١ . (٣) سبأ : ٥٤ .
(٤) الحديد : ١ . (٥) الواقعة : ٩٦ . (٦) الكوثر : ١ .
(٧) راجع : البرهان فى علوم القرآن ١/ ٣٨ ، ٣٩ . (٨) هود : ١١٨ .

٣ـ الشوكانى وموقفه من الإسرائيليات :

ما هى الإسرائيليات ؟ وما صلتها بكتب التراث الإسلامى بعامة ؟ وكتب التفسيرعلى وجه الخصوص ؟ أنعنى بها الأفكار والآراء التى جاءت عن طريق اليهود ؟ أم أن المقصود بها ما جاء عن طريق أهل الكتاب ، سواء أكان ذلك عن طريق اليهود أم النصارى ؟

الواقع أن الإسرائيليات إذا ذكرت تشمل ما جاء عن طريق الفكر اليهودى وما جاء عن طريق الفكر النصرانى ، وأطلق على الجميع لفظ: « الإسرائيليات » من باب التغليب للفكر اليهودى على الفكرالنصرانى ؛ لأن الأول هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه وذلك لكثرة علمائهم وظهور أمرهم وشدة اختلاطهم بجماعة المسلمين . يقول صاحب كتاب التفسير والمفسرون : « ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون من أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيئ فى التفسير ؛ ذلك لأن الأمر لم يقف على ماكان عليه فى عهد الصحابة ، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقاً وإن كذباً ، بل ودخل هذا النوع من التفسيركثير من القصص الخيالى المخترع مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها ، لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وفى الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات ، وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب ، وأخبار لا تصح .

كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لا يكاد يصح منها شىء إلى بعض من آمن من أهل الكتاب جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة » (١) .

ويعلل ابن خلدون الأسباب التى جعلت بعض المسلمين يستمعون إلى أهل الكتاب ويأخذون منهم الغث والسمين إلى « أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم ، وإنما غلب عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ــ وهم يسكنون البادية ــ ولاتحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم ، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة » (٢) .

وإذا كان ذلك كذلك، فما موقف الشوكانى من الإسرائيليات ؟ أتراه وقف على أضرارها ، وتبين ضلالها فعمل على تنقية كتابه منها ؟ أم أنه سار على نهج من سبقه من رجالات التفسير فكتب ما كتبوه ، ونقل عنهم خزعبلات الإسرائيليين ، وتفاهات الجاهلين ؟

إن الدكتور الغمارى ــ صاحب كتاب :« الإمام الشوكانى مفسراً » ــ يقول : « تفسير الشوكانى يمتاز عن غيره بقلة الإسرائيليات بل تكاد لا توجد فيه إلا للرد عليها » (٣) .

---

(١) راجع : التفسير والمفسرون ١/ ١٧٧ .
(٢) راجع :مقدمة ابن خلدون : ص٤٩٠ ، ٤٩١ .
(٣) راجع : الإمام الشوكانى مفسراً : ص ٢٧٩ .

ونحن نختلف مع الدكتور الغمارى فيما ذهب إليه ودليلنا على ذلك : « أن قصة هاروت وماروت والتى حشيت بها الكثير من كتب التفاسير والادعاء الذى ذكره عطاء عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ والذى قال فيه : كان ابن عمر إذا رأى الزهرة وسهيلا سبهما وشتمهما، ويقول :إن سهيلاً كان عشاراً باليمن يظلم الناس ، وأن الزهرة صاحبة هاروت وماروت». ذكره الشوكانى فى تفسيره (١) ، مرة أخرى ـ بالرغم ـ من نقد الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ لهذه القصة بقوله :

« فهذه القصة قصة ركيكة يشهد كل عقل سليم بنهاية ركاكتها » ثم يقول : « إن المرأة الفاجرة كيف يعقل أنها لما فجرت صعدت إلى السماء ؟ وجعلها الله تعالى كوكباً مضيئاً وعظم قدره بحيث أقسم به فى قوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ (٢) » (٣) .

ويقول القرطبى المتوفى سنة ٦٧٠هـ : « هذا كله ضعف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، ولا يصح منه شيء ، فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » . ثم يقول : « ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ، وفى الخبر أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة : زحل ، والمشترى ، وبهرام ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس، والقمر . وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤) ، فثبت أن الزهرة وسهيلاً قد كانا قبل خلق آدم » (٥) .

قال ذلك الفخر الرازى والقرطبى فى القرن السابع الهجرى ، ثم يأتى الشوكانى بعد خمسة قرون ليردد ما ردده بعض المفسرين السابقين ، ويعقب على ذلك بقوله : « وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى » (٦) ،ثم ذكرالحجج القوية التى ذكرها القرطبى آنفاً .

والسؤال : ألم يكن فى الإمكان تنقية تفسيره من مثل هذه الإسرائيليات ما دام من سبقه من المفسرين قد كفاه مؤنة الرد عليها ؟

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ (٧) ذكر الشوكانى فى تفسيره ما ذكره المفسرون قبله من تفسير «السكينة » بالإسرائيليات ، والتى لا طائل فيها .

(١) راجع : فتح القدير، سورة البقرة : آية رقم ١٠٢ .
(٢) التكوير : ١٥ ، ١٦ .
(٣) راجع : التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ٢/ ١٧٠ .
(٤) يس : ٤٠ .
(٥) راجع : تفسير القرطبى ٢/ ٥٢ .
(٦) راجع : فتح القدير، سورة البقرة : آية رقم ١٠٢ .
(٧) البقرة : ٢٤٨ .

ولقد رد ابن عطية فى تفسيره على هذه الإسرائيليات بقوله : « والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى»(١) .

ونفى القرطبى فى تفسيره كل هذه الإسرائيليات التى ذكرها المفسرون بشأن السكينة ، وخلص من ذلك إلى أن السكينة ما تنزل به الملائكة بإذن ربها على قلوب المؤمنين (٢) .

وكان يكفى الشوكانى هذه الردود ويعمل على تنقية تفسيره من كل هذه الخزعبلات التى حشيت بها الكثير والكثير من كتب التفاسير السابقة .

صحيح أنه قال : « وأقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقمأهم الله، فجاؤوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين » (٣) .

وإذا كان الشوكانى قد ردد ما جاء به رجالات التفسير السابقين عليه فأين ما قاله فى مقدمة كتابه ووعد به ، بأن تفسيره يحوى بدائع الفوائد ، مع زوائد فرائد ، وقواعد شرائد ؟

٤ ــ الشوكانى والأحاديث الضعيفة :

ما هو الحديث الضعيف فى عرف رجال الحديث ؟ أهو الحديث الذى سقط من سنده أحد الرواة ؟ أهو الحديث الذى لم ينقل عن العدول الثقات ؟ أهو الحديث الذى لم يسلم من الشذوذ والعلة ؟ أم أنه الذى تتحقق فيه هذه الأشياء مجتمعة ؟ وإذا كان ذلك كذلك أيجوز العمل به فى فضائل الأعمال ؟

إن جمهور العلماء يجوزون العمل به فى ذلك شريطة ألا يكون ضعفه شديدًا ، أو له أصل مشاهد يندرج تحته .

وهناك من الأئمة من ذهب إلى أن الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقًا لا فى الأحكام ، ولا فى فضائل الأعمال ، ومن هؤلاء العلماء : يحيى بن معين ت ٢٣٣ هـ ، ومحمد بن إسماعيل البخارى ت ٢٥٦ هـ ، ومسلم بن الحجاج ت ٢٦١ هـ، وعلى بن أحمد المعروف بابن حزم ت ٥٤٦ هـ .

وحجة هؤلاء أن الحديث الضعيف ليس بثابت ، بل الأغلب أنه ليس من كلام النبى ﷺ، فكيف نلزم عباد الله بما لم يثبت لنا أنه مما شرعه الله ؟

يقول جلال الدين محمد بن سعد الدوانى الشافعى ت ٩٠٨ هـ : « وفى العمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال إشكال ؛ لأن جواز العمل واستحبابه كلاهما من الأعمال الشرعية الخمسة، فإذا استحب العمل بمقتضى الحديث الضعيف كان ثبوته ــ أى ثبوت هذا الاستحباب ــ

(١) راجع : المحرر الوجيز.
(٢) راجع : تفسير القرطبى ٣/ ٢٤٩ .
(٣) راجع : فتح القدير ، سورة البقرة : آية رقم ٢٤٨.

بالحديث الضعيف ، وهذا ينافى ما تقرر من عدم ثبوت الأحكام بالأحاديث الضعيفة » (١) .

وقال ابن تيمية : « ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذى لا يحتج به ، فإن الاستحباب حكم شرعى ، فلا يثبت إلا بدليل شرعى ، ومن أخبر عن الله تعالى أنه يحب عملاً من غير دليل شرعى فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ، كما لو أثبت الإيجاب أو التحريم » (٢) .

ويقول الخطيب البغدادى فى الكفاية . « ولو عمل العالم بخبر من ليس هو عنده عدلاً لم يكن عدلاً يجوز الأخذ بقوله والرجوع إلى تعديله ؛ لأنه إذا احتملت أمانته أن يعمل بخبر من ليس بعدل عنده ، احتملت أمانته أن يزكى ويعدل من ليس بعدل » (٣) .

وإذا كان ذلك كذلك، فما موقف الشوكانى من الأحاديث الضعيفة ؟ يقول صاحب كتاب التفسير والمفسرون : « غير أنى آخذ عليه ــ كرجل من أهل الحديث ــ أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة أو الضعيفة ، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها ، فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٤)، وقوله فى الآية ٦٧ من سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . يذكر ماهو موضوع على ألسن الشيعة ولا ينبه على أنها موضوعة ، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة على ، من ذلك قوله :

« وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق عن ابن عباس قال : تصدق على بخاتم وهو راكع فقال النبى ﷺ للسائل : « من أعطاك هذا الخاتم ؟ » قال : ذاك الراكع . . ؟ فأنزل الله فيه : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله ﴾ ، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة ــ باتفاق أهل العلم ــ ولا ينبه على ما فيها . وفى الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : نزلت هذه الآية: ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم فى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ويروى عن ابن مسعود أنه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ :« يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ــ إن عليًا مولى المؤمنين ــ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » ، ثم يمر على هاتين الروايتين بدون أن يعترضهما بشىء أصلاً » (٥) .

ويتلمس الدكتور الغمارى الأعذار للإمام الشوكانى قائلاً : « ولعل الشوكانى قد أغض عن نقد الروايات التى وردت فى على ــ رضى الله عنه ــ لأنه فى الأصل هادوىٌّ وكان المجتمع لا

(١) راجع : قواعد التحديث : ص ٩٩ .
(٢) راجع : مجموع الفتاوى ١٨ / ٦٥ .
(٣) راجع : الكفاية : ص١٥٥ .
(٤) المائدة : ٥٥ .
(٥) راجع : التفسير والمفسرون ٢ / ٢٥٠ .

يسمح له بذلك لما كان يواجه من المشاكل التى طالما بث شكواه بها لكل من يثق به » [١] .

ولكن الدكتور الغمارى الذى اعتذر عن الشوكانى فى الروايات الخاصة بالإمام على ــ رضى الله عنه ــ يقول فى موضع آخر : « لقد وجدت بعض المآخذ ، ولا ينقص ذلك من قيمة تفسيره العظيم » . ثم يذكر بعضها قائلاً :

« ومنها سكوته عن تفسير مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ [٢] ، قال : أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أعلم ما لا تعلمون** ﴾ ، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها . ويمر الشوكانى ويسكت على هذا التفسير مع أن الله تعالى يقول : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [٣] » [٤] .

وإبليس من جملة المخلوقين لعبادته لا لمعصيته، والحديث من طريق عبد الوهاب بن مجاهد ، وهو ضعيف ، ومعناه باطل مخالف للقرآن الكريم ، وفى رواية أخرى عند الطبرى: حدثنى ابن المثنى ، حدثنا حجاج بن المنهال قال : حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعت عبد الوهاب بن مجاهد يحدث عن أبيه فى قوله : ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ ، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها ، وعلم من آدم الطاعة وخلقه لها [٥].

قال الشيخ أحمد شاكر : وأما هذا الأثر بزيادة : وعلم من آدم الطاعة . فلم نجده فى موضع آخر ، وقد روى الأثر الأول سفيان الثورى عن مجاهد ولم يروه إلا من طريق ابنه عبد الوهاب . قال سفيان : عبد الوهاب كذاب ، وقال أحمد : لم يسمع من أبيه ، ليس بشىء ، ضعيف الحديث . وضعفه ابن معين وأبو حاتم [٦] .

وترك النقد من الشوكانى مع معرفته مما ينتقد [لا يجوز] ، لا سيما وأنه ألف فى الموضوعات كتابًا أسماه : «الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » [٧] .

ثم ماذا ؟ لا شك أن هناك بعض الهنات القليلة الموجودة فى تفسير الشوكانى ، ولكن مع وجود هذه الأشياء، فلا شك أن الشوكانى كان فارس عصره ، وعملاق زمانه ، بما كتبه فى هذا التفسير وبما سطره وصنفه فى الفنون المختلفة ، الذى يجعله فى صف واحد مع أجلاء علماء التفسير أمثال : الطبرى ، وابن كثير ، وابن عطية ، والقرطبى ، والفخر الرازى .

---

(١) راجع : البدر الطالع ٢ / ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، والتقصار : ص ٦٨ ــ ٧٠ نقلاً من الإمام الشوكانى مفسرًا للدكتور محمد حسن الغمارى .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) الذاريات : ٥٦ .

(٤) فتح القدير ، سورة البقرة : آية رقم ٣٠، نقلاً من الإمام الشوكانى مفسرًا .

(٥) راجع : تفسير مجاهد ١ / ٤٦ ، والطبرى ١ / ٤٧٨ ، والدر المنثور ١ / ٤٦ .

(٦) راجع : الميزان ٢ / ٦٨٢ ، ٦٨٣ .

(٧) راجع : تفسير الطبرى ١ / ٤٧٨ .

عملنا فى هذا السفر الكبير

هل يستطيع الإنسان ـــ فى عالمنا المعاصر ـــ أن يعبر عن ذاته ، أو يقدم وصفًا لبعض أعماله أمام الآخرين وفيهم المادح والقادح ؟

وإن كان فى مقدوره ذلك أتراه يلتزم الدقة والموضوعية فيما سطرته براعته من قول أو يقدمه من عمل ؟

إن من أصعب الأشياء على النفس المؤمنة أن يقف صاحبها ليتكلم عن مجهوداتها أو يستعرض عملاً من أعمالها . وخصوصًا إذا كانت هذه الأعمال يبغى بها وجه الله تعالى ويرجوه فى يوم قال عنه : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (١) ، ويخافه فى يوم قال عنه : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ (٢) .

إذا كان ذلك كذلك ، فأقول : إن العمل فى كتب التراث عمل شاق ومرهق ، ترى فيه المسلك الوعر والطرق المتشعبة . والسلوك فى دروبه يحتاج إلى الكثير من تقى ذوى الإيمان الخالص الذى قال عنه الرسول ﷺ : « التقى ملجم » (٣) ، ويحتاج إلى شفافية ذوى البصائر التى قال عنها الرسول ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (٤) ، وفى نفس الوقت: يحتاج إلى همم الرجال، وصلابة الأبطال،وصبر الصابرين وعزيمة المنقبين الباحثين.

ولا شك أن الأمر تكون أعباؤه أكبر ، ومسؤولياته أضخم ، إذا كان العمل فى كتب التراث يتعلق بتفسير كتاب الله تعالى ، أو بسنة الرسول ﷺ .

وكتاب فتح القدير للإمام الشوكانى فى تفسير القرآن الكريم يعد من صفوة كتب التراث التى تفخر بها الأمة الإسلامية ، ولقد كتبه صاحبه بعد سياحة متأنية فى كتاب الله تعالى استغرقت عشرات السنوات من عمره المديد ، وأيضاً بعد دراسة فاحصة متعمقة لسنة الرسول ﷺ ، ثم نخله للمكتبة الإسلامية بكل علومها وفنونها ، ومعايشتها معايشة كاملة .

أضف إلى ذلك عقلاً ألمعيًا وذهنًا متفتحًا ، وموهبة من الله تعالى محلقة كانت عونه الأول فى إنجاز هذا العمل الكبير.

هذا عن الكتاب ، أما عن بداية عملى فيه ، فقد مرت علىَّ نكبات قاسية مؤلمة تذهب بلب الحليم .

وليل من الأحداث ممتد وداجٍ ، عايشته معايشة كاملة حتى أننى تصورت ـــ فى لحظة من

---

(١) الكهف : ٤٩ . (٢) الطارق : ٩ ، ١٠ . (٣) راجع : تفسير القرطبى .

(٤) رواه الطبرانى والترمذى من حديث أبى أمامة وأخرجه الترمذى أيضًا من حديث أبى سعيد ، وقال النجم : «رواه البخارى فى التاريخ والترمذى والعسكرى وابن جرير » .

اللحظات ــ أنه ليس له آخر. واتهامات باطلة وأقاويل مفتراة حاصرتنى من كل جانب من بعض أدعياء العلم وتجار المبادئ الزائفة الذين عبر عنهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (١) ولما لم تكن هناك من وسيلة للخروج من هذا الليل المظلم . فلقد لزمت دارى وأغلقت علىَّ بابى ، وأخذت نفسى بقول الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٢) .

وعكفت على كتاب الله تعالى أستلهم الرشد والسداد فى آياته ، وأطلب من ربى ــ من خلال تلاوته ــ الهداية والتوفيق .

وفى غمرة هذا كله ، وقعت يدى على هذا الكتاب « درة كتب التفاسير » واللمظة المضيئة على جهة التاريخ من تراثنا العملاق « فتح القدير » ، ومن خلال مطالعتى له ــ وترددى الكثير عليه ــ أحسست أن هذا الكتاب فى حاجة إلى عمل وجهد ، وإلى صبر وأناة ، حتى يمكن تنقيته من شوائب النساخ ، ومن بعض المآخذ التى فرضتها على مؤلفه طبيعة العصر ، وجمود الحركة العلمية ، وبعض الاعتبارات السياسية والمذهبية التى كانت تواكب الحياة فى عصر المؤلــف .

ثم أراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يقشع عنا الغمة ، ويفرج الكربة ، ويرد عن عبده كيد الكائدين ويبطل تدبير الحاقدين ، ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ (٣) ، عندها كان القلم يضع اللمسات الأخيرة فى هذه الموسوعة « المعلمة » فهل يأتى الخير من الشر؟ ولم لا..؟ « لقد قال مكحول : سمعت ابن عمر يقول: إن الرجل ليستخير الله تعالى فيخار له فيسخط على ربه ــ عز وجل ــ فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خيرله » .

فمن يدرى فلعل وراء المكروه خيرًا ، ووراء المحبوب شرًا ، إن العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذى يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئًا ، ولقد قال تعالى فى ذلك : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، وقال أيضًا : ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(٥) ، وفى هذا المعنى قال أبو سعيد الضرير :

رُبَّ أمر تتقيــه ... جرَّ أمرًا ترتضيه

خفى المحبوب منه ... وبدا المكروه فيه

ثم ماذا ؟

أولاً : لقد كان جل اهتمامى ــ بعد مراجعة النسخ المخطوطة والمطبوعة ــ الأحاديث والآثار التى جاءت فى هذا الكتاب.

(١) الأنعام : ١١٢ . (٢) الأنعام : ٩١ . (٣) البروج : ٢٠ .
(٤) البقرة : ٢١٦ . (٥) النساء : ١٩ .

فعملت على تخريج الأحاديث والآثار ، واقتصرت على القدر الضرورى فى ذلك ، تفاديا لتطويل الكتاب وإثقاله بالحواشى .

ولكن الناشر ـ جزاه الله خيرا ـ رغب أن يتم تخريج جميع الأحاديث وكذلك الآثار ـ فيما يتعلق منها بالناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والغيبيات ـ مهما كلفه ذلك من نفقة ووقت، فعهدت إلى لجنة التحقيق والبحث العلمى بدار الوفاء للقيام بهذا الجهد ، وكانت خطة العمل كالآتى :

١ ـ الأحاديث أو الآثار الموجودة فى الصحيحين للبخارى ومسلم أو أحدهما، فيكتفى ببيان مكانها منهما أو من أحدهما ؛ لأن المقصود الاطمئنان إلى درجة الحديث ، وذلك حاصل بعزوه إليهما أو إلى أحدهما .

٢ ـ وأما الأحاديث أو الآثار التى لا توجد فى الصحيحين ولم يشر المؤلف إلى درجتها من الصحة أو الضعف ، فيتم تخريجها ، والإحالة إلى المراجع التى توجد فيها إلا ما تعذر العثور عليه مع ذكر أقوال العلماء فى درجة الحديث إن وجدت .

وقد روعى عند العزو أو التخريج من الصحيحين وغيرهما ما يلى :

أ ـ مراجع التخريج المرقمة اكتفى فيها بذكر اسم الكتاب ورقم الحديث .

ب ـ وغير المرقمة اكتفى بذكر اسم الكتاب ـ إن وجد ـ ثم الإحالة إلى الجزء والصفحة .

٣ ـ وبالنسبة للأحاديث الضعيفة أو المنكرة ، اكتفى بالإشارة إليها إشارة عابرة فى الهامش ، وقد تكلمنا عليها فى المقدمة، مع التماس بعض الأعذار للشوكانى .

ثانيا : اهتممت اهتماما كبيرا بضبط الكلمات التى أرى أنها مظنة التحريف أو الخطأ عند النطق بها ، مع وضع علامات الترقيم كاملة ، والفصل بين العبارات والجمل المنقولة بحيث يستقل كل كلام عن غيره .

وتحقيقا لهذه الفائدة وضعنا الآيات القرآنية بين هاتين العلامتين ﴿ ﴾ ، ووضعنا القراءات وكذلك الأحاديث النبوية والآثار بين هاتين العلامتين « » ، والآيات التى استشهد بها تم نسبتها إلى سورها وترقيمها بين معقوفتين .

ثالثا : الأبيات الشعرية التى استشهد بها المؤلف تم ضبطها بالشكل ونسبت إلى قائلها إذا لم تكن منسوبة عن طريق المؤلف ، وقد أشرنا فى الهامش إلى مواضعها التى توجد فيها ، وقمنا بشرح الكلمات الغامضة فى أبيات الشعر ، وذلك بالاستعانة ببعض المراجع اللغوية مثل الصحاح للجوهرى أو لسان العرب لابن منظور .

رابعا : تم ترجمة الأعلام ترجمة وافية ، وبخاصة الأعلام التى لها باع فى علوم القرآن ، وأشرنا فى الهامش إلى المراجع التى أخذنا منها الترجمة ، سواء أكانت هذه الأعلام من

الشعراء أم المفكرين أم رجال الفقه والأصول ، مع تصحيح الأسماء من أوثق المصادر إن كان فيها بعض التحريف .

خامسا : كانت لنا بعض التعليقات فى الهامش ، إما تعجبًا من أثر ضعيف ، أو ورود بعض الإسرائيليات التى نقلها الشوكانى من كتب التفاسير السابقة ، ولم يعلق على بعضها بالقبول أو الرفض ، أو الإشارة إلى بعض النصوص للمفسرين السابقين .

سادسا : عهدنا إلى لجنة التحقيق والبحث العلمى بدار الوفاء للقيام بإعداد مجموعة من الفهارس العلمية اللازمة لتكون عونا للقارئ فى هذه الموسوعة الكبيرة ، وذلك بالعودة إليها لتحقيق طلبته .

سابعا : أثبتنا القرآن الكريم طبق رسم المصحف العثمانى على قراءة حفص ، وفى التفسير اعتمد الإمام الشوكانى قراءة نافع .

وبعد : يطيب لى أن أختم هذه المقدمة بما سبق أن قلته فى مقدمة كتاب « الفصل فى الملل والنحل » عند تحقيقنا له :

اللهم إنا نبرأ إليك من الحول والطول ، ونسألك التوفيق لما ترضاه من العمل والقول ، ونعوذ بك أن نتكلف ما لا نحسن ، أو نقول ما لا نعلم ، أو نمارى فى الحق ، أو نجادل عن الباطل ، أو نتخذ العلم صناعة ، أو الدين بضاعة .

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

غـــرة رمضـــــان ١٤١٢ هـ

٤ مـــن مـــارس ١٩٩٢ م

أ.د . عبد الرحمن عميرة

(١) البقرة : ٢٨٦ . (٢) الحشر : ١٠ .

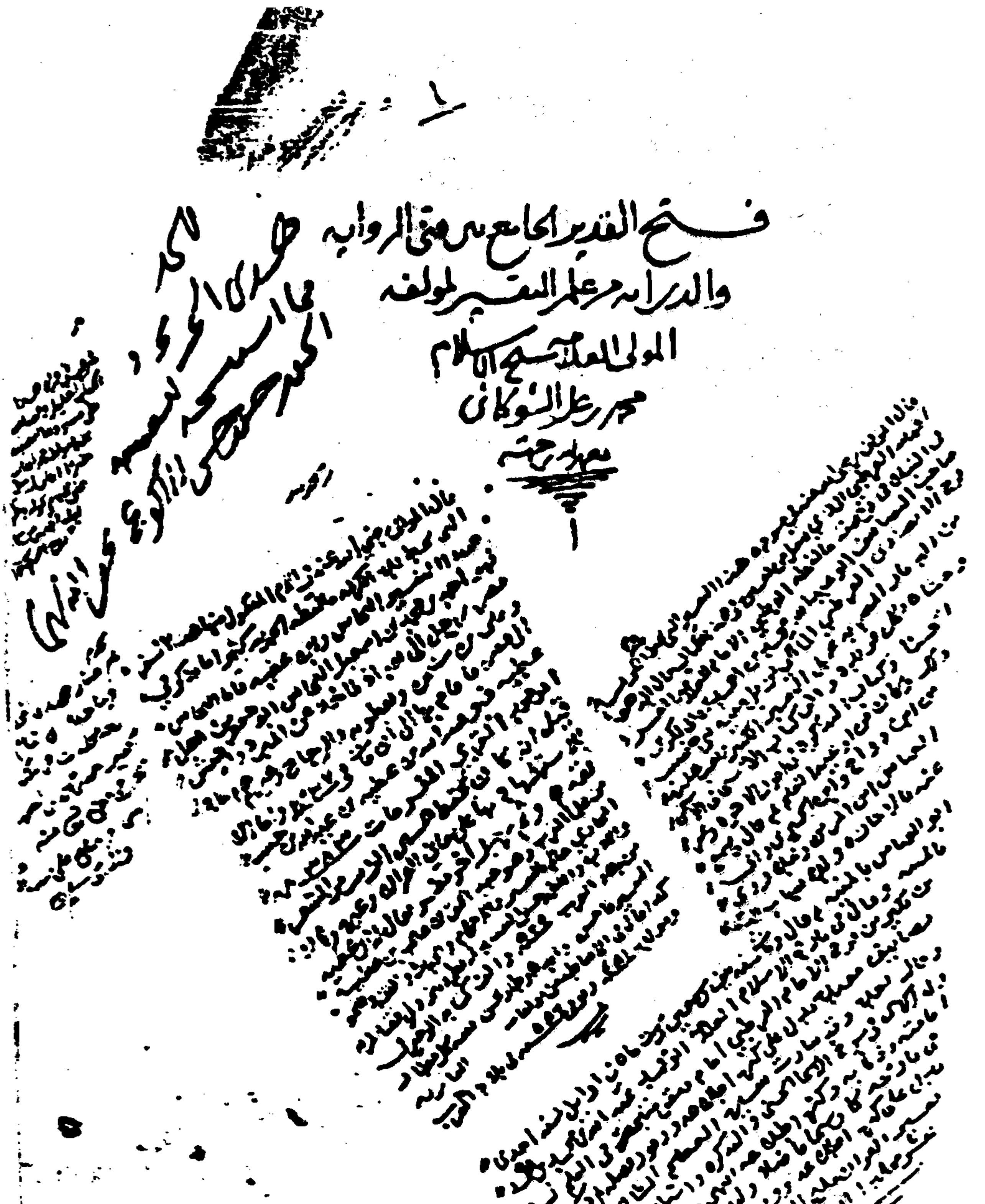
فتح القدير الجامع بين فني الرواية
والدراية من علم التفسير لمؤلفه
المولى العلامة شيخ الإسلام
محمد بن علي الشوكاني

طرة مخطوطة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل كتابه المبين كافلا ببيان الأحكام
شاملا لما شرعه لعباده من الحلال والحرام ومرجعا للأعلام عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام و
تخالف الكلام قاطعا لكل خصام شافيا لعلل الصدور مجليا لما عرض من الأوهام فهو العروة الوثقى التي من تمسك بها فاز
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
من الإخلال [illegible] والصلاة والسلام على من نزل إليه الروح الأمين بكلام رب العالمين
محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين [illegible] وبعد فإن أشرف
العلوم على الإطلاق وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق وأرفعها قدرا بالاتفاق هو علم التفسير
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذي وحسنه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الصفحة الأولى من مخطوطة دار الكتب المصرية

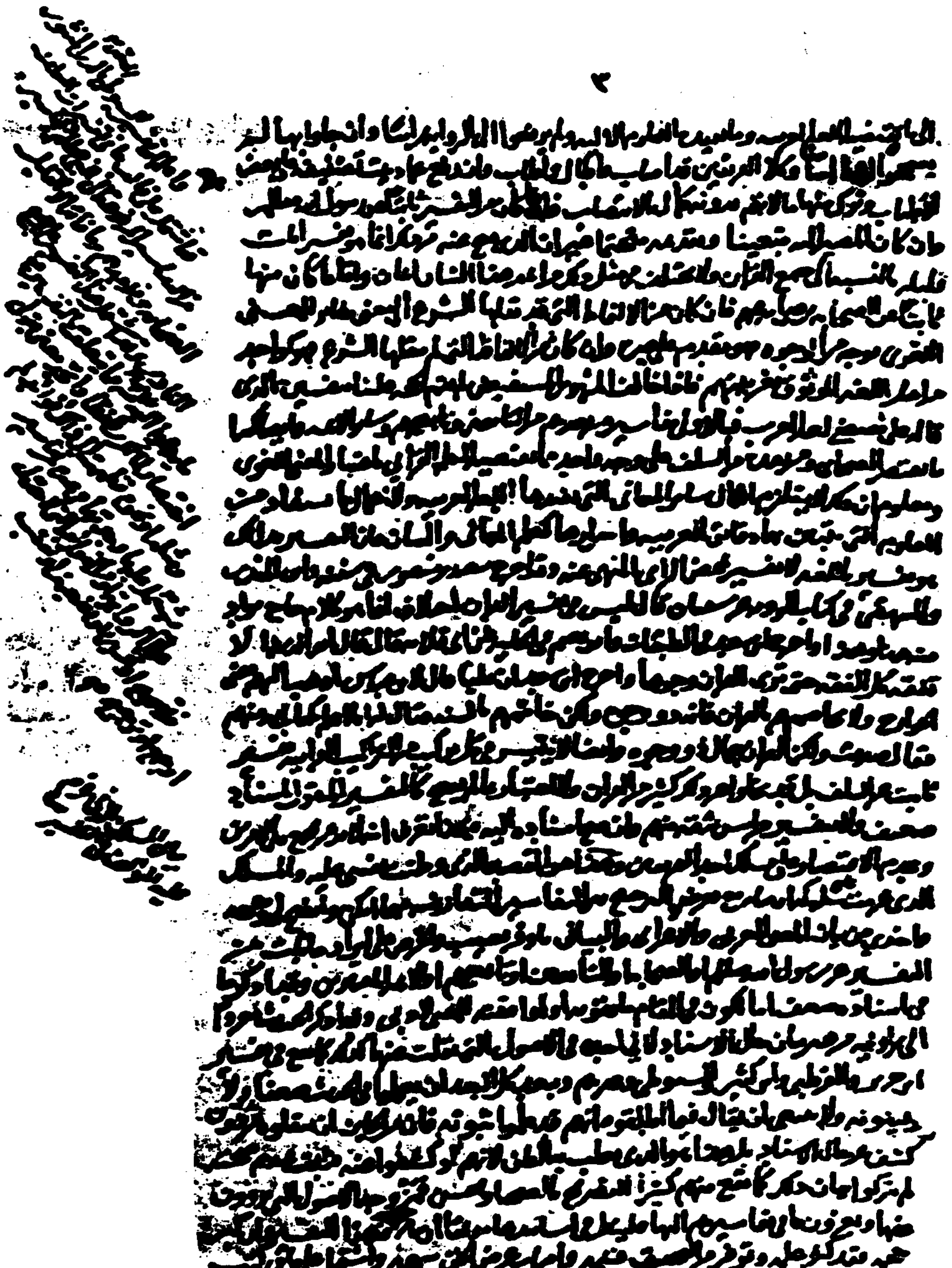

الصفحة الثانية من مخطوطة دار الكتب المصرية

للناس قال الرازي وكأن القوم من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله في صدور الناس
لأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنساناً والإنسان أيضاً يسمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان
واقعاً على الجنس والنوع بالاشتراك والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن
ما روي أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم من أنتم فقالوا ناس من الجن وأيضاً قد سماهم الله رجالاً في قوله
وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن وقيل يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من
الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس كأنه استعاذ بربه من ذلك
الشيطان الواحد ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس وقيل المراد بالناس الناسي وسقطت
الياء كسقوطها في قوله يوم يدع الداع ثم بين بالجنة والناس لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب
مبتلى بالنسيان وأحسن من هذا أن يكون قوله والناس معطوفاً على الوسواس أي من شر
الوسواس ومن شر الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس وقال الحسن أما شيطان الجن
فيوسوس في صدور الناس وأما شيطان الإنس فيأتي علانية وقال قتادة إن من الجن شياطين
وإن من الإنس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والإنس وقيل إن إبليس يوسوس في صدور
الجن كما يوسوس في صدور الإنس وواحد الجنة جني كما أن واحد الإنس إنسي والقول
الأول هو الأرجح لعدم الأولى وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى
الذي قدمنا ويكون هذا البيان بذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفع عنه
شرهما في الدنيا والآخرة **وقد** أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله الوسواس الخناس قال
مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه فإن ذكر الله خنس وإن
سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين
والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله
خنس وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر
عن ابن عباس في قوله الوسواس الخناس قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها
وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه
وابن مردويه والضياء في المختارة والبيهقي عنه قال ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس
فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس فذلك قوله الوسواس الخناس وقد ورد في معنى
هذا غير ما ذكر وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان وإن لم يكن على طريق الاستعاذة ولذكر الله
سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة وإلى هنا انتهى هذا التفسير
المبارك قال الإمام مؤلفه محمد بن علي الشوكاني غفر الله له ذنوبه وكان الفراغ من تحريره
يوم السبت لعله الثاني من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة
النبوية اللهم كما مننت علي بإكمال هذا التفسير وأعنتني على تحصيله وتفضلت علي بالفراغ منه
فامنن علي بقبوله واجعله لي ذخيرة خير عندك وأجزل لي المثوبة بالإثابة من التعب والنصب في تحريره
وتقريره وانفع به من شئت من عبادك المتقدم لي الانتفاع به بعد موتي ما بعدنا من المقصد الجليل
من التصنيف واجعله خالصاً لك وتجاوز عني إذا خطرت لي خواطر السوء ما قصدت أنه لك الخالص
واحفظني من الإنطاق بما لم أدرك فإني لم أقصد في جميع الحالات إلا إصابة الحق وموافقة ما يرضاه
فإن أخطأت فعاملني بغفران الخطيئات وسبل ستر الله على الهفوات يا مادي البركات وأحمدك لا
أحصي حمداً لك وأشكرك لا أحصي شكراً لك كما أثنيت على نفسك وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وآله

وكان الفراغ من رقم هذه النسخة يوم الأربع خامس
شهر القعدة الحرام سنة ١٢٩٠ ... أحمد
كما يليق ... وآله وصحبه وسلم
تسليما

الصفحة الأخيرة من مخطوطة دار الكتب المصرية

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يروى المفتقر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى محمد بن محمد بن يحيى زِبَّارة الحسنى اليمنى غفر الله له وللمؤمنين للقاضى الحافظ الشهير محمد بن على بن محمد الشوكانى الصنعانى ، المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية ، عن المولى الجهبذ الكبير سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد الله حميد الدين أبقاه الله تعالى ، عن السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله أبى طالب الحسنى اليمنى ، المتوفى سنة ١٣٠٩ ، عن القاضى الحافظ أحمد بن محمد بن على الشوكانى ، المتوفى سنة١٢٨١ ، عن أبيه المؤلف ، قال رحمه الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كتابه المبين كافلاً ببيان الأحكام ، شاملاً لما شرعه لعباده من الحلال والحرام ، مرجعًا للأعلام عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام وتخالف الكلام ، قاطعًا للخصام ، شافيًا للسقام ، مرهمًا للأوهام . فهو العروة الوثقى التى من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم ، والجادّة الواضحة التى من سلكها فقد هدى إلى الصراط المستقيم . فأىّ عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم ، وأىّ لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم . كلا والله إن بلاغات البلغاء المصاقع ، وفصاحات الفصحاء البواقع ، وإن طالت ذيولها ، وسالت سيولها ، واستنت بميادينها خيولها ، تتقاصر عن الوفاء بأوصافه ، وتتصاغر عن التشبث بأدنى أطرافه ، فيعود جيدها عنه عاطلاً ، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً ، فهو كلام من لا تحيط به العقول علمًا ، ولا تدرك كنهه الطباع البشرية فهما ، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام ، وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال والإعظام . والصلاة والسلام على من نزل إليه الروح الأمين ، بكلام ربّ العالمين ، محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين ، وعلى آله المطهرين وصحبه المكرّمين .

وبعد : فإن أشرف العلوم على الإطلاق ، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق ، وأرفعها قدرًا بالاتفاق ، هو علم التفسير لكلام القوىّ القدير ، إذا كان على الوجه المعتبر فى الورود والصدر ، غيرمشوب بشىء من التفسير بالرأى الذى هو من أعظم الخطر، وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان ، قريبة إلى الأفهام والأذهان ، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق ، ويدرى بها من يميز بين كلام البشر ، وكلام خالق القوى والقدر ، فمن فهم هذا استغنى على التطويل ، ومن لم يفهمه فليس بمتأهل للتحصيل ، ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » (١).

(١) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٦) .

ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان ، العالية البنيان ، المرتفعة المكان ، رغبت إلى الدخول من أبوابه ، ونشطت إلى القعود فى محرابه ، والكون من أحزابه ، ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة ، وها أنا أوضح لك منارها ، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول :

إن غالب المفسرين تفرّقوا فريقين ، وسلكوا طريقين : الفريق الأول : اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرّد الرواية ، وقنعوا برفع هذه الراية . والفريق الآخر: جرّدوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية ، وما تفيده العلوم الآلية ، ولم يرفعوا إلى الرواية رأسًا، وإن جاؤوا بها لم يصححوا لها أساسًا ، وكلا الفريقين قد أصاب ، وأطال وأطاب ، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب ، وترك منها مالا يتم بدونه كمال الانتصاب ، فإن ما كان من التفسير ثابتًا عن رسول الله ﷺ ، كان المصير إليه متعينًا ، وتقديمه متحتمًا، غير أن الذى صحّ عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن ، ولا يختلف فى مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان ، وأما ما كان منها ثابتًا عن الصحابة رضى الله عنهم ، فإن كان من الألفاظ التى قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوى بوجه من الوجوه فهو مقدّم على غيره ، وإن كان من الألفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم . فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب ، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة . وأيضًا كثيرًا ما يقتصر الصحابى ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى ، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية ، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التى تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعانى والبيان ، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة ، لا تفسير بمحض الرأى المنهىّ عنه . وقد أخرج سعيد بن منصور فى سننه ، وابن المنذر والبيهقى فى كتاب الرؤية عن سفيان قال : ليس فى تفسير القرآن اختلاف ، إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا . وأخرج ابن سعد فى الطبقات وأبو نعيم فى الحلية عن أبى قلابة قال : قال أبو الدرداء : لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها . وأخرج ابن سعد أن عليًا قال لابن عباس : اذهب إليهم – يعنى الخوارج – ولا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ، ولكن خاصمهم بالسنة ؛ فقال له : أنا أعلم بكتاب الله منهم ، فقال : صدقت ، ولكن القرآن حمال ذو وجوه. وأيضًا لا يتيسر فى كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف ، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن ، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف ، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صحّ إسناده إليه . وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين ، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين ، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه ، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرّضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه ، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب ، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ ،

أوالصحابة أو التابعين أو تابعيهم ، أو الأئمة المعتبرين . وقد أذكر ما فى إسناده ضعف ، إما لكون فى المقام ما يقوّيه ، أو لموافقته للمعنى العربى ، وقد أذكر الحديث معزوًا إلى راويه من غير بيان حال الإسناد ؛ لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى وغيرهم ، ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفًا ولا يبينونه ، ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه إنهم قد علموا ثبوته ، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد ، بل هذا هو الذى يغلب به الظن ؛ لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك ، كما يقع منهم كثير التصريح بالصحة أو الحسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها فلينظر فى أسانيدها موفقًا إن شاء الله .

واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بـ « الدّر المنثور » قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ ، وتفاسير الصحابة ومن بعدهم ، وما فاته إلا القليل النادر . وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير ، مع اختصار لما تكرّر لفظًا واتحد معنى بقولى : ومثله أو نحوه وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية ، أو من الفوائد التى لاحت لى من تصحيح أو تحسين أو تضعيف ، أو تعقب أو جمع أو ترجيح .

فهذا التفسير وإن كبر حجمه ، فقد كثر علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحق سهمه ، واشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فرائد وقواعد شوارد ، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا ، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين ، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لبّ اللباب، وعجب العجاب وذخيرة الطلاب ، ونهاية مأرب الألباب . وقد سميته : « **فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير** » .

مستمدًا من الله سبحانه بلوغ الغاية ، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية ، راجيًا منه ــ جلّ جلاله ــ أن يديم به الانتفاع، ويجعله من الذخائر التى ليس لها انقطاع .

واعلم أن الأحاديث فى فضائل القرآن كثيرة جدًا ، ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به فى الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه ، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته .

قال القرطبى : ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه ، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو ؛ فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه ، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه ، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا ، وينبغى له أن يعرف

المكىّ من المدنىّ ، ليفرّق بين ما خاطب الله به عباده فى أوّل الإسلام ، وما ندبهم إليه فى آخر الإسلام ، وما فرض فى أوّل الإسلام ، وما زاد عليهم من الفرائض فى آخره ، فالمدنى هو الناسخ للمكى فى أكثر القرآن .

وقال أيضا : قال علماؤنا : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ، فقال له رجل : جعلت فداك ، تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ؟ فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد** ﴾ [القصص : ٨٥] . وقال مجاهد : أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيمن نزلت وما يعنى بها . وقال الشعبى : رحل مسروق فى تفسير آية إلى البصرة، فقيل له إن الذى يفسرها رحل إلى الشام ، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجلّ: ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله** ﴾ [النساء : ١٠٠] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته ، قال ابن عبد البرّ : هو ضميرة بن حبيب . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ما يمنعنى إلا مهابته ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب ، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءَهم بمصباح فقرؤوا ما فى الكتاب . وذكر ابن أبى الحوارى أن فضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم : لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، فقالوا : قد تعلمنا القرآن ، فقال : إن فى تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم ، فقالوا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه ومتشابهه وناسخه من منسوخه ، فإذا عرفتم استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة . وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتى عليه الحصر .

تفسير سورة الفاتحة

معنى الفاتحة فى الأصل :

أولُ ما مِنْ شأنه أن يُفْتتح به ، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام ، والتاء : للنقل من الوصفية إلى الاسمية ، فسميت هذه السورة « فاتحة الكتاب » لكونه افتُتح بها ، إذ هى أول ما يكتبه الكاتب من المصحف ، وأول ما يتلوه التالى من الكتاب العزيز ، وإن لم تكن أولَ ما نزل من القرآن ، وقد اشتهرت هذه السورة الشريفة بهذا الاسم فى أيام النبوة .

قيل : هى مكية ، وقيل : مدنية .

وقد أخرج الواحدى فى أسباب النزول والثعلبى فى تفسيره عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : نزلتْ فاتحةُ الكتابِ بمكة من كنزٍ تحت العرش [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى دلائل النبوة ، والثعلبى والواحدى من حديث عمرو بن شُرَحْبيل ، أن رسول الله ﷺ شكا إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحى ، فذهبت به إلى ورقة ، فأخبره فقال له : « إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداءً خلفى : يا محمدُ ، يا محمدُ ، يا محمدُ ، فأنطلق هاربًا فى الأرض» فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبتْ حتى تسمعَ ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى ، فلما خلا ناداه : يا محمدُ قل : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ حتى بلغ ﴿ **ولا الضالين** ﴾ الحديث [(٢)] . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن رجل من بنى سلمة ، قال : لما أسلمت فتيان بنى سلمة ، وأسلم ولدُ عمرو بن الجَمُوح ، قالت امرأة عمرو له : هل لك أن تسمع من ابنك ما روى عنه ؟ فسأله ، فقرأ عليه : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ، وكان ذلك قبل الهجرة [(٣)] .وأخرج أبو بكر بن الأنبارى فى المصاحف عن عبادة ، قال : فاتحة الكتاب نزلت بمكة . فهذا جملة ما استدل به من قال : إنها نزلت بمكة .

واستدل من قال : إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف ، وأبو سعيد بن الأعرابى فى معجمه، والطبرانى فى الأوسط من طريق مجاهد عن أبى هريرة : رنَّ[(٤)] إبليس حين أُنزلت فاتحة الكتاب . وأُنزِلت بالمدينة [(٥)] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ،

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٨٤٠٤) والبيهقى فى الدلائل ٢/ ١٥٨ وقال :« هذا منقطع، فإن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ و ﴿ **يأيها المدثر** ﴾ والله أعلم ». وقال ابن كثير فى البداية ٣/ ٩ بعد أن عزاه لأبى نعيم والبيهقى : « وهو مرسل، وفيه غرابة ، وهو كون الفاتحة أول ما نزل » وعمرو بن شرحبيل تابعى .

(٣) وحديث بدء الوحى وأول ما نزل أخرجه البخارى فى أول الصحيح (٣) بسياق آخر. القصة فى الدلائل لأبى نعيم ص٣١١ (٢٢٨) وليس فيها أن ذلك كان قبل الهجرة ، فلعل ذلك من كلام الشوكانى ؛ إذ من المعلوم أن معاذ بن عمرٍو بن الجموح كان ممن بايع بيعة العقبة ، وذلك قبل الهجرة .

(٤) رنَّ الرجل يَرِنُ رنينا : صاح باكيًا ، ورنَّ القوس : جعلها ترن ، والرنة: الصوت ، والرنين : الصوت مع البكاء .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣١٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط شبيه المرفوع ، ورجاله رجال الصحيح » ، وعند ابن أبى شيبة ١٠/ ٥٢٢ (١٠١٨٨) : « أنزلت فاتحة الكتاب بالمدينة ».

وعبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الحلية وغيرهم من طرق عن مجاهد ، قال : نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة .

وقيل : إنها نزلت مرتين ، مرة بمكة ، ومرة بالمدينة ، جمعًا بين هذه الروايات .

وتسمى « أم الكتاب » ، قال البخارى فى أول التفسير : وسميت أم الكتاب ؛ لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة (١) . وأخرج ابن الضريس (٢) فى فضائل القرآن عن أيوب عن محمد بن سيرين كان يكره أن يقول : أم الكتاب ، ويقول : قال الله تعالى : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد : ٣٩] ولكن يقول : فاتحة الكتاب .

ويقال لها : الفاتحة لأنها يفتتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام.

قال ابن كثير فى تفسيره : وصح تسميتها بالسبع المثانى ، قالوا : لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة .

وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ ؛ قال لأم القرآن :« هى أم القرآن ، وهى السبع المثانى ، وهى القرآن العظيم » (٣) . وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى هريرة أيضا عن رسول الله ﷺ ؛ قال : « هى أم القرآن ، وهى فاتحة الكتاب ، وهى السبع المثانى»(٤) . وأخرج نحوه ابن مردويه فى تفسيره والدارقطنى من حديثه، وقال : كلهم ثقات(٥) .

وروى البيهقى عن على وابن عباس وأبى هريرة ، أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ سبعا من المثانى ﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة .

ومن جملة أسمائها كما حكاه فى الكشاف (٦) : سورة الكنز ، والوافية ، وسورة الحمد ، وسورة الصلاة . وقد أخرج الثعلبى أن سفيان بن عيينة كان يسمى فاتحة الكتاب : الواقية . وأخرج الثعلبى أيضا عن عبد الله بن يحيى بن أبى كثير ، أنه سأله سائل عن قراءة الفاتحة خلف الإمام . فقال : عن الكافية تسأل ؟ قال السائل : وما الكافية ؟ قال : الفاتحة ، أما علمت أنها تكفى عن سواها ، ولا يكفى سواها عنها ؟ وأخرج أيضا عن الشعبى أن رجلا اشتكى إليه وجع الخاصرة(٧)، فقال : عليك بأساس القرآن ، قال : وما أساس القرآن ؟ قال :

---

(١) الباب (١) باب : ما جاء فى فاتحة الكتاب ، فى كتاب التفسير ، فتح البارى ٨/ ١٥٥.

(٢) هو محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس ، البجلى ، الرازى ، أبو عبد الله ، من حفاظ الحديث . مات بالرى سنة ٢٩٤ له كتاب « فضائل القرآن » . راجع : تذكرة الحفاظ ٢/٦٤٣، وطبقات الحفاظ ٢٨٧ (٦٤٤).

(٣) أحمد ٢/٤٤٨ والحديث صحيح أخرجه البخارى فى التفسير (٤٧٠٤) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٢٤) وقال: « حسن صحيح » .

(٤) ابن جرير وصححه ١/٣٦ .

(٥) الدارقطنى ١/ ٣١٢ والديلمى (٤٢٦٢) .

(٦) الكشاف ١/ ١١ ط . دار المصحف .

(٧) الخاصرة : وسط الإنسان .

فاتحة الكتاب. وأخرج البيهقى فى الشُّعَب عن أنس عن النبى ﷺ قال : « إن الله أعطانى فيما مَنَّ به علىَّ فاتحة الكتاب وقال : هى من كنوز عرشى » (١) . وأخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده عن على نحوه ، مرفوعًا (٢) . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره للفاتحة اثنى عشر اسمًا .

وهى سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير فى تفسيره (٣). وقال القرطبى : أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات ، إلا ما روى عن حسين الجعفى أنها ست ، وهو شاذ ، وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد ، أنه جعل : ﴿ إياك نعبد﴾ آية ، فهى عنده ثمانٍ ، وهو شاذ. انتهى .

وإنما اختلفوا فى البسملة كما سيأتى إن شاء اللّه.

وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن محمد بن سيرين ، أن أبىّ بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب، والمعوِّذتين ، ولم يكتب ابن مسعود شيئًا منهن . وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب فى المصحف ، وقال : لو كتبتها لكتبت فى أول كل شىء .

وقد ورد فى فضل هذه السورة أحاديث ، منها :

ما أخرجه البخارى وأحمد وأبو داود والنسائى من حديث أبى سعيد بن المُعَلَّى ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال له : «لأعلمنَّك أعظمَ سورة فى القرآن قبل أن تخرجَ من المسجد » قال : فأخذ بيدى ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلتُ : يارسول اللّه ، إنكَ قلتَ : « لأعلمنَّك أعظم سورة فى القرآن ؟ » قال : « نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » (٤). وأخرج أحمد والترمذى وصححه من حديث أبىّ بن كعب ؛ أن النبى ﷺ قال له: « أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور ، ولا فى الفرقان مثلها ؟» ثم أخبره أنها الفاتحة. وأخرجه النسائى (٥) . وأخرج أحمد

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢١٤٨) بإسناد ضعيف. وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (١٥٦١) .

(٢) عزاه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٥٢٩) لإسحاق ، وسكت عليه البوصيرى.

(٣) ابن كثير ١/ ١٨ ط . دار الأندلس .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٤٧٤ ، ٤٦٤٧ ، ٤٧٠٣) وفى فضائل القرآن (٥٠٠٦) وأحمد ٣/ ٤٥٠ ، ٤/ ٢١١ وأبوداود فى الصلاة (١٤٥٨) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٩ وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٥) والدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٤٥ .

(٥) قال الحافظ فى الفتح ٨/ ١٥٧ : « وقد اختلف فيه (يعنى هذا الحديث) على العلاء » (يعنى ابن عبد الرحمن ابن يعقوب الحرقى) وأخرجه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٧٥) وقال : «حسن صحيح » من طريق الدرَاوَردى ، والنسائى فى التفسير (٢٢٥) من طريق روح بن القاسم، وأحمد ٢/ ٤١٣ من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم ، وابن خزيمة من طريق حفص بن ميسرة . كلهم عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : خرج النبى ﷺ على أبى بن كعب . فذكر الحديث . =

فى المسند من حديث عبد الله بن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أخبرك بأخْيَرِ سورة فى القرآن ؟» قلتُ : بلى يارسول الله ، قال : « اقرأ ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ حتى تختمها»(١) ،وفى إسناده ابن عقيل ، وقد احتج به كبار الأئمة ، وبقية رجاله ثقات . وعبد الله ابن جابر هذا هو العبدى كما قال ابن الجوزى . وقيل : الأنصارى البياضى كما قال ابن عساكر.

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد ؛ أن النبى ﷺ قال ، لما أخبروه بأن رجلا رقَى سليمًا (٢) بفاتحة الكتاب : « وما كان يدريه أنها رقية » الحديث (٣). وأخرج مسلم فى صحيحه ، والنسائى فى سننه من حديث ابن عباس؛ قال : بَيْنَا رسول الله ﷺ وعنده جبريلُ ، إذْ سمع نقيضًا (٤) فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء ، فقال : هذا بابٌ قد فُتِح من السماء ما فُتِح قط، قال : فنزل منه ملَك ، فأتى النبى ﷺ فقال : أبشرْ بنورين قد أوتيتهما لم يُؤْتَهُمَا نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته(٥) .

وأخرج مسلم والنسائى والترمذى وصححه من حديث أبى هريرة : « من صلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِدَاج ــ ثلاثًا ــ غير تامة » (٦) ، وأخرج البزار فى مسنده بسند ضعيف عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ:«إذا وضعتَ جنبَك على الفراش وقـرأت فاتحة

= وأخرجه الترمذى فى التفسير (٣١٢٥) وابن خزيمة (٥٠٠) من طريق عبد الحميد بن جعفر ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٥٨ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى من طريق شعبة (كذا ، والذى عند الحاكم إنما هو من طريق عبد الحميد بن جعفر) كلاهما عن العلاء ، مثله ، لكن قال: عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ (كذا، وسقط من الفتح هنا : عن أبىّ بن كعب ــ رضى الله عنه) . ورجح الترمذى فى التفسير (٣١٢٥) كونه من مسند أبى هريرة .

وقد أخرجه الحاكم ١/ ٥٥٨ من طريق الأعرج عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ نادى أبىّ بن كعب . وهو يقوى ما رجحه الترمذى .

وجمع البيهقى فى الشعب ٥/ ٢٨٧بين هذا الحديث وسابقه بأن القصة وقعت لأبىّ بن كعب ، ولأبى سعيد بن المعلى . ويتعين المصير إلى ذلك ؛ لاختلاف مخرج الحديثين ، واختلاف سياقهما » . ا .هـ .كلام الحافظ ، وما بين القوسين زدناه للتوضيح .

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد ٤/ ١٧٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣١٦ : « وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل ، وهو سيئ الحفظ ، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) السليم : اللديغ ، كأنهم تفاءلوا له بالسلامة ، وقيل : لأنه أسلم لما به .

(٣) البخارى فى الإجارة (٢٢٧٦) وفى فضائل القرآن (٥٠٠٧) وفى الطب (٥٧٣٦ ، ٥٧٤٩) ومسلم فى السلام (٢٢٠١/ ٦٥، ٦٦) وأحمد ٣/ ٢ ، ١٠ ، ٨٣ .

(٤) النقيض : صوت المحامل والرحال .

(٥) مسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٦/ ٢٥٤) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٨ والطبرانى (١٢٥٥٥) والبيهقى فى الشعب (٢١٤٥) .

(٦) جزء من حديث رواه مسلم فى الصلاة (٣٩٥/ ٣٨ ـ ٤١) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٥ ، ١٣٦ والترمذى فى القراءات (٢٩٥٣) . والخِدَاج : الناقصة .

الكتاب، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [سورة الإخلاص] فقد أمِنت من كلِّ شيء إلا الموت» (١) .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن أبى زيد وكان له صحبة ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى بعض فجاج المدينة ، فسمع رجلا يتهجَّد ويقرأ بأم القرآن ، فقام النبى ﷺ فاستمع حتى ختمها ، ثم قال : « ما فى القرآن مثلها » (٢) .

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم » (٣) . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن السُّنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن جرير والحاكم وصححه عن خارجة بن الصَّلْت التميمىِّ عن عمّه ؛ أنه أتى رسول الله ﷺ ، ثم أقبل راجعًا من عنده ، فمرّ على قوم وعندهم رجل مجنون ، مُوثَّقٌ بالحديد ، فقال أهله: أعندكَ ما تداوى به هذا ؟ فإنَّ صاحبكم قد جاء بخير ، قال : فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام فى كل يومٍ مرتين غَدوةً وعشيةً ، أجمع بُزَاقِى ثم أتفُلُ ، فبرأ ، فأعطانى مائة شاة ، فأتيتُ النبىّ ﷺ فذكرتُ ذلك له فقال: «كُلْ فمن أكلَ برُقية باطل ، فقد أكلتَ برُقْية حق » (٤) .

وأخرج الفريابى فى تفسيره عن ابن عباس قال : فاتحة الكتاب ثلثُ القرآن . وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ أمَّ القرآن ، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [سورة الإخلاص] فكأنما قرأ ثلث القرآن » (٥) . وأخرج عبد بن حميد فى مسنده ، ببسند ضعيف عن ابن عباس ، يرفعه إلى النبى ﷺ:« فاتحة الكتاب تَعْدِلُ بثلثى القرآن » (٦) . وأخرج الحاكم وصححه ، وأبو ذر الهروى فى فضائله ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : كان النبى ﷺ فى مسير له ، فنزل فمشى رجلٌ من أصحابه إلى جنبه ، فالتفت إليه النبىّ ﷺ فقال: « ألا أخبرك بأفضل القرآن ؟ » فتلا عليه :﴿ الحمد لله رب العالمين﴾ (٧) .

وأخرج أبو نعيم والديلمى عن أبى الدرداء قال : قال رسول اللّه ﷺ : « فاتحة الكتاب

(١) البزار (٣١٠٩) وقال : «لا نعلمه بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه عن أنس » ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٢٧ : « فيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح ».

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٦/٣١٦ : « فيه الحسن بن دينار ، وهو ضعيف » .

(٣) البيهقى فى الشعب (٢١٥٣) بلفظ : « فاتحة الكتاب شفاء من السم » ، وإسناده تالف ، وحكم الألبانى عليه بالوضع فى ضعيف الجامع الصغير (٣٩٥٤) ورواه الديلمى (٤٢٦٤) عن أبى سعيد وأبى هريرة .

(٤) أحمد ٥/ ٢١٠ ، ٢١١ وأبو داود فى الطب (٣٨٩٦ ، ٣٨٩٧ ، ٣٩٠١) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٣٢) وابن السنى فيه (٦٣٠) وصححه الحاكم ١/ ٥٦٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢١٥٠) .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٦/٣١٧ : « فيه سليمان بن أحمد الواسطى ، وهو متروك ».

(٦) عزاه ابن حجر فى المطالب العالية ٣/٣٠١ (٣٥٣٢) لعبد بن حميد ، وقال : « فيه متروك ، واختلف فى الراوى المتروك هل هو أبان الرقاشى أو أبان بن صمعة » . انظر : حاشية الأعظمى .

(٧) صححه الحاكم ١/ ٥٦٠ وسكت عليه الذهبى ، وصححه ابن حبان (٧٧١) وأخرجه البيهقى فى الشعب (٢١٤٤) ورجاله موثقون .

تُجزِئ مالا يُجْزِئ شيء من القرآن ، ولو أن فاتحة الكتاب جُعِلَتْ فى كفة الميزان ، وجُعل القرآن فى الكفة الأخرى ، لفَضُلَت فاتحة الكتاب على القرآن سبعَ مرات »[(١)] . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن مرسلاً قال : قال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراةَ ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان » [(٢)] .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① ﴾ .

اختلف أهل العلم : هل هى آية مستقلة ، فى أول كل سورة كتبت فى أولها ، أو هى كذلك فى الفاتحة فقط دون غيرها، أو أنها ليست بآية فى الجميع ، وإنما كتبت للفصل ؟ والأقوال وأدلتها مبسوطة فى موضع الكلام على ذلك . وقد اتفقوا على أنها بعض آية فى سورة النمل . وقد جزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا : وإنما كتبت للفصل والتبرك .

وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ﴾. وأخرجه الحاكم فى المستدرك[(٣)]، وأخرج ابن خزيمة فى صحيحه عن أم سلمة : أن رسول اللّه ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية [(٤)] . وفى إسناده عمرو بن هارون [(٥)] البلخى ، وفيه ضعف ، وروى نحوه الدارقطنى مرفوعًا عن أبى هريرة [(٦)] .

وكما وقع الخلاف فى إثباتها وقع الخلاف فى الجهر بها فى الصلاة . وقد أخرج النسائى فى سننه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما ، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة ؛ أنه صلى فجهر فى قراءته بالبسملة ، وقال بعد أن فرغ : إنى لأشْبَهُكُمْ صلاة برسول اللّه ﷺ . وصححه الدارقطنى والخطيب والبيهقى وغيرهم[(٧)] .

---

(١) الديلمى (٤٢٦٣) . (٢) لم نجده فى مخطوط « فضائل القرآن » لأبى عبيد .

(٣) أبو داود فى الصلاة (٧٨٨) ، وصححه الحاكم ١/ ٢٣١ ، ٢٣٢ على شرط الشيخين ، وقال الذهبى : « أما هذا فثابت ».

(٤) فى المطبوعة :« وغيرها » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، أخرجه ابن خزيمة (٤٩٣) والحاكم ١/ ٢٣٢ وقال: «عمر بن هارون أصل فى السنة، ولم يخرجاه ، وإنما خرجته شاهدًا »، وقال الذهبى : « أجمعوا على ضعفه ، وقال النسائى : متروك » .

(٥) كذا : ذكره الشوكانى تبعًا لابن خزيمة ، وهو تصحيف ، والصواب : عمر بن هارون البلخى ، وكان من أوعية العلم على ضعفه . انظر :ميزان الاعتدال ٣/ ٢٢٨ (٦٢٣٧) ، والمغنى فى الضعفاء (٤٥٦٨) ، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٤ .

(٦) الدارقطنى ١/ ٣١٢ .

(٧) النسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٤ ، وصححه ابن خزيمة (٤٩٩) وابن حبان (١٧٩٤) ، (١٧٩٨) والحاكم ١/ ٢٣٢ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى، والدارقطنى ١/ ٣٠٦ والبيهقى ٢/ ٤٦ وقال:«صحيح الإسناد » .

وروى أبو داود والترمذى عن ابن عباس ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يفتتح الصلاة بـ ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ . قال الترمذى : وليس إسناده بذلك (١) . وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس بلفظ: كان رسول اللّه ﷺ يجهر بـ﴿**بسم اللّه الرحمن الرحيم**﴾ (٢)، ثم قال : صحيح .

وأخرج البخارى فى صحيحه عن أنس ، أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت قراءتُه مدّا ، ثم قرأ :﴿ **بسم اللّه الرحمن الرحيم** ﴾ ، يمدّ باسم الله ، ويمدُّ الرحمن ، ويمدُّ الرحيم(٣) . وأخرج أحمد فى المسند ، وأبو داود فى السنن ، وابن خزيمة فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه عن أم سلمة أنها قالت :كان رسول اللّه ﷺ يقطع قراءته ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين** ﴾ (٤) . وقال الدارقطنى :إسناده صحيح .

واحتج من قال : بأنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة بما فى صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول اللّه ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بـ﴿**الحمد لله رب العالمين** ﴾ (٥) . وفى الصحيحين عن أنس قال :صليتُ خلفَ النبىّ ﷺ وأبى بكر ،وعمرَ ،وعثمانَ ، فكانوا يستفتحون بـ﴿**الحمد لله رب العالمين** ﴾. ولمسلم :لايذكرون ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ فى أول قراءة ولا فى آخرها (٦) . وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مُغَفَّل (٧) . وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة ، وجماعة من الصحابة.

وأحاديث الترك وإن كانت أصح ولكن الإثبات أرجح ، مع كونه خارجًا من مخرج صحيح ، فالأخذ به أولى ، ولا سيما مع إمكان تأويل الترك . وهذا يقتضى الإثبات الذاتى ، أعنى كونها قرآنًا ، والوصفى ، أعنى الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور فى

---

(١) الترمذى فى الصلاة (٢٤٥) وعزاه المزى فى التحفة ٥/ ٢٦٥ لأبى داود ، ولم أجده فى المطبوعة ، وأخرجه الدارقطنى ١/ ٣٠٤ .
(٢) الحاكم ١/ ٢٠٨ من طريق عبد اللّه بن عمرو بن حسان ، عن شريك ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، وقال : «قد احتج البخارى بسالم هذا ، وهو ابن عجلان الأفطس واحتج مسلم بشريك ، وهذا إسناد صحيح ، وليس له علة ، ولم يخرجاه » قال الذهبى :« ابن حسان كذبه غير واحد » ، ومثل هذا لا يخفى على المصنف .
(٣) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٤٦) .
(٤) أحمد ٦/ ٣٠٢ ، وأبو داود فى الحروف (٤٠٠١) ، والحاكم ١/ ٢٣١ ، والدارقطنى ١/ ٣١٣ وقال : « إسناده صحيح وكلهم ثقات » .
(٥) مسلم فى الصلاة (٤٩٨/ ٢٤٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٨٣) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨١٢) وأحمد ٦/ ٣١ ، ١٧١ ، ١٩٤، ٢٨١ .
(٦) البخارى فى الصلاة (٧٤٣) ومسلم فى الصلاة (٣٩٩/ ٥٠ ــ ٥٢) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٥ وأحمد ٣/ ٢٢٣ ، ٢٧٨.
(٧) الترمذى فى الصلاة (٢٤٤) وحسنه ، والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٥ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨١٥) .

الصلاة ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالا ، وردًا، وتعقُّبًا ، ودفعًا ، ورواية ، ودراية موضعٌ غير هذا .

ومتعلق « الباء » محذوف وهو : أقرأ ، أو أتلو ؛ لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له، فمن قَدَّره متقدمًا كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل ، ومن قدَّره متأخرًا كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص، مع ما يحصل فى ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم ، والإشارة إلى أن البداية به أهم ، لكون التبرك حصل به. وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخرا فى مثل هذا المقام . ولا يعارضه قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ [العلق : ١] ؛ لأن ذلك المقام مقام القراءة ، فكان الأمر بها أهم . وأما الخلاف بين أئمة النحو فى كون المقدَّر اسمًا أو فعلا فلا يتعلق بذلك كثير الفائدة .

و« الباء » للاستعانة أو للمصاحبة ، ورجح الثانى الزمخشرى .

واسم أصله : سمو ، حذفت لامه ، ولما كان من الأسماء التى بنوا أوائلها على السكون زادوا فى أوله الهمزة إذا نطقوا به ؛ لئلا يقع الابتداء بالساكن . وهو اللفظ الدَّالُّ على المسمَّى ، ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة ، وسيبويه، والباقلانى ، وابن فورك ، وحكاه الرازى عن الحشوية(١) ، والكرَّامية (٢) ، والأشعرية (٣) ، فقد غلط غلطًا بيِّنًا وجاء بما لا يُعْقَل ، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل ، لا من الكتاب ، ولا من السنة ، ولا من لغة العرب ، بل العلم الضرورى حاصل بأن الاسم الذى هو أصوات مقطعة ، وحروف مؤلفة، غير المسمى الذى هو مدلوله ، والبحث مبسوط فى علم الكلام . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « إن لله تسعةً وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة » (٤). وقال اللّه عز وجل : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

و﴿ الله ﴾ : عَلَمٌ لذات الواجب الوجود ، لم يطلق على غيره. وأصله : إله. حذفت الهمزة، وعُوِّضت عنها أداة التعريف فلزمت . وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس ، يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق ، كالنجم والصعق ، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة ، وبعده من الأعلام المختصة .

و ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ : اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشد

---

(١) فرقة من الفرق الإسلامية ، أجمعت على الجبر والتشبيه ، وينكرون الخوض فى الكلام والجدل .

(٢) أصحاب أبى عبد اللّه محمد بن كرّام . راجع : ما كتبه الشهرستانى عن هذه الفرقة فى كتابه « الملل والنحل » ١٥٩/١ .

(٣) أصحاب أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى . راجع : الشهرستانى ١٢٧/١ وما بعدها .

(٤) البخارى فى الدعوات (٦٤١٠) ومسلم فى الذكر والدعاء (٥/٢٦٧٧) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦٠) .

مبالغة من رحيم . وفى كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا ، ولذلك قالوا : رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا . وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . وقال ابن الأنبارى والزَّجَّاج : إن الرحمن عَبْرَانى ، والرحيم عربى . وخالفهما غيرهما. والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل فى غير الله ــ عز وجل . وأما قول بنى حنيفة فى مسيلمة : رحمن اليمامة ، فقال فى الكشاف : إنه باب من تعنتهم فى كفرهم (١) . قال أبو على الفارسى : الرحمن : اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، والرحيم : إنما هو فى جهة المؤمنين ، قال اللّه تعالى : ﴿**وكان بالمؤمنين رحيما**﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

وقد ورد فى فضلها أحاديث ، منها :

ما أخرجه سعيد بن منصور فى سننه ، وابن خزيمة فى كتاب البسملة والبيهقى عن ابن عباس ، قال : استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن : ﴿ **بسم اللّه الرحمن الرحيم**﴾. وأخرج نحوه أبو عبيد وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا . وأخرج الدارقطنى بسند ضعيف عن ابن عمر ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « كان جبريلُ إذا جاءنى بالوحى أوَّل ما يلقى علىّ :﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ »(٢) .وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره والحاكم فى المستدرك وصححه، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس؛أن عثمان بن عفّان سأل النبى ﷺ عن ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ فقال : « هو اسم من أسماء الله ، وما بينه و بين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب » (٣) .

وأخرج ابن جرير وابن عدى فى الكامل وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر فى تاريخ دمشق، والثعلبى بسند ضعيف جدًا عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ :« إن عيسى ابن مريم أسلمتْه أُمُّهُ إلى الكتاب لتعلّمه ، فقال له المعلّم :اكتب ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ، فقال له عيسى :وما بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال المعلم : لا أدرى. فقال له عيسى : الباء بهاء الله، والسين سناه ، والميم مملكته ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة » . وفى إسناده إسماعيل بن يحيى وهو كذاب. وقد أورد هذا الحديث ابن الجوزى فى الموضوعات (٤) .

---

(١) راجع: الكشاف ١/ ٧ ط. دار القرآن .

(٢) الدارقطنى ١/ ٣٠٥ ، وفى سنده داود بن عطاء المزنى ، قال البخارى : « منكر الحديث ».

(٣) صححه الحاكم ١/ ٥٥٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢١٢٣) والحق أن إسناده ضعيف ، فيه وهب ابن الحارث الجَندى ، ذكره العقيلى فى الضعفاء ، وأخرج له هذا الحديث ، وقال : «لايتابع عليه ». وعنه نقله الذهبى فى الميزان ، وقال : « خبر منكر ، بل كذب » ، وذكره ابن أبى حاتم فى العلل وقال : «قال أبى : هذا حديث منكر».

(٤) ابن جرير ١/ ٤١ وابن عدى ١/ ٣٠٣ ، ٣٠٤ ترجمة (١٢٩) وأبو نعيم ٧/ ٢٥١ وقال ابن جرير : «أخشى أن يكون غلطًا من المحدث وأن يكون أراد ب س م على سبيل ما يعلم المبتدئ من الصبيان فى الكتاب حروف أبى جاد ، فغلط بذلك ، فوصله ، فقال : بسم ؛ لأنه لا معنى لهذا التأويل إذا تلا ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ على ما يتلوه القارئ فى كتاب الله؛ لاستحالة معناه عن المفهوم به عند جميع العرب وأهل لسانها، =

وأخرج ابن مردويه والثعلبى عن جابر قال : لما نزلت ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هرب الغَيْمُ إلى المشرق ، وسكنت الريحُ ، وهاج البحرُ ، وأصغت البهائمُ بآذانها ، ورُجِمَت الشياطينُ من السماء ، وحلفَ اللهُ بعزته وجلاله ألاَّ تُسَمَّى على شىء إلا بارك فيه (١) .
وأخرج أبو نعيم والديلمى عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة دويًّها ، فقالوا : سَحَرَ محمد الجبالَ ؟ فبعث الله دخانًا حتى أظل على أهل مكة ، فقال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ موقنًا سبَّحتْ معه الجبالُ إلا أنه لا يُسْمَع ذلك منها » . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ كتب الله بكل حرف أربعة آلاف حسنة ، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة ، ورفع له أربعة آلاف درجة » (٢) . وأخرج الخطيب فى الجامع عن أبى جعفر محمد بن على قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ مفتاح كل كتاب » .

وهذه الأحاديث ينبغى البحث عن أسانيدها ، والكلام عنها بما يتبين بعد البحث إن شاء الله .

وقد شرعت التسمية فى مواطن كثيرة ، قد بينها الشارع ، منها : عند الوضوء ، وعند الذبيحة ، وعند الأكل، وعند الجماع وغير ذلك .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ .

﴿ الحمد لله ﴾: الحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، وبقيد الاختيار فارق المدح ، فإنه يكون على الجميل ، وإن لم يكن الممدوحُ مختارًا كمدح الرجل على جماله ، وقوته ، وشجاعته ، وقال صاحب الكشاف : إنهما أخوان (٣) ، والحمد أخص من الشكر

= إذا حمل تأويله على ذلك » .
وقال أبو نعيم : « غريب . . . » وقال ابن كثير : « غريب جدًا ، وقد يكون صحيحا إلى من دون رسول الله ﷺ ، ويكون من الإسرائيليات ؛ لا من المرفوعات ». وقال السيوطى فى الدر المنثور ١/٨ :« بسند ضعيف جدًا » . وذكره ابن حبان فى المجروحين ١/ ٨٥ ترجمة (٤٤) وقال فى إسماعيل بن يحيى : «كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، وما لا أصل له عن الأثبات ،لا تحل الرواية عنه ، ولا الاحتجاج به بحال».
وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ٢٠٣ ، ٢٠٤ وقال : « هذا موضوع محال » . وانظر أقوال العلماء فى ترك وتكذيب إسماعيل بن يحيى فى: الميزان ١/ ١١٧ ، ولسان الميزان ١/ ٤٤١، ٤٤٢ .

(١) عزاه ابن كثير لابن مردويه من طريق عبد الكبير بن المعافى بن عمران ، عن أبيه ، عن عمر بن ذر ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر ، قال : . . . . فذكره . وهؤلاء الرجال المذكورن كلهم ثقات .
(٢) الديلمى (٥٥٧٣) .
(٣) الكشاف ١/ ١٣ ط . دار المصحف ، وقد استشهد بقول الشاعر:
أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

مَوْرِدًا ، وأعم منه متعلقًا ، فموردُ الحمد اللسانُ فقط ، ومتعلقه النعمةُ وغيرها ، وموردُ الشكرِ اللسانُ ، والجَنَانُ ، والأركانُ ومتعلقه النعمة، وقيل : إن مورد الحمد كمورد الشكر ؛ لأن كلَّ ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد ، بل سخرية واستهزاء . وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح فى الحمد لا يستلزم أن يكونَ موردًا بل شرطًا . وفرق بين الشرط والشطر.

وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد ، وأنها مختصة بالرب ــ سبحانه وتعالى ــ على معنى أنَّ حمد غيره لا اعتداد به؛ لأن المنعم هو الله ــ عز وجل ــ أو على أن حمدَه هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادّعائيا . ورجح صاحب الكشاف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس ، لا الاستغراق ، والصواب ما ذكرنـــاه . وقد جاء فى الحديث :« اللهم لك الحمد كله» (١).

وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو :﴿ لله ﴾. وأصله النصب على المصدرية بإضمار فعله ، كسائر المصادر التى تنصبها العرب ، فعُدِل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات المستفاد من الجمل الاسمية دون الحدوث والتجدد اللذين تفيدهما الجمل الفعلية . واللام الداخلة على الاسم الشريف هى لام الاختصاص.

قال ابن جرير : الحمد ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا :الحمد لله ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلا على ذلك بما حاصله : أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر . قال ابن كثير : وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين ، أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية. والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجَنان واللسان والأركان. انتهى .

ولا يخفى أن المرجع فى مثل هذا إلى معنى الحمد فى لغة العرب لا إلى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين ، فإن ذلك لا يرد على ابن جرير ، ولا تقوم به الحجة ؛ هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية ، فإن ثبتت وجب تقديمها.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال عمر : قد عَلِمْنا سبحان الله ولا إله إلا الله ، فما الحمد لله ؟ فقال عليٌّ : كلمةٌ رضيها لنفسه . وروى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس ؛ أنه قال : الحمد لله ؛كلمة الشكر ، وإذا قال العبد : الحمد لله قال : شكرنى عبدى. وروى هو وابن جرير عن ابن عباس أيضًا أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله ، والاستخذاء(٢) له والإقرار له بنعمه ، وهدايته ، وابتدائه ، وغير ذلك (٣) . وروى ابن جرير عن الحكم بن عُمَيْر ، وكانت له صحبة ، قال : قال النبىّ ﷺ : « إذا قلتَ: الحمد لله رب العالمين فقد شكرتَ الله، فزادك » (٤) . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والحكيم الترمذى فى نوادر

(١) جزء من حديث حذيفة عند أحمد ٥/٣٩٦ .

(٢) الاستخذاء : الخضوع ، تقول : خذئت له ، وخَذَأْتُ ، أخذأ : إذا خضعت له ،خذوءًا وخذْءًا ، واستخذيت واستخذأت لغتان ، وهم إلى ترك الهمز أميل . انظر : مجمل اللغة لابن فارس ٢٨٢ .

(٣، ٤) ابن جرير ١/٤٦ .

الأصول ، والخطابى فى الغريب ، والبيهقى فى الأدب ، والديلمى فى مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده » (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى قال : الصلاة شكر والصيام شكر (٢) ، وكل خير تفعله شكر، وأفضل الشكر الحمد . وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن النّوّاس بن سَمْعَان ، قال : سرقت ناقة رسول الله ﷺ، فقال : «لئن ردّها الله علىَّ لأشكرنَّ ربى » ، فرجعت ، فلما رآها قال : « الحمد لله » فانتظروا ؛ هل يحدث رسول الله ﷺ صومًا أو صلاة ، فظنوا أنه نسى ، فقالوا : يا رسول الله ، قد كنتَ قلتَ: لئن ردَّها الله علىَّ لأشكرن ربى ، قال : « ألم أقل: الحمد لله ؟ » (٣) .

وقد ورد فى فضل الحمد أحاديث ، منها :

ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم وصححه ، والبخارى فى الأدب المفرد عن الأسود بن سَرِيع ، قال : قلت يا رسول الله ، ألا أنْشِدُك محامدَ حمدتُ بها ربى تبارك وتعالى ؟ فقال : « أما إن ربك يحب الحمد » (٤). وأخرج الترمذى وحسَّنه والنسائى وابن ماجة وابن حبان والبيهقى عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » (٥) . وأخرج ابن ماجة والبيهقى بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال : الحمد لله إلا كان الذى أعْطى أفضلَ مما أخذ » (٦) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والقرطبى فى تفسيره عن أنس عن النبى ﷺ، قال: « لو أن الدنيا كلها بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ، ثم قال : الحمد لله ، لكان الحمد أفضل

---

(١) عبد الرزاق (١٩٥٧٤) والبيهقى فى الآداب (١٠٣٤) وفى الشعب (٤٠٨٥) والخطابى فى غريب الحديث ١/ ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، والبغوى فى شرح السنة (٢١٧١) والديلمى (٢٦٠٧) وقال السيوطى فى تدريب الراوى ١/ ٥٧ : « رجاله ثقات ، لكنه منقطع . والانقطاع بين قتادة وعبد الله بن عمرو بن العاص ».

(٢) سقط فى المطبوعة لفظ « شكر » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٤/ ١٩٠ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه عمرو بن واقد القرشى ، وقد وثقه محمد بن المبارك الصورى ورد عليه ، وقد ضعفه الأئمة وترك حديثه ».

(٤) أحمد ٣/ ٤٣٥ ، والنسائى فى النعوت من السنن الكبرى (٧٧٤٥) والبخارى فى الأدب المفرد (٣٤٢)، وصححه الحاكم ٣/ ٦١٤ ووافقه الذهبى ، والطبرانى (٨١٩ ـ ٨٢٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٢٤ : « ورجال أحد أسانيد أحمد رجال الصحيح ».

(٥) الترمذى فى الدعوات (٣٣٨٣) وقال : « غريب » (ونقل المزى فى التحفة أنه قال : «حسن غريب ») والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٦٧) وابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٠) وصححه ابن حبان (٨٤٣) والحاكم على شرطهما ١/ ٤٩٨ ، ٥٠٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٤٠٦١) وإسناده حسن .

(٦) ابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٥) وفى الزوائد : «إسناده حسن »، والبيهقى فى الشعب (٤٠٩١) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٥٤٣٩) .

من ذلك » (١) . قال القرطبى: معناه لكان إلهامهُ الحمد أكبرَ نعمةٍ عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ، ونعيم الدنيا لا يبقى ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « ما من عبدٍ يُنْعَمُ عليه بنعمةٍ إلا كان الحمد أفضل منها»(٢). وأخرج عبد الرزاق فى المصنف نحوه ، عن الحسن مرفوعًا .

وأخرج مسلم والنسائى وأحمد عن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : «الطهورُ شطرُ الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » الحديث (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذى وحسَّنه وابن مردويه عن رجل من بنى سليم ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « سبحان الله نصفُ الميزان ، والحمدُ لله تملأ الميزان ، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض ، والطهورُ نصف الإيمان ، والصومُ نصف الصبر » (٤) . وأخرج الحكيم الترمذى عن عبد الله بن عمر(٥)، قال : قال رسول الله ﷺ: « التسبيحُ نصفُ الميزان ، والحمدُ لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجابٌ حتى تَخلُصَ إليه » (٦) . وأخرج البيهقى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « التَّأنِّى من الله ، والعجلةُ من الشيطان ، وما من شيءٍ أكثرُ معاذير من الله، وما من شيءٍ أحبُّ إلى الله من الحمد»(٧) . وأخرج ابن شاهين فى السنة ، والديلمى عن أبانَ عن (٨) أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « التوحيدُ ثمن الجنة ، والحمد ثمن كل نعمة، ويتقاسمون الجنة بأعمالهم » (٩).

وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كل أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدأُ فيه بحمدِ الله فهو أقْطَع » (١٠) . وأخرج ابن ماجة فى سننه عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ حدثهم « أنَّ عبدًا من عباد الله قال : يارِبِّ ، لك الحمدُ كما ينبغى لجلالِ

---

(١) عزاه القرطبى ١ / ١٣١ إلى الترمذى فى نوادر الأصول .

(٢) البيهقى فى الشعب (٤٠٩٢) وضعف المحقق إسناده .

(٣) مسلم فى الطهارة (١/٢٢٣) والترمذى فى الدعوات (٣٥١٧) وصححه ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة من الكبرى (٩٩٩٦ ، ٩٩٩٧) والدارمى فى الوضوء ١/١٦٧ وأحمد ٥/٣٤٣ .

(٤) أحمد ٤/ ٢٦٠، ٥/٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ والترمذى فى الدعوات (٣٥١٩) وحسنه ، وعبد الرزاق (٢٠٥٨٢) .

(٥) كذا قال المصنف ، والصواب : أن الحديث من رواية أبى عيسى الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، كما هو مبيَّن بعد .

(٦) الترمذى فى الدعوات (٣٥١٨) وقال : « غريب من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوى » .

(٧) البيهقى فى السنن ١٠/ ١٠٤ وفى الشعب (٤٠٥٨) وأبو يعلى (٤٢٥٦) وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٧٩٥) .

(٨) فى المخطوطة والمطبوعة : « بن » وهو تصحيف .

(٩) الديلمى (٢٤١٥) .

(١٠) أبو داود فى الأدب (٤٨٤٠) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٤٩٤) وابن ماجة فى النكاح (١٨٩٤) وأحمد ٢/ ٣٥٩ وصححه ابن حبان (١، ٢) والبيهقى ٣/ ٢٠٨ ، ٢٠٩ وفى الشعب (٤٠٦٢) ، وحسنه ابن الصلاح والنووى .

وجهك وعظيم سلطانك ، فلم يَدْرِ الملكان كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماءِ ، فقالا : يا ربنا ، إنَّ عبدًا قد قال مقالةً لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال اللّه ــ وهو أعلم بما قال عبده ــ: ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب ، إنه قال : لكَ الحمدُ كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك. فقال اللّه لهما: اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى وأجزيه بها»(١) . وأخرج مسلم عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » (٢) .

﴿ رَبِّ العَالمينَ ﴾ : قال فى الصحاح : الرب اسم من أسماء اللّه تعالى ، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة ، وقد قالوه فى الجاهلية للملك . وقال فى الكشاف : الرب :المالك . ومنه قـول صفوان لأبى سفـيان : لأن يَرُبَّنى رجلٌ من قريش ، أحبُّ إلى من أن يَرُبَّنى رجل من هوازن ، ثم ذكر نحو كلام الصحاح . قال القرطبى فى تفسيره: والرب السيد ومنه قولـه تعالى: ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾[يوسف : ٤٢] ، وفى الحديث : « أن تلد الأمة ربتها » (٣) ، والرب : المصلح والمدبر ، والجابر ، والقائم . قال : والرب المعبود ، ومنه قول الشاعر :

أَربٌّ يَبُولُ الثُّعْلَبان (٤) برأسه   لقدْ هَانَ مَنْ بَالت عَلَيه الثَّعالبُ

و﴿ العالمين ﴾: جمع العالم ، وهو كل موجود سوى اللّه تعالى ، قاله قتادة . وقيل : أهل كل زمان عالم ، قاله الحسين بن الفضل . وقال ابن عباس : العالمون : الجن والإنس . وقال الفراء وأبو عبيد : العالم عبارة عمن يعقل ، وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالم ؛ لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل .

حكى هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره ، وذكر أدلتها وقال : إن القول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، دليله قوله تعالى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤] وهـو مأخـوذ من العَلَم والعلامة ؛ لأنه يدل على موجوده ، كذا قال الزجَّاج . وقال : العالم : كل ما خلقه اللّه

---

(١) ابن ماجة فى الأدب (٣٨٠١) وفى الزوائد : «فى إسناده قدامة بن إبراهيم ذكره ابن حبان فى الثقات ، وصدقة بن بشير ، لم أرَ من جرَّحه ، ولا من وثقه ، وباقى رجال الإسناد ثقات » .

(٢) مسلم فى الذكر (٢٧٣٤/ ٨٩) والترمذى فى الأطعمة (١٨١٦) وأحمد ٣/ ١٠٠ .

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه البخارى فى تفسير لقمان (٤٧٧٧) ومسلم ــ واللفظ له ــ فى الإيمان (٨/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والنسائى فى الإيمان ٨/ ٩٧، ٩٨ وأحمد ١/ ٣١٩ ،من حديث عمر بن الخطاب .

(٤) الثعلبان ، بالفتح :مثنى الثعلب ، وبالضم : أنثى الثعلب ، وقد أخطأ من ضم الثاء فى هذا البيت ؛لأنه مثنى ، وأصل قصة هذا البيت : أن غاوى بن عبد العزى كان سادنا لصنم لبنى سليم ، فبينما هو عنده إذ أقبل ثعلبان يشتدان ، حتى تسنماه ، فبالا عليه ، فقال البيت ، ثم قال : يا معشر سليم، لا والله ، لا يضر ، ولا ينفع ، ولا يعطى ، ولا يمنع ، فكسره ، ولحق بالنبىّ ﷺ فقال : « ما اسمك ؟ » فقال : غاوى بن عبد العزى . فقال: « بل أنت راشد بن عبد ربه » . الفيروز آبادى فى القاموس المحيط ١/ ٤١ .

فى الدنيا والآخرة ، انتهى . وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليبا للعقلاء على غيرهم . وقال فى الكشاف : ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه ، وهى الدلالة على معنى العلم .

وقد أخرج ما تقدم من قول ابن عباس عنه الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جُبير. وأخرج ابن جُبير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ رَبِّ العالمينَ ﴾ قال : إله الخلق كله ، السموات كلهن ومن فيهن ، والأرضون كلهن ومن فيهن ، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم .

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ : قد تقدم تفسيرهما. قال القرطبى : وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم ؛ لأنه لما كان فى اتصافه برب العالمين ترهيب ، قرنه بالرحمن الرحيم ، لما تضمن من الترغيب ، ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه ، فيكون أعون على طاعته ، وأمنع ، كما قال تعالى : ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠]، وقال : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [غافر : ٣] . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَط من جنته أحد » (١) . انتهى .

وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال : ما وصف من خلقه ، وفى قوله: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال : مدح نفسه . ثم ذكر بقية الفاتحة .

﴿ ملك يوم الدين ﴾ : قرئ ملِك ، ومالِك ، وملْك بسكون اللام ، ومَلَكَ بصيغة الفعل. وقد اختلف العلماء أيما أبلغ ملِك ، أو مالك ؟ فقيل : إن « ملكَ » أعم وأبلغ من مالك ، إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك نافذ على المالك فى ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ، قاله أبو عبيد ، والمبرد ، ورجحه الزمخشرى . وقيل : مالك أبلغ؛ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم ، فالمالك أبلغ تصرفا ، وأعظم ، وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ فى مدح الخالق من ملك ، وملك ، أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكاً . واختار هذا القاضى أبو بكر بن العربى .

والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد فى الآخر ؛ فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك بالبيع ، والهبة ، والعتق ونحوها ، والملك يقدر

---

(١) مسلم فى التوبة (٢٣/٢٧٥٥) .

على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك ، وحياطته ، ورعاية مصالح الرعية ، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور ، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور . والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه : أن الملك صفة لذاته ، والمالك صفة لفعله .

و ﴿ يوم الدين ﴾ : يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩] ، وهذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار. ويوم الدين وإن كان متأخرا فقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل كقولك : هذا ضارب زيداً غداً .

وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة ؛ أن النبي ﷺ كان يقرأ مِلك بغير ألف (١) ، وأخرج نحوه ابن الأنباري عن أنس .

وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضًا ؛ أن النبي ﷺ وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، كانوا يقرؤون مالك بالألف(٢) . وأخرج نحوه سعيد بن منصور ، عن ابن عمر مرفوعا ، وأخرج نحوه أيضا وكيع في تفسيره ، وعبد بن حميد وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلا (٣). وأخرجه أيضا عبد الرزاق في تفسيره ، وعبد بن حميد وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعا مرسلاً (٤) ،وقد روى هذا من طرق كثيرة ، فهو أرجح من الأوّل . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : مالك يوم الدين(٥). وكذا رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعا (٦) .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود وناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب . وكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (٧) . وأخرج عبد

---

(١) الترمذي في القراءات (٢٩٢٧) ، وقال : « حديث غريب ، وليس إسناده بمتصل » .

(٢) الترمذي في القراءات (٢٩٢٨) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث الزهري عن أنس بن مالك ، إلا من حديث هذا الشيخ أيوب بن سويد الرملي » .

(٣) أبو داود في الحروف (٤٠٠٠) وقال : « هذا أصح من حديث الزهري عن أنس ، والزهري عن سالم عن أبيه ».

(٤) أبو داود في الموضع السابق . (٥) صححه الحاكم ٢/ ٢٣٢ ووافقه الذهبي .

(٦) الطبراني (١٠٠٦٧) وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ٣١٤ : « فيه الفياض بن غزوان ، وهو ضعيف ، وجماعة لم أعرفهم » .

(٧) ابن جرير ١/ ٥٢ من طريق السدي ، عن أبي مالك ، وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وطريق السدي ، عن مُرّة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ . وقد قال ابن جرير عن هذا الإسناد : «فإن كان ذلك صحيحا ، ولست أعلمه صحيحا ، إذ كنت بإسناده مرتابا » ، قال الأستاذ شاكر : « ولم يبين علة ارتيابه في إسناده وهو مع ارتيابه قد أكثر من الرواية به ، ولكن لم يجعلها حجة قط » ، الطبري بتحقيق شاكر ١ / ١٥٦ وصححه الحاكم من الطريق الثاني ، وقال : « على شرط مسلم » ، ووافقه الذهبي .

الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ؛ قال : ﴿يوم الدين﴾ يوم يدين اللّه العباد بأعمالهم .

﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ : قراءة السبعة وغيرهم بتشديد الياء ، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر؛ وقرأ الفضل، والرقاشى ، بفتح الهمزة ،وقرأ أبو السوار الغَنَوى « هَيَّاك » فى الموضعين وهى لغة مشهورة ، والضمير المنفصل هو « إيا » وما يلحقه من الكاف ، والهاء، والياء ، هى حروف لبيان الخطاب ، والغيبة ، والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب ، كما ذهب إليه الجمهور ، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص ، وقيل : للاهتمام ، والصواب أنه لهما ، ولا تزاحم بين المقتضيات . والمعنى: نخصك بالعبادة ، ونخصك بالاستعانة ، لا نعبد غيرك ولا نستعينه .

والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل ، قال ابن كثير: وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع، والخوف.

وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات ؛ لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تَطرِيةً لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا له ، كما تقرر فى علم المعانى . والمجىء بالنون فى الفعلين لقصد الإخبار من الداعى عن نفسه ، وعن جنسه من العباد ، وقيل : إن المقام لما كان عظيمًا لم يستقل به الواحد ؛ استقصارًا لنفسه ، واستصغارًا لها ، فالمجىء بالنون لقصد التواضع ، لا لتعظيم النفس .

وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية ، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب ، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إياك نعبد** ﴾ يعنى : إياك نوحد ونخاف يا ربنا لا غيرك.

﴿ **وإياك نستعين** ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها . وحكى ابن كثير عن قتادة ، أنه قال فى :﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم .

وفى صحيح مسلم من حديث المعلَّى (١) بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن رسول اللّه ﷺ : «يقول اللّه تعالى : قسمتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، إذا قال العبد:﴿ **الحمد للّه رب العالمين**﴾ قال : حمدنى عبدى ، وإذا قال :﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ قال : أثنى على عبدى ، فإذا قال : ﴿**مالك يوم الدين**﴾ قال : مَجدنى عبدى ، فإذا قال :﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ قال : هذا بينى وبين

(١) العلاء، وهو ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقى ، وفى المطبوعة: « المعلى » وهو تصحيف ناشئ عن عدم فهم طريقة الكتابة .

عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » (١) .

وأخرج أبو القاسم البغوى والباوردى ، معًا فى معرفة الصحابة ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أنس بن مالك عن أبى طلحة قال : كنا مع رسول اللّه ﷺ فى غزاة، فلقى العدو فسمعته يقول :« يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين »، قال : فلقد رأيت الرجال تُصرعُ فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها (٢) .

﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾: قرأه الجمهور بالصاد ، وقرأ السراط بالسين ، والزراط بالزاى . والهداية قد يتعدى (٣) فعلها بنفسه كما هنا ، وكقوله :﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد: ١٠]، وقد يتعدى بإلى كقوله :﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ [النحل : ١٢١]، ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾[الصافات : ٢٣] ، ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقد يتعدى باللام كقوله : ﴿ الحمد للّه الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ [الإسراء : ٩] . قال الزمخشرى : أصله أن يتعدى باللام أو بإلى . انتهى .

وهى الإرشاد ، أو التوفيق ، أو الإلهام ،أو الدلالة ، وفرّقَ كثيرٌ من المتأخرين بين معنى المتعدى بنفسه ، وغير المتعدى ، فقالوا : معنى الأول : الدلالة . والثانى: الإيصال . وطلب الهداية من المهتدى معناه طلب الزيادة ، كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ [محمد: ١٧] ، ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

والصراط : الطريق . قال ابن جرير : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم : هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ، وهو كذلك فى لغة جميع العرب قال : ثم تستعير العرب الصراط ، فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته ، والمُعوجّ باعوجاجه .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وتعقبه الذهبى عن أبى هريرة ؛ أن رسول اللّه ﷺ قرأ : ﴿**اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ بالصاد (٤) ، وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه عن ابن عباس أنه قرأ «السراط» بالسين، وأخرج ابن الأنبارى عن ابن كثير أنه كان يقرأ :« السراط » بالسين. وأخرج أيضًا عن حمزة أنه كان يقرأ «الزراط» بالزاى . قال الفراء :

---

(١) مسلم فى الصلاة (٣٨/٣٩٥) والترمذى فى التفسير(٢٩٥٣) وحسنه ، وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٤) وأحمد ٢/ ٢٤١ . ورواه العلاء ، عن السائب مولى هشام بن زهرة ، عن أبى هريرة ، عند أبى داود فى الصلاة (٨٢١) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٣٥ ، ١٣٦ وأحمد ٢/ ٢٨٥ ، ٤٦٠ .

(٢) أبو نعيم فى الدلائل (٣٨٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٣٣١ بعد أن عزاه للطبرانى فى الأوسط : « فيه عبد السلام بن هاشم ، وهو ضعيف » قلت :« بل هو متهم بالكذب ».

(٣) فى المطبوعة : « يتعذر» ، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) صححه الحاكم ١/ ٢٣٢ وقال الذهبى : « بل لم يصح ، وإبراهيم بن سليمان ـ أحد رواته ـ متكلم فيه ».

وهى لغة لعذرة ، وكلب ، وبنى القين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ يقول : ألهمنا دينك الحق . وأخرج ابن جرير عنه وابن المنذر نحوه . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله ؛ أنه قال : هو دين الإسلام ، وهو أوسع مما بين السماء والأرض [١] . وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس [٢] . وأخرج نحوه أيضا عن ابن مسعود وناس من الصحابة .

وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه، والبيهقى فى شعب الإيمان عن النواس بن سمْعَان عن رسول الله ﷺ ، قال : « ضرب اللهُ مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبى الصراط سوران ، فيهما أبوابٌ مُفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاةٌ ، وعلى باب الصراط داع يقول: يأيها الناس ، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تَلجه ، فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط : كتابُ الله ، والداعى من فوقه : واعظُ اللهِ تعالى فى قلب كل مسلم»[٣] . قال ابن كثير بعد إخراجه : وهو إسناد حسن صحيح . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو بكر بن الأنبارى والحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود ؛ أنه قال : هو كتاب الله [٤] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى وابن عساكر عن أبى العالية قال: هو رسول الله ﷺ وصاحباه من بعده . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى العالية عن ابن عباس مثله [٥] .

وروى القرطبى عن الفضيل بن عياض أنه قال : الصراط المستقيم: طريق الحج ، قال : وهذا خاص ، والعموم أولى. انتهى [٦] .

وجميع مـا روى فى تفسير هـذه الآيـة ما عـدا هـذا المروى عن الفضيل يصدق بعضه على بعض ، فإن من اتبع الإسلام ، أو القرآن ، أو النبى ، فقد اتبع الحق . وقد ذكر ابن

---

(١) ابن جرير ١/٥٧ وصححه الحاكم ٢/٢٥٩ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١/٥٧ .

(٣) أحمد ٤/١٨٢ والترمذى فى الأمثال (٢٨٥٩) وقال : «غريب » ، والنسائى فى التفسير (٢٥٣) وابن جرير ١/٥٨ وصححه الحاكم ١/٧٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٢١٦) ط . الكتب العلمية .

(٤) صححه الحاكم ٢/٢٥٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، ورواه البيهقى فى الشعب (١٧٩٠) ورجال إسناده ثقات .

(٥) صححه الحاكم ١ / ٢٥٩ ووافقه الذهبى .

(٦) القرطبى ١ / ١٤٧ .

جريرنحو هذا فقال : والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى أن يكون معنيا به : وفِّقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك ، من قول وعملٍ، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفَق إليه ممن أنعم اللّهُ عليه من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، فقد وُفق للإسلام وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره اللّه به، والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبى ﷺ ، ومنهاج الخلفاء الأربعة ، وكل عبد صالح ، وكل ذلك من الصراط المستقيم . انتهى [١].

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ : انتصب ﴿ صراط ﴾ على أنه بدل من الأول ، وفائدته : التوكيد ، لما فيه من التثنية والتكرير ، ويجوز أن يكون عطف بيان ، وفائدته: الإيضاح .

والذين أنعم الله عليهم : هم المذكورون فى سورة النساء حيث قال : ﴿ومن يطع الله والرسول[٢] فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ [النساء : ٦٩ ، ٧٠] ، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام .

و ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ بدل من ﴿ الذين أنعمت عليهم ﴾ على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سَلِمُوا من غضبِ الله والضلال ، أو صفة له على معنى أنهم جمعوا بين النعمتين ، نعمة الإيمان والسلامةِ من ذلك . وصحَّ جعله صفةً للمعرفة مع كون ﴿ غير ﴾ لا تتعرف بالإضافة إلى المعارف ، لما فيها من الإبهام ؛ لأنها هنا غير مبهمة؛ لاشتهار المغايرة بين الجنسين .

والغضب فى اللغة : قال القرطبى : الشدة ، ورجل غضوب أى شديد الخلق ، والغضوب: الحية الخبيثة لشدتها . قال : ومعنى الغضب فى صفة الله : إرادة العقوبة ، فهو صفة ذاته ، أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث :« إن الصدقة لتطفئ غضب الرب » [٣] ، فهو صفة فعله[٤] ، قال فى الكشاف : هو إرادة الانتقام من العصاة ، وإنزال العقوبة منهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده ؛ والفرق بين ﴿ عليهم ﴾ الأولى ، و﴿عليهم﴾ الثانية : أن الأولى فى محل نصب على المفعولية والثانية فى محل رفع على النيابة عن الفاعل . «لا » فى قوله : ﴿ ولا الضالين ﴾ تأكيد للنفى [٥] المفهوم من غير. والضلال

---

(١) الطبرى ١ / ١٧١ ط . دار المعارف بتحقيق محمود محمد شاكر .
(٢) فى الأصل : « ورسوله » .
(٣) أخرجه الترمذى عن أنس فى الزكاة (٦٦٤) وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » .
(٤) القرطبى ١ / ١٥٠ .
(٥) فى بعض النسخ المطبوعة : « تأكيد النفى » ، والأصح ما أثبتناه من المخطوطة .

فى لسان العرب قال القرطبى : هو الذهاب عن سَنَن القصد ، وطريق الحق ، ومنه ضلَّ اللبن فى الماء : أى غاب ، ومنه : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ [السجدة : ١٠] أى غبنا بالموت وصرنا ترابا [(١)].

وأخرج وكيع وأبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب: أنه كان يقرأ : «صراط مَنْ أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين » . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد أن عبد الله بن الزبير قرأ كذلك . وأخرج ابن الأنبارى[(٢)] عن الحسن أنه كان يقرأ : « عليهمى » بكسر الهاء والميم ، وإثبات الياء، وأخرج ابن الأنبارى عن الأعرج أنه كان يقرأ : « عليهمو » بضم الهاء والميم وإلحاق الواو . وأخرج أيضًا عن ابن كثير أنه كان يقرأ : « عليهمو » بكسر الهاء وضم الميم مع إلحاق الواو . وأخرج أيضًا عن أبى إسحاق أنه قرأ : «عليهمُ » بضم الهاء والميم من غير إلحاق واو، وأخرج ابن أبى داود عن عكرمة والأسود أنهما كانا يقرآن كقراءة عمر السابقة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ يقول : طريق من أنعمت عليهم من الملائكة ، والنبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، الذين أطاعوك وعبدوك[(٣)] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنهم المؤمنون [(٤)] . وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ قال : النبيون ﴿ **غير المغضوب عليهم** ﴾ قال : اليهود ﴿ **ولا الضالين** ﴾ قال : النصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج أيضًا عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد الرزاق وأحمد فى مسنده وعبد بن حميد وابن جرير والبغوى وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق ؛ قال : أخبرنى من سمع رسول الله ﷺ ، وهو بوادى القرى على فرسٍ له ، وسأله رجل من بنى القَيْن فقال: مَنْ المغضوبُ عليهم يا رسول الله ؟ قال :« اليهود » قال : فمن الضالون ؟ قال : « النصارى»[(٥)] .وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن شقيق عن أبى

---

(١) قال الشاعر :

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحى المضلَّل أين ساروا

والضلضلة : حجر أملس يردده الماء فى الوادى ، وكذلك الغضبة صخرة فى الجبل مخالفة لونه . قال الشاعر :

أو غضبة فى هضبة ما أمنعا

(٢) فى المطبوعة : « الأنبارى ». والصواب : « ابن الأنبارى » ، كما هو فى المخطوطة .

(٣) ابن جرير ١/ ٥٨، ٥٩ وفى إسناده عثمان بن سعيد مقبول ، ولم يتابع ، فحديثه ضعيف ، وباقى رجال الإسناد موثقون .

(٤) ابن جرير ١/ ٥٩ من طريق ابن جريج ، عن ابن عباس ، ولم يسمع منه ، فالإسناد منقطع .

(٥) أحمد ٥/ ٧٣ ، ٧٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣١٤ : « ورجال الجميع رجال الصحيح » وابن جرير ١/ ٦٢ ، ٦٤ .

ذر ، قال : سألت رسول الله ﷺ فذكره [١] وأخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن عبد الله بن شقيق ، قال : كان رسول الله ﷺ : يحاصر أهل وادى القرى فقال له رجل. . . إلخ ، ولم يذكر فيه أخبرنى من سمع النبى ﷺ كالأول [٢] . وأخرجه البيهقى فى الشعب عن عبد الله بن شقيق عن رجل من بنى القين عن ابن عم له ؛ أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرجه سفيان بن عيينة فى تفسيره ، وسعيد بن منصور عن إسماعيل بن أبى خالد ؛ أن النبى ﷺ قال : « المغضوب عليهم : اليهود، والضالون : النصارى »[٣] . وأخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسّنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه عن عَدِىّ بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المغضوب عليهم هم اليهود ، وإن الضالين النصارى » [٤] . وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان، والحاكم وصححه، والطبرانى عن الشَّرِيد قال : مر بى رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا ، وقد وضعت يدى اليسرى خلف ظهرى ، واتكأت على أَلْية يدى [٥] فقال : « أتقعُدُ قِعْدَة المغضوبِ عليهم؟»[٦] . قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدى بن حاتم : وقد روى حديث عدى هذا من طرق ، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها . انتهى .

والمصير إلى هذا التفسير النبوى مُتَعَيِّن ، وهو الذى أطبق عليه أئمة التفسير من السلف . قال ابن أبى حاتم : لا أعلم خلافًا بين المفسرين فى تفسير المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى ، ويشهد لهذا التفسير النبوى آيات من القرآن، قال الله تعالى فى خطابه لبنى إسرائيل فى سورة البقرة : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ [البقرة : ٩٠]، وقال فى المائدة : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾ [المائدة: ٦٠] ، وفى السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل ، أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قال اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك

---

(١) رواية ابن مردويه ذكرها ابن كثير فى التفسير ، وأشار ابن حجر فى الفتح ٨/ ١٢٢ إلى أنها بإسناد حسن . وهى تفسير الصحابى المبهم فى الرواية السابقة واللاحقة .

(٢) ابن جرير ١/ ٦١، ٦٢ ، ٦٤ .

(٣) هذا إسناد مرسل .

(٤) أحمد ٤/ ٣٧٨، ٣٧٩ والترمذى فى التفسير (٢٩٥٣ ، ٢٩٥٤) وقال : « حسن غريب » ، وابن جرير ١/ ٦١، ٦٤ وصححه ابن حبان (٦٢١٣) .

(٥) ألية اليد : أصلها .

(٦) أحمد ٤/ ٣٨٨ وأبو داود فى الأدب (٤٨٤٨) والطبرانى (٧٢٤٢ ، ٧٢٤٣) وصححه ابن حبان (٥٦٤٥) والحاكم ٤/ ٢٦٩ ووافقه الذهبى .

من غضب الله . فقال : أنا من غضب الله أفرّ ، وقالت له النصارى : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ نصيبك من سخط الله ، فقال: لا أستطيعه . فاستمر على فطرته ، وجانب عبادة الأوثان .

فائدة فى مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة :

اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواترًا ، قد دلت على ذلك ، فمن ذلك : ما أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذى عن وائل بن حُجْر قال :سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ : فقال:« آمين» مدّ بها صوته[(١)] . ولأبى داود : رفع بها صوته . وقد حسّنه الترمذى . وأخرجه أيضًا النسائى وابن أبى شيبة وابن ماجة والحاكم وصححه[(٢)] .وفى لفظ من حديثه : أنه ﷺ قال : « رب اغفر لى . آمين » أخرجه الطبرانى والبيهقى[(٣)] . وفى لفظ أنه قال: « آمين» ثلاث مرات . أخرجه الطبرانى[(٤)] . وأخرج وكيع وابن أبى شيبة عن أبى ميسرة ، قال : لما أقرأ جبريلُ رسولَ الله ﷺ فاتحة الكتاب ، فبلغ ﴿**ولا الضالين** ﴾ قال : قل: آمين، فقال : « آمين » [(٥)] . وأخرج ابن ماجة عن على قال : سمعت رسول الله ﷺ إذا قال : ﴿ **ولا الضالين** ﴾ قال : « آمين»[(٦)]. وأخرج مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة عن أبى موسى، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ـ يعنى الإمام ـ : ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ فقولوا: آمين يجبكم[(٧)] الله» [(٨)] . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبى شيبة وغيرهم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا ، فإن من وافق تأمينُه تأمين الملائكة غفِر له ما تقدم من ذنبه » [(٩)] .

---

(١) أحمد ٤/٣١٦ ، ٣١٨ وأبو داود فى الصلاة (٣٩٢) والترمذى فى الصلاة (٢٤٨) وقال : « حسن » .

(٢) النسائى فى الافتتاح ١/١٢٢ وابن أبى شيبة ١٠/٥٢٥ (١٠٢٠٤) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٥٥) .

(٣) البيهقى ٢/٥٨ والطبرانى ٢٢/٤٢ (١٠٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/١١٦ : « فيه أحمد بن عبد الجبار العطاردى ، وثقه الدارقطنى ، وأثنى عليه أبو كريب ، وضعفه جماعة ، وقال ابن عدى : لم أر له حديثا منكرًا» وضعفه الحافظ ابن حجر .

(٤) الطبرانى ٢٢/٢٢ (٣٨) وقال الهيثمى ٢/١١٦ : « ورجاله ثقات » وقال محققه : « إن شيخ الطبرانى وهو محمد بن عثمان بن أبى شيبة متهم بالكذب ، فكيف تقبل منه هذه المخالفة؟! » .

(٥) ابن أبى شيبة ٢/٤٢٥ .

(٦) ابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٥٤) وقال فى الزاوئد : « فى سنده ابن أبى ليلى ، وهو محمد بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، ضعفه الجمهور» ، وقال أبو حاتم : « محله الصدق . وباقى رجاله ثقات ».

(٧) فى المطبوعة : « يحبكم » ، بالحاء بدل الجيم ، والصواب بالجيم كما فى الأصول والمخطوطة .

(٨) جزء من حديث رواه مسلم فى الصلاة (٦٢/٤٠٤) وأبو داود فى الصلاة (٢٧٩) والنسائى فى الافتتاح ٢/٢٤١ أما ابن ماجة فلم يرو هذه القطعة، وإن كان روى بعض الحديث فى إقامة الصلاة (٨٤٧)، (٩٠١).

(٩) البخارى فى التفسير (٤٤٧٥) ومسلم فى الصلاة (٧٢/٤١٠) وأبو داود فى الصلاة (٩٣٥) والترمذى فى الصلاة (٢٥٠) والنسائى فى الافتتاح ٢/١٤٤ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٥١ ، ٨٥٢) وأحمد ٢/٢٣٣، ٢٧٠ ، ٤٤٩ وابن أبى شيبة (١٨٢٤١) ومالك فى الصلاة (٤٥) .

وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي بسند ـ قال السيوطي : صحيح ـ عن عائشة ؛ أن النبي ﷺ قال : « ما حسدتكم اليهودُ على شيءٍ ما حسدتكم على السلام والتأمين »[١] . وأخرج ابن عدى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهود قومٌ حَسَدٍ ، حسدوكم على ثلاثة : إفشاء السلام ، وإقامةِ الصف ، وآمين » [٢] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ مثله. وأخرج ابن ماجة بسند ضعيف عن ابن عباس قال : ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين ، فأكثروا من قول: آمين [٣] ، ووجه ضعفه أن فى إسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف . وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ثم قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قال: آمين ، لم يَبْقَ مَلَكٌ مقرَّبٌ فى السماء إلا استغفر له ». وأخرج أبو داود عن بلال أنه قال: يا رسول الله ، لا تسبقنى بآمين [٤] .

ومعنى آمين : استجب . قال القرطبى فى تفسيره : معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء ، وقال فى الصحاح : معنى آمين كذلك فليكن .

وأخرج جُوَيْبر فى تفسيره عن الضحاك ، عن ابن عباس مثله . وأخرج وكيع وابن أبى شيبة فى المصنف عن هلال بن يِسَافٍ ومجاهد ؛ قالا : آمين اسم من أسماء الله . وأخرج ابن أبى شيبة عن حكيم بن جبير مثله . وقال الترمذى : معناه لا تخيب رجاءنا .

وفيه لغتان ، المد على وزن فاعيل كياسين. والقصر على وزن يمين، قال الشاعر فى المد :

يَا رَبُّ لا تَسْلبنى حُبَّها أبدًا   وَيَرْحمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَا

وقال آخر :

آمين آمين لا أرْضَى بِواحِدةٍ   حَتَّى أبَلِّغها ألفَين آمِينَا

قال الجوهرى : وتشديد الميم خطأ . وروى عن الحسن ، وجعفر الصادق ، والحسين بن فضل التشديد ، من أمَّ إذا قصد، أى نحن قاصدون نحوك ، حكى ذلك القرطبى . قال الجوهرى : وهو مبنى على الفتح مثل : أين وكيف ، لاجتماع الساكنين ، وتقول منه : أمَّن فلان تأمينًا . وقد اختلف أهل العلم فى الجهر بها وفى أن الإمام يقولها أم لا ؟ وذلك مبين فى مواطنه .

---

(١) أحمد ٦/ ١٣٥ وابن ماجة ـ واللفظ له ـ فى إقامة الصلاة (٨٥٦) وقال فى الزوائد: « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » ، وقد احتج مسلم بجميع رجاله » ، والبيهقى ٢/ ٥٦ .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٣/ ٢٥٠ .

(٣) ابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٥٧) ، وقد جاء فى المطبوعة : « فأكثر » ، بالإفراد ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) أبو داود فى الصلاة (٩٣٧) ، وابن أبى شيبة ٢/ ٤٢٥ .

تفسير سورة البقرة

قال القرطبى فى تفسير سورة البقرة : مدنية ، نزلت فى مُدَدٍ شتى . وقيل : هى أول سورة نزلت بالمدينة ، إلا قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾ [البقرة : ٢٨١] ، فإنها آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى، وآيات الربا أيضًا من أواخر ما نزل من القرآن .انتهى .

وأخرج أبو الضريس فى فضائله ، وأبو جعفر النحاس فى الناسخ والمنسوخ ، وابن مردويه ، والبيهقى فى دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس ، قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج أبو داود فى الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال : أول سورة أنزلت بالمدينة سورة البقرة .

وقد ورد فى فضلها أحاديث ، منها :

ما أخرجه مسلم والترمذى وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، ومحمد بن نصر عن النوّاس ابن سَمْعَانَ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقرآن وأهله ، الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تَقدمُهُم سورة البقرة ، وآل عمران » قال : وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثةَ أمثال، ما نَسيتهنَّ بعدُ ، قال : « كأنهما غمامتان ، وكأنهما غيايتان [(١)] ، أو كأنهما ظلتان سوداوان ، أو كأنهما فِرْقَان من طير صَوَاف ، تُحَاجَّان عن صاحبهما »[(٢)] .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه عن بُرَيْدَةَ ، قال : قال رسول الله ﷺ: «تعلَّمُوا سورةَ البقرةِ فإن أخذها بركةٌ ، وتركَها حَسْرَةٌ ، ولا يستطيعها البَطَلَة » [(٣)] ، ثم سكت ساعة ثم قال: « تعلموا سورة البقرة ، وآل عمران ، فإنهما الزهراوان ، تُظلان صاحبهما يوم القيامة ، كأنهما غمامتان ، أوغيابتان[(٤)] ، أو فرْقَان[(٥)] من طيرٍ صَوَاف » [(٦)] . قال ابن كثير : وإسناده حسن على شرط مسلم . وأخرج نحوه أبو عبيد

(١) الغياية : كل شىء أظلك فوق رأسك ، كالسحابة وغيرها . النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٤٠٣ .

(٢) مسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٥/ ٢٥٣) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٣) وقال : « حسن غريب » وأحمد ٤/ ١٨٣ والبخارى فى التاريخ الكبير ٤/ ٢/ ١٤٧، ١٤٨ ومحمد بن نصر المروزى فى قيام الليل (١١٦) والبيهقى فى الشعب (٢١٥٨) .

(٣) البَطَلَة : السحرة ،يقال : أبطل ، إذا جاء بالباطل . النهاية فى غريب الحديث ١/ ١٣٦ .

(٤) الغيابة :كالغياية ، وقال لبيد :

فتدليت عليه قافلاً وعلى الأرض غيابات الطفل

(٥) فرْقَان : قطعتان . النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٤٤٠ .

(٦) أحمد ٥/ ٣٥٢ ، ٣٦١ والدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٠ وصححه الحاكم ١/ ٥٦٠ على شرط مسلم وافقه الذهبى .

وأحمد وحميد بن زنجويه ومسلم وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعا[١]. وأخرج نحوه أيضا الطبراني وأبو ذر الهروي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا [٢]. وأخرج نحوه أيضا البزار في سننه بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعا[٣].

وأخرج مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يَنْفِرُ من البيت الذي يُقْرَأ فيه سورةُ البقرة» [٤] ،وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعًا . وأخرج ابن عديّ في الكامل ، وابن عساكر في تاريخه عن أبي الدرداء مرفوعًا نحوه. وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد اللّه بن مُغَفَّل مرفوعا نحوه[٥] .وأخرج النسائي والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود مرفوعًا نحوه ، وسنده ضعيف [٦] .وأخرجه الدارمي والبيهقي والحاكم وصححه من حديثه بنحوه [٧] .

وأخرج أبو يعلى وابن حبان والطبراني والبيهقي عن سهل بن سعد الساعدي ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إنَّ لكل شيءٍ سَنَامًا ، وسنامُ القرآن سورةُ البقرة ، من قرأها في بيته نهارًا لم يدخلْه الشيطانُ ثلاثةَ أيامٍ ، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخلْه الشيطانُ ثلاثَ ليالٍ » [٨] . وأخرج أحمد ومحمد بن نصر والطبراني بسندٍ صحيحٍ عن مَعْقِل بن يَسَارٍ ؛ أن رسولَ اللّه ﷺ قال : « البقرةُ سنامُ القرآن وذُرْوَتُه ، نزل معَ كل آيةٍ منها ثمانون ملكًا ، واستخرجت ﴿ اللّه لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها »[٩] .وأخرج البغوي في معجم الصحابة ، وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة الجرشي [١٠] ؛ قال :سئل رسول اللّه

---

(١) أحمد ٥/٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤ / ٢٥٢) وعبد الرزاق (٥٩٩١) وابن حبان (١١٦) والحاكم ١/ ٥٦٤ والطبراني (٧٥٤٢ ـ ٧٥٤٤) و (٨١١٨) والبيهقي في السنن ٢/ ٣٩٥ وفي الشعب (١٨٢٧، ٢١٥٦) .

(٢) الطبراني (١١٨٤٤) وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ٣١٦ : « فيه عاصم بن هلال البارقي ، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه ابن معين وغيره ، وعبدالرحمن بن خلاد وعمرو بن مخلد الليثي لم أعرفهما » .

(٣) البزار (٢٣٠٣) .

(٤) مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٠/ ٢١٢) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧) وأحمد ٢/ ٢٨٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ والنسائي في عمل اليوم والليلة من الكبرى (١٠٨٠١) .

(٥) قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٣١٥ : « رواه الطبراني ، وفيه عدي بن الفضل ، وهو ضعيف » .

(٦) النسائي في عمل اليوم والليلة من الكبرى (١٠٧٩٩) والطبراني في الكبير (٨٦٤٤) والبيهقي في الشعب (٢١٦٠) والحاكم ١/ ٥٦١ .

(٧) الدارمي في فضائل القرآن ٢/ ٤٤٦ ، ٤٤٧ والبيهقي في الشعب (٢١٥٩) بإسناد حسن ، وصححه الحاكم ١/ ٥٦١ ووافقه الذهبي والنسائي في السابق (١٠٨٠٠) وهو موقوف من كلام ابن مسعود .

(٨) أبو يعلى (٧٥٥٤) وصححه ابن حبان (٧٧٧) والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) والبيهقي في الشعب (٢١٩١) وفي إسناده لين ، وأورده الألباني في ضعيف الجامع الصغير (١٩٣١) .

(٩) أحمد ٥/ ٢٦ والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٤ ، ١٠٧٥) والطبراني في الكبير ٢٠/ ٢٢٠ (٥١١)، ٢٣١ (٥٤١) وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ٣١٤ : « رواه أحمد ، وفيه راوٍ لم يسم ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(١٠) في المطبوعة : « الجرسي » بالسين المهملة ، وهو تصحيف ، والصواب : الجُرَشي ، بالشين المعجمة كما في المخطوطة . وانظر : الإصابة ، وبهامشه الاستيعاب ١/ ٥١٠ وضبطه : بضم الجيم وفتح الراء ، وكسر الشين =

ﷺ : أى القرآن أفضل ؟ قال : «السورة التى يُذْكَرُ فيها البقرة » قيل : فأى البقرة أفضل ؟ قال: « آية الكرسى ، وخواتيم سورة البقرة ، نزلت من تحت العرش » (١) .

وأخرج أبو عبيد وأحمد ، والبخارى فى صحيحه تعليقًا ، ومسلم والنسائى عن أُسَيْد بن حُضَيْر، قال : بينما هو يقرأ من الليل سورةَ البقرة وفرسُهُ مربوطةٌ عنده ، إذْ جَالَتِ الفرسُ ، فسكتَ ، فسكنَتْ ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فسكتَ ، فسكنَتْ ،ثم قرأ فجالت الفرس ، فسكت ، فسكنَتْ، فانصرف إلى ابنه يحيى، وكان قريبًا منها، فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء ، فإذا هو بمثل الظُّلَّة ، فيها أمثال المصابيح ، عَرَجت إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدّث رسولَ اللّه ﷺ بذلك ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أتدرى ما ذاك ؟ » قال: لا يا رسول اللّه، قال :« تلك الملائكة دَنَتْ لصوتِك ، ولو قرأتَ لأصبَحت تنظُرُ إليها الناس ، لا تتوارى منهم »(٢) ، ولهذا الحديث ألفاظ .

وأخرج الترمذى وحسَّنه والنسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه عن أبى هريرة، قال : بعث رسول اللّه ﷺ بعثًا ، فاستقرأ كل رجل منهم ــ يعنى ما معه من القرآن ــ فأتى على رجل من أحدثهم سنًا فقال : « ما معك يا فلان؟» قال : معى كذا وكذا ، وسورة البقرة، قال : « أمعك سورة البقرة ؟» قال : نعم . قال :« اذهبْ فأنتَ أميرهم »(٣) . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عثمان بن أبى العاص قال : استعملنى رسول اللّه ﷺ وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف ، وذلك أنى كنت قرأت سورة البقرة (٤) .

وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن الصلصال بن الدلهمس (٥) ؛أن رسول اللّه ﷺ قال : « اقرؤوا سورةَ البقرة فى بيوتكم ولا تجعلوها قبورًا » قال : « ومن قرأ سورة البقرة فى ليلة تُوِّج بتاجٍ فى الجنة» (٦).وأخرج أبو عبيد عن عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه

= المعجمة ، نسبة إلى جُرَش ، واسم جرش : منبه بن أسلم بن زيد بن الغوث . وجرش : أرض معروفة ، قطنتها هذه القبيلة بنو منبه بن أسلم ، فقد يطلق الاسم على الأرض وهو الأكثر ، وقد يطلق على القبيلة وعلى جدها منبه . انظر: الإكمال لابن ماكولا ٢/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(١) ربيعة الجرشى مختلف فى صحبته ، والحديث رواه البغوى من طريق على بن رباح عنه . انظر: الإصابة وبهامشه الاستيعاب ١/ ٥١٠ .

(٢) علقه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٨) بإسنادين وصلهما أبو عبيد فى فضائل القرآن ، كما ذكر ابن حجر. وأخرجه أحمد ٣/ ٨١ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٦/ ٢٤٢) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٤٠) والطبرانى فى الكبير (٥٦١ وما بعده) ، وصححه ابن حبان (٧٧٦) والحاكم ١/ ٥٥٤ . وليس فى رواية مسلم والنسائى وأحمد وبعض روايات الطبرانى ذكر سورة البقرة .

(٣) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٧٦) وقال : « حسن » والنسائى فى السيرِ من السنن الكبرى (٨٧٤٩) وصححه الحاكم ١/ ٤٤٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وروى بعضه ابنُ ماجة فى المقدمة (٢١٧) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٠٨ .

(٥) فى المطبوعة : « الديهمس » ، والصواب « الدَّلَهمس » ، بلام بدل الياء كما فى المخطوطة . انظر: ترجمته فى أسد الغابة ٣/ ٣٣ (٢٥٢٩) والثقات لابن حبان (١٩٧٣) والإصابة ٢/ ١٩٣ وغيرها .

(٦) البيهقى فى الشعب (٢١٦٧) وإسناده ضعيف ، فيه محمد بن الضوء بن الصلصال ، قال فيه ابن حبان : « لا يجوز الاحتجاج بمحمد بن الضوء » وكذبه الجوزقانى والخطيب (الإصابة ٢/ ١٩٣) وحكم بوضعه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٥٧٨٣) .

جرير بن يزيد ؛ أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول الله ﷺ قيل له : ألم تر إلى ثابت ابن قيس بن شَمَّاس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح ؟ قال : « فلعله قرأ سورة البقرة » ، قال : فسئل ثابت ، فقال : قرأتُ سورةَ البقرة [١] . قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهامًا ، ثم هو مرسل [٢] .

وقد روى أئمة الحديث في فضائلها أحاديث كثيرة ، وآثارًا عن الصحابة واسعةٌ ، ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي ، وما هو خاص بخواتم هذه السورة ، وقد سبق بعض ذلك، وما هو في فضلها ، وفضل « آل عمران» وقد سبق أيضًا بعض من ذلك ، وما هو في فضل السبع الطوال ، كما أخرج أبو عبيد عن وَاثِلَةَ بنِ الأسْقَع عن النبي ﷺ ، قال : «أعْطيتُ السبعَ مكانَ التوراة ، وأعطيتُ المئين مكانَ الإنجيلِ ، وأعطيت المثانيَ مكان الزَّبور، وفُضِّلْتُ بالْمُفَصَّل » [٣] ،وفي إسناده سعيد بن بُشَيْر وفيه لينٌ [٤] ، وقد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبي هلال .

وأخرج أيضًا عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أخَذَ السبع فهو خير » . وقد رواه عنها أحمد في المسند باللفظ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير » [٥] . وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثاني ﴾ [الحجر : ٨٧] قال : هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام، والأعراف ، ويونس [٦] .وبذلك قال مجاهد ، ومكحول ، وعطية بن قيس، وأبو محمد القارى شداد بن عبد الله، ويحيى بن الحارث الذِّماري .

وقد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل : سورة البقرة ، ولا سورة آل عمران ، ولا سورة النساء ، وكذا القرآن كله ، فأخرج ابن الضريس ، والطبراني في الأوسط وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ:« لا تقولوا :سورة البقرة، ولا سورة آل عمران ، ولا سورة النساء ، وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة ، والسورة التي يذكر فيها آل عمران ، وكذا القرآن كله»[٧]. قال ابن كثير :

---

(١) أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٣/أ من المخطوطة . (٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣ ط . الشعب .

(٣) رواه ابن جرير ١/ ٤٤ والطبراني في الكبير ٢٢/ ٧٦ (١٨٧) والبيهقي في الشعب (٢٢٥٦) .

(٤) تابعه عمران القطان عند الطيالسي (١٩١٨) وأحمد ٤/ ١٠٧ والطبراني (١٨٦) والبيهقي في الشعب (٢١٩٢، ٢٢٥١) وعمران مختلف فيه ، والإسناد حسن ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٠٧٠) .

(٥) كذا في الأصل ومجمع الزوائد والمستدرك ، والصواب : « حَبْر » بحاء مهملة ثم باء موحدة ، كما في المسند وابن كثير والشعب ، والحديث عند أحمد ٦/ ٧٣ ، ٨٢ ، وصححه الحاكم ١/ ٥٦٤ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٢١٩١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٨٥٥) .

(٦) ابن جرير ٤/ ٤٥ ، ٥٣ ، و١٤/ ٥٢ والبيهقي في الشعب (٢١٩٥) ورجاله ثقات .

(٧) البيهقي في الشعب (٢٣٤٦) وقال : « عبيس بن ميمون منكر الحديث ، وهو لا يصح » وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٠ : « رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبيس بن ميمون وهو متروك » ، ورواه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤١٨ وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٥٠، ٢٥١ وتعقبه ابن حجر كما في اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٣٩ . وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٦ .

هذا حديث غريب لايصح رفعه ، وفى إسناده عبيس بن ميمون الخواص [(١)] وهو ضعيف الرواية لا يحتج به . وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال : لا تقولوا: سورة البقرة ، ولكن قولوا : السورة التى تذكر فيها البقرة [(٢)] .

وقد روى عن جماعة من الصحابة خلاف هذا . فثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود ؛ أنه رمى الجمرة من بطن الوادى ، فجعل البيت عن يساره ومنىً عن يمينه ثم قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ومسلم وأهل السنن ، والحاكم وصححه عن حذيفة ، قال : صليت مع رسول الله ﷺ ليلةً من رمضانَ ، فافتتح البقرةَ ، فقلتُ : يصلى بها فى ركعة ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها مُتَرسِّلا [(٤)] الحديث . وأخرج أحمد وابن الضريس والبيهقى عن عائشة ، قالت : كنت أقوم مع رسول الله ﷺ فى الليل ، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء [(٥)] . وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى والبيهقى عن عوف بن مالك الأشجعى ، قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام ، فقرأ سورةَ البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف [(٦)] . الحديث.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ الم ﴾ قال القرطبى فى تفسيره : اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور، فقال الشعبى ، وسفيان الثورى ، وجماعة من المحدثين :هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه ، ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ، وتمر[(٧)] كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق ، وعلى

---

(١) فى الأصل :« يحيى بن ميمون »، والذى فى ابن كثير : « عيسى بن ميمون أبو سلمة الخواص » وهو ضعيف له ترجمة فى ميزان الاعتدال ٣/ ٢٢٦ ، والذى أراه أن ابن كثير وهم ، والصواب : عبيس بن ميمون كما فى الشعب ومجمع الزوائد وغيرها ، وانظر : ترجمته فى الميزان ٣/ ٢٦ ، ٢٧ والكامل لابن عدى ٥/ ٣٧٣ (١٥٣٧) والضعفاء للعقيلى ٣/ ٤١٨ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٣٤٧) موقوفًا على ابن عمر .

(٣) البخارى فى الحج (١٧٤٧ ــ ١٧٥٠) ومسلم فى الحج (١٢٩٦ / ٣٠٥ ـ ٣٠٩) وأبو داود فى المناسك (١٩٧٤) والترمذى فى الحج (٩٠١) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٧٣ ، ٢٧٤ وابن ماجة فى المناسك (٣٠٣٠) والبيهقى فى السنن ٥/ ١٢٩ وفى الشعب (٢٣٤٨) وابن أبى شيبة فى المصنف ٤/ ٤١ وأحمد ١/ ٤١٥ .

(٤) أحمد ٥/ ٣٨٤ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٢ / ٢٠٣) والترمذى فى الصلاة (٢٦٣) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى الافتتاح٢/ ٢٣٤ وصححه الحاكم ١/ ٣٢١ على شرطهما ووافقه الذهبى وروى بعضه أبو داود فى الصلاة (٨٧١) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٧٦ ، ١٩٠ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٥١) .

(٥) جزء من حديث عند أحمد ٦/ ٩٢ ، ١١٩ وأبى يعلى (٤٨٤٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٧٥: « فيه ابن لهيعة ، وفيه كلام » لكن تابعه يحيى بن أيوب عند البيهقى فى السنن ٢/ ٣١٠ فالإسناد حسن إن شاء الله .

(٦) أبو داود فى الصلاة (٨٧٣) والترمذى فى الشمائل (٣٠٦) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ٢٢٣ والبيهقى فى السنن ٢/ ٣١٠ .

(٧) فى المطبوعة : « وتمدُّ » والصواب « وتمرّ » ، بالراء ، كما فى المخطوطة .

ابن أبى طالب . قال : وذكر أبو الليث السمرقندى ، عن عمر وعثمان ، وابن مسعود ، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف فى القرآن إلا فى أوائل السور، ولا ندرى ما أراد الله ـ عز وجل .

قال : وقال جمع من العلماء كثير : بل نحب أن نتكلم فيها ، ونلتمس الفوائد التى تحتها والمعانى التى تتخرج عليها . واختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ، فروى عن ابن عباس ، وعلى أيضًا ، أن الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب ، والفراء ، وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن ، أنه مؤتلف من حروف هى التى بناء كلامهم عليها ، ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم ، إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون عند استماع القرآن ، فلما نزل ﴿الـم﴾ و ﴿المص ﴾ [الأعراف :١] استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له ﷺ أقبلوا عليه بالقرآن المؤتلف ، ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم . وقال قوم :روى أن المشركين لما أعرضوا عن القرآن بمكة قالوا : ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فصلت : ٢٦] فأنزلها ؛ استغربوها ، فيفتحون أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها ، وحذفت بقيتها ، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد . وذهب إلى هذا الزجاج ، فقال : وذهبوا إلى أن كل حرف منها يؤدى عن معناه ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطَّعة كقوله :

فقلت لها : قفى ، فقالت : قَاف

أى : وقفت . وفى الحديث : « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة »(١) قال شقيق : هو أن يقول فقرة فى اقتل : اق، كما قال ﷺ : « كيف بالسيف شا » أى شافيًا ، وفى نسخة: شاهدًا (٢). وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسور . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله بها لشرفها ، وفضلها ، وهى من أسمائه .

ومن أدق ما أبـــرزه المتكلمون فى معانى هذه الحروف ، ما ذكره الزمخشرى فى الكشاف فإنه قال : «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله ـ عز سلطانه ـ فى الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر سواء : وهى الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والطاء ، والسين ، والحاء ،

---

(١) جزء من حديث أبى هريرة ، أخرجه ابن ماجة فى الديات (٢٦٢٠) وفى الزوائد : « فى إسناده يزيد بن أبى زياد ، بالغوا فى تضعيفه ، حتى قيل: كأنه حديث موضوع » . وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٤٥٥) .

(٢) جزء من حديث سعد بن عبادة عند ابن ماجة فى الحدود (٢٦٠٦) وفى الزوائد : « فى إسناده قبيصة بن حريث بن قبيصة ، قال البخارى : فى حديثه نظر ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وباقى رجال الإسناد موثقون» .

والقاف، والنون فى تسع وعشرين سورة ، على عدد حروف المعجم ، ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف . بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد ، والكاف ، والهاء ، والسين ، والحاء . ومن المجهورة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والعين ، والطاء ، والقاف ، والياء ، والنون . ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف ، والطاء ، والقاف . ومن الرخوة: نصفها: اللام ، والطاء . والميم، والراء ، والصاد ، والهاء ، والعين ، والسين، والحاء ، والياء، والنون . ومن المطبقة نصفها: الصاد ، والطاء. ومن المنفتحة نصفها : الألف، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والياء ، والنون . ومن المستعلية نصفها : القاف ، والصاد ، والطاء . ومن المنخفضة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والتاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والنون . ومن حروف القلقلة نصفها: القاف ، والطاء ، ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التى ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة ، مكنوزة بالمذكورة منها ، فسبحان الذى دقت فى كل شيء حكمته . وقد علمت أن معظم الشيء وجُلَّه ينزل منزلة كله ،وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته ،فكأن الله ـ عز اسمه ـ عدد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم ، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم ، وإلزام الحجة إياهم ، وما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعًا فى تراكيب الكلم ، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعها فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررتين، وهى فواتح سورة البقرة ، وآل عمران ، والروم ، والعنكبوت ، ولقمان ، والسجدة، والأعراف ، والرعد ، ويونس، وإبراهيم ، وهود ، ويوسف ، والحجر . انتهى [(١)] .

وأقول : هذا التدقيق لا يأتى بفائدة يعتد بها ، وبيانه : أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال ؛ فهذا متيسر بأن يقال لهم : هذا القرآن هو من الحروف التى تتكلمون بها، ليس هو من حروف مغايرة لها ، فيكون هذا تبكيتًا وإلزامًا يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية ، وتفريق لهذه الحروف فى فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل، الذى لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح ، هو أيضًا مما لايفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيئًا منه ، فضلا عن أن يكون تبكيتا له ، وإلزامًا للحجة أيا كان .فإن ذلك هو أمر وراء الفهم ، مترتب عليه ، ولم يفهم السامع هذا ، ولا ذكر أهل العلم من فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدى لهم بالقرآن ، أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلا عن كله، ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف، التى تركبت لغة العرب منها ، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف ، هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلى ولا إسلامى ، ولا مقر، ولا منكر ، ولا مسلم ، ولا معارض ، ولا يصح أن يكون مقصداً من مقاصد الرب سبحانه ، الذى أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه

(١) الكشاف ١/ ٢٠ ، ٢١ .ط دار القرآن ، القاهرة .

والهداية به .

وهب أن هذه صناعة عجيبة ، ونكتة غريبة ، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة ؛ حتى يكون مفيدًا أنه كلام بليغ ، أو فصيح ، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة فى الفواتح ليست من جنس كلام العرب ، حتى يتصف بهذين الوصفين ، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم ، ولا مدخل لذلك فيما ذكر ، وأيضًا لو فرض أنها كلمات متركبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها ، لم يصح وصفها بذلك ؛ لأنها تعمية غير مفهومة للسامع ، إلا بأن يأتى من يريد بيانها بمثل ما يأتى به من أراد بيان الألغاز والتعمية . وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة ، فى ورد ولا صدر [1] ، بل من عكسهما وضد رسمهما.

وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم فى بيان معانى هذه الحروف جازمًا بأن ذلك هو ما أراده اللّه ــ عز وجل ــ فقد غلط أقبح الغلط وركب فى فهمه ودعواه أعظم الشطط[2] ، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعًا إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت . فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك ، وإذا سمعه السامع منهم كان معدودًا عنده من الرَّطَانة ، ولا ينافى ذلك أنهم يقتصرون على أحرف أو حروف من الكلمة ، التى يريدون النطق بها ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ، ويفيد معناه ، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره ، ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم ، وأين هذه الفواتح الواقعة فى أوائل السور من هذا ؟

وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادَّعوه من لغة العرب وعلومها ، لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين :

الأول : التفسير بمحض الرأى الذى ورد النهى عنه والوعيد عليه ، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه ، والصد عنه، والتنكُّب عن طريقه ، وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبةً لهم يتلاعبون به، ويضعون حماقات أنظارهم ، وخُزَعْبَلات أفكارهم عليه .

الثانى : التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع ، وهذا هو المهيع الواضح[3] ، والسبيل القويم ، بل الجادة التى ما سواها مردوم ، والطريقة العامرة التى ما عداها معدوم ، فمن وجد شيئًا من هذا فقير ملوم أن يقول بملء فيه ، ويتكلم بما وصل إليه علمه ، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل : لا أدرى ، أو الله أعلم بمراده ، فقد ثبت النهى عن طلب فهم المتشابه ، ومحاولة الوقوف على علمه ؛ مع كونه ألفاظًا عربية ، وتراكيب مفهومة ، وقد جعل الله تتبع

(١) الوِرْد خلاف الصدر. لسان العرب ٣/ ٤٥٧. والأول : الإشراف على الشيء ، والثانى : الرجوع عنه ، والمعنى : أن هذا الكلام ليس من البلاغة فى شيء أصلا .

(٢) أشط فى القضية أى جار ، وأشط فى السوم واشتط أى أبعد ، والشطط : مجاوزة القدر فى كل شيء ، وفى الحديث : « لها مهر مثلها ، لا وكس ولا شطط » . مختار الصحاح : ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) المهْيَع الواضح : الواسع البين ، والجمع مهاييع . لسان العرب ٨/ ٣٧٩ . والمقصود أنه الطريق السليم .

ذلك صنيع الذين فى قلوبهم زيغ ، فكيف بما نحن بصدده ؟ فإنه ينبغى أن يقال فيه : إنه متشابه المتشابه، على فرض أن للفهم إليه سبيلا ، ولكلام العرب فيه مدخلا ، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير ؟

وانظر كيف فهم اليهود عند سماع ﴿ الم ﴾ فإنهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذى يجعلونه لها ، كما أخرج ابن إسحاق ، والبخارى فى تاريخه، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله (١) قال : مرَّ أبو ياسر بن أخْطَبَ فى رجالٍ من يهود برسول الله ﷺ ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿ **الم . ذلك الكتاب لا ريب** ﴾ فأتَى أخاه حُيَيَّ بنَ أخطب فى رجالٍ من اليهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿ **الم . ذلك الكتاب**﴾ فقال: أنت سمعته ؟ فقال : نعم . فمشى حُيَيٌّ فى أولَئك النفر إلى رسول الله ، ﷺ ، فقالوا : يا محمد، ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿ **الم .ذلك الكتاب** ﴾ قال : « بلى » . قالوا : أجاءك بهذا (٢) جبريل من عند الله ؟ قال : « نعم » قالوا : لقد بعث الله قبلك الأنبياء ما نعلم بيَّن لنبىٍّ منهم ما مُدَّةُ مُلْكه ، وما أجَلُ أمته غيرك، فقال حُيَيٌّ بن أخطب وأقبل على من كان معه : الألف واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون فى دين نبى إنما مدة ملكه ، وأجل (٣) أمته ، إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟ قال : « نعم » قال: وما ذاك ؟ قال : ﴿المص ﴾ ، قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : « نعم » قال : وما ذاك ؟ قال :﴿ الر ﴾ قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان ، فهل مع هذا غيره ؟ قال :« نعم » ﴿ المر ﴾ قال: فهذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان . ثم قال : لقد لُبِّس علينا أمرُك يا مُحمدُ ، حتى ما ندرى قليلاً أعطيتَ أم كثيرا ؟ ثم قاموا ، فقال أبو ياسر لأخيه حُيَيٍّ ومن معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جُمِع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة ، فقالوا : لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنَّ أم الكتاب وأخَرُ متشابهات﴾ (٤) [آل عمران: ٧] .

---

(١) عند ابن هشام وابن جرير بزيادة (بن رئاب) .

(٢) عند ابن هشام : أجاءك بها .

(٣) عند ابن جرير « وأكل » بدل: « وأجل » .وفى اللسان مادة : أكل ١١/ ٢١، والأكْل : بضم فسكون : الرزق، يقال : هو عظيم الأكْل فى الدنيا ، أى عظيم الرزق ، وهو الحظ من الدنيا ، كأنه يؤكل . ويراد به : مدة العمر التى يعيشها الناس فى الدنيا ، يأكلون مما رزقهم الله ، فيقال للميت : انقطع أكله ، بمعنى انقضى عمره .

(٤) القصة رواها ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ١٨٧، ١٨٨) والبخارى فى التاريخ الكبير ١/ ٢/ ٢٠٧ ، ٢٠٨ وابن جرير ١/ ٧١ وأسانيدها ضعيفة .

فانظر ما بلغت إليه أفهامهم ، من هذا الأمر المختص بهم ، من عدد الحروف ، مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع ، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع ، ﴿**الم. ذلك الكتاب**﴾ من ذلك العدد موجبًا للتثبيط عن الإجابة له ، والدخول في شريعته ، فلو كان لذلك معنى يعقل ، ومدلولٌ يفهم ، لدفع رسول الله ﷺ ما ظَنُّوه بادئ بدء ، حتى لا يتأثر عنه ما جاؤوا به من التشكيك على من معهم .

فإن قلت : هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به ؟ قلت: لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها ، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها ، فأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وصححه ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ :« من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولامٌ حرفٌ ، وميم حرفٌ»[١] ،وله طرق عن ابن مسعود[٢] . وأخرج ابن أبي شيبة، والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي نحوه مرفوعًا[٣].

فإن قلتَ : هل روى عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله ، أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي ، عن ابن عباس وعلي ؟ قلت : قد روى ابن جرير ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود ؛ أنه قال : ﴿ الم ﴾ أحرف اشتقت من حروف اسم الله[٤] . وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿الم﴾، و﴿حم ﴾ ، ﴿ ن ﴾ قال : اسم مقطع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضًا في قوله : ﴿الم ﴾ ، و﴿المص﴾ ، و﴿ الر﴾ ، و﴿ المر﴾ ، و﴿ كهيعص ﴾ ، و﴿ طه ﴾ ، و﴿طسم ﴾ ، و ﴿طس﴾ و﴿ يس ﴾ ، و﴿ ص ﴾ ، و﴿ ق ﴾ ، و﴿ ن ﴾ قال : هو قسم أقسمه الله ، وهو من أسماء الله. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله : ﴿ الم ﴾ قال : هي اسم الله الأعظم . وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ **الم** ﴾ قال : ألف مفتاح اسمه الله ،

---

(١) البخاري في التاريخ الكبير١/ ١/ ١٩٢ ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠) وقال : « حسن صحيح غريب»، وصححه الحاكم ١/ ٥٦٦ وسكت عليه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (١٨٣١) وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٦٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٣٤٥).

(٢) ابن أبي شيبة (٩٩٨٣) والحاكم ١/ ٥٦٦ عن ابن مسعود موقوفًا .

(٣) ابن أبي شيبة (٩٩٨٢) والبزار (٢٣٢٣) والطبراني ٧/ ٨١ (٤١) وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٦ : « فيه موسى بن عبيدة الربذي ، وهو ضعيف » وأخرجه البيهقي في الشعب (١٨٣٠) بسند ضعيف .

(٤) في أصل المخطوطة جاءت العبارة هكذا :«﴿ الم ﴾ حرف اشتقت من حروف اسم الله » ، وفي المطبوعة جاءت هكذا : « ﴿ الم ﴾ حرف اشتقت من حروف باسم الله » ، والصواب الذى تستقيم به العبارة ما أثبتناه .

ولام مفتاح اسمه لطيف ، وميم مفتاح اسمه مجيد ، وقد روى نحو هذه التفاسير عن جماعة من التابعين فيهم عكرمة والشعبى والسُّدِّى وقتادة ومجاهد والحسن .

فإن قلت : هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال فى تفسير شىء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه ؟ قلت : لا لما قدمنا ، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ .

فإن قلت : هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ، ولا مدخل للغة العرب ، فلم لا يكون له حكم الرفع ؟ قلت : تنزيل هذا منزلةِ المرفوع ، وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم ، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين ، ولا سيما إذا كان فى مثل هذا المقام ، وهو التفسير لكلام الله سبحانه ، فإنه دخول فى أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح، إلا مجرد قولهم : إنه يبعد من الصحابى كل البعد أن يقول بمحض رأيه ، فيما لا مجال فيه للاجتهاد ، وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوِّغا للوقوع فى خطر الوعيد الشديد . على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه ، كما تجده كثيرا فى تفاسيرهم المنقولة عنهم ، ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه .

ثم ها هنا مانع آخر ، وهو أن المروى عن الصحابة فى هذا مختلف متناقض ، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكمًا لا وجه له ، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض ولا يجوز.

ثم ها هنا مانع غير هذا المانع، وهو أنه لو كان شىء مما [1] قالوه مأخوذًا عن النبى ﷺ لاتفقوا عليه ولم يختلفوا ، كسائر ما هو مأخوذ عنه ، فلمَّا اختلفوا فى هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذًا عن النبى ﷺ ، ثم لو كان عندهم شىء عن النبى ﷺ فى هذا لما تركوا حكايته عنه ، ورفعه إليه ، لاسيما عند اختلافهم ، واضطراب أقوالهم، فى مثل هذا الكلام الذى لا مجال للغة العرب فيه ، ولا مدخل لها .

والذى أراه لنفسى ولكل من أحب السلامة ، واقتدى بسلف الأمة ألا يتكلم بشىء من ذلك ، مع الاعتراف بأن فى إنزالها حكمة لله ــ عز وجل ــ لا تبلغها عقولنا ، ولا تهتدى إليها أفهامنا ، وإذا انتهيت إلى السلامة فى مداك فلا تجاوزه، وسيأتى لنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هن أمُّ الكتاب وأخر متشابهات﴾ [آل عمران : ٧] كلام طويل الذيول، وتحقيق تقبله صحيحات الأفهام ، وسليمات العقول .

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ .

الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الكتاب المذكور بعده . قال ابن جرير : قال ابن عباس :

(١) فى المطبوعة : « لما » ، والصواب « مما » ، كما فى المخطوطة .

﴿ ذلك الكتاب ﴾ هذا الكتاب ، وبه قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل وزيد ابن أسلم وابن جريج ، وحكاه البخارى عن أبى عبيدة . والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب ، مكان الإشارة إلى القريب الحاضر ، كما قال خفاف [١] :

أقولُ له والرمحُ يأطر مَتْنَه　　　تأمل خِفافا أننى أنا ذلِكا

أى أنا هذا . ومنه قوله تعالى : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ [السجدة: ٦] ، ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾[البقرة :٢٥٢ ، وآل عمران: ١٠٨ ، والجاثية:٦]، ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ [الممتحنة: ١٠] . وقيل: إن الإشارة إلى غائب ، واختلف فى ذلك الغائب ، فقيل: هو الكتاب الذى كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل ، والرزق .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أى لا مبدل له وقيل : ذلك الكتاب الذى كتبه الله على نفسه فى الأزل : أن رحمته سبقت غضبه، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده : إن رحمتى تغلب غضبى » [٢] ، وفى رواية : « سبقت » . وقيل : الإشارة إلى ما قد نزل بمكة. وقيل : إلى ما فى التوراة والإنجيل . وقيل : إشارة إلى قوله قبله : ﴿ الم ﴾ ، ورجحه الزمخشرى . وقد وقع الاختلاف فى ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبى ، وأرجحها ما صدَّرنَاه .

واسم الإشارة مبتدأ ، و﴿ الكتاب ﴾صفته ، والخبر ﴿ لاريب فيه ﴾ ومن جوّز الابتداء بـ ﴿ الم ﴾ جعل ﴿ ذلك﴾ مبتدأ ثانيا، وخبره :﴿ الكتاب ﴾ ، أو هو صفته ، والخبر﴿ لا ريب فيه﴾ . والجملة خبر المبتدأ ، ويجوز أن يكون المبتدأ مقدرًا ، وخبره ﴿ الم ﴾ وما بعده .

والريب : مصدر ، وهو قلق النفس واضطرابها ، وقيل : إن الريب الشك [٣] . قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى هذا خلافًا . وقد يستعمل الريب فى التهمة والحاجة ، حكى ذلك القرطبى . ومعنى هذا النفى العام : أن الكتاب ليس بمظنة للريب ؛ لوضوح دلالته وضوحًا

---

(١) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمى ، من مضر ، أبو خراشة ،شاعر وفارس ، كان أسود اللون، عاش زمنا طويلاً فى الجاهلية ، وله أخبار مع العباس بن مرداس ، ودريد بن الصمة ، وأدرك الإسلام فأسلم ، وشهد فتح مكة ، وكان معه لواء بنى سليم ، وشهد حنينا والطائف ، ومدح أبا بكر ، وتوفى فى أيام عمر فى سنة ٢٠ هـ . راجع : الأغانى ١٦/ ١٣٣ والإصابة ١/ ٤٥٢ .

(٢) مسلم فى التوبة (٢٧٥١/ ١٤ ـ ١٦) وأخرجه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) والتوحيد (٧٤٠٤ ، ٧٤١٢، ٧٤٥٣ ، ٧٧٥٣ ، ٧٧٥٤) والترمذى فى الدعوات (٣٥٤٣) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٩) وفى الزهد (٤٢٩٥) وأحمد ٢/ ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦ .

(٣) الريب : مصدر من قول القائل : رابنى الشىء يريبنى ريبا ، ومن ذلك قول ساعدة بن جؤية الهذلى :

تركنا الحى قد حصروا به　　　فلا ريب أن قد كان ثم لحيم

واللحيم : القتيل ، يقال :قد لحم ، إذا قتل . راجع : ديوان الهذليين ٢٣٢ ومنه قول ابن الزِّبَعْرى :

ليس فى الحق يا أمامة ريب　　　إنما الريب ما يقول الكذوب

يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغى الارتياب فيه بوجه من الوجوه .

والوقف على ﴿ **فيه** ﴾ هو المشهور ، وقد روى عن نافع وعاصم ، الوقف على ﴿ **لا ريب**﴾ قال فى الكشاف: ولابد للواقف من أن ينوى خبرًا . ونظيره قوله تعالى : ﴿ قالوا لا ضير ﴾ [الشعراء : ٥٠] ، وقول العرب : لا بأس ، وهى كثيرة فى لسان أهل الحجاز . والتقدير : لا ريب فيه هدى .

والهدى مصدر . قال الزمخشرى : وهو الدلالة الموصلة إلى البغية ، بدليل وقوع الضلال فى مقابلته . انتهى. ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره الظرف المذكور قبله على ما سبق . قال القرطبى : الهدى هديان : هدى دلالة، وهو الذى يقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى: ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ [الرعد : ٧] ، وقال :﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ، وتفرد سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد ، والتوفيق. فقال لنبيه ﷺ :﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ فالهدى على هذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب ، ومنه قوله تعالى :﴿أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : ٥] وقوله : ﴿ ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ [القصص : ٥٦] . انتهى .

والمتقين : من ثبتت لهم التقوى . قال ابن فارس : وأصلها فى اللغة : قلة الكلام ، وقال فى الكشاف : المتقى فى اللغة: اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى ، والوقاية : الصيانة ، ومنه: فرس واقٍ ، وهذه الدابة تقى من جاورها : إذا أصابها ضلع من غلظ الأرض ، ورقة الحافر ، فهو يقى حافره أن يصيبه أدنى شىء يؤلمه ، وهو فى الشريعة : الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك . انتهى .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود ؛أن ﴿ **الكتاب** ﴾ : القرآن ، ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ :لا شك فيه[(١)] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ قال : لا شك فيه [(٢)] . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم عن أبى الدرداء قال : الريب :الشك ، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله ، وكذا ابن جرير عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ قال :نور للمتقين وهم المؤمنون . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**هدى للمتقين** ﴾ أى الذين يحذرون من الله عقوبته، فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما [(٣)]جاء منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل ؛ أنه قيل له :

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٦٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١/ ٧٥ عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبى ﷺ .

(٣) فى المطبوعة : « مما » ، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

من المتقـون ؟ فقال : قوم اتـقوا الـشرك ، وعبـادة الأوثان ، وأخلـصوا للّه العبادة .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى هريرة أن رجلا قال له : ما التقوى ؟ قال : هل وجدت طريقًا ذا شوك ؟ قال: نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى [١] . وأخرج أحمد فى الزهد عن أبى الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقى اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام . وقد روى نحوما قاله أبو الدرداء عن جماعة من التابعين . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وحسنه، وابن ماجة وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عن عطية السعدى ، قال : قال رسول الله ﷺ :« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس » [٢] فالمصير إلى ما أفاده هذا الحديث واجب ، ويكون هذا معنى شرعيًا للمتقى أخص من المعنى الذى قدمنا عن صاحب الكشاف زاعمًا أنه المعنى الشرعى .

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ .

هو وصف للمتقين كاشف . والإيمان فى اللغة : التصديق ، وفى الشرع ما سيأتى . والغيب فى كلام العرب كل ما غاب عنك[٣] . قال القرطبى : واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية هو : الله سبحانه ، وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون : الغيب :كل ما أخبر به الرسول ، مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر، والحشر، والنشر ، والصراط ، والميزان ، والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض ، بل يقع الغيب على جميعها ، قال : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل حين قال للنبى ﷺ : فأخبرنى عن الإيمان ؟قال :« أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال :صدقت » انتهى . وهذا الحديث هو

(١) روى القرطبى ١/١٤١ ، ١٤٢ قصة مثل تلك بين عمر بن الخطاب وأبى بن كعب ، ثم قال : وأخذ هذا ابن المعتز ، فنظمه :

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

(٢) الترمذى فى القيامة (٢٤٥١) وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجة فى الزهد (٤٢١٥) وصححه الحاكم ٤/٣١٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٣٦١) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٦٣٣٥) .

(٣) الغيب : من ذوات الياء ، يقال منه : غابت الشمس تغيب ، والغيبة معروفة ، وأغابت المرأة فهى مُغيبة : إذا غاب زوجها ، ووقفنا فى غيبة وغيابة : أى هبطة من الأرض ، والغيابة : الأجمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ، ويسمى المطمئن من الأرض بالغيب ؛ لأنه غاب عن البصر . اللسان ١/ ٦٥٤ .

ثابت في الصحيح بلفظ : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره» [(١)] .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نعيم كلاهما في معرفة الصحابة عن تويلة بنت أسلم ، قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيليا فصلينا سجدتين ، ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت ، فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، فصلينا السجدتين الباقيتين ، ونحن مستقبلون البيت الحرام ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال :« أولئك قوم آمنوا بالغيب »[(٢)] . وأخرج البزار وأبو يعلى، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب ، قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ فقال : «أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيمانًا ؟ » فقالوا: يا رسول الله الملائكة قال : « هم كذلك ويحق لهم ، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها » قالوا : يا رسول الله ، الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء قال : « هم كذلك ، وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة » قالوا :فمن يا رسول الله ؟ قال : « أقوام في أصلاب الرجال ، يأتون من بعدي ولم يروني ، ويصدقوني ولم يروني ، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه ، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانًا»[(٣)] ، وفي إسناده محمد بن أبي حميد وفيه ضعف .

وأخرج الحسن بن عرفة في حزبه[(٤)] المشهور ، والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ ، فذكر نحو الحديث الأول وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري [(٥)] وهو منكر الحديث، وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا، والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعًا أيضًا ، والبزار عن أنس مرفوعًا [(٦)] .

وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يا ليتني قد لقيت إخواني» قالوا : يا رسول الله ، ألسنا إخوانك ؟ قال :« بلى ، ولكن قوم يجيؤون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم، ويصدقوني تصديقكم ، وينصروني نصركم ، فيا ليتني قد لقيت إخواني »[(٧)] . وأخرج نحوه ابن عساكر في الأربعين السباعية من حديث أنس ، وفي

(١) ابتدأ مسلم كتاب الإيمان من صحيحه بهذا الحديث (١/ ٨) .

(٢) الطبراني في الكبير ٢٤/ ٢٠٧ (٥٣٠) بمعناه ، وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ١٧ : « ورجاله موثقون » ، وليس فيه الجملة الأخيرة المرفوعة .

(٣) زوائد البزار (٢٨٣٩) وأبو يعلى (١٦٠) وصححه الحاكم ٤/ ٨٥ ، ٨٦ وتعقبه الذهبي وحسن الهيثمي إسناد البزار . والحق أن الإسناد ضعيف ، فيه محمد بن أبي حميد الأنصاري ليس بالقوي . ورجح البزار أنه مرسل عن زيد بن أسلم .

(٤) كذا في المخطوطة ، ولعله « في جزئه » .

(٥) قال أبو حاتم عنه : «منكر الحديث ، وروى عنه إسماعيل بن عياش ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : روى عنه العقدي ». راجع : لسان الميزان ٦/ ٧٩ (٤٠٤) .

(٦) زوائد البزار (٢٨٤٠) وقال : « غريب من حديث أنس » ، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٦٨ : « فيه سعيد ابن بشير ، وقد اختلف فيه ، فوثقه قوم، وضعفه آخرون ، وبقية رجاله ثقات » .

(٧) عزاه في المطالب العالية ٤/ ١٥٠ (٤٢٠٨) إلى أبي بكر بن أبي شيبة ، وقال البوصيري : «فيه موسى بن عبيدة الربذي ، وهو ضعيف ».

إسناده أبو هدبة وهو كذاب ، وزاد فيه: ثم قرأ النبى ﷺ : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة** ﴾ الآية. وأخرج أحمد والدارمى ، والباوردى وابن قانع معًا فى معجم الصحابة ، والبخارى فى تاريخه ، والطبرانى ، والحاكم عن أبى جمعة الأنصارى ، قال : قلت : يا رسول الله ، هل من قوم أعظم منا أجرا ؟ آمنا بك واتبعناك ؟ قال : « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم ، يأتيكم بالوحى من السماء ؟ بل قوم يأتون من بعدكم ، يأتيهم كتاب الله بين لوحين ، فيؤمنون بى ، ويعملون بما فيه ، أولئك أعظم منكم أجرًا » (١).

وأخرج أحمد وابن أبى شيبة والحاكم عن أبى عبد الرحمن الجُهَنى ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع راكبان ، فقال رسول الله ﷺ : « كنديان أو مَذْحجيان » حتى أتيا، فإذا رجلان من مَذْحج ، فدنا أحدهما ليبايعه، فلما أخذ بيده قال : يا رسول الله ، أرأيت من جاءك فآمن بك ، واتبعك وصدقك ، فماذا له ؟ قال : «طوبى له » فمسح على زنده وانصرف، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه فقال : يا رسول الله ، أرأيت من آمن بك ، وصدقك واتبعك ولم يرك ؟ قال : « طوبى له ثم طوبى له » ، ثم مسح على زنده وانصرف(٢). وأخرج الطيالسى وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والطبرانى والحاكم عن أبى أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى » سبع مرات (٣).

وأخرج أحمد وابن حبان عن أبى سعيد ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ؟قال : « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى»(٤) . وأخرج الطيالسى وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه(٥). وأخرج أحمد وأبو يعلى

---

(١) أحمد ٤/ ١٠٦ والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣٠٨ والطبرانى (٣٥٣٧ ـ ٣٥٤١) وصححه الحاكم ٤/ ٨٥ ووافقه الذهبى ، وحسن ابن حجر فى الفتح ٧/ ٦ إسناد الدارمى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٦٩ : « أحد أسانيد أحمد رجاله ثقات » وفى بعض الروايات أن الذى سأل هو « أبو عبيدة بن الجراح » .

(٢) أحمد ٤/ ١٥٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٧٠ : « رجاله رجال الصحيح غيرمحمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع » ، وعزاه فى المطالب العالية (٤٢٢٢ ، ٤٢٢٣) إلى ابن أبى عدر ، وابن أبى شيبة ، وقال البوصيرى عن الأول :« فى إسناده ابن لهيعة »، وقد قال الهيثمى :« هو حسن الحديث » ، وقال عن الثانى : « سنده ضعيف لتدليس ابن إسحاق ». ونقل ابن حجر فى الإصابة ٤/ ١٢٨ فى ترجمة أبى عبد الرحمن ، عن ابن كثير أنه قيل :« إن أبا عبد الرحمن هو عقبة بن عامر الجهنى » .

(٣) الطيالسى (١١٣٢) وأحمد ٥/ ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ والبخارى فى التاريخ الكبير ٢/ ١/ ٢٧ والطبرانى فى الكبير (٨٠٠٩ ، ٨٠١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٧٠ : « رجالها رجال الصحيح غير أيمن بن مالك الأشعرى وهو ثقة » . وصححه ابن حبان (٧١٨٩) وصححه الحاكم ٤/ ٨٦ عن عبد الله بن بسر ، وتعقبه الذهبى .

(٤) أحمد ٣/ ٧١ وأبو يعلى (١٣٧٤) وصححه ابن حبان (٧١٨٦) .

(٥) الطيالسى (١٨٤٥) وفيه قصة ، والطبرانى وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٧٠ : « فيه محمد بن القاسم الأسدى الكوفى ، وهو مجمع على ضعفه» .

والطبرانى من حديث أنس نحو حديث أبى أمامة الباهلى المتقدم [١]. وأخرج سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور ، وأحمد بن منيع فى مسنده ، وابن أبى حاتم وابن الأنبارى [٢] والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ﴿**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ إلى قوله: ﴿ **المفلحون** ﴾ وللتابعين أقوال .

والراجح ما تقدم من أن الإيمان الشرعى يصدق على جميع ما ذكر هنا . قال ابن جرير : والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقادًا وعملا .قال : وتدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل . والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله ، وكتبه ، ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل . وقال ابن كثير : إن الإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا ، وقولاً ، وعملاً ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ، بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد ، وغير واحد إجماعًا أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص ، وقد ورد فيه آيات كثيرة . انتهى.

﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (٣) ﴾.

هو معطوف على ﴿ **يؤمنون** ﴾ والإقامة فى الأصل : الدوام والثبات يقال : قام الشىء ، أى دام وثبت ، وليس من القيام على الرجل ، وإنما هو من قولك : قام الحق ، أى ظهر وثبت ، قال الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر :

وإذا يُقال أقيموا لم تبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعانِ

وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها ، وسننها وهيئاتها فى أوقاتها . والصلاة أصلها فى اللغة : الدعاء من صلى يصلى إذا دعا [٣] . وقد ذكر هذا الجوهرى وغيره . وقال قوم : هى مأخوذة من الصلا ، وهو عرق فى وسط الظهر ويفترق عند العُجْب . ومنه أخذ المصلى فى سبق الخيل؛ لأنه يأتى فى الحلبة ورأسه عند صلوى السابق ، فاشتقت منه الصلاة ؛ لأنها ثانية للإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل . وإما لأن الراكع يثنى صلويه ، والصلا مغرز الذنب من

---

(١) أحمد ٣/ ١٥٥ وأبو يعلى (٣٣٩٠) وحسَّن الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٦٩ ، ٧٠ إسناد أبى يعلى ، والحق أن فيه محتسب بن عبد الرحمن ، وهو ضعيف .

(٢) فى المطبوعة :« بن الضبارى » ، والصواب « ابن الأنبارى » ، كما فى المخطوطة .

(٣) قال الأعشى :

لهــا حارس لا يبرح الدهر بيتها وإن ذُبحت صلَّى عليها وزمزمــا

يعنى بذلك دعا لها . وكقوله أيضا :

وقــابلهــا الـريـح فى دنِّهـا وصــلى عـلــى دنها وارتــسم

الفرس ، والاثنان صلوان ، والمصلى تالى السبق ؛ لأن رأسه عند صلوه . ذكر هذا القرطبى فى تفسيره [١] . وقد ذكر المعنى الثانى فى الكشاف . هذا المعنى اللغوى . وأما المعنى الشرعى فهو: هذه الصلاة التى هى ذات الأركان والأذكار[٢] . وقد اختلف أهل العلم : هل هى مبقاة على أصلها اللغوى ، أو موضوعة وضعًا شرعيًا ابتدائيًا ؟ فقيل بالأول ، وإنما جاء الشرع بزيادات هى الشروط والفروض الثابتة فيها . وقال قوم بالثانى .

والرزق عند الجمهور : ما صلح للانتفاع به ، حلالاً كان أو حراما ، خلافا للمعتزلة ، فقالوا : إن الحرام ليس برزق ، وللبحث فى هذه المسألة موضع غير هذا . والإنفاق : إخراج المال من اليد ، وفى المجىء بـ « من » التبعيضية هاهنا نكتة سرية، هى الإرشاد إلى ترك الإسراف .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن إسحاق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يقيمون الصلاة** ﴾[٣] قال : الصلوات الخمس ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ قال :زكاة أموالهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن إقامة الصلاة : المحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها ، ﴿**ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ قال : أنفقوا فى فرائض الله التى افترض عليهم فى طاعته وسبيله . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله ــ عز وجل ــ على قدر ميسورهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائض الصدقات فى سورة براءة هن الناسخات المبينات . واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات وهو الحق ، من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم ، وصدقة الفرض والنفل وعدم التصريح بنوع من الأنواع التى يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أتم إشعار بالتعميم .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ .

قيل :هم مؤمنو أهل الكتاب فإنهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ، وما أنزله على من قبله وفيهم نزلت . وقد رجح هذا ابن جرير ، ونقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود ، وأناس من الصحابة . واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى :﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴾ [آل عمران : ١٩٩] وبقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه

(١) القرطبى ١/١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) راجع : الكشاف ١/٣٩ ، ٤٠ .

(٣) فى معنى إقامة الصلاة ثلاثة أقوال : أحدها : أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به ، وروى عن ابن عباس ومجاهد . والثانى : أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . قاله قتادة ومقاتل . والثالث : إدامتها ، والعرب تقول فى الشىء الراتب : قائم . وفلان يقيم أرزاق الجنة. قاله ابن كيسان .

الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ الآية [القصص : ٥٢ـ ٥٤] والآية الأولى نزلت فى مؤمنى العرب . وقيل : الآيتان جميعا فى المؤمنين على العموم . وعلى هذا فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى ، صفة للمتقين بعد صفة ، ويجوز أن تكون مرفوعة على الاستئناف ، ويجوز أن تكون معطوفة على المتقين ، فيكون التقدير : هدى للمتقين وللذين يؤمنون بما أنزل إليك .

والمراد بما أنزل إلى النبى ﷺ : هو القرآن ، وما أنزل من قبله : هو الكتب السالفة . والإيقان : إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه ، قاله فى الكشاف . والمراد : أنهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك . والآخرة تأنيث الآخر الذى هو نقيض الأول ، وهى صفة الدار كما فى قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ﴾ [القصص : ٨٣] وفى تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المذكور إشعار بالحصر ، وأن ما عدا هذا الأمر الذى هو أساس الإيمان ورأسه ليس بمستأهل للإيقان به ، والقطع بوقوعه . وإنما عبر بالماضى مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل ؛ تغليبا للموجود على ما لم يوجد ، أو تنبيهًا على تحقق الوقوع ، كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ أى يصدقونك بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ، ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ إيمانًا بالبعث ، والقيامة ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والميزان ، أى لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك (١). وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . والحق أن هذه الآية فى المؤمنين كالتى قبلها ، وليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبى ﷺ ، وما أنزل إلى من قبله بمقتض لجعل ذلك وصفًا لمؤمنى أهل الكتاب ، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ، ولا فى النظم القرآنى ما يقتضى ذلك . وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين فى غير آية . فمن ذلك قوله تعالى :﴿ يأيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ [النساء: ١٣٦] ، وكقوله : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزِل إلَينا وأنزل إليكم ﴾ [العنكبوت : ٤٦]، وقوله: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥]، وقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ (٢) [النساء : ١٥٢].

(١) الأثر عند ابن جرير ١/ ٨١ ، ٨٢ .

(٢) فى المخطوطة أورد هاهنا من أول قوله : « وقد ورد فى فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث . . . » إلى آخر قوله: « وقد ورد فى ذلك غير هذا » ، وأخر شرح قوله تعالى :﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ إلى ما بعد ذلك . غير أن الكاتب استدرك فى الهامش وذكر أن الترتيب ـ الذى أثبتناه ـ هو الصحيح.

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

هذا كلام مُستأنف استئنافًا بيانيًا كأنه قيل : كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والإيمان بالغيب ، والإتيان بالفرائض والإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فقيل : ﴿ أولئك على هدى ﴾ . ويمكن أن يكون هذا خبرًا عن الذين يؤمنون بالغيب إلخ ، فيكون متصلاً بما قبله . قال فى الكشاف: ومعنى الاستعلاء فى قوله : ﴿على هدى ﴾ مثل لتمكنهم من الهدى ، واستقرارهم عليه وتمسكهم به ، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ،ونحوه : هو على الحق وعلى الباطل . وقد صرحوا بذلك فى قولهم: جعل الغواية مركبًا وامتطى الجهل ، واقتعد غارب الهوى [١] انتهى . وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام ، واشتهر الخلاف فى ذلك بين المحقق السعد [٢] والمحقق الشريف [٣] . واختلف من بعدهم فى ترجيح الراجح من القولين ، وقد جمعت فى ذلك رسالة سميتها (الطود المنيف فى ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف) فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام ، ويجمع بين أطراف الكلام على التمام .

قال ابن جرير : إن معنى ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ : على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم . و ﴿ المفلحون ﴾ أى المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله . هذا معنى كلامه . والفلاح أصله فى اللغة : الشق والقطع ، قاله أبو عبيد ويقال : الذى شقت شفته أفلح ، ومنه سمى الأكّار[٤] فلاحًا ؛ لأنه شق الأرض بالحرث ، فكأن المفلح قد قطع بالمصاعب حتى نال مطلوبه . قال القرطبى : وقد يستعمل فى الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضًا فى اللغة [٥] ، فمعنى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ : الفائزون بالجنة والباقون . وقال فى الكشاف : المفلح :الفائز بالبغية ، كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه . انتهى .

وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث الذى أخرجه أبو داود : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله ﷺ . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور[٦] . فكأن معنى الحديث : أن السحور به بقاء الصوم ، فلهذا سمى فلاحًا . وفى تكرير اسم الإشارة دلالة على أن كلاً من

---

(١) فى الأصل « عارب الهوى » ، وفى الكشاف ١/ ٤٤ ، ٤٥ : « غارب الهوى » بدلا من « عارب » فهى بالغين وليست بالعين .

(٢ ، ٣) انظر: ترجمة وافية لهما فى مقدمة كتاب « التعريفات » بتحقيق الدكتور / عبد الرحمن عميرة .

(٤) الأكّار : الحرّاث .

(٥) قال لبيد :

نَحُلُّ بلادًا كلها حُلَّ قبلنا ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

أى البقاء . راجع : ديوانه رقم ١٤ ، وهو من قصيدة يرثى بها من هلك من قومه .

(٦) جزء من حديث أبى ذر ، أخرجه أبو داود فى الصلاة (١٣٧٥) والترمذى فى الصوم (٨٠٦) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى السهو ٣/ ٨٣ ، ٨٤ وفى قيام الليل ٣/ ٢٠٢ ، ٢٠٣ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٢٧) والدارمى فى الصوم ٢/ ٢٦ ، ٢٧ وأحمد ٥/ ١٦٣ .

الهدى والفلاح مستقل بتميزهم به عن غيرهم ، بحيث لو انفرد أحدهما لكفى تميزًا على حاله. وفائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره .

وقد روى السُّدِّى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مُرَّة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة، أن الذين يؤمنون بالغيب : هم المؤمنون من العرب ، الذين يؤمنون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ ، وما أنزل إلى مَنْ قبله : هم والمؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ، وقد قدمنا الإشارة إلى هذا وإلى ما هو أرجح منه كما هو منقول عن مجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة .

وأخرج ابن أبى حاتم ، من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : قيل : يا رسول الله ، إنا نقرأ من القرآن فنرجو ، ونقرأ فنكاد أن نيأس ، أو كما قال . فقال : « ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « ﴿ **الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **المفلحون** ﴾ هؤلاء أهل الجنة » ، قالوا : إنا نرجو أن نكون هؤلاء ، ثم قال :« ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عظيم** ﴾ هؤلاء أهل النار » ، قالوا : لسنا هم(١) يا رسول الله ؟ قال : « أجل » (٢) .

وقد ورد فى فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث ، منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والحاكم والبيهقى عن أُبَىّ بن كعب ، قال : كنت عند النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يا نبى الله ، إن لى أخًا وبه وجع ، فقال : « وما وجعه ؟» قال : به لَمَم ، قال : «فأتنى به » فوضعه بين يديه ، فَعَوَّذه النبى بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة ، وهاتين الآيتين . ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ [البقرة : ١٦٣] وآية الكرسى ، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة ، وآية من آل عمران : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران : ١٨]، وآية من الأعراف : ﴿ إن ربكم الله ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وآخر سورة المؤمنون : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ [المؤمنون : ١١٦ ــ ١١٨] وآية من سورة الجن : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ [الجن : ٣] ،وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [سورة الإخلاص] ، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشتك قط (٣). وأخرج نحوه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، عن طريق عبد الرحمن بن أبى يعلى عن رجل عن أبىّ مثله .

(١) فى المطبوعة : « ألسنا » ، وفى المخطوطة : « لسنا » ، وهو الأصح ، الموافق للراوية المذكورة فى ابن كثير .

(٢) إسناد ابن أبى حاتم ذكره ابن كثير ١/ ٦٩ ط . الشعب ، وفيه ابن لهيعة ، ولم يحدث عنه أحد العبادلة ، فإسناده ضعيف .

(٣) المسند ٥/ ١٢٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ١١٨: « فيه أبو جناب وهو ضعيف ، لكثرة تدليسه ، وقد وثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٤/ ٤١٢ وتعقبه الذهبى بأن فيه أبا جناب الكلبى ، ضعفه الدارقطنى والحديث منكر .

وأخرج الدارمى وابن الضريس عن ابن مسعود قال : من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة ، وآية الكرسى، وآيتين بعد آية الكرسى ، وثلاثا من آخر سورة البقرة ، لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ، ولا شيء يكرهه فى أهله ولا ماله ، ولا تقرأ على مجنون إلا أفاق[١] .

وأخرج الدارمى وابن المنذر والطبرانى عنه قال : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح . أربع من أولها ، وآية الكرسى ، وآيتان بعدها ، وثلاث خواتيمها أولها : ﴿ لله ما فى السموات ﴾ [٢] [البقرة : ٢٨٤] وأخرج سعيد بن منصور والدارمى والبيهقى عن المغيرة بن سبيع ،وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود، بنحوه[٣] . وأخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به إلى قبره ، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة ، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة [٤] ، وقد ورد فى ذلك غير هذا [٥] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ .

ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير ، قاطعًا لهذا الكلام عن الكلام الأول ، معنونًا له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم ، وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان ، وأن وجود ذلك كعدمه . و ﴿سواء ﴾ اسم بمعنى الاستواء ، وصف به كما يوصف بالمصادر ، « والهمزة وأم » مجردتان لمعنى الاستواء ، غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام ، وصح الابتداء بالفعل والإخبار عنه بقوله : سواء هجرًا لجانب اللفظ إلى جانب المعنى ، كأنه قال : الإنذار وعدمه سواء كقولهم : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، أى سماعك . وأصل الكفر فى اللغة : الستر والتغطية ، قال الشاعر :

فى ليلة كفر النجوم غمامها

أى سترها ، ومنه سمى الكافر كافرًا ؛ لأنه يُغطى بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان [٦] ،والإنذار: الإبلاغ والإعلام . قال القرطبى : واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ،

(١) الدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٤٨ .
(٢) الأثر أخرجه الدارمى فى الموضع السابق ، والطبرانى فى الكبير (٨٦٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٢١: « رجاله رجال الصحيح ، إلا أن الشعبى لم يسمع من ابن مسعود » .
(٣) الدارمى فى السابق ٢/ ٤٤٩ .
(٤) الطبرانى فى الكبير (١٣٦١٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٤٧ : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتى ، وهو ضعيف » ، والبيهقى فى الشعب (٩٢٩٤) ط . الكتب العلمية .
(٥) أورد فى المخطوطة ها هنا شرح قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ .
(٦) ومنه سمى الليل كافرا ؛ لأنه يغطى كل شيء بسواده ، قال الشاعر :

فتذكرا ثقلا وثيدا بعدما ألقت ذكاء يمينها فى كافر

والكافر : الزارع ، والجمع كفار ، قال تعالى : ﴿ **كمثل غيث أعجب الكفار نباته** ﴾ [الحديد : ٢٠] يعنى الزرّاع ؛ لأنهم يغطون الحب .

فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره ، أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحدًا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود حيىٍّ بن أخْطَب ، وكعب بن الأشرف ونظرائهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ، والأول أصح، فإن من عيَّن أحدًا فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر . انتهى .

وقوله : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم لا يؤمنون ، وهى جملة مستأنفة لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل : هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار وعدمه ، ماذا يكون منهم ؟ فقيل :﴿ **لا يؤمنون** ﴾ أى هم لا يؤمنون . وقال فى الكشاف : إنها جملة مؤكدة للجملة الأولى ، أو خبر لأن ، والجملة قبلها اعتراض. انتهى . والأولى ما ذكرناه ؛ لأن المقصود الإخبار عن عدم الاعتداد بإنذارهم ، وأنه لا يجدى شيئا بل بمنزلة العدم ، فهذه الجملة هى التى وقعت خبرًا لأن ، وما بعدها من عدم الإيمان متسبب عنها ، لا أنه المقصود . وقد قال بمثل قول الزمخشرى القرطبى . وقال ابن كيسان : إن خبر إن سواء ، وما بعده يقوم مقام الصلة . وقال محمد بن يزيد المبرد: سواء رفع بالابتداء ، وخبره ﴿ **أأنذرتهم أم لم تنذرهم** ﴾، والجملة خبر إن .

والختم : مصدر ختمت الشىء ، ومعناه : التغطية على الشىء ، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شىء ، ومنه ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ولا يوضع فيه غيره . والغشاوة : الغطاء ومنه غاشية السرج . والمراد بالختم والغشاوة هنا:هما المعنويان لا الحسيان ، أى لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها ، والأسماع غير مؤدية لما يطرقها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم ، والأبصار غير مهدية للنظر فى مخلوقاته، وعجائب مصنوعاته، جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختمًا حسيًا ، والمستوثق منها استيثاقًا حقيقيًا ، والمغطاة بغطاء مدرك ، استعارة أو تمثيلاً . وإسناد الختم إلى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة ، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره صاحب الكشاف ، والكلام على مثل هذا متقرر فى مواطنه .

وقد اختلف فى قوله تعالى : ﴿ **وعلى سمعهم** ﴾ : هل هو داخل فى حكم الختم فيكون معطوفًا على القلوب؟ أو فى حكم التغشية ؟ فقيل : إن الوقف على قوله :﴿ **وعلى سمعهم** ﴾ تام ، وما بعده كلام مستقل ، فيكون الطبع على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، كما قاله جماعة ، وقد قرئ « غشاوة » بالنصب . قال ابن جرير : يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره : وجعل على أبصارهم غشاوة ، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع على محل ﴿ **وعلى سمعهم** ﴾ وكقوله تعالى :﴿ وَحُور عِينٌ ﴾ [الواقعة : ٢٢] ، وقول الشاعر :

علفتها تبنا وماءً باردًا

وإنما وُحِّد السمع مع جمع القلوب والأبصار ؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير . والعذاب : هو ما يؤلم ، وهو مأخوذ من الحبس والمنع ، يقال فى اللغة : أعذبه عن كذا : حبسه ومنعه ، ومنه عذوبة الماء ؛ لأنها حبست فى الإناء حتى صفت .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿**سواء عليهم أأنذرتهم**﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ، ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول [(١)]. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضًا فى تفسيرالآية :أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق ، فكيف يسمعون منك إنذارًا وتحذيرًا ؟ وقد كفروا بما عندهم من علمك ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾ [(٢)] .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ قال : نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب ، وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال : فهم الذين قتلوا يوم بدر ، ولم يدخل القادة فى الإسلام إلا رجلان : أبو سفيان ، والحكم بن العاص . وأخرج ابن المنذر عن السدى فى قوله : ﴿ **أأنذرتهم أم لم تنذرهم** ﴾ قال : أوعظتهم أم لم تعظهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى هذه الآية قال :أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم ، فختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : الختم على قلوبهم وعلى سمعهم ، والغشاوة [(٣)] على أبصارهم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** ﴾ فلا يعقلون ولا يسمعون ، وجعل ﴿**على أبصارهم**﴾ يعنى أعينهم غشاوة ، فهم لا يبصرون . وروى ذلك السدى عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى : ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ [الشورى : ٢٤] ، وقال:

---

(١) ابن جرير ١/ ٨٤ والطبرانى فى الكبير (١٣٢٥) زاد الآيتين ٣ ، ٤ من الشعراء ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٨ : «رجاله وثقوا ، إلا أن على بن أبى طلحة قيل : إنه لم يسمع من ابن عباس ».

(٢) ابن جرير ١/ ٨٦ .

(٣) الغشاوة : الغطاء ، ومنه غاشية السرج وغشيت الشىء أغشيه. انظر : مختار الصحاح ٤٧٥ . قال الشاعر :

صحبتك إذ عين عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء ، وحكى الفراء غشاوى ، مثل أداوى .

﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ [الجاثية : ٢٣] قال ابن جرير فى معنى الختم : والحق عندى فى ذلك ما صح نظيره عن رسول الله ﷺ ثم ذكر إسنادًا متصلا بأبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ :«إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء فى قلبه ،فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى يغلف قلبه، فذلك الران الذى قال الله : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ » [المطففين: ١٤] . وقد رواه من هذا الوجه الترمذى وصححه والنسائى (١) . ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله سبحانه والطبع ، فلا يكون إليها مسلك ، ولا للكفر منها مخلص ، فذلك هو الختم الذى ذكره الله فى قوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك(٢) لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فض خاتمه ، وحل رباطه عنها .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ .

ذكر سبحانه فى أول هذه السورة المؤمنين الخلص ، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ، ثم ذكر ثالثا المنافقين ، وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين ، بل صاروا فرقة ثالثة ؛ لأنهم وافقوا فى الظاهر الطائفة الأولى ، وفى الباطن الطائفة الثانية ، ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار . وأصل ناس : أناس ، حذفت همزته تخفيفا ، وهو من النوس وهو الحركة، يقال : ناس ينوس ، أى تحرك ، وهو من أسماء الجموع ، جمع إنسان وإنسانة على غير لفظه ، واللام الداخلة عليه للجنس، و« من » تبعيضية ، أى بعض الناس ، و« من » موصوفة ، أى ومن الناس ناس(٣) ، يقول: والمراد باليوم الآخر : الوقت الذى لا ينقطع، بل هو دائم أبدًا . والخداع فى أصل اللغة : الفساد ، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابى وأنشد :

أبْيَضُ اللَّونِ رَقِيقٌ طَعْمُهُ   طَيِّـبُ الرِّيقِ إذَا الرِّيقُ خدعْ

(١) ابن جرير ١/ ٨٧ والترمذى فى التفسير (٣٣٣٤) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى التفسير (٦٧٨) وفى اليوم والليلة (٤١٨) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٤٤) .

(٢) فى الأصل : « فذلك » ، والصواب « فكذلك » ، كما فى الطبرى المنقول عنه ١/ ٨٧ .

(٣) قال صاحب بصائر ذوى التمييز: « الإنسان اسم على وزن فعلان ، وجمعه من حيث اللفظ أناسين ، كسرحان وسراحين ، غير أن الجمع الأصلى غير مستعمل ، وجمعه المعروف : ناس ،وأناس وآنس . وقيل : الإنس جمع إنسى ، كروم ورومى . وقيل : الأناس جمع إنسان . وسمى به لأنه يأنس ويؤنس به أنس بالحق وأنس بالخلق ، فروحه تأنس بالحق ، وجسمه يأنس بالخلق . وقيل : لأن له أنسا بالعقبى وأنسا بالدنيا . ويقال : إن اشتقاق الإنسان من الإيناس ، وهو الإبصار والعلم والإحساس ، لوقوفه على الأشياء بطريق العلم ، ووصوله إليها بواسطة الرؤية ، وإدراكه لها بوسيلة الحواس . راجع : البصائر ٢/ ٣١ ، ٣٢ (بتصرف) .

وقيل : أصله الإخفاء ، ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشىء ، حكاه ابن فارس وغيره. والمراد من مخادعتهم لله :أنهم صنعوا معه صنع المخادعين ، وإن كان العالم الذى لا يخفى عليه شىء لا يخدع ، وصيغة فاعل تفيد الاشتراك فى أصل الفعل ، فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم . والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه فى شىء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام ، وإبطان الكفر ، مشاكلة لما وقع منه. والمراد بمخادعة المؤمنين لهم : هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهرًا ، وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم ، كما أن المنافقين خادعوهم بإظهار الإسلام ، وإبطان الكفر .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ **وما يخادعون إلا أنفسهم** ﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم ؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن . وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك . ومن هذا قول من قال : من خادعته فانخدع لك فقد خدعك . وقد قرأ نافع ، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ **يخادعون** ﴾ فى الموضعين ، وقرأ حمزة وعاصم والكسائى وابن عامر فى الثانى: ﴿**يخدعون**﴾ والمراد بمخادعتهم أنفسهم : أنهم يمنونها الأمانى الباطلة ، وهى كذلك تمنيهم . قال أهل اللغة : شعرت بالشىء : فطنت . قال فى الكشاف : والشعور علم الشىء علم حس ، من الشعار . ومشاعر الإنسان : حواسه . والمعنى: أن لحوق ضرر ذلك لهم كالمحسوس ، وهم لتمادى غفلتهم كالذى لا حس له . والمراد بالأنفس هنا : ذواتهم ، لا سائر المعانى التى تدخل فى مسمى النفس كالروح والدم والقلب .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهم المنافقون من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال : والمراد بهذه الآية المنافقون . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين قال : لم يكن عندهم شىء أخوف من هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ . وأخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له : ما النفاق؟ قال : أن يتكلم بالإسلام ولا يعمل به .

وأخرج أحمد بن منيع فى مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة ، أن قائلا من المسلمين قال : يا رسول الله ، ما النجاة غدا ؟ قال : « لا تخادع الله » ، قال : وكيف نخادع الله ؟ قال :« أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره ، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله ، فإن المرائى ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء : يا كافر، يا فاجر ، يا خاسر ، يا غادر ، ضل عملك ، وبطل أجرك ، فلا خلاق لك اليوم عند الله ، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع»، وقرأ آيات من القرآن : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحًا ﴾

الآية [الكهف : ١١٠] ، و﴿ إن المنافقين يخادعون الله ﴾ الآيـة [(١)] [النساء : ١٤٢] .
وأخـرج ابن جرير عن ابن وهب قال : سألت ابن زيد [(٢)] عن قوله : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا** ﴾ قال : هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله ، والذين آمنوا أنهم مؤمنون بما أظهروه ، وعن قوله : ﴿ **وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ : أنهم ضروا أنفسهم بما أضمروا من الكفر والنفاق. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يخادعون الله**﴾ قال : يظهرون لا إله إلا الله ، يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفى أنفسهم غير ذلك .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

المرض : كل ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة أو نفاق ، أو تقصير فى أمر، قال ابن فارس : وقيل : هو الألم ، فيكون على هذا مستعارًا للفساد الذى فى عقائدهم إما شكًا ونفاقًا ، أو جحدًا وتكذيبًا . وتقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها ، مبالغة فى تعلق هذا الداء بتلك القلوب ، لما كانوا عليه من شدة الحسد ، وفرط العداوة . والمراد بقوله: ﴿**فزادهـم الله مرضـًا** ﴾ الإخبار بأنـهم كذلك بما يتـجدد لرسول الله ﷺ من النعم ، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية. ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك، وترادف الحسرة، وفرط النفاق . والأليم [(٣)] المؤلم ، أى الموجع ، و« ما » فى قوله : ﴿ **بما كانوا يكذبون** ﴾ مصدرية ، أى بتكذيبهم وهو قولهم : ﴿ **آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ والقراء مجمعون على فتح الراء من قوله :﴿ **مرض** ﴾، إلا ما رواه الأصمعى عن أبى عمرو أنه قرأ بإسكان الراء ، وقرأ حمزة وعاصم والكسائى ﴿ **يكذبون**﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتشديد .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **فى قلوبهم مرض** ﴾ قال: شك ، ﴿ **فزادهم الله مرضًا**﴾ قال : شكا . وأخرج عنه ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله :﴿ **فى قلوبهم مرض**﴾ قال: النفاق ، ﴿**ولهم عذاب أليم** ﴾ قال :

---

(١) عزاه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٢٠٢) لأحمد بن منيع ، وسكت عليه البوصيرى . وعزا العراقى فى تخريج الإحياء (ص ١٨٦٢ .ط: الشعب) بعضه إلى ابن أبى الدنيا ، من أول قوله : « إن المرائى ينادى. . . . . . » .

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، العدوى مولاهم ، المدنى ، من مشاهير المفسرين ، وهو المقصود كلما جاء فى ابن جرير: عن ابن زيد ، وهو عند أهل الحديث من المعدودين فى الضعفاء ، وكان فى نفسه رجلا صالحا ، وكان أبوه زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب . وتوفى عبدالرحمن سنة (١٨٢) . انظر ترجمته فى: الجرح والتعديل ٢/٢/٢٣٣ والمغنى فى الضعفاء (٣٥٦٨) وتهذيب التهذيب ٦/ ١٦١ وتقريب التهذيب ١/ ٤٨٠ .

(٣) الأليم : الموجع ، مثل السميع : بمعنى المسمع . انظر : مختار الصحاح ٢٢. قال ذو الرمة يصف إبلاً :

ونرفع من صدور شَمَرْدلات ... يصك وجوهها وهج أليم

شمردلات : إبل طوال ، ونرفع : نستحثها فى السير ، والوهج : الحر الشديد المؤلم . ويجمع أليم على أُلماء ، مثل كريم وكرماء ، وآلام مثل أشراف، وصكه صكة : ضربه ضربة شديدة .

نكال موجع ، ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ قال : يبدلون ويحرفون . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثل ما قاله ابن عباس أولا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كل شىء فى القرآن أليم فهو الموجع . وأخرج أيضًا عن أبى العالية مثله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة: ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ أى ريبة وشك فى أمر الله، ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ ريبة وشكا ، ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ قال : إياكم والكذب فإنه باب النفاق . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : هذا مرض فى الدين ، ، وليس مرضا فى الأجساد ، وهم المنافقون . والمرض : الشك الذى دخل فى الإسلام. وروى عن عكرمة وطاوس أن المرض : الرياء.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ .

﴿ إذا ﴾ فى موضع نصب على الظرف ، والعامل فيه ﴿ قالوا ﴾ المذكور بعده ، وفيه معنى الشرط والفساد ضد الصلاح ، وحقيقته : العدول عن الاستقامة إلى ضدها . فسد الشىء يفسد فسادًا وفسودًا فهو فاسد وفسيد . والمراد فى الآية: لا تفسدوا فى الأرض بالنفاق ، وموالاة الكفرة، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما فى الأرض بهلاك الأبدان ، وخراب الديار ، وبطلان الزرائع ، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع .

و ﴿ إنما ﴾ من أدوات القصر كما هو مبين فى علم المعانى . والصلاح ضد الفساد . لما نهاهم الله عن الفساد الذى هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوة العريضة ، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هى عليه حقيقة ، وهو الفساد ، إلى الاتصاف بما هو ضد لذلك وهو الصلاح ، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت ، والزور المحض ؛ حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم ، خالصة لهم ، فردَّ الله عليهم ذلك أبلغ رد ؛ لما يفيده حرف التنبيه من تحقق ما بعده ، ولما فى إنَّ من التأكيد ، وما فى تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المقيدة له ، وردهم إلى صفة الفساد التى هم متصفون بها فى الحقيقة ردًا مؤكدًا مبالغًا فيه ، بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة ، من مجرد الحصر المستفاد من ﴿إنما﴾. وأما نفى الشعور عنهم فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرون الصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص ، ظنوا أن ذلك ينفق (١) على النبى ﷺ ، وينكتم عنه بطلان ما أضمروه ، ولم يشعروا بأنه عالم به ، وأن الخبر يأتيه بذلك من السماء ، فكان نفى الشعور عنهم من هذه الحيثية ، لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد . ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحًا ؛ لما استقر فى عقولهم من محبة الكفر ، وعداوة الإسلام .

---

(١) ينفُق : بضم الفاء : يروج . مختار الصحاح ٦٧٤ .

وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود ، أنه قال : الفساد هنا هو الكفر والعمل بالمعصية. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما نحن مصلحون** ﴾ أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب[١] . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قال : إذا ركبوا معصية فقيل لهم : لا تفعلوا كذا قالوا: إنما نحن على الهدى[٢] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن سلمان؛ أنه قرأ هذه الآية فقال : لم يجئ أهل هذه الآية بعد[٣] . قال ابن جرير : يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادًا من الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ ، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد . انتهى . ويحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست فى المنافقين ، بل يحملها على مثل أهل الفتن التى يدين أهلها بوضع السيف فى المسلمين ، كالخوارج وسائر من يعتقد فى فساده أنه صلاح ؛ لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة .

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ** (١٣) ﴾ .

أى وإذا قيل للمنافقين: آمنوا كما آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار ، أجابوا بأحمق جواب وأبعده عن الحق والصواب ، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاءً واستخفافا، فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة، وآكد قول . وحصر السفاهة وهى رقة الحلوم ، وفساد البصائر ، وسخافة العقول فيهم ، مع كونهم لا يعلمون أنهم كذلك، إما حقيقة أو مجازًا ، تنزيلا لإسرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه ، وأنهم متصفون به . ولما ذكر الله هنا السفه ناسبه نفى العلم عنهم ؛ لأنه لا يتسافه إلا جاهل . والكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، أى إيمانًا كإيمان الناس .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس** ﴾ أى صدقوا كما صدق أصحاب محمد أنه نبى ورسول ، وأن ما أنزل عليه حق ؛ ﴿ **قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ يعنون أصحاب محمد ، ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ يقول : الجهال ، ﴿**ولكن لايعلمون** ﴾ يقول : لا يعقلون . وروى عنه [٤] ابن عساكر فى تاريخه بسندٍ واهٍ أنه قال: آمنوا كما آمن الناس أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله ﴿ **كما آمن السفهاء** ﴾ قال: يعنون أصحاب النبى ﷺ. وأخرج عن الربيع وابن زيد مثله. وروى الكلبى [٥] عن أبى صالح عن ابن عباس ، أنها نزلت فى شأن اليهود ، أى إذا قيل

(١ ، ٢) ابن جرير ١/ ٩٨ . (٣) المرجع السابق ١/ ٩٧ .

(٤) فى المطبوعة : « عن » ، والصواب « عنه » ، أى عن ابن عباس .

(٥) هو محمد بن السائب بن بشر الكلبى ، أبو النضر الكوفى ، النسابة ، المفسر ، متهم بالكذب ، ورمى بالرفض، مات سنة ١٤٦هـ . انظر ترجمته فى : المغنى فى الضعفاء (٥٥٤٢) وتهذيب التهذيب ٩/ ١٧٨ ـ ١٨١ وتقريب التهذيب ٢/ ١٦٣ .

لهم، يعنى اليهود : ﴿ آمنوا كما آمن الناس ﴾ عبد الله بن سلام وأصحابه ، ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾ .

﴿ لقوا ﴾ أصله لقيوا ، نقلت الضمة إلى القاف ، وحذفت الياء ، لالتقاء الساكنين ، ومعنى لقيته ولاقيته : استقبلته قريبًا . وقرأ محمد بن السميفع [١] اليمانى ، وأبو حنيفة «لاقوا» وأصله لاقيوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفًا، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين . وخلوت بفلان وإليه : إذا انفردت به ، وإنما عدى بإلى وهو يتعدى بالباء فيقال: خلوت به ، لا خلوت إليه ؛ لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا . والشياطين : جمع شيطان على التكسير . وقد اختلف كلام سيبويه فى نون الشيطان ، فجعلها فى موضع من كتابه أصلية ، وفى آخر زائدة ، فعلى الأول هو من شطن، أى بعد عن الحق ، وعلى الثانى من شطّ ، أى بعد ، أو شاط ، أى بطل ، وشاط ، أى احترق ، وأشاط : إذا هلك، قال [الشاعر][٢] :

وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنا البَطَلُ

أى يهلك .

وقال آخر :

وأبْيَضَ ذِى تاجٍ أشَاطَتْ رِمَاحُنا ... لمعْتَـركٍ بين الْفـوَارِسَ أقْتَـما

أى أهلكت . وحكى سيبويه أن العرب تقول : تشيطن فلان : إذا فعل أفعال الشياطين . ولو كان من شاط لقالوا : تشيط ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

أيما شـاطـن عـصـاه عـكـا ... ه ورماه فى السـجن والأغـلال

وقوله :﴿ إنا معكم ﴾ معناه : مصاحبوكم فى دينكم ، وموافقوكم عليه . والهـزؤ: السخـرية واللعب . قال الراجز:

قَدْ هـَزِئَـتْ مِنى أُم طيـْسـلَـه ... قَالَتْ أرَاهُ مُـعْــدَمًا لا مَـال لَـهُ

قال فى الكشاف : وأصل الباب الخفة ، من الهزء ، وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ: مات على المكان . عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لأهزأن على مكانى . وناقته تهزأ به ، أى تسرع وتخف .انتهى . وقيل أصله: الانتقام .قال الشاعر:

قد استهزؤوا منهم بألفى مدجج ... سراتهم وسط الصحاصح جثم [٣]

(١) فى المطبوعة : « ابن الميفع » والصحيح ما أثبتناه.

(٢) فى المخطوطة : « قال » ، وما بين المعقوفتين زيادة لابد منها .

(٣) سراتهم : أشرافهم ورؤوسهم وسادتهم ، والصحاصح : جمع صحصح وهو المستوى من الأرض .

فأفاد قولهم : ﴿ إنا معكم ﴾ أنهم ثابتون على الكفر ، وأفاد قولهم : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ ردهم للإسلام ودفعهم (١) للحق ، وكأنه جواب سؤال مقدر ناشئ من قولهم : ﴿إنا معكم ﴾ أى إذا كنتم معنا فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم ؟ فقالوا : إنما نحن مستهزئون بهم فى تلك الموافقة ، ولم تكن بواطننا موافقة لهم ، ولا مائلة إليهم، فرد الله ذلك عليهم بقوله : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ أى ينزل بهم الهوان والحقارة ، وينتقم منهم ، ويستخف بهم ؛ انتصافًا منهم لعباده المؤمنين ، وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاءً مع كونه عقوبة ومكافأة مشاكلة .

وقد كانت العرب إذا وضعت لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ذكرته بمثل ذلك اللفظ ، وإن كان مخالفًا له فى معناه . وورد ذلك فى القرآن كثيرًا ، ومنه:﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى : ٤٠] ، ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة: ١٩٤] والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداءً لأنه حق ، ومنه :﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ [آل عمران : ٥٤]، و ﴿ إنهم يكيدون كيدًا . وأكيد كيدًا ﴾ [الطارق: ١٥ ،١٦] . ﴿يخادعون الله والذين آمنوا ﴾، ﴿يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [النساء : ١٤٢]، ﴿ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهو فى السنة كثير كقوله ﷺ: «إن الله لا يملُّ حتى تملوا» (٢) .

وإنما قال :﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ لأنه يفيد التجدد وقتًا بعد وقت ، وهو أشد عليهم ، وأنكأ لقلوبهم ، وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم ، الثابت ، المستفاد من الجملة الإسمية ، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتًا بعد وقت ، والمتجددة حينًا بعد حين ، أشد على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر ؛ لأنه يألفه ويوطن نفسه عليه . والمدّ : الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال : مدّ فى الشر وأمدّ فى الخير ، ومنه : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين ﴾ [الإسراء : ٦]، ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم ﴾ [الطور : ٢٢] وقال الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وقال الفراء واللحيانى : مددت فيما كانت زيادته من مثله ، يقال: مدّ النهر ، ومنه : ﴿ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ [لقمان : ٢٧] وأمددت فيما كانت زيادته من غيره، ومنه: ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾ [آل عمران : ١٢٥]

---

(١) فى المطبوعة : « رفعهم » ، والصواب « دفعهم » ، بالدال ، كما فى المخطوطة .

(٢) جزء من حديث صحيح عن عائشة : أخرجه البخارى فى الصوم (١٩٧٠) وفى اللباس (٥٨٦١) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٨٢/ ٢١٥) وفى الصيام (٧٨٢/ ١٧٧) وأبو داود فى الصلاة (١٣٦٨) والنسائى فى القبلة ٢/ ٦٨ وأحمد ٦/ ٤٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، ١٢٢ ، ١٨٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ .

وهو أيضا جزء من حديث صحيح فى قصة المرأة التى زعموا أنها لا تنام الليل ، واسمها الحولاء بنت تويت ، رواه عن عائشة : البخارى فى الإيمان (٤٣) وفى التهجد (١١٥١) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٨٥/ ٢٢٠ ، ٢٢١) و النسائى فى صلاة الليل ٣/ ٢٠٨ ، وفى الإيمان ٨/ ٢١٣ ، وابن ماجة فى الزهد (٤٢٣٨) وابن حبان (٣٦٠ ، ٢٥٧٧) والبيهقى٣/ ١٧ وأبو نعيم فى الحلية ٢/ ٦٥وأحمد ٦/ ٥١ ، ١٩٩ ، ٢١٢، ٢٣١ ، ٢٤٧ .

والطغيان: مجاوزة الحد ، والغلو في الكفر ، ومنه :﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ [الحاقة : ١١] أي تجاوز المقدار الذي قدرته الخُزَّان ، وقوله في فرعون : ﴿ إنه طغى ﴾ [طه: ٢٤] أي أسرف في الدعوى حيث قال :﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : ٢٤] والعمه والعامه [١] : الحائر المتردد، وذهبت إبله لعمهى: إذا لم يدر أين ذهبت ، والعمه في القلب كالعمى في العين . قال في الكشاف : العمه مثل العمى ، إلا أن العمى في البصر والرأى ، والعمه في الرأى خاصة . انتهى . والمراد أن الله سبحانه يطيل لهم المدة ويمهلهم كما قال : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ [آل عمران : ١٧٨] قال ابن جرير: ﴿ **في طغيانهم يعمهون** ﴾ : في ضلالهم وكفرهم ، الذى قد غمرهم ، يترددون حيارى ضلالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشداً ، ولا يهتدون سبيلا .

وقد أخرج الواحدى والثعلبى بسند واه ؛ لأن فيه محمد بن مروان وهو متروك ، عن ابن عباس، قال : نزلت هذه الآية في عبد اللّه بن أبَيّ وأصحابه ، وذكر قصة وقعت لهم مع أبي بكر وعمر ــ وعلى رضى الله عنهم[٢] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ أو بعضهم قالوا : إنا على دينكم ، ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم** ﴾ وهم إخوانهم ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾ على مثل ما أنتم عليه ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ بأصحاب محمد . ﴿ **الله يستهزئ بهم** ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم ﴿ **ويمدهم في طغيانهم**﴾ قال : في كفرهم ﴿ **يعمهون** ﴾ قال : يترددون . وأخرج البيهقى في الأسماء والصفات عنه بمعناه، وأطول منه [٣] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه بنحو الأول . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم** ﴾ قال : رؤساؤهم في الكفر[٤]. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبى مالك قال :﴿ **وإذا خلوا** ﴾ أي مضوا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة نحو ما قاله ابن مسعود . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **ويمدهم** ﴾ قال : يملى لهم ﴿ **في طغيانهم يعمهون** ﴾ قال : في كفرهم يتمادون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحو ما قاله ابن مسعود في تفسير يعمهون . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد : ﴿ **ويمدهم** ﴾ يزيدهم ﴿ **في طغيانهم يعمهون** ﴾ قال : يلعبون ويترددون في الضلالة . وأخرج أحمد في المسند عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « تعوذ بالله من شياطين الإنس

(١) في المطبوعة :« العمة والعامة » بالتاء المربوطة ، والصواب بالهاء ، كما في المخطوطة .
(٢) أسباب النزول للواحدى ص ١٢ .
(٣) البيهقى في الأسماء والصفات ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .ط . المركز الإسلامى ، وفيه الكلبى محمد بن السائب ، متهم بالكذب ، ورمى بالرفض .
(٤) ابن جرير ١/١٠١ (رقم ٣٥١ .ط. الشيخ شاكر) .

والجن » فقلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : «نعم » [١] .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

قال سيبويه : صحت الواو في اشتروا فرقًا بينها وبين الواو الأصلية ، فى نحو ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ [الجن: ١٦] وقال الزَّجَّاج : حركت بالضم كما يفعل فى نحن . وقرأ يحيى بن يَعْمُر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وقرأ أبو السماك العدوى بفتحها ، لخفة الفتحة . وأجاز الكسائى همز الواو . والشراء هنا مستعار للاستبدال ، أى استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى : ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [فصلت : ١٧] فإما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعوا إيمانهم ، والعرب قد تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشيء قال أبو ذؤيب :

فَإنْ تزعمينى كُنْتُ أجْهَلُ فِيكمُو ... فَإنِى شَرِيتُ الحِلْمَ بَعْدك بِالْجَهْلِ

وأصل الضلالة : الحيرة والجور عن القصد ، وفقد الاهتداء ، وتطلق على النسيان ومنه قوله تعالى :﴿ قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين ﴾ [الشعراء : ٢٠] ، وعلى الهلاك كقوله : ﴿ وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض ﴾ [السجدة : ١٠] وأصل الربح : الفضل . والتجارة : صناعة التاجر ، وأسند الربح إليها على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ، وهو من الإسناد المجازى ، وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل ، كما هو مقرر فى علم المعانى . والمراد : ربحوا وخسروا . والاهتداء قد سبق تحقيقه ، أى وما كانوا مهتدين فى شرائهم الضلالة ، وقيل : فى سابق علم الله .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **اشتروا الضلالة بالهدى**﴾ أى الكفر بالإيمان [٢] . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى [٣] . وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير، وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : آمنوا ثم كفروا [٤] .وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : استحبوا الضلالة على الهدى ، قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة[٥] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد٥/ ١٧٨ ، ١٧٩ ، وفى إسناده أبو عمر ـ ويقال : أبو عمرو ـ الدمشقى ، ضعيف ، وعبيد بن الخشخاش ـ ويقال: الحسحاس ـ لين . انظر: الهيثمى فى المجمع ١/ ١٦٣ ، ٣/ ١١٩ ورواه أحمد ٥/ ٢٦٥ والطبرانى فى الكبير (٧٨٧١) عن أبى أمامة قال: «كان رسول الله ﷺ فى المسجد جالسًا، وكانوا يظنون أنه ينزل عليه ، فأقصروا عنه ، حتى جاء أبو ذر ، فأقحم ، فأتى فجلس إليه ، فأقبل عليه النبى ﷺ . . . فذكر الحديث بطوله ، وفى إسناده ثلاثة ضعفاء » . انظر : الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٥ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٨٦ .

(٢ ـ ٥) ابن جرير ١/ ١٠٦ .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾ .

﴿ **مثلهم** ﴾ مرتفع بالابتداء ، وخبره إما الكاف فى قوله : ﴿ **كمثل** ﴾ لأنها اسم ، أى مثل مثل ، كما فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن تنهى ذوى شـطـط   كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بِكَابْنِ الماء يجنب وسطنا   تصوب فيه العين طورًا وترقـى

أراد مثل الطعن وبمثل ابن الماء ، ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا ، أى مثلهم مستنير كمثل، فالكاف على هذا حرف . والمثل : الشبه ، والمثلان : المتشابهان و ﴿ **الذى** ﴾ موضوع موضع الذين ، أى كمثل الذين استوقدوا، وذلك موجود فى كلام العرب ، كقول الشاعر :

وإن الذى حانت بـفلج دمـاؤهم   هم القوم كل القـوم يا أم خـالـد

ومنه ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ [التوبة : ٦٩] ،ومنه ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ [الزمر : ٣٣] ووقود النار : سطوعها وارتفاع لهيبها ، و﴿ **استوقد** ﴾ بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب ، فالسين والتاء زائدتان ، قاله الأخفش ، ومنه قول الشاعر:

ودَاعٍ دَعا يا من يُجيـب إلى الندا   فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجيـبُ

أى يجبه . والإضاءة فرط الإنارة ، وفعلها يكون لازمًا ومتعديًا .و﴿ **ما حوله** ﴾ قيل :ما زائدة. وقيل : هى موصولة فى محل نصب على أنها مفعول أضاءت ، وحوله منصوب على الظرفية ؛ و﴿ **ذهب** ﴾ من الذهاب، وهو زوال الشيء . و﴿ **تركهم** ﴾ أى أبقاهم ﴿ **فى ظلمات** ﴾ جمع ظلمة . وقرأ الأعمش بإسكان اللام على الأصل . وقرأ أشهب العقيلى بفتح اللام ، وهى عدم النور . و﴿ **صم** ﴾ وما بعده خبر مبتدأ محذوف ، أى هم . وقرأ ابن مسعود: « صمًا بكمًا عميًا » بالنصب على الذم ، ويجوز أن ينتصب بقوله:﴿ **تركهم** ﴾ والصمم: الانسداد، يقال : قناة صماء : إذا لم تكن مجوفة ، وصممت القارورة : إذا سددتها، وفلان أصم : إذا انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لاينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل : الأخرس والأبكم واحد . والعمى : ذهاب البصر والمراد بقوله : ﴿**فهم لا يرجعون** ﴾ أى إلى الحق ، وجواب « لما » فى قوله : ﴿ **فلما أضاءت** ﴾ قيل : هو : ﴿**ذهب الله بنورهم** ﴾ وقيل : محذوف تقديره : طفئت فبقوا حائرين . وعلى الثانى فيكون قوله : ﴿**ذهب الله بنورهم** ﴾ كلامًا مستأنفا أو بدلا من المقدر .

ضرب الله هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام، كمثل المستوقد الذى أضاءت ناره ثم طفئت ، فإنه يعود إلى الظلمة ، ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة ، فكان بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردده . وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل؛ لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت [١]. ومنه قولهم : « للباطل صولة ثم يضمحل » ، وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنا عظيمًا فى إبراز خفيات المعانى ، ورفع أستار محجبات الدقائق ، ولهذا استكثر الله من ذلك فى كتابه العزيز ، وكان رسول الله ﷺ يكثر من ذلك فى مخاطباته ومواعظه .

قال ابن جرير : إن هؤلاء المضروب لهم المثل ها هنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾. وقال ابن كثير : إن الصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم ، وهذا لا ينبغى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه ، وطبع على قلوبهم، كما يفيده قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ [المنافقون : ٣] قال ابن جرير : وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال : ﴿ رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينُهُمْ كالذى يغشى عليه من الموت ﴾ [الأحزاب : ١٩] أى كدوران عينى الذى يغشى عليه من الموت ، وقال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . . . ﴾ [الجمعة : ٥] .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا**﴾ قال : هذا مثل ضربه الله للمنافقين ، كانوا يعتزون بالإسلام ، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ، ويقاسمونهم الفىء ، فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه ، ﴿ **وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾ يقول : فى عذاب ، ﴿ **صم بكم عمى** ﴾ فهم لا يسمعون الهدى ، ولا يبصرونه ، ولا يعقلونه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا** ﴾ قالوا : إن ناسًا دخلوا فى الإسلام عند مقدم النبى ﷺ المدينة ، ثم نافقوا ، فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة ، فأوقد نارًا ، فأضاءت ما حوله من قذى وأذى ، فأبصره حتى عرف ما يتقى ، فبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره ، فأقبل لا يدرى ما يتقى من أذى ، فكذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك ، فأسلم ، فعرف الحلال من الحرام ، والخير من الشر ، فبينما هو كذلك إذ كفر ، فصار لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا الخير من الشر ، فهم صم بكم هم الخرس ، فهم لا يرجعون إلى الإسلام [٢] .

---

(١) الطبرى ١/ ١١١ وما بعدها والدر المنثور للسيوطى ١/ ٣٢ .

(٢) أخرجه ابن جرير١/ ١١٠ من طريق أسباط بن نصر ، عن السدى ، عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، والسدى عن مرة ، عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، وقد ذكر ابن جرير فى أول التفسير١/ ١٥٦ : أن فى النفس من هذا الإسناد شيئا ، وأيده الشيخ شاكر فى تضعيف هذا الإسناد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كمثل الذى استوقد ناراً** ﴾ قال :ضربه الله مثلا للمنافق ، وقوله: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾ قال : أما النور فهو إيمانهم الذى يتكلمون به ، وأما الظلمة فهو ضلالهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه ، وأخرجا أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو ما تقدم .

﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)** ﴾ .

عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك ، لقصد التخيير بين المثلين ، أى مثلوهم بهذا أو هذا ، وهى وإن كانت فى الأصل للشك ،فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوى من غير شك .وقيل:إنها بمعنى الواو ،قاله الفراء وغيره وأنشد:

وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلى بأنى فَاجِرٌ ... لِنَفْسِى تـقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فـجُورها

وقال آخر[(١)] :

نَالَ الخِلافَة أَوْ كَانَتْ لَهُ قَـدراً ... كَمَا أتَى رَبَه مُوسَى عـلى قـــدَر

والمراد بالصيِّب : المطر ، واشتقاقه من صاب يصوب : إذا نزل . قال علقمة :

فَلا تَعْدِلِى بَيْنِى وَبَيْن مُعَمَّر ... سَقَتْكَ رَوَايا الموتِ حَيْثُ تَصوب

وأصله صيوب ، اجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما فعلوا فى ميِّت وسيِّد . والسماء فى الأصل : كل ما علاك فأظلك . ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء أيضًا: المطر؛ سمى به لنزوله منها ، وفائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها ، أنه لا يختص نزوله بجانب منها دون جانب ، وإطلاق السماء على المطر واقع كثيراً فى كلام العرب فمنه قول حسان :

ديار من بنى الحسحاس قـفر ... تعفيها الدوامـــس [(٢)] والســـماء

---

(١) القائل : جرير ، والمقصود أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله .

(٢) الدوامس أو الدواميس : جمع الدودَمس ، وهى حية مَحْرَنْفِشَة الغلاصيم (منتفخة الحلقوم غليظة الحلق) تنفخ فتحرق ما أصابت. انظر: القاموس ٢/ ٢١٧ .

وقال آخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم

والظلمات قد تقدم تفسيرها ، وإنما جمعها إشارة إلى أنه انضم إلى ظلمة الليل ظلمة الغيم. والرعد : اسم لصوت الملك الذى يزجر السحاب . وقد أخرج الترمذى من حديث ابن عباس قال : سألت اليهود النبى ﷺ عن الرعد ما هو ؟ قال: « ملك من الملائكة بيده مخاريق[1] من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله » قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: « زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر » . قالت : صدقت . الحديث بطوله ، وفى إسناده مقال [2] . قال القرطبى : وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . وقيل : هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها، وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين ، تبعًا للفلاسفة وجهلة المتكلمين ، وقيل غير ذلك. والبرق : مخراق حديد بيد الملك الذى يسوق السحاب ، وإليه ذهب كثير من الصحابة ، وجمهور علماء الشريعة ، للحديث السابق . وقال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة : إن البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصعدة المشتملة على جزء نارى يتلهب عند الاصطكاك .

وقوله: ﴿ **يجعلون أصابعهم فى آذانهم** ﴾ . وإطلاق الإصبع على بعضها مجاز مشهور ، والعلاقة الجزئية والكلية ؛ لأن الذى يجعل فى الأذن إنما هو رأس الإصبع لا كلها . والصواعق: ــ ويقال :الصواقع ــ هى قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذى يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها ، ويدل على ذلك ما فى حديث ابن عباس الذى ذكرنا بعضه قريبًا، وبه قال كثير من علماء الشريعة . ومنهم من قال : إنها نار تخرج من فم الملك. وقال الخليل: هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانًا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد: الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وقال بعض المفسرين تبعًا للفلاسفة ومن قال بقولهم : إنها نار لطيفة تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامها ، وسيأتى فى سورة الرعد ــ إن شاء الله ــ فى تفسير الرعد والصواعق ماله مزيد فائدة وإيضاح .

ونصب ﴿ **حذر الموت**﴾ على أنه مفعول لأجله. وقال الفراء: منصوب على التمييز. والموت: ضد الحياة. والإحاطة: الأخذ من جميع الجهات حتى لا تفوت المحاط به بوجه من الوجوه . وقوله : ﴿ **يكاد البرق يخطف أبصارهم** ﴾ جملة مستأنفة ، كأنه قيل : فكيف

---

(١) المخاريق : جمع مِخْرَاق ، وهو فى الأصل يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا . النهاية فى غريب الحديث ٢/ ٢٦ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١١٧) وقال : «حسن غريب » وأحمد ١/ ٢٧٤ وقال الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة : « وهذا الحديث إن صح يمكن حمله على التمثيل ، ولكن لا يطمئن قلبى إليه ، ولا أكاد أصدق وروده عن المعصوم ﷺ ، وإنما هو من إسرائيليات بنى إسرائيل ، ألصقت بالنبى ﷺ زورًا . . .» إلخ ما ذكره من كلام نفيس فى الموضوع . انظر : الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ٤١٥ ، ٤١٦ .ط . مجمع البحوث ١٣٩٣ هـ .

حالهم مع ذلك البرق ؟ ويكاد : يقارب . والخطف الأخذ بسرعة(١)، ومنه سمى الطير خطافًا لسرعته. وقرأ مجاهد : « يَخْطِف» بكسر الطاء والفتح أفصح . وقوله : ﴿**كلما أضاء لهم مشوا فيه**﴾ كلام مستأنف كأنه قيل :كيف تصنعون فى تارتى خفوق البرق وسكونه؟ وهو تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أهل الصيب، ﴿ **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم** ﴾ بالزيادة فى الرعد والبرق ، ﴿ **إن الله على كل شيء قدير**﴾ وهذا من جملة مقدوراته سبحانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : ﴿ **أو كصيب** ﴾ هوالمطر ضرب مثله فى القرآن، ﴿ **فيه ظلمات** ﴾ يَقُول : ابتلاء ، ﴿ **ورعد وبرق** ﴾ تخويف ، ﴿ **يكاد البرق يخطف أبصارهم** ﴾ يقول : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ، ﴿**كلما أضاء لهم مشوا فيه** ﴾ يقول :كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزا اطمأنوا ، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر ، كقوله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ الآية [الحج:١١] . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة قالوا : كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين ، فأصابهما هذا المطر الذى ذكر الله فيه رعد شديد ، وصواعق وبرق ، فجعلا كلما أصابهما الصواعق يجعلان أصابعهما فى آذانهما من الفرَق ، أن تدخل الصواعق فى مسامعهما فتقتلهما ، وإذا لمع البرق مشيا فى ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان ، فجعلا يقولان : ليتنا قد أصبحنا ، فنأتى محمدًا فنضع أيدينا فى يده ، فأصبحا فأتياه فأسلما ، ووضعا أيديهما فى يده ، وحسن إسلامهما ، فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة .

وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبى ﷺ جعلوا أصابعهم فى آذانهم ؛ فرقًا من كلام النبى ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو يذكروا بشيء فيقتلوا ، كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما فى آذانهما ، وإذا أضاء لهم مشوا فيه، أى فإذا كثرت أموالهم وأولادهم وأصابوا غنيمة وفتحا مشوا فيه، وقالوا : إن دين محمد ﷺ حينئذ صدق واستقاموا عليه ، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، فكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم ، وأصابهم البلاء ، قالوا : هذا من أجل دين محمد ﷺ وارتدوا كفرًا ، كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما (٢) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ **أو كصيب** ﴾ قال : هو المطر ، وهو مثل

---

(١) والخطف : السلب ، ومنه الخبر الذى روى عن النبى ﷺ أنه نهى عن الخطفة ، يعنى بها النهبة . ومنه قيل للخطاف الذى يخرج به الدلو من البئر: خطاف ؛ لاختطافه واستلابه ما علق به ، ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

خطاطيف حجن فى جبال متينة ... تمد بها أيدٍ إليك نوازع

راجع : الديوان ، وقبله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(٢) ابن جرير١/١١٩ من طريق السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة . وقد سبق بيان ضعف هذا الإسناد .

للمنافق فى ضوئه ، يتكلم بما معه من كتاب الله مراء الناس [١] ، فإذا خلا وحده عمل بغيره، فهو فى ظلمة ما أقام على ذلك ، وأما الظلمات : فالضلالات، وأما البرق : فالإيمان ، وهم أهل الكتاب ، وإذا أظلم عليهم : فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضًا نحو ما سلف . وقد روى تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين .

واعلم أن المنافقين أصناف : فمنهم من يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، ومنهم من قال فيه النبى ﷺ كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما :« ثلاث من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »، وورد بلفظ : « أربع » وزاد: « وإذا خاصم فجر »، وورد بلفظ : « وإذا عاهد غدر»[٢]. وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين ، أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين ، أقبل عليهم بالخطاب التفاتًا للنكتة السابقة فى الفاتحة و« يا » حرف نداء ، والمنادى « أىّ » وهو اسم مفرد مبنى على الضم ؛ و«ها» حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته . قال سيبويه: كأنك كررت « يا » مرتين ، وصار الاسم بينهما ، كما قالوا : ها هو ذا . وقد تقدم الكلام فى تفسير الناس والعبادة . وإنما خص نعمة الخلق ، وامتن بها عليهم ؛ لأن جميع النعم مترتبة عليها ، وهى أصلها الذى لا يوجد شىء منها بدونها . وأيضًا فالكفار مقرون بأن الله هو الخالق ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله ﴾ [الزخرف : ٨٧] فامتن عليهم بما يعترفون به ولا ينكرونه . وفى أصل معنى الخلق وجهان : أحدهما : التقدير يقال خلقت الأديم للسقاء : إذا قدرته قبل القطع . قال زهير:

ولأنت تـفرى مـا خـلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى [٣]

---

(١) فى المطبوعة : « مرآة » .

(٢) الحديث بلفظ: « أربع من كن فيه ... » عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أخرجه البخارى فى الإيمان (٣٤) والمظالم (٢٤٥٩) والجزية (٣١٧٨) ومسلم فى الإيمان (٥٨ / ١٠٦) والترمذى فى الإيمان (٢٦٣٢) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الإيمان ٨/ ١١٦ وأحمد ٢/ ١٨٩ .

وبلفظ : « آية المنافق ثلاث .... » عن أبى هريرة :أخرجه البخارى فى الإيمان (٣٣) والشهادات (٢٦٨٢) والوصايا (٢٧٤٩) والأدب (٦٠٩٥) ومسلم فى الإيمان (٥٩/ ١٠٧ ــ ١١٠) والترمذى فى الإيمان (٢٦٣١) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى الإيمان ٨/ ١١٧ .

(٣) فرى الكذب : خلقه ، وافتراه : اختلقه ، ومنه الفرية . مختار الصحاح ٥٠٢ .

الثانى : الإنشاء والاختراع والإبداع .

و« لعل » أصلها :الترجى ، والطمع ، والتوقع ، والإشفاق ، وذلك مستحيل على الله سبحانه ، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كان بمنزلة قوله لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع ، وبهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه . وقيل : إن العرب استعملت « لعل » مجردة من الشك بمعنى لام « كى » والمعنى هنا : لتتقوا ، وكذلك ما وقع هذا الموقع ، ومنه قول الشاعر :

وَقُلْــتمْ لَنَا كُفُّوا الحروبَ لَعَــلَّنَا ... نَكُفَّ وَوَثَّقْتُمْ لَـنَا كُلَّ مَـوْثِقِ

فَلَمَّا كَفَفْنَا الحَرْبَ كَانَت عُهُودُكُمْ ... كَشَبه سَرَابٍ فِى المَلاَ مُتَأَلِّقِ

أى كفوا عن الحرب لنكف ، ولو كانت « لعل » للشك لم يوثقوا لهم كل موثق . وبهذا قال جماعة منهم قطرب . وقيل : إنها بمعنى التعرض للشىء ،كأنه قال : متعرّضين للتقوى .

و﴿ جعل ﴾ هنا بمعنى صيّر ، لتعديه إلى المفعولين ، ومنه قول الشاعر :

وقد جعلت أرى الاثنـين أربـعة ... والأربع اثنين لما هدَّنى الكبر

﴿ فراشا ﴾ أى وطاء يستقرون عليها . لما قدم نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشًا لهم ، لما كانت الأرض التى هى مسكنهم ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم ، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم ، والسقف للبيت الذى يسكنونه ، كما قال :﴿ وجعلنا السماء سقفًا محفوظا ﴾ [الأنبياء: ٣٢] . وأصل البناء : وضع لبنة على أخرى . ثم امتنّ عليهم بإنزال الماء من السماء . وأصل ماء : موه ، قلبت الواو لتحركها ، وانفتاح ما قبلها ألفًا ، فصار ماه ، فاجتمع حرفان خفيفان ، فقلبت الهاء همزة ، والثمرات : جمع ثمرة. والمعنى : أخرجنا لكم ألوانًا من الثمرات ، وأنواعًا من النبات؛ ليكون ذلك متاعًا لكم إلى حين . والأنداد :جمع ند ، وهو المثل والنظير ، وقوله : ﴿وأنتم تعلمون ﴾ جملة حالية ، والخطاب للكفار والمنافقين .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال : ﴿ ولكن لا يعلمون﴾ [البقرة : ١٣] ،﴿ولكن لا يشعرون ﴾ [البقرة : ١٢] ، ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ [البقرة : ١٦] ، ﴿ صم بكم عمى ﴾ [البقرة : ١٨] فيقال : إن المراد أن جهلهم وعدم شعورهم لا يتناول هذا، أى كونهم يعلمون أنه المنعم دون غيره من الأنداد ، فإنهم كانوا يعلمون هذا ولا ينكرونه، كما حكاه الله عنهم فى غير آية . وقد يقال: المراد : وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم. وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد . قال ابن فُورَك : المرَاد وتجعلون لله أنداداً بعد علمكم الذى هو فى الجهل بأن الله واحد. انتهى . وحذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ما هم عليه من العلم بنوع واحد من الأنواع الموجبة للتوحيد .

وقد أخرج البزار والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : ما كان ﴿ يأيها الذين آمنوا﴾ فهو أنزل بالمدينة ، وما كان ﴿ يأيها الناس ﴾ فهو أنزل بمكة[١] . وروى نحو ذلك عنه[٢] ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه . وروى نحوه أبو عبيد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر من قول علقمة. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر عن الضحاك مثله ، وكذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مِهْران . وأخرج نحوه أيضًا ابن أبى شيبة وابن مردويه عن عروة ، وعكرمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ يأيها الناس ﴾ قال : هى للفريقين جميعًا من الكفار والمؤمنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿لعلكم ﴾ يعنى:«كى ».وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله بن عتبة ، قال: لعل من الله واجب .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ أى تمشون عليها وهى المهاد والقرار ، ﴿ والسماء بناء ﴾ قال : كهيئة القبة وهى سقف الأرض[٣] . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن أنه سئل : المطر من السماء أم من السحاب ؟ قال : من السماء . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن كعب قال : السحاب غربال المطر ، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض والبذر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال : المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء ، حتى يجتمع فى سماء الدنيا ، فيجتمع فى موضع يقال له: الأبزم ، فتجىء السحاب السود فتدخله، فتشربه مثل شرب الإسفنجة ، فيسوقها الله حيث يشاء.

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : ينزل الماء من السماء السابعة ، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال: المطر منه من السماء ، ومنه ما يستقيه الغيم من البحر فيغد به[٤] الرعد والبرق . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المطر ، عن ابن عباس قال : إذا جاء القطر من السماء تفتحت له الأصداف فكان لؤلؤا . وأخرج الشافعى فى الأم ، وابن أبى الدنيا فى كتاب المطر ، وأبو الشيخ فى العظمة عن المطلب بن حنطب ؛ أن النبى ﷺ قال : « ما من ساعة من ليلٍ ولا نهارٍ إلا والسماء تمطر فيها، يصرفه الله حيث يشاء »[٥] . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن

---

(١) زوائد البزار (٢١٨٦) والحاكم ١٨/٣ وسكت هو والذهبى عليه .

(٢) فى المطبوعة : « عن » ، وهو تصحيف ، والصواب « عنه » كما فى المخطوطة .

(٣) ابن جرير ١٢٦/١ من طريق السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ، وسبق بيان ضعف هذا الإسناد .

(٤) فى المطبوعة : « فيعذبه » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) الشافعى فى الأم ٢٢٤/١ .ط . الشعب .

ابن عباس قال : ما نزل مطر من السماء إلا ومعه البذر ، أما لو أنكم بسطتم نطعًا لرأيتموه . وأخرج ابن أبى الدنيا ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس قال: المطر مزاجة من الجنة ، فإذا كثر المزاج عظمت البركة ، وإن قل المطر ، وإذا قل المزاج قلت البركة وإن كثر المطر . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، وينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر ، ومن يرزقه ومن يخرج منه مع كل قطرة .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا تجعلوا لله أندادا** ﴾ أى لا تشركوا به غيره من الأنداد التى لا تضر ولا تنفع ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره . وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أندادا** ﴾ قال : أشباها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود : ﴿ **أندادًا** ﴾ قال : أكفاء من الرجال يطيعونهم فى معصية الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **أندادًا** ﴾ قال : شركاء .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، والنسائى وابن ماجة، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال : قال رجل للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، قال : «جعلتنى لله ندًا ما شاء الله وحده »[(١)] . وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفى [(٢)] قالت : جاء حبر من الأحبار إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون . قال : « وكيف ؟ » قال : يقول أحدكم : لا والكعبة ، فقال النبى ﷺ : « من حلف فليحلف برب الكعبة» . فقال : يا محمد ، نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندًا ، قال: « وكيف ذلك ؟ » قال : يقول أحدكم : ما شاء الله وشئت .فقال النبى ﷺ : « فمن قال منكم: ما شاء الله قال : ثم شئت » [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة والبيهقى عن حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولوا:ما شاء الله وشاء فلان ، قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان »[(٤)] .

---

(١) أحمد ١/ ٢١٤ والبخارى فى الأدب المفرد (٧٨٣) والنسائى فى عمل اليوم والليلة من الكبرى (١٠٨٢٥) وابن ماجة فى الكفارات (٢١١٧) بلفظ : « إذا حلف أحدكم فلا يقل : ما شاء الله وشئت . . . » وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ٩٩ .

(٢) هى قتيلة بنت صيفى الجهنية ، ويقال : الأنصارية ، كانت من المهاجرات الأول ، روى عنها عبد الله بن يسار . انظر : الإصابة لابن حجر ٨/ ١٦٩ .

(٣) أحمد ٦/ ٣٧١ ، ٣٧٢ وابن سعد فى الطبقات الكبرى ٨/ ٣٠٩ والطبرانى فى الكبير ٢٥/ ١٣ ، ١٤ (٥ ، ٦) واختصره النسائى فى الأيمان والنذور ٧/ ٦ وفى عمل اليوم والليلة (٩٨٦ ، ٩٨٧) والطبرانى فى السابق (٧) وصحح سنده ابن حجر فى الإصابة ٨/ ١٦٩ .

(٤) أحمد ٥/ ٣٨٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، وأبو داود فى الأدب (٤٩٨٠) والنسائى فى عمل اليوم والليلة من الكبرى (١٠٨٢١) وابن ماجة في الكفارات (٢١١٨) بلفظ: «أن رجلا من المسلمين رأى فى النوم أنه لقى رجلا من أهل الكتاب . . . » فذكر مثل حديث الطفيل بن سخبرة الآتى بعـد ، ورواه بنحو ذلك أحمد ٥/ ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي وابن مردويه عن طفيل بن سخبرة[(١)] ؛ أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود فقال : أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عُزَيرًا ابن الله ، فقالوا : وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد . ثم مر برهط من النصارى فقال : أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا : وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر النبى ﷺ ، فخطب فقال: « إن طفيلاً رأى رؤيا وإنكم تقولون كلمة كان يمنعنى الحياء منكم ، فلا تقولوها ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده لا شريك له »[(٢)]. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل ، على صفا [(٣)]سوداء ، فى ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتى ، وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص ، ولولا القط فى الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان، هذا كله شرك . وأخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » الحديث [(٤)] .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ .

﴿فى ريب ﴾ أى شك **﴿ مما نزلنا على عبدنا﴾** أى القرآن أنزله على محمد ﷺ . والعبد: مأخوذ من التعبد وهو التذلل . والتنزيل : التدريج والتنجيم . وقوله : **﴿ فأتوا ﴾** الفاء جواب الشرط ، وهو أمر معناه التعجيز، لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويبطل الشرك، عقبه بما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ . وما يدفع الشبهة فى كون القرآن معجزة ، فتحداهم بأن يأتوا بسورة من سوره . والسورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها ، كاشتمال سور البلد عليها ، و « من » فى قوله : **﴿ من مثله ﴾** زائدة، لقوله : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ [يونس: ٣٨] ، والضمير فى **﴿مثله ﴾** عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم. وقيل : عائد على التوراة والإنجيل ؛ لأن المعنى : فأتوا بسورة من كتاب

---

(١) هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة القرشى ، ويقال : الأزدى ، ويقال : الأسدى ، له صحبة ، وهو أخو عائشة لأمها .

(٢) أحمد ٥/ ٧٢ ـ واللفظ له ـ وابن ماجة فى الكفارات (٢١١٩) وفى الزوائد : « رجال الإسناد ثقات على شرط البخارى » .

(٣) الصفا : فى الأصل : جمع صفاة وهى الصخرة والحجر الأملس . النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٤١ .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٤٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨٦/ ١٤١ ، ١٤٢) وأبو داود فى الطلاق (٢٣١٠) والترمذى فى التفسير (٣١٨٢) وقال: «حسن صحيح » والنسائى فى تحريم الدم ٧/ ٨٩ ، ٩٠ وأحمد ١/ ٣٨٠، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ .

مثله ، فإنها تصدق ما فيه . وقيل : يعود على النبى ﷺ ، والمعنى : من بشر مثل محمد، أى لا يكتب ولا يقرأ . والشهداء : جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون ، والمراد هنا : الآلهة .

ومعنى ﴿ **دون** ﴾ أدنى مكان من الشيء ، واتسع فيه حتى استعمل فى تخطى الشيء إلى شيء آخر ، ومنه ما فى هذه الآية . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ [آل عمران : ٢٨] وله معان أخر، منها : التقصير عن الغاية ، والحقارة . يقال : هذا الشيء دون ، أى حقير ، ومنه :

إذا ما علا المرءُ رامَ العُلا وَيقنعُ بالدون مَن كان دُونا

والقرب ، يقال : هذا دون ذاك ، أى أقرب منه ، ويكون إغراء ، تقول : دونك زيداً : أى خذه من أدنى مكان. ﴿ **من دون الله** ﴾ متعلق بادعوا ، أى ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صادقين فيما قلتم ، من أنكم تقدرون على المعارضة ، وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم . والصدق خلاف الكذب ، وهو مطابقة الخبر للواقع ، أو للاعتقاد ، أوْ لَهَما ، على الخلاف المعروف فى علم المعانى .

﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾ يعنى فيما مضى ﴿ **ولن تفعلوا** ﴾ أى تطيقوا ذلك فيما يأتى ، وتبين لكم عجزكم عن المعارضة ﴿ **فاتقوا النار** ﴾ بالإيمان بالله وكتبه ورسله ، والقيام بفرائضه ، واجتناب مناهيه . وعبر عن الإتيان بالفعل لأن الإتيان فعل من الأفعال ؛ لقصد الاختصار . وجملة ﴿ **لن تفعلوا** ﴾ لا محل لها من الإعراب ، لأنها اعتراضية ، و« لن » للنفى المؤكد لما دخلت عليه ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها ، لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة فى أيام النبوة ، وفيما بعدها وإلى الآن . والوَقُود بالفتح : الحطب ، وبالضم: التوقد، أى المصدر ، وقد جاء فيه الفتح . والمراد بالحجارة : الأصنام التى كانوا يعبدونها لأنهم قرنوا أنفسهم بها فى الدنيا ، فجعلت وقوداً للنار معهم . ويدل على هذا قوله تعالى :﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : ٩٨] أى حطب جهنم . وقيل : المراد بها حجارة الكبريت ، وفى هذا من التهويل مالا يقادر قدره[١]، من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة ، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها .

والمراد بقوله : ﴿ **أعدت** ﴾ جعلت عدة لعذابهم ، وهيئت لذلك . وقد كرر الله سبحانه تحدى الكفار فى مواضع فى القرآن ، منها هذا ، ومنها قوله تعالى فى سورة القصص : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ [القصص :٤٩]، وقال فى سورة سبحان : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء : ٨٨]، وقال فى سورة هود : ﴿أم يقولون افتراه

---

(١) فى المطبوعة : «ما لا يقدر قدره » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [هود : ١٣]، وقال فى سورة يونس : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : ٣٧ ، ٣٨] .

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم : هل وجه الإعجاز فى القرآن هو كونه فى الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر ، أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه ؟ والحق الأول ، والكلام فى هذا مبسوط فى مواطنه .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والنسائى ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » [(١)]. وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وإن كنتم فى ريب** ﴾ قال : هذا قول الله لمن شكّ من الكفار فيما جاء به محمد ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**وإن كنتم فى ريب** ﴾ قال : فى شك ، ﴿ **مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ قال : من مثل القرآن حقًا وصدقًا لا باطل فيه ولا كذب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾ قال : مثل القرآن ، ﴿ **وادعوا شهداءكم**﴾ قال : ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنها مثله . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **شهداءكم**﴾ [(٢)] قال : أعوانكم على ما أنتم عليه ، ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ فقد بين لكم الحق .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ يقول : لن تقدروا على ذلك ولن تطيقوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه كان يقرأ كل شيء فى القرآن« وقودها » برفع الواو الأولى ، إلا التى فى السماء ذات البروج ﴿ **النار ذات الوقود** ﴾ [البروج : ٥] بنصب الواو . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إن الحجارة التى ذكرها الله فى القرآن فى قوله : ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ حجارة من كبريت، خلقها الله عنده كيف شاء [(٣)] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن

(١) أحمد ٢/ ٣٤١ ، ٤٥١ والبخارى فى فضائل القرآن (٤٩٨١) والاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم فى الإيمان (١٥٢/ ٢٣٩) والنسائى فى التفسير (١٤٩) وفى فضائل القرآن من السنن الكبرى (٧٩٧٧) والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٢٩ .

(٢) ﴿شهداءكم﴾ فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنهم آلهتهم . قاله ابن عباس ، والسدى ، ومقاتل ، والفراء . قال ابن قتيبة : وسموا شهداء لأنهم يشهدونهم ويحضرونهم ، وقال غيره : لأنهم عبدوهم ، فشهدوا لهم عند الله . والثانى : أنهم أعوانهم . روى ذلك عن ابن عباس أيضًا . الثالث : أن معناه : فأتوا بناس يشهدون أن ما تأتون به مثل القرآن . روى عن مجاهد .

(٣) ابن جرير ١/ ١٣١ والطبرانى فى الكبير (٩٠٢٦) وضعّف الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٠ شيخ الطبرانى ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٦١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

جرير أيضًا عن عمرو بن ميمون مثله أيضًا .

وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ قال : « أوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعًا مثله (٢) . وأخرج أحمد ومالك والبخارى ومسلم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التى توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ قال : «فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها» (٣) . وأخرج الترمذى وحسنه ، عن أبى سعيد مرفوعًا نحوه (٤). وأخرج ابن ماجة ، والحاكم وصححه ، عن أنس مرفوعا نحوه أيضا (٥) . وأخرج مالك فى الموطأ ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : أترونها حمراء مثل ناركم هذه التى توقدون إنها لأشد سوادًا من القار (٦). وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ أعدت للكافرين ﴾ قال : أى لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر .

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ .

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين ، عقبه بجزاء المؤمنين ، ليجمع بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، كما هى عادته سبحانه فى كتابه العزيز ، لما فى ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته ، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه . والتبشير : الإخبار بما يظهر أثره على البشرة ، وهى الجلدة الظاهرة ، من البشر والسرور . قال القرطبى : أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال : مَنْ بشرنى مِنْ عبيدى فهو حر ، فبشره واحد من عبيده فأكثر ، فإن أولهم يكون حرًا ، دون الثانى . واختلفوا إذا قال : مَنْ أخبرنى مِنْ عبيدى بكذا فهو حر ، فقال

---

(١) البيهقى فى الشعب (٧٧٨) وفيه قصة وضعَّف المحقق إسناده .

(٢) ابن أبى شيبة (١٢/١٦٠) موقوفًا ، والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩١) وابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٠) مرفوعًا . ورجح الترمذى وقفه .

(٣) أحمد ٢/٣١٣ ، ٤٦٧ ومالك فى صفة جهنم٢/ ٩٩٤ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٦٥) ومسلم فى الجنة (٢٨٤٣ / ٣٠) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٩) وقال : « حسن صحيح » .

(٤) الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩٠) وقال : « حسن غريب » .

(٥) ابن ماجة فى الزهد (٤٣١٨) وصححه الحاكم ٤/ ٥٩٣ وتعقبه الذهبى بأن « الراوى عن أنس واهٍ ، وبكر بن بكار، قال النسائى : ليس بثقة » .

(٦) مالك فى صفة جهنم ٢/ ٩٩٤ .

أصحاب الشافعي : يعم لأن كل واحد منهم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلف إنما قصد خبرًا يكون بشارة ، وذلك مختص بالأول . انتهى . والحق أنه إن أراد مدلول الخبر عتقوا جميعًا ، وإن أراد الخبر المقيد بكونه بشارة عتق الأول ، فالخلاف لفظي . والمأمور بالتبشير قيل: هو النبي ﷺ ، وقيل : هو كل أحد كما في قوله ﷺ :« بشر المشائين »(١).

وهذه الجمل وإن كانت مصدرة بالإنشاء فلا يقدح ذلك في عطفها على ما قبلها ؛ لأن المراد عطف جملة وصف ثواب المطيعين على جملة وصف عقاب العاصين ، من دون نظر إلى ما اشتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خبرًا وإنشاء . وقيل : إن قوله: ﴿ **وبشر** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **فاتقوا النار** ﴾ ، وليس هذا بجيد .

و ﴿ **الصالحات** ﴾ : الأعمال المستقيمة . والمراد هنا الأعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم. وفيه رد على من يقول : إن الإيمان بمجرده يكفي ، فالجنة تنال بالإيمان ، والعمل الصالح . والجنات : البساتين ، وإنما سميت جنات ؛ لأنها تجن من فيها ، أي تستره بشجرها ، وهو اسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على جنات كثيرة. والأنهار : جمع نهر ، وهو المجرى الواسع فوق الجداول ودون البحر ، والمراد : الماء الذي يجرى فيها ، وأسند الجرى إليها مجازًا، والجاري حقيقة هو الماء ، كما في قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية﴾ [يوسف : ٨٢] أي أهلها، وكما قال الشاعر :

ونبئتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أوقدَتْ واسْتب بَعْدَكَ يَا كُليبُ المجْلِسُ

والضمير في قوله : ﴿ **من تحتها** ﴾ عائد إلى الجنات ؛ لاشتمالها على الأشجار ، أي من تحت أشجارها . وقوله : ﴿**كلما رزقوا** ﴾ وصف آخر للجنات ، أو هو جملة مستأنفة ، كأن سائلا قال : كيف ثمارها ؟ و ﴿**من ثمرة** ﴾ في معنى من أي ثمرة : أي نوع من أنواع الثمرات؟ والمراد بقوله : ﴿ **هذا الذي رزقنا من قبل** ﴾ أنه شبيهه ونظيره ، لا أنه هو ؛ لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما . وذلك أن اللون يشبه اللون، وإن كان الحجم والطعم والرائحة والماوية (٢) مختلفة . والضمير في « به » عائد إلى الرزق . وقيل : المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهًا، فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره ، فيقولون : هذا الذي رزقنا من قبل ، فإذا أكلوا وجدوا له طعمًا غير طعم الأول. و﴿**متشابها** ﴾ منصوب على الحال والمراد بتطهير الأزواج : أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس ، وسائر الأدناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا . والخلود : البقاء

---

(١) جزء من حديث أنس بن مالك : أخرجه ابن ماجة في المساجد (٧٨١) وقال في الزوائد : « إسناد حديث أنس ضعيف » ورواه بريدة بن الحصيب : أخرجه عنه أبو داود في الصلاة (٥٦١) والترمذي في المواقيت (٢٢٣) وقال : « غريب من هذا الوجه مرفوع ، وهو صحيح مسند وموقوف إلى أصحاب النبي ﷺ ، ولم يسند إلى النبي ﷺ » .

(٢) الماوية : نسبة إلى الماء الذي في الثمرة .

الدائم الذى لا ينقطع ، وقد يستعمل مجازا فيما يطول ، والمراد هنا الأول .

وقد أخرج ابن ماجة وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، والبزار وابن أبى حاتم وابن حبان والبيهقى وابن مردويه عن أسامة بن زيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة خضراء » الحديث [١] .

والأحاديث فى وصف الجنة كثيرة جدًا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وأخرج ابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك » [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو حاتم وأبو الشيخ وابن حبان ، والبيهقى فى البعث وصححه عن ابن مسعود نحوه موقوفًا[٣] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قال : يعنى المساكن تجرى أسفلها أنهارها. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا** ﴾ قال :أتوا بالثمرة فى الجنة فنظروا إليها ، ﴿ **قالوا هذا الذى رزقنا من قبل** ﴾ فى الدنيا ، ﴿ **وأتوا به متشابهًا** ﴾ فى اللون ، والمرأى وليس يشبه الطعم [٤]. وأخرج عبد بن حميد عن على بن زيد وقتادة نحوه . وأخرج مسدد فى مسنده ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ليس فى الدنيا مما فى الجنة شيء إلا الأسماء[٥] .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة قال : قولهم : ﴿ **من قبل** ﴾ معناه هذا مثل الذى كان بالأمس . وأخرج ابن جرير عن يحيى بن أبى كثير نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ، قال : ﴿**متشابها** ﴾ فى اللون مختلفًا فى الطعم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **متشابها** ﴾ قال: خيار كله يشبه بعضه بعضًا، لا رذل[٦] فيه ، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **ولهم**

---

(١) ابن ماجة فى الزهد (٤٣٣٢) وفى الزوائد : « فى إسناده مقال » . وصححه ابن حبان (٧٣٣٧) .
(٢)صححه ابن حبان (٧٣٦٥) والحاكم ١/ ٨٠ بلفظ مختلف .
(٣) ابن أبى شيبة (١٠٨٠٥) ، وأخرج عبد الرزاق نحوه (٢٠٨٧٣) موقوفا على مسروق .
(٤ ، ٥) ابن جرير ١/ ١٣٥ .
(٦) الرَّذْل : الدون الخسيس الحقير. ورُذال كل شيء : رديئه . مختار الصحاح ٢٤٠ .

فيها أزواج مطهرة ﴾ قال : «من الحيض ، والغائط ، والبزاق ، والنخامة» [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال : من القذر والأذى . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : لا يَحِضْن ، ولا يُحدثن ، ولا يتنخمن . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين .

وقد ثبت عن النبى ﷺ فى صفات أهل الجنة فى الصحيحين وغيرهما ، عن طريق جماعة من الصحابة : أن أهل الجنة لا يبصقون ، ولا يتمخطون ولا يتغوطون [٢] . وثبت أيضا عن النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه ، فلينظر فى دواوين الإسلام وغيرها .

وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ وهم فيها خالدون ﴾** أى خالدون أبدًا ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدًا لا انقطاع له. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : **﴿وهم فيها خالدون ﴾** يعنى لا يموتون. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبى ﷺ؛ قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : يا أهل النار لا موت ، ويا أهل الجنة لا موت ، كل هو خالد فيما هو فيه » [٣] . وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة نحوه[٤]. وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه من حديث معاذ نحوه[٥] .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ :« لو قيل لأهل النار : إنكم ماكثون فى النار عدد كل حصاة فى الدنيا لفرحوا بها ، ولو قيل لأهل الجنة : إنكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ، ولكن جعل لهم الأبد » [٦] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٩٢ ط . الشعب بإسناد ابن مردويه واستغربه، ثم نقل عن الحاكم أنه صححه فى المستدرك على شرط الشيخين ، وقال : « وهذا الذى ادعاه فيه نظر ، فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستى : « لا يجوز الاحتجاج به » ثم قال : «والأظهر أن هذا من كلام قتادة » . وقد اجتهدت فى البحث عنه فى مستدرك الحاكم فلم أجده ، فلعله سقط من المطبوعة .

(٢) جزء من حديث صحيح : أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٣٣٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٣٤/ ١٤) عن أبى هريرة .

(٣) البخارى فى الرقاق (٦٥٤٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٠/ ٤٣) .

(٤) البخارى فى الرقاق (٦٥٤٥) .

(٥) الطبرانى ٢٠/ ١٧٥ (٣٧٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٩٩ : « إسناده جيد ، إلا أن ابن سابط لم يدرك معاذًا » ، وصححه الحاكم ١/ ٨٣.

(٦) الطبرانى (١٠٣٨٤) وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ١٦٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٩٩ : « فيه الحكم بن ظهير ، وهو مجمع على ضعفه ».

كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾ .

أنزل الله هذه الآية ردا على الكفار ، لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال ؛ كقوله : ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا ﴾ [البقرة : ١٧] ، وقوله : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ [البقرة : ١٩] فقالوا : الله أجل وأعلا من أن يضرب الأمثال. وقال الرازى : إنه تعالى لما بيّن بالدليل كون القرآن معجزًا ، أورد هاهنا شبهة ، أوردها الكفار قدحًا فى ذلك ، وأجاب عنها . وتقرير الشبهة : أنه جاء فى القرآن ذكر النحل ، والعنكبوت ، والنمل ، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء ، فاشتمال القرآن عليها يقدح فى فصاحته ، فضلا عن كونه معجزًا . وأجاب الله عنها : بأن صغر هذه الأشياء لا تقدح فى الفصاحة ، إذا كان ذكرها مشتملاً على حكمة بالغة . انتهى. ولا يخفاك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه ، وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له ، ولا دليل عليه ، وقد تقدمه إلى شىء من هذا صاحب الكشاف ، والظاهر ما ذكرناه أولاً؛ لكون هذه الآية جاءت بعقب المثَلَيْن اللذيْن هما مذكوران قبلها ، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحًا فى الفصاحة والإعجاز .

والحياء : تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم ، كذا فى الكشاف ، وتبعه الرازى فى مفاتيح الغيب . وقال القرطبى : أصل الاستحياء الانقباض عن الشىء ، والامتناع منه ؛ خوفًا من مواقعة القبيح ، وهذا محال على الله . انتهى [١] . وقد اختلفوا فى تأويل ما فى هذه الآية من ذكر الحياء فقيل : ساغ ذلك لكونه واقعًا فى الكلام المحكى عن الكفار. وقيل : هو من باب المشاكلة كما تقدم . وقيل : هو جارٍ على سبيل التمثيل . قال فى الكشاف : مثّل تركَه تخييب العبد ، وأنه لا يرد يديه صفرًا من عطائه لكرمه ، بترك من يترك رد المحتاج إليه حياءً منه .انتهى . وقد قرأ ابن محيصن وابن كثير فى رواية عنه: « يستحى » بياء واحدة ، وهى لغة تميم وبكر بن وائل نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت ، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين .

وضرب المثل اعتماده وصنعه و « ما » فى قوله : ﴿ ما بعوضة ﴾ إبهامية ، أى موجبة لإبهام ما دخلت عليه حتى يصير أعم مما كان عليه ، وأكثر شيوعًا فى أفراده ، وهى فى موضع نصب على البدل من قوله : ﴿مثلا﴾ و﴿بعوضة ﴾ نعت لها لإبهامها قاله الفراء والزجاج وثعلب . وقيل : إنها زائدة [٢] ، وبعوضة بدل من مثل ، ونصب بعوضة فى هذين الوجهين

---

(١) راجع : القرطبى ٢٠٨/١ ، وقال : « وفى صحيح مسلم [الحيض (٣١٣/ ٣٢)] عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « جاءت أم سليم إلى النبى ﷺ . فقالت : « يا رسول الله ، إن الله لا يستحيى من الحق » المعنى: لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره » .

(٢) ومثله قول النابغة :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقد

ظاهر . وقيل : إنها منصوبة بنزع الخافض ، والتقدير : أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة فحذف لفظ بين . وقد روى هذا عن الكسائى . وقيل : إن ﴿ يضرب ﴾ بمعنى يجعل فتكون بعوضة المفعول الثانى . وقرأ الضحاك، وإبراهيم بن أبى عبلة ، ورؤبة [١] بن العجاج: « بعوضةٌ » بالرفع وهى لغة تميم . قال أبو الفتح : وجه ذلك أن « ما » اسم بمنزلة الذى ، وبعوضة رفع على إضمار المبتدأ ، ويحتمل أن تكون « ما » استفهامية كأنه قال تعالى :﴿ ما بعوضة فما فوقها﴾ حتى لا يضرب المثل به ، بل له أن يمثل [٢] بما هو أقل من ذلك بكثير والبعوضة فعولة من بعض : إذا قطع ، يقال : بضع وبعض بمعنى ، والبعوض : البق ، الواحدة بعوضة ، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

وقوله : ﴿ فما فوقها ﴾ قال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : فما فوقها والله أعلم : ما دونها ، أى أنها فوقها فى الصغر كجناحها . قال الكسائى : وهذا كقولك فى الكلام: أتراه قصيرًا ، فيقول القائل : أو فوق ذلك، أى أقصر مما ترى . ويمكن أن يراد : فما زاد عليها فى الكبر . وقد قال بذلك جماعة. قوله : ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ « أما » حرف فيه معنى الشرط . وقدره سيبويه بمهما يكن من شىء فكذا . وذكر صاحب الكشاف أن فائدته فى الكلام أنه يعطيه فضل توكيد ، وجعل تقدير سيبويه دليلاً على ذلك . والضمير فى ﴿ أنه ﴾ راجع إلى المثل ، و﴿ الحق ﴾ الثابت وهو المقابل للباطل ، والحق واحد الحقوق ، والمراد هنا الأول . وقد اختلف النحاة فى ﴿ ماذا﴾ فقيل : هى بمنزلة اسم واحد بمعنى : أى شىء أراد الله ، فتكون فى موضع نصب بأراد [٣] . قال ابن كيسان :وهو الجيد . وقيل : « ما » اسم تام [٤] فى موضع رفع بالابتداء ، و « ذا » بمعنى الذى ، وهو خبر المبتدأ مع صلته ، وجوابه يكون على الأول منصوبًا وعلى الثانى مرفوعًا . والإرادة نقيض الكراهة ، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه .

و﴿ مثلاً ﴾ قال ثعلب : منصوب على القطع ، والتقدير : أراد مثلاً .وقال ابن كيسان : هو منصوب على التميیز الذى وقع موقع الحال ، وهذا أقوى من الأول . وقوله : ﴿ يضل به كثيرًا ويهدى به كثيرًا ﴾ هو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بأما ، فهو خبر من الله سبحانه . وقيل : هو حكاية لقول الكافرين ، كأنهم قالوا : ما مراد الله بهذا المثل الذى يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى ؟ وليس هذا بصحيح ؛ فإن الكافرين لا يقرون بأن فى القرآن شيئا من الهداية ، ولا يعترفون على أنفسهم بشىء من الضلالة .

قال القرطبى : ولا خلاف أن قوله:﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ من كلام الله سبحانه.

---

(١) فى المطبوعة : « رؤية » ، بالياء المثناة التحتية ، والصواب « رؤبة » ، بالموحدة ، كما فى المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة : « بل يدان لمثل » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) الطبرى ١/ ٤٠٧ ط . دار المعارف ، بتحقيق الشيخ محمود شاكر .

(٤) القرطبى ١/ ٢٠٩ فما جاء به يعد نفيسا فى بابه .

وقد أطال المتكلمون الخصام فى تفسير الضلال المذكور هنا وفى نسبته إلى الله سبحانه . وقد نقَّح البحث الرازىُّ فى تفسيره ــ مفاتيح الغيب ــ فى هذا الموضع تنقيحًا نفيسًا ، وجوَّده وطوَّله، وأوضح فروعه وأصوله ، فليرجع إليه فإنه مفيد جدًا (١) ، وأما صاحب الكشاف فقد اعتمدها هنا على عصاه التى يتوكأ عليها فى تفسيره ، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سببًا ، فهو من الإسناد المجازى إلى ملابس للفاعل الحقيقى (٢) . وحكى القرطبى عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله : ﴿يضل﴾ يخذل.

والفسق : الخروج عن الشىء ، يقال : فسقت الرطبة : إذا خرجت عن قشرها ، والفأرة من جحرها ، ذكر معنى هذا الفراء (٣) ، وقد استشهد أبو بكر الأنبارى فى كتاب الزاهر له على معنى الفسق بقول رؤبة بن العجاج :

يهوِيْن فى نجد وغورًا غائرًا فواسقاً عن قصدها جوائر

وقد زعم ابن الأعرابى أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم فاسق ، وهذا مردود عليه ، فقد حكى ذلك عن العرب ، وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهرى ، وابن الأنبارى ، وغيرهم. وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : «خمس فواسق » الحديث (٤) .وقال فى الكشاف : الفسق : الخروج عن القصد ، ثم ذكر عجز بيت رؤبة المذكور، ثم قال : والفاسق فى الشريعة : الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة . انتهى . وقال القرطبى : والفسق فى عرف الاستعمال الشرعى : الخروج عن طاعة الله ــ عز وجل . فقد يقع على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعصيان . انتهى . وهذا هو أنسب بالمعنى اللغوى، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض ، قال الرازى فى تفسيره : واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أوكافر ؟ فعند أصحابنا أنه مؤمن ، وعند الخوارج أنه كافر ، وعند المعتزلة لا مؤمن ولا كافر ، واحتج المخالف بقوله تعالى : ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [التوبة : ٦٧]، وقوله : ﴿حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ [الحجرات : ٧] وهذه المسألة طويلة مذكورة فى علم الكلام . انتهى .

وقوله : ﴿ الذين ينقضون ﴾ فى محل نصب وصفًا للفاسقين . والنقض: إفساد ما أبرم من بناء ، أو حبل ، أو عهد ، والنقاضة : ما نقض من حبل الشعر . والعهد :قيل : هو

---

(١) التفسير الكبير للرازى ١/ ١٥٥ .

(٢) يقصد أن الزمخشرى توكأ على رأيه ، الذى هو رأى المعتزلة فى الإرادة الإنسانية ، وأن العبد خالق لأفعال نفسه .

(٣) القرطبى ١/ ٢٠١.

(٤) البخارى فى جزاء الصيد (١٨٢٩) ومسلم فى الحج (١١٩٨/ ٨٧) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٠٨ وأبو داود فى المناسك (١٨٤٧) والترمذى فى الحج (٨٣٧) وأحمد ٦/ ٣٣ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٦٤ ، ٢٥٩ عن عائشة .

الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته ، فى كتبه على ألسن رسله . ونقضهم ذلك : ترك العمل به . وقيل : بل هو نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض ، وسائر مخلوقاته ، ونقضه : ترك النظر فيه . وقيل : هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس . والميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مفعال من الوثاقة ، وهى الشدة فى العقد والربط ، والجمع المواثيق والمياثيق ؛ وأنشد ابن الأعرابى :

حِمىً لا يُحَلُّ الدَّهْرَ إلا بإذْننا وَلا نَسْألُ الأقوامَ عَهْدَ الميائق [(١)]

واستعمال النقض فى إبطال العهد على سبيل الاستعارة . والقطع معروف والمصدر فى الرحم القطيعة ، وقطعت الحبل قطعًا ، وقطعت النهر قطعًا و « ما » فى قوله : ﴿ **ما أمر الله به** ﴾ فى موضع نصب بـ ﴿ **يقطعون** ﴾، و﴿**أن يوصل**﴾ فى محل نصب بأمر . ويحتمل أن يكون بدلاً من « ما » ، أو من الهاء فى « به » . واختلفوا ما هو الشيء الذى أمر الله بوصله، فقيل : الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ، فقطعوه بتصديق بعضهم، وتكذيب البعض الآخر . وقيل : المراد به حفظ شرائعه وحدوده التى أمر فى كتبه المنزلة ، وعلى ألسن رسله بالمحافظة عليها ، فهى عامة ، وبه قال الجمهور ، وهو الحق .

والمراد بالفساد فى الأرض : الأفعال والأقوال المخالفة لما أمر الله به ، كعبادة غيره ، والإضرار بعباده ، وتغيير ما أمر بحفظه ، وبالجملة فكل ما خالف الصلاح شرعًا أو عقلاً فهو فساد ، والخسران : النقصان ، والخاسر هو الذى نقص نفسه من الفلاح والفوز ، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، كان عملهم فسادًا لما نقصوا أنفسهم من الفلاح والربح .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين قوله : ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا ﴾ [البقرة : ١٧] ، وقوله: ﴿ أو كصيب من السماء ﴾[البقرة : ١٩] . قال المنافقون : الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله : ﴿ **إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا**﴾ الآية[(٢)] . وأخرج الواحدى فى تفسيره عن ابن عباس قال : إن الله ذكر آلهة المشركين فقال : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئًا ﴾ [الحج : ٧٣] ، وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت ، فقالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أى شيء كان يصنع بهذا ؟ فأنزل الله : ﴿ **إن الله لا يستحيى** ﴾ [(٣)]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن

---

(١) البيت لعياض بن درة الطائى . وفى اللسان وشرح القاموس : وثق : عقد الميثاق .

(٢) ابن جرير ١/١٣٨ . (٣) الواحدى فى أسباب النزول ص ١٣ .

المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحو قول ابن عباس : وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: لما نزلت: ﴿يأيها الناس ضرب مثل﴾ [الحج : ٧٣] قال المشركون : ما هذا من الأمثال فيضرب؟ فأنزل الله هذه الآية [١] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ قال : يؤمن به المؤمن ويعلمون أنه الحق من ربهم ويهديهم الله به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة ، فى قوله: ﴿ **يضل به كثيراً** ﴾ يعنى المنافقين ﴿ **ويهدى به كثيراً**﴾ يعنى المؤمنين ،﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ قال : هم المنافقون . وفى قوله :﴿ **ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**﴾ قال : هو ما عهد إليهم فى القرآن فأقرُّوا به ثم كفروا فنقضوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ يقول : يعرفه الكافرون فيكفرون به. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : فسقوا، فأضلهم الله بفسقهم .

وأخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعد بن أبى وقاص قال : الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه[٢] ، وكان يسميهم الفاسقين[٣]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ما نعلم الله أوعد فى ذنب ما أوعد فى نقض هذا الميثاق ، فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه ، فليُوفّ به الله، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى أحاديث ثابتة فى الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهى عن نقض العهد ، والوعيد الشديد عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ قال : الرحم والقرابة[٤] . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ويفسدون فى الأرض** ﴾ قال : يعملون فيها بالمعصية. وأخرج ابن المنذر عن مقاتل فى قوله : ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ يقول : هم أهل النار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : كل شىء نسبه الله إلى غيرأهل الإسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فإنما يعنى به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذم .

---

(١) روى نحوه ابن جرير ١/١٣٨ من طريق عبد الرزاق عن معمر ، والواحدى فى أسباب النزول ص١٢ عن الحسن وقتادة .

(٢) الحرورية هم الخوارج ، وسموا بذلك نسبة إلى حروراء ـ بفتح الحاء والراء وسكون الواو ، ويقال : بفتح فضم ـ وهى قرية أو كورة بظاهر الكوفة، كانوا قد انحازوا إليها بعد رجوع على ـ رضى الله عنه ـ من صفين إلى الكوفة . انظر : فتح البارى ١/٤٢٢ .

(٣) جزء من حديث سعد بن أبى وقاص : أخرجه البخارى فى التفسير (٤٧٢٨) وابن جرير ١٦/٢٧ .

(٤) ابن جرير ١/٤١٦ ط . الشيخ شاكر وقد بين الله ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ [محمد : ٢٢] .

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾.

﴿ كيف ﴾ مبنية على الفتح لخفته ، وهى فى موضع نصب بـ ﴿ تكفرون ﴾ ، ويسأل بها عن الحال ، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم ، والتعجب من حالهم ، وهى متضمنة لهمزة الاستفهام ، والواو فى ﴿ وكنتم ﴾ للحال ، و«قد » مقدرة كما قال الزجاج والفراء ، وإنما صح جعل هذا الماضى حالاً ؛ لأن الحال ليس هو مجرد قوله: ﴿ كنتم أمواتًا﴾ بل هو ما بعده إلى قوله : ﴿ ترجعون ﴾ كما جزم به صاحب الكشاف ، كأنه قال : كيف تكفرون وقصتكم هذه؟ أى وأنتم عالمون بهذه القصة ، وبأولها وآخرها، والأموات جمع ميت .

واختلف المفسرون فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، فقيل : إن المراد ﴿ كنتم أمواتًا ﴾ قبل أن تخلقوا ، أى معدومين ؛ لأنه يجوز إطلاق اسم الموتى على المعدوم ؛ لاجتماعهما فى عدم الإحساس﴿ فأحياكم﴾ أى خلقكم، ثم ﴿يميتكم﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثم يحييكم ﴾ يوم القيامة . وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذى لا محيد للكفار عنه ، وإذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين، ثم أحياء فى الدنيا ، ثم أمواتا فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا .

وقيل : إن المراد : كنتم أمواتًا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذر ، ثم يميتكم موت الدنيا ، ثم يبعثكم . وقيل:﴿ كنتم أمواتًا ﴾ أى نطفًا فى أصلاب الرجال ، ثم يحييكم حياة الدنيا ﴿ ثم يميتكم ﴾ بعد هذه الحياة ﴿ ثم يحييكم﴾ فى القبور ثم ﴿ يميتكم ﴾ فى القبر، ثم ﴿ يحييكم ﴾ الحياة التى ليس بعدها موت .

قال القرطبى[(١)] : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات ، وثلاث إحياءات ، وكونهم موتى فى ظهر آدم ، وإخراجهم من ظهره ، والشهادة عليهم ، غير كونهم نطفًا فى أصلاب الرجال، فعلى هذا يجىء أربع موتات وأربع إحياءات ، وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم كالهباء [(٢)] وأماتهم ، فيكون على هذا خمس موتات ، وخمس إحياءات وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد ﷺ كما ورد فى الحديث : « ولكن ناسًا أصابتهم النار بذنوبهم فأماتهم الله إماتة ، حتى إذا كانوا فحمًا أذن فى الشفاعة فجىء بهم » إلى أن قال : «فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل » [(٣)] . وهو فى الصحيح من حديث أبى سعيد [(٤)] .

وقوله : ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أى : إلى الله سبحانه، فيجازيكم بأعمالكم . وقد قرأ

---

(١) القرطبى ١ / ٢١٤ . (٢) فى الأصل : «كالبهائم » والصواب «كالهباء » كما فى القرطبى ١/ ٢١٤ .

(٣) حميل السيل : هو ما جاء به السيل من طين أو غثاء . النهاية فى غريب الحديث ١/ ٤٤٢ . ومعناه :محمول السيل ، والمراد : التشبيه فى سرعة النبات وحسنه وطراوته .

(٤) جزء من حديث صحيح : أخرجه البخارى فى الأذان (٨٠٦) ومسلم فى الإيمان (٣٠٢/١٨٣) .

يحيى بن يعمر ، وابن أبى إسحاق ، ومجاهد ، وسلام ، ويعقوب بفتح حرف المضارعة . وقرأ الجماعة بضمه . قال فى الكشاف : عطف الأول بالفاء، وما بعده بثم ؛ لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء ، والإحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخيًا ظاهرًا ، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضًا متراخ عن النشور . انتهى . ولا يخفاك أنه إن أراد بقوله : إن الإحياء الأول قد تعقب الموت أنه وقع على ما هو متصف بالموت ، فالموت الآخر وقع على آخر أوقات موته ، كما وقع الثانى عند آخر أوقات حياته ، فتأمل هذا .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة فى قوله تعالى :﴿ **وكنتم أمواتًا** ﴾ الآية ، قال : لم تكونوا شيئًا فخلقكم ﴿ **ثم يميتكم ثم يحييكم** ﴾ يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : يميتكم ثم يحييكم فى القبر ثم يميتكم . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وكنتم أمواتًا** ﴾ قال : حين لم تكونوا شيئًا ، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة ، ثم يرجعون إليه بعد الحياة . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال: خلقهم من ظهر آدم ، فأخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ، ثم خلقهم فى الأرحام ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم يوم القيامة . والصحيح الأول .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ .

قال ابن كيسان : ﴿ **خلق لكم** ﴾ أى من أجلكم ، وفيه دليل على أن الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة ، حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل ، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر ، وفى التأكيد بقوله: ﴿**جميعًا** ﴾ أقوى دلالة على هذا . وقد استدلَّ بهذه الآية على تحريم أكل الطين ؛ لأنه تعالى خلق لنا ما فى الأرض دون نفس الأرض. وقال الرازى فى تفسيره : إن لقائل أن يقول : إن فى جملة الأرض ما يطلق عليه أنه فى الأرض، فيكون جامعًا للوصفين ، ولا شك أن المعادن داخلة فى ذلك ، وكذلك عروق الأرض وما يجرى مجرى البعض لها، ولأن تخصيص الشىء بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما عداه. انتهى . وقد ذكر صاحب الكشاف ما هو أوضح من هذا ، فقال : فإن قلت : هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة ؟ قلت : إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء ، كما تذكر السماء ويراد الجهات العلوية ، جاز ذلك، فإن الغبراء وما فيها واقعة فى الجهات السفلية . انتهى . وأما التراب فقد ورد فى السنة تحريمه ، وهو أيضًا ضار فليس مما ينتفع به أكلاً ، ولكنه ينتفع به فى منافع أخرى ، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل ، بل كل ما يصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه . و ﴿ **جميعًا** ﴾ منصوب على الحال .

والاستواء فى اللغة : الاعتدال والاستقامة ، قاله فى الكشاف ، ويطلق على الارتفاع ،

والعلو على الشيء ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أنت وَمَن مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ ﴾ [المؤمنون : ٢٨]، وقال : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ [الزخرف : ١٣] وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية . وقد قيل : إن هذه الآية من المشكلات . وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها ، وترك التعرض لتفسيرها ، وخالفهم آخرون . والضمير فى قوله : ﴿ فسوَّاهُن ﴾ مبهم يفسره ما بعده كقولهم : زيد رجلاً . وقيل: إنه راجع إلى السماء ؛ لأنها فى معنى الجنس ، والمعنى : أنه عدل خلقهن فلا اعوجاج فيه . وقد استدل بقوله : ﴿ ثم استوى ﴾ على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء . وكذلك الآية التى فى « حم السجدة » . وقال فى النازعات : ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴾ [النازعات: ٢٧] فوصف خلقها ، ثم قال :﴿ والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات: ٣٠] فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض ، وكذلك قوله تعالى : ﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ﴾ [الأنعام : ١] وقد قيل : إن خلق جرم الأرض متقدم على السماء ودحوها متأخر . وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم . وهذا جمع جيد لابد من المصير إليه ، ولكن خلق ما فى الأرض لا يكون إلا بعد الدحو . والآية المذكورة هنا دلت على أنه خلق ما فى الأرض قبل خلق السماء ، وهذا يقتضى بقاء الإشكال ، وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع .

وقوله : ﴿ سبع سموات ﴾ فيه التصريح بأن السموات سبع ، وأما الأرض فلم يأت فى ذكر عددها إلا قوله تعالى : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ [الطلاق : ١٢] فقيل : أى فى العدد. وقيل : أى فى غلظهن وما بينهن . وقال الداودى : إن الأرض سبع ، ولكن لم يفتق بعضها من بعض ، والصحيح أنها سبع كالسموات . وقد ثبت فى الصحيح قوله ﷺ : « من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله من سبع أرضين » ، وهو ثابت من حديث عائشة، وسعيد بن زيد (١) .ومعنى قوله تعالى : ﴿ سوّاهن ﴾ سوى سُطوحَهُن بالإملاس . وقيل : جعلهن سواء . قال الرازى فى تفسيره : فإن قيل : فهل يدل التنصيص على سبع سموات ، أى فقط ؟ قلنا : الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد . والله أعلم . انتهى. وفى هذا إشارة إلى ما ذكره الحكماء من الزيادة على السبع . ونحن نقول : إنه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله إلا السبع ، فنقتصر على ذلك ، ولا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع ، ولم يأت شيء من ذلك ، وإنما أثبت لنفسه سبحانه أنه بكل شيء عليم ؛ لأنه يجب أن يكون عالمًا بجميع ما ثبت أنه خالقه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله تعالى : **﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا﴾** قال : سخر لكم ما فى الأرض جميعا كرامة من الله ، ونعمة لابن آدم ،

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٥ ، ٣١٩٦ ، ٣١٩٨) ومسلم فى المساقاة (١٦١٠ / ١٣٧ ـ ١٤٠) ، (١٦١٢/ ١٤٢) وأحمد ١/ ١٨٧ـ ١٩٠ وهو ثابت من حديث أبى هريرة عند مسلم فى المساقاة (١٦١١/ ١٤١) وأحمد ٢/ ١٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٣٢ .

وبلغة ومنفعة إلى أجل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد فى قوله : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا** ﴾ قال : سخر لكم ما فى الأرض جميعا ، ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ قال :خلق الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان ، فذلك قوله:﴿ **ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات**﴾ يقول :خلق سبع سموات بعضهن فوق بعض ، وسبع أرضين بعضهن فوق بعض .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض** ﴾ الآية، قالوا : إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئًا قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء فسما عليه ، فسماه سماء، ثم انبسَّ الماء [(١)] فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها سبع أرضين فى يومين ، الأحد ، والإثنين ، فخلق الأرض على حوت ، وهو الذى ذكره فى قوله: ﴿ ن والقلم ﴾ [القلم :١] والحوت فى الماء ، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة فى الريح ، وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض ، فتحرك الحوت ، فاضطرب ، فتزلزلت الأرض ، فأرسى عليها الجبال فقرت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ [لقمان: ١٠] وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها ، وسخرها ، وما ينبغى لها فى يومين ، فى الثلاثاء ، والأربعاء ، وذلك قوله : ﴿ أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض﴾ إلى قوله : ﴿وبارك فيها ﴾ يقول :أنبت شجرها ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ يقول: أقوات أهلها ﴿ فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ [فصلت:٩، ١٠] يقول : من سأل فهكذا الأمر ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ [فصلت : ١١] وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ، فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ؛ وإنما سمى يوم الجمعة ؛ لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ﴿ وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ [فصلت : ١٢] قال :خلق فى كل سماء خلقها ، من الملائكة ، والخلق الذى فيها ، من البحار وجبال البرد ، وما لا يعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظًا من الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش [(٢)] . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ يعنى : صعد أمره إلى السماء ، فسواهنَّ : يعنى خلق سبع سموات ، قال : أجرى النار على الماء ، فبخر البحر ، فصعد فى الهواء، فجعل السموات منه[(٣)] .

(١) انبس الماء : سار وتفرق فى الأرض .

(٢) ابن جرير ١/١٥٢، ١٥٣ والبيهقى فى الأسماء والصفات ص٤٨٢ ، ط . الكتب العلمية . ومثل هذا القصص هو من الإسرائيليات التى لم يرد بها نقل صحيح ، وانظر فى ذلك : ما كتبه الدكتور محمد أبو شهبة فى هذا الموضوع فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير» ص ٤٠١ وما بعدها .

(٣) البيهقى فى الأسماء والصفات ص٥٢٠ ، وفى الإسناد محمد بن السائب الكلبى متروك ، ورمى بالرفض .

وقد ثبت عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة فى الصحيح قال : أخذ النبى ﷺ بيدى فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر »(١) . وقد ثبت عن النبى ﷺ من طرق ، عند أهل السنن وغيرهم ، عن جماعة من الصحابة أحاديث فى وصف السموات ، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام ، وأنها سبع سموات ، وأن الأرض سبع أرضين . وكذلك ثبت فى وصف السماء آثار عن جماعة من الصحابة ، وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور بعض ذلك ، فى تفسير هذه الآية ، وإنما تركنا ذكره هاهنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص ، بل هو متعلق بما هو أعم منها .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ .

« إذ » من الظروف الموضوعة للتوقيت وهى للمستقبل ، و إذا للماضى ، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المبرّد : هى مع المستقبل للمضى ، ومع الماضى للاستقبال . وقال أبو عبيدة : إنها هنا زائدة . وحكاه الزَّجَّاج وابن النحاس، وقالا : هى ظرف زمان ليست مما يزاد ، وهى هنا فى موضع نصب بتقدير : اذكر أو بقالوا . وقيل : هو متعلق بـ ﴿ خلق لكم ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وليس بظاهر. والملائكة : جمع ملَكَ بوزن فَعَل ، قاله ابن كيسان . وقيل : جمع مَلأك بوزن مَفْعَل ، قاله أبو عبيدة ، من لأك : إذا أرسل ، والألوكة: الرسالة . قال لبيد :

وغُلامٍ أرْسَلَتْهُ أمُّهُ بَألوكَ فَبَذلْنَا مَا سَأَل(٢)

وقال عدى بن زيد :

أبْلِغِ النُّعمانَ عَنى مألكًا أنَّه قَدْ طَال حَبْسِى وَانْتِظَارى (٣)

ويقال : ألكنى : أى أرسلنى . وقال النضر بن شميل : لا اشتقاق للملك عند العرب ، والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ، ومثله الصلادمة ، والصلادم : الخيل الشداد واحدها صلدم . وقيل : هى للمبالغة ، كعلامة ونسّابة. و ﴿ جاعل ﴾ هنا من جعل المتعدى إلى

---

(١) مسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٩ / ٢٧) وأحمد ٣٢٧/٢ .

(٢) ديوانه القصيدة رقم ٣٧ ، البيت ١٦ . وقوله : « وغلام » مجرور بواو ، أى أرسلت الغلام أمه تلتمس من معروف لبيد ، فأعطاها ما سألت .

(٣) الأغانى ١٤/٢ والعقد الفريد ٢٦١/٥ وهى إحدى قصائد عدى التى كان يكتبها إلى النعمان لما حبسه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد ، وبعده البيت المشهور وهو تمامه :

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

مفعولين . وذكر المطرزى أنه بمعنى خالق ، وذلك يقتضى أنه متعدّ إلى مفعول واحد، والأرض هنا : هى هذه الغبراء ولا يختص ذلك بمكان دون مكان، وقيل : إنها مكة . والخليفة هنا معناه: الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى : المخلوف ، أى يخلفه غيره قيل : هو آدم . وقيل : كل من له خلافة فى الأرض ، ويقوى الأول قوله : ﴿ **خليفة** ﴾ دون خلائف ، واستغنى بآدم عن ذكر من بعده .

قيل : خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب ؛ لا للمشورة ، ولكن لاستخراج ما عندهم . وقيل : خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم ذلك السؤال ، فيجابون بذلك الجواب . وقيل : لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم . وأما قولهم : ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها**﴾ فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بنى آدم فى الأرض ، لكونهم مظنة للإفساد فى الأرض ؛ وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة ببنى آدم ، بل قبل وجود آدم ، فضلاً عن ذريته ، لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه ، لأنهم لا يعلمون الغيب ؛ قال بهذا جماعة من المفسرين. وقال بعض المفسرين : إن فى الكلام حذفًا ، والتقدير : إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ، فقالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ . وقوله : ﴿**يفسد**﴾ قائم مقام المفعول الثانى . والفساد ضد الصلاح . وسفك الدم : صبه ، قاله ابن فارس والجوهرى ، ولا يستعمل السفك إلا فى الدم . وواحد الدماء : دم ، وأصله دمى حذف لامه . وجملة :﴿ **ونحن نسبح بحمدك** ﴾ حالية . والتسبيح فى كلام العرب : التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم . قال الأعشى :

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِى فَخْرُهُ   سُبْحانَ مَن عَلْقَمة الفَاخِرِ (١)

و ﴿ **بحمدك** ﴾ فى موضع الحال ، أى حامدين لك ، وقد تقدم معنى الحمد . والتقديس: التطهير، أى ونطهرك عما لا يليق بك مما نسبه إليك الملحدون ، وافتراه الجاحدون. وذكر فى الكشاف : « أن معنى التسبيح والتقديس واحد ، وهو تبعيد الله من السوء ، وأنهما من سبح فى الأرض والماء ، وقدّس فى الأرض إذا ذهب فيها وأبعد » (٢) ،وفى القاموس وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما ذكرناه، والتأسيس خير من التأكيد ، خصوصًا فى كلام الله سبحانه. ولما كان سؤالهم واقعًا على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم ، أجاب الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ وفى هذا الإجمال ما يغنى عن التفصيل ، لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقًا بأن يسلم له ما يصدر عنه ، وعلى من لا يعلم

---

(١) ديوانه ١٠٦ من قصيدته المشهورة التى قالها فى هجاء علقمة بن علاثة فى خبر مفاخرة علقمة وعامر بن الطفيل. الأغانى ١٥/ ٥٠ ــ ٥٦ وذكر ابن الشجرى فى أماليه ١/ ٣٤٨ عن أبى الخطاب الأخفش قال : « وإنما ترك التنوين فى سبحان ، وترك صرفه ؛ لأنه صار عندهم معرفة » ، وقال فى ٢/ ٢٥٠ :« لم يصرفه؛ لأن فيه الألف والنون زائدتان وأنه علم التسبيح ، فإن نكرته صرفته ».

(٢) الكشاف ١/ ١٢٥ .

أن يعترف لمن يعلم ، بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم ، وتقتضيه المصلحة الراجحة ، والحكمة البالغة . ولم يذكر متعلق قوله : ﴿ **تعلمون** ﴾ ليفيد التعميم ، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ، ويعترف بالعجز ويقر بالقصور .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه ثم قرأ : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضًا نحوه ، وزاد : وقد كان فيها قبل أن يخلق بألفى عام الجن بنو الجان ، فأفسدوا فى الأرض ، وسفكوا الدماء ، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله عليهم جنودًا من الملائكة ، فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، فلما قال الله : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ كما فعل أولئك الجان، فقال الله : ﴿**إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾ [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أطول منه . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة قال : لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش ، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن ، وإنما سمُّوا الجن ؛ لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازنًا ، فوقع فى صدره كبر ، وقال : ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى . فاطلع الله على ذلك منه ، فقال للملائكة . ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضًا ، قالوا :ربنا ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ ؟ قال :﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ [(٢)]. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية قال : قد علمت الملائكة ، وعلم الله، أنه لا شىء أكره عند الله من سفك الدماء ، والفساد فى الأرض . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : إياكم والرأى ، فإنَّ الله ردَّ الرأى على الملائكة ، وذلك أن الله قال : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ قالت الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ قال : ﴿**إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن ابن سابط[(٣)]؛ أن النبى ﷺ قال : «دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت ، فهى أول من طاف به ، وهى الأرض التى قال الله : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ »[(٤)] . قال ابن كثير: وهذا

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٦١ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١/ ١٥٧ من طريق السدى عن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، وقد سبق بيان ضعف هذا الإسناد .

(٣) فى المطبوعة : « عن أبى سابط »، والصواب : « عن ابن سابط » ، وهو عبد الرحمن بن سابط الجمحى ، مكى ، روى عن عمر مرسل ، وعن جابر بن عبد الله متصل ، وثقه ابن معين وأبو زرعة . انظر ترجمته فى: الجرح والتعديل ٢/ ٢/ ٢٤٠ .

(٤) ابن جرير ١/ ١٥٦ وذكر ابن كثير ١/ ١٢٢ إسناد ابن أبى حاتم وقال ما نقله المصنف .

مرسل فى سنده ضعف، وفيه مدرج ، وهو أن المراد بالأرض مكة، والظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك . انتهى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : التسبيح والتقديس المذكور فى الآية هو الصلاة. وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب التوبة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: « إن أول من لبى الملائكة . قال الله تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ قال : فرادُّوه فأعرض عنهم ، فطافوا بالعرش ست سنين يقولون :لبيك لبيك اعتذاراً إليك، لبيك لبيك نستغفرك ونتوب إليك» . وثبت فى الصحيح من حديث أبى ذر؛ أن النبى ﷺ قال : « أحب الكلام إلى الله ما اصطفاه لملائكته سبحان ربى وبحمده» [(١)] .وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **ونقدس لك**﴾ قال : نصلى لك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : التقديس : التطهير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ونقدس لك** ﴾ قال : نعظمك ونكبرك . وأخرجا عن أبى صالح قال : نعظمك ونحمدك.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿**أعلم ما لا تعلمون** ﴾ قال:

علم من إبليس المعصية وخلقه لها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى تفسيرها قال :كان فى علم الله أنه سيكون من الخليقة أنبياء ، ورسل ، وقوم صالحون ، وساكنو الجنة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، وابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن آدم لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أى رب ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ الآية . قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم . قال الله لملائكته : هلموا ملكين من الملائكة ، حتى يهبطا إلى الأرض، فننظر كيف يعملان ؟ فقالوا : ربنا هاروت وماروت . قال : فاهبطا إلى الأرض . فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ». وذكر القصة [(٢)] . وقد ثبت فى كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فى صفة خلقه سبحانه لآدم ، وهى موجودة فلا نطوّل بذكرها .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا

(١) مسلم فى الذكر (٢٧٣١ / ٨٤ ، ٨٥).

(٢) أحمد ٢/ ١٣٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٣٧ : « ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن جبير وهو ثقة » وصححه ابن حبان (٦١٥٣) والبيهقى فى الشعب (١٦٠ ، ١٦١) وانظر: الحاكم فى المستدرك ٤/ ٦٠٧ . وسيأتى الكلام على هذه النصوص عند الآية (١٠٢) من السورة .

آدمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ .

﴿ **آدم** ﴾ أصله : أأدم بهمزتين ، إلا أنهم ليَّنُوا الثانية ، وإذا حركت قلبت واوا ، كما قالوا فى الجمع: أوادم ، قاله الأخفش . واختلف فى اشتقاقه ؛ فقيل : من أديم الأرض وهو وجهها . وقيل : من الأدمة وهى السمرة . قال فى الكشاف : وما آدم إلا اسم عجمى ، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر ، وعازر ، وعابر ، وشالخ ، وفالغ، وأشباه ذلك . و﴿**الأسماء**﴾ هى العبارات ، والمراد : أسماء المسميات ، قال بذلك أكثر العلماء ، وهو المعنى الحقيقى للاسم . والتأكيد بقوله : ﴿ **كلها** ﴾ يفيد أنه علمه جميع الأسماء ، ولم يخرج عن هذا شىء منها، كائنا ما كان . وقال ابن جرير [(١)] : إنها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم ثم رجح هذا وهو غير راجح . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أسماء الذرية . وقال الربيع ابن خيثم : أسماء الملائكة .

واختلف أهل العلم : هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء ؟ والظاهر الأول ؛ لأن عرض نفس الأسماء غير واضح . وعرض الشىء : إظهاره ، ومنه عرض الشىء للبيع . وإنما ذكر ضمير المعروضين تغليبًا للعقلاء على غيرهم . وقرأ ابن مسعود: « عَرَضهنّ » وقرأ أبَى : « عرضها » . وإنما رجع ضمير ﴿ **عرضهم** ﴾ على مسميات مع عدم تقدم ذكرها ، لأنه قد تقدم ما يدل عليها ، وهو أسماؤها . قال ابن عطية : والذى يظهر أن الله علَّم آدم الأسماء ، وعرض عليه مع ذلك الأجناس أشخاصًا ، ثم عرض تلك على الملائكة ، وسألهم عن أسماء مسمياتها التى قد تعلمها آدم ، فقال لهم آدم : هذا اسمه كذا ، وهذا اسمه كذا [(٢)] . قال الماوردى : فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين . ثم فى زمن عرضهم قولان : أحدهما : أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثانى : أنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم .

وأما أمره سبحانه للملائكة بقوله : ﴿ **أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ فهذا منه تعالى لقصد التبكيت لهم، مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك . والمراد :﴿ **إن كنتم صادقين**﴾ أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى ، كذا قال المبرد . وقال أبو عبيد وابن جرير : إن بعض المفسرين قال: معنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾: إذ كنتم، قالا: وهذا خطأ. ومعنى﴿**أنبئونى**﴾ أخبرونى. فلما قال لهم ذلك اعترفوا بالعجز والقصور فقالوا:﴿**سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا**﴾. وسبحان منصوب على المصدرية عند الخليل وسيبويه. وقال الكسائى: هو منصوب

---

(١) ابن جرير ١/ ١٧١ والقرطبى ١/ ٢٤١ وزاد المسير ١/ ٦٢ .

(٢) قال ابن كثير ١/ ١٢٧ : « والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ، ذواتها وصفاتها وأفعالها ، كما قال ابن عباس » واستدل بحديث البخارى فى التفسير (٤٤٧٦) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : «يجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم ، فيقولون: أنت أبو الناس ، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء . . . » الحديث .

على أنه منادى مضاف ، وهذا ضعيف جداً . والعليم للمبالغة والدلالة على كثرة المعلومات . والحكيم :صيغة مبالغة فى إثبات الحكمة له .ثم أمر الله سبحانه آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة فعجزوا ، واعترفوا بالقصور ، ولهذا قال سبحانه : ﴿**ألم أقل لكم**﴾ الآية. قال فيما تقدم: ﴿ أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة : ٣٠] ثم قال هنا :﴿ **أعلم غيب السموات والأرض** ﴾ تدرجًا من المجمل إلى ما هو مبين بعض بيان ، ومبسوط بعض بسط ، وفى اختصاصه بعلم غيب السموات والأرض ردّ لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شىء من علم الغيب ، كالمنجمين ، والكهان ، وأهل الرمل ، والسحر والشعوذة . والمراد بما يبدون وما يكتمون : ما يظهرون ويسرون ، كما يفيده معنى ذلك عند العرب ؛ ومن فسره بشىء خاص فلا يقبل منه ذلك إلا بدليل .

وقد أخرج الفريابى وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس؛ قال : إنما سمى آدم ؛ لأنه خلق من أديم الأرض (١) . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ قال : علمه اسم الصحفة ، والقدر ، وكل شىء . وأخرج ابن جرير عنه نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه فى تفسير الآية قال: عرض عليه أسماء ولده ، إنسانًا إنسانًا والدواب ، فقيل : هذا الجمل ، هذا الحمل ، هذا الفرس . وأخرج الحاكم فى تاريخه ، وابن عساكر والديلمى عن عطية بن بُسر(٢) مرفوعًا فى قوله : ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ قال : علم الله آدم فى تلك الأسماء ألف حرفة من الحرف، وقال له : قل لأولادك وذريتك : إن لم تصبروا عن الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف ، ولا تطلبوها بالدين ، فإن الدين لى وحدى خالصًا ، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له (٣). وأخرج الديلمى عن أبى رافع قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلت لى أمتى فى الماء والطين ، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها» (٤) .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى تفسير الآية قال : أسماء ذريته أجمعين ، ﴿ **ثم عرضهم**﴾ قال : أخذهم من ظهره. وأخرج عن الربيع بن أنس قال : أسماء الملائكة (٥) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس .﴿ **ثم عرضهم** ﴾ يعنى عرض أسماء جميع الأشياء التى علمها آدم من أصناف الخلق .﴿ **فقال أنبئونى**﴾ يقول : أخبرونى ﴿ **بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ إن كنتم تعلمون أنى لم أجعل فى الأرض خليفة ﴿ **قالوا سبحانك** ﴾ تنزيهاً لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره تبنا

(١) ابن جرير ١/ ١٦٩ وصحح الشيخ شاكر إسناده ١/ ٤٨٠ ط . المعارف ، وصحح الحاكم نحوه ٢/ ٢٦١ ، وأما ابن سعد فرواه ١١/ ٢٦ عن سعيد بن جبير من قوله ، وعنه عن ابن مسعود موقوفا .

(٢) فى الأصل : « بشر » ، بالباء الموحدة والشين المعجمة ، والصواب : « بسر » ، بالباء وبالسين المهملة ، وهو مازنى من الأنصار .

(٣) الديلمى (٤١٠٥) . (٤) الديلمى (٦٥١٩) . (٥) ابن جرير ١/ ١٧١ .

إليك ﴿ لا علم لنا﴾ تبرؤًا منهم من علم الغيب ﴿ إلا ما علمتنا ﴾ كما علمت آدم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : عرض أصحاب الأسماء على الملائكة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾[١] قال: العليم : الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم : الذى قد كمل فى حكمه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ﴿ وأعلم ما تبدون﴾ قال : قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ،﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ يعنى : ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ ما تبدون ﴾: ما تظهرون ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٣٤) ﴾ .

« إذ » متعلق بمحذوف تقديره : واذكر إذ قلنا . وقال أبو عبيدة : « إذ » زائدة وهو ضعيف . وقد تقدم الكلام فى الملائكة ، وآدم . السجود معناه فى كلام العرب : التذلل والخضوع [٢] . وغايته وضع الوجه على الأرض . قال ابن فارس : سجد إذا تطامن ، وكل ما سجد فقد ذلّ ، والإسجاد : إدامة النظر . وقال أبو عمر : وسجد إذا طأطأ رأسه . وفى هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة ، حيث أسجد الله له ملائكته . وقيل : إن السجود كان لله ولم يكن لآدم، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود ، ولا ملجئ لهذا فإن السجود للبشر قد يكون جائزًا فى بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح. وقد دلت هذه الآية على أن السجود لآدم ، وكذلك الآية الأخرى أعنى قوله : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ [الحجر : ٢٩]، وقال تعالى : ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ﴾ [يوسف : ١٠٠] فلا يستلزم تحريمه لغير الله فى شريعة نبينا محمد ﷺ أن يكون كذلك فى سائر الشرائع . ومعنى السجود هنا : هو وضع الجبهة على الأرض ، وإليه ذهب الجمهور. وقال قوم : هو مجرد التذلل والانقياد . وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل

---

(١) الحكيم معناه الحاكم ، وبنى على فعيل للمبالغة ، وقيل : معناه : الحكم . ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرِف عن مُفْعَل إلى فعيل، كما صرف عن مُسمع إلى سميع ، ومؤلم إلى أليم . قاله ابن الأنبارى.
وقال قوم : الحكيم : المانع من الفساد ، ومنه سميت حكمة اللجام ؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد . قال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أى : امنعوهم من الفساد . وقال زهير :

القائد الخيل منكوبا دوائرها ... قد أحكمت حكمات القد والأبقا

(٢) قال الشاعر :

بجمع تضل البلق فى حجراته ... ترى الأكم فيها سجدًا للحوافر

الأكم : الجبال الصغار ، جعلها سجدًا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها ، وعين ساجدة ، أى : فاترة عن النظر .

تعليمه الأسماء أم بعده ؟ وقد أطال البحث فى ذلك البقاعى فى تفسيره . وظاهر السياق أنه وقع التعليم ، وتعقبه الأمر بالسجود ، وتعقبه إسكانه الجنة، ثم إخراجه منها وإسكانه الأرض.

وقوله : ﴿ **إلا إبليس** ﴾ استثناء متصل ؛ لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور (١) . وقال شهر بن حوشب ، وبعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا فى الأرض ، فيكون الاستثناء على هذا منقطعا . واستدلوا على هذا بقوله تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] ،وبقوله تعالى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ [الكهف: ٥٠] والجن غير الملائكة ، وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة ، لما سبق فى علم الله من شقائه عدلاً منه ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : ٢٣] وليس فى خلقه من نار ولا تركيب الشهوة فيه حين غضب عليه ما يدفع بأنه من الملائكة ، وأيضًا على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً ، تغليبًا للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذى هو فرد واحد بين أظهرهم .ومعنى ﴿ **أبى** ﴾ امتنع عن فعل ما أمر به . والاستكبار : الاستعظام للنفس ، وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أن « الكبر بَطَر الحق وغمط الناس » (٢) ، وفى رواية : « غمص »(٣) بالصاد المهملة . ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ أى من جنسهم ، قيل : إن ﴿ **كان** ﴾ هنا بمعنى صار . وقال ابن فورك : إنه خطأ ترده الأصول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كانت السجدة لآدم ، والطاعة لله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: سجدوا كرامة من الله أكرم بها آدم . وأخرج ابن عساكر عن إبراهيم المزنى قال : إن الله جعل آدم كالكعبة . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ابن عباس ، قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد (٤) . وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ، قال : إنما سمى إبليس ؛ لأن الله أبلسه من الخير كله، أى آيسه منه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن الأنبارى عنه ، قال : كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادًا ، وأكثرهم علمًا ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حىّ يسمون جنًا . وأخرج ابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عنه قال : كان إبليس من خزان الجنة ، وكان يدبر أمر سماء الدنيا (٥) .

وأخرج محمد بن نصر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أمر آدم بالسجود

---

(١) انظر : ابن جرير ١/ ١٧٧ ـ ١٨١ والقرطبى ١/ ٢٥١ وابن كثير ١/ ١٠٧ ـ ١١١ ط . الشعب .
(٢) جزء من حديث ابن مسعود : أخرجه مسلم فى الإيمان (٩١/ ١٤٧) وأبو داود فى اللباس (٤٠٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وقال : « حسن غريب صحيح » وابن حبان (٥٤٤٢) وأحمد ١/ ٣٩٩ .
(٣) البَطَر ـ بفتحات ـ : هو أن يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا ، وقيل : هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقا ، وقيل : هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله . والغمط والغمص : الاستهانة والاحتقار .
(٤) البيهقى فى الشعب (١٤٤) ورجاله موثقون .
(٥) البيهقى فى الشعب (١٤٥) بإسناد ضعيف .

فسجد ، فقال : لك الجنة ولمن سجد من ولدك ، وأمر إبليس بالسجود فأبى أن يسجد . فقال : لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد ». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وكان من الكافرين**﴾ قال : جعله الله كافرًا لا يستطيع أن يؤمن . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد ابن كعب القرظى ، قال : ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة ، وعمل بعمل الملائكة، فصيره إلى ما ابتدئ إليه خلقه من الكفر ؛ قال الله : ﴿ **وكَان من الكافرين** ﴾ .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ .

﴿ **اسكن** ﴾ أى اتخذ الجنة مسكنًا وهو محل السكون . وأما ما قاله بعض المفسرين من أن فى قوله : ﴿**اسكن**﴾ تنبيهًا على الخروج ؛ لأن السكنى لا تكون ملكًا ، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً له فإنه لا يملكه بذلك ، وأن له أن يخرجه منه ، فهو معنى عرفى ، والواجب الأخذ بالمعنى العربى ، إذا لم تثبت فى اللفظ حقيقة شرعية . و﴿**أنت** ﴾ تأكيد للضمير المستكن فى الفعل ، ليصح العطف عليه ، كما تقرر فى علم النحو ، أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن إلا بعد تأكيده بمنفصل . وقد يجىء العطف نادرًا بغير تأكيد كقول الشاعر :

قلتُ إذَا أقبَلتْ وزُهــرٌ تَهـادى كَنِعاجِ المـَلا تَعـسَّفْنَ رَمْلا (١)

وقوله : ﴿ **وزوجك** ﴾ أى حواء ، وهذه هى اللغة الفصيحة زوج بغير هاء ، وقد جاء بها قليلاً كما فى صحيح مسلم ، من حديث أنس ؛ أن النبى ﷺ كان مع إحدى نسائه ، فمر به رجل ، فدعاه ، وقال :« يا فلان هذه زوجتى فلانة» الحديث (٢) ، ومنه قول الشاعر :

وإن الذى يسعى ليفسد زوجــتى كساع إلى أسد الشرى يستبيلها (٣)

---

(١) قاله عمر بن أبى ربيعة ، وزهر : جمع زهراء ، وهى البيضاء المشرقة . والتهادى : المشى الرويد الساكن ، والنعاج : بقر الوحش ، وتعسفن : ركبن.

(٢) مسلم فى السلام (٢١٧٤ / ٢٣) وله روايات أخرى عن صفية بنت حيى بالقصة عند البخارى فى الاعتكاف (٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩) ومسلم فى السلام (٢١٧٥ / ٢٤ ، ٢٥) .

(٣) فى المخطوطة : « يستميلها » ، وهو تحريف ، ومعنى يستبيلها : يأخذ بولها بيده ، انظر : اللسان١١/ ٧٤ . والبيت للفرزدق .

و ﴿ رغَدا ﴾ بفتح المعجمة ، وقرأ النخعى ، وابن وثاب بسكونها ، والرغد : العيش الهنىء الذى لا عناء فيه، وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف . و﴿ حيث ﴾ مبنية على الضم ، وفيها لغات كثيرة مذكورة فى كتب العربية . والقرب : الدنو ، قال فى الصحاح : قرب الشىء بالضم يَقْرُب قُرْبًا ، أى دنا ، وقَرِبْته بالكسر أقربه قربانًا، أى دنوت منه ، وقَرَبْتُ أَقْرُبُ قِرَابَةً ، مثل كتبت أكتب كتابة : إذا سرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة . والاسم القرب . قال الأصمعى : قلت لأعرابى : ما القرب ؟ قال : سير الليل لورود الغد . والنهى عن القرب فيه سد للذريعة ، وقطع للوسيلة ، ولهذا جاء به عوضًا عن الأكل ، ولا يخفى أن النهى عن القرب لا يستلزم النهى عن الأكل ، لأنه قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا يحمل إليه ، فالأولى أن يقال : المنع من الأكل مستفاد من المقام . والشجر : ما كان له ساق من نبات الأرض ، وواحده شجرة ، وقرئ بكسر الشين وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم. وقرأ ابن محيصن: « هذى » بالياء بدل الهاء وهو الأصل . واختلف أهل العلم فى تفسير هذه الشجرة ، فقيل: هى الكرم . وقيل : السنبلة . وقيل : التين . وقيل : الحنطة ، وسيأتى ما روى عن الصحابة فمن بعدهم فى تعيينها .

وقوله : ﴿ فتكونا ﴾ معطوف على ﴿ تقربا ﴾ فى الكشاف : أو نصب فى جواب النهى ، وهو الأظهر . والظلم أصله : وضع الشىء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تحفر قط ثم حفرت(١) ، ورجل ظليم : شديد الظلم . والمراد هنا : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ لأنفسهم بالمعصية ، وكلام أهل العلم فى عصمة الأنبياء ، واختلاف مذاهبهم فى ذلك مدون فى مواطنه ، وقد أطال البحث فى ذلك الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع ، فليرجع إليه فإنه مفيد (٢) . وأزلَّهما : من الزلَّة وهى الخطيئة ، أى استزلهما وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة: «فأزالهما» بإثبات الألف من الإزالة ، وهى التنحية، أى نحاهما. وقرأ الباقون بحذف الألف . قال ابن كيسان : هو من الزوال ، أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية. قال القرطبى : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى ، إلاّ أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى ؛ يقال منه: أزللته فزلَّ (٣) . و﴿عنها ﴾ متعلق بقوله: ﴿ أزلهما ﴾ على تضمينه معنى أصدر، أى أصدر الشيطان زلتهما عنها، أى بسببها ، يعنى الشجرة . وقيل: الضمير للجنة ، وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما ، أى أبعدهما عن الجنة .

وقوله : ﴿ فـأخرجـهما ﴾ تأكيد لمضمون الجملة الأولى، أى أزلهما ، إن كان معناه زال

---

(١) قال النابغة :

وقفت بها أصيلا لا أسـائلها ... عيت جوابا وما بالربع من أحـد
إلا الأوارى لأيا ما أبيـنها ... والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلـد

ويسمى ذلك التراب الظليم ، قال الشاعر :

فأصبح فى غبراء بعد إشاحة ... على العيش مردود عليها ظليمها

(٢) التفسير الكبير ٣/ ٦ .ط دار الفكر . (٣) القرطبى ١/ ٢٦٥ .

عن المكان ، وإن لم يكن معناه كذلك فهو تأسيس ؛ لأن الإخراج فيه زيادة على مجرد الصرف والإبعاد ونحوهما ، لأن الصرف عن الشجرة والإبعاد عنها قد يكون مع البقاء فى الجنة ، بخلاف الإخراج لهما عما كانا فيه من النعيم ، والكرامة ، أو من الجنة . وإنما نسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه الذى تولى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة . وقد اختلف أهل العلم فى الكيفية التى فعلها الشيطان فى إزلالهما ، فقيل : إنه كان ذلك بمشافهة منه لهما ، وإليه ذهب الجمهور ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف :٢١] والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقيل : لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة ، وقيل غير ذلك مما سيأتى فى المروى عن السلف .

وقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ خطاب لآدم وحواء ، وخوطبا بما يخاطب به الجميع ؛ لأن الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية ، وقيل : إنه خطاب لهما ولذريتهما ؛ لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنسانى جعلا بمنزلته ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ فإن هذه الجملة الواقعة حالاً مبينًا للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك .والعدو خلاف الصديق، وهو من عدا إذا ظلم ؛ ويقال : ذئب عدوان ، أى يعدو على الناس ، والعدوان : الظلم الصراح . وقيل : إنه مأخوذ من المجاوزة ، يقال عداه : إذا جاوزه ، والمعنيان متقاربان، فإن من ظلم فقد تجاوز ، وإنما أخبر عن قوله : ﴿بعضكم ﴾ بقوله : ﴿ عدو ﴾ مع كونه مفردًا لأن لفظ بعض ، وإن كان معناه محتملاً للتعدد ، فهو مفرد ، فروعى جانب اللفظ ، وأخبر عنه بالمفرد ، وقد يراعى المعنى فيخبر عنه بالمتعدد . وقد يجاب بأن ﴿ عدو ﴾ وإن كان مفردًا فقد يقع موقع المتعدد ، كقوله تعالى : ﴿ وهم لكم عدو ﴾ [الكهف : ٥٠]، وقوله : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو﴾ [المنافقون : ٤] قال ابن فارس : العدو اسم جامع للواحد ، والاثنين ، والثلاثة . والمراد بالمستقرّ موضع الاستقرار ، ومنه: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خيرٌ مستقرًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] وقد يكون بمعنى الاستقرار ، ومنه : ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ [القيامة : ١٢] فالآية محتملة للمعنيين ، ومثلها قوله : ﴿ جعل لكم الأرض قرارا﴾ [غافر: ٦٤] والمتاع : ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها .

واختلف المفسرون فى قوله : ﴿ إلى حين ﴾ فقيل : إلى الموت . وقيل : إلى قيام الساعة. وأصل معنى الحين فى اللغة: الوقت البعيد ، ومنه : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ [الإنسان : ١] والحين : الساعة ، ومنه: ﴿أو تقول حين ترى العذاب ﴾ [الزمر : ٥٨] والقطعة من الدهر ، ومنه : ﴿ فذرهم فى غمرتهم حتى حين﴾ [المؤمنون : ٥٤] أى حتى تفنى آجالهم ، ويطلق على السنة . وقيل : على ستة أشهر ، ومنه :﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ [إبراهيم : ٢٥] ويطلق على الصباح والمساء ، ومنه: ﴿ حين تمسون وحين تصبحون ﴾ [الروم: ١٧] وقال الفراء : الحين حينان : حين لا يوقف على حده ، ثم ذكر الحين الآخر ، واختلافه بحسب اختلاف المقامات كما ذكرنا . وقال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلق به

حكم ، والحين المعلوم سنة .

ومعنى تلقى آدم للكلمات : أخذه لها وقبوله لما فيها ، وعمله بها . وقيل : فهمه لها ، وفطانته لما تضمنته . وأصل معنى التلقى : الاستقبال ، أى استقبل الكلمات الموحاة إليه . ومن قرأ بنصب آدم جعل معناه استقبلته الكلمات . وقيل : إن معنى تلقى : تلقن .ولا وجه له فى العربية .واختلف السلف فى تعيين هذه الكلمات وسيأتى. والتوبة : الرجوع ، يقال : تاب العبد إذا رجع إلى طاعة مولاه ، وعبد توَّاب كثير الرجوع ، فمعنى تاب عليه : رجع عليه بالرحمة ، فقبل توبته ، أو وَفَّقه للتوبة .واقتصر على ذكر التوبة على آدم دون حواء مع اشتراكها فى الذنب ؛ لأن الكلام من أول القصة معه ، فاستمر على ذلك ، واستغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها ؛ لكونها تابعة له ، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها فى قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [طه : ١٢١] وأما قوله : ﴿ **قلنا اهبطوا** ﴾ بعد قوله : ﴿**قلنا اهبطوا** ﴾ فكرره للتوكيد والتغليظ . وقيل : إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأول كرره، ولا تزاحم بين المقتضيات ، فقد يكون التكرير للأمرين معًا. وجواب الشرط فى قوله : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى** ﴾ هو الشرط الثانى مع جوابه .قاله سيبويه . وقال الكسائى : إن جواب الشرط الأول والثانى فى قوله : ﴿ **فلا خوف** ﴾ . واختلفوا فى معنى الهدى المذكور، فقيل : هو كتاب الله . وقيل: التوفيق للهداية . والخوف : هو الذعر ، ولا يكون إلا فى المستقبل . وقرأ الزهرى ، والحسن ، وعيسى بن عمار ، وابن أبى إسحاق ، ويعقوب : «فلا خوف » بفتح الفاء . والحزن ضد السرور . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة . وقد تقدم ذكر تفسير الخلود .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت آدم نبيًا كان ؟ قال : « نعم كان نبيًا رسولاً ، كلمه الله ، قال له :﴿ **يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ »[1] .وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى عن أبى ذر قال :قلت: يا رسول الله ، من أول الأنبياء ؟ قال :« آدم » ، قلت : نبى ؟ قال : « نعم » ، قلت : ثم مَنْ ؟ قال : « نوح ، وبينهما عشرة آباء »[2]. وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والبيهقى فى الشعب نحوه من حديث أبى ذر مرفوعًا ، وزاد : كم كان المرسلون ؟ قال : « ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا»[3]. وأخرج ابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى عن

---

(١) ذكره ابن كثير فى التفسير ١/ ١١٢، ط. الشعب بإسناد ابن مردويه ، وأورد هذا الإسناد والحديث ابنُ حبان فى المجروحين فى ترجمة سلمة بن الفضل ١/ ٣٣٣ وضعّفه . وعزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٠١ إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : « فيه المسعودى وقد اختلط » .

(٢) عزاه الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٠٠ إلى الطبرانى فى الأوسط ، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٣) أحمد ٥/١٧٨ ، ١٧٩ ، والبزار (١٦٠) وعزاه الهيثمى فى المجمع ١/١٦٣ إليهما وإلى الطبرانى فى الأوسط، وفى الإسناد مجموعة من الضعفاء . وصححه ابن حبان فى حديث طويل (٣٦٢) وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٦٦، ١٦٧ والبيهقى فى الشعب (١٢٩) .

أبى أمامة الباهلى ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبى كان آدم ؟ قال : « نعم »، قال : كم بينه وبين نوح ؟ قال : « عشرة قرون » ، قال: كم بين نوح وإبراهيم ؟ قال : « عشرة قرون » قال : يا رسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا »، قال : يا رسول الله ، كم كانت الرسل من ذلك ؟ قال : «ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا» (١) . وأخرج أحمد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة نحوه ، وصرح بأن السائل أبو ذر (٢) .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس (٣) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عنه، قال : ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة . وأخرج الفريابى ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ، قال : لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار ، تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا . وقد روى تقدير اللُّبث فى الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ما تقدم عن ابن عباس كما رواه أحمد فى الزهد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، قالوا: لما سكن آدم الجنة كان يمشى فيها وحشًا ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه (٤) . وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« استوصوا بالنساء خيرًا ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء من الضلع رأسه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته تركته وفيه عوج »(٥). وروى أبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما سميت حواء ؛ لأنها أم كل حى . وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن النخعى قال : لما خلق الله آدم ، وخلق له زوجه ، بعث إليه ملكًا ، وأمره بالجماع ، ففعل ، فلما فرغ قالت له حواء : يا آدم، هذا طيب زدنا منه . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : الرغد : الهنىء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الرغد :سعة المعيشة . وأخرجا عنه فى قوله : ﴿ **وكلا منها رغدًا حيث شئتما**﴾. قال : لا حساب عليكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر من طرق عن ابن عباس ؛ قال : الشجرة التى نهى الله عنها آدم السنبلة . وفى لفظ : البرّ . وأخرج عبد بن

---

(١) الطبرانى فى الكبير (٧٥٤٥) وعزاه الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٩ له فى الأوسط وقال: « رجاله رجال الصحيح» وانظر : المجمع ٨/ ٢١٣ وصححه ابن حبان (٦١٥٧) والحاكم ٢/ ٢٦٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ والطبرانى فى الكبير (٧٨٧١) والبيهقى فى الشعب (١٣١) وهو إسناد ضعيف فيه ثلاثة من الضعفاء . انظر : تفسير ابن كثير١/ ٥٨٦ ومجمع الزوائد ٣/ ١١٥ .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٥٤٢ وأقره الذهبى .

(٤) ابن جرير ١/ ١٨٢ من طريق السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة ، وقد سبق بيان ضعف هذا الإسناد .

(٥) البخارى فى الأنبياء (٣٣٣١) ومسلم فى الرضاع (١٤٦٨) .

حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه، قال : هى الكرم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : هى اللوز . وأخرج ابن جرير عن بعض الصحابة قال : هى التينة . وروى مثله أبو الشيخ عن مجاهد وابن أبى حاتم عن قتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب بن منبه قال : هى البرّ . وأخرج أبو الشيخ عن أبى مالك قال : هى النخلة . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط قال: هى الأترج . وأخرج أحمد فى الزهد ، عن شعيب الجبائى قال : هى تشبه البرّ ، وتسمى الدّعة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأزلهما** ﴾ قال: فأغواهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن عاصم بن بهدلة قال : ﴿ **فأزلهما** ﴾ فنحاهما . وأخرج أبو داود فى المصاحف عن الأعمش قال: قراءتنا فى البقرة مكان ﴿ **فأزلهما** ﴾ ، « فوسوس » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، قالوا : أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة فمنعته الخزنة ، فأتى الحية وهى دابة لها أربع قوائم كأنها البعير ، وهى كأحسن الدواب فكلمها أن تدخله فى فمها حتى تدخل به إلى آدم ، فأدخلته فى فمها ، فمرت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر ، فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه ، فخرج إليه فقال : ﴿يا آدم هل أدلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ [طه : ١٢٠] وحلف لهما بالله ﴿ إنى لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف : ٢١] فأبى آدم أن يأكل منها ، فتقدمت حواء فأكلت ، ثم قالت : يا آدم كل ، فإنى قد أكلت فلم يضرنى ، فلما أكلا ﴿ بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ [الأعراف :٢٢]. وقد أخرج قصة الحية، ودخول إبليس معها ، عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس (١).

وأخرج ابن سعد ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى بن كعب عن النبىّ ﷺ، قال : « إن آدم كان رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق (٢) ، طوله ستون ذراعًا ، كثير شعر الرأس ، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته » الحديث (٣). وأخرج ابن منيع وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس . قال : قال الله لآدم: ما حملك على أن أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها ؟ قال : يا رب ، زينته لى حواء . قال : فإنى عاقبتها بألا تحمل إلا كرهًا ، ولا تضع إلا كرها،

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة عن هذه القصص : « وكل هذا من قصص بنى إسرائيل الذى تزيدوا فيه ، وخلطوا حقًا بباطل ، ثم حمله عنهم ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين ، وفسروا به القرآن الكريم » ثم قال : « ووسوسة إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ لا تتوقف على دخوله فى بطن الحية، إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة ، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه ، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا ، ولم تكن لها قوائم كالبختى ، ولا شيء من هذا » . الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ٢٥٢ والخبر عند ابن جرير ١/ ١٨٦ .

(٢) النخلة السحوق : الطويلة التى بعد ثمرها على المجتنى . النهاية فى غريب الحديث ٢/ ٣٤٧ .

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٣١ وصححه الحاكم ٢/ ٢٦٢ ووافقة الذهبى ، وأبو نعيم فى الزهد ص ٤٥ ونحوه فى الحلية ١/ ٢٥٤ .

وأدميتها فى كل شهر مرتين [١] . وأخرج البخارى والحاكم عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ ، قال : « لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم [٢] ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» [٣]. وقد ثبتت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة فى الصحيحين وغيرهما ، فى محاجة آدم وموسى، وحجّ آدم موسى بقوله : أتلومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن أخلق ؟ [٤] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ قال : آدم وحواء وإبليس والحية ﴿ ولكم فى الأرض مستقر﴾ قال : القبور ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ قال : الحياة . وروى نحو ذلك عن مجاهد وأبى صالح وقتادة . كما أخرجه عن الأول والثانى أبو الشيخ ، وعن الثالث عبد بن حميد . وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ﴾[٥] قال : القبور ﴿ومتاع إلى حين ﴾ قال : إلى يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس ، قال : أول ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند . وفى لفظ : بدجنى أرض الهند[٦] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه أهبط إلى أرض بين مكة والطائف . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى عنه ، قال : قال على بن أبى طالب : أطيب ريح الأرض الهند هبط بها آدم، فعلق شجرها من ريح الجنة [٧] . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، فجاء فى طلبها حتى أتى جمعًا فازدلفت إليه حواء ، فلذلك سميت المزدلفة[٨] ، واجتمعا بجمع [٩] .

وأخرج الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٨١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٧٩٠) .

(٢) خَنِزَ اللحم : أنتن ، وبابه : طرِب ، والخُنْزوانة بوزن الاسطوانة : التكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات . مختار الصحاح ١٩١.

(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٣٩٩) ومسلم فى الرضاع (١٤٧٠/ ٦٤ ، ٦٥) وصححه الحاكم ٤/ ١٧٥ من طريق آخر عن أبى هريرة ، وقال : «على شرط الشيخين » ووافقه الذهبى .

(٤) الحديث عن أبى هريرة: أخرجه البخارى فى الأنبياء (٣٤٠٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٢ / ١٣ ـ ١٥) .

(٥) فى المستقر قولان : أحدهما : أن المراد به القبور ، حكاه السدى عن ابن عباس ، والثانى : موضع الاستقرار، قاله أبو العالية ، وابن زيد ، والزجاج، وابن قتيبة ، وهو أصح .

(٦ ، ٧) صححه الحاكم ٢/ ٥٤٢ ووافقه الذهبى .

(٨) المزدلفة ، بالضم ثم السكون ، ودال مفتوحة مهملة ، ولام مكسورة ، وفاء . اختلف فيها ، لم سميت بذلك؟ فقيل : مزدلفة منقولة من الازدلاف : وهو الاجتماع ، وفى التنزيل ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ [الشعراء: ٦٤] وقيل : الازدلاف : الاقتراب ، لأنها مقربة إلى الله . وقيل: لازدلاف آدم وحواء بها ، أى لاجتماعهما . وقيل : لنزول الناس بها فى زلف الليل ، وهو جمع أيضا . وقيل : إن آدم لما أهبط إلى الأرض لم يزدلف إلى حواء أو تزدلف إليه حتى تعارفا بعرفة ، واجتمعا بالمزدلفة ، فسميت جمعا ومزدلفة. راجع :معجم البلدان (بتصرف) ٥/ ١٢٠ .

(٩) طبقات ابن سعد ١/ ٤٠ وفيه محمد بن السائب الكلبى ، متروك ومتهم بالرفض .

« أنزل آدم ـ عليه السلام ـ بالهند فاستوحش ، فنزل جبريل فنادى بالأذان ، فلما سمع ذكر محمد قال له : ومن محمد هذا ؟ قال :هذا آخر ولدك من الأنبياء»(١) . وقد روى عن جماعة من الصحابة أن آدم أهبط إلى أرض الهند ، منهم : جابر، أخرجه ابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن عساكر ، ومنهم : ابن عمر أخرجه الطبرانى . وأخرج ابن عساكر عن على قال : قال النبىّ ﷺ : « إن اللّه لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهبًا ولا فضة ، فلما أهبط آدم وحواء أنزل معهما ذهبا وفضة ، فسلكه ينابيع فى الأرض ، منفعة لأولادهما من بعدهما ، وجُعِل ذلك صداقًا لحواء (٢) ، فلا ينبغى لأحد أن يتزوج إلا بصداق » (٣) . وأخرج ابن عساكر ، بسند ضعيف عن أنس ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « هبط آدم وحواء عريانين جميعًا ، عليهم ورق الجنة، فعد يبكى ويقول لها : يا حواء ، قد آذانى الحر . فجاءه جبريل بقطن ، وأمرها أن تغزل وعلمها ، وأمر آدم بالحياكة وعلمه » (٤) . وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس ، عن أنس مرفوعًا : « أول من حاك آدم عليه السلام » (٥) .

وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات فى صفة هبوط آدم من الجنة ، وما أهبط معه ، وما صنع عند وصوله إلى الأرض ، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات** ﴾ قال: أى رب ، ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى . قال : أى رب ، ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ قال : بلى . قال : أى رب ، ألم تسبق إلى رحمتك قبل غضبك؟ قال : بلى . قال :أى رب ، ألم تسكنى جنتك ؟ قال : بلى . قال : أى رب ، أرأيت إن تبتُ وأصلحتُ أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم(٦). وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن عساكر بسند ضعيف عن عائشة عن النبىّ ﷺ : « لما أهبط اللّه آدم إلى الأرض قام وجاه الكعبة فصلى ركعتين » الحديث (٧). وقد روى نحوه بإسناد لا بأس به أخرجه الأزرقى فى تاريخ مكة، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدعوات ، وابن عساكر من حديث بريدة مرفوعًا (٨) . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس فى قوله :﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات** ﴾ قال : قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر

(١) أبو نعيم فى الحلية ١٠٧/٥ وقال : « غريب . . . » .
(٢) فى المطبوعة : « صداق لحواء » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٣) عزاه السيوطى فى الدر ٥٦/١ إلى ابن عساكر من طريق جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، عن أبيه ، عن جده .
(٤) الديلمى (٦٩٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر ٥٧/١ لابن عساكر ، وضعّف إسناده .
(٥) لم أعثر عليه فى مسند الفردوس للديلمى .
(٦) ابن جرير ١٩٣/١ ، وصححه الحاكم ٥٤٥/١ ووافقه الذهبى .
(٧) قال الهيثمى فى المجمع ١٨٦/١ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه النضر بن طاهر ، وهو ضعيف » .
ووجاه الكعبة : أى فى مواجهة الكعبة مُسْتَقْبِلَها .
(٨) الأزرقى فى تاريخ مكة ٤٤/١ .

لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٣] وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قيل له : ما الكلمات التى تلقى آدم من ربه ؟ قال : علم شأن الحج فهى الكلمات . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد فى قوله : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ قال : لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، عملت سوءًا وظلمت نفسى ، فاغفر لى إنك أنت خير الغافرين ، لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب عملت سوءًا وظلمت نفسى ، فارحمنى ، إنك أنت أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب عملت سوءًا وظلمت نفسى ، فتب على إنك أنت التواب الرحيم . وأخرج نحوه البيهقى فى شعب الإيمان ، وابن عساكر عن أنس . وأخرج نحوه هنا وفى الزهد عن سعيد بن جبير . وأخرج نحوه ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس . وأخرج نحوه الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف ، عن على مرفوعًا (١) .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ قال الهدى : الأنبياء ، والرسل والبيان . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى الطفيل قال : قرأ رسول الله ﷺ :﴿ فمن تبع هدایّ ﴾ بتثقيل الياء وفتحها . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ يعنى فى الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون﴾ يعنى لا يحزنون للموت .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٤٢﴾ ﴾ .

اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف ، وخاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم فى فن لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلف بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية ، المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف ، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء ، فضلاً عن كلام الرب سبحانه ، حتى أفردوا

(١) الديلمى (٤٤٠٩) .

ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعى فى تفسيره (١) ، ومن تقدمه ، حسبما ذكر فى خطبته ، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقًا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله ، منذ نزول الوحى على رسول اللّه ﷺ إلى أن قبضه اللّه ـ عز وجل ـ إليه .

وكل عاقل ، فضلاً عن عالم ، لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد تكون متناقضة ،كتحريم أمر كان حلالاً ، وتحليل أمر كان حرامًا ، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص ، يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحينًا فى عبادة ، وحينا فى معاملة ، ووقتًا فى ترغيب ، ووقتًا فى ترهيب ، وآونة فى بشارة ، وآونة فى نِذَارة ، وطورًا فى أمر دنيا ، وطورًا فى أمر آخرة ، ومرة فى تكاليف آتية ، ومرة فى أقاصيص ماضية ؛ وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون ، والماء والنار ، والملاح والحادى ؟ (٢) .

وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك ، وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض ، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور ؟ فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ، ويفردون ذلك بالتصنيف، تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه ، وأنه لا يكون القرآن بليغًا معجزًا إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة ، وتبين الأمر الموجب للارتباط ، فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون فى ذلك ، فوجده تكلفاً محضًا ، وتعسفًا بينًا، انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة ، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبًا على هذا الترتيب الكائن فى المصحف ، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب ، وأيسر حظ من معرفته يعلم علمًا يقينًا أنه لم يكن كذلك ، ومن شك فى هذا ، وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم ، رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول ، المطلعين على حوادث النبوة ، فإنه ينثلج صدره ، ويزول عنه الريب ، بالنظر فى سورة من السور المتوسطة ، فضلاً عن المطولة؛ لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة، وأوقات متباينة، لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها فى الترتيب ،بل يكفى المقصر أن يعلم أن أول ما نزل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [سورة العلق] ،وبعده :﴿ يأيها المدثر ﴾ [سورة المدثر]، ﴿يأيها المزّمل ﴾ [سورة المزمل] وينظر أين موضع هذه الآيات والسور فى ترتيب المصحف ؟

---

(١) يسمى تفسير البقاعى : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ويعرف كذلك بمناسبات البقاعى . وقد طبع أخيرًا محققًا فى الهند . وراجع فى ترجمة البقاعى : البدر الطالع ١/١٩ والضوء اللامع ١/١٠١ ـ ١١١ .

(٢) الضب : حيوان صغير يشبه النمس ، والنون : الحوت ، والملاح : قائد السفينة ، والحادى : سائق الإبل وقائد القافلة .

وإذا كان الأمر هكذا ، فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعًا أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخرًا ، وتأخر ما أنزله الله متقدمًا ، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه، ممن تصدى لذلك من الصحابة[١] ، وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته [٢] ، وأحقر فائدته ، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات وإنفاق الساعات فى أمر لا يعود بنفع على فاعله ، ولا عَلَى من يقف عليه من الناس ، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاءاته ، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التى تكون تارة مدحًا ، وأخرى هجاء، وحينًا نسيبا ، وحينا رثاءً . وغير ذلك من الأنواع المتخالفة ، فعمد هذا المتصدى إلى ذلك المجموع ، فناسب بين فقره ومقاطعه ، ثم تكلَّف تكلفًا آخر ، فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد ، والخطبة التى خطبها فى الحج ، والخطبة التى خطبها فى النكاح، ونحو ذلك ، وناسب بين الإنشاء الكائن فى العزاء ، والإنشاء الكائن فى الهناء و ما يشابه ذلك، لعدّ هذا المتصدى لمثل هذا مصابًا فى عقله، متلاعبا بأوقاته، عابثًا بعمره الذى هو رأس ماله .

وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة وهو ركوب الأحموقة فى كلام البشر ، فكيف نراه يكون فى كلام الله سبحانه الذى أعجزت بلاغته بلغاء العرب ، وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان ، وقحطان ؟ وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربى ، وأنزله بلغة العرب ، وسلك فيه مسالكهم فى الكلام ، وجرى به مجاريهم فى الخطاب . وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون متخالفة ، وطرائق متباينة ، فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات ، فضلا عن جميع ما قاله ما دام حيًا ، وكذلك شاعرهم . ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى تعثّر فى ساحتها كثير من المحققين .

---

(١) ترتيب الآيات فى سورها توقيفى ، فقد كان جبريل عليه السلام يوقف النبىّ ﷺ على مواضع الآيات من سورها ، وكان رسول الله ﷺ يقول : «ضعوا آية كذا فى السورة التى يذكر فيها كذا » وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من قراءة رسول الله ﷺ ، وقد أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفى ، وتواردت النصوص الصحيحة على ذلك . أما الإجماع فنقله غير واحد ، منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته ، ونص عبارته : « ترتيب الآيات فى سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره ، بلا خلاف فى هذا بين المسلمين » .

وأخرج أحمد ٢١٨/٤ بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا ، إذا شخص ببصره ، ثم صوّبه ، حتى كاد أن يلزقه بالأرض . قال : ثم شخص ببصره ، فقال : « أتانى جبريل عليه السلام ، فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] . ومثل هذا لا يخفى على المصنف ، فلعله يريد أن يقول : إن الصحابة قاموا بجمع القرآن وترتيبه بالصورة التى رتُّب بها عن طريق جبريل للنبىّ ﷺ .

(٢) ما أنزر ثمرته : أى ما أقل وأتفه ثمرته .

وإنما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن ؛ لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام ، فإذا قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف .

فَدعْ عَنْكَ نَهبًا صِيح فى حُجَرَاته وَهات حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرواحِلِ

قوله: ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام ، ومعناه : عبد اللّه ؛ لأن « إسر » فى لغتهم هو : العبد « وإيل » هو : اللّه [(١)] قيل: إن له اسمين . وقيل : إسرائيل لقب له ، وهو اسم عجمى غير منصرف . وفيه سبع لغات : إسرائيل بزنة إبراهيم ، وإسرائِيل بمدة مهموزة مختلسة رواها ابن شنبوذ عن ورش ، وإسرائِيل بمدة بعد الياء من غير همز ، وهى قراءة الأعمش ، وعيسى بن عمر ، وقرأ الحسن من غير همز ولا مد ، وإسرائل بهمزة مكسورة . وإسراءَل بهمزة مفتوحة ، وتميم يقولون: إسرائين .

والذكر هو ضد الإنصات ، وجعله بعض أهل اللغة مشتركًا بين ذكر القلب واللسان . وقال الكسائى : ما كان بالقلب فهو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . قال ابن الأنبارى : والمعنى فى الآية : اذكروا شكر نعمتى ، فحذف الشكر اكتفاءً بذكر النعمة ، وهى اسم جنس ، ومن جملتها أنه جعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب ، والمن والسلوى، وأخرج لهم الماء من الحجر، ونجاهم من آل فرعون وغير ذلك .

والعهد قد تقدم تفسيره . واختلف أهل العلم فى العهد المذكور فى هذه الآية ما هو ؟ فقيل: هو المذكور فى قوله تعالى: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ [البقرة : ٦٣] وقيل : هو ما فى قوله : ﴿ ولقد أخذ اللّه ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ﴾ [المائدة : ١٢] وقيل : هو قوله : ﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ [آل عمران : ١٨٧] وقال الزجاج: هو ما أخذ عليهم فى التوراة من اتباع محمد ﷺ . وقيل : هو أداء الفرائض . ولا مانع من حمله على جميع ذلك. ومعنى قوله : ﴿ أوف بعهدكم ﴾ أى بما ضمنت لكم من الجزاء . والرهب والرهبة : الخوف ، ويتضمن الأمر به معنى التهديد ، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم فى ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة :٥] وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار ، والتفسير، مثل :زيدًا ضربته ﴿وإياى فارهبون ﴾ كان أوكد فى إفادة الاختصاص ، ولهذا قال صاحب الكشاف : وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من ﴿ إياك نعبد ﴾

---

(١) يقول صاحب كتاب بصائر ذوى التمييز ٦/٤٣ : « وقيل : أسر : معناه الأسرة ، و إيل : بمعنى الآل ، أى هو نبى ، وآله وأقاربه أنبياء . وقيل : أسْر من الأسر ، وإيل : اسم شيطان ، وسمى به ؛ لأنه عليه السلام كان خادمًا للمسجد الأقصى والمسجد الحرام ، على اختلاف القولين ، وكان يوقد فيه السرج للعابدين والمصلين ، وكان الشيطان المسمى « إيل » مسلطًا عليها ، يأتيها ويطفئها ، فلما اطلع على ذلك يعقوب ترصد له وأسره وربطه إلى سارية ، حتى رآه الناس عيانًا ، فقالوا : أسر إيل، أى أسر الشيطان ، فخففوه وقالوا :أسر إيل» .

[الفاتحة :٥] وسقطت الياء من قوله: ﴿ فارهبون﴾ لأنها رأس آية .

و ﴿ مصدقًا ﴾ حال من « ما » في قوله : ﴿ ما أنزلت ﴾ أو من ضميرها المقدر بعد الفعل، أى أنزلته . وقوله: ﴿ أول كافر به ﴾ إنما جاء به مفردًا ، ولم يقل : كافرين حتى يطابق ما قبله؛ لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ ، متعدد المعنى ، نحو فريق أو فوج. وقال الأخفش والفراء : إنه محمول على معنى الفعل ؛ لأن المعنى أول من كفر ، وقد يكون من باب قولهم : هو أظرف الفتيان وأجمله ، كما حكى ذلك سيبويه (١) ، فيكون هذا المفرد قائمًا مقام الجمع ؛ وإنما قال : ﴿أول ﴾ مع أنه قد تقدمهم إلى الكفر به كفار قريش ، لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب ؛ لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء ، وما يلزم من التصديق. والضمير فى « به » عائد إلى النبى ﷺ ، أى لا تكونوا أول كافر بهذا النبى ، مع كونكم قد وجدتموه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل ، مبشرًا به فى الكتب المنزلة عليكم . وقد حكى الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله ﷺ فى الكتب السابقة. وقيل : إنه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله : ﴿بما أنزلت ﴾. وقيل : عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله : ﴿ لما معكم ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ﴾ أى بأوامرى ونواهىّ ﴿ ثمنًا قليلاً ﴾ أى عيشًا نزرًا ، ورئاسة لا خطر لها ، جعل ما اعتاضوه ثمنًا ، وأوقع الاشتراء عليه ، وإن كان الثمن هو المشترى به ؛ لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال، أى لا تستبدلوا بآياتى ثمنًا قليلاً ، وكثيرًا ما يقع مثل هذا فى كلامهم ، وقد قدمنا الكلام عليه فى تفسير قوله تعالى : ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى ﴾[البقرة:١٦] ومن إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر :

إن كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أوْظَفِرتَ بِها فَمَا أصبْت بترك الحج مِنْ ثَمن

وهذه الآية وإن كانت خطابًا لبنى إسرائيل ، ونهيًا لهم ، فهى متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه ، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به ، أو إثبات باطل نهى الله عنه ، أو امتنع من تعليم ما علمه الله ، وكتم البيان الذى أخذ الله عليه ميثاقه به ، فقد اشترى بآيات الله ثمنًا قليلاً . وقوله: ﴿ وإياى فاتقون ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قوله تعالى: ﴿ وإياى فارهبون ﴾ [البقرة : ٤٠] وقد تقدم قريبًا . واللبس : الخلط . يقال: لبست عليه الأمر ألبسه : إذا خلطت حقه بباطله وواضحه بمشكله. قال الله تعالى : ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام : ٩] قالت الخنساء :

ترى الجليس يقول الحقّ تحسبه رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا

---

(١) ومنه قول الشاعر :

وإذا هم طعموا فالأم طاعم وإذا هُمُ جاعوا فشرُّ جياع

نوادر أبى زيد ص ١٥٢ لرجل جاهلى ومعانى القرآن للفراء ١/ ٣٣ .

صدّق مقالته واحذَر عداوته والبس عليه أموراً مثلَ ما لَبَسا

وقال العجاج :

لَما لَبَسْنَ الحقَّ بِالتَّجَنّى غَنِين فاسْتبدلن زيدًا منّى

ومنه قول عنترة :

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدى

وقيل : هو مأخوذ من التغطية ، أى لا تغطوا الحق بالباطل ، ومنه قول الجعدى :

إذا ما الضَّجيع ثَنَى جيدَها تَثَنَّت عليه فكانت لِباسًا

وقول الأخطل :

وقد لَبِستُ لهذا الأمر أعْصُرْه حتى تجلل رأسى الشيبُ فاشتعلا (١)

والأول أولى . والباطل فى كلام العرب : الزائل ، ومنه قول لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وبطل الشىء يبطل بطولاً ، أو بطلانًا ، وأبطله غيره ، ويقال : ذهب دمه بطلاً ، أى هدرًا . والباطل : الشيطان، وسمى الشجاع بطلاً ؛ لأنه يبطل شجاعة صاحبه (٢) ، والمراد به هنا خلاف الحق . والباء فى قوله : ﴿**بالباطل**﴾ يحتمل أن تكون صلة ، وأن تكون للاستعانة، ذكر معناه فى الكشاف ، ورجح الرازى فى تفسيره الثانى . وقوله :﴿ **وتكتموا** ﴾ يجوز أن يكون داخلاً تحت حكم النهى ، أو منصوبًا بإضمار أن ، وعلى الأول يكون كل واحد من اللبس والكتم منهيًا عنه، وعلى الثانى يكون المنهى عنه هو الجمع بين الأمرين ، ومن هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهى ، وأن كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده ، والمراد النهى عن كتم حجج الله التى أوجب عليهم تبليغها ، وأخذ عليهم بيانها ، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشىء معين ومعنى خاص فلم يصب ، إن أراد أن ذلك هو المراد دون غيره ، لا إن أراد أنه مما يصدق عليه . وقوله : ﴿ **وأنتم تعلمون**﴾ جملة حالية ، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل ، وذلك أغلظ للذنب ، وأوجب للعقوبة ، وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل ؛ لأن الجاهل يجب عليه ألا يقدم على شىء حتى يعلم بحكمه ، خصوصًا فى أمور الدين ، فإن التكلم فيها والتصدى للإصدار والإيراد فى أبوابها ، إنما أذن الله به لمن كان رأسًا فى العلم فردًا فى الفهم ، وما للجهال والدخول فيما ليس من شأنهم ، والقعود فى

---

(١) ديوانه ص ١٤٢ وأعصر: جمع عصر ، وهو الدهر أو الزمان ، وعنى هنا اختلاف الليل والنهار والأيام حلوها ومرها . وتجلل الشيب رأسه : علاه.

(٢) قال النابغة :

لهم لواء بأيدى ماجد بطل لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامى

غير مقاعدهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يا بنى إسرائيل** ﴾ قال للأحبار من اليهود : ﴿ **اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** ﴾ أى بلائى عندكم وعند آبائكم ، لما كان نجاهم به من فرعون وقومه ﴿**وأوفوا بعهدى** ﴾ الذى أخذت فى أعناقكم للنبى ﷺ إذا جاءكم . ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال ﴿ **وإياى فارهبون** ﴾ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ﴿ **وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى ، وبما جاءكم به ، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم(١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أوفوا بعهدى** ﴾ يقول : ما أمرتكم به من طاعتى ، ونهيتكم عنه من معصيتى فى النبى ﷺ وغيره ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ يقول : أرض عنكم وأدخلكم الجنة . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أوفوا بعهدى** ﴾ قال : هو الميثاق الذى أخذه عليهم فى سورة المائدة ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ﴾ الآية [المائدة : ١٢] . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : أوفوا لى بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعدتكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وإياى فارهبون** ﴾ قال : فاخشون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جريج عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وآمنوا بما أنزلت** ﴾ قال : القرآن ﴿ **مصدقًا لما معكم**﴾ قال : التوراة والإنجيل . وأخرج ابن جرير ، عن ابن جريج(٢) ، فى قوله : ﴿ **أول كافر به** ﴾ قال : بالقرآن . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى الآية قال : يقول : يا معشر أهل الكتاب ، آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقًا لما معكم ، لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، ﴿ **ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ أى أول من كفر بمحمد ﴿**ولا تشتروا بآياتى**﴾ يقول : لا تأخذوا عليه أجرًا ، قال : وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول : يا بن آدم ، علم مجانًا كما علمت مجانًا (٣) . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : لا تأخذ على ما

(١) الأثر أخرجه ابن جرير ١/ ١٩٩ ، ٢٠٠، وانظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٦ ط . محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) فى المطبوعة : «ابن جريج عن ابن جرير » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة . وانظر : ابن جرير ١/ ٢٠٠ .

(٣) قال الشيخ شاكر فى تحقيق ابن جرير١/ ٥٦٥ : « المجان : عطية الشيء بلا مَنٍّ ولا ثمن » قال أبو العباس : «سمعت ابن الأعرابى يقول : المجان عند العرب : الباطل ، وقالوا : ماء مجان . قال الزهرى : العرب تقول: «تمر مجان ، وماء مجان ، يريدون أنه كثير كاف . وقولهم : أخذه مجانًا، أى بلا بدل ».

علمت أجراً ، إنما أجر العلماء والحكماء والحلماء على الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل** ﴾ قال : لا تخلطوا الصدق بالكذب ﴿ **وتكتموا الحق** ﴾ قال : لا تكتموا الحق وأنتم قد علمتم أن محمداً رسول الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿ **ولا تلبسوا** ﴾ الآية ، قال: لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ﴿**وتكتموا الحق** ﴾ قال : كتموا محمدا وهم يعلمون أنه رسول الله، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة ، والإنجيل . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم قال : الحق التوراة ، والباطل الذى كتبوه بأيديهم .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

قد تقدم الكلام في تفسير إقامة الصلاة واشتقاقها ، والمراد هنا : الصلاة المعهودة ، وهي صلاة المسلمين ، على أن التعريف للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ، ومثلها الزكاة . والإيتاء: الإعطاء ، يقال : آتيته .والزكاة مأخوذة من الزكاء ، وهو النماء ،زكا الشيء : إذا نما وزاد ، ورجل زكي ، أي زائد الخير ، وسمي إخراج جزء من المال زكاة ، أي زيادة مع أنه نقص منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك ، أو تكثر أجر صاحبه. وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال : زكا فلان ، أي طهر . والظاهر أن الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم، ونحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية هي المرادة بما هو مذكور في الكتاب والسنة منها . وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه. وقد اختلف أهل العلم في المراد بالزكاة هنا، فقيل : المراد المفروضة ، لاقترانها بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر ، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك .

والركوع في اللغة : الانحناء ، وكل منحن راكع ، قال لبيد :

أخبِّرُ أخبارَ القرون التي مضت أدِبُّ كأني كلما قمت راكعُ

وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار الركوع أيضًا للانحطاط في المنزلة . قال الشاعر :

لا تهين [1] الفقير علك أن تركع يومًا والدهر قد رفعه

وإنما خص الركوع بالذكر هنا ؛ لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم . وقيل : لكونه كان ثقيلاً على أهل الجاهلية . وقيل: إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة . والركوع الشرعي :

(١) عند القرطبي ١/ ٢٩٣ : لا تعاد .

هو أن ينحنى الرجل ، ويمد ظهره وعنقه ، ويفتح أصابع يديه ، ويقبض على ركبتيه ، ثم يطمئن راكعًا ، ذاكرًا بالذكر المشروع . وقوله : ﴿ مع الراكعين ﴾ فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة، والخروج إلى المساجد ، وقد ورد فى ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة فى الصحيحين وغيرهما ما هو معروف. وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم ، على خلاف بينهم فى كون ذلك عينًا أو كفاية ، وذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغوب فيها ، وليس بواجب . وهو الحق للأحاديث الثابتة الصحيحة عن جماعة من الصحابة ، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة ، أو بسبع وعشرين درجة [١] . وثبت فى الصحيح عنه ﷺ : «الذى يصلى مع الإمام أفضل من ذلك الذى يصلى وحده ثم ينام »[٢] . والبحث طويل الذيول كثير النقول .

والهمزة فى قوله : ﴿ أتأمرون الناس بالبر ﴾ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين ، وليس المراد بتوبيخهم على نفس الأمر بالبر ، فإنه فعل حسن مندوب إليه ، بل بسبب ترك فعل البر، المستفاد من قوله : ﴿ وتنسون أنفسكم﴾ مع التطهر بتزكية النفس ، والقيام فى مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهامًا للناس ، وتلبيسًا عليهم ، كما قال أبو العتاهية :

وصفت التُّقى حتى كأنك ذو تُقىً ... وريحُ الخطايا من ثِيابك تسطع

والبر : الطاعة ، والعمل الصالح . والبر : سعة الخير والمعروف . والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر : سوق الغنم . ومن إطلاقه على الطاعة قول الشاعر :

لا هــُمّ ربّ أن بكرًا [٣] دونــكـا ... يـَبَرُّك النــاسُ ويفـجـرونكــا

أى يطيعونك ويعصونك . والنسيان بكسر النون هو هنا بمعنى الترك ، أى وتتركون أنفسكم ، وفى الأصل خلاف الذكر والحفظ ، أى زوال الصورة التى كانت محفوظة عن المدركة والحافظة . والنفس : الروح ، ومنه قوله تعالى :﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [الزمر : ٤٢] يريد الأرواح . وقال أبو خراش :

نجا سالم والنّفْس منه بِشدْقِهِ

والنفس أيضًا : الدم ، ومنه قولهم : سالت نفسه ، قال الشاعر[٤] :

---

(١) الحديث عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : أخرجه البخارى فى كتاب الأذان (٦٤٥) ومسلم فى كتاب المساجد (٦٥٠/٢٤٩ ، ٢٥٠).

(٢) فى الحديث عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ : « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل. . .» أخرجه مسلم فى المساجد (٦٥٦ / ٢٦٠) ومالك فى صلاة الجماعة ١/ ١٣٢ (٧) موقوفًا والترمذى فى الصلاة (٢٢١) وقال : « حسن صحيح ».

(٣) كذا فى البحر المحيط ، وصححه مصحح القرطبى ، وفى أصل الشوكانى : « يكون » ، وفى المطبوعة : «يكونوا » .

(٤) هو السَّمَوْأل بن عادياء .

تسيل على حد السيوف نفوسنا ... وليس على غير الظبات تسيل

والنفس : الجسد ، ومنه :

نُبِّئتُ أن بنى سُحَيم أدخلوا ... أبياتَهم تأمُور نَفْسِ المُنذِر[١]

والتأمور : البدن[٢] .

وقوله : ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع ، وأشد توبيخ، وأبلغ تبكيت ، أى كيف تتركون البر الذى تأمرون الناس به ؟ وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل ، وشدة الوعيد عليه ، كما ترونه فى الكتاب الذى تتلونه والآيات التى تقرؤونها من التوراة . والتلاوة : القراءة ، وهى المراد هنا ، وأصلها الإتباع؛ يقال : تلوته: إذا تبعته ، وسمى القارئ تاليًا ، والقراءة: تلاوة ؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذى هو عليه . وقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ استفهام للإنكار عليهم ، والتقريع لهم ، وهو أشد من الأول .

وأشد ما قرع الله فى هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء ، الذين هم غير عاملين بالعلم ، فاستنكر عليهم أولاً أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم فى ذلك ، الأمر الذى قاموا به فى المجامع ، ونادوا به فى المجالس ، إيهامًا للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه ، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه ، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه وهم أترك الناس لذلك ، وأبعدهم من نفعه ، وأزهدهم فيه ، ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى ، جعلها مبينة لحالهم ، وكاشفة لعوارهم ، وهاتكة لأستارهم ، وهى أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة ، والخصلة الفظيعة ، على علم منهم ، ومعرفة بالكتاب الذى أنزل عليهم ، وملازمة لتلاوته ، وهم فى ذلك كما قال المعرى :

وَإنـَّما حـمل التـَّوْراة قـارِئها ... كَسْبُ الفَوائِد لا حُب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع ، ومن توبيخ إلى توبيخ ، فقال : إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم ، وحملة الحجة، وأهل الدراسة لكتُب الله ، لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ، ذائدا[٣] لكم عنه ، زاجرًا لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم ؟ والعقل فى أصل اللغة : المنع ، ومنه عقال البعير؛ لأنه يمنعه عن الحركة ، ومنه العقل فى الدية ؛ لأنه يمنع ولى المقتول عن قتل الجانى ، والعقل نقيض الجهل ، ويصح تفسير ما فى الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة ، أى

(١) البيت قاله أوس بن حجر ، يحرض عمرو ابن هند على بنى حنيفة ، وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء ، ومعناه : أنهم حملوا دمه إلى أبياتهم .

(٢) كذا ، وفى القرطبى ٣٦٩/١ : التأمور :« الدم » ، وهو الصواب .

(٣) ذائدًا : مانعًا ، من الذود ، وهو الطرد والمنع .

أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية ؟ ويصح أن يكون معنى الآية : أفلا تنظرون بعقولكم التى رزقكم الله إياها ، حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم ؟ وقوله : ﴿**واستعينوا بالصبر**﴾ الصبر فى اللغة : الحبس ، وصبرت نفسى على الشىء : حبستها . ومنه قول عنترة:

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبَان تَطلَّعُ

والمراد هنا : استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات ، وقصرها على الطاعات على دفع ما يرد عليكم من المكروهات . وقيل :الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة . واستدل هذا القائل بقوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [طه : ١٣٢] وليس فى هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفى ما تفيده الألف واللام ، الداخلة على الصبر ، من الشمول، كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصدق عليه الصلاة الشرعية، من غير فرق بين فريضة ونافلة . واختلف المفسرون فى رجوع الضمير فى قوله:﴿ **وإنها لكبيرة** ﴾ فقيل: إنه راجع إلى الصلاة ، وإن كان المتقدم هو الصبر والصلاة، فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما . كما قال تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة : ٦٢] إذا كان أحدهما داخلاً تحت الآخر بوجه من الوجوه . ومنه قول الشاعر(١) :

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَر الأسـ ـودَ مـَا لـم يـُعـاضَ كان جنـونا

ولم يقل: ما لم يعاضا ، بل جعل الضمير راجعًا إلى الشباب ؛ لأن الشعر الأسود داخل فيه . وقيل : إنه عائد إلى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لأن الصبر هو عليها ، كما قيل سابقًا . وقيل : إن الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مرادًا معها ، لكن لما كانت آكد وأعم تكليفًا وأكثر ثوابًا كانت الكناية بالضمير عنها ، ومنه قوله : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ [التوبة : ٣٤] كذا قيل . وقيل : إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة ، ومثل ذلك قوله تعالى :﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : ١١] فأرجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعًا وأكثر وجودًا ، والتجارة هى الحاملة على الانفضاض . والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول: أن الصبر هناك جعل داخلاً تحت الصلاة ، وهنا لم يكن داخلاً وإن كان مرادًا . وقيل: إن المراد الصبر والصلاة ، ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ [المؤمنون : ٥٠] أى ابن مريم آية وأمه آية، ومنه قول الشاعر :

ومن يَكُ أمسى بالمدينة رَحْلُه فـإنى وَقـيّارُ بـهـا لـغريـبُ (٢)

(١) هو حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ .

(٢) القائل هو : ضابئ بن الحارث البرجمى ، وقيَّار : اسم فرسه أو جمله . والقيار : صاحب القير ، وهو الزفت الذى تطلى به السفن والإبل ونحوها.

وقال آخر (١) :

لِكل هَمٍّ مِن الهموم سَعَة   والصُّبح والمساء (٢) لا فلاح مَعَه

وقيل : رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة . وقيل : رجع إلى المصدر المفهوم من قوله :﴿واستعينوا﴾ وهو الاستعانة . وقيل :رجع إلى جميع الأمور التى نهى عنها بنو إسرائيل . والكبيرة التى يكبر أمرها ، ويتعاظم شأنها على حاملها ؛ لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ، ومنه :﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ [الشورى : ١٣] . والخاشع : هو المتواضع ، والخشوع : التواضع . قال فى الكشاف : والخشوع : الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة ، وأما الخضوع : فاللين والانقياد ، ومنه : خضعت بقولها : إذا ليّنَتْه . انتهى. وقال الزجاج : الخاشع الذى يرى أثر الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الإقواء(٣)، ومكان خاشع : لايهتدى إليه ، وخشعت الأصوات ، أى سكنت ، وخشع ببصره : إذا غضه ، والخشعة : قطعة من الأرض رخوة. وقال سفيان الثورى : سألت الأعمش عن الخشوع ، فقال : يا ثورى ، أنت تريد أن تكون إمامًا للناس ، ولا تعرف الخشوع؟! (٤) ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ، لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض افترض عليك . انتهى . وما أحسن ما قاله بعض المحققين فى بيان ماهيته :أنه هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم فى الصلاة ، وملازمتهم لوظائف الخشوع الذى هو روح الصلاة ، وإتعابهم لأنفسهم إتعابا عظيمًا فى الأسباب الموجبة للحضور والخضوع ؛ لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب ، تسهل عليهم تلك المتاعب ، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب ، بل يصير ذلك لذة خالصة وراحة عندهم محضة ، ولأمر ما هان على قوم ما يلاقونه من حر السيوف عند تصادم الصفوف ، وكانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم :

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا   على أى جنب كان فى الله مصرعى

والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنى ظننت أنى ملاقٍ حسابيه﴾ [الحاقة : ٢٠]، وقوله: ﴿ وظنوا أنهم مواقعوها ﴾ [الكهف : ٥٣] ومنه قول دريد بن الصمة :

(١) هو الأضبط بن قريع السعدى . راجع : اللسان مادة (مسا).

(٢) فى القرطبى ١/٣١٩: « المسْىَ » بدل « المساء » .

(٣) فى المطبوعة : « بعد الأقوى » وهو تصحيف ، وفى المخطوطة والقرطبى ١/٣١٩: « بعد الإقواء » وهو أصح، والإقواء : الصيرورة إلى القفر ، ودار قوّاء : أى لا أنيس بها ، وقد خلت من أهلها .

(٤) زاد القرطبى ١/ ٣٢٠ : « سألت إبراهيم النخعى عن الخشوع ، فقال : أعيمش ، أنت تريد أن تكون إمامًا للناس ، ولا تعرف الخشوع ! » .

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَىْ مدجَّج سَراتُهُم بالفارسى المُسَوَّدِ

وقيل : إن الظن فى الآية على بابه ، ويضمر فى الكلام بذنوبهم ، فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين ، ذكره المهدوى والماوردى ، والأول أولى . وأصل الظن : الشك مع الميل إلى أحد الطرفين ، وقد يقع موقع اليقين فى مواضع، منها هذه الآية . ومعنى قوله : ﴿ ملاقوا ربهم ﴾ ملاقو جزاءه ، والمفاعلة هنا ليست على بابها ، ولا أرى فى حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأسًا ، وفى هذا مع ما بعده من قوله : ﴿ وأنهم إليه راجعون ﴾ إقراراً بالبعث ، وما وعد الله فى اليوم الآخر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ واركعوا ﴾ قال : صلوا . وأخرج ابن أبى حاتم أيضًا عن مقاتل فى قوله : ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ قال : أمرهم أن يركعوا مع أمة محمد ، يقول : كونوا منهم ومعهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿أتأمرون الناس بالبر ﴾ الآية . قال : أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب ، ولا ينتفعون بما فيه . وأخرج الثعلبى والواحدى عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى يهود أهل المدينة ، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الدين الذى أنت عليه ، وما يأمرك به هذا الرجل ، يعنون محمدًا ﷺ ، فإن أمره حق ، وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه (١) .

وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ أتأمرون الناس بالبر ﴾ قال : بالدخول فى دين محمد. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة ، وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسلى ؟ وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير والبيهقى عن أبى الدرداء فى الآية ، قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا . وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قُرضت رجعت، فقلت لجبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » (٢) . وثبت فى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ، قال :سمعت رسول الله يقول: « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار، فتندلق به أقتابه ، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، مالك ؟ ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت

(١) الواحدى ص ١٣ .

(٢) أحمد ٣/ ١٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ وابن أبى شيبة (١٨٤٢٥) وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٤٣، ٤٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ وصححه ابن حبان١/ ١٣٥ (٥٣) والبيهقى فى الشعب (٤٩٦٧) .

آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[١].

وفى الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعًا عند الخطيب وابن النجار ، وعن الوليد بن عقبة مرفوعًا عند الطبرانى والخطيب بسند ضعيف [٢] ، وعند عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عنه موقوفًا ، ومعناها جميعًا : أنه يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : بم دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم ؟ قالوا : إنا كنا نأمركم ولا نفعل . وأخرج الطبرانى والخطيب فى الاقتضاء ، والأصبهانى فى الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج ، يضىء للناس ، ويحرق نفسه» [٣]. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عنه نحوه [٤] . وأخرج الطبرانى ، والخطيب فى الاقتضاء عن أبى برزة مرفوعًا نحوه[٥] . وأخرج ابن قانع فى معجمه ، والخطيب فى الاقتضاء عن سليك مرفوعًا نحوه . وأخرج ابن سعد ، وابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، عن أبى الدرداء قال : ويل للذى لا يعلم مرة ، ولو شاء الله لعلمه ، وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات [٦] . وأخرج أحمد فى الزهد ، عن عبد الله بن مسعود مثله .

وما أحسن ما أخرجه ابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أنه جاءه رجل فقال : يا بن عباس إنى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . قال: أو بلغت ذلك ؟ قال : أرجو . قال : فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف فى كتاب الله فافعل . قال : وما هُنَّ ؟ قال : قوله عز وجل : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا . قال : فالحرف الثانى ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا. قال : فالحرف الثالث ؟ قال : قول العبد الصالح شعيب : ﴿ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود : ٨٨] أحكمت هذه الآية ؟ قال: لا. قال :

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٦٧) وفى الفتن (٧٠٩٨) ومسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٨٩/ ٥١) .

(٢) الطبرانى ٢٢/ ١٥٠ (٤٠٥) والخطيب فى اقتضاء العلم العمل (٧٣) وفيه أبو بكر الداهرى وهو ضعيف جدًا .

(٣) الطبرانى فى الكبير (١٦٨١) ، (١٦٨٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٢٣٥ : « رواه الطبرانى من طريقين فى أحدهما ليث بن أبى سليم وهو مدلس ، وفى الأخرى على بن سليمان الكلبى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » وقال أبو حاتم فى على بن سليمان : « ما أرى بحديثه بأسًا ، صالح الحديث، ليس بالمشهور ». انظر: الجرح والتعديل ٦/ ١٨٨، ١٨٩ والحديث استغربه ابن كثير ١/ ١٤٩ . وقال المنذرى فى الترغيب ١/ ١٢٧ : «وإسناده حسن إن شاء الله » .

(٤) ابن أبى شيبة (١٠ . ١٧) .

(٥) رواه الخطيب فى « اقتضاء العلم العمل » رقم (٧٠) وعزاه الهيثمى فى المجمع ١/ ١٨٤ إلى الطبرانى فى الكبير وضعفه . وأبو برزة هو عقبة بن عمرو الأسلمى .

(٦) ابن أبى شيبة فى المصنف (١٧٤٧٢) وأحمد فى الزهد ص ٢٦٥ (٧٦٣) وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢١١ .

فابدأ بنفسك [١] .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ قال : إنهما معونتان من الله فاستعينوا بهما . وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر ، وأبو الشيخ فى الثواب ، والديلمى فى مسند الفردوس عن على، قال : قال رسول الله ﷺ : «الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر على المعصية» [٢] . وقد وردت أحاديث كثيرة فى مدح الصبر والترغيب فيه ، والجزاء للصابرين ، ولم نذكرها هنا ؛ لأنها ليست بخاصة بهذه الآية ، بل هى واردة فى مطلق الصبر . وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور ها هنا منها شطرًا صالحًا ، وفى الكتاب العزيز من الثناء على ذلك ، والترغيب فيه الكثير الطيب. وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة ، قال : كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة [٣]. وأخرج أحمد والنسائى وابن حبان عن صهيب عن النبى ﷺ ، قال : « كانوا ، يعنى الأنبياء ، يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة »[٤] . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن أبى الدرداء مرفوعًا نحو حديث حذيفة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس ، أنه كان فى مسير له فنعى إليه ابن له ، فنزل فصلى ركعتين ، ثم استرجع ، فقال : فعلنا كما أمــرنا الله ، فقال : ﴿**واستـعينوا بالصبر والصلاة**﴾ وقد روى عنه نحو ذلك سعيد بن منصور ، وابن جرير وابن المنذر والبيهقى لما نعى إليه أخوه قثم[٥] . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وإنها لكبيرة** ﴾ قال : لثقيلة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا على الخاشعين** ﴾ قال : المؤمنين حقا . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **إلا على الخاشعين** ﴾ قال : الخائفين . وأخرج

---

(١) البيهقى فى الشعب (٧٥٦٩) .

(٢) الديلمى (٣٨٤٦) والصبر فى اللغة : الحبس والكف ، ومنه قيل : فلان صُبر ، إذا أُمْسك وحُبس للقتل . قال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ [الكهف : ٢٨] أى احبس نفسك معهم . وهو فى القرآن على أنواع :

١ــ الأمر به : قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

٢ــ النهى عن ضده : ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

٣ــ الثناء على أهله : ﴿ **الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين** ﴾ [آل عمران : ١٧] .

٤ــ إيجاب محبته : ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

٥ــ إطلاق البشرى لأهل الصبر: ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ [البقرة :١٥٥] .

راجع : بصائر ذوى التمييز ٣/ ٣٧٠ .

(٣) أحمد ٥/ ٣٨٨ وأبو داود فى الصلاة (١٣١٩) وابن جرير ١/ ٢٠٥ .

(٤) جزء من حديث :أخرجه أحمد ٤/ ٣٣٣ و٦/ ١٦ وصححه ابن حبان (١٩٧٢) ، وأخرج النسائى نحوه فى السير من السنن الكبرى (٨٦٣٣) وليس فيه هذا الجزء .

(٥) قُثَم : ــ بضم القاف وفتح الثاء والمثلثة ــ هو ابن العباس بن عبد المطلب ، كان يُشبه بالنبى ﷺ ، وكان أصغر من عبد الله أخيه ، أدرك النبى ﷺ ولم يسمع منه .

ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال : كل ظن فى القرآن فهو يقين . ولا يتم هذا فى مثل قوله : ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا ﴾ [النجم : ٢٨]، وقوله: ﴿إن بعض الظن إثم ﴾ [الحجرات: ١٢] ولعله يريد الظن المتعلق بأمور الآخرة ، كما رواه ابن جرير عن قتادة وقال : ما كان من ظن الآخرة فهو علم . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله :﴿ وأنهم إليه راجعون﴾ قال : يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) ﴾ .

قوله :﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ قد تقدم تفسيره ، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيدًا للحجة عليهم ، وتحذيرًا لهم من ترك اتباع محمد ﷺ ، ثم قرنه بالوعيد وهو قوله : ﴿ واتقوا يومًا ﴾ . وقوله: ﴿ وأنى فضلتكم ﴾ معطوف على مفعول اذكروا ، أى اذكروا نعمتى وتفضيلى لكم على العالمين . قيل : المراد بالعالمين عالم زمانهم. وقيل : على جميع العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وقال فى الكشاف : على الجم الغفير من الناس كقوله : ﴿ باركنا فيها للعالمين ﴾ [الأنبياء : ٧١] .يقال : رأيت عالمًا من الناس : يراد الكثرة. انتهى . قال الرازى فى تفسيره : وهذا ضعيف ؛ لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل ، وكل ما كان دليلاً على الله كان علمًا ، وكان من العالم ، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله ، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات . انتهى .

وأقول: هذا الاعتراض ساقط ، أما أولاً : فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه ، وأما ثانيًا : فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودًا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله، الذى يصح إطلاق اسم العلم عليه ، وهو كائن فى كل فرد من أفراد المخلوقات التى يستدل بها على الخالق ، وغايته أن جميع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات ؛ وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات فى كل زمان فليس فى اللفظ ما يفيد هذا ، ولا فى اشتقاقه ما يدل عليه ، وأما من جعل العالم أهل العصر ، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور ، لا على أهل كل عصر ، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ ، ولا على ما بعده من العصور ، ومثل هذا الكلام ينبغى استحضاره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين ﴾

[المائدة : ٢٠] ، وعند قوله تعالى : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ [الدخان : ٣٢] ، وعند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [آل عمران : ٣٣] . فإن قيل : إن التعريف فى العالمين يدل على شموله لكل عالم ، قلت : لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزمًا لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ ؛ لقوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[آل عمران: ١١٠] فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات .

وقوله : ﴿ واتقوا يومًا ﴾ أمر معناه الوعيد ، وقد تقدم معنى التقوى . والمراد باليوم : يوم القيامة ،أى عذابه . وقوله : ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئًا ﴾ فى محل نصب صفة ليوم ، والعائد محذوف . قال البصريون فى هذا وأمثاله : تقديره فيه. وقال الكسائى : هذا خطأ ، بل التقدير لا تجزيه ؛ لأن حذف الظرف لا يجوز ، ويجوز حذف الضمير وحده . وقد روى عن سيبويه ، والأخفش ، والزجاج ،جواز الأمرين . ومعنى ﴿ لا تجزى ﴾ : لا تكفى وتقضى، يقال :جزا عنى هذا الأمر يجزى ، أى قضى ، واجتزأت بالشىء أجتزئ ، أى اكتفيت ، ومنه قول الشاعر:

فإن الغدرَ فى الأقوام عَارٌ وإن الحر يَجزى بالكُراعِ

والمراد أن هذا اليوم لا تقضى نفس عن نفس شيئًا ، ولا تكفى عنها ، ومعنى التنكير : التحقير ، أى شيئًا يسيرًا حقيرًا، وهو منصوب على المفعولية ، أو على أنه صفة مصدر محذوف، أى جزاء حقيرًا . والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الاثنان ، تقول: استشفعته ، أى سألته أن يشفع لى ، أى يضم جاهه إلى جاهك عند المشفوع إليه ، ليصل النفع إلى المشفوع له ، وسميت الشفعة شفعة؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . وقد قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: « تقبل » بالمثناة الفوقية ؛ لأن الشفاعة مؤنثة ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ؛ لأنها بمعنى الشفيع. قال الأخفش : الأحسن التذكير . وضمير﴿منها﴾ يرجع إلى النفس المذكورة ثانيًا ، أى إن جاءت بشفاعة شفيع ، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولاً ، أى إذا شفعت لم يقبل منها . والعدل بفتح العين : الفداء وبكسرها : المثل . يقال : عِدْل وعديل للذى ماثل فى الوزن والقدر. وحكى ابن جرير : أن فى العرب من يكسر العين فى معنى الفدية . والنصر : العون ، والأنصار : الأعوان ، وانتصر الرجل : انتقم ، والضمير ، أى هم ، يرجع إلى النفوس المدلول عليها بالنكرة فى سياق النفى ، والنفس تذكر وتؤنث .

وقوله : ﴿ إذ نجيناكم ﴾ متعلق بقوله : ﴿اذكروا﴾، والنجاة : النجوة من الأرض وهى ما ارتفع منها ، ثم سمى كل فائز ناجيًا . وآل فرعون : قومه ، وأصل آل : أهل؛ بدليل تصغيره على أُهيل . وقيل غير ذلك ، وهو يضاف إلى ذوى الخطر . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد . ولا يضاف إلى البلدان ، فلا يقال : من آل المدينة . وقال

الأخفش : قد سمعناه فى البلدان قالوا : آل المدينة . واختلفوا هل يضاف إلى المضمر أم لا ؟ فمنعه قوم ، وسوّغه آخرون ، وهو الحق ، ومنه قول عبد المطلب :

وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك

وفرعون : قيل : هو اسم ذلك الملك بعينه . وقيل : إنه اسم لكل ملك من ملوك العمالقة ، كما يسمى من ملك الفرس : كسرى ، ومن ملك الروم :قيصر ، ومن ملك الحبشة: النجاشى . واسم فرعون موسى المذكور هنا: قابوس ، فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد بن مصعب بن الريان (١) . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية ، وقال الجوهرى : إن كل عاتٍ يقال له: فرعون ، وقد تفرعن وهو ذو فرعنة ، أى دهاء ومكر. وقال فى الكشاف : تفرعَن فلان : إذا عتا وتجبر (٢) . ومعنى قوله : ﴿يسومونكم﴾ يولونكم، قاله أبو عبيدة . وقيل : يذيقونكم ، ويلزمونكم إياه ، وأصل السوم الدوام ، ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعى ، ويقال : سامه خطة خسف : إذا أولاه إياها . وقال فى الكشاف.أصله من سام السلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى : يبغونكم سوء العذاب ، ويريدونكم عليه (٣) .انتهى . ﴿ وسوء العذاب ﴾: أشده، وهو صفة مصدر محذوف ، أى يسومونكم سومًا سوء العذاب ويجوز أن يكون مفعولاً ثانيا ، وهذه الجملة فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ مقدر ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال أى سائمين لكم .

وقوله : ﴿ يُذبحون ﴾ وما بعده بدل من قوله : ﴿ يسومونكم ﴾ وقال الفراء : إنه تفسير لما قبله ، وقرأه الجماعة بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن بالتخفيف . والذبح فى الأصل : الشق وهو فرى أوداج المذبوح .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ يتركونهن أحياء ؛ ليستخدموهن ويمتهنوهن، وإنما أمر بذبح الأبناء واستحياء البنات لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده ، وعبر عن البنات باسم النساء، ولأنه جنس يصدق على البنات . وقالت طائفة : إنه أمر بذبح الرجال . واستدلوا بقوله : ﴿ نساءكم ﴾ والأول أصح بشهادة السبب . ولا يخفى ما فى قتل الأبناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها ، من إنزال الذل بهم وإلصاق الإهانة الشديدة بجميعهم ، لما فى ذلك من العار . والإشارة بقوله: ﴿ وفى ذلكم ﴾ إلى جملة

---

(١) وحكاه صاحب نهاية الأرب ١٣/١٧٦ عن الثعلبى فى كتابه المترجم بيواقيت البيان فى قصص القرآن وقيل : أصله من مدينة بورمان ، وقيل : من قرية مجهولة تسمى نوشخ ،ولما قعد على سرير الملك قال : أين عجائز نوشخ ؟ .

(٢) الكشاف ١/١٣٧ وقد استشهد بقول الشاعر :

قد جاءه موسى الكليم فزاد فى أقصى تفرعنه وفرط عرامه

(٣) ومنه قول الشاعر :

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن يقر الخسف فينا

الأمر ، والبلاء يطلق تارة على الخير ، وتارة على الشر ، فإن أريد به هنا الشر كانت الإشارة بقوله : ﴿ وفى ذلكم بلاء﴾ إلى ما حل بهم من النقمة بالذبح ونحوه ، وإن أريد به الخير كانت الإشارة التى أنعم الله عليهم بالإنجاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين . وقد اختلف السلف ومن بعدهم فى مرجع الإشارة ، فرجح الجمهور الأول، ورجح الآخرون الآخر. قال ابن جرير : وأكثر ما يقال فى الشر: بلوته أبلوه بَلاءً ، وفى الخير: أبليته إبلاء وبلاء . قال زهير :

جَزَى اللّه بِالإحْسانِ مَا فَعَلا بِكُم وأبلاهـما خـَيْر البـَلاءِ الـَّذِى يَبـْلُو[1]

قال : فجمع بين اللغتين ؛ لأنه أراد فأنعم عليهما خير النعم ، التى يختبر بها عباده. وقوله : ﴿ وإذ فرقنا ﴾ متعلق بما تقدم من قوله : ﴿ اذكروا ﴾، وفرقنا : فلقنا ، وأصل الفرق: الفصل ، ومنه فرق الشعر ، وقرأ الزهرى : «فرَّقنا » بالتشديد ، والباء فى قوله : ﴿بكم﴾ قيل : هى بمعنى اللام ، أى لكم . وقيل : هى الباء السببية ، أى فرقناه بسببكم . وقيل : إن الجار والمجرور فى محل الحال ، أى فرقناه متلبسًا بكم ، والمراد ها هنا : أن فرق البحر كان بهم ، أى بسبب دخولهم فيه ، أى لما صاروا بين الماءين صار الفرق بهم . وأصل البحر فى اللغة : الاتساع ، أطلق على البحر الذى هو مقابل البر ، لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر والخليج ، ويطلق على الماء المالح ، ومنه أبحر الماء إذا ملح ، قال نصيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحرًا فزادنى إلى مَرَضى أن أبْحَرَ المَشْربُ العذْبُ

وقوله : ﴿ فأنجيناكم ﴾ أى أخرجناكم منه ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ فيه . وقوله : ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم . وقيل : معناه : وأنتم تنظرون ، أى ينظر بعضكم إلى البعض الآخر من السالكين فى البحر . وقيل : نظروا إلى أنفسهم ينجون ، وإلى آل فرعون يغرقون . والمراد بآل فرعون هنا: هو وقومه وأتباعه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب ؛ أنه كان إذا تلا : ﴿ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ قال : مضى القوم ، وإنما يعنى به أنتم . وأخرج ابن جرير عن سفيان بن عيينة قال فى قوله : ﴿ اذكروا نعمتى ﴾: هى أيادى الله وأيامه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : نعمة الله التى أنعم بها على بنى إسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك، فجَّر لَهُم الحجر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وأنجاهم من عبودية آل فرعون . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ قال : فضلوا على العالم الذى كانوا فيه ، ولكل زمان عالم . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ فضلتكم على العالمين ﴾ قال : بما

(١) ديوانه ص ١٠٩ وهذا بيت من قصيدة من جيد شعر زهير وخالصه .

أعطوا من الملك والرسل والكتب على من كان فى ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالما .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **لا تجزى نفس عن نفس شيئًا** ﴾ قال : لا تغنى نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئًا . وأخرج ابن جرير عن عمرو بن قيس المُلائى عن رجل من بنى أمية ، من أهل الشام أحسن الثناء عليه، قال : قيل : يا رسول الله ، ما العدل ؟ قال : « العدل الفدية » [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. قال ابن أبى حاتم : وروى عن أبى مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك . وأخرج عبد الرزاق عن على فى تفسير الصرف والعدل قال : التطوع والفريضة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب هاهنا ، والقول الأول أظهر فى تفسير هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالت الكهنة لفرعون : إنه يولد فى هذا العام مولود يذهب بملكه ، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل ، وعلى كل مائة عشرة ، وعلى كل عشر رجلاً ، فقال : انظروا كل امرأة حامل فى المدينة ، فإذا وضعت حملها فإن كان ذكرًا فاذبحوه ، وإن كان أنثى فخلوا عنها ، وذلك قوله : ﴿ **يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **يسومونكم سوء العذاب**﴾ قال : إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة ، فقالت له الكهنة : إنه سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه ، فبعث فى أهل مصر نساء قوابل ، فإذا ولدت امرأة غلامًا أتِى به فرعون فقتله ، ويستحيى الجوارى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**بلاء من ربكم عظيم** ﴾ يقول : نقمة . وأخرج وكيع عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإذ فرقنا بكم البحر** ﴾ فقال : إى والله ، لفرق البحر بينهم ، حتى صار طريقًا يبسًا يمشون فيه ، فأنجاهم الله ، وأغرق آل فرعون عدوهم . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا اليوم ؟» قالوا : هذا يوم صالح ، نجى الله فيه بنى إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى . فقال رسول الله ﷺ : «نحن أحق بموسى منكم » فصامه وأمر بصومه [٣] . وقد أخرج الطبرانى، وأبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن جبير ؛ أن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عن أمور ، منها عن البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة فكتب معاوية إلى ابن عباس فأجابه عن تلك الأمور وقال: أما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار ، فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل[٤] . ولعله سيأتى إن شاء الله تعالى زيادة على ما

---

(١) ابن جرير ١/ ٢١٢ .

(٢) ابن جرير ١/ ٢١٤، ٢١٥ وفى التاريخ ١/ ٢٢٥.

(٣) البخارى فى الصوم (٢٠٠٤) وفى الأنبياء (٣٣٩٧) ومناقب الأنصار (٣٩٤٣) والتفسير (٤٦٨٠) ، (٤٧٣٧) ومسلم فى الصيام (١١٣٠/ ١٢٧، ١٢٨) وأبو داود فى الصوم (٢٤٤٤) وأحمد ١/ ٢٩١ ، ٣١٠، ٣٣٦ ، ٣٤٠ .

(٤) لم أعثر عليه فى معجم الطبرانى الكبير وحلية الأولياء ، وعزا السيوطى فى الدر ٥/ ٨٦ نحوه إلى أبى العباس محمد بن إسحاق السراج فى تاريخه وابن عبد البر فى التمهيد عن ابن عباس .

هنا عند تفسير قوله تعالى : ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء : ٦٣] .

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ .

قرأ أبو عمرو :« وعدنا » بغير ألف ورجحه أبو عبيدة ، وأنكر ﴿ **واعدنا** ﴾ قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما من الله فإنما هو التفرد بالوعد ، على هذا وجدنا القرآن كقوله :﴿ وعدكم وعد الحق ﴾ [إبراهيم : ٢٢] وقوله: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ [الأنفال : ٧] ومثله . قال أبو حاتم ومكى : وإنما قالوا هكذا نظرًا إلى أصل المفاعلة، أنها تفيد الاشتراك فى أصل الفعل ، وتكون من كل واحد من المتواعدين ونحوهما ، ولكنها قد تأتى للواحد فى كلام العرب كما فى قولهم : داويت العليل ، وعاقبت اللص ، وطارقت النعل، وذلك كثير فى كلامهم . وقرأه الجمهور :﴿ **واعدنا** ﴾ قال النحاس : وهى أجود وأحسن ، وليس قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا ﴾ [المائدة : ٩ ، والنور : ٥٥] من هذا فى شىء؛ لأن ﴿ **واعدنا موسى** ﴾ إنما هو من باب الموافاة ، وليس هو من الوعد والوعيد فى شىء، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا ؛ والفصيح فى هذا أن يقال : واعدته . قال الزجاج : واعدنا بالألف ها هنا جيد؛ لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة ، فمن الله سبحانه وعد ، ومن موسى قبول . قوله : ﴿ **أربعين ليلة** ﴾ قال الزجاج : التقدير تمام أربعين ليلة ، وهى عند أكثر المفسرين ذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة . وإنما خص الليالى بالذكر دون الأيام ؛ لأن الليلة أسبق من اليوم ، فهى قبله فى الرتبة .

ومعنى قوله : ﴿ **ثم اتخذتم العجل** ﴾ أى جعلتم العجل إلها ﴿ **من بعده** ﴾ أى من بعد مضى موسى إلى الطور . وقد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوا عشرين يومًا وعشرين ليلة ، وقالوا : قد اختلف موعده فاتخذوا العجل، وهذا غير بعيد منهم، فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل ، مخالفة لما يخاطبون به ، بل ويشاهدونه بأبصارهم ، فلا يقال : كيف تعدون الأيام والليالى على تلك الصفة ، وقد صرح لهم فى الوعد بأنها أربعون ليلة ، وإنما سماهم ظالمين : لأنهم أشركوا بالله ، وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام . والجملة فى موضع نصب على الحال .

وقوله : ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل ، وسمى العجل عجلاً ؛ لاستعجالهم عبادته كذا قيل، وليس بشىء ؛ لأن العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر . وقد كان جعله لهم السامرى على صورة العجل . وقوله: ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أى لكى تشكروا ما

أنعم الله به عليكم ، من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه. وأصل الشكر فى اللغة : الظهور ، من قولهم: دابة شكور ، إذ ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعطى من العلف . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له ، وباللام أفصح ، وقد تقدم معناه ، والشكران خلاف الكفران .

والكتاب : التوراة ، بالإجماع من المفسرين . واختلفوا فى الفرقان [١] ، وقال الفراء وقُطْرُب : المعنى : آتينا موسى التوراة ، ومحمدًا الفرقان . وقد قيل : إن هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن ، وليس كذلك ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ [الأنبياء : ٤٨] . وقال الزجاج : إن الفرقان هو الكتاب ، أعيد ذكره تأكيدًا . وحكى نحوه عن الفراء ، ومنه قول عنترة :

حييت من طـلل تـقادم عهـده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم [٢]

وقيل : إن الواو صلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب، الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت كقول الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابن الهمام [٣] ... وليـثِ الكـتيبةِ فى المُزدحـمْ

وقيل المعنى : أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتابًا وفارقًا بين الحق والباطل . وهو كقوله: ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء ﴾ [الأنعام : ١٥٤] . وقيل : الفرقان : الفرق بينهم وبين قوم فرعون ، أنجى هؤلاء ، وأغرق هؤلاء . وقال ابن زيد[٤] : الفرقان : انفراق البحر .وقيل : الفرقان : الفرج من الكرب . وقيل : إنه الحجة والبيان بالآيات التى أعطاها الله من العصا ، واليد ، وغيرهما ، وهذا أولى وأرجح ، ويكون العطف على بابه كأنه قال : آتينا موسى التوراة ، والآيات التى أرسلناه بها معجزة له .

قوله : ﴿ **يا قوم** ﴾ القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء ، ومنه قول زهير :

وَمَا أدْرِى وَسَوف أخَالُ أدْرِى ... أقَومٌ آل حِصْنٍ أمْ نـِسَاء

---

(١) فى الفرقان خمسة أقوال : أحدهما : أنه النصر . قاله ابن عباس ، وابن زيد . الثانى : أنه ما فى التوراة من الفرق بين الحق والباطل ، فيكون الفرقان نعتًا للتوراة . قاله أبو العالية . الثالث : أنه الكتاب ، فكرره بغير اللفظ. قال عدى بن زيد :

وقدمت الأديم لراهشيه ... وألفى قولها كذبًا ومينا

وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ [الفرقان : ١]. الرابع : بمعنى النور. قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا** ﴾ [الأنفال : ٢٩] أى نوراً . الخامس : بمعنى يوم بدر . قال تعالى :﴿ **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾ [الأنفال : ٤١] أى يوم بدر .

(٢) أم الهيثم كنية عبلة ابنة مالك ، والبيت فى ديوانه ص ١١ من معلقته التى مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

(٣) القَرْم : السيد ، والهُمَام : الملك العظيم الهمة . (٤) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، المفسر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ ثم قال : ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ [الحجرات : ١١] ، ومنه ﴿ ولوطا إذ قال لقومه ﴾ [الأعراف : ٨٠] أراد الرجال ، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ [نوح:١] والمراد هنا بالقوم : عبدةُ العجل . والبارئ : الخالق . وقيل : إن البارئ : هوالمبدع المحدث، والخالق : هو المقدر الناقل من حال إلى حال . وفى ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم ، أى فتوبوا إلى الذى خلقكم ، وقد عبدتم معه غيره. « والفاء » فى قوله : ﴿ **فتوبوا** ﴾ للسببية، أى لتسبب التوبة عن الظلم ، وفى قوله: ﴿ **فاقتلوا** ﴾ للتعقيب ، أى اجعلوا القتل متعقبًا للتوبة . **قال القرطبى:** وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قيل : قاموا صفين، وقتل بعضهم بعضًا . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقوله : ﴿ **فتاب عليكم** ﴾ قيل : فى الكلام حذف : أى فقتلتم أنفسكم ﴿**فتاب عليكم** ﴾ أى على الباقين منكم . وقيل : هو جواب شرط محذوف ، كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم . وأما ما قاله صاحب الكشاف : من أنه يجوز أن يكون خطابًا من الله لهم على طريقة الالتفات ، فيكون التقدير : فعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم ؛ فهو بعيد جدا ، كما لا يخفى .

وقد أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **أربعين ليلة** ﴾ قال : ذا القعدة ، وعشرًا من ذى الحجة . وقد أخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ قال : من بعد ما اتخذتم العجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان** ﴾ قال : الكتاب هو الفرقان ، فرق بين الحق والباطل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الفرقان جماع اسم التوراة والإنجيل ، والزبور والقرآن . وأخرج ابن جرير عنه قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم ، واختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقى كانت له توبة [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن على قال : قالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضًا . فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه ، وأباه ، وابنه ، لا يبالى من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا ، فأوحى الله إلى موسى : مرهم فليرفعوا أيديهم ، وقد غفر لمن قُتل وتِيب على من بقى . وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة. وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير عن الزهرى ، نحوًا مما سبق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **إلى بارئكم** ﴾ قال : خالقكم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ

(١) ابن جرير ١/ ٢٢٧ .

تنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٥٧﴾ ﴾ .

قوله :﴿ وإذ قلتم ﴾ هذه الجملة معطوفة على التى قبلها ، وظاهر السياق أن القائلين هذه المقالة هم قوم موسى . وقيل : هم السبعون الذين اختارهم . وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة ،فأرسل الله عليهم نارًا فأحرقتهم ، ثم دعا موسى ربه فأحياهم ، كما قال تعالى هنا : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ وسيأتى ذلك فى الأعراف إن شاء الله . والجهرة : المعاينة ، وأصلها الظهور ، ومنه : الجهر بالقراءة والمجاهرة بالمعاصى ، ورأيت الأمر جهرة وجهارًا ، أى غير مستتر بشىء ، وهى مصدر واقع موقع الحال ، وقرأ ابن عباس : « جهَرة» بفتح الهاء ، وهى لغتان مثل زهرة وزهرة ، ويحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جاهر . والصاعقة قد تقدم تفسيرها ، وقرأ عمر ، وعثمان ، وعلى : « الصعقة » وهى قراءة ابن محيصن . والمراد بأخذ الصاعقة : إصابتها إياهم .

﴿ وأنتم تنظرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة[١] النازلة بهم الواقعة عليهم ؛ لا آخرها الذى ماتوا عنده . وقيل : المراد بالصاعقة الموت ، واستدل عليه بقوله : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير؛ لأن المصعوق قد يموت كما فى هذه الآية ، وقد يغشى عليه ثم يفيق، كما فى قوله تعالى: ﴿ وخرّ موسى صعقا فلما أفاق ﴾[الأعراف : ١٤٣]، ومما يوجب بُعْد ذلك قوله: ﴿وأنتم تنظرون ﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى ، بل قد يقال : إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم ، إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت . والمراد بقوله: ﴿ ثم بعثناكم ﴾ الإحياء لهم ؛ لوقوعه بعد الموت ، وأصل البعث: الإثارة للشىء من محله، يقال : بعثت الناقة ، أى أثرتها ، ومنه قول امرئ القيس:

وَإِخْوان صدقٍ قَدْ بَعَثْت بِسحْرِة ... فَقَامُوا جَمِيعًا بين غَاثٍ ونشوان

وقول عنترة :

وَصَحابةٌ شُمُ الأنُوف بَعثْتَهم ... لَيلاً وَقَدْ مَال الكَرى بطلاها

---

(١) أصل الصاعقة : كل أمر هائل رآه المرء أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل ، وغمور فهم ، أو فقد بعض آلات الجسم ، صوتا كان ذلك ، أو نارًا ، أو زلزلةً، أو رجفًا . ومما يدل على ذلك أنه قد يكون مصعوقًا وهو حى غير ميت ، قال تعالى: ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] أى مغشيًا عليه . ومنه قول جرير بن عطية :

وهل كان الفرزدق غير قرد ... أصابته الصواعق فاستدارا ؟

وكنت إذا حللت بدار قوم ... رحلت بخزيه وتركت عارا

وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم ؛ لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤيته فى الدنيا . وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا والآخرة ، وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا والآخرة ووقوعها فى الآخرة ، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة ، وهى قطعية الدلالة ، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة ، وزعموا أن العقل قد حكم بها ، دعوى مبنية على شفا جُرُف هار ، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب ، وسيأتيك إن شاء الله بيانٌ ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية وكلها خارج عن محل النزاع ، بعيد عن موضع الحجة ، وليس هذا موضع المقال فى هذه المسألة .

قوله : ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ أى فعلناه كالظلة ، والغمام جمع غمامة كسحابة وسحاب، قال الأخفش : قال الفراء : ويجوز غمائم . وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى فى التيه بين مصر والشام ، لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين . والمن : قيل : هو الترَّنْجبين . قال النحاس : هو بتشديد الراء وإسكان النون . ويقال : الطرَّنجبين بالطاء ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وهو طلٌ ينزل من السماء على شجر أو حجر ، ويحلو وينعقد عسلاً ، ويجف جفاف الصمغ ، ذكر معناه فى القاموس . وقيل : إن المن العسل . وقيل : شراب حلو . وقيل : خبز الرقاق. وقيل : إنه مصدر يعم جميع ما مَنّ الله به على عباده ، من غير تعب ولا زرع ، ومنه ما ثبت فى صحيح البخارى ، ومسلم ، من حديث سعيد بن زيد [(١)] عن النبى ﷺ: «أن الكمأة [(٢)] من المن الذى أنزل على موسى»[(٣)] . وقد ثبت مثله من حديث أبى هريرة عند أحمد والترمذى [(٤)] ، ومن حديث جابر وأبى سعيد وابن عباس عند النسائى [(٥)] . والسلوى: قيل: هو السُمَانى ، كحبارى ، طائر يذبحونه فيأكلونه . قال ابن عطية السلوى : طير بإجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلى فقال :

وقاسمهما بالله جَهْدًا لأنتُما ... ألذُّ من السَلوى إذا مــا أشــورها [(٦)]

ظن أن السلوى العسل . قال القرطبى : ما ادعاه من الإجماع لا يصح . وقد قال المؤرج[(٧)] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل . واستدل ببيت الهذلى ، وذكر أنه كذلك

(١) فى المطبوعة : « أبى سعيد بن زيد » ، والصواب كما فى المخطوطة: « سعيد بن زيد » ، وهو أحد العشرة .

(٢) الكَمْأة : نبات يقال له: شحم الأرض ، يوجد فى الربيع تحت الأرض ، وهو أصل مستدير كالقلقاس ، لا ساق له ولا عرق ، لونه يميل إلى الغبرة.

(٣) البخارى فى تفسير البقرة (٤٤٧٨) والأعراف (٤٦٣٩) وفى الطب (٥٧٠٨) ومسلم فى الأشربة (٢٠٤٩/١٥٧ــ١٦٢) والترمذى فى الطب (٢٠٦٧) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى الطب(٣٤٥٤) .

(٤) أحمد ٣٠٥/٢ ، ٤٢١ والترمذى فى الطب (٢٠٦٦ ــ ٢٠٦٨) ، وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى الطب (٣٤٥٥) .

(٥) النسائى فى كتاب الأطعمة من السنن الكبرى (٦٦٦٦ ، ٦٦٧٨) والترمذى فى الطب (٢٠٦٦ ــ ٢٠٦٨) وقال : « حديث حسن » ، وابن ماجة فى الطب (٣٤٥٣ ، ٣٤٥٥) وأحمد ٤٨/٣ .

(٦) عند القرطبى ٣٤٧/١ : « نشورها ». ومعنى أشورها : أجتنيها .

(٧) هو مؤرج بن عمر السدوسى ، ويكنى أبا فيد ، كان من أصحاب الخليل بن أحمد ، مات سنة خمس وتسعين ومائة هـ .

بلغة كنانة ، وأنشد :

لو شربت السُّلوان ما سَلوت ما بـــى غنـًا عـنـكِ وإن غـنيـــتُ

وقال الجوهرى : والسلوى :العسل . قال الأخفش : لا واحد له من لفظه ، مثل الخير والشر ، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى . وقال الخليل : واحده سلواة ، وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكراك سلوةٌ كما انتفض السلواة من سلكه القطر(١)

وقال الكسائى : السلوى واحدة وجمعه سلاوى . وقوله : ﴿ **كلوا** ﴾ أى قلنا لهم : كلوا، وفى الكلام حذف ، والتقدير : قلنا : كلوا ، فعصوا ، ولم يقابلوا النعم بالشكر ، فظلموا أنفسهم وما ظلمونا ، فحذف هذا لدلالة ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ عليه . وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى نرى الله جهرة** ﴾ قال : علانية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أنس قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى ، ﴿ **فأخذتكم الصاعقة** ﴾ قال : ماتوا ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم** ﴾ قال : فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم بعثناكم** ﴾ نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وظللنا عليكم الغمام** ﴾ قال : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذى يأتى الله فيه يوم القيامة ، وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر ، وكان معهم فى التيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وظللنا عليكم الغمام** ﴾ قال: كان هذا الغمام فى البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس ، وأطعمهم المن والسلوى . حين برزوا إلى البرية ، فكان المن يسقط عليهم فى محلتهم سقوط الثلج أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك ، فإذا تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته ، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ، ويوم سابعه ، فبقى عنده ؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبه شىء ، وهذا كله فى البرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : المنّ : شىء أنزل الله عليهم مثل الطل ، والسلوى :طير أكبر من العصفور .

وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال : المنّ : صمغة، والسلوى :طائر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ها هنا أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن ، فكان يسقط على الشجرة الترنجبين .

---

(١) هذا البيت من كلام أبى صخر الهذلى ، فى قصيدة له ، وقد ذكره النحاة شاهدًا فى قوله : « لذكراك » فإن اللام حرف دال على التعليل ، وقد وجب على الشاعر أن يجربه للذكرى ؛ لما اختلف فاعل الذكرى وفاعل العامل .

وأخرجوا عن وهب أنه سُئل : ما المن ؟ قال : خبز الرقاق ، مثل الذرة أو مثل النوى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : المن :شراب كان ينزل عليهم مثل العسل ، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان المنّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار ، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا والسلوى طائر يشبه السمانى ، كانوا يأكلون منه ما شاؤوا . وأخرج ابن جرير عنه نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، فى السلوى مثله . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما ظلمونا** ﴾ قال : نحن أعزّ من أن نظلم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ قال : يضرّون .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

قال جمهور المفسرين :القرية هى بيت المقدس . وقيل : إنها أريحاء[1] قرية من قرى بيت المقدس . وقيل : من قرى الشام . وقوله : ﴿**كلوا** ﴾ أمر إباحة و ﴿ **رغدًا** ﴾ كثيرًا واسعًا ، وهو نعت لمصدر محذوف ، أى أكلاً رغدًا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، وقد تقدم تفسيره . والباب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة . وقيل : هو باب القبة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل ، والسجود قد تقدم تفسيره . وقيل : هو هنا الانحناء ، وقيل : التواضع والخضوع ، واستدلوا على ذلك بأنه لو كان المراد السجود الحقيقى الذى هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به ؛ لأنه لا يمكن الدخول حال السجود الحقيقى. وقال فى الكشاف : إنهم أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرًا لله وتواضعًا [2]. واعترضه أبو حيان فى النهر المادّ ، فقال : لم يؤمروا بالسجود ، بل هو قيد فى وقوع المأمور به وهو الدخول ، والأحوال نسب تقييدية ، والأوامر نسب إسنادية . انتهى . ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد ، فمن قال : اخرج مسرعًا ، فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة ، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفًا للأمر ، ولا ينافى هذا كون الأحوال نسبًا تقييدية ، فإن اتصافها بكونها قيودًا مأمورًا بها هو شىء زائد على مجرد التقييد .

وقوله : ﴿**حطة**﴾ بالرفع فى قراءة الجمهور على إضمار مبتدأ ، قال الأخفش : وقرئت:

---

(١) أريحا : بالفتح ثم بالكسر ، وياء ساكنة ، والحاء مهملة ، وبالقصر ، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة ، لغة عبرانية ، وهى مدينة الجبارين ، فى الغور من أرض الأردن بالشام ، بينها وبين المقدس يوم للفارس ، فى جبال صعبة المسالك . راجع :معجم البلدان ١/ ١٦٥ .

(٢) الكشاف ١/ ٧ ط . دار المصحف . القاهرة .

« حطة »نصبًا على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . وقيل : معناها : الاستغفار ، ومنه قول الشاعر:

فَازَ بِالحطةِ التى أمَرَ اللَّـ ـهُ ذَنْبَ عَبْده مَغْفُورًا

وقال ابن فارس فى المجمل : ﴿ حطة ﴾ كلمة أمروا بها ، ولو قالوها لحطت أوزارهم . قال الرازى فى تفسيره : أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة ؛ وذلك لأن التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها ، وإذا اشتهر أو أخذ بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكى توبته لمن شاهد منه الذنب ؛ لأن التوبة لا تتم إلا به . انتهى . وكون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه ، بل مجرد عقد القلب عليها يكفى ، سواء أطلع الناس على ذنبه أم لا . وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله ــ عز وجل ــ أحب إلى الله وأقرب إلى مغفرته ، وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية فذلك باب آخر. وقوله : ﴿ نغفر لكم ﴾ قرأه نافع بالياء التحتية المضمومة ، وقرأه ابن عامر بالتاء الفوقية المضمومة ، وقرأه الباقون بالنون وهى أولى . والخطايا جمع خطيئة بالهمز ، وقد تكلم علماء العربية فى ذلك بما هو معروف فى كتب الصرف ، وقوله : ﴿وسنزيد المحسنين ﴾ أى نزيدهم إحسانًا على إحسانهم المتقدم ، وهو اسم فاعل من أحسن ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ سئل عن الإحسان فقال: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١). وقوله : ﴿ فبدَّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ﴾ قيل : إنهم قالوا: حنطة . وقيل غير ذلك ، والصواب أنهم قالوا : حبة فى شعرة، كما سيأتى مرفوعًا إلى النبى ﷺ . وقوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة ، كما تقرر فى علم البيان ، وهى هنا تعظيم الأمر عليهم، وتقبيح فعلهم، ومنه قول عدى بن زيد :

لا أرَى المَوْت يَسْبِقُ الموتَ شىءٌ نغَّص الموت ذا الغنَى والفقِيرا

فكرر الموت فى البيت ثلاثًا ؛ تهويلاً لأمره ، وتعظيمًا لشأنه . وقوله : ﴿ رجزًا ﴾ بكسر الراء فى قراءة الجميع إلا ابن مُحَيْصن ، فإنه قرأ بضم الراء . والرجز : العذاب ، والفسق قد تقدم تفسيره .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ادخلوا هذه القرية﴾ قال : بيت المقدس . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : هى أريحاء قرية من بيت المقدس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ادخلوا الباب ﴾ قال : باب ضيق ﴿سجدا ﴾ قال : ركعًا . وقوله : ﴿ حطة ﴾ قال : مغفرة . فدخلوا من قبل استاهم ، وقالوا : حنطة ؛ استهزاء . قال : فذلك

---

(١) جزء من حديث سؤال جبريل الطويل : أخرجه البخارى فى تفسير لقمان (٤٧٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨ /١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والنسائى فى الإيمان ٩٧/٨ ، ٩٨ وأحمد ٣١٩/١ من حديث عمر بن الخطاب .

قوله تعالى: ﴿ **فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم** ﴾. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الباب هو أحد أبواب بيت المقدس ، وهو يدعى باب حطة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : قيل لهم : ﴿ **ادخلوا الباب سجداً** ﴾ فدخلوا مقنعى رؤوسهم ، وقالوا :حنطة : حبة حمراء فيها شعيرة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، عن عكرمة فى قوله : ﴿**وادخلوا الباب سجداً** ﴾ قال : طأطئوا رؤوسكم . وقوله : ﴿ **حطة** ﴾ قال : قولوا: لا إله إلا الله . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿**قولوا حطة** ﴾ قال : لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : كان الباب قبل القبلة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « قيل : لبنى إسرائيل : ادخلوا الباب سجدًا ، وقولوا: حطة ، فبدلوا ، فدخلوا يزحفون على استاهم، وقالوا: حبة فى شعرة» (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس وأبى هريرة ، قالا : قال رسول ﷺ : «دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدًا ، يزحفون على استاهم ، وهم يقولون : حنطة فى شعيرة »(٢) . والأول أرجح لكونه فى الصحيحين ، وقد أخرجه معهما من أخرج هذا الحديث الآخر ــ أعنى ابن جرير وابن المنذر . وأخرج ابن أبى شيبة عن على قال : إنما مثلنا فى هذه الأمة كسفينة نوح ، وكباب حطة فى بنى إسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كل شيء فى كتاب الله من الرجز يعنى : العذاب . وأخرج مسلم وغيره من حديث أسامة بن زيد وسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت ، قالوا : قال رسول الله ﷺ : «وإن هذا الطاعون رجز ، وبقية عذاب عُذِّب به أناس من قبلكم ، فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها» (٣).

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾.

---

(١) أحمد ٣١٨/٢ والبخارى (٤٤٧٩) ،(٤٦٤١) ومسلم فى التفسير (٣٠١٥/١) والترمذى فى التفسير (٢٩٥٦) .
(٢) ابن جرير ١/ ٢٤٠ ، ٢٤١ . بإسنادين أحدهما صحيح ، وفى الآخر ضعف .
(٣) مسلم فى السلام (٢٢١٨/ ٩٢ ــ ٩٧) وانظر: الموطأ فى الجامع (٢٣) وأحمد ١/ ١٨٢ ، ٥/ ٢١٣ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٧٣) وفى الحيل (٦٩٧٤) والترمذى فى الجنائز (١٠٦٥) وقال : « حسن صحيح » .

الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس المطر . ومعناه فى اللغة : طلب السقيا . وفى الشرع : ما ثبت عن النبى ﷺ فى صفته من الصلاة والدعاء .والحجر يحتمل أن يكون حجرًا معينًا ، فتكون اللام للعهد ، ويحتمل ألا يكون معينا ، فتكون للجنس ، وهو أظهر فى المعجزة وأقوى للحجة . وقوله : ﴿ **فانفجرت** ﴾ الفاء مترتبة على محذوف ، تقديره : فضرب فانفجرت، والانفجار : الانشقاق ، وانفجر الماء انفجارًا : تفتح ، والفجرة : موضع تفتح الماء. قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرًا مربعًا يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون ، وإذا استغنوا عن الماء جفت . والمشرب : موضع الشرب . وقيل : هو المشروب نفسه ، وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركهم غيرهم . قيل : كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها إلى غيرها ، والأسباط : ذرية الاثنى عشر من أولاد يعقوب . وقوله : ﴿ **كلوا** ﴾ أى قلنا لهم : كلوا المن والسلوى ، واشربوا الماء المتفجر من الحجر ، وعثا يعثى عثيا ، وعثا يعثو عثوًا ، وعاث يعيث عيثًا ، لغات بمعنى أفسد . وقوله: ﴿**مفسدين** ﴾ حال مؤكدة . قال فى القاموس : عثى كرمى وسعى ورضى ، عيْثًا وعُيُوثًا وعَيَثانًا ، وعثَا يَعْثُو عثُوا : أفسد [١] .وقال فى الكشاف :« العثى : أشد الفساد . فقيل لهم : لا تمادوا فى الفساد فى حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه» [٢] . انتهى .

قوله : ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ تضجُّر منهم بما صاروا فيه من النعمة ، والرزق الطيب ، والعيش المستلذ ، ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش :

إنَّ الشـقىَّ بِالشـقَاءِ مُولـعٌ ... لا يـمْلِكُ الردَّ لَـهُ إذَا أتـى

ويحتمل ألا يكون هذا منهم تشوقًا إلى ما كانوا فيه ، ونظرًا إلى ما صاروا إليه من العيشة الرافهة ، بل هو باب من تعنتهم ، وشعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم ، وهِجِّيراهم [٣] فى غالب ما قص علينا من أخبارهم . وقال الحسن البصرى : إنهم كانوا أهل كراث ، وأبصال ، وأعداس ، فنزعوا إلى عكرهم ، أى أصلهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم ، فقالوا : ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ والمراد بالطعام الواحد : هو المن والسلوى ، وهما وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعامًا واحدًا. وقيل: لتكررهما فى كل يوم ، وعدم وجود غيرهما معهما، ولا تبدلة بهما . و « من» فى قوله : ﴿ **مما تنبت** ﴾ تخرج . قال الأخفش : زائدة ، وخالفه سيبويه ، لكونها لا تزاد فى

---

(١) ومنه قول رؤبة بن العجاج :

وعاث فينا مستحل عائث ... مصدق أو تاجر مقاعث

قوله: « عاث فينا » : أفسد علينا . راجع : ديوانه ص٣٠ . ومستحل : قد استحل أموالهم واستباحها. والمصدق : العامل الذى يقبض زكاة أموال المسلمين .

(٢) الكشاف ١/ ٧١ ط . دار المصحف . القاهرة .

(٣) أى دأبهم وشأنهم . يقال : هذا هِجِّيراه وإهجيراه ، وأهجيراؤه ، وهجيّره وأهجُورته وهِجْرِيَّاه ، أى دأبه وشأنه. وما عنده غناء ذلك ولا هَجْرَاؤه ، بمعنى . القاموس المحيط ص٦٣٧ .

الكلام الموجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا ؛ لأنه لم يجد مفعولاً ليخرج فأراد أن يجعل «ما » مفعولاً. والأولى أن يكون المفعول محذوفًا دل عليه سياق الكلام ، أى تخرج لنا مأكولا .

وقوله : ﴿ من بقلها ﴾ بدل من « ما » بإعادة الحرف. والبقل : كل نبات ليس له ساق ، والشجر : ما له ساق . قال في الكشاف : « البقل : ما أنبتته الأرض من الخضر ، والمراد به: أطايب البقول التى يأكلها الناس كالنعناع، والكرفس ، والكراث ، وأشباهها »[1] . انتهى . والقثاء : بكسر القاف وفتحها . والأولى قراءة الجمهور ، والثانية قراءة يحيى بن وثاب ، وطلحة بن مُصَرِّف وهو معروف . والفوم : قيل : هو الثوم ، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس . وقيل : الفوم: الحنطة ، وإليه ذهب أكثر المفسرين ، كما قال القرطبي . وقد رجح هذا ابن النحاس . وقال الجوهرى : الثوم : الحنطة ، وممن قال بهذا الزجاج ، والأخفش ، وأنشد :

قَدْ كُنْتُ أحْسِبنى كَأغْنَى وَاحِدٍ ... تَـرَكَ المدينَـةَ عَـنْ زِراعَـةِ فُـومِ [2]

وقال بالقول الأول الكسائى ، والنضر بن شميل ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

كَانَتْ مَنَازِلُهم إذْ ذَاكَ ظَـاهِرة ... فِيهَا الفَرَادِيسُ [3] والفُومَاتُ والْبصَلُ

أى الثوم ، وقال حسان :

وأنْتُم أُنَـاسٌ لِئَـامُ الأصُـولِ ... طَعَـامُكـم الـفُـومُ وَالْحَـوَقَـلُ

يعنى : الثوم والبصل ، وقيل : الفوم : السنبلة . وقيل : الحمص . وقيل : الفوم : كل حب يخبز . والعدس والبصل معروفان . والاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر . و﴿أدنى ﴾ قال الزجاج : إنه مأخوذ من الدنو ، أى القرب ، والمراد : أتضعون هذه الأشياء التى هى دون موضع المن والسلوى للذين هما خير منها ، من جهة الاستلذاذ ، والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه ، والحل الذى لا تطرقه الشبهة ، وعدم الكلفة بالسعى له والتعب فى تحصيله . وقوله : ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ أى انزلوا ، وقد تقدم معنى الهبوط . وظاهر هذا أن الله أذن لهم بدخول مصر . وقيل : إن الأمر للتعجيز ؛ لأنهم كانوا فى التيه ، فهو مثل قوله تعالى :﴿كونوا حجارة أو حديدًا ﴾ [الإسراء: ٥٠] . وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية والتأنيث ؛ لأنه ثلاثى ساكن الوسط ، وهو يجوز صرفه مع حصول السببين ، وبه قال الأخفش والكسائى . وقال الخليل وسيبويه : إن ذلك لا يجوز وقالا : إنه لا علمية هنا ؛ لأنه

---

(١) الكشاف ١٠٨/١ ط . الاستقامة . القاهرة .

(٢) البيت فى اللسان فى ١٢/ ٤٦٠ مادة (فوم) ونسبه لأبى محجن الثقفى ، أنشده الأخفش له . وفى الروض الأنف ٤٥/٢ نسبه لأبى أحيحة أو لأبى محجن.

(٣) الفراديس : البساتين ، جمع فردوس . اللسان ١٦٣/٦ .

أراد مصراً من الأمصار ، ولم يرد المدينة المعروفة ، وهو خلاف الظاهر . وقرأ الحسن وأبان بن تغلب، وطلحة بن مصرف بترك التنوين ، وهو كذلك فى مصحف أبى وابن مسعود . ومعنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك، والقضاء به عليهم قضاءً مستمراً لا يفارقهم ، ولا ينفصل عنهم ، مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها ، ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً :

ضرِبَتْ عَلَيْكَ العَنكَبوتُ بِوَزنها وَقَضى عَلَيْكَ بِه الكِتابُ المُنزلُ

وهو ضرب من الهجاء بليغ ، كما أنه إذا استعمل فى المديح كان فى منزلة رفيعة ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ المُروءَةَ والشَّجَاعَةَ والنَّدَى فِى قُبةٍ ضُرِبتْ عَلى ابن الحَشْرجِ

وهذا الخبر الذى أخبرنا الله به هو معلوم فى جميع الأزمنة ، فإن اليهود أقمأهم الله أذل الفرق ، وأشدهم مسكنة ، وأكثرهم تصاغراً لم ينتظم لهم جمع ، ولا خفقت على رؤوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل ما زالوا عبيد العصى فى كل زمن ، وطروقة كل فحل فى كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ فى الكثرة أى مبلغ فهو متظاهر بالفقر ، مُتَرَدٍّ بأثواب المسكنة ، ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين فى ماله ، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية ، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة ، من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه . ومعنى ﴿ باؤوا ﴾ :رجعوا ، يقال : باء بكذا ، أى رجع به ، وباء إلى المباءة ، أى رجع إلى المنزل ، والبواء : الرجوع ، ويقال : هم فى هذا الأمر بواء ، أى سواء ، يرجعون فيه إلى معنى واحد ، وباء فلان بفلان : إذا كان حقيقًا بأن يقبل به لمساواته له ، ومنه قول الشاعر :

ألا تنتهى عنا ملوك وتتقى محاربنا لا يبوأ الدم بالدم

والمراد فى الآية: أنهم رجعوا بغضب من الله ، أو صاروا أحقاء بغضبه . وقد تقدم تفسير الغضب ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم من حديث الذلة وما بعده بسبب كفرهم بالله ، وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال : إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال لمكان العصمة ،بل المراد: نعى هذا الأمر عليهم وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت فى نفس الأمر . ويمكن أن يقال: إنه ليس بحق فى اعتقادهم الباطل ؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم فى مال ولا جاه ، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين والدنيا ، كما كان من شعيا وزكريا ويحيى ، فإنهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون أنهم ظالمون، وتكرير الإشارة لقصد التأكيد ، وتعظيم الأمر عليهم ، وتهويله ، ومجموع ما بعده الإشارة الأولى والإشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده . وقيل : يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر والقتل ، فيكون ما بعدها سببًا للسبب وهو

بعيد جداً. والاعتداء :تجاوز الحد فى كل شىء.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وإذ استسقى موسى لقومه** ﴾ قال ذلك فى التيه ، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيها اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ومجاهد وابن أبى حاتم عن جويبر نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **ولا تعثوا فى الأرض** ﴾ قال : لا تسعوا فى الأرض فساداً . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: يعنى : ولا تمشوا بالمعاصى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: لا تسيروا فى الأرض مفسدين.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ قال : المن والسلوى، استبدلوا به البقل وما حكى معه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وفومها** ﴾ قال : الخبز ، وفى لفظ : البر ، وفى لفظ : الحنطة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الفوم: الثوم. وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ : « وثومها » وروى ابن أبى الدنيا عن ابن عباس ؛ أنه قال : قراءتى قراءة زيد ، وأنا آخذ ببضعة عشر حرفًا من قراءة ابن مسعود هذا أحدها :« من بقلها وقثائها وثومها » . وأخرج ابن جرير، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الذى هو أدنى** ﴾ قال : أردأ . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **اهبطوا مصرا** ﴾ قال :مصراً من الأمصار . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية : أنه مصر فرعون . وأخرج نحوه ابن أبى داود وابن الأنبارى عن الأعمش .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وضربت عليهم الذلة** ﴾ [(١)] قال : هم أصحاب الجزية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة والحسن ؛ قال : ضربت عليهم الذلة والمسكنة أى يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال: المسكنة: الفاقة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وباؤوا بغضب من الله** ﴾ قال : استحقوا الغضب من الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿**وباؤوا**﴾ قال : انقلبوا وأخرج أبو داود الطيالسى وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبى ، ثم يقيمون سوق بقلهم فى آخر النهار[(٢)] .

---

(١) الذلة : هى الصغار الذى أمر الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن لا يعطوهم أمانًا على القرار على ما هم عليه ، من كفرهم به وبرسوله ، إلا أن يبذلوا الجزية عليه ، فقال جل وعز :﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ [التوبة : ٢٩] .

(٢) لم نجده فى مسند الطيالسى ، وساق ابن كثير١/ ١٧٩ إسناد أبى داود إلى ابن مسعود ، وهو إسناد صحيح . ولعل هذا مما تلقاه ابن مسعود عن بعض أهل الكتاب . والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ .

قيل : إن المراد بالذين آمنوا :المنافقون ، بدلالة جعلهم مقترنين باليهود ، والنصارى والصابئين ، أى آمنوا فى الظاهر ، والأولى أن يقال : إن المراد الذين صدقوا النبى ﷺ وصاروا من جملة أتباعه ، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال الملة الإسلامية وحال من [1] قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد ، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا استحق ما ذكره الله من الأجر ، ومن فاته ذلك فاته الخير كله ، والأجر دِقُّه وجِلُّه [2] . والمراد بالإيمان ها هنا :هو ما بينه رسول الله ﷺ ، من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان ، فقال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره »[3] ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل فى الملة الإسلامية ، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ، ولا بالقرآن ، فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلمًا مؤمنا ، ولم يبق يهوديًا ولا نصرانيا ولا مجوسيًا .

وقوله : ﴿ هادوا ﴾ معناه : صاروا يهودًا ، قيل : هو نسبة إلى يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة ، فقلبتها العرب دالا مهملة . وقيل : معنى هادوا : تابوا ، لتوبتهم عن عبادة العجل، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنا هدنا إليك﴾ [الأعراف : ١٥٦] أى تبنا. وقيل : إن معناه : السكون والموادعة . وقال في الكشاف : إن معناه : دخل فى اليهودية . والنصارى : قال سيبويه : مفرده نصران ونصرانة كندمان وندمانة ، وأنشد شاهدًا على ذلك قول الشاعر :

تــراه إذا دار العـشَا مُتَـحَـنِّفًا ... ويُضْحى لديه وهو نَصْرانُ شامِس [4]

وقال الآخر [5] :

فكلتاهما خَرَّتْ ، وأسْجَدَ رأسها ... كَـمَا سَجَـدَت نصْرانَةٌ لَمْ تَحنَّفِ [6]

قال : ولكن لا يستعمل إلا بياء النسب ، فيقال : رجل نصرانى وامرأة نصرانية . وقال الخليل : واحد النصارى نصرى ، وقال الجوهرى : ونصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى. ويقال : ناصرة ، وعلى هذا فالياء للنسب . وقال فى الكشاف : إن الياء للمبالغة كالتى فى

---

(١) كذا ، والأصوب لغة : « ما ».
(٢) دقّه وجِلّه : قليله وكثيره . اللسان ١١/١١٦ .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) شامس بمعنى : شماس ، وهو لقب لبعض رجال الدين من النصارى ، وفى القاموس : « الشماس ، كشداد : من رؤوس النصارى » . والبيت لم يعرف قائله ، ويوجد فى الأضداد لابن الأنبارى ، ونقله أبو حيان فى البحر المحيط ١/٢٣٨ .
(٥) هو أبو الأخرز الحمانى .
(٦) سيبويه ٢/٢٩ ، ١٠٤ . وفى اللسان ٩/٥٦ . والبيت يصف ناقتين طأطأتا رؤوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة فى طأطأتها برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها .

أحمرى ، سموا بذلك ؛ لأنهم نصروا المسيح . والصابئين :جمع صابئ . وقيل : صاب. وقد اختلف فيه القراء ، فهمزوه جميعًا إلا نافعًا ، فمن همزه جعله من صبأت النجوم : إذا طلعت ، وصبأت ثنية الغلام : إذا خرجت . ومن لم يهمزه جعله من صبا يصبو : إذا مال. والصابئ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبأ . وسموا هذه الفرقة صابئة (١) ؛ لأنها خرجت من دين اليهود والنصارى ، وعبدوا الملائكة . وقوله : ﴿ **من آمن بالله** ﴾ فى موضع نصب بدلاً من الذين آمنوا وما بعده ، وقد تقدم معنى الإيمان ، ويكون خبر إن قوله : ﴿ **فلهم أجرهم**﴾ ويجوز أن يكون قوله : ﴿**من آمن بالله** ﴾ فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره قوله : ﴿**فلهم أجرهم** ﴾ وهما جميعًا خبر إن ، والعائد مقدر فى الجملة الأولى ، أى من آمن منهم ، ودخلت الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقد تقدم تفسير قوله تعالى: ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [الآية:٣٨].

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سلمان قال : سألت النبى ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت :﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا** ﴾ الآية (٢) . وأخرج الواحدى عن مجاهد نحو ذلك وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى ذكر السبب بنحو ما سبق ، وحكى قصة طويلة . وأخرج أبو داود فى الناسخ والمنسوخ ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا**﴾ قال: فأنزل الله بعد هذا ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ (٣)[آل عمران : ٨٥] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن على قال : إنما سميت اليهود؛ لأنهم قالوا : ﴿إنا هُدنا إليك ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : نحن أعلم من أين سميت اليهود باليهودية؛ من كلمة موسى عليه السلام : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ ولِمَ تسمت النصارى بالنصرانية ؛ من كلمة عيسى عليه السلام :﴿كونوا أنصار الله ﴾ [الصف : ١٤] . وأخرج أبوالشيخ نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة : إنما تسموا نصارى بقرية يقال لها: ناصرة . وأخرج ابن سعد فى طبقاته ، وابن جرير عن ابن عباس قال : إنما سميت النصارى ؛ لأن قرية عيسى كانت تسمى ناصرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد؛ قال : الصابئون : فرقة بين اليهود والنصارى ، والمجوس : ليس لهم دين .

---

(١) يقول صاحب كتاب « الملل والنحل » : « الصابئة فى اللغة : صبا الرجل : إذا حال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : صابئة . وقد يقال : صبا الرجل : إذا عشق وهوى ، وهم يقولون : الصبوة : الانحلال عن قيد الرجال ، إنما مدار مذهبهم على التعصب. ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعًا فاطرًا حكيمًا مقدسًا عن سمات الحدثان ، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون ، المقدسون جوهرًا وفعلاً وحالة ... إلخ » . راجع : الكتاب على هامش الفصل ٢/ ٩٥، ٩٦ بتصرف .

(٢) الواحدى فى أسباب النزول ص١٣ .

(٣) الواحدى ص ١٣ وكلها أسانيد مرسلة ، وابن جرير ١/ ٢٥٤ ــ ٢٥٦ .

وأخرج عبد الرزاق عنه قال : قال ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى فى تفسير الصابئين غير هذا [(١)] .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ .

قوله : ﴿ وإذ أخذنا ﴾ هو فى محل نصب بعامل مقدر ، هو: اذكروا ، كما تقدم غير مرة. وقد تقدم تفسير الميثاق ، والمراد :أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق [(٢)] بأن يعملوا بما شرعه لهم فى التوراة ، وبما هو أعم من ذلك ، أوأخص . والطور : اسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة فيه . وقيل : هو اسم لكل جبل بالسريانية ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ، إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك . فَصعقوا ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا، فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين ، طوله فرسخ فى مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأتُوا ببحر من خلفهم ، ونار من قبل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها ، وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق .

قال ابن جرير عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان ، لا أنهم آمنوا كرهًا وقلوبهم غير مطمئنة . انتهى . وهذا تكلُّف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية ، قد سكن قلبه إليها كغيره ، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا ، أو أشد منه ، ونحن نقول : أكرههم الله على الإيمان ، فآمنوا مكرهين ، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان ، وهو نظير ما ثبت فى شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الإسلام،والسيف مصلت قد هزَّه حامله على رأسه وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام ، معتذرًا عن قتله بأنه قالها تقية ، ولم تكن عن قصد صحيح : «أأنت فتشت عن قلبه » [(٣)] وقال : « لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس »[(٤)] . وقوله :

---

(١) الفخر الرازى فى تفسيره ٣/ ١١٢ .

(٢) قال ابن جرير : « ويعنى بذلك الميثاق الذى أخبر جل ثناؤه أنه أخذ منهم فى قوله :﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانًا** ﴾ [البقرة : ٨٣] ».

(٣) حديث أسامة بن زيد عند مسلم فى الإيمان (١٥٨/٩٦) وأبى داود فى الجهاد (٢٦٤٣) وحديث عمران بن حصين عند ابن ماجة فى الفتن (٣٩٣٠) .

(٤) جزء من حديث أبى سعيد الخدرى ، أخرجه مسلم فى الزكاة (١٤٤/١٠٦٤) .

﴿ خذوا ﴾ أى وقلنا لهم : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ والقوة: الجد والاجتهاد ، والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظًا عندهم ليعملوا به .

قوله : ﴿ ثم توليتم ﴾ أصل التولى : الإدبار عن الشيء والإعراض بالجسم ، ثم استعمل فى الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعًا ومجازا ، والمراد هنا : إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم . وقوله : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أى من بعد البرهان لهم ، والترهيب بأشد ما يكون ، وأعظم ما تجوزه العقول ، وتقدره الأفهام ، وهو رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم . وقوله : ﴿ فلولا فضل الله عليكم ﴾ بأن تدارككم بلطفه ورحمته ، حتى أظهرتم التوبة لخسرتم . والفضل : الزيادة . قال ابن فارس فى المجمل : الفضل : الزيادة والخير ، والإفضال : الإحسان .انتهى . والخسران : النقصان، وقد تقدم تفسيره .

والسبت فى أصل اللغة : القطع ؛ لأن الأشياء تمت فيه وانقطع العمل . وقيل : هو مأخوذ من السبوت ، وهو الراحة والدعة ، وقال فى الكشاف :« السبت : مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت يوم السبت » .انتهى (١) . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين : ففرقة اعتدت فى السبت ، أى جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه، فصادوا السمك الذى نهاهم الله عن صيده فيه ، والفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين ، ففرقة جاهرت بالنهى واعتزلت ، وفرقة لم توافق المعتدين ، ولا صادوا معهم ، لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهى ، ولا اعتزلوا عنهم، فمسخهم الله جميعًا ، ولم تنج إلا الفرقة الأولى فقط ، وهذه من جملة المحن التى امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا فى العجرفة وعاندوا أنبياءهم ، وما زالوا فى كل موطن يظهرون من حماقاتهم ، وسخف عقولهم ، وتعنتهم نوعًا من أنواع التعسف ، وشعبة من شعب التكلف ؛ فإن الحيتان كانت فى يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله : ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم ﴾ [الأعراف : ١٦٣] فاحتالوا لصيدها ، وحفروا الحفائر وشقوا الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت، فيصيدونها يوم الأحد ، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة . والخاسئ : المبعد ، يقال : خسأته فخسأ وخسئ وانخسأ : أبعدته فبعد ، ومنه قوله تعالى :﴿ ينقلب إليك البصر خاسئًا ﴾ [الملك : ٤] أى مبعدًا . وقوله : ﴿ اخسؤوا فيها﴾ [المؤمنون : ١٠٨] أى تباعدوا تباعد سخط ، ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر . والمراد هنا : كونوا بين المصير إلى أشكال القردة ، مع كونهم مطرودين صاغرين ، فقردة خبر الكون ، وخاسئين خبر آخر، وقيل : إنه صفة لقردة ، والأول أظهر .

واختلف فى مرجع الضمير فى قوله : ﴿ فجعلناها ﴾ وفى قوله : ﴿ لما بين يديها وما خلفها﴾ فقيل : العقوبة . وقيل: الأمة . وقيل : القرية . وقيل : القردة . وقيل : الحيتان ، والأول أظهر . والنكال : الزجر والعقاب ، والنكل: القيد؛ لأنه يمنع صاحبه . ويقال للجام

(١) الكشاف ١/ ٧٣ .ط .دار المصحف .القاهرة .

الدابة :نكل ؛ لأنه يمنعها . والموعظة : مأخوذة من الاتعاظ والانزجار، والوعظ : التخويف. وقال الخليل : الوعظ التذكير بالخير .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الطور الجبل الذى أنزلت عليه التوراة ، وكان بنو إسرائيل أسفل منه . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ قال : الطور ما أنبت من الجبال ، وما لم ينبت فليس بطور . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله :﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ قال : أى بجدّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **واذكروا ما فيه** ﴾ قال: اقرؤوا ما فى التوراة واعملوا به. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لعلكم تتقون**﴾ قال: لعلكم تنزعون عما أنتم عليه.

وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ **ولقد علمتم** ﴾ أى عرفتم ﴿ **واعتدوا** ﴾ يقول : اجترؤوا فى السبت بصيد السمك فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ، ولم يعش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . وأخرج ابن المنذر عنه قال : القردة والخنازير من نسل الذين مسخوا . وأخرج ابن المنذرعن الحسن قال : انقطع ذلك النسل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كقوله: ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ [الجمعة: ٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية ، قال : أحلت لهم الحيتان ، وحرمت عليهم يوم السبت ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، فكان فيهم ثلاثة أصناف ، وذكر نحو ما قدمناه عن المفسرين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : صار شباب القوم قردة ، والمشيخة صاروا خنازير . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خاسئين** ﴾ قال : ذليلين . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**خاسئين** ﴾ قال : صاغرين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فجعلناها نكالاً لما بين يديها** ﴾ من القرى ﴿ **وما خلفها**﴾ من القرى ﴿ **وموعظة للمتقين** ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **فجعلناها** ﴾ يعنى :الحيتان ﴿ **نكالاً لما بين يديها وما خلفها** ﴾ من الذنوب التى عملوا قبل وبعد . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **فجعلناها**﴾ قال :جعلنا تلك العقوبة وهى المسخة ﴿ **نكالاً** ﴾ عقوبة ﴿ **لما بين يديها** ﴾ يقول ليحذر من بعدهم عقوبتى ﴿ **وما خلفها** ﴾ يقول : للذين كانوا معهم ﴿ **وموعظة** ﴾ قال : تذكرة وعبرة للمتقين .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ

إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

قيل : إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم فى التلاوة ، ومؤخر فى المعنى ، على قوله تعالى : ﴿ **وإذ قتلتم نفسا**﴾: ويجوز أن يكون قوله : ﴿ **قتلتم** ﴾ مقدمًا فى النزول ، ويكون الأمر بالذبح مؤخرًا ، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ، فكأن الله أمر بذبح البقرة حتى ذبحوها ، ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأمروا أن يضربوه ببعضها ، هذا على فرض أن الواو تقتضى الترتيب ؛ وقد تقرر فى علم العربية أنها لمجرد الجمع ، من دون ترتيب ولامعية ، وسيأتى فى قصة القتل تمام الكلام ، والبقرة اسم للأنثى ، ويقال للذكر ثور . وقيل: إنها تطلق عليهما وأصله من البقر ، وهو الشق ؛ لأنها تشق الأرض بالحرث ، قال الأزهرى : البقر اسم جنس ، وجمعه باقر ، وقد قرأ عكرمة ، ويحيى بن يعمر :« إن الباقر تشابه علينا » وقوله : ﴿ **هزوا** ﴾ الهزو هنا : اللعب والسخرية . وقد تقدم تفسيره . وإنما يفعل ذلك أهل الجهل ؛ لأنه نوع من العبث الذى لا يفعله العقلاء ؛ ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله سبحانه من الجهل .

وقوله : ﴿ **قالوا ادع لنا ربك** ﴾ هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة ، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك فى غالب ما أمرهم الله به ، ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة ، لأجزأهم ذبح بقرة من عُرْض البقر ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم ، كما سيأتى بيانه . والفارض : المسنة، ومعناه فى اللغة : الواسع . قال فى الكشاف : وكأنها سميت فارضا ؛ لأنها فرضت سنها ، أى قطعتها وبلغت آخرها . انتهى . ويقال للشىء القديم : فارض ، ومنه قول الراجز:

يـَارُبَّ ذِى ضغن عَلَـىَّ فَـارِضِ ... لَـهُ قُرُوء كَقـُرُوء الحـَائـِض [1]

أى قديم . وقيل : الفارض : التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها ، والبكر : الصغيرة التى لم تحمل ، وتطلق فى إناث البهائم ، وبنى آدم على ما لم يفتحله الفحل ، وتطلق أيضًا على الأول من الأولاد ، ومنه قول الراجز :

يَا بِكْر بِكْرين وَيَا صُلْبَ الكَبِد ... أصْبَحْت مِنى كَذراعٍ مِنْ عَضُدْ

(١) مجالس ثعلب ص٣٦٤ والمعانى الكبير ص٨٥٠ ، ١١٤٣ والحيوان ٦/٦٦، ٦٧ والأضداد : ٢٢ وكتاب القرطين ١/ ٤٤ ، ٧٧ واللسان فى ٧/ ٢٠٢ . وقد جاء البيت محرفا فى المطبوعة ، حيث قال : « قرو كقرو ». والصواب ما أثبتناه .

والعَوَان : المتوسطة بين سنى الفارض والبكر ، وهى التى قد ولدت بطنًا أو بطنين . ويقال : هى التى قد ولدت مرة بعد مرة ، والإشارة بقوله : ﴿ بين ذلك ﴾ إلى الفارض والبكر ، وهما وإن كانتا مؤنثتين فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور ، كأنه قال: بين ذلك المذكور . وجاز دخول بين المقتضية لشيئين ؛ لأن المذكور متعدد . وقوله : ﴿فافعلوا﴾ تجديد للأمر وتأكيد له ، وزجر لهم عن التعنت ، فلم ينفعهم ذلك ، ولا نجع فيهم ، بل رجعوا إلى طبيعتهم ، وعادوا إلى مكرهم ، واستمروا على عادتهم المألوفة فقالوا: ﴿ ادع لنا ربك﴾ .

واللون : واحد الألوان ، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء . قال بعضهم: حتى قرنها وظلفها . وقال الحسن وسعيد بن جبير : إنها كانت صفراء القرن والظلف فقط ، وهو خلاف الظاهر . والمراد بالصفرة هنا : الصفرة المعروفة . وروى عن الحسن أن صفراء معناه : سوداء ، وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها ، وليت شعرى كيف يصدق على اللون الأسود الذى هو أقبح الألوان أنه يسر الناظرين ، وكيف يصح وصفه بالفقوع، الذى يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجرى [(١)] على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون فى وصف الأسود : حالك وحلكوك ودجوجى وغربيب . قال الكسائى : يقال: فقع لونها يفقع فقوعًا : إذا خلصت صفرته . وقال فى الكشاف :« الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه » [(٢)] . ومعنى ﴿ تسر الناظرين ﴾ : تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها ؛ إعجابًا بها ، واستحسانًا للونها . قال وهب : كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها .

ثم لم ينزعوا عن غوايتهم ، ولا ارعووا عن سفههم وجهلهم ، بل عادوا إلى تعنتهم فقالوا [(٣)] : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا ﴾ أى إن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة ، ووعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى ما دلهم عليه ، والامتثال لما أمروا به .

والذلول : التى لم يذللها العمل ، أى هى غير مذللة بالعمل ، ولا ريضة به . وقوله : ﴿ تثير ﴾ فى موضع رفع على الصفة لبقرة ، أى هى بقرة لا ذلول مثيرة ، وكذلك قوله : ﴿ولا تسقى الحرث ﴾ فى محل رفع ؛ لأنه وصف لها ، أى ليست من النواضح التى يُسْنَى [(٤)] عليها لسقى الزروع ، وحرف النفى الآخر توكيد للأول ، أى هى بقرة غير مذللة بالحرث ولا بالنضح ، ولهذا قال الحسن : كانت البقرة وحشية. وقال قوم : إن قوله :﴿ تثير ﴾ فعل مستأنف ، والمعنى : إيجاب الحرث لها والنضح بها . والأول أرجح ؛ لأنها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ريضة ، وقد نفى الله ذلك عنها .

---

(١) فى المطبوعة : « لا يجزى » والصحيح ما أثبتناه ، كما فى المخطوطة .
(٢) الكشاف ١/ ١٥٠ .
(٣) فى المطبوعة : « فقال » والأصح : « فقالوا » كما فى المخطوطة .
(٤) الناقة السانية : هى الناضحة التى يستقى عليها .

وقوله : ﴿ مُسَلَّمة ﴾ مرتفع على أنه من أوصاف البقرة ، ويجوز أن يكون مرتفعًا على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هى مسلمة . والجملة فى محل رفع على أنها صفة ، والمسلَّمة: هى التى لا عيب فيها . وقيل : مسلمة من العمل، وهو ضعيف ؛ لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها ، والتأسيس خير من التأكيد ، والإفادة أولى من الإعادة . والشية أصلها : وِشْيَة حذفت الواو ، كما حذفت من يشى ، وأصله يوشى ، ونظيره الزنة والعدة والصلة ، وهى مأخوذة من وشى الثوب : إذا نسج على لونين مختلفين ، وثور موشى فى وجهه وقوائمه سواد . والمراد: أن هذه البقرة خالصة الصفرة ، ليس فى جسمها لمعة من لون آخر . فلما سمعوا هذه الأوصاف التى لا يبقى بعدها ريب ، ولا يخالج سامعها شك ، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه ، أقصروا من غوايتهم ، وانتبهوا من رقدتهم ، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾ أى أوضحت لنا الوصف ، وبينت لنا الحقيقة التى يجب الوقوف عندها ، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ﴿ **فذبحوها** ﴾ وامتثلوا الأمر الذى كان يسرًا فعسروه ، وكان واسعًا فضيقوه ﴿ **وما كادوا يفعلون**﴾ ما أمروا به ؛ لما وقع منهم من التثبط، والتعنت، وعدم المبادرة . فكان ذلك مظنة للاستبعاد ، ومحلا للمجىء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم . وقيل: إنهم ما كادوا يفعلون ؛ لعدم وجِدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف . وقيل : لارتفاع ثمنها . وقيل :لخوف انكشاف أمر المقتول .

والأول : أرجح . وقد استدل جماعة من المفسرين والأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل. وليس ذلك عندى بصحيح لوجهين : الأول : أن هذه الأوصاف المزيدة بسبب تكرار السؤال هى من باب التقييد للمأمور به ، لا من باب النسخ ، وبين البابين بَوْن بعيد كما هو مقرر فى علم الأصول .

الثانى : أنا لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه ، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأول أن يعمدوا إلى بقرة من عُرْض البقر فيذبحونها ، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفراء ، ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم وبين موسى عليه السلام واقعة فى لحظة واحدة ، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤون عليها ، ويديرون الرأى بينهم فى أمرها ، ثم يوردونها ، وأقل الأحوال الاحتمال القادح فى الاستدلال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عبِيدة السلْمانى ؛ قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيمًا لا يولد له ، وقد كان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض ، فقال ذو الرأى منهم : علام يقتل بعضكم بعضًا ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى ؛ فذكروا ذلك له . فقال : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ الآية . فقال : لـو لم يعترضوا لأجـزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا

فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها عن ملء جلدها ذهبًا فأخذوها بملء جلدها ذهبا، فذبحوها ، فضربوه ببعضها ، فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا لابن أخيه ثم مال ميتًا ، فلم يعط من ماله شيئًا ، ولم يورَّث قاتل بعده (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب « من عاش بعد الموت » عن ابن عباس ؛ أن القتيل وجد بين قريتين ؛ وأن البقرة كانت لرجل كان يبر أباه فاشتروها بوزنها ذهبًا (٢) . وأخرج ابن جرير عنه ، نحوا من ذلك ولم يذكر ما تقدم فى البقرة . وقد روى فى هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة .

وأخرج البزار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ؛ قال : « إن بنى إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأهم ، أو لأجزأت عنهم»(٣) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « لولا أن بنى إسرائيل قالوا : ﴿**وإنا إن شاء الله لمهتدون**﴾ ما أعطوا أبدًا ، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر ، فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم » (٤) . وأخرج نحوه الفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر عن عكرمة ؛ يبلغ به النبى ﷺ . وأخرجه ابن جرير ، عن ابن جريج يرفعه (٥) . وأخرجه ابن جرير ، عن قتادة يرفعه أيضًا(٦) . وهذه الثلاثة مرسلة . وأخرج نحوه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (٧) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس ؛ قال :

الفارض : الهرمة ، والبكر : الصغيرة ، والعوان : النصف. وأخرج نحوه عن مجاهد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عوان بين ذلك**﴾ قال : بين الصغيرة والكبيرة ، وهى أقوى ما يكون وأحسنه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **صفراء فاقع لونها** ﴾ قال : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿**صفراء** ﴾ قال : صفراء الظلف ﴿ **فاقع لونها**﴾ قال : صافى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : ﴿ **فاقع لونها** ﴾ أى صاف ﴿ **تسرّ الناظرين** ﴾ أى تعجب . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله:﴿**صفراء فاقع لونها** ﴾ قال : سوداء شديدة السواد . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله:﴿ **لا ذلول** ﴾ أى لم يذلها العمل ﴿ **تثير الأرض** ﴾ يعنى: ليست بذلول فتثير الأرض ﴿ **ولا تسقى الحرث** ﴾ يقول : ولا تعمل فى الحرث .﴿ **مسلمة** ﴾ قال : من العيوب . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير

---

(١) ابن جرير ١/ ٢٦٧ والبيهقى فى السنن ٦/ ٢٢٠ وهذا حديث مرسل .

(٢) ابن أبى الدنيا فى كتاب « من عاش بعد الموت » ص ٤٨ .

(٣) البزار (٢١٨٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣١٧: «فيه عباد بن منصور ، وهو ضعيف ، وبقية رجاله ثقات» .

(٤) ذكر ابن كثير ١/ ١٩٤ رواية ابن مردويه ، وقال :«وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة » .

(٥ ـ ٧) ابن جرير ١/ ٢٧٥، ٢٧٦ .

عن مجاهد ؛ وقال : ﴿ **لاشية فيها** ﴾ لا بياض فيها ولا سواد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **مسلمة** ﴾ لا عوار فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾ قالوا : الآن بينت لنا ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب في قوله :﴿ **وماكادوا يفعلون** ﴾ لغلاء ثمنها .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾.

وقد تقدم ما ذكرناه في قصة ذبح البقرة ، فيكون تقدير الكلام : ﴿ **وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون** ﴾ فقال موسى لقومه : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ إلى آخر القصة ، وبعدها : ﴿ **فقلنا اضربوه ببعـضها** ﴾ الآية . وقال الرازي في تفسيره: اعلم أن وقوع القتل لابد أن يكون متقدمًا لأمره تعالى بالذبح ، فأما الإخبار عن وقوع ذلك القتل ، وعن أنه لابد أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدمًا على الإخبار عن قصة البقرة ، فقول من يقول : هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى ، خطأ ؛ لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود ، فأما التقدم في الذكر فغير واجب ؛ لأنه تارة يقدم ذكر السبب على ذكر الحكم ، وأخرى على العكس من ذلك ، فكأنهم لما وقعت تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة فلما ذبحوها قال : وإذ قتلتم نفسًا من قبل [(١)] ونسب القتل إليهم بكون القاتل منهم . وأصل ادَّارأتم : تدارأتم ، ثم أدغمت التاء في الدال ، ولما كان الابتداء بالمدغم الساكن لا يجوز زادوا ألف الوصل ، ومعنى ادارأتم : اختلفتم وتنازعتم ؛ لأن المتنازعين يدرأ بعضهم بعضًا، أي يدفعه [(٢)] ، ومعنى ﴿ **مخرج** ﴾ مظهر ، أي ما كتمتم بينكم من أمر القتل فالله مظهره لعباده ، ومبينه لهم ، وهذه الجملة معترضة بين أجزاء الكلام ، أي فادّارأتم فيها فقلنا . واختلف في تعيين البعض الذي أمروا أن يضربوا القتيل به ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول : أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها ، فأي بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم ، إذ لم يرد به برهان .

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٣/ ١٣٢ .

(٢) وقيل : الدرء : العوج ، ومنه قول أبي النجم العجلي :

خشية ضغام إذا هَمَّ جَسَرَ ... يأكل ذا الدَّرْء ويُقْصى مَنْ حَقَر

يعني ذا العوج والعسر ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

أدركتها قُدَّام كلِّ مِدْره ... بالدفع عني دَرْءَ كل عُنْجُهِ

راجع ديوانه ص ١٦٦ من قصيدة يصف بها نفسه .

قوله : ﴿ **كذلك يحيي الله الموتى** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ فأحياه الله ﴿**كذلك يحيي الله الموتى** ﴾ أى إحياء كمثل هذا الإحياء ﴿ **ويريكم آياته**﴾ أى علاماته ، ودلائله الدالة على كمال قدرته ، وهذا يحتمل أن يكون خطابًا لمن حضر القصة ، ويحتمل أن يكون خطابًا للموجودين عند نزول القرآن . والقسوة: الصلابة واليبس ، وهى عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله ، مع وجود ما يقتضى خلاف هذه القسوة من إحياء القتيل ، وتكلمه ، وتعيينه لقاتله . والإشارة بقوله : ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة لِلين القلوب ورقتها .

قيل : « أو » فى قوله :﴿ **أوأشد قسوة** ﴾ بمعنى الواو كما فى قوله تعالى : ﴿ **آثما أو كفورا** ﴾ [الإنسان : ٢٤] وقيل : هى بمعنى بل ، وعلى أن « أو » على أصلها أو بمعنى الواو، فالعطف على قوله : ﴿ **كالحجارة** ﴾ أى هذه القلوب هى كالحجارة أو هى أشد قسوة منها، فشبهوها بأى الأمرين شئتم ، فإنكم مصيبون فى هذا التشبيه ، وقد أجاب الرازى فى تفسيره عن وقوع « أو» هاهنا مع كونها للترديد ، أى لا يليق لعلام الغيوب بثمانية أوجه ، وإنما توصل إلى أفعل التفضيل بأشد مع كونه يصح أن يقال : وأقسى من الحجارة ، لكونه أبْين وأدل على فرط القسوة ، كما قاله فى الكشاف [(١)]. وقرأ الأعمش :« أو أشد » بنصب الدال ، وكأنه عطفه على الحجارة ، فيكون أشد مجرورًا بالفتحة . وقوله: ﴿ **وإن من الحجارة** ﴾ إلى آخره ، قال فى الكشاف : إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة فى شدة القسوة وتقرير لقوله : ﴿ **أو أشد قسوة** ﴾ انتهى[(٢)] . وفيه : أن مجيء البيان بالواو غير مألوف ولا معروف، والأولى جعل ما بعد الواو تذييلاً أو حالاً . التفجر : التفتح ، وقد سبق تفسيره . وأصل يشقق : يتشقق ، أدغمت التاء فى الشين ، وقد قرأ الأعمش : «يتشقق » على الأصل ، وقرأ ابن مصرف « ينشق » بالنون . والشق : واحد الشقوق ، وهو يكون بالطول أو بالعرض، بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق . والمراد : أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق ، ومن الحجارة ما يهبط ، أى ينحط من المكان الذى هو فيه إلى أسفل منه ، من الخشية لله التى تداخله وتحل به. وقيل : إن الهبوط مجاز عن

---

(١) الكشاف ١/ ١٥٥ .

(٢) قال الطبرى ١/ ٢٨٧ : « وقد قال فى ذلك جماعة من أهل العربية أقوالاً : فقال بعضهم : إنما أراد الله جل ثناؤه بقوله :﴿ **فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ وما أشبه ذلك من الأخبار التى تأتى بـ « أو » كقوله تعالى : ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ [الصافات : ١٤٧] وكقوله جل ذكره : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ [سبأ : ٢٤] الإبهام على من خاطبه ، فهو عالم أى ذلك كان . قالوا : ونظير ذلك قول القائل: أكلت بسرة أو رطبة . وهو عالم أى ذلك أكل ، ولكنه أبهم على المخاطب ، كما قال أبو الأسود الدؤلى :

أحب محمدا حبا شديدا ... وعباسًا وحمــزة والوَصــيا
فإن يك حبهم رشدًا أصبه ... ولست بمخطئ إن كــان غيا

قالوا : « ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكا فى أن حب من سمى رشد ، ولكنه أبهم على من خاطبه

الخشوع منها ، والتواضع الكائن فيها ، انقيادًا لله عز وجل ، فهو مثل قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ﴾ [الحشر : ٢١] . وقد حكى ابن جرير عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ، كما استعيرت الإرادة للجدار وكما قال الشاعر:

لَمَّا أتَى خَبَرُ الزُّبير تواضَعَتْ سُورُ المَدينَة والجِبَالُ الخُشَّعُ (١)

وذكر الجاحظ أن الضمير فى قوله : ﴿ **وإن منها** ﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة وهو فاسد ، فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت فى القسوة ، وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق ، والتأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة ، التى هى أشد الأجسام صلابة ، وأعظمها صلادة ، فإنها ترجع إلى نوع من اللين ، وهى تفجرها بالماء ، وتشققها عنه ، وقبولها لما توجبه الخشية لله من الخشوع والانقياد ، بخلاف تلك القلوب ، وفى قوله: ﴿**وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى ، فإن الله عز وجل إذا كان عالمًا بما يعملونه مطلعًا عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها**﴾ قال : اختلفتم فيها : ﴿ **والله مخرج ما كنتم تكتمون** ﴾ قال : ما تغيبون . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن المسيب بن رافع قال : ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **والله مخرج ما كنتم تكتمون** ﴾ . وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : « لو أن رجلاً عمل عملاً فى صخرة صماء لا باب لها ولا كوّة خرج عمله إلى الناس كائنا ما كان»(٢) . وأخرج البيهقى من حديث عثمان قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله منها رداءً يعرف به » (٣) ورواه البيهقى أيضًا بنحوه من قول عثمان قال : والموقوف أصح (٤) . وأخرج أبو الشيخ والبيهقى عن أنس مرفوعًا ، حديثًا طويلاً فى هذا المعنى ومعناه: أن الله يلبس كل عامل عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون ، ولو عمله فى جوف بيت إلى سبعين بيتًا على كل بيت باب من حديد ، وفى إسناده ضعف(٥) . وأخرج ابن عدى من حديث أنس أيضًا مرفوعًا: « إن الله

---

(١) الشاعر هو جرير ، وهذا البيت يعير جرير به الفرزدق بالغدر ويهجوه . وقد استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل لما أضاف « سور » إلى مؤنث وهو « المدينة » ، وهو بعض منها . راجع : ديوان جرير ص٣٤٥ ، والنقائض ٩٦٩ . وقد جاء منسوبا فى تفسير الطبرى ١/ ٢٨٩ ، ٧/ ١٥٧ وسيبويه ١/ ٢٥ والأضداد لابن الأنبارى ص ٢٥٨ والخزانة ٢/ ١٦٦ .

(٢) أحمد ٣/ ٢٨ وأبو يعلى (١٣٧٨) وصححه الحاكم ٤/ ٣١٤ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٢٨: « رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن » والبيهقى فى الشعب (٦٩٤٠) .

(٣) البيهقى فى الشعب (٦٩٤٢) .

(٤) البيهقى فى الشعب (٦٩٤١) .

(٥) البيهقى فى الشعب (٦٩٤٣) بإسناد ضعيف.

مُرَدِّ كل امرئ رداء عمله » [١] . ولجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ قال : ضرب بالعظم الذى يلى الغضروف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنهم ضربوه بفخذها . وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : ضرب بالبضعة التى بين الكتفين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ فى العظمة عن وهب بن منبه قصة طويلة فى ذكر البقرة وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بذكرها ، وقد استوفاها فى الدر المنثور .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ قال : من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى ومن بعد ما أراهم من أمر القتيل ﴿ **فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ ثم عذر الله الحجارة ولم يعذر شقى بنى آدم ، فقال : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : أى إن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : إن الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فئام من الناس ما استطاعوه ، وإنه ليهبط من خشية الله .

﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **أفتطمعون** ﴾ هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود . والخطاب لأصحاب النبى ﷺ ، أو له ولهم . و ﴿ **يؤمنوا لكم** ﴾ أى لأجلكم ، أو على تضمين آمن معنى استجاب ، أى أتطمعون أن يستجيبوا لكم . والفريق : اسم جمع لا واحد له من لفظه . و ﴿ **كلام الله** ﴾ أى التوراة . وقيل : إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه ، وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى ، وقرأ الأعمش : ﴿**كلم الله** ﴾ . والمراد من التحريف : أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم ، كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ ، وإسقاط الحدود عن أشرافهم ، أوسمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه ونقصوا ، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع فى إيمانهم وحالهم هذه الحال ، أى ولهم سلف حرفوا كلام الله، وغيروا شرائعه ، وهم مقتدون بهم ، متبعون سبيلهم، ومعنى قوله :﴿ **من بعد ما عقلوه**﴾ أى

---

(١) ابن عدى فى الكامل ٣/ ٢١٦ وفيه مؤمل وأبو يحيى الوقار، وهما ضعيفان .

من بعد ما فهموه بعقولهم ، مع كونهم يعلمون أن ذلك الذى فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هى ، فهم وقعوا فى المعصية عالمين بها ، وذلك أشد لعقوبتهم ، وأبين لضلالهم .

﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا** ﴾ يعنى أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا ﴿ **قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض** ﴾ أى إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم : ﴿**أتحدثونهم بما فتح الله عليكم** ﴾ أى حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناسًا من اليهود أسلموا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آباؤهم . وقيل : إن المراد ما فتح الله عليهم فى التوراة من صفة محمد . وقد تقدم معنى خلا . والفتح عند العرب : القضاء والحكم ، والفتاح : القاضى بلغة اليمن . والفتح : النصر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يستفتحون على الذين كفروا ﴾ [البقرة : ٨٩] وقوله : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ [الأنفال : ١٩] ومن الأول : ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ [سبأ : ٢٦] ﴿ وأنت خير الفاتحين﴾ (١) [الأعراف : ٨٩] أى الحاكمين ، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين . والمحاجة : إبراز الحجة ، أى لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب فيكون ذلك حجة لهم عليكم ، فيقولون : نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه . والحجة : الكلام المستقيم ، وحاججت فلانًا فحججته أى غلبته بالحجة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ ما فيه من الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم ، ثم وبخهم الله سبحانه ﴿ **أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ من جميع أنواع الإسرار وأنواع الإعلان . ومن ذلك إسرارهم الكفر ، وإعلانهم الإيمان .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ثم قال الله لنبيّه ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله** ﴾ وليس قوله : يسمعون التوراة كلهم قدسمعها ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ الآية ، قال : هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما سمعوه ووعوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ الآية . قال : الذين يحرفونه والذين يكتبونه هم العلماء منهم ، والذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود. وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿**يسمعون كلام الله** ﴾ قال : هى التوراة حرفوها . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا**﴾ أى بصاحبكم رسول الله ﷺ ولكنه إليكم خاصة، ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض** ﴾ قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا فقد كنتم تستفتحون به عليهم ، وكان

---

(١) وقد جاءت هذه الآية والتى قبلها فى المطبوعة محرفة كأنهما آية واحدة بهذا اللفظ : ثم يفتح بيننا بالحق وهو خير الفاتحين . وهو تحريف صوابه ما أثبتناه .

منهم ﴿ **ليحاجوكم به عند ربكم** ﴾ أى تقرون بأنه نبى ، وقد علمتم أنه أخذ عليكم الميثاق باتباعه وهو يخبرهم أنه النبى الذى كان ينتظر ، ونجد فى كتابنا : اجحدوه ولا تقروا به . وأخرج ابن جرير عنه أن هذه الآية فى المنافقين من اليهود وقوله : ﴿ **بما فتح الله عليكم** ﴾ يعنى :بما أكرمكم به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : نزلت هذه الآية فى ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به ، فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحب إلى الله منكم ، وأكرم على الله منكم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن زيد أن سبب نزول هذه الآية : أن النبى ﷺ قال : « لا يدخلنّ علينا قصبة المدينة (١) إلا مؤمن » فكان اليهود يظهرون الإيمان فيدخلون ويرجعون إلى قومهم بالأخبار ، وكان المؤمنون يقولون لهم : أليس قد قال الله فى التوراة كذا وكذا ؟ فيقولون: نعم ، فإذا رجعوا إلى قومهم ﴿ **قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم** ﴾ الآية(٢) . وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ أن سبب نزول الآية أن النبى ﷺ قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال : « يا إخوان القردة والخنازير ، ويا عبدة الطاغوت » فقالوا : من أخبر هذا الأمر محمدا ؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم ، ﴿**أتحدثونهم بما فتح الله عليكم** ﴾ أى بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم(٣) . وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة أن السبب فى نزول الآية : أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة ، فجاؤوا إلى النبى ﷺ يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة ، فدعا رسول الله ﷺ عالمهم وهو ابن صوريا فقال له : احكم. قال : فجبوه (٤) والتجبية : يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى ذنب الحمار(٥) . فقال رسول الله ﷺ :« أبحكم الله حكمت ؟ » قال : لا . ولكن نساءنا كن حسانا فأسرع فيهن رجالنا فغيرنا الحكم ، وفيه نزل : ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض** ﴾ الآية (٦) .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا** ﴾ قال : هم اليهود وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ؛ فصانعوهم بذلك ليرضوا عنهم ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض** ﴾ نهى بعضهم بعضًا أن يحدثوا بما فتح الله عليهم ، وبين لهم فى كتابه من أمر محمد ﷺ ، ونعته ونبوّته ، وقالوا : إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند ربكم، ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم . وأخرج ابن جرير عن أبى

---

(١) قصبة المدينة : وسطها وجوفها ، وقصبة البلاد : مدينتها ؛لأنها تكون فى وسطها . اللسان ١/ ٦٧٧ .

(٢) ابن جرير ١/ ٢٩٤ ، وابن زيد هو : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فالحديث معضل .

(٣) المرجع السابق١/ ٢٩٣ .

(٤) فى الأصل : « فجبوه » ، والصواب لغة « فجبهوه » .

(٥) والتجبيه أيضًا : أن ينكس رأسه ، فيحتمل أن يكون المحمول على الدابة إذا فعل به ذلك نكس رأسه فسمى ذلك الفعل تشبيها ويحتمل أن يكون من الجبه ، وهو الاستقبال بالمكروه . النهاية فى غريب الحديث ١/ ٢٣٣ .

(٦) ستأتى القصة بأسانيد صحيحة متصلة عند الآية ٤١ من سورة المائدة .

العالية في قوله: ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يعني من كفرهم بمحمد ﷺ ، ولكذبهم ، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنًا ، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) ﴾ .

قوله : ﴿ منهم ﴾ أى من اليهود . والأمى منسوب إلى الأمة الأمية ، التى هى على أصل ولادتها من أمهاتها ، لم تتعلم الكتابة ، ولا تحسن القراءة للمكتوب ، ومنه حديث : « إنا أمة أمية ، لا نكتب ولا نحسب» [(١)]، وقال أبوعبيدة : إنما قيل لهم: أميون ؛ لنزول الكتاب عليهم ، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب ، فكأنه قال : ومنهم أهل الكتاب. وقيل : هم نصارى العرب . وقيل : هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها . وقيل : هم المجوس. وقيل : غير ذلك. والراجح الأول . ومعنى : ﴿ **لا يعلمون الكتاب إلا أمانى** ﴾ أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأمانى : التى يتمنونها ، ويعللون بها أنفسهم . والأمانى جمع أمنية ، وهى ما يتمناه الإنسان لنفسه ، فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذى هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ، ولا يقرؤون المكتوب . والاستثناء منقطع[(٢)] ، أى لكن الأمانى ثابتة لهم من كونهم مغفورًا لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة ، أو بما لهم من السلف الصالح فى اعتقادهم . وقيل : الأمانى: الأكاذيب ، كما سيأتى عن ابن عباس . ومنه قول عثمان بن عفان : ما تمنيت منذ أسلمت ، أى ما كذبت ، حكاه عنه القرطبى فى تفسيره. وقيل: الأمانى : التلاوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾ [الحج: ٥٢] أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته ، أى لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر ، ومنه قول كعب بن مالك :

---

(١) الحديث عن ابن عمر : أخرجه أحمد ٢/ ٤٣ ، ٥٢ ، ١٢٢ ، ١٢٩ والبخارى فى الصيام (١٩١٣) ومسلم فى الصيام (١٠٨٠ / ١٥) وأبوداود فى الصيام (٢٣١٩) والنسائى فى الصيام ٤/ ١٣٩ .

(٢) قال الطبرى ١/ ٢٩٨ : « والأمانى من غير نوع الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ **وما لهم به من علم إلا اتباع الظن**﴾ [النساء : ١٥٧] والظن من العلم بمعزل ، وكما قال :﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى** ﴾ [الليل : ١٩ ، ٢٠] وكما قال الشاعر :

ليس بينى وبين قيس عتاب ... غير طعن الكُلَى وضرب الرقاب

تمَنَّى كتابَ اللَّهِ أوّلَ لَيْلَةٍ وآخِرَه لاقى حِمامَ المقادر

وقال آخر :

تمَنَّى كتابَ الله آخِرَ لَيْلَةٍ تَمنِّى داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ [١]

وقيل : الأماني : التقدير . قال الجوهري : يقال : منى له ، أي قدر ، ومنه قول الشاعر :

لا تأمَنَنَّ وإن أمسيتَ في حَرَمٍ حتى تُلاقِي ما يَمْنِي لك الماني [٢]

أي يقدر لك المقدر . قال في الكشاف :« والاشتقاق من مَنّى إذا قدّر ؛ لأن المتمني يقدر في نفسه ، ويجوّز ما يتمناه ، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا» [٣]. انتهى.

و « إن » في قوله : ﴿ **وإن هم إلا يظنون** ﴾ نافية ، أي ما هم . والظن :هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم . كذا في القاموس . أي ما هم إلا يترددون بغير جزم ولا يقين. وقيل : الظن هنا بمعنى : الكذب . وقيل : هو مجرد الحدس ، لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأماني ، ويعتمدون على الظن ، الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره ، ولا يظفرون بسواه .

والويل : الهلاك . وقال الفراء : الأصل في الويل : وي ، أي حزن ،كما تقول : وي لفلان ، أي حزن له ، فوصلته العرب باللام . قال الخليل : ولم نسمع على بنائه إلا ويح ، وويس ، وويه ، وويك ، وويب ، وكله متقارب في المعنى ، وقد فرق بينها قوم وهي مصادر لم ينطق العرب بأفعالها ، وجاز الابتداء به ، وإن كان نكرة ؛ لأن فيه معنى الدعاء . والكتابة معروفة، والمراد : أنهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ، ولا ينكرونه على فاعله . وقوله: ﴿**بأيديهم** ﴾ تأكيد ، لأن الكتابة لا تكون إلا باليد ، فهو مثل قوله :﴿ ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام : ٣٨] وقوله : ﴿ يقولون بأفواههم﴾ [آل عمران : ١٦٧] وقال ابن السراج : هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم . وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم. قوله: ﴿ **يكتبون الكتاب** ﴾ فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك . والاشتراء: الاستبدال ، وقد تقدم الكلام عليه ، ووصفه بالقلة لكونه فانيًا لا ثواب فيه ، أو لكونه حرامًا لا تحل به البركة ، فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف ولا بالكتابة لذلك المحرف ، حتى نادوا في المحافل بأنه من عند الله ، لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا العرض النزير [٤] ، والعوض الحقير.

---

(١) الشعر لحسان بن ثابت في مرثيته عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) نسب شارح القاموس هذا البيت لسويد بن عامر المصطلقي .

(٣) الكشاف ١/١٥٧ .

(٤) النزير : القليل . اللسان ٥/٢٠٣

وقوله : ﴿ مما يكسبون ﴾ قيل : من الرشا ونحوها . وقيل من المعاصى . وكرر الويل ؛ تغليظا عليهم ، وتعظيمًا لفعلهم ، وهتكًا لأستارهم .

﴿ وقالوا ﴾ أى اليهود ، ﴿ لن تمسنا النار ﴾ الآية . وقد اختلف فى سبب نزول الآية ، كما سيأتى بيانه ، والمراد بقوله : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهدا ﴾ الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة ، أى لم يتقدم لكم مع الله عهد[1] بهذا ، ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى ، حتى يتعين الوفاء بذلك ، وعدم إخلاف العهد ، أى إن اتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده ﴿ أم تقولون على الله مالا تعلمون﴾ . قال فى الكشاف : « و « أمْ » إما أن تكون معادلة بمعنى ، أى الأمرين كائن على سبيل التقرير ؛ لأن العلم واقع بكون أحدهما ، ويجوز أن تكون منقطعة ». انتهى[2] . وهذا توبيخ لهم شديد. قال الرازى فى تفسيره : العهد فى هذا الموضع يجرى مجرى الوعد وإنما سمى خبره سبحانه عهدًا ؛ لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة .

وقوله : ﴿ بلى ﴾ إثبات بعد النفى ، أى بلى تمسكم ، لا على الوجه الذى ذكرتم من كونه أيامًا معدودة ، والسيئة : المراد بها الجنس هنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] ﴿ من يعمل سوءًا يجز به ﴾ [النساء : ١٢٣] ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود فى النار ، بل لابد أن تكون سيئة محيطة به. قيل : هى الشرك وقيل : الكبيرة ، وتفسيرها بالشرك أولى ؛ لما ثبت فى السنة تواترًا من خروج عصاة الموحدين من النار ، ويؤيد ذلك كونها نازلة فى اليهود ، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وقد قرأ نافع : ﴿خطياته﴾ بالجمع ، وقرأ الباقون بالإفراد ، وقد تقدم تفسير الخلود .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب ﴾ قال : لايدرون ما فيه ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ قال: وهم يجحدون ، نبوتك بالظن. وأخرج ابن جرير عنه قال : الأميون : قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابًا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله . وقد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين ؛ لجحودهم كتب الله ورسله [3] . وأخرج ابن جرير عن النخعى قال : منهم من لا يحسن أن يكتب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا أمانى ﴾ قال : الأحاديث. وأخرج ابن جرير عنه أنها الكذب . وكذا

---

(١) فى المطبوعة : « عهدًا » ، والصواب :ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) الكشاف ١/١٥٨ .

(٣) قال ابن جرير عقب الرواية : « وهذا التأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمى عند العرب : الذى لا يكتب » قال ابن كثير بعد أن ساق إسناد ابن جرير ،كلامه : « فى صحة هذا عن ابن عباس بهذا الإسناد نظر ، والله أعلم » . ابن جرير ١/٢٩٦ وابن كثير ١/٢٠٤ .

روى مثله عبد بن حميد عن مجاهد ، وزاد ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ قال : إلايكذبون .

وأخرج النسائى وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب** ﴾ قال: نزلت فى أهل الكتاب(١). وأخرج أحمد والترمذى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه ، وصححه عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره » (٢) . وأخرج ابن جرير من حديث عثمان مرفوعًا قال : « الويل جبل فى النار » (٣) . وأخرج البزار وابن مردويه ،من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعًا : أنه حَجَرٌ فى النار (٤) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم**﴾ قال : هم أحبار اليهود ، وجدوا صفة النبى ﷺ مكتوبة فى التوراة أكحل ، أعْيد ، ربعة ، جعد الشعر ، حسن الوجه ، فلما وجدوه فى التوراة مَحَوْه حسدًا وبغيًا ، فأتاهم نفر من قريش ، فقالوا : تجدون فى التوراة نبيًا أميًا ؟ فقالوا : نعم، نجده طويلاً ، أزرق ، سبط الشعر . فأنكرت قريش ، وقالوا: ليس هذا منا . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **ثمنًا قليلاً** ﴾ قال: عرضًا من عرض الدنيا . ﴿ **فويل لهم**﴾ قال : فالعذاب عليهم من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿ **وويل لهم مما يكسبون** ﴾ يقول : مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم . وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثارًا عن جماعة منهم أنهم جوزوا ذلك ولم يكرهوه .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والواحدى عن ابن عباس ؛ أن اليهود كانوا يقولون : مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة من أيـام الدنيـا يومًا واحدًا فى النار ، وإنمـا هى سبعة أيام معدودة ، ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار** ﴾ الآية (٥).وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين ، فقالوا : لن تعذب أهل النار إلا قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة ألجموا فى النار فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر ، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعدودة ، فقال لهم خزنة النار : يا أعداء الله ، زعمتم أنكم لن تعذبوا فى النار إلا أياما معدودة فقد انقضى العدد وبقى الأمد ، فيأخذون فى الصعود يرهقون على وجوههم (٦) . وأخرج ابن جرير عنه أن اليهود قالوا : لن تمسنا النار

---

(١) النسائى فى التفسير (١١) .

(٢) أحمد ٣/ ٧٥ والترمذى ـ واستغربه ـ فى تفسير الأنبياء (٣١٦٤) وصححه ابن حبان (٧٤٢٤) ، والحاكم ٤/ ٥٩٦ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ١/ ٢٩٩ .

(٤) البزار (٩٠٤) وعزاه الهيثمى فى المجمع ٣/ ٨٩ لأبى يعلى . ولم أجده فيه فى مسند سعد ، وقال : « وفيه جماعة لم أجد من ذكرهم » . ولم يعزه الهيثمى إلى البزار .

(٥) السيرة النبوية لابن هشـام ٢/ ١٨٠ وابن جرير ١/ ٣٠٣ والـطبرانى (١١١٦٠) وسكت عـليه الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣١٧ والواحدى ص١٤.

(٦) ابن جرير ١/ ٣٠٢ .

إلا أربعين ليلة مدة عبادة العجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ؛ قال : اجتمعت يهود يومًا فخاصموا النبى ﷺ فقالوا : لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات ، أربعين يومًا ، ثم يخلفنا فيها ناس ، وأشاروا إلى النبى ﷺ وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ وردّ يديه على رأسه : « كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها ، لا نخلفكم فيها إن شاء الله أبدًا» ففيهم نزلت هذه الآية : ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار** ﴾ [(١)] . وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم مرفوعًا نحوه [(٢)] . وأخرج أحمد والبخارى والدارمى والنسائى من حديث أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ سأل اليهود فى خيبر : « مَن أهل النار ؟» فقالوا : نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها [(٣)] ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «اخسؤوا والله لا نخلفكم فيها أبدا»[(٤)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله: ﴿**قل أتخذتم عند الله عهدا**﴾ أى موثقًا من الله بذلك أنه كما تقولون . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه فسر العهد: هنا بأنهم قالوا لاإله إلا الله ، لم يشركوا به ولم يكفروا . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: ﴿ **أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ قال : قال القوم : الكذب والباطل .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **بلى من كسب سيئة** ﴾ قال : الشرك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة وقتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **وأحاطت به خطيئته** ﴾ قال : أحاط به شركه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله: ﴿ **بلى من كسب سيئة** ﴾ أى من عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط كفره بما لَه من حسنة ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى من آمن بما كفرتم به ، وعمل ما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأحاطت به خطيئته** ﴾ قال : هى الكبيرة الموجبة لأهلها النار . وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن أنه قال: كل ما وعد الله عليه النار فهو الخطيئة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الربيع بن خيثم ؛ قال : هو الذى يموت على خطيئته قبل أن يتوب . وأخرج مثله ابن جرير عن الأعمش .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ

---

(١) ابن جرير ١/ ٣٠٢ ، ٣٠٣ وهذا إسناد مرسل .

(٢) ابن جرير ١/ ٣٠٣ لكن عن زيد بن أسلم عن أبيه ، وما ها هنا اتبع المصنف فى عزوه السيوطى فى الدر المنثور ١/ ٨٤ .

(٣) فى بعض الطرق وهو أصح : « تخلفوننا » .

(٤) أحمد ٢/ ٤٥١ والبخارى فى الجزية (٣١٦٩) وفى الطب (٥٧٧٧) والدارمى فى المقدمة ١/ ٣٣، ٣٤ والنسائى فى التفسير (٣٧٥) .

وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

وقد تقدم تفسير الميثاق على بنى إسرائيل . وقال مكى : إن الميثاق الذى أخذه الله عليهم هنا هو ما أخذه الله عليهم فى حياتهم ، على ألسن أنبيائهم ، وهو قوله : ﴿ **لا تعبدون إلا الله**﴾ وعبادة الله إثبات توحيده ، وتصديق رسله ، والعمل بما أنزل فى كتبه . قال سيبويه : إن قوله : ﴿ **لا تعبدون إلا الله** ﴾ هو جواب قسم . والمعنى : استحلفناهم والله لا تعبدون إلا الله. وقيل : هو إخبار فى معنى الأمر . ويدل عليه قراءة أبىّ ، وابن مسعود: « لا تعبدوا » على النهى ، ويدل عليه أيضًا ما عطف عليه من قوله : ﴿ **وقولوا ــ وأقيموا ــ وآتوا** ﴾ وقال قطرب والمبرّد : إن قوله :﴿ **لا تعبدون** ﴾جملة حالية ، أى أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين . قال القرطبى: وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائى : «يعبدون » بالياء التحتية . وقال الفراء والزجاج وجماعة : إن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن تحسنوا بالوالدين ، وبأن لا تسفكوا الدماء . ثم حذف « أن » فارتفع الفعل لزوالها . قال المبرد : هذا خطأ ؛ لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرًا . وقال القرطبى : ليس بخطأ بل هما وجهان صحيحان ، وعليهما أنشد :

ألا أيُّهذا الزّاجِرى أحْضُرَ الْوَغَى ... وأنْ أشْهَدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدى (١)

بالنصب لقوله : أحضر ، وبالرفع ، والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف ، والتواضع لهما ، وامتثال أمرهما ، وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق . والقربى : مصدر كالرجعى والعقبى ، هم القرابة . والإحسان بهم : صلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة ، وبقدر ما تبلغ إليه القدرة . واليتامى : جمع يتيم ، واليتيم فى بنى آدم :من فقد أبوه . وفى سائر الحيوانات : من فقدت أمه . وأصله الانفراد . يقال : صبى يتيم ، أى منفرد من أبيه ، والمساكين جمع مسكين ، وهو من أسكنته الحاجة وذلّلته ، وهو أشد فقرًا من الفقير عند أكثر أهل اللغة ، وكثير من أهل الفقه . وروى عن الشافعى أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين . وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة فى مواطنها .

(١) البيت لطرفة بن العبد فى معلقته . راجع : ديوانه ص ٣١٧ أشعار الستة الجاهليين .

ومعنى قوله : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ أى قولوا لهم قولا حسنًا فهو صفة مصدر محذوف، وهو مصدر كبشرى . وقرأ حمزة والكسائى :« حَسَنا » بفتح الحاء والسين ، وكذلك قرأ زيد بن ثابت وابن مسعود . قال الأخفش : هما بمعنى واحد ، مثل البُخل ، والبَخل ، والرُّشد ، والرَّشد وحكى الأخفش أيضا «حسنى » بغير تنوين على فعلى . قال النحاس : وهذا لا يجوز فى العربية ، لا يقال من هذا شىء إلا بالألف واللام ، نحو الفضلى والكبرى ، والحسنى ، وهذا قول سيبويه. وقرأ عيسى بن عمر: « حُسُنًا » بضمتين . والظاهر أن هذا القول الذى أمرهم به لا يختص بنوع معين ، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعًا كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر ، وقد قيل : إن ذلك هو كلمة التوحيد .وقيل : الصدق . وقيل: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقيل غير ذلك .

وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ قد تقدم تفسيره ، وهو خطاب لبنى إسرائيل ، فالمراد : الصلاة التى كانوا يصلونها ، والزكاة التى كانوا يخرجونها . قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يُقبل ، ولا تنزل على ما لا يُقبَل . وقوله : ﴿ ثم توليتم ﴾ قيل : الخطاب للحاضرين منهم فى عصر النبى ﷺ ؛ لأنهم مثل سلفهم فى ذلك ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . وقوله : ﴿ إلا قليلا ﴾ منصوب على الاستثناء ، ومنهم عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقوله : ﴿ وأنتم معرضون ﴾ فى موضع النصب على الحال ، والإعراض والتولى بمعنى واحد . وقيل : التولى بالجسم والإعراض بالقلب .

وقوله : ﴿ لا تسفكون ﴾ الكلام فيه كالكلام فى لا تعبدون . وقد سبق [١] . وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف وشعيب بن أبى حمزة بضم الفاء ، وهى لغة . وقرأ أبو نهيك بضم الياء وتشديد الفاء ، وفتح السين ، والسفك : الصبّ ، وقد تقدم ، والمراد أنه لا يفعل ذلك بعضهم ببعض ، والدار : المنزل الذى فيه أبنية المقام ، بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حلّه قوم فهو دار لهم ، وإن لم يكن فيه أبنية . وقيل : سميت دارًا؛ لدورها على سكانها ، كما يسمى الحائط حائطًا؛ لإحاطته على ما يحويه . وقوله: ﴿ ثم أقررتم ﴾ من الإقرار، أى حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم، فى حال شهادتكم على أنفسكم بذلك ، قيل : الشهادة هنا بالقلوب. وقيل : هى بمعنى الحضور ، أى إنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك . وكان الله سبحانه قد أخذ فى التوراة على بنى إسرئيل ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا ينفيه ، ولا يسترقه .

وقوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ أى أنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذه الله عليكم فى التوراة فتقتلون أنفسكم إلخ الآية . وقيل :﴿ إن هؤلاء ﴾ منصوب بإضمار أعنى ، ويمكن أن يقال منصوب بالذم أو الاختصاص ، أى أذم أو أخص. وقال القتيبى : إن التقدير :

---

(١) انظر ما كتبه الطبرى عند تفسير قوله تعالى :﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ فهو فى غاية النفاسة .

يا هؤلاء . قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه لا يجوز . وقال الزجاج : هؤلاء بمعنى الذين ، أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل : هؤلاء مبتدأ ، وأنتم خبره مقدم ، وقرأ الزهرى : ﴿تقتّلون﴾ مشددًا . فمن جعل قوله: ﴿ أنتم هؤلاء ﴾ مبتدأ وخبرًا جعل قوله: ﴿ تقتلون ﴾ بيانًا ؛ لأن معنى قوله : ﴿ أنتم هؤلاء ﴾ أنهم على حالة كحالة أسلافهم من نقض الميثاق ، ومن جعل هؤلاء منادى أو منصوبًا بما ذكرنا جعل الخبر تقتلون وما بعده . وقوله : ﴿تظّاهرون﴾ بالتشديد ، وأصله تتظاهرون ، أدغمت التاء فى الظاء لقربها منها فى المخرج ، وهى قراءة أهل مكة . وقرأ أهل الكوفة :﴿ تَظَاهرون ﴾ مخففًا بحذف التاء الثانية لدلالة الأولى عليها . وأصل المظاهرة : المعاونة ، مشتقة من الظهر؛ لأن بعضهم يقوى بعضًا فيكون له كالظهر ، ومنه قول الشاعر :

تظاهرتُم من كل أوبٍ ووجهة ... على واحد لازلتُمْ قِرْنَ واحدِ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ [الفرقان : ٥٥] وقوله : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم: ٤] و﴿ أسارى ﴾ حال . قال أبو عبيد : وكان أبو عمرو يقول : ما صار فى أيديهم فهو أسارى ، وما جاء مستأسرًا فهم الأسرى . ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو ، وإنما هذا كما تقول سكارى وسكرى . وقد قرأ حمزة : «أسرى» . وقرأ الباقون : ﴿ أسارى ﴾ والأسرى جمع أسير ، كالقتلى جمع قتيل ، والجرحى جمع جريح . قال أبوحاتم: ولا يجوز أسارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سكارى . وقال ابن فارس : يقال فى جمع أسير: أسرى وأسارى . انتهى . فالعجب من أبى حاتم حيث ينكر ما ثبت فى التنزيل . وقرأ به الجمهور ، والأسير مشتق من السير ، وهو القيد الذى يشد به المحمل ، فسمى أسيرًا ؛ لأنه يشد وثاقه. والعرب تقول: قد أسَرَقْتبه [(١)] أى شده ، ثم سمى كل أخيذ أسيرًا وإن لم يؤخذ [(٢)] . وقوله : ﴿ تفادوهم ﴾ جواب الشرط ، وهى قراءة حمزة ونافع والكسائى . وقرأ الباقون : «تفدوهم » والفداء : هو ما يؤخذ [(٣)] من الأسير ليفك به أسره، يقال : فداه وفاداه : إذا أعطاه فداءه . قال الشاعر :

قفى فادى أسيرك إن قومى ... وقومك ما أرى لهم اجتماعًا

وقوله : ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ الضمير للشأن . وقيل : مبهم تفسره الجملة التى بعده ، وزعم الفراء أن هذا الضمير عماد[(٤)] ، واعترض عليه بأن العماد لا يكون فى أول

(١) القِتْب ، بكسر فسكون ، وبالتحريك أيضا : رحل صغير على قدر سنام البعير .

(٢) ومنه قول الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته ... كما قيد الأسرات الحمارا

(٣) فى المطبوعة : «ما يوجد » ، والصواب ما أثبتناه كما فى المخطوطة .

(٤) ضمير العماد ، ويسمى أيضًا ضمير الفصل هو الذى يفصل بين الخبر والتابع ؛ بحيث يكون ما بعده خبرًا لا تابعًا ، ويسمى عمادًا ؛لأنه يعتمد عليه معنى الكلام ، وسماه البعض دعامة ؛ لأنه يَدعَم به الكلام ، واختلف فى كونه حرفا أو اسما ، وفى محله من الإعراب ، ويكون بين المبتدأ والخبر . انظر فى ذلك : مغنى اللبيب لابن هشام ٢/ ٤٩٣ ــ ٤٩٨ .

الكلام . و﴿ **إخراجهم** ﴾ مرتفع بقوله: ﴿ **محرم** ﴾ سادّ مسدّ الخبر . وقيل : بل مرتفع بالابتداء ، ومحرم خبره . قال المفسرون : كان الله سبحانه قد أخذ على بنى إسرائيل أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك بقوله : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾. والخزى : الهوان . قال الجوهرى : والخزى بالكسر يخزى خزيًا : إذا ذل وهان ، وقد وقع هذا الجزاء الذى وعد الله به الملاعين اليهود موفرًا ، فصاروا فى خزى عظيم ، بما ألصق بهم من الذل والمهانة بالقتل ، والأسر وضرب الجزية والجلاء ، وإنما ردهم الله يوم القيامة إلى أشد العذاب ؛ لأنهم جاؤوا بذنب شديد ، ومعصية فظيعة . وقد قرأ الجمهور: «يردون» بالياء التحتية ، وقرأ الحسن بالفوقية على الخطاب . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ وكذلك تفسير ﴿ **أولئك الذين اشتروا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فلا يخفف** ﴾ إخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون فى عذاب موفر ، لازم لهم بالجزية والصغار ، والذلة والمهانة ، فلا يخفف عنهم ذلك أبدًا ما داموا ، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ، ولا يثبت لهم نصر فى أنفسهم على عدوهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل**﴾ قال : يؤنبهم أى ميثاقكم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وروى البيهقى فى الشعب عن على فى قوله : ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾ قال : يعنى الناس كلهم ، ومثله روى عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ثم توليتم** ﴾ قال : أى تركتم ذلك كله ، وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : معناه : أعرضتم عن طاعتى إلا قليلا منكم ، وهم الذين اخترتهم لطاعتى .

وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **لا تسفكون دماءكم** ﴾ لايقتل بعضكم بعضا ﴿ **ولا تخرجون أنفسكم من دياركم** ﴾ لا يخرج بعضكم بعضا من الديار﴿ **ثم أقررتم** ﴾ بهذا الميثاق ﴿ **وأنتم تشهدون** ﴾ وأنتم شهود . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم أقررتم** ﴾ أن هذا حق من ميثاقى عليكم ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم** ﴾ أى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم ﴿ **وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم**﴾ قال : تخرجونهم من ديارهم معهم ﴿ **تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان** ﴾ فكانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حرب ، خرجت معهم بنوقينقاع مع الخزرج ، والنضير وقريظة مع الأوس ، وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه ، حتى يسافكوا دماءهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم ، تصديقًا لما فى التوراة ﴿ **وإن يأتوكم أسارى تفادوهم** ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم فى دينكم ﴿ **وهو محرم عليكم** ﴾ فى كتابكم لإخراجهم ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ أتفادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفرًا بذلك ؟ وأخرج ابن جرير عن قتادة فى

قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ قال : استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ .

﴿ **الكتاب** ﴾ : التوراة ، والتقفية : الاتباع والإرداف ، مأخوذة من القفا وهو مؤخر العنق، تقول : استقْفيته إذا جئت من خلفه ، ومنه سميت قافية الشعر ؛ لأنها تتلو سائر الكلام . والمراد : أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له ، وهم أنبياء بنى إسرائيل المبعوثون من بعده ، و ﴿ **البينات** ﴾ الأدلة التى ذكرها الله فى «آل عمران » ، و«المائدة». والتأييد : التقوية (١) . وقرأ مجاهد وابن محيصن :« آيدناه » بالمد ، وهما لغتان . وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الروح المقدسة . والقدس : الطهارة ، والمقدّس : المطهر . وقيل: هو جبريل ، أيد الله به عيسى ، ومنه قول حسان :

وَجِبْرِيل أمِينُ الله فينا ... وَرَوحُ القُدْسِ لَيْس به خَفَاءُ

قال النحاس : وسمى جبريل روحًا ، وأضيف إلى القدس ؛ لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة . وقيل : القدس: هو الله عز وجل ، وروحه : جبريل . وقيل : المراد بروح القدس : الاسم الذى كان عيسى يحيى به الموتى. وقيل : المراد به الإنجيل . وقيل : المراد به الروح المنفوخ فيه ، أيده الله به لما فيه من القوة . وقوله : ﴿ **بما لا تهوى أنفسكم** ﴾ أى بما لا يوافقها ويلائمها ، وأصل الهوى : الميل إلى الشيء . قال الجوهرى : وسمى الهوى هوى ؛ لأنه يهوى بصاحبه إلى النار(٢). وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المُعَنْون بهمزة التوبيخ ، فقال: ﴿ **أفكلما جاءكم رسول** ﴾ منكم ﴿ بما لا ﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته ، احتقارًا للرسل ، واستبعادًا للرسالة . والفاء فى قوله : ﴿ **أفكلما** ﴾ للعطف على مقدر، أى آتيناكم يا بنى إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم ، أفكلما جاءكم رسول. وفريقًا منصوب بالفعل الذى بعده، والفاء للتفصيل ، ومن الفريق المكذبين عيسى ومحمد ، ومن الفريق المقتولين يحيى وزكريا .

---

(١) وقيل : التأييد : النصر ، وأيدك الله نصرك . ومنه قول عبد الله بن عبد الأعلى :

إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو جلد وبطش أيد
عزت ولم تكسر فإن هى بددت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

راجع : مروج الذهب للمسعودى ٣/ ١٠٤ ولباب الآداب ص ٣١وتاريخ الإسلام ٣/ ٢٠٨ وتاريخ ابن كثير ٩/ ٦٧ .

(٢) علق القرطبى ١/ ٤١٨ على ذلك بقوله : « ولذلك لا يستعمل ـ يعنى الهوى ـ فى الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه ، وهذه الآية من ذلك . وقد يستعمل فى الحق ، ومنه قول عمر فى أسارى بدر : فهَوِىَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلت . وقالت عائشة للنبى ﷺ فى صحيح الحديث : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . أخرجهما مسلم » .

والغُلف : جمع أغلف ، المراد به هنا : الذى عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه ، ومنه : غلفت السيف ، أى جعلت له غلافًا . قال فى الكشاف : هو مستعار من الأغلف الذى لم يختن ، كقوله : ﴿ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ﴾ [فصلت : ٥] وقيل : إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر ، أى قلوبنا أوعية للعلم ، فما بالها لا تفهم عنك ؟ وقد وعينا علما كثيرًا . فرد الله عليهم ما قالوه فقال : ﴿ **بل لعنهم الله بكفرهم** ﴾ وأصل اللعن فى كلام العرب : الطرد والإبعاد ، ومنه قول الشماخ :

ذَعَرْتُ بِه القَطا ونَفَيْتُ عنه مَقامَ الذِّئب كالرجل اللّعين (١)

أى كالرجل المطرود . والمعنى : أبعدهم الله من رحمته ، و ﴿ **قليلا** ﴾ نعت لمصدر محذوف ، أى إيمانًا قليلا ، ﴿ **ما يؤمنون** ﴾ و « ما » زائدة ، وصف إيمانهم بالقلة ؛ لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم ، وعجرفتهم، وشدة لجاجهم ، وبعدهم عن إجابة الرسل ما قصه ، ومن جملة ذلك : أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . وقال معمر : المعنى لا يؤمنون إلا قليلاً مما فى أيديهم ، ويكفرون بأكثره ، وعلى هذا يكون ﴿ **قليلاً** ﴾ منصوبًا بنزع الخافض . وقال الواقدى : معناه :لا يؤمنون قليلاً ولا كثيرا . قال الكسائى : تقول العرب : مررنا بأرض قلَّ ما تنبت الكراث والبصل ، أى لا تنبت شيئًا .

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ يعنى به التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة ، ﴿ **وقفّينا من بعده بالرسل** ﴾ يعنى رسولاً يدعى أشمويل ابن بابل ، ورسولا يدعى منشابيل ، ورسولا يدعى شعياء ، ورسولا يدعى حزقيل ، ورسولا يدعى أرمياء ، وهو الخَضر(٢) ، ورسولا يدعى داود وهو أبو سليمان ، ورسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم . فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله ، وانتخبهم من الأمة بعد موسى ، فأخذنا عليهم ميثاقًا غليظًا أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ وصفة أمته ، وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات** ﴾ قال : هى الآيات التى وضع من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ، وإبراء الأسقام ، والخبر بكثير من الغيوب ، وما ورد عليهم من التوراة والإنجيل الذى أحدث الله إليه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿**وأيدناه** ﴾ قال : قويناه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ؛ قال :روح من القدس الاسم الذى كان عيسى يحيى به الموتى . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : القدس : الله تعالى . وأخرج عن الربيع بن أنس مثله ، وأخرج عن ابن عباس قال القدس : الطهر . وأخرج عن السدى قال : القدس : البركة . وأخرج عن إسماعيل بن أبى خالد أن

(١) مجاز القرآن ص٤٦١ وديوان الشماخ ص٩٢ .

(٢) يقال : كان أبوه من الملوك ، واختلفوا فى سبب تلقيبه بالخضر ، فقال الأكثرون : لأنه جلس على فروة بيضاء ، فصارت خضراء . والفروة : وجه الأرض ، وقيل : الهشيم من النبات . وقيل : لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . والصحيح الأول لما فى حديث البخارى الصحيح فى الأنبياء (٣٤٠٢) : « إنما سمى الخضر ؛لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » .

روح القدس جبريل، وأخرج عن ابن مسعود مثله. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي ﷺ قال: « روح القدس جبريل » وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: « اللهم أيد حسان بروح القدس »[(١)]. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ فريقًا ﴾ قال: طائفة .

وأخرج عن ابن عباس قال : إنما سمي القلب لتقلبه . وأخرج الطبراني في الأوسط عنه أنه كان يقرأ : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ مثقلة أي كيف نتعلم وقلوبنا غلف للحكمة أي أوعية للحكمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ مملوءة علما لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ قال : في غطاء، وروى ابن إسحاق وابن جرير عنه أنه قال: ﴿ في أكِنَّة ﴾ [فصلت : ٥] . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: هي القلوب المطبوع عليها . وأخرج وكيع عن عكرمة وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : هي التي لا تفقه . وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص ، وابن جرير عن حذيفة ؛ قال : القلوب أربعة : قلب أغلف فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح فذلك قلب المنافق ، وقلب أجرد فيه مثل السراج فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب ؛ ومثل المنافق كمثل قرحة يمدها القيح والدم[(٢)]. وأخرج أحمد بسند جيد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر[(٣)] ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح ، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[(٤)] . وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي مثله سواء موقوفًا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾ قال : لا يؤمن منهم إلا قليل .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا

(١) جزء من حديث أبي هريرة : رواه البخاري في الصلاة (٤٥٣) وفي بدء الخلق (٣٢١٢) وفي الأدب (٦١٥٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥ / ١٥١ ، ١٥٢) .

(٢) ابن أبي شيبة (١٠٤٥٣) و (١٩٢٤٢) وابن جرير ١/ ٣٢٢ وفي إسناده انقطاع بين أبي البختري سعيد بن فيروز الطائي وبين حذيفة .

(٣) في المطبوعة : « يزهى » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) أحمد ٣/ ١٧ والطبراني في الصغير ٢/ ١١٠ وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٦٦ : « وفي إسناده ليث بن أبي سليم» . والحديث من طريق أبي البختري عن أبي سعيد ، فلعل النص كان عند أبي البختري متصلاً مرفوعًا من هذا الطريق ، ومنقطعًا موقوفا عن حذيفة .

بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾ .

﴿ **ولما جاءهم** ﴾ يعني :اليهود ﴿ **كتاب** ﴾ يعني : القرآن ، و ﴿ **مصدق** ﴾ وصف له ، وهو في مصحف أبي منصور، ونصبه على الحال ، وإن كان صاحبها نكرة فقد تخصصت بوصفها بقوله : ﴿ **من عند الله** ﴾ وتصديقه لما معهم من التوراة ، والإنجيل ، أنه يخبرهم بما فيهما ، ويصدقه ولا يخالفه ، والاستفتاح : الاستنصار ، أي كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم ، بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة . وقيل : الاستفتاح هنا بمعنى الفتح ، أي يخبرونهم بأنه سيبعث ، ويعرفونهم بذلك . وجواب « لما » في قوله : ﴿ **ولما جاءهم كتاب** ﴾ قيل : هو قوله: ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا** ﴾ وما بعده، وقيل : هو محذوف ، أي كذبوا أو نحوه ، كذا قال الأخفش والزجاج . وقال المبرد : إن جواب « لما » الأولى هو قوله : ﴿ **كفروا** ﴾ وأعيدت « لما » الثانية لطول الكلام ، واللام في الكافرين للجنس ، ويجوز أن تكون للعهد، ويكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمر . والأول أظهر .

و« ما » في قوله : ﴿ **بئسما** ﴾ موصولة أو موصوفة ، أي بئس الشيء أو شيئًا ﴿ **اشتروا به أنفسهم** ﴾ قاله سيبويه. وقال الأخفش : « ما » في موضع نصب على التمييز ، كقولك : بئس رجلاً زيد . وقال الفراء : بئسما بجملته شيء واحد رُكب كحبذا . وقال الكسائي :« ما » و ﴿ **اشتروا** ﴾ بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه ، والتقدير: بئس اشتراؤهم أن يكفروا . وقوله : ﴿ **أن يكفروا** ﴾ في موضع رفع على الابتداء عند سيبويه ، وخبره ما قبله . وقال الفراء والكسائي : إن شئت كان في موضع خفض بدلاً من الهاء في به، أي اشتروا أنفسهم بأن يكفروا ، وقال في الكشاف : إن « ما » نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ، بمعنى شيئًا اشتروا به أنفسهم ، والمخصوص بالذم أن يكفروا ، واشتروا بمعنى باعوا [1]. وقوله: ﴿**بغيًا**﴾ أي حسدًا ، قال الأصمعي : البغي مأخوذ من قولهم: قد بغى الجرح: إذا فسد . وقيل : أصله الطلب ، ولذلك سميت الزانية بَغيّاً . وهو علة لقوله : ﴿**اشتروا** ﴾ . وقوله : ﴿**أن ينزل** ﴾ علة لقوله: ﴿ **بغيا** ﴾ أي لأن ينزل. والمعنى: أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسدا ومنافسة ﴿**أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده** ﴾. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن : ﴿ **أن ينزل**﴾بالتخفيف ﴿ **فباؤوا** ﴾ أي رجعوا وصاروا أحقاء ﴿**بغضب على غضب** ﴾ وقد تقدم معنى باؤوا ، ومعنى الغضب . قيل :الغضب الأول : لعبادتهم العجل ،

(١) قيل : إنما سمي الشاري شاريًا ؛ لأنه باع نفسه ودنياه بآخرته ، وسيأتي شيء من ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله** ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

والثاني : لكفرهم بمحمد . وقيل : كفرهم بعيسى ، ثم كفرهم بمحمد . وقيل : كفرهم بمحمد ثم البغي عليه . وقيل : غير ذلك . والمهين: مأخوذ من الهوان .قيل : وهو ما اقتضى الخلود في النار .

وقوله : ﴿ **بما أنزل الله** ﴾ هو القرآن . وقيل : كل كتاب ، أي صدقوا بالقرآن ، أو صدقوا بما أنزل الله من الكتب . ﴿ **قالوا نؤمن** ﴾ أي نصدق ﴿ **بما أنزل علينا** ﴾ أي التوراة . وقوله : ﴿ **ويكفرون بما وراءه** ﴾ قال الفراء : بما سواه . وقال أبو عبيدة : بما بعده ، قال الجوهري : وراء بمعنى خلف وقد يكون بمعنى قدام ، وهي من الأضداد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ [الكهف : ٧٩] أي قدامهم ، وهذه الجملة ، أعني ﴿**ويكفرون** ﴾ في محل النصب على الحال، أي قالوا : نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراءه ، مع كون هذا الذي هو وراء ما يؤمنون به هو الحق . وقوله : ﴿ **مصدقًا** ﴾ حال مؤكدة ، وهذه أحوال متداخلة أعني قوله : ﴿ **ويكفرون** ﴾ وقوله : ﴿ **وهو الحق** ﴾ وقوله : ﴿**مصدقًا**﴾ ثم اعترض الله سبحانه عليهم ، لما قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، بهذه الجملة المشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ ، أي إن كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الأنبياء وقد نهيتم عن قتلهم فيما أنزل عليكم ؟ وهذا الخطاب وإن كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم ، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم .

واللام في قوله : ﴿ **ولقد** ﴾ جواب القسم مقدر . والبينات يجوز أن يراد بها التوراة ، أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى :﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ [الإسراء : ١٠١] ويجوز أن يراد الجميع . ثم عبدتم العجل بعد النظر في تلك البينات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم ، عنادًا بعد قيام الحجة عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم**﴾ قال: هو القرآن ﴿ **مصدق لما معهم** ﴾ من التوراة والإنجيل . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر ابن قتادة الأنصاري ؛ قال : حدثني أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ؛ لأن معنا يهود ، وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثَن . وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا : إن نبيًا ليبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بُعث رسول الله ﷺ اتبعناه وكفروا به ، ففينا والله وفيهم أنزل الله : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ (١) . وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، قالوا : كانت العرب تمر باليهود فيؤذونهم ، وكانوا يجحدون محمدًا في التوراة فيسألون الله أن يبعثه نبيًا ، فيقاتلون معه العرب ، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل (٢) . وقد روى نحو هذا عن ابن عباس من غير وجه بألفاظ مختلفة ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٨٣ وابن جرير ١/ ٣٢٥ والبيهقي في الدلائل ٢/ ٤٣٣ ، ٤٣٤ .
(٢) البيهقي في الدلائل ٢/ ٥٣٦ .

ومعانيها متقاربة . وروى عن غيره من السلف نحو ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم** ﴾ قال: هم اليهود كفروا بما أنزل الله ، وبمحمد ﷺ ، بغيًا وحسدًا للعرب ﴿ **فباؤوا بغضب على غضب**﴾ قال : غضب الله عليهم مرتين، بكفرهم بالإنجيل ، وبعيسى ، وبكفرهم بالقرآن ، وبمحمد . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بغيًا أن ينزل الله** ﴾ أى أن الله جعله من غيرهم ﴿ **فباؤوا بغضب** ﴾ بكفرهم بهذا النبى ﴿**على غضب**﴾ كان عليهم بما صنعوه من التوراة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج أيضًا عن مجاهد معناه . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **ويكفرون بما وراءه**﴾ قال : بما بعده . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : بما وراءه ، أى القرآن .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ .

قد تقدم تفسير أخذ الميثاق ، ورفع الطور . والأمر بالسماع معناه : الطاعة والقبول ، وليس المراد مجرد الإدراك بحاسة السمع ، ومنه قولهم : « سمع الله لمن حمده » أى قَبِل وأجاب ، ومنه قول الشاعر :

دعوت الله حتى خفت أن لا ... يكون الله يسمع ما أقول

أى يقبل ، وقولهم فى الجواب : ﴿ **سمعنا** ﴾ هو على بابه وفى معناه ؛ أى سمعنا قولك بحاسة السمع ، وعصيناك ، أى لا نقبل ما تأمرنا به . ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم : ﴿**سمعنا** ﴾ ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة فى مخاطبة أنبيائهم ، وذلك بأن يحملوا قوله تعالى : ﴿ **اسمعوا** ﴾ على معناه الحقيقى ، أى السماع بالحاسة ، ثم أجابوا بقولهم: ﴿ **سمعنا** ﴾ أى أدركنا ذلك بأسماعنا ، عملا بموجب ما تأمر به ، ولكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد الله عزّ وجل ، بل مراده بالأمر بالطاعة والقبول ، لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم ، فقالوا: ﴿ **وعصينا** ﴾ . وفى قوله : ﴿**وأشربوا** ﴾ تشبيه بليغ ، أى جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه ، ومثله قول زهير :

فصحوتُ عنها بعد حُبٍّ داخلٍ والحبُّ يُشْرِبُه فؤادك داء (١)

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ؛ لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام يجاوزها ولا يتغلغل فيها ، والباء فى قوله : ﴿ **بكفرهم** ﴾ سببية ، أى كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم وخذلانًا . وقوله : ﴿ **قل بئسما يأمركم به إيمانكم** ﴾ أى إيمانكم الذى زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم ، وتكفرون بما وراءه ، فإن هذا الصنع وهو قولكم :﴿ **سمعنا وعصينا** ﴾ فى جواب ما أمرتم به فى كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به منادٍ عليكم بأبلغ نداء ، بخلاف ما زعمتم ، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ، ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب ، هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون فى قولكم ﴿ **نؤمن بما أنزل علينا** ﴾ لا صادقون ، فإن زعمتم أن كتابكم الذى آمنتم به أمركم بهذا فبئسما يأمركم به إيمانكم بكتابكم ، وفى هذا من التهكم بهم ما لا يخفى .

وقوله : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة** ﴾ هو ردٌّ عليهم لما ادَّعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم فى دخولها غيرهم ، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون فى تلك الدعوى ، وأنها صادرة منهم لا عن برهان . و﴿**خالصة** ﴾ منصوب على الحال ، ويكون خبر كان هو ﴿ **عند الله** ﴾، أو يكون خبر كان هو ﴿ **خالصة** ﴾، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركهم فيها غيرهم ، إذا كانت اللام فى قوله : ﴿ **من دون الناس** ﴾ للجنس ، أو لا يشاركهم فيها المسلمون ، إن كانت اللام للعهد ، وهذا أرجح لقولهم فى الآية الأخرى :﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] وإنما أمرهم بتمنى الموت ؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة ، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا . ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولن يتمنوه أبدًا** ﴾ .

و « ما » فى قوله : ﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ موصولة ، والعائد محذوف ، أى بما قدمته من الذنوب التى يكون فاعلها غير آمن من العذاب ، بل غير طامع فى دخول الجنة ، فضلاً عن كونه قاطعًا بها ، فضلا عن كونها خالصة له مختصة به . وقيل : إن الله سبحانه صرفهم عن التمنى ؛ ليجعل ذلك آية لنبيه ﷺ . والمراد بالتمنى هنا : هو اللفظ بما يدل عليه ، لامجرد خطوره بالقلب ، وميل النفس إليه ، فإن ذلك لا يراد فى مقام المحاجة ، ومواطن الخصومة ، ومواقف التحدى . وفى تركهم للتمنى أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف ، والتجرؤ على الله ، وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة ، فى غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل ، فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت ، إما لأمر قد علموه ، أو للصرفة من الله عز وجل . وقد يقال : ثبت النهى عن النبى ﷺ عن تمنى الموت ، فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهى عنه فى شريعته ؟

(١) جاء هذا البيت محرفا فى المطبوعة ، والمخطوطة حيث قال :« دائمًا » بدلا من « داء » . و « تشربه » هو بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء . راجع البيت فى : ديوان زهير ص ٣٣٩ .

ويجاب بأن المراد هنا : إلزامهم الحجة ، وإقامة البرهان على بطلان دعواهم . وقوله : ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ تهديد لهم ، وتسجيل عليهم بأنهم كذلك .

والللام فى قوله : ﴿ **ولتجدنهم** ﴾ جواب قسم محذوف ، وتنكير حياة للتحقير ، أى أنهم أحرص الناس على أحقر حياة ، وأقل لبث فى الدنيا ، فكيف بحياة كثيرة ولبث متطاول ؟ وقال فى الكشاف : إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة ، وتبعه فى ذلك الرازى فى تفسيره [1] . وقوله : ﴿ **ومن الذين أشركوا** ﴾ قيل : هو كلام مستأنف ، والتقدير: ومن الذين أشركوا ناس ﴿ **يود أحدهم** ﴾ وقيل : إنه معطوف على الناس ، أى أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ **يودُّ أحدهم** ﴾ راجعًا إلى اليهود ، بيانًا لزيادة حرصهم على الحياة، ووجه ذكر ﴿ **الذين أشركوا** ﴾ بعد ذكر﴿ **الناس** ﴾ مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب، ومن شابههم من غيرهم . فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغًا فى الحرص إلى غاية لا يقادر قدرها . وإنما بلغوا فى الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين ؛ لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب فى الآخرة ، بخلاف المشركين من العرب ونحوهم ، فإنهم لا يقرون بذلك ، وكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود . والأول وإن كان فيه خروج من الكلام فى اليهود إلى غيرهم من مشركى العرب ، لكنه أرجح ؛ لعدم استلزامه للتكليف ، ولا ضير فى استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود . وقال الرازى : إن الثانى أرجح ليكون ذلك أبلغ فى إبطال دعواهم ، وفى إظهار كذبهم فى قولهم: إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا . انتهى . ويجاب عنه بأن هذا الذى جعله مرجحًا قد أفاده قوله تعالى : ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** ﴾ ولا يستلزم استئناف الكلام فى المشركين ، ألا يكونوا من جملة الناس ، وخص الألف بالذكر؛ لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة . وأصل سنة : سنهة . وقيل : سنوة .

واختلف فى الضمير فى قوله: ﴿ **وما هو بمزحزحه** ﴾ فقيل : هو راجع إلى أحدهم ، والتقدير : وما أحدهم بمزحزحه من العذاب أن يعمر وعلى هذا يكون قوله : ﴿ **أن يعمر** ﴾ فاعلاً لمزحزحه . وقيل : هو لما دل عليه يعمر من مصدره ، أى وما التعمير بمزحزحه ، ويكون قوله : ﴿ **أن يعمر** ﴾ بدلا منه . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت: هو عماد . وقيل : هو ضمير الشأن . وقيل : « ما » هى الحجازية ، والضمير اسمها وما بعده خبرها . والأول أرجح، وكذلك الثانى ، والثالث ضعيف جدًا؛ لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين ولهذا يسمونه ضمير الفصل ، والرابع فيه : أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة . والزحزحة : التنحية ، يقال :زحزحته فتزحزح ، أى نحيته فتنحى وتباعد ، ومنه قول ذى الرمة :

---

(١) الكشاف ١/١٦٨ والرازى ٣/٢٠٨ .

يا قَابِضَ الرُّوحِ عَنْ جِسْمٍ عصَى زَمنًا وغافر الذنب زَحْزِحْنى عَن النَّارِ

والبصير : العالم بالشيء الخبير به ، ومنه قولهم : فلان بصير بكذا ، أى خبير به ، ومنه قول الشاعر :

فَإنْ تَسْأَلُونى بِالنِّسَاءِ فَإننى بَصيرٌ بأَدْواءِ النِّساءِ طَبيبُ

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿ **وأشربوا فى قلوبهم العجل** ﴾ قال: أشربوا حبه حتى خلص ذلك قلوبهم . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية ؛ أن اليهود لما قالوا : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] نزل قوله تعالى : ﴿**قل إن كانت لكم الدار الآخرة** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير مثله عن قتادة وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن قوله : ﴿ **خالصة من دون الناس** ﴾ يعنى : المؤمنين ﴿ **فتمنوا الموت** ﴾ فقال لهم رسول الله : « إن كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا : « اللهم أمتنا » فو الذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غصَّ بريقه فمات مكانه» (١) . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتمنوا الموت** ﴾ أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبَوْا ذلك ، ولو تمنوه يوم قال ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم عنه قال : لو تمنى اليهود الموت لماتوا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه نحوه . وأخرج البخارى وغيره ، من حديثه مرفوعًا : « لو أن اليهود تمنوا لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار » (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** ﴾ قال : اليهود ﴿**ومن الذين أشركوا** ﴾ قال : وذلك أن المشركين لا يرجون بعثا بعد الموت فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودى قد عرف ماله من الخزى بما ضيع ما عنده من العلم ﴿ **وما هو بمزحزحه** ﴾ قال : بمنحيه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم عنه فى قوله : ﴿ **يود أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة** ﴾ قال : هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم « ذه هزار سال » يعنى : عش ألف سنة .

﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)** ﴾ .

(١) البيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٧٤ .
(٢) هذا جزء من حديث ابن عباس : أخرجه أحمد ١/ ٢٤٨ ، وروى البخارى بعض الحديث ، دون هذا الجزء ، وأخطأ المصنف فى عزو هذا الجزء للبخارى ، وإنما أخرج هذا الجزء الإسماعيلى فى مستخرجه على البخارى . انظر ما ذكره ابن حجر فى : فتح البارى فى تفسير سورة العلق ٨/ ٧٢٤ فى شرح الحديث (٤٩٥٨) .

هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت فى اليهود . قال ابن جرير الطبرى : وأجمع أهل التأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى لهم . ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك ؟ فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ من أمر نبوته ، ثم ذكر روايات فى ذلك ستأتى آخر البحث إن شاء الله . والضمير فى قوله : ﴿ **فإنه** ﴾ يحتمل وجهين : الأول : أن يكون لله ، ويكون الضمير فى قوله : ﴿ **نزله** ﴾ لجبريل ، أى فإن الله سبحانه نزل جبريل على قلبك ، وفيه ضعف كما يفيده قوله : ﴿**مصدقًا لما بين يديه** ﴾ . الثانى : أنه لجبريل ، والضمير فى : ﴿ **نزله** ﴾ للقرآن ، أى فإن جبريل نزل القرآن على قلبك . وخص القلب بالذكر ؛ لأنه موضع العقل والعلم . وقوله : ﴿ **بإذن الله** ﴾ أى بعلمه وإرادته وتيسيره وتسهيله ، و ﴿ **ما بين يديه**﴾ هو التوراة كما سلف ، أو جميع الكتب المنزلة ، وفى هذا دليل على شرف جبريل وارتفاع منزلته ، وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له ، حيث كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك ، أو من تنزيل الله له على قلبك ، وهذا هو وجه الربط بين الشرط والجواب ، أى من كان معاديًا لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له ، فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة ، أو من كان معاديًا له؛ فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل ، وليس ذلك بذنب له ، وإن نزهوه فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان ؛ لأن هذا الكتاب الذى نزل به هو مصدق لكتابهم ، وهدى وبشرى للمؤمنين .

ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط وجزاء يتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب ، والوعيد الشديد له فقال : ﴿ **من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ والعداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله ، والبغض لأوليائه ، والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه ، وعدم التجاوز عنه ، والمغفرة له ، وإنما خص جبريل وميكائيل بالذكر بعد ذكر الملائكة ؛ لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما، وأنهما وإن كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة ، تنزيلاً للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما ذكره صاحب الكشاف وقرره علماء البيان . وفى جبريل عشر لغات ذكرها ابن جريرالطبرى وغيره ، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك ، وفى ميكائيل ست لغات ، وهما اسمان عجميان ، والعرب إذا نطقت بالعجمى تساهلت فيه ، وحكى الزمخشرى عن ابن جنى أنه قال : العرب إذا نطقت بالأعجمى خلطت فيه . وقوله : ﴿ **للكافرين** ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر ، أى فإن الله عدو لهم، لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه .

عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى .قال : «سلونى عما شئتم »[١] فسألوه وأجابهم ، ثم قالوا : فحدثنا مَنْ وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك ، فقال : «وليى جبريل ، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه » قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك ، قال : « فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ » قالوا : هذا عدونا . فعند ذلك أنزل الله الآية[٢] . وأخرج نحو ذلك ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن الشعبى عن عمر بن الخطاب فى قصة جرت له معهم [٣] ، وإسنادها صحيح ، ولكن الشعبى لم يدرك عمر وقد رواها عكرمة وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن أبى ليلى عن عمر .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخارى والنسائى وغيرهم ، عن أنس ؛ قال :سمع عبد الله بن سلام بمقدم النبى ﷺ وهو فى أرض يخترف [٤] ، فأتى النبى ﷺ ، فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ؟ ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال : « أخبرنى بهن جبريل آنفا » فقال : جبريل ؟ قال : « نعم » قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية : ﴿ **من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك**﴾ قال :« أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه أو أمه، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها». قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله[٥]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فإنه نزله على قلبك بإذن الله** ﴾ يقول : فإن جبريل نزل القرآن بأمر الله يشدد به فؤادك ، ويربط به على قلبك ﴿**مصدقًا لما بين يديه** ﴾ يقول : لما قبله من الكتب التى أنزلها والآيات والرسل الذين بعثهم الله . وقد ذكر السيوطى فى هذا الموضع من تفسيره « الدر المنثور» أحاديث كثيرة واردة فى جبريل ، وميكائيل ، وليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ

---

(١) عند ابن جرير بزيادة : « ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتُتابعُنّى على الإسلام . فقالوا : لك ذلك . فقال رسول الله ﷺ . . . » .

(٢) أحمد ١/٢٧٨ وابن جرير ١/ ٣٤٢ والطبرانى (١٢٠١٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٤٤ : « ورجالهما ثقات» والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٣) ابن أبى شيبة (١٨٣٨٩) وابن جرير ١/ ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٤) يخترف : يجمع الثمار ، وذلك ؛ لأن عملية جمع الثمار وجنيها يكون فى الخريف .

(٥) ابن أبى شيبة (مختصرًا) (١٩١٦٣) وأحمد ٣/ ١٠٨، ١٨٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٢٩) وفى مناقب الأنصار (٣٩٣٨) وفى تفسير البقرة (٤٤٨٠) والنسائى فى التفسير (١٢) .

نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

الضمير فى قوله : ﴿ إليك ﴾ للنبى ﷺ ، أى أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك . وقوله : ﴿إلا الفاسقون ﴾ قد تقدم تفسيره والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ، ويحتمل أن يراد اليهود ؛ لأن الكلام معهم . والواو فى قوله: ﴿ أو كلما ﴾ للعطف دخلت عليها همزة الاستفهام ، كما تدخل على الفاء ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ [المائدة : ٥] ﴿ أفأنت تُسمع الصم ﴾ [الزخرف : ٤٠] ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ [الكهف : ٥٠] وكما تدخل على ثم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أثُم إذا ما وقع ﴾ [يونس: ٥١] وهذا قول سيبويه . وقال الأخفش : الواو زائدة . وقال الكسائى : إنها « أو » حركت الواو تسهيلا . قال ابن عطية : وهذا كله متكلف ، والصحيح قول سيبويه والمعطوف عليه محذوف ، والتقدير : أكفروا بالآيات البينات وكل ما عاهدوا ؟ قوله : ﴿ نبذ فريق ﴾ قال ابن جرير : أصل النبذ : الطرح والإلقاء ، ومنه سمى اللقيط منبوذًا ، ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء ، قال أبو الأسود :

نظرتَ إلى عنوانه فنبذتَه كنبذك ... نَعـلا أخـلقت مـن نِعـالـكا (١)

وقال آخر :

إن الَّذيــن أمَرْتَهــم أن يَعـدِلـُوا ... نبذوا كتابك واستحلوا المحرَّمَا (٢)

وقوله : ﴿ وراء ظهورهم ﴾ أى خلف ظهورهم ، وهو مثل يُضرب لمن يستخف بالشىء فلا يعمل به ، تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك ، ودبر أذنك ، وتحت قدمك ، أى اتركه وأعرض عنه . ومنه ما أنشده الفراء :

تميم بنُ زيدٍ لا تكوننَّ حَاجتى ... بظَهْرٍ فلا يَعْيَا علىَّ جوابُها (٣)

---

(١) ديوانه ص ٢١ فى نفائس المخطوطات : ٢ ومجاز القرآن ص ٤٨ ، من أبيات كتب بها الأسود إلى صديقه الحصين بن الحر ، وهو والٍ على ميسان، وكان كتب إليه فى أمر يهمه ، فشغل عنه . وقبل البيت قوله :
وخبرنى من كنت أرسلت أنما ... أخذت كتابى مُعرضاً بشمالكا

(٢) جاء البيت محرفًا فى المطبوعة ، حيث قال : « واستحل المحرم » بدلا من « واستحلوا المحرما » وهو الصحيح كما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) البيت للفرزدق ، يخاطب تميم بن زيد القبنى ، وكان على السند . عن النقائض ص ٣٨١ .

وقوله : ﴿ كتاب الله ﴾ أى التوراة ؛ لأنهم لما كفروا بالنبى ﷺ وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم فى التوراة الإيمان به ، وتصديقه ، واتباعه ، وبين لهم صفته ، كان ذلك منهم نَبذًا للتوراة ، ونقضًا لها ، ورفضًا لما فيها . ويجوز أن يراد بالكتاب هنا : القرآن ، أى لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذى جاء به هذا الرسول، وهذا أظهر من الوجه الأول . وقوله : ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئًا ، مع كونهم يعلمون علمًا يقينًا من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبى ، ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم ، كانوا بمنزلة من لا يعلم .

قوله : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين ﴾ معطوف على قوله : ﴿ نبذوا ﴾ أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين من السحر ونحوه . قال الطبرى : اتبعوا بمعنى فعلوا . ومعنى ﴿ تتلو﴾ تتقوله وتقرؤه و﴿ على ملك سليمان ﴾ على عهد ملك سليمان ، قاله الزجاج . وقيل : المعنى: فى ملك سليمان يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره . قال الفراء: تصلح «على » و «فى» فى هذا الموضع ، والأول أظهر ، وقد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان وأنه يستجيزه ويقول به، فرد الله ذلك عليهم وقال :﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ ولم يتقدم أن أحدًا نسب إلى سليمان الكفر ، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر لأن السحر يوجب ذلك ، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال : ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ أى بتعليمهم وقوله : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر بعد خبر ، وقرأ ابن عامر والكوفيون سوى عاصم : «ولكن الشياطين » بتخفيف لكن ورفع الشياطين ، والباقون بالتشديد والنصب .

والسحر :هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخيلات ، التى تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء ، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير ، وهو مشتق من سحرت الصبى : إذا خدعته . وقيل :أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله خفية . وقيل : أصله الصرف ؛ لأن السحر مصروف عن جهته. وقيل : أصله الاستمالة ؛ لأن من سحرك فقد استمالك . وقال الجوهرى : السحر : الأخذة ، وكل ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر . وقد سحره يسحره سحرًا . والساحر : العالم ، وسحره أيضًا بمعنى خدعه . وقد اختلف : هل له حقيقة أم لا ؟ فذهبت المعتزلة ، وأبو حنيفة ، إلى أنه خدع لا أصل له ولا حقيقة . وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة ، وقد صح أن النبى ﷺ ، سحره لُبيد بن الأعصم اليهودى ، حتى كان يخيل إليه أنه يأتى الشىء ولم يكن قد أتاه ، ثم شفاه الله سبحانه(١) . والكلام فى ذلك يطول .

---

(١) الحديث عن عائشة : أخرجه البخارى فى الجزية (٣١٧٥) وفى بدء الخلق (٣٢٦٨) وفى الطب (٥٧٦٣ ، ٥٧٦٥ ، ٥٧٦٦) وفى الأدب (٦٠٦٣) وفى الدعوات (٦٣٩١) ومسلم فى السلام (٢١٨٩ / ٤٣) وابن ماجة فى الطب (٣٥٤٥) وأحمد ٦/ ٥٧ .

وقوله : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ أي ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين فهو معطوف على السحر . وقيل : هو معطوف على قوله : ﴿ ما تتلو الشياطين ﴾ أى واتبعوا ما أنزل على الملكين . وقيل : إن « ما » فى قوله : ﴿وما أنزل على الملكين ﴾ نافية والواو عاطفة على قوله: ﴿ وما كفر سليمان ﴾ وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله : ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ ذكر هذا ابن جرير . وقال: فإن قال لنا قائل : وكيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل ؛ لأن سحرة اليهود ، فيما ذكر ، كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل ، إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس بذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت ، على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًا عليهم . انتهى .

وقال القرطبى فى تفسيره ، بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ، ما لفظه : هذا أولى ما حملت عليه الآية ، وأصح ما قيل فيها ، ولا يلتفت إلى سواه ، فالسحر من استخراج الشياطين لِلطَافة جوهرهم، ودقة أفهامهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة فى حال طمثهن ، قال الله : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ [الفلق: ٤] ثم قال : إن قيل : كيف يكون اثنان بدلاً من جمع ، والبدل إنما يكون على حد المبدل ؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع ، أو أنهما خُصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما ، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن :« الملكين » بكسر اللام ، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده ، وظهور تكلفه ، تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه ، فتنة لعباده على ألسن ملائكته . وعندى أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر ، فإن لله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان: ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ .

قال ابن جرير : وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان ، وبابل(١) قيل : هى العراق . وقيل : نهاوند . وقيل :

---

(١) بابل ـــ بكسر الباء الثانية ـــ : اسم ناحية ، منها الكوفة والحلة ، ينسب إليها السحر والخمر . قال الأخفش : لا ينصرف ؛ لتأنيثه ، وذلك أن اسم كل شيء مؤنث إذا كان علمًا ، وكان على أكثر من ثلاثة أحرف . ويقال: إن أول من سكنها نوح عليه السلام بعد الطوفان . ويقال : إن مدينة بابل بناها بيوراسب الجبار ، واشتق اسمها من اسم المشترى ، لأن بابل باللسان البابلى الأول اسم المشترى . راجع: معجم البلدان ١/ ٣٠٩ ، ٣١٠ .

نصيبين . وقيل : المغرب . وهاروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان . وقوله : ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا** ﴾ قال الزجاج : تعليم إنذار من السحر ، لا تعليم دعاء إليه ، قال: وهو الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر ، ومعناه : أنهما يعلمان على النهى ، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا . و«من» فى قوله : ﴿ **من أحد** ﴾ زائدة للتوكيد ، وقد قيل : إن قوله : ﴿**يعلمان**﴾ من الإعلام لا من التعليم ، وقد جاء فى كلام العرب تعلم بمعنى أعلم ، كما حكاه ابن الأنبارى ، وابن الأعرابى ، وهو كثير فى أشعارهم كقول كعب بن مالك :

تعلَّمْ رسول اللَّهِ أنَّك مُدْرِكى وَأنَّ وَعِيدًا مِنْك كالأخْذِ باليَدِ

وقال القُطَامِى :

تـعـلَّم أن بعـد الـغَـىِّ رُشْـدًا وأن لذلـك الغــىِّ انـقْشاعًا

وقوله : ﴿**إنما نحن فتنة** ﴾ هو على ظاهره ، أى إنما نحن ابتلاء واختبار من الله لعباده . وقيل : إنه استهزاء منهما؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحقق ضلاله . وفى قولهما : ﴿ **فلا تكفر**﴾ أبلغ إنذار ، وأعظم تحذير ، أى أن هذا ذنب يكون مَنْ فعله كافرًا فلا تكفر ، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر ، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد ، وبين من تعلمه ليكون ساحرًا ، ومن تعلمه ليقدر على دفعه . وقوله : ﴿ **فيتعلمون** ﴾ فيه ضمير يرجع إلى قوله : ﴿**منْ أحَدٍ** ﴾ . قال سيبويه : التقدير : فهم يتعلمون قال : ومثله : ﴿ كُنْ فيكُون ﴾ [يس : ٨٢] . وقيل: هو معطوف على موضع ما يعلمان؛ لأنه وإن كان منفيًا فهو يتضمن الإيجاب . وقال الفراء : هى مردودة على قوله : ﴿ **يعلمون الناس السحر** ﴾ أى يعلمون الناس فيتعلمون . وقوله : ﴿ **ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ فى إسناد التفريق إلى السحرة ، وجَعْل السحر سببًا لذلك دليل على أن للسحر تأثيرًا فى القلوب بالحب والبغض ، والجمع والفرقة ، والقرب والبعد . وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله من التفرقة ؛ لأن الله ذكر ذلك فى معرض الذم للسحر ، وبين ما هو الغاية فى تعليمه ، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره. وقالت طائفة أخرى : إن ذلك خرج مخرج الأغلب وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه. وقيل : ليس للسحر تأثير فى نفسه أصلاً لقوله تعالى : ﴿ **وما هم بـضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ والحق أنه لا تنافى بين قوله : ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ وبين قوله : ﴿**وماهم بـضارين به من أحد إلا بإذنِ الله** ﴾ فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيرًا فى نفسه ، ولكنه لا يؤثر ضررًا إلا فيمن أذن الله بتأثيره فيه ، وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيرًا فى نفسه ، وحقيقة ثابتة ، ولم يخالف فى ذلك إلا المعتزلة ، وأبوحنيفة كما تقدم .

وقوله : ﴿ **ويتعلمون ما يـضرهم ولا ينفعهم** ﴾ فيه تصريح بأن السحر لا يعود على

صاحبه بفائدة ، ولايجلب إليه منفعة ، بل هو ضرر محض وخسران بحت . واللام فى قوله : ﴿ **ولقد** ﴾ جواب قسم محذوف ، وفى قوله : ﴿ **لمن اشتراه** ﴾ للتأكيد و « مَنْ » موصولة وهى فى محل رفع على الابتداء ، والخبر قوله : ﴿ **مَا لَهُ فى الآخرة من خلاق** ﴾ وقال الفراء : إنها شرطية للمجازاة . وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شَرط ، ورجح أنها موصولة كما ذكرنا . والمراد بالشراء هنا : الاستبدال ، أى من استبدل ما تتلو الشياطين على كتاب الله . والخَلاق : النصيب عند أهل اللغة ، كذا قال الزجاج . والمراد بقوله : ﴿ **ما شروا به أنفسهم** ﴾ أى باعوها، وقد أثبت لهم العلم فى قوله : ﴿ **ولقد علموا** ﴾ ونفاه عنهم فى قوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ واختلفوا فى توجيه ذلك ، فقال قطرب والأخفش : إن المراد بقوله : ﴿ **ولقد علموا**﴾ : الشياطين ، والمراد بقوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ الإنس . وقال الزجاج : إن الأول للملكين ، وإن كان بصيغة الجمع ، فهو مثل قولهم : الزيدان قاموا ، والثانى : المراد به علماء اليهود . وإنما قال : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ لأنهم تركوا العمل بعلمهم .

وقوله : ﴿ **ولو أنهم آمنوا** ﴾ أى بالنبى ﷺ وما جاء به من القرآن ﴿ **واتقوا** ﴾ ما وقعوا فيه من السحر والكفر . واللام فى قوله : ﴿ **لمثوبة** ﴾ جواب « لو » ، والمثوبة : الثواب . وقال الأخفش : إن الجواب محذوف ، والتقدير : ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا فحذف لدلالة قوله : ﴿ **لمثوبة** ﴾ عليه . وقوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ هو إما للدلالة على أنه لا علم لهم ، أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال ابن صوريا للنبى ﷺ : يا محمد ، ماجئتنا بشىء يُعْرَف ، وما أنزل الله عليك من آية بينة ، فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ . وقال مالك بن الصيف ، حين بعث رسول الله ﷺ ، وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم فى محمد : والله ما عهد إلينا فى محمد ، ولا أخذ علينا شيئًا ، فأنزل الله : ﴿ **أو كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم** ﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **آيات بينات** ﴾ يقول : فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمى لم تقرأ الكتاب ، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه ، ففى ذلك عبرة لهم ، وحجة عليهم ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة فى قوله : ﴿ **نبذه** ﴾ قال : نقضه . وأخرج أيضًا عن السدى فى قوله : ﴿**مصدق لما معهم** ﴾ قال : لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة ، واتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت ، كأنهم لا يعلمون بما فى التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب

(١) ابن إسحاق فى السيرة ٢/ ١٨٩ وابن جرير ١/ ٣٥٠ ، ٣٥١ .

معها ألف كذبة فأشْرِبَتْها قلوب الناس ، واتخذوها دواوين ، فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود ، فأخذها فدفنها تحت الكرسى . فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال : ألا أدلكم على كنز سليمان الذى لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع ؟ قالوا : نعم، فأخرجوه فإذا هو سحر ، فتناسختها الأمم ، وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال : ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان**﴾ الآية [(١)] . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم عنه قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا ، وقالوا : هذا الذى كان سليمان يعمل بها ، فأكفره جهال الناس وسبوه ، ووقف علماؤهم ، فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد : ﴿ **واتبعوا ما تتلو الشياطين** ﴾ الآية[(٢)] .

وأخرج ابن جرير عنه قال : كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئًا من شأنه أعطى الجرادة ، وهى امرأته ، خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلى سليمان بالذى ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه ، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها : هاتى خاتمى ، فأخذه فلبسه ، فلما لبسه دانت له الشياطين ، والجن ، والإنس ، فجاء سليمان فقال : هاتى خاتمى، فقالت له: كذبت لست سليمان ، فعرف أنه بلاء ابتلى به ، فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتبًا فيها سحر وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسى سليمان ، ثم أخرجوها فقرؤوها على الناس، وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، فبرئ الناس من سليمان وأكفروه، حتى بعث الله محمدًا وأنزل عليه : ﴿ **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا** ﴾ [(٣)]. وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **وما تتلو**﴾ قال : ما تتبع . وأخرج أيضًا عن عطاء فى قوله : ﴿ **ما تتلو**﴾ قال : نراه ما تحدث . وأخرج أيضا عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **على ملك سليمان** ﴾ يقول : فى ملك سليمان .

وأخرج أيضًا عن السدى فى قوله : ﴿ **وما أنزل على الملكين** ﴾ قال : هذا سحر آخر خاصموه به ، فإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علمته الإنس فصنع وعمل به كان سحرًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أنزل على الملكين**﴾ قال : لم ينزل الله السحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن على قال: هما ملكان من ملائكة السماء . وأخرج نحوه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعًا . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿**وما أنزل على الملكين** ﴾ يعنى : جبريل وميكائيل ﴿**ببابل هاروت وماروت** ﴾ يعلمان الناس السحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن أبزى [(٤)] ؛ أنه كان يقرؤها: وما أنزل على الملكين داود وسليمان . وأخرج ابن أبى حاتم عن

---

(١) ابن جرير ١/٣٥٧ وصححه الحاكم ٢/٢٦٥ ووافقه الذهبى .
(٢) النسائى فى التفسير (١٤) وربما كان هذا الموقوف مما تلقاه ابن عباس عن بعض أهل الكتاب .
(٣) ابن جرير١/٣٥٧ وأخرجه النسائى فى التفسير(١٣) وفى متن هذا الخبر نكارة واضحة ، ولعله كذلك مما تلقاه ابن عباس عن بعض أهل الكتاب .
(٤) فى المطبوعة: «عبد الرحمن بن البزى » والصواب ما أثبتناه كما بهامش المخطوطة . وانظر ابن كثير ١/ ٢٤٠ .

الضحاك قال : هما علجان من أهل بابل. وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: «أشرقت الملائكة على الدنيا ، فرأت بنى آدم يعصون ، فقالت: يا رب ، ما أجهل هؤلاء ، ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك ؟ فقال الله : لو كنتم فى محلاتهم لعصيتمونى ، قالوا : كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : فاختاروا منكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت ثم أهبطا إلى الأرض ، وركبت فيهما شهوات بنى آدم ، ومثلت لهما امرأة فما عصما حتى واقعا المعصية ، فقال الله : اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فنظر أحدهما لصاحبه قال : ما تقول ؟ قال : أقول : إن عذاب الدنيا ينقطع وإن عذاب الآخرة لا ينقطع ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما اللذان ذكر الله فى كتابه :﴿ **وما أنزل على الملكين** ﴾ الآية » [١] .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر ؛ أنه كان يقول : أطلعت الحمراء بعد ؟ فإذا رآها قال : لا مرحبًا ، ثم قال : إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سألا الله أن يهبطهما إلى الأرض ، فأهبطا إلى الأرض ، فكانا يقضيان بين الناس ، فإذا أمسيا تكلما بكلمات فعرجا بها إلى السماء ، فقيض لهما امرأة من أحسن النساء ، وألقيت عليهما الشهوة ، فجعلا يؤخرانها وألقيت فى أنفسهما ، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعادًا ، فأتتهما للميعاد فقالت : علمانى الكلمة التى تعرجان بها ، فعلماها الكلمة ، فتكلمت بها فعرجت إلى السماء فمسخت، فجُعلت كما ترون ، فلما أمسيا تكلما بالكلمة فلم يعرجا ، فبعث إليهما : إن شئتما فعذاب الآخرة ، وإن شئتما فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، على أن تلقيا الله ، فإن شاء عذبكما وإن شاء رحمكما ، فنظر أحدهما إلى صاحبه ، فقال :بل نختار عذاب الدنيا ألف ألف ضعف، فهما يعذبان إلى يوم القيامة [٢] . وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بألفاظ ، وفى بعضها أنه يروى ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار . كما أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب من طريق الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب ؛ قال : ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب . فقيل : لو كنتم مكانهم لأتيتم مثل ما يأتون ، فاختاروا منكم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما : إنى أرسل إلى بنى آدم رسلاً فليس بينى وبينكم رسول. انزلا لا تشركا بى شيئًا ولا تزْنيا ولا تشربا الخمر . قال كعب : فو الله ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه حتى استعملا جميع ما نهيا عنه . قال ابن كثير : وهذا أصح ، يعنى من الإسنادين اللذين ذكرهما قبله[٣] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه عن على

---

(١) البيهقى فى الشعب (١٦١) وإسناده ضعيف جدًا ، وقال البيهقى عقبه : « ورويناه من وجه آخر عن مجاهد ، عن ابن عمر ، موقوفًا عليه ، وهو أصح ، فإن ابن عمر إنما أخذه عن كعب » .

(٢) صحيح الحاكم ٤/ ٦٠٧، ٦٠٨ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن أبى شيبة (١٦٠٦١) وابن جرير ١/ ٣٦٣ والبيهقى فى الشعب (١٦٢) ورجال إسناده ثقات .

ابن أبى طالب قال : إن هذه الزهرة تسميها العربُ الزهرةَ والعجمُ أناهيدَ . وذكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر عند الحاكم [(١)] . قال ابن كثير : وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جدًا . وقد أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانت الزهرة امرأة[(٢)] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه ؛ أن المرأة التى فتن بها الملكان مسخت ، فهى هذه الكوكبة الحمراء ، يعنى الزهرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عنه فذكر قصة طويلة ، وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر وزنيا بالمرأة وقتلاها [(٣)] . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وابن عباس هذه القصة وقالا : إنها أنزلت إليهما الزهرة فى صورة امرأة وأنهما وقعا فى الخطيئة [(٤)] . وقد روى فى هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاها السيوطى فى الدر المنثور[(٥)] .

وذكر ابن كثير فى تفسيره بعضها ثم قال : وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى ، والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد ، إلى الصادق المصدوق المعصوم ، الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى[(٦)] .

وقال القرطبى بعد سياق بعض ذلك : قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شىء ، فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] ثم ذكر ما معناه : أن العقل يجوِّز وقوع ذلك منهم ، لكن وقوع هذا الجائز لايدرى إلا بالسمع ولم يصح . انتهى [(٧)] . وأقول : هذا مجرد استبعاد ، وقد ورد الكتاب العزيز فى هذا الموضع بما تراه ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات ، وما ذكره من أن الأصول تدفع ذلك ، فعلى فرض وجود هذه الأصول فهى مخصصة بما وقع فى هذه القصة ، ولا وجه لمنع التخصيص ، وقد كان إبليس بملك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **إنما نحن فتنة** ﴾ قال : بلاء . وأخرج البزار بإسناد صحيح ، والحاكم

---

(١) ابن جرير ١/ ٣٦٣ ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ ووافقه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٢٦٦ وزاد : « فى قومها يقال لها : بيدحه » ووافقه الذهبى .

(٣) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ٣٤ بعد أن ساق الروايات المختلفة : « وإذا أحسنا الظن قلنا : هذا من أخبار بنى إسرائيل ، كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار ، ويكون من خرافاتهم التى لا يعوَّل عليها ، والله أعلم » .

(٤) ابن جرير ١/ ٣٦٣ . (٥) الدر المنثور ١/ ٢٣٨ ـ ٢٥٠ . (٦) تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٨ .

(٧) القرطبى ٢/ ٤٤٢ .

وصححه عن ابن مسعود قال : مَن أتَى ساحرًا أو كاهنا وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد [١] . وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطيرأو تُطير له ،أو تكهَّن أو تُكهن له ، أوسحر أو سحَر له ، ومن عقد عقدة ، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » [٢]. وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سُلَيم قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم شيئًا من السحر قليلاً أو كثيرًا كان آخر عهده من الله»[٣] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من خلاق ﴾ قال : قوام . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ من خلاق ﴾ : من نصيب ، وكذا روى ابن جرير عن مجاهد . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن : ﴿ ما له فى الآخرة من خلاق ﴾ قال : ليس له دين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ ولبئس ما شروا به ﴾ قال : باعوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿لمثوبة ﴾ قال : ثواب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ .

قوله : ﴿ راعنا ﴾ أى راقبنا واحفظنا وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿ راعنا ﴾ : ارعنا ونرعاك واحفظنا ونحفظك وارقبنا ونرقبك ، ويجوز أن يكون من : أرعنا سمعك ، أى فرغه لكلامنا [٤] . وجه النهى عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبًا ، قيل : إنه فى لغتهم بمعنى : اسمع لا سمعت ؛ وقيل غير ذلك ، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبى ﷺ :راعنا ؛ طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة ، اغتنموا الفرصة ، وكانوا يقولون للنبى ﷺ كذلك ، مظهرين أنهم يريدون المعنى العربى ، مبطنين أنهم يقصدون السب الذى هو معنى هذا اللفظ فى لغتهم، وفى ذلك دليل على أنه ينبغى تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم ؛ سدًا للذريعة ودفعًا للوسيلة ، وقطعًا لمادة المفسدة والتطرق إليه ، ثم

---

(١) البزار (٢٠٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ١٢١ : « رجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم وهو ثقة » وصححه الحاكم على شرطهما ١/ ٨ عن أبى هريرة مرفوعًا .

(٢) البزار (٣٠٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ١٢٠ : « رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع ، وهو ثقة» . وأخرجه الطبرانى بنحوه ١٨/ ١٦٢ (٣٥٥) وقال الهيثمى ٥/ ١٠٦ ، ١٠٧ : « وفيه إسحاق بن الربيع العطار ، وثقه أبو حاتم ، وضعفه عمرو بن على ، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) عبد الرزاق (١٨٧٥٣) وإسناده مرسل أو متصل ؛لأن صفوان بن سليم من التابعين المتأخرين ، عاش بين عامى ٦٠ ـ ١٣٢ .

(٤) قال الأعشى ميمون بن قيس :

يُرعى إلى قول سادات الرجال إذا ... أبْدَوْا له الحزمَ أو ما شاءه ابتدعا

انظر : ديوانه ص ٨٦ .

أمرهم الله أن يخاطبوا النبى ﷺ بما لايحتمل النقص ولا يصلح للتعريض ، فقال : ﴿**وقولوا انظرنا**﴾ أى أقبل علينا وانظر إلينا ، فهو من باب الحذف والإيصال ، كما قال الشاعر :

ظَاهِراتُ الْجمَال وَالْحسْنِ يَنْظُر ... نَ كَمَا يَنْظُر الأرَاكَ الظِّبَاءُ

أى إلى الأراك . وقيل : معناه : انتظرنا وتأنَّ بنا ، ومنه قول الشاعر :

فإنكما إن تنظرانَى ساعةً ... من الدهر تنفعنى لَدَى أمِّ جُنْدَب

وقرأ الأعمش : « أنظرنا » بقطع الهمزة ، وكسر الظاء ، بمعنى أخرنا وأمهلنا ، حتى نفهم عنك ، ومنه قول الشاعر :

أبَا هندٍ فلا تعجل علينا ... وأنْظِرنا نخبِّرك اليقينا

وقرأ الحسن : « راعنا » بالتنوين ، وقال : الراعن من القول السخرىٌ منه . انتهى . وأمرهم بعد هذا النهى والأمر بأمر آخر وهو قوله : ﴿ **واسمعوا** ﴾ أى اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه ، ومعناه : أطيعوا الله فى ترك خطاب النبى ﷺ بذلك اللفظ ، وخاطبوه بما أمرتم به ، ويحتمل أن يكون معناه : اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع ، حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة ، ثم توعد اليهود بقوله : ﴿ **وللكافرين عذاب أليم**﴾، ويحتمل أن يكون وعيدًا شاملا لجنس الكفرة . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ :﴿ **راعنا** ﴾ لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه ﷺ ، نظير الذى ذكر عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تقولوا للعنب الكرم ،ولكن قولوا الحَبَلَة »(١) و«ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى»(٢) وما أشبه ذلك .

وقوله : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ الآية . فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين ، حيث لا يودون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه .ثم ردَّ الله سبحانه ذلك عليهم فقال : ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء**﴾ الآية . وقوله ﴿ **أن ينزل** ﴾ فى محل نصب على المفعولية ، و « من » فى قوله : ﴿ **من خير** ﴾ زائدة ، قاله النحاس . وفى الكشاف(٣) أن «من» فى قوله : ﴿ **من أهل الكتاب** ﴾ بيانية ، وفى قوله : ﴿ **من خير** ﴾ مزيدة لاستغراق الخير ، وفى قوله : ﴿ **من ربكم** ﴾ لابتداء الغاية . وقد قيل :بأن الخير: الوحى . وقيل غير ذلك ، والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أى خير كان ، فهو لا يختص بنوع معين ، كما يفيده وقوع هذه النكرة فى سياق النفى ، وتأكيد العموم بدخول « من » المزيدة عليها ، وإن كان

(١) الحديث عن وائل بن حُجْر ، أخرجه مسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٨ / ١١ ،١٢) والدارمى فى الأشربة ١١٨/٢ .

(٢) الحديث عن أبى هريرة ، أخرجه البخارى فى العتق (٢٥٥٢) ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٩ / ١٣ ــ ١٥) وأحمد ٢/ ٤٤٤ ، ٤٩٦ .

(٣) ١/ ١٣٠ .ط . الاستقامة بمصر .

بعض أنواع الخير أعظم من بعض ، فذلك لايوجب التخصيص . والرحمة قيل : هى القرآن . وقيل: النبوة . وقيل : جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى: ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ أى صاحب الفضل العظيم فكيف لا تودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده ؟

وقد أخرج سعيد بن منصور فى سننه ، وأحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن رجلا أتاه فقال : اعهد إلىَّ فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ فأوعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه[(١)] . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : ﴿**راعنا**﴾ بلسان اليهود : السب القبيح ، وكان اليهود يقولون ذلك لرسول الله سرا ، فلما سمعوا أصحابه يقولون ذلك أعلنوا بها فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم ، فأنزل الله الآية . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عنه أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية : من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه . فانتهت اليهود بعد ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدى قال : كان رجلان من اليهود مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد ، إذا لقيا النبى ﷺ قالا له وهما يكلمانه : راعنا سمعك ، واسمع غير مسمع ، فظن المسلمون أن هذا شىء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ، فقالوا للنبى ﷺ ، فأنزل الله الآية [(٢)] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صخر قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا أدبرناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فقالوا : ارعنا سمعك ، فأعظم الله رسوله أن يقال له ذلك ، وأمرهم أن يقولوا : ﴿ **انظرنا** ﴾ ليعزروا [(٣)] رسول الله ﷺ ويوقروه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن قتادة ؛ أن اليهود كانت تقول ذلك استهزاءً . فكره الله للمؤمنين أن يقولوا كقولهم . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن مجاهد قال : الرحمة : القرآن والإسلام .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) ﴾ .

النسخ فى كلام العرب على وجهين : أحدهما : النقل ، كنقل كتاب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخًا، أعنى من اللوح المحفوظ ، فلا مدخل لهذا المعنى فى هذه الآية ، ومنه: ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية : ٢٩] أى نأمر بنسخه . الوجه الثانى : الإبطال والإزالة . وهو المقصود هنا . وهذا الوجه الثانى ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة ،

(١) أحمد فى الزهد ص ٢٣١ (٨٦٤) وأبو نعيم فى الحلية ١/ ١٣٠ والبيهقى فى الشعب (١٨٨٦) إسناده لا بأس به وفيه انقطاع .

(٢) ابن جرير ١/ ٣٧٤، ٣٧٥ وهو مرسل . (٣) فى المطبوعة : « ليعززوا » والصحيح ما أثبتناه كما بالمخطوطة .

أحدهما : إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ، ومنه : نسخت الشمس الظل : إذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ وفي صحيح مسلم : « لم تكن نبوّة قط إلا تناسخت »[١] أي تحولت من حال إلى حال . والثاني : إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم : نسخت الريح الأثر ، ومن هذا المعنى : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾ [الحج: ٥٢] أي يزيله . وروى عن أبي عبيد ، أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله ﷺ ، فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب ، ومنه : ما روى عن أُبَىّ ، وعائشة ، أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول[٢]. قال ابن فارس : النسخ نسخ الكتاب ، والنسخ أن تزيل أمرًا كان من قبل يعمل به ، ثم تنسخه بحادث غيره ، كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى ، وكل شيء خلف شيئًا فقد انتسخه ، يقال : نسخت الشمس الظل ، والشيب الشباب ، وتناسخ الورثة أن يموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم ، وكذا تناسخ الأزمنة والقرون . وقال ابن جرير : ﴿ ما ننسخ ﴾ ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره ، وذلك أن نحول الحلال حرامًا ، والحرام حلالاً ، والمباح محظورًا ، والمحظور مباحًا ، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولامنسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرى فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره وسواء نسخ حكمها أو خطها ، إذ هي في كلتي حالتيها منسوخة . انتهى .

وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره ، بل نحيل من أراد الاستشفاء عليه . وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفًا وخلفًا ، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتدّ بخلافه ولا يؤبه لقوله . وقد اشتهر عن اليهود ، أقمأهم الله إنكاره ،وهم محجوجون بما في التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه ، ثم حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيرًا من الحيوان . وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من الأخت ، وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره . وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ، ثم قال الله له : لا تذبحه ، وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم ، ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم .

وقوله : ﴿ أو ننسها ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والهمز، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأبي بن كعب وعبيد بن عمير والنخعي وابن محيصن، ومعنى هذه

---

(١) من خطبة لعتبة بن غزوان ، عند مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٧ / ١٤) .
(٢) أخرجه أحمد عن أبي بن كعب ٥/ ١٣٢ .

القراءة نؤخرها عن النسخ ، من قولهم : نسأت هذا الأمر: إذا أخرته . قال ابن فارس : ويقولون : نسأ الله فى أجلك ، وأنسأ الله أجلك وقد انتسأ القوم : إذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأتهم أنا : أخرتهم . وقيل : معناه : نؤخر نسخ لفظها ، أى نتركه فى أم الكتاب فلا يكون. وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر ، وقرأ الباقون : ﴿ نُنسها ﴾ بضم النون، من النسيان الذى بمعنى الترك ، أى نتركها فلا نبدلها ، ولا ننسخها ومنه قوله تعالى :﴿ نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة : ٦٧] أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وحكى الأزهرى أن معناه : نأمر بتركها ، يقال : أنسيته الشىء ، أى أمرته بتركه ، ونسيته تركته ، ومنه قول الشاعر :

إن علىّ عُقْبة[1] أَقْضِيها لستُ بناسِيها ولا مُنْسِيها

أى ولا آمر بتركها . وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك ، لا يقال : أنسى بمعنى ترك ؛ قال : وما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ أو ننسها﴾ قال : نتركها لا نبدلها فلا يصح ، والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى : ﴿أو ننسها ﴾ :نبح لكم تركها ، من نسى إذا ترك ثم تعديه . ومعنى ﴿ **نأت بخير منها أومثلها**﴾ نأت بما هو أنفع للناس منها فى العاجل والآجل، أو فى أحدهما ، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة ، ومرجع ذلك إلى إعمال النظر فى المنسوخ والناسخ فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم فى العاجل ، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع لهم فى الآجل ، وقد يستويان فتحصل المماثلة .

وقوله : ﴿ **ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير** ﴾ يفيد أن النسخ من مقدوراته ، وأن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية ، وهكذا قوله : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض** ﴾ أى له التصرف فى السموات والأرض، بالإيجاد والاختراع ، ونفوذ الأمر فى جميع مخلوقاته . فهو أعلم بمصالح عباده ، وما فيه النفع لهم من أحكامه التى تعبدهم بها ، وشرعها لهم ، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأشخاص ، وهذا صنع من لا ولىّ لهم غيره ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والإجلال .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى ، وابن عدى وابن عساكر عن ابن عباس ؛ قال : كان مما ينزل على النبى ﷺ الوحى بالليل وينساه بالنهار ، فأنزل الله : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**﴾ وفى إسناده الحجاج الرَّقِّى [2] ينظر فيه. وأخرج الطبرانى عن ابن عمر قال : قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله ﷺ وكانا يقرآن

---

(١) العُقبة ــ بضم فسكون ــ : من معانيها : الإبل يرعاها الرجل ويسقيها ، والمعنى : أنا أسوق عقبتى وأحسن رعيها .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « الجزرى » والصحيح ما أثبتناه كما أورده ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء ٢٣٨/٦ ، ٢٣٩ وفيه محمد بن الزبير الرقى منكر الحديث ، عن حجاج الرقى ولسان الميزان ٢٢٨/٢ .

بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديَيْن على رسول الله ﷺ فقال : «إنها مما نُسخ أو نُسى فالهوا عنها » وفى إسناده سليمان بن أرقم وهو ضعيف(١) .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: « ما ننسخ من آية أو ننسأها » يقول : ما نبدل من آية أونتركها لا نبدلها ﴿ **نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ يقول : خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال : ننسأها : نؤخرها . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ما ننسخ من آية**﴾ قال :نثبت خطها ونبدل حكمها « أو ننسأها » قال : نؤخرها . وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ يقول : فيها تخفيف ، فيها رخصة، فيها أمر ، فيها نهى .

وأخرج أبو داود فى ناسخه، وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وأبو ذر الهروى فى فضائله عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ؛ أن رجلاً كانت معه سورة ، فقام من الليل فقام بها ، فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأ بها فلم يقدر عليها ، وقام آخر فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فأتوا رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا عنده فأخبروه ، فقال : « إنها نسخت البارحة » . وقد روى نحوه من وجه آخر . وقد ثبت فى البخارى وغيره عن أنس ؛ أن الله أنزل فى الذين قتلوا فى بئر معونة : « أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ (٢) . وهكذا ثبت فى مسلم وغيره ، عن أبى موسى قال : كنا نقرأ سورة نشبهها فى الطول والشدة ببراءة فأنسيتُها ، غير أنى حفظت منها : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثًا ولا يملأ جوفه إلا التراب » ، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ، أولها : سبح لله ما فى السموات ، فأنسيناها ، غير أنى حفظت منها : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة » (٣) ، وقد روى مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر(٤).

﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا**

(١) الطبرانى (١٣١٤١) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/٣١٨ : « وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك » .
(٢) البخارى فى الجهاد (٢٨١٤) وفى المغازى (٤٠٩٥) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٧ / ٢٩٧) .
(٣) مسلم فى الزكاة (١٠٥٠ / ١١٩) .
(٤) عبد الرزاق (٥٩٩٠) وأحمد ٥/١٨٣ وصححه ابن حبان (٤٤١١ ، ٤٤١٢) والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٣٥٠ (٨٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/٢٦٨ : « ورجاله رجال الصحيح » ، لكنه عن أبى بن كعب ، لا عن عمر ابن الخطاب ، أما حديث عمر فأخرجه مالك ٢/ ٨٢٤ (١٠) وابن ماجة فى الحدود (٢٥٥٣) والدارمى فى الحدود ٢/ ١٧٩ والبزار (١٧٣٦) .

مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾ .

« أم » هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل ، أى بل تريدون ، وفى هذا توبيخ وتقريع ، والكاف فى قوله :﴿**كما سئل**﴾ فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، أى سؤالا مثل ما سئل موسى من قبل ، حيث سألوه أن يريهم الله جهرة ، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتى بالله والملائكة قبيلا . وقوله : ﴿ **سواء** ﴾ هو الوسط من كل شىء قاله أبو عبيدة ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فى سواء الجحيم ﴾ [الصافات : ٥٥] ومنه قول حسان يرثى النبى ﷺ :

يَا وَيْحَ أَصْحَابِ النَّبى وَرَهْطِهِ ... بَعْدَ المُغَيَّبِ فِى سَوَاءِ المُلْحَدِ (١)

وقال الفراء : السواء : القصد ، أى ذهب عن قصد الطريق وسمته ، أى طريق طاعة الله. وقوله تعالى : ﴿ **ودَّ كثير من أهل الكتاب** ﴾ فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم وردهم عن الإسلام ، والتشكيك عليهم فى دينهم ، وقوله : ﴿ **لو يردونكم** ﴾ فى محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور . وقوله : ﴿ **من عند أنفسهم** ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿ **ودَّ**﴾ أى ودوا ذلك من عند أنفسهم ، ويحتمل أن يتعلق بقوله : ﴿ **حسدًا**﴾ أى حسدًا ناشئًا من عند أنفسهم وهو علة لقوله : ﴿ **ودَّ** ﴾ . والعفو : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس ، صفحت عن فلان : إذا أعرضت عن ذنبه ، وقد ضربت عنه صفحًا : إذا أعرضت عنه ، وفيه الترغيب فى ذلك والإرشاد إليه وقد نسخ ذلك بالأمر بالقتال ، قاله أبو عبيدة .

وقوله : ﴿ **حتى يأتى الله بأمره** ﴾ هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو والصفح ، أى افعلوا ذلك إلى أن يأتى إليكم الأمر من الله سبحانه فى شأنهم بما يختاره ويشاؤه ، وما قد قضى به فى سابق علمه ، وهو قتل من قتل منهم ، وإجلاء من أجلى ، وضرب الجزية على من ضربت عليه ، وإسلام من أسلم . وقوله : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ، ويعود عليهم بالمصلحة ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وتقديم الخير الذى يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال : قال رافع بن حُرَيْملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : ائتنا بكتاب يَنزِّل علينا من السماء نقرؤه ، أو فجِّر لنا أنهارًا نتَّبعك ونصدقك ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم** ﴾ إلى قوله:

---

(١) ديوانه ص ٩٨ ، والمُغيَّب : مصدر غيبه فى الأرض ، أى داراه ، والمُلْحدَ ــ بضم الميم وفتح الحاء بينهما لام ساكنة ــ : هو اللحد والقبر .

﴿ **سواء السبيل** ﴾ وكان حيى بن أخطب [وأبو ياسر بن أخطب][١] . من أشد اليهود حسدًا للعرب ، إذ خصهم الله برسوله وكانا جاهديْن فى رد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ **ودّ كثير من أهل الكتاب** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى ؛ قال : سألت العرب محمدًا ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرًا فنزلت هذه الآية [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : قال رجل : لو كانت كفَّاراتنا كفَّارات بنى إسرائيل ، فقال النبى ﷺ : « **ما أعطاكم الله خيرٌ** ، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه، وكفَّارتَها ، فإن كفَّرها كانت له خزيًا فى الدنيا ، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا فى الآخرة ، وقد أعطاكم الله خيرًا من ذلك قال : ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ﴾ الآية [النساء : ١١٠] ، والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن[٤] ، فأنزل الله : ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم** ﴾ الآية» [٥] . وأخرج ابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال : سألت قريش محمدًا ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، فقال : « نعم ، وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل إن كفرتم » فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله :﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل**﴾ أن يريهم الله جهرة [٦]. وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **ومن يتبدل الكفر بالإيمان** ﴾ قال : يتبدل الشدة بالرخاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿**فقد ضل سواء السبيل** ﴾ قال : عدل عن السبيل .

وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن كعب بن مالك قال: كان اليهود والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى ، فأمر الله بالصبر على ذلك ، والعفو عنهم، وأنزل الله : ﴿ **ودَّ كثير من أهل الكتاب**﴾[٧]. وفى الصحيحين وغيرهما عن أسامة بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى : ﴿ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا ﴾ [آل عمران : ١٨٦] وقال: ﴿**ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم**﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش [٨] . وأخرج ابن

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والمخطوطة .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤٠ ، ١٤١ وابن جرير ١/ ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٣) ابن جرير ١/ ٣٨٥ .

(٤) زاد ابن جرير فى روايته : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها ، ولا يهلك على الله إلا هالك » .

(٥) ابن جرير ١/ ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، وهو مرسل .

(٦) المرجع السابق ١/ ٣٨٥ ، وهو مرسل .

(٧) البيهقى فى الدلائل ٣/ ١٩٦ ، ١٩٧ وعند أبى داود فى الخراج والإمارة (٣٠٠٠) أن الآية هى : ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** .... ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

(٨) البخارى فى التفسير (٤٥٦٦) وفى الأدب (٦٢٠٧) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٨/ ١١٦) والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٧٦ ـ ٥٧٨ .

جرير عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **من عند أنفسهم** ﴾ قال : من قِبلَ أنفسهم ﴿ **من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾ يقول : إن محمدًا رسول الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاعفوا واصفحوا**﴾ وقوله :﴿ وأعرض عن المشركين﴾ [الأنعام : ١٠٦] ونحو هذا فى العفو عن المشركين قال : نسخ ذلك كله بقوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ الآية [التوبة : ٢٩] ، وقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] (١). وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير** ﴾ يعنى : من الأعمال من الخير فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **تجدوه عند الله** ﴾ قال : تجدوا ثوابه .

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **هودًا** ﴾ قال الفراء : يجوز أن يكون هودًا بمعنى يهوديًا ، وأن يكون جمع هائد، وقال الأخفش : إن الضمير المفرد فى كان هو باعتبار لفظ « من » ،والجمع فى قوله : ﴿**هودًا**﴾ باعتبار معنى « من » . قيل : فى هذا الكلام حذف ، وأصله : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا . هكذا قال كثير من المفسرين ، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف ، وظاهر النظم القرآنى أن طائفتى اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم ، ووجه القول بأن فى الكلام حذفًا ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى ، وتنفى عنها أنها على شىء من الدين ، فضلا عن دخول الجنة كما فى هذا الموضع، فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء . والأمانى قد تقدم تفسيرها . والإشارة بقوله :﴿ **تلك** ﴾ إلى ما تقدم لهم من الأمانى التى آخرها أنه لا يدخل الجنة غيرهم . وقيل : إن الإشارة إلى هذه الأمنية الآخرة ، والتقدير : أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، على حذف المضاف ، ليطابق أمانيهم ، قوله : ﴿**هاتوا** ﴾ أصله : هاتيوا حذف الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين ، ويقال للمفرد

(١) وجاءت الآية محرفة فى المطبوعة بحذف الفاء من قوله :﴿ فاقتلوا ﴾ . والأثر عند ابن جرير ١/ ٣٩٠ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٨٢ .

المذكر: هات ، وللمؤنث :هاتى ، وهو صوت بمعنى أحْضر ، والبرهان : الدليل الذى يحصل عنده اليقين. قال ابن جرير : طلب الدليل هنا يقتضى إثبات النظر ويرد على من ينفيه .

وقوله : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أى فى تلك الأمانى المجردة والدعاوى الباطلة ، ثم رد عليهم فقال :﴿ **بلى من أسلم**﴾ وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ، أى ليس كما يقولون ؛ بل يدخلها من أسلم وجهه لله . ومعنى أسلم : استسلم. وقيل: أخلص . وخص الوجه بالذكر ؛ لكونه أشرف ما يرى من الإنسان . ولأنه موضع الحواس الظاهرة .وفيه يظهر العز والذل . وقيل : إن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشىء ، وأن المعنى هنا الوجه وغيره . وقيل : المراد بالوجه هنا: المقصد ، أى من أخلص مقصده . وقوله : ﴿ **وهو محسن** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والضمير فى قوله : ﴿ **وجهه** ﴾ و ﴿**له**﴾ باعتبار لفظ من ، وفى قوله: ﴿ **عليهم** ﴾ باعتبار معناها . وقوله : ﴿ **مَنْ** ﴾ إن كانت الموصولة فهى فاعل لفعل محذوف ، أى بلى يدخلها من أسلم . وقوله : ﴿ **فله** ﴾ معطوف على ﴿ **من أسلم** ﴾ وإن كانت « من » شرطية فقوله : ﴿ **فله** ﴾ هو الجزاء ، ومجموع الشرط والجزاء ردٌّ على أهل الكتاب وإبطال لتلك الدعوى .

وقوله : ﴿ **وقالت اليهود** ﴾ وما بعده فيه أن كل طائفة تنفى الخير عن الأخرى ، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها، تحجرًا لرحمة الله سبحانه . قال فى الكشاف : إن الشىء هو الذى يصح ويعتد به ، قال : وهذه مبالغة عظيمة ؛ لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشىء ، وإذا نفى إطلاق اسم الشىء عليه فقد بولغ فى ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده ، وهكذا قولهم أقل من لا شىء [(١)] . وقوله : ﴿ **وهم يتلون الكتاب** ﴾ أى التوراة والإنجيل ، والجملة حالية . وقيل : المراد :جنس الكتاب ، وفى هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع ؛ لأن الوقوع فى الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو ، وإن كان قبيحًا على الإطلاق، لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشد قبحًا وأفظع جرمًا ، وأعظم ذنبًا . وقوله:﴿**كذلك قال الذين لا يعلمون** ﴾ المراد بهم : كفار العرب ، الذين لا كتاب لهم ، قالوا مثل مقالة اليهود اقتداءً بهم ، لأنهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم . وقيل : المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم ، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولى لفصل هذه الخصومة التى وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه ، فيعذب من يستحق التعذيب ، وينجى من يستحق النجاة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة** ﴾ الآية ، قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ﴿ **تلك أمانيهم** ﴾ قال : أمانى يتمنونها على الله بغير حق ﴿ **قل هاتوا**

---

(١) الكشاف ١/ ١٧٨ ، وقد نقل الشوكانى هذا النص بالمعنى ، وفيه تغاير كبير .

برهانكم﴾[1] قال : حجتكم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ بما تقولونه أنه كما تقولون . ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله**﴾ يقول : أخلص لله . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قل هاتوا برهانكم**﴾ قال : حجتكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **بلى من أسلم وجهه** ﴾ قال : أخلص دينه .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار اليهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء . وكفر بعيسى والإنجيل ، فقال له رجل من أهل نجران : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . قال: فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب** ﴾ أى كل يتلو فى كتابه تصديق من كفر به [2] . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لايعلمون؟ قال : هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى .وأخرج ابن جرير عن السدى قال : هم العرب قالوا : ليس محمد على شيء .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ .

هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه ، وأنه بمنزلة لا ينبغى أن يلحقه سائر أنواع الظلم ، أى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله ، واسم الاستفهام فى محل رفع على الابتداء ، وأظلم خبره . وقوله : ﴿ **أن يذكر فيها اسمه**﴾ قيل : هو بدل من مساجد . وقيل : إنه مفعول له بتقدير كراهية أن يذكر . وقيل : إن التقدير من أن يذكر ، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام ، وقيل : إنه مفعول ثان لقوله : ﴿ **منع** ﴾ والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله: منع من يأتى إليها للصلاة ، والتلاوة ، والذكر ، وتعليمه. والمراد بالسعى فى خرابها : هو السعى فى هدمها ورفع بنيانها ، ويجوز أن يراد بالخراب : تعطيلها عن الطاعات التى وضعت لها ، فيكون أعم من قوله : ﴿ **أن يذكر فيها اسمه** ﴾ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التى بنيت لها المساجد ، كتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف ، وانتظار الصلاة ، ويجوز أن يراد : ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز ، كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله ﴾ [التوبة : ١٨] .

وقوله : ﴿ **ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ أى ما كان ينبغى لهم دخولها إلا حال

---

(١) البرهان : بيان للحجة ، وهو فُعْلان مثل الرجحان والثنيان . وقال بعضهم : مصدر بره يبره : إذا ابيض . والبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذى يقتضى الصدق أبدًا لا محالة . راجع : المفردات ص٤٤ .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤١ وابن جرير ١/ ٣٩٤ .

خوفهم ، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغى لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر ، من غير فرق بين مسجد ومسجد ، وبين كافر وكافر ، كما يفيده عموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب ، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف ، من أن يفطن لهم أحد من المسلمين ، فينزلوا (١) بهم ما يوجب الإهانة والإذلال ، وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم ، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا . والخزى : قيل : هو ضرب الجزية عليهم وإذلالهم . وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تفسيره . والمشرق : موضع الشروق . والمغرب : موضع الغروب ، أى هما ملك لله وما بينهما من الجهات ، والمخلوقات ، فيشمل الأرض كلها .

وقوله : ﴿ فأينما تولوا ﴾ أىْ أىّ جهة تستقبلونها فهناك وجه الله ، أى المكان الذى يرتضى لكم استقباله ، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التى أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[البقرة : ١٥٠] . قال فى الكشاف : والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام ، أو فى بيت المقدس ، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ، فصلوا فى أى بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها ، فإن التولية ممكنة فى كل مكان ، لا تختص أماكنها فى مسجد دون مسجد ، ولافى مكان دون مكان . انتهى (٢) . وهذا التخصيص لا وجه له فإن اللفظ أوسع منه ، وإن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس . وقوله : ﴿ إن الله واسع عليم ﴾ فيه إرشاد إلى سعة رحمته، وأنه يوسع على عباده فى دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شىء كما قال :﴿ وسع كل شىء علما ﴾ [طه : ٩٨] وقال الفراء : الواسع: الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أن قريشًا منعوا النبى ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام، فأنزل الله : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال: هم النصارى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدى قال : هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس . وفى قوله : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ قال : فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه ، وقد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها . وفى قوله : ﴿ لهم فى الدنيا خزى ﴾ قال : أما خزيهم فى الدنيا فإنه إذا قام المهدى وفتحت القسطنطينية قتلهم ، فذلك الخزى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنهم الروم . وأخرج ابن أبى حاتم عن كعب : أنهم النصارى لما ظهروا على بيت المقدس حرقوه . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : هم المشركون حين صدوا رسول الله ﷺ عن البيت يوم الحديبية (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى صالح قال : ليس للمشركين أن

---

(١) فى المخطوطة : « فينزلون » .
(٢) الكشاف ١/ ١٨٠ .
(٣) ابن جرير ١/ ٣٩٧ .

يدخلوا المسجد إلا خائفين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿**لهم فى الدنيا خزى**﴾ قال : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا ، والله أعلم ، شأن القبلة ، قال الله تعالى : ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾ الآية . فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه الله إلى البيت العتيق ، ونسخها ، فقال : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾[١]. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر ؛ قال : كان النبى ﷺ يصلى على راحلته تطوعًا أينما توجهت به ، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية: ﴿ **فأينما** [٢] **تولوا فثم وجه الله**﴾ وقال : فى هذا أنزلت هذه الآية[٣] . وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطنى والحاكم وصححه [٤] . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى على راحلته قبل المشرق فإذا أراد أن يصلى المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى[٥]. وروى نحوه من حديث أنس مرفوعًا أخرجه ابن أبى شيبة ، وأبو داود[٦] .

وأخرج عبد بن حميد والترمذى وضعفه، وابن ماجة وابن جرير وغيرهم عن عامر بن ربيعة ؛ قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدًا فيصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن صلينا على غير القبلة ، فقلنا : يا رسول الله ، لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة . فأنزل الله : ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾ الآية. فقال : « مضت صلاتكم » [٧] . وأخرج الدارقطنى وابن مردويه والبيهقى عن جابر مرفوعًا نحوه ، إلا أنه ذكر أنهم خطوا خطوطا [٨] .وأخرج نحوه ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا . وأخرج نحوه أيضًا سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن عطاء يرفعه وهو مرسل. وأخرج ابن أبى حاتم، عن ابن عباس: ﴿**فثَمَّ وجه الله**﴾ قال : قبلة الله أينما توجهت

---

(١) صححه الحاكم ٢/٢٦٧، ٢٦٨ ووافقه الذهبى، والبيهقى ٢/١٢ . (٢) فى المطبوعة : « أينما » .

(٣) ابن أبى شيبة ٢/٤٩٣ ـ ٤٩٥ والبخارى فى الوتر (١٠٠٠) وفى تقصير الصلاة (١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٨ ، ١١٠٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٠٠/٣٣) وأبو داود فى الصلاة (١٢٢٤) والنسائى فى القبلة ٢/٦١ .

(٤) ابن جرير ١/ ٤٠٠ ، ٤٠١ والدارقطنى فى الوتر ٢/٢١(٤) ، وصححه الحاكم ٢/٢٦٦ ووافقه الذهبى .

(٥) البخارى فى الصلاة (٤٠٠) وفى تقصير الصلاة (١٠٩٩) .

(٦) ابن أبى شيبة ٢/ ٤٩٤ وأبو داود فى الصلاة (١٢٢٥) .

(٧) الترمذى فى الصلاة (٣٤٥) وقال :« ليس إسناده بذاك » وفى التفسير (٢٩٥٧) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٠٢٠) وابن جرير ١/٤٠١ والدارقطنى فى الصلاة (١/ ٢٧٢) . وسبب الضعف أن فى الإسناد أشعث بن سعيد السمان، ولكن قد تابعه عليه عمرو بن قيس عند الطيالسى ص١٥٦(١١٤٥) فالإسناد حسن إن شاء الله .

(٨) الدارقطنى فى الصلاة ١/ ٢٧١ (٤) والبيهقى ٢/ ١٠١ وقال ابن كثير بعد أن أورده : « وهذه الأسانيد فيها ضعف ، ولعله يشد بعضها بعضا » ابن كثير ١/٢٧٨ .

شرقا أو غربا . وأخرج ابن أبى شيبة، والترمذى وصححه وابن ماجة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ؛ قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة والدارقطنى والبيهقى عن ابن عمر مثله (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن عمر نحوه (٣) .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **وقالوا** ﴾ هم اليهود والنصارى . وقيل اليهود : أى قالوا: عزير ابن الله . وقيل النصارى : أى قالوا: المسيح ابن الله . وقيل : هم كفار العرب ، أى قالوا : الملائكة بنات الله . وقوله : ﴿ **سبحانه** ﴾ قد تقدم تفسيره ، والمراد هنا: تبرؤ الله تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد . وقوله : ﴿ **بل له ما فى السموات والأرض** ﴾ ردّ على القائلين بأنه اتخذ ولدًا، أى بل هو مالك لما فى السموات والأرض ، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه ، والولد من جنسهم ،لا من جنسه ، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد . والقانت : المطيع الخاضع ، أى كل من فى السموات والأرض مطيعون له ، خاضعون لعظمته، خاشعون لجلاله . والقنوت فى أصل اللغة أصله القيام . قال الزجاج : فالخلق قانتون ، أى قائمون بالعبودية ، إما إقرارًا، وإما أن يكونوا على خلاف ذلك ، فأثر الصنعة بيِّن عليهم . وقيل : أصله : الطاعة ، ومنه : ﴿والقانتين والقانتات﴾ [الأحزاب : ٣٥] . وقيل : السكون ، ومنه قوله: ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ولهذا قال زيد بن أرقم : كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت : ﴿وقوموا لله قانتين ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام (٤) . وقيل : القنوت: الصلاة ، ومنه قول الشاعر :

قَـــانِتا لله يَتْلوكــــتْبه ... وَعَلى عَمدٍ من النَّاسِ اعْتَزَل

والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة ، قيل : هى ثلاثة عشر معنى ، وهى مبينة ، وقد نظمها بعض أهل العلم كما أوضحت ذلك فى شرحى على المنتقى . وبديع :

(١) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٦٢ والترمذى فى الصلاة (٣٤٢ ــ ٣٤٤) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى إقامة الصلاة ١/ ٣٢٣(١٠١١) .

(٢) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٦٢ والدارقطنى فى الصلاة ١١/ ٢٧٠ ، ٢٧١ (١ ، ٢) والبيهقى ٢/ ٩ ، ورواية ابن أبى شيبة موقوفة .

(٣) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٦٢ والبيهقى ٢/ ٩ موقوفا على عمر .

(٤) أخرجه البخارى فى التفسير (٤٥٣٤) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٩ / ٣٥) وأبو داود فى الصلاة (٩٤٩) .

فعيل للمبالغة ، وهو خبر مبتدأ محذوف ، أى هو بديع سمواته وأرضه ، أبدع الشيء : أنشأه لا عَنْ مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع . وقوله: ﴿ **وإذا قضى أمرًا** ﴾ أى أحكمه وأتقنه . قال الأزهرى : قضى فى اللغة على وجوه ، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه. قيل : هو مشترك بين معان، يقال : قضى بمعنى :خلق ، ومنه : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : ١٢] وبمعنى : أعلم ، ومنه : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ﴾ [الإسراء: ٤] وبمعنى :أمر ، ومنه : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : ٢٣] وبمعنى ألزم، ومنه : قضى عليه القاضى ، وبمعنى : أوفاه ، ومنه : ﴿فلما قضى موسى الأجل ﴾ [القصص : ٢٩] وبمعنى أراد ، ومنه : ﴿ فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [غافر : ٦٨] والأمر واحد الأمور .

وقد ورد فى القرآن على أربعة عشر معنى : الأول : الدين ، ومنه : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله ﴾ [التوبة: ٤٨]، الثانى : بمعنى القول ، ومنه : ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ [المؤمنون: ٢٧] .الثالث : العذاب ، ومنه قوله : ﴿ لما قضى الأمر﴾ [إبراهيم : ٢٢] . الرابع : عيسى ، ومنه : ﴿ إذا قضى أمرا ﴾ [مريم : ٣٥] أى أوجد عيسى عليه السلام . الخامس : القتل ، ومنه : ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ [غافر : ٧٨] . السادس : فتح مكة ، ومنه: ﴿ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ [التوبة : ٢٤] . السابع : قتل بنى قريظة وإجلاء النضير ، ومنه : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ [البقرة : ١٠٩] . الثامن : القيامة ، ومنه : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : ١] . التاسع : القضاء ، ومنه : ﴿ يدبر الأمر﴾ [الرعد: ٢]. العاشر : الوحى ، ومنه : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ [الطلاق: ١٢] . الحادى عشر : أمر الخلائق ، ومنه : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥٣] . الثانى عشر : النصر ، ومنه : ﴿هل لنا من الأمر من شيء ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . الثالث عشر: الذنب ، ومنه : ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ [الطلاق :٩] . الرابع عشر : الشأن ، ومنه: ﴿ وما أمر فرعون برشيد﴾ [هود : ٩٧] ، هكذا أورد هذه المعانى بأطول من هذا بعض المفسرين ، وليس تحت ذلك كثير فائدة ، وإطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها.

وقوله : ﴿ **فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ الظاهر فى هذا المعنى الحقيقى ، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ ، وليس فى ذلك مانع ، ولا جاء ما يوجب تأويله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٣] وقال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : ٤٠] ، وقال : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ [القمر : ٥٠] ، ومنه قول الشاعر :

إذا مـا أراد اللـه أمـرًا فـإنمـا ... يقـول له كـن قوله فيكون

وقد قيل : إن ذلك مجاز ، وأنه لا قول ، وإنما هو قضاء يقضيه ، فعبر عنه بالقول ،

ومنه قول الشاعر ، وهو عمر بن حممة الدوسى [(١)] :

فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طَارَ فِرَاخُه ... إِذَا رَامَ تَطْيَاراً يُقَالُ لَهُ قَعِ [(٢)]

وقال آخر :

قالت جناحاه لساقيه الحقا ... ونجيا لحكمكما أن يمزقا

والمراد بقوله : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون** ﴾ اليهود . وقيل : النصارى ، ورجحه ابن جرير؛ لأنهم المذكورون فى الآية. وقيل : مشركو العرب ، و « لولا » حرف تحضيض ، أى هلا ﴿ **يكلمنا الله** ﴾ بنبوة محمد فنعلم أنه نبى ، أو تأتينا بذلك علامة على نبوته . والمراد بقوله : ﴿ **قال الذين من قبلهم** ﴾ قيل : هم اليهود والنصارى ، فى قول من جعل الذين لايعلمون كفار العرب ، أو الأمم السالفة ، فى قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى، أو اليهود ، فى قول من جعل الذين لايعلمون النصارى ، ﴿**تشابهت** ﴾ أى فى التعنت والاقتراح ، وقال الفراء : ﴿ **تشابهت** ﴾ فى اتفاقهم على الكفر ، ﴿ **قد بينا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ أى يعترفون بالحق ، وينصفون فى القول ، ويذعنون لأوامر الله سبحانه ، لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته ، متبعين لما شرعه لهم .

وقد أخرج البخارى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى : « كذبنى ابن آدم وشتمنى ، فأما تكذيبه إياى ، فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى، فقوله لى ولد ، فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا»[(٣)]. وأخرج نحوه أيضا من حديث أبى هريرة [(٤)] وفى الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سبحانه** ﴾ قال : تنزيه الله نفسه عن السوء ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن موسى بن طلحة عن النبى ﷺ ؛ أنه سئل عن التسبيح أن يقول الإنسان : سبحان الله ، قال : « برأه الله من السوء » [(٥)] . وأخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه عن جده طلحة بن عبيد الله ؛ قال : سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله ، فقال : «هو تنزيه الله من كل سوء » [(٦)] . وأخرجه ابن مردويه عنه من طريق أخرى مرفوعًا ، وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، والضياء فى المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) يقال له : كعب بن حممة ، وهو أحد المعمرين ، زعموا أنه عاش أربعمائة سنة غير عشر سنين ، وهو أحد حكام العرب ، ويقال : إنه هو « ذو الحلم الذى قرعت له العصا ، فضرب به المثل ».

(٢) كتاب المعمرين : ٢٢ وحماسة البحترى : ٢٠٥ ومعجم الشعراء : ٢٠٩ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٤٨٢) . (٤) البخارى فى التفسير (٤٩٧٥) .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٧٦ وقال : « هذا منقطع » .

(٦) صححه الحاكم ١/ ٥٠٢ وتعقبه الذهبى بأنه لا يصح ، وأخرجه البيهقى فى السابق ١/ ٧٦ .

« كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ قال : مطيعون .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **بديع السموات والأرض**﴾ يقول : ابتدع خلقهما ولم يشركه فى خلقهما أحد . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : قال رافع بن حُرَيْملة لرسول الله ﷺ : يامحمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون** ﴾ الآية [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ؛ أنهم كفار العرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : هم النصارى والذين من قبلهم يهود .

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **بشيرًا ونذيرًا** ﴾ يحتمل أن يكون منصوبًا على الحال ، ويحتمل أن يكون مفعولا له ، أى أرسلناك لأجل التبشير والإنذار . وقوله : ﴿ **ولا تسأل** ﴾ قرأه الجمهور بالرفع مبنيًا للمجهول ، أى حال كونك غير مسؤول، وقرئ بالرفع مبنيًا للمعلوم . قال الأخفش : ويكون فى موضع الحال عطفًا على ﴿ **بشيرا ونذيرا** ﴾ أى حال كونك غير سائل عنهم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم ، وقرأ نافع :﴿ **ولا تسأل**﴾ بالجزم، أى لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء ، ولا يصدر منك السؤال عمن مات منهم على كفره ومعصيته، تعظيماً لحاله وتغليظًا لشأنه ، أى إن هذا أمر فظيع وخطب شنيع ، يتعاظم المتكلم أن يجريه على لسانه أويتعاظم السامع أن يسمعه .

قوله : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود** ﴾ الآية ، أى ليس غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات ، ويوردونه من التعنتات ، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون ، وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك ، ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل فى دينهم، ويتبع ملتهم ، والملة : اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسن أنبيائه ، وهكذا الشريعة ، ثم ردّ عليهم سبحانه فأمره بأن يقول لهم : ﴿ **إن هدى الله هو الهدى** ﴾ الحقيقى لا

---

(١) أحمد ٣ / ٧٥ وأبو يعلى (١٣٧٩) وابن جرير ٢/ ٣٥٣ وصححه ابن حبان (٣٠٩) ، وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣٢٥ ، وقال ابن كثير ١/ ٢٨١ بعد أن ساق طريق ابن أبى حاتم ، وأشار إلى طريق أحمد : « ولكن فى هذا الإسناد ضعف ، لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابى أو من دونه ، والله أعلم . وكثيرا مايأتى بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة ، فلا يغتر بها ، فإن فيها الضعيف ».

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤١ ، ١٤٢، وابن جرير ١/ ٤٠٧ .

ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة ، والكتب المحرفة ، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ إن اتبع أهواءهم ، وحاول رضاهم وأتعب نفسه فى طلب ما يوافقهم . ويحتمل أن يكون تعريضًا لأمته وتحذيرًا لهم أن يوافقوا شيئًا من ذلك ، أو يدخلوا فى أهوية أهل الملل ، ويطلبوا رضا أهل البدع .

وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب ، وتتصدع منه الأفئدة ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ، ترك الدِّهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء ، التاركين للعمل بالكتاب والسنة ، المؤثرين لمحض الرأى عليهما ، فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه لينًا لايرضيه إلا اتباع بدعته ، والدخول فى مداخله ، والوقوع فى حبائله ، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم مايستفيد به أن هدى الله هو ما فى كتابه وسنة رسوله ، لا ماهم عليه من تلك البدع التى هى ضلالة محضة ، وجهالة بينة ، ورأى منهار ، وتقليد على شفا جرف هار فهو إذ ذاك ما له من الله من ولى ولا نصير ، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة ، وهالك بلا شك ولا شبهة .

وقوله : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ قيل : هم المسلمون ، والكتاب هو القرآن . وقيل : من أسلم من أهل الكتاب . والمراد بقوله : ﴿ **يتلونه** ﴾ أنهم يعملون بما فيه فيحلُّون حلاله ، ويحرمون حرامه ، فيكون من تلاه يتلوه : إذا اتبعه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ [الشمس : ٢] أى اتبعها ، كذا قيل ، ويحتمل أن يكون من التلاوة ، أى يقرؤونه حق قراءته لا يحرفونه ولا يبدلونه . وقوله : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ مبتدأ وخبره : ﴿ **يتلونه**﴾ أو الخبر قوله : ﴿**أولئك**﴾ مع ما بعده .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله ﷺ : « ليت شعرى ما فعل أبواى » فنزل : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم**﴾ ، فما ذكرهما حتى توفاه الله (١) . قال السيوطى : هذا مرسل ضعيف الإسناد . ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبى عاصم مرفوعًا وقال : هو معضل الإسناد ضعيف ، لا تقوم به ولا بالذى قبله حجة (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال : ﴿ **الجحيم** ﴾ ما عظم من النار . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس قال : إن يهود المدينة ، ونصارى نجران ، كانوا يرجون أن يصلى النبى ﷺ إلى قبلتهم ، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم ، وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم ، فأنزل الله : ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى** ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة فى قوله : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى

---

(١) ابن جرير ١/ ٤٠٩ وابن كثير ١/ ٢٨٤ ، ٢٨٥ . (٢) ابن جرير ١/ ٤٠٩ والسيوطى فى الدر المنثور ١/ ١١١ .

قوله : ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾ قال : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه . وأخرجوا عنه أيضًا قال : يتبعونه حق اتباعه، ثم قرؤوا : ﴿والقمر إذا تلاها﴾ [الشمس :٢] يقول : اتبعها . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن عمر بن الخطاب قال فى قوله : ﴿**يتلونه حق تلاوته** ﴾ إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوّذ بالله من النار. وأخرج الخطيب فى كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾ قال: « يتبعونه حق اتباعه » . وكذا قال القرطبى فى تفسيره إن فى إسناده مجاهيل ، قال : لكن معناه صحيح [(١)] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير من طرق عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية مثل ما سبق عن ابن عباس فى قوله : «يحلون حلاله » إلى آخره . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال : يتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى هذه الآية قال : هم أصحاب محمد ، ثم حكى نحو ذلك عن عمر بن الخطاب . وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾ قال: يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ .

قوله : ﴿ **يابنى إسرائيل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولا هم ينصرون** ﴾ قد سبق مثل هذا فى صدر السورة ، وتقدم تفسيره ، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبى الأمى ، ذكر معناه ابن كثير فى تفسيره . وقال البقاعى فى تفسيره : إنه لما طال المدى فى استقصاء تذكيرهم بالنعم ، ثم فى بيان عوارهم ، وهتك أستارهم وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم ، وأحوالهم وأقوالهم أعاد ما صدَّر به قصتهم من التذكير بالنعم ، والتحذير من حلول النقم ، يوم تجمع الأمم ، ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم ؛ ليعلم أن ذلك فذلكة القصة والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة . انتهى . وأقول: ليس هذا بشىء فإنه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى ، وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك ، لكان الأولى بالتكرار ، والأحق بإعادة الذكر هو قوله سبحانه : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾[البقرة : ٤٠] فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم فى هذه السورة ، هى أولى بأن تعاد وتكرر ؛ لما فيها من الأمر بذكر

---

(١) رواه الخطيب فى « اقتضاء العلم العمل » ص ١١٨ ، وأورده الذهبى فى الميزان ٤/ ٢٥٣ فى ترجمة نصر بن عيسى ، ونقل قول الخطيب فيه .

النعم ، والوفاء بالعهد ، والرهبة لله سبحانه ، وبهذا تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه فى خطاب بنى إسرائيل من هذه السورة فراجعه . ثم حكى البقاعى بعد كلامه السابق عن الحوالى أنه قال : كرره تعالى إظهارًا لمقصد التثام آخر الخطاب بأوله ، وليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلاً ، لما يمكن بأن يرد من نحوه فى سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية فيتلوها ليكون فى تلاوته جامعًا لطرفى الثناء ، وفى تفهيمه جامعًا لمعانى طرفى المعنى . انتهى .

وأقول : لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك . وأما قوله : وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار فى سائر القرآن ، فمعلوم أن حصول هذا الأمر فى الأذهان ، وتقرره فى الأفهام ، لا يختص بتكرير آية معينة، يكون افتتاح هذا المقصد بها ، فلم تتم حينئذ النكتة فى تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما ، ولله الحكمة البالغة التى لا تبلغها الأفهام ، ولا تدركها العقول، فليس فى تكلف [(١)] هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هنالك، فتذكر.

قوله : ﴿ **وإذ ابتلى** ﴾ الابتلاء : الامتحان والاختبار ، أى ابتلاه بما أمره به ، و ﴿**إبراهيم** ﴾ معناه فى السريانية : أب رحيم ، كذا قال الماوردى . قال ابن عطية : ومعناه فى العربية ذلك . قال السهيلى : وكثيرًا ما يقع الاتفاق بين السريانى والعربى . وقد أورد صاحب الكشاف هنا سؤالا فى رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير ، وأجاب عنه بأنه قد تقدم لفظا فرجع إليه ، والأمر فى هذا أوضح من أن يشتغل بذكره أو ترد فى مثله الأسئلة ، أو يسود وجه القرطاس بإيضاحه . وقوله : ﴿ **بكلمات** ﴾ قد اختلف العلماء فى تعيينها ، فقيل : هى شرائع الإسلام . وقيل : ذبح ابنه . وقيل : أداء الرسالة ؛ وقيل : هى خصال الفطرة . وقيل : هى قوله : ﴿ **إنى جاعلك للناس إمامًا** ﴾ . وقيل : بالطهارة كما سيأتى بيانه . قال الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم . انتهى . وظاهر النظم القرآنى أن الكلمات هى قوله : ﴿ **قال إنى جاعلك** ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بيانًا للكلمات، وسيأتى عن بعض السلف مايوافق ذلك ، وعن آخرين ما يخالفه ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ **قال إنى جاعلك للناس** ﴾ مستأنفًا كأنه قيل [(٢)] :ماذا قال له . وقال ابن جرير ما حاصله : إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين، إلا بحديث أو إجماع ، ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له . ثم قال : فلو قال قائل : إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب يعنى أن الكلمات هى قوله : ﴿**إنى جاعلك للناس إمامًا** ﴾ وقوله : ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم** ﴾ وما بعده . ورجح ابن كثير أنها تشمل جميع ما ذكر، وسيأتى التصريح بما هو الحق بعد إيراد ماورد عن السلف الصالح .

---

(١) فى المطبوعة : « تكليف » والصحيح ما أثبتناه كما بالمخطوطة .

(٢) فى المطبوعة : « كأنه ماذا . . . » ، والصحيح ما أثبتناه كما بالمخطوطة .

وقوله : ﴿ فأتمهنَّ ﴾ أى قام بهن أتم قيام ، وامتثل أكمل امتثال ، والإمام هو مايؤتم به، ومنه قيل للطريق : إمام ، وللبناء : إمام ؛ لأنه يؤتم بذلك ، أى يهتدى به السالك ، والإمام لما كان هو القدوة للناس ، لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه ، أطلق عليه هذا اللفظ . وقوله : ﴿ ومن ذريتى ﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم ، أى واجعل من ذريتى أئمة ، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام ، وإن لم يكن بصيغته ، أى ومن ذريتى ماذا يكون يارب ؟ فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك ، ولا يقومون به ، ولا ينالهم عهد الله سبحانه . والذرية : مأخوذة من الذر ؛ لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذر . وقيل : مأخوذة من ذرأ الله الخلق يذرؤهم : إذا خلقهم . وفى الكتاب العزيز: ﴿ فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ [الكهف : ٤٥] قال فى الصحاح : ذرت الريح السحاب وغيره تذروه وتذريه ذرواً وذريًا ، أى نسفته ، وقال الخليل : إنما سموا ذرية ؛ لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر ، واختلف فى المراد بالعهد ، فقيل : الإمامة . وقيل : النبوة . وقيل : عهد الله : أمره . وقيل : الأمان من عذاب الآخرة، ورجحها الزجاج . والأول أظهر كما يفيده السياق .

وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لابد أن يكون من أهل العدل ، والعمل بالشرع ، كما ورد ؛ لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالمًا ، ويمكن أن ينظر إلى مايصدق عليه اسم العهد وما تفيده الإضافة من العموم ، فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ ، من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق ، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم فى كل من تعلق بالأمور الدينية ، وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة فى الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالم ، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه. انتهى . ولا يخفاك أنه لا جدوى لكلامه هذا . فالأولى أن يقال : إن هذا الخبر فى معنى الأمر لعباده ألا يولوا أمور الشرع ظالمًا ، وإنما قلنا : إنه فى معنى الأمر؛ لأن أخباره تعالى لا يجوز أن تتخلف ، وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة وغيرها كثير من الظالمين .

قوله : ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ هو الكعبة ، غلب عليه كما غلب النجم على الثريا ، و ﴿مثابة ﴾ مصدر من ثاب يثوب مثابًا ومثابة ، أى مرجعًا يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه ، ومنه قول ورقة بن نوفل فى الكعبة :

مَثَـاب لأفـنَـاءِ القَبَائـلِ كُلِّهـا   تَخُبُّ إلَيْها اليَعْمَلاتُ الذَّواملُ (١)

وقرأ الأعمش :« مثابات » . وقيل : المثابة من الثواب ، أى يثابون هنالك . وقال مجاهد : المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم ، قال الشاعر :

(١) فى المطبوعة : « الذوابل » والصحيح « الذوامل » وهذا بيت من قصيدة لورقة بن نوفل ، ذكره الشافعى فى الأم ٢/ ١٤١ . ط . دار المعرفة ــ بيروت ــ وأبو حيان فى تفسيره ١/ ٣٨٠ . ومعنى تخب : تسرع وتعدو ، واليعملات : النوق النجيبة المعتملة المطبوعة ، والذوامل: جمع ذمول ، وهى الناقة التى تسير سيراً لينًا .

جُعِلَ البيْتُ مَثَابات لَهُم ... لَيْسَ منه الدهرَ يَقْضُونَ الوَطَرْ

قال الأخفش : ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه فهى كعلامة ونسابة . وقال غيره : هى للتأنيث ، وليست للمبالغة، وقوله : ﴿ وأمناً ﴾ هو اسم مكان ، أى موضع أمن . وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ إليه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ [آل عمران : ٩٧] وقيل : إن ذلك منسوخ . وقوله : ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ قرأ نافع وابن عامر ، بفتح الخاء ، على أنه فعل ماض ، أى جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوه مصلى . وقرأ الباقون على صيغة الأمر عطفًا على ﴿**اذكروا** ﴾ المذكور أول الآيات أو على « اذكروا » المقدر عاملاً فى قوله : ﴿ **وإذ** ﴾ ، ويجوز أن يكون على تقدير القول ، أى وقلنا : اتخذوا . والمقام فى اللغة : موضع القيام. قال النحاس : هو من قام يقوم ، يكون مصدرًا واسمًا للموضع . ومقام من أقام ، وليس من هذا قول الشاعر(١) :

وَفِيهم مَقَامات حِسانٌ وجوهها ... وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

لأن معناه : أهل مقامات . واختلف فى تعيين المقام على أقوال ، أصحها أنه الحجر الذى يعرفه الناس ، ويصلون عنده ركعتى الطواف ، وقيل : المقام : الحج كله ، روى ذلك عن عطاء ومجاهد . وقيل : عرفة ، والمزدلفة، روى عن عطاء أيضًا. وقال الشعبى : الحرم كله : مقام إبراهيم ، وروى عن مجاهد .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه** ﴾ قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس؛ وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عنه ؛ قال : ما ابتلى أحد بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم. وقرأ هذه الآية ؛ فقيل له : ما الكلمات ؟ قال: سهام الإسلام ثلاثون سهما : عشرة فى براءة ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية[التوبة : ١١٢] ، وعشرة فى أول سورة ﴿ قد أفلح﴾ [المؤمنون :١] و﴿ سأل سائل ﴾ [المعارج: ١]. ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ الآيات [المعارج : ٢٦]، وعشرة فى الأحزاب ﴿ إن المسلمين ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: ٢٥]،

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية . توفى عام ١٣ ق . هـ ، وله ديوان شعر .

(٢) ابن جرير ١/٤١٤ ، ٤١٥، وصححه الحاكم ٢/٢٦٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ١/١٤٩ .

فأتمهن كلهن فكتب له براءة قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ [النجم : ٣٧] (١) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم عنه قال : منهن مناسك الحج . وأخرج ابن جرير عنه قال : الكلمات : ﴿ **إنى جاعلك للناس إماما** ﴾ و﴿ **إذ يرفع إبراهيم القواعد** ﴾ والآيات فى شأن المناسك ، والمقام الذى جعل لإبراهيم ، والرزق الذى رزق ساكنو البيت وبعث محمد فى ذريتهما .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات**﴾ قال : ابتلى بالآيات التى بعدها . وأخرجا أيضًا عن الشعبى مثله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه ، من خطر الأمر الذى فيه خلافُهم (٢) ، وصبره على قذفهم إياه فى النار ليحرقوه فى الله ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها ، وما ابتلى به من ذبح ولده ، فلما مضى على ذلك كله قال الله له :﴿ **أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ .وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأتمهن** ﴾ قال : فأداهُنّ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : قال رسول الله ﷺ : « من فطرة إبراهيم السواك»(٣) .قلت : وهذا على تقدير أن إسناده إلى عطاء صحيح فهو مرسل لا تقوم به الحجة، ولا يحل الاعتماد على مثله فى تفسيره كلام الله سبحانه ، وهكذا لا يحل الاعتماد على مثل ما أخرجه ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : من فطرة إبراهيم غسل الذكر والبراجم ، ومثل ما أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه عنه قال : ست من فطرة إبراهيم : قص الشارب ، والسواك ، والفرق ، وقص الأظافر ، والاستنجاء ، وحلق العانة ، قال : ثلاثة فى الرأس ، وثلاثة فى الجسد . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة (٤) ، ولم يصح عن النبى ﷺ أنها الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم ، وأحسن ما روى عنه أخرجه الترمذى وحسنه عن ابن عباس قال : « كان النبى ﷺ يقصّ أو يأخذ من شاربه » . قال : « وكان خليل الرحمن إبراهيم يفعله » (٥) . ولا يخفاك أن فعل الخليل له لا يستلزم أنه من الكلمات التى ابتلى بها ، وإذا لم يصح شىء عن رسول الله ﷺ ، ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات ، لم يبق لنا إلا أن نقول:

(١) ابن أبى شيبة (١١٧٨) وابن جرير ١/ ٤١٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٥٢ ووافقه الذهبى .
(٢) فى المطبوعة : « خلاقهم » والصواب ما أثبتناه كما فى المخطوطة .
(٣) هذا حديث مرسل .
(٤) حديث خصال الفطرة عن عائشة أخرجه مسلم فى الطهارة (٢٦١ / ٥٦) وأبو داود فى الطهارة (٥٣) .
(٥) الترمذى فى الأدب (٢٧٦٠) وقال : « حسن غريب ».

إنها ما ذكره الله سبحانه فى كتابه بقوله : ﴿ **قال إنى جاعلك** ﴾ إلى آخر الآيات ، ويكون ذلك بيانا للكلمات أو السكوت ، وإحالة العلم فى ذلك على الله سبحانه .

وأما ما [١] روى عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم فى تعيينها، فهو أولا : أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة ، فضلا عن أقوال من بعدهم ، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد فى ذلك وأن له حكم الرفع ، فقد اختلفوا فى التعيين اختلافًا يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم ، دون البعض الآخر ، بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم ، كما قدمنا عن ابن عباس ، فكيف يجوز العمل بذلك ؟ وبهذا تعرف ضعف قول من قال : إنه يصار إلى العموم ، ويقال: تلك الكلمات هى جميع ما ذكر هنا ، فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض ، وما لا تقوم به الحجة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس﴿ **قال إنى جاعلك للناس إمامًا** ﴾ يقتدى بدينك وهديك وسنتك ﴿ **قال ومن ذريتى** ﴾ إماماً لغير ذريتى ﴿ **قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ أن يقتدى بدينهم وهديهم وسنتهم . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم عنه قال : قال الله لإبراهيم: ﴿ **إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى** ﴾ فأبى أن يفعل ، ثم قال : ﴿ **لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ؛ قال : هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالم ، فأما فى الدنيا فقد نالوا عهده ، فوارثوا به المسلمين وغازوهم وناكحوهم ، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية أنه قال : لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدى به . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : يخبره أنه إن كان فى ذريته ظالم لا ينال عهده ، ولا ينبغى له أن يوليه شيئًا من أمره . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أنه قال :ليس لظالم عليك عهد فى معصية الله . وقد أخرج وكيع وابن مردويه من حديث على عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿**لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ قال :« لا طاعة إلا فى المعروف» [٢] إسناده عند ابن مردويه هكذا : قال :حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعد الأسدى ، حدثنا سليم بن سعيد الدامغانى ، حدثنا وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة ، عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج عبد بن حميد من حديث عمران بن حصين ، سمعت النبى ﷺ يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الله » [٣] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية :

(١) سقطت « ما » من المطبوعة ، والصحيح ما أثبتناه كما بالمخطوطة .

(٢) كنز العمال (٤٢٣٥) . وأصل الحديث عن على بقصة الأمير الذى أوقد ناراً وأمر أصحابه أن يدخلوا فيها ، وليس فى تفسير الآية ، أخرجه البخارى فى أخبار الآحاد (٧٢٥٧) ومسلم فى الإمارة (١٨٤٠ / ٣٩ ، ٤٠) .

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٦٦ والطبرانى فى الكبير ١٨/ ١٦٥ (٣٦٧)، ١٧٠ (٣٨١) ١٧٧، (٤٠٧) ١٨٤، ١٨٥ (٤٣٢ ـ ٤٣٥ ، ٤٣٧، ٤٣٨) ، ٢٩٩ (٥٧٠ ، ٥٧١) فى قصة بين عمران وبين الحكم بن عمرو الغفارى . وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٢٩ : « ورجال أحمد رجال الصحيح » .

ليس للظالم عهد وإن عاهدته فانقضه . قال ابن كثير : وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل وابن حبان نحو ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثابة للناس وأمنا** ﴾ قال : يثوبون إليه ثم يرجعون . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : لا يقضون منه وطرا يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وأمنا**﴾ قال : أمنا للناس . وأخرج البخارى وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال: وافقت ربى فى ثلاث ، ووافقنى ربى فى ثلاث قلت : يارسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب [١] واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهنّ: ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن ﴾ [التحريم: ٥] فنزلت كذلك [٢] . وأخرجه مسلم وغيره مختصراً من حديث ابن عمر عنه [٣] . وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر ؛ أن النبى ﷺ رمَل ثلاث أشواط ، ومشى أربعًا ، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ [٤] . وفى مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة فى الأمهات وغيرها ، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار ، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه ، كما فى البخارى من حديث ابن عباس [٥] ، وهو الذى كان ملصقًا بجدار الكعبة ، وأول من نقله عمر بن الخطاب . كما أخرجه عبد الرزاق ، والبيهقى بإسناد صحيح ، وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة[٦] . وأخرج ابن أبى حاتم من حديث جابر فى وصف حج النبى ﷺ ؛ قال : لما طاف النبى ﷺ قال له عمر: هذا مقام إبراهيم ؟ قال : «نعم». وأخرج نحوه ابن مردويه .

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا

---

(١) هى الآية ٥٣ من سورة الأحزاب : ﴿ وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ .
(٢) البخارى فى الصلاة (٤٠٢) وفى التفسير (٤٤٨٣) والدارمى فى المناسك ٢/ ٤٤ .
(٣) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٩٩/ ٢٤) .
(٤) مسلم فى الحج (١٢١٨ / ١٤٧) والترمذى فى الحج (٨٥٦) وقال : « حسن صحيح » وهو جزء من حديث طويل .
(٥) البخارى فى الأنبياء (٣٣٦٤) . (٦) عبد الرزاق (٨٩٥٣) .

وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **عهدنا** ﴾ معناه هنا : أمرنا أو أوجبنا . وقوله : ﴿ **أن طهرا** ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض ، أى بأن طهرا ، قاله الكوفيون . وقال سيبويه : هو بتقدير أى المفسرة ، أى أن طهرا فلا موضع لها من الإعراب . والمراد بالتطهير قيل: من الأوثان . وقيل : من الآفات والريب . وقيل : من الكفار. وقيل : من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث . والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع ، وأن كل مايصدق عليه مسمى التطهير فهو يتناوله ، إما تناولا شموليًا أو بدليًا . والإضافة فى قوله : ﴿ **بيتى** ﴾ للتشريف والتكريم، وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص :﴿ **بيتى** ﴾ بفتح الياء ، وقرأ الآخرون بإسكانها . والطائف : الذى يطوف به . وقيل : الغريب الطارئ على مكة. والعاكف : المقيم ، وأصل العكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشىء . وقيل : هو المجاور دون المقيم من أهلها ، والمراد بقوله : ﴿ **الركع السجود** ﴾: المصلون ، وخص هذين الركنين بالذكر ؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة .

وقوله : ﴿ **وإذ قال إبراهيم** ﴾ ستأتى الأحاديث الدالة على أن إبراهيم هو الذى حرم مكة والأحاديث الدالة على أن الله حرمها يوم خلق السموات والأرض ، والجمع بين هذه الأحاديث فى هذا البحث . وقوله : ﴿ **بلدا آمناً** ﴾ أى مكة ، والمراد :الدعاء لأهله من ذريته وغيرهم كقوله :﴿ عيشة راضية ﴾ [الحاقة : ٢١] أى راض صاحبها . وقوله :﴿ **من آمن**﴾ بدل من قوله : أهلَه ، أى ارزق من آمن من أهله دون من كفر . وقوله : ﴿ **ومن كفر**﴾ الظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه ردًا على إبراهيم ، حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم ، أى وأرزق من كفر فأمتعه بالرزق قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار ؛ ويحتمل أن يكون كلامًا مستقلا بياناً لحال من كفر ، ويكون فى حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية ، أى من كفر فإنى أمتعه فى هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق ، ﴿ **ثم أضطره** ﴾ بعد هذا التمتيع ﴿ **إلى عذاب النار** ﴾ فأخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير إلا تمتيعهم فى هذه الدنيا ، وليس لهم بعد ذلك إلا ماهو شر محض ، وهو عذاب النار ؛ وأما على قراءة من قرأ : « فأمتعه » بصيغة الأمر وكذلك قوله : ﴿ **ثم أضطره** ﴾ بصيغة الأمر ، فهى مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم ، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلا ، ثم دعا عليهم بأن يضطرهم إلى عذاب النار . ومعنى « اضطره »: ألزمه حتى صيره مضطراً لذلك لا يجد عنه مخلصًا ، ولا منه متحولا .

قوله : ﴿ **وإذ يرفع** ﴾ هو حكاية لحال ماضية استحضاراً لصورتها العجيبة . والقواعد : الأساس ، قاله أبو عبيدة والفراء . وقال الكسائى : هى الجدر ، والمراد برفعها : رفع ما هو

مبنى فوقها ، لا رفعها فى نفسها فإنها لم ترفع ، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه ، كما يقال : ارتفع البناء ، ولايقال : ارتفع أعالى البناء ولا أسافله . قوله : ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ فى محل الحال بتقدير القول ، أى قائلين : ربنا . وقرأ أبى وابن مسعود : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا » وقوله : ﴿واجعلنا مسلمين لك ﴾ أى اجعلنا ثابتين عليه ، أوزدنا منه . قيل : المراد بالإسلام هنا . مجموع الإيمان والأعمال. وقوله : ﴿ ومن ذريتنا ﴾ أى واجعل من ذريتنا ، و «من» للتبعيض أو للتبيين . وقال ابن جرير : إنه أراد بالذرية العرب خاصة ، كذا قال السهيلى . قال ابن عطية : وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت فى العرب وغيرهم من الذين آمنوا به . والأمة : الجماعة فى هذا الموضع ، وقد تطلق على الواحد، ومنه قوله تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ [النحل : ١٢٠] ، وتطلق على الدين ، ومنه : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [الزخرف : ٢٢] وتطلق على الزمان ، ومنه : ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ [يوسف : ٤٥](١). وقوله : ﴿ وأرنا مناسكنا﴾ هى من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير وابن محيصن وغيرهم : « أرْنا » بسكون الراء ومنه قول الشاعر :

أرِنَا إدَاوةَ عَبْد الله يَمْلؤُهَا ... مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ إنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَمِئوُا

والمناسك جمع نسك ، وأصله فى اللغة : الغسل ، يقال : نسك ثوبه : إذا غسله ، وهو فى الشرع : اسم للعبادة ، والمراد هنا : مناسك الحج . وقيل : مواضع الذبح . وقيل :جميع المتعبدات . وقوله : ﴿ وتب علينا ﴾ قيل : المراد بطلبهما للتوبة : التثبيت ؛ لأنهما معصومان لا ذنب لهما . وقيل : المراد : تب على الظلمة منا .

وقد أخرج ابن جرير عن عطاء قال : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم ﴾ أى أمرناه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أن طهرا بيتى ﴾ قال : من الأوثان . وأخرج أيضًا عن مجاهد وسعيد بن جبير مثله ، وزادوا: الريب وقول الزور والرجس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إذا كان قائمًا فهو من الطائفين ، وإذا كان جالسا فهو من العاكفين ، وإذا كان مصليًا فهو من الركع السجود . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون فى المسجد فقال : هم العاكفون . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرَّم مكة ، وإنى حرَّمتُ المدينة ما بين لابَتَيْها ، فلا يصاد صيدها ، ولا يقطع عضاهها » . كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم من حديث جابر(٢). وقد روى هذا المعنى عن النبى ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ، منهم رافع بن خديج عند مسلم وغيره (٣) ، ومنهم أبو قتادة عند

---

(١) والأمة أيضا : القامة ، يقال : فلان حسن الأمة ، أى حسن القامة . اللسان ١٢/ ٢٧ . وقال أعشى قيس :

وإن معـاوية الأكرميـ ... ـن حسـانُ الوجـــوه طوال الأمم

(٢) أحمد ٣/ ٣٣٦ ، ٣٩٣ ومسلم فى الحج (١٣٦٢/ ٤٥٨) وأبو داود فى المناسك (٢٠٣٩) .

(٣) مسلم فى الحج (١٣٦١/ ٤٥٦) وأحمد ٤/ ١٤١ .

أحمد[١]، ومنهم أنس عند الشيخين [٢] ، ومنهم أبو هريرة عند مسلم [٣] ، ومنهم على بن أبى طالب عند الطبرانى فى الأوسط [٤] ، ومنهم عبد الله بن زيد عند أحمد والبخارى [٥] ، ومنهم عائشة عند البخارى[٦]، وثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وهى حرام إلى يوم القيامة » أخرجه البخارى تعليقًا ، وابن ماجة من حديث صفية بنت شيبة [٧] . وأخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس [٨] . وأخرجه الشيخان وأهل السنن من حديث أبى هريرة [٩] ، وفى الباب أحاديث غير ما ذكرنا ولاتعارض بين هذه الأحاديث ؛ فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها ، وأنها لم تزل حرمًا آمنًا ، نسب إليه أنه حرمها ، أى أظهر للناس حكم الله فيها ، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية وابن كثير ، وقال ابن جرير: إنها كانت حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك ، حتى سأله إبراهيم فحرمها وتعبَّدهم بذلك . انتهى. وكلا الجمعين حسن .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى قال : بلغنى أنه لما دعا إبراهيم للحرم فقال: ﴿**وارزق أهله من الثمرات**﴾ نقل الله الطائف من فلسطين . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم والأزرقى عن الزهرى. وأخرج نحوه أيضا الأزرقى عن بعض ولد نافع بن جبير ابن مطعم . وقد أخرج الأزرقى نحوها مرفوعًا من طريق محمد بن المنكدر[١٠] . وأخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظى قال : دعا إبراهيم للمؤمنين وترك الكفار ولم يدع لهم بشىء ، قال الله : ﴿ **ومن كفر فأمتعه** ﴾ الآية . وأخرج نحوه سفيان بن عيينة عن مجاهد . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من آمن منهم بالله** ﴾ قال :

(١) أحمد ٥/ ٣٠٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٣٠٧ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٣) وفى فضائل المدينة (١٨٦٧) ومسلم فى الحج (١٣٦٥ ــ ١٣٦٧ / ٤٦٢ ــ ٤٦٤) .

(٣) مسلم فى الحج (١٣٧١ ، ١٣٧٢ / ٤٦٩ ـ ٤٧٢) وأخرجه البخارى فى فضائل المدينة (١٨٦٩) .

(٤) قال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٣٠٤ : « ورجاله موثقون وفى بعضهم كلام » وقد روى مسلم فى الحج (١٣٧٠/ ٤٦٧) عن على حديثًا مثله وشبيهًا فى معناه ، والمعنى المشترك : « المدينة حرام ما بين عير إلى ثور ، فمن أحدث فيها . . . » .

(٥) فى المخطوطة : « عن أسامة بن زيد » ، وهو خطأ ؛ لأن الحديث عن عبد الله بن زيد ، لاعن أسامة بن زيد، وهو عند أحمد ٤/ ٤٠ والبخارى فى البيوع (٢١٢٩) .

(٦) البخارى فى فضائل المدينة (١٨٨٩) .

(٧) علقه البخارى فى الجنائز عقب الحديث (١٣٤٩) وأخرجه ابن ماجة فى المناسك (٣١٠٩) وفى إسناده أبان بن صالح وهو ضعيف ، على ما قاله البوصيرى فى الزوائد .

(٨) البخارى فى جزاء الصيد (١٨٣٤) وفى الجزية والموادعة (٣١٨٩) وفى المغازى (٤٣١٣) ومسلم فى الحج (١٣٥٣ / ٤٤٥) والطبرانى (١١٩٢٧) .

(٩) البخارى فى اللقطة (٢٤٣٤) ومسلم فى الحج (١٣٥٥ / ٤٤٧، ٤٤٨) وأبو داود فى المناسك (٢٠١٧) والترمذى فى الديات (١٤٠٥) وفى العلم (٢٦٦٧) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى كتاب العلم والقسامة من السنن الكبرى (٥٨٤٦) وابن ماجة فى الديات (٢٦٢٤) .

(١٠) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقى ١/ ٧٧

كأن إبراهيم احتجرها على المؤمنين دون الناس : فأنزل الله: ﴿ **ومن كفر** ﴾ أيضا فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أخلق خلقًا لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلا ، ثم أضطرهم إلى عذاب النار ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ كلا نُمد هؤلاء وهؤلاء ﴾ الآية [الإسراء : ٢٠] [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال :قال أبَى بن كعب فى قوله : ﴿ **ومن كفر** ﴾ : إن هذا من قول الرب . وقال ابن عباس : هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : القواعد أساس البيت ، وأخرج أحمد وعبد ابن حميد والبخارى وابن جرير وغيرهم عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس] [٢] قصة مطولة، وآخرها فى بناء البيت . قال : فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ [٣] .وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد** ﴾ قال : القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك . وقد أكثر المفسرون فى تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف فى كيفية بناء البيت ، ومن أى أحجار الأرض بنى ، وفى أى زمان عرف ، ومن حجه؟ وما ورد فيه من الأدلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الأسود . وفى الدر المنثور من ذلك مالم يكن فى غيره فليرجع إليه . وفى تفسير ابن كثير بعض من ذلك ، ولما لم يكن ماذكروه متعلقًا بالتفسير لم نذكره .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك**﴾ قال : كانا مسلمين ولكن سألاه الثبات . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الكريم قال : مخلصين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ومن ذريتنا** ﴾ قال : يعنيان العرب . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قال إبراهيم : رب، أرنا مناسكنا ، فأتاه جبريل ، فأتى به البيت ، فقال : ارفع القواعد ، فرفع القواعد وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به نحو منًى ، فلما كان عند العتبة فإذا إبليس قائم عند الشجرة فقال : كبر وارمه ، فكبر ورماه ، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى ، فنعل به إبراهيم كما فعل فى الأولى ، ثم كذلك فى الجمرة الثالثة ، ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام ، فقال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب حتى أتى به عرفات قال : وقد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاثاً ، قال : نعم . قال : فأذِّن فى الناس بالحج ، قال: كيف أؤذن ؟ قال : قل : يأيها الناس ، أجيبوا ربكم ثلاث مرات ، فأجاب العباد : لبيك اللهم لبيك ،

---

(١) الأثر عند الطبرانى (١٢٤٠٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٣١٨/٦ ، ٣١٩ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والمخطوطة .

(٣) أحمد ٣٤٧/١ ، ٣٤٨ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٦٤) وابن جرير ٤٢٢/١ والنسائى فى كتاب فضائل الصحابة ص ٢٠٩ ــ ٢١١ (٢٧٤) .

فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج [١] . وأخرج ابن جرير من طريق ابن المسيب عن على ؛ قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : قد فعلت أى رب ، فأرنا مناسكنا : أبرزها لنا عَلِّمْنَاها ، فبعث الله جبريل فحج به . وفى الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة، ومن بعدهم ، تتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك ، وفى أكثرها أن الشيطان تعرض له كما تقدم عن مجاهد . وقد أخرج ابن خزيمة والطبرانى والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس نحو ذلك [٢] . وكذلك أخرج عنه أحمد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى [٣] .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ .

الضمير فى قوله : ﴿ وابعث فيهم ﴾ راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقًا . وقرأ أبىّ : « وابعث فى آخرهم » ، ويحتمل أن يكون الضمير راجعًا إلى الذرية . وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة ، فبعث فى ذريته ﴿ رسولا منهم ﴾ وهو محمد ﷺ . وقد أخبر عن نفسه بأنه دعوة إبراهيم [٤] ، كما سيأتى تخريج ذلك إن شاء الله ، ومراده هذه الدعوة . والرسول : هو المرسل . قال ابن الأنبارى : يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال ورسلة: إذا كانت سهلة السير ، ماضية أمام النوق . ويقال : جاء القوم أرسالا ، أى بعضهم فى إثر بعض ، والمراد بالكتاب : القرآن . والمراد بالحكمة : المعرفة بالدين ، والفقه فى التأويل ، والفهم للشريعة ، وقوله : ﴿يزكيهم ﴾ أى يطهرهم من الشرك وسائر المعاصى . وقيل : إن المراد بالآيات : ظاهر الألفاظ، والكتاب: معانيها ، والحكمة: الحكم وهو مراد الله بالخطاب ، والعزيز : الذى لايعجزه شىء ، قاله ابن كيسان . وقال الكسائى : العزيز : الغالب .

﴿ ومن يرغب ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، والاستفهام للإنكار . وقوله : ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ [٥] فى موضع الخبر . وقيل : هو بدل من فاعل يرغب ، والتقدير : وما يرغب

---

(١) هذا حديث مرسل .

(٢) ابن خزيمة (٦٢٦) والطبرانى ١٠/٣٢٦ (١٠٦٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/٢٦٢ : « رجاله ثقات » وقال أيضا ٨/٢٠٣ ، ٢٠٤ : «رجاله رجال الصحيح غير أبى عاصم الغنوى ، وهو ثقة » . وصححه الحاكم ٢/٥٥٢ وأخرجه البيهقى فى الشعب (٣٧٨٣) .

(٣) أحمد ١/٣١١ ، ٣١٢ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٣/٢٥١ ، ٢٦٢: «رجاله ثقات » والبيهقى٥/١٥٣ ، ١٥٤ .

(٤) الحديث عن عرباض بن سارية وأخرجه أحمد ٤/١٢٧ .

(٥) الحديث عن معنى السفه والسفهاء عند تفسير الآية ١٣ من سورة البقرة .

عن ملة إبراهيم أحد إلا من سفه نفسه . قال الزجاج : سفه بمعنى جهل ، أى جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها . وقال أبو عبيدة المعنى :أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفَّه بفتح الفاء مشددة . قال الأخفش : ﴿ سفه نفسه ﴾ أى فعل بها من السفه ما صار به سفيهًا. وقيل : إن نفسه منتصب بنزع الخافض . وقيل : هو تمييز ، وهذان ضعيفان جدًا ، وأما سفُه بضم الفاء فلا يتعدى . قاله المبرد وثعلب. والاصطفاء : الاختيار ، أى اخترناه فى الدنيا وجعلناه فى الآخرة من الصالحين ، فكيف يرغب عن ملته راغب ؟

وقوله : ﴿ إذ قال له ﴾ يحتمل أن يكون متعلقًا بقوله : ﴿ اصطفيناه ﴾ أى اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام ، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف هو : اذكر . قال فى الكشاف : كأنه قيل : اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذى لايرغب عن ملة مثله . والضمير فى قوله : ﴿ وأوصى بها ﴾ راجع إلى الملة أو إلى الكلمة ، أى أسلمت لرب العالمين . قال القرطبى : وهو أصوب ؛ لأنه أقرب مذكور ، أى قولوا أسلمنا . انتهى . والأول أرجح ؛ لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام ، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم ، وأولى بهم . ووصى وأوصى بمعنى . وقرئ بهما . وفى مصحف عثمان :﴿ وأوصى ﴾ وهى قراءة أهل الشام والمدينة ، وفى مصحف عبد الله بن مسعود:﴿ ووصى ﴾ وهى قراءة الباقين . ﴿ويعقوب ﴾ معطوف على إبراهيم ، أى وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه . وقرأ عمر بن فايد الأسوارى ، وإسماعيل بن عبد الله المكى ، بنصب يعقوب ، فيكون داخلا فيمن أوصاه إبراهيم . قال القشيرى : وهو بعيد لأن يعقوب لم يدرك جده إبراهيم ، وإنما ولد بعد موته . وقوله : ﴿ يابنى ﴾ هو بتقدير « أن » . وقد قرأ أبىّ وابن مسعود والضحاك بإثباتها . قال الفراء : ألغيت « أن » لأن التوصية كالقول ، وكل كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول «أن » وجاز فيه إلغاؤها . وقيل : إنه على تقدير القول ، أى قائلا : يابنىّ ، روى ذلك عن البصريين . وقوله : ﴿ اصطفى لكم الدين ﴾ أى اختاره لكم (١) ، والمراد: ملته التى لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وهى الملة التى جاء بها محمد ﷺ . وقوله : ﴿ فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ فيه إيجاز بليغ . والمراد : الزموا الإسلام ولا تفارقوه ، حتى تموتوا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ قال: رغبت اليهود والنصارى عن ملته ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ؛ تركوا ملة إبراهيم الإسلام وبذلك بعث الله نبيه محمدًا ﷺ بملة إبراهيم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ ولقد اصطفيناه ﴾ قال: اخترناه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ قال : وصاهم بالإسلام ، ووصى يعقوب بنيه بمثل ذلك . وأخرج الثعلبى عن فضيل بن عياض فى قوله : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى محسنون بربكم الظن .

---

(١) قال الراجز : يابن ملوك ورثوا الأملاكا خلافة الله التى أعطاكا لك اصطفاها ولها اصطفاكا

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴾ .

قوله : ﴿ **أم كنتم شهداء** ﴾ أم هذه قيل : هى المنقطعة . وقيل :هى المتصلة . وفى الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ، وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله ذلك عليهم وقال لهم : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم ، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون . والشهداء : جمع شاهد ، ولم ينصرف ؛ لأن فيه ألف التأنيث التى لتأنيث الجماعة ، والعامل فى ﴿**إذ**﴾ الأولى معنى الشهادة و ﴿ **إذ** ﴾ الثانية بدل من الأولى ، والمراد بحضور الموت : حضور مقدماته. وإنما جاء بما دون مَنْ فى قوله : ﴿ **ما تعبدون**﴾ لأن المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالأوثان ، والنار ، والشمس ، والكواكب ، ومعنى ﴿ **من بعدى** ﴾ أى من بعد موتى. وقوله : ﴿ **إبراهيم وإسماعيل وإسحاق** ﴾ عطف بيان لقوله : ﴿ **آبائك** ﴾ وإسماعيل ، وإن كان عمًّا ليعقوب ؛ لأن العرب تسمى العم أبًا ، وقوله : ﴿ **إلهًا** ﴾ بدل من إلهك وإن كان نكرة . فذلك جائز ، ولاسيما بعد تخصيصه بالصفة التى هى قوله : ﴿ **واحدًا** ﴾ فإنه قد حصل المطلوب من الإبدال بهذه الصفة . وقيل : إن إلهًا منصوب على الاختصاص . وقيل : إنه حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن ؛ لأن الغرض الإثبات حال الوحدانية ، وقرأ الحسن ، ويحيى بن يعمر ، وأبو رجاء العطاردى ، «وإله أبيك » فقيل : أراد إبراهيم وحده . ويكون قوله : ﴿ **وإسماعيل** ﴾ عطفا على أبيك ، وكذلك ﴿ **إسحاق**﴾ وإن كان هو أباه حقيقة وإبراهيم جده ، ولكن لإبراهيم مزيد خصوصية . وقيل : إن قوله : ﴿ **أبيك** ﴾ جمع كما

روى عن سيبويه أن أبِين جمع سلامة ومثله أبون ، ومنه قول الشاعر :

فلما تـبَيَّن أصـــواتنـا ... بكيْنَ وقد بننا بالأبينا [١]

وقوله : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ جملة حالية ، أى نعبده حال إسلامنا له ، وجوَّز الزمخشرى أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الجمل الاعتراضية آخر الكلام.

والإشارة بقوله :﴿ تلك ﴾ إلى إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه ، و ﴿ أمة ﴾ بدل منه ، وخبره ﴿ قد خلت ﴾ أو أمة خبره وقد خلت نعت لأمة ، وقوله: ﴿ لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ بيان لحال تلك الأمة وحال المخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه ، لا ينفعه كسب غيره ، ولا يناله منه شىء ، ولا يضره ذنب غيره ، وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه ويُرَوِّح نفسه بالأمانى الباطلة ، ومنه ما ورد فى الحديث :« من بطأ به عمله لم يسرع به[٢] نسبه » [٣] ، والمراد : أنكم لاتنتفعون بحسناتهم ، ولا تؤاخَذون بسيئاتهم ، ولا تُسألون عن أعمالهم ، كما لا يُسْألَون عن أعمالكم ،ومثله:﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الزمر: ٧] ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم : ٣٩] .

ولما ادعت اليهود والنصارى أن الهداية بيدها والخير مقصور عليها ردّ الله ذلك عليهم بقوله : ﴿ بل ملة إبراهيم ﴾ أى قل يامحمد هذه المقالة ، ونصب ﴿ ملة ﴾ بفعل مقدر، أى نتبع . وقيل : التقدير : نكون ملة إبراهيم ، أى أهل ملته . وقيل : بل نهتدى بملة إبراهيم، فلما حذف حرف الجر صار منصوبًا . وقرأ الأعرج وابن أبى عبلة : « ملة » بالرفع ، أى بل الهدى ملة إبراهيم . والحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، وهو فى أصل اللغة: الذى تميل قدماه كل واحدة إلى أختها . قال الزجاج: وهو منصوب على الحال ، أى نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفًا . وقال على بن سليمان : هو منصوب بتقدير أعنى ، والحال خطأ كما لايجوز جاءنى غلام هند مسرعة . وقال فى الكشاف : هو حال من المضاف إليه كقولك : رأيت وجه هند قائمة، وقال قوم:الحنف : الاستقامة ، فسمى دين إبراهيم حنيفًا ؛ لاستقامته ، وسمى معوج الرجلين أحنف ؛ تفاؤلا بالاستقامة، كما قيل للَّديغ : سليم ، وللمهلكة : مفازة. وقد استدل من قال بأن الحنيف فى اللغة المائل لا المستقيم بقول الشاعر :

إذا حول الظل العـــشى رأيته ... حنيفاً وفى قَرْن الضحى يَتَنصّرُ

أى أن الحرباء تستقبل القبلة بالعشىّ ، وتستقبل المشرق بالغداة ، وهى قبلة النصارى ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والعشرين بعد الثلاثمائة .

(٢) فى المطبوعة : « لم يسرع » والصواب ما أثبتناه كما فى المخطوطة .

(٣) الحديث عن أبى هريرة ، أخرجه أحمد ٢/ ٢٥٢ ، ٤٠٧ ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٩٩ / ٣٨) وأبو داود فى العلم (٣٦٤٣) والترمذى فى القراءات (٢٩٤٥) .

والله لـولا حَنَـف فـى رِجـْلِه　　　مَا كَانَ فى رِجالكم مِـن مِثْلِـه

وقوله: ﴿ وما كان من المشركين ﴾ فيه تعريض باليهود لقولهم :﴿عزيرابن الله﴾ [التوبة: ٣٠] وبالنصارى لـقولـهم : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] أى أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التى أنتم عليها من الشرك بالله ، فكيف تدَّعون عليه أنه كان على اليهودية أو النصرانية ؟

وقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ خطاب للمسلمين وأمر لهم بأن يقولوا هذه المقالة . وقيل : إنه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك ، حتى يكونوا على الحق . والأول أظهر . والأسباط : أولاد يعقوب ، وهم اثنا عشر ولدًا ، ولكل واحد منهم من الأولاد جماعة ، والسبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى العرب ، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون . وقيل : أصله من السبط بالتحريك ، وهو الشجر ، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر وقيل : الأسباط :حفدة يعقوب ، أى أولاد أولاده لا أولاده ؛ لأن الكثرة إنما كانت فيهم دون أولاد يعقوب فى نفسه ، فهم أفراد لا أسباط .

وقوله: ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ قال الفراء: معناه لانؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى . قال فى الكشاف : واحد فى معنى الجماعة ، ولذلك صح دخول بين عليه .

وقوله : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ هذا الخطاب للمسلمين أيضًا ، أى فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا ، وعلى هذا فمثل زائدة كقوله : ﴿ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] ، وقول الشاعر :

فصيروا مثل كعصف مأكول

وقيل : إن المماثلة وقعت بين الإيمانين ، أى فإن آمنوا بمثل إيمانكم . وقال فى الكشاف : إنه من باب التبكيت ؛ لأن دين الحق واحد لا مثل له ، وهو دين الإسلام ، قال : أى فإن حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويًا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا . وقيل : إن الباء زائدة مؤكدة . وقيل : إنها للاستعانة . والشقاق أصله من الشق وهو الجانب ، كأن كل واحد من الفريقين فى جانب غير الجانب الذى فيه الآخر . وقيل : إنه مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه ، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين ، وكذلك قول الشاعر :

وإلا فَاعْلَـمُوا أنـَّا وَأنـْتـُـمْ　　　بُغـاةٌ مـا بقـينا فـى شِقـَاقِ

وقول الآخر :

إلى كَمْ تَقتُـلُ العُلَمـاءَ قَسْرًا ... وتَفْـخَرُ بِالـشِقَاقِ وَبِالـنفَـاقِ

وقوله : ﴿ **فسيكفيكهم الله** ﴾ وعد من الله تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عانده وخالفه من المتولِّين ، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة ، والنضير ، وبنى قينقاع .

وقوله : ﴿ **صبغة الله** ﴾ قال الأخفش وغيره : أى دين الله ، قال : وهى منتصبة على البدل من ملة . وقال الكسائى : هى منصوبة على تقدير اتبعوا ، أو على الإغراء ، أى الزموا، ورجح الزجاج الانتصاب على البدل من ملة ، كما قاله الفراء. وقال فى الكشاف : إنها مصدر مؤكد منتصب عن قوله : ﴿ **آمنا بالله** ﴾ كما انتصب «وعد الله » عما تقدمه ، وهى فِعْلَة من صبغ كالجلسة من جلس ، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ ، والمعنى : تطهيرالله ؛ لأن الإيمان تطيهر النفوس . انتهى . وبه قال سيبويه ، أى كونه مصدرا مؤكدًا. وقد ذكر المفسرون أن أصـل ذلك أن النصـارى كانوا يصبغـون أولادهـم فى الماء(١) ، وهـو الذى يسمونـه المعموديـة ، ويجعلون ذلك تطهيرًا لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيًا حقًا ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ **صبغة الله** ﴾ أى الإسلام ، وسماه صبغة استعارة ، ومنه قول بعض شعراء همـدان :

وكلُّ أناس لهم صِـبْغَةٌ ... وَصِبغةُ هَمْدان خير الصِبَغْ
صَبَغنا على ذَاكَ أوْلادنَا ... فأكْرِم بِصبْغَتنا فـى الصِبَغْ

وقيل : إن الصبغة: الاغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام ، بدلا من معمودية النصارى ، ذكره الماوردى . وقال الجوهرى : صبغة الله : دينه . وهو يؤيد ما تقدم عن الفراء . وقيل : الصبغة : الختان . وقوله : ﴿ **قل أتحاجوننا فى الله** ﴾ أى أتجادلوننا فى الله ، أى فى دينه والقرب منه والحظوة عنده ، وذلك كقولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] وقرأ ابن محيصن : « أتحاجونا » بالإدغام لاجتماع المثلين . وقوله : ﴿ **وهو ربنا وربكم** ﴾ أى نشترك نحن وأنتم فى ربوبيته لنا وعبوديتنا له ، فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا فى ذلك ؟ وقوله : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ أى لنا أعمال ، ولكم أعمال ، فلستم بأولى بالله منا ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ [يونس : ٤١] . وقوله: ﴿ **ونحن له مخلصون** ﴾ أى نحن أهل الإخلاص للعبادة دونكم ، وهو المعيار الذى يكون به التفاضل ، والخصلة التى يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره ، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق؟ وفيه توبيخ لهم ، وقطع لما جاؤوا به من المجادلة والمناظرة .

---

(١) لسان العرب ٨/ ٤٣٧ وفيه : « وفى الحديث : فوجد فاطمة لبست ثيابًا صبيغًا ، أى مصبوغة غير بيض ، وهى فعيل بمعنى مفعول ، وفى الحديث أيضًا : فيصبغ فى النار صبغة ، أى يغمس كما يغمس الثوب فى الصبغ ، وفى حديث آخر : اصبغوه فى النار » .

وقوله : ﴿ **أم يقولون** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص :﴿ **تقولون** ﴾ بالتاء الفوقية وعلى هذه القراءة تكون « أم » ها هنا معادلة للهمزة فى قوله : ﴿ **أتحاجوننا** ﴾ أى أتحاجوننا فى الله أم تقولون إن هؤلاء الأنبياء على دينكم ؟ وعلى قراءة الياء التحتية تكون « أم» منقطعة ، أى بل يقولون . وقوله : ﴿ **قل أأنتم**[1] **أعلم أم الله** ﴾ فيه تقريع وتوبيخ، أى أن الله أخبرنا بأنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى ، وأنتم تدعون أنهم كانوا هودًا أو نصارى ، فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه ؟ وقوله : ﴿ **ومن أظلم** ﴾ استفهام ، أى لا أحد أظلم ﴿ **ممن كتم شهادة عنده من الله** ﴾ يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب ، بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هودًا ولا نصارى ، بل كانوا على الملة الإسلامية ، فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة ، بل بادعائهم لما هو مخالف لها ، وهو أشد فى الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذى لا أحد أظلم منه ، ويحتمل أن المراد :أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم ، ويكون المراد بذلك : التعريض بأهل الكتاب .

وقيل : المراد هنا :ماكتموه من صفة محمد ﷺ . وفى قوله : ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ وعيد شديد ، وتهديد ليس عليه مزيد ، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح ، والذنب الفظيع ، وكرر قوله سبحانه:﴿**تلك أمة قد خلت**﴾ إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذى هو المقصود فى هذا المقام.

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **أم كنتم شهداء** ﴾ يعنى أهل الكتاب . وأخرج أيضًا عن الحسن فى قوله : ﴿ **أم كنتم شهداء** ﴾ قال : يقول : لم يشهد اليهود ، ولا النصارى ، ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت ألا يعبدوا إلا الله ، فأقروا بذلك وشهد عليهم أن قد أقروا بعبادتهم أنهم مسلمون . وأخرج عن ابن عباس أنه كان يقول : الجد أب ويتلو الآية . وأخرج أيضًا عن أبى العالية فى الآية قال : سمى العم أبًا . وأخرج أيضًا نحوه عن محمد بن كعب .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبى ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يامحمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿**وقالوا كونوا هودًا** ﴾ الآية [2] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حنيفًا** ﴾ قال : متبعًا. وأخرجا أيضا عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حنيفا** ﴾ قال : حاجا . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : الحنيف المستقيم . وأخرج أيضًا عن خصيف قال : الحنيف : المخلص ، وأخرج أيضًا عن أبى قلابة قال : الحنيف : الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم . وأخرج أحمد عن أبى

(١) جاء هذا الجزء من الآية فيه تحريف فى المطبوعة حيث قال : « أنتم » بهمزة واحدة بدلا من ﴿ أأنتم ﴾ .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩١ وابن جرير١/ ٤٤٠ .

أمامة قال : قال رسول الله ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة » (١) . وأخرج أحمد أيضًا والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : قيل يارسول الله ، أى الأديان أحب إلى الله ؟ قال : « الحنيفية السمحة » (٢) . وأخرج الحاكم فى تاريخه ، وابن عساكر من حديث سعد بن عبد الله بن مالك الخزاعى مرفوعًا مثله .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى منهما الآية التى فى البقرة : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ كلها ، وفى الآخرة : ﴿ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران : ٥٢] (٣). وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿ وقولوا آمنا بالله ﴾ الآية » (٤) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الأسباط بنو يعقوب ، كانوا اثنى عشر رجلا كل واحد منهم ولد أمة من الناس . وروى نحوه ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى . وحكاه ابن كثير فى تفسيره عن أبى العالية والربيع وقتادة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ؛ قال: لا تقولوا فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فإن الله لا مثل له ، ولكن قولوا فإن آمنوا بالذى آمنتم به . وأخرج ابن أبى داود فى المصاحف ، والخطيب فى تاريخه عن أبى جمرة قال : كان ابن عباس يقرأ : « فإن آمنوا بالذى آمنتم به » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ فإنما هم فى شقاق ﴾ قال : فراق .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ صبغة الله ﴾ قال : دين الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : فطرة الله التى فطر الناس عليها . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس عن النبى ﷺ ؛ قال : « إنّ بنى إسرائيل قالوا : ياموسى ، هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله ، فناداه ربه: ياموسى ، سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل : نعم . أنا أصبغ الألوان ، الأحمر والأبيض والأسود ، والألوان كلها فى صبغتى » ، وأنزل الله على نبيه: ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ (٥) . وأخرجه

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٦ والطبرانى (٧٨٦٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/٢٧٩ : « فيه على ابن يزيد الألهانى ، وهو ضعيف».

(٢) أحمد ١/ ٢٣٦ والبخارى فى الأدب المفرد (٢٨٧) والبزار (٧٨) والطبرانى (١١٥٧١ ، ١١٥٧٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٦٠ : «فيه ابن إسحاق ، وهو مدلس ، ولم يصرح بالسماع » وحسن ابن حجر إسناده فى الفتح ١/ ٩٤ .

(٣) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٢٧ / ٩٩) وأبو داود فى الصلاة (١٢٥٩) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٥٥ .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٤٨٥) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٦٢) وفى التوحيد (٧٥٤٢) .

(٥) أورد ابن كثير ١/ ٣٣٠ رواية ابن مردويه وقال : «كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعًا ، وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده ، وهذا يؤكد الرواية الثانية للحديث » .

ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس موقوفا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ؛ قال : إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى ، وإن صبغة الله الإسلام ، ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام ، ولا أطهر وهو دين الله الذى بعث به نوحًا، ومن كان بعده من الأنبياء (١) . وأخرج ابن النجار فى تاريخ بغداد ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **صبغة الله** ﴾ قال : البياض .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أتحاجوننا** ﴾ قال : أتخاصموننا . وأخرج ابن جرير عنه قال : أتجادلوننا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن كتم شهادة** ﴾ الآية . قال : أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله ، واتخذوا اليهودية والنصرانية ، وكتموا محمدًا وهم يعلمون أنه رسول الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع فى قوله : ﴿ **تلك أمة قد خلت** ﴾ قال : يعنى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **سيقول** ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين ، بأن السفهاء من اليهود والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وقيل : إن ﴿ **سيقول** ﴾ بمعنى : قال ، وإنما عبر عن الماضى بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته والاستمرار (٢) عليه . وقيل : إن الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة ، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوين لصدمته ، وتخفيف لروعته ، وكسر لسَوْرته (٣) . والسفهاء : جمع سفيه وهو الكذَّاب ، البَهَّات ، المعتقد خلاف ما يعلم ، كذا قال بعض أهل اللغة . وقال فى الكشاف : هم خفاف الأحلام (٤)، ومثله فى القاموس . وقد تقدم فى تفسير قوله : ﴿إلا من سَفِه نفسه ﴾ [البقرة : ١٣٠] مما ينبغى الرجوع إليه ، ومعنى ﴿ **ما ولاهم** ﴾ ماصرفهم ﴿ **عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾ وهى بيت المقدس فرد الله عليهم بقوله :

---

(١) ابن جرير ١/ ٤٤٤ .

(٢) فى المطبوعة : « واستمراره عليه » والصحيح ما أثبتناه كما فى المخطوطة .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « تهوينا ... وتخفيفا ... وكسراً » والصحيح الرفع لأن الأول اسم كان والباقى معطوف عليه .

(٤) الكشاف ١/ ١٩٧ .

﴿ **قل لله المشرق والمغرب**﴾ فله أن يأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء . وفى قوله : ﴿ **يهدى من يشاء** ﴾ إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبى ﷺ ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم .

وقوله :﴿ **وكذلك جعلناكم** ﴾ أى مثل ذلك الجعل جعلناكم ، قيل : معناه : وكما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطًا . والوسط : الخيار أو العدل ، والآية محتملة للأمرين ومما يحتملهما قول زهير:

هُمُ وَسَطٌ تَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِم ... إذَا نَزَلَتْ إحْدَى الليالِى بِمُعْظِمِ (١)

ومثله قول الآخر :

أَنْتُــم أوْسَــطُ حــَىٍّ عَلِمُــوا ... بِصــَغِيــر الأمــْرِ أوْ إحْدَى الكُبَر

وقد ثبت عن النبى ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل (٢) كما سيأتى فوجب الرجوع إلى ذلك. ومنه قول الراجز :

لا تذهــبنَّ فى الأمور مــفرطا ... لاتسألن إن ســألتَ شــطَطَــا

وكنْ مِن النَّاسِ جَميعًا وَسَطا

ولما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير ، كان محمودًا ، أى هذه الأمة لم تغلُ غلُّو النصارى فى عيسى ، ولا قصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم . ويقال : فلان أوسط قومه وواسطتهم ، أى خيرهم . وقوله : ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس**﴾ أى يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم ، أنهم قد بلَّغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم ، ويكون الرسول شهيدًا على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم . ومثله قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ [النساء : ٤١] قيل : إن قوله :﴿ **عليكم** ﴾ يعنى : لكم ، أى يشهد لهم بالإيمان . وقيل : معناه : يشهد عليكم بالتبليغ لكم . قال فى الكشاف: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جىء بكلمة الاستعلاء(٣) ، ومنه قوله تعالى: ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾ [المجادلة:٦] ﴿كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ [المائدة : ١١٧] . انتهى . وقالت طائفة : معنى الآية: يشهد بعضكم على بعض بعد الموت . وقيل : المراد : لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول، وسيأتى من المرفوع ما يبين معنى الآية إن شاء الله . وإنما أخر لفظ « على » فى شهادة الأمة على الناس ، وقدمها فى شهادة الرسول عليهم ؛ لأن الغرض كما قال صاحب

---

(١) ديوانه ٢/ ٢٧ والبيت بهذه الرواية أنشده الجاحظ فى البيان ٢/ ٢٢٥ غير منسوب ، وهو منسوب إلى زهير فى أساس البلاغة « وسط» ، وفى رواية الديوان والجاحظ « إذَا طَرَقَتَ إحْدَى اللَّيَالِى » .

(٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ [القلم : ٢٨] أى أعدلهم .

(٣) الكشاف ١/ ١٩٩ .

الكشاف في الأول : إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر : اختصاصهم بكون الرسول شهيدًا عليهم .

وقوله : ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها** ﴾ قيل : المراد بهذه القبلة : هي بيت المقدس، أي ماجعلناها إلا لنعلم المتبع والمنقلب ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ **كنت عليها** ﴾ إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة . وقيل : المراد: الكعبة ، أي ما جعلنا القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لذلك الغرض ، ويكون ﴿ **كنت** ﴾ بمعنى الحال . وقيل : المراد بذلك : القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس ، فإنه كان يستقبل في مكة الكعبة ، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفًا لليهود ، ثم صُرِف إلى الكعبة ، وقوله : ﴿ **إلا لنعلم** ﴾ قيل : المراد بالعلم هنا : الرؤية. وقيل : المراد إلا لتعلموا أنا نعلم بأن المنافقين كانوا في شك . وقيل : ليعلم النبي. وقيل : المراد : لنعلم ذلك موجوداً حاصلا ، وهكذا ماورد معللا بعلم الله سبحانه لابد أن يؤول بمثل هذا كقوله : ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ [آل عمران : ١٤٠] . وقوله : ﴿ **وإن كانت لكبيرة** ﴾ أي ماكانت إلا كبيرة ، كما قاله الفراء في « أن » و « إن » إنهما بمعنى ما وإلا . وقال البصريون : هي الثقيلة خففت ، والضمير في كانت راجع إلى مايدل عليه قوله: ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها** ﴾ من التحويلة ، أو التولية ، أو الجعلة، أو الردة ، ذكر معنى ذلك الأخفش ، ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة ، أي وإن كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة ، إلا على الذين هداهم الله للإيمان، فانشرحت صدورهم لتصديقك ، وقبلت ماجئت به عقولهم . وهذا الاستثناء مفرغ ؛ لأن ما قبله في قوة النفي ، أي أنها لا تخف ولا تسهل إلا على الذين هدى الله . وقوله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ قال القرطبي : اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس(١) ، ثم قال : فسمي الصلاة إيمانًا ؛ لاجتماعها على نية ، وقول ، وعمل. وقيل : المراد : ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة ، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم . والأول يتعين القول به ، والمصير إليه لما سيأتي من تفسيره ﷺ للآية بذلك . والرؤوف :كثير الرأفة ، وهي أشد من الرحمة ، قال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكبر من الرحمة ، والمعنى متقارب . وقرأ أبو جعفر بن يزيد ابن القعقاع : « لروف » بغير همز ، وهي لغة بني أسد ، ومنه قول الوليد بن عقبة :

وَشَرُّ الطالبين فلا تَكُنْه ... بقَاتِلِ عمه الروف الرحِيم (٢)

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء ؛ أن النبي ﷺ كان أول ما نزل المدينة نزل

---

(١) القرطبي ١/ ٤٥٠ .

(٢) هذا البيت من شعر الوليد بن عقبة الذي كتب به إلى معاوية يحضه على قتال عليٍ رضي الله تعالى عنهما ، وهو في أنساب الأشراف (١٤٠) وتاريخ الطبري ٥/ ٢٣٦ ، ٢٣٧ وحماسة البحتري ٣٠ .

على أخواله من الأنصار وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأن أول صلاة صلاها العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل الكعبة فداروا كما هم قبل البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس ، وأهل الكتاب ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك ، وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال ، وقتلوا ، فلم ندر ما يقول ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ [١] وله طرق أخر ، والألفاظ متقاربة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس ؛ قال : إن أول ما نسخ فى القرآن القبلة [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأبو داود فى ناسخه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ كان يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه ، وبعد ما تحول إلى المدينة ستة عشر شهرًا ، ثم صرفه الله إلى الكعبة [٣]. وفى الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم . وكذلك وردت أحاديث فى الوقت الذى نزل فيه استقبال القبلة ، وفى كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك ، وقد كانوا فى الصلاة فلا نطول بذكرها .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائى ، والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والإسماعيلى فى صحيحه ، والحاكم وصححه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطًا** ﴾ قال : عدلا[٤]. وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله [٥] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله[٦] . وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « يُدعى نوح يوم القيامة، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فذلك قوله : ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ قال : والوسط العدل فتُدْعَوْن فتَشْهَدون بالبلاغ وأشهد عليكم » [٧] . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائى وابن ماجة

---

(١) البخارى فى الإيمان (٤٠) والصلاة (٣٩٩) والتفسير (٤٤٨٦) وأخبار الآحاد (٧٢٥٢) ومسلم فى المساجد (٥٢٥ / ١١ ـ ١٥) وأحمد٤/ ٢٨٣ والترمذى فى التفسير (٢٩٦٢) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الصلاة ١/ ٢٤٢، ٢٤٣ .

(٢) ابن جرير ٢/ ١٣ والبيهقى ٢/ ١٢ .

(٣) البيهقى ٢/ ٢، ٣ .

(٤) أحمد ١/ ٩ والنسائى فى التفسير (٢٦) والترمذى فى التفسير (٢٩٦١) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير : ٢/ ٦ وصححه ابن حبان (٧١٧٠) والحاكم ٢/ ٢٦٨ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

(٥، ٦) ابن جرير ٢/ ٦ .

(٧) أحمد ٣/ ٣٢ ، ٣٣ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٣٩) وفى التفسير (٤٤٨٧) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٤٩) والترمذى فى التفسير (٢٩٦١) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٧) والحديث أخرجه أيضًا الطبرى ٢/ ٥ ، ٦ مختصراً ومطولا وابن حبان فى صحيحه (١٧١٩) .

عن أبى سعيد نحوه [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبى ﷺ ؛ قال : « أنا وأمتى يوم القيامة على كَوْم[٢] مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه مِنا ، وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه»[٣] .

وأخرج ابن جرير عن أبى سعيد فى قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ بأن الرسل قد بلغوا ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ بما عملتم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا ، فقال ﷺ : «وجبت ، وجبت ، وجبت » ومروا بجنازة فأثنوا عليها شرًا ، فقال النبى ﷺ : «وجبت ، وجبت ، وجبت » فسأله عمر ، فقال : « من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض » [٤] زاد الحكيم الترمذى : ثم تلارسول الله ﷺ : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ الآية . وفى الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعًا عند ابن المنذر، والحاكم وصححه[٥] ، ومنها عن عمر مرفوعًا عند ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى والترمذى والنسائى[٦]، ومنها عن أبى زهير الثقفى مرفوعًا عند أحمد وابن ماجة والطبرانى والدارقطنى فى الأفراد ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى السنن [٧] ، ومنها عن أبى هريرة مرفوعًا عند ابن جرير وابن أبى حاتم [٨] ، ومنها عن سلمة بن الأكوع مرفوعًا عند ابن أبى شيبة وابن جرير والطبرانى [٩].

وأخرج ابن جرير عن عطاء فى قوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها** ﴾ قال: يعنى بيت المقدس ﴿ **إلا لنعلم** ﴾ قال : نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره . وأخرج ابن جرير وابن

(١) أحمد ٥٨/٣ والنسائى فى التفسير (٢٧) وابن ماجة (٤٢٨٤) .
(٢) الكَوْم : المواضع العالية المشرفة ، جمع كَوْمة .
(٣) ابن جرير ٦/٢ .
(٤) البخارى فى الجنائز (١٣٦٧) وفى الشهادات (٢٦٤٢) ومسلم فى الجنائز (٩٤٩/ ٦٠) وابن ماجة فى الجنائز (١٤٩١) والترمذى فى الجنائز (١٠٥٨) وقال : « حسن صحيح ». وأحمد ١٧٩/٣ ، ١٨٦ ، ١٩٧، ٢١١ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ وصححه الحاكم ٣٧٧/١ بزيادة على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٥) صححه الحاكم ٢٦٨/٢ وتعقبه الذهبى بأن فيه مصعب بن ثابت ليس بالقوى .
(٦) أحمد ٢٢/١ ، ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ والبخارى فى الجنائز (١٣٦٨) وفى الشهادات (٢٦٤٣) والترمذى فى الجنائز (١٠٥٩) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى سننه ٥١/٤ .
(٧) أحمد ٤١٦/٣ ، و ٤٦٦/٦ وابن ماجة فى الزهد (٤٢٢١) وصحح البوصيرى فى الزوائد إسناده ، وصححه الحاكم ١٢٠/١ ، ٤٣٦/٤ ووافقه الذهبى ، وأخرجه البيهقى ١٢٣/١٠ وقال ابن حجر عن هذا الإسناد : « إنه حسن غريب » الإصابة٧٧/٤. ط . دار إحياء التراث العربى .
(٨) ابن جرير ٦/٢ وأخرجه أحمد ٢٦١/٢ ، ٢٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٨ ، ٥٢٨ وابن ماجة فى الجنائز (١٤٩٢) وصحح البوصيرى إسناد ابن ماجة .
(٩) ابن جرير ٦/٢ والطبرانى (٦٢٥٩) ، (٦٢٦٢) وضعفه الهيثمى فى المجمع ٥/٣ من الطريقين .

المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا لنعلم** ﴾ قال : لنميز أهل اليقين من أهل الشك . ﴿ **وإن كانت لكبيرة** ﴾ يعنى تحويلها على أهل الشرك والريب . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بلغنى أن ناسًا ممن أسلم رجعوا ، فقالوا : مرة هاهنا ، ومرة هاهنا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة ، قالوا : يارسول الله ، فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ (١) وقد تقدم حديث البراء . وفى الباب أحاديث كثيرة وآثار عن السلف .

﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك** ﴾ قال القرطبى فى تفسيره : قال العلماء : هذه الآية مقدمة فى النزول على قوله : ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾ ومعنى ﴿ **قد** ﴾ تكثير الرؤية ، كما قاله صاحب الكشاف ، ومعنى ﴿ **تقلب وجهك**﴾ : تحول وجهك إلى السماء ، قاله قطرب . وقال الزجاج : تقلب عينيك فى النظر إلى السماء ، والمعنى متقارب . وقوله : ﴿**فلنولينك** ﴾ هو إما من الولاية، أى فلنعطينك ذلك ، أو من التولى ، أى فلنجعلنك متوليًا إلى جهتها ، وهذا أولى لقوله : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ والمراد بالشطر هنا : الناحية والجهة ، وهو منتصب على الظرفية ، ومنه قول الشاعر:

أقول لأم زِنْبَـــاعٍ أقـيمـــى ... صـُدورَ العيسِ شَطْرَ بنى تَميم

ومنه أيضا قول الآخر :

ألا مـــَنْ مُبْلغ عـــمرًا رَسُولا ... وَمَا تُغْنِى الرِســَالةُ شـَطْرَ عمرو

---

(١) أحمد ١/ ٢٩٥ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٧ والترمذى فى التفسير(٢٩٦٤) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٢/ ١١ والطبرانى (١١٧٢٩) ، وصححه ابن حبان (١٧١٤) والحاكم ٢/ ٢٦٩ ووافقه الذهبى .

وقد يراد بالشطر النصف ومنه « الوضوء شطر الإيمان » (١) ، ومنه قول عنترة :

إنى امرؤ مِنْ خَيرِ عَبْس منصباً ‌‌‌‌ شَطِرى وَأَحْمِى سَائِرى بِالْمنْصَلِ (٢)

قال ذلك ؛ لأن أباه من سادات عبس وأمّه أمَة ، ويرد بمعنى البعض مطلقًا ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا : الكعبة ، وقد حكى القرطبى الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعاين ، وعلى أن غير المعاين يستقبل الناحية، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به (٣) . والضمير فى قوله : ﴿ أنه الحق ﴾ راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحويل إلى جهة الكعبة ، وعلم أهل الكتاب بذلك ، إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم أو وجدوا فى كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبى يستقبل الكعبة ، أو لكونهم قد علموا من أنبيائهم أو كتبهم أن النسخ سيكون فى هذه الشريعة ، فيكون ذلك موجبًا عليهم الدخول فى الإسلام ، ومتابعة النبى ﷺ . قوله : ﴿وما الله بغافل عما يعملون ﴾ قد تقدم معناه . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى :« تعملون » بالمثناة الفوقية على مخاطبة أهل الكتاب ، أو أمة محمد ﷺ ، وقرأ الباقون بالياء التحتية .

وقوله : ﴿ ولئن أتيت ﴾ هذه اللام هى موطئة للقسم والتقدير: والله لئن أتيت . وقوله : ﴿ما تبعوا ﴾ جواب القسم المقدر . قال الأخفش والفراء : أجيب « لئن » بجواب « لو » لأن المعنى : ولو أتيت ، ومثله قوله تعالى: ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرًا لظلوا ﴾ [الروم: ٥١] أى ولو أرسلنا . وإنما قالا هكذا ؛ لأن « لئن » هى ضد « لو » وذلك أن « لو » تطلب فى جوابها المضى والوقوع و« لئن » تطلب فى جوابها الاستقبال . وقال سيبويه : إن معنى «لئن » يخالف معنى «لو » ، فلا تدخل إحداهما على الأخرى ، فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلتك . قال سيبويه: ومعنى ﴿ ولئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرًا﴾ ليظللن (٤) .انتهى . وفى هذه الآية مبالغة عظيمة ، وهى متضمنة للتسلية لرسول الله ﷺ ، وترويح خاطره ؛ لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية ، ولا يرجعون إلى الحق ، وإن جاءهم بكل برهان ، فضلا عن برهان واحد ، وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم، أو لشبهة طرأت عليهم ، حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به الرسول ﷺ ، ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق . بل كان تركهم للحق تمردًا وعنادا مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبدًا .

(١) الحديث عن أبى مالك الأشعرى أخرجه مسلم فى الطهارة (٢٢٣/ ١) والترمذى فى الدعوات (٣٥١٧) وقال : « صحيح » والنسائى فى الزكاة ٥/٥ وابن ماجة فى الطهارة (٢٨٠) .

(٢) مثله قول الشاعر :

إن العسير بها داء مخامرها ‌‌‌‌ فشطرها نظر العينين محسور

راجع : رسالة الشافعى ٣٥، ٤٨٧ .

(٣) القرطبى ١/ ٥٤٢ .

(٤) كذا ، وعند القرطبى ١/ ٥٤٤ . قال سيبويه : ومعنى ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرًا لظلوا ﴾ [الروم : ٥١] ليظلّن .

وقوله : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهى من الله سبحانه لنبيه ﷺ ، أى لا تتبع يا محمد قبلتهم ، ويمكن أن يكون على ظاهره ، دفعًا لأطماع أهل الكتاب ، وقطعًا لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبلة التى كان عليها . وقوله : ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة[1] الرسول ﷺ لما عندهم مختلفون فى دينهم ، حتى فى هذا الحكم الخاص الذى قصه الله سبحانه على رسوله ، فإن بعضهم لا يتابع الآخر فى استقبال قبلته . قال فى الكشاف : « وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى تستقبل مطلع الشمس » . انتهى[2] .

قوله : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ إلى آخر الآية ، فيه من التهديد العظيم ، والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود ، وترجف منه الأفئدة ، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء ، والملة الشريفة ، من رسول الله ﷺ الذى هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون ـ وحاشاه ـ من الظالمين فما ظنك بغيره من أمته ؟ وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام ، وارتفاع مناره ، عن أن يميلوا إلى شىء من هوى أهل الكتاب ، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية ، ووسيلة طاغوتية ، وهى ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة ، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم ، أو الجاه لديهم ، إن كان لهم فى الناس دولة ، أو كانوا من ذوى الصولة ، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل ، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب ، كما يشبه الماء الماء ، والبيضة البيضة ، والتمرة التمرة ؛ وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل ، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام ، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين ، ويتبعون أحسنه ، وهم على العكس من ذلك ، والضد لما هنالك ، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة ، ويدفعونه من شنعة إلى شنعة ، حتى يسلخوه من الدين ، ويخرجوه منه ، وهو يظن أنه منه فى الصميم، وأن الصراط الذى هو عليه هو الصراط المستقيم ، هذا إن كان فى عداد المقصرين ومن جملة الجاهلين ، وإن كان من أهل العلم والفهم ، المميزين بين الحق والباطل ، كان فى اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم ، وختم على قلبه ، وصار نقمة على عباد الله ، ومصيبة صبها الله على المقصرين ؛ لأنهم يعتقدون أنه فى علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق ، ولا يتبع إلا الصواب ، فيضلون بضلاله ، فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة . نسأل الله اللطف والسلامة والهداية .

وقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ قيل : الضمير لمحمد ﷺ ، أى يعرفون نبوته . روى ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم . وقيل : يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، بالطريق الذى قدمنا ذكرها ، وبه قال جماعة من المفسرين ، ورجح

---

(١) فى المطبوعة : « مبايعة الرسول » ، والصحيح ما أثبتناه كما بالمخطوطة .
(٢) الكشاف ١/ ٢٠٣ .

صاحب الكشاف الأول ، وعندى أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذى سيقت له هذه الآيات . وقوله : ﴿ **ليكتمون الحق** ﴾ هو عند أهل القول الأول نبوة محمد ﷺ، وعند أهل القول الثانى استقبال القبلة، وقوله : ﴿ **الحق من ربك** ﴾ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول، ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره قوله :﴿ **من ربك** ﴾ أى الحق هو الذى من ربك لا من غيره . وقرأ على بن أبى طالب : ﴿**الحق** ﴾ بالنصب على أنه بدل من الأول ، أو منصوب على الإغراء ، أى الزم الحق . وقوله : ﴿ **فلا تكونن من الممترين** ﴾ خطاب للنبى ﷺ . والامتراء : الشك ، نهاه الله سبحانه عن الشك فى كونه الحق من ربه ، أى فى كون كتمانهم الحق مع علمهم ، وعلى الأول هو تعريض للأمة ، أى لا يكن أحد من أمته من الممترين ؛ لأنه ﷺ لا يشك فى كون ذلك هو الحق من الله سبحانه .

وقد أخرج ابن ماجة عن البراء قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرًا ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه فى السماء ، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة ، فصعد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : «ياجبريل كيف حالنا فى صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ » فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ [(١)] . وأخرجه الطبرانى من حديث معاذ مختصرًا لكنه قال : سبعة عشر شهرًا [(٢)] . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير وصححه عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى : ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ قال : قبلة إبراهيم نحو الميزاب .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن البراء فى قوله : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ قال : قبله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن على مثله . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير والبيهقى عن ابن عباس ؛ قال : ﴿ **شطره** ﴾ : نحوه . وأخرج البيهقى عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية قال: ﴿**شطر المسجد الحرام** ﴾ تلقاءه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : البيت كله قبلة، وقبلة البيت الباب . وأخرج البيهقى فى سننه عنه مرفوعًا قال : « البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى » [(٣)] .

---

(١) ابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠١٠) وقال فى الزوائد : « صحيح ورجاله ثقات ».
(٢) الطبرانى ٢٠/١٣٢ ـ ١٣٤ (٢٧٠) وهو منقطع ، والمسعودى اختلط ، وأخرجه مختصرًا ٢٠/١١١ (٢٢٠) بلفظ :« ستة عشر » وإسناده ضعيف .
(٣) البيهقى فى الصلاة ٢/٩ ، ١٠ وقال : « تفرد به عمر بن حفص المكى وهو ضعيف لا يحتج به . وروى بإسناد آخر ضعيف عن عبد الله بن حبش كذلك مرفوعا ، ولا يحتج بمثله والله أعلم » .

وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب** ﴾ قال : أنزل ذلك فى اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ليعلمون أنه الحق** ﴾ قال : يعنى بذلك : القبلة . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير عن أبى العالية نحوه .

وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ **وما بعضهم بتابع قبلة بعض** ﴾ يقول : ما اليهود بتابعى قبلة النصارى ، ولا النصارى بتابعى قبلة اليهود . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾ قال : اليهود والنصارى ﴿ **يعرفونه** ﴾ أى قال : يعرفون رسول الله فى كتابهم ﴿**كما يعرفون أبناءهم**﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **يعرفونه** ﴾ يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿**وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾ قال : يكتمون محمدًا وهم يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير عن أبى العالية قال : قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ **الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ يقول :لا تكونن فى شك يامحمد ، أن الكعبة هى قبلتك . وكانت قبلة الأنبياء من قبلك.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولكل** ﴾ بحذف المضاف إليه لدلالة التنوين عليه ، أى لكل أهل دين وجهة ، والوجهة : فعلة من المواجهة ، وفى معناها : الجهة والوجه، والمراد : القبلة ، أى أنهم لا يتبعون قبلتك ، وأنت لا تتبع قبلتهم ﴿ **ولكل وجهة** ﴾ إما بحق وإما بباطل . والضمير فى قوله : ﴿ **هو موليها** ﴾ راجع إلى لفظ كل . والهاء فى قوله : ﴿**موليها** ﴾ هى المفعول الأول والمفعول الثانى محذوف ، أى موليها وجهه . والمعنى ، أن لكل صاحب ملة قبلة ، صاحب القبلة موليها وجهه ، أو لكل منكم يا أمة محمد قبلة ، يصلى إليها من شرق ، أو غرب ، أو جنوب ، أو شمال، إذا كان الخطاب للمسلمين ، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه ، وإن لم يجرِ له ذكر، إذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك . والمعنى أن لكل صاحب ملة قبلة الله موليها

إياه ، وحكى الطبرى أن قومًا قرؤوا : ﴿ ولكل وجهة ﴾ بالإضافة ونسب هذه القراءة أبو عمرو الدانى إلى ابن عباس . قال فى الكشاف :« وكل وجهة الله موليها فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك : لزيد ضربت ، ولزيد أبوه ضاربه». انتهى (١) . وقرأ ابن عباس وابن عامر « مُوَلاها» على ما لم يسم فاعله. قال الزجاج : والضمير على هذه القراءة لواحد ، أى ولكل واحد من الناس قبلة ، الواحد مولاها ، أى مصروف إليها .

وقوله : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ أى إلى الخيرات على الحذف والإيصال ، أى بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام ، كما يفيده السياق ، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير ، كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات ، والمراد من الاستباق إلى الاستقبال : الاستباق إلى الصلاة فى أول وقتها ، ومعنى قوله : ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله ﴾ أى فى أى جهة من الجهات المختلفة تكونوا ، يأت بكم الله للجزاء يوم القيامة، أويجمعكم جميعًا ، ويجعل صلاتكم فى الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة .

وقوله : ﴿ ومن حيث خرجت ﴾ كرر سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة ، وللاهتمام به ؛ لأن موقع التحويل كان معتنى به فى نفوسهم . وقيل : وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ، ومواطن الشبهة ، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج فى صدورهم . وقيل : إنه كرر هذا الحكم لتعدد علله ، فإنه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل : الأولى : ابتغاء مرضاته . والثانية : جرى العادة الإلهية أن يولى كل أهل ملة ، وصاحب دعوة جهة يستقل بها . والثالثة : دفع حجج المخالفين . فقرن بكل علة معلولها . وقيل : أراد بالأول : ولِّ وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها ، ثم قال : وحيثما كنتم معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها ، فولوا وجوهكم شطره ، ثم قال : ﴿ ومن حيث خرجت﴾ يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار ، فكان هذا أمر بالتوجه إلى الكعبة فى جميع المواطن من نواحى الأرض ، وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ قيل : معناه : لئلا يكون لليهود عليكم حجة إلا للمعاندين منهم ، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه . فعلى هذا المراد بالذين ظلموا : المعاندون من أهل الكتاب . وقيل : هم مشركو العرب ، وحجتهم قولهم : راجعت قبلتنا . وقيل : معناه : لئلا يكون للناس عليكم حجة ، لئلا يقولوا لكم : قد أمرتم باستقبال القبلة ، ولستم ترونها . وقال أبو عبيدة : إن ﴿ إلا ﴾ ها هنا بمعنى الواو ، أى والذين ظلموا فهو استثناء بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر(٢) :

مَا بِالمدِينةِ دَارٌ غيرُ وَاحِدةٍ ... دَار الخليفة إلا دارُ مَرْوانَا

كأنه قال : إلا دار الخليفة ودار مروان ؛ وأبطل الزجاج هذا القول وقال : إنه استثناء منقطع ، أى لكن الذى ظلموا منهم فإنهم يحتجون ، ومعناه : إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد

---

(١) الكشاف ١/ ٢٠٥ .

(٢) الشاعر : هو الفرزدق ، وأراد به مروان بن الحكم .

وضح له كما تقول مالك عليّ حجة إلا أن تظلمنى ، أى مالك على حجة البتة ، ولكنك تظلمنى ، وسمى ظلمه حجة ؛ لأن المحتج بها سماه حجة ، وإن كانت داحضة ، وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى : لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا ، فالذين بدل من الكاف والميم فى عليكم ، ورجح ابن جرير الطبرى أن الاستثناء متصل ، وقال : نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبى ﷺ وأصحابه فى استقبالهم الكعبة ؛ والمعنى : لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا : ما ولاهم ، وقالوا : إن محمداً تحير فى دينه ، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا أهدى منه ، وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلا من عابد وثن، أو من يهودى ، أو منافق . قال : والحجة بمعنى : المحاجة التى هى المخاصمة والمجادلة، وسماها تعالى حجة ، وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم (١) . ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجاج . قال القرطبى : وهذا على أن يكون المراد بالناس : اليهود، ثم استثنى كفار العرب ، كأنه قال : لكن الذين ظلموا فى قولهم : رجع محمد إلى قبلتنا ، وسيرجع إلى ديننا كله(٢) ، وقوله : ﴿ **فلا تخشوهم**﴾ يريد الناس ، أى لا تخافوا مطاعنهم فإنها داحضة باطلة لا تضركم . وقوله : ﴿ **ولأتم نعمتى عليكم**﴾ معطوف على ﴿**لئلا يكون** ﴾ أى ولأن أتم ، قاله الأخفش . وقيل : هو مقطوع عما قبله فى موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمر ، والتقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرَّفتكم قبلتى . قاله الزَّجاج . وقيل: معطوف على علة مقدرة ، كأنه قيل : واخشونى لأوفقكم ، ولأتم نعمتى عليكم ، وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة . وقيل : دخول الجنة .

وقوله : ﴿ **كما أرسلنا** ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف ، والمعنى: ولأتم نعمتى عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا . قاله الفراء ورجحه ابن عطية ، وقيل : الكاف فى موضع نصب على الحال ، والمعنى: ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال ، والتشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة . وقيل : معنى الكلام على التقديم والتأخير ، أى فاذكرونى كما أرسلنا ، قاله الزجاج .

وقوله : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة . قال سعيد بن جبير: ومعنى الآية : اذكرونى بالطاعة ، أذكركم بالثواب والمغفرة .حكاه عنه القرطبى فى تفسيره ، وأخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير .وقد روى نحوه مرفوعًا كما سيأتى . وقوله : ﴿**واشكروا لى** ﴾ قال الفراء : شكر لك ، وشكرت له (٣). والشكر : معرفة الإحسان

---

(١) ابن جرير ٢/ ٢٠ ، ٢١ . (٢) القرطبى ١/ ٥٥١ .

(٣) قال ابن جرير : والعرب تقول: نصحت لك ، وشكرت لك ، ولا تكاد تقول : شكرتك ، ونصحتك ، وربما قالت : شكرتك ، ونصحتك . من ذلك قول الشاعر :

هم جمعوا بؤسى ونُعمى عليكم ... فهلا شكرت القوم إذ لم تقاتل

وقال النابغة :

نصحت بنى عوف فلم يتقبلوا ... رسولى ولم تنجح لديهم وسائلى =

والتحدث به ، وأصله في اللغة : الظهور . وقد تقدم الكلام فيه . وقوله : ﴿ **ولا تكفرون** ﴾ نهى ، ولذلك حذفت نون الجماعة . وهذه الموجودة في الفعل هى نون المتكلم ، وحذفت الياء؛ لأنها رأس آية ، وإثباتها حسن فى غير القرآن . والكفر هنا : سترِ النعمة لا التكذيب . وقد تقدم الكلام فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولكل وجهة هو موليها**﴾ قال : يعنى بذلك أهل الأديان ، يقول : لكل قبلة يرضونها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية : صلوا نحو بيت المقدس مرة ، ونحوه الكعبة مرة أخرى . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ يقول : لا تُغْلَبُنَّ على قبلتكم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فاستبقوا الخيرات**﴾ قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿**فاستبقوا الخيرات** ﴾ يقول : فسارعوا فى الخيرات ﴿**أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا** ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير من طريق السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ؛ قال: لما صُرِف النبى ﷺ نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه ، فتوجه بقبلته إليكم، وعلم أنكم أهدى منه سبيلا ، ويوشك أن يدخل فى دينكم ، فأنزل الله : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى** ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾ قال : يعنى بذلك أهل الكتاب حين صرف نبى الله إلى الكعبة قالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : حجتهم: قولهم : قد أحب قبلتنا . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ومجاهد فى قوله : ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ قال : الذين ظلموا منهم : مشركو قريش، أنهم سيحتجون بذلك عليكم ، واحتجوا على نبى الله بانصرافه إلى البيت الحرام ، وقالوا : سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا ، فأنزل الله فى ذلك كله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾(٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم** ﴾ يعنى: محمدًا ﷺ . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم** ﴾ يقول : كما فعلت فاذكرونى. وأخرج أبو الشيخ والديلمى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ؛ قال رسول الله ﷺ : « ﴿**فاذكرونى أذكركم** ﴾ ـ

= راجع : ديوانه ٨٩ ومعانى القرآن للفراء ١/ ٩٢ وأمالى ابن الشجرى ١/ ٣٦٢ .

(١ ، ٢) ابن جرير ٢/ ٢٠ .

يقول : ـ اذكرونى يا معشر العباد بطاعتى أذكركم بمغفرتى » . وأخرج الديلمى وابن عساكر مثله مرفوعًا من حديث أبى هند الدارى ، وزاد : « فمن ذكرنى وهو مطيع فحقٌ علىَّ أن أذكره بمغفرتى ، ومَن ذكرنى وهو لى عاص فحق علىَّ أن أذكره بمقت » (١) . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس: يقول الله : ذكرى لكم خير من ذكركم لى . وقد ورد فى فضل ذكر الله على الإطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره وشكره ، عقب ذلك بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن من جمع بين ذكر الله وشكره ، واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به ، ودفع ما يرد عليه من المحن فقد هُدِى إلى الصواب ، ووُفِّق إلى الخير ، وإن هذه المعية التى أوضحها الله بقوله : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر ، على ما ينوب من الخطوب ، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال ، وإن كانت كالجبال . وأموات وأحياء مرتفعان على أنهما خبران لمحذوفين ، أى لا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله هم أموات ، بل هم أحياء ، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم ، بعد سلب أرواحهم ؛ لأنكم تحكمون عليها بالموت فى ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذى هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر فى منقاره من ماء البحر ، وليسوا كذلك فى الواقع ، بل هم أحياء فى البرزخ (٢) . وفى الآية دليل على ثبوت عذاب القبر ، ولا اعتداد بخلاف من خالف فى ذلك ، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ، ودلت عليه الآيات القرآنية ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

والبلاء : أصله المحنة . ومعنى نبلوكم : نمتحنكم لنختبركم ، هل تصبرون على القضاء أم لا ؟ وتنكير شىء للتقليل ، أى بشىء قليل من هذه الأمور . وقرأ الضحاك : « بأشياء » . والمراد بالخوف : ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره ، وبالجوع : المجاعة

---

(١) الديلمى فى مسند الفردوس (٤٤٨٦) .

(٢) البرزخ : الحاجز بين الشيئين ، وهو أيضا ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .

التى تحصل عند الجدب والقحط ، وبنقص الأموال : ما يحصل فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها ، وبنقص الأنفس : الموت والقتل فى الجهاد ، وبنقص الثمرات : ما يصيبها من الآفات وهو من عطف الخاص على العام ، لشمول الأموال للثمرات وغيرها . وقيل : المراد بنقص الثمرات : موت الأولاد .

وقوله : ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أو لكل من يقدر على التبشير . وقد تقدم معنى البشارة . والصبر: أصله الحبس [١] ، ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة ؛ لأن ذلك تسليم ورضا . والمصيبة واحدة المصائب ، وهى النكبة التى يتأذى بها الإنسان وإن صغرت .

وقوله : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين ، وعصمة للممتحنين ، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله ، والاعتراف بالبعث والنشور . ومعنى الصلوات هنا : المغفرة والثناء الحسن . قاله الزجاج . وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد . وقال فى الكشاف : « الصلاة الرحمة والتعطف ، فوضعت موضع الرأفة ، وجمع بينها وبين الرحمة كقوله : ﴿ رأفة ورحمة ﴾ [الحديد : ٢٧] ﴿ رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : ١١٧ ، ١٢٨ ، والنور : ٢٠ ، والحشر : ٢٠] والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة ، ورحمة بعد رحمة » . انتهى [٢] . وقيل المراد بالرحمة : كشف الكربة ، وقضاء الحاجة . و ﴿ **المهتدون** ﴾ قد تقدم معناه . وإنما وصفوا هنا بذلك ؛ لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب ، من الاسترجاع والتسليم .

وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى الدلائل عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ؛ قال : غشى على عبد الرحمن بن عوف فى وجعه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها ، حتى قاموا من عنده وجللُّوه ثوبا ، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة ، فلبثوا ساعة وهو فى غشيته ثم أفاق [٣] . وأخرج ابن منده فى المعرفة عن ابن عباس قال : قتل عمير [٤] بن الحمام ببدر ، وفيه وفى غيره نزلت : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل فى**

(١) وقال الخواص : الصبر : الثبات على أحكام الكتاب والسنة ، وقال رويم : الصبر : ترك الشكوى ، وقال ذو النون المصرى : الصبر: الاستعانة بالله تعالى ، وقال الأستاذ أبو على : الصبر : حده ألا تعترض على التقدير، فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ، قال الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد** ﴾ [ص : ٤٤] مع ما أخبر عنه أنه قال : ﴿ **مسنى الضر** ﴾ .

(٢) الكشاف ١/٢٠٨ .

(٣) جزء من حديث طويل : أخرجه الحاكم ٣/٣٠٧ وسكت عنه هو والذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧/٤٣ ، وتكملة القصة : فكان أول ما تكلم به أن كبر ، فكبر أهل البيت ومن يليهم ، ثم قال لهم : غُشى علىّ ؟ فقالوا: نعم ، فقال : صدقتم ، إنه انطلق بى رجلان أحدهما فيه شدة وفظاظة فقالا : انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين ، فانطلقا بى حتى لقيا رجلا ، فقال: أين تذهبان بهذا ؟ فقالا : نحاكمه إلى العزيز الأمين ، قال: ارجعا، فإنه من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة فى بطون أمهاتهم ، وأنه سيتمتع به بنوه إلى ما شاء الله ، فعاش بعد ذلك شهراً ، ثم توفى رضى الله عنه .

(٤) فى المخطوطة: « تميم » ، وهو تحريف ؛ لأن الذى قتل ببدر هو عمير بن الحمام .

سبيل الله أموات ﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : **﴿ فى سبيل الله ﴾** فى طاعة الله فى قتال المشركين . وقد وردت أحاديث أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة ، فمنها عن كعب بن مالك مرفوعًا عند أحمد والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة [(٢)] . وروى أن أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض كما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة قال : بلغنا فذكر ذلك وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضًا بنحوه، وروى أنها على صور طيور خضر . كما أخرجه ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى العالية . وأخرجه ابن أبى شيبة فى البعث والنشور عن كعب . وأخرجه هناد ابن السَرِىّ عن هذيل . وأخرجه عنه عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك مرفوعًا [(٣)] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء فى قوله : **﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ﴾** قال : هم أصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : **﴿ولنبلونكم ﴾** الآية ، قال : أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء ، وأنه مبتليهم فيها ، وأمرهم بالصبر وبشرهم ، فقال : **﴿وبشر الصابرين ﴾** وأخبر أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله ، والرحمة ، وتخفيف سبيل الهدى . وقال رسول الله ﷺ : « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقباه ، وجعل له خلفا صالحًا يرضاه » [(٤)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن رجاء ابن حيوة فى قوله : **﴿ ونقص من الثمرات ﴾** قال : يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا ثمرة . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : « أعطيت أمتى شيئًا لم يعطه أحد من الأمم ، أن يقولوا عند المصيبة : **﴿إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾** » [(٥)] . وقد ورد فى فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ .

---

(١) ذكر الواحدى نحو ذلك فى أسباب النزول ص٢٤ من غير إسناد .

(٢) أحمد ٦/ ٣٨٦ والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤١) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الجنائز ٤/ ١٠٨ وابن ماجة فى الجنائز (١٤٤٩) وفى الزهد (٤٢٧١) .

(٣) عبد الرزاق فى الجهاد (٩٥٥٦) واختلف فى عبد الله بن كعب هل هو من الصحابة فيكون الحديث متصلا أو من التابعين فيكون مرسلا ؟

(٤) ابن جرير ٢/ ٢٦ والطبرانى (١٣٠٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٣٣٣ ، ٣٣٤ : « وفيه على بن أبى طلحة وهو ضعيف » . وقال أيضا فى موضع آخر ٦/ ٣١٩ ، ٣٢٠ : « إسناده حسن » والبيهقى فى الشعب (٨٦٨٩) ط . الكتب العلمية .

(٥) الطبرانى (١٢٤١١) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٣٣٠ : « فيه محمد بن خالد الطحان وهو ضعيف » .

أصل ﴿ الصفا ﴾ فى اللغة : الحجر الأملس وهو هنا عَلَم لجبل من جبال مكة معروف ، وكذلك ﴿ المروة ﴾ عَلَمٌ لجبل بمكة معروف ، وأصلها فى اللغة : واحدة المروى ، وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقيل : التى فيها صلابة . وقيل : تعم الجميع . قال أبو ذؤيب الهذلى :

حَتَّى كأنِّى لِلْحَوادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلَّ يوم تُقْرَعُ (١)

وقيل : إنها الحجارة البيض البراقة . وقيل : إنها الحجارة السود . والشعائر : جمع شعيرة ، وهى العلامة ، أى من أعلام مناسكه ، والمراد بها : مواضع العبادة التى أشعرها الله إعلامًا للناس من الموقف ، والسعى ، والمنحر ، ومنه: إشعار الهدى ، أى إعلامه بغرز حديدة فى سنامه ، ومنه قول الكميت :

نُقَتِّلُهُمْ جِيلا فجيلا تَرَاهُمُ شَعَائِرَ قُرْبَانٍ بِهِمْ يُتَقَرَّبُ (٢)

وحج البيت فى اللغة : قصده ، ومنه قول الشاعر (٣) :

وأَشْهَد مِنْ عَوْفٍ حُلُولا كَثِيرةً يَحجُّونَ سِبَّ الزِّبْرقَانِ المُزَعْفَرا (٤)

والسِّب : العمامة . وفى الشرع : الإتيان بمناسك الحج التى شرعها الله سبحانه، والعمرة فى اللغة : الزيارة . وفى الشرع : الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة ، والجناح : أصله من الجنوح ، وهو الميل ، ومنه الجوانح لاعوجاجها . وقوله : ﴿ يطوّف ﴾ أصله يتطوف فأدغم . وقرئ :﴿ أن يطوف ﴾ ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى . وحكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول : إنه واجب وليس بركن ، وعلى تاركه دم (٥) . وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس ابن مالك وابن سيرين، ومما يقوى دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿ ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ وذهب الجمهور إلى أن السعى واجب ، ونسك من جملة المناسك ، واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها : أرأيت

---

(١) ديوانه : ٣ والمفضليات ٥٨٧ من قصيدته البارعة فى رثاء أولاده ، يقول : إن المصائب المتابعة تركته كهذه الصخرة التى وصف ، والمشرق : المصلى بمنى . قال ابن الأنبارى : وإنما خص المشرق ؛ لكثرة مرور الناس به. أما عن قوله : المشقر ، يعنى : سوق الطائف ، يقول : كأنى مروة فى السوق يمر الناس بها يقرعها واحد بعد واحد .

(٢) الهاشميات : ٢١ واللسان (شعر) وغيرها ، والضمير فى قوله : نقتلهم ، يعود إلى الخوارج الذين عدد أسماءهم فى بيتين قبل :

علام إذا زرنا الزبير ونافعا بغارتنا بعد المقانب مقنب
وشاط على أرماحنا بادِّعائها وتحويلها عنكم شبيب وقعنب

(٣) هو المخبل السعدى ، وهو مخضرم .

(٤) المعانى الكبير ٤٧٨ الاشتقاق لابن دريد ٥٦ ، ٧٧ وتهذيب الألفاظ ٥٦٣ وإصلاح المنطق ٤١١ والبيان والتبيين ٣/ ٩٧ وسمط اللآلئ ١٩١ والخزانة ٣/ ٤٢٧ .

(٥) الكشاف ١/ ٢٠٨ .

قول الله : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما** ﴾ ؟ فما أرى على أحد جناحًا ألا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئس ما قلت يابن أختى. إنها لو كانت على ما أوّلتها كانت : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية ، التى كانوا يعبدونها ، وكان مَنْ أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية . فأنزل الله :﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ الآية. قالت عائشة : ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما (١) .

وأخرج مسلم وغيره عنها أنها قالت : لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته ؛ لأن الله قال : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ (٢) . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ ، فقال : « إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا » (٣) . وأخرج أحمد فى مسنده والشافعى وابن سعد وابن المنذر وابن قانع والبيهقى عن حبيبة بنت أبى تُجْرَأة ؛ قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه ، وهو وراءهم يسعى ، حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره وهو يقول : «اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعى » (٤) . وهو فى مسند أحمد من طريق شيخه عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبى رباح عن صفية بنت شيبة عنها (٥) . ورواه من طريق أخرى عن عبد الرزاق أخبرنا معمر ، عن واصل مولى أبى عيينة، عن موسى بن عبيدة ، عن صفية بنت شيبة ؛ أن امرأة أخبرتها فذكرته (٦) . ويؤيد ذلك حديث: « خذوا عنى مناسككم» (٧). انتهى .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ

---

(١) أحمد ٦/ ١٤٤ ، ١٦٢ ، ٢٢٧ والبخارى فى الحج (١٦٤٣) وفى العمرة (١٧٩٠) وفى التفسير (٤٤٩٥) ومسلم فى الحج (١٢٧٧/ ٢٥٩ ـ ٢٦٣) وأبو داود فى المناسك (١٩٠١) والترمذى فى التفسير (٢٩٦٥) وقال: «حسن صحيح » والنسائى فى الحج ٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩ وابن ماجة فى المناسك (٢٩٨٦) وأبو يعلى (٤٧٣٠/ ٣٧٤) وابن خزيمة فى المناسك (٢٧٦٦، ٢٧٦٧ ، ٢٧٦٩) والبيهقى فى الحج ٥/ ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) مسلم فى الحج (١٢٧٧/ ٢٦٠) وابن ماجة فى المناسك (٢٩٨٦) .

(٣) الطبرانى فى الكبير (١١٤٣٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٥١ : « وفيه المفضل بن صدقة ، وهو متروك » .

(٤) أحمد ٦/ ٤٢١ ، ٤٢٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٥٠ :« وفيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن حبان وقال : يخطئ وضعفه غيره » والشافعى فى المسند فى الحج (٩٠٧) والبيهقى فى الحج ٥/ ٩٨ .

(٥) أحمد ٦/ ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٦) أحمد ٦/ ٤٣٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٤٧ : « فيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف » وأخرجه الدارقطنى ٢/ ٢٥٦ من حديث صفية .

(٧) جزء من حديث رواه جابر وهو عند أحمد ٣/ ٣١٨ ، ٣٣٧ ومسلم فى الحج (١٢٩٧/ ٣١٠) وأبى داود فى المناسك (١٩٧٠) والنسائى فى الحج ٥/ ٢٧٠ وابن ماجة فى المناسك (٣٠٢٣) والبيهقى فى الحج ٥/ ١٢٥، ١٣٠ .

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين يكتمون** ﴾ إلى آخر الآية فيه الإخبار بأن الذى يكتم ذلك ملعون واختلفوا مَنِ المراد بذلك ؟ فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصارى ، الذين كتموا أمر محمد ﷺ. وقيل : كل من كتم الحق ، وترك بيان ما أوجب الله بيانه ، وهو الراجح ؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر فى الأصول ، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافى ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق . وفى هذه الآية من الوعيد الشديد مالا يقادرقدره ، فإن من لعنه الله ، ولعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده ، قد بلغ من الشقاوة والخسران إلى الغاية التى لا تلحق ، ولا يدرك كنهها . وفى قوله: ﴿ **من البينات والهدى** ﴾ دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك ، كما قال أبو هريرة: حفظت عن [(١)] رسول الله ﷺ وعاءين : أما أحدهما : فبثثته ، وأما الآخر: فلو بثثته قطع هذا البلعوم ، أخرجه البخارى[(٢)]. والضمير فى قوله : ﴿**من بعد ما بيناه** ﴾ راجع إلى ما أنزلنا. والكتاب : اسم جنس ، وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب . وقيل : المراد به التوراة. واللعن : الإبعاد والطرد . والمراد بقوله : ﴿ **اللاعنون** ﴾ : الملائكة والمؤمنون ، قاله الزجاج وغيره ، ورجحه ابن عطية . وقيل : كل من يتأتى منه اللعن [(٣)] ، فيدخل فى ذلك الجن . وقيل : هم الحشرات والبهائم .

وقوله : ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ إلخ ، فيه استثناء التائبين والمصلحين لما فسد من أعمالهم ، والمبينين للناس ما بينه الله فى كتبه وعلى ألسن رسله . وقوله : ﴿ **وماتوا وهم كفار** ﴾ هذه الجملة حالية ، وقد استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين ؛ لأن حاله عند الوفاة لا يعلم ، ولا ينافى ذلك ما ثبت عنه ﷺ من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم ؛ لأنه يعلم بالوحى ما لا نعلم . وقيل : يجوز لعنه عملا بظاهر الحال كما يجوز قتاله . قوله : ﴿**أولئك عليهم لعنة الله** ﴾ إلخ استدل به على جواز لعن الكفار على العموم . قال القرطبى : ولا خلاف فى ذلك. قال : وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر ؛ بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره ، سواء كان الكافر عاقلا أو مجنونًا . وقال قوم من السلف : لا فائدة فى لعن من

---

(١) كذا ، وعند البخارى : « من ». (٢) البخارى فى العلم (١٢٠) .
(٣) وقيل : اللعنة : الفعلة من لعنه الله بمعنى : أقصاه وأبعده وأسحقه ، وأصل اللعن : الطرد كما قال الشماخ بن ضرار :

ذَعَرْتُ به القطا ونفيت عنه ... مقام الذئب كالرجل اللعين

راجع : مجاز القرآن ٤٦ .

جُنَّ أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر . قال : ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم ، لا على الأمر به . قال ابن العربى : إن لعن العاصى المعين لا يجوز باتفاق ، لما روى أن النبى ﷺ أُتِى بشارب خمر مراراً ، فقال بعض من حضر : لعنه الله ما أكثر ما يشربه ، فقال النبى ﷺ : « لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم» والحديث فى الصحيحين (١) . وقوله : ﴿ **والناس أجمعين** ﴾ قيل: هذا يوم القيامة ، وأما فى الدنيا ففى الناس المسلم والكافر ، ومن يعلم بالعاصى ومعصيته ، ومن لا يعلم ، فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس . وقيل : فى الدنيا ، والمراد أنه يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم .

وقوله : ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى فى النار . وقيل : فى اللعنة. والإنظار : الإمهال . وقيل: معنى لا ينظرون : لا ينظر الله إليهم فهو من النظر . وقيل : هو من الانتظار ، أى لا ينتظرون ليعتذروا . وقد تقدم تفسير ﴿ **الرحمن الرحيم**﴾. وقوله: ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ فيه الإرشاد إلى التوحيد ، وقطع علائق الشرك ، والإشارة إلى أن أول ما يجب بيانه ويحرم كتمانه هو أمر التوحيد .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : سأل معاذ بن جبل أخو بنى سلمة، وسعد بن معاذ أخو بنى الأشهل ، وخارجة بن زيد أخو بنى الحارث بن الخزرج ، نفرًا من أحبار اليهود عن بعض ما فى التوراة ، فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا**﴾ الآية (٢) . وقد روى عن جماعة من السلف أن الآية نزلت فى أهل الكتاب لكتمهم نبوة نبينا ﷺ . وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء بن عازب ؛ قال : كنا فى جنازة مع النبى ﷺ فقال : « إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته ، فذلك قول الله تعالى : ﴿**ويلعنهم اللاعنون**﴾ يعنى دواب الأرض » (٣) . وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : الجن والإنس وكل دابة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد قال : إذا أجدبت البهائم دعت على فجار بنى آدم . وأخرج عنه عبد بن حميد وابن جرير ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان قال فى تفسير الآية : إن دواب الأرض والعقارب والخنافس يقولون : إنما مُنِعْنا القطرَ بذنوبهم فيلعنونهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى جعفر قال : يلعنهم كل شىء حتى الخنفساء . وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن كتم العلم والوعيد لفاعله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا** ﴾ قال:

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الحدود (٦٧٨٠) عن عمر ، و(٦٧٧٧ ، ٦٧٨١) عن أبى هريرة .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩٣ وابن جرير ٢/ ٣٢ .
(٣) ابن ماجة ـ مختصرا ـ فى الفتن (٤٠٢١) وفى الزوائد : « فى إسناده الليث وهو ابن أبى سليم ،ضعيف » .

أصلحوا ما بينهم وبين الله ، وبينوا الذى جاءهم من الله ، ولم يكتموه ولم يجحدوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿أتوب عليهم﴾ يعنى أتجاوز عنهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ، ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : يعنى بالناس أجمعين : المؤمنين . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ خالدين فيها﴾ يقول : خالدين فى جهنم فى اللعنة ، وقال فى قوله: ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ يقول : لا ينظرون فيعتذرون . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ قال : لا يؤخرون .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى وأبو داود ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ و ﴿ الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ »[1]. وأخرج الديلمى عن أنس ؛ أن النبى ﷺ قال :«ليس شىء أشد على مردة الجن من هؤلاء الآيات التى فى سورة البقرة : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾» الآيتين[2] .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ .

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ عقب ذلك بالدليل الدالّ عليه ، وهو هذه الأمور التى هى من أعظم صنعة الصانع الحكيم ، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التى أثبتها الكفار أن يأتى بشىء منها ، أو يقتدر عليه أو على بعضه ، وهى خلق السموات وخلق الأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وجرى الفلك فى البحر ، وإنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض به ، وبث الدواب منها بسببه وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره، وأعمل فكره فى واحد منها انبهر له ، وضاق ذهنه عن تصور حقيقته ، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه ؛ وإنما جمع السموات ؛ لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ، ووحد الأرض ؛ لأنها كلها من جنس واحد وهو التراب . والمراد باختلاف الليل والنهار : تعاقبهما ، بإقبال أحدهما وإدبار الآخر ، وإضاءة أحدهما

---

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٤١٢) وفى الزهد (١٧٤٥٥) وأحمد ٦/ ٤٦١ وأبو داود فى الصلاة (١٤٩٦) والترمذى فى الدعوات (٣٤٧٨) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٥٥) والدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٠ والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ١٧٤ (٤٤٠، ٤٤١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ١٧٥ وفى الشعب (٢١٦٦) .

(٢) الديلمى (٥١٧٧) .

وإظلام الآخر . والنهار : ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وقال النضر بن شميل : أول النهار طلوع الشمس ، ولا يعد ما قبل ذلك من النهار. وكذا قال ثعلب ، واستشهد بقول أمية بن أبى الصلت :

والشَّمْسُ تَطْلع كلَّ آخر لَيْلةٍ حمراء يُصْبح لونُهَا يتورَّدُ

وكذا قال الزجاج . وقسم ابن الأنبارى الزمان إلى ثلاثة أقسام : قسمًا جعله ليلا (١) محضًا ، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، وقسما جعله نهارًا محضًا وهو من طلوع الشمس إلى غروبها ، وقسما مشتركا بين النهار والليل، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار . هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة . وأما فى الشرع فالكلام فى ذلك معروف . والفلك : السفن ، وإفراده وجمعه بلفظ واحد ، وهو هذا ، ويذكر ويؤنث . قال الله تعالى :﴿ فى الفلك المشحون ﴾ [الشعراء : ١١٩] ﴿ **والفلك التى تجرى فى البحر**﴾ ، وقال: ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ﴾ [يونس : ٢٢] . وقيل : واحده فلَك بالتحريك ، مثل أسد وأسَد .

وقوله : ﴿ **بما ينفع الناس** ﴾ يحتمل أن تكون « ما » موصولة ، أى بالذى ينفعهم ، أو مصدرية ، أى بنفعهم . والمراد بما أنزل من السماء : المطر الذى به حياة العالم وإخراج النبات، والأرزاق ، والبث والنشر، والظاهر أن قوله : ﴿**بث**﴾ معطوف على قوله : ﴿ **فأحيا**﴾ لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر. وقال فى الكشاف: إن الظاهر عطفه على أنزل . والمراد بتصريف الرياح : إرسالها عقيمًا (٢) ، وملقحة (٣) ، وصرًا (٤) ، ونصراً ، وهلاكًا (٥) ، وحارة وباردة ، ولينة ، وعاصفة (٦) . وقيل : تصريفها : إرسالها شمالا، وجنوبا ، ودَبُورًا ، وصبا ونكبًا وهى التى تأتى بين مهبَّىْ ريحين. وقيل: تصريفها : أن تأتى السفن الكبار بقدر ما تحملها والصغار كذلك ، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر . والسحاب سمى سحابًا ؛ لانسحابه فى الهواء ، وسحبت ذيلى سحبًا ، وتسحب فلان على فلان : اجترأ . والمسخر : المذلل ، وسخره : بعثه من مكان إلى آخر . وقيل : تسخيره :ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق والأول أظهر . والآيات : الدلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ويتفكر بعقله .

---

(١) والليل : جمع ليلة ، مثل : تمرة وتمر ، ونخلة ونخل ، ويجمع أيضا : ليالى وليال بمعنى ، وكأن ليالى فى القياس : جمع ليلاة ، قال الشاعر :

فى كل يوم ما وكل ليلاه حتى يقول كل راء إذ رآه
ياويحه من جمل ما أشقاه

(٢) قال تعالى : ﴿ **وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾ [الذاريات : ٤١].
(٣) قال تعالى : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾[الحجر : ٢٢].
(٤) قال تعالى : ﴿ **كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** ﴾ [آل عمران : ١١٧] .
(٥) قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾[الحاقة : ٦] .
(٦) قال تعالى : ﴿ **وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف** ﴾ [يونس : ٢٢] .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبى ﷺ : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً نتقوى به على عدونا ، فأوحى الله إليه : « إنى معطيهم فأجعل لهم الصفا ذهبًا ، ولكن إن كفروا بعد ذلك عذبتهم عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين » فقال : « رب ، دعنى وقومى ، فأدعوهم يومًا بيوم » فأنزل الله هذه الآية . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير [(١)] . وأخرج وكيع والفريابى وآدم بن أبى إياس وسعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى الضحى قال : لما نزلت : ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ عجب المشركون وقالوا: إن محمدا يقول : ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ فليأتنا بآية إن كان من الصادقين . فأنزل الله : ﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ الآية [(٢)] .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء نحوه .

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن سلمان قال : الليل موكل به ملك يقال له : شراهيل ، فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلاها من قبل المغرب ، فإذا نظرت إليها الشمس وجبت فى أسرع من طرفة عين ، وقد أمرت الشمس ألا تغرب حتى ترى الخرزة ، فإذا غربت جاء الليل ، فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجىء ملك آخر ، يقال له: هراهيل ، بخرزة بيضاء ، فيعلقها من قبل المطلع ، فإذا رآها شراهيل مدّ إليه خرزته ، وترى الشمس الخرزة البيضاء فتطلع، وقد أمرت ألا تطلع حتى تراها ، فإذا طلعت جاء النهار[(٣)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **والفلك** ﴾ قال : السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال: ﴿ **بث** ﴾ خلق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**وتصريف الرياح** ﴾ قال : إذا شاء جعلها رحمة لواقح للسحاب ، وبشرًا بين يدى رحمته ، وإذا شاء جعلها عذابًا ، ريحًا عقيمًا لا تلقح . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال : كل شىء فى القرآن من الرياح فهى رحمة ، وكل شىء فى القرآن من الريح فهى عذاب .وقد ورد فى النهى عن سب الريح وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا

(١) ابن جرير ٢/٣٧ ، ٣٨ .
(٢) ابن جرير ٢/٣٧ والبيهقى فى الشعب (١٠٣) والواحدى فى أسباب النزول ص٢٦ وهو مرسل معضل لا بأس بإسناده .
(٣) ماذا نقول فى مثل هذه الأخبار ؟ ألا يجدر بنا أن ننقّى هذه الكتب منها ؟ ونقول فى اختلاف الليل والنهار ما قاله الله تعالى ، ونقول في غروب الشمس وشروقها ما قاله الله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾[يس: ٣٧ ـ ٤٠].

هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته ، أخبر أن مع هَذَا الدَّلِيلِ الظَّاهِرِ المفيد لعظيم سلطانه ، وجليل قدرته وتفرده بالخلق قد وجد فى الناس من يتخذ معه سبحانه ندا يعبده من الأصنام ، وقد تقدم تفسير الأنداد ، مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد ، بل أحبوها حبا عظيمًا ، وأفرطوا فى ذلك إفراطًا بالغاً ، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكنًا فى صدورهم ، كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه . فالمصدر فى قوله : ﴿ **كحب الله** ﴾ مضاف إلى المفعول ، والفاعل محذوف وهو : المؤمنون ، ويجوز أن يكون المراد : كحبهم لله، أى عبدة الأوثان ، قاله ابن كيسان ، والزجاج ، ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول ، أى كما يُحَب الله . والأول أولى ، كقوله :﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله**﴾ ، فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوى ، أى أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد ؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء ، والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك ، بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله . ويمكن أن يجعل هذا ، أعنى قوله : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ دليلا على الثانى ؛ لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله ؛ وقيل : المراد بالأنداد هنا : الرؤساء ، أى يطيعونهم فى معاصى الله ، ويقوى هذا الضمير فى قلوبهم : ﴿ **يحبونهم** ﴾ فإنه لمن يعقل ، ويقويه أيضًا قوله سبحانه عقب ذلك : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتبعوا** ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ **ولو ترى الذين ظلموا** ﴾ قراءة أهل مكة والكوفة وأبى عمرو بالياء التحتية، وهو اختيار أبى عبيد . وقراءة أهل المدينة ، وأهل الشام بالفوقية ، والمعنى على القراءة الأولى: لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعًا ، قاله أبو عبيد . قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير. انتهى . وعلى هذا فالرؤية هى البصرية لا القلبية .

وروى عن محمد بن يزيد المبرّد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد ، وليست عبارته فيه بالجيدة ؛ لأنه يقدر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب ، فكأنه يجعله مشكوكًا فيه ، وقد أوجبه الله تعالى ، ولكن التقدير وهو الأحسن : ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله. ويرى بمعنى يعلم ، أى لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه . قال : وجواب « لو» محذوف ، أى لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة ، كما حذف فى قوله : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ [الأنعام : ٢٧] ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ [الأنعام : ٣٠] .

ومن قرأ بالفوقية فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب ، وفزعهم منه ، لعلمت أن القوة لله جميعًا . وقد كان النبى ﷺ علم ذلك ، ولكن خُوطب بهذا الخطاب ، والمراد به أمته . وقيل : « أن» فى موضع نصب مفعول لأجله، أى لأن القوة لله ، كما قال الشاعر :

وأغفرُ عوراءَ الكَرِيمِ ادّخارَه ... وأعرِضُ عَنْ شتْمِ اللئيم تكرُّمًا

أى لادخاره ، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم للعذاب ، لأن القوة لله ، لعلمت مبلغهم من النكال ، ودخلت « إذ » ، وهى لما مضى فى إثبات هذه المستقبلات ، تقريبًا للأمر ، وتصحيحًا لوقوعه .

وقرأ ابن عامر : « إذ يُرون » بضم الياء ، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو جعفر :« إن القوة » و « إن الله» بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف ، وعلى تقدير القول .

قوله : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا ﴾ بدل من قوله :﴿ إذ يرون العذاب ﴾ ومعناه :أن السادة والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر .

وقوله : ﴿ ورأوا العذاب ﴾ فى محل نصب على الحال : يعنى التابعين والمتبوعين ، قيل: عند المعاينة فى الدنيا ، وقيل : عند العرض والمساءلة فى الآخرة ، ويمكن أن يقال فيهما جميعًا ، إذ لا مانع من ذلك .

قوله : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ هى جمع سبب ، وأصله فى اللغة: الحبل الذى يشد به الشىء ويجذب به، ثم جعل كل ما جر شيئًا سبباً ، والمراد بها : الوُصَل التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من الرحم وغيره . وقيل : هى الأعمال[(١)] . والكرة : الرجعة والعودة إلى حال قد كانت ، و « لو » هنا فى معنى التمنى ، كأنه قيل : ليت لنا كرة ، ولهذا وقعت الفاء فى الجواب . والمعنى : أن الأتباع قالوا : لو رُددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحًا ونتبرأ منهم كما تبرؤوا منا. والكاف فى قوله : ﴿ كما تبرؤوا منا ﴾ فى محل نصب على النعت لمصدر محذوف . وقيل : فى محل نصب على الحال، ولا أراه صحيحًا .

وقوله : ﴿ كذلك يريهم الله ﴾ فى موضع رفع ، أى لأمر كذلك ، أى كما أراهم الله العذاب يريهم أعمالهم وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله : ﴿ حسرات ﴾ منتصب على الحال، وإن كانت القلبية فهو المفعول الثالث ؛ والمعنى : إن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها فتكون عليهم حسرات ، أو يريهم الأعمال الصالحة التى أوجبها عليهم فتركوها ، فيكون ذلك حسرة عليهم . وقوله : ﴿ وماهم بخارجين من النار ﴾ فيه دليل على خلود الكفار فى النار ، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص ، وجعله الزمخشرى للتقوية لغرض له يرجع إلى المذهب[(٢)] ، والبحث فى هذا يطول .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا ﴾ قال: مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ قال : من الكفار لآلهتهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد[(٣)] فى هذه الآية قال : هؤلاء المشركون

---

(١) قال السدى وابن زيد : إن الأسباب أعمالهم . والسبب الناحية ، ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه   ولو رام أسباب السماء بسلم

(٢) يعنى مذهبه الاعتزالى ، حيث يرى المعتزلة أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار .

(٣) فى المطبوعة : « عن أبى زيد » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، ومن ابن جرير ٢/ ٤٠ وهو عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم .

أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله، يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ﴿ **والذين آمنوا أشد حبًا لله** ﴾ من حبهم لآلهتهم . وأخرج ابن جرير عن السدى فى الآية قال : الأنداد من الرجال يطيعونهم ، كما يطيعون الله إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحو ما قال ابن زيد .

وأخرج ابن جرير عن الرّبيع [(١)] فى قوله : ﴿ **ولو ترى الذين ظلموا** ﴾ قال : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم فاتخذوا من دونى أندادا يحبونهم كحبكم إياى حين يعاينون عذابى يوم القيامة الذى أعددت لهم ، لعلمتم أن القوة كلها لى دون الأنداد ، والآلهة لا تغنى عنهم هنالك شيئًا ولا تدفع عنهم عذابًا أحللت بهم وأيقنتهم أنى شديد عذابى لمن كفر بى وادعى معى إلهاً غيرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا** ﴾ قال : هم الجبابرة والقادة والرؤوس فى الشرك ﴿ **من الذين اتَّبَعُوا** ﴾ قال : هم الشياطين تبرؤوا من الإنس.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**تقطعت بهم الأسباب** ﴾ قال : المودة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : هى المنازل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : هى الأرحام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وأبو نعيم فى الحلية عن مجاهد قال: هى الأوصال التى كانت بينهم فى الدنيا والمودة . وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال : هى الأعمال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الربيع قال : هى المنازل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **لو أن لنا كرة** ﴾ قال : رجعة إلى الدنيا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية : ﴿ **حسرات** ﴾ قال : صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وما هم بخارجين من النار** ﴾ قال : أولئك أهلها الذين هم أهلها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ثابت بن معبد قال : مازال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت : ﴿**وماهم بخارجين من النار** ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا

(١) فى المخطوطة : « عن الزبيرى » والتصويب من ابن جرير ٢/ ٤٢ .

يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الناس** ﴾ قيل : إنها نزلت فى ثقيف ، وخزاعة ، وبنى مدلج ، فيما حرموه على أنفسهم من الأنعام . حكاه القرطبى فى تفسيره ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وقوله : ﴿ **حلالا** ﴾ مفعول أو حال ، وسمى الحلال حلالا؛ لانحلال عقدة الحظر عنه ، والطيِّب هنا : هو المُسْتَلَذّ ، كما قاله الشافعى وغيره . وقال مالك وغيره : هو الحلال ، فيكون تأكيدًا لقوله : ﴿ **حلالا** ﴾ و« مِنْ » فى قوله : ﴿ **مما فى الأرض**﴾ للتبعيض، للقطع بأن فى الأرض ما هو حرام .

﴿ **خطوات** ﴾ جمع خُطْوة ، بالضم والفتح ، وهى بالفتح للمرة ، وبالضم لما بين القدمين . وقرأ الفراء : «خَطوات » بفتح الخاء ، وقرأ أبو سماك بفتح الخاء والطاء ، وقرأ على وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعمش : « خُطُؤات » بضم الخاء والطاء والهمز على الواو. قال الأخفش (١) : وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خَطية ، من الخطأ ؛ لا من الخطو . قال الجوهرى : والخطوة بالفتح : المرة الواحدة ، والجمع خطوات وخطا . انتهى . والمعنى على قراءة الجمهور : لا تَقْفُوا أثر الشيطان وعمله ، وكلٌّ ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان ، وقيل : هى النذور فى المعاصى ، والأولى التعميم ، وعدم التخصيص بفرد أو نوع.

وقوله : ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ أى ظاهر العداوة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ [القصص : ١٥] ،وقوله : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ [فاطر: ٦]. وقوله: ﴿ **بالسوء** ﴾ سمى السوء سوءاً ؛ لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته ، وهو مصدر ساءه يسوؤه سوءًا ومساءة : إذا أحزنه . ﴿**والفحشاء**﴾ أصله سوء المنظر ، ومنه قول الشاعر :

وَجِيدٍ كَجِيد الرِّئم لَيْسَ بِفَاحِشٍ

ثم استعمل فيما يقبح من المعانى . وقيل : السوء : القبيح ، والفحشاء : التجاوز للحد فى القبح . وقيل : السوء : ما لا حدَّ فيه ، والفحشاء : ما فيه الحد . وقيل : الفحشاء : الزنا. وقيل : إن كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء(٢) .

وقوله : ﴿ **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ قال ابن جرير الطبرى : يريد ما حرموه من البَحيرة ، والسَّائبة ونحوهما ، مما جعلوه شرعًا . وقيل : هو قولهم : هذا حلال وهذا حرام ، بغير علم . والظاهر أنه يصدق على كل ما قيل فى الشرع بغير علم ، وفى هذه الآية

---

(١) هو أبو الحسن على بن سليمان بن الفضل المعروف بالأخفش الصغير ، نحوى من العلماء ، من أهل بغداد ، أقام بمصر سنة ٢٨٧ ـ ٣٠٠ ، وخرج إلى حلب ثم عاد إلى بغداد ، وتوفى فيها وهو ابن ثمانين سنة ، له تصانيف منها : شرح سيبويه ، والأنواء ، والمهذب . الأعلام ٤/ ٢٩١ .

(٢) قال مقاتل : إن كل مافى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه من الزنى ، إلا قوله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] فإنه منع الزكاة . القرطبى ١/ ٥٨٩ .

دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص أو ظاهر من الأعيان الموجودة فى الأرض فأصله الحل حتى يرد دليل يقتضى تحريمه ، وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض ﴾ [البقرة : ٢٩] .

والضمير فى قوله : ﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾ راجع إلى الناس ؛ لأن الكفار منهم ، وهم المقصودون هنا . وقيل : كفار العرب خاصة ، و ﴿ **ألفينا** ﴾ معناه : وجدنا ، والألف فى قوله: ﴿ **أوَ لو كان آباؤهم** ﴾ للاستفهام ، وفتحت الواو لأنها واو العطف ، وفى هذه الآية من الذم للمقلدين ، والنداء بجهلهم الفاحش واعتقادهم الفاسد ما لا يقادر قدره ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ الآية [المائدة : ١٠٤] . وفى ذلك دليل على قبح التقليد والمنع منه ، والبحث فى ذلك يطول ، وقد أفردتُه بمؤلَّفٍ مستقل سميته : « القول المفيد فى حكم التقليد » واستوفيت الكلام فيه فى « أدب الطلب ومنتهى الأرب » .

وقوله: ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق** ﴾ فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم ، وهو محمد ﷺ ، بالراعى الذى ينعق بالغنم أو الإبل ، فلا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، ولا يفهم ما يقول . هكذا [١] فسره الزجاج والفراء وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف . قال : سيبويه: لم يشبهوا بالناعق ، إنما شبهوا بالمنعوق به ، والمعنى : مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا ، كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم ، فحذف لدلالة المعنى عليه . وقال قُطْرُب : المعنى : مثل الذين كفروا فى دعائهم ما لا يفهم ، يعنى الأصنام، كمثل الراعى إذا نعق بغنمه وهو لا يدرى أين هى ؟ وبه قال ابن جرير الطبرى. وقال ابن زيد : والمعنى : مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل ، فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لا يسمع ، ويجيبه ما لا حقيقة فيه .والنعيق : زجر الغنم والصياح بها ، يقال: نعق الراعى بغنمه ، ينعق نعيقا ونعاقًا ونعقانا ، أى صاح بها وزجرها ، والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ، ويقولون : أجهل من راعى ضأن . وقوله : ﴿ **صم** ﴾ وما بعده إخبار لمبتدأ محذوف ، أى هم صم بكم عمى ، وقد تقدم تفسير ذلك .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ يعنى : ﴿**يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا** ﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال : « ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، فما يتقبل منه أربعين يومًا ، وأيّما عبدٍ نبت لحمه من السُّحْت والربا فالنار أولى به» [٢] .

---

(١) فى المطبوعة : « هذا » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، وبه يستقيم المعنى .

(٢) عزاه الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٩٤ إلى الطبرانى فى الصغير وقال : « وفيه من لم أعرفهم » وابن حجر فى تلخيص الحبير (١٩٨٧) إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : « أعله ابن الجوزى ، وذكره ابن أبى حاتم فى العلل من حديث حذيفة ، وصحح عن أبيه وقفه» .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ قال : عمله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال : ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : خطاه ، وأخرجا أيضًا عن عكرمة قال : هى نزغات الشيطان . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: هى تزيين الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما كان من يمين أو نذر فى غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ، أنه أتى بضرع وملح فجعل يأكل ، فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم . فقال : لا أريد ، فقال : أصائم أنت؟ قال : لا . قال : فما شأنك ؟ قال : حَرَّمْتُ على نفسى أن آكل ضرعًا ، فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَمْ وكَفِّر عن يمينك [١] . وأخرج عبد بن حميد عن عثمان بن غياث قال: سألت جابر بن زيد عن رجل نذر أن يجعل فى أنفه حلقة من ذهب . فقال : هى من خطوات الشيطان ، ولا يزال عاصيًا لله فليكفر عن يمينه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحج حبوًا من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى مِجْلَزٍ قال : هى النذور فى المعاصى .

وأخرج ابن جريرعن السدى فى قوله : ﴿ **إنما يأمركم بالسوء** ﴾ قال : المعصية ؛ ﴿**والفحشاء**﴾ قال : الزنا . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغّبهم فيه ، وحذّرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع يامحمد ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ [٢] . وأخرج ابن جرير عن الربيع وقتادة فى قوله : ﴿ **ألفينا** ﴾ قالا : وجدنا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومثل الذين كفروا** ﴾ الآية، قال : كمثل البقر والحمار والشاة ، إن قلت لبعضهم كلامًا لم يعلم ما تقول ، غير أنه يسمع صوتك ، وكذلك الكافر إن أمرتَه بخيرٍ أو نهيتَه عن شرٍّ أو وعظته لم يعقلْ ما تقول ، غير أنه يسمع صوتك . وروى نحو ذلك عن مجاهد ، أخرجه عبد بن حميد ، وعن عكرمة أخرجه وكيع . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال لى عطاء فى هذه الآية : هم اليهود الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فما أصبرهم على النار**﴾.

---

(١) عبد الرزاق (١٦٠٤٢) والطبرانى (٨٩٠٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣١٣ ، ٣١٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤٣ وابن جرير ٢/ ٤٧ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾ .

قوله : ﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ هذا تأكيد للأمر الأول ، أعنى قوله : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا ﴾ وإنما خص المؤمنين هنا ؛ لكونهم أفضل أنواع الناس . قيل : والمراد بالأكل الانتفاع . وقيل : المراد به الأكل المعتاد وهو الظاهر . قوله : ﴿ واشكروا لله ﴾ قد تقدم أنه يقال : شكرَه وشكر له يتعدى بنفسه وبالحرف . وقوله : ﴿إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أى تخصونه بالعبادة كما يفيده تقدم المفعول .

قوله : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ قرأ أبو جعفر :« حُرِّم » على البناء للمفعول ، و﴿إنما﴾ كلمة موضوعة للحصر ، تثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه ، وقد حصرت ها هنا التحريم فى الأمور المذكورة بعدها . وقوله: ﴿ الميتة ﴾ قرأ ابن أبى عبلة بالرفع ، ووجه ذلك أنه يجعل « ما » فى ﴿ إنما ﴾ موصولة منفصلة فى الخط ، والميتة وما بعدها خبر الموصول ، وقراءة الجميع بالنصب ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : « الميِّتة » بتشديد الياء ، وقد ذكر أهل اللغة أنه يجوز فى ميت التشديد والتخفيف ، والميتة : ما فارقها الروح من غير ذكاة . وقد خصص هذا العموم بمثل حديث : « أحِل لنا ميتتان ودمان » أخرجه أحمد وابن ماجة والدارقطنى والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر مرفوعًا (١) ، ومثل حديث جابر (٢) فى العنبر الثابت فى الصحيحين مع قوله تعالى :﴿ أحل لكم صيد البحر﴾ [المائدة :٩٦] فالمراد بالميتة هنا : ميتة البر ، لا ميتة البحر . وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها وميتها . وقال بعض أهل العلم : إنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه فى البر، وتوقف ابن حبيب فى خنزير الماء . وقال ابن القاسم : وأنا أتقيه ولا أراه حرامًا.

قوله : ﴿ والدم ﴾ قد اتفق العلماء على أن الدم حرام ، وفى الآية الأخرى : ﴿ أو دمًا مسفوحًا ﴾ [الأنعام : ١٤٥] ، فيحمل المطلق على المقيد ؛ لأن ما خلط باللحم غير محرم ، قال القرطبى : بالإجماع . وقد روت عائشة ؛ أنها كانت تطبخ اللحم ، فتعلو الصفرة على البُرْمَة من الدم ، فيأكل ذلك النبى ﷺ ، ولا ينكره (٣) .

---

(١) أحمد ٢/ ٩٧ وابن ماجة فى الأطعمة (٣٣١٤) والدارقطنى فى الصيد والذبائح٤/ ٢٧١ ، ٢٧٢ والبيهقى١/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٩/ ٢٥٧ موقوفا على ابن عمر ، وقال : « وهو الصحيح » وذكر ابن حجر فى تلخيص الحبير(١١) أن المرفوع ضعيف ، والموقوف أصح وله حكم المرفوع .

(٢) قال جابر رضى الله عنه : « غزونا جيش الخَبَط ، وأمر أبو عبيدة ، فجعنا جوعا شديدًا ، فألقى البحر حوتا ميتا لم ير مثله يقال له : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، فأخذ أبو عبيدة عظما من عظامه فمر الراكب تحته » .
والحديث أخرجه أحمد ٣/ ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ والبخارى فى الذبائح والصيد (٥٤٩٣ ، ٥٤٩٤) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٣٥/ ١٧ ـ ٢١) والنسائى فى الصيد والذبائح ٧/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .

(٣) القرطبى ١/ ٦٠٠ .

قوله : ﴿ **ولحم الخنزير** ﴾ ظاهر هذه الآية والآية الأخرى ، أعنى قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير﴾ [الأنعام : ١٤٥] أن المحرم إنما هو اللحم فقط . وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبى فى تفسيره . وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم. وحكى القرطبى الإجماع أيضا على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر ، فإنه تجوز الخرازة به . قوله : ﴿ **وما أهل به لغير الله** ﴾ الإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أهل بكذا ، أى رفع صوته. قال الشاعر يصف فلاة :

يُهِلُّ بالْفَرْقَد رُكْـــبانُها　　　كما يُهِلّ الراكـــبُ الْمُعْتَمِر

وقال النابغة :

أو دُرةٌ صَدَفِيةٌ غَوّاصُها　　　بَهِجٌ مَتَى يرها يُهِل ويَسجُد

ومنه إهلال الصبىّ واستهلاله ، وهو صياحه عند ولادته . والمراد هنا : ما ذكر عليه اسم غير الله كاللات والعزّى ، إذا كان الذابح وثنيا ، والنار إذا كان الذابح مجوسيا . ولا خلاف فى تحريم هذا وأمثاله ، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم ، فإنه مما أهل به لغير الله ، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن .

قوله : ﴿ **فمن اضطّر** ﴾ قرئ بضم النون للاتباع ،وبكسرها على الأصل فى التقاء الساكنين، وفيه إضمار ، أى فمن اضطر إلى شىء من هذه المحرمات . وقرأ ابن محيصن بإدغام الضاد فى الطاء . وقرأ أبو السماك بكسر الطاء . والمراد مَنْ صيَّره الجوع والعدم إلى الاضطرار إلى الميتة . وقوله : ﴿ **غير باغ** ﴾ نصب على الحال . قيل : المراد بالباغى : من يأكل فوق حاجته ، والعادى : من يأكل هذه المحرمات و هو يجد عنها مندوحة . وقيل : غير باغٍ على المسلمين وعادٍ عليهم ، فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق ، والخارج على السلطان ، وقاطع الرحِم، ونحوهم . وقيل المراد : غير باغٍ على مضطرٍ آخر ولا عادٍ سدَّ الجوعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ قال : من الحلال . وأخرج ابن سعد عن عمر بن عبد العزيز ؛ أن المراد بما فى الآية : طيب الكسب ؛ لا طيب الطعام . وأخرج ابن جرير عن الضحاك : أنها حلال الرزق . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : رسول الله ﷺ : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿**يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم** ﴾ ثم ذكر الرجلَ يطيل السفر ، أشعثَ أغبر ، يمدُّ يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذى بالحرام ،

فأنى يستجاب له ؟ » (١) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما أهلّ ﴾ قال : ذبح . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ ما أهل به﴾ للطواغيت . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : ما ذبح لغير الله. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: ما ذكر عليه اسم غير الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ غير باغ ولا عاد ﴾ يقول : من أكل شيئًا من هذه وهو مضطر فلا حرج ، ومن أكله وهو غير مضطر فقد بَغَى واعتدى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ غير باغ ﴾ قال : فى الميتة ، ﴿ ولا عاد ﴾ قال : فى الأكل . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ غير باغ ولا عاد ﴾ قال: غير باغ على المسلمين ولا مُعْتَدٍ عليهم ، فمن خرج يقطع الرحم ، أو يقطع السبيل ، أويفسد فى الأرض أو مفارقًا للجماعة والأئمة ، أو خرج فى معصية الله ، فاضطر إلى الميتة لم تحلّ له . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : العادى الذى يقطع الطريق . وقوله : ﴿ فلا إثم عليه﴾ يعنى : فى أكله . ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ لمن أكل من الحرام ، رحيم به إذْ أحل له الحرام فى الاضطرار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة : ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ فى أكله ، ولا عادٍ يتعدى الحلال الحرام ، وهو يجد عنه بُلْغَةً ومندوحة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴾ .

قوله : ﴿ إن الذين يكتمون ﴾ قيل المراد بهذه الآية : علماء اليهود ؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد ﷺ . والاشتراء هنا : الاستبدال ، وقد تقدم تحقيقه ، وسماه قليلا ؛ لانقطاع مدته وسوء عاقبته ، وهذا السبب ، وإن كان خاصا ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله ، وأخذ عليه الرشا، وذكر البطون دلالة وتأكيدا أن هذا الأكل حقيقة ، إذ قد يستعمل مجازًا فى مثل : أكل فلان أرضى ، ونحوه . وقال فى الكشاف(٢) : إن معنى ﴿ فى بطونهم ﴾ : ملء بطونهم . قال : يقول : أكل فلان فى بطنه وأكل فى بعض بطنه . انتهى .

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٨ ومسلم فى الزكاة (٦٥/١٠١٥) والترمذى فى التفسير (٢٩٨٩) وقال : « حسن غريب » والدارمى ٢/ ٣٠٠ .
(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٤ .

وقوله : ﴿ **إلا النار** ﴾ أى أنه يوجب عليهم عذاب النار ، فسمى ما أكلوه نارًا ؛ لأنه يؤول بهم إليها ، هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقة ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ﴾ [النساء : ١٠] . وقوله : ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم ، يقال : فلان لا يكلم فلانًا : إذا غضب عليه . وقال ابن جرير الطبرى : المعنى : ولا يكلمهم بما يحبونه ، ولا بما يكرهونه ، كقوله تعالى : ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون : ١٠٨] (١) . وقوله : ﴿**ولا يزكيهم** ﴾ معناه : لا يثنى عليهم خيرًا. قاله الزجاج . وقيل معناه : لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم .

وقوله : ﴿ **اشتروا الضلالة بالهدى** ﴾ قد تقدم تحقيق معناه . وقوله : ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ ذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد ، إلى أن معناه التعجب ، والمراد: تعجيب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار ، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة فى نار جهنم . وحكى الزجاج أن المعنى : ما أبقاهم على النار من قولهم : ما أصبر فلاناً على الحبس ، أى ما أبقاه فيه . وقيل المعنى : ما أقل جزعهم من النار ، فجعل قلة الجزع صبرًا . وقال الكسائى (٢) وقُطْرُب (٣) : أى ما أدومهم على عمل أهل النار . وقيل : « ما » استفهامية ، ومعناه التوبيخ ، أى أىّ شىء أصبرهم على عمل النار . قاله ابن عباس والسدى وعطاء وأبو عبيدة .

﴿ **ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق** ﴾ الإشارة باسم الإشارة إلى الأمر ، أى ذلك الأمر ، وهو العذاب . قاله الزجاج . وقال الأخفش : إن خبر اسم الإشارة محذوف ، والتقدير : ذلك معلوم . والمراد بالكتاب هنا : القرآن ، ﴿**بالحق**﴾ أى بالصدق . وقيل : بالحجة . وقوله : ﴿ **وإن الذين اختلفوا فى الكتاب** ﴾ قيل : المراد بالكتاب هنا: التوراة ، فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى ، وأنكرهم اليهود . وقيل : خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد ﷺ واختلفوا فيها . وقيل : المراد : القرآن ، والذين اختلفوا : كفار قريش ، يقول بعضهم : هو سحر، وبعضهم يقول : هو أساطير الأولين ، وبعضهم يقول غير ذلك ﴿ **لفى شقاق** ﴾ أى خلاف ﴿ **بعيد** ﴾ عن الحق ، وقد تقدم معنى الشقاق .

---

(١) النص عند ابن جرير ٢/ ٥٣ هكذا : « ولا يكلمهم بما يحبون ويشتهون ، فأما بما يسوؤهم ويكرهون فإنه سيكلمهم ؛ لأنه قد أخبر تعالى ذكره أنه يقول لهم إذا قالوا :﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ الآيتين » .

(٢) هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله الأسدى ، من أهل الكوفة إمام فى اللغة والنحو والقراءة ، سكن بغداد وتوفى بالرى عن سبعين عامًا ، وله تصانيف ، منها : معانى القرآن ، المصادر ، الحروف ، القراءات ، النوادر وغيرها . الأعلام ٤/ ٢٨٣ .

(٣) هو محمد بن المستنير بن أحمد أبو على ، الشهير بقطرب ، نحوى عالم بالأدب واللغة ، من أهل البصرة ، من الموالى ، كان يرى رأى المعتزلة النظامية وهو أول من وضع المثلث فى اللغة ، وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه ،من مؤلفاته : معانى القرآن ، النوادر ، الأزمنة .الأعلام ٧/ ٩٥ .

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله** ﴾ قال : نزلت فى يهود . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : كتموا اسم محمد ﷺ وأخذوا عليه طمعًا قليلا . وأخرج ابن جرير أيضا عن أبى العالية نحوه . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس بسندين ضعيفين ؛ أنها نزلت فى اليهود .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** ﴾ قال : اختاروا الضلالة على الهدى ، والعذاب على المغفرة ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ قال : ما أجرأهم على عمل النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ قال : ما أعملهم بأعمال أهل النار. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر [عن الحسن] [1] فى قوله : ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ قال : والله ما لهم عليها من صبر ، ولكن يقول : ما أجرأهم على النار. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير أيضًا عن السدى فى الآية قال : هذا على وجه الاستفهام ، يقول : ما الذى أصبرهم على النار ؟ وقوله : ﴿ **وإن الذين اختلفوا فى الكتاب** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى ﴿ **لفى شقاق بعيد** ﴾ قال : فى عداوة بعيدة .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **ليس البر** ﴾ قرأ حمزة وحفص بالنصب ، على أنه خبر ليس ، والاسم ﴿ **أن تولوا** ﴾ وقرأ الباقون بالرفع ، على أنه الاسم . قيل : إن هذه الآية نزلت للرد على اليهود والنصارى ، لما أكثروا الكلام فى شأن القبلة عند تحويل رسول الله ﷺ إلى الكعبة . وقيل : إن سبب نزولها أنه سأل رسول الله سائل ، وسيأتى ذلك آخر البحث إن شاء الله . وقوله : ﴿ **قبل المشرق والمغرب** ﴾ قيل : أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى ؛ لأنهم يستقبلون مطلع الشمس ، وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود ؛ لأنهم يستقبلون بيت المقدس ، وهو فى جهة الغرب منهم إذ ذاك .

وقوله : ﴿ **ولكن البر** ﴾ هو اسم جامع للخير وخبره محذوف تقديره : بر من آمن ، قاله

---

(١) مابين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، والتصويب من ابن جرير ٢/ ٥٤ .

الفراء وقطرب والزجاج[١]. وقيل : إن التقدير : ولكن ذو البر من آمن ، ووجه هذا التقدير : الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى ، ويجوز أن يكون البر بمعنى البار ، وهو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيراً ، ومنه فى التنزيل : ﴿إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ [الملك : ٣٠] أى غائراً وهذا اختيار أبى عبيدة . والمراد بالكتاب هنا : الجنس ، أو القرآن، والضمير فى قوله: ﴿ **على حبه** ﴾ راجع إلى المال . وقيل : راجع إلى الإيتاء المدلول عليه بقوله : ﴿ **وآتى المال**﴾. وقيل : إنه راجع إلى الله سبحانه ، أى على حب الله ، والمعنى على الأول : أنه أعطى المال وهو يحبه ويشح به، ومنه قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، والمعنى على الثانى : أنه يحب إيتاء المال وتطيب به نفسه ، والمعنى على الثالث : أنه أعطى من تضمنته الآية فى حب الله عز وجل ؛ لا لغرض آخر ، وهو مثل قوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ [الإنسان : ٨] ومثله قول زهير :

إن الكريم على علاته هرم

وقدم ﴿ **ذوى القربى** ﴾ ؛ لكون دفع المال إليهم صدقة وصلة إذا كانوا فقراء ، هكذا اليتامى الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى ، لعدم قدرتهم على الكسب ، والمسكين : الساكن إلى ما فى أيدى الناس لكونه لا يجد شيئًا ، ﴿ **وابن السبيل** ﴾ المسافر المنقطع ، وجعل ابنا للسبيل ؛لملازمته له . وقوله : ﴿ **وفى الرقاب**﴾ أى فى معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم . وقيل : المراد : شراء الرقاب وإعتاقها . وقيل : المراد: فك الأسارى . وقوله : ﴿ **وآتى الزكاة** ﴾ فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة التطوع ، لا صدقة الفريضة . وقوله: ﴿ **والموفون** ﴾ قيل : هو معطوف على ﴿ **من آمن**﴾ كأنه قيل : ولكن البر المؤمنون والموفون ، قاله الفراء [٢] والأخفش . وقيل : هو مرفوع على الابتداء ، والخبر محذوف . وقيل : هو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هم الموفون . وقيل : إنه معطوف على الضمير فى آمن، وأنكره أبو على، وقال : ليس المعنى عليه . وقوله : ﴿**والصابرين**﴾ منصوب على المدح كقوله تعالى : ﴿ **والمقيمين الصلاة** ﴾ ، ومنه ما أنشده أبو عبيدة :

لا يَبْعَدن قَوْمِى الَّذين هُمُ   سَمُّ العُـدَاةِ وآفةُ الجُـزُرِ
الـنازِلِينَ بِكـل مَعْركَةٍ   والطيبين مَعَاقِدَ الأزرِ [٣]

وقال الكسائى : هو معطوف على ذوى القربى ،كأنه قال : وآتى الصابرين . وقال

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل الزجاج النحوى ، صاحب كتاب : معانى القرآن ، وكان يخرط الزجاج فنسب إليه ، ثم تعلم الأدب وترك ذلك ، توفى ببغداد سنة ٣١١ هـ . اللباب ٢/ ٥٨ .

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى ، مولى بنى أسد المعروف بالفراء ، إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، وكان فقيها متكلما ، عالما بأيام العرب وأخبارها ، عارفا بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال ، ولد سنة ١٤٤ ، وتوفى سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م . الأعلام ٨/ ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) كتاب سيبويه ١/ ١٠٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ .ط . بولاق ، وعنده « معترك » بدلا من « معركة » .

النحاس : إنه خطأ . قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله :« والموفين والصابرين » قال النحاس : يكونان على هذه القراءة منسوقين على ذوى القربى أو على المدح . وقرأ يعقوب والأعمش : « والموفون والصابرون » بالرفع فيهما ، و﴿ **البأساء** ﴾ : الشدة والفقر ، و﴿**الضراء**﴾ : المرض والزمانة ، ﴿ **وحين البأس** ﴾ قيل المراد : وقت الحرب ، والبأساء والضراء اسمان بنيا على فَعْلاء ولا فعل لهما ، لأنهما اسمان ، وليسا بنعت . وقوله:﴿ **صدقوا** ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم ، والوفاء بها ، وأنهم كانوا جادين . وقيل المراد :صدقوهم القتال ، والأول أولى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وصححه عن أبي ذر ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا: ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم** ﴾ حتى فرغ منها ، ثم سأله أيضًا فتلاها ، ثم سأله فتلاها ، قال : « وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك ، وإذا عملت بسيئة أبغضها قلبك » (١) . وأخرج عبد ابن حميد وابن مردويه عن القاسم بن عبد الرحمن قال : جاء رجل إلى أبي ذر فقال : ما الإيمان ؟ فتلا عليه هذه الآية ، ثم ذكر له الحديث السابق (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال : يقول : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، هذا حين تحول من مكة إلى المدينة وأنزلت الفرائض . وأخرج عنه ابن جرير أنه قال : هذه الآية نزلت بالمدينة يقول : ليس البر أن تصلوا ولكن البر ما ثبت في القلب من طاعة الله . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا سأل النبي ﷺ عن البر ، فأنزل الله : ﴿ **ليس البر** ﴾ الآية (٣) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال : كانت اليهود تصلي قِبَل المغرب ، والنصارى قِبَلَ المشرق، فنزلت : ﴿ **ليس البر** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية مثله .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **وآتى المال على حبه**﴾ قال : يعطي وهو صحيح شحيح يأمل العيش ويخاف الفقر (٤) . وأخرج عنه مرفوعا مثله (٥) . وأخرج البيهقي في الشعب عن المطلب (٦)؛ أنه

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٦٥ رواية ابن أبي حاتم ثم قال : « وهذا منقطع ، فإن مجاهدا لم يدرك أبا ذر ، فإنه مات قديما » وصححه الحاكم ٢/ ٢٧٢ على شرط الشيخين ، وتعقبه الذهبي بقوله : « كيف وهو منقطع ؟ » وقد أخرجه عبد الرزاق مختصراً (٢٠١١٠) .

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٦٥ رواية ابن مردويه ، وقال : « منقطع » .

(٣) ابن جرير ٢/ ٥٦ .

(٤) ابن جرير ٢/ ٥٦ والطبراني (٨٥٠٣) وصححه الحاكم ٢/ ٢٧٢ على شرط الشيخين وواقفه الذهبي ، والبيهقي ١٨٩/٤ ، ١٩٠ .

(٥) صححه الحاكم ٢/ ٢٧٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وابن جرير ٢/ ٥٦ . وقال الهيثمي في المجمع ٣١٨/٦ : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » .

(٦) المطلب هو ابن عبد الله بن المطلب بن حنطب .

قيل: يارسول الله ، ما آتى المال على حبه ؟ فكلنا نحبه . قال رسول الله ﷺ : « تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدثك بطول العمر والفقر» [(١)] .وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله :﴿ وآتى المال على حبه﴾ يعنى :على حب المال.

وأخرج عنه أيضًا فى قوله : ﴿ ذوى القربى ﴾ يعنى : قرابته ، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة » أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن ماجة والحاكم ، والبيهقى فى سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى [(٢)] . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود ، أنها سألت رسول الله ﷺ : هل تجزى عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام فى حجرها ؟ فقال : « لك أجران : أجر الصدقة ، وأجر القرابة » [(٣)] . وأخرج الطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة ؛ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح [(٤)] » [(٥)] . وأخرج أحمد والدارمى والطبرانى من حديث حكيم بن حزام عن النبى ﷺ نحوه [(٦)] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضعيف الذى ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : هو الذى يمر بك وهو مسافر. وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ والسائلين ﴾ قال : السائل الذى يسألك . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وفى الرقاب ﴾ قال : يعنى : فك الرقاب . وأخرج عنه أيضا فى قوله : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ يعنى : وأتم الصلاة المكتوبة ﴿ وآتى الزكاة ﴾ يعنى : الزكاة المفروضة .

وأخرج الترمذى وابن ماجة وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر وابن عدى والدارقطنى وابن مردويه عن فاطمة بنت قيس ؛ قالت: قال رسول الله ﷺ : « فى المال حق سوى الزكاة» ثم قرأ : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ الآية [(٧)].

---

(١) البيهقى فى الشعب (٣١٩٦) ورجال إسناده موثقون ، والحديث مرسل .

(٢) ابن أبى شيبة ٣/ ١٩٢ وأحمد ٥/ ٩٢ والترمذى فى الزكاة (٦٥٨) وحسنه والنسائى فى الزكاة ٥/ ٩٢ وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤٤) وصححه الحاكم ١/ ٤٠٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٤/ ١٧٤ .

(٣) أحمد ٣/ ٥٠٢ ، ٥٠٣ والبخارى فى الزكاة (١٤٦٦) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٠/ ٤٥) والنسائى فى الزكاة ٥/ ٩٢ ، ٩٣ وابن ماجة فى الزكاة (١٨٣٤) والدارمى ١/ ٣٨٩ والبيهقى ٤/ ١٧٨ .

(٤) الكاشح : هو عدو يضمر عداوته ، ويطوى عليها كشحه ، أى باطنه . والكشح : الخصر ، أو الذى يطوى عنك كشحه ولا يألفك . النهاية ٤/ ١٧٥ .

(٥) الطبرانى ٢٥/ ٨٠ (٢٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٦ : « ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ١/ ٤٠٦ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٢٧ .

(٦) أحمد ٣/ ٤٠٢ والدارمى ١/ ٣٧٩ والدارقطنى فى الزكاة ١/ ٣٩٧ والطبرانى (٣١٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٩ :« إسناده حسن » .

(٧) الترمذى فى الزكاة (٦٥٩ ، ٦٦٠) وقال: « إسناده ليس بذاك » وابن ماجة فى الزكاة (١٧٨٩) ونصه: « ليس =

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **والموفون بعهدهم** ﴾ قال : فمن أعطى عهد الله ثم نقضه فالله ينتقم منه ، ومن أعطى ذمة النبى ﷺ ثم غدر بها فالنبى ﷺ خَصمه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ يعنى : فيما بينهم وبين الناس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : ﴿ **البأساء** ﴾ الفقر ، و ﴿ **الضراء** ﴾ السقم ، و ﴿ **حين البأس** ﴾ حين القتال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **أولئك الذين صدقوا** ﴾ قال : فعلوا ما ذكر الله فى هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله : ﴿**أولئك الذين صدقوا** ﴾ قال: تكلموا بكلام الإيمان ، فكانت حقيقة العمل صدقوا الله. قال : وكان الحسن يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، فإن لم يكن مع القول عمل فلا شىء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ .

قوله : ﴿ كتب ﴾ معناه : فرض وأثبت ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

= فى المال حق سوى الزكاة» وابن جرير ٢/ ٥٧ والدارمى ١/ ٣٨٥ والبيهقى ٤/ ٨٤ وقال : « هذا حديث يعرف بأبى حمزة ميمون الأعور ، كوفى ، وقد جرحه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فمن بعدهما من حفاظ الحديث » وابن عدى فى الكامل ٤/ ١١ والدارقطنى ٢/ ١٢٥ .

هذا وقد علق الدكتور القرضاوى على رواية ابن ماجة « ليس فى المال حق سوى الزكاة » بقوله :« يعزى هذا الحديث إلى رواية ابن ماجة، ولكن قال النووى فى المجموع ٥/ ٣٣٢ : « إنه حديث ضعيف جداً » وقبله قال البيهقى فى السنن الكبرى ٤/ ٨٤ : « يرويه أصحابنا فى التعاليق ، ولست أحفظ فيه إسنادا » واعترض الحافظ العراقى عليه برواية ابن ماجة له فى سننه بهذا اللفظ ، وذكر ابنه الحافظ أبو زرعة أنه عند ابن ماجة بلفظ : «فى المال حق سوى الزكاة » كما هو عند الترمذى ، وفى بعض نسخ ابن ماجة : « ليس فى المال حق سوى الزكاة» طرح التثريب ٤/ ١٨. ومعنى هذا أن « ليس » زيدت فى الحديث عن طريق النساخ ، وشاع الخطأ بعد، كما بين ذلك أيضا العلامة الشيخ أحمد شاكر ــ رحمه الله ــ فى التعليق على الأثر (٢٥٣٠) من تفسير الطبرى (٣/ ٣٤٣، ٣٤٤) ط . المعارف ، ومما استدل به على وقوع الخطأ فى ابن ماجة ما يلى :

١ــ رواية الطبرى للأثر (٢٥٢٧) من نفس طريق يحيى بن آدم التى رواه منها ابن ماجة ونصه : « إن فى المال لحقًا سوى الزكاة » .

٢ــ نسب ابن كثير فى تفسيره الحديث للترمذى وابن ماجة معاً ، ولم يفرق بينهما وكذلك صنع النابلسى فى ذخائر المواريث (١١٦٩٩) إذ نسبه إليهما حديثا واحدا .

٣ــ قول البيهقى : « لست أحفظ فيه إسنادا » ولو كان فى ابن ماجة على هذا اللفظ لما قال ذلك إن شاء الله ، ومثله قول النووى . ولم يشر الشيخ شاكر إلى ما قاله أبو زرعة ، فلعله لم يطلع عليه . وهذا التحقيق أصوب وأولى من وصف الحديث بالاضطراب ، لروايته من طريق واحدة بلفظين متنافيين كما هو الشائع » . فقه الزكاة ٢/ ٩٦٦ ، ٩٦٧ .

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتالُ عَلَيْنَا وَعَلى الغَانيات جَرُّ الذُّيُولِ

وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك . وقيل : إن ﴿ **كتب** ﴾ هنا إشارة إلى ما جرى به القلم فى اللوح المحفوظ . و﴿ **القصاص** ﴾ أصله قصّ الأثر، أى اتباعه ، ومنه القاصّ لأنه يتتبع الآثار ، وقصّ الشعر اتباع أثره ، فكأن القاتل يسلك طريقًا من القتل ، يقص أثره فيها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ [الكهف : ٦٤]. وقيل : إن القصاص مأخوذ من القص وهو القطع ، يقال : قصصت ما بينهما، أى قطعته . وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد وهم الجمهور .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن أبى ليلى وداود إلى أنه يقتل به . قال القرطبى: وروى ذلك عن على وابن مسعود ، وبه قال سعيد بن المسيب وإبراهيم النَّخعى وقتادة والحكم ابن عتيبة ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [المائدة : ٤٥] وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى : ﴿**الحر بالحر والعبد بالعبد** ﴾ مفسر لقوله تعالى : ﴿ النفس بالنفس ﴾ وقالوا أيضًا : إن قوله : ﴿ وكتبنا عليهم فيها ﴾ يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبنى إسرائيل فى التوراة [(١)] .

ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم » [(٢)] ويجاب عنه: بأنه مجمل والآية مبينة، ولكنه يقال : إن قوله تعالى : ﴿ **الحر بالحر والعبد بالعبد** ﴾ إنما أفاد بمنطوقه أن الحر يقتل بالحر ، والعبد يقتل بالعبد ، وليس فيه ما يدل على أن الحر لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم ، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا،ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا ، والبحث فى هذا محرر فى علم الأصول .

وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، وهم الكوفيون والثورى ؛ لأن الحر يتناول الكافر كما يتناول المسلم ، وكذا العبد والأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم . واستدلوا أيضا بقوله تعالى :﴿ أن النفس بالنفس ﴾ لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على النفس المسلمة .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل المسلم بالكافر ، واستدلوا بما ورد من السنة عن النبى ﷺ: أنه « لا يقتل مسلم بكافر»[(٣)] وهو مبين لما يراد فى الآيتين . والبحث فى هذا يطول ،

(١) القرطبى ١/ ٦٢٥ .

(٢) الحديث عن على : أخرجه أحمد ١/ ١١٩ ، ١٢٢ وأبو داود فى الديات (٤٥٣٠) والنسائى فى القسامة ٨/ ١٩ ، ٢٠ . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : أخرجه أحمد ٢/ ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢١٥ وابن ماجة فى الديات (٢٦٨٥) . وعن ابن عباس عند ابن ماجة (٢٦٨٣) وعن معقل بن يسار عنده (٢٦٨٤) .

(٣) جزء من حديث على: أخرجه أحمد ١/ ٧٩ ، ١١٩ ، ١٢٢ والبخارى فى العلم (١١١) والجهاد (٣٠٤٧) والديات (٦٩٠٣) و(٦٩١٥) وأبو داود فى الديات (٤٥٣٠) والترمذى فى الديات (١٤١٢) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى القسامة ٨/ ١٩ ، ٢٠ وابن ماجة فى الديات (٢٦٥٨) والدارمى ٢/ ١٩٠ .ومن حديث عبد الله بن عمرو : أخرجه أحمد ٢/ ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢١٥ وابن ماجة فى الديات (٢٦٥٩) .

واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل بالأنثى وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل . وبه قال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق والثورى وأبو ثور ، وذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة وهو الحق . وقد بسطنا البحث فى شرح المنتقى فليرجع إليه .

قوله : ﴿ **فمن عفى له من أخيه شيء** ﴾ « من » هنا عبارة عن القاتل . والمراد بالأخ : المقتول أوالولى ، والشيء عبارة عن الدم ، والمعنى : أن القاتل أو الجانى إذا عفى له من جهة المجنى عليه أو الولى دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئًا من الدية أو الأرش [1] فليتبع المجنى عليه الولى من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعًا بالمعروف ، وليؤدِّ الجانى ما لزمه من الدية أو الأرش إلى المجنى عليه ، أو إلى الولى ، أداء بإحسان . وقيل : إن «من» عبارة عن الولى ، والأخ يراد به : القاتل، والشيء : الدية ، والمعنى : أن الولى إذا جنح إلى العفو عن القصاص إلى مقابل الدية ، فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص ، كما روى عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل فى ذلك ، وذهب من عداه إلى أنه لا يخير ، بل إذا رضى الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل يلزمه تسليمها. وقيل : معنى ﴿ **عُفِى** ﴾ : بذل ، أى من بُذِل له شيء من الدية ، فليقبل وليتبع بالمعروف . وقيل : إن المراد بذلك أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من الديات ، فيكون عفى بمعنى : فضل ، وعلى جميع التقادير فتنكير شيء للتقليل ، فيتناول العفو عن الشيء اليسير من الدية والعفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة . وقوله : ﴿ **فاتباع** ﴾ مرتفع بفعل محذوف ، أى فليكن منه اتباع ، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى فالأمر اتباع ، وكذا قوله : ﴿ **وأداء إليه بإحسان** ﴾ وقوله : ﴿**ذلك تخفيف** ﴾ إشارة إلى العفو والدية ؛ أى أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عِوض أو بعِوضٍ ، ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود ، فإنه أوجب عليهم القصاص ، ولا عفو، وكما ضيق على النصارى فإنه أوجب عليهم العفو ، ولا دية . قوله : ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك**﴾ أى بعد التخفيف ، نحو أن يأخذ الدية ثم يقتل القاتل ، أو يعفو ثم يستقص .

وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية ؟ فقال جماعة : منهم مالك والشافعى : إنه كمن قتل ابتداءً ، إن شاء الولى قتله ، وإن شاء عفا عنه . وقال قتادة وعكرمة والسدى وغيرهم : عذابه أن يقتل البتة ، ولا يمكِّنُ الحاكمُ الوليَّ من العفو . وقال الحسن : عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى .

قوله : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ أى لكم فى هذا الحكم الذى شرعه الله لكم حياة ؛ لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصا إذا قتل آخر كَفَّ عن القتل ، وانزجر عن التسرع إليه ،

---

(٢) الأرش : دية الجراحات . اللسان ٦/٢٦٣ .

والوقوع فيه ، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية ، وهذا نوع من البلاغة بليغ ، وجنس من الفصاحة رفيع ، فإنه جعل القصاص الذى هو موت حياةً ، باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا ، إبقاءً على أنفسهم واستدامةً لحياتهم ؛ وجعل هذا الخطاب موجهًا إلى أولى الألباب ؛ لأنهم هم الذين ينظرون فى العواقب ، ويتحامون ما فيه الضرر الآجل ؛ وأما من كان مصابًا بالحمق والطيش والخفة ، فإنه لا ينظر عند سورة غضبه ، وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة ، ولا يفكر فى أمر مستقبل ، كما قال بعض فتاكهم :

سأغْسِلُ عَنِّى العَارَ بِالسَّيْفِ جَالبًا ... عَلَىّ قَضَاء اللَّه مَا كَان جَالِبا

ثم علل سبحانه هذا الحكم الذى شرعه لعباده بقوله : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أى تتحامون القتل بالمحافظة على القصاص، فيكون ذلك سببًا للتقوى .

وقرأ أبو الجوزاء : « ولكم فى القصص حياة » قيل : أراد بالقصص القرآن ، أى لكم فى كتاب الله الذى شرع فيه القصاص حياة ، أى نجاة . وقيل :أراد حياة القلوب. وقيل :هو مصدر بمعنى القصاص، والكل ضعيف، والقراءة به منكرة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: إن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء ، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا ، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال ، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، وبالمرأة منا الرجل منهم ، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبى نحوه (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ، فأنزل الله: ﴿النفس بالنفس ﴾ [المائدة : ٤٥] فجعل الأحرار فى القصاص سواء فيما بينهم فى العمد رجالهم ونساءهم ، فى النفس، وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستوين فى العمد فى النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساءهم(٢). وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى مالك قال : كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطَّوْل فكأنهم طلبوا الفضل ، فجاء النبى ﷺ ليصلح بينهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى** ﴾ (٣) . قال ابن عباس : فنسختها ﴿ النفس بالنفس ﴾ [المائدة : ٤٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : ﴿**فمن عفى له** ﴾ قال : هو العمد رضى أهله بالعفو ﴿ **فاتباع بالمعروف** ﴾ أمر به الطالب ، ﴿**وأداء إليه بإحسان**﴾ من القابل قال : يؤدى المطلوب بإحسان ﴿ **ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ مما كان على بنى إسرائيل . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر .

وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان فى بنى إسرائيل القصاص ، ولم تكن

(١) ابن جرير ٢/ ٦٠ . (٢) ابن جرير ٢/ ٦٢ والبيهقى ٨/ ٤٩ ، ٥٠ . (٣) ابن جرير ٢/ ٦١ .

الدية فيهم ، فقال الله لهذه الأمة : ﴿ **كتب عليكم القصاص فى القتلى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فمن عفى له من أخيه شيء** ﴾ فالعفو أن تقبل الدية فى العمد[١] . ﴿ **فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك**﴾ قيل : بعد قبول الدية ﴿ **فله عذاب أليم** ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : كان أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو ، ليس بينهما أرش ، وكان أهل الإنجيل إنما هو العفو أمروا به ، وجعل الله لهذه الأمة القتل ، والعفو ، والدية ، إن شاؤوا أحلها لهم ، ولم تكن لأمة قبلهم [٢] . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى شريح الخزاعى ؛ أن النبى ﷺ قال : « مَنْ أصيب بقتل أو خَبَلٍ [٣] فإنه يختار إحدى ثلاث : إما أن يقتص ، وإما أن يعفو ، وإما أن يأخذ الدية ، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه ، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها أبدا » [٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، أنه إذا قتل بعد أخذ الدية فله عذاب عظيم ، قال : فعليه القتل لا تقبل منه الدية . قال وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أعافى رجلا قتل بعد أخذ الدية » [٥] . وأخرج سمويه [٦] فى فوائده ، عن سَمُرَة قال : قال رسول الله ﷺ : فذكر مثله . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة أنه قال : يقتل .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ قال : جعل الله القصاص حياة ونكالا وعظة إذا ذكره الظالم المعتدى كف عن القتل . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ قال : لعلك تتقى أن تقتله فتقتل به . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **يا أولى الألباب** ﴾ قال : من كان له لب يذكر القصاص فيحجزه خوف القصاص عن القتل ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ قال : لكى تتقوا الدماء مخافة القصاص .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) ﴾ .

---

(١) البخارى فى الديات (٦٨٨١) والنسائى فى القسامة ٨/ ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) ابن جرير ٢/ ٦٥ .

(٣) الخَبَل : فساد الأعضاء . اللسان ١١/ ١٩٧ .

(٤) عبد الرزاق (١٨٤٥٤) وابن أبى شيبة (٨٠٤٥) وأحمد ٤/ ٣١ والبيهقى ٨/ ٥٢ . وأخرجه أبو داود فى الديات (٤٤٩٦) وابن ماجة فى الديات (٢٦٢٣) والدارمى ٢/ ٢٣٥ .

(٥) ابن جرير ٢/ ٦٦ والحديث مرسل ، والحديث متصل عن جابر أخرجه أبو داود فى الديات (٤٥٠٧) والطيالسى (١٧٦٣) وأحمد ٣/ ٣٦٣ والبيهقى ٨/ ٥٤ ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦١٨٩) .

(٦) هو أبو بشر إسماعيل بن عبد الله بن مسعود العبدى الأصبهانى ، حافظ متقن من أهل أصبهان ، يلقب بـ «سمويه» أو « شمويه » له : « الفوائد » فى الحديث فى ثمانية أجزاء . الأعلام ١/ ٣١٨ .

قد تقدم معنى ﴿ كتب ﴾ قريبًا ، وحضور الموت : حضور أسبابه وظهور علاماته ، ومنه قول عنترة :

وأنَّ الموْتَ طَوعُ يَدي إذَا مَا وَصَلْتُ بَنَانها بالهنْدوانِى

وقال جرير :

أنَا الموْتُ الَّذى حُدِثْتَ عَنْه فَلَيْس لِهَاربٍ منِّى نَجَاةُ

وإنما لم يؤنث الفعل المسند إلى الوصية ، وهو ﴿ كتب ﴾ لوجود الفاصل بينهما، وقيل: لأنها بمعنى الإيصاء ، وقد روى جواز إسناد ما لا تأنيث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل . وقد حكى سيبويه : قام امرأة ، وهو خلاف ما أطبق عليه أئمة العربية . وشرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصى خيرًا . واختلف فى جواب هذا الشرط ما هو ؟ فروى عن الأخفش وجهان : أحدهما : أن التقدير : إن ترك خيرًا فالوصية ، ثم حذفت الفاء ، كما قال الشاعر :

مَنْ يَفْعَل الحسَنَاتِ اللَه يَشْكُرها والشَّر بالشر عِنْد اللَّه مِثلانِ

والثانى : أن جوابه مقدر قبله ، أى كتب الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرًا . واختلف أهل العلم فى مقدار الخير، فقيل : ما زاد على سبعمائة دينار . وقيل : ألف دينار . وقيل : مازاد على خمسمائة دينار . والوصية فى الأصل : عبارة عن الأمر بالشىء والعهد به فى الحياة وبعد الموت ، وهى هنا عبارة عن الأمر بالشىء لبعد الموت. وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده وديعة أو نحوها . وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيرًا أوغنيا ؛ وقالت طائفة : إنها واجبة .

ولم يبين الله سبحانه هاهنا القدر الذى كتب الوصية به للوالدين والأقربين ، فقيل : الخمس . وقيل : الربع . وقيل : الثلث .

وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فذهب جماعة إلى أنها محكمة ، قالوا : وهى وإن كانت عامة فمعناها الخصوص . والمراد بها : من الوالدين مَنْ لا يرث كالأبوين الكافرين ، ومَنْ هو فى الرق ، ومن الأقربين مَنْ عدا الورثة منهم . قال ابن المنذر : أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة .

وقال كثير من أهل العلم : إنها منسوخة بآية المواريث مع قوله ﷺ : « لا وصية لوارث»[(١)] ، وهو حديث صححه بعض أهل الحديث ، وروى من غير وجه . وقال بعض أهل

(١) الحديث عن أبى أمامة الباهلى :أخرجه أحمد٥/ ٢٦٧ وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٠) والترمذى فى الوصايا (٢١٢) وقال :« حسن صحيح » وابن ماجة فى الوصايا (٢٧١٣) . وعن عمرو بن خارجة : أخرجه أحمد ٤/ ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ والترمذى فى الوصايا (٢١٢١) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الوصايا ٦/ ٢٤٧ وابن ماجة فى الوصايا (٢٧١٢) والدارمى ٢/ ٤١٩ .

العلم : إنه نسخ الوجوب وبقى [١] الندب ، وروى عن الشعبى والنخعى ومالك .

قوله : ﴿ **بالمعروف** ﴾ أى العدل لا وكس فيه ولا شطط [٢] . وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه . وقوله: ﴿**حقا** ﴾ مصدر معناه : الثبوت والوجوب . قوله : ﴿ **فمن بدله** ﴾ هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية ، وكذلك الضمير فى قوله : ﴿**سمعه**﴾ ، والتبديل: التغيير ، والضمير فى قوله : ﴿ **فإنما إثْمه** ﴾ راجع إلى التبديل المفهوم من قوله : ﴿ **بدَّله** ﴾ وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق ، التى لا جَنَف فيها ولا مضارَّة، وأنه يبوء بالإثم ، وليس على الموصى من ذلك شىء فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به . قال القرطبى : ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز ، مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو شىء من المعاصى أنه يجوز تبديله ، ولا يجوز إمضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث . قاله أبو عمر . انتهى [٣] .

والجنف :المجاوزة ، من جنف يجنف: إذا جاوز ، قاله النحاس [٤] . وقيل : الجنف : الميل ، ومنه قول الأعشى :

تَجَانَفُ عن حجر اليمامة ناقتى [٥] وَمَا قَصَدتْ من أهـــلها لسَوائكا

قال فى الصحاح : الجنف الميل ، وكذا فى الكشاف . وقال لبيد :

إنى امرُؤٌ مَنَـعتْ أرُومة[٦] عَامر ضَيْمِى وَقَدْ جَنَفَتْ علىّ خُصُومِى

وقوله : ﴿ **فأصلح بينهم** ﴾ أى أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية ، بإبطال ما فيه ضرار ومخالفة لما شرعه الله ، وإثبات ما هو حق كالوصية فى قربة لغير وارث ، والضمير فى قوله : ﴿**بينهم**﴾ راجع إلى الورثة ، وإن لم يتقدم لهم ذكر ؛ لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق . وقيل : راجع إلى الموصى لهم ، وهم الأبوان والقرابة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن ترك خيرًا**﴾ قال : مالا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن

---

(١) فى المطبوعة :« ونفى » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، وبقاء الندب ونسخ الوجوب رأى ابن عمر وابن عباس وابن زيد ، كما ذكر القرطبى ١/ ٦٤٠ .

(٢) أى لا نقص فيه ولا زيادة . اللسان ٧/ ٣٣٤ .

(٣) القرطبى ١/ ٦٤٦ .

(٤) هو أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى المصرى ، مفسر ، أديب ، مولده ووفاته بمصر ، كان من نظراء نفطويه وابن الأنبارى، زار العراق واجتمع بعلمائه ، وصنف : تفسير القرآن ، وإعراب القرآن ، ومعانى القرآن ، وغيرها ، توفى سنة ٣٣٨ هـ / ٩٥٠ م . الأعلام ١/ ٢٠٨.

(٥) فى المطبوعة : «يافتى » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى١/ ٦٤٦ ، والبيت فى لسان العرب ٩/ ٣٣ :

تجانف عن جوّ اليمامة ناقتى وما عدلت من أهلها لسوائكا

(٦) الأرومة ـ بفتح الهمزة وضمها ـ : الأصل . اللسان ١٢/ ١٤ .

عباس قال : من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن عروة أن على بن أبى طالب دخل على مولى لهم فى البيت وله سبعمائة درهم أو ستمائة درهم ، فقال : ألا أوصى؟ قال : لا إنما قال الله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وليس لك كثير مال ، فدع مالك لورثتك [١] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى عن عائشة ؛ أن رجلا قال لها: أريد أن أوصى قالت :كم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : كم عيالك ؟ قال : أربعة . قالت : قال الله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وإن هذا شىء يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل[٢] .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقى عن ابن عباس قال : إذا ترك الميت سبعمائة درهم فلا يوصى[٣]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الزهرى قال : جعل الله الوصية حقًا مما قل منه ومما كثر. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : قال رسول الله ﷺ وذكر حديثًا وفيه :« انظر قرابتك الذين يحتاجون ولا يرثون ، فأوص لهم من مالك بالمعروف » [٤] .وأخرجا أيضا عن طاوس قال : من أوصى لقوم وسماهم وترك ذوى قرابته محتاجين انتزعت منهم وردت على قرابته . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، وأبو داود فى الناسخ وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن محمد ابن سيرين [٥] عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية [٦] .

وأخرج عنه من وجه آخر أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ؛ أن هذه الآية نسخها قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ الآية [النساء : ٧] . وأخرج عنه من وجه آخر ابن جرير وابن أبى حاتم ؛ أنها منسوخة بآية الميراث . وأخرج عنه أبو داود فى سننه ، والبيهقى مثله . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : فى الآية نسخ من يرث ، ولم ينسخ الأقربين الذين لا يرثون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عمر ؛ أنه قال : هذه الآية نسختها آية الميراث [٧] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فمن بدله ﴾

---

(١) عبد الرزاق (١٦٣٥١ ، ١٦٣٥٢) وابن أبى شيبة (١٠٩٩٢) وابن جرير ٢/ ٧١ ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٧٣ ، ٢٧٤ على شرط الشيخين وتعقبه الذهبى بأن فيه انقطاعا ، والبيهقى ٦/ ٢٧٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٠٩٩٣) والبيهقى ٦/ ٢٧٠ .

(٣) عبد الرزاق (١٦٣٥٣) والبيهقى ٦/ ٢٧٠ .

(٤) عبد الرزاق (١٦٣٦٨) ، وهو مرسل .

(٥) فى المخطوطة : « محمد بن بشير» ، والتصحيح من ابن كثير ١/ ٣٧٢ والحاكم ٢/ ٢٧٣ والبيهقى ٦/ ٢٦٥ .

(٦) ذكر ابن كثير ١/ ٣٧٢ إسناد أحمد ، ولم أعثر عليه فى المسند ، فلعل الإمام أخرجه فى كتاب آخر ، وأخرجه ابن جرير ٢/ ٧٠ ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٧٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٢٦٥. وأخرجه أبو داود فى الوصايا (٢٨٦٩) وابن جرير ٢/ ٧٠ من طريق عكرمة عن ابن عباس به .

(٧) ابن أبى شيبة ٦/ ٢٦٥ .

الآية ، قال : وقد وقع أجر الموصى على الله وبرئ من إثمه ، وقال فى قوله : ﴿ **جنفًا** ﴾ يعنى : إثمًا ﴿ **فأصلح بينهم** ﴾ قال : إذا أخطأ الميت فى وصيته أو حاف فيها فليس على الأولياء حرج أن يردوا خطأه إلى الصواب . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه، لكنه فسر الجنف بالميل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**جنفًا أو إثمًا** ﴾ قال: خطأ أوعمدًا . وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقى فى سننه ، عنه قال : الجنف فى الوصية والإضرار فيها من الكبائر .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)** ﴾ .

قد تقدم معنى :﴿ كتب ﴾ ولاخلاف بين المسلمين أجمعين ،أن صوم رمضان فريضة، افترضها الله سبحانه على هذه الأمة . والصيام أصله فى اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال ؛ ويقال للصمت : صوم ؛ لأنه إمساك عن الكلام ، ومنه : ﴿ إنى نذرت للرحمن صومًا﴾ [مريم :٢٦] أى إمساكًا عن الكلام ، ومنه قول النابغة :

خَيْلٌ صِيَامٌ وخَــيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ ... تَحْتَ العَجَاجِ وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللُّجمَا

أى خيل ممسكة عن الجرى والحركة . وهو فى الشرع : الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وقوله : ﴿ **كما كتب** ﴾ أى صوما كما كتب ، على أن الكاف فى موضع نصب على النعت ، أو كتب عليكم الصيام مشبها ما كتب ، على أنه فى محل نصب على الحال . وقال بعض النحاة : إن الكاف فى موضع رفع نعتًا للصيام وهو ضعيف ؛ لأن الصيام معرف باللام، والضمير المستتر فى قوله : ﴿ **كما كتب** ﴾ راجع إلى «ما» . واختلف المفسرون فى وجه التشبيه ما هو ، فقيل : هو قدر الصوم ووقته ، فإن الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا . وقيل : هو الوجوب ، فإن الله أوجب على الأمم الصيام . وقيل : هو الصفة ، أى ترك الأكل والشرب ونحوهما فى وقت . فعلى الأول معناه : أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم ، وعلى الثانى : أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم ، وعلى الثالث : أن الله أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم . وقوله تعالى : ﴿**لعلكم تتقون** ﴾ بالمحافظة عليها . وقيل : تتقون المعاصى بسبب هذه العبادة ؛ لأنها تكسر الشهوة وتضعف دواعى المعاصى ، كما

ورد فى الحديث أنه « جُنَّة » (١) وأنه « وجاء » (٢) .

وقوله : ﴿ أيامًا ﴾ منتصب على أنه مفعول ثان لقوله : ﴿ كتب ﴾ قاله الفراء . وقيل : إنه منتصب على أنه ظرف ، أى كتب عليكم الصيام فى أيام . وقوله : ﴿ معدودات ﴾ أى معينات بعدد معلوم ، ويحتمل أن يكون فى هذا الجمع لكونه من جموع القلة إشارة إلى تقليل الأيام . وقوله : ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ قيل : للمريض حالتان : إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة ، وإن كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصته . وبهذا قال الجمهور. وقوله : ﴿ على سفر ﴾ اختلف أهل العلم فى السفر المبيح للإفطار ، فقيل : مسافة قصر الصلاة ، والخلاف فى قدرها معروف ، وبه قال الجمهور . وقال غيرهم بمقادير لا دليل عليها . والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذى يباح عنده الفطر ، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذى يباح عنده الفطر . وقد وقع الإجماع على الفطر فى سفر الطاعة ، واختلفوا فى الأسفار المباحة ، والحق أن الرخصة ثابتة فيه ، وكذا اختلفوا فى سفر المعصية . وقوله : ﴿فعدة ﴾ أى فعليه عدة ، أو فالحكم عدة، أو فالواجب عدة ، والعدة فعلة من العدد ، وهو بمعنى المعدود . وقوله : ﴿ من أيام أخر ﴾ قال سيبويه : ولم ينصرف لأنه معدول به عن الآخر؛ لأن سبيل هذا الباب أن يأتى بالألف واللام . وقال الكسائى : هو معدول به عن آخر، وقيل : إنه جمع أخرى ، وليس فى الآية ما يدل على وجوب التتابع فى القضاء .

قوله : ﴿ وعلى الذين يطيقونه ﴾ قراءة الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء ، وأصله : يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وقرأ حميد على الأصل من غير إعلال ، وقرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو، أى يكلفونه ، وروى ابن الأنبارى عن ابن عباس « يطيقونه » بفتح الياء وتشديد الطاء والياء مفتوحتين بمعنى: يطيقونه، وروى عن عائشة وابن عباس ، وعمرو بن دينار وطاوس أنهم قرؤوا : « يطيقونه » بفتح الياء وتشديد الطاء مفتوحة . وقرأ أهل المدينة والشام :« فدية طعام » مضافًا ، وقرؤوا أيضا: «مساكين » وقرأ ابن عباس : « طعام مسكين » وهى قراءة أبى عمرو وعاصم وحمزة والكسائى.

وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية ، هل هى محكمة أم منسوخة ؟ فقيل : إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام ؛ لأنه شق عليهم ، فكان من أطعم كل يوم مسكينًا ترك الصوم وهو يطيقه ، ثم نسخ ذلك ، وهذا قول الجمهور . وروى عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ ، وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة وهذا يناسب قراءة التشديد ، أى يكلفونه كما مرّ . والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله

(١) البخارى فى الصوم (١٨٩٤) وفى التوحيد (٧٤٩٢) .
(٢) البخارى فى الصوم (١٩٠٥) وفى النكاح (٥٠٦٥ ، ٥٠٦٦) ومسلم فى النكاح (١٤٠٠/ ١ ـ ٣) .

تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ . وقد اختلفوا فى مقدار الفدية ؛ فقيل : كل يوم صاع من غير البر ، ونصف صاع منه . وقيل :مد فقط .

وقوله : ﴿ فمن تطوع خيراً فهوخير له ﴾ . قال ابن شهاب: معناه : من أراد الإطعام مع الصوم . وقال مجاهد : معناه : من زاد فى الإطعام على المدّ . وقيل : من أطعم مع المسكين مسكيناً آخر ، وقرأ عيسى بن عمر ويحيى بن وثاب [(١)] وحمزة والكسائى :« يطوّع » مشدداً مع جزم الفعل على معنى يتطوّع ، وقرأ الباقون بتخفيف الطاء على أنه فعل ماض . وقوله : ﴿وأن تصوموا خير لكم ﴾ معناه : أن الصيام خير لهم من الإفطار مع الفدية وكان هذا قبل النسخ . وقيل : معناه: وأن تصوموا فى السفر والمرض غير الشاق .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن معاذ بن جبل ؛ قال : أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال ، فذكر أحوال الصلاة ثم قال : وأما أحوال الصيام ، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ، ثم إن الله سبحانه فرض عليه الصيام وأنزل عليه : ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ إلى قوله : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكيناً ، فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فأثبت الله صيامه على الصحيح المقيم ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبّت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام، ثم ذكر تمام الحديث [(٢)] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ قال: يعنى بذلك أهل الكتاب. وأخرج البخارى فى تاريخه ، والطبرانى عن دغفل بن حنظلة عن النبى ﷺ قال : « كان على النصارى صوم شهر رمضان »، فمرض ملكهم فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدن عشراً ، ثم كان آخر فأكل لحما فأوجع فاه فقال: لئن شفاه الله ليزيدن سبعة، ثم كان عليهم ملك آخر فقال : ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئًا أن نتمها ونجعل صومنا فى الربيع ففعل فصارت خمسين يوما » [(٣)] . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ لعلكم

---

(١) هو يحيى بن وثاب الأسدى بالولاء ، الكوفى ، إمام أهل الكوفة فى القرآن ، تابعى ، ثقة ، توفى سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م . الأعلام ٨/ ١٧٦ .

(٢) أحمد ٥/ ٢٤٦ ، ٢٤٧ وأبو داود فى الصلاة (٥٠٧) وابن جرير ٢/ ٧٧ وصححه الحاكم ٢/ ٢٧٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٤/ ٢٠٠ وقال: « هذا مرسل ، عبد الرحمن ـ يعنى ابن أبى ليلى ـ لم يدرك معاذ بن جبل » .

(٣) البخارى فى التاريخ (٨٨٠) وقال : « لا يعرف سماع الحسن من دغفل ولا يعرف لدغفل إدراك النبى ﷺ » والطبرانى (٤٢٠٣) وفى الأوسط (١٣٠ مجمع البحرين) مرفوعا ، وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١٣٩ : «رجال إسنادهما رجال الصحيح » . قلت : إلا أنه منقطع الإسناد بين الحسن ودغفل ، ثم دغفل مشكوك فى صحبته، والله أعلم .

تتقون ﴾ قال : تتقون من الطعام والشراب والنساء مثل ما اتقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحو ما سبق عن معاذ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم » .

وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة قالت : كان عاشوراء صيامًا ، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر [(١)] . وأخرج عبد بن حميد أن ابن عباس قال : إن قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ قد نسخت. وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه نحو ذلك ، وزاد أن الناسخ لها قوله تعالى : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر** ﴾ الآية . وأخرج نحو ذلك عنه أبو داود فى ناسخه . وأخرج نحوه أيضا سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ كان من شاء صام ، ومن شاء أن يفطر ويفتدى فعل ، حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها: ﴿ **فمن شهد منكم الشهر**﴾[(٢)] . وأخرج البخارى عن ابن أبى ليلى قال : حدثنا أصحاب محمد ، فذكر نحوه [(٣)] .

وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ قال : الشيخ الكبير الذى لا يستطيع الصوم فيفطر ويطعم مكان كل يوم مسكينا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والدارقطنى والبيهقى ؛ أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عامًا قبل موته، فصنع جَفْنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، والدارقطنى وصححه عن ابن عباس أنه قال لأم ولد له حامل أو مرضعة : أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصيام ، عليك الطعام لا قضاء عليك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والدارقطنى عن ابن عمر ؛ أن إحدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان وهى حامل ، قال : تفطر وتطعم كل يوم مسكينًا . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فمن تطوع خيراً** ﴾ قال : أطعم مسكينين . وأخرج عبد بن حميد عن طاوس فى قوله : ﴿ **فمن تطوع خيراً** ﴾ قال : إطعام مساكين . وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب فى قوله : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم** ﴾ أى أن الصوم خير لكم من الفدية . وقد ورد فى فضل الصوم .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

(١) البخارى فى الصوم (٢٠٠١ ، ٢٠٠٢) ومسلم فى الصيام (١١٢٥/ ١٣ ، ١٦).
(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٠٧) ومسلم فى الصيام (١١٤٥/ ١٤٩ ، ١٥٠) وأبو داود فى الصوم (٢٣١٥) والترمذى فى الصوم (٧٩٨) والنسائى فى الصوم ٤/ ١٩٠ .
(٣) البخارى تعليقا فى الصوم ، باب قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ﴾ ٤/ ١٨٧ .

الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ .

﴿رمضان ﴾ مأخوذ من رمض الصائم يرمض : إذا احترق جوفه من شدة العطش ، والرمضاء ممدود : شدة الحر ، ومنه الحديث الثابت في الصحيح : « صلاة الأوابين إذا رَمِضَت الفصال » (١) أي أحرقت الرمضاء أجوافها . وقال الجوهري : وشهر رمضان يجمع على رمضانات وأرمضاء . يقال : إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام الحر ، فسمى بذلك . وقيل : إنما سمى رمضان ؛ لأنه يرمض الذنوب ، أي يحرقها بالأعمال الصالحة . وقال الماوردى (٢) : إن اسمه في الجاهلية ناتق ، وأنشد المفضل:

وفى ناتِقٍ أجْلَتْ لَدى حَوْمَةِ الوَغَى ... وَوَلَّتْ علــى الأدبار فُرسانُ خَثْعَما

وإنما سموه بذلك ؛ لأنه كان ينتقهم لشدته عليهم ، و ﴿ شهر ﴾ مرتفع في قراءة الجماعة على أنه مبتدأ خبره: ﴿الذى أنزل فيه القرآن ﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى المفروض عليكم صومه شهر رمضان ، ويجوز أن يكون بدلا من الصيام المذكور فى قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ . وقرأ مجاهد وشهر بن حوشب بنصب الشهر ، ورواها هارون الأعور عن أبى عمرو ، وهو منتصب بتقدير: الزموا أو صوموا . قال الكسائى والفراء : إنه منصوب بتقدير فعل ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ﴿ وأن تصوموا ﴾ وأنكر ذلك النحاس وقال : إنه منصوب على الإغراء . وقال الأخفش : إنه نصب على الظرف ومنع الصرف للألف والنون الزائدتين .

وقوله : ﴿ أنزل فيه القرآن ﴾ قيل : أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم كان جبريل ينزل به نجما نجما. وقيل: أنزل فيه أوله . وقيل : أنزل فى شأنه القرآن . وهذه الآية أعم من قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ [القدر : ١] ، وقوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ [الدخان :٣] يعنى : ليلة القدر. والقرآن اسم لكلام الله تعالى ، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب سمى شرابًا ، والمكتوب سمى كتابًا ، وقيل : هو مصدر قرأ يقرأ ، ومنه قول الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تســبيحـًا وقرآنًا

(١) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٨/١٤٣ ، ١٤٤) وأحمد ٤/٣٦٦ ، ٣٦٧ عن زيد بن أرقم ، وصلاة الأوابين هى صلاة الضحى .

(٢) هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى ، أقضى قضاة عصره ، من العلماء الباحثين ، له تصانيف كثيرة ، يميل إلى الاعتزال ، ونسبته إلى بيع ماء الورد ، ولد ببغداد سنة ٣٦٤ هـ ومات سنة ٤٥٠ هـ . الأعلام ٤/٣٢٧ .

أى قراءة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ [الإسراء : ٧٨] أى قراءة الفجر ، وقوله : ﴿ **هدى للناس**﴾ منتصب على الحال ، أى هاديًا لهم . وقوله : ﴿ **وبينات من الهدى**﴾ من عطف الخاص على العام ، إظهارًا لشرف المعطوف بإفراده بالذكر ؛ لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه ، والبينات تختص بالمحكم منه ، والفرقان : ما فرق بين الحق والباطل، أى فصل . قوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر** ﴾ أى حضر ولم يكن فى سفر بل كان مقيمًا ، والشهر منتصب على أنه ظرف ، ولا يصح أن يكون مفعولا به . قال جماعة من السلف والخلف : إن من أدركه شهر رمضان مقيمًا غير مسافر لزمه صيامه ، سافر بعد ذلك أو أقام استدلالا بهذه الآية . وقال الجمهور :إنه إذا سافر أفطر ؛ لأن معنى الآية إن حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه وسافر ، فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره ، وهذا هو الحق ، وعليه دلت الأدلة الصحيحة من السنة . وقد كان يخرج ﷺ فى رمضان فيفطر . وقوله: ﴿ **فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ قد تقدم تفسيره .

وقوله : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ فيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ، ومراد من مراداته فى جميع أمور الدين ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ [الحج :٧٨] وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يرشد إلى التيسير وينهى عن التعسير ، كقوله ﷺ :« يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » (١) ، وهو فى الصحيح . واليسر: السهل الذى لا عسر فيه . وقوله : ﴿ **ولتكملوا العدة** ﴾ الظاهر أنه معطوف على قوله: ﴿**يريد الله بكم اليسر** ﴾ أى يريد بكم اليسر ويريد إكمالكم للعدة وتكبيركم . وقيل : إنه متعلق بمحذوف تقديره : رخص لكم هذه الرخصة لتكملوا العدة ، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملوا العدة ، وقد ذهب إلى الأول البصريون قالوا : والتقدير : يريد لأن تكملوا العدة ، ومثله قول كثير بن صخر:

أريدُ لأنسى ذِكْرَها فكَأنَّما   تَمَثَّل لي لَيْلى بِكُلِ سَبِيل

وذهب الكوفيون إلى الثانى . وقيل : الواو مقحمة . وقيل : إن هذه اللام لام الأمر ، والواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة قبلها . وقال فى الكشاف : إن قوله : ﴿ **لتكملوا العدة** ﴾ علة للأمر بمراعاة العدة ﴿ **ولتكبروا** ﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ علة الترخيص والتيسير ، والمراد بالتكبير هنا : هو قول القائل : « الله أكبر » . قال الجمهور : معناه الحض على التكبير فى آخر رمضان . وقد وقع الخلاف فى وقته، فروى عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر . وقيل : إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة . وقيل : إلى خروج الإمام . وقيل : هو التكبير يوم الفطر . قال مالك : هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، وبه قال الشافعى. وقال أبو حنيفة :

---

(١) البخارى فى العلم (٦٩) وفى الأدب (٦١٢٥) ومسلم فى الجهاد والسير (٦/١٧٣٢) عن أنس بن مالك .

يكبر فى الأضحى ولا يكبر فى الفطر . وقوله : ﴿ **ولعلكم تشكرون**﴾ قد تقدم تفسيره .

وقد أخرج ابن أبى حاتم [(١)] وأبو الشيخ وابن عدى ، والبيهقى فى سننه ، عن أبى هريرة مرفوعًا وموقوفا : « لا تقولوا: رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، ولكن قولوا: شهر رمضان » [(٢)] ، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » [(٣)] ، وثبت عنه أنه قال :« من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » [(٤)] ، وثبت عنه أنه قال :« شهرا عيد لا ينقصان :رمضان وذو الحجة » [(٥)] ، وقال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة » [(٦)] ، وهذا كله فى الصحيح ، وثبت عنه فى أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول : « رمضان » بدون ذكر الشهر . وأخرج ابن مردويه ، والأصبهانى فى الترغيب عن أنس قال : قال رسول الله : « إنما سمى رمضان ؛ لأن رمضان يرمض الذنوب » . وأخرجا أيضا عن عائشة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه ، عن ابن عمر نحوه ، وقد روى فى فضل رمضان أحاديث كثيرة .

وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » [(٧)] . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله ، لكنه قال : «وأنزل الزبور لاثنى عشر »، وزاد: « وأنزل التوراة لست خلون من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثمانى عشرة خلت من رمضان » [(٨)] . وأخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر، إلا أنها لم تذكر نزول القرآن .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مقسم؛ قال : سأل عطيةُ بنُ الأسود ابنَ عباس فقال : إنه قد وقع فى قلبى الشك فى قول الله : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ ، وقوله : ﴿ إنا أنزلناه فى

---

(١) فى المخطوطة : « أبو حاتم » والتصويب من ابن كثير ١/ ٣٨١ .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٧/ ٥٣ وقال : « لا أعلم يروى عن أبى معشر بهذا الإسناد » والبيهقى ٤/ ٢٠١ ، ٢٠٢ وقال : « أبو معشر هو نجيح السعدى ، ضعفه يحيى بن معين ، وكان يحيى القطان لا يحدث عنه ، وكان عبد الرحمن بن مهدى يحدث عنه » وعلق ابن كثير ١/ ٣٨١ على رواية ابن أبى حاتم بأن أبا معشر فيه ضعف ، ثم قال : « وهو جدير بالإنكار ، فإنه متروك ، وقد وهم فى رفع هذا الحديث ».

(٣) البخارى فى الصوم (١٩٠١ ، ٢٠١٤) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٦٠/ ١٧٥) عن أبى هريرة .

(٤) البخارى فى الصوم (٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٩ / ١٧٣ ، ١٧٤) عن أبى هريرة .

(٥) البخارى فى الصوم (١٩١٢) ومسلم فى الصيام (١٠٨٩/ ٣١ ، ٣٢) عن أبى بكرة .

(٦) البخارى فى الصوم (١٨٩٨) وبدء الخلق (٣٢٧٧) ومسلم فى الصيام (١٠٧٩/ ١) عن أبى هريرة .

(٧) أحمد ٤/ ١٠٧ والطبرانى (١٨٥) والبيهقى ٩/ ١٨٨ .

(٨) أبو يعلى ٤/ ١٣٥ ، ١٣٦ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « فيه سفيان بن وكيع ، وهو ضعيف » وقال ابن حجر فى المطالب العالية (٣٤٩٣) : « هو مقلوب ، وإنما هو عن واثلة بن الأسقع » .

ليلة القدر ﴾ [القدر :١] ، وقوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة﴾ [الدخان : ٣] فقال ابن عباس : إنه أنزل فى ليلة القدر وفى رمضان ، وفى ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام (١) . وأخرج محمد بن نصر والطبرانى وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ؛ قال : نزل القرآن جملة لأربعة وعشرين من رمضان ، فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزله على رسول الله ﷺ ترتيلا (٢) .

وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : ليلة القدر هى الليلة المباركة ، وهى فى رمضان ، أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور(٣) . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ﴿ **هدى للناس** ﴾ قال : يهتدون به ، ﴿**وبينات من الهدى** ﴾ قال : فيه الحلال والحرام والحدود. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ قال : هو إهلاله بالدار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن على قال : من أدرك رمضان وهو مقيم ثم سافر فقد لزمه الصوم ؛ لأن الله يقول : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ (٤) . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يريد الله بكم اليسر**﴾ قال : اليسر : الإفطار فى السفر ، والعسر : الصوم فى السفر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **ولتكملوا العدة** ﴾ قال : عدة شهر رمضان. وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنه قال : عدة ما أفطر المريض فى السفر ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غمّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين يومًا » (٥) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم ؛ لأن الله يقول : ﴿ **ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة عن ابن مسعود أنه كان يكبر: الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبيهقى فى سننه ، عن ابن عباس أنه كان يكبر: الله أكبركبيرًا ، الله أكبر كبيرا، الله أكبر ولله الحمد وأجلّ ، الله أكبر على ما هدانا .

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

---

(١) ابن جرير ٢/ ٨٥ والطبرانى (١٢٠٩٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٦٩ . وفى إسناد الطبرانى سعد بن طريف ، وهو متروك .

(٢) الطبرانى (١٢٢٤٣) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٤/ ٣٠٦ وأخرجه ابن جرير ٢/ ٨٤ .

(٣) ابن جرير ٢/ ٨٥ . (٤) ابن جرير ٢/ ٨٦ .

(٥) البخارى فى الصيام (١٩٠٩) ومسلم فى الصيام (١٠٨١/ ١٩) عن أبى هريرة .

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ .

قوله : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى ﴾ يحتمل أن السؤال عن القرب والبعد ، كما يدل عليه قوله : ﴿ فإنى قريب ﴾ ، ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء ، كما يدل على ذلك قوله : ﴿أجيب دعوة الداع ﴾ ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك ، وهذا هو الظاهر ، مع قطع النظر عن السبب الذى سيأتى بيانه . وقوله : ﴿ فإنى قريب ﴾ قيل : بالإجابة . وقيل : بالعلم . وقيل : بالإنعام . وقال فى الكشاف : إنه تمثيل لحاله فى سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بمن قرب مكانه ، فإذا دعى أسرعت تلبيته .

ومعنى الإجابة : هو معنى ما فى قوله تعالى : ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ [غافر : ٦٠] وقيل : معناه : أقبل عبادة من عبدنى بالدعاء ، لما ثبت عنه ﷺ من أن « الدعاء هو العبادة »، كما أخرجه أبو داود وغيره ، من حديث النعمان بن بشير (١) ، والظاهر : أن الإجابة هنا هى باقية على معناها اللغوى ؛ وكون الدعاء من العبادة لا يستلزم أن الإجابة هى القبول للدعاء ، أى جعله عبادة متقبلة ، فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة . والمراد : أنه سبحانه يجيب بما شاء وكيف شاء ، فقد يحصل المطلوب قريبا وقد يحصل بعيدًا ، وقد يدفع عن الداعى من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه ، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعى فى دعائه كما فى قوله سبحانه : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ [الأعراف: ٥٥] ، ومن الاعتداء أن يطلب ما لا يستحقه ، ولا يصلح له، كمن يطلب منزلة فى الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء أو فوقها .

وقوله : ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ أى كما أجبتهم إذا دعونى فليستجيبوا لى فيما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعات . وقيل: معناه : إنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له، أى القيام بما أمرهم به ، والترك لما نهاهم عنه . والرشد خلاف الغى ،رشد يرشد رَشَدًا ورُشدا، قال الهروى : الرُّشْد والرَّشَد والرشاد : الهدى والاستقامة . قال : ومنه هذه الآية : ﴿ لعلهم يرشدون ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلب بن حكيم(٢) عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده ؛ قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبى ﷺ، فنزلت هذه الآية(٣).

---

(١) أحمد ٤/ ٢٧١ ، ٢٧٦ وأبو داود فى الصلاة (١٤٧٩) والترمذى فى الدعوات (٣٣٧٢) وقال : « حسن صحيح» وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٢٧) .

(٢) فى المطبوعة : « الصلت بن حكيم » ، والصحيح ما أثبتناه. انظر : المؤتلف والمختلف للأزدى ص ٧٩ والمشتبه للذهبى ص ٤١٢ ط . الحلبى ١٩٦٢ م ،وتبصير المنتبه ٣/ ٨٣٩ ط . المكتبة العلمية .

(٣) ابن جرير ٢/ ٩٢ وضعفه الشيخ أحمد شاكر (٢٩٠٤) وليس فيه : عن رجل من الأنصار . وقال الشيخ شاكر : « وقد وهم الحافظ ابن كثير حين ذكره١/ ٣٨٤ وجعله من حديث معاوية بن حيدة القشيرى ، وذكره السيوطى ١/ ١٩٤ وأخطأ فيه خطأ آخر فجعله من طريق الصلب بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده » .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن قال : سأل أصحاب النبي ﷺ النبي : أين ربنا ؟ فأنزل الله هذه الآية (١) . وأخرج ابن مردويه عن أنس أنه سأل أعرابي النبي ﷺ: أين ربنا ؟ فنزلت. وأخرج ابن عساكر في تاريخه ، عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعجزوا عن الدعاء، فإن الله أنزل عليّ :﴿ ادعوني أستجب لكم﴾» ، فقال رجل : يا رسول الله ، ربنا يسمع الدعاء أم كيف ذلك ؟ فأنزل الله هذه الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء ؛ أنه بلغه لما نزلت : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ قالوا : لو نعلم أي ساعة ندعو فنزلت (٢) .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد ، أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » (٣) . وثبت في الصحيح أيضًا من حديث أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي » (٤) .وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله: ﴿فليستجيبوا لي﴾ قال : ليدعوني ﴿ وليؤمنوا بي ﴾ أي أنهم إذا دعوني استجبت لهم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال :﴿ فليستجيبوا لي ﴾ أي فليطيعوني . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ لعلهم يرشدون ﴾ قال: يهتدون .

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾ .

قوله : ﴿ أحل لكم ﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حرامًا عليهم ، وهكذا كان ، كما يفيده السبب لنزول الآية وسيأتي . والرفث : كناية عن الجماع . قال الزجاج : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وكذا قال الأزهري ، ومنه قول الشاعر :

ويُرَيْنَ من أنْس الحَديثِ زَوَانِيًا وبهنَّ عَنْ رَفَث الرجال نِفَارُ

(١ ، ٢) ابن جرير ٢/ ٩٢ .

(٣) أحمد ٣/ ١٨ وأبو يعلى (١٠١٩) وصححه الحاكم ١/ ٤٩٣ ووافقه الذهبي ،وأورده الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٥١ ، ١٥٢ وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط ، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي الرفاعي وهو ثقة » .

(٤) البخاري في الدعوات (٦٣٤٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥/ ٩٠) وأبو داود في الصلاة (١٤٨٤) وابن ماجة في الدعاء (٣٨٥٣) وأحمد ٢/ ٤٨٧ .

وقيل : الرفث : أصله قول الفحش ، رفث وأرفث : إذا تكلم بالقبيح ، وليس هو المراد هنا ، وعدّى الرفث بإلى لتضمينه معنى الإفضاء (١) . وجعل النساء لباسًا للرجال ، والرجال لباسًا لهن ، لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذى يكون بين الثوب ولابسه . قال أبو عبيدة وغيره : يقال للمرأة : لباس وفراش وإزار . وقيل : إنما جعل كل واحد منهما لباسًا للآخر ؛ لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس .

وقوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أى تخونونها بالمباشرة فى ليالى الصوم ، يقال : خان واختان بمعنى ، وهما من الخيانة . قال القتيبى : أصل الخيانة : أن يؤتمن الرجل على شىء فلا يؤدى الأمانة فيه . انتهى . وإنما سماهم خائنين لأنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائد عليهم . وقوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما : قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم ، والآخر : التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة ، كقوله :﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ [المزمل : ٢٠] يعنى: خفف عنكم ، وكقوله : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ﴾ [النساء : ٩٢] يعنى : تخفيفًا ، وهكذا قوله : ﴿ وعفا عنكم ﴾ يحتمل العفو من الذنب ويحتمل التوسعة والتسهيل . وقوله : ﴿وابتغوا ﴾ قيل : هو الولد، أى ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل . وقيل : المراد: ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه ، قاله الزجاج وغيره . وقيل : ابتغوا الرخصة والتوسعة . وقيل : ابتغوا ما كتب لكم من الإماء والزوجات . وقيل : غير ذلك، مما لا يفيده النظم القرآنى ، ولا دل عليه دليل آخر . وقرأ الحسن البصرى : « واتبعوا » بالعين المهملة من الاتباع . وقوله : ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ هو تشبيه بليغ ، والمراد هنا بالخيط الأبيض : هو المعترض فى الأفق ، لا الذى هو كذَنَب السِّرْحان فإنه الفجر الكذاب ، الذى لا يحل شيئا ولا يحرمه، والمراد بالخيط الأسود: سواد الليل ، والتبين : أن يمتاز أحدهما عن الآخر ، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر .

وقوله : ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ فيه التصريح بأن للصوم غاية هى الليل ، فعند إقبال الليل من المشرق وإدبار النهار من المغرب يفطر الصائم ، ويحل له الأكل والشرب وغيرهما . وقوله : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ قيل : المراد بالمباشرة هنا : الجماع . وقيل : تشمل التقبيل واللمس إذا كانا لشهوة ، لا إذا كانا لغير شهوة فهما جائزان ، كما قاله عطاء والشافعى وابن المنذر وغيرهم . وعلى هذا يحتمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل ، فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة ، والاعتكاف فى اللغة : الملازمة . يقال: عكف على الشىء : إذا لازمه ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) فى المطبوعة : « الإمضاء » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، والإفضاء : المباشرة والجماع . قال الجوهرى: أفضى الرجل إلى امرأته: باشرها وجامعها . انظر: لسان العرب ١٥/١٥٧ .

وَظَلَّ بَنَاتُ اللَّيْلِ حَوْلِي عُكَّفًا عُكُوفَ البَوَاكِي حَوْلَهُنَّ صَرِيع

ولما كان المعتكف يلازم المسجد قيل له : عاكف فى المسجد ، ومعتكف فيه ؛ لأنه يحبس لهذه العبادة فى المسجد ، والاعتكاف فى الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص. وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب ، وعلى أنه لا يكون إلا فى مسجد ، وللاعتكاف أحكام مستوفاة فى كتب الفقه ، وشروح الحديث.

وقوله : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ أى هذه الأحكام حدود الله ، وأصل الحد : المنع ، ومنه سمى البواب والسجان : حداداً ، وسميت الأوامر والنواهى : حدود الله ؛ لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها ، وأن يخرج عنها ما هو منها ، ومن ذلك سميت الحدود حدوداً ؛ لأنها تمنع أصحابها من العود . ومعنى النهى عن قربانها : النهى عن تعدّيها بالمخالفة لها . وقيل : إن حدود الله هى محارمه فقط ، ومنها المباشرة من المعتكف والإفطار فى رمضان لغير عذر ، وغير ذلك مما سبق النهى عنه ، ومعنى النهى عن قربانها على هذا واضح . وقوله : ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته** ﴾ أى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق .

وقد أخرج البخارى وأبو داود والنسائى وغيرهم عن البراء بن عازب ؛ قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى ، وإن قيس بن صِرْمَة الأنصارى كان صائمًا فكان يومه ذلك يعمل فى أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت : خيبة لك أنمت ؟ فلما انتصف النهار غُشِى عليه ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية : ﴿ **أحل لكم لَيلة الصيام** ﴾ إلى قوله : ﴿**من الفجر** ﴾ ففرحوا بها فرحا شديداً [(١)] . وأخرج البخارى أيضا من حديثه قال: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، فكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله : ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ الآية [(٢)] ، وقد روى فى بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام ، ثم قال : وإن عمر بن الخطاب أتى امرأته ثم أتى رسول الله فقال : يارسول الله ، إنى أعتذر إلى الله وإليك من نفسى ، وذكر ما وقع منه فنزل قوله تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام** ﴾ الآية [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : إن المسلمين كانوا فى شهر رمضان ، إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة ، ثم إن ناسًا من المسلمين أصابوا النساء والطعام فى

---

(١) البخارى فى الصوم (١٩١٥) وأبو داود فى الصوم (٢٣١٤) والترمذى فى التفسير (٢٩٦٨) والنسائى فى التفسير(٤٣) وابن جرير٢/ ٩٥، ٩٦ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٠٨) وأحمد ٤/ ٢٩٥ . (٣) ابن جرير ٢/ ٩٦ .

رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿**أحل لكم ليلة الصيام**﴾ الآية [١] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال : الرفث : الجماع . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : الدخول ، والتفشي ، والإفضاء ، والمباشرة ، والرفث ، واللمس ، والمس ، هذا الجماع ؛ غير أن الله حَيِي كريم يكنى بما شاء عما شاء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **هُن لباس لكم وأنتم لباس لَهُن**﴾ قال : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **تختانون أنفسكم**﴾ قال : تظلمون أنفسكم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فالآن باشروهن** ﴾ قال : انكحوهن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ **وابتغوا ماكتب الله لكم** ﴾ قال: الولد . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وقتادة والضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وابتغوا ما كتب الله لكم** ﴾ قال : ليلة القدر. وأخرج البخاري في تاريخه عن أنس مثله . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : ﴿ **وابتغوا** ﴾ الرخصة التي كتب الله لكم . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : أنزلت : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود** ﴾ ولم ينزل من الفجر ، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله من الفجر ، فعلموا أنه يعني الليل والنهار[٢] . وفي الصحيحين وغيرهما عن عديّ بن حاتم أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود ، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود ، فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال: « إن وسادك إذن لعريض ، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل » [٣] ، وفي رواية البخاري وغيره : أنه قال له : « إنك لعريض القفا » [٤] ، وفي رواية عند ابن جرير وابن أبي حاتم: أنه ضحك منه [٥] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذرعن الضحاك قال :كانوا يجامعون وهم معتكفون حتى نزلت:﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه .وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه، ويستأنف. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿**تلك حدود الله** ﴾ قال : يعني :

---

(١) ابن جرير ٢/ ٩٦ .

(٢) البخاري في الصوم (١٩١٦) ومسلم في الصيام (١٠٩٠/ ٣٤) والنسائي في التفسير (٤٢)وابن جرير ٢/ ١٠٠ .

(٣) البخاري في الصيام (١٩١٦) ومسلم في الصيام (١٠٩٠/ ٣٣) والنسائي في التفسير (٤١) وابن جرير ٢/ ١٠٠ .

(٤) البخاري في التفسير (٤٥١٠) وابن جرير ٢/ ١٠٠ .

(٥) ابن جرير ٢/ ١٠٠ .

طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : ﴿ حدود الله ﴾ معصية الله ، يعنى المباشرة فى الاعتكاف . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أنها الجماع . وأخرج أيضا عن سعيد ابن جبير فى قوله : ﴿كذلك ﴾ يعنى : هكذا يبين الله .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ .

هذا يعم جميع الأمة ، وجميع الأموال ، لا يخرج عن ذلك إلا ماورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه ، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل ، ومأكول بالحل لا بالإثم ، وإن كان صاحبه كارها كقضاء الدين إذا امتنع منه مَنْ هو عليه ، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها ، ونفقة من أوجب الشرع نفقته ، والحاصل أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكه ، فهو مأكول بالباطل ، وإن طابت به نفس مالكه ، كمهر البغىّ ، وحلوان الكاهن ، وثمن الخمر . والباطل فى اللغة: الذاهب الزائل .

وقوله : ﴿ وتدلوا ﴾ مجزوم عطفًا على ﴿ تأكلوا ﴾ فهو من جملة المنهى عنه ، يقال : أدلى الرجل بحجته أوبالأمر الذى يرجو النجاح به تشبيهًا بالذى يرسل الدلو فى البئر . يقال: أدلى دلوه : أرسلها ، والمعنى : أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل ، وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة ، وفى هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال والفروج ، فمن حكم له القاضى بشىء مستندًا فى حكمه إلى شهادة زور، أو يمين فجور ، فلا يحل له أكله ، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وهكذا إذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق ، فإنه من أكل أموال الناس بالباطل ، ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ، ولا يحرم الحلال ، وقد روى عن أبى حنيفة ما يخالف ذلك ، وهو مردود لكتاب الله تعالى ، ولسنة رسول الله ﷺ ، كما فى حديث أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » (١) ، وهو فى الصحيحين وغيرهما .

وقوله : ﴿ فريقا ﴾ أى قطعة أو جزءًا أو طائفة ، فعبر بالفريق عن ذلك ، وأصل الفريق: القطعة (٢) من الغنم تشذ عن معظمها . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير: لتأكلوا أموال فريق من الناس بالإثم ، وسمى الظلم والعدوان إثمًا باعتبار تعلقه بفاعله . وقوله: ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق فى شىء ،

---

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم فى الأقضية (٤/١٧١٣) .

(٢) فى المطبوعة :« القطة » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومالك فى الأقضية ٧١٩/٢ وأحمد ٣٠٨/٦ ، ٣٩٠، ٣٩١ .

وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم** ﴾ الآية ، قال : هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه . وروى سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد قال : معناها : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ؛ أن امرأ القيس بن عابس ، وعيدان [1] بن أشوع الحضرمى ، اختصما فى أرض ، وأراد امرؤ القيس أن يحلف فنزلت: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم**﴾ الآية [2] .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **يسألونك** ﴾ سيأتى بيان مَنْ هم السائلون له ﷺ و﴿ **الأهلة** ﴾ جمع هلال ، وجمعها باعتبار هلال كل شهر أو كل ليلة ، تنزيلا لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات ، والهلال : اسم لما يبدو فى أول الشهر وفى آخره . قال الأصمعى : هو هلال حتى يستدير. وقيل : هو هلال حتى ينير بضوئه السماء ، وذلك ليلة السابع ، وإنما قيل له : هلال ؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته ، ومنه استهل الصبىّ : إذا صاح ، واستهل وجهه وتهلل : إذا ظهرفيه السرور .

قوله : ﴿ **قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ فيه بيان وجه الحكمة فى زيادة الهلال ونقصانه، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التى يوقت الناس عباداتهم ، ومعاملاتهم بها ، كالصوم والفطر، والحج ، ومدة الحمل ، والعدة والإجارات ، والأيمان ، وغير ذلك ، ومثله قوله تعالى : ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ [يونس : ٥] والمواقيت جمع الميقات ، وهو الوقت . وقراءة الجمهور :﴿ **والحج** ﴾ بفتح الحاء . وقرأ ابن أبى إسحاق بكسرها فى جميع القرآن . قال سيبويه : الحج بالفتح كالرد والشد وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى . وقيل : بالفتح مصدر وبالكسر الاسم . وإنما أفرد سبحانه الحج بالذكر ؛ لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، ولا يجوز فيه النسىء عن وقته ، ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه ، وأخطأ وقتها أو وقت بعضها ، وقد جعل بعض علماء المعانى هذا الجواب أعنى قوله: ﴿ **قل هى مواقيت**﴾ من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد ، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة

---

(١) فى المطبوعة: « عبدان » بالباء الموحدة ، والصواب « عيدان » بياء تحتية مثناة بعد عين مهملة . ذكره ابن حجر فى الإصابة ٣/ ٥١ وقال : « ذكر مقاتل فى تفسيره أنه هو الذى خاصم امرأ القيس بن عابس فى أرضه ، وفيه نزلت :﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا** . .﴾ الآية [آل عمران : ٧٧] ».

(٢) سيأتى هذا الحديث بأسانيد صحيحة عند تفسير الآية رقم (٧٧) من آل عمران .

التى كانت الزيادة والنقصان لأجلها،لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل وأحق بأن يتطلع لعلمه.

قوله : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾ وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة ، والجواب بأنها مواقيت للناس والحج ، أن الأنصار كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه ؛ لأنهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه وبين السماء حائل ، وكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم . وقال أبو عبيدة : إن هذا من ضرب المثل ، والمعنى : ليس البر أن تسألوا الجهال ، ولكن البر التقوى ، واسألوا العلماء كما تقول :أتيت هذا الأمر من بابه . وقيل : هو مثل فى جماع النساء ، وأنهم أمروا بإتيانهن فى القبل لا فى الدبر . وقيل : غير ذلك . والبيوت جمع بيت ، وقرئ بضم الباء وكسرها ، وقد تقدم تفسير التقوى والفلاح ، وسبق أيضا أن التقدير فى مثل قوله : ﴿ **ولكن البر من اتقى** ﴾ ولكن البرَّ برُّ من اتقى .

وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأهلة** ﴾ قال : نزلت فى معاذ بن جبل ، وثعلبة بن عثمة . وهما رجلان من الأنصار قالا : يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال واحد ؟ فنزلت : ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس** ﴾ فى حل دَيْنهم ، ولصومهم ، ولفطرهم ، وعدد نسائهم ، والشروط التى إلى أجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : سألوا النبى ﷺ عن الأهلة لم جُعلت ؟ فأنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الأهلة** ﴾ الآية ، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ، ولمناسكهم، وحجهم ، وعدد نسائهم ، ومَحلِّ دَيْنهم (١). وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية نحوه . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس نحوه (٢) . وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه (٣) .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «جعل الله الأهلة مواقيت للناس ، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمَّ عليكم فعدّوا ثلاثين يومًا » (٤) . وأخرج أحمد والطبرانى وابن عدى ، والدارقطنى بسند ضعيف ، عن طَلْق ابن على قال : قال رسول الله ﷺ ، فذكر نحو حديث ابن عمر(٥) .

وأخرج البخارى وغيره عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فنزلت : ﴿**ليس البر** ﴾ الآية (٦) . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن

(١ـ ٣) ابن جرير ٢/ ١٠٨ .

(٤) صححه الحاكم ١/ ٤٢٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصوم ٤/ ٢٠٥ .

(٥) أحمد ٤/ ٢٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١٤٨ : « فيه محمد بن جابر اليمانى ، وهو صدوق ، ولكن ضاعت كتبه قبل التلقين » والطبرانى (٨٢٣٧) وابن عدى فى الكامل ٦/ ٥٠ والدارقطنى فى الصيام ٢/ ١٦٣ .

(٦) البخارى فى التفسير (٤٥١٢) والنسائى فى التفسير (٤٥) وابن جرير ٢/ ١٠٨ .

جابر قال : كانت قريش تدعى : الحُمْس [١] ، وكانوا يدخلون من الأبواب فى الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الإحرام ، فبينا رسول الله ﷺ فى بستان إذ خرج من بابه ، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى ، فقالوا : يارسول الله ، إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، فقال : « إنى رجل أحمسى » قال : فإن دينى دينك، فأنزل الله الآية [٢] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه [٣]. وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾ .

لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعًا قبل الهجرة لقوله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ [المائدة : ١٣] وقوله : ﴿ واهجرهم هجرا جميلا ﴾ [المزمل : ١٠] ، وقوله : ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ [الغاشية : ٢٢] ، وقوله : ﴿ادفع بالتى هى أحسن ﴾ [المؤمنون: ٩٦] . ونحو ذلك مما نزل بمكة ؛ فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ، ونزلت هذه الآية . وقيل : إن أول ما نزل قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ [الحج : ٣٩] ، فلما نزلت الآية كان ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكفّ عمن كفّ عنه ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿فاقتلوا [٤] المشركين ﴾ [التوبة : ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة : ٣٧] ، وقال جماعة من السلف إن المراد بقوله : ﴿ **الذين يقاتلونكم** ﴾ من عدا النساء والصبيان والرهبان ونحوهم ، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة ، والمراد بالاعتداء عند أهل القول الأول هو : مقاتلة من يقاتل من الطوائف الكفرية. والمراد به على القول الثانى: مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره .

قوله : ﴿ **حيث ثقفتموهم** ﴾ يقال : ثقف يثقف ثقفًا ، ورجل ثقيف : إذا كان محكمًا لما يتناوله من الأمور. قال فى الكشاف : والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ، ومنه رجل

---

(١) الحُمْس : من الحماسة وهى الشجاعة ، ولقبت بذلك قريش ؛ لتحمّسهم فى دينهم ، وقيل : الحُمْس : الأمكنة الصلبة ، وتكون قريش لقبت بذلك؛ لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة . لسان العرب ٦/ ٥٧ .

(٢) صححه الحاكم ١/ ٤٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . (٣) ابن جرير ٢/ ١٠٩ .

(٤) فى المطبوعة : « اقتلوا » ، والصحيح ما أثبتناه .

ثقف : سريع الأخذ لأقرانه . انتهى . ومنه قول حسان :

فإما يثقفن بنى لؤىّ ... جذيمة إنّ قتلهم دواء

قوله : ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أى مكة . قال ابن جرير : الخطاب للمهاجرين ، والضمير لكفار قريش. انتهى . وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه ، فأخرج مِن مكة مَن لم يُسلم عند أن فتحها الله عليه . قوله : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى الفتنة التى أرادوا أن يفتنوكم ، وهى رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل . وقيل : المراد بالفتنة : المحنة التى تنزل بالإنسان فى نفسه ، أو ماله ، أو أهله ، أو عرضه . وقيل : إن المراد بالفتنة : الشرك الذى عليه المشركون ؛ لأنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ، فأخبرهم الله أن الشرك الذى هم عليه أشد مما يستعظمونه . وقيل : المراد : فتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم فى الحرم ، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم . والظاهر أن المراد : الفتنة فى الدين بأى سبب كان ، وعلى أى صورة اتفقت ، فإنها أشد من القتل .

قوله : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ﴾ الآية. اختلف أهل العلم فى ذلك ، فذهبت طائفة إلى أنها محكمة ، وأنه لا يجوز القتال فى الحرم ، إلا بعد أن يتعدى بالقتال فيه ، فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له ، وهذا هو الحق . وقالت طائفة : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن ببناء العام على الخاص ، فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم ، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ: « إنها لم تحل لأحد قبلى ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار »(١) وهو فى الصحيح ، وقد احتجَ القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خَطَل (٢) ، وهو متعلق بأستار الكعبة . ويجاب عنه ، بأنه وقع فى تلك الساعة التى أحل الله لرسوله ﷺ .

قوله : ﴿ فإن انتهوا ﴾ أى عن قتالكم ودخلوا فى الإسلام . قوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هى ألا تكون فتنة ، وأن يكون الدين لله وهو الدخول فى الإسلام ، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له ، فمن دخل فى الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله . قيل : المراد بالفتنة هنا : الشرك ، والظاهر أنها الفتنة فى الدين على عمومها كما سلف . قوله : ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أى لا تعتدوا إلا على من ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ولم يدخل فى الإسلام ، وإنما سمى جزاء الظالمين عدوانًا مشاكلة ،

---

(١) البخارى فى العلم (١٠٤) وفى جزاء الصيد (١٨٣٢) وفى المغازى (٤٢٩٥) وأبو داود فى المناسك (٢٠١٧) من حديث أبى شريح العدوى.

(٢) قصة أمره ﷺ عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، أخرجها البخارى فى جزاء الصيد (١٨٤٦) وفى الجهاد (٣٠٤٤) وفى المغازى (٤٢٨٦) ومسلم فى الحج (١٣٥٧/ ٤٥٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٨٥) والترمذى فى الجهاد (١٦٩٣) وفى الشمائل المحمدية (١٠٥) والنسائى فى الحج ٥/ ٢٠٠ ، ٢٠١ ومالك فى الحج ١/ ٤٢٣ (٢٤٧) وغيرهم عن أنس بن مالك .

كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] وقوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله** ﴾ الآية، أنها أول آية نزلت فى القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله ، ويكفّ عمن كفّ عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى هذه الآية قال : إن أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ يقول : لا تقتلوا النساء ، والصبيان ، والشيخ الكبير ، ولا من ألقى السلم وكف يده ، فإن فعلتم فقد اعتديتم . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه قال : إن هذه الآية فى النساء والذرية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾ يقول : الشرك أشد من القتل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية قال : ارتداد المؤمن إلى الوثن أشد عليه من أن يقتل محقًا . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه**﴾ قال: حتى يبدؤوا بالقتال ، ثم نسخ بعد ذلك فقال : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه عن قتادة أن قوله : ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام** ﴾ وقوله : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير** ﴾ فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعًا فى براءة قوله :﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة :٥] ، ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [التوبة : ٣٧] . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإن انتهوا** ﴾ قال : فإن تابوا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ يقول : شرك بالله ﴿ **ويكون الدين** ﴾ ويخلص التوحيد لله. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية ، قال : الشرك . وقوله : ﴿ **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ قال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله : ﴿ **ويكون الدين لله** ﴾ يقول : حتى لا تعبدوا إلا الله . وأخرج أيضا عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ قال : هم من أبى أن يقول : لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه .

﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام** ﴾ أى إذا قاتلوكم فى الشهر الحرام ، وهتكوا حرمته، قاتلتموهم فى الشهر الحرام مكافأة لهم ، ومجازاة على فعلهم ﴿ **والحرمات** ﴾ جمع حرمة ، كالظلمات جمع ظلمة ، وإنما جمع الحرمات، لأنه أراد الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، وحرمة الإحرام ، والحرمة : ما منع الشرع من انتهاكه . والقصاص : المساواة ، والمعنى : أن كل حرمة يجرى فيها القصاص ، فمن هتك حرمة عليكم فلكم أن تنتهكوا حرمة عليه قصاصًا. قيل : وهذا كان فى أول الإسلام ، ثم نسخ بالقتال . وقيل : إنه ثابت بين أمة محمد ﷺ لم ينسخ ، ويجوز لمن تعدّى عليه فى مال أو بدن ، أن يتعدى بمثل ما تُعُدِّى عليه ، وبهذا قال الشافعى وغيره . وقال آخرون : إن أمور القصاص مقصورة على الحكام ، وهكذا الأموال لقوله ﷺ : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » أخرجه الدارقطنى وغيره (١) ، وبه قال أبوحنيفة وجمهورالمالكية، وعطاء الخراسانى؛ والقول الأول أرجح ، وبه قال ابن المنذر ، واختاره ابن العربى والقرطبى، وحكاه الداودى عن مالك ، ويؤيده إذنه ﷺ لامرأة أبى سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها وهو الصحيح (٢) ، ولا أصرح ولا أوضح من قوله تعالى فى هذه الآية : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ وهذه الجملة فى حكم التأكيد للجملة الأولى ، أعنى قوله : ﴿ **والحرمات قصاص** ﴾ وإنما سمى المكافأة اعتداء مشاكلة كما تقدم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال :لما سار رسول الله ﷺ معتمراً فى سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول ، والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام ، قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين وأقصه الله منهم نزلت فى ذلك هذه الآية :﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا (٤). وأخرجه أيضا عن قتادة نحوه(٥). وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه (٦) .

وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فمن اعتدى عليكم** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وجزاء سيئة ﴾ الآية [الشورى : ٤٠] ، وقوله : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ الآية [الشورى : ٤١] ، وقوله : ﴿وإن عاقبتم ﴾ الآية [النحل : ١٢٦] ، هذا ونحوه نزل بمكة ، والمسلمون يومئذ قليل، ليس

---

(١) الدارقطنى ٣/ ٣٥ عن أبى بن كعب ، وعن أبى هريرة ، وعن أنس ، وحديث أبى هريرة : أخرجه أيضا أبو داود فى البيوع (٣٥٣٥) والترمذى فى البيوع (١٢٦٤) وقال: «حسن غريب » والدارمى ٢/ ٢٦٤ وصححه الحاكم ٢/ ٤٦ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأخرج الحاكم حديث أنس ٢/ ٤٦ وأخرجه أحمد ٣/ ٤١٤ عن رجل من أصحاب النبى ﷺ .

(٢) البخارى فى النفقات (٥٣٥٩ ، ٥٣٦٤) عن عائشة . (٣) ابن جرير ٢/ ١١٤ ، ١١٥ .

(٤ ،٥) ابن جرير ٢/ ١١٤ . (٦) ابن جرير ٢/ ١١٥ .

لهم سلطان يقهر المشركين فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى ، فأمر الله المسلمين من يتجازى منهم أن يتجازى بمثل ما أوتى إليه ، أو يصبروا ويعفوا ؛ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأعز الله سلطانه ، أمر الله المسلمين أن ينتهوا فى مظالمهم إلى سلطانهم ، ولا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية فقال : ﴿ ومن قُتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ الآية [الإسراء : ٣٣] ، يقول : ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه ، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية، ولم يرض بحكم الله تعالى . انتهى (١) . وأقول : هذه الآية التى جعلها ابن عباس رضى الله عنه ناسخةً مؤيدة لما تدل عليه الآيات التى جعلها منسوخة ومؤكدة له ، فإن الظاهر من قوله: ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ أى جعل السلطان له ، أى جعل له تسلطًا يتسلط به على القاتل ، ولهذا قال :﴿ فلا يسرف فى القتل﴾ ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله ، لكان ذلك مخصصًا للقتل من عموم الآيات المذكورة ، لا ناسخًا لها ، فإنه لم ينص فى هذه الآية إلا على القتل وحده ، وتلك الآيات شاملة له ولغيره ، وهذا معلوم من لغة العرب التى هى المرجع فى تفسيركلام الله سبحانه .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ .

فى هذه الآية الأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، وهو الجهاد ، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله ، والباء فى قوله : ﴿ **بأيديكم** ﴾ زائدة ، والتقدير : ولا تلقوا أيديكم. ومثله : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ [العلق : ١٤] وقال المبرد: ﴿ **بأيديكم** ﴾ أى بأنفسكم ، تعبيراً بالبعض عن الكل ، كقوله :﴿ فبما (٢) كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقيل : هذا مثل مضروب ، يقال : فلان ألقى بيده فى أمركذا : إذا استسلم ؛ لأن المستسلم فى القتال يلقى سلاحه بيديه ، فكذلك فعل كل عاجز فى أى فعل كان . قال قوم : التقدير : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم .

والتهلكة : مصدر من هلك يهلك هلاكًا وهلكًا وتهلكة ، أى لا تأخذوا فيما يهلككم . وللسلف فى معنى الآية أقوال سيأتى بيانها ، وبيان سبب نزول الآية . والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة فى الدين أو الدنيا فهو داخل فى هذا، وبه قال ابن جرير الطبرى . ومن جملة ما يدخل تحت الآية ، أن يقتحم الرجل فى الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص ، وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين ، ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رأوا السبب ، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها ، وهو ظن تدفعه لغة العرب . وقوله : ﴿ **وأحسنوا** ﴾ أى فى الإنفاق فى الطاعة ، أو أحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم .

---

(١) ابن جرير ١١٦/٢ والبيهقى ٦١/٨ . (٢) فى المخطوطة : « بما » ، والصحيح ما أثبتناه .

وقد أخرج عبد بن حميد والبخارى ، والبيهقى فى سننه عن حذيفة فى قوله : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ قال : نزلت فى النفقة [(١)] . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو ترك النفقة فى سبيل الله مخافة العيلة . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا. وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. وأخرج عبد ابن حميد والبيهقى فى الشعب عنه قال : هو البخل .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية قال :كان رجال يخرجون فى بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة ، فإما يقطع لهم ، وإما كانوا عيالا ، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة : أن تُهْلَك رجالٌ من الجوع والعطش ومن المشى ، وقال لمن بيده فضل : ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾. وأخرج عبد بن حميد و أبو يعلى وابن جرير ، والبغوى فى معجمه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مانع والطبرانى عن الضحاك بن أبى جبير [(٢)] ؛ أن الأنصاركانوا ينفقون فى سبيل الله ويتصدقون فأصابتهم سنة ، فساء ظنهم وأمسكوا عن ذلك ، فأنزل الله الآية [(٣)] .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى و أبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أسلم ابن عمران قال : كنا بالقسطنطينية ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة ابن عبيد ، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا :سبحان الله ! يلقى بيده إلى التهلكة ؟ فقام أبو أيوب ، صاحب رسول الله ﷺ، فقال : يأيها الناس ، إنكم تؤولون الآية هذا التأويل ، وإنما أنزلت فينا هذه الآية معشر الأنصار ، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه ، وقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ : إن أموال الناس قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ماضاع منها ؟ فأنزل الله على نبيه يرد علينا : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ ، فكانت التهلكة : الإقامة فى الأموال وإصلاحها وترك الغزو[(٤)] .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٥١٦) والبيهقى ٩/ ٤٥ .

(٢) هكذا وقع الاسم هنا ، وعند البغوى فى معجمه وابن السكن وابن منده ، ورجح الحافظ ابن حجر أنه مقلوب، وأن الصواب أبو جَبِيرة بن الضحاك وهو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة ، وهو مختلف فى صحبته. وهكذا أورده البخارى فى التاريخ الكبير ٩/ ٢٠ ومسلم فى الكنى ص٩٦ . انظر : الإصابة ٢/ ٢١٧ وأسد الغابة ٣/ ٣٤ ، ٣٥ والاستيعاب ٢/ ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٣) الطبرانى ٢٢/ ٣٩٠ (٩٧٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٢٠ : « رجاله رجال الصحيح » ولم أعثر عليه فى ابن جرير ولا فى مسند أبى يعلى .

(٤) أبو داود فى الجهاد (٢٥١٢) والترمذى فى التفسير (٢٩٧٢) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٤٩) وابن جرير ٢/ ١١٩ وصححه الحاكم ٢/ ٨٤ ، ٨٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والطبرانى (٤٠٦٠) والبيهقى ٩/ ٤٥.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وصححه ، والبيهقى عن البراء بن عازب ، قال فى تفسير الآية :هو الرجل يذنب الذنب فيلقى بيديه فيقول : لا يغفر الله لى أبدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال فى تفسير الآية: إنه القنوط. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ قال: التهلكة: عذاب الله. وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، أنهم حاصروا دمشق فأسرع رجل إلى العدو وحده ، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفع حديثه إلى عمرو بن العاص فأرسل إليه فرده ، وقال : قال الله: ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن رجل من الصحابة فى قوله : ﴿ **وأحسنوا** ﴾ قال : أدوا الفرائض . وأخرج عبد بن حميد عن أبى إسحاق مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : أحسنوا الظن بالله .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **وأتموا الحج** ﴾ اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله ، فقيل : أداؤهما والإتيان بهما، دون أن يشوبهما شيء مما هو محظور ، ولا يخل بشرط ولا فرض لقوله: ﴿ فأتمهنّ ﴾ [البقرة :١٢٤] وقوله : ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ [البقرة : ١٨٧]. وقال سفيان الثورى : إتمامهما أن تخرج لهما لا لغيرهما . وقيل : إتمامهما أن تفرد كل واحد منهما من غير تمتُّعٍ ولا قِرَان ، وبه قال ابن حبيب . وقال مقاتل : إتمامهما ألا يَسْتَحِلوا فيهما ما لا ينبغى لهم . وقيل : إتمامهما أن يُحْرِم لهما من دُوَيْرة أهله . وقيل : أن ينفق فى سفرهما الحلال الطيب ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية، وما هو مروى عن السلف فى معنى إتمامهما .

وقد استُدِل بهذه الآية على وجوب العمرة ؛ لأن الأمر بإتمامهما أمر بها ، وبذلك قال على وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبى وسعيد بن جبير ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عبيد ، وابن الجهم من المالكية . وقال مالك والنخعى وأصحاب الرأى كما حكاه ابن المنذر عنهم: إنها سنة. وحكى عن أبى حنيفة أنه يقول بالوجوب . ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله .

ومن جملة ما استدل به الأولون ما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال لأصحابه : « من

كان معه هَدى فلْيُهِلّ بحج وعمرة» (١) وثبت عنه أيضا فى الصحيح أنه قال : « دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة » (٢) . وأخرج الدارقطنى ، والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت » (٣) .

واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعى فى الآية وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى صالح الحنفى قال : قال رسول الله ﷺ : « الحج جهاد ، والعمرة تطوع » (٤) . وأخرج ابن ماجة عن طلحة بن عبيد الله مرفوعا مثله (٥) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه عن جابر ؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن العمرة : أواجبة هى؟ قال: « لا ، وأن تعتمروا خير لكم » (٦)، وأجابوا عن الآية وعن الأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها ، وهى بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف .

وهذا وإن كان فيه بُعْدٌ لكنه يجب المصير إليه ؛ جمعا بين الأدلة ، ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدم فى حديث جابر من عدم الوجوب ، وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها ، كما أخرجه الشافعى فى الأم ، أن فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ لعمرو بن حزم: « إن العمرة هى الحج الأصغر » (٧) ، وكحديث ابن عمر عند البيهقى فى الشعب قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أوصنى ، فقال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتحج وتعتمر ، وتسمع وتطيع ، وعليك بالعلانية وإياك والسر » (٨) ، وهكذا ينبغى حمل ما ورد من الأحاديث التى قرن فيها بين الحج والعمرة فى أنهما من أفضل الأعمال ، وأنهما كفارة لما بينهما ، وأنهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك .

قوله : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ الحصر : الحبس . قال أبو عبيدة والكسائى والخليل : إنه يقال أحُصِر بالمرض ، وحُصِر بالعدو ، وفى المجمل لابن فارس العكس ، يقال : أحصر بالعدو وحُصر بالمرض . ورجح الأول ابن العربى وقال : هو رأى أكثر أهل اللغة . وقال الزجاج : إنه كذلك عند جميع أهل اللغة، وقال الفراء : هما بمعنى واحد فى المرض والعدو ، ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيبانى فقال : حصرنى الشيء وأحصرنى ، أى حبسنى . وبسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه فى معنى الآية ، فقالت الحنفية : المحصر من يصير

---

(١) مسلم فى الحج (١٢١١ / ١١٣) وابن ماجة فى المناسك (٣٠٠٠) عن عائشة .

(٢) مسلم فى الحج (١٢١٨ / ١٤٧) جزء من حديث جابر الطويل فى حجة النبى ﷺ وأخرجه أيضًا جزءًا من حديث ابن عباس فى الحج (١٢٤١/٢٠٣) .

(٣) الدارقطنى ٢/ ٢٨٤ وصححه الحاكم ١/ ٤٧١ ووافقه الذهبى . (٤) الأم ٢/ ١٣٢ ، وهو منقطع .

(٥) ابن ماجة فى المناسك (٢٩٨٩) وقال فى الزوائد : « فى إسناده ابن قيس المعروف بمندل ، ضعفه أحمد وابن معين وغيرهم ، والحسن ضعيف أيضًا » .

(٦) الترمذى فى الحج (٩٣١) وقال : « حسن صحيح » .

(٧) الأم ٢/ ١٣٣ . (٨) البيهقى ٤/ ٣٥٠ .

ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غيره ، وقالت الشافعية وأهل المدينة المراد بالآية : حصر العدو . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعدوّ يحل حيث أحصر وينحر هديه إن كان ثَمَّ هدى ، ويحلق رأسه ، كما فعل النبى ﷺ هو وأصحابه فى الحديبية .

وقوله : ﴿ **فما استيسر من الهدى** ﴾ « ما » فى موضع رفع على الابتداء أو الخبر ، أى فالواجب أو فعليكم ، ويحتمل أن يكون فى موضع نصب ، أى فانحروا أو فاهدوا ما استيسر ، أى ما تيسر ، يقال : يَسُرالأمر واستيسر ، كما يقال : صَعُب واستصعب . والهَدِىُ والهَدْى لغتان ، وهما جمع هدية ، وهى ما يهدى إلى البيت من بدنة أو غيرها . قال الفراء : أهل الحجاز وبنو أسد يخففون الهدى ، وتميم وسفلى قيس يثقلون . قال الشاعر :

حَلْفتُ بِربٍّ كعبة والمصلى وأعْناقِ الْهَدِىِّ مُقَلَّداتِ

قال : وواحد الهدى هدية ، ويقال فى جمع الهدىّ : أهد . واختلف أهل العلم فى المراد بقوله : ﴿ **ما استيسر** ﴾ فذهب الجمهور إلى أنه شاة . وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير : جمل أو بقرة . وقال الحسن : أعلا الهَدْى بَدَنَة ، وأوسطه بقرة ، وأدناه شاة .

وقوله : ﴿ **ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله** ﴾ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين مُحْصَرٍ وغير مُحَصر ، وإليه ذهب جمع من أهل العلم ، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمُحْصَرِين خاصة ، أى لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهَدْى الذى بعثتموه إلى الحرم قد بلغ مَحِلَّه ، وهو الموضع الذى يحل فيه ذبحُه . واختلفوا فى تعيينه ، فقال مالك والشافعى : هو موضع الحصر ، اقتداءً برسول الله ﷺ ، حيث أحصر فى عام الحديبية . وقال أبو حنيفة : هو الحرم لقوله تعالى : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : ٣٣] وأجيب عن ذلك بأن المخاطب به هو الآمن الذى يمكنه الوصول إلى البيت . وأجاب الحنفية عن نحره ﷺ فى الحديبية بأن طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة هو من الحرم . ورُدَّ بأن المكان الذى وقع فيه النحر ليس هو من الحرم .

قوله : ﴿ **فمن كان منكم مريضًا** ﴾ الآية ، المراد بالمرض هنا : ما يصدق عليه مسمى المرض لغة ، والمراد بالأذى من الرأس : ما فيه من قمل أو جراح ونحو ذلك ، ومعنى الآية : أن من كان مريضًا أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية . وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك ، فثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى كعب بن عَجْرَة وهو مُحْرِم ، وقملُه يتساقط على وجهه ، فقال : « أيؤذيك هَوَامُّ رأسك ؟ » قال : نعم ، فأمره أن يحلق ويطعم ستة مساكين ، أو يُهْدِى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام » (١) وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو شاة .

---

(١) الحديث عن كعب بن عجرة: أخرجه البخارى فى المحصر (١٨١٤ ــ ١٨١٨) وفى المغازى (٤١٥٩، ٤١٩٠ ، ٤١٩١) ، وفى التفسير(٤٥١٧) (٥٦٦٥) .

وحكى عن الجمهور أن الصوم المذكور فى الآية ثلاثة أيام ، والإطعام لستة مساكين . وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام ، والإطعام عشرة مساكين . والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم ويبطل قولهم. وقد ذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم وداود إلى أن الإطعام فى ذلك مُدَّان بمُدّ النبى ﷺ ، أى لكل مسكين . وقال الثورى : نصف صاع من بر أو صاع من غيره . وروى ذلك عن أبى حنيفة . قال ابن المنذر : وهذا غلط ، لأن فى بعض أخبار كعب أن النبى ﷺ قال له : « تصدق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين »[1] ، واختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل ، فروى عنه مثل قول مالك والشافعى ، وروى عنه أنه إن أطعم بُرًا فمدٌ لكل مسكين ، وإن أطعم تمرًا فنصف صاع. واختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء : ما كان من دم فبمكة ، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء. وبه قال أصحاب الرأى . وقال طاوس والشافعى: الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة ، والصوم حيث شاء . وقال مالك ومجاهد : حيث شاء فى الجميع ، وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان .

قوله : ﴿ **فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى**﴾ أى برأتم من المرض . وقيل : من خوفكم من العدو على الخلاف السابق ، ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنتم فى ذهاب المرض ، فيكون مقويًا لقول من قال إن قوله : ﴿ **فإن أحصرتم** ﴾ المراد به الإحصار من العدو، كما أن قوله : ﴿ **فمن كان منكم مريضًا** ﴾ يقوى قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر . وقد وقع الخلاف : هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الأمة على حسب ما سلف ؟ والمراد بالتمتع المذكور فى الآية : أن يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالا بمكة إلى أن يحرم بالحج ، فقد استباح بذلك ما لا يحل للمُحْرِم استباحته ، وهو معنى تمتع واستمتع ، ولا خلاف بين أهل العلم فى جواز التمتع ، بل هو عندى أفضل أنواع الحج كما حررته فى شرحى على المنتقى . وقد تقدم الخلاف فى معنى قوله : ﴿ **فما استيسر من الهدى** ﴾ .

قوله : ﴿ **فمن لم يجد** ﴾ الآية ، أى فمن لم يجد الهدى ، إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ، صام ثلاثة أيام فى الحج ، أى فى أيام الحج ، وهى من عند شروعه فى الإحرام إلى يوم النحر . وقيل : يصوم قبل يوم التروية يومًا ، ويوم التروية ويوم عرفة . وقيل : ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة . وقيل : يصومهن من أول عشر ذى الحجة . وقيل : مادام بمكة . وقيل : إنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم . وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى ، ومنعه آخرون . قوله : ﴿ **وسبعة إذا رجعتم** ﴾ قرأه الجمهور بخفض سبعة ، وقرأ زيد بن على وابن أبى عبلة بالنصب على أنه مفعول بفعل مقدر ، أى

(١) مسلم فى الحج (١٢٠١/ ٨٤) وأبو داود فى المناسك (١٨٥٦) وأحمد ٤/ ٢٤١ ــ ٢٤٣ .

وصوموا سبعة . وقيل : على أنه معطوف على ثلاثة ؛ لأنها وإن كانت مجرورة لفظًا فهى فى محل نصب كأنه قيل : فصيام ثلاثة . والمراد بالرجوع هنا : الرجوع إلى الأوطان . وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصيام فى الطريق ، ولا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه ، وبه قال الشافعى وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم . وقال مالك : إذا رجع من منىً فلا بأس أن يصوم . والأول أرجح ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ : «فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله » (١) ، فبيَّن ﷺ أن الرجوع المذكور فى الآية هو الرجوع إلى الأهل ، وثبت أيضًا فى الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ : « وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم »(٢) ، وإنما قال سبحانه : ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام فى الحج ، والسبعة إذا رجع . قاله الزجاج . وقال المبرد : ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهِّم أنه قد بقى منه شيء بعد ذكر السبعة . وقيل : هو توكيد ،كما تقول : كتبت بيدى ، وقد كانت العرب تأتى بمثل هذه الفذلكة فيما دون هذا العدد ، كقول الشاعر :

ثلاث واثنتان فهنَّ خمس وسادسة تميل إلى سهامى

وكذا قول الآخر :

ثلاث بالغداة وذاك حسبى وست حين يدركنى العشاء
فذلك تسعة فى اليوم رىّ وشرب المرء فوق الرى داء

وقوله : ﴿ كاملة ﴾ توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية لصيامها ، وألا ينقص من عددها . وقوله : ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ الإشارة بقوله ذلك قيل : هى راجعة إلى التمتع ، فتدل على أنه لا متعة لحاضرى المسجد الحرام ، كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه . قالوا : ومن تمتع منهم كان عليه دم ، وهو دم جناية لا يأكل منه . وقيل : إنها راجعة إلى الحكم ، وهو وجوب الهدى والصيام ، فلا يجب ذلك على من كان من حاضرى المسجد الحرام ، كما يقوله الشافعى ومن وافقه . والمراد بمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام: من لم يكن ساكنًا فى الحرم ، أو من لم يكن ساكنًا فى المواقيت ، فما دونها على الخلاف فى ذلك بين الأئمة . وقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أى فيما فرضه عليكم فى هذه الأحكام. وقيل : هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الدلائل وابن عبد البر فى التمهيد عن يعلى بن أمية ؛ قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ وهو بالجِعِرَّانة (٣) ، وعليه جبة وعليه أثر خَلُوق، فقال :

(١) البخارى فى الحج (١٦٩١) . (٢) البخارى فى الحج (١٥٧٢) .
(٣) الجِعِرَّانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب . معجم البلدان ٢/ ١٤٢ .

كيف تأمرني يارسول الله أن أصنع في عمرتي ؟ فأنزل الله : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ فقال رسول الله ﷺ :« أين السائل عن العمرة ؟ » فقال : هأنذا ، قال : « اخلع الجبة واغسل عنك أثر الخَلُوق ، ثم ما كنت صانعًا في حجك فاصنعه في عمرتك » . وقد أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه ، ولكن فيهما أنه نزل عليه ﷺ الوحي بعد السؤال ولم يذكر ما هو الذي أنزل عليه (١) . وأخرج ابن أبي شيبة عن علي في قوله : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ قال : أن تحرم من دُوَيْرة أهلك . وأخرج ابن عدي والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا(٢). وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : من تمامهما أن يُفْرِدِ كل واحد منهما عن الآخر ، وأن يعتمر في غير أشهر الحج . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وزار البيت فقد حلّ ، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت ، وبالصفا والمروة ، فقد حلّ ، وقد ورد في فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ، ليس هذا موطن ذكرها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ يقول : من أحرم بحج أو عمرة ، ثم حُبِس عن البيت بمرض يجهده ، أوعدو يحبسه، فعليه ذبح ما استيسر من الهدي شاة فما فوقها ، وإن كانت حجة الإسلام فعليه قضاؤها ، وإن كانت بعد حجة الفريضة فلا قضاء عليه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ، في قوله : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ يقول : الرجل إذا أهل بالحج فأحصر بعث بما استيسر من الهدي ، فإن كان عجل قبل أن يبلغ الهدي محله فحلق رأسه ، أومس طيبًا ، أو تداوى بدواء ، كان عليه فدية من صيام ، أو صدقة ، أونسك ، فالصيام ثلاثة أيام ، والصدقة ثلاثة آصع على ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع ، والنسك شاة ﴿ فإذا أمنتم ﴾ يقول : فإذا برئ فمضى من وجهه ذلك إلى البيت أحل من حجته بعمرة ، وكان عليه الحج من قابل ، فإن هو رجع ولم يتم من وجهه ذلك إلى البيت : كان عليه حجة وعمرة، فإن هو رجع متمتعًا في أشهر الحج : كان عليه ما استيسر من الهدي شاة ، فإن هو لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجع . قال إبراهيم : فذكرت هذا الحديث لسعيد بن جبير فقال : هكذا قال ابن عباس في هذا الحديث كله .

وأخرج مالك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عن علي في قوله : ﴿ فما استيسر من الهدى ﴾ قال : شاة(٣) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس مثله وأخرج الشافعي في الأم ، وسعيد بن منصور وابن أبي

(١) البخاري في الحج (١٥٣٦) ومسلم في الحج (٨٣٧/ ٩) وأبو داود في المناسك (١٨١٩) والنسائي ٥/ ١٤٢ .

(٢) ابن عدي ٢/ ١٢٠ وابن جرير ٢/ ١٢٥ والبيهقي ٥/ ٣٠ مرفوعا وقال : « فيه نظر » وسبب تضعيفه جابر بن نوح الحماني الكوفي قال ابن عدي: « ولم أر له أنكر من هذا » .

(٣) مالك في الحج (١٥٨) والبيهقي ٥/ ٢٤ .

شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى [عن ابن عمر] [(١)] ﴿ فما استيسر من الهدى﴾ قال: بقرة أو جزور. وقيل : أو مايكفيه شاة ؟ قال : لا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس قال فى تفسير : ﴿ ما استيسر ﴾ ما يجد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : إن كان موسرا فمن الإبل وإلا فمن البقر ، وإلا فمن الغنم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق القاسم عن عائشة وابن عمر ، أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر، وكان ابن عباس يقول : ما استيسر من الهدى شاة .

وأخرج الشافعى فى الأم ، وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : لا حصر إلا حصر العدو ، فأما من أصابه مرض، أو وجع ، أو ضلال ؛ فليس عليه شىء ، إنما قال الله : ﴿فإذا أمنتم ﴾ فلا يكون الأمن إلا من الخوف . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : لا إحصار إلا من عدوَ . وأخرج أيضًا عن الزهرى نحوه . وأخرج أيضا عن عطاء قال : لا إحصار إلا من مرض أو عدو أو أمر حادث . وأخرج أيضا عن عروة قال : كل شىء حبس المحرم فهو إحصار .

وأخرج البخارى عن المُسوِر أن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يحلق وأمر أصحابه بذلك [(٢)].

وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴾ ثم استثنى فقال : ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ الآية . وأخرج الترمذى وابن جرير عن كعب بن عَجْرَةَ قال : لفىّ نزلت وإياى عنى بها : ﴿ فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ﴾ [(٣)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ يعنى : من اشتد مرضه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عنه قال : يعنى بالمرض أن يكون برأسه أذى أو قروح ﴿ أو به أذى من رأسه ﴾ قال : الأذى : هو القمل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: النسك المذكور فى الآية شاة ، وروى أيضا عن على مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ﴾ يقول : من أحرم بالعمرة فى أشهر الحج . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم أن ابن الزبير كان يقول : إنما المتعة لمن أحْصِر ، وليست لمن خُلِّى سبيله . وقال ابن عباس : هى لمن أحصر ومن خُلِّى سبيله . وأخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ﴾ قال : فإن أخر العمرة حتى يجمعها مع الحج فعليه الهدى .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن

(١)ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من البيهقى ٥/ ٢٤ .
(٢) البخارى فى المحصر (١٨١١) .
(٣) الترمذى فى الحج (٩٥٣) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير فى التفسير ٢/ ١٣٥ .

على بن أبى طالب فى قوله: ﴿ فصيام ثلاثة أيام ﴾ قال : قبل التروية يوم ، ويوم التروية ، ويوم عرفة ، فإن فاتته صامهن أيام التشريق . وأخرج هؤلاء إلا ابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمر مثله ، إلا أنه قال : وإذا فاته صام أيام منى فإنهن من الحج . وأخرج ابن جرير والدارقطنى والبيهقى عن ابن عمر نحوه مرفوعا [١] . وأخرج ابن أبى شيبة عن علقمة ومجاهد وسعيد بن جبير مثله[٢] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة ، وإن كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله .

وأخرج الدارقطنى عن عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من لم يكن معه هدى فليصم ثلاثة أيام قبل النحر، ومن لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام فليصم أيام التشريق »[٣] . وأخرج أيضا عن عبد الله بن حُذَافة : أن رسول الله ﷺ أمره فى رهط أن يطوفوا فى منى فى حجة الوداع ، فينادوا : إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله ، فلا نصوم فيهن إلا صومًا فى هدى [٤] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن عطاء فى قوله تعالى : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ قال : ست قربات : عرفة ، وعرنة ، والرجيع ، والنخلتان ، ومر الظهران ، وضجنان . وقال مجاهد : هم أهل الحرم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : هم أهل الحرم .وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾ .

قوله : ﴿ الحج أشهر ﴾ . فيه حذف ، والتقدير : وقت الحج أشهر ، أى وقت عمل الحج . وقيل : التقدير : الحج فى أشهر ؛ وفيه أنه يلزم النصب مع حذف حرف الجر لا الرفع. قال الفراء : الأشهر رفع لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات . وقيل : التقدير : الحج حج أشهر معلومات . وقد اختلف فى الأشهر المعلومات ، فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهرى : هى شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة كله، وبه قال مالك .وقال ابن عباس والسدى والشعبى والنخعى: هى شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة ، وبه قال أبوحنيفة ، والشافعى ، وأحمد وغيرهم ، وقد روى أيضا عن مالك . ويظهر فائدة

---

(١) ابن جرير ٢/ ١٤٤ والدارقطنى ٢/ ١٨٧ والبيهقى ٥/ ٢٥ . (٢) ابن أبى شيبة ٤/ ١ ، ٢ .
(٣) الدارقطنى ٢/ ١٨٦ وقال : « يحيى بن أبى أنيسة ـ أحد الرواة ـ ضعيف » .
(٤) الدارقطنى ٢/ ١٨٧ وابن جرير ٢/ ١٤٦ وضعّفه الدارقطنى .

الخلاف فيما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر ، فمن قال : إن ذا الحجة كله من الوقت ، لم يلزمه دم التأخير ، ومن قال : ليس إلا العشر منه ، قال يلزمه دم التأخير .

وقد استدل بهذه الآية من قال : إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهر الحج ، وهو عطاء وطاوس ومجاهد والأوزاعى والشافعى وأبو ثور قالوا : فمن أحرم بالحج قبلها أحل بعمرة ، ولا يجزيه عن إحرام الحج ، كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فإنها لا تجزيه . وقال أحمد وأبو حنيفة : إنه مكروه فقط . وروى نحوه عن مالك ، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة من غير كراهة . وروى مثله عن أبى حنيفة . وعلى هذا القول ينبغى أن ينظر فى فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة فى الآية . وقد قيل : إن النص عليها لزيادة فضلها . وقد روى القول بجواز الإحرام فى جميع السنة عن إسحاق بن راهويه وإبراهيم النخعى والثورى والليث ابن سعد ، واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج ، ولم يخص الثلاثة الأشهر ، ويجاب بأن هذه الآية عامة ، وتلك خاصة ، والخاص مقدم على العام .

ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة ، فكما يجوز الإحرام للعمرة فى جميع السنة ، كذلك يجوز للحج، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآنى فهو باطل ، فالحق ما ذهب إليه الأولون ، إن كانت الأشهر المذكورة فى قوله : ﴿ **الحج أشهر** ﴾ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص ، أو إجماع ، فإن لم يكن كذلك فالأشهر جمع شهر ، وهو من جموع القلة يتردد مابين الثلاثة إلى العشرة ، والثلاثة هى المتيقنة فيجب الوقوف عندها . ومعنى قوله : ﴿**معلومات** ﴾ أن الحج فى السنة مرة واحدة ، فى أشهر معلومات من شهورها ، ليس كالعمرة، أو المراد : معلومات ببيان النبى ﷺ ، أومعلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها ولا التأخير عنها.

قوله : ﴿ **فمن فرض فيهن الحج** ﴾ أصل الفرض فى اللغة : الحز والقطع ، ومنه فرضة القوس ، والنهر والجبل ، ففرضية الحج لازمة للعبد الحر ، كلزوم الحز للقوس . وقيل : معنى فرض : أبان ، وهو أيضا يرجع إلى القطع ؛ لأن من قطع شيئًا فقد أبانه عن غيره . والمعنى فى الآية : فمن ألزم فيهن الحج بالشروع فيه بالنية قصدًا باطنًا ، وبالإحرام فعلا ظاهرًا ، وبالتلبية نطقًا مسموعا . وقال أبو حنيفة : إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية ، أو بتقليد الهَدْى وسوقه . وقال الشافعى : تكفى النية فى الإحرام بالحج .

والرفث : قال : ابن عباس وابن جبير والسدى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك : هو الجماع. وقال ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرفث : الإفحاش بالكلام . قال أبو عبيدة : الرفث : اللغاء من الكلام وأنشد :

ورب أسْرَابِ حَجِيج كُظَّم   عن اللغـــا ورَفَث التـــكَلُّم

يقال : رفث يرفث بكسر الفاء وضمها .

والفسوق : الخروج عن حدود الشرع . وقيل :هو الذبح للأصنام . وقيل : التنابز بالألقاب . وقيل : السباب . والظاهر أنه لا يختص بمعصية معينة ، وإنما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد اسم الفسوق ، كما قال سبحانه فى الذبح للأصنام: ﴿ أو فِسقا أهِلَّ لغير الله به ﴾ [الأنعام : ١٤٥] ، وقال فى التنابز : ﴿بئس الاسم الفسوق ﴾ [الحجرات : ١١] وقال ﷺ فى السباب : « سباب المسلم فسوق » (١) . ولا يخفى على عارف أن إطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصى لا يوجب اختصاصه به .

والجدال :مشتق من الجدل ، وهو القتل ، والمراد به هنا :المماراة . وقيل : السباب .وقيل: الفخر بالآباء ،والظاهر الأول. وقد قرئ بنصب الثلاثة ورفعها ، ورفع الأوّلَيْن ، ونصب الثالث ، وعكس ذلك ، ومعنى النفى لهذه الأمور : النهى عنها .

وقوله : ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ حث على الخير بعد ذكر الشر ، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية ، وفيه أن كل ما يفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله ، لا يفوت منه شىء . وقوله : ﴿ **وتزودوا** ﴾ فيه الأمر باتخاذ الزاد ؛ لأن بعض العرب كانوا يقولون : كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا ؟ فكانوا يحجون بلا زاد ، ويقولون : نحن متوكلون على الله سبحانه . وقيل : المعنى : تزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة . ﴿ **فإن خير الزاد التقوى**﴾ إخبار بأن خير الزاد اتقاء المنهيات ، فكأنه قال : اتقوا الله فى إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد ، فإن خير الزاد التقوى . وقيل : المعنى : فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة والحاجة إلى السؤال والتكفف . وقوله : ﴿ **واتقون يا أولى الألباب** ﴾ فيه التخصيص لأولى الألباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى ؛ لأن أرباب الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها ولب كل شىء خالصه .

قوله : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ فيه الترخيص لمن حج فى التجارة ونحوها من الأعمال التى يحصل بها شىء من الرزق ، وهو المراد بالفضل هذا ومنه قوله تعالى: ﴿ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ [الجمعة : ١٠] أى لا إثم عليكم فى أن تبتغوا فضلا من ربكم مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج . قوله : ﴿ **فإذا أفضتم**﴾ أى دفعتم ، يقال : فاض الإناء : إذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه ، ورجل فياض ، أى متدفقة يداه بالعطاء، ومعناه : أفضتم أنفسكم ، فترك ذكر المفعول ، كما ترك فى قولهم : دفعوا من موضع كذا .

و ﴿ **عرفات** ﴾ اسم لتلك البقعة ، أى موضع الوقوف . وقرأه الجماعة بالتنوين ، وليس

(١) أحمد ١/ ٣٨٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٦٠ والبخارى فى الإيمان (٤٨) والأدب (٦٠٤٤) والفتن (٧٠٧٦) ومسلم فى الإيمان (١١٦/ ٦٤) والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٣) وقال :« حسن صحيح » والنسائى ٧/ ١٢١ وابن ماجة فى الفتن (٣٩٣٩) والمقدمة (٦٩) عن ابن مسعود .

التنوين هنا للفرق بين ما ينصرف وما لا ينصرف ، وإنما هو بمنزلة النون فى مسلمين . قال النحاس : هذا الجيد ، وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات قال : لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين ، وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء تشبيهًا بتاء فاطمة وأنشدوا :

تَنَورتها من أذرعات وأهلُها ... بِيَثْربَ أدنَى دارِها نَظَر عالى

وقال فى الكشاف : فإن قلت : هلا منعت الصرف ، وفيها السببان : التعريف ، والتأنيث ، قلت : لا يخلو التأنيث إما أن يكون بالتاء التى فى لفظها ، وإما بتاء مقدرة كما فى سعاد ، فالتى فى لفظها ليست للتأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث . ولا يصح تقدير التاء فيها ؛ لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها ، كما لا تقدر تاء التأنيث فى بنت ؛لأن التاء التى هى بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث ، فأبت تقديرها . انتهى . وسميت عرفات ؛ لأن الناس يتعارفون فيها . وقيل : إن آدم التقى هو وحواء فيها فتعارفا . وقيل :غير ذلك .قال ابن عطية: والظاهر :أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع. واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده .

والمراد بذكر الله عند المشعر الحرام : دعاؤه ، ومنه التلبية والتكبير . وسمى المشعر مشعراً من الشعار وهو العلامة ، والدعاء عنده من شعائر الحج ، ووصف بالحرام لحرمته . وقيل : المراد بالذكر ، صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعًا . وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها . والمشعر : جبل قزح الذى يقف عليه الإمام . وقيل : هو ما بين جبلى المزدلفة من مأزمى [(١)] عرفة إلى وادى محسر .

قوله : ﴿ **واذكروه كما هداكم** ﴾ الكاف : نعت مصدر محذوف ، وما : مصدرية أو كافة، أى اذكروه ذكرًا حسنًا ، كما هداكم هداية حسنة ، وكرر الأمر بالذكر تأكيداً . وقيل : الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام ، والثانى : أمر بالذكر على حكم الإخلاص . وقيل : المراد بالثانى : تعديد النعمة عليهم ، و « إن » فى قوله : ﴿ **وإن كنتم من قبله** ﴾ مخففة كما يفيده دخول اللام فى الخبر. وقيل : هى بمعنى قد ، أى قد كنتم ، والضمير فى قوله: ﴿ **من قبله** ﴾ عائد إلى الهدى . وقيل : إلى القرآن .

وقد أخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿**الحج أشهر معلومات** ﴾ : « شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة » [(٢)] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط أيضاً عن ابن عمر مرفوعًا مثله . وأخرج الخطيب عن ابن عباس

---

(١) مثنى مأزم ، بكسر الزاى ، وهو : المضيق فى الجبال حيث يلتقى بعضها ببعض ، ويتسع ما وراءه . انظر: النهاية فى غريب الحديث ٤/ ٢٨٨ .

(٢) عزاه الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٢١ إلى الطبرانى فى الصغير والأوسط وقال : « وفيه حصين بن مخارق . قال الطبرانى : كوفى ثقة ، وضعفه الدارقطنى ، وبقية رجاله موثقون » وحكم ابن كثير ٤١٨/١ ،٤١٩ على رواية ابن مردويه بالوضع .

مرفوعًا مثله أيضا [١] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عمر بن الخطاب موقوفًا مثله . وأخرج الشافعي في الأم وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمرموقوفًا مثله . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس وعطاء والضحاك مثله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عمر في قوله : ﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾ قال: شوال ، وذو القعدة ، وعشر ليال من ذي الحجة . وأخرجوا إلا الحاكم عن ابن مسعود مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي عن ابن عباس من طرق مثله . وأخرج ابن المنذر والدارقطني والطبراني والبيهقي عن عبد الله بن الزبير مثله أيضًا . وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن ومحمد وإبراهيم مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عمر في قوله : ﴿**فمن فرض فيهن الحج**﴾ قال : من أهلّ فيهن بحج . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال : الفرض : الإحرام . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن الزبير قال : الإهلال . وأخرج عنه ابن المنذر والدارقطني والبيهقي قال : فرض الحج: الإحرام . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : الفرض : الإهلال . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج الشافعي في الأم ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ قال : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج من أجل قول الله تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة وابن خزيمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عنه نحوه . وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة وابن مردويه والبيهقي عن جابر عن النبي ﷺ ؛ قال:« لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج » [٢] .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج** ﴾ قال : « الرفث : التعريض للنساء بالجماع ، والفسوق : المعاصي كلها ، والجدال : جدال الرجل صاحبه»[٣] . وأخرج ابن مردويه ، والأصبهاني في الترغيب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « فلا رفث: لاجماع ، ولا فسوق : المعاصي والكذب » . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير

---

(١) الخطيب البغدادي ٥/ ٦٣ .

(٢) الأم ٢/ ١٥٤ ، ١٥٥ . لكن نصه : عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الرجل يهل بالحج قبل أشهر الحج فقال : لا ، وعن عكرمة ـ موقوفا عليه ـ لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج من أجل قول الله عز وجل : ﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾ ولا ينبغي لأحد أن يلبي ثم يقيم ، وأورد ابن كثير ١/ ٤١٧ ، ٤١٨ رواية ابن مردويه ثم قال : « وإسناده لابأس به » وساق حديث جابر عند الشافعي وقال : « وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع » والبيهقي ٤/ ٣٤٣ .

(٣) الطبراني (١٠٩١٤) .

وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : الرفث : الجماع، والفسوق : المعاصى ، والجدال : المراء . وأخرج ابن جرير وابن الـمنذر عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة ، والطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر ؛ قال : الرفث : غشيان النساء ، والفسوق : السباب ، والجدال : المِرَاء . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عنه نحوه . وروى نحو ما تقدم عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة .

وأخرج عبد بن حميد والبخارى وأبو داود والنسائى وغيرهم عن ابن عباس ؛ قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن متوكلون ، ثم يقدمون فيسألون الناس ، فأنزل الله : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : كان ناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزْوِدَةٌ يقولون : نحج بيت الله ولايطعمنا ؟ فنزلت الآية [٢] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر ، فأنزل الله : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ فنُهُوا عن ذلك ، وأمِروا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق [٣] . وأخرج الطبرانى عن ابن الزبير قال : كان الناس يتوكل بعضهم على بعض فى الزاد فأمرهم الله أن يتزودوا[٤] . وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ما تقدم عن الصحابة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير عن ابن عباس ؛ قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ويقولون : أيام ذكر الله فنزلت : ﴿ **ليس عليكم جناح** ﴾ الآية [٥] . وقد أخرج نحوه عنه البخارى وغيره [٦] . وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو داود وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى أمامة التيمى [٧] ؛ قال : قلت لابن عمر : إنا أناس نُكْرَى فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وتأتون المعرَّف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم ؟ قلت : بلى ، فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يجبه ، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فـضلا من ربكم**﴾ فدعاه النبى ﷺ فقرأ عليه الآية وقال : « أنتم حجاج »[٨] . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ **ليس عليكم جناح أن**

---

(١) البخارى فى الحج (١٥٢٣) وأبو داود فى الحج (١٧٣٠) والنسائى فى التفسير (٥٣) والبيهقى ٤/ ٣٣٢ .
(٢) ابن جرير ٢ / ١٦٣ . (٣) ابن جرير ٢/ ١٦٢ .
(٤) عزاه الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٢١ إلى الطبرانى وقال : « وفيه أبو سعد البقال ، وهو ضعيف » .
(٥) أبو داود فى الحج (٧١٣١) وابن جرير ٢/ ١٦٥ .
(٦) البخارى فى الحج (١٧٧٠) وفى البيوع (٢٠٥٠ ، ٢٠٩٨) والطبرانى (١١٢١٣) .
(٧) فى المخطوطة : « التميمى » والصواب « التيمى » كما فى المراجع المذكورة بعد .
(٨) أبو داود فى الحج (١٧٣٣) وابن جرير فى التفسير ٢/ ١٦٤ وصححه الحاكم ١/ ٤٤٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٤/ ٣٣٣ .

تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ في مواسم الحج . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن الزبير أنه قرأها كما قرأها ابن عباس . وأخرج ابن أبي داود في المصاحف ، أن ابن مسعود قرأها كذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إنما سمي عرفات ؛ لأن جبريل كان يقول لإبراهيم عليه السلام حين رأى المناسك : عرفت [١] . وأخرج مثله ابن أبي حاتم عن ابن عمر . وأخرج مثله عبد الرزاق وابن جرير عن علي [٢] . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عن ابن عمر ؛ أنه سئل عن المشعر الحرام فسكت ، حتى إذا هبطت أيدي الرواحل بالمزدلفة قال : هذا المشعر الحرام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه ؛ أنه قال : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في سننه عنه ؛ قال : هوالجبل وما حوله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه قال: ما بين الجبلين الذى بجمع مشعر.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن ابن الزبير في قوله : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ قال: ليس هذا بعام ، هذا لأهل البلد كانوا يفيضون من جمع ، ويفيض سائر الناس من عرفات ، فأبى الله لهم ذلك فأنزل : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ [٣] . وأخرج عبد بن حميد عن سفيان في قوله : ﴿ وإن كنتم من قبله ﴾ قال: من قبل القرآن . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله :﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ قال: لمن الجاهلين .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ .

قيل : الخطاب في قوله : ﴿ ثم أفيضوا ﴾ للحمس من قريش ، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس في عرفات ؛ بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم ، فأمروا بذلك وعلى هذا تكون

(١ ، ٢) ابن جرير ٢/ ١٦٧ .

(٣) جزء من حديث طويل وقد عزاه الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٥٢ ، ٢٥٣ إلى الطبراني وقال : « وفيه سعيد بن المرزبان وقد وثق ، وفيه كلام كثير، وفيه غيره ممن لم أعرفهم » .

« ثم » لعطف جملة على جملة لا للترتيب ، وقيل : الخطاب لجميع الأمة ، والمراد بالناس : إبراهيم ، أى ثم أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم ، فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإفاضة من عرفة، ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى وهى التى من المزدلفة ، وعلى هذا تكون « ثم » على بابها ، أى للترتيب . وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبرى ، وإنما أمروا بالاستغفار ؛ لأنهم فى مساقط الرحمة ومواطن القبول ، ومظنات الإجابة . وقيل : إن المعنى: استغفروا للذى كان مخالفًا لسنة إبراهيم ، وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة .

والمراد بالمناسك : أعمال الحج ، ومنه قوله ﷺ : « خذوا عنى مناسككم »(١) ، أى فإذا فرغتم من أعمال الحج فاذكروا الله . وقيل : المراد بالمناسك : الذبائح ، وإنما قال سبحانه : ﴿ **كذكركم آباءكم** ﴾ لأن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة فيذكرون مفاخر آبائهم ، ومناقب أسلافهم ، فأمرهم الله بذكره مكان ذلك الذكر ، ويجعلونه ذكرًا مثل ذكرهم لآبائهم أو أشد من ذكرهم لآبائهم . قال الزجاج : إن قوله : ﴿ **أو أشد** ﴾ فى موضع خفض عطفًا على ذكركم ، والمعنى : أو كأشد ذكرًا ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، أى اذكروه أشد ذكرًا . وقال فى الكشاف (٢) : إنه عطف على ما أضيف إليه الذكر فى قوله : ﴿**كذكركم**﴾ كما تقول : كذكر قريش آباءهم ، أو قوم أشد منهم ذكرًا .

قوله : ﴿ **فمن الناس من يقول** ﴾ الآية ، لما أرشد سبحانه عباده إلى ذكره ، وكان الدعاء نوعًا من أنواع الذكر، جعل من يدعوه منقسمًا إلى قسمين : أحدهما : يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت إلى حظ الآخرة ، والقسم الآخر : يطلب الأمرين جميعًا ، ومفعول الفعل ، أعنى قوله: ﴿ **آتنا** ﴾ ، محذوف ، أى ما نريد أو ما نطلب ، والواو فى قوله : ﴿ **وما له** ﴾ واو الحال والجملة بعدها حالية . والخَلاق : النصيب ، أى وما لهذا الداعى فى الآخرة من نصيب، لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها ولا يطلب سواها ، وفى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا ، والذم لمن جعلها غاية رغبته ، ومعظم مقصوده .

وقد اختلف فى تفسير الحسنتين المذكورتين فى الآية ، فقيل : هما ما يطلبه الصالحون فى الدنيا من العاقبة ، وما لابد منه من الرزق ، وما يطلبونه فى الآخرة من نعيم الجنة والرضا . وقيل : المراد بحسنة الدنيا : الزوجة الحسناء ، وحسنة الآخرة : الحور العين . وقيل : حسنة الدنيا : العلم والعبادة . وقيل غير ذلك . قال القرطبى : والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين :نعيم الدنيا والآخرة ، قال : وهذا هو الصحيح ، فإن اللفظ يقتضى هذا كله ، فإن حسنة نكرة فى سياق الدعاء فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل وحسنة الآخرة

(١) الحديث عن جابر بن عبد الله : أخرجه أحمد ٣١٨/٣ ، ٣٣٧ ، ٣٦٧ ، ٣٧٨ ومسلم فى الحج (١٢٩٧/ ٣١٠) وأبو داود فى المناسك (١٩٧٠) والنسائى فى الحج ٥/ ٢٧٠ .
(٢) الكشاف ٢٤٧/١ ، ٢٤٨ .

الجنة بإجماع .[(١)] انتهى .

قوله : ﴿ وقنا ﴾ أصله : أوقنا ، حذفت الواو كما حذفت في يقى ؛ لأنها بين ياء وكسرة، مثل : يعد ، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : حذفت فرقًا بين اللازم والمتعدى. وقوله : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفريق الثانى ﴿ لهم نصيب من ﴾ جنس ﴿ ما كسبوا ﴾ من الأعمال أى من ثوابها ، ومن جملة أعمالهم الدعاء ، فما أعطاهم الله بسببه من الخير فهو مما كسبوا . وقيل : إن معنى قوله : ﴿ مما كسبوا ﴾ التعليل ، أى نصيب من الدنيا ، ولا نصيب لهم فى الآخرة ، وللآخرين نصيب من أجل ما كسبوا ، وهو بعيد . وقيل : إن قوله : ﴿أولئك ﴾ إشارة إلى الفريقين جميعًا ، أى للأولين نصيب مما كسبوا من الدنيا ، ولا نصيب لهم فى الآخرة ، وللآخرين نصيب مما كسبوا فى الدنيا ، وفى الآخرة .

وسريع من سَرُع يَسْرُع كعظُم يعظُم سرعًا وسرعة ، والحساب : مصدر كالمحاسبة ، وأصله : العدد ، يقال : حسب يحسب حسابًا ، وحسابة وحسبانا وحسبًا ، والمراد هنا : المحسوب ، سمى حسابًا تسمية للمفعول بالمصدر، والمعنى : أن حسابه لعباده فى يوم القيامة سريع مجيئه ، فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن فيحاسبهم فى حالة واحدة ، كما قال تعالى : ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان : ٢٨] .

قوله : ﴿ فى أيام معدودات ﴾ قال القرطبى: لاخلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام منى ، وهى أيام التشريق ، وهى أيام رمى الجمار . وقال الثعلبى : قال إبراهيم : الأيام المعدودات : أيام العشر ، والأيام المعلومات : أيام النحر . وكذا روى عن مكي والمهدوى . قال القرطبى : ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر بن عبد البر وغيره[(٢)] . وروى الطحاوى عن أبى يوسف أن الأيام المعلومات : أيام النحر ، قال : لقوله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ [الحج: ٢٨] وحكى الكرخى عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة : يوم الأضحى ويومان بعده . قال الكيا الطبرى : فعلى قول أبى يوسف ومحمد : لا فرق بين المعلومات والمعدودات ؛ لأن المعدودات المذكورة فى القرآن أيام التشريق بلا خلاف . وروى عن مالك أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام : يوم النحر ، وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود ، واليومان بعده معلومان معدودان ، واليوم الرابع معدود لا معلوم، وهو مروى عن ابن عمر . وقال ابن زيد : الأيام المعلومات : عشر ذى الحجة ، وأيام التشريق . والمخاطب بهذا الخطاب المذكور فى الآية ، أعنى قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ وهو الحاج وغيره كما ذهب إليه الجمهور . وقيل : هو خاص بالحاج . وقد

---

(١) القرطبى ٢/ ٨٠٥ .   (٢) القرطبى ٢/ ٨٠٩ .

اختلف أهل العلم فى وقته ، فقيل : من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق . وقيل : من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر ، وبه قال أبو حنيفة . وقيل: من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق ، وبه قال مالك ، والشافعى .

قوله : ﴿ **فمن تعجل** ﴾ الآية . اليومان هما : يوم ثانى النحر ويوم ثالثه . وقال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعى : من رمى فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج ، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج، فمعنى الآية : كل ذلك مباح ، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتمامًا وتأكيدًا ؛ لأن من العرب من كان يذم التعجل، ومنهم من كان يذم التأخر ، فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل ذلك . وقال على وابن مسعود : معنى الآية : من تعجل فقد غفر له ، ومن تأخر فقد غفر له . والآية قد دلت على أن التعجل والتأخر مباحان .

وقوله : ﴿ **لمن اتقى** ﴾ معناه : أن التخيير ورفع الإثم ثابت لمن اتقى ؛ لأن صاحب التقوى يتحرز عن كل ما يريبه : فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم . قال الأخفش : التقدير : ذلك لمن اتقى . وقيل : لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصى . وقيل : لمن اتقى قتل الصيد .وقيل : معناه : السلامة لمن اتقى . وقيل : هو متعلق بالذكر، أى الذكر لمن اتقى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : كانت قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة ، وكانون يسمون الحُمْس ، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتى عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله تعالى : ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ (١) . وأخرجا أيضا عنها موقوفا نحوه . وقد ورد فى هذا المعنى روايات عن الصحابة والتابعين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : إذا كان يوم عرفة هبط الله إلى سماء الدنيا فى الملائكة ، فيقول لهم : « عبادى آمنوا بوعدى ، وصدقوا برسلى ما جزاؤهم ؟ » فيقال : أن تغفر لهم ، فذلك قوله : ﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ (٢) وقد وردت أحاديث كثيرة فى المغفرة لأهل عرفة ، ونزول الرحمة عليهم ، وإجابة دعائهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم** ﴾ قال : حجكم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم** ﴾ قال : إهراق الدماء ، ﴿ **فاذكروا الله كذكركم آباءكم** ﴾ قال : تفاخر العرب بينها بفعال آبائها

---

(١) البخارى فى الحج (١٦٦٥) وفى التفسير (٤٥٢٠) ومسلم فى الحج (١٢١٩ / ١٥١ ، ١٥٢) والترمذى فى الحج (٨٨٤) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) ابن جرير ٢/ ١٧٠ وهو مرسل .

يوم النحر حين يفرغون ، فأمروا بذكر الله مكان ذلك، وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : كان المشركون يجلسون فى الحج فيذكرون أيام آبائهم ، وما يعدون من أنسابهم يومهم أجمع ، فأنزل الله على رسوله : ﴿ **فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا**﴾(١) . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن عبد الله بن الزبير نحوه (٢) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**كذكركم آباءكم**﴾ يقول : كما يذكر الأبناء الآباء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا أنه قيل له فى قوله : ﴿ **كذكركم آباءكم** ﴾ : إن الرجل ليأتى عليه اليوم وما يذكر أباه . فقال : إنه ليس بذاك، ولكن يقول : تغضب لله إذا عُصِىَ أشد من غضبك إذا ذُكِر والدك بسوء .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وعام خصب ، وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق**﴾ ويجىء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ فأنزل الله فيهم : ﴿ **أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب**﴾ . وأخرج الطبرانى عن عبد الله بن الزبير قال : كان الناس فى الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا فقال أحدهم : اللهم ارزقنى إبلا ، وقال الآخر : اللهم ارزقنى غنمًا ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير عن أنس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة فيدعون : اللهم اسقنا (٣) المطر ، وأعطنا على عدونا الظفر ، وردنا صالحين إلى صالحين ، فنزلت الآية (٤) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **أولئك لهم نصيب مما كسبوا** ﴾ قال : مما عملوا من الخير. وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **سريع الحساب** ﴾ قال : سريع الإحصاء.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عن على قال : الأيام المعدودات ثلاثة أيام : يوم الأضحى ، ويومان بعده ، اذبح فى أيها شئت . وأفضلها أولها . وأخرج الفريابى وابن أبى الدنيا وابن المنذر عن ابن عمر ؛ أنها أيام التشريق الثلاثة ، وفى لفظ : هذه الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ؛ قال : الأيام المعلومات : أيام العشر والأيام المعدودات : أيام التشريق . وأخرج الطبرانى عن ابن الزبير قال فى قوله :

---

(١) البيهقى فى الشعب (٣٤٩١) وقال المحقق : « إسناده فيه من لم أعرفه » .

(٢) جزء من حديث طويل وقد عزاه الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٥٢ ، ٢٥٣ إلى الطبرانى فى الكبير وقال : « وفيه سعيد بن المرزبان ، وقد وثق وفيه كلام كثير ، وفيه غيره ممن لم أعرفهم » .

(٣) فى المطبوعة : « اسقطنا » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة . (٤) ابن جرير ٢/ ١٧٤ .

﴿واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ قال : هنّ أيام التشريق ، يذكر فيهن بتسبيح ، وتهليل ، وتكبير ، وتحميد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأيام المعدوات أربعة أيام : يوم النحر ، والثلاثة أيام بعده وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر ؛ أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى ويقول : التكبير واجب ، ويتأول هذه الآية : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى سننه ، عن ابن عباس أنه كان يكبر يوم النحر ويتلو هذه الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ قال : التكبير أيام التشريق: يقول فى دبر كل صلاة : الله أكبر الله أكبر الله أكبر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثًا ثلاثًا وراء الصلوات ، ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وأخرج المروزى عن الزهرى قال : كان رسول الله ﷺ يكبر أيام التشريق كلها . وأخرج مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بِمنى حين ارتفع النهار شيئًا ، فكبّر وكبرّ الناس بتكبيره ، ثم خرج الثانية فى يومه ذلك بعد ارتفاع النهار ، فكبرَّ وكبرَّ الناس بتكبيره ، حتى بلغ تكبيرهم البيت ، ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس ، فكبرَّ وكبَّر الناس بتكبيره . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ كان يرمى الجمار ويكبر مع كل حصاة (١) . وقد روى نحو ذلك من حديث عائشة عند الحاكم وصححه (٢) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ﴾ قال : فى تعجيله ﴿ ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾ قال : فى تأخيره . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : النَّفْر فى يومين لمن اتقى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه قال : من غابت له الشمس فى اليوم الذى قال الله فيه : ﴿فمن تعجل فى يومين ﴾ وهو بمنى فلا ينفرنَّ حتى يرمى الجمار من الغد . وأخرج ابن المنذر، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لمن اتقى ﴾ قال : لمن اتقى الصيد وهو محرم .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأهل السنن ، والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن يَعْمُر الديلى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : وهو واقف بعرفة ، وأتاه الناس من أهل مكة فقالوا: يارسول الله ، كيف الحج ؟ قال : «الحج عرفات ، فمن أدرك ليلة جَمْع قبل أن يطلع الفجر ، فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام ، ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ﴾ قال : مغفوراً له ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾ قال: مغفوراً له » (٣) . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ لمن

---

(١) البخارى فى الحج (١٧٥١) . (٢) صححه الحاكم ١/٤٧٧ ، ٤٧٨ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ٤/٣٠٩ ، ٣١٠ وأبو داود فى الحج (١٩٤٩) والترمذى فى الحج (٨٨٩ ، ٨٩٠) وفى التفسير (٢٩٧٥) وقال : « حسن صحيح» ، والنسائى فى الحج ٥/٢٥٦ وابن ماجة فى الحج (٣٠١٥) والدارمى فى الحج ٢/٥٩ والحاكم ١/ ٤٦٤ وصححه الذهبى أيضا وصححه الحاكم ٢/٢٧٨ وسكت عنه الذهبى .

اتقى ﴾ قال : لمن اتقى فى حجه . قال قتادة : وذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى فى حجه غفر له ما تقدم من ذنبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية فى قوله: ﴿**فلا إثم عليه لمن اتقى**﴾ قال : ذهب إثمه كله إن اتقى فيما بقى من عمره .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾ .

لما ذكر سبحانه طائفتى المسلمين بقوله : ﴿ **فمن الناس من يقول** ﴾ عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وسبب النزول : الأخنس بن شريق كما يأتى بيانه ، قال ابن عطية : ماثبت قط أن الأخنس أسلم . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المنافقين . وقيل : إنها نزلت فى كل من أضمركفرًا أو نفاقًا أو كذبا ، وأظهر بلسانه خلافه . ومعنى قوله : ﴿ **يعجبك** ﴾ واضح . ومعنى قوله : ﴿ **ويشهد الله على ما فى قلبه** ﴾ أنه يحلف على ذلك فيقول : يشهد الله على ما فى قلبى من محبتك أو من الإسلام ، أو يقول: الله يعلم أنى أقول حقًا ، وأنى صادق فى قولى لك . وقرأ ابن محيصن : « ويشهد الله» بفتح حرف المضارعة ورفع الاسم الشريف على أنه فاعل ، والمعنى : يعلم الله منه خلاف ما قال ، ومثله قوله تعالى : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون : ١] وقراءة الجماعة أبلغ فى الذمّ ، وقرأ ابن عباس : « والله يشهد على ما فى قلبه» وقرأ أبّى ، وابن مسعود : « ويستشهد الله على مافى قلبه » وقوله: ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ متعلق بالقول ، أو بـ ﴿**يعجبك**﴾ ، فعلى الأول القول صادر فى الحياة ، وعلى الثانى الإعجاب صادر فيها .

والألدّ : الشديد الخصومة . يقال : رجل ألدّ وامرأة لدّاء ، ولددته ألدّه : إذا جادلته فغلبته ، ومنه قول الشاعر :

وألدّ ذى جَنَفٍ علىَّ كأنّما ... تَغْلِى عَداوةُ صدره فى مرْجَل

والخصام : مصدر خاصم ، قاله الخليل . وقيل : جمع خصم ، قاله الزجاج ككلب وكلاب وصعب وصعاب ، وضخم وضخام ، والمعنى : أنه أشد المخاصمين خصومة ، لكثرة جداله ، وقوة مراجعته ، وإضافة الألد إلى الخصام بمعنى : فى ، أى ألدّ فى الخصام أو جعل الخصام ألدّ على المبالغة .

وقوله : ﴿ **وإذا تولى** ﴾ أى أدبر وذهب عنك يامحمد . وقيل : إنه بمعنى ضلَّ وغضب . وقيل : إنه بمعنى الولاية ، أى إذا كان واليًا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الأرض

والسعى المذكور يحتمل أن يكون المراد به : السعى بالقدمين إلى ما هو فساد فى الأرض ، كقطع الطريق وحرب المسلمين ، ويحتمل أن يكون المراد به : العمل فى الفساد ، وإن لم يكن فيه سعى بالقدمين كالتدبير على المسلمين بما يضرهم وأعمال الحيل عليهم ، وكل عمل يعمله الإنسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعى ، وهذا هو الظاهر من هذه الآية .

وقوله : ﴿ويهلك﴾ عطف على قوله : ﴿ليفسد﴾ وفى قراءة أبىّ : « وليهلك » وقرأه قتادة بالرفع وروى عن ابن كثير : « ويهلك » بفتح الياء وضم الكاف، ورفع الحرث والنسل، وهى قراءة الحسن وابن محيصن. والمراد بالحرث: الزرع ، والنسل: الأولاد . وقيل : الحرث : النساء ، قال الزجاج : وذلك لأن النفاق يؤدى إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال وفيه هلاك الخلق . وقيل معناه : إن الظالم يفسد فى الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل . وأصل الحرث فى اللغة: الشق ومنه المحراث لما يشق به الأرض ،والحرث:كسب المال وجمعه ، وأصل النسل فى اللغة: الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر ، ومنه أيضا ﴿ إلى ربهم يَنسلون﴾ [يس : ٥١] ﴿وهم من كل حدب ينسلون ﴾ [الأنبياء : ٩٦] ، ويقال لما خرج من كل أنثى : نسل ، لخروجه منها .

وقوله : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين ، وما فيه فساد الدنيا . والعزة : القوة والغلبة ، من عَزَّه يعزه : إذا غلبه ، ومنه ﴿وعزّنى فى الخطاب ﴾ [ص : ٢٣] . وقيل : العزة هنا : الحمية ، ومنه قول الشاعر :

أخـــذَتْه عزة من جـــهْله فَتولَّى مُغْضبًا فـعل الضَّجِرْ

وقيل : العزة هنا : المنعة وشدة النفس . ومعنى ﴿ أخذته العزة بالإثم ﴾ : حملته العزة على الإثم ، من قولك أخذته بكذا : إذا حملته عليه وألزمته إياه . وقيل : أخذته العزة بما يؤثمه ، أى ارتكب الكفر للعزة ، ومنه : ﴿ بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ﴾ [ص : ٢] وقيل : الباء فى قوله : ﴿ بالإثم ﴾ بمعنى اللام ، أى أخذته العزة والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذى فى قلبه ، وهو النفاق . وقيل : الباء بمعنى : مع ، أى أخذته العزة مع الإثم .

وقوله : ﴿ فحسبه جهنم ﴾ أى كافيه معاقبة وجزاءً كما تقول للرجل : كفاك ماحل بك ، وأنت تستعظم عليه ماحل به . والمِهاد : جمع المهد ، وهو الموضع المهيأ للنوم ، ومنه مهد الصبى ، وسميت جهنم مهادًا ؛ لأنها مستقر الكفار . وقيل: المعنى : أنها بدل لهم من المهاد كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : ٢١] وقول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

ويشرى بمعنى : يبيع ، أى يبيع نفسه فى مرضاة الله كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ [يوسف : ٢٠] وأصله

الاستبدال ، ومنه قوله تعالى :﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ [التوبة : ١١١] ومنه قول الشاعر :

وَشَـرَيْـتُ بـردًا لَيـتَـنِى مِنْ بعـد بُرْدٍ كُنْـتُ هَـامَـه

ومنه قول الآخر :

يُعْطـى بـها ثَـمنًا فَيـمنعـُها وَيَقُولُ صـاحبه ألا تَشْرِى

والمرضاة : الرضا ، تقول : رضى يرضى ، ورضا ومرضاة ، ووجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه ، فكان ذلك رأفة بهم ولطفًا لهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما أصيبت السرية التى فيها عاصم ومرثد ، قال رجال من المنافقين : ياويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا فى أهلهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم ؟ فأنزل الله : **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ﴾** أى : ما يظهر من الإسلام بلسانه **﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾** أنه مخالف لما يقوله بلسانه **﴿ وهو ألد الخصام ﴾** أى ذو جدال إذا كلمك وراجعك **﴿ وإذا تولى﴾** خرج من عندك **﴿ سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾** أى لا يحب عمله ولا يرضى به **﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ﴾** الذين يشرون أنفسهم من الله بالجهاد فى سبيله ، والقيام بحقه ، حتى هلكوا على ذلك . يعنى هذه السرية(١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾** الآية . قال : نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة ، أقبل إلى النبى ﷺ المدينة وقال : جئت أريد الإسلام، ويعلم الله أنى لصادق ، فأعجب النبى ﷺ ذلك منه ، فذلك قوله : **﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾** ثم خرج من عند النبى ﷺ فمرّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحُمُر ، فأنزل الله : **﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض﴾** الآية (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ وهو ألد الخصام ﴾** قال: هوشديد الخصومة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله :**﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض﴾** قال : عمل فى الأرض **﴿ ويهلك الحرث ﴾** قال : نبات الأرض **﴿والنسل ﴾** نسل كل شىء من الحيوان و الناس والدواب .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أيضًا أنه سئل عن قوله :**﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ﴾** قال: يلى فى الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم فيحبس الله بذلك القطر من السماء ، فتهلك بحبس القطر الحرث والنسل ،**﴿ والله لا يحب الفساد ﴾** ثم قرأ مجاهد :

(١) ابن إسحاق ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٩ وابن جرير ٢/ ١٨٢ . (٢) ابن جرير ٢/ ١٨١، ١٨٢ .

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾ الآية [الروم : ٤١] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : **﴿ ويهلك الحرث والنسل ﴾** قال : الحرث : الزرع ، والنسل : نسل كل دابة . وأخرج ابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ قال : إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه : اتق الله ، فيقول : عليك بنفسك أنت تأمرنى . وأخرج ابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عن سفيان ؛ قال : قال رجل لمالك بن مِغْوَل : اتق الله ، فسقط فوضع خده على الأرض تواضعًا لله .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ولبئس المهاد ﴾** قال : بئس المنزل . وأخرجا عن مجاهد قال : بئس ما شهدوا ، لأنفسهم . وأخرج ابن مردويه عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ﷺ قالت لى قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ، والله لا يكون ذلك أبدًا ، فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى ؟ قالوا : نعم ، فدفعت إليهم مالى فخلوا عنى ، فخرجت حتى قدمت المدينة ، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فقال : « ربح البيع صهيب » مرتين ، وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية ، وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى فى الدلائل عن صهيب [(١)] نحوه . وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عن أنس قال : نزلت فى خروج صهيب إلى النبى ﷺ [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : هم المهاجرون والأنصار .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠) ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف : مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة ، وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان ، لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه وإن كان غير مؤمن بقلبه . و **﴿ السلم ﴾** بفتح السين وكسرها ، قال الكسائى : ومعناهما واحد ، وكذا عند البصريين ، وهما جميعا يقعان للإسلام والمسالمة . وقال أبو عمرو بن العلاء : إنه بالفتح للمسالمة وبالكسر للإسلام . وأنكر المبرد هذه التفرقة . وقال الجوهرى : **﴿ السلم ﴾** بفتح

(١) الطبرانى (٧٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٦٣) : « وفيه جماعة لم أعرفهم » وصححه الحاكم ٣/ ٤٠٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٢٢ ، ٥٢٣ .

(٢) صححه الحاكم ٣/ ٣٩٨ على شرط مسلم ، وسكت عنه الذهبى .

السين : الصلح ، وتكسر ويذكر ويؤنث ، وأصله من الاستسلام والانقياد . ورجح الطبرى أنه هنا بمعنى الإسلام ، ومنه قول الشاعر الكندى :

دَعَوْتُ عَشِيَرتِى لِلسِّلم لَمّا رَأَيْتُهُم تَوَلَّوا مُدْبِرينا (١)

أى : إلى الإسلام . وقرأ الأعمش « السَّلَم » بفتح السين واللام . وقد حكى البصريون فى سَلْم وسِلْم وسَلَم أنها بمعنى واحد ﴿ وكافة ﴾ حال من ﴿ السلم ﴾ أو من ضمير المؤمنين، فمعناه على الأول : لا يخرج منكم أحد ، وعلى الثانى : لا يخرج من أنواع السلم شىء بل ادخلوا فيها جميعًا ، أى ، فى خصال الإسلام وهو مشتق من قولهم : كففت ، أى منعت ، أى لا يمتنع منكم أحد من الدخول فى الإسلام. والكف : المنع ، والمراد به هنا : الجميع ، ﴿ادخلوا فى السلم كافة ﴾ أى جميعًا . وقوله : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أى لا تسلكوا الطريق التى يدعوكم إليه الشيطان ، وقد تقدم الكلام على خطوات .

قوله :﴿ زللتم ﴾ أى تنحيتم عن طريق الاستقامة ، وأصل الزلل فى القدم ، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك ، يقال : زَلَّ يَزِلُّ زلا وزللا وزلولا ، أى دحضت قدمه . وقرئ : « زَلِلْتم » بكسر اللام وهما لغتان ، والمعنى : فإن ضللتم وعرجتم عن الحق ﴿ من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ أى الحجج الواضحة والبراهين الصحيحة، أن الدخول فى الإسلام هو الحق ﴿ فاعلموا أن الله عزيز ﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حكيم ﴾ لا ينتقم إلا بحق .

قوله : ﴿ هل ينظرون ﴾ أى : ينتظرون . يقال : نظرته وانتظرته بمعنى ، والمراد : هل ينتظر التاركون للدخول فى السلم ؟ والظُّلَلَ جمع ظُلَّة وهى ما يظلك ، وقرأ قتادة ويزيد بن القعقاع : ﴿ فى ظلال ﴾ وقرأ يزيد أيضا : « والملائكة » بالجر عطفًا على الغمام أو على ظلل. قال الأخفش : ﴿ والملائكة ﴾ بالخفض بمعنى : وفى الملائكة ؛ قال : والرفع أجود . وقال الزجاج : التقدير فى ظلل من الغمام ومن الملائكة ، والمعنى : هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب فى ظلل الغمام والملائكة ؟ قال الأخفش : وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء ، فسمى الجزاء إتيانا كما سمى التخويف والتعذيب فى قصة ثمود إتيانًا ، فقال : ﴿ فـأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ [النحل : ٢٦] ، وقال فى قصة النضير : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ [الحشر : ٢] وإنما احتمل الإتيان هذا ، لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشىء ، فمعنى الآية : هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم ؟ . وقيل : المعنى : يأتيهم أمر الله وحكمه .

---

(٣) فى المطبوعة : « مدبرين » بدلا من «مدبرينا » والشاعر هو : امرؤ القيس بن عابس الكندى ، وتروى بغيره . راجع : المؤتلف والمختلف ٩ والوحشيات ٧٥ ، وكان امرؤ القيس قد وفد على رسول الله ﷺ ولم يرتد فى أيام أبى بكر وأقام على الإسلام ، وكان له فى الردة غناء وبلاء، وقد قال الأبيات فى زمن الردة وقبل البيت :

ألا أبلـــــغ أبا بـــكر رســـولا وأبلغها جميع المسلمـينـا
فلست مجـــاورًا أبدًا قبـــيــلا بما قال الرسول مكـــذبينـا
دعوت عشيرتى فى السلـم حتــى رأيتهم أغاروا مفـسدينـــا

وقيل : إن قوله : ﴿ في ظلل ﴾ بمعنى : يظلل . وقيل : المعنى : يأتيهم ببأسه في ظلل . والغمام : السحاب الرقيق الأبيض ، سمى بذلك؛ لأنه يغم ، أى يستر ، ووجه إتيان العذاب فى الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد ما فى مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع ، لأن الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب .

وقوله : ﴿ وقـضى الأمر ﴾ عطف على ﴿ يأتيهم ﴾ داخل فى حيز الانتظار ، وإنما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحقيقه فكأنه قد كان ، أوجملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة ، أى : وفرغ من الأمر الذى هو إهلاكهم . وقرأ معاذ بن جبل : «وقضاءَ الأمر » بالمصدر عطفًا على الملائكة ، وقرأ يحيى بن يَعْمُر: « وقضى الأمور » بالجمع ، وقرأ ابن عامر وحمزة ، والكسائى :« ترْجع الأمور» على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ الباقون على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ قال : يعنى مؤمنى أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم ، يقول : ادخلوا فى شرائع دين محمد ، ولا تَدَعُوا منها شيئًا ، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها . وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن هذه الآية نزلت فى ثعلبة ، وعبد الله بن سلام ، وابن يامين ، وأسد وأسيد ابنى كعب ، وسعيد(١) بن عمرو ، وقيس بن زيد ، كلهم من يهود قالوا : يارسول الله ، يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنُسْبت فيه ، وإن التوراة كتاب الله فلنقم بها الليل، فنزلت :﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة﴾(٢). وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ السلم ﴾ الطاعة لله و ﴿ كافة ﴾ يقول: جميعًا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ السلم ﴾ الإسلام . والزلل : ترك الإسلام . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ قال: فإن ظللتم من بعد ما جاءكم محمد ﷺ . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر فى هذه الآية قال : يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها : النور ، والظلمة ، والماء ، فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب (٤) .

(١) فى المخطوطة : « سعيد بن عمرو » وعند ابن جرير : « سعية بن عمرو » ، وهذا هو الصواب لأنه الأقرب إلى أسماء اليهود .
(٢) ابن جرير ٢/ ١٨٩ .
(٣) الطبرانى (٩٧٦٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٤٣ ـ ٣٤٦ : « رواه كله الطبرانى من طرق ، ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبى خالد الدالانى وهو ثقة » .
(٤) أورد ابن كثير ١/ ٤٤١ رواية ابن أبى حاتم ضمن أحاديث وذكر بأن فيها غرابة . وفى المخطوطة : الحديث عن ابن عمر ، وعند ابن كثير عن ابن عمرو .

وأخرج أبو يعلى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية . قال : يأتى الله يوم القيامة فى ظلل من السحاب قد قُطِّعَتْ طاقات [١] . وأخرج ابن جرير والديلمى عنه ؛ أن النبى ﷺ قال : « إن من الغمام طاقات يأتى الله فيها محفوفات بالملائكة وذلك قوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ » [٢]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة ﴿ فى ظلل من الغمام ﴾ قال : طاقات ، والملائكة حوله. وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ، وتأتيهم الملائكة عند الموت . وأخرج عن عكرمة فى قوله : ﴿وقضى الأمر﴾ يقول: قامت .

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ .

المأمور بالسؤال لبنى إسرائيل هو النبى ﷺ ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين ، وهو سؤال تقريع وتوبيخ . و﴿ كم ﴾ فى محل نصب بالفعل المذكور بعدها على أنها مفعول بآتى ، ويجوز أن ينتصب بفعل مقدر دل عليه المذكور أى كم آتينا آتيناهم ، وقُدِّر متأخرًا لأن لها صدر الكلام ، وهى إما استفهامية للتقرير ، أو خبرية للتكثير . و ﴿ من آية ﴾ فى موضع نصب على التمييز ، وهى البراهين التى جاء بها أنبياؤهم فى أمر محمد ﷺ . وقيل : المراد بذلك : الآيات التى جاء بها موسى ، وهى التسع ، والمراد بالنعمة هنا : ما جاءهم من الآيات. وقال ابن جرير الطبرى : النعمة هنا : الإسلام[٣]، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائنًا من كان ، فوقع منه التبديل لها ، وعدم القيام بشكرها ، ولا ينافى ذلك كون السياق فى بنى إسرائيل ، أو كونهم السبب فى النزول لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفى قوله : ﴿ فإن الله شديد العقاب﴾ من الترهيب والتخويف ما لا يقادر قدره .

قوله : ﴿ زُيِّن ﴾ مبنى للمجهول ، والمُزَيِّن هو: الشيطان ، أو الأنفس المجبولة على حب العاجلة . والمراد بالذين كفروا: رؤساء قريش ، أو كل كافر . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس : « زين » على البناء للمعلوم . قال النحاس : وهى قراءة شاذة ، لأنه لم يتقدم للفاعل ذكر ،

(١) عزاه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٥٥٤) إلى أبى يعلى ، وسكت عليه البوصيرى .
(٢) ابن جرير مرفوعا ٢/ ١٩١ والديلمى موقوفا (٨٠٠) . (٣) ابن جرير ٢/ ١٩٣ .

وقرأ ابن أبي عبلة : « زينت » وإنما خص الذين كفروا بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا ؛ لأن الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة ، والمسلم لم يفتتن به ؛ بل أقبل على الآخرة.

قوله : ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا لكونهم فقراء لا حظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر وأساطين الضلال ، وذلك لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذى يكون من ناله سعيداً رابحًا ، ومن حُرِمَه شقيًا خاسرًا ، وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة ، وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها . وحكى الأخفش أنه يقال : سخرت منه، وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، والاسم :السخرية والسّخْرِى.

ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة**﴾ والمراد بالفوقية هنا : العلو فى الدرجة ، لأنهم فى الجنة والكفار فى النار. ويحتمل أن يراد بالفوق : المكان ، لأن الجنة فى السماء ، والنار فى أسفل سافلين ، أو أن المؤمنين هم الغالبون فى الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام ، وسقوط الكفر ، وقتل أهله، وأسرهم وتشريدهم ، وضرب الجزية عليهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه فى يوم القيامة .

قوله : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ويوسع عليهم ، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب ، أى بغير تقدير ، ويحتمل أن المعنى : أن الله يوسع على بعض عباده فى الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجًا لهم ، وليس فى التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضى عنه ، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال سبحانه : ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق : ٣] .

قوله : ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ أى كانوا على دين واحد فاختلفوا ، ﴿ **فبعث الله النبيين** ﴾ واختلف فى الناس المذكورين فى هذه الآية من هم ؟ فقيل : هم بنو آدم أخرجهم الله نسمًا من ظهر آدم . وقيل : آدم وحده، وسمى ناسًا لأنه أصل النسل . وقيل : آدم وحواء . وقيل : القرون الأولى التى كانت بين آدم ونوح . وقيل : المراد نوح ومَنْ فى سفينته . وقيل: معنى الآية :كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث الله النبيين . وقيل : المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة فى خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق ، لولا أن الله مَنَّ عليهم بإرسال الرسل ، والأمة مأخوذة من قولهم أممت الشىء ، أى قصدته ، أى : مقصدهم واحد غير مختلف . قوله : ﴿ **فبعث الله النبيين** ﴾ قيل : جملتهم مائة ألف

وأربعة وعشرون ألفا ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر . وقوله : ﴿ **مبشرين ومنذرين** ﴾ بالنصب على الحال .

قوله : ﴿ **وأنزل معهم الكتاب** ﴾ أي الجنس . وقال ابن جرير الطبري : إن الألف واللام للعهد والمراد : التوراة (١) . وقوله : ﴿ **ليحكم** ﴾ مسند إلى الكتاب في قول الجمهور ، وهو مجاز مثل قوله تعالى : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية : ٢٩] وقيل : إن المعنى ليحكم كل نبي بكتابه . وقيل : ليحكم الله . والضمير في قوله : ﴿ **فيه** ﴾ الأولى راجع إلى « ما » في قوله : ﴿ **فيما اختلفوا فيه** ﴾ والضمير في قوله : ﴿ **وما اختلف فيه**﴾ يحتمل أن يعود إلى الكتاب ، ويحتمل أن يعود إلى المُنَزَّل عليه وهو محمد ﷺ ، قاله الزجاج، ويحتمل أن يعود إلى الحق ، وقوله : ﴿ **إلا الذين أوتوه** ﴾ أي أوتوا الكتاب ، أو أوتوا الحق ، أو أوتوا النبي ، أي أعطوا علمه. وقوله : ﴿ **بغيًا بينهم** ﴾ منتصب على أنه مفعول به ، أي لم يختلفوا إلا للبغي ، أي الحسد والحرص على الدنيا ، وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم ، والقبح الذي وقعوا فيه لأنهم جعلوا نزول الكتاب سببًا في شدة الخلاف .

وقوله : ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ أي فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق، وذلك بما بينه لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم . وقيل : معناه : فهدى الله أمة محمد للتصديق بجميع الكتب بخلاف مَنْ قبلهم ، فإن بعضهم كذَّب كتاب بعض ؛ وقيل : إن الله هداهم إلى الحق من القبلة . وقيل : هداهم ليوم الجمعة . وقيل : هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبته اليهود وجعلته النصارى ربًا . وقيل : المراد بالحق: الإسلام . وقال الفراء : إن في الآية قلبًا وتقديره : فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه، واختاره ابن جرير (٢) ، وضعَّفه ابن عطية . وقوله : ﴿**بإذنه** ﴾ قال الزجاج : معناه : بعلمه . قال النحاس : وهذا غلط والمعنى : بأمره .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ **سل بني إسرائيل** ﴾ قال : هم اليهود ﴿ **كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ ما ذكر الله في القرآن وما لم يذكر ، ﴿ **ومن يبدل نعمة الله** ﴾ قال : يكفرها . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : آتاهم الله آيات بينات : عصا موسى ، ويده ، وأقطعهم البحر ، وأغرق عدوهم وهم ينظرون ، وظلل من الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ﴿ **ومن يبدل نعمة الله** ﴾ يقول : من يكفر بنعمة الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ **زين للذين كفروا الحياة الدنيا** ﴾ قال : الكفار يبتغون الدنيا ويطلبونها ، ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ في طلبهم الآخرة . قال ابن جريج : لا أحسبه إلا عن عكرمة . قال : قالوا : لو كان محمد نبيًا

---

(١) ابن جرير ٢/١٩٦ .

(٢) ابن جرير ٢/١٩٨ .

لاتبعه ساداتنا وأشرافنا ، والله ما اتبعه إلا أهل الحاجة مثل ابن مسعود وأصحابه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ يقولون : ما هؤلاء على شىء ، استهزاءً وسخريا ﴿ **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ هنا كم التفاضل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : فوقهم فى الجنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : سألت ابن عباس عن هذه الآية : ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ قال: تفسيرها ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لا يحاسب الربّ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو يعلى والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ قال: على الإسلام كلهم . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عنه قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين . قال : وكذلك فى قراءة عبد الله : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبَى بن كعب ؛ قال: كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطرهم الله على الإسلام ، وأقروا له بالعبودية ، وكانوا أمة واحدة مسلمين ثم اختلفوا من بعد آدم (٢) .

وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد : كان الناس أمة واحدة قال : آدم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبىّ أنه كان يقرؤها : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين » وإن الله إنما بعث الرسل وأنزل الكتب بعد الاختلاف ﴿ **وما اختلف الذين أوتوه** ﴾ يعنى : بنى إسرائيل أوتوا الكتاب والعلم ﴿ **بغيًا بينهم** ﴾ يقول: بغيًا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة فى الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ قال : كفاراً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة فى قوله : ﴿**فهدى الله الذين آمنوا**﴾ قال : قال النبى ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، وأول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغداً لليهود ، وبعد غد للنصارى » (٣) . وهو فى الصحيح بدون ذكر الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**﴾ قال : اختلفوا فى يوم الجمعة ، فأخذ اليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة. واختلفوا فى القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق ، واليهود بيت المقدس، وهدى أمة محمد للقبلة. واختلفوا فى الصلاة، فمنهم من يركع ولا

(١) ابن جرير ٢/ ١٩٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٦ ، ٥٤٧ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .
(٢) ابن جرير ٢/ ١٩٥ .
(٣) البخارى فى الجمعة (٨٧٦) ومسلم فى الجمعة (٨٥٥/ ١٩ ــ ٢١) وابن جرير ٢/ ١٩٧ .

يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى الصيام ، فمنهم من يصوم النهار، ومنهم من يصوم من بعد الطعام ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى إبراهيم فقالت اليهود : كان يهوديًا، وقالت النصارى : كان نصرانيًا ، وجعله الله حنيفًا مسلمًا ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا فى عيسى ، فكذبت به اليهود ، وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا ، وجعلته النصارى إلهاً وولدًا ، وجعله الله روحه وكلمته ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ .

﴿ **أم** ﴾ هنا : منقطعة بمعنى : بل . وحكى بعض اللغويين أنها قد تجىء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام ، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا : التقرير والإنكار ، أى أحسبتم دخولكم الجنة واقعًا ، ولم تُمْتَحنوا بمثل ما امتُحِن به مَنْ كان قبلكم فتصبروا كما صبروا ؟ ذكر الله هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم ، تثبيتًا للمؤمنين ، وتقوية لقلوبهم، ومثل هذه الآية قوله تعالى :﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، وقوله تعالى :﴿ الم .أحَسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ [العنكبوت : ١، ٢] .

وقوله : ﴿ **مستهم** ﴾ بيان لقوله : ﴿ **مثل الذين خلوا** ﴾ ، و ﴿ **البأساء والضراء** ﴾ قد تقدم تفسيرهما . والزلزلة : شدة التحريك ، يكون فى الأشخاص وفى الأحوال ، يقال : زلزل الله الأرض زَلزلة وزِلزالا بالكسر فتزلزلت : إذا تحركت واضطربت ، فمعنى زُلزلوا :خُوِّفوا وأزعجوا إزعاجًا شديدًا . وقال الزجاج : أصل الزلزلة : نقل الشىء من مكانه ، فإذا قلت: زلزلته فمعناه :كررت زلله من مكانه .

وقوله : ﴿ **حتى يقول** ﴾ أى استمر ذلك إلى غاية هى قول الرسول ومن معه : ﴿ **متى نصر الله** ﴾ والرسول هنا قيل: هو محمد ﷺ . وقيل : هو شعياء . وقيل : هو كل رسول بعث إلى أمته ، وقرأ مجاهد ، والأعرج ، ونافع ، وابن محيصن بالرفع فى قوله : ﴿ **حتى يقول** ﴾ وقرأ غيرهم بالنصب ، فالرفع : على أنه حكاية لحال ماضية ، والنصب : بإضمار «أنْ » على أنه غاية لما قبله ، وقرأ الأعمش : « وزلزلوا ويقول الرسول » بالواو بدل حتى ، ومعنى ذلك : أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر، واستبطاء حصوله ، واستطالة تأخره ، فبشرهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ وقالت طائفة : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : حتى يقول الذين آمنوا متى

نصر الله ؟ ويقول الرسول ﷺ : ألا إن نصر الله قريب . ولا مُلْجئ لهذا التكلف ، لأن قول الرسول ومن معه : ﴿ متى نصر الله ﴾ ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه ، وليس فيه مازعموه من الشك والارتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسّف .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، أن هذه الآية نزلت فى يوم الأحزاب ، أصاب النبى ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء ، وأنه مبتليهم فيها ، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب نفوسهم فقال : ﴿مستهم البأساء والضراء ﴾ البأساء : الفتن ، والضراء : السقم ، وزلزلوا بالفتن وأذى الناس إياهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ ولما يأتكم مثل الذين خلوا ﴾ قال : أصابهم هذا يوم الأحزاب حتى قال قائلهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ [الأحزاب : ١٢] ، ولعله يعنى بقوله : حتى قال قائلهم : يعنى قائل المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿ إذجاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ [الأحزاب : ١٠ ـ ١٢] .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ .

السائلون هنا: هم المؤمنون ،سألوا عن الشيء الذى ينفقونه ما هو ؟ فأجيبوا ببيان المَصْرِف الذى يصرفون فيه ، تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد ؛ لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع فى موضعه وصادف مصرفه . وقيل : إنه قد تضمن قوله : ﴿ ما أنفقتم من خير ﴾ بيان ما ينفقونه وهو كل خير . وقيل : إنهم إنما سألوا عن وجوه البر التى ينفقون فيها ، وهو خلاف الظاهر، وقد تقدم الكلام فى الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقوله : ﴿ كتب ﴾ أى : فرض . وقد تقدم بيان معناه ، بين سبحانه أن هذا ، أى : فرض القتال عليهم ، من جملة ما امتحنوا به . والمراد بالقتال : قتال الكفار . والكُرْه بالضم : المشقة ، وبالفتح : ما أكرهت عليه ، ويجوز الضم فى معنى الفتح فيكونان لغتين ، يقال : كرهت الشيء كَرْهًا وكُرْهًا وكَراهة وكراهية وأكرهته عليه إكراهاً ، وإنما كان الجهاد كرهًا ؛ لأن

(١) ابن جرير ٢/١٩٨ ، ١٩٩ .

فيه إخراج المال ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتعرض لذهاب النفس ، وفى التعبير بالمصدر وهو قوله : ﴿ كره ﴾ مبالغة، ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما فى قولهم : الدرهم ضرب الأمير .

وقوله : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئًا ﴾ قيل : عسى هنا بمعنى قد ، وروى ذلك عن الأصم. وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب ، والمعنى : عسى أن تكرهوا الجهاد لما فيه من المشقة وهو خير لكم ، فربما تَغْلبون ، وتَظْفَرون ، وتَغْنَمون ، وتُؤْجَرون ، ومن مات مات شهيدًا ، وعسى أن تحبوا الدَّعَة وترك القتال وهو شرٌ لكم ، فربما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم، ويقصدكم إلى عقر دياركم ، فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذى كرهتم ، مع ما يفوتكم فى ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة ﴿ والله يعلم ﴾ ما فيه صلاحكم ، وفلاحكم ﴿وأنتم لا تعلمون ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ قال: يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة ، وهى النفقة ينفقها الرجل على أهله ، والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم ؟ فنزلت : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ الآية ، فذلك النفقة فى التطوع والزكاة سواء ذلك كله (٢) . وأخرج ابن المنذر أن عمرو بن الجَمُوح سأل رسول الله ﷺ : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ قال : إن الله أمر النبى ﷺ والمؤمنين بمكة بالتوحيد ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن يكفوا أيديهم عن القتال ، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض ، وأذن لهم فى القتال ، فنزلت : ﴿كتب عليكم القتال ﴾ يعنى : فرض عليكم ، وأذن لهم بعد ما نهاهم عنه ، ﴿ وهو كُرْه لكم ﴾ يعنى : القتال وهو مشقة عليكم ، ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئًا ﴾ يعنى : الجهاد : قتال المشركين وهو خير لكم ، ويجعل الله عاقبته فتحًا وغنيمة وشهادة ﴿ وعسى أن تحبوا شيئًا ﴾ يعنى : القعود عن الجهاد ﴿ وهو شر لكم ﴾ فيجعل الله عاقبته شرًا ، فلا تصيبوا ظَفَرًا ولا غنيمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : ما تقول(٣) فى قوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ أوجب(٤) الغزو على الناس من أجلها ؟ قال : لا، كتب على أولئك حينئذ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية قال : الجهاد مكتوب على كل أحد غزا أوقعد ، فالقاعد إن استُعين به أعان ، وإن استُغيث به أغاث،

(١) ابن جرير ٢/ ٢١٥ . (٢) ابن جرير ٢/ ٢٠٠ .
(٣) فى المطبوعة : « ما يقول » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٤) فى المطبوعة « أواجب » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وإن استُنْفر نَفَر ، وإن استُغْنِى عنه قعد ، وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ وهو كره لكم ﴾ قال : نسختها هذه الآية ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ [البقرة : ٢٨٥]. وأخرجه ابن جرير موصولا عن عكرمة عن ابن عباس [(١)] . وأخرج ابن المنذر والبيهقى، فى سننه ، من طريق على قال : عسى من الله واجب . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه أيضًا ، وقد ورد فى فضل الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ .

قوله : ﴿ قتال فيه ﴾ هو بدل اشتمال ، قاله سيبويه . ووجهه : أن السؤال عن الشهر لم يكن إلاباعتبار ما وقع فيه من القتال . قال الزجاج : المعنى : يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام . وأنشد سيبويه قول الشاعر :

فَمَا كَانَ قيسُ هُلْكُه هُلْكَ وَاحدٍ ... وَلَكنَّه بُنْيَانُ قَومٍ تَهدَّمَا [(٢)]

فقوله : هلكه بدل اشتمال من قيس ، وقال الفراء : هو مخفوض يعنى : قوله : ﴿ قتال فيه ﴾ على نية عن ، وقال أبو عبيدة : هو مخفوض على الجوار . قال النحاس : لا يجوز أن يعرب الشيء على الجوار فى كتاب الله ، ولا فى شىء من الكلام ، وإنما [(٣)] وقع فى شىء شاذ وهو قولهم : هذا جحر ضب خرب ، وتابع النحاس ابن عطية فى تخطئة أبى عبيدة . قال النحاس : ولا يجوز إضمار عن ، والقول فيه أنه بدل . وقرأ ابن مسعود وعكرمة: « يسألونك عن الشهر الحرام ، وعن قتال فيه » [(٤)] وقرأ الأعرج « قتال فيه » بالرفع . قال النحاس : وهو

---

(١) ابن جرير ٢/ ٢٠٠ .

(٢) البيت لعبدة بن الطيب ، رثى فيه قيس بن عاصم المنقرى وكان سيد أهل الوبر من تميم . راجع : كتاب سيبويه ١/ ٧٧ . ط . بولاق .

(٣) كذا ، وعند القرطبى : «ولا فى شىء من الكلام ، وإنما الجوار غلط وإنما وقع فى شىء شاذ » . انظر : تفسير القرطبى ٢/ ٨٥٢ .

(٤) كذا ، وعند القرطبى : وقرأ عكرمة : « يسألونك عن الشهر الحرام قتل فيه قل قتلُ » بغير ألف فيهما ، وقيل: المعنى : يسألونك عن الشهر الحرام وعن قتال فيه ؛ وهكذا قرأ ابن مسعود . انظر : تفسير القرطبى ٢/ ٨٥٢ .

غامض فى العربية ، والمعنى : يسألونك عن الشهر الحرام أجائز [١] قتال فيه [٢] . وقوله : ﴿قل قتال فيه كبير﴾ مبتدأ وخبر ، أى القتال فيه أمر كبير مستنكر ، والشهر الحرام المراد به : الجنس ، وقد كانت العرب لا تسفك فيه دمًا ، ولا تُغير على عدو ، والأشهر الحرم هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب ، ثلاثة سرد وواحد فرد .

وقوله : ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ وكفر به ﴾ معطوف على صد ، وقوله : ﴿ أكبر عند الله ﴾ خبر صد ، وما عطف عليه أى الصد عن سبيل الله ، والكفر به والصد عن المسجد الحرام ، وإخراج أهل الحرم منه ﴿ أكبر عند الله ﴾ أى أعظم إثمًا وأشد ذنبًا من القتال فى الشهر الحرام ، كذا قال المبرد وغيره ، والضمير فى قوله : ﴿ وكفر به ﴾ يعود إلى الله . وقيل : يعود إلى الحج . وقال الفراء : إن قوله : ﴿ وصد ﴾ عطف على كبير و ﴿ المسجد ﴾ عطف على الضمير فى قوله : ﴿ وكفر به ﴾ فيكون الكلام منتسقًا متصلا غير منفصل. قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله : ﴿ وكفر به ﴾ أى بالله عطف أيضًا على كبير ، ويجىء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر بالله، وهذا بيّن فساده ، ومعنى الآية على القول الأول الذى ذهب إليه الجمهور : إنكم ياكفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام ، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ، ومن الكفر بالله ، ومن الصد عن المسجد الحرام، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرمًا عند الله ، والسبب يشهد لهذا المعنى أنه المراد كما سيأتى بيانه ، فإن السؤال منهم المذكور فى هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التى بعثها النبى ﷺ .

والمراد بالفتنة هنا : الكفر ، أى كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التى بعثها النبى ﷺ . وقيل : المراد بالفتنة : الإخراج لأهل الحرم منه [٣] . وقيل : المراد بالفتنة هنا : فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا ، أى فتنة المستضعفين من المؤمنين ، أو نفس الفتنة التى الكفار عليها. وهذا أرجح من الوجهين الأولين ؛ لأن الكفر والإخراج قد سبق ذكرهما ، وأنهما مع الصد أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام .

وقوله : ﴿ ولا يزالون ﴾ ابتداء كلام يتضمن الإخبار من الله عز وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على قتالكم ، وعداوتكم ، حتى يردوكم عن الإسلام إلى الكفر إن

---

(١) فى المطبوعة : « جائز » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) المصدر السابق .
(٣) قال عبد الله بن جحش رضى الله عنه :

تَعُدُّون قَتْلا فى الحرام عظيمة ... وأعظمُ منه لو يَرَى الرُّشْدَ راشدُ
صُدُودُكُم عما يقول محمد ... وكُفر به والله راء وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَه ... لئلا يُرَى لله فى البيْتَ ساجد
فإنا وإن عيّرتمونا بقتْله ... وأرجفَ بالإسلام باغ وحاسدُ
سَقَيْنَا مِن ابنِ الحَضْرَمِىِّ رماحَنا ... بنخلَةَ لَمَّا أوقَدَ الحربَ واقدُ
دمًا وابنُ عبد الله عثمان بيننا ... يُنازعه غُلٌّ من القِد عاند

استطاعوا ذلك ، وتهيأ لهم منكم ، والتقيد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك ، وقدرتهم عليه، ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار ، والدخول فيما يريدونه من ردهم عن دينهم الذي هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم** ﴾ إلى آخر الآية . والردة : الرجوع عن الإسلام إلى الكفر ، والتقييد بقوله : ﴿ **فيمت وهو كافر** ﴾ يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر . وحبط : معناه : بطل وفسد ، ومنه الحبط : وهو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها للكلأ ، فتنتفخ أجوافها ، وربما تموت من ذلك . وفى هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام ، ومعنى قوله : ﴿ **فى الدنيا والآخرة** ﴾ أنه لا يبقى له حكم المسلمين فى الدنيا ، فلا يأخذ شيئًا مما يستحقه المسلمون ، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام ، ولا ينال شيئًا من ثواب الآخرة الذى يوجبه الإسلام ويستحقه أهله . وقد اختلف أهل العلم فى الردة هل تحبط العمل بمجردها أم لا تحبط إلا بالموت على الكفر ؟ والواجب حمل ما أطلقته الآيات فى غير هذا الموضع على ما فى هذه الآية من التقييد وقد تقدم الكلام فى معنى الخلود .

قوله : ﴿ **وهاجروا** ﴾ الهجرة معناها : الانتقال من موضع إلى موضع ، وترك الأول لإيثار الثانى ، والهجر ضد الوصل، والتهاجر : التقاطع ، والمراد بها هنا : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . والمجاهدة : استخراج الجهد ، جهد مجاهدة وجهادًا ، والجهاد والتجاهد : بذل الوسع . وقوله :﴿ **يرجون** ﴾ معناه : يطمعون ، وإنما قال :يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التي وصفهم بها ؛ لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ، ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ ، والرجاء : الأمل ، يقال : رجوت فلانًا أرجو رجاءً ورجاوة ، وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى : ﴿مالكم لا ترجون لله وقارا ﴾ [نوح : ١٣] أى لا تخافون عظمة الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى سننه بسند صحيح ، عن جُنْدُب بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه بعث رهطًا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، أو عبيدة بن الحارث ، فلما ذهب ينطلق بكى شوقًا وصبابة إلى النبى ﷺ ، فجلس ، فبعث مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتابًا ، وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال : « لا تكرهنّ أحدًا من أصحابك على المسير معك » ، فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعا وطاعة لله ولرسوله ، فخبرهم الخبر ، وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان ومضى بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام**﴾ الآية . فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر ، فأنزل الله : ﴿ **إن**

الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ إلى آخر الآية [١] . وأخرج البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية هو ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : إن المشركين صدوا رسول الله ﷺ ، وردوه عن المسجد الحرام فى شهر حرام ففتح الله على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل ، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال فى شهر حرام ، فقال الله : **﴿ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾** من القتال فيه، وأن محمدًا ﷺ بعث سرية ، فلقوا عمرو بن الحضرمى وهو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب ، وإن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى ، وكانت أول رجب ولم يشعروا ، فقتله رجل منهم ، وأخذوا ما كان معه ، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك ، فنزلت [٢] الآية . وأخرج ابن إسحاق عنه : أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمى[٣] ، وقد ورد من طرق كثيرة فى تعيين السبب مثل ما تقدم . وأخرج ابن أبى داود عن عطاء بن ميسرة قال : أحل القتال فى الشهر الحرام فى براءة فى قوله: ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] .وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان الثورى أنه سئل عن هذه الآية فقال : هذا شيء منسوخ ، ولا بأس بالقتال فى الشهر الحرام . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس ؛ أن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] . وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عمر **﴿والفتنة أكبر من القتل﴾** قال : الشرك. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد **﴿ ولا يزالون يقاتلونكم ﴾** قال : كفار قريش . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : **﴿ أولئك يرجون رحمت الله ﴾** قال : هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل رجاء ، إنه من رجا طلب ، ومن خاف هرب . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ .

السائلون فى قوله : **﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾** هم : المؤمنون ، كما سيأتى بيانه

---

(١) ابن جرير ٢/ ٢٠٤ والطبرانى (١٦٧٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٢٠١/٦ : « ورجاله ثقات » والبيهقى ١١/٩، ١٢ .

(٢) ابن جرير ٢/ ٢٠٤ .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٤٣، ٢٤٦.

عند ذكر سبب نزول الآية ، والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة ، وكل شيء غطى شيئًا فقد خمره ، ومنه «خمروا آنيتكم » [(١)] وسمي خمرًا ؛ لأنه يخمر العقل ، أي يغطيه ويستره ، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم؛ لأنه يغطي ما تحته ويستره ، يقال : منه أخمرت الأرض : كثر خمرها . قال الشاعر :

أَلا يأزَيْدُ والضَّحَاك سِيرَا فَقَدْ جَاوَزْتُما خَمْر الطَّرِيقِ

أي جاوزتما الوهد [(٢)] . وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا ؛ لأنها تركت حتى أدركت ، كما يقال : قد اختمر العجين، أي بلغ إدراكه ، وخمر الرأي ، أي ترك حتى تبين فيه الوجه. وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا ؛ لأنها تخالط العقل من المخامرة وهي المخالطة . وهذه المعاني الثلاثة متقاربة موجودة في الخمر لأنها تركت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل فخمرته، أي : سترته ، والخمر ماء العنب الذي غلا واشتد وقذف بالزَّبَد ، وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه ، كما ذهب إليه الجمهور . وقال أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة[(٣)] وجماعة من فقهاء الكوفة : ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال ، أي ما دون المسكر فيه . وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ والخلاف في ذلك مشهور، وقد أطلت الكلام على الخمر في شرحي للمنتقى فليرجع إليه [(٤)] .

والميسر مأخوذ من اليسر ، وهو وجوب الشيء لصاحبه ، يقال يسر لي كذا : إذا وجب فهو ييسر يسرًا وميسرًا ، والياسر : اللاعب بالقداح . وقد يسر ييسر . قال الشاعر :

فَأعِنهُم وَأيْسرْ كما يَسَرُوابه وإذا هُمُ نَزلُوا بضَنْكٍ فَانْزِلِ

وقال الأزهري : الميسر : الجَزُور التي كانوا يتقامرون عليه ، سمي ميسرًا ؛ لأنه يجزأ أجزاء ، فكأنه موضع التجزئة ، وكل شيء جزأته فقد يسرته ، والياسر : الجازر ، قال : وهذا الأصل في الياسر ، ثم يقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون ، لأنهم جازرون ، إذ كانوا سببًا لذلك ، وقال في الصحاح : ويسر القوم الجزور : إذا اجتزروها واقتسموا أعضاءها ، ثم قال : ويقال : يسر القوم : إذا قامروا ، ورجل ميسر وياسر بمعنى ، والجمع أيسار ، قال النابغة :

إني أتـمِّم أيْسارِي وأمْنَحهُم مَثْنَى الأيادِي وأكْسو الجفْنَة الأدَمَا

والمراد بالميسر في الآية : قمار العرب بالأزلام ، قال جماعة من السلف من الصحابة

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٠ ، ٣٣١٦) وفي الأشربة (٥٦٢٣ ، ٥٦٢٤) وفي الاستئذان (٦٢٩٥) ومسلم في الأشربة (٢٠١٢ / ٩٦ ، ٩٧) عن جابر بن عبد الله .

(٢) الوهد : الأرض المنخفضة . القاموس مادة (وهد) .

(٣) في المطبوعة : « وابن عكرمة » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) نيل الأوطار ٧/ ١٣٩ ، ١٤٠ .

والتابعين ومن بعدهم : كل شيء فيه قمار من نَرْد أوشطرنج ، أو غيرهما فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز ، والكِعَاب [1] إلا ما أبيح من الرهان فى الخيل، والقرعة فى إفراز الحقوق . وقال مالك : الميسر ميسران ميسر اللهو ، وميسر القمار فمن ميسر اللهو : النرد ، والشطرنج، والملاهى كلها ، وميسر القمار : ما يتخاطر الناس عليه ، وكل ما قومر به فهو ميسر ، وسيأتى البحث مطولا فى هذا فى سورة المائدة عند قوله : ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ [المائدة : ٩٠] .

قوله : ﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ يعنى : الخمر والميسر ، فإثم الخمر أى : إثم تعاطيها ، ينشأ من فساد عقل مستعملها ، فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة والمشاتمة ، وقول الفحش والزور ، وتعطيل الصلوات ، وسائر ما يجب عليه ، وأما إثم الميسر أى : إثم تعاطيه ، فما ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال فى غير طائل ، والعداوة وإيحاش الصدور. وأما منافع الخمر . فربح التجارة فيها . وقيل : ما يصدر عنها من الطرب والنشاط وقوة القلب وثبات الجنان، وإصلاح المعدة ، وقوة الباءة، وقد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك قال:

وَإِذَا شَـــرِبْـتُ فَإِنَّنِــــى ... رَبُّ الخَوَرْنَق والسَّدِير [2]
وإِذَا صَـحَـوْتُ فَإِنـــنِى ... رَبُّ الشـــوَيـهةِ وَالبعـيـر

وقال آخر :

ونشـــربها فتـتـركنـا ملوكًا ... وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء [3]

وقال من أشار إلى ما فيها من المفاسد والمصالح :

رأيتُ الخمرَ صـَالحة وَفـيها ... خِصَالُ تُفْسِدُ الرَّجُلَ الحَليما
فَلا واللَّه أشْرَبُها صَحِيحًا ... وَلا أشـــفَى بِها أبدًا سَقِيما
وَلا أعْطِى بها ثمـنـاً حَيَاتِى ... وَلا أدْعُولَهــــا أبَدًا نَدِيمـا [4]

---

(١) الكعاب : بكسر الكاف جمع : كعب وهو : فَصُّ النرد . اللسان ٧١٩/١ .

(٢) الخَوَرْنَق : المجلس الذى يأكل الملك فيه ويشرب . والسدير : النهر ، ويقال إن الخورنق والسدير : قصران فارسيان . انظر: اللسان ٣٥٥/٤ مادة « سدر » ، ٧٩/١٠ مادة « خرنق » .

(٣) الشاعر هو حسان بن ثابت . راجع : ديوانه :٤ ، والكامل ٧٤/١ . ونهنهه عن الشيء : زجره عنه وكفه ومنعه ، والمعنى : لا نخاف لقاء العدو. اللسان مادة « نوه » ١٣ / ٥٥٠ .

(٤) قائل هذا : قيس بن عاصم المنقرى وكان شرابا لها فى الجاهلية ثم حرمها على نفسه ، وكان سبب ذلك : أنه غمز عُكنة (ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا) ابنته وهو سكران و سَبَّ أبويه ، ورأى القمر فتكلم بشيء ، وأعطى الخمار كثيرًا من ماله ؛ فلما أفاق أخبر بذلك فحرّمها على نفسه ، وقال الشعر . قال أبو عمر : وروى ابن الأعرابى عن المفضل الضبى أن هذه الأبيات لأبى محجن الثقفى قالها فى تركه الخمر ، وهو القائل رضى الله عنه :

إذا مُتّ فادفنى إلى جنــــب كَرْمة ... تروّى عظامى بعد موتى عروقُهـا
ولا تدفِنــــنّى بالـــفلاة فإننــى ... أخاف إذا مـَـامِتّ أ لا أذوقُـهـا

ومنافع الميسر : مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب ولا كد ، وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح ، وسهام الميسر أحد عشر ، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ : الأول: الفَذ بفتح الفاء بعدها معجمة ، وفيه علامة واحدة وله نصيب وعليه نصيب . الثاني : التوأم بفتح المثناة الفوقية وسكون الواو وفتح الهمزة ، وفيه علامتان ، وله وعليه نصيبان . الثالث : الرقيب وفيه ثلاث علامات ، وله وعليه ثلاثة أنصباء. والرابع : الحلس ؛ بمهملتين ، الأولى مكسورة واللام ساكنة ، وفيه أربع علامات ، وله وعليه أربعة أنصباء ، الخامس : النافر بالنون والفاء المهملة ، ويقال: النافس بالسين المهملة مكان الراء ، وفيه خمس علامات ، وله وعليه خمسة أنصباء . السادس : المُسْبَل ، بضم الميم، وسكون المهملة ، وفتح الباء الموحدة، وفيه ست علامات ، وله وعليه ستة أنصباء . السابع : المعلَّى بضم الميم ، وفتح المهملة ، وتشديد اللام المفتوحة ، وفيه سبع علامات ، وله وعليه سبعة أنصباء وهو أكثر السهام حظًا ، وأعلاها قدراً، فجملة ذلك ثمانية وعشرون فردًا .

الجزور تجعل ثمانية وعشرين جزءًا ، هكذا قال الأصمعي ، وبقي من السهام أربعة أغفالا لا فروض لها ، وهي : المنيح ، بفتح الميم وكسر النون وسكون الياء التحتية وبعدها مهملة ، والسفيح ، بفتح المهملة وكسر الفاء وسكون الياء التحتية بعدها مهملة ، والوغد ، بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهملة ، والضعف بالمعجمة بعدها مهملة ثم فاء ، وإنما أدخلوا هذه الأربعة التي لا فروض لها بين ذوات الفروض لتكثر السهام على الذي يجيلها ، ويضرب بها ، فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلا ، وقد كان المجيل للسهام يلتحف بثوب ، ويجثو على ركبتيه، ويخرج رأسه من الثوب ، ثم يدخل يده في الربابة بكسر المهملة وبعدها باء موحدة ، وبعد الألف باء موحدة أيضًا ، وهي الخريطة التي يجعل فيها السهام فيخرج منها باسم كل رجل سهمًا ، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه ، ومن خرج له سهم لا فرض له لم يأخذ شيئًا ، وغرم قيمة الجزور ، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء . وقد قال ابن عطية : إن الأصمعي أخطأ في قوله : إن الجزور تقسم على ثمانية وعشرين جزءًا، وقال : إنما تقسم على عشرة أجزاء .

قوله تعالى : ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ أخبر سبحانه بأن الخمر والميسر وإن كان فيهما نفع فالإثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع ، لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر ، فإنه ينشأ عنه من الشرور مالا يأتي عليه الحصر وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر ، واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء ، وهتك الحرم . وقرأ حمزة والكسائي : « كثير » بالمثلثة . وقرأ الباقون بالباء الموحدة. وقرأ أبي : « وإثمهما أقرب من نفعها » . قوله : ﴿ **قل العفو** ﴾ قرأه الجمهور بالنصب ، وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع ، واختلف فيه عن ابن كثير ، وبالرفع قرأ الحسن وقتادة . قال النحاس: إن جعلت « ذا » بمعنى الذي كان الاختيار الرفع على معنى : الذي ينفقون هو العفو، وإن جعلت « ما » و « ذا » شيئاً واحدًا كان الاختيار النصب على معنى: قل : ينفقون العفو ،

والعفو : ما سهل وتيسر ولم يشق على القلب ، والمعنى : أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم ؛ وقيل : هو ما فضل من نفقة العيال . وقال جمهور العلماء : هو نفقات التطوع ، وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة ، وقيل : هى محكمة ، وفى المال حق سوى الزكاة . قوله : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات** ﴾ أى فى أمر النفقة .

وقوله :﴿ **فى الدنيا والآخرة** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **تتفكرون** ﴾ أى تتفكرون فى أمرهما فتحبسون من أموالكم ما تصلحون به معايش دنياكم ، وتنفقون الباقى فى الوجوه المقربة إلى الآخرة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى كذلك يبين الله لكم الآيات فى الدنيا والآخرة، لعلكم تتفكرون فى الدنيا وزوالها ، وفى الآخرة وبقائها ، فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة . وقيل : يجوز أن يكون إشارة إلى قوله : ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ أى لتتفكروا فى أمر الدنيا والآخرة وليس هذا بجيد : قوله : ﴿ **ويسألونك عن اليتامى** ﴾ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ﴾ [النساء : ١٠] وقد كان ضاق على الأولياء الأمر ـ كما سيأتى بيانه إن شاء الله ـ فنزلت هذه الآية ، والمراد بالإصلاح هنا : مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم ، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم وفى ذلك دليـل على جواز التصرف فى أموال الأيتام من الأولياء والأوصياء بالبيع والمضاربة والإجارة ونحو ذلك .

قوله : ﴿ **وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ اختلف فى تفسير المخالطة لهم ، فقال أبو عبيدة : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ، ولا يجد بدًا من خلطه بعياله ، فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحرى فيجعله مع نفقة أهله ، وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان ، فدلت هذه الآية على الرخصة، وهى ناسخة لما قبلها . وقيل : المراد بالمخالطة : المعاشرة للأيتام . وقيل : المراد بها : المصاهرة لهم ، والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص ، بل تشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية . وقوله : ﴿**فإخوانكم**﴾ خبر المبتدأ محذوف أى فهم إخوانكم فى الدين . وفى قوله : ﴿ **والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ تحذير للأولياء ، أى لا يخفى على الله من ذلك شيء فهو يجازى كل أحد بعمله ، من أصلح فلنفسه ، ومن أفسد فعلى نفسه . وقوله : ﴿ **لأعنَتَكُم** ﴾ أى ولو شاء لجعل ذلك شاقًا عليكم ومتعبا لكم ، وأوقعكم فيما فيه الحرج والمشقة . وقيل: العنت هنا معناه : الهلاك . قاله أبو عبيدة ، وأصل العنت المشقة [1]. وقال ابن الأنبارى : أصل العنت التشديد ثم نقل إلى معنى الهلاك . وقوله : ﴿ **عزيز** ﴾ أى : لا يمتنع عليه شيء ، لأنه غالب لا يُغَالَب ﴿ **حكيم** ﴾ يتصرف فى ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته ، وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم .

---

(١) قال تعالى: ﴿ **عزيز عليه ما عنتم** ﴾ [التوبة : ١٢٨] يعنى : ما يشق عليكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ذلك لمن خشى العنت منكم** ﴾ [النساء : ٢٥].

وقد أخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والضياء فى المختارة عن عمر أنه قال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا فإنها تذهب بالمال والعقل ، فنزلت : ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر**﴾ يعنى : هذه الآية ، فدعى فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت التى فى سورة النساء : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ [النساء : ٤٣] ، فكان منادى [١] رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة نادى: «ألا يَقْربنَّ الصلاة سكران » ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿ **فهل أنتم منتهون**﴾ [المائدة : ٩١] قال عمر : انتهينا انتهينا [٢] وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : كنا نشرب الخمر فأنزلت : ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ الآية ، فقلنا : نشرب منها ما ينفعنا فنزلت فى المائدة : ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية ، فقالوا : اللهم انتهينا . وأخرج أبو عبيد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر؛ قال : الميسر القمار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس مثله . قال : كان الرجل فى الجاهلية يخاطر عن أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله.

وقوله ﴿ **قل فيهما إثم كبير** ﴾ يعنى ما ينقص من الدين عند شربها ﴿ **ومنافع للناس** ﴾ يقول : فيما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوا ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ يقول : ما يذهب من الدين فالإثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوها ، فأنزل الله بعد ذلك : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : ٤٣] الآية . فكانوا لا يشربونها عند الصلاة ، فإذا صلوا العشاء شربوها ، ثم إن ناسًا من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضًا ، وتكلموا بما لم يرض الله من القول ، فأنزل الله : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب ﴾ الآية [المائدة: ٩٠] ، فحرم الخمر ونهى عنها ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : منافعهما قبل التحريم ، وإثمهما بعد ما حرمهما.

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عنه ؛ أن نفرًا من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله أتوا النبى ﷺ فقالوا : إنا لا ندرى ماهذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا ، فما ننفق منها ؟ فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾ وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به ، ولا ما يأكل حتى يُتصدَّق عليه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : العفو هو : ما لا يتبين فى أموالكم ، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة . وأخرج

(١) فى المطبوعة : « ينادى » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ١/ ٥٣ وابن أبى شيبة ـ مختصرًا جدًا ـ فى الأشربة (٣١٢٤) وأبو داود فى الأشربة (٣٦٧٠) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٩) والنسائى فى الأشربة ٨/ ٢٨٦ وابن جرير فى التفسير ٧/ ٢٢ وصححه الحاكم ٤/ ١٤٣ ووافقه الذهبى .

سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : ﴿ **العفو** ﴾ ما يفضل عن أهلك وفي لفظ قال : الفضل عن العيال . وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ **قل العفو** ﴾ قال : لم تفرض فيه فريضة معلومة ثم قال : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ثم نزلت في الفرائض بعد ذلك مسماة . وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » [(١)] وثبت نحوه في الصحيح مرفوعًا من حديث حكيم بن حزام [(٢)] . وفي الباب أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لعلكم تتفكرون. في الدنيا والآخرة** ﴾ قال: يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها . وأخرج أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه وصححه ، والبيهقي في سننه عنه قال : لما أنزل الله : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ [الأنعام: ١٥٢، والإسراء : ٣٤] و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ﴾ [النساء: ١٠] الآية، انطلق من كان عنده يتيم يعزل طعامه عن طعامه ، وشرابه عن شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد فيرمى به ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ **ويسألونك عن اليتامى** ﴾ الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم[(٣)] . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وإن تخالطوهم** ﴾ قال: المخالطة : أن يشرب من لبنك وتشرب من لبنه ، ويأكل من قصعتك وتأكل من قصعته ، ويأكل من ثمرتك وتأكل من ثمرته ، ﴿ **والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ قال : يعلم من يتعمد أكل مال اليتيم ، ومن يتحرج منه ولا يألو عن إصلاحه ﴿ **ولو شاء الله لأعنتكم** ﴾ يقول : لو شاء ما أحل لكم ما أعنتكم مما لا تتعمدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿**لأعنتكم** ﴾ يقول : لأحرجكم وضيق عليكم ، ولكنه وسع ويسر وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ **ولو شاء الله لأعنتكم** ﴾ قال: ولو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾ .

(١) البخاري في الزكاة (١٤٢٦) وفي النفقات (٥٣٥٥ ، ٥٣٥٦) .
(٢) البخاري في الزكاة (١٤٢٧) ومسلم في الزكاة (١٠٣٤ / ٩٥) .
(٣) أبو داود في الوصايا (٢٨٧١) والنسائي في الوصايا ٦/ ٢٥٦ وابن جرير في التفسير ٢/ ٢١٧ والبيهقي في الوصايا ٦/ ٢٨٤ .

قوله : ﴿ ولا تنكحوا ﴾ قرأه الجمهور بفتح التاء ، وقرئ في الشواذ بضمها ؛ قيل : والمعنى كأن المتزوج لها أنكحها من نفسها . وفى هذه الآية النهى عن نكاح المشركات ، فقيل: المراد بالمشركات : الوثنيات ، وقيل : إنها تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية ، فقالت طائفة : إن الله حرم نكاح المشركات فيها ، والكتابيات من الجملة ، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم . وهذا محكى عن ابن عباس ومالك وسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن عمر والأوزاعى ، وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة ، وأنه يحرم نكاح الكتابيات والمشركات ، وهذا أحد قولى الشافعى وبه قال جماعة من أهل العلم . ويجاب عن قولهم : إن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول ما نزل، وسورة المائدة من آخر ما نزل ، والقول الأول هو الراجح ، وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن وطاوس وعكرمة والشعبى والضحاك ، كما حكاه النحاس والقرطبى . وقد حكاه ابن المنذر ، عن المذكورين ، وزاد عمر بن الخطاب ، وقال : لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك . وقال بعض أهل العلم : إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ [البقرة : ١٠٥] وقال : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ [البينة: ١] وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم ، فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا .

قوله : ﴿ ولأمة مؤمنة ﴾ أى ولرقيقة مؤمنة وقيل : المراد بالأمة : الحرة ؛ لأن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه ، والأول أولى ، لما سيأتى لأنه الظاهر من اللفظ ، ولأنه أبلغ ، فإن تفضيل الأمة الرقيقة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالأولى. وقوله : ﴿ ولو أعجبتكم ﴾ أى ولو أعجبتكم المشركة من جهة كونها ذات جمال أو مال أو شرف ، وهذه الجملة حالية . قوله : ﴿ ولا تنكحوا المشركين ﴾ أى لا تزوجوهم بالمؤمنات ﴿ حتى يؤمنوا ﴾ . قال القرطبى : وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه؛ لما فى ذلك من الغضاضة على الإسلام ، وأجمع القراء على ضم التاء من ﴿ تنكحوا﴾. وقوله : ﴿ ولعبد ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قوله : ﴿ ولأمة ﴾ والترجيح كالترجيح . قوله : ﴿أولئك ﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات ﴿ يدعون إلى النار ﴾ أى إلى الأعمال الموجبة للنار. فكان فى مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لايجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه ﴿ والله يدعوإلى الجنة ﴾ أى إلى الأعمال الموجبة للجنة . وقيل : المراد : أن أولياء الله هم المؤمنون يدعون إلى الجنة . وقوله : ﴿بإذنه ﴾ أى بأمره ، قاله الزجاج . وقيل : بتيسيره وتوفيقه، قاله صاحب الكشاف (١) .

(١) الكشاف للزمخشرى ١/ ٢٦٤ .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن مقاتل بن حيان قال : نزلت هذه الآية فى أبى مَرْثد الغَنَوى ، استأذن النبى ﷺ فى عَنَاقٍ أن يتزوجها ، وكانت ذات حظ من جمال ، وهى مشركة ، وأبو مرثد يومئذ مسلم ، فقال : يارسول الله ، إنها تعجبنى ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات** ﴾ [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات** ﴾ قال : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب ، فقال : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ﴾ [المائدة : ٥] وقد روى هذا المعنى عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات** ﴾ يعنى : أهل الأوثان ، وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن مجاهد نحوه . وكذلك أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه أيضًا . وأخرج عبد ابن حميد عن النخعى نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب ، وتأول ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ﴾ . وأخرج البخارى عنه قال: حرم الله نكاح المشركات على المسلمين ، ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى ، [٢] وهو عبد من عباد الله [٣] . وأخرج الواحدى وابن عساكر من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾ قال : نزلت فى عبد الله بن رواحة وكانت له أمة سوداء، وأنه غضب عليها فلطمها ، ثم إنه فزع فأتى النبى ﷺ فأخبره خبرها ، فقال النبى ﷺ : «ماهى ياعبد الله ؟ » قال : تصوم وتصلى ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : «ياعبد الله ، هذه مؤمنة » فقال عبد الله : فوالذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أمَة ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، وينكحوهم رغبة فى أحسابهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **ولأمة مؤمنة خير من مشركة** ﴾ [٤] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى مثله [٥]. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله : ﴿ **ولأمة مؤمنة** ﴾ قال : بلغنا أنها كانت أمة لحذيفة سوداء فأعتقها وتزوجها حذيفة [٦]، وأخرج ابن جرير عن أبى جعفر محمد بْن على قال النكاح بولى فى كتاب الله ، ثم قرأ : ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا** ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ

(١) الواحدى فى أسباب النزول ٣٩ .
(٢) المخطوطة : « أو » ، والصواب ما أثبتناه من البخارى . (٣) البخارى فى الطلاق (٥٢٨٥) .
(٤) الواحدى فى أسباب النزول ٣٩ . (٥) ابن جرير٢/ ٢٢٣ .
(٦) ذكر ابن بشكوال فى غوامض الأسماء المهملة ٢/ ٧٧١ (٢٧٥) عن أبى بكر محمد بن الوليد الفهرسى الطرسوسى أنه ذكر ذلك فى اختصاره لتفسير القرآن ، وسماها خنساء .

(٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **المحيض** ﴾ هو : الحيض ، وهو مصدر يقال : حاضت المرأة حيضًا ومحيضًا فهى حائض وحائضة كذا قال الفراء ، وأنشد :

كحائضة يُزْنَى بها غير طاهرِ

ونساء حُيَّض وحوائض ، والحِيضة بالكسر : المرة الواحدة . وقيل : الاسم . وقيل : المحيض عبارة عن الزمان والمكان، وهو مجاز فيهما . وقال ابن جرير الطبرى : المحيض اسم الحيض ، ومثله قول رؤبة :

إليك أشكو شدة المعيش (١)

أى العيش ، وأصل هذه الكلمة من السيلان والانفجار . يقال : حاض السيل وفاض ، وحاضت الشجرة ، أى سالت رطوبتها ، ومنه الحيض أى الحوض لأن الماء يحوض إليه ، أى يسيل . وقوله : ﴿ **قل هو أذى**﴾ أى قل : هو شيء يتأذى به أى برائحته . والأذى : كناية عن القذر ويطلق على القول المكروه ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ [البقرة : ٢٦٤] ومنه قوله تعالى : ﴿ ودع أذاهم ﴾ [الأحزاب : ٤٨] . وقوله : ﴿**فاعتزلوا النساء فى المحيض** ﴾ أى فاجتنبوهن فى زمان المحيض إن حمل المحيض على المصدر ، أو فى محل الحيض إن حمل على الاسم ، والمراد من هذا الاعتزال : ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملامسة ، فإن ذلك جائز ؛ بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج ، أو بما دون الإزار على خلاف فى ذلك . وأماما يروى عن ابن عباس ، وعبيد السلمانى أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت فليس ذلك بشيء ، ولا خلاف بين أهل العلم فى تحريم وطء الحائض ، وهو معلوم من ضرورة الدين .

قوله : ﴿ **ولا تقربوهن حتى يطهرن** ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم فى رواية حفص عنه بسكون الطاء وضم الهاء وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر: « يطَّهرن » بتشديد الطاء وفتحها وفتح الهاء وتشديدها . وفى مصحف أبّى وابن مسعود : « ويتطهرن » . والطهر: انقطاع الحيض ، والتطهر: الاغتسال. وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم ، فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها ، حتى تتطهر بالماء ، وقال محمد بن كعب القرظى ويحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها ، وإن لم تغتسل . وقال مجاهد وعكرمة : إن انقطاع الدم يحلها لزوجها ؛ ولكن تتوضأ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضى عشرة أيام جاز له أن

---

(١) وعجز البيت : ومَرَّ أعوامٍ نتفن ريشى . راجع : ديوانه ٧٨ من قصيدة يمدح فيها الحارث بن سليم .

يطأها قبل الغسل ، وإن كان انقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة . وقد رجح ابن جرير الطبرى قراءة التشديد[(١)] ، والأولى أن يقال : إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان : إحداهما : انقطاع الدم ، والأخرى : التطهر منه ، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى ، فيجب المصير إليها . وقد دل أن الغاية الأخرى هى المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فإذا تطهرن ﴾ فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر، لا مجرد انقطاع الدم . وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين ، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين .

قوله : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ أى فجامعوهن ، وكنى عنه بالإتيان ، والمراد : أنهم يجامعونهن فى المأتى الذى أباحه الله ، وهو القُبُل ، قيل : و ﴿ من حيث ﴾ بمعنى : فى حيث كما فى قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ [الجمعة :٩] أى فى يوم الجمعة ، وقوله : ﴿ ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [فاطر : ٤٠] أى فى الأرض . وقيل: إن المعنى : من الوجه الذى أذن الله لكم فيه ، أى من غير صوم ، وإحرام ، واعتكاف . وقيل : إن المعنى : من قبل الطهر لا من قبل الحيض . وقيل : من قبل الحلال لا من قبل الزنا . قوله: ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ قيل : المراد: التوابون من الذنوب ، والمتطهرون من الجنابة والأحداث . وقيل : التوابون من إتيان النساء فى أدبارهن . وقيل: من إتيانهن فى الحيض ، والأول أظهر .

قوله : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا فى الفرج الذى هو القبل خاصة ؛ إذ هو مزدرع الذرية ، كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها الغسل ، بما يلقى فى الأرض من البذور التى منها النبات ، بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه ، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى، أعنى قوله :﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ . وقوله : ﴿ أنى شئتم ﴾ أى من أى جهة شئتم ، من خلف ، وقدام ، وباركة ، ومستلقية ، ومضطجعة ، إذا كان فى موضع الحرث وأنشد ثعلب :

إنما الأرحـام أرضـو ... ن لنـا محتـرثـات

فعلينـا الـزرع فيهـا ... وعلى الله الـنبات

وإنما عبر سبحانه بقوله: ﴿ أنى ﴾ لكونها أعم فى اللغة من« كيف» « وأين » « ومتى » . وأما سيبويه ففسرها هنا بـ«كيف » وقد ذهب الخلف والسلف من الصحابة ، والتابعين ، والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية، وأن إتيان الزوجة فى دبرها حرام . وروى عن سعيد بن

---

(١) ابن جرير ٢/ ٢٢٧ .

المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى [١] وعبد الملك بن الماجشون [٢] أنه يجوز ذلك ، حكاه عنه القرطبى فى تفسيره قال : وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له يسمى : «كتاب السر» وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب ، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر ووقع هذا القول فى العُتْبِيَّة [٣] . وذكر ابن العربى أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كبيرة من الصحابة ، والتابعين ، وإلى مالك من روايات كثيرة فى كتاب : « جماع النسوان وأحكام القرآن » .[٤] وقال الطحاوى : روى أصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، قال: ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى شك فى أنه حلال ، يعنى وطء المرأة فى دبرها ثم قرأ : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ ، ثم قال : فأى شيء أبين من هذا[٥]؟ وقد روى الحاكم والدارقطنى والخطيب البغدادى عن مالك من طرق ما يقتضى إباحة ذلك . وفى أسانيدها ضعف . وقد روى الطحاوى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم [٦] ؛ أنه سمع الشافعى يقول : ما صح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شيء ، والقياس أنه حلال . وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب . قال ابن الصباغ : كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعى فى ذلك ، فإن الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه .

قوله : ﴿ وقدِّموا لأنفسكم ﴾ أى خيرا كما فى قوله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من

(١) هو : أبو حمزة ، وقيل : أبو عبد الله محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى المدنى من حلفاء الأوس وكان أبوه من سبى قريظة سكن الكوفة ثم المدينة ، قيل : ولد فى حياة النبى ﷺ ولم يصح ذلك ، وقال يعقوب بن شيبة : ولد فى آخر خلافة على سنة أربعين ولم يسمع من العباس ، وروى عن كثير من الصحابة ، كما كان يرسل كثيرا ويروى عمن لم يلقهم ، كما روى عنه خلق كثير ، قال ابن سعد : كان ثقة عالما كثير الحديث ورعا، وقال العجلى : مدنى تابعى ثقة رجل صالح عالم بالقرآن ، توفى سنة ١٠٨ وقيل : ١١٧ وقيل : ١١٩ وقيل : ١٢٠ انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٥ ـ ٦٨ اللباب ٣/ ٢٦ ، ٢٧ تهذيب التهذيب ٩/ ٤٢٠ .

(٢) هو : أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمى بالولاء ، فقيه ما لكى فصيح ، دارت عليه الفتيا فى زمانه ، وعلى أبيه قبله أضر فى آخر عمره ، وتوفى سنة ٢١٢ هـ ، وقيل : ٢١٣ هـ ، وقيل : ٢١٤ هـ . انظر: الأعلام ٤/ ١٦٠ .

(٣) العتبية هو : كتاب دوّنه محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى المتوفى ٢٥٥ هـ ، وهو من أمهات كتب الفقه المالكى جمع فيه مسائل استخرجها من كتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب .

(٤) تفسير القرطبى ٢/ ٩٠١ .

(٥) قال أصحاب أبى حنيفة : إنه عندنا ولائط الذكر سواء فى الحكم ، ولأن القذر والأذى فى موضع النجو (ما يخرج من البطن من ريح وغائط) أكثر من دم الحيض ، فكان أشنع . وأما صِمَام البول فغير صمام الرحم ، وقال ابن العربى : قد حرم الله الفرج حال الحيض لأجل النجاسة العارضة فأولى أن يحرم الدبر لأجل النجاسة اللازمة . وقال مالك لابن وهب وعلى بن زياد لما أخبراه أن ناسًا بمصر يتحدثون عنه أنه يجيز ذلك؛ فنفر من ذلك ؛ وبادر إلى تكذيب الناقل فقال : كذبوا علىّ ، كذبوا علىّ ، كذبوا علىّ .

(٦) هو : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، المصرى ولد سنة ١٨٢ هـ ، وكان فقيه عصره انتهت إليه الرياسة فى العلم بمصر ، كان مالكى المذهب ، ولازم الإمام الشافعى ، ثم رجع إلى مذهب مالك وله كتب كثيرة ، وحمل فى فتنة القول بخلق القرآن إلى بغداد ، فلم يجب لما طلبوه، فَرُدَّ إلى مصر وتوفى بها سنة ٢٦٨هـ . انظر : الأعلام ٦/ ٢٢٣ .

خير تجدوه عند الله ﴾ [البقرة : ١١٠] وقيل : ابتغاء الولد . وقيل : التزويج بالعفائف . وقيل : غير ذلك . وقوله : ﴿ **واتقوا الله**﴾ فيه تحذير عن الوقوع فى شىء من المحرمات . وفى قوله : ﴿ **واعلموا أنكم ملاقوه** ﴾ مبالغة فى التحذير . وفى قوله : ﴿ **وبشر المؤمنين**﴾ تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر .

وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس ؛ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ، ولم يشاربوها ، ولم يجامعوها في البيوت ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله : ﴿**ويسألونك عن المحيض** ﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ : «جامعوهن فى البيوت ، واصنعوا كل شىء إلا النكاح » (١) . وأخرج النسائى والبزار عن جابر قال : إن اليهود قالوا : من أتى المرأة فى دبرها كان ولده أحول ، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذلك ، وعن إتيان الحائض ، فنزلت (٢) . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : الأذى : الدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فاعتزلوا النساء** ﴾ يقول : اعتزلوا نكاح فروجهن . وفى قوله: ﴿ **ولا تقربوهن حتى يطهرن** ﴾ قال : من الدم. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : حتى ينقطع الدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإذا تطهرن** ﴾ قال : بالماء . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وعطاء أنهما قالا : إذا رأت الطهر فلا بأس أن تستطيب بالماء ، ويأتيها قبل أن تغتسل.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ قال : يعنى أن يأتيها طاهرًا غير حائض. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ قال : من حيث أمركم أن تعتزلوهن . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس ؛ قال : من حيث نهاكم أن تأتوهن وهن حيَض ، يعنى : من قبل الفرج . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الحنفية قال : ﴿ **فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ من قبل التزويج. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿**يحب التوابين** ﴾ قال : من الذنوب ﴿**ويحب المتطهرين** ﴾ قال : بالماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال : التوبة من الذنوب والتطهير من الشرك .

وأخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن جابر ؛ قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى

---

(١) أحمد ٣/ ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٤٦ ومسلم فى الحيض (٣٠٢ / ١٦) وأبو داود فى الطهارة (٢٥٨) وفى النكاح (٢١٦٥) والترمذى فى التفسير (٢٩٧٧) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الحيض ١/ ١٨٧ وابن ماجة فى الطهارة (٦٤٣) والدارمى فى الطهارة ١/ ٢٤٥.

(٢) النسائي فى التفسير (٥٨) باختصار السؤال عن إتيان الحائض ، والبزار جـ ٣ (٢١٩٢) .

الرجل امرأته من خلفها فى قبلها جاء الولد أحول فنزلت : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ إن شاء محتبية وإن شاء غير محتبية [(١)] ، غير أن ذلك فى صمام واحد[(٢)] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن مُرَّة الهَمْدانى نحوه [(٣)] . وقد روى هذا عن جماعة من السلف وصرحوا أنه السبب ، ومن الراوين لذلك : عبد الله بن عمر عند ابن عساكر ، وأم سلمة عند عبد الرزاق ، وعبد بن حميد والبيهقى فى الشعب [(٤)] . وأخرجه أيضًا عنها ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ؛ أنها سألت رسول الله ﷺ بعض نساء الأنصار عن التحبية ، فتلا عليها الآية وقال : « صمامًا واحدا». والصمام: السبيل [(٥)] . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى ، والضياء فى المختارة ، وغيرهم عن ابن عباس ؛ قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، هلكت . قال :« ما أهلكك ؟ » . قال : حوّلت رحلى الليلة . فلم يرد عليه شيئًا ، فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية : ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ يقول : أقبل وأدبر واتق الدُّبُرَ والحيضة[(٦)] . وأخرج أحمد عن ابن عباس مرفوعًا أن هذه الآية نزلت فى أناس من الأنصار أتوا النبى ﷺ فسألوه فقال : «ائتها على كل حال ، إذا كان فى الفرج » [(٧)] .

وأخرج الدارمى وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عنه قال : إن ابن عمر [(٨)] ـ والله يغفر له ـ أوهم ، إنما كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن ، مع هذا الحى من اليهود وهم أهل الكتاب ، كانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف [(٩)] ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، وكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بفعلهم ، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحًا [(١٠)] ، ويتلذذون منهن مقبلات ، ومدبرات ، ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يفعل بها ذلك فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى ،

---

(١) كذا « محتبية » وعند مسلم : « مجبية » أى : مكبوبة على وجهها .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٢٨) ومسلم فى : النكاح (١٤٣٥ ، ١١٧ ــ ١١٩) وأبو داود فى النكاح (٢١٦٣) والترمذى فى التفسير (٢٩٧٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير(٥٨) وابن ماجة فى : النكاح (١٩٢٥) والدارمى فى الصلاة ١/ ٢٥٨، ٢٥٩ وفى النكاح ٢/ ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٣١ وابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٣٢ .

(٤) عبد الرزاق فى : الجامع (٢٠٩٥٩) والبيهقى فى الشعب (٤٩٩٢) وإسناده حسن .

(٥) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٣٠، ٢٣١ وأحمد ٦/ ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١٨ والترمذى فى التفسير (٢٩٧٩) وقال: « حسن » ، والدارمى فى الصلاة ١/ ٢٥٦.

(٦) أحمد ١/ ٢٩٧ والترمذى فى التفسير (٢٩٨٠) وقال : « حسن غريب » ، والنسائى فى التفسير (٦٠) .

(٧) أحمد ١/ ٢٦٨ وقال الهيثمى (٦/ ٣٢٢) : « وفيه رشدين بن سعد وهو ضعيف » .

(٨) فى المطبوعة : « قال ابن عمر» والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٩) الحَرْفُ من كل شىء : طرفه وجانبه . (١٠) شرح جاريته إذا وطئها نائمة على قفاها .

فسرى أمرهما ، فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية : ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ يقول : مقبلات ، ومدبرات، بعد أن يكون فى الفرج وإن كان من قبل دبرها فى قبلها ، زاد الطبرانى: قال ابن عباس : قال ابن عمر فى دبرها فأوهم والله يغفر له ، وإنما كان هذا الحديث على هذا[(١)] . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والدارمى والبيهقى عن ابن مسعود ؛ أنه قال: محاشُّ النساء عليكم حرام .

وأخرج الشافعى فى الأم ، وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجة وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه من طريق خزيمة بن ثابت ؛ أن سائلا سأل رسول الله ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهن ، فقال : « حلال » أو « لا بأس» ، فلما ولى دعاه فقال : « كيف قلت ؟ أمن دبرها فى قبلها فنعم ، أم من دبرها فى دبرها فلا ، إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى أدبارهن » [(٢)] . وأخرج ابن عدى والدارقطنى عن جابر بن عبد الله نحوه [(٣)]. وأخرج ابن أبى شيبة ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن حبان عن ابن عباس ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة فى الدبر » [(٤)] . وأخرج أحمد ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمرو؛ أن النبى ﷺ قال: «الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى»[(٥)]. وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة؛ قال : قال رسول ﷺ : «ملعون من أتى امرأته فى دبرها »[(٦)]. وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والنسائى والبيهقى عنه قال : « إتيان الرجال والنساء فى أدبارهن كفر » .وقد رواه ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعًا . قال ابن كثير : والموقوف أصح [(٧)] .

وقد ورد النهى عن ذلك من طرق منها : عند البزار عن عمر مرفوعًا [(٨)] ، وعند النسائى عنه موقوفًا ، وهو أصح ، وعند ابن عدى فى الكامل عن ابن مسعود مرفوعًا ، وعند ابن عدى أيضا عن عقبة بن عامر مرفوعًا [(٩)] ، وعند أحمد عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق

---

(١) أبو داود فى النكاح (٢١٦٤) وابن جرير فى : التفسير ٢/ ٢٣٤ والطبرانى فى الكبير (١١٠٩٧) وصححه الحاكم ٢/ ١٩٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وسكت عنه ٢/ ٢٧٩ ورمز الذهبى لصحته على شرط مسلم، والبيهقى فى النكاح ٧/ ١٩٥ .

(٢) الشافعى فى النكاح ٥/ ٩٤ ، وابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٥٣ ، وأحمد ٥/ ٢١٣ ـ٢١٥ والنسائى فى عشرة النساء وابن ماجة فى النكاح (١٩٢٤) والبيهقى فى النكاح ٧/ ١٩٦ .

(٣) ابن عدى فى الكامل ٤/ ٣٤٧ والدارقطنى فى النكاح (١٦٠) .

(٤) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٥٢ والترمذى فى الرضاع (١١٦٥) وقال : « حسن غريب » ، والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء ٩٠٠١ ، ٩٠٠٢ ، وابن حبان فى النكاح (٤١٩١) .

(٥) أحمد ٢/ ١٨٢ ، ٢١٠ وقال الهيثمى (٤/ ٣٠١) « ورجال أحمد رجال الصحيح » ، والبيهقى فى النكاح ٧/ ١٩٨ .

(٦) أحمد ٢/ ٤٤ ، ٤٧٩ ، وأبو داود فى النكاح (٢١٦٢) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء ٩٠١٥ .

(٧) ابن كثير فى التفسير ١/ ٤٦٨ .

(٨) البزار فى النكاح (١٤٥٦) .

(٩) ابن عدى فى الكامل ٤/ ١٤٨ .

مرفوعًا [١] ، وعند ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه عن على بن طلق مرفوعًا [٢] وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة ، والتابعين ، مرفوعًا وموقوفًا . وأخرج البخارى وغيره عن نافع قال : قرأت ذات يوم : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ فقال ابن عمر : أتدرى فيم أنزلت هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن [٣]. وأخرج البخارى عن ابن عمر أنه قال : ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ قال : فى الدبر . وقد روى هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة . وفى رواية عند الدارقطنى أنه قال له نافع : من دبرها فى قبلها ؟ فقال لا : إلا فى دبرها . وأخرج ابن راهويه وأبو يعلى وابن جرير والطحاوى ، وابن مردويه بإسناد حسن عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رجلا أصاب امرأته فى دبرها ، فأنكر الناس عليه ذلك فنزلت الآية [٤] . وأخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن على قال : كُنْتُ [٥] عند محمد بن كعب القرظى فجاءه رجل فقال : ما تقول فى إتيان المرأة فى دبرها ؟ فقال : هذا شيخ من قريش فسله ، يعنى عبد الله بن على بن السائب ، فقال : قذر ولو كان حلالا .

وقد رُوِى القول بحل ذلك عن محمد بن المنكدر عند ابن جرير ، وعن ابن أبى مليكة عند ابن جرير أيضًا ، وعن مالك بن أنس عند ابن جرير والخطيب وغيرهما ، وعن الشافعى عند الطحاوى والحاكم والخطيب . وقد قدمنا مثل هذا . وليس فى أقوال هؤلاء حجة البتة ، ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم ، فإنهم لم يأتوا بدليل يدل على الجواز ، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ فى فهمه ، وقد فسرها لنا رسول الله ﷺ ، وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ فى فهمه كائنًا من كان ، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلا أتى امرأته فى دبرها فليس فى هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك ، ومن زعم ذلك فقد أخطأ بل الذى تدل عليه الآية أن ذلك حرام ، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة فى تحليله ، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتى تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه ، وقد روى عن ابن عباس أنه فسر هذه الآية بغير ما تقدم فقال : معناها : إن شئتم فاعزلوا ، وإن شئتم فلا تعزلوا ، وروى ذلك عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والضياء فى المختارة . وروى نحو ذلك عن ابن عمر أخرجه ابن أبى شيبة ، وعن سعيد بن

---

(١) أحمد لم أعثر عليه فى المسند ؛ فإن كان موجوداً فهو منقطع ؛ لأن يزيد بن طلق متأخر ، وقد قال عنه ابن حبان فى : الثقات (٥/٥٤٣) : «يروى المراسيل » .

(٢) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤/٢٥١ وأحمد فى مسند على بن أبى طالب ١/ ٨٦ وقال ابن كثير (١/ ٤٦٦) : «والصحيح على بن طلق » بينما رجح الشيخ شاكر (٦٥٥) أنه على بن أبى طالب ، والترمذى فى الرضاع (١١٦٤) وقال : « حسن » .

(٣) البخارى فى : التفسير (٤٥٢٦) .

(٤) أبو يعلى (١١٠٣) وقال الهيثمى (٦/ ٣٢٢) عن شيخ أبى يعلى : « إنه ضعيف كذاب » ، قلت وقد توبع عليه كما فى رواية الطحاوى ، وباقى رجال إسناد أبى يعلى ثقات ، وابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٣٤ عن عطاء ابن يسار مرسلا والطحاوى فى شرح معانى الآثار ، فى النكاح ٣/ ٤٠ .

(٥) فى المطبوعة : « كتب » والصحيح : «كنت » كما أثبتناه من المخطوطة .

المسيب أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾ .

العرضة : النصبة ، قاله الجوهرى ، يقال : جعلت فلانًا عرضة لكذا ، أى نصبة . وقيل: العرضة من الشدة والقوة ، ومنه قولهم للمرأة : عرضة للنكاح : إذا صلحت له وقويت عليه ، ولفلان عرضة ، أى قوة ، ومنه قول كعب بن زهير :

مِنْ كُلِّ نَضَّاحةِ الذِّفْرَى إذَا عَرِقَتْ ... عُرْضَتُها طَامِسُ الأعْلامِ مَجْهُولُ (١)

ومثله قول أوس بن حجر :

وَأَدْمَاءُ مِثل العجل يَوْمًا عَرَضتُها ... لِرَحلى وَفيها هِزَّة وَتَقَاذُفُ

ويطلق العرضة على الهمة ، ومنه قول الشاعر :

هم الأنصار عرضتها اللقاء (٢) .

أى همتها ، ويقال : فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه ، فعلى المعنى الذى ذكره الجوهرى أن العرضة : النصبة كالقبضة والغرفة يكون ذلك اسمًا لما تعرضه دون الشىء ، أى تجعله حاجزًا له ومانعًا منه ، أى لا تجعلوا الله حاجزًا ومانعًا لما حلفتم عليه ، وذلك لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم أو إحسان إلى الغير أو إصلاح بين الناس بألا يفعل ذلك ، ثم يمتنع من فعله معللا لذلك الامتناع بأنه قد حلف ألا يفعله، وهذا المعنى هو الذى ذكره الجمهور فى تفسير الآية ، ينهاهم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم ، أى حاجزًا لما حلفوا عليه ومانعًا منه. وسمى المحلوف عليه يمينًا لتلبسه باليمين، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ **أن تبروا** ﴾ عطف بيان ﴿ **لأيمانكم** ﴾ أى لا تجعلوا الله مانعًا للأيمان التى هى بركم ، وتقواكم ، وإصلاحكم بين الناس ، ويتعلق قوله :﴿ **لأيمانكم** ﴾ بقوله: ﴿ **لا تجعلوا** ﴾ أى لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعًا وحاجزًا ، ويجوز أن يتعلق بعرضة ، أى لا تجعلوه شيئًا معترضًا بينكم وبين البر وما بعده . وعلى المعنى الثانى ، وهو أن العرضة : الشدة والقوة ، يكون معنى الآية : لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم ، وعدة فى الامتناع من الخير ، ولا يصح تفسير الآية على

---

(١) ديوانه ٩ من قصيدته المشهورة . ونضح الرجل بالعرق نضحا : فض به حتى سال سيلانا ، ونضّاحة : شديدة النضح . والدفرى : الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن ، وهو من الناس والحيوان سواء ، والطامس : الدارس الذى امحى أثره . والأعلام : أعلام الطريق ، تبنى فى جادة الطريق ليستدل بها عليه إذا ضل الضال، وأرض مجهولة إذا كان لا أعلام فيها ولا جبال فلا يهتدى فيها السائر .

(٢) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت رضى الله عنه ؛ وصدره :

وقال الله قد أعددت جندًا

المعنى الثالث ، وهو تفسير العرضة بالهمة ، وأما على المعنى الرابع ، وهو من قولهم : فلان لا يزال عرضة للناس ، أى يقعون فيه ، فيكون معنى الآية عليه : ولا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم ، فتبذلونه بكثرة الحلف به ، ومنه : ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ [المائدة : ٨٩] ، وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ [القلم : ١٠] ، وقد كانت العرب تتمادح بقلة الأيمان حتى قال قائلهم :

قَلِيلُ الألايَا حَافِظُ ليمينه وإن سبقت منه الألية بَرّت

وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ أن تبروا ﴾ علة للنهى ، أى لا تجعلوا الله معرضًا لأيمانكم إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا؛ لأن من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث ويفجر فى يمينه . وقد قيل فى تفسير الآية أقوال هى راجعة إلى هذه الوجوه التى ذكرناها ، فمن ذلك : قول الزجاج : معنى الآية : أن يكون الرجل إذا طُلِب منه الفعل الذى فيه خير اعتلّ بالله ، فقال : علىّ يمين وهو لم يحلف . وقيل : معناها : لا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح . وقيل : معناها : إذا حلفتم على ألا تصلوا أرحامكم ، ولا تتصدقوا ، ولا تصلحوا ، وعلى أشباه ذلك من أبواب البر فكفروا عن اليمين . وقد قيل : إن قوله : ﴿ أن تبروا ﴾ مبتدأ خبره محذوف ، أى البر والتقوى والإصلاح أولى . قاله الزجاج ، وقيل : إنه منصوب أى لا تمنعكم اليمين بالله البر والتقوى والإصلاح . وروى ذلك عن الزجاج أيضا . وقيل : معناه : ألا تبروا ، فحذف لا ، كقوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٧٦] أى لا تضلوا . قاله ابن جرير الطبرى . وقيل : هو فى موضع جر على قول الخليل والكسائى والتقدير : فى ﴿ أن تبروا﴾. وقوله: ﴿ سميع ﴾ أى لأقوال العباد ﴿ عليم ﴾ بما يصدر منهم . واللغو : مصدر لغا يلغوا لغواً ، ولغى يلغى لغيًا : إذا أتى بما لا يحتاج إليه فى الكلام أو بما لا خير فيه ، وهو الساقط الذى لا يعتد به ، فاللغو من اليمين: هو الساقط الذى لا يعتد به ، ومنه اللغو فى الدية ، وهو الساقط الذى لا يعتد به من أولاد الإبل ، قال جرير :

ويذهب بينها المرى لغوا كما ألغيت فى الدية الحوارا

وقال آخر :

وَرَب أسْرَابِ حَجيجٍ كُظَّم عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ (١)

أى لا يتكلمن بالساقط والرفث ، ومعنى الآية : لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم ، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم ، أى اقترفته بالقصد إليه ، وهى اليمين المعقودة ومثله قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ [المائدة : ٨٩] . ومثله قول الشاعر :

---

(١) الأسراب : جمع سرب ، وهو القطيع أو الطائفة من القطا ، والظباء ، والشاة ، والبقر ، والنساء .اللسان ٤٦٣/١ . والرفث : الإفحاش فى المنطق، وقيل : الجماع . اللسان ١٥٣/٢ .

ولستَ بمأخوذ بِلَغْوٍ يقولُه إذا لم تَعَمَّد عاقداتِ العزائمِ

وقد اختلف أهل العلم فى تفسير اللغو ، فذهب ابن عباس ، وعائشة ، وجمهور العلماء أيضًا: أنه قول الرجل : لا والله ، وبلى والله فى حديثه وكلامه ، غير معتقد لليمين ولا مريد لها . قال المروزى : هذا معنى لغو اليمين الذى اتفق عليه عامة العلماء . وقال أبو هريرة وجماعة من السلف : هو أن يحلف الرجل على شىء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو ماظنه ، وإلى هذا ذهبت الحنفية والزيدية ، وبه قال مالك فى الموطأ وروى عن ابن عباس أنه قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان ، وبه قال طاوس ومكحول ، وروى عن مالك . وقيل : إن اللغو هو يمين المعصية ، قاله سعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن الزبير ، وأخوه عروة كالذى يقسم ليشربَّن الخمر أو ليقطعنَّ الرحم . وقيل : لغو اليمين : هو دعاء الرجل على نفسه كأن يقول : أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله ، هو يهودى ، هو مشرك قاله زيد ابن أسلم . وقال مجاهد : لغو اليمين : أن يتبايع الرجلان ، فيقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا . وقال الضحاك: لغو اليمين : هى المكفرة ، أى إذا كفرت سقطت وصارت لغواً . والراجح القول الأول لمطابقته للمعنى اللغوى ، ولدلالة الأدلة عليه كما سيأتى . وقوله : ﴿**والله غفور حليم**﴾ أى حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد أوقصد ، وآخذكم بما تعمدته قلوبكم ، وتكلمت به ألسنتكم ، وتلك هى اليمين المعقودة المقصودة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم** ﴾ يقول : لا تجعلنى عرضة ليمينك ألا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه هو : أن يحلف الرجل ألا يكلِّم قرابته ، أولا يتصدق ، ويكون بين رجلين مغاضبة فيحلف لا يصلح بينهما ويقول : قد حلفت ، قال : يكفر عن يمينه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : جاء رجل إلى عائشة فقال : إنى نذرت إن كلمت فلانا فإن كل مملوك لى عتيق ، وكل مال لى ستر للبيت ، فقالت : لا تجعل مملوكيك عتقاء ولا تجعل مالك ستر للبيت ، فإن الله يقول : ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم**﴾ فكفر عن يمينك . وقد ورد أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر ، فى شأن مسطح ، رواه ابن جرير عن ابن جريج[1]، والقصة مشهورة .

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما ؛ أن النبى ﷺ قال : « من

---

(١) ابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٣٩ .

حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » (١) ، وثبت أيضا فى الصحيحين وغيرهما ؛ أن النبى ﷺ قال: « والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرتُ عن يمينى» (٢). وأخرج ابن ماجة ، وابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :« من حلف على يمين قطيعة رحم ، أو معصية ، فبِرّه أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » (٣) . وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا نذْر ولا يمينَ فيما لا يملك ابن آدم ، ولا فى معصية الله، ولا فى قطيعة رحم » (٤) . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن عمر مرفوعًا مثله (٥) . وأخرج النسائى وابن ماجة عن مالك الجُشَمى قال : قلت: يارسول الله ، يأتينى ابن عمى فأحلف ألا أعطيه ولا أصله ، فقال : « كفر عن يمينك»(٦) .

وأخرج مالك فى الموطأ ، وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وغيرهم عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية: ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله (٧) . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والبيهقى من طريق عطاء بن أبى رباح ؛ أنه سئل عن اللغو فى اليمين فقال : قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ قال : « هو كلام الرجل فى بيته : كلا والله ، وبلى والله » (٨) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عائشة ؛ أنها قالت فى تفسير الآية : إن اللغو هو القوم يتدارؤون (٩) فى الأمر لا تعقد عليه قلوبهم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن

---

(١) الحديث عن عبد الرحمن بن سَمُرة ، أخرجه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٢٢) وفى الكفارات (٦٧٢٢) وفى الأحكام (٧١٤٦ ــ ٧١٤٧) ، ومسلم فى : الأيمان (١٦٥٢/١٩) والترمذى فى : النذور والأيمان (١٥٢٩) وقال : « حسن صحيح » والحديث عن أبى هريرة ، أخرجه مسلم فى الأيمان (١٦٥٠ / ١١ ــ١٤) والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال : « حسن صحيح » . والحديث عن عدى بن حاتم ، أخرجه مسلم فى الأيمان (١٦٥١/ ١٥ ــ ١٨) .

(٢) الحديث عن أبى موسى الأشعرى أخرجه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٢٣) ومسلم فى الأيمان (١٦٤٩ / ٧ ــ ١٠) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٧٦) .

(٣) ابن ماجة فى الكفارات (٢١١٠) وفى الزوائد « وفى إسناده حارثة بن أبى الرجال متفق على تضعيفه » ، وابن جرير ٢/ ٢٤٥ .

(٤) أحمد ٢/ ٢١٢ وأبو داود فى :الأيمان والنذور (٣٢٧٤) وابن جرير ٢/ ٢٤٥ ولم أعثر فى اللغوفى سنن ابن ماجة. ولاعزاه المزى إليه فى التحفة (٨٧٥٤) والذى عند ابن ماجة بهذا الإسناد هو قوله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فإن تركها كفارتها » أخرجه فى الكفارات (٢١١١) .

(٥) أبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٧٢) وصححه الحاكم ٤/ ٣٠٠ ووافقه الذهبى .

(٦) النسائى فى الأيمان والنذور ٧/ ١١ وابن ماجة فى الكفارات (٢١٠٩) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة ٣٦١/١ .

(٧) مالك فى النذور والأيمان (٩) بدون ذكر أن ذلك سبب النزول ، وعبد الرزاق فى الأيمان والنذور (١٥٩٥١) تفسيرا لمعنى اللغو فى الآية ، والبخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٦٣) .

(٨) أبو داود فى الأيمان والنذور (٣٣٥٤) ، وابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٤١ ، وابن حبان فى الأيمان (٤٣١٨) والبيهقى فى الأيمان ١٠/ ٤٩ .

(٩) فى المخطوطة : « يتدارون » وليست خطأ فهى على عادة الإمام الشوكانى فى تليين الهمزات .

عائشة ؛ أنها قالت : هو اللغو فى المزاحة والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله، فذاك لا كفارة فيه ، وإنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : مرَّ رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون [١] ومع النبى ﷺ رجل من أصحابه ، فرمى رجل من القوم ، فقال : أصبت والله، وأخطأت والله ؟ فقال الذى مع النبى ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ؟ فقال: «كلا ، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ، ولا عقوبة » [٢].

وقد روى أبو الشيخ عن عائشة وابن عباس وابن عمر وابن عمرو ؛أن اللغو : لا والله ، وبلى والله ، أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس ؛ أنه قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : لغو اليمين حلف الإنسان على الشيء يظن أنه الذى حلف عليه فإذا هو غير ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عن عائشة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : أنها أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : هو الرجل يحلف على المعصية . وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن النخعى : هو أن يحلف الرجل على الشيء ثم ينسى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **والله غفور** ﴾ يعنى: إذ تجاوز عن اليمين التى حلف عليها ﴿ **حليم** ﴾ إذ لم يجعل فيها الكفارة .

﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يؤلون** ﴾ أى يحلفون : والمصدر إيلاء وألية وألوة ، وقرأ ابن عباس : « الذين آلوا » يقال : آلى يؤالى إيلاء ، ويأتلى بالتاء ائتلاء ، أى حلف ، ومنه : ﴿ ولا يأتل ألوا الفضل منكم ﴾ [النور : ٢٢] ، ومنه :قليل الألايا حافظ لِيَمينه.[٣] البيت .

وقد اختلف أهل العلم فى الإيلاء ، فقال الجمهور : إن الإيلاء هو : أن يحلف ألا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن موليًا ، وكانت عندهم يمينًا محضًا ، وبهذا قال مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور. وقال الثورى والكوفيون : الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعدا ، وهو قول عطاء . وروى عن ابن عباس أنه لا يكون موليًا حتى يحلف ألا يمسها أبدًا . وقالت طائفة : إذا حلف ألا يقرب امرأته يومًا أو أقل أو أكثر ثم لم يطأ أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء . وبه قال ابن مسعود والنخعى وابن أبى ليلى

(١) ينتضلون : يرتمون بالسهام ، يقال : انتضل القوم وتناضلوا أى رَمَوْا للسبق ، وناضله : راماه . (النهاية فى غريب الحديث ٥/ ٧٢) .

(٢) ابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٤٥ .

(٣) وعجز البيت :

وإنْ سَبَقَتْ مِنْه الاليّة بَرَّت

والحكم وحماد بن أبى سليمان وقتادة وإسحاق . قال ابن المنذر : وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم .

قوله : ﴿ من نسائهم ﴾ يشمل الحرائر والإماء ، إذا كن زوجات ، وكذلك يدخل تحت قوله : ﴿ للذين يؤلون﴾ العبد إذا حلف من زوجته ، وبه قال الشافعى وأحمد وأبو ثور ، قالوا: وإيلاؤه كالحر ، وقال مالك والزهرى وعطاء وأبو حنيفة وإسحاق : إن أجله شهران . وقال الشافعى : إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة . والتربص: التأنى والتأخر ، قال الشاعر :

تَرَبَّصْ بِها رَيْبَ المَنُون لَعَلَّها ... تطلَّق يَوْمًا أو يموتُ حَلِيلُها

وقت الله سبحانه بهذه المدة دفعًا للضرار عن الزوجة ، وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة والسنتين ، وأكثر من ذلك ، يقصدون بذلك ضرار النساء ، وقد قيل : إن الأربعة الأشهر هى التى لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها (١) . قوله : ﴿ فإن فاؤوا ﴾ أى رجعوا ، ومنه : ﴿حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ [الحجرات : ٩] أى ترجع ومنه قيل للظل بعد الزوال : فىء ؛ لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب ، يقال : فاء يفىء فيئه وفيوءًا ، وإنه لسريع الفيئة ، أى الرجعة . ومنه قول الشاعر :

فَفاءَتْ وَلَمَ تقض الَّذى أَقْبَلتْ له ... وَمِنْ حَاجَة الإنسان مَالَيْس قَاضيا (٢)

قال ابن المنذر : وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن الفىء : الجماع لمن لا عذر له ، فإن كان له عذر مرض أوسجن فهى امرأته ، فإذا زال العذر فأبى الوطء فرق بينهما إن كانت المدة قد انقضت ، قاله مالك . وقالت طائفة: إذا أشهد على فيئته بقلبه فى حال العذر أجزأه ، وبه قال الحسن وعكرمة والنخعى والأوزاعى وأحمد بن حنبل . وقد أوجب الجمهور على المولى إذا فاء بجماع امرأته الكفارة . وقال الحسن و النخعى : لا كفارة عليه. قوله : ﴿ وإن عزموا الطلاق﴾ العزم : العقد على الشىء ، ويقال : عزم يعزم عزمًا وعزيمة وعزمانًا واعتزم اعتزاما ، فمعنى عزموا الطلاق : عقدوا عليه قلوبهم. والطلاق : من طلقت المرأة تطلق ـ كنصر ينصر . طلاقًا فهى طالق وطالقة أيضًا، ويجوز طلقت بضم اللام، مثل عظم يعظم، وأنكره الأخفش .

---

(١) يقال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف ليلة بالمدينة فسمع امرأة تنشد وتقول :

ألا طال هذا الليل واسود جانبه ... وأرقنى أن لا حبيب ألاعبه
فوالله لولا الله لا شىء غيره ... لزعزع من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى والحياء يكفنى ... وإكرام بعلى أن تنال مراكبه

فلما كان من الغد استدعى عمر تلك المرأة ، وقال لها : أين زوجك ؟ فقالت : بعثت به إلى العراق ، فاستدعى نساء فسألهن عن المرأة كم مقدار ما تصبر عن زوجها ؟ فقلن : شهرين ، ويقل صبرها فى ثلاثة أشهر ، وينفذ فى أربعة أشهر ، فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر، فإذا مضت استرد الغازين ووجه بقوم آخرين . تفسير القرطبى ٢/ ٩١٦ .

(٢) الشاعر : هو سحيم ، عبد بنى الحسحاس . راجع : ديوانه ١٩ .

والطلاق : حل عقد النكاح ، وفى ذلك دليل على أنها لا تطلق بمضى أربعة أشهر كما قال مالك ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة ، وأيضًا فإنه قال : ﴿ سميع ﴾ وسميع يقتضى مسموعًا بعد المضى . وقال أبوحنيفة: ﴿سميع ﴾ لإيلائه ﴿عليم﴾ بعزمه الذى دل عليه مضى أربعة أشهر .

واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم ، وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ ، ولا دليل آخر ومعناها ظاهر واضح ، وهو أن الله جعل الأجل لمن يولىَ ـ أى يحلف ـ من امرأته أربعة أشهر، ثم قال مخبرا العبادة بحكم هذا المُولى بعد هذه المدة ، ﴿ فإن فاؤوا ﴾ رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ أى لا يؤاخذهم بتلك اليمين ، بل يغفر لهم ويرحمهم . ﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ أى : وقع العزم منهم عليه والقصد له ﴿ فإن الله سميع ﴾ لذلك منهم ﴿ عليم ﴾ به فهذا معنى الآية الذى لا شك فيه ولا شبهة ، فمن حلف ألا يطأ امرأته ولم يقيد بمدة أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله أربعة أشهر ، فإذا مضت فهو بالخيار ، إما رجع إلى نكاح امرأته ، وكانت زوجته بعد مضى المدة كما كانت زوجته قبلها ، أو طلقها ، وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء ، وأما إذا وقت بدون أربعة أشهر فإن أراد أن يبر فى يمينه اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضى المدة، كما فعل رسول الله ﷺ حين آلى من نسائه شهرًا فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر ، وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضى تلك المدة التى هى دون أربعة أشهر حنث فى يمينه، ولزمته الكفارة ، وكان ممتثلا لما صح عنه ﷺ من قوله : « من حلف على شىء فرأى غيره خيرًا منه فليأت الذى هو خير منه وليكفر عن يمينه » (١) .

وقد أخرج الشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : الإيلاء أن يحلف أنه لا يجامعها أبدًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عنه فى قوله: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ قال : هو الرجل يحلف لامرأته بالله لا ينكحها ، فتتربص أربعة أشهر فإن هو نكحها كفَّر عن يمينه ، فإن مضت أربعة أشهر قبل أن ينكحها خيَّره السلطان إما أن يفىء وإما أن يعزم ، فيطلق كما قال الله سبحانه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبرانى والبيهقى عنه ؛ قال كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك ، فوقّت الله لهم أربعة أشهر ، فإن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء . وأخرج عبد بن حميد عن على قال : الإيلاء إيلاءان : إيلاء فى الغضب ، وإيلاء فى الرضا فأما الإيلاء فى الغضب : فإذا مضت أربعة أشهر فقد بانت منه ، وأما ما كان فى الرضا فلا يؤاخذ به ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لا إيلاء إلا بغضب . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن المنذر عن أبى بن كعب ؛ أنه قرأ : « فإن فاؤوا فيهن فإن الله

(١) سبق تخريجه .

غفور رحيم » .

وأخرج عبد بن حميد عن على قال : الفيء : الجماع وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال :الفيء : الإشهاد . وأخرج عبد الرزاق عنه قال : الفيء : الجماع ، فإن كان له عذر أجزأه أن يفيء بلسانه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حال بينه وبينها مرض أو سفر أو حبس أو شيء يعذر به فإشهاده فيء . وللسلف فى الفيء أقوال مختلفة ، فينبغى الرجوع إلى معنى الفيء لغة ، وقد بيناه ، وأخرج ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال فى الإيلاء : إذا مضت أربعة أشهر لا شيء عليه حتى يوقف فيطلق أو يمسك . وأخرج الشافعى وابن جرير والبيهقى عن عثمان بن عفان نحوه . وأخرج مالك والشافعى وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن على نحوه . وأخرج البخارى وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى عن عائشة نحوه .

وأخرج ابن جرير والدارقطنى والبيهقى من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه قال : سألت اثنى عشر رجلا من أصحاب النبى ﷺ عن الرجل يولى من امرأته فكلهم يقول : ليس عليه شيء حتى تمضى الأربعة الأشهر فتوقف فإن فاءَ والا طلق . وأخرج البيهقى عن ثابت بن عبيدة مولى زيد بن ثابت عن اثنى عشر رجلا من الصحابة نحوه .وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وابن مسعود وابن عمر وابن عباس ؛ قالوا: الإيلاء تطليقة بائنة إذا مرت أربعة أشهر قبل أن يفيء فهى أملك بنفسها، وللصحابة والتابعين فى هذا أقوال مختلفة متناقضة ، والمتعين الرجوع إلى ما فى الآية الكريمة وهو ما عرفناك فاشدد عليه يديك . وأخرج عبد الرزاق عن عمر قال : إيلاء العبد شهران . وأخرج مالك عن ابن شهاب قال : إيلاء العبد نحو إيلاء الحر .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ والمطلقات ﴾ يدخل تحت عمومه المطلقة قبل الدخول ، ثم خصص بقوله تعالى: ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ [الأحزاب : ٤٩] ، فوجب بناء العام على الخاص ، وخرجت من هذا العموم المطلَّقة قبل الدخول ، وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهنَّ ﴾ [الطلاق : ٤] ، وكذلك خرجت الآيسة بقوله تعالى :﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ [الطلاق : ٤] . والتربص : الانتظار ، قيل : هو خبر فى معنى الأمر أى ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه ، وزاده تأكيدًا وقوعه

خبرًا للمبتدأ. قال ابن العربى: وهذا باطل ، وإنما هو خبر عن حكم الشرع، فإن وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره. والقروء : جمع قرء . وروى عن نافع أنه قرأ : «قرو» بتشديد الواو ، وقرأ الجمهور بالهمز . وقرأ الحسن بفتح القاف وسكون الراء والتنوين . قال الأصمعى : الواحد قرء بضم القاف . وقال أبو زيد : بالفتح ، وكلاهما قال : أقرأت المرأة : حاضت ، وأقرأت : طهرت . وقال الأخفش : أقرأت المرأة : إذا صارت صاحبة حيض ، فإذا حاضت قلت: قرأت بلا ألف . وقال أبو عمرو بن العلاء: من العرب من يسمى الحيض قرءًا، ومنهم من يسمى الطهر قرءًا ، ومنهم من يجمعهما جميعًا فيسمى الحيض مع الطهر قرءًا ، وينبغى أن يعلم أن القرء فى الأصل الوقت ؛ يقال : هبت الريح لقرئها ولقارئها، أى لوقتها ، ومنه قول الشاعر :

كَرِهتُ العَقْر عقْر بنِى شَلِيلٍ ... إذَا هَبَّتْ لقارئها الرِّيَاحُ (١)

فيقال للحيض : قرء ، وللطهر : قرء ؛ لأن كل واحد منهما له وقت معلوم . وقد أطلقته العرب تارة على الأطهار ، وتارة على الحيض ، فمن إطلاقه على الأطهار قول الأعشى :

أَفِى عَامٍ أنتَ جَاشِمُ غَزْوةٍ ... تَشُدّ لأقصَاهَا عزيم عزَائكا

مورِّثة مَالا وفى الحى رفعة ... لِما ضَاعَ فِيها من قُرُوءِ نِسائكا (٢)

أى أطهارهن ، ومن إطلاقه على الحيض قول الشاعر :

يَاربَّ ذى حِنْق علىّ فَارضٍ ... لــه قُرُوٌ كقُرُوٌ الحَائِض

يعنى : أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض . وقال قوم : هو مأخوذ من قرى الماء فى الحوض وهو جمعه ، ومنه القرآن لاجتماع المعانى فيه قال عمرو بن كلثوم :

ذِراعَى عَيْطَلٍ أدمَاء بِكرٍ ... هِجَانِ اللونِ لم تَقْرأ جنينا

أى لم تجمعه فى بطنها . والحاصل : أن القروء فى لغة العرب مشترك بين الحيض والطهر ولأجل هذا الاشتراك، اختلف أهل العلم فى تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة فى الآية ، فقال أهل الكوفة : هى الحيض وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدى وأحمد بن حنبل . وقال أهل الحجاز: هى الأطهار ، وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان والشافعى . واعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت ، فصار معنى الآية عند الجميع : والمطلقات يتربصن

---

(١) الشاعر هو : مالك بن الحارث أحد بنى كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . راجع : ديوان الهذليين ٣/ ٨٣ والعقر : اسم مكان. [illegible]سان ٤/ ٥٩٩ ، وشليل الذى نسب إليه هو : جد جرير بن عبد الله البجلى .

(٢) ديوانه ٦٧ ومجاز القرآن [illegible]بى عبيدة ١/ ٧٤ والأبيات يمدح فيها هوذة بن [illegible]لى الحنفى .

بأنفسهن ثلاثة أوقات ، فهى على هذا مفسرة فى العدد مجملة فى المعدود، فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها ، فأهل القول الأول استدلوا على أن المراد فى هذه الآية الحيض ، بقوله ﷺ: « دعى الصلاة أيام أقرائك » (١) ، وبقوله ﷺ : « طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان » (٢) ، وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم ، وهو يحصل بالحيض لا بالطهر، واستدل أهل القول الثانى بقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق : ١] ، ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر ، وبقوله ﷺ لعمر : « مُرْه فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » (٣) . وذلك لأن زمن الطهر هو الذى تطلق فيه النساء . قال أبو بكر بن عبد الرحمن : ما أدركنا أحدًا من فقهائنا إلا يقول بأن الأقراء هى الأطهار ، فإذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقى منه ولو ساعة ولو لحظة ، ثم استقبلت طهرًا ثانيا بعد حيضة ، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة . انتهى .

وعندى ألاحجة فى بعض ما احتج به أهل القولين جميعًا ، أما قول الأولين أن النبى ﷺ قال: « دعى الصلاة أيام أقرائك»(٤) فغاية ما فى هذا أن النبى ﷺ أطلق الأقراء على الحيض ، ولا نزاع فى جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك ، فإنه يطلق تارة وتارة على هذا ، وإنما النزاع فى الأقراء المذكورة فى هذه الآية ، وأما قوله ﷺ فى الأمة : « وعدتها حيضتان »(٥) فهو حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة والدارقطنى ، والحاكم وصححه ، من حديث عائشة مرفوعًا ، وأخرجه ابن ماجة والبيهقى من حديث ابن عمر مرفوعًا أيضًا ، ودلالته على ما قاله الأولون قوية ، وأما قولهم : إن المقصود من العدة استبراء الرحم ، وهو يحصل بالحيض لا بالطهر فيجاب عنه بأنه إنما يتم لو لم يكن فى هذه العدة شىء من الحيض على فرض تفسير الأقراء بالأطهار ، وليس كذلك بل هى مشتملة على الحيض كما هى مشتملة على الأطهار ، وأما استدلال أهل القول الثانى بقوله تعالى: ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق: ١]

---

(١) الحديث عن فاطمة بنت أبى حبيش وأخرجه أبو داود فى الطهارة (٢٨٠) والنسائى فى الطهارة ١/ ١٢١ و فى الحيض ١/ ١٨٣ ، ١٨٤، وابن ماجه فى الطهارة (٦٢٠) . وقد روى هذا الحديث عن عدى بن ثابت عن أبيه عن جده عند الترمذى وابن ماجة وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها عند النسائى وابن ماجة .

(٢) الحديث عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها أخرجه أبو داود فى الطلاق (٢١٨٩) وقال : مجهول ، والترمذى فى : الطلاق (١١٨٢) وقال : « غريب » ، وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٨٠) والدارمى فى الطلاق ٢/ ١٧٠ ، ١٧١ ، والدارقطنى فى الطلاق (١١٣) وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٥ ووافقه الذهبى ، وضعفه ابن كثير (١/ ٤٧٨) .

والحديث عن ابن عمر رضى الله عنه أخرجه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٧٩) وهو ضعيف ، والدارقطنى فى الطلاق (١٠٤) وهو ضعيف ، والبيهقى فى : السنن ٧/ ٤٢٦ وقال : « ليس بصحيح » .

(٣) الحديث رواه عبد الله بن عمر أخرجه البخارى فى التفسير (٤٩٠٨) وفى الطلاق (٥٢٥١ ، ٥٢٥٨ ، ٥٣٣٢) وفى الأحكام (٧١٦٠) ومسلم فى الطلاق (١٤٧١/١ـ ٧) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجهما .

فيجاب عنه بأن التنازع فى اللام فى قوله : ﴿ لعدتهن ﴾ يصير ذلك محتملا ، ولا تقوم الحجة بمحتمل ، وأما استدلالهم بقوله ﷺ لعمر : « مره فليراجعها » [(١)] الحديث ، فهو فى الصحيح ، ودلالته قوية على ما ذهبوا إليه ، ويمكن أن يقال : إنها تنقضى العدة بثلاثة أطهار، أو بثلاث حِيَض ، ولا مانع من ذلك فقد جوّز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه، وبذلك يجمع بين الأدلة ، ويرتفع الخلاف ، ويندفع النزاع . وقد استشكل الزمخشرى تمييز الثلاثة بقوله : قروء ، وهى جمع كثرة دون أقراء التى هى من جموع القلة . وأجاب بأنهم يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية [(٢)] .

قوله : ﴿ **ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن** ﴾ قيل : المراد به الحيض . وقيل : الحمل . وقيل : كلاهما ، ووجه النهى عن الكتمان ما فيه فى بعض الأحوال من الإضرار بالزوج وإذهاب حقه ؛ فإذا قالت المرأة : حضْت وهى لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع ؛ وإذا قالت : لم تحض وهى قد حاضت ألزمته من النفقة مالم يلزمه فأضرت به ، وكذلك الحمل ربما تكتمه لتقطع حقه من الارتجاع ، وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة ، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج ، وقد اختلفت الأقوال فى المدة التى تصدَّق فيها المرأة إذا ادّعت انقضاء عدتها وقوله : ﴿ **إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر** ﴾ فيه وعد شديد للكاتمات ، وبيان أن من كتم ذلك منهن لم تستحق اسم الإيمان . والبعولة : جمع بعل وهو الزوج ، سمى بعلاً لعلوّه على الزوجة لأنهم يطلقونه على الرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿أتدعون بعلا ﴾ [الصافات : ١٢٥] أى ربا . ويقال : بعول وبعولة كما يقال فى جمع الذكر: ذكور وذكورة ، وهذه التاء لتأنيث الجمع ، وهو شاذ لا يقاس عليه ، بل يعتبر فيه السماع ؛ والبعولة أيضًا تكون مصدر من بعل الرجل يبعل ، مثل منع يمنع ، أى صار بعلا .

وقوله : ﴿ **أحق بردهن** ﴾ أى برجعتهن ، وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها، فيكون فى حكم التخصيص لعموم قوله : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن** ﴾ لأنه يعم المثلثات وغيرهن . وقوله :﴿ **فى ذلك** ﴾ يعنى : فى مدة التربص ، فإن انقضت مدة التربص فهى أحق بنفسها ، ولا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولىَ وشهود ومهر جديد ، ولا خلاف فى ذلك . والرجعة تكون باللفظ وتكون بالوطء ، ولا يلزم المراجع شىء من أحكام النكاح بلا خلاف . وقوله : ﴿**إن أرادوا إصلاحا** ﴾ أى بالمراجعة ، أى إصلاح حاله معها وحالها معه فإن قصد الإضرار بها فهى محرمة لقوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** ﴾ قيل : وإذا قصد بالرجعة الضرار فهى صحيحة، وإن ارتكب بذلك محرمًا وظلم نفسه ، وعلى هذا فيكون الشرط المذكور فى الآية للحث للأزواج على قصد الصلاح والزجر لهم عن قصد الضرار ، وليس المراد به جعل قصد الإصلاح شرطًا لصحة الرجعة قوله :﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾ أى

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) الكشاف الزمخشرى ١/ ٢٧٢ .

لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن . فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم . وهى كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه لأزواجهن من طاعة وتزين وتحبب ونحو ذلك . قوله : ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾ أى منزلة ليست لهن وهو قيامه عليها فى الإنفاق ، وكونه من أهل الجهاد ، والعقل والقوة ، وله من الميراث أكثر مما لها ، وكونه يجب عليها امتثال أمره ، والوقوف عند رضاه ، ولولم يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت أن حواء خلقت من ضلع آدم .

وقد أخرج أبو داود وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ؛ قالت : طلِّقْتُ على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله حين طلقت العدة للطلاق فقال : ﴿ **والمطلقات يتربصن** ﴾ الآية [(١)] . وأخرج أبو داود والنسائى وابن المنذر عن ابن عباس :﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ ثم قال : ﴿واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ [الطلاق : ٤] فنسخ وقال : ﴿ ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ [الأحزاب : ٤٩] . وأخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى والبيهقى من طرق عن عائشة ؛ أنها قالت : الأقراء : الأطهار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عمر وزيد بن ثابت مثله . وأخرج المذكورون عن عمرو بن دينار قال : الأقراء : الحيض . عن أصحاب محمد ﷺ . وأخرج البيهقى وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثلاثة قروء**﴾ قال : ثلاث حيض .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله تعالى :﴿ **ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن** ﴾ قال : كانت المرأة تكتم حملها حتى تجعله لرجل آخر فنهاهن الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى الآية قال: الحمل والحيض . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **وبعولتهن أحق بردهن**﴾ يقول : إذا طلق الرجل امرأته تطليقة أو تطليقتين وهى حامل فهو أحق برجعتها ما لم تضع حملها ، وهو قوله : ﴿ **ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير والبيهقى عن مجاهد فى قوله: ﴿ **وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك** ﴾ قال : فى العدة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله ، وزاد ما لم يطلقها ثلاثا . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿**ولهن مثل الذى عليهن** ﴾ قال : إذا أطعن الله ، وأطعن أزواجهن فعليه أن يحسن صحبتها ، ويكف عنها أذاه ، وينفق عليها من سعته .

(١) أبو داود فى الطلاق (٢٢٨١) وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم (١/ ٤٧٨) وقال : « غريب » ، والبيهقى فى العدد ٧/ ٤١٤ .

وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص[١] أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إن لكم على نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا ، أما حقكم على نسائكم ألا يوطئن فُرُشكم من تكرهون ، ولا يأذنَّ فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن، وطعامهن » صححه الترمذى[٢] . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة وابن جرير ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن معاوية بن حيدة القشيرى ؛ أنه سأل النبى ﷺ : ما حق المرأة على الزوج ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه، ولا تهجر إلا فى البيت »[٣] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ وللرجال عليهن درجة﴾ قال : فضل ما فضله الله به عليها من الجهاد ، وفضل ميراثه على ميراثها ، وكل ما فضل به عليها . وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم عن أبى مالك فى الآية قال : يطلقها وليس لها من الأمر شيء . وأخرجا عن زيد بن أسلم قال : الإمارة .

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴾ .

المراد بالطلاق المذكور هو : الرجعى ، بدليل ما تقدم فى الآية ، أى الطلاق الذى تثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان ، أى الطلقة الأولى والثانية ، إذ لارجعة بعد الثالثة وإنما قال سبحانه : ﴿ مرتان ﴾ ولم يقل : طلقتان إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد مرة ، لا طلقتان دفعة واحدة ، كذا قال جماعة من المفسرين . ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين ، إما إيقاع الثالثة التى بها تبين الزوجة ، أو الإمساك لها واستدامة نكاحها ، وعدم إيقاع الثالثة عليها قال سبحانه : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أى فإمساك بعد الرجعة لمن

---

(١) عمرو بن الأحوص الجُشَمى : روى عن النبى ﷺ وشهد معه حجة الوداع . وروى عنه ابنه سليمان . قلت : « قال العسكرى قال بعضهم : إنه أنصارى» ، وقال ابن عبد البر : « اختلف فى نسبه فقيل : عمرو بن الأحوص بن جعفر بن كلاب » . انظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٢ .

(٢) أبو داود فى البيوع (٣٣٣٤) باختصار حديث الباب ، والترمذى فى الرضاع (١١٦٣) وقال : «حسن صحيح » ، وفى التفسير (٣٠٨٧) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى النكاح (١٨٥١) .

(٣) أحمد ٤/ ٤٤٦، ٤٤٧ ، ٥/ ٣ ، ٥ وأبو داود فى النكاح (٢١٤٢ ـ٢١٤٤) والنسائى فى التفسير (١٢٤ ، ٤٥١) . وفى عشرة النساء (٢٨٩) . وابن ماجة فى النكاح (١٨٥٠) وابن جرير فى التفسير٥/ ٤٣ وصححه الحاكم ٢/ ١٨٧ ، ١٨٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى القسم والنشوز ٧/ ٢٩٥ ، ٣٠٥ وفى النفقات ٧/ ٤٦٦، ٤٦٧ .

طلقها زوجها طلقتين بمعروف ، أى بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة ﴿ **أو تسريح بإحسان**﴾ أى بإيقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرار لها . وقيل : المراد : ﴿**فإمساك بمعروف**﴾ أى برجعة بعد الطلقة الثانية ﴿ **أو تسريح بإحسان** ﴾ أى بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضى عدتها . والأول أظهر . وقوله : ﴿ **الطلاق** ﴾ مبتدأ بتقديرمضاف ، أى عدد الطلاق الذى تثبت فيه الرجعة مرتان . وقد اختلف أهل العلم فى إرسال الثلاث دفعة واحدة ، هل يقع ثلاثا أو واحدة فقط ؟ فذهب إلى الأول الجمهور ، وذهب إلى الثانى مَنْ عداهم وهو الحق . وقد قررته فى مؤلفاتى تقريرا بالغًا وأفردته برسالة مستقلة .

قوله : ﴿ **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا** ﴾ الخطاب للأزواج ، أى لا يحل للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئًا على وجه المضارة لهن ، وتنكير ﴿**شيئًا**﴾ للتحقير ، أى شيئًا نزرا فضلا عن الكثير ، وخص ما دفعوه إليهن بعدم حل الأخذ منه مع كونه لا يحل للأزواج أن يأخذوا شيئًا من أموالهن التى يملكنها من غير المهر لكون ذلك هو الذى تتعلق به نفس الزوج ، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو فى ملكها ، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحل له كان ما عداه ممنوعًا منه بالأولى . وقيل : الخطاب فى قوله: ﴿ **ولا يحل لكم** ﴾ للأئمة والحكام ، ليطابق قوله : ﴿ **فإن خفتم** ﴾ ، فإن الخطاب فيه للأئمة والحكام ، وعلى هذا يكون إسناد الأخذ إليهم لكونهم الآمرين بذلك .والأول أولى لقوله : ﴿**مما آتيتموهن** ﴾ ، فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جدًا ؛ لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم. وقيل : إن الثانى أولى لئلا يتشوش النظم . قوله : ﴿ **إلا أن يخافا** ﴾ أى لا يجوز لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا (١) ﴿ **ألا يقيما حدود الله** ﴾ أى عدم إقامة حدود الله التى حدّها للزوجين ، وأوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة ، فإن خافا ذلك ﴿ **فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾ أى لا جناح على الرجل فى الأخذ ، وعلى المرأة فى الإعطاء، أن تفتدى نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج ، فيطلقها لأجله ، وهذا هو الخلع ، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج ، وأنه يحل له الأخذ مع ذلك الخوف وهو الذى صرح به القرآن . وحكى ابن المنذر ، عن بعض أهل العلم أنه لا يحل له ما أخذ ولا يجبر على رده ، وهذا فى غاية السقوط . وقرأ حمزة : « إلا أن يخافا » على البناء للمجهول ، والفاعل محذوف ، وهو الأئمة والحكام واختاره أبو عبيد قال : لقوله : ﴿**فإن خفتم** ﴾ فجعل الخوف لغير الزوجين . وقد احتج بذلك من جعل الخلع إلى السلطان ، وهو سعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وقد ضعف النحاس اختيار أبى عبيد المذكور .

---

(١) قال ابن جرير : والخوف هنا بمعنى : الظن ، والعرب تضع الظن موضع الخوف ، والخوف موضع الظن فى كلامها لتقارب معنيهما ، كما قال الشاعر (وهو أبو الغول الطهوى وهو شاعر إسلامى كان فى الدولة المروانية) :

أتانى كلام عن نُصيب يقوله ... وما خِفت ياسَلاَّمُ أنك عائبى

بمعنى : ظننت . ابن جرير ٢/ ٢٧٩ ، ٢٨٠ بتصرف يسير .

وقوله : ﴿ **فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله** ﴾ أي إذا خاف الأئمة والحكام أو المتوسطون بين الزوجين وإن لم يكونوا أئمة وحكامًا عدم إقامة حدود الله من الزوجين ، وهي ما أوجبه عليهما كما سلف وقد حكى عن بكر بن عبد الله المزنى [١] أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾ [النساء : ٢٠] وهو قول خارج عن الإجماع ولا تنافي بين الاثنين . وقد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما دفعه إليها من المهر وما يتبعه ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا ؟ وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين ، وبذا قال مالك والشافعي وأبو ثور ،وروى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين . وقال طاوس وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحاق :أنه لا يجوز . وسيأتي ما ورد في ذلك عن النبي ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ أي : أحكام النكاح والفراق المذكورة هي حدود الله التي أمرتم بامتثالها ، فلا تعتدوها بالمخالفة لها فتستحقوا ما ذكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم .

قوله تعالى : ﴿ **فإن طلقها** ﴾ أي الطلقة الثالثة التي ذكرها سبحانه بقوله : ﴿ **أو تسريح بإحسان** ﴾ أي فإن وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث ﴿ **فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره** ﴾ أي حتى تتزوج بزوج آخر . وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه قالوا : يكفي مجرد العقد لأنه المراد بقوله : ﴿ **حتى تنكح زوجًا غيره**﴾ وذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أنه لابد مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي ﷺ من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها ، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه . وفي الآية دليل على أنه لابد من أن يكون ذلك نكاحًا شرعيًا مقصودًا لذاته لانكاحًا غير مقصود لذاته ، بل حيلة للتحليل وذريعة إلى ردها إلى الزوج الأول ، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة في ذمه وذم فاعله ، وأنه التيس المستعار [٢] الذي لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك . قوله : ﴿**فإن طلقها** ﴾ أي الزوج الثاني ﴿ **فلا جناح عليهما** ﴾ أي الزوج الأول والمرأة ﴿ **أن يتراجعا**﴾ أي يرجع كل واحد منهما لصاحبه . قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الحر إذا طلق زوجته ثلاثًا ثم انقضت عدتها ونكحت زوجًا ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدتها ثم نكحها الزوج الأول ، أنها تكون على ثلاث تطليقات. قوله : ﴿ **إن ظنا أن يقيما حدود الله** ﴾ أي حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر ، وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلما أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله

---

(١) في المطبوعة :« المدني » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة « المزني » وهو : بكر بن عبد الله بن عمرو المُزني البصري ، أحد الأعلام ، يذكر مع الحسن وابن سيرين .كان ثقة ، ثبتا ، كثير الحديث ، حجة ، فقيها ، وكان مجاب الدعوة ، توفي سنة ١٠٦ وقيل : ١٠٨ وهو أصح . انظر : سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣٢ ـ ٥٣٦ .

(٢) ابن ماجة في النكاح (١٩٣٦) عن عقبة بن عامر وفي الإسناد مِشْرَح بن هاعان وهو مختلف فيه ، وقال بن حجر : « مقبول » .

أو ترددا أوأحدهما ولم يحصل لهما الظن ، فلا يجوز الدخول فى هذا النكاح لأنه مظنة للمعصية لله ، والوقوع فيما حرمه على الزوجين . وقوله : ﴿ **وتلك حدود الله** ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة كما سلف ، وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم وغيره ووجوب التبليغ لكل فرد ؛ لأنهم المنتفعون بالبيان المذكور .

وقد أخرج مالك والشافعى وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها كان ذلك له ، وإن طلقها ألف مرة ، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا ما دنا وقت انقضاء عدتها ارتجعها ، ثم طلقها ، ثم قال : والله لا آويك إلىّ ولا تحلين لى أبدًا، فأنزل الله :﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ ، فاستقبل الناس الطلاق جديدًا من يومئذ ؛ من كان منهم طلق ومن لم يطلق [١] . وأخرج نحوه الترمذى وابن مردوية ، الحاكم وصححه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة[٢] . وأخرج ابن النَّجَّار[٣] عنها أنها أتتها امرأة فسألتها عن شىء من الطلاق، قالت : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾ وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى رزين الأسدى [٤] ، قال : قال رجل : يارسول الله ، أرأيت قول الله : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾ فأين الثالثة ؟ قال : « التسريح بإحسان الثالثة »[٥] وأخرج نحوه ابن مردويه ، والبيهقى عن ابن عباس مرفوعًا [٦] . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال : قال الله للثالثة : ﴿ **فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى حبيب قال: التسريح فى كتاب الله الطلاق .

وأخرج البيهقى من طريق السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ

---

(١) مالك فى الطلاق (٨٠) والشافعى فى المسند ، فى الطلاق (١٠٩) والترمذى فى الطلاق (١١٩٢) بإسنادين وأحدهما موصول والثانى موقوف على عروة ورجح الترمذى الوقف . وابن جرير فى التفسير٢/ ٢٧٦ والبيهقى فى الخلع والطلاق ٧/ ٣٣٣ وقال: « مرسل » .

(٢) الترمذى فى الطلاق (١١٩٢) وصححه الحاكم ٢/ ٢٧٩ ، ٢٨٠ وخالفه الذهبى .

(٣) فى المخطوطة : « البخارى » ، والتصويب ما أثبتناه من الدر المنثور ١/ ٢٢٧ .

(٤) هو مسعود بن مالك مولى أبى وائل الأسدى الكوفى روى عن معاذ بن جبل وابن مسعود وعلى بن أبى طالب وغيرهم ، وسئل عنه أبو زرعة فقال: «كوفى ثقة » ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقد أرخ ابن قانع وفاته سنة خمس وثمانين . انظر : تهذيب التهذيب ١٠/ ١١٨، ١١٩ والتاريخ الكبير للبخارى (١٨٥٥) .

(٥) عبد الرزاق فى الطلاق (١١٠٩١) وسعيد بن منصور فى الطلاق (١٤٥٦ ، ١٤٥٧) وابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٧٨ والبيهقى فى الخلع والطلاق ٧/ ٣٤٠ .

(٦) لم أجده عند البيهقى عن ابن عباس والذى عند البيهقى ٧/ ٣٤٠ إنما هو عن أنس ، كما عزاه ابن كثير (١/ ٤٨٣) إلى ابن مردويه عن أنس .

فى قوله : ﴿الطلاق مرتان﴾ قالوا : وهو الميقات الذى تكون فيه الرجعة ، فإن طلق واحدة أو اثنتين ، فإما أن يمسك ويراجع بمعروف ، وإما أن يسكت عنها حتى تنقضى عدتها فتكون أحق بنفسها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية نحوه . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : كان الرجل يأكل من مال امرأته الذى نَحَلَها وغيره لا يرى أن عليه جناحًا ، فأنزل الله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئًا ﴾ فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شيء من أموالهن إلا بحقها . ثم قال : ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ﴾ وقال : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا ﴾ [النساء : ٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ قال : إلا أن يكون النشوز وسوء الخلق من قبلها ، فتدعوك إلى أن تفتدى منك فلا جناح عليك فيما افتدت به .

وأخرج مالك والشافعى وأحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى من طريق عَمْرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن حبيبة بنت سهل الأنصارى ؛ أنها كانت تحت ثابت بن قيس وأن رسول الله خرج إلى الصبح فوجدها عند بابه فى الغلس فقال : « من هذه ؟ » قالت : أنا حبيبة بنت سهل . فقال : « ما شأنك ؟ » قالت : لا أنا ولا ثابت [(١)] ؛ فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ : « هذه حبيبة بنت سهل » ، فذكرت ما شاء أن تذكر ، فقالت حبيبة : يارسول الله ، كل ما أعطانى عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « خذ منها » ، فأخذ منها وجلست فى أهلها، [(٢)] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية فى ثابت بن قيس وفى حبيبة ، وكانت اشتكته إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « تردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم ، فدعاه فذكر ذلك له، فقال : ويطيب لى ذلك ؟ قال : « نعم » ، قال ثابت : قد فعلت ، فنزلت : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا ﴾ [(٣)] الآية . وأخرج عبد الرزاق وأبو داود وابن جرير والبيهقى من طريق عمرة عن عائشة نحوه[(٤)] . وأخرج البخارى والنسائى وابن ماجة وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ؛ أن جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت ابن قيس بن شَمَّاس ، أتت النبى ﷺ فقالت : يارسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكن لا أطيقه بغضًا ، وأكره الكفر فى الإسلام ، قال : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم : قال : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » ، ولفظ ابن ماجة : فأمره

---

(١) فى المطبوعة : «لا أنا ، ولا أنت » ، وهو تصحيف . والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢)مالك فى الموطأ فى الطلاق (٣١) والشافعى فى الأم فى الطلاق ٥/ ١١٣ ، ١٩٦ وأحمد ٦/ ٤٣٣ ، ٤٣٤ وأبو داود فى الطلاق (٢٢٢٧) والنسائى فى الطلاق ٦/ ١٦٩ والبيهقى فى الخلع والطلاق ٧/ ٣١٤ .

(٣) ابن جرير ٢/ ٢٨١ .

(٤) عبد الرزاق فى الطلاق (١١٨٤٣) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٢٨) وابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٨٠ والبيهقى فى الخلع والطلاق ٧/ ٣١٢.

رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد (١) .

وأخرج البيهقى من طريق عطاء قال : أتت امرأة النبى ﷺ ، وقالت : إنى أبغض زوجى، وأحب فراقه ، قال : «أتردين عليه حديقته التى أصدقك ؟ » قالت : نعم ، وزيادة ، فقال النبى ﷺ : « أما الزيادة من مالك فلا»(٢) . وأخرج البيهقى عن أبى الزبير ؛ أن ثابت ابن قيس فذكر القصة ، وفيه : « أما الزيادة فلا » (٣) . وأخرج ابن مردويه بإسناد جيد عن ابن عباس ، وفيه : أنه أمر النبى ﷺ ثابتًا أن يأخذ ما ساق ولا يزداد . وأخرج البيهقى عن أبى سعيد وذكر القصة ، وفيها: فردت عليه حديقته وزادت (٤) . وأخرج ابن جرير عن عمر ؛ أنه قال فى بعض المختلعات : « اخلعها ولو من قرطها » . وفى لفظ أخرجه عبد الرزاق عنه أنه قال للزوج : «خذ ولو عقاصها » (٥) . قال البخارى : أجاز عثمان الخلع دون عقاصها . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن عطاء : كره أن النبى ﷺ أن يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاها (٦) .

وقد ورد فى ذم المختلعات أحاديث منها عن ثوبان عند أحمد وأبى داود والترمذى وحسنه، وابن ماجة وابن جرير ، والحاكم وصححه ، والبيهقى قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غيرما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وقال : « المختلعات هن المنافقات » (٧) . ومنها عن ابن عباس عند ابن ماجة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسأل المرأة زوجها الطلاق فى غير كنهه فتجد ريح الجنة ، وإن ريحها لتُوجد من (٨) مسيرة أربعين عامًا » (٩) . ومنها عن أبى هريرة عند أحمد والنسائى عن النبى ﷺ قال : « المختلعات والمنتزعات هن المنافقات » (١٠) ومنها عن عقبة عند ابن جرير مرفوعًا مثل حديث أبى هريرة(١١) .

وقد اختلف أهل العلم فى عدة المختلعة ، والراجح أنها تعتد بحيضة لما أخرجه أبو داود ، والترمذى وحسنه النسائى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ أمر امرأة ثابت بن

---

(١) البخارى فى الطلاق (٥٢٧٣) والنسائى فى الطلاق ٦/ ١٦٩ وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٦) والبيهقى فى الطلاق ٧/ ٣١٣ .

(٢ ، ٣) البيهقى فى الطلاق ٧/ ٣١٤ وهو مرسل . (٤) البيهقى فى الطلاق ٧/ ٣١٤ .

(٥) العقاص : الضفائر ، جمع عقيصة ، أو عِقْصة . وقيل : هو الخيط الذى تعقص به أطراف الذوائب. النهاية ٣/ ٢٧٦ .

(٦) البيهقى فى الطلاق ٧/ ٣١٤ وهو مرسل .

(٧) أحمد ٥/ ٢٧٧ وأبو داود فى الطلاق (٢٢٢٦) والترمذى فى الطلاق (١١٨٧) وقال : « حسن » وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٥) وابن جرير ٢/ ٢٨٥ وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٠ على شرط الشيخين . ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الطلاق ٧/ ٣١٦ .

(٨) هذا الحرف ساقط من المطبوعة والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٩) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٤) . (١٠) أحمد ٢/ ٤١٤ والنسائى ٦/ ١٦٨ .

(١١) ابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٨٥ .

قيس أن تعتد بحيضة (١) . ولما أخرجه الترمذى عن الرُّبَيِّع بنت معوذ بن عفراء ؛ أنها اختلعت على عهد رسول الله ، فأمرها النبى ﷺ أن تعتد بحيضة ، أو أمرت أن تعتد بحيضة (٢) . قال الترمذى : الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة . وأخرج النسائى وابن ماجة عنها أنها قالت : اختلعت من زوجى ، فجئت عثمان فسألته ماذا علىّ من العدة ؟ فقال : لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين حتى تحيضى حيضة ، قالت : إنما أتبع فى ذلك قضاء رسول الله ﷺ فى مريم المغالية، وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه(٣) . وأخرج النسائى عن الرُّبَيِّع بنت معوذ أن النبى ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس أن تتربص حيضة واحدة ، فتلحق بأهلها (٤). ولم يرد ما يعارض هذا من المرفوع ، بل ورد عن جماعة من الصحابة والتابعين أن عدة المختلعة كعدة الطلاق ، وبه قال الجمهور . قال الترمذى : وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، واستدلوا على ذلك بأن المختلعة من جملة المطلقات ، فهى داخلة تحت عموم القرآن والحق ما ذكرناه ؛ لأن ما ورد عن النبى ﷺ يخصص عموم القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له** ﴾ يقول : فإن طلقها ثلاثًا فلا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره . وأخرج ابن المنذر عن على نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والبيهقى عن عائشة ؛ قالت : جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى كنت عند رفاعة فطلقنى فبتَّ طلاقى ، فتزوجنى عبد الرحمن بن الزَّبِير ، وما معه إلا مثل هُدْبَة الثوب ، فتبسم النبى ﷺ فقال : « أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك » (٥) . وقد روى نحو هذا عنها من طرق . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجة وابن جرير والبيهقى عن ابن عمر مرفوعا نحوه (٦) . وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقى عن أنس مرفوعًا نحوه أيضا (٧) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى هريرة مرفوعًا

(١) أبو داود فى الطلاق (٢٢٢٩) والترمذى فى الطلاق (١١٨٥) وقال : « حسن غريب » والبيهقى فى الطلاق ٧/ ٤٥٠ وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٦ ووافقه الذهبى . وعبد الرزاق فى الطلاق (١١٨٥٨) عن عكرمة مرسلا وأشار إلى ذلك أبو داود والحاكم .

(٢) الترمذى فى الطلاق (١١٨٥) . (٣) النسائى فى الطلاق ٦/ ١٨٦ وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٨) .

(٤) النسائى فى الطلاق ٦/ ١٨٦ .

(٥) الشافعى فى الأم فى النكاح ٥/ ٢٤٩ وعبد الرزاق فى النكاح (١١١٣١) وابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٧٤ وأحمد ٦/ ٣٧ ، ٣٨ والبخارى فى الطلاق (٥٢٦٠) ومسلم فى النكاح (١٤٣٣ / ١١١) والترمذى فى النكاح (١١١٨) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى النكاح ٦/ ٩٣ وفى الطلاق ٦/ ١٤٨ وابن ماجة فى النكاح (١٩٣٢) وابن جرير ٢/ ٢٩١ والبيهقى فى الرجعة ٧/ ٣٧٤ .

(٦) فى المخطوطة : « عن عمر » ، والحديث عن ابن عمر ، أخرجه عبد الرزاق فى النكاح (١١١٣٥) وابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٧٤ ، وأحمد ٢/ ٢٥ والنسائى فى الطلاق ٦/ ١٤٩ وابن ماجة فى النكاح (١٩٣٣) وابن جرير ٢/ ٢٩٢ والبيهقى فى الرجعة ٧/ ٣٧٥ .

(٧) أحمد ٣/ ٢٨٤ وابن جرير ٢/ ٢٩٢ والبيهقى فى السنن ٧/ ٣٧٥ .

نحوه [(١)] . ولم يسم هؤلاء الثلاثة الصحابة صاحبة القصة . وأخرج أحمد والنسائى عن ابن عباس ؛ أن الغُمَيْصاء [(٢)] أو الرُّمَيْصاء أتت النبى ﷺ ، وفى آخره : فقال النبى ﷺ : « ليس ذلك لك حتى يذوق عسيلتك رجل غيره » [(٣)] .

وقد ثبت لعن المحلل فى أحاديث منها عن ابن مسعود عند أحمد والترمذى وصححه ، والنسائى ، والبيهقى فى سننه قال : لعن النبى ﷺ المحلل والمحلل له [(٤)]. ومنها عن على عند أحمد وأبى داود والترمذى وابن ماجة والبيهقى مرفوعًا مثل حديث ابن مسعود [(٥)] . ومنها عن جابر مرفوعًا عند الترمذى مثله [(٦)] . ومنها عن ابن عباس مرفوعاً عند ابن ماجة مثله[(٧)]. ومنها عن عقبة بن عامر عند ابن ماجة، والحاكم وصححه ، والبيهقى مرفوعًا مثله[(٨)] . ومنها عن أبى هريرة مرفوعًا عند أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى مثله[(٩)] . وفى الباب أحاديث فى ذم التحليل وفاعله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا** ﴾ يقول : إذا تزوجت بعد الأول ، فدخل بها الآخر فلا حرج على الأول أن يتزوجها إذا طلقها الآخر ، أو مات عنها ، فقد حلت له . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **أن يقيما حدود الله** ﴾ قال : أمر الله وطاعته .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا

---

(١) ابن أبى شيبة ٤/ ٢٧٦ وابن جرير ٢/ ٢٩٢ .

(٢) فى المخطوطة :« العميصاء » بالعين المهملة ، والغَمَص فى العين كالرمص ، وهو شىء ترمى به العين ، وقيل: هما مختلفان ، ويقال لصغيرة العين : الغميصاء لأن العين إذا رمصت صَغُرت انظر : لسان العرب ٧/ ٦١، ٦٢ وهى غير أم سليم بنت ملحان الأنصارية أم أنس خادم رسول الله ﷺ .

(٣) الحديث من رواية عبيد الله بن عباس ، وليس من رواية عبد الله بن عباس ، كما يتوهم ، وكما أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/ ٢٨٤ وكما جاء فى مطبوعة النسائى ٦/ ١٤٨ . ووهم الحافظ ابن حجر فاستدركه فى « النكت الظراف » على ابن عساكر والمزى ، وقال : إنه فاتهما . انظر: تحفة الأشراف رقم ٥٦٧٠ . والصواب أنه لم يفتهما بل جاء فى مسند عبيد الله بن عباس (تحفة الأشراف برقم ٩٧٣٨) وهو الصحيح، وكذلك سماه أحمد فى المسند ١/ ٢١٤ ، وابن حجر فى الإصابة فى ترجمة الرميصاء أو الغميصاء ٤/ ٣٠٨ وفى ترجمة عبيد الله بن عباس فى الإصابة ٢/ ٤٣٧ وأورد هناك هذا الحديث وقال : « رجاله ثقات » .

(٤) أحمد ١/ ٤٥٠ ، ٤٥١ والترمذى فى النكاح (١١٢٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٦/ ١٤٩ والبيهقى ٧/ ٢٠٨ .

(٥) أحمد ١/ ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ١٥٨ وأبو داود فى النكاح (٢٠٧٦) والترمذى فى النكاح (١١١٩) وقال: «معدول » ، وابن ماجة فى النكاح (١٩٣٥) والبيهقى ٧/ ٢٠٨ .

(٦) الترمذى فى النكاح (١١١٩) وقال : «معدول » .

(٧) ابن ماجة فى النكاح (١٩٣٤) .

(٨) ابن ماجة فى النكاح (١٩٣٦) والحاكم وصححه ٢/ ١٩٨ ، ١٩٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٢٠٨ .

(٩) أحمد ٢/ ٣٢٣ وابن أبى شيبة ٤/ ٢٩٦ والبيهقى ٧/ ٢٠٨ .

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾ .

البلوغ إلى الشيء : معناه الحقيقى الوصول إليه ، ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة إلا مجازا ، لعلاقة مع قرينة كما هنا، فإنه لا يصح إرادة المعنى الحقيقى ؛ لأن المرأة إذا قد بلغت آخر جزء من مدة العدة ، وجاوزته إلى الجزء الذى هوالأجل للانقضاء ، فقد خرجت من العدة، ولم يبق للزوج عليها سبيل . قال القرطبى فى تفسيره : إن معنى ﴿ **بلغن** ﴾ هنا : قاربن، بإجماع العلماء . قال : ولأن المعنى يضطر إلى ذلك لأنه بعد بلوغ الأجل لاخيار له فى الإمساك ، والإمساك بمعروف: هو القيام بحقوق الزوجية [١] . أى إذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدة فلا تضاروهن بالمراجعة من غير قصد ؛ لاستمرار الزوجية واستدامتها ، بل اختاروا أحد أمرين : إما الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار ، أو التسريح بإحسان ، أى تركها حتى تنقضى عدتها من غير مراجعة ضرار ، ولا تمسكوهن ضرارا كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدتها ، ثم مراجعتها لا عن حاجة ولا لمحبة ، ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ﴿ **ضرارا** ﴾ لقصد الاعتداء منكم عليهن والظلم لهن ، ﴿ **ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه** ﴾ لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه . قال الزجاج : يعنى عرض نفسه للعذاب ؛ لأن إتيان ما نهى الله تعرض لعذاب الله ، ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هزوا** ﴾ أى لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزؤ ، فإنها جد كلها ، فمن هزل فيها فقد لزمته . نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل ، فإنه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج ويقول : كنت لاعبًا . قال القرطبى : ولا خلاف بين العلماء أن من طلّق هازلاً أن الطلاق يلزمه[٢] .

قوله : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أى النعمة التى صرتم فيها بالإسلام وشرائعه بعد أن كنتم فى جاهلية جهلاء ، وظلمات بعضها فوق بعض . والكتاب : هو القرآن والحكمة ، قال المفسرون : هى السنة التى سنها لهم رسول الله ﷺ ، ﴿ **يعظكم به** ﴾ أى يخوفكم بما أنزل عليكم ، وأفرد الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولهما فى النعمة دخولا أوليًا تنبيها على خطرهما، وعظم شأنهما .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ، فيفعل بها ذلك يضارها ويعطلها ، فأنزل الله : ﴿**وإذا طلقتم النساء** ﴾ [٣] الآية . وأخرج نحوه مالك وابن جرير وابن المنذر عن ثور بن يزيد[٤] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن الحسن فى قوله : ﴿**ولا تمسكوهن ضرارًا**

(١) القرطبى ٢/ ٩٦٣ .
(٢) المرجع السابق ٢/ ٩٦٥ .
(٣) ابن جرير ٢/ ٢٩٤ .
(٤) مالك فى الموطأ فى النكاح (٨١) وابن جرير فى التفسير ٢/ ٢٩٥ .

لتعتدوا﴾ قال : هو الرجل يطلق امرأته فإذا أرادت أن تنقضى عدتها أشهد على رجعتها يريد أن يطول عليها . وأخرج ابن ماجة ، وابن جرير والبيهقى عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام يلعبون بحدود الله ، يقول : قد طلقتك ، قد راجعتك ، قد طلقتك، قد راجعتك ، ليس هذا طلاق المسلمين ؛ طلقوا المرأة فى قبل عدتها » (١) . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال : كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يقول للرجل: زوَّجتك ابنتى ، ثم يقول : كنت لاعبًا ، ويقول : قد أعتقت، ويقول : كنت لاعبًا، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هزوا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : «ثلاث من قالهن لاعبًا أو غير لاعب ، فهن جائزات عليه ، الطلاق والنكاح والعتاق » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : كان الرجل يطلق ثم يقول : لعبت ، ويعتق ثم يقول : لعبت . فأنزل الله : ﴿**ولا تتخذوا آيات الله هزوًا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « من طلّق أو أعتق فقال : لعبت ، فليس قوله بشىء يقع عليه فيلزمه » . وأخرج ابن مردويه أيضا عن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هزوًا** ﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن مرفوعًا نحو حديث عبادة (٢) . وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجة ، والحاكم ، وصححه عن أبى هريرة ؛ قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاث جِدهُنَّ جِدٌّ وهزلُهن جدّ : النكاح ، والطلاق، والرجعة » (٣) .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾ .

الخطاب فى هذه الآية بقوله : ﴿ **وإذا طلقتم** ﴾ وبقوله : ﴿ **فلا تعضلوهن** ﴾ إما أن يكون للأزواج ، ويكون معنى العَضْل منهم أن يمنعوهن من أن يتزوجن مَنْ أردْن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن ، لحمية الجاهلية كما يقع كثيرًا من الخلفاء والسلاطين غيرة على من كن تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم ، لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا ، وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء ، يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بنى آدم ، إلاَّ من عصمه الله منهم بالورع والتواضع . وإما أن يكون الخطاب للأولياء ، ويكون معنى إسناد الطلاق إليهم أنهم سبب له، لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهنَّ ، وبلوغ الأجل المذكور

---

(١) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠١٧) وابن جرير ٢/٢٩٦ والبيهقى ٧/٣٢٣ .

(٢) ابن أبى شيبة ٥/١٠٦ وابن جرير ٢/٢٩٦ .

(٣) أبو داود فى الطلاق (٢١٩٤) والترمذى فى الطلاق (١١٨٤) وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٣٩) وصححه الحاكم ٢/١٩٧ ، ١٩٨ ، ووافقه الذهبى .

هنا المراد به المعنى الحقيقى ، أى نهايته ، لا كما سبق فى الآية الأولى . والعَضْل : الحبس . وحكى الخليل دجاجة معضلة قد احتبس بيضها . وقيل : العضل : التضييق والمنع ، وهو راجع إلى معنى الحبس ، يقال : أردت أمراً فعضلْتنى عنه ، أى منعتنى وضيقت علىَّ ، وأعضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الحيل . وقال الأزهرى : أصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه ، وعضلت الدجاجة نشب بيضها ، وكل مشكل عند العرب معضل ، ومنه قول الشافعى رحمه الله :

إذا المعْضِلاتُ تصدّيْن لى كشفتُ حَقَائقِها [1] بالنظرْ [2]

ويقال : أعضل الأمر : إذا اشتد ، وداء عُضال ، أى شديد عسير البرء أعيا الأطباء ، وعضل فلانٌ أيِّمَهُ [3] : أى منعها ، يعضلها بالضم والكسر لغتان . قوله : ﴿ **أن ينكحن** ﴾ أى من أن ينكحن فمحله الجر عند الخليل ، والنصب عند سيبويه والفراء . وقيل : هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى قوله : ﴿ **فلا تعضلوهن** ﴾ . وقوله : ﴿ **أزواجهن** ﴾ إن أريد به المطلقون لهنَّ فهو مجاز باعتبار ما كان ، وإن أريد به من يردْن أن يتزوجنه فهو مجاز باعتبار ما سيكون . وقوله : ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام ، وإنما أفرد مع كون المذكور قبله جمعًا حملاً على معنى الجمع بتأويله بالفريق ونحوه . وقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ محمول على لفظ الجمع ، خالف سبحانه بين الإشارتين افتنانًا. وقوله : ﴿ **أزكى** ﴾ أى أنمى و أنفع ﴿**وأطهر** ﴾ من الأدناس ﴿ **والله يعلم** ﴾ مالكم فيه الصلاح ﴿ **وأنتم لا تعلمون** ﴾ ذلك .

وقد أخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن مَعْقِل بن يسار ؛ قال : كانت لى أخت فأتانى ابن عم فأنكحتها إياه ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة فَهَوِيهَا وهويتَه ثم خطبها مع الخُطَّاب ، فقلت له : يالكع [4] ، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها ، والله لا ترجع إليك أبدًا، وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فعلم الله حاجته إليها ، وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله: ﴿ **وإذا طلقتم النساء** ﴾ الآية . قال : ففىَّ نزلت هذه الآية فكفَّرْتُ عن يمينى وأنكحتها إياه [5] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة

---

(١) فى المخطوطة : «خفاء لها » والتصويب من القرطبى ٢/ ٩٦٧ .

(٢) ومثله قول أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهـد بالذى يذمـك إن ولـى ويرضيك مقبلا
ولكـنه النـَّائى إذا كـنت آمـنا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضـلا

(٣) فى المخطوطة : « أيمة » .

(٤) لكع : اللئيم ، وقيل : هو العبد الذليل النفس .مختار الصحاح ص ٣٠٦ .

(٥) البخارى فى التفسير (٤٥٢٩) وفى النكاح (٥١٣٠) وفى الطلاق (٥٣٣١) وأبو داود فى النكاح (٢٠٨٧) والترمذى فى التفسير (٢٩٨١) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى التفسير (٦١) والطبرانى ٢٠/ ٢٠٤ ـ ٢٠٨ (٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧) .

أو طلقتين فتنقضى عدتها ثم يبدو له تزويجها [١] ، وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك ، فمنعها وليها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها [٢] .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن السدى قال : نزلت هذه الآية فى جابر بن عبد الله الأنصارى ، كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة وانقضت عدتها ، فأراد مراجعتها فأبى جابر، فقال : طلقت بنت عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية ؟ وكانت المرأة تريد زوجها ، فأنزل الله: ﴿ **وإذا طلقتم النساء** ﴾ [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل : ﴿ **إذا تراضوا بينهم بالمعروف** ﴾ يعنى بمهر وبينة ونكاح مؤتنف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أنكحوا الأيامى » فقال رجل : يارسول الله ، ما العلائق بينهم ؟ فقال : « ما تراضى عليه أهلهن » [٤] . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ قال: الله يعلم من حُبّ كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولى .

﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه النكاح والطلاق ، ذكر الرضاع ؛ لأن الزوجين قد يفترقان وبينهما ولد ، ولهذا قيل : إن هذا خاص بالمطلقات . وقيل : هو عام . وقوله : ﴿ **يرضعن** ﴾ قيل : هو خبر فى معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه . وقيل : هو خبر على بابه ليس هو فى معنى الأمر على حسب ما سلف فى قوله : ﴿ **يتربصن** ﴾ ، وقوله: ﴿ **كاملين** ﴾ تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقى لا تقريبى . وقوله : ﴿ **لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ أى ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وفيه دليل على أن إرضاع الحولين ليس حتمًا ، بل هو التمام ، ويجوز الاقتصار على ما دونه . وقرأ مجاهد وابن محيصن : « لمن أراد أن تتم » بفتح التاء ، ورفع الرضاعة على إسناد الفعل إليها . وقرأ أبو حيوة ، وابن أبى عبلة ، والجارود بن أبى سَبْرَة ، بكسر الراء من الرضاعة ، وهى لغة . وروى عن مجاهد أنه قرأ : « الرضعة » ، وقرأ ابن عباس :

(١) هكذا ، ولعل الصواب : « تزوّجها » .

(٢، ٣) ابن جرير ٢/٢٩٨ .

(٤) ابن جرير ٢/٢٩٩ من طريق عبد الرحمن بن البيلمانى عنه وأخرجه أيضا هو وابن أبى شيبة فى النكاح ٤/١٨٦ وأخرجه عن عبد الرحمن مرسلا

« لمن أراد أن يكمل الرضاعة » قال النحاس : لا يعرف البصريون الرضاعة إلا بفتح الراء ، وحكى الكوفيون جواز الكسر ، والآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها ، وقد حُمِل ذلك على ما إذا لم يقبل الرضيع غيرها .

قوله : ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن** ﴾ أى على الأب الذى يولد له ، وآثر هذا اللفظ دون قوله : وعلى الوالد للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات ، ولهذا ينسبون إليهم دونهن كأنهن إنما ولدن لهم فقط ، ذكر معناه فى الكشاف(١). والمراد بالرزق هنا : الطعام الكافى المتعارف به بين الناس . والمراد بالكسوة : ما يتعارفون به أيضًا ؛ وفى ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للأمهات المرضعات . وهذا فى المطلقات ، وأما غير المطلقات فنفقتهن وكسوتهن واجبة على الأزواج ، من غير إرضاعهن لأولادهن . وقوله : ﴿ **لا تكلف نفس إلا وسعها** ﴾ هو تقييد لقوله : ﴿ **بالمعروف** ﴾ أى هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته ، لا ما يشق عليه ويعجز عنه . وقيل : المراد : لا تكلف المرأة الصبر على التقتير فى الأجرة ، ولا يكلف الزوج ما هو إسراف؛ بل يراعى القصد (٢) .

قوله : ﴿ **لا تضارَّ** ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وجماعة ، ورواه أبان عن عاصم بالرفع على الخبر . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى ، وعاصم فى المشهور عنه : « تضار » بفتح الراء المشددة على النهى . وأصله : لا تضارر ، أو لا تضارر على البناء للفاعل أو المفعول، أى لا تضارر بسبب الولد ، بأن تطلب منه مالا يقدر عليه من الرزق والكسوة ، أو تفرط فى حفظ الولد ، والقيام بما يحتاج إليه ؛ ولا تضارر من زوجها بأن يقصرعليها فى شىء مما يجب عليه ، أو ينتزع ولدها منها بلاسبب ، وهكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين . وقرأ عمر ابن الخطاب : « لا تضارر » على الأصل بفتح الراء الأولى ؛ وقرأ أبو جعفر بن القعقاع (٣) : « لا تضار » بإسكان الراء وتخفيفها. وروى عنه الإسكان والتشديد . وقرأ الحسن وابن عباس: « لاتضارر » بكسر الراء الأولى ؛ ويجوز أن تكون الباء فى قوله : ﴿ **بولده** ﴾ صلة لقوله تضار على أنه بمعنى تضر ، أى لا تضر والدة بولدها فتسىء تربيته ، أو تقصر فى غذائه؛ وأضيف الولد تارة إلى الأب ، وتارة إلى الأم ؛ لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب إليه مع ما فى ذلك من الاستعطاف . وهذه الجملة تفصيل للجملة التى قبلها وتقريرها ، أى لا يكلف كل

---

(١) الكشاف للزمخشرى ١/ ٢٧٩ .

(٢) ذكر الله ذلك وهو قوله : ﴿ **بالمعروف** ﴾ ؛ لأنه يعلم تفاوت أحوال خلقه بالغنى والفقر ، وأن منهم الموسع والمقتر ، وبين ذلك ، فأمر كلاً أن ينفق على من لزمته نفقته من زوجته وولده على قدر ميسرته كما قال الله تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها** ﴾ الطلاق : ٧ .

(٣) أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى المدنى : أحد القراء العشرة من التابعين كان إمام أهل المدينة فى القراءة وكان من المفتين المجتهدين . توفى فى المدينة سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل : ثلاثين ومائة على الأصح . الأعلام للزركلى ٨/ ١٦ والنشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١/ ١٧٨ .

واحد منها الآخر مالا يطيقه ، فلا تضاره بسبب ولده .

قوله: ﴿ **وعلى الوارث** ﴾ هو معطوف على قوله : ﴿ **وعلى المولود له** ﴾ وما بينهما تفسير للمعروف ، أوتعليل له معترض بين المعطوف عليه ، واختلف أهل العلم فى معنى قوله : ﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾ فقيل : هو وارث الصبى ، أى إذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبى المولود إرضاعه كما كان يلزم أباه ذلك ، قاله عمر بن الخطاب وقتادة والسدى والحسن ومجاهد وعطاء وأحمد وإسحاق وأبو حنيفة وابن أبى ليلى على خلاف بينهم : هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيبًا من الميراث أو على الذكور فقط أو على كل ذى رحم له وإن لم يكن وارثًا منه ؟ وقيل : المراد بالوارث: وارث الأب تجب عليه نفقة المرضعة ، وكسوتها بالمعروف ، قاله الضحاك . وقال مالك فى تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك ، ولكنه قال: إنها منسوخة وإنها لا تلزم الرجل نفقة أخ ، ولا ذى قرابة ، ولا ذى رحم منه ، وشرطه الضحاك بألا يكون للصبى مال ، فإن كان له مال أخذت أجرة رضاعه من ماله . وقيل : المراد بالوارث المذكور فى الآية هو الصبى نفسه ، أى عليه من ماله إرضاع نفسه إذا مات أبوه وورث من ماله ، قاله قبيصة بن ذؤيب وبشير بن نصر ، قاضى عمر بن عبد العزيز ، وروى عن الشافعى . وقيل : هو الباقى من والدى المولود بعد موت الآخر منهما ، فإذا مات الأب كان على الأم كفاية الطفل ، إذا لم يكن له مال ، قاله: الثورى .

وقيل : إن معنى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الوارث مثل ذلك** ﴾ أى وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع ، والخدمة ، والتربية . وقيل : إن معنى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الوارث مثل ذلك** ﴾ : أنه يحرم عليه الإضرار بالأم كما يحرم على الأب ، وبه قالت طائفة من أهل العلم ، قالوا : وهذا هو الأصل ، فمن ادعى أنه يرجع فيه العطف إلى جميع ما تقدم فعليه الدليل . قال القرطبى : وهو الصحيح ، إذ لو أراد الجميع الذى هو الرضاع ، والإنفاق ، وعدم الضرر لقال (١) : وعلى الوارث مثل هؤلاء ، فدل على أنه معطوف على المنع من المضارة ، وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضى عبد الوهاب : قال ابن عطية : ، وقال مالك وجميع أصحابه والشعبى والزهرى والضحاك وجماعة من العلماء : المراد بقوله : ﴿ **مثل ذلك** ﴾ ألاّ تضار ، وأما الرزق والكسوة فلا يجب شىء منه. وحكى ابن القاسم عن مالك مثل ما قدمنا عنه فى تفسير هذه الآية ودعوى النسخ . ولايخفى عليك ضعف ما ذهبت إليه هذه الطائفة فإن ما خصصوا به معنى قوله: ﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾ من ذلك المعنى، أى عدم الإضرار بالمرضعة قد أفاده قوله: ﴿ **لا تضار والدة بولدها** ﴾

(١) فى المطبوعة : « يقال » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، وانظر: القرطبى ٢/ ٩٧٨ وقد ذكر القرطبى هناك كلامًا نفيسًا فراجعه .

لصدق على كل مضارة ترد عليها من المولود له أو غيره . وأما قول القرطبى : لو أراد الجميع لقال مثل هؤلاء فلا يخفى ما فيه من الضعف البيّن ، فإن اسم الإشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل المذكور أو نحوه . وأما ما ذهب إليه أهل القول الأول من أن المراد بالوارث : وارث الصبى ، فيقال عليه : إن لم يكن وارثاً حقيقة مع وجود الصبى حيًا ، بل هو وارث مجازًا باعتبار ما يؤول إليه . وأما ما ذهب إليه أهل القول الثانى فهو وإن كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقى ، لكن فى إيجاب النفقة عليه مع غنى الصبى ما فيه ولهذا قيده القائل به بأن يكون الصبى فقيراً، ووجه الاختلاف فى تفسير الوارث ما تقدم من ذكر الوالدات والمولـود له والـولد ، فاحتمل أن يضاف الوارث إلى كل منهم .

قوله : ﴿ **فإن أرادا فصالاً** ﴾ الضمير للوالدين . والفصال [1] : الفطام عن الرضاع ، أى التفريق بين الصبى والثدى ، ومنه سمى الفصيل ؛ لأنه مفصول عن أمه . وقوله : ﴿ **عن تراض منهما** ﴾ أى صادرًا عن تراض من الأبوين إذا كان الفصال قبل الحولين ، ﴿ **فلا جناح عليهما** ﴾ فى ذلك الفصال . سبحانه لما بين أن مدة الرضاع حولين كاملين قيد ذلك بقوله : ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبى قبل الحولين كان ذلك جائزًا له ، وهنا اعتبر سبحانه تراضى الأبوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الأمرين ، بأن يقال : إن الإرادة المذكورة فى قوله : ﴿ **لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ لابد أن تكون منهما ، أو يقال : إن تلك الإرادة إذا لم يكن الأبوان للصبى حيين بأن كان الموجود أحدهما، أو كانت المرضعة للصبى ظئرا غير أمه . والتشاور : استخراج الرأى ، يقال : شُرْتُ العسل ، استخرجته ، وشُرْتُ الدابة : أجريتها لاستخراج جريها ، فلا بد لأحد الأبوين إذا أراد فصال الرضيع أن يراضى الآخر ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك . قوله: ﴿ **وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم** ﴾ قال الزجاج : التقدير : أن تسترضعوا أولادكم غير الوالدة. وعن سيبويه أنه حذف اللام ؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الأول محذوف ، والمعنى : أن تسترضعوا المراضع أولادكم ﴿ **إذا سلمتم ما آتيتم** ﴾ بالمد ، أى أعطيتم وهى قراءة الجماعة إلا ابن كثير ، فإنه قرأ بالقصر ، أى فعلتم ، ومنه قول زهير :

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْه فَإِنَّما ... تــوارثَــه آبـــاءُ آبـائهم قَبْلُ

والمعنى : أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم ، إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم ، إلى وقت إرادة الاسترضاع ، قاله سفيان الثورى ومجاهد . وقال قتادة والزهرى : إن معنى الآية إذا سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع ، أى سلم كل واحد من الأبوين ورضى وكان ذلك عن اتفاق منهما ، وقصد خير ، وإرادة معروف

---

(١) أصل الفصل التفريق ، قال مجاهد : التشاور فيما دون الحولين إن أرادت أن تفطم وأبى فليس لها ، وإن أراد هو ولم تُرِد فليس له ذ لك حتى يقع ذلك عن تراض منهما وتشاور غير مسيئين إلى أنفسهما وإلى صبيهما .

من الأمر ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ **سلمتم** ﴾ عامًا للرجال والنساء تغليبًا ، وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط . وقيل : المعنى : إذا سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها ، فيكون المعنى : إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه ، أى إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف ، أى بما يتعارفه الناس من أجرالمرضعات من دون مماطلة لهن أوحط بعض ما هو لهنّ من ذلك ، فإن عدم توفير أجرهنّ يبعثهن على التساهل بأمر الصبى و التفريط فى شأنه .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن** ﴾ قال : المطلقات ﴿ **حولين** ﴾ قال : سنتين ﴿ **لا تضار والدة بولدها** ﴾ يقول : لا تأبى أن ترضعه ضرارًا لتشق على أبيه ﴿ **ولا مولود له بولده** ﴾ يقول : ولا يضار الوالد بولده فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها بذلك ﴿ **وعلى الوارث** ﴾ قال : يعنى الولى من كان ﴿ **مثل ذلك** ﴾ قال : النفقة بالمعروف وكفالته ورضاعه ، إن لم يكن للمولود مال ، وأن لا تضار أمه ﴿ **فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور** ﴾ قال : غير مسيئين فى ظلم أنفسهما ولا إلى صبيهما فلا جناح عليهما ﴿ **وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم** ﴾ قال : خيفة الضيعة على الصبى ﴿ **فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف** ﴾ قال : حساب ما أرضع به الصبى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية ؛ أنه قال : المراد بقوله : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن** ﴾ هى فى الرجل يطلق امرأته وله منها ولد ، وقال فى قوله : ﴿ **إذا سلمتم ما آتيتم** ﴾ قال : ما أعطيتم الظئر من فضل على أجرها .

وأخرج أبو داود فى ناسخه عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن** ﴾ قال : إنها المرأة تطلق أويموت عنها زوجها . وأخرج سعيد بن منصور و ابن جرير وابن المنذر والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى التى تضع لستة أشهر ؛ أنها ترضع حولين كاملين ، وإذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثًا وعشرين شهرًا لتمام ثلاثين شهرًا ، وإذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرًا ، ثم تلا : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** ﴾ قال : على قدر الميسرة . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **لا تضار والدة بولدها ولا مولوده بولده** ﴾ ليس لها أن تلقى ولدها عليه ، ولا يجد من يرضعه ، وليس له أن يضارها فينتزع منها ولدها ، وهى تحب أن ترضعه ﴿ **وعلى الوارث** ﴾ قال : هو ولى الميت .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء وإبراهيم والشعبى ، فى قوله: ﴿ **وعلى الوارث** ﴾ قال : هو وارث الصبى ينفق عليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه ، وزاد : إذا كان المولود لامال له ، مثل الذى على والده من أجر الرضاع. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن

نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن سيرين نحوه أيضًا . وأخرج ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب في قوله : ﴿ **وعلى الوارث مثل ذلك** ﴾ قال : هو الصبي . .وأخرج وكيع عن عبد الله بن مُغَفَّل نحوه. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وعلى الوارث مثل ذلك** ﴾ قال : لا يضار . وأخرج ابن جرير عن الضحاك : ﴿ **فإن أرادا فصالاً** ﴾ قال : الفطام . وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ؛ قال : التشاور فيما دون الحولين ليس لها أن تفطمه إلا أن يرضى . وليس له أن يفطمه إلا أن ترضى. وأخرجه أيضًا عن عطاء في قوله تعالى : ﴿ **وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم** ﴾ قال: أمه أو غيرها ﴿ **فلا جناح عليكم إذا سلمتم** ﴾ قال : إذا سلمت لها أجرها ﴿ **ما آتيتم** ﴾ ما أعطيتم .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ .

لما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكرها ذكر الإرضاع عقَّب ذلك بذكر عدة الوفاة ، لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق . قال الزجاج : ومعنى الآية : والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا ، أي ولهن زوجات فالزوجات يتربصن (١) . وقال أبوعلى الفارسي : تقديره : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بعدهم ، وهو كقولك : السمن مَنَوان بدرهم ، أي منه . وحكى المهدوي عن سيبويه أن المعنى : وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون . وقيل : التقدير : وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن ، ذكره صاحب الكشاف(٢) وفيه أن قوله: ﴿ **ويذرون أزواجًا** ﴾ لا يلائم ذلك التقدير ؛ لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة . وقال بعض النحاة من الكوفيين : إن الخبر عن الذين متروك ، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتربصن . ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر، والأنثى لأربعة فزاد الله سبحانه على ذلك عشرًا ؛ لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلا ولا تتأخر عن هذا الأجل .

وظاهر هذه الآية العموم ، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدة ، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق: ٤] وإلى هذا ذهب الجمهور . وروى عن بعض الصحابة وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتد بآخر الأجلين جمعا بين العام والخاص وإعمالاً لهما والحق ما قاله الجمهور ،

---

(١) التربص : التأني والتصبر عن النكاح وترك الخروج عن مسكن النكاح ، وذلك بألا تفارقه ليلا ، ولا أن تخرج في حوائجها من وقت انتشار الناس بكرة إلى وقت هدوئهم بعد العتمة ، وفي البخاري ومسلم عن أم عطية أن رسول الله ﷺ قال : « لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا تلبس ثوبا مصبوغًا إلا ثوب عَصْب ولا تكتحل ولا تمس طيبًا إلا إذا طهرت نبذة من قسط أو أظفار » .

(٢) الكشاف ١/ ٢٨١ ، ٢٨٢ .

والجمع بين العام والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة ولا قواعد الشرع ، ولا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بيان أن حكمه مغاير لحكم العام ومخالف لـه . وقد صح عنه ﷺ أنه أذن لسبيعة الأسلمية أن تتزوج بعد الوضع والتربص الثانى والتصبر عن النكـاح (١) .

وظاهرالآية عدم الفرق بين الصغيرة والكبيرة ، والحرة والأمة ، وذات الحيض والآيسة ، وأن عدتهن جميعًا للوفاة أربعة أشهر وعشر . وقيل : إن عدة الأمة نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام. قال ابن العربى: إجماعًا إلا ما يحكى عن الأصم فإنه سوى بين الحرة والأمة (٢) ، وقال الباجى : ولا نعلم فى ذلك خلافًا إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال : عدتها عدة الحرة، وليس بالثابت عنه ، ووجه ما ذهب إليه الأصم وابن سيرين ، ما فى هذه الآية من العموم ، ووجه ما ذهب إليه من عداهما قياس عدة الوفاة على الحد ، فإنه ينصفه للأمة بقوله سبحانه : ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ [النساء : ٢٥] . وقد تقدم حديث : « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » (٣) وهو صالح للاحتجاج به ، وليس المراد منه إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة . وعدتها على النصف من عدتها ، ولكنه لما لم يمكن أن يقال : طلاقها تطليقة ونصف ، وعدتها حيضة ونصف لكون ذلك لا يعقل ، كانت عدتها وطلاقها ذلك القدر المذكور فى الحديث جبرًا للكسر، ولكن هاهنا أمر يمنع من هذا القياس الذى عمل به الجمهور ، وهو أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا هو ما قدمنا من معرفة خلوها من الحمل ، ولا يعرف إلا بتلك المدة . ولا فرق بين الحرة والأمة فى مثل ذلك ، بخلاف كون عدتها فى غير الوفاة حيضتين ، فإن ذلك يعرف به خلو الرحم ، ويؤيد عدم الفرق ما سيأتى فى عدة أم الولد .

واختلف أهل العلم فى عدة أم الولد لموت سيدها . فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد ابن جبير والحسن وابن سيرين والزهرى وعمر بن عبد العزيز والأوزاعى وإسحاق بن راهويه (٤) وأحمد بن حنبل ، فى رواية عنه: إنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا ﷺ « عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر » (٥) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم وصححه ، وضعفه أحمد وأبو عبيد . وقال

(١) الحديث فى قصة سبيعة ، عن أم سلمة : أخرجه البخارى فى التفسير (٤٩٠٩) والطلاق (٥٣١٨) ، ومسلم فى الطلاق (١٤٨٥ /٥٧) وأبو داود فى الطلاق (٤٣٠٦) والترمذى فى الطلاق (١١٩٤) وقال: « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٢٦) وفى العدة ٦/ ١٩٠ ــ ١٩٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربى ١/ ٢١٠ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) فى المطبوعة : « إسحاق وابن راهويه » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) أحمد ٤/ ٢٠٣ وأبو داود فى الطلاق (٢٣٠٨) وابن ماجة فى النكاح (٢٠٨٣) ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٩ على شرط الشيخين وافقه الذهبى .

الدارقطني : الصواب أنه موقوف . وقال طاوس وقتادة :عدتها شهران وخمس ليال . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح : تعتد بثلاث حيض ، وهو قول على وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعى . وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه: عدتها حيضة وغير الحائض شهر ، وبه يقول ابن عمر والشعبى ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور .

قوله :﴿ **فإذا بلغن أجلهن** ﴾ المراد بالبلوغ هنا : انقضاء العدة ﴿ **فلا جناح عليكم فيما فعلن**﴾ من التزين والتعرض للخطاب ﴿ **بالمعروف** ﴾ الذى لايخالف شرعًا ولا عادة مستحسنة . وقدا استدل بذلك على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة . وقد ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما من غير وجه ؛ أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا » (١) . وكذلك ثبت عنه ﷺ فى الصحيحين وغيرهما النهى عن الكحل ، لمن هى فى عدة الوفاة (٢) . والإحداد : ترك الزينة من الطيب ، ولبس الثياب الجيدة والحلىّ وغير ذلك، ولا خلاف فى وجوب ذلك فى عدة الوفاة، ولا خلاف فى عدم وجوبه فى عدة الرجعية . واختلفوا فى عدة البائنة على قولين ، ومحل ذلك كتب الفروع .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**والذين يتوفون منكم** ﴾ قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت فى بيته سنة ، ينفق عليها من ماله ، ثم أنزل الله : ﴿ **والذين يتوفون منكم** ﴾ الآية. فهذه عدة المتوفى عنها إلا أن تكون حاملاً ، فعدتها أن تضع ما فى بطنها (٣) . وقال فى ميراثها : ﴿ ولهن الربع مما تركتم﴾ [النساء : ١٢] .

فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة ﴿ **فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم** ﴾ يقول : إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها ، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج ، فذلك المعروف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى العالية قال : ضمت هذه الأيام العشر إلى الأربعة أشهر؛ لأن فى العشر ينفخ فيه الروح . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن** ﴾ يقول:إذا انقضت عدتها .

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٢٨٠ ــ ١٢٨٢) وفى الحيض (٣١٣) والطلاق (٥٣٣٤ ــ ٥٣٣٦) ومسلم فى الطلاق (١٤٨٦ ــ ١٤٨٩ / ٥٨ـ٦٢) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٩٩ ، ٢٣٠٢) والترمذى فى الطلاق (١١٩٥ ــ ١١٩٧) وقال : « حسن صحيح » كلهم عن زينب بنت أبى سلمة عن أم حبيبة ، وزينب بنت جحش زوجى النبى ﷺ ، وأخرجوا مثل ذلك عن عائشة .

(٢) البخارى فى الطلاق (٥٣٣٨ ، ٥٣٤١) ومسلم فى الطلاق (١٤٨٨ / ٦٠) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٩٩) كلهم عن زينب بنت أبى سلمة عن أم سلمة .

(٣) ابن جرير ٣١٧/٢، والبيهقى ٤٢٧/٧ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى قوله ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ يعنى أولياءها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس ، أنه كره للمتوفى عنها زوجها الطيب والزينة .

وأخرج مالك وعبد الرزاق وأهل السنن ، وصححه الترمذى والحاكم عن الفريعة بنت مالك بن سنان [(١)] ، وهى أخت أبى سعيد الخدرى ؛ أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأل أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدرة ، وأن زوجها خرج فى طلب أعْبُد لها أبقوا حتى إذا تطرف القدوم لحقهم فقتلوه . قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلى فإن زوجى لم يتركنى فى منزل يملكه ولا نفقة ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فانصرفت حتى إذا كنت فى الحجرة أو فى المسجد فدعانى أو أمر بى فدعيت ، فقال : « كيف قلت ؟ » قالت : فرددت إليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى ، فقال : «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » ، قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلىّ فسألنى عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به [(٢)] .

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ .

الجناح : الإثم ، أى لا إثم عليكم ، والتعريض ضد التصريح ، وهو من عرض الشىء ، أى جانبه كأنه يحوم به حول الشىء ولا يظهره . وقيل : هو من قولك : عرضت الرجل ، أى أهديت له ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضاً ، أى أهدوا لهما ، فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلامًا يفهم معناه . وقال فى الكشاف : الفرق بين الكناية والتعريض ، أن الكناية أن يذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له ، والتعريض أن يذكر شيئًا يدل به على شىء ولم يذكره ، كمايقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا : وحسبك بالتسليم منى تقاضيا . وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ؛ لأنه يلوح منه ما يريده . انتهى[(٣)] .

---

(١) الفريعة بنت مالك بن سنان الخدرية ، وأمها حبيبة بنت عبد الله بن أبى ، صحابية قديمة معروفة وراوية من راويات الحديث ، أسلمت وبايعت وشهدت بيعة الرضوان ، وروت عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث وروت عنها زينب بنت كعب بن عجرة . الإصابة ٤/ ٣٨٦ وأعلام النساء ٤/ ١٦٩ .

(٢) مالك فى الموطأ فى الطلاق (٨٧) وعبد الرزاق فى الطلاق (١٢٠٧٣ ــ ١٢٠٧٦) وأبو داود فى الطلاق (٢٣٠٠) والترمذى فى الطلاق (١٢٠٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الطلاق ٦/ ١٩٩ ، ٢٠٠ وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٣١) ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٨ ووافقه الذهبى ، والدارمى ٢/ ١٦٨ .

(٣) الكشاف ١/ ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

والخِطبة بالكسر ما يفعله الطالب من الطلب ، والاستلطاف بالقول والفعل ، يقال : خطبها يخطبها خطبة وخطبًا، وأما الخُطبة بضم الخاء فهى الكلام الذى يقوم به الرجل خاطبا .

وقوله : ﴿ **أكننتم** ﴾ معناه : سترتم وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة . والإكنان : التستر والإخفاء ، يقال : أكننته وكننته بمعنى واحد . ومنه : ﴿ بيض مكنون ﴾ [الصافات : ٩] ودر مكنون ، ومنه أيضا : أكنّ البيت صاحبه ، أى ستره . وقوله : ﴿ **علم الله أنكم ستذكرونهن** ﴾ أى علم الله أنكم لا تصبرون عن النطق لهنّ برغبتكم فيهن ، فرخص لكم فى التعريض دون التصريح . وقال فى الكشاف : إن فيه طرفًا من التوبيخ كقوله : ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾ (١) وقوله : ﴿ **ولكن لا تواعدوهن سرًا** ﴾ معناه : على سر ، فحذف الحرف ؛ لأن الفعل لا يتعدى إلى المفعولين . وقد اختلف العلماء فى معنى السر فقيل: معناه نكاحًا ، أى لا يقل الرجل لهذه المعتدة : تزوجينى ، بل يعرض تعريضًا . وقد ذهب إلى أن معنى الآية هذا جمهورُ العلماء . وقيل : السر : الزنا ، أى لا يكن منكم مواعدة على الزنا فى العدة ثم التزويج بعدها . قاله جابر بن زيد وأبو مِجْلَز والحسن وقتادة والضحاك والنخعى ، واختاره ابن جرير الطبرى ، ومنه قول الحطيئة :

وَيَحْرُمُ سِرُّ جَارَتِهِمْ عَلَيهِمْ ... وَيَأْكُلُ جَارُهُم أنفَ القِصَاعِ (٢)

وقيل : السر : الجماع ، أى لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيبًا لهن فى النكاح ، وإلى هذا ذهب الشافعى فى معنى الآية ، ومنه قول امرئ القيس :

ألاَ زَعَمَتْ بَسْبَاسة اليومَ أنَّنِي ... كبِرْتُ وَأنْ لا يُحْسِنِ السِرّ أمثَالِي

ومنه قول الأعشى :

فَلَنْ تَطْلُبُوا سِرَّها للْغِنَى ... وَلَنْ تَسْلِمُوها لأزْهَادِهَا

أراد : تطلبون نكاحها لكثرة مالها ، ولن تسلموها لقلة مالها ، والاستدراك بقوله : ﴿**لكن**﴾ من مقدّر محذوف دل عليه ﴿ **ستذكرونهن** ﴾ أى فاذكروهن ﴿ **ولكن لا تواعدوهن سرًا**﴾ قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز . وقال أيضًا : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدة للمرأة فى نفسها وللأب فى ابنته البكر وللسيد فى أمته . قوله :﴿ **إلا أن تقولوا قولاً معروفًا** ﴾ قيل : هو استثناء منقطع بمعنى لكن ، والقول المعروف : هو ما أبيح من التعريض . ومنع صاحب

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٣ .

(٢) ديوانه ٩٣ واللسان (أنف) يمدح بنى رياح وبنى كليب من بنى يربوع ، والقصاع : الجفنة الضخمة ، يذكرعفتهم وحفاظهم وامتناعهم من انتهاك حرمة الجارة ، واقتراف الإثم ، وقبل البيت :

فليس الجار جار بنى رياح ... بمقصى المحل ولامضاع

هم صنعوا لجارهم وليست ... يَدُ الخرقاءِ مثل يد الصَّنَاعِ

الكشاف أن يكون منقطعًا وقال : هو مستثنى من قوله : ﴿ **لا تواعدوهن** ﴾ أى لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة [١] ؛ فجعله على هذا استثناء مفرغًا ووجه منع كونه منقطعًا أنه يؤدى إلى جعل التعريض موعودًا وليس كذلك ؛ لأن التعريض طريق المواعدة ، لأنه الموعود في نفسه . قوله : ﴿ **ولاتعزموا عقدة النكاح** ﴾ : قد تقدم الكلام فى معنى العزم، يقال :عزم الشيء ، وعزم عليه ، والمعنى هنا: لا تعزموا على عقدة النكاح ثم حذف « على ». قال سيبويه : والحذف فى هذه الآية لايقاس عليه وقال النحاس : يجوز أن يكون المعنى ولا تعقدوا عقدة النكاح ؛ لأن معنى تعزموا وتعقدوا واحد . وقيل : إن العزم على الفعل يتقدمه فيكون فى هذا النهى مبالغة ؛ لأنه إذا نهى عن المتقدم على الشيء ، كان النهى عن ذلك الشيء بالأولى . قوله : ﴿ **حتى يبلغ الكتاب أجله** ﴾ يريد : حتى تنقضى العدة . والكتاب هنا هو الحد والقدر الذى رسم من المدة ، سماه كتابًا ؛ لكونه محدودًا ومفروضًا كقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ [النساء : ١٠٣] وهذا الحكم أعنى تحريم النكاح فى العدة مجمع عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء** ﴾ قال : التعريض أن تقول : إنى أريد التزويج ، وإنى لأحب المرأة من أمرها وأمرها ، وإن من شأنى النساء ، ولوددت أن الله يسر لى امرأة صالحة . وأخرج ابن جرير عنه أنه يقول لها : إن رأيت ألا تسبقينى بنفسك ، ولوددت أن الله قد هيأ بينى وبينك ، ونحو هذا من الكلام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال: يقول إنى فيك لراغب ، ولوددت أنى تزوجتك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **أو أكننتم** ﴾ قال : أسررتم . وأخرج عبد الرزاق عن الضحاك مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **علم الله أنكم ستذكرونهن** ﴾ قال : بالخطبة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهد قال : ذكره إياها فى نفسه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولكن لا تواعدوهن سرًا** ﴾ قال : يقول لها : إنى عاشق ، وعاهدينى ألا تتزوجى غيرى ونحو هذا ﴿ **إلا أن تقولوا قولا معروفا** ﴾ وهو قوله : إن رأيت ألا تسبقينى بنفسك . وأخرج ابن جرير عنه فى السر أنه الزنا ، كان الرجل يدخل من أجل الزنا وهو يعرض بالنكاح . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **إلا أن تقولوا قولا معروفا** ﴾ قال : يقول : إنك لجميلة، وإنك إلى خير ، وإن النساء من حاجتى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**ولا تعزموا عقدة النكاح** ﴾ قال : لا تنكحوا ﴿ **حتى يبلغ الكتاب أجله**﴾ قال : حتى تنقضى العدة .

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٤.

﴿ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾ .

المراد بالجناح هنا : التبعة من المهر ونحوه ، فرفعه رفع لذلك ، أى لاتبعة عليكم بالمهر ونحوه إن طلقتم النساء على الصفة المذكورة و « ما » فى قوله : ﴿ ما لم تمسوهن ﴾ هى مصدرية ظرفية بتقدير المضاف ، أى مدة عدم مسيسكم ، ونقل أبو البقاء أنها شرطية من باب اعتراض الشرط على الشرط ليكون الثانى قيدًا للأول كما فى قولك : إن تأتنى إن تحسن إلى أكرمك ، أى إن تأتنى محسنًا إلى . والمعنى : إن طلقتموهن غير ماسين لهنّ (١) . وقيل : إنها موصولة ، أى إن طلقتم النساء اللاتى لم تمسوهن ، وهكذا اختلفوا فى قوله : ﴿ أو تفرضوا ﴾ فقيل : «أو » بمعنى « إلا » أى إلا أن تفرضوا . وقيل : بمعنى حتى ، أى حتى تفرضوا . وقيل : بمعنى الواو، أى وتفرضوا . ولست أرى لهذا التطويل وجهًا . ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس ، فإن الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين ما لم يقع أحد الأمرين ، أى مدة انتفاء ذلك الأحد ، ولا ينتفى الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معًا ، فإن وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل .

واعلم أن المطلقات أربع : مطلقة مدخول بها مفروض لها ، وهى التى تقدم ذكرها قبل هذه الآية ، وفيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئًا وأن عدتهن ثلاثة قروء . ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها ، وهى المذكورة هنا فلا مهر لها ، بل المتعة ، وبين فى سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدة عليها . ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها وهى المذكورة بقوله سبحانه هنا : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة ﴾ . ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهنّ ﴾ [النساء : ٢٤] . والمراد بقوله : ﴿ ما لم تمسوهن ﴾ ما لم تجامعوهن . وقرأ ابن مسعود : «من قبل أن تجامعوهن » أخرجه عنه ابن جرير . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم : « ما لم تمسوهن » . وقرأ حمزة والكسائى : «تماسوهنّ » من المفاعلة . والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر .

قوله : ﴿ ومتعوهن ﴾ أى أعطوهن شيئًا يكون متاعًا لهنّ . وظاهر الأمر الوجوب ، وبه قال على وابن عمر والحسن البصرى وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهرى وقتادة والضحاك .

---

(١) المس : النكاح . قال تعالى : ﴿ ولم يمسسنى بشر ﴾ . [آل عمران : ٤٧ ، ومريم : ٢٠] .

ومن أدلة الوجوب قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلاً ﴾ [الأحزاب: ٤٩] . وقال مالك وأبو عبيد والقاضي شريح وغيرهم : إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لاواجبة لقوله تعالى: ﴿ حقًا على المحسنين ﴾ ، ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب ، بل هو تأكيد له كما فى قوله فى الآية الأخرى : ﴿حقًا على المتقين ﴾ [البقرة : ٢٤١] أى : الوفاء بذلك والقيام به شأن أهل التقوى ، وكل مسلم يجب عليه أن يتقى الله سبحانه .

وقد وقع الخلاف أيضًا هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض أم ليست بمشروعة إلا لها فقط؟ فقيل : إنها مشروعة لكل مطلقة ، وإليه ذهب ابن عباس وابن عمر وابن عطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وأبو العالية والحسن البصرى والشافعى فى أحد قوليه، وأحمد وإسحاق ، ولكنهم اختلفوا : هل هى واجبة فى غير المطلقة قبل البناء والفرض أم مندوبة فقط ؟ واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين**﴾ وبقوله تعالى : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] والآية الأولى عامة لكل مطلقة ، والثانية فى أزواج النبى ﷺ وقد كن مفروضًا لهن مدخولا بهن . وقال سعيد بن المسيب : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضا لها لقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن ﴾ [الأحزاب : ٤٩] قال : هذه الآية التى فى الأحزاب نسخت التى فى البقرة .

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء والتسمية ؛ لأن المدخول بها تستحق جميع المسمى أو مهر المثل ، وغير المدخولة التى قد فرض لها زوجها فريضة ، أى سمى لها مهرًا وطلقها قبل الدخول تستحق نصف المسمى ، ومن القائلين بهذا ابن عمر ومجاهد . وقد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول والفرض لا تستحق إلا المتعة ، إذا كانت حرة ، وأما إذا كانت أمة فذهب الجمهور إلى أن لها المتعة ، وقال الأوزاعى (١) والثورى : لا متعة لها ؛ لأنها تكون لسيدها ، وهو لا يستحق مالاً فى مقابل تأذى مملوكته ؛ لأن الله سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول والفرض ، لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك . وقد اختلفوا فى المتعة المشروعة هل هى مقدّرة بقدر أم لا ؟ فقال مالك والشافعى فى الجديد : لاحدّ لها معروف ، بل ما يقع عليه اسم المتعة . وقال أبو حنيفة : إنه إذا تنازع الزوجان فى قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها ، ولا ينقص من خمسة دراهم ؛ لأن أقل

---

(١) عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمد الأوزاعى ، من قبيلة الأوزاع ولد فى ٨٨ هـ ، إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد ، وأحد الكتاب المترسلين ، ولد فى بعلبك ، ونشأ فى البقاع ، وسكن بيروت وتوفى بها ، وعرض عليه القضاء فامتنع ، له كتاب السنن ، والمسائل ، وتوفى ١٥٧ هـ .الأعلام ٣/ ٣٢٠ واللباب ١/ ٩٢ ، ٩٣ .

المهر عشرة دراهم ، وللسلف فيها أقوال سيأتى ذكرها إن شاء الله .

وقوله : ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ يدل على أن الاعتبار فى ذلك بحال الزوج ، فالمتعة من الغنى فوق المتعة من الفقير . وقرأ الجمهور : ﴿ على المُوْسِعِ ﴾ بسكون الواو وكسر السين ، وهو الذى اتسعت حاله . وقرأ أبو حيوة[1] بفتح الواو وتشديد السين وفتحها . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمر وعاصم فى رواية أبى بكر : ﴿ قدْره ﴾ بسكون الدال فيهما . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص بفتح الدال فيهما . قال الأخفش وغيره : هما لغتان فصيحتان ، وهكذا يقرأ فى قوله تعالى : ﴿ فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد: ١٧] وقوله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ [الأنعام : ٩١] . والمقتر: المقلّ ، ومتاعًا مصدر مؤكد لقوله: ﴿ومتعوهن ﴾ . والمعروف : ما عرف فى الشرع والعادة الموافقة له . وقوله : ﴿ حقًا ﴾ وصف لقوله : ﴿ متاعًا ﴾ أومصدر لفعل محذوف ، أى حق ذلك حقا ، يقال : حققت عليه القضاء وأحققت ، أى أوجبت .

قوله : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ الآية فيه دليل على أن المتعة لا تجب لهذه المطلقة لوقوعها فى مقابلة المطلقة قبل البناء والفرض التى تستحق المتعة . وقوله : ﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ أى قالوا : وجب عليكم نصف ما سميتم لهن من المهر وهذا مجمع عليه . وقرأ الجمهور : ﴿ فنصف ﴾ بالرفع . وقرأ من عدا الجمهور بالنصب ، أى فادفعوا نصف ما فرضتم، وقرئ أيضًا بضم النون وكسرها وهما لغتان . وقد وقع الاتفاق على أن المرأة التى لم يدخل بها زوجها ومات ، وقد فرض لها مهرًا ، تستحقه كاملاً بالموت ، ولها الميراث وعليها العدة . واختلفوا فى الخلوة هل تقوم مقام الدخول ، وتستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحق بالدخول أم لا ؟ فذهب إلى الأول مالك ، والشافعى فى القديم ، والكوفيون والخلفاء الراشدون وجمهور أهل العلم ، وتجب أيضا عندهم العدة . وقال الشافعى فى الجديد : لا يجب إلا نصف المهر ، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع ولا تجب عنده العدة وإليه ذهب جماعة من السلف .

قوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أى المطلقات ، ومعناه : يتركن ويصفحن ، ووزنه : يفعلن ، وهو استثناء مفرغ من أعم العام ، وقيل : منقطع ومعناه : يتركن النصف الذى يجب لهنّ على الأزواج ، ولم تسقط النون مع «أن» ، لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع، والنصب ، والجزم لكون النون ضميرًا وليست بعلامة إعراب كما فى المذكر فى قولك : الرجال يعفون ، وهذا عليه جمهور المفسرين . وروى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : ﴿إلا أن يعفون ﴾ يعنى الرجال ، وهو ضعيف لفظًا . ومعنى قوله : ﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة

---

(١) شريح بن يزيد أبو حيوة الحضرمى الحمصى ، صاحب القراءة الشاذة ومقرئ الشام ، وهو أحد الثلاثة الذين سموا لأبى عبيد ، وذكره ابن حبان فى الثقات وهو والد حيوة بن شريح الحافظ وله اختيار فى القراءة ، مات فى صفر سنة ثلاث ومائتين . غاية النهاية فى طبقات القراء ١/ ٣٢٥ .

النكاح ﴾ معطوف على محل قوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ ؛ لأن الأول مبنى وهذا معرب ؛ قيل: هو الزوج، وبه قال جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبى وعكرمة ونافع وابن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظى وجابر بن زيد وأبو مِجْلَز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان وهو الجديد من قول الشافعى ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن شبرمة والأوزاعى ورجحه ابن جرير(١) . وفى هذا القول قوة وضعف ؛ أما قوته فلكون الذى بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج ، لأنه هو الذى إليه رفعه بالطلاق ، وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول ، وما قالوا به من أن المراد بعفوه: أن يعطيها المهر كاملاً غير ظاهر ؛ لأن العفو لا يطلق على الزيادة .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ هو الولى ، وبه قال النخعى وعلقمة والحسن وطاوس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربيعة والزهرى والأسود بن يزيد والشعبى وقتادة ومالك والشافعى فى قوله القديم ، وفيه قوة وضعف ، أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولا ؛ وأما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لابيده ، ومما يزيد هذا القول ضعفا أنه ليس للولى أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه . وقد حكى القرطبى الإجماع على أن الولى لا يملك شيئا من مالها ، والمهر مالها . فالراجح ما قاله الأولون لوجهين : الأول : أن الزوج هو الذى بيده عقدة النكاح حقيقة . الثانى : أن عفوه بإكمال المهر هو صادر عن المالك، مطلق التصرف بخلاف الولى ، وتسمية الزيادة عفوًا وإن كان خلاف الظاهر ، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملاً عند العقد كان العفو معقولاً؛ لأنه تركه لها ولم يسترجع النصف منه ، ولايحتاج فى هذه إلى أن يقال : إنه من باب المشاكلة كما فى الكشاف ؛ لأنه عفو حقيقى ، أى ترك لما يستحق المطالبة به، إلا أن يقال : إنه مشاكلة ، أو يطيب فى توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج .

قوله : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ قيل : هو خطاب للرجال والنساء تغليبًا ، وقرأه الجمهور بالتاء الفوقية، وقرأ أبو نهيك والشعبى بالياء التحتية ، فيكون الخطاب مع الرجال . وفى هذا دليل على ما رجحناه من أن الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج ؛ لأن عفو الوالى عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى ، بل أقرب إلى الظلم والجور . قوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ قرأ الجمهور بضم الواو ، وقرأ يحيى بن يعمر بكسرها ، وقرأ على ومجاهد وأبو حيوة وابن أبى عبلة : «ولا تناسوا » والمعنى : أن الزوجين لاينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر . ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف ، ويتفضل الرجل عليها بإكمال المهر ، وهو إرشاد للرجال والنساء من الأزواج إلى ترك التقصى على

---

(١) يؤيده ما رواه الدارقطنى ٣/ ٢٧٩ والبيهقى ٧/ ٢٥١ عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بنى نصر فطلقها قبل أن يدخل بها فأرسل إليها بالصداق كاملا ، وقال : أنا أحق بالعفو منها قال الله تعالى : ﴿ إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ .

بعضهم بعضًا ، والمسامحة فيما يستغرقه أحدهما على الآخر للوصلة التى قد وقعت سهمًا من إفضاء البعض إلى البعض ، وهى وصلة لا يشبهها وصلة ، فمن رعاية حقها ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح . وقوله : ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ فيه من ترغيب المحسن وترهيب غيره مالا يخفى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة** ﴾ قال : المس : النكاح ، والفريضة : الصداق، ﴿ **ومتعوهن** ﴾ قال : هو الرجل يتزوج المرأة ولم يسم لها صداقًا ، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، فأمره الله أن يمتعها على قدر عسره ويسره ، فإن كان موسرًا متعها بخادم وإن كان معسرًا متعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه؛ أنه قال : متعة الطلاق : أعلاها الخادم ، ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : أدنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهمًا. وروى القرطبى فى تفسيره عن الحسن بن على أنه متع بعشرين ألفًا وزقاق من عسل . وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم ، وأخرج الدارقطنى عن الحسن بن على أنه متع بعشرة آلاف . وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه كان يمتع بالخادم والنفقة أو بالكسوة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من قبل أن تمسوهن**﴾ قال المس : الجماع ، فلها نصف صداقها ، وليس لها أكثر من ذلك ﴿ **إلا أن يعفون**﴾ وهى المرأة الثيب والبكر يزوجها غير أبيها ، فجعل الله العفو لهنّ إن شئن عفون بتركهن ، وإن شئن أخذن نصف الصداق ﴿ **أو يعفوالذى بيده عقدة النكاح** ﴾ وهو أبو الجارية البكر جعل العفو إليه ليس لها معه أمر إذا طلقت ما كانت فى حجره .

وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور والبيهقى عن ابن عباس قال فى الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ، ولا يمسها ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق ؛ لأن الله يقول : ﴿ **فإن طلقتموهن** ﴾ الآية . وأخرج البيهقى عن ابن مسعود قال: لها نصف الصداق ، وإن جلس بين رجليها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى بسند حسن عن ابن عمرو (١) عن النبى ﷺ قال: « الذى بيده عقدة النكاح الزوج » (٢). وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والدارقطنى والبيهقى عن على مثله من قوله (٣). وأخرج عبد بن حميد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس مثله (٤) .

---

(١) فى المطبوعة : « ابن عمر» وهو تصحيف ، والحديث من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) ابن جرير ٢/ ٣٣٩ والبيهقى ٧/ ٢٥١ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٢٠ للطبرانى فى الأوسط وقال : «فيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف » .

(٣) ابن أبى شيبة ٤/ ٢٨٠ وابن جرير ٢/ ٣٣٧ والدارقطنى فى النكاح (١٢٣) والبيهقى ٧/ ٢٥١ .

(٤) ابن أبى شيبة ٤/ ١٨١ وابن جرير ٢/ ٣٣٧ والبيهقى ٧/ ٢٥١ .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عنه قال : هو أبوها وأخوها ومن لا تنكح إلا بإذنه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿**ولا تنسوا الفضل بينكم**﴾ قال : في هذا أو غيره .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي ؛ أن قومًا أتوا ابن مسعود فقالوا : إن رجلاً تزوج منا امرأة ولم يفرض لها صداقًا ولم يجمعها إليه حتى مات ، فقال : أرى أن أجعل لها صداقا كصداق نسائها لاوَكَسَ ولا شطط ، ولها الميراث وعليها العدة أربعة أشهر وعشر ، فسمع بذلك ناس من أشجع منهم مَعْقِل [١] بن سنان ، فقالوا : نشهد أنك قضيت مثل الذى قضى به رسول الله ﷺ في امرأة منا يقال لها : بِرْوَع بنت واشق [٢] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عن علي ؛ أنه قال في المتوفى عنها زوجها ولم يفرض لها صداقًا : لها الميراث وعليها العدة ولا صداق لها . وقال : لا يقبل أعرابي من أشجع على كتاب الله. وأخرج الشافعي والبيهقي عن ابن عباس قال في المرأة التي يموت عنها زوجها وقد فرض لها صداقًا : لها الصداق والميراث .

وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي ، عن عمر بن الخطاب أنه قضى في المرأة يتزوجها الرجل : أنه إذا أرخيت الستور فقد وجب الصداق . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن عُمَر وَعلي قال : إذا أرخى سترًا وأغلق باباً فلها الصداق كاملاً ، وعليها العدة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عن زرارة بن أوْفى قال : قضى الخلفاء الراشدون أنه مَنْ أغلق بابًا أو أرخى سترًا فقد وجب الصداق والعدة . وأخرج مالك والبيهقي عن زيد بن ثابت نحوه . وأخرج البيهقي عن محمد بن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : « من كشف امرأة فنظر إلى عورتها فقد وجب الصداق » [٣].

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴾ .

المحافظة على الشيء : المداومة والمواظبة عليه ، والوسطى : تأنيث الأوسط ، وأوسط الشيء ووسطه : خياره. ومنه قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [البقرة :١٤٣] ، ومنه قول بعض العرب يمدح النبي ﷺ :

(١) في المطبوعة : « مغفل » ، وهوتحريف ، والصواب ما أثبتناه .
(٢) عبد الرزاق في النكاح (١٠٨٩٩) وابن أبي شيبة ٤/ ٣٠٠ وأحمد ٤٤٧/١ ، ٤/ ٢٨٠ وابن ماجة في النكاح (١٨٩١) ، والترمذي في النكاح (١١٤٥) وقال : « حسن صحيح » والنسائي ١٢١/٦ وأبو داود في النكاح (٢١١٤) ، وصححه الحاكم ٢/ ١٨٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، والبيهقي ٢٤٥/٧ .
(٣) البيهقي ٧/ ٢٥٦ .

يا أَوْسَطَ النَّاسِ طُرًّا فى مَفاخرهم وأكرَمَ النَّاسِ أُما بَرَّةً وأبًا

وَوَسَط فلان القوم يسِطهم ، أى صار فى وسطهم . وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها فى عموم الصلوات تشريفًا لها . وقرأ أبو جعفر : ﴿ **والصلاة الوسطى** ﴾ بالنصب على الإغراء ، وكذلك قرأ الحُلْوانى [١]، وقرأ قالون [٢] عن نافع : « الوصطى » بالصاد لمجاورة الطاء ، وهما لغتان : كالسراط والصراط . وقد اختلف أهل العلم فى تعيينها على ثمانية عشر قولاً أوردتها فى شرحى للمنتقى [٣] . وذكرت ما تمسكت به كل طائفة ، وأرجح الأقوال وأصحها ما ذهب إليه الجمهور من أنها العصر ، لما ثبت عند البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث على قال : كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وأجوافهم نارًا»[٤]. وأخرج مسلم والترمذى وابن ماجة وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعا مثله [٥] . وأخرجه أيضا ابن جرير وابن المنذر والطبرانى من حديث حذيفة مرفوعا [٦] . وأخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف ، من حديث أم سلمة مرفوعا [٧].

وورد فى تعيين أنها العصر من غير ذكر يوم الأحزاب أحاديث مرفوعة إلى النبى ﷺ منها: عن ابن عمرعن ابن منده ، ومنها عن سَمُرة عند أحمد وابن جرير والطبرانى [٨] ، ومنها أيضًا عند ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه، وابن جرير والطبرانى والبيهقى [٩] ، وعن أبى هريرة عند ابن جرير والبيهقى والطحاوى[١٠] . وأخرجه عنه أيضا

---

(١) أحمد بن يزيد بن ازداذ أبو الحسن الحلوانى ، إمام كبير عارف صدوق متقن ، قرأ بمكة ، وتوفى سنة نيف وخمسين ومائتين . غاية النهاية فى طبقات القراء ١/ ١٤٩ .

(٢) عيسى بن مينا بن وردان الملقب بـ « قالون » قارئ المدينة ونحويها ، يقال : إنه ربيب نافع وقد اختص به كثيرا وهو الذى سماه قالون لجودة قراءته ، ومات سنة عشرين ومائتين على الأصح . غاية النهاية فى طبقات القراء ١/ ٦١٥ .

(٣) شرح المنتقى ١/ ٣٩٣ وما بعدها ط . دار الفكر .

(٤) البخارى فى المغازى (٤١١١) ومسلم فى المساجد (٦٢٧/ ٢٠٢ ــ ٢٠٥) وأبو داود فى الصلاة (٤٠٩) والترمذى فى التفسير (٢٩٨٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٥) وابن ماجة فى الصلاة (٦٨٤) وابن خزيمة فى الصلاة (١٣٣٧) وابن جرير ٢/ ٣٤٥ .

(٥) مسلم فى المساجد (٦٢٨/ ٢٠٦) والترمذى فى التفسير (٢٩٨٥) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الصلاة (٦٨٦) والبيهقى ١/ ٤٦٠ وابن جرير ٢/ ٣٤٤ .

(٦) عزاه الهيثمى فى المجمع ١/ ٣١١ للبزار ، وقال : « رجاله رجال الصحيح » وعزاه ٦/ ١٤٠ للطبرانى فى الأوسط وقال : « عن شيخه أحمد ، ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات » .

(٧) الطبرانى ٢٣/ ٣٤١ (٧٩٣) وقال الهيثمى فى المجمع : « وفيه مسلم بن الملائى الأعور ، وهو ضعيف » .

(٨) أحمد ٥/ ٧ ، ١٢ ، ١٣ وابن جرير ٢/ ٣٤٤ والطبرانى فى الكبير (٦٨٢٣ ــ ٦٨٢٥) .

(٩) ابن أبى شيبة ٢/ ٥٠٥ وأحمد ٥/ ٧ ، ١٢ ، ١٣ والترمذى (١٨٢) وقال : « صحيح » وابن جرير ٢/ ٣٤٤ والطبرانى (٦٨٢٣ــ ٦٨٢٥) والبيهقى ١/ ٤٦٠ .

(١٠) ابن جرير ٢/ ٣٤٦ والبيهقى ١/ ٤٦٠ والطحاوى فى شرح معانى الآثار ١/ ١٧٤ .

ابن سعد [١] والبزار وابن جرير والطبراني [٢]،وعن ابن عباس عند البزار بأسانيد صحيحة [٣]، وعن أبي مالك الأشعري عند ابن جرير والطبراني [٤] ، فهذه أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ مصرحة بأنها العصر . وقد روى عن الصحابة في تعيين أنها العصر آثار كثيرة [٥] ، وفي الثابت عن النبي ﷺ مالا يحتاج معه إلى غيره .

وأما ما روى عن علي وابن عباس أنهما قالا : إنها صلاة الصبح كما أخرجه مالك في الموطأ عنهما ، وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس ، وكذلك أخرجه عنه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وكذلك أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر ، وكذلك أخرجه ابن جرير عن جابر ، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة ، وكل ذلك من أقوالهم وليس فيها شيء من المرفوع إلى النبي ﷺ ، ولا تقوم بمثل ذلك حجة ، لاسيما إذا عارض ما قد ثبت عنه ﷺ ثبوتًا يمكن أن يدعى فيه التواتر ، وإذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة، لم تقم بأقوال من بعدهم من التابعين ، وتابعهم بالأولى .

وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس ؛ أنه قال : صلاة الوسطى : المغرب[٦]، وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة : أنها الظهر أو غيرها من الصلوات ، ولكن المحتاج إلى إمعان نظر وفكر ما ورد مرفوعًا إلى النبي ﷺ مما فيه دلالة على أنها الظهر كما أخرجه ابن جرير عن زيد بن ثابت مرفوعًا : « إن الصلاة الوسطى صلاة الظهر » [٧] . ولا يصح رفعه بل المروى عن زيد بن ثابت ذلك من قوله، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يصلي بالهاجرة ، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه ، وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ، وهكذا الاعتبار بما روى عن ابن عمر من قوله: إنها الظهر. وكذلك ما روى عن عائشة وأبي سعيد الخدري وغيرهم [٨] ، فلا حجة في قول أحد مع قول رسول الله ﷺ .

وأما ما رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما ؛ أن حفصة قالت لأبي رافع وقد أمرته أن يكتب لها مصحفًا: إذا أتيت على هذه الآية ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ فتعال حتى أمليها عليك ، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب:«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى

---

(١) في المطبوعة :« ابن سعيد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) البزار في الصلاة (٣٩١) وقال : «لانعلم روى أبو هاشم بن عتبة عن النبي ﷺ إلا هذا وآخر » وابن جرير ٣٤٦/٢ وعزاه الهيثمي للطبراني في المجمع ٣٠٩/١ : « ورجاله موثقون » .

(٣) البزار في الصلاة (٣٨٩) وقال : « لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه » وقال الهيثمي في المجمع : « رجاله موثقون » ٣٠٩/١.

(٤) ابن جرير ٣٤٧/٢ والطبراني (٣٤٥٨) قال الهيثمي في المجمع : « عن محمد بن إسماعيل بن عياش قال : أبو حاتم لم يسمع من أبيه شيئا » ١٧٦/٢ ، ١٧٧ .

(٥) في المطبوعة : « كبيرة » والأصوب : « كثيرة » . (٦) قال ابن كثير في التفسير ٥٢١/١ : « في إسناده نظر» .

(٧) ابن جرير ٣٤٧/٢ . (٨) الطحاوي في شرح معاني الآثار ١٧٢/١ .

وصلاة العصر » [١] . وأخرجه أيضا عنها مالك وعبد بن حميد وابن جرير، والبيهقى فى سننه وزادوا : وقالت: أشهد أنى سمعتها من رسول الله ﷺ[٢] . وأخرج مالك وأحمد وعبد ابن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى يونس مولى عائشة ؛ أنها أمرته أن يكتب لها مصحفًا وقالت : إذا بلغت هذه الآية فآذنِّى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ قال : فلما بلغتها آذنتها فأملَتْ علىّ : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » قالت عائشة : سمعتها من رسول الله ﷺ [٣] . وأخرج وكيع وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أم سلمة أنها أمرت مَنْ يكتب لها مصحفًا، وقالت له كما قالت حفصة وعائشة[٤] ، فغاية ما فى هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث رضى الله عنهن أنَّهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله ﷺ ، وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر أو غيرها ، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على صلاة الوسطى أنها غيرها ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه ﷺ ثبوتًا لا يدفع أنها العصر كما قدمنا بيانه .

فالحاصل أن هذه القراءة التى نقلتها أمهات المؤمنين الثلاث بإثبات قوله : « وصلاة العصر» معارَضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال : كان فى مصحف عائشة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر » [٥]. وأخرج وكيع عن حميدة قالت : قرأت فى مصحف عائشة :« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر » . وأخرج ابن أبى داود ، عن قبيصة بن ذؤيب مثله . وأخرج سعيد بن منصور وأبو عبيد عن زياد بن أبى مريم ؛ أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب وقالت : إذا بلغتم ﴿ **حافظوا على الصلوات**﴾ فلا تكتبوها حتى تؤذنونى ، فلما أخبروها أنهم قد بلغوا قالت : اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر . وأخرج ابن جرير والطحاوى والبيهقى عن عمرو بن رافع ؛ قال: كان مكتوبا فى مصحف حفصة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر » . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن المنذر عن أبى بن كعب ؛ أنه كان يقرؤها : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر » . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه وابن جرير والطحاوى عن ابن عباس ؛ أنه كان ليقرؤها : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر » . وأخرج المحاملى عن السائب بن يزيد أنه تلاها كذلك فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة ونقل القراءة ، ويبقى ما صح عن النبى ﷺ من التعيين صافيًا عن

---

(١) عبد الرزاق فى الصلاة (٢٢٠٢) وابن جرير ٢/ ٣٤٨ والبيهقى ١/ ٤٦٢ .

(٢) مالك فى الموطأ فى صلاة الجماعة (٢٦) وابن جرير ٢/ ٣٤٩ والبيهقى ١/ ٤٦٢ .

(٣) مالك فى الموطأ فى صلاة الجماعة (٢٥) وأحمد ٦/ ١٧٨ ومسلم فى المساجد (٦٢٩/ ٢٠٧) وأبو داود فى الصلاة (٤١٠) والترمذى فى التفسير (٢٩٨٢) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ١/ ٢٣٦ والطحاوى فى شرح معانى الآثار ١/ ١٧٢ .

(٤) ابن أبى شيبة ٢/ ٥٠٤ وابن جرير ٢/ ٣٤٣ .

(٥) ابن جرير ٢/ ٣٤٣ .

شوب كدر المعارضة ، على أنه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التى نقلتها حفصة ، وعائشة ، وأم سلمة . فأخرج عبد بن حميد ومسلم ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير والبيهقى عن البراء بن عازب ، قال : نزلت : « حافظوا على الصلوات وصلاة العصر » ، فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله ثم نسخها الله فأنزل : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ فقيل له : هى إذن صلاة العصر ؟ قال : قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله ، والله أعلم [١] ، وأخرج البيهقى عنه من وجه آخر نحوه [٢] .

وإذا تقرر لك هذا وعرفت ما سقناه تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر . وأما حجج بقية الأقوال فليس فيها شىء مما ينبغى الاشتغال به ؛ لأنه لم يثبت عن النبى ﷺ فى ذلك شىء . وبعض القائلين عوَّل على أمر لا يعوَّل عليه فقال : إنها صلاة كذا ؛ لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات ، وبعدها كذا من الصلوات وهذا الرأى المحض والتخمين البحت لاينبغى أن تسند إليه الأحكام الشرعية، على فرض عدم وجود ما يعارضه عن النبى ﷺ، فكيف مع وجود ما هو فى أعلى درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله ﷺ ؟ وياللّه العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم فى علم السنة وإعراضهم عن خير العلوم وأنفعها ، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله ، والتجرى على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى ، فجاؤوا بما يضحك منه تارة ويبكى منه أخرى .

قوله : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ القنوت قيل : هو الطاعة ، أى قوموا لله فى صلاتكم طائعين ، قاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير والضحاك والشافعى . وقيل : هو الخشوع قاله ابن عمر ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

قانتًا لله يَدعـُو ربـــه　　　وَعَلى عَمْدٍ منِ النَّاسِ اعْتَزَلَ

وقيل : هو الدعاء ، وبه قال ابن عباس . وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قنت شهرًا يدعو على رعْلٍ وَذَكْوَان [٣] . وقال قوم : إن القنوت طول القيام [٤] . وقيل : معناه : ساكتين قاله السدى ، ويدل عليه حديث زيد بن أرقم فى الصحيحين وغيرهما قال : كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى ﷺ فى الحاجة فى الصلاة حتى نزلت هذه الآية : ﴿**وقوموا لله قانتين** ﴾ فأمرنا بالسكوت [٥] . وقيل : أصل القنوت فى اللغة : الدوام على الشىء ، فكل معنى يناسب الدوام يصح إطلاق القنوت عليه . وقد ذكر أهل العلم أن القنوت ثلاثة عشر معنى وقد ذكرنا ذلك فى شرح المنتقى [٦] والمتعين ها هنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور .

---

(١) مسلم فى المساجد (٢٠٨/٦٣٠) وابن جرير ٣٤٦/٢ .

(٢) البيهقى فى الصلاة الوسطى ٤٥٩/١ .　　(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٩٤ ، ٤٠٩٥) عن أنس .

(٤) قال تعالى : ﴿ **أمَّنْ هو قانت آناء الليل** ﴾ [الزمر : ٩] .

(٥) البخارى فى التفسير (٤٥٣٤) ومسلم فى المساجد (٣٥/٥٣٩) وأبو داود فى الصلاة (٩٤٩) والنسائى فى التفسير (٦٧) .

(٦) شرح المنتقى ٣٩٣/٢ وما بعدها .

قوله : ﴿ **فإن خفتم فرجالا أو ركبانا** ﴾ الخوف : هو الفزع ، والرجال : جمع رَجِل أو راجل ، من قولهم : رجل الإنسان يرجل راجلا: إذا عدم المركوب ومشى على قدميه فهو رجل وراجل . يقول أهل الحجاز : مشى فلان إلى بيت الله حافيًا رجلاً ، حكاه ابن جرير الطبرى وغيره (١) . لما ذكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات ، ذكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل وحال الركوب ، وأبان لهم أن هذه العبادة لازمة فى كل الأحوال بحسب الإمكان . وقد اختلف أهل العلم فى حد الخوف المبيح لذلك ، والبحث مستوفى فى كتب الفروع . قوله : ﴿ **فإذا أمنتم** ﴾ أى إذا زال خوفكم فارجعوا إلى ما أمرتم به من إتمام الصلاة مستقبلين القبلة ، قائمين بجميع شروطها ، وأركانها وهو قوله : ﴿ **فاذكروا الله كما علمكم** ﴾ ، وقيل : معنى الآية : خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة ، وهو خلاف معنى الآية. وقوله : ﴿ **كما علمكم** ﴾ أى مثل ما علمكم من الشرائع ﴿ **ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف ، أى ذكرًا كائنا كتعليمه إياكم ، أو مثل تعليمه إياكم .

وقد أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا ، وشبّك بين أصابعه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر ؛ أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال : حافظ على الصلوات تدركها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن الربيع بن خُثَيْم ؛ أن سائلا سأله عن الصلاة الوسطى ، قال : حافظ عليهن ، فإنك إن فعلت أصبتها ، إنما هى واحدة منهن . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن سيرين قال : سئل شريح عن الصلاة الوسطى ، فقال : حافظوا عليها تصيبوها . وقد قدمنا ما روى عن النبى ﷺ وعن أصحابه رضى الله عنهم فى تعيينها .

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ مثل ما قدمنا عن زيد بن أرقم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن محمد بن كعب نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ قال : مصلين . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كل أهل دين يقومون فيها عاصين ، قوموا أنتم مطيعين . وأخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله:﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ قال: من القنوت الركوع والخشوع وطول الركوع يعنى : طول القيام وغض البصر وخفض الجناح والرهبة لله . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن النبى

---

(١) تفسير الطبرى ٢/ ٣٥٥ ، وقال : « وقد سمع من بعض أحياء العرب فى واحدهم رجلان ، كما قال بعض بنى عقيل :

عليّ إذا أبصرتُ ليْلَىَ بِخَلْوة   أن أزدَار بيت الله رَجْلاَن حافيا

ﷺ أنه قال : « إن فى الصلاة لشغلا » (١) وفى صحيح مسلم وغيره أن النبى ﷺ قال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»(٢). وقد اختلفت الأحاديث فى القنوت المصطلح عليه ، هل هو قبل الركوع أو بعده وهل هو فى جميع الصلوات أو بعضها ، وهل هو مختص بالنوازل أم لا ؟ والراجح اختصاصه بالنوازل ، وقد أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه (٣) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم فرجالا أوركبانًا** ﴾ قال: يصلى الراكب على دابته ، والراجل على رجليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : إذا كانت المسابقة فليُومِ برأسه حيث كان وجهه ، فذلك قوله : ﴿**فرجالا أو ركبانًا** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ﴿ **فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا** ﴾ قال : ركعة ركعة . وأخرج وكيع وابن جرير عن مجاهد : ﴿ **فإذا أمنتم** ﴾ قال: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾ .

هذا عَود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف ، وقد اختلف السلف ومن تبعهم من المفسرين فى هذه الآية ، هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوخةبالأربعة الأشهر والعشركما تقدم ، وأن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهن من الميراث . وحكى ابن جرير عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها ، وأن العدة أربعة أشهر وعشر، ثم جعل الله لهن وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة ، فإذا شاءت المرأة سكنت فى وصيتها ، وإن شاءت خرجت . وقد حكى ابن عطية والقاضى عياض أن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشر . وقد أخرج عن مجاهد ما أخرجه ابن جرير عنه البخارى فى صحيحه . وقوله : ﴿**وصية** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر والكسائى بالرفع على أن ذلك مبتدأ لخبر محذوف يقدر مقدمًا ، أى عليهم وصية . وقيل : إن الخبر قوله : ﴿ **لأزواجهم** ﴾ وقيل : إنه خبر مبتدأ محذوف، أى وصية الذين يتوفون وصية ، أوحكم الذين يتوفون وصية . وقرأ أبو بكر وحمزة وابن عامر بالنصب على تقدير فعل

(١) أحمد١/ ٣٧٦ ، ٤٠٩ والبخارى فى العمل فى الصلاة (١١٩٩) وفى مناقب الأنصار (٣٨٧٥) ومسلم فى المساجد (٥٣٨/ ٣٤) عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أحمد ٥/ ٤٤٧ ، ٤٤٨ ومسلم فى المساجد (٥٣٧ / ٣٣) والنسائى فى السهو ٣/ ١٤ .

(٣) شرح المنتقى ٢/ ٣٩٣ وما بعدها ط . دار الفكر .

محذوف ، أى فليوصوا وصية ، أو أوصى الله وصية ، أو كتب الله عليهم وصية .

وقوله : ﴿ **متاعًا** ﴾ منصوب بوصية أو بفعل محذوف ، أى متعوهن متاعًا أو جعل الله لهن ذلك متاعًا ، ويجوز أن يكون منتصبًا على الحال ، والمتاع هنا نفقة السنة . وقوله : ﴿ **غير إخراج** ﴾ صفة لقوله : ﴿ **متاعًا** ﴾ وقال الأخفش : إنه مصدر كأنه قال : لا إخراجا . وقيل : إنه حال ، أى متعوهن غير مخرجات . وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى من غير إخراج ، والمعنى أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم، أن يمتعن بعدهم حولا كاملا بالنفقة والسكنى من تركتهم ، ولا يُخْرَجْن من مساكنهن . وقوله : ﴿ **فإن خرجن** ﴾ يعنى باختيارهن قبل الحول ﴿ **فلا جناح عليكم** ﴾ أى لا حرج على الولى والحاكم وغيرهما ﴿ **فيما فعلن فى أنفسهن** ﴾ من التعرض للخطاب والتزين لهم . وقوله: ﴿ **من معروف**﴾ أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر ، وفيه دليل على أن النساء كن مخيرات فى سكنى الحول ، وليس ذلك بحتم عليهن . وقيل : المعنى لا جناح عليكم فى قطع النفقة عنهن وهو ضعيف ؛ لأن متعلق الجناح هو مذكور فى الآية بقوله : ﴿ **فيما فعلن**﴾ .

وقوله : ﴿ **وللمطلقات متاع**﴾ قد اختلف المفسرون في هذه الآية ، فقيل : هى المتعة ، وأنها واجبة لكل مطلقة . وقيل: إن هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتى قد جومعن لأنه قد تقدم قبل هذه الآية ذكر المتعة للواتى لم يدخل بهن الأزواج ، وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة ، والخلاف فى كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء والفرض أو عامة للمطلقات . وقيل : إن هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة ، وهى متعة المطلقة قبل البناء والفرض ، وغير الواجبة وهى متعة سائر المطلقات فإنها مستحبة فقط . وقيل : المراد بالمتعة هنا : النفقة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا**﴾ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أولم تَدَعها ؟ قال : يابن أخى لا أغير شيئًا منه من مكانه[(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال :كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها فى الدار سنة ، فنسختها آية المواريث ، فجعل لهن الربع والثمن مما ترك الزوج . وأخرج ابن جرير نحوه عن عطاء [(٢)] . وأخرج نحوه أيضا أبو داود والنسائى عن ابن عباس من وجه آخر [(٣)] . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق عن جابر بن عبد الله قال : ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حَسْبُها الميراث . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، والنسائى عن عكرمة قال : نسختها ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا** ﴾ [(٤)] . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف ، عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿ **فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف** ﴾ قال: النكاح الحلال الطيب .

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٣٠ ، ٤٥٣٦) .
(٢) ابن جرير ٢/ ٣٦١ .
(٣) أبو داود فى الطلاق (٢٢٩٨) والنسائى فى الطلاق ٦/ ٢٠٦ .
(٤) النسائى فى الطلاق ٦/ ٢٠٧ .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزل قوله : ﴿ **متاعًا بالمعروف حقا على المحسنين**﴾ قال رجل : إن أحسنت فعلت ، وإن لم أرد ذلك لم أفعل فأنزل الله : ﴿**وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين** ﴾ [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : نسخت هذه الآية بقوله: ﴿ **إن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم** ﴾ وأخرج أيضا عن عتاب بن خصيف فى قوله : ﴿ **وللمطلقات متاع** ﴾ قال : كان ذلك قبل الفرائض . وأخرج مالك ، وعبد الرزاق والشافعى وعبد بن حميد و ابن المنذر والبيهقى عن ابن عمر ؛ قال : لكل مطلقة متعة إلا التى تطلقها ولم تدخل بها ، وقد فرض لها ، كفى بالنصف متاعًا . وأخرج ابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : لكل مؤمنة طلقت حرة أو أمة متعة ، وقرأ : ﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين** ﴾ . وأخرج البيهقى عن جابر بن عبد الله قال : لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبى ﷺ ، فقال لزوجها : «متِّعْها» ، قال : لا أجد ما أمتعها ، قال : «فإنه لابد من المتاع ، متِّعْها ولو نصف صاع من تمر » [٢]. وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية فى الآية ، قال : لكل مطلقة متعة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ .

الاستفهام هنا للتقرير ، والرؤية المذكورة هى رؤية القلب لا رؤية البصر . والمعنى عند سيبويه : تنبه إلى أمر الذين خرجوا ، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل ، وحاصله أن الرؤية هنا التى بمعنى الإدراك مضمنة معنى التنبيه ، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء، أى ألم ينته علمك إليهم ، أو معنى الوصول ، أى ألم يصل علمك إليهم ؛ ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية ، أى ألم تنظر إلى الذين خرجوا جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان الشيوع والشهرة بحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد ، أو المبصرة لكل مبصر ؛ لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ، ودونوها ، وأشهروا أمرها ، والخطاب هنا لكل من يصلح له ، والكلام جار مجرى المثل فى مقام التعجيب ادعاءً لظهوره وجلائه بحيث يستوى فى إدراكه الشاهد والغائب .

وقوله : ﴿ **وهم ألوف** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير خرجوا . وألوف من جموع الكثرة فدل على أنها ألوف كثيرة . وقوله : ﴿ **حذر الموت** ﴾ مفعول له . وقوله : ﴿**فقال لهم الله موتوا** ﴾ هو أمر تكوين عبارة عن تعلق إرادته بموتهم دفعة ، أو تمثيل لإماتته

(١) ابن جرير ٢/ ٣٦٤ .

(٢) البيهقى فى الصداق ٧/ ٢٥٧ .

سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا فأطاعوا . قوله : ﴿ **ثم أحياهم** ﴾ هو معطوف على مقدر يقتضيه المقام ، أى قال الله لهم : موتوا فماتوا ثم أحياهم ، أو على قال لما كان عبارة عن الإماتة وقوله : ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ التنكير فى قوله فضل للتعظيم ، أى لذو فضل عظيم على الناس جميعًا ، أما هؤلاء الذين خرجوا فلكونه أحياهم ليعتبروا ، وأما المخاطبون فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء .

قوله : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله** ﴾ هو معطوف على مقدر ، كأنه قيل : اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم ، وقاتلوا ، هذا إذا كان الخطاب بقوله : ﴿ **وقاتلوا** ﴾ راجعًا إلى المخاطبين بقوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا** ﴾ كما قال جمهور المفسرين ، وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد ، وقيل : إن الخطاب للذين أحيوا من بنى إسرائيل فيكون عطفًا على قوله : ﴿ **موتوا** ﴾ وفى الكلام محذوف تقديره : وقال لهم: قاتلوا . وقال ابن جرير : لاوجه لقول من قال : إن الأمر بالقتال للذين أحيوا . وقوله : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله** ﴾ لما أمر سبحانه بالقتال والجهاد أمر بالإنفاق فى ذلك و ﴿ **من** ﴾ استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء و ﴿ **ذا** ﴾ خبره . و﴿ **الذى** ﴾ وصلته وصف له أو بدل منه، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذى يستحق به فاعله الثواب . وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء ، يقال : أقرض فلان فلانًا ، أى أعطاه ما يتجازاه . قال الشاعر :

وَإذا جوزِيتَ قَرْضًا فأجزِه

وقال الزجاج : القرض فى اللغة : البلاء الحسن والبلاء السيّئ .

قال أمية :

كلُّ امرئ سَوْفَ يُجْزَى قَرضَه حَسَنًا ... أوْ سَيِّئًا وَمَدِينًا مِثْلَ مَادَانَا (١)

وقال آخر :

فجَازَى القُرُوض بِأمْثَالِها ... فبالخَيْر خَيْرًا وبِالشر شرًا

وقال الكسائى : القرض : ما أسلفت من عمل صالح أوسىء . وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض ، واستدعاء القرض فى الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه والله هو الغنى الحميد . شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه فى الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء . وقوله : ﴿ **حسنًا** ﴾ أى طيبة به نفسه من دون مَنٍّ ولا أذى . وقوله : ﴿ **فيضاعفه** ﴾ قرأ عاصم وغيره بالألف ونصب الفاء . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى بإثبات الألف ورفع الفاء ، وقرأ ابن عامر ويعقوب : « فيضعفه » بإسقاط الألف مع تشديد العين ونصب الفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بالتشديد ورفع الفاء . فمن نصب فعلى

(١) ديوانه ٦٣، واللسان ٢١٦/٧ (قرض) وفى الديوان كالذى دانا .

أنه جواب الاستفهام ، ومن رفع فعلى تقدير مبتدأ ، أى هو يضاعفه . وقد اختلف فى تقدير هذا التضعيف على أقوال ، وقيل : لا يعلمه إلا الله وحده . وقوله : ﴿ **والله يقبض ويبسط** ﴾ هذا عام فى كل شىء فهو القابض الباسط ، والقبض : التقتير ، والبسط: التوسيع ؛ وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبدل بالقبض ، ولهذا قال : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ أى هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه ، وإذا أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن إليكم ، وإن بخلتم عاقبكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم**﴾ قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، وقالوا : نأتى أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله : موتوا ، فماتوا ، فمر عليهم نبى من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم[1] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أن القرية التى خرجوا منها داوردان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم هذه القصة مطولة عن أبى مالك ، وفيها : أنهم بضعة وثلاثون ألفاً. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن عبد العزيز : أن ديارهم هى أذرُعات [2] . وأخرج أيضًا عن أبى صالح قال : كانوا تسعة آلاف . وأخرج جماعة من محدثى المفسرين هذه القصة على أنحاء ولا يأتى الاستكثار من طرقها بفائدة . وقد ورد فى الصحيحين وغيرهما عن النبى ﷺ النهى عن الفرار من الطاعون ، وعن دخول الأرض التى هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف [3] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ قال : لما نزلت : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنا** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله ، إن الله ليريد منا القرض ؟ قال : «نعم يا أبا الدحداح » ، قال : أرنى يدك يارسول الله ، فناوله يده، قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى ، وله فيه ستمائة نخلة [4] . وقد أخرج هذه القصة عبد الرزاق وابن جرير من طريق زيد بن أسلم [5] ، زاد الطبرانى عن أبيه عن عمر بن الخطاب وابن مردويه عن أبى هريرة، وابن إسحاق، وابن المنذر عن ابن عباس . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿**أضعافا كثيرة** ﴾ قال : هذا التضعيف لا يعلم ما هو . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عثمان النَّهْدى ؛ قال : بلغنى عن أبى هريرة حديث أنه قال : إن الله ليكتب

---

(١) ابن جرير ٢/ ٣٦٥ ، وصححه الحاكم ٢/ ٢٨١ ووافقه الذهبى .

(٢) أذرعات : بلد فى أطراف الشام ، يجاور أرض البلقاء وعمان وينسب إلى أذرعات أذرعى ، وخرج منها طائفة من أهل العلم . معجم البلدان١/ ١٣٠، ١٣١ .

(٣) البخارى فى الطب (٥٧٢٩ ، ٥٧٣٠) ومسلم فى السلام (٢٢١٩ / ١٠٠) .

(٤) البزار (٩٤٤) وابن جرير ١/ ٣٧١ والطبرانى (٧٦٤) والبيهقى فى الشعب (٣١٧٨) وأبو يعلى (٤٩٨٦) وإسناده ضعيف وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٢٥ : « ورجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

(٥) ابن جرير ٢/ ٣٧١ .

لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة ، فحججت ذلك العام ولم أكن أريد أن أحج إلا لألقاه فى هذا الحديث ، فلقيت أبا هريرة فقلت له ، فقال : ليس هذا ، قلت : ولم يحفظ هذا الحديث الذى حدثتك ، إنما قلت : إن الله ليعطى العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة. ثم قال أبو هريرة: أو ليس تجدون هذا في كتاب الله ؟ ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾ فالكثيرة عند الله أكثر من ألف ألف وألفى ألف، والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة» (١).

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ،وابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل**﴾إلى آخره ، قال رسول الله ﷺ : « ربّ زِدْ أمتى » فنزلت : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافا كثيرة** ﴾ قال: « ربِّ زِدْ أمتى» فنزلت: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٢) [الزمر : ١٠] . وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال: لما نزلت : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠] . قال : «رب زِد أمتى » فنزلت : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله** ﴾ . قال : « رب زِدْ أمتى » فنزلت :﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله** ﴾ قال : « رب زِدْ أمتى» فنزلت :﴿ إنما يوفى الصابرون﴾. وفى الباب أحاديث ، هذه أحسنها وستأتى عند تفسير قوله تعالى :﴿ **كمثل حبة أنبتت سبع سنابل**﴾ فابحثها ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والله يقبض ويبسط** ﴾ قال : يقبض الصدقة ، ويبسط : قال : يخلف ﴿**وإليه ترجعون**﴾ قال : من التراب وإلى التراب تعودون .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : علم الله أن فيمن يقاتل فى سبيل الله من لا يجد قوة ، وفيمن لا يقاتل فى سبيل الله من يجد غنى فندب هؤلاء إلى القرض فقال : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا** ﴾ قال : يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده ، ويقبض عن هذا وهو يطيب نفسًا بالخروج ويخف له ، فقوه مما بيدك يكن لك الحظ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً

---

(١) أحمد ٢/٢٩٦ وقال ابن كثير ٥٣١/١ : « حديث غريب ، وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير ، لكن رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر ، وذكره » .

(٢) ابن حبان فى السير (٤٦٢٩) والبيهقى فى الشعب (٣٠٤٧) .

فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الملأ** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم** ﴾ وقد قدمناه. والملأ : الأشراف من الناس ، كأنهم ملئوا شرفًا . وقال الزجاج :سموا بذلك لأنهم مَلِئون بما يحتاج إليه منهم ، وهو اسم جمع كالقوم والرهط . ذكر الله سبحانه فى التحريض على القتال قصة أخرى جرت فى بنى إسرائيل بعد القصة المتقدمة . وقوله : ﴿ **من بعد موسى** ﴾ « من » ابتدائية وعاملها مقدر ، أى كائنين من بعد موسى ، أى بعد وفاته . وقوله : ﴿ **لنبى لهم** ﴾ قيل : هو شمويل بن يار بن علقمة ، ويعرف بابن العجوز ، ويقال فيه: شمعون ، هو من ولد يعقوب . وقيل : من نسل هارون . وقيل : هو يوشع بن نون، وهذا ضعيف جدًا ؛ لأن يوشع هو فتى موسى ، ولم يوجد داود إلا بعد ذلك بدهر طويل . وقيل : اسمه إسماعيل .وقوله : ﴿ **ابعث لنا ملكًا** ﴾ أى أميرًا نرجع إليه ونعمل على رأيه . وقوله : ﴿ **نقاتل**﴾ بالنون والجزم على جواب الأمر ، وبه قرأ الجمهور . وقرأ الضحاك وابن أبى عبلة بالياء ورفع الفعل على أنه صفة للملك . وقرئ بالنون والرفع على أنه حال أو كلام مستأنف .

وقوله :﴿ **هل عسيتم** ﴾ بالفتح للسين وبالكسر لغتان ، وبالثانية قرأ نافع وبالأولى قرأ الباقون . قال فى الكشاف : وقراءة الكسر ضعيفة (١). وقال أبو حاتم: ليس للكسر وجه (٢) . انتهى . وقال أبو على : وجه الكسر قول العرب : هو عَس بذلك مثل حَرٍ وشَجٍ ، وقد جاء

---

(١) الكشاف ١/ ٢٩١ . (٢) القرطبى ٢/ ١٠٥٢ .

فَعَل وفَعِل فى نحو نَقَم ونَقِم [١] فكذلك عسيت وعسيت ، وكذا قال مكى . وقد قرأ بالكسر أيضا الحسن وطلحة فلا وجه لتضعيف ذلك ، وهو من أفعال المقاربة، أى هل قاربتم ألا تقاتلوا، وإدخال حرف الاستفهام عل فعل المقاربة لتقرير ما هو متوقع عنده والإشعار بأنه كائن، وفصل بين عسى وخبرها بالشرط للدلالة على الاعتناء به . قال الزجاج : ألا تقاتلوا فى موضع نصب ، أى هل عسيتم مقاتلة . قال الأخفش : « أن » فى قوله : ﴿ **وما لنا ألا نقاتل** ﴾ زائدة. وقال الفراء : هو محمول على المعنى ، أى وما منعنا كما تقول مالك ألا تصلى . وقيل المعنى : وأى شيء لنا فى أن لا نقاتل . قال النحاس : وهذا أجودها . وقوله : ﴿ **وقد أخرجنا** ﴾ تعليل والجملة حالية ، وإفراد الأولاد بالذكر؛ لأنهم الذين وقع عليهم السبى ، أولأنهم بمكان فوق مكان سائر القرابة ، ﴿ **فلما كتب** ﴾ أى فرض أخبر سبحانه أنهم تولوا لاضطراب نياتهم ، وفتور عزائمهم . واختلف فى عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه ، وهم الذين اكتفوا بالغَرْفَةَ .

وقوله : ﴿ **وقال لهم نبيهم** ﴾ شروع فى تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال . وطالوت : اسم أعجمى ، وكان سقاء ، وقيل دباغا . وقيل : مكاريًا ، ولم يكن من سبط النبوة وهم بنو لاوى ، ولا من سبط الملك وهم بنو يهوذا فلذلك ﴿ **قالوا أنى يكون له الملك علينا** ﴾ أى كيف ذلك ؟ ولم يكن من بيت الملك ، ولا هو ممن أوتى سعة من المال حتى نتبعه لشرفه أو لماله .وهذه الجملة أعنى قوله : ﴿ **ونحن أحق** ﴾ حالية وكذلك الجملة المعطوفة عليه . وقوله : ﴿**اصطفاه عليكم**﴾ أى اختاره [٢] ، واختيار الله هو الحجة القاطعة ، ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء : بأن الله زاده بسطة فى العلم ، الذى هو ملاك الإنسان ، ورأس الفضائل ، وأعظم وجوه الترجيح ، وزاده بسطة فى الجسم الذى يظهر به الأثر فى الحروب ونحوها ، فكان قويًا فى دينه وبدنه ، وذلك هو المعتبر لا شرف النسب . فإن فضائل النفس مقدمة عليه ، ﴿ **والله يؤتى ملكه من يشاء** ﴾ فالملك ملكه ، والعبيد عبيده ، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم ولا أمره إليكم. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله : ﴿**والله يؤتى ملكه من يشاء** ﴾ من قول نبينا محمد ﷺ . وقيل : هو من قول نبيهم وهوالظاهر. وقوله: ﴿ **واسع** ﴾ أى واسع الفضل يوسع على من يشاء من عباده ﴿ **عليم** ﴾ بمن يستحق الملك ويصلح له .

والتابوت : فعلوت من التوب وهو الرجوع ، لأنهم يرجعون إليه ، أى علامة ملكه إتيان التابوت الذى أخذ منهم ، أى رجوعه إليكم وهو صندوق التوراة . والسكينة : فعيلة مأخوذة

---

(١) فى القرطبى : « نعم ونَعم » ، والمثلان صحيحان .

(٢) أصل الصفاء : خلوص الشيء من الشوب ، ومنه الصفا للحجارة الصافية ، والاصطفاء : تناول صفو الشيء كما أن الاختيار : تناول خيره ، والاجتباء : جبايته ، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود فى غيره ، وقد يكون باختياره وحكمه . راجع: المفردات ٢٨٣ .

من السكون والوقار والطمأنينة، أى فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت . قال ابن عطية : الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتتقوى ، وقد اختلف فى السكينة على أقوال سيأتى بيان بعضها ، وكذلك اختلف فى البقية ، فقيل : هى عصا موسى ورُضَاض[1] الألواح . وقيل : غير ذلك . قيل : والمراد بآل موسى وهارون : أنفسهما ، أى مما ترك هارون وموسى ، ولفظ « آل » مقحمة لتفخيم شأنهما . وقيل المراد : الأنبياء من بنى يعقوب، لأنهما من ذرية يعقوب، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما . وفَصَل معناه : خرج بهم ، فَصَلْتُ الشىء فانفصل، أى قطعته فانقطع ، وأصله مُتَعَدٍّ ، يقال : فصل نفسه ، ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل . وقيل : إن فصل يستعمل لازمًا ومتعديًا ، يقال : فصل عن البلد فصولاً ، وفصل نفسه فصلا . والابتلاء : الاختبار .

والنهر : قيل : هوبين الأردن وفلسطين ، وقرأه الجمهور: ﴿ بنهر ﴾ بفتح الهاء . وقرأ حميد ومجاهد والأعرج بسكون الهاء . والمراد بهذا الابتلاء : اختبار طاعتهم ، فمن أطاع فى ذلك الماء أطاع فيما عداه ، ومن عصى فى هذا أوغلبته نفسه فهو بالعصيان فى سائر الشدائد أحرى ، ورخص لهم فى الغرفة ؛ ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع ، وليكسروا نزاع النفس فى هذه الحال ، وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شظف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية [2] فالمراد بقوله : ﴿ فمن شرب منه ﴾ أى كرع ، ولم يقتصر على الغرفة ، و« من » ابتدائية .ومعنى قوله :﴿ فليس منى ﴾ أى ليس من أصحابى . من قولهم : فلان من فلان كأنه بعضه لاختلاطهما، وطول صحبتهما ، وهذا مَهْيَع [3] فى كلام العرب معروف ، ومنه قول الشاعر [4] :

إذَا حَاولْتَ فى أسَدٍ فجُورًا   فَإنى لستُ منكَ وَلستَ منِّى

وقوله : ﴿ ومَن لم يَطعمه ﴾ يقال : طعمت الشىء ، أى ذقته ، وأطعمته الماء ، أى أذقته، وفيه دليل على أن الماء يقال له : طعام . والاغتراف : الأخذ من الشىء باليد أو بآلة ، والغرف مثل الاغتراف ، والغَرفة : المرة الواحدة . وقد قرئ بفتح الغين وضمها ، فالفتح للمرة، والضم اسم للشىء المغترف . وقيل : الغَرفة بالكف الواحدة ، وبالضم: الغرفة بالكفين. وقيل هما لغتان بمعنى واحد [5]، ومنه قول الشاعر :

---

(١) رضاض الشىء : كُسَاره ، وقطَعه ، وهو بضم الراء . انظر: لسان العرب مادة (رضض ٧/ ١٥٤) .
(٢) ومن هذا المعنى قول الرسول ﷺ : « حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه » . الترمذى فى الزهد (٢٣٨٠) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة (٣٣٤٩) وغيرهما عن مقدام بن معدى كرب .
(٣) المهيع : الطريق الواضح البين . اللسان ، مادة (هيع) .
(٤) الشاعر : هو النابغة الذبيانى ، يقول العيينة بن حصن الفزارى : وكان قد دعاه قومه إلى مقاطعة بنى أسد ، ونقض حلفهم فأبى عليه ، وتوعده بهم، وأراد بالفجور : نقض الحلف . راجع : شرح الشواهد .
(٥) كتبه ابن جرير فى معنى : « الغَرفة » فى تفسيره ٢/ ٣٩١ ، ٣٩٢ .

لا يَدْلفون إلى ماءٍ بآنيةٍ　　　إلا اغْترافًا من الغُدْران بالرَّاحِ

قوله : ﴿ **إلا قليلا** ﴾ سيأتى بيان عددهم ، وقرئ : « إلا قليل » ولا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى ، أى لم يعطه إلا قليل ،وهو تعطف . قوله: ﴿ **فلما جاوزه**﴾ أى جاوز النهر طالوت ﴿ **والذين آمنوا معه**﴾ وهم القليل الذين أطاعوه ولكنهم اختلفوا فى قوة اليقين ، فبعضهم قال : ﴿ **لا طاقة لنا** ﴾ و﴿ **قال الذين يظنون** ﴾ أى يتيقنون ﴿ **أنهم ملاقو الله** ﴾ والفئة : الجماعة ، والقطعة منهم من فأَوْتُ رأسه بالسيف ، أى قطعته.

وقوله : ﴿ **برزوا** ﴾ أى صاروا فى البراز وهو المتسع من الأرض . وجالوت : أمير العمالقة . قالوا : أى جميع من معه من المؤمنين ، والإفراغ : يفيد معنى الكثرة .وقوله : ﴿**وثبت أقدامنا** ﴾ هذا عبارة عن القوة وعدم الفشل ، يقال : ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له ولم يزل عنه ، وثبت قدمه فى الحرب إذا كان الغلب له والنصر معه . قوله : ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ هم جالوت وجنوده . ووضع الظاهر موضع المضمر؛ إظهارًا لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم وهى كفرهم ، وذكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام لكون الثانى هو غاية الأول .

قوله : ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾ الهزم : الكسر ، ومنه سقاء مُنْهَزِم ، أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف ، ومنه ما قيل فى زمزم : إنها هَزْمَة جبريل[١] ، أى هزمها برجله فخرج الماء، والهزم : ما يكسر من يابس الحطب ، وتقدير الكلام : فأنزل الله عليهم النصر﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾أى بأمره وإرادته. قوله: ﴿ **وقتل داود جالوت**﴾هو داود بن إيشا بكسر الهمزة ثم تحتية ساكنة بعدها معجمة . ويقال : داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة والملك بعد أن كان راعيًا ، وكان أصغر إخوته ، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت فقتله[٢] . والمراد بالحكمة هنا : النبوة . وقيل : هى تعليمه صنعة الدروع ومنطق الطير. وقيل : هى إعطاؤه السلسلة التى كانوا يتحاكمون إليها . قوله :﴿ **وعلمه مما يشاء** ﴾ قيل: إن المضارع هنا موضوع موضع الماضى ، وفاعل هذا الفعل هو الله تعالى . وقيل : داود، وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته وتعلقت به إرادته . وقيل : إن من ذلك ما قدمنا من تعليمه صنعة الدروع وما بعده .

قوله : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** ﴾ قرأه الجماعة : ﴿ **ولولا دفع الله** ﴾ وقرأ نافع: «دفاع » وهما مصدران لدفع، كذا قال سيبويه. وقال أبو حاتم دافع ودفع واحد مثل: طرقت نعلى وطارقته . واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور وأنكر قراءة « دفاع » ، قال : لأن الله

---

(١) كتبه الأزرقى فى « أخبار مكة » ٢/ ٣٩ فى باب ما جاء فى إخراج جبريل زمزم لأم إسماعيل عليهما السلام .
(٢) كتبه القرطبى فى تفسيره فى شأن المبارزة وقتل جالوت ٢/ ١٠٦٤ وما كتبه ابن جرير أيضا عند تفسيره لهذه الآية ٢/ ٣٩٦ ـ ٤٠٣ .

عز وجل لا يغالبه أحد . قال مكى : يوهم أبو عبيدة أن هذا من باب المفاعلة وليس به وعلى القراءتين فالمصدر مضاف إلى الفاعل ، أى ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ وبعضهم بدل من الناس وهم الذين يباشرون أسباب الشر والفساد ببعض آخر منهم ، وهم الذين يكفونهم عند ذلك ، ويردونهم عنه ﴿ لفسدت الأرض ﴾ لتغلب أهل الفساد عليها وإحداثهم للشرور التى تهلك الحرث والنسل ، وتنكير ﴿ فضل ﴾ للتعظيم . و﴿ آيات الله ﴾ هى ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة والمراد ﴿بالحق﴾ هنا : الخبر الصحيح الذى لا ريب فيه عند أهل الكتاب والمطلعين على أخبار العالم . وقوله : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ إخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه ، تقوية لقلبه ، وتثبيتًا لجنانه ، وتشييدًا لأمره .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل ﴾ قال : هذا حين رفعت النبوة واستخرج أهل الإيمان ، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم وأبنائهم ﴿ فلما كتب عليهم القتال﴾ وذلك حين أتاهم التابوت ، قال : وكان من إسرائيل سبطان : سبط نبوة ، وسبط خلافة ، فلا تكون الخلافة إلا فى سبط الخلافة ولا تكون النبوة إلا فى سبط النبوة ، فقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ، قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة ولا من سبط الخلافة ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم ﴾ فأبوا أن يسلموا له الرياسة حتى قال لهم: ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية ﴾ وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت ورفع منها ، وجمع ما بقى فجعله فى التابوت ، وكانت العمالقة قد سَبَتْ ذلك التابوت ، والعمالقة فرقة من عاد كانوا بأريحاء (١) فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت ، فلما رأوا ذلك قالوا : نعم . فسلموا له وملَّكُوه ، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالاً قدموا التابوت بين أيديهم ويقولون : إن آدم نزل بذلك التابوت ، وبالركن ، وبعصا موسى من الجنة . وبلغنى أن التابوت ، وعصا موسى فى بحيرة طبرية ، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة (٢) ، وقد ورد هذا المعنى مختصرًا ومطولاً عن جماعة من السلف ، فلا يأتى التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتدّ بها .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس ﴿ وزاده بسطة ﴾ يقول: فضيلة ﴿ فى العلم والجسم ﴾ يقول : كان عظيمًا جسيمًا يفضل بنى إسرائيل بعنقه . وأخرج أيضًا عن وهب بن منبه ﴿ وزاده بسطة فى العلم ﴾ قال : العلم بالحرب . وأخرج ابن المنذر عنه أنه سئل : أنبيًا كان طالوت ؟ قال : لا . لم يأته وحى ، وأخرج عبد بن حميد

---

(١) أريحا : بالفتح ثم الكسر ، وياء ساكنة ، والحاء مهملة والقصر ، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة لغة عبرانية ، وهى مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأردن بالشام بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس فى جبال صعبة المسلك . راجع : معجم البلدان ١/ ١٦٥ .

(٢) ابن جرير ٢/ ٣٨٤.

وابن المنذر عنه أنه سئل عن تابوت موسى ما سعته ؟ قال : نحو من ثلاثة أذرع فى ذراعين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السكينة : الرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : السكينة : الطمأنينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : السكينة : دابة قدر الهر لها عينان لهما شعاع ، وكان إذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت إليهم فيهزم الجيش من الرعب . وأخرج الطبرانى بسند ضعيف عن على قال : السكينة: ريح خجوج [(١)] ولها رأسان . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن على قال : السكينة : لها وجه كوجه الإنسان ، ثم هى ريح هفافة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد قال : السكينة من الله كهيئة الريح لها وجه كوجه الهِرّ ، وجناحان ، وذَنَب مثل ذَنب الهِرّ . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال: ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ قال : طست من ذهب من الجنة ، كان يغسل بها قلوب الأنبياء ألقى الألواح فيها. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب بن منبه أنه قال: هى روح من الله لا تتكلم ، إذا اختلفوا فى شىء تكلم فأخبرهم ببيان ما يريدون . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هى شىء تسكن إليه قلوبهم . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال :﴿ فيه سكينة ﴾ أى وقار.

وأقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقمأهم الله[(٢)] ، فجاؤوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضى الله عنهم ، والتشكيك عليهم ، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيوانا وتارة جمادًا ، وتارة شيئًا لا يعقل ، كقول مجاهد : كهيئة الريح لها وجه كوجه الهر ، وجناحان ، وذنب مثل ذنب الهر ، وهكذا كل منقول عن بنى إسرائيل يتناقض ، ويشتمل على ما لا يعقل فى الغالب ، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مرويًا عن النبى ﷺ ، ولا رأيا رآه قائله ، فهم أجل قدرًا من التفسير بالرأى وبما لا مجال للاجتهاد فيه . إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع فى مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة وهو معروف [(٣)] ، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة ، فقد جعل الله عنها سعة ، ولو ثبت لنا فى السكينة تفسير عن النبى ﷺ لوجب علينا المصير إليه والقول به ، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح؛ بل ثبت أنها تنزلت على [(٤)] بعض الصحابة عند

---

(١) ريح خَجوج : تخج فى هبوبها ، أى تلتوى ، والخجوج من الرياح : الشديد المر . انظر : لسان العرب ٢ / ٢٤٧ .

(٢) أقمأهم : أذلهم وصغَّرهم .

(٣) والسكينة فى كلام العرب : الفعيلة ، من قول القائل : سكن فلان إلى كذا وكذا : إذا اطمأن إليه وهدأت عنده نفسه ، فهو يسكن سكونا وسكينة مثل قولك : عزم فلان على هذا الأمر عزما وعزيمة ، ومنه قول الشاعر :

لله قَبْرٌ غالَهَا ماذا يُجِن ... لقد أجَنَّ سكينة ووقارا

راجع : اللسان (سكن) .

(٤) فى المطبوعة : « عن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تلاوته للقرآن كما فى صحيح مسلم عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط ، فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : « تلك السكينة نزلت للقرآن » (١) . وليس فى هذا إلا أن هذه التى سماها رسول الله ﷺ سكينة : سحابة دارت على ذلك القارئ فالله أعلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وبقية مما ترك آل موسى** ﴾ قال : عصاه ورُضاض الألواح . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى صالح قال : كان فى التابوت عصا موسى وعصا هارون ، وثياب موسى وثياب هارون ، ولوحان من التوارة والمن ، وكلمة الفرج : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **تحمله الملائكة** ﴾ قال : أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته فى بيت طالوت ، فأصبح فى داره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ قال : علامة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إن الله مبتليكم بنهر** ﴾ يقول : بالعطش ، فلما انتهى إلى النهر وهو نهر الأردن كرع فيه عامة الناس فشربوا منه ، فلم يزد من شرب منه إلا عطشا ، وأجزأ من اغترف غرفة بيده وانقطع الظمأ عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **فشربوا منه إلا قليلاً منهم** ﴾ قال : القليل ثلاثمائة وبضعة عشر عدة أهل بدر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن البراء قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة (٢). وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ قال لأصحابه يوم بدر : «أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت » (٣) . وأخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا ثلاثمائة ألف، وثلاثة آلاف ، وثلاثمائة وثلاثة عشر ، فشربوا منه كلهم إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر عدة أصحاب النبى ﷺ يوم بدر فردهم طالوت ومضى ثلاثمائة وثلاثة عشر. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿**الذين يظنون**﴾ قال: الذين يستيقنون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كان طالوت أميرًا على الجيش ، فبعث أبو داود مع داود بشىء إلى إخوته ، فقال داود لطالوت : ماذا لى ، وأقتل(٤)

(١) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٩٥/ ٢٤٠) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٥) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٦٨) والبخارى فى المغازى (٣٩٥٧ ، ٣٩٥٩) وابن جرير ٢/ ٣٩٣ وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٢٨) ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) ابن جرير ٢/ ٣٩٣ وهذا إسناد مرسل .

(٤) فى المطبوعة : « وأقبل » ، والصحيح ما أثبتناه ، وهو الموافق لما فى الدر المنثور .

جالوت ؟ فقال : لك ثلث ملكى وأنكحك ابنتى ، فأخذ مخلاة فجعل فيها ثلاث مَرْوَات ثم سمى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم أدخل يده فقال : بسم الله إلهى وإله آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فخرج على إبراهيم فجعله فى مرحمته ، فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه ، وقتلت ما وراءه ثلاثين ألفًا . وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس والله أعلم . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** ﴾ قال : يدفع الله بمن يصلى عمن لا يصلى ، وبمن يحج عمن لا يحج ، وبمن يزكى عمن لا يزكى . وأخرج ابن عدى وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر : ﴿**ولولا دفع الله الناس** ﴾ الآية . وفى إسناده يحيى ابن سعيد العطار الحمصى وهو ضعيف جدًا (١) .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **تلك الرسل** ﴾ قيل : هو إشارة إلى جميع الرسل فتكون الألف واللام للاستغراق . وقيل : هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين فى هذه السورة . وقيل : إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبى ﷺ . والمراد بتفضيل بعضهم على بعض: أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر ، فكان الأكثر مزايا فاضلاً والآخر مفضولاً . وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض ، كذلك دلت الآية الآخرى وهى قوله تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ [الإسراء : ٥٥] وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعًا بلفظ : « لا تفضلونى على الأنبياء » (٢) وفى لفظ آخر : « لا تفضلوا بين الأنبياء »(٣) وفى لفظ: « لا تخيروا بين الأنبياء » (٤) فقال قوم: إن هذا القول منه ﷺ كان قبل

(١) ابن عدى فى الكامل ٢/ ٣٨٣ وابن جرير ٢/ ٤٠٤ .
(٢) لم أعثر عليه عند البخارى ومسلم .
(٣) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٤) لكن بلفظ : « لا تفضلوا بين أولياء الله » ومسلم فى الفضائل (١٥٩/٢٣٧٣) والنسائى فى التفسير (٤٧٨) .
(٤) البخارى فى الخصومات (٢٤١٢) وفى الديات (٦٩١٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٤/ ١٦٣) لكن عن أبى سعيد الخدرى .

أن يوحى إليه بالتفضيل ، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل . وقيل : إنه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع كما قال : « لا يقل [١] أحدكم أنا خير[٢] من يونس بن متى » [٣] تواضعًا مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله : « أنا سيد ولد آدم » [٤] . وقيل : إنما نهى عن ذلك قطعًا للجدال والخصام فى الأنبياء ، فيكون مخصوصًا بمثل ذلك لا إذا كان صدور ذلك مأمونا . وقيل : إن النهى إنما هو من جهة النبوة فقط؛ لأنها خصلة واحدة لاتفاضل فيها ، ولا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات . وقيل : إن المراد النهى عن التفضيل لمجرد الأهواء والعصبية . وفى جميع هذه الأقوال ضعف . وعندى أنه لا تعارض بين القرآن والسنة، فإن القرآن دل على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض ، وذلك أنه لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض فإن المزايا التى هى مناط التفضيل معلومة عند الله ، لا تخفى عليه منها خافية فيه ، وليست بمعلومة عند البشر ، فقد يجهل أتباع نبى من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلا عن مزايا غيره ، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التى يكون بها هذا فاضلاً وهذا مفضولاً ، لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها ، فإن ذلك تفضيل بالجهل وإقدام على أمرلا يعلمه الفاعل له ، وهو ممنوع منه ، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن فى الإخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهى عن ذلك ؟ وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه ، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأن فضل بعض أنبيائه على بعض ، والسنة فيها النهى بعباده أن يفضلوا بين أنبيائه ، فمن تعرض للجمع بينهما زاعمًا أنهما متعارضان فقد غلط غلطًا بينا .

قوله : ﴿ **منهم من كلم الله** ﴾ وهو موسى ونبينا سلام الله عليهما . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال فى آدم: « إنه نبى مكلم » [٥] . وقد ثبت ما يفيد ذلك فى صحيح ابن حبان من حديث أبى ذر [٦] . قوله : ﴿ **ورفع بعضهم درجات**﴾ هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء ، ويحتمل أن يراد به نبينا ﷺ لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله ، ويحتمل أن يراد به إدريس ؛ لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكانا عليًا . وقيل : إنهم أولو العزم . وقيل : إبراهيم ، ولا يخفاك أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع فلا يجوز لنا التعرض للبيان له إلا ببرهان من الله سبحانه ، أو من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ،

---

(١) كذا ، وعند البخارى : « لا يقولن » . (٢) كذا ، وعند البخارى : « إنى » .

(٣) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٢) عن عبد الله بن مسعود .

(٤) مسلم فى الفضائل (٣/٢٢٧٨) وأبو داود فى السنة (٤٦٧٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٥) جزء من حديث أبى ذر عند أحمد ١٧٨/٥ ، ١٧٩ وقال الهيثمى فى : المجمع ١/ ١٦٤ ، ١٦٥ : « وفيه المسعودى ، وهو ثقة ولكنه اختلط » .

(٦) ابن حبان ـ وهو جزء من حديث طويل ـ فى البر والإحسان (٣٦٢) وسيأتى تخريجه بأوسع من ذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ [النساء : ١٦٤] .

ولم يرد ما يرشد إلى ذلك ، فالتعرض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأى ، وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة إلى التفضيل بين الأنبياء وقد نهينا عنه . وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا ﷺ وأطالوا فى ذلك ، واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات ومزايا الكمال ، وخصال الفضل ، وهم بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب ، قد وقعوا فى خطرين ، وارتكبوا نهيين ، وهما: تفسير القرآن بالرأى ، والدخول فى ذرائع التفضيل بين الأنبياء ، وإن لم يكن ذلك تفضيلا صريحا فهو ذريعة إليه بلاشك ولا شبهة ؛ لأن من جزم بأن هذا البعض مرفوع درجات هو النبى الفلانى انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهى عنه ، وقد أغنى الله نبينا المصطفى ﷺ عن ذلك بما لا يحتاج إلى غيره من الفضائل والفواضل ، فإياك أن تتقرب إليه ﷺ بالدخول فى أبواب نهاك عن دخولها فتعصيه وتسىء أنت وتظن أنك مطيع محسن .

قوله : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات** ﴾ أى الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من إحياء الأموات ، وإبراء المرضى، وغير ذلك قوله : ﴿ **وأيدناه بروح القدس** ﴾ هو جبريل . وقد تقدم الكلام على هذا . قوله : ﴿ **ولوشاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم** ﴾ أى من بعد الرسل . وقيل : من بعد موسى وعيسى ، ومحمد ؛ لأن الثانى مذكور صريحًا ، والأول والثالث وقعت الإشارة إليهما بقوله : ﴿ **منهم من كلم الله** ﴾ أى لوشاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا . فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة ﴿ **ولكن اختلفوا** ﴾ استثناء من الجملة الشرطية، أى ولكن الاقتتال ناشئ عن اختلافهم اختلافًا عظيمًا حتى صاروا مللاً مختلفة ﴿ **منهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله** ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذا الاختلاف ﴿ **ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾ لارادّ لحكمه، ولا مبدّل لقضائه ، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ قال: اتخذ الله إبراهيم خليلا ، وكلم موسى تكليما ، وجعل عيسى كمثل آدم﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران : ٥٩] وهو عبد الله وكلمته وروحه ، وآتى داود زبورا ، وآتى سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد فى قوله : ﴿**منهم من كلم الله** ﴾ قال : كلم الله موسى ، وأرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عامر الشعبى فى قوله : ﴿ **ورفع بعضهم درجات**﴾ قال : محمداً ﷺ . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم** ﴾ يقول : من بعد موسى وعيسى . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : كنت عند النبى ﷺ وعنده أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية إذ أقبل على فقال النبى ﷺ لمعاوية : « أتحب عليا » ؟ قال : نعم ، قال : « إنها ستكون بينكم فتنة هنيهة » قال معاوية : فما بعد ذلك يارسول الله ؟ قال : «عفو الله ورضوانه » قال : رضينا بقضاء الله فعند ذلك نزلت هذه الآية : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا**

ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ قال السيوطى : وسنده واهٍ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ .

ظاهر الأمر فى قوله : ﴿ أنفقوا ﴾ الوجوب ، وقد حمله جماعة على صدقة الفرض لذلك، ولما فى آخر الآية من الوعيد الشديد . وقيل : إن هذه الآية تجمع زكاة الفرض والتطوع. قال ابن عطية : وهذا صحيح ، ولكن ما تقدم من الآيات فى ذكر القتال ، وأن الله يدفع بالمؤمنين فى صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو فى سبيل الله . قال القرطبى : وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرة واجبا ، ومرة ندبًا بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه . قوله : ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ﴾ أى أنفقوا ما دمتم قادرين ﴿ من قبل أن يأتى ﴾ ما لا يمكنكم الإنفاق فيه وهو ﴿ يوم لا بيع فيه ﴾ أى لا يتبايع الناس فيه . والخلة : خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . أخبر سبحانه أنه لا خلة فى يوم القيامة نافعة ، ولا شفاعة مؤثرة ، إلا لمن أذن الله له . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لا بيع، ولا خلة ، ولا شفاعة، من غير تنوين . وقرأ الباقون برفعها منونة، وهما لغتان مشهورتان للعرب ، ووجهان معروفان عند النحاة ، فمن الأول قول حسان بن ثابت :

ألا طِعــانَ ولا فُرْســانَ عَــادِية   إلا تجشُّؤكم حول التَّنَانير (٢)

ومن الثانى قول الراعى :

وما صَرَمْتُكِ حَتَّى قُلْتِ مُعْلِنَةً   لا نــاقة لِىَ فى هَذَا وَلاَ جَمَلُ

ويجوز فى غير القرآن التغاير برفع البعض ، ونصب البعض ، كما هو مقرر فى علم الإعراب . قوله : ﴿والكافرون هم الظالمون ﴾ فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه ، ومن جملة من يدخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعًا يوجب كفره لوقوع ذلك فى سياق الأمر بالإنفاق .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قولــه تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم ﴾ قال : من الزكاة والتطوع . وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال : يقال : نسخت الزكاة كل صدقة فى القرآن،ونسخ شهر رمضان كل صوم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : قد علم الله أن ناسا يتخاللون فى الدنيا ويشفع بعضهم لبعض ، فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

---

(١) الدر المنثور ١/ ٣٢٢ .

(٢) يقول هذا لبنى الحارث بن كعب ، ومنهم النجاشى ، وكان يهاجيه فجعلهم أهل نهم وحرص على الطعام لا أهل غارة وقتال ، والعادية : المستطيلة ، ويروى : غادية بالغين المعجمة وهى التى تغدو للغارة ، وعادية أعم . راجع : شرح الشواهد .

عن عطاء قال : الحمد لله الذى قال : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾.

قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى لا معبود بحق إلا هو ، وهذه الجملة خبر لمبتدأ. و﴿ الحى﴾: الباقى . وقيل : الذى لا يزول ولا يحول . وقيل : المصرف للأمور والمقدر للأشياء . قال الطبرى عن قوم إنه يقال : حى كما وصف نفسه ، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه ، وهوخبر ثان أو مبتدأ خبره محذوف . و﴿ القيوم ﴾ القائم على كل نفس بما كسبت . وقيل : القائم بذاته ، المقيم لغيره . وقيل : القائم بتدبير الخلق وحفظه . وقيل : هو الذى لا ينام . وقيل : الذى لابديل له .وأصل قيوم : قيووم اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى فى الثانية بعد قلب الواو ياء . وقرأ ابن مسعود وعلقمة والنخعى والأعمش : « الحى القيام » بالألف ، وروى ذلك عن عمر ، ولا خلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء ، وأثبت علة .

والسِنة : النعاس فى قول الجمهور ، والنعاس : ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين، فإذا صار فى القلب صار نومًا . وفرق المفضّل [(١)] بين السِّنَة ، والنعاس ، والنوم فقال : السنة من الرأس ، والنعاس فى العين والنوم فى القلب . انتهى . والذى ينبغى التعويل عليه فى الفرق بين السنة والنوم أن السِّنة لا يفقد معها العقل ، بخلاف النوم فإنه استرخاء أعضاء الدماغ، من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل ، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر ؛ والمراد : أنه لا يعتريه سبحانه شىء منهما ، وقدم السنة على النوم ؛ لكونها تتقدمه فى الوجود. قال الرازى فى تفسيره : إن السنة ما تتقدم النوم ، فإذا كانت عبارة عن مقدمة النوم ، فإذا قيل : لا تأخذه سنة دلّ على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى ، فكان ذكر النوم تكرارا ، قلنا : تقدير الآية لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم والله أعلم بمراده . انتهى . وأقول : إن هذه الأولوية التى ذكرها غير مسلمة، فإن النوم قد يرد ابتداءً من دون ما ذكر من النعاس ، وإذا ورد على القلب والعين دفعة واحدة فإنه يقال له : نوم ، ولا يقال له : سنة ، فلا يستلزم نفى السنة نفى النوم وقد ورد عن العرب نفيهما جميعاً ، ومنه قول زهير :

وَلاَ سِنَةٌ طُوالُ الدّهْرِ تَأخُذه ... وَلا يَنَامُ وَمَا فى أَمْرِه فَنَدُ [(٢)]

---

(١) فى المطبوعة : « المفصل » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) الفند : الخرف ، وإنكار العقل من الهرم أو المرض ، ويطلق على الخطأ فى الرأى ، وعلى ضعف الرأى ، وعلى الكذب . اللسان ٣ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

فلم يكتف بنفى السنة ، وأيضًا فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السِنة ، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم، فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السنة ، فلو وقع الاقتصار فى النظم القرآنى على نفى السنة لم يفد ذلك نفى النوم ، وهكذا لو وقع الاقتصار على نفى النوم لم يفد نفى السنة ، فكم من ذى سِنة غير نائم . وكرر حرف النفى للتنصيص على شمول النفى لكل واحد منهما . قوله : ﴿ **مَن ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ فى هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحدًا من عباده يقدر على أن ينفع أحدًا منهم بشفاعة أو غيرها والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه ، وفيه من الدفع فى صدور عباد القبور والصد فى وجوههم ، والفت فى أعضادهم ، ما لا يقادر قدره ، ولا يبلغ مداه ، والذى يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ﴾ [النبأ : ٣٨] بدرجات كثيرة . وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة فى دواوين الإسلام صفة الشفاعة ، ولمن هى ، ومن يقوم بها .

قوله : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ الضميران لما فى السموات والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم ، وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر عنهم ، أو عن الدنيا والآخرة وما فيهما . قوله : ﴿ **ولا يحيطون بشىء من علمه** ﴾ قد تقدم معنى الإحاطة ، والعلم هنا : بمعنى المعلوم ، أى لا يحيطون بشىء من معلوماته . قوله : ﴿ **وسع كرسيه** ﴾ الكرسى الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك . وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطؤوا فى ذلك خطأ بينًا ، وغلطوا غلطًا فاحشًا . وقال بعض السلف : إن الكرسى هنا : عبارة عن العلم ، قالوا : ومنه قيل للعلماء : الكراسى ، ومنه الكراسة التى يجمع فيها العلم ، ومنه قول الشاعر :

تَحُفُّ بِهِمْ بِيضُ الوُجُوه وعُصْبَةٌ كَـراسىَّ بالأخْبَارِ حِينَ تَنُوبُ

ورجح هذا القول ابن جرير الطبرى [1] . وقيل : كرسيه : قدرته التى يمسك بها السموات والأرض كما يقال : اجعل لهذا الحائط كرسيًا ، أى ما يعمده . وقيل : إن الكرسى هو العرش . وقيل : هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له . وقيل : هو عبارة عن الملك . والحق القول الأول ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات ، والمراد بكونه وسع السموات والأرض : أنها صارت فيه وأنه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطًا واسعا . وقوله : ﴿ **ولا يؤوده حفظهما** ﴾ معناه : لا يثقله ثقال [2] ، آدنى [3] الشىء بمعنى أثقلنى ، وتحملت منه مشقة . وقال الزجاج : يجوز أن يكون الضمير فى قوله : ﴿ **يؤوده** ﴾ لله سبحانه ، ويجوز أن يكون للكرسى ؛ لأنه من أمر الله ﴿**والعلى**﴾ يراد

---

(١) ابن جرير ٣ / ٨ . (٢) فى المطبوعة : « ثقالت » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) فى المطبوعة : « أدنى » من غير مد ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

به : علو القدرة والمنزلة . وحكى الطبرى عن قوم أنهم قالوا : هو العلى عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . قال ابن عطية : وهذه أقوال جهلة مجسِّمين ، وكان الواجب أن لا تحكى . انتهى .

والخلاف فى إثبات الجهة معروف فى السلف والخلف ، والنزاع فيه كائن بينهم ، والأدلة من الكتاب والسنة معروفة ، ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجًا عن الشرع ولا ينظر فى أدلته ولا يلتفت إليها ، والكتاب والسنة هما المعيار الذى يعرف به الحق من الباطل ، ويتبين به الصحيح من الفاسد ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ﴾ [المؤمنون: ٧١] . ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب كما فى قوله : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ [القصص : ٤] وقال الشاعر :

فَلَمَّا عَلَوْنَا واسْتَوَيْنَا عليهم تَركْنَاهُمُ صَرْعَى لِنسرٍ وكَاسرِ

والعظيم بمعنى : عظم شأنه وخطره . قال فى الكشاف : إن الجملة الأولى : بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه ، والثانية : بيان لكونه مالكًا لما يدبره ، والجملة الثالثة : بيان لكبرياء شأنه ، والجملة الرابعة : بيان لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى ، والجملة الخامسة : بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها ، أو لجلاله وعظم قدره (١) .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **الحى** ﴾ أى حى لا يموت و ﴿ **القيوم** ﴾ القائم الذى لا بديل له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن مجاهد فى قوله : ﴿ **القيوم** ﴾ قال : القائم على كل شيء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : القيوم : الذى لا زوال له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ قال : السِنة : النعاس ، والنوم : هو النوم . وأخرجوا إلا البيهقى عن السدى قال : السنة : ريح النوم الذى تأخذه فى الوجه فينعس الإنسان. وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم** ﴾ قال : ما مضى من الدنيا ﴿ **وما خلفهم** ﴾ من الآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ما بين أيديهم**﴾ ما قدموا من أعمالهم ﴿ **وما خلفهم** ﴾ ما أضاعوا من أعمالهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وسع كرسيه** ﴾ قال : علمه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ **ولا يؤوده حفظهما** ﴾ (٢) . وأخرج الدارقطنى فى الصفات ، والخطيب فى تاريخه عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله : ﴿ **وسع كرسيه** ﴾ قال : « كرسيه موضع قدمه ، والعرش لا

(١) الكشاف ١ / ٣٠٢ .

(٢) ابن جرير ٣ / ٧ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢ / ١٣٤ .

يقدر قدره إلا الله عز وجل » . وأخرجه الحاكم وصححه [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى مثله موقوفًا [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : لو أن السموات السبع ، والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن فى سعته ــ يعنى الكرسى ــ إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى عن أبى ذر الغفارى ؛ أنه سأل رسول ﷺ عن الكرسى ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[٣] .

وأخرج عبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وأبو الشيخ والطبرانى ، والضياء المقدسى فى المختارة عن عمر ؛ قال: أتت امرأة إلى النبى ﷺ وقالت : ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فعظم الرب سبحانه وقال : « إن كرسيه وسع السموات والأرض ، وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد [٤] من ثقله » [٥] وفى إسناده عبد الله بن خليفة وليس بالمشهور . وفى سماعه من عمر نظر ، ومنهم من يرويه عن عمر موقوفًا . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا ؛ أنه موضع القدمين [٦] . وفى إسناده الحكم بن ظهير الفزارى الكوفى وهو متروك . وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة وغيرهم فى وصف الكرسى آثار لا حاجة فى بسطها . وقد روى أبو داود فى كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثًا فى صفته[٧] ، وكذلك أورد ابن مردويه عن بريدة وجابر وغيرهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يؤوده حفظهما** ﴾ قال : لا يثقل عليه. وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **ولا يؤوده** ﴾ قال : ولا يكثره . وأخرج ابن جرير عنه قال : العظيم الذى قد كمل فى عظمته .

واعلم أنه قد ورد فى فضل هذه الآية أحاديث . فأخرج أحمد ومسلم واللفظ له عن أبىّ

---

(١) الخطيب فى تاريخه ٩ / ٢٥١ وأورد ابن كثير ١ / ٥٤٩ رواية ابن مردويه وقال : « وهو غلط » وكذلك ضعفه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة (٩٠٦) . والحاكم ــ موقوفا ــ وصححه ٢ / ٢٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ٣ / ٧ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢ / ١٤٨ .

(٣) ابن جرير ٣ / ٨ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢ / ١٤٩ .

(٤) الرحل الجديد : كور الناقة ، أى أنه ليعجز عن حمله وعظمته ، إذ كان معلومًا أن أطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه وعجزه عن احتماله . انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٥٤ .

(٥) البزار (٣٩) وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٨٩ : ورجاله رجال الصحيح وفى هامش نفس الصفحة : بل فيه عبد الله بن خليفة ، وهو مجهول ». كما عزاه الهيثمى فى المجمع ١٠ / ١٦٢ إلى أبى يعلى فى الكبير وقال: « ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن خليفة الهمزانى ، وهو ثقة » وذكره الألبانى فى الضعيفة والموضوعة (٨٦٦) وقال : « منكر » وابن جرير ٣ / ٨ .

(٦) أورد ابن كثير ١ / ٥٤٩ رواية ابن مردويه وقال : « ولا يصح » . (٧) أبو داود فى السنة (٤٧٢٦) .

ابن كعب ؛ أن النبى ﷺ سأله: « أى آية من كتاب الله أعظم ؟ » قال : آية الكرسى قال : «ليهنك العلم أبا المنذر » [١] . وأخرج النسائى وأبو يعلى وابن حبان ، وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى ، والحاكم وصححه عن أبى بن كعب ؛ أنه كان له جُرْن فيه تمر ، فكان يتعاهده فوجده ينقص ، فحرسه [٢] ذات ليلة فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم . قال : فسلمت فرد السلام ، فقلت : ما أنت، جنى أم إنسى ؟ قال : جنى ، قلت : ناولنى يدك فناولنى فإذا يده يدكلب وشعره شعر كلب ، فقلت : هكذا خلق الجن ؟ قال : لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد منى ، قلت : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك ، فقال له أبى : فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال : هذه الآية آية الكرسى التى فى سورة البقرة ، من قالها حين يمسى أجير منا حتى يصبح ، ومن قالها حين يصبح أجير منا حتى يمسى ، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : « صدق الخبيث»[٣] .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، والطبرانى ، وأبو نعيم فى المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكرى ؛ أن النبى ﷺ جاءهم فى صُفَّة المهاجرين ، فسأله إنسان : أى آية فى القرآن أعظم ؟ فقال النبى ﷺ : « ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ » [٤] حتى انقضت الآية . وأخرج أحمد من حديث أبى ذر مرفوعا نحوه [٥] . وأخرج الخطيب البغدادى فى تاريخه عن أنس مرفوعًا نحوه أيضا . وأخرج الدارمى عن أيْفع [٦] بن عبد الله الكلاعى ، نحوه [٧] ، وأخرج البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو ، وذكر قصة ، وفى آخرها أنه قال له : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : ما هى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فأخبر أبو

---

(١) أحمد ٥ /٥٨ ، ١٤٢ ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨١٠ / ٢٥٨) وأبو داود فى الصلاة (١٤٦٠) .

(٢) فى المطبوعة : « فحرصه » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) ابن حبان فى الرقائق (٧٨١) والطبرانى (٥٤١) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ١٢٠ ، ١٢١ : « ورجاله ثقات ، وصحح الحاكم إسناده ١ / ٥٦٢ ووافقه الذهبى وعزاه المزى فى التحفة (٧٣) إلى النسائى فى اليوم والليلة » .

(٤) أبو داود فى الحروف والقراءات (٤٠٠٣) والطبرانى (٩٩٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٣٢٤ : « وفيه راوٍ لم يسم وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات » . عند الطبرانى : وعن الأسقع البكرى ، ورجح المزى فى التحفة ٩ / ٨١ ، ٨٢ أنه واثلة بن الأسقع ، كما عند أبى داود .

(٥) أحمد ٥ / ٥٨ وقال الهيثمى فى : المجمع ٦ / ٣٢٤ « ورجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى المخطوطة : « أنفع » والصحيح « أيفع » سماه ابن حجر : أيفع بن عبد الكلاعى وعده فى القسم الرابع ، وهم الذين لم تثبت صحبتهم ، وأورد له هذا الحديث ، وقال : « هو مرسل أو متصل » انظر : الإصابة ١ / ١٣٥ .

(٧) الدارمى فى فضائل القرآن ٢ / ٤٤٧ ، وهو مرسل .

هريرة بذلك رسول الله ﷺ فقال : « أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة ؟ » قال : لا ، قال : « ذلك شيطان كذا » (١) . وأخرج نحو ذلك أحمد عن أبى أيوب (٢) . وأخرج الطبرانى والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعًا نحوه (٣) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال : « أعظم آية فى كتاب الله : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾(٤) » . وأخرج نحوه أحمد ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى ذر مرفوعًا (٥) . وأخرج نحوه أيضا أحمد والطبرانى من حديث أبى أمامة مرفوعًا (٦) . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن ، لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه ، آية الكرسى » . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٧) . وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعا : « لكل شىء سنام ، وسنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن ، آية الكرسى » (٨) وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير . وقد تكلم فيه شعبة وضعفه (٩) ، وكذا ضعفه أحمد ويحيى بن معين ، وغير واحد ، وتركه ابن مهدى ، وكذبه السعدى (١٠) . وأخرج أبو داود ، والترمذى وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين : « ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ و ﴿ الم . الله لا إله إلا هو ... ﴾ [آل عمران : ١ ، ٢] إن فيهما اسم الله الأعظم » (١١) . وقد وردت أحاديث فى فضلها غير هذه ، وورد أيضا فى فضل قراءتها دبر

(١) البخارى ــ تعليقًا ــ فى الوكالة (٢٣١١) وفى بدء الخلق (٣٢٧٥) وفى فضائل القران (٥٠١٠) وابن خزيمة فى الزكاة (٢٤٢٤) والبيهقى فى الشعب (٢١٧٠) وفى الدلائل ٧ / ١٠٧ ، ١٠٨ وعزاه المزى فى التحفة (١٤٤٨٢) إلى النسائى فى اليوم والليلة .

(٢) أحمد ٥ / ٤٢٣ .

(٣) الطبرانى فى ٢٠ / ٥١ (٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٣٢٥ : « رواه الطبرانى عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح ، وهو صدوق إن شاء الله كما قال الذهبى » قال ابن أبى حاتم : « وقد تكلموا فيه ، وبقية رجاله وثقوا » ، وصحح الحاكم إسناده ١ / ٥٦٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧ / ١١٠ .

(٤) هذا الحديث ورد موقوفًا على ابن مسعود عند الطبرانى (٨٦٥٩ ، ٨٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٣٢٦ : « ورجاله رجال الصحيح » وعبد الرزاق فى فضائل القرآن (٦٠٠٢) .

(٥) أحمد ٥ / ١٧٨ ، ١٧٩ وصحح الحاكم إسناده ٢ / ٢٨٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢١٧٢) وإسناده ضعيف .

(٦) أحمد ٥ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ والطبرانى (٧٨٧١) وقال الهيثمى فى المجمع ٣ / ١١٨ : « فيه على بن زيد وفيه كلام » .

(٧) صحح الحاكم إسناده ١ / ٥٥٩ ، ٥٦٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢١٧١) وإسناده ضعيف .

(٨) الحاكم ١ / ٥٦٠ وسكت عنه وكذلك الذهبى ، وصحح إسناده ٢ / ٢٥٩ ووافقه الذهبى ، ولكن بدون الجملة الأخيرة فى الموضعين .

(٩) الترمذى ــ تاما ــ فى فضائل القرآن (٢٨٧٨) .

(١٠) تفسير ابن كثير ١ / ٥٤٥ .

(١١) أبو داود فى الصلاة (١٤٩٦) والترمذى فى الدعوات (٣٤٧٨) وقال : « حسن صحيح » .

الصلوات وفى غير ذلك ، وورد أيضا فى فضلها مع مشاركة غيرها أحاديث ، وورد عن السلف فى ذلك شىء كثير .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾ .

قد اختلف أهل العلم فى قوله : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ على أقوال : الأول : أنها منسوخة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام ، والناسخ لها قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾ [التوبة : ٧٣ ، والتحريم : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [التوبة : ١٢٣] ، وقال : ﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ [الفتح : ١٦] وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين . القول الثانى : أنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يُكْرَهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ؛ بل الذين يُكْرَهون هم أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، وإلى هذا ذهب الشعبى والحسن وقتادة والضحاك . القول الثالث : أن هذه الآية فى الأنصار خاصة وسيأتى بيان ما ورد فى ذلك . القول الرابع : أن معناها : لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف إنه مكره فلا إكراه فى الدين . القول الخامس : أنها وردت فى السبى متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام . وقال ابن كثير فى تفسيره : أى لا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام ، فإنه بيِّن واضح ، جليٌّ ، دلائله وبراهينه لا تحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ؛ بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهًا مقسورًا (١) . وهذا يصلح أن يكون قولاً سادسًا . وقال فى الكشاف فى تفسير هذه الآية : أى لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ، ولكن على التمكين والاختيار ، ونحوه قوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : ٩٩] أى لو شاء لقسرهم على الإيمان . ولكن لم يفعل ، وبنى الأمر على الاختيار(٢) . وهذا يصلح أن يكون قولاً سابعًا .

والذى ينبغى اعتماده ويتعين الوقوف عنده : أنها فى السبب الذى نزلت لأجله محكمة غير منسوخة ، وهو أن المرأة من الأنصار تكون مقلات (٣) لا يكاد يعيش لها ولد ، فتجعل على

---

(١) ابن كثير ١ / ٥٥١ . (٢) الكشاف ١ / ٣٠٣ .

(٣) مقلات ـ بكسر الميم ـ هى المرأة التى لا يعيش لها ولد ، ويأتى أيضا مقلات : أنها المرأة التى ليس لها إلا ولد واحد . ولكن الأول هو المراد .

نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده ، فلما أجليت يهود بنى نضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فنزلت . أخرجه أبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقى فى السنن ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس (١) . وقد وردت هذه القصة من وجوه ، حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الأنصار قالوا : إنما جعلناهم على دينهم ، أى دين اليهود ، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا . وأن الله جاء بالإسلام فلنكرههم؛ فلما نزلت خيرَّ الأبناءَ رسولُ الله ﷺ ولم يكرههم على الإسلام وهذا يقتضى أن أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام ، إذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية ، وأما أهل الحرب فالآية وإن كانت تعمهم ، لأن النكرة فى سياق النفى وتعريف الدين يفيدان ذلك ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات فى إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام .

قوله : ﴿ **قد تبين الرشد من الغى** ﴾ الرشد هنا : الإيمان ، والغى : الكفر ، أى قد تميز أحدهما من الآخر . وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله . والطاغوت : فعلوت من طغى يطغى ويطغو : إذا جاوز الحد . قال سيبويه: هو اسم مذكر مفرد ، أى اسم جنس يشمل القليل والكثير . وقال أبو على الفارسى : إنه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع ، وقلبت لامه إلى موضع العين ، وعينه إلى موضع اللام ، كجبذ وجذب ، ثم تقلب الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها ، فقيل : طاغوت ، واختار هذا القول النحاس . وقيل : أصل الطاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق ، كما قيل : لآلئ من اللؤلؤ . وقال : المبرد : هو جمع . قال ابن عطية : وذلك مردود . قال الجوهرى : والطاغوت : الكاهن والشيطان وكل رأس فى الضلال ، وقد يكون واحدًا ، قال الله تعالى : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ [النساء : ٦٠] . وقد يكون جمعا ، قال الله تعالى : ﴿ **أولياؤهم الطاغوت** ﴾ . والجمع : الطواغيت ، أى فمن يكفر بالشيطان أو الأصنام أو أهل الكهانة ورؤوس الضلالة أو بالجميع ﴿ **ويؤمن بالله** ﴾ عز وجل بعدما تميز له الرشد من الغى فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق ، أى المحكم . والوثقى : فعلى من الوثاقة ، وجمعها وُثَق مثل الفضلى والفُضَل . وقد اختلف المفسرون فى تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه والتمثيل ، لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة ، فقيل : المراد بالعروة : الإيمان . وقيل : الإسلام . وقيل : لا إله إلا الله ، ولا مانع من الحمل على الجميع . والانفصام : الانكسار من غير بينونة . قال الجوهرى : فصم الشىء :كسره من غير أن يبين(٢). وأما القصم بالقاف فهو الكسر مع البينونة ، وفسر

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٦٨٢) والنسائى فى التفسير (٦٨ ، ٦٩) وابن جرير ٣ / ١٠ وابن حبان (١٤٠) والبيهقى فى الجزية ٩ / ١٨٦ .

(٢) قال أعشى بنى ثعلبة :

ومَبْسَمُهَا عَنْ شَتِيتِ البنات ... غَيرِ أكَسَّ ولا مُنْقَصِمْ

راجع ديوانه .

صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع .

قوله : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا** ﴾ الولى : فعيل بمعنى فاعل ، وهو الناصر . وقوله : ﴿**يخرجهم** ﴾ تفسير للولاية ، أو حال من الضمير فى ولى وهذا يدل على أن المراد بقوله : ﴿**الذين آمنوا** ﴾ الذين أرادوا الإيمان ؛ ولأن من قد وقع منه الإيمان قد خرج من الظلمات إلى النور ، إلا أن يراد بالإخراج إخراجهم من الشبه التى تعرض للإيمان فلا يحتاج إلا تقدير الإرادة ، والمراد بالنور فى قوله : ﴿ **يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ ما جاء به أنبياء الله من الدعوة إلى الدين ، فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم عنه إلى ظلمة الكفر ، أى قررهم أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن إجابة الداعى إلى الله من الأنبياء. وقيل : المراد بالذين كفروا هنا : الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين رؤوس الضلال ، من النور الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التى وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم عن ابن عباس من ذكر سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ وزاد : أن النبى ﷺ خيَّر الأبناء (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الشعبى نحوه أيضًا ، وقال : فلحق بهم ، أى ببنى النضير من لم يسلم وبقى من أسلم (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال : كان ناس من الأنصار مسترضعين فى بنى قريظة فثبتوا على دينهم ، فلما جاء الإسلام أراد أهلوهم أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت (٣) . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه (٤) .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ قال : نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له : الحصين ، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلمًا، فقال للنبى ﷺ: ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فنزلت (٥) . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عبيدة نحوه . وكذلك أخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن السدى نحوه (٦) . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير عن قتادة ؛ قال : كانت العرب ليس لها دين ، فأكرهوا على الدين بالسيف . قال : ولا تكرهوا اليهود ولا النصارى والمجوس إذا أعطوا الجزية . وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه . وأخرج البخارى عن أسلم سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى تسلمى ، فأبت ، فقال : اللهم اشهد، ثم تلا : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ . وروى عنه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم؛ أنه قال لزنبق الرومى

(١) ابن جرير ٣ / ١٠ والبيهقى فى الجزية ٩ / ١٨٦ . (٢) ابن جرير ٣ / ١٠ .
(٣ ، ٤) المرجع السابق ٣ / ١١ .
(٥) المرجع السابق ٣ / ١٠ . (٦) المرجع السابق ٣ / ١٠ ، ١١ .

غلامه : لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فأبى ، فقال : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سليمان بن موسى فى قوله : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ قال: نسختها ﴿جاهد الكفار والمنافقين ﴾ [التوبة : ٧٣] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال : الطاغوت : الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : الطاغوت : الكاهن . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال : الطاغوت : الساحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس قال : الطاغوت : ما يعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : العروة الوثقى : لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن أنس بن مالك: أنها القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ أنها الإيمان ، وعن سفيان : أنها كلمة الإخلاص .وقد ثبت فى الصحيحين تفسير العروة الوثقى فى غير هذه الآية بالإسلام مرفوعًا فى تعبيره ﷺ لرؤيا عبد الله بن سلام(١) . وأخرج ابن عساكر عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر فإنهما حبل الله الممدود ، فمن تمسك بهما فقد تمسك بعروة الله الوثقى التى لا انفصام لها » (٢) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : إذا وحد الله ، وآمن بالقدر ، فهى العروة الوثقى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله : ﴿ **لا انفصام لها** ﴾ قال : لا انقطاع لها دون دخول الجنة . وأخرج ابن المنذر والطبرانى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا** ﴾ الآية . قال : هم قوم كانوا كفروا بعيسى فآمنوا بمحمد ﷺ ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت** ﴾ الآية . قال : هم قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد كفروا به . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الظلمات : الكفر . والنور : الإيمان وأخرج أبو الشيخ عن السدى مثله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ .

فى هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره ،من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت ، وهمزة

---

(١) البخارى فى التعبير (٧٠١٤) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٤ / ١٥٠) .
(٢) ابن عساكر فى تاريخه ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ / ٣٩٤ لكن عن حذيفة بن اليمان ، ولم أعثر فيه على رواية أبى الدرداء . وقد رواه عن حذيفة ــ مختصرا ــ أحمد ٥ / ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٤٠٢ والترمذى فى المناقب (٣٦٦٢) وقال : « حسن » وابن ماجة فى المقدمة (٩٧) وابن حبان فى إخباره عن مناقب الصحابة (٦٨٦٣)، وصححه الحاكم ٣ / ٧٥ ووافقه الذهبى وغيرهم . وروى كذلك عن عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وابن عمر رضى الله عنهم . انظر : الأحاديث الصحيحة للألبانى (١٢٣٣) .

الاستفهام لإنكار النفى والتقرير المنفى ، أى ألم ينته علمك أو نظرك إلى هذا الذى صدرت منه هذه المحاجة ؟ قال الفراء : ﴿ ألم تر﴾ بمعنى : هل رأيت ، أى هل رأيت الذى حاج إبراهيم؟ وهو النمروذ بن كوس بن كنعان بن سلم بن نوح. وقيل : إنه النمروذ بن فالخ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام . وقوله : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ أى لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله ، على معنى : أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو ، فحاج لذلك ؛ أو على أنه وضع المحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر ، كما يقال : عاديتنى لأنى أحسنت إليك ؛ أو وقت أن آتاه الله الملك . وقوله :﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ هو ظرف لحاج . وقيل : بدل من قوله : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ على الوجه الأخير وهو بعيد . قوله : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ بفتح ياء ربى ، وقرئ بحذفها . قوله : ﴿ أنا أحيى ﴾ قرأ جمهور القراء : ﴿ أنا أحيى ﴾ بطرح الألف التى بعد النون من أنا فى الوصل وأثبتها نافع ، وابن أبى أويس ، كما فى قول الشاعر :

أنَا شَيْخُ العَشِيرة فَاعْرِفُونى حُمْيدًا قد تَذَرَّيْتُ السَّنامَا

أراد إبراهيم عليه السلام : أن الله هو الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ، وأراد الكافر: أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء ، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة ، فكان هذا جوابًا أحمق لا يصح نصبه فى مقابلة حجة إبراهيم ؛ لأنه أراد غير ما أراده الكافر ، فلو قال له : ربه الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد فهل تقدر على ذلك ؟ لبهت الذى كفر بادئ بدء وفى أول وهلة ، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسًا لخناقه ، وإرسالاً لعنان المناظرة فقال : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ لكون هذه الحجة لا تجرى فيها المغالطة ، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة .

قوله : ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ بُهِتَ الرجل وبَهُتَ وبَهِتَ : إذا انقطع وسكت متحيرًا . قال ابن جرير : وحكى عن بعض العرب فى هذا المعنى بَهت بفتح الباء والهاء . قال ابن جنى(١) : قرأ أبو حيوة :« فَبَهُتَ » بفتح الباء وضم الهاء ، وهى لغة فى بهت بكسر الهاء ، قال : وقرأ ابن السميفع (٢) :« فبهت » بفتح الباء والهاء ، على معنى : فبهت إبراهيم والذى كفر ، فالذى فى موضع نصب . قال : وقد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة فى بهت . وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة : « فبهت » بكسر الهاء قال : والأكثر بالفتح فى الهاء . قال ابن عطية : وقد تأول قومٌ فى قراءة من قرأ : « فبهت » بفتحها أنه بمعنى سبَّ وقذف ، وأن النمروذ هو الذى سبّ حين انقطع ولم يكن له حيلة . انتهى . وقال سبحانه: ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ ولم يقل : فبهت الذى حاج ؛ إشعارًا بأن تلك المحاجة كفر . وقوله :﴿ والله لا

---

(١) ابن جنى : أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى ، من أئمة الأدب والنحو ، ولد بالموصل وتوفى ببغداد ، سنة ٣٩٢ هـ عن نحو ٦٥ عامًا .

(٢) ابن السميفع : محمد بن عبد الرحمن بن السَّمَيفع ـ بفتح السين ـ أبو عبد الله اليمانى وقراءته شاذة .

يهدى القوم الظالمين﴾ تذييل مقرر لمضمون الجملة التى قبله .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب ؛ أن الذى حاجّ إبراهيم فى ربه هو نمروذ بن كنعان . وأخرجه ابن جرير عن مجاهد وقتادة والربيع والسدى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن زيد بن أسلم : أن أول جبار كان فى الأرض نمروذ ، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار ، فإذا مرَّ به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت ؛ حتى مرَّ به إبراهيم ، فقال : من ربك؟ قال : الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، فردّه بغير طعام ، فرجع إبراهيم إلى أهله فمرّ على كثيب من رمل أصفر فقال : ألا آخذ من هذا فآتى به أهلى ، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم ، فأخذ منه فأتى أهله فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هى بأجود طعام رآه آخذ ، فصنعت له منه فقربته إليه ، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام ، فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذى جئت به ، فعرف أن الله رزقه فحمد الله ، ثم بعث الله إلى الجبار ملكا أنْ آمن وأتركك على ملكك . قال: فهل رب غيرى ؟ فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : فاجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملَك ففتح عليه بابًا من البعوض، وطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت شحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام ، والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شىء ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره ، فمكث أربعمائة سنة ، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذى كان بنى صرحًا إلى السماء ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ (١) [النحل : ٢٦]. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية ، قال : هو نمروذ بن كنعان ، يزعمون أنه أول من ملك فى الأرض ، أتى برجلين قتل أحدهما وترك الآخر ، فقال ﴿ **أنا أحيى وأميت** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدى : ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ قال : إلى الإيمان .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **أو كالذى** ﴾ « أو » للعطف حملاً على المعنى ، والتقدير : هل رأيت كالذى حاج ، أو كالذى مر على قرية؟ قاله الكسائى والفراء . وقال المبرد : إن المعنى : ألم تر إلى

(١) ابن جرير ٣ / ١٧ ، ١٨ .

الذى حاج إبراهيم فى ربه . . ؟ ألم تر من هو كالذى مر على قرية؟ فحذف قوله : من هو . وقد اختار جماعة أن الكاف زائدة ، واختار آخرون أنهـا اسمية ، والمشهور أن القرية هى بيت المقدس ، بعد تخريب بختنصر (١) لهاء، وقيل: المراد بالقرية : أهلها . وقوله :﴿ **خاوية على عروشها** ﴾ أى ساقطة على عروشها ، أى سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه ، قاله السُّدِّىُ واختاره ابن جرير . وقيل : معناه خالية من الناس والبيوت قائمة . وأصل الخواء الخلو ، يقال: خوت الدار وخويت تخوى خواءً ــ ممدود ــ وخويًا ، وخوياً ، أقفرت ، والخواء أيضًا: الجوع لخلو البطن عن الغذاء ، والظاهر القول الأول بدلالة قوله : ﴿ **على عروشها** ﴾ من خوى البيت إذا سقط ، أو من خوت الأرض إذا تهدمت ، وهذه الجملة حالية، أى من حال كونها كذلك . وقوله : ﴿ **أنى يحيى هذه الله**﴾ أى متى يحيى أو كيف يحيى ؟ وهو استبعاد لإحيائها وهى على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المباينة لحالة الأحياء ، وتقديم المفعول لكون الاستبعاد ناشئًا من جهته لا من جهة الفاعل . فلما قال المارُّ هذه المقالة مستبعدًا لإحياء القرية المذكورة بالعمارة لها والسكون فيها ، ضرب الله له المثل فى نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه : ﴿ **فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾ وحكى الطبرى عن بعضهم أنه قال : كان هذا القول شكًا فى قدرة الله على الإحياء ، فلذلك ضرب له المثل فى نفسه . قال ابن عطية: ليس يدخل شك فى قدرة الله سبحانه على إحياء قرية يجلب العمارة إليها ، وإنما يتصور الشك إذا كان سؤاله عن إحياء موتاها .

وقوله : ﴿ **مائة عام** ﴾ منصوب على الظرفية ، والعام : السنة ، أصله مصدر كالعوم سمى به هذا القدر من الزمان . وقوله : ﴿ **بعثه** ﴾ معناه : أحياه . قوله : ﴿ **قال كم لبثت** ﴾ هو استئناف كأنَّ سائلاً سأله : ماذا قال له بعد بعثه ؟ واختلف فى فاعل قال ؛ فقيل : هو الله عـز وجـل . وقـيل : ناداه بذلك ملك من السماء . قيل : هو جبريل . وقيل : غيره . وقيل: إنه نبى من الأنبياء . قيل : رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند أنْ أماته الله وعمر إلى عند بعثه ، والأول (٢) أولى لقوله فيما بعد : ﴿ **وانظر إلى العظام كيف ننشزها** ﴾ وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة، إلا عاصمًا : ﴿ **كم لبث** ﴾ بإدغام الثاء فى التاء لتقاربهما فى المخرج. وقرأ غيرهم بالإظهار وهو أحسن لبعد مخرج الثاء من مخرج التاء . و « كم » فى موضع نصب على الظرفية ، وإنما قال : ﴿ **يومًا أو بعض يوم** ﴾ بناء على ما عنده وفى ظنه فلا يكون كاذبًا ، ومثله قول أصحاب الكهف : ﴿ قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم ﴾ [الكهف: ١٩] ، ومثله قوله ﷺ فى قصة ذى اليدين : « لم تَقصُر ولم أنس»(٣) ، وهذا ما يؤيد قول من قال : إن الصدق ما طابق الاعتقاد ، والكذب ما خالفه . وقوله : ﴿ **قال بل لبثت مائة عام**﴾ هو

(١) فى المطبوعة : « بخنصر » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة : « والأولى أولى » ، والصحيح « والأول أولى » ، كما فى المخطوطة .

(٣) الحديث عن أبى هريرة : أخرجه البخارى فى الصلاة (٤٨٢) وفى السهو (١٢٢٩) وفى الأدب (٦٠٥١) .

استئناف أيضًا كما سلف ، أي ما لبثت يومًا أو بعض يوم ، بل لبثت مائة عام .

وقوله : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أمره سبحانه أن ينظر إلى هذا الأثر العظيم من آثار القدرة ، وهو عدم تغير طعامه وشرابه مع طول تلك المدة . وقرأ ابن مسعود : « وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه » وقرأ طلحة بن مصرِّف: « وانظر لطعامك وشرابك لمائة سنة » . وروى عن طلحة أيضًا أنه قرأ : « لم يسَّن » بإدغام التاء فى السين وحذف الهاء . وقرأ الجمهور بإثبات الهاء فى الوصل ، والتسنه ، مأخوذ من السنة ، أى لم تغيره السنون ، وأصلها سنهة أو سنوة من سنهت النخلة وتسنهت : إذا أتت عليها السنون ، ونخلة سنا ، أى تحمل سنة ولا تحمل أخرى ، وأسنهت عند بنى فلان : أقمت عندهم ، وأصله يتسنا ، سقطت الألف للجزم والهاء للسكت . وقيل : هو من أسن الماء إذا تغيَّر ، وكان يجب على هذا أن يقال : يتأسن من قوله : ﴿ حمأ مسنون ﴾ [الحجر : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣] قاله : أبو عمرو الشيبانى . وقال الزجاج : ليس كذلك ، لأن قوله : ﴿ مسنون ﴾ ليس معناه متغير ، وإنما معناه : مصبوب على سنَّة الأرض (١) . وقوله : ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ اختلف المفسرون فى معناه ، فذهب الأكثر إلى أن معناه : انظر إليه كيف تفرقت أجزاؤه ، ونخرت عظامه ، ثم أحياه الله وعاد كما كان . وقال الضحاك ووهب بن منبه : انظر إلى حمارك قائمًا فى مربطه لم يصبه شىء بعد أن مضت عليه مائة عام ، ويؤيد القول الأول قوله تعالى : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ ويؤيد القول الثانى مناسبته لقوله : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ ، وإنما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه ، بعد إخباره أنه لبث مائة عام ؛ مع أن عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح أن يكون دليلاً على تلك المدة الطويلة ؛ بل على ما قاله من لبثه يومًا أو بعض يوم ، لزيادة استعظام ذلك الذى أماته الله تلك المدة ، فإنه إذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير ، مع كونه قد ظن أنه لم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم زادت الحيرة ، وقويت عليه الشبهة ، فإذا نظر إلى حماره عظامًا نخرة تقرر لديه أن ذلك صنع من تأتى قدرته بما لا تحيط به العقول ؛ فإن الطعام والشراب سريع التغير ، وقد بقى هذه المدة الطويلة غير متغير ، والحمار يعيش المدة الطويلة ، وقد صار كذلك ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : ١٤] . وقوله : ﴿ ولنجعلك آية للناس﴾ قال الفراء : إنه أدخل الواو فى قوله: ﴿ولنجعلك﴾ دلالةً على أنها شرط لفعل بعدها ، معناه: ولنجعلك آية للناس ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك ، وإن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة ، قال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شبابًا على حاله يوم مات، فوجد الأبناء والحفدة شيوخًا .

قوله : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاى ، والباقون بالراء . وروى أبان عن عاصم: « نَنْشُرها » بفتح النون الأولى ، وسكون الثانية ، وضم

---

(١) سنة الأرض : وجه الأرض .

الشين والراء . وقد أخرج الحاكم وصححه عن زيد بن ثابت؛ أن رسول الله ﷺ قرأ «كيف ننشزها » [١] بالزاى . فمعنى القراءة بالزاى نرفعها ، ومنه النشز : وهو المرتفع من الأرض ، أى يرفع بعضها إلى بعض . وأما معنى القراءة بالراء المهملة فواضحة من أنشر الله الموتى ، أى أحياهم وقوله : ﴿**ثم نكسوها لحمًا**﴾ أى نسترها به كما نستر الجسد باللباس ، فاستعار اللباس لذلك ، كما استعاره النابغة للإسلام فقال:

فَالْحَمْدُ لِلّه إِذْ لَمْ يَأتِنِى أَجَلِى حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلاَمِ سِرْبَالاَ

قوله : ﴿ **فلما تبين له** ﴾ أى ما تقدم ذكره من الآيات التى أراه الله سبحانه وأمره بالنظر إليها والتفكر فيها ﴿ **قال أعلم أن الله على كل شىء قدير** ﴾ لا يستعصى عليه شىءٌ من الأشياء . قال ابن جرير : المعنى فى قوله : ﴿ **فلما تبين له**﴾ أى لما اتضح له عيانًا ما كان مستنكرًا فى قدرة الله عنده قبل عيانه ﴿ **قال أعلم** ﴾ وقال أبو على الفارسى معناه : أعلم أن هذا الضرب من العلم الذى لم أكن علمته . وقرأ حمزة والكسائى : « **قال اعلم** » على لفظ الأمر خطابًا لنفسه على طريق التجريد .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن عليٍ فى قوله: ﴿ **أوكالذى مر على قرية**﴾ قال : خرج عزير نبى الله من مدينته وهو شاب ، فمرَّ على قرية خَرِبة وهى خاوية على عروشها، فقال : ﴿ **أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾ فأول ما خلق الله عيناه ، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض ، ثم كسيت لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فقيل له : ﴿ **كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام** ﴾ فأتى مدينته ، وقد ترك جارًا له إسكافًا شابًا فجاء وهو شيخ كبير [٢] .

وقد روى عن جماعة من السلف أن الذى أماته الله عزير ، منهم ابن عباس عند ابن جرير وابن عساكر ، ومنهم عبد الله بن سلام عند الخطيب وابن عساكر ، ومنهم عكرمة وقتادة وسليمان وبريدة والضحاك والسدى عند ابن جرير ، وروى عن جماعة آخرين أن الذى أماته الله هونبى اسمه أرمياء ، فمنهم عبد الله بن عبيد بن عميرعند عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، ومنهم وهب بن منبه عند عبد الرزاق وابن جرير وأبى الشيخ . وأخرج ابن إسحاق عنه أيضًا أنه الخِضر . وأخرج ابن أبى حاتم عن رجل من أهل الشام أنه حزقيل . وروى ابن كثير عن مجاهد أنه رجل من بنى إسرائيل . والمشهور القول الأول .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خاوية** ﴾ قال : خراب . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ﴿ **خاوية** ﴾ ليس فيها أحد . وأخرج أيضًا عن الضحاك قال : ﴿ **على عروشها** ﴾ : سقوفها . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : ساقطة على سقوفها. وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : ﴿ **لبثت يومًا** ﴾ ثم التفت فرأى الشمس فقال :

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٢٣٤ وقال الذهبى : « فيه إسماعيل بن قيس من ولد زيد بن ثابت ضعفوه » .
(٢) صححه الحاكم ٢ / ٢٨٢ على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

﴿**أو بعض يوم**﴾ . وأخرج عنه أيضًا قال : كان طعامه الذى معه سلة من تين ، وشرابه زق من عصير . وأخرج أيضًا عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لم يتسنه** ﴾ قال : لم يتغير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال : ﴿ **لم يتسنه** ﴾ لم ينتن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**ولنجعلك آية للناس** ﴾ مثل ما تقدم عن الأعمش . وكذلك أخرج مثله أيضا عن عكرمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كيف ننشزها** ﴾ قال : نخرجها . وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال : نحييها .

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)** ﴾ .

قوله : « وإذ » ظرف منصوب بفعل محذوف ، أى اذكر وقت قول إبراهيم . وإنما كان الأمر بالذكر موجهًا إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة ؛ لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى ، وهكذا يقال فى سائر المواضع الواردة فى الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف . وقوله : ﴿ **رب** ﴾ آثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء . وقوله : ﴿ **أرنى** ﴾ قال الأخفش : لم يرد رؤية القلب ، وإنما أراد رؤية العين وكذا قال غيره . ولا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا لأن مقصود إبراهيم أن يشاهد الإحياء لتحصل له الطمأنينة ، والهمزة الداخلة على الفعل لقصد تعديته إلى المفعول الثانى وهو الجملة ، أعنى قوله :﴿**كيف تحيى الموتى** ﴾ ، و ﴿**كيف** ﴾ فى محل نصب على التشبيه بالظرف ، أو بالحال ، والعامل فيها هو الفعل الذى بعدها . وقوله :﴿ **أو لم تؤمن** ﴾ عطف على مقدر ، أى ألم تعلم، ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء حتى تسألنى إراءته ؟ ﴿ **قال بلى**﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على ذلك ، ولكن سألت ليطمئن قلبى باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان .

وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكًا فى إحياء الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة لما جُبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه ، ولهذا قال النبى ﷺ : « ليس الخبر كالمعاينة » [(١)] وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم ؛ أنه سأل ذلك لأنه شك فى قدرة الله واستدلوا بما صح عنه ﷺ : فى الصحيحين وغيرهما من قوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » [(٢)] وبما روى عن ابن عباس أنه قال : ما فى القرآن عندى أرجى منها . أخرجه عنه

---

(١) أحمد من رواية ابن عباس ١ / ٢١٥ ، ٢٧١ . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » (١٨٤٢) .
(٢) الحديث عن أبى هريرة : أخرجه أحمد ٢ / ٣٢٦ والبخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢) وفى التفسير (٤٥٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٥١/ ٢٣٨) وفى الفضائل ١٥١ / ١٥٢ وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٦) .

عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له .

قال ابن عطية : وهو عندى مردود ، يعنى قول هذه الطائفة ثم قال : وأما قول النبى ﷺ: « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فمعناه : أنه لو كان شاكًا لكنا نحن أحق به . ونحن لا نشك ، فإبراهيم أحرى ألا يشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم . وأما قول ابن عباس : هى أرجى آية . فمن حيث أن فيها الإدلال على الله وسؤال الإحياء فى الدنيا، وليست مظنة ذلك . ويجوز أن نقول هى أرجى آية لقوله : ﴿ **أولم تؤمن** ﴾ أى أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث ، قال : فالشك يبعد على من ثبت قدمه فى الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة ؟ والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة إجماعًا، وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الألفاظ للآية لم تعط شكًا ، وذلك أن الاستفهام بـ ﴿ **كيف** ﴾ ؟ إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول ، نحو قولك :كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا ، ومتى قلت : كيف ثوبك ؟ وكيف زيد ؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله . وقد تكون ﴿ **كيف** ﴾ خبرًا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخارى : كيف كان بدء الوحى ؟ وهى فى هذه الآية استفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر ، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح ، فيلزم من ذلك أن الشيء نفسه لا يصح مثال ذلك أن يقول مُدَّع : أنا أرفع هذا الجبل ، فيقول المكذب له : أرنى كيف ترفعه ؟ فهذه طريقة مجاز فى العبارة ومعناها : تسليم جدل ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه . فلما كان فى عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازى خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له : ﴿ **أو لم تؤمن قال بلى** ﴾ فكمل الأمر وتخلص من كل شيء ، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة .

قال القرطبى : هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث . وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل ، فقال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء : ٦٥] ، وقال اللعين : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [الحجر : ٤٠] ، وإذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم ؟ وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، واتصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله : ﴿ **أرنى كيف** ﴾ طلب مشاهدة الكيفية . قال الماوردى : وليست الألف فى قوله: ﴿**أولم تؤمن** ﴾ ألف الاستفهام ، وإنما هى ألف إيجاب وتقرير كما قال جرير :

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

والواو واو الحال ، و ﴿ **تؤمن** ﴾ معناه إيمانًا مطلقًا دخل فيه فضل إحياء الموتى ،

والطمأنينة : اعتدال وسكون . وقال ابن جرير : معنى ﴿ ليطمئن قلبى ﴾ : ليوقن . قوله : ﴿فخذ أربعة من الطير ﴾ الفاء جواب شرط محذوف ، أى إن أردت ذلك فخذ ، والطير : اسم جمع لطائر كركب لراكب ، أو جمع أو مصدر ، وخص الطير بذلك ؛ قيل : لأنه أقرب أنواع الحيوان إلى الإنسان . وقيل : إن الطير همته الطيران فى السماء ، والخليل كانت همته العلو . وقيل : غير ذلك من الأسباب الموجبة لتخصيص الطير وكل هذه لا تسمن (١) ولا تغنى من جوع وليست إلا خواطر أفهام ، وبوادر أذهان لا ينبغى أن تجعل وجوها لكلام الله ، وعللاً لما يرد فى كلامه ، وهكذا قيل : ما وجه تخصيص هذا العدد فإن الطمأنينة تحصل بإحياء واحد ؟ فقيل : إن الخليل إنما سأل واحدًا على عدد العبودية ، فأعطى أربعًا على قدر الربوبية . وقيل : إن الطيور الأربعة إشارة إلى الأركان الأربعة التى منها تتركب أركان الحيوان ونحو ذلك من الهذيان . قوله : ﴿ فصُرهن إليك ﴾ قرئ بضم الصاد وكسرها ، أى اضممهن إليك وأمِلْهُنّ واجمعهن ، يقال :رجل أصور: إذا كان مائل العنق ؛ ويقال : صار الشىء يصوره : أماله . قال الشاعر :

اللَّـهُ يَعْلَـمُ أَنَّـا فـى تَـلَفُّتِنـا ... يَوْمَ الْفِـرَاقِ إِلى جِيَرانِنـا صُـورُ

وقيل : معناه : قطعهنّ . يقال : صار الشىء يصوره ، أى قطعه ، ومنه قول توبة بن الحمِّير :

فَأَدْنَتَ لي الأَسْبَابَ حَتَّى بَلَغْتُها ... بِنَهْضِي وَقَدْ كَادَ اجْتِماعِي يَصُورُهَا

أى يقطعها ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ إليك ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿ خذ ﴾ . وقوله : ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ﴾ فيه الأمر بالتجزئة ؛ لأن جعل كل جزء على جبل تستلزم تقدم التجزئة . قال الزجاج : المعنى : ثم اجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزءًا ، والجزء : النصيب . وقوله :﴿ يأتينك ﴾ فى محل جزم على أنه جواب الأمر ، ولكنه بُنِى لأجل نون الجمع المؤنث . وقوله : ﴿ سعيًا ﴾ المراد به الإسراع فى الطيران أو المشى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : إن إبراهيم مرَّ برجل ميت زعموا أنه حبشى على ساحل البحر ، فرأى دواب البحر تخرج فتأكل منه ، وسباع الأرض تأتيه فتأكل منه ، والطير يقع عليه فيأكل منه ، فقال إبراهيم عند ذلك : ربّ هذه دواب البحر تأكل من هذا ، وسباع الأرض والطير ، ثم تميت هذه فتبلى ثم تحييها ، فأرنى كيف تحيى الموتى ؟ ﴿ قال أو لم تؤمن ﴾ يا إبراهيم أنى أحيى الموتى ؟ ﴿ قال بلى ﴾ يارب ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ يقول : لأرى من آياتك ، وأعلم أنك قد أجبتنى ، فقال الله : خذ أربعًا من الطير واصنع ما صنع . والطير الذى أخذ : وز ، ورأل ، وديك ، وطاوس ، وأخذ نصفين مختلفين ، ثم أتى أربعة أجبُل ، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين ، وهو قوله: ﴿ ثم

---

(١) فى المطبوعة : « لا تثمن » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

اجعل على كل جبل منهن جزءًا ﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه ، فدعا باسم الله الأعظم ، فرجع كل نصف إلى نصفه ، وكل ريش إلى طائره ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها ، فرفع قدميه فوضع كل طائر منها عنقه فى رأسه ، فعادت كما كانت . وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج أيضًا عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ يقول : أعلم أنك تجيبنى إذا دعوتك وتعطينى إذا سألتك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فخذ أربعة من الطير** ﴾ قال : الغرنوق ، والطاوس ، والديك ، والحمامة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال الأربعة من الطير : الديك ، والطاوس ، والغراب ، والحمام . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس : ﴿ **فصرهنّ** ﴾ قال : قطعهن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : هى بالنبطية : شققهن . وأخرجا عنه أنه قال : ﴿ **فصرهن** ﴾ أوثقهن . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرؤوس بيده فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة ، والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس ، فجئن إلى رؤوسهن فدخلن فيها .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **كمثل حبة** ﴾ لا يصح جعل هذا خبرًا عن قوله : ﴿ **مثل الذين ينفقون** ﴾ لاختلافهما ، فلابد من تقدير محذوف إما فى الأول ، أى مثل نفقة الذين ينفقون ، أو فى

الثانى أى كمثل زارع حبة . والمراد بالسبع السنابل : هى التى تخرج فى ساق واحد ، يتشعب منه سبع شعب ، فى كل شعبة سنبلة ، والحبة اسم لكل ما يزدرعه ابن آدم ، ومنه قول المتلمس :

آليتُ حَبّ العراقِ الدَّهْر أطْعمه والحَبُّ يأكُله فى القَرْيةِ السُّوسُ

قيل : المراد بالسنابل هنا سنابل الدخن ، فهو الذى يكون فى السنبلة منه هذا العدد . وقال القرطبى : إن سنبل الدُّخْن يجىء فى السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدنا . قال ابن عطية : وقد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة ، وأما فى سائر الحبوب فأكثر ، ولكن المثال وقع بهذا القدر . وقال الطبرى : إن قوله : ﴿ **فى كل سنبلة مائة حبة**﴾ معناه إن وجد ذلك وإلا فعلى أن تفرضه . قوله : ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾ يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد ، فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء ، وهذا هو الراجح لما سيأتى . وقد ورد فى القرآن أن الحسنة بعشر أمثالها ، واقتضت هذه الآية بأن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف ، فيبنى العام على الخاص ، وهذا بناء على أن سبيل الله هو الجهاد فقط ، وأما إذا كان المراد به وجوه الخير فيخص هذا التضعيف إلى سبعمائة بثواب النفقات ، وتكون العشرة الأمثال فيما عدا ذلك . قوله : ﴿**الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله** ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الإنفاق الذى تقدم ، أى هو إنفاق الذين ينفقون ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى . والمن هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها . وقيل: المن : التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه . والمن من الكبائر ، كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره ، أنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم [(١)] . والأذى : السب والتطاول والتشكى . قال فى الكشاف : ومعنى « ثم » : إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى ، وأن تركها خير من نفس الإنفاق؛ كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرًا من الدخول فيه بقوله: ﴿ ثم استقاموا ﴾ [فصلت : ٣٠] انتهى[(٢)] . وقدم المن على الأذى لكثرة وقوعه ، ووسط كلمة « لا » للدلالة على شمول النفى . وقوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ فيه تأكيد وتشريف. وقوله : ﴿ **ولا خوف عليهم**﴾ ظاهره نفى الخوف عنهم فى الدارين ، لما تفيده النكرة الواقعة فى سياق النفى من الشمول ، وكذلك : ﴿ **ولاهم يحزنون** ﴾ يفيد دوام انتفاء الحزن عنهم .

قوله: ﴿ **قول معروف ومغفرة** ﴾ قيل : الخبر محذوف، أى أولى وأمثل، ذكره النحاس .

---

(١) الحديث عن أبى ذر أخرجه أحمد ٥ / ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ومسلم فى الإيمان (١٠٦ / ١٧١) وأبو داود فى اللباس ٢ / ١٣٤ عن ابن عمر (٤٠٨٧) والترمذى فى البيوع (١٢١١) والنسائى فى الزكاة ٥/ ٨١ وابن ماجة فى التجارات (٢٢٠٧) والدارمى فى البيوع ٢ / ٢٦٧ . ومثله عن ابن عمر عند أحمد ٢ / ١٣٤ والنسائى ٥ / ٨٠ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٣٨ . ط . الاستقامة القاهرة .

قال : ويجوز أن يكون خبرًا عن مبتدأ محذوف ، أى الذين أمرتم به قول معروف . وقوله : ﴿ **ومغفرة** ﴾ مبتدأ أيضًا وخبره قوله : ﴿ **خير من صدقة** ﴾ قيل : إن قوله : ﴿ **خير** ﴾ خبر عن قوله : ﴿ **قول معروف** ﴾ وعن قوله : ﴿ **ومغفرة** ﴾ وجاز الابتداء بالنكرتين ؛ لأن الأولى تخصصت بالوصف ، والثانية بالعطف ؛ والمعنى : أن القول المعروف من المسؤول للسائل ، وهو التأنيس والترجية بما عند الله ، والرد الجميل خير من الصدقة التى يتبعها أذى . وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه ﷺ : « الكلمة الطيبة صدقة » [١] . « وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » [٢] . وما أحسن ما قاله ابن دريد :

لا تدخلنَّك ضَجرةٌ مـن سائـل ... فَلخيرُ دهرِكَ أنْ تُرى مَسْؤولا
لاَ تَجبَهنْ بـرّد وَجْـه مُؤمِّـلٍ ... فَبَقَـاءُ عِزِّكَ أن تُـرى مَأمُـولاَ

والمراد بالمغفرة : الستر للخلة ، وسوء حالة المحتاج ، والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكدر صدر المسؤول . وقيل : المراد : أن العفو من جهة السائل ؛ لأنه إذا رده ردًا جميلاً عذره . وقيل : المراد : فعل يؤدى إلى المغفرة خير من صدقة ، أى غفران الله خير من صدقتكم . وهذه الجملة مستأنفة مقدرة لترك اتباع المنِّ والأذى للصدقة .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾ الإبطال للصدقات : إذهاب أثرها وإفساد منفعتها ، أى لا تبطلوها بالمنِّ والأذى أو بأحدهما قوله : ﴿ **كالذى** ﴾ أى إبطالا كإبطال الذى على أنه نعت لمصدر محذوف ، ويجوز أن يكون حالاً ، أى لا تبطلوا مشابهين للذى ينفق ماله رئاء الناس ، وانتصاب رئاء على أنه علة لقوله : ﴿**ينفـق**﴾ أى لأجل الرئاء أو حال أى ينفق مرائيًا لا يقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة ، بل يفعل ذلك رياء للناس استجلابًا لثنائهم عليه ومدحهم له . قيل : والمراد به المنافق بدليل قوله : ﴿ **ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ قوله : ﴿**فمثله كمثل صفوان** ﴾ الصفوان : الحجر الكبير الأملس . وقال الأخفش : صفوان جمع صفوانة .وقال الكسائى : صفوان : واحد وجمعه صفى وأصفى ، وأنكره المبرد . وقال النحاس : يجوز أن يكون جمعًا ويجوز أن يكون واحدًا وهو أولى لقوله : ﴿ **عليه تراب فأصابه وابل** ﴾ والوابل : المطر الشديد ، مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضًا منبتة طيبة ، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقى صلدًا ، أى أجرد نقيًا من التراب الذى كان عليه ؛ فكذلك هذا المرائى فإن نفقته لا تنفعه كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذى عليه تراب . قوله : ﴿ **لا يقدرون على شىء مما كسبوا**﴾ أى لا ينتفعون بما فعلوه رياء ولا يجدون له ثوابا ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : ماذا يكون حالهم حينئذ ؟ فقيل : لا يقدرون إلخ ، والضميران للموصول ، أى كالذى ، باعتبار

---

(١) الحديث عن أبى هريرة أخرجه مسلم فى الزكاة (١٠٠٩ / ٥٦) .
(٢) الحديث عن أبى ذر أخرجه مسلم فى البر والصلة (٢٦٢٦ / ١٤٤) .

المعنى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ [التوبة : ٦٩] ، أى الجنس أو الجمع أو الفريق .

قوله : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم** ﴾ قيل : إن قوله: ﴿ **ابتغاء مرضاة الله**﴾ مفعول له ، و﴿ **تثبيتًا** ﴾ معطوف عليه ، وهو أيضًا مفعول له ، أى الإنفاق لأجل الابتغاء والتثبيت، كذا قال مكى فى المشكل . قال ابن عطية : وهو مردود لا يصح فى ﴿ **تثبيتا** ﴾ أنه مفعول من أجله ، لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت. قال:﴿ **ابتغاء**﴾ نصب على المصدر فى موضع الحال ، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله ؛ لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذى هو تثبيتًا عليه. وابتغاء معناه : طلب ، ومرضاة مصدر رضى يرضى ، وتثبيتًا معناه : أنهم يثبتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الإيمان ، وسائر العبادات رياضة لها وتدريبًا وتمرينًا ، أو يكون التثبيت بمعنى التصديق ، أى تصديقًا للإسلام ناشئًا من جهة أنفسهم . وقد اختلف السلف فى معنى هذا الحرف فقال الحسن ومجاهد : معناه أنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم . وقيل : معناه : تصديقًا ويقينًا ، روى ذلك عن ابن عباس. وقيل : معناه: احتسابًا من أنفسهم قاله قتادة . وقيل : معناه : أن أنفسهم لها بصائر فهى تثبتهم على الإنفاق فى طاعة الله تثبيتًا ، قاله الشعبى والسدى وابن زيد وأبو صالح ، وهذا أرجح مما قبله . يقال : ثَبَّتُّ فلانًا فى هذا الأمر أُثَبِّتُه تثبيتًا ، أى صححتُ عزمه .

قوله : ﴿ **كمثل جنة بربوة أصابها وابل** ﴾ الجنة : البستان ، وهى أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها . مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارها . والربوة : المكان المرتفع ارتفاعًا يسيرًا ، وهى مثلثة الراء ، وبها قرئ ، وإنما خص الربوة لأن نباتها يكون أحسن من غيره ، مع كونه لا يصطلمه البرد فى الغالب للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له . قال الطبرى : وهى رياض الحزن التى تستكثر العرب من ذكرها ، واعترض ابن عطية فقال : إن رياض الحزن منسوبة إلى نجد لأنها خير من رياض تهامة ، ونبات نجد أعطر ، ونسيمه أبرد وأرق ، ونجد يقال لها : حزن ، وليست هذه المذكورة هنا من ذاك ، ولفظ الربوة مأخوذ من : ربا يربو إذا زاد . وقال الخليل : الربوة : أرض مرتفعة طيبة . والوابل : المطر الشديد كما تقدم ، يقال : وبلت السماء تبل ، والأرض موبولة ، قاله الأخفش . ومنه قوله تعالى : ﴿أخذًا وبيلا ﴾ [المزمل : ١٦] : أى شديدًا ، وضرب وبيل ، وعذاب وبيل ، ﴿ **فآتت أكلها**﴾ بضم الهمزة : الثمر الذى يؤكل كقوله تعالى : ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ [إبراهيم : ٢٥] . وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص كسرج الفرس وباب الدار . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « أكلها » بضم الهمزة وسكون الكاف تخفيفًا . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى بتحريك الكاف بالضم . وقوله : ﴿ **ضعفين** ﴾ أى مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل. فالمراد بالضعف : المثل . وقيل : أربعة أمثال ، ونصبه على الحال من أكلها، أى مضاعفًا.

قوله : ﴿ **فإن لم يصبها وابل فطل** ﴾ أى فإن الطل يكفيها ، وهوالمطر الضعيف المستدق القطر . قال المبرد وغيره : وتقديره : فطل يكفيها . وقال الزجاج : تقديره فالذى يصيبها طل، والمراد : أن الطلَّ ينوب مناب الوابل فى إخراج الثمرة ضعفين . وقال قوم : الطل : الندى ، وفى الصحاح : الطل : أضعف المطر ، والجمع : أطلال . قال الماوردى : وزرع الطل أضعف من زرع المطر والمعنى : أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت متفاوتة ، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة ، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر ، الكثير والقليل ، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها ، فكذلك نفقتهم جلَّت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة فى أجورهم . وقوله : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ قرأ الزهرى بالتاء التحتية ، وقرأ الجمهور بالفوقية ، وفى هذا ترغيب لهم فى الإخلاص مع ترهيب من الرياء ونحوه ، فهو وعد ووعيد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **كمثل حبة أنبتت سبع سنابل** ﴾ عن الربيع قال : كان من بايع النبى ﷺ على الهجرة ؛ ورابط معه بالمدينة ولم يذهب وجهًا إلا بإذنه ؛ كانت له الحسنة بسبعمائة ضعف ، ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها[(١)] . وأخرج أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن أبى مسعود [(٢)] . أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » [(٣)] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن حبان ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عن خُريم [(٤)] بن فاتك قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف » [(٥)] . وأخرجه البخارى فى تاريخه من حديث أنس [(٦)] . وأخرجه أحمد من حديث أبى عبيدة وزاد : « ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضًا فالحسنة بعشر أمثالها » [(٧)] . وأخرج نحوه النسائى فى الصوم [(٨)] . وأخرج ابن ماجة

---

(١) ابن جرير : ٣ / ٤١ ، ٤٢ .

(٢) فى المخطوطة : « ابن مسعود » ، والصواب أبو مسعود ، و هو عقبة بن عمزو الأنصارى .

(٣) أحمد ٤ / ١٢١ ، ٥ / ٢٧٤ ومسلم فى الإمارة (١٨٩٢ / ١٣٢) والنسائى فى الجهاد ٦ / ٤٩ ، وصححه الحاكم ٢ / ٩٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى السير ٩ / ١٧٢ .

(٤) فى المطبوعة : « خزيم » ، بالزاى ، وهو تصحيف ، والصواب « خريم » بالراء ، مصغرًا . كما فى المخطوطة .

(٥) أحمد ٤ / ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ والترمذى وحسنه فى فضائل الجهاد (١٦٢٥) والنسائى فى الجهاد ٦ / ٤٩ وابن حبان فى فضل الجهاد (٤٦٢٨) وصححه الحاكم ٢ / ٨٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٩٦٣) .

(٦) البخارى فى التاريخ ٧ / ٢١ عن أبى عبيدة وليس عن أنس ، وأخرجه البزار عن أنس (١٦٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٥ / ٢٨٢ : « فيه محمد بن أبى إسماعيل ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٧) جزء من حديث : أخرجه أحمد ١ / ١٩٥ ، ١٩٦ وأبو يعلى (٨٧٨) وعزاه الهيثمى فى المجمع ٢ / ٣٠٣ للبزار أيضا ، وقال : « فيه بشار بن أبى سيف ، ولم أر من وثقه ولا جرحه ، وبقية رجاله ثقات » وأخرجه الحاكم ٣ / ٢٦٥ .

(٨) النسائى عن أبى هريرة فى الصوم ٥ / ١٦٣ .

وابن أبى حاتم من حديث عمران بن حصين وعلى وأبى الدرداء وأبى هريرة وأبى أمامة وعبد الله بن عمرو وجابر ؛ كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ : « من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء**﴾(١) وأخرجه أيضا ابن ماجة من حديث الحسن بن على (٢) . وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، يقول الله : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به»(٣) . وأخرجه أيضًا مسلم (٤) . وأخرج الطبرانى من حديث معاذ بن جبل ، أن رسول الله ﷺ قال : «طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف » (٥) .

وقد تقدم ذكر طرف من أحاديث التضعيف للحسنات عند قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة** ﴾ وقد وردت الأحاديث الصحيحة فى أجر من جهز غازيًا . وأخرج أبو داود ، والحاكم وصححه عن سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصلاة والصوم والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله سبعمائة ضعف » (٦) . وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى سننه عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف» (٧) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى** ﴾ : إن أقوامًا يبعثون الرجل منهم فى سبيل الله أو ينفق على الرجل أو يعطيه النفقة ثم يمن عليه ويؤذيه ، يعنى أن هذا سبب النزول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه (٨) . وقد وردت الأحاديث الصحيحة فى النهى عن المن والأذى ، وفى فضل الإنفاق فى سبيل الله وعلى الأقارب وفى وجوه الخير ، ولا حاجة إلى التطويل بذكرها فهى معروفة فى مواطنها .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن النبى ﷺ قال : « ما من صدقة

---

(١) ابن ماجة فى الجهاد (٢٧٦١) وفى الزوائد : « فى إسناده خليل بن عبد الله » ، قال الذهبى : « لا يعرف » وكذا قال ابن عبد الهادى . وأورد ابن كثير ١ / ٥٦٣ رواية ابن أبى حاتم وقال : « هذا حديث غريب » .
(٢) ابن ماجة فى الجهاد (٢٧٦١) . (٣) أحمد ٢ / ٤٤٣ ، ٤٤٧ .
(٤) مسلم فى الصيام (١١٥١ / ١٦٤) .
(٥) الطبرانى ٢٠ / ٧٧ ، ٧٨ (١٤٣) قال الهيثمى فى المجمع٥ / ٢٨٥ : « رواه الطبرانى ، وفيه رجل لم يُسم » .
(٦) أبو داود فى الجهاد (٢٤٩٨) ، وصححه الحاكم ٢ / ٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٧) أحمد ٥ / ٣٥٤ ، ٣٥٥ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٥ / ٢١١ إلى الطبرانى فى الأوسط وقال : « فيه أبو زهير ولم أجد من ذكره » والبيهقى فى الحج ٤ / ٣٣٢ .
(٨) ابن جرير ٣ / ٤٣ .

أحب إلى الله من قول الحق ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** ﴾ » (١) . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى قوله : ﴿ **قول معروف** ﴾ قال: ردّ جميل ، تقول : يرحمك الله ، يرزقك الله ، ولا تنهره ، ولا تغلظ له القول .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لا يدخل الجنة منَّان ، وذلك فى كتاب الله : ﴿ **لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : فى قوله : ﴿**صفوان**﴾ يقول : الحجر ﴿**فتركه صلدًا**﴾ يقول : ليس عليه شىء . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال: الوابل : المطر . وأخرجا عن قتادة قال: الوابل : المطر الشديد . قال : وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة ﴿ **لا يقدرون على شىء مما كسبوا** ﴾ يومئذ كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شىءٌ أنقى مما كان . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**فتركه صلدا**﴾ قال : يابسًا جاثيًا لا ينبت شيئًا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله** ﴾ قال : هذا مثلٌ ضربه الله لعمل المؤمن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبى فى قوله : ﴿ **وتثبيتًا من أنفسهم** ﴾ قال : تصديقًا ويقينًا . وأخرج ابن جرير عن أبى صالح نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال : يتثبتون أين يضعون أموالهم . وأخرجا عن الحسن قال : كان الرجل إذا هَمَّ بصدقة تثبت فإن كان لله أمضاه ، وإن خالطه شىء من الرياء أمسك . وأخرج ابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **تثبيتا** ﴾ قال : النية . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال الربوة : النشز من الأرض . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : الربوة : الأرض المستوية المرتفعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : هى المكان المرتفع الذى لا تجرى فيه الأنهار . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله تعالى : ﴿ **فطل** ﴾ قال : النَّدى . أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك قال : الطل : الرذاذ من المطر ، يعنى اللين منه . وأخرجا عن قتادة قال : هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن يقول : ليس لخيره خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أى حال كان، إن أصابها وابل ، وإن أصابها طل.

﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)** ﴾ .

الود : الحب للشىء مع تمنيه ، والهمزة الداخلة على الفعل لإنكار الوقوع ، والجنة تطلق على الشجر الملتف وعلى الأرض التى فيها الشجر ، والأول أولى هنا لقوله : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ بإرجاع الضمير إلى الشجر من دون حاجة إلى مضاف محذوف ، وأما على الوجه

---

(١) مرسل، ذكره ابن كثير ١ / ٥٦٣ .

الثانى فلابد من تقديره ، أى من تحت أشجارها ، وهكذا قوله : ﴿ **فاحترقت** ﴾ لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول ، وأما على الثانى فيحتاج إلى تقديره ، أى فاحترقت أشجارها، وخص النخيل والأعناب بالذكر مع قوله : ﴿ **له فيها من كل الثمرات** ﴾ لكونهما أكرم الشجر ، وهذه الجمل صفات للجنة ، والواو فى قوله : ﴿ **وأصابه الكبر** ﴾ قيل : عاطفة على قوله : ﴿ **تكون** ﴾ ماض على مستقبل . وقيل : على قوله : ﴿ **يودّ** ﴾ وقيل : إنه محمول على المعنى إذ تكون فى معنى كانت . وقيل : إنها واو الحال ، أى وقد أصابه الكبر وهذا أرجح . وكبر السن هو مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز . عن تعاطى الأسباب .

وقوله : ﴿ **وله ذرية ضعفاء** ﴾ حال من الضمير فى أصابه ، أى والحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السن وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة فى غاية الشدة . والإعصار : الريح الشديدة التى تهب من الأرض إلى السماء كالعمود ، وهى التى يقال لها : الزوبعة ، قاله الزجاج . قال الجوهرى : الزوبعة : رئيس من رؤساء الجن ، ومنه سمى الإعصار زوبعة ، ويقال أم زوبعة : وهى ريح يثير الغبار ويرتفع إلى السماء كأنه عمود . وقيل: هى ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق . وقوله : ﴿ **فاحترقت** ﴾ عطف على قوله : ﴿**فأصابها** ﴾ وهذه الآية تمثيل من يعمل خيرًا ويضم إليه ما يحبطه، فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن ولا يغنى من جوع ، بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال عمر يومًا لأصحاب النبى ﷺ : فيم ترون هذه الآية نزلت : ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة** ﴾ ؟ قالوا : الله أعلم ، قال : قولوا : نعلم أولا نعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يابن أخى ، قل ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل ، قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غنى يعمل بطاعة (١) الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى أغرق عمله (٢) . وأخرج ابن جرير عن عمر قال : هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملاً صالحًا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء (٣) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿**إعصار فيه نار** ﴾ قال : ريح فيها سموم شديدة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ

---

(١) فى المخطوطة: « لطاعة » ، باللام ، وهو تحريف ، والصواب بالباء كما فى البخارى .
(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٣٨) .
(٣) ابن جرير ٣ / ٥١ .

عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ من طيبات ما كسبتم ﴾ أى من جيد ما كسبتم ومختاره ، كذا قال الجمهور . وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا : الحلال . ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعًا ؛ لأن جيد الكسب ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، وإن أطلقه على اللغة على ما هو جيد فى نفسه حلالاً كان أو حرامًا ، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية ، وقوله : ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض ، وحذف لدلالة ما قبله عليه ، وهى النباتات والمعادن والركاز . قوله : ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ أى لا تقصدوا المال الردىء ، وقرأه الجمهور بفتح حرف المضارعة وتخفيف الياء ، وقرأ ابن كثير بتشديدها . وقرأ ابن مسعود: « ولا تأمموا » [1] وهى لغة ، وقرأ أبو مسلم بن خباب بضم الفوقية وكسر الميم . وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ : « تأمموا » بهمزة بعد المضمومة . وفى الآية الأمر بإنفاق الطيب والنهى عن إنفاق الخبيث . وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن الآية فى الصدقة المفروضة ، وذهب آخرون إلى أنها تعم صدقة الفرض والتطوع ، وهو الظاهر ، وسيأتى من الأدلة ما يؤيد هذا ، وتقديم الظرف فى قوله : ﴿ منه تنفقون﴾ يفيد التخصيص ، أى لا تخصوا الخبيث بالإنفاق ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به قاصرين له عليه . قوله :﴿ ولستم بآخذيه ﴾ أى والحال أنكم لا تأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات ، هكذا بين معناه الجمهور . وقيل : معناه : ولستم بآخذيه لو وجدتموه فى السوق يباع . وقوله : ﴿ إلا أن تغمضوا فيه ﴾ هو من أغمض الرجل فى أمر كذا: إذا تساهل ورضى ببعض حقه ، وتجاوز وغض بصره عنه ، ومنه قول الشاعر :

إلى كَمْ وَكَمْ أشْيَاءُ مِنْــكَ تُرِيبُنى ... أُغَمِّض عنها لستُ عَنْها بِذى عَمَى

وقرأ الزهرى بفتح التاء وكسر الميم مخففًا ، وروى عنه أنه قرأ بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشددة ، وكذلك قرأ قتادة . والمعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين : إلا أن تهضموا سومها من البائع منكم ، وعلى الثانية : إلا أن تأخذوا بنقصان . قال ابن عطية : وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز أو على تغميض العين ؛ لأن أغمض بمنزلة غمض ، وعلى أنها بمعنى حتى ، أى حتى تأتوا غامضًا من التأويل والنظر فى أخذ ذلك .

---

(١) قال ابن جرير : تأممت فلانًا وتيممته وأممته بمعنى : قصدته وتعمدته ،كما قال ميمون بن قيس الأعشى :

يَمَّمْتُ قيسًا وكم دُونه ... من الأرض من مَهْمَه ذى شَزَنْ

راجع : ديوانه ١٦ والبيت من قصيدته التى أثنى فيها على قيس بن معدى كرب الكندى .

قوله : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر** ﴾ قد تقدم معنى الشيطان واشتقاقه . و ﴿ **يعدكم** ﴾ معناه : يخوفكم الفقر ، أى بالفقر لئلا تنفقوا ، فهذه الآية متصلة بما قبلها ، وقرئ : «الفقر» بضم الفاء وهى لغة . قال الجوهرى : والفقر لغة فى الفقر مثل الضعف ، والضعف والفحشاء الخصلة الفحشاء ، وهى المعاصى والإنفاق فيها ، والبخل عن الإنفاق فى الطاعات . قال فى الكشاف : والفاحش عند العرب : البخيل . انتهى . ومنه قول طرفة بن العبد :

أَرَى الموتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيْصَطَفِى   عَقِيلَــةَ مَــالِ الفَاحِــش المُتَشَــدِّدِ

ولكن العرب وإن أطلقته على البخيل فذلك لا ينافى فى إطلاقهم له على غيره من المعاصى ، وقد وقع كثيراً فى كلامهم. وقوله : ﴿ **والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً** ﴾ الوعد فى كلام العرب إذا أطلق فهو فى الخير ، وإذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر . ومنه قوله تعالى : ﴿ النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ [الحج : ٧٢] ومنه أيضًا ما فى هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر ، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة . والفضل والمغفرة : الستر على عباده فى الدنيا والآخرة لذنوبهم وكفارتها ، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا ؛ فيوسع لهم فى أرزاقهم ، وينعم عليهم فى الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل .

قوله : ﴿ **يؤتى الحكمة** ﴾ هى العلم . وقيل : الفهم . وقيل : الإصابة فى القول . ولا مانع من الحمل على الجميع شمولا أو بدلا . وقيل : إنها النبوة . وقيل : العقل . وقيل : الخشية . وقيل : الورع . وأصل الحكمة : ما يمنع من السفه وهو كل قبيح ، والمعنى : أن من أعطاه الله الحكمة فقد أعطاه خيرا كثيراً ، أى عظيمًا قدره جليلاً خطره . وقرأ الزهرى ويعقوب: « ومن يؤت الحكمة » على البناء للفاعل ، وقرأه الجمهور على البناء للمفعول . والألباب : العقول ، واحدها لب ، وقد تقدم الكلام فيه .

قوله : ﴿ **وما أنفقتم من نفقة** ﴾ « ما » شرطية ويجوز أن تكون موصولة ، والعائد محذوف ، أى الذى أنفقتموه وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة ، وغير مقبولة ، وكل نذر مقبول أو غير مقبول . وقوله : ﴿ **فإن الله يعلمه** ﴾ فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول ، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك . ووحد الضمير مع كون مرجعه شيئين ، هما النفقة والنذر؛ لأن التقدير : وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها ، أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر ، قاله النحاس . وقيل : إن ما كان العطف فيه بكلمة أو كما فى قولك : زيد أو عمرو فإنه يقال : أكرمته ، ولا يقال: أكرمتهما ، والأولى أن يقال : إن العطف بـ « أو » يجوز فيه الأمران : توحيدُ الضمير ، كما فى هذه الآية وفى قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : ١١] وقوله : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئًا﴾ [النساء: ١١٢] ، وتثنيته ، كما فى قوله تعالى : ﴿إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ﴾ [النساء : ١٣٥] ، ومن الأول فى العطف بالواو، قول امرئ القيس :

فُتوضِح فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رسمها لِما نَسَجَتْه من جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

ومنه قول الشاعر :

نَحْن بِما عِنْدنا وأَنْتَ بِما عِنْدكَ رَاضٍ وَالرَّأى مُخْتَلِفٌ

ومنه : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ﴾ [التوبة : ٣٤] . وقيل : إنه إذا وحد الضمير بعد ذكر شيئين أو أشياء فهو بتأويل المذكور ، أى فإن الله يعلم المذكور ، وبه جزم ابن عطية ، ورجحه القرطبى ، وذكر معناه كثير من النحاة فى مؤلفاتهم . قوله : ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ أى ما للظالمين أنفسهم ، بما وقعوا فيه من الإثم لمخالفة ما أمر الله به من الإنفاق فى وجوه الخير ، من أنصار ينصرونهم يمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم ، والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيده السياق ، أى ما للظالمين بأى مظلمة كانت من أنصار .

قوله : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعما هى** ﴾ قرئ بفتح النون وكسر العين ، وبكسرهما ، وبكسر النون وسكون العين ، وبكسر النون وإخفاء حركة العين . وقد حكى النحويون فى «نعمّ » أربع لغات ، وهى هذه التى قرئ بها ، وفى هذا نوع تفصيل لما أجمل فى الشرطية المتقدمة ، أى إن تظهروا الصدقات فنعم شيئًا إظهارها ، وإن تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء فالإخفاء خير لكم . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية فى صدقة التطوع لا فى صدقة الفرض فلا فضيلة للإخفاء فيها ، بل قد قيل : إن الإظهار فيها أفضل ، وقالت طائفة : إن الإخفاء أفضل فى الفرض والتطوع . قوله : ﴿**ويكفر عنكم من سيئاتكم** ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وقتادة وابن إسحاق : « نكفر » بالنون والرفع . وقرأ ابن عامر وعاصم فى رواية حفص بالياء والرفع . وقرأ الأعمش ونافع وحمزة والكسائى بالنون والجزم . وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم . وقرأ الحسين بن على الجعفى(١) بالنون ونصب الراء فمن قرأ بالرفع فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جوابًا بعد الفاء ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف . ومن قرأ بالجزم فهو معطوف على الفاء وما بعدها . ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير « أن » قال سيبويه : والرفع ها هنا الوجه الجيد ، وأجاز الجزم بتأويل : وإن تخفوها يكن الإخفاء خيرًا لكم ويكفر ، وبمثل قول سيبويه قال الخليل . و «من» فى قوله : ﴿ **من سيئاتكم** ﴾ للتبعيض ، أى شيئًا من سيئاتكم. وحكى الطبرى عن فرقة أنها زائدة، وذلك على رأى الأخفش . قال ابن عطية : وذلك منهم خطأ .

وقد أخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم**﴾ قال : من الذهب والفضة ﴿ **ومما أخرجنا لكم من الأرض** ﴾ يعنى من الحب

(١) الحسين بن على بن فتح الإمام الجد أبو عبد الله ويقال : أبو على الجعفى مولاهم الكوفى الزاهد أحد الأعلام . قال أحمد بن حنبل : « ما رأيت أفضل من حسين الجعفى » . مات فى ذى القعدة سنة ثلاث ومائتين هـ . عن أربع وثمانين سنة .

والثمر ، وكل شيء عليه زكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله : **﴿ أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾** قال : من التجارة **﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾** قال : من الثمار . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن البراء بن عازب فى قوله : **﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾** قال : نزلت فينا معشر الأنصار ، كنا أصحاب نخل ، وكان الرجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتى بالقِنْو والقِنْوين فيعلقه فى المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع أتى القِنو فضربه بعصاه ، فيسقط البسر والتمر فيأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب فى الخير يأتى الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله: **﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾** قال: لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض وحياء . قال : فكنا بعد ذلك يأتى أحدنا بصالح ما عنده (١) .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن الرجل كان له الحائطان فينظر إلى أردئهما تمرًا فيتصدق به ، ويخلط به الحشف فنزلت الآية ، فعاب الله ذلك عليهم ونهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : لما أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر فجاء رجل بتمر ردىء فأمر النبى ﷺ الذى يخرص النخل ألا يجيز ، فأنزل الله تعالى الآية هذه . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والدارقطنى والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن سهل بن حنيف قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة فجاء رجل بكبائس من هذا السخل ، يعنى الشيص ، فوضعه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال :« من جاء بهذا ؟ » وكان كل من جاء بشيء نسب إليه ، فنزلت : **﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾** الآية . ونهى رسول الله ﷺ عن لونين من التمر أن يوجدا فى الصدقة الجعرور ولون الحُبَيق (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون ، فأنزل الله : **﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾** الآية . وأخرج ابن جرير عن عَبِيدة السَّلْمانى قال : سألت على بن أبى طالب عن قول

---

(١) ابن أبى شيبة فى الزكاة ٣ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ والترمذى فى التفسير (٢٩٨٧) وقال : « حسن غريب صحيح » وابن ماجة فى الزكاة (١٨٢٢) وابن جرير ٣ / ٥٥ وصححه الحاكم ٢ / ٢٨٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الزكاة ٤ / ١٣٦ .

(٢) الجعرور : ضرب من الرطب الصغير الذى لا خير فيه ، والذى يقع من شجره . والحُبَيق ، بالتصغير : نوع ردىء من أنواع التمر ، منسوب إلى ابن حُبَيق ، وهو اسم رجل ، والحديث أخرجه أبو داود فى الزكاة (١٦٠٧) والنسائى فى الزكاة ٥ / ٤٣ وابن جرير ٣ / ٥٦ والطبرانى (٥٥٦٧) والدارقطنى فى الزكاة ٢ / ١٣١ (١٣) وقال المحقق : « رجال إسناده رجال الصحيح » وصححه الحاكم على شرط الشيخين ١ / ٤٠٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الزكاة ٤ / ١٣٦ .

الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا** ﴾ الآية ، فقال : نزلت هذه الآية فى الزكاة المفروضة ، كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية ، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء** ﴾ قال : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه وأمثاله . وأخرج ابن مردويه عنه أنها القرآن، يعنى : تفسيره . وأخرج ابن المنذر عنه أنها النبوة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : إنها الفقه فى القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء ﴿ **يؤتى الحكمة** ﴾ قال : قراءة القرآن والفكرة فيه . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال : هى الكتاب والفهم به . وأخرج أيضا عن النخعى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : هى الكتاب يؤتى إصابته من يشاء . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : هى الإصابة فى القول . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : هى الخشية لله . وأخرج أيضًا عن مَطَرٍ الورَّاق مثله . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإن الله يعلمه**﴾ قال : يحصيه. وقد ثبت عن النبى ﷺ ، فى نذر الطاعة والمعصية ، فى الصحيح وغيره ما هو معروف كقوله ﷺ : « لا نذر فى معصيـة الله» [(٢)] ، وقوله : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » [(٣)] ، وقوله : « النـذر ما ابتغى به وجـه الله»[(٤)]، وثبت عنه فى كفارة النذر ما هو معروف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعما هى** ﴾ الآية . قال : فجعل السر فى التطوع يَفْضُل علانيتها سبعين ضعفًا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفًا . وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عـباس فى قولـه : ﴿**إن تبدوا الصدقات** ﴾ الآية . قال : كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة ، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات إليها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن تبدوا الصدقات** ﴾ الآية ، قال : هذا منسوخ . وقوله : ﴿ فى [(٥)] أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ﴾ [المعارج : ٢٤ ، ٢٥] قال : منسوخ ، نسخ كل صدقة فى القرآن الآية

---

(١) ابن جرير ٣ / ٥٥ .

(٢) من رواية عمران بن حصين : أخرجه مسلم فى النذر (١٦٤١ / ٨) ومن رواية أم المؤمنين عائشة أخرجه أبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٩٠) والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٢٤ ، ١٥٢٥) .

(٣) الحديث عن عائشة : أخرجه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٩٦) و (٦٧٠٠) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٨٩) والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٢٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٤) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أخرجه أحمد ٢ / ١٨٥ وأبو داود فى الطلاق (٢١٩٢) .

(٥) فى المخطوطة : « وفى » ، والصحيح ما أثبتناه .

التى فى سورة التوبة : ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ [التوبة: ٦٠] ، وقد ورد فى فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾.

قوله : ﴿ **ليس عليك هداهم** ﴾ أى ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهديين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه ﴿**ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ هداية توصله إلى المطلوب ، وهذه الجملة معترضة وفيها الالتفات ، وسيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله ، والمراد بقوله : ﴿ **من خير** ﴾ كل ما يصدق عليه اسم الخير كائنًا ما كان ، وهو متعلق بمحذوف ، أى أى شىء تنفقون كائنًا من خير ، ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هى ما كان ابتغاء وجه الله سبحانه ، أى لابتغاء وجه الله. وقوله: ﴿ **يوفّ إليكم** ﴾ أى أجره وثوابه على الوجه الذى تقدم ذكره من التضعيف.

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **وما تنفقوا من خير** ﴾ أو بمحذوف ، أى اجعلوا ذلك للفقراء أو خبر مبتدأ محذوف ، أى إنفاقكم للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله بالغزو أو الجهاد . وقيل : منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف ﴿ **الذين لا يستطيعون ضربًا فى الأرض** ﴾ للتكسب بالتجارة والزراعة ونحو ذلك بسبب ضعفهم . قيل : هم فقراء الصفة (١). وقيل :كل من يتصف بالفقر وما ذكر معه . ثم ذكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحُنُوّ عليهم والشفقة بهم ، وهو كونهم متعففين عن المسألة ، وإظهار المسكنة ، بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء ، والتعفف تفعل وهو بناء مبالغة من عف عن الشىء : إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه ، وفى ﴿ **يحسبهم** ﴾ لغتان : فتح السين ، وكسرها . قال أبو على الفارسى: والفتح أقيس ؛ لأن العين من الماضى مكسورة، فبابها أن تأتى فى المضارع مفتوحة . فالقراءة بالكسر على هذا حسنة ، وإن كانت شاذة . و « من » فى قوله :﴿ **من التعفف** ﴾ لابتداء الغاية . وقيل : لبيان الجنس . قوله : ﴿**تعرفهم بسيماهم** ﴾ أى برثاثة ثيابهم ، وضعف أبدانهم ، وكل ما يشعر بالفقر والحاجة . والخطاب إما لرسول الله ﷺ ، أو لكل من

(١) أهل الصفة كانوا نحوًا من أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يقدمون فقراء على رسول الله ﷺ ومالهم أهل ولا مال فبُنيت لهم صُفَّة فى مسجد رسول الله ﷺ فقيل لهم : أهل الصُفَّة .

يصلح للمخاطبة . والسيما مقصورة : العلامة ، وقد تمد . والإلحاف : الإلحاح فى المسألة ، وهو مشتق من اللحاف ، سمى بذلك ؛ لاشتماله على وجوه الطلب فى المسألة كاشتمال اللحاف على التغطية . ومعنى قوله : ﴿ لا يسألون الناس إلحافا﴾ أنهم لا يسألونهم البتة ، لا سؤال إلحاح ، ولا سؤال غير إلحاح ، وبه قال الطبرى والزجاج ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ووجهه أن التعَفُّفَ صفةٌ ثابتة لهم لا تفارقهم ، ومجرد السؤال ينافيها . وقيل : المراد أنهم إذا سألوا سألوا بتلطف ولا يلحفون فى سؤالهم ، وهذا وإن كان هو الظاهر من توجه النفى إلى القيد دون المقيد ، لكن صفة التعفف تنافيه ، وأيضا كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال البتة .

وقوله : ﴿ بالليل والنهار ﴾ يفيد زيادة رغبتهم فى الإنفاق وشدة حرصهم عليه ، حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلاً ولا نهارًا ، ويفعلونه سرًا وجهرًا عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين، ويظهر لديهم فاقة المفتاقين فى جميع الأزمنة على جميع الأحوال . ودخول الفاء فى خبر الموصول أعنى قوله : ﴿ فلهم أجرهم ﴾ للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها . وقيل : هى للعطف ، والخبر للموصول محذوف ، أى ومنهم الذين ينفقون .

وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ فرخص لهم [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء عنه قال : إن النبى ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الحنفية نحوه [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان أناس من الأنصار لهم نسب وقرابة من قريظة والنضير ، وكان يتقون ألا يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا ، فنزلت :﴿ ليس عليك هداهم ﴾ الآية [(٣)] . وأخرج ابن المنذر عن عمرو الهلالى قال : سئل النبى ﷺ : أنتصدق على فقراء أهل الكتاب ؟ فأنزل الله : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال فى قوله : ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ قال: إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله.

وأخرج ابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ للفقراء

(١) النسائى فى التفسير(٧٢) وإسناده صحيح ، والبزار (٢١٩٣) وابن جرير ٣ / ٦٣ والطبرانى فى ١٢ / ٥٤ قال الهيثمى فى المجمع ٦ / ١٢٧ : « رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف ، ورواه البزار بنحوه ورجاله ثقات » وصححه الحاكم ٢/ ٢٨٥ ، ٤ / ٥٦ ، ٥٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الزكاة ٤ / ١٩١ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الزكاة ٣ / ١٧٧ . (٣) ابن جرير٣ / ٦٣ .

الذين أحصروا فى سبيل الله﴾ قال : هم أصحاب الصفة . وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبى ﷺ أمروا بالصدقة عليهم . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله :﴿ **الذين أحصروا فى سبيل الله** ﴾ قال : حصروا أنفسهم فى سبيل الله للغزو فلا يستطيعون تجارة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: هم قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله فصاروا زَمْنَى فجعل لهم فى أموال المسلمين حقا. وأخرج ابن أبى حاتم عن رجاء بن حيوة فى قوله : ﴿ **لا يستطيعون ضربًا فى الأرض** ﴾ قال : لا يستطيعون تجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السُّدِّى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء** ﴾ قال : دلّ الله المؤمنين عليهم ، وجعل نفقاتهم لهم ، وأمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم ورضى عنهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تعرفهم بسيماهم**﴾ قال : التخشع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع أن معناه تعرف فى وجوههم الجهد من الحاجة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ **تعرفهم بسيماهم** ﴾ قال : رثاثة ثيابهم . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف » ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **لا يسألون الناس إلحافا** ﴾ (١) . وقد ورد فى تحريم المسألة أحاديث كثيرة إلا لذى سلطان ، أو فى الأمر لا يجد منه بدا (٢) .

وأخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى والطبرانى وأبو الشيخ عن يزيد عن عبد الله بن عَرِيب(٣) المليكى عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ ؛ قال : « أنزلت هذه الآية: ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار** ﴾ أى أصحاب الخيل » (٤) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى أُمامة الباهلى نحوه ، قال : فيمن لا يربطها خيلاء ، ولا رياء، ولا سمعة (٥) . وأخرج ابن جرير عن أبى الدرداء نحوه (٦) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حنش الصنعانى (٧) أنه سمع ابن عباس يقول فى هذه الآية : هم

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٣٩) ومسلم فى الزكاة (١٠٣٩ / ١٠٢) وأبو داود فى الزكاة (١٦٣١) .

(٢) من ذلك حديث سمرة بن جندب : « المسائل كُدَوح يكدَحُ بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ، ومن شاء ترك ، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان ، أوفى أمر لا يجد منه بدا » أخرجه أبو داود فى الزكاة (١٦٣٩) والترمذى فى الزكاة (٦٨١) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الزكاة ٥ / ١٠٠ .

(٣) عريب ، بالعين المهملة ، على وزن عظيم ، وقد تصحفت فى المطبوعة إلى « غريب » بالغين ، انظر : ترجمته فى الإصابة ٢ / ٤٧٩ .

(٤) ابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال ٣ / ٣٦٠ والطبرانى ١٧ / ١٨٨ .

(٥) أسباب النزول للواحدى ص ٥٠ .

(٦) ابن جرير ٣ / ٦٦ ، ٦٧ .

(٧) حنش الصنعانى : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة الصنعانى ، تابعى ، شجاع ، من القادة ، كان من أصحاب على وشهد معه الوقائع ، توفى بسرقُسْطة سنة ١٠٠ هـ . الأعلام ٢/٢٨٦ .

الذين يعلفون الخيل فى سبيل الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه عن ابن عباس فى هذه الآية ؛ قال : نزلت فى على بن أبى طالب كانت له أربعة دراهم ، فأنفق بالليل درهمًا ، وبالنهار درهمًا ، ودرهما سرًا ، ودرهما علانية [(١)] . وعبد الوهاب ضعيف ، ولكن قد رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية ؛ قال : هؤلاء قوم أنفقوا فى سبيل الله الذى افترض عليهم فى غير سَرَفٍ ولا إِمْلاقٍ ولا تبذير ولا فساد . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان فى نفقتهم فى جيش العسرة .

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾ .

الربا فى اللغة : الزيادة مطلقًا ، يقال : ربا الشىء يربو : إذا زاد ، وفى الشرع يطلق على شيئين ، علــى ربا الفضل ، وربا النسيئة ، حسبما هو مفصل فى كتب الفروع ، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلَّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه : أتقضى أم تربى ؟ فإذا لم يقض زاد مقدارًا فى المال الذى عليه وأخرَّ له الأجل إلى حين . وهذا حرام بالاتفاق ، وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة فى أوله وقد كتبوه فى المصحف بالواو . قال فى الكشاف : على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة ، وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع . انتهى[(٢)] .

قلت : وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشى عليه ، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاحح فى مثلها ، إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذى كان فى أصل الكلمة ونحوه ، كما هو مقرر فى مباحث الخط من علم الصرف ، وعلى كل حال فرسم الكلمة وجعل نقشها الكتابى على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى ، فما كان فى النطق ألـفًا كالصلاة والزكاة ونحوهما كان الأولى فى رسمه أن يكون كذلك وكون أصل هذا الألف واوًا وياء لا يخفى على من يعرف علم الصرف ، وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذى يدل بها عليه

(١) الطبرانى (١١١٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٣٢٧ : « وفيه عبد الواحد بن مجاهد ، وهو ضعيف » وفى المعجم عبد الوهاب .
(٢) الكشاف ١ / ١٥٣ ، ١٥٤ .

كيف هو فى نطق من ينطق به ، لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا مما لايجرى به النطق ، فاعرف هذا ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم فى هذه النقوش ، ويلزمون به أنفسهم ، ويعيبون من خالفه ، فإن ذلك من المشاححة فى الأمور الاصطلاحية التى لا تلزم أحدًا أن يتقيد بها ، فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلفظ به اللافظ عند قراءتها ، فإنه الأمر المطلوب من وضعها والتواضع عليها ، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التى يتلفظ بها المتلفظ مما لا يجرى فى لفظه الآن ، فلا تغتر بما يروى عن سيبويه ، ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو ؛ لأنه يقول فى تثنيته ربوان . وقال الكوفيون : يكتب بالياء وتثنيته ربيان . قال الزجاج : ما رأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع ، لا يكفيهم الخطأ فى الخط حتى يخطئوا فى التثنية وهم يقرؤون : ﴿ وما آتيتم من ربًا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ [الروم : ٣٩] .

وليس المراد بقوله هنا : ﴿ **الذين يأكلون الربا** ﴾ اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله ، بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه ، وإنما خص الآكل ؛ لزيادة التشنيع على فاعله ، ولكونه هو الغرض الأهم ، فإن آخذ الربا إنما أخذه للأكل . قوله : ﴿ **لا يقومون** ﴾ أى يوم القيامة ، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود : ﴿ **لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ يوم القيامة ، أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، وبهذا فسره جمهور المفسرين ، قالوا : إنه يبعث كالمجنون عقوبة له ، وتمقيتًا عند أهل المحشر . وقيل : إن المراد تشبيه من يحرص فى تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون ؛ لأن الحرص والطمع والرغبة فى الجمع قد استفزته حتى صار شبيها فى حركته بالمجنون ، كما يقال لمن يسرع فى مشيه ويضطرب فى حركاته : إنه قد جُنَّ ، ومنه قول الأعشى فى ناقته :

وَتُصْبِحُ عَنْ غِبِّ السُّرَى وَكَأَنَّها ... أَلَمَّ بِهَا مِنْ طَائِفِ الجِنِّ أَوْلَقُ

فجعلها بسرعة مشيها ونشاطها كالمجنون . قوله : ﴿ **إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ أى إلا قياما كقيام الذى يتخبطه ، والخبط : الضرب بغير استواء كخبط العشواء وهو المصروع . والمس : الجنون ، والأمس : المجنون ، وكذلك الأولق ، وهو متعلق بقوله : ﴿ **يقومون** ﴾ أى لا يقومون من المس الذى بهم ﴿ **إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان** ﴾ أو متعلق بـ ﴿ **يقوم** ﴾ . وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن الصرع لا يكون من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وقال : إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان ، وليس بصحيح ، وإن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون من مس . وقد استعاذ النبى ﷺ من أن يتخبطه الشيطان؛ كما أخرجه النسائى وغيره (١) . قوله :

(١) أبو داود فى الصلاة (١٥٥٢) والحديث عن أبى اليَسر ، والنسائى فى الاستعاذة ٨ / ٢٨٢ ، ٢٨٣ عن أبى الأسود السلمى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم : **﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾** أى أنهم جعلوا البيع والربا شيئا واحدًا ، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعًا ، أى إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربًا إلا ذلك ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : **﴿ وأحل الله البيع وحرَّم الربا ﴾** أى أن الله أحل البيع وحرم نوعًا من أنواعه ، وهو البيع المشتمل على الربا . والبيع مصدر باع يبيع، أى دفع عوضًا وأخذ معوضا ، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب .

قوله : **﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾** أى من بلغته موعظة من الله من المواعظ التى اشتمل عليها الأوامر والنواهى ، ومنها ما وقع هنا من النهى عن الربا **﴿ فانتهى ﴾** أى فامتثل النهى الذى جاءه وانزجر عن المنهى عنه وهو معطوف ، أى قوله: **﴿ فانتهى ﴾** على قوله : **﴿جاءه ﴾** . وقوله : **﴿ من ربه ﴾** متعلق بقوله : **﴿ جاءه ﴾** أو بمحذوف وقع صفة لموعظة، أى كائنة **﴿ من ربه فله ما سلف ﴾** أى ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به ، لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا ، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا . وقوله : **﴿ فأمره إلى الله ﴾** قيل : الضمير عائد إلى الربا ، أى وأمر الربا إلى الله فى تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم . وقيل : الضمير عائد إلى ما سلف ، أى أمره إلى الله فى العفو عنه وإسقاط التبعة فيه . وقيل: الضمير يرجع إلى المربى ، أى أمر من عامل بالربا إلى الله فى تثبيته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية **﴿ ومن عاد﴾** إلى أكل الربا والمعاملة به **﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾** والإشارة إلى **﴿ من عاد ﴾** وجمع أصحاب باعتبار معنى « من » . وقيل : إن معنى **﴿ من عاد ﴾** هو أن يعود إلى القول بـ **﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾** وأنه يكفر بذلك فيستحق الخلود ، وعلى التقدير الأول يكون الخلود مستعارًا على معنى المبالغة ؛ كما تقول العرب : ملك خالد، أى طويل البقاء، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار.

قوله : **﴿ يمحق الله الربا ﴾** أى يذهب بركته فى الدنيا وإن كان كثيرًا فلا يبقى بيد صاحبه . وقيل : يمحق بركته فى الآخرة قوله : **﴿ ويربى الصدقات ﴾** أى يزيد فى المال الذى أخرجت صدقته (١) . وقيل : يبارك فى ثواب الصدقة ويضاعفه ويزيد فى أجر المتصدق ، ولا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعا . قوله : **﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم﴾** أى لا يرضى ؛ لأن الحب مختص بالتوابين ، وفيه تشديد وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر ، ووصفه بأثيم للمبالغة . وقيل : لإزالة الاشتراك ، إذ قد يقع على الزراع ، ويحتمل أن المراد بقوله : **﴿ كل كفار ﴾** من صدرت منه خصلة توجب الكفر ، ووجه التصاقه

---

(١) روى الإمام مسلم فى الزكاة (١٠١٤ / ٦٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو قَلُوصَهُ حتى تكون مثل الجبل أو أعظم » .

بالمقام أن الذين قالوا : إنما البيع مثل الربا كفار ، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ إلى آخر الآية .

وقد أخرج أبو يعلى من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ قال : يعرفون يوم القيامة بذلك ، لا يستطيعون القيام إلا كما يقوم المتخبط المنخنق ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾ وكذبوا على الله ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ ومن عاد فأكل الربا ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ؛ قال: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **لا يقومون** ﴾ قال : ذلك حين يبعث من قبره(٣). وأخرج الأصبهانى فى ترغيبه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: « يأتى آكل الربا يوم القيامة مختبلاً (٤) يجر شفتيه » ، ثم قرأ : ﴿ **لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ وقد وردت أحاديث كثيرة فى تعظيم ذنب الربا . منها من حديث عبد الله ابن مسعود عند الحاكم وصححه ، والبيهقى عن النبى ﷺ قال : « الربا ثلاثة وسبعون بابًا ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم »(٥) ، ومن حديث أبى هريرة مرفوعًا عند ابن ماجة والبيهقى بلفظ : « سبعون بابًا » (٦) ، وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد الله بن سَلاَم وكعب وابن عباس وأنس .

وأخرج ابن جرير عن الربيع فى الآية قال : يبعثون يوم القيامة وبهم خَبَل من الشيطان وهى فى بعض القراءات : « لا يقومون يوم القيامة » يعنى قراءة ابن مسعود المتقدم ذكرها . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا ، خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن على الناس ، ثم حرم التجارة فى الخمر(٧). وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمر بن الخطاب ؛ أنه خطب فقال : إن من آخر القرآن نزولا آية الربا ، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا

---

(١) أبو يعلى (٢٦٦٨) والكلبى : هو محمد بن السائب بن النضر ، وهو متهم بالكذب ، فالإسناد ضعيف جدًا انظر : المجروحين ٢/ ٢٥٣ .

(٢) ابن جرير ٣ / ٦٨ والرواية عن سعيد بن جبير وعزاه ابن كثير إلى ابن عباس . (٣) ابن جرير ٣ / ٦٨ .

(٤) مختبلاً ، أى فاسد عقله ويعيش فى عصارة وصديد أهل النار. اللسان ١١/ ١٩٨ .

(٥) صححه الحاكم ٢ / ٣٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٥١٩) .

(٦) ابن ماجة فى التجارات (٢٢٧٤) والبيهقى فى الشعب (٥٥٢٠ ــ ٥٥٢٢) تعليق : « قال البيهقى عقب الرواية الأولى : غريب بهذا الإسناد وإنما يعرف بعبد الله بن زياد عن عكرمة ، وعبد الله بن زياد هذا منكر الحديث . وقال عقب الرواية الثالثة : أبو معشر وابنه غير قويين ، ورواه أيضًا عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة ، وقال عن جده عن أبى هريرة ، وعبد الله ضعيف » .

(٧) البخارى في الصلاة (٤٥٩) وفى البيوع (٢٠٨٤) (٢٢٢٦) وفى التفسير (٤٥٤٠) (٤٥٤٣) ومسلم فى المساقاة (١٥٨٠ / ٦٩، ٧٠) وابن ماجة فى الأشربة (٣٣٨٢) .

يريبكم [(١)] . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنه قال : آخر آية أنزلها الله على رسوله آية الربا [(٢)]. وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عمر مثله [(٣)] .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى الربا الذى نهى الله عنه قال : كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عنى ، فيؤخر عنه . وأخرج أيضًا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه أيضا وزاد فى قوله : ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه** ﴾ قال : يعنى البيان الذى فى القرآن فى تحريم الربا فانتهى عنه ﴿**فله ما سلف**﴾ يعنى فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم ﴿ **وأمره إلى الله** ﴾ يعنى بعد التحريم وبعد تركه إن شاء عصمه منه، وإن شاء لم يفعل ﴿ **ومن عاد** ﴾ يعنى فى الربا بعد التحريم فاستحله بقولهم: ﴿ **إنما البيع مثل الربا**﴾ ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ يعنى لا يموتون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يمحق الله الربا** ﴾ قال : ينقص الربا ﴿**ويربى الصدقات** ﴾ قال : يزيد فيها ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا : «من تصدق بعَدْل تمرة من كسبٍ طيبٍ ، ولا يقبل الله إلا طيبًا ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يُرَبِّيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوَّه ، حتى تكون مثل الجبل » [(٤)] . وأخرج البزار وابن جرير وابن حبان والطبرانى من حديث عائشة نحوه [(٥)]. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر مرفوعًا نحوه أيضا . وفى حديث عائشة وابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بعد أن ساق الحديث : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾ . وأخرج الطبرانى عن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن العبد ليتصدق بالكِسْرَه تربو عند الله حتى تكون مثل أحد » [(٦)] . وهذه الأحاديث تبين معنى الآيـة .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٣ / ٧٥ وابن ماجة فى التجارات (٢٢٧٦) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله موثوقون إلا أن سعيدًا وهو ابن أبى عروبة ، اختلط بأخرة » .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٤٤) .

(٣) البيهقى فى الدلائل ٧ / ١٣٨ .

(٤) أحمد ٢ / ٣٣١ والبخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٣٠) ومسلم فى الزكاة (١٠١٤ / ٦٤) .

(٥) البزار فى أبواب صدقة التطوع (٩٣١) وقال : « لا نعلم رواه هكذا إلا أبو أديس » وابن جرير ٣ / ٧٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٣ / ١١٥ : «رجاله ثقات » وصححه ابن حبان فى كتاب الزكاة (٣٣٠٦) .

(٦) عزاه الهيثمى فى المجمع ٣ / ١١٣ ، ١١٤ للطبرانى وقال : « فيه سوار بن مصعب وهو ضعيف ».

قوله : ﴿ **اتقوا الله** ﴾ أى قوا أنفسكم من عقابه واتركوا البقايا التى بقيت لكم من الربا ، وظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضًا . قوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ قيل : هو شرط مجازى على جهة المبالغة . وقيل : إنَّ « إن » فى هذه الآية بمعنى « إذا » . قال ابن عطية : وهو مردود لا يعرف فى اللغة ، والظاهر أن المعنى : إن كنتم مؤمنين على الحقيقة . فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه .

قوله : ﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾ يعنى ما أمرتم به من الاتقاء وترك ما بقى من الربا ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ أى فاعلموا بها ، من أذن بالشىء إذا علم به . قيل : هو من الإذن بالشىء وهو الاستماع لأنه من طرق العلم ، وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة :﴿ **فأذنوا** ﴾ على معنى فأعلموا غيركم أنكم على حربهم ، وقد دلت هذه على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر ، ولا خلاف فى ذلك ، وتنكير الحرب للتعظيم ، وزادها تعظيمًا نسبتها إلى اسم الله الأعظم وإلى رسوله الذى هو أشرف خليقته ، قوله : ﴿ **وإن تبتم** ﴾ [(١)] أى من الربا ﴿ **فلكم رؤوس أموالكم** ﴾ تأخذونها ﴿ **لا تَظْلمون** ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿ **ولا تُظْلَمون** ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ، والجملة حاليَة أو استئنافية وفى هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة ، ونحوهم ممن ينوب عنهم .

قوله : ﴿ **وإن كان ذو عسرة** ﴾ لما حكم سبحانه لأهل الربا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمال حكَم فى ذوى العسرة بالنظرة إلى يسار ، والعسرة : ضيق الحال من جهة عدم المال ، ومنه جيش العسرة . والنظرة : التأخير ، والميسرة : مصدر بمعنى اليسر ، وارتفع ﴿ **ذو** ﴾ بكان التامة التى بمعنى وجد ، وهذا قول سيبويه ، وأبى على الفارسى ، وغيرهما ، وأنشد سيبويه :

فِدًى لبنى ذُهْلِ بنِ شَيْبَان يافتى ... إذا كان يومٌ ذو كواكب أَشْهَبُ

وفى مصحف أبى :﴿ **وإن كان ذو عسرة** ﴾ على معنى : وإن كان المطلوب ذا عسرة . وقرأ الأعمش [(٢)] : « وإن كان معسرًا » . قال أبو عمرو الدانى [(٣)] ، عن أحمد بن موسى ، وكذلك فى مصحف أبىّ بن كعب . وروى المعتمر عن حجاج الوراق قال فى مصحف عثمان : « وإن كان ذا عسرة » قال النحاس ومكى والنقاش : وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا ، وعلى من قرأ : « ذو » فهى عامة فى جميع مَنْ عليه دين ، وإليه ذهب الجمهور ، وقرأ

(١) فى المطبوعة : « فإن تبتم » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) الأعمش : هو سليمان بن مهران الأعمش أبو محمد الأسدى الكاهلى ولد سنة ستين ، كان إماما فى القراءات، قال هشام : « ما رأيت بالكوفة أحدًا أقرأ لكتاب الله عز وجل من الأعمش توفى فى ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة » .

(٣) أبو عمرو الدانى : هو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر أبو عمرو الدانى الأموى ، المعروف فى زمانه بابن الصيرفى ولِد سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ، وتُوفى فى منتصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

الجماعة: ﴿ **فنَظِرة** ﴾ بكسر الظاء . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن بسكونها وهى لغة تميم ، وقرأ نافع وحده : « ميسرة » بضم السين ، والجمهور بفتحها ، وهى اليسار . قوله : ﴿**وأن تصدقوا** ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقرئ بتشديد الصاد ، أى وأن تصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراء خير لكم ، وفيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برؤوس أموالهم على من أعسر وجعل ذلك خيرًا من إنظاره ؛ قاله السدى وابن زيد والضحاك . قال الطبرى : وقال آخرون : معنى الآية: وأن تصدقوا على الغنى والفقير خير لكم ، والصحيح الأول ، وليس فى الآية مدخل للغنى . قوله : ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ جوابه محذوف ، أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به .

قوله : ﴿ **واتقوا يومًا** ﴾ هو يوم القيامة ، وتنكيره للتهويل ، وهو منصوب على أنه مفعول به لا ظرف . وقوله : ﴿**ترجعون فيه إلى الله** ﴾ وصف له . وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم ، وذهب قوم إلى أن هذا اليوم المذكور هو يوم الموت . وذهب الجمهور إلى أنه يوم القيامة كما تقدم . وقوله : ﴿ **إلى الله** ﴾ فيه مضاف محذوف تقديره إلى حكم الله ﴿ **ثم توفى كل نفس** ﴾ من النفوس المكلفة ﴿ **ما كسبت** ﴾ أى جزاء ما عملت من خير أوشر ، وجملة : ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ حالية ، وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء ، كما أن الإفراد أنسب بحال الكسب ، وهذه الآية فيها المواعظ الحسنة لجميع الناس .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا** ﴾ قال : نزلت فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة كانا شريكين فى الجاهلية يسلفان الربا إلى ناس من ثقيف ، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا ، فأنزل الله هذه الآية (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : كانت ثقيف قد صالحت النبى ﷺ على أن مالهم من ربا على الناس ، وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع ، فلما كان الفتح استعمل عتَّاب بن أسيد على مكة ، وكانت بنو عمرو بن عوف يأخذون الربا من بنى المغيرة ، وكان بنو المغيرة يربون لهم فى الجاهلية ، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير ، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الإسلام ، ورفعوا ذلك إلى عتَّاب بن أسيد ، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت : ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا** ﴾ فكتب بها رسول ﷺ إلى عتَّاب وقال :« إن رضوا وإلا فأذنهم بحرب » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فأذنوا بحرب** ﴾ قال : من كان مقيمًا على الربا لا ينزع منه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه . وأخرجوا أيضًا عنه فى قوله : ﴿ **فأذنوا بحرب** ﴾ قال : استيقنوا بحرب . وأخرج أهل السنن وغيرهم عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع

(١) ابن جرير ٣ / ٧١ .   (٢) ابن جرير مرسلاً عن ابن جريج ٣ / ٧١ .

رسول الله ﷺ فقال : « ألا إن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وأول ربا موضوع ربا العباس »(١) . وأخرج ابن منده عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى ربيعة بن عمرو وأصحابه: ﴿ **وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم** ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن كان ذو عسرة** ﴾ قال : نزلت فى الربا (٢) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن شريح نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك فى الآية قال : وكذلك كل دينٍ على مسلم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وقد وردت أحاديث صحيحة فى الصحيحين وغيرهما فى الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره(٣) .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ؛ قال آخر آية نزلت من القرآن الكريم على النبى ﷺ : ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾ (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة عن السدى وعطية العُوفى مثله (٥) . وأخرج ابن الأنبارى عن أبى صالح وسعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت ، وكان بين نزولها وبين موت النبى ﷺ إحدى وثمانون يومًا (٦) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنه عاش النبى ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم مات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا

---

(١) أبو داود فى المناسك (١٩٠٥) والترمذى فى التفسير (٣٠٨٧) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى المناسك (٣٠٥٥ ، ٣٠٧٤) والبيهقى فى البيوع ٥ / ٢٧٥ .

(٢) ابن جرير ٣ / ٧٢ .

(٣) البخارى فى البيوع (٢٠٧٨) ومسلم فى المساقاة (١٥٦٢ / ٣١) من حديث أبى هريرة .

(٤) النسائى فى التفسير (٧٧) وابن جرير ٣ / ٧٦ والطبرانى (١٣٠٤٠) والبيهقى فى الدلائل ٧ / ١٣٧ وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ٣٢٤ : « رواه الطبرانى بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات » .

(٥) ابن أبى شيبة فى الأوائل (١٧٧٣٥ ، ١٧٧٣٦) .

(٦) البيهقى فى الدلائل (٧ / ١٣٧) والكلبى : محمد بن السائب متهم بالكذب .

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾ .

هذا شروع فى بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا ، أى إذا داين بعضكم بعضًا وعاملهُ بذلك ، وذكرالدين بعد ذكر ما يغنى عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] . وقيل : إنه ذكر ليرجع إليه الضمير من قوله : ﴿ **فاكتبوه** ﴾ ولو قال : فاكتبوا الدين لم يكن فيه الحسن ما فى قوله : ﴿ **إذا تداينتم بدين** ﴾ والدين : عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا ، والآخر فى الذمة نسيئة ، فإن العين عند العرب ما كان حاضرًا ، والدين ما كان غائبًا . قال الشاعر :

وَعَدتْنَا بِدِرْهَمَيْنا طِلاءً ... وشِواء (١) معجلا غَيرِ دَيْنِ

وقال الآخر :

إِذَا ما أَوْقَدُوا نارًا وحطبًا ... فَذَاك الموتُ نَقْدًا غيرَ دَيْن

وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله : ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ وقد استدل به على أن الأجل المجهول لا يجوز وخصوصًا أجل السلم . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ :« من أسلف فى تمر فليسلف فى كيل معلوم إلى أجل معلوم»(٢) وقد قال بذلك الجمهور ، واشترطوا توقيته بالأيام أو الأشهر أو السنين ، قالوا : ولا يجوز إلى الحصاد ، أو الدياس(٣) ، أو رجوع القافلة ، أو نحو ذلك وجوَّزه مالك . قوله : ﴿ **فاكتبوه** ﴾ أى الدين بأجله لأنه أدفع للنزاع وأقطع للخلاف . قوله: ﴿ **وليكتب بينكم كاتب** ﴾ هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها ، وظاهر الأمر الوجوب ، وبه قال عطاء والشعبى وغيرهما فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك ، ولم يوجد كاتب سواه . وقيل : الأمر للندب . وقوله: ﴿**بالعدل** ﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب ، أى كاتب كائن بالعدل ، أى يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ، ولا يميل إلى أحد الجانبين ، وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة ، لا يكون فى قلبه ولا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر، بل يتحرى الحق بينهم والمعدلة فيهم.

قوله : ﴿ **ولا يأب كاتب** ﴾ النكرة فى سياق النفى مشعرة بالعموم ، أى لا يمتنع أحد من

---

(١) فى المطبوعة : « سواء » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) البخارى فى السلم (٢٢٣٩ ، ٢٢٤١) ومسلم فى المساقاة (١٦٠٤ / ١٢٧) .
(٣) الدياس : هو الدراس ، يقال : داس الناس الحب ، أى درسوه .

الكتاب أن يكتب كتاب التداين كما علمه الله ، أى على الطريقة التى علمه الله من الكتابة ، أى كما علمه الله بقوله : ﴿**بالعدل**﴾ . قوله : ﴿**وليملل الذى عليه الحق** ﴾ الإملال والإملاء لغتان ، الأولى لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، والثانية لغة بنى تميم ، فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى ، وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى :﴿ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ [الفرقان: ٥] و ﴿ **الذى عليه الحق** ﴾ هو من عليه الدين ، أمره الله تعالى بالإملاء ؛ لأن الشهادة إنما تكون على إقراره بثبوت الدين فى ذمته ، وأمره الله بالتقوى فيما يمليه على الكاتب ، بالغ فى ذلك بالجمع بين الاسم والوصف فى قوله: ﴿ **وليتق الله ربه**﴾ ونهاه عن البخس وهو النقص ، وقيل : إنه نهى للكاتب ، والأول أولى لأن من عليه الحق هو الذى يتوقع منه النقص ، ولو كان نهيًا للكاتب لم يقتصر فى نهيه على النقص ، لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص. والسفيه : هو الذى لا رأى له فى حسن التصرف فلا يحسن الأخذ ولا الإعطاء ، شبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج ، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة ، وعلى ضعف البدن أخرى ، فمن الأول قول الشاعر :

نَخَافُ أن تَسْفَهَ أحْلامُنَا ويَجْهَلُ الدهرُ مع الجاهلِ

ومن الثانى قول ذى الرمة :

مَشَيْن كما اهتزَّت رِماحٌ تَسَفَّهَتْ أعالِيهَا مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ

أى استضعفها واستلانها بحركتها ، وبالجملة فالسفيه هو المبذر إما لجهله بالصرف أو لتلاعبه بالمال عبثًا مع كونه لا يجهل الصواب . والضعيف : هو الشيخ الكبير ، أو الصبى . قال أهل اللغة : الضُعف بضم الضاد فى البدن ، وبفتحها فى الرأى . والذى لا يستطيع أن يُمِلَّ هو الأخرس ، أو العَيِىُّ الذى لا يقدر على التعبير كما ينبغى ، وقيل : إن الضعيف هو المذهول العقل ، الناقص الفطنة ، العاجز عن الإملاء ، والذى لا يستطيع أن يمل هو الصغير . قوله : ﴿ **فليملل وليه بالعدل** ﴾ الضمير عائد إلى الذى عليه الحق فيمل عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره عن التصرف فى ماله ، ويمل عن الصبى ووصيه أو وليه ، وكذلك يمل عن العاجز الذى لا يستطيع الإملال لضعف وليه ، لأنه فى حكم الصبى ، أو المنصوب عنه من الإمام أو القاضى ، ويمل عن الذى لا يستطيع وكيله إذا كان صحيح العقل ، وعرضت له آفة فى لسانه أو لم تعرض ، ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير كما ينبغى . وقال الطبرى : إن الضمير فى قوله : ﴿ **وليه** ﴾ يعود إلى الحق ، وهو ضعيف جدًا . قال القرطبى فى تفسيره : وتصرف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد إجماعًا مفسوخ أبدًا ، لا يوجب حكمًا ولا يؤثر شيئًا فإن تصرف سفيه ولا حجر عليه ففيه خلاف . انتهى [(١)] .

(١) القرطبى ٣ / ٣٨٩ ، ٥ / ٣٩ ، ٨٣ واستشهد بقوله تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ﴾ [النساء : ٥] .

قوله : ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم** ﴾ الاستشهاد : طلب الشهادة ، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول ، أى باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة ، و ﴿ **من رجالكم** ﴾ متعلق بقوله : ﴿**واستشهدوا** ﴾ أو بمحذوف هو صفة لشهيدين ، أى كائنين من رجالكم ، أى من المسلمين فيخرج الكفار ، ولا وجه لخروج العبيد من هذه الآية ، فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين ، وبه قال شريح وعثمان البتى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور . وقال أبو حنيفة ومالك والشافعى وجمهور العلماء : لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق . وقال الشعبى والنخعى : يصح فى الشىء اليسير دون الكثير . واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب فى هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة والعبيد لا يملكون شيئًا تجرى فيه المعاملة ، ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وأيضا العبد تصح منه المداينة وسائر المعاملات إذا أذن له مالكه بذلك ، وقد اختلف الناس : هل الإشهاد واجب أومندوب ؟ فقال أبو موسى الأشعرى وابن عمر والضحاك وعطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن على الظاهرى وابنه : إنه واجب ورجحه ابن جرير الطبرى . وذهب الشعبى والحسن ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه ، إلى أنه مندوب . وهذا الخلاف بين هؤلاء هو فى وجوب الإشهاد على البيع واستدل الموجبون بقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ ولا فرق بين هذا الأمر وبين قوله : ﴿ **واستشهدوا** ﴾ فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد فى البيع أن يقولوا بوجوبه فى المداينة .

قوله : ﴿ **فإن لم يكونا** ﴾ أى الشهيدان ﴿ **رجلين فرجل وامرأتان** ﴾ أى فليشهد رجل وامرأتان ، أو فرجل وامرأتان يكفون . وقوله : ﴿ **ممن ترضون من الشهداء** ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان ، أى كائنون ممن ترضون حال كونهم من الشهداء ، والمراد ممن ترضون دينهم وعدالتهم ، وفيه أن المرأتين فى الشهادة برجل ، وأنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهن إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة . واختلفوا : هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعى كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعى ؟ فذهب مالك والشافعى إلى أنه يجوز ذلك ؛ لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل فى هذه الآية . وذهب أبوحنيفة وأصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك ، وهذا يرجع إلى الخلاف فى الحكم بشاهد مع يمين المدعى . والحق أنه جائز ؛ لورود الدليل عليه ، وهو زيادة لم تخالف ما فى الكتاب العزيز فيتعين قبولها ، وقد أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا ، ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس فى هذه الآية ما يردّ به قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد واليمين ، ولم يدفعوا هذا إلابقاعدة مبنية على شفا جرفٍ هارٍ هى قولهم : إن الزيادة على النص نسخ ، وهذه دعوى باطلة ، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءنا بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها ، وأيضًا كان يلزمهم ألا يحكموا بنكول المطلوب ولا بيمين الرد على الطالب ، وقد حكموا بهما ، والجواب الجواب .

قوله : ﴿ **أن تـضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ قال أبو عبيد : معنى تضل : تنسى ، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء . وقرأ حمزة : « إن تضلّ » بكسر الهمزة ، وقوله : ﴿ **فتذكر** ﴾ جوابه على هذه القراءة، وعلى قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تضل ، ومن رفعه فعلى الاستئناف . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: « فتذكر » بتخفيف الذال والكاف ، ومعناه : تزيدها ذكرًا . وقراءة الجماعة بالتشديد ، أى تنبهها [1] إذا غفلت ونسيت ، وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد فى النساء ، أى فليشهد رجل وتشهد امرأتان عوضًا عن الرجل الآخر ؛ لأجل تذكير إحداهما للأخرى إذا ضلت وعلى هذا فيكون فى الكلام حذف ، وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضًا عن الرجل الواحد ، فقيل : وجهه أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، والعلة فى الحقيقة هى التذكير ، ولكن الضلال لما كان سببًا له نزل منزلته، وأبهم الفاعل فى تضل وتذكر ؛ لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان ؛ فالمعنى : إن ضلت هذه ذكرتها هذه ، وإن ضلت هذه ذكرتها هذه لا على التعيين ، أى إن ضلت إحدى المرأتين ذكرتها المرأة الأخرى ، وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال ، وقد يكون الوجه فى الإبهام أن ذلك يعنى الضلال والتذكير يقع بينهما متناوبًا حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر ، فذكرت كل واحدة منهما صاحبتها . وقال سفيان بن عيينة : معنى قوله : ﴿ **فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ تصيرها ذكرًا ، يعنى أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد . وروى نحوه عن أبى عمرو ابن العلاء ، ولا شك أن هذا باطل لا يدل عليه شرع ولا لغة ولا عقل .

قوله : ﴿ **ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا** ﴾ أى لأداء الشهادة التى قد تحملوها من قبل . وقيل : إذا ما دعوا لتحمل الشهادة . وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم ، وحملها الحسن على المعنيين . وظاهر هذا النهى أن الامتناع من أداء الشهادة حرام . قوله : ﴿ **ولا تسأموا أن تكتبوه**﴾ معنى تسأموا : تملوا . قال الأخفش : يقال سئمت أسأم سآمة وسآما ، ومنه قول الشاعر :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمانِين حَوْلاً لاَ أبا لك يَسْأَمِ

أى لا تملوا أن تكتبوه ، أى الدين الذى تداينتم به . وقيل : الحق . وقيل : الشاهد . وقيل : الكتاب . نهاهم الله سبحانه عن ذلك ؛ لأنهم ربما ملُّوا من كثرة المداينة أن يكتبوا ، ثم بالغ فى ذلك فقال : ﴿ **صغيرًا أو كبيرًا** ﴾ أى حال كون ذلك المكتوب صغيرا أو كبيرا ، أى لا تملوا فى حال من الأحوال ، سواء كان الدين كثيرًا أو قليلا . وقيل : إنه كنى بالسآمة عن الكسل ، والأول أولى . وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لدفع ما عساه أن يقال : إن هذا مال صغير ، أى قليل لا احتياج إلى كتبه . والإشارة فى قوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى

(١) فى المطبوعة : « تنبيها » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة والقرطبى ٢ / ١٢٠٦ .

المكتوب المذكور في ضمير قوله : ﴿ أن تكتبوه ﴾ . و﴿أقسط﴾ معناه : أعدل ، أي أصح وأحفظ ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ أي أعون على إقامة الشهادة وأثبت لها وهو مبنى من أقام ، وكذلك أقسط مبنى من فعله ، أي أقسط . وقد صرح سيبويه بأنه قياسي ، أي بنى أفعل التفضيل ، ومعنى قوله : ﴿وأدنى ألا ترتابوا ﴾ أقرب لنفي الريب في معاملاتكم ، أي الشك ذلك [(١)] أن الكتاب الذي يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائنًا ما كان .

قوله : ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾ « أن » في موضع نصب على الاستثناء ، قاله الأخفش ، «وكان » تامة ، أي إلا أن تقع أو توجد تجارة ، والاستثناء منقطع، أي لكن وقت تبايعكم وتجارتكم حاضرة بحضور البدلين ﴿ تديرونها بينكم ﴾ تتعاطونها يدا بيد، فالإدارة : التعاطي والتقابض ، فالمراد التبايع الناجز يدًا بيد فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته . وقرئ بنصب تجارة على أن « كان » ناقصة ، أي إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة . قوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ قيل : معناه : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع المذكور هنا ، وهو التجارة الحاضرة ، على أن الإشهاد فيها يكفي . وقيل : معناه : إذا تبايعتم أي تبايع كان حاضرًا أو كالئًا ؛ لأن ذلك أدفع لمادة الخلاف وأقطع لمنشأ الشجار . وقد تقدم قريبا ذكر الخلاف في كون هذا الإشهاد واجبًا أو مندوبًا .

قوله : ﴿ ولا يـضار كاتب ولا شهيد ﴾ يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول ، فعلى الأول معناه : لا يضار كاتب ولا شهيد من طلب ذلك منهما ، إما بعدم الإجابة ، أو بالتحريف والتبديل والزيادة والنقصان في كتابته ، ويدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبي إسحاق : « ولا يضارِر » بكسر الراء الأولى ، وعلى الثاني لا يضارَر كاتب ولا شهيد ، بأن يدعيا إلى ذلك ، وهما مشغولان بمهم لهما ويضيق عليهما في الإجابة ، ويؤذيا إن حصل منهما التراخي ، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد ، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود : « ولا يضارر » بفتح الراء الأولى ، وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعا . وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ لاتضار والدة بولدها ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ما إذا راجعته زادك بصيرة إن شاء الله . قوله : ﴿وإن تفعلوا ﴾ أي ما نهيتم عنه من المضاررة ﴿فإنه﴾ أي فعلكم هذا ﴿فسوق بكم ﴾ أي خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم ﴿ واتقوا الله ﴾ في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿ ويعلمكم الله ﴾ ما تحتاجون إليه من العلم ، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ [الأنفال : ٢٩].

قوله : ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة ، والإشهاد لحفظ الأموال ودفع الريب ، عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب ، ونص على حالة السفر فإنها من جملة أحوال العذر ، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر ، وجعل الرهان المقبوضة

(١) في المطبوعة :« ولذلك » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

قائمة مقام الكتابة ، أى فإن كنتم مسافرين ﴿ ولم تجدوا كاتبًا ﴾ فى سفركم فرهانٌ مقبوضة، قال أهل العلم : الرهن فى السفر ثابت بنص التنزيل ، وفى الحضر بفعل رسول الله ﷺ ، كما ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ رهن درعًا له من يهودى [١] . وقرأ الجمهور :﴿ كاتبًا ﴾ أى رجلاً لكم . وقرأ ابن عباس وأبى ومجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية « كتابًا » قال ابن الأنبارى : فسره مجاهد فقال : معناه فإن لم تجدوا مدادًا : يعنى فى الأسفار . وقرأ أبو عمرو وابن كثير : « فرُهُنٌ » بضم الراء والهاء . وروى عنهما تخفيف الهاء جمع رهان ، قاله الفراء والزجاج وابن جرير الطبرى . وقرأ عاصم بن أبى النجود [٢] : «فرَهْن » بفتح الراء وإسكان الهاء . وقراءة الجمهور « رهان » . قال الزجاج : يقال فى الرهن :رهنت وأرهنت ، وكذا قال ابن الأعرابى والأخفش . وقال أبو على الفارسى :يقال : أرهنت فى المعاملات ، وأما فى القرض والبيع : مرهنت وقال ثعلب : الرواة كلهم فى قول الشاعر :

فَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرهُمْ نَجَوتُ وأرْهَنْتُهم مَالِكًا

على أرهنتهم على أنه يجوز : رهنته وأرهنته ، إلا الأصمعى [٣] فإنه رواه : وأرهنهم ، على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماض ، وشبه بقوله : قمت وأصك وجهه . وقال ابن السكيت : أرهنت فيهما بمعنى أسلفت ، والمرتهن الذى يأخذ الرهن ، والشىء مرهون ورهين، وراهنت فلانا على كذا مراهنة خاطرته ، وقد ذهب الجمهور إلى اعتبار القبض كما صرح به القرآن ، وذهب مالك إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب والقبول من دون قبض . قوله : ﴿ فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذى اؤتُمِن أمانته ﴾ أى إن كان الذى عليه الحق أمينًا عند صاحب الحق لحسن ظنه به ، وأمانته لديه ، واستغنى بأمانته عن الارتهان ﴿ فليؤد الذى اؤتمن ﴾ وهو المديون ﴿ أمانته ﴾ أى الدين الذى عليه . والأمانة مصدر سمى به الذى فى الذمة ، وأضافها إلى الذى عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة ، وقرئ : « ايتمن » بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بإدغام الياء فى الفاء وهو خطأ ؛ لأن المنقلبة من الهمزة لا تدغم لأنها فى حكمها . ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى ألا يكتم من الحق شيئًا .

قوله : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ نهى للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة ، وهو فى حكم التفسير لقوله : ﴿ولايضار كاتب ﴾ أى لا يضارِر بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدمين . قوله : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ خص القلب بالذكر ؛ لأن الكتم من أفعاله ، ولكونه رئيس الأعضاء ، وهو المضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد كله،

(١) الحديث عن عائشة : أخرجه البخارى فى الرهن (٢٥٠٩) وفى الجهاد (٢٩١٦) وفى المغازى (٤٤٦٧) ومسلم فى المساقاة (١٦٠٣ / ١٢٤ ـ ١٢٦) عن عائشة أيضا .

(٢) عاصم بن أبى النجُود الكوفى ، هو أحد القراء السبعة ، تابعى من أهل الكوفة ، كان ثقة فى القراءات ، صدوقًا فى الحديث . قيل : اسم أبيه عبيد، وبهدلة اسم أمه ، توفى عام ١٢٧ هـ .

(٣) الأصْمَعى : هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن على بن أصْمَع من أهل البصرة توفى بها وقد بلغ ثمانيًا وثمانين سنة ، سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل : ست عشرة ، وقيل : سبع عشرة .

وارتفاع القلب على أنه فاعل أو مبتدأ وآثم خبره على ما تقرر فى علم النحو ؛ ويجوز أن يكون قلبه بدلاً من آثم بدل البعض من الكل ، ويجوز أن يكون أيضًا بدلا من الضمير الذى فى آثم الراجع إلى من ، وقرئ : « قلبه » بالنصب كما فى قوله : ﴿ إلا من سَفِه نفسه ﴾ [البقرة : ١٣٠] .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ قال : نزلت فى السلم فى كيل معلوم إلى أجل معلوم(١) . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وغيرهم عنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله ، وقرأ هذه الآية (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال : أمر بالشهادة عند المداينة لكيلا يدخل فى ذلك جحود ولا نسيان ، فمن لم يشهد على ذلك فقد عصى ﴿ ولا يأب الشهداء ﴾ يعنى من احتيج إليه من المسلمين ليشهد على شهادة ، أو كانت عنده شهادة ، فلا يحل له أن يأبى إذا ما دُعى، ثم قال بعد هذا : ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ والضرار أن يقول الرجل للرجل وهو عنه غنى : إن الله قد أمرك ألا تأبى إذا دعيت ، فيضاره بذلك وهو مكتف بغيره فنهاه الله عن ذلك ، وقال : ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ يعنى معصية . قال : ومن الكبائر كتمان الشهادة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ ولا يأب كاتب﴾ قال : واجب على الكاتب أن يكتب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كانت الكتابة عزيمة فنسخها ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾(٣) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : ﴿ فإن كان الذى عليه الحق سفيهًا ﴾ قال : هو الجاهل ﴿ أو ضعيفًا ﴾ قال : هو الأحمق . وأخرج ابن جرير عن الضحاك والسدى فى قوله : ﴿ سفيها ﴾ قالا : هو الصبى الصغير . وأخرج ابن جرير من طريق عطية العوفى عن ابن عباس ﴿ فليملل وليه ﴾ قال : صاحب الدين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الحسن قال : ولى اليتيم . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : ولى السفيه أو الضعيف . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد فى قوله : ﴿ من رجالكم ﴾ قال : من الأحرار . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله : ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ قال: عدول . وأخرج الشافعى والبيهقى عن مجاهد قال : عدلان حران مسلمان .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ يقول : أن

---

(١) ابن جرير ٣ / ٧٦ والبيهقى فى البيوع ٦ / ١٨ .
(٢) الشافعى فى الأم ٣ / ٩٣ ، ٩٤ وعبد الرزاق فى البيوع (١٤٠٦٤) وصححه الحاكم ٢ / ٢٨٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . وهذا الحديث لم يروه البخارى كما يفيد كلام المصنف ، وإنما قال البخارى فى كتاب السلم : « باب السلم إلى أجل معلوم وبه قال ابن عباس وأبو سعيد» .
(٣) ابن جرير ٣ / ٩٠ .

تنسى إحدى المرأتين الشهادة ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ يعنى تذكرها التى حبطت شهادتها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ولا يأب الشهداء﴾ قال : إذا كانت عندهم شهادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع قال : كان الرجل يطوف فى القوم الكثير يدعوهم يشهدون فلا يتبعه أحد منهم ، فأنزل الله : ﴿ولا يأب الشهداء﴾ (١) . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر عن عائشة فى قوله : ﴿أقسط عند الله﴾ قالت : أعدل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ قال : يأتى الرجل الرجلين فيدعوهما إلى الكتابة والشهادة ، فيقولان : إنا على حاجة ، فيقول : إنكما قد أمرتما أن تجيبا فليس له أن يضارهما. وأخرج ابن جرير عن طاوس ﴿لا يضار كاتب﴾ فيكتب ما لم يُمل عليه ﴿ولا شهيد﴾ فيشهد بما لم يستشهد .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿وإن كنتم على سفر﴾ الآية ، قال : من كان على سفر فبايع بيعًا إلى أجل فلم يجد كاتبًا فرخص له فى الرهان المقبوضة ، وليس له إن وجد كاتبًا أن يرتهن . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لا يكون الرهن إلا فى السفر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لا يكون الرهن إلا مقبوضا . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن ماجة وأبو نعيم والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى ؛ أنه قرأ هذه الآية : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ حتى بلغ ﴿فإن أمن بعضكم بعضًا﴾ قال : هذه نسخت ما قبلها(٢) . وأقول : رضى الله عن هذا الصحابى الجليل ، ليس هذا من باب النسخ، فهذا مقيد بالائتمان ، وما قبله ثابت محكم لم ينسخ ، وهو مع عدم الائتمان . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿آثم قلبه﴾ قال : فاجر قلبه . وأخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن سعيد ابن المسيب ، أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين (٣) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن ابن شهاب قال : آخر القرآن عهدًابالعرش آية الربا وآية الدين .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾ .

قوله : ﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ قد تقدم تفسيره . قوله : ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم﴾ إلى آخر الآية ، ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم ، أو أظهرته من الأمور التى يحاسب عليها ، فيغفر لمن يشاء منهم ما يغفره منها ، ويعذب من يشاء

---

(١) ابن جرير ٣ / ٨٤ .
(٢) البخارى فى التاريخ (٧٢٧) وابن جرير ٣ / ٧٨ وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٦٥) والبيهقى ١٠ / ١٤٥ .
(٣) ابن جرير ٣ / ٧٦ .

منهم بما أسرَّ أو أظهر منها . هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية .

وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية على أقوال : الأول : أنها وإن كانت عامة فهى مخصوصة بكتمان الشهادة ، وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه ، سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة أو لم يظهر . وقد روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والشعبى ومجاهد ، وهو مردود بما فى الآية من عموم اللفظ ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهى عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به . والقول الثانى : أن ما فى الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التى هى بين الشك واليقين ، قاله مجاهد ، وهو أيضا تخصيص بلا مخصِّص . والقول الثالث : أنها محكمة عامة ، ولكن العذاب على ما فى النفس يختص بالكفار والمنافقين ، حكاه الطبرى عن قوم ، وهو أيضًا تخصيص بلا مخصِّص ، فإن قوله : ﴿ **يغفرلمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ لا يختص ببعض معين إلا بدليل . والقول الرابع : أن هذه الآية منسوخة ، قاله ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبى وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة ، وهو مروى عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين ، وهذا هو الحق لما سيأتى من التصريح بنسخها ، ولما ثبت عن النبى ﷺ : « إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها » (١) .

قوله : ﴿ **يحاسبكم به الله** ﴾ قدم الجار والمجرور على الفاعل لإظهار العناية به ، وقدم الإبداء على الإخفاء ؛ لأن الأصل فى الأمور التى يحاسب عليها هو الأعمال البادية وأما تقديم الإخفاء فى قوله سبحانه : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾ [آل عمران: ٢٩] فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية ، والبادية على السوية . وقدم المغفرة على التعذيب ؛ لكون رحمته سبقت غضبه ، وجملة قوله : ﴿ **فيغفرلم يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ مستأنفة ، أى فهو يغفر وهى متضمنة لتفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ **يحاسبكم به الله** ﴾ وهذا على قراءة ابن عامر وعاصم . وأما على قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى بجزم الراء والباء، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها ، وهو جواب الشرط ، أعنى قوله : ﴿**يحاسبكم به الله** ﴾ وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو العالية وعاصم الجحدرى بنصب الراء والباء فى قوله ﴿**فيغفر** ﴾ ، ﴿ **ويعذب** ﴾ على إضمار « أن » عطفًا على المعنى . وقرأ طلحة بن مصرِّف : «يغفر » بغير فاء على البدل ، وبه قرأ الجعفى وخلاد .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ **لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن**

---

(١) الحديث عن أبى هريرة : أخرجه أحمد : ٢ / ٤٢٥ ، ٤٧٤ ، ٤٩١ والبخارى فى العتق (٢٥٢٨) وفى الطلاق (٥٢٦٩) وفى الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ومسلم فى الأيمان والنذور (١٢٧ / ٢٠١ ، ٢٠٢) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠٩) والترمذى فى الطلاق (١١٨٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٠ ، ٢٠٤٤) .

تبدوا ما فى أنفسكم ﴾ الآية . اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب ، فقالوا : يارسول الله كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم :سمعنا وعصينا ، بل قولوا : ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ « فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله فى أثرها : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ الآية ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله » فأنزل : ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ إلى آخرها [١] . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عباس مرفوعًا نحوه، وزاد: فأنزل الله: ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : قد فعلت ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : قد فعلت ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : قد فعلت ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ الآية ، قال : قد فعلت . وقد رويت هذه القصة عن ابن عباس من طرق [٢] . وأخرج البخارى والبيهقى عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أحسبه ابن عمر: ﴿ إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ﴾ قال: نسختها الآية التى بعدها [٣] . وأخرج عبد بن حميد والترمذى عن على نحوه [٤] . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود نحوه [٥]. وأخرج ابن جرير عن عائشة نحوه أيضًا [٦].

وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية ؛ أنه قال : نزلت فى كتمان الشهادة [٧] ، فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة. وعلى كل حال فبعد هذه الأحاديث المصرِّحة بالنسخ والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها ، ومما يؤيد ذلك ما ثبت فى الصحيحين ، والسنن الأربع ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم أو تعمل به » [٨] . وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت : كل عبدٍ همَّ بسوءٍ ومعصيةٍ وحدَّث نفسه به حاسبه الله فى الدنيا يخاف ويحزن ، ويشتدُّ همُّه لا ينالُه من ذلكَ شىء كما هم بالسوء ولم يعمل منه شيئًا [٩]. وأخرج سعيد بن منصور وابن

(١) أحمد ٢ / ٤١٢ ومسلم فى الإيمان (١٢٥ / ١٩٩) وابن جرير ٣ / ٩٥ .

(٢) أحمد ١ / ٣٣ ٢ ومسلم فى الإيمان (١٢٦ / ٢٠٠) والترمذى فى التفسير (٢٩٩٢) وقال « حسن » والنسائى فى تفسيره (٧٩) وابن جرير ٣/ ٩٥ وصححه الحاكم ٢ / ٢٨٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ١ / ٣٣٧ وفى الشعب فى فضائل القرآن (٢١٨٤ ، ٢١٨٥).

(٣) البخارى فى التفسير (٤٥٤٦) والبيهقى فى الشعب (٣٢٥) .

(٤) الترمذى فى تفسير القرآن (٢٥٩٠) . (٥) ابن جرير ٣ / ٩٧ والطبرانى (٩٠٣٠) .

(٦) ابن جرير ٣ / ٩٧ . (٧) ابن جرير ٣ / ٩٤ .

(٨) البخارى فى العتق (٢٥٢٨) وفى الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ومسلم فى الإيمان (١٢٧ / ٢٠١ ، ٢٠٢) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠٩) وابن ماجة فى الطلاق : (٢٠٤٠ ، ٢٠٤٤) والترمذى فى الطلاق (١١٨٣ ، وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الطلاق ٦ / ١٥٦ .

(٩) ابن جرير ٣ / ٩٩ وفى المخطوطة : « بشىء » والتصحيح من ابن جرير .

جرير عنها نحوه . والأحاديث المتقدمة المصرِّحة بالنسخ تدفعه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله يقول يوم القيامة : إن كتَّابى لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها فأمَّا ما أسررتم فى أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم ، فأغفر لمن شئت ، وأعذب من شئت [(١)] ، وهو مدفوع بما تقدم .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ .

قوله : ﴿ بما أنزل إليه من ربه ﴾ أى بجَميع ما أنزل الله ﴿ والمؤمنون ﴾ عطف على الرسول ، وقوله : ﴿كل ﴾ أى من الرسول والمؤمنين ﴿ آمن بالله ﴾ ويجوز أن يكون قوله : ﴿ والمؤمنون ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ كل ﴾ مبتدأ ثان ، وقوله : ﴿ آمن بالله ﴾ خبر المبتدأ الثانى ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . وأفرد الضمير فى قوله : ﴿ آمن بالله ﴾ مع رجوعه إلى كل المؤمنين ؛ لما أن المراد بيان إيمان كل فرد منهم ، من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى : ﴿وكل أتوه داخرين ﴾ [النمل : ٨٧] قال الزجاج :لما ذكر الله سبحانه فى هذه السورة فرض الصلاة ، والزكاة ، وبين أحكام الحج ، وحكم الحيض ، والطلاق ، والإيلاء ، وأقاصيص الأنبياء وبين حكم الربا ، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله : ﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ ثم ذكر تصديق نبيه ﷺ ، ثم ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك ، فقال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ أى صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التى جرى ذكرها ، وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله . وقيل: سبب نزولها الآية التى قبلها ، وقد تقدم بيان ذلك .

قوله : ﴿ وملائكته ﴾ أى من حيث كونهم عباده المكرمين ، المتوسطين بينه وبين أنبيائه فى إنزال كتبه ، وقوله : ﴿وكتبه ﴾ لأنها المشتملة على الشرائع التى تَعبَّد بها عباده . وقوله : ﴿ ورسله ﴾ لأنهم المبلِّغون لعباده ما نُزِّل إليهم . وقرأ نافع وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر ، وابن عامر : ﴿ وكتبه ﴾ بالجمع . وقرؤوا فى التحريم : « وكتابه » . وقرأ ابن عباس هنا : « وكتابه » وكذلك قرأ حمزة والكسائى ، وروى عنه أنه قال : الكتاب أكثر من الكتب. وبينه صاحب الكشاف فقال : لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة فى وجدان الجنس كلها لم يخرج منه شىء ، وأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع . انتهى

(١) ابن جرير٣ / ٩٨ .

ومن أراد تحقيق المقام فليرجع إلى شرح التلخيص المطول عند قول صاحب التلخيص ، واستغراق المفرد أشمل . وقرأ الجمهور :﴿ ورسُله ﴾ بضم السين . وقرأ أبو عمرو بتخفيف السين . وقرأ الجمهور : ﴿ لا نفرق ﴾ بالنون . والمعنى : يقولون : لا نفرق . وقرأ سعيد ابن جبير ويحيى بن يَعْمر وأبو زرعة وابن عمر وابن جرير ويعقوب : « لا يفرق » بالياء التحتية . وقوله : ﴿ بين أحد ﴾ ولم يقل بين آحاد ؛ لأن الأحد يتناول الواحد والجمع كما في قوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة : ٤٧] ، فوصفه بقوله : ﴿حاجزين ﴾ لكونه في معنى الجمع ، وهذه الجملة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال، وأن تكون خبرًا آخر لقوله : ﴿ كل ﴾ . وقوله: ﴿ من رسله ﴾ أظهر في محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم ، أو الإشعار بعلة عدم التفريق بينهم . وقوله : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ هو معطوف على قوله : ﴿ آمن ﴾ وهو وإن كان للمفرد وهذا للجماعة فهو جائز نظرا إلى جانب المعنى ، أي أدركناه بأسماعنا وفهمناه وأطعنا ما فيه . وقيل: معنى سمعنا : أجبنا دعوتك . قوله : ﴿غفرانك﴾ مصدر منصوب بفعل مقدر ، أي اغفر غفرانك ، قاله الزجاج وغيره . وقدم السمع والطاعة على طلب المغفرة ؛ لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل إليه .

قوله : ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ التكليف هو الأمر بما فيه مشقة وكُلْفة ، والوُسْع: الطاقة ، والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم ﴾ الآية لكشف كربة المسلمين ، ودفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس وهي كقوله سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة : ١٨٥] . قوله : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ فيه ترغيب وترهيب ، أي لها ثواب ما كسبت من الخير ، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر ، وتقدم « لها » و «عليها» على الفعلين ؛ ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها ، وعليها لا على غيرها ، وهذا مبني على أن كسب للخير فقط ، واكتسب للشر فقط ، كما قاله صاحب الكشاف وغيره(١). وقيل : كل واحد من الفعلين يصدق على الأمرين ، وإنما كرر الفعل وخالف بين التصريفين تحسينًا للنظم كما في قوله تعالى : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ [الطارق : ١٧] . قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ أي لا تؤاخذنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين . وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين وغيرهم قائلين : إن الخطأ والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما ، فما معنى الدعاء بذلك ، فإنه من تحصيل الحاصل ؟ وأجيب عن ذلك بأن المراد : طلب عدم (٢) المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان ، والخطأ من التفريط ، وعدم المبالاة ، لا من نفس النسيان والخطأ فإنه لا مؤاخذة بهما ، كما يفيد ذلك قوله ﷺ: « رفع عن أمتي

---

(١) الكشاف ١ / ٢٥٤ .ط : الاستقامة . القاهرة .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من المطبوعة ، والمعنى لا يستقيم بدونها ، وهي ثابتة في المخطوطة .

الخطأ والنسيان » وسيأتى مخرجـه . وقيل : إنه يجوز للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته . وقيل : إنه وإن ثبت شرعًا أنه لا مؤاخذة بهما ، فلا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلاً . وقيل : لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى . بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدًا ، وإنما يصدر عنهم خطأ أو نسيانا ، فكأنه وصفهم بالدعاء بذلك إيذانا بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به ، كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به ، فما منهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان . قال القرطبى : وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع ، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع ولا يلزم منه شىء ، أو يلزم أحكام ذلك كله؟ اختلف فيه ، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع ، فقسم لا يسقط باتفاق ، كالغرامات ، والديات (١) ، والصلوات المفروضات وقسم يسقط باتفاق كالقصاص ، والنطق بكلمة الكفر . وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيًا فى رمضان أو حنث ساهيًا وما كان مثله مما يقع خطأ ونسيانا ، ويعرف ذلك فى الفروع . انتهى .

قوله : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ عطف على الجملة التى قبله وتكرير النداء للإيذان بمزيد التضرع واللُّجْأ إلى الله سبحانه. والإصر :العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه ، أى يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله ، والمراد به هنا التكليف الشاق ، والأمر الغليظ الصعب . وقيل : الإصر : شدة العمل وما غلظ على بنى إسرائيل من قتل الأنفس ، وقطع موضع النجاسة ، ومنه قول النابغة :

يامانِعَ الضَّيْمِ أَنْ تَغْشَى سَرَاتَهِم والحَامِلِ الإصرِ عَنْهُم بَعْدَ مَاغَرِقُوا (٢)

وقيل : الإصر : المسخ قردة وخنازير . وقيل : العهد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأخذتم على ذلكم إصرى ﴾ [آل عمران: ٨١] وهذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذى كان على من قبلنا ، لا إلى معنى الإصر فى لغة العرب ، فإنه ما تقدم ذكره بلا نزاع . والإصار : الحبل الذى تربط به الأحمال ونحوها ، يقال : أصر يأصر إصرًا : حبس ، والإصر بكسر الهمزة من ذلك . قال الجوهرى : والموضع مأصر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول : معاصر. ومعنى الآية : أنهم طلبوا من الله سبحانه ألاّ يُحَمِّلهم من ثقل التكاليف ما حمَّل الأمم قبلهم . وقوله : ﴿ **كما حملته** ﴾ صفة مصدر محذوف، أى حملك مثل حملك إياه على من قبلنا ، أو صفة لـ ﴿ **إصرا** ﴾ أى إصرًا مثل الإصر الذى حملته على من قبلنا . قوله : ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ هو أيضًا عطف على ما قبله ، وتكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا . والمعنى: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق . وقيل : هو عبارة عن إنزال العقوبات ، كأنه قال: لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا فى المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التى كَلَّفْتَ بها مَنْ قبلنا . وقيل: المراد به: الشاق الذى لا يكاد يستطاع من التكاليف . قال فى الكشاف : وهذا تقرير

---

(١) فى المخطوطة : « والديانات » ، والتصويب من القرطبى ٢ / ١٢٤٠ .

(٢) عند القرطبى : « عرفوا » بالعين المهملة بدلا من : « غرقوا » .

لقوله : ﴿ **ولا تحمل علينا إصرا** ﴾ .

قوله : ﴿ **واعف عنا** ﴾ أى عن ذنوبنا ، يقال : عفوت عن ذنبه ، إذا تركته ولم تعاقبه عليه ﴿ **واغفرلنا** ﴾ أى استر على ذنوبنا . والغفر : الستر ﴿ **وارحمنا** ﴾ أى تفضل برحمة منك علينا ﴿ **أنت مولانا** ﴾ أى ولينا وناصرنا ، وخرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون ؟ وقيل : معناه : أنت سيدنا ونحن عبيدك ﴿ **فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبيده ، والمراد عامة الكفرة ، وفيه إشارة إلى إعلاء كلمة الله فى الجهاد فى سبيله . وقد قدمنا فى شرح الآية التى قبل هذه أعنى قوله : ﴿ **إن تبدوا ما فى أنفسكم** ﴾ إلخ أنه ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات : « قد فعلت »[(١)]، فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشىء من الخطأ والنسيان ولا حمل عليهم شيئًا من الإصر الذى حمله على من قبلهم ، ولا حملهم ما لا طاقة لهم به ، وعفا عنهم، وغفر لهم ، ورحمهم ، ونصرهم على القوم الكافرين والحمد لله رب العالمين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان : ﴿ **لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ لا نكفر بما جاءت به الرسل ، ولا نفرق بين أحد منهم ، ولا نكذب به ﴿ **وقالوا سمعنا** ﴾ للقرآن الذى جاء من الله ﴿ **وأطعنا** ﴾ أقروا لله أن يطيعوه فى أمره ونهيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ﴿ **غفرانك ربنا** ﴾ قال : قد غفرت لكم ﴿ **وإليك المصير** ﴾ قال : إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن حكيم بن جابر قال :لما نزلت ﴿ **آمن الرسول** ﴾ الآية . قال جبريل للنبى ﷺ : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فَسل تعطه فقال : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ حتى ختم السورة [(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها** ﴾ **قال هم** المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم فقال : ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] ، وقال : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقال : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ قال : من العمل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا وسعها** ﴾ قال : إلا طاقتها . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك نحوه . وقد أخرج ابن ماجة وابن المنذر ، وابن حبان فى صحيحه ، والطبرانى والدارقطنى والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما

---

(١) سبق تخريجه .　　　　(٢) ابن جرير ٣ / ١٠٢ .

استكرهوا عليه »[١] . وأخرجه ابن ماجة من حديث أبى ذر مرفوعًا[٢] ، والطبرانى من حديث ثوبان[٣] ، ومن حديث ابن عمر ، ومن حديث عقبة بن عامر . وأخرجه البيهقى أيضًا من حديثه[٤] . وأخرجه ابن عدى فى الكامل[٥] ، وأبو نعيم من حديث أبى بكرة . وأخرجه ابن أبى حاتم من حديث أم الدرداء . وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من حديث الحسن مرسلاً . وأخرجه عبد بن حميد من حديث الشعبى مرسلاً . وفى أسانيد هذه الأحاديث مقال ، ولكنها يقوى بعضها بعضًا فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره . وقد تقدم حديث : « إن الله قال قد فعلت »[٦] وهو فى الصحيح وهو يشهد لهذه الأحاديث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إصرًا ﴾ قال : عهدًا . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج أيضا عن عطاء بن أبى رباح فى قوله : ﴿ولا تحمل علينا إصرا ﴾ قال : لا تمسخنا قردة وخنازير . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية ؛ أن الإصر الذنب الذى ليس فيه توبة ولا كفارة[٧] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الفضيل فى الآية قال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا أذنب قيل له : توبتك أن تقتل نفسك فيقتل نفسه ، فوضعت الآصار عن هذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : لما نزلت هذه الآيات : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ إلخ كلما قالها جبريل للنبى ﷺ قال النبى : « آمين رب العالمين » . وأخرج أبو عبيد عن ميسرة أن جبريل لقّن النبى ﷺ خاتمة البقرة آمين . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن معاذ بن جبل ؛ أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال : آمين[٨] . وأخرج أبو عبيد عن جبير بن نفير أنه كان يقول : آمين آمين . وأخرج عبد بن حميد عن أبى ذر قال : هى للنبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك فى هذه الآية قال : سألها نبى الله ربه فأعطاه إياها فكانت للنبى ﷺ خاصة[٩] .

وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن أبى[١٠] مسعود عن النبى ﷺ قال : «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »[١١] . وأخرج أبو عبيد والدارمى

---

(١) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٥) وابن حبان فى فضل الأمة (٧١٧٥) والطبرانى فى الصغير ١ / ٢٧٠ والدارقطنى فى المكاتب ٤ / ١٧٠، ١٧١ وصححه الحاكم فى الطلاق ٢ / ١٩٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الطلاق ٧ / ٣٥٦ وفى الإيمان ١٠ / ٦١ .

(٢) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٣) .

(٣) الطبرانى (١٤٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٢٥٣ : « وفيه يزيد بن ربيعة ، وهو ضعيف » .

(٤) البيهقى فى الطلاق ٧ / ٣٥٦ . (٥) ابن عدى فى الكامل ٢ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٦) سبق تخريجه . (٧) ابن جرير ٣ / ١٠٥ . (٨ ، ٩) ابن جرير ٣ / ١٠٧ .

(١٠) فى المخطوطة : « ابن » ، والصحيح أن الحديث عن أبى مسعود الأنصارى ، وليس عن ابن مسعود وانظر المصادر الآتية فى التخريج .

(١١) أحمد ٤ / ١٢١ ، ١٢٢ والبخارى فى فضائل القرآن (٥٠٠٨ ، ٥٠٠٩) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٨ / ٢٥٦) وأبوداود فى كتاب الصلاة(١٣٩٧) والترمذى فى فضائل القران (٢٨٨١) وقال : =

والترمذى والنسائى وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن النعمان بن بشير ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » (١) . وأخرج أحمد والنسائى والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، بسند صحيح عن حذيفة ، أن النبى ﷺ كان يقول : « أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعطها نبى قبلى»(٢) . وأخرج أحمد والبيهقى عن أبى ذر مرفوعًا (٣) نحوه . وأخرج أبوعبيد وأحمد ومحمد بن نصر عن عقبة بن عامر :سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرؤوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة: ﴿ آمن الرسول ﴾ إلى خاتمتها ، فإن الله اصطفى بها محمدا » وإسناده حسن(٤) . وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى وأعطى ثلاثًا : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات (٥) ، (٦) .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش فتعلموهما وعلموهما نساءكم وأبناءكم ، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء» (٧) . وأخرج الديلمى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اثنان هما قرآن وهما يشفيان ، وهما مما يحبهما الله الآيتان من آخر البقرة » (٨) .

=« حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٥٤ ــ ١٠٥٥٨) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٦٩) والدارمى فى فضائل القرآن ٢ / ٤٥٠ والطبرانى ١٧ / ٢٠٢ ــ ٢٠٦ (٥٤١ ــ ٥٥٤) وابن حبان فى قراءة القرآن (٧٧٨) .

(١) الدارمى فى فضائل القرآن ٢ / ٤٤٩ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٢) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٣) وابن حبان فى قراءة القرآن (٧٧٩) وصححه الحاكم ١ / ٥٦٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢١٨٠) .

(٢) أحمد ٥ / ٣٨٣ والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٢٢) والطبرانى (٣٠٢٥) والبيهقى فى الشعب (٢١٧٨) وفى الكبرى ١ / ٢١٣ وابن أبى شيبة (١١٦٩٥) وأبو داود الطيالسى (٤١٨) .

(٣) أحمد ٥ / ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٨٠ والبيهقى فى الشعب (٢١٨٢) وذكره الألبانى فى الصحيحة (١٤٨٢) والطبرانى وفيه سلمة بن الفضل وثقه ابن حبان وقال : « يخطئ » وضعفه جماعة وقد تابعه ابن لهيعة فالحديث حسن .

(٤) أحمد ٤ / ١٤٧ ، ١٥٨ وأبو يعلى (١٧٣٥) والطبرانى ١٧ / ٢٨٣ (٧٧٩ ــ ٧٨١) وإسناده حسن . وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٣١٥ : « فيه عمرو بن الحارث بن سويد الحاسب المهرى ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) المقحمات : الذنوب العظام الكبائر التى تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها ، والتقحم : الوقوع فى المهالك ، ومعنى الكلام : من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحمات .

(٦) مسلم فى الإيمان (٢٧٩ / ١٧٣) .

(٧) صححه الحاكم ١ / ٥٦٢ . على شرط البخارى ، وقال الذهبى : « ومعاوية بن صالح ــ أحد رجال الإسناد ــ لم يجتمع به البخارى» . والبيهقى فى الشعب مختصراً (٢١٨٢) إسناده ضعيف .

(٨) الديلمى فى الفردوس (١٦٧١) وعند الديلمى : « آيتان » بدلاً من : « اثنان » التى معنا .

وأخرج الطبراني بسند جيد عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام ، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، لا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » [١] . وأخرج ابن عدي عن أبي مسعود الأنصاري[٢]؛ أن رسول الله ﷺ قال: « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة ، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل » [٣] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة ، أو آية الكرسي ضحك ، وقال : إنهما من كنز تحت العرش » . وأخرج ابن مردويه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش » . وأخرج مسلم والنسائي واللفظ له عن ابن عباس قال : بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضًا فرفع جبريل بصـره فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفًا منهما إلا أوتيته [٤] فهذه ثلاثة عشر حديثًا في فضل هاتين الآيتين مرفوعة إلى النبي ﷺ. وقد روى في فضلهما من غير المرفوع عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي مسعود وكعب الأحبار والحسن وأبي قلابة وفي قول النبي ﷺ ما يغني عن غيره .

---

(١) الطبراني (٧١٤٦) وقال الهيثمي في المجمع ٦ / ٣١٥ : « رجاله ثقات » .

(٢) في المطبوعة : « عن ابن مسعود » ، والتصحيح من المخطوطة ، وأبو مسعود هو عقبة بن عمرو الأنصاري البدري ، ووقع خطأ عند ابن عدي فقال في الكامل ٧ / ٨٤ : « البلدي » والصحيح « البدري » .

(٣) ابن عدي في الكامل ٧ / ٨٤ .

(٤) مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٦ / ٢٥٤) والنسائي في الافتتاح ٢ / ١٣٨ .

تفسير سورة آل عمران

هى مدنية . قال القرطبى : بالإجماع ، ومما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية نزل فى وفد نجران ، وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة . وقد أخرج البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة آل عمران بالمدينة . وقد تقدم فى أوائل سورة البقرة ماهو مشترك بينها وبين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلهما، وكذلك تقدم ماورد فى السبع الطوال . وأخرج الطبرانى بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تغيب الشمس » [١] . وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقى فى الشعب عن عمر بن الخطاب قال: من قرأ البقرة وآل عمران والنساء ، كتب عند الله من الحكماء . وأخرج الديلمى ومحمد ابن نصر، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود : من قرأ آل عمران فهو غنى . وأخرج الدارمى وعبد بن حميد والبيهقى عنه قال: نعم كنز الصعلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل . وأخرج سعيد بن منصورعن أبى عطاف قال : اسم آل عمران فى التوراة طيبة . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة وآل عمران ، فقال كعب: قد قرأ السورتين ، إن فيهما الاسم الذى إذا دعى به أجاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ .

قرأ الحسن وعمرو بن عبيد وعاصم بن أبى النجود وأبو جعفر الرواسى : « الم . ألله » بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على ﴿ الـم ﴾ كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد نحو: واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة مع وصلهم . قال الأخفش : ويجوز « الم الله » بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ ، ولا تقوله العرب لثقله . وقد ذكر سيبويه فى الكتاب أن فواتح السور التى لم تكن موازنة لمفرد، طريق التلفظ بها الحكاية فقط ، ساكنة الأعجاز على الوقف ، سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد ، وإن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف ، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما

(١) الطبرانى فى الكبير (١١٠٠٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٧١: « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه طلحة بن زيد الرقى وهو ضعيف».

بعدها، كما فعله الحسن ومن معه فى قراءتهم المحكية سابقًا. وأما فتح الميم على القراءة المشهورة، فوجهه ما روى عن سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين . وقال الكسائى: حروف التهجى إذا لقيتها ألف وصل ، فحذفت الألف ، وحركت الميم بحركة الألف، وكذا قال الفراء. وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب ، وإن جعلت أسماء للسورة فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها ، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر، أو اقرأ، أونحوهما، وقد تقدم فى أوائل سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة.

وقوله: ﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة ، أى هو المستحق للعبودية. و﴿ **الحى القيوم** ﴾ خبران آخران للاسم الشريف ، أو خبران لمبتدأ محذوف ، أى هو الحى القيوم. وقيل : إنهما صفتان للمبتدأ الأول ،أو بدلان منه أو من الخبر ، وقد تقدم تفسير الحى والقيوم. وقرأ جماعة من الصحابة: « القيام» عمر وأبى بن كعب وابن مسعود. قوله : ﴿ **نزل عليك الكتاب** ﴾ أى القرآن، وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه ﷺ، وهى إما جملة مستأنفة أو خبر آخر للمبتدأ الأول. قوله: ﴿**بالحق**﴾ أى بالصدق. وقيل: بالحجة الغالبة وهو فى محل نصب على الحال. وقوله : ﴿ **مصدقا** ﴾ حال آخر من الكتاب مؤكدة ؛ لأنه لا يكون إلا مصدقًا، فلا تكون الحال منتقلة أصلاً، وبهذا قال الجمهور، وجوّز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصدق لنفسه ولغيره . وقوله : ﴿ **لما بين يديه** ﴾ أى من الكتب المنزلة، وهو متعلق بقوله: ﴿ **مصدقا** ﴾ واللام للتقوية. قوله: ﴿**وأنزل التوراة والإنجيل**﴾ هذه الجملة فى حكم البيان لقوله : ﴿ **لما بين يديه** ﴾ وإنما قال هنا :﴿ **أنزل** ﴾ وفيما تقدم:﴿**نزل**﴾ لأن القرآن نزل منجمًا ، والكتابان نزلا دفعة واحدة ، ولم يذكر فى الكتابين من أنزلا عليه ، وذكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأن القصد هنا ليس إلا إلى ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه .

وقوله : ﴿ **من قبل** ﴾ أى أنزل التوراة [(١)] ، والإنجيل [(٢)] من قبل تنزيل الكتاب . وقوله: ﴿ **هدى للناس** ﴾ إما حال من الكتابين أو علة للإنزال. والمراد بالناس: أهل الكتابين أو ما هو أعم؛ لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع . قال ابن فورك : هدى للناس المتقين ، كما قال فى البقرة: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢]، قوله: ﴿**وأنزل الفرقان** ﴾ أى الفارق بين الحق

---

(١) التوراة : معناها الضياء والنور مشتقة من ورى الزند ، وورى لغتان إذا خرجت ناره ، وأصلها تورية على وزن تفعلة . وقال الخليل : أصلها فوعلة فالأصل وَوْرية قلبت الواو الأولى تاء . وقيل : التوراة مأخوذة من التورية وهى التعريض بالشىء والكتمان لغيره ، فكأن أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح هذا قول المؤرج. والجمهور على القول الأول . لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٨] .

(٢) الإنجيل : إفعيل ؛ من النجل : وهو الأصل ، ويجمع على أناجيل ، فالإنجيل أصل لعلوم وحكم . ويقال : لعن الله ناجليه يعنى : والديه . وقيل : هو من نجلت الشىء : إذا استخرجته ، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم ، ومنه سمى الولد والنسل نجلاً لخروجه . قال الشاعر :

إلى معَشْرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدهم ... أصاغرهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ

والنجل : الماء الذى يخرج من البر ، فسمى الإنجيل به. وقيل : هو من النجل فى العين ، وهو سعتها ،=

والباطل وهو القرآن، وكرر ذكره تشريفًا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له، بأنه يفرق بين الحق والباطل، وذكر التنزيل أولاً والإنزال ثانياً ؛ لكونه جامعًا بين الوصفين ، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة ، ثم نزل منها إلى النبى ﷺ مفرقًا منجمًا ، على حسب الحوادث كما سبق. وقيل: أراد بالفرقان: جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله. وقيل: أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة. وقوله: ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله** ﴾ أى بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة وغيرها، أو بما فى الكتب المنزلة وغيرها ، أو بما فى الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها ، وفيه بيان الأمر الذى استحقوا به الكفر، ﴿ **لهم** ﴾ بسبب هذا الكفر ﴿ **عذاب شديد** ﴾ أى عظيم ﴿**والله عزيز**﴾ لا يغالبه مغالب ﴿ **ذو انتقام** ﴾ عظيم، والنقمة: السطوة، يقال: انتقم منه : إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه.

قوله: ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه، وإحاطته بالمعلومات بما فى الأرض والسماء ، مع كونها أوسع من ذلك ، لقصور عباده عن العلم بما سواهما ، من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته ، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه ، وكفر من كفر .

قوله: ﴿**هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ أصل اشتقاق الصورة من صاره إلى كذا، أى أماله إليه. فالصورة مائلة إلى شبه وهيئة . وأصل الرحم من الرحمة ؛ لأنه مما يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه ، وأن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود ، وهو تصوير عباده فى أرحام أمهاتهم ، من نطف آبائهم كيف يشاء ، من حسن وقبيح ، وأسود وأبيض ، وطويل وقصير ، و﴿ **كيف** ﴾ معمول يشاء ، والجملة حالية.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب، وعبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، ثم ذكروا القصة فى الكلام الذى دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأن الله أنزل فى ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها [١]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع، فذكر وفد نجران ومخاصمتهم للنبى ﷺ فى عيسى عليه السلام، وأن الله أنزل: ﴿**الم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾[٢].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **مصدقا لما بين يديه** ﴾ قال: لما قبله من كتاب أو رسول. وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه ، وقال فى قوله : ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ هو القرآن فرق بين الحق والباطل ،

= وطعنة نجلاء: واسعة ، قال الشاعر :

ربما ضربه بسيف صقيل ... بين بُصْرى وطعنة نجلاء

فسمى الإنجيل به. وقيل التناجل : التنازع ، وسمى إنجيلا ؛ لتنازع الناس فيه .

(١) ابن إسحاق : ٢١٨/٢ ، ٢١٩، وابن جرير : ١٠٨/٣ .

(٢) ابن جرير ١٠٨/٣، ١٠٩

فأحل فيه حلاله ، وحرم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحد فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله : ﴿**وأنزل الفرقان**﴾ أى الفصل بين الحق والباطل ، فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره . وقوله : ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾ أى إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ومعرفته بما جاء منه فيها .

وفى قوله: ﴿**إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء**﴾ أى قد علم ما يريدون وما يكيدون، وما يضاهون بقولهم فى عيسى ، إذ جعلوه ربًا وإلهًا ، وعندهم من علمه غير ذلك غرّة بالله وكفرًا به . ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قد كان عيسى ممن صوِّر فى الأرحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بنى آدم فكيف يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل ؟ ! وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**يصوركم فى الأرحام كيف يشاء**﴾ قال : ذكورًا وإناثًا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قال : إذا وقعت النطفة فى الأرحام طارت فى الجسد أربعين يومًا ، ثم تكون علقة أربعين يومًا ، ثم تكون مضغة أربعين يومًا ، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكا يصورها ، فيأتى الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط منه المضغة ، ثم يعجنه بها، ثم يصور كما يؤمر فيقول: أذكر أم أنثى؟ أشقى أم سعيد؟ ومارزقه، وما عمره ؟ وما أثره ، وما مصائبه ؟فيقول الله ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب(١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿ **يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قال : من ذكر وأنثى ، وأحمر وأسود ، وتام الخلق وغير تام الخلق .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾ .

﴿ **الكتاب** ﴾ : هو القرآن ، فاللام للعهد ، وقدم الظرف وهو ﴿ **عليك** ﴾ لما يفيده من الاختصاص . وقوله : ﴿ **منه آيات محكمات** ﴾ الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبرًا مقدمًا ، والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأ تقديره : من الكتاب آيات بينات ، على نحو ماتقدم فى قوله : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] ، وإنما كان أولى ؛ لأن المقصود انقسام الكتاب إلى القسمين المذكورين لا مجرد الإخبار عنهما بأنهما من الكتاب ، والجملة حالية فى

(١) المرجع السابق ٣ / ١١٢ .

محل نصب ، أو مستأنفة لا محل لها .

وقد اختلف العلماء فى تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال ، فقيل : إن المحكم : ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ؛ ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبى وسفيان الثورى ، قالوا: وذلك بجر الحروف المقطعة فى أوائل السور . وقيل : المحكم : ما لا يحتمل إلا وجهاً واحدًا . والمتشابه : ما يحتمل وجوهًا، فإذا ردّت إلى وجه واحد وأبطل الباقى صار المتشابه محكمًا . وقيل : إن المحكم : ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه ، والمتشابه : منسوخه ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما نؤمن به ولا نعمل به . روى هذا عن ابن عباس . وقيل : المحكم : الناسخ ، والمتشابه : المنسوخ ، روى عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك . وقيل : المحكم : الذى ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له ، والمتشابه : ما فيه تصريف وتحريف وتأويل ، قاله مجاهد وابن إسحاق . قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال وقيل : المحكم : ماكان قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره ، والمتشابه ما يرجع فيه إلى غيره . قال النحاس. وهذا أحسن ما قيل فى المحكمات والمتشابهات . قال القرطبى : ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية ، وهو الجارى على وضع اللسان ، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحكام : الإتقان ، ولا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها ، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . وقال ابن خويز منداد : للمتشابه وجوه : ما اختلف فيه العلماء : أىّ الآيتين نسخت الأخرى، كما فى الحامل المتوفى عنها زوجها ، فإن من الصحابة من قال : إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر والعشر ، ومنهم من قال بالعكس ، وكاختلافهم فى الوصية للوارث ، وكتعارض الآيتين : أيهما أولى أن يقدم إذا لم يعرف النسخ ، ولم توجد شرائطه ، وكتعارض الأخبار ، وتعارض الأقيسة ، هذا معنى كلامه .

والأولى أن يقال : إن المحكم : هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره ، والمتشابه: ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره . وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذى قدمناه ليس كما ينبغى ، وذلك لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته ، وعرفوا المتشابه بما يقابلها . وبيان ذلك أن أهل القول الأول : جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل . والمتشابه مالا سبيل إلى علمه ، ولا شك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه ، فإن مجرد الخفاء أو عدم الظهور ، أو الاحتمال أو التردد ، يوجب التشابه ؛ وأهل القول الثانى: خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال ، ولاشك أن هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها ؛ وهكذا أهل القول الثالث : فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها ؛ وأهل القول الرابع: خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التى ذكرها أهل القول الثالث ؛ والأمر أوسع

مما قالوا جميعًا ؛ وأهل القول الخامس : خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف ، وجعلوا المتشابه مقابله ، وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه ، من دون تصريف وتحريف كفواتح السور المقطعة ؛ وأهل القول السادس: خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها ، وأن هذا هو بعض أوصافهما؛ وصاحب القول السابع وهوابن خويز منداد: عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكمًا ، وإلى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابهًا، فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما، من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم.

قوله : ﴿ **هن أم الكتاب** ﴾ أى أصله الذى يعتمد عليه ، ويردّ ما خالفه إليه،وهذه الجملة صفة لما قبلها . قوله : ﴿**وأخر متشابهات** ﴾ وصف لمحذوف مقدر ، أى وآيات أخر متشابهات وهى جمع أخرى، وإنما لم ينصرف ؛ لأنه عدل بها عن الآخر ؛ لأن أصلها أن يكون كذلك، وقال أبو عبيد : لم ينصرف لأن واحدها لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة ، وأنكر ذلك المبرد . وقال الكسائى : لم تنصرف لأنها صفة ، وأنكره أيضًا المبرد . وقال سيبويه : لا يجوز أن يكون ﴿**أخر**﴾ معدولة عن الألف واللام ، لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة ، ألا ترى أن « سحر » معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة. قوله : ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ** ﴾ الزيغ : الميل، ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار، ويقال : زاغ يزيغ زيغًا : إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق، وسبب النزول: نصارى نجران كما تقدم ، وسيأتى .

قوله : ﴿ **فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ أى يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ، ويجعلونه دليلاً على ماهم فيه من البدعة المائلة عن الحق ، كما تجده فى كل طائفة من طوائف البدعة ، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبًا شديدًا، ويوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة فى شىء . قوله : ﴿ **ابتغاء الفتنة** ﴾ أى طلباً منهم لفتنة الناس فى دينهم والتلبيس عليهم وإفساد ذات بينهم ﴿ **وابتغاء تأويله** ﴾ أى طلبًا لتأويله على الوجه الذى يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة . قال الزجاج : معنى ابتغائهم تأويله أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم ، فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾ أى يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب ﴿ يقول الذين نسوه﴾ أى تركوه ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ [الأعراف : ٥٣] أى قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل . قوله : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولهم : تأويل هذه الكلمة على كذا ، أى تفسيرها ، ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه،واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه،أى صار، وأولته تأويلاً، أى صيرته، وهذه الجملة حالية ، أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله ، والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله .

وقد اختلف أهل العلم فى قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ هل هو كلام مقطوع عما قبله

أو معطوف على ما قبله؟ فتكون الواو للجمع ، فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله ، وأن الكلام تم عند قوله : ﴿ إلا الله ﴾ هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر ابن عبد العزيز وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم ، وهو مذهب الكسائى والفراء والأخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير الطبرى عن مالك واختاره ، وحكاه الخطابى عن ابن مسعود وأبى ابن كعب قال: وإنما روى عن مجاهد : أنه نسق الراسخين على ما قبله ، وزعم أنهم يعلمونه، قال : واحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه: والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين : ﴿ آمنا به ﴾ وزعم أن موضع ﴿يقولون ﴾ نصب على الحال ، وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معًا ، ولا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل ، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالاً ، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال : عبْد الله راكبًا ، يعنى : أقبل عبد الله راكبا ، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم ، يصلح بين الناس ، فكان يصلح حالا ، كقول الشاعرـ أنشدنيه أبو عمرو ، قال : أنشدنا أبو العباس ثعلب :

أرْسَلْتُ فِيها رَجلا لُكَالِكا (١) يَقْصُر يَمْشِى ويَطول بَارِكا

فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده . وأيضًا فإنه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق وينسبه لنفسه ، فيكون له فى ذلك شريك ، ألا ترى قوله عز وجل : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقوله : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وقوله : ﴿كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : ٨٨] فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ لو كانت الواو فى قوله : ﴿والراسخون ﴾ للنسق لم يكن لقوله : ﴿ كل من عند ربنا ﴾ فائدة . انتهى . قال القرطبى : ما حكاه الخطابى من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره ، فقد روى عن ابن عباس : أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل ، وأنهم داخلون فى علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به . وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و﴿يقولون﴾ على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخون كما قال :

الرِيُح يَبْكِى شَجْوه والبرقُ يَلْمَعُ فى الغَمَامَهْ

وهذا البيت يحتمل المعنيين ، فيجوز أن يكون « والبرق » مبتدأ ، والخبر « يلمع » على التأويل الأول فيكون مقطوعاً مما قبله، ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح ، ويلمع فى موضع الحال على التأويل الثانى أى لامعاً . انتهى(٢) . ولا يخفاك أن ما قاله الخطابى فى وجه امتناع كون قوله : ﴿ يقولون آمنا به ﴾ حالاً من أن العرب لا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل إلى آخر

---

(١) لُكَالكا : الجمل الضخم المرمى باللحم . قال أبو على الفارسى : يقصر إذا مشى لا نخفاض بطنه وضخمه وتقارُبه من الأرض ، فإذا برك رأيته طويلاً لارتفاع سنامه فهو باركًا أطول منه قائمًا . اللسان ١٠/ ٤٨٤ .

(٢) القرطبى ٢ / ١٢٥٩ .

كلام لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا ، وليس الأمر كذلك ، فالفعل مذكور ، وهو قوله: ﴿ **وما يعلم تأويله** ﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف ، وهو قوله : ﴿**والراسخون**﴾ دون المعطوف عليه ، وهو قوله : ﴿ **إلا الله** ﴾ وذلك جائز فى اللغة العربية ، وقد جاء مثله فى الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ إلى قوله: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا . . . ﴾ الآية [الحشر : ١٠] . وكقوله: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ [الفجر : ٢٢] أى وجاءت الملائكة صفا صفا ، ولكن ها هنا مانع آخر من جعل ذلك حالا، وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح، فإن الراسخين فى العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه فى كل حال من الأحوال لا فى هذه الحالة الخاصة، فاقتضى هذا أن جعل قوله : ﴿ **يقولون آمنا به**﴾ حالا غير صحيح ، فتعين المصير إلى الاستئناف والجزم بأن قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **يقولون** ﴾ . ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه وصفهم بالرسوخ فى العلم ، فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك ؟ ويجاب عن هذا : بأن تركهم لطلب علم مالم يأذن الله به ، ولا جعل لخلقه إلى علمه سبيلا هو من رسوخهم ؛ لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه ، وأن الذين يتبعونه هم الذين فى قلوبهم زيغ ، وناهيك بهذا من رسوخ. وأصل الرسوخ فى لغة العرب : الثبوت فى الشىء ، وكل ثابت راسخ ، وأصله فى الأجرام أن ترسخ الخيل أو الشجر فى الأرض ، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ رَسَخَتْ فِي الصَّدْرِ مِنِي مَوَدَّةٌ ... لِلَيْلى أبَتْ آياتُــها أنْ تُغــيَّرا

فهؤلاء ثبتوا فى امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه ، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه. ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال : التأويل يطلق ويراد به فى القرآن شيئان: أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشىء، وما يؤول أمره إليه ، ومنه قوله : ﴿ هذا تأويل رؤياى ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وقوله : ﴿ هل ينظرون إلاتأويله يوم يأتى تأويله﴾ [الأعراف: ٥٣] أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ويكون قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ ، و ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر ، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشىء كقوله: ﴿نبئنا بتأويله﴾ [يوسف: ٣٦] أى بتفسيره، فالوقف على ﴿**والراسخون فى العلم** ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ماخوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء ، على كنه ماهى عليه ، وعلى هذا فيكون ﴿**يقولون آمنا به**﴾ حالا منهم . ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله، وأطنب فى ذلك، وهكذا جماعة من محققى المفسرين رجحوا ذلك. قال القرطبى: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح، فإن تسميتهم راسخين تقضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع لكن المتشابه يتنوع ؛ فمنه ما لا يعلم

البتة كأمر الروح والساعة، مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ؛ فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فإنما أراد هذا النوع. وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم،ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم. انتهى[١].

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع فى مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم فى تحقيق معنى المحكم والمتشابه ؛ وقد قدمنا لك ما هو الصواب فى تحقيقها ونزيدك ها هنا إيضاحًا وبيانًا ، فنقول : إن من جملة مايصدق عليه تفسير المتشابه الذى قدمناه فواتح السور ، فإنها غير متضحة المعنى ، ولا ظاهرة الدلالة ، لا بالنسبة إلى أنفسها ؛ لأنه لا يدرى من يعلم بلغة العرب ، ويعرف عرف الشرع ما معنى الم ، المر ، حم ، طس ، طسم ونحوها ، لأنه لا يجد بيانًا فى شىء من كلام العرب ولا من كلام الشرع ، فهى غير متضحة المعنى ، لا باعتبارها نفسها ، ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم ، والألفاظ الغريبة التى لا يوجد فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع مايوضحها ، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ إلى الآخر الآية، [لقمان : ٣٤] ونحو ذلك . وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة، لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره ، كورود الشىء محتملا لأمرين احتمالا لا يترجح أحدهما على الآخر ، باعتبار ذلك الشىء فى نفسه ، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة ، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضا كليا بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر، لا باعتبار نفسه ، ولا باعتبار أمر آخر يرجحه ، وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفًا فى لغة العرب ، أو فى عرف الشرع ، أو باعتبار غيره ، وذلك كالأمور المجملة التى ورد بيانها فى موضع آخر من الكتاب العزيز أو فى السنة المطهرة ، أو الأمور التى تعارضت دلالتها ثم ورد مايبين راجحها من مرجوحها فى موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف ، فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه ، ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب ، فاشدد يديك على هذا فإنك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس فى هذا المقام ، حتى صارت كل طائفة تسمى مادل لما ذهب إليه محكمًا ، وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابها ، سيما أهل علم الكلام ، ومن أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم .

واعلم أنه قد ورد فى الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم ، ولكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية، بل بمعنى آخر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ [هود: ١] وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : ١] والمراد بالمحكم بهذا المعنى أنه صحيح الألفاظ ، قويم المعانى ، فائق فى البلاغة والفصاحة على كل كلام ، وورد أيضًا ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها ، بل بمعنى آخر ومنه قوله تعالى : ﴿كتابًا متشابها ﴾ [الزمر : ٢٣] ، والمراد بالمتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضًا فى الصحة، والفصاحة ، والحسن ، والبلاغة.

(١) القرطبى ٢ / ١٢٦٠ .

وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه فى القرآن فوائد : منها : أنه يكون فى الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة ، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق ، وهم الأئمة المجتهدون وقد ذكر الزمخشرى [١] والرازى وغيرهما وجوهًا هذا أحسنها ، وبقيتها لا تستحق الذكر ها هنا .

قوله : ﴿ كل من عند ربنا ﴾ فيه ضمير مقدر عائد على قسمى المحكم والمتشابه ، أى كله، أو المحذوف غير ضمير ، أى كل واحد منهما ، وهذا من تمام المقول المذكور قبله. وقوله: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أى العقول الخالصة ، وهم الراسخون فى العلم ، الواقفون عند متشابهه ، العاملون بمحكمه ، العاملون بما أرشدهم الله إليه فى هذه الآية .

وقوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ قال ابن كيسان : سألوا ألا يزيغوا فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه : ﴿وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ قالوا: ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا ﴾ باتباع المتشابه ﴿بعد إذ هديتنا ﴾ إلى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات ، والظرف وهو قوله : ﴿بعد﴾ منتصب بقوله : لا تزغ . قوله : ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أى كائنة من عندك، و« من » لابتداء الغاية و« لَدن » بفتح اللام وضم الدال وسكون النون ، وفيه لغات أخر هذه أفصحها ، وهو ظرف مكان ، وقد يضاف إلى الزمان ، وتنكير ﴿رحمة ﴾ للتعظيم ، أى رحمة عظيمة واسعة . وقوله : ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول .

وقوله : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ﴾ أى باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم ﴿ ليوم ﴾ هو يوم القيامة ، أى لحساب يوم ، أو لجزاء يوم ، على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. قوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب والجزاء ، وقد تقدم تفسير الريب ، وجملة قوله : ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ للتعليل لمضمون ما قبلها ، أى أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه وخلفه يخالف الألوهية كما أنها تنافيه وتباينه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه، وحدوده، وفرائضه ، وما نؤمن به ، ونعمل به . والمتشابهات: منسوخه ، ومقدمه ، ومؤخره وأمثاله ، وأقسامه وما نؤمن به، ولا نعمل به . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال فى قوله : ﴿منه آيات محكمات﴾ قال : الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات ﴿ قل تعالوا ﴾ [الأنعام : ١٥١] والآيتان بعدها . وفى رواية عنه أخرجها عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ آيات محكمات ﴾ قال : من هنا : ﴿ قل تعالوا ﴾ إلى ثلاث آيات ، ومن هنا : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء:٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها . وأقول : رحم الله ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه . فإن تعيين ثلاث آيات ، أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن ، ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة

---

(١) الكشاف ٣٣٨/١ .

شيء ، فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريبًا من أن المحكمات ناسخه وحلاله إلخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام ؟ وأخرج عبد بن حميد عنه قال : المحكمات : الحلال والحرام ، وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ماقدمنا في أول هذا البحث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ**﴾ يعني أهل الشك ، فيحملون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ، ويلبسون فلبس الله عليهم ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ قال : تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ﴿ **زيغ** ﴾ قال : شك . وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ : ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ**﴾ إلى قوله : ﴿ **أولو الألباب** ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى فاحذروهم » . وفي لفظ : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » هذا لفظ البخاري . ولفظ ابن جرير وغيره : « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه والذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فلا تجالسوهم » (١) . وأخرج عبد ابن حميد وعبد الرزاق وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ قال : هم الخوارج(٢) .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، على حرف واحد ، ونزل القرآن على سبعة أحرف زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه، وأمثال ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا : آمنا به كل من عندنا ربنا » (٣) . وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفا. وأخرج الطبراني عن عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود ، فذكر نحوه (٤). وأخرج البخاري في التاريخ ، عن علي مرفوعًا بإسناد ضعيف نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي داود في المصاحف عن ابن مسعود نحوه (٥) . وأخرج ابن جرير وأبو يعلى عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في

(١) أحمد ٤٨/٦ والبخاري في التفسير (٤٥٤٧) ومسلم في العلم (١/٢٦٦٥) وأبوداود في السنة (٤٥٩٨) والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٩٤) وقال : «حسن صحيح » وابن جرير ١١٩/٣ .

(٢) أحمد ٢٦٢/٥ والطبراني (٨٠٤٦ ، ٨٠٤٩) وأورد ابن كثير رواية ابن مردويه ٨٢٧/٢ وقال : « وأقل أقسام الحديث أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ومعناه صحيح » والبيهقي في قتال أهل البغي (١٨٨/٨) .

(٣) ابن جرير ٢٣/١ وصححه الحاكم ٢٨٩/٢ وقال الذهبي : «منقطع ».

(٤) الطبراني (٨٢٩٦) وقال الهيثمي في المجمع ١٥٦/٧ : «فيه عمارة بن مطر وهو ضعيف جدًا وقد وثقه بعضهم ».

(٥) ابن جرير ٢٤/١ .

القرآن كفر ، ما عرفتم فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » . وإسناده صحيح [١] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة مرفوعًا ، وفيه : « واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه» [٢] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن لمنذر ، والحاكم وصححه عن طاوس قال : كان ابن عباس يقرؤها : «وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون فى العلم : آمنا به» . وأخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن الأعمش قال فى قراءة عبد الله : وإن حقيقة تأويله إلا عند الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى الشعثاء وأبى نهيك قال : إنكم تصلون هذه الآية وهى مقطوعة : **﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾** فانتهى علمهم إلى قولهم الذى قالوا . وأخرج ابن جرير عن عروة قال : الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويله . ولكنهم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر بن عبد العزيز نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن أبىّ قال : كتاب الله ما استبان فاعمل به، وما اشتبه عليك فآمِن به وكله إلى عالمه . وأخرج أيضًا عن ابن مسعود قال : إن للقرآن منارا كمنار الطريق ، فما عرفتم فتمسكوا به ، وما اشتبه عليكم فذروه . وأخرج أيضًا عن معاذ نحوه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : تفسير القرآن على أربعة وجوه : تفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام ، وتفسير تعرفه العرب بلغتها ، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله ، من ادعى علمه فهو كذاب . وأخرج ابن جرير عنه قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: أنا ممن يعلم تأويله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عطية العوفى عنه فى قوله : **﴿يقولون آمنا به﴾** : نؤمن بالمحكم وندين به، ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به ، وهو من عند الله كله .

وأخرج الدارمى فى مسنده ، ونصر المقدسى فى الحجة عن سليمان بن يسار ؛ أن رجلا يقال له ضبيع ، قدم المدينة ، فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله ضبيع ، فقال : وأنا عبد الله عمر ، فأخذ عمر عرجونًا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى . وأخرجه الدارمى أيضًا من وجه آخر ، وفيه أنه

---

(١) ابن جرير ١/ ٩ وأبو يعلى (٦٠١٦) وأحمد ٢/ ٣٠٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٤: «رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ».

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٠٥٩، ٢٠٦٠) ولكن لم يذكر اللفظ الوارد للمصنف .

ضربه ثلاث مرات يتركه فى كل مرة حتى يبرأ ، ثم يضربه . وأخرج أصل القصة ابن عساكر فى ناريخه عن أنس. وأخرج الدارمى وابن عساكر أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا ضبيعًا . وقد أخرج هذه القصة جماعة(١).

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن أنس وأبى أمامة وواثلة بن الأسقع وأبى الدرداء ؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين فى العلم ؟ فقال : « من برّت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عفّ بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » (٢) . وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن يزيد الأزدى عن أنس مرفوعًا نحوه . وأخرج أبو داود والحاكم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الجدال فى القرآن كفر » (٣) . وأخرج نصر المقدسى فى الحجة عن ابن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن، فخرج محمرة وجنتاه كأنما يقطران دمًا ، فقال: « ياقوم ، لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضلّ من كان قبلكم بجدالهم ، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضًا ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أم سلمة ؛ أن النبى ﷺ كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ثم قرأ: ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** ﴾ الآية (٤). وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة مرفوعًا نحوه (٥) . وقد ورد نحوه من طرق أخر. وأخرج ابن النجار فى تاريخه فى قوله : ﴿ **ربنا إنك جامع الناس ليوم** ﴾ الآية ، عن جعفر بن محمد الخلدى قال : روى عن النبى ﷺ أن : « من قرأ هذه الآية على شىء ضاع منه ردّه الله عليه » ، ويقول بعد قراءتها : « يا جامع الناس ، ليوم لا ريب فيه اجمع بينى وبين مالى ، إنك على كل شيء قدير » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ (١٣) ﴾ .

(١) الدارمى ١/ ٥٤ ، ٥٥ والضبيع :هو الضبيع العراقى .
(٢) ابن جرير ٣/ ١٢٣ .
(٣) أبو داود فى السنة(٤٦٠٣) بلفظ : « المراء » بدلا من : « الجدال » وصححه الحاكم ٢/ ٢٢٣ وقال: « على شرط مسلم وتابعه عمر بن أبى سلمة عن أبيه »ووافقه الذهبى .
(٤) ابن جرير ٣ / ١٢٥ .
(٥) ابن أبى شيبة (٩٢٤٦) وأحمد ٦ / ٢٩٤ .

المراد بـ ﴿ **الذين كفروا** ﴾ :جنس الكفرة . وقيل : وفد نجران . وقيل : قريظة . وقيل: النضير . وقيل : مشركو العرب . وقرأ السلمى : « لن يُغنى » بالتحتية . وقرأ الحسن بكون الياء الآخرة تخفيفًا . قوله : ﴿ **من الله شيئاً** ﴾ أى من عذابه شيئا من الإغناء . وقيل : إن كلمة من بمعنى عند ، أى لا تغنى عند الله شيئًا قاله أبو عبيد. وقيل : هى بمعنى بدل ، والمعنى : بدل رحمة الله، وهو بعيد . قوله : ﴿ **وأولئك هم وقود النار** ﴾ الوقود : اسم للحطب ، وقد تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة ، أى هم حطب جهنم الذى تسعر به ، وهم مبتدأ ، ووقود خبره، والجملة خبر أولئك ، أو هم ضمير فصل ، وعلى التقديرين فالجملة مستأنفة مقررة لقوله : ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم . . .** ﴾ الآية . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة ابن مصرف: « وقود » بضم الواو، وهو مصدر، وكذلك الوقود بفتح الواو ، فى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسمًا للحطب كما تقدم فلا يحتاج إلى تقدير ، ويحتمل أن يكون مصدراً ؛ لأنه من المصادر التى تأتى على وزن الفعول فتحتاج إلى تقدير ، أى هم أهل وقود النار .

قوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ الدأب : الاجتهاد ، يقال : دأب الرجل فى عمله يدأب دأبًا ودؤوبا : إذا جد واجتهد ، والدائبان : الليل والنهار، والدأب : العادة والشأن ، ومنه قول امرئ القيس :

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَها وَجَارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بِمَأْسَلِ

والمراد هنا :كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم ، واختلفوا فى الكاف ، فقيل : هى فى موضع رفع تقديره : دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى . وقال الفراء : إن المعنى : كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا ؛ لأن كفروا داخلة فى الصلة . وقيل : هى متعلقة بأخذهم الله ، أى أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون. وقيل: هى متعلقة بـ ﴿ **لن تغنى** ﴾ أى لن تغنى عنهم غناء كما لم تغن عن آل فرعون. وقيل: إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود ، ويكون التشبيه فى نفس الإحراق ، قالوا : ويؤيده قوله تعالى: ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر:٤٦] ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ [غافر : ٤٦] والقول الأول هو الذى قاله جمهور المحققين ومنهم الأزهرى. قوله : ﴿ **والذين من قبلهم** ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، أى وكدأب الذين من قبلهم . قوله : ﴿ **كذبوا بآياتنا فأخذهم الله** ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ، ويصح إرادة الجميع ، والجملة بيان وتفسير لدأبهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من آل فرعون ، والذين من قبلهم على إضمار قد ، أى دأب هؤلاء كدأب أولئك قد كذبوا إلخ. وقوله : ﴿ **بذنوبهم** ﴾ أى بسائر ذنوبهم التى من جملتها تكذيبهم .

قوله : ﴿ **قل للذين كفروا** ﴾ قيل : هم اليهود . وقيل : هم مشركو مكة ، وسيأتى بيان

سبب نزول الآية. وقوله : ﴿ستغلبون﴾ قرئ بالفوقية والتحتية ، وكذلك ﴿ تحشرون ﴾ . وقد صدق الله وعده بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على سائر اليهود ، ولله الحمد . قوله : ﴿ وبئس المهاد ﴾ يحتمل أن يكون من تمام القول الذى أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم ، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلا وتفظيعًا .

قوله : ﴿ قد كان لكم آية ﴾ أى علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم . وهذه الجملة جواب قسم محذوف ، وهى من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله، ولم يقل : « كانت » لأن التأنيث غير حقيقى . وقال الفراء : إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه وبين الاسم بقوله : ﴿ لكم ﴾ . والمراد بالفئتين : المسلمون والمشركون لما الْتقوا يوم بدر . قوله : ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله﴾ قراءة الجمهور برفع: ﴿ فئة ﴾ .وقرأ الحسن ومجاهد:« فئة» و« كافرة» بالخفض ، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، أى إحداهما فئة . وقوله : ﴿ تقاتل ﴾ فى محل رفع على الصفة ، والجر على البدل من قوله : ﴿ فئتين ﴾ . وقوله : ﴿ وأخرى ﴾ أى وفئة أخرى كافرة . وقرأ ابن أبى عبلة (١) بالنصب فيها . قال ثعلب : هو على الحال ، أى التقتا مختلفتين ، مؤمنة وكافرة . وقال الزجاج : النصب بتقدير أعنى ؛ وسميت الجماعة من الناس فئة ؛ لأنه يفاء إليها ، أى يرجع إليها فى وقت الشدة . وقال الزجاج : الفئة : الفرقة مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف : إذا قطعته ، ولا خلاف أن المراد بالفئتين هما المقتتلتان فى يوم بدر ، وإنما وقع الخلاف فى المخاطب بهذا الخطاب، فقيل المخاطب بها : المؤمنون . وقيل: اليهود . وفائدة الخطاب للمؤمنين : تثبيت نفوسهم ، وتشجيعها ، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين .

قوله :﴿ ترونهم مثليهم ﴾ قال أبو على الفارسى : الرؤية فى هذه الآية رؤية العين ؛ ولذلك تعدت إلى مفعول واحد ، ويدل عليه قوله: ﴿ رأى العين ﴾ والمراد: أنه يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين ، أو مثلى عدد المسلمين . وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية ، وقرأ نافع بالفوقية . وقوله : ﴿ مثليهم ﴾ منتصب على الحال ، وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم المؤمنون والمفعول هم الكفار . والضمير فى : ﴿ مثليهم ﴾ يحتمل أن يكون للمشركين ، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العدد ، وفيه بُعْد، أن يكثر الله المشركين فى أعين المؤمنين ، وقد أخبرنا أنه قللهم فى أعين المؤمنين ، فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم فى العدد ، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم ، فقلل الله المشركين فى أعين المسلمين ، فأراهم إياهم مثلى عدتهم لتقوى أنفسهم . وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار . ويحتمل أن يكون الضمير فى : ﴿ مثليهم ﴾ للمسلمين ، أى ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلى ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم ، وقد قال من ذهب

---

(١) ابن أبى عبلة إبراهيم واسمه : شمر بن يقظان بن المرتحل أبو إسماعيل . وقيل : أبو إسحاق . وقيل : أبو سعيد الشامى الدمشقى . ويقال :الرملى. ويقال: المقدسى . ثقة كبير تابعى. طبقات القراء ١٩/١ (٧٢) .

إلى التفسير الأول ـ أعنى : أن فاعل الرؤية المشركون ، وأنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم ـ أنه لا يناقض هذا مافى سورة الأنفال من قوله تعالى : ﴿ **ويقللكم فى أعينهم** ﴾ [الأنفال : ٤٤] بل قللوا أولا فى أعينهم ليلاقوهم ، ويجترئوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا . قوله : ﴿ **رأى العين** ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿**ترونهم** ﴾ أى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها . ﴿ **والله يؤيد بنصره من يشاء** ﴾ أى يقوى من يشاء أن يقويه ، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى فى رؤية القليل كثيراً ﴿**لعبرة**﴾ فعلة من العبور كالجلسة من الجلوس . والمراد الاتعاظ ، والتنكير للتعظيم ، أى عبرة عظيمة ، وموعظة جسيمة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ قال: كصنيع آل فرعون. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال :كفعل . وأخرج مثله أبو الشيخ عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : كسنتهم . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع قال : « يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشًا » قالوا : يامحمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا كانوا غماراً [١] لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله: ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أولى الأبصار** ﴾ [٢] . وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عاصم بن عمر بن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : قال فنحاص اليهودى وذكر نحوه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ عبرة وتفكر . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله** ﴾: أصحاب رسول الله ﷺ ببدر، ﴿**وأخرى كافرة** ﴾: فئة قريش الكفار . وأخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت فى أهل بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ يقول : قد كان لكم فى هؤلاء عبرة ومتفكر ، أيدهم الله ، ونصرهم على عدوهم يوم بدر ، كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا ، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال : هذا يوم بدر نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : أنزلت فى التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلاثمائة

(١) الأغمار : جمع غمر ـ بضم فسكون ـ وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور ، ولم تحنكه التجارب.
(٢) ابن إسحاق ٣/ ٥ وابن جرير ٣/ ١٢٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٧٣ .
(٣) ابن جرير ٣/ ١٣٠ وعنده بزيادة قول الله تعالى : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم** ﴾ [الأنفال : ٤٤] .

وثلاثة عشر رجلا ، وكان المشركون مثليهم ستمائة وستة وعشرين فأيد الله المؤمنين .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾ .

قوله : ﴿ زُين للناس ﴾ إلخ ، كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس فى هذه الدار. والمزين قيل : هو الله سبحانه ، وبه قال عمر كما حكاه عنه البخارى وغيره ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ [الكهف : ٧]. وقيل : المزين هوالشيطان ، وبه قال الحسن ، حكاه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه. وقرأ الضحاك : « زين » على البناء للفاعل ، وقرأه الجمهور على البناء للمفعول . والمراد بالناس: الجنس . والشهوات : جمع شهوة ، وهى نزوع النفس إلى ما تريده ، والمراد هنا : المشتهيات، عبر عنها بالشهوات ؛ مبالغة فى كونها مرغوبًا فيها أو تحقيرًا لها ؛ لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية ، ووجه تزيين الله سبحانه لها : ابتلاء عباده كما صرح به فى الآية الأخرى ، وقوله : ﴿ من النساء والبنين﴾ فى محل الحال ، أى زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء والبنين إلخ . وبدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس إليهن ؛ لأنهن حبائل الشيطان ، وخص البنين دون البنات ؛ لعدم الاضطراد فى محبتهن . والقناطير : جمع قنطار ، وهو اسم للكثير من المال . قال الزجاج : القنطار مأخوذ من عقد الشىء وإحكامه ، تقول العرب : قنطرت الشىء : إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها . وقد اختلف فى تقديره على أقوال للسلف ، ستأتى إن شاء الله . واختلفوا فى معنى ﴿ المقنطرة ﴾ ، فقال ابن جرير الطبرى : معناها المضعفة ، وقال : القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة [(١)] . وقال الفراء : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع ، فتكون تسع قناطير . وقيل: المقنطرة: المضروبة، وقيل : المكملة كما يقال : بدرة مبدرة ، وألوف مؤلفة ، وبه قال مكى وحكاه الهروى. وقال ابن كيسان : لا تكون المقنطرة أقل من سبع قناطير . وقوله : ﴿ من الذهب والفضة ﴾ بيان للقناطير ، أوحال :﴿والخيل المسومة ﴾ قيل : هى المرعية فى المروج والمسارح، يقال : سامت الدابة والشاة : إذا سرحت . وقيل : هى المعدة للجهاد . وقيل : هى الحسان.

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٣٥ .

وقيل : المعلمة من السومة ، وهى العلامة ، أى التى يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها . وقال ابن فارس فى المجمل : المسومة : المرسلة وعليها ركبانها . وقال ابن كيسان : البلق . والأنعام هى : الإبل والبقر والغنم ، فإذا قلت: نعم فهى الإبل خاصة ، قاله الفراء وابن كيسان ، ومنه قول حسان :

وَكَانَتْ لايَزَالُ بِـهَا أَنِيس ... خِلالَ مُروجِـهَا نَعمٌ وشَاءُ

والحرث : اسم لكل ما يحرث ، وهو مصدر سمى به المحروث ، يقول :حرث الرجل حرثًا : إذا أثار الأرض فيقع على الأرض والزرع . قال ابن الأعرابى : الحرث : التفتيش . قوله : ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ أى ذلك المذكور ما يتمتع به، ثم يذهب ولا يبقى ، وفيه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة . و ﴿ **المآب** ﴾ : المرجع ، آب يؤوب إياباً : إذا رجع ، ومنه قول امرئ القيس :

لَقَدْ طَوّفْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ منَ الغَنِيمةِ بالإيَابِ

قوله : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم** ﴾ أى هل أخبركم بما هو خير لكم من تلك المستلذات ؟ وإبهام الخير للتفخيم، ثم بينه بقوله : ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات** ﴾ وعند فى محل نصب على الحال من جنات ، وهى مبتدأ ، وخبرها للذين اتقوا ، ويجوز أن تتعلق اللام بخير ، وجنات خبر مبتدأ مقدر ، أى هو جنات ، وخص المتقين ؛ لأنهم المنتفعون بذلك، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وما بعده .

قوله : ﴿ **الذين يقولون** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **للذين اتقوا** ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، أو منصوب على المدح . والصابرين وما بعده نعت للموصول ، على تقديم كونه بدلا ، أو منصوبًا على المدح ، وعلى تقدير كونه خبرا، يكون الصابرين وما بعده منصوبة على المدح ، وقد تقدم تفسير الصبر والصدق والقنوت. قوله : ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ هم السائلون للمغفرة بالأسحار .وقيل : المصلون . والأسحار : جمع سحر بفتح الحاء وسكونها . قال الزجاج : هو من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر ، وخص الأسحار؛ لأنها من أوقات الإجابة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب ، لما نزلت : ﴿ **زين للناس حب الشهوات** ﴾ قال : الآن يارب حين زينتها لنا ، فنزلت : ﴿ **قل أؤنبئكم** ﴾ (١) . وأخرجه ابن المنذر عنه بلفظ « خير » انتهى إلى قوله: ﴿ **قل أؤنبئكم بخير** ﴾ فبكى وقال: بعد ماذا،بعد ماذا ، بعد مازينتها . وأخرج أحمد وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « القنطار اثنا عشر ألف أوقية » (٢) . رواه أحمد من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث عن

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٣٣ .

(٢) أحمد ٢/ ٣٦٣ وابن ماجة فى الأدب (٣٦٦٠) وفيه زيادة وقال فى الزوائد :« إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

حماد عن عاصم عن أبى صالح عنه [(١)] . ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عبد الصمد به [(٢)] . وقد رواه ابن جرير موقوفاً على أبى هريرة [(٣)] . قال ابن كثير: وهذا أصح[(٤)]. وأخرج الحاكم وصححه عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن القناطير المقنطرة فقال : « القنطار ألف أوقية » [(٥)] ورواه ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه مرفوعًا بلفظ :« ألف دينار» . وأخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ: « القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية » [(٦)] . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى من قول معاذ بن جبل . وأخرجه ابن جرير من قول ابن عمر . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى من قول أبى هريرة . وأخرجه ابن جرير والبيهقى من قول ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال : القنطار ملء مسك جلد الثور ذهبًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه قال : القنطار سبعون ألفا ، وأخرجه عبد ابن حميد عن مجاهد . وأخرج أيضا عن سعيد بن المسيب قال : القنطار ثمانون ألفًا . وأخرج أيضًا عن أبى صالح قال : القنطار مائة رطل . وأخرجه أيضًا عن قتادة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر قال: القنطار خمسة عشر ألف مثقال، والمثقال أربعة وعشرون قيراطا. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال:هو المال الكثير من الذهب والفضة.وأخرجه أيضا عن الربيع.وأخرج عن السدى أن المقنطرة : المضروبة .وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس: ﴿والخيل المسومة﴾ قال:الراعية.وأخرج ابن المنذرعنه من طريق مجاهد.وأخرج ابن جرير عنه قال:هى الراعية والمطهمة الحسان.وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير،عن مجاهد قال: هى المطهمة الحسان. وأخرجا عن عكرمة قال : تسويمها حسنها. وأخرج ابن أبى حاتم قال:﴿الخيل المسومة﴾ الغرة والتحجيل . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ الصابرين ﴾ قال : قوم صبروا على طاعة الله وصبروا عن محارمه ، والصادقون : قوم صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وألسنتهم ، وصدقوا فى السر والعلانية. القانتون : هم المطيعون ، والمستغفرون بالأسحار : أهل الصلاة . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة قال : هم الذين يشهدون صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس قال:أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة[(٧)]. وأخرج ابن جرير ، وأحمد فى الزهد عن سعيد الجريرى : قال : بلغنا أن داود عليه السلام سأل جبريل فقال : ياجبريل ، أى الليل أفضل ؟ قال : ياداود ، ما أدرى ، إلا أن العرش يهتز فى السحر [(٨)] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك

(١) أحمد ٢/٣٦٣ .
(٢) ابن ماجة فى الأدب (٣٦٦٠) .
(٣) ابن جرير ٣/١٣٣ موقوفًا .
(٤) ابن كثير ٢/١٧ .
(٥) صححه الحاكم ٢/ ١٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٦) ابن جرير ٣/ ١٣٤ .
(٧) ابن جرير ٣ / ١٣٩ .
(٨) أحمد فى الزهد (٣٦٤) .

وتعالى فى كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : هل من سائل فأعطيه ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له »(١) .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **شهد الله** ﴾ أى بين وأعلم . قال الزجاج : الشاهد هو الذى يعلم الشىء ويبينه، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين . وقال أبو عبيدة : شهد الله بمعنى قضى ، أى أعلم . قال ابن عطية : وهذا مردود من جهات . وقيل : إنها شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله ووحيه، بشهادة الشاهد فى كونها مبينة . وقوله: ﴿**أنه**﴾ بفتح الهمزة . قال المبرد : أى بأنه ثم حذفت الباء كما فى أمرتك الخير ، أى بالخير . وقرأ ابن عباس : « إنه» بكسر الهمزة بتضمين ﴿ **شهد** ﴾ معنى «قال»، وقرأ أبو المهلب : « شهداء لله » بالنصب على أنه حال من الصابرين وما بعده ، أو على المدح . ﴿ **والملائكة** ﴾ : عطف على الاسم الشريف، وشهادتهم : إقرارهم بأنه لا إله إلا الله . وقوله : ﴿ **وأولو العلم** ﴾ معطوف أيضًا على ما قبله، وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم ، وما يقع من البيان للناس على ألسنتهم ، وعلى هذا لابد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله ، وشهادة الملائكة وأولى العلم. وقد اختلف فى أولى العلم هؤلاء من هم ؟ فقيل : هم الأنبياء . وقيل : المهاجرون والأنصار ، قاله ابن كيسان . وقيل : مؤمنو أهل الكتاب ، قاله مقاتل . وقيل :المؤمنون كلهم ، قاله السدى والكلبى ، وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص . وفى ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة ، ومنقبة نبيلة ؛ لقربهم باسمه واسم ملائكته ، والمراد بأولى العلم هنا : علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به إلى معرفتهما ، إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له فى العلم الذى اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

وقوله: ﴿ **قائما بالقسط** ﴾ أى العدل ، أى قائما بالعدل ، فى جميع أموره أو مقيمًا له ، وانتصاب ﴿ **قائما** ﴾ على الحال من الاسم الشريف . قال فى الكشاف : إنها حال مؤكدة كقوله: ﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ [البقرة : ٩١] وجاز إفراده سبحانه بذلك دون ماهو معطوف عليه من الملائكة وأولى العلم لعدم اللبس . وقيل : إنه منصوب على المدح . وقيل : إنه صفة

---

(١) حديث أبى هريرة عند البخارى فى التهجد (١١٤٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨/١٦٨) والترمذى فى الدعوات (٣٤٩٨) وقال: «حسن صحيح » وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٦٦) .

لقوله : ﴿ إله ﴾ أى لا إله قائما بالقسط إلا هو ، أو هو حال من قوله : ﴿إلا هو﴾ والعامل فيه معنى الجملة . وقال الفراء : هو منصوب على القطع لأن أصله الألف واللام فلما قطعت نصب كقوله : ﴿ وله الدين واصبا ﴾ [النحل : ٥٢] ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود : « القائم بالقسط ». وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ تكرير لقصد التأكيد . وقيل :إن قوله : ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ كالدعوى ، والأخيرة كالحكم . وقال جعفر الصادق : الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، وقوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ مرتفعان على البدلية من الضمير ، أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية .

قوله: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، وقرئ بفتح أن. قال الكسائى: أنصبهما جميعا يعنى قوله: ﴿شهد الله أنه﴾ وقوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ بمعنى شهد الله أنه كذا وأن الدين عند الله الإسلام . قال ابن كيسان : إن الثانية بدل من الأولى . وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان ، وإن كانا فى الأصل متغايرين كما فى حديث جبريل الذى بين فيه النبى ﷺ معنى الإسلام ، ومعنى الإيمان ، وصدقه جبريل ، وهو فى الصحيحين وغيرهما [١] ، ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك فى الكتاب والسنة . قوله : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغى بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول فى دين الإسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم . قال الأخفش : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيًا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم . والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم ، هو خلافهم فى كون نبينا ﷺ نبيا أم لا ؟ وقيل : اختلافهم فى نبوة عيسى . وقيل : اختلافهم فى ذات بينهم حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء . قوله: ﴿ومن يكفر بآيات الله ﴾ أى بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الإسلام ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ فيجازيه ويعاقبه على كفره بآياته ، والإظهار فى قوله : ﴿ فإن الله ﴾ مع كونه مقام الإضمار ؛ للتهويل عليهم والتهديد لهم .

قوله : ﴿ فإن حاجوك ﴾ أى جادلوك بالشبه الباطلة والأقوال المحرفة ، ﴿ فقل أسلمت وجهى لله ﴾ أى أخلصت ذاتى لله، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان وأجمعها للحواس .وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد . وقوله : ﴿ ومن اتبعن ﴾ عطف على فاعل أسلمت وجاز للفصل . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب الياء فى : ﴿ اتبعن ﴾ على الأصل ، وحذفها الآخرون اتباعًا لرسم المصحف ، ويجوز أن تكون « الواو » بمعنى « مع » والمراد بالأميين هنا : مشركو العرب . وقوله: ﴿ أأسلمتم﴾ استفهام تقريرى يتضمن الأمر ،

---

(١) البخارى فى الإيمان (٥٠) عن أبى هريرة ومسلم فى الإيمان (١/ ٨) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الإيمان ٨/ ١٠١ .

أى أسلموا ، كذا قاله ابن جرير وغيره . وقال الزجاج : ﴿**أأسلمتم**﴾ تهديد ، والمعنى : أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا ؟ تبكيتًا لهم وتصغيرًا لشأنهم فى الإنصاف وقبول الحق . وقوله : ﴿**فقد اهتدوا**﴾ أى ظفروا بالهداية التى هى الحظ الأكبر ، وفازوا بخير الدنيا والآخرة ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عن قبول الحجة ولم يعملوا بموجبها . ﴿ **فإنما عليك البلاغ** ﴾ أى فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك ، ولست عليهم بمصيطر ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، والبلاغ مصدر . وقوله: ﴿**والله بصير بالعباد**﴾ فيه وعد ووعيد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **قائما بالقسط** ﴾ قال : بالعدل . وأخرج أيضا عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ قال : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذى شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : لم يبعث الله رسولا إلا بالإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : كان حول البيت ستون وثلثمائة صنم ، لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أو صنمان ، فأنزل الله : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو . . .** ﴾ الآية ، فأصبحت الأصنام كلها قد خرت سجدًا للكعبة . وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وأبو منصور الشحامى فى الأربعين عن على قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، والآيتين من آل عمران : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء** ﴾ إلى قوله : ﴿**بغير حساب**﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧] هى معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب ، يقلن : يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك ؟ قال الله: إنى حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مأواه على ماكان منه ، وإلا أسكنته حظيرة القدس ، وإلا نظرت إليه بعينى المكنونة كل يوم سبعين نظرة ، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته منه». وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعًا نحوه ، وفيه :« لا يتلوكن عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه ، وأسكنته جنة الفردوس ، ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة ، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة » .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن السنى عن الزبير بن العوام قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ فقال: «وأنا على ذلك من الشاهدين » ولفظ

(١) ابن جرير ٣/ ٤١ ، ٤٢ .

الطبرانى : « وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت العزيز الحكيم»(١) . وأخرج ابن عدى ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه ، والخطيب فى تاريخه ، وابن النجار عن غالب القطان ؛ قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو**﴾ إلى قوله : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ فقال: وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى وديعة عند الله ، قالها مرارا ، فقلت : لقد سمع فيها شيئاً فسألته ، فقال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : عبدى عهد إلىَّ ، وأنا أحق من وفَّى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة »(٢).

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب** ﴾ قال : بنو إسرائيل . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **بغيا بينهم** ﴾ يقول : بغيًا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **فإن حاجوك** ﴾ قال : إن حاجك اليهود والنصارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب** ﴾ قال: اليهود والنصارى ﴿ **والأميين** ﴾ قال: هم الذين لا يكتبون .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾ .

قوله : ﴿**بآيات الله**﴾ ظاهره عدم الفرق بين آية وآية ﴿ **ويقتلون النبيين بغير حق** ﴾ يعنى:

---

(١) أحمد ١/١٦٦ والطبرانى (٢٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/٣٢٨: « فى أسانيدهما مجاهيل » .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٥/٣٦ وقال :« إسناده فيه نظر » وقال غالب القطان :« فيه عمر بن المختار البصرى وهو متهم بالوضع » ميزان الاعتدال ٣/٢٢٣ والهيثمى فى المجمع ٦/٣٢٨ ، ٣٢٩ وقال : « رواه الطبرانى وفيه عمر بن المختار وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب وضعفه (٢١٩٠) وقال :« عمار بن المختار عن أبيه ـ عمر ـ ضعيفان وهذا لم يأت به غيرهما والله أعلم » . وقال الذهبى : «فيه كلام » وقال ابن عدي : « روى الأباطيل » والخطيب فى تاريخه ٧/١٩٣ .

اليهود قتلوا الأنبياء ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أى بالعدل . وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . قال المبرد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون فدعوهم إلى الله فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم . ففيهم نزلت الآية. وقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (١) خبر . ﴿ إن الذين يكفرون﴾ إلخ ، ودخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ؛ وذهب بعض أهل النحو إلى أن الخبر قوله : ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴾ وقالوا: إن الفاء لا تدخل فى خبر « إن » وإن تضمن اسمها معنى الشرط ، لأنه قد نسخ بدخول « إن » عليه ، ومنهم سيبويه والأخفش ، وذهب غيرهما إلى أن ما يتضمنه المبتدأ من معنى الشرط لا ينسخ بدخول « إن » عليه ، ومثل المكسورة المفتوحة، ومنه قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه﴾ [الأنفال: ٤١] .

وقوله : ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ قد تقدم تفسير الإحباط ، ومعنى كونها حبطت فى الدنيا والآخرة : أنه لم يبق لحسناتهم أثر فى الدنيا ، حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات ، بل عوملوا معاملة أهل السيئات فلعنوا ، وحل بهم الخزى والصغار ، ولهم فى الآخرة عذاب النار.

قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ فيه تعجب لرسول الله ﷺ ، ولكل من تصح منه الرؤية من حال هؤلاء ، وهم أحبار اليهود . والكتاب : التوراة . وتنكير النصيب للتعظيم ، أى نصيبًا عظيمًا كما يفيده مقام المبالغة ، ومن قال : إن التنكير للتحقير ؛ لم يصب ، فلم ينتفعوا بذلك ، وذلك بأنهم يدعون إلى كتاب الله الذى أوتوا نصيبًا منه وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم ﴾ والحال أنهم معرضون عن الإجابة إلى مادعوا إليه مع علمهم به ، واعترافهم بوجوبّ الإجابة إليه ، و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من التولى والإعراض ، بسبب ﴿ أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ﴾ وهى مقدار عبادتهم العجل. وقد تقدم تفسير ذلك ﴿ وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾ من الأكاذيب التى من جملتها هذا القول .

قوله : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ﴾ هو ردّ عليهم وإبطال لما غرهم من الأكاذيب ، أى فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم الجزاء الذى لايرتاب مرتاب فى وقوعه ؟ فإنهم يقعون لا محالة ، ويعجزون عن دفعه بالحيل والأكاذيب . ﴿ ووفيت كل نفس ماكسبت ﴾ أى جزاء ما كسبت على حذف المضاف ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ بزيادة ولا نقص. والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس . قال الكسائى : اللام فى قوله : ﴿ ليوم ﴾ بمعنى «فى » ، وقال البصريون : المعنى : لحساب يوم . وقال ابن جرير الطبرى : المعنى : لما يحدث فى يوم .

---

(١) البشارة تكون فى الخير ، قال تعالى : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ [الحج : ٣٩] ، وقال تعالى :﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ﴾ [التوبة : ٢١] وتكون فى العقوبة والعذاب ، قال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : ٢١] .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح : قلت : يارسول الله ، أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: « رجل قتل نبيًا ، أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **الذين يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة رجل وسبعون رجلا ، من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله»[١]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث عيسى يحيى بن زكريا فى اثنى عشر رجلا من الحواريين يعلمون الناس ، فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضى لها كل يوم حاجة ، فقالت لها أمها : إذا سألك عن حاجة فقولى : حاجتى أن تقتل يحيى بن زكريا ، فقال : سلى غير هذا ، فقالت : لا أسألك غير هذا فلما أبت أمر به فذبح فى طست ، فبدرت قطرة من دمه فلم تزل تغلى حتى بعث الله بختنصر ، فدلت عجوز عليه فألقى فى نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم ، فقتل فى يوم واحد من ضرب واحد ، وسن واحد سبعين ألفًا فسكن [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن معقل بن أبى مسكين فى الآية ؛ قال : كان الوحى يأتى بنى إسرائيل فيذكرون قومهم، ولم يكن يأتيهم كتاب ، فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم ، فيقتلون، فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس [٣] . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه [٤] . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ **الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ ولاة العدل .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أتيت يامحمد ؟ قال : « على ملة إبراهيم ودينه » ، قال : فإن إبراهيم كان يهوديًا، قال لهما النبى ﷺ : فهلما إلى التوراة ، فهى بيننا وبينكم ، فأبيا عليه، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله . . .** ﴾ الآية [٥] . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: ﴿ **نصيبا** ﴾ قال: حظا ﴿ **من الكتاب** ﴾ قال : التوراة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات** ﴾ قال : يعنون الأيام التى خلق الله فيها آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٢ على شرط الشيخين . وفى الحديث قال : « رجلا » وفى الحاكم قال : « ألفا » بدلا من: «رجلا » وعطف يحيى على عيسى . وفى الطبرى من رواية عبيدة ٣/ ١٤٥ : « قال : واثنا عشر رجلا » بدلا من « ألفا » التى هى فى الحاكم خطأ . ووافقه الذهبى فى كلٍ .

(٣، ٤) ابن جرير ٣/ ١٤٤ . (٥) ابن إسحاق ٢/ ١٩٤ وابن جرير ٣/ ١٤٥ .

قوله: ﴿ وغرهم فى دينهم ماكانوا يفـترون ﴾ حين قالوا: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة: ١٨]. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ ووفيت كل نفس ﴾ يعنى: توفى كل نفس برّ أو فاجر ﴿ماكسبت﴾ ما عملت من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعنى: من أعمالهم.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ قل اللهم ﴾ . قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم : يا ألله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو« يا » جعلوا بدله هذه الميم المشددة ، فجاؤوا بحرفين ، وهما الميمان عوضًا من حرفين ، وهما الياء والألف، والضمة فى الهاء هى ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهم : يا ألله أمنا بخير، فحذف وخلط الكلمتان ، والضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أمنا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطأ العظيم ، والقول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الكوفيون : وقد يدخل حرف النداء على اللهم ، وأنشدوا فى ذلك قول الراجز :

غفرت أو عذبت يا اللهما

وقول الآخر :

وَمَا عَلَيْكِ أنْ تَقُولى كُلَّمَا ... سَبَّحتِ أوْهللتَ يَا اللَّهُما

وقول الآخر :

إنى إذَا مَا حَـدَثٌ ألَمَّا ... أقَولُ يَا اللَّهُمـا يَا اللَّهُمـا

قالوا : ولو كان الميم عوضًا من حرف النداء لما اجتمعتا . قال الزجاج : وهذا شاذ لا يعرف قائله . قال النضر بن شميل : من قال : اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه . قوله : ﴿مالك الملك ﴾ أى مالك جنس الملك على الإطلاق ، ومالك منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ، أى يا مالك الملك ، ولا يجوز عنده أن يكون وصفًا لقوله : ﴿ اللهم ﴾ لأن الميم عندة تمنع الوصفية . وقال محمد بن يزيد المبرد وإبراهيم بن السرى الزجاج :إنه صفة لاسم الله تعالى ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ﴾ [الزمر : ٤٦] قال أبو على الفارسى : وهو مذهب المبرد ، وما قاله سيبويه أصوب وأبين ، وذلك لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت ، والأصوات لا توصف ، نحو غاق ، وما أشبهه . قال الزجاج : والمعنى : مالك العباد وما ملكوا. وقيل : المعنى : مالك الدنيا والآخرة . وقيل :الملك هنا النبوة .

وقيل : الغلبة . وقيل : المال والعبيد، والظاهر : شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص : ﴿ **تؤتى الملك من تشاء** ﴾ أى من تشاء إيتاءه إياه ﴿ **وتنزع الملك ممن تشاء** ﴾ نزعه منه . والمراد بما يؤتيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام .

قوله : ﴿ **وتعز من تشاء** ﴾ أى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ، يقال : عزّ : إذا غلب، ومنه: ﴿ وعزنى فى الخطاب﴾ [ص: ٢٣] . وقوله : ﴿ **وتذل من تشاء** ﴾ أى فى الدنيا أوفى الآخرة أو فيهما . يقال : ذل يذلّ ذلا : إذا غلب وقهر . قوله : ﴿ **بيدك الخير** ﴾ تقديم الخبر للتخصيص ، أى بيدك الخير لا بيد غيرك ، وذكر الخير دون الشر؛ لأن الخير بفضل محض بخلاف الشر فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه . وقيل : لأن كل شر من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير فأفعاله كلها خير . وقيل : إنه حذف كما حذف فى قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] وأصله: بيدك الخير والشر . وقيل : خص الخير؛ لأن المقام مقام دعاء . وقوله :﴿ **إنك على كل شىء قدير** ﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له.

قوله : ﴿ **تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل** ﴾ أى تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر . وقيل : المعنى : تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما ولوجًا فى الآخر . قوله : ﴿**وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى**﴾ قيل : المراد: إخراج الحيوان وهو حى من النطفة وهى ميتة ، وإخراج النطفة وهى ميتة من الحيوان وهو حى. وقيل : المراد : إخراج الطائر وهو حى من البيضة وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقيل : المراد : إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . قوله : ﴿ **بغير حساب** ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير، كما تقول: فلان يعطى بغير حساب ، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزلت الآية (١) . وأخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: اسم الله الأعظم: ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾ إلى قوله : ﴿**بغير حساب** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى عن معاذ ؛ أنه شكا إلى النبى ﷺ دينًا عليه، فعلمه أن يتلو هذه الآية ، ثم يقول : « رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطى من تشاء منهما وتمنع من تشاء ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك ، اللهم اغننى من الفقر واقض عنى الدين »(٣). وأخرج الطبرانى فى الصغير من حديث أنس قال: قال رسول الله

---

(١) ابن جرير ٣/١٤٨ .

(٢) الطبرانى : (١٢٧٩٢) ومحمد بن زكريا الغلابى وجسر بن فرقد ضعيفان وجعفر فيه كلام وخاصة إذا روى عن أبيه ، ثم هو مخالف لما فى الصحيحين ، ولذا حكم عليه شيخنا بالوضع . وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٥٩: « فيه جسر بن فرقد وهو ضعيف ».

(٣) الطبرانى ٢٠/١٥٤ ، ١٥٥ (٣٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٨٩ : « فيه نصر بن مرزوق ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات إلا أن سعيد بن المسيب لم يسمع من معاذ » قلت : نصربن مرزوق هذا أورده ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٤/١/٤٧٢ وقال :«كتبنا عنه وكان صدوقا ». وقال :« إنه يروى عن وهب الله بن راشد فالعلة الانقطاع بين سعيد ومعاذ » .

ﷺ لمعاذ :« ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك » فذكره، وإسناده جيد[1] ، وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ [آل عمران : ١٨] بعض فضائل هذه الآية. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**تؤتى الملك من تشاء**﴾ قال : النبوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **تولج الليل فى النهار . . .**﴾ الآية . قال : تأخذ الصيف من الشتاء وتأخذ الشتاء من الصيف ﴿ **وتخرج الحى من الميت** ﴾ تخرج الرجل الحى من النطفة الميتة ﴿ **وتخرج الميت من الحى** ﴾ تخرج النطفة الميتة من الرجل الحى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **تولج الليل فى النهار** ﴾ قال : ما نقص من النهار تجعله فى الليل ، وما نقص من الليل تجعله فى النهار. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه أيضا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **تخرج الحى من الميت** ﴾ قال : تخرج النطفة الميتة من الحى ، ثم تخرج من النطفة بشرا حيا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة : ﴿ **تخرج الحى من الميت** ﴾ قال : هى البيضة تخرج من الحى وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحى . وأخرج ابن جرير عنه قال : النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والمؤمن عبد حى الفؤاد ، والكافر عبد ميت الفؤاد . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن سلمان الفارسى نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا نحوه . وأخرجه أيضا عنه ، أو عن ابن مسعود مرفوعاً . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبيد الله بن عبد الله ؛ أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبى ﷺ فقال : « من هذه ؟ » قيل : خالدة بنت الأسود ، قال : « سبحان الذى يخرج الحى من الميت » وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافرا . وأخرج ابن سعد عن عائشة مثله [2] .

﴿ **لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**

---

(١) الطبرانى فى الصغير ١/٢٠٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٨٩ : « رجاله ثقات » .

(٢) ابن سعد ٨/٢٤٨ وابن جرير ٣/١٥١ ، وعزاه ابن حجر فى الإصابة ٤/ ٢٨٠ إلى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى مرسلا وقال : «هذا أصح طرقه » وقال الهيثمى فى المجمع ٩/٢٦٧ : «رواه الطبرانى بإسناد جيد » .

قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **لا يتخذ** ﴾ فيه النهى للمؤمنين عن موالاة الكفار لسبب من الأسباب ، ومثله قوله تعالى : ﴿لاتتخذوا بطانة من دونكم . . .﴾ الآية [آل عمران: ١١٨]، وقوله: ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ [المائدة : ٥١]، و قوله: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله. . .﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، وقوله : ﴿ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ [المائدة: ٥١] ، وقوله : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ [الممتحنة : ١] ، وقوله: ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ فى محل الحال ، أى متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالا أو اشتراكا ، والإشارة بقوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك**﴾ إلى الاتخاذ المدلول عليه بقوله: ﴿ **لا يتخذ** ﴾ ومعنى قوله: ﴿ **فليس من الله فى شىء** ﴾: أى من ولايته فى شىء من الأشياء؛ بل هو منسلخ عنه بكل حال. قوله : ﴿**إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات ، أى إلا أن تخافوا منهم أمرًا يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال . و ﴿**تقاة**﴾ مصدر واقع موقع المفعول ، وأصلها : وقية على وزن فعلة ، قلبت الواو تاء والياء ألفا ، وقرأ رجاء وقتادة : «تقية» . وفى ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم ، ولكنها تكون ظاهرًا لا باطنًا ، وخالف فى ذلك قوم من السلف ، فقالوا : لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام . قوله : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أى ذاته المقدسة ، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز فى المشاكلة كقوله :﴿ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾ [المائدة :١١٦] فمعناه :تعلم ما عندى وما فى حقيقتى ، ولا أعلم ما عندك ، ولا ما فى حقيقتك . وقال بعض أهل العلم، معناه :ويحذركم الله عقابه مثل : ﴿واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] فجعلت النفس فى موضع الإضمار ، وفى هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه .

قوله : ﴿ **قل إن تخفوا ما فى صدوركم . . .** ﴾ الآية : فيه أن كل ما يضمره العبد ، ويخفيه أو يظهره ويبديه ، فهو معلوم لله سبحانه لا يخفى عليه منه شىء ولا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ **ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ مما هو أعم من الأمور التى يخفونها أو يبدونها، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك .

قوله : ﴿ **يوم تجد** ﴾ منصوب بقوله : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ وقيل : بمحذوف ، أى اذكر ، و﴿**محضرا**﴾ حال. وقوله : ﴿ **وما عملت من سوء** ﴾ معطوف على « ما » الأولى ، أى وتجد ما عملت من سوء محضرًا تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدا، فحذف محضرا لدلالة الأول عليه، وهذا إذا كان ﴿ **تجد** ﴾ من وجدان الضالة، وأما إذا كان من وجد بمعنى علم، كان محضرا هو المفعول الثانى،ويجوز أن يكون قوله:﴿ **وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه**

أمداً بعيداً﴾ جملة مستأنفة ، ويكون « ما » فى : **﴿ ما عملت ﴾** مبتدأ وتود :خبره . والأمد: الغاية ، وجمعه : آماد ، أى تودّ لو أن بينها وبين ما عملت من السوء أمدًا بعيدًا . وقيل : إن قوله : **﴿ يوم تجد﴾** منصوب بقوله : **﴿ تود ﴾** . والضمير فى قوله : **﴿ وبينه ﴾** لليوم ، وفيه بُعْد ، وكرر قوله: **﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾** للتأكيد وللاستحضار ؛ ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم ، وفى قوله: **﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾** دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم . وما أحسن ما يحكى عن بعض العرب أنه قيل له : إنك تموت وتبعث وترجع إلى الله ، فقال : أتهددوننى بما لم أر الخير قط إلا منه.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وقيس بن زيد ، قد بطنوا (١) بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبدالله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم : **﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين ﴾** إلى قوله : **﴿ والله على كل شىء قدير ﴾** (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه قال : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ، ويخالفونهم فى الدين ، وذلك قوله تعالى : **﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾** (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى : **﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ﴾** فقد برئ الله منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : **﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾** قال : التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره ، إنما التقية باللسان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عنه فى الآية قال : التقاة التكلم باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان ، ولا يبسط يده فيقتل ، ولا إلى إثم فإنه لا عذر له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية قال : التقية باللسان ، وليس بالعمل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة **﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾** قال : إلا أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك. وأخرج عبد بن حميد والبخارى عن الحسن قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة . وحكى البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : إنا نبش فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم (٤) ، ويدل على جواز التقية قوله

(١) بطنوا : يقال : بطن فلان بفلان يبطن بطوناً وبطانة : إذا كان خاصًا به ذا علم بداخلة أمره ، مؤانسا له مطلعًا على سره ومنه المباطنة . اللسان ١٣/ ٥٥ .

(٢ ، ٣) ابن إسحاق ٢/ ١٩٩ وابن جرير ٣/ ١٥٢ .

(٤) البخارى فى الأدب ١٠/ ٥٢٧ .

تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [النحل : ١٠٦] ، ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ قل إن تخفوا . . . ﴾ الآية . قال : أخبرهم أنه يعلم ما أسروا وما أعلنوا. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ محضرا ﴾ يقول : موفرا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : يسر أحدكم ألا يلقى عمله ذلك أبدا يكون ذلك مناه ، وأما فى الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها . وأخرجا أيضاً عن السدى : ﴿ أمدا بعيدا ﴾ قال : مكانا بعيدًا . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ أمدا ﴾ قال : أجلا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ قال : من رأفته بهم حذرهم نفسه .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) ﴾ .

الحب والمحبة : ميل النفس إلى الشىء ، يقال : أحبه فهو محب ، وحبه يحبه بالكسرفهو محبوب ، قال الجوهرى : وهذا شاذ لأنه لا يأتى فى المضاعف يفعل بالكسر . قال ابن الدهان : فى حبّ لغتان : حبّ وأحبّ ، وأصل حبّ فى هذا الباب حبب كطرق ، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته . قال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله : طاعته لهما واتباعه أمرهما ، ومحبة الله للعباد : إنعامه عليهم بالغفران . وقرأ أبو رجاء العطاردى : «فاتبعونى » بفتح الباء . وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من « يغفر» فى اللام . قال النحاس : لا يجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء فى اللام ، وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط فى هذا ، ولعله كان يخفى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة .

قوله : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى فى جميع الأوامر والنواهى . قوله : ﴿فإن تولوا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام مقول القول فيكون مضارعاً حذفت فيه إحدى التاءين ، أى تتولوا ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضيًا . وقوله: ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ نفى المحبة ،كناية عن البغض والسخط . ووجه الإظهار فى قوله: ﴿فإن الله ﴾ مع كون المقام مقام إضمار ؛ لقصد التعظيم أو التعميم .

قوله : ﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾ إلخ ، لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضى هو الإسلام ، وأن محمدًا ﷺ هو الرسول الذى لا يصح لأحد أن يحب الله إلا باتباعه ، وأن

اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغى عليه والحسد له ـ شرع فى تقرير رسالة النبى ﷺ، وبين أنه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة . والاصطفاء : الاختيار . قال الزجاج : اختارهم بالنبوة على عالمى زمانهم . وقيل : إن الكلام على تقدير مضاف ، أى اصطفى دين آدم إلخ ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين ، وتخصيص آدم بالذكر ؛ لأنه أبو البشر ، وكذلك نوح فإنه آدم الثانى ، وأما آل إبراهيم فلكون النبى ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم، وأما آل عمران وإن كانوا من آل إبراهيم ، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه . وقيل : المراد بآل إبراهيم : إبراهيم نفسه ، وبآل عمران : عمران نفسه . قوله: ﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾ نصب ذرية على البدلية مما قبله ، قاله الزجاج ، أو على الحالية ، قاله الأخفش . وقد تقدم تفسير الذرية ، و﴿**بعضها من بعض** ﴾ فى محل نصب على صفة الذرية ومعناه : متناسلة متشعبة أو متناصرة متعاضدة فى الدين .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن من طرق ؛ قال : قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ : والله يامحمد إنا لنحب ربنا فأنزل الله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله...**﴾ الآية [(١)] . وأخرج الحكيم الترمذى عن يحيى ابن كثير نحوه . وأخرج أيضا ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج نحوه [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله : ﴿**قل إن كنتم تحبون الله** ﴾ أى إن كان هذا من قولكم فى عيسى حبا لله وتعظيمًا له ﴿ **فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ أى ما مضى من كفركم ﴿**والله غفور رحيم**﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**﴾ قال : على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس . وأخرجه أيضا الحكيم الترمذى وأبو نعيم والديلمى وابن عساكر عنه . أخرج ابن عساكر مثله عن عائشة . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والحاكم عن عائشة ؛ قالت: قال رسول الله ﷺ : « الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن يحب على شىء من الجور ويبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض فى الله ، قال الله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله...**﴾ الآية [(٣)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وآل إبراهيم وآل عمران** ﴾ قال : هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾ قال: فى النية والعمل والإخلاص والتوحيد .

﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ**

(١ ، ٢) ابن جرير ٣/ ١٥٥ .

(٣) أورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٢/ ٢٩ وقال:« قال أبو زرعة:عبد الأعلى هذا منكر الحديث » وأبو نعيم فى الحلية ٩/ ٢٥٣، وصححه الحاكم ٢/ ٢٩١وقال الذهبى :« فيه عبد الأعلى » قال الدارقطنى : « ليس بثقة » .

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

قوله: ﴿ إذ قالت ﴾ قال أبو عمرو :« إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : إنه متعلق بمحذوف تقديره : اذكر إذ قالت. وقال الزجاج : هو متعلق بقوله : ﴿ اصطفى ﴾ . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ سميع عليم ﴾ وامرأة عمران اسمها: حنة ـ بالحاء المهملة والنون ـ بنت فاقود ابن قبيل ، أم مريم ، فهى جدة عيسى ، وعمران هو ابن ماثان جد عيسى . قوله: ﴿ رب إنى نذرت لك ما فى بطنى ﴾ تقديم الجار والمجرور لكمال العناية ، وهذا النذر كان جائزًا فى شريعتهم .ومعنى ﴿لك﴾ : أى لعبادتك .﴿ ومحررا﴾ : منصوب على الحال ، أى عتيقًا خالصًا لله خادمًا للكنيسة. والمراد هنا : الحرية التى هى ضد العبودية . وقيل : المراد بالمحرر هنا : الخالص لله سبحانه الذى لا يشوبه شىء من أمر الدنيا . ورجح هذا بأنه لا خلاف أن عمران وامرأته حران. قوله:﴿ فتقبل منى ﴾ التقبل :أخذ الشىء على وجه الرضا ، أى تقبل منى نذرى بما فى بطنى .

قوله : ﴿ فلما وضعتها ﴾ التأنيث باعتبار ما علم من المقام أن الذى فى بطنها أنثى ، أو لكونه أنثى فى علم الله ، أو بتأويل ما فى بطنها بالنفس أو النسمة أو نحو ذلك. قوله : ﴿قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ إنما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل فى النذر إلا الذكر دون الأنثى ، فكأنها تحسرت وتحزنت لما فاتها من ذلك الذى كانت ترجوه وتقدره ، و﴿أنثى﴾ حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه. قوله : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ قرأ أبو بكر وابن عامر بضم التاء ، فيكون من جملة كلامها ، ويكون متصلا بما قبله ، وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شىء . وقرأ الجمهور : ﴿وضعت ﴾ فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن ، مع أن هذه الأنثى التى وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحدًا . وقرأ ابن عباس : «بما وضعت » بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها ، أى إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله فيه من الأمور التى تتقاصر عنها الأفهام وتتضافر عندها العقول .

قوله :﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وضعت ،

فإن غاية ما أرادت من كونه ذكرًا أن يكون نذرًا خادمًا للكنيسة وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم . وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما فى الجملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته ، واللام فى الذكر والأنثى للعهد ، هذا على قراءة الجمهور وعلى قراءة ابن عباس ، وأما على قراءة أبى بكر وابن عامر فيكون قوله : ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها ، أو ليس الذكر الذى أردت أن يكون خادمًا ويصلح للنذر كالأنثى التى لا تصلح لذلك، وكأنها أعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدت. قوله : ﴿ **وإنى سميتها مريم** ﴾ عطف على ﴿ **إنى وضعتها أنثى** ﴾ ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه وأن يكون فعلها مطابقًا لمعنى اسمها ، فإن معنى مريم : خادم الرب بلغتهم ، فهى وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات . قوله: ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ (١) عطف على قوله : ﴿ **إنى سميتها مريم** ﴾ والرجيم : المطرود ، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وأعوانه.

قوله : ﴿ **فتقبلها ربها بقبول حسن** ﴾ أى رضى بها فى النذر ، وسلك بها مسلك السعداء. وقال قوم : معنى التقبل : التكفل والتربية والقيام بشأنها ، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق ، والباء زائدة ، والأصل تقبلا ، وكذلك قوله : ﴿ **وأنبتها نباتا حسنا** ﴾ وأصله إنباتا فحذف الحرف الزائد . وقيل : هو مصدر لفعل محذوف ، أى فنبتت نباتا حسنا ، والمعنى : أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان . قيل : إنها كانت تنبت فى اليوم ما ينبت المولود فى عام . وقيل : هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها . قوله : ﴿**وكفلها زكريا** ﴾ أى ضمها إليه . وقال أبو عبيدة : ضمن القيام بها ، وقرأ الكوفيون : ﴿ **وكفّلها** ﴾ بالتشديد، أى جعله الله كافلا لها وملتزما بمصالحها ، وفى معناه ما فى مصحف أبىّ :« وأكفلها ». وقرأ الباقون بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا ، ومعناه ما تقدم من كونه ضمها إليه وضمن القيام بها . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبى عبد الله المزنى : « وكفلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : لم أسمع كفل . وقرأ مجاهد : «فتقبلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب ، ونصب : « ربَّها » على أنه منادى مضاف . وقرأ أيضا :« وأنبتْها » بإسكان التاء « وكفِّلها »بتشديد الفاء المكسورة وإسكان اللام ونصب « زكريا » مع المد ، وقرأ حفص وحمزة والكسائى : ﴿ **زكريا** ﴾ بغير مد ، ومده الباقون . وقال الفراء : أهل الحجاز يمدون ﴿**زكريا**﴾ ويقصرونه . قال الأخفش : فيه لغات : المد ، والقصر ، و « زكرىّ » بتشديد الياء وهو ممتنع على جميع التقادير للعجمة والتعريف مع ألف التأنيث.

---

(١) فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه ». ثم قال أبو هريرة : «اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ » . قال العلماء :«فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم » .

وقوله : ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب** ﴾ قدّم الظرف للاهتمام به ، وكلمة كل ظرف والزمان محذوف، « وما » مصدرية أو نكرة موصوفة ، والعامل فى ذلك قوله : ﴿ **وجد** ﴾ أى كل زمان دخوله عليها وجد عندها رزقًا ، أى نوعًا من أنواع الرزق . والمحراب فى اللغة : أكرم موضع فى المجلس ، قاله القرطبى [١] ، وهو منصوب على التوسع . قيل : إن زكريا جعل لها محرابًا لا يرتقى إليه إلا بسلم [٢] ، وكان يطلق عليها حتى كبرت ، وكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء . فقال: ﴿ **يا مريم أنى لك هذا** ﴾ أى من أين يجىء لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاق الدنيا ﴿ **قالت هو من عند الله** ﴾ فليس ذلك بعجيب ولا مستنكر. وجملة قوله : ﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ تعليلية لما قبلها ، وهو من تمام كلامها، ومن قال: إنه من كلام زكريا، فتكون الجملة مستأنفة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا** ﴾ قال : كانت نذرت أن تجعله فى الكنيسة يتعبد فيها ، وكانت ترجو أن يكون ذكراً . وأخرج ابن المنذر عنه قال : نذرت أن تجعله محررًا للعبادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **محررا** ﴾ قال : خادمًا للبيعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال: محررًا خالصا لا يخالطه شىء من أمر الدنيا .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ [٣] ، وللحديث ألفاظ عند أبى هريرة هذا أحدها، وروى من حديث غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كفلها زكريا فدخل عليها المحراب فوجد عندها عنبا فى مكتل فى غير حينه . فقال : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، قال : إن الذى يرزقك العنب فى غير حينه لقادر أن يرزقنى من العاقر الكبير العقيم ولدًا ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه** ﴾ [٤] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم فتشاحّ عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها ، وكان زكريا زوج أختها فكفلها ، وكانت عنده وحضنها[٥]. وأخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ قال : جعلها معه فى محرابه .

---

(١) القرطبى ٢/ ١٣١٣ .

(٢) قال أبو جعفر: « وأما المحراب فهو مقدم كل مجلس ومصلى ، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها وكذلك هو من المساجد ».

(٣) أحمد ٢/ ٢٧٤ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٣١) ومسلم فى الفضائل (١٤٦/٢٣٦٦) وابن جرير ٣/ ١٦٠ .

(٤) ابن جرير ٣/ ١٦٥ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩١ ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ٣/ ١٦٤ .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤١) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **هنالك** ﴾ ظرف يستعمل للزمان والمكان ، وأصله للمكان . وقيل : إنه للزمان خاصة ، وهناك للمكان . وقيل : يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر ، واللام للدلالة على البعد ، والكاف للخطاب . والمعنى : أنه دعا فى ذلك المكان الذى هو قائم فيه عند مريم؛ أو فى ذلك الزمان ، أن يهب الله له ذرية طيبة ، والذى بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم وقد كانت عاقرًا ، فحصل له رجاء الولد وإن كان كبيرًا وامرأته عاقر ، أو بعثه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء فى الصيف والصيف فى الشتاء عند مريم ، لأن من أوجد ذلك فى غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر . وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة ، سيقت فى غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط . والذرية : النسل ، يكون للواحد ويكون للجمع ويدل على أنها هنا للواحد . قوله : ﴿ فهب لى من لدنك وليا ﴾ [مريم : ٥] ولم يقل أولياء ، وتأنيث طيِّبة لكون لفظ الذرية مؤنثًا .

قوله : ﴿ **فنادته الملائكة** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « فناداه » وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود . وقرأ الباقون: ﴿**فنادته الملائكة** ﴾ قيل : المراد هنا : جبريل ، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز فى العربية ، ومنه: ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . وقيل: ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع ، والمعنى الحقيقى مقدم ، فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة. قوله: ﴿ **وهو قائم** ﴾ جملة حالية، و ﴿ **يصلى فى المحراب** ﴾ صفة لقوله : ﴿ **قائم** ﴾ أو خبر ثان لقوله : ﴿**وهو**﴾ . قوله :﴿ **أن الله يبشرك** ﴾ قرئ بفتح أن ، والتقدير : بأن الله ، وقرئ بكسرها على تقدير القول، وقرأ أهل المدينة : « يبشرك » بالتشديد ، وقرأ حمزة بالتخفيف ، وقرأ حميد بن قيس المكى بكسر الشين وضم حرف المضارعة . قال الأخفش :هى ثلاث لغات بمعنى واحد ، والقراءة الأولى هى التى وردت كثيرًا

فى القرآن ، ومنه ﴿ فبشر عباد ﴾ [الزمر: ١٧] ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ [يس : ١١] ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ [هود : ٧١] ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ [الحجر : ٥٥] وهى قراءة الجمهور . والثانية لغة أهل تهامة ، وبها قرأ أيضًا عبد الله بن مسعود . والثالثة : من أبشر يبشر إبشارًا، ويحيى ممتنع إما لكونه أعجميًا ، أو لكون فيه وزن الفعل كيعمر مع العلمية . قال القرطبى حاكيا عن النقاش : كان اسمه فى الكتاب الأول حنا (١) انتهى . والذى رأيناه فى مواضع من الإنجيل أنه يوحنا . قيل : سمى بذلك ؛ لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة . وقيل : لأن الله أحيا به الناس بالهدى ، والمراد هنا : التبشير بولادته ، أى يبشرك بولادة يحيى .

وقوله : ﴿ **مصدقا بكلمة من الله** ﴾ أى بعيسى عليه السلام ، وسمى كلمة الله ؛ لأنه كان بقوله سبحانه : «كن » . وقيل : سمى كلمة الله ؛ لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله . وقال أبو عبيد : معنى ﴿ **بكلمة من الله** ﴾ : بكتاب من الله ، قال : والعرب تقول : أنشدنى كلمته ، أى قصيدته . كما روى أن الحويدرة ذكر لحسان فقال : لعن الله كلمته ، يعنى قصيدته انتهى . ويحيى أول من آمن بعيسى وصدق ، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين. وقيل بستة أشهر . والسيد : الذى يسود قومه . قال الزجاج : السيد : الذى يفوق أقرانه فى كل شيء من الخير . والحصور : أصله من الحصر وهو الحبس ، يقال : حصرنى الشيء وأحصرنى : إذا حبسنى ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا هَجْرُ لَيْلَى أنْ تكون تَبَاعَدتْ عَلَيْكَ وَلا أن أحْصَرَتك شُغُولُ

والحصور : الذى لا يأتى النساء كأنه يحجم عنهن ، كما يقال : رجل حصور وحصير : إذا حبس رِفده ولم يخرجه. فيحيى عليه السلام كان حصورًا عن إتيان النساء ، أى محصورًا لا يأتيهن كغيره من الرجال ، إما لعدم القدرة على ذلك ، أو لكونه يكف عنهنّ منعًا لنفسه عن الشهوة مع القدرة . وقد رجح الثانى : بأن المقام مقام مدح، وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه ، لا على ما كان من أصل الخلقة وفى نفس الجبلة . وقوله : ﴿ **من الصالحين** ﴾ أى ناشئًا من الصالحين ؛ لكونه من نسل الأنبياء ، أو كائنًا من جملة الصالحين ، كما فى قوله : ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ [البقرة : ١٣٠] . قال الزجاج : الصالح: الذى يؤدى لله ما افترض عليه ، وإلى الناس حقوقهم .

قوله : ﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام** ﴾ ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه ، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة ، وذلك لمزيد التضرع والجد فى طلب الجواب عن سؤاله . وقيل : إنه أراد بالرب : جبريل ، أى ياسيدى . قيل : وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما : أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها ؟ وقيل :

---

(١) كذا ، والصواب : ﴿ حيا ﴾ كما عند القرطبى ١٣١٨/٢ .

معناه بأى سبب أستوجب هذا وأنا وامرأتى على هذه الحال ؟ والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منهما، مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما؛ لأنه كان يوم التبشير كبيرًا. قيل : فى تسعين سنة. وقيل : ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته فى ثمان وتسعين سنة؛ ولذلك قال: ﴿ **وقد بلغنى الكبر** ﴾ أى والحال ذلك ، جعل الكبر كالطالب له كونه طليعة من طلائع الموت فأسند الفعل إليه. والعاقر: التى لا تلد، أى ذات عقر على النسب ولو كان على الفعل لقال: عقيرة ، أى بها عقر يمنعها من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيِّبة ، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى فى مريم ، استعظامًا لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد. وقيل : إنه قد مرّ بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة. وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية . قوله : ﴿ **كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ أى يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو إيجاد الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر ، والكاف فى محل نصب نعتًا لمصدر محذوف ، والإشارة إلى مصدر يفعل ، أو الكاف فى محل رفع على أنها خبر ، أى على هذا الشأن العجيب شأن الله، ويكون قوله : ﴿ **يفعل ما يشاء** ﴾ بيانا له ، أو الكاف فى محل نصب على الحال ، أى يفعل الله الفعل كائنا مثل ذلك .

قوله : ﴿ **قال رب اجعل لى آية** ﴾ أى علامة أعرف بها صحة الحبل ، فأتلقى هذه النعمة بالشكر ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا** ﴾ أى علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الأذكار ، ووجه جعل الآية هذا ؛ لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكرا على ما أنعم به عليه. وقيل: بأن ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، حكاه القرطبى عن أكثر المفسرين(١). والرمز فى اللغة : الإيماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين (٢) ، وأصله الحركة وهو استثناء منقطع ، لكون الرمز من غير جنس الكلام . وقيل : هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ أو إشارة أو كتابة وهو بعيد . والصواب الأول ، وبه قال الأخفش والكسائى . قوله : ﴿ **وسبح** ﴾ أى سبحه ﴿**بالعشى** ﴾ وهو جمع عشية . وقيل : هو واحد وهو من حين تزول الشمس إلى أن تغيب . وقيل : من العصر إلى ذهاب صدر الليل ، وهو ضعيف جدًا ﴿ **والإبكار** ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى . وقيل : المراد بالتسبيح : الصلاة.

قوله : ﴿ **إذ قالت الملائكة يامريم** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف كالظرف الأول ﴿ **إن الله اصطفاك** ﴾ : اختارك ﴿**وطهرك**﴾ من الكفر أو من الأدناس على عمومها . ﴿ **واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ قيل : هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول ، فالأول : هو حيث تقبلها بقبول حسن ، والآخر : لولادة عيسى . والمراد بالعالمين هنا قيل : نساء عالم زمانها وهو

(١) القرطبى ٢/ ١٣٢٢ .

(٢) وقد يقال للخفى من الكلام الذى هو مثل الهمس بخفض الصوت : « الرمز » ومنه قول جؤبة بن عائذ :

وكان تكلم الأطفال رمزًا ... وهمهمة لهم مِثلَ الهدير

اللسان ٥/ ٣٥٦ .

الحق. وقيل : نساء جميع العالم إلى يوم القيامة ، واختاره الزجاج . وقيل : الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول والمراد بهما جميعًا واحد .

قوله : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك** ﴾ أى أطيلى القيام فى الصلاة أو أديميها ؛ وقد تقدم الكلام على معانى القنوت، وقدم السجود على الركوع لكونه أفضل ، أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب . وقوله : ﴿**واركعى مع الراكعين**﴾ ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم ، فيدل على مشروعية صلاة الجماعة . وقيل : المعنى : أنها تفعل مثل فعلهم وإن لم تصل معهم .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما سبق من الأمور التى أخبره الله بها ، والوحى فى اللغة : الإعلام فى خفاء ، يقال: وحى وأوحى بمعنى . قال ابن فارس : الوحى : الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى تعلمه . قوله : ﴿**وما كنت لديهم**﴾ تحضرنهم ، يعنى المتنازعين فى تربية مريم ، وإنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلومًا ؛ لأنهم أنكروا الوحى . فلوكان ذلك الإنكار صحيحًا لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة والحضور ، وهم لا يدعون ذلك فثبت كونه وحيًا مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا ممن يلابس أهلها . والأقلام جمع قلم ، من قلمه : إذا قطعه ، أى أقلامهم التى يكتبون بها . وقيل : قداحهم ﴿ **أيهم يكفل مريم** ﴾ أى يحضنها ، أى يلقون أقلامهم ليعلموا أيهم يكفلها ، وذلك عند اختصامهم فى كفالتها ، فقال زكريا : هو أحق بها لكون خالتها عنده ، وهى أشيع أخت حنة أم مريم . وقال بنو إسرائيل : نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا ، فاقترعوا وجعلوا أقلامهم فى الماء الجارى ، على أن من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها ، فجرت أقلامهم ووقف قلم زكريا ، وقد استدل بهذا من أثبت القرعة ، والخلاف فى ذلك معروف ، وقد ثبتت أحاديث صحيحة فى اعتبارها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما رأى زكريا ذلك ، يعنى فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف عند مريم قال : إن الذى أتى بهذا مريم فى غير زمانه قادر على أن يرزقنى ولدًا ، فذلك حين دعا ربه (١) . وأخرج ابن عساكر عن الحسن نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ **ذرية طيبة** ﴾ يقول : مباركة .

وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبى حماد قال : فى قراءة ابن مسعود :« فناداه جبريل وهو قائم يصلى فى المحراب». وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنه قال : ﴿**فنادته الملائكة**﴾ أى جبريل . وأخرج ابن المنذر عن السدى قال : المحراب: المصلى . وقد أخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمرو (٢)، أن النبى ﷺ قال : « اتقوا هذه المذابح » (٣) يعنى

(١) ابن جرير ٣/١٦٨ .

(٢) فى المخطوطة : « عن ابن عمر» والصحيح ما أثبتناه موافقا لما فى التخريج الآتى .

(٣) عزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٦٣ للطبرانى وقال : « فيه عبد الله بن مغراء وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه ابن المدينى فى روايته عن الأعمش وليس هذا منها » وأخرجه البيهقى ٢/ ٤٣٩ عن عبد الله بن عمرو .

المحاريب . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن موسى الجهنى قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزال أمتى بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » (١) وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة . وأخرج عبد بن حميد وابن جريروابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ؛ قال : إنما سمى يحيى لأن الله أحياه بالإيمان . . وأخرجوا عن ابن عباس قال : ﴿مصدقًا بكلمة من الله﴾ قال : عيسى ابن مريم هو الكلمة . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه قال : كان يحيى وعيسى ابنى الخالة وكانت أم يحيى تقول لمريم : إنى أجد الذى فى بطنى يسجد (٢) للذى فى بطنك ، فذلك تصديقه بعيسى سجوده فى بطن أمه ، وهو أول من صدق بعيسى (٣) . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير عن مجاهد نحوه قال : السيد : الكريم على الله (٤) . وأخرج ابن جرير عن ابن المسيب قال : السيد : الفقيه العالم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وسيدًا وحصورا ﴾ قال : السيد : الحليم ، والحصور : الذى لا يأتى النساء . وأخرج أحمد فى الزهد عن سعيد ابن جبير فى الحصور مثله . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال: الحصور الذى لا ينزل الماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ ؛ قال :«كان ذكره مثل هدبة الثوب » (٥).وأخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفًا ، وهو أقوى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن شعيب الجبائى قال : اسم أم يحيى أشيع .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ اجعل لى آية ﴾ قال : بالحمل به . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام ﴾ قال: إنما عوقب بذلك لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه فأخذ عليه بلسانه (٦) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ إلا رمزًا ﴾ قال : الرمز بالشفتين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : الرمز : الإشارة .وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وسبح بالعشى والإبكار﴾ قال : العشىّ : ميل الشمس إلى أن تغيب ، والإبكار : أول الفجر.

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث على قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » (٧) . وأخرج الحاكم

---

(٤) ابن أبى شيبة ٢/ ٥٩ .

(٢) السجود هنا: الخضوع والتطامن والخشوع لا سجود الصلاة والعبادة وإنما سجود الصلاة مجاز من هذا الأصل .

(٣، ٤) ابن جرير ٣/ ١٧٢ .

(٥) ابن جرير ٣/ ١٧٤ وقال ابن كثير ٢/ ٣٥ : «روى ابن أبى حاتم حديثًا غريبًا جدًا » وذكره .

(٦) ابن جرير ٣/ ١٧٧ .

(٧) أحمد ١/ ٨٤ ، ١١٦ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٣٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣٠/ ٦٩) والترمذى فى المناقب (٣٨٧٧) وقال: «حسن صحيح » .

وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون » [١] . وأخرج ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج نحوه أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن حبان والحاكم من حديثه مرفوعا [٢] وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» [٣] . وفى المعنى أحاديث كثيرة وكلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها ، لانساء جميع العالم ، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ ؛ قال : « أربع نسوة سادات نساء عالمهن : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وأفضلهن عالما فاطمة » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك** ﴾ قال : أطيلى الركود يعنى القيام . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير : ﴿ **اقنتى لربك** ﴾ قال : أخلصى . وأخرج عن قتادة قال : أطيعى ربك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم** ﴾ قال : إن مريم لما وضعت فى المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحى فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها. قال الله لمحمد : ﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ الآية [٤] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة قال: ألقوا أقلامهم فى الماء فذهبت مع الجرية وصعد قلم زكريا فكفلها زكريا . وأخرج ابن جرير عن ربيع نحوه . . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، وكذلك أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج ؛ أن الأقلام هى التى يكتبون بها التوراة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عطاء أنها القداح .

﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ**

(١) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٥ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ١/ ٣٢٢ عن ابن عباس والترمذى فى المناقب (٣٨٧٨) وقال : «صحيح » وابن حبان (٦٩١٢) وصححه الحاكم ولم يروه عن أنس وإنما رواه عن على ٢/ ٤٩٧ وقال : « رواه البخارى عن صدقة بن محمد ومسلم عن أبى خيثمة وأبى بكر بن أبى شيبة بهذه السياقة » وقال الذهبى :« فلماذا أوردته » . وأخرج عن ابن عباس ٢/ ٥٩٤ وقال : «صحيح »ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ٤/ ٣٩٤ والبخارى فى فضائل الصحابة (٣٧٦٩) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣١/ ٧٠) والترمذى فى الأطعمة (١٨٣٤) وقال : « حسن صحيح » .

(٤) ابن جرير ٣/ ١٨٤ .

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ قالت** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **وإذ قالت** ﴾ المذكور قبله وما بينهما اعتراض . وقيل : بدل من ﴿**إذ يختصمون** ﴾ . وقيل : منصوب بفعل مقدر . وقيل : بقوله : ﴿**يختصمون** ﴾ : وقيل : بقوله : ﴿ **وما كنت لديهم**﴾. والمسيح اختلف فيه من ماذا أخذ ؟ فقيل : من المسح ؛ لأنه مسح الأرض ، أى ذهب فيها فلم يستكن بكن . وقيل : إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ ، فسمى مسيحا ، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل . وقيل: لأنه كان يمسح بالدهن الذى كانت الأنبياء تمسح به . وقيل : لأنه كان ممسوح الأخمصين . وقيل : لأن الجمال مسحه . وقيل : لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، وهو على هذه الأربعة الأقوال فعيل بمعنى مفعول . وقال أبو الهيثم : المسيح ضد المسيخ بالخاء المعجمة . وقال ابن الأعرابى : المسيح : الصديق . وقال أبو عبيد : أصله بالعبرانية : مشيخا ، بالمعجمتين ، فعرّب كما عرب موشى بموسى ، وأما الدجّال فسمى مسيحًا ؛ لأنه ممسوح إحدى العينين . وقيل : لأنه يمسح الأرض ، أى يطوف بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس (١) .

وقوله : ﴿ **عيسى** ﴾ عطف بيان أو بدل ، وهو اسم أعجمى . وقيل : هو عربى مشتق من عاسه يعوسه : إذا ساسه . قال فى الكشاف : هو معرب من أيشوع .انتهى (٢) . والذى رأيناه فى الإنجيل فى مواضع أن اسمه : يشوع بدون همزة ، وإنما قيل : ابن مريم مع كون الخطاب معها ؛ تنبيها على أنه يولد من غير أب فنسب إلى أمه. والوجيه ذو الوجاهة ، وهى: القوة والمنعة ، ووجاهته فى الدنيا النبوّة ، وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة ، وهو منتصب على الحال من كلمة ، وإن كانت نكرة فهى موصوفة ، وكذلك قوله : ﴿ **ومن المقربين** ﴾ فى محل نصب على الحال . قال الأخفش : هو معطوف على ﴿**وجيها** ﴾ .

والمهد : مضجع الصبى فى رضاعه ، ومهدت الأمر : هيأته ووطأته . والكهل : هو من كان بين سن الشباب والشيخوخة ، أى يكلم الناس حال كونه رضيعًا فى المهد وحال كونه

---

(١) فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة » الحديث ، ووقع فى حديث عبد الله بن عمرو « إلا الكعبة وبيت المقدس » ذكره أبو جعفر الطبرى .
(٢) الكشاف ١/ ٣٦٣ .

كهلا بالوحى والرسالة ، قاله الزجاج . وقال الأخفش والفراء : إن ﴿ **كهلا** ﴾ معطوف على﴿ **وجيها** ﴾ . قال الأخفش : ﴿ **ومن الصالحين** ﴾ : عطف على ﴿ **وجيها** ﴾ أى هو من العباد الصالحين .

قوله : ﴿ **أنى يكون لى ولد** ﴾ أى كيف يكون ؟ على طريقة الاستبعاد العادى ﴿ **ولم يمسسنى بشر** ﴾ جملة حالية، أى والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب ﴿**قال كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾ هو من كلام الله سبحانه . وأصل القضاء : الإحكام ، وقد تقدم ، وهو هنا الإرادة ، أى إذا أراد أمرًا من الأمور ﴿**فإنما يقول له كن فيكون**﴾ من غير عمل ولا مزاولة ، وهو تمثيل لكمال قدرته .

قوله : ﴿ **ويعلمه الكتاب** ﴾ قيل : هو معطوف على ﴿ **يبشرك** ﴾ أى إن الله يبشرك وإن الله يعلمه . وقيل : على ﴿**يخلق**﴾ أى وكذلك يعلمه الله ، أو كلام مبتدأ سيق تطييبًا لقلبها. والكتاب : الكتابة . والحكمة : العلم . وقيل : تهذيب الأخلاق . وانتصاب ﴿**رسولا** ﴾ على تقدير : ويجعله رسولا ، أو ويكلمهم رسولا ، أو وأرسلت رسولا . وقيل: هو معطوف على قوله : ﴿ **وجيها** ﴾ فيكون حالا؛ لأن فيه معنى النطق ، أى وناطقًا . قال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو فى قوله : ﴿ **ورسولا** ﴾ مقحمة ، والرسول حالا . وقوله : ﴿ **أنى قد جئتكم**﴾ معمول لرسول ؛ لأن فيه معنى النطق كما مر . وقيل : أصله بأنى قد جئتكم فحذف الجار . وقيل : منصوب بمضمر ، أى تقول أنى قد جئتكم . وقيل : معطوف على الأحوال السابقة . وقوله : ﴿ **بآية** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى متلبسا بعلامة كائنة ﴿ **من ربكم**﴾. وقوله : ﴿ **أنّى أخلق** ﴾ أى أصور وأقدر ﴿ **لكم من الطين كهيئة الطير** ﴾ وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى ، وهى : ﴿ **أنى قد جئتكم** ﴾ أوبدل من آية، أو خبر مبتدأ محذوف، أى هى أنى ، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف . وقرأ الأعرج وأبو جعفر : «كهيئة الطير» بالتشديد ، والكاف فى قوله : ﴿ **كهيئة الطير** ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى أخلق لكم خلقًا أو شيئًا مثل هيئة الطير .

وقوله : ﴿ **فأنفخ فيه** ﴾ أى فى ذلك الخلق أو ذلك الشيء ، فالضمير راجع إلى الكاف فى قوله : ﴿ **كهيئة الطير** ﴾ . وقيل: الضمير راجع إلى الطير ، أى لواحد منه . وقيل : إلى الطين ، وقرئ : « فيكون طائرًا وطيرًا » ، مثل تاجر وتجر . وقيل: إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة ، فإن له ثديًا وأسنانًا وأذنًا ويحيض ويطهر. وقيل : إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة ولكونه يطير بغير ريش ، ويلد كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير ، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو يضحك كما يضحك الإنسان . وقيل : إن سؤالهم له كان على وجه التعنت . وقيل : كان يطير مادام الناس ينظرونه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل الله من

فعل غيره .

وقوله : ﴿ بإذن الله ﴾ فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام . قيل : كانت تسوية الطين والنفخ من عيسى ، والخلق من الله عز وجل . قوله: ﴿وأبرئ الأكمه ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى ، كذا قال أبو عبيدة . وقال ابن فارس : الكمه : العمى يولد به الإنسان وقد يعرض، يقال : كمه يكمه كمها : إذا عمى ، وكمهت عينه : إذا أعميتها . وقيل : الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . وقيل : هو الممسوح العين . والبرص معروف وهو بياض يظهر فى الجلد . وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدة كما اشتمل عليه الإنجيل ، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر ؛ لأنهما لا يبرآن فى الغالب بالمداواة، وكذلك إحياء الموتى، قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك. قوله: ﴿ وأنبئكم بما تأكلون ﴾ أى أخبركم بالذى تأكلونه وبالذى تدخرونه .

قوله : ﴿ ومصدقا ﴾ عطف على قوله : ﴿ ورسولا ﴾ وقيل : المعنى : وجئتكم مصدقا. قوله : ﴿ ولأحلّ﴾ أى ولأجل أن أحل ، أى جئتكم بآية من ربكم ، وجئتكم لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم من الأطعمة فى التوراة كالشحوم وكل ذى ظفر . وقيل : إنما أحل لهم ما حرمته عليهم الأحبار ولم تحرمه التوراة . وقال أبو عبيدة : يجوز أن يكون ﴿بعض﴾ بمعنى كل ، وأنشد :

تَرّاكُ أمكـــنَةٍ إذَا لـــم أرْضـــها ... أو يرْتَبِطْ بعضَ الـــنفوسِ حِمامُها

قال القرطبى : وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل ؛ ولأن عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة ، فإنه لم يحلل القتل ولا السرقة ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرمات الثابتة فى الإنجيل مع كونها ثابتة فى التوراة وهى كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين ، ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة كقول الشاعر[(١)] :

أبَا مُنْذِرٍ أفْنَيتَ فاستبق بَعْضنَا ... حَنَانَيك بعضُ الشَّرِ أهْوَنُ مِن بَعْضِ

أى بعض الشر أهون من كله . قوله : ﴿ بآية من ربكم ﴾ هى قوله : ﴿ إن الله ربى وربكم ﴾ وإنما كان ذلك آية ؛ لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك ، فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته ، ويحتمل أن تكون هذه الآية هى الآية المتقدمة فتكون تكريرًا لقوله : ﴿ أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين . . . ﴾ الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بكلمة ﴾

---

(١) الشاعر : هو طرفة بن العبد خاطب به عمرو بن هند الملك وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله .

قال: عيسى هو الكلمة من الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المهد : مضجع الصبى فى رضاعه . وقد ثبت فى الصحيح أنه لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له : جريج ، كان يصلى فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعة فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما ، فقالت: من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته ، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك ياغلام ؟ قال : الراعى ، قالوا : نبنى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين ، وكانت امرأة من بنى إسرائيل ترضع ابنا لها ، فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه ، ثم مرّ بأمة تجرجر ويلعب بها فقالت: اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت : لم ذاك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون لها زَنيتِ ، وتقول : حسبى الله ونعم الوكيل . ويقولون : سرقت . وتقول : حسبى الله [1] . وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم فى المهد إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون » [2] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويكلم الناس فى المهد وكهلا** ﴾ قال : يكلمهم صغيرا وكبيراً . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الكهل : هو من فى سن الكهولة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الكهل : الحليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويعلمه الكتاب**﴾ قال : الخط بالقلم . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طائرًا واحدًا وهو الخفاش . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ؛ قال : الأكمه : الذى يولد أعمى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الأكمه : الأعمى الممسوح العينين . و أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال : الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . وأخرجوا عن عكرمة قالوا : الأكمه : الأعمش . وأخرج أحمد فى الزهد عن خالد الحذاء قال : كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم : « قولوا كذا ، فإذا وجدتم قشعريرة ودمعة فادعوا عند ذلك » [3] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأنبئكم بما**

---

(١) حديث أبى هريرة عند أحمد ٢/٣٠٧ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٣٦) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٠/٨) .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٣) أحمد فى الزهد (٣٣٤) .

تأكلون ﴾ قال : بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار بن ياسر قال : ﴿أنبئكم بما تأكلون ﴾ من المائدة وما تدخرون منها ، وكان أخذ عليهم فى المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا ، فأكلوا وادخروا وخانوا ، فجعلوا قردة وخنازير [(١)] . وأخرج ابن جرير عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى ، وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس ، وقال لبنى إسرائيل : إنى لم أدعكم إلى خلاف حرف مما فى التوراة ، إلا لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وأضع عنكم من الآصار[(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : كان الذى جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب [(٣)] ، فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرم عليهم الشحوم فأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفى أشياء من السمك ، وفى أشياء من الطير[(٤)] ، وفى أشياء أخر حرمها عليهم وشدد عليهم فيها ، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه فى الإنجيل [(٥)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله [(٦)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وجئتكم بآية من ربكم ﴾ قال : ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾.

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٩٤ . (٢) ابن جرير ٣/ ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) الثروب من (الثَّرْبُ) وهو شحم رقيق على الكرش والأمعاء . اللسان ١/ ٢٣٤ .

(٤) عند ابن جرير ٣/ ١٩٦ بزيادة: « مما لا صيصية له » وصيصية الديك بكسر الصاد الأولى والثانية وفتح الياء الأخيرة ، وجمعها الصياصى وهى الشوكة فى رجل الديك وقرون البقر .

(٥، ٦) ابن جرير ٣/ ١٩٦ .

قوله : ﴿ فلما أحس ﴾ أى علم ووجد ، قاله الزجاج ، وقال أبو عبيدة : معنى أحس عرف . وأصل ذلك وجود الشىء بالحاسة ، والإحساس : العلم بالشىء . قال الله تعالى : ﴿هل تحس منهم من أحد ﴾ [مريم : ٩٨] والمراد بالإحساس هنا : الإدراك القوى الجارى مجرى المشاهدة (١) وبالكفر: إصرارهم عليه . وقيل : سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله . وعلى هذا فمعنى الآية : فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التى هى كفر قال : من أنصارى إلى الله. الأنصار جمع نصير . وقوله : ﴿ إلى الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا، أى متوجها إلى الله أو ملتجئاً إليه أو ذاهبا إليه . وقيل : إلى بمعنى مع، كقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : ٢] . وقيل : المعنى : من أنصارى فى السبيل إلى الله . وقيل: المعنى : من يضم نصرته إلى نصرة الله . والحواريون : جمع حوارى وحوارىّ الرجل: صفوته وخلاصته ، وهو مأخوذ من الحور وهوالبياض عند أهل اللغة ، حوّرت الثياب: بيضتها ، والحوارى من الطعام : ما حوّر ، أى بيض ، والحوارى أيضا : الناصر ، ومنه قوله ﷺ :« لكل نبى حوارىّ وحواريى الزبير » (٢) . وهو فى البخارى وغيره . وقد اختلف فى سبب تسميتهم بذلك، فقيل :لبياض ثيابهم . وقيل : لخلوص نياتهم . وقيل :لأنهم خاصة الأنبياء ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، ومعنى أنصار الله: أنصار دينه ورسله. وقوله : ﴿آمنا بالله﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله ، فإن الإيمان يبعث على النصرة . قوله : ﴿واشهد بأنا مسلمون﴾ أى اشهد لنا يوم القيامة بأنا مخلصون لإيماننا منقادون لما تريد منا .

ومعنى ﴿ بما أنزلت ﴾ : ما أنزله الله سبحانه فى كتبه ، والرسول عيسى . وحذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى اتبعناه فى كل ما يأتى به فاكتبنا مع الشاهدين لك بالوحدانية، ولرسولك بالرسالة ، أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم . وقيل : مع أمة محمد ﷺ. قوله : ﴿ ومكروا ﴾ أى الذين أحس عيسى منهم الكفر ، وهم كفار بنى إسرائيل ، ومكر الله: استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون ، قاله الفراء وغيره . وقال الزجاج : مكر الله: مجازاتهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء كقوله تعالى: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة:١٥] ، ﴿وهو خادعهم ﴾ [النساء : ١٤٢] وأصل المكر فى اللغة : الاغتيال والخدع، حكاه ابن فارس ، وعلى هذا فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة . وقيل:مكر الله: إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه. ﴿ والله خير الماكرين ﴾أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدًا وأقواهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب.

قوله : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ﴾ العامل فى إذ : مكروا ، أو قوله : ﴿ خير الماكرين ﴾ أو فعل مضمر تقديره: وقع ذلك . وقال الفراء : إن فى الكلام تقديمًا وتأخيراً تقديره : إنى رافعك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . وقال أبوزيد :

(١) والحس أيضًا : العطف والرقة .

(٢) أحمد ١٠٢/١ ، ١٠٣ عن على بن أبى طالب والبخارى فى الجهاد (٢٨٤٦) عن جابر .

متوفيك: قابضك . وقال فى الكشاف : مستوفى أجلك ، ومعناه: إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك ، ومُميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم (١) . وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر؛ لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة، كما رجحه كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير الطبرى ، ووجه ذلك أنه قد صح فى الأخبار عن النبى ﷺ نزوله وقتله الدجال (٢) . وقيل : إن الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء ، وفيه ضعف (٣) .وقيل : المراد بالوفاة هنا النوم ، ومثله :﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : ٦٠] أى ينيمكم، وبه قال كثيرون . قوله : ﴿ **ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ أى من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم .

قوله : ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ أى الذين اتبعوا ما جئت به وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا فى الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهًا ، ومنهم المسلمون ، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام، ووصفوه بما يستحقه من دون غلوّ ، فلم يفرطوا فى وصفه كما فرطت اليهود ، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى . وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم . وقيل : المراد بالآية أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم ، فيكون المراد بالذين كفروا :هم اليهود خاصة. وقيل : هم الروم ، لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين . وقيل: هم الحواريون ، لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح . وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار ، أو لكل طوائف الكفار لا ينافى كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين ، كما تفيده الآيات الكثيرة، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل ، قاهرة لها مستعلية عليها . وقد أفردت هذه الآية بمؤلف سميته « وبل الغمامة فى تفسير ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ » ، فمن رام استيفاء ما فى المقام فليرجع إلى ذلك . والفوقية هنا : هى أعم من أن تكون بالسيف أو بالحجة . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويحكم بين العباد بالشريعة المحمدية ، ويكون المسلمون أنصاره وأتباعه إذ ذاك (٤) ، فلا يبعد أن يكون فى هذه الآية إشارة إلى هذه الحالة . قوله : ﴿ **ثم إلى مرجعكم** ﴾ أى رجوعكم ، وتقديم الظرف للقصر ﴿ **فأحكم بينكم** ﴾ يومئذ ﴿**فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ من أمور الدين .

---

(١) الكشاف ١/٣٦٦ .

(٢) حديث النواس بن سمعان وهو عند مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢١٣٧/ ١١٠) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢١) والترمذى فى الفتن (٢٢٤٤) عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصارى من بنى عمرو بن عوف وقال: «حسن صحيح » وقال : « وفى الباب من حديث النواس بن سمعان تحت هذا الرقم أيضًا » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٧٥) .

(٣) أورده ابن كثير ٢/ ٤٤ عن وهب بن منبه .

(٤) من حديث أبى هريرة عند أحمد ٢/ ٢٩٠ ، ٢٩١ والبخارى فى البيوع (٢٢٢٢) ، والترمذى فى الفتن (٢٢٣٣) وقال : « حسن صحيح».

قوله : ﴿ فأما الذين كفروا ﴾ إلى قوله : ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ تفسير للحكم . قوله: ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق بقوله : ﴿ فأعذبهم ﴾ أما تعذيبهم فى الدنيا فبالقتل والسبى والجزية والصغار ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار . قوله : ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ أى يعطيهم إياها كاملة موفرة ، قرئ بالتحتية وبالنون. وقوله : ﴿ لا يحب الظالمين ﴾ كناية عن بغضهم ، وهى جملة تذييلية مقررة لما قبلها . قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره ما بعده ، و ﴿ من الآيات ﴾ حال أوخبر بعد خبر . والحكيم : المشتمل على الحكم أو المحكم الذى لا خلل فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ قال: كفروا وأرادوا قتله ، فذلك حين استنصر قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إنما سُمُّوا الحواريين لبياض ثيابهم ، كانوا صيادين . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : الحواريون : قصارون مرّ بهم عيسى فآمنوا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : الحواريون : هم الذين تصلح لهم الخلافة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أصفياء الأنبياء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الحوارى : الوزير . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة قال : الحوارى : الناصر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع محمد وأمته أنهم شهدوا له أنه قد بلغ، وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال : ﴿ مع الشاهدين ﴾ مع أصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : إن بنى إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت ، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة ، فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ إنى متوفيك ﴾ يقول : مميتك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : متوفيك من الأرض . وأخرج الآخران عنه قال : وفاة المنام . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : هذا من المقدم والمؤخر ، أى رافعك إلىّ ومتوفيك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مطر الوراق قال : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب قال :توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه (٢) . وأخرج ابن عساكر عنه قال : أماته ثلاثة أيام ثم بعثه ورفعه . وأخرج الحاكم عنه قال : توفى الله عيسى سبع

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٠٢ .

(٢) ابن جرير ٣/ ٢٠٣ .

ساعات [١]. وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، والحاكم عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [٢]. وأخرج ابن عساكر عن وهب مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ **ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا** ﴾ قال: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه أيضا. وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يبالون بمن خالفهم حتى يأتي أمر الله » قال النعمان: من قال: إني أقول على رسول الله مالم يقل فإن تصديق ذلك في كتاب الله ، قال الله :﴿ **وجاعل الذين اتبعوك** ﴾ الآية . وأخرج ابن عساكر عن معاوية مرفوعًا نحوه ثم قرأ معاوية الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة، وليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود في شرق ولا غرب ، هم في البلدان كلها مستذلون [٣] .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقًا من غير أب كآدم ، ولا يقدح في التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له ، كما أنه لا أب له ، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجبا وأغرب أسلوبا. وقوله : ﴿**خلقه من تراب** ﴾ جملة مفسرة لما أبهم في المثل ، أي إن آدم لم يكن له أب ولا أم بل خلقه الله من تراب . وفي ذلك دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب وأم . قوله: ﴿ **ثم قال له كن فيكون**﴾ أي كن بشرًا فكان بشرًا. وقوله: ﴿ **فيكون** ﴾ حكاية حال ماضية ، وقد تقدم تفسير هذا .

وقوله : ﴿ **الحق من ربك** ﴾ قال الفراء : هو مرفوع بإضمار هو . وقال أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره قوله : ﴿ **من ربك** ﴾ وقيل : هو فاعل فعل محذوف ، أي جاءك الحق من ربك . قوله : ﴿ **فلا تكن من الممترين**﴾ الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس ، أي لا

---

(١) الحاكم ٢/ ٥٩٦ وقال الذهبي : « فيه عبد المنعم وهو ساقط » .

(٢) ابن سعد ٣/ ٥٩٠ والحاكم ٣/ ٢٦٩ وفيه زيادة ووافقه الذهبي . (٣) ابن جرير ٣/ ٢٠٥ .

يكن أحد منكم ممتريًا ، أو للرسول ﷺ ، ويكون النهى له لزيادة التثبيت ؛ لأنه لا يكون منه شك فى ذلك .

قوله : ﴿ **فمن حاجك فيه** ﴾ هذا وإن كان عامًا فالمراد به الخاص ، وهم النصارى الذين وفدوا إليه ﷺ من نجران ، كما سيأتى بيانه ، ويمكن أن يقال : هو على عمومه وإن كان السبب خاصًا ، فيدل على جواز المباهلة منه ﷺ لكل من حاجه فى عيسى عليه السلام ، وأمته أسوته، وضمير ﴿ **فيه** ﴾ لعيسى ؛ والمراد بمجىء العلم هنا: مجىء سببه، وهو الآيات البينات، والمحاجة: المخاصمة والمجادلة . وقوله : ﴿ **تعالوا** ﴾ أى هلموا وأقبلوا ، وأصله الطلب لإقبال الذوات ، ويستعمل فى الرأى إذا كان المخاطب حاضرا كما تقول لمن هو حاضر عندك : تعال ننظر فى هذا الأمر. قوله : ﴿ **ندع أبناءنا** ﴾ إلخ اكتفى بذكر البنين عن البنات ، إما لدخولهن فى النساء ، أو لكونهم الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن، ومعنى الآية : ليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة ، وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه ﷺ أراد بالأبناء الحسنين كما سيأتى . قوله : ﴿**نبتهل**﴾ أصل الابتهال : الاجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره . يقال : بهله الله ، أى لعنه ، والبهل : اللعن . قال أبو عبيد والكسائى: نبتهل : نلتعن ، ويطلق على الاجتهاد فى الهلاك ، ومنه قول لبيد:

فِى كُهُولٍ سَادَةٍ مِنْ قَوْمِه ... نَظَرَالدَّهْرُ إِلَيْــهم فابْتَهَلْ

أى فاجتهد فى هلاكهم ، قال فى الكشاف : ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا [(١)]. قوله : ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه ﴿ **إن هذا** ﴾ أى الذى قصه الله على رسوله من نبأ عيسى ﴿ **لهو القصص الحق** ﴾ القصص : التتابع، يقال : فلان يقص أثر فلان ، أى يتبعه ، فأطلق على الكلام الذى يتبع بعضه بعضا ، وضمير الفصل للحصر ، ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده ، ويجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره وزيادة «من » فى قوله : ﴿ **من إله** ﴾ لتأكيد العموم ، وهو ردّ على من قال بالتثليث من النصارى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة ؛ أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ فأراد أن يلاعنهما ، فقال أحدهما لصاحبه : لا نلاعنه ، فو الله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح أبدًا نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فقالوا له : نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلا أميناً ، فقال : « قم يا أبا عبيدة» ، فلما قام قال : « هذا أمين هذه الأمة » [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس ؛ أن رهطًا من أهل نجران قدموا على النبى ﷺ

---

(١) الكشاف ١/ ٣٦٨ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٨٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٠/ ٥٥) والترمذى فى المناقب (٣٧٩٦) وقال: « حسن صحيح » .

وكان فيهم السيد والعاقب ، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ قال : من هو ؟ قالوا : عيسى، تزعم أنه عبد الله ، قالوا : فهل رأيت مثل عيسى وأنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل فقال : قل لهم إذا أتوك : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم** ﴾ إلى آخر الآية (١). وقد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من التابعين .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والسيد فدعاهما إلى الإسلام ، فقالا : أسلمنا يامحمد ، فقال :« كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام»، قالا: فهات. قال: « حب الصليب ، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير » ، قال جابر : فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على الغد ، فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه وأقرّا له ، فقال: « والذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر الوادى عليهما نارًا » . قال جابر : فيهم نزلت : ﴿ **تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم** ﴾ الآية (٢) . قال جابر : ﴿**أنفسنا وأنفسكم** ﴾ رسول الله ﷺ وعلىّ ، ﴿**وأبناءنا** ﴾ الحسن والحسين ﴿ **ونساءنا** ﴾ فاطمة . ورواه أيضا الحاكم من وجه آخر عن جابر وصححه ، وفيه أنهم قالوا للنبى ﷺ : هل لك أن نلاعنك (٣) ؟ وأخرج مسلم والترمذى وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن سعد بن أبى وقاص ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال : « اللهم هؤلاء أهلى»(٤). وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه : ﴿**تعالوا ندع أبناءنا** ﴾ الآية ، قال : فجاء بأبى بكر وولده ، وبعمر وولده ، وبعثمان وولده ، وبعلى وولده . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس : ﴿ **ثم نبتهل** ﴾ : نجتهد . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « هذا الإخلاص » يشير بأصبعه التى تلى الإبهام ، « وهذا الدعاء » فرفع يديه حذو منكبيه ، « وهذا الابتهال » فرفع يديه مدًا (٥) .

﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)** ﴾

قيل : الخطاب لأهل نجران ، بدليل ما تقدم قبل هذه الآية . وقيل : ليهود المدينة .

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٠٧ .
(٢) الحاكم ٢/ ٥٩٣ ، ٥٩٤ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٢٩٧ كما روى عن ابن عباس ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٣) الحاكم ٢/ ٥٩٤ .
(٤) مسلم فى فضائل الصحابة (٣٢/٢٤٠٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٩٩) وقال : « حسن غريب صحيح » وصححه الحاكم ٣/ ١٥٠ وقال : « على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى . وإيراد الحاكم له « وهم » رحمه الله ، والبيهقى فى النكاح ٧/ ٦٣ .
(٥) صححه الحاكم ٤/ ٣٢٠ وقال الذهبى : « منكر » .

وقيل: لليهود والنصارى جميعًا ، وهو ظاهر النظم القرآنى ، ولا وجه لتخصيصه بالبعض ؛ لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ . والسواء : العدل . قال الفراء : يقال فى المعنى العدل : سوى وسواء ، فإذا فتحت السين مددت ، وإذا ضممت أو كسرت قصرت . قال زهير :

أرونىّ خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيها ... يسوِّىّ بيننا فيها السَّوَاءُ

وفى قراءة ابن مسعود : « إلى كلمة عدل بيننا وبينكم » (١) ، فالمعنى : أقبلوا إلى مادعيتم إليه وهى الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق ، وقد فسرها بقوله : ﴿**ألا نعبد إلا الله**﴾ وهو فى موضع خفض على البدل من كلمة، أو رفع على إضمار مبتدأ ، أى هى ألا نعبد ، ويجوز أن تكون « أن » مفسرة لا موضع للجملة التى دخلت عليها ، وفى قوله: ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا** ﴾ تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير ، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم ، وإزراء على من قلد الرجال فى دين الله فحلل ما حللوه له، وحرم ما حرموه عليه، فإن من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا ، ومنه : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ [التوبة : ٣١] وقد جوز الكسائى والفراء الجزم فى ﴿**ولا نشرك**﴾ ﴿ **ولا يتخذ** ﴾ على التوهم . قوله : ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عما دعوا إليه ﴿**فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ أى منقادون لأحكامه مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين القويم .

وقد أخرج البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس قال : حدثنى أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم :سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (٢) ، و﴿**يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**﴾ إلى قوله : ﴿ **بأنا مسلمون**﴾ » (٣) . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن كتاب رسول الله ﷺ إلى الكفار : ﴿ **تعالوا إلى كلمة** ﴾ الآية(٤). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى ما فى هذه الآية فأبوا عليه ، فجاهدهم حتى أقروا بالجزية (٥) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء(٦) . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه (٧) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة:

(١) هذه مقالة الفراء فى معانى القرآن ١/ ٢٢٠ .

(٢) اختلفوا فى المراد بهم على أقوال : أصحها وأشهرها : أنهم الأكارون ، أى الفلاحون والزارعون ، ومعناه إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا ؛ لأنهم الأغلب .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٩٣٦) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٣/ ٧٤) والنسائى فى التفسير (٨٤) .

(٤) الطبرانى (١١١٠٣) .

(٥ ـ ٧) ابن جرير ٣/ ٢١٣ .

﴿ **إلى كلمة سواء** ﴾ قال: عدل. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ﴿**ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا**﴾ قال: لا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله، ويقال: إن تلك الربوبية، أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم فى غير عبادة وإن لم يصلوا لهم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا** ﴾ قال : سجود بعضهم لبعض .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾ .

لما ادعت كل واحدة من طائفتى اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، ردّ الله سبحانه ذلك عليهم ، وأبان بأن الملة اليهودية والملة النصرانية إنما كانتا من بعده . قال الزجاج : هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى، أن التوراة والإنجيل نزلا من بعده ، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان واسم الإسلام فى كل كتاب . انتهى . وفيه نظر ، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة ، وذكر شريعة موسى والاحتجاج بها على اليهود ، وكذلك الزبور فيه في مواضع ذكر شريعة موسى ، وفى أوائله التبشير بعيسى ، ثم فى التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدمة ، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة . وقد اختلف فى قدر المدة التى بين إبراهيم وموسى ، والمدة التى بين موسى وعيسى ، قال القرطبى: يقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفا سنة ، وكذا فى الكشاف (١) . قوله : ﴿**أفلا تعقلون** ﴾ أى تتفكرون فى دحوض حجتكم وبطلان قولكم .

قوله: ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاجحتم فيما لكم به علم** ﴾ الأصل فى ها أنتم: أأنتم ، أبدلت الهمزة الأولى هاء لأنها أختها ، كذا قال أبو عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قنبل : « هانتم » . وقيل: الهاء للتنبيه دخلت على الجملة التى بعدها ، أى ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاججتم . وفى : ﴿ **هؤلاء** ﴾ لغتان المد والقصر، والمراد بما لهم به علم : هو ما كان فى التوراة ، وإن خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل ، والذى لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذى كان فيه ، وفى الآية دليل على منع الجدال بالباطل ، بل ورد الترغيب فى ترك الجدال من المحق كما فى حديث : « من

---

(١) القرطبى ٢/ ١٣٤٩ والكشاف ١/ ٣٧١ .

ترك المراء ولو محقا فأنا ضمينه على الله ببيت فى ربض الجنة »[(١)] وقد ورد تسويغ الجدال بالتى هى أحسن لقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ [النحل : ١٢٥]، ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦]ونحو ذلك فينبغى أن يقصرجوازه على المواطن التى تكون المصلحة فى فعله أكثر من المفسدة ، أو على المواطن التى المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة . قوله :﴿ **والله يعلم** ﴾ أى كل شىء فيدخل فى ذلك ما حاججوا به . وقد تقدم تفسير الحنيف .

قوله : ﴿ **إن أولى الناس** ﴾ أى أحقهم به وأخصهم للذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه . ﴿**وهذا النبى** ﴾ يعنى محمدا ﷺ ، أفرده بالذكر تعظيمًا له وتشريفا ، وأولويته ﷺ بإبراهيم من جهة كونه من ذريته ، ومن جهة موافقته لدينه فى كثير من الشريعة المحمدية ﴿ **والذين آمنوا**﴾ من أمة محمد ﷺ .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فنزل فيهم :﴿ **يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم** ﴾ الآية[(٢)] . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية ﴿**ها أنتم هؤلاء حاجحتم فيما لكم به علم**﴾ يقول: فيما شهدتم ورأيتم وعاينتم ﴿ **فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم** ﴾ يقول : فيما لم تشهدوا ولم تروا ولم تعاينوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال :أما الذى لهم به علم فما حرم عليهم وما أمروا به ، وأما الذى ليس لهم به علم فشأن إبراهيم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل . وأخرج ابن جرير عنه ، عن الشعبى فى قوله : ﴿ **ماكان إبراهيم**﴾ قال : أكذبهم الله وأدحض حجتهم . وأخرج أيضا عن الربيع مثله . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن مقاتل بن حيان نحوه .

وأخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب حدثنى ابن غنم ؛ أنه لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى ، فذكر قصتهم معه وما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص : إنهم يشتمون عيسى ، وهى قصة مشهورة ؛ ثم قال : فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم**﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن

(١) الترمذى فى البر والصلة (١٩٩٣) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (٥١) .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤٤ وابن جرير ٣/ ٢١٦ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٨٤ .

رسول الله ﷺ قال: « إن لكل نبى ولاة من النبيين وإن وليى منهم أبى وخليل ربى » ثم قرأ : ﴿ إن أولى الناس﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحكم بن ميناء ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يامعشر قريش ، إن أولى الناس بالنبى المتقون ، فكونوا أنتم سبيل ذلك فانظروا ألا يلقانى الناس يحملون الأعمال ، وتلقونى بالدنيا تحملونها ، فأصد عنكم بوجهى » ثم قرأ عليهم : ﴿إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: كل مؤمن ولى إبراهيم ممن مضى وممن بقى .

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ .

الطائفة من أهل الكتاب : هم يهود بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع ، حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم ، وسيأتى . وقيل: هم جميع أهل الكتاب ، فتكون « من » لبيان الجنس . وقوله : ﴿ **وما يضلون إلا أنفسهم** ﴾ جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين فى الإيمان ، فلا يعود وبال من أراد فتنتهم إلا عليه . والمراد بآيات الله : ما فى كتبهم من دلائل نبوة محمد ﷺ ﴿ **وأنتم تشهدون** ﴾ ما فى كتبكم من ذلك ، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرون بنبوتهم ، أو المراد : كتم كل الآيات عنادا وأنتم تعلمون أنها حق . ولبس الحق بالباطل :خلطه بما يتعمدونه من التحريف ﴿**وأنتم تعلمون** ﴾ جملة حالية .

قوله : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب** ﴾ هم رؤساؤهم وأشرافهم ، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. ووجه النهار : أوله ، وسمى وجهًا ؛ لأنه أحسنه . قال :

تُضِيءُ فى وَجْهِ النَّهار مُنِيرةً   كجُمَانَة البحرى سُلَّ نظامُها

وهو منصوب على الظرف ، أمروهم بذلك لإدخال الشك على المؤمنين ، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم واعتراه الشك،

---

(١) أحمد ١/ ٤٠١ والترمذى (٢٩٩٥) وقال :«هذا أصح من حديث أبى الضحى عن مسروق» وأبو الضحى اسمه سلم بن صبيح ، وابن جرير: ٣/ ٢١٨ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٢ وقال : «على شرطيهما » ووافقه الذهبى .

وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين ، ومكن أقدامهم ، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله ، ولا تحركهم ريح المعاندين .

قوله : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض ، أي قال ذلك الرؤساء للسفلة : لا تصدقوا تصديقاً صحيحًا إلا لمن تبع دينكم من أهل الملة التي أنتم عليها ، وأما غيرهم ممن قد أسلم فأظهروا لهم ذلك خداعًا ﴿ **وجه النهار واكفروا آخره** ﴾ ليفتتنوا ،ويكون قوله : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ على هذا متعلقًا بمحذوف ، أي فعلتم ذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم ، وقوله : ﴿ **أو يحاجوكم** ﴾ معطوف على ﴿ **أن يؤتى** ﴾ أي لا تؤمنوا إيمانًا صحيحًا وتقروا بما في صدوركم إقرارًا صادقًا لغير من تبع دينكم، فعلتم ذلك ودبرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق .

وقوله : ﴿ **إن الهدى هدى الله** ﴾ جملة اعتراضية . وقال الأخفش : المعنى : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ولا تصدقوا أن يحاجوكم ، فذهب إلى أنه معطوف. وقيل: المراد : لا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره إلا لمن تبع دينكم، أي لمن دخل في الإسلام وكان من أهل دينكم قبل إسلامه ؛ لأن إسلام من كان منهم هو الذي قتلهم غيظا ، وأماتهم حسرة وأسفًا ، ويكون قوله : ﴿ **أن يؤتى** ﴾ على هذا متعلقا بمحذوف كالأول. وقيل: إن قوله : ﴿ **أن يؤتى** ﴾ متعلق بقوله :﴿ **لا تؤمنوا** ﴾ أي لا تظهروا إيمانكم بـ ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ أي أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه إلا لأتباع دينكم . وقيل : المعنى : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، بالمد على الاستفهام تأكيدا للإنكار الذي قالوه أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، فتكون على هذا « أن » وما بعدها في محل رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره : تصدقون بذلك ، ويجوز أن تكون في محل نصب على إضمار فعل تقديره : تقرون أن يؤتى . وقد قرأ : « آن يؤتى » بالمد ابن كثير وابن محيصن وحميد . وقال الخليل: « أن » في موضع خفض والخافض محذوف . وقال ابن جريج : المعنى : و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى . وقيل : المعنى : لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا من تبع دينكم ، لئلا يكون ذلك سببا لإيمان غيرهم بمحمد ﷺ . وقال الفراء : يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله : ﴿ **إلا لمن تبع دينكم** ﴾ ثم قال الله لمحمد ﷺ :﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ أي إن البيان الحق بيان الله ، بين ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على تقدير « لا » كقوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٧٦] أي لئلا تضلوا .

و « أو » في قوله : ﴿ **أو يحاجوكم** ﴾ بمعنى حتى [١] ، وكذلك قال الكسائي ، وهي

---

(١) كما قال امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

عند الأخفش عاطفة ، كما تقدم . وقيل : إن هدى الله بدل من الهدى، وأن يؤتى خبر « إن» على معنى : قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وقد قيل : إن هذه الآية أعظم آى هذه السورة إشكالا وذلك صحيح. وقرأ الحسن :« يؤتى » بكسر التاء الفوقية . وقرأ سعيد بن جبير : « إن يؤتى » بكسر الهمزة على أنها النافية . وقوله : ﴿ **يختص برحمته من يشاء**﴾ قيل: هى النبوة . وقيل : أعم منها ، وهو ردّ عليهم ودفع لما قالوه ودبروه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سفيان قال : كل شيء فى آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو فى النصارى ، ويدفع هذا أن كثيرًا من خطابات أهل الكتاب المذكورة فى هذه السورة لا يصح حملها على النصارى البتة ، ومن ذلك هذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها ، فإن الطائفة التى ودت إضلال المسلمين ، وكذلك الطائفة القائلة : ﴿ **آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار** ﴾ هى من اليهود خاصة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ قال : تشهدون أن نعت نبى الله محمد فى كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل النبى الأمى(١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله . وأخرجا أيضا عن السدى نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج : ﴿**وأنتم تشهدون**﴾ على أن الدين عند الله الإسلام ليس لله دين غيره . وأخرجا عن الربيع فى قوله : ﴿ **لم تلبسون الحق بالباطل** ﴾ يقول : لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره الإسلام ﴿ **وتكتمون الحق** ﴾ يقول : تكتمون شأن محمد ، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة مثله .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن الصيف وعدىّ بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم . فأنزل الله فيهم : ﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل**﴾ إلى قوله : ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ (٢) . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة من طريق أبى ظبيان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقالت طائفة . . .**﴾ الآية . قال : كانوا يكونون معهم أول النهار ويجالسونهم ويكلمونهم ، فإذا أمسوا وحضرت الصلاة كفروا به وتركوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٢٠ .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤٤ ، ١٤٥ وابن جرير ٣/ ٢٢٠ .

قال: هذا قول بعضهم لبعض. وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج أيضا عن السدى نحوه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ حسدًا من يهود أن تكون النبوة فى غيرهم ، وإرادة أن يتابعوا على دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك وسعيد بن جبير : ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ قال : أمة محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ؛ قال الله لمحمد ﷺ :﴿ إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يا أمة محمد ﴿ أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ يقول اليهود: فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن والسلوى ، فإن الذى أعطيتكم أفضل فقولوا : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يقول : لما أنزل الله كتابًا مثل كتابكم وبعث نبيا كنبيكم حسدتموه على ذلك ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج : ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم ﴾ يقول: هذا الأمر الذى أنعم الله عليه ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ قال : قال بعضهم لبعض :لا تخبروهم بما بين الله لكم فى كتابه لـ﴿ يحاجوكم ﴾ قال : ليخاصموكم به ﴿ عند ربكم ﴾ فتكون لهم حجة عليكم ﴿ قل إن الفضل بيد الله ﴾ قال: الإسلام ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ قال : القرآن والإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ قال : النبوة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: رحمته : الإسلام يختص بها من يشاء .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾ .

هذا شروع فى بيان خيانة اليهود فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين . والجار والمجرور فى قوله : ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ فى محل رفع على الابتداء على مامر فى قوله: ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] وقد تقدم تفسير القنطار. وقوله : ﴿ تأمنه ﴾ هذه قراءة الجمهور . وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلى : « تيمنه » ، بكسر التاء الفوقية على لغة بكر وتميم ، ومثله قراءة من قرأ : « نِستعين » [الفاتحة : ٥] بكسر النون . وقرأ نافع والكسائى : ﴿ يؤده ﴾ بكسر الهاء فى الدرج. قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وحمزة وعاصم فى رواية أبى

بكر على إسكان الهاء . قال النحاس : إسكان الهاء لا يجوز إلا فى الشعر عند بعض النحويين. وبعضهم لا يجيزه البتة ، ويرى أنه غلط من قرأ به ، ويوهم أن الجزم يقع على الهاء ، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه شيء من هذا ، والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء. وقال الفراء : مذهب بعض العرب بسكون الهاء إذا تحرك ما قبلها ، فيقولون : ضربته ضربًا شديدًا ، كما يسكنون ميم أنتم وقمتم ، وأنشد:

لما رأى أن لا دَعَــهْ وَلاشِبَعْ   مال إلى أرْطاة (١) حِقْفٍ فاضَّطجَع

وقرأ أبو المنذر سلام والزهرى « يؤده » بضم الهاء بغير واو . وقرأ قتادة وحمزه ومجاهد: « يؤدهو » بواو فى الإدراج(٢) ، ومعنى الآية : أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذى يؤدى أمانته وإن كانت كثيرة ، وفيهم الخائن الذى لا يؤدى أمانته وإن كانت حقيرة . ومن كان أمينًا فى الكثير فهو فى القليل أمين بالأولى . ومن كان خائنًا فى القليل فهو فى الكثير خائن بالأولى . وقوله : ﴿ **إلا مادمت عليه قائما** ﴾ استثناء مفرغ ، أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال إلا مادمت عليه قائما مطالبًا له مضيقًا عليه ، متقاضيًا لردّه ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله : ﴿ **لا يؤده** ﴾. والأميون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب ، أى ليس علينا فى ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا فى ديننا ، وادّعوا ، لعنهم الله ، أن ذلك فى كتابهم، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾.

﴿ **بلى** ﴾ أى بلى عليهم سبيل ؛ لكذبهم واستحلالهم أموال العرب ، فقوله : ﴿ **بلى** ﴾ « إثبات لما نفوه من السبيل». قال الزجاج : تم الكلام بقوله : ﴿ **بلى** ﴾ ثم قال : ﴿ **من أوفى بعهده واتقى** ﴾ وهذه جملة مستأنفة ، أى من أوفى بعهده واتقى فليس من الكاذبين ، أو فإن الله يحبه ، والضمير فى قوله : ﴿ **بعهده** ﴾ راجع إلى « من » ، أو إلى الله تعالى، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى « مَن » ، أى فإن الله يحبه .

قوله : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله** ﴾ أى يستبدلون ، كما تقدم تحقيقه غير مرة ، وعهد الله : هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبى ﷺ ، والأيمان :هى التى كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به وينصرونه ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية. ﴿**أولئك** ﴾ أى الموصوفون بهذه الصفة ﴿ **لا خلاق لهم فى الآخرة** ﴾ أى لا نصيب ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ بشيء أصلا ، كما يفيده حذف المتعلق من التعميم أو لا يكلمهم بما يسرهم ﴿ **ولا ينظر إليهم يوم القيامة** ﴾ نظر رحمة ، بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم كما يفيده قوله : ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن**

---

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى ، وهو شجر من شجر الرمل ، والحقف ـ بالكسر: ما اعوج من الرمل . اللسان ٥٢/٩ .

(٢) القرطبى ١٣٠٨/٢ .

تأمنه بقنطار يؤده إليك ﴾ قال : هذا من النصارى **﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار ﴾** قال : هذا من اليهود **﴿ إلا مادمت عليه قائمًا ﴾** قال : إلا ما طالبته واتبعته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : **﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾** قال : قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل . وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : **﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾** قال النبى ﷺ : « كذب أعداء الله ، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»(١). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن صعصعة أنه سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا فى ذلك من بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : **﴿ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾** إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفوسهم (٢) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى ﴾** يقول : اتقى الشرك. **﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾** يقول : الذين يتقون الشرك .

وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان » فقال الأشعث بن قيس : فىّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى، فقدمته إلى النبى ﷺ ، فقال لى رسول الله ﷺ :« ألكَ بينة ؟» قلت : لا ، قال لليهودى : «احلف » ، فقلت : إذن يحلف فيذهب مالى ، فأنزل الله: **﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾** إلى آخر الآية (٣) . وقد روى أن سبب نزولها مخاصمة كانت بين الأشعث وامرئ القيس ورجل من حضر موت ، أخرجه النسائى وغيره (٤) .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٢٧ . قال الشيخ أحمد شاكر : «هو حديث مرفوع ، ولكنه مرسل ؛ لأن سعيد بن جبير تابعى ، وإسناده إليه إسناد جيد ».

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الأموال ص ١٤٩ رقم ٤١٥ والبيهقى ٩/ ١٩٨ وأورده ابن كثير فى التفسير ٢/ ٥٩ عن عبد الرزاق فى تفسيره .والدر المنثور ٢/ ٤٤ ونسبه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وساقه الزمخشرى فى تفسيرالآية بنص أبى جعفر .

(٣) أحمد ١/ ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٦٠ ، ٥/ ٢١١ ـ ٢١٣ ، والبخارى فى المساقاة (٢٣٥٦ ، ٢٣٥٧) وفى المحصنات (٢٤١٦ ، ٢٤١٧) وفى الرهن (٢٥١٥ ، ٢٥١٦) ومسلم فى الإيمان (١٣٨ / ٢٢٠) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٤٣) والترمذى فى التفسير (٢٩٩٦) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٧) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٢٣) .

(٤) النسائى فى التفسير (٨٣) والطبرانى (١٠٤٧٨) .

أى طائفة من اليهود﴿ يلوون ﴾ أى يحرفون ويعدلون به عن القصد . وأصل اللىّ : الميل ، يقولون : لوى برأسه : إذا أماله. وقرئ : « يلوّون » بالتشديد ، و: « يلون » بقلب الواو همزة ، ثم تخفيفها بالحذف ، والضمير فى قوله : ﴿لتحسبوه﴾ : يعود إلى مادلّ عليه : ﴿ يلوون ﴾ وهو المحرف الذى جاؤوا به . قول : ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ جملة حالية، وكذلك قوله : ﴿ وما هو من عند الله ﴾ وكذلك قوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أى أنهم كاذبون مفترون .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم ﴾ قال : هم اليهود، كانو يزيدون فى الكتاب ما لم ينزل الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال : يحرفونه .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) ﴾ .

أى ما كان ينبغى ولا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة ، وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى عليه السلام مالم يصح عنه ، ولا ينبغى أن يقوله . والحكم : الفهم والعلم. قوله : ﴿ ولكن كونوا ﴾ أى ولكن يقول النبى : كونوا ربانيين . والربانى : منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة ، كما يقال لعظيم اللحية : لحيانى ، ولعظيم الجمة : جمانى ، ولغليظ الرقبة :رقبانى . قيل : الربانى : الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدى بالرب سبحانه فى تيسير الأمور . وقال المبرد: الربانيون: أرباب العلم ، واحدهم ربانى ، من قوله : ربه يربه فهو ربان : إذا دبره وأصلحه ، والياء للنسب ، فمعنى الربانى : العالم بدين الرب ، القوى التمسك بطاعة الله . وقيل : العالم الحكيم . قوله : ﴿ بما كنتم تعلمون ﴾ أى بسبب كونكم عالمين ، أى كونوا ربانيين بهذا السبب ، فإن حصول العلم للإنسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التى هى التعليم للعلم وقوة التمسك بطاعة الله ، وقرأ ابن عباس وأهل الكوفة :« بما كنتم تعلمون » بالتشديد ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد قال : لأنها لجمع المعنيين . قال مكى : التشديد أبلغ ؛ لأن العالم قد يكون عالما بغير معلم ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط . واختار القراءة الثانية أبو حاتم. قال أبو عمرو : وتصديقها : ﴿ تدرسون ﴾ بالتخفيف دون التشديد . انتهى . والحاصل أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الربانى على أمر زائد على العلم والتعليم ، ،وهو أن يكون مع ذلك مخلصًا أو حكيمًا أو حليما حتى تظهر السببية ؛ ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الربانى على العالم الذى يعلم الناس ، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب

كونكم علماء وبسبب كونكم تدرسون العلم . وفى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه .

قوله : ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا** ﴾ بالنصب عطفا على :﴿ **ثم يقول**﴾ ، « ولا » مزيدة لتأكيد النفى ، أى ليس له أن يأمر بعبادة نفسه ولا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا بل ينتهى عنه ، ويجوز عطفه على أن يؤتيه ، أى ما كان لبشر أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ؛ وبالنصب قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ، ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود : « ولن يأمركم » . والهمز فى قوله : ﴿ **أيأمركم** ﴾ لإنكار ما نفى عن البشر . وقوله : ﴿ **بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ استدل به من قال : إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبى ﷺ من المسلمين فى أن يسجدوا له .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ؛ عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظى ،حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو أن نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى » فأنزل الله فى ذلك :﴿ **ما كان لبشر** ﴾ الآية[1] . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: بلغنى أن رجلا قال : يارسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : « لا ، ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله » فأنزل الله : ﴿ **ما كان لبشر . . .**﴾ الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ربانيين** ﴾ قال : فقهاء علماء. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : حكماء علماء حلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : علماء فقهاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : حكماء علماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى رزين فى قوله : ﴿ **وبما كنتم تدرسون** ﴾ قال : مذاكرة الفقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة** ﴾ قال : ولا يأمرهم النبى .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) ﴾ .

قد اختلف فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ فقال سعيد بن جبير

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ١٤٥ وابن جرير ٣/ ٢٣٢ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٨٤ .

وقتادة وطاوس والحسن والسدى : إن أخذ الله ميثاق الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضًا بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضا بذلك ، فهذا معنى النصرة له والإيمان به، وهو ظاهر الآية ، فحاصله : أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره . وقال الكسائى : يجوز أن يكون معنى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ بمعنى : وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » . وقيل : فى الكلام حذف . والمعنى : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا ، ودل على هذا الحذف قوله : ﴿ **وأخذتم على ذلكم إصرى** ﴾ . و « ما » فى قوله : ﴿ **لما آتيتكم** ﴾ بمعنى الذى . قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم** ﴾ فقال : « ما » بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير فى قول الخليل : الذى آتيتكموه ، ثم حذفت الهاء لطول الاسم ، واللام لام الابتداء ، وبهذا قال الأخفش ، وتكون « ما » فى محل رفع على الابتداء وخبرها من كتاب وحكمة .

وقوله : ﴿ **ثم جاءكم** ﴾ وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد محذوف ، أى مصدق به . وقال المبرد والزجاج والكسائى : « ما » شرطية دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على « إن » ، و ﴿ **ولتؤمنن به** ﴾ جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف كما تقول : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، وهو سادّ مسادّ الجزاء . وقال الكسائى: إن الجزاء قوله : ﴿ **فمن تولى** ﴾ . وقال فى الكشاف : إن اللام فى قوله : ﴿ **لما آتيتكم** ﴾ لام التوطئة واللام فى قوله : ﴿ **لتؤمنن** ﴾ جواب القسم ، و « ما » يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط و﴿ **لتؤمنن** ﴾ سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعا ، وأن تكون موصولة بمعنى الذى آتيتكموه لتؤمنّ به . انتهى [(١)] . وقرأ حمزة : « لماآتيتكم » بكسر اللام « وما » بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ . وقرأ أهل المدينة : « آتيناكم » على التعظيم . وقرأ الباقون : ﴿ **آتيتكم** ﴾ على التوحيد . وقيل : إن « ما » فى قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرية ومعناه : لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم لمجىء رسول مصدق لما معكم ، واللام لام التعليل ، أى لأجل ذلك أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به .

قوله: ﴿ **أقررتم** ﴾ هو من الإقرار . والإصرار فى [(٢)] اللغة : الثقل ، سمى العهد إصرًا؛ لما فيه من التشديد . والمعنى : وأخذتم على ذلك عهدى . قوله : ﴿ **قالوا أقررنا**﴾ جملة استئنافية، كأنه قيل : ماذا قالوا عند ذلك ؟ فقيل : قالوا : أقررنا ، وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك . قوله : ﴿ **قال فاشهدوا** ﴾ أى قال الله سبحانه فاشهدوا ، أى ليشهد

---

(١) الكشاف ١/ ٣٧٩ .

(٢) الإصرار : التعقد فى الذنب والتشدد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه ، وأصله من الصَّر ، أى الشد ، والإصرار : كل عزم شددت عليه ، يقال: هذا منى صرى وأصرى وأصرى ، والصرورة من الرجال والنساء : الذى لم يحجِ ، والذى لا يريد التزوج . وقيل : الصرة : الصيحة. اللسان ٤/ ٢٢ .

بعضهم على بعض ﴿ **وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ أى وأنا على إقرار كم وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين . قوله : ﴿ **فمن تولى** ﴾ أى أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أى الخارجون عن الطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرؤون : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب وحكمة » ونحن نقرأ : ﴿ **ميثاق النبيين** ﴾ فقال ابن عباس : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن طاوس فى الآية ؛ قال : ﴿ **أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ أن يصدق بعضهم بعضا [(١)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ قال : هى خطأ من الكتاب ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « ميثاق الذين أوتوا الكتاب » [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن على قال : لم يبعث الله نبيًا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين...** ﴾ الآية [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية نحوه [(٤)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله : ﴿ **إصرى** ﴾ قال : عهدى. وأخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ **قال فاشهدوا** ﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ﴿ **وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ عليكم وعليهم ﴿ **فمن تولى** ﴾ عنك يامحمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ هم العاصون فى الكفر .

﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾ .

قوله : ﴿ **أفغير** ﴾ عطف على مقدر ، أى أتتولون فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول؛

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٣٦ .

(٢) ابن جرير ٣/ ٢٣٦ . وقال الشيخ أحمد شاكر :« بمثل هذا الأثر يستدل من يستدل من جهلة المستشرقين وأشياعهم على الخطأ والتحريف فى كتاب الله المحفوظ ، وهم لم يكونوا أول من قال به ، بل سبقهم إليه أسلافهم من غلاة الرافضة وأشياعهم من الملحدة ، ولم يقصر علماء الإسلام فى بيان ما قالوه ، وفى تعقب آرائهم وبيان فسادها ووهن حجيتها » تفسير الطبرى ٦/ ٥٥٣ ، ٥٥٤ هامش .

(٣) ابن جرير ٣/ ٢٣٦ . (٤) المرجع السابق ٣/ ٢٣٧ .

لأنه المقصود بالإنكار . وقرأ أبو عمرو وحده : ﴿ **يبغون** ﴾ بالتحتية و « ترجعون » بالفوقية قال : لأن الأول خاص ، والثانى عام ، ففرق بينهما لافتراقهما فى المعنى . وقرأ حفص بالتحتية فى الموضعين . وقرأ الباقون بالفوقية فيهما ، وانتصب ﴿ **طوعًا وكرهاً** ﴾ على الحال ، أى طائعين ومكرهين . والطوع : الانقياد والاتباع بسهولة ، والكره ما فيه مشقة وهومن أسلم مخافة القتل ، وإسلامه استسلام منه .

قوله: ﴿ **آمنا** ﴾ إخبار منه ﷺ عن نفسه وعن أمته ﴿ **لا نفرق بين أحد منهم** ﴾ كما فرقت اليهود والنصارى ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقد تقدم تفسير هذه الآية . ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أى منقادون مخلصون . قوله: ﴿**دينا**﴾ مفعول للفعل ، أى يبتغ دينًا حال كونه غير الإسلام ، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل ، ودينًا إما تمييز أو حال إذا أول بالمشتق ، أو بدل من غير . قوله : ﴿ **وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ إما فى محل نصب على الحال ، أو جملة مستأنفة ، أى من الواقعين فى الخسران يوم القيامة .

وقد أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن النبى ﷺ، فى قوله: ﴿ **وله أسلم من فى السموات والأرض** ﴾ قال: «أما من فى السموات فالملائكة، وأما من فى الأرض فمن ولد على الإسلام وأما كرهًا فمن أتى به من سبايا الأمم فى السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنة وهم كارهون »[(١)]. وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية : « الملائكة أطاعوه فى السماء ، والأنصار وعبد القيس أطاعوه فى الأرض » [(٢)]. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال فى الآية: ﴿ **أسلم من فى السموات والأرض** ﴾ حين أخذ عليهم الميثاق. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وله أسلم** ﴾ قال: المعرفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : أما المؤمن فأسلم طائعا فنفعه ذلك وقبل منه ، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه ذلك ولم يقبل منه ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ [غافر: ٨٥]. وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: « من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقرؤوا فى أذنه: ﴿ **أفغير دين الله يبغون** ﴾ » [(٣)]. وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن يونس بن عبيد قال : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ فى أذنها: ﴿ **أفغير دين الله يبغون** ﴾ الآية ، إلا ذلت بإذن الله عز وجل.

وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة ، فتقول : يارب ، أنا الصلاة ، فيقول : إنك على خير ، وتجىء الصدقة ، فتقول : يارب ، أنا الصدقة فيقول : إنك على خير ، ويجىء الصيام ،

---

(١) الطبرانى عن ابن عباس (١١٤٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٢٩ : « فيه محمد بن محصن العكاشى ، وهو متروك » .

(٢) الديلمى فى الفردوس (٧١٨١) .

(٣) عزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٩ للطبرانى فى الأوسط ، وقال : « وفيه محمد بن عبد الله بن عقيل بن عمير، وهو متروك » وأورده الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٦٧٦) .

فيقول: أنا الصيام ، فيقول : إنك على خير ، ثم تجيء الأعمال ، كل ذلك يقول الله : إنك على خير ، ثم يجيء الإسلام ، فيقول : يارب أنت السلام وأنا الإسلام ، فيقول : إنك على خير ، بك اليوم آخذ ، وبك أعطى قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ » (١) .

﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **كيف يهدى الله قوما** ﴾ هذا الاستفهام معناه الجحد ، أى لا يهدى الله ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله ﴾ [التوبة : ٧] أى لا عهد لهم، ومثله قول الشاعر :

كَيْفَ نَوْمِى عَلَى الفِراش ولما ... تَشْمل الشَّامَ غَارة شَعْواءُ

أى لا نوم لى . ومعنى الآية : لا يهدى الله قومًا إلى الحق كفروا بعد إيمانهم ، وبعد ما شهدوا أن الرسول حق، وبعد ماجاءتهم البينات من كتاب الله سبحانه ، ومعجزات رسول الله ﷺ . وقوله : ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ جملة حالية ، أى كيف يهدى المرتدين ، والحال أنه لا يهدى من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم ، ومنهم الباقون على الكفر ، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر ،لأن المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنادًا وتمردًا .

قوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التى بعده . وقد تقدم تفسير اللعن . وقوله : ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ معناه : يؤخرون ويمهلون ثم استثنى التائبين، فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد الارتداد ﴿**وأصلحوا** ﴾ بالإسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة ، وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصًا ، ولا خلاف فى ذلك فيما أحفظ .

قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفرًا** ﴾ قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن : نزلت فى اليهود

(١) أحمد ٢/ ٣٦٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٣٤٨ : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه عباد بن راشد وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح ».

والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ﴿ **ثم ازدادوا كفراً** ﴾ بإقامتهم على كفرهم. وقيل : ازدادوا كفرا بالذنوب التي اكتسبوها ، ورجحه ابن جرير الطبرى وجعلها فى اليهود خاصة (١) . وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى : ﴿ **فلن تقبل توبتهم** ﴾ مع كون التوبة مقبولة كما فى الآية الأولى ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده﴾ [الشورى: ٢٥] وغير ذلك ، فقيل المعنى : لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس: وهذا قول حسن كما فى قوله تعالى: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ [النساء : ١٨] وبه قال الحسن وقتادة وعطاء ، ومنه الحديث : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »(٢). وقيل المعنى : لن تقبل توبتهم التى كانوا عليها قبل أن يكفروا ؛ لأن الكفر أحبطها (٣) . وقيل : لن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر ، والأولى أن يحمل عدم قبولهم التوبة فى هذه الآية على من مات كافراً غير تائب ، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة ، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية ، وهى قوله : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار** ﴾ فى حكم البيان لها .

قوله : ﴿ **ملء الأرض ذهبًا** ﴾ الملء بالكسر: مقدار(٤) ما يملأ الشىء . والملء بالفتح: مصدر ملأت الشىء ، و ﴿**ذهبًا** ﴾ تمييز ، قاله الفراء وغيره ، وقال الكسائى : نصب على إضمار من ذهب . كقوله : ﴿ أو عَدْل ذلك صياما ﴾ [المائدة : ٩٥] أى من صيام . وقرأ الأعمش : « ذهب » بالرفع على أنه بدل من ملء ، والواو فى قوله: ﴿ **ولو افتدى به** ﴾ قيل: هى مقحمة زائدة ، والمعنى : لو افتدى به . وقيل : فيه حمل على الغنى ، كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا . وقيل : هو عطف على مقدر ، أى لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب، أى بمثله .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالمشركين ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ : هل لى من توبة ؟ فنزلت : ﴿ **كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم** ﴾ إلى قوله :﴿ **غفور رحيم** ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم(٥) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وقال : هو الحارث بن سويد (٦) .

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٤٣ .

(٢) فى المخطوطة :« يغرر» وهو تصحيف ، والحديث من رواية عبد الله بن عمر عند أحمد ٢/ ١٣٢ ، ١٥٣ والترمذى فى الدعوات (٣٥٣٧) وقال: « حسن غريب» وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٣) إلا أنه قال: «عن عبد الله بن عمرو ، وهو وهم منه »، قاله المزى فى تحفة الأشراف ٥/ ٣٢٨ .

(٣) فى المطبوعة: « أحبط» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) فى المطبوعة: « مقدارًا » والصحيح « مقدار» كما هو فى المخطوطة .

(٥) النسائى فى تحريم الدم ٧/ ١٠٧ وفى التفسير (٨٥) وابن جرير ٣/ ٢٤١ ، ٢٤٢ وابن حبان فى الردة (٤٤٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦ ووافقه الذهبى فى الموضعين ، والبيهقى ٨/ ١٩٧ .

(٦) ابن جرير ٣/ ٢٤٢ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس نحوه أيضا [١] . وقد روى عن جماعة نحوه أيضا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿**كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم**﴾ قال : هم أهل الكتاب من اليهود ، عرفوا محمدا ثم كفروا به [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وذكر نحو ما تقدم عنه[٣]. وأخرج البزار عن ابن عباس : أن قومًا أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا**﴾ قال السيوطى :هذا خطأ من البزار[٤] .

وأخرج ابن جرير عن الحسن فى الآية قال : اليهود والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هم اليهود كفروا بالإنجيل وعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية قال : إنما نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفرا بذنوب أذنبوها ، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب فى كفرهم ، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم ولكنهم على الضلالة [٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفرا** ﴾ قال : نموا على كفرهم . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفرا** ﴾ قال : ماتوا وهم كفار ﴿ **لن تقبل توبتهم** ﴾ قال : إذا تاب عند موته لم تقبل توبته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿**لن تقبل توبتهم** ﴾ قال : تابوا من الذنوب ولم يتوبوا من الأصل .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وماتوا وهم كفار** ﴾ قال : هو كل كافر .وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس عن النبى ﷺ قال : « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديًا به ؟» فيقول : نعم ، فيقال له :« لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . . .** ﴾ » الآية [٦] .

﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (٩٢) ﴾ .

هذا كلام مستأنف ، خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار . قوله : ﴿ **لن تنالوا البر** ﴾ يقال : نالنى من فلان معروف ينالنى ، أى وصل إلى .والنوال : العطاء ، من قولك: نولته تنويلا : أعطيته . والبر : العمل الصالح . وقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد

---

(١) ابن إسحاق ٣/ ٣٤ ، ٣٥ . (٢،٣) ابن جرير ٣/ ٢٤٢ .
(٤) السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٤٩ . (٥) ابن جرير ٣/ ٢٤٤ .
(٦) البخارى فى الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٥٧) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٥) وأحمد ٣/ ٢١٨ .

وعمرو بن ميمون والسدى : هو الجنة ، فمعنى الآية : لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة ، أى تصلوا إلى ذلك وتبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون ، أى حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها ، و « من » : تبعيضية، ويؤيده قراءة ابن مسعود : « حتى تنفقوا بعض ما تحبون » . وقيل : بيانية و« ما» موصولة أو موصوفة ، والمراد : النفقة فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات .وقيل: المراد الزكاة المفروضة .وقوله :﴿ من شىء ﴾ بيان لقوله :﴿ ما تنفقوا ﴾ أى ما تنفقوا من أى شىء سواء كان طيبًا أو خبيثًا ﴿ فإن الله به عليم ﴾ و « ما » شرطية جازمة . وقوله : ﴿ فإن الله به عليم ﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ؛ أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ، إن أحب أموالى الىّ بيرحاء (١) ، وإنها صدقة . الحديث. وقد روى بألفاظ (٢) . وأخرج عبد بن حميد والبزار عن ابن عمر قال : حضرتنى هذه الآية : ﴿ لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فذكرت ما أعطانى الله ، فلم أجد شيئًا أحب إلىَّ من مرجانة جارية لى رومية ، فقلت : هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله لنكحتها، فأنكحتها نافعًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر بن الخطاب ؛ أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء ، فدعا بها عمر فقال : إن الله يقول : ﴿ لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فأعتقها عمر (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ؛ أنها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها : سبل ، لم يكن له مال أحب إليه منها ، فقال: هى صدقة (٤) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر ﴾ قال : الجنة. وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون والسدى مثله . وأخرج ابن المنذر عن مسروق مثله .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾ .

---

(١) بيرحاء : هى اسم مال وموضع بالمدينة وهى الأرض الظاهرة . النهاية فى غريب الحديث ١/ ١١٤ .

(٢) أحمد ٣/ ٢٨٥ والبخارى تعليقًا فى الوصايا (٥/ ٧٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩٨/ ٤٢) وأبو داود فى الزكاة (١٦٨٩) والنسائى فى الأحباس ٦/ ٢٣١، ٢٣٢ .

(٣) ابن جرير ٣/ ٢٤٦ .

(٤) أشار إليه السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٥٠ ولم يذكر لفظه ولم ينسبه لغير الطبرى وذكر قبله حديثًا مثله عن محمد بن المنكدر وهو حديث مرسل أيضًا ، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . وابن جرير ٣/ ٢٤٧ وفيه زيادة .

قوله : ﴿ كل الطعام ﴾ أى المطعوم ، والحل مصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث وهو الحلال ، و﴿إسرائيل ﴾ هو يعقوب كما تقدم تحقيقه . ومعنى الآية : أن كل المطعومات كانت حلالا لبنى يعقوب لم يحرم عليهم شىء منها إلا ماحرم إسرائيل على نفسه ، وسيأتى بيان ما هو الذى حرمه على نفسه ، وهذا الاستثناء متصل من اسم كان . وقوله : ﴿من قبل أن تنزل التوراة ﴾ متعلق بقوله :﴿ كان حلا ﴾ أى أن كل المطعومات كانت حلالا ﴿من قبل أن تنزل التوراة ﴾ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم ، وفيه ردّ على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم وبغيهم كما فى قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ الآية[النساء: ١٦٠] . وقوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ إلى قوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ [الأنعام : ١٤٦] وقالوا إنها محرمة على من قبلهم من الأنبياء ، يريدون بذلك تكذيب ما قصه الله على نبينا ﷺ فى كتابه العزيز ، ثم أمره الله سبحانه بأن يحاجهم بكتابهم ، ويجعل بينه وبينهم حكمًا ما أنزله الله عليهم ، لا ما أنزله عليه فقال : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ حتى تعلموا صدق ما قصه الله فى القرآن ، من أنه لم يحرم على بنى إسرائيل شىء من قبل نزول التوراة إلا ماحرمه يعقوب على نفسه . وفى هذا من الإنصاف للخصوم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه .

ثم قال : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ أى من بعد إحضار التوراة وتلاوتها ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ أى المفرطون فى الظلم المتبالغون فيه ، فإنه لا أظلم ممن حوكم إلى كتابه وما يعتقده شرعًا صحيحًا، ثم جادل من بعد ذلك مفتريًا على الله الكذب .

ثم لما كان ما يفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلا مدفوعًا،وكان ما قصه الله سبحانه فى القرآن وصدقته التوراة صحيحًا صادقًا ، وكان ثبوت هذا الصدق بالبرهان الذى لا يستطيع الخصم دفعه ، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن ينادى بصدق الله بعد أن سجل عليهم الكذب، فقال:﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ أى ملة الإسلام التى أنا عليها، وقد تقدم بيان معنى الحنيف، وكأنه قال لهم: إذا تبين لكم صدقى وصدق ما جئت به فادخلوا فى دينى، فإن من جملة ما أنزله الله على:﴿ومَن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [آل عمران:٨٥].

وقد أخرج الترمذى وحسنه عن ابن عباس ؛ أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : فأخبرنا ماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : «كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء ، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا تحريم الإبل وألبانها ، فلذلك حرمها » قالوا : صدقت وذكر الحديث [(١)] . وأخرجه أيضا أحمد والنسائى [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : العرق أجده عرق النساء ، فكان يبيت له زق يعنى

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٧) وقال :« حسن غريب» .
(٢) أحمد ١/ ٢٧٤ والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٢) .

صياح ، فجعل لله عليه إن شفاه ألا يأكل لحمًا فيه عرق ، فحرمته اليهود [١] . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس من قوله ، ما أخرجه الترمذى سابقا عنه مرفوعا [٢] . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ؛ أنه كان يقول : الذى حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم إلا ما كان على الظهر[٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : قالت اليهود للنبى ﷺ : نزلت التوراة بتحريم الذى حرم إسرائيل ، فقال الله لمحمد ﷺ : ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ وكذبوا ، ليس فى التوراة [٤] .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ .

هذا شروع فى بيان شىء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل ، وذلك أنهم قالوا : إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة ، فردّ الله ذلك عليهم بقوله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس . . .** ﴾ الآية ، فقوله : ﴿ **وضع** ﴾ صفة لبيت وخبر « إن » قوله : ﴿ **للذى ببكة مباركا** ﴾ فنبه تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، وقد اختلف فى البانى له فى الابتداء ، فقيل : الملائكة . وقيل : آدم . وقيل : إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأول من بناه: الملائكة ، ثم جدده آدم ، ثم إبراهيم . وبكة : علم للبلد الحرام ، وكذا مكة وهما لغتان . وقيل : إن بكة؛ اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام . وقيل : بكة للمسجد ، ومكة للحرم كله . قيل :سميت بكة لازدحام الناس فى الطواف . يقال : بك القوم : ازدحموا . وقيل : البك : دق العنق ، سميت بذلك ؛ لأنها كانت تدق أعناق الجبابرة . وأما تسميتها بمكة ، فقيل: سميت بذلك ؛ لقلة ما بها . وقيل : لأنها تمك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة ، ومنه مككت العظم: إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصيل ضرع أمه وأمكته : إذا امتصه . وقيل : سميت بذلك ؛ لأنها تمك من ظلم فيها، أى تهلكه. قوله : ﴿ **مباركا** ﴾ حال من الضمير فى :﴿ **وضع** ﴾ أو من متعلق الظرف ، لأن التقدير : للذى استقر ببكة مباركًا . والبركة : كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه أو يقصده، أى الثواب المتضاعف .

والآيات البينات : الواضحات ، منها : الصفا والمروة ، ومنها : أثر القدم فى الصخرة الصماء ، ومنها: أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليمانى كان الخصب فى اليمن . وإن كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، وإذا عم البيت كان الخصب فى جميع البلدان ، ومنها

(١) ابن جرير ٤/ ٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٢على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) البخارى فى تاريخه (١٨٧٨). (٣) ابن إسحاق ٢/ ١٣٨ . (٤) ابن جرير ٤/ ٣ .

انحراف الطيور عن أن تمر على هوائه فى جميع الأزمان ، ومنها : هلاك من يقصده من الجبابرة وغير ذلك . وقوله : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ بدل من آيات ، قاله محمد بن يزيد المبرد . وقال فى الكشاف : إنه عطف بيان . وقال الأخفش :إنه مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير :منها مقام إبراهيم .وقيل: هوخبرمبتدأ محذوف ، أى هى مقام إبراهيم ، وقد استشكل صاحب الكشاف بيان الآيات وهى جمع بالمقام وهو فرد . وأجاب : بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه ، أو بأنه مشتمل على آيات ، قال : ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ؛ لأن الاثنين نوع من الجمع (١) .

قوله : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم وهو أن من دخله كان آمنا ، وبه استدل من قال : إن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود فإنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه ، وهو قول أبى حنيفة ومن تابعه (٢) ، وخالفه الجمهور ، فقالوا : تقام عليه الحدود فى الحرم . وقد قال جماعة : إن الآية خبر فى معنى الأمر ، أى ومن دخله فأمنوه كقوله : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ﴾ [البقرة : ١٩٧] أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا .

قوله : ﴿ **ولله على الناس حج البيت** ﴾ اللام فى قوله :﴿ **لله** ﴾ هى التى يقال لها : لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « على » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل لفلان : على كذا، فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيدًا لحقه وتعظيمًا لحرمته ، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الدليل كالصبى والعبد . وقوله : ﴿ **من استطاع إليه سبيلا** ﴾ فى محل جر على أنه بدل بعض من الناس، وبه قال أكثر النحويين ، وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بحج . والتقدير : أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا . وقيل : إن « من » حرف شرط والجزاء محذوف ، أى من استطاع إليه سبيلا فعليه الحج .

وقد اختلف أهل العلم فى الاستطاعة ماذا هى ؟ فقيل : الزاد والراحلة ، وإليه ذهب جماعة من الصحابة ، وحكاه الترمذى عن أكثر أهل العلم وهو الحق . قال مالك : إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج وإن لم يكن له زاد وراحلة إذا كان يقدر على التكسب ، وبه قال عبد الله بن الزبيروالشعبى وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شابًا قويًا صحيحًا وليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضى حجه ، ومن جملة ما يدخل فى الاستطاعة دخولا أوليًا أن تكون الطريق إلى الحج آمنة، بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله الذى لا يجد زاداً غيره ، أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة ؛ لأن الله سبحانه يقول : ﴿ **من استطاع إليه سبيلا** ﴾ وهذا الخائف على نفسه أو ماله لم يستطع إليه سبيلا بلا شك ولا شبهة .

---

(١) الكشاف ١/ ٣٨٨ .

(٢)وحجته فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ فأوجب الله سبحانه وتعالى الأمن لمن دخله .

وقد اختلف أهل العلم إذا كان فى الطريق من الظلَمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يجحف بزاد الحاج . فقال الشافعى : لا يعطى حبة ويسقط عنه فرض الحج ، ووافقه جماعة وخالفه آخرون ، والظاهر أن من تمكن من الزاد والراحلة وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها ولو بمصانعة بعض الظلمة بدفع (١) شيء من المال يتمكن منه الحاج ولا ينقص من زاده ولا يجحف به فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه ؛ لأنه قد استطاع السبيل بدفع شيء من المال ولكنه يكون هذا المال المدفوع فى الطريق من جملة ما تتوقف عليه الاستطاعة ، فلو وجد الرجل زادًا وراحلة ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس فى الطريق لم يجب عليه الحج ؛ لأنه لم يستطع إليه سبيلا وهذا لابد منه ولا ينافى تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة ، فإنه قد تعذر المرور فى طريق الحج لمن وجد الزاد والراحلة إلا بذلك القدر الذى يأخذه المكاسون ، ولعل وجه قول الشافعى : إنه سقط الحج ، أن أخذ هذا المكس منكر، فلا يجب على الحاج أن يدخل فى منكر وأنه بذلك غير مستطيع . ومن جملة ما يدخل فى الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب ، فلو كان زمِنًا بحيث لا يقدر على المشى ولا على الركوب ، فهذا وإن وجد الزاد والراحلة فهو لم يستطع السبيل .

قوله : ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ قيل : إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج؛ تأكيدًا لوجوبه وتشديدًا على تاركه . وقيل : المعنى : ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبًا . وقيل: إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر. وفى قوله:﴿ **فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه ويرجف له قلبه ، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم وهو تعالى شأنه ، وتقدس سلطانه ، غنى لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **إن أول بيت...** ﴾ الآية ، قال:كانت البيوت قبله ، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال: « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال : «أربعون سنة » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمرو ، قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة . وكان إذ كان عرشه على الماء زَبْدةً بَيْضاءَ ، وكانت الأرض تحته كأنها حشفة فدحيت الأرض من تحته (٣). وأخرج نحوه ابن المنذر

(١) فى المطبوعة : «الدفع» والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ٥/ ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٦٦) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (١/٥٢٠) وفيه زيادة ، والنسائى ٢/ ٣٢ وفى التفسير (٨٩) وابن ماجة فى المساجد والجماعات (٧٥٣) وابن حبان فى الصلاة (١٥٩٦) والبيهقى ٢/ ٤٣٣ وفى الدلائل ٢/ ٤٣ .

(٣) الحديث فى المخطوطة : « عن ابن عمر» ، والصواب ما أثبتناه ، وقد أخرجه ابن جرير ٤/ ٧ وعزاه الهيثمى فى المجمع للطبرانى فى الكبير ٣/ ٢٩١ وقال : «رجاله رجال الصحيح »والبيهقى فى الشعب (٣٦٩٧) وفى دلائل النبوة له ٢/ ٤٤ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٨ وقال :«على شرط الشيخين »ووافقه الذهبى مختصرًا وكلهم عن عبد الله بن عمرو .

عن أبي هريرة .

وأخرج ابن المنذر والأزرقي عن ابن جريج قال : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة ؛ لأنه مهاجر الأنبياء ؛ ولأنه في الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فنزلت : ﴿ **إن أول بيت** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس ﴿ **ولله على الناس حج البيت** ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس [(١)] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير ؛ قال : إنما سميت بكة ؛ لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجًا . وروى سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي عن مجاهد: إنما سميت بكة ؛ لأن الناس يتباكون فيها ، أي يزدحمون . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ **مباركا** ﴾ قال : جعل فيه الخير والبركة ﴿ **وهدى للعالمين** ﴾ يعني بالهدى : قبلتهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس :﴿ **فيه آيات بينات** ﴾ فمنهن مقام إبراهيم والمشعر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله : ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾ قال : مقام إبراهيم ﴿ **ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت** ﴾. وأخرج الأزرقي عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ قال : كان هذا في الجاهلية ، كان الرجل لو جرَّ كلَّ جريرة على نفسه ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يطلب ، فأما في الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله ، من سرق فيه قطع ، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد ، ومن قتل فيه قتل [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والأزرقي عن عمر بن الخطاب ؛ قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب مامسسته حتى يخرج منه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم و لا يسقى ، فإذا خرج أخذ بذنبه . وقد روى عنه هذا المعنى من طرق . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن ابن عمر قال : لو وجدت قاتل أبي في الحرم ماهِجتُه . وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي شريح العدوي قال : قام النبي ﷺ الغد من يوم الفتح فقال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم،وإنما أذن لي ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس»[(٣)].

أخرج الدارقطني ، والحاكم وصححه عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله :

---

(١) الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٧٥ . (٢) ابن جرير ٤/ ٩ .

(٣) أحمد ٤/ ٣١ ، ٣٢ ، ٦/ ٣٨٥ والبخاري في العلم (١٠٤) ومسلم في الحج (١٣٥٤ / ٤٤٦) والترمذي في الحج (٨٠٩) وقال : «حسن صحيح » والنسائي ٥/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ فقيل : ما السبيل ؟ قال : « الزاد والراحلة » [(١)] . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر مرفوعًا ؛ أنه قام رجل فقال : ما السبيل ؟ فقال :« الزاد والراحلة » [(٢)] . وأخرج الدارقطنى والبيهقى فى سننهما من طريق الحسن عن أمه عن عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ : ما السبيل إلى الحج ؟ قال : « الزاد والراحلة » [(٣)]. وأخرج الدارقطنى فى سننه عن ابن مسعود مرفوعًا مثله[(٤)]. وأخرج الدارقطنى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، مرفوعًا مثله [(٥)] . وأخرج الدارقطنى عن جابر مرفوعًا مثله [(٦)] . وقد روى هذا الحديث من طرق أقل أحواله أن يكون حسنًا لغيره فلا يضره ماوقع من الكلام على بعض طرقه كما هو معروف .

وأخرج الدارقطنى عن على مرفوعًا فى الآية ؛ أنه سئل النبى ﷺ فقال : « تجد ظهر بعير» [(٧)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عمر بن الخطاب فى قوله : ﴿ من استطاع إليه سبيلا ﴾ قال : الزاد والراحلة . وأخرجا عن ابن عباس مثله[(٨)] . وأخرجه عنه مرفوعًا ابن ماجة والطبرانى وابن مردويه [(٩)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عنه قال : السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عنه قال: ﴿ سبيلا ﴾ من وجد إليه سعة ولم يحل بينه وبينه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير ؛ قال : الاستطاعة : القوة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن النخعى قال : إن المحرم للمرأة من السبيل الذى قال الله . وقد ثبت عنه ﷺ النهى للمرأة أن تسافر بغير محرم، واختلفت الأحاديث فى قدر المدة، ففى لفظ ثلاثة أيام [(١٠)] ، وفى لفظ يوم وليلة [(١١)] ، وفى لفظ بريد [(١٢)] .

---

(١) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٨ (١٥) وصححه الحاكم ١/ ٤٤٢ على شرط مسلم ومن طريق آخر عن أنس على شرط الشيخين ووافقه الذهبى فيهما .

(٢) الشافعى فى الحج (٧٤٤) وابن أبى شيبة ٤/ ٨٩ والترمذى فى الحج (٨١٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى المناسك (٢٨٩٦) وابن جرير ٤/ ١٢ وذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٢٢٧عن ابن أبى حاتم وأشار إلى رواية ابن مردويه وذكر أنه روى من طرق أخرى ثم قال : « ولكن فى أسانيدها مقال » وابن عدى فى الكامل ١/ ٢٢٧ والبيهقى ٤/ ٣٢٧ .

(٣) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٧ والبيهقى ٤/ ٣٢٧ .

(٤) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٦ .

(٥) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٥ (٢ـ٤) .

(٦) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٥ (١) .

(٧) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٨ .

(٨) ابن أبى شيبة ٤/ ٩٠ وابن جرير ٤/ ١١ .

(٩) ابن ماجة فى الحج (٢٨٩٧) .

(١٠) البخارى فى تقصير الصلاة (١٠٨٦ ، ١٠٨٧) ومسلم فى الحج (١٣٣٨ / ٤١٣ ، ٤١٤) وأبو داود فى المناسك (١٧٢٧) وكلهم عن ابن عمر .

(١١) البخارى فى تقصير الصلاة (١٠٨٨) ومسلم فى الحج (١٣٣٩/ ٤٢١) وأبو داود فى المناسك (١٧٢٣ ، ١٧٢٤) وابن ماجة فى المناسك (٢٨٩٩) وكلهم عن أبى هريرة .

(١٢) أبو داود فى المناسك (١٧٢٥) والبيهقى ٣/ ١٣٩ وكلهم عن أبى هريرة

وقد وردت أحاديث فى تشديد الوعيد على من ملك زادًا وراحلة ولم يحج . فأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج بيت الله ، فلا عليه بأن يموت يهوديًا أو نصرانيًا » وذلك بأن الله يقول : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ (١) . وفى إسناده هلال الخراسانى أبوهاشم . قال البخارى : منكر الحديث . وقيل : مجهول (٢) . وقال ابن عدى : هذا الحديث ليس بمحفوظ وفى إسناده أيضًا الحارث الأعور وفيه ضعف (٣). وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد فى كتاب الإيمان، وأبو يعلى والبيهقى عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس ، أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة ، فليمت على أى حال شاء يهوديًا أو نصرانيًا » (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعًا مرسلا مثله .

وأخرج سعيد بن منصور . قال السيوطى بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين (٥) . وأخرج الإسماعيلى عنه يقول : من أطاق الحج ولم يحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا إسناد صحيح (٦) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر : من مات وهو موسر ولم يحج جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر . وأخرج سعيد بن منصور عنه : من وجد إلى الحج سبيلا سنة ثم سنة ثم سنة ثم مات ولم يحج لم يصلّ عليه ولا يدرى مات يهوديا أو نصرانيا . وأخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ قال : من زعم أنه ليس بفرض عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : من كفر بالحج فلم ير حجه برًا ولا تركه مأثماً.

---

(١) الترمذى فى الحج (٨١٢) وقال : «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفى إسناده مقال . وهلال بن عبد الله مجهول والحارث يُضَعَّف فى الحديث » وابن جرير ٤/ ١٢ والبيهقى فى الشعب (٣٦٩٢) .

(٢) ذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب .

(٣) ابن عدى فى الكامل ٧/ ١٢٠ .

(٤) لم أعثر عليه فى مطبوعة أبى يعلى ، ولكن عزاه ابن حجر إليه فى تلخيص الحبير ٢/ ٢٢٣ (٩٥٧) وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات بطريقين، وقال: « هذا حديث لا يصح » ٢/ ٢١٠ وعزاه أيضا الزيلعى إلى أبى يعلى فى نصب الراية لأحاديث الهداية . والبيهقى ٤/ ٣٣٤ .

(٥) قال ابن جرير ٤/ ١٣ : فأما الأخبار التى رويت عن رسول الله ﷺ فى ذلك بأنه : « الزاد والراحلة » فإنها أخبار فى أسانيدها نظر لا يجوز الاحتجاج بمثلها فى الدين .

(٦) ابن كثير ٢/ ٨٠ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ﴾ [آل عمران : ٨٥] قالت اليهود : فنحن مسلمون . فقال لهم النبى ﷺ : « إن الله فرض على المسلمين حج البيت » . فقالوا: لم يكتب علينا ، وأبوا أن يحجوا قال الله : ﴿ ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾[١] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ، قال : لما نزلت آية الحج ﴿ولله على الناس حج البيت ﴾ الآية . جمع رسول الله ﷺ أهل الملل ، مشركى العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال : « إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت » فلم يقبله إلا المسلمون ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لا نؤمن به ولا نصلى إليه ، ولا نستقبله فأنزل الله: ﴿ ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ [٢] .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه [٣]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى داود نفيع[٤] قال : قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ الآية . فقام رجل من هذيل فقال : يارسول الله ، من تركه كفر ؟ فقال :« من تركه لا يخاف عقوبته ، ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك » [٥]. وأخرج ابن جرير عن عطاء ابن أبى رباح فى الآية قال : من كفر بالبيت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى قول الله : ﴿ ومن كفر ﴾ قال :« من كفر بالله واليوم الآخر»[٦] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله من قوله . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك ، فقرأ : ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ إلى قوله : ﴿ سبيلا ﴾ ثم قال : ﴿ ومن كفر ﴾ بهذه الآيات . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال : ﴿ ومن كفر ﴾ فلم يؤمن به فهو الكافر .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ

---

(١) ابن جرير ٤/ ١٥ والبيهقى ٤/ ٣٢٤ . (٢) ابن جرير ٤/ ١٤ . (٣) البيهقى ٤/ ٣٢٤ .

(٤) أبو داود نفيع هو نفيع بن الحارث أبو داود الأعمى الهمدانى القاضى ، روى عن عمران بن حصين ومعقل بن يسار وابن عباس وابن عمر ، وروى عنه أبو إسحاق ، والأعمش والثورى ، قال أبو حاتم :« منكر الحديث ضعيف الحديث » ، وقال النسائى : « ليس بثقة ولا يكتب حديثه » وقال ابن حبان :« يروى عن الثقات الموضوعات توهمًا ولا يجوز الاحتجاج به » ، وقال ابن عبد البر : « أجمعوا على ضعفه ، وكذبه بعضهم وأجمعوا على ترك الرواية عنه » ، مترجم فى التهذيب .

(٥) ابن جرير ٤/ ١٤ . (٦) ابن جرير ٤/ ١٥٠ والبيهقى فى الشعب فى (٣٦٨٩) .

فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل يا أهل الكتاب** ﴾ خطاب لليهود والنصارى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **لم تكفرون** ﴾ للإنكار والتوبيخ . وقوله : ﴿ **والله شهيد على ما تعملون** ﴾ جملة حالية مؤكدة للتوبيخ والإنكار ، وهكذا المجيء بصيغة المبالغة فى شهيد يفيد مزيد التشديد والتهويل . والاستفهام فى قوله : ﴿ **لم تصدون** ﴾ يفيد ما أفاده الاستفهام الأول . وقرأ الحسن: ﴿**تصدون**﴾ من أصد وهما لغتان : مثل صد اللحم وأصد . إذا تغير وأنتن ، وسبيل الله : دينه الذى ارتضاه لعباده، وهو دين الإسلام ، والعوج : الميل والزيغ ، يقال : عوج بالكسر إذا كان فى الدين والقول والعمل ، وبالفتح فى الأجسام كالجدار ونحوه ، روى ذلك عن أبى عبيدة وغيره ، ومحل قوله : ﴿ **تبغونها عوجا** ﴾ : النصب على الحال ، والمعنى : تطلبون لها اعوجاجًا وميلاً عن القصد والاستقامة بإبهامكم على الناس بأنها كذلك تثقيفا لتحريفكم وتقويمًا لدعاويكم الباطلة . وقوله : ﴿ **وأنتم شهداء** ﴾ جملة حالية ، أى :كيف تطلبون ذلك بملة الإسلام والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذى لا يقبل غيره كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزلة على أنبيائكم ، قيل : إن فى التوراة أن دين الله الذى لا يقبل غيره : الإسلام ، وأن فيه نعت محمد ﷺ ؛ وقيل : المراد ﴿ **وأنتم شهداء** ﴾ أى عقلاء . وقيل المعنى : وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم ، فكيف تأتون بالباطل الذى يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم ؛ ثم توعدهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ . ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذرًا لهم عن طاعة اليهود والنصارى مبينًا لهم أن تلك الطاعة تفضى إلى أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **وكيف تكفرون** ﴾ للإنكار ، أى من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه ويقطع أثره ، وهو تلاوة آيات الله عليكم وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم ؟ ومحل قوله : ﴿ **وأنتم** ﴾ وما بعده النصب على الحال . ثم أرشدهم إلى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذى هو الإسلام ، وفى وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادَّعوه من العوج . قال الزجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه ، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ، لأن آثاره وعلامته والقرآن الذى أوتيه فينا ، فكأن رسول الله ﷺ فينا وإن لم نشاهده . انتهى ومعنى الاعتصام بالله : التمسك بدينه وطاعته . وقيل : بالقرآن ، يقال: اعتصم به واستعصم وتمسك واستمسك: إذا امتنع به من غيره ، وعصمه الطعام : منع

الجوع منه .

قوله : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ أى التقوى التى تحق له ، وهى ألا يترك العبد شيئًا مما يلزمه فعله ولا يفعل شيئًا مما يلزمه تركه، ويبذل فى ذلك جهده ومستطاعه . قال القرطبى : ذكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا : يارسول الله ، من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم ذلك ، فأنزل الله : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ [التغابن : ١٦] فنسخت هذه الآية . روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد ، قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذا. وقيل : إن قوله : ﴿**اتقوا الله حق تقاته** ﴾ مبين بقوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [١] . والمعنى : اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم قال : وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى . قوله : ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ أى لا تكونن على حال سوى حال الإسلام فالاستثناء مفرغ ، ومحل الجملة ، أعنى قوله : ﴿ **وأنتم مسلمون** ﴾ النصب على الحال ، وقد تقدم فى البقرة تفسير مثل هذه الآية .

قوله : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا** ﴾ الحبل لفظ مشترك ، وأصله فى اللغة : السبب الذى يتوصل به إلى البغية ، وهو إما تمثيل أو استعارة . أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام ، أو بالقرآن ، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف فى الدين ، ثم أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم ، وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام ، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضًا ، وينهب بعضهم بعضا ، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخوانًا ، وكانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر ، فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالإسلام .ومعنى قوله : ﴿ **أصبحتم** ﴾ عَمرتم ، وليس المراد به معناه الأصلى ؛ وهو الدخول فى وقت الصباح ، وشفا كل شىء : حرفه ، وكذلك شفيره ، وأشفى على الشىء : أشرف عليه ، وهو تمثيل للحالة التى كانوا عليها فى الجاهلية . وقوله : ﴿ **كذلك** ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده ، أى مثل ذلك البيان البليغ يبين الله لكم . وقوله : ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ : إرشاد لهم إلى الثبات على الهدى والازدياد منه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم ؛ قال : مَر شاس بن قيس ــ وكان شيخاً قد عسى فى الجاهلية [٢] ،عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ــ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة[٣] بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر

(١) القرطبى ٤ / ١٠١ ، ١٠٢ وابن جرير ٤ / ٢٠ .

(٢) عسا الشيخ يعسو عسوا وعسيا : كبر وأسن .

(٣) الملأ : الرؤساء وأشراف القوم ووجوههم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم ، وبنو قيلة هم : الأنصار من الأوس والخزرج .

فتى شابًا معه من يهود فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار ـ وكان يوم بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ـ ففعل . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة(١) . وغضب الفريقان جميعًا وقالوا : قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة : الحرة ـ فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه ، حتى جاءهم فقال : « يامعشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا ؟ » فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم لهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ، وأنزل الله فى شأن شاس بن قيس وما صنع : ﴿ **قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ ، وأنزل فى أوس بن قيظى ، وجبار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿**وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطولة من طرق (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **لم تصدون عن سبيل الله** ﴾ قال : كانوا إذا سألهم أحد تجدون محمدًا ؟ قالوا : لا ، قال : فصدوا الناس عنه ، وبغوا محمداً عوجًا هلاكًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : لم تصدون عن الإسلام وعن نبى الله من آمن بالله وأنتم شهداء فيما تقرؤون من كتاب الله أن محمدًا رسول الله وأن الإسلام دين الله الذى لا يقبل غيره ، ولا يجزى إلا به ، يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن يعتصم بالله** ﴾ قال: يؤمن به . وأخرجوا عن أبى العالية قال : الاعتصام : الثقة بالله .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته**﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وقد رواه الحاكم وصححه ،

---

(١) ردها جذعة : أى جديدة كما بدأت ، والجذع والجذعة : الصغير السن من الأنعام يعنى: أعدناها شابة فتية .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩٦ ـ ١٩٨ وابن جرير ٤/ ٢٠ .

وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعًا بدون قوله : ويشكر فلا يكفر [١] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : حق تقاته أن يطاع فلا يعصى فلن تستطيعوا ، فأنزل الله بعد ذلك : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن : ١٦] . وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حق تقاته** ﴾ قال: لم تنسخ ؛ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا يأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم [٢].

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، قال السيوطى: بسند صحيح عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **واعتصموا بحبل الله** ﴾ قال : حبل الله: القرآن . وقد وردت أحاديث أن كتاب الله هو حبل الله الممدود [٣] ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال ﴿ **واعتصموا بحبل الله** ﴾ : بالإخلاص لله وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بطاعته . وأخرج أيضًا عن قتادة قال : بعهده وأمره. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : بالإسلام . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **إذ كنتم أعداء** ﴾ قال : ما كان بين الأوس والخزرج فى شأن عائشة ، وأخرج ابن إسحاق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة ، حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وكنتم على شفا حفرة من النار** ﴾ يقول : كنتم على طرف النار ، من مات منكم وقع فى النار ، فبعث الله محمدًا ﷺ واستنقذكم به من تلك الحفرة .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) ﴾ .

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٩٤ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى لكن موقوفا لا مرفوعا ، وعقب ابن كثير على رواية ابن مردويه بأن الأصح أنه موقوف .

(٢) ابن جرير ٤ / ٢٠ .

(٣) أحمد ٣/ ١٤ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٩ عن أبى سعيد الخدرى ، وعزاه الهيثمى (٩/ ١٦٦) إلى الطبرانى فى : الأوسط وفى إسناده رجال مختلف فيهم ، والترمذى فى : المناقب (٣٧٨٨) عن زيد بن أرقم وقال: «حسن غريب» ، وابن حبان ـ مختصرا ـ فى الوحى (١٢٣) عن زيد بن أرقم.

قوله: ﴿ ولتكن ﴾ قرأه الجمهور بإسكان اللام ، وقرئ بكسر اللام على الأصل، و« من » فى قوله : ﴿منكم ﴾ للتبعيض . وقيل : لبيان الجنس . ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفًا وينهون عنه منكرًا . قال القرطبى : الأول أصح ، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عينهم الله سبحانه بقوله : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض ﴾ الآية [الحج : ٤١] . وقرأ ابن الزبير : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم » . قال أبو بكر بن الأنبارى [١] : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير ، وكلام من كلامه ، غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن . وقد روى أن عثمان قرأها كذلك ، ولكن لم يكتبها فى مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن [٢] . وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة . وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها . وقوله : ﴿ **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ من باب عطف الخاص على العام إظهارًا لشرفهما ، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذى أمر الله عباده بالدعاء إليه . كما قيل فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة ، أى يدعون ويأمرون وينهون ، لقصد التعميم ، أى كل من وقع منه سبب يقتضى ذلك . والإشارة فى قوله : ﴿ **وأولئك** ﴾ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿ **هم المفلحون** ﴾ أى المختصون بالفلاح ، وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التى يعرفها كل أحد .

قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا** ﴾ هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين . وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة . وقيل : الحرورية [٣] ، والظاهر الأول . والبينات : الآيات الواضحة المبينة للحق ، الموجبة لعدم الاختلاف . قيل : وهذا النهى عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية ، وأما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز ، ومازال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين فى أحكام الحوادث ، وفيه نظر، فإنه مازال فى تلك العصور المنكر للاختلاف موجودًا . وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب ، فالمسائل الشرعية متساوية [٤] الأقدام فى انتسابها إلى

---

(١) هومحمد القاسم بن محمد بن بشار ولد فى الأنبار (على الفرات) سنة ٢٧١ هـ ، وكان من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ، ومن أكثر الناس حفظًا للشعر والأخبار، قيل : كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد فى القرآن، وكان يتردد إلى أولاد الخليفة الراضى بالله يعلمهم ، توفى ببغداد سنة ٣٢٨ هـ .

(٢) القرطبى ١٤٠٧/٢ ، ١٤٠٨ .

(٣) الحرورية : هم الخوارج ، اجتمعوا بحروراء بظاهر الكوفة فكان هناك أول اجتماعهم بها ، وتحكيمهم حين خالفوا عليا .

(٤) فى المطبوعة : «المساوية» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الشرع .

وقوله : ﴿ يوم تبيض وجوه ﴾ منتصب بفعل مضمر ، أى اذكر . وقيل : بما يدل عليه قوله : ﴿ لهم عذاب عظيم﴾ فإن تقديره : استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه ، أى يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم، تكون وجوه المؤمنين مبيضة ، ووجوه الكافرين مسودة. ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه ، وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته فحزن واسودّ وجهه ، والتنكير فى وجوه للتكثير ، أى وجوه كثيرة . وقرأ يحيى بن وثاب : « تبيض » و : « تسود » بكسر التاءين ، وقرأ الزهرى : « تبياض » و « تسواد » . قوله : ﴿ أكفرتم ﴾ أى فيقال لهم : أكفرتم ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب . قيل : هم أهل الكتاب . وقيل : المرتدون . وقيل : المنافقون . وقيل : المبتدعون .

قوله : ﴿ ففى رحمة الله ﴾ أى فى جنته ودار كرامته ، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لايستقل بدخول صاحبه الجنة ؛ بل لابد من الرحمة ومنه حديث : « لن يدخل أحد الجنة بعمله » وهو فى الصحيح [(١)] . وقوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدر ، وتلك إشارة إلى ما تقدم من تعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين .

وقوله : ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ جملة حالية ، وبالحق متعلق بمحذوف ، أى متلبسة بالحق وهو العدل. وقوله : ﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها ، وفى توجه النفى إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فردًا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم . والمراد بمافى السموات وما فى الأرض: مخلوقاته سبحانه ، أى له ذلك ، يتصرف فيه كيف يشاء وعلى ما يريد ، وعبر بـ« ما» تغليبًا لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم ، أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم . قال المهدوى : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ، وأنه لا يريد ظلمًا للعالمين وصله بذكر اتساع قدرته ، وغناه عن الظلم، لكون ما فى السموات وما فى والأرض فى قبضته . وقيل : هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره . وقوله: ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى لا إلى غيره لا شركة ولا استقلالا .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى جعفر الباقر قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ قال: «الخير اتباع القرآن وسنتى » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كل آية ذكرها الله فى القرآن فى الأمر بالمعروف فهو الإسلام ، والنهى عن المنكر

---

(١) الحديث عن أبى هريرة عند أحمد ٢/ ٢٦٤ وعن أبى سعيد الخدرى أيضا ٣/ ٥٢ وعن أبى هريرة عند مسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦/ ٧١ـ ٧٦) وعن جابر وعائشة أيضا (٢٨١٧/ ٧٦ ، ٢٨١٨ / ٧٨) .

فهو عبادة الأوثان والشيطان . انتهى . وهو تخصيص بغير مخصص ، فليس فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع ما يدل على ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : ﴿يدعون إلى الخير﴾ أى الإسلام ، ﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ : بطاعة ربهم ﴿ وينهون عن المنكر﴾ : عن معصية ربهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال : هم أصحاب محمد ﷺ خاصة ، وهم الرواة . انتهى . ولا أدرى ما وجه هذا التخصيص ، فالخطاب فى هذه الآية كالخطاب بسائر الأمور التى شرعها الله لعباده ، وكلفهم بها . انتهى .

وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجة ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة» (١) . وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية مرفوعًا نحوه ، وزاد : « كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة » (٢) . وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا نحوه أيضًا ، وزاد : « كلها فى النار إلا ملة واحدة » ، فقيل له : ما الواحدة ؟ قال : «ما أنا عليه اليوم وأصحابى » (٣) . وأخرج ابن ماجة عن عوف ابن مالك مرفوعًا نحوه . ، وفيه : « فواحدة فى الجنة، وثنتان وسبعون فى النار » قيل : يارسول الله ، من هم ؟ قال : « الجماعة » (٤) . وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى الأمر بالكون فى الجماعة والنهى عن الفرقة.

وأخرج ابن أبى حاتم والخطيب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم تبيض وجوه ﴾ قال : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة. وأخرج الخطيب والديلمى عن ابن عمر مرفوعًا (٥) . وأخرجه أيضًا مرفوعًا أبو نصر السِّجْزى فى الإبانة عن أبى سعيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب فى الآية، قال : صاروا فرقتين يوم القيامة ، يقال لمن اسودّ وجهه : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فهو الإيمان الذى كان فى صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة ، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم ، وأدخلهم فى رضوانه وجنته ، وقد روى غير ذلك .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ

(١) أبو داود فى السنة (٤٥٩٦) والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٠) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٩١) وصححه الحاكم ٦/١ على شرط مسلم وخالفه الذهبى فقال : « احتج مسلم بمحمد بن عمرو منفردا بل بانضمامه إلى غيره » .

(٢) أحمد ١٠٢/٤ وأبو داود فى السنة (٤٥٩٧) وصححه الحاكم ١٢٨/١ ووافقه الذهبى .

(٣) الحاكم ١٢٨/١ ، ١٢٩ وقال قبل إيراده : « تفرد به عبد الرحمن بن زياد الأفريقى ولا تقوم به الحجة » ووافقه الذهبى .

(٤) ابن ماجة فى الفتن (٣٩٩٢) .

(٥) الديلمى فى مسنده (٨٩٨٦) .

إلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾.

قوله : ﴿ **كنتم خير أمة** ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة فى الفضل على غيرها من الأمم ، و « كان» قيل : هى التامة ، أى وجدتم وخلقتم خير أمة ، ومثله ما أنشده سيبويه :

وَجِيرانٍ لَنا كَانُوا كرام (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾ [مريم : ٢٩] وقوله : ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ [الأعراف : ٨٦] . وقال الأخفش : يريد أهل أمة ، أى خير أهل دين ، وأنشد :

حلفتُ فلم أترُكْ لِنَفْسِك رِيبةً ... وَهَلْ يأْثَمَنْ ذُو أمَّةٍ وَهُو طَائِعُ (٢)

وقيل : معناه : كنتم فى اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم منذ آمنتم ، وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق ، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم ، وإن كانت متفاضلة فى ذات بينها . كما ورد فى فضل الصحابة على غيرهم . قوله : ﴿ **أخرجت للناس** ﴾ أى أظهرت لهم . وقوله : ﴿ **تأمرون بالمعروف** ﴾ إلخ كلام مستأنف ، يتضمن بيان كونهم خير أمة ، مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر زال عنهم ذلك ، ولهذا قال مجاهد : إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة فى الآية ، وهذا يقتضى أن يكون تأمرون وما بعده فى محل نصب على الحال، أى كنتم خير أمة حال كونكم آمرين ناهين مؤمنين بالله ، وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه ورسوله ، وما شرعه لعباده ، فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. قوله : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب** ﴾ أى اليهود إيمانا كإيمان المسلمين بالله ورسله وكتبه ﴿**لكان خيرا لهم**﴾ ولكنهم لم يفعلوا ذلك ؛ بل قالوا: نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله : ﴿ **منهم المؤمنون** ﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل من قبله. ﴿**وأكثرهم الفاسقون** ﴾ أى الخارجون عن طريق الحق، المتمردون فى باطلهم، المكذبون لرسول الله ﷺ ولما جاء به ، فيكون هذا التفصيل على هذا كلامًا مستأنفاً جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل :

---

(١) هذا البيت للفرزدق ، وصدره :

فكيف إذا رأيت ديار قوم

(٢) البيت للنابغة الذبيانى ، والأمة : بالضم والكسر ، ذو أمة : ذو دين واستقامة ، والأمة : النعمة .

هل منهم من آمن فاستحق ماوعده الله ؟

قوله: ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ أى لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر إلا بنوع الأذى، وهو الكذب ، والتحريف، والبهت ، ولا يقدرون على الضرر الذى هو الضرر فى الحقيقة بالحرب ، والنهب ونحوهما ، فالاستثناء مفرغ ، وهذا وعد من الله لرسوله وللمؤمنين أن أهل الكتاب لايغلبونهم وأنهم منصورون عليهم . وقيل: الاستثناء منقطع ، والمعنى : لن يضروكم البتة لكى يؤذونكم ، ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله : ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار**﴾ (١) أى ينهزمون ولا يقدرون على مقاومتكم ، فضلا عن أن يضروكم . وقوله : ﴿**ثم لا ينصرون** ﴾ عطف على الجملة الشرطية ، أى ثم لا يوجد لهم نصر ولا يثبت لهم غلب فى حال من الأحوال؛ بل شأنهم الخذلان ماداموا . وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقًا فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر ، ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية . فهى من معجزات النبوة.

قوله : ﴿ **ضربت عليهم الذلة** ﴾ قد تقدم فى البقرة معنى هذا التركيب ، والمعنى : صارت الذلة محيطة بهم فى كل حال ، وعلى كل تقدير فى أى مكان وجدوا ﴿ **إلا بحبل من الله** ﴾ أى إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، قاله الفراء ، أى بذمة الله أو بكتابه . ﴿ **وحبل من الناس** ﴾ أى بذمة من الناس وهم المسلمون . وقيل : المراد بالناس: النبى ﷺ ﴿**وباؤوا**﴾ أى رجعوا ﴿ **بغضب من الله** ﴾ وقيل : احتملوا ، وأصل معناه فى اللغة : اللزوم والاستحقاق ، أى لزمهم غضب من الله هم مستحقون له ، ومعنى ضرب المسكنة : إحاطتها بهم من جميع الجوانب ، وهكذا حال اليهود فإنهم تحت الفقر المدقع والمسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب ، أى وقع عليهم ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الكفر وقتل الأنبياء، بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم لحدوده. ومعنى الآية : أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، والبواء بالغضب منه ، لكونهم كفروا بآياته ، وقتلوا أنبياءه ، بسبب عصيانهم واعتدائهم .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كنتم خير أمة** ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : قال عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال : أنتم ، فكنا كلنا ولكن قال : ﴿ **كنتم**﴾ فى خاصة أصحاب محمد ومن صنع مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وفى لفظ عنه أنه قال : يكون لأولنا ولا يكون لآخرنا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن

---

(١) الأدبار : جمع دبر ، والدابر : يقال للمتأخر وللتابع إما باعتبار المكان ، أو باعتبار الزمان ، أو باعتبار المرتبة ، وأدبر : أعرض وولى دبره. اللسان ٤/ ٢٦٨ .قال تعالى: ﴿ **ثم أدبر واستكبر** ﴾ [المدثر : ٢٣] .

عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ، ثم قال : يأيها الناس ، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل [١]. وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة فى الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام [٢]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد، والترمذى وحسنه، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والحاكم وصححه عن معاوية بن حيدة[٣] ؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول فى الآية : « إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها» [٤] . وروى من حديث معاذ وأبى سعيد نحوه [٥]. وقد وردت أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ولا عذاب [٦] ، وهذا من فوائد كونها خير الأمم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ قال : تسمعون منهم كذبًا على الله بدعوتكم إلى الضلالة . وأخرج أيضًا عن ابن جرير قال : إشراكهم فى عزير وعيسى والصليب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وقتادة ﴿ **ضربت عليهم الذلة** ﴾ قالا : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وروى ابن المنذر عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ﴾ قال : بعهد من الله وعهد من الناس .

﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**

(١) ابن جرير٤/ ٢٩ .
(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٥٧) وصححه الحاكم ٤/ ٨٤ ووافقه الذهبى وقد وهم الحاكم فقد رواه البخارى بنفس الطريق ، والنسائى فى التفسير (٩١) .
(٣) هومعاوية بن حيدة بن معاوية بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة القشيرى من أهل البصرة ، غزا خراسان ومات بها وهو جد بهز بن حكيم بن معاوية ، روى عن النبى ﷺ . انظر : أسد الغابة ٤/ ٣٨٥ والإصابة ٣/ ٤٣٢ وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٤) أحمد ٥/ ٣ ، ٥ والترمذى فى التفسير (٣٠٠١) وقال :« حسن » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٧) وابن جرير ٤/ ٣٠ والطبرانى (١٠١٢) وقال الهيثمى ١٠/ ٤٠٦ : « وفى إسناده حماد بن عيسى الجهنى وهو ضعيف » كما رواه الطبرانى مختصرا فى (١٠٢٣ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٦) وصححه الحاكم ٤/ ٨٤ ووافقه الذهبى ، والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣١٣ .
(٥) أحمد ٣/ ٦١ عن أبى سعيد الخدرى وهو جزء من حديث طويل .
(٦) الحديث عن سيدنا عبد الله بن عباس عند أحمد ١/ ٣٢١ والبخارى فى الرقاق (٦٥٤١ ، ٦٤٧٢) وفى الطب (٥٧٥٢) ومسلم فى الإيمان (٢٢٠/ ٣٧٤) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٤٦) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى الطب (٧٦٠٤) والبيهقى ٩/ ٣٤١ .

﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ ليسوا سواء ﴾ أى أهل الكتاب غير مستوين بل مختلفين ، والجملة مستأنفة سيقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب . وقوله : ﴿ أمة قائمة ﴾ هو استئناف أيضًا يتضمن بيان الجهة التى تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله : ﴿ من الصالحين ﴾ قال الأخفش : التقدير : من أهل الكتاب ذو أمة ، أى ذو طريقة حسنة وأنشد :

وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : من أهل الكتاب أمة قائمة ، وأخرى غير قائمة ، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى ، كقول أبى ذؤيب :

عَصَيْتُ إلَيْها القَلْب إنِّىَ لأمْرِهَا ... مُطيعٌ فَما أدرى أرشْدٌ طِلابُها

أراد: أرشد أم غىّ . قال الفراء : أمة رفع بسواء ، والتقدير : ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة. قال النحاس : وهذا القول خطأ من جهات : أحدها: أنه يرفع أمة بسواء فلا يعود على اسم ليس شىء ، ويرفع بما ليس جاريًا على الفعل ، ويضمر ما لايحتاج إليه ؛ لأنه قد تقدم ذكر الكافرة ، فليس لإضمار هذا وجه . وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم : أكلونى البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه قد تقدم ذكرهم ، وأكلونى البراغيث لم يتقدم لهم ذكر. انتهى . وعندى أن ما قاله الفراء قوى قويم ، وحاصله : أن معنى الآية : لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا ، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير ما لا حاجة إليه كما قال النحاس ، فإن تقدم ذكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير ذكرها هنا . وأما قوله : إنه لا يعود على اسم ليس شىء ، فيرده أن تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، وأما قوله : ويرفع بما ليس جاريًا على الفعل ، فغير مسلم . والقائمة : المستقيمة العادلة ، من قولهم : أقمت العود فقام ، أى استقام .

وقوله : ﴿ يتلون ﴾ فى محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ﴿ وآناء الليل ﴾ ساعاته (١) وهو منصوب على الظرفية . وقوله : ﴿ وهم يسجدون ﴾ ظاهره أن التلاوة كائنة منهم فى حال السجود ، ولا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه

---

(١) وآناء : واحدها : « إنى » كما قال الشاعر :

حُلو ومَر كعطف القِدح مِرّتُهُ ... فى كل إنى حَذَاه الليل ينتعل

راجع : ديوان الهذليين ٢/ ٣٥ ومجاز القرآن ١/ ١٠٢ وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٦ .

الأمة الموصوفة فى الآية هم من قد أسلم من أهل الكتاب ؛ لأنه قد صح عن النبى ﷺ النهى عن قراءة القرآن فى السجود (١) ، فلابد من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله : ﴿ **وهم يسجدون** ﴾ وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة ، لما فيه من الخضوع والتذلل وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله فى صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة. وقيل : المراد بها : الصلاة بين العشاءين . وقيل : صلاة الليل مطلقًا .

قوله : ﴿ **يؤمنون بالله** ﴾ صفة أخرى لأمة ، أى يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، ورأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد ﷺ . وقوله ﴿ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ صفتان أيضًا لأمة ، أى إن هذا من شأنهم وصفتهم. وظاهره يفيد أنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر على العموم . وقيل : المراد بالأمر بالمعروف هنا: أمرهم باتباع النبى ﷺ ، والنهى عن المنكر : نهيهم عن مخالفته . وقوله : ﴿ **ويسارعون فى الخيرات** ﴾ من جملة الصفات أيضًا ، أى يبادرون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها وقوله : ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ أى من جملتهم . وقيل : « مِن » بمعنى: مع أى مع الصالحين وهم الصحابة رضى الله عنهم ، والظاهر أن المراد :كل صالح ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات .

قوله : ﴿ **وما يفعلوا من خير** ﴾ أىّ خير كان ﴿ **فلن يكفروه** ﴾ أى لن تعدموا ثوابه ، وعداه إلى المفعولين وهو لا يتعدى إلا إلى واحد ؛ لأنه ضمنه معنى الحرمان ، كأنه قيل : فلن تحرموه كما قاله صاحب الكشاف (٢) . قرأ الأعمش وابن وثاب وحفص (٣) ومرة والكسائى وخلف بالياء التحتية فى الفعلين ، وهى قراءة ابن عباس واختارها أبو عبيد ، وقرأ الباقون بالمثناة من فوق فيهما ، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعًا . والمراد بالمتقين : كل من ثبتت له صفة التقوى . وقيل : المراد : من تقدم ذكره وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة ، ووضع الظاهر موضع المضمر مدحًا لهم ، ورفعًا من شأنهم.

وقوله : ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ قيل : هم بنو قريظة والنضير . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم فى هذه الآية . والظاهر أن المراد بذلك :كل من كفر

---

(١) الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه عند مسلم فى الصلاة (٢٠٧/٤٧٩ ، ٢٠٨) والدارمى فى الصلاة ١/ ٣٠٤ . والحديث عن سيدنا على بن أبى طالب عند مسلم فى الصلاة (٢٠٩/٤٨٠ ـ ٢١٣) وأبو داود فى اللباس (٤٠٤٥) والترمذى فىاللباس (١٧٣٧) وقال : «حسن صحيح» .

(٢) الكشاف ١/ ٤٠٣.

(٣) هو حفص بن سليمان أبو عمر الأسدى مولاهم الغاضرى الكوفى المقرئ الإمام صاحب عاصم وابن زوجة عاصم ، ولد سنه ٩٠ هـ ، قال أبو عمرو الدانى :« قرأ عليه عَرْضا وسماعًا »: عمرو بن الصبَّاح ، وأخوه عبيد بن الصباح ، وأبو شعيب القوَّاس ، وحمزة بن القاسم وغيرهم ، وروى عنه الكثيرون ، وكان فى القراءة ثقة ، ثبتًا ، ضابطًا لها بخلاف حاله فى الحديث ، وكانت القراءة التى أخذها عن عاصم ترتفع إلى على رضى الله عنه ، وتوفى سنة ١٨٠ هـ . انظر : معرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠، ١٤١ .

بما يجب الإيمان به . ومعنى : ﴿ **لن تغنى** ﴾ لن تدفع ، وخص الأولاد ؛ لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبه .

وقوله : ﴿ **مثل ما ينفقون** ﴾ بيان لعدم إغناء أموالهم التى كانوا يعوّلون عليها . والصرّ : البرد الشديد، أصله من الصرير الذى هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديد . وقال الزجاج: صوت لهب النار التى فى تلك الريح . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها، وعدم منفعتها ، كمثل زرع أصابه ريح باردة ، أو نار فأحرقته ، أو أهلكته ، فلم ينتفع أصحابه بشىء منه ، بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته . وعلى هذا فلابد من تقدير فى جانب المشبه به ، فيقال: كمثل زرع أصابته ريح فيها صر ، أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ أى المنفقين من الكافرين ﴿ **ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ بالكفر المانع من قبول النفقة التى أنفقوها ، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص ؛ لأن الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ قال : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية [(١)] ، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا فى الإسلام ، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا . ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله : ﴿ **ليسوا سواء..**﴾ الآية [(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **أمة قائمة** ﴾ يقول : مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم قال : ﴿**أمة قائمة** ﴾ عادلة . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آناء الليل** ﴾ قال : جوف الليل . وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : ساعات الليل . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن أبى حاتم وابن مسعود فى قوله :﴿ **ليسوا سواء** ﴾ قال : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﴿ **يتلون آيات الله آناء الليل** ﴾ قال : صلاة العتمة هم يصلونها ، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى . قال السيوطى : بسند حسن عن ابن مسعود ؛ قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة

---

(١) فى المطبوعة : «سعيد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة . انظر: الإصابة ١/ ٤٩ ، ١٩٩ .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩٨، ١٩٩ وابن جرير ٤/ ٣٥ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٣٣ ، ٥٣٤ وعزاه الهيثمى ٦/ ٣٣٠ إلى الطبرانى وقال : «ورجاله ثقات» .

غيركم» ولفظ ابن جرير والطبرانى فقال : « إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب » قال : وأنزلت هذه الآية: ﴿ **ليسوا سواء** ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن منصور ؛ قال : بلغنى أنها نزلت هذه الآية : ﴿**يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ فيما بين المغرب والعشاء (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : ﴿ **فلن تكفروه** ﴾ قال : لن يضل عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ﴿ **فلن تكفروه** ﴾ قال : لن تظلموه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية يقول : ﴿ **مثل ما ينفقون** ﴾ أى المشركون ولا يتقبل منهم كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون فأصابه ريح فيها صرّ فأهلكته ، فكذلك أنفقوا فأهلكهم شركهم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فيها صر** ﴾ قال : برد شديد .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)** ﴾ .

البطانة : مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل : خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذى هو خلاف الظهر ، وبطن فلان بفلان يبطن بطونًا وبطانة إذا كان خاصًا به ، ومنه قول الشاعر :

وهم خُلْصائى كلهم وبِطَـانَتِـى ... وهم عَيْبَتِى مِـنْ دُونِ كلّ قَرِيبِ

قوله : ﴿ **من دونكم** ﴾ أى من سواكم ، قاله الفراء ، أى من دون المسلمين وهم الكفار، أى بطانة كائنة من دونكم، ويجوز أن يتعلق بقوله : ﴿ **لا تتخذوا** ﴾ . وقوله : ﴿ **لا يألونكم خبالا** ﴾ فى محل نصب صفة لبطانة. يقال: لا آلوك جهدًا ، أى لا أقصر. قال امرؤ القيس:

وَمَا المرء مَادَامت حشَاشَةُ نفْسِه ... بِمُدْرِكِ أطْرافِ الخُـطُوبِ وَلا آلِ

(١) أحمد ٣٩٦/١ والنسائى فى التفسير (٩٣) والبزار فى الصلاة (٣٧٥) وأبو يعلى (٥٣٠٦) وابن جرير ٣٦/٤ والطبرانى (١٠٢٠٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٣١٧/١ : « ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبى النجود وهو مختلف فى الاحتجاج به ، وفى إسناد الطبرانى عبيد الله بن زحر وهو ضعيف » .

(٢) ابن جرير٣٦/٤ .

والمراد : لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم ، وإنما عدى إلى مفعولين لكونه مضمنًا معنى المنع ، أى لايمنعونكم خبالا ، والخبال والخبل : الفساد فى الأفعال ، والأبدان ، والعقول ، قال أوس :

أبَنِـي لُبَيْنَـى لَسـتُم بيَـدٍ　　　إلا يـدًا مَخبُولَـةَ العَضد

أى فاسدة العضد . قوله : ﴿ ودوا ما عنتُّم ﴾ : « ما » مصدرية ، أى ودوا عنتكم،والعنت : المشقة وشدة الضرر ، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهى . قوله : ﴿ قد بدت البغضاء ﴾ هى شدة البغض كالضراء لشدة الضر ، والأفواه : جمع فم ، والمعنى : أنها قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم لما خامرهم من شدة البغض والحسد ؛ أظهرت ألسنتهم ما فى صدورهم فتركوا التقية وصرحوا بالتكذيب . أما اليهود فالأمر فى ذلك واضح ، وأما المنافقون فكان يظهر من فلتات ألسنتهم ما يكشف عن خبث طويتهم ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم ﴿ وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور ؛ بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما فى الصدور قليلة جدًا . ثم إنه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان .

قوله : ﴿ ها أنتم أولاء ﴾ جملة مصدرة بحرف التنبيه ، أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاتهم، ثم بين خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية فقال: ﴿ تحبونهم ولا يحبونكم ﴾. وقيل : إن قوله ﴿ تحبونهم ﴾ خبر ثان لقوله : ﴿ أنتم ﴾ وقيل : إن ﴿ أولاء ﴾ موصول و﴿ تحبونهم ﴾ صلته ، أى تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمانَ ، أو لما بينكم وبينهم من القرابة ﴿ ولا يحبونكم ﴾ لما قد استحكم فى صدورهم من الغيظ والحسد. قوله : ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أى بجنس الكتاب جميعًا ، ومحل الجملة النصب على الحال ، أى لا يحبونكم ، والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التى من جملتها كتابهم ، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ وفيه توبيخ لهم شديد؛ لأن من بيده الحق أحق بالصلابة والشدة ممن هو على الباطل ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ نفاقًا وتقية ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ تأسفًا وتحسرًا ، حيث عجزوا عن الانتقام منكم ، والعرب تصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان ، ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم ، فقال: ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ وهو يتضمن استمرار غيظهم ماداموا فى الحياة حتى يأتيهم الموت وهم عليه ، ثم قال : ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فهو يعلم ما فى صدوركم وصدورهم ، والمراد بذات الصدور : الخواطر القائمة بها ، وهو كلام داخل تحت قوله : ﴿ قل ﴾ فهو من جملة المقول .

قوله : ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهى عداوتهم ، وحسنة وسيئة يعمان كل ما يحسن وما يسوء . وعبر بالمس فى الحسنة ، وبالإصابة فى السيئة ؛ للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة ، ولا يفرحون إلا بإصابة السيئة . وقيل : إن المس مستعار لمعنى الإصابة ، ومعنى الآية : أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلا لأن يتخذ

بطانة ﴿ **وإن تصبروا** ﴾ على عداوتهم أو على التكاليف الشاقة ﴿**وتتقوا**﴾ موالاتهم ، أو ماحرمه الله عليكم ﴿ **لا يـضركم كيدهم شيئا** ﴾ يقال : ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضيورا ، بمعنى: ضره يضره، وبه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ؛ وقرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿ **لا يـضركم** ﴾ بضم الراء وتشديدها من ضرّ يضر فهو على القراءة الأولى مجزوم على أنه جواب الشرط ، وعلى القراءة الثانية مرفوع على تقدير إضمار الفاء كما فى قول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها (١)

قاله الكسائى والفراء . وقال سيبويه : إنه مرفوع على نية التقديم ، أى لا يضركم أن تصبروا . وحكى أبوزيد عن المفضل عن عاصم :« لا يـضركم » بفتح الراء ، و ﴿ **شيئا** ﴾ صفة مصدر محذوف .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم لخوف الفتنة عليهم منهم: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** . . .﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : هم المنافقون . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ ؛ قال: « هم الخوارج » . قال السيوطى : وسنده جيد (٣) . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أى بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل ﴿ **إن تمسسكم حسنة** ﴾ يعنى : النصر على العدو والرزق والخير ﴿ **تسؤهم وإن تصبكم سيئة** ﴾ يعنى : القتل والهزيمة والجهد.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ

---

(١) الشاعر هو : حسان بن ثابت ، شاعر الرسول ﷺ وهذا مقدم بيت عجزه :

والشر بالشر عند الله سيان

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩٩ ، ٢٠٠ وابن جرير ٤/ ٤٠ .

(٣) الطبرانى (٨٠٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٢٣٦ : «ورجاله ثقات » والسيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٦٦ .

كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

العامل فى : « إذ » فعل محذوف ، أى واذكر إذ غدوت من منزل أهلك ، أى من المنزل الذى فيه أهلك . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية نزلت فى غزوة أحد ، وقال الحسن : فى يوم بدر ، وقال مجاهد ومقاتل والكلبى : فى غزوة الخندق (١) . قوله : ﴿ تبوئ ﴾ أى تتخذ لهم مقاعد للقتال ، وأصل التبوؤ : اتخاذ المنزل ، يقال: بوأته منزلا: إذا أسكنته إياه، والفعل فى محل نصب على الحال ، ومعنى الآية : واذكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال، أى أماكن يقعدون فيها ، وعبر عن الخروج بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة كما سيأتى ؛ لأنه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما، كما يقال : أضحى وإن لم يكن فى وقت الضحى .

قوله : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ هو بدل من ﴿ إذ غدوت ﴾ أو متعلق بقوله: ﴿ تبوئ ﴾ أو بقوله : ﴿ سميع عليم ﴾ والطائفتان : بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى العسكر يوم أحد ، والفشل: الجبن ، وَالْهَمُّ من الطائفتين كان بعد الخروج ، لما رجع عبد الله بن أبى بمن معه من المنافقين ، فحفظ الله قلوب المؤمنين فلم يرجعوا ، وذلك قوله : ﴿ والله وليهما ﴾ .

قوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ جملة مستأنفة ، سيقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر ، وبدر : اسم لماء كان فى موضع الوقعة . وقيل : هو اسم الموضع نفسه ، وسيأتى سياق قصة بدر فى الأنفال إن شاء الله ، وأذلة : جمع قلة ، ومعناه : أنهم كانوا بسبب قلتهم أذلة ، وهو جمع ذليل استعير للقلة ، إذ لم يكونوا فى أنفسهم أذلة ؛ بل كانوا أعزة . والنصر : العون ، وقد شرح أهل التواريخ والسير غزوة بدر وأحد ، بأتم شرح فلا حاجة لنا فى سياق ذلك ها هنا .

قوله : ﴿ إذ تقول ﴾ متعلق بقوله : ﴿ نصركم ﴾ والهمزة فى قوله : ﴿ ألن يكفيكم ﴾ للإنكار منه ﷺ عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة،ومعنى الكفاية: سد الخلة والقيام بالأمر، والإمداد فى الأصل : إعطاء الشىء حالا بعد حال ، والمجىء بـ« لن » لتأكيد النفى ، وأصل الفور : القصد إلى الشىء والأخذ فيه بجد ، وهو من قولهم : فارت القدر تفور فوراً وفوراناً : إذا غلت ، والفور : الغليان ، وفار غضبه : إذا جاش ، وفعله من فوره ، أى قبل أن يسكن ، والفوارة ما يفور من القدر، استعير للسرعة، أى إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم

(١) ابن إسحاق ٣/ ٧٠ وابن جرير ٤/ ٤٥ ، ٤٦ وحكم ابن كثير ٢/ ١٠٤ على هذا الرأى بأنه : «غريب لا يعول عليه » .

ربكم بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك.

قوله : ﴿ مسومين ﴾ بفتح الواو اسم مفعول ، وهى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائى ونافع ، أى معلمين بعلامات . وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، وعاصم ﴿ مسومين ﴾ بكسر الواو اسم فاعل ، أى معلمين أنفسهم بعلامة ، ورجح ابن جرير هذه القراءة ، والتسويم : إظهار سيما الشىء ، قال كثير من المفسرين : ﴿ مسومين ﴾ أى مرسلين خيلهم فى الغارة . وقيل : إن الملائكة اعتمت بعمائم بيض . وقيل : حمر . وقيل : خضر . وقيل : صفر ، فهذه هى العلامة التى علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج . وقيل : كانوا على خيل بلق . وقيل غير ذلك.

قوله : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى مقول القول ، والضمير فى قوله : ﴿ جعله ﴾ للإمداد المدلول عليه بالفعل، أو للتسويم ، أو للإنزال ، ورجح الأول الزجاج وصاحب الكشاف [(١)] . وقوله : ﴿ إلا بشرى ﴾ استثناء مفرغ من أعم العام ، والبشرى: اسم من البشارة ، أى إلا لتبشروا بأنكم تنصرون ولتطمئن قلوبكم به ، أى بالإمداد ، واللام لام كى ، جعل الله ذلك الإمداد بشرى بالنصر وطمأنينة للقلوب ، وفى قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ .﴿ وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند غيره ، فلا تنفع كثرة المقاتلة ووجود العدة .

قوله : ﴿ ليقطع طرفًا من الذين كفروا ﴾ متعلق بقوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ . وقيل : متعلق بقوله : ﴿وما النصر إلا من عند الله ﴾ . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ يمددكم ﴾ والطرف : الطائفة . والمعنى : نصركم الله ببدر ليقطع طائفة من الكفار ، وهم الذين قتلوا يوم بدر ، أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة ، أو يمددكم ليقطع . ومعنى ﴿يكبتهم﴾ : يحزنهم ، والمكبوت : المحزون . وقال بعض أهل اللغة : معناه: يكبدهم[(٢)] ، أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم ، وهو غير صحيح ، فإن معنى كبت : أحزن وأغاظ وأذل ، ومعنى كبد : أصاب الكبد ﴿ فينقلبوا خائبين ﴾ أى غير ظافرين بمطلبهم .

قوله : ﴿ ليس لك من الأمرشىء ﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى إن الله مالك أمرهم يصنع بهم مايشاء من الإهلاك أو الهزيمة أو التوبة إن أسلموا أو العذاب . فقوله : ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ عطف على قوله : ﴿ أو يكبتهم ﴾ وقال الفراء : إن « أو » بمعنى « إلا أن » بمعنى : ليس لك من الأمر شىء إلا أن يتوب عليهم فتفرح بذلك أو يعذبهم فتتشفى [(٣)] بهم .

---

(١) الكشاف ١/ ٤١٢.

(٢) فى المطبوعة : «يكيدهم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، ومن القرطبى ٢/ ١٤٤٠ .

(٣) فى المطبوعة :«فتشفى » بتاء واحدة، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

قوله : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مستأنف لبيان سعة ملكه ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه يفعل فى ملكه مايشاء ويحكم ما يريد ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . وفى قوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه ، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة ، وما أوقع هذا التذييل الجليل ، وأحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل.

وقد أخرج ابن إسحاق، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحصين بن عبد الرحمن بن أسعد بن معاذ [(١)] قالوا : كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص،واختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين، ممن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر،ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته،وكان مما نزل من القرآن فى يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان فى يومه ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم، يقول الله لنبيه: ﴿ وإذ غدوت من أهلك . . . ﴾ الآية [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس ﴿ وإذ غدوت من أهلك . . . ﴾ الآية قال : يوم أحد. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ تبوئ المؤمنين ﴾ قال : توطن. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أن الآية فى يوم الأحزاب . وقد ورد فى كتب السير والتاريخ ، كيفية الاختلاف فى المشورة على النبى ﷺ فى يوم أحد ، فمن قائل : نخرج إليهم ، ومن قائل : نبقى فى المدينة ، فخرج وكان من جملة المشيرين عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين ، كان رأيه البقاء فى المدينة والمقاتلة فيها ، ثم لما خولف فى رأيه انخذل بمن معه من المنافقين ، وهم قدر الثلث من القوم الذين خرج بهم النبى ﷺ .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر ؛ قال : فينا نزلت فى بنى حارثة وبنى سلمة: ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله : ﴿ والله وليهما ﴾ [(٣)]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ إذ همت طائفتان ﴾ قال : ذلك يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم بنو حارثة وبنو سلمة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ إلى ﴿ ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ فى قصة بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿وأنتم أذلة ﴾ يقول : وأنتم قليل وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الشعبى ؛ أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن

---

(١) كذا فى المخطوطة ، والصحيح « حصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، ويقال : إنه حصين بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، وهوثقة » .

(٢) ابن إسحاق ٣/ ٦٩ ، ٧٠ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٢٤ .

(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٥١) وفى التفسير (٤٥٥٨) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٠٥/ ١٧١) وابن حبان فى فضائل الصحابة والتابعين (٧٢٤٤) .

جابر المحاربى يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف** ﴾ إلى قوله : ﴿ **مسومين** ﴾ قال : فبلغت كرزًا فلم يمد المشركين ، ولم يمد المسلمين بالخمسة[(١)] .

وأخرج ابن جرير عن الشعبى : لما كان يوم بدر بلغ رسول الله ﷺ ثم ذكر نحوه إلا أنه قال : ﴿ **ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ يعنى : كرزًا وأصحابه ﴿ **يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ فبلغ كرزا وأصحابه الهزيمة فلم يمدهم ، ولم ينزل الخمسة ، وأمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : أمدوا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف وذلك يوم بدر .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا** . . .﴾ الآية ، قال : هذا يوم أحد فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ، ولو أمدوا لم ينهزموا يومئذ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ يقول : من سفرهم هذا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن عكرمة ﴿ **من فورهم** ﴾ قال : من وجههم . وأخرج ابن جرير عن الحسن والربيع وقتادة والسدى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿**من فورهم**﴾ قال: من غضبهم . وأخرجا عن أبى صالح ، مولى أم هانئ ، مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس ؛ قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿**مسومين** ﴾ قال : « معلّمين ، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء ويوم أحد عمائم حمراء » [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير؛ أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرًا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر[(٤)] . وأخرج ابن إسحاق والطبرانى عن ابن عباس قال : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء ، قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراء ، ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عددًا ومددًا لايضربون [(٥)] . وفى بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ليقطع طرفًا من الذين كفروا** ﴾ قال : قطع الله يوم بدر طرفًا من الكفار ، وقتل صناديدهم ، ورؤوسهم ، وقادتهم فى الشر. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **ليقطع طرفا** ﴾

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥١٧) وابن جرير ٤/ ٥٠ .

(٢) ابن جرير ٤/ ٥٠ .

(٣) الطبرانى (١١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٣٠ : «وفيه عبد القدوس بن حبيب ، وهو متروك » .

(٤) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٢٧٧٠) وابن جرير ٤/ ٥٥

(٥) ابن إسحاق ٢/ ٢٧٥ والطبرانى (١٢٠٨٤) وفى بعض رواته ضعف .

قال : هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة . وأخرج ابن جرير عن السدى قال: ذكر الله قتلى المشركين بأحد، وكانوا ثمانية عشر رجلا فقال : ﴿ **ليقطع طرفًا من الذين كفروا** ﴾ ثم ذكر الله الشهداء فقال: ﴿ ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ﴾ [آل عمران : ١٦٩]. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أويكبتهم** ﴾ قال : يحزنهم .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ؛ أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج فى وجهه حتى سال الدم ، فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزل الله: ﴿ **ليس لك من الأمر شىء ...** ﴾ الآية . وقد روى هذا المعنى فى روايات كثيرة [١] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد : « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية: ﴿ **ليس لك من الأمر شىء** ﴾ [٢] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أيضًا من حديث أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع : « اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك [٣] على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » يجهر بذلك .وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر: « اللهم العن فلانًا وفلانًا » لأحياء من أحياء العرب ، حتى أنزل الله : ﴿ **ليس لك من الأمر شىء** ﴾ وفى لفظ : « اللهم العن لحيان ، ورعلا ، وذكوان ، وعصية عصت الله ورسوله » ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله : ﴿ **ليس لك من الأمر شىء . . .** ﴾ الآية[٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

---

(١) أحمد ٣/ ٩٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ والبخارى فى المغازى معلقًا ٧/ ٣٦٥ ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩١ / ١٠٤) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٢) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٧) .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٠٦٩) وفى التفسير (٤٥٥٩) وفى الاعتصام (٧٣٤٦) والنسائى فى التفسير (٩٥، ٩٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٤) وقال : « حسن غريب» والطبرانى (١٣١١٣) والبيهقى ٢/ ١٩٨ ، ٢٠٧ .

(٣) الوَطْأةُ : الضغطة والأخذة الشديدة . اللسان ١/ ١٩٧ .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٥٦٠) ومسلم فى المساجد (٦٧٥/ ٢٩٤ ، ٢٩٥) والبيهقى ٢/ ٢٠٧ وابن حبان فى القنوت (١٩٨٣) .

إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ .

قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ قيل : هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر. وقيل: هو اعتراض بين أثناء قصة أحد . وقوله : ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ ليس لتقييد النهى لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال ؛ ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التى يعتادونها فى الربا ، فإنهم كانوا يربون إلى أجل ، فإذا حل الأجل زادوا فى المال مقدارًا يتراضون عليه ، ثم يزيدون فى أجل الدين ، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة ، حتى يأخذ[1] المربى أضعاف دينه الذى كان له فى الابتداء ، وأضعاف حال ، ومضاعفة نعت له ، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عامًا بعد عام ، والمبالغة فى هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ . قوله : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار فى معاملاتهم ، قال كثير من المفسرين : وفيه أنه يكفر من استحل الربا . وقيل معناه : اتقوا الربا الذى ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار ، وإنما خص الربا فى هذه الآية؛لأنه الذى توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله .

وقوله : ﴿ وأطيعوا الله والرسول ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى فى كل أمر ونهى ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أى راجين الرحمة من الله عز وجل .

وقوله : ﴿ وسارعوا ﴾ عطف على أطيعوا ، وقرأ نافع وابن عامر : « سارعوا » بغير واو، وكذلك فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام ، وقرأ الباقون بالواو . قال أبو على : كلا الأمرين سائغ مستقيم . والمسارعة : المبادرة ، وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى مايوجب المغفرة من الطاعات . وقوله : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ أى عرضها كعرض السموات والأرض ، و مثله الآية الأخرى : ﴿ عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ [الحديد : ٢١] وقد اختلف فى معنى ذلك ، فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها إلى بعض فذلك عرض الجنة، ونبه بالعرض على الطول ؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض . وقيل : إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة ، وذلك أنها ما كانت الجنة من الاتساع والانفساح فى غاية قصوى حسن التعبير عنها بعرض السموات والأرض مبالغة ؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده ، ولم يقصد بذلك التحديد . والسراء : اليسر ، والضراء : العسر ، وقد تقدم تفسيرهما . وقيل : السراء : الرخاء ، والضراء : الشدة ، وهو مثل الأول . وقيل: السراء فى الحياة ، والضراء بعد الموت .

قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ يقال : كظم غيظه ، أى سكت عليه ولم يظهره ، ومنه

---

(١) فى المطبوعة : « يأخذوا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

كظمت السقاء ، أى ملأته . والكظامة : ما يسد به مجرى الماء ، وكظم البعير جرته : إذا ردّها فى جوفه ، وهو عطف على الموصول الذى قبله . قوله : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ أى التاركين عقوبة من أذنب إليهم واستحق المؤاخذة ، وذلك من أجل ضروب الخير وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا . وقال الزجاج وغيره : المراد بهم : المماليك ، واللام فى : ﴿ **المحسنين** ﴾ يجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء وغيرهم ، ويجوز أن تكون للعهد فيخفض بهؤلاء ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السياق فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان ، أى إحسان كان .

قوله : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾ هذا مبتدأ وخبره ﴿ **أولئك** ﴾ وقيل : معطوف على المتقين ، والأول أولى ، وهؤلاء هم صنف دون الصنف الأول ، ملحقين بهم وهم التوابون ، وسيأتى ذكر سبب نزولها ، والفاحشة وصف لموصوف محذوف ، أى فعله فاحشة وهى تطلق على كل معصية ، وقد ذكر اختصاصها بالزنا . وقوله : ﴿ **أوظلموا أنفسهم** ﴾ أى باقتراف ذنب من الذنوب . وقيل : « أو » بمعنى الواو ، والمراد ما ذكر . وقيل : الفاحشة : الكبيرة، وظلم النفس : الصغيرة . وقيل غير ذلك . قوله : ﴿ **ذكروا الله** ﴾ أى بألسنتهم ، أو أخطروه فى قلوبهم ، أو ذكروا وعده ووعيده . ﴿ **فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ أى طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه . وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة ، وفى الاستفهام بقوله : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ من الإنكار ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره، أى لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه ، وتنشيط للمذنبين أن يقفوا فى مواقف الخضوع والتذلل ، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه .

وقوله : ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا** ﴾ عطف على فاستغفروا ، أى لم يقيموا على قبيح فعلهم ، وقد تقدم تفسير الإصرار . والمراد به هنا : العزم على معاودة الذنب وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه . وقوله : ﴿ **وهم يعلمون**﴾ جملة حالية، أى لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه.

قوله : ﴿ **أولئك جزاؤهم** ﴾ الإشارة إلى المذكورين بقوله: ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾. وقوله : ﴿**جزاؤهم** ﴾ بدل اشتمال من اسم الإشارة. وقوله : ﴿ **مغفرة** ﴾ خبر ﴿ **ومن ربهم** ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة ، أى كائنة من ربهم . وقوله : ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أى أجرهم ، أو ذلك المذكور ، وقد تقدم تفسير الجنات وكيفية جرى الأنهار من تحتها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا جاء الأجل زادوا عليهم وزادوا فى الأجل ، فنزلت: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء ؛ قال : كانت ثقيف تدين

بنى المغيرة لأجل فى الجاهلية وذكر نحوه [١] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن معاوية بن قرة [٢] ؛ قال : كان الناس يتأولون هذه الآية : ﴿ **واتقوا النار التى أعدت للكافرين** ﴾ : اتقوا لا أعذبكم بذنوبكم فى النار التى أعددتها للكافرين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبى رباح ؛ قال : قال المسلمون : يارسول الله ، أبنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا ؟ كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبًا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة فى عتبة بابه ، اجدع أنفك ، اجدع أذنك ، افعل كذا وكذا ، فسكت النبى ﷺ فنزلت : ﴿ **وسارعوا** . . . ﴾ الآية [٣]. وأخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك فى تفسير :﴿ **وسارعوا** ﴾ قال : التكبيرة الأولى . وأخرج ابن جرير من طريق السدى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عرضها السموات والأرض** ﴾ مثل ما ذكرناه سابقًا عن الجمهور . وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق كريب .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء** ﴾ يقول : فى اليسر والعسر ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ يقول : كاظمين على الغيظ . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ثواب من كظم الغيظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن النخعى فى الآية ؛ قال : الظلم من الفاحشة ، والفاحشة من الظلم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والطبرانى وابن أبى الدنيا وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود ؛ قال: إن فى كتاب الله لآيتين ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما فاستغفر الله إلا غفر له : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة...**﴾ الآية ، وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه . . .﴾ الآية [النساء : ١١٠] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن ثابت البُنَانى ؛ قال: بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** . . .﴾ الآية . وأخرج الحكيم الترمذى عن عطاف بن خالد قال [٤] : بلغنى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا** ﴾ صاح إبليس

---

(١) ابن جرير ٤/ ٥٩ .

(٢) هومعاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزنى البصرى ، روى عن أبيه ومعقل بن يسار وأبى أيوب الأنصارى ، وروى عنه ابنه إياس وثابت البنانى ومطر الوراق وقتادة وغيرهم ، ولقد قال معاوية بن قرة عن نفسه :« لقيت من الصحابة كثيراً، منهم خمسة وعشرون من مزينة » وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وذكره ابن حبان فى الثقات، وقال الشافعى : « روايته عن عثمان منقطعة » وقد كان مولده يوم الجمل وتوفى عام ١١٣ هـ عن ٧٦عامًا . تهذيب التهذيب ١٠/ ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) ابن جرير ٤/ ٦٢ .

(٤) هو عطاف بن خالد بن عبد الله بن العاص بن وابصة القرشى المخزومى المدنى ، أحد المشايخ الثقات ، ولد سنة ٩١ هـ روى عن نافع وزيد بن أسلم، وروى عنه أبو اليمان وآدم بن إياس وقتيبة وغيرهم ، وثقه أحمد بن حنبل وغيره ، ولم يَحْمَدْه مالك ، وله نحو من مائة حديث ، وهو نحو فُلَيح وابن أبى حازم فى القوة ، وكانت وفاته قريبًا من وفاة الإمام مالك . انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٧٣ ، ٢٧٤ الجرح والتعديل ٧/ ٣٢ تهذيب التهذيب ٧/ ٢٢١ .

بجنوده ، وحثا على رأسه التراب ، ودعا بالويل والثبور ، حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا : مالك ياسيدنا ؟ قال : آية نزلت فى كتاب الله لايضر بعدها أحدًا من بنى آدم ذنب ، قالوا : وما هى ؟ فأخبرهم ، قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولايستغفرون ، ولا يرون إلا أنهم على الحق ، فرضى منهم بذلك .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والحميدى وعبد بن حميد وأهل السنن الأربع ، وحسنه النسائى ، وابن حبان، والدارقطنى فى الأفراد، والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى ، والبيهقى فى الشعب، والضياء فى المختارة عن أبى بكر الصديق : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيتطهر ثم يصلى ركعتين ، ثم يستغفر من ذنبه ذلك إلا غفر الله له » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة . . .** ﴾ الآية[(١)] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن مرفوعًا نحوه ، ولكنه قال : « ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى » [(٢)]. وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن أبى بكر الصديق؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصرَّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » [(٣)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **ولم يصروا** ﴾ فيسكتون ولايستغفرون. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل : ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ قال : أجر العاملين بطاعة الله الجنة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ

---

(١) ابن أبى شيبة فى الصلوات ٢/٣٨٧ وأحمد ١/٩، ١٠ وأبو داود فى الصلاة (١٥٢١) والترمذى فى الصلاة (٤٠٦) وقال : « حسن » وفى التفسير (٣٠٠٦) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٩٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٢٤٧ ـ ١٠٢٥٠) وابن حبان فى التوبة (٦٢٢) وأبو يعلى فى المسند (١١ ـ ١٥) وابن جرير ٤/٦٣ والبيهقى فى الشعب (٧٠٧٧ ، ٧٠٧٨) ط . الكتب العلمية والطيالسى فى مسنده (١) .

(٢) البيهقى فى الشعب (٧٠٨١) ط . الكتب العلمية .

(٣) أبو داود فى الصلاة (١٥١٤) والترمذى فى الدعوات (٣٥٥٩) وأبو يعلى (١٣٩) وابن جرير ٤/٦٤ والبيهقى فى الشعب (٧٠٩٩) ط . الكتب العلمية .

تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾.

قوله : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ هذا رجوع إلى وصف باقى القصة، والمراد بالسنن: ما سنه الله فى الأمم من وقائعه ، أى قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنها الله فى الأمم المكذبة ، وأصل السنن : جمع سنة ، وهى الطريقة المستقيمة ، ومنه قول الهذلى :

فَلا تَجْزَعَن مِنْ سُنَّة أَنْتَ سِرْتَها ... فَأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرها

والسنة : الإمام المتبع المؤتم به ، ومنه قول لبيد :

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّت لَهُمْ آباؤُهُم ... وَلِكُلِ قَوْمٍ سنةٌ وإمامُ

والسنة : الأمة ، والسنن : الأمم ، قاله المفضل الضبى [(١)] . وقال الزجاج : المعنى فى الآية : أهل سنن فحذف المضاف. والفاء فى قوله : ﴿ فسيروا ﴾ سببية . وقيل : شرطية ، أى إن شككتم فسيروا . والعاقبة : آخر الأمر . والمعنى : سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ، ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التى آثروها أثر. هذا قول أكثر المفسرين . والمطلوب من هذا السير المأمور به هو حصول المعرفة بذلك ، فإن حصلت بدونه فقد حصل المقصود ، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غيرحاصلة لمن لم يشاهدها . والإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى قوله : ﴿ قد خلت ﴾ وقال الحسن : إلى القرآن. ﴿ بيان للناس ﴾ أى تبيين لهم ، وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون ، أو للجنس ، أى للمكذبين وغيرهم ، وفيه حث على النظر فى سوء عاقبة المكذبين ، وما انتهى إليه أمرهم .

---

(١) هو أبو العباسى المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبى ، راوية علامة بالشعر والأدب وأيام العرب . قال عبد الواحد اللغوى :« هو أوثق من روى الشعر من الكوفيين »وقال أبو حاتم : «متروك القراءة والحديث » وقال أبو حاتم السجستانى : « هو ثقة فى الأشعار غير ثقة فى الحروف » يقال : إنه خرج على المنصور العباسى فظفر به وعفا عنه ، ولزم المهدى ، وصنف له كتابه : « المفضليات » وسماه الاختيارات وقيل : توفى سنة ١٦٨ هـ . وقيل : ١٧١ هـ ورجح الأستاذ/ عبد السلام هارون أن وفاته كانت سنة ١٧٨ هـ . انظر : ميزان الاعتدال ٤/ ١٧٠ ولسان الميزان ٦/ ٩٥ والأعلام ٧/ ٢٨٠ .

قوله : ﴿ **وهدى وموعظة** ﴾ أى هذا النظر مع كونه بيانًا فيه هدى وموعظة للمتقين من المؤمنين، فعطف الهدى والموعظة على البيان يدل على التغاير ، ولو باعتبار المتعلق ، وبيانه أن اللام فى الناس إن كانت للعهد فالبيان للمكذبين ، والهدى والموعظة للمؤمنين ، وإن كانت للجنس فالبيان لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، والهدى والموعظة للمتقين وحدهم .

قوله : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا** ﴾ عزاهم وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحثهم على قتال عدوهم ، ونهاهم عن العجز والفشل ، ثم بين لهم أنهم الأعلَون على عدوهم بالنصر والظفر ، وهى جملة حالية ، أى والحال أنكم الأعلون عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الوقعة. وقد صدق الله وعده ، فإن النبى ﷺ بعد وقعة أحُد ظفر بعدوه فى جميع وقعاته. وقيل : المعنى : وأنتم الأعلوْن عليهم بما أصبتم منهم فى يوم بدر ، فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم . وقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **ولا تهنوا** ﴾ وما بعده ، أو بقوله : ﴿**وأنتم الأعلون**﴾ أى إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا، أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون. والقرح بالضم والفتح : الجرح ، وهما لغتان فيه ، قاله الكسائى والأخفش ، وقال الفراء : هو بالفتح : الجرح ، وبالضم: ألمه . وقرأ محمد بن السَّمَيْفَع :« قرح » بفتح القاف والراء على المصدر ، والمعنى فى الآية : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر ، فلا تهنوا لما أصابكم فى هذا اليوم ، فإنهم لم يهنوا لما أصابهم فى ذلك اليوم ، وأنتم أولى بالصبر منهم . وقيل : إن المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين فى هذا اليوم ، فإن المسلمين انتصروا عليهم فى الابتداء ، فأصابوا منهم جماعة ، ثم انتصر الكفار عليهم فأصابوا منهم ، والأول أولى ؛ لأن ما أصابه المسلمون من الكفار فى هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه .

وقوله : ﴿ **وتلك الأيام** ﴾ أى الكائنة بين الأمم فى حروبها ، والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة فى زمن النبوة؛ تارة تغلب هذه الطائفة ، وتارة تغلب الأخرى كما وقع أيها المسلمون فى يوم بدر وأحد . وهو معنى قوله : ﴿ **نداولها بين الناس** ﴾ . فقوله : ﴿ **تلك** ﴾ مبتدأ ﴿**والأيام**﴾ صفته، والخبر ﴿ **نداولها**﴾ وأصل المداولة : المعاورة داولته بينهم : عاورته. والدولة: الكرة، ويجوز أن تكون الأيام خبرًا ونداولها حالا، والأول أولى. وقوله : ﴿ **وليعلم الله** ﴾ معطوف على علة مقدرة كأنه قال : نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم ، أو يكون المعلل محذوفًا ، أى ليعلم الله الذين اتقوا فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل ، أى فعلنا فعل من يريد أن يعلم ؛ لأنه سبحانه لم يزل عالمًا ، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علمًا يقع عليه الجزاء كما علمه علمًا أزليًا ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ أى يكرمهم بالشهادة ، والشهداء جمع شهيد ، سمى بذلك ؛ لكونه مشهودًا له بالجنة ، أو جمع شاهد لكونه كالمشاهد للجنة ، و « من » للتبعيض وهم شهداء أحد . وقوله : ﴿**والله لا يحب الظالمين** ﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لتقرير مضمون ما قبله .

وقوله : ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا** ﴾ من جملة العلل معطوف على ما قبله .

والتمحيص : الاختبار . وقيل : التطهير على حذف مضاف ، أى ليمحص ذنوب الذين آمنوا ، قاله الفراء . وقيل : يمحص : يخلص ، قاله الخليل والزجاج ، أى ليخلص المؤمنين من ذنوبهم . وقوله : ﴿ **ويمحق الكافرين** ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك . وأصل التمحيق : محو الآثار ، والمحق : نقصها .

قوله : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة** ﴾ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز ، وأم هى المنقطعة ، والهمزة للإنكار، أى بل أحسبتم ، والواو فى قوله : ﴿ **ولما يعلم الله** ﴾ واو الحال، والجملة حالية ، وفيه تمثيل كالأول ، أو علم يقع عليه الجزاء . وقوله : ﴿**ويعلم**[(١)] **الصابرين**﴾ منصوب بإضمار « أن » كما قال الخليل وغيره ، على أن الواو للجميع ، وقال الزجاج : « الواو » بمعنى « حتى » . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر « ويعلم الصابرين » بالجزم عطفًا على ﴿ **ولما يعلم** ﴾ وقرئ بالرفع على القطع . وقيل إن قوله : ﴿ **ولما يعلم** ﴾ كناية عن نفى المعلوم ، وهو الجهاد . والمعنى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر ، أى الجمع بينهما ، ومعنى «لما » معنى « لم » عند الجمهور ، وفرق سيبويه بينهما فجعل « لم » لنفى الماضى ، و« لما » لنفى الماضى والمتوقع .

قوله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ هو خطاب لمن كان يتمنى القتال والشهادة فى سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر، فإنهم كانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال ، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج ، ولم يصبر منهم إلا نفر يسير ، مثل أنس بن النضر عم أنس بن مالك. وقوله : ﴿ **من قبل أن تلقوه** ﴾ أى القتال أو الشهادة التى هى سبب الموت . وقرأ الأعمش : « من قبل أن تلاقوه » وقد ورد النهى عن تمنى الموت فلابد من حمله هنا على الشهادة . قال القرطبى : وتمنى الموت من المسلمين يرجع إلى تمنى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد ، لا إلى قتل الكفار لهم ، لأنه معصية وكفر ، ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل [(٢)] . قوله : ﴿ **فقد رأيتموه** ﴾ أى القتال ، أو ماهو سبب الموت . ومحل قوله : ﴿ **وأنتم تنظرون** ﴾ النصب على الحال ، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة ، أى قد رأيتموه معاينين له حين قتل من قتل منكم . قال الأخفش : إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله : ﴿ **ولا طائر يطير بجناحيه** ﴾ [الأنعام : ٣٨] . وقيل : معناه : بصراء ليس فى أعينكم علل . وقيل : معناه : وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ .

وقوله : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ سبب نزول هذه ما سيأتى من أن النبى ﷺ لما أصيب فى يوم أحد صاح الشيطان قائلا : قد قتل محمد ، ففشل بعض المسلمين ، حتى قال قائل : قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم ، وقال آخر :

---

(١) فى المطبوعة : «وليعلم» والصحيح ما أثبتناه .

(٢) القرطبى ٢/ ١٤٦٣ .

لوكان رسولا ما قتل ، فرد الله عليهم ذلك ، وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل وسيخلوا ، كما خلوا ، فجملة قوله : ﴿ **قد خلت من قبله الرسل** ﴾ صفة لرسول، والقصر قصر إفراد ،كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين: الرسالة ، وكونه لا يهلك ، فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك ، وقيل : هو قصر قلب. وقرأ ابن عباس : « قد خلت من قبل رسل » ثم أنكر الله عليهم بقوله : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ أى كيف ترتدون وتتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم ، وإن فقدوا بموت أو قتل ؟ وقيل : الإنكار لجعلهم خلو الرسل قبله سببًا لانقلابهم بموته أو قتله ، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل ؛ لكونه مجوزًا عند المخاطبين . قوله : ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه** ﴾ أى بإدباره عن القتال أو بارتداده عن الإسلام ﴿ **فلن يضر الله شيئا** ﴾ من الضرر،وإنما يضر نفسه ﴿ **وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ أى الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام ؛ ومن امتثل ما أمر به فقد شكرالنعمة التى أنعم الله بها عليه .

قوله : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله** ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد ، والإعلام بأن الموت لابد منه .ومعنى ﴿ **بإذن الله** ﴾ : بقضاء الله وقدره . وقيل : إن هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله ﷺ ، فبين لهم أن الموت بالقتل أو بغيره منوط بإذن الله ، وإسناده إلى النفس مع كونها غير مختارة له للإيذان بأنه لا ينبغى لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله . وقوله : ﴿ **كتابا** ﴾ مصدرمؤكد لما قبله ؛ لأن معناه : كتب الله الموت كتابًا. والمؤجل : المؤقت الذى لا يتقدم على أجله ولا يتأخر . قوله : ﴿ **ومن يرد**﴾ أى بعمله ﴿ **ثواب الدنيا** ﴾ كالغنيمة ونحوها ، واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا ،و إن كان السبب خاصًا ﴿ **نؤته منها** ﴾ أى من ثوابها على حذف المضاف . ﴿ **ومن يرد** ﴾ بعمله ﴿ **ثواب الآخرة** ﴾ وهو الجنة نؤته من ثوابها ، وتضاعف له الحسنات أضعافا كثيرة ﴿**وسنجزى الشاكرين** ﴾ بامتثال ما أمرناهم به كالقتال ، ونهيناهم عنه كالفرار وقبول الإرجاف .

وقوله : ﴿ **وكأين** ﴾ قال الخليل وسيبويه : هى « أى» دخلت عليها « كاف » التشبيه وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى « كم » ، وصوّرت فى المصحف « نونا » ؛لأنها كلمة نقلت عن أصلها ، فغير لفظها لتغيير معناها ، ثم كثر استعمالها فتصرفت فيها العرب بالقلب والحذف ، فصار فيها أربع لغات قرئ بها : أحدها : كائن مثل كاعن ، وبها قرأ ابن كثير ، ومثله قول الشاعر :

وَكَائِنْ بِالأبَاطِحِ مِن صَدِيقٍ ... يرانى لَوْ أصِبْتُ هو المُصَابَا

وقال آخر :

وَكائِن رَدَدْنا عنكم من مُدَجَّج ... يَجِىءُ أمَامَ الرَّكْب يَرْدِى مُقَنَّعا

وقال زهير :

وَكَائِنْ تَرى مِن مُعْجَبٍ لَكَ شَخْصه زِيَادته أوْ نَقْـصه فِى التَّكلُمِ

﴿ وكأين ﴾ بالتشديد مثل كعين ، وبه قرأ الباقون وهو الأصل ، والثالثة : كأين مثل كعين مخففًا ، والرابعة: كيئن بياء بعدها همزة مكسورة ، ووقف أبو عمرو بغير نون فقال : كأى لأنه تنوين ، ووقف الباقون بالنون . والمعنى : كثير من الأنبياء قتل معه ربيون . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب :« قتل » على البناء للمجهول وهى قراءة ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون فى « قتل » ضمير يعود إلى النبى وحينئذ يكون قوله : ﴿ معه ربيون ﴾ جملة حالية ،كما يقال : قتل الأمير معه جيش ، أى ومعه جيش ، والوجه الثانى : أن يكون القتل واقعًا على ربيون ، فلا يكون فى قتل ضمير والمعنى : قتل بعض أصحابه وهم الربيون . وقرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ قاتل ﴾ وهى قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد وقال : إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل ، فقاتل أعم وأمدح ، ويرجح هذه القراءة الأخرى . والوجه الثانى من القراءة الأولى قول الحسن : ما قتل نبىّ فى حرب قط ، وكذا قال سعيد بن جبير ، « والربيون » بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرأ على بضمها وابن عباس بفتحها ، وواحده ربى بالفتح منسوب إلى الرب ، والربى بضم الراء وكسرها منسوب إلى الربة بكسر الراء وضمها وهى الجماعة ، ولهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة . وقيل: هم الأتباع . وقيل : هم العلماء ، قال الخليل : الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نسبوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية . وقال الزجاج : الربيون بالضم : الجماعات . قوله : ﴿ فما وهنوا ﴾ عطف على قاتل أو قتل ، والوهن : انكسار الجد بالخوف . وقرأ الحسن : ﴿وهنوا ﴾ بكسر الهاء وضمها . قال ابن زيد [(١)] : لغتان وهن الشيء يهن وهنًا [(٢)] : ضعف، أى ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قتل منهم ﴿ وما ضعفوا ﴾ أى عن عدوهم ﴿ وما استكانوا ﴾ لما أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذلة والخضوع . وقرئ : « وما وهنوا وما ضعفوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى النسائى :«ضعفوا » بفتح العين ، وفى هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل .

قوله : ﴿ وما كان قولهم ﴾ أى قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول ، وقولهم منصوب على أنه خبر كان. وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم . وقوله: ﴿ إلا أن قالوا ﴾ استثناء مفرغ ،أى ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون أو قتل

---

(١) فى المطبوعة :« أبو زيد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) والواهنة : أسفل الأضلاع وقصارها ، والوهن من الإبل : الكثيف ، والوهن : ساعة تمضى من الليل ، وكذلك المَوْهن ، وأوهنا : صرنا فى تلك الساعة . اللسان ١٣/ ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

نبيهم ﴿ **إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا** ﴾ قيل: هى الصغائر. وقوله : ﴿ **وإسرافنا فى أمرنا** ﴾ قيل : هى الكبائر، والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبا من صغيرة أو كبيرة . والإسراف ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضمًا لأنفسهم ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ فى مواطن القتال ﴿ **فآتاهم الله** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **ثواب الدنيا** ﴾ من النصر والغنيمة والعزة ونحوها ﴿ **وحسن ثواب الآخرة** ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة ، جعلنا الله من أهلها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿**قد خلت من قبلكم سنن** ﴾ قال : تداول من الكفار والمؤمنين فى الخير والشر . وأخرج ابن أبى شيبة فى كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير ؛ قال : أول ما نزل من آل عمران :﴿ **هذا بيان للناس** ﴾ ثم أنزل بقيتها يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **هذا بيان** ﴾ يعنى : القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبى ﷺ : « اللهم لا يعلون علينا » ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا** ﴾ الآية [(١)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج ؛ قال : انهزم أصحاب رسول الله ﷺ فى الشعب يوم أحد ، فسألوا ما فعل النبى ﷺ ، وما فعل فلان ، فنعى بعضهم لبعض ، وتحدثوا أن النبى ﷺ قد قتل ، فكانوا فى هم وحزن، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل ، وكانوا على أحد مجنبتى المشركين ، وهم أسفل من الشعب ، فلما رأوا النبى ﷺ فرحوا ، فقال النبى ﷺ : « اللهم لا قوة لنا إلا بك، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر فلا تهلكهم » وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله : ﴿ **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ قال : وأنتم الغالبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **إن يمسسكم قرح** ﴾ قال : جراح وقتل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** ﴾ قال : إن يقتل منكم يوم أحد فقد قتل منهم يوم بدر. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ قال : كان يوم أحد بيوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتلك الأيام** ﴾ الآية. قال: أدال المشركين على النبى ﷺ يوم أحد ، وبلغنى أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين عدد الأسارى الذين

(١، ٢) ابن جرير ٤/ ٦٧ .

أسروا يوم بدر من المشركين ، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلا. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ قال : إن المسلمين كانوا يسألون ربهم : اللهم ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيرًا ، ونلتمس فيه الشهادة ، فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء .

وأخرجا عنه فى قوله: ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا** ﴾ قال: يبتليهم ﴿**ويمحق الكافرين** ﴾ قال ينقصهم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه ؛ أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ، ونستشهد ، أو ليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلى فيه خيراً، ونلتمس الشهادة والجنة، والحياة والرزق ، فأشهدهم الله أحدًا، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم . فقال الله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن كليب قال : خطبنا عمر بن الخطاب ، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول : إنها أحدية، ثم قال : تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد فصعدت الجبل فسمعت يهوديًا يقول : قتل محمد ، فقلت : لا أسمع أحدًا يقول : قتل محمد إلا ضربت عنقه ، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه ، فنزلت هذه الآية ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نادى مناد يوم أحد ألا إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول فأنزل الله : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ (١) . وأخرج أيضا عن مجاهد نحوه (٢) . وأخرج أيضا عن على فى قوله : ﴿ **وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ قال : الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه ، فكان على يقول : كان أبو بكر أمير الشاكرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم عنه ؛ أنه كان يقول فى حياة رسول الله ﷺ إن الله يقول : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قتل عليه حتى أموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ربيون** ﴾ قال: ألوف . وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال : الربة الواحدة ألف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ربيون** ﴾ قال : جموع . وأخرج ابن جرير عنه قال : علماء كثير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وما استكانوا** ﴾ قال : تخشعوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**وإسرافنا فى أمرنا** ﴾ قال : خطايانا .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** (١٤٩)

(١ ، ٢) المرجع السابق ٤ / ٧٤ .

بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣) ﴾ .

لما أمر الله سبحانه بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار وهم مشركو العرب. وقيل : اليهود والنصارى . وقيل : المنافقون فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم . وقوله : ﴿ **يردوكم على أعقابكم** ﴾ أى يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ أى ترجعوا مغبونين . وقوله : ﴿ **بل الله مولاكم** ﴾ إضراب عن مفهوم الجملة الأولى ، أى إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم لا غيره . وقرئ : « **بل الله** » بالنصب على تقدير : بل أطيعوا الله .

قوله : ﴿ **سنلقى** ﴾ قرأ السَّخْتِيَانى (١) بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالنون . وقرأ ابن عامر والكسائى «الرعب» بضم العين ، وقرأ الباقون بالسكون وهما لغتان ، يقال : رَعَبْتُه رُعبا ورُعُبًا فهوَ مَرْعُوب ، ويجوز أن يكون مصدرًا ، والرُّعب بالضم الاسم ، وأصله المَلْءُ . يقال: سَيْل راعب ، أى يملأ الوادى ، ورعبت الحوض : ملأته ، فالمعنى : سنملأ قلوب الكافرين رعبًا ، أى خوفًا وفزعًا ، والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام ، ومجازا فى غيرها كهذه الآية ، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا ألا يكونوا استأصلوا المسلمين ، وقالوا : بئسما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشر تركناهم ؛ ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به ﴿ **بما أشركوا بالله** ﴾ متعلق بقوله : ﴿**سنلقى** ﴾ « وما » مصدرية أى بسبب إشراكهم ﴿ **ما لم ينزل به سلطانا** ﴾ أى ما لم ينزل الله بجعله شريكًا له حجة وبيانًا وبرهانًا ، والنفى يتوجه إلى القيد والمقيد ، أى لا حجة ولا

(١) هو : أبو بكر أيوب بن أبى تميمة كَيْسان الغزى ، مولاهم البصرى ، وهو من صغار التابعين ، فقد ولد فى العام الذى توفى فيه ابن عباس ٦٨ هـ وروى عن سعيد بن جبير وأبى العالية ومجاهد والحسن البصرى وغيرهم، وممن روى عنه محمد بن سيرين والزهرى وقتادة ـ وهم من شيوخه ـ وسفيان ومالك وغيرهم . قال عنه الحسن : «أيوب سيد شباب أهل البصرة » وقال ابن عيينة : «ما رأيت مثل أيوب » وقال مالك : «كنا ندخل على أيوب السَّخْتيَانىّ فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه » وقال محمد بن سعد الكاتب : «كان أيوب ثقة ، ثبتًا فى الحديث ، جامعًا، كثير العلم ، حجة ، عدلا ، توفى بالبصرة زمن الطاعون ١٣١ هـ عن ٦٣ سنة » . انظر : سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥ ـ ٢٦ .

إنزال ، والمعنى : أن الإشراك بالله لم يثبت فى شىء من الملل ، والمثوى: المكان الذى يقام فيه ، يقال : ثوى يثوى ثواءً (١) .

قوله : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ نزلت لما قال بعض المسلمين : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر (٢)، وذلك أنه كان الظفر لهم فى الابتداء حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده ؛ فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مركزهم طلبا للغنيمة كان ذلك سبب الهزيمة . والحس : الاستئصال بالقتل ، قاله أبو عبيد . يقال : جراد محسوس : إذا قتله البرد ، وسَنَة حسوس : أى جدبة تأكل كل شىء . قيل : وأصله من الحس الذى هو الإدراك بالحاسة ، فمعنى حسه : أذهب حسه بالقتل ، وتحسونهم : تقتلونهم وتستأصلونهم . قال الشاعر :

حسسناهم بالسيف حسًّا فَأصْبَحت ... بقــيَّتُهم قد شُرِّدوا وتَبَدَّدوا

وقال جرير :

تَحُسُّهُم السّيــوفُ كما تسامَى ... حَرِيقُ النَّارِ فى الأجِمِ الحَصِيدِ

﴿ بإذنه ﴾ أى بعلمه أو بقضائه ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ أى جبنتم وضعفتم . قيل : جواب حتى محذوف تقديره : امتحنتم ، وقال الفراء : جواب حتى قوله : ﴿ وتنازعتم ﴾ والواو مقحمة زائدة كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : ١٠٣] وقال أبو على : يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم . وقيل : إن الجواب عصيتم ، والواو مقحمة . وقد جوز الأخفش مثله فى قوله تعالى: ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم ﴾ [التوبة : ١١٨] . وقيل : «حتى » بمعنى « إلى » وحينئذ لا جواب لها ، والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم : نلحق الغنائم ، وقال بعضهم : نثبت فى مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ . ومعنى قوله : ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ ما وقع لهم من النصر فى الابتداء فى يوم أحد كما تقدم ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ يعنى الغنيمة ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ أى الأجر بالبقاء فى مراكزهم امتثالا لأمر رسول الله ﷺ ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ أى ردكم الله عنهم بالانهزام بعد أن استوليتم عليهم ليمتحنكم ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ لما علم من ندمكم فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، والخطاب لجميع المنهزمين ، وقيل : للرماة فقط .

قوله : ﴿ إذ تصعدون ﴾ متعلق بقوله : ﴿ صرفكم ﴾ أو بقوله : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أو بقوله : ﴿ ليبتليكم ﴾ وقرأه الجمهوربضم التاء وكسر العين ، وقرأ أبو رجاء العطاردى ،

(١) وقيل : الثواء : الإقامة مع الاستقرار . اللسان ١٤/ ١٢٥ . قال عز وجل : ﴿ وما كنت ثاويًا فى أهل مدين ﴾ [القصص : ٤٥] .

(٢) ابن جرير ٤/ ٨٦ عن القاسم .

وأبو عبد الرحمن السلمى ، والحسن، وقتادة بفتح التاء والعين. وقرأ ابن محيصن وقنبل : « يصعدون » بالتحتية . قال أبو حاتم : أصعدت : إذا مضيت حيال وجهك ، وصعدت : إذا ارتقيت فى جبل ، فالإصعاد : السير فى مستوى الأرض وبطون الأودية ، والصعود : الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدرج ، فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ، فيصح المعنى على القراءتين . وقال القتيبى : أصعد : إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه . ومنه قول الشاعر(١) :

ألا أيهذا السَائلى أيْنَ أصْعدت فإنَّ لَها من بَطْنِ يَثرِبَ مَوْعِدا

وقال الفراء : الإصعاد : الابتداء فى السفر ، والانحدار : الرجوع منه ، يقال : أصعدنا من بغداد إلى مكة ، وإلى خراسان ، وأشباه ذلك : إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر ، وانحدرنا إذا رجعنا .وقال المفضل : صعد وأصعد بمعنى واحد. ومعنى ﴿ تلوون ﴾ : تعرجون وتقيمون ، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هربًا ، فإن المعرج إلى الشىء يلوى (٢) إليه عنقه أو عنق دابته . ﴿ على أحد ﴾ أى على أحد ممن معكم . وقيل : على رسول الله ﷺ . وقرأ الحسن : « تلون » بواو واحدة ، وقرأ عاصم فى رواية عنه بضم التاء وهى لغة . قوله : ﴿والرسول يدعوكم فى أخراكم ﴾ أى فى الطائفة المتأخرة منكم ، يقال : جاء فلان فى آخر الناس ، وآخرة الناس ، وأخرى الناس ، وأخريات الناس . وكان دعاء النبى ﷺ: « أى عباد الله ارجعوا » (٣) . قوله : ﴿ فأثابكم ﴾(٤) عطف على صرفكم . أى فجازاكم الله غمًا حين صرفكم عنه بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم ، أو غمًا موصولا بغم بسبب ذلك الإرجاف والجرح والقتل وظفر المشركين . والغم فى الأصل : التغطية ، غميت الشىء : غطيته ، ويوم غم ، وليلة غمة : إذا كانا مظلمين ، ومنه : غم الهلال . وقيل : الغم الأول: الهزيمة ، والثانى : الإشراف من أبى سفيان (٥) ، وخالد بن الوليد عليهم فى الجبل . قوله : ﴿ لكيلا تحزنوا ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ فأثابكم ﴾ أى هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من الهزيمة ، تمرينا لكم على المصائب وتدريبًا لاحتمال الشدائد . وقال المفضل: معنى : ﴿ لكيلا تحزنوا ﴾ لكى تحزنوا ، و «لا » زائدة كقوله تعالى : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] أى أن تسجد ، وقوله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد : ٢٩] أى ليعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ يا أيها الذين

---

(١) الشاعر: هو أعشى قيس ، والبيت من قصيدة مدح بها النبى ﷺ .
(٢) فى المطبوعة :« يأوى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٣) مجاز القرآن لأبى عبيد ١/١٠٥ ومعانى القرآن للفراء ١/٢٣٩ وابن جرير ٤/٨٨ .
(٤) الإثابة هنا : فى معنى عقاب .
(٥) فى المطبوعة : « إشراف أبى هريرة » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ قال : لا تنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم ولا تصدقوهم بشيء في دينكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى يقول : إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يردكم كفارًا . وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ نحو ما قدمناه في سبب نزول الآية [(١)] . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عروة فى قوله : ﴿ولقد صدقكم الله وعده ﴾ قال : كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ ، وتركوا مصافهم ، وتركت الرماة عهد الرسول إليهم ألا يبرحوا منازلهم، وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة[(٢)]. وقصة أحد مستوفاة فى السير والتواريخ ، فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن عوف فى قوله: ﴿ إذ تحسونهم ﴾ قال : الحس: القتل. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: الفشل: الجبن. وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب فى قوله: ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ قال: الغنائم وهزيمة القوم . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله: ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ قال: يقول الله قد عفوت عنكم ألا أكون استأصلتكم. وأخرج أيضا عن ابن جرير نحوه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ إذ تصعدون ﴾ قال : أصعدوا فى أُحُد فرارًا والرسول يدعوهم فى أخراهم: « إلى عبادَ الله ، ارجعوا ، إليَّ عباد الله ، ارجعوا » [(٣)] . وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ فأثابكم غمًا بغم ﴾ قال: الغم الأول : بسبب الهزيمة ، والثانى : حين قيل : قتل محمد ، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ غما بغم ﴾ قال : فرة بعد الفرة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمدًا قد قتل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم قال : الغم الأول : الجراح والقتل ، والغم الآخر : حين سمعوا أن النبى ﷺ قد قتل . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) ابن جرير ٤/ ٨١ .
(٢) البيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٥٦ .
(٣) ابن جرير ٤/ ٨٧ ، ٨٨ .

حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾ .

الأمنة والأمن سواء . وقيل : الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه ، وهى منصوبة بأنزل . و﴿نعاسا﴾ بدل منها ، أو عطف بيان ، أو مفعول له ، وأما ما قيل من أن ﴿ أمنة ﴾ حال من ﴿ نعاسا ﴾ مقدمة عليه ، أو حال من المخاطبين ، أو مفعول له فبعيد . وقرأ ابن محيصن : « أمنة » بسكون الميم . قوله : ﴿ يغشى ﴾ قرئ بالتحتية على أن الضمير للنعاس ، وبالفوقية على أن الضمير لأمنة (١) . والطائفة : تطلق على الواحد والجماعة، والطائفة الأولى: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبًا للأجر ، والطائفة الأخرى : هم مُعَتِّب ابن قشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعاً فى الغنيمة ، وجعلوا يناشدون على الحضور ، ويقولون الأقاويل . ومعنى ﴿أهمتهم أنفسهم ﴾ :حملتهم على الهم ، أهمنى الأمر : أقلقنى، والواو فى قوله : ﴿ وطائفة ﴾ للحال ، وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال ، وقيل: إن معنى ﴿ أهمتهم أنفسهم ﴾ صارت هممهم لا هم لهم غيرها ﴿ يظنون بالله غير الحق﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى يظنون بالله غير الحق الذى يجب أن يظن به ، وظن الجاهلية بدل منه ، وهو الظن المختص بملة الجاهلية ، أو ظن أهل الجاهلية ، وهو ظنهم أن أمر النبى ﷺ باطل ، وأنه لا ينصر ولايتم ما دعا إليه من دين الحق .

وقوله : ﴿ يقولون ﴾ بدل من ﴿ يظنون ﴾ أى يقولون لرسول ﷺ : ﴿ هل لنا من الأمر من شىء ﴾ ؟ أى هل لنا من أمر الله نصيب . وهذا الاستفهام معناه : الجحد ، أى ما لنا شىء من الأمر . وهو النصر والاستظهار على العدو . وقيل : هو الخروج ، أى إنما خرجنا مكرهين ، فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ وليس لكم ولا لعدوكم منه شىء ، فالنصر بيده والظفر منه . وقوله : ﴿ يخفون فى أنفسهم ﴾ أى يضمرون فى أنفسهم النفاق ولا يبدون لك ذلك، بل يسألونك سؤال المسترشدين . وقوله : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ﴾ استئناف كأنه قيل: ما هو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم ؟ فقيل : يقولون فيما بينهم أو فى أنفسهم : ﴿ لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ﴾ أى ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة ، فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أى لو كنتم قاعدين فى بيوتكم لم يكن بد من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التى صرعوا فيها ، فإن قضاء الله لا يرد .

وقوله : ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم ﴾ علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل له أخرى مطوية للإيذان بكثرتها ، كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمة ﴿ وليبتلى ﴾ إلخ . وقيل: إنه معطوف على علة مطوية لبرز ، والمعنى : ليمتحن ما فى صدوركم من الإخلاص ،

---

(١) يقول ابن جرير ٤/ ٩٢ : «الأمنة فى هذا الموضع هى : النعاس ، والنعاس هو : الأمنة » .

وليمحص ما فى قلوبكم من وساوس الشيطان . قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ﴾ أى انهزموا يوم أحد ، وقيل : المعنى : إن الذين تولوا المشركين يوم أحد ﴿**إنما استزلهم الشيطان** ﴾ استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التى منها مخالفة رسول الله ﷺ ﴿ **ولقد عفا الله عنهم** ﴾ لتوبتهم واعتذارهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أمنهم الله يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن . وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أن أبا طلحة قال : غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه ، فذلك قوله : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا** . . .﴾ الآية [(١)] . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن جرير وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل عن الزبير بن العوام ؛ قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم من أحد إلا وهو يميل [(٢)] تحت جحفته من النعاس ، وتلا هذه الآية[(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : إن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبى ، وكان سيد المنافقين : قتل اليوم بنو الخزرج، فقال : وهل لنا من الأمر شىء ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع فى قوله : ﴿ **ظن الجاهلية** ﴾ قال : ظن أهل الشرك . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : معتب هو الذى قال يوم أحد : لو كان لنا من الأمر شىء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أن الذى قال ذلك عبد الله بن أبى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن عوف فى قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ﴾ قال : هم ثلاثة ، واحد من المهاجرين . واثنان من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : نزلت فى عثمان ، ورافع بن المعلى ، وخارجة بن زيد . وقد روى فى تعيين « من » فى الآية روايات كثيرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ

(١) البخارى فى المغازى (٤٠٦٨) وفى التفسير (٤٥٦٢) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٨) وأحمد ٤/ ٢٩ .
(٢) عند الترمذى :« يميد » أى يميل . والجحفة: الترس المصنوع من الجلد .الترمذى ٤/ ٢١٣ التعليق على الترمذى .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠٠٧) وقال : «حسن صحيح » وابن جرير ٤/ ٩٣ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٧٢ .

اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

قوله : ﴿ **لا تكونوا كالذين كفروا** ﴾ هم المنافقون الذين قالوا : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا** ﴾ . قوله: ﴿ **وقالوا لإخوانهم** ﴾ فى النفاق أو فى النسب ، أى قالوا لأجلهم ﴿ **إذا ضربوا فى الأرض** ﴾ إذا ساروا فيها للتجارة أو نحوها . قيل : إن « إذا » هنا المفيدة لمعنى الاستقبال بمعنى « إذا » المفيدة لمعنى المضى . وقيل : هى على معناها، والمراد هنا: حكاية الحال الماضية . وقال الزجاج : « إذا » هنا تنوب عن ما مضى من الزمان وما يستقبل ﴿ **لو كانوا غزى** ﴾ جمع غاز ،كراكع وركع ، وغائب وغيب . قال الشاعر :

قل للقوافل والغزى إذا غزوا

﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم** ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ **قالوا** ﴾ أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم، والمراد: أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله : ﴿ **لا تكونوا** ﴾ أى لا تكونوا مثلهم فى اعتقاد ذلك ليجعله الله حسرة فى قلوبهم فقط دون قلوبكم . وقيل : المعنى : لا تلتفتوا إليهم ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة فى قلوبهم . وقيل : المراد : حسرة فى قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزى والندامة ﴿**والله يحيى ويميت** ﴾ فيه ردّ على قولهم ، أى ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فيحيى من يريد ، ويميت من يريد ، من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر فى ذلك، واللام فى قوله : ﴿ **ولئن قتلتم** ﴾ موطئة . وقوله: ﴿ **لمغفرة** ﴾ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط ، والمعنى: أن السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت ، ولئن وقع ذلك بأمر الله سبحانه . ﴿ **لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، أو خير مما تجمعون أيها المسلمون من الدنيا ومنافعها على قراءة من قرأ بالفوقية . والمقصود فى الآية : بيان مزية القتل أو الموت فى سبيل الله وزيادة تأثيرهما فى استجلاب المغفرة والرحمة .

قوله : ﴿ **ولئن متم أو قتلتم** ﴾ على أى وجه حسب تعلق الإرادة الإلهية ﴿ **لإلى الله تحشرون** ﴾ هو جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة سادّ مسدّ جواب الشرط كما تقدم فى

الجملة الأولى ، أى إلى الرب الواسع المغفرة تحشرون لا إلى غيره كما يفيده تقديم الظرف على الفعل مع ما فى تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف والقهر. و«ما» فى قوله: ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ مزيدة للتأكيد ، قاله سيبويه وغيره . وقال ابن كيسان: إنها نكرة فى موضع جر بالباء ، ورحمة بدل منها ، والأول أولى بقواعد العربية ومثله قوله تعالى: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ [النساء : ١٥٥] والجار والمجرور متعلق بقوله : ﴿ لِنت لهم ﴾ وقدم عليه لإفادة القصر، وتنوين رحمة للتعظيم ، والمعنى : أن لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه . وقيل : إن « ما » استفهامية ، والمعنى : فبأى رحمة من الله لنت لهم ؟ وفيه معنى التعجب وهو بعيد ، ولو كان كذلك لحذف الألف من « ما » . وقيل : فبما رحمة من الله . والفظ : الغليظ الجافى . وقال الراغب : الفظ هو الكريه الخلق ، وأصله : فظظ كحذر، وغلظ القلب: قساوته وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير. والانفضاض : التفرق ، يقال: فضضتهم فانفضوا ، أى فرقتهم فتفرقوا ، والمعنى : لو كنت فظا غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرقوا من حولك هيبة لك ، واحتشاما منك ، بسبب ما كان من توليهم ، وإذا كان الأمر كما ذكر ﴿ فاعف عنهم ﴾ فيما يتعلق بك من الحقوق ﴿ واستغفر لهم﴾ الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ أى الذى يرد عليك، أى أمر كان مما يشاور فى مثله، أو فى أمر الحرب خاصة كما يفيده السياق لما فى ذلك من تطييب خواطرهم ، واستجلاب مودتهم، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك ، حتى لا يأنف منه أحد بعدك . والمراد هنا : المشاورة فى غير الأمور التى يرد الشرع بها . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شرت الدابة وشورتها : إذا علمت خبرها . وقيل : من قولهم : شرت العسل : إذا أخذته من موضعه . قال ابن خويز منداد : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون ، وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها . وحكى القرطبى عن ابن عطية أنه لا خلاف فى وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين.

قوله : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أى إذا عزمت عقب المشاورة على شىء ، واطمأنت به نفسك ، فتوكل على الله فى فعل ذلك . أى اعتمد عليه وفوض إليه . وقيل : إن المعنى : فإذا عزمت على أمر أن تمضى فيه فتوكل على الله لا على المشاورة . والعزم فى الأصل(١) : قصد الإمضاء ، أى فإذا قصدت إمضاء أمر فتوكل على الله . وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد : « فإذا عزمت » بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى ، أى فإذا عزمت لك على شىء وأرشدتك إليه فتوكل على الله .

وقوله : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ جملة مستأنفة لتأكيد التوكل والحث عليه .

(١) والعزم : هو الأمر المروى المنقح ، وليس ركوب الرأى دون روية عزمًا . اللسان ٣٩٩/١٢ .

والخذلان : ترك العون، أى وإن يترك الله عونكم ﴿ فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ وهذا الاستفهام إنكارى . والضمير فى قوله : ﴿ من بعده ﴾ راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله : ﴿ وإن يخذلكم ﴾ أو إلى الله ، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه وأن من نصره الله لا غالب له ، ومن خذله لا ناصر له، فوض أموره إليه وتوكل عليه ولم يشتغل بغيره ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل فى قوله: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ لإفادة قصره عليه.

قوله : ﴿ وما كان لنبي أن يغلّ ﴾ أى ماصحّ له ذلك لتنافى الغلول والنبوة . قال أبو عبيد: الغلول من المغنم خاصَّة ، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد ، ومما يبين ذلك أنه يقال : من الخيانة : أغَلّ يغِلّ ، ومن الحِقْد : غَلّ يَغِلُّ بالكسر ، ومن الغُلول : غَلَّ يَغُلُّ بالضم . يقال : غل المغنم غلولا ، أى خان بأن يأخذ لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول . ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول : ما صح لنبى أن يغله أحد من أصحابه ، أى يخونه فى الغنيمة ، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى الناس عن الغلول فى المغانم ، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كونه خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حرامًا ؛ لأن خيانة الأنبياء أشد ذنبًا وأعظم وزرا ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ أى يأت به حاملا له على ظهره كما صح ذلك عن النبى ﷺ ، فيفضحه بين الخلائق ، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه ، بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد ، يطلع عليها أهل المحشر ، وهى مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه ويعاقب عليه . قوله : ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى تعطى جزاء ما كسبت ، وافيا من خير وشر ، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا أو شراً ، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا لكون السياق فيه .

قوله : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى ليس من اتبع رضوان الله فى أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه كمن باء ، أى رجع بسخط عظيم ، كائن من الله ، بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه . ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه ، ومن باء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول . ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ أى متفاوتون فى الدرجات ، والمعنى : هم ذوو درجات ، أو لهم درجات ، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من باء بسخط من الله، فإن الأولين فى أرفع الدرجات. والآخرين فى أسفلها.

قوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين ﴾ جواب قسم محذوف ، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته . ومعنى ﴿ من أنفسهم ﴾ : أنه عربى مثلهم . وقيل : بشر مثلهم ، ووجه المنة على الأول : أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه ولا يحتاجون إلى ترجمان . ومعناها على الثانى : أنهم يأنسون به بجامع البشرية ، ولو كان ملكًا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية ، وقرئ « من أنفَسهم » بفتح الفاء ، أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم ، وبنو هاشم

أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب ، والعرب أفضل من غيرهم ، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة : أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له، وأقرب إلى تصديقه ، ولابد من تخصيص المؤمنين فى هذه الآية بالعرب على الوجه الأول ، وأما على الوجه الثانى فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لاحاجة إلى التخصيص ؛ لأن بنى هاشم هم أنفس العرب والعجم فى شرف الأصل وكرم النجاد [١] ، ورفاعة المحتد . ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ [الجمعة : ٢] ، وقوله : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] . قوله: ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ هذه منة ثانية ، أى يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئًا من الشرائع ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يطهرهم من نجاسة الكفر ، وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى ، وهما فى محل نصب على الحال ، أو صفة لرسول ، وهكذا قوله : ﴿ويعلمهم الكتاب ﴾ والمراد بالكتاب هنا : القرآن . والحكمة : السنة ، وقد تقدم فى البقرة تفسير ذلك : ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أى من قبل محمد ، أومن قبل بعثته ﴿لفى ضلال مبين ﴾ أى واضح لا ريب فيه ، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة، وبين النافية ، فهى تدخل فى خبر المخففة لا النافية ، واسمها ضمير الشأن ، أى وإن الشأن والحديث. وقيل : إنها النافية ، واللام بمعنى إلا ، أى وما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين ، وبه قال الكوفيون ، والجملة على التقديرين فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى: **﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض . . .﴾** الآية . قال : هذا قول عبد الله بن أبى بن سلول والمنافقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : **﴿ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ﴾** قال : يحزنهم قولهم ولا ينفعهم شيئًا . وأخرجوا عن قتادة فى قوله : **﴿ فبما رحمة من الله ﴾** يقول: فبرحمة من الله **﴿ لنت لهم ﴾** . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: **﴿ لانفضوا من حولك ﴾** قال: لانصرفوا عنك. وأخرج ابن عدى ، والبيهقى فى الشعب . قال السيوطى :ـ بسند حسن ـ عن ابن عباس ؛ قال لما نزلت : **﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾** قال رسول الله ﷺ : « أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن الله جعلها رحمة لأمتى، فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ، ومن تركها لم يعدم غيا » [٢] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس **﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾** قال: أبو بكر وعمر[٣].

---

(١) فى المطبوعة :« النجار » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٣٣٧/٤ والبيهقى فى الشعب (٧٥٤٢) وقال : « غريب » ط. الكتب العلمية ، والسيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٩٠ .

(٣) صححه الحاكم ٣/ ٧٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ١٠/ ١٠٨ ، ١٠٩ .

وأخرج ابن مردويه عن على قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم ، فقال : «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم» .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **وما كان لنبى أن يغل** ﴾ فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس : لعل رسول الله ﷺ أخذها فنزلت [1] . وأخرج البزار وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس : ﴿ **وما كان لنبى أن يغل** ﴾ قال : ما كان لنبى أن يتهمه أصحابه . وقد ورد فى تحريم الغلول أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس : ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾ يقول : بأعمالهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة فى قوله : ﴿ **لقد منّ الله على المؤمنين . . .** ﴾ الآية . قالت هذه للعرب خاصة .

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة** ﴾ الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : الغلبة والقتل الذى أصيبوا به يوم أحد ﴿ **قد أصبتم مثليها** ﴾ يوم بدر وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون، وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين ، وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلى القتلى من المسلمين يوم أحد ، والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا بالنصر؟ وقوله : ﴿ **أنى هذا** ﴾ أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله ومعنا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم ؟ وقوله : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب، أى هذا الذين سألتم عنه هو من عند أنفسكم ، بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبى ﷺ من لزوم المكان الذى عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل حال، وقيل : إن المراد بقوله:

---

(١) أبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٧١) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٩) وقال : « حسن غريب » وابن جرير ٤/١٠٢ .

﴿ **هو من عند أنفسكم** ﴾ خروجهم من المدينة ، ويرده أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك . وقيل : هو اختيارهم الفداء يوم بدرعلى القتل .

و ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾ يوم أحد ، أى ما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة ﴿ **فبإذن الله** ﴾ فبعلمه . وقيل : بقضائه وقدره . وقيل : بتخليته بينكم وبينهم ، والفاء دخلت فى جواب الموصول لكونه يشبه الشرط كما قال سيبويه . وقوله : ﴿ **وليعلم المؤمنين** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **فبإذن الله** ﴾ عطف سبب على سبب .

وقوله : ﴿ **وليعلم الذين نافقوا** ﴾ عطف على ما قبله ، قيل : أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم وإلى المنافقين واحدًا . والمراد بالعلم هنا : التمييز والإظهار؛ لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك ؛ والمراد بالمنافقين هنا : عبد الله بن أبى وأصحابه. قوله : ﴿ **وقيل لهم** ﴾ هو معطوف على قوله : ﴿ **نافقوا** ﴾ أى ليعلم الله الذين نافقوا والذين قيل لهم . وقيل : هو كلام مبتدأ ، أى قيل لعبد الله بن أبى وأصحابه : ﴿ **تعالوا قاتلوا فى سبيل الله** ﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر﴿ **أو ادفعوا** ﴾ [(١)] عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فأبوا جميع ذلك وقالوا : لو نعلم أنه سيكون قتالا لاتبعناكم وقاتلنا معكم ، ولكنه لا قتال هنالك . وقيل : المعنى : لو كنا نقدر على القتال ونحسنه لاتبعناكم ؛ ولكنا لا نقدر على ذلك ولا نحسنه . وعبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به ؛ لكونها مستلزمة له ، وفيه بعد لا ملجئ إليه . وقيل : معناه : لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال ، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لعدم القدرة منا ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم والخروج من المدينة ، وهذا أيضًا فيه بعد دون بعد ما قبله . وقيل : معنى الدفع هنا : تكثير سواد المسلمين . وقيل : معناه : رابطوا ، والقائل للمنافقين هذه المقالة التى حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى ، والد جابر بن عبد الله .

قوله : ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ أى هم فى هذا اليوم الذى انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون ؛ لأنهم قد بينوا حالهم ، وهتكوا أستارهم ، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك . وقيل : المعنى : أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان . قوله : ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها ، أى أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، وذكر الأفواه للتأكيد ، مثل قوله : ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

قوله : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم** ﴾ إلخ ، أى هم الذين قالوا لإخوانهم على أنه خبر مبتدأ

---

(١) وقيل : الدفع : كثروا سوادنا ، وإن لم تقاتلوا معنا ، فيكون ذلك دفعًا وقمعًا للعدو .

محذوف ، ويجوز أن يكون بدلا من واو يكتمون ، أو منصوبًا على الذم ، أو وصف للذين نافقوا . وقد تقدم معنى : ﴿ **قالوا لإخوانهم** ﴾ أى قالوا لهم ذلك ، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال ﴿ **لو أطاعونا** ﴾ بترك الخروج من المدينة ما قتلوا ، فرد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ **قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ والدرء : الدفع، أى لا ينفع الحذر من القدر ، فإن المقتول يقتل بأجله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة . . .** ﴾ الآية ، يقول : إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثل ما أصابوا منكم يوم أحد . وقد بين هذا عكرمة ، فأخرج ابن جرير عنه قال : قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا : من أين هذا ، ما كان للكفار أن يقتلوا منا ؟ فلما رأى الله ما قالوا من ذلك، قال الله : هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر، فردهم الله بذلك وعجل لهم عقوبة ذلك فى الدنيا ليسلموا منها فى الآخرة ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى شيبة ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن مردويه عن على ؛ قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد ، إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عدتهم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر ذلك لهم ، فقالوا: يارسول الله ، عشائرنا وإخواننا ، لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس فى ذلك ما نكره ، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر [١] . وهذا الحديث هو [٢] فى سنن الترمذى ، والنسائى ، هو [٣] من طريق أبى داود الحضرى عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد ابن سيرين عن عبيدة عن على : قال الترمذى بعد إخراجه :حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه . وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبى ﷺ مرسلا، وإسناد ابن جريرلهذا الحديث هكذا :حدثنا القاسم ،حدثنا الحسين ، حدثنا إسماعيل بن علية ، عن ابن عون قال سنيد وهو حسين ، وحدثنى حجاج عن جرير عن محمد عن عبيدة عن على فذكره .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق أبى بكر بن أبى شيبة ، حدثنا قراد أبو نوح [٤] ، حدثنا

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٣٤) والترمذى فى السير (١٧٦٥) وقال : «حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦٦٢) وابن جرير ٤/ ١١٠ .

(٢) هذا اللفظ ساقط من المطبوعة . (٣) كذا فى المخطوطة ؛ ولعل الصواب : «وهو» .

(٤) فى المطبوعة : «قراد بن نوح » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة . سير أعلام النبلاء ٥١٨/٩ والطبقات الكبرى ٧/ ٣٣٥ وتهذيب التهذيب ٦/ ٢٤٧ والجرح والتعديل ٥/ ٢٧٤ .

عكرمة بن عمار ، حدثنا سماك الحنفى أبو زميل ، حدثنى ابن عباس عن عمر بن الخطاب ؛ قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب محمد ﷺ عنه ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة . . .** ﴾ الآية [(١)]. وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان ، وهو قراد أبو نوح [(٢)] به ، ولكن بأطول منه، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ [الأنفال: ٩٧] ، وما روى من بكائه ﷺ هو وأبو بكر ندمًا على أخذ الفداء ، ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه ، ولا حصل ما حصل من النبى ﷺ ومن معه من الندم والحزن ، ولا صوب النبى ﷺ رأى عمر رضى الله عنه ، حيث أشار بقتل الأسرى ، وقال ما معناه : « لو نزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر» [(٣)] والجميع فى كتب الحديث والسير .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **قلتم أنى هذا** ﴾ ونحن مسلمون نقاتل غضبًا لله وهؤلاء مشركون ، فقال : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى ﷺ حين قال : لا تتبعوهم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **أوادفعوا** ﴾ قال : كثروا بأنفسكم وإن لم تقاتلوا. وأخرج أيضاً عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عون الأنصارى فى قوله : ﴿ **أو ادفعوا** ﴾ قال : رابطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب وغيره؛ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة انخذل عنهم عبد الله بن أبى بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصانى ، والله ما ندرى على ما نقتل أنفسنا هاهنا ؟ فرجع من اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بنى سلمة يقول : ياقوم ، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضرهم عدوهم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولا نرى أن يكون قتال[(٤)] . وأخرجه ابن إسحاق قال: حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحسين بن عبدالرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ ، وغيرهم من علمائنا فذكره ، وزاد أنهم لما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم [(٥)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لو نعلم قتالا لاتبعناكم** ﴾ قال : لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٣١) .

(٢) فى المطبوعة :« ابن نوح » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، كما تقدم فى الصفحة السابقة .

(٣) أحمد ١/ ٣٠ ، ٣١ وهو جزء من حديث طويل وإسناده صحيح .

(٤) ابن جرير ٤/ ١١١ .

(٥) ابن إسحاق ٣/ ٢٧ .

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾.

لما بين الله ـ سبحانه ـ أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا ؛ ليتميز المؤمن من المنافق ، والكاذب من الصادق ؛ بين هاهنا أن من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون ، لا مما يخاف ويحذر ، كما قالوا مَنْ حكى الله عنهم: ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ وقالوا : ﴿ **لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل أحد . وقرئ بالياء التحتية ، أى لا يحسبن حاسب . وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم ؟ فقيل : فى شهداء أحد . وقيل : فى شهداء بدر . وقيل : فى شهداء بئر معونة ، وعلى فرض أنها نزلت فى سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة ثم اختلفوا، فمنهم من يقول : إنها ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون . وقال مجاهد : يرزقون من ثمر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها ، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية ، والمعنى: أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة ، والصحيح الأول ، ولا موجب للمصير إلى المجاز . وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، وأنهم فى الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون (١) .

وقوله : ﴿ **الذين قتلوا** ﴾ هو المفعول الأول ، والحاسب هو النبى ﷺ ، أو كل أحد كما سبق . وقيل : يجوز أن يكون الموصول هو فاعل الفعل ، والمفعول الأول محذوف ، أى لا تحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتًا وهذا تكلف لا حاجة إليه ، ومعنى النظم القرآنى فى غاية الوضوح والجلاء . وقوله : ﴿ **بل أحياء** ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أى بل هم أحياء . وقرئ بالنصب على تقدير الفعل ، أى بل أحسبهم أحياء . وقوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ إما خبر ثان ،

---

(١) الحديث عن ابن مسعود عند مسلم فى الإمارة (١٨٨٧/ ١٢١) والترمذى فى التفسير (٣٠١١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٠١) ورواه أبوداود فى الجهاد (٢٥٢٠) عن ابن عباس .

أو صفة لأحياء ، أو في محل نصب على الحال ، وقيل : في الكلام حذف ، والتقدير : عند كرامة ربهم . قال سيبويه : هذه عندية الكرامة لا عندية القرب . وقوله: ﴿ **يرزقون** ﴾ يحتمل في إعرابه الوجوه التي ذكرناها في قوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ والمراد بالرزق هنا :هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب إليه الجمهور كما سلف ، وعند من عدا الجمهور المراد به : الثناء الجميل ، ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى ، وحملها على مجازات بعيدة لا لسبب يقتضي ذلك .

وقوله : ﴿ **فرحين** ﴾ حال من الضمير في: ﴿ **يرزقون** ﴾ و ﴿ **بما آتاهم الله من فضله** ﴾ متعلق به ، وقرأ ابن السَّمَيْفع : « فارحين » وهما لغتان كالفره والفاره ، والحذر والحاذر . والمراد ﴿ **بما آتاهم الله** ﴾ : ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة ، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه . ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم**﴾ من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك . فالمراد باللحوق هنا : أنهم لم يلحقوا بهم في القتل والشهادة ؛ بل سيلحقون بهم من بعد . وقيل : المراد : لم يلحقوا بهم في الفضل ، وإن كانوا أهل فضل في الجملة ، و الواو في : ﴿**ويستبشرون** ﴾ عاطفة على ﴿ **يرزقون** ﴾ أي يرزقون ويستبشرون . وقيل : المراد بإخوانهم هنا : جميع المسلمين الشهداء وغيرهم ؛ لأنهم لما عاينوا ثواب الله ، وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام، استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا ، وهذا أقوى ؛ لأن معناه أوسع وفائدته أكثر ، واللفظ يحتمله ، بل هو الظاهر ، وبه قال الزجاج ، وابن فورك . وقوله : ﴿ **ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ بدل من الذين ، أي يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم ولا حزن ، و «أن» هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وكرر قوله: ﴿ **يستبشرون**﴾ لتأكيد الأول ، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف والحزن ،بل به وبنعمة الله وفضله ، والنعمة : ما ينعم الله به على عباده ، والفضل: ما يتفضل به عليهم. وقيل : النعمة : الثواب ، والفضل : الزائد . وقيل : النعمة : الجنة ، والفضل : داخل في النعمة ذكر بعدها لتأكيدها . وقيل : إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم ، والاستبشار الثاني بحال أنفسهم. قوله: ﴿ **وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ قرأ الكسائي بكسر الهمزة من « أن » وقرأ الباقون بفتحها ، فعلى القراءة الأولى هو مستأنف اعتراض ، وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : «والله لا يضيع أجر المؤمنين » ، وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخلة في جملة ما يستبشرون به .

وقوله : ﴿ **الذين استجابوا** ﴾ صفة للمؤمنين ، أو بدل منهم ، أو من الذين لم يلحقوا بهم ، أو هو مبتدأ خبره ﴿ **للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ بجملته ، أو منصوب على المدح وقد تقدم تفسيرالقرح .

قوله : ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود، كما سيأتي بيانه ،

وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم . وقيل : المراد بالناس : ركب عبد القيس الذين مروا بأبى سفيان . وقيل : هم المنافقون . والمراد بقوله : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ أبو سفيان وأصحابه، والضمير فى قوله: ﴿ **فزادهم** ﴾ راجع إلى القول المدلول عليه بـ ﴿ **قال** ﴾ أو إلى المقول ، وهو : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾ أو إلى القائل ، والمعنى : أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا إليه ؛ بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة ويقينًا . وفيه دليل على أن الإيمان يـزيد وينقـص . قوله : ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ حسب مصدر حسبه ، أى كفاه وهو بمعنى الفاعل ، أى محسب بمعنى كافى. قال فى الكشاف : والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة ؛ لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية انتهى [(١)] . والوكيل هو: من توكل إليه الأمور ، أى نعم الموكول إليه أمرنا ، أو الكافى ، أو الكافل ، والمخصوص بالمدح محذوف ، أى نعم الوكيل الله سبحانه .

قوله : ﴿ **فانـقلبوا** ﴾ هو معطوف على محذوف ، أى فخرجوا إليهم فانقلبوا بنعمة هو متعلق بمحذوف وقع حالا . والتنوين للتعظيم ، أى رجعوا متلبسين ﴿ **بنعمة** ﴾ عظيمة وهى السلامة من عدوهم وعافية ﴿ **وفـضل** ﴾ أى أجر تفضل الله به عليهم . وقيل : ربح فى التجارة . وقيل : النعمة خاصة بمنافع الدنيا ، والفضل بمنافع الآخرة ، وقد تقدم تفسيرهما قريبا بما يناسب ذلك المقام ؛ لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا فى الدار الآخرة ، والكلام هنا مع الأحياء. قوله : ﴿ **لم يمسسهم سوء** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى سالمين عن سوء لم يصبهم قتل ولا جرح ولا ما يخافونه ﴿ **واتبعوا رضوان الله** ﴾ فى ما يأتون ويذرون ، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة ﴿ **والله ذو فـضل عظيم** ﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، ومن تفضله عليهم : تثبيتهم وخروجهم للقاء عدوهم وإرشادهم ، إلى أن يقولوا هذه المقالة التى هى جالبة لكل خير، ودافعة لكل شر .

قوله : ﴿ **إنما ذلكم** ﴾ أى المثبط لكم أيها المؤمنون ﴿ **الشيطان** ﴾ هو خبر اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة والخبر قوله : ﴿ **يخوف أولياءه** ﴾ فعلى الأول يكون قوله : ﴿ **يخوف أولياءه** ﴾ جملة مستأنفة أو حالية، والظاهر أن المراد هنا : الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط. وقيل : المراد به : نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة. وقيل : أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم ، والمعنى : أن الشيطان يخوف المؤمنين أولياءه وهم الكافرون. وقيل : إن قوله : ﴿ **أولياءه** ﴾ منصوب بنزع الخافض، أى يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه ، قاله الفراء والزجاج وأبو على الفارسى . ورده ابن الأنبارى بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر . وعلى قول الفراء ومن معه يكون مفعول يخوف محذوفا ، أى يخوفكم وعلى الأول يكون

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٢ .

المفعول الأول محذوفا والثانى مذكورًا ، ويجوز أن يكون المراد : أن الشيطان يخوف أولياءه وهم القاعدون من المنافقين فلا حذف . قوله: ﴿ **فلا تخافوهم** ﴾ أى أولياءه الذين يخوفكم بهم الشيطان ، أو فلا تخافوا الناس المذكورين فى قوله : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء ويفشلوا عن الخروج ، وأمرهم بأن يخافوه سبحانه فقال : ﴿ **وخافون** ﴾ فافعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه ؛ لأنى الحقيق بالخوف منى، والمراقبة لأمرى ونهيى لكون الخير والشر بيدى ، وقيده بقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ لأن الإيمان يقتضى ذلك .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾ فى حمزة وأصحابه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبى الضحى [(١)] ؛ أنها نزلت فى قتلى أحد وحمزة منهم . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا » . وفى لفظ قالوا: « من يبلغ إخواننا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا . . .** ﴾ الآية وما بعدها[(٢)]. وأخرج الترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن خزيمة والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله ؛ أن أباه سأل الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه ، فنزلت هذه الآية [(٣)] وهو من قتلى أحد ، وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أنس ؛ أن سبب نزول الآية قتلى بئر معونة[(٤)] ، وعلى كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد ، وقد ثبت فى أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر[(٥)] وثبت فى فضل الشهداء ما يطول تعداده ، ويكثر إيراده ، مما هو معروف فى كتب الحديث .

---

(١) أبوالضحى : هو مسلم بن صبيح الهمدانى من صغار التابعين .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٥٢٠) وابن جرير ٤/ ١١٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٧ ، ٢٩٨ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٠٤ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠١٠) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٠٠) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٤) ابن جرير ٤/ ١١٥ ، وهو جزء من حديث طويل .

(٥) الحديث عن ابن مسعود عند مسلم فى الإمارة (١٨٨٧ / ١٢١) والترمذى فى التفسير (٣٠١١) وقال : «حسن صحيح » .

وأخرج النسائى وابن ماجة وابن أبى حاتم والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس ؛ قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمدًا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ، ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد ، أو بئر أبى عتبة (١) ، شك سفيان ، فقال المشركون : يرجع من قابل ، فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعدّ غزوة ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول** ﴾ الآية(٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة فى قوله تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول . . .** ﴾ الآية ، أنها قالت لعروة بن الزبير : يابن أختى ، كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر ، لما أصاب النبى ﷺ ما أصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، فقال: « من يرجع فى أثرهم ؟ » فانتدب منهم سبعون ، فيهم أبوبكر والزبير (٣) .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير، والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم؛ قال : خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرّن على بقيتهم ، فبلغه أن النبى ﷺ خرج فى أصحابه يطلبهم ، فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه ، مر ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان : بلغوا محمدًا أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه لنستأصلهم ، فلما مر الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد أخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فقال رسول الله ﷺ والمسلمون معه :« حسبنا الله ونعم الوكيل » فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول . . .** ﴾ الآيات (٤) . وأخرج موسى بن عقبة فى مغازيه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب ؛ قال : إن رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعد أبى سفيان بدرًا ، فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس فمشوا فى الناس يخوفونهم ، وقالوا : إنا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل ، يرجون أن يواقعوكم . والروايات فى هذا الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث والسيرة . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : القرح : الجراحات.

---

(١) كذا فى المخطوطة ، وفى المطبوعة : «عتبة » وعند النسائى «عتيبة » وعند الطبرانى :« عيينة» وعند الهيثمى : «عينة » .

(٢) النسائى فى التفسير (١٠٣) والطبرانى (١١٦٣٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٢٤ : «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة» وعزاه ابن حجر فى الفتح ٢٢٨/٨ إلى النسائى وابن مردويه وقال : «ورجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس » كما عزاه الإمام المزى للنسائى فى التفسير .

(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٧٧) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤١٨ / ٥١ ، ٥٢) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣١٢ .

(٤) ابن إسحاق فى السيرة النبوية ٣/ ٤٤ ، ٤٥ وابن جرير ٤/ ١١٩ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣١٥ ـ ٣١٧ .

وأخرج ابن جرير عن السدى أن أبا سفيان وأصحابه لقوا أعرابيًا فجعلوا له جعلا على أن يخبر النبى ﷺ وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم ، فأخبرالنبى ﷺ بذلك فقال هو والصحابة: « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفى الأعرابى : ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن مردويه عن أبى رافع أن هذا الأعرابى من خزاعة .

وقد ورد فى فضل هذه الكلمة أعنى : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ أحاديث ، منها ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » قال ابن كثير بعد إخراجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه (٢) . وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال النبى ﷺ : « حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف » . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء ، وقال : « حسبى الله ونعم الوكيل». وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال :« حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ (٣). وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى عن عوف بن مالك ؛ أنه حدثهم أن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله ﷺ : « ردوا على الرجل » فقال: « ما قلت؟ » قال :قلت:حسبى الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل » (٤) وأخرج أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :« كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ ؟ » ثم أمر الصحابة أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وهو حديث جيد (٥) .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرًا مرت ، وكان فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه (٦) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ؛ قال : الفضل ما أصابوا من التجارة والأجر . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أما النعمة : فهى العافية ، وأما الفضل : فالتجارة ، والسوء : القتل . وأخرج ابن

---

(١) ابن جرير ٤/١١٩ ، ١٢٠ . (٢) ابن كثير ٢/١٦٢ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٥٦٣) والنسائى فى التفسير (١٠١) وصححه الحاكم ٢/٢٩٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) أحمد ٦/ ٢٤ ، ٢٥ وأبو داود فى الأقضية (٣٦٢٧) والنسائى فى الكبرى عمل اليوم والليلة (١٠٤٦٢) .

(٥) أحمد ١/٣٢٦ وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٤ ، ١٠ / ٣٣٤) : «فيه عطية العوفى ، وهو ضعيف ، وفيه توثيق لين » . لكن ورد هذا الحديث بإسناد صحيح عن صحابة آخرين منهم أبو هريرة عند النسائى فى التفسير (١٠٢) وأبو سعيد الخدرى عند أبى يعلى (١٠٨٤) وابن حبان فى صحيحه (٨٢٠) .

(٦) البيهقى فى الدلائل ٣/٣١٨ .

جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لم يمسسهم سوء** ﴾ قال : لم يؤذهم أحد ﴿ **واتبعوا رضوان الله** ﴾ قال : أطاعوا الله ورسوله.

وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**﴾ قال : يقول الشيطان يخوف بأوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: يعظم أولياءه فى أعينكم. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثل قول ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن: إنما كان ذلك تخويف الشيطان ولا يخاف الشيطان إلا ولى الشيطان.

﴿ وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ .

قوله: ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ ابن محيصن بضم الياء والزاى ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاى ، وهما لغتان . يقال : حزننى الأمر وأحزننى ، والأولى أفصح . وقرأ طلحة :« يسرعون » قيل: هم قوم ارتدّوا ، فاغتم النبى ﷺ لذلك ، فسلاه الله سبحانه ونهاه عن الحزن ، وعلل ذلك بأنهم لن يضروا الله شيئًا ، وإنما ضروا أنفسهم بأن لاحظ لهم فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . وقيل : هم كفار قريش . وقيل : هم المنافقون . وقيل : هو عام فى جميع الكفار . قال القشيرى : والحزن على كفر الكافر طاعة ؛ ولكن النبى ﷺ كان يفرط فى الحزن ، فنهى عن ذلك كما قال الله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر :٨] ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ [الكهف : ٦] وعدى يسارعون (١) بفى دون إلى للدلالة على أنهم مستقرون فيه مديمون لملابسته ، ومثله : ﴿ يسارعون فى الخيرات ﴾ [المؤمنون : ٦١] وقوله : ﴿ **إنهم لن يضروا الله شيئاً** ﴾ تعليل للنهى ، والمعنى : أن كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئًا. وقيل المراد : لن يضروا أولياءه، ويحتمل أن يراد : لن يضروا دينه الذى شرعه لعباده،

---

(١) فى المطبوعة : « السارعون » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

و ﴿ شيئًا ﴾ منصوب على المصدرية ، أى شيئًا من الضرر . وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى بشىء ، والحظ : النصيب . قال أبوزيد : يقال : رجل حظيظ إذا كان ذاحظ من الرزق ، والمعنى : أن الله يريد ألا يجعل لهم نصيبًا فى الجنة أو نصيبا من الثواب ، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ بسبب مسارعتهم فى الكفر فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالبًا لهم عدم الحظ فى الآخرة ، ومصيرهم فى العذاب العظيم.

قوله : ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أى استبدلوا الكفر بالإيمان ، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة ﴿ لن يضروا الله شيئا ﴾ معناه كالأول وهو للتأكيد لما تقدمه . وقيل : إن الأول خاص بالمنافقين ، والثانى يعم جميع الكفار، والأول أولى .

قوله : ﴿ لا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وغيرهما ﴿ يحسبن ﴾ بالياء التحتية وقرأ حمزة بالفوقية ، والمعنى على الأولى : لا يحسبن الكافرون أنما نملى لهم بطول العمر، ورغد العيش ، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد ﴿ خير لأنفسهم ﴾ فليس الأمر كذلك ؛ بل ﴿ إنما نملى[1] لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين ﴾ ، وعلى القراءة الثانية : لا تحسبن يامحمد أن الإملاء للذين كفروا بما ذكر خير لأنفسهم، بل هو شر واقع عليهم ، ونازل بهم ، وهو أن الإملاء الذى نمليه لهم ليزدادوا إثماً. فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل ، وإنما نملى وما بعده ساد مَسَدَّ مفعولى الحسبان عند سيبويه أو سادّ مسدّ أحدهما ، والآخر محذوف عند الأخفش ، وأما على القراءة الثانية فقال الزجاج : إن الموصول هو المفعول الأول ، وإنما وما بعدها بدل من الموصول سادّ مسدّ المفعولين ، ولا يصح أن يكون إنما وما بعده هو المفعول الثانى لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأول فى المعنى . وقال أبو على الفارسى : لو صح هذا لكان خيرًا بالنصب لأنه يصير بدلا من الذين كفروا ، فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيراً، وقال الكسائى والفراء : إنه يقدر تكرير الفعل كأنه قال : ولا تحسبن الذين كفروا ، ولا تحسبن أنما نملى لهم، فسدت مسدّ المفعولين. وقال فى الكشاف : فإن قلت : كيف صح مجىء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد ؟ قلت : صح ذلك من حيث أن التعويل على البدل والمبدل منه فى حكم المنحى ، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك . انتهى [2] . وقرأ يحيى بن وثاب « إنما نملى » بكسر إن فيهما وهى قراءة ضعيفة باعتبار العربية .

وقوله : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ جملة مستأنفة مبينة لوجه الإملاء للكافرين . وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ماتقوله المعتزلة ؛ لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار ويجعل عيشهم رغدا ليزدادوا إثما . قال أبو حاتم : وسمعت الأخفش يذكر كسر « إنما نملى » الأولى وفتح الثانية ، ويحتج بذلك لأهل القدر؛ لأنه منهم ويجعله على هذا التقدير:

---

(١) الإملاء : الإطالة فى العمر ، والإنساء فى الأجل . اللسان ١٥/ ٢٩١ . (٢) الكشاف ١/ ٤٤٤ .

ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم ليزدادوا إثما إنما نملى لهم خير لأنفسهم . وقال فى الكشاف : إن ازدياد الإثم علة ، وما كل علة بعرض ألا تراك تقول : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر وليس شىء يعرض لك وإنما هى علل وأسباب (١) .

قوله : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾ كلام مستأنف ، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار والمنافقين ، أى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق ﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ وقيل : الخطاب للمؤمنين والمنافقين ، أى ما كان الله ليترككم على الحال التى أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض . وقيل : الخطاب للمشركين . والمراد بالمؤمنين : مَن فى الأصلاب والأرحام ، أى ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم . وقيل : الخطاب للمؤمنين ، أى ما كان الله ليذركم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم ، وعلى هذا الوجه ، والوجه الثانى يكون فى الكلام التفات . وقرئ :« يميز » بالتشديد للمخفف ، من ماز الشىء يميزه ميزاً إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل : ميزه تمييزا ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ حتى تميزوا بين الطيب والخبيث فإنه المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، من رسله يجتبيه فيطلعه على شىء من غيبه، فيميز بينكم كما وقع من نبينا ﷺ من تعيين كثير من المنافقين ، فإن ذلك كان بتعليم الله له لا بكونه يعلم الغيب . وقيل : المعنى : وما كان الله ليطلعكم على الغيب فى مَن يستحق النبوة حتى يكون الوحى باختياركم ﴿ ولكن الله يجتبى ﴾ أى يختار ﴿ من رسله من يشاء ﴾. قوله: ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أى افعلوا الإيمان المطلوب منكم ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ بما ذكر ﴿ وتتقوا فلكم ﴾ عوضا عن ذلك ﴿ أجر عظيم ﴾ لا يعرف قدره ولا يبلغ كنهه .

قوله : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، والمفعول الأول محذوف ، أى لا يحسبن الباخلون البخل خيراً لهم ، قاله الخليل ، وسيبويه والفراء قالوا : وإنما حذف لدلالة يبخلون عليه ، ومن ذلك قول الشاعر :

إذا نُهِى السَفِيه جَرَى إليه وخالَفَ والسَّفِيهُ إلى خِلافِ

أى جرى إلى السفه ، فالسّفيه دل على السَّفه ، وأما على قراءة مَن قرأ بالفوقية فالفعل مسند إلى النبى ﷺ والمفعول الأول محذوف ، أى لا تحسبن يامحمد بخل الذين يبخلون خيراً لهم . قال الزجاج : هو مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾[يوسف: ٨٢] ، والضمير المذكور هو ضمير الفصل . قال المبرد : والسين فى قوله : ﴿ سيطوقون ما بخلوا به﴾ سين الوعيد ، وهذه الجملة مبينة لقوله : ﴿ بل هو شرلهم ﴾ قيل : ومعنى التطويق هنا : أنه يكون ما بخلوا به من

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٤ .

المال طوقًا من نار فى أعناقهم . وقيل : معناه : أنه سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة وليس من التطويق. وقيل : المعنى : أنهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق ، يقال : طوق فلان عمله طوق الحمامة ، أى ألزم جزاء عمله . وقيل : إن مالم تؤد زكاته من المال يمثل له شجاعًا أقرع حتى يطوق به فى عنقه كما ورد ذلك مرفوعا إلى النبى ﷺ (١) . قال القرطبى : والبخل فى اللغة : أن يمنع الإنسان الحق الواجب ، فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخيل (٢) .

قوله : ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ أى له وحده لا لغيره كما يفيده التقديم ، والمعنى : أن له مافيهما مما يتوارثه أهلها فما بالهم يبخلون بذلك ولا ينفقونه وهو لله سبحانه لا لهم ، وإنما كان عندهم عارية مستردة ! ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ [مريم: ٤٠] وقوله : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ [الحديد: ٧]، والميراث فى الأصل : هو ما يخرج من مالك إلى آخر ، ولم يكن مملوكًا لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان** ﴾ قال: هم المنافقون . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ؛ قال : ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة إن كان برًا فقد قال الله: ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وإن كان فاجرًا فقد قال : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا** ﴾ الآية . وأخرج سعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى الدرداء نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى برزة أيضا نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : قالوا : إن كان محمد صادقًا فليخبرنا بمن يؤمن به منا ومن يكفر، فأنزل الله : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين** ﴾ الآية (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : يميز بينهم فى الجهاد والهجرة ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ قال : ولا يطلع على الغيب إلا رسول. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿**ولكن الله يجتبى** ﴾ قال : يختص . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك قال : يستخلص .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون** ﴾ قال: هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : هم يهود. وأخرج ابن جرير عن السدى قال: بخلوا أن ينفقوها فى سبيل الله لم يؤدوا زكاتها . وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له

(١) البخارى فى الزكاة (١٤٠٣) وفى التفسير (٤٥٦٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) القرطبى ٣/ ١٥٣٤ . (٣) ابن جرير ٤/ ١٢٥ .

شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بلهزمته ـ يعنى : بشدقه ـ فيقول : أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية [١] . وقد ورد هذا المعنى فى أحاديث كثيرة عند جماعة من الصحابه يرفعونها .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ .

قال أهل التفسير : لما أنزل الله : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ [البقرة : ٢٦١ ، الحديد : ١١] قال قوم من اليهود هذه المقالة ، تمويها على ضعفائهم ؛ لا أنهم يعتقدون ذلك ؛ لأنهم أهل الكتاب ، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ماطلبه منا من القرض على لسان محمد فهو فقير ليشككوا على إخوانهم فى دين الإسلام . وقوله : ﴿سنكتب ما قالوا ﴾ سنكتبه فى صحف الملائكة أو سنحفظه . أو سنجازيهم عليه . والمراد : الوعيد لهم ، وأن ذلك لا يفوت على الله ، بل هو معد لهم ليوم الجزاء . وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جوابًا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع ؟ فقال : قال لهم : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ . وقرأ الأعمش وحمزة : « سيكتب » بالمثناة التحتية مبنى للمفعول. وقرأ برفع اللام من ﴿ قتلهم ﴾ ، و « يقول » بالياء المثناة تحت . قوله : ﴿وقتلهم الأنبياء ﴾ عطف على : ﴿ ما قالوا ﴾ أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، أى قتل أسلافهم للأنبياء ، وإنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به ، جعل ذلك القول قرينا لقتل الأنبياء تنبيهًا على أنه من العظم والشناعة بمكان بعدل قتل الأنبياء . قوله : ﴿ ونقول ﴾ معطوف على : ﴿سنكتب﴾ أى ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذى نقوله لهم فى النار ، أو عند الموت ، أو عند الحساب . والحريق : اسم للنار الملتهبة وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة . وقرأ ابن مسعود : « ويقال ذوقوا » . والإشارة بقوله: ﴿ذلك ﴾ إلى العذاب المذكور قبله، وأشار إلى القريب بالصيغة التى يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته فى الفظاعة، وذكر الأيدى لكونها المباشرة لغالب المعاصى .

وقوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ معطوف على : ﴿ ما قدمت أيديكم ﴾ ووجهه أنه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب، وجازاهم على فعلهم فلم يكن ذلك ظلمًا. أو بمعنى: أنه مالك الملك يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، وليس بظالم لمن عذبه بذنبه . وقيل : إن وجهه

(١) سبق تخريجه .

أن نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسيء ، ورد بأن ترك التعذيب مع وجود سببه ليس بظلم عقلاً ولا شرعًا . وقيل : إن جملة قوله : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أن الله ليس بظلام للعبيد ، والتعبير بذلك عن نفى الظلم مع أن تعذيبهم بغيرذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلا عن كونه ظلمًا بالغًا لبيان تنزهه عن ذلك ، ونفى ظلام المشعر بالكثرة يفيد ثبوت أصل الظلم ، وأجيب عن ذلك بأن الذى توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلمًا لكان عظيمًا فنفاه على حد عظمه لو كان ثابتًا .

قوله : ﴿ **الذين قالوا** ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين قالوا . وقيل : نعت للعبيد . وقيل : منصوب على الذم. وقيل : هو فى محل جر بدل من : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا** ﴾ وهو ضعيف ؛ لأن البدل هو المقصود دون المبدل منه ، وليس الأمر كذلك هنا ، والقائلون هؤلاء هم جماعة من اليهود كما سيأتى ، وهذا المقول ، وهو أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بالقربان ، هو من جملة دعاويهم الباطلة ، وقد كان دأب بنى إسرائيل أنهم كانوا يقربون القربان فيقوم النبى فيدعو فتنزل نار من السماء فتحرقه (١) ، ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلا على صدق دعوى النبوة ، ولهذا رد الله عليهم فقال: ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم** ﴾ من القربان ﴿ **فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ كيحيى بن زكريا ، وشعياء ، وسائر من قتلوا من الأنبياء . والقربان : ما يتقرب به إلى الله من نسيكة وصدقة وعمل صالح ، وهو فعلان من القربة، ثم سلّى الله رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا** ﴾ بمثل ما جئت به من البينات. والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب ، وقد تقدم تفسيره ، ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ الواضح الجلى المضيء يقال : نار الشىء وأنار ونوره واستناره بمعنى .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : دخل أبو بكر بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم . فقال أبو بكر : ويحك يافنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا (٢) ، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد انظر ما صنع صاحبك بى ، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر :

(١) عن ابن عباس قوله : ﴿ **حتى يأتينا بقربان تأكله النار** ﴾ كان الرجل يتصدق فإذا تقبل منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلته . تفسير ابن جرير٤/ ١٣١ .

(٢) كذا ؛ فى المخطوطة وفى مراجع التخريج :« يعطيناه » .

« ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال : يارسول الله ، قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص فقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقًا لأبى بكر : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا** ﴾ الآية ، ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا ﴾ [آل عمران : ١٨٦] الآية[(١)] . وقد أخرج هذه القصة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة [(٢)] ، وأخرجها ابن جرير عن السدى بأخصر من ذلك [(٣)] .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ قال : أتت اليهود محمدًا ﷺ حين أنزل الله : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] فقالوا : يامحمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة : أن القائل لهذه حُيى بن أخطب ، وأنها نزلت فيه[(٤)]. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن العلاء بن بدر ، أنه سئل عن قوله : ﴿**وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ وهم لم يدركوا ذلك ، قال : بموالاتهم من قتل الأنبياء .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ قال : هم اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ قال: يتصدق الرجل منا ، فإذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء فأكلته . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ قال: كذبوا على الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**بالبينات**﴾ قال : الحلال والحرام ﴿ **والزبر** ﴾ قال : كتب الأنبياء ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ قال : هو القرآن .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٠ وابن جرير ٤/ ١٢٩ . (٢ ، ٣) ابن جرير ٤/ ١٢٩ .
(٤) المرجع السابق ٤/ ١٣٠ .

(١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **ذائقة** ﴾ من الذوق ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

مَنْ لَمْ يَمُت عَبْطَةً[1] يَمُتْ هَرَمًا   المَوُت كَأسٌ والمرءُ ذَائقُها

وهذه الآية تتضمن الوعد والوعيد للمصدق والمكذب ، بعد إخباره عن الباخلين القائلين : ﴿ **إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ . وقرأ الأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وابن أبى إسحاق « ذائقة الموت » بالتنوين ونصب الموت . وقرأ الجمهور بالإضافة . قوله : ﴿ **وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ أجر المؤمن : الثواب ، وأجر الكافر : العقاب ، أى أن توفية الأجور وتكميلها إنما تكون فى ذلك اليوم ، وما يقع من الأجور فى الدنيا أو فى البرزخ فإنما هو بعض الأجور . والزحزحة : التنحية ، والإبعاد : تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ، قاله فى الكشاف [2] ، وقد سبق الكلام عليه ، أى فمن بعد عن النار يومئذ ونحى فقد فاز ، أى ظفر بما يريد ونجا مما يخاف ، وهذا هو الفوز الحقيقى الذى لا فوز يقاربه ، فإن كل فوز وإن كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشىء بالنسبة إليها ، اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة ، ولا عيش إلا عيشها ، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، وارض عنا رضاً لا سخط بعده ، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة . والمتاع : ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى ، كذا قال أكثر المفسرين . الغرور : الشيطان يغر الناس بالأمانى الباطلة والمواعيد الكاذبة ، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على من يريده ، وله ظاهر محبوب وباطن مكروه .

قوله: ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم** ﴾ هذا الخطاب للنبى ﷺ وأمته ، تسلية لهم عما سيلقونه من الكفرة والفسقة؛ ليوطنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره .والابتلاء : الامتحان والاختبار ، والمعنى : لتمتحنن ولتختبرن فى أموالكم بالمصائب ، والإنفاقات الواجبة، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال ، والابتلاء فى الأنفس بالموت والأمراض ، وفقد الأحباب ، والقتل فى سبيل الله ، وهذه الجملة جواب قسم محذوف ، دلت عليه اللام الموطئة، ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ **ومن الذين أشركوا** ﴾ وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب ﴿ **أذى كثيرًا** ﴾ من الطعن فى دينكم وأعراضكم ، والإشارة بقوله : ﴿ **فإن ذلك** ﴾ إلى الصبر والتقوى المدلول عليهما بالفعلين . وعزم الأمور : معزوماتها، أى مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله، التى أوجب عليهم القيام بها ، يقال : عزم الأمر ، أى شده وأصلحه .

قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ هـذه الآيـة توبيخ لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، أو اليهود فقط على الخلاف فى ذلك ، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب: كل مـن آتاه الله علم شىء من الكتاب، أى كتاب كما يفيده التعريف الجنس فى الكتاب . قال الحسن وقتادة : إن الآية عامة لكل عالم ، وكذا قال محمد بن كعب ، ويدل على ذلك قول

---

(١) مات عبطة أى : مات شابا صحيحا .   (٢) الكشاف ١/ ٤٤٩ .

أبى هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشىء ثم تلا هذه الآية ، والضمير فى قوله : ﴿لتبيننه﴾ راجع إلى الكتاب. وقيل: راجع إلى النبى ﷺ وإن لم يتقدم له ذكر؛ لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته للناس ولا يكتموها ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ . وقرأ أبو عمرو ، وعاصم فى رواية أبى بكر وأهل المدينة : « ليبيننه » بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية . وقرأ ابن عباس « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه » ويشكل على هذه القراءة قوله : ﴿ **فنبذوه** ﴾ فلابد من أن يكون فاعله الناس . وفى قراءة ابن مسعود : «لتبينونه». والنبذ : الطرح ، وقد تقدم فى البقرة : ﴿ **وراء ظهورهم** ﴾ مبالغة فى النبذ والطرح ، وقد تقدم أيضا معنى قوله : ﴿ **واشتروا به ثمنا قليلا** ﴾ والضمير عائد إلى الكتاب الذى أمروا ببيانه ونُهوا عن كتمانه . وقوله : ﴿ **ثمنًا قليلا** ﴾ أى حقيرًا يسيرًا من حطام الدنيا وأعراضها . قوله : ﴿ **فبئس ما يشترون** ﴾ « ما » نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، ويشترون صفة ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس شيئًا يشترونه بذلك الثمن .

قوله : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون** ﴾ قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له . وقوله : ﴿ **بما أتوا** ﴾ أى بما فعلوا . وقد اختلف فى سبب نزول الآية كما سيأتى ، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملا بعموم اللفظ ، وهو المعتبر دون خصوص السبب ، فمن فرح بما فعل ، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل ، فلا تحسبنه بمفازة من العذاب ، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو :« لا يحسبنّ » بالياء التحتية ، أى لا يحسبن الفارحون فرحهم منجيًا لهم من العذاب ، فالمفعول الأول محذوف وهو فرحهم ، والمفعول الثانى بمفازة من العذاب ، وقوله : ﴿ **فلا تحسبنهم** ﴾ تأكيد للفعل الأول على القراءتين ، والمفازة : المنجاة ، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا ، أى ليسوا بفائزين ، سمى موضع الخوف مفازة على جهة التفاؤل قاله الأصمعى . وقيل : لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك، تقول العرب : فوّز الرجل إذا مات . قال ثعلب : حكيت لابن الأعرابى قول الأصمعى فقال : أخطأ . قال لى أبو المكارم : إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز وقال ابن الأعرابى : بل ؛ لأنه مستسلم لما أصابه . وقيل : المعنى : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوز: التباعد عن المكروه . وقرأ مروان بن الحكم والأعمش ، وإبراهيم النخعى : « آتوا » بالمد ، أى يفرحون بما أعطوا . وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم :﴿ **أتوا** ﴾ بالقصر .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن حبان وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ »[1]. وأخرج ابن مردويه عن سهل بن

---

(١) ابن أبى شيبة فى الجنة (١٥٨٢١) والترمذى فى التفسير (٣٠١٣) وقال : «حسن صحيح » وابن حبان فى إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس فى ذلك اليوم (٧٣٧٤) وابن جرير ٤/ ١٣٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

سعد مرفوعا نحوه [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الزهرى فى قوله : ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا** ﴾ قال : هو كعب بن الأشرف ، وكان يحرِّض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه فى شعره . وأخرج ابن المنذر من طريق الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى الآية ؛ قال : يعنى : اليهود والنصارى ، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم : ﴿ عزير ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] ومن النصارى قولهم: ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] . ﴿ **إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ قال : من القوة مما عزم الله عليه وأمركم به .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس**﴾ قال : فنحاص ، وأشيع ، وأشباههما من الأحبار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس** ﴾ قال : كان الله أمرهم أن يتبعوا النبى الأمى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : فى التوراة والإنجيل أن الإسلام دين الله الذى افترضه على عباده ، وأن محمداً رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل فنبذوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية ؛ قال : هم اليهود ﴿ **لتبيننه للناس** ﴾ قال: محمداً ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ؛ قال : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم ، فمن علم علمًا فليعلمه الناس ، وإياكم وكتمان العلم ، فإن كتمان العلم هلكة. وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : لولا الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما ؛ أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لَنُعذَّبنّ أجمعون، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ، إنما أنزلت فى أهل الكتاب، ثم تلا : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ الآية ، قال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه [٢] .

وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ،

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٢) وفى الرقاق (٦٤١٥) وهو جزء من حديث بدون ذكر الآية .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٦٨) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٨/٢٧٧٨) والترمذى فى التفسير (٣٠١٤) وقال : «حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (١٠٦) .

فنزلت[(١)] . وقد روى : أنها نزلت فى فنحاص ، وأشيع ، وأشباههما . وروى أنها نزلت فى اليهود . وأخرج مالك وابن سعد والطبرانى ، والبيهقى فى الدلائل عن محمد بن ثابت ؛ أن ثابت بن قيس قال : يارسول الله ، لقد خشيت أن أكون قد هلكت ، قال : « لم ؟ » ، قال : قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل وأجدنى أحب الحمد ، ونهانا عن الخيلاء وأجدنى أحب الجمال ، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا رجل جهير الصوت ، فقال: « ياثابت ، ألا ترضى أن تعيش حميدًا ، وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة ؟ » فعاش حميدًا وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب [(٢)] . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى قوله : ﴿ بمفازة ﴾ قال : بمنجاة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض** ﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها ، والمراد : ذات السموات والأرض وصفاتهما ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أى تعاقبهما ، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر ، وكون زيادة أحدهما فى نقصان الآخر ، وتفاوتهما طولا وقصرًا وحرًا وبردًا وغير ذلك ، ﴿ **لآيات** ﴾ أى دلالات واضحة ، وبراهين بينة، تدل على الخالق سبحانه . وقد تقدم تفسير بعض ما هاهنا فى سورة البقرة . والمراد بأولى الألباب : أهل العقول الصحيحة الخالصة من شوائب النقص ، فإن مجرد التفكير فيما قصه الله فى هذه الآية يكفى العاقل، ويوصله إلى الإيمان الذى لا تزلزله الشبه، ولا تدفعه التشكيكات.

قوله: ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ الموصول نعت لأولى الألباب. وقيل : هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح ، والمراد بالذكر هنا :

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٦٧) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٧/٢٧٧٧) والواحدى فى أسباب النزول ٧٨ .

(٢) الطبرانى (١٣١٠ ـ ١٣١٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٢٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير مطولا هكذا ومختصرا ، ورجال المختصر ثقات وفى رجال المطول شيخ الطبرانى أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمى ضعفه ابن حبان فى ترجمة أبيه فى الثقات هو وأخوه عبيد الله ، وبقية رجاله ثقات ، ويعتضد بثقة رجال المختصر ورواه من طريق إسماعيل بن ثابت أن ثابتا قال : يارسول الله ، وإسناده متصل ، ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل وهو ثقة تابعى سمع من أبيه » والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٥٥ .

ذكره سبحانه فى هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها ، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة ، أى لايضيعونها فى حال من الأحوال فيصلونها قيامًا مع عدم العذر، وقعودًا وعلى جنوبهم مع العذر. قوله : ﴿ **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **يذكرون** ﴾. وقيل: إنه معطوف على الحال، أعنى: ﴿ **قيامًا وقعودًا** ﴾ . وقيل : إنه منقطع عن الأول ، والمعنى : أنهم يتفكرون فى بديع صنعهما ، وإتقانهما مع عظم أجرامها ، فإن هذا الفكر إذا كان صادقا أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه . قوله : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾ هو على تقدير القول ، أى يقولون : ما خلقت هذا عبثًا ولهوًا؛ بل خلقته دليلا على حكمتك وقدرتك . والباطل : الزائل الذاهب ، ومنه قول لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلا . وقيل : منصوب بنزع الخافض . وقيل : هو مفعول ثان ، وخلق بمعنى : جعل ، أو منصوب على الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى السموات والأرض ، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق . قوله : ﴿**سبحانك** ﴾ أى تنزيهًا لك عما لا يليق بك من الأمور التى من جملتها أن يكون خلق لهذه المخلوقات باطلا. وقوله : ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله.

وقوله : ﴿ **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ﴾ تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه، وبيان للسبب الذى لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار ، وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه ، أى أذله وأهانه . وقال المفضل: معنى أخزيته : أهلكته ، وأنشد :

أخزَى الإلهُ بنى الصَلِيب عُنَيْزة (١) والللابِسين مَلابِس الرهْبَانِ

وقيل : معناه : فضحته وأبعدته ، يقال : أخزاه الله : أبعده ومقته ، والاسم : الخزى ، قال ابن السكّيت: خَزَى يَخْزَى خِزيًا : إذا وقع فى بَلِيَّة .

قوله : ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان** ﴾ المنادى عند أكثر المفسرين هو النبى ﷺ . وقيل : هو القرآن ، وأوقع السماع على المنادى مع كون المسموع هو النداء ؛ لأنه قد وصف المنادى بما يسمع ، وهو قوله : ﴿ **ينادى للإيمان أن آمنوا** ﴾ . وقال أبو على الفارسى : إن ﴿**ينادى** ﴾ هو المفعول الثانى وذكر ﴿ **ينادى** ﴾ مع أنه قد فهم من قوله : ﴿ **مناديًا** ﴾ لقصد التأكيد والتفخيم لشأن هذا المنادى به ، واللام فى قوله : ﴿ **للإيمان** ﴾ بمعنى إلى . وقيل : إن ينادى يتعدى باللام وبإلى ، يقال : ينادى لكذا وينادى إلى كذا . وقيل : اللام للعلة ، أى لأجل الإيمان . قوله : ﴿ **أن آمنوا** ﴾ هى إما تفسيرية، أو مصدرية ، وأصلها بأن آمنوا

---

(١) عند القرطبى : «من » بدلا من « بنى » و « عبيدة » بدلا من « عنيزة » و« قلانس » بدلا من « ملابس » ٣/١٥٥٨ .

فحذف حرف الجر . قوله : ﴿ فآمنا ﴾ أى امتثلنا ما يأمر به هذا المنادى من الإيمان فآمنا ، وتكرير النداء فى قوله : ﴿ ربنا ﴾ لإظهار التضرع والخضوع . وقيل : المراد بالذنوب هنا : الكبائر ، وبالسيئات : الصغائر . والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين ، والآخر بالآخر ؛ بل يكون المعنى فى الذنوب والسيئات واحداً ، والتكرير للمبالغة والتأكيد، كما أن معنى الغفر والكفر : الستر . والأبرار : جمع بار أو برّ ، وأصله من الاتساع ، فكأن البار متسع فى طاعة الله ومتسعة له رحمته . قيل : هم الأنبياء ، ومعنى اللفظ أوسع من ذلك .

قوله : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ هذا دعاء آخر ، والنكتة فى تكرير النداء ما تقدم ، والموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذى وعد الله به أهل طاعته ، ففى الكلام حذف وهو لفظ الألسن كقوله : ﴿ واسأل القرية﴾ [يوسف : ٨٢] . وقيل المحذوف : التصديق ، أى ماوعدتنا على تصديق رسلك . وقيل : ما وعدتنا منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك والأول أولى وصدور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة، إما لقصد التعجيل، أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العبادة . وفى قولهم: ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما ذكرنا .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ؛ قال : أتت قريش اليهود فقالوا : ما جاءكم به موسى من الآيات ؟ قالوا : عصاه ، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى فيكم ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فدعا ربه ، فنزلت : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ الآية (١) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: بتٍّ عند خالتى ميمونة فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل ، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم (٢) . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والطبرانى ، والحاكم فى الكنى ، والبغوى فى معجم الصحابة عن صفوان بن المعطل ؛ قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر فذكر نحوه (٣) .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود فى قوله :

---

(١) الطبرانى (١٢٣٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٣٢ : «فيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » وقال ابن كثير ٢/ ١٧٥ :« وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبا كان بمكة والله أعلم ».

(٢) جزء من حديث عند البخارى فى الوضوء (١٨٣) وفى العمل فى الصلاة (١١٩٨) وفى التفسير (٤٥٧٠ ، ٤٥٧٢) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٣ / ١٨٢ ، ١٩١) وأبو داود فى الصلاة (١٣٦٧) والنسائى فى التفسير (١٠٧) .

(٣) أحمد ٥/ ٣١٢ والطبرانى (٧٣٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٧٥ : « وفيه عبد الله بن جعفر والد على بن المدينى وهو ضعيف » .

﴿ الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ﴾ الآية . قال : إنما هذه الصلاة إذا لم يستطع قائمًا فقاعدًا ، وإن لم يستطع قاعدًا فعلى جنبه ، وقد ثبت فى البخارى من حديث عمران بن حصين قال : كانت بى بواسير ، فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال : « صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب » (١) ، وثبت فيه عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال : « من صلى قائمًا فهو أفضل ، ومن صلى قاعدًا فله نصف أجر القائم ، ومن صلى نائمًا فله نصف أجر القاعد»(٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ؛ قال: هذه حالاتك كلها يابن آدم ، اذكر الله وأنت قائم ، فإن لم تستطع فاذكره جالساً ، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك ، يسر من الله وتخفيف.

وأقول : هذا التقييد الذى ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكرلا وجه له لا من الآية ولا من غيرها ، فإنه لم يرد فى شيء من الكتاب والسنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام ، ولا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود ، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة ، كما سبق عن ابن مسعود.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه عن عائشة مرفوعا : « ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها » (٣) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى التفكر عن سفيان رفعه : « من قرأ آخر سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ويله فعدّ أصابعه عشرا » . قيل للأوزاعى : ما غاية التفكر فيهنّ ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى استحباب التفكر مطلقًا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أنس فى قوله : ﴿ مَنْ تدخل النار فقد أخزيته ﴾ قال : من تخلد . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن المسيب فى الآية قال : هذه خاصة بمن لا يخرج منها . وأخرج ابن جرير والحاكم عن عمرو ابن دينار قال : قدم علينا جابر بن عبد الله فى عمرة فانتهيت إليه أنا وعطاء فقلت : ﴿وماهم بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٧] قال: أخبرنى رسول الله ﷺ أنهم الكفار، قلت لجابر: فقوله : ﴿ إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ قال : وما أخزاه حين أحرقه بالنار ، وإن دون ذلك خزيا (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله :﴿ مناديًا ينادى للإيمان ﴾ قال : هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد بن حميد

---

(١) البخارى فى تقصير الصلاة (١١١٧) . (٢) المرجع السابق (١١١٥ ، ١١١٦) .
(٣) الديلمى (٧١٥٨) .
(٤) ابن جرير ٤/١٤١ مقتصرًا على الشطر الأخير فقط ، وسكت عنه الحاكم ٢ / ٣٠٠ وقال الذهبى : « بحر هالك » .

وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ؛ قال : هو القرآن ، ليس كل أحد سمع النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ﴾ قال : يستنجزون موعد الله على رسله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ قال : لا تفضحنا .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾ .

قوله : ﴿ فاستجاب ﴾ الاستجابة بمعنى : الإجابة . وقيل : الإجابة عامة ، والاستجابة خاصة بإعطاء المسؤول ؛ وهذا الفعل يتعدى بنفسه وباللام ، يقال : استجابه ، واستجاب له ، والفاء للعطف . وقيل: على مقدر، أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب لهم . وقيل : على قوله : ﴿ ويتفكرون ﴾ وإنما ذكر سبحانه الاستجابة وما بعدها فى جملة مالهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه، إذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته. قوله : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ أى بأنى، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول الأول ، وقرأ أبى بثبوت الباء وهى للسببية، أى فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم. والمراد بالإضاعة: ترك الإثابة . قوله: ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ « من » بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة فى سياق النفى من العموم . قوله: ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أى رجالكم مثل نسائكم فى الطاعة ونساؤكم مثل رجالكم فيها ، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد .

قوله: ﴿ فالذين هاجروا ﴾ الآية . هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل ﴾ أى فالذين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ فى طاعة الله عز وجل ﴿وقاتلوا ﴾ أعداء الله ﴿ وقتلوا ﴾ فى سبيل الله . وقرأ ابن كثير وابن عامر: « وقتّلوا » على التكثير . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « **وقتلوا وقاتلوا** » وهو مثل قول الشاعر :

تصابى وأمسى علاه الكبر

أى قد علاه الكبر . وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب كما قال به الجمهور . والمراد هنا : أنهم قاتلوا وقتل بعضهم ، كما قال امرؤ القيس :

فإن تقـــتلونا نقتلكموا

وقرأ عمر بن عبد العزيز : « وقتلوا وقتلوا » . ومعنى قوله : ﴿ **أوذوا فى سبيلى** ﴾ أى بسببه ، والسبيل : الدين الحق، والمراد هنا : ما نالهم من الأذية من المشركين بسبب إيمانهم بالله وعملهم بما شرعه الله لعباده . وقوله : ﴿**لأكفرن** ﴾ جواب قسم محذوف . وقوله : ﴿**ثوابا من عند الله** ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين . لأن معنى قوله :﴿**لأدخلنهم جنات** ﴾ لأثيبنهم ثوابا ، أى إثابة أو تثويبًا كائنًا من عند الله ، وقال الكسائى : إنه منتصب على الحال، وقال الفراء : على التفسير ، ﴿ **والله عنده حسن الثواب** ﴾ أى حسن الجزاء وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب إذا رجع .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن أم سلمة ؛ قالت : يارسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله : ﴿**فاستجاب لهم**﴾ إلى آخر الآية (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : ما من عبد يقول : يارب يارب ، ثلاث مرات إلا نظر الله إليه . فذكر للحسن فقال : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا** ﴾ إلى قوله : ﴿**فاستجاب لهم ربهم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾ إلى آخرها . وقد ورد فى فضل الهجرة أحاديث كثيرة .

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **لا يغرنك** ﴾ خطاب للنبى ﷺ ، والمراد : تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمَنوا آمنُوا ﴾ [النساء : ١٣٦] أو خطاب لكل أحد . وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين ؛ والمعنى : لا يغرنك ماهم فيه من تقلبهم فى البلاد بالأسفار للتجارة التى يتوسعون بها فى معاشهم ، فهو متاع قليل يتمتعون به فى هذه الدار ثم مصيرهم إلى جهنم. فقوله: ﴿ **متاع** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هو متاع قليل لا اعتداد به

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٢٣) وابن جرير ٤/١٤٣ والطبرانى ٢٣/ ٢٩٤ (٦٥١) وصححه الحاكم ٢/ ٣٠٠ ، ٤١٦ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه ﴿ **ومأواهم** ﴾ أى مايأوون إليه . والتقلب فى البلاد : الاضطراب فى الأسفار إلى الأمكنة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ [غافر : ٤] والمتاع : ما يعجل الانتفاع به ، وسماه قليلا لأنه فانٍ ، وكل فانٍ وإن كان كثيراً فهو قليل . وقوله : ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ ما مهدوا لأنفسهم فى جهنم بكفرهم ، أو مامهد الله لهم من النار ، فالمخصوص بالذم محذوف وهو هذا المقدر .

قوله: ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم** ﴾ هو استدراك مما تقدم؛ لأن معناه معنى النفى، كأنه قال: ليس لهم فى تقلبهم فى البلاد كثير انتفاع ﴿ **لكن الذين اتقوا** ﴾ لهم الانتفاع الكثير والخلد الدائم . وقرأ يزيد بن القعقاع : « لكن» بتشديد النون . قوله : ﴿ **نزلا** ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين كما تقدم فى : ﴿ **ثوابا** ﴾ وعند الكسائى والفراء مثل ما قالا فى ﴿**ثوابا** ﴾ والنزل : مايهيأ للنزيل ، والجمع أنزال ، قال الهروى : ﴿ **نزلا من عند الله** ﴾ أى ثوابًا من عند الله ﴿**وما عند الله** ﴾ مما أعده لمن أطاعه ﴿ **خير للأبرار** ﴾ مما يحصل للكفار من الربح فى الأسفار فإنه متاع قليل عن قريب يزول .

قوله : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله** ﴾ هذه الجملة سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين، وليسوا كسائرهم فى فضائحهم التى حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتى ، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله وبما أنزل الله على سيدنا محمد ﷺ ، وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم ﴿ **خاشعين لله لا يشترون** ﴾ أى يستبدلون ﴿**بآيات الله ثمنًا قليلا** ﴾ بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم ؛ بل يحكون كتب الله سبحانه كما هى ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب ؛ من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة ﴿**لهم أجرهم**﴾ الذى وعد الله سبحانه به بقوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ [القصص : ٥٤] وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم . وقوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ فى محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا** ﴾ إلخ ، هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه : ﴿ **إن فى خلق السموات** ﴾ ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التى جمعت خير الدنيا والآخرة ، فحض على الصبر على الطاعات والشهوات . والصبر : الحبس ، وقد تقدم تحقيق معناه ، والمصابرة : مصابرة الأعداء ، قاله الجمهور ، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد (١) الحرب ، وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشد منه وأشق . وقيل : المعنى : صابروا على الصلوات . وقيل : صابروا الأنفس عن شهواتها . وقيل : صابروا الوعد الذى وعدتم ولا تيأسوا ، والقول الأول هو المعنى العربى ، ومنه قول عنترة :

---

(١) فى المطبوعة : « الشدائد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فَلَمْ أرَحيًا صَابَروا مِثْلَ صَبْرِنا وَلا كَافَحوا مِثْلَ الذين نُكَافِحُ

أى صابروا العدو فى الحرب . قوله : ﴿ ورابطوا ﴾ أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال : أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن فى زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه ، وسيأتى ذكر من خرج عنه هذا ، والرباط اللغوى هو الأول ، ولا ينافيه تسميته ﷺ لغيره رباطا كما سيأتى ، ويمكن إطلاق الرباط على المعنى الأول وعلى انتظار الصلاة . قال الخليل : الرباط : ملازمة الثغور ، ومواظبة الصلاة هكذا قال ؛ وهو من أئمة اللغة ، وحكى ابن فارس عن الشيبانى أنه قال : يقال : ماء مترابط : دائم لايبرح، وهو يقتضى تعدية الرباط إلى غير ارتباط الخليل فى الثغور. قوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تخالفوا ما شرعه لكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب وهم المفلحون .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله:﴿لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا﴾ تقلب ليلهم ونهارهم وما يجرى عليهم من النعم ، قال عكرمة : قال ابن عباس : وبئس المهاد أى بئس المنزل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿تقلبهم فى البلاد ﴾ [غافر : ٤] قال : ضربهم فى البلاد . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ قال : إنما سماهم الله أبراراً ؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حقًا. وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا ، والأول أصح قاله السيوطى . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ خير للأبرار﴾ لمن يطيع الله .

وأخرج النسائى والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس ؛ قال : لما مات النجاشى قال ﷺ : « صلوا عليه » قالوا : يارسول الله ، نصلى على عبد حبشى ؟ فأنزل الله: ﴿ وإن من أهل الكتاب ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن جرير عن جابر مرفوعًا :إن المنافقين قالوا : انظروا إلى هذا ـ يعنى النبى ﷺ ـ يصلى على علج نصرانى ، فنزلت (٢) . وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير (٣) ؛ أنها نزلت فى النجاشى (٤) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد والذين اتبعوا محمدا ﷺ . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ما قد منا ذكره .

---

(١) النسائى في التفسير (١٠٨ ، ١٠٩) وإسناده حسن ، والبزار (٨٣٢) .
(٢) ابن جرير ١٤٦/٤ وهو جزء من حديث ، وهو ضعيف من جهة الإسناد .
(٣) كذا ؛ وعند الحاكم عن عبد الله بن الزبير عن أبيه .
(٤) وصححه الحاكم ٢/ ٣٠٠ ووافقه الذهبى .

وأخرج ابن مردويه عنه عن أبى هريرة قال : أما إنه لم يكن فى زمن النبى ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ، يصلون الصلوات فى مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها (١). وقد ثبت فى الصحيح وغيره من قول النبى ﷺ : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ؛ قال : اصبروا على دينكم ، وصابروا الوعد الذى وعدتكم ، ورابطوا عدوى وعدوكم . وقد روى من تفاسير السلف غير هذا فى سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات، والمصابرة على نوع آخر، ولا تقوم بذلك حجة، فالواجب الرجوع إلى المدلول اللغوى وقد قدمناه .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل الرباط وفيها التصريح بأنه الرباط فى سبيل الله ، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن ؛ فإن رسول الله ﷺ قد ندب إلى الرباط فى سبيل الله وهو الجهاد ، فيحمل ما فى الآية عليه ، وقد ورد عنه ﷺ أنه سمى حراسة الجيش رباطًا ، فأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند جيد عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن أجر المرابط فقال : « من رابط ليلة حارسًا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى » (٣) .

وقد ورد فى فضل هذه العشر الآيات التى فى آخر هذه السورة مرفوعًا إلى النبى ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة (٤) . وفى إسناده مظاهر بن أسلم ، وهو ضعيف . وقد تقدم من حديث ابن عباس فى الصحيحين ؛ أن النبى ﷺ قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ (٥) . وكذلك تقدم فى غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبى ﷺ(٦) . وأخرج الدارمى عن عثمان بن عفان قال : من قرأ آخر آل عمران فى ليلة كتب له قيام ليلة (٧) .

---

(١) لكنه صححه الحاكم ٢/ ٣٠١ ووافقه الذهبى . مع اختلاف السند .

(٢) والحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عند مسلم فى الطهارة (٢٥١ / ٤١) والترمذى فى الطهارة (٥١، ٥٢) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) عزاه الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٩٢ إلى الطبرانى فى الأوسط وقال : « ورجاله ثقات » .

(٤) ابن السنى (٦٨٢) وابن عساكر ٦/ ٢٨٨ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٧٧ إلى الطبرانى فى الأوسط وفيه مظاهر بن أسلم وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين وجماعة .

(٥) سبق تخريجه

(٦) سبق تخريجه .

(٧) الدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٢ .

تفسير سورة النســاء

هي مدنية كلها . قال القرطبي : إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحجبي وهي قوله تعالى : ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ على ما سيأتي إن شاء الله . قال النقاش : وقيل : نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، وعلى ما تقدم من بعض أهل العلم أن قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس** ﴾ حيثما وقع، فإنه مكي يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكيًا ، وبه قال علقمة وغيره ، وقال النحاس : هذه الآية مكية . قال القرطبي : والصحيح الأول ، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ [١] ، يعني : قد بنى بها . ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بنى بعائشة بالمدينة ، ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها . قال : وأما من قال : ﴿ **يأيها الناس** ﴾ مكي حيث وقع فليس بصحيح ؛ فإن البقرة مدنية وفيها ﴿ **يأيها الناس**﴾ في موضعين [٢] . وقد أخرج ابن الضريس في فضائله ، والنحاس في ناسخه ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة النساء بالمدينة ، وفي إسناده العوفي وهو ضعيف ، وكذا أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت ، وأخرجه ابن المنذر عن قتادة .

وقد ورد في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال : إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ الآية ، و ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه** ﴾ الآية ، و ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية ، ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم** ﴾ الآية ، ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه** ﴾ ثم قال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه ، وقد اختلف في ذلك[٣] . وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن ابن مسعود قال : خمس آيات من النساء هنّ أحب إليّ من الدنيا جميعا ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه** ﴾ الآية ، ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ الآية، ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية ، ﴿ **من يعمل سوءًا أو يظلم نفسه** ﴾ الآية ،﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم** ﴾ الآية. ورواه ابن جرير [٤] . ثم روى من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس قال : ثمان آيات نزلت في سورة النساء هنّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، وذكر ما ذكره ابن مسعود، وزاد ﴿ **يريد الله ليبين لكم**﴾ الآية ، ﴿**والله يريدأن يتوب عليكم** ﴾ الآية، ﴿**يريدالله أن يخفف عنكم**﴾ الآية[٥] .

وأخرج أحمد وابن الضريس ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن عائشة،

(١ ، ٢) القرطبي ٣ / ١٥٧١ .
(٣) الحاكم ٢ / ٣٠٥ ووافقه الذهبي .
(٤) ابن جرير ٥ / ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) ابن جرير ٥ / ٣٠ .

أن النبى ﷺ قال : «من أخذ السبع فهو حبر » [١] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ: « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال [٢] والمئين كل سورة بلغت مائة فصاعدا » والمثانى كل سورة دون المئين وفوق المفصل . وأخرج أبويعلى وابن خزيمة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن أنس ؛ قال : وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئًا فلما أصبح قيل : يا رسول الله ، إن أثر الوجع عليك لبين ، قال : « أما إنى على ما ترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال » [٣] . وأخرج أحمد عن حذيفة قال : قمت مع رسول الله ﷺ فقرأ السبع الطوال فى سبع ركعات [٤] . وأخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبى ﷺ ؛ أن النبى ﷺ قرأ بالسبع الطوال فى ركعة واحدة . وأخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قال : سلونى عن سورة النساء فإنى قرأت القرآن وأنا صغير . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [٥] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عنه قال : من قرأ سورة النساء فعلم ما يحجب مما لا يحجب علم الفرائض [٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً (٤) ﴾.

المراد بالناس : الموجودون عند الخطاب من بنى آدم ، ويدخل مَن سيوجد بدليل خارجى ، وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون ، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الإناث فى قوله : **﴿ اتقوا ربكم ﴾** لاختصاص ذلك بجمع المذكر

(١) أحمد ٦ / ٧٣ ، ٨٢ بلفظ : « السبع الأول » وصححه الحاكم ١ / ٥٦٤ ووافقه الذهبى بلفظ : « فهو خير » بدل « حبر » والبيهقى (٩٦٤) وفى الشعب (٢١٩١) بإسناد رجاله ثقات .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢١٩٢) ، (٢٢٥٥) بإسناد حسن .

(٣) أبو يعلى فى المسند (٣٤٤٤ / ٦٨٩) بإسناد ضعيف ؛ لكن قال الهيثمى فى المجمع : ٢ / ٢٧٧ : « رجاله ثقات » وابن خزيمة فى جماع أبواب الركعتين قبل الفجر (١١٣٦) وإسناده ضعيف ، وابن حبان (٦٦٤) فى الموارد ، وصححه الحاكم ١ / ٣٠٨ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الشعب (٢٢٠٤) وقال المحقق : « إسناده فيه من لم أجد له ترجمة » .

(٤) أحمد ٥ / ٣٨٨ وهو جزء من حديث .

(٥) الحاكم ٢ / ٣٠١ ووافقه الذهبى .

(٦) ابن أبى شيبة (١١٠٨٣) .

والمراد بالنفس الواحدة هنا : آدم . وقرأ ابن أبى عبلة « واحد » بغير هاء على مراعاة المعنى فالتأنيث باعتبار اللفظ ، والتذكير باعتبار المعنى . وقوله : ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ قيل : هو معطوف على مقدر يدل عليه الكلام ، أى من خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا ، وخلق منها زوجها . وقيل : على خلقكم فيكون الفعل الثانى داخلاً مع الأول فى حيز الصلة ، والمعنى : وخلق من تلك النفس التى هى عبارة عن آدم زوجها وهى حواء . وقد تقدم فى البقرة التقوى ، والرب ، والزوج ، والبث ، والضمير فى قوله : ﴿ **منها** ﴾ راجع إلى آدم وحواء المعبر عنهما بالنفس والزوج . وقوله : ﴿ **كثيرًا** ﴾ وصف مؤكد لما تفيده صيغة الجمع لكونهما من جموع الكثرة . وقيل : هو نعت لمصدر محذوف ، أى بثًا كثيرًا . وقوله : ﴿ **ونساءً** ﴾ أى كثيرة، وترك التصريح به استغناء بالوصف الأول . قوله : ﴿**واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام** ﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية وأصله تتساءلون تخفيفًا لاجتماع المثلين . وقرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ، بإدغام التاء فى السين ؛ والمعنى : يسأل بعضكم بعضا بالله والرحم ، فإنهم كانوا يقرنون بينهما فى السؤال ، والمناشدة ، فيقولون : أسألك بالله والرحم ، أنشدك الله والرحم ، وقرأ النخعى وقتادة والأعمش وحمزة « والأرحام » بالجر ، وقرأ الباقون بالنصب .

وقد اختلف أئمة النحو فى توجيه قراءة الجر ، فأما البصريون فقالوا : هى لحن لا تجوز القراءة بها . وأما الكوفيون فقالوا : هى قراءة قبيحة . قال سيبويه فى توجيه هذا القبح : إن المضمر المجرور بمنزلة التنوين ، والتنوين لا يعطف عليه . وقال الزجاج وجماعة : بقبح عطف الاسم الظاهر على المضمر فى الخفض إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ [القصص : ٨١] ، وجوز سيبويه ذلك فى ضرورة الشعر وأنشد :

فاليوم قرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتشْتُمنا ... فَاذْهَب فَما بكَ وَالأيام مِنْ عَجَبِ

ومثله قول الآخر :

نُعَلّق فِي مِثل السَّوارِى سيُوفنا ... ومَا بينهـا وَالكَعْـبِ مهوًى نَفَانِفُ

بعطف الكعب على الضمير فى بينها . وحكى أبو على الفارسى أن المبرد قال : لو صليت خلف إمام يقرأ : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بالجر لأخذت نعلى ومضيت. وقد ردَّ الإمام أبو نصر القشيرى ما قاله القادحون فى قراءة الجر فقال : ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى ﷺ تواترًا، ولا يخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة ، يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التى رووها بها ، ولكن ينبغى أن يحتج للجواز بورود ذلك فى أشعار العرب كما تقدم ، وكما فى قول بعضهم :

وَحَسْبُكَ وَالضَّحاكِ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

وقول الآخر :

وَقَد رَامَ آفَاقَ السَّماءِ فَلَم يَجِدْ لَـه مَصْعَـدًا فيها وَلاَ الأرْضِ مَقْعَـدًا

وقول الآخر :

مَا إن بِهَا ولا الأُمُور مِنْ تَلَفٍ مـا حُـمَّ مـن أمـر غَيْبـه وَقَعَـا

وقول الآخر :

أمُرُّ على الكَتِيبَةِ لَسْتُ أدرى أحَتْفِى كَان فيهـا أمْ سِوَاهَـا

فسواها فى موضع جر عطفًا على الضمير فى فيها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾ [الحجر : ٣٠] . وأما قراءة النصب فمعناها واضح جلى لأنه عطف الرحم على الاسم الشريف ، أى اتقوا الله واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فإنها مما أمر الله به أن يوصل. وقيل: إنه عطف على محل الجار والمجرور فى قوله : ﴿ به ﴾ كقولك : مررت بزيد وعمرا ، أى اتقوا الله الذى تساءلون به ، وتتساءلون بالأرحام. والأول أولى . وقرأ عبد الله بن يزيد: « والأرحام » بالرفع على الابتداء ، والخبر مقدر ، أى والأرحام صلوها، أو والأرحام أهل أن توصل . وقيل : إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به ، ومنه قول الشاعر :

إن قومًا منهـم عُمَيْرُ وَأشْبَـا هُ عُمَيْر وَمِنهـم السفَّـاحُ

لَجِـديرون بِاللـقـاء إذَا قـا ل أخ النَّجْدَةَ السِلاحُ السِلاحُ

و﴿ الأرحام ﴾ اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره ، لاخلاف فى هذا بين أهل الشرع ولابين أهل اللغة . وقد خصص أبو حنيفة وبعض الزيدية الرحم بالمحرم ، فى منع الرجوع فى الهبة ، مع موافقتهم على أن معناها أعم ، ولا وجه لهذا التخصيص . قال القرطبى: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة انتهى [(١)] . وقد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة . والرقيب : المراقب ، وهى صيغة مبالغة ، يقال : رقبت أرقب رقبة ورقبانا : إذا انتظرت .

قوله : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ خطاب للأولياء والأوصياء ، والإيتاء : الإعطاء . واليتيم : من لا أب له ، وقد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم . وقد تقدم تفسير معناه فى البقرة مستوفى . وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتم بالبلوغ مجازًا باعتبار ما كانوا عليه ، ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقى،

(١) القرطبى ٣ / ١٥٧٦ .

وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة ، لا دفعها جميعًا وهذه الآية مقيدة بالآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ **فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾ فلا يكون مجرد ارتفاع اليتم بالبلوغ مسوغًا لدفع أموالهم إليهم ، حتى يؤنس منهم الرشد .

قوله : ﴿ **ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** ﴾ نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية فى أموال اليتامى ، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ، ويعوضونه بالردىء من أموالهم ، ولا يرون بذلك بأسًا. وقيل : المعنى : لا تأكلوا أموال اليتامى وهى محرمة خبيثة ، وتدعوا الطيب من أموالكم . وقيل : المراد لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم ، وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله ، والأول أولى . فإن تبدل الشىء بالشىء فى اللغة أخذه مكانه وكذلك استبداله ، ومنه قوله تعالى: ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ [البقرة: ١٠٨] ، وقوله ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ [البقرة : ٦١] ، وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما فى قوله : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ [سبأ : ١٦] وأخرى بالعكس كما فى قولك : بدلت الحلقة بالخاتم ، إذا أذبتها وجعلتها خاتمًا ، نص عليه الأزهرى .

قوله : ﴿ **ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم** ﴾ ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهى عنه فى هذه الآية هو الخلط ، فيكون الفعل مضمنًا معنى الضم ، أى لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة : ٢٢٠] . وقيل : إن « إلى » بمعنى « مع » كقوله تعالى : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ [آل عمران : ٥٢] ، والأول أولى . والحوب : الإثم ، يقال : حَابَ الرجلَ يحُوبُ حَوْبًا : إذا أَثِم ، وأصله الزجر للإبل ، فسمى الإثم حوبًا لأنه يزجر عنه . والحَوْبَة : الحاجة . والحوب أيضًا : الوحشة ، وفيه ثلاث لغات : ضم الحاء وهى قراءة الجمهور ، وفتح الحاء وهى قراءة الحسن ، قال الأخفش : وهى لغة تميم ، والثالثة : الحاب ، وقرأ أبى بن كعب حابًا على المصدر كقال قالا ، والتحوب : التحزن ، ومنه قول طفيل :

فَذُوقوا كَما ذُقْنا غَداة مُحَجّرٍ (١) مِن الغَيْظِ فى أَكْبَادِنَا والتَّحوُّبِ

قوله : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا** ﴾ وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها ، فلا يقسط لها فى مهرها ، أى يعدل فيه ، ويعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج ، فنهاهم الله أن ينكحوهن ، إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن ، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتى ، فهو نهى يخص هذه الصورة ، وقال جماعة من

---

(١) فى المطبوعة : « عداة يحجر » بالعين المهملة بدلا من « الغين » ، ويحجر بالياء بدلاً من : الميم ، وهو تحريف، والصحيح ما أثبتناه . ومحجر: كمعظم، ومحدث : اسم موضع ، وفى الديوان « أجوافنا » بدلاً من « أكبادنا » .

السلف : إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما شاء ، فقصرهم بهذه الآية على أربع ، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا ألا يقسطوا في اليتامى فكذلك يخافون ألا يقسطوا في النساء ؛ لأنهم كانوا يتحرجون في اليتامى ولا يتحرجون في النساء ، والخوف من الأضداد ، فإن المخوف قد يكون معلومًا ، وقد يكون مظنونًا ، ولهذا اختلف الأئمة في معناه في الآية ، فقال أبو عبيدة ﴿ خفتم ﴾ بمعنى أيقنتم ، وقال آخرون : ﴿ خفتم ﴾ بمعنى ظننتم . قال ابن عطية : وهو الذي اختاره الحُذَّاق وأنه على بابه من الظن لا من اليقين ، والمعنى : من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة فليتركها وينكح غيرها . وقرأ النخعي وابن ثابت : « تَقسطوا » بفتح التاء ، من قسط : إذا جار ، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة « لا » ، كأنه قال : وإن خفتم أن تقسطوا . وحكى الزجاج أن أقسط يستعمل استعمال قسط ، والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل ، وقسط بمعنى : جار .

و « ما » في قوله : ﴿ ما طاب ﴾ موصولة ، وجاء بـ « ما » مكان « من » ؛ لأنهما قد يتعاقبان ، فيقع كل واحد منهما مكان الآخر ، كما في قوله : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس : ٥] ، ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ [النور : ٤٥] . وقال البصريون : إن « ما » تقع للنعوت كما تقع لما لا يعقل ، يقال : ما عندك ؟ فيقال : ظريف وكريم ، فالمعنى : فانكحوا الطيب من النساء ، أي الحلال ، وما حرمه الله فليس بطيب . وقيل : إن « ما » هنا مدّية ، أي ما دمتم مستحسنين للنكاح ، وضعفه ابن عطية . وقال الفراء : إن « ما » هاهنا مصدرية . قال النحاس : وهذا بعيد جدًا . وقرأ ابن أبي عبلة : « فانكحوا من طاب » ، وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له ، وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة ، و « من » في قوله : ﴿ من النساء ﴾ إما بيانية أو تبعيضية ؛ لأن المراد غير اليتائم . قوله : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ في محل نصب على البدل من « ما » كما قاله أبو علي الفارسي . وقيل : على الحال ، وهذه الألفاظ لا تنصرف للعدل والوصفية كما هو مبين في علم النحو ، والأصل : انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثًا ، وأربعا أربعًا .

وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع ، وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة ، وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد ، كما يقال للجماعة : اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم ، أو هذا المال الذي في البدرة درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . وهذا مسلم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته أو عين مكانه ، أما لو كان مطلقًا كما يقال : اقتسموا الدراهم ، ويراد به ما كسبوه فليس المعنى هكذا . والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول . على أن من قال لقوم يقتسمون مالاً معيناً كثيراً : اقتسموه مثنى وثلاث ورباع فقسموا بعضه بينهم درهمين درهمين ، وبعضه ثلاثة ثلاثة ، وبعضه أربعة أربعة ، كان هذا هو المعنى العربي ، ومعلوم أنه إذا قال القائل جاءني القوم مثنى وهم مائة ألف . كان المعنى أنهم جاؤوه

اثنين اثنين ، وهكذا جاءني [١] القوم ثلاث ورباع ، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد كما في قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا [٢] المشركين ﴾ [التوبة : ٥] ، ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ [النور : ٥٦] ، ﴿ آتوا الزكاة ﴾ [النور : ٥٦] ونحوها ، فقوله : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾ معناه: لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعا أربعًا ، هذا ما تقتضيه لغة العرب فالآية تدل على خلاف ما استدلوا بها عليه ، ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ فإنه وإن كان خطابًا للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد . فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن .

وأما استدلال من استدلّ بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة ، فكأنه قال : انكحوا مجموع هذا العدد المذكور ، فهذا جهل بالمعنى العربي ، ولو قال : انكحوا اثنتين ، وثلاثا ، وأربعًا كان هذا القول له وجه، وأما مع المجيء بصيغة العدد فلا ، وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون « أو » ؛ لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره، وذلك ليس بمراد من النظم القرآني . وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب : « ثلث وربع » بغير ألف .

قوله : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ فانكحوا واحدة كما يدل على ذلك قوله : ﴿**فانكحوا ما طاب** ﴾ . وقيل : التقدير : فالزموا أو فاختاروا واحدة . والأول أولى ، والمعنى : فإن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات في القسم ونحوه ، فانكحوا واحدة ، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك . وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف . قال الكسائي :أي فواحدة تقنع . وقيل : التقدير : فواحدة فيها كفاية ، ويجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدأ محذوف ، أي فالمقنع واحدة . قوله :﴿ **أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ معطوف على واحدة ، أي فانكحوا واحدة ، أو انكحوا ما ملكت أيمانكم من السراري وإن كثر عددهن ، كما يفيده الموصول . والمراد :نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح ، وفيه دليل على أنه لا حق للمملوكات في القسم ، كما يدل على ذلك جعله قسيمًا للواحدة في الأمن من عدم العدل ، وإسناد الملك إلى اليمين ، لكونها المباشرة لقبض الأموال وإقباضها ، ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب . ومنه :

إِذَا مَارَايَةٌ نُصِبَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ

قوله : ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تعولوا ، أي تجوروا ، من عال الرجل يعول إذا مال وجار ، ومنه قولهم : عال السهم عن الهدف : مال عنه ، وعال الميزان :

---

(١) في المطبوعة : « جاء في » ، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) في المخطوطة : « اقتلوا » من غير فاء .

إذا مال ، ومنه :

قَالُوا تَبِعْنا رسولَ اللَّه واطَّرَحُوا ... قَولَ الرَّسولِ وَعَالُوا فى المَوازِين

ومنه قول أبى طالب :

بِميزانِ صِدْقٍ لا يُغِلّ شَعِيــرةً ... لَهُ شَاهِدٌ مِن نَفْسِه غيــرُ عَائـلِ

ومنه أيضا :

فنحـــن ثَـــلاَثَةٌ وثَــلاثُ ذَوْدٍ ... لَقَـدْ عَــالَ الزَّمَــانُ عَلى عيـالى

والمعنى : إن خفتم عدم العدل بين الزوجات فهذه التى أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور ، ويقال : عال الرجل يعيل : إذا افتقر وصار عالة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ [التوبة : ٢٨] ، ومنه قول الشاعر :

وَمَــا يَــدْرِى الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ ... ومَــا يَــدْرِى الغَنِىُّ مَتَى يَعِيــل

وقال الشافعى : ﴿ **ألا تعولوا** ﴾ ألا تكثر عيالكم . قال الثعلبى : وما قال هذا غيره ، وإنما يقال : أعال يعيل : إذا كثر عياله . وذكر ابن العربى أن عال تأتى لسبعة معان : الأول: عال : مال ، والثانى : زاد ، والثالث : جار، الرابع : افتقر ، الخامس : أثقل ، السادس : قام بمؤونة العيال ، ومنه قوله ﷺ : « وابدأ بمن تعول » [(١)] ، السابع : عال : غلب ، ومنه: عيل صبرى ، قال : ويقال : أعال الرجل : كثر عياله ، وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح، ويجاب عن إنكار الثعلبى لما قاله الشافعى ، وكذلك إنكار ابن العربى لذلك ، بأنه قد سبق الشافعى إلى القول به زيد بن أسلم ، وجابر بن زيد ، وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما والإمام الشافعى بما لا وجه له فى العربية ، وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطنى فى سننه ، وقد حكاه القرطبى عن الكسائى ، وأبى عمر الدورى ، وابن الأعرابى ، وقال أبو حاتم : كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا ولعله لغة . وقال الثعلبى : قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب : سألت أبا عمر الدورى عن هذا ، وكان إمامًا فى اللغة غير مدافع ، فقال : هى لغة حمير ، وأنشد :

وَإِنَّ المُوتَ يَأخُــذ كَــلَّ حَىّ ... بَــلا شَــك وَإِنْ أَمْشَــى وَعَــالاَ

أى وإن كثرت ماشيته وعياله ، وقرأ طلحة بن مصرف : « أن لا تعيلوا » قال ابن عطية: وقدح الزجاج فى تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السرارى ، وفى ذلك تكثير العيال ، فكيف يكون أقرب إلى أن لا يكثروا ، وهذا القدح غير صحيح ، لأن السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع ، وإنما العيال الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وقد حكى ابن الأعرابى أن العرب تقول : عال الرجل إذا كثر عياله ، وكفى بهذا .

---

(١) جزء من حديث من رواية أبى هريرة رضى الله عنه عند البخارى فى الزكاة (١٤٢٦) وفى النفقات (٥٣٥٥ ، ٥٣٥٦) والترمذى فى الزكاة (٦٨٠) وقال : « صحيح غريب » .

وقد ورد عال لمعان غير السبعة التى ذكرها ابن العربى ، منها : عال : اشتد وتفاقم ، حكاه الجوهرى ، وعال الرجل فى الأرض : إذا ضرب فيها ، حكاه الهروى ، وعال : إذا أعجز ، حكاه الأحمر ، فهذه ثلاثة معان غير السبعة ، والرابع : عال : كثر عياله ، فجملة معانى عال أحد عشر معنى .

قوله : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ الخطاب للأزواج . وقيل : للأولياء . والصدقات بضم الدال : جمع صدقة كثمرة ، قال الأخفش : وبنوتميم يقولون : صدقة والجمع صدقات ، وإن شئت فتحت وإن شئت أسكنت . والنحلة بكسر النون وضمها لغتان ، وأصلها العطاء نحلت فلانًا : أعطيته ، وعلى هذا فهى منصوبة على المصدرية ، لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء . وقيل : النحلة : التدين فمعنى نحلة: تدينًا ، قاله الزجاج ، وعلى هذا فهى منصوبة على المفعول له . وقال قتادة : النحلة : الفريضة ، وعلى هذا فهى منصوبة على الحال ، قيل : النحلة : طيبة النفس ، قال أبو عبيد : ولا تكون النحلة إلا عن طيبة نفس . ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج : أعطوا النساء اللاتى نكحتموهن مهورهن التى لهن عليكم عطية أو ديانة منكم ، أو فريضة عليكم ، أو طيبة من أنفسكم . ومعناها على كون الخطاب للأولياء : أعطوا النساء من قراباتكم التى قبضتم مهورهن من أزواجهن تلك المهور . وقد كان الولى يأخذ مهر قريبته فى الجاهلية ولا يعطيها شيئًا ، حكى ذلك عن أبى صالح والكلبى . والأول أولى لأن الضمائر من أول السياق للأزواج . وفى الآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء ، وهو مجمع عليه كما قال القرطبى ، قال : وأجمع العلماء أنه لاحد لكثيره ، واختلفوا فى قليله(١) . وقرأ قتادة : « صدقاتهن » بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ النخعى وابن وثاب بضمهما ، وقرأ الجمهور بفتح الصاد وضم الدال .

قوله : ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئا ﴾ الضمير فى ﴿ منه ﴾ راجع إلى الصداق الذى هو واحد الصدقات ، أو إلى المذكور وهو الصدقات، أو هوبمنزلة اسم الإشارة ، كأنه قال : من ذلك ، و ﴿ نفسًا ﴾ تمييز. وقال أصحاب سيبويه : منصوب بإضمار فعل لا تمييز ، أى أعنى نفسًا . والأول أولى ؛ وبه قال الجمهور . والمعنى : فإن طبن، أى النساء لكم أيها الأزواج أو الأولياء عن شىء من المهر ﴿ فكلوه هنيئا مريئا ﴾ وفى قوله : ﴿ طبن ﴾ دليل على أن المعتبر فى تحليل ذلك منهن لهم ، إنما هو طيبة النفس ، لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التى لا يتحقق معها طيبة النفس ، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج ولا للولى ، وإن كانت قد تلفظت بالهبة أو النذر أو نحوهما . وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للتمليك بمجردها لنقصان عقولهن ، وضعف إدراكهن ، وسرعة انخداعهن ، وانجذابهن إلى ما يراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب .

---

(١) القرطبى ٣ / ١٥٩٤ .

وقوله : ﴿ **هنيئًا مريئًا** ﴾ منصوبان على أنهما صفتان لمصدر محذوف ، أى أكلاً هنيئًا مريئا ، أو قائمان مقام المصدر، أو على الحال ، يقال : هناه الطعام والشراب يهنيه ، ومرأه وأمرأه من الهنىء والمرىء ، والفعل هنأ ومرأ ، أى أتى من غير مشقة ولا غيظ . وقيل : هو الطيب الذى لا تنغيص فيه . وقيل : المحمود العاقبة: الطيب الهضم . وقيل : ما لا إثم فيه، والمقصود هنا : أنه حلال خالص عن الشوائب . وخص الأكل : لأنه معظم ما يراد بالمال وإن كان سائر الانتفاعات به جائزة كالأكل .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**خلقكم من نفس واحدة** ﴾ قال : آدم ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ قال : حواء من قصيرى آدم ، أى قصيرى أضلاعه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر قال : خلقت حواء من خلف آدم الأيسر . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : من ضلع الخلف وهو من أسفل الأضلاع . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **واتقوا الله الذى تساءلون به**﴾ قال : تعاطون به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع ، قال : تعاقدون وتعاهدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال :يقول : أسألك بالله والرحم . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :اتقوا الله الذى تساءلون به واتقوا الأرحام وصلوها (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **إن الله كان عليكم رقيبًا** ﴾ قال: حفيظًا.

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : إن رجلاً من غطفان كان معه مال كثيرلابن أخ له فلما بلغ اليتيم طلب ماله ، فمنعه عمه ، فخاصمه إلى النبى ﷺ فنزلت : ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم** ﴾ يعنى الأوصياء يقول: أعطوا اليتامى أموالهم ﴿ **ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** ﴾ يقول : لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن مجاهد ؛ قال : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذى قدر لك ﴿ **ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم**﴾ قال : مع أموالكم تخلطونها فتأكلونها جميعًا ﴿ **إنه كان حوبًا** ﴾ إثمًا . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار يأخذه الأكبر ، فنصيبه من الميراث طيب ، وهذا الذى يأخذ خبيث . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : مع أموالكم . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية فى أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم ، وجعل ولى اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله ، فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ ، فأنزل الله :

---

(١) كذا ؛ وعند ابن جرير٤ /١٥٢ : « واتقوا الله فى الأرحام فصلوها » بدلاً من : « واتقوا الأرحام وصلوها » .

﴿ ويسألونك [١] عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة : ٢٢٠] قال : فخالطوهم [٢] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أن عروة سأل عائشة عن قول الله عز وجل : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى**﴾ قالت : يابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى مالها ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ ، ويبلغوا بهن أعلى سُنَّتِهِنّ فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن ، وأن الناس قد استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله : ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ [النساء : ١٢٧] قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى : ﴿وترغبون أن تنكحوهن ﴾ [النساء : ١٢٧] رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من باقى النساء إلا بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال [٣] . وأخرج البخارى عن عائشة ؛ أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق فكان يمسكها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شىء ، فنزلت : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى** ﴾ أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العذق وفى ماله [٤] . وقد روى هذا المعنى من طرق . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : كان الرجل يتزوج بمال اليتيم ما شاء الله تعالى ، فنهى الله عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ؛ قال : قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى** ﴾ قال : كان الرجل يتزوج ما شاء فقال : كما تخافون ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا فى النساء ألا تعدلوا فيهن فقصرهم على الأربع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرًا من النساء الأيامى ، وكانوا يعظمون شأن اليتيم ، فتفقدوا من دينهم شأن اليتامى وتركوا ما كانوا ينكحون فى الجاهلية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية ؛ قال : كما خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فى النساء إذا جمعتموهن عندكم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق محمد بن أبى موسى الأشعرى عنه قال : فإن خفتم الزنا فانكحوهن ، يقول : كما خفتم فى أموال اليتامى ألا تقسطوا فيها ، فكذلك فخافوا على أنفسكم ما لم تنكحوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة

(١) فى الأصل : « يسألونك » من غير الواو . (٢) ابن جرير ٤ / ١٥٤ .

(٣) البخارى فى الشركة (٢٤٩٤) وفى التفسير (٤٥٧٤) ومسلم فى التفسير (٣٠١٨ / ٦) والنسائى فى التفسير (١١٠) .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٥٧٣) .

وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك : ﴿ ما طاب لكم ﴾ قال: ما أحل لكم . وأخرج ابن جرير عن الحسن وسعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عائشة نحوه .

وأخرج الشافعى وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وابن ماجة ، والنحاس فى ناسخه ، والدارقطنى والبيهقى عن ابن عمر ؛ أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : « اختر منهن » وفى لفظ : « أمسك منهن أربعًا وفارق سائرهن » [(١)] هذا الحديث أخرجه هؤلاء المذكورون من طرق عن إسماعيل بن علية ، وغندر ، ويزيد بن زريع، وسعيد بن أبى عروبة ، وسفيان الثورى ، وعيسى بن يونس ، وعبد الرحمن بن محمد المحاربى ، والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه فذكره . وقد علل البخارى هذا الحديث فحكى عنه الترمذى أنه قال : هذا حديث غير محفوظ، والصحيح ما روى عن شعيب وغيره ، عن الزهرى حدثت عن محمد بن سويد الثقفى ؛ أن غيلان بن سلمة فذكره ، وأما حديث الزهرى عن أبيه ؛ أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر : لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبى رغال . وقد رواه معمر عن الزهرى مرسلاً ، وهكذا رواه مالك عن الزهرى مرسلا [(٢)] . قال أبو زرعة : وهو أصح . ورواه عقيل عن الزهرى ، بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبى سويد ، قال أبو حاتم : وهذا وهم ، إنما هو الزهرى عن عثمان بن أبى سويد . وقد ساقه أحمد برجال الصحيح فقال : حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالا : حدثنا معمر عن الزهرى ، قال أبوجعفر فى حديثه : أخبرنا ابن شهاب عن سالم عن أبيه ، أن غيلان فذكره ، وقد روى من غير طريق معمر والزهرى، فأخرجه البيهقى عن أيوب عن نافع ، وسالم عن ابن عمر أن غيلان فذكره .

وأخرج أبو داود وابن ماجة فى سننهما عن عمير الأسدى ؛ قال : أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت للنبى ﷺ فقال: « اختر منهن أربعًا » [(٣)] . قال ابن كثير : إن إسناده حسن[(٤)]. وأخرج الشافعى فى مسنده عن نوفل بن معاوية الديلى قال : أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال رسول الله ﷺ : « أمسك أربعا وفارق الأخرى » [(٥)] وأخرج ابن ماجة ،

---

(١) الشافعى فى الأم ٥ / ١٦٣ وابن أبى شيبة فى النكاح ٤ / ٣١٧ وأحمد ٢ / ١٣ ، ١٤ ، ٤٤ ، ٨٣ والترمذى فى النكاح (١١٢٨) وابن ماجة فى النكاح (١٩٥٣) والدارقطنى فى باب المهر (٩٤) والبيهقى ٧ / ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) مالك فى الطلاق (٧٦) والدارقطنى فى باب المهر (٩٨) والبيهقى ٧ / ١٨٢ .

(٣) أبو داود فى الطلاق (٢٢٤١) وابن ماجة فى النكاح (١٩٥٢) . تنبيه : فى المطبوعة الحديث عن : « عمير الأسدى » ، وعند أبى داود عن الحرث بن قيس ، قال مسدد : « ابن عميرة » وقال وهب : « الأسدى » وعند ابن ماجة عن قيس بن الحارث .

(٤) ابن كثير ٢ / ٢٠٠ .

(٥) الشافعى فى المسند ٢ / ١٦ (٤٤) . فى المخطوطة الراوى : « نوفل بن معاوية الديلى » ، وفى المسند : الرملى ، وصححه محقق المسند فى فهارس الأعلام إلى : الدؤلى .

والنحاس فى ناسخه عن قيس بن الحارث الأسدى ؛ قال : أسلمت وكان تحتى ثمان نسوة ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فقال : « اختر منهن أربعًا وخل سائرهن » ففعلت (١) . وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقى . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبيهقى فى سننه عن الحكم قال : أجمع أصحاب رسول ﷺ على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية يقول : إن خفت ألا تعدل فى أربع فثلاث وإلا فثنتين وإلا فواحدة ، فإن خفت ألا تعدل فى واحدة فما ملكت يمينك . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله .

وأخرج أيضا عن الضحاك ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا** ﴾ قال : فى المجامعة والحب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ قال : السرارى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان فى صحيحه عن عائشة عن النبى ﷺ ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ قال :« ألا تجوروا » (٣) . قال ابن أبى حاتم قال أبى : هذا حديث خطأ ، والصحيح عن عائشة موقوف . وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا تعولوا** ﴾ قال : ألا تميلوا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ألا تميلوا ، ثم قال : أما سمعت قول أبى طالب :

بِميزَانِ قِسْطٍ لا يُخيس شَعَيرَةً وَوَازِنِ صِدْقٍ وَزْنُهُ غَيْرُ عَائِلِ

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ؛ قال : ألا تميلوا . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى رزين وأبى مالك والضحاك مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية ، قال : ذلك أدنى ألا يكثر من تعولوا. وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة قال : ألا تفتقروا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح ؛ قال : كان الرجل إذا زوج أيمة أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله عن ذلك ونزلت : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ (٤) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **نحلة** ﴾ قال : يعنى بالنحلة : المهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة : ﴿**نحلة**﴾ قالت : واجبة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج : ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ قال : فريضة مسماة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **فإن طبن لكم عن شىء منه** ﴾ قال :من الصداق .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس : ﴿ **فإن طبن لكم عن شىء منه نفسًا** ﴾ يقول : إذا كان من غير إضرار ولا خديعة

(١) سبق تخريجه
(٢) ابن أبى شيبة ٤ / ١٤٥ والبيهقى ٧ / ١٥٨ .
(٣) ابن حبان فى النكاح (٤٠١٨) .
(٤) ابن جرير ٤ / ١٦٢ .

فهو هنيء مريء كما قال الله .

﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾ .

هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى . وقد تقدم الأمر بدفع أموالهم إليهم ، فى قوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ فبين سبحانه هاهنا أن السفيه وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه . وقد تقدم فى البقرة معنى السفيه لغة . واختلف أهل العلم فى هؤلاء السفهاء من هم ؟ فقال سعيد بن جبير : هم اليتامى لا تؤتوهم أموالكم . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقال مالك : هم الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم فيفسدوها وتبقوا بلا شىء ، وقال مجاهد : هم النساء . قال النحاس وغيره : وهذا القول لا يصح ، إنما تقول العرب سفائه أو سفيهات . واختلفوا فى وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين وهى للسفهاء ، فقيل : أضافها إليهم لأنها بأيديهم وهم الناظرون فيها كقوله : ﴿ فسلموا على أنفسكم﴾ [النور : ٦١] ، وقوله ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ [البقرة : ٥٤] ، أى ليسلم بعضكم على بعض، وليقتل بعضكم بعضا . وقيل : أضافها إليهم لأنها من جنس أموالهم ، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق فى الأصل . وقيل : المراد : أموال المخاطبين حقيقة . وبه قال أبو موسى الأشعرى وابن عباس والحسن وقتادة . والمراد : النهى عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها كالنساء والصبيان ، ومن هو ضعيف الإدراك لا يهتدى إلى وجوه النفع التى تصلح المال، ولا يتجنب وجوه الضرر التى تهلكه وتذهب به .

قوله: ﴿ التى جعل الله لكم قياما﴾ المفعول الأول محذوف ، والتقدير: التى جعلها الله لكم ، و « قيما » قراءة أهل المدينة وأبى عامر ، وقرأ غيرهم : ﴿ قيامًا ﴾ وقرأ عبد الله بن عمر : « قواما » . والقيام والقوام : ما يقيمك ، يقال : فلان قيام أهله ، وقوام بيته وهو الذى يقيم شأنه ، أى يصلحه ، ولما انكسرت القاف فى قوام أبدلوا الواو ياء . قال الكسائى والفراء: قيما وقوامًا بمعنى قياما . وهو منصوب على المصدر ، أى لا تؤتوا السفهاء أموالكم التى تصلح بها أموركم فتقومون بها قيامًا ، وقال الأخفش: المعنى قائمة بأموركم فذهب إلى أنها جمع . وقال البصريون : قيما جمع قيمة كديمة وديم ، أى جعلها الله قيمة للأشياء . وخطأ أبو على الفارسى هذا القول وقال : هى مصدر كقيام وقوام . والمعنى : أنها صلاح للحال وثبات له ، فأما على قول من قال : إن المراد : أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الإضافة فالمعنى واضح . وأما على قول من قال : إنها أموال اليتامى فالمعنى أنها من جنس ما تقوم به معايشكم ، ويصلح به حالكم من الأموال . وقرأ الحسن والنخعى : « اللاتى جعل » قال الفراء : الأكثر فى كلام

العرب : النساء اللواتى ، والأموال التى ، وكذلك غير الأموال ، ذكره النحاس .

قوله : ﴿ **وارزقوهم فيها واكسوهم** ﴾ أى اجعلوا لهم فيها رزقا أو افرضوا لهم ، وهذا فيمن تلزم نفقته وكسوته من الزوجات والأولاد ونحوهم . وأما على قول من قال : إن الأموال هى أموال اليتامى ، فالمعنى : اتجروا فيها حتى تربحوا وتنفقوهم من الأرباح ، أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقًا ينفقونه على أنفسهم ويكتسون به . وقد استدل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء ، وبه قال الجمهور . وقال أبو حنيفة : لا يحجر على من بلغ عاقلاً ، واستدل بها أيضًا على وجود نفقة القرابة ، والخلاف فى ذلك معروف فى موطنه . قوله :﴿ **وقولوا لهم قولا معروفا** ﴾ قيل : ادعوا لهم : بارك الله فيكم وحاطكم ، وصنع لكم . وقيل : معناه : عدوهم وعدًا حسنًا قولوا لهم : إن رشدتم دفعنا لكم أموالكم ، ويقول الأب لابنه : مالى سيصير إليك ، وأنت إن شاء الله صاحبه ونحو ذلك . والظاهر من الآية ما يصدق عليه مسمى القول الجميل ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل ، والأولاد، أو مع الأيتام المكفولين. وقد قال النبى ﷺ فيما صح عنه : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى» (١) .

قوله : ﴿ **وابتلوا اليتامى** ﴾ الابتلاء : الاختبار ، وقد تقدم تحقيقه . وقد اختلفوا فى معنى الاختبار ، فقيل : هو أن يتأمل الوصى أخلاق يتيمه ليعلم بنجابته ، وحسن تصرفه فيدفع إليه ماله إذا بلغ النكاح ، وآنس منه الرشد . وقيل : معنى الاختبار : أن يدفع إليه شيئًا من ماله ويأمره بالتصرف فيه ، حتى يعلم حقيقة حاله ؛ وقيل : معنى الاختبار : أن يرد النظر إليه فى نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره ، وإن كانت جارية ردّ إليها ما يردّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها. والمراد ببلوغ النكاح : بلوغ الحلم كقوله تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ [النور : ٥٩] ، ومن علامات البلوغ : الإنبات ، وبلوغ خمس عشرة سنة . وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : لا يحكم لمن يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضى سبع عشرة سنة ، وهذه العلامات تعم الذكر والأنثى ، وتختص الأنثى بالحبل والحيض . قوله : ﴿ **فإن آنستم** ﴾ أى أبصرتم ورأيتم ومنه قوله: ﴿ آنس من جانب الطور نارا ﴾ [القصص : ٢٩] . قال الأزهرى : تقول العرب : اذهب فاستأنس هل ترى أحدًا ، معناه : تبصر . وقيل : هو هنا بمعنى وجد وعلم ، أى فإن وجدتم وعلمتم منهم رشدًا . وقراءة الجمهور : ﴿ **رشدًا** ﴾ بضم الراء وسكون الشين . وقرأ ابن مسعود ، والسلمى ، وعيسى الثقفى بفتح الراء والشين هما لغتان . وقيل : هو بالضم مصدر رشد، وبالفتح مصدر رشد .

واختلف أهل العلم فى معنى الرشد ها هنا ، فقيل : الصلاح فى العقل والدين . وقيل : فى العقل خاصة . قال سعيد بن جبير والشعبى : إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس

---

(١) الحديث عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها عند الترمذى فى المناقب (٣٨٩٥) وقال : « حسن غريب صحيح » والدارمى فى النكاح ٢ / ١٥٩ وابن حبان فى البر والإحسان ١ / ٣٣٠ وفى النكاح (٤١٦٥). وقد روى عن ابن عباس عند ابن ماجة فى النكاح (١٩٧٧)، وابن حبان فى النكاح (٤١٩٤) لكن ضعفها صاحب الزوائد .

رشده ، وإن كان شيخًا . قال الضحاك : وإن بلغ مائة سنة . وجمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر . وقال أبوحنيفة : لا يحجر على الحر البالغ وإن كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرا ، وبه قال النخعى ، وزفر وظاهر النظم القرآنى أنها لا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هى بلوغ النكاح ؛ مقيدة هذه الغاية بإيناس الرشد ، فلابد من مجموع الأمرين فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ ، وإن كانوا معروفين بالرشد ، ولا بعد البلوغ إلا بعد إيناس الرشد منهم . والمراد بالرشد: نوعه ، وهو المتعلق بحسن التصرف فى أمواله ، وعدم التبذير بها ، ووضعها فى مواضعها .

قوله : ﴿ **ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا** ﴾ الإسراف فى اللغة : الإفراط ومجاوزة الحد . وقال : النضر بن شميل : السرف : التبذير ، والبدار : المبادرة ، ﴿ **أن يكبروا** ﴾ فى موضع نصب بقوله : ﴿ **بدارا** ﴾ أى لا تأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف ، وأكل مبادرة لكبرهم ، أو لا تأكلوا لأجل السرف ولأجل المبادرة ، أو لا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم، وتقولوا ننفق أموال اليتامى فيما نشتهى قبل أن يبلغوا فينتزعوها من أيدينا . قوله : ﴿ **ومن كان غنيًا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف** ﴾ بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى فأمر الغنى بالاستعفاف ، وتوفير مال الصبى عليه ، وعدم تناوله منه ، وسوغ للفقير أن يأكل بالمعروف .

واختلف أهل العلم فى الأكل بالمعروف ما هو ؟ فقال قوم : هو القرض إذا احتاج إليه ، ويقضى متى أيسر الله عليه ، وبه قال عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وعبيدة السلمانى وابن جبير ، والشعبى ، ومجاهد ، وأبو العالية ، والأوزاعى ، وقال النخعى وعطاء ، والحسن ، وقتادة : لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف ، وبه قال جمهور الفقهاء . وهذا بالنظم القرآنى ألصق فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض . والمراد بالمعروف: المتعارف به بين الناس ، فلا يترفه بأموال اليتامى ويبالغ فى التنعم بالمأكول والمشروب ، والملبوس ، ولا يدع نفسه عن سد الفاقة وستر العورة . والخطاب فى هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم كالأب ، والجد ، ووصيهما . وقال بعض أهل العلم : المراد بالآية اليتيم إن كان غنيًا وسع عليه وعفّ من ماله ، وإن كان فقيرًا كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له ، وهذا القول فى غاية السقوط .

قوله : ﴿ **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم** ﴾ أى إذا حصل مقتضى الدفع فدفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم أنهم قد قبضوها منكم ، لتندفع عنكم التهم ، وتأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم . وقيل : إن الإشهاد المشروع هو ما أنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم . وقيل : هو ردّ ما استقرضه إلى أموالهم ، وظاهر النظم القرآنى مشروعية الإشهاد على ما دفع إليهم من أموالهم وهو يعم الإنفاق قبل الرشد ، والدفع للجميع إليهم بعد الرشد ﴿ **وكفى**

بالله حسيبًا ﴾ أى حاسبا لأعمالكم ، شاهدًا عليكم فى كل شىء تعملونه ، ومن جملة ذلك معاملتكم لليتامى فى أموالهم ، وفيه وعيد عظيم ، والباء زائدة ، أى : كفى الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾** يقول : لاتعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تضطر إلى ما فى أيديهم ؛ ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم فى كسوتهم ، ورزقهم ، ومؤونتهم . قال : وقوله : **﴿ قياما ﴾** يعنى : قوامكم من معايشكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من طريق العوفى فى الآية يقول : لا تسلط السفيه من ولدك على مالك، وأمره أن يرزقه منه ويكسوه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : هم بنوك والنساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النساء السفهاء إلا التى أطاعت قيمها » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : هم الخدم، وهم شياطين الإنس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال : هم النساء والصبيان .

وأخرج ابن جرير عن حضرمى أن رجلاً عمد فدفع ماله إلى امرأته فوضعته فى غير الحق فقال الله : **﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾** (١). وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال :هم اليتامى والنساء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : هو مال اليتيم يكون عندك يقول : لا تؤتوه إياه وأنفق عليه حتى يبلغ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : **﴿ وارزقوهم ﴾** يقول : أنفقوا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد : **﴿ وقولوا لهم قولا معروفًا ﴾** قال : أمروا أن يقولوا لهم قولاً معروفًا فى البر والصلة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج **﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ﴾** قال: عدة تعدونهم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: **﴿ وابتلوا اليتامى ﴾** يعنى: اختبروا اليتامى عند الحلم **﴿ فإن آنستم ﴾** عرفتم **﴿ منهم رشدا ﴾** فى حالهم والإصلاح فى أموالهم **﴿ فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا ﴾** يعنى : تأكل مال اليتيم ببادرة قبل أن يبلغ فتحول بينه وبين ماله . وأخرج البخارى وغيره عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية فى ولى اليتيم **﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾** بقدر قيامه عليه (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : **﴿ومن كان غنيا فليستعفف ﴾** قال : بغناه **﴿ ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾** قال : يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو القرض . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى عن ابن عباس قال: إن كان فقيرا أخذ من فضل اللبن ، وأخذ من فضل القوت ، ولا يجاوزه ، وما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاه، وإن أعسر فهو فى حل . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد

(١) ابن جرير ٤ / ١٦٥ .

(٢) البخارى فى البيوع (٢٢١٢) وفى الوصايا (٢٧٦٥) وفى التفسير (٤٥٧٥) ومسلم فى التفسير (٣٠١٩ / ١٠ ، ١١) .

وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طرق عن عمر بن الخطاب ؛ قال : إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم إن استغنيت استعففت ، وإن احتجت أخذت منه بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة وابن أبى حاتم عن ابن عمرو[1] أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لى مال ولى يتيم فقال : « كل من مال يتيمك غير مسرف ، ولا مبذر ، ولا متأثل مالا، ومن غير أن تقى مالك بماله »[2] . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف ﴾ قال : نسختها ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ﴾ الآية .

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ۝٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ ﴾ .

لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى ، وصله بأحكام المواريث ، وكيفية قسمتها بين الورثة وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال ، ولم يقل للرجال والنساء نصيب ، للإيذان بأصالتهن فى هذا الحكم ، ودفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء ، وفى ذكر القرابة بيان لعله الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة ، من دون تخصيص . وقوله: ﴿ مما قل منه أو كثر ﴾ بدل من قوله : ﴿ مما ترك ﴾ بإعادة الجار ، والضمير فى قوله: ﴿ منه ﴾ راجع إلى المبدل منه . وقوله : ﴿ نصيبًا ﴾ منتصب على الحال ، أو على المصدرية ، أو على الاختصاص ، وسيأتى ذكر السبب فى نزول هذه الآية إن شاء الله ، وقد أجمل الله سبحانه فى هذه المواضع قدر النصيب المفروض ، ثم أنزل قوله : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم﴾ فتبين ميراث كل فرد .

قوله : ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾ المراد بالقرابة هنا : غير الوارثين ، وكذا اليتامى والمساكين ، شرح الله سبحانه أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق ، فيرضخ لهم المتقاسمون شيئًا منها ، وقد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة ، وأن الأمر للندب ، وذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ والأول أرجح؛ لأن المذكور فى الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث ، حتى يقال : إنها منسوخة

---

(١) فى المخطوطة : « ابن عمر » وهو تصحيف ، والصواب « ابن عمرو » كما فى مصادر التخريج الآتية بعد .
(٢) أحمد ٢ / ١٨٦ ، ٢١٥، ٢١٦ وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٢) والنسائى فى الوصايا ٦ / ٢٥٦ ، وابن ماجة فى الوصايا (٢٧١٨) .

بآية المواريث ، إلاأن يقولوا : إن أولى القرابة المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه ، وقالت طائفة : إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة ، وهو معنى الأمر الحقيقى ، فلا يصار إلى الندب إلا لقرينة ، والضمير فى قوله : ﴿منه﴾ راجع إلى المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة . وقيل : راجع إلى ما ترك . والقول المعروف : هو القول الجميل الذى ليس فيه منّ بما صار إليهم من الرضخ ولا أذى .

قوله : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا** ﴾ هم الأوصياء كما ذهب إليه طائفة من المفسرين ، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين فى حجورهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم، وقالت طائفة : المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله فى الأيتام وأولاد الناس ، وإن لم يكونوا فى حجورهم ؛ وقال آخرون : إن المراد بهم من يحضر الميت عند موته ، أمروا بتقوى الله بأن يقولوا للمحتضر قولاً سديدًا من إرشادهم إلى التخلص عن حقوق الله وحقوق بنى آدم ، وإلى الوصية بالقرب المقربة إلى الله سبحانه ، وإلى ترك التبذير بماله ، وإحرام ورثته كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم فقراء عالة يتكففون الناس . وقال ابن عطية : الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته ما لا يصلح للآخر ، وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن يندب إلى الوصية ويحمل على أن يقدم لنفسه ، وإذا ترك ورثة ضعفاء مفلسين حسن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط ، فإن أجره فى قصد ذلك كأجره فى المساكين . قال القرطبى : وهذا التفصيل صحيح [(١)] . قوله : ﴿ **لو تركوا** ﴾ صلة الموصول، والفاء فى قوله : ﴿ **فليتقوا** ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والمعنى : وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافًا ، وذلك عند احتضارهم ، خافوا عليهم الضياع بعدهم ، لذهاب كافلهم وكاسبهم ، ثم أمرهم بتقوى الله ، والقول السديد للمحتضرين ، أو لأولادهم من بعدهم على ما سبق .

قوله : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى** ﴾ استئناف يتضمن النهى عن ظلم الأيتام من الأولياء والأوصياء ، وانتصاب قوله : ﴿ **ظلمًا** ﴾ على المصدرية ، أى أكل ظلم ، أو على الحالية أى ظالمين لهم . وقوله : ﴿ **إنما يأكلون فى بطونهم نارًا** ﴾ أى ما يكون سببًا للنار تعبيرًا بالمسبب عن السبب ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية . وقوله : ﴿**وسيصلون** ﴾ قراءة عاصم، وابن عامر بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وقرأ أبو حيوة بضم الياء وفتح الصاد ، وتشديد اللام ، من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى . وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلاها ، والصلى : هو التسخن بقرب النار أو مباشرتها ، ومنه قول الحارث بن عباد :

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّـ ـهُ وَإِنِّى لِـحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالى

والسعير : الجمر المشتعل .

---

(١) القرطبى ٣ / ١٦٢٢ .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار حتى يدركوا ، فمات رجل من الأنصار يقال له : أوس بن ثابت ، وترك ابنتين وابنا صغيراً ، فجاء ابنا عمه وهما عصبته إلى رسول الله ﷺ فأخذا (١) ميراثه كله ، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية ، فأرسل إليهما رسول الله فقال : « لا تحركا من الميراث شيئًا فإنه قد أنزل عليّ شيء احترت فيه أن للذكر والأنثى نصيبًا » ثم نزل بعد ذلك : ﴿ويستفتونك فى النساء﴾ [النساء : ١٢٧] ، ثم نزل : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ فدعا بالميراث فأعطى المرأة الثمن ، وقسم ما بقى للذكر مثل حظ الأنثيين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية ؛ قال : نزلت فى أم كلثوم ابنة أم كحلة أو أم كجّة ، وثعلبة بن أوس ، وسويد ، وهم من الأنصار ، كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها ، فقالت: يا رسول الله توفى زوجي وتركنى وابنته فلم نورث من ماله ، فقال عم ولدها : يا رسول الله ، لا يركب فرسًا ، ولا ينكى عدوًا ، ويكسب عليها ولا يكتسب ، فنزلت (٢)

وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ قال : هى محكمة وليست بمنسوخة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن خطاب بن عبد الله فى هذه الآية؛ قال : قضى بها أبو موسى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ؛ قال : هى واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة عن الحسن والزهرى قالا : هى محكمة ما طابت به أنفسهم . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير ، والحاكم وصححه عن ابن عباس ؛ قال : يرضخ لهم ، فإن كان فى ماله تقصير اعتذر إليهم فهو قولا معروفا . وأخرج ابن المنذر عن عائشة أنها لم تنسخ . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم ، أن هذه الآية منسوخة بآية الميراث . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب ؛ قال : هى منسوخة . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : إن كانوا كبارًا يرضخوا ، وإن كانوا صغارًا اعتذروا إليهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه فى قوله : ﴿ وليخش الذين لو تركوا ﴾ قال : هذا فى الرجل يحضر الرجل عند موته فيسمعه يوصى وصية تضر بورثته ، فأمر الله الذى يسمعه أن يتقى الله ويوفقه ويسدده للصواب ولينظر لورثته كما يحب أن يصنع لورثته إذا خشى عليهم الضيعة . وقد روى نحو هذا من طرق . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن أبى حاتم عن أبى برزة عن رسول الله

---

(١) فى المطبوعة : « فأخذ » ، بالإفراد ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ٤ / ١٧٦ لكن هكذا : « نزلت فى أم كجة وابنة كجة بن سويد ... لا تركب ... ولا تحمل ... ولا تنكأ ... ولا تكتسب » .

ﷺ قال : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » فقيل : يا رسول الله ، من هم ؟ قال: « ألم تر أن الله يقول : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا** ﴾ » (١). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : حدثنا النبى ﷺ عن ليلة أسرى به قال : « نظرت فإذا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل ، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ، ثم يجعل فى أفواههم صخراً من نار ، فيقذف فى فىِّ أحدهم حتى يخرج من أسافلهم ، ولهم جؤار ، وصراخ ، فقلت : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ﴿ **الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا** ﴾ (٢) .
وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : هذه الآية لأهل الشرك ، حين كانوا لا يورثونهم ويأكلون أموالهم (٣) .

﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)** ﴾ .

هذا تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ الآية [النساء : ٧] ، وقد استدل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وهذه الآية

---

(١) أبو يعلى (٧٤٤٠) بإسناد ضعيف جدا ، وابن حبان فى الحظر والإباحة (٥٥٤٠) وعزاه الهيثمى فى المجمع (٥/٧) إلى الطبرانى وأبى يعلى وقال : « وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب » ، كما ضعف إسناده البوصيرى كما فى المطالب العالية (٣٥٨٦) .
(٢) ابن جرير ٤ / ١٨٤ .
(٣) ابن جرير ٤ / ١٨٤ الرواية عن ابن زيد .

ركن من أركان الدين ، وعمدة من عَمَد الأحكام ، وأم من أمهات الآيات ، لاشتمالها على ما يهم من علم الفرائض ، وقد كان هذا العلم من أجلِّ علوم الصحابة ، وأكثر مناظراتهم فيه، وسيأتى بعد كمال تفسير ما اشتمل عليه كلام الله من الفرائض ذكر بعض فضائل هذا العلم إن شاء الله .

قوله : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم** ﴾ أى فى بيان ميراثهم . وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الأولاد أم لا ؟ فقالت الشافعية : إنهم يدخلون مجازًا لا حقيقة ، وقالت الحنفية : إنه يتناولهم لفظ الأولاد حقيقة إذا لم يوجد أولاد الصلب ، ولا خلاف أن بنى البنين كالبنين فى الميراث مع عدمهم ، وإنما هذا الخلاف فى دلالة لفظ الأولاد على أولادهم مع عدمهم ، ويدخل فى لفظ الأولاد من كان منهم كافرًا ، ويخرج بالسنة (١) ، وكذلك يدخل القاتل عمدًا ، ويخرج أيضًا بالسنة (٢) والإجماع ، ويدخل فيه الخنثى . قال القرطبى : وأجمع العلماء أنه يورث من حيث يبول ، فإن بال منهما ، فمن حيث سبق، فإن خرج البول منهما من غير سبق أحدهما فله نصف نصيب الذكر ونصف نصيب الأنثى . وقيل : يعطى أقل النصيبين ، وهو نصيب الأنثى ، قاله يحيى بن آدم ، وهو قول الشافعى . وهذه الآية ناسخة لما كان فى صدر الإسلام من الموارثة بالحلف ، والهجرة ، والمعاقدة . وقد أجمع العلماء على أنه إذا كان مع الأولاد من له فرض مسمى أعطيه ، وكان ما بقى من المال للذكر مثل حظ الأنثيين ، للحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما بلفظ : « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر » (٣) ، إلا إذا كان ساقطًا معهم كالأخوة لأم .

وقوله : ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ جملة مستأنفة لبيان الوصية فى الأولاد ، فلابد من تقدير ضمير يرجع إليهم : ويوصيكم الله فى أولادكم للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، والمراد حال اجتماع الذكور والإناث ، وأما حال الانفراد فللذكر جميع الميراث ، وللأنثى النصف ، وللاثنتين فصاعدًا الثلثان . قوله : ﴿ **فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك** ﴾ أى فإن كن الأولاد ، والتأنيث باعتبار الخبر أو البنات أو المولودات نساءً ليس معهن ذكر فوق اثنتين ، أى زائدات على اثنتين على أن فوق صفة لنساء أو يكون خبرًا ثانيًا لكان ﴿ **فلهن ثلثا ما ترك**﴾ الميت المدلول عليه بقرينة المقام .

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » أخرجه البخارى فى الفرائض (٦٧٦٤) ومسلم فى الفرائض (١٦١٤ / ١) .

(٢) عن عمرو بن شعيب أن أبا قتادة ــ رجل من بنى مدلج ــ قتل ابنه ، فأخذ منه عمر مائة من الإبل ثلاثين حقة، وثلاثين جذعة ، وأربعين خلفة ، فقال : أين أخو المقتول ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس لقاتل ميراث » أخرجه ابن ماجة فى الديات (٢٦٤٦) وفى الزوائد : «إسناده حسن »

(٣) الحديث عن ابن عباس ، أخرجه أحمد ١/ ٣١٣ والبخارى فى الفرائض (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧، ٦٧٤٦) ومسلم فى الفرائض (١٦١٥ / ٢) وابن ماجة فى الفرائض (٢٧٤٠) .

وظاهر النظم القرآني أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعداً ، ولم يسم للاثنتين فريضة ، ولهذا اختلف أهل العلم في فريضتهما فذهب الجمهور إلى أن لهما إذا انفردتا عن البنين الثلثين ، وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف ، احتج الجمهور بالقياس على الأختين فإن الله سبحانه قال في شأنهما : ﴿ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان ﴾ [النساء : ١٧٦] فألحقوا البنتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين ، كما ألحقوا الأخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين . وقيل : في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين ، وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للابنتين إذا انفردتا الثلثان ، هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش ، والمُبَرِّد . قال النحاس : وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط ؛ لأن الاختلاف في البنتين إذا انفردتا عن البنين ، وأيضاً للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين وابنا فللبنتين النصف ، فهذا دليل على أن هذا فرضهما ، ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة إذا انفردت النصف بقوله تعالى : ﴿ **وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ كان فرض البنتين إذا انفردتا فوق فرض الواحدة ، وأوجب القياس على الأختين الاقتصار للبنتين على الثلثين .

وقيل : إن ﴿ **فوق** ﴾ زائدة ، والمعنى : وإن كن نساء اثنتين كقوله تعالى : ﴿فاضربوا فوق الأعناق ﴾ [الأنفال: ١٢] أي الأعناق ، ورد هذا النحاس وابن عطية فقالا : هو خطأ لأن الظروف وجميع الأسماء لا تجوز في كلام العرب أن تزداد لغير معنى . قال ابن عطية : ولأن قوله : ﴿ فوق الأعناق ﴾ هو الفصيح ، وليست ﴿فوق﴾ زائدة ، بل هي محكمة المعنى ، لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ ، كما قال دريد بن الصمة [(١)] : اخفض عن الدماغ ، وارفع عن العظم ، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال ، انتهى . وأيضا لو كان لفظ ﴿ فوق﴾ زائداً كما قالوا لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، ولم يقل فلهن ثلثا ما ترك . وأوضح ما يحتج به الجمهور ما أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم ، والبيهقي في سننه عن جابر ؛ قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالاً ولا ينكحان إلا ولهما مال ، فقال : « يقضي الله في ذلك » ، فنزلت آية الميراث : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** ﴾ الآية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : «أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك » [(٢)] ، أخرجوه من طرق عن

(١) هو دريد بن الصمة الجشمي البكري ، من هوازن ، شجاع من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية ، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، وغزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها ، عاش حتى سقط حاجباه عن عينيه ، وأدرك الإسلام ولم يُسلم ، وقتل على دين الجاهلية يوم حنين عام ٨ هـ راجع الأغاني . ط. دار الكتب العلمية ، ١٠ / ٣ ـ ٤٠ والمحبر (٢٩٨ ، ٢٩٩) وشرح الشواهد (٣١٧) .

(٢) أحمد ٣ / ٣٥٢ وأبو داود في الفرائض (٢٨٩٢) وذكر أبو داود رواية أخرى فيها أن البنتين ابنتا ثابت بن قيس ثم قال: «أخطأ بشر فيه إنما هما ابنتا سعد بن الربيع ، وثابت بن قيس قتل يوم اليمامة» والترمذي في الفرائض =

عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . قال الترمذى : ولا يعرف إلا من حديثه .

قوله : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ قرأ نافع وأهل المدينة :« واحدةٌ » بالرفع على أن « كان » تامة بمعنى فإن وجدت واحدة أو حدثت واحدة . وقرأ الباقون بالنصب ، قال النحاس : وهذه قراءة حسنة ، أى وإن كانت المتروكة أو المولودة واحدة . قوله : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس ﴾ أى لأبوى الميت ، وهو كناية عن غير مذكور ، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه و ﴿ لكل واحد منهما السدس ﴾ بدل من قوله : ﴿ ولأبويه ﴾ بتكرير العامل للتأكيد والتفضيل . وقرأ الحسن ، ونعيم بن ميسرة :« السُدْس » بسكون الدال وكذلك قرأ : « الثلْث »، والربْع ، إلى العشْر بالسكون ، وهى لغة بنى تميم ، وربيعة ، وقرأ الجمهور بالتحريك ضمًا ، وهى لغـة أهل الحجاز ، وبنى أسد فى جميعها . والمراد بالأبوين :الأب والأم ، والتثنية على لفظ الأب للتغليب .

وقد اختلف العلماء فى الجد هل هو بمنزلة الأب فتسقط به الإخوة أم لا ؟ فذهب أبو بكر الصديق ، إلى أنه بمنزلة الأب ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته ، واختلفوا فى ذلك بعد وفاته فقال بقول أبى بكر ابنُ عباس وعبدُ الله بن الزبير وعائشةُ ومعاذُ بن جبل وأُبىٌّ بن كعب وأبو الدرداء وأبو هريرة وعطاء وطاوس والحسن وقتادة وأبو حنيفة وأبو ثور وإسحاق، واحتجوا بمثل قوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ [الحج : ٧٨] وقوله : ﴿ يابنى آدم ﴾ [الأعراف : ٢٦، ٢٧ ، ٣٥] وقوله ﷺ : « ارموا يا بنى إسماعيل » (١) وذهب علىٌّ بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت وابن مسعود إلى توريث الجد مع الإخوة لأبوين أو لأب ، ولا ينقص معهم من الثلث ، ولا ينقص مع ذوى الفروض من السدس فى قول زيد ومالك والأوزاعى وأبى يوسف ومحمد ، والشافعى ، وقيل : يشرك بين الجد والأخوة إلى السدس ، ولا ينقص من السدس شيئًا مع ذوى الفروض وغيرهم ، وهو قول ابن أبى ليلى وطائفة، وذهب الجمهور إلى أن الجد يسقط بنى الإخوة ، وروى الشعبى عن علّى أنه أجرى بنى الإخوة فى المقاسمة (٢) مجرى الإخوة ، وأجمع العلماء على أن الجد لا يرث مع الأب شيئًا ، وأجمع العلماء على أن للجدة السدس إذا لم يكن للميت أم ، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم ، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدة أو الأم . واختلفوا فى توريث الجدة وابنها حى ، فروى عن زيد بن ثابت وعثمان وعلى أنها لا ترث وابنها حى ، وبه قال مالك والثورى والأوزاعى وأبو ثور وأصحاب الرأى . وروى عن عمر وابن مسعود وأبى موسى أنها ترث معه. وروى أيضًا عن على ، وعثمان ، وبه قال شريح وجابر بن زيد وعبيد الله بن

= (٢٠٩٢) وقال : « هذا حديث صحيح » ، وابن ماجة فى الفرائض (٢٧٢٠) وصححه الحاكم ٤ / ٣٣٣، ٣٣٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦ / ٢١٦ .

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٩) .

(٢) فى المطبوعة : « القاسمة » ، وهو تحريف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الحسن وشريك وأحمد وإسحاق وابن المنذر .

قوله : ﴿ **إن كان له ولد** ﴾ الولد يقع على الذكر والأنثى ، لكنه إذا كان الموجود الذكر من الأولاد وحده أو مع الأنثى منهم فليس للجد إلا السدس ، وإن كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض وهو عصبة فيما عدا السدس ، وأولاد ابن الميت كأولاد الميت . قوله : ﴿ **فإن لم يكن له ولد** ﴾ أى ولا ولد ابن لما تقدم من الإجماع ﴿ **وورثه أبواه** ﴾ منفردين عن سائر الورثة كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة إلا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين ، أما لو كان معهما أحد الزوجين فليس للأم إلا ثلث الباقى بعد الموجود من الزوجين. وروى عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين ، وهو يستلزم تفضيل الأم على الأب فى مسألة زوج وأبوين مع الاتفاق على أنه أفضل منها عند انفرادهما عن أحد الزوجين .

قوله : ﴿ **فإن كان له إخوة فلأمه السدس** ﴾ إطلاق الإخوة يدل على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما . وقد أجمع أهل العلم على أن الاثنين من الإخوة يقومون مقام الثلاثة فصاعداً فى حجب الأم إلى السدس ، إلا ما يروى عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد فى عدم الحجب ، وأجمعوا أيضاً على أن الأختين فصاعداً كالأخوين فى حجب الأم. قوله: ﴿ **من بعد وصية يوصى به أو دين** ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم « يوصَى » بفتح الصاد ، وقرأ الباقون بكسرها ، واختار الكسرَ أبو عبيد وأبو حاتم لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا . قال الأخفش : وتصديق ذلك قوله : ﴿**يوصين**﴾ و ﴿ **توصون** ﴾ .

واختلف فى وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدمًا عليها بالإجماع ، فقيل : المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما . وقيل : لما كانت الوصية أقل لزومًا من الدين قدمت اهتمامًا بها . وقيل : قدمت لكثرة وقوعها ، فصارت كالأمر اللازم لكل ميت . وقيل : قدمت لكونها حظ المساكين والفقراء ، وأخرالدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان . وقيل : لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت ، بخلاف الدين فإنه ثابت مؤدى ذكر أو لم يذكر . وقيل : قدمت لكونها تشبه الميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض ، فربما يشق على الورثة إخراجها ، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة بأدائه ، وهذه الوصية مقيدة بقوله تعالى : ﴿ **غير مضار** ﴾ كما سيأتى إن شاء الله .

قوله : ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا** ﴾ قيل : خبر قوله : ﴿**أيهم**﴾ و ﴿ **نفعا** ﴾ تمييز ، أى لا تدرون أيهم قريب لكم نفعه فى الدعاء لكم والصدقة عنكم كما فى الحديث الصحيح : « أو ولد صالح يدعو له » (١) . وقال ابن عباس والحسن : قد يكون الابن أفضل فيشفع فى أبيه . وقال بعض المفسرين : إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه فى الآخرة

---

(١) الحديث عن أبى هريرة ، أخرجه مسلم فى الوصية (١٦٣١ / ١٤) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٨٠) والترمذى فى الأحكام (١٣٧٦) وقال: « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجة فى المقدمة (٢٤١) .

سأل الله أن يرفع إليه أباه ، وإذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سأل الله أن يرفع ابنه إليه . وقيل : المراد النفع فى الدنيا والآخرة قاله ابن زيد . وقيل : المعنى : إنكم لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم ، أمَنْ أوصى منهم فعرَّضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعًا ، أو من ترك الوصية ووفَّر عليكم عَرَض الدنيا ؟ وقوَّى هذا صاحب الكشاف ، قال : لأن الجملة اعتراضية ، ومن حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه ، ويناسبه قوله : ﴿ **فريضةً من الله** ﴾ نصب على المصدر المؤكد إذ معنى ﴿**يوصيكم** ﴾ يفرض عليكم . وقال مكى وغيره : هى حال مؤكدة ، والعامل يوصيكم. والأول أولى ﴿ **إن الله كان عليما** ﴾ بقسمة المواريث ﴿ **حكيما** ﴾ حكَمَ بقسمتها وبيَّنها لأهلها . وقال الزجَّاج ﴿ **عليمًا**﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿ **حكيما** ﴾ فيما يقدره ويمضيه منها .

قوله : ﴿ **ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد** ﴾ الخطاب هنا للرجال ، والمراد بالولد ولد الصلب ، أوولد الولد ، لما قدمنا من الإجماع ﴿ **فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن** ﴾ وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم فى أن للزوج مع عدم الولد النصف ، ومع وجوده وإن سفل الربع . وقوله : ﴿ **من بعد وصية** ﴾ إلخ الكلام فيه كما تقدم . قوله: ﴿**ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم** ﴾ هذا النصيب مع الولد والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات ، ويشترك فيه الأكثر من واحدة لا خلاف فى ذلك ، والكلام فى الوصية والدين كما تقدم .

قوله : ﴿ **وإن كان رجل يورث كلالة** ﴾ المراد بالرجل الميت و ﴿ **يورث** ﴾ على البناء للمفعول من ورِث لا من أورث ، وهو خبر كان و ﴿ **كلالة** ﴾ حال من ضمير ﴿ **يورث** ﴾ أى يورث حال كونه ذا كلالة ، أو على أن الخبر كلالة ويورث صفة لرجل ، أى إن كان رجل يورث ذا كلالة ليس له ولد ولا والد ، وقرئ : ﴿ **يورث** ﴾ مخففًا ومشدّدًا فيكون كلالة مفعولاً أو حالاً ، والمفعول محذوف ، أى يورث وأريد حال كونه ذا كلالة ، أو يكون مفعولاً له ، أى لأجل الكلالة والكلالة مصدر من تكلله النسب أى أحاط به ، وبه سمى الإكليل لإحاطته بالرأس ، وهو الميت الذى لا ولد له ولا والد ، هذا قول أبى بكر الصديق وعمر وعلى وجمهور أهل العلم ، وبه قال صاحب كتاب العين وأبى منصور اللغوى ، وابن عرفة والقتيبى ، وأبو عبيد وابن الأنبارى . وقد قيل : إنه إجماع . قال ابن كثير : وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة ، وجمهور الخلف والسلف ، بل جميعهم . وقد حكى الإجماع غير واحد ، وورد فيه حديث مرفوع . انتهى . وروى أبو حاتم ، والأثرم عن أبى عبيدة أنه قال : الكلالة كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ فهو عند العرب كلالة . قال أبو عمر بن عبد البر : ذِكْرُ أبى عبيدة الأخ هنا مع الأب والابن فى شرط الكلالة غلط لا وجه له ، ولم يذكره فى شرط الكلالة غيره ، وما يروى عن أبى بكر وعمر من أن الكلالة مَنْ لا ولد له خاصة فقد رجعا عنه. وقال ابن زيد : الكلالة : الحى

والميت جميعًا ، وإنما سموا القرابة كلالة لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه ، وليسوا منه ولا هو منهم ، بخلاف الابن والأب فإنهما طرفان له ، فإذا ذهبا تكلله النسب . وقيل : إن الكلالة مأخوذة من الكلال ، وهو الإعياء ، فكأنه يصير بالميراث إلى الوارث عن بعد وإعياء . وقال ابن الأعرابى : إن الكلالة بنو العم الأباعد . وبالجملة فمن قرأ : ﴿ يورث كلالة ﴾ بكسر الراء مشددة وهو بعض الكوفيين ، أو مخففة وهو الحسن وأيوب جعل الكلالة القرابة . ومن قرأ ﴿ **يورث** ﴾ بفتح الراء وهم الجمهور ، احتمل أن يكون الكلالة الميت ، واحتمل أن يكون القرابة . وقد روى عن على وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس والشعبى ؛ أن الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة . قال الطبرى : الصواب أن الكلالة هم الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده ، لصحة خبر جابر : فقلت : يارسول الله ، إنما يرثنى كلالة أفأوصى بمالى كله ؟ قال : « لا » [١] . انتهى . وروى عن عطاء أنه قال : الكلالة : المال . قال ابن العربى : وهذا قول ضعيف لا وجه له . وقال صاحب الكشاف : إن الكلالة تنطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولدًا ولا والدًا ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين ، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد . انتهى [٢] .

قوله : ﴿ **أو امرأة** ﴾ معطوف على رجل مقيد بما قيد به ، أى أو امرأة تورث كلالة . قوله: ﴿ **وله أخ أو أخت** ﴾ قرأ سعد بن أبى وقاص « من أم » ، وسيأتى ذكر من أخرج ذلك عنه . قال القرطبى : أجمع العلماء أن الإخوة ها هنا هم الإخوة لأم قال : ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم ، أو للأب ، ليس ميراثهم هكذا ، فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ **وإن كانوا إخوة رجالا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ هم الإخوة لأبوين أو لأب ، وأفرد الضمير فى قوله : ﴿ **وله أخ أو أخت** ﴾ لأن المراد كل واحد منهما كما جرت بذلك عادة العرب ، إذا ذكروا اسمين مستويين فى الحكم فإنهم قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفردا كما فى قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقوله : ﴿ يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾

---

(١) اختصر المصنف هنا كلام الطبرى فأدخل حديثا فى حديث ، وهذا نص الطبرى فى ٤ / ١٩٣ : « والصواب من القول فى ذلك عندى ما قاله هؤلاء ، وهو أن الكلالة الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده ، وذلك لصحة الخبر الذى ذكرناه عن جابر بن عبد الله ، أنه قال : قلت : يارسول الله ، إنما يرثنى كلالة ، فكيف بالميراث ؟ ثم روى لسنده إلى ثلاثة من بنى سعد بن أبى وقاص قالوا : مرض سعد بمكة مرضًا شديدًا . قال: فأتاه رسول الله ﷺ يعوده ، فقال : يا رسول الله ، لى مال كثير ، وليس لى وارث إلا كلالة ، فأوصى بمالى كله . فقال : « لا » . فأدخل الشوكانى حديث جابر فى حديث سعد . وحديث جابر أخرجه البخارى (١٩٤ ، ٤٥٧٧ ، ٥٦٥١ ، ٥٦٦٤ ، ٥٦٧٦ ، ٦٧٢٣، ٦٧٤٣ ، ٧٣٠٩) ومسلم فى الفرائض (١٦١٦ / ٥ ــ ٨) ، وأبو داود فى الفرائض (٢٧٢٨) وأحمد ٣ / ٢٩٨ . وحديث سعد له طرق كثيرة وألفاظ مختلفة واللفظ المذكور من حديث عمرو بن القارى ، أخرجه أحمد ٤ / ٦٠ والبزار (١٣٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٤ / ٢١٢ : « فيه عياض بن عمرو ، ولم يجرحه أحد ولم يوثقه » . وسيأتى تخريجه .

(٢) الكشاف ١ / ٦٣ .

[التوبة : ٣٤] . وقد يذكرونه مثنى كما فى قوله : ﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما﴾ [النساء : ١٣٥] ، وقد قدمنا فى هذا كلاما أطول من المذكور هنا .

قوله : ﴿ **فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث** ﴾ الإشارة بقوله : ﴿ **من ذلك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وله أخ أوأخت** ﴾ أى أكثر من الأخ المنفرد أو الأخت المنفردة بواحد ، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعدًا ، ذكرين أوأنثيين ، أو ذكرا وأنثى ، وقد استدل بذلك على أن الذكر كالأنثى من الإخوة لأم لأن الله شرك بينهم فى الثلث ولم يذكر فضل الذكر على الأنثى كما ذكره فى البنين والإخوة لأبوين أو لأب . قال القرطبى : وهذا إجماع ودلت الآية على أن الإخوة لأم إذا استكملت بهم المسألة كانوا أقدم من الإخوة لأبوين أو لأب وذلك فى المسألة المسماه بالحِمَارية [١] ، وهى إذا تركت الميتة زوجًا وأمًا وأخوين لأم ، وإخوة لأبوين، فإن للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللأخوين لأم الثلث ، ولا شىء للإخوة لأبوين. ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذى يرث عنده الإخوة من الأم ، وهو كون الميت كلالة ، ويؤيد هذا حديث : « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فلأولى رجل ذكر » [٢] وهو فى الصحيحين وغيرهما وقد قررنا دلالة الآية والحديث على ذلك فى الرسالة التى سميناها «المباحث الدرية فى المسألة الحمارية » . وفى هذه المسألة خلاف بين الصحابة فمن بعدهم معروف .

قوله : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ الكلام فيه كما تقدم . قوله : ﴿ **غير مضار**﴾ أى يوصى حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الضرار ، كأنه يقر بشىء ليس عليه ، أو يوصى بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة ، أو يوصى لوارث مطلقًا أو لغيره بزيادة على الثلث ولم تجزه الورثة وهذا القيد أعنى قوله : ﴿ **غير مضار** ﴾ راجع إلى الوصية والدين المذكورين فهو قيد لهما فما صدر من الإقرارات بالديون أو الوصايا بالمنهى عنها له أو التى لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته فهو باطل مردود لا ينفذ منه شىء لا الثلث ولا دونه. قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز . انتهى [٣] . وهذا القيد أعنى عدم الضِّرار هو قيد لجميع ما تقدم من الوصية والدين . قال أبو السعود فى تفسيره : وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم .

قوله : ﴿ **وصية من الله** ﴾ نصب على المصدر، أى يوصيكم بذلك وصية من الله كقوله: ﴿ **فريضة من الله** ﴾ قال ابن عطية : يصح أن يعمل فيها مضار ، والمعنى أن يقع الضرر بها أو بسببها فأوقع عليها تجوُّزًا فتكون ﴿ **وصية** ﴾ على هذا مفعولاً بها ، لأن الاسم الفاعل قد اعتمد على ذى الحال ، أو لكونه منفيًا معنىً وقرأ الحسن « وصيةٍ من الله » بالجر على إضافة اسم الفاعل إليها ، كقوله : ياسارق الليلة أهل الدار . وفى كون هذه الوصية من الله سبحانه

---

(١) سميت بذلك ؛ لأن الأخوة الأشقاء : قالوا لعمر : هب أبانا كان حماراً ألسنا من أم واحدة ؟ .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث . (٣) القرطبى ٥ / ٨٠ .

دليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة فى الفرائض ، وأن كل وصية من عباده تخالفها فهى مسبوقة بوصية الله ، وذلك كالوصايا المتضمنة لتفضيل بعض الورثة على بعض ، أو المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه .

والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى الأحكام المتقدمة وسماها حدودا لكونها لا تجوز مجاوزتها ولا يحل تعديها ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ فى قسمة المواريث وغيرها من الأحكام الشرعية كما يفيده عموم اللفظ ﴿ **ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وهكذا قوله : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله** ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿ **ندخله** ﴾ بالنون وقرأ الباقون بالياء التحتية . قوله : ﴿ **وله عذاب مهين** ﴾ أى وله بعد إدخاله النار عذاب لا يُعْرَف كنهه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر قال : عادنى رسول الله ﷺ فقلت : ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله ؟ فنزلت (١) وقد قدمنا أن سبب النزول سؤال امرأة سعد بن الربيع (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ، ولا الضعفاء من الغلمان ، لا يرث الرجلَ من ولده إلا من أطاق القتال ، فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها أم كجَّة وترك خمس جوَارٍ ، فأخذ الورثة ماله ، فشكت ذلك أم كجَّة إلى النبى ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ **فإن كن نساءً فوق اثنتين** ﴾ ثم قال فى أم كجة ﴿ **ولهن الربع مما تركتم** ﴾ (٣) .

وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود قال : كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقًا فاتبعناه وجدناه سهلاً ، وإنه سئل عن امرأة وأبوين فقال للمرأة الربع ، وللأم ثلث ما بقى ، وما بقى فللأب . وأخرج عبد الرزاق والبيهقى عن زيد بن ثابت نحوه . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لا يردَّان الأم عن الثلث قال الله : ﴿ **فإن كان له إخوة** ﴾ والأخوان ليسا بلسان قومك إخوة، فقال عثمان : لا أستطيع أن أردّ ما كان قبلى ومضى فى الأمصار وتوارث به الناس (٤) . وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى سننه عن زيد بن ثابت ؛ أنه قال : إن العرب تسمى الأخوين إخوة .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن الجارود والدارقطنى ، والبيهقى فى سننه عن على ؛ قال : إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وأن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر

(١ ، ٢) سبق تخريجهما . (٣) ابن جرير ٤ / ١٨٥ .

(٤) ابن جرير فى التفسير ٤ / ١٨٨ وصححه الحاكم ٤ / ٣٣٥ وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦ / ٢٢٧ .

(٥) ابن أبى شيبة (٩١٠٣) ، (١١٦٠٢) وأحمد ١ / ٧٩ ، ١٣١ ، ١٤٤ والترمذى فى =

وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا** ﴾ يقول : أطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة ؛ لأن الله سبحانه شفَّع المؤمنين بعضهم فى بعض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أقرب لكم نفعًا** ﴾ قال : فى الدنيا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والدارمى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص ؛ أنه كان يقرأ : « وله أخ أو أخت من أم » . وأخرج البيهقى عن الشعبى قال : ما ورَّث أحدٌ من أصحاب النبى ﷺ الإخوةَ لأم مع الجد شيئًا قط . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال : قضى عمر أن ميراث الإخوة لأم بينهم للذكر مثل الأنثى . قال : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول الله ، ولهذه الآية التى قال الله : ﴿ **فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس ؛ قال : الإضرار فى الوصية من الكبائر ثم قرأ ﴿ **غيرمضار** ﴾(١) وقد رواه ابن جرير وأبى حاتم والبيهقى عنه مرفوعًا (٢) . وفىإسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصى ، قال أبو القاسم بن عساكر : ويعرف بمفتى المساكين ، وروى عنه غير واحد من الأئمة ، قال فيه أبو حاتم الرازى : هو شيخ . وقال على بن المدينى : هو مجهول لا أعرفه. قال ابن جرير : والصحيح الموقوف ، انتهى . ورجال إسناد هذا الموقوف رجال الصحيح، فإن النسائى رواه فى سننه عن على بن حُجْر ، عن على بن مُسْهِر ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة عنه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه، وابن ماجة واللفظ له، والبيهقى عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عذاب مهين** ﴾ (٣) .

= الفرائض (٢٠٩٤) وابن ماجة فى الوصايا (٢٧١٥) وابن جرير فى التفسير ٤ / ١٨٩ ، ١٩٠ والحاكم فى الفرائض ٤ / ٣٣٦ وقال : « هذا حديث رواه الناس عن أبى إسحاق والحارث بن عبد الله على الطريق ، لذلك لم يخرجه الشيخان ، وقد صحت هذه الفتوى عن زيد بن ثابت » وسكت الذهبى عن هذا الحديث ، والدارقطنى فى الفرائض (٩١) والبيهقى ٦ / ٢٦٧ .

(١) ابن أبى شيبة في الوصايا (١٠٩٨٠) وعبد الرزاق فى مصنفه (١٦٤٥٦) والنسائى فى التفسير (١١٢) وابن جرير فى التفسير ٤ / ١٩٥ والبيهقى ٦ / ٢٧١ وقال : « هذا هو الصحيح موقوف » وكذلك رواه ابن عيينة وغيره عن داود موقوفًا ، وروى من وجه آخر مرفوعًا ، ورفعه ضعيف .

(٢) ابن جرير فى التفسير ٤ / ١٩٥ والبيهقى ٦ / ٢٧١ .

(٣) أحمد ٢ / ٢٧٨ وأبو داود فى الوصايا (٢٨٦٧) والترمذى فى الوصايا (٢١١٧) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » وابن ماجة فى الوصايا (٢٧٠٤) والبيهقى٦ / ٢٧١ .

وفي إسناده شهر بن حَوْشبَ ، وفيه مقال معروف . وأخرج ابن ماجة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة » (١) . وأخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة مرفوعًا . وأخرجه ابن أبى شيبة وسعيد بن منصور عن سليمان بن موسى ؛ قال : قال رسول الله ﷺ ، فذكر نحوه (٢) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبى وقاص ؛ أن النبى ﷺ أتاه يعوده فى مرضه فقال: إن لى مالاً كثيرًا وليس يرثنى إلا ابنة لى أفـأتصدق بالثلثين ؟ فقال : « لا » ، قال : فالشطر؟ قال : « لا » ، قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة عن معاذ بن جبل قال : إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة فى حسناتكم : يعنى الوصية. وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : وددت أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع لأن رسول الله ﷺ قال : « الثلث كثير »(٤) وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : ذكر عند عمر الثلث فى الوصية فقال : الثلث وسط لا بخس ولا شطط . وأخرج ابن أبى شيبة عن على قال : لأن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، ومن أوصى بالثلث لم يترك .

فائدة : ورد فى الترغيب فى تعلم الفرائض وتعليمها ما أخرجه الحاكم ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنى امرؤ مقبوض ، وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان فى الفريضة لا يجدان من يقضى بها » (٥) . وأخرجاه عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ : « تعلموا الفرائض وعلموه، فإنه نصف العلم ، وإنه ينسى وهو أول ما ينزع من أمتى»(٦) . وقد روى عن عمر ، وابن مسعود ، وأنس آثار فى الترغيب فى الفرائض وكذلك روى عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا

(١) ابن ماجة فى الوصايا (٢٧٠٣) بلفظ : « من فَرّ من ميراث . . . . » .
(٢) ابن أبى شيبة فى الفرائض (١١٠٨٨) وسعيد بن منصورفى سننه (٢٨٥) .
(٣) البخارى فى الجنائز (١٢٩٥) وفى الوصايا (٢٧٤٢) وفى مناقب الأنصار (٣٩٣٦) وفى المغازى (٤٤٠٩) وفى النفقات (٥٣٥٤) وفى المرضى (٥٦٦٨) ومسلم فى الوصية (١٦٢٨ / ٥ ـ ٨) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٦٤) والترمذى فى الوصايا (٢١١٦) والنسائى فى الوصايا ٦ / ٢٤١ ، ٢٤٢ وابن ماجة فى الوصايا (٢٧٠٨) .
(٤) البخارى فى الوصايا (٢٧٤٣) ومسلم فى الوصية (١٦٢٩ / ١٠) .
(٥) صححه الحاكم ٤ / ٣٣٣ ووافقه الذهبى ، وأخرجه البيهقى ٦ / ٢٠٨ .
(٦) سكت عليه الحاكم ٤ / ٣٣٢ وقال الذهبى : « حفص: هو حفص بن عمر أحد رجال الإسناد واهٍ بمرة » والبيهقى٦ / ٢٠٩ وقال : «تفرد به حفص بن عمر وليس بالقوى » .

فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ .

لما ذكر سبحانه فى هذه السورة الإحسان إلى النساء ، وإيصال صدقاتهن إليهن ، وميراثهن مع الرجال ، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف ﴿ **واللاتى** ﴾ جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ ، وفيه لغات : اللاتى بإثبات التاء والياء ، واللات بحذف الياء وإبقاء الكسرة لتدل عليها ، واللائى بالهمزة والياء ، واللاء بكسر الهمزة وحذف الياء ، ويقال فى جمع الجمع : اللواتى ، واللوائى ، واللواتِ ، واللواء . والفاحشة : الفعلة القبيحة ، وهى مصدر كالعافية والعاقبة ، وقرأ ابن مسعود « بالفاحشة » . والمراد بها هنا : الزنا خاصة ، وإتيانها ومباشرتها . والمراد بقوله : ﴿ **من نسائكم** ﴾ المسلمات وكذا ﴿ **منكم** ﴾ المراد به المسلمون . قوله : ﴿ **فأمسكوهن فى البيوت** ﴾ كان هذا فى أول الإسلام ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا ﴾ [النور : ٢] . وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المذكور ، وكذلك الأذى باقيان مع الجلد ، لأنه لا تعارض بينها بل الجمع ممكن . قوله : ﴿ **أو يجعل الله لهن سبيلا** ﴾ هو ما فى حديث عبادة الصحيح من قوله ﷺ : « خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » (١) الحديث .

قوله : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم** ﴾ اللذان تثنية الذى ، وكان القياس أن يقال : اللذيان كرحيان ، قال سيبويه : حذفت الياء ليفرق بين الأسماء الممكنة وبين الأسماء المبهمة . وقال أبو على : حذفت الياء تخفيفًا . وقرأ ابن كثير «اللذانّ» بتشديد النون وهى لغة قريش ، وفيه لغة أخرى وهى « اللذا » بحذف النون . وقرأ الباقون بتخفيف النون ، قال سيبويه : المعنى : وفيما يتلى عليكم اللذان يأتيانها ، أى الفاحشة منكم . ودخلت الفاء فى الجواب لأن فى الكلام معنى الشرط ، والمراد باللذان هنا الزانى والزانية تغليبًا . وقيل : الآية الأولى فى النساء خاصة محصنات وغير محصنات ، والثانية فى الرجال خاصة ، وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفى الرجال مَنْ أحْصِن ، ومَنْ لم يُحْصَن فعقوبة النساء الحبس ، وعقوبة الرجال الأذى ، واختار هذا النحاس ، ورواه عن ابن عباس ورواه القرطبى عن مجاهد وغيره واستحسنه . وقال السدى وقتادة وغيرهما الآية الأولى فى النساء المحصنات ، ويدخل معهن الرجال المحصنون ،

---

(١) مسلم فى الحدود (١٦٩٠ / ١٢ ـ ١٤) الترمذى فى الحدود (١٤٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الحدود (٢٥٥٠) .

والآية الثانية فى الرجل والمرأة البكرين ، ورجحه الطبرى ، وضعفه النحاس ، وقال : تغليب المؤنث على المذكر بعيد . وقال ابن عطية : إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه. وقيل : كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل ، فخصت المرأة بالذكر فى الإمساك ، ثم جمعا فى الإيذاء . قال قتادة : كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعًا . واختلف المفسرون فى تفسير الأذى، فقيل : التوبيخ والتعيير . وقيل : السب والجفاء من دون تعيير. وقيل : النيل باللسان والضرب بالنعال ، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس. وقيل: ليس بمنسوخ كما تقدم فى الحبس. قوله: ﴿ **فإن تابا** ﴾ أى من الفاحشة ﴿ **وأصلحا** ﴾ العمل فيما بعد ﴿ **فأعرضوا عنهما**﴾أى اتركوهما وكفوا عنهما الأذى. وهذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدم من الخلاف.

قوله : ﴿ **إنما التوبة على الله** ﴾ استئناف لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق ، كما ينبئ عنه قوله : ﴿ **توابًا رحيمًا** ﴾ بل إنما تقبل من البعض دون البعض ، كما بينه النظم القرآنى ها هنا ، فقوله : ﴿ **إنما التوبة** ﴾ مبتدأ خبره قوله : ﴿ **للذين يعملون السوء بجهالة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **على الله** ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً عند من يجوِّز تقديم الحال التى هى ظرف على عاملها المعنوى . وقيل : المعنى : إنما التوبة على فضل الله ورحمته بعباده . وقيل : المعنى : إنما التوبة واجبة على الله ، وهذا على مذهب المعتزلة ؛ لأنهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جملتها قبول توبة التائبين . وقيل : على هنا بمعنى عند . وقيل : بمعنى مِنَ . وقد اتفقت الأمّة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيُّه المؤمنون ﴾ [النور : ٣١] . وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافًا للمعتزلة . وقيل : إنَّ قوله : ﴿ **على الله** ﴾ هو الخبر . وقوله : ﴿ **للذين يعملون** ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، أو بمحذوف وقع حالا . والسوء هنا العمل السيئ . وقوله : ﴿ **بجهالة** ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة أو حالاً ، أى يعملونها متصفين بالجهالة أو جاهلين . وقد حكى القرطبى عن قتادة أنه قال : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل معصية فهى بجهالة عمدًا كانت أو جهلاً . وحكى عن الضحاك ومجاهد أن الجهالة هنا العمد . وقال عكرمة : أمور الدنيا كلها جهالة . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ [محمد : ٣٦] . وقال الزجاج : معناه بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية . وقيل : معناه : أنهم لا يعلمون كُنه العقوبة ، ذكره ابن فُورك وضعَّفه ابن عطية. قوله : ﴿ **ثم يتوبون من قريب** ﴾ معناه : قبل أن يحضرهم الموت كما يدل عليه قولـه : ﴿ **حتى إذا حضر أحدهم الموت** ﴾ وبه قال أبو مِجْلَز ، والضحاك ، وعكرمة ، وغيرهم ، والمراد : قبل المعاينة للملائكة وغلبة المرء على نفسه [١] ، و « من » فى قوله : ﴿ **من**

---

(١) قال محمد الوراق :

قدم لنفسك توبةً مرجـــوةً ... قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنهـا ... زخرٌ وغنم للمنيب المحسن

ومعنى غلقَ : يريد بادر بالتوبة قبل ضياع الفرصة .

قريب﴾ للتبعيض ، أى يتوبون بعض زمان قريب ، وهو ما عدا وقت حضور الموت . وقيل : معناه : قبل المرض ، وهو ضعيف، بل باطل لما قدمنا ، ولما أخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه، وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ ؛ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (١) . وقيل : معناه : يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار . قوله : ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم بعد بيانه أن التوبة لهم مقصورة عليهم .

وقوله : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب . قوله : ﴿ حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾: « حتى » حرف ابتداء والجملة المذكورة بعدها غاية لما قبلها ، وحضور الموت حضور علاماته ، وبلوغ المريض إلى حالة السياق ، ومصيره مغلوبًا على نفسه مشغولاً بخروجها من بدنه ، وهو وقت الغرغرة المذكورة فى الحديث السابق ، وهى بلوغ روحه حلقومه ، قاله الهروى . وقوله : ﴿قال إنى تبت الآن ﴾ أى وقت حضور الموت . قوله : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ معطوف على الموصول فى قوله: ﴿ للذين يعملون السيئات ﴾ أى ليست التوبة لأولئك ، ولا للذين يموتون وهم كفار ، مع أنه لا توبة لهم رأسا ، وإنما ذكروا مبالغة فى بيان عدم قبول من حضرهم الموت ، وأن وجودها كعدمها .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله : ﴿واللاتى يأتين الفاحشة ﴾ قال : كانت المرأة إذا فجرت حبست فى البيوت ، فإن ماتت ماتت وإن عاشت عاشت ، حتى نزلت الآية فى سورة النور ﴿الزانية والزانى فاجلدوا ﴾ [النور : ٢] فجعل الله لهن سبيلا . فمن عمل شيئا جُلِد وأرسل ، وقد رُوى هذا عنه من وجوه. وأخرج أبو داود فى سننه عنه والبيهقى فى قوله : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ إلى قوله : ﴿ سبيلاً ﴾ ثم جمعهما جميعًا فقال : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ ثم نسخ ذلك بآية الجلد (٢) ، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين. أخرجه أبو داود ، والبيهقى، عن مجاهد (٣). وأخرجه عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (٤) . وأخرجه البيهقى فى سننه عن الحسن (٥) . وأخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير . وأخرجه ابن جرير عن السدى (٦) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ واللذان يأتيانها منكم ﴾ قال : كان الرجل إذا زنا أوذى بالتعيير

---

(١) أحمد ٢ / ١٣٢ ، ٣ / ٤٢٥ والترمذى فى الدعوات (٣٥٣٧) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٣) وصححه الحاكم ٤ / ٢٥٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشُعب (٧٠٦٣) .

(٢) أبو داود فى الحدود (٤٤١٣) والبيهقى ٨ / ٢١٠ .

(٣) أبو داود فى الحدود (٤٤١٤) والبيهقى ٨ / ٢١٠ .

(٤) ابن جرير ٤ / ٢٠٢ . (٥) البيهقى ٨ / ٢١٠ .

(٦) ابن جرير ٤ / ٢٠٢ .

وضُرب بالنعال ، فأنزل الله بعد هذه الآية : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ [النور : ٢] فإن كانا محصنين رجما فى سنة رسول الله ﷺ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم** ﴾ قال : الرجلان الفاعلان . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم**﴾ يعنى البكرين . وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : الرجل والمرأة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **إنما التوبة على الله** ﴾ الآية . قال : هذه للمؤمنين وفى قوله : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات**﴾ قال : هذه لأهل النفاق ﴿ **ولا الذين يموتون وهم كفارا**﴾ قال : هذه لأهل الشرك . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال : اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شىء عصى به فهو جهالة عمدًا كان أو غيره . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى العالية ؛ أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة . وأخرج ابن جرير من طريق الكلبى عن أبى ، عن صالح ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما التوبة على الله** ﴾ الآية ، قال : من عمل السوء فهو جاهل ، من جهالته عمل السوء ﴿ **ثم يتوبون من قريب** ﴾ قال: فى الحياة والصحة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : القريب ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى فى الشعب عن الضحاك ؛ قال : كل شىء قبل الموت فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت فليس له ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : القريب ما لم يغرغر . وقد وردت أحاديث كثيرة فى قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٢) ، ومنها الحديث الذى قدمنا ذكره (٣) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢)** ﴾ .

هذا متصل بما تقدم من ذكر الزوجات ، والمقصود نفى الظلم عنهن ، والخطاب للأولياء ،

---

(١) ابن جرير ٤ / ١٩٩ ، ٢٠٠ والبيهقى ٨ / ٢١١ . (٢) ابن كثير ٢ / ٢٢٣ .
(٣) تقدم تخريجه .

ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها ، وهو ما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا** ﴾ قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوجوها ، وإن شاؤوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت [١] . وفى لفظ لأبى داود عنه فى هذه الآية : كان الرجل يرث امرأة ذوى قرابته ، فيعضلها حتى يموت أو ترد إليه صداقها [٢] . وفى لفظ لابن جرير وابن أبى حاتم عنه : فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها [٣] . وقد روى هذا السبب بألفاظ ، فمعنى قوله : ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا** ﴾ أى لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم ، وتحبسوهن لأنفسكم ﴿**ولا** ﴾ يحل لكم أن ﴿ **تعضلوهن** ﴾ عن أن يتزوجن غيركم لتأخذوا ميراثهن إذا مُتْن ، أو ليدفعن إليكم صداقهن إذا أذنتم لهن بالنكاح . قال الزهرى وأبو مِجْلَز: كان من عاداتهم إذا مات الرجل وله زوجة ألقى ابنه من غيرها أوأقرب عصبته ثوبه على المرأة فيصير أحق بها من نفسها ، ومن أوليائها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها لتفتدى منه بما ورثت من الميت ، أو تموت فيرثها ، فنزلت الآية [٤] .

وقيل : الخطاب لأزواج النساء إذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعًا فى إرثهن ، أو يفتدين ببعض مهورهن ، واختاره ابن عطية . قال : ودليل ذلك قوله : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة** ﴾ إذا أتت بفاحشة فليس للولى حبسها حتى تذهب بمالها إجماعًا من الأمة ، وإنما ذلك للزوج . قال الحسن : إذا زنت البكر فإنها تجلد مائة وتنفى ، وترد إلى زوجها ما أخذت منه . وقال أبو قِلابة : إذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتى تفتدى منه . وقال السدى: إذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن . وقال قوم : الفاحشة البذاءة باللسان ، وسوء العشرة قولاً وفعلاً . وقال مالك وجماعة من أهل العلم : للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك .

هذا كله على أن الخطاب فى قوله : ﴿ **ولا تعضلوهن** ﴾ للأزواج ، وقد عرفت مما قدمنا فى سبب النزول أن الخطاب فى قوله : ﴿ **ولا تعضلوهن** ﴾ لمن خوطب بقوله : ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا** ﴾ فيكون المعنى : ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج ﴿ **لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن** ﴾ أى ما آتاهن من ترثونه ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ جاز لكم حبسهن عن الأزواج ولا يخفى ما فى هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تتزوج وتستعف من الزنا ، وكما أن جعل قوله : ﴿ **ولا تعضلوهن** ﴾ خطابا للأولياء فيه

---

(١) البخارى فى التفسير (٦٩٤٨) وأبو داود فى النكاح (٢٠٨٩) والنسائى فى التفسير (١١٤) والبيهقى ٧ / ١٣٨ .

(٢) أبو داود فى النكاح (٢٠٩٠) . (٣) ابن جرير ٤ / ٢٠٩ .

(٤) الزهرى : هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، وأبو مجلز : هو لاحق بن حميد ، وهما تابعيان ، فالحديث مرسل ، ذكره القرطبى ٣/ ١٦٦٤ .

هذا التعسف ، كذلك جعل قوله : ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها** ﴾ خطابا للأزواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته لسبب نزول الآية الذى ذكرناه ، والأولى أن يقال إن الخطاب فى قوله: ﴿ **لا يحل لكم** ﴾ للمسلمين ، أى لا يحل لكم معاشر المسلمين ، أن ترثوا النساء كرها، كما كانت تفعله الجاهلية ، ولا يحل لكم معاشر المسلمين ، أن تعضلوا أزواجكم ، أى تحبسوهن عندكم مع عدم رغوبكم فيهن ، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم ، وفى عقدتكم مع كراهتكم لهن ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ جاز لكم مخالفتهن ببعض ما آتيتموهن .

قوله : ﴿ **مبينة** ﴾ قرأ نافع وأبو عمر وابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء ، وقرأ الباقون بفتحها، وقرأ ابن عباس « مبينة » بكسر الباء وسكون الياء من أبان الشىء فهو مبين . قوله : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ أى بما هو معروف فى هذه الشريعة وبين أهلها من حسن المعاشرة ، وهو خطاب للأزواج أولما هو أعم ، وذلك يختلف باختلاف الأزواج فى الغنى والفقر والرفاعة والوضاعة ﴿ **فإن كرهتموهن** ﴾ لسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة ولا نشوز ﴿ **فعسى** ﴾ أن يؤول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة ، وتبدلها بالمحبة ، فيكون فى ذلك خير كثير من استدامة الصحبة ، وحصول الأولاد [(١)] ، فيكون الجزاء على هذا محذوفًا مدلولاً عليه بعلته، أى فإن كرهتموهن فاصبروا . ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ .

قوله : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً** ﴾ قد تقدم بيانه فى آل عمران ، والمراد به هذا المال الكثير ﴿ **فلا تأخذوا منه شيئًا** ﴾ قيل : هى محكمة . وقيل : هى منسوخة بقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ [البقرة : ٢٢٩]، والأولى أن الكل محكم ، والمراد هنا غير المختلعة لا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاها شيئًا . قوله : ﴿ **أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع . والجملة مقررة للجملة الأولى المشتملة على النهى .

وقوله : ﴿ **وكيف تأخذونه** ﴾ إنكار بعد إنكار مشتمل على العلة التى تقتضى منع الأخذ، وهى : الإفضاء . قال الهروى : وهو إذا كانا فى لحاف واحد جامع أو لم يجامع . وقال الفراء : الإفضاء أن يخلو الرجل والمرأة وإن لم يجامعها . وقال ابن عباس ومجاهد والسدى : الإفضاء فى هذه الآية : الجماع . وأصل الإفضاء فى اللغة : المخالطة ، يقال للشئ المختلط: فَضًا [(٢)] . ويقال : القوم فَوْضَى وفَضًا ، أى مختلطون لا أمير عليهم . قوله : ﴿**وأخذن**

(١) روى الإمام مسلم فى الرضاع (١٤٦٩ / ٦٣) وأحمد ٢ / ٣٢٩ عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ : «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر » أو قال : « غيره » .

(٢) قال الشاعر :

فقلت لها يا عمتى لك ناقتى ... وتمرٌ فضًا فى عيبتى وزَبيبُ

والعيبة : زبيل من أدم ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين .

منكم ميثاقًا غليظًا ﴾ معطوف على الجملة التى قبله ، أى والحال أن قد أفضى بعضكم إلى البعض ، وقد أخذن منكم ميثاقًا غليظًا وهو عقد النكاح ، ومنه قوله ﷺ : « فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (١) . وقيل : هو قوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وقيل : هو الأولاد .

قوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاحٍ نساء آبائهم إذا ماتوا ، وهو مشروع فى بيان مَنْ يحرم نكاحه من النساء ومن لا يحرم ، ثم بيَّن سبحانه وجه النهى عنه فقال : ﴿ إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلاً ﴾ هذه الصفات الثلاث تدل على أنه من أشد المحرمات وأقبحها ، وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت . قال ثعلب : سألت ابن الأعرابى عن نكاح المقت فقال : هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ، ويقال لهذا الضَّيْزَن (٢) ، وأصل المقت : البغض ، من مقته يمقته مقتًا فهو ممقوت ومقيت . قوله : ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ هو استثناء منقطع ، أى لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه. وقيل : إلا بمعنى بعد ، أى بعد ما سلف . وقيل : المعنى : ولا ما سلف . وقيل : هو استثناء متصل من قوله : ﴿ ما نكح آباؤكم ﴾ يفيد المبالغة فى التحريم بإخراج الكلام مخرج التعلق بالمحال ، يعنى : إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوا ، فلا يحل لكم غيره . قوله : ﴿ وساء سبيلا ﴾ هى جارية مجرى بئس فى الذم والعمل ، والمخصوص بالذم محذوف، أى ساء سبيلاً سبيل ذلك النكاح . وقيل : إنها جارية مجرى سائر الأفعال ، وفيها ضمير يعود إلى ما قبلها .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ؛ قال : لما توفى أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته ، وقد كان لهم ذلك فى الجاهلية ، فأنزل الله : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ﴾ (٣) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى كبيشة بنت معمر بن معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبى قيس بن الأسلت ، فتوفى عنها فجنح عليها ابنه ، فجاءت إلى النبى ﷺ فقالت : لا أنا ورثت زوجى ، ولا أنا تركت فأنكح فنزلت هذه الآية (٤) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن البيلمانى (٥) فى قوله : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها

---

(١) جزء من حديث جابر أخرجه مسلم فى الحج (١٢١٨ / ١٤٧) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجة فى المناسك (٣٠٧٤) والدارمى ٢ / ٤٤ ـ ٤٩ . وجزء من حديث عمّ أبى حرة الرقاشى ، أخرجه أحمد ٥/ ٧٣ .

(٢) فى المطبوعة : « الضيزم » بالميم وهو تحريف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، والضيزن : الذى يزاحم أباه فى امرأته .

(٣) النسائى فى التفسير (١١٥) وابن جرير ٤ / ٢٠٧ .

(٤) ابن جرير ٤ / ٢٠٨ وابن الأثير فى أسد الغابة ٥ / ٥٣٨ ونسبه لأبى موسى .

(٥) هو : عبد الرحمن بن البيلمانى مولى عمر ، مدنى ، نزل حران ، ضعيف من الثالثة ، انظر: تقريب التهذيب (٨٨٥) .

ولا تعضلوهن ﴾ قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما فى أمر الجاهلية والأخرى فى أمر الإسلام(١) . قال ابن المبارك : ﴿ **أن ترثوا النساء كرهًا** ﴾ فى الجاهلية ، ﴿ **ولا تعضلوهن** ﴾ فى الإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ولا تعضلوهن**﴾ قال : لا تضر بامرأتك لتفتدى منك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ **ولا تعضلوهن** ﴾ يعنى : أن ينكحن أزواجهن كالعضل فى سورة البقرة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كان العضل فى قريش بمكة : ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه فيفارقها على ألا تتزوج إلا بإذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها (٢) وإلا عضلها ، وقد قدمنا عن ابن عباس فى بيان السبب ما عرفت .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ قال : البغض والنشوز ، فإذا فعلت ذلك فقد حل له منها الفدية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : الفاحشة هنا: الزنا . وأخرج ابن جرير عن أبى قلابة وابن سيرين نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ قال : خالطوهن . قال ابن جرير : صحفه بعض الرواة وإنما هو : خالقوهن . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : حقها عليك الصحبة الحسنة والكسوة والرزق المعروف . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ يعنى : صحبتهن بالمعروف ﴿ **فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا** ﴾ فيطلقها فتتزوج من بعده رجلاً فيجعل الله له منها ولدًا ويجعل الله فى تزويجها خيرًا كثيرًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الخير الكثير أن يعطف عليها فترزق ولدها ويجعل الله فى ولدها خيرا كثيرا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحو ما قال مقاتل .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج** ﴾ الآية ، قال: إن كرهت امرأتك وأعجبك غيرها فطلقت هذه وتزوجت تلك فأعط هذه مهرها وإن كان قنطارا . وأخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى ، قال السيوطى : بسند جيد ؛ أن عمر نهى الناس أن يزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فاعترضت له امرأة من قريش فقالت: أما سمعت ما أنزل الله : يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً** ﴾ فقال : اللهم غفرًا كل الناس أفقه من عمر ، فركب المنبر فقال : يأيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل. قال ابن كثير : إسناده جيد قوى ، وقد رويت هذه القصة

(١، ٢) ابن جرير٤ / ٢١٠ .

بألفاظ مختلفة ، هذا أحدها (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ قال : الإفضاء : هو الجماع، ولكن الله يكنى. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا** ﴾ قال : الغليظ : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه ، وقال : وقد كان ذلك يؤخذ عند عقد النكاح : آلله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن أبى ملكية ؛ أن ابن عمر إذا نكح قال : أنكحتك على ما أمر الله به ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وأخرج ابن أبى شيبة عن أنس بن مالك نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة ومجاهد فى قوله : ﴿**وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا** ﴾ قال : أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هو قول الرجل : ملكت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كلمة النكاح التى تستحل بها فروجهن .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى سننه فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ﴾ أنها نزلت لما أراد ابن أبى قيس بن الأسلت أن يتزوج امرأة أبيه بعد موته (٢) . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿**إلا ما قد سلف** ﴾ إلا ما كان فى الجاهلية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن البراء ؛ قال : لقيت خالى ومعه الراية قلت : أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده ، فأمرنى أن أضرب عنقه وآخذ ماله (٣) .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

---

(١) سعيد بن منصور (٥٩٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٤ / ٢٨٧ : « رواه أبو يعلى فى الكبير ، وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف وقد وثق » وأورده ابن كثير ٢ / ٢٣٠ .

(٢) الطبرانى ٢٢ / ٣٩٣ ، ٣٩٤ (٩٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٦ : « رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله ابن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف » . وقال الحافظ فى الإصابة : ٣ / ٥٢ : « فى سنده قيس بن الربيع عن أشعث بن سوار وهما ضعيفان ، والخبر مع ذلك منقطع » ، والبيهقى ٧ / ١٦١ وقال : « مرسل » .

(٣) عبد الرزاق فى النكاح (١٠٨٠٤) وابن أبى شيبة فى الحدود (٨٩١٦) وفى الجهاد (١٥٤٥٥) وأحمد ٢ / ٢٩٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٥ / ٢٧٢ : «رجاله رجال الصحيح غير أبى الجهم وهو ثقة » وصححه الحاكم ٣/ ٦٣١ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى ٧ / ١٦٢ .

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ أى نكاحهن ، وقد بين الله سبحانه فى هذه الآية ما يحل وما يحرم من النساء فحرم سبعًا من النسب ، وستًا من الرضاع والصهر ، وألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها [١] ، ووقع عليه الإجماع . فالسبع المحرمات من النسب : الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، والعمات ، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت . والمحرمات بالصهر والرضاع : الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء والربائب ، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين ، فهؤلاء ست والسابعة منكوحات الآباء ، والثامنة الجمع بين المرأة وعمتها . قال الطحاوى : وكل هذا من المحكم المتفق عليه ، وغير جائز نكاح واحدة منهنّ بالإجماع إلا أمهات النساء اللواتى لم يدخل بهن أزواجهن ، فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة ، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم . وقال بعض السلف : الأم والربيبة سواء لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى [٢] . قالوا : ومعنى قوله : ﴿**وأمهات نسائكم** ﴾ أى اللاتى دخلتم بهن، وزعموا أن قيد الدخول راجع إلى الأمهات والربائب جميعًا ، رواه خلاس[٣] عن علىّ بن أبى طالب . وروى عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت وابن الزبير ومجاهد ، قال القرطبى :

---

(١) روى البخارى فى النكاح (٥١٠٩) ومسلم فى النكاح (١٤٠٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها » .

(٢) القرطبى ٣ / ١٦٧٥ .

(٣) هو : خلاس بن عمرو الهجرى ، بصرى ثقة ، خرجوا له فى الصحاح. حدث عن على ، وعمار ، وأبى هريرة ، وعائشة .

ورواية خِلاسٍ عن على لا تقوم بها حجة ، ولا تصح روايته عند أهل الحديث ، والصحيح عنه مثل قول الجماعة . وقد أجيب عن قولهم إن قيد الدخول راجع إلى الأمهات والربائب بأن ذلك لا يجوز من جهة الإعراب ، وبيانه أن الخبرين إذا اختلفا فى العامل لم يكن نعتهما واحدا فلا يجوز عند النحويين : مررت بنسائك ، وهويت نساء زيد الظريفات ، على أن يكون الظريفات نعتًا للجميع ، فكذلك فى الآية لا يجوز أن يكون اللاتى دخلتم بهن نعتًا لهما جميعًا ؛ لأن الخبرين مختلفان .

قال ابن المنذر : والصحيح قول الجمهور لدخول جميع أمهات النساء فى قوله : ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ ومما يدل على ما ذهب إليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه من طريقين : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال : « إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنة أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها ، فإن شاء تزوج الابنة » (١) قال ابن كثير فى تفسيره مستدلا للجمهور : وقد روى فى ذلك خبر غير أن فى إسناده نظرًا ، فذكر هذا الحديث ثم قال : وهذا الخبر وإن كان فى إسناده ما فيه ، فإن إجماع الحجة على صحة القول به يغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره (٢) ، قال فى الكشاف : وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب ، على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى . انتهى(٣). ودعوى الإجماع مدفوعة بخلاف من تقدم .

واعلم أنه يدخل فى لفظ الأمهات أمهاتهنّ ، وجداتهن ، وأم الأب ، وجداته وإن علون؛ لأن كلهن أمهات لمن ولده من ولدته وإن سفل . ويدخل فى لفظ البنات بنات الأولاد وإن سفلن ، والأخوات تصدق على الأخت لأبوين أو لأحدهما ، والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك فى أصليه أو أحدهما ، وقد تكون العمة من جهة الأم وهى أخت أب الأم ، والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك فى أصليها أو فى أحدهما ، وقد تكون الخالة من جهة الأب وهى أخت أم أبيك ، وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة ومباشرة وإن بعدت ، وكذلك بنت الأخت .

قوله : ﴿ **وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم** ﴾ هذا مطلق مقيد بما ورد فى السنة من كون الرضاع فى الحولين (٤) إلا فى مثل قصة إرضاع سالم مولى أبى

---

(١) عبد الرزاق فى النكاح (١٠٨٢١) وابن جرير ٤ / ٢٢٢ وقال : « هذا الخبر وإن كان فى إسناده ما فيه فإن فى إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره » والبيهقى ٧ / ١٦٠ من طريقين عنه .

(٢) ابن كثير ٢ / ٢٣٧ . (٣) الكشاف ١ / ٤٩٥ .

(٤) البخارى فى النكاح (٥١٠٢) عن عائشة أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها رجل ، فكأنه تغير وجهه . كأنه كره ذلك ، فقالت : إنه أخى ، فقال: «انظرن ما إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة » والترمذى فى الرضاع =

حذيفة [١] ، وظاهر النظم القرآني أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع لغة وشرعًا ، ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات في أحاديث صحيحة [٢] ، والبحث عن تقرير ذلك وتحقيقه يطول ، وقد استوفيناه في مصنفاتنا وقررنا ما هو الحق في كثير من مباحث الرضاع . قوله : ﴿ وأخواتكم من الرضاعة ﴾ الأخت من الرضاع هي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك ، سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة والأخوات، والأخت من الأم هي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر . قوله : ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ قد تقدم الكلام على اعتبار الدخول وعدمه ، والمحرمات بالمصاهرة أربع : أم المرأة ، وابنتها ، وزوجة الأب ، وزوجة الابن .

قوله : ﴿ وربائبكم ﴾ الربيبة : بنت امرأة الرجل من غيره سميت بذلك ، لأنه يربيها في حجره فهي مربوبة ، فعيلة بمعنى مفعولة . قال القرطبي : واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم وإن لم تكن الربيبة في حجره، وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر ، فقالوا : لا تحرم الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج ، فلو كانت في بلد آخر وفارق الأم فله أن يتزوج بها ، وقد روى ذلك عن علي . قال ابن المنذر والطحاوي : لم يثبت ذلك عن علي ؛ لأن رواية إبراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي ، وإبراهيم هذا لا يعرف . وقال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا عن علي : وهذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم [٣] . والحجور جمع حجر ، والمراد أنهن في حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن كما هو الغالب . وقيل : المراد بالحجور : البيوت ، أي في بيوتكم ، حكاه الأثرم عن أبي عبيدة . قوله : ﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أي في نكاح الربائب وهو تصريح بما دل عليه مفهوم ما قبله .

وقد اختلف أهل العلم في معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب : فروى عن ابن عباس أنه قال : الدخول : الجماع ، وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما . وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث والزيدية : إن الزوج إذا لمس الأم لشهوة حرمت عليه ابنتها وهو أحد قولي الشافعي . قال ابن جرير الطبري : وفي إجماع الجميع أن خلوة الرجل بامرأته لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها [٤] ، وقيل النظر إلى فرجها بالشهوة [٥] ما

= (١١٥٢) وقال : « حسن صحيح » ، والحديث عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يحرّم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل العظام » والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، لا تحرم إلا ماكان دون الحولين وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئا .

(١) الموطأ في الرضاع (١٢٨٤) ومسلم في الرضاع (١٤٥٣ / ٢٦ ، ٢٧) وأبو داود في النكاح (٢٠٦١) .

(٢) مسلم في الرضاع (١٤٥٢ / ٢٤) وأبو داود في النكاح (٢٠٦٢) عن عائشة ؛ أنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يحرمن . ثم نسخن : بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن . واللفظ لمسلم .

(٣) ابن كثير ٢ / ٢٣٨ . (٤) في المطبوعة : « قبل » ، وهو تصحيف ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) في الأصل : « الشهوة » ، والتصحيح من ابن جرير ٤ / ٢٢٣ .

يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع . انتهى . وهكذا حكى الإجماع القرطبى فقال : وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها (١) . واختلفوا فى النظر ، فقال مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أوشىء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها وابنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة، وكذا قال الثورى ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبى ليلى : لا تحرم بالنظر حتى يلمس ، وهو قول الشافعى . والذى ينبغى التعويل عليه فى مثل هذا الخلاف هو النظر فى معنى الدخول شرعًا أو لغة ، فإن كان خاصًا بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك . وأما الربيبة فى ملك اليمين فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك . وقال ابن عباس : أحلتهما آية وحرمتهما آية ولم أكن لأفعله . وقال ابن عبد البر لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك فى النكاح قال : ﴿ **وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم**﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روى عن عمر وابن عباس ، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم . انتهى .

قوله : ﴿ **وحلائل أبنائكم** ﴾ الحلائل : جمع حليلة وهى الزوجة ، سميت بذلك ؛ لأنها تحل مع الزوج حيث حل فهى فعيلة بمعنى فاعلة . وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال فهى حليلة ، بمعنى محلَّلة . وقيل : لأن كل واحد منهما يَحُل إزار صاحبه . وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء ، وما عقد عليه الأبناء على الآباء ، سواء كان مع العقد وطء أو لم يكن ، لقوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ﴾ وقوله: ﴿ **وحلائل أبنائكم** ﴾ .

واختلف الفقهاء فى العقد إذا كان فاسدًا هل يقتضى التحريم أم لا ؟ كما هو مبين فى كتب الفروع . قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده . وأجمع العلماء على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه وابنه ، فإذا اشترى جارية فلمس أو قبل حرمت على أبيه وابنه لا أعلمهم يختلفون فيه ، فوجب تحريم ذلك تسليمًا لهم . ولما اختلفوا فى تحريمها بالنظر دون اللمس لم يجز ذلك لاختلافهم ؛ قال : ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ خلاف ما قلناه .

قوله : ﴿ **الذين من أصلابكم** ﴾ وصف للأبناء ، أى دون من تبنيتم من أولاد غيركم كما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ،

---

(١) القرطبى ٣ / ١٦٨٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ [الأحزاب : ٤] ، ومنه ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ [الأحزاب : ٤٠] وأما زوجة الابن من الرضاع فقد ذهب الجمهور إلى أنها تحرم على أبيه ، وقد قيل : إنه إجماع مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب . ووجهه ما صح عن النبى ﷺ من قوله : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (١) ولا خلاف أن أولاد الأولاد وإن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب فى تحريم نكاح نسائهم على آبائهم .

وقد اختلف أهل العلم فى وطء الزنا هل يقتضى التحريم أم لا ؟ فقال أكثر أهل العلم : إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك ، وكذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنا بأمها أو بابنتها ، وحسبه أن يقام عليه الحد ، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأم من زنى بها وبابنتها . وقالت طائفة من أهل العلم : إن الزنا يقتضى التحريم . حكى ذلك عن عمران ابن حصين والشعبى وعطاء والحسن وسفيان الثورى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى ، وحكى ذلك عن مالك ، والصحيح عنه كقول الجمهور . احتج الجمهور بقوله تعالى : ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ وبقوله : ﴿ **وحلائل أبنائكم** ﴾ والموطوءة بالزنا لا يصدق عليها أنها من نسائهم ولا من حلائل أبنائهم .

وقد أخرج الدارقطنى عن عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوجها أو ابنتها ، فقال: « لا يُحَرِّم الحرامُ الحلال » (٢) ، واحتج المحرمون بما روى فى قصة جريج (٣) الثابتة فى الصحيح أنه قال : « يا غلام من أبوك؟ فقال : الراعى » (٤) ، فنسب الابن نفسه إلى أبيه من الزنا ، وهذا احتجاج ساقط، واحتجوا أيضًا بقوله ﷺ : « لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وابنتها » (٥) ولم يفصل بين الحلال والحرام . ويجاب عنه بأن هذا مطلق مقيد بما ورد من الأدلة الدالة على أن الحرام لا يحرم الحلال . واختلفوا فى اللواط يقتضى التحريم أم لا ؟ فقال الثورى : إذا لاط بالصبى حرمت عليه أمه ، وهو قول أحمد بن حنبل قال : إذا تلوّط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته . وقال الأوزاعى: إذا

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) الدارقطنى فى النكاح (٩٠) وقال ابن حجر فى الفتح ٩ / ١٥٦ : « فى إسناده عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى وهو متروك » . والحديث مروى عن ابن عمر بإسناد أصلح من حديث عائشة عند ابن ماجة فى النكاح (٢٠١٥) وذكر البخارى عن ابن عباس قال : « إذا زنى بها لا تحرم عليه امرأته » وقال ابن حجر فى الفتح ٩ / ١٥٦ : « وصله البيهقى من طريق هشام عن قتادة عن عكرمة بلفظ : رجل غشى أم امرأته قال : « تخطى حرمتين ولا تحرم عليه امرأته » وإسناده صحيح .

(٣) جريج : هو أحد عباد بنى إسرائيل اتهموه بالزنى فبرأه الله بكلام ابن الزنى ، ابن الراعى الذى زنى بأمه .

(٤) البخارى فى الأنبياء (٣٤٣٦) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٠ / ٧ ، ٨) .

(٥) ابن أبى شيبة ٤ / ١٦٥ ولم يرفعه إلى النبى ﷺ . ورواية المرفوع ذكرها البيهقى فى النكاح ٧ / ١٧٠ وضعفها وكذلك ذكر الرواية المرفوعة على عبد الله بن مسعود وضعفها أيضًا .

لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها لأنها بنت من قد دخل به ، ولا يخفى ما فى قول هؤلاء من الضعف ، والسقوط النازل عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضى التحريم بدرجات ، لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه ، على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم .

قوله : ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين** ﴾ أى وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين ، فهو فى محل رفع عطفًا على المحرمات السابقة ، وهو يشمل الجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين. وقيل : إن الآية خاصة بالجمع فى النكاح لا فى ملك اليمين ، وأما فى الوطء بالملك فلا حق بالنكاح ، وقد أجمعت الأمة على منع جمعهما فى عقد نكاح . واختلفوا فى الأختين بملك اليمين ؛ فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما فى الوطء بالملك ، وأجمعوا على أنه يجوز الجمع بينهما فى الملك فقط . وقد توقف بعض السلف فى الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك ، وسيأتى بيان ذلك . واختلفوا فى جواز عقد النكاح على أخت الجارية التى توطأ بالملك . فقال الأوزاعى : إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها . وقال الشافعى : ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت . وقد ذهبت الظاهرية [١] إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما يجوز الجمع بينهما فى الملك . قال ابن عبد البر ، بعد أن ذكر ما روى عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك : وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكنه اختلف عليهم ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز ، ولا بالعراق ولا ما وراءها من المشرق ، ولا بالشام ، ولا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس . وقد ترك من تعمد ذلك . وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل ذلك فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم** ﴾ إلخ الآية ، أن النكاح بملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء . فكذلك يجب أن يكون قياسًا ونظرًا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب ، وكذا هو عند جمهورهم ، وهى الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها ، والله المحمود . انتهى .

وأقول : ها هنا إشكال ، وهو أنه قد تقرر أن النكاح يقال على العقد فقط ، وعلى الوطء فقط والخلاف فى كون أحدهما حقيقة والآخر مجازًا ، أو كونهما حقيقتين معروف ، فإن حملنا هذا التحريم المذكور فى هذه الآية وهى قوله : ﴿**حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ إلى آخرها ، على أن المراد تحريم العقد عليهن لم يكن فى قوله تعالى : ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين**﴾ دلالة على

---

(١) الظاهرية : أصحاب المذهب الذى يقرر : أن المصدر الفقهى هوالنصوص . فلا رأى فى حكم من أحكام الشرع، ونفى المعتنقون لهذا المذهب الرأى بكل أنواعه فلم يأخذوا بالقياس ، ولا بالاستحسان ولا بالمصالح المرسلة ولا الذرائع . بل يأخذون بالنصوص وحدها . وإذا لم يكن النص أخذوا بحكم الاستصحاب الذى هو الإباحة الأصلية الثابتة بقوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا** ﴾ [البقرة : ٢٩] وقد قرروا أحكاما كثيرة خالفوا فيها الفقهاء . رئيسهم هو داود بن على الأصبهانى توفى سنة ٢٧٠ هـ .

تحريم الجمع بين المملوكتين فى الوطء بالملك ، وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله : ﴿**حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم**﴾ إلى آخره يستوى فيه الحرائر والإماء والعقد والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف وهو الجمع بين الأختين فى الوطء بملك اليمين مثل محل الإجماع، ومجرد القياس فى مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض ، وإن حملنا التحريم المذكور فى الآية على الوطء فقط لم يصلح ذلك للإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية إلى آخرها ، فلم يبق إلا حمل التحريم فى الآية على تحريم عقد النكاح ، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك إلى دليل ، ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور ، فالحق لا يعرف بالرجال ، فإن جاء به خالصًا عن شوب الكدر فبها ونعمت ، وإلا كان الأصل الحل ، ولا يصح حمل النكاح فى الآية على معنييه جميعًا أعنى العقد والوطء ، لأنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع ، أو من باب الجمع بين معنى المشترك ، وفيه الخلاف المعروف فى الأصول فتدبر هذا .

وقد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل يطأ مملوكته بالملك ، ثم أراد أن يطأ أختها بالملك ، فقال على وابن عمر والحسن البصرى والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحاق : لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ، ببيع أو عتق ، أو بأن يزوجها . قال ابن المنذر : وفيه قول ثان لقتادة ، وهو أنه ينوى تحريم الأولى على نفسه وألا يقربها ، ثم يمسك عنهما حتى تستبرئ المحرمة ثم يغشى الثانية ، وفيه قول ثالث ، وهو أنه لا يقرب واحدة منهما، هكذا قال الحكم وحماد وروى معنى ذلك عن النخعى (١) . وقال مالك : إذا كان عنده أختان بملك فله أن يطأ أيتهما شاء والكف عن الأخرى موكول إلى أمانته ، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله من إخراج عن الملك أو تزويج أو بيع أو عتق أو كتابة أو إخدام طويل ، فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى ، ولم يوكل ذلك إلى أمانته لأنه متهم . قال القرطبى (٢) : وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقًا يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها ، ولا رابعة حتى تنقضى عدة التى طلق. روى ذلك عن على وزيد بن ثابت ومجاهد وعطاء والنخعى والثورى وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأى . وقالت طائفة : له أن ينكح أختها وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع وطلق واحدة منهن طلاقا بائنًا . روى ذلك عن سعيد بن المسيب والحسن والقاسم وعروة بن الزبير وابن أبى ليلى والشافعى وأبى ثور وأبى عبيد ، قال ابن المنذر : ولا أحسبه إلا قول مالك . وهو أيضًا إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت وعطاء . قوله : ﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ يحتمل أن يكون معناه معنى ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف** ﴾ ويحتمل معنى آخر ، وهو جواز ما سلف وأنه إذا جرى الجمع فى الجاهلية كان النكاح صحيحًا ، وإذا

---

(١) القرطبى ٣ / ١٦٨٨ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ١٦٨٩ .

جرى في الإسلام خيِّر بين الأختين والصواب الاحتمال الأول .

قوله : ﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ عطف على المحرمات المذكورات . وأصل التحصن : التمنع ، ومنه قوله تعالى: ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ [الأنبياء : ٨٠] ، أي لتمنعكم ، ومنه الحِصان بكسر الحاء للفرس ؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . والحَصان بفتح الحاء : المرأة العفيفة لمنعها نفسها ، ومنه قول حسان :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ بِرِيبةٍ وَتُصْبِح غَرْثَى مِن لُحومِ الغَوَافِلِ (١)

والمصدر الحصانة بفتح الحاء . والمراد بالمحصنات هنا ذوات الأزواج . وقد ورد الإحصان في القرآن لمعان ، هذا أحدها. والثاني يراد به الحرّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات** ﴾ ، وقوله : ﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ [المائدة : ٥]. والثالث يراد به: العفيفة ، ومنه قوله تعالى : ﴿**محصنات غير مسافحات** ﴾ ،﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ . والرابع المسلمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فإذا أحصنّ** ﴾ .

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية ، أعني قوله : ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم** ﴾: فقال ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو قِلابة ومكحول والزهرى : المراد بالمحصنات هنا : المسبيات ذوات الأزواج خاصة ، أى هن محرمات عليكم إلا ما ملكت أيمانكم بالسبى من أرض الحرب ، فإن تلك حلال وإن كان لها زوج ، وهو قول الشافعى ، أى أن السباء يقطع العصمة ، وبه قال ابن وهب وابن عبد الحكم ورروياه عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور . واختلفوا فى استبرائها بماذا يكون ؟ كما هو مدون فى كتب الفروع . وقالت طائفة : المحصنات فى هذه الآية العفائف ، وبه قال أبو العالية ، وعَبِيدة السلمانى وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء ، ورواه عبيدة عن عمر . ومعنى الآية عندهم : كل النساء حرام إلا ما ملكت أيمانكم ، أى تملكون عصمتهن بالنكاح وتملكون الرقبة بالشراء . وحكى ابن جرير الطبرى أن رجلاً قال لسعيد بن جبير : أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئًا ؟ فقال : كان ابن عباس لا يعلمها . وروى ابن جرير أيضا عن مجاهد أنه قال : لو أعلم من يفسر لى هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل . انتهى . ومعنى الآية والله أعلم واضح لا سترة به ، أى وحرمت عليكم المحصنات من النساء، أى المزوجات أعم من أن يكن مسلمات ، أو كافرات ، إلا ما ملكت أيمانكم منهن ، إما بسبى فإنها تحل ، ولو كانت ذات زوج ، أوبشراء فإنها تحلّ ولو كانت متزوجة ، وينفسخ النكاح الذى كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذى زوجها . وسيأتى ذكر سبب نزول الآية إن شاء الله ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقد قرئ : ﴿ **المحصنات** ﴾ بفتح

(١) تُزَنّ : تتهم ، وغرثى : جائعة ، المراد أنها لا تغتاب غيرها .

الصاد وكسرها ، فالفتح على أن الأزواج أحصنوهن ؛ والكسر على أنهن أحصن فروجهن من غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن .

قوله : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ منصوب على المصدرية ، أى كتب الله ذلك عليكم كتابًا . وقال الزجاج والكوفيون: إنه منصوب على الإغراء ، أى الزموا كتاب الله ، أو عليكم كتاب الله ، واعترضه أبو على الفارسى بأن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب . وهذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال : إنه منصوب بعليكم المذكور فى الآية ، وروى عن عبيدة السَّلْمانى أنه قال : إن قوله : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ [النساء: ٣] ، وهو بعيد ، بل هو إشارة إلى التحريم المذكور فى قوله : ﴿ حرمت عليكم ﴾ إلى آخر الآية .

قوله : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص : ﴿وأحل ﴾ على البناء للمجهول وقرأ الباقون على البناء للمعلوم عطفًا على الفعل المقدر فى قوله: ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ وقيل : على قوله : ﴿حرمت عليكم ﴾ ، ولا يقدح فى ذلك اختلاف الفعلين وفيه دلالة على أنه يحل لهم نكاح ما سوى المذكورات وهذا عام مخصوص بما صح عن النبى ﷺ من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، وكذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرة كما سيأتى ، فإنه يخصص هذا العموم . قوله : ﴿ أن تبتغوا بأموالكم ﴾ فى محل نصب على العلة ، أى حرم عليكم ما حرم ، وأحل لكم ما أحل لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتى أحلهن الله لكم ، ولا تبتغوا بها الحرام فتذهب حال كونكم ﴿محصنين﴾ أى متعففين عن الزنا ﴿ غير مسافحين ﴾ أى غير زانين . والسفاح : الزنا وهو مأخوذ من سفح الماء ، أى صبه وسيلانه (١) ، فكأنه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح، لا على وجه السفاح . وقيل : إن قوله : ﴿ أن تبتغوا بأموالكم ﴾ بدل من «ما » فى قوله : ﴿ ما وراء ذلكم ﴾ أى وأحل لكم الابتغاء بأموالكم . والأول أولى ، وأراد سبحانه بالأموال . المذكورة ما يدفعونه فى مهور الحرائر ، وأثمان الإماء .

قوله : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن ﴾ « ما » موصولة فيها معنى الشرط ، والفاء فى قوله : ﴿فآتوهن﴾ لتضمن الموصول معنى الشرط ، والعائد محذوف ، أى فآتوهن أجورهن عليه . وقد اختلف أهل العلم فى معنى الآية : فقال الحسن ومجاهد وغيرهما : المعنى فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعى ﴿ فآتوهن أجورهن﴾ أى مهورهن . وقال الجمهور : إن المراد بهذه الآية : نكاح المتعة كان فى صدر الإسلام ، ويؤيد ذلك قراءة أبىّ بن كعب وابن عباس وسعيد بن جبير : « فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن » ثم نهى عنها النبى ﷺ كما صح ذلك من حديث على قال : نهى النبى ﷺ عن

---

(١) ومنه قول الرسول ﷺ حين سمع الدَّفاف فى عرس : « هذا النكاح لا السِّفاح ولا نكاح السر » والدفاف : صاحب الدف ، وجمع الدف : الدفوف ، وفى الحديث : « فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدف » .

نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، وهو فى الصحيحين وغيرهما (١)، وفى صحيح مسلم من حديث سَبْرة بن مَعْبَد الجُهَنى عن النبى ﷺ أنه قال يوم فتح مكة : « يأيها الناس ، إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، والله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهنّ شيء فليخلِّ سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا » (٢) . وفى لفظ لمسلم أن ذلك كان فى حجة الوداع (٣) ، فهذا هو الناسخ . وقال سعيد بن جبير : نسختها آيات الميراث إذ المتعة لا ميراث فيها . وقالت عائشة والقاسم بن محمد : تحريمها ونسخها فى القرآن ، وذلك قوله تعالى: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ [المؤمنون : ٥ ، ٦] . وليست المنكوحة بالمتعة من أزواجهم ولا مما ملكت أيمانهم ، فإن من شأن الزوجة أن ترث وتورث ، وليست المستمتع بها كذلك . وقد روى عن ابن عباس أنه قال : بجواز المتعة وأنها باقية لم تنسخ وروى عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ ، وقد قال بجوازها جماعة من الروافض ، ولا اعتبار بأقوالهم . وقد أتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسألة وتقوية ما قاله المجوِّزون لها ، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه . وقد طوّلنا البحث ، ودفعنا الشبه الباطلة التى تمسك بها المجوّزون لها فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه .

قوله : ﴿ فريضة ﴾ منتصب على المصدرية المؤكدة أو على الحال ، أى مفروضة . قوله : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة** ﴾ أى من زيادة أو نقصان فى المهر فإن ذلك سائغ عند التراضى ، هذا عند من قال بأن الآية فى النكاح الشرعى ؛ وأما عند الجمهور القائلين بأنها فى المتعة فالمعنى التراضى فى زيادة مدة المتعة أو نقصانها ، أو فى زيادة ما دفعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها أو نقصانه .

قوله : ﴿ **ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات** ﴾ الطوْل : الغنى والسعة ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدى وابن زيد ومالك والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور ، وجمهور أهل العلم . ومعنى الآية : فمن لم يستطع منكم غنى وسعة فى ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات فلينكح من فتياتكم المؤمنات ، يقال : طَالَ يَطول طَوْلاً فى الإفضال والقدرة ، وفلان ذو طَوْل ، أى ذو قدرة فى ماله . والطُول بالضم ضد القِصَر . وقال قتادة والنخعى وعطاء والثورى : إن الطول الصبر . ومعنى الآية عندهم : أن من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها ، فإن له أن يتزوجها إذا لم يملك نفسه وخاف أن يبغى بها ، وإن كان يجد سعة فى المال لنكاح حرة . وقال أبو حنيفة ،

---

(١) مالك فى الموطأ فى النكاح (٤١) وأحمد ١ / ٧٩ والبخارى فى المغازى (٤٢١٦) وفى الذبائح والصيد (٥٥٢٣) ومسلم فى النكاح (١٤٠٧ / ٣٠) والترمذى فى النكاح (١١٢١) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجة فى النكاح (١٩٦١) .

(٢) مسلم فى النكاح (١٤٠٦ / ٢١) .

(٣) لم نجد هذا اللفظ عند مسلم ، وهو معارض لما ورد من الطرق الكثيرة أن ذلك كان عام الفتح .

وهو مروى عن مالك : إن الطول : المرأة الحُرَّةُ فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الأمة، ومن لم يكن تحته حرة جازله أن يتزوج أمة ولو كان غنيًا ، وبه قال أبو يوسف ، واختاره ابن جرير واحتج له . والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية ، ولا يخلو ما عداه عن تكلف ، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقدر على أن يتزوج بالحرة لعدم وجود ما يحتاج إليه فى نكاحها من مهر وغيره . وقد استدل بقوله : ﴿ **من فتياتكم المؤمنات** ﴾ على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية ، وبه قال أهل الحجاز وجوزه أهل العراق . ودخلت الفاء فى قوله : ﴿ **فمن ما ملكت أيمانكم** ﴾ لتضمن المبتدأ معنى الشرط .

وقوله : ﴿ **من فتياتكم المؤمنات** ﴾ فى محل نصب على الحال ، فقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحر أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرة . والشرط الثانى ما سيذكره الله سبحانه آخر الآية من قوله : ﴿ **ذلك لمن خشى العنت منكم** ﴾ ، فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على نفسه العنت . والمراد هنا الأمة المملوكة للغير. وأما أمة الإنسان نفسه فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها ، وهى تحت ملكه لتعارض الحقوق واختلافها . والفتيات : جمع فتاة ، والعرب تقول للمملوك فتى ، وللمملوكة فتاة ، وفى الحديث الصحيح : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى » (١) .

قوله : ﴿ **والله أعلم بإيمانكم** ﴾ فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران، أى كلكم بنو آدم ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ، فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة . فربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر . والجملة اعتراضية . وقوله : ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ مبتدأ وخبر ، ومعناه : أنهم متصلون فى الأنساب ؛ لأنهم جميعًا بنو آدم ، أو متصلون فى الدين لأنهم جميعا أهل ملة واحدة ، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد . والمراد بهذا : توطئة نفوس العرب ؛ لأنهم كانوا يستهجنون أولاد الإماء ويستصغرونهم ويغضون منهم ﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن** ﴾ أى بإذن المالكين لهن ؛ لأن منافعهن لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشىء منها إلا بإذن من هى له .

قوله : ﴿ **وآتوهن أجورهن بالمعروف** ﴾ أى أدوا إليهن مهورهن بما هو بالمعروف فى الشرع، وقد استدلّ بهذا من قال: إن الأمَة أحق بمهرها من سيدها ، وإليه ذهب مالك ، وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد ، وإنما أضافها إليهن ، لأن التأدية إليهن تأدية إلى سيدهن لكونهن ماله . قوله : ﴿ **محصنات** ﴾ أى عفائف . وقرأ الكسائى « محصنات » بكسر الصاد فى جميع القرآن إلا فى قوله :﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ وقرأ الباقون بالفتح فى جميع القرآن. قوله : ﴿ **غير مسافحات** ﴾ أى غير معلنات بالزنا . والأخدان : الأخلاء ، والخِدْن والخدين : المخادن، أى المصاحب . وقيل : ذات الخدن : هى التى تزنى سرًا ، فهو مقابل

---

(١) الحديث عن أبى هريرة ، أخرجه أحمد ٢ / ٤٢٣ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٠٨ ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٩ / ١٣) .

للمسافحة ، وهى التى تجاهر بالزنا . وقيل : المسافحة المبذولة ، وذات الخدن : التى تزنى بواحد . وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا ولا تعيب اتخاذ الأخدان ثم رفع الإسلام جميع ذلك ، قال الله : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

قوله : ﴿ **فإذا أحصن** ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بضمها. والمراد بالإحصان هنا الإسلام . روى ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأنس والأسود بن يزيد وزرّ بن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء وإبراهيم النخعى والشعبى والسدى ، وروى عن عمر بن الخطاب بإسناد منقطع وهو الذى نص عليه الشافعى ، وبه قال الجمهور . وقال ابن عباس وأبو الدرداء ومجاهد وعكرمة وطاوس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم : إنه التزويج ، وروى عن الشافعى . فعلى القول الأول لا حدّ على الأمة الكافرة ، وعلى القول الثانى لا حدّ على الأمة التى لم تتزوج ، وقال القاسم وسالم : إحصانها : إسلامها وعفافها . وقال ابن جرير : إن معنى القراءتين مختلف ، فمن قرأ ﴿ **أحصن** ﴾ بضم الهمزة فمعناه التزويج ، ومن قرأ بفتح الهمزة فمعناه الإسلام . وقال قوم : إن الإحصان المذكور فى الآية هو التزوج ، ولكن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن تتزوج بالسنة ، وبه قال الزهرى . قال ابن عبد البر : ظاهر قول الله عز وجل يقتضى أنه لا حدّ على الأمَة وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن ، وكان ذلك زيادة بيان . قال القرطبى : ظهر المسلم حمى لا يستباح إلا بيقين،ولا يقين مع الاختلاف لولا ما جاء فى صحيح السنة من الجلد (١).

قال ابن كثير فى تفسيره : والأظهر ، والله أعلم ، أن المراد بالإحصان هنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه : ﴿ **ومن لم يستطع منكم طولاً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾ فالسياق كله فى الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله : ﴿ **فإذا أحصن** ﴾ أى تزوجن كما فسره به ابن عباس ومن تبعه ، قال : وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ؛ لأنهم يقولون : إن الأمة إذا زَنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكرا ، مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لا حدّ على غير المحصنة من الإماء (٢) . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، ثم ذكر أن منهم من أجاب ، وهم الجمهور ، بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم ، ومنهم من عمل على مفهوم الآية ، وقال : إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها وإنما تضرب تأديبًا . قال : وهو المحكى عن ابن عباس وإليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبو عبيد وداود الظاهرى فى رواية عنه ، فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم ، وأجابوا عن مثل حديث أبى هريرة وزيد ابن خالد ، فى الصحيحين وغيرهما ؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال : « إن زَنَت فاجلدوها ، ثم إن زَنَت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم بيعوها ولو

---

(١) القرطبى ٣ / ١٧١٤ .

(٢) ابن كثير ٢ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

بضفير» [١] بأن المراد بالجلد هنا التأديب . وهو تعسف ، وأيضًا قد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُثَرِّبْ [٢] عليها ثم إن زَنَت فليجلدها الحد » [٣] الحديث ، ولمسلم من حديث على قال : يأيها الناس ، أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زَنَت فأمرنى أن أجلدها [٤] . الحديث .

وأما ما أخرجه سعيد بن منصور وابن خزيمة والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على الأمة حد حتى تحصن بزوج فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب » فقد قال ابن خزيمة ، والبيهقى : إن رفعه خطأ والصواب وقفه [٥] .

قوله : ﴿ **فإن أتين بفاحشة** ﴾ الفاحشة هنا الزنا ﴿ **فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾ أى الحرائر الأبكار؛ لأن الثيب عليها الرجم وهو لا يتبعض . وقيل : المراد بالمحصنات هنا المزوجات ، لأن عليهن الجلد والرجم ، والرجم لا يتبعض ، فصار عليهن نصف ما عليهن من الجلد . والمراد بالعذاب هنا : الجلد ، وإنما نقص حد الإماء عن حد الحرائر لأنهن أضعف . وقيل : لأنهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر . وقيل : لأن العقوبة تجب على قدر النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب: ٣٠] . ولم يذكر الله سبحانه فى هذه الآية العبيد وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس . وكما يكون على الإماء والعبيد نصف الحد فى الزنا ، كذلك يكون عليهم نصف الحد فى القذف والشرب . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك لمن خشى العنت منكم** ﴾ إلى نكاح الإماء . والعنت : الوقوع فى الإثم ، وأصله فى اللغة : انكسار العظم بعد الجبر ثم استعير لكل مشقة ﴿ **وأن تصبروا** ﴾ عن نكاح الإماء ﴿ **خير لكم** ﴾ من نكاحهن ، أى صبركم خير لكم ؛ لأن نكاحهن يقضى إلى إرقاق الولد والغضّ من النفس .

قوله : ﴿ **يريد الله ليبين لكم** ﴾ اللام هنا هى لام كى التى تعاقب أن . قال الفراء : العرب تعاقب بين لام كى وأن فتأتى باللام التى على معنى كى فى موضع أن فى أردت وأمرت، فيقولون : أردت أن تفعل ، وأردت لتفعل ، ومنه ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ [الصف : ٨] ، ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ [الشورى : ١٥] ، ﴿ وأمرنا لنسلم

(١) مالك فى الموطأ فى الأدب (١٤) وأحمد ٤ / ١١٧ والبخارى فى البيوع (٢١٥٣) وفى العتق (٢٥٥٥) وفى الحدود (٦٨٣٧) ومسلم فى الحدود (١٤٣٣) وأبو داود فى الحدود (٤٤٦٩) والترمذى فى الحدود (١٤٣٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الحدود (٢٥٦٥) والدارمى ٢ / ١٨١ .
(٢) لا يثرِّب : لا يوبِّخها ولا يقرِّعها بالزنى بعد الضرب .
(٣) البخارى فى البيوع (٢١٥٢) وفى الحدود (٦٨٣٩) ومسلم فى الحدود (١٧٠٣ / ٣٠) .
(٤) مسلم فى الحدود (١٧٠٥ / ٣٤) وأحمد ١ / ١٥٦ والترمذى فى الحدود (١٤٤١) وقال : « حسن صحيح » .
(٥) البيهقى ٨ / ٢٤٣ .

لرب العالمين ﴾ [الأنعام : ٧١] ، ومنه :

أريد لأنْسَى ذِكْرهَا فَكَأنَّمَا تَمَثَّلُ لى لَيْلَى بِكُلِ سَبِيلِ

وحكى الزجاج هذا القول وقال : لو كانت اللام بمعنى أن لدخلت عليها لام أخرى كما تقول : جئت كى تكرمنى ، ثم تقول : جئت لكى تكرمنى ، وأنشد :

أردتُ لِكَيْما يَعْلَمُ النَّاسُ أنَّها سَرَاوِيلُ قَيْسٍ والوُفُودُ شُهُود

وقيل : اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال ، أو لتأكيد إرادة التبيين . ومفعول يبين محذوف ، أى ليبين لكم ما خفى عليكم من الخير . وقيل : مفعول يريد محذوف ، أى يريد الله ليبين لكم وبه قال البصريون ، وهو مروى عن سيبويه . وقيل: اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل المتقدم ، وهو مثل قول الفراء السابق . وقال بعض البصريين : إن قوله : ﴿ **يريد** ﴾ مؤول بالمصدر مرفوع بالابتداء مثل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . ومعنى الآية: يريد الله ليبين لكم مصالح دينكم ، وما يحل لكم وما يحرم عليكم ﴿ **ويهديكم سنن الذين من قبلكم** ﴾ أى طرقهم ، وهم الأنبياء وأتباعهم لتقتدوا بهم ﴿ **ويتوب عليكم** ﴾ أى ويريد أن يتوب عليكم ، فتوبوا إليه وتلافوا (١) ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم .

﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم** ﴾ هذا تأكيد لما قد فهم من قوله : ﴿ **ويتوب عليكم** ﴾ المتقدم . وقيل : الأول معناه : الإرشاد إلى الطاعات . والثانى : فعل أسبابها . وقيل : إن الثانى لبيان كمال منفعة إرادته سبحانه وكمال ضرر ما يريده الذين يتبعون الشهوات ، وليس المراد به مجرد إرادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد . قيل : هذه الإرادة منه سبحانه فى جميع أحكام الشرع . وقيل : فى نكاح الأمة فقط . واختلف فى تعيين المتبعين للشهوات ، فقيل : هم الزناة . وقيل : اليهود والنصارى . وقيل : اليهود خاصة . وقيل : هم المجوس ، لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون فى نكاح الأخوات من الأب ، والأول أولى . والميل : العدول عن طريق الاستواء . والمراد بالشهوات هنا ما حرمه الشرع دون ما أحله . ووصْفُ الميل بالعظم بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة نادرًا .

قوله : ﴿ **يريد الله** (٢) **أن يخفف عنكم** ﴾ بما مرّ من الترخيص لكم ، أو بكل ما فيه تخفيف عليكم ﴿**وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ عاجزًا غير قادر على ملك نفسه ، ودفعها عن شهواتها وفاء بحق التكليف فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف ، فلهذا أراد الله سبحانه التخفيف عنه .

---

(١) فى المطبوعة : « تلاقوا » ، بالقاف ، وهو تحريف والصواب بالفاء من الملافاة ، كما هو ثابت فى المخطوطة .
(٢) فى المخطوطة : « والله يريد » .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصهر سبع، ثم قرأ : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وبنات الأخت ﴾ هذا من النسب ، وباقى الآية من الصهر والسابعة ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن عمران بن حصين فى قوله : ﴿وأمهات نسائكم ﴾ قال : هى مبهمة . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : هى مبهمة إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها ، أو ماتت لم تحل له أمها . وأخرج هؤلاء إلا البيهقى عن على فى الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها ، أو ماتت قبل أن يدخل بها هل تحل له أمها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة . وأخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول : إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها ، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال فى قوله : ﴿وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم ﴾ اللاتى أريد بهما الدخول جميعا، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الزبير ؛ قال : الربيبة والأم سواء لا بأس بها إذا لم يدخل بالمرأة . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم بسند صحيح عن مالك بن أوس بن الحَدَثَان ؛ قال : كانت عندى امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لى فوجدت عليها ، فلقينى على بن أبى طالب فقال : مالك ؟ فقلت : توفيت المرأة ، فقال على: لها ابنة ؟ قلت : نعم وهى بالطائف ، قال : كانت فى حجرك ؟ قلت : لا ، قال : فانكحها ، قلت : فأين قول الله : ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم ﴾ ؟ قال : إنها لم تكن فى حجرك (٢) . وقد قدمنا قول من قال : إنه إسناد ثابت على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : الدخول : الجماع .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء ؛ قال : كنا نتحدث أن محمدًا ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة فى ذلك ، فأنزل الله : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ونزلت : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ [الأحزاب : ٤] ونزلت : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ [الأحزاب : ٤٠] (٣) .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ قال : يعنى فى النكاح . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال : ذلك فى الحرائر ، فأما المماليك فلا بأس، وأخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وابن

---

(١) البخارى فى النكاح (٥١٠٥) والبيهقى ٧ / ١٥٨ .

(٢) عبد الرزاق فى النكاح (١٠٨٣٤) وأورده ابن كثير ٢ / ٢٣٨ .

(٣) عبد الرزاق فى النكاح (١٠٨٣٧) وابن جرير ٤ / ٢٢٣ .

أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن عثمان بن عفان ؛ أن رجلا سأله عن الأختين فى ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ قال : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، وما كنت لأصنع ذلك ، فخرج من عنده فلقى رجلاً من أصحاب النبى ﷺ أراه على بن أبى طالب فسأله عن ذلك فقال: لو كان لى من الأمر شيء ثم وجدت أحدًا فعل ذلك لجعلته نكالا (١).

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى عن على ؛ أنه سئل عن رجل له أمَتان أختان، وطئ إحداهما وأراد أن يطأ الأخرى ، فقال : لا حتى يخرجها من ملكه . وقيل : فإن زوجها عبده ؟ قال : لا ، حتى يخرجها من ملكه (٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين الأمتين فكرهه ، فقيل : يقول الله : ﴿ **إلا ما ملكت أيمانكم** ﴾ فقال : وبعيرك أيضا مما ملكت يمينك (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى من طريق أبى صالح عن على بن أبى طالب ؛ قال فى الأختين المملوكتين : أحلتهما آية وحرمتهما آية ولا آمر ولا أنهى ، ولا أحل ولا أحرم، ولا أفعل أنا وأهل بيتى (٤) . وأخرج أحمد عن قيس قال : قلت لابن عباس : أيقع الرجل على المرأة وابنتها مملوكتين له ؟ فقال : أحلتهما آية وحرمتهما آية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبيهقى عن ابن عمر ؛ قال : إذا كان للرجل جاريتان أختان فغشى إحداهما فلا يقرب الأخرى حتى يخرج التى غشى من ملكه (٥) . وأخرج البيهقى عن مقاتل ابن سليمان قال : إنما قال الله فى نساء الآباء : ﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ لأن العرب كانوا ينكحون نساء الآباء ، ثم حرم النسب ، والصهر فلم يقل إلا ما قد سلف ، لأن العرب كانت لا تنكح النسب والصهر . وقال فى الأختين : ﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ لأنهم كانوا يجمعون بينهما فحرم جمعهما جميعًا إلا ما قد سلف قبل التحريم ﴿ **إن الله كان غفورا رحيما** ﴾ لما كان من جماع الأختين قبل التحريم (٦) .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول الله ﷺ بعث يوم حنين جيشًا إلى أوطاس ، فلقوا عدوا فقاتلوهم ، فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكأن ناسًا من أصحاب النبى ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم** ﴾ يقول :

---

(١) مالك فى النكاح (٣٤) والشافعى فى الأم ٥ / ٣ وابن أبى شيبة ٤ / ١٦٩، ١٧٠ والبيهقى ٧ / ١٦٣، ١٦٤ .

(٢) ابن أبى شيبة ٤ / ١٦٧ ، ١٦٨ والبيهقى ٧ / ١٦٤ .

(٣) ابن أبى شيبة ٤ / ١٦٩ وأورده ابن كثير ٢ / ٢٤٠ ، ٢٤١ وقال: « هذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف فى ذلك » وعزاه الهيثمى فى المجمع ٤ / ٢٧٢ للبزار وقال : « رجاله رجال الصحيح ، إلا أن قتادة لم يدرك ابن مسعود » .

(٤) ابن أبى شيبة ٤ / ١٦٩ والبيهقى ٧ / ١٦٤ وأبو يعلى بإسناد رجاله رجال الصحيح على ماذكره الهيثمى فى المجمع ٤ / ٢٦٩ .

(٥) ابن أبى شيبة ٤ / ١٧٠ والبيهقى ٧ / ١٦٥ .

(٦) البيهقى ٧ / ١٦٣ .

إلا ما أفاء الله عليكم (١) . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله (٣) ، وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ قال : كل ذات زوج إتيانها زنًا إلا ما سُبيت . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة والطبرانى عن على وابن مسعود فى قوله : ﴿**والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم** ﴾ قال على : المشركات إذا سُبين حلت له . وقال ابن مسعود : المشركات والمسلمات . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ قال : ذوات الأزواج . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أنس بن مالك مثله. وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود مثله.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والمحصنات**﴾ قال : العفيفة العاقلة من مسلمة أو من أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى الآية ؛ قال : لا يحل له أن يتزوج فوق الأربع ، فما زاد فهو عليه حرام كأمه وأخته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **والمحصنات من النساء**﴾ قال: يقول : انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ثم حرم ما حرم من النسب والصهر ، ثم قال: ﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ فرجع إلى أول السورة فقال : هنّ حرام أيضًا، إلا لمن نكح بصداق وسنة وشهود . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير عن عبيدة ؛ قال : أحل الله لك أربعًا فى أول السورة ، وحرم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ما ملكت يمينك . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « الإحصان إحصانان : إحصان نكاح ، وإحصان عفاف » . فمن قرأها والمحصنات بكسر الصاد فهن العفائف ، ومن قرأها : ﴿ **والمحصنات** ﴾ بالفتح فهن المتزوجات . قال ابن أبى حاتم قال أبى : هذا حديث منكر .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأحل لكم ما وراء ذلكم** ﴾ قال : ما وراء هذا النسب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : ما دون الأربع . وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : ما وراء ذات القرابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأحل لكم ما وراء ذلكم** ﴾ قال : ما ملكت أيمانكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبيدة السلمانى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد

---

(١) أحمد ٣ / ٧٢ ومسلم فى الرضاع (١٤٥٦ / ٣٣) وأبو داود فى النكاح (٢١٥٥) والترمذى فى النكاح (١١٣٢) وقال : « حديث حسن» وفى التفسير (٣٠١٦) والنسائى ٦ / ١١٠ وابن جرير ٥ / ٣ .

(٢) الطبرانى (١٢٦٣٧) وفيه أن الآية وردت فى غزوة خيبر ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٦ : « وقال رزين الجرجانى : لم أعرفه وبقية رجاله ثقات».

(٣) ابن أبى شيبة ٤ / ٢٦٥ .

فى قوله : ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ قال : غير زانين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فآتوهن أجورهن** ﴾ يقول : إذا تزوج الرجل منكم المرأة ثم نكحها مرة واحدة فقد وجب صداقها كله والاستمتاع هو النكاح (١) ، وهو قوله : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن** ﴾ .

وأخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : كانت المتعة فى أول الإسلام وكانوا يقرؤون هذه الآية : «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى » الآية . فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر ما يرى أنه يفرغ من حاجته ليحفظ متاعه ، ويصلح شأنه. حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ فنسخت الأولى فحرمت المتعة وتصديقها من القرآن ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ [المؤمنون : ٦] ، وما سوى هذا الفرج فهو حرام (٢) . وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والحاكم وصححه ؛ أن ابن عباس قرأ : «فما استمتعتم به منهم إلى أجل مسمى». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أُبىّ بن كعب أنه قرأها كذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ، أن هذه الآية فى نكاح المتعة وكذلك أخرج ابن جرير عن السدى ، والأحاديث فى تحليل المتعة ثم تحريمها ، وهل كان نسخها مرة أو مرتين ؟ مذكورة فى كتب الحديث . وقد أخرج ابن جرير فى تهذيبه وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن سعيد ابن جبير ؛ قال : قلت لابن عباس : ماذا صنعت ؟ ذهبت الركاب بفتياك وقالت فيها الشعراء . قال : وما قالوا ؟ قلت : قالوا :

أقُولُ للشَّيْخ لما طَالَ مَجْلِسه ... يَاصَاحِ هَلْ لَكَ فى فُتْيَا ابن عَبَّاسِ
هَلْ لَكَ فِى رخْصة الأعطاف آنسةٍ ... تكون مَثْواكَ حَتَّى مَصْدرِ النَّاسِ

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا والله ما بهذا أفتيت ، ولا هذا أردت ، ولا أحللتها إلا للمضطر (٣) . وفى لفظ : ولا أحللت منها إلا ما أحل الله من الميتة والدم ولحم الخنزير . وأخرج ابن جرير عن حضرمى أن رجالا كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن تدرك أحدهم العسرة، فقال الله : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة** ﴾ (٤) . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به** ﴾ قال : التراضى أن يوفى لها صداقها ثم يخيرها . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : إن وضعت لك منه شيئًا فهو سائغ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس :

(١) ابن جرير ٥ / ٩ .
(٢) البيهقى ٧ / ٢٠٦ .
(٣) البيهقى ٧ / ٢٠٥ والطبرانى ، على ما ذكره الهيثمى فى المجمع ٤ / ٢٦٨ وقال : « فيه الحجاج بن أرطاة ، وهو ثقة ، ولكنه مدلس » .
(٤) ابن جرير ٥ / ١٠ .

﴿ **ومن لم يستطع منكم طولا** ﴾ يقول : من لم يكن له سعة ﴿ **أن ينكح المحصنات** ﴾ يقول : الحرائر ﴿ **فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات** ﴾ فلينكح من إماء المؤمنين ﴿ **محصنات غير مسافحات** ﴾ يعنى : عفائف غير زوانٍ فى سر ولا عـلانية ﴿ **ولا متخذات أخدان** ﴾ يعنى: أخلاء ﴿ **فإذا أحصن** ﴾ ثم إذا تزوجت حرًا ثم زنت ﴿ **فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾ قال : من الجلد ﴿ **ذلك لمن خشى العنت منكم** ﴾ هو الزنا فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أمة إلا أن لايقدر على حرة وهو يخشى العنت ﴿ **وأن تصبروا** ﴾ عن نكاح الإماء ﴿**فهو خير لكم** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد : ﴿**ومن لم يستطع منكم طولاً** ﴾ يعنى : من لا يجد منكم غنى ﴿ **أن ينكح المحصنات** ﴾ يعنى: الحرائر ، فلينكح الأمة المؤمنة ﴿ **وأن تصبروا** ﴾ عن نكاح الإماء ﴿ **خير لكم** ﴾ وهو حلال . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه قال : مما وسع الله به على هذه الأمة ، نكاح الأمة النصرانية واليهودية وإن كان موسرًا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، والبيهقى عنه ؛ قال : لا يصلح نكاح إماء أهل الكتاب ، لأن الله يقول : ﴿ **من فتياتكم المؤمنات** ﴾ (١) . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة عن الحسن ؛ أن رسول الله ﷺ نهى أن تنكح الأمة على الحرة، والحـرة على الأمة ، ومن وجد طولاً لحرة فلا ينكح أمة (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عباس قال : لا يتزوج الحر من الإماء إلا واحدة . وأخرج ابن أبى شيبة ، عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض** ﴾ يقول : أنتم إخوة بعضكم من بعض . وأخرج ابن المنذر عن السدى ﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن**﴾ قال : بإذن مواليهن ﴿ **وآتوهن أجورهن** ﴾ قال : مهورهن . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : المسافحات : المعلنات بالزنا ، والمتخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفى ، فأنزل الله ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [الأنعام : ١٥١] وأخرج ابن أبى حاتم عن على قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **فإذا أحصن** ﴾ قال : « إحصانها إسلامها » . وقال على : اجلدوهن. قال ابن أبى حاتم : حديث منكر ، وقال ابن كثير : فى إسناده ضعف ، وفيه من لم يسم ، ومثله لا تقوم به حجة (٣) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس ؛ قال : حد العبد يفترى على الحر أربعون ، وأخرج ابن جرير عنه قال : العنت : الزنا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **ويريد الذين يتبعون الشهوات** ﴾ قال :

---

(١) يقول تعالى : ﴿ **أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ [المائدة : ٥] . قالوا : فقد أحل الله محصنات أهل الكتاب عامًا فليس لأحد أن يخص منهن أمة ولا حرة ومعنى قوله : ﴿ **من فتياتكم المؤمنات** ﴾ غير المشركات من عبدة الأصنام .

(٢) ابن أبى شيبة ٤ / ١٤٨ . (٣) ابن كثير ٢ / ٢٤٧ .

الزنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم** ﴾ يقول : فى نكاح الأمة ، وفى كل شىء فيه يسر . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم** ﴾ قال : رخص لكم فى نكاح الإماء ﴿**وخلق الإنسان ضعيفا**﴾ قال : لو لم يرخص له فيها . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: أولهن : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم**﴾ والثانية : ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾ ، والثالثة: ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ والرابعة: ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١] والخامسة : ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية [النساء : ٤٠]. والسادسة: ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ﴾ الآية [النساء : ١١٠].والسابعة :﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية [النساء : ١١٦] والثامنة :﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله ﴾ للذى عملوا من الذنوب ﴿ غفورا رحيما ﴾ [النساء : ١٥٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١) ﴾ .

الباطل : ما ليس بحق ، ووجوه ذلك كثيرة ، ومن الباطل البيوعات التى نهى عنها الشرع . والتجارة فى اللغة : عبارة عن المعاوضة (١) ، وهذا الاستثناء منقطع ، أى لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم ، أو لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالا لكم . وقوله : ﴿**عن تراض** ﴾ صفة لتجارة ، أى كائنة عن تراض ، وإنما نص الله سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات لكونها أكثرها وأغلبها ، وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ [الصف : ١٠] ، وقوله : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ [فاطر : ٢٩] .

واختلف العلماء فى التراضى ، فقالت طائفة : تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع؛ أو بأن يقول أحدهما لصاحبه : اختر ، كما فى الحديث الصحيح : « البيِّعان بالخِيارِ مَا

(١) فى المطبوعة : « المعارضة » بالراء ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

لَم يتفرقا أو يقول أحدهما لصاحبه : اخْتَرْ »[١] . وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين . وبه قال الشافعي والثورى والأوزاعى والليث وابن عيينة وإسحاق وغيرهم . وقال مالك وأبو حنيفة : تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة فيرتفع بذلك الخيار ، وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته ، وقد قرئ « تجارة » بالرفع على أن كان تامة ، وتجارة بالنصب على أنها ناقصة .

قوله : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ أى لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضًا إلا بسبب أثبته الشرع ، أو لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصى ، أو المراد: النهى عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى . ومما يدل على ذلك : احتجاج عمرو ابن العاص بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب فى غزاة ذات السلاسل ، فقرر النبى ﷺ احتجاجه ، وهو فى مسند أحمد وسنن أبى داود وغيرهما [٢] .

قوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ أى القتل خاصة أو أكل أموال الناس ظلمًا والقتل عدوانا وظلمًا ؛ وقيل : هو إشارة إلى كل ما نهى عنه فى هذه السورة. وقال ابن جرير : إنه عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد وهو قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ [النساء : ٩١] لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قُرِن به وعيد إلا من قوله: ﴿**يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم** ﴾ فإنه لا وعيد بعده إلا قوله : ﴿**ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما**﴾ والعدوان : تجاوز الحد . والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه. وقيل: إن معنى العدوان والظلم واحد، وتكريره لقصد التأكيد كما فى قول الشاعر:

وألفى قولها كذبا ومينا

وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص وقتل المرتد وسائر الحدود الشرعية وكذلك قتل الخطأ . قوله : ﴿ **فسوف نصليه نارًا** ﴾ جواب الشرط أى ندخله نارًا عظيمة وكان ذلك ، أى إصلاؤه النار ، ﴿ **على الله يسيرا** ﴾ لأنه لا يعجزه بشىء . وقرئ: « نَصليه » بفتح النون ، وروى ذلك عن الأعمش والنخعى ، وهو على هذه القراءة منقول من صلى ، ومنه شاة مصلية .

قوله : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ أى إن تجتنبوا كبائر الذنوب التى نهاكم الله عنها ﴿**نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ أى ذنوبكم التى هى صغائر ، وحمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها ، وجعل اجتنابها شرطا لتكفير السيئات . وقد اختلف أهل الأصول فى تحقيق معنى الكبائر ثم فى عددها ، فأما فى تحقيقها فقيل : إن الذنوب كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها ، كما يقال : الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر ، والقبلة المحرمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقد روى نحو

(١) البخارى فى البيوع عن حكيم بن حزام (٢٠٧٩) ، (٢٠٨٢) ، (٢١٠٨) وعن ابن عمر (٢١٠٩) ومسلم فى البيوع عن ابن عمر (١٥٣١ / ٤٣ ، ٤٤) .

(٢) أحمد ٤ / ٢٠٣ وأبو داود فى الطهارة (٣٣٤) وعلقه البخارى فى التيمم ١ / ٤٥٤ .

هذا عن الإسفراييني والجويني والقشيرى وغيرهم قالوا : والمراد بالكبائر التى يكون اجتنابها سببًا لتكفير السيئات هى الشرك ، واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه** ﴾ وعلى قراءة الجمع ، فالمراد : أجناس الكفر ، واستدلوا على ما قالوه بقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ١١٦] قالوا : فهذه الآية مقيدة لقوله تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه** ﴾ وقال ابن عباس : الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أوعذاب . وقال ابن مسعود : الكبائر : ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية . وقال سعيد بن جبير : كل ذنب نسبه الله إلى النار فهو كبيرة . وقال جماعة من أهل الأصول : الكبائر : كل ذنب رتب الله عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره ، وأما الاختلاف فى عددها فقيل : إنها سبع . وقيل : سبعون. وقيل : سبعمائة . وقيل : غير منحصرة ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، وسيأتى ما ورد فى ذلك إن شاء الله . قوله : ﴿**وندخلكم مدخلا**﴾ أى مكان دخول ، وهو الجنة ﴿ **كريما** ﴾ أى حسنًا مرضيًا ، وقد قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر والكوفيون ﴿ **مدخلاً** ﴾ بضم الميم وقرأ أهل المدينة بفتح الميم، وكلاهما اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرًا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة (١) . وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن فى الآية قال : كان الرجل يتحرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية ، فنسخ ذلك الآية التى فى النور ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ الآية [النور : ٦١] (٢). وأخرج ابن ماجة وابن المنذر عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما البيع عن تراض » (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح وعكرمة فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ قالا : نهاهم عن قتل بعضهم بعضا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبى رباح نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدى ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ قال : أهل دينكم (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما** ﴾ يعنى : متعمدًا اعتداء بغير حق ﴿ **وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ يقول : كان عذابه على الله

(١) الطبرانى (١٠٠٦١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٦ : « رواه الطبرانى ورجاله ثقات » .
(٢) ابن جرير ٥ / ٢٠ .
(٣) ابن ماجة فى التجارات (٢١٨٥) وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله موثقون ورواه ابن حبان فى صحيحه » .
(٤) عند ابن جرير ٥ / ٢٣ أهل ملتكم .

هينًا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أرأيت قوله تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارًا** ﴾ فى كل ذلك أم فى قوله : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ ؟ قال : بل فى قوله : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : هان ما سألكم ربكم : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس ؛ قال : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، وقد ذكرت الطَّرْفة : يعنى النظرة ، وأخرج ابن جرير عنه قال : كل شيء عصى الله فيه فهو كبيرة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : كل ما وعد الله عليه النار كبيرة . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الشعب عنه قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ما قدمنا عنه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن الكبائر أسبع هى ؟ قال : هى إلى سبعمائة أقرب منه إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار [(١)] . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة ، وليس بكبيرة ما تاب عنه العبد .

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات » ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » [(٢)] ، وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بَكْرَة قال : قال النبى ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يارسول الله، قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور» ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [(٣)] . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عمرو عن النبى ﷺ ؛ قال :« الكبائر: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ـ شك شعبة ـ واليمين الغموس » [(٤)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » [(٥)] .

(١) ابن جرير ٥ / ٢٧، والبيهقى فى الشعب (٢٩٤) .
(٢) البخارى فى الوصايا (٢٧٦٦) وفى الحدود (٦٨٥٧) ومسلم فى الإيمان (٨٩ / ١٤٥) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٤) والنسائى ٦ / ٢٥٦ .
(٣) أحمد ٥ / ٣٨ والبخارى فى الشهادات (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٨٧ / ١٤٣) والترمذى فى الشهادات (٢٣٠١) وقال : « حسن صحيح » .
(٤) أحمد ٢ / ٢٠١ والبخارى فى الديات (٦٨٧٠) والترمذى فى التفسير (٣٠٢١) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى ٧ / ٨٩ .
(٥) أحمد ٢ / ٢١٦ والبخارى فى الأدب (٥٩٧٣) ومسلم فى الإيمان (١٤٦ / ٩٠) وأبو داود فى الأدب (٥١٤١) .

والأحاديث فى تعداد الكبائر وتعيينها كثيرة جدا ، فمن رام الوقوف على ما ورد فى ذلك ، فعليه بكتاب الزواجر فى الكبائر ، فإنه قد جمع فأوعى .

واعلم أنه لابد من تقييد ما فى هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائى وابن ماجة وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة وأبى سعيد ، أن النبى ﷺ جلس على المنبر ثم قال : « والذى نفسى بيده ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويؤدى الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة ، حتى إنها لتَصْفِق » ، ثم تلا : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ (١) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ، قال : إن فى سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها :قوله تعالى ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**﴾ الآية. وقوله:﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ الآية[النساء : ٤٠] ، وقوله :﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به﴾ الآية [النساء :٤٨] وقوله :﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ الآية [النساء : ٦٤] وقوله: ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ الآية [النساء: ١١٠] .

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾.

قوله : ﴿ **ولا تتمنوا** ﴾ التمنى نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل ، كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضى وفيه النهى عن أن يتمنى الإنسان ما فضَّل الله به غيره من الناس عليه ، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التى قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته وحكمته البالغة ، وفيه أيضا نوع من الحسد المنهى عنه إذا صحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير . وقد اختلف العلماء

---

(١) النسائى ٥ / ٨ ، ٩ ولم أجده فى سنن ابن ماجة ولا عزاه إليه المزى فى التحفة ، وابن جرير ٥ / ٢٥ ، ٢٦ وابن خزيمة فى الصلاة (٣١٥) وابن حبان فى فضل الصلوات الخمس (١٧٤٥) وصححه الحاكم ٢ / ٢٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . والبيهقى فى سننه ١٠ / ١٨٧ .

فى الغبطة هل تجوز أم لا ؟ وهى أن يتمنى أن يكون به حال مثل حال صاحبه من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه ، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ، واستدلوا بالحديث الصحيح : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » (١) وقد بوب عليه البخارى : باب الاغتباط فى العلم والحكم (٢) . وعموم لفظ الآية يقتضى تحريم تمنى ما وقع به التفضيل ، سواء كان مصحوبًا بما يصير به من جنس الحسد أم لا ، وما ورد فى السنة من جواز ذلك فى أمور معينة يكون مخصصا لهذا العموم ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله : ﴿ للرجال نصيب ﴾ إلخ فيه تخصيص بعدم التعميم ، ورجوع إلى ما يتضمنه سبب نزول الآية من أن أم سلمة قالت : يا رسول الله ، يغزو الرجال ولا نغزى ، ولا نقاتل فنستشهد ، وإنما لنا نصف الميراث . فنزلت، أخرجه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى ، وقد روى نحو هذا السبب من طرق بألفاظ مختلفة (٣) . والمعنى فى الآية : أن الله جعل لكل من الفريقين نصيبًا على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته ، وعبَّر عن ذلك المجعول لكل فريق من فريقى النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا ، على طريق الاستعارة التبعية ، شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه . قال قتادة: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب والعقاب وللنساء كذلك. وقال ابن عباس : المراد بذلك الميراث ، والاكتساب على هذا القول بمعنى ما ذكرنا . قوله : ﴿واسألوا الله من فضله ﴾ عطف على قوله : ﴿ ولا تتمنوا ﴾ وتوسيط التعليل بقوله: ﴿للرجال نصيب ﴾ الخ بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير ما تضمنه النهى ، وهذا الأمر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه من فضله كما قاله جماعة من أهل العلم .

قوله : ﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ أى جعلنا لكل إنسان ورثة موالى يلون ميراثه ، فـ « لكل » مفعول ثان قدم على الفعل لتأكيد الشمول ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، أى ليتبع كل أحد ما قسم الله له من الميراث ، ولا يتمنى ما فضل الله به غيره عليه . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بقوله بعدها : ﴿ والذين عاقدت(٤) أيمانكم ﴾ وقيل : العكس . كما روى ذلك ابن جرير . وذهب الجمهور إلى أن الناسخ لقوله: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ قوله تعالى:﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾

(١) الحديث عن ابن عمر ، أخرجه أحمد ٢ / ٩ والبخارى فى العلم (٧٣) وفى التوحيد (٧٥٢٩) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٩) .

(٢) انظر : فتح البارى ١ / ١٦٥ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠٢٢) وقال : « حديث مرسل » وابن جرير ٥ / ٣٠ ، ٣١ وصححه الحاكم ٢ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩ / ٢١ .

(٤) قال أبو جعفر : عقدت وعاقدت ، إنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان فى قراءة أمصار المسلمين بمعنى واحد.

[الأنفال: ٧٥] والموالى :جمع مولى ، وهو يطلق على المعتِق ، والمعتَق ، والناصر ، وابن العم والجار. قيل : والمراد هنا : العصبة ، أى ولكل جعلنا عصبة يرثون ما أبقت الفرائض . قوله : ﴿والذين عاقدت أيمانكم ﴾ المراد بهم موالى الموالاة : كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل، أى يحالفه فيستحق من ميراثه نصيبًا ، ثم ثبت فى صدر الإسلام بهذه الآية ، ثم نسخ بقوله : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وقراءة الجمهور : ﴿ عاقدت ﴾ وروى عن حمزة أنه قرأ « عقَّدت » بتشديد القاف على التكثير ، أى والذين عقدت لهم أيمانكم الحلف ، أو عقدت عهودهم أيمانكم ، والتقدير على قراءة الجمهور : والذين عاقدتهم أيمانكم فآتوهم نصيبهم ، أى ما جعلتموه لهم بعقد الحلف .

قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ هذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان العلة التى استحق بها الرجال الزيادة ، كأنه قيل : كيف استحق الرجال ما استحقوا مما لم تشاركهم فيه النساء ؟ فقال : ﴿الرجال قوامون ﴾ إلخ والمراد: أنهم يقومون بالذب عنهن كما تقوم الحكام والأمراء بالذب عن الرعية (١) ، وهم أيضا يقومون بما يحتجن إليه من النفقة والكسوة والمسكن ، وجاء بصيغة المبالغة فى قوله: ﴿ قوامون ﴾ ليدل على أصالتهم فى هذا الأمر ، والباء فى قوله : ﴿ بما فضل الله ﴾ للسببية ، والضمير فى قوله:﴿ بعضهم على بعض ﴾ للرجال والنساء ، أى إنما استحقوا هذه المزية لتفضيل الله للرجال على النساء بما فضلهم به من كون فيهم الخلفاء والسلاطين والحكام والأمراء والغزاة ، وغير ذلك من الأمور . قوله: ﴿ وبما أنفقوا ﴾ أى بسبب ما أنفقوا من أموالهم ، و« ما » مصدرية أو موصولة وكذلك هى فى قوله : ﴿ بما فضل الله ﴾ « ومن » تبعيضية ، والمراد : ما أنفقوه فى الإنفاق على النساء وبما دفعوه فى مهورهن من أموالهم ، وكذلك ما ينفقونه فى الجهاد ، وما يلزمهم فى العَقَل (٢) . وقد استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته وكسوتها ، وبه قال مالك والشافعى وغيرهما .

قوله : ﴿ فالصالحات ﴾ أى من النساء ﴿ قانتات ﴾ أى مطيعات لله قائمات بما يجب عليهن من حقوق الله وحقوق أزواجهن ﴿ حافظات للغيب ﴾ أى لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن من حفظ نفوسهن ، وحفظ أموالهم ، و « ما» فى قوله : ﴿ بما حفظ الله ﴾ مصدرية ، أى بحفظ الله . والمعنى : أنهن حافظات لغيب أزواجهن بحفظ الله لهن ومعونته وتسديده ، أو حافظات له بما استحفظهن من أداء الأمانة إلى أزواجهن على الوجه الذى أمر الله به . أو حافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الأزواج فى شأنهن من حسن العشرة ، ويجوز أن تكون « ما » موصولة والعائد محذوف . وقرأ أبوجعفر : « بما حفظ الله » بنصب الاسم الشريف ، والمعنى بما حفظن الله ، أى حفظن أمره أو حفظن دينه ، فحذف الضمير الراجع إليهن للعلم به ، و« ما » على هذه القراءة مصدرية أو موصولة ، كالقراءة الأولى ، أى

(١) فى المطبوعة : « الرعاية » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) العقل : الدية ، مفرد العقول .

بحفظهن الله ، أو بالذى حفظن الله به .

قوله : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ هذا خطاب للأزواج ، قيل : الخوف هنا على بابه، وهو حالة تحدث فى القلب عند حدوث أمر مكروه ، أو عند ظن حدوثه . وقيل : المراد بالخوف هنا العلم . والنشوز : العصيان . وقد تقدم بيان أصل معناه فى اللغة . قال ابن فارس: يقال نشزت المرأة : استعصت على بعلها ، ونشز بعلها عليها : إذا ضربها وجفاها . ﴿فعظوهن ﴾ أى ذكروهن بما أوجبه الله عليهن من الطاعة وحسن العشرة ، ورغبوهن ورهبوهن. ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ يقال : هجره ، أى تباعد عنه ، والمضاجع جمع مضجع ، وهو محل الاضطجاع ، أى تباعدوا عن مضاجعتهن ولا تدخلوهن تحت ما تجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب . وقيل : هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع. وقيل : هو كناية عن ترك جماعها . وقيل : لا تبيت معه فى البيت الذى يضطجع فيه ﴿ واضربوهن ﴾ أى ضربًا غير مبرح . وظاهر النظم القرآنى أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز . وقيل : إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ ، فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر . وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب ﴿ فإن أطعنكم ﴾ كما يجب وتركن النشوز . ﴿ فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ (١) أى لا تتعرضوا لهن بشىء مما يكرهن لا بقول ولا بفعل . وقيل المعنى : ولا تكلفوهن الحب لكم فإنه لا يدخل تحت اختيارهن ، ﴿ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب، أى وإن كنتم تقدرون عليهن فاذكروا قدرة الله عليكم ، فإنها فوق كل قدرة ، والله بالمرصاد لكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ يقول : لا يتمنى الرجل فيقول : ليت أن لى مال فلان وأهله ، فنهى الله سبحانه عن ذلك ، ولكن يسأل الله من فضله ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾ يعنى : مما ترك الوالدان والأقربون للذكر مثل حظ الأنثيين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أن سبب نزول الآية أن النساء قلن : لو جعل أنصباؤنا فى الميراث كأنصباء الرجال ؟ وقال الرجال : إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث (٢) . وقد تقدم ذكر سبب النزول (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ قال: ليس بعرض الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ قال: العبادة ليس من أمر

---

(١) فلا تبغوا : لا تلتمسوا ولا تطلبوا من قول القائل : بغيت الضالة إذا التمستها ، ومنه قول الشاعر فى صفة الموت:

بغاله وما تبغيه حتى وجدته ... كأنك قد واعدته أمس موعدا

يعنى طلبك وما تطلبه .

(٢) ابن جرير ٥ / ٣١ وإسناده مرسل .

(٣) سبق تخريج حديث أم سلمة .

الدنيا . وأخرج الترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » . قال الترمذى: كذا رواه حماد بن واقد وليس بالحافظ ، ورواه أبو نعيم عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبى ﷺ وحديث أبى نعيم أشبه أن يكون أصح [١] ، وكذا رواه ابن جرير وابن مردويه ، ورواه أيضا ابن مردويه من حديث ابن عباس.

وأخرج البخارى وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس: ﴿ **ولكل جعلنا موالى** ﴾ قال : ورثة ، ﴿ **والذين عاقدت أيمانكم** ﴾ قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه ، للأخوة التى آخى النبى ﷺ ، فلما نزلت :﴿ **ولكل جعلنا موالى** ﴾ نسخت ثم قال : ﴿**والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصى له. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ **ولكل جعلنا موالى** ﴾ قال : عصبة ، ﴿ **والذين عاقدت أيمانكم** ﴾ قال : كان الرجلان أيهما مات ورثه الآخر ، فأنزل الله : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ [الأحزاب : ٦] يقول : إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت وهو المعروف [٢] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل يقول : ترثنى وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله ﷺ : « كل حلف كان فى الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا عقد ولا حلف فى الإسلام » [٣] فنسختها هذه الآية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ [الأنفال : ٧٥] ، وأخرج أبو داود وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عنه فى الآية ؛ قال : كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر ، فنسخ ذلك فى الأنفال ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ [٤] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن ؛ أن رجلا من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص ، فجعل النبى ﷺ بينهما القصاص ، فنزل : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ [طه : ١١٤] . فسكت رسول الله ﷺ ونزل القرآن : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : « أردنا أمرًا وأراد الله غيره » [٥] . وأخرج ابن مردويه عن على نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ يعنى : أمراء عليهن . أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله ﴿ **بما فضل الله** ﴾ فضله

---

(١) الترمذى فى الدعوات (٣٥٧١) . (٢) ابن جرير ٥ / ٣٤ .
(٣) يشهد له الحديث الصحيح من رواية جبير بن مطعم عن النبى ﷺ مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٣٠ / ٢٠٦).
(٤) أبو داود فى الفرائض (٢٩٢١) وابن جرير ٥ / ٣٤ والبيهقى ٦ / ٢٦٢ . (٥) ابن جرير ٥ / ٣٧ .

عليها بنفقته وسعيه ﴿ **فالصالحات قانتات** ﴾ قال : مطيعات ﴿ **حافظات للغيب** ﴾ يعنى: إذا كن كذا فأحسنوا إليهن . وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر عن قتادة : ﴿**حافظات للغيب**﴾ قال: حافظات للغيب بما استودعهن الله من حقه . وحافظات لغيب أزواجهن . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ﴿ **حافظات للغيب** ﴾ للأزواج . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : ﴿**واللاتى تخافون نشوزهن** ﴾ قال: تلك المرأة تنشز وتستخف بحق زوجها ، ولا تطيع أمره ، فأمره الله أن يعظها ويذكرها بالله ويعظم حقه عليها ، فإن قبلت وإلا هجرها فى المضجع ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها . وذلك عليها تشديد ، فإن رجعت وإلا ضربها ضربًا غير مبرح ، ولا يكسر لها عظما ، ولا يجرح بها جرحًا ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً** ﴾ يقول : إذا أطاعتك فلا تتجنى عليها العلل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿**واهجروهن فى المضاجع** ﴾ قال : لا يجامعها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء : أنه سأل ابن عباس عن الضرب غير المبرح ، فقال : بالسواك ونحوه . وقد أخرج الترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة ، عن عمرو بن الأحوص ؛ أنه شهد خطبة الوداع مع رسول الله ﷺ ، وفيها أنه قال النبى ﷺ : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان (١) عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** ﴾ » (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زَمْعة قال : قال : رسول الله ﷺ : «أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يجامعها فى آخر اليوم ؟ » (٣) .

﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)** ﴾ .

قد تقدم معنى الشقاق فى البقرة ، وأصله أن كل واحد منهم يأخذ شقا غير شق صاحبه ، أى ناحية غير ناحيته ، وأضيف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى :

---

(١) فى المطبوعة ص ١٥٤٧ : « عوار» ، بالراء ، والصواب ما أثبتناه بالنون ، كما فى المخطوطة ، وكما فى مصادر التخريج التالية ، وعوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة ، فكأن المرأة لما صارت فى عصمة الرجل أشبهت الأسيرة التى صار أمرها بيد مَن تولاها .

(٢) الترمذى فى الرضاع (١١٦٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى كتاب عشرة النساء (٩١٤٠/١) بمعناه وابن ماجة فى النكاح (١٨٥١) .

(٣) البخارى فى النكاح (٥٢٠٤) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٥ / ٤٩) والترمذى فى التفسير (٣٣٤٣) وقال : «حسن صحيح » ، وابن ماجة فى النكاح (١٩٨٣) . وعندهم لفظ : « يجلد » بدل « يضرب » .

﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ : ٣٣] وقوله : ياسارق الليلة أهل الدار . والخطاب للأمراء والحكام والضمير فى قوله : ﴿ **بينهما** ﴾ للزوجين لأنه قد تقدم ذكر ما يدل عليهما ، وهو ذكر الرجال والنساء ﴿ **فابعثوا** ﴾ إلى الزوجين ﴿ **حكمًا** ﴾ يحكم بينهما ممن يصلح لذلك عقلاً ودينًا وإنصافًا ، وإنما نص الله سبحانه على أن الحكمين يكونان من أهل الزوجين لأنهما أقعد بمعرفة أحوالهما ، وإذا لم يوجد من أهل الزوجين من يصلح للحكم بينهما كان الحكمان من غيرهم ، وهذا إذا أشكل أمرهما ولم يتبين من هو المسىء منهما ؛ فأما إذا عرف المسىء فإنه يؤخذ لصاحبه الحق منه ، وعلى الحكمين أن يسعيا فى إصلاح ذات البين جهدهما ، فإن قدرا على ذلك عملا عليه ، وإن أعياهما إصلاح حالهما ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم فى البلد ، ولا توكيل بالفرقة بين الزوجين ، وبه قال مالك والأوزاعى وإسحاق ، وهو مروى عن عثمان وعلى وابن عباس والشعبى والنخعى والشافعى ، وحكاه ابن كثير عن الجمهور . قالوا : لأن الله قال : ﴿ **فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها** ﴾ وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لاوكيلان ولا شاهدان . وقال الكوفيون وعطاء وابن زيد والحسن ، وهو أحد قولى الشافعى : إن التفريق هو إلى الإمام أو الحاكم فى البلد لا إليهما ، ما لم يوكلهما الزوجان أو يأمرهما الإمام والحاكم ؛ لأنهما رسولان شاهدان فليس إليهما التفريق ، ويرشد إلى هذا قوله : ﴿ **إن يريدا** ﴾ أى الحكمان ﴿ **إصلاحا** ﴾ بين الزوجين ﴿**يوفق الله بينهما** ﴾ لاقتصاره على ذكر الإصلاح دون التفريق . ومعنى ﴿ **إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما**﴾ أى يوقع الموافقة بين الزوجين حتى يعودا إلى الألفة وحسن العشرة . ومعنى الإرادة : خلوص نيتهما لصلاح الحال بين الزوجين ، وقيل : إن الضمير فى قوله: ﴿ **يوفق الله بينهما** ﴾ للحكمين كما فى قوله : ﴿ **إن يريدا إصلاحا** ﴾ أى يوفق بين الحكمين فى اتحاد كلمتهما وحصول مقصودهما ؛ وقيل : كلا الضميرين للزوجين أى : إن يريدا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق ، وإذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما** ﴾ قال : هذا الرجل والمرأة إذا تفاسد الذى بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلا صالحًا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسىء ، فإن كان الرجل هو المسىء حجبوا امرأته عنه وقسروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هى المسيئة قسروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ذلك ثم مات أحدهما فإن الذى رضى يرث الذى كره ولا يرث الكاره الراضى ﴿ **إن يريدا إصلاحا** ﴾ قال : هما الحكمان ﴿ **يوفق الله بينهما**﴾ وكذلك كل مصلح يوفقه للحق والصواب . وأخرج الشافعى فى الأم، وعبد الرزاق فى

المصنف ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن عَبِيدة السَّلْمانى فى هذه الآية ؛ قال :جاء رجل وامرأة إلى على ومعهما فئام من الناس فأمرهم علىٌّ فبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، ثم قال للحكمين : تدريان ما عليكما ؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا ، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا ، قالت المرأة : رضيت بكتاب الله بما علىَّ فيه ولى ؛ وقال الرجل : أما الفرقة فلا ، فقال : كذبت والله حتى تقر مثل الذى أقرت به [١] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ قال : بُعِثْتُ أنا ومعاوية حكمين ، فقيل لنا : إن رأيتما أن تجمعا جمعتما ، وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما . والذى بعثهما عثمان . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن الحسن ؛ قال : إنما يبعث الحكمان ليصلحا ويشهدا على الظالم بظلمه ، فأما الفرقة فليست بأيديهما . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج البيهقى عن على قال : إذا حكم أحد الحكمين ولم يحكم الآخر، فليس حكمه بشىء حتى يجتمعا .

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ .

قد تقدم بيان معنى العبادة . و﴿ **شيئاً** ﴾ إما مفعول به ، أى لا تشركوا به شيئا من الأشياء من غير فرق بين حى وميت، وجماد وحيوان ، وإما مصدر ، أى لا تشركوا به شيئا من الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر ، والواضح والخفى . وقوله :﴿ **إحسانا**﴾ مصدر لفعل محذوف ، أى أحسنوا بالوالدين إحسانا . وقرأ ابن أبى عبْلة بالرفع، وقد دل ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله والنهى عن الإشراك به على عظم حقهما ، ومثله ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾ [لقمان : ١٤] فأمر سبحانه بأن يشكرا معه . قوله : ﴿**وبذى القربى** ﴾ أى صاحب القرابة ، وهو من يصح إطلاق اسم القربى عليه وإن كان بعيدا. ﴿ **واليتامى والمساكين** ﴾ قد تقدم تفسيرهم والمعنى وأحسنوا بذى القربى إلى آخر ما هو مذكور فى هذه الآية . ﴿ **والجار ذى القربى** ﴾ أى القريب جواره . وقيل : هومن له مع الجوار فى الدار قرب فى النسب ﴿ **والجار الجنب** ﴾ المجانب وهو مقابل للجار ذى القربى ، والمراد من يصدق عليه مسمى الجوار مع كون داره بعيدة[٢] ، وفى ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان

(١) الشافعي فى الأم ٥ / ١٩٥ وقال : « حديث على ثابت عندنا » وعبد الرزاق فى باب الحكمين (١١٨٨٣) وابن جرير ٥ / ٤٦ والبيهقى ٧/ ٣٠٥ مختصرا .

(٢) والجنب فى كلام العرب : البعيد ، كما قال أعشى بنى قيس :

أتيت حريثا زائرا عن جنابة ... فكان حريث فى عطائى جامدا

راجع : ديوانه ٤٩ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١٢٦ والكامل ٢ / ٢٦ .

إليهم سواء كانت الديار متقاربة أو متباعدة ، وعلى أن الجوار حرمة مرعية مأمور بها . وفيه رد على من يظن (١) أن الجار مختص بالملاصق ، دون من بينه وبينه حائل ، أو مختص بالقريب دون البعيد . وقيل : إن المراد بالجار الجنب هنا هو الغريب . وقيل : هو الأجنبى الذى لا قرابة بينه وبين المجاور له ، وقرأ الأعمش والمفضل : « والجار الجَنْب » بفتح الجيم وسكون النون ، أى ذى الجنب ، وهو الناحية ، وأنشد الأخفش :

الناس جنب والأمير جنب

وقيل : المراد بالجار ذى القربى : المسلم ، وبالجار الجنب : اليهودى والنصرانى . وقد اختلف أهل العلم فى المقدار الذى يصدق عليه مسمى الجوار ويثبت لصاحبه الحق ، فروى عن الأوزاعى والحسن أنه إلى حد أربعين دارًا من كل ناحية ، وروى عن الزهرى نحوه . وقيل : من سمع إقامة الصلاة . وقيل : إذا جمعتهما محلة . وقيل : من سمع النداء . والأولى أن يرجع فى معنى الجار إلى الشرع ، فإن وجد فيه ما يقتضى بيانه ، وأن يكون جارًا إلى حد كذا من الدور ، أو من مسافة الأرض ، كان العمل عليه متعينًا ، وإن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو عرفًا . ولم يأت فى الشرع ما يفيد أن الجار هو الذى بينه وبين جاره مقدار كذا ، ولا ورد فى لغة العرب أيضًا ما يفيد ذلك ، بل المراد بالجار فى اللغة : المجاور ، ويطلق على معان . قال فى القاموس : والجار المجاور ، والذى أجرته من أن يظلم والمجير والمستجير ، والشريك فى التجارة ، وزوج المرأة وهى جارته، وفرج المرأة ، وما قرب من المنازل والإست كالجارة ، والقاسم والحليف والناصر ، انتهى . قال القرطبى فى تفسيره: وروى أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: إنى نزلت محلة قوم ، وإن أقربهم إلى جوارًا أشدهم لى أذى ، فبعث النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليا يصيحون على أبواب المساجد : « ألا إن أربعين دارًا جار ، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»(٢). انتهى . ولو ثبت هذا لكان مغنيا عن غيره ، ولكنه رواه كما ترى من غير عزو له إلى أحد كتب الحديث المعروفة ، وهو إن كان إماما فى علم الرواية ، فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند مذكور ، ولا نقل عن كتاب مشهور ، ولا سيما وهو يذكر الواهيات كثيرا كما يفعل فى تذكرته ، وقد ورد فى القرآن ما يدل على أن المساكنة فى مدينة مجاورة ، قال الله تعالى : ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ إلى قوله : ﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ [الأحزاب : ٦٠] فجعل اجتماعهم فى المدينة جوارًا . وأما الأعراف فى مسمى الجوار فهى تختلف باختلاف أهلها، ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة، واصطلاحات متواضعة.

قوله : ﴿ **والصاحب بالجنب** ﴾ قيل : هو الرفيق فى السفر ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك . وقال على بن أبى طالب وابن مسعود وابن أبى ليلى : هو

---

(١) فى المطبوعة : « وفيه رد من على يظن » وهو تحريف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) القرطبى ٥ / ١٢١ .

الزوجة . وقال ابن جريج : هو الذى يصحبك ويلزمك رجاء نفعك . ولا يبعد أن تتناول الآية جميع ما فى هذه الأقوال مع زيادة عليها ، وهو كل من صدق عليه أنه صاحب بالجنب ، أى يجنبك كمن يقف بجنبك فى تحصيل علم أو تعلم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك . قوله : ﴿وابن السبيل﴾ قال مجاهد : هو الذى يجتاز بك مارًا ، والسبيل الطريق ، فنسب المسافر إليه لمروره عليه ولزومه إياه ، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر فإن على المقيم أن يحسن إليه . وقيل : هو المنقطع به . وقيل : هو الضيف . قوله : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ أى وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم إحسانًا ، وهم العبيد والإماء ، وقد أمر النبى ﷺ بأنهم يَطْعَمون مما يَطْعَمُ مالكهم ويلبسون مما يلبس [١] . والمختال ذو الخيلاء وهو الكبر والتيه [٢] ، أى لا يحبُّ من كان متكبرًا تائها على الناس مفتخرًا عليهم . والفخر : المدح للنفس والتطاول وتعديد المناقب ، وخص هاتين الصفتين ؛ لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة مما ندب الله إليه فى هذه الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿والجار ذى القربى ﴾ يعنى : الذى بينك وبينه قرابة ﴿ والجار الجنب﴾ يعنى : الذى ليس بينك وبينه قرابة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن نوف البكالى [٣] قال : الجار ذى القربى : المسلم ، والجار الجنب : اليهودى والنصرانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قال : الرفيق فى السفر . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ومجاهد مثله . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن زيد ابن أسلم ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قال : هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر ، وامرأتك التى تضاجعك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على ؛ قال: هو المرأة . وأخرج هؤلاء والطبرانى عن ابن مسعود مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ قال : مما خوّلك الله فأحسن صحبته ، كل هذا أوصى الله به . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه ، وقد ورد مرفوعا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى فى الإيمان (٣٠) ومسلم فى الأيمان (١٦٦١ / ٣٨) عن المعروربن سويد .

(٢) والمختال : المفتعل من قولك : خال الرجال فهو يخول خولا وخالا ومنه قول الشاعر :

فإن كنت سيدنا سدتنا   وإن كنت للخال فاذهب فَخل

راجع : حماسة أبى تمام ١ / ١٣٣ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٢٧ واللّسان ١١ / ٢٢٨ .

(٣) نوف : هو نوف بن فضالة الحميرى البكالى كان ثقة راوية للقصص وهو ابن امرأة كعب الأحبار ، مات ما بين التسعين إلى المائة . مترجم فى التهذيب .

فى بر الوالدين (١) وفى صلة القرابة (٢) ، وفى الإحسان إلى اليتامى (٣) ، وفى الإحسان إلى الجار (٤) ، وفى القيام بما يحتاجه المماليك (٥) أحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا ، وهكذا ورد فى ذم الكبر (٦) ، والاختيال (٧) ، والفخر (٨) ، ما هو معروف .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **الذين يبخلون** ﴾ هم فى محل نصب بدلاً من قوله : ﴿ **من كان مختالا** ﴾ أو على الذم ، أو فى محل رفع على الابتداء والخبر مقدر ، أى لهم كذا وكذا من العذاب ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بدلا من الضمير المستتر فى قوله : ﴿ **مختالا فخورا** ﴾ ويجوز أن يكون منصوبًا على تقدير أعنى ، أو مرفوعًا على الخبر ، والمبتدأ مقدر ، أى هم الذين يبخلون ، والجملة فى محل نصب على البدل . والبخل المذموم فى الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله ، وهؤلاء المذكورون فى هذه الآية ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذى هو أشر خصال الشر ما هو أقبح منه ، وأدل على سقوط نفس فاعله ، وبلوغه فى الرذالة إلى غايتها ، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم ، وكتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله ، ﴿**يأمرون الناس بالبخل**﴾ كأنهم يجدون فى صدورهم من جود غيرهم بماله حرجًا ومضاضة ، فلا كثر فى عباده من أمثالكم هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها فى مواضعه ، فما بالكم بخلتم بأموال غيركم ؟ مع أنه لا يلحقكم فى ذلك ضرر ، وهل هذا إلا غاية اللوم

---

(١) البخارى فى الجهاد (٣٠٠٤) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٤٨ ـ ٢٥٥٢ / ١ ـ ١٣) .
(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٦١) ومسلم فى الزكاة (٩٩٩ / ٤٢) (٩٩٩ / ٤٤) .
(٣) البخارى فى الأدب (٦٠٠٥) عن سهل بن سعد ، ومسلم فى الزهد (٢٩٨٣ / ٤٢) عن أبى هريرة .
(٤) البخارى فى الأدب (٦٠١٥) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٢٥ / ١٤١) عن ابن عمر رضى الله عنهما .
(٥) تقدم تخريجه .
(٦) البخارى فى الأدب (٦٠٧١) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٣ / ٤٦) عن حارثة بن وهب الخزاعى .
(٧) البخارى فى اللباس (٥٧٨٨) عن أبى هريرة .
(٨)مسلم فى الجنائز (٩٣٤ / ٢٩) عن أبى مالك الأشعرى .

ونهاية الحمق والرقاعة وقبح الطباع وسوء الاختيار . وقد تقدم اختلاف القراءات فى البخل . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية اليهود فإنهم جمعوا بين الاختيال ، والفخر ، والبخل بالمال ، وكتمان ما أنزل الله فى التوراة. وقيل : المراد بها: المنافقون ، ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك وأكثر شمولاً وأعم فائدة .

قوله : ﴿ **والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **الذين يبخلون** ﴾ ووجه ذلك أن الأولين قد فرطوا بالبخل ، وبأمر الناس به ، وبكتم ما آتاهم الله من فضله ، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم فى غير مواضعها لمجرد الرياء والسمعة كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم ، ويتطاول على غيره بذلك ، ويشمخ بأنفه عليه ، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذى يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان ﴿ **ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينا** ﴾ [1] والقرين : المقارن وهو الصاحب والخليل . والمعنى : من قبل من الشيطان فى الدنيا فقد قارنه فيها ، أو فهو قرينة فى النار فساء الشيطان قرينا ﴿**وماذا عليهم** ﴾ أى على هذه الطوائف ﴿ **لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله** ﴾ ابتغاء لوجهه وامتثالا لأمره ، أى وماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك .

قوله : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ المثقال : مفعال من الثقل كالمقدار من القدر . وهو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف ، أى لا يظلم شيئًا مثقال ذرة . والذرة واحدة الذر وهى النمل الصغار . وقيل : رأس النملة . وقيل : الذرة الخردلة . وقيل : كل جزء من أجزاء الهباء الذى يظهر فيما يدخل الشمس من كوة أو غيرها ذرة . والأول : هو المعنى اللغوى الذى يجب حمل القرآن عليه ، والمراد من الكلام : أن الله لا يظلم كثيرًا ولا قليلاً ، أى لا يبخسهم من ثواب أعمالهم ، ولا يزيد فى عقاب ذنوبهم وزن ذرة ، فضلا عما فوقها . قوله : ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ قرأ أهل الحجاز : « حسنة » بالرفع ، وقرأ من عداهم بالنصب، والمعنى على القراءة الأولى : إن توجد حسنة ، على أن كان هى التامة لا الناقصة، وعلى القراءة الثانية : إن تك فعلته حسنة يضاعفها . وقيل : إن التقدير : إن تك مثقال الذرة حسنة ، وأنث ضمير المثقال لكونه مضافا إلى المؤنث ، والأول أولى ، وقرأ الحسن: « نضاعفها » بالنون وقرأ الباقون بالياء ، وهى الأرجح لقوله: ﴿ **ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾ وقد تقدم الكلام فى المضاعفة ، والمراد : مضاعفة ثواب الحسنة .

قوله : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد** ﴾ كيف : منصوبة بفعل مضمر كما هو رأى سيبويه ، أو محلها رفع على الابتداء كما هو رأى غيره والإشارة بقوله : ﴿ **هؤلاء** ﴾ إلى الكفار. وقيل: إلى كفار قريش خاصة. والمعنى: فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا وهذا الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع .

---

(١) وإنما نصب « القرين » لأن فى ﴿ ساء ﴾ ذكرا من الشيطان كما قال جل ثناؤه : ﴿ **بئس للظالمين بدلا** ﴾ [الكهف: ٥٠] ، وكذلك تفعل العرب فى ساء ونظائرها .

﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ قرأ نافع وابن عامر : «تسوّى» بفتح التاء وتشديد السين ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين ، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين . والمعنى على القراءة الأولى والثانية : أن الأرض هى التى تسوى بهم ، أى أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها . وقيل : الباء فى قوله : ﴿بهم ﴾ بمعنى على ، أى تسوى عليهم الأرض . وعلى القراءة الثالثة : الفعل مبنى للمفعول ، أى لو سوى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لا يبعثوا . قوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثًا ﴾ عطف على ﴿ يود ﴾ أى يومئذ يود الذين كفروا ويومئذ لا يكتمون الله حديثًا ، ولا يقدرون على ذلك . قال الزجاج : قال بعضهم : ﴿ لا يكتمون الله حديثًا ﴾ مستأنف ؛ لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانه . وقال بعضهم : هو معطوف والمعنى: يودون أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثا لأنه ظهر كذبهم.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : كان كردم بن يزيد (١) ، حليف كعب بن الأشرف وأسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع وبحرى بن عمرو وحيى بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون؟ فأنزل الله فيهم: ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ إلى قوله: ﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ . وقد أخرج ابن أبى حاتم عنه أنها نزلت فى اليهود . وأخرجه عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن مجاهد (٢) . وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير (٣) . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (٤) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ قال : رأس نملة حمراء . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وإن تك حسنة﴾ وزن ذرة زادت على سيئاته ﴿ يضاعفها ﴾ فأما المشرك فيخفف به عنه العذاب ولا يخرج من النار أبدا . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ علىّ» قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال : «حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان (٥) . وأخرجه الحاكم

---

(١) كذا فى الدر المنثور ٢ / ١٦٢ وعند ابن جرير ٥ / ٥٥ : « كردم بن زيد » ، وعند ابن إسحاق فى السيرة ٢ / ٢٠١ : « كردم بن قيس » .

(٢ ـ ٤) ابن جرير ٥ / ٥٥ .

(٥) البخارى فى التفسير (٤٥٨٢ ، ٥٠٤٩ ، ٥٠٥٠ ، ٥٠٥٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٠ / ٢٤٧ ، ٢٤٨) وأبو داود فى العلم (٣٦٦٨) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٢٥) وقال : « هذا أصح من حديث أبى الأحوص » .

وصححه من حديث عمرو بن حريث (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لو تسوّى بهم الأرض** ﴾ يعنى: أن تسوى الأرض بالجبال والأرض عليهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية : يقول : ودوا لو انخرقت بهم الأرض فساخوا فيها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثا**﴾ قال : بجوارحهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ جعل الخطاب خاصًا بالمؤمنين ؛ لأنهم كانوا يقربون الصلاة حال السكر ، وأما الكفار فهم لا يقربونها سكارى ولا غير سكارى . قوله : ﴿ **لا تقربوا** ﴾ قال أهل اللغة : إذا قيل : لا تقرب بفتح الراء معناه : لا تتلبس بالفعل ؛ وإذا كان بضم الراء كان معناه : لا تدن منه . والمراد هنا : النهى عن التلبس بالصلاة وغشيانها ، وبه قال جماعة من المفسرين ، وإليه ذهب أبو حنيفة . وقال آخرون : المراد : مواضع الصلاة ، وبه قال الشافعى ، وعلى هذا فلابد من تقدير مضاف ، ويقوى هذا قوله : ﴿ **ولا جنبًا إلا عابرى سبيل** ﴾ وقالت طائفة : المراد : الصلاة ومواضعها معا؛ لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا لصلاة ، ولا يصلون إلا مجتمعين ، فكانا متلازمين .

قوله :﴿ **وأنتم سكارى** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال ، وسكارى جمع سكران ، مثل كسالى : جمع كسلان. وقرأ النَّخَعى : « سكرى » بفتح السين وهو تكسير سكران وقرأ الأعمش : « سُكْرى » كحبلى صفة مفردة . وقد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا سكر الخمر ، إلا الضحاك فإنه قال : المراد سكر النوم وسيأتى بيان سبب نزول الآية ، وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال . وقوله : ﴿ **حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ هذا غاية النهى عن قربان الصلاة فى حال السكر ، أى حتى يزول عنكم أثر السكر ، وتعلموا ما تقولونه ، فإن السكران لا يعلم ما يقوله ، وقد تمسك بهذا من قال : إن طلاق السكران لا يقع ، لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد ، وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم

---

(١) صححه الحاكم ٣ / ٣١٩ ووافقه الذهبى .

وربيعة ، وهو قول الليث بن سعد ، وإسحاق وأبى ثور والمزنى . واختاره الطحاوى وقال : أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز ، والسكران معتوه كالموسوس . وأجازت طائفة وقوع طلاقه وهو محكى عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين ، وهو قول أبى حنيفة والثورى والأوزاعى . واختلف قول الشافعى فى ذلك . وقال مالك : يلزمه الطلاق والقَوَد فى الجراح والقتل ، ولا يلزمه النكاح والبيع .

قوله : ﴿ **ولا جنبا** ﴾ عطف على محل الجملة الحالية ، وهى قوله : ﴿ **وأنتم سكارى** ﴾ والجنب لا يؤنث ، ولا يثنى، ولا يجمع ؛ لأنه ملحق بالمصدر كالبعد والقرب . قال الفراء : يقال : جنب الرجل وأجنب من الجنابة . وقيل : يجمع الجنب فى لغة على أجناب ، مثل عنق وأعناق ، وطنب وأطناب . وقوله : ﴿ **إلا عابرى سبيل** ﴾ استثناء مفرَّغ ، أى لا تقربوها فى حال من الأحوال إلا فى حال عبور السبيل . والمراد به هنا السفر ، ويكون محل هذا الاستثناء المفرغ النصب على الحال ، من ضمير لا تقربوا بعد تقييده بالحال الثانية ، وهى قوله: ﴿ **ولا جنبًا** ﴾ لا بالحال الأولى ، وهى قوله : ﴿ **وأنتم سكارى** ﴾ فيصير المعنى : ولا تقربوا الصلاة حال كونكم جنبًا إلا حال السفر فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم ، وهذا قول على وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحكم وغيرهم ، قالوا : لا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد الاغتسال ، إلا المسافر فإنه يتيمم ، لأن الماء قد يعدم فى السفر لا فى الحضر ، فإن الغالب أنه لا يعدم . وقال ابن مسعود وعكرمة والنخعى وعمرو بن دينار ومالك والشافعى: عابر السبيل هو المجتاز فى المسجد ، وهو مروى عن ابن عباس ، فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة : وهى المساجد فى حال الجنابة إلا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب إلى جانب ، وفى القول الأول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية ، على معناها الحقيقى ، وضعف من جهة ما فى حمل عابر السبيل على المسافر وإن معناه : أنه يقرب الصلاة عند عدم الماء بالتيمم ، فإن هذا الحكم يكون فى الحاضر إذا عدم الماء ، كما يكون فى المسافر ، وفى القول الثانى قوة من جهة عدم التكلف فى معنى قوله : ﴿ **إلا عابرى سبيل** ﴾ وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها .

وبالجملة فالحال الأولى ، أعنى قوله : ﴿ **وأنتم سكارى** ﴾ تقوى بقاء الصلاة على معناها الحقيقى ، من دون تقدير مضاف ، وكذلك ما سيأتى من سبب نزول الآية يقوى ذلك وقوله : ﴿ **إلا عابرى سبيل** ﴾ يقوى تقدير المضاف ، أى : لا تقربوا مواضع الصلاة . ويمكن أن يقال: إن بعض قيود النهى أعنى : ﴿ **لا تقربوا** ﴾ وهو قوله : ﴿ **وأنتم سكارى**﴾ يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقى ، وبعض قيود النهى وهو قوله : ﴿ **إلا عابرى سبيل** ﴾ يدل على أن المراد مواضع الصلاة ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه ، ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد ، وهما لا تقربوا الصلاة التى هى ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى ، ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم فى المسجد من

جانب إلى جانب ، وغاية ما يقال فى هذا أنه من الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وهو جائز بتأويل مشهور .

وقال ابن جرير بعد حكايته للقولين : والأولى قول من قال : ﴿ **ولا جنباً إلا عابرى سبيل** ﴾ : إلا مجتازى طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء ، وهو جنب فى قوله : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبًا** ﴾ فكان معلومًا بذلك ، أى أن قوله : ﴿ **ولا جنبًا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا** ﴾ لو كان معنيًا به المسافر لـم يكن لإعـادة ذكـره فى قولـه : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر** ﴾ معنى مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: يأيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا إلا عابرى سبيل . قال : والعابر السبيل : المجتاز مرا وقطعا ، يقال منه : عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبرا وعبورا ، ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ، ومنه قيل للناقة القوية : هى عبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار. قال ابن كثير : وهذا الذى نصره ، يعنى ابن جرير (١) ، هو قول الجمهور ، وهو الظاهر من الآية . انتهى .

قوله : ﴿ **حتى تغتسلوا** ﴾ غاية للنهى عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة . والمعنى : لاتقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا إلا حال عبوركم السبيل . قوله : ﴿ **وإن كنتم مرضى** ﴾ المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ وعلى ضربين كثير ويسير ، والمراد هنا : أن يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء ، أو كان ضعيفا فى بدنه ، وهو لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء ، وروى عن الحسن أنه يتطهر وإن مات ، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] ، قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء: ٢٩] ، وقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ [البقرة : ١٨٥] قوله : ﴿ **أو على سفر** ﴾ فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر، والخلاف مبسوط فى كتب الفقه . وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر ، وقال قوم : لابد من ذلك . وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر . واختلفوا فى الحاضر ، فذهب مالك وأصحابه وأبو حنيفة ومحمد ، إلى أنه يجوز فى الحضر والسفر . وقال الشافعى : لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف .

قوله : ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ هو المكان المنخفض والمجىء منه كناية عن الحدث، والجمع الغيطان والأغواط ، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستُّرًا عن أعين الناس ، ثم سمى الحدث الخارج من الإنسان غائطًا توسعًا ، ويدخل فى

---

(١) ابن جرير ٥ / ٦٤ .

الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء . قوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر : ﴿ لامستم ﴾ وقرأ حمزة والكسائى : «لمستم » قيل : المراد بها فى القراءتين الجماع . وقيل : المراد به مطلق المباشرة . وقيل : إنه يجمع الأمرين جميعًا. وقال محمد بن يزيد المبرد : الأولى فى اللغة أن يكون ﴿ لامستم ﴾ بمعنى قبلتم ونحوه ، و « لمستم » بمعنى غشيتم.

واختلف العلماء فى معنى ذلك على أقوال ، فقالت فرقة : الملامسة هنا : مختصة باليد دون الجماع ، قالوا : والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روى هذا عن عمر بن الخطاب وابن مسعود . قال ابن عبد البر : لم يقل بقولهما فى هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأى ، وحملة الآثار . انتهى . وأيضا الأحاديث الصحيحة تدفعه وتبطله كحديث عمار (١) وعمران بن حصين (٢) وأبى ذر فى تيمم الجنب (٣) . وقالت طائفة : هو الجماع كما فى قوله : ﴿ ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ [الأحزاب : ٤٩] وقوله : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ [البقرة : ٢٣٧] وهو مروى عن على وأبىّ بن كعب وابن عباس ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبى وقتادة ومقاتل بن حيان وأبى حنيفة . وقال مالك : الملامس بالجماع يتيمم والملامس باليد يتيمم إذا التذ ، فإن لمسها بغير شهوة فلا وضوء ، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال الشافعى : إذا أفضى الرجل بشىء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد أو غيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة وإلا فلا . وحكاه القرطبى عن ابن مسعود وابن عمر والزهرى وربيعة . وقال الأوزاعى : إذا كان اللمس باليد نقض الطهر ، وإن كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى : ﴿فلمسوه بأيديهم ﴾ [الأنعام : ٧] وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المذكورة فى الآية هى ما ذهبت إليه ، وليس الأمر كذلك فقد اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى معنى الملامسة المذكورة فى الآية ، وعلى فرض أنها ظاهرة فى الجماع ، فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة والكسائى بلفظ : « أو لمستم » وهى محتملة بلا شك ولا شبهة ، ومع الاحتمال فلا تقوم الحجة بالمحتمل . وهذا الحكم تعم به البلوى ، ويثبت به التكليف العام ، فلا يحل إثباته بمحتمل قط وقد وقع النزاع فى مفهومه . وإذا عرفت هذا فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب ولم يجد الماء ، فكان الجنب داخلاً فى الآية بهذا الدليل وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفى فى ذلك .

وأما وجوب الوضوء ، أو التيمم على من لمس المرأة بيد أو بشىء من بدنه فلا يصح القول

---

(١) أخرجه البخارى فى التيمم (٣٣٨ ـ ٣٤٢) ، ومسلم فى الحيض (٣٦٨ / ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣) .
(٢) البخارى فى التيمم (٣٤٤) .
(٣) الترمذى فى الطهارة (١٢٤) وقال : « حسن صحيح » ، وصححه الحاكم ١ / ١٧٦ ، ١٧٧ ووافقه الذهبى .

به ، استدلالاً بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال . وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها؟ وليس يأتي الرجل من امرأته شيئا إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [هود : ١١٤] . أخرجه أحمد والترمذي والنسائي من حديث معاذ(١) ، قالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها ، ولا يخفاك أنه لا دلالة بهذا الحديث على محل النزاع،فإن النبي ﷺ إنما أمره بالوضوء ليأتي الصلاة التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية ، إذ لا صلاة إلا بوضوء . وأيضًا فالحديث منقطع لأنه من رواية ابن أبي ليلى ، عن معاذ ، ولم يلقه ، وإذا عرفت هذا فالأصل البراءة عن هذا الحكم، فلا يثبت إلا بدليل خالص عن الشوائب الموجبة ، لقصوره عن الحجة . وأيضًا قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت : كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبِّل ، ثم يصلي ولا يتوضأ . وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة ، رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجة(٢)، وما قيل من أنه من رواية حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة ولم يسمع من عروة . فقد رواه أحمد في مسنده ، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (٣) ، ورواه ابن جرير من حديث ليث عن عطاء عن عائشة (٤) ، ورواه أحمد أيضًا وأبو داود والنسائي من حديث أبي رَوْق الهَمْداني عن إبراهيم التيمي ، عن عائشة (٥) ورواه أيضا ابن جرير من حديث أم سلمة(٦)، ورواه أيضا من حديث زينب السهمية (٧) ، ولفظ حديث أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ، ولا يفطر ، ولا يحدث وضوءًا . ولفظ حديث زينب السهمية : أن النبي ﷺ كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ . ورواه أحمد عن زينب السهمية عن عائشة (٨).

قوله : ﴿ **فلم تجدوا ماء** ﴾ هذا القيد إن كان راجعًا إلى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط ، وهو المرض ، والسفر ، والمجيء من الغائط ، وملامسة النساء ، كان فيه دليل على أن المرض والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم ، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء ، فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء ، ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد

(١) أحمد ٥ / ٢٤٤ والترمذي في تفسير القرآن (٣١١٣) وقال : « حديث ليس إسناده متصل » ، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر ، وقتل عمرو وعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام صغير ابن ست سنين ، وقد روى عن عمر ، والنسائي، عزاه المزي في التحفة ٨ / ٤٠٩ (١١٣٤٣) إلى السنن الكبرى ، في الرجم عن إسماعيل بن مسعود عن خالد بن الحارث عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن ابن أبي ليلى . . . . . فذكره مرسلا . وسيرد الحديث من طرق صحاح عند تفسير الآية ١١٤ من سورة هود .

(٢) ابن أبي شيبة ١ / ٤٤ وستأتي الإحالات على أحمد والنسائي وأبي داود .

(٣) أحمد ٦ / ٢١٠ .

(٤) ابن جرير ٥ / ٦٧ ، ٦٨ .

(٥) أحمد ٦ / ٢١٠ وأبو داود في الطهارة (١٧٨) وقال :« هو مرسل فإبراهيم التيمي لم يسمع من عائشة » والنسائي ١ / ١٠٤ ، وقال أبو عبد الرحمن : « ليس في هذا الباب حديث أحسن من هذا الحديث وإن كان مرسلاً » .

(٦ ، ٧) ابن جرير ٥ / ٦٧ .

(٨) أحمد ٦ / ٦٢ .

ماء ، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح كالمريض ، إذا لم يجد الماء يتيمم وكذلك المقيم كالمسافر ، إذا لم يجد الماء تيمم ، فلا بد من فائدة فى التنصيص على المرض والسفر ، فقيل : وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء ، وكذلك المسافر عدم الماء فى حقه غالب ، وإن كان راجعًا إلى الصورتين الأخيرتين أعنى قوله: ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء** ﴾ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال ، وهو أن من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم ، وإن كان واجدًا للماء قادرًا على استعماله ، وقد قيل : إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبرًا فى الأولين ، لندرة وقوعه فيهما . وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط ، وتوجيه بارد . وقال مالك ومن تابعه : ذكر الله المرض والسفر فى شرط التيمم اعتبارًا بالأغلب ، فى من لم يجد الماء بخلاف الحاضر ، فإن الغالب وجوده فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه. انتهى . والظاهر أن المرض بمجرده مسوّغ للتيمم ، وإن كان الماء موجودًا إذا كان يتضرر باستعماله فى الحال أو فى المآل ، ولا تعتبر خشية التلف ، فالله سبحانه يقول : ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ويقول : ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [الحج : ٨٧] والنبى ﷺ يقول : « الدين يسر » (١) ، ويقول : «يسروا ولا تعسروا » (٢) ، وقال : « قتلوه قتلهم الله » (٣) ، ويقول : « أمرت بالشريعة السمحة » (٤) . فإذا قلنا : إن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم ، والماء حاضر موجود، إذا كان استعماله يضره ، فيكون اعتبار ذلك القيد فى حقه إذا كان استعماله لا يضره ، فإن مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب ؛ لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف . وأما وجه التنصيص على المسافر فلا شك أن الضرب فى الأرض مظنة لإعواز الماء فى بعض البقاع دون بعض .

قوله : ﴿ **فتيمموا** ﴾ التيمم لغة : القصد ، يقال : تيممت الشيء: قصدته ، وتيممت الصعيد : تعمدته ، وتيممته بسهمى ورمحى : قصدته دون من سواه ، وأنشد الخليل (٥) :

يَمَّمْتُه الرُّمحَ شزرًا (٦) ثم قُلْت لَهُ ... هَذِى البَسالة لا لعب الزَّحَالِيقِ (٧)

---

(١) الحديث عن أبى هريرة ، أخرجه البخارى فى الإيمان (٣٩) والنسائى ٨ / ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) الحديث عن أنس ، أخرجه البخارى فى العلم (٦٩) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٤ / ٨) .

(٣) الحديث عن ابن عباس ، أخرجه أبو داود فى الطهارة (٣٣٧) وابن ماجة فى الطهارة (٥٧٢) وأحمد ١ / ٣٣٠ وقال أحمد شاكر ٥ / ٢٢ (٣٠٥٧) : « إسناده صحيح وإن كان ظاهره الانقطاع » .

(٤) أحمد ٦ / ١١٦ ، ٢٣٣ عن عائشة .

(٥) القائل هو عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، يعنى به ضرار بن عمرو الضبى .

(٦) الشزر ــ بمعجمة وزاى ساكنة ــ : النظر عن اليمين والشمال ، وليس بمستقيم الطريقة ، وقيل : هو النظر بمؤخر العين .

(٧) جمع زحلوقة ، وهى : آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل .

وقال امرؤ القيس :

تَيممتها (١) مِنْ أذرعاتٍ وَأهْلها ... بِيَثْـرِب أدْنى دارِهـا نَـظَر عَـالِ

وقال :

تَيَّممتِ العيَن التَّى عِند ضَـارِجٍ ... يَفِىءُ عَلَيْها الظلُّ عَرْمَضها طَامِى (٢)

قال ابن السكيت : قوله : ﴿ فتيمموا ﴾ أى اقصدوا ، ثم ذكر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب . وقال ابن الأنبارى فى قولهم : قد تيمم الرجل ، معناه : قد مسح التراب على وجهه ، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوى بالمعنى الشرعى . فإن العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين ، وإنما هو معنى شرعى فقط ، وظاهر الأمر الوجوب ، وهو مجمع على ذلك ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وتفاصيل التيمم وصفاته مبينة فى السنة المطهرة، ومقالات أهل العلم مدونة فى كتب الفقه ، قوله : ﴿ صعيداً ﴾ الصعيد: وجه الأرض سواء كان عليه تراب أو لم يكن ، قاله الخليل وابن الأعرابى والزجاج . قال الزجاج : لا أعلم فيه خلافًا بين أهل اللغة ، قال الله تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزا ﴾ [الكهف : ٨] أى أرضًا غليظة لا تنبت شيئًا ، وقال تعالى : ﴿ فتصبح صعيدًا زلقا﴾ [الكهف : ٤٠] وقال ذو الرمة :

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى يَرْمى الصَّعيـدَ بِـه ... دبابة فى عِظَامِ الـرَّأسِ خُرْطُـومُ (٣)

وإنما سمى صعيدًا لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض ، وجمع الصعيد : صعدات .

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به ، فقال مالك وأبو حنيفة والثورى والطبرانى: إنه يجزئ بوجه الأرض كله ترابًا كان أو رملاً أو حجارة ، وحملوا قوله : ﴿ طيبًا ﴾ على الطاهر الذى ليس بنجس ، وقال الشافعى وأحمد وأصحابهما : إنه لا يجزئ التيمم إلا بالتراب فقط ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ صعيدا زلقا ﴾ [الكهف : ٤] أى ترابا أملس طيبا وكذلك استدلوا بقوله : ﴿ طيبا ﴾ قالوا : والطيب : التراب الذى ينبت . وقد تنوزع فى معنى الطيب ، فقيل : الطاهر كما تقدم . وقيل : المنبت كما هنا . وقيل : الحلال . والمحتمل لا تقوم به حجة ، ولو لم يوجد فى الشىء الذى يتيمم به إلا ما فى الكتاب العزيز ، لكان الحق

---

(١) كذا فى الأصول وهى رواية والمشهور كما فى ديوانه وشرح الشواهد لسيبويه : « تنورتها » أى نظرت إلى نارها من أذرعات ، وأذرعات : بلد فى أطراف الشام بجوار أرض البلقاء وعمان ينسب إليه الخمر ، ويثرب : مدينة الرسول ﷺ .

(٢) ضارج : اسم موضع فى بلاد بنى عبس ، والعرمض : الطحلب ، وقيل : الخضرة على الماء ، والطحلب : الذى يكون كأنه نسج العنكبوت ، وطامى: مرتفع .

(٣) ديوانه : ٥٧١ من قصيدته المحكمة المشهورة ، والبيت من أبياته فى ذكر ظبية أودعت ولدها الصغير بين أشجار. فإذا ارتفعت شمس الضحى نال منه التعب ، فانطرح على الأرض كأنه سكران أثقله النعاس . خرطوم: صفة الخمر السريعة الإسكار تأخذ شاربها حتى يشمخ بخرطومه ، أى: أنفه من شدة السكر وغلبته .

ما قاله الأولون ، لكن ثبت فى صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال : قال رسول ﷺ : « فضلنا الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا ، وجعلت تربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء » وفى لفظ : « وجعل ترابها لنا طهورا »[(١)] فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور فى الآية ، أو مخصص لعمومه ، أو مقيد لإطلاقه ، ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل تيمم بالصعيد ، أى أخذ من غباره. انتهى . والحجر الصلد لا غبار له . قوله :﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ هذا المسح مطلق ، يتناول المسح بضربة أو ضربتين ، ويتناول المسح إلى المرفقين أو إلى الرسغين ، وقد بينته السنة بيانًا شافيًا ، وقد جمعنا بين ما ورد فى المسح بضربة وبضربتين، وما ورد فى المسح إلى الرسغ وإلى المرفقين فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره[(٢)] . قوله : ﴿إن الله كان عفوا غفورا ﴾ أى عفا عنكم ، وغفر لكم تقصيركم ، ورحمكم بالترخيص لكم، والتوسعة عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والضياء فى المختارة عن على بن أبى طالب ؛ قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت : قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [(٣)] ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : أن الذى صلى بهم عبد الرحمن [(٤)] . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى وعبد الرحمن بن عوف وسعد ، صنع لهم علىٌّ طعامًا وشرابًا فأكلوا وشربوا ، ثم صلى بهم المغرب فقرأ :﴿ قل يأيها الكافرون﴾ حتى ختمها فقال : ليس لى دين ولكم دين ، فنزلت [(٥)] . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى هذه الآية ؛ قال : نسختها ﴿إنما الخمر والميسر ﴾ الآية [المائدة : ٩٠] [(٦)]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : لم يعن بها الخمر إنما عنى بها

(١) مسلم فى المساجد (٥٢٢ / ٤) ولم يوجد فى مسلم « وجعل ترابها لنا طهورا » وإنما عند أحمد ١ / ٩٨ ، ١٥٨ بلفظ آخر « وجعل التراب لى طهورا » عن على بن أبى طالب .

(٢) راجع نيل الأوطار ١ / ٣٣٤ وما بعدها . ط . دار الجيل .

(٣) أبو داود فى الأشربة (٣٦٧١) والترمذى فى التفسير (٣٠٢٦) وقال : « حسن صحيح غريب » ، والنسائى وعزاه المزى ٧ / ٤٠٢ (١٠١٧٥) إلى السنن الكبرى وابن جرير ٥ / ٦١ وصححه الحاكم ٢ / ٣٠٧ ووافقه الذهبى . ولكنه عند أبى داود والحاكم أن الذى صنع طعامًا رجل من الأنصار منكرًا وعند الحاكم : « أن الذى صلى رجل من الأنصار منكرًا » .

(٤) ابن جرير ٥ / ٦١ . (٥) هذا إسناد مرسل .

(٦) أبو داود فى الأشربة (٣٦٧٢) والبيهقى ٨ / ٢٨٥ ولم أعثر عليه عند النسائى .

سكر النوم . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ **وأنتم سكارى** ﴾ قال : النعاس .

وأخرج الفريابى ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن على قوله : ﴿ **ولا جنبًا إلا عابرى سبيل** ﴾ قال : نزلت فى المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلى . وفى لفظ قال : لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافرًا تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيتيمم ويصلى حتى يجد الماء (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى الآية يقول : لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إذا وجدتم الماء ، وإن لم تجدوا الماء فقد أحللت لكم أن تمسحوا بالأرض . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لا يمر الجنب ولا الحائض فى المسجد ، إنما أنزلت ﴿ **ولا جنبًا إلا عابرى سبيل** ﴾ للمسافر يتيمم ثم يصلى . وأخرج الدارقطنى والطبرانى ، وأبو نعيم فى المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه ، والضياء فى المختارة عن الأسلع بن شريك ؛ قال : كنت أرحِّل ناقة رسول الله ﷺ فأصابتنى جنابة فى ليلة باردة ، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة ، فكرهت أن أرحِّل ناقة وأنا جنب ، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت، أو أمرض ، فأمرت رجلا من الأنصار فرحَّلها، ثم رضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء ، فاغتسلت ، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال : « يا أسلع ، ما لى أرى راحلتك تغيرت ؟ » قلت : يا رسول الله لم أرحِّلها، رحَّلها رجل من الأنصار ، قال « ولم ؟ » قلت : إنى أصابتنى جنابة فخشيت القرَّ على نفسى، فأمرته أن يرحلها ، ورضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولا جنبا إلا عابرى سبيل** ﴾ (٢) .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير والطبرانى والبيهقى من وجه آخر ، عن أسلع قال : كنت أخدم النبى ﷺ وأرحِّل له فقال لى ذات ليلة « يا أسلع ، قم فارحل لى » ، قلت: يا رسول الله ، أصابتنى جنابة ، فسكت عنى ساعة حتى جاء جبريل بآية الصعيد ، فقال : «يا أسلع قم فتيمم » الحديث (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عطاء الخراسانى عن ابن عباس: ﴿ **لا تقربوا الصلاة** ﴾ قال : المساجد ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى من طريق عطاء الخراسانى عنه : ﴿ **ولا جنبًا إلا عابرى سبيل** ﴾ قال :

---

(١) ابن أبى شيبة ١ / ١٥٧ وابن جرير ٥ / ٦٢ والبيهقى ١ / ٢١٦ .

(٢) الطبرانى (٨٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ : « فيه الهيثم بن رُزيق ، قال بعضهم : لا يتابع على حديثه » وفى المجمع : ذريق بدلاً من رزيق . والبيهقى ١ / ٥ ، ٦ .

(٣) ابن سعد ٧ / ٦٥ ، ٦٦ وابن جرير ٥ / ٦٨ والطبرانى (٨٧٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٢٦٧ : « فيه الربيع بن بدر وقد أجمعوا على ضعفه » . والبيهقى ١ / ٢٠٨ ، وقال : « الربيع بن بدر ضعيف إلا أنه غير منفرد به ، وقد روينا هذا القول من التابعين عن سالم بن عبد الله والحسن البصرى والشعبى وإبراهيم النخعى» وفى الذيل على السنن : « ولم يذكر من وافقه على ذلك ، ولا يكفى فى الاحتجاج أنه غير منفرد حتى ينظر مرتبته ومرتبة مشاركه ، فليس كل من وافقه غيره يقوى ويحتج به » .

لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل ، قال : تمر به مرا ولا تجلس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبد الرزاق ، والبيهقى فى سننه عنه أنه كان يرخص للجنب أن يمر فى المسجد ولا يجلس فيه ، ثم قرأ قوله :﴿ **ولا جنبًا إلا عابرى سبيل** ﴾ . وأخرج البيهقى عن أنس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير والبيهقى عن جابر قال :كان أحدنا يمر فى المسجد وهو جنب مجتازًا.

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن كنتم مرضى** ﴾ قال : نزلت فى رجل من الأنصار كان مريضًا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ، ولم يكن له خادم فيناوله ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك فأنزل الله هذه الآية (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وإن كنتم مرضى** ﴾ قال : هو الرجل المجدور ، أو به الجراح ، أو القرح يجنب فيخاف إن اغتسل أن يموت فيتيمم . وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى قال : نال أصحاب رسول الله ﷺ جراح فَـفَشَتْ فيهم ، ثم ابتلوا بالجنابة فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ، فنزلت : ﴿ **وإن كنتم مرضى** ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم والبيهقى من طرق عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾ قال : اللمس ما دون الجماع ، والقبلة منه ، وفيه الوضوء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن عمر ؛ أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة ، ويقول : هى اللماس . وأخرج الدارقطنى والبيهقى والحاكم عن عمر قال : إن القبلة من اللمس فتوضأ منها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن على ؛ قال : اللمس هو الجماع ، ولكن الله كنى عنه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد ابن جبير ؛ قال : كنا فى حجرة ابن عباس ومعنا عطاء بن رباح ، ونفر من الموالى ، وعبيد ابن عمير ، ونفر من العرب ، فتذاكرنا اللماس ، فقلت أنا وعطاء والموالى : اللمس باليد ، وقال عبيد بن عمير والعرب : هو الجماع ، فدخلت على ابن عباس فأخبرته فقال : غلبت الموالى وأصابت العرب ، ثم قال : إن اللمس والمس والمباشرة إلى الجماع ما هو ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : إن أطيب الصعيد أرض الحرث .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا

---

(١) ذكر ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ثم قال : « هذا مرسل » ٢ / ٢٩٦ .

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ كلام مستأنف والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين . والنصيب: الحظ ، والمراد: اليهود أوتوا نصيبا من التوراة . وقوله : ﴿ **يشترون** ﴾ جملة حالية ، والمراد بالاشتراء: الاستبدال ، وقد تقدم تحقيق معناه . والمعنى : أن اليهود استبدلوا الضلالة ، وهى البقاء على اليهودية ، بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ . قوله : ﴿ **ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ عطف على قوله : ﴿**يشترون** ﴾ مشارك فى بيان سوء صنيعهم وضعف اختيارهم ، أى لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى ، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتمهم وجحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم ، الذى هو سبيل الحق ﴿ **والله أعلم بأعدائكم**﴾ أيها المؤمنون وما يريدونه بكم من الإضلال ، والجملة اعتراضية ﴿ **وكفى بالله وليًا**﴾ لكم ﴿ **وكفى بالله نصيرا** ﴾ ينصركم فى مواطن الحرب ، فاكتفوا بولايته ونصره ولا تتولوا غيره ، ولا تستنصروه ، والباء فى قوله:﴿ **بالله** ﴾ فى الموضعين زائدة .

قوله : ﴿ **من الذين هادوا** ﴾ قال الزجاج : إن جعلت متعلقة بما قبل فلا يوقف على قوله: ﴿**نصيرا** ﴾ وإن جعلت منقطعة ، فيجوز الوقف على ﴿ **نصيرا** ﴾ والتقدير : من الذين هادوا قوم يحرفون ، ثم حذف وهذا مذهب سيبويه ، ومثله قول الشاعر :

لو قلت ما فى قومها لم أيثم　　　يفضلها فى حسب وميسم

قالوا : المعنى : لو قلت ما فى قولها أحد يفضلها ، ثم حذف . وقال الفراء: المحذوف لفظ « من » أى من الذين هادوا من يحرفون الكلم كقوله : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : ١٦٤] أى من له ، ومنه قول ذى الرمة :

فظلوا ومنهم دمعه سابق له

أى من دمعه ، وأنكره المبرد والزجاج ، لأن حذف الموصول كحذف بعض الكلمة ؛ وقيل: إن قوله : ﴿ **من الذين هادوا** ﴾ بيان لقوله : ﴿ **الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ . والتحريف : الإمالة والإزالة ، أى يميلونه ويزيلونه عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره ، أو

المراد : أنهم يتأولونه على غير تأويله ، وذمهم الله عز وجل بذلك، لأنهم يفعلونه عنادًا وبغيًا، وتأثيرًا لغرض الدنيا.

قوله : ﴿ **ويقولون سمعنا وعصينا** ﴾ أى سمعنا قولك ، وعصينا أمرك . ﴿ **واسمع غير مسمع** ﴾ أى اسمع حال كونك غير مسمع ، وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبى ﷺ والمعنى: اسمع لا سمعت ، ويحتمل أن يكون المعنى : اسمع غير مسمع مكروهًا ، أو اسمع غير مسمع جوابًا ، وقد تقدم الكلام فى راعنا . ومعنـى : ﴿ **ليًا بألسنتهم** ﴾ أنهم يلوونها عن الحق ، أى يميلونها إلى ما فى قلوبهم ، وأصل الليّ : الفتل وهو منتصب على المصدر ، ويجوز أن يكون مفعولا لأجله . قوله : ﴿ **وطعنًا فى الدين** ﴾ معطوف على ﴿ **ليا** ﴾ أى : يطعنون فى الدين بقولهم : لو كان نبيًا لعلم أنا نسبُّه ، فأطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ذلك. ﴿ **ولو أنهم قالوا سمعنا** ﴾ قولك : ﴿ **وأطعنا** ﴾ أمرك ﴿ **واسمع** ﴾ ما نقول ﴿**وانظرنا**﴾ أى لو قالوا هذا مكـان قـولهـم : راعنـا ﴿ **لكان خيرا لهم** ﴾ مما قالوه ﴿ **وأقوم** ﴾ أى أعدل وأولى من قولهم الأول ، وهو قولهم : ﴿ **سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا** ﴾ لما فى هذا من المخالفة وسوء الأدب ، واحتمال الذم فى راعنا ﴿ **ولكن** ﴾ لم يسلكوا المسلك الحسن ، ويأتوا بما هو خير لهم وأقوم ، ولهذا ﴿ **لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا** ﴾ أى إلا إيمانا قليلا ، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض ، وببعض الرسل دون بعض .

قوله : ﴿ **يأيها الذين أوتوا الكتاب** ﴾ ذكر سبحانه أولا أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، وهنا ذكر أنهم أوتوا الكتاب. والمـراد أنهـم أوتـوا نصيبـا مـنه ؛ لأنهم لـم يعملـوا بجميع مـا فيه ، بـل حرفوا وبـدلوا . وقولـه : ﴿**مصدقا** ﴾ منتصب على الحال . والطمس استئصال أثر الشىء ، ومنه ﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ [المرسلات : ٨] يقال : نطمس بكسر الميم وضمها، لغتان فى المستقبل ، ويقال: طمس الأثر أى : محاه كله، ومنه ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ [يونس : ٨٨] أى أهلكها ويقال : هو مطموس البصر ، ومنه ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ [يس : ٦٦] أى أعميناهم .

واختلف العلماء فى المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة ؟ فيجعل الوجه كالقفا ، فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين ، أو ذلك عبارة عن الضلالة فى قلوبهم ، وسلبهم التوفيق ؟ فذهب إلى الأول طائفة وذهب إلى الآخر آخرون ، وعلى الأول فالمراد بقوله : ﴿ **فنردها على أدبارها** ﴾ نجعلها قفا أى نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا . وقيل : إنه بعد الطمس يردها إلى موضع القفا ، والقفا إلى مواضعها ، وهذا هو ألصق بالمعنى الذى يفيده قوله : ﴿ **فنردها على أدبارها** ﴾ فإن قيل : كيف جاز أن يهددهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم ؟ فقيل : إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم ، رفع الوعيد عن الباقين . وقال المبرد : الوعيد باق منتظر، وقال : لابد من طمس فى اليهود ، ومسخ قبل يوم القيامة .

قوله : ﴿ **أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت** ﴾ الضمير عائد إلى أصحاب الوجوه ، قيل: المراد باللعن هنا المسخ ، لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت ، وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة وخنازير . وقيل : المراد نفس اللعنة ، وهم ملعونون بكل لسان ، والمراد وقوع أحد الأمرين : إما الطمس أو اللعن . وقد وقع اللعن ولكنه يقوى الأول تشبيه هذا اللعن بلعن أصحاب السبت . قوله : ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾ أى كائنا موجودا لا محالة ، أو يراد بالأمر المأمور . والمعنى أنه متى أراده كان ، كقوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] .

قوله : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار ، من أهل الكتاب وغيرهم ، ولا يختص بكفار أهل الحرب ؛ لأن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله وقالوا : ثالث ثلاثة ، ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التى تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته ، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . قال ابن جرير : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركا بالله عز وجل (١) . وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه ورحمة وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة ، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة . وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء : ٣١] وهى على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر ، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ؛ قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود ، وإذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه ، وقال : أرعنا سمعك يامحمد حتى نفهمك ، ثم طعن فى الإسلام وعابه ، فأنزل الله فيه : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب**﴾ الآية (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ يعنى : يحرفون حدود الله فى التوراة ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿**يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ قال : تبديل اليهود التوراة ﴿ **ويقولون سمعنا وعصينا** ﴾ قالوا: سمعنا ما تقول ولا نطيعك ﴿ **واسمع غير مسمع** ﴾ قال : غير مقبول ما تقول ﴿ **ليًّا بألسنتهم**﴾ قال : خلافًا يلوون به ألسنتهم ﴿ **واسمع وانظرنا** ﴾ قال : أفهِمْنا لا تعجل علينا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واسمع غير مسمع** ﴾ قال : يقولون : اسمع لا سمعت .

---

(١) ابن جرير ٥ / ٨٠ .

(٢) ابن إسحاق ٢ / ٢٠١ ، ٢٠٢ وابن جرير ٥ / ٧٤ والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٥٣٤ .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ؛ قال : كلَّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود : منهم عبد الله بن صوريا وكعب ابن أسد فقال لهم : « يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق ». فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وأنزل الله فيهم : ﴿ **يأيها الذين أوتوا الكتاب** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **من قبل أن نطمس وجوها** ﴾ قال : طمسها أن تعمى ﴿ **فنردها على أدبارها** ﴾ يقول : نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى . ونجعل لأحدهم عينين في قفاه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **من قبل أن نطمس وجوهًا** ﴾ يقول : عن صراط الحق ﴿ **فنردها على أدبارها** ﴾ قال : في الضلالة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري ؛ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام ، قال : « وما دينه ؟» قال : يصلي ويوحد الله، قال : « استوهب منه دينه فإن أبى فابتعه منه » فطلب الرجل منه ذلك فأبى عليه ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : وجدته شحيحًا على دينه ، فنزلت : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى وابن المنذر وابن عدي بسند صحيح عن ابن عمر ؛ قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ وقال : « إني ادخرت دعوتي وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] . قام رجل فقال : والشرك يا نبي الله ؟ فكره ذلك النبي ﷺ فقال : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية [٤] . وأخرج ابن المنذر عن أبي مِجْلَز أن سؤال هذا الرجل سبب نزول : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ . وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال في هذه الآية : إن الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر ، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة . وأخرج الترمذي وحسنه عن علي قال: أحب آية إليّ في القرآن : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ

(١) ابن إسحاق ٢ / ٢٠٢ وابن جرير ٥ / ٧٩ والبيهقي في الدلائل ٢ / ٥٣٤ .
(٢) الطبراني (٤٠٦٣) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٨ : « فيه واصل بن السائب وهو ضعيف » .
(٣) أبو يعلى (٥٨١٣ / ٣٩٩) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٨ : « رجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريح وهو ثقة » وفيه زيادة ثم نطقنا بعد ورجونا ، وابن عدي في الكامل ٣ / ٤١٩ (٥٣٦) .
(٤) ابن جرير ٥ / ٨٠ .

الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم** ﴾ تعجيب من حالهم . وقد اتفق المفسرون على أن المراد : اليهود ، واختلفوا فى المعنى الذى زكوا به أنفسهم ، فقال الحسن وقتادة : هو قولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة : ١٨] . وقولهم : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] . وقال الضحاك : هو قولهم : لا ذنوب لنا ونحن كالأطفال . وقيل : قولهم : إن آباءهم يشفعون لهم . وقيل : ثناء بعضهم على بعض . ومعنى التزكية : التطهير والتنزيه ، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير وعلى غيرها ، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل ، من اليهود وغيرهم ، ويدخل فى هذا التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية كمحيى الدين ، وعز الدين ، ونحوهما . قوله : ﴿ **بل الله يزكى من يشاء** ﴾ أى ذلك إليه سبحانه ، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده ، ومن لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم ، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه ، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس ، وطلب العلو والترفع والتفاخر ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم : ٣٢]. قوله: ﴿**ولا تظلمون** ﴾ أى هؤلاء المزكون لأنفسهم ﴿ **فتيلا** ﴾ وهو الخيط الذى فى نواة التمر . وقيل: القشرة التى حول النواة . وقيل : هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفيك من الوسخ ، إذا فتلتهما فهو فتيل ، بمعنى : مفتول ، والمراد هنا : الكناية عن الشيء الحقير، ومثله : ﴿ ولا يظلمون نقيرا ﴾ [النساء : ١٢٤] وهو النكتة التى فى ظهر النواة . والمعنى أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب ، ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون ، ويجوز أن يعود الضمير إلى : ﴿ **من يشاء** ﴾ أى لا يظلم هؤلاء الذين يزكيهم الله فتيلاً مما يستحقونه من الثواب . ثم عجَّب النبيَّ ﷺ من تزكيتهم لأنفسهم فقال : ﴿ **انظر كيف يفترون على الله الكذب** ﴾ فى قولهم ذلك . والافتراء : الاختلاق ، ومنه افترى فلان على فلان ، أى رماه بما ليس فيه وفريت الشيء: قطعته ، وفى قوله : ﴿**وكفى به إثمًا مبينًا** ﴾ من تعظيم الذنب وتهويله ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب** ﴾ هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول ، وهم اليهود . واختلف المفسرون فى معنى الجبت : فقال ابن عباس وابن

جبير وأبو العالية : الجبت : الساحر بلسان الحبشة ، والطاغوت : الكاهن ، وروى عن عمر ابن الخطاب أن الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان ، وروى عن ابن مسعود أن الجبت والطاغوت ها هنا : كعب بن الأشرف (١) . وقال قتادة : الجبت : الشيطان ، والطاغوت: الكاهن . وروى عن مالك أن الطاغوت : ما عبد من دون الله ، والجبت : الشيطان ، وقيل : هما كل معبود من دون الله ، أو مطاع فى معصية الله ، وأصل الجبت : الجبس وهو الذى لا سير فيه ، فأبدلت التاء من السين قاله قطرب . وقيل : الجبت : إبليس ، والطاغوت : أولياؤه . قوله : ﴿ **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾ أى يقول اليهود لكفار قريش : أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد سبيلا ، أى أقوم دينًا ، وأرشد طريقًا .

وقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى القائلين ﴿ **الذين لعنهم الله** ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ **ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله وسخطه . قوله : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك** ﴾ « أم » منقطعة ، والاستفهام للإنكار ، يعنى ليس لهم نصيب من الملك ﴿ **فإذًا لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾ والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف ، أى إن جعل لهم نصيب من الملك فإذًا لا يعطون الناس نقيرًا منه لشدة بخلهم وقوة حسدهم . وقيل : المعنى : بل لهم نصيب من الملك على أن معنى « أم » الإضراب عن الأول ، والاستئناف للثانى . وقيل : هى عاطفة على محذوف ، والتقدير : أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته ، أم لهم نصيب من الملك ، فإذن لا يؤتون الناس نقيرا ؟ والنقير : النقرة فى ظهر النواة . وقيل : ما نقر الرجل بأصبعه كما ينقر الأرض . والنقير أيضًا : خشبة تنقر وينبذ فيها . وقد نهى النبى ﷺ عن النقير كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما (٢) ، والنقير : الأصل ، يقال: فلان كريم النقير ، أى كريم الأصل . والمراد هنا : المعنى الأول ، والمقصود به المبالغة فى الحقارة كالقطمير والفتيل ، « وإذًا » هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها ، ولو نصب لجاز . قال سيبويه : « إذن » فى عوامل الأفعال بمنزلة أظن فى عوامل الأسماء التى تلغى إذا لم يكن الكلام معتمدًا عليها ، فإن كانت فى أول الكلام وكان الذى بعدها مستقبلاً نصبت .

قوله : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ أم منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر ، أى بل يحسدون الناس ، يعنى اليهود ، يحسدون النبى ﷺ فقط ، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والنصر وقهر

---

(١) هو : كعب بن الأشرف الطائى ، من بنى نبهان ، شاعر جاهلى كانت أمه من بنى النضير ، فدان باليهودية ، وكان سيدًا فى قومه يقيم فى حصن له قرب المدينة ، يبيع فيه التمر ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وأكثر من هجو النبى ﷺ وأصحابه وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم ، والتشبيب بنسائهم ، وخرج إلى مكة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش فيها ، وحضّ على الأخذ بالثأر ، وعاد إلى المدينة ، وأمر النبى ﷺ بقتله ، فقتل عام ٣هـ. الروض الأنف ٢ / ١٢٣ وإمتاع الأسماع ١ / ١٠٧ ـ ١٠٩ وابن الأثير ٢ / ٥٣ والطبرى ٣ / ٢ .

(٢) ورد ذلك فى قصة قدوم وفد عبد القيس على النبى ﷺ والحديث عن ابن عباس عند البخارى فى الإيمان (٥٣) ومسلم فى الإيمان (٢٣ / ١٧) وأبو داود فى الأشربة (٣٦٩٢) .

الأعداء . قوله : ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم** ﴾ هذا إلزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه ، أى ليس ما آتينا محمدًا وأصحابه من فضلنا ببدع حتى يحسدهم اليهود على ذلك ، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم ، وهم أسلاف محمد ﷺ وقد تقدم تفسير الكتاب والحكمة . والملك العظيم ، قيل : هو ملك سليمان ، واختاره ابن جرير . ﴿ **فمنهم** ﴾ أى اليهود ﴿ **من آمن به** ﴾ أى بالنبى ﷺ ﴿**ومنهم من صد عنه** ﴾ أى أعرض عنه . وقيل : الضمير فى ﴿**به** ﴾ راجع إلى ما ذكر من حديث آل إبراهيم . وقيل : الضمير راجع إلى إبراهيم . والمعنى : فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ، ومنهم من صد عنه . وقيل : الضمير يرجع إلى الكتاب ، والأول أولى. ﴿ **وكفى بجهنم سعيرًا** ﴾ أى نارًا مسعرة .

وقد أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال : إن اليهود قالوا : إن آباءنا قد توفوا وهم لنا قربة عند الله ، وسيشفعون لنا ويزكوننا ، فقال الله لمحمد ﷺ : ﴿ **ألم تر إلى الذين يُزكون أنفسهم** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ، ويقربون قربانهم ، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب وكذبوا ، قال الله: إنى لا أطهر[(١)] ذا ذنب بآخر لا ذنب له ، ثم أنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أن التزكية قولهم : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ قال : الفتيل : ما خرج من بين الإصبعين . وفى لفظ آخر عنه : هو أن تدلك بين أصبعيك فما خرج منهما فهو ذلك . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : النقير : النقرة تكون فى النواة التى نبتت منها النخلة . والفتيل : الذى يكون على شق النواة . والقطمير : القشر الذى يكون على النواة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : الفتيل الذى فى الشق الذى فى بطن النواة .

وأخرج الطبرانى والبيهقى فى الدلائل عنه قال : قدم حُيَىّ بن أخطب وكعب بن الأشرف مكة على قريش ، فحالفوهم على قتال رسول ﷺ ، وقالوا لهم : أنتم أهل العلم القديم ، وأهل الكتاب ، فأخبرونا عنا وعن محمد ، قالوا : ما أنتم ومحمد ؟ قالوا : ننحر الكَوْمَاء[(٢)]، ونسقى اللبن على الماء ، ونفك العناة [(٣)] ، ونسقى الحجيج ، ونصل الأرحام ، قالوا : فما محمد ؟ قالوا : صنبور ، أى فرد ضعيف ، قطع أرحامنا . واتبعه سُرَّاق الحجيج بنو غفار ،

(١) فى المطبوعة : « لا أظهر » . والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) الكَوْماء : الناقة التى يكون سنامها مشرفا عاليًا . اللسان ١٢ / ٥٢٩ .
(٣) يعنى الأسرى . اللسان ١٥ / ١٠١ .

فقالوا : لا بل أنتم خير منه وأهدى سبيلا ، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت** ﴾ الآية [١] . وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة مرسلاً . وقد روى عن ابن عباس ، وعن عكرمة بلفظ آخر[٢] . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن السدى عن أبي مالك [٣] . وأخرج نحوه أيضا البيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله [٤] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عكرمة قال : الجبت والطاغوت : صنمان . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر في تفسير الجبت والطاغوت ما قدمناه عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت : حُيَيّ بن أخطب ، والطاغوت: كعب بن الأشرف . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت: الأصنام ، والطاغوت : الذي يكون بين يدى الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت : اسم الشيطان بالحبشية ، والطاغوت : كهان العرب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك** ﴾ قال: فليس لهم نصيب ، ولو كان لهم نصيب لم يؤتوا الناس نقيراً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس ؛ قال : قال أهل الكتاب : زعم محمد أنه أوتى ما أوتى في تواضع ، وله تسع نسوة وليس له همة إلا النكاح ، فأى ملك أفضل من هذا ؟ فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **أم يحسدون الناس** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ملكًا عظيما** ﴾ يعنى ملك سليمان[٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الناس في هذا الموضع النبي خاصة . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : هم هذا الحى من العرب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **بآياتنا** ﴾ الظاهر عدم تخصيص بعض الآيات دون بعض و﴿ **سوف** ﴾ كلمة

---

(١) الطبراني (١١٦٤٥) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٩ : « وفيه يونس بن سليمان الجمال ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح » ، والبيهقي في الدلائل ٣ / ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) ابن جرير ٥ / ٨٥ .

(٣) المرجع السابق ؛ لكن عن السدى فقط .

(٤) البيهقي في الدلائل ٣ / ١٩٤ .

(٥) ابن جرير ٥ / ٨٨ .

تذكر للتهديد قاله سيبويه ، وينوب عنها السين . وقد تقدم معنى نصلى فى أول السورة والمراد: سوف ندخلهم نارًا عظيمة . وقرأ حميد بن قيس «نَصليهم » بفتح النون . قوله : ﴿ **كلما نضجت جلودهم** ﴾ يقال : نضج الشيء نضجًا ونضاجا ، ونضج اللحم ، وفلان نَضِج الرأى، أى محكمه ، والمعنى : أنها كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها ، أى أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدًا آخر غير محترق ، فإن ذلك أبلغ فى العذاب للشخص ، لأن إحساسه لعمل النار فى الجلد الذى لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها فى الجلد المحترق . وقيل : المراد بالجلود : السرابيل التى ذكرها فى قوله : ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ [إبراهيم : ٥٠] ، ولا موجب لترك المعنى الحقيقى ها هنا ، وإن جاز إطلاق الجلود على السرابيل مجازا كما فى قول الشاعر:

كَسا اللُّوم تَيْما خُضْرَة فى جُلُودِها ... فَوَيْل لِتَيْم من سَرَابِيلِها الخضر

وقيل : المعنى : أعدنا الجلد الأول جديدًا ، ويأبى ذلك معنى التبديل . قوله : ﴿**ليذوقوا العذاب** ﴾ أى ليحصل لهم الذوق الكامل بذلك التبديل . وقيل : معناه : ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع ، ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين ، وقد تقدم تفسير الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار .

قوله : ﴿ **لهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ أى من الأدناس التى تكون فى نساء الدنيا ، والظل الظليل : الكثيف الذى لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك . وقيل : هو مجموع ظل الأشجار والقصور . وقيل : الظل الظليل: هو الدائم الذى لا يزول ، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة كما يقال : ليل أليل .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **كلما نضجت جلودهم**﴾ قال : إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلودًا بيضاء ، أمثال القراطيس (١) . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عنه بسند ضعيف قال : قرئ عند عمر : ﴿ **كلما نضجت جلودهم** ﴾ الآية ، فقال معاذ : عندى تفسيرها تبدّل فى ساعة مائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ (٢) وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه أن القائل : كعب وأنه قال : تبدل فى الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا (٤) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **ظلاً ظليلاً** ﴾ قال : هو ظل العرش الذى لا يزول .

---

(١) القراطيس : جمع قرطاس ، وهو الصحيفة البيضاء التى يكتب فيها . اللسان ٦ / ١٧٢ .

(٢) عزاه الهيثمى فى المجمع ٧ / ٩ للطبرانى فى الأوسط ، وقال : « فيه نافع مولى يوسف السلمى ، وهو متروك» .

(٣) أبو نعيم فى الحلية ٥ / ٣٧٥ .

(٤) ابن أبى شيبة (١٦٠٠٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ .

هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع ؛ لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس فى جميع الأمانات ، وقد روى عن على وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين ، والأول أظهر ، وورودها على سبب كما سيأتى لا ينافى ما فيها من العموم ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر فى الأصول ، وتدخل الولاة فى هذا الخطاب دخولا أوليًا ، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات ، ورد الظلامات ، وتحرى العدل فى أحكامهم ، ويدخل غيرهم من الناس فى الخطاب ، فيجب عليهم رد ما لديهم من الأمانات ، والتحرى فى الشهادات والأخبار . وممن قال بعموم هذا الخطاب : البراء ابن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبىّ بن كعب ، واختاره جمهور المفسرين ومنهم ابن جرير، وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها ، الأبرار منهم والفجار ، كما قال ابن المنذر . والأمانات : جمع أمانة ، وهى مصدر بمعنى المفعول .

قوله : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ : أى وإن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . والعدل هو فصل الحكومة على ما فى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ، لا الحكم بالرأى المجرد ، فإن ذلك ليس من الحق فى شىء ، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فلا بأس باجتهاد الرأى من الحاكم الذى يعلم بحكم الله سبحانه وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص ، وأما الحاكم الذى لا يدرى بحكم الله ورسوله ، ولا بما هو أقرب إليهما ، فهو لا يدرى ما هو العدل ، لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته ، فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله . قوله : ﴿ **نعما** ﴾ « ما » موصوفة أو موصولة ، وقد قدمنا البحث فى مثل ذلك .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما فتح مكة وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ، فنزل جبريل عليه السلام برد المفتاح ، فدعا النبى ﷺ عثمان بن طلحة ورده إليه وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن ابن جريج أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن طلحة لما قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدعاه ودفعه إليه (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن أبى شيبة عن على ؛ قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، وأن يؤدى الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له ، وأن يطيعوا ، وأن يجيبوا إذا دعوا . وأخرج أبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « أد الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك » (٢) ،

(١) ابن جرير ٥ / ٩٢ .
(٢) أبو داود فى البيوع (٣٥٣٥) والترمذى فى البيوع (١٢٦٤) وقال : « حسن غريب » وصححه الحاكم ٢ / ٤٦ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الفرائض (٢٣٣٩) .

وقد ثبت فى الصحيح : أن من خان إذا اؤتمن ففيه خصلة من خصال النفاق (١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)﴾ .

لما أمر سبحانه القضاة والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق ، أمر الناس بطاعتهم هاهنا ، وطاعة الله عز وجل على امتثال أوامره ونواهيه ، وطاعة رسول الله ﷺ هى فيما أمر به ونهى عنه ، وأولى الأمر : هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية ، والمراد : طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ (٢) . وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : إن أولى الأمر: هم أهل القرآن والعلم ، وبه قال مالك والضحاك ، وروى عن مجاهد : أنهم أصحاب محمد ﷺ . وقال ابن كيسان : هم أهل العقل والرأى ، والراجح القول الأول .

قوله : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ المنازعة : المجاذبة ، والنزع : الجذب ، كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها والمراد : الاختلاف والمجادلة ، وظاهر قوله : ﴿ **فى شىء** ﴾ يتناول أمور الدين والدنيا ، ولكنه لما قال : ﴿ **فردوه إلى الله والرسول** ﴾ تبين به أن الشىء المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا ، والرد إلى الله: هو الرد إلى كتابه العزيز ، والرد إلى الرسول : هو الرد إلى سنته المطهرة بعد موته ، وأما فى حياته فالرد إليه سؤاله ، هذا معنى الرد إليهما . وقيل : معنى الرد أن يقولوا : الله أعلم ، وهو قول ساقط وتفسير بارد ، وليس الرد فى هذه الآية إلى الرد المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [النساء : ٨٣] .

قوله : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ فيه دليل على أن هذا الرد متحتم على المتنازعين ، وإنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الرد المأمور به ﴿ **خير** ﴾ لكم ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ أى مرجعًا ، من الأوْل آل يؤول إلى كذا ، أى صار إليه ، والمعنى : أن ذلك الرد خير لكم ، وأحسن مرجعًا ترجعون إليه . ويجوز أن يكون المعنى : أن الرد أحسن تأويلاً من تأويلكم الذى صرتم إليه عند التنازع .

---

(١) جزء من حديث رواه أبو هريرة وهو عند البخارى فى الإيمان (٣٣) وفى الشهادات (٢٦٨٢) وفى الوصايا (٢٧٤٩) وفى الأدب (٦٠٩٥) ومسلم فى الإيمان (٥٩ / ١٠٧ ، ١٠٨) .

(٢) لعله يشير إلى حديث سيدنا على وهو عند البخارى فى أخبار الآحاد (٧٢٥٧) ومسلم فى الإمارة (١٨٤٠ / ٣٩ ، ٤٠) .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه النبى ﷺ فى سرية ، وقصته معروفة [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية ؛ قال : طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة . ﴿ **وأولى الأمر** ﴾ قال : أولى الفقه والعلم . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة ؛ قال : ﴿ **وأولى الأمر منكم** ﴾ هم الأمراء ، وفى لفظ: هم أمراء السرايا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله فى قوله : ﴿**وأولى الأمر منكم** ﴾ قال : أهل العلم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى العالية نحوه أيضا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ قال : إلى كتاب الله وسنة رسوله . ثم قرأ : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء : ٨٣] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ميمون بن مهران فى الآية قال : الرد إلى الله : الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسوله ما دام حيًا ، فإذا قبض فإلى سنته . وأخرج ابن جرير عن قتادة والسدى مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿**ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ يقول : ذلك أحسن ثوابًا وخير عاقبة ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ قال : وأحسن جزاءً . وقد وردت أحاديث كثيرة فى طاعة الأمراء ، ثابتة فى الصحيحين وغيرهما ، مقيدة بأن يكون ذلك فى المعروف ، وأنه لا طاعة فى معصية الله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٨٤) ومسلم فى الإمارة (١٨٣٤ / ٣١) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٢٤) والترمذى فى الجهاد (١٦٧٢) وقال : «حسن صحيح غريب» والنسائى فى التفسير (١٢٩) .

فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾.

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون** ﴾ فيه تعجيب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله وهو القرآن ، وما أنزل على من قبله من الأنبياء ، فجاؤوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى ويبطلها من أصلها ، ويوضح أنهم ليسوا على شيء من ذلك أصلاً ، وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ، وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به . وسيأتى بيان سبب نزول الآية ، وبه يتضح معناها . وقد تقدم تفسير الطاغوت والاختلاف فى معناه . قوله : ﴿ **ويريد الشيطان** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **يريدون** ﴾ والجملتان مسوقتان لبيان محل التعجب ، كأنه قيل : ماذا يفعلون فقيل : يريدون كذا ، ويريد الشيطان كذا . وقوله : ﴿ **ضلالاً** ﴾ مصدر للفعل المذكور بحذف الزوائد كقوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ [نوح : ١٧] . أو مصدر لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور ، والتقدير : ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالا . والصدود : اسم للمصدر ، وهو الصد عند الخليل ، وعند الكوفيين أنهما مصدران ، أى يعرضون عنك إعراضًا .

قوله : ﴿ **فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم** ﴾ بيان لعاقبة أمرهم ، وما صار إليه حالهم ، أى كيف يكون حالهم ﴿ **إذا أصابتهم مصيبة** ﴾ أى وقت إصابتهم ، فإنهم يعجزون عند ذلك ، ولا يقدرون على الدفع . والمراد ﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ : ما فعلوه من المعاصى التى من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ﴿ **ثم جاؤوك** ﴾ يعتذرون عن فعلهم ، وهو عطف على ﴿ **أصابتهم** ﴾ وقوله : ﴿ **يحلفون** ﴾ حال ، أى جاؤوك حال كونهم حالفين ﴿ **إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا** ﴾ أى ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الإحسان لا الإساءة ، والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك . وقال ابن كيسان: معناه : ما أردنا إلا عدلاً وحقًا مثل قوله : ﴿وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى ﴾ [التوبة : ١٠٧] . فكذبهم الله بقوله: ﴿**أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم** ﴾ من النفاق والعداوة للحق . قال الزجاج : معناه : قد علم الله أنهم منافقون . ﴿**فأعرض عنهم** ﴾ أى عن عقابهم . وقيل : عن قبول اعتذارهم . ﴿ **وعظهم** ﴾ أى خوِّفهم من النفاق ﴿ **وقل لهم فى أنفسهم** ﴾ أى فى حق أنفسهم . وقيل : معناه : قل لهم خاليًا بهم ليس معهم غيرهم ﴿ **قولاً بليغا** ﴾ أى بالغًا فى وعظهم إلى المقصود مؤثرا فيهم ، وذلك بأن توعدهم بسفك دمائهم ، وسبى نسائهم ، وسلب أموالهم . ﴿ **وما أرسلنا من رسول**﴾ « من » زائدة للتوكيد ﴿ **إلا ليطاع** ﴾ فيما أمر به ونهى عنه ﴿ **بإذن الله** ﴾ بعلمه . وقيل : بتوفيقه . ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم** ﴾ بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك:

﴿**جاؤوك**﴾ متوسلين إليك متنصلين عن جناياتهم ومخالفتهم ﴿ **فاستغفروا الله** ﴾ لذنوبهم ، وتضرعوا إليك حتى قمت شفيعًا لهم ، فاستغفرت لهم ، وإنما قال : ﴿**واستغفر لهم الرسول**﴾ على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ ﴿ **لوجدوا الله توابًا رحيمًا** ﴾ أى كثير التوبة عليهم والرحمة لهم .

قوله : ﴿ **فلا وربك** ﴾ . قال ابن جرير : قوله : ﴿ **فلا** ﴾ ردّ على ما تقدم ذكره ، تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . ثم استأنف القسم بقوله : ﴿ **وربك لا يؤمنون** ﴾ وقيل : إنه قدم « لا » على القسم اهتماما بالنفى وإظهارا لقوته ، ثم كرره بعد القسم تأكيدًا ، وقيل : لا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفى. والتقدير : فوربك لا يؤمنون كما فى قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : ٧٥] . ﴿ **حتى يحكموك** ﴾ أى يجعلوك حكمًا بينهم فى جميع أمورهم لا يحكِّمون أحدًا غيرك ، وقيل : معناه : يتحاكمون إليك ولا ملجئ لذلك ﴿ **فيما شجر بينهم** ﴾ أى اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه ، ومنه قول طرفة :

وهم الحكام أرباب الهدى وسعاة الناس فى الأمر الشجر

أى المختلف ، ومنه تشاجر الرماح ، أى اختلافها . ﴿ **ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت** ﴾ قيل : هو معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام ، أى فتقضى بينهم ثم لا يجدوا . والحرج : الضيق . وقيل : الشك ، ومنه قيل للشجر الملتف : حرج وحرجة ، وجمعها حراج . وقيل : الحرج : الإثم أى لا يجدون فى أنفسهم إثما بإنكارهم ما قضيت ﴿**ويسلموا تسليما** ﴾ أى ينقادوا لأمرك وقضائك انقيادًا لا يخالفونه فى شىء . قال الزجاج ﴿ **تسليمًا** ﴾ مصدر مؤكد ، أى ويسلمون لحكمك تسليمًا لا يدخلون على أنفسهم شكًا ولا شبهة فيه . والظاهر أن هذا شامل لكل فرد فى كل حكم ، كما يؤيد ذلك قوله : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾ فلا يختص بالمقصودين بقوله : ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ وهذا فى حياته ﷺ ، وأما بعد موته فتحكيم الكتاب والسنة . وتحكيم الحاكم بما فيهما من الأئمة والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأى المجرد مع وجود الدليل فى الكتاب والسنة أو فى أحدهما . وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب والسنة ، بأن يكون عالمًا باللغة العربية ، وما يتعلق بها من نحو وتصريف ومعان وبيان ، عارفًا بما يحتاج إليه من علم الأصول ، بصيرًا بالسنة المطهرة ، مميزا بين الصحيح وما يلحق به ، والضعيف وما يلحق به ، منصفًا غير متعصب لمذهب من المذاهب ، ولا لِنِحْلَةٍ من النِّحَل ، ورِعا لا يحيف ولا يميل فى حكمه ، فمن كان هكذا فهو قائم فى مقام النبوة ، مترجم عنها ، حاكم بأحكامها . وفى هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود ، وترجف له الأفئدة ، فإنه أولا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفى بأنهم لا يؤمنون ، فنفى عنهم الإيمان الذى هو رأس مال صالحى عباد الله ، حتى تحصل لهم غاية هى تحكيم رسول الله ﷺ ، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال :

﴿ **ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت** ﴾ فضم إلى التحكيم أمراً آخر ، وهو عدم وجود حرج ، أى حرج فى صدورهم ، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيًا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان وانثلاج قلب وطيب نفس ، ثم لم يكتف بهذا كله ، بل ضم إليه قوله : ﴿ **ويسلموا** ﴾ أى يذعنوا وينقادوا ظاهرًا وباطنًا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال : ﴿ **تسليمًا** ﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ، ولا يجد الحرج فى صدره بما قضى عليه ، ويسلم لحكم الله وشرعه ، تسليمًا لا يخالطه ردٌّ ولا تشوبه مخالفة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى بسند قال السيوطى : صحيح عن ابن عباس ، قال : كان برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين ، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون**﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كان الجلاس بن الصامت ، قبل توبته ، ومعتِّب [(٢)] بن قشير ورافع بن زيد ، كانوا يدّعون الإسلام ، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ ، فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فنزلت الآية المذكورة [(٣)]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ قال : الطاغوت : رجل من اليهود كان يقال له : كعب بن الأشرف ، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم قالوا : بل نحاكمكم إلى كعب ، فنزلت الآية [(٤)] .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن عبد الله بن الزبير ؛ أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحَرَّة [(٥)] ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصارى : سَرِّح [(٦)] الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اسق يازبير، ثم أرسل الماء إلى جارك » فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله ، أن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر[(٧)] ، ثم أرسل الماء إلى جارك » واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ رسولَ الله الأنصاريُّ ، استوعى للزبير حقه فى صريح

---

(١) الطبرانى (١٢٠٤٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٩ : « ورجاله رجال الصحيح »

(٢) فى المخطوطة : « معقب » ، بالقاف مكان التاء .

(٣) ابن إسحاق ٢ / ١٦٦، ١٦٧ .

(٤) ابن جرير ٥ / ٩٨ .

(٥) شراج : جمع شرْجة وهى : مسيل الماء من الحرة إلى السهل ، ،الحَرَّة : موضع معروف بالمدينة . النهاية ٢ / ٤٥٦ .

(٦) سَرِّح : فعل أمر من التسريح ، أى أطلقه .

(٧) الجَدْر : أصل الحائط . النهاية ١ / ٢٤٦.

الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن الأسود ؛ أن سبب نزول الآية أنه اختصم إلى رسول الله ﷺ رجلان فقضى بينهما . فقال المقضى عليه : ردنا إلى عمر فردهما ، فقتل عمر الذى قال : ردنا ، ونزلت الآية ، فأهدر النبى ﷺ دم المقتول . وأخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن مكحول فذكر نحوه وبين أن الذى قتله عمر كان منافقًا ، وهما مرسلان ، والقصة غريبة وابن لهيعة فيه ضعف .

﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)** ﴾ .

« لو »حرف امتناع ، و « أن » مصدرية ، أو تفسيرية ، لأن ﴿ **كتبنا** ﴾ فى معنى أمرنا ، والمعنى : أن الله سبحانه لو كتب القتل والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلا القليل منهم ، أو لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم ، والضمير فى قوله : ﴿ **فعلوه** ﴾ راجع إلى المكتوب الذى دل عليه كتبنا ، أو إلى القتل والخروج المدلول عليهما بالفعلين ، وتوحيد الضمير فى مثل هذا قد قدمنا وجهه . قوله : ﴿ **إلا قليل** ﴾ قرأه الجمهور بالرفع على البدل . وقرأ عبد الله بن عامر وعيسى بن عمر : « إلا قليلا » بالنصب على الاستثناء . وكذا هو فى مصاحف أهل الشام ، والرفع أجود عند النحاة . قوله : ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به** ﴾ من اتباع الشرع والانقياد لرسول الله ﷺ ﴿**لكان** ﴾ ذلك ﴿**خيرًا لهم** ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ **وأشد تثبيتًا** ﴾ لإقدامهم على الحق ، فلا يضطربون فى أمر دينهم ﴿ **وإذن** ﴾ أى وقت فعلهم لما يوعظون به ﴿ **لآتيناهم من لدنا أجرًا عظيمًا. ولهديناهم صراطًا مستقيمًا** ﴾ لا عوج فيه ليصلوا إلى الخير الذى يناله من امتثل ما أمر به وانقاد لمن يدعوه إلى الحق .

قوله : ﴿ **ومن يطع الله والرسول** ﴾ كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول . والإشارة بقوله: ﴿**فأولئك** ﴾ إلى المطيعين كما تفيده من ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم** ﴾ بدخول الجنة . والوصول إلى ما أعدّ الله لهم . والصديق : المبالغ فى الصدق كما تفيده الصيغة .

---

(١) البخارى فى المساقاة (٢٣٥٩ ـ٢٣٦٢) وفى الصلح (٢٧٠٨) وفى التفسير (٤٥٨٥) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٧ / ١٢٩) وأبو داود فى الأقضية (٣٦٣٧) والترمذى فى الأحكام (١٣٦٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٣٠) وابن ماجة فى المقدمة (١٥) وفى الرهون (٢٤٨٠) .

وقيل : هم فضلاء أتباع الأنبياء . والشهداء : من ثبتت لهم الشهادة . والصالحين : أهل الأعمال الصالحة . والرفيق : مأخوذ من الرفق ، وهو لين الجانب ، والمراد به : المصاحب ، لارتفاقك بصحبته ، ومنه الرفقة ، لارتفاق بعضهم ببعض ، وهو منتصب على التمييز أو الحال كما قال الأخفش .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم** ﴾ هم يهود كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان ؛ أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شَمَّاس ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى نحوه [(١)] ، وقد روى من طرق أن جماعة من الصحابة قالوا لما نزلت الآية : لو فعل ربنا لفعلنا . أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن . وأخرجه ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير . وأخرجه أيضا عن شريح ابن عبيد . وأخرج الطبراني وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والضياء المقدسي في صفة الجنة ، وحسنه عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنك لأحب إليَّ من نفسي ، وإنك لأحب إليَّ من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم** ﴾ الآية [(٢)] . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحوه [(٣)] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ**

(١) ابن جرير ٥ / ١٠٢ .

(٢) الطبراني في الصغير في ترجمة أحمد بن عمرو الخلال ١ / ٢٦ وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ١٠ : « رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي وهو ثقة » ، وأبو نعيم في الحلية ٨ / ١٢٥ وقال : « غريب من حديث فضيل ومنصور متصلا تفرد به العابدي فيما قاله سليمان » ، وأورد ابن كثير ٢ / ٣٣٤ رواية الضياء المقدسي وذكر قول الضياء : « لا أرى بإسناده بأسًا » .

(٣) الطبراني (١٢٥٥٩) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٩ ، ١٠ : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .

كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ هذا خطاب لخلص المؤمنين ، وأمر لهم بجهاد الكفار ، والخروج فى سبيل الله ، والحِذْر والحَذَر لغتان كالمِثْل والمَثَل . قال الفراء : أكثر الكلام الحِذْر، والحَذَر مسموع أيضًا ، يقال : خذ حذرك أى احذر ؛ وقيل : معنى الآية : الأمر لهم بأخذ السلاح حذرًا ، لأن به الحذر . قوله : ﴿ **فانفروا** ﴾ نفر ينفر بكسر الفاء نفيراً ، ونفرت الدابة تنفُر بضم الفاء نفوراً . والمعنى : انهضوا لقتال العدو . أو النفير اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من النفار والنفور ، وهو الفزع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولّوا على أدبارهم نفورا ﴾ [الإسراء : ٤٦] أى نافرين . قوله : ﴿ **ثبات** ﴾ جمع ثبة ، أى جماعة ، والمعنى : انفروا جماعات متفرقات . قوله : ﴿ **أو انفروا جميعًا** ﴾ أى مجتمعين جيشًا واحدًا . ومعنى الآية : الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين ، ليكون ذلك أشد على عدوهم ، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء ، إذا نفر كل واحد منهم وحده أو نحو ذلك . وقيل : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ [التوبة : ٤١] ، وبقوله : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم ﴾ [التوبة : ٣٩] ، والصحيح أن الآيتين جميعًا محكمتان : إحداهما فى الوقت الذى يحتاج فيه، إلى نفور الجميع ، والأخرى عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض .

قوله : ﴿ **وإن منكم لمن ليبطئن** ﴾ التبطئة والإبطاء : التأخر ، والمراد : المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج ، ويُقْعِدون غيرهم . والمعنى : أن من دخلائكم وجنسكم ومن أظهر إيمانه لكم نفاقًا من يبطّئ المؤمنين ويثبطهم . واللام فى قوله : «لمن» لام توكيد وفى قوله : ﴿**ليبطئن**﴾ لام جواب القسم ، و « من » فى موضع نصب وصلتها الجملة . وقرأ مجاهد والنخعى والكلبى : ﴿ **ليبطِئَن** ﴾ بالتخفيف ﴿ **فإن أصابتكم مصيبة** ﴾ من قتل أو هزيمة أو ذهاب مال . قال هذا المنافق : قد أنعم الله علىَّ إذ لم أكن معهم حتى يصيبنى ما أصابهم ﴿ **ولئن أصابكم فضل من** ﴾ غنيمة أو فتح ﴿ **ليقولن** ﴾ هذا المنافق قول نادم حاسد : ﴿ **ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما**﴾ .

قوله : ﴿ **كأن لم يكن بينكم وبينه مودة** ﴾ جملة معترضة بين الفعل الذى هو ﴿ **ليقولن** ﴾ وبين مفعوله ، وهو ﴿**ياليتنى** ﴾ وقيل : إن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا . وقيل : المعنى : ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، أى كأن لم يعاقدكم على الجهاد . وقيل : هو فى موضع نصب على الحال . وقرأ الحسن : « ليقولن » بضم اللام على معنى من . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم : « كأن لم تكن » بالتاء على لفظ المودة . قوله : ﴿ **فأفوزَ** ﴾ بالنصب على جواب التمنى . وقرأ الحسن : « فأفوز » بالرفع .

قوله : ﴿ **فليقاتل فى سبيل الله** ﴾ هذا أمر للمؤمنين [1] ، وقدم الظرف على الفاعل

---

(١) فى المطبوعة : « هذا أمر المؤمنين » ، وما أثبتناه هو الصحيح كما فى المخطوطة .

للاهتمام به ، و ﴿ **الذين يشرون**﴾ معناه : يبيعون ، وهم المؤمنون ، والفاء فى قوله : ﴿**فليقاتل** ﴾ جواب الشرط مقدر ، أى إن لم يقاتل هؤلاء المذكورون سابقًا الموصوفون بأن منهم لمن ليبطئن فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم البائعون للحياة الدنيا بالآخرة ، ثم وعد المقاتلين فى سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجرًا عظيما لا يقادر قدره ، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التى هى أعلى درجات الأجور ، وإن غلب ،ظفر كان له أجر من قاتل فى سبيل الله مع ما قد ناله من العلو فى الدنيا والغنيمة ، وظاهر هذا يقتضى التسوية بين من قتل شهيدًا ، أو انقلب غانمًا ، وربما يقال : إن التسوية بينهما إنما هى فى إيتاء الأجر العظيم ، ولا يلزم أن يكون أجرهما مستويًا ، فإن كون الشيء عظيما هو من الأمور النسبية التى يكون بعضها عظيمًا بالنسبة إلى ما هو دونه ، وحقيرًا بالنسبة إلى ما هو فوقه .

قوله : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله** ﴾ خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات . قوله : ﴿ **المستضعفين** ﴾ مجرور عطفًا على الاسم الشريف ، أى ما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ، وسبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر وتريحوهم مما هم فيه من الجهد ، ويجوز أن يكون منصوبًا على الاختصاص ، أى وأخص المستضعفين فإنهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل الله ، واختار الأول الزجاج والأزهرى. وقال محمد بن يزيد : أختار أن يكون المعنى وفى المستضعفين فيكون عطفًا على السبيل . والمراد بالمستضعفين هنا: من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال الكفار ، وهم الذين كان يدعو لهم النبى ﷺ فيقول : «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعيَّاش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين» كما فى الصحيح [1] . ولا يبعد أن يقال : إن لفظ الآية أوسع ، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله : ﴿ **الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها** ﴾ فإنه يشعر باختصاص ذلك بالمستضعفين الكائنين فى مكة لأنه قد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها : مكة . وقوله : ﴿ **من الرجال والنساء والولدان** ﴾ بيان للمستضعفين .

قوله : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله** ﴾ هذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره ، ﴿ **والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت** ﴾ أى سبيل الشيطان، أو الكهان ، أو الأصنام ، وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله : ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ أى مكره ومكر من اتبعه من الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانفروا ثُبَات**﴾ قال : عصبًا يعنى سرايا متفرقين ﴿ **أو انفروا جميعا** ﴾ يعنى كلكم . وأخرج

(١) الحديث من رواية أبى هريرة أخرجه البخارى فى الأذان (٨٠٤) وفى الاستسقاء (١٠٠٦) وفى الجهاد (٢٩٣٢) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٨٦) وفى التفسير (٤٥٦٠) وفى الأدب (٦٢٠٠) وفى الدعوات (٦٣٩٣) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٥ / ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عنه قال فى سورة النساء: ﴿ **خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا** ﴾ نسختها ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة : ١٢٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ثبات**﴾ أى فرقًا قليلاً . وأخرج عن قتادة فى قوله : ﴿ **أو انفروا جميعًا** ﴾ أى إذا نفر نبى الله ﷺ فليس لأحد أن يتخلف عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وإن منكم لمن لَيبطئن**﴾ إلى قوله : ﴿ **فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾ ما بين ذلك فى المنافقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى الآية قال : هو فيما بلغنا عبد الله بن أبى بن سَلُول رأس المنافقين . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **فليقاتل** ﴾ يعنى يقاتل المشركين ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ فى طاعة الله ﴿ **ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل** ﴾ يعنى : يقتله العدو ﴿ **أو يغلب**﴾ يعنى : يغلب العدو من المشركين ﴿ **فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾ يعنى جزاءً وافرًا فى الجنة ، فجعل القاتل والمقتول من المسلمين فى جهاد المشركين شريكين فى الأجر.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فى سبيل الله والمستضعفين** ﴾ قال : وفى المستضعفين . وأخرج ابن جرير عن الزهرى قال : وسبيل المستضعفين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال (١) : المستضعفون أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها . وأخرج البخارى عنه قال : أنا وأمى من المستضعفين(٢) . وأخرج ابن جرير عنه قال : القرية الظالم أهلها : مكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة مثله. وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه . ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفًا** ﴾ قال مجاهد : كان الشيطان يتراءى لى فى الصلاة فكنت أذكر قول ابن عباس فأحمل عليه فيذهب عنى .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**

---

(١) فى المخطوطة : « . . . وابن أبى حاتم عنه من طريق العوفى قال » ، والتصحيح من ابن جرير ٥ / ١٠٧ .
(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز (١٣٥٧) وفى التفسير (٤٥٨٧) .

فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم** ﴾ الآية : قيل : هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال فى مكة بعد أن تسرعوا إليه ؛ فلما كتب عليهم بالمدينة تثبطوا عن القتال من غير شك فى الدين ، بل خوفًا من الموت، وفرقًا من هول القتل . وقيل : إنها نزلت فى اليهود . وقيل : فى المنافقين أسلموا قبل فرض القتال ، فلما فرض كرهوه وهذا أشبه بالسياق لقوله : ﴿ **وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب** ﴾ وقوله : ﴿**وإن تصبهم حسنة** ﴾ الآية . ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة . وقوله : ﴿ **كخشية الله** ﴾ صفة مصدر محذوف ، أى خشية كخشية الله ، أو حال أى تخشونهم مشبهين أهل خشية الله، والمصدر مضاف إلى المفعول ، أى كخشيتهم الله . وقوله : ﴿ **أو أشد خشية** ﴾ معطوف على ﴿ **كخشية الله** ﴾ فى محل جر ، أو معطوف على الجار والمجرور جميعًا ، فيكون فى محل الحال كالمعطوف عليه ، و« أو » للتنويع على أن خشية بعضهم كخشية الله ، وخشية بعضهم أشد منها .

قوله : ﴿ **وقالوا** ﴾ عطف على ما يدل عليه قوله : ﴿ **إذا فريق منهم** ﴾ أى فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس ﴿ **وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا** ﴾ أى هلا أخرتنا ، يريدون المهلة إلى وقت آخر قريب من الوقت الذى فرض عليهم فيه القتال فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ سريع الفناء لا يدوم لصاحبه ، وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل ﴿ **لمن اتقى** ﴾ منكم ورغب فى الثواب الدائم ﴿ **ولا تظلمون فتيلا**﴾ أى شيئًا حقيرًا يسيرًا ، وقد تقدم تفسير الفتيل قريبًا ، وإذا كنتم توفرون أجوركم ولا تنقصون شيئا منها ، فكيف ترغبون عن ذلك وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلته وانقطاعه .

وقوله : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت** ﴾ كلام مبتدأ ، وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت ، وبيان لفساد ما خالطه من الجبن ، وخامره من الخشية ، فإن الموت إذا كان كائنًا لا محالة ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره ، والبروج : جمع برج : وهو البناء المرتفع ، والمشيدة : المرتفعة من شاد القصر : إذا رفعه وطلاه بالشيد وهو الجص ، وجواب « لولا » محذوف لدلالة ما قبله عليه .

وقد اختلف فى هذه البروج ما هى ؟ فقيل : الحصون التى فى الأرض . وقيل : هى القصور . قال الزجاج والقتيبى : ومعنى مشيدة : مطولة . وقيل : معناه : مطلية بالشيد وهو الجص . وقيل المراد بالبروج : بروج فى سماء الدنيا مبنية حكاه مكى عن مالك ، وقال : ألا ترى إلى قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ [البروج : ١] ، ﴿ جعل فى السماء بروجًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] ، ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجًا ﴾ [الحجر : ١٦] . وقيل : إن المراد بالبروج المشيدة هنا : قصور من حديد . وقرأ طلحة بن سليمان : ﴿ **يدرككم الموت** ﴾ بالرفع على تقدير الفاء كما فى قوله :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها

قوله : ﴿ **وإن تصبهم حسنة** ﴾ هذا وما بعده مختص بالمنافقين ، أى إن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى ، وإن تصبهم بلية ونقمة نسبوها إلى رسول الله ﷺ ، فرد الله ذلك عليهم بقوله : ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ ليس كما تزعمون ، ثم نسبهم إلى الجهل وعدم الفهم، فقال : ﴿ **فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا** ﴾ أى ما بالهم هكذا .

قوله : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾ هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس ، أو لرسول الله ﷺ لأمته ، أى ما أصابك من خصب ورخاء وصحة وسلامة فمن الله بفضله ورحمته ، وما أصابك من جهد وبلاء وشدة فمن نفسك بذنب أتيته فعوقبت عليه . وقيل : إن هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثًا ، أى فيقولون : ما أصابك من حسنة فمن الله . وقيل : إن ألف الاستفهام مضمرة ، أى أفمن نفسك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وتلك نعمة تمنها علىّ ﴾ [الشعراء : ٢٢] . والمعنى : أو تلك نعمة، ومثله قوله : ﴿ فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربى ﴾ [الأنعام : ٧٧] ، أى أهذا ربى ومنه قول أبى خراش الهذلى :

رمونى وقالوا ياخويلد لم تُرَعْ فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أى أهم هم ؟ وهذا خلاف الظاهر ، وقد ورد فى الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقوله : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران : ١٦٥] . وقد يظن أن قوله : ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ مناف لقوله : ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ ، ولقوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ [آل عمران : ١٦٦] . وقوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : ٣٥] . وقوله : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ [الرعد : ١١] . وليس الأمر كذلك فالجمع ممكن كما هو مقرر فى مواطنه . قوله : ﴿ **وأرسلناك للناس رسولا**﴾ فيه البيان لعموم رسالته ﷺ إلى الجميع كما يفيده التأكيد بالمصدر ، والعموم فى الناس ، ومثله قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [سبأ : ٢٨] . وقوله : ﴿ يأيها الناس إنى رسول

الله إليكم جميعا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . ﴿**وكفى بالله شهيدا** ﴾ على ذلك .

قوله : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ فيه أن طاعة الرسول طاعة لله ، وفى هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ وعلو شأنه ، وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به ، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه ﴿ **ومن تولى** ﴾ أى أعرض ﴿ **فما أرسلناك عليهم حفيظا** ﴾ أى حافظًا لأعمالهم ، إنما عليك البلاغ وقد نسخ بآية السيف ﴿ **ويقولون طاعة** ﴾ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى أمرنا طاعة ، أو شأننا طاعة . وقرأ الحسن والجَحْدرى ونصر بن عاصم بالنصب على المصدر ، أى نطيع طاعة، وهذه فى المنافقين فى قول أكثر المفسرين ، أى يقولون إذا كانوا عندك : طاعة ، ﴿ **وإذا برزوا من عندك** ﴾ أى خرجوا من عندك ﴿ **بيت طائفة منهم** ﴾ أى زورت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذى تقول لهم أنت ، وتأمرهم به ، أو غير الذى تقول لك هى من الطاعة لك . وقيل : معناه : غيروا وبدّلوا وحرفوا قولك فيما عهدت إليهم ، والتبييت : التبديل ، ومنه قول الشاعر[(١)] :

أَتَوْنى فَلَم أَرْضَ مَابَيَّتُوا وَكَانُوا أَتَوْنى بِأَمْر نُكُرْ [(٢)]

يقال : بيت الرجل الأمر : إذا دبره ليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إذ يبيتون ما لا يرضى من القول** ﴾ . ﴿ **والله يكتب ما يبيتون** ﴾ أى يثبته فى صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه . وقال الزجاج : المعنى ينزله عليك فى الكتاب قوله : ﴿**فأعرض عنهم** ﴾ أى دعهم وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم . وقيل : معناه : لا تخبر بأسمائهم . وقيل : معناه : لا تعاقبهم ثم أمره بالتوكل عليه ، والثقة به فى النصر على عدوه ، قيل : وهذا منسوخ بآية السيف .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ فقالوا : يا نبى الله ، كنا فى عزة ونحنٍ مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ؟ فقال : « إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » ، فلما حوّله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم** ﴾ الآية [(٣)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى تفسير الآية نحوه [(٤)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد؛ أنها نزلت فى اليهود [(٥)] ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن

(١) الشاعر: هو عبيدة بن همام أخو بنى العدوية ، من بنى مالك بن حنظلة من بنى تميم .
(٢) راجع مجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٣٣ والحيوان ٤ / ٣٧٦ والكامل ٢ / ٣٥ ، ١٠٦ واللسان ٥ / ٢٣٢ .
(٣) النسائى فى الجهاد ٦ / ٣ وفى التفسير (١٣٢) وابن جرير ٥ / ١٠٨ وصححه الحاكم ٢ / ٦٦ ، ٦٧ ، ٣٠٧ على شرط البخارى ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩ / ١١ والواحدى فى أسباب النزول ص٩٥ ، ٩٦ .
(٤) ابن جرير ٥ / ١٠٨ . (٥) المرجع السابق ٥ / ١٠٩ .

ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما كتب عليهم القتال إذا فريق** ﴾ الآية . قال : نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **إلى أجل قريب**﴾ قال : هو الموت . وأخرجا نحوه عن ابن جريج .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة : ﴿ **فى بروج مشيدة** ﴾ قال : فى قصور محصنة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : هى قصور فى السماء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإن تصبهم حسنة** ﴾ يقول: نعمة ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ قال : مصيبة ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ قال : النعم والمصائب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وإن تصبهم حسنة**﴾ قال : هذه فى السراء والضراء ، وفى قوله : ﴿ **ما أصابك من حسنة** ﴾ قال : هذه فى الحسنات والسيئات. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ يقول : الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها ، وفى قوله : ﴿ **وما أصابك من سيئة** ﴾ قال : ما أصابه يوم أحد أن شُج وجهه وكسرت رباعيته. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه فى قوله : ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ قال : هذا يوم أحد يقول : ما كانت من نكبة فبذنبك، وأنا قدَّرت ذلك . وأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد ؛ أن ابن عباس كان يقرأ : « وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك » قال مجاهد : وكذلك قراءة أُبىّ وابن مسعود . وأخرج نحو قول مجاهد هذا ابن الأنبارى فى المصاحف.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويقولون طاعة** ﴾ قال : هم أناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله ؛ ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ﴿ **فإذا برزوا** ﴾ من عند رسول الله ﴿ **بيت طائفة منهم** ﴾ يقول : خالفوا إلى غير ما قالوا عنده ، فعابهم الله (١) . وأخرج ابن جرير عنه قال غير أولئك ما قاله النبى ﷺ .

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾.

الهمزة فى قوله : ﴿ **أفلا يتدبرون** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر ، أى أيعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه . يقال: تدبرت الشىء تفكرت فى عاقبته وتأملته ، ثم استعمل فى كل تأمل ، والتدبير : أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، ودلت هذه الآية ،

(١) ابن جرير ٥ / ١١٣ وهو مسلسل بالعوفيين الضعفاء .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : ٢٤] . على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه . والمعنى : أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفا غير مختلف ، صحيح المعانى، قوى المبانى ، بالغًا فى البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ أى تفاوتًا وتناقضًا ، ولا يدخل فى هذا اختلاف مقادير الآيات والسور ، لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت ، وعدم المطابقة للواقع ، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال وتعرض قائله للإخبار بالغيب ، فإنه لا يوجد منه صحيحًا مطابقًا للواقع إلا القليل النادر .

قوله : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾ يقال : أذاع الشىء وأذاع بـه : إذا أفشـاه وأظهره [١] ، وهؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين ، كانوا إذا سمعوا شيئا من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظَفَر المسلمين وقتل عـدوهم ، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم أفشوه ، وهم يظنون أنه لا شىء عليهم فى ذلك . قوله : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم** ﴾ وهم أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم فى أمورهم ، أو هم الولاة عليهم ﴿ **لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ أى يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم . والمعنى : أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار ، حتى يكون النبى ﷺ هو الذى يذيعها ، أو يكون أولى الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك ؛ لأنهم يعلمون ما ينبغى أن يُفْشَى وما ينبغى أن يُكْتَم . والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء : إذا استخرجته . والنبط : الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها . وقيل : إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة . قوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا** ﴾ أى لولا ما تفضل الله به عليكم من إرسال رسوله ، وإنزال كتابه، لاتبعتم الشيطان ، فبقيتم على كفركم إلا قليلا منكم ، أو إلا اتباعًا قليلاً منكم . وقيل : المعنى : أذاعوا به إلا قليلا منهم ، فإنه لم يذع ولم يفش . قاله الكسائى والأخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم وابن جرير . وقيل : المعنى : لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلاً منهم ، قاله الزجاج .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ يقول : إن قول الله لا يختلف ، وهو حق ليس فيه باطل ، وإن قول الناس يختلف . وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن أبى حاتم من طريق ابن عباس عن عمر بن الخطاب ؛ قال : لما اعتزل النبى ﷺ نساءه دخلت المسجد فوجدت الناس

---

(١) ومنه قول أبى الأسود :

أذاع به فى الناس حتى كأنه ... بعلياء نار أوقدت بثقوب

راجع : ديوانه فى نفائس المخطوطات ٢ / ٤٤ والأغانى ١٢ / ٣٠٥ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٣٣ ، واللسان ٨ / ٩٩ .

ينكتون بالحصا [١] ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه ، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية ، قال : هذا فى الإخبار إذا غزت سرية من المسلمين أخبر الناس عنها ، فقالوا : أصاب المسلمون من عدوهم كذا وكذا ، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا ، فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبى ﷺ هو يخبرهم به . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ﴿ **وإذا جاءهم** ﴾ قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن جرير عن أبى معاذ مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان** ﴾ قال : فانقطع الكلام. وقوله : ﴿ **إلا قليلا** ﴾ فهو فى أول الآية يخبر عن المنافقين ، قال : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾ ﴿ **إلا قليلا** ﴾ يعنى بالقليل المؤمنين .

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ .

الفاء فى قوله : ﴿ **فقاتل** ﴾ قيل : هى متعلقة بقوله : ﴿ **ومن يقاتل فى سبيل الله** ﴾ إلخ أى من أجل هذا فقاتل . وقيل: متعلقة بقوله : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله** ﴾ فقاتل. وقيل : هى جواب شرط محذوف يدل عليه السياق تقديره : إذا كان الأمر ما ذكر من عدم طاعة المنافقين فقاتل ، أو إذا أفردوك وتركوك فقاتل . قال الزجاج : أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد وإن قاتل وحده ؛ لأنه قد ضمن له النصر . قال ابن عطية : هذا ظاهر اللفظ ، إلا أنه لم يجئ فى خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة . فالمعنى والله أعلم : أنه خطاب له فى اللفظ ، وفى المعنى له ولأمته ، أى أنت يامحمد وكل واحد من أمتك يقال : ﴿ **فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك** ﴾ أى لا تكلف إلا نفسك ولا تلزم فعل غيرك ، وهو استئناف مقرر لما قبله؛ لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده . وقرئ : ﴿ **لا تكلف** ﴾ بالجزم على النهى وقرئ بالنون .

قوله : ﴿ **وحرض المؤمنين** ﴾ أى حضهم على القتال والجهاد ، يقال : حرضت فلانا على

---

(١) ينكتون بالحصا : يضربون به الأرض ، كفعل المهموم المفكر . اللسان ٢ / ١٠٠ .
(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الطلاق (١٤٧٩ / ٣٠) .

كذا : إذا أمرته به ، وحارض فلان على الأمر وأكب عليه وواظب عليه ، بمعنى واحد . قوله: ﴿ **عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا** ﴾ فيه إطماع للمؤمنين بكف بأس الذين كفروا عنهم ، والإطماع من الله عز وجل واجب ، فهو وعد منه سبحانه ووعده كائن لا محالة ﴿ **والله أشد بأسًا** ﴾ أى أشد صولة وأعظم سلطانًا ﴿ **وأشد تنكيلا** ﴾ أى عقوبة ، يقال : نكلت بالرجل تنكيلاً من النكال وهو العذاب . والمنكل الشيء الذى ينكل بالإنسان .

﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من الشفع وهو الزوج ، ومنه الشفيع ؛ لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعًا ، ومنه ناقة شفوع : إذا جمعت بين محلبين فى حلبة واحدة وناقة شفيع : إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها . والشفع : ضم واحد إلى واحد . والشفعة : ضم ملك الشريك إلى ملكك ، فالشفاعة : ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ، فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع ، واتصال منفعة إلى المشفوع له . والشفاعة الحسنة : هى فى البر والطاعة ، والشفاعة السيئة : فى المعاصى ، فمن شفع فى الخير لينفع فله نصيب منها ، أى من أجرها ، ومن شفع فى الشر كمن يسعى بالنميمة والغيبة كان له كِفْل منها ، أى نصيب من وزرها . والكِفل : الوزر والإثم، واشتقاقه من الكساء الذى يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط ، يقال : اكتفلت البعير : إذا أدرت على سنامه كساء وركبت عليه ؛ لأنه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيبًا منه ، ويستعمل فى النصيب من الخير والشر . ومن استعماله فى الخير قوله تعالى : ﴿يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ [الحديد : ٢٨] ، ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ أى مقتدرًا قاله الكسائى . وقال الفراء : المقيت : الذى يعطى كل إنسان قوته . يقال : قُتُّه أقوته قوتا ، وأقتُّه أقِيته إقاتة فأنا قائت ومقيت ، وحكى الكسائى أقات يُقيت . وقال أبو عبيدة : المقيت : الحافظ . قال النحاس : وقول أبى عبيدة أولى لأنه مشتق من القوت ، والقوت معناه : مقدار ما يحفظ الإنسان . وقال ابن فارس فى المجمل: المقيت : المقتدر . والمقيت : الحافظ والشاهد. وأما قول الشاعر (١) :

أَلِيَ الفَضْلُ أَمْ عَلَيّ إذَا حُو سِبْتُ إنِّى عَلَى الحِسَابِ مُقِيتُ (٢)

فقال ابن جرير الطبرى : إنه من غير هذا المعنى .

قوله : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ التحية : تفعلة من حييت ، والأصل : تحيية مثل ترضية وتسمية ، فأدغموا الياء فى الياء ، وأصلها : الدعاء بالحياة ، والتحية : السلام ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، ومثله قوله تعالى: ﴿ وإذا جاؤوك حيوك بما لم

(١) الشاعر هو : السموأل بن عادياء اليهودى .

(٢) ديوانه ١٣ ، ١٤ ، والأصمعيات ٨٥ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٣٥ وطبقات فحول الشعراء للجمحى ٢٣٦ ، ٢٣٧ واللسان ٢ / ٧٤.

يحيك به الله ﴾ [المجادلة : ٨] ، وإلى هذا ذهب جماعة المفسرين، وروى عن مالك أن المراد بالتحية هنا : تشميت العاطس . وقال أصحاب أبى حنيفة : التحية هنا : الهدية لقوله : ﴿ **أو ردوها** ﴾ ولا يمكن رد السلام بعينه ، وهذا فاسد لا ينبغى الالتفات إليه . والمراد بقوله : ﴿**فحيوا بأحسن منها** ﴾ أن يزيد فى الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية ، فإذا قال المبتدئ : السلام عليكم ، قال المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا زاد المبتدئ لفظا زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظا أو ألفاظا نحو وبركاته ، ومرضاته ، وتحياته . قال القرطبى: أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها ، ورده فريضة لقوله : ﴿ **فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ واختلفوا إذا رد واحد من جماعة هل يجزئ أوْ لا ؟ فذهب مالك والشافعى إلى الإجزاء ، وذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزئ عن غيره ، ويردّ عليهم حديث علىّ ، عن النبى ﷺ قال : « يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم » أخرجه أبو داود[١] وفى إسناده سعيد بن خالد الخزاعى المدنى وليس به بأس ، وقد ضعفه بعضهم . وقد حسن الحديثَ ابنُ عبد البر .

ومعنى قوله : ﴿ **أو ردوها** ﴾ الاقتصار على مثل اللفظ الذى جاء به المبتدئ ، فإذا قال : السلام عليكم ، قال المجيب : وعليكم السلام ، وقد ورد فى السنة المطهرة فى تعيين من يبتدئ بالسلام ومن يستحق التحية ومن لا يستحقها ما يغنى عن البسط ها هنا . قوله : ﴿ **إن الله كان على كل شىء حسيبا** ﴾ يحاسبكم على كل شىء . وقيل : معناه : حفيظا . وقيل : كافيا ، قولهم : أحسبنى كذا أى كفانى ، ومثله : « حسبك الله » .

قوله : ﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ مبتدأ وخبر ، واللام فى قوله : ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ جواب قسم محذوف ، أى والله ليجمعنكم الله بالحشر إلى يوم القيامة ، أى إلى حساب يوم القيامة . وقيل :« إلى » بمعنى « فى » وقيل : إنها زائدة والمعنى : ليجمعنكم يوم القيامة ، و﴿ **يوم القيامة** ﴾ يوم القيام من القبور ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أى فى يوم القيامة ، أو فى الجمع ، أى جمعًا لا ريبَ فيه ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾ إنكار لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه . وقرأ حمزة والكسائى : «ومن أزدق » وقرأ الباقون بالصاد ، والصاد الأصل ، وقد تبدل زايًا لقرب مخرجها منها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى سنان فى قوله : ﴿ **وحرض المؤمنين** ﴾ قال: عظهم. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿**من يشفع شفاعة حسنة** ﴾ الآية ، قال : شفاعة الناس بعضهم لبعض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يكن له نصيب منها**﴾ قال : حظ منها. وقوله : ﴿ **كفل منها** ﴾ قال : الكفل : هو الإثم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

---

(١) أبو داود فى الأدب (٥٢١٠) .

عن السدى قال : الكفل : الحظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكان الله على كل شىء مقيتًا** ﴾ قال : حفيظا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حـاتم عن عبد الله بن رواحة ؛ أنه سأله رجل عن قول الله : ﴿ **وكان الله على كل شىء مقيتًا** ﴾ قال : يقيت كل إنسان بقدر عمله . وفى إسناده رجل مجهول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **مقيتًا** ﴾ قال : شهيدًا . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **مقيتا** ﴾ قال : شهيدًا حسيبا حفيظا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله : ﴿ **مقيتًا** ﴾ قال : قادرًا . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : المقيت : القدير. وأخرج أيـضا عن ابن زيد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضـحاك قال : المقيت: الرزاق . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان يهوديًا ، أو نصـرانيًا ، أو مجـوسيًا ، ذلك بـأن اللـه يقـول: ﴿ **وإذا حييتم بتحية**﴾ الآية . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه . قال السيوطى : بسند حسن عن سلمان الفارسى ؛ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليك يارسول الله، فقال : « وعليك ورحمة الله » ، ثم أتى آخر فقال : السلام عليك يا رسول اللـه ورحمة اللـه، فقال : « وعليك ورحمة الله وبركاته » ، ثم جاء آخر فقال : السـلام عليـك ورحمـة الله وبركـاته ، فقـال لـه : « وعليك » ، فقال له الرجل : يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على ؟ فقال : « إنك لم تدع لنا شيئًا ، قال الله : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ فرددناها عليك » [(١)] .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة : أن رجلا مَرَّ على رسول الله ﷺ وهو فى مجلس فقال : سلام عليكم ، فقال : « عشر حسنات » ، فمر رجل آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال : « عشرون حسنة » ، فمر رجل آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : « ثلاثون حسنة » [(٢)] . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر مرفوعًا نحوه [(٣)] . وأخرج البيهقى عن سهل بن حنيف مـرفوعًا نحـوه أيضًا [(٤)] . وأخرج أحمد والدارمى وأبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى والبيهقى عن عمران بن حصين مرفوعًا نحوه أيضًا ، وزاد بعد كل مرة : أن النبى ﷺ ردّ عليه ، ثم قال : « عشر » إلى آخره [(٥)] .

(١) ابن جرير ٥ / ١٢٠ والطبرانى (٦١١٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ٣٦ : « وفيه هشام بن لاحق قواه النسائى وترك أحمد حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وأورد ابن كثير ٢ / ٣٥٠ روايتى ابن أبى حاتم وقال: « معلقًا » ، وابن مردويه وقال : « ولم أره فى المسند » .
(٢) البخارى فى الأدب المفرد (٩٨٦) ، وابن حبان فى البر والإحسان (٤٩٣) .
(٣) البيهقى فى الشعب (٨٨٧٤) . ط . الكتب العلمية .
(٤) البيهقى فى الشعب (٨٨٧٥) . ط . الكتب العلمية .
(٥) أحمد ٤ / ٤٣٩ ، ٤٤٠ والدارمى فى الاستئذان ٢ / ٢٧٧ ، ٢٧٨ وأبو داود فى الأدب (٥١٩٥) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٨٩) وقال : « حسن صحيح غريب » والنسائى فى السنن الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠١٦٩) والبيهقى فى الشعب (٨٨٧٠) وقال : « إسناد حسن» . ط . الكتب العلمية .

وأخرج أبو داود والبيهقي عن معاذ بن أنس الجهني مرفوعًا نحوه . وزاد بعد قوله وبركاته: ومغفرته . فقال : « أربعون »[١] . يعني : حسنة .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) ﴾ .

الاستفهام فى قوله : ﴿ **ما لكم** ﴾ للإنكار ، واسم الاستفهام مبتدأ ، وما بعده خبره ، والمعنى : أى شيء كائن لكم ﴿ **فى المنافقين** ﴾ أى فى أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ **فئتين** ﴾ فى ذلك . وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم فى شأن المنافقين . وقد اختلف النحويون فى انتصاب فئتين ، فقال الأخفش والبصريون: على الحال كقولك: ما لك قائمًا . وقال الكوفيون : انتصابه على أنه خبر لكان ، وهى مضمرة والتقدير؛ فما لكم فى المنافقين كنتم فئتين . وسبب نزول الآية ما سيأتى وبه يتضح المعنى . وقوله : ﴿ **والله أركسهم** ﴾ معناه : ردهم إلى الكفر ﴿ **بما كسبوا** ﴾ وحكى الفراء والنضر بن شميل والكسائى أركسهم وركسهم ، أى ردهم إلى الكفر ونكسهم ، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه ، أو رد أوله إلى آخره، والمنكوس : المركوس ، وفى قراءة عبد الله بن مسعود وأُبى: « والله ركسهم » ومنه قول عبد الله بن رواحة :

اركسوا فى فتة مظلمة ... كسواد الليل يتلوها فتن[٢]

والباء فى قوله : ﴿ **بما كسبوا** ﴾ سببية ، أى أركسهم بسبب كسبهم . وهو لحوقهم بدار الكفر . والاستفهام فى قوله: ﴿ **أتريدون أن تهدوا من أضل الله** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وفيه

---

(١) أبو داود فى الأدب (٥١٩٦) والبيهقى فى الشعب (٨٨٧٦) . ط . الكتب العلمية .

(٢) الإركاس : الرد ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

فأركسوا فى حميم النار إنهم ... كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا

راجع : معانى القرآن للفراء ١ / ٢٨١ .

دليل على أن من أضله الله لا تنجع فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ [القصص : ٥٦] . قوله : ﴿ **ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**﴾ أى طريقا إلى الهداية .

قوله : ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** ﴾ هذا كلام مستأنف ، يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين ، وإيضاح أنهم يودون أن يكفر المؤمنون كما كفروا ، ويتمنون [1] ذلك عنادًا وغلوًا فى الكفر ، وتماديا فى الضلال ، فالكاف فى قوله : ﴿ **كما** ﴾ نعت مصدر محذوف، أى كفروا مثل كفرهم ، أو حال كما روى عن سيبويه . قوله : ﴿ **فتكونون سواء** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **تكفرون** ﴾ داخل فى حكمه ، أى ودوا كفركم ككفرهم ، وودوا مساواتكم لهم . قوله : ﴿ **فلا تتخذوا منهم أولياء** ﴾ جواب شرط محذوف ، أى إذا كان حالهم ما ذكر فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا ، ويحققوا إيمانهم بالهجرة . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ عن ذلك ﴿ **فخذوهم** ﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿ **واقتلوهم حيث وجدتموهم** ﴾ فى الحل والحرم ﴿ **ولا تتخذوا منهم وليًا** ﴾ توالونه ﴿ **ولا نصيراً** ﴾ تستنصرون به .

قوله : ﴿ **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ هو مستثنى من قوله : ﴿**فخذوهم واقتلوهم**﴾ أى إلا الذين يتصلون ، ويدخلون فى قوم بينكم وبينهم ميثاق بالجوار والحلف ، فلا تقتلوهم لما بينهم وبين من بينكم وبينهم عهد وميثاق ، فإن العهد يشملهم . هذا أصح ما قيل فى معنى الآية . وقيل : الاتصال هنا هو اتصال النسب . والمعنى : إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، قاله أبو عبيدة وقد أنكر ذلك أهل العلم عليه ؛ لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع ، فقد كان بين المسلمين وبين المشركين أنساب ، ولم يمنع ذلك من القتال . وقد اختلف فى هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ميثاق ، فقيل : هم قريش كان بينهم وبين النبى ﷺ ميثاق و﴿ **الذين يصلون** ﴾ إلى قريش هم بنو مدلج . وقيل : نزلت فى هلال بن عويمر وسراقة بن جعشم وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبى ﷺ عهد . وقيل : خزاعة ، وقيل : بنو بكر بن زيد .

قوله : ﴿ **أو جاؤوكم حصرت صدورهم** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **يصلون** ﴾ داخل فى حكم الاستثناء ، أى إلا الذين يصلون والذين جاؤوكم ، ويجوز أن يكون عطفًا على صفة قوم، أى إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق والذين يصلون إلى قوم جاؤوكم حصرت صدورهم ، أى ضاقت صدورهم عن القتال فأمسكوا عنه. والحصر : الضيق والانقباض . قال الفراء : وهو أى ﴿ **حصرت صدورهم** ﴾ حال من المضمر المرفوع فى جاؤوكم كما تقول : جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله . وقال الزجاج هو خبر بعد خبر ، أى جاؤوكم ، ثم أخبر فقال : ﴿ **حصرت صدورهم**﴾ فعلى هذا يكون حصرت بدلاً من جاؤوكم . وقيل : حصرت فى موضع خفض على النعت لقوم . وقيل : التقدير : أو

---

(١) فى المخطوطة : « ويتمنوا » والصواب بإثبات النون ، معطوفًا على « يودون » .

جاؤوكم رجال أو قوم حصرت صدورهم . وقرأ الحسن : « أو جاؤوكم حصرةً صدورهم » نصبا على الحال ، وقرئ : « حصرات ، وحاصرات» . وقال محمد بن يزيد المبرد : حصرت صدورهم هو دعاء عليهم كما تقول : لعن الله الكافر ، وضعفه بعض المفسرين [(١)] ، وقيل «أو» بمعنى « الواو » .

قوله : ﴿ **أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم** ﴾ هو متعلق بقوله : ﴿ **حصرت صدورهم** ﴾ أى حصرت صدورهم عن قتالكم ، والقتال معكم لقومهم ، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين وكرهوا ذلك ﴿ **ولو شاء الله لسلطهم عليكم** ﴾ ابتلاء منه لكم واختبارًا كما قال سبحانه : ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [محمد : ٣١] أو تمحيصًا لكم ، أو عقوبــة بذنوبكم ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، واللام فى قوله : ﴿**فلقاتلوكم**﴾ جواب لو على تكرير الجواب ، أى لو شاء الله لسلطهم ولقاتلوكم ، والفاء للتعقيب ﴿ **فإن اعتزلوكم** ﴾ ولم يتعرضوا لقتالكم ﴿ **وألقوا إليكم السلم** ﴾ أى استسلموا لكم وانقادوا ﴿ **فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ أى طريقًا ، فلا يحل لكم قتلهم ، ولا أسرهم ولا سلب أموالهم ، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك ويحرمه ﴿ **ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم**﴾ فيظهرون لكم الإسلام ، ويظهرون لقومهم الكفر ، ليأمنوا من كلا الطائفتين ، وهم قوم من أهل تهامة ، طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ ليأمنوا عنده ، وعند قومهم . وقيل: هى فى قوم من أهل مكة . وقيل : فى نُعَيْم بن مسعود ، فإنه كان يأمن المسلمين والمشركين . وقيل : فى قوم من المنافقين . وقيل : فى أسد وغطفان . ﴿ **كلما ردوا إلى الفتنة** ﴾ أى دعاهم قومهم إليها ، وطلبوا منهم قتال المسلمين ﴿ **أركسوا فيها** ﴾ أى قلبوا فيها ، فرجعوا إلى قومهم، وقاتلوا المسلمين ، ومعنى الارتكاس : الانتكاس ﴿ **فإن لم يعتزلوكم** ﴾ يعنى هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ، ويأمنوا قومهـم ﴿ **ويلقـوا إليكـم السلم** ﴾ أى يستسلمون لكم ، ويدخلون فى عهدكم وصلحكم ، وينسلخون عن قومهم ﴿ **ويكفوا أيديهم** ﴾ عن قتالكم ﴿**فخذوهم واقتلوهم حيث ثقـفتموهم** ﴾ أى حيث وجدتموهم ، وتمكنتم منهم ﴿ **وأولئكم** ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ **جعلنا لكم عليهم سلطانًا مبينًا** ﴾ أى حجة واضحة ، تتسلطون بها عليهم ، وتقهرونهم بها ، بسبب ما فى قلوبهم من المرض وما فى صدورهم من الدغل ، وارتكاسهم فى الفتنة بأسرع عمل وأقل سعى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن ثابت ؛ أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول :

(١) وقيل : الحَصِر : الكتوم للسر ، قال جرير :

ولقد تسقَّطنى الوشاةُ فصادفوا ... حصِرًا بسرِّكِ ، يا أميم ، ضنينا

اللسان ٤ / ١٩٤ .

نقتلهم وفرقة تقول : لا . فأنزل الله : ﴿ **فما لكم فى المنافقين فئتين** ﴾ الآية كلها . فقال رسول الله ﷺ : « وإنها طيبة ، وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة » [١] . هذا أصح ما روى فى سبب نزول الآية ، وقد رويت أسباب غير ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **والله أركسهم** ﴾ يقول : أوقعهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : ردهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ قال : نزلت فى هلال بن عويمر وسراقة بن مالك المدلجى وفى بنى خزيمة بن عامر [٢] بن عبد مناف [٣] . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس ، والبيهقى فى سننه عنه فى قوله : ﴿ **إلا الذين يصلون** ﴾ الآية ، قال : نسختها براءة ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥][٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ **حصرت صدورهم** ﴾ يقول : ضاقت صدورهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع : ﴿ **وألقوا إليكم السلم** ﴾ قال : الصلح . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن اعتزلوكم** ﴾ الآية . قال : نسختها : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ [٥] . وأخرج ابن جرير عن الحسن وعكرمة فى هذه الآية قال : نسختها براءة [٦] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**ستجدون آخرين** ﴾ الآية ، قال: ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبى ﷺ فيُسْلِمون رياءً ، ثم يرجعون إلى قومهم فيرتكسون فى الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا ، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصالحوا [٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ؛ أنهم ناس كانوا بتهامة [٨] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ؛ أنها نزلت فى نعيم بن مسعود [٩] .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن

---

(١) البخارى فى فضائل المدينة (١٨٨٤) وفى المغازى (٤٠٥٠) وفى التفسير (٤٥٨٩) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٦ / ٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٢٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٣٣) .

(٢) فى المطبوعة : « وفى بنى خزيمة بنى عامر » ، وما أثبتناه هو من المخطوطة ، وعند ابن جرير : « وخزيمة بن عامر » .

(٣) ابن جرير ٥ / ١٢٤، لكن عن عكرمة وليس عن ابن عباس .

(٤) البيهقى فى السير ٩ / ١١ .

(٥ ، ٦) ابن جرير ٥ / ١٢٦ .

(٧ ـ ٩) ابن جرير ٥ / ١٢٧ .

كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما كان لمؤمن** ﴾ هذا النفى هو بمعنى النهى المقتضى للتحريم ، كقوله : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ [الأحزاب : ٥٣] . ولو كان هذا النفى على معناه لكان خبرًا وهو يستلزم صدقه ، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمنًا قط . وقيل : المعنى : ما كان له ذلك فى عهد الله . وقيل : ما كان له ذلك فيما سلف كما ليس له الآن ذلك بوجه ثم استثنى منه استثناء منقطعًا فقال : إلا خطأ ، أى ما كان له أن يقتله البتة لكن إن قتله خطأ فعليه كذا، هذا قول سيبويه والزجاج . وقيل: هو استثناء متصل والمعنى : وما ثبت ولا وجد ، ولا ساغ لمؤمن ، أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ ، إذ هو مغلوب حينئذ . وقيل : المعنى : ولا خطأ . قال النحاس : ولا يعرف ذلك فى كلام العرب ولا يصح فى المعنى إلا الخطأ لا يحظر . وقيل : إن المعنى: ما ينبغى أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده ، فيكون قوله : ﴿ **خطأ** ﴾ منتصبًا بأنه مفعول له ، ويجوز أن ينتصب على الحال ، والتقدير : لا يقتله فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، أى إلا قتلاً خطأ [(١)] ، ووجوه الخطأ كثيرة ويضبطها عدم القصد ، والخطأ : الاسم من أخطأ خطأ إذا لم يتعمد . قوله : ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ أى فعليه تحرير رقبة مؤمنة ، يعتقها كفارة عن قتل الخطأ ، وعبر بالرقبة عن جميع الذات .

واختلف العلماء فى تفسير الرقبة المؤمنة فقيل : هى التى صلت وعقلت الإيمان فلا تجزئ الصغيرة ، وبه قال ابن عباس والحسن والشعبى والنخعى وقتادة وغيرهم . وقال عطاء بن أبى رباح : إنها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين ، وقال جماعة منهم مالك والشافعى : يجزئ كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات ولا يجزئ فى قول جمهور العلماء : أعمى ، ولا مقعد ، ولا أشل ، ويجزئ عند الأكثر الأعرج والأعور . قال مالك : إلا أن يكون عرجًا شديدًا . ولا يجزئ عند أكثرهم المجنون ، وفى المقام تفاصيل طويلة مذكورة فى علم الفروع .

قوله : ﴿ **ودية مسلمة إلى أهله** ﴾ الدية : ما تعطى عوضًا عن دم المقتول إلى ورثته ، والمسلَّمة : المدفوعة المؤداة ، والأهل المراد بهم : الورثة . وأجناس الدية وتفاصيلها قد بينتها السنة المطهرة . قولـه : ﴿ **إلا أن يصدقوا** ﴾ أى إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية ،

---

(١) ويؤيد ابن جرير أنه استثناء منقطع كما قال جرير بن عطية :

من البيض لم تظعن بعيدًا ولم تطأ ... على الأرض إلا رَيْط بُرد مُرَحَّلِ

راجع : ديوانه ٤٥٧ والنقائض ٧٠٦ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٣٧ ومن الاستثناء المنقطع قوله تعالى : ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ .

سمى العفو عنها صدقة ترغيبًا فيه . وقرأ أبيّ : « إلا يتصدقوا » ، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله : ﴿ **فدية مسلمة** ﴾ أى فعليه دية مسلمة إلا أن يقع العفو من الورثة عنها . قوله : ﴿ **فإن كان من قوم عدو لكم** ﴾ أى فإن كان المقتول من قوم عدو لكم وهم الكفار الحربيون ، وهذه مسألة المؤمن الذى يقتله المسلمون فى بلاد الكفار الذين كان منهم ، ثم أسلم ولم يهاجر وهم يظنون أنه لم يسلم، وأنه باقٍ على دين قومه ، فلا دية على قاتله ؛ بل عليه تحرير رقبة مؤمنة، واختلفوا فى وجه سقوط الدية ؟ فقيل : وجهه أن أولياء القتيل كفار لا حق لهم فى الدية . وقيل : وجهه أن هذا الذى آمن ولم يهاجر حرمته قليلة ، لقول الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء﴾ [الأنفال : ٧٢] وقال بعض أهل العلم : إن ديته واجبة لبيت المال .

قوله : ﴿ **وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ أى مؤقت أو مؤبد . وقرأ الحسن : «وهو مؤمن فدية مسلمة إلى أهله » أى فعلى قاتله دية مؤداة إلى أهله من أهل الإسلام ، وهم ورثته ﴿ **وتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ كما تقدم ﴿ **فمن لم يجد** ﴾ أى الرقبة ، ولا اتسع ماله لشرائها ﴿**فصيام شهرين متتابعين** ﴾ أى فعليه صيام شهرين متتابعين ، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إفطار فى نهار ، فلو أفطر استأنف ، هذا قول الجمهور ، وأما الإفطار لعذر شرعى كالحيض ونحوه فلا يوجب الاستئناف . واختلف فى الإفطار لعرض المرض . قوله : ﴿ **توبة من الله** ﴾ منصوب على أنه مفعول له ، أى شرع ذلك لكم توبة ، أى قبولاً لتوبتكم ، أو منصوب على المصدرية، أى تاب عليكم توبة ، وقيل : منصوب على الحال ، أى حال كونه ذا توبة كائنة من الله . قوله : ﴿**ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم** ﴾ لما بين سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمدًا .

وقد اختلف العلماء فى معنى العمد ، فقال عطاء والنخعى وغيرهما : هو القتل بحديدة كالسيف ، والخنجر وسنان الرمح ، ونحو ذلك من المحدد ، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها . وقال الجمهور : إنه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة ، أو بحجر ، أو بعصى أو بغير ذلك ، وقيده بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله فى العادة . وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ، واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها . وذهب آخرون أنه ينقسم إلى قسمين : عمد وخطأ ولا ثالث لهما ، واستدلوا بأنه ليس فى القرآن إلا القسمان. ويجاب عن ذلك بأن اقتصار القرآن على القسمين لا ينفى ثبوت قسم ثالث بالسنة وقد ثبت ذلك فى السنة . وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمدًا ، فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزاء له ، أى يستحقها بسبب هذا الذنب ، وبين كونه خالدًا فيها وبين غضب الله عليه ، ولعنته له ، وإعداده له عذابًا عظيما، وليس وراء هذا التشديد تشديد ، ولا مثل هذا الوعيد وعيد . وانتصاب خالدًا على الحال ، وقوله : ﴿ **وغضب الله عليه** ﴾ معطوف على مقدر ، يدل عليه السياق ، أى جعل

جزاءه جهنم أو حكم عليه أو جازاه وغضب عليه وأعدّله .

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له ؟ فروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : اختلف فيها علماء أهل الكوفة ، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال : نزلت هذه الآية ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ وهى آخر ما نزل ، وما نسخها شىء [(١)] . وقد روى النسائى عنه نحو هذا [(٢)] . وروى النسائى عن زيد بن ثابت نحوه [(٣)] ، وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبو سلمة وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم . نقله ابن أبى حاتم عنهم . وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [هود : ١١٤] ، وقوله: ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ [الشورى : ٢٥] . وقوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] . قالوا أيضا : والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان، فيكون معناهما : فجزاؤه جهنم إلا من تاب ، لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل ، والموجب وهو التوعد بالعقاب ، واستدلوا أيضا بالحديث المذكور فى الصحيحين عن عبادة بن الصامت ، أنه ﷺ قال : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » ثم قال : « فمن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه»[(٤)] . وبحديث أبى هريرة الذى أخرجه مسلم فى صحيحه وغيره فى الذى قتل مائة نفس [(٥)] . وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه والشافعى إلى أن القاتل عمدًا داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب ، وقد أوضحت فى شرحى على المنتقى مستمسك كل فريق .

والحق أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص ؛ بل هو مفتوح لكل من قصده ، ورام الدخول منه ، وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة إلى الله ، ويقبل من صاحبه الخروج منه ، والدخول فى باب التوبة ، فكيف بما هو دونه من المعاصى التى من جملتها القتل عمدًا ؟ لكن لابد فى توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل ، وتسليم نفسه للقصاص ، إن كان واجبًا ، أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجبًا ، وكان القاتل غنيًا متمكنًا من تسليمها أو بعضها . وأما مجرد التوبة من القاتل عمدًا ، وعزمه على ألا يعود إلى

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٩٠ ، ٤٧٦٣) .

(٢) النسائى فى التفسير (١٣٥) وفى المحاربة من السنن الكبرى (٣٤٦٣) .

(٣) أبو داود فى الفتن والملاحم (٤٢٧٢) والنسائى فى المحاربة من السنن الكبرى (٣٤٦٩ ــ ٣٤٧١) .

(٤) البخارى فى الإيمان (١٨) وفى مناقب الأنصار (٣٨٩٢ ، ٣٨٩٣) وفى التفسير (٤٨٩٤) ، (٦٧٨٤) ، (٦٨٠١) وفى الديات (٦٨٧٣) وفى الأحكام (٧٢١٣) وفى التوحيد (٧٤٦٨) ومسلم فى الحدود (١٧٠٩ / ٤١ ــ ٤٤) والنسائى فى التفسير (٦٠٨) .

(٥) الحديث عن أبى سعيد الخدرى وليس عن أبى هريرة وهو عند البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٦ / ٤٦ــ ٤٨) وابن ماجة فى الديات (٢٦٢٢) .

قتل أحد من دون اعتراف ولا تسليم نفس ، فنحن لا نقطع بقبولها ، والله أرحم الراحمين هو الذى يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ** ﴾ يقول : ما كان له ذلك فيما أتاه ربه من عهد الله الذى عهد إليه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما كان لمؤمن** ﴾ الآية . قال : إن عياش بن أبى ربيعة قتل رجلاً مؤمنًا كان يعذبه هو وأبو جهل ، وهو أخوه لأمه ، فى اتباع النبى ﷺ ، وعياش يحسب أن ذلك الرجل كافر [١] . أوضح من هذا السياق ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال : كان الحارث بن يزيد من بنى عامر ابن لؤى ، يعذب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل ، ثم خرج مهاجرا إلى النبى ﷺ : يعنى الحارث فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ، ثم جاء إلى النبو ﷺ فأخبره، فنزلت : ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ** ﴾ الآية ، فقرأها النبى ﷺ ثم قال له : « قم فحرِّر»[٢] . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن السدى بأطول من هذا [٣] . وقد روى من طرق غير هذه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : نزلت فى رجل قتله أبو الدرداء كان فى سرية، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له ، فوجد رجلاً من القوم فى غنم فحمل عليه بالسيف فقال : لا إله إلا الله فضربه [٤] . وأخرج ابن منده وأبو نعيم نحو ذلك ، ولكن فيه أن الذى قتل المتعوّذ بكلمة الشهادة هو بكر بن حارثة الجهنى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ قال : يعنى بالمؤمنة : من قد عقل الإيمان وصلى ، وكل رقبة فى القرآن لم تسم مؤمنة، فإنه يجوز المولود فما فوقه ممن ليس به زمانة ، وفى قوله : ﴿ **ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا** ﴾ قال : عليه الدية مسلمة إلا أن يتصدق بها عليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : فى حرف أبى : « فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبى » وأخرج عبد ابن حميد وأبو داود والبيهقى عن أبى هريرة أن رجلا أتى النبى ﷺ بجارية سوداء فقال : يا رسول الله ، إن على عتق رقبة مؤمنة ، فقال لها : « أين الله؟» فأشارت إلى السماء بأصبعها . فقال لها : « فمن أنا ؟ » فأشارت إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء ، أى أنت رسول الله . فقال : « اعتقها فإنها مؤمنة » [٥] . وقد روى من طرق وهو فى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى [٦] . وقد وردت أحاديث فى تقدير الدية ، وفى الفرق بين دية الخطأ ودية شبه العمد ، ودية المسلم ودية الكافر ، وهى معروفة فلا حاجة لنا فى ذكرها فى هذا الموضع .

(١ ـ ٣) ابن جرير ٥ / ١٢٨ . (٤) المرجع السابق ٥ / ١٢٩ .

(٥) أبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٨٤) والبيهقى فى الظهار ٧ / ٣٨٨ .

(٦) مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧ / ٣٣) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم النخعى فى قوله : ﴿ **ودية مسلمة إلى أهله**﴾ قال : هذا المسلم الذى ورثته مسلمون ﴿ **فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن** ﴾ قال : هذا الرجل المسلم وقومه مشركون وبينهم وبين رسول الله ﷺ عقد فيقتل ، فيكون ميراثه للمسلمين ، وتكون ديته لقومه ، لأنهم يعقلون عنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن** ﴾ يقول : فإن كان فى أهل الحرب وهو مؤمن فقتله خطأ فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة ، أو صيام شهرين متتابعين ولا دية عليه ، وفى قوله : ﴿ **وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ يقول : إذا كان كافرًا فى ذمتكم فقتل فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن ابن عباس (١) ؛ قال : كان الرجل يجىء فيسلم ، ثم يأتى قومه وهم مشركون فيقيم فيهم ، فتغزوهم جيوش النبى ﷺ ، فيقتل الرجل فيمن يقتل فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ وليست له دية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه ، من طريق عطاء بن السائب عن أبى يحيى عن ابن عباس نحوه (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **توبة من الله** ﴾ يعنى : تجاوزًا من الله لهذه الأمة ، حيث جعل فى قتل الخطأ الكفارة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة؛ أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقَيس بن صبابة فأعطاه النبى ﷺ الدية فقبلها ، ثم وثب على قاتل أخيه وفيه نزلت الآية (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه ، وفيه أن مقيس بن صبابة لحق بمكة بعد ذلك وارتدَّ عن الإسلام ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية : ﴿**ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا** ﴾ بعد التى فى سورة الفرقان بثمان سنين وهى قوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ إلى قوله : ﴿ غفورا رحيما ﴾ (٤) [النساء : ٤٨] وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن زيد بن ثابت أن قوله : ﴿ ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا﴾ نزلت بعد قوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ بستة أشهر (٥) . وأخرج ابن المنذر عنه قال : نزلت هذه الآية التى فى النساء بعد قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] بأربعة أشهر والآثار عن الصحابة فى هذا كثيرة جدا ، والحق ما عرفناك .

---

(١) فى المخطوطة : « عن أبى عياض » ، وكذا هو فى الدر المنثور ٢ / ١٩٤ والتصحيح من ابن جرير ٥ / ١٣١ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الديات (٨٠٥٢) وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧ / ١١ للطبرانى فى الأوسط ، وقال : « فيه عطاء بن السائب ، وقد اختلط » وصححه الحاكم ٢ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٨/ ١٣١ .

(٣) ابن جرير ٥ / ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ٥ / ١٣٩ .

(٥) ابن جرير ٥ / ١٣٩ والطبرانى (٤٨٦٨) وهو عند النسائى فى المحاربة من السنن الكبرى (٣٤٦٩) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾ .

هَذَا متصل بذكر الجهاد والقتال والضرب : السير فى الأرض ، تقول العرب : ضربت فى الأرض : إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيرهما ، وتقول : ضربت الأرض بدون « فى » : إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان ، ومنه قوله ﷺ : « لا يخرج رجلان يضربان الغائط » (١) .
قوله: ﴿ **فتبينوا** ﴾ من التبيُّن وهو التأمل ، وهى قراءة الجماعة إلا حمزة فإنه قرأ : «فتثبتوا» من التثبت . واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم قالا : لأن من أمر بالتبين فقد أمر بالتثبت ، وإنما خص السفر بالأمر بالتبين ، مع أن التبين والتثبت فى أمر القتل واجبان حضرا وسفرا بلا خلاف ؛ لأن الحادثة التى هى سبب نزول الآية كانت فى السفر كما سيأتى . قوله: ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم**﴾ وقرئ « السلام » ومعناهما واحد . واختار أبو عبيدة السلام ، وخالفه أهل النظر فقالوا : السلم هنا أشبه ؛ لأنه بمعنى الانقياد والتسليم . والمراد هنـــا: لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم واستسلم: لستَ مؤمنا ، فالسلم والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام . وقيل : هما بمعنى الإسلام ، أى لا تقولوا لمن ألقى إليكم الإسلام ، أى كلمته وهى الشهادة: لست مؤمنًا . والمراد : نهى المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه ويقولوا : إنه إنما جاء بذلك تعوذًا وتقية ، وقرأ أبو جعفر : ﴿ **لست مؤمنًا** ﴾ من أمنته (٢) : إذا أجرته فهو مؤمن .

وقد استدل بهذه الآية على أن من قتل كافراً بعد أن قال : لا إله إلا الله قتل به ؛ لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه وماله وأهله ، وإنما سقط القتل عمن وقع منه ذلك فى زمن النبى ﷺ ؛ لأنهم تأولوا وظنوا أن من قالها خوفًا من السلاح لا يكون مسلمًا ، ولا يصير بها دمه معصومًا، وأنه لابد من أن يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف ، وفى حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الانقياد بأن يقول أنا مسلم أو أنا على دينكم ، لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام والانقياد ، وهو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام من قول أو فعل ، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم ، فالقولان الآخران فى معنى الآية داخلان تحت القول الأول .

قوله : ﴿ **تبتغون عرض الحياة الدنيا** ﴾ الجمله فى محل نصب على الحال ، أى لا تقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة ، على أن يكون النهى راجعًا إلى القيد والمقيد لا إلى القيد فقط ،

---

(١) الحديث عن أبى سعيد الخدرى وتتمة الحديث : « وكاشفين عن عَوْرَتهمَا يتحدثان ؛ فإن الله يَمْقُتُ على ذلك » وهو عند أحمد ٣ / ٣٦ وأبوداود فى الطهارة (١٥) وقال : « لم يسنده إلا عكرمة بن عمار » ، والبيهقى فى الطهارة ١ / ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) فى المطبوعة : « أمته » ، وهو تصحيف ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وسمى متاع الدنيا عرضًا ؛ لأنه عارض زائل غير ثابت . قال أبو عبيدة : يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء . وأما العرض بسكون الراء فهو ما سوى الدنانير والدراهم ، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح ، وليس كل عرض بالفتح عرضًا بالسكون ، وفى كتاب العين : العرض ما نيل من الدنيا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ [الأنفال : ٦٧] وجمعه عروض . وفى المجمل لابن فارس : والعرض : ما يعترض للإنسان من مرض ونحوه. وعرض الدنيا : ما كان فيها من مال قل أو كثر ، والعرض من الأثاث : ما كان غير نقد .

قوله : ﴿ **فعند الله مغانم كثيرة** ﴾ هو تعليل للنهى ، أى عند الله مما هو حلال لكم من دون ارتكاب محظور مغانم كثيرة تغتنمونها ، وتستغنون بها عن قتل من قد استسلم وانقاد ، واغتنام ماله ﴿ **كذلك كنتم من قبل** ﴾ أى كنتم كفارًا ، فحقنت دماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة ، أو كذلك كنتم من قبل ، تخفون إيمانكم عن قومكم خوفًا على أنفسكم ، حتى من الله عليكم بإعزاز دينه ، فأظهرتم الإيمان وأعلنتم به ، وكرر الأمر بالتبين للتأكيد عليهم لكونه واجبًا لا فسحة فيه ولا رخصة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : لحق ناس من المسلمين رجلاً معه غُنَيْمَةٌ له ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمته ، فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا** ﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : مرّ رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ وهو يسوق غنمًا له فسلم عليهم ، فقالوا : ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا ، فعدوا عليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبى ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله** ﴾ [(٢)] .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى عن عبد الله بن أبى حَدْرَد الأسلمى ؛ قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضَم [(٣)] ، فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعى ومحلّم بن جَثّامة بن قيس الليثى، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضَم مر بنا عامر بن الأضبَط الأشجعى على قعود [(٤)] له معه مُتَيْع[(٥)] وَوَطْب [(٦)] من لبن ، فلما مر بنا سلّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٩١) ومسلم فى التفسير (٣٠٢٥ / ٢٢) والنسائى فى التفسير (٩٦) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الحدود (٨٩٩٠) وأحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٧٢ ، ٣٢٤ والترمذى فى التفسير (٣٠٣٠) وقال : « حسن » وابن جرير ١٤١/٥ والطبرانى (١١٧٣١) وصححه الحاكم ٢ / ٢٣٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى٩ / ١١٥ .

(٣) إضم : واد يشق الحجاز حتى يفرغ فى البحر من عند المدينة ، وهو واد لأشجع وجهينة .

(٤) القعود : هو البكر من الإبل حتى يمكن ظهره من الركوب ، وذلك منذ تكون له سنتان حتى يدخل فى السادسة . اللسان ٣ / ٣٥٩ .

(٥) مُتَيع : تصغير متاع ، وهو السلعة وأثاث البيت . اللسان ٨ / ٣٣٣ .

(٦) الوطب : سقاء اللبن . اللسان ١ / ٧٩٧ .

مُحَلِّم بن جثّامة لشيء كان بينه وبينه فقتله وأخذ بعيره وَمُتَيْعَهُ فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾ الآية(١). وفى لفظ عند ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من حديث [ابن] (٢) أبى حدرد هذا ، أن النبى ﷺ قال لمحلم : « أقتلته بعد ما قال : آمنت بالله ؟ » فنزل القرآن (٣) .

وأخرج ابن جرير من حديث ابن عمر ؛ أن محلمًا جلس بين يدى النبى ﷺ ليستغفر له فقال : لا غفر الله لك ، فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه ، فما مضت به ساعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض ، فجاؤوا إلى النبى ﷺ فذكروا ذلك له فقال : إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه فى جبل وألقوا عليه الحجارة فنزلت : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم ﴾ الآية (٤) . وأخرج البزار ، والدارقطنى فى الأفراد، والطبرانى، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، أن سبب نزول الآية أن المقداد بن الأسود قتل رجلاً بعد ما قال: لا إله إلا الله (٥) . وفى سبب النزول روايات كثيرة وهذا الذى ذكرناه أحسنها .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ قال : تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعى بإيمانه ، يعنى الذين قتلوه بعد أن ألقى إليهم السلام ، وفى لفظ : « تكتمون إيمانكم من المشركين » ﴿ فمن الله عليكم ﴾ فأظهر الإسلام فأعلنتم إيمانكم ﴿ فتبينوا ﴾ قال : وعيد من الله ثان . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿كذلك كنتم من قبل ﴾ قال : كنتم كفارًا حتى منّ الله عليكم بالإسلام وهداكم له .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) ﴾ .

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر ، ودرجات من جاهد فى سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلومًا لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا ، وتبكيت

---

(١) ابن أبى شيبة (١٨٨٥٩) وأحمد ٦ / ١١ وابن جرير ٥ / ١٤٠ والبيهقى ٩ / ١١٥ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧ / ١١ إلى الطبرانى وقال : «ورجاله ثقات » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من المخطوطة .

(٣) ابن إسحاق ٤ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ وابن جرير ٥ / ١٤٠ .

(٤) ابن جرير ٥ / ١٤٠ .

(٥) الطبرانى (١٢٣٧٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١١ ، ١٢ : « وإسناده جيد » .

القاعدين ليأنفوا . قوله : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو بالرفع على أنه وصف للقاعدين كما قال الأخفش ، لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم ، فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير ، وقرأ أبو حيوة بكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين ، وقرأ أهل الحرمين بفتح الراء على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين ، أى إلا أولى الضرر فإنهم يستوون مع المجاهدين ، ويجوز أن يكون منتصبًا على الحال من القاعدين ، أى لا يستوى القاعدون الأصحاء فى حال صحتهم ، وجازت الحال منهم ، لأن لفظهم لفظ المعرفة . قال العلماء: أهل الضرر هم أهل الأعذار لأنها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد ، وظاهر النظم القرآنى أن صاحب العذر يعطى مثل أجر المجاهد . وقيل : يعطى أجره من غير تضعيف فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة . قال القرطبى : والأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح فى ذلك : « إن بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سرتم مسيرا إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر» (١) . قال : وفى هذا المعنى ما ورد فى الخبر : « إذا مرض العبد قال الله تعالى : اكتبوا لعبدى ما كان يعمله فى الصحة إلى أن يبرأ أو أقبضه إلىّ » (٢) .

قوله : ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم الاستواء إجمالا ، والمراد هنا : غير أولى الضرر حملا للمطلق على المقيد ، وقال هنا: ﴿ درجة ﴾.وقال فيما بعد : ﴿ درجات ﴾ فقال قوم : التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وبيان تأكيد . وقال آخرون : فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر درجات قاله ابن جريج والسدى وغيرهما . وقيل : إن معنى درجة : علوا، أى أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح ، ودرجة منتصبة على التمييز أو المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل ، أى فضل الله تفضيلة ، أو على نزع الخافض ، أو على الحالية من المجاهدين ، أى ذوى درجة .

قوله : ﴿ وكلا ﴾ مفعول لقوله : ﴿ وعد الله ﴾ قدم عليه لإفادته القصر ، أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين وعده الله الحسنى ، أى المثوبة وهى الجنة . قوله : ﴿ أجرا ﴾ هو منتصب على التمييز . وقيل : على المصدرية لأن فضَّل بمعنى آجر فالتقدير : آجرهم أجرًا . وقيل : مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الإعطاء . وقيل : منصوب بنزع الخافض . وقيل : على الحال من درجات مقدم عليها ، وأما انتصاب درجات ومغفرة ورحمة : فهى بدل من أجرا. وقيل : إن مغفرة ورحمة ناسبها أفعال مقدرة ، أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة .

---

(١) الحديث عن أنس أخرجه أحمد ٣ / ١٠٣ ، وعن جابر أخرجه مسلم فى الإمارة (١٩١١ / ١٥٩) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٦٥) والبيهقى ٩ / ٢٤ .

(٢) ابن أبى شيبة ٣ / ٢٣١ عن عطاء بن يسار مرسلا ، وهو مروى عن أبى موسى الأشعرى بلفظ : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له عمل صالح ما كان يعمل مقيما صحيحا » أخرجه أحمد ٤ / ٤١٠ والبخارى فى الجهاد (٢٩٩٦) وأبو داود فى الجنائز (٣٠٩١) .

وقد أخرج البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن زيد بن ثابت ؛ أن رسول الله ﷺ أملى عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وهو يُمليها علىَّ فقال: يا رسول الله ؛ لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى. فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى: ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ [1] . وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث البراء [2] . وأخرجه أيضا سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه من حديث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه [3] . وأخرج الترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر** ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر . وأخرجه عنه أيضا عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى والبيهقى عنه قال : نزلت فى قوم كانت تشغلهم أمراض وأوجاع فأنزل الله عذرهم من السماء . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : نزلت هذه الآية فى ابن أم مكتوم . ولقد رأيته فى بعض مشاهد المسلمين معه اللواء .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة** ﴾ قال : على أهل الضرر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ قال : الجنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : كان يقال : الإسلام درجة ، والهجرة درجة فى الإسلام، والجهاد فى الهجرة درجة ، والقتل فى الجهاد درجة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن محيريز فى قوله : ﴿ **درجات** ﴾ قال : الدرجات سبعون درجة ، ما بين الدرجتين عدْو الفرس الجواد المضمر سبعين سنة . وأخرج نحوه عبد الرزاق فى المصنف عن أبى مِجْلَز . وأخرج البخارى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوق عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » [4] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي

---

(١) أحمد ٥ / ١٨٤ والبخارى فى الجهاد (٢٨٣٢) وفى التفسير (٤٥٩٢) وأبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٧٥) مختصرًا ، والترمذى فى التفسير (٣٠٣٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الجهاد ٦ / ٩ والبيهقى ٩ / ٢٣ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٣١) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٥ / ١٤٤ .

(٣) سعيد بن منصور فى الجهاد (٢٣١٤) وأحمد ٥ / ١٩٠ ، ١٩١ وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠٧) والطبرانى (٤٨٥١ ، ٤٨٥٢) وصححه الحاكم ٢ / ٨١ ، ٨٢ ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى الجهاد (٢٧٩٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢ / ١٤١ ، ١٤٢ .

الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (١٠٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **توفاهم** ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضيًا وحذفت منه علامة التأنيث ، لأن تأنيث الملائكة غير حقيقى ، ويحتمل أن يكون مستقبلا ، والأصل : تتوفاهم ، فحذفت إحدى التاءين . وحكى ابن فورك عن الحسن أن المعنى : تحشرهم إلى النار . وقيل : تقبض أرواحهم وهو الأظهر . والمراد بالملائكة : ملائكة الموت لقوله تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم مَلَك الموت الذى وكل بكم** ﴾ [السجدة : ١١] . وقوله : ﴿ **ظالمى أنفسهم** ﴾ حال ، أى فى حال ظلمهم أنفسهم وقول الملائكة : ﴿**فيم كنتم** ﴾ سؤال توبيخ ، أى فى أى [(١)] شىء كنتم من أمور دينكم؟ وقيل : المعنى : أكنتم فى أصحاب النبى ﷺ أم كنتم مشركين ؟ وقيل : إن معنى السؤال التقريع لهم بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين وقولهم : ﴿ **كنا مستضعفين فى الأرض**﴾ يعنى مكة ، لأن سبب النزول من أسلم بها ولم يهاجر كما سيأتى ، ثم أوقفتهم الملائكة على دينهم ، وألزمتهم الحجة ، وقطعت معذرتهم ، فقالوا : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ قيل : المراد بهذه الأرض : المدينة ، والأولى العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، فيراد بالأرض : كل بقعة من بقاع الأرض تصلح للهجرة إليها ، ويراد بالأرض الأولى : كل أرض ينبغى الهجرة منها . قوله : ﴿ **مأواهم جهنم** ﴾ هذه الجملة خبر لأولئك والجملة خبر إن فى قوله : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة** ﴾ ودخول الفاء لتضمن اسم إن معنى الشرط ﴿ **وساءت** ﴾ أى جهنم ﴿ **مصيرا** ﴾ أى مكانا يصيرون إليه .

قوله : ﴿ **إلا المستضعفين** ﴾ هو استثناء من الضمير فى مأواهم . وقيل : استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين فى الموصول وضميره . وقوله : ﴿ **من الرجال والنساء والولدان** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى كائنين منهم ، والمراد بالمستضعفين من الرجال : الزَّمْنَى ونحوهم ، والولدان : كعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ، وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة فى أمر الهجرة ، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف ، فكيف من كان مكلفا ، وقيل : أراد بالولدان : المراهقين والمماليك . قوله : ﴿ **لا يستطيعون حيلة** ﴾ صفة للمستضعفين ، أو للرجال والنساء والولدان ، أو حال من الضمير فى المستضعفين . وقيل : الحيلة : لفظ عام لأنواع أسباب التخلص ، أى لا يجدون حيلة ولا طريقًا إلى ذلك ، وقيل :

(١) هذه الكلمة ساقطة من المطبوعة ، وإثباتها من المخطوطة ، ولا يستقيم المعنى إلا بها .

السبيل : سبيل المدينة ﴿ **فأولئك** ﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر ﴿ **عسى الله أن يعفو عنهم** ﴾ وجيء بكلمة الإطماع لتأكيد أمر الهجرة ، حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنبا يجب طلب العفو عنه .

قوله : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** ﴾ هذه الجملة متضمنة للترغيب فى الهجرة والتنشيط إليها . قوله : ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ فيه دليل على أن الهجرة لابد أن تكون بقصد صحيح ونية خالصة ، غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا ، ومنه الحديث الصحيح : « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » (١) .

وقد اختلف فى معنى قوله سبحانه : ﴿ **يجد فى الأرض مراغما** ﴾ (٢) فقال ابن عباس وجماعة من التابعين ومن بعدهم : المراغم : المتحول والمذهب ، وقال مجاهد : المراغم : المتزحزح . وقال ابن زيد : المراغم : المهاجر ، وبه قال أبو عبيدة . قال النحاس : فهذه الأقوال متفقة المعانى ، فالمراغم : المذهب والمتحول ، وهو الموضع الذى يراغم فيه . وهو مشتق من الرغام وهو التراب ، ورغم أنف فلان ، أى لصق بالتراب ، وراغمت فلانا : هجرته وعاديته ولم أبال أن رغم أنفه . وقيل : إنما سمى مراغما ومهاجرا ؛ لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم فسمى خروجه مراغما ، وسمى مسيره إلى النبى ﷺ هجرة ، والحاصل فى معنى الآية أن المهاجر يجد فى الأرض مكانا يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجرهم أى على ذلهم وهوانهم .

قوله : ﴿ **وسعة** ﴾ أى فى البلاد . وقيل : فى الرزق ، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك . قوله : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ قرئ :« يدركه » بالجزم على أنه معطوف على فعل الشرط ، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وبالنصب على إضمار أن . والمعنى أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه ، وهو المكان الذى قصد الهجرة إليه أو الأمر الذى قصد الهجرة له ﴿ **فقد وقع أجره على الله** ﴾ أى ثبت ذلك عنده ثبوتا لا يتخلف ﴿ **وكان الله غفورا** ﴾ أى كثير المغفرة ﴿ **رحيما** ﴾ أى كثير الرحمة ، وقد استدل بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك ، أو بدار يعمل فيها بمعاصى الله جهارا ، إذا كان قادرًا على الهجرة ولم يكن من

---

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأخرجه البخارى فى بدء الوحى (١) والنكاح (٥٠٧٠) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧ / ١٥٥) .

(٢) راغم فلان قومه مراغما ومراغمة مصدر ، ومنه قول نابغة بن جعدة :

كطود يلاذ بأركانه عزيز المراغم والمهرب

راجع : ديوانه ٢٢ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٣٨ واللسان ١٢ / ٢٤٨ ، والبيت من قصيدته التى فى الديوان ، والطود : الجبل العظيم المنيف .

المستضعفين ، لما فى هذه الآية الكريمة من العموم ، وإن كان السبب خاصًا كما تقدم . وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان ، وقد ورد فى الهجرة أحاديث ، وورد ما يدل على أنه لا هجرة بعد الفتح. وقد أوضحنا ما هو الحق فى شرحنا على المنتقى فليرجع إليه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر ، فأصيب بعضهم وقتل البعض فقال المسلمون : قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت بهم هذه الآية : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ قال : فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية ، وأنه لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله ﴾ إلى آخر الآية [العنكبوت : ١٠] ، فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ، فنزلت فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : ١١٠] . فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقتل من قتل [١] . وقد أخرجه البخارى وغيره عنه مقتصرا على أوله [٢] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة** ﴾ إلى قوله : ﴿**وساءت مصيرا** ﴾ قال : نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن ربيعة بن الأسود وقيس بن الوليد بن المغيرة وأبى العاص بن منبه بن الحجاج وعلى بن أمية بن خلف ، قال : لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة ، وخرجوا معهم بشباب كارهين كانوا قد أسلموا واجتمعوا ببدر على غير موعد ، فقتلوا ببدر كفارًا ورجعوا عن الإسلام ، وهم هؤلاء الذين سميناهم [٣] . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن إسحاق[٤] وقد روى نحو هذا من طرق . وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس ؛ أنه تلا هذه الآية : ﴿ **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان** ﴾ فقال : كنت أنا وأمى من المستضعفين أنا من الولدان وأمى من النساء [٥] . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **لا يستطيعون حيلة**﴾ قال : قوة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لا يستطيعون حيلة**﴾ قال : نهوضًا إلى المدينة ﴿ **ولا يهتدون سبيلاً** ﴾ قال : طريقا إلى المدينة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن

(١) ابن جرير ٥ / ١٤٨ .
(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٩٦) وفى الفتن (٧٠٨٥) والنسائى فى التفسير (١٣٩) والبيهقى ٩ / ١٢ .
(٣ ، ٤) ابن جرير ٥ / ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٥) البخارى فى التفسير (٤٥٨٧ ، ٤٥٩٧) وابن جرير ٥ / ١٥٠ .

مجاهد نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مراغما كثيرا وسعة** ﴾ قال : المراغم: المتحول من أرض إلى أرض . والسعة : الرزق. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ **مراغمًا**﴾ قال : متزحزحا عما يكره . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **وسعة** ﴾ قال : ورخاء . وأخرج أيضا عن مالك قال : سعة البلاد . وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى . قال السيوطى : بسند رجاله ثقات عن ابن عباس ؛ قال : خرج ضمرة بن جندب [١] من بيته مهاجرًا فقال لقومه : احملونى فأخرجونى من أرض الشرك إلى رسول الله ﷺ ، فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى ﷺ ، فنزل الوحى : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من وجه آخر عنه نحوه [٣] .

وأخرج ابن سعد وأحمد ، والحاكم وصححه عن عبد الله بن عتيك ؛ قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « من خرج من بيته مجاهدًا فى سبيل الله ، وأين المجاهدون فى سبيل الله ؟ فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله » ، يعنى بحتف أنفه : على فراشه ، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ ، « ومن قتل قعصًا [٤] فقد استوجب الجنة» [٥] . وأخرج أبو يعلى ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج حاجًا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ومن خرج معتمرًا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيًا فى سبيل الله فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة » [٦] قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه [٧] .

﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن**

---

(١) هذه القصة قصة رجل واحد اختلف فى اسمه واسم أبيه على أكثر من عشرة أوجه . فهكذا قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة .

(٢) أبو يعلى (٢٦٧٩ / ٣٥٢) والطبرانى (١١٧٠٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣ : « ورجاله ثقات». أورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٥٨٨) وعزاه إلى أبى يعلى ، وسكت عليه البوصيرى .

(٣) ابن جرير ٥ / ١٥٢ .

(٤) فى المطبوعة : «قعصاء » بهمزة ، زائدة والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، ومعنى القعص : أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه . يقال : قعصته وأقعصته : إذا قتلته قتلا سريعا . النهاية ٤ / ٨٨ .

(٥) أحمد ٤ / ٣٦ وصححه الحاكم ٢ / ٨٨ ووافقه الذهبى وعندهما : « فقد استوجب المآب » .

(٦) أبو يعلى (٦٣٥٧ / ٥١٧) والبيهقى فى الشعب (٣٨٠٦) عزاه الهيثمى فى المجمع ٣ / ٢١١ ، ٢١٢ إلى الطبرانى فى الأوسط وقال : «وفيه جميل بن أبى ميمونة ، وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلا ، وذكره ابن حبان فى الثقات » .

(٧) ابن كثير فى التفسير ٢ / ٣٧٣ .

يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾ .

قوله : ﴿ وإذا ضربتم ﴾ قد تقدم تفسير الضرب فى الأرض قريبًا . قوله : ﴿ فليس عليكم جناح ﴾ فيه دليل على أن القصر ليس بواجب ، وإليه ذهب الجمهور . وذهب الأقلون إلى أنه واجب ، ومنهم عمر بن عبد العزيز والكوفيون والقاضى إسماعيل وحماد بن أبى سليمان وهو مروى عن مالك ، واستدلوا بحديث عائشة الثابت فى الصحيح : « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيدت فى الحضر وأقرت فى السفر »[(١)] . ولا يقدح فى ذلك مخالفتها لما روت فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله ﷺ ، ومثله حديث يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت : ﴿ ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس ، فقال لى عمر : عجبتُ مما عجبتَ منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » أخرجه أحمد ومسلم وأهل السنن[(٢)] . وظاهر قوله : « فاقبلوا صدقته » أن القصر واجب .

قوله : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز فى السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الأمن . ولكنه قد تقرر بالسنة أن النبى ﷺ قصر مع الأمن كما عرفت . فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب والقصر مع الأمن ثابت بالسنة ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضته ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن . وقد قيل : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب ؛ لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف فى الأسفار، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ما قال كما تقدم . وفى قراءة أُبى : « أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا » بسقوط ﴿ إن خفتم ﴾ والمعنى على هذه القراءة كراهة أن يفتنكم الذين كفروا وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هى مبيحة للقصر فى السفر للخائف من العدو ، فمن كان آمنا فلا قصر له . وذهب آخرون إلى أن قوله : ﴿ إن خفتم ﴾ ليس

---

(١) أحمد ٦ / ٢٣٤ ، ٢٤١ والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٣٥) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٥/ ١) .

(٢) أحمد ١ / ٢٥ ، ٣٦ ومسلم فى صلاة المسافرين (٦٨٦ / ٤) وأبو داود فى أبواب صلاة السفر (١١٩٩) والترمذى فى التفسير (٣٠٣٤) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى التفسير (١٤٠) وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٦٥) .

متصلاً بما قبله وأن الكلام تم عند قوله : ﴿ **من الصلاة** ﴾ ثم افتتح فقال : ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ فأقم لهم يا محمد صلاة الخوف . قوله : ﴿ **إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينًا** ﴾ معترض ، ذكر معنى هذا الجرجاني والمهدوى وغيرهما . ورده القشيرى والقاضى أبو بكر بن العربى. وقد حكى القرطبى عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجانى ومن معه (١) ، ومما يرد هذا ويدفعه الواو فى قوله: ﴿ **وإذا كنت فيهم** ﴾ وقد تكلف بعض المفسرين فقال : إن الواو زائدة وإن الجواب للشرط المذكور ، أعنى قوله : ﴿ **إن خفتم** ﴾ هو قوله : ﴿ **فلتقم طائفة**﴾ وذهب قوم إلى أن ذكر الخوف منسوخ بالسنة ، وهى حديث عمر الذى قدمنا ذكره ، وما ورد فى معناه .

قوله : ﴿ **أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : فتنت الرجل ، وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون : أفتنت الرجل ، وفرق الخليل وسيبويه بينهما فقالا : فتنته : جعلت فيه فتنة مثل كحلته ، وأفتنته : جعلته مفتنا ، وزعم الأصمعى أنه لا يعرف أفتنته . والمراد بالفتنة : القتال والتعرض بما يكره قوله : ﴿ **عدوًا** ﴾ أى أعداء .

قوله : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة** ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ ولمن بعده من أهل الأمر حكمه كما هو معروف فى الأصول ومثله قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [التوبة : ١٠٣] ونحوه ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، وشذ أبو يوسف وإسماعيل بن عُلَيَّة فقال : لا تصلى صلاة الخوف بعد النبى ﷺ ، لأن هذا الخطاب خاص برسول الله ﷺ ، قالا : ولا يلحق غيره به لما له ﷺ من المزية العظمى ، وهذا مدفوع فقد أمرنا الله باتباع رسوله والتأسى به ، وقد قال ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » (٢) ، والصحابة رضى الله عنهم أعرف بمعانى القرآن ، وقد صلوها بعد موته فى غير مرة كما ذلك معروف . ومعنى : ﴿**أقمت لهم الصلاة**﴾ أردت الإقامة كقوله : ﴿ وإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : ٦]، وقوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النمل : ٩٨] .

قوله : ﴿ **فلتقم طائفة منهم معك** ﴾ يعنى بعد أن تجعلهم طائفتين طائفة تقف بإزاء العدو، وطائفة تقوم منهم معك فى الصلاة ﴿ **وليأخذوا أسلحتهم** ﴾ أى الطائفة التى تصلى معه . وقيل : الضمير راجع إلى الطائفة التى بإزاء العدو ، والأول أظهر ، لأن الطائفة القائمة بإزاء العدو لابد أن تكون قائمة بأسلحتها ، وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان فى الصلاة لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة ، فأمره الله بأن يكون آخذًا لسلاحه أى غير واضع له . وليس المراد الأخذ باليد ؛ بل المراد : أن يكونوا حاملين لسلاحهم ، ليتناولوه من قرب إذا

(١) القرطبى ٣ / ١٩٣١ ـ ١٩٣٣ .

(٢) البخارى فى الأذان (٦٣١) والدارمى فى الصلاة ١ / ٢٨٦ عن مالك بن الحويرث .

احتاجوا إليه ، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من إمكان فرصته فيهم . وقد قال بإرجاع الضمير من قوله : ﴿ **وليأخذوا أسلحتهم** ﴾ إلى الطائفة القائمة بإزاء العدو ابنُ عباس ، قال : لأن المصلية لا تحارب ، وقال غيره : إن الضمير راجع إلى المصلية ، وجوّز الزجاج والنحاس أن يكون ذلك أمرًا للطائفتين جميعًا لأنه أرهب للعدو . وقد أوجب أخذ السلاح فى هذه الصلاة أهل الظاهر حملا للأمر على الوجوب . وذهب أبو حنيفة إلى أن المصلين لا يحملون السلاح وأن ذلك يبطل الصلاة ، وهو مدفوع بما فى هذه الآية وبما فى الأحاديث الصحيحة .

قوله : ﴿ **فإذا سجدوا** ﴾ أى القائمون فى الصلاة ﴿ **فليكونوا** ﴾ أى الطائفة القائمة بإزاء العدو ﴿ **من ورائكم**﴾ أى من وراء المصلين . ويحتمل أن يكون المعنى : فإذا سجد المصلون معه ، أى أتموا الركعة تعبيرًا بالسجود عن جميع الركعة أو عن جميع الصلاة ﴿ **فليكونوا من ورائكم** ﴾ أى فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿ **ولتأت طائفة أخرى** ﴾ وهى القائمة فى مقابلة العدو التى لم تصل ﴿ **فليصلوا معك** ﴾ على الصفة التى كانت عليها الطائفة الأولى ﴿**وليأخذوا** ﴾ أى هذه الطائفة الأخرى ﴿ **حذرهم وأسلحتهم** ﴾ زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح . قيل : وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى ﷺ فى شغل شاغل ، وأما فى المرة الأولى فربما يظنونهم قائمين للحرب . وقيل : لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت ؛ لأنه آخر الصلاة ، والسلاح مايدفع به المرء عن نفسه فى الحرب ، ولم يبين فى الآيـة الكريمة كم تصلى كل طائفة من الطائفتين ؟ وقد وردت صلاة الخوف فى السنة المطهرة على أنحاء مختلفة ، وصفات متعددة ، وكلها صحيحة مجزئة ، من فعل واحدة منها فقد فعل ما أمر به ، ومن ذهب من العلماء إلى اختيار صفة دون غيرها فقد أبعد عن الصواب ، وقد أوضحنا هذا فى شرحنا للمنتقى ، وفى سائر مؤلفاتنا .

قوله : ﴿ **ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾ هذه الجملة متضمنة للعلة التى لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح أى ودوا غفلتكم عن أخذ السلاح وعن الحذر ليصلوا إلى مقصودهم ، وينالوا فرصتهم ، فيشدون عليكم شدة واحدة . والأمتعة : ما يتمتع به فى الحرب ، ومنه الزاد والراحلة. قوله : ﴿ **ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تـضعوا أسلحتكم** ﴾ رخص لهم سبحانه فى وضع السلاح إذا نالهم أذى من المطر وفى حال المرض ، لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح ، ثم أمرهم بأخذ الحذر لئلا يأتيهم العدو على غرة وهم غافلون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى حنظلة ؛ قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر ، فقال : ركعتان ، قلت : فأين قوله تعالى : ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ ونحن آمنون ؟ قال : سنة رسول الله ﷺ (١) . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن

(١) ابن أبى شيبة ٢ / ٤٤٧ .

ماجة وابن حبان والبيهقى عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ؛ أنه سأل ابن عمر : أرأيت قصر الصلاة فى السفر ؟ إنا لا نجدها فى كتاب الله ، إنما نجد ذكر صلاة الخوف ، فقال ابن عمر : يا ابن أخى ، إن الله أرسل محمداً ﷺ ولا نعلم شيئًا ، فإنما نفعل كما رأينا رسول الله ﷺ يفعل (١) ، وقصر الصلاة فى السفر سنة سنها رسول الله ﷺ ، وفى الصحيحين وغيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعى قال : صليت مع النبى ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة ، والترمذى وصححه ، والنسائى عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف شيئًا ركعتين(٣).

وأخرج ابن جرير عن على قال : سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ ثم انقطع الوحى فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبى ﷺ فصلى الظهر ، فقال المشركون : قد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها فى أثرها ، فأنزل الله بين الصلاتين : ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا** ﴾ فنزلت صلاة الخوف (٤) .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والدارقطنى ، والحاكم وصححه عن أبى عياش الزرقى ؛ قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبى ﷺ الظهر فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، فنزل جبريل بهذه الآيات : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة** ﴾ ثم ذكر صفة الصلاة التى صلوها مع النبى ﷺ (٥) . والأحاديث فى صفة صلاة الخوف كثيرة ، وهى مستوفاة فى مواطنها، فلا نطول بذكرها ها هنا . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إن كان بكم أذى من مطر أوكنتم مرضى** ﴾ قال: نزلت فى عبد الرحمن بن عوف كان جريحًا (٦).

---

(١) النسائى فى الصلاة ٣ / ١١٧ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٠٦٦) وابن حبان (٢٧٢٤) والبيهقى٣ / ١٣٦ .

(٢) البخارى فى تقصير الصلاة (١٠٨٣) وفى الحج (١٦٥٦) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٦٩٦ / ٢٠، ٢١) وأبو داود فى المناسك (١٩٦٥) والترمذى فى الحج (٨٨٢) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) ابن أبى شيبة فى الصلاة ٢ / ٤٤٨ والترمذى فى الصلاة (٥٤٧) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى تقصير الصلاة فى السفر ٣/ ١١٧ .

(٤) ابن جرير ٥ / ١٥٥ .

(٥) ابن أبى شيبة ٢ / ٤٦٥ ، ٤٦٦ وأحمد ٤ / ٥٩ ، ٦٠ وأبو داود فى الصلاة (١٢٣٦) والنسائى فى الصلاة ٣ / ١٧٦ ، ١٧٧ وابن جرير ٥ / ١٥٦ والطبرانى (٥١٣٣) والدارقطنى فى باب صفة صلاة الخوف وأقسامها (٨) وصححه الحاكم ١ / ٣٣٧ ، ٣٣٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٦) البخارى فى التفسير (٤٥٩٩) والنسائى فى التفسير (١٤١) وابن جرير ٥ / ١٦٦ .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) ﴾ .

﴿ قضيتم ﴾ بمعنى فرغتم من صلاة الخوف وهو أحد معانى القضاء ، ومثله : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ، ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ [الجمعة: ١٠] . قوله : ﴿ **فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم** ﴾ أى فى جميع الأحوال حتى فى حال القتال . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو أثر صلاة الخوف ، أى إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله فى هذه الأحوال ، وقيل : معنى قوله : ﴿ **فإذا قضيتم الصلاة** ﴾ : إذا صليتم فصلوا قياما وقعودا أو على جنوبكم حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال فهو مثل قوله : ﴿ فإن خفتم فرجالا أو ركبانا ﴾ [البقرة : ٢٣٩] . قوله : ﴿ **فإذا اطمأننتم** ﴾ أى أمنتم وسكنت قلوبكم ، والطمأنينة : سكون النفس من الخوف ﴿**فأقيموا الصلاة** ﴾ أى فأتوا بالصلاة التى دخل وقتها على الصفة المشروعة من الأذكار والأركان ولا تفعلوا ما أمكن ، فإن ذلك إنما هو فى حال الخوف . وقيل : المعنى فى الآية : أنهم يقضون ما صلوه فى حال المسابقة ، لأنها حالة قلق وانزعاج وتقصير فى الأذكار والأركان وهو مروى عن الشافعى ، والأول أرجح ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾ أى محدودًا معينا، يقال : وقته فهو موقوت ووقته فهو موقت . والمعنى : إن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم فى أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتى بها فى غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعى من نوم ، أو سهو ، أو نحوهما.

قوله : ﴿ **ولا تهنوا فى ابتغاء القوم** ﴾ أى لا تضعفوا فى طلبهم وأظهروا القوة والجلد . قوله : ﴿ **إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون** ﴾ تعليل للنهى المذكور قبله ، أى ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصا بكم ، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم ، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال ومرارة الحرب ، ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم، وهى أنكم ترجون من الله من الأجر وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم وجحودهم ، فأنتم أحق بالصبر منهم ، وأولى بعدم الضعف منهم ، فإن أنفسكم قوية ، لأنها ترى الموت مغنمًا ، وهم يرونه مغرمًا ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ [آل عمران : ١٤٠] . وقيل : إن الرجاء هنا بمعنى الخوف ؛ لأن من رجا شيئًا فهو غير قاطع بحصوله ، فلا يخلو من خوف ما يرجو وقال الفراء والزجاج : لا يطلق الرجاء

بمعنى الخوف إلا مع النفى كقوله تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾ [نوح : ١٣] [١] أى لا تخافون له عظمة . وقرأ عبد الرحمن الأعرج : « أن تكونوا » بفتح الهمزة ، أى لأن تكونوا . وقرأ منصور بن المعتمر: « تيلمون » بكسر التاء ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم**﴾ قال : بالليل والنهار فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود ؛ أنه بلغه أن قومًا يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم فقال : إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلى قائمًا صلى قاعدا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿**فإذا اطمأننتم** ﴾ قال: إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة ﴿ **فأقيموا الصلاة** ﴾ قال : أتموها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾ يعنى مفروضا . وأخرج ابن جرير عنه قال : الموقوت : الواجب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولا تهنوا** ﴾ قال: ولا تضعفوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **تألمون** ﴾ قال : توجعون ﴿ **وترجون من الله ما لا يرجون** ﴾ قال : ترجون الخير .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **بما أراك الله** ﴾ إما بوحى أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى الله به . وليس المراد هنا : رؤية العين لأن الحكم لا يرى ؛ بل المراد: بما عرفه الله به ، وأرشده إليه ، قوله : ﴿ **ولا تكن للخائنين** ﴾ أى لأجل الخائنين خصيمًا ، أى مخاصما عنهم مجادلا للمحقين بسببهم، وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق .

---

(١) ومثله قول الشاعر :

لا ترتجى حين تلاقى الذائدا ... أسبعة لاقت معًا أم واحدا

وكما قال أبو ذؤيب :

إذَا لَسعَتْهُ النَّحلُ لم يرج لَسْعَهَا ... وَخَالَفَهَا فـى بيت نُوبٍ عواملِ

قوله : ﴿ **واستغفروا الله** ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بالاستغفار . قال ابن جرير : إن المعنى : استغفر الله من ذنبك فى خصامك للخائنين ، وسيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله الآية ، وبه يتضح المراد . وقيل : المعنى : واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمخاصمين بالباطل .

قوله : ﴿ **ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم** ﴾ أى لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم ، والمجادلة : مأخوذة من الجدل وهو القتل . وقيل : مأخوذة من الجدالة وهى وجه الأرض ، لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يلقى صاحبه عليها[١] ، وسمى ذلك خيانة لأنفسهم ، لأن ضرر معصيتهم راجع إليهم ، والخوَّان : كثير الخيانة ، والأثيم : كثير الإثم ، وعدم المحبة كناية عن البغض . قوله : ﴿ **يستخفون من الناس** ﴾ أى يستترون منهم كقوله : ﴿ومن هو مستخف بالليل ﴾ [الرعد : ١٠] أى مستتر . وقيل : معناه : يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، أى لا يستترون منه ، أو لا يستحيون منه ، والحال أنه معهم فى جميع أحوالهم ، عالم بما هم فيه ، فكيف يستخفون منه ؟ ﴿ **إذ يبيتون** ﴾ أى يديرون الرأى بينهم، وسماه تبييتًا، لأن الغالب أن تكون إدارة الرأى بالليل ﴿ **ما لا يرضى من القول** ﴾ أى من الرأى الذى أداروه بينهم ، وسماه قولاً ، لأنه لا يحصل إلا بعد المداولة بينهم .

قوله : ﴿ **ها أنتم هؤلاء** ﴾ يعنى القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق كما سيأتى ، والجملة مبتدأ وخبر . قال الزجاج : ﴿ **أولاء** ﴾ بمعنى الذين ، و ﴿ **جادلتم** ﴾ بمعنى حاججتم ﴿ **فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة**﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى فمن يخاصم ويجادل الله عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم ؟ ﴿ **أم من يكون عليهم وكيلا** ﴾ أى مجادلاً ومخاصما ، والوكيل فى الأصل : القائم بتدبير الأمور والمعنى : من ذاك يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه .

وقد أخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن قتادة بن النعمان ؛ قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبَيْرق بشر ، وبشير ، ومبشر ، وكان بشر رجلاً منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ينحله بعض العرب ثم يقول : قال فلان كذا وكذا قال فلان كذا وكذا . فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث ، فقال :

أوَ كلما قال الرجال قصيدة أضِمُوا [٢] فقالوا ابن الأبيرق قالها [٣]

---

(١) ومن ذلك قول العجاج :

قد أركب الحالة بعد الحاله وأترك العاجز بالجداله
منعفرًا ليست له محاله

فالجدالة : الأرض ، ومن ذلك قولهم : تركته مجدلاً ، أى : مطروحًا على الجدالة . اللسان ١١ / ١٠٤.

(٢) أى غضبوا عليه وحقدوا. اللسان ١٢ / ١٨ .

(٣) وبعده :

متخمطين كأننى أخشاهم جدع الإله أنوفهم فأبانها

ومعنى : متخمطين : غضبوا ، وهدروا ، وثاروا ، وأجلبوا ، ورجل متخمط : شديد الغضب له ثورة وجلبة . اللسان ٧ / ٢٩٧.

قال : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة فى الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة ، أى حمولة من الشام من الدرمك [(١)] ابتاع الرجل منها فخصَّ بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد [(٢)] جملاً من الدرمك ، فجعله فى مشربة ، وفى المشربة سلاح له درعان ، وسيفاهما وما يصلحهما ، فعُدِى عليه من تحت الليل فنقبت المشربة [(٣)] ، وأخذ الطعام والسلاح ، فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يابن أخى ، تعلم أن قد عدى علينا فى ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال : فتحسسنا فى الدار وسألنا ، فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا نارًا فى هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم ، قال : وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل فى الدار : والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجل منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع ذلك لبيد اخترط سيفه [(٤)] ثم أتى بنى أبيرق وقال : أنا أسرق ؟ فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل ، فوالله ما أنت بصاحبها ، فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لى عمى: يا ابن أخى : لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أهل بيت منا أهل جفاء [(٥)] عمدوا إلى عمى رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « سأنظر فى ذلك ، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه فى ذلك ، واجتمع إليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح ، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت [(٦)] ، قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله ﷺ فى ذلك ، فأتانى عمى رفاعة فقال لى : يا بن أخى ، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله ﷺ ، فقال : الله المستعان فلم نلبث أن نزل القرآن : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾ بنى أبيرق ﴿ **واستغفر الله** ﴾ أى مما قلت لقتادة ﴿ **إن الله كان غفورًا رحيمًا . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيما** ﴾ أى لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿**ومن يكسب إثما**﴾ إلى قوله: ﴿**فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينا** ﴾ قولهم للبيد ﴿ **ولولا**

---

(١) الدرمك : الدقيق النقى الأبيض . اللسان ١٠ / ٤٢٣ والنهاية ٢ / ١١٤ .
(٢) فى المخطوطة : « رفاعة بن رافع » والصواب ما أثبتناه من ابن جرير ٥ / ١٧٠ .
(٣) المشربة : الغرفة ، أو العلية ، والمشارب : العلالى. النهاية ٢ / ٤٥٥ .
(٤) اخترط سيفه : سله من غمده . اللسان ٧ / ٢٨٥. (٥) أهل جفاء : غلظ الطبع . النهاية ١ / ٢٨١ .
(٦) الثبت « بفتحتين » : الحجة والبينة والبرهان . النهاية ١ / ٢٠٦.

فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ﴾ يعنى : أسير بن عروة ، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة .

قال قتادة : فلما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخًا قد عسا فى الجاهلية (١) أى كبر . وكنت أرى إسلامه مدخولا (٢) . فلما أتيته بالسلاح قال : يابن أخى ، هو فى سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد (٣) فأنزل الله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ﴾ إلى قوله : ﴿ ضلالا بعيدا ﴾ [النساء : ١١٥، ١١٦] فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر (٤) فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت فرمت به فى الأبطح (٥) ثم قالت : أهديت لى شعر حسان ، ما كنت تأتينى بخير (٦) . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانى ، ورواه يونس بن بكير وغير واحد عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً لم يذكر فيه عن أبيه عن جده. ورواه ابن أبى حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانى عن محمد بن سلمة به ببعضه . ورواه ابن المنذر فى تفسيره قال : حدثنا محمد بن إسماعيل ، يعنى الصائغ ، حدثنا أحمد بن أبى شعيب الحرانى ، حدثنا محمد بن سلمة فذكره بطوله . ورواه أبو الشيخ الأصبهانى فى تفسيره عن محمد بن العباس بن أيوب والحسن بن يعقوب كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرانى عن محمد بن سلمة به ، ثم قال فى آخره : قال محمد بن سلمة : سمع منى هذا الحديث يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإسحاق بن أبى إسرائيل ، وقد رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى العباس الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق بمعناه أتم منه ثم قال : هذا صحيح على شرط مسلم . وقد أخرجه ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : غدا بشير فذكره مختصراً ، وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطولة عن جماعة من التابعين .

---

(١) عسا فى الجاهلية : أى كبر وأسن ، من قولهم : عسا العود أى يبس واشتد وصلب . النهاية ٣ / ٢٣٨ .

(٢) المدخول ، من « الدخل » بفتحتين وهو: العيب والفساد والغش يعنى : أن إيمانه كان فيه نفاق ، ورجل مدخول أى فى عقله دخل وفساد. النهاية ٢/١٠٨ .

(٣) هى : سلافة بنت سعد بن شهيد ، أنصارية من بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس . راجع : جمهرة الأنساب لابن حزم ٣١٤ .

(٤) قال حسان :

وما سارق الدرعين إن كنت ذاكرا ... بذى كرم من الرجال أوادعه
فقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ... ينازعها جلد استها وتنازعه

راجع : الديوان ٢٧١ .

(٥) الأبطح هو : بطحاء مكة وهو مَسِيل واديها . النهاية ١ / ١٣٤ .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٠٣٦) وقال : « غريب » وابن جرير ٥ / ١٧٠ ، ١٧١ وصححه الحاكم ٤ / ٣٨٥ـ ٣٨٨ على شرط مسلم وسكت عنه الذهبى .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ .

هذا من تمام القصة السابقة ، والمراد بالسوء : القبيح الذى يسوء به ﴿ **أو يظلم نفسه** ﴾ بفعل معصية من المعاصى ، أو ذنب من الذنوب التى لا تتعدى إلى غيره ﴿ **ثم يستغفر الله** ﴾ يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب ﴿ **يجد الله غفورا**﴾ لذنبه ﴿ **رحيما** ﴾ به ، وفيه ترغيب لمن وقع منه السرق من بنى أبيرق أن يتوب إلى الله ويستغفره ، وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به ، وقال الضحاك : إن هذه الآية نزلت فى شأن وحشى قاتل حمزة ، أشرك بالله ، وقتل حمزة ، ثم جاء إلى النبى ﷺ وقال : هل لى من توبة ؟ فنزلت . وعلى كل حال فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى لكل عبد من عباد الله أذنب ذنبًا ثم استغفر الله سبحانه .

قوله : ﴿ **ومن يكسب إثما** ﴾ من الآثام بذنب يذنبه ﴿ **فإنما يكسبه على نفسه** ﴾ أى عاقبته عائدة عليه ، والكسب: ما يجر به الإنسان إلى نفسه نفعًا ، أو يدفع به ضررًا ، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسبًا . قاله القرطبى (١) . ﴿ **ومن يكسب خطيئة أو إثما** ﴾ قيل : هما بمعنى واحد ، كرر للتأكيد . وقال الطبرى : إن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد ، والإثم لا يكون إلا عن عمد . وقيل : الخطيئة : الصغيرة ، والإثم : الكبيرة (٢) . قوله : ﴿ **ثم يرم به بريئًا** ﴾ توحيد الضمير لكون العطف بأو أو لتغليب الإثم على الخطيئة ، وقيل : إنه يرجع إلى الكسب . قوله : ﴿ **فقد احتمل بهتانًا وإثما مبينا** ﴾ لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذى يحمل، ومثله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت: ١٣] . والبهتان مأخوذ من البهت : وهو الكذب على البرىء بما ينبهت له ويتحير منه ، يقال : بهته بهتًا وبهتانًا : إذا قال عليه ما لم يقل ويقال : بُهِت الرجل بالكسر : إذا دهش وتحير ، وبَهُت بالضم ، ومنه ﴿ فبهت الذى كفر﴾ [البقرة : ٢٥٨] والإثم المبين : الواضح .

قوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته** ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ والمراد بهذا الفضل والرحمة لرسول الله : أنه نبهه على الحق فى قصة بنى أبيرق ، وقيل المراد بهما : النبوة والعصمة ﴿ **لهمت طائفة منهم** ﴾ أى من الجماعة الذين عضدوا بنى أبيرق كما تقدم ﴿ **أن يضلوك**﴾ عن الحق ﴿ **وما يضلون إلا أنفسهم** ﴾ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿ **وما يضرونك**

(١) القرطبى ٣ / ١٩٥٠ .
(٢) ابن جرير ٥ / ١٧٦ .

من شيء ﴾ لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس ، ولأنك عملت بالظاهر ولا ضرر عليك فى الحكم به قبل نزول الوحى، والجار والمجرور فى محل نصب على المصدرية ، أى وما يضرونك من شىء حال إنزال الله عليك الكتاب والحكمة، أو مع إنزال الله ذلك عليك . قوله: ﴿ **وعلمك ما لم تكن تعلم** ﴾ معطوف على أنزل ، أى علمك بالوحى ما لم تكن تعلم من قبل ﴿ **وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة ونزول الوحى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه** ﴾ الآية قال : أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيراً ثم استغفر الله يجد الله غفورًا رحيما ، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفر له ﴿ **ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا** ﴾ ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾ الآية [النساء : ٦٤]. وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وعلمك ما لم تكن تعلم** ﴾ قال : علمه الله بيان الدنيا والآخرة بين حلاله وحرامه ليحتج بذلك على خلقه . وأخرج أيضًا عن الضحاك قال : علمه الخير والشر وقد ورد فى قبول الاستغفار ، وأنه يمحو الذنب أحاديث كثيرة مدونة فى كتب السنة .

﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)** ﴾ .

النجوى : السر بين الاثنين أو الجماعة ، تقول : ناجيت فلانا مناجاة ونجاء وهم ينتجون ويتناجون ، ونجوت فلانا أنجوه نجوى ، أى ناجيته . فنجوى مشتقة من نجوت الشىء أنجوه ، أى خلصته وأفردته ، والنجوة من الأرض: المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله ، فالنجوى المسارَّة مصدر . وقد تسمى به الجماعة كما يقال : قوم عدل قال الله تعالى : ﴿ وإذ هم نجوى﴾ [الإسراء : ٤٧] ، فعلى الأول يكون الاستثناء منقطعًا ، أى لكن من أمر بصدقة ، أو متصلاً على تقدير إلا نجوى من أمر بصدقة ، وعلى الثانى يكون الاستثناء متصلا فى موضع خفض على البدل من كثير ، أى لا خير فى كثير إلاَّ فيمن أمر بصدقة . وقد قال جماعة من المفسرين: إن النجوى كلام الجماعة المنفردة أو الاثنين سواء كان ذلك سرًا أو جهرا ، وبه قال الزجاج . قوله : ﴿ **بصدقة** ﴾ الظاهر أنها صدقة التطوع، وقيل : إنها صدقة الفرض ، والمعروف : صدقة التطوع ، والأول أولى والمعروف لفظ عام يشمل جميع أنواع البر. وقال مقاتل :المعروف هنا :الفرض والأول أولى ،ومنه قول الحطيئة :

مَن يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

ومنه الحديث : « كل معروف صدقة »[١] « وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٢]. وقيل : المعروف : إغاثة الملهوف ، والإصلاح بين الناس : عام فى الدماء ، والأعراض ، والأموال وفى كل شيء يقع التداعى فيه . قوله : ﴿**ومن يفعل ذلك**﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة، جعل مجرد الأمر بها خيرًا ، ثم رغَّب فى فعلها بقوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ لأن فعلها أقرب إلى الله من مجرد الأمر بها ، إذ خيرية الأمر بها إنما هى لكونه وسيلة إلى فعلها . قوله : ﴿ **ابتغاء مرضاة الله** ﴾ علة للفعل ، لأن من فعلها لغير ذلك فهو غير مستحق لهذا المدح والجزاء بل قد يكون غير ناجٍ من الوزر ، والأعمال بالنيات .

﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى** ﴾ المشاقة : المعاداة والمخالفة ، وتبين الهدى وظهوره ، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاقة ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ أى غير طريقهم وهو ما هم عليه من دين الإسلام ، والتمسك بأحكامه ﴿**نوله ما تولى** ﴾ أى نجعله واليًا لما تولاه من الضلال ﴿ **ونصله جهنم** ﴾ قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو: « نوله ونصله » بسكون الهاء فى الموضعين . وقرأ الباقون بكسرهما وهما لغتان ، وقرئ : « ونصله » بفتح النون من صلاه ، وقد تقدم بيان ذلك ، وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الإجماع لقوله : ﴿**ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ ولا حجة فى ذلك عندى لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا الخروج من دين الإسلام إلى غيره ، كما يفيده اللفظ ويشهد به السبب ، فلا تصدق على عالم من علماء هذه الملة الإسلامية ، اجتهد فى بعض مسائل دين الإسلام ، فأداه اجتهاده إلى مخالفة مَن بعصره من المجتهدين ، فإنه إنما رام السلوك فى سبيل المؤمنين ، وهو الدين القويم والملة الحنيفية ولم يتبع غير سبيلهم .

وقد أخرج عبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وغيرهم عن أم حبيبة ؛ قالت : قال رسول الله ﷺ : « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمرًا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرًا لله عز وجل »[٣] قال سفيان الثورى : هذا فى كتاب الله : ﴿ **لا خير فى كثير من نجواهم** ﴾ الآية . وقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ [النبأ : ٣٨] . وقوله : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [سورة العصر] . وقد وردت أحاديث صحيحة فى الصمت ، والتحذير من آفات اللسان ، والترغيب فى حفظه ، وفى الحث على الإصلاح بين

---

(١) الحديث عن جابر بن عبد الله أخرجه البخارى فى الأدب (٦٠٢١) وعن حذيفة أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨، ٤٠٥ ومسلم فى الزكاة (١٠٠٥ / ٥٢) وأبو داود فى الأدب (٤٩٤٧) وعن عبد الله بن يزيد الخطمى ، أخرجه أحمد ٤ / ٣٠٧ .

(٢) الحديث عن جابر ـ وهو تكملة للحديث السابق ـ عند أحمد ٣ / ٣٤٤ ، ٣٦٠ والترمذى فى البر والصلة (١٩٧٠) وحسنه .

(٣) البخارى فى تاريخه فى ترجمة محمد بن يزيد بن خنيس ١ / ٢٦١ ، ٢٦٢ والترمذى فى الزهد (٢٤١٢) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٤) .

الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك**﴾ تصدق أو أقرض أو أصلح بين الناس .

وأخرج أبو نصر السجزى فى الإبانة عن أنس قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « إن الله أنزل على القرآن يا أعرابىّ ﴿ **لا خير فى كثير من نجواهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فسوف نؤتيه أجرا عظيما** ﴾ يا أعرابى ، الأجر العظيم : الجنة » ، قال الأعرابى : الحمد لله الذى هدانا للإسلام . وأخرج الترمذى والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبدًا ، ويد الله على الجماعة فمن شذ شذ فى النار»[1] . وأخرجه الترمذى والبيهقى أيضا عن ابن عباس مرفوعا [2] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية وتكريرها بلفظها للتأكيد، وقيل : كررت هنا لأجل قصة بنى أبيرق ، وقيل : إنها نزلت هنا لسبب غير قصة بنى أبيرق وهو ما رواه الثعلبى والقرطبى فى تفسيريهما عن [3] الضحاك: أن شيخًا من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إنى شيخ منهمك فى الذنوب والخطايا ، إلا أنى لم أشرك بالله شيئًا مذ عرفته ، وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليًا ، ولم أوقع المعاصى جرأة على الله ، ولا مكابرة له، وإنى لنادم وتائب ومستغفر فما حالى عند الله ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية [4] . ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضل** ﴾ عن الحق ﴿ **ضلالا بعيدا** ﴾ لأن الشرك أعظم أنواع الضلال وأبعدها من الصواب .

﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثا** ﴾ أى ما يدعون من دون الله إلا أصناما لها أسماء مؤنثة كاللات، والعزى ، ومناة . وقيل : المراد بالإناث : الموات التى لا روح لها كالخشبة والحجر.

---

(١) الترمذى فى الفتن (٢١٦٧) وقال : « غريب » ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢ / ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) الترمذى فى الفتن (٢١٦٦) مختصرا وقال : « حسن غريب » والبيهقى فى الأسماء الصفات ٢ / ٥٣ وقال : «تفرد به إبراهيم بن ميمون العدنى » .

(٣) فى المطبوعة : « على » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) القرطبى ٣ / ١٩٥٦ .

وقيل : المراد بالإناث : الملائكة : لقولهم الملائكة بنات الله . وقرئ : « وُثُنًا » بضم الواو والثاء جمع وثن . روى هذه القراءة ابن الأنبارى عن عائشة . وقرأ ابن عباس : « إلا أثنا» جمع وثن أيضا وأصله : « وثن» فأبدلت الواو همزة ، وقرأ الحسن : « إلا أنُثا » بضم الهمزة والنون بعدها مثلثة ، جمع أنيث كغدير وغدر . وحكى الطبرى أنه جمع إناث كثمار وثمر . وحكى هذه القراءة أبو عمرو الدانى عن النبى ﷺ قال : وقرأ بها ابن عباس والحسن وأبو حيوة. وعلى جميع هذه القراءات فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين والإزراء عليهم والتضعيف لعقولهم لكونهم عبدوا من دون الله نوعا ضعيفا ﴿ **وإن يدعون إلا شيطانا مريدا**﴾ أى وما يدعون من دون الله إلا شيطانا مريدا وهو إبليس لعنه الله ، لأنهم إذا أطاعوه فيما سوّل لهم فقد عبدوه . وقد تقدم اشتقاق لفظ الشيطان . والمريد: المتمرد العاتى ، من مرد : إذا عتا . قال الأزهرى : المريد : الخارج عن الطاعة . وقد مرد الرجل مرودا : إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ومتمرد . وقال ابن عرفة : هو الذى ظهر شره ، يقال شجرة مرداء: إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها ، ومنه قيل للرجل أمرد ، أى ظاهر مكان الشعر من عارضيه .

قوله : ﴿ **لعنه الله** ﴾ أصل اللعن : الطرد والإبعاد. وقد تقدم وهو فى العرف إبعاد مقترن بسخط . قوله : ﴿**وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا** ﴾ معطوف على قوله : ﴿**لعنه الله** ﴾ والجملتان صفة لشيطان ، أى شيطانا مريدًا جامعًا بين لعنة الله له ، وبين هذا القول الشنيع ، والنصيب المفروض : هو المقطوع المقدر، أى لأجعلن قطعة مقدرة من عباد الله تحت غوايتى وفى جانب إضلالى حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به .

قوله :﴿ **ولأضلّنهم** ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، والإضلال : الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية وهكذا اللام فى قوله : ﴿ **ولأمنينّهم ولآمرنّهم** ﴾ والمراد بالأمانى التى يمنيهم بها الشيطان : هى الأمانى الباطلة الناشئة عن تسويله ووسوسته . قوله :﴿ **ولآمرنّهم فليبتكن آذان الأنعام** ﴾ أى ولآمرنهم ببتك آذان الأنعام ، أى تقطيعها ، فليبتكنها بموجب أمرى . والبتك : القطع ، ومنه سيف باتك ، يقال بتكه وبتّكَهُ مخففا ومشددا . ومنه قول زهير :

طارت وفى كفه من ريشها بتك

أى قطع . وقد فعل الكفار ذلك امتثالا لأمر الشيطان واتباعا لرسمه ، فشقوا آذان البحائر والسوائب كما ذلك معروف .

قوله : ﴿ **ولآمرنّهم فليغيرن خلق الله** ﴾ أى ولآمرنهم بتغيير خلق الله فليغيرنه بموجب أمرى لهم . واختلف العلماء فى هذا التغيير ما هو ؟ فقالت طائفة : هو الخصاء وفقء الأعين وقطع الآذان . وقال آخرون : إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له ، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة ،

وبه قال الزجاج . وقيل : المراد بهذا التغيير تغيير الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملا شموليا أو بدليا .

وقد رخَّص طائفة من العلماء فى خصاء البهائم إذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن أو غيره ، وكره ذلك آخرون ، وأما خصاء بنى آدم فحرام ، وقد كره قوم شراء الخصى . قال القرطبى : ولم يختلفوا أن خصاء بنى آدم لا يحل ولا يجوز وأنه مثلة وتغيير لخلق الله ، وكذلك قطع سائر أعضائهم فى غير حد ولا قود ، قاله أبو عمر بن عبد البر (١) .

﴿ **ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله** ﴾ باتباعه وامتثال ما يأمر به من دون اتباع لما أمر الله به ولا امتثال له ﴿**فقد خسرخسرانا مبينا** ﴾ أى واضحا ظاهرا ﴿ **يعدهم** ﴾ المواعيد الباطلة ﴿ **ويمنيهم** ﴾ الأمانى العاطلة ﴿ **وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ أى وما يعدهم الشيطان بما يوقعه فى خواطرهم من الوساوس الفارغة ﴿ **إلا غرورا** ﴾ يغرهم به ، ويظهر لهم فيه النفع وهو ضرر محض ، وانتصاب ﴿ **غرورا** ﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى وعدًا غرورا ، على أنه مفعول ثان ، أو مصدر على غير لفظه . قال ابن عرفة : الغرور : ما رأيت له ظاهر تحبه ، وله باطن مكروه . وهذه الجملة اعتراضية .

قوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان وهذا مبتدأ وخبره الجملة ، وهى قوله : ﴿**مأواهم جهنم** ﴾ . قوله: ﴿**محيصا**﴾ أى مَعْدِلا ، من حاص يحيص . وقيل : ملجأ ومخلصا. والمحيص : اسم مكان ، وقيل : مصدر . قوله ﴿**والذين آمنوا** ﴾ إلخ جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترنا بالوعيد المتقدم للكافرين . قوله : ﴿ **وعد الله حقا** ﴾ قال فى الكشاف: مصدران : الأول مؤكد لنفسه، والثانى مؤكد لغيره (٢) ، ووجهه أن الأول : مؤكد لمضمون الجملة الإسمية ومضمونها وعد ، والثانى : مؤكد لغيره ، أى حق ذلك حقا . قوله : ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾ هذه الجملة مؤكدة لما قبلها ، والقيل مصدر قال كالقول ، أى : لا أحد(٣) أصدق قولا من الله عز وجل ، وقيل : إن ﴿ **قيلا** ﴾ اسم لا مصدر وأنه منتصب على التمييز .

وقد أخرج الترمذى من حديث على أنه قال : ما فى القرآن أحب إلى من هذه الآية ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ قال الترمذى : حسن غريب (٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثا** ﴾ قال : اللات والعزى ومناة كلها مؤنثة . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب فى الآية قال : مع كل صنم جنية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إن يدعون من**

(١) القرطبى ٣ / ١٩٦١ . (٢) الكشاف ١ / ٥٦٧ .

(٣) فى المطبوعة : « لا أجد » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٠٣٧) .

دونه إلا إناثا ﴾ قال : موتى . وأخرج مثله عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن . وأخرج مثله أيضا عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : كان لكل حى من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها أنثى بنى فلان ، فأنزل الله : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثا ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك : قال المشركون : إن الملائكة بنات الله ، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : اتخذوهن أربابا وصوروهن صور الجوارى فحلوا وقلدوا ، وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذى نعبده يعنون الملائكة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله : ﴿ وقال لأتخذن من عبادك ﴾ إلخ قال : هذا إبليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ فليبتكن آذان الأنعام ﴾ قال : التبتيك فى البحيرة والسائبة يبتكون آذانها لطواغيتهم . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس مثله وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن خصاء البهائم والخيل [١] . وأخرج ابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن صبر الروح وإخصاء البهائم [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ قال : دين الله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله أيضًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : الوشم .

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦) ﴾ .

قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء من أمانى فى الموضعين ، واسم ليس محذوف ، أى ليس دخول الجنة أو الفضل أو القرب من الله بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتى . وقيل : ضمير يعود إلى وعد الله ، وهو بعيد . ومن أمانى أهل

(١) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٢٦٢٣) والبيهقى ١٠ / ٢٤ .

(٢) البيهقى ١٠ / ٢٤ . وقال : « قال العباسى : لم يروه خلق إلا عبيد الله وهو يستغرب عنه » .

الكتاب قولهم : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] ، وقولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] ، وقولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ [البقرة : ٨٠] .

قوله : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ قيل : المراد بالسوء : الشرك ، وظاهر الآية أعم من ذلك فكل من عمل سوءًا ، أى سوء كان فهو مجزى به من غير فرق بين المسلم والكافر . وفى هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد ، وقد كان لها فى صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ، قال : لما نزلت : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ بلغت من المسلمين مبلغا شديدا ، فقال رسول الله ﷺ : «قاربوا وسددوا (١) ، فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النَكْبَةِ يُنْكبُهَا (٢) والشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا» (٣) . قوله : ﴿ **ولا يجد له** ﴾ قرأه الجماعة بالجزم عطفا على الجزاء . وروى ابن بكار عن ابن عامر: ﴿**ولا يجد** ﴾ بالرفع استئنافا ، أى ليس لمن يعمل السوء من دون الله وليا يواليه ، ولا نصيرًا ينصره .

﴿ **ومن يعمل من الصالحات** ﴾ أى بعضها حال كونه ﴿ **من ذكر و أنثى** ﴾ وحال كونه مؤمنا، والحال الأولى لبيان من يعمل والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان فى كل عمل صالح ﴿ **فأولئك** ﴾ إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان ﴿**يدخلون الجنة** ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير : «يُدخَلون » بضم حرف المضارعة على البناء للمجهول . وقرأ الباقون بفتحها على البناء للمعلوم ﴿ **ولا يظلمون نقيرا** ﴾ أى لا ينقصون شيئًا حقيرا ، وقد تقدم تفسير النقير . ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله** ﴾ أى أخلص نفسه له حال كونه محسنا ، أى عاملا للحسنات ﴿**واتبع ملة إبراهيم** ﴾ أى دينه حال كون المتبع ﴿ **حنيفا** ﴾ أى مائلا عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، وهو الإسلام ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾ أى جعله صفوة له وخصه بكراماته ، قال ثعلب : إنما سمى الخليل خليلا ؛ لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خليلا إلا ملأته ، وأنشد قول بشار :

قَد تَخللّتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منِّى ... وَبِهِ سُمِّى الخليلُ خَلِيلا (٤)

وخليل : فعيل بمعنى الفاعل . وقيل : هو بمعنى المفعول كالحبيب بمعنى المحبوب ، وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوبًا لله ومحبا له . وقيل : الخليل : من الاختصاص فالله سبحانه

---

(١) قاربوا وسددوا: أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد فى الأمر والعدل فيه . النهاية ٢ / ٣٥٢ .

(٢) حتى النكبة ينكبها : هى مثل العثرة يعثرها برجله وربما جرحت إصبعه يقال : نكبت الحجارة رجله : لثمتها أو أصابتها . القاموس ، مادة «نكب ».

(٣) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٤) والترمذى فى التفسير (٣٠٣٨) وقال : « حسن غريب » ، والنسائى فى التفسير (١٤٢) .

(٤) البيت لبشار راجع : ديوانه . ط . دار المعارف .

اختص إبراهيم برسالته فى ذلك الوقت ، واختاره لها واختار هذا النحاس . وقال الزجاج : معنى الخليل الذى ليس فى محبته خلل . ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته ، لا لحاجته ، ولا للتكثر به ، والاعتضاد بمخاللته ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطا** ﴾ هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التى قبلها ، أى أحاط علمه بكل شيء ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [الكهف : ٤٩] .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قالت العرب : لا نبعث ولا نحاسب ، وقالت اليهود والنصارى : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] ، ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ [البقرة : ٨٠] ، فأنزل الله : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ (١) . أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق قال: احتج المسلمون وأهل الكتاب، فقال المسلمون : نحن أهدى منكم ، وقال أهل الكتاب : نحن أهدى منكم ، فنزلت ، ففلج (٢) عليهم المسلمون بهذه الآية : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر و أنثى وهو مؤمن** ﴾ الآية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مسروق قال : تفاخر النصارى وأهل الإسلام ، فقال هؤلاء : نحن أفضل منكم ، وقال هؤلاء : نحن أفضل منكم، فنزلت (٤) . وقد ورد معنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة ومطولة . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن المنذر عن أبى بكر الصديق ؛ أن النبى ﷺ قال له لما نزلت هذه الآية : « أما أنت وأصحابك يا أبا بكر فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة » (٥) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة وأبى سعيد ؛ أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : « ما يصيب المؤمن من وصب ، ولا سقم ، ولا نصب ، ولا حزن ، حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من سيئاته » (٦) . وقد ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أن ابن عمر لقيه فسأل عن هذه الآية : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات**﴾ قال : الفرائض . وأخرج الحاكم وصححه عن جندب أنه سمع النبى ﷺ يقول قبل أن يتوفى : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلاً » (٧) . وأخرج الحاكم أيضا وصححه عن ابن عباس قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام

---

(١) ابن جرير ٥ / ١٨٦ .
(٢) الفلج : الفوز والظفر والعلو على الخصم .اللسان ٢ / ٣٤٧ .
(٣) ابن جرير ٥ / ١٨٥ .
(٤) المرجع السابق ٥ / ١٨٤ .
(٥) الترمذى فى التفسير (٣٠٣٨) وقال : « حسن غريب » .
(٦) أحمد ٢ / ٣٠٣ والبخارى فى المرضى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٣ / ٥٢) والبيهقى ٣/ ٣٧٣ .
(٧) صححه الحاكم ٢ / ٥٥٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

لموسى والرؤية لمحمد ﷺ ؟ (١) .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن فى الميراث وغيره، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقوله لهم : ﴿ **الله يفتيكم** ﴾ أى يبين لكم حكم ما سألتم عنه(٢) . وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا ، فقيل لهم : ﴿ **الله يفتيكم** ﴾ قوله : ﴿ **وما يتلى عليكم** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **الله يفتيكم** ﴾ والمعنى : والقرآن الذى يتلى عليكم يفتيكم فيهن ، والمتْلُوُّ فى الكتاب فى معنى اليتامى قوله تعالى :﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ [النساء : ٣] . يجوز أن يكون قوله : ﴿ **وما يتلى** ﴾ معطوفا على الضمير فى قوله : ﴿ **يفتيكم** ﴾ الراجع إلى المبتدأ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالمفعول والجار والمجرور ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، و ﴿ **فى الكتاب** ﴾ خبره على أن المراد به : اللوح المحفوظ ، وقد قيل فى إعرابه غير ما ذكرنا، ولم نذكره لضعفه .

قوله : ﴿ **فى يتامى النساء** ﴾ على الوجه الأول والثانى صلة لقوله : ﴿ **يتلى** ﴾ وعلى الوجه الثالث بدل من قوله : ﴿**فيهن** ﴾ ﴿ **اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن** ﴾ أى ما فرض لهن من الميراث وغيره ﴿ **وترغبون** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **لا تؤتونهن** ﴾ عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل :حال من فاعل ﴿ **تؤتونهن** ﴾ وقوله : ﴿ **أن تنكحوهن** ﴾ يحتمل أن يكون التقدير : فى أن تنكحوهن أى ترغبون فى أن تنكحوهن لجمالهن ، ويحتمل أن يكون التقدير: وترغبون عن أن تنكحوهن لعدم جمالهن . قوله : ﴿ **والمستضعفين من الولدان** ﴾ معطوف على يتامى النساء ، أى وما يتلى عليكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين من الولدان، وهو قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ [النساء : ١١] . وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا من كان مستضعفًا من الولدان ، كما سلف وإنما يورثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الأمور . قوله : ﴿ **وأن تقوموا لليتامى بالقسط** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **فى يتامى النساء** ﴾ كالمستضعفين أى ما يتلى عليكم فى يتامى النساء ، وفى المستضعفين ، وفى أن تقوموا لليتامى بالقسط ، أى العدل ، ويجوز أن يكون فى محل نصب ، أى ويأمركم أن تقوموا ﴿ **وما تفعلوا من خير** ﴾ فى حقوق المذكورين ﴿ **فإن الله كان به عليما** ﴾ يجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر .

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٦٩ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

(٢) الواحدى فى أسباب النزول ص ١٠٥ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿**ويستفتونك في النساء**﴾ الآية ، قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر ولا يورثون المرأة فلما كان الإسلام قال : ﴿**ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب**﴾ في أول السورة في الفرائض (١). وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئًا ، كانوا يقولون : لا يغزون ولا يغنمون خيرًا ففرض الله لهن الميراث حقاً واجبا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه بأطول منه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن إبراهيم في الآية قال : كانوا إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحبسوها من التزويج حتى تموت فيرثونها ، فأنزل الله هذا (٢) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله : ﴿**ويستفتونك في النساء**﴾ إلى قوله : ﴿ **وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العذق ، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فتشركه في ماله بما شركته فيعضلها ، فنزلت هذه الآية (٣) . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن وابن سيرين في هذه الآية قال أحدهما : ترغبون فيهن ، وقال الآخر : ترغبون عنهن .

﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)** ﴾ .

﴿ **امرأة** ﴾ مرفوعة بفعل مقدر يفسره ما بعده ، أي وإن خافت امرأة ، وخافت بمعنى : توقعت ما تخاف من زوجها، وقيل معناه : تيقنت وهو خطأ . قال الزجاج : المعنى : وإن امرأة خافت من بعلها دوام النشوز . قال النحاس : الفرق بين النشوز والإعراض : أن النشوز: التباعد ، والإعراض : ألا يكلمها ولا يأنس بها ، وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أي نشوز أو أي إعراض والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي سيأتي ، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأي نوع من أنواعه ، إما بإسقاط النوبة أو بعضها أو بعض النفقة أو بعض المهر . قوله : ﴿ **أن يصالحا** ﴾ هكذا قرأه الجمهور، وقرأ الكوفيون : « أن يصلحا » وقراءة

(١) ابن جرير ٤ / ١٩١ وصححه الحاكم ٢ / ٣٠٨ ووافقه الذهبي.
(٢) ابن جرير ٤ / ١٩٢ .
(٣) البخاري في التفسير (٤٦٠٠) وفي الشركة (٢٤٩٤) وفي الوصايا (٢٧٦٣) ومسلم في التفسير (٣١٠٨ / ٦) وأبو داود في النكاح (٢٠٦٨) والنسائي في التفسير (١٤٥) والبيهقي في النكاح ٧ / ١٤١ ، ١٤٢ .

الجمهور أولى ؛ لأن قاعدة العرب أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعدا قيل : ﴿تصالح﴾ الرجلان أو القوم لا أصلح . قوله : ﴿ **صلحا** ﴾ منصوب على أنه اسم مصدر ، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد ، أو منصوب بفعل محذوف ، أى فيصلح حالهما صلحا ، وقيل : هو منصوب على المفعولية . وقوله : ﴿ **بينهما** ﴾ ظرف للفعل أو محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ **والصلح خير** ﴾ لفظ عام يقتضى أن الصلح الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق أو هو خير من الفرقة أو من الخصومة ، وهذه جملة اعتراضية . قوله: ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾ إخبار منه سبحانه بأن الشح فى كل واحد منهما ؛ بل فى كل الأنفس الإنسانية كائن أنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال ، وأن ذلك بحكم الجبلة والطبيعة ، فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحوها ، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج فلا تترك له شيئًا منها ، وشح الأنفس : بُخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من الوجوه ومنه : ﴿ ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر: ٩] . قوله : ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا** ﴾ أى تحسنوا عشرة النساء وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض ﴿ **فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ فيجازيكم يا معشرالأزواج بما تستحقونه .

قوله : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء**﴾ أخبر سبحانه بنفى استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذى لا ميل فيه البتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه ، وزيادة هذه فى المحبة ونقصان هذه ، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية ، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق ﷺ :« اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » (١) ولما كانوا لا يستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل ، لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور فى وسعهم ، وداخل تحت طاقتهم ، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمتعلقة التى ليست ذات زوج ولا مطلقة ، تشبيها بالشىء الذى هو معلق غير مستقر على شىء . وفى قراءة أبىّ : « فتذروها كالمسجونة » قوله: ﴿ **وإن تصلحوا** ﴾ : أى ما أفسدتم من الأمور التى تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهن ﴿**وتتقوا** ﴾ كل الميل الذى نهيتم عنه ﴿**فإن الله كان غفورا رحيما**﴾ لا يؤاخذكم بما فرط منكم.

قوله : ﴿ **وإن يتفرقا** ﴾ أى لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه ﴿ **يغن الله كلا**﴾ منهما ، أى يجعله مستغنيا عن الآخر ، بأن يهيئ للرجل امرأة توافقه وتقر بها عينه ، وللمرأة رجلا تغتبط بصحبته ، ويرزقهما ﴿ **من سعته**﴾ رزقا : يغنيهما به عن الحاجة ﴿ **وكان الله واسعا حكيما** ﴾ واسع الفضل صادرة أفعاله على جهة الإحكام والإتقان .

وقد أخرج الترمذى وحسنه ، وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس ؛ قال :

---

(١) سيأتى تخريجه .

خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل ، ونزلت هذه الآية ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا ﴾ الآية . قال ابن عباس : فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز (١) . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه ، والبيهقي عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المذكورة (٢) . وأخرج البخاري وغيره عنها في الآية قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول أجعلك من شأني في حل فنزلت هذه الآية (٣) . وأخرج الشافعي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عن سعيد بن المسيب ؛ أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا ، إما كبرا أو غيره ، فأراد طلاقها فقالت : لا تطلقني واقسم لي ما بدا لك ، فاصطلحا وجرت السنة بذلك ونزل القرآن : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا ﴾ الآية (٤) . وأخرج أبو داود الطيالسي وابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن علي أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو رجل عنده امرأتان فتكون إحداهما قد عجزت أو تكون دميمة فيريد فراقها ؛ فتصالحه على أن يكون عندها ليلة ، وعند الأخرى ليالي ولا يفارقها ، فما طابت به نفسها فلا بأس به ، فإن رجعت سوى بينهما . وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا ، وثبت في الصحيحين من حديث عائشة قالت : لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة ، فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿وأحضرت الأنفس الشح ﴾ قال: هواه في الشيء يحرص عليه وفي قوله : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ﴾ قال : في الحب والجماع ، وفي قوله : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ قال : لا هي أيمة ولا ذات زوج . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر عن عائشة ؛ قالت : كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » (٦) وإسناده صحيح . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط». قال الترمذي: إنما أسنده همام . ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال : كان يقال ، ولا يعرف

---

(١) الترمذي في التفسير (٣٠٤٠) وقال : « حسن غريب » ، والطبراني (١١٧٤٦) والبيهقي ٧ / ٢٩٧ .
(٢) أبو داود في النكاح (٢١٣٥) وصحح إسناده الحاكم ٢ / ١٨٦ ووافقه الذهبي ، والبيهقي ٧ / ٢٩٦ .
(٣) البخاري في التفسير (٤٦٠١) وفي النكاح (٥٢٠٥) .
(٤) الشافعي في المسند في النكاح (٨٦) والبيهقي ٧ / ٢٩٦ .
(٥) البخاري في النكاح (٥٢١٢) ومسلم في الرضاع (١٤٦٣ / ٤٧ ، ٤٨) .
(٦) ابن أبي شيبة في المصنف ٤ / ٣٨٦ وأحمد ٦ / ١٤٤ وأبو داود في النكاح (٢١٣٤) والترمذي في النكاح (١١٤٠) والنسائي في عشرة النساء ٧ / ٦٤ وابن ماجة في النكاح (١٩٧١) والدارمي في النكاح ٢ / ١٤٤ والبيهقي ٧ / ٢٩٨ وصححه الحاكم ٢ / ١٨٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام [(١)] . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء**﴾ قال : الجماع . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى الحسن قال : الحب .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب ، واللام فى الكتاب للجنس ﴿**وإياكم** ﴾ عطف على الموصول ﴿ **أن اتقوا الله**﴾ أى أمرناهم وأمرناكم بالتقوى وهو فى موضع نصب بقوله : ﴿**وصينا**﴾ أو منصوب بنزع الخافض . قال الأخفش : أى بأن اتقوا الله ، ويجوز أن تكون أن مفسرة ؛ لأن التوصية فى معنى القول . قوله : ﴿ **وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ معطوف على قوله : ﴿**أن اتقوا** ﴾ أى وصيناهم وإياكم بالتقوى ، وقلنا لهم ولكم إن تكفروا ، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه ، وينظروا فى ذلك ، ويعلموا أنه غنى عن خلقه ، ﴿ **إن يشأ يذهبكم** ﴾ أى يفنكم ﴿ **ويأت بآخرين** ﴾ أى بقوم آخرين غيركم ، وهو كقوله تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد : ٣٨] ، ﴿ **من كان يريد ثواب الدنيا** ﴾ وهو من يطلب بعلمه شيئًا من أمور الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة دون الأجر ﴿**فعند الله ثواب الدنيا والآخرة**﴾ فما باله يقتصر على أدنى الثوابين وأحقر الأجرين ، وهلا طلب بعلمه ما عند الله سبحانه ، وهو ثواب الدنيا والآخرة ، فيحرزهما جميعا ، ويفوز بهما ، وظاهر الآية العموم . وقال ابن جرير الطبرى : إنها خاصة بالمشركين والمنافقين ﴿**وكان الله سميعًا بصيراً** ﴾ يسمع ما يقولونه ويبصر ما يفعلونه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكان الله غنيا** ﴾ عن خلقه ﴿**حميدا** ﴾ قال : مستحمد إليهم . وأخرجا أيضا عن على مثله . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكفى بالله وكيلا** ﴾ قال : حفيظا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير

---

(١) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤ / ٣٨٨ وأحمد ٢ / ٤٧١ وأبو داود فى النكاح (٢١٣٣) والترمذى فى النكاح (١١٤١) والنسائى فى عشرة النساء ٧ / ٦٣ وابن ماجة فى النكاح (١٩٦٩) والدارمى فى النكاح ٢ / ١٤٣ والبيهقى ٧ / ٢٩٧ .

وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين** ﴾ قال : قادر ـ والله ـ ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ما شاء ويأتى بآخرين من بعدهم .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١٣٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قوّامين** ﴾ صيغة مبالغة ، أى ليتكرر منكم القيام بالقسط ، وهو العدل فى شهادتكم على أنفسكم ، وهو الإقرار بما عليكم من الحقوق ، وأما شهادته على والديه فبأن يشهد عليهما بحق للغير . وكذلك الشهادة على الأقربين ، وذكر الأبوين لوجوب برهما ، وكونهما أحب الخلق إليه ، ثم ذكروا الأقربين ؛ لأنهم مظنة المودة والتعصب ، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبى من الناس أحرى أن يشهدوا عليه ، وقد قيل : إن معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه وهو بعيد . قوله : ﴿**شهداء لله** ﴾ خبر بعد خبر لكان ، أو حال ، ولم ينصرف ؛ لأن فيه ألف التأنيث . وقال ابن عطية : الحال فيه ضعيفة فى المعنى ؛ لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط. وقوله : ﴿ **لله** ﴾ أى لمرضاته وثوابه . وقوله : ﴿ **ولو على أنفسكم** ﴾ متعلق بشهداء هذا المعنى الظاهر من الآية ؛ وقيل : معنى : ﴿ **شهداء لله** ﴾ بالوحدانية فيتعلق قوله: ﴿ **ولو على أنفسكم** ﴾ بقوامين . والأول أولى .

قوله : ﴿ **إن يكن غنيا أو فقيرا** ﴾ اسم كان مقدر ، أى إن يكن المشهود عليه غنيا فلا يراعى لأجل غناه استجلابا لنفعه ، أو استدفاعا لضره ، فيترك الشهادة عليه أو فقيرا فلا يراعى لأجل فقره رحمة له ، وإشفاقا عليه ، فيترك الشهادة عليه، وإنما قال : ﴿ **فالله أولى بهما** ﴾ ولم يقل به مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد ، لأن المعنى فالله أولى بكل واحد منهما ، وقال الأخفش : تكون « أو » بمعنى الواو . وقيل : إنه يجوز ذلك مع تقدم ذكرهما كما فى قوله : ﴿ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ﴾ [النساء : ١٢] وقد تقدم فى مثل هذا ما هو أبسط مما هنا . وقرأ أُبى : « فالله أولى بهم» . وقرأ ابن مسعود : « إن يكن غنىٌ أو فقير » ، على أن كان تامة ﴿ **فلا تتبعوا الهوى** ﴾ نهاهم عن اتباع الهوى . قوله: ﴿ **أن تعدلوا** ﴾ فى موضع نصب ، وهو إما من العدل كأنه قال : فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس ، أو من العدول كأنه قال : فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا عن الحق .

قوله : ﴿ **وإن تلووا** ﴾ من اللىّ ، يقال : لويت فلانا حقه : إذا دفعته عنه . والمراد : لىّ الشهادة ميلا إلى المشهود عليه. وقرأ ابن عامر والكوفيون : « وإن تلوا » من الولاية ، أى وإن تلوا الشهادة وتتركوا ما يجب عليكم من تأديتها علي وجه الحق . وقد قيل : إن هذه القراءة تفيد معنيين : الولاية ، والإعراض . والقراءة الأولى تفيد معنى واحدا وهو الإعراض . وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط ولحن ، لأنه لا معنى للولاية ها هنا . قال النحاس وغيره: وليس يلزم هذا ، ولكن يكون تلوا بمعنى تلووا ، وذلك أن أصله تلووا فاستثقلت الضمة على الواو وبعدها واو أخرى فانقلبت الحركة على اللام ، وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين . وذكر الزجاج نحوه. قوله : ﴿ **أو تعرضوا** ﴾ أى عن تأدية الشهادة من الأصل ﴿**فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ أى بما تعملون من اللىّ والإعراض أو من كل عمل ، وفى هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة كما تجب عليه وقد روى أن هذه الآية تعم القاضى والشهود ، أما الشهود فظاهر ، وأما القاضى فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين ، أو يلوى عن الكلام معه . وقيل : هى خاصة بالشهود .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله** ﴾ أى اثبتوا على إيمانكم وداوموا عليه ، والخطاب هنا للمؤمنين جميعا ﴿ **والكتاب الذى نزل على رسوله** ﴾ هو القرآن ، واللام للعهد ﴿**والكتاب الذى أنزل من قبل**﴾ هو كل كتاب ، واللام للجنس وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « نُزل » و « أُنزل » بالضم . وقرأ الباقون بالفتح فيهما . وقيل : إن الآية نزلت فى المنافقين . والمعنى : يأيها الذين آمنوا فى الظاهر أخلصوا لله . وقيل : نزلت فى المشركين ، والمعنى : يأيها الذين آمنوا باللات والعزى ، آمنوا بالله وهما ضعيفان . قوله : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر** ﴾ أى بشىء من ذلك ﴿ **فقد ضل** ﴾ عن القصد ﴿**ضلالا بعيدا**﴾ وذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذى أنزل عليه ، وذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة فناسبه ذكر الرسل جملة ، وتقديم الملائكة على الرسل ؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين** ﴾ الآية ، قال : أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق ولو على أنفسهم أو آبائهم ، أو أبنائهم لا يحابون غنيًا لغناه ولا يرحمون مسكينًا لمسكنته وفى قوله: ﴿ **فلا تتبعوا الهوى** ﴾ فتذروا الحق فتجوروا ﴿ **وإن تلووا** ﴾ يعنى : بألسنتكم بالشهادة ﴿**أو تعرضوا** ﴾ عنها . وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عنه فى معنى الآية قال : الرجلان يجلسان عند القاضى فيكون لىّ القاضى وإعراضه لأحد الرجلين على الآخر . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت البقرة أول سورة نزلت ثم أردفها سورة النساء ، قال : فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر

فيقضى حين يوسر ، فنزلت : ﴿كونوا قوامين بالقسط﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عنه أيضا﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ يقول : تلوى لسانك بغير الحق وهى اللجلجة فلا تقيم الشهادة على وجهها ، والإعراض : الترك . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس أن عبد الله بن سلام ، وأسدا وأسيدا ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلاما ابن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ، ويامين بن يامين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك ، وموسى والتوراة ، وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال رسول الله ﷺ : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد ، وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله»، فقالوا : لا نفعل ، فنزلت : ﴿ يأيها الذين آمَنوا آمنوا بالله ﴾ الآية . وينبغى النظر فى صحة هذا ، فالثعلبى رحمه الله ليس من رجال الرواية ولا يفرق بين الصحيح والموضوع .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى هذه الآية قال : يعنى بذلك أهل الكتاب ، كان الله قد أخذ ميثاقهم فى التوراة والإنجيل ، وأقروا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، فلما بعث الله رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد والقرآن ، وذكرهم الذى أخذ عليهم من الميثاق ، فمنهم من صدق النبى ﷺ واتبعه ، ومنهم من كفر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) ﴾ .

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التى آمنت ثم كفرت ، ثم آمنت ثم كفرت ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله ، أنه لم يكن الله سبحانه ليغفر لهم ذنوبهم ، ولا ليهديهم سبيلا يتوصلون به إلى الحق ، ويسلكـونه إلى الخير ؛ لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله ، ويؤمنوا إيمانًا صحيحا ، فإن هذا الاضطراب منهم تارة يدعون أنهم مؤمنون ، وتارة يمرقون من الإيمان ، ويرجعون إلى ما هو دأبهم وشأنهم من الكفر المستمر ، والجحود الدائم ، يدل أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين، ليست لهم نية صحيحة ولا قصد خالص ، قيل : المراد بهؤلاء : اليهود، فإنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعزير ، ثم آمنوا بعزير ، ثم كفروا بعيسى ، ثم

ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد ﷺ ، وقيل : آمنوا بموسى ثم كفروا به بعبادتهم العجل ، ثم آمنوا به عند عوده إليهم ، ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد ﷺ ، والمراد بالآية : أنهم ازدادوا كفرا واستمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم ، وإلا فالكافر إذا آمن وخلص إيمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة ، «والإسلام يجب ما قبله »(١) ، ولكن لما كان هذا مستبعدًا منهم جدا كان غفران ذنوبهم وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعدا.

قوله : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما** ﴾ إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم؛ تهكم بهم وقد مر تحقيقه وقوله : ﴿ **الذين يتخذون الكافرين أولياء** ﴾ وصف للمنافقين أو منصوب على الذم ، أى يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم ويمالئونهم على ضلالهم . وقوله : ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ فى محل نصب على الحال أى يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين ﴿ **أيبتغون عندهم العزة** ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ والجملة معترضة . قوله : ﴿**فإن العزة لله جميعا** ﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين ، وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه ، وما كان منها مع غيره فهو من فيض تفضله كما فى قوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون : ٨] والعزة : الغلبة . يقال : عزَّه يعزه عزا : إذا غلبه ﴿ **وقد نزل عليكم فى الكتاب** ﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزله الله . وقيل : إنه خطاب للمنافقين فقط ، كما يفيده التشديد والتوبيخ . وقرأ عاصم ويعقوب : ﴿**نزل** ﴾ بفتح النون والزاى وتشديدها ، وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى فى قوله : ﴿**فإن العزة لله جميعا** ﴾ وقرأ حميد بتخفيف الزاى مفتوحة مع فتح النون وقرأ الباقون بضم النون مع كسر الزاى مشددة على البناء للمجهول .

وقوله : ﴿ **أن إذا سمعتم آيات الله** ﴾ فى محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول ﴿ **نزل** ﴾ وفى محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل ، وفى محل رفع على أنه مفعول مالم يسم فاعله على القراءة الثالثة . و ﴿ **أن** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، والتقدير : أنه إذا سمعتم آيات الله . والكتاب : هو القرآن . وقوله : ﴿ **يكفر بها ويستهزأ بها** ﴾ حالان أى إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله ، فأوقع السماع على الآيات . والمراد: سماع الكفر والاستهزاء . وقوله : ﴿ **فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** ﴾ أى أنزل عليكم فى الكتاب أنكم عند السماع للكفر والاستهزاء بآيات الله لا تقعدوا معهم ، ما داموا كذلك ، حتى يخوضوا فى حديث غيرحديث الكفر والاستهزاء بها . والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ [الأنعام : ٦٨] وقد كان جماعة من الداخلين فى الإسلام يقعدون مع المشركين

---

(١) أحمد ٤ / ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ عن عمرو بن العاص ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩ / ٣٥٤ : « رواه أحمد والطبرانى . . . ورجالهما ثقات » .

واليهود ، حال سخريتهم بالقرآن ، واستهزائهم به ، فنهوا عن ذلك .

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذى هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله ، بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية ، كما يقع كثيرًا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة ، ولم يبق فى أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا ، وقال فلان من أتباعه بكذا ، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوى سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا ، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع، وخطب شنيع ، وخالف مذهب إمامهم الذى نزلوه منزلة معلم الشرائع ، بل بالغوا فى ذلك حتى جعلوا رأيه العايل [١] واجتهاده الذى هو عن منهج الحق مائل ، مقدمًا على الله وعلى كتابه ، وعلى رسوله ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم ، فإنهم قد صرحوا فى مؤلفاتهم بالنهى عن تقليدهم كما أوضحنا ذلك فى رسالتنا المسماة : بـ « القول المفيد فى حكم التقليد » وفى مؤلفنا المسمى : بـ « أدب الطلب ومنتهى الأرب » اللهم انفعنا بما علمتنا ، واجعلنا من المقتدين بالكتاب والسنة، وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين.

قوله : ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ تعليل للنهى ، أى إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم فى الكفر . قيل : وهذه المماثلة ليست فى جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما فى قول القائل :

وكل قرين بالمقارن يقتدى

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبى فإنه قال : هى منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ [الأنعام : ٦٩] وهو مردود فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها . قوله : ﴿ **إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا** ﴾ هذا تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ، قيل : وهم القاعدون والمقعود إليهم ، عند من جعل الخطاب موجها إلى المنافقين .

قوله : ﴿ **الذين يتربصون بكم** ﴾ أى ينتظرون بكم ما يتجدد ويحدث لكم من خير أو شر، والموصول فى محل نصب على أنه صفة للمنافقين ، أو بدل منهم فقط دون الكافرين ، لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذم ﴿ **فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم** ﴾ هذه الجملة والجملة التى بعدها حكاية لتربصهم ، أى إن حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار ﴿ **قالوا** ﴾ لكم ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ فى الاتصاف بظاهر الإسلام ، والتزام أحكامه ، والمظاهرة والتسويد ، وتكثير العدد ﴿ **وإن كان للكافرين نصيب** ﴾ من الغلب لكم والظفر بكم ﴿ **قالوا** ﴾ للكافرين

(١) فى المطبوعة : « القائل »، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ **ألم نستحوذ عليكم** ﴾ أى ألم نقهركم ونغلبكم ، ونتمكن منكم ، ولكن أبقينا عليكم . وقيل : المعنى : إنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين : ألم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون ، وخذلناهم عنكم ؟ والأول أولى فإن معنى الاستحواذ : الغلب ، يقال : استحوذ على كذا ، أى غلب عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ [المجادلة : ١٩] ولا يصح أن يقال : ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون ولكن المعنى : ألم نغلبكم يامعشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم ، وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين ﴿**ونمنعكم من المؤمنين** ﴾ بتخذيلهم وتثبيطهم عنكم ، حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم ، وعجزوا عن الانتصاف منكم والمراد : أنهم يميلون مع من له الغلب والظفر من الطائفتين ، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله ، وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام ، من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى ، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا فى مال أو جاه فيلقاه بالتملق ، والتودد ، والخضوع ، والذلة ، ويلقى من لاحظ له من الدنيا بالشدة والغلظة ، وسوء الخلق ، ويزدري به ، ويكافحه بكل مكروه ، فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها .

قوله : ﴿ **فالله يحكم بينكم يوم القيامة** ﴾ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق والبغض للحق وأهله ، ففى هذا اليوم تنكشف الحقائق ، وتظهر الضمائر ، وإن حقنوا فى الدنيا دماءهم وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقا ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**﴾ ، هذا فى يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل : النصر والغلب، أو فى الدنيا إن كان المراد به الحجة. قال ابن عطية : قال جميع أهل التأويل : إن المراد بذلك : يوم القيامة . قال ابن العربى : وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه ، وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعنى قوله : ﴿**فالله يحكم بينكم يوم القيامة** ﴾ وذلك يسقط فائدته ، إذ يكون تكرار هذا معنى كلامه . وقيل : المعنى : إن الله لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين يمحو به دولتهم، ويذهب آثارهم ، ويستبيح بيضتهم ، كما يفيده الحديث الثابت فى الصحيح : « وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا » (١) . وقيل : إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق ، غير راضين بالباطل ، ولا تاركين للنهى عن المنكر كما قال تعالى : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : ٣٠] قال ابن العربى : وهذا نفيس جدا . وقيل : إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعًا ، فإن وجد فبخلاف الشرع . هذا خلاصة ما قاله أهل العلم فى هذه الآية ، وهى صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا ثم كفروا** ﴾

(١) مسلم فى الفتن (٢٨٨٩ / ١٩) عن ثوبان .

الآية . قال : هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت ، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه فى الآية قال : هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة ثم كفروا ، ثم ذكر النصارى فقال : ﴿ **ثم آمنوا ثم كفروا** ﴾ يقول : آمنوا بالإنجيل ثم كفروا ، ﴿ **ثم ازدادوا كفرا** ﴾ بمحمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفرا** ﴾ قال : تمادوا [١] على كفرهم حتى ماتوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى وائل قال : إن الرجل ليتكلم فى المجلس بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا ، فذكروا ذلك لإبراهيم النخعى ، فقال: صدق أبو وائل ، أو ليس ذلك فى كتاب الله ؟ ﴿ **فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : أنزل فى سورة الأنعام : ﴿ حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ [الأنعام : ٦٨] ثم نزل التشديد فى سورة النساء ﴿ **إنكم إذًا مثلهم** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ، أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن فى جهنم جميعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **الذين يتربصون بكم** ﴾ قال : هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿ **فإن كان لكم فتح من الله** ﴾ إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون :﴿ **ألم نكن** ﴾ قد كنا ﴿**معكم** ﴾ فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون ﴿ **وإن كان للكافرين نصيب** ﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار : ﴿ **ألم نستحوذ عليكم** ﴾ [٢] ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه، قد كنا نثبطهم عنكم . وأخرج ابن جرير عن السدى ﴿ **ألم نستحوذ عليكم** ﴾ قال : نغلب عليكم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى في الشعب ، والحاكم وصححه عن على ؛ أنه قيل له : أرأيت هذه الآية ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ، فقال : ادنه ادنه ، ثم قال : ﴿ **فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾ . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : فى الآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مالك نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن السدى : ﴿ **سبيلا** ﴾ قال : حجة .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن

---

(١) فى المطبوعة : « تموا » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة وتفسير ابن كثير ٢ / ٤١٤ .

(٢) أصل الاستحواذ فى كلام العرب : الغلبة ، ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ [المجادلة : ١٩] .

يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم ، وقد تقدم معنى الخدع فى البقرة ، ومخادعتهم لله هى أنهم يفعلون فعل المخادع ، من إظهار الإيمان ، وإبطان الكفر ، ومعنى كون الله خادعهم : أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه ، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالإسلام فى الدنيا ، فعصم به أموالهم ، ودماءهم ، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار . قال فى الكشاف : والخادع : اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه (١) . والكسالى بضم الكاف جمع كسلان ، وقرئ بفتحها . والمراد : أنهم يصلون وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، والرياء : إظهار الجميل ليراه الناس ، لا لاتباع أمر الله ، وقد تقدم بيانه ، والمراءاة المفاعلة . قوله : ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ معطوف على : ﴿ يراؤون ﴾ أى لا يذكرونه سبحانه إلا ذكرا قليلا ، أو لا يصلون إلا صلاة قليلة ، ووصف الذكر بالقلة لعدم الإخلاص ، أو لكونه غير مقبول ، أو لكونه قليلا فى نفسه؛ لأن الذى يفعل الطاعة لقصد الرياء ، إنما يفعلها فى المجامع ولا يفعلها خاليا كالمخلص .

قوله : ﴿ مذبذبين بين ذلك ﴾ المذبذب : المتردد بين أمرين ، والذبذبة : الاضطراب ، يقال : ذبذبه فتذبذب ، ومنه قول النابغة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّه أَعْطَاكَ سورةً ... تَرى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ (٢)

قال ابن جنى : المذبذب : القلق الذى لا يثبت على حال ، فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين ، لا مخلصين الإيمان ، ولا مصرحين بالكفر . قال فى الكشاف : وحقيقة المذبذب الذى يُذَبُّ عن كلا الجانبين ، أى يُذَاد ويُدفع فلا يقر فى جانب واحد ، كما يقال : فلان يرمى به الرجوان إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذبّ ، كأن المعنى : كلما مال إلى جانب ذب عنه انتهى (٣) . وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح الذالين . وقرأ ابن عباس بكسر الذال

---

(١) الكشاف ١ / ٥٧٩ .

(٢) ديوانه ٥٧ . ويتذبذب : يضطرب ويحار والذبذبة : تردد الشيء المعلق فى الهواء يمنة ويسرة ، يقول : أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقًا دونها ، حائرًا يضطرب ويتردد لا يطيق أن يبلغها . اللسان ١ / ٣٨٤ .

(٣) الكشاف ١ / ٥٨٠ .

الثانية ، وفى حرف أبى : « متذبذبين » وقرأ الحسن بفتح الميم والذالين ، وانتصاب ﴿**مذبذبين**﴾ إما على الحال أو على الذم ، والإشارة بقوله :﴿ **بين ذلك** ﴾ إلى الإيمان والكفر. قوله : ﴿ **لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ أى لا منسوبين إلي المؤمنين ولا إلى الكافرين ، ومحل الجملة النصب على الحال ، أو على البدل من مذبذبين أو على التفسير له ﴿**ومن يضلل الله** ﴾ أى يخذله ويسلبه التوفيق ﴿ **فلن تجد له سبيلا** ﴾ أى طريقًا يوصله إلى الحق .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ أى لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين ﴿ **أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى تريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة الكافرين .

﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ قرأ الكوفيون :﴿ **الدرْك** ﴾ بسكون الراء ، وقرأ غيرهم بتحريكها . قال أبو على : هما لغتان والجمع أدراك . وقيل : جمع المحرك : أدراك مثل جمل وأجمال ، وجمع الساكن : أدرك مثل فلس وأفلس ، قال النحاس : والتحريك أفصح . والدرك : الطبقة ، والنار دركات سبع ، فالمنافق فى الدرك الأسفل منها ، وهى الهاوية ، لغلظ كفره وكثرة غوائله ، وأعلى الدركات جهنم ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا ، أعاذنا الله من عذابها ﴿ **ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ يخلصهم من ذلك الدرك والخطاب لكل من يصلح له أو للنبى ﷺ .

﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ استثناء من المنافقين ، أى إلا الذين تابوا عن النفاق ﴿ **وأصلحوا** ﴾ ما أفسدوا من أحوالهم ﴿**وأخلصوا دينهم لله** ﴾ أى جعلوه خالصًا غير مشوب بطاعة غيره ، والاعتصام بالله : التمسك به ، والوثوق بوعده ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الذين تابوا واتصفوا بالصفات السابقة . قوله : ﴿ **مع المؤمنين** ﴾ قال الفراء : أى من المؤمنين يعنى الذين لم يصدر منهم نفاق أصلا . قال القتيبى : حاد عن كلامهم غضبًا عليهم فقال : ﴿**فأولئك مع المؤمنين**﴾ ولم يقل هم المؤمنون . انتهى . والظاهر أن معنى « مع » معتبر هنا فأولئك مصاحبون للمؤمنين فى أحكام الدنيا والآخرة . ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم فقال : ﴿ **وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما** ﴾ وحذفت الياء من ﴿**يؤت** ﴾ فى الخط كما حذفت فى اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ، ومثله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ [القمر : ٩] و﴿سندع الزبانية ﴾ [العلق : ١٧] ﴿ يوم يناد المناد ﴾ [ق : ٤١] ونحوها

فإن الحذف فى الجميع لالتقاء الساكنين .

قوله : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه فى التعذيب إلا مجرد المجازاة للعصاة . والمعنى : أى منفعة له فى عذابكم إن شكرتم وآمنتم ، فإن ذلك لا يزيد فى ملكه ، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه ﴿وكان الله شاكرًا عليمًا ﴾ أى يشكر عباده على طاعته فيثيبهم عليها ، ويتقبلها منهم. والشكر فى اللغة : الظهور، يقال : دابة شكور: إذا ظهر من سمنها فوق ما تعطى من العلف .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله ﴾ الآية قال : يلقى على كل [(١)] مؤمن ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى إذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين ، ومضى المؤمنون بنورهم [(٢)] فتلك خديعة الله إياهم [(٣)] . وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه [(٤)] . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه أيضا. ولا أدرى من أين جاء لهم هذا التفسير، فإن مثله لا ينقل إلا عن النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج فى الآية قال : نزلت فى عبد الله بن أُبى وأبى عامر بن النعمان [(٥)] . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق ، وأنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا [(٦)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ مذبذبين بين ذلك ﴾ قال : هم المنافقون ﴿ لا إلى هؤلاء ﴾ يقول : لا إلى أصحاب محمد ﴿ ولا إلى هؤلاء ﴾ اليهود . وثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ : « إن مثل المنافق مثل الشاة العائرة [(٧)] بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة فلا تدرى أيهما تتبع ؟ » [(٨)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴾ قال : إن لله السلطان على خلقه ولكنه يقول : عذرا مبينا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ قال : كل سلطان فى القرآن فهو حجة . والله سبحـانه أعلم .

---

(١) سقطت هذه اللفظة من المطبوعة والصواب إثباتها كما فى المخطوطة وابن جرير ٥ / ٢١٥ .

(٢) عند ابن جرير زيادة : فينادونهم ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكنكم فـتنتم أنفسكم ﴾ [الحديد : ١٣ ، ١٤] .

(٣) ابن جرير ٥ / ٢١٥ . (٤) المرجع السابق ٥ / ٢١٤ .

(٥) ابن جرير ٥ / ٢١٤ .

(٦) مسلم فى المساجد (٦٢٢ / ١٩٥) عن أنس بن مالك .

(٧) فى المطبوعة : « الغائرة » ، تغير ، بالغين المعجمة ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، ومعنى العائرة (بالعين المهملة) : التى تتردد بين القطيعين ، لا تدرى أيهما تتبع .

(٨) أحمد ٢ / ٤٧ ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٤ / ١٧) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعـود فى قوله : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ قال : فى توابيت من حديد مقفلة عليهم ، وفى لفظ : مبهمة عليهم ، أى مغلقة لا يهتدى لمكان فتحها . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن مسعود نحوه أيضا. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم** ﴾ الآية ، قال : إن الله لا يعذب شاكرا ولا مؤمنا .

﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)** ﴾ .

نفى الحب كناية عـن البغض ، وقـراءة الجمهـور : ﴿ **إلا مـن ظُلم** ﴾ عـلى البنـاء للمجهـول . وقـرأ زيـد بن أسلم ، وابن أبى إسحاق والضحاك وابن عباس وابن جبير وعطاء ابن السائب « إلا من ظلم » على البناء للمعلوم ، وهو على القراءة الأولى استثناء متصل بتقدير مضاف محذوف أى إلا جهر من ظلم . وقيل : إنه على القراءة الأولى أيضًا منقطع ، أى لكن من ظلم فله أن يقول ظلمنى فلان .

واختلف أهل العلم فى كيفية الجهر بالسوء الذى يجوز لمن ظلم ، فقيل هو أن يدعو على من ظلمه . وقيل : لا بأس أن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول : فلان ظلمنى أو هو ظالم أو نحو ذلك . وقيل : معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر أو نحوه فهو مباح له ، والآية على هذا فى الإكراه ، وكذا قاله قطرب ، قال : ويجوز أن يكون على البدل كأنه قال : لا يحب الله إلا من ظلم ، أى لا يحب الظالم بل يحب المظلوم . والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذى هو من السوء فى جانب من ظلمه ، ويؤيده الحديث الثابت في الصحيح بلفظ « لىّ الواجد [(١)] ظلم يحل عرضه وعقوبته » [(٢)] وأما على القراءة الثانية فالاستثناء منقطع ، أى إلا من ظلم فى فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول فى معنى النهى عن فعله والتـوبيخ له .

وقال قوم : معنى الكلام لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول ، لكن من ظلم فإنه يجهر بالسوء ظلما وعدوانا وهو ظالم فى ذلك ، وهذا شأن كثير من الظلمة فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه ، وينالون من عرضه . وقال الزجاج : يجوز أن

---

(١) اللى: المطل . اللسان ١٥ / ٢٦٣ . الواجد : القادر . اللسان ٣ / ٤٤٥ .

(٢) الحديث عن الشريد بن سويد الثقفى بدون كلمة « ظلم » ، علقه البخارى فى الاستقراض ٥ / ٦٢ وأخرجه موصولاً أحمد ٤ / ٢٢٢ ، ٣٨٩ وأبو داود فى الأقضية (٣٢٨) والنسائى فى البيوع ٧ / ٣١٦ ، ٣١٧ وابن ماجة فى الصدقات (٢٤٢٧) والطبرانى (٧٢٤٩ ، ٧٢٥٠) وصححه الحاكم ٤ / ١٠٢ ووافقه الذهبى ، وقال ابن حجر فى الفتح ٥ / ٦٢ : « إسناده حسن » . ومعنى « يحل عرضه » أى شكايته ، و«عقوبته» أى حبسه .

يكون المعنى إلا من تكلم فقال سوءًا فإنه ينبغى أن يأخذوا على يديه ويكون استثناء ليس من الأول ﴿ **وكان الله سميعا عليما** ﴾ هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه ويعلم به، ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجهر بالسوء ندب إلى ما هو الأولى والأفضل فقال : ﴿ **إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء** ﴾ تصابون به ﴿ **فإن الله كان عفوا** ﴾ عن عباده ﴿ **قديرا** ﴾ على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم فاقتدوا به سبحانه فإنه يعفو مع القدرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول** ﴾ قال : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلومًا ، فإنه رخص له أن يدعو على من ظلمه ، وإن يصبر فهو خير له . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية قال : نزلت فى رجل ضاف رجلاً بفلاة من الأرض فلم يضفه ، ثم ذكر أنه لم يضفه ، لم يزد على ذلك [1] . وأخرج ابن المنذر عن إسماعيل ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾ قال : كان الضحاك بن مزاحم يقول هذا على التقديم والتأخير ، يقول الله : ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم إلا من ظلم ، وكان يقرؤها كذلك ، ثم قال : ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول** ﴾ أى على كل حال هكذا قال ، وهو قريب من التحريف لمعنى الآية . وقد أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال :« من دعا عَلَى مَن ظَلَمه فقد انتصر » [2] وروى نحوه أبو داود عنها من وجه آخر [3] . وقد أخرج أبو داود من حديث أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « المتسابان ما قالاه ، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم » [4] .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢)** ﴾ .

لما فرغ من ذكر المنافقين والمشركين ، ذكر الكفار من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة ، والكفر بذلك كفر بالله ، وينبغى حمل قوله : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله** ﴾ على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل ، لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعا ، فإن أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله ، لكنهم لما كفروا بالبعض كان ذلك كفرًا [5] بالله وبجميع الرسل ، ومعنى ﴿ **ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله** ﴾ : أنهم كفروا بالرسل بسبب

---

(١) ابن جرير ٦ / ٣ .

(٢) ابن أبى شيبة (٩٦٢٥) والترمذى فى الدعوات (٣٥٥٢) وقال : « غريب » .

(٣) أبو داود فى الأدب (٤٩٠٩) . (٤) أبو داود فى الأدب (٤٨٩٤) .

(٥) فى المطبوعة : « كفر » ، بالرفع والصواب ما أثبتناه من المخطوطة لأن كفراً خبر كان .

كفرهم ببعضهم ، وآمنوا بالله ، فكان ذلك تفريقًا بين الله وبين رسله ﴿ **ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض** ﴾ هم اليهود آمنوا بموسى ، وكفروا بعيسى ومحمد ، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﴿ **ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا** ﴾ أى يتخذوا بين الإيمان والكفر دينًا متوسطا بينهما فالإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى قوله نؤمن ونكفر . ﴿ **أولئك هم الكافرون**﴾ أى الكاملون فى الكفر . وقوله : ﴿ **حقًا**﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى حق ذلك حقا ، أو هو صفة لمصدر الكافرين ، أى كفرا حقا . قوله : ﴿ **ولم يفرقوا بين أحد منهم**﴾ بأن يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ودخول ﴿ **بين** ﴾ على ﴿ **أحد** ﴾ لكونه عامًا فى المفرد مذكرًا ومؤنثًا ومثناهما وجمعهما ، وقد تقدم تحقيقه ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية قال : ﴿ **أولئك** ﴾ أعداء الله اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة وموسى ، وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى ، وكفروا بالقرآن ومحمد، اتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ، ليستا من الله ، وتركوا الإسلام ، وهو دين الله الذى بعث به رسله . وأخرج ابن جرير عن السدى وابن جريج نحوه .

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **يسألك أهل الكتاب** ﴾ هم اليهود ، سألوه ﷺ أن يرقى إلى السماء وهم يرونه، فينزل عليهم كتابا مكتوبًا فيما يدعيه يدل على صدقه دفعة واحدة ، كما أتى موسى التوراة تعنتًا منهم ، أبعدهم الله ، فأخبره الله عز وجل بأنهم قد سألوا موسى سؤالا أكبر من

هذا السؤال ، فقالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ أى عيانًا ، وقد تقدم معناه فى البقرة ، وجهرة : نعت لمصدر محذوف ، أى رؤية جهرة .

وقوله : ﴿ فقد سألوا موسى ﴾ جواب شرط مقدر ، أى إن استكبرت هذا السؤال منهم لك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك . قوله : ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ هى النار التى نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم ، والباء فى قوله : ﴿ بظلمهم ﴾ للسببية ، أى بسبب ظلمهم فى سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عيانا فى هذه الحالة ، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة . ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطا بينا ، ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذى نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات بل ضموا إليه ما هو أقبح منه وهو عبادة العجل . وفى الكلام حذف والتقدير : فأحييناهم فاتخذوا العجل . والبينات : البراهين والدلائل ، والمعجزات من اليد ، والعصا ، وفلق البحر ، وغيرها ﴿ فعفونا عن ذلك ﴾ أى عما كان منهم من التعنت وعبادة العجل ﴿وآتينا موسى سلطانا مبينا ﴾ أى حجة بينة وهى الآيات التى جاء بها، وسميت سلطانا ؛ لأن من جهر بها قهر خصمه ، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم ، فإنه من جملة السلطان الذى قهرهم به ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ (١) . أى بسبب ميثاقهم ليعطوه ؛ لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع الله عليهم الطور فقبلوها . وقيل : إن المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم ، الذى أخذ منهم ، وهو العمل بما فى التوراة وقد تقدم رفع الجبل فى البقرة ، وكذلك تفسير دخولهم الباب سجدًا ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت ﴾ فتأخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان ، وقد تقدم تفسير ذلك وقرئ «لا تعتدوا»، وتعدّوا بفتح العين وتشديد الدال ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ مؤكدا وهو العهد الذى أخذه عليهم فى التوارة . وقيل : إنه عهد مؤكد باليمين ، فسمى غليظًا لذلك .

قوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ ما مزيدة للتوكيد ، أو نكرة ، ونقضهم بدل منها ، والباء متعلقة بمحذوف، والتقدير : فبنقضهم ميثاقهم لعناهم . وقال الكسائى : وهو متعلق بما قبله والمعنى : فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ قال : ففسر ظلمهم الذى أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم ، وقتلهم الأنبياء وما بعده . وأنكر ذلك ابن جرير الطبرى وغيره (٢) ؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء ورمَوْا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان ، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برميهم (٣) بالبهتان . قال المهدوى وغيره: وهذا لا يلزم ؛ لأنه يجوز أن يخبر عنهم ،

---

(١) الطور فى كلام العرب : هو الجبل . اللسان ٤ / ٥٠٨ ، ومنه قول العجاج :

دانى جناحيه من الطور فمر

وقيل : إنه اسم جبل بعينه ، وذكر أنه الجبل الذى ناجى الله عليه موسى ، وقيل : إنه من الجبال ما أنبت دون ما لم ينبت .

(٢) ابن جرير ٦ / ٩ .

(٣) فى المطبوعة : « برمتهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، وابن جرير ٦ / ٩ .

والمراد : آباؤهم، وقال الزجاج : المعنى : فبنقضهم ميثاقهم حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأن هذه القصة ممتدة إلى قوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا ﴾ [النساء : ١٦٠] ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبى ﷺ . وقيل : المعنى : فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم . وقيل : المعنى : فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلا ، والفاء فى قوله : ﴿ **فلا يؤمنون** ﴾ مقحمة .

قوله : ﴿ **وكفرهم بآيات الله** ﴾ معطوف على ما قبله ، وكذا قوله : ﴿ **وقتلهم** ﴾ والمراد بآيات الله : كتبهم التى حرفوها، والمراد بالأنبياء الذين قتلوهم : يحيى وزكرياء . وغلْف : جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف ، أى قلوبنا فى أغطية فلا تفقه ما تقول . وقيل : إن غلْف : جمع غلاف والمعنى : أن قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم، وهو كقولهم: ﴿ قلوبنا فى أكنة﴾ [فصلت : ٥] وغرضهم بهذا ردّ حجة الرسل. قوله: ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم** ﴾ هذه الجملة اعتراضية ، أى ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفًا بحسب مقصدهم الذى يريدونه ؛ بل بحسب الطبع من الله عليها ، والطبع : الختم، وقد تقدم إيضاح معناه فى البقرة ، وقوله : ﴿ **فلا يؤمنون إلا قليلا** ﴾ أى هى مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا ، أو إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم، وقوله : ﴿ **وبكفرهم** ﴾ معطوف على ﴿ **قولهم**﴾ وإعادة الجار لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفراً بعد كفر . وقيل : إن المراد بهذا الكفر: كفرهم بالمسيح ، فحذف لدلالة ما بعده عليه . قوله: ﴿ **وقولهم على مريم بهتانًا عظيما** ﴾ هو رميها بيوسف النجار ، وكان من الصالحين . والبهتان : الكذب المفرط الذى يتعجب منه .

قوله : ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو من جملة جناياتهم وذنوبهم ؛ لأنهم كذبوا بأنهم قتلوه ، وافتخروا بقتله ، وذكروه بالرسالة استهزاء ؛ لأنهم ينكرونها ولا يعترفون بأنه نبى ، وما ادعوه من أنهم قتلوه . قد اشتمل على بيان صفته وإيضاح حقيقته الإنجيل ، وما فيه هو من تحريف النصارى ـ أبعدهم الله ـ فقد كذبوا وصدق الله القائل فى كتابه العزيز : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه** ﴾ والجملة حالية، أى قالوا ذلك والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ﴿ **ولكن شبِّه لهم** ﴾ أى ألقى شبهه على غيره . وقيل : لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذين قتلوه وهم شاكون فيه ﴿ **وإن الذين اختلفوا فيه** ﴾ أى فى شأن عيسى ، فقال بعضهم : قتلناه ، وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه . وقيل : إن الاختلاف بينهم ، هو أن النسطورية [١] من النصارى قالوا : صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وقالت الملكانية [٢] : وقع القتل والصلب على المسيح بكماله ناسوته ولاهوته ، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له ولهذا قال الله : ﴿**وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه** ﴾ أى فى تردد لا يخرج إلى حيز الصحة ، ولا إلى حيز البطلان فى اعتقادهم ؛ بل هم مترددون مرتابون فى شكهم يعمهون ، وفى

(١ ، ٢) سبق الحديث عنهما .

جهلهم يتحيرون ، و ﴿ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ من زائدة لتوكيد نفى العلم ، والاستثناء منقطع ، أى لكنهم يتبعون الظن . وقيل : هو بدل بما قبله . والأول أولى . لا يقال : إن اتباع الظن ينافى الشك الذى أخبر الله عنهم بأنهم فيه ، لأن المراد هنا بالشك : التردد كما قدمنا ، والظن نوع منه ، وليس المراد به هنا : ترجح أحد الجانبين .

قوله : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ أى قتلا يقينا على أنه صفة مصدر محذوف ، أو متيقنين على أنه حال ، وهذا على أن الضمير فى قتلوه لعيسى . وقيل : إنه يعود إلى الظن ، والمعنى : ما قتلوا ظنهم يقينا كقولك قتلته علمًا إذا علمته علمًا تامًا . قال أبو عبيدة : ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقينًا لقال وما قتلوه فقط . وقيل : المعنى : وما قتلوا الذى شبه لهم . وقيل: المعنى : بل رفعه الله إليه يقينا ، وهو خطأ ؛ لأنه لا يعمل لا بعد بل فيما قبلها . وأجاز ابن الأنبارى نصب يقينًا بفعل مضمر هو جواب قسم ، ويكون ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ كلاما مستأنفا ولا وجه لهذه الأقوال ، والضمائر قبل قتلوه وبعده لعيسى ، وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم فى الجملة .

قوله : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ ردٌّ عليهم وإثبات لما هو الصحيح ، وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام فى آل عمران. قوله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، والمعنى : وما من أهل الكتاب أحد إلا ــ والله ــ ليؤمنن به قبل موته ، والضمير فى به راجع إلى عيسى ، والضمير فى موته راجع إلى ما دل عليه الكلام ، وهو لفظ أحد المقدر أو الكتابى المدلول عليه بأهل الكتاب وفيه دليل على أنه لا يموت يهودى أو نصرانى إلا وقد آمن بالمسيح ، وقيل : كلا الضميرين لعيسى ، والمعنى : أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابى فى عصره . وقيل: الضمير الأول لله . وقيل : إلى محمد ، وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابنُ جرير ، وقال به جماعة من السلف وهو الظاهر، والمراد : الإيمان به عند نزوله فى آخر الزمان كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة ﴿ ويوم القيامة يكون ﴾ عيسى على أهل الكتاب ﴿ شهيدا ﴾ يشهد على اليهود بالتكذيب له ، وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا هو ابن الله .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك؛ فأنزل الله : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء ﴾ إلى قوله : ﴿ وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾ (١) .وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: إن اليهود والنصارى قالوا لمحمد ﷺ : لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله ، وإلى فلان أنك رسول الله ، فأنزل الله : ﴿ يسألك أهل الكتاب ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أرنا الله

---

(١) ابن جرير ٦ / ٦ .
(٢) المرجع السابق ٦ / ٦ ، ٧ .

جهرة﴾ قال : إنهم إذا رأوه فقد رأوه ، وإنما قالوا جهرة أرنا الله قال : هو مقدم ومؤخر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ورفعنا فوقهم الطور** ﴾ قال : جبل كانوا فى أصله فرفعه الله فجعله فوقهم كأنه ظلة ، فقال : لتأخذُنَّ أمرى أو لأرمينكم به ، فقالوا : نأخذه فأمسكه الله عنهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾ قال : رموها بالزنا . وأخرج سعيد بن منصور والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين ، فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : اجلس ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من رَوْزَنَةٍ [(١)] فى البيت إلى السماء ؛ قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، فهؤلاء اليعقوبية ؛ وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدا فأنزل الله عليه : ﴿ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ﴾ يعنى: الطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ﴿ وكفرت طائفة ﴾ يعنى : التى كفرت فى زمن عيسى ﴿فأيدنا الذين آمنوا ﴾ [الصف: ١٤] فى زمن عيسى بإظهار محمد دينهم على دين الكافرين[(٢)]. قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عن ابن أبى حاتم قال : حدثنا أحمد بن سنان ،حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس [(٣)] . وصدق ابن كثير ، فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح . وأخرجه النسائى من حديث أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه [(٤)] . وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بألفاظ مختلفة، وساقها عبد بن حميد وابن جرير عن وهب بن منبه على صفة قريبة مما فى الإنجيل ، وكذلك ساقها ابن المنذر عنه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما قتلوه يقينًا** ﴾ قال : لم يقتلوا ظنهم يقينًا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن جويبر [(٥)] ، والسدى مثله أيضا . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن**

---

(١) رَوْزَنَة : خرق فى السقف . (٢) النسائى فى التفسير (٦١١) .
(٣) ابن كثير ٢ / ٤٣٠ . (٤) سبق تخريجه .
(٥) فى المطبوعة : « ابن جويبر» والصواب ما أثبتناه من المخطوطة وابن جرير ٦ / ١٣ .

من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ قال : خروج عيسى ابن مريم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عنه فى الآية قال : قبل موت عيسى . وأخرجا عنه أيضا قال : قبل موت اليهودى . وأخرج ابن جرير عنه قال : إنه سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عنه قال : ليس يهودى يموت أبدًا حتى يؤمن بعيسى . قيل لابن عباس : أرأيت إن خر من فوق بيت ؟ قال : يتكلم به فى الهواء ، فقيل : أرأيت إن ضرب عنق أحدهم ؟ قال: يتلجلج بها لسانه (١) . وقد روى نحو هذا عنه من طرق، وقال به جماعة من التابعين ، وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلا أن المراد : قبل موت عيسى كما روى عن ابن عباس قبل هذا ، وقيده كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض . وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك فى مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد فى المنتظر والدجال والمسيح .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦١) لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) ﴾ .

الباء فى قوله : ﴿ **فبظلم** ﴾ للسببية ، والتنكير والتنوين للتعظيم ، أى فبسبب ظلم عظيم حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، لا بسبب شىء آخر كما زعموا أنها كانت محرمة على من قبلهم . وقال الزجاج : هذا بدل من قوله : ﴿ **فبما نقضهم** ﴾ والطيبات المذكورة هى مانصه الله سبحانه :﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر﴾ الآية [الأنعام : ١٤٦] ﴿ **وبصدهم** ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ وهو اتباع محمد ﷺ وتحريفهم وقتلهم الأنبياء ، وما صدر منهم من الذنوب المعروفة . وقوله : ﴿ **كثيراً** ﴾ مفعول للفعل المذكور ، أى بصدهم ناسا كثيرا، أو صفة مصدر محذوف ، أى صدا كثيرا ﴿ **وأخذهم الربا وقد نهوا عنه** ﴾ أى معاملتهم

---

(١) ابن جرير ٦ / ١٥ .

فيما بينهم بالربا ، وأكلهم له وهو محرم عليهم ﴿ **وأكلهم أموال الناس بالباطل** ﴾ كالرشوة والسحت الذى كانوا يأخذونه .

قوله : ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم** ﴾ استدراك من قوله : ﴿ **وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما** ﴾ أو ﴿ **من الذين هادوا** ﴾ وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا : إن هذه الأشياء كانت حراما فى الأصل وأنت تحلها ، فنزل : ﴿ **لكن الراسخون** ﴾ والراسخ : هو المبالغ فى علم الكتاب الثابت فيه ، والرسوخ : الثبوت وقد تقدم الكلام عليه فى آل عمران . والمراد : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ونحوهما . والراسخون مبتدأ ، ويؤمنون خبره ، والمؤمنون معطوف على الراسخون . والمراد بالمؤمنين : إما من آمن من أهل الكتاب ، أو من المهاجرين والأنصار ، أو من الجميع . قوله : ﴿ **والمقيمين الصلاة** ﴾ قرأ الحسن ومالك بن دينار وجماعة: « والمقيمون الصلاة » على العطف على ما قبله ، وكذا هو فى مصحف ابن مسعود ، واختلف فى وجه نصبه على قراءة الجمهور على أقوال : الأول : قول سيبويه أنه نصب على المدح ، أى وأعنى المقيمين . قال سيبويه : هذا باب ما ينتصب على التعظيم ، ومن ذلك ﴿ **والمقيمين الصلاة** ﴾ وأنشد :

وَكُل قَوْمٍ أطَاعُوا أَمْر سَيِّدهمْ ... إلاَّ نميرًا أَطَاعَتْ أَمْـرَ غَاوِيهـــا

الظَّـاعِنِينَ وَلَمَّا يُظْعِنُـوا أحـدًا ... والقائِلون لِمَنْ دارٌ نُخَلِّيهـا (١)

وأنشد :

لا يبْعدَنْ قَوْمِـى الَّذيـن هـُـمُ ... سُـمُّ العُـداةِ وَآفَـةُ الجُـزرِ

النَّـــازِلِـين بِكُـلِّ مُعْتَـرَكٍ ... والطيِّبُـونَ معَـاقِدَ الأُزْرِ (٢)

قال النحاس : وهذا أصح ما قيل فى المقيمين . وقال الكسائى والخليل : هو معطوف على قوله : ﴿ **بما أنزل إليك** ﴾ قال الأخفش : وهذا بعيد لأن المعنى يكون هكذا : ويؤمنون بالمقيمين . ووجهه محمد بن يزيد المبرد بأن المقيمين هنا : هم الملائكة ، فيكون المعنى : يؤمنون بما أنزل إليك وبما أنزل من قبلك وبالملائكة ، واختار هذا . وحكى أن النصب على المدح بعيد ؛ لأن المدح إنما يأتى بعد تمام الخبر ، وخبر الراسخون هو قوله : ﴿ **أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما** ﴾ وقيل : إن المقيمين معطوف على الضمير فى قوله : ﴿ **منهم** ﴾ وفيه

---

(١) البيتان لابن خياط ، والظاعنين ولما يظعنوا أحدًا : أن يخافوا من عدوهم لقلتهم وذلهم فيظعنون ، ولا يخاف منهم عدوهم فيظعن عن دارهم خوفا منهم ، وقوله : لمن دار نخليها ، أى إذا ظعنوا عن دار لم يعرفوا من يحللها بعدهم لخوفهم من جميع القبائل .

(٢) البيتان لخرنق بنت عفان من بنى قيس ، وصفت قومها بالظهور على العدو ، ونحر الجزر للأضياف ، والملازمة للحرب ، والعفة عن الفواحش . انظر : القرطبى ٣ / ٢٠١٠ .

أنه عطف على مضمر بدون إعادة الخافض وحكى عن عائشة أنها سئلت عن المقيمين فى هذه الآية وعن قوله تعالى : ﴿ إن هذان لساحران﴾ [طه : ٦٣] وعن قوله : ﴿ والصابئون ﴾ فى المائدة [الآية : ٦٩] فقالت : يابن أخى الكتاب أخطؤوا . أخرجه عنها أبو عبيد فى فضائله وسعيد ابن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر . وقال أبان بن عثمان : كان الكاتب يملى عليه فيكتب فكتب ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون ﴾ ثم قال : ما أكتب ؟ فقيل له: اكتب ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ فمن ثم وقع هذا . أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر قال القشيرى : وهذا باطل لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة فى اللغة فلا يظن[(١)] بهم ذلك . ويجاب عن القشيرى بأنه قد روى عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من المصحف وأتى به إليه قال : أرى فيه شيئًا من لحن ستقيمه العرب بألسنها . أخرجه عنه ابن أبى داود من طرق. وقد رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير ورجح قول الخليل والكسائى ابن جرير والطبرى والقفال ، وعلى قول سيبويه تكون الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر على قول من قال : إن خبر ﴿ الراسخون ﴾ هو قوله : ﴿ أولئك سنؤتيهم ﴾ أو بين المعطوف والمعطوف عليه إن جعلنا خبر الراسخون هو يؤمنون ، وجعلنا قوله : ﴿ والمؤتون الزكاة ﴾ عطفا على ﴿المؤمنون ﴾ لا على قول سيبويه أن المؤتون الزكاة مرفوع على الابتداء ، أو على تقدير مبتدأ محذوف ، أى هم المؤتون الزكاة . قوله : ﴿ والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب وصفوا أولا بالرسوخ فى العلم ، ثم بالإيمان بكتب الله ، وأنهم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر. وقيل : المراد بهم : المؤمنون من المهاجرين والأنصار كما سلف ، وأنهم جامعون بين هذه الأوصاف ، والإشارة بقوله: ﴿ أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيما ﴾ إلى ﴿الراسخون ﴾ وما عطف عليه .

قوله : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿يسألك أهل الكتاب ﴾ والمعنى : أن أمر محمد ﷺ كأمر مَن تقدمه مِن الأنبياء فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل ، والوحى إعلام فى خفاء ، يقال : وحى إليه بالكلام وحيا ، وأوحى يوحى إيحاء ، وخص نوحا لكونه أول نبى شرعت على لسانه الشرائع ، وقيل : غير ذلك ، والكاف فى قوله : ﴿ كما ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى إيحاء مثل إيحائنا إلى نوح ، أو حال ، أى أوحينا إليك هذا الإيحاء حال كونه مشبها بإيحائنا إلى نوح . قوله : ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم ﴾ معطوف على ﴿ أوحينا إلى نوح ﴾ ﴿ وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ وهم أولاد يعقوب كما تقدم ﴿ وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ﴾ خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم فى لفظ النبيين تشريفا لهم كقوله : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل ﴾ [البقرة : ٩٨] وقدم عيسى على أيوب ومن بعده مع كونهم فى زمان قبل زمانه ، ردا على اليهود الذين كفروا به ، وأيضا فالواو ليست إلا لمطلق الجمع .

(١) فى المطبوعة : « فلا يضن » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة والقرطبى ٣ / ٢٠١١ .

قوله : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ معطوف على ﴿ أوحينا ﴾ والزبور : كتاب داود . قال القرطبى : وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام ، وإنما هى حكم ومواعظ. انتهى .(١) قلت : هو مائة وخمسون مزموراً . والمزمور: فصل يشتمل على كلام لداود يستغيث بالله من خصومه ، ويدعو الله عليهم ويستنصره ، وتارة يأتى بمواعظ ، وكان يقول ذلك فى الغالب فى الكنيسة ، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئا من الآلات التى لها نغمات حسية ، كما هو مصرح بذلك فى كثير من تلك المزمورات . والزَّبْر الكتابة. والزبور بمعنى : المزبور أى لقوة المكتوب كالرسول والحلوب والركوب. وقرأ حمزة : « زُبورا » بضم الزاى ، جمع زبر كفلس وفلوس . والزبر بمعنى المزبور ، والأصل فى الكلمة : التوثيق ، يقال : بئر مزبورة ، أى مطوية بالحجارة ، والكتاب سمى زبورا لقوة الوثيقة به (٢) . قوله : ﴿ ورسلا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ أوحينا﴾ أى وأرسلنا رسلا ﴿ قد قصصناهم عليك من قبل﴾ وقيل : هو منصوب بفعل دل عليه ﴿قصصناهم ﴾ أى وقصصنا رسلاً ، ومثله ما أنشده سيبويه :

أصبحتُ لاَ أحملُ السِّلاحَ وَلاَ أَمْـلِـكُ رأسَ البعيـرِ إنْ نَفَـــرا
والذِّئبَ أَخْشَاه إنْ مررتُ بـِه وَحْدِى وَأَخْشَى الرِّيَاحَ والْمطَرا (٣)

أى وأخشى الذئب . وقرأ أبىّ : « رسل » بالرفع على تقدير : ومنهم رسل ، ومعنى ﴿ من قبل ﴾ أنه قصه عليه من قبل هذه السورة أو من قبل هذا اليوم . قيل : إنه لما قص الله فى كتابه بعض أسماء أنبيائه ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود: ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى ، فنزل : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذى كلم موسى . وقرأ النخعى ويحيى بن وثَّاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذى كلم الله سبحانه و ﴿ تكليمًا ﴾ مصدر مؤكد . وفائدة التأكيد دفع توهم كون التكليم مجازا ، كما قال الفراء إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق . وقيل: ما لم يؤكد بالمصدر ، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام . قال النحاس : وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا .

قوله : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ بدلا من رسلا الأول ، أو منصوب بفعل مقدر أى وأرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده ، أو على المدح ، أى مبشرين لأهل الطاعات ، ومنذرين لأهل المعاصى . قوله : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ أى معذرة يعتذرون بها كما فى قوله تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ﴾ [طه : ١٣٤] وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن

(١) القرطبى ٣ / ٢٠١٣ . (٢) المصدر السابق .
(٣) البيتان للربيع بن ضبع الفزارىّ ، وهو أحد المعمرين ، وصف فيهما انتهاء شبيبته وذهاب قوته .

لأحد من العباد على الله حجة تنبيه على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة ، ومعنى قوله : ﴿ **بعد الرسل** ﴾ بعد إرسال الرسل ﴿ **وكان الله عزيزا** ﴾ لا يغالبه مغالب ﴿ **حكيما** ﴾ فى أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **وبصدهم عن سبيل الله كثيرا** ﴾ قال : أنفسهم وغيرهم عن الحق . وأخرج ابن إسحاق [والبيهقى] [١] فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم** ﴾ قال : نزلت فى عبد الله بن سلام وأسيد بن سعية [٢] وثعلبة بن سعية حين فارقوا اليهود وأسلموا [٣] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عنه ؛ أن بعض اليهود قال: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشر من شىء بعد موسى ، فأنزل الله : ﴿ **إنا أوحينا إليك** ﴾ الآية [٤] . وأخرج عبد بن حميد ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وابن عساكر عن أبى ذرّ ؛ قال : قلت : يارسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : «مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفا » قلت : كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» [٥] . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة مرفوعًا إلا أنه قال : « والرسل ثلاثمائة وخمسة عشر » [٦] . وأخرج أبو يعلى ، والحاكم بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخوانى من الأنبياء ثمانية آلاف نبى ، ثم كان عيسى ، ثم كنت أنا بعده» [٧] . وأخرج الحاكم عن أنس بسند ضعيف نحوه [٨] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من المخطوطة والصواب إثباتها .

(٢) فى المطبوعة : « شعية » ، والصواب ما أثبتناه وهو الموافق لما عند ابن إسحاق والبيهقى . وفى المخطوطة : «سعنة » وهو صحيح أيضا ، وسعلة ولم يرد .

(٣) ابن إسحاق فى السيرة النبوية ٢ / ١٩٨ ، ١٩٩ والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٥٣٣ ، ٥٣٤ لكن مع اختلاف الآية الواردة بهذا الشأن .

(٤) ابن إسحاق فى السيرة ٢ / ٢٠٤ وابن جرير ٦ / ٢٠ والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٥٣٥ .

(٥) صححه ابن حبان فى جزء من حديث طويل فى البر والإحسان (٣٦٢) وقال الهيثمى فى الموارد (٩٤) بعد أن ساقه : « فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى » ، قال أبو حاتم وغيره : « كذاب » ، والحاكم من طريق أخرى ٢ / ٥٩٧ وسكت عنه ، وقال الذهبى « السعدى ليس بثقة » ، وابن عساكر فى ترجمة شيث عليه السلام ٦ / ٣٥٦ وأورد ابن كثير (٢/ ٤٥٠ ، ٤٥١) رواية ابن مردويه ثم قال : « وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى فى كتابه الأنواع والتقاسيم ، وقد وسمه بالصحة » وخالفه أبو الفرج بن الجوزى فذكر هذا الحديث فى كتابه الموضوعات ، واتهم به إبراهيم بن هشام ، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث.

(٦) أورد رواية ابن أبى حاتم الإمام ابن كثير ٢ / ٤٥١ وضعّفها .

(٧) أبو يعلى (٤٠٩٢) بإسناد ضعيف جدًا والحاكم ٢ / ٥٩٨ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « سنده واه » ، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٤٥٦) وعزاه إلى أبى يعلى وقال البوصيرى : « مداره على يزيد بنّ أبان الرقاشى وهو ضعيف » .

(٨) سكت عنه الحاكم ٢ / ٥٩٧ وقال الذهبى : « فيه إبراهيم ويزيد وهما واهيان » .

الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[(١)] .

﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) ﴾.

قوله : ﴿ **لكن الله يشهد** ﴾ الاسم الشريف مبتدأ والفعل خبره ، ومع تشديد النون وهو منصوب على أنه اسم لكن ، والاستدراك من محذوف مقدر كأنهم قالوا : ما نشهد لك يا محمد بهذا ، أى الوحى والنبوة فنزل : ﴿ **لكن الله يشهد** ﴾. وقوله : ﴿ **والملائكة يشهدون**﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى ، أو جملة حالية ، وكذلك قوله : ﴿ **أنزله بعلمه**﴾ جملة حالية ، أى متلبسًا بعلمه الذى لا يعلمه غيره ، من كونك أهلا لما اصطفاك الله من النبوة وأنزله عليك من القرآن ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ أى كفى الله شاهدا ، والباء زائدة ، وشهادة الله سبحانه هى ما يصنعه من المعجزات الدالة على صحة النبوة ، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبى ﷺ بصدق ما أخبر به من هذا وغيره .

﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ بكل ما يجب الإيمان به أو بهذا الأمر الخاص ، وهو ما فى هذا المقام ﴿ **وصدوا عن سبيل الله**﴾ وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد ﷺ ، وبقولهم : ما نجد صفته فى كتابنا وإنما النبوة فى ولد هارون وداود ، وبقولهم : إن شرع موسى لا ينسخ ﴿ **قد ضلوا ضلالا بعيدا** ﴾ عن الحق بما فعلوا ؛ لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق ﴿**إن الذين كفروا** ﴾ بجحدهم ﴿ **وظلموا** ﴾ غيرهم بصدهم عن السبيل ، أو ظلموا محمدا بكتمانهم نبوته ، أو ظلموا أنفسهم بكفرهم ، ويجوز الحمل على هذه المعانى ﴿ **لم يكن الله ليغفر لهم**﴾ إذا استمروا على كفرهم وماتوا كافرين ﴿**ولا ليهديهم طريقًا إلا طريق جهنم** ﴾ لكونهم اقترفوا ما

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٠٣ ، ٧٤١٦) وفى النكاح (٥٢٢٠) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٠ / ٣٢ ـ ٣٥) والترمذى فى الدعوات (٣٥٣٠) وقال : « حسن غريب صحيح » .

يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم ، وفرط شقائهم ، وجحدوا الواضح ، وعاندوا البيِّن ﴿**خالدين فيها أبدا**﴾ أى يدخلهم جهنم خالدين فيها ، وهى حال مقدرة . وقوله : ﴿ **أبدا** ﴾ منصوب على الظرفية ، وهو لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل ﴿ **وكان ذلك** ﴾ أى تخليدهم فى جهنم ، أو ترك المغفرة لهم ، والهداية مع الخلود فى جهنم ﴿ **على الله يسيرا**﴾ ؛ لأنه سبحانه لا يصعب عليه شىء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾ [يس : ٨٣] .

﴿ **فآمنوا خيرا لكم** ﴾ اختلف أئمة النحو فى انتصاب ﴿ **خيرا** ﴾ على ماذا ؟ فقال سيبويه والخليل: بفعل مقدر ، أى واقصدوا أو أتوا خيرا لكم ، وقال الفراء : هو نعت لمصدر محذوف، أى فآمنوا إيمانا خيرا لكم ، وذهب أبو عبيدة والكسائى إلى أنه خبر لكان مقدرة أى فآمنوا يكن الإيمان خيرًا لكم ، وأقوى هذه الأقوال الثالث ، ثم الأول، ثم الثانى على ضعف فيه ﴿ **وإن تكفروا** ﴾ أى وإن تستمروا على كفركم ﴿ **فإن لله ما فى السموات والأرض** ﴾ من مخلوقاته ، وأنتم من جملتهم ، ومن كان خالقا لكم ولها ، فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم ، ففى هذه الجملة وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان وإماطة الستر عن الدليل ، بما يوجب عليهم القبول والإذعان ؛ لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [الزخرف: ٨٧] قوله : ﴿ **يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم** ﴾ الغلو : هو التجاوز فى الحد ومنه غلا السعر يغلو غلاء ، وغلا الرجل فى الأمر غلوا ، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها . والمراد بالآية : النهى لهم عن الإفراط تارة ، والتفريط أخرى ، فمن الإفراط غلو النصارى فى عيسى حتى جعلوه ربا ، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رِشْدَة [١] وما أحسن قول الشاعر :

ولا تَغْلُ فى شَىءٍ من الأمر واقتصد   كِلاَ طرفَى قَصْدِ الأمور ذَمِيمُ

﴿ **ولا تقولوا على الله إلا الحق** ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله ، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾ المسيح مبتدأ وعيسى بدل منه ، وابن مريم صفة لعيسى ، ورسول الله الخبر، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان والجملة تعليل للنهى ، وقد تقدم الكلام على المسيح فى آل عمران . قوله : ﴿ **وكلمته** ﴾ عطف على رسول الله ، و﴿ **ألقاها إلى مريم** ﴾ حال ، أى كوّنه بقوله : كن فكان بشرًا من غير أب . وقيل : ﴿ **كلمته** ﴾ بشارة الله مريم ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ [آل عمران : ٤٥] . وقيل : الكلمة هـا هنـا بمعنـى الآيـة ، ومنـه ﴿وصدقت بكلمات ربها ﴾ [التحريم: ١٢] ، وقـولـه : ﴿ مـا نفـدت كلمـات اللـه ﴾ [لقمـان : ٢٧] .

(١) يعنى جعلوه ولد زِنية ، يقال : ولد رِشدة : إذا كان من نكاح صحيح ، ويقال : ولد لغير رشدة إذا كان ولد زنا ، ورِشدة : بكسر الراء ، وهو جائز بالفتح أيضا .

قوله : ﴿ وروح منه ﴾ أى أرسل جبريل فنفخ فى درع مريم ، فحملت بإذن الله ، وهذه الإضافة للتفضيل ، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى . وقيل : قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحًا ويضاف إلى الله فيقال : هذا روح من الله ، أى من خلقه ، كما يقال فى النعمة : إنها من الله ، وقيل : ﴿ روح منه ﴾ أى من خلقه كما قال تعالى : ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ [الجاثية : ١٣] أى من خلقه . وقيل : ﴿ روح منه ﴾ أى رحمة منه ، وقيل : ﴿ روح منه ﴾ أى برهان منه ، وكان عيسى برهانًا وحجة على قومه . وقوله : ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لروح ، أى كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الآمر لجبريل بالنفخ ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أى بأنه سبحانه إله واحد ﴿ لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص : ٢ ـ ٤] وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه ، ولا تكذبوهم ولا تغلوا فيهم ، فتجعلوا بعضهم آلهة .

قوله : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدأ محذوف قال الزجاج : أى لا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، وقال الفراء وأبو عبيد : أى لا تقولوا هم ثلاثة كقوله : ﴿ سيقولون ثلاثة﴾ [الكهف : ٢٢] وقال أبو على الفارسى : لا تقولوا : هو ثالث ثلاثة ، فحذف المبتدأ والمضاف ، والنصارى مع تفريق مذاهبهم متفقون على التثليث ، ويعنون بالثلاثة : الثلاثة الأقانيم ، فيجعلونه سبحانه جوهرًا واحدًا وله ثلاثة أقانيم ، ويعنون بالأقانيم أقنوم الوجود ، وأقنوم الحياة ، وأقنوم العلم ، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب ، والابن ، وروح القدس ، فيعنون بالأب : الوجود ، وبالروح : الحياة ، وبالابن : المسيح . وقيل : المراد بالآلهة الثلاثة : الله سبحانه وتعالى ، ومريم، والمسيح ، وقد اختبط النصارى فى ذلك اختباطا طويلا. ووقفنا فى الأناجيل الأربعة التى يطلق عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير فى عيسى : فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان ، وتارة يوصف بأنه ابن الله ، وتارة يوصف بأنه ابن الرب ، وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين . والحق ما أخبرنا الله به فى القرآن ، وما خالفه فى التوراة ، أو الإنجيل ، أو الزبور، فهو من تحريف المحرفين ، وتلاعب المتلاعبين . ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام .

وحاصل ما فيها جميعًا أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، وذكر ما جرى له من المعجزات ، والمراجعات لليهود ونحوهم ، فاختلفت ألفاظهم ، واتفقت معانيها ، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والضبط ، وذكر ما قاله عيسى وما قيل له وليس فيها من كلام الله سبحانه شىء ، ولا أنزل على عيسى من عنده كتابا ، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما فى التوراة ، ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها ، وهكذا الزبور فإنه من أوله إلى آخره من كلام داود عليه السلام ، وكلام

الله أصدق وكتابه أحق ، وقد أخبرنا أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وأن الزبور كتابه آتاه داود وأنزله عليه . قوله : ﴿ **انتهوا خيرا لكم** ﴾ أى انتهوا عن التثليث ، وانتصاب ﴿ **خيرا** ﴾ هنا فيه الوجوه الثلاثة التى تقدمت فى قوله : ﴿ **فآمنوا خيراً لكم** ﴾ ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾ لا شريك له ولا صاحبة ولا ولداً [(١)] ﴿**سبحانه أن يكون له ولد**﴾ أى أسبحه تسبيحًا عن أن يكون له ولد ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ وما جعلتموه له شريكًا أو ولدًا هو من جملة ذلك ، والمملوك المخلوق لا يكون شريكًا ولا ولدا ﴿**وكفى بالله وكيلا** ﴾ فكل الخلق أمورهم إليه ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعا .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على رسول الله ﷺ فقال لهم : « إنى والله أعلم أنكم تعلمون أنى رسول الله » ، قالوا : ما نعلم ذلك . فأنزل الله : ﴿ **لكن الله يشهد** ﴾ الآية [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى موسى ؛ أن النجاشى قال لجعفر : ما يقول صاحبك فى ابن مريم ؟ قال : يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته ، أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر ، فتناول عودا من الأرض فرفعه فقال : يامعشر القسيسين والرهبان ، ما يزيد هؤلاء على ما تقولون فى ابن مريم ما يزن هذه [(٣)] . وأخرجه البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود بأطول من هذا [(٤)] . وأخرج البخارى عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » [(٥)] .

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾ .

أصل يستنكف : نكف وباقى الحروف زائدة ، يقال : نكفت من الشىء واستنكفت منه

---

(١) فى المطبوعة : « صاحبة ولا ولد » والصواب ما أثبتناه كما بالمخطوطة .

(٢) ابن إسحاق ٢ / ٢٠٤ وابن جرير ٦ / ٢٢ والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٥٣٥ .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٣٠٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٣٠٠ وقال : «إسناده صحيح » .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٩٨ .

(٥) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) .

وأنكفته ، أى نزهته عما يستنكف منه . قال الزجاج : استنكف ، أى أنف ، مأخوذ من نكفت الدمع : إذا نحيته بأصبعك عن خديك . وقيل : هو من النكف وهو العيب ، يقال : ما عليه فى هذا الأمر نكف ولا وكف أى عيب . ومعنى الأول : لن يأنف عن العبودية ، ولن يتنزه عنها ، ومعنى الثانى : لن يعيب العبودية ولن ينقطع عنها ﴿ **ولا الملائكة المقربون** ﴾ عطف على المسيح ، أى ولن يستنكف الملائكة المقربون عن أن يكونوا عبادًا لله .

وقد استدل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء ، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وادعى أن الذوق قاصد بذلك ، ونعم الذوق العربى إذا خالطه محبة المذهب وشابه شوائب الجمود كان هكذا ، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لا يأنف من هذه المقالة إمام ولا مأموم ، أو لا كبير ولا صغير، أو لا جليل ولا حقير، لم[1] يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأنا من المعطوف عليه ، وعلى كل حال فما أرْدَأ الاشتغال بهذه المسألة ، وما أقل فائدتها وما أبعدها عن أن تكون مركزًا من المراكز الشرعية الدينية ، وجسرًا من الجسور﴿ **ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر** ﴾ أى يأنف تكبرا ويعد نفسه كبيرًا عن العبادة ﴿ **فسيحشرهم إليه جميعا** ﴾ المستنكف وغيره ، فيجازى كلا بعمله . وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه ، ولكون الحشر لكلا الطائفتين ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم** ﴾ من غير أن يفوتهم منها شيء ﴿**وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما** ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليًا** ﴾ يواليهم ﴿ **ولا نصيرا** ﴾ ينصرهم .

قوله : ﴿ **يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم** ﴾ بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله ، وما نصبه لهم من المعجزات . والبرهان : ما يبرهن به على المطلوب ﴿**وأنزلنا إليكم نورًا مبينا** ﴾ وهو القرآن ، وسماه نورًا ؛ لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿ **فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به** ﴾ أى بالله . وقيل : بالنور المذكور ﴿ **فسيدخلهم فى رحمة منه**﴾ يرحمهم بها ﴿ **وفضل** ﴾ يتفضل به عليهم ﴿ **ويهديهم إليه** ﴾ أى إلى امتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، أو إليه سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه وتفضله ﴿ **صراطًا مستقيما** ﴾ أى طريقًا يسلكونه إليه مستقيما لا عوج فيه ، وهو التمسك بدين الإسلام ، وترك غيره من الأديان ، قال أبو على الفارسى : الهاء فى قوله : ﴿**إليه**﴾ راجعة إلى ما تقدم من اسم الله . وقيل : راجعة إلى القرآن . وقيل : إلى الفضل . وقيل : إلى الرحمة والفضل ؛ لأنهما بمعنى الثواب وانتصاب ﴿ **صراطا** ﴾ على أنه مفعول ثان للفعل المذكور . وقيل : على الحال . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ﴿ **لن يستنكف المسيح** ﴾ : لن يستكبر. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية، والإسماعيلى فى معجمه بسند ضعيف عن ابن مسعود ؛ قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿ **فيوفيهم**

---

(١) فى المطبوعة : « ثم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة وبه يستقيم المعنى .

أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ قال : « ﴿ **أجورهم** ﴾ يدخلهم الجنة ﴿ **ويزيدهم من فضله**﴾: الشفاعة فيمن وجبت له النار ، ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا» (١) وقد ساقه ابن كثير في تفسيره فقال : وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود فذكره وقال : هذا إسناد لا يثبت ، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفا فهو جيد (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ **قد جاءكم برهان** ﴾ أي بينة ﴿**وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ قال : هذا القرآن . وأخرجا أيضا عن مجاهد قال : برهان : حجة . وأخرجا أيضا عن ابن جريج في قوله : ﴿ **واعتصموا به** ﴾ قال : القرآن .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾ .

قد تقدم الكلام في الكلالة في أول هذه السورة ، وسيأتي ذكر المستفتي المقصود بقوله : ﴿**يستفتونك** ﴾ قوله : ﴿**إن امرؤ هلك** ﴾ أي إن هلك امرؤ هلك كما تقدم في قوله : ﴿وإن امرأة خافت ﴾ [النساء : ١٢٨] . وقوله : ﴿**ليس له ولد** ﴾ إما صفة لـ ﴿ **امرؤ** ﴾ أو حال ولا وجه للمنع من كونه حالا ، والولد يطلق على الذكر والأنثى ، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الوالد معتبر في الكلالة اتكالا على ظهور ذلك . وقيل : والمراد بالولد هنا : الابن ، وهو أحد معنى المشترك ؛ لأن البنت لا تسقط الأخت وقوله : ﴿ **وله أخت** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **ليس له ولد** ﴾ والمراد بالأخت هنا : هي الأخت لأبوين أو لأب لا لأم ، فإن فرضها السدس كما ذكرنا سابقا . وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن الأخوات لأبوين أو لأب عصبة للبنات وإن لم يكن معهم أخ . وذهب ابن عباس إلى أن الأخوات لا يعصبن البنات ، وإليه ذهب داود الظاهري وطائفة ، وقالوا : إنه لا ميراث للأخت لأبوين أو لأب مع البنت ، واحتجوا بظاهر هذه الآية ، فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر والأنثى قيدًا في ميراث الأخت ، وهذا استدلال صحيح لو لم يرد في السنة ما يدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت وهو ما ثبت في الصحيح أن معاذا قضى على عهد رسول الله ﷺ في بنت وأخت فجعل للبنت النصف وللأخت النصف (٣) . وثبت في الصحيح أيضا

---

(١) الطبراني (١٠٤٦٢) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ١٦ : « فيه إسماعيل بن عبد الله الكندي ضعفه الذهبي من عند نفسه فقال : أتى بخبر منكر ، وبقية رجاله ثقات » وأبو نعيم في الحلية ٧ / ١٢٨ وقال : « غريب من حديث الثوري تفرد به ابن حميد » .

(٢) ابن كثير ٢ / ٤٦٢ .

(٣) البخاري في الفرائض (٦٧٣٤ ، ٦٧٤١) عن الأسود بن يزيد .

أن النبي ﷺ قضى في بنت وبنت ابن وأخت فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقي [١] ، فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت .

قوله : ﴿ **وهو يرثها** ﴾ أي المرء يرثها ، أي يرث الأخت ﴿ **إن لم يكن لها ولد** ﴾ ذكر إن كان المراد بإرثه لها حيازته لجميع ما تركته ، وإن كان المراد ثبوت ميراثه لها في الجملة أعم من أن يكون كلا أو بعضا صح تفسير الولد بما يتناول الذكر والأنثى ، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ كما يسقطه الولد الذكر ؛ لأن المراد: بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا . وأما سقوطه مع الأب فقد تبين بالسنة كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر » [٢] . والأب أولى من الأخ ﴿ **فإن كانتا اثنتين** ﴾ أي فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين ، والعطف على الشرطية السابقة والتأنيث والتثنية ، وكذلك الجمع في قوله : ﴿ **وإن كانوا إخوة** ﴾ باعتبار الخبر ﴿ **فلهما الثلثان مما ترك** ﴾ المرء إن لم يكن له ولد كما سلف ، وما فوق الاثنتين من الأخوات يكون لهن الثلثان بالأولى ﴿ **وإن كانوا** ﴾ أي من يرث بالأخوة ﴿ **إخوة رجالا ونساء** ﴾ أي مختلطين ذكورا وإناثا ﴿ **فللذكر** ﴾ منهم ﴿ **مثل حظ الأنثيين** ﴾ تعصيبا ﴿ **يبين الله لكم أن تضلوا** ﴾ أي يبين لكم حكم الكلالة، وسائر الأحكام كراهة أن تضلوا، هكذا حكاه القرطبي عن البصريين [٣]. وقال الكسائي: المعنى لئلا تضلوا، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين ﴿ **والله بكل شيء** ﴾ من الأشياء التي هذه الأحكام المذكورة منها ﴿ **عليم** ﴾ أي كثير العلم .

وقد أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال : دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل . فتوضأ ثم صب عليّ فعقلت ، فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض [٤] . وأخرجه عنه ابن سعد وابن أبي حاتم بلفظ

---

(١) المرجع السابق (٦٧٣٦ ، ٦٧٤٢) عن ابن مسعود .

(٢) المرجع السابق (٦٧٣٢ ، ٦٧٣٥) ومسلم في الفرائض (١٦١٥ / ٢ ، ٣) عن ابن عباس .

(٣) القرطبي في التفسير ٣ / ٢٠٢٥ .

(٤) أحمد ٣ / ٣٠٧ والبخاري في الوضوء (١٩٤) وفي التفسير (٤٥٧٧) وفي المرضى (٥٦٥١ ، ٥٦٦٤ ، ٥٦٧٦) وفي الفرائض (٦٧٢٣ ، ٦٧٤٣) وفي الاعتصام (٧٣٠٩) ومسلم في الفرائض (١٦١٦ / ٥) وأبو داود في الفرائض (٢٨٨٦) والترمذي في الفرائض (٢٠٩٧) وفي التفسير (٣٠١٥) وقال : « حسن » والنسائي في التفسير (١٥٤) وابن ماجة في الفرائض (٢٧٢٨) وأبو يعلى (٢٠١٨) وابن خزيمة في جماع أبواب ذكر الماء (١٠٦) والطيالسي (١٧٤٢) والبيهقي ٦ / ٢٣١ .

ملاحظة : اختلفت الروايات في ذكر الآية التي نزلت في هذا الشأن هل هي ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** ﴾ أو آية الكلالة ﴿**يستفتونك**﴾؟ فذهب البعض إلى أن الأولى نزلت في ابنتي سعد بن الربيع ، وأن الثانية في قصة جابر وقالوا : إن ابن جريج ــ وهم في روايته ــ عندما أدرج فيها ﴿ **يوصيكم** ﴾ ، وقال آخرون : يحتمل أن تكون الآيتان نزلتا في قصة جابر ، قال ابن حجر في الفتح ٨ / ٢٤٤ عن آية ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾ : « يحتمل أن يكون نزول أولها في قصة البنتين ، وآخرها وهي قوله : ﴿ **وإن كان رجل يورث كلالة** ﴾ في قصة جابر ، ويكون مراد جابر : فنزلت ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** ﴾ أي ذكر الكلالة المتصل بهذه الآية والله أعلم ، وإذا تقرر جميع ذلك ظهر أن ابن جريج لم يهم كما جزم به الدمياطي ومن تبعه، وأن من وهمه هو الواهم والله أعلم » . للتوسع : انظر : ابن حجر في الفتح ٨ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

أنزلــت فيّ : ﴿ يستفتونك قــل اللـه يفتيكــم فى الكلالة ﴾ . وأخرج ابن راهويه وابن مردويه عن عمر ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ : كيف تورث الكلالة : فأنزل الله : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة﴾ الآية . وأخرج مالك ومسلم وابن جرير والبيهقى عن عمر قـال : ما سـألـت النبى ﷺ عن شيء أكثر مما سألته فى الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صـدرى وقال : «ما تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » (١) .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والبيهقى عن البراء بن عازب ؛ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الكلالة ؟ فقال : « تكفيك آية الصيف » (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدا ننتهى إليه : الجدّ ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء ابن عازب قال : آخر سورة نزلت كـاملـة بـراءة ، وآخـر آية نـزلـت خاتمـة سـورة النسـاء ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ (٤) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن سيرين قال : كان عمر بن الخطاب إذا قرأ : ﴿ يبين الله لكم أن تـضلوا ﴾ قال : اللهم من بينت له الكلالة فلم تبين لى .

وقد أوضحنا الكلام خلافًا واستدلالاً وترجيحًا فى شأن الكلالة فى أوائل هذه السورة فلا نعيده .

وإلى هنا انتهى الجزء الأول من التفسير المبارك المسمى : « فتح القدير » الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه الراجى من ربه سبحانه أن يعينه على تمامه ، وينفع به من شاء من عباده ، ويجعله ذخيرة له عند وفوده إلى الدار الآخرة « محمد بن على بن محمد الشوكانى » غفر الله لهما وكان الانتهاء إلى هذا الموضـع فى يوم العيد الأكـبر ، يــوم النـحر المبارك من سنة أربـع وعــشرين بـعد مائتـين وألف من الهـجرة النـبوية ، حامدًا لله ومصليا ومـسلمًا عـلى رسوله وحبيبه ، محمـد بن عـبد الله وعلـى آله وصحبه. انتهى . الحمد لله :كمل سماعًا ، والحمد لله فى شهـر ذى القـعدة مـن عام ١٢٣٢ .

يحيى بن على الشوكانى

(١) مالك فى الفرائض (٧) ومسلم فى الفرائض (١٦١٧ / ٩) وابن جرير ٦ / ٢٩ والبيهقى ٦ / ٢٢٤ .
(٢) أحمد ٤ / ٢٩٣ وأبو داود فى الفرائض (٢٨٨٩) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٢) والبيهقى ٦ / ٢٢٤ .
(٣) البخارى فى الأشربة (٥٥٨٨) ومسلم فى التفسير (٣٠٣٢ / ٣٢) وأبو داود فى الأشربة (٣٦٦٩) .
(٤) البخارى فى التفسير (٤٦٠٥) ومسلم فى الفرائض (١٦١٨ / ١١) وأحمد ٤ / ٢٩٨ .

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الفاتحة

تفسير سورة البقرة

تفسير سورة آل عمران

تفسير سورة النساء

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م
I.S.B.N:977-15-0122-4

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كتابٌ فُصِّلت آياته قُرآنًا عَرَبِيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾

تفسير سورة المائدة

هى مائة وثلاث وعشرون آية قال القرطبى : هى مدنية بالإجماع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : المائدة مدنية . وأخرج أحمد والنسائى وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة ، فقالت لى : يا جبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرموه (١) . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن عمرو قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح (٢) .

وأخرج أحمد عنه قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها (٣) . قال ابن كثير : تفرد به أحمد . قلت : وفى إسناده ابن لهيعة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، والطبرانى،وأبو نعيم فى الدلائل ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده ، والبغوى فى معجمه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى دلائل النبوة عن أم عمرو بنت عيسى عن عمها نحوه أيضا (٥) . وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب القرظى نحوه . وزاد أنها نزلت فى حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة ، وهكذا أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة (٦) . وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ: « المائدة من آخر القرآن تنزيلا ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ».

---

(١) أحمد ٦/ ١٨٨ والنسائى فى التفسير (١٥٨) قال المحققان :« إسناده صحيح » وصححه الحاكم ٢/ ٣١١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ١٧٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٦٣) وقال : «حسن غريب » وروى عن ابن عباس أنه قال : « آخر سورة أنزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ » وصححه الحاكم ٢/ ٣١١ على شرط الشيخين ، ولم يذكره الذهبى أصلا ، والبيهقى ٢/ ١٧٢ .

(٣) أحمد ٢/ ١٧٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٦ : « رواه أحمد ، وفيه ابن لهيعة والأكثر على ضعفه ،وقد يحسن حديثه ، ربقية رجاله ثقات » .

(٤) أحمد ٦/ ٤٥٥ ، ٤٥٨ وابن جرير ٦/ ٥٤ والطبرانى (٤٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٦ : « رواه أحمد والطبرانى بنحوه وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف ، وقد وثق » قال المحقق (للمعجم) : « وهذا تعليل قاصر ففى إسناده ليث بن أبى سليم أيضًا وهو ضعيف » .

(٥) البيهقى فى الدلائل ٧/ ١٤٥ وإسناده هكذا . . . عن أم عمرو بنت عيسى أنها قالت :حدثتنى عمتى . . . وابن كثير ذكر رواية ابن مردويه وأن أم عمرو حدثت عن عمها .

(٦) ابن جرير ٦/ ٥٤ .

وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ عن أبى ميسرة عمر بن شرحبيل قال : لم ينسخ من المائدة شيء ، وكذا أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عنه . وكذا أخرجه عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه، وابن جرير وابن المنذر عن الشعبى . وكذا أخرجه عبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن الحسن البصرى . وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر عن الشعبى قال : لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد** ﴾[1] . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : نسخ من هذه السورة آيتان : آية القلائد ، وقوله : ﴿ **فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾[2] .

وأخرج عبد بن حميد فى مسنده عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قرأ فى خطبته سورة المائدة والتوبة ، وذكر النقاش عن أبى سلمة أنه قال : لما رجع ﷺ من الحديبية قال : « يا على ، أشعرت أنها نزلت على سورة المائدة ؟ ونعمت الفائدة » . قال ابن العربى : هذا حديث موضوع لايحل لمسلم اعتقاده ، وقال ابن عطية : هذا عندى لا يشبه كلام النبى ﷺ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)** ﴾ .

هذه الآية التى افتتح الله بها هذه السورة إلى قوله : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية ، مع شمولها لأحكام عدة : منها الوفاء بالعقود ، ومنها تحليل بهيمة الأنعام ، ومنها استثناء ما سيتلى مما لا يحل ، ومنها تحريم الصيد على المحرم ، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم . وقد حكى النقاش : أن أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له : أيها الحكيم ، اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم ، أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عامًا ثم استثنى

---

(١) المرجع السابق ٦/ ٣٩.

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣١٢ ووافقه الذهبى .

بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا .

قوله : ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ يقال : أَوْفَى وَوَفَى لغتان ، وقد جمع بينهما الشاعر فقال :

أَمّا ابنُ طَوْقٍ فَقد أَوْفَى بِذِمَّتِه كما وَفَى بِقِلاصِ النَّجْمِ حَادِيها

والعقود: العهود ، وأصل العقود : الرّبوط ، واحدها عَقْد ، يقال: عقدت الحبل والعهد ، فهو يستعمل فى الأجسام والمعانى ، وإذا استعمل فى المعانى كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام ، قوى التوثيق ، قيل : المراد بالعقود هى: التى عقدها الله على عباده وألزمهم بها من الأحكام ، وقيل : هى العقود التى يعقدونها بينهم من عقود المعاملات ، والأولى : شمول الآية للأمرين جميعا ، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض. قال الزجاج : المعنى أوفوا بعقد الله عليكم ، وبعقدكم بعضكم على بعض[١] . انتهى . والعقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله ، فإن خالفهما فهو ردّ لا يجب الوفاء به ولا يحل .

قوله : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام** ﴾ الخطاب للذين آمنوا . والبهيمة : اسم لكل ذى أربع ، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها ، ومنه باب مُبْهَم ، أى مُغْلَق ، وليل بَهِيم ، وبهمة للشجاع الذى لا يدرى من أين يُؤتَى ، وحلقة مبهمة : لا يدرى أين طرفاها . والأنعام : اسم للإبل والبقر والغنم ، سميت بذلك لما فى مشيها من اللين . وقيل : بهيمة الأنعام : وحشيها ، كالظباء وبقر الوحش والحُمُر الوحشية ، وغير ذلك . حكاه ابن جرير الطبرى عن قوم[٢]،وحكاه غيره عن السدى والربيع وقتادة والضحاك. قال ابن عطية : وهذا قول حسن ، وذلك أن الأنعام هى الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له : أنعام ، مجموعة معها ، وكأن المفترس كالأسد ، وكل ذى ناب خارج عن حد الأنعام ، فبهيمة الأنعام : هى الراعى من ذوات الأربع . وقيل : بهيمة الأنعام : ما لم تكن صيدًا ؛ لأن الصيد يسمى وحشًا لا بهيمة . وقيل : بهيمة الأنعام : الأجنة التى تخرج عند الذبح من بطون الأنعام فهى تؤكل من دون ذكاة ، وعلى القول الأول ، أعنى تخصيص الأنعام بالإبل والبقر والغنم ، تكون الإضافة بيانية ، ويلحق بها ما يحل مما هو خارج عنها بالقياس ، بل وبالنصوص التى فى الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٥] ، وقوله ﷺ : « يحرم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير»[٣] . فإنه يدل بمفهومه على أن ما عداه حلال ، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع كما فى كتب السنة المطهرة .

قوله : ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ﴾ استثناء من قوله : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام** ﴾ أى إلا

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « المسلمون عند شروطهم » البخارى فى الإجارة معلقا . وقال ﷺ : « فأيما شرط كان ليس فى كتاب الله فهو باطل » . البخارى فى المكاتب (٢٥٦٣) وهو جزء من حديث عائشة .

(٢) ابن جرير ٦/ ٣٤ .

(٣) مسلم فى الصيد (١٩٣٣/ ١٥ ، ١٦) وأبو داود فى الأطعمة (٣٨٠٥ ، ٣٨٠٦) وابن ماجة فى الصيد (٣٢٣٤) .

مدلول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال ، والمتلو هو : ما نص الله على تحريمه ، نحو قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ الآية . ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به : إلا ما يتلى عليكم الآن ، ويحتمل أن يكون المراد به : فى مستقبل الزمان ، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ويحتمل الأمرين جميعًا .

قوله : ﴿ غير محلى الصيد ﴾ ذهب البصريون إلى أن قوله : ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ استثناء من بهيمة الأنعام ، وقوله : ﴿ غير محلى الصيد ﴾ استثناء آخر منه أيضًا ، فالاستثناءان جميعًا من بهيمة الأنعام ، والتقدير : أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون . وقيل : الاستثناء الأول من بهيمة الأنعام ، والاستثناء الثانى هو من الاستثناء الأول ، ورد بأن هذا يستلزم إباحة الصيد فى حال الإحرام ؛ لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحًا ، وأجاز الفراء أن يكون ﴿ إلا ما يتلى ﴾ فى موضع رفع على البدل ، ولا يجيزه البصريون إلا فى النكرة وما قاربها من الأجناس . قال: وانتصاب ﴿ غير محلى الصيد ﴾ على الحال من قوله : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ وكذا قال الأخفش ، وقال غيرهما : حال من الكاف والميم فى ﴿ لكم ﴾ والتقدير : أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد ، أى الاصطياد فى البر وأكل صيده . ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادًا وهم حرم ، أى محرمون ، وجملة ﴿ وأنتم حرم ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ محلى ﴾ ، ومعنى هذا التقييد ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التى يحل أكلها كأنه قال : أحل لكم صيد البر إلا فى حال الإحرام ، وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى : أحلت لكم بهيمة هى الأنعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم فى الإحرام ، لكونكم محتاجين إلى ذلك ، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرم عليهم فى تلك الحال والمراد بالحرم من هو محرم بالحج أو العمرة أو بهما ، وسمى محرمًا ؛ لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء ، وهكذا وجه تسمية الحرم حرمًا ، والإحرام إحراما . وقرأ الحسن والنخعى ويحيى بن وثاب : « حرم » بسكون الراء وهى لغة تميمية يقولون فى رُسُل : رُسْل وفى كُتُب : كُتْب ونحو ذلك. قوله : ﴿ إن الله يحكم ما يريد ﴾ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده،فهو مالك الكل يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه .

قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ﴾ الشعائر:جمع شَعِيرة ، على وزن فَعِيلة ، قال ابن فارس : ويقال للواحدة : شِعَارة وهو أحسن ، ومنه الإشعار للهدى . والمشاعر : المعالم ، واحدها مشعر ، وهى المواضع التى قد أشعرت بالعلامات . قيل : المراد بها هنا جميع مناسك الحج . وقيل : الصفا والمروة ، والهدى والبدن . والمعنى على هذين القولين : لا تحلوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشىء منها أو بأن تحولوا بينها وبين من أراد فعلها : ذكر سبحانه النهى عن أن يحلوا شعائر الله عقب ذكره تحريم صيد المحرم . وقيل : المراد

بالشعائر هنا : فرائض الله ، ومنه : ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ [الحج : ٣٢] . وقيل : هى حرمات الله ، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتبارًا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولا بما يدل عليه السياق .

قوله : ﴿ **ولا الشهر الحرام** ﴾ المراد به : الجنس ، فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم وهى أربعة : ذو القعدة، وذو الحجة ،ومحرم ، ورجب ، أى لا تحلوها بالقتال فيها . وقيل : المراد به هنا شهر الحج فقط . قوله : ﴿ **ولا الهدى** ﴾ هو ما يهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة ، الواحدة : هدية . نهاهم سبحانه عن أن يحلوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه أو يحولوا بينه وبين المكان الذى يهدى إليه ، وعطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد فى شأنه .

قوله : ﴿ **ولا القلائد** ﴾ جمع قلادة ، وهى ما يقلد به الهدى من نعل أو نحوه ، وإحلالها : أن تؤخذ غصبًا، وفى النهى عن إحلال القلائد تأكيد للنهى عن إحلال الهدى . وقيل : المراد بالقلائد : المقلدات بها ، ويكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى ، والأول أولى . وقيل : المراد بالقلائد : ما كان الناس يتقلدونه أمنة لهم ، فهو على حذف مضاف ، أى ولأصحاب القلائد . قوله : ﴿ **ولا آمين البيت الحرام** ﴾ أى قاصديه من قولهم أممت كذا أى قصدته . وقرأ الأعمش : «ولا آمى البيت الحرام » بالإضافة . والمعنى : لا تمنعوا من قصد البيت الحرام لحج أو عمرة أو ليسكن فيه . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتمرون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنزل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله** ﴾ إلى آخر الآية فيكون ذلك منسوخًا بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة:٥]،وقوله : ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وقوله ﷺ : « لا يحجنَّ بعد العام مشرك » (١) . وقال قوم : الآية محكمة وهى فى المسلمين .

قوله: ﴿ **يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا** ﴾ جملة حالية من الضمير المستتر فى ﴿ **آمين** ﴾. قال جمهور المفسرين : معناه : يبتغون الفضل والأرباح فى التجارة ، ويبتغون مع ذلك رضوان الله . وقيل : كان منهم من يطلب التجارة ومنهم من يبتغى بالحج رضوان الله ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم وفى ظنهم عند من جعل الآية فى المشركين . وقيل : المراد بالفضل هنا : الثواب ، لا الأرباح فى التجارة .

قوله : ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ هذا تصريح بما أفاده مفهوم ﴿ **وأنتم حرم** ﴾ أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذى حرم لأجله وهو الإحرام . قوله : ﴿ **ولا**

(١) البخارى فى الصلاة (٣٦٩) والحج (١٦٢٢) والجزية (٣١٧٧) والمغازى (٤٣٦٣) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) كلاهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

يجرمنكم شنآن قوم ﴾ قال ابن فارس: جرم وأجرم ولا جرم ، بمعنى قولك : لابد ولا محالة ، وأصلها من جرم ، أى كسب . وقيل : المعنى : لا يحملنكم، قاله الكسائى وثعلب ، وهو يتعدى إلى مفعولين ، يقال: جرمنى كذا على بغضك ، أى حملنى عليه ، ومنه قول الشاعر :

وَلَقَدْ طعَنْت أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَت فَزَارَةَ بَعْدهَا أن يَغْضَبُوا

أى حملتهم على الغضب . وقال أبو عبيدة والفراء : معنى **﴿ لا يجرمنكم ﴾** لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل ، والعدل إلى الجور. والجريمة والجارم ، بمعنى الكاسب ، ومنه قول الشاعر :

جـَرِيمة نَـاهِـضٍ فى رَأْسِ نِيـقٍ ... يَرى لعظَامِ مَا جَمعت صَلِيبا

معناه : كاسب قوت . والصليب : الودك ، ومنه قول الآخر :

يَأَيها المُشتكِى عكْلا وَمَا جَرَمَت ... إلى القَبائِل مِنْ قَتْلٍ وإِبْئاس

أى كسبت ، والمعنى فى الآية : لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم ، أو لا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل ، ويقال : جَرَمَ يَجْرم جُرْمًا : إذا قطع . قال على ابن عيسى الرمانى : وهو الأصل ، فجرم بمعنى حمل على الشىء لقطعه من غيره ، وجرم بمعنى كسب لانقطاعه إلى الكسب ، ولا جرم بمعنى حق لأن الحق يقطع عليه ، قال الخليـل : معنى ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ [النحل : ٦٢] لقد حـق أن لهـم النار . وقال الكسائى : جرم ، وأجرم لغتان بمعنى واحد ، أى اكتسب . وقرأ ابن مسعود : « لا يُجرمنكم » بضم الياء والمعنى : لا يكسبنكم ولا يعـرف البصريـون أجرم ، وإنما يقـولـون جرم لا غير . والشَّنآن : البغض . وقُرئ بفتح النون وإسكانها ، يقال : شَنِيتُ الرجل أَشْنُوه شَنَاءً ومشناة وشَنَآنا كل ذلك: إذا أبغضته، وشنآن هنا مضاف إلى المفعول ، أى بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم.

قوله : **﴿ أن صدوكم ﴾** بفتح الهمزة مفعول لأجله ، أى لأن صدوكم. وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية ، وهو اختيار أبى عبيد وقرأ الأعمش : « إن يصدوكم » والمعنى على قراءة الشرطية : لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصد لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم . قال النحاس : وأما « إن صدوكم » بكسر إن فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر يمنعون القراءة بها لأشياء : منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان ، وكان المشركون صدوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست ، فالصد هنا كان قبل الآية ، وإذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلا بعده كما تقول : لا تعط فلانًا شيئًا إن قاتلك ، فهذا لا يكون إلا للمستقبل وإن فتحت كان للماضى ، وما أحسن هذا الكلام . وقد أنكر أبو حاتم وأبو عبيدة «شنآن » بسكون النون ، لأن المصادر إنما تأتى فى مثل هذا متحركة وخالفهما غيرهما فقال : ليس هذا مصدرًا ، ولكنه اسم فاعل على وزن كسلان وغضبان .

ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، أى ليعضد بعضكم بعضًا على ذلك ، وهو يشمل كل أمر يصدق عليه أنه من البر والتقوى كائنًا ما كان . قيل : إن البر والتقوى لفظان لمعنى واحد ، وكرر للتأكيد . وقال ابن عطية : إن البر يتناول الواجب والمندوب ، والتقوى تختص بالواجب . وقال الماوردى : إن فى البر رضا الناس ، وفى التقوى رضا الله ، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته . ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان ، فالإثم كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله ، والعدوان : التعدى على الناس بما فيه ظلم ، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم ، ولا نوع من أنواع الظلم للناس ، الذين من جملتهم النفس إلا وهو داخل تحت هذا النهى ، لصدق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناهما ، ثم أمر عباده بالتقوى ، وتوعد من خالف ما أمر به فتركه أو خالف ما نهى عنه ففعله بقوله : ﴿ **إن الله شديد العقاب** ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ قال : ما أحل الله وما حرم وما فرض ، وما حدّ فى القرآن كله لا تغدروا ولا تنكثوا [١] . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : هى عقود الجاهلية الحلف،وروى عنه ابن جرير أنه قال:ذكر لنا أن النبى ﷺ كان يقول : « وأوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقدًا فى الإسلام » [٢] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام** ﴾ قال : الإبل والبقر والغنم . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام** ﴾ قال : ما فى بطونها. قلت: إن خرج ميتًا آكله ؟ قال : نعم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ﴾ قال : الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، إلى آخر الآية، فهذا ما حرم الله من بهيمة الأنعام .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **لا تحلوا شعائر الله** ﴾ قال : كان المشركون يحجون البيت الحرام ، ويهدون الهدايا ، ويعظمون حرمة المشاعر ، وينحرون فى حجهم ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فقال الله : ﴿ **لا تحلوا شعائر الله** ﴾[٣] . وفى قوله :﴿ **ولا الشهر الحرام** ﴾ يعنى : لا تستحلوا قتالا فيه ﴿ **ولا آمين البيت الحرام** ﴾ يعنى : من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون جميعًا . فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدًا حج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعد هذه الآية ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [التوبة : ٢٨]. وفى قوله :﴿ **يبتغون**

(١) ابن جرير ٦/ ٣٢ والبيهقى فى الشعب (٤٠٤٧) وهو مرسل .
(٢) ابن جرير ٦/ ٣٢ . (٣) المرجع السابق ٦ / ٣٦ .

فضلا ﴾ يعنى : أنهم يرضون الله بحجهم ﴿ **ولا يجرمنكم** ﴾ يقول : لا يحملنكم، ﴿ **شنآن قوم** ﴾ يقول: عداوة قوم ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ قال: البرّ: ما أمرت به، والتقوى: ما نهيت عنه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: شعائر الله: ما نهى الله عنه أن تصيبه وأنت محرم، والهدى: ما لم يقلد، والقلائد: مقلدات الهدى. ﴿ **ولا آمين البيت الحرام** ﴾ يقول: من توجه حاجا. وأخرج ابن جرير عنه فى قوله: ﴿ **لا تحلوا شعائر الله** ﴾ قال: مناسك الحج .

وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه ، حين صدهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم فمرّ بهم أناس من المشركين ، من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابنا ، فأنزل الله ﴿ **ولا يجرمنكم** ﴾ الآية . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه عن وابصة أن النبى ﷺ قال له : « البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » (١). وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبخارى فى الأدب ، ومسلم والترمذى والحاكم والبيهقى عن النواس بن سمعان قال : سألت النبى ﷺ عن البر والإثم ، فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس » (٢) . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى أمامة ؛ أن رجلا سأل النبى ﷺ عن الإثم فقال : « ما حاك فى نفسك فدعه » . قال : فما الإيمان ؟ قال : «من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن» (٣) .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾.

هذا شروع فى المحرمات التى أشار إليها سبحانه بقوله : ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ﴾ . والميتة

(١) أحمد ٤/ ٢٢٧ ، ٢٢٨ والبخارى فى تاريخه ١/ ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٣٨٧) وأحمد ٤/ ١٨٢ ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٣/ ١٤ ، ١٥) والترمذى فى الزهد (٢٣٨٩) وصححه الحاكم ٢/ ١٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٩٩٤) . ط . دار الكتب العلمية .

(٣) أحمد ٥/ ٢٥١ وابن حبان فى فضل الإيمان (١٧٦) والطبرانى (٧٥٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ١٣ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٩٩٠) ط ٨ . دار الكتب العلمية ، وقال الهيثمى فى المجمع : « ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه يحيى بن أبى كثير وهو مدلس وإن كان من رجال الصحيح » .

قد تقدم ذكرها فى البقرة ، وكذلك الدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، وما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحًا كما تقدم ، حملا للمطلق على المقيد ، وقد ورد فى السنة تخصيص الميتة بقوله ﷺ : « أحل لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالحوت والجراد، وأما الدمان : فالكبد والطحال » أخرجه الشافعى وأحمد وابن ماجة والدارقطنى والبيهقى ، وفى إسناده مقال (١) ، ويقويه حديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » . وهو عند أحمد وأهل السنن وغيرهم ، وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان (٢) ، وقد أطلنا الكلام عليه فى شرحنا للمنتقى. والإهلال: رفع الصوت لغير الله كأن يقول: بسم اللات والعزى ونحو ذلك ، ولا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه ، ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ والمنخنقة ﴾ هى التى تموت بالخنق : وهو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها فى حبل، أو بين عودين ، أو بفعل آدمى أو غيره . وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة ، فإذا ماتت أكلوها . ﴿والموقوذة ﴾ هى التى تضرب بحجر أو عصا ، حتى تموت من غير تذكية ، يقال : وَقَذَه يَقذُه وَقْذًا فهو وَقِيذٌ والوَقْذ : شِدَّة الضرْبِ ، وفلان وَقِيذ، أى مثخن ضربًا ، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ، فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها ، ومنه قول الفرزدق :

شَغَّارَةٌ تقِذ الفَصِيلَ بِرِجْلها فَطارةٌ لِقَوَادِمِ الأظْفَارِ

قال ابن عبد البر : واختلف العلماء قديمًا وحديثًا فى الصيد بالبندق والحجر والمعراض ، ويعنى بالبندق : قوس البندقة ، وبالمعراض : السهم الذى لا ريش له ، أو العصا التى رأسها محدّد ، قال: فمن ذهب إلى أنه وقيذ لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته ،على ما روى عن ابن عمر ، وهو قول مالك ، وأبى حنيفة وأصحابه والثورى والشافعى ، وخالفهم الشاميون فى ذلك . قال الأوزاعى فى المعراض : كُلْهُ خَرَقَ أو لم يَخْرِق ، فقد كان أبو الدرداء وفضالة بن عبيد ، وعبد الله بن عمر ومكحول لا يرون به بأسًا . قال ابن عبد البر : هكذا ذكر الأوزاعى عن عبد الله بن عمر ، والمعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع ، قال : والأصل فى هذا الباب ، والذى عليه العمل ، وفيه الحجة ، حديث عدى بن حاتم ، وفيه : « ما أصاب بعرضه فلا تأكل فإنه وقيذ » (٣) . انتهى . قلت : والحديث فى الصحيحين وغيرهما ، عن عدى قال : قلت : يارسول الله ، إنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب فقال : « إذا رميت بالمعراض فخرق فكله ، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله » (٤) ، فقد اعتبر ﷺ الخرق وعدمه ، فالحق

(١) الشافعى فى مسنده فى الصيد والذبائح (٦٠٧) وأحمد ٢/ ٩٧ وابن ماجة فى الأطعمة (٣٣١٤) والدارقطنى فى باب الصيد والذبائح والأطعمة (٢٥) والبيهقى ٩/ ٢٥٧ ، كلهم عن عبد الله بن عمر .

(٢) مالك فى الموطأ فى الطهارة (١٢) وأحمد ٢/ ٢٣٧ ، ٣٦١ وأبو داود فى الطهارة (٨٣) والترمذى فى الطهارة (٦٩) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ١/ ٥٠ وابن ماجة فى الطهارة (٣٨٦) والدارمى ١/ ١٨٥ والدارقطنى فى الطهارة (١٤) ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) أحمد ٤/ ٢٥٦ والبخارى فى الذبائح والصيد (٥٤٧٥ ، ٥٤٧٦) وفى البيوع (٢٠٥٤) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٢٩/ ١) وأبوداود فى الصيد (٢٨٤٧) والترمذى فى الصيد (١٤٧١) وقال: « صحيح ». (٤) سبق تخريجه .

أنه لا يحل إلا ما خرق لا ما صدم ، فلابد من التذكية قبل الموت وإلا كان وقيذًا وأما البنادق المعروفة الآن ، وهى بنادق الحديد التى تجعل فيها البارود والرصاص ويرمى بها ، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها ، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا فى المائة العاشرة من الهجرة ، وقد سألنى جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيًا ؟ والذى يظهر لى أنه حلال ؛ لأنها تخرق وتدخل فى الغالب من جانب منه ، وتخرج من الجانب الآخر ، وقد قال ﷺ فى الحديث الصحيح السابق : « إذا رميت بالمعراض فخرق فكله » فاعتبر الخرق فى تحليل الصيد .

قوله : ﴿ **والمتردية** ﴾ هى التى تتردى من علو إلى أسفل فتموت ، من غير فرق بين أن تتردى من جبل ، أو بئر ، أو مدفن ، أو غيرها ، والتردى : مأخوذ من الردى وهو الهلاك ، وسواء تردت بنفسها أو ردها غيرها . قوله : ﴿ **والنطيحة** ﴾ هى فعيلة بمعنى مفعولة ، وهى التى تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية ، وقال قوم أيضًا : فعيلة بمعنى فاعلة ؛ لأن الدابتين تتناطحان فتموتان ، وقال : نطيحة ، ولم يقل : نطيح مع أنه قياس فعيل ، لأن لزوم الحذف مختص بما كان من هذا الباب، صفة لموصوف مذكور ، فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية . وقرأ أبو ميسرة : « والمنطوحة ».

قوله: ﴿ **وما أكل السبع** ﴾ أى ما افترسه ذو ناب كالأسد ، والنمر ، والذئب ، والضبع ، ونحوها ، والمراد هنا : ما أكل منه السبع ، لأن ما أكله السبع كله قد فنى ، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد ، وكانت العرب إذا أكل السبع شاة ، ثم خلصوها منه أكلوها وإن ماتت ، ولم يذكوها . وقرأ الحسن وأبو حيوة : « السَّبْع » بسكون الباء ، وهى لغة لأهل نَجْد ومنه قول حسان فى عُتْبة بن أبى لَهَب :

مَنْ يَرْجع العامَ إلى أهله فَما أكِيلُ السّبْعِ بِالرَّاجِعِ

وقرأ ابن مسعود : « وأَكِيلَة السَّبُع » . وقرأ ابن عباس : « وأَكِيل السَّبُع » . قوله : ﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ فى محل نصب على الاستثناء المتصل عند الجمهور ، وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقًا ،وفيه حياة ، وقال المدنيون: وهو المشهور من مذهب مالك ، وهو أحد قولى الشافعى أنه إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل . وحكاه فى الموطأ عن زيد بن ثابت،وإليه ذهب إسماعيل القاضى فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعًا ، أى حرمت عليكم هذه الأشياء ، لكن ما ذَكَّيْتُمْ فهو الذى يحل ولا يحرم ، والأول أولى . والذكاة فى كلام العرب : الذبح ، قاله قُطْربُ وغيره : وأصل الذكاة فى اللغة : التمام ، أى تمام استكمال القوة ، والذكاء حدة القلب ، والذكاء سرعة الفطنة ، والذَّكْوَةُ ما تذكى منه النار ، ومنه أذكيت الحرب والنار : أوقدتهما ، وذُكاء اسم الشمس ، والمراد هنا : إلا ما أدركتم ذكاته على التَّمام ، والتذكية فى الشرع : عبارة عن إنهار الدّم ، وَفَرْى الأوْدَاج فى المذبوح ،

والنحر فى المنحور ، والعَقْر فى غير المقدور ، مقرونًا بالقصد لله ، وذكر اسمه عليه . وأما الآلة التى تقع بها الذكاة : فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم ، وأفرى الأوداج فهو آلة للذكاة ، ما خلا السن والعظم ، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة (١) .

قوله : ﴿ **وما ذبح على النصب** ﴾ قال ابن فارس : النُّصُب : حجر كان يُنْصب فيعبد ويصب عليه دماء الذبائح . والنَّصَائِب حجارة تنصب حوالى شَفير البئر فَتُجعل عَضَائد . وقيل : النُّصُب جمع واحده نِصاب ، كحِمار وحُمُر . وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد . وروى عن أبى عمرو بفتح النون وسكون الصاد . وقرأ الجحدرى بفتح النون والصاد ، جعله اسمًا موحدًا كالجبل والجمل ، والجمع أنصاب كالأجبال والأجمال قال مجاهد : هى حجارة كانت حوالى مكة يذبحون عليها . قال ابن جريج : كانت العرب تذبح بمكة ، وتنضح بالدم ما أقبل من البيت ، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة ، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبى ﷺ : نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال فأنزل الله :﴿ **وما ذبح على النصب** ﴾ (٢) والمعنى : والنية بذلك تعظيم النُّصُب لا أن الذبح عليها غير جائز ، ولهذا قيل : إن « على » بمعنى اللام ، أى لأجلها ، قاله قطرب ، وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله ، وخصّ بالذكر لتأكيد تحريمه ولدفع ما كانوا يظنونه من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه .

قوله : ﴿ **وأن تستقسموا بالأزلام** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام ، والأزلام: قداح الميسر واحدها : زَلَم ، قال الشاعر :

بَـاتَ يُقَاسِـيها غـلامٌ كـالزَّلَمْ
لَيْس بـراعـى إبـل ولا غنـم
ولا بجـزار علـى لحـم وضـم

وقال آخر :

فَلَئِن جَذِيمة قَتَّلت سَادَاتها فَنِساؤُها يَضْـرِبْن بالأزْلامِ

والأزلام للعرب ثلاثة أنواع: أحدها: مكتوب فيه افْعَلْ ، والآخر : مكتوب فيه لا تَفْعَلْ ، والثالث : مهمل لا شىء عليه ، فيجعلها فى خريطة معه ، فإذا أراد فعْل شىء أدخل يده وهى متشابهة فأخرج واحدًا منها ، فإن خرج الأول فعل ما عزم عليه ، وإن خرج الثانى تركه ، وإن خرج الثالث أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأوَّلين . وإنما قيل لهذا الفعل استقسام ؛ لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق ، وما يريدون فعله ، كما يقال : استسقى ، أى استدعى

---

(١) البخارى فى الشركة (٢٥٠٧) وفى الجهاد (٣٠٧٥) وفى الذبائح (٥٤٩٨) ، (٥٥٠٣) ومسلم فى الأضاحى (١٩٦٨/ ٢٠) وأبو داود فى الأضاحى (٢٨٢١) وكلهم عن رافع بن خديج .

(٢) ابن جرير ٦/ ٤٨ .

السقى ، فالاستقسام : طلب القسم والنصيب . وجملة قداح الميسر عشرة ، وقدمنا بيانها، وكانوا يضربون بها فى المقامرة ، وقيل : إن الأزلام كعاب فارس والروم التى يتقامرون بها ، وقيل : هى الشطرنج، وإنما حرم الله الاستقسام بالأزلام ؛ لأنه تعرض لدعوى علم الغيب وضرب من الكهانة .

قوله : ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا . والفسق : الخروج عن الحد ، وقد تقدم بيان معناه ، وفى هذا وعيد شديد ؛ لأن الفسق هو أشد الكفر ، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر (١) .
قوله : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم** ﴾ المراد: اليوم الذى نزلت فيه الآية وهو يوم فتح مكة لثمان بقين من رمضان ، سنة تسع . وقيل : سنة ثمان . وقيل : المراد باليوم : الزمان الحاضر وما يتصل به ، ولم يرد يومًا معينًا . و ﴿ **يئس** ﴾ : فيه لغتان يِيس بياءين يأسًا ، وأَيِسَ يَأْيَس إياسًا و إِياسَةً . قاله النضر بن شميل، أى حصل لهم اليأس من إبطال دينكم ، وأن يردوكم إلى دينهم ، كما كانوا يزعمون ، ﴿ **فلا تخشوهم** ﴾ أى لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم ، ﴿ **واخشون** ﴾ فأنا القادر على كل شىء ، إن نصرتكم فلا غالب لكم ، وإن خذلتكم لم يستطع غيرى أن ينصركم .

قوله : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ جعلته كاملا غير محتاج إلى إكمال لظهوره على الأديان كلها ، وغلبته لها ، ولكمال أحكامه التى يحتاج المسلمون إليها ، من الحلال والحرام والمشتبه ، ووفى ما تضمنه الكتاب والسنة من ذلك ، ولا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله: ﴿ **لكم** ﴾ قال الجمهور : المراد بالإكمال هنا : نزول معظم الفرائض والتحليل والتحريم . قالوا : وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية « الربا » وآية « الكلالة » ونحوهما . والمراد باليوم المذكور هنا : هو يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر ، هكذا ثبت فى الصحيح من حديث عمر بن الخطاب (٢) . وقيل : إنها نزلت فى يوم الحج الأكبر .

قوله : ﴿ **وأتممت عليكم نعمتى** ﴾ بإكمال الدين المشتمل على الأحكام ، وبفتح مكة ، وقهر الكفار ، وإياسهم عن الظهور عليكم ، كما وعدتكم بقولى : ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ﴾ [البقرة : ١٥٠]. قوله : ﴿ **ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾ أى أخبرتكم برضاى به لكم فإنه سبحانه لم يزل راضيًا لأمة نبيه ﷺ بالإسلام فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة، إن حملناه على ظاهره ، ويحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذى أنتم عليه اليوم دينًا باقيا إلى انقضاء أيام الدنيا .و ﴿ **دينا** ﴾ منتصب على التمييز ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا .

(١) قالت بذلك فرقة المعتزلة. راجع: كتاب الفصل بتحقيقنا ٥/ ٥٧ وما بعدها، والفرق بين الفرق للبغدادى ص١١٥ .
(٢) البخارى فى الإيمان (٤٥) وفى المغازى (٤٤٠٧) وفى التفسير (٤٦٠٦) ومسلم فى التفسير (٣٠١٧/ ٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٥/ ٢٥١ وفى التفسير (١٥٧) .

قوله : ﴿ **فمن اضطر فى مخمصة** ﴾ هذا متصل بذكر المحرمات ، وما بينهما اعتراض ، أى من دعته الضرورة ﴿ **فى مخمصة** ﴾ أى مجاعة إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات . والْخَمْص : ضُمورُ البَطن ، ورجل خَمِيص وخُمْصَان، وامرأة خَمِيصَة وخُمْصَانة ، ومنه أَخْمص القدم ، ويستعمل كثيرًا فى الجوع ، قال الأعشى :

تَبِيتون فى المشتاء ملأى بُطُونكم وَجَاراتُكم غَرْثَى يَبِتْن خَمَائِصا

قوله : ﴿ **غير متجانف** ﴾ الجنف : الميل ، والإثم : الحرام ، أى حال كون المضطر فى مخمصة غير مائل لإثم، وهو بمعنى غير باغ ولا عاد ، وكل مائل فهو متجانف وجنف ، وقرأ النخعى ويحيى بن وثاب والسلمى «متجنف»، ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ به لا يؤاخذه بما ألجأته إليه الضرورة فى الجوع مع عدم ميله بأكل ما حرم عليه إلى الإثم ، بأن يكون باغيًا على غيره ، أو متعديًا لما دعت إليه الضروة حسبما تقدم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه،والحاكم وصححه عن أبى أمامة ؛ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومى أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شعائر الإسلام ، فبينما نحن كذلك ، إذ جاؤوا بقصعة دم واجتمعوا عليها يأكلونها . قالوا : هلم يا صدى ، فكل ، قلت : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم، لما أنزل الله عليه، قالوا : وما ذاك ؟ قال : فتلوت عليهم هذه الآية ﴿ **حرمت عليكم الميتة** ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وما أهل لغير الله به** ﴾ قال: وما أهل للطواغيت به ﴿ **والمنخنقة** ﴾ قال : التى تخنق فتموت ﴿ **والموقوذة** ﴾ قال : التى تضرب بالخشبة فتموت ﴿ **والمتردية** ﴾ قال : التى تتردى من الجبل فتموت ﴿ **والنطيحة** ﴾ قال : الشاة التى تنطح الشاة ﴿**وما أكل السبع** ﴾ يقول: ما أخذ السبع ﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ يقول : ذبحتم من ذلك وبه روح ، فكلوه ﴿ **وما ذبح على النصب** ﴾ قال : النصب : أنصاب كانوا يذبحون ويهلون عليها ﴿ **وأن تستقسموا بالأزلام** ﴾قال : هى القداح كانوا يستقسمون بها فى الأمور. ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ يعنى : من أكل ذلك فهو فسق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الرداة : التى تتردى فى البئر . والمتردية : التى تتردى من الجبل .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وأن تستقسموا بالأزلام** ﴾ قال : حصى بيض كانوا يضربون بها. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى الآية قال : كانوا إذا أرادوا أمرًا أو سفرًا يعمدون إلى قداح ثلاثة يكتبون على واحد منها : أمرنى ، وعلى الآخر : نهانى ، ويتركون الثالث مخللا بينهما ليس عليه شىء ، ثم يجيلونها ، فإن خرج الذى عليه : أمرنى مضوا لأمرهم . وإن خرج الذى عليه : نهانى كفوا ، وإن خرج الذى

(١) الطبرانى (٨٠٨٤) والحاكم ٣ / ٦٤١ ، ٦٤٢ وسكت عنه وقال الذهبى : « وصدقة : أحد رواة الحديث ، ضعفه ابن معين » .

ليس عليه شىء أعادوها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم** ﴾ قال : يئسوا أن يرجعوا إلى دينهم أبدا . وأخرج البيهقى عنه فى الآية قال : يقول يئس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم ، عبادة الأوثان أبدًا ﴿ **فلا تخشوهم** ﴾ فى اتباع محمد ﴿ **واخشون** ﴾ فى عبادة الأوثان وتكذيب محمد ، فلما كان واقفًا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يديه والمسلمون يدعون الله ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ يقول : حلالكم وحرامكم ، فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام ﴿ **وأتممت عليكم نعمتى** ﴾ قال : منتى ، فلم يحج معكم مشرك ﴿ **ورضيت** ﴾ يقول : اخترت ﴿ **لكم الإسلام دينا** ﴾ فمكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أحدًا وثمانين يومًا ، ثم قبضه الله إليه . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدًا ، وقد رضيه فلا يسخط أبدا(١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا ، قال : وأى آية ؟ قالوا : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ قال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله ﷺ ، والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة فى يوم جمعة (٢).وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **فمن اضطر** ﴾ يعنى: إلى ما حرم مما سمى فى صدر هذه السورة : ﴿ **فى مخمصة** ﴾ يعنى: فى مجاعة ﴿ **غير متجانف لإثم**﴾ يقول : غير متعمد لإثم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ .

هذا شروع فى بيان ما أحله الله لهم ، بعد بيان ما حرمه الله عليهم ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية . قوله : ﴿**ماذا أحل لهم** ﴾ أى شىء أحل لهم ، وأما الذى أحل لهم من المطاعم إجمالا ومن الصيد ، ومن طعام أهل الكتاب،ومن نسائهم.قوله : ﴿ **قل أحل لكم الطيبات** ﴾ هى ما يستلذه آكله ويستطيبه مما أحله الله لعباده . وقيل : هى الحلال ، وقد سبق الكلام فى

(١) ابن جرير : ٦ / ٥١ .

(٢) سبق تخريجه .

هذا . وقيل : الطيبات : الذبائح لأنها طابت بالتذكية ، وهو تخصيص للعام بغير مخصص ، والسبب والسياق لا يصلحان لذلك .

قوله : ﴿ **وما علمتم من الجوارح** ﴾ هو معطوف على الطيبات بتقدير مضاف لتصحيح المعنى ، أى أحل لكم الطيبات وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح ، وقرأ ابن عباس ومحمد بن الحنفية : « عُلمتم » بضم العين وكسر اللام ، أى علمتم من أمر الجوارح والصيد بها . قال القرطبى : وقد ذكر بعض من صنف فى أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الإباحة تناولت ما علمنا من الجوارح ، وهو يتضمن الكلب،وسائر جوارح الطير،وذلك بموجب إباحة سائر وجوه الانتفاع فدل على جواز بيع الكلب،والجوارح ،والانتفاع بها ، بسائر وجوه المنافع ، إلا ما خصه الدليل وهو الأكل من الجوارح ، أى الكواسب من الكلاب وسباع الطير[(١)]. قال : أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود ، وعلّمه مسلم ، ولم يأكل من صيده الذى صاده وأثر فيه بجرح ، أو تَنْيِيب ، وصاد به مسلم ، وذكر اسم الله عند إرساله أن صيده صحيح ، يؤكل بلا خلاف ، فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف ، فإن كان الذى يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه ، وكالبازى والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جارح كاسب ، يقال : جرح فلان واجترح : إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها ، ومنه اجتراح السيئات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ [الأنعام : ٦٠] . وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ [الجاثية : ٢١] . قوله : ﴿ **مُكَلِّبين** ﴾ حال ، والمكلب : معلم الكلاب لكيفية الاصطياد ، والأخص معلم الكلاب وإن كان معلم سائر الجوارح مثله ،لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب، ولم يكتف بقوله : ﴿ **وما علمتم من الجوارح** ﴾ مع أن التكليب هو التعليم ، لقصد التأكيد لما لابد منه من التعليم . وقيل : إن السبع يسمى كلبًا فيدخل كل سبع يصاد به . وقيل : إن هذه الآية خاصة بالكلاب . وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال : ما يصاد بالبزاة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فهو لك حلال ، وإلا فلا تطعمه . قال ابن المنذر : وسئل أبو جعفر عن البازى هل يحل صيده ؟ قال : لا . إلا أن تدرك ذكاته . وقال الضحاك والسدى : ﴿ **وما علمتم من الجوارح مكلبين** ﴾ هى الكلاب خاصة ، فإن كان الكلب الأسود بهيمًا فكره صيده الحسن وقتادة والنخعى . وقال أحمد : ما أعرف أحدًا يرخص فيه إذا كان بهيمًا، وبه قال ابن راهويه . فأما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم ، واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله ﷺ : «الكلب الأسود شيطان » أخرجه مسلم وغيره [(٢)]. والحق أنه يحل صيد كل ما يدخل تحت عموم الجوارح ، من غير فرق بين الكلب وغيره وبين

(١) القرطبى ٣ / ٢٠٦٣ .

(٢) مسلم فى الصلاة (٥١٠ / ٢٣) وأحمد ٥ / ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (٧٠٢) والترمذى فى الصلاة (٣٣٨) وقال : « حسن صحيح » ، كلهم عن أبى ذر رضى الله عنه .

الأسود من الكلاب وغيره ، وبين الطير وغيره ، ويؤيد هذا أن سبب نزول الآية سؤال عدىّ بن حاتم عن صيد البازى كما سيأتى .

قوله : ﴿ **تعلمونهن مما علمكم الله** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال ، أى مما علمكم الله ، مما أدركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذى تهتدون به إلى تعليمها ، وتدريبها ، حتى تصير قابلة لإمساك الصيد عند إرسالكم لها. قوله: ﴿ **فكلوا مما أمسكن عليكم** ﴾ الفاء للتفريع ، والجملة متفرعة على ما تقدم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح « ومن» فى قوله : ﴿ **مما أمسكن عليكم** ﴾ للتبعيض ، لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد ، والعظم ، وما أكله الكلب ونحوه ، وفيه دليل على أنه لابد أن يمسكه على صاحبه ، فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه كما فى الحديث الثابت فى الصحيح (١) .

وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحل أكل الصيد الذى يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال ، وقال عطاء بن أبى رباح ، والأوزاعى وهو مروى عن سلمان الفارسى ، وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة وعبد الله بن عمر وروى عن على وابن عباس والحسن البصرى والزهرى وربيعة ومالك والشافعى فى القديم أنه يؤكل صيده ، ويرد عليهم قوله تعالى : ﴿ **مما أمسكن عليكم** ﴾ وقوله ﷺ لعدى بن حاتم : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وهو فى الصحيحين وغيرهما (٢) ، وفى لفظ لهما : « فإن أكل فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه » (٣). وأما ما أخرجه أبو داود ، بإسناد جيد ، من حديث أبى ثعلبة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه » (٤) ، وقد أخرجه أيضا بإسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) ، وأخرجه أيضا النسائى (٦) ، فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدىّ بن حاتم ، وإن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار ،وجاع فأكل من الصيد لجوعه ، لا لكونه أمسكه على نفسه ، فإنه لا يؤثر ذلك ، ولا يحرم به الصيد ،وحملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشنى، وحديث عمرو بن شعيب ، وهذا جمع حسن . وقال آخرون : إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدى ، وإن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين ، وقيل : يحمل حديث أبى ثعلبة على ما إذا أمسكه وخلاه ، ثم عاد فأكل منه ، وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح، ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها

(١) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٤٧٦) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٢٩/ ١) وأبو داود فى الصيد (٢٨٤٨).

(٢) أحمد ٤ / ٣٧٩ والبخارى فى الوضوء (١٧٥) وفى الذبائح والصيد (٥٤٨٣ ، ٥٤٨٤) ومسلم فى الصيد والذبائح (١/١٩٢٩) .

(٣) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٤٨٧) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٢٩/ ٣،٢) وأبو داود فى الصيد (٢٨٤٨).

(٤) أبو داود فى الصيد (٢٨٥٢).

(٥) أبو داود فى الصيد (٢٨٥٧).

(٦) النسائى ٧/ ١٨١ .

من البعد . قالوا : وحديث عدىّ بن حاتم أرجح لكونه فى الصحيحين . وقد قررت هذا المسلك فى شرحى للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة .

قوله : ﴿ **واذكروا اسم الله عليه** ﴾ الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ يعود إلى ﴿ **ما علمتم** ﴾ أى سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن عليكم ، أى سموا عليه إذا أردتم ذكاته . وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح ، واستدلوا بهذه الآية . ويؤيده حديث عدى بن حاتم الثابت فى الصحيحين وغيرهما بلفظ : « إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله ، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله » (١) ، وقال بعض أهل العلم : إن المراد التسمية عند الأكل . قال القرطبى: وهو الأظهر (٢) ، واستدلوا بالأحاديث التى فيها الإرشاد إلى التسمية وهذا خطأ ، فإن النبى ﷺ قد وقت التسمية بإرسال الكلب وإرسال السهم ، ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر . ومسألة غير هذه المسألة ، فلا وجه لحمل ما ورد فى الكتاب والسنة هنا على ما ورد فى التسمية عند الأكل ، ولا ملجئ إلى ذلك ، وفى لفظ فى الصحيحين من حديث عدىّ : « إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ فكل » (٣) ، وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط ، وذهب آخرون إلى أنها سنة فقط ، وذهب جماعة إلى أنها شرط على الذاكر لا الناسى ، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها . وقوله : ﴿ **واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ أى حسابه سبحانه ، سريع إتيانه ، وكل آت قريب .

قوله: ﴿ **أحل لكم الطيبات** ﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى وهى قوله : ﴿ **أحل لكم الطيبات** ﴾وقد تقدم بيان الطيبات . قوله : ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم** ﴾ الطعام اسم لما يؤكل ، ومنه الذبائح ، وذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح ، وفى هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين ، وإن كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله ، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله :﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ [الأنعام : ١٢١] . وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال ، وإن ذكر اليهودى على ذبيحته اسم عُزَيْر وذكر النصرانى على ذبيحته اسم المسيح ، وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس والزهرى وربيعة والشعبى ومكحول . وقال على وعائشة وابن عمر : إذا سمعت الكتابى يسمى غير الله فلا تأكل ، وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ ويدل عليه أيضًا قوله : ﴿**وما أهل لغير الله به** ﴾ [النحل : ١١٥] . وقال مالك : إنه يكره ولا يحرم . فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله ، وأما مع عدم العلم

(١) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٤٨٤) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٢٩/٦) والترمذى فى الصيد (١٤٦٩) كلهم عن عدى بن حاتم.

(٢) القرطبى ٣/ ٢٠٧١.

(٣) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٤٨٣) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٢٩/٣) .

فقد حكى الكيا الطبرى وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية ، ولما ورد فى السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التى أهدتها إليه اليهودية وهو فى الصحيح [١]، وكذا الجراب الشحم الذى أخذه بعض الصحابة من خيبر ، وعلم بذلك النبى ﷺ ، وهو فى الصحيح أيضًا [٢] ، وغير ذلك .

والمراد بأهل الكتاب هنا : اليهود والنصارى . وأما المجوس ، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم ، ولا تنكح نساؤهم ، لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم ، وخالف فى ذلك أبو ثور ، وأنكر عليه الفقهاء ذلك ، حتى قال أحمد بن حنبل : أبو ثور كاسمه ، يعنى فى هذه المسألة ، وكأنه تمسك بما يروى عن النبى ﷺ مرسلا أنه قال فى المجوس : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » [٣] ، ولم يثبت بهذا اللفظ ،وعلى فرض أن له أصلا ففيه زيادة تدفع ما قاله ، وهى قوله : « غير آكلى ذبائحهم ولا ناكحى نسائهم » [٤] ، وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة له بفن الحديث من المفسرين والفقهاء ، ولم يثبت الأصل ولا الزيادة ، بل الذى ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر[٥]، وأما بنو تغلب فكان على بن أبى طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب، وكان يقول : إنهم لم يتمسكوا بشىء من النصرانية إلا شرب الخمر ، وهكذا سائر العرب المتنصرة كتنوخ،وجذام، ولخم ، وعاملة ، ومن أشبههم . قال ابن كثير : وهو قول غير واحد من السلف والخلف . وروى عن سعيد بن المسيب والحسن البصرى أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بنى تغلب . وقال القرطبى : وقال جمهور الأمة إن ذبيحة كل نصرانى حلال ، سواء كان من بنى تغلب ، أو من غيرهم ، وكذلك اليهودى [٦] قال : ولا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى ذكاة كالطعام يجوز أكله .

قوله : ﴿ **وطعامكم حل لهم** ﴾ أى وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب ، وفيه دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمجازاة وإخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم ،بطريق الدلالة الالتزامية.

قوله : ﴿ **والمحصنات من المؤمنات** ﴾ اختلف فى تفسير المحصنات هنا ، فقيل: العفائف . وقيل : الحرائر ، وقرأ الشعبى بكسر الصاد ، وبه قرأ الكسائى ، وقد تقدم الكلام فى هذا

---

(١) البخارى فى الهبة (٢٦١٧) ومسلم فى السلام (٢١٩٠/ ٤٥) وكلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) البخارى فى فرض الخمس (٣١٥٣) وفى المغازى (٤٢١٤) وفى الذبائح والصيد (٥٥٠٨) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٢/ ٧٢ ، ٧٣) وكلهم عن عبد الله بن مغفل . .

(٣) مالك فى الزكاة باب جزية أهل الكتاب والمجوس (٤٢) وعبد الرزاق فى أهل الكتاب (١٠٠٢٥) وفى أهل الكتابين (١٩٢٥٣) وابن أبى شيبة ٣/ ٢٢٣ ، ٢٢٤ وفى الجهاد (١٢٦٩٦) والبيهقى ٩/ ١٨٩ ، ١٩٠ وكلهم عن عبد الرحمن بن عوف .

(٤) عزى هذه الرواية ابن حجر فى تلخيص الحبير (١٥٣٣) إلى عبد الرزاق ثم قال : « وهو مرسل وفى إسناده قيس بن الربيع وهو ضعيف ، قال البيهقى : وإجماع أكثر المسلمين عليه يؤكده » .

(٥) البخارى فى الجزية والموادعة (٣١٥٧) عن عبد الرحمن بن عوف.

(٦) القرطبى ٣/ ٢٠٧٥ .

مستوفى فى البقرة والنساء . والمحصنات مبتدأ ، ومن المؤمنات وصف له ، والخبر محذوف ، أى حل لكم ، وذكرهن هنا توطئة وتمهيدًا لقوله : ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ والمراد بهن : الحرائر دون الإماء ، هكذا قال الجمهور ، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعم كل كتابية حرة أو أمة . وقيل : المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات ، وبه قال الشافعى، وهو تخصيص بغير مخصص ، وقال عبد الله بن عمر : لا تحل النصرانية ، قال : ولا أعلم شركا أكبر من أن تقول ربها عيسى ، وقد قال الله : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ الآية [البقرة:٢٢١] . ويجاب عنه بأن هذه الآية مخصصة للكتابيات من عموم المشركات فيبنى العام على الخاص . وقد استدل من حرم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر ، وبقوله تعالى : ﴿ فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ [النساء : ٢٥] . وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم وخالفهم من قال: إن الآية تعم أو تخص العفائف كما تقدم . والحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال، إلا على قول ابن عمر فى النصرانية ، ويدخل تحتها الحرة التى ليست بعفيفة ، والأمة العفيفة ، على قول من يقول : إنه يجوز استعمال المشرك فى كلا معنييه ، وأما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة ، عفيفة كانت أو غير عفيفة ، إلا بدليل آخر، ويقول بجواز نكاح الحرة عفيفة كانت أو غير عفيفة ، وإن حمل المحصنات هنا على العفائف قال بجواز نكاح الحرة العفيفة ، والأمة العفيفة ، دون غير العفيفة منهما .

قوله : ﴿ **إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ أى مهورهن . وجواب ﴿ **إذا** ﴾ محذوف أى فهن حلال ، أو هى ظرف لخبر المحصنات المقدر ، أى حل لكم . قوله : ﴿ **محصنين** ﴾ منصوب على الحال ، أى حال كونكم أعفاء بالنكاح، وكذا قوله : ﴿ **غير مسافحين** ﴾ منصوب على الحال من الضمير فى محصنين ، أو صفة لمحصنين ، والمعنى : غير مجاهرين بالزنا . قوله: ﴿ **ولا متخذى أخدان** ﴾ معطوف على ﴿ **غير مسافحين** ﴾ أو على ﴿ **مسافحين** ﴾ و«لا» مزيدة للتأكيد ، والخدن يقع على الذكر والأنثى ، أى لم يتخذوا معشوقات ، فقد شرط الله فى الرجال العفة، وعدم المجاهرة بالزنا ، وعدم اتخاذ أخدان ، كما شرط فى النساء أن يكن محصنات ﴿ **ومن يكفر بالإيمان** ﴾ أى بشرائع الإسلام ﴿**فقد حبط عمله** ﴾ أى بطل ، ﴿ **وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ وقرأ ابن السَّمَيْفَع : « فقد حبط» بفتح الباء ا . هـ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه ، عن أبى رافع؛أن النبى ﷺ أمره بقتل الكلاب فى الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، ماذا يحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ؟ فسكت النبى ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **يسألونك**

ماذا أحل لهم ﴾ الآية(١) . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه (٢) . وأخرج أيضا عن محمد ابن كعب القرظى نحوه (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير ، أن عدىّ بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين، سألا رسول الله ﷺ ، فقالا : يا رسول الله ، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبى ؛ أن عدىّ بن حاتم الطائى أتى رسول الله ﷺ فسأله ، فذكر نحوه (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: **﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين ﴾** قال : هى الكلاب المعلمة ، والبازى والجوارح يعنى الكلاب والفهود والصقور وأشباهها . وأخرج ابن جرير عنه قال : آية المعلم أن يمسك صيده فلا يأكل منه ، حتى يأتى صاحبه . وأخرج عنه أيضا قال : إذا أكل الكلب فلا تأكل ، فإنما أمسك على نفسه . وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه ، وزاد : وإذا أكل الصقر فلا تأكل لأن الكلب تستطيع أن تضربه والصقر لا تستطيع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،والبيهقى فى سننه عنه فى قوله : **﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب ﴾** قال: ذبائحهم ، وفى قوله : **﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾** قال: حل لكم **﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾** يعنى مهورهن**﴿ محصنين ﴾**يعنى تنكحونهن بالمهر والبينة**﴿ غير مسافحين ﴾**غير متغالين بالزنا **﴿ ولا متخذى أخدان ﴾** يعنى يسرون بالزنا. وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة فى قوله : **﴿ والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾** قال : أحل الله لنا محصنتين محصنة مؤمنة ومحصنة من أهل الكتاب ، نساؤنا عليهم حرام ، ونساؤهم لنا حلال . وأخرج ابن جرير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا » .وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانى المسلمة . وأخرج الطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : إنما أحلت ذبائح اليهود والنصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة والإنجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : **﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ﴾** قال : الحرائر . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: العفائف .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ

(١) ابن جرير ٦/ ٥٧ والطبرانى (٩٧٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٤٥ ، ٤٦ : «وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف» وصححه الحاكم ٢/ ٣١١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩/ ٢٣٥ .
(٢ ، ٣) ابن جرير ٦/ ٥٧ . (٤) المرجع السابق ٦/ ٥٨.

سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) ﴾.

قوله : ﴿ إذا قمتم ﴾ إذا أردتم القيام تعبيراً بالمسبب عن السبب كما فى قوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النحل : ٩٨] . وقد اختلف أهل العلم فى هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة ، فقالت طائفة: هو عام فى كل قيام إليها سواء كان القائم متطهراً أو محدثاً ، فإنه ينبغى له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ ، وهو مروى عن على وعكرمة. وقال ابن سيرين : كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة . وقالت طائفة أخرى : إن هذا الأمر خاص بالنبى ﷺ وهو ضعيف ، فإن الخطاب للمؤمنين والأمر لهم . وقالت طائفة : الأمر للندب طلبا للفضل . وقال آخرون : إن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً عليهم بهذه الآية . ثم نسخ فى فتح مكة . وقال جماعة: هذا الأمر خاص بمن كان محدثاً . وقال آخرون : المراد إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، فيعم الخطاب كل قائم من نوم . وقد أخرج مسلم وأحمد وأهل السنن عن بريدة قال : كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة . فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر: يا رسول الله ، إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله، فقال : «عمداً فعلته يا عمر » (١) ، وهو مروى من طرق كثيرة بألفاظ متفقة فى المعنى . وأخرج البخارى وأحمد وأهل السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث (٢). فتقرر بما ذكر أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث ، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق .

قوله : ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ الوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء ، وله طول وعرض ، فحده فى الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين ، وفى العرض من الأذن إلى الأذن وقد ورد الدليل بتخليل اللحية . واختلف العلماء فى غسل ما استرسل ، والكلام فى ذلك مبسوط فى مواطنه . وقد اختلف أهل العلم أيضاً: هل يعتبر فى الغسل الدلك باليد أم يكفى إمرار الماء ؟ والخلاف فى ذلك معروف ، والمرجع اللغة العربية ، فإن ثبت فيها أن الدلك داخل فى مسمى الغسل كان معتبراً وإلا فلا . قال فى شمس العلوم :

---

(١) أحمد ٥/ ٣٥٨ ومسلم فى الطهارة (٢٧٧/ ٨٦) وأبو داود فى الطهارة (١٧٢) والترمذى فى الطهارة (٦١) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ١/ ٨٦ وابن ماجة فى الطهارة (٥١٠) .

(٢) أحمد ٣/ ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٤ والبخارى فى الوضوء (٢١٤) وأبو داود فى الطهارة (١٧١) ، والترمذى فى الطهارة (٦٠) وقال : «حسن صحيح » والنسائى ١/ ٨٥ وابن ماجة (٥٠٩) .

غسل الشيء غسلاً إذا أجرى عليه الماء ودلكه[١]. انتهى . وأما المضمضة والاستنشاق ، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف فقد ثبت غسلها بالسنة الصحيحة ، والخلاف فى الوجوب وعدمه معروف . وقد أوضحنا ما هو الحق فى مؤلفاتنا .

قوله : ﴿ **وأيديكم إلى المرافق** ﴾ : « إلى » للغاية ، وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف . وقد ذهب سيبويه وجماعة إلى أن ما بعدها إذا كان من نوع ما قبلها دخل وإلا فلا . وقيل : إنها هنا بمعنى مع . وذهب قوم إلى أنها تفيد الغاية مطلقاً وأما الدخول وعدمه فأمر يدور مع الدليل . وقد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل ، واستدلوا بما أخرجه الدارقطنى والبيهقى من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جده عن جابر بن عبد الله ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه [٢] . ولكن القاسم هذا متروك ، وجده ضعيف .

قوله : ﴿ **وامسحوا برؤوسكم** ﴾ قيل : الباء زائدة ، والمعنى : امسحوا رؤوسكم ، وذلك يقتضى تعميم المسح لجميع الرأس . وقيل : هى للتبعيض ، وذلك يقتضى أنه يجزئ مسح بعضه . واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى فى التيمم: ﴿**فامسحوا بوجوهكم** ﴾ ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقاً . وقيل : إنها للإلصاق ، أى ألصقوا أيديكم برؤوسكم، وعلى كل حال فقد ورد فى السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفى مسح بعض الرأس كما أوضحناه فى مؤلفاتنا ، فكان هذا دليلاً على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة ، ولا شك أن من أمر غيره بأن يمسح رأسه كان ممتثلاً بفعل ما يصدق عليه مسمى المسح ، وليس فى لغة العرب ما يقتضى أنه لابد فى مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس ، وهكذا سائر الأفعال المتعدية نحو : اضرب زيداً أو اطعنه أو ارجمه ، فإنه يوجد المعنى العربى بوقوع الضرب أو الطعن أو الرجم على عضو من أعضائه ، ولا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها : إنه لا يكون ضارباً إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد ، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال ، فاعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال فى مسح الرأس . فإن قلت : يلزم مثل هذا فى غسل الوجه واليدين والرجلين . قلت : ملتزم لولا البيان من السنة فى الوجه ، والتحديد بالغاية فى اليدين والرجلين بخلاف الرأس ، فإنه ورد فى السنة مسح الكل ومسح البعض .

قوله : ﴿ **وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ قرأ نافع بنصب الأرجل ، وهى قراءة الحسن البصرى والأعمش ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة بالجر . وقراءة النصب تدل على أنه يجب غسل

---

(١) شمس العلوم مادة (غسل) .

(٢) الدارقطنى باب وضوء رسول الله ﷺ (١٥) والبيهقى ١/ ٥٦ .

الرجلين ؛ لأنها معطوفة على الوجه ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء . وقراءة الجر تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين ؛ لأنها معطوفة على الرأس ، وإليه ذهب ابن جرير الطبرى ، وهو مروى عن ابن عباس . قال ابن العربى : اتفقت الأمة على وجوب غسلهما ، وما علمت من ردّ ذلك إلا الطبرى من فقهاء المسلمين ، والرافضة من غيرهم ، وتعلق الطبرى بقراءة الجر قال القرطبى : قد روى عن ابن عباس أنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان ، قال : وكان عكرمة يمسح رجليه . وقال : ليس فى الرجلين غسل ، إنما نزل فيهما المسح . وقال عامر الشعبى : نزل جبريل بالمسح . قال : وقال قتادة: افترض الله مسحتين وغسلتين . قال : وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح ، وجعل القراءتين كالروايتين ، وقواه النحاس [١] ، ولكنه قد ثبت فى السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ وقوله غسل الرجلين فقط ، وثبت عنه أنه قال : « ويل للأعقاب من النار » [٢] ، وهو فى الصحيحين وغيرهما ، فأفاد وجوب غسل الرجلين ، وأنه لا يجزئ مسحهما ؛ لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطئ ما أخطأ ، فلو كان مجزئاً لما قال : « ويل للأعقاب من النار » وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجليه: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به »[٣] . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره : أن رجلاً توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر . فقال له: « ارجع فأحسن وضوءك » [٤] . وأما المسح على الخفين فهو ثابت بالأحاديث المتواترة .

وقوله : ﴿ **إلى الكعبين** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قوله : ﴿ **إلى المرافق** ﴾ وقد قيل فى وجه جمع المرافق وتثنية الكعاب : إنه لما كان فى كل رجل كعبان ولم يكن فى كل يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب تنبيهاً على أن لكل رجل كعبين، بخلاف المرافق فإنها جمعت ؛ لأنه لما كان فى كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، ذكر معنى هذا ابن عطية . وقال الكواشى : ثنى الكعبين وجمع المرافق لنفى توهم أن فى كل واحدة من الرجلين كعبين، وإنما فى كل واحدة كعب واحد، له طرفان من جانبى الرجل، بخلاف المرفق فهى أبعد عن الوهم، انتهى.

وبقى من فرائض الوضوء النية والتسمية ، ولم يذكرا فى هذه الآية بل وردت بهما السنة . وقيل : إن فى هذه الآية ما يدل على النية ، لأنه لما قال : ﴿ **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا**

(١) القرطبى ٣/ ٢٠٨٩ .

(٢) أحمد ٢/ ١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٢١١ والبخارى فى العلم (٦٠ ، ٩٦) وفى الوضوء (١٦٣) ومسلم فى الطهارة (٢٤١ / ٢٦ ، ٢٧) والنسائى ١/ ٧٨ وابن ماجة فى الطهارة (٤٥٥) وفى الزوائد : « إسناده حسن وقال : ما علمت فى رجاله ضعفا » ، والدارمى ١/ ١٧٩ ومالك فى الطهارة (٥) . كلهم عن عبد الله بن عمرو إلا مالك فهو عن عبد الرحمن بن أبى بكر .

(٣) الدارقطنى باب وضوئه ﷺ ١/ ٧٩ (١) والبيهقى فى الطهارة ١/ ٨٠ . وليس فى الحديث دلالة على وجوب غسل القدمين ولكن الوجوب ثابت بأحاديث أُخَر .

(٤) مسلم فى الطهارة (٢٤٣ / ٣١) عن عمر بن الخطاب والبيهقى ١/ ٧٠ والدارقطنى باب ما روى فى فضل الوضوء واستيعاب جميع القدم فى الوضوء بالماء (٥) وأوردهما عن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك .

وجوهكم ﴾ كان تقدير الكلام : فاغسلوا وجوهكم لها ، وذلك هو النية المعتبرة .

قوله : ﴿ **وإن كنتم جنبا فاطهروا** ﴾ أى فاغتسلوا بالماء . وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لا يتيمم البتة ، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية ، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء وهذه الآية هى للواجد ، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه ، وهو التراب . وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة فى تيمم الجنب مع عدم الماء . وقد تقدم تفسير الجنب فى النساء .

قوله : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ وقد تقدم تفسير هذا فى سورة النساء مستوفى ، وكذلك تقدم الكلام على ملامسة النساء ، وعلى التيمم ، وعلى الصعيد ، « ومن » فى قوله: ﴿ **منه** ﴾ لابتداء الغاية . وقيل : للتبعيض . قيل : ووجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام فى أنواع الطهارة . ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾ أى ما يريد بأمركم الطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم فى الدين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[الحج : ٧٨] . ثم قال : ﴿ **ولكن يريد ليطهركم** ﴾ من الذنوب . وقيل: من الحدث الأصغر والأكبر ﴿**وليتم نعمته عليكم** ﴾ أى بالترخيص لكم فى التيمم عند عدم الماء أو بما شرعه لكم من الشرائع ، التى عرضكم بها للثواب ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ نعمته عليكم فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين .

وقد أخرج مالك والشافعى وعبد بن حميد وابن المنذر عن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ **إذا قمتم إلى الصلاة** ﴾ قال: قمتم من المضاجع ، يعنى : النوم . وأخرج ابن جرير عن السدى مثله ، وأخرج ابن جرير ، أيضاً عنه يقول : إذا قمتم وأنتم على غير طهر . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى قوله : ﴿ **فاغسلوا وجوهكم** ﴾ قال : ذلك الغسل الدلك . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير عن أنس أنه قيل له : إن الحجاج خطبنا فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ، وأنه ليس شىء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه فاغسلوا بطونهما ، وظهورهما ، وعراقيبهما . قال أنس: صدق الله وكذب الحجاج . قال الله : ﴿ **وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم** ﴾ وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما [(١)] .

وأخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **من حرج** ﴾ قال : من ضيق . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ويتم نعمته عليكم** ﴾ قال : تمام النعمة دخول الجنة، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة .

---

(١) ابن جرير ٦/ ٨٢ .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ .

﴿ **نعمة الله** ﴾ قيل : هى الإسلام . والميثاق : العهد . قيل : المراد به هنا : ما أخذه على بنى آدم كما قال : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم ﴾ الآية [الأعراف : ١٧٢] . قال مجاهد وغيره : نحن وإن لم نذكره فقد أخبرنا الله به. وقيل : هو خطاب لليهود ، والعهد : ما أخذه عليهم فى التوراة . وذهب جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم، إلى أنه العهد الذى أخذه النبى ﷺ ليلة العقبة عليهم ، وهو السمع والطاعة فى المنشط والمكره [(١)] ، وأضافه تعالى إلى نفسه. لأنه عن أمره وإذنه كما قال : ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : ١٠] ، وبيعة العقبة مذكورة فى كتب السيرة ، وهذا متصل بقوله: ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ [المائدة :١] . قوله : ﴿ **إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ أى وقت قولكم هذا القول ، وهذا متعلق بواثقكم ، أو بمحذوف وقع حالاً ، أى كائناً هذا الوقت . و﴿ **ذات الصدور** ﴾ : ما تخفيه الصدور لكونها مختصة بها لا يعلمها أحد. ولهذا أطلق عليها ذات التى بمعنى الصاحب، وإذا كان سبحانه عالماً بها فكيف بما كان ظاهراً جلياً .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين** ﴾ قد تقدم تفسيرها فى النساء ، وصيغة المبالغة فى ﴿ **قوامين** ﴾ تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتم قيام ﴿ **لله** ﴾ أى لأجله، تعظيماً لأمره ، وطمعاً فى ثوابه . والقسط : العدل. وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ **يجرمنكم** ﴾ مستوفى ، أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل وكتم الشهادة ﴿ **اعدلوا هو** ﴾ أى العدل المدلول عليه بقوله : ﴿ **اعدلوا** ﴾ ﴿ **أقرب للتقوى** ﴾ التى أمرتم بها غير مرة ، أى أقرب لأن تتقوا الله ، أو لأن تتقوا النار . قوله : ﴿ **لهم مغفرة وأجرعظيم** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على أنه المفعول الثانى لقوله : ﴿ **وعد** ﴾ على معنى وعدهم، أن لهم مغفرة ، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فأغنت عنه ، ومثله قول الشاعر :

وَجَدْنَا الصَّالحين لَهُم جزَاء   وَجَنَّاتٍ وَعَيْناً سَلْسَبِيلاَ

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٣ . ط : أوربا .

قوله: ﴿ **أصحاب الجحيم** ﴾ أى ملابسوها. قوله: ﴿ **إذ همّ قوم** ﴾ظرف لقوله: ﴿ **اذكـروا** ﴾ أو للنعمة أو لمحذوف وقع حالاً منها ، ﴿ **أن يبسطوا**﴾ أى بأن يبسطوا . وقوله : ﴿ **فكفّ** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **همّ** ﴾ وسيأتى بيان سبب نزول هذه الآية، وبه يتضح المعنى.

وقد أخرج ابن جرير ، والطبرانى فى الكبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ يعنى حين بعث الله النبى ﷺ وأنزل عليه الكتاب ، قالوا : آمنا بالنبى والكتاب ، وأقررنا بما فى التوراة ، فذكرهم الله ميثاقه الذى أقروا به على أنفسهم وأمرهم بالوفاء به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : النعم : الآلاء ، وميثاقه الذى واثقهم به قال : الذى واثق به بنى آدم فى ظهر آدم عليه السلام .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط** ﴾ الآية . قال: نزلت فى يهود خيبر ، ذهب إليهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية فهموا أن يقتلوه ،فذلك قوله: ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا** ﴾ الآية [١] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبى ﷺ نزل منزلاً فتفرق الناس فى العضاه [٢] يستظلون تحتها ، فعلق النبى ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى إلى سيفه فأخذه فسله ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : من يمنعك منى ؟ قال : « الله » ، قال الأعرابى : مرتين أو ثلاثا : من يمنعك منى ؟ والنبى ﷺ يقول : « الله » فشام [٣] الأعرابى السيف . فدعا النبى ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابى وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه . قال معمر : وكان قتادة يذكر نحو هذا . ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبى ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابى ، ويتأول ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم** ﴾ الآية[٤] . وأخرج الحاكم وصححه عنه بنحوه . وذكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث،وأنه لما قال النبى ﷺ: « الله » سقط السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ وقال : « من يمنعك منى ؟ » قال : كن خير آخذ ، قال : فشهد أن لا إله إلا الله [٥] . وأخرجه أيضا ابن إسحاق ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه [٦] .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن ابن عباس ، أن بنى النضير هموا أن يطرحوا حجراً على النبى ﷺ ومن معه، فجاء جبريل فأخبره بما هموا ، فقام ومن معه ، فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم**﴾[٧] . وروى نحو هذا من طرق عن غيره [٨] ، وقصة الأعرابى وهو غورث المذكور ثابتة فى الصحيح [٩] .

---

(١) ابن جرير ٦/ ٩١ .
(٢) العضاه: كل شجر يعظم وله شوك .
(٣) شام: أى وضع السيف فى غمده .
(٤) ابن جرير ٦/ ٩٤ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٦٩ .
(٥) صحيح الحاكم ٣/ ٢٩ ، ٣٠ بلفظ مختلف على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٦) ابن إسحاق ٣/ ١٥٧ .
(٧) أبو نعيم فى الدلائل ١/ ٤٢٢ ، ٤٢٣ .
(٨) أبو نعيم فى الدلائل ١/ ٤٢٣ ، ٤٢٤ عن عروة بن الزبير .
(٩) البخارى فى المغازى (٤١٣٦) وأحمد ٣/ ٣٩٠ .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد أخذ الله** ﴾ كلام مستأنف ، يتضمن ذكر بعض ما صدر من بنى إسرائيل من الخيانة . وقد تقدم بيان الميثاق الذى أخذه الله عليهم . واختلف المفسرون فى كيفية بعث هؤلاء النقباء ، بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم ، العالم بأمورهم الذى ينقب عنها وعن مصالحهم فيها . والنَّقَّابُ : الرجل العظيم الذى هو فى الناس على هذه الطريقة، ويقال : نقيب القوم لشاهدهم وضمينهم . والنَّقْب : الطريق فى الجبل ، هذا أصله ، وسمى به نقيب القوم ؛ لأنه طريق إلى معرفة أمورهم . والنقيب أعلى مكاناً من العريف . فقيل : المراد ببعث هؤلاء النقباء أنهم بعثوا أمناء على الاطلاع على الجبارين ، والنظر فى قوتهم ومنعتهم ، فساروا ليختبروا حال من بها ، ويخبروا بذلك ، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة ، وظنوا أنهم لا قبل لهم بها ، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بنى إسرائيل ، وأن يعلموا به موسى ، فلما انصرفوا إلى بنى إسرائيل خان منهم عشرة ، فأخبروا قراباتهم، ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو وقالوا : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ [المائدة : ٢٤] . وقيل : إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله ، وهذا معنى بعثهم ، وسيأتى ذكر بعض ما قاله جماعة من السلف فى ذلك .

قوله : ﴿ **وقال الله إنى معكم** ﴾ أى قال ذلك لبنى إسرائيل. وقيل : للنقباء ؛ والمعنى : إنى معكم بالنصر والعون ، واللام فى قوله : ﴿ **لئن أقمتم الصلاة** ﴾ هى الموطئة للقسم المحذوف ، وجوابه ﴿ **لأكفرن** ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. والتعزير : التعظيم والتوقير ، وأنشد أبو عبيدة :

وَكَمْ مِنْ مَاجِدٍ لَهُمُ كَرِيم ... وَمِنْ ليث يُعـــزَّرُ فى النـَّدِىِّ

أى يعظم ويوقر . ويطلق التعزير على الضرب والرد ، يقال : عزّرت فلاناً : إذا أدبته ورددته عن القبيح ، فقوله: ﴿وعزرتموهم﴾ أى عظمتموهم على المعنى الأول . أو رددتم عنهم أعداءهم ومنعتموهم على الثانى . قوله: ﴿ وأقرضتم الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ أى أنفقتم فى وجوه الخير ، و ﴿ قرضاً ﴾ مصدر محذوف الزوائد كقوله تعالى: ﴿وأنبتها نباتا حسنا ﴾ [آل عمران : ٣١] . أو مفعول ثان لأقرضتم . والحسن ، قيل : هو ما طابت به النفس . وقيل: ما ابتغى به وجه الله . وقيل : الحلال . قوله : ﴿ فمن كفر بعد ذلك ﴾ أى بعد الميثاق أو بعد الشرط المذكور ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى أخطأ وسط الطريق .

قوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ الباء سببية وما زائدة ، أى فبسبب نقضهم ميثاقهم ﴿ لعناهم ﴾ أى طردناهم وأبعدناهم ، ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ أى صلبة لا تعى خيراً ولا تعقله . وقرأ حمزة والكسائى : «قَسِيَّة» بتشديد الياء من غير ألف ، وهى قراءة ابن مسعود والنخعى ويحيى بن وثاب ، يقال : درهم قَسِىٌّ مخفف السين مشدد الياء ، أى زائف ، ذكر ذلك أبو عبيد . وقال الأصمعى وأبو عبيدة : درهم قسى كأنه معرب قاس . وقرأ الأعمش : « قَسِيَةً » بتخفيف الياء . وقرأ الباقون : ﴿ قَاسِية ﴾ . ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ الجملة مستأنفة لبيان حالهم أو حالية ، أى يبدلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله . وقرأ السلمى والنخعى : « الكلام » . قوله : ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ أى لا تزال يا محمد ، تقف على خائنة منهم ، والخائنة : الخيانة . وقيل : هو نعت لمحذوف ، والتقدير : فرقة خائنة ، وقد تقع للمبالغة نحو : علاَّمة ونسَّابة ، إذا أردت المبالغة فى وصفه بالخيانة .وقيل : خائنة : معصية . قوله : ﴿ إلا قليلاً منهم ﴾ استثناء من الضمير فى منهم ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ قيل : هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : خاص بالمعاهدين .

قوله : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ الجار والمجرور متعلق بقوله : ﴿ أخذنا ﴾ والتقديم للاهتمام ، والتقدير : وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم : أى فى التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ ، وبما جاء به. قال الأخفش : هو كقولك : أخذت من زيد ثوبه ودرهمه فرتبة « الذين » بعد أخذنا . وقال الكوفيون بخلافه. وقيل : إن الضمير فى قوله: ﴿ميثاقهم﴾ راجع إلى بنى إسرائيل ، أى أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بنى إسرائيل ، وقال : ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى ﴾ (١) ولم يقل : ومن النصارى للإيذان بأنهم كاذبون فى دعوى النصرانية ، وأنهم أنصار الله.

قوله : ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أى نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيباً وافراً عقب أخذه عليهم ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء ﴾ أى ألصقنا ذلك بهم ، مأخوذ من الغراء : وهو ما يلصق الشىء بالشىء كالصَّمغ وشبهه ، يقال: غَرِىَ بالشىء يَغْرِى غَرياً بفتح الغين

(١) فى المخطوطة : « من الذين قالوا » .

مقصوراً ، وغراء بكسرها ممدوداً ، أى أولع به حتى كأنه صار ملتصقاً به ، ومثل الإغراء التحرش ، وأغريت الكلب ، أى أولعته بالصيد ، والمراد بقوله : ﴿ **بينهم** ﴾: اليهود والنصارى لتقدم ذكرهم جميعاً . وقيل: بين النصارى خاصة ، لأنهم أقرب مذكور ، وذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية (١) والنسطورية (٢) والملكانية (٣) ، وكفَّر بعضهم بعضاً ، وتظاهروا بالعداوة ذات بينهم . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معنى ﴿ **أغرينا بينهم العداوة والبغضاء** ﴾ ، أن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم ، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها ، وإبغاضها . قوله : ﴿ **وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾ تهديد لهم ، أى سيلقون جزاء نقض الميثاق .

وقد أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل** ﴾ قال : أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ، ولا يعبدوا غيره ﴿ **وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً** ﴾ أى كفيلاً كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه ، من العهود فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿**اثنى عشر نقيباً** ﴾ قال : من كل سبط من بنى إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين فوجدوهم يدخل فى كم أحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة أنفس منهم فى خشبة. ويدخل فى شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة،فرجع النقباء كلهم ينهى سبطه عن قتالهم، إلا يوشع بن نون ، وكالب بن يافنه ، فإنهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين ومجاهدتهم فعصوهما ، وأطاعوا الآخرين فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث أصبحوا فى تيههم ذلك ، فضرب موسى الحجر لكل سبط عيناً حجراً لهم يحملونه معهم ، فقال لهم موسى: اشربوا يا حمير ، فنهاه الله عن سبهم (٤). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **اثنى عشر نقيباً** ﴾ قال: هم من بنى إسرائيل،بعثهم موسى لينظروا إلى المدينة فجاؤوا بحبة من فاكهتهم ، وقر رجل ، فقال : اقدروا قوة قوم وبأسهم وهذه فاكهتهم ، فعند ذلك فتنوا ، فقالوا : لا نستطيع القتال ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا**﴾(٥) وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط ، وأسماؤهم مذكورة فى السفر الرابع من التوراة ، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق . وأخرج ابن أبى حاتم

(١) أصحاب يعقوب البردعانى وكان راهباً بالقسطنطينية . قالوا : بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو. وعنهم أخبر القرآن الكريم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ .

(٢) أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون ، وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه وإضافته إليهم . قال : إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود ، والعلم ، والحياة ، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات .

(٣) أصحاب ملكا الذى ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية . قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس : أقنوم الحياة . راجع : الملل والنحل للشهرستانى٢/ ٣٩ ـ ٥٢ .

(٤) ابن جرير٦/ ٩٦ .

(٥) المرجع السابق ٦/ ٩٧ .

عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وعزرتموهم** ﴾ قال : أعنتموهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وعزرتموهم** ﴾ قال : نصرتموهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ قال :هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ يعنى حدود الله ، يقولون : إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه وإن خالفكم فاحذروا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ **ونسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ قال : نسوا الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تزال تطلع على خائنة منهم** ﴾ قال : هم يهود مثل الذى هموا به من النبى ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تزال تطلع على خائنة منهم** ﴾ قال: كذب وفجور ، وفى قوله : ﴿ **فاعف عنهم واصفح** ﴾ قال : لم يؤمر يومئذ بقتالهم ، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح ثم نسخ ذلك فى براءة فقال : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية[التوبة : ٢٩] . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم النخعى فى قوله: ﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ قال : أغرى بعضهم ببعض بالخصومات والجدال فى الدين.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ .

الألف واللام فى الكتاب للجنس ، والخطاب لليهود والنصارى ﴿ **قد جاءكم رسولنا** ﴾ أى محمد ﷺ ، حال كونه ﴿ **يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ المنزل عليكم ، وهو التوراة والإنجيل:كآية الرجم ، وقصة أصحاب السبت الممسوخين قردة ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ مما تخفونه ، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإن ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد افتضاحكم . وقيل : المعنى : إنه يعفو عن كثير فيتجاوزه ولا يخبركم به . وقيل : يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم ، والجملة فى محل نصب عطفاً على الجملة الحالية ، أعنى قوله : ﴿ **يبين لكم** ﴾ .

قوله : ﴿ **قد جاءكم من الله نور** ﴾ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمداً ﷺ قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان . قال الزجاج : النور: محمد ﷺ . وقيل : الإسلام . والكتاب المبين : القرآن ، فإنه المبين ، والضمير فى قوله : ﴿ **يهدى به** ﴾ راجع إلى الكتاب أو إليه ، وإلى النور لكونهما كالشىء الواحد ﴿ **من اتبع رضوانه** ﴾ أى ما رضيه الله ، و﴿ **سبل السلام** ﴾ طرق السلامة من العذاب ، الموصلة إلى دار السلام ، المنزهة عن كل آفة . وقيل : المراد بالسلام : الإسلام . ﴿ **ويخرجهم من الظلمات** ﴾ الكفرية إلى النور الإسلامى

﴿ **ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق، لا عوج فيها ولا مخافة .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **رسولنا** ﴾ قال : هو محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير أيضاً عن عكرمة قال : إن نبى الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم ، فقال : أيكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن صوريا ، فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى ، والذى رفع الطور وبالمواثيق التى أخذت عليهم حتى أخذه أفكل ،فقال : إنه لما كثر فينا جلدنا مائة جلدة ، وحالقنا الرؤوس ، فحكم عليهم بالرجم ، فنزلت هذه الآية (١) . وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ يقول : عن كثير من الذنوب . وأخرج ابن جرير عن السدى قال :﴿ **سبل السلام** ﴾ هى سبيل الله الذى شرعه لعباده ، ودعاهم إليه ، وابتعث به رسله وهو الإسلام .

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)** ﴾ .

ضمير الفصل فى قوله : ﴿ **هو المسيح** ﴾ يفيد الحصر ؛ قيل : وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى.وقيل : لم يقل به أحد منهم ، ولكن استلزم قولهم : ﴿ **إن الله هو المسيح** ﴾ لا غيره ، وقد تقدم فى آخر سورة النساء ما يكفى ويغنى عن التكرار . قوله : ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئاً** ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع . والملك : الضبط والحفظ والقدرة ، من قولهم ملكت على فلان أمره ، أى قدرت عليه ، أى فمن يقدر أن يمنع ﴿ **إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا** ﴾ وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إله إلا الله ولا رب غيره ، ولا معبود بحق سواه ، ولو كان المسيح إلهاً كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شىء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال ، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها . وتخصيصها بالذكر مع دخولها فى عموم من فى الأرض ، لكون الدفع منه عنها أولى ، وأحق من غيرها ، فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها أعجز عن أن يدفع عن غيرها ، وذكر ﴿ **من فى الأرض** ﴾ للدلالة على شمول قدرته، وأنه إذا أراد شيئاً كان لا معارض له فى أمره ولا مشارك له فى قضائه ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى ما بين النوعين من المخلوقات . قوله: ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق

---

(١) ابن جرير ٦/ ١٠٣ ، ١٠٤ .

بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء ولا يستصعب عليه شيء .

قوله : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير حيث قالوا: ﴿عزير ابن الله ﴾[التوبة : ٣٠] . وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا : ﴿ المسيح ابن الله﴾ [التوبة : ٣٠]. وقيل :هو على حذف مضاف ، أى نحن أتباع أبناء الله ، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة ، والأمانى العاطلة ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يرد عليهم ، فقال : ﴿ **قل فلم يعذبكم بذنوبكم** ﴾ أى إن كنتم كما تزعمون ، فما باله يعذبكم بما تقترفونه من الذنوب بالقتل ، والمسخ ، وبالنار فى يوم القيامة كما تعترفون بذلك لقولكم :﴿ **لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة** ﴾ فإن الابن من جنس أبيه ما يصدر منه ما يستحيل على الأب ، وأنتم تذنبون والحبيب لا يعذب حبيبه ، وأنتم تعذبون ، فهذا يدل على أنكم كاذبون فى هذه الدعوى وهذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف . قوله :﴿ **بل أنتم بشر ممن خلق** ﴾ عطف على مقدر يدل عليه الكلام ، أى فلستم حينئذ كذلك ﴿ **بل أنتم بشر ممن خلق** ﴾ أى من جنس من خلقه الله تعالى ، يحاسبهم على الخير والشر ، ويجازى كل عامل بعمله ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ من الموجودات ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أى تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء وبحرى بن عمرو وشاس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ، نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فأنزل الله فيهم : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى** ﴾ إلى آخر الآية (١) . وأخرج أحمد فى مسنده عن أنس قال : مر النبى ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول ابنى ابنى، فسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار ؟ فقال النبى ﷺ : « لا والله لا يلقى حبيبه فى النار » وإسناده فى المسند هكذا : حدثنا ابن أبى عدى عن حميد (٢) عن أنس فذكره (٣) . ومعنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث ، ولهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه ، فتلا الصوفى هذه الآية ، وأخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أن النبى ﷺ قال : «لا

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، وابن جرير ٦/ ١٠٥ ، ١٠٦ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٣٥ .

(٢) حميد : هو حميد الطويل . وإن قال بعضهم : إنه يدلس عن أنس ، فإن الواسطة بينه وبين أنس ثابت ، وهو ثقة صحيح كما قال الحافظ العلائى.

(٣) أحمد ٣/ ١٠٤ .

والله لا يعذب الله حبيبه ، ولكن قد يبتليه فى الدنيا » [١] . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿**يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ يقول : يهدى منكم من يشاء فى الدنيا فيغفر له ، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) ﴾.

المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى . والرسول : هو محمد ﷺ ، و﴿ **يبين لكم** ﴾ حال . والمبين : هو ما شرعه اللّه لعباده ،وحذف للعلم به ؛ لأن بعثة الرسل إنما هى بذلك . والفترة : أصلها السكون ، يقال : فَتَر الشىء : سكن . وقيل: هى الانقطاع . قاله أبو على الفارسى وغيره ، ومنه فَتَر الماءُ : إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخُونة ، وفتر الرجل عن عمله : إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه ، وامرأة فاترة الطرف ، أى منقطعة عن حدة النظر . والمعنى انقطع الرسل قبل بعثه ﷺ مدة من الزمان واختلف فى قدر مدة تلك الفترة، وسيأتى بيان ذلك . قوله : ﴿ **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير** ﴾ تعليل لمجىء الرسول بالبيان على حين فترة أى كراهة أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم ، و « من» فى قوله: ﴿ **من بشير** ﴾ زائدة للمبالغة فى نفى المجىء ، والفاء فى قوله : ﴿ **فقد جائكم** ﴾ هى الفصيحة مثل قول الشاعر :

فقد جئنا خراسانا

أى لا تعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير ،وهو محمد ﷺ ﴿ **واللّه على كل شىء قدير** ﴾ ، ومن جملة مقدوراته إرسال رسوله على فترة من الرسل .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول اللّه ﷺ يهود إلى الإسلام ، فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود ، اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا : ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله :﴿ **يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل** ﴾ الآية [٢] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : هو محمد ﷺ جاء

---

(١) أحمد فى الزهد (٢٩٨) .

(٢) ابن إسحاق ٢ / ٢٠٥ وابن جرير ٦ / ١٠٧ وفى سنده محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول .

بالحق الذى فرق الله به بين الحق والباطل فيه بيان وموعظة ، ونور وهدى ، وعصمة لمن أخذ به . قال : وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ستمائة سنة وما شاء الله من ذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد و ابن جرير عنه قال : كانت خمسمائة سنة وستين سنة .وقال الكلبى : خمسمائة سنة وأربعين سنة ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت خمسمائة سنة ، وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كانت أربعمائة سنة وبضعاً وثلاثين سنة . وأخرج ابن سعد فى كتاب الطبقات عن ابن عباس قال : كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة ولم يكن بينهما فترة ،فإنه أرسل بينهما ألف نبى من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث فى أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله تعالى :﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾ [يس : ١٤] . والذى عزز به شمعون [١] ، وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة سنة ، وأربعة وثلاثين سنة . وقد قيل غير ما ذكرناه .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ .

هذه الآيات متضمنة للبيان من الله سبحانه ، بأن أسلاف اليهود الموجودين فى عصر محمد ﷺ تمردوا على موسى وعصوه ، كما تمرّد هؤلاء على نبينا ﷺ وعصوه ، وفى ذلك تسلية له ﷺ . وروى عن عبد الله بن كثير أنه قرأ : « يا قوم اذكروا » بضم الميم ، وكذا قرأ فيما أشبهه ، وتقديره : يأيها القوم ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، أى وقت هذا الجعل ، وإيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ؛ لأن

(١) وقال أبو سليمان الدمشقى : هو خالد بن سنان الذى قال فيه رسول الله ﷺ :« نبى ضيعه قومه » . الإصابة ١/٤٦٦ ـ ٤٦٩ .

الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ما وقع فيه بطريق الأولى ، وامتن عليهم سبحانه بجعل الأنبياء فيهم ، مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم ، لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم. قوله: ﴿ **وجعلكم ملوكاً** ﴾ أى وجعل منكم ملوكاً ، وإنما حذف حرف الجر لظهور أن معنى الكلام على تقديره ، ويمكن أن يقال : إن منصب النبوة لما كان لعظم قدره ، وجلالة خطره ، بحيث لا ينسب إلى غير من هو له ، قال فيه : ﴿ **إذ جعل فيكم أنبياء** ﴾ ولما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قال به ، كما تقول قرابة الملك : نحن الملوك ، قال فيه :﴿ **وجعلكم ملوكاً** ﴾ وقيل : المراد بالملك: أنهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون ، فهم جميعاً ملوك بهذا المعنى . وقيل : معناه : أنه جعلهم ذوى منازل ، لا يدخل عليهم غيرهم إلا بإذن وقيل غير ذلك . والظاهر أن المراد من الآية الملك الحقيقى ، ولو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى . فإن قلت : قد جعل غيرهم ملوكاً كما جعلهم . قلت : قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء ، فهذا وجه الامتنان . قوله : ﴿ **وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين** ﴾ أى من المن والسلوى ، والحجر والغمام ، وكثرة الأنبياء ، وكثرة الملوك ، وغير ذلك ، والمراد عالمى زمانهم . وقيل : إن الخطاب هاهنا لأمة محمد ﷺ ، وهو عدول عن الظاهر لغير موجب ، والصواب : ما ذهب إليه جمهور المفسرين ، من أنه من كلام موسى لقومه ، وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيداً لما بعده ، من أمره لهم بدخول الأرض المقدسة . وقد اختلف فى تعيينها . فقال قتادة : هى الشام ، وقال مجاهد : الطور وما حوله ، وقال ابن عباس والسدى وغيرهما : أريحاء، وقال الزجاج : دمشق وفلسطين وبعض الأردن . وقول قتادة يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده . والمقدسة: المطهرة، وقيل: المباركة ﴿ **التى كتب الله لكم** ﴾ أى قسمها وقدرها لهم فى سابق علمه، وجعلها مسكنا لكم ﴿ **ولا ترتدوا على أدباركم** ﴾ أى لا ترجعوا عن أمرى وتتركوا طاعتى، وما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبنا وفشلاً ﴿ **فتنقلبوا** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **خاسرين** ﴾ لخير الدنيا والآخرة .

﴿ **قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين** ﴾ قال الزجاج : الجبار من الآدميين : العاتى ، وهو الذى يجبر الناس على ما يريد ، وأصله على هذا من الإجبار وهو الإكراه ، فإنه يجبر غيره على ما يريده ، يقال : أجبره : إذا أكرهه. وقيل : هو مأخوذ من جبر العظم ، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه ، ثم استعمل فى كل من جر إلى نفسه نفعاً بحق أو باطل ، وقيل : إن جبرالعظم راجع إلى : معنى الإكراه . قال الفراء : لم أسمع فعالاً من أفعل إلا فى حرفين ، جبار من أجبر ودراك من أدرك . والمراد هنا : أنهم قوم عظام الأجسام ، طوال متعاظمون . قيل : هم قوم من بقية قوم عاد . وقيل : هم من ولد عيص بن إسحاق . وقيل : هم من الروم ويقال : إن منهم عوج بن عنق المشهور بالطول المفرط ، وعنق : هى بنت آدم ، قيل : كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، قال ابن كثير : وهذا شىء يستحيا من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله

خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص»(١) . ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب السفينة ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته ، وهذا كذب وافتراء ، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ [الشعراء:١١٩ ، ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ [هود : ٤٣] . وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر ، وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع ، ثم فى وجود رجل يقال له : عوج بن عنق نظر ، والله أعلم ، انتهى كلامه(٢) .

قلت : لم يأت فى أمر هذا الرجل ما يقتضى تطويل الكلام فى شأنه ،ما هذا بأول كذبة اشتهرت فى الناس، ولسنا ملزمين بدفع الأكاذيب التى وضعها القصاص ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسليم ، فكم فى بطون دفاتر التفاسير من أكاذيب و بلايا وأقاصيص ، كلها حديث خرافة ، وما أحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ، ولا معرفة به ، أن يدع التعرض لتفسير كتاب الله ، ويضع هذه الحماقات والأضحوكات فى المواضع المناسبة لها من كتب القصاص .

قوله : ﴿ **فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التى قبل هذه الجملة لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب . قوله : ﴿ **قال رجلان** ﴾ هما يوشع وكالب بن يوفنا أو ابن فانيا ، وكانا من الاثنى عشر نقيباً كما مر بيان ذلك . وقوله : ﴿ **من الذين يخافون** ﴾ أى يخافون من الله عز وجل ، وقيل : من الجبارين ، أى هذان الرجلان من جملة القوم ، الذين يخافون من الجبارين . وقيل : من الذين يخافون ضعف بنى إسرائيل وجبنهم . وقيل : إن الواو فى ﴿ **يخافون** ﴾ لبنى إسرائيل ، أى من الذين يخافهم بنو إسرائيل . وقرأ مجاهد ، وسعيد بن جبير : «يخافون » بضم الياء ، أى يخافهم غيرهم .

قوله : ﴿ **أنعم الله عليهما** ﴾ فى محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان ، بالإيمان واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر ﴿ **ادخلوا عليهم الباب** ﴾ أى باب بلد الجبارين ﴿ **فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ﴾ قالا هذه المقالة لبنى إسرائيل والظاهر أنهما قد علما بذلك من خبر موسى ، أو قالاه ثقة بوعد الله ، أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً ﴿ **قالوا** ﴾ أى بنو إسرائيل لموسى ﴿ **إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها** ﴾ وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً أو عناداً وجرأة على الله وعلى رسوله ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا** ﴾ قالوا هذا جهلاً بالله ــ عز وجل ــ وبصفاته ، وكفراً بما يجب له،أو استهانة بالله ورسوله،وقيل: أرادوا

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٢٦) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤١/٢٨) .
(٢) ابن كثير ٢ / ٥٣٦ .

بالذهاب الإرادة والقصد . وقيل : أرادوا بالرب هارون ، وكان أكبر من موسى ، وكان موسى يطيعه ﴿ **إنا ها هنا قاعدون** ﴾ أى لا نبرح ها هنا لا نتقدم معك ، ولا نتأخر عن هذا الموضع . وقيل : أرادوا بذلك عدم التقدم ، لا عدم التأخر . ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى** ﴾ يحتمل أن يعطف وأخى على نفسى ، وأن يعطف على الضمير فى ﴿ **إنى** ﴾ أى إنى لا أملك إلا نفسى ، وإن أخى لا يملك إلا نفسه ، قال هذا تحسراً وتحزناً واستجلاباً للنصر من الله ــ عز وجل ــ ﴿ **فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ أى: افصل بيننا، يعنى نفسه وأخاه، وبين القوم الفاسقين ، وميزنا عن جملتهم ، ولا تلحقنا بهم فى العقوبة . وقيل المعنى : فاقض بيننا وبينهم . وقيل : إنما أراد فى الآخرة ، وقرأ عبيد بن عمير : « فافرق » بكسر الراء ﴿ **قال فإنها** ﴾ أى الأرض المقدسة ﴿ **محرمة عليهم** ﴾ أى على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين ﴿ **أربعين سنة** ﴾ ظرف للتحريم ، أى أنه محرم عليهم دخولها هذه المدة لا زيادة عليها ، فلا يخالف هذا التحريم ما تقدم من قوله : ﴿ **التى كتب الله لكم** ﴾ فإنها مكتوبة لمن بقى منهم بعد هذه المدة . وقيل : إنه لم يدخلها أحد ممن قال : ﴿ **إنا لن ندخلها** ﴾ فيكون توقيت التحريم بهذه المدة باعتبار ذراريهم. وقيل : إن ﴿ **أربعين سنة** ﴾ ظرف لقوله : ﴿ **يتيهون فى الأرض** ﴾ أى يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقاً . والموقت هو التيه ، وهو فى اللغة الحيرة . يقال منه : تَاهَ يتيه تَيْهاً أو تَوْهاً : إذا تحيرّ ، فالمعنى يتحيرون فى الأرض . قيل : إن هذه الأرض التى تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ، كانوا يمسون حيث أصبحوا ، ويصبحون حيث أمسوا ، وكانوا سيارة مستمرين على ذلك لا قرار لهم .

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهارون أم لا ؟ فقيل : لم يكونا معهم ؛ لأن التيه عقوبة . وقيل :كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك ، كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم . وقد قيل : كيف يقع هذا لجماعة من العقلاء ، فى مثل هذه الأرض اليسيرة ، فى هذه المدة الطويلة ؟ قال أبو على : يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التى هم عليها إذا تاهوا إلى المكان الذى ابتدؤوا منه ، وقد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها ، على طريق المعجزة الخارقة للعادة.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله: ﴿ **وجعلكم ملوكاً** ﴾ قال : ملكهم الخدم ، وكانوا أول من ملك الخدم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار سمى ملكاً . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه فى الآية قال : الزوجة والخادم والبيت . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا فى قوله : ﴿**وجعلكم ملوكاً** ﴾ قال : المرأة والخادم . ﴿ **وآتاكم ما لم يؤت أحداً من**

العالمين ﴾ قال : الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً » . وأخرج ابن جرير ، والزبير بن بكار في الموقفيات عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: « من كان له بيت وخادم فهو ملك » (١) . وأخرج أبو داود في مراسيله عن زيد بن أسلم في الآية قال : قال رسول الله ﷺ : «زوجة ومسكن وخادم » (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأله رجل : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ قال : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال فأنت من الأغنياء ، قال : إن لي خادماً ، قال: فأنت من الملوك (٣) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قولـه: ﴿ **وجعلكم ملوكاً** ﴾ قال : جعل لهم أزواجاً وخدماً وبيوتا ﴿ **وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين** ﴾ قال : المن والسلوى والحجر والغمام ، وقد ثبت في الحديث الصحيح : « من أصبح منكم معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » (٤) .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ **ادخلوا الأرض المقدسة** ﴾ قال : الطور وما حوله . وأخرج عنه أيضاً قال: هي أريحاء . وأخرج ابن عساكر عن معاذ بن جبل قال : هي ما بين العريش إلى الفرات . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : هي الشام . وأخرج ابن جرير عن السدى في قوله : ﴿ **التي كتب الله لكم**﴾ قال : التي أمركم الله بها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين ، فسار بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة وهي أريحاء ، فبعث إليهم اثني عشر عيناً ، من كل سبط منهم عين ، ليأتوه بخبر القوم ، فدخلوا المدينة فرأوا أمرًا عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم ، فجاء صاحب الحائط ليجتني الثمار من حائطه ، فجعل يجتني الثمار فنظر إلى آثارهم فتتبعهم ، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كمه مع الفاكهة ، حتى التقط الاثنى عشر كلهم ، فجعلهم في كمه مع الفاكهة ، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه ، فقال الملك : قد رأيتم شأننا وأمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم ، قال : فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم ، فقال : اكتموا عنا ، فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول : اكتم عني ، فأشيع ذلك في عسكرهم ولم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ، وهما اللذان أنزل الله فيهما: ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون** ﴾ (٥) ، وقد روى نحو

---

(١) ابن جرير ٦/١٠٨ .
(٢) أبو داود في مراسيله ١٨١ (٢٠٤) ورجاله ثقات رجال الشيخين .
(٣) مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٩ / ٣٧) وابن جرير ٦/١٠٨ .
(٤) الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة في الزهد (٤١٤١) .
(٥) ابن جرير ٦/١١٢ .

هذا مما يتضمن المبالغة فى وصف هؤلاء وعظم أجسامهم ، ولا فائدة فى بسط ذلك فغالبه من أكاذيب القصاص كما قدمنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فافرق ﴾ يقول: اقض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه يقول : افصل بيننا وبينهم.

وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ قال : أبداً . وفى قوله: ﴿ يتيهون فى الأرض ﴾ قال : أربعين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة فهلك موسى وهارون فى التيه ، وكل من جاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون ، وهو الذى قام بالأمر بعد موسى ، وهو الذى افتتحها ، وهو الذى قيل له : اليوم يوم جمعة فهموا بافتتاحها فدنت الشمس للغروب ، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا ، فنادى الشمس : إنى مأمور وأنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها ، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط فقربوه إلى النار فلم تأت ، فقال : فيكم الغلول ، فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده ، فقال : الغلول عندك فأخرجه ، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت ، وأسنان من لؤلؤ ، فوضعه مع القربان فأتت النار فأكلتها (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : خلق لهم فى التيه ثياب لا تخلق ولا تدرن .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ .

وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ، ونقضهم المواثيق والعهود ، هو كظلم ابن آدم لأخيه ، فالداء قديم ، والشر أصيل .

وقد اختلف أهل العلم فى ابنى آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى الأول . وذهب الحسن والضحاك إلى الثانى ، وقالا : إنهما كانا من بنى إسرائيل فضرب بهما المثل فى إبانة حسد اليهود ، وكانت بينهما خصومة فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا فى بنى إسرائيل . قال ابن عطية : وهذا وهم ، كيف يجهل صورة الدفن أحد من بنى إسرائيل حتى يقتدى بالغراب ؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم : واسمهما قابيل وهابيل ، وكان

---

(١) المرجع السابق ٦/١١٧ .

قربان قابيل حزمة من سنبل ؛ لأنه كان صاحب زرع واختارها من أردأ زرعه ، حتى إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها ، وكان قربان هابيل كبشاً ؛ لأنه كان صاحب غنم أخذه من أجود غنمه ، فتقبل قربان هابيل فرفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام ، كذا قال جماعة من السلف ، ولم يتقبل قربان قابيل ، فحسده وقال : لأقتلنك . وقيل : سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكرا وأنثى ، إلا شيثا عليه السلام فإنها ولدته منفردا ، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر، ولا تحل لـه أختـه التى ولـدت معـه فـولدت مع قابيل أخت جميلة واسمها : إقليما، ومع هابيل أخت ليست كذلك واسمها : ليوذا ، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل : أنا أحق بأختى ، فأمره آدم فلم يأتمر وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على القربان وأنه يتزوجها من تقبل قربانه .

قوله : ﴿ **بالحق** ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر : ﴿ **واتل** ﴾ أى تلاوة متلبسة بالحق ، أو صفة لنبأ،أى نبأ متلبسا بالحق ،والمراد بأحدهما هابيل وبالآخر قابيل ، و﴿ **قال لأقـتلنك** ﴾ استئناف بيانى كأنه (١) . قيل : فماذا قال الذى لم يتقبل قربانه ؟ وقوله : ﴿ **قال إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ استئناف كالأول كأنه قيل : فماذا قال الذى تقبل قربانه ؟ وإنما للحصر ، أى إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم ، وكأنه يقول لأخيه : إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلى ، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك .

قوله : ﴿ **لئن بسطت إلىَّ يدك لتـقـتلنى** ﴾ أى لأن قصدت قتلى ، واللام هى الموطئة ، و﴿ **ما أنا بباسط** ﴾ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط ، وهذا استسلام للقتل من هابيل ، كما ورد فى الحديث : « إذا كانت الفتنة فكن خير ابنى آدم » (٢) وتلا النبى ﷺ هذه الآية . قال مجاهد : كان الفرض عليهم حينئذ ألا يسل أحد سيفا ، وألا يمتنع ممن يريد قتله . قال القرطبى: قال علماؤنا :وذلك مما يجوز ورود التعبد به ، إلا أن فى شرعنا يجوز دفعه إجماعا، وفى وجوب ذلك عليه خلاف . والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهى عن المنكر . وفى الحشوية قوم لا يجوزون للمَصول عليه الدفع ، واحتجوا بحديث أبى ذر ، وحمله العلماء على ترك القتال فى الفتنة ، وكف اليد عند الشبهة ، على ما بيناه فى كتاب التذكرة ، انتهى كلام القرطبى (٣) . وحديث أبى ذر المشار إليه هو عند مسلم، وأهل السنن إلا النسائى ، وفيه أن النبى ﷺ قال له : « يا أبا ذر ، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا كيف تصنع ؟» قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « اقعد فى بيتك ، وأغلق عليك بابك » ، قال : فإن لم أترك ،

---

(١) فى المطبوعة : « كأنه فماذا قال الذى لم يتقبل قربانه؟ » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أبو داود فى الفتن والملاحم (٤٢٥٧) والترمذى فى الفتن (٢١٩٤) وقال:« حسن » وكلاهما عن سعد بن أبى وقاص .

(٣) القرطبى ٣/ ٢١٣٢ ط . الشعب .

قال : « فائت من أنت منهم فكن فيهم » ، قال : فآخذ سلاحى ؟ قال : « إذن تشاركهم فيما هم فيه ، ولكن إن خشيت أن يردعك شعاع السيف ، فألق طرف ردائك على وجهك ، كى يبوء بإثمه وإثمك » (١) . وفى معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة : سعد بن أبى وقاص وأبى هريرة وخباب بن الأرت وأبى بكر وابن مسعود وأبى واقد وأبى موسى . قوله : ﴿ **إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار** ﴾ هذا تعليل لامتناعه من المقاتلة بعد التعليل الأول وهو ﴿ **إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ .

اختلف المفسرون فى المعنى فقيل : أراد هابيل إنى أريد أن تبوء بالإثم الذى كان يلحقنى لو كنت حريصًا على قتلك ، وبإثمك الذى تحملته بسبب قتلى . وقيل : المراد بإثمى الذى يختص بى بسبب سيأتى ، فيطرح عليك بسبب ظلمك لى ، وتبوء بإثمك فى قتلى . وهذا يوافق معنى ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله ﷺ : «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم ، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد فى حسنات المظلوم حتى ينتصف ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه » ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت : ١٣] . وقيل : المعنى : إنى أريد ألا تبوء بإثمى وإثمك كما فى قوله تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ [النحل : ١٥] أى ألا تميد بكم . وقوله: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٧٦] أى ألا تضلوا . وقال أكثر العلماء : إن المعنى ﴿ **إنى أريد أن تبوء بإثمى** ﴾ أى بإثم قتلك لى ﴿ **وإثمك** ﴾ الذى قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلى . قال الثعلبى : هذا قول عامة المفسرين ، وقيل : هو على وجه الإنكار ، أى أو إنى أريد على وجه الإنكار كقوله تعالى : ﴿ وتلك نعمة ﴾ [الشعراء : ٢٢] أى أو تلك نعمة، قاله القشيرى . ووجهه بأن إرادة القتل معصية . وسئل أبو الحسن بن كيسان : كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار ؟ فقال : وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل. وهذا بعيد جداً ، وكذلك الذى قبله ، وأصل باء : رجع إلى المباءة ، وهى المنزل﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ [آل عمران : ١١٢] أى رجعوا .

قوله: ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه** ﴾ أى سهلت نفسه عليه الأمر وشجعته ، وصورت له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه ، يقال : تطوع الشىء ، أى سهل وانقاد ، وطوعه فلان له ، أى سهله . قال الهروى : طوعت وطاوعت واحد ، يقال : طاع له كذا : إذا أتاه طوعا ، وفى ذكر تطويع نفسه له بعد ما تقدم من قول قابيل: ﴿ **لأقتلنك** ﴾ وقول هابيل :﴿ **لتقتلنى** ﴾ دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المقاولة . قوله : ﴿ **فقتله** ﴾ قال ابن جرير ومجاهد وغيرهما : روى أنه جهل كيف يقتل أخاه ، فجاءه إبليس بطائر أو حيوان

---

(١) مسلم فى الفتن (٢٨٨٧ / ١٣) عن أبى بكرة ، وأبو داود فى الفتن والملاحم (٤٢٦١) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٨) وصححه الحاكم ١٥٦/٢ ، ١٥٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢٦٩/٨ ، كلهم عن أبى ذر الغفارى.

غيره، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قابيل ففعل . وقيل غير ذلك مما يحتاج إلى تصحيح الرواية (١) .

قوله: ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه** ﴾ قيل: إنه لما قتل أخاه لم يدر كيف يواريه،لكونه أول ميت مات من بنى آدم،فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثا عليه ، فلما رآه قابيل ﴿ **قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى** ﴾ فواراه والضمير المستكن فى ﴿ **ليريه** ﴾ للغراب وقيل: لله سبحانه ، و﴿ **كيف** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ﴿ **يوارى** ﴾ والجملة ثانى مفعولى يريه . والمراد بالسوءة هنا : ذاته كلها لكونها ميتة و﴿ **قال** ﴾ استئناف جواب سؤال مقدر من سوق الكلام ، كأنه قيل : فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك ؟ و﴿ **ياويلتى** ﴾ كلمة تحسر وتحزن ، والألف بدل من ياء المتكلم ، كأنه دعا ويلته بأن تحضر فى ذلك الوقت ، والويلة : الهلكة ، والكلام خارج مخرج التعجب منه ، من عدم اهتدائه لمواراة أخيه ، كما اهتدى الغراب إلى ذلك ﴿ **فأوارى** ﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام ، وقرئ بالسكون على تقدير فأنا أوارى ﴿ **فأصبح من النادمين** ﴾ على قتله . وقيل : لم يكن ندمه ندم توبة ، بل ندم لفقده ، لا على قتله . وقيل غير ذلك .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأن ينكحها غيره من إخوتها وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة ، وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : انكحنى أختك ، وأنكحك أختى ، فقال : لا ، أنا أحق بأختى ، فقربا قربانا ، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض ، وصاحب الحرث بصبرة من طعام ، فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع ، قال ابن كثير فى تفسيره : إسناده جيد ، وكذا قال السيوطى فى الدر المنثور (٢) . وأخرج ابن جرير عنه قال : كان من شأن بنى آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا : لو قربنا قربانًا ثم ذكرا ما قرباه (٣) .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لئن بسطت إلى يدك** ﴾ قال : كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلاً تركه ولا يمتنع منه (٤) . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنى أريد أن تبوء بإثمى**

---

(١) ابن جرير ٦/ ١٢٦ .

(٢) ابن جرير ٦/ ١٢٦ وابن كثير ٢/ ٥٤٥ والدر المنثور ٢/ ٢٧٣ .

(٣) ابن جرير ٦/ ١٢٠.

(٤) المرجع السابق ٦/ ١٢٣ ، ١٢٤.

وإثمك ﴾ يقول : إنى أريد أن تكون عليك خطيئتك ودمى فتبوء بهما جميعا . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **بإثمى** ﴾ قال : بقتلك إياى ﴿ **وإثمك** ﴾ قال : بما كان قبل ذلك.

وأخرج عن قتادة والضحاك مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه** ﴾ قال : شجعته على قتل أخيه . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : زينت له نفسه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه** ﴾ فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه فى رؤوس الجبال ، فأتاه يوماً من الأيام ، وهو يرعى غنمًا له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات ، فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له ثم حثا عليه ، فلما رآه ﴿ **قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب** ﴾[1] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[2]. وقد روى فى صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾ .

قوله: ﴿ **من أجل ذلك** ﴾ أى من أجل ذلك القاتل وجريرته ، وبسبب معصيته ، وقال الزجاج : أى من جنايته، قال : يقال : أجل الرجل على أهله شرا يأجل أجلا: إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذا . وقرأ أبو جعفر : « من أجل » بكسر النون وحذف الهمزة ، وهى لغة ، قال فى شرح الدرة : قرأ أبو جعفر منفرداً : « من أجل ذلك » بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها ؛ وقيل : يجوز أن يكون قوله:﴿ **من أجل ذلك** ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿ **من النادمين** ﴾

---

(١) المرجع السابق ٦/ ١٢٧.

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٣٥) وفى الديات (٦٨٦٧) وفى الاعتصام (٧٣٢١) ومسلم فى القسامة (١٦٧٧/ ٢١) والترمذى فى العلم (٢٦٧٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٦٢) وابن ماجة فى الديات (٢٦١٦) .

فيكون الوقف على قوله : ﴿ **من أجل ذلك** ﴾ والأولى ما قدمنا ، والمعنى أن نبأ ابنى آدم هو الذى تسبب عنه الكتب المذكور على بنى إسرائيل ، وعلى هذا جمهور المفسرين. وخص بنى إسرائيل بالذكر؛ لأن السياق فى تعداد جناياتهم ، ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل الأنفس ، ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء ، وقتلهم للأنبياء ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذى هو متعلق به ، أعنى كتبنا ، يفيد القصر ، أى من أجل ذلك لا من أجل غيره ، و« من » لابتداء الغاية ﴿ **أنه من قتل نفسًا** ﴾ واحدة من هذه النفوس ﴿ **بغير نفس**﴾ أى بغير نفس توجب القصاص فيخرج عن هذا من قتل نفسًا بنفس قصاصًا .

قوله : ﴿ **أو فساد فى الأرض** ﴾ قرأ الجمهور بالجر عطفا على نفس . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدل عليه أول الكلام تقديره : أو أحدث فسادًا فى الأرض ، وفى هذا ضعف . ومعنى قراءة الجمهور : أن من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً . وقد تقرر أن كل حكم مشروط بتحقق أحد شيئين فنقيضه مشروط بانتفائهما معا ، وكل حكم مشروط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه .

وقد اختلف فى هذا الفساد المذكور فى هذه الآية ماذا هو ؟ فقيل : هو الشرك . وقيل : قطع الطريق . وظاهر النظم القرآنى ، أنه ما يصدق عليه أنه فساد فى الأرض ، فالشرك فساد فى الأرض ، وقطع الطريق فساد فى الأرض ، وسفك الدماء، وهتك الحرم ، ونهب الأموال فساد فى الأرض ، والبغى على عباد الله بغير حق فساد فى الأرض ، وهدم البنيان وقطع الأشجار ، وتغوير الأنهار فساد فى الأرض ، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فى الأرض ، وهكذا الفساد الذى سيأتى فى قوله : ﴿ **ويسعون فى الأرض فسادا** ﴾يصدق على هذه الأنواع وسيأتى تمام الكلام على معنى الفساد قريبًا .

قوله : ﴿ **فكأنما قتل الناس جميعًا** ﴾ اختلف المفسرون فى تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعا أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروى عن ابن عباس أنه قال : المعنى من قتل نبيًا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعا . أخرج هذا عنه ابن جرير . وروى عن مجاهد أنه قال : المعنى أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم ، وغضب عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيمًا ، فلو قتل الناس جميعًا لم يزد على هذا قال : ومن سلم من قتل فلم يقتل أحداً فكأنما أحيا الناس جميعًا .

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وروى عن ابن عباس أيضًا أنه قال فى تفسير هذه الآية : أوبق نفسه كما لو قتل الناس جميعا . أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وروى عن الحسن أنه قال : فكأنما قتل الناس جميعاً فى

الوزر ، وكأنما أحيا الناس جميعًا فى الأجر . وقال ابن زيد : المعنى : أن من قتل نفسًا فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعًا ﴿ **ومن أحياها** ﴾ أى من عفا عمن وجب قتله. حكاه عنه القرطبى . وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة (١) ، يعنى : أحياها . وروى عن مجاهد أن إحياءها : إنجاؤها من غرق ، أو حرق ، أو هدم، أو هلكة ، حكاه عنه ابن جرير (٢) وابن المنذر . وقيل : المعنى : أن من قتل نفسًا فالمؤمنون كلهم خصماؤه ، لأنه قد وتر الجميع ﴿ **ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** ﴾ أى وجب على الكل شكره . وقيل : المعنى : أن من استحل واحداً فقد استحل الجميع ؛ لأنه أنكر الشرع . وعلى كل حال فالإحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكه فهو مجاز ، إذ المعنى الحقيقى مختص بالله ــ عز وجل . والمراد بهذا التشبيه فى جانب القتل : تهويل أمر القتل وتعظيم أمره فى النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجرأة والجسارة ، وفى جانب الإحياء : الترغيب إلى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين فى الهلكات .

قوله : ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات** ﴾ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاؤوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التى من جملتها أمر القتل ، وثم فى قوله : ﴿ **ثم إن كثيراً منهم** ﴾ للتراخى الرتبى والاستبعاد العقلى ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر مما كتبه الله على بنى إسرائيل ، أى إن كثيراً منهم بعد ذلك الكتب ﴿ **فى الأرض لمسرفون** ﴾ فى القتل .

قوله : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ قد اختلف الناس فى سبب نزول هذه الآية ؛ فذهب الجمهور إلى أنها نزلت فى العُرَنيين (٣) . وقال مالك والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى : إنها (٤) نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى فى الأرض بالفساد . قال ابن المنذر : قول مالك صحيح . قال أبو ثور محتجا لهذا القول : إن قوله فى هذه الآية: ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ يدل على أنها نزلت فى غير أهل الشرك لأنهم قد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا فى أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم ، فدل ذلك على أن الآية نزلت فى أهل الإسلام . انتهى . وهكذا يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ [الأنفال : ٣٨] ،وقوله ﷺ : « الإسلام يهدم ما قبله » أخرجه مسلم وغيره (٥) ، وحكى ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية ، أعنى آية المحاربة ، نسخت فعل النبى ﷺ فى العرنيين(٦) . ووقف الأمر على

(١) القرطبى ٣/ ٢١٤٤ . (٢) ابن جرير ٦/ ١٣١ .

(٣) هم قوم من بجيلة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا رعاة رسول الله ﷺ . واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل ، وارتكبوا جريمة الزنا .

(٤) فى المطبوعة :«لأنها » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) مسلم فى الإيمان (١٢١/ ١٩٢) والبيهقى ٩/ ٩٨ . (٦) ابن جرير ٦/ ١٣٥ .

هذه الحدود . وروى عن محمد بن سيرين أنه قال : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، يعنى فعله ﷺ بالعرنيين ، وبهذا قال جماعة من أهل العلم ، وذهب جماعة آخرون إلى أن فعله ﷺ بالعرنيين منسوخ بنهى النبى ﷺ عن المثلة (١) ، والقائل بهذا مطالب ببيان تأخر الناسخ ، وسيأتى سياق الروايات الواردة فى سبب النزول . والحق أن هذه الآية تعم المشرك وغيره لمن ارتكب ما تضمنته ، ولا اعتبار بخصوص السبب ، بل الاعتبار بعموم اللفظ ، قال القرطبى فى تفسيره: ولا خلاف بين أهل العلم فى أن حكم هذه الآية مترتب فى المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت فى المرتدين أو اليهود (٢) . انتهى . ومعنى قوله : مترتب ، أى ثابت .

قيل : المراد بمحاربة الله المذكورة فى الآية : هى محاربة رسول الله ﷺ ومحاربة المسلمين فى عصره ، ومن بعد عصره بطريق العبارة ، دون الدلالة ، ودون القياس ؛ لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول ، فيحتاج فى تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر . وقيل : إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ولرسوله إكباراً لحربهم ، وتعظيمًا لأذيتهم ؛ لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب . والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه بمعاصيه، ومخالفة شرائعه ، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقى ، وحكم أمته حكمه وهم أسوته . والسعى فى الأرض فساداً يطلق على أنواع من الشر كما قدمنا قريبا . قال ابن كثير فى تفسيره : قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب : إن قرض الدراهم ، والدنانير ، من الإفساد فى الأرض ، وقد قال تعالى : ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ [البقرة : ٢٠٥] . انتهى (٣) . إذا تقرر لك ما قررناه من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعى فى الأرض فساداً ، فاعلم أن ذلك يصدق على كل من وقع منه ذلك ، سواء كان مسلمًا أو كافرا ، فى مصر وغير مصر ، فى كل قليل وكثير ، وجليل وحقير ، وأن حكم الله فى ذلك هو ما ورد فى هذه الآية من القتل أو الصلب أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض ، ولكن لا يكون هذا حكم من فعل أى ذنب من الذنوب، بل من كان ذنبه هو التعدى على دماء العباد وأموالهم ، فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم فى كتاب الله أو سنة رسوله كالسرقة ، وما يجب فيه القصاص ، لأنا نعلم أنه قد كان فى زمنه ﷺ من تقع منه ذنوب ومعاصٍ غير ذلك، ولا يجرى عليه ﷺ هذا الحكم المذكور فى هذه الآية ، وبهذا تعرف ضعف ما روى عن مجاهد فى تفسير المحاربة المذكورة فى هذه الآية أنها الزنا والسرقة ، ووجه ذلك أن هذين الذنبين قد ورد فى كتاب الله ، وفى سنة رسوله ﷺ لهما حكم غير هذا الحكم . وإذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية على مقتضى لغة العرب التى أمرنا بأن نفسر كتاب الله وسنة رسوله بها ، فإياك أن تغتر بشىء من التفاصيل المروية ، والمذاهب المحكية ، إلا أن يأتيك الدليل الموجب

---

(١) أبو داود فى الحدود (٤٣٧٠) . (٢) القرطبى ٣/ ٢١٤٧.

(٣) ابن كثير ٢/ ٥٥٤.

لتخصيص هذا العموم ، أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب ، فأنت وذاك اعمل به ، وضعه في موضعه ، وأما ما عداه :

فدع عنك نهبًا صيح فى حجراته   وهات حديثًا ما حديث الرواحل ؟

على أنا سنذكر من هذه المذاهب ما تسمعه . اعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة ، فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصرى وإبراهيم النخعى والضحاك وأبو ثور : إن من شهر السلاح فى قبة الإسلام ، وأخاف السبيل ، ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ، ورجله ، وبهذا قال مالك ، وصرح بأن المحارب عنده من حمل على الناس فى مصر أو فى برية أو كابرهم على أنفسهم وأموالهم ، دون نائرة ولا دخل ، ولا عداوة . قال ابن المنذر : اختلف عن مالك فى هذه المسألة فأثبت المحاربة فى المصر مرة ، ونفى ذلك مرة . وروى عن ابن عباس غير ما تقدم فقال فى قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض ، وروى عن أبى مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والسدى وعطاء على اختلاف فى الرواية عن بعضهم ، وحكاه ابن كثير عن الجمهور . وقال أيضًا : وهكذا عن غير واحد من السلف والأئمة . وقال أبو حنيفة : إذا قتل قتل ، وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف ، وإذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه ، إن شاء قطع يديه ورجليه ، وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه . وقال أبو يوسف : القتل يأتى على كل شيء ، ونحوه قول الأوزاعى . وقال الشافعى : إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى وحسمت ، ثم قطعت رجله اليسرى وحسمت ، وخلى ؛ لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة ؛ وإذا قتل قتل ، وإذا أخذ المال وقَتل قُتل وصُلب . وروى عنه أنه قال : يصلب ثلاثة أيام . وقال أحمد : إن قَتل قُتل وإن أخذ المال قطعت يده ورجله كقول الشافعى ، ولا أعلم لهذه التفاصيل دليلاً لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، إلا ما رواه ابن جرير فى تفسيره وتفرد بروايته ، فقال : حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبى حبيب : أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت فى أولئك النفر العُرَنيين وهم من بجيلة، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام ؛ قال أنس : فسأل رسول الله ﷺ جبريل عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق وأخاف الطريق فاقطع يده لسرقته ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقتله ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه (١) . وهذا مع ما فيه من النكارة الشديدة لا يدرى كيف صحته ؟ قال ابن

(١) ابن جرير ٦/ ١٤٠ .

كثير فى تفسيره ، بعد ذكره لشيء من هذه التفاصيل التى ذكرناها ، ما لفظه : ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره إن صح سنده ثم ذكره (١) .

قوله : ﴿ **ويسعون فى الأرض فساداً** ﴾ هو إما منتصب على المصدرية ، أو على أنه مفعول له أو على الحال بالتأويل، أى مفسدين . قوله : ﴿ **أو يصلبوا** ﴾ ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا ؛ لأنه أحد الأنواع التى خير الله بينها . وقال قوم : الصلب إنما يكون بعد القتل ، ولا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب ، ويجاب بأن هذه عقوبة شرعها الله سبحانه فى كتابه لعباده . قوله : ﴿ **أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف** ﴾ ظاهره قطع إحدى اليدين ، وإحدى الرجلين من خلاف ، سواء كانت المقطوعة من اليدين هى اليمنى أو اليسرى ، وكذلك الرجلان، ولا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف ، إما يمنى اليدين مع يسرى الرجلين ، أو يسرى اليدين مع يمنى الرجلين وقيل : المراد بهذا :قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى فقط .

قوله : ﴿ **أو ينفوا من الأرض** ﴾ اختلف المفسرون فى معناه ، فقال السدى : هو أن يطلب بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحدّ ، أو يخرج من دار الإسلام هرباً . وهو محكى عن ابن عباس وأنس ومالك والحسن البصرى والسدى والضحاك وقتادة وسعيد بن جبير والربيع بن أنس والزهرى ، حكاه الرمانى فى كتابه عنهم . وحكى عن الشافعى أنهم يخرجون من بلد إلى بلد ويطلبون لتقام عليهم الحدود ، وبه قال الليث بن سعد ، وروى عن مالك أنه ينفى من البلد الذى أحدث فيه إلى غيره ، ويحبس فيه كالزانى ، ورجحه ابن جرير والقرطبى . وقال الكوفيون : نفيهم سجنهم ، فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها (٢) . والظاهر من الآية أنه يطرد من الأرض التى وقع منه فيها ما وقع من غير سجن ولا غيره .والنفى: قد يقع بمعنى الإهلاك ، وليس هو مراداً هنا . قوله:﴿**ذلك لهم خزى فى الدنيا** ﴾ الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام، والخزى : الذل والفضيحة .

قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة ،والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال ، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة ، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك ، وعليه عمل الصحابة . وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة ، والحق الأول وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة فى الآية كما يدل عليه ذكر قيد . ﴿ **قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ قال القرطبى : وأجمع أهل العلم على أن السلطان ولى من حارب ، فإن قتل محارب أخا امرئ أو

---

(١) ابن كثير٢/ ٥٦٠ .

(٢) القرطبى ٣/ ٢١٥١ وقال : « فصار كأنه إذا سجن فقد نفى من الأرض » .

أباه [١] فى حال المحاربة فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء، ولا يجوز عفو ولى الدم.

وقد أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل** ﴾ يقول : من أجل ابن آدم الذى قتل أخاه ظلمًا . وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل له فى هذه الآية ، يعنى قوله : ﴿ **فكأنما قتل الناس جميعًا** ﴾: أهى لنا كما كانت لبنى إسرائيل . . ؟ فقال : إى والذى لا إله غيره .

وأخرج أبو داود والنسائى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ قال : نزلت فى المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد فى الأرض ، أو حارب الله ورسوله [٢] . وأخرج ابن جرير ، والطبرانى فى الكبير عنه فى هذه الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق ، فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض ، فخير الله نبيه فيهم : إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأما النفى فهو الضرب فى الأرض ، فإن جاء تائباً فدخل فى الإسلام قبل منه ، ولم يؤخذ بما سلف[٣] . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ، أن هذه الآية نزلت فى الحرورية .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ؛ أن نفراً من عكل [٤] قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا واجتووا المدينة[٥] ، فأمرهم النبى ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة ، فيشربوا من أبوالها وألبانها فقتلوا راعيها واستاقوها ، فبعث النبى ﷺ فى طلبهم قافة [٦] ، فأتى بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم [٧] ، ولم يحسمهم [٨] وتركهم حتى ماتوا ، فأنزل الله: ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ الآية [٩] . وفى مسلم عن أنس أنه قال: إنما سمل النبى ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة [١٠] . وأخرج الشافعى فى الأم وعبد الرزاق

---

(١) فى المطبوعة : « وأتاه» ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة . ومن القرطبى ٣/ ٢١٥٣ .

(٢) أبو داود فى الحدود (٤٣٧٢) والنسائى فى المحاربة (٣٥٠٩) .

(٣) ابن جرير ٦/ ١٣٣ والطبرانى (١٣٠٣٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/٧ : « وعلى بن أبى طلحة لم يدرك ابن عباس » .

(٤) عكل : قبيلة من تيم الرباب .

(٥) اجتووا المدينة : كرهوا المقام فيها .

(٦) قافة : جمع قائف وهو الذى يقتفى الأثر .

(٧) سمل أعينهم : السمل بالتخفيف : فقء العين بأى شيء كان .

(٨) لم يحسمهم : لم يكو ما قطع منهم بالنار لينقطع الدم بل تركه ينزف .

(٩) البخارى فى الوضوء (٢٣٣) وفى الجهاد (٣٠١٨) وفى المغازى (٤١٩٣) وفى التفسير (٤٦١٠) وفى الحدود (٦٨٠٢ ـ ٦٨٠٥) ، وفى الديات (٦٨٩٩) ومسلم فى القسامة (١٦٧١/ ١٠ ـ ١٢) وأبو داود فى الحدود (٤٣٦٤ ـ ٤٣٦٦) والنسائى فى التفسير (١٦٣).

(١٠) مسلم فى القسامة (١٦٧١ / ١٤) .

والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : إذا خرج المحارب فأخذ المال ولم يقتل ؛ قطع من خلاف، وإذا خرج فقتل ولم يأخذ المال ؛ قتل ، وإذا خرج وأخذ المال وقتل ؛ قتل وصلب ، وإذا خرج فأخاف السبيل ولم يأخذ المال ولم يقتل نُفى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : من شهر السلاح فى قبة الإسلام ، وأفسد السبيل ، فظهر عليه وقدر ، فإمام المسلمين مخير فيه : إن شاء قتله وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، قال : ﴿ **أو ينفوا من الأرض** ﴾ يهربوا ويخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب . وأخرج ابن جرير عنه قال : نفيه أن يطلب . وأخرج أيضًا عن أنس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم عن الشعبى قال: كان حارثة بن بدر التيمى من أهل البصرة قد أفسد فى الأرض وحارب، فكلم رجالا من قريش أن يستأمنوا له عليا فأبَوْا فأتى سعيد بن قيس الهمدانى ، فأتى عليا فقال: يا أمير المؤمنين ، ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ؟ قال ﴿ **أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** ﴾ ثم قال : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ فقال سعيد : وإن كان حارثة بن بدر ، قال : وإن كان حارثة بن بدر . قال : هذا حارثة بن بدر ، قد جاء تائبًا فهو آمن ؟ قال : نعم ، فجاء به إليه فبايعه ، وقبل ذلك منه وكتب له أمانا (١) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)** ﴾ .

﴿ **ابتغوا** ﴾ : اطلبوا ﴿ **إليه** ﴾ : لا إلى غيره ﴿ **والوسيلة** ﴾ فعيلة من توسلت إليه : إذا تقربت إليه . قال عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلى وتخضبى (٢)

وقال آخر :

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافى (٣) بيننا والوسائل

(١) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٢٨٣٥) وابن جرير ٦/ ١٤٣ .
(٢) فى مجمع البيان للطبرسى ٣/ ٢٩٣ : «تلجلجى ، وتحصنى » بدلا من : «تكحلى وتخضبى » .
(٣) فى المطبوعة : «التصابى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى .

فالوسيلة : القربة التى ينبغى أن تطلب ، وبه قال أبو وائل والحسن ومجاهد وقتادة والسدى ، وابن زيد . وروى عن ابن عباس وعطاء وعبد الله بن كثير . قال ابن كثير فى تفسيره : وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه[1]. والوسيلة أيضا : درجة فى الجنة مختصة برسول الله ﷺ . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محموداً الذى وعـدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة» [2] ، وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ؛ أنـه سمع النبى ﷺ يـقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » [3] وفى الباب أحاديث ، وعطف ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ على ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ يفيد أن الوسيلة غير التقوى . وقيل : هى التقوى ؛ لأنها ملاك الأمر وكل الخير فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى ، والظاهر أن الوسيلة : هى القربة ، تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير، التى يتقرب العباد بها إلى ربهـم ﴿ وجاهدوا فى سبيله ﴾ مـن لـم يقبـل دينه ﴿ لعلكم تفلحون﴾ .

قوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لزجر الكفار ، وترغيب المسلمين فى امتثال أوامر الله سبحانه ﴿ لو أن لهم ما فى الأرض ﴾ من أموالها ومنافعها . وقيل : المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلا ، وإن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك ، و﴿ جميعا ﴾ تأكيد. وقوله : ﴿ ومثله ﴾ عطف على ما فى الأرض ، و﴿ معه ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ليفتدوا به ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ، وأفرد الضمير إما لكونه راجعًا إلى المذكور ، أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة ، أى ليفتدوا بـذلك ، و﴿ من عذاب يوم القيامة ﴾ متعلـق بالفعل المذكور ﴿ ما تقبل منهم ﴾ ذلك ، وهذا هو جواب لو.

قوله : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار ﴾ هذا استئناف بيانى ، كأنه قيل : كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم ؟ فقيل : يريدون أن يخرجوا من النار . وقرئ :« أن يخرجوا » من أخرج ، ويضعف هذه القراءة ﴿ وماهم بخارجين منها ﴾ ومحل هذه الجملة ، أعنى قوله : ﴿ وما هم بخارجين منها ﴾ النصب على الحال وقيل : إنها جملة اعتراضية .

---

(١) ابن كثير ٢/ ٥٦٣ .

(٢) البخارى فى الأذان (٦١٤) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٩) والترمذى فى الصلاة (٢١١) وفى بعض النسخ قال : « صحيح » وفى نسخ أخرى قال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الأذان والسنة فيه (٧٢٢) .

(٣) مسلم فى الصلاة (٣٨٤/ ١١) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٣) والترمذى فى المناقب (٣٦١٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٢/ ٣٥ .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ قال: الوسيلة: القربة . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله: ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ قال : تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه .

وأخرج مسلم وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يخرج من النار قوم يدخلون الجنة » قال : يزيد الفقير : فقلت لجابر : يقول الله : ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها** ﴾ قال : اتل أول الآية ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به** ﴾ ألا إنهم الذين كفروا (١) . وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس : تزعم أن قومًا يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: ﴿ **وما هم بخارجين منها** ﴾ فقال ابن عباس : ويحك ، اقرأ ما فوقها هذه للكفار(٢). قال الزمخشرى: فى الكشاف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفقته المجبرة(٣). وياالله، العجب من رجل لا يفرق بين أصح الصحيح وبين أكذب الكذب على رسول الله ﷺ ، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدرى ما هو ؟ وقد تواترت الأحاديث تواترًا لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار ، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة ؛ لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة ، اللهم غفراً .

﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)** ﴾.

لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهاراً وهو المحارب ، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية وهو السارق ، وذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان ؛ لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال فى تشريع الأحكام . وقد اختلف أئمة النحو فى خبر السارق والسارقة ، هل هو مقدر أم هو فاقطعوا ؟ فذهب إلى الأول سيبويه ، وقال تقديره : فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم السارق والسارقة ، أى حكمهما ، وذهب المبرد والزجاج إلى الثانى ، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، إذ المعنى : الذى سرق والتى سرقت ، وقرئ : « والسارق والسارقة » بالنصب على تقدير اقطعوا ، ورجح هذه القراءة سيبويه. قال : الوجه فى كلام العرب النصب

---

(١) مسلم فى الإيمان (١٩١/ ٣١٩) .

(٢) ابن جرير ٦/ ١٤٧ .

(٣) الكشاف ١/ ٦٣٠.

كما تقول زيدا اضربه ، ولكن العامة أبت إلا الرفع ، يعنى : عامة القراء ، والسرقة ، بكسر الراء ، اسم الشيء المسروق والمصدر من سرق يسرق سرقا ، قاله الجوهرى . وهو أخذ الشيء فى خفية من الأعين ، ومنه استرق السمع ، وسارقه النظر .

قوله: ﴿ فاقطعوا ﴾ القطع معناه الإبانة والإزالة ، وجمع الأيدى لكراهة الجمع بين تثنيتين، وقد بينت السنة المطهرة أن موضع القطع : الرسغ . وقال قوم : يقطع من المرفق . وقال الخوارج : من المنكب . والسرقة لابد أن تكون ربع دينار فصاعداً ولابد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة . وقد ذهب إلى اعتبار الربع الدينار الجمهور . وذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم . وذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز . وقال الحسن البصرى : إذا جمع الثياب فى البيت قطع ، وقد أطال الكلام فى بحث السرقة أئمة الفقه وشراح الحديث بما لا يأتى التطويل به هاهنا بكثير فائدة . قوله : ﴿ جزاء بما كسبا ﴾ مفعول له ، أى فاقطعوا للجزاء ، أو مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أى فجازوهما جزاء ، والباء سببية ، وما مصدرية ، أى بسبب كسبهما أو موصولة ، أى جزاء بالذى كسباه من السرقة . وقوله: ﴿ نكالا ﴾ بدل من جزاء . وقيل : هو علة للجزاء ، والجزاء علة للقطع ، يقال : نكلت به : إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل. قوله : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ﴾ السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة ، أى فمن تاب من بعد سرقته وأصلح أمره ﴿ فإن الله يتوب عليه ﴾ ولكن اللفظ عام فيشمل السارق وغيره من المذنبين ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقد استدل بهذا عطاء وجماعة ، على أن القطع يسقط بالتوبة ، وليس هذا الاستدلال بصحيح ؛ لأن هذه الجملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة ، وإن الله يتوب على من تاب ، وليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب. وقد كان فى زمن النبوة يأتى إلى النبى ﷺ من وجب عليه حد تائبًا عن الذنب الذى ارتكبه طالبًا لتطهيره بالحد فيحده النبى ﷺ . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال للسارق بعد قطعه: « تب إلى الله » ، ثم قال :« تاب الله عليك » . أخرجه الدارقطنى من حديث أبى هريرة [١]. وأخرج أحمد وغيره ، أن هذه الآية نزلت فى المرأة التى كانت تسرق المتاع لما قالت للنبى ﷺ بعد قطعها: هل لى من توبة [٢] . وقد ورد فى السنة ما يدل على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها[٣] .

قوله : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم وهو كالعنوان لقوله : ﴿ يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ﴾ أى من كان له ملك السموات والأرض فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله :﴿ جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾

(١) الدارقطنى فى الحدود والديات (٧١) .
(٢) أحمد ٢/ ١٧٧ عن عبد الله بن عمرو ومسلم (١٦٨٨ /٨ ـ ١٠) عن عائشة.
(٣) القرطبى ٣/ ٢١٧١ ، ٢١٧٢ .

قال : لا ترثوا لهم فيه فإن أمر الله الذى أمر به قال: وذكرلنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : اشتدوا على الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه** ﴾ يقول : الحد كفارته. والأحاديث فى قدر نصاب السرقة وفى سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحد مذكورة فى كتب الحديث فلا نطيل بذلك (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **لا يحزنك** ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى،والباقون بفتح الياء وضم الزاى . والحزن والحزن خلاف السرور ، وحزن الرجل بالكسر فهو حَزِنٌ وحَزِين : وأَحْزَنَه غيره وحزنه قال اليزيدى : حزنه لغة قريش وأَحْزَنَه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . وفى الآية النهى له ﷺ عن التأثر لمسارعة الكفرة فى كفرهم تأثرا بليغًا ؛ لأن الله سبحانه قد وعده فى غير موطن بالنصر عليهم ، والمسارعة إلى الشيء : الوقوع فيه بسرعة والمراد هنا : وقوعهم فى الكفر بسرعة عند وجود فرصة ، وآثر لفظ « فى » على لفظ « إلى » للدلالة على استقرارهم فيه ، و«من » فى قوله :﴿ **من الذين قالوا** ﴾ بيانية ، والجملة مبينة للمسارعين فى الكفر ، و« الباء » فى ﴿ **بأفواههم** ﴾ متعلقة بـ ﴿**قالوا** ﴾ لا بـ ﴿ **آمنا** ﴾ ، وهؤلاء الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون ﴿ **ومن الذين هادوا** ﴾ يعنى اليهود ، وهو معطوف على ﴿ **من الذين**

(١) البخارى فى الحدود (٦٧٨٩ــ ٦٧٩٤) عن عائشة ، (٦٧٩٥ــ ٦٧٩٨) عن ابن عمر ، (٦٧٩٩) عن أبى هريرة ، ومسلم فى الحدود (١٦٨٤/١ ، ٦) عن ابن عمر(١٦٨٤/ ٢ ــ ٤) عن عائشة .

قالوا آمنا ﴾ وهو تمام الكلام. والمعنى: أن المسارعين فى الكفر طائفة المنافقين ، وطائفة اليهود .

وقوله : ﴿ **سماعون للكذب** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم سماعون للكذب ، فهو راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين ، واللام فى قوله : ﴿ **للكذب** ﴾ للتقوية ، أو لتضمين السماع معنى القبول ؛ وقيل: إن قوله : ﴿**سماعون** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **من الذين هادوا** ﴾ أى ومن الذين هادوا قوم ﴿ **سماعون للكذب** ﴾ أى قابلون لكذب رؤسائهم المحرفين للتوراة . قوله : ﴿ **سماعون لقوم آخرين** ﴾ خبر ثان ، واللام فيه كاللام فى ﴿ **للكذب** ﴾ . وقيل : اللام للتعليل فى الموضعين، أى سماعون لكلام رسول الله لأجل الكذب عليه ، وسماعون لأجل قوم آخرين ، وجهوهم عيونا لهم لأجل أن يبلغوهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ . قوله : ﴿ **لم يأتوك** ﴾ صفة لقوم ، أى لم يحضروا مجلسك ، وهم طائفة من اليهود ، كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ تكبراً وتمرداً . وقيل : هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول الله ﷺ . قال الفراء : ويجوز : سماعين كما قال : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ [الأحزاب : ٦١] .

قوله: ﴿ **يحرفون الكلم من بعد مواضعه** ﴾ من جملة صفات القوم المذكورين ، أى يميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها، ويتأولونه على غير تأويله . والمحرفون هم اليهود . وقيل : إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف . وقيل : فى محل نصب على الحال من ﴿ **لم يأتوك** ﴾ . وقيل : مستأنفة لا محل لها من الإعراب لقصد تعداد معايبهم ، ومثالبهم . ومعنى : ﴿ **من بعد مواضعه** ﴾ من بعد كونه موضوعاً فى مواضعه ، أو من بعد وضعه فى مواضعه التى وضعه الله فيها من حيث لفظه، أو من حيث معناه . قوله : ﴿ **يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه** ﴾ جملة حالية من ضمير يحرفون ، أو مستأنفة ، أو صفة لقوم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والإشارة بقولهم : ﴿ **هذا** ﴾ إلى الكلام المحرف ، أى إن أوتيتم من جهة محمد هذا الكلام الذى حرفناه فخذوه واعملوا به ، وإن لم تؤتوه بل جاءكم بغيره فاحذروا من قبوله والعمل به . قوله : ﴿ **ومن يرد الله فتنته** ﴾ أى ضلالته ﴿ **فلن تملك له من الله شيئًا** ﴾ أى فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وظاهرها العموم ويدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولا أوليًا ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا ، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، أى لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق ، كما طهر قلوب المؤمنين ﴿ **لهم فى الدنيا خزى** ﴾ بظهور نفاق المنافقين ، وبضرب الجزية على الكافرين ، وظهور تحريفهم وكتمهم لما أنزل الله فى التوراة. قوله: ﴿ **سماعون للكذب** ﴾ كرره تأكيداً لقبحه وليكون كالمقدمة لما بعده وهو أكالون للسحت ، وهما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدر سابقًا . والسحت بضم السين وسكون الحاء : المال الحرام ، وأصله الهلاك والشدة ، من سحته : إذا

هلكه ومنه : ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ [طه : ٦١] . ومنه قول الفرزدق :

وعَضّ زمان يا بن مَرْوان لم يَدعْ مِن المالِ إلا مسْحتًا أو مُجلَّفُ (١)

ويقال: للحالق: اسحت ، أى: استأصل ؛ وسمى الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات ، أى يذهبها ويستأصلها، وقال الفراء: أصله كلب الجوع. وقيل :هو الرشوة ، والأول أولى ، والرشوة تدخل فى الحرام دخولا أوليا ، وقد فسره جماعة بنوع من أنواع الحرام خاص ، كالهدية لمن يقضى له حاجة ، وحلوان الكاهن ، والتعميم أولى بالصواب . قوله : ﴿ **فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ فيه تخيير لرسول الله ﷺ بين الحكم بينهم والإعراض عنهم .

وقد استدل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين. وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذمى إذا ترافعا إليهم. واختلفوا فى أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم، فذهب قوم إلى التخيير، وذهب آخرون إلى الوجوب. وقالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ وبه قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والزهرى وعمر بن عبد العزيز والسدى، وهو الصحيح من قول الشافعى، وحكاه القرطبى عن أكثر العلماء(٢).

قوله: ﴿ **وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا** ﴾ أى إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلا سبيل لهم عليك ؛ لأن الله حافظك وناصرك عليهم وإن اخترت الحكم بينهم ﴿ **فاحكم بينهم بالقسط** ﴾ أى بالعدل الذى أمرك الله به وأنزله عليك. قوله: ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾ فيه تعجيب له ﷺ من تحكيمهم إياه مع كونهم لا يؤمنون به ، ولا بما جاء به ، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم فى التوراة كالرجم ونحوه ، وإنما يأتون إليه ﷺ ويحكمونه طمعا منهم فى أن يوافق تحريفهم ، وما صنعوه بالتوراة من التغيير . قوله : ﴿ **ثم يتولون** ﴾ عطف على يحكمونك ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد تحكيمهم لك . وجملة قوله : ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ لتقرير مضمون ما قبلها .

وقوله : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ استئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها ، وأن فيها الهدى والنور ، وهو بيان الشرائع والتبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه. قوله : ﴿ **يحكم بها النبيون** ﴾ هم أنبياء بنى إسرائيل ، والجملة إما مستأنفة أو حالية ، و﴿ **الذين أسلموا** ﴾ صفة مادحة للنبيين ، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له ﷺ بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذى دان به محمد ﷺ . وقيل : المراد بالنبيين محمد ﷺ ، وعبر عنه بلفظ الجمع تعظيما . قوله : ﴿ **للذين هادوا** ﴾ متعلق بـ ﴿ **يحكم** ﴾ . والمعنى : أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا وعليهم . والربانيون : العلماء الحكماء ، وقد سبق تفسيره ، والأحبار: العلماء ، مأخوذ من التحبير وهو التحسين فهم يحبرون العلم ، أى يحسنونه . قال الجوهرى : الحبر : واحد أحبار اليهود بالفتح وبالكسر ، والكسر أفصح وقال الفراء : هو بالكسر ، وقال

---

(١) فى المخطوطة : « محلق » وعند القرطبى: «مُجَلَّفُ» وهو أصح ، والمجلف ما بقيت منه بقية .
(٢) القرطبى ٣/ ٢١٨٢ ، ٢١٨٣ .

أبو عبيدة : هو بالفتح .

قوله : ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ الباء للسببية واستحفظوا أمروا بالحفظ ، أى أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل ، والجار والمجرور متعلق بيحكم ، أى يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ . قوله : ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ أى على كتاب الله ، والشهداء الرقباء . فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة ، والخطاب بقوله : ﴿ فلا تخشوا الناس ﴾ لرؤساء اليهود ، وكذا فى قوله : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ والاشتراء : الاستبدال وقد تقدم تحقيقه . قوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ لفظ «من» ، من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل بكل من ولى الحكم ، وقيل : إنها مختصة بأهل الكتاب ، وقيل : بالكفار مطلقًا ؛ لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبيرة . وقيل : هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله وقع استخفافاً أو استحلالا أو جحداً ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها، وكذلك ضمير الجماعة فى قوله : ﴿ هم الكافرون ﴾ .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ قال: هم اليهود ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال: إن الله أنزل: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... الظالمون ... الفاسقون ﴾ أنزلها الله فى طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى فى الجاهلية حتى اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يظهر عليهم فقتلت الذليلة من العزيزة فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق ، فقالت الذليلة: وهل كان هذا فى حيين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، ودية بعضهم نصف دية بعض؟إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا، وفرقا منكم، فأما إذ قدم محمد ﷺ فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما، ففكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيما وقهراً لهم، فدسوا إلى محمد ﷺ من يخبر لكم رأيه، فإن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتموه ولم تحكموه ، فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين يختبرون لهم رأيه ، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل الله: ﴿ يأيها الرسول لا يحزنك ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ثم قال : « فيهم والله أنزلت وإياهم عنى »[1] .

---

(١) أحمد ١/٢٤٦ وأبو داود فى الأقضية (٣٥٧٦) وابن جرير ٦/١٦٦ ، ١٦٧ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود والطبرانى (١٠٧٣٢) عن ابن عباس .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: أول مرجوم رجمه رسول الله ﷺ من اليهود ، زنى رجل منهم وامرأة ،فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبى فإنه نبى بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا: فتيا نبى من أنبيائك،قال: فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد وأصحابه،فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة منهم زنيا،فلم يكلمهم حتى أتى بيت مدراسهم ،فقام على الباب فقال: « أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ » قالوا: يحمم (١) ويجبه ، ويجلد، والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما ، وسكت شاب منهم فلما رآه النبى ﷺ سكت ألظ به النشدة فقال : اللهم إذ نشدتنا نجب ، فإنا نجد فى التوراة الرجم، فقال النبى ﷺ : « فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ » قال : زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا ، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قوم دونه، وقالوا : والله لا ترجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم. قال النبى ﷺ : « فإنى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما . قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾ فكان النبى ﷺ منهم (٢). وأخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر،والبيهقى فى سننه من طريق أخرى عن أبى هريرة، وذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد الله بن صوريا (٣) . وأخرج نحو حديث أبى هريرة أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى من حديث البراء بن عازب (٤) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما تجدون فى التوراة؟» قالوا: نفضحهم ويجلدون،قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية الرجم،فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا آية الرجم ، قالوا :صدق ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله فى قوله : ﴿ **ومن الذين هادوا سماعون للكذب** ﴾ قال: يهود المدينة ﴿ **سماعون لقوم آخرين لم يأتوك** ﴾

---

(١) يحمم : أى يسود وجهه .

(٢) أحمد ٢/ ٢٨٠ مختصرا بإسناد ضعيف منقطع وأبو داود فى الحدود (٤٤٥٠) وابن جرير ٦/ ١٦١ والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٦٩ . وأورد الشيخ أحمد شاكر رواية عبد الرزاق فى تحقيقه للمسند (٧٧٤٧) .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٧ وابن جرير ٦/ ١٦٢ والبيهقى ٨/ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٤) أحمد ٤/ ٢٨٦ ومسلم فى الحدود (١٧٠٠/ ٢٨) وأبو داود فى الحدود (٤٤٤٧، ٤٤٤٨) والنسائى فى التفسير (١٦٤) وابن ماجة فى الأحكام مختصرا (٢٣٢٧) .

(٥) البخارى فى المناقب (٣٦٣٥) ومسلم فى الحدود (١٦٩٩/ ٢٦ ، ٢٧) وأبو داود فى الحدود (٤٤٤٩) .

قال : يهود فدك ﴿ **يحرفون الكلم** ﴾ قال : يهود فدك يقولون ليهود المدينة : ﴿ **إن أوتيتم هذا** ﴾ الجلد﴿ **فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ الرجم . وأخرج أبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً ، وذكر القصة (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أكالون للسحت** ﴾ قال : أخذوا الرشوة فى الحكم وقضوا بالكذب . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : السحت : الرشوة فى الدين . قال سفيان : يعنى فى الحكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن ابن مسعود أيضا قال : من شفع لرجل ليدفع عنه مظلمة أو يرد عليه حقاً فأهدى له هدية فقبلها فذلك السحت فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، إنا كنا نعد السحت الرشوة فى الحكم ، فقال : ذلك الكفر ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رشوة الحكام حرام ، وهى السحت الذى ذكر الله فى كتابه . وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال : السحت : الرشوة . وأخرج عبد بن حميد عن على بن أبى طالب أنه سئل عن السحت فقال : الرشا ، فقيل له فى الحكم ؟ قال : ذاك الكفر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر قال : بابان من السحت يأكلهما الناس : الرشاء فى الحكم ، ومهر الزانية . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى تحريم الرشوة ما هو معروف .

وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : آيتان نسختا من سورة المائدة : آية القلائد ، وقوله : ﴿ **فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ فكان رسول الله ﷺ مخيرا : إن شاء حكم بينهم ، وإن شاء أعرض عنهم ، فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾ قال : فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا (٢) . وأخرج نحوه فى الآية الآخرة عنه أبو عبيدة وابن المنذر وابن مردويه . وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه (٣) .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن الآيات من المائدة التى قال فيها : ﴿ **فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **المقسطين** ﴾ إنما نزلت فى الدية من بنى النضير وقريظة وذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف يودون الدية كاملة ، وأن بنى قريظة كانوا يودون نصف الدية ، فتحاكموا فى ذلك إلى

(١) أبو داود فى الحدود (٤٤٥٢) وابن ماجة ـ مختصرا ـ فى الأحكام (٢٣٢٨) .
(٢) الطبرانى (١١٠٥٤) وصحح إسناده الحاكم ٢/ ٣١٢ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الحدود ٨/ ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
(٣) عبد الرزاق فى أهل الكتابين (١٩٢٣٩) وفى أهل الكتاب (١٠٠١٠) .

رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك، فجعل الدية سواء [(١)] . وأخرج نحوه عنه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه [(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وعندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾ يعنى حدود الله فأخبره الله بحكمه فى التوراة . قال: ﴿ **وكتبنا عليهم فيها** ﴾ إلى قوله: ﴿ **والجروح قصاص** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾ يعنى النبى ﷺ ﴿**للذين هادوا** ﴾ يعنى اليهود . وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : الذين أسلموا : النبى ومن قبله من الأنبياء ، يحكمون بما فيها من الحق . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : الربانيون والأحبار : الفقهاء والعلماء . وأخرج عن مجاهد قال: الربانيون : العلماء الفقهاء . وهم فوق الأحبار . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : الربانيون : العباد ، والأحبار: العلماء. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الربانيون : الفقهاء العلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : الربانيون : هم المؤمنون ، والأحبار : هم القراء .

وأخرج ابن جرير عن السدى ﴿ **فلا تخشوا الناس** ﴾ فتكتموا ما أنزلت ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا** ﴾ على أن تكتموا ما أنزلت . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلاً** ﴾ قال : لا تأكلوا السحت على كتابى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن لم يحكم** ﴾ يقول : من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ قال : إنه ليس بالكفر الذى يذهبون إليه ، وإنه ليس كفر ينقل من الملة بل دون كفره [(٣)] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء بن أبى رباح فى قوله : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... هم الظالمون ... هم الفاسقون** ﴾ قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما أنزل الله : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ و﴿ **الظالمون** ﴾ و ﴿**الفاسقون**﴾ فى اليهود خاصة . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٨ وابن جرير ٦/ ١٥٧ والطبرانى (١١٥٧٣) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الديات (٨٠١٩) وابن جرير ٦/ ١٥٧ وصححه الحاكم ٤/ ٣٦٦ ، ٣٦٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الجنايات ٨/ ٢٤ .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣١٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الجنايات ٨/ ٢٠ .

حاتم، والحاكم وصححه عن حذيفة ؛ أن هذه الآيات ذكرت عنده ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ و ﴿ **الظالمون** ﴾ و ﴿ **الفاسقون** ﴾ فقال رجل : إن هذا فى بنى إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ، ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قدّ الشراك (١) . وأخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس .

﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٤٥) **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** (٤٦) **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٤٧) **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** (٤٨) **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** (٤٩) **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (٥٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وكتبنا** ﴾ معطوف على أنزلنا التوراة ، ومعناها : فرضنا ، بين الله سبحانه فى هذه الآية ما فرضه على بنى إسرائيل من القصاص فى النفس والعين والأنف والأذن والسن والجروح . وقد استدل أبو حنيفة وجماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا : إنه يقتل المسلم بالذمى لأنه نفس . وقال الشافعى وجماعة من أهل العلم : إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا، وليس بشرع لنا . وقد قدمنا فى البقرة فى شرح قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾ [البقرة : ١٧٨] ما فيه كفاية .

وقد اختلف أهل العلم فى شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ وهو الحق. وقد ذكر ابن الصباغ فى الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه

---

(١) ابن جرير ٦/ ١٦٤ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . والشراك : سير النعل ، ويُضرب به المثل فى الصغر والقصر.

الآية على ما دلت عليه . قال ابن كثير فى تفسيره: وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة . انتهى[١] . وقد أوضحنا ما هو الحق فى هذا فى شرحنا على المنتقى ، وفى هذه الآية توبيخ لليهود وتقريع ؛ لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم فى التوراة كما حكاه هنا ، ويفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه ، وقد كانوا يقيدون بنى النضير من بنى قريظة ، ولا يقيدون بنى قريظة من بنى النضير.

قوله : ﴿ والعين بالعين ﴾ قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمزة بالنصب فى جميعها على العطف . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بالنصب أيضا فى الكل إلا فى الجروح فبالرفع . وقرأ الكسائى وأبو عبيد بالرفع فى الجميع ، عطفا على المحل ؛ لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء . وقال الزجاج : يكون عطفاً على المضمر فى النفس ، لأن التقدير: إن النفس هى مأخوذة بالنفس فالأسماء معطوفة على هى . قال ابن المنذر : ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين . والظاهر من النظم القرآنى أن العين إذا فقئت حتى لم يبق فيها مجال للإدراك ؛ أنها تفقأ عين الجانى بها ، والأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدع أنف الجانى بها ، والأذن إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أذن الجانى بها ، وكذلك السن ؛ فأما لو كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين ، أو ببعض الأنف ، أو ببعض الأذن ، أو ببعض السن ، فليس فى هذه الآية مايدل على ثبوت القصاص .

وقد اختلف أهل العلم فى ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته وكلامهم مدون فى كتب الفروع. والظاهر من قوله: ﴿ والسن بالسن ﴾ أنه لا فرق بين الثنايا والأنياب ، والأضراس والرباعيات ، وأنه يؤخذ بعضها ببعض ، ولا فضل لبعضها على بعض . وإليه ذهب أكثر أهل العلم ، كما قال ابن المنذر ، وخالف فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن تبعه ، وكلامهم مدوّن فى مواطنه ، ولكنه ينبغى أن يكون المأخوذ فى القصاص من الجانى هو المماثل للسن المأخوذة من المجنى عليه ، فإن كانت ذاهبة فما يليها .

قوله : ﴿ والجروح قصاص ﴾ أى ذوات قصاص . وقد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص فى الجروح التى يخاف منها التلف ، ولا فيما كان لا يعرف مقداره عمقا أو طولا أو عرضاً . وقد قدر أئمة الفقة أرش كل جراحة بمقادير معلومة ، وليس هذا موضع بيان كلامهم ، ولا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقدر . قوله : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ أى من تصدق من المستحقين للقصاص بالقصاص بأن عفا عن الجانى فهو كفارة للمتصدق، يكفر الله عنه بها ذنوبه. وقيل : إن المعنى: فهو كفارة للجارح ، فلا يؤاخذ بجنايته فى الآخرة ، لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه. والأول أرجح ؛ لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير مذكور .

(١) ابن كثير٢/ ٥٨٠ .

قوله : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ ضمير الفصل مع اسم الإشارة ، وتعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية .

قوله :﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم** ﴾ هذا شروع فى بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة ، أى جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم ، أى آثار النبيين الذين أسلموا من بنى إسرائيل ، يقال :قفيته مثل عقبته إذا اتبعته ، ثم يقال : قفيته بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثانى بالباء ، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف ، وهو على آثارهم ، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه وانتصاب ﴿ **مصدقاً** ﴾ على الحال من عيسى ﴿ **وآتيناه الإنجيل** ﴾ عطف على قفينا ، ومحل الجملة ، أعنى : ﴿ **فيه هدى** ﴾ ، النصب على الحال من الإنجيل ، و﴿ **نور** ﴾ عطف على هدى . وقوله : ﴿ **ومصدقاً** ﴾ معطوف على محل ﴿ **فيه هدى** ﴾ أى أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى والنور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة . وقيل : إن مصدقاً معطوف على مصدقاً الأول ، فيكون حالاً من عيسى ، مؤكداً للحال الأول ومقرراً له . والأول أولى ، لأن التأسيس خير من التأكيد . قوله : ﴿ **وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ عطف على مصدقاً داخل تحت حكمه منضماً إليه ، أى مصدقاً وهادياً وواعظاً للمتقين .

قوله : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل فيه الله، فإنه قبل البعثة المحمدية حق ، وأما بعدها فقد أمروا فى غير موضع بأن يعملوا بما أنزل اللّه على محمد ﷺ فى القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة . وقرأ الأعمش وحمزة بنصب الفعل من يحكم ، على أن اللام لام كى ، وقرأ الباقون بالجزم ، على أن اللام للأمر ، فعلى القراءة الأولى تكون اللام متعلقة بقوله : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه ، وعلى القراءة الثانية : هو كلام مستأنف . قال مكى : والاختيار بالجزم ، لأن الجماعة عليه ، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل . وقال النحاس : والصواب عندى أنهما قراءتان حسنتان ، لأن الله سبحانه لم ينزل كتاباً إلا ليعمل بما فيه .

قوله : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب** ﴾ خطاب لمحمد ﷺ ، والكتاب : القرآن ، والتعريف للعهد ، و ﴿ **بالحق** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أى متلبساً بالحق . وقيل : هو حال من فاعل أنزلنا . وقيل : من ضمير النبى ﷺ و ﴿ **مصدقاً لما بين يديه** ﴾ حال من الكتاب ، والتعريف فى الكتاب أعنى قوله : ﴿ **مصدقا لما بين يديه من الكتاب** ﴾ للجنس ، أى أنزلنا إليك يا محمد ، القرآن حال كونه متلبساً بالحق ، وحال كونه مصدقاً لما بين يديه من كتب الله المنزلة لكونه مشتملاً على الدعوة إلى الله ، والأمر بالخير والنهى عن الشر ، كما اشتمل عليه قوله : ﴿ **ومهيمنا عليه** ﴾ عطف على مصدقاً، والضمير فى عليه عائد إلى الكتاب الذى صدقه القرآن وهيمن عليه ، والمهيمن : الرقيب . وقيل : الغالب المرتفع . وقيل: الشاهد . وقيل : الحافظ . وقيل : المؤتمن . قال المبرد : أصلهُ مؤَيْمن أبدل من الهمزة هاء ، كما قيل فى أرَقْت

الماء: هَرَقْت ، وبه قال الزجاج وأبو على الفارسى . وقال الجوهرى : هو من أمن غيره من الخوف وأصله أأمَنَ فهو مُؤَأمن بهمزتين ، قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما فصار مُؤَيْمن ثم صيرت الأولى هاء ، كما قالوا : هَرَاق الماء وأرَاقه ، يقال : هَيْمن على الشيء يهيمن : إذا كان له حافظاً، فهو لهُ مهيمن كذا عن أبى عُبيد . وقرأ مجاهد وابن محيصن : «مهيْمَناً عَلَيْه » بفتح الميم ، أى هيمن عليه الله سبحانه . والمعنى على قراءة الجمهور : أن القرآن صار شاهداً بصحة الكتب المنزلة ، ومقرراً لما فيها ، مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفه فيها ، ورقيباً عليها ، وحافظاً لما فيها من أصول الشرائع ، وغالباً لها لكونه المرجع فى المحكم منها والمنسوخ ، ومؤتمناً عليها لكونه مشتملاً على ما هو معمول به منها وما هو متروك.

قوله: ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ أى بما أنزله إليك فى القرآن لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده فى جميع الكتب السابقة عليه ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾ أى أهواء أهل الملل السابقة . وقوله : ﴿ **عما جاءك من الحق** ﴾ متعلق بلا تتبع على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف ﴿ **عما جاءك من الحق** ﴾ متبعاً لأهوائهم . وقيل : متعلق بمحذوف ، أى لا تتبع أهواءهم عادلاً أو منحرفاً عن الحق ، وفيه النهى له ﷺ عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب، ويعدل عن الحق الذى أنزله الله عليه ، فإن كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه ، وما أدركوا عليه سلفهم ، وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرفاً عن الحكم الذى أنزله الله على الأنبياء ، كما وقع فى الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله .

قوله : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ الشِّرْعة والشَّريعة فى الأصل : الطريقة الظاهرة التى يُتوصل بها إلى الماء، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدِّين . والمنهاج : الطريقة الواضحة البينة . وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : الشريعة : ابتداء الطريق ، والمنهاج : الطريق المستمر ، ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ . قوله : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ بشريعة واحدة ، وكتاب واحد ، ورسول واحد ﴿ **ولكن ليبلوكم** ﴾ أى ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد ، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع ، فيكون ﴿ **ليبلوكم** ﴾ متعلقا بمحذوف دل عليه سياق الكلام وهو ما ذكرنا ، ومعنى ﴿ **فيما آتاكم** ﴾ : فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسل ، هل تعملون بذلك، وتذعنون له، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته ، وتميلون إلى الهوى ، وتشترون الضلالة بالهدى ؟ وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة ، أعنى الابتلاء والامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص . قوله : ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ أى إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله وترك ما أمرتم بتركه. والاستباق : المسارعة . ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعا** ﴾ لا

إلى غيره وهذه الجملة كالعلة لما قبلها .

قوله : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾ عطف على الكتاب ، أى أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه . وقد استدل بهذا على نسخ التغيير المتقدم فى قوله : ﴿ **أو أعرض عنهم** ﴾. وقد تقدم تفسير ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾. قوله : ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ أى يضلوك عنه ، ويصرفوك بسبب أهوائهم التى يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ أى إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك ، فذلك لما أراده الله من تعذيبهم ببعض ذنوبهم وهو ذنب التولى عنك ، والإعراض عما جئت به﴿ **وإن كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ متمردون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف .

قوله : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كما فى نظائره، والمعنى: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية ، والاستفهام فى : ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ للإنكار أيضاً ، أى لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين ، لا عند أهل الجهل والأهواء .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **كتبنا عليهم فيها** ﴾ فى التوراة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه قال : كتب عليهم هذا فى التوراة ، وكانوا يقتلون الحر بالعبد فيقولون : كتب علينا أن النفس بالنفس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ قال : يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله ﴿ **فهو كفارة له** ﴾ قال : للمجروح . وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجة عن أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشىء فى جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » (١).

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ﴿ **ومهيمناً عليه** ﴾ قال : مؤتمناً عليه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال: المهيمن : الأمين . والقرآن أمين على كل كتاب قبله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه فى قوله: ﴿ **شرعة ومنهاجاً** ﴾ قال: سبيلاً وسنة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا أن نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة

---

(١) أحمد ٦/ ٤٤٨ والترمذى فى الديات (١٣٩٣) وقال : « غريب » وابن ماجة فى الديات (٢٦٩٣) .

فنحاكمهم إليك. فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لقوم يوقنون** ﴾ [(١)]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ قال : يهود . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : هذا في قتيل اليهود .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾.

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا** ﴾ الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة. وقيل : المراد بهم المنافقون ، ووصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه. وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فنهوا عن ذلك . والأولى أن يكون خطاباً لكل من يتصف بالإيمان أعم من أن يكون ظاهراً وباطناً أو ظاهراً فقط ، فيدخل المسلم والمنافق . ويؤيد هذا قوله : ﴿ **فترى الذين في قلوبهم مرض** ﴾ والاعتبار بعموم اللفظ ،وسيأتي في بيان سبب نزول الآية ما يتضح به المراد . والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء : أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة .

وقوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ تعليل للنهي ، والمعنى : أن بعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم ، وبعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم ، وليس المراد بالبعض : إحدى طائفتي اليهود والنصارى ، وبالبعض الآخر: الطائفة الأخرى للقطع بأنهم في غاية من العداوة والشقاق ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ [البقرة : ١١٨] . وقيل : المراد: أن كل واحدة من الطائفتين توالي الأخرى وتعاضدها وتناصرها على عداوة النبي ﷺ ، وعداوة ما جاء به ، وإن كانوا في ذات بينهم

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٨ وابن جرير ٦/ ١٧٧ والبيهقي في الدلائل ٢/ ٥٣٦ .

متعادين متضادّين . ووجه تعليل النهى بهذه الجملة ، أنها تقتضى أن هذه الموالاة هى شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم ، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ أى فإنه من جملتهم وفى عدادهم وهو وعيد شديد فإن المعصية الموجبة للكفر هى التى قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية. وقوله : ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ تعليل للجملة التى قبلها ، أى أن وقوعهم فى الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين .

قوله : ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم** ﴾ الفاء للسببية ، والخطاب إما للرسول ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، أى ما ارتكبوه من الموالاة ، ووقعوا فيه من الكفر ، هو بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق . وقوله : ﴿ **يسارعون** ﴾ فى محل نصب إما على أنه المفعول الثانى إذا كانت الرؤية قلبية ، أو على أنه حال إذا كانت بصرية ، وجعل المسارعة فى موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة فى بيان رغوبهم فى ذلك ، حتى كأنهم مستقرون فيهم ، داخلون فى عدادهم ، وقد قرئ : « فيرى » بالتحتية . واختلف فى فاعله ما هو ؟ فقيل : هو الله ـ عز وجل . وقيل : هو كل من تصح منه الرؤيا . وقيل : هو الموصول ، ومفعوله : ﴿ **يسارعون فيهم** ﴾ على حذف أن المصدرية ، أى فيرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم ، فلما حذفت ارتفع الفعل كقوله :

ألا أيُّهذا اللائمى أحضر الوغا

والمرض فى القلوب : هو النفاق والشك فى الدين . وقوله : ﴿ **يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾ جملة مشتملة على تعليل المسارعة فى الموالاة ، أى أن هذه الخشية هى الحاملة لهم على المسارعة . وقيل : إن هذه الجملة حال من ضمير يسارعون . والدائرة : ما تدور من مكاره الدهر ، أى نخشى أن تظفر الكفار بمحمد ﷺ فتكون الدولة لهم ، وتبطل دولته فيصيبنا منهم مكروه ، ومنه قول الشاعر (١) :

يردّ عَنْكَ القَدَرَ المقدورا ... ودائراتِ الدهر أن تَدورا (٢)

أىَ دولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم .

وقوله : ﴿ **فعسى الله أن يأتى بالفتح** ﴾ رد عليهم ودفع لما وقع لهم من الخشية ، وعسى فى كلام الله وعد صادق لا يتخلف . والفتح : ظهور النبى ﷺ على الكافرين ، ومنه ما وقع من قتل مقاتلة بنى قريظة ، وسبى ذراريهم ، وإجلاء بنى النضير . وقيل : هو فتح بلاد المشركين على المسلمين ، وقيل : فتح مكة. والمراد بالأمر من عنده سبحانه : هو كل ما تندفع به صولة اليهود ومن معهم ، وتنكسر به شوكتهم . وقيل : هو إظهار أمر المنافقين وإخبار

(١) الشاعر : هو حميد الأرقط .

(٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ١٦٩ .

النبى ﷺ بما أسروا فى أنفسهم وأمره بقتلهم . وقيل : هو الجزية التى جعلها الله عليهم . وقيل : الخصب والسعة للمسلمين ، فيصبح المنافقون ﴿ **على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ من النفاق الحامل لهم على الموالاة ﴿ **نادمين** ﴾ على ذلك لبطلان الأسباب التى تخيلوها وانكشاف خلافها .

قوله : ﴿ **ويقول الذين آمنوا** ﴾ (١) قرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق وأهل الكوفة بإثبات الواو ، وقرأ الباقون بحذفها ، فعلى القراءة الأولى مع رفع يقول يكون كلاماً مبتدأ مسوقاً لبيان ما وقع من هذه الطائفة ، وعلى قراءة النصب يكون عطفاً على ﴿ **فيصبحوا** ﴾ . وقيل : على ﴿ **يأتى** ﴾ ، والأول أولى ؛ لأن هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين ، لا عند إتيان الفتح . وقيل : هو معطوف على الفتح كقول الشاعر :

لَلُبْس عَبَاءةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي (٢)

وأما على قراءة حذف الواو فالجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والإشارة بقوله : ﴿**أهؤلاء**﴾ إلى المنافقين ، أى يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود ومشيرين إلى المنافقين : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم** ﴾ بالمناصرة والمعاضدة فى القتال ، أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين ، وهذه الجملة مفسرة للقول . وجهد الأيمان : أغلظها ، وهو منصوب على المصدر أو على الحال ، أى أقسموا بالله جاهدين . قوله : ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ أى بطلت وهو من تمام قول المؤمنين ، أو جملة مستأنفة ، والقائل الله سبحانه . والأعمال هى التى عملوها فى الموالاة ، أو كل عمل يعملونه .

قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه** ﴾ قرأ أهل المدينة والشام : « يرتدد » بدالين بفك الإدغام ، وهى لغة تميم ، وقرأ غيرهم بالإدغام ، وهذا شروع فى بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر ، وذلك نوع من أنواع الردة ، والمراد بالقوم الذين وعد الله سبحانه بالإتيان بهم : هم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وجيشه من الصحابة والتابعين الذين قاتل بهم أهل الردة ، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين فى جميع الزمن ، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف العظيمة ، المشتملة على غاية المدح ، ونهاية الثناء ، من كونهم يحبون الله وهو يحبهم، ومن كونهم ﴿ **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾ والأذلة : جمع ذليل لا ذلول ، والأعزة : جمع عزيز ، أى يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة فى سبيل الله ، وعدم خوف الملامة فى الدين ، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومناقبهم مثالب، حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله، والإشارة

---

(١) فى المخطوطة :« يقول ».

(٢) وتكملة البيت : أحب إلى من لبس الشفوف.

بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الصفات التى اختصهم الله بها . والفضل : اللطف والإحسان .

قوله : ﴿ **إنما وليكم الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحل موالاته بين من هو الولى الذى تجب موالاته ، ومحل ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ الرفع على أنه صفة للذين آمنوا ، أو بدل منه ، أو النصب على المدح ، وقوله: ﴿ **وهم راكعون** ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله ، والمراد بالركوع : الخشوع والخضوع ، أى يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون . وقيل : هو حال من فاعل الزكاة . والمراد بالركوع هو المعنى المذكور ، أى يضعون الزكاة فى مواضعها ، غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم . وقيل : المراد بالركوع على المعنى الثانى : ركوع الصلاة ، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال ، ثم وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوهم ، وهو من وضع الظاهر موضع المضمر ، ووضع حزب الله موضع ضمير الموالين لله ولرسوله وللمؤمنين . والحزب : الصنف من الناس ، من قولهم : حزبه كذا ، أى نابه فكأن المتحزبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة التى تنوب ، وحزب الرجل : أصحابه ، والحزب : الوِرد ، وفى الحديث : « فمن فاته حزبه من الليل»[(١)] . وتحزبوا : اجتمعوا . والأحزاب: الطوائف . وقد وقع ، ولله الحمد ، ما وعد الله به أولياءه وأولياء رسله وأولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوهم، فإنهم غلبوا اليهود بالسبى ، والقتل ، والإجلاء ، وضرب الجزية ، حتى صاروا ، لعنهم الله ، أذلّ الطوائف الكفرية ، وأقلها شوكة، وما زالوا تحت كَلْكَل [(٢)] المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا ، ويمتهنونهم كما يريدون ، من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول وقام دونهم ، ومشى عبادة ابن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى اللّه وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بنى عوف ابن الخزرج ، وله من حلفهم مثل الذى كان لهم من عبد الله بن أبىّ بن سلول فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال : أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم . وفيه وفى عبد الله بن أبىّ نزلت الآيات فى المائدة ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ [(٣)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أسلم عبد الله بن أبى بن سلول ، ثم قال: إن بينى وبين قريظة والنضير حلفاً ، وإنى أخاف

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٤٧ / ١٤٢) وأبو داود فى الصلاة (١٣١٣) والترمذى فى الصلاة (٥٨١) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى قيام الليل وتطوع النهار ٣/ ٢٥٩ ، ٢٦٠ وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٤٣) ، كلهم بلفظ : « من نام » .

(٢) الكَلْكَلُ : الصدر ، أو هو ما بين الترقوتين .

(٣) ابن إسحاق ٣/ ١١ وابن جرير٦/ ١٧٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٧٤ ، ١٧٥ .

الدوائر ، فارتدّ كافراً ، وقال عبادة بن الصامت : أتبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير ، وأتولى الله ورسوله ، فنزلت . وأخرج ابن مردويه أيضًا من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت عن أبيه عن جده نحو ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة فذكر نحو ما تقدم [١] .

وأخرج ابن جرير عن الزهرى قال : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن الصيف : غركم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا [٢] ، فقال عبادة وذكر نحو ما تقدم عنه وعن عبد الله بن أبىّ [٣] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ قال : إنها فى الذبائح « من دخل فى دين قوم فهو منهم» [٤] . وأخرج عبد بن حميد عن حذيفة قال : ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر ، وتلا ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ كعبد الله بن أبى ﴿ **يسارعون فيهم** ﴾ فى ولايتهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه ، وابن عساكر عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه** ﴾ وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتدّ عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد : أهل المدينة ، وأهل مكة ، وأهل الجواثى من عبد القيس ، وقال الذين ارتدوا: نصلى الصلاة ولانزكّى ، والله لا تغصب أموالنا ، فكلم أبا بكر فى ذلك ليتجاوز عنهم ، وقيل له : لو أنهم قد فقهوا [٥] أدوا الزكاة ، فقال : والله لا أفرق بين شىء جمعه الله ، ولو منعونى عقالاً مما فرض اللّه ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصائب مع أبى بكر فقاتلوا حتى أقروا بالماعون وهو الزكاة ، قال قتادة : فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وأصحابه : ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ إلى آخر الآية[٦] . وأخرج عبد حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل عن الحسن نحوه .

وأخرج ابن جرير عن شريح عن عبيد قال : لما أنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه** ﴾ الآية قال عمر : أنا وقومى يا رسول الله ؟ قال : « لا بل هذا وقومه » يعنى أبا موسى الأشعرى [٧] . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة فى مسنده وعبد بن حميد

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢٣٥١) وابن جرير ٦/ ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) فى المخطوطة : «يدان بقتالنا » . (٣) ابن جرير ٦/ ١٧٨ .
(٤) المرجع السابق ٦/ ١٧٩ .
(٥) فى المطبوعة : «إنهم لو قد فقهوا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٦) ابن جرير٦/ ١٨٣ والبيهقى ٨/ ١٧٧ ، ١٧٨ . (٧) ابن جرير ٦/ ١٨٤ .

والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن عياض الأشعرى قال : لما نزلت : ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هم قوم هذا » وأشار إلى أبى موسى الأشعرى (١) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم فى جمعه لحديث شعبة والبيهقى وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال : تليت عند النبى ﷺ ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم** ﴾ الآية ، فقال النبى ﷺ : « قومك يا أبا موسى أهل اليمن » (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى (٣) ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ وابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ الآية ، فقال : « هؤلاء قوم من أهل اليمن ، ثم كندة ، ثم السكون ، ثم تجيب » (٤) .وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : هم قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وأخرج ابن أبى شيبة عنه قال : هم أهل القادسية. وأخرج البخارى فى تاريخه عن القاسم بن يَنْخُسْرُه (٥) قال : أتيت ابن عمر فرحب بى ، ثم تلا ﴿ **من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم** ﴾ الآية ، ثم ضرب على منكبى وقال : أحلف بالله إنهم لمنكم أهل اليمن ثلاثا (٦) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عطية بن سعد . قال فى قوله : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله** ﴾ : إنها نزلت فى عبادة بن الصامت(٧) . وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق عن ابن عباس قال : تصدّق علىٌّ بخاتم وهو راكع ، فقال النبى ﷺ للسائل : « من أعطاك هذا الخاتم ؟ » قال: ذاك الراكع ، فأنزل الله فيه: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله** ﴾(٨). وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى على بن

---

(١) ابن سعد ٤ / ١٠٧ وابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢٣١١) وابن جرير ٦ / ١٨٣ والطبرانى ١٧ / ٣٧١ (١٠١٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٩ : « ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٢/ ٣١٣ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٥١ ، ٣٥٢ عن عياض عن أبى موسى ، والخطيب فى تاريخه ٢/ ٣٩ وعزاه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٥٩٨) إلى أبى بكر ، وقال البوصيرى : «رواته ثقات».

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٣) فى المطبوعة :«ابن أبى حاتم فى الكنى » والصحيح ما أثبتناه عن الدر المنثور ٢/ ٢٩٢ .

(٤) عزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٩ إلى الطبرانى فى الأوسط وقال : « إسناده حسن » وأورد ابن كثير رواية ابن مردويه ٢/ ٥٩٥ وقال : «غريب جدا » .

(٥) فى الأصل : «مخيمرة » وفى التاريخ الكبير ٧/ ١٦٠ ، ١٦١ ولهذا الرجل ترجمة فى الإصابة فى القسم الثالث من باب القاف ٣/ ٢٦٧ (٧٢٧٥) باسم القاسم بن ينخسره .

(٦) البخارى فى التاريخ الكبير ٧/ ١٦١ . (٧) ابن جرير ٦/ ١٨٦ .

(٨) عزاه المتقى الهندى فى الكنز (٣٦٣٥٤) إلى الخطيب فى المتفق وقال : « وفيه مطلب بن زياد ، وثقه أحمد وابن معين ، وقال أبو حاتم : لا يحتج بحديثه » .كما أورد ابن كثير ٢/ ٥٩٧ رواية ابن مردويه من طريق آخر وقال: « الضحاك ـ الراوى عن ابن عباس ـ لم يلق ابن عباس».

أبى طالب (١) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن على بن أبى طالب نحوه . وأخرج ابن مردويه عن عمار نحوه أيضاً . وأخرج الطبراني فى الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا** ﴾ هذا النهى عن موالاة المتخذين للدين هزواً ولعباً يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين ، وأهل الكتاب ، وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام ، والبيان بقوله : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ إلى آخره لا ينافى دخول غيرهم تحت النهى ، إذا وجدت فيه العلة المذكورة التى هى الباعثة على النهى . قوله : ﴿ **والكفار** ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى بالجر على تقدير من ، أى ومن الكفار . قال الكسائى : وفى حرف أبىّ : «ومن الكفار » ، وقرأ من عداهما بالنصب . قال النحاس : وهو أوضح وأبين . وقال مكى : لولا اتفاق الجماعة على النصب لاخترت الخفض لقوته فى الإعراب وفى المعنى ، والمراد بالكفار هنا : المشركون . وقيل : المنافقون ﴿ **واتقوا الله** ﴾ بترك ما نهاكم عنه من هذا وغيره ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ فإن الإيمان يقتضى ذلك . والنداء : الدعاء برفع الصوت وناداه مناداة ونِداء: صاح به ، وتنادوا ، أى نادى بعضهم بعضاً . وتَنَادوا ، أى جلسوا فى النادى ، والضمير فى ﴿ **اتخذوها** ﴾ للصلاة ،أى اتخذوا صلاتكم هزواً ولعبا . وقيل : الضمير للمناداة المدلول عليها بناديتم. قيل: وليست فى كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا فى هذا الموضع،وأما قوله تعالى فى الجمعة: ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾[الجمعة: ٩]. فهو خاص بنداء الجمعة.

(١) أورد ابن كثير ٢/ ٥٩٧ رواية عبد الرزاق وقال : « عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به » ، وروايات ابن مردويه فى هذا الشأن ثم قال ٢/ ٥٩٨: «وليس يصح منها شيء بالكلية لضعف أسانيدها ، وجهالة رجالها » وابن جرير ٦/ ١٨٦ لكن عن مجاهد وليس عن ابن عباس .

وقد اختلف أهل العلم في كون الأذان واجباً أو غير واجب ، وفى ألفاظه، وهو مبسوط فى مواطنه . قوله : ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ أى ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون ؛ لأن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه ، والخفة ، والطيش.

قوله : ﴿ **قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا** ﴾ يقال : نَقمتُ على الرجل بالكسر فأنا نَاقِم : إذا عبتُ عليه . قال الكسائى : نَقِمت بالكسر لغة ، وَنَقَمتُ الأمر أيضاً ، وَ نَقِمته : إذا كرهته وانتقم الله منه ، أى عاقبه ، والاسم منه : النقمة، والجمع نَقِمات ، مثل كلِمة وكَلِمات وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون، والجمع نِقَم مثل نِعمة ونِعم . وقيل : المعنى : يسخطون . وقيل : ينكرون . قال عبد الله بن قيس الرقيات :

ما نَقَمُـوا من بنى أُمَيَّـة إلاَّ أَنَّهـُم يَحلُمـون إن غَضِـبُوا

وقال الله سبحانه : ﴿ وما نقموا منهم ﴾ [البروج : ٨] . والمعنى فى الآية : هل تعيبون ، أو تسخطون ، أو تنكرون ، أو تكرهون منا ، إلا إيماننا بالله وبكتبه المنزلة ، وقد علمتم بأنا على الحق ﴿ **وأن أكثركم فاسقون** ﴾ بترككم الإيمان والخروج عن امتثال أوامر الله . قوله : ﴿ **وأن أكثركم فاسقون** ﴾ معطوف على ﴿ **أن آمنا** ﴾ أى ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان. وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين ، فإن الإيمان من جهتهم والتمرد والخروج من جهة الناقمين . وقيل : هو على تقدير محذوف أى واعتقادنا أن أكثركم فاسقون . وقيل : إن قوله : ﴿ **أن آمنا** ﴾ هو منصوب على أنه مفعول له والمفعول محذوف فيكون ﴿ **وأن أكثركم فاسقون** ﴾ معطوفا عليه عطف العلة على العلة ، والتقدير : وما تنقمون منا إلا لأن آمنا ، ولأن أكثركم فاسقون . وقيل : معطوف على علة محذوفة، أى لقلة إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون . وقيل : الواو فى قوله : ﴿ **وأن أكثركم فاسقون** ﴾ هى التى بمعنى مع أى ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون. وقيل: هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون أى ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون . وقيل : هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف ، أى وفسقكم معلوم فتكون الجملة حالية وقرئ بكسر إن من قوله : ﴿ **وأن أكثركم فاسقون** ﴾ فتكون جملة مستأنفة .

قوله : ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك** ﴾ بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه ؛ والمعنى : هل أنبئكم بشر من نقمكم علينا،أو بشر مما تريـدون لنا من المكروه، أو بشـر من أهل الكتاب، أو بـشر من دينهم. وقوله: ﴿ **مثوبة** ﴾ أى جـزاء ثابتًا،وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر. ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران :٢١] . وهى منصوبة على التمييز من بشرّ . وقوله : ﴿ **من لعنه الله** ﴾ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف ، أى هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله ، ويجوز أن يكون فى محل جر بدلا من شرّ . قوله : ﴿ **وجعل منهم القردة والخنازير** ﴾ أى مسخ بعضهم قردة

وبعضهم خنازير وهم اليهود ، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة ، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير.

قوله : ﴿ **وعبد الطاغوت** ﴾ قرأ حمزة بضم الباء من« عبد » وكسر التاء من « الطاغوت » أى جعل منهم عبد الطاغوت ، بإضافة عبد إلى الطاغوت . والمعنى : وجعل منهم من يبالغ فى عبادة الطاغوت ، لأن فعل من صيغ المبالغة كحذر وفطن ، للتبليغ فى الحذر والفطنة . وقرأ الباقون بفتح الباء من ﴿ **عبد** ﴾ وفتح التاء من ﴿ **الطاغوت** ﴾ على أنه فعل ماض معطوف على فعل ماض وهو غضب ولعن ، كأنه قيل : ومن عبد الطاغوت ، أو معطوف على القردة والخنازير، أى جعل منهم القردة والخنازير وجعل منهم عبد الطاغوت حملاً على لفظ « من »، وقرأ أبى وابن مسعود : « وعبدوا الطاغوت » حملاً على معناها . وقرأ ابن عباس : « وعبد » بضم العين والباء ، كأنه جمع عبد ، كما يقال : سقف وسقُف . ويجوز أن يكون جمع عبيد كرغيف ورغف ، أو جمع عابد كبازل وبزل . وقرأ أبو واقد : « وعباد » جمع عابد للمبالغة ، كعامل وعمال . وقرأ البصريون : « وعباد » جمع عابد أيضا ، كقائم وقيام ويجوز أن يكون جمع عبد . وقرأ أبو جعفر الرقاشى:«وعبد الطاغوت» على البناء للمفعول ، والتقدير : وعبد الطاغوت فيهم ، وقرأ عون العُقَيْلى،وابن بُرَيدة :« وعابد الطاغوتِ » على التوحيد . وروى عن ابن مسعود وأبى أنهما قرآ:« وَعَبَدَة الطَّاغُوتِ » ، وقرأ عبيد بن عمير: «وأعبد الطاغوت» مثل كلب وأكلب.وقرئ :« وعبد الطاغوت » عطفاً على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف ، وهى قراءة ضعيفة جداً ، والطاغوت : الشيطان، أو الكهنة ، أو غيرهما ، مما تقدم مستوفى .

قوله : ﴿ **أولئك شر مكاناً** ﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة ، وجعلت الشرارة للمكان ، وهى لأهله للمبالغة ، ويجوز أن يكون الإسناد مجازياً . قوله : ﴿ **وأضل عن سواء السبيل** ﴾ معطوف على شر أى هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم ، والتفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقاً أو لكونهم أشر وأضل مما يشاركهم فى أصل الشرارة والضلال .

قوله : ﴿ **وإذا جاؤوكم قالوا آمنا** ﴾ أى إذا جاؤوكم أظهروا الإسلام . قوله : ﴿ **وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به** ﴾ جملتان حاليتان ، أى جاؤوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر ، وخرجوا من عندك متلبسين به ، لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ، بل خرجوا كما دخلوا ﴿ **والله أعلم بما كانوا يكتمون** ﴾ عندك من الكفر ، وفيه وعيد شديد ، وهؤلاء هم المنافقون . وقيل : هم اليهود الذين قالوا : ﴿ آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ [آل عمران : ٧٢].

قوله : ﴿ **وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، والضمير فى ﴿ **منهم** ﴾ عائد إلى المنافقين ، أو اليهود ، أو الطائفتين جميعاً

و﴿ **يسارعون فى الإثم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، على أن الرؤية بصرية ، أو مفعول ثان لترى على أنها قلبية ، والمسارعة : المبادرة ، والإثم : الكذب ، أو الشرك ، أو الحرام ، والعدوان : الظلم المتعدى إلى الغير أو مجاوزة الحد فى الذنوب ، والسحت : الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة ، والربانيون : علماء النصارى ، والأحبار : علماء اليهود . وقيل : الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم ، ثم وبخ علماءهم فى تركهم لنبيهم فقال : ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ وهذا فيه زيادة على قوله : ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ لأن العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرب فيه صاحبه ، ولهذا تقول العرب : سيف صنيع، إذا جوّد عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل ، فوبخ سبحانه الخاصة ، وهم العالمون التاركون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصى ، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ، ويفرجوا لها عن قلوبهم ، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافى لهم بأن كفهم عن المعاصى مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغنى من جوع ، بل هم أشد حالاً، وأعظم وبالاً من العصاة ، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو أعظم ما افترض الله عليه ، وأوجب ما أوجب عليه النهوض به[1]. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين ،الآمرين بالمعروف ، الناهين عن المنكر ، الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وأعنا على ذلك ، وقونا عليه ، ويسره لنا ، وانصرنا على من تعدى حدودك ، وظلم عبادك ، إنه لا ناصر لنا سواك ، ولا مستعان غيرك ، يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسويد بن الحارث ، قد أظهرا الإسلام ونافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والله أعلم بما كانوا يكتمون** ﴾ [2] . وأخرج البيهقى فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبا** ﴾ قال : كان منادى رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود والنصارى : قد قاموا لا قاموا ، فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا استهزؤوا بهم وضحكوا منهم ، قال : وكان رجل من اليهود تاجراً إذا سمع المنادى ينادى بالأذان قال : أحرق الله الكاذب ، قال : فبينما هو كذلك إذ دخلت جاريته بشعلة من نار فطارت شرارة منها فى البيت فأحرقته [3] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : كان رجل من الأنصار فذكر نحو قصة الرجل اليهودى .

---

(١) وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » رواه الترمذى (٢١٦٨) عن أبى بكر ، وقال: «صحيح ».

(٢) ابن إسحاق ٢/ ٢١٠ وابن جرير ٦/ ١٨٧ .

(٣) البيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: أتى النبى ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال : « أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن لهم مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا : لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فاسقون** ﴾ (١) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وجعل منهم القردة والخنازير** ﴾ قال : مسخت من يهود . وأخرج أبو الشيخ عن أبى مالك أنه قيل له : كانت القردة والخنازير قبل أن يمسخوا؟ قال : نعم . وكانوا مما خلق من الأمم . وأخرج مسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير هما مما مسخ الله ؟ فقال : « إن الله لم يهلك قوماً » ، أو قال : « لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلا ولا عاقبة ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإذا جاؤوكم قالوا آمنا** ﴾ الآية ، قال أناس من اليهود : كانوا يدخلون على النبى ﷺ فيخبرونه بأنهم مؤمنون راضون بالذى جاء به ، وهم متمسكون بضلالتهم وبالكفر ، فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى فى الآية قال : هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهوداً ، يقول : دخلوا كفاراً وخرجوا كفاراً.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان**﴾ قال : هؤلاء اليهود ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ قال : يصنعون ويعملون واحد ، قال لهؤلاء حين لم ينتهوا كما قال لهؤلاء حين عملوا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار** ﴾ قال : فهل لا ينهاهم الربانيون والأحبار، وهم الفقهاء والعلماء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار** ﴾ . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك بن مزاحم نحوه . وقد وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا حاجة لنا فى بسطها هنا .

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٨ ، ٢٠٩ وابن جرير ٦/ ١٨٩.

(٢) مسلم فى القدر (٢٦٦٣ / ٣٢ ، ٣٣) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ اليد عند العرب تطلق على الجارحة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وخذ بيدك ضغثا ﴾ [ص:٤٤]. وعلى النعمة ، يقولون : كم يد لى على فلان ، وعلى القدرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قل إن الفضل بيد الله﴾ [آل عمران : ٧٣] . أو على التأييد ، ومنه قوله ﷺ : « يد الله مع القاضى حين يقضى » [1] . وتطلق على معان أخر ، وهذه الآية هى على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ [الإسراء :٢٩] . والعرب تطلق غل اليد على البخل وبسطها على الجود مجازاً ، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف، ومنه قول الشاعر :

كانت خُراسان أرضاً إذْ يَزيدُ بها ... وكُلّ باب مِنَ الخَيْراتِ مَفْتوحُ
فاستبدلت بعده جَعْداً أَنَامِلـه ... كَأَنَّما وَجهُه بالخلِّ مَنْضُوحُ

فمراد اليهود هنا ، عليهم لعائن الله ، أن الله بخيل ، فأجاب سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **غُلت أيديهم** ﴾ دعاء عليهم بالبخل فيكون الجواب عليهم مطابقاً لما أرادوه بقوله : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ ويجوز أن يراد غلّ أيديهم حقيقة بالأسر فى الدنيا أو بالعذاب فى الآخرة ، ويقوى المعنى الأول أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهودياً ، وإن كان ماله فى غاية الكثرة ، إلا وهو من أبخل خلق الله ، وأيضاً المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله.

قوله : ﴿ **ولعنوا بما قالوا** ﴾ معطوف على ما قبله والباء سببية ، أى أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم :﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ ثم رد سبحانه بقوله : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ أى بل هو فى غاية ما يكون من الجود ، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة فى الرد عليهم ، بإثبات ما يدل على غاية السخاء ، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد

(١) الحديث عن أبى أيوب الأنصارى وهو عند أحمد ٥/ ٤١٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ١٩٦ : « وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف » والبيهقى فى آداب القاضى ١٠/ ١٣٢ .

الواحدة ، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيها المقام ، أى كلاّ ، ليس الأمر كذلك ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ وقيل : المراد بقوله : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة . وقيل: نعمة المطر والنبات . وقيل : الثواب والعقاب . وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ « بل يداه بسيطتان » أى منطلقتان كيف يشاء . قوله : ﴿ **ينفق كيف يشاء** ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه ، أى إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته ، فإن شاء وسَّع ، وإن شاء قتر ، فهو الباسط القابض ، فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا لشيء آخر ، فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تتناهى .

قوله : ﴿ **وليزيدنّ كثيراً منهم** ﴾ إلخ ، اللام هى لام القسم ، أى ليزيدن كثيراً من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة ﴿ **طغياناً وكفراً** ﴾ أى طغياناً إلى طغيانهم وكفرا إلى كفرهم. قوله : ﴿ **وألقينا بينهم** ﴾ أى بين اليهود ﴿ **العداوة والبغضاء** ﴾ أو بين اليهود والنصارى . قوله : ﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله** ﴾ أى كلما جمعوا للحرب جمعاً وأعدوا له عدة شتت الله جمعهم ، وذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة ؛ بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم ، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها ، ثم يبطل الله ذلك ، والآية مشتملة على استعارة بليغة وأسلوب بديع ﴿ **ويسعون فى الأرض فساداً** ﴾ أى يجتهدون فى فعل ما فيه فساد ، ومن أعظمه ما يريدونه من إبطال الإسلام وكيد أهله . قيل : المراد بالنار هنا : الغضب ، أى كلما أثاروا فى أنفسهم غضباً أطفأه الله بما جعله من الرعب فى صدورهم ، والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم . قوله : ﴿ **والله لا يحب المفسدين** ﴾ إن كانت اللام للجنس فهم داخلون فى ذلك دخولا أوّلياً ، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدة فسادهم وكونهم لا ينفكون عنه .

قوله : ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا** ﴾ أى لو أن المتمسكين بالكتاب وهم اليهود والنصارى ، على أن التعريف للجنس ﴿ **آمنوا** ﴾ الإيمان الذى طلبه الله منهم ومن أهمه الإيمان بما جاء به محمد ﷺ كما أمروا بذلك فى كتب الله المنزلة عليهم ﴿ **واتقوا** ﴾ المعاصى التى من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله والجحود لما جاء به رسول الله ﴿ **لكفرنا عنهم سيئاتهم** ﴾ التى اقترفوها ، وإن كانت كثيرة متنوعة . وقيل : المعنى : لوسعنا عليهم فى أرزاقهم ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل** ﴾ أى أقاموا ما فيهما من الأحكام التى من جملتها الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. قوله: ﴿ **وما أنزل إليهم من ربهم** ﴾ من سائر كتب الله التى من جملتها القرآن فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم فهى فى حكم المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها ﴿ **لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ ذكر فوق وتحت للمبالغة فى تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها وتعدد أنواعها . قوله : ﴿ **منهم أمة مقتصدة** ﴾ جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : هل جميعهم متصفون

بالأوصاف السابقة،أو البعض منهم دون البعض ؟ والمقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد الله بن سلام ومن تبعه، وطائفة من النصارى ﴿ **وكثير منهم ساء ما يعملون** ﴾ وهم المصرون على الكفر ، المتمردون عن إجابة محمد ﷺ والإيمان بما جاء به .

وقد أخرج ابن إسحاق ، والطبرانى فى الكبير ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له : النباش بن قيس : إن ربـك بخيل لا ينفق ، فأنزل الله :﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ الآية (١) . وأخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت فى فنحاص اليهودى . وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ أى بخيلة وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه نحوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً** ﴾ قال : حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن ، وكفروا بمحمد ودينه وهم يجدونه مكتوبا عندهم . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:﴿**كلما أوقدوا نارا للحرب** ﴾ قال : حرب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية:كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله وأطفأ حسدهم ونارهم وقذف فى قلوبهم الرعب.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا** ﴾ قال : آمنوا بما أنزل على محمد واتقوا ما حرم الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل** ﴾ قال : العمل بهما ، وأما ﴿ **ما أنزل إليهم** ﴾ فمحمد ﷺ وما أنزل عليه ، وأما ﴿ **لأكلوا من فوقهم** ﴾ فأرسلت عليهم مطراً ، وأما ﴿ **من تحت أرجلهم** ﴾ يقول : أنبت لهم من الأرض من رزقى ما يغنيهم، ﴿ **منهم أمة مقتصدة** ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **لأكلوا من فوقهم** ﴾ يعنى لأرسل عليهم السماء مدراراً ﴿ **ومن تحت أرجلهم** ﴾ قال : تخرج الأرض من بركتها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال : الأمّة المقتصدة : الذين لا هُم فسقوا فى الدين ولا هم غلوا . قال : والغلو : الرغبة ، والفسق : التقصير عنه . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **أمة مقتصدة** ﴾ يقول : مؤمنة .

---

(١) الطبرانى (١٢٤٩٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٠ : « ورجاله ثقات » .

(٢) ابن جرير ٦/ ١٩٤ .

وأخرج ابن مردويه قال : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أحمد بن يونس الضبى ، حدثنا عاصم بن على ، حدثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فذكر حديثاً ، قال : ثم حدثهم النبى ﷺ قال : « تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة ، واحدة منها فى الجنة، وإحدى وسبعون منها فى النار؛ وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة ، واحدة منها فى الجنة ، وإحدى وسبعون منها فى النار تعلو أمتى على الفريقين جميعاً ملة واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون منها فى النار» ، قالوا: من هم يا رسول الله ؟ قال: «الجماعات الجماعات ». قال يعقوب بن زيد : كان على بن أبى طالب إذا حدّث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنا ، قال : ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون** ﴾ وتلا أيضا : ﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[١] [الأعراف : ١٨٢] يعنى أمة محمد ﷺ . قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه : وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروىّ من طرق عديدة قد ذكرناها فى موضع آخر . انتهى[٢] .

قلت : أما زيادة كونها فى النار إلا واحدة فقد ضعفها جماعة من المحدثين ؛ بل قال ابن حزم : إنها موضوعة .

﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)** ﴾ .

العموم الكائن فى ﴿ **ما أنزل** ﴾ يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزل الله إليه لا يكتم منه شيئا . وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزل الله إليه شيئا ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : من زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئا من الوحى فقد كذب [٣] ، وفى صحيح البخارى من حديث أبى جُحَيْفَة وهب بن عبد الله السوائى [٤] قال : قلت لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : هل عندكم شىء من الوحى مما

(١) أورد ابن كثير ٢/ ٦٠٨ رواية ابن مردويه وقال : « غريب جدا من هذا الوجه وبهذا السياق » .
(٢) المرجع السابق .
(٣) أحمد ٦/ ٤٩ ، ٥٠ والبخارى فى التفسير (٤٦١٢ ، ٤٨٥٥) وفى التوحيد (٧٥٣١) ومسلم فى الإيمان (١٧٧ / ٢٨٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٦٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٥٥٢) وأبو عوانة ١/ ١٥٣ ـ ١٥٦ وابن حبان فى الإسراء (٦٠) .
(٤) صحابى جليل ، ويقال له : وهب الخير ، وهو من صغار الصحابة ، ولما توفى النبى ﷺ كان وهب مراهقاً ، وكان صاحب شرطة على رضى الله عنه ، حدّث عن النبى ﷺ ، وعن على والبراء ، وروى عنه : على بن الأقمر ، والحكم بن عُتَيْبَة ، وولده عون بن أبى جُحَيْفَة وآخرون . وقيل : إن على بن أبى طالب كان إذا خطب ، يقوم أبو جحيفة تحت منبره ، وقد اختلفوا فى موته ، والأصح أنه مات فى سنة أربع وسبعين ، ويقال: عاش إلى ما بعد الثمانين ، فالله أعلم ، وحديثه فى الكتب الستة . انظر : السير ٣/ ٢٠٢ ، ٢٠٣ وأسد الغابة ٥/ ٩٥ ، ١٥٧ وتهذيب التهذيب ١١/ ١٦٤ والإصابة ٣/ ٦٤٢ وتاريخ بغداد ١/ ١٩٩ .

ليس فى القرآن ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً فى القرآن وما فى هذه الصحيفة . قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر [(١)] . ﴿فإن لم تفعل﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع بل كتمت ولو بعضاً من ذلك ﴿ فما بلغت رسالاته ﴾ . قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة إلا شعبة : « رسالته » على التوحيد . وقرأ أهل المدينة وأهل الشام : « رسالاته » على الجمع ، قال النحاس : والجمع أبين لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى شيئاً فشيئاً ، ثم يبينه . انتهى . وفيه نظر ، فإن نفى التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات، كما ذكره علماء البيان على خلاف فى ذلك ، وقد بلغ رسول اللّه ﷺ ما نزل إليهم،وقال لهم فى غير موطن: « هل بلغت ؟ » فيشهدون له بالبيان ، فجزاه اللّه عن أمته خيراً ، ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظن أنه حامل على كتم البيان ، وهو خوف لحوق الضرر من الناس ، وقد كان ذلك بحمد الله ، فإنه بيَّن لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام ، ثم حمل مَنْ أبى من الدخول فى الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً ، وقتل صناديد الشرك ، وفرق جموعهم ، وبدد شملهم، وكانت كلمة الله هى العليا ، فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل ، حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش وأكابرهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم فقال : «اذهبوا فأنتم الطلقاء »[(٢)].

وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس ، إن قام ببيان حجج الله وإيضاح براهينه وصرخ بين ظهرانى من ضاد الله وعانده ، ولم يمتثل لشرعه كطوائف المبتدعة ، وقد رأينا من هذا فى أنفسنا وسمعنا منه فى غيرنا ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة فى دين الله ، وشدة شكيمة فى القيام بحجة الله ، وكل ما يظنه متزلزلو الأقدام ومضطربو القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة ، وتوهمات باطلة ، فإن كل محنة فى الظاهر هى منحة فى الحقيقة ؛ لأنها لا تأتى إلا بخير فى الأولى والأخرى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧] . قوله: ﴿ إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة أى ، إن الله لا يجعل لهم سبيلاً إلى الإضرار بك ، فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : لما نزلت : ﴿ بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ قال : « يارب ،إنما أنا واحد كيف أصنع ؟ يجتمع علىّ الناس » فنزلت : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ [(٣)] . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن

(١) البخارى فى العلم (١١١) وفى الجهاد (٣٠٤٧) وفى الديات (٦٩٠٣ ، ٦٩١٥) والترمذى فى الديات (١٤١٢) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى القسامة ٨/ ٢٣، ٢٤ وابن ماجة فى الديات (٢٦٥٨) .
(٢) ابن إسحاق ٤/ ٥٤ ، ٥٥ والبيهقى فى السير ٩/ ١١٨ وهو عن أبى هريرة .
(٣) ابن جرير ٦/ ١٩٨ ، ١٩٩ . والحديث مرسل .

أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله بعثنى برسالته فضقت بها ذرعاً ، وعرفت أن الناس مكذبّى، فوعدنى لأبلغنّ أو ليعذبنى ، فأنزلت: ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾».

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك** ﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خمّ فى على بن أبى طالب رضى الله عنه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ : يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن عنترة قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس ، فقال : ألم تعلم أن الله قال : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء فى بيضاء .

وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل : أىّ آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال :« كنت بمنى أيام موسم الحج ، فاجتمع مشركو العرب وأفناء الناس فى الموسم ، فأنزل على جبريل فقال : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك** ﴾ » الآية. قال : « فقمت عند العقبة فناديت : يأيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالة ربى وله الجنة ، أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم ، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة » ، قال : « فما بقى رجل ولا امرأة ولا صبى إلا يرمون بالتراب والحجارة ، ويبزقون فى وجهى ، ويقولون : كذب صابئ ، فعرض علىّ عارض فقال : يا محمد ، إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك ، فقال النبى ﷺ : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه ، قال الأعمش : فبذلك يفتخر بنو العباس ويقولون : فيهم نزلت : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ [القصص : ٥٦] . هوى النبى ﷺ أبا طالب ، وشاء الله عباس بن عبد المطلب .

وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت: ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: « أيها الناس ، انصرفوا فقد عصمنى الله » . قال الحاكم فى المستدرك : صحيح الإسناد ولم

يخرجاه [١] . وأخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى سعيد . وقد روى فى هذا المعنى أحاديث . وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : لما غزا رسول الله ﷺ بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل ، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلّى رجليه ، فقال الوارث من بنى النجار : لأقتلنّ محمداً ، فقال له أصحابه : كيف تقتله؟ قال : أقول له : أعطنى سيفك فإذا أعطانيه قتلته به ، فأتاه فقال : يا محمد ، أعطنى سيفك أشمه ، فأعطاه إياه ، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده ، فقال رسول الله ﷺ : «حال الله بينك وبين ما تريد » فأنزل الله سبحانه : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ الآية . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه [٢] . وأخرج ابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه عن أبى هريرة نحو هذه القصة ولم يسم الرجل [٣] . وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظى نحوه [٤] ، وفى الباب روايات. وقصة غورث بن الحارث ثابتة فى الصحيح وهى معروفة مشهورة [٥] .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٤٦) وقال : « غريب » وابن جرير ٦/ ١٩٩ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ١٨٤ وفى السنن ٩/ ٨ .

(٢) ابن كثير ٢/ ٦١٢ .

(٣) ابن حبان فى صلاة الخوف (٢٨٧١) . (٤) ابن جرير ٦/ ١٩٩ .

(٥) أحمد ٣/ ٣٦٤ ، ٣٦٥ والبخارى فى الجهاد (٢٩١٠) وفى المغازى (٤١٣٥) وأيضا (٤١٣٦) تعليقاً وابن حبان فى صلاة الخوف (٢٨٧٢) .

كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **على شىء** ﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه ، أى لستم على شىء يعتدّ به حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، أى تعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه التى من جملتها أمركم باتباع محمد ﷺ ، ونهيكم عن مخالفته . قال أبو على الفارسى : ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما . قوله : ﴿ **وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ قيل : هو القرآن ، فإن إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامته. ويجوز أن يكون المراد : ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين . قوله : ﴿ **وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا** ﴾ أى كفراً إلى كفرهم وطغياناً إلى طغيانهم ، والمراد بالكثير منهم : من لم يسلم واستمر على المعاندة . وقيل : المراد به : العلماء منهم ، وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها ، **قوله**: ﴿ **فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾ أى دع عنك التأسف على هؤلاء فإن ضرر ذلك راجع إليهم ونازل بهم ، وفى المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم .

قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ إلخ جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين . والمراد بالمؤمنين هنا : الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ﴿ **والذين هادوا** ﴾ أى دخلوا فى دين اليهود ﴿ **والصابئون** ﴾ مرتفع على الابتداء وخبره محذوف والتقدير : والصابئون والنصارى كذلك . قال الخليل وسيبويه : الرفع محمول على التقديم والتأخير. والتقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون والنصارى كذلك، وأنشد سيبويه قول الشاعر :

وَ إلاَّ فَاعْلَمُوا أَنَّا وَ أَنْتُمْ بُغَاةٌ ما بَقِينَا فى شِقَاقِ (١)

أى وإلا فاعلموا أنا بغاة ، وأنتم كذلك ، ومثله قول ضابى البرجُمِى :

فَمن يَكُ أَمسى بالمَدِينةِ رَحْلُه فَإِنى وَقَيـَّارٌ بِهَا لَغَــرِيبُ

أى فإنى لغريب ، وقيار كذلك . وقال الكسائى والأخفش : إن ﴿ **الصابئون** ﴾ معطوف على المضمر فى هادوا . قال النحاس : سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الكسائى والأخفش : هذا خطأ من وجهين : أحدهما : أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد ، وثانيهما : أن المعطوف شريك المعطوف عليه ، فيصير المعنى : إن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية وهذا محال . وقال الفراء : إنما جاز الرفع ؛ لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا فى الاسم

(١) البيت لبشر بن أبى حازم .

دون الخبر ، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إنّ ، أو على مجموع إن واسمها وقيل: إن خبر إن مقدر والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل : إن « إن » هنا بمعنى : نعم ، فالصابئون مرتفع بالابتداء ، ومثله قول قيس بن الرقيات :

بَكَرَ العَوَاذِلُ فى الصَّبا ح يَلُمننى وألُومُهُنَّه
وَيقُلْن : شَيْبٌ قَدْ عَلا ك وَقَد كَبِرتَ فَقُلْت: إنّهْ

قال الأخفش : إنه ، بمعنى نعم والهاء للسكت . وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى فى البقرة ؛وقرئ : «الصابيون » بياء صريحة تخفيفا للهمزة ، وقرئ : « الصابون » بدون ياء ، وهو من صبا يصبو ؛ لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى، وقرئ : « والصابئين » عطفاً على اسم إن . قوله : ﴿ **من آمن بالله** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ والمبتدأ وخبره خبر لأن ، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والعائد إلى اسم إن محذوف ، أى من آمن منهم ، ويجوز أن يكون ﴿ **من آمن** ﴾ بدلا من اسم « إن » وما عطف عليه ، ويكون خبر « إن » ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ والمعنى على تقدير كون المراد الذين آمنوا المنافقين كما قدمنا : أن من آمن من هذه الطوائف إيماناً خالصاً على الوجه المطلوب وعمل عملاً صالحاً ، فهو الذى لا خوف عليه ولا حزن، وأما على تقديركون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام : المخلص والمنافق ، فالمراد بمن آمن : مَنِ اتصف بالإيمان الخالص واستمر عليه ، ومن أحدث إيماناً خالصاً بعد نفاقه .

قوله: ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل** ﴾ كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة .وقد تقدم فى البقرة بيان معنى الميثاق ﴿ **وأرسلنا إليهم رسلاً** ﴾ ليعرفوهم بالشرائع وينذروهم ﴿ **كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم** ﴾ جملة شرطية وقعت جواباً لسؤال ناس من الأحبار بإرسال الرسل كأنه قيل:ماذا فعلوا بالرسل ؟ وجواب الشرط محذوف ، أى عصوه . وقوله :﴿ **فريقا كذبوا وفريقا يقتلون** ﴾ جملة مستأنفة أيضاً جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأول كأنه قيل : كيف فعلوا بهم ؟ فقيل: فريقاً منهم كذبوهم ولم يتعرضوا لهم بضرر، وفريقاً آخر منهم قتلوهم ، وإنما قال ﴿ **وفريقاً يقتلون** ﴾ لمراعاة رؤوس الآى ، فمن كذبوه: عيسى وأمثاله من الأنبياء ، وممن قتلوه : زكريا ويحيى .

قوله : ﴿ **وحسبوا أن لا تكون فتنة** ﴾ أى حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق . ألا يقع من الله ــ عز وجل ــ ابتلاء واختبار بالشدائد اعتزازا بقولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] . قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى : « تكون » بالرفع على أن « إن » هى المخففة من الثقيلة ، و ﴿ **حسب** ﴾ بمعنى : علم ، لأن « أن » معناها : التحقيق . وقرأ الباقون بالنصب على أن « أن » ناصبة للفعل ، و«حسب » بمعنى الظن ، قال النحاس : والرفع عند النحويين فى حسبت وأخواتها أجود ، ومثله :

أَلا زَعمتْ بَسَباسَةُ اليومَ أَنّنِى كَبِرتُ وألا يَشْهَد اللّهْو أمْثَالى (١)

قوله : ﴿ **فعموا وصموا** ﴾ أى عموا عن إبصار الهدى ، وصموا عن استماع الحق ، وهذه إشارة إلى ما وقع من بنى إسرائيل فى الابتداء من مخالفة أحكام التوراة ، وقتل شعيا ثم تاب الله عليهم حين تابوا ، فكشف عنهم القحط ﴿ **ثم عموا وصموا كثير منهم** ﴾ وهذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا ، وقصدهم لقتل عيسى ، وارتفاع ﴿ **كثير** ﴾ على البدل من الضمير فى الفعلين . قال الأخفش : كما تقول: رأيت قومك ثلاثتهم ، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ ، أى العُمىُ والصُّمُّ كثيرٌ مِنهُمْ ، ويجوز أن يكون كثير مرتفعاً على الفاعلية على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، ومنه قول الشاعر :

ولَكِن دِيـَافِىّ أَبـــُوه وأمُّـــه بِحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُه (٢)

وقرئ : « عموا وصموا » بالبناء للمفعول ، أى أعماهم الله وأصمهم .

قوله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم يقال لهم: اليعقوبية . وقيل : هم الملكانية ، قالوا : إن الله ــ عز وجل ــ حل فى ذات عيسى ، فرد عليهم بقوله : ﴿ **وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ أى والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة ، فكيف يدعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم ؟ قوله : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** ﴾ الضمير للشأن ، وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة . وقيل : هو من قول عيسى . ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار .

---

(١) البيت لامرئ القيس .

(٢) البيت للفرزدق يهجو عمرو بن عفراء ، ودياف : قرية بالشام . وقيل : بالجزيرة ، وأهلها : نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ وهذا كلام أيضاً مبتدأ لبيان بعض مخازيهم ، والمراد بثالث ثلاثة : واحد من ثلاثة ، ولهذا يضاف إلى ما بعده ولا يجوز فيه التنوين كما قال الزجاج وغيره ، وإنما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة ، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة : هم النصارى ، والمراد بالثلاثة : الله سبحانه ، وعيسى ، ومريم كما يدل عليه قوله : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين** ﴾ [المائدة :١١٦]. وهذا هو المراد بقولهم: أقانيم: إقنيم الأب، وإقنيم الابن ، وإقنيم روح القدس . وقد تقدم فى سورة النساء كلام فى هذا ، ثم ردّ الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال : ﴿ **وما من إله إلا إله واحد** ﴾ أى ليس فى الوجود إلا الله سبحانه وهذه الجملة حالية ، والمعنى: قالوا تلك المقالة ، والحال أنه لا موجود إلا الله ، و« من » فى قوله : ﴿ **من إله** ﴾ لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفى ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون** ﴾ من الكفر ﴿ **ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط، و« من » فى : ﴿ **منهم** ﴾ بيانية أو تبعيضية . ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه** ﴾ الفاء للعطف على مقدر ، والهمزة للإنكار .

قوله : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ أى هو مقصور على الرسالة ، لا يجاوزها كما زعمتم ، وجملة ﴿ **قد خلت من قبله الرسل** ﴾ صفة لرسول ، أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله ، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلهاً ، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها فإن الله أحيا العصا فى يد موسى ، وخلق آدم من غير أب. فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلهاً ؟ فإن كان كما تزعمون إلهاً لذلك فمن قبله من الرسل الذين جاؤوا بمثل ما جاء به آلهة وأنتم لاتقولون بذلك. قوله : ﴿ **وأمه صدّيقة** ﴾ عطف على المسيح ، أى وما أمه إلا صديقة ، أى صادقة فيما تقوله ، أومصدقة لما جاء به ولدها من الرسالة ، وذلك لايستلزم الإلهية لها؛ بل هى كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء . قوله : ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾ استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر، أى من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس برب ، بل هو عبد مربوب ولدته النساء ، فمتى يصلح لأن يكون رباً ؟ وأما قولكم : إنه كان يأكل الطعام بناسوته لا بلاهوته ، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله واجتماع الناسوت واللاهوت ، ولو جاز اختلاط القديم بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثاً ، ولو صح هذا فى حق عيسى لصح فى حق غيره من العباد ﴿ **انظر كيف نبين لهم الآيات** ﴾ أى الدلالات، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزمة للإلهية ويغفلون عن كونها

موجودة فى من لا يقولون بأنه إله ﴿ **ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان ؟ يقال : أَفَكَه يأفِكُه : إذا صرفه ، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب ، وجاء بـ «ثم» لإظهار ما بين العجبين من التفاوت .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء رافع[1] بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة [2] فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة ، وتشهد أنها من الله حق ؟ فقال النبى ﷺ : « بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكفرتم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من إحداثكم » قالوا: فإنا نأخذ بما فى أيدينا وإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **قل يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **القوم الكافرين** ﴾[3] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **وحسبوا أن لا تكون فتنة** ﴾ قال : بلاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لقد كفرالذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ قال : النصارى يقولون : إن الله ثالث ثلاثة وكذبوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : تفرقت بنو إسرائيل ثلاث فرق فى عيسى : فقالت فرقة : هو الله ، وقالت فرقة : هو ابن الله ، وقالت فرقة : هو عبد الله وروحه ، وهى المقتصدة ، وهى مسلمة أهل الكتاب .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن

---

(١) فى المطبوعة : «نافع» والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير وابن إسحاق .
(٢) فى ابن إسحاق : «حريملة » وفى المخطوطة وابن جرير : «حرملة ».
(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٩ وابن جرير ٦/ ٢٠٠ .

سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

أمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول لهم هذا القول إلزاماً لهم ، وقطعاً لشبهتهم ، أى أتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعاً ؟ بل هو عبد مأمور ، وما جرى على يده من النفع ، أو دفع من الضر فهو بإقدار الله له وتمكينه منه ، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئا من ذلك فضلاً عن أن يملكه لغيره ، ومن كان لا ينفع ولا يضر فكيف تتخذونه إلهاً وتعبدونه وأى سبب يقتضى ذلك ؟ والمراد هنا : المسيح عليه السلام ، وقدم سبحانه الضر على النفع ؛ لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح ﴿ **والله هو السميع العليم** ﴾ أى كيف تعبدون مالا يملك لكم ضرا ولا نفعاً ، والحال أن الله هو السميع العليم ، ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم ، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم .

قوله : ﴿ **تغلوا فى دينكم** ﴾ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلو فى دينهم وهو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية لعيسى ، كما يقوله النصارى ، أو حطه عن مرتبته العلية كما يقول اليهود ، فإن كل ذلك من الغلو المذموم ، وسلوك طريقة الإفراط أو التفريط واختيارهما على طريق الصواب . و « غير » منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى غلوا غير غلو الحق ، وأما الغلو فى الحق بإبلاغ كلية الجهد فى البحث عنه واستخراج حقائقه فليس بمذموم . وقيل : إن النصب على الاستثناء المتصل . وقيل : على المنقطع ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل** ﴾ وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتى اليهود والنصارى ، أى قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ﴿ **وأضلوا كثيرا** ﴾ من الناس ﴿ **وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ أى عن قصدهم طريق محمد ﷺ بعد البعثة ، والمراد : أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة ، وأضلوا كثيراً من الناس إذ ذاك، وضلوا من بعد البعثة ، إما بأنفسهم ، أو جعل ضلال من أضلوه ضلالاً لهم لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجوه لهم.وقيل : المراد بالأول : كفرهم بما يقتضيه العقل ، وبالثانى : كفرهم بما يقتضيه الشرع .

قوله : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل** ﴾ أى لعنهم الله سبحانه ﴿ **على لسان داود وعيسى ابن مريم** ﴾ أى فى الزبور ، والإنجيل ، على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصى كاعتدائهم في السبت وكفرهم بعيسى . قوله : ﴿ **ذلك بما عصوا** ﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر والإشارة بذلك إلى اللعن، أى ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر ، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ فأسند الفعل

إليهم لكون فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعاً والمعنى : أنهم كانوا لا ينهون العاصى من معاودة معصية قد فعلها أو تهيأ لفعلها ، ويحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار ، وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهى عن المنكر؛ لأن من أخلّ بواجب النهى عن المنكر فقد عصى اللّه وتعدى حدوده .والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية وأجل الفرائض الشرعية ، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية ومستحقاً لغضب الله ، وانتقامه كما وقع لأهل السبت ، فإن الله سبحانه مسخ من لم يشاركهم فى الفعل ولكن ترك الإنكار عليهم ، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعا قردة وخنازير ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧] . ثم إن الله سبحانه قال مقبحاً لعدم التناهى عن المنكر : ﴿ **لبئس بما كانوا يفعلون** ﴾ أى من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره ﴿ **ترى كثيراً منهم** ﴾ أى من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿ **يتولون الذين كفروا** ﴾ أى المشركين وليسوا على دينهم ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم** ﴾ أى سولت وزينت ، أوما قدموه لأنفسهم ليردوا عليه يوم القيامة . والمخصوص بالذم هو ﴿ **أن سخط الله عليهم** ﴾ أى موجب سخط الله عليهم على حذف مضاف ، أو هو سخط اللّه عليهم على حذف المبتدأ . وقيل : هو أى أن سخط اللّه عليهم بدل من « ما » . ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى** ﴾ أى نبيهم ﴿ **وما أنزل إليه** ﴾ من الكتاب ﴿ **ما اتخذوهم** ﴾ أى المشركين ﴿ **أولياء** ﴾ لأن الله سبحانه ، ورسوله المرسل إليهم ، وكتابه المنزل عليهم ، قد نهوهم عن ذلك ﴿ **ولكن كثيراً منهم فاسقون** ﴾ أى خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **لا تغلوا فى دينكم** ﴾ يقول : لا تبتدعوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : كانوا مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولداً . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ قال : يهود .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فاسقون** ﴾ ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا »[1] . وقد روى هذا

---

(١) أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٧) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠٦) مرسلاً وأشار إلى المرفوع ، وابن جرير ٦/ ٢٠٥ والبيهقى فى آداب القاضى ١٠/ ٩٣ .

الحديث من طرق كثيرة ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً فلا نطول بذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود** ﴾يعنى فى الزبور﴿ **وعيسى ابن مريم** ﴾ يعنى فى الإنجيل.

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك الغفارى فى الآية قال: لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة ، وعلى لسان عيسى فجعلوا خنازير ،وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله.وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى عبيدة بن الجراح مرفوعاً : « قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار ، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عبادهم فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً فى آخر النهار »، فهم الذين ذكر الله : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل** ﴾ الآيات . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**لبئس ما قدمت لهم أنفسهم** ﴾ قال : ما أمرتهم .

وأخرج ابن أبى حاتم والخرائطى فى مساوئ الأخلاق ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه ، عن حذيفة عن النبى ﷺ قال: « يا معشر المسلمين ، إياكم والزنا ، فإن فيه ست خصال : ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا : فذهاب البهاء ، ودوام الفقر ، وقصر العمر ، وأما التي فى الآخرة : فسخط الله ، وسوء الحساب ، والخلود فى النار » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون** ﴾ (١) . قال ابن كثير فى تفسيره : هذا الحديث ضعيف على كل حال(٢). وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء** ﴾ قال : المنافقون.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) ﴾ .

---

(١) البيهقى فى الشعب (٥٠٩١) بإسناد ضعيف .
(٢) ابن كثير ٢/ ٦٢٢ .

قوله : ﴿ لتجدن ﴾ إلخ . هذه جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تعداد مساوئ اليهود وهناتهم، ودخول لام القسم عليها يزيدها تأكيداً وتقريراً ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز، والمعنى فى الآية: أن اليهود والمشركين لعنهم الله ، أشد جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلبهم فى ذلك ، وأن النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين ، واللام فى: ﴿ للذين آمنوا ﴾ فى الموضعين متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة ومودة. وقيل : هو متعلق بعداوة ومودة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى كونهم أقرب مودة ، والباء فى ﴿ بأن منهم قسيسين ﴾ للسببية، أى ذلك بسبب أن منهم قِسِّيسين ، وهو جمع قسٌ وقِسيّس قاله قُطْرُب . والقِسّيس : العالم وأصله من قَس: إذا تتبع الشىء وطلبه .قال الراجز :

يصبحـن عن قـس الأذى غـوافلا

وتَقَسَّست أصواتَهم بالليل: تسمعتها ، والقس : النميمة ، والقسّ أيضاً : رئيس النصارى فى الدين والعلم ، وجمعه قسُوس أيضاً ، وكذلك القِسِّيس : مثل الشّر والشّرير ، ويقال فى جمع قسّيس تكسيراً : قَساوِسة ، بإبدال أحد السينين واواً، والأصل قساسسة ، فالمراد بالقسيسين فى الآية : المتبعون للعلماء والعباد ، وهو إما عجمى خلطته العرب بكلامها ، أو عربى. والرهبان: جمع راهب كرُكْبَان ورَاكب، والفعل رهب الله يرهبه، أى خافه، والرهبانية والترهب : التعبد فى الصوامع ، قال أبو عبيد : وقد يكون رهبان للواحد والجمع ، قال الفراء : ويجمع رهبان إذا كان للمفرد رهبان ورهابين كقربان وقرابين ، وقد قال جرير فى الجمع :

رهبان مَدْيَنَ لَوْ رأوك ترهبوا

وقال الشاعر فى استعمال رهبان مفرداً :

لَوْ أَبْصَرتْ رُهْبانَ دَيْرٍ فى الجَبَلْ ... لا نْحَدَر الرُّهبانُ يَسعى ونَزَلْ

ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحق ، بل هم متواضعون ، بخلاف اليهود فإنهم على ضد ذلك ، وهذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ معطوف على جملة ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ . ﴿ تفيض من الدمع ﴾ أى تمتلئ فتفيض ؛ لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء ، جعل الأعين تفيض ، والفائض : إنما هو الدمع قصداً للمبالغة كقولهم : دمعت عينه . قال امرؤ القيس :

فَفَاضَتْ دُمُوع العين منى صَبَابَةٌ ... عَلى النَّحْر حَتَّى بلّ دَمْعِى محْمَلى

قوله : ﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ من الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بيانية ، أى كان ابتداء الفيض ناشئًا من معرفة الحق ، ويجوز أن تكون الثانية تبعيضية ، وقرئ : « ترى أعينهم » على البناء للمجهول . وقوله : ﴿ يقولون ربنا آمنا ﴾ استئناف مسوق لجواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما حالهم عند سماع القرآن ؟ فقال : ﴿ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى

آمنا بهذا الكتاب المنزل من عندك على محمد ، وبمن أنزلته عليه ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ على الناس يوم القيامة من أمة محمد ، أو مع الشاهدين بأنه حق ، أو مع الشاهدين بصدق محمد وأنه رسولك إلى الناس .

قوله : ﴿ **وما لنا لا نؤمن بالله** ﴾ كلام مستأنف ، والاستفهام للاستبعاد ﴿ **ولنا** ﴾ متعلق بمحذوف ، و ﴿ **لا نؤمن** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والتقدير أى شىء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن بالله وبما جاءنا من الحق ؟ والمعنى : أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع وجود المقتضى له ، وهو الطمع فى إنعام الله ،فالاستفهام والنفى متوجهان إلى القيد والمقيد جميعًا كقوله تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾[نوح : ١٣] ، والواو فى : ﴿ **ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** ﴾ للحال أيضًا بتقدير مبتدأ،أىْ :أىّ شىء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى الدخول مع الصالحين ؟ فالحال الأولى والثانية صاحبهما الضمير فى ﴿ **لنا** ﴾ وعاملها الفعل المقدر ، أى حصل ، ويجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير فى ﴿ **نؤمن** ﴾ والتقدير : وما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع فى صحبة الصالحين .

قوله : ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا** ﴾ إلخ . أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه . قوله : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام، والجحيم : النار الشديدة الإيقاد ، ويقال : جَحَم فلان النار : إذا شدَّدَ إيقادها ، ويقال أيضًا لعَين الأسد : جَحْمَة لشدة اتقادها . قال الشاعر :

والحرب لا تبقى لجا حمها التخيل المراح [١]

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة** ﴾ الآية : قال : هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما خلا يهودى بمسلم إلا هم بقتله » وفى لفظ « إلا حدث نفسه بقتله » . قال ابن كثير : وهو غريب جدًا[٢]. وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : ما ذكر الله به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشى وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : هم ناس من الحبشة آمنوا إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم .

وأخرج النسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية فى النجاشى وأصحابه : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع** ﴾ [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم ، وأبو

---

(١) فى المطبوعة : «التحيل والمزاح » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أورد ابن كثير ٢/ ٦٢٤ رواية ابن مردويه وقال : « غريب جدًا » كما رواه ابن حبان فى المجروحين والضعفاء فى ترجمة يحيى بن عبيد الله بن موهب التيمى القرشى ٣/ ١٢٢ والخطيب فى تاريخه فى ترجمة خالد بن يزيد الأزدى ٨/ ٣١٦ .

(٣) النسائى فى التفسير (١٦٨٠) بإسناد صحيح وابن جرير ٧/ ٥ .

نعيم فى الحلية ، والواحدى من طريق ابن شهاب قال : أخبرنى سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى وكتب معه كتابًا إلى النجاشى ، فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأرسل النجاشى إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع ، وهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من الشاهدين** ﴾ (١) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير فى الآية ، قال: هم رسل النجاشى بإسلامه وإسلام قومه ، كانوا سبعين رجلا يختارهم من قومه: الخير فالخير فى الفقه والسن ، وفى لفظ : بعث (٢) من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلا ، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس ، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا** ﴾ الآية. ونزلت هذه الآية فيهم أيضا :﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ [القصص : ٥٢] إلى قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ (٣) [القصص : ٥٤] . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : بعث النجاشى إلى رسول الله ﷺ اثنى عشر رجلا : سبعة قسيسين وخمسة رهبانا ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وآمنوا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول** ﴾ الآية (٥) . والروايات فى هذا الباب كثيرة ، وهذا المقدار يكفى ، فليس المراد إلا بيان سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **قسيسين** ﴾ قال : هم علماؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : القسيسون : عبادهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ قال : أمة محمد ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ .

---

(١) ابن أبى شيبة (١٨٤٩١) مختصرًا ، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ١١٧ والواحدى فى أسباب النزول ١١٦ .
(٢) فى المطبوعة : « نعت » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة . (٣) ابن جرير ٧/ ٤ .
(٤) الطبرانى فى الكبير (١٢٤٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٠: « وفيه العباس بن الفضل الأنصارى وهو ضعيف ».
(٥) ابن جرير ٧/ ٥ .

الطيبات : هى المستلذات لما أحله الله لعباده ، نهى الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئًا منها ، إما لظنهم أن فى ذلك طاعة لله وتقربًا إليه ، وأنه من الزهد فى الدنيا رفع(١) النفس عن شهواتها ، أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئًا مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم : حرام على ، وحرمته على نفسى ، ونحو ذلك من الألفاظ التى تدخل تحت هذا النهى القرآنى ، قال ابن جرير الطبرى : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ، ولذلك ردّ النبى ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون (٢) .

فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو فى فعل ما ندب الله عباده إليه وعمل به رسول الله ﷺ لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون ، إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ ، فإذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله ، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرًا من عارض الحاجة إلى النساء ، قال : فإن ظن ظان أن الفضل فى غير الذى قلنا فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة ، فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ، ولا شىء أضر للجسم من المطاعم الردية ؛ لأنها مفسدة لعقله ، ومضعفة لأدواته التى جعلها الله سببا إلى طاعته (٣) .

قوله : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ أى لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم ، أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم، أى تترخَّصُوا فتحللوا حرامًا كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن من حرم على نفسه شيئًا مما أحله الله له فلا يحرم عليه ولا يلزمه كفارة . وقال أبو حنيفة وأحمد ومن تابعهما : إن من حرم شيئًا صار محرمًا عليه ، وإذا تناوله لزمه الكفارة ، وهو خلاف هذه الآية وخلاف ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة،ولعله يأتى فى سورة التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء الله ، وقوله : ﴿ **إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ تعليل لما قبله وظاهره أن تحريم كل اعتداء ، أى مجاوزة لما شرعه الله فى كل أمر من الأمور ﴿ **وكلوا مما رزقكم الله** ﴾ حال كونه ﴿ **حلالا طيبا** ﴾ أى غير محرم ولا مستقذر ، أو أكلا حلالا طيبًا ، أو كلوا حلالا طيبًا مما رزقكم الله ، ثم وصاهم الله سبحانه بالتقوى فقال: ﴿ **واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ .

وقد أخرج الترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن عدىّ فى الكامل ،

(١) فى المطبوعة : « فرفع » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) نص الحديث : عن سعد بن أبى وقاص قال :« لقد رد رسول الله ﷺ على عثمان رضى الله عنه التبتل ، ولو أحله لاختصينا ». وقد رواه أحمد ١/١٧٦ والبخارى فى النكاح (٥٠٧٣، ٥٠٧٤) ومسلم فى النكاح (١٤٠٢/٦ ـــ ٨) والدارمى فى النكاح ١٣٣/٢ .

(٣) القرطبى ٢٢٥٩/٤.

والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوة ، وإنى حرمت علىَّ اللحم ، فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ . وقد روى من وجه آخر مرسلا ، وروى مرفوعًا على ابن عباس (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : نزلت فى رهط من الصحابة قالوا : نقطع مذاكرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم ، فقال النبى ﷺ « لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء فمن أخذ بسنتى فهو منى ، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى » (٢) . وقد ثبت نحو هذا فى الصحيحين وغيرهما من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية. وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى المراسيل ، وابن جرير عن أبى مالك ، أن هؤلاء الرهط : هم عثمان بن مظعون وأصحابه(٣) . وفى الباب روايات كثيرة بهذا المعنى ، وكثير منها مصرح بأن ذلك سبب نزول الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبى ﷺ ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارًا له، فقال لامرأته: حبست ضيفى من أجلى هو حرام علىّ، فقالت امرأته : هو حرام علىّ ، فقال الضيف : هو حرام علىّ ، فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا باسم الله ، ثم ذهب إلى النبى ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أصبت » فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ (٤). وهذا أثر منقطع، ولكن فى صحيح البخارى فى قصة الصديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا(٥). وأخرج ابن أبى حاتم عن مسروق قال: كنا عند عبد الله فجيء بضرع فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ادن، فقال: إنى حرمت أن آكله، فقال عبد الله: ادن فأطعم وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية . وأخرجه أيضا الحاكم فى مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٦).

﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)** ﴾ .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٥٤) وقال : « حسن غريب » وابن جرير ٧/٩ وابن عدى فى الكامل ترجمة عثمان ابن سعد ٥/ ١٧٠ والطبرانى (١١٩٨١) .

(٢) ابن جرير ٧/٨. (٣) أبو داود فى المراسيل (٢٠١) وابن جرير ٧/٧ .

(٤) ابن جرير ٧/ ٩ وأورد ابن كثير ٢/ ٦٢٧ رواية ابن أبى حاتم وقال :« منقطع ».

(٥) البخارى فى مواقيت الصلاة (٦٠٢)وفى المناقب (٣٥٨١) وفى الأدب (٦١٤٠ ، ٦١٤١) ومسلم فى الأشربة (٢٠٥٧/ ١٧٦ ، ١٧٧) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٧٠) والبيهقى ١٠/ ٣٤ .

(٦) صححه الحاكم ٢/ ٣١٣ ، ٣١٤على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

قد تقدم تفسير اللغو ، والخلاف فيه ، فى سورة البقرة ، و ﴿ **فى أيمانكم** ﴾ صلة ﴿ **يؤاخذكم** ﴾ قيل : و « فى » بمعنى « من » ، والأيمان جمع يمين . وفى الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ اللّه الحالف بها ولا تجب فيها كفارة ، وقد ذهب الجمهور من الصحابة ومن بعدهم إلى أنها قول الرجل : لا واللّه ، وبلى واللّه في كلامه، غير معتقد لليمين ، وبه فسر الصحابة الآية وهم أعرف بمعانى القرآن . قال الشافعى : وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة. قوله : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ قرئ بتشديد ﴿ **عقدتم** ﴾ وبتخفيفه ، وقرئ :« عاقدتم » والعقد على ضربين : حسى :كعقد الحبل ، وحكمى : كعقد البيع ، واليمين والعهد . قال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدا لجِارهم شَدُّوا العَنَاج وشَدُّوا فوْقَه الكَرَبَا (١)

فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لا يفعلن فى المستقبل ، أى ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها . وأما اليمين الغموس : فهى يمين مكر وخديعة وكذب قد باء الحالف بإثمها ، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور ، وقال الشافعى : هى يمين معقودة ؛ لأنها مكتسبة بالقلب، معقودة بخبر مقرونة باسم اللّه ، والراجح الأول ، وجميع الأحاديث الواردة فى تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة ، ولا يدل شيء منها على الغموس ، بل ما ورد فى الغموس إلا الوعيد والترهيب ، وأنها من الكبائر ، بل من أكبر الكبائر ، وفيها نزل قوله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد اللّه وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾ الآية [آل عمران : ٧٧] .

قوله : ﴿ **فكفارته** ﴾ الكفارة : هى مأخوذة من التكفير وهو التستير ،وكذلك الكفر هو الستر، والكافر هو : الساتر لأنها تستر الذنب وتغطيه ، والضمير فى ﴿ **كفارته** ﴾ راجع إلى « ما » فى قوله : ﴿ **بما عقدتم** ﴾ . ﴿ **إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ المراد بالوسط هنا : المتوسط بين طرفى الإسراف والتقتير ، وليس المراد به : الأعلى كما فى غير هذا الموضع ، أى أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه ، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه ، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه ، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا . وقد روى عن على بن أبى طالب أنه قال: لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء ، حتى يغديهم ويعشيهم . قال أبو عمر : هو قول أئمة الفتوى بالأمصار . وقال الحسن البصرى وابن سيرين : يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا وسمنًا أو خبزًا ولحمًا . وقال عمر بن الخطاب وعائشة ومجاهد والشعبى وسعيد بن جُبير وإبراهيم النخعى

(١) هذا البيت للحطيئة يمدح قومًا عقدوا لجارهم عهدًا فوفوا به ، ولم يخفروه . والعناج : خيط أو سير يشد فى أسفل الدلو ثم يشد فى عروتها ، والكرب : الحبل الذى يعقد على الدلو بعد المنين ، وهو الحبل الأول ، فإذا انقطع المنين بقى الكرب . وقيل غير هذا .

وميمون بن مهران وأبو مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبو قلابة ومقاتل : يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر . وروى ذلك عن على . وقال أبو حنيفة نصف صاع بر وصاع مما عداه . وقد أخرج ابن ماجة وابن مردويه عن ابن عباس قال : كفَّر رسول الله ﷺ بصاع من تمر ، وكفر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من برّ (١) . وفى إسناده عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى وهو مجمع على ضعفه . وقال الدارقطنى : متروك (٢) .

قوله : ﴿ أو كسوتهم ﴾ عطف على إطعام . قرئ بضم الكاف وكسرها وهما لغتان ، مثل أسوة وإسوة . وقرأ سعيد بن جُبير ، ومحمد بن السميفع اليمانى : « أو كَإسوتهم » يعنى كإسوة أهليكم ، والكسوة فى الرجال تصدق على ما يكسو البدن ولو كان ثوبًا واحدا ، وهكذا فى كسوة النساء . وقيل : الكسوة للنساء : درع وخمار . وقيل : المراد بالكسوة: ما تجزئ به الصلاة . قوله : ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ أى إعتاق مملوك ، والتحرير : الإخراج من الرق ، ويستعمل التحرير فى فك الأسير ، وإعفاء المجهود بعمل عن عمله وترك إنزال الضرر به ، ومنه قول الفرزدق:

أَبنى غُدانَةَ إننى حَرَّرتكُمْ   فَوهبتكُم لَعطية بن جِعالِ

أى حررتكم من الهجاء الذى كان سيضع منكم ويضر بأحسابكم .

ولأهل العلم أبحاث فى الرقبة التى تجزئ فى الكفارة ، وظاهرهذه الآية أنها تجزئ كل رقبة على أى صفة كانت . وذهب جماعة منهم الشافعى إلى اشتراط الإيمان فيها قياسا على كفارة القتل ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ أى فمن لم يجد شيئا من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام ، وقرئ :« متتابعات » حكى ذلك عن ابن مسعود وأبىّ ، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم ، وبه قال أبو حنيفة ، والثورى، وهو أحد قولى الشافعى . وقال مالك والشافعى فى قوله الآخر : يجزئ التفريق ﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ أى ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، وحنثتم ، ثم أمرهم بحفظ الأيمان وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها ، والإشارة بقوله:﴿ كذلك ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده ، أى مثل ذلك البيان ﴿ يبين الله لكم ﴾ وقد تكرر هذا فى مواضع من الكتاب العزيز ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ما أنعم به عليكم من بيان شرائعه وإيضاح أحكامه.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ فى القوم الذين كانوا حرموا على أنفسهم النساء واللحم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟ فأنزل الله: ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ (٣) وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جُبير فى اللغو قال : هو الرجل يحلف على

(١) ابن ماجة فى الكفارات (٢١١٢) .   (٢) ابن كثير ٢/ ٥٣١ .
(٣) ابن جرير ٧/ ١٠ .

الحلال . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : هما الرجلان يتبايعان ، يقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن النخعى قال : اللغو أن يصل كلامه بالحلف . والله لتأكلن ، والله لتشربن ، ونحو هذا لا يريد به يمينًا ولا يتعمد حلفا ، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة ، وقد تقدم الكلام فى البقرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ قال : بما تعمدتم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مدا من حنطة ، وفى إسناده النضر بن زرارة ابن عبد الكريم الذهلى الكوفى . قال أبو حاتم مجهول ، وذكره ابن حبان فى الثقات(١). وقد تقدم حديث ابن عباس وتضعيفه . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : كنا نعطى فى كفارة اليمين بالمد الذى نقتات به . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : إنى أحلف لا أعطى أقوامًا ، ثم يبدو لى فأعطيهم ، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعًا من شعير أو صاعًا من تمر أو نصف صاع من قمح .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : فى كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله . وأخرج عن عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق قال : فى كفارة اليمين مُد من حنطة لكل مسكين . وأخرج هؤلاء إلا ابن أبى حاتم عن زيد بن ثابت مثله . وأخرج هؤلاء أيضا عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال : تغديهم وتعشيهم إن شئت خبزًا ولحمًا أو خبزًا وزيتًا ، أو خبزًا وسمنًا ، أو خبزًا وتمرًا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ قال : من عسركم ويسركم . وأخرج ابن ماجة عنه قال : [كان](٢) الرجل يقوت أهله قوتًا فيه سعة وكان الرجل يقوت أهله قوتًا فيه شدة ، فنزلت : ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه نحو ذلك (٤) .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن عائشة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **أو كسوتهم** ﴾ قال :

---

(١) ابن كثير ٢/ ٦٣٢ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة وهو عند ابن ماجة .

(٣) ابن ماجة فى الكفارات (٢١١٣) .

(٤) ابن جرير ٧/ ١٥ .

« عباءة لكل مسكين » قال ابن كثير : حديث غريب (١). وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال : قلت : يا رسول الله : ﴿ أو كسوتهم ﴾ ما هو ؟ قال: « عباءة عباءة ». وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : عباءة لكل مسكين أو شملة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : الكسوة : ثوب أو إزار . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : فى كفارة اليمين هو بالخيار فى هؤلاء الثلاثة الأول فالأول فإن لم يجد من ذلك شيئا فصيام ثلاثة أيام متتابعات . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ خطاب لجميع المؤمنين . وقد تقدم تفسير الميسر فى سورة البقرة ﴿ **والأنصاب** ﴾ هى الأصنام المنصوبة للعبادة ﴿ **والأزلام** ﴾ قد تقدم تفسيرها فى أول هذه السورة ، والرجس يطلق على العذرة والأقذار . وهو خبر للخمر ، وخبر المعطوف عليه محذوف. وقوله : ﴿ **من عمل الشيطان** ﴾ صفة لرجس ، أى كائن من عمل الشيطان ، بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له . وقيل : هو الذى كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم ، والضمير فى ﴿ **فاجتنبوه** ﴾ راجع إلى الرجس أو إلى المذكور .

وقوله : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ علة لما قبله . قال فى الكشاف : أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد ، منها : تصدير الجملة بإنما ، ومنها : أنه قرنهما بعبادة الأصنام ، ومنه قوله ﷺ : « شارب الخمر كعابد الوثن » (٢) ، ومنها : أنه جعلهما رجسًا ، كما قال : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : ٣٠] . ومنها : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت ، ومنها : أنه أمر بالاجتناب ، ومنها : أنه جعل

---

(١) ابن كثير ٢/ ٦٣٣.

(٢) الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقد عزاه ابن حجر فى المطالب (١٧٧٧) للحارث ، وقال البوصيرى: « رواه الحارث عن الخليل بن زكريا وهو ضعيف » كما عزاه الهيثمى فى المجمع ٥/ ٧٣ للبزار وقال: « وفيه فطر بن خليفة وهو ثقة ، وفيه كلام لا يضر » . كما رواه ابن ماجة عن أبى هريرة بلفظ : «مدمن الخمر كعابد وثن » فى الأشربة (٣٣٧٥) وفيه محمد بن سليمان وهو مختلف فيه وقال ابن حجر عن رواية ابن ماجة فى الكافى الشافى فى تخريج الكشاف : «وإسناده جيد» .

الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خيبة ومحقة ، ومنها : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ، وهو وقوع التعادى والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر وما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلوات . انتهى (١) .

وفى هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصدّ، ولما تقرر فى الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلا عن جعله شرابًا يشرب . قال أهل العلم من المفسرين وغيرهم : كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة ، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها ، وحببها الشيطان إلى قلوبهم ، فأول ما نزل فى أمرها : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها ولم يتركه آخرون ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : ٤٣] ، فتركها البعض أيضا ، وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، وشربها البعض فى غير أوقات الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ فصارت حرامًا عليهم حتى كان يقول بعضهم : ما حرم الله شيئا أشد من الخمر ، وذلك لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواجر ، وفيما جاءت به الأحاديث الصحيحة من الوعيد لشاربها ، وأنها من كبائر الذنوب .

وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعًا لا شك فيه ولا شبهة ، وأجمعوا أيضًا على تحريم بيعها والانتفاع بها ما دامت خمرًا ، وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضًا على تحريم الميسر ، والأنصاب ، والأزلام . وقد أشارت هذه الآية إلى ما فى الخمر والميسر من المفاسد الدنيوية بقوله : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء** ﴾ ومن المفاسد الدينية بقوله: ﴿ **ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة** ﴾ . قوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ فيه زجر بليغ يفيده الاستفهام الدال على التقريع والتوبيخ . ولهذا قال عمر رضى الله عنه لما سمع هذا : انتهينا (٢) ، ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله: ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا** ﴾ أى مخالفتهما ، أى مخالفة الله ورسوله ، فإن هذا وإن كان أمرًا مطلقًا فالمجىء به فى هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد ، وهكذا ما أفاده بقوله: ﴿ **فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ أى إن أعرضتم عن الامتثال ، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم وصلاحكم ، ولم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم ، وفى هذا من الزجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه .

قوله : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ أى من المطاعم التى يشتهونها ، والطعم وإن كان استعماله فى الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله فى الشرب ، ومنه

(١) الكشاف ١/ ٦٧٤، ٦٧٥ .

(٢) سبق تخريجه .

قوله تعالى : ﴿ ومن لم يطعمه فإنه منى ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، أباح اللّه سبحانه لهم فى هذه الآية جميع ما طعموا كائنًا ما كان مقيدًا بقوله : ﴿ **إذا ما اتقوا** ﴾ أى اتقوا ما هو محرم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر وجميع المعاصى ﴿ **وآمنوا** ﴾ باللّه ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ من الأعمال التى شرعها اللّه لهم ، أى استمروا على عملها . قوله: ﴿ **ثم اتقوا** ﴾ عطف على اتقوا الأول ، أى اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه كان مباحًا فيما سبق ﴿ **وآمنوا** ﴾ بتحريمه ﴿ **ثم اتقوا** ﴾ ما حرم عليهم بعد التحريم المذكور قبله مما كان مباحًا من قبل ﴿ **وأحسنوا** ﴾ أى عملوا الأعمال الحسنة ، هذا معنى الآية . وقيل : التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة . وقيل : إن التكرير باعتبار المراتب الثلاث ، المبدأ ، والوسط ، والمنتهى . وقيل : إن التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان فإنه ينبغى له أن يترك المحرمات توقيًا من العذاب ، والشبهات توقيًا من الوقوع فى الحرام ، وبعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة . وقيل : إنه لمجرد التأكيد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [التكاثر : ٣، ٤] ، هذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية إما مع النظر إلى سبب نزولها ، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر ، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ فنزلت (١) فقد قيل : إن المعنى : ﴿ **اتقوا** ﴾ الشرك ﴿ **وآمنوا** ﴾ باللّه ورسوله ﴿ **ثم اتقوا** ﴾ الكبائر ﴿ **وآمنوا** ﴾ أى ازدادوا إيمانا ﴿ **ثم اتقوا** ﴾ الصغائر ﴿ **وأحسنوا** ﴾ أى تنفلوا ، قال ابن جرير الطبرى الاتقاء الأول : هو الاتقاء بتلقى أمر اللّه بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل ، والاتقاء الثانى: الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث : الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل (٢) .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: نزل فى الخمر ثلاث آيات، فأول شيء : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] . فقيل : حرمت الخمر ، فقيل : يارسول اللّه ، دعنا ننتفع بها كما قال اللّه ، فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : ٤٣] . فقيل: حرمت الخمر ، فقالوا : يا رسول اللّه ، لا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم، ثم نزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر**﴾ الآية فقال رسول اللّه ﷺ : « حرمت الخمر » (٣) . وأخرج أحمد عن أبى هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات وذكر نحو حديث ابن عمر، فقال الناس : يا رسول اللّه ، ناس قتلوا فى سبيل اللّه وماتوا على فراشهم ،كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله اللّه رجسًا من عمل الشيطان ، فأنزل اللّه : ﴿ **ليس على الذين آمنوا** ﴾ الآية.

---

(١) أحمد ١/ ٢٣٤، ٢٧٢ والترمذى فى التفسير (٣٠٥٢) وقال : « حسن صحيح »وابن جرير ٧/ ٢٤ والطبرانى (١١٧٣٠) وصححه الحاكم ٤/ ١٤٣ ووافقه الذهبى . كلهم عن عبد اللّه بن عباس .

(٢) ابن جرير ٧/ ٢٤.

(٣) ابن جرير ٢/ ٢١١ والبيهقى فى الشعب (٥١٨١) بإسناد ضعيف والطيالسى ٢٦٤ .

وقال النبى ﷺ : « لوحرم عليهم لتركوه كما تركتم»(١).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : فىّ نزل تحريم الخمر ، صنع رجل من الأنصار طعامًا فدعا ناسًا فأتوه ، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر ، وذلك قبل تحريم الخمر فتفاخروا ، فقالت الأنصار: الأنصار خير من المهاجرين ، وقالت قريش: قريش خير ، فأهوى رجل بلحى جمل فضرب على أنفى ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر** ﴾(٢) الآية. وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : أنزل تحريم الخمر فى قبيلتين من الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل (٣) القوم عبث بعضهم ببعض (٤) ، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول : صنع بى هذا أخى فلان،وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن، واللّه لو كان بى رؤوفًا رحيمًا ما صنع بى هذا حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم ، فأنزل اللّه هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هى رجس وهى فى بطن فلان قتل يوم بدر، وفلان قتل يوم أحد ؟ فأنزل اللّه هذه الآية : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ الآية (٥) . وقد رويت فى سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد ذكرناه.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : الميسر : هو القمار كله . وأخرج ابن مردويه عن وهب بن كيسان قال: قلت لجابر متى حرمت الخمر ؟ قال بعد أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : نزل تحريم الخمر فى سورة المائدة بعد غزوة الأحزاب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كل القمار من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال: النرد والشطرنج من الميسر. وأخرج عبد بن حميد عن على قال : الشطرنج ميسر الأعاجم . وأخرج ابن أبى حاتم عن القاسم بن محمد أنه سئل عن النرد أهى من الميسر ؟ قال : كل من ألهى عن ذكر اللّه وعن الصلاة فهو ميسر. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، والبيهقى فى الشعب

(١) أحمد ٢/ ٣٥١ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٥٤ : « أبو وهب مولى أبى هريرة لم يجرحه أحد ولم يوثقه ، وأبو نجيح ضعيف لسوء حفظـه ، وقد وثقه غير واحد ، وشـريح ثقة »وقـال الشيخ شاكـر فى تحقيـقه (٨٦٠٥) : « إسناده ضعيف لضعف أبى معشر نجيح ولجهالة أبى وهب مولى أبى هريرة » .

(٢) ابن جرير ٧/ ٢٢ وأحمد ١/ ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ومسلم فى فضائل الصحابة (١٧٤٨ / ٤٣) .

(٣) ثمل القوم : سكروا . (٤) دفع وحرك بشدة بعضهم بعضا .

(٥) النسائى فى التفسير (١٧١) بإسناد حسن وابن جرير ٧/ ٢٣ والطبرانى (١٢٣٥٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١ :« رجاله رجال الصحيح » والحاكم ٤/ ١٤١ ، ١٤٢ وسكت عنه ، وقال الذهبى « قلت : على شرط مسلم » والبيهقى ٨ / ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

عنه أيضا أنه قيل له : هذه النرد تكرهونها فما بال الشطرنج ؟ قال : كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر . وأخرجوا أيضا عن ابن الزبير قال : يا أهل مكة ، بلغنى عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النردشير ، والله يقول فى كتابه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ ، وإنى أحلف بالله لا أوتى بأحد يلعب بها إلا عاقبته فى شعره وبشره ، وأعطيت سلبه من أتانى به .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن مالك بن أنس قال : الشطرنج من النرد ، بلغنا عن ابن عباس أنه ولى مال يتيم فأحرقها . وأخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الله بن عمير قال : سئل ابن عمر عن الشطرنج ، فقال هى شر من النرد . وأخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن عبيد قال : رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن فى كل يوم اثنتى عشرة مرة إلا أصحاب الشاة ، يعنى أصحاب الشطرنج . وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى جعفر أنه سئل عن الشطرنج فقال : تلك المجوسية فلا تلعبوا بها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « من لعب بالنردشير(١) فقد عصى الله ورسوله » (٢) . وأخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى » (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا عن عبد الله بن عمر قال : اللاعب بالنرد قمارًا كآكل لحم الخنزير ، واللاعب بها من غير قمار كالمتدهن بودك الخنزير . وأخرج ابن أبى الدنيا عن يحيى بن كثير قال : مرّ رسول الله ﷺ بقوم يلعبون بالنرد فقال : « قلوب لاهية ، وأيدى عليلة ، وألسنة لاغية » (٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن قتادة قال : الميسر: القمار . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طريق ليث بن عطاء وطاوس ومجاهد قالوا : كل شىء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال : القمار من الميسر . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عنه قال : ما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صياح أو شر فهو من الميسر . وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن شريح ؛ أن النبى ﷺ قال : « ثلاث من الميسر : الصفير بالحمام ، والقمار ، والضرب بالكعاب ». وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأنصاب: حجارة كانوا يذبحون لها ، والأزلام : قداح كانوا يستقسمون بها الأمور

---

(١) فى المخطوطة : « النرشير » وفى مراجع التخريج «النرد».

(٢) أحمد ٤/ ٣٩٤ ، وابن أبى شيبة فى الأدب (٦١٩٢ ، ٦٢٠٤) وأبو داود فى الأدب (٤٩٣٨) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٦٢) والبيهقى ١٠/ ٢١٤ . كلهم بلفظ : « النَّرد » وليس « النردشير ».

(٣) أحمد ٥/ ٣٧٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١١٦ : « وفيه موسى بن عبد الرحمن الخطمى ولم أعرفه ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٤) البيهقى فى الشهادات ١٠/ ٢١٦ وقال : « مرسل » وعنده : « وأيد عاملة » ولعله الأصح .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الأزلام قال : هى كعاب فارس التى يقتمرون بها وسهام العرب . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذم الخمر وشاربها والوعيد الشديد عليها وأن كل مسكر حرام وهى مدونة فى كتب الحديث فلا نطول المقام بذكرها فلسنا بصدد ذلك ، بل نحن بصدد ما هو متعلق بالتفسير .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **ليبلونكم** ﴾ أى ليختبرنكم ، واللام جواب قسم محذوف ، كان الصيد أحد معايش العرب فابتلاهم اللّه بتحريمه مع الإحرام وفى الحرم ، كما ابتلى بنى إسرائيل أن لا يعتدوا فى السبت ، وكان نزول الآية فى عام الحديبية أحرم بعضهم وبعضهم لم يحرم ، فكان إذا عرض صيدهم اختلفت فيه أحوالهم .

وقد اختلف العلماء فى المخاطبين بهذه الآية هل هم المحلون أو المحرمون ؟ فذهب إلى الأول مالك ، وإلى الثانى ابن عباس، والراجح أن الخطاب للجميع ، ولا وجه لقصره على البعض دون البعض ، و « من » فى ﴿ **من الصيد** ﴾ للتبعيض وهو صيد البر قاله ابن جرير الطبرى [١] وغيره . وقيل : إن « من » بيانية أى شىء حقير من الصيد ، وتنكير ﴿**شىء**﴾ للتحقير . قوله : ﴿ **تناله أيديكم ورماحكم** ﴾ قرأ ابن وثاب : « يناله » بالياء التحتية هذه الجملة تقتضى تعميم الصيد ، وأنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد وهو مالا يطيق الفرار كالصغار والبيض ، وبين ما تناله الرماح : وهو ما يطيق الفرار . وخص الأيدى بالذكر؛ لأنها أكثر ما

(١) ابن جرير ٧/ ٨١ .

يتصرف به الصائد فى أخذ الصيد ، وخص الرماح بالذكر؛ لأنها الآلات للصيد عند العرب . قولـه : ﴿ **ليعلم الله من يخافه بالغيب** ﴾ أى ليتميز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروى ،فإنه غائب عنكم غير حاضر ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾ أى بعد هذا البيان الذى امتحنكم الله به ، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة لله سبحانه وتجرئة عليه.

قوله : ﴿ **لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم** ﴾ نهاهم عن قتل الصيد فى حال الإحرام ، وفى معناه : ﴿غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : ١]. وهذا النهى شامل لكل أحد من ذكور المسلمين وإناثهم، لأنه يقال : رجل حرام ، وامرأة حرام، والجمع حرم ، وأحرم الرجل : دخل فى الحرم . قوله : ﴿ **ومن قتله منكم متعمدًا** ﴾ المتعمد: هو القاصد للشىء مع العلم بالإحرام، والمخطئ : هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدًا ، والناسى : هو الذى يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه . وقد استدل ابن عباس وأحمد فى رواية عنه، وداود [(١)] باقتصاره سبحانه على العامد بأنه لا كفارة على غيره ،بل لا تجب إلا عليه وحده، وبه قال سعيد بن جبير ،وطاوس ، وأبو ثور . وقيل : إنها تلزم الكفارة المخطئ والناسى كما تلزم المتعمد ، وجعلوا قيد التعمد خارجًا مخرج الغالب ، روى عن عمر والحسن والنخعى والزهرى ، وبه قال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم ، وروى عن ابن عباس . وقيل : إنه يجب التكفير على العامد الناسى لإحرامه ، وبه قال مجاهد ، قال : فإن كان ذاكرًا لإحرامه فقد حلّ ولا حج له لارتكابه محظور إحرامه ، فبطل عليه كما لو تكلم فى الصلاة أو أحدث فيها .

قوله : ﴿ **فجزاء مثل ما قتل من النعم** ﴾ أى فعليه جزاء مماثل لما قتله ، و﴿ **من النعم** ﴾ بيان للجزاء المماثل . قيل : المراد: المماثلة فى القيمة . وقيل : فى الخلقة . وقد ذهب إلى الأول أبو حنيفة ، وذهب إلى الثانى مالك ، والشافعى وأحمد ، والجمهور ، وهو الحق لأن البيان المماثل للنعم يفيد ذلك ، وكذلك يفيده هديًا بالغ الكعبة ، وروى عن أبى حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة ولو وجد المثل،وأن المحرم مخير. وقرئ : « فجزاؤه مثل ما قتل » وقرئ : «فجزاء مثل » على إضافة جزاء إلى مثل،وقرئ بنصبهما على تقدير فليخرج جزاء مثل ما قتل ، وقرأ الحسن : «النعم»بسكون العين تخفيفًا . ﴿ **يحكم به** ﴾ أى بالجزاء أو بمثل ما قتل ﴿ **ذوا عدل منكم** ﴾ أى رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين ، فإذا حكما بشىء لزم ، وإن اختلفا رجع إلى غيرهما ، ولا يجوز أن يكون الجانى أحد الحكمين . وقيل : يجوز ، وبالأول قال أبو حنيفة، وبالثانى قال الشافعى فى أحد قوليه، وظاهر الآية يقتضى حكمين غير الجانى.

قوله : ﴿ **هديًا بالغ الكعبة** ﴾ نصب هديًا على الحال ، أو البدل من ﴿ **مثل** ﴾ و ﴿ **بالغ الكعبة** ﴾ صفة لهديًا ، لأن الإضافة غير حقيقية ، والمعنى : أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدى من الإرسال إلى مكة والنحر هنالك والإشعار والتقليد ، ولم يرد الكعبة

---

(١) فى المطبوعة :«فى رواية وداود عنه » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

بعينها فإن الهدى لا يبلغها ، وإنما أراد الحرم ، ولا خلاف في هذا . قوله : ﴿ **أو كفارة**﴾ معطوف على محل من النعم : وهو الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف ، و ﴿ **طعام مساكين** ﴾ عطف بيان للكفارة ، أو بدل منه، أو خبر مبتدأ محذوف . ﴿ **أو عدل ذلك** ﴾ معطوف على طعام. وقيل : هو معطوف على جزاء ، وفيه ضعف ، فالجانى مخير بين هذه الأنواع المذكورة ، وعدل الشيء ما عادله من غير جنسه ، و ﴿ **صياما** ﴾ منصوب على التمييز ، وقد قرر العلماء عدل كل صيد من الإطعام والصيام ، وقد ذهب إلى أن الجانى يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء ، وروى عن ابن عباس أنه لا يجزئ المحرم الإطعام والصوم إلا إذا لم يجد الهدى . والعدل بفتح العين وكسرها لغتان وهما : الميل ، قاله الكسائى . وقال الفراء : عِدْل الشيء بكسر العين مثله من جنسه ، وبفتح العين مثله من غير جنسه ، وبمثل قول الكسائى قال البصريون .

قوله : ﴿ **ليذوق وبال أمره** ﴾ عليه لإيجاب الجزاء : أى أوجبنا ذلك عليه ليذوق وبال أمره ، والذوق مستعار لإدراك المشقة ، ومثله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩] . والوبال : سوء العاقبة ، والمرعى الوبيل : الذى يتأذى به بعد أكله ، وطعام وبيل : إذا كان ثقيلا. قوله : ﴿ **عفا اللّه عما سلف** ﴾ يعنى فى جاهليتكم من قتلكم للصيد .وقيل : عما سلف قبل نزول الكفارة ﴿ **ومن عاد** ﴾ إلى ما نهيتم عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان ﴿ **فينتقم اللّه منه** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى فهو ينتقم اللّه منه . قيل : المعنى : إن اللّه ينتقم منه فى الآخرة فيعذبه بذنبه . وقيل : ينتقم منه بالكفارة . قال شريح وسعيد بن جبير : يحكم عليه فى أول مرة ، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له : اذهب ينتقم اللّه منك ، أى ذنبك أعظم من أن يكفر .

قوله : ﴿ **أحل لكم صيد البحر** ﴾ الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة،وصيد البحر : ما يصاد فيه ؛ والمراد بالبحر هنا : كل ماء يوجد فيه صيد بحرى وإن كان نهرًا أو غديرًا . قوله : ﴿ **وطعامه متاعا لكم وللسيارة** ﴾ الطعام : لكل ما يُطْعم ، وقد تقدم . وقد اختلف فى المراد به هنا فقيل :هو ما قذف به البحر وطفا عليه وبه قال كثير من الصحابة والتابعين.وقيل : طعامه ما ملح منه وبقى ، وبه قال جماعة ، وروى عن ابن عباس . وقيل : طعامه ملحه الذى ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره ، وبه قال قوم . وقيل : المراد به : ما يطعم من الصيد أى ما يحل أكله وهوالسمك فقط، وبه قالت الحنفية . والمعنى : أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد فى البحر ، وأحل لكم المأكول منه وهو السمك ، فيكون التخصيص بعد التعميم ، وهو تكلف لا وجه له ، ونصب ﴿ **متاعا** ﴾ على أنه مصدر أى متعتم به متاعًا . وقيل : مفعول له مختص بالطعام ، أى أحل لكم طعام البحر متاعًا ، وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير ؛ بل إذا كان مفعولا له كان من الجميع أى أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتيعًا لكم أى لمن كان مقيمًا منكم يأكله طريا ﴿ **وللسيارة** ﴾ أى المسافرين منكم يتزودونه

ويجعلونه قديدًا ، وقيل : السيارة : هم الذين يركبونه خاصة .

قوله : ﴿ **وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرمًا** ﴾ أى حرم عليكم ما يصاد فى البر ما دمتم محرمين ، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالاً ، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله ، وهو القول الراجح وبه يجمع بين الأحاديث . وقيل : إنه يحل له مطلقًا ، وإليه ذهب جماعة . وقيل : يحرم عليه مطلقًا ، وإليه ذهب آخرون ، وقد بسطنا هذا فى شرحنا للمنتقى . قوله : ﴿ **واتقوا اللّه الذى إليه تحشرون** ﴾ أى اتقوا اللّه فيما نهاكم عنه . ﴿ **الذى إليه تحشرون** ﴾ لا إلى غيره ،وفيه تشديد ومبالغة فى التحذير ، وقرئ : « وحرم عليكم صيد البر » بالبناء للفاعل ، وقرئ : « ما دمتم » بكسر الدال .

قوله : ﴿ **جعل اللّه الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس** ﴾ جعل هنا بمعنى : خلق ، وسميت الكعبة كعبة : لأنها مربعة ، والتكعيب : التربيع ، وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة . وقيل : سميت كعبة : لنتوئها وبروزها ، وكل بارز كعب، مستديرًا كان أو غير مستدير ، ومنه كعب القدم ، وكعوب القنا ، وكعب ثدى المرأة ، و ﴿ **البيت الحرام** ﴾ عطف بيان وقيل مفعول ثان ، ولا وجه له ، وسمى بيتا لأن له سقوفا وجدرًا وهى حقيقة البيت وإن لم يكن به ساكن ، وسمى حرامًا لتحريم اللّه سبحانه إياه . وقوله : ﴿ **قيامًا للناس** ﴾ كذا قرأ الجمهور ، وقرأ ابن عامر: « قيما » وهو منصوب على أنه المفعول الثانى ، إن كان جعل هو المتعدى إلى مفعولين ، وإن كان بمعنى خلق كما تقدم فهو منتصب على الحال ، ومعنى كونه قيامًا أنه مدار لمعاشهم ودينهم ، أى يقومون فيه بما يصلح دينهم ودنياهم : يأمن فيه خائفهم ، وينصر فيه ضعيفهم ، ويربح فيه تجارهم ، ويتعبد فيه متعبدهم .

قوله : ﴿ **والشهر الحرام** ﴾ عطف على الكعبة ، وهو ذو الحجة ، وخصه بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج. وقيل : هو اسم جنس ، والمراد به : الأشهر الحرم : ذو القعدة، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب فإنهم كانوا لا يطلبون فيها دمًا ، ولا يقاتلون بها عدوًا ، ولا يهتكون فيها حرمة ، فكانت من هذه الحيثية قيامًا للناس : ﴿ **والهدى والقلائد** ﴾ أى وجعل اللّه الهدى والقلائد قيامًا للناس . والمراد بالقلائد : ذوات القلائد من الهدى ولا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها ، والإشارة بذلك إلى الجعل أى ذلك الجعل ﴿ **لتعلموا أن اللّه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ أى لتعلموا أن اللّه يعلم تفاصيل أمر السموات والأرض ، ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية ، فإنها من جملة ما فيهما ، فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم ، ودفع لما يضركم ﴿ **وأن اللّه بكل شىء عليم** ﴾ هذا تعميم بعد التخصيص ، ثم أمرهم بأن يعلموا بأن اللّه ـ لمن انتهك محارمه ولم يتب عن ذلك ـ شديد العقاب ، وأنه لمن تاب وأناب غفور رحيم ، ثم أخبرهم أن ما على رسوله إلا البلاغ لهم ، فإن لم يمتثلوا ويطيعوا فما ضروا إلا أنفسهم ، وما جنوا إلا عليها ، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد فعل ما

يجب عليه ، وقام بما أمره اللّه به .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن قتله منكم متعمدًا** ﴾ قال : إن قتله متعمدًا أو ناسيًا أو خطأ حكم عليه ، فإن عاد متعمدًا عجلت له العقوبة إلا أن يعفوا اللّه عنه ، وفى قوله : ﴿ **فجزاء مثل ما قتل من النعم** ﴾ قال : إذا قتل المحرم شيئا من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فإن قتل أيلا ونحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينا ، فإن لم يجد صام عشرين يومًا ، وإن قتل نعامة ، أوحمار وحش ، أو نحوه ، فعليه بدنة ، فإن لم يجد أطعم ستين مسكينًا ، فإن لم يجد صام ثلاثين يومًا ، والطعام مدّ يشبعهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن الحكم ، أن عمر كتب أن يحكم عليه فى الخطأ والعمد . وأخرجا نحوه عن عطاء . وقد روى نحو هذا عن جماعات من السلف من غير فرق بين العامد ، والخاطئ ، والناسى ، وروى عن آخرين اختصاص ذلك بالعامد . وللسلف فى تقدير الجزاء المماثل وتقدير القيمة أقوال مبسوطة فى مواطنها .

وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال فى بيضة النعام : « صيام يوم أو إطعام مسكين » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد اللّه بن ذكوان عن النبى ﷺ مثله (٢) . وأخرج أيضا عن عائشة عنه ﷺ نحوه (٣) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه من طريق أبى المهزم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « فى بيض النعامة ثمنه»(٤)، وقد استثنى النبى ﷺ من حيوانات الحرم الخمس الفواسق كما ورد ذلك فى الأحاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها ولا شىء عليه (٥) .

وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **أحل لكم**

---

(١) ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة الحسن بن سفيان بن عامر ٤/ ١٨١ والدارقطنى فى الحج (٦٠) وقال ابن أبى حاتم أنه سأله أباه عنه فقال : «ليس بصحيح عندى ».

(٢، ٣) ابن أبى شيبة فى الحج ٤/ ١٣ .

(٤) ابن ماجة فى المناسك (٣٠٨٦) وفى الزوائد : « فى إسناده على بن عبد العزيز ، مجهول » . وأبو المُهَزِّم اسمه: يزيد بن سفيان ضعيف .

(٥) من ذلك : عن عائشة رضى اللّه عنها عن النبى ﷺ : أنه قال : « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الحية، والغراب الأبقع ، والفأرة ، والكلب العقور ، والحُدَيا » . وممن روى هذا الحديث : أحمد ٦/ ٩٧ ، ١٢٢ والبخارى فى جزاء الصيد (١٨٢٩) وفى بدء الخلق (٣٣١٤) ومسلم فى الحج (١١٩٨/ ٦٦ـ٧١)والترمذى فى الحج (٨٣٧) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الحج ٥/ ٢٠٨ ، ٢١١ وابن ماجة فى المناسك (٣٠٨٧). وفى الباب عن ابن عمر عند مالك فى الحج (٨٨ ،٨٩) وأحمد ٢/ ٥٢ـ٥٤ والبخارى (١٨٢٦ ، ١٨٢٧ ، ٣٣١٥) ومسلم (١١٩٩/ ٧٢، ٧٩) وأبو داود (١٨٤٦) وابن ماجة (٣٠٨٨) . وعن أبى سعيد الخدرى عند أبى داود (١٨٤٨) والترمذى (٨٣٨) وقال : «حسن » وابن ماجة (٣٠٨٩) وضعفه صاحب الزوائد وعن أبى هريرة عند أبى داود (١٨٤٧) وعن عروة عند مالك فى الحج(٩٠) وعن أم المؤمنين السيدة حفصة عند البخارى (١٨٢٨) والنسائى ٥/ ٢١٠ .

صيد البحر وطعامه متاعًا لكم ﴾ « ما لفظه ميتًا فهو طعامه » [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى هريرة موقوفًا مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبى بكر الصديق نحوه . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة ؛ أن أبا بكر الصديق قال فى قوله: ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ قال : صيد البحر ما تصطاده أيدينا ، وطعامه ما لاثه البحر وفى لفظ: «طعامه كل ما فيه » وفى لفظ « طعامه ميتته » ويؤيد هذا ما فى الصحيحين من حديث العنبرة التى ألقاها البحر فأكل الصحابة منها وقررهم رسول اللّه ﷺ على ذلك [٢] ، وحديث : « هو الطهور ماؤه والحل ميتته » [٣] . وحديث: «أحل لكم ميتتان ودمان » [٤] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ جعل اللّه الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس ﴾ قال: قيامًا لدينهم ومعالم حجهم . وأخرج ابن جرير عنه قال : قيامها : أن يأمن منْ توجه إليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال : جعل اللّه الكعبة البيت الحرام ، والشهر الحرام قيامًا للناس يأمنون به فى الجاهلية الأولى ، لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت أو فى الحرم أو فى الشهر الحرام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ جعل اللّه الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس والشهر الحرام والهدى القلائد ﴾ قال : حواجز أبقاها اللّه بين الناس فى الجاهلية ، فكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب ، وكان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل لو لقى الهدى مقلدًا وهو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فحمته ومنعته من الناس ، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الأذخر ، أو من السمر ، فتمنعه من الناس حتى يأتى أهله ، حواجز أبقاها اللّه بين الناس فى الجاهلية . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم : ﴿ قياما للناس ﴾ قال : أمنًا .

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٧/ ٤٥ .

(٢ـ٤) سبق تخريجها .

قيل : المراد بالخبيث والطيب : الحرام والحلال . وقيل : المؤمن والكافر . وقيل : العاصى والمطيع . وقيل : الردىء والجيد . والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ ، فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبيث والطيب من الأشخاص ، والأعمال والأقوال ، فالخبيث لا يساوى الطيب بحال من الأحوال .

قوله : ﴿ **ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ . قيل : الخطاب للنبى ﷺ . وقيل : لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا . والمراد نفى الاستواء فى كل الأحوال ، ولو فى حال كون الخبيث معجبًا للرائى للكثرة التى فيه ، فإن هذه الكثرة مع الخبيث فى حكم العدم ، لأن خبث الشىء يبطل فائدته ، ويمحو بركته ويذهب بمنفعته ، والواو إما للحال ، أو للعطف على مقدر أى لا يستوى الخبيث والطيب لو لم تعجبك كثرة الخبيث ، ولو أعجبك كثرة الخبيث كقولك : أحسن إلى فلان ، وإن أساء إليك أى أحسن إليه إن لم يسئ إليك ، وإن أساء إليك ، وجواب « لو » محذوف ، أى ولو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم** ﴾ أى لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها ولا هى مما يعنيكم فى أمر دينكم . فقوله : ﴿ **إن تبد لكم تسؤكم** ﴾ فى محل جر صفة لأشياء أى لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم أى ظهرت وكلفتم بها ساءتكم ، نهاهم اللّه عن كثرة مساءلتهم لرسول اللّه ﷺ ، فإن السؤال عما لا يعنى ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سببا لإيجابه على السائل وعلى غيره . قوله : ﴿ **وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم** ﴾ هذه الجملة من جملة صفة أشياء . والمعنى : لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن وذلك مع وجود رسول اللّه ﷺ بين أظهركم ونزول الوحى عليه :﴿ **تبد لكم** ﴾ أى تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبى ﷺ أو ينزل به الوحى فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة ، وإيجاب ما لم يكن واجبًا وتحريم ما لم يكن محرمًا ، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحى بموت رسول اللّه ﷺ فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال .

وقد ظن بعض أهل التفسير أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول اللّه ﷺ، ونزول الوحى عليه ، فقال: إن الشرطية الأولى : أفادت عدم جواز السؤال ، والثانية : أفادت جوازه ، فقال : إن المعنى : وإن تسألوا عن غيرها مما مست إليه الحاجة ، تبد لكم بجواب رسول اللّه ﷺ عنها ، وجعل الضمير فى ﴿ **عنها** ﴾ راجعًا إلى أشياء غير الأشياء المذكورة ، وجعل ذلك كقوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون : ١٢]. وهو آدم ثم قال ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ [المؤمنون : ١٣] أى ابن آدم .

قوله : ﴿ **عفا اللّه عنها** ﴾ أى عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك . وقيل : المعنى : إن تلك الأشياء التى سألتم عنها هى مما عفا عنه ، ولم يوجبه عليكم ، فكيف

تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من اللّه غير لازم ؟ وضمير ﴿ عنها ﴾ عائد إلى المسألة الأولى ، وإلى أشياء على الثاني على أن تكون جملة ﴿ عفا اللّه عنها﴾ صفة ثالثة لأشياء ، والأول أولى ، لأن الثاني يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه اللّه ثم عفا عنه، ويمكن أن يقال : إن العفو بمعنى الترك أي تركها اللّه ولم يذكرها بشيء فلا تبحثوا عنها (١) ، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل ، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة في كونه غفورًا حليمًا ؛ ليدل بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، لكثرة مغفرته وسعة حلمه .

قوله : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ الضمير يرجع إلى المسألة المفهومة من ﴿ لا تسألوا ﴾ لكن ليست هذه المسألة بعينها،بل مثلها في كونها مما لا حاجة إليه ، ولا توجبه الضرورة الدينية ، ثم لم يعملوا بها ؛ بل أصبحوا بها كافرين ، أي ساترين لها تاركين للعمل بها ، وذلك كسؤال قوم صالح الناقة ، وأصحاب عيسى المائدة ، ولابد من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا ، لأن الأمر الذي تدعو الحاجة إليه في أمور الدين والدنيا قد أذن اللّه بالسؤال عنه فقال : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [الأنبياء : ٧]، وقال ﷺ : « قاتلهم اللّه، ألا سألوا فإنما شفاء العيّ السؤال» (٢) .

قوله : ﴿ ما جعل اللّه من بحيرة ﴾ هذا الكلام مبتدأ يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، وجعل ها هنا بمعنى سمى كما قال :﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ [الزخرف:٣] . والبحيرة : فعيلة بمعنى مفعولة ، كالنطيحة والذَّبيحة ، وهي مأخوذة من البحر ، وهو شق الأذن . قال ابن سيده : البحيرة هي التي خليت بلا راع . قيل: هي التي يجعل درها للطواغيت ، فلا يحتلبها أحد من الناس ،وجعل شق أذنها علامة لذلك . وقال الشافعي : كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذنها فحرمت. وقيل: إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذكرًا بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء ، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها وكانت حرامًا على النساء لحمها ولبنها. وقيل : إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا أذنها ، وحرموا ركوبها ودرّها ، والسائبة: الناقة تسيب ، أو البعير يسيب ،نذر على الرجل إن سلمه اللّه من مرض أو بلغه منزلة ، فلا يحبس عن رعي ولا ماء ، ولا يركبه أحد قاله أبو عبيد . قال الشاعر :

وَسَائِبة للّه تَنْمى (٣) تَشكرًا إن اللّهُ عافا عامرًا ومُجاشِعا .

(١) روى مسلم (٢٣٥٨ / ١٣٢) عن عامر بن سعد عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما ، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته » .

(٢) جزء من حديث وهو عن جابر عند أبي داود في الطهارة (٣٣٦ ، ٣٣٧)والدارقطني في التيمم (٣) والبيهقي ١/ ٢٢٧ .

وعن ابن عباس عند أحمد ١/ ٣٣٠ وقال العلامة أحمد شاكر (٣٠٥٧) :« إسناده صحيح وإن كان ظاهره الانقطاع » والبخاري في تاريخه (٣٠٢٧) وابن ماجة في الطهارة (٥٧٢) وفي الزوائد : «إسناده منقطع » والدارمي في الصلاة والطهارة ١/ ١٩٢ والدارقطني في التيمم (٤) وصححه الحاكم ١/ ١٦٥ ووافقه الذهبي والطبراني (١١٤٧٢) والبيهقي ١ / ٢٢٦، ٢٢٧ وتلخيص الحبير (٢٠٠) .

(٣) نمت الناقة : سمنت وزاد لحمها وشحمها .

وقيل : هى التى تسيب للّه فلا قيد عليها ولا راعى لها ، ومنه قول الشاعر :

عـَقـَـرتم نـَـاقَة كَانـَـتْ لربِّى مُسـَيبة فـَقُوموا للـعِقابِ

وقيل : هى التى تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر ، فعند ذلك لا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ، ولا يشرب لبنها إلا ضيف . وقيل :كانوا يسيبون العبد فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد . والوصيلة: قيل : هى الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى . وقيل : هى الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وقيل : كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا ، فإن كان السابع ذكرًا ذبح فأكل منه الرجال والنساء ، وإن كانت أنثى تركت فى الغنم ، وإن كان ذكرًا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها ، وكان لحمها حرامًا على النساء ، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء . والحام : الفحل الحامى ظهره عن أن يركب ، وكانوا إذا ركب ولد الفحل قالوا : حمى ظهره فلا يركب . قال الشاعر :

حَماها أبو قابوس فى عز ملكه كَمَا قَدْ حَمَى أولادَ أَولاده الْفَحْلُ

وقيل:هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة ،قالوا:قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء،ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على اللّه وكذبًا ، لا لشرع شرعه اللّه لهم ولا لعقل دلهم عليه(١)، وسبحان اللّه العظيم ما أركّ عقول هؤلاء وأضعفها . .؟ يفعلون هذه الأفاعيل ، التى هى محض الرقاعة ، ونفس الحمق ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ وهذا أفعال آبائهم وسننهم التى سنوها لهم، وصدق اللّه سبحانه حيث يقول:﴿ **أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** ﴾ أى ولو كانوا جهلة ضالين ، والواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام . وقيل : للعطف على جملة مقدرة ، أى أحسبهم ذلك ، ولو كان آباؤهم . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى البقرة . وقد صارت هذه المقالة التى قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة ، وعصاهم التى يتوكؤون عليها ، إن دعاهم داعى الحق ، وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة ، فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم فى التعبد بشرع اللّه، مع مخالفة قوله لكتاب اللّه ، أو لسنة رسوله هو كقول هؤلاء ، وليس الفرق إلا فى مجرد العبارة اللفظية لا فى المعنى الذى عليه تـدور الإفادة والاستفادة ، اللهم غفرًا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية ، قال : الخبيث : هم المشركون ، والطيب : هم المؤمنون . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : خطب النبى ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال رجل : من أبى ؟ فقال: فلان ، فنزلت

(١) روى الإمام مسلم فى صحيحه (٢٨٥٦/ ٥٠ ،٥١) عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « رأيت عمرو ابن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار ، وكان أول من سيَّب السيوب » وقُصْبُهُ : أمعاءه .

هذه الآية : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء** ﴾ (١) . وأخرج البخارى وغيره نحوه من حديث ابن عباس(٢) ، وقد بين هـذا السائل فى روايات أخر أنه عبد الله بن حذافة وأنه قال : من أبى ؟ قال النبى ﷺ : « أبوك حذافة » (٣) .

وأخرج ابن حبان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال : « يأيها الناس ، إن الله قد افترض عليكم الحج » ، فقام رجل ، فقال : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه، فأعادها ثلاث مرات ، فقال : « لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما قمتم بها ، ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » (٤) ، وذلك أن هذه الآية ، أعنى ﴿ **لا تسألوا عن أشياء** ﴾ نزلت فى ذلك . وقد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه (٥). وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن أبى أمامة الباهلي نحوه (٦). وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه أيضا ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا ، وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى والحاكم وابن مردويه عن على نحوه (٧) ، وكل هؤلاء صرحوا فى أحاديثهم أن الآية نزلت فى ذلك .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال ، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم ، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه . وأخرج ابن المنذر عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « أعظم المسلمين فى المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته » (٨) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه عن أبى ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء فى غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها » (٩).

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٢١) وفى الاعتصام (٧٢٩٥) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٩/ ١٣٤ ،١٣٥) والنسائى فى التفسير (١٧٤) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٢٢) وابن جرير ٧/ ٥٢ .

(٣) مسلم فى الفضائل (٢٣٥٩/ ١٣٦ ، ١٣٧) وابن جرير ٧/ ٥٢ .

(٤) ابن حبان فى الحج (٣٦٩٦) .

(٥) ابن جرير ٧/ ٥٣.

(٦) ابن جرير ٧/ ٥٣ ، ٥٤ وقال ابن كثير بعد أن أورد رواية ابن جرير ٢/ ٦٦١ : « فى إسناده ضعف» والطبرانى (٧٦٧١) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٠٧: « وإسناده حسن جيد » .

(٧) أحمد ١/ ١١٣ والترمذى فى الحج (٨١٤) وقال : « حسن غريب » وفى التفسير (٣٠٥٥) وابن ماجة فى المناسك (٢٨٨٤) والدارقطنى فى الحج (٢٠٢) والحاكم ٢/ ٢٩٣ ، ٢٩٤ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « مخول رافضى » وعبد الأعلى هو ابن عامر، ضعفه أحمد والخطيب فى تاريخه فى ترجمة منصور بن وردان ١٣/ ٦٥.

(٨) مسلم فى الفضائل (٢٣٥٨/ ١٣٢).

(٩) ابن جرير ٧/ ٥٥ والحاكم ٤/ ١١٥ وسكت عنه وكذلك الذهبى .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء** ﴾ قال : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة: التى يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء ، والوصيلة : الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى . وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحامى : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء وسموه الحامى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : البحيرة: الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكرًا ونحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى جدعوا آذانها فقالوا : هذه بحيرة . وأما السائبة: فكانوا يسيبون من أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهرًا ، ولا يحلبون لها لبنًا، ولا يجزون لها وبرًا ، ولا يحملون عليها شيئا ؛ وأما الوصيلة: فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع ، فإن كان ذكرًا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى استحيوها ، وإن كان ذكرًا أو أنثى فى بطن استحيوهما وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا . وأما الحام : فالفحل من الإبل ، إذا ولد لولده قالوا : حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ، ولا يجزون له وبرًا ، ولا يمنعونه من حمى ، ولا من حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه ، وأخرج نحوه عنه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق العوفى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾ .

أى الزموا أنفسكم أو احفظوها ، كما تقول : عليك زيدًا : أى الزمه ، قرئ : « لا يضركم » بالجزم على أنه جواب الأمر الذى يدل عليه اسم الفعل . وقرأ نافع وغيره بالرفع على مستأنف كقول الشاعر :

فقال رائدهم أرسوا نزاولها

أو على أن ضم الراء للاتباع ، وقرئ : « لا يضركم » بكسر الضاد ، وقرئ : « لا يضيركم » والمعنى: لا يضركم ضلال من ضل من الناس ،إذا اهتديتم للحق أنتم فى أنفسكم ، وليس فى الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد . وقد قال اللّه سبحانه: ﴿ **إذا اهتديتم** ﴾ وقد دلت الآيات القرآنية ، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر وجوبًا مضيقًا متحتمًا فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أولا يظن التأثير بحال من الأحوال ، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضره ضررًا

يسوغ له معه الترك ﴿ **إلى اللّه مرجعكم** ﴾ يوم القيامة ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والدارقطنى ، والضياء فى المختارة ، وغيرهم عن قيس بن أبى حازم قال : قام أبو بكر فحمد اللّه وأثنى عليه وقال : يأيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يـضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ وإنكم تضعونها على غير مواضعها ، وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولـم يغيروه ، أوشك أن يعمهم اللّه بعقاب ».وفى لفظ لابن جرير عنه : « واللّه لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليعمنكم اللّه منه بعقاب »(١) وأخرج الترمذى وصححه وابن ماجة وابن جرير، والبغوى في معجمه،وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى أمية الشعبانى (٢) قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أيةُ آية؟ قلت : قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يـضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ قال : أما واللّه لقد سألت عنها خبيرًا ، سألت عنها رسول اللّه ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ،حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام،فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم » وفى لفظ : قيل : يا رسول اللّه ، أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » (٣) .وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عامر الأشعرى ؛ أنه كان فيهم أعمى ، فاحتبس على رسول اللّه ﷺ ثم أتاه فقال : « ما حبسك ؟ » قال : يا رسول اللّه ، قرأت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يـضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ قـال : فقال له النبى ﷺ : « أين ذهبتم ؟ إنما هى لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم »(٤) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٤٢٩) وأحمد١/ ٢، ٥ ، ٧، ٩ وأبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٦٨) وقال:« صحيح » وفى التفسير (٣٠٥٧) وقال:« حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠٥) والنسائى فى التفسير (١٧٧) وابن جرير ٧/ ٦٤ وابن حبان فى البر والإحسان (٣٠٤ ، ٣٠٥) وأبو يعلى (١٢٨ـ١٣٢) والطحاوى فى مشكل الآثار ٢/ ٦٢ ، ٦٤ والبيهقى١٠/ ٩١ وفى الشعب (٧٥٥٠) ط:الكتب العلمية.

(٢) فى المطبوعة : « الشعثانى » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ـ بالباء الموحدة وليس بالثاء ـ ومن مراجع تخريج الحديث وكتب الرجال .

(٣) أبو داود فى الملاحم (٤٣٤١) والترمذى في التفسير (٣٠٥٨) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٤٠١٤) وابن جرير ٧/ ٦٣ والطبرانى ٢٢/ ٢٢٠(٥٨٧) وصححه الحاكم ٤/ ٣٢٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ١٠/ ٩٢ وفى الشعب (٧٥٥٣) . ط . الكتب العلمية .

(٤) أحمد ٤/ ١٢٩ والطبرانى ٢٢/ ٣١٧(٧٩٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢ : « ورجالهما ثقات إلا أنى لم أجد لعلى بن مدرك سماعا من أحد من الصحابة » . وقال محقق المعجم : قلت : « بل ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين ، وقال : سمع أبا مسعود صاحب رسول اللّه ﷺ ، وأبو مسعود مات فى خلافة على وأبو عامر مات فى خلافة عبد الملك فإذا كان سمع من أبى مسعود فمن الممكن جدا أن يسمع من أبى عامر » .

ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ فقال : يأيها الناس إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة ، ولكنه قد أوشك أن يأتى زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا ،أو قال: فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم (١) .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عنه فى الآية قال : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر مالم يكن من دون ذلك السوط والسيف ، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر أنه قال فى هذه الآية : إنها لأقوام يجيؤون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم . وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن رجل قال : كنت فى خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة فى حلقة فيهم أصحاب رسول اللّه ﷺ فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبى بن كعب فقرأ : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ فقال : إنما تأويلها فى آخر الزمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن أبى مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم جلوس فقرأ أحدهم : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ فقال أكثرهم : لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم .

وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : كنت فى حلقة فيها أصحاب النبى ﷺ وإنى لأصغر القوم ، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقلت: أليس اللّه يقول:﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ فأقبلوا علىّ بلسان واحد فقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدرى ما تأويلها ؟ حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت ، ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن وإنك نزعت آية لا تدرى ما هى ؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان ، إذا رأيت شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، لا يضرك من ضل إذا اهتديت(٢) . وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ بنحو حديث أبى ثعلبة الخشنى المتقدم ، وفى آخره : « كأجر خمسين رجلا منكم » . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : ذكرت هذه الآية عند رسول اللّه ﷺ فقال النبى ﷺ : « لم يجئ تأويلها، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام» . والروايات فى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية ، ففيه ما يرشد إلى ما قدمناه من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا

(١) ابن جرير ٧/ ٦٢ والطبرانى (٩٠٧٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢ : « ورجاله رجال الصحيح إلا أن الحسن البصرى لم يسمع من ابن مسعود » .
(٢) ابن جرير ٧/ ٦٢ وإسناده منقطع .

نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾.

قال مكى : هذه الآيات عند أهل المعانى من أشكل ما فى القرآن إعرابًا ومعنى وحكمًا . قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له النتاج فى تفسيرها ، وذلك بين من كتابه رحمه الله ، يعنى من كتاب مكى . قال القرطبى : ما ذكره مكى ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا . قال السعد فى حاشيته على الكشاف : واتفقوا على أنها أصعب ما فى القرآن إعرابا ونظمًا وحكما . قوله : ﴿ **شهادة بينكم** ﴾ أضاف الشهادة إلى البين توسعًا لأنها جارية بينهم؛ وقيل : أصله شهادة ما بينكم فحذفت « ما » وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ : ٣٣] . ومنه قول الشاعر :

تُصَافح من لاَقيتَ لي ذا عَدَاوة   صفايا وعنى بين عينيك مُنْزَوى

أراد : ما بين عينيك ، ومثله قول الآخر :

ويومًا شهدناه سُليمًا وعامرًا

أى شهدنا فيه . ومنه قوله تعالى: ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ [الكهف : ٧٨] . قيل : والشهادة هنا بمعنى الوصية. وقيل : بمعنى الحضور للوصية . وقال ابن جرير الطبرى : هى هنا بمعنى اليمين ، فيكون المعنى : يمين ما بينكم أن يحلف اثنان . واستدل على ما قاله بأنه لا يعلم لله حكمًا يجب فيه على الشاهد يمين (١) . واختار هذا القول القفال ، وضعف ذلك ابن عطية ، واختار أن الشهادة هنا : هى الشهادة التى تؤدى من الشهود (٢) . قوله : ﴿ **إذا حضر أحدكم الموت** ﴾ ظرف للشهادة ، والمراد : إذا حضرت علاماته ؛ لأن من مات لا يمكنه الإشهاد ، وتقديم المفعول للاهتمام، ولكمال تمكن الفاعل عند النفس. وقوله: ﴿ **حين الوصية** ﴾ ظرف لحضر ، أو للموت ، أو بدل من الظرف الأول .

وقوله : ﴿ **اثنان** ﴾ خبر شهادة على تقدير محذوف ، أى شهادة اثنين ، أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف ، أى فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان ، ذكر الوجهين أبو على الفارسى . قوله : ﴿ **ذوا عدل منكم** ﴾ صفة للاثنان وكذا منكم أى كائنان منكم ، أى من أقاربكم ﴿ **أو آخران** ﴾ معطوف على ﴿ **اثنان** ﴾ و ﴿ **من غيركم** ﴾ صفة له أى كائنان من الأجانب . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **منكم** ﴾ للمسلمين ، وفى ﴿ **غيركم** ﴾

(١) ابن جرير ٧/٦٦.   (٢) القرطبى ٤/ ٢٣٤٤، ٢٣٤٥ .

للكفار وهو الأنسب لسياق الآية ، وبه قال أبو موسى الأشعرى وعبد اللّه بن عباس وغيرهما ، فيكون فى الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين فى السفر ، فى خصوص الوصايا كما يفيده النظم القرآنى ، ويشهد له السبب للنزول وسيأتى ، فإذا لم يكن مع الموصى من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر ، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولابدّلا ، وأن ما شهدا به حق ، فيحكم حينئذ بشهادتهما ﴿ **فإن عثر** ﴾ بعد ذلك ﴿ **على أنهما** ﴾ كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصى ، وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها ، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره ، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر وسعيد بن جبير وأبو مجلز والنخعى وشريح وعبيدة السلمانى وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسدى والثورى وأبو عبيد وأحمد بن حنبل. وذهب إلى الأول ـ أعنى تفسير ضمير ﴿ **منكم** ﴾ بالقرابة أو العشيرة، وتفسير ﴿ **من غيركم** ﴾ بالأجانب ـ الزهرى والحسن وعكرمة. وذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة ، واحتجوا بقوله: ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وقوله : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ [الطلاق : ٢] . والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول ، وخالفهم الجمهور فقالوا : الآية محكمة وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ ، وأما قوله تعالى: ﴿ **ممن ترضون من الشهداء**﴾ وقوله : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ فهما عامان فى الأشخاص ، والأزمان ، والأحوال ، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض وبالوصية ، وبحالة عدم الشهود المسلمين ، ولا تعارض بين عام وخاص .

قوله : ﴿ **إن أنتم** ﴾ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم ، أو مبتدأ وما بعده خبر ، والأول مذهب الجمهور من النحاة ، والثانى مذهب الأخفش والكوفيين. والضرب فى الأرض : هو السفر ، وقوله : ﴿ **فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ معطوف على ما قبله وجوابه محذوف أى إن ضربتم فى الأرض فنزل بكم الموت وأردتم الوصية ، ولم تجدوا شهودًا عليها مسلمين ، ثم ذهبا إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا فى أمرهما وادعوا عليها خيانة، فالحكم أن تحبسوهما ، ويجوز أن يكون استئنافًا لجواب سؤال مقدر ، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا فى الشهادة ؟ فقال : تحبسونهما من بعد الصلاة إن ارتبتم فى شهادتهما ، وخص بعد الصلاة ، أى صلاة العصر ، قاله الأكثر لكونه الوقت الذى يغضب اللّه على من حلف فيه فاجرا كما فى الحديث الصحيح . وقيل : لكونه وقت اجتماع الناس ، وقعود الحكام للحكومة . وقيل : صلاة الظهر. وقيل : أى صلاة كانت . قال أبو على الفارسى : ﴿ **تحبسونهما** ﴾ صفة لآخران ، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله : ﴿ **إن أنتم ضربتم فى الأرض** ﴾ ، والمراد بالحبس : توقيف الشاهدين فى ذلك الوقت لتحليفهما ، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام ، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما .

قوله : ﴿ فيقسمان باللّه ﴾ معطوف على ﴿ تحبسونهما ﴾ أى يقسم باللّه الشاهدان على الوصية أو الوصيان . وقد استدل بذلك ابن أبى ليلى على تحليف الشاهدين مطلقًا إذا حصلت الريبة فى شهادتهما وفيه نظر؛ لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها . قوله : ﴿ إن ارتبتم ﴾ جواب هذا الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كما سبق . قوله : ﴿ لا نشترى به ثمنا ﴾ جواب القسم ، والضمير فى ﴿ به ﴾ راجع إلى اللّه تعالى . والمعنى لا نبيع حظنا من اللّه تعالى بهذا العرض النزر ، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذى ادعيتموه علينا . وقيل : يعود إلى القسم ، أى لا نستبدل بصحة القسم باللّه عرضًا من أعراض الدنيا . وقيل : يعود إلى الشهادة ، وإنما ذكّر الضمير لأنها بمعنى القول ، أى لا نستبدل بشهادتنا ثمنًا . قال الكوفيون : المعنى ذا ثمن ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وهذا مبنى على أن العروض لا تسمى ثمنًا ، وعند الأكثر أنها تسمى ثمنًا كما تسمى مبيعًا .

قوله : ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أى ولو كان المقسم له أو المشهود له قريبًا فإنا نؤثر الحق والصدق ولا نؤثر العرض الدنيوى ولا القرابة ، وجواب « لو » محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى ولو كان ذا قربى ، لا نشترى به ثمنًا . قوله: ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ معطوف على ﴿ لا نشترى ﴾ داخل معه فى حكم القسم ، وأضاف الشهادة إلى اللّه سبحانه لكونه الآمر بإقامتها والناهى عن كتمها . قوله : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثمًا ﴾ عثر على كذا : اطلع عليه يقال : عثرت منه على خيانة ، أى اطلعت وأعثرت غيرى عليه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ [الكهف : ٢١] . وأصل العثور : الوقوع والسقوط على الشيء ، ومنه قول الأعشى:

بِذاتِ لَوْث [١] عَفَرْناةٍ إذاَ عَثَرَتْ فالتعْسُ أَوْلَى لَها من أنْ أقول لَعَا

والمعنى : أنه إذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثمًا ، أى استوجبا إثمًا إما بكذب فى الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة . قال أبو على الفارسى : الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ ؛ لأن آخذه يأثم بأخذه ، فسمى إثمًا كما سمى ما يؤخذ بغير حق مظلمة. وقال سيبويه : المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمى هذا المأخوذ باسم المصدر. قوله : ﴿ فآخران يقومان مقامهما ﴾ أى فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام الذين عثر على أنهما استحقا إثمًا فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق ؛ وليس المراد : أنهما يقومان مقامهما فى أداء الشهادة التى شهدها المستحقان للإثم .

قوله : ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ استحق مبنى للمفعول ، فى قراءة الجمهور،

---

(١) لَوْث : قـوة وكذا معنى عفرناة.

وقرأ على وأبى وابن عباس وحفص على البنـاء للفاعل و ﴿ **الأَوْلَيَانِ** ﴾ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هما الأوليان كأنه قيل: من هما ؟ فقيل : هما الأوليان . وقيل : هو بدل من الضمير فى يقومان ، أو من آخران ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : « الأولين » جمع أول على أنه بدل من الذين ، أو من الهاء والميم فى عليهم . وقرأ الحسن : « الأولان » . والمعنى على بناء الفعل للمفعول من الذين استحق عليهم الإثم ، أى جنى عليهم ، وهم أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم ، فالأوليان تثنية أولى. والمعنى على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت ، فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجردوهما للقيام بالشهادة . وقيل : المفعول محذوف ، والتقدير : من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التى أوصى بها .

قوله : ﴿ **فيقسمان** ﴾ باللّه عطف على ﴿ **يقومان** ﴾ أى فيحلفان باللّه لشهادتنا ، أى يميننا ، فالمراد بالشهادة هنا : اليمين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات باللّه ﴾ [النور : ٦] . أى يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما ، أى من يمينهما على أنهما صادقان أمينان ﴿ **وما اعتدينا** ﴾ أى تجاوزنا الحق فى يميننا ﴿ **إنا إذا لمن الظالمين** ﴾ إن كنا حلفنا على باطل . قوله : ﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها** ﴾ أى ذلك البيان الذى قدمه اللّه سبحانه فى هذه القصة ، وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية فى السفر ؛ ولم يكن عنده أحد من أهله وعشيرته وعنده كفار، أدنى أى أقرب إلى أن يؤدى الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها، فلا يحرفوا ، ولا يبدلوا ، ولا يخونوا ، وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة والفائدة فى هذا الحكم الذى شرعه اللّه فى هذا الموضع من كتابه ، فالضمير فى ﴿ **يأتوا** ﴾ عائد إلى شهود الوصية من الكفار . وقيل :إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم ، والمراد : تحذيرهم من الخيانة ، وأمرهم بأن يشهدوا الحق .

قوله : ﴿ **أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم** ﴾ أى ترد على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية، فيفتضح حينئذ شهود الوصية ، وهو معطوف على قوله : ﴿ **أن يأتوا** ﴾ فتكون الفائدة فى شرع اللّه سبحانه لهذا الحكم هى أحد الأمرين : إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها، أو يخافوا الافتضاح إذا ردت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سببا لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب ولا خيانة . وقيل : إن ﴿ **يخافوا** ﴾ معطوف على مقدر بعد الجملة الأولى والتقدير : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة ، أو يخافوا الافتضاح برد اليمين ، فأى الخوفين وقع ،حصل المقصود ﴿ **واتقوا اللّه** ﴾

فى مخالفة أحكامه ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ الخارجين عن طاعته بأى ذنب ، ومنه الكذب فى اليمين أو الشهادة .

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز : أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين ، فإن لم يجد شهودًا مسلمين ، وكان فى سفر ووجد كفارًا جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته ، فإن ارتاب بهما ورثة الموصى حلفا بالله على أنهما شهدا بالحق وما كتما من الشهادة شيئًا ولا خانا مما تركه الميت شيئًا ، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه من خلل فى الشهادة أو ظهور شىء من تركة الميت زعما أنه قد صار فى ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك .

وقد أخرج الترمذى وضعفه وابن جرير وابن أبى حاتم ، والنحاس فى تاريخه ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة من طريق أبى النضر وهو الكلبى عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت** ﴾ قال : برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له : بديل بن أبى مريم بتجارة ، ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو عُظْمُ تجارته (١) ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ، قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدى بن بداء ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا ، أو ما دفع إلينا غيره ، قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك (٢) فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، وأديت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها ، فأتوا به رسول الله ﷺ، فسألهم البينة فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذبن آمنوا شهادة بينكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أن ترد أيمان بعد أيمانهم** ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا ، فنزعت الخمسمائة درهم من عدى بن بداء ، وفى إسناده أبو النضر ، وهو محمد بن السائب الكلبى صاحب التفسير ، قال الترمذى : تركه أهل العلم بالحديث (٣) .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، والترمذى وحسنه، وابن جرير وابن المنذر والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء ، فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم ، فأوصى إليهما ، فلما قدما بتركته فقدوا جامًا من فضة مخوصًا بالذهب ، فأحلفهما رسول الله ﷺ : «بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما » ثم وجدوا الجام بمكة . فقيل : اشتريناه من تميم وعدى، فقام

(١) يريد أن الجام كان أنفس ما معه وأغلاه ثمنًا . والجام : الإناء .

(٢) تأثم الشىء : تحرج منه ووجده إثما يريد البراءة منه .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠٥٩) وقال : « غريب وليس إسناده بصحيح » وابن جرير ٧/ ٧٥ .

رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم ، وأخذوا الجام ، قال: وفيهم نزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم** ﴾ الآية ، وفى إسناده محمد بن أبى القاسم الكوفى ، قال الترمذى : قيل : إنه صالح الحديث (١) . وقد روى ذلك أبو داود من طريقه (٢)،وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هى السبب فى نزول الآية ، وذكرها المفسرون فى تفاسيرهم (٣). وقال القرطبى : إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هى سبب نزول الآية (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم** ﴾ الآية قال : هذا لمن مات وعنده المسلمون ، أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين مسلمين ، ثم قال : ﴿ **أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض** ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين ، أمر الله بشهادة رجلين من غير المسلمين ، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة ، ما اشتريا بشهادتهما ثمنًا قليلا ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما ، وثم رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، فذلك في قوله : ﴿ **فإن عثر على أنهما استحقا إثما** ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا .﴿ **ذلك أدنى أن** ﴾ يأتى الكافران ﴿ **بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم**﴾ فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء ، فليس على شهود المسلمين أقسام : إنما الأقسام إذا كانا كافرين .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن هذه الآية فقال : هذا رجل خرج مسافرًا ، ومعه مال ، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين ، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب ، فإن أدى فسبيل ما أدى ، وإن جحد استحلف بالله الذى لا إله إلا هو دبر صلاة ، إن هذا الذى دفع إلى ، وما غيبت منه شيئًا ، فإذا حلف برئ ، فإذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه ، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم مالهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ، ثم اقتطعوا حقه ، فذلك الذى يقول الله : ﴿ **اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو آخران من غيركم** ﴾ قال : من غير المسلمين من أهل الكتاب .

---

(١) البخارى فى الوصايا (٢٧٨٠) وفى التاريخ الكبير ١/ ٢١٥ (٦٧٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٠) وقال : «حسن غريب » وابن جرير ٧/ ٧٤ ، ٧٥ والطبرانى (١٢٥٠٩) ، ١٧/ ١٠٩ ، ١١٠ (٢٦٨) ، والبيهقى ١٠/ ١٦٥.

(٢) أبو داود فى الأقضية (٣٦٠٦) .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره ٢/ ٦٧٤ : « وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين . . . وهذا يدل على اشتهارها فى السلف وصحتها » .

(٤) القرطبى ٤/ ٢٣٤٣ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هذه الآية منسوخة [١] وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم فى الآية قال : كان ذلك فى رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام ، وذلك فى أول الإسلام والأرض حرب ، والناس كفار إلا رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة ، وكان الناس يتوارثون بالوصية ، ثم نسخت الوصية ، وفرضت الفرائض ، وعمل المسلمون بها[٢] . وأخرج ابن جرير أيضا عن الزهرى قال : مضت السنة ألا تجوز شهادة كافر فى حضر ولا سفر ، إنما هى فى المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبيدة فى قوله : ﴿ **تحبسونهما من بعد الصلاة** ﴾ قال : صلاة العصر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لا نشترى به ثمنا** ﴾ قال : لا نأخذ به رشوة ﴿ **ولا نكتم شهادة الله** ﴾ وإن كان صاحبها بعيدًا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن عُثر على أنهما استحقا إثما** ﴾ قال : بالميت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها** ﴾ يقول : ذلك أحرى أن يصدقوا فى شهادتهم ﴿ **أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم** ﴾ يقول : وأن يخافوا العتب. وأخرج ابن جريرعن ابن زيد فى قوله:﴿ **أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم** ﴾ قال : فيبطل أيمانهم ويؤخذ أيمان هؤلاء .

﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يوم يجمع الله الرسل** ﴾ العامل فى الظرف فعل مقدر أى اسمعوا ، أو اذكروا أو احذروا. وقال الزجاج: هو منصوب بقوله:﴿واتقوا الله﴾[المائدة:١٠٨] المذكور فى الآية الأولى. وقيل: بدل من مفعول ﴿ اتقوا ﴾ بدل اشتمال. وقيل: ظرف لقوله: ﴿**لا يهدى**﴾ المذكور قبله . وقيل:منصوب بفعل مقدر متأخر تقديره: يوم يجمع الله الرسل يكون من الأحوال كذا وكذا . قوله : ﴿ **ماذا أجبتم** ﴾ أى أىّ إجابة أجابتكم به أممكم الذين بعثكم الله إليهم ؟ أو أى جواب

(١) ابن جرير ٧/ ٨١ .

(٢) ابن جرير ٧/ ٧٥ ، ٧٦ .

أجابوكم به ، وعلى الوجهين تكون « ما » منصوبة بالفعل المذكور بعدها ، وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم ، وجوابهم بقولهم : ﴿ **لا علم لنا** ﴾ مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم ، تفويض منهم ، وإظهار للعجز ، وعدم القدرة ، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ ، فإن تفويض الجواب إلى اللّه أبلغ من حصول ذلك . وقيل: المعنى : لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا . وقيل : لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم . وقيل : المعنى : لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا . وقيل : إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر .

قوله : ﴿ **إذ قال اللّه يا عيسى ابن مريم** ﴾ « إذ » بدل من ﴿ **يوم يجمع** ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم ، وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتى اليهود والنصارى فيه إفراطا وتفريطا ، هذه تجعله إلهًا ، وهذه تجعله كاذبا . وقيل : هو منصوب بتقدير :اذكر . قوله : ﴿ **اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك** ﴾ ذكره سبحانه نعمته عليه ، وعلى أمه ، مع كونه ذاكرًا لها عالمًا بتفضل اللّه سبحانه بها ، لقصد تعريف الأمم بما خصهما اللّه به من الكرامة ، وميزهما به من علو المقام ، أولتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند اللّه هذه المنزلة ، وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند اللّه سبحانه ، وأنهما عبدان من جملة عباده، منعم عليهما بنعم اللّه سبحانه ليس لهما من الأمر شىء .

قوله : ﴿ **إذ أيدتك بروح القدس** ﴾ « إذ » ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر ، أى اذكر إنعامى عليك وقت تأييدى لك ، أو حال من النعمة ، أى كائنة ذلك الوقت ﴿ **أيدتك** ﴾ قويتك ، مأخوذ من الأيد ، وهو القوة ، وفى روح القدس وجهان : أحدهما : أنها الروح الطاهرة التى خصه اللّه بها . وقيل : إنه جبريل عليه السلام . وقيل : إنه الكلام الذى يحيى به الأرواح ، والقدس : الطهر ، وإضافته إليه لكونه سببه ، وجملة : ﴿ **تكلم الناس**﴾ مبينة لمعنى التأييد ، و﴿**فى المهد** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى تكلم الناس حال كونك صبيا وكهلاً لا يتفاوت كلامك فى الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتًا بينا .

وقوله : ﴿ **وإذ علمتك الكتاب** ﴾ معطوف على ﴿ **إذ أيدتك** ﴾ أى واذكر نعمتى عليك وقت تعليمى لك الكتاب، أى جنس الكتاب ، أو المراد بالكتاب : الخط . وعلى الأولى يكون ذكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام ، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما ، أما التوراة : فقد كان يحتج بها على اليهود فى غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال ، كما هو مصرح بذلك فى الإنجيل ، وأما الإنجيل : فلكونه نازلاً عليه من عند اللّه سبحانه ، والمراد بالحكمة : جنس الحكمة . وقيل : هى الكلام المحكم ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير** ﴾ أى تصور تصويراً مثل صورة الطير ﴿**بإذنى** ﴾ لك بذلك وتيسيرى له ﴿ **فتنفخ** ﴾ فى الهيئة المصورة ﴿ **فتكون** ﴾ هذه الهيئة ﴿ **طائراً** ﴾ متحركًا حيا كسائر الطيور ﴿ **وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى** ﴾ لك وتسهيله عليك وتيسيره لك . وقد تقدم تفسير هذا مطولاً فى البقرة فلا نعيده ، ﴿ **وإذ تخرج الموتى** ﴾ من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿ **بإذنى** ﴾ وتكرير بإذنى فى

المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه .

قوله : ﴿ **وإذ كففت** ﴾ معطوف على ﴿ **إذ تخرج** ﴾ كففت معناه : دفعت وصرفت . ﴿ **بنى إسرائيل عنك** ﴾ حين هموا بقتلك ﴿ **إذ جئتهم بالبينات** ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿ **فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ أى ما هذا الذى جئت به إلا سحر مبين ، لما عظم ذلك فى صدورهم وانبهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية ، بل نسبوه إلى السحر .

قوله : ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى** ﴾ هو معطوف على ما قبله . وقد تقدم تفسير ذلك ، والوحى فى كلام العرب معناه : الإلهام ، أى ألهمت الحواريين وقذفت فى قلوبهم . وقيل : معناه أمرتهم على ألسنة الرسل أن يؤمنوا بى بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولى . قوله : ﴿ **قالوا آمنا** ﴾ جملة مستأنفة ، كأنه قيل : ماذا قالوا ؟ فقال : قالوا : آمنا ﴿ **واشهد بأننا مسلمون** ﴾ أى مخلصون للإيمان ، أى واشهد يارب ، أو واشهد يا عيسى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾ فيفزعون فيقولون : ﴿ **لا علم لنا** ﴾ فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا : قالوا : لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا : لا علم لنا فرقًا يذهل عقولهم ، ثم يرد الله إليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول الله : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين ﴾ [الأعراف : ٦] .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء وأممها ثم يدعى بعيسى فيذكره نعمته عليه فيقرُّ بها ، فيقول : ﴿ **ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك** ﴾ الآية . ثم يقول : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيسألون ، فيقولون : نعم . هو أمرنا بذلك فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده ، فيجاثيهم بين يدى الله مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات** ﴾ أى بالآيات التى وضع على يديه من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ، وإبراء الأسقام ، والخبر بكثير من الغيوب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وإذ أوحَيت إلى الحواريين** ﴾ يقول : قذفت فى قلوبهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾.

قوله : ﴿ **إذ قال الحواريون** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر،أو نحوه كما تقدم ، قيل : والخطاب لمحمد ﷺ . قرأ الكسائى : « هل تستطيع » بالفوقية ، ونصب « ربك » ، وبه قرأ على وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد، وقرأ الباقون بالتحتية ورفع « ربك » واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا : ﴿آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة: ١١١] والسؤال عن استطاعته لذلك ينافى ما حكوه عن أنفسهم . وأجيب بأن هذا كان فى أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله ، ولهذا قال عيسى فى الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم ﴿ **اتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى لا تشكوا فى قدرة الله . وقيل : إنهم ادعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة ، ويردّه أن الحواريين هـم خلصاء عيسى وأنصـاره ، كمـا قال : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ [آل عمران : ٥٢] . وقيل : إن ذلك صدر ممن كان معهم . وقيل : إنهم لم يشكوا فى استطاعة البارى سبحانه ، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك ، وإنما هو كقول الرجل : هل يستطيع فلان أن يأتى ؟ مع علمه بأنه يستطيع ذلك ، ويقدر عليه ، فالمعنى : هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه ؟ وقيل : إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام.﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ويدل على قولهم من بعد ﴿ **وتطمئن قلوبنا** ﴾ وأما على القراءة الأولى فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك.؟ قـال الزجـاج : المعنـى :هل تستـدعى طاعـة ربك فيمـا تسـأله ؟ فهـو من بـاب : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] . والمائدة : الخوان إذا كان عليه الطعام، من ماده : إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه قاله قطرب وغيره . وقيل : هى فاعلة بمعنى مفعـولة كعيشـة راضيـة قالـه أبو عبيـدة ، فأجابهـم عيسى عليـه السـلام بـقوله: ﴿ **اتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى اتقوه من هذا السؤال وأمثاله إن كنتم صادقين فى إيمانكم ، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة . وقيل: إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك ذريعة إلى حصول ما طلبوه .

قوله : ﴿ **قالوا نريد أن نأكل منها** ﴾ بينوا به الغرض من سؤالهم نـزول المـائـدة ، وكذا مـا عطـف عليـه مـن قولهم : ﴿ **وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من**

الشاهدين ﴾ والمعنى : تطمئن قلوبنا بكمال قدرة اللّه ، أو بأنك مرسل إلينا من عنده ، أو بأن اللّه قد أجابنا إلى ما سألناه ، ونعلم علمًا يقينا بأنك قد صدقتنا فى نبوّتك ونكون عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من بنى إسرائيل ، أو من سائر الناس ، أو من الشاهدين لله بالوحدانية ، أو من الشاهدين ، أى الحاضرين دون السامعين ، ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال : ﴿ **اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء** ﴾ أى كائنة ، أونازلة من السماء ، وأصل اللهم عند سيبويه وأتباعه : يا اللّه ، فجعلت الميم بدلاً من حرف النداء ، وربنا : نداء ثان وليس بوصف ، و﴿ **تكون لنا عيداً** ﴾ وصف لمائدة ، وقرأ الأعمش : «يكون لنا عيدًا » أى يكون يوم نزولها لنا عيدًا ، وقد كان نزولها يوم الأحد ، وهو يوم عيد لهم ، والعيد واحد الأعياد ، وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها فى الواحد . وقيل: للفرق بينه وبين أعواد جمع عود ، ذكر معناه الجوهرى . وقيل : أصله من عاد يعود أى رجع فهو عود بالواو، وتقلب ياء لانكسار ما قبلها ، مثل الميزان والميقات ، والميعاد ، فقيل ليوم الفطر والأضحى : عيدان ؛ لأنهما يعودان فى كل سنة . وقال الخليل : العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه .

قوله : ﴿ **لأولنا وآخرنا** ﴾ بدل من الضمير فى ﴿ **لنا** ﴾ بتكرير العامل ، أى لمن فى عصرنا ولمن يأتى بعدنا من ذرارينا وغيرهم . قوله : ﴿ **وآية منك** ﴾ عطف على﴿ **عيداً** ﴾ أى دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك وصحة إرسالك من أرسلته ﴿ **وارزقنا** ﴾ أى أعطنا هذه المائدة المطلوبة ، أو ارزقنا رزقًا نستعين به على عبادتك ﴿ **وأنت خير الرازقين** ﴾ بل لارازق فى الحقيقة غيرك ، ولا معطى سواك ، فأجاب اللّه سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال : ﴿ **إنى منزلها** ﴾ أى المائدة ﴿ **عليكم** ﴾ .

وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى الأول وهو الحق لقوله سبحانه : ﴿ **إنى منزلها عليكم** ﴾ ووعده الحق وهو لا يخلف الميعاد . وقال مجاهد : ما نزلت وإنما هو ضَرْبُ مَثَل ضَرَبه اللّه لخلقه نهيًا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه . وقال الحسن : وعدهم بالإجابة ، فلما قال ﴿ **فمن يكفر بعد منكم** ﴾ استغفروا اللّه وقالوا لا نريدها .

قولـه : ﴿ **فمن يكفـر بعد منكم** ﴾ أى بعــد تنزيلهـا ﴿ **فإنـى أعذبه عذابا** ﴾ أى تعذيبًا ﴿ **لا أعذبه** ﴾ صفة لـ ﴿ **عذابا** ﴾، والضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب أى لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿ **أحدا من العالمين** ﴾ قيل : المراد : عالمى زمانهم.وقيل : جميع العالمين ، وفى هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : كان الحواريون أعلم باللّه من أن يقولوا :﴿ **هل يستطيع ربك** ﴾ إنما قالوا:

هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه ويؤيد هذا ما أخرجه الحاكم وصححه ، والطبرانى وابن مردويه عن معاذ بن جبل ؛ أنه قال : أقرأنى رسول اللّه ﷺ : « **هل تستطيع ربك** » (١) بالتاء يعنى الفوقية . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها كذلك.

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : المائدة : الخوان ، وتطمئن : توقن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **تكون لنا عيدًا** ﴾ يقول : نتخذ اليوم الذى نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن ومن بعدنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس . أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل :هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يومًا إلا أطعمنا فـ ﴿ **هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة** ﴾ إلى قوله :﴿ **أحدًا من العالمين** ﴾ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة ،حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم (٢) .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «نزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا ، وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد ، فخانوا ، وادخروا ، ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير » (٣) . وقد روى موقوفا على عمار ، قال الترمذى : والوقف أصح (٤) ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المائدة سمكة وأريغفة . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه قال : نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه سمك وخبز يأكلون منه أينما تولوا إذا شاؤوا . وأخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد اللّه بن عمرو قال : إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون(٥) .

﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي**

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٣٨ ووافقه الذهبى ، والطبرانى ٢٠/ ٦٩ (١٢٨) .
(٢) ابن جرير ٧/ ٨٥ .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠٦١) وقال:« ولا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث الحسن بن قزعة » وابن جرير ٧/ ٨٧ .
(٤) ابن جرير ٧/ ٨٧ وأشار إليها الترمذى عقب الحديث (٣٠٦١) وقال : «وهذا أصح من حديث الحسن بن قَزَعَةَ ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً».
(٥) ابن جرير ٧/ ٨٨ .

وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾.

قوله : ﴿ **وإذ قال اللّه** ﴾ معطوف على ما قبله فى محل نصب بعامله أو بعامل مقدر هنا ، أى اذكر ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة .والنكتة : توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى ، وقال السدى وقطرب : إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت ، والأول أولى . قيل : «وإذ» هنا بمعنى إذا كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ [سبأ : ٥١] أى إذا فزعوا ، وقول أبى النجم :

ثُمَّ جَزَاكَ اللَّه عنى إذ جَزَى   جنّاتِ عَدْنٍ فى السَّموات العُلَى

أى إذا جزى ، وقول الأسود بن جعفر الأسدى :

وفى الآن إِذْ هَازلتُهُنّ فإنّما   يَقُلْنَ ألا لَمْ يَذْهِب الشَّيخ مَذْهَبا

أى إذا هازلتهن تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيهًا على تحقيق وقوعه . وقد قيل فى توجيه هذا الاستفهام منه تعالى : إنه لقصد التوبيخ كما سبق . وقيل : لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وادعوا عليه ما لم يقله. وقوله : ﴿ **من دون اللّه** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **اتخذونى** ﴾ على أنه حال،أى متجاوزين الحد ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين ، أى كائنين من دون اللّه . قوله : ﴿ **سبحانك** ﴾ تنزيه له سبحانه ، أى أنزهك تنزيها ﴿ **ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق** ﴾ أى ما ينبغى لى أن أدعى لنفسى ما ليس من حقها ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته** ﴾ ردّ ذلك إلى علمه سبحانه ، وقد علم أنه لم يقله فثبت بذلك عدم القول منه . قوله : ﴿ **تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك** ﴾ هذه الجملة فى حكم التعليل لما قبلها ، أى تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ، وهذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعانى والبيان . وقيل : المعنى : تعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك . وقيل : تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه . وقيل : تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد .

قوله : ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به** ﴾ هذه جملة مقررة لمضمون ما تقدم ، أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى ﴿ **أن اعبدوا اللّه ربى وربكم** ﴾ هذا تفسير لمعنى ﴿ **ما قلت لهم** ﴾ أى ما

أمرتهم . وقيل : عطف بيان للمضمر فى ﴿ به ﴾ وقيل : بدل منه ﴿ **وكنت عليهم شهيدا** ﴾ أى حفيظًا ورقيبًا أرعى أحوالهم وأمنعهم عند مخالفة أمرك ﴿ **ما دمت فيهم** ﴾ أى مدة دوامى فيهم ﴿ **فلما توفيتنى** ﴾ قيل: هذا يدل على أن اللّه سبحانه توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشىء ؛ لأن الأخبار قد تضافرت بأنه لم يمت ، وأنه باق فى السماء على الحياة التى كان عليها فى الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان ، وإنما المعنى : فلما رفعتنى إلى السماء . قيل : الوفاة فى كتاب اللّه سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللّه يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [الزمر:٤٢] . وبمعنى النوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام : ٦٠] أى ينيمكم ، وبمعنى الرفع ، ومنه:﴿ **فلما توفيتنى** ﴾ ، ﴿وإذ قال اللّه يا عيسى إنى متوفيك ﴾ [آل عمران : ٥٥] ﴿ **كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ أصل المراقبة : المراعـاة ، أى كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد ﴿ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ أى القادر على ذلك ، الحكيم فى أفعاله ، قيل : قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد لعبده . ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك . وقيل : قاله على وجه التسليم لأمر اللّه والانقياد له ، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم .

قوله : ﴿ **قال اللّه هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ أى صدقهم فى الدنيا ، وقيل : فى الآخرة ، والأول أولى . قرأ نافع وابن محيصن « يوم » بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع فوجه النصب أنه ظرف للقول ، أى قال اللّه هذا القول يوم ينفع الصادقين ، ووجه الرفع أنه خبر للمبتدأ هو وما أضيف إليه، وقال الكسائى نصب « يوم » ها هنا لأنه مضاف إلى الجملة ، وأنشد :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيب عَلَى الصِّبَا   وَقلت أَلَمَّا أَصْحُ وِالشيبُ وَازِعُ

وبه قال الزجاج ، ولا يجيز البصريون ما قالاه إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماض . وقرأ الأعمش : « هذا يومٌ ينفع » بتنوين « يوم » كما فى قوله : ﴿ واتقوا يومًا لا تجزى نفس عن نفس شيئًا ﴾ [البقرة : ٤٨] . فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتنوين . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** ﴾ . قوله : ﴿ **رضى اللّه عنهم ورضوا عنه** ﴾ أى رضى عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له . ورضوا عنه بما جازاهم به ، مما لا يخطر لهم على بال ، ولا تتصوره عقولهم،والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم ، وأعلى منازل الكرامة. والإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة ، والخلود فيها أبدا ، ورضوان اللّه عليهم ، والفوز : الظفر بالمطلوب على أتم الأحوال .

قوله: ﴿ **لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير** ﴾ جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعًا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى وأمه ، وأخبر بأن ملك السموات

والأرض له دون عيسى وأمه ، ودون سائر مخلوقاته، وأنه القادر على كل شىء دون غيره . وقيل : المعنى : أن له ملك السموات والأرض ، يعطى الجنات للمطيعين ، جعلنا الله منهم .

وقد أخرج الترمذى وصححه ، والنسائى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال : تلقى عيسى حجته والله لَقـَّاه فى قوله : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ قال أبو هريرة عن النبىّ ﷺ فلقَّاهُ الله سبحانه : ﴿ **ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق** ﴾ الآية[1] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يقول الله هذا يوم القيامة ألا ترى أنه يقول: ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : قال الله ذلك لما رفع عيسى إليه ، وقالت النصارى ما قالت .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ قال : سيدى وسيدكم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ قال : الحفيظ . وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : قال النبىّ ﷺ : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم** ﴾ قال : « ما كنت فيهم » .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ يقول : عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم ﴿ **وإن تغفر لهم** ﴾ أى من تركت منهم ومد فى عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال، فزالوا عن مقالتهم ووحدوك ﴿ **فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ يقول : هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم .

(١) الترمذى فى التفسير (٦٢. ٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٨٢) .

تفسير سورة الأنعام

قال الثعلبى :سورة الأنعام مكية إلاست آيات نزلت بالمدينة وهى : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ،و﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات . قال ابن عطية: وهى الآيات المحكمات ، يعنى فى هذه السورة . وقال القرطبى : هى مكية إلا آيتين هما : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ نزلت فى مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين ،وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات** ﴾ نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس(١) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن أسماء قال :نزلت سورة الأنعام على النبى ﷺ وهو فى مسير فى زجل من الملائكة ، وقد نظموا ما بين السماء والأرض . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد نحوه (٣) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ :« نزلت علىَّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد » (٤) . وهو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبرانى عن إسماعيل بن عمرو عن يوسف بن عطية بن عون عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ فذكره . وابن مردويه رواه عن الطبرانى عن إسماعيل المذكور به .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ :« نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس والأرض ترتج » ، ورسول اللّه ﷺ يقول :«سبحان اللّه العظيم ، سبحان اللّه العظيم » (٥) . وأخرج الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والإسماعيلى فى معجمه ، والبيهقى عن جابر قال :لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول اللّه ﷺ ثم قال : « لقد

(١) القرطبى ٤/ ٢٣٧٩ . وهذا القول لابن عباس وقتادة . (٢) الطبرانى (١٢٩٣٠) وفيه على بن زيد وفيه كلام .

(٣) الطبرانى ٢٤/ ١٧٨ (٤٤٩ ، ٤٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣ : « وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق » .

(٤) الطبرانى فى الصغير، ترجمة إبراهيم بن نائلة ١/ ٨١ وقال : « لم يروه عن ابن عون إلا يوسف بن عطية ، تفرد به إسماعيل بن عمرو » وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢ ، ٢٣ : « وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف ».

(٥) البيهقى فى الشعب (٢٢١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣ : « رواه الطبرانى عن شيخه محمد بن عبداللّه ابن عرس عن أحمد بن محمد بن أبى بكر السالمى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

شيع هذه السورة من الملائكة ماسد الأفق » (١) . وأخرج البيهقى وضعفه ، والخطيب فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : أنزل القرآن خمسًا خمسًا ، ومن حفظه خمسًا خمسًا لم ينسه ، إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكًا حتى أدوها إلى النبى ﷺ، ما قرئت على عليل إلاشفاه اللّه (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب مرفوعًا نحو حديث ابن عمر. وأخرج النحاس فى تاريخه عن ابن عباس قال :سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة ، فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة :﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث .

وأخرج الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعًا : « ينادى مناد : يا قارئ سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها » (٣) . وأخرج ابن المنذر عن أبى جحيفة قال :نزلت سورة الأنعام جميعًا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة** ﴾ فإنها مدنية. وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، والدارمى فى مسنده ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الأنعام من نواجب القرآن (٤) . وأخرج محمد ابن نصر عن ابن مسعود مثله. وأخرج السلفى بسند واه عن ابن عباس مرفوعًا : « من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى: ﴿ **ويعلم ما تكسبون** ﴾ نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم ، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مِرْزَبَة (٥) من حديد ، فإن أوحى الشيطان فى قلبه شيئا من الشر ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجابًا ، فإذا كان يوم القيامة ، قال اللّه تعالى: أنا ربك وأنت عبدى ، امش فى ظلى واشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل ، وادخل الجنة بغيرحساب ولا عذاب » . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ :« من صلى الفجر فى جماعة وقعد فى مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام وكل اللّه به سبعين ملكًا يسبحون اللّه ويستغفرون له إلى يوم القيامة » . وفى فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة ، وغير مرفوعة . قال القرطبى : قال العلماء: هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة ؛ لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين (٦) .

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣١٤ ، ٣١٥ على شرط مسلم وقال الذهبى : « لا واللّه لم يدرك جعفر السدى (إسماعيل) وأظن هذا موضوعًا » ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٠٨) بإسناد رجاله موثقون ؛ ولكن فيه انقطاع .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢١١) وقال : « وفى إسناده من لا يعرف » والخطيب فى تاريخه ٧/ ٢٧١ فى ترجمة الحسن بن أحمد بن الحسن أبو على الصيدلانى .

(٣) الديلمى (٨٨٦٨) .

(٤) الدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٣ ونواجب القرآن : أفاضل سوره .

(٥) المرزبة بالتخفيف ويقال لها : الإرزبّة ـ بالهمزة والتشديد ـ : المطرقة الكبيرة التى تكون للحداد .

(٦) القرطبى ٤/ ٢٣٨٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾.

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله ؛ للدلالة على أن الحمد كله لله ، ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون. وقد تقدم فى سورة الفاتحة ما يغنى عن الإعادة له هنا ،ثم وصف نفسه بأنه الذى خلق السموات والأرض إخبارًا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد ، فإن من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد ، والخلق يكون بمعنى الاختراع ، وبمعنى التقدير. وقد تقدم تحقيق ذلك . وجمع السموات ؛ لتعدد طباقها ، وقدمها على الأرض؛لتقدمها فى الوجود ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات : ٣٠] . وقوله : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ معطوف على خلق . ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله : ﴿ **خلق السموات والأرض** ﴾ ثم ذكرخلق الأعراض بقوله : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ لأن الجواهر لا تستغنى عن الأعراض .

واختلف أهل العلم فى المعنى المراد بالظلمات والنور ، فقال جمهور المفسرين : المراد بالظلمات : سواد الليل ، وبالنور : ضياء النهار . وقال الحسن : الكفر والإيمان . قال ابن عطية : وهذا خروج عن الظاهر . انتهى . والأولى أن يقال : إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور ، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر، ونور الإيمان ﴿ أَوَ مَنْ كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه ، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها . قال النحاس : جعل هنا بمعنى خلق ، وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعد إلا إلى مفعول واحد . وقال القرطبى :جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره [(١)] . قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى فى النسق ، فيكون الجمع معطوفًا على الجمع ، والمفرد معطوفًا على المفرد ، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل ، ولهذا كان النهار مسلوخًا من الليل .

قوله : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ معطوف على الحمد لله ، أو على خلق السموات والأرض ، و« ثم » لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون ، مع ما تبين

---

(١) القرطبى ٤/٢٣٨٣ .

من أن اللّه سبحانه حقيق بالحمد ، على خلقه السموات والأرض ، والظلمات والنور ، فإن هذا يقتضى الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه ، لا الكفر به ، واتخاذ شريك له ، وتقديم المفعول للاهتمام ، ورعاية الفواصل ، وحذف المفعول لظهوره ، أى يعدلون به ما لا يقدر على شىء مما يقدر عليه ، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة ، حيث يكون منه سبحانه تلك النعم ، ويكون من الكفرة الكفر .

قوله : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ فى معناه قولان : أحدهما وهو الأشهر، وبه قال الجمهور أن المراد : آدم عليه السلام ، وأخرج مخرج الخطاب للجميع ؛ لأنهم ولده ونسله . الثانى : أن يكون المراد : جميع البشر باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها مخلوقة من الطين ، ذكر اللّه سبحانه خلق آدم وبنيه ، بعد خلق السموات والأرض ، اتباعًا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر ، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث ، وردّ لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه . قوله : ﴿ **ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده** ﴾ جاء بكلمة « ثم » لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت .

وقد اختلف السلف ومن بعدهم فى تفسير الأجلين . فقيل : ﴿ **قضى أجلاً** ﴾ يعنى الموت ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ يعنى القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك ومجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم وعطية والسدى وخصيف ومقاتل وغيرهم . وقيل : الأول:ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثانى : ما بين أن يموت إلى أن يبعث ، وهو قريب من الأول . وقيل : الأول : مدة الدنيا ، والثانى : عمر الإنسان إلى حين موته . وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد . وقيل : الأول : قبض الأرواح فى النوم ، والثانى : قبض الروح عند الموت . وقيل : الأول : ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك ، والثانى : أجل الموت . وقيل : الأول : لمن مضى ، والثانى :لمن بقى ولمن يأتى . وقيل : إن الأول الأجل الذى هو محتوم ، والثانى : الزيادة فى العمر لمن وصل رحمه ، فإن كان برًا تقيًا وصولاً لرحمه زيد فى عمره ، وإن كان قاطعًا للرحم لم يزد له ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وما يُعمرمن معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾ [فاطر : ١١] وقد صح عن رسول اللّه ﷺ أن صلة الرحم تزيد فى العمر (١) ، وورد عنه أن دخول البلاد التى قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت ، وجاز الابتداء بالنكرة فى قوله : ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة .

قوله : ﴿ **ثم أنتم تمترون** ﴾ استبعاد لصدور الشك منهم ، مع وجود المقتضى لعدمه ، أى كيف تشكون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء ؛ والابتداء ما يذهب بذلك

(١) روى مسلم فى صحيحه (٢٥٥٧ / ٢٠) عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من سره أن يبسط عليه رزقه ، أو ينسأ فى أثره ، فليصل رحمه » . وينسأ : يؤخر ، أثره : الأجل ، لأنه تابع للحياة فى أثرها .

ويدفعه، فإن من خلقكم من طين وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتًا وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية ، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت ، ويرد إليها الأرواح التى فارقتها بقدرته ، وبديع حكمته .

قوله : ﴿ **وهو اللّه فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾ قيل : إن فى السموات وفى الأرض متعلق باسم اللّه باعتبار ما يدل عليه من كونه معبودًا ، ومتصرفًا ، ومالكًا ، أى هو المعبود أو المالك أو المتصرف فى السموات والأرض كما تقول :زيد الخليفة فى الشرق والغرب ، أى حاكم أو متصرف فيهما، وقيل : المعنى : وهو اللّه يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ، فلا تخفى عليه خافية فيكون العامل فيهما ما بعدهما .قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه . وقال ابن جرير : هو اللّه فى السموات ، ويعلم سركم وجهركم فى الأرض . والأول أولى ، ويكون ﴿ **يعلم سركم وجهركم** ﴾ جملة مقررة لمعنى الجملة الأولى ؛ لأن كونه سبحانه فى السماء والأرض يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر ، وجلب النفع ودفع الضرر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على أن هذه الآية ـ أعنى ﴿ **الحمد للّه** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ ـ نزلت فى أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية فى الزنادقة ، قالوا : إن الله لم يخلق الظلمة ، ولا الخنافس ، ولا العقارب ، ولا شيئًا قبيحًا ، وإنما يخلق النور ، وكل شىء حسن ، فأنزلت فيهم هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ قال :الكفر والإيمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : إن الذين بربهم يعدلون : هم أهل الشرك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ﴿ **يعدلون** ﴾ : يشركون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ قال : الآلهة التى عبدوها عدلوها باللّه، وليس للّه عدل ، ولا ند ، وليس معه آلهة ، ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ يعنى آدم ﴿ **ثم قضى أجلا** ﴾ يعنى أجل الموت ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ أجل الساعة والوقوف عند اللّه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **ثم قضى أجلا** ﴾ قال : أجل الدنيا ، وفى لفظ أجل موته ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ قال : الآخرة لا يعلمه إلا اللّه [١]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

---

(١) ابن جرير ٧/ ٩٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

عنه ﴿ قضى أجلا ﴾ قال: هو اليوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : هو أجل موت الإنسان .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم ﴾ إلخ .كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم ، وهو الإعراض عن آيات الله التى تأتيهم كمعجزات الأنبياء ، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة ، مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه ، والإعراض : ترك النظر فى الآيات التى يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله و « من » فى : ﴿ من آية ﴾ مزيدة للاستغراق و « من » فى : ﴿ من آيات ﴾ تبعيضية ، أى وما تأتيهم آية من الآيات التى هى بعض آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، والفاء فى : ﴿ فقد كذبوا ﴾ جواب شرط مقدر ، أى إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك وهو الحق﴿ لما جاءهم ﴾ قيل : المراد بالحق هنا : القرآن ، وقيل : محمد ﷺ . ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى أخبار الشىء الذى كانوا به يستهزئون وهو القرآن أو محمد ﷺ ، على أن « ما » عبارة عن ذلك تهويلاً للأمر وتعظيمًا له ، أى سيعرفون أن هذا الشىء الذى استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم كما يقال : اصبر فسوف يأتيك الخبر عند إرادة الوعيد والتهديد . وفى لفظ الأنباء ما يرشد إلى ذلك ، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم .

قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ كلام مبتدأ لبيان ما تقدمه ، والهمزة للإنكار و « كم » يحتمل أن تكون الاستفهامية ، وأن تكون الخبرية ، وهى معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده ، و ﴿ من قرن ﴾ تمييز ، والقرن : يطلق على أهل كل عصر ، سموا بذلك لاقترانهم ، أى ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة فى عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم ؟. وقيل : القرن : مدة من الزمان ، وهى ستون عامًا ، أو سبعون ، أو ثمانون ، أو مائة ، على اختلاف الأقوال ، فيكون ما فى الآية

على تقدير مضاف محذوف ، أى من أهل قرن . قوله : ﴿ **مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم** ﴾ مكن له فى الأرض : جعل له مكانًا فيها ، ومكنه فى الأرض : أثبته فيها ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : كيف ذلك ؟ وقيل : إن هذه الجملة صفة لقرن ، والأول أولى ، و« ما » فى: ﴿ **ما لم نمكن** ﴾ نكرة موصوفة بما بعدها ، أى مكناهم تمكينًا لم نمكنه لكم ، والمعنى : أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا ، وطول الأعمار ، وقوة الأبدان ، وقد أهلكناهم جميعا ، فإهلاككم وأنتم دونهم بالأولى . قوله : ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مدرارا** ﴾ يريد المطر الكثير ، عبر عنه بالسماء ؛ لأنه ينزل من السماء ؛ ومنه قول الشاعر(١) :

إذا نزل السماء بأرض قوم

والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمذكار للمرأة التى كثرت ولادتها للذكور، وميناث للتى تلد الإناث ، يقال : درّ اللبن يدرّ : إذا أقبل على الحالب بكثرة . وانتصاب ﴿ **مدرارًا** ﴾ على الحال ، وجريان الأنهار من تحتهم معناه : من تحت أشجارهم ومنازلهم ، أى أن اللّه وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم فى الأرض فكفروها ، فأهلكهم اللّه بذنوبهم. ﴿ **وأنشأنا من بعدهم** ﴾ أى من بعد إهلاكهم ﴿ **قرنًا آخرين** ﴾ فصاروا بدلا من الهالكين ، وفى هذا بيان لكمال قدرته سبحانه ، وقوة سلطانه ، وأنه يهلك من يشاء ، ويوجد من يشاء .

قوله : ﴿ **ولو نزلنا عليك كتابًا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ فى هذه الجملة بيان شدة صلابتهم فى الكفر ، وأنهم لا يؤمنون ، ولو أنزل اللّه على رسوله كتابا مكتوبا فى قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس ﴿ **لقال الذين كفروا** ﴾ منهم ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم فى المرئى المحسوس ، فكيف فيما هو مجرد وحى إلى رسول اللّه ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه ؟ والكتاب : مصدر بمعنى الكتابة ، والقرطاس : الصحيفة .

قوله : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها ، أى قالوا : هلا أنزل اللّه عليك ملكًا نراه ويكلمنا أنه نبى حتى نؤمن به ونتبعه ؟ كقولهم : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ [الفرقان : ٧] ﴿ **ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر** ﴾ أى لو أنزلنا ملكًا على الصفة التى اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم ﴿ **لقضى الأمر** ﴾ أى لأهلكناهم ، إذ لم يؤمنوا عند نزوله، ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة ، وهى نزول الملك على تلك الصفة ، إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد

---

(١) الشاعر : معود الحكماء معاوية بن مالك ، وتمام البيت :

رعيناه وإن كانوا غضابا

استحقوا الإهلاك ، والمعاجلة بالعقوبة ﴿ **ثم لا ينظرون** ﴾ أى لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له . وقيل : إن المعنى : إن اللّه سبحانه لو أنزل ملكًا مشاهدًا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء ، بل تزهق أرواحهم عند ذلك ، فيبطل ما أرسل اللّه له رسله، وأنزل به كتبه من هذا التكليف ، الذى كلف به عباده﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ [الكهف : ٧] .

قوله : ﴿ **ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا** ﴾ أى لو جعلنا الرسول إلى النبى ملكًا يشاهدونه ويخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلاً ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التى خلقه اللّه عليها ، إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بنى آدم ؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه ، فلو جعل اللّه سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكًا مشاهدًا مخاطبًا لنفروا منه ، ولم يأنسوا به ، ولداخلهم الرعب ، وحصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه ومشاهدته ، هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الإرسال . وعند أن يجعله اللّه رجلاً، أى على صورة رجل من بنى آدم ليسكنوا إليه ويأنسوا به، سيقول الكافرون : إنه ليس بملك وإنما هو بشر ، ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه .

قوله : ﴿ **وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ أى لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ؛ لأنهم إذا رأوه فى صورة إنسان قالوا : هذا إنسان وليس بملك ، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه ، قال الزجاج : المعنى : للبسنا عليهم ، أى على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم ، وكانوا يقولون لهم : إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق ، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم ، فأعلم اللّه عز وجل أنه لو نزل ملكًا فى صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون . واللبس : الخلط، يقال : لبست عليه الأمر ألبسه لبسًا ، أى خلطته ، وأصله : التستر بالثوب ونحوه ، ثم قال سبحانه مؤنسًا لنبيه ﷺ ومسليًا له : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ يقال : حاق الشيء يَحيق حَيْقًا وحُيُوقًا وَحَيَقانًا : نزل ، أى فنزل ما كانوا به يستهزئون ، وأحاط بهم ، وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به ، ﴿ **قل سيروا فى الأرض** ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين : سافروا فى الأرض ، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات ، وكيف كانت عاقبتهم بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم ، الذى يفوق ما أنتم فيه فهذه ديارهم وجناتهم مغبرة ، وأراضيهم مكفهرة ، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون ، وبعد هلاكهم هالكون.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ يقول: ما يأتيهم من شيء من كتاب اللّه إلا أعرضوا عنه ، وفى قوله:﴿ **فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون** ﴾ يقول: سيأتيهم يوم القيامة

أنباء ما استهزؤوا به من كتاب اللّه عز وجل . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **من قرن** ﴾ قال : أمة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم** ﴾ يقول : أعطيناهم ما لم نعطكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا** ﴾ يقول : يتبع بعضها بعضا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن هارون التيمى فى الآية قال : المطر فى إبانه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله :﴿ **ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم** ﴾ يقول : لو أنزلنا من السماء صحفًا فيها كتاب ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ لزادهم ذلك تكذيبًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ قال : فمسوه ونظروا إليه لم يصدقوا به .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال : دعا رسول اللّه ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغنى، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب ، والنضربن الحارث بن كلدة ، وعبدة بن عبد يغوث ، وأبى بن خلف بن وهب ، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك . فأنزل اللّه: ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ [١] قال : ملك فى صورة رجل ﴿ **ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر** ﴾ لقامت الساعة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **لقضى الأمر** ﴾ يقول : لو أنزل اللّه ملكًا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو أنزلنا ملكًا** ﴾ قال: ولو أتاهم ملك فى صورته ﴿ **لقضى الأمر** ﴾ لأهلكناهم ﴿ **ثم لا ينظرون** ﴾ لا يؤخرون ﴿ **ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلا** ﴾ قال : فى صورة رجل فى خلق رجل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ولوجعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً** ﴾ يقول : فى صورة آدمى . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وللبسنا عليهم** ﴾ يقول : شبهنا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال : مرّ رسول اللّه ﷺ فيما بلغنى بالوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبى جهل بن هشام ، فهمزوه واستهزؤوا به فغاظه ذلك ، فأنزل اللّه : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ [٢] .

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٤٥ . (٢) المرجع السابق ٢ / ٤٦ .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل لمن ما فى السموات والأرض** ﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم . والمعنى: قل لهم هذا القول ، فإن قالوا فقل : لله ، وإذا ثبت أن له ما فى السموات والأرض إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم فاللّه قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ، ولكنه كتب على نفسه الرحمة ، أى وعد بها فضلاً منه وتكرمًا ، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكد وعده وارتفاع الوسائط دونه ، وفى الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده ، لا يعاجلهم بالعقوبة ، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة ، ومن رحمته لهم : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ونصب الأدلة .

قوله : ﴿ **ليجمعنكم إلى يوم القيامة** ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، قال الفراء وغيره : يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله : ﴿ **الرحمة** ﴾ ويكون ما بعدها مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى : ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ : ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم . وقيل : المعنى : ليجمعنكم فى القبور إلى اليوم الذى أنكرتموه. وقيل : « إلى » بمعنى فى ، أى ليجمعنكم فى يوم القيامة. وقيل : يجوز أن يكون موضع ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ النصب على البدل من الرحمة فتكون اللام بمعنى « أن » . والمعنى : كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا فى قوله تعالى: ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ﴾ [يوسف : ٣٥] أى أن يسجنوه . وقيل : إن جملة : ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ مسوقة للترهيب بعد الترغيب ، وللوعيد بعد الوعد ، أى إن أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة ، والضمير

فى: ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ لليوم أو للجمع .

قوله : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ . قال الزجاج : إن الموصول مرتفع على الابتداء ، وما بعده خبره كما تقول : الذى يكرمنى فله درهم ، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط . وقال الأخفش : إن شئت كان ﴿ **الذين** ﴾ فى موضع نصب على البدل من الكاف والميم فى ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ أى ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم ، وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ ؛ لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب ، لا يقال : مررت بك زيد ولا مررت بى زيد . وقيل: يجوز أن يكون ﴿ **الذين** ﴾ مجروراً على البدل من المكذبين الذين تقدم ذكرهم، أو على النعت لهم . وقيل: إنه منادى وحرف النداء مقدر .

قوله : ﴿ **وله ما سكن فى الليل والنهار** ﴾ أى لله ، وخص الساكن بالذكر ؛ لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة . وقيل : المعنى : ما سكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة .

قوله : ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليًا** ﴾ الاستفهام للإنكار ، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام ، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله وليًا ، لا لاتخاذ الولى مطلقًا ، دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل . والمراد بالولى هنا : المعبود ، أى كيف أتخذ غير الله معبوداً ؟ و﴿**فاطر السموات والأرض** ﴾ مجرور على أنه نعت لاسم الله ، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ ، وأجاز الزجاج النصب على المدح ، وأجاز أبو على الفارسى نصبه بفعل مضمر كأنه قيل : أترك فاطر السموات والأرض . قوله : ﴿ **وهو يطعِم ولا يطعَم** ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين فى الأول ، وضمها وفتح العين فى الثانى ، أى يرزق ولا يُرزق ، وقرأ سعيد ابن جبير ومجاهد والأعمش بفتح الياء فى الثانى وفتح العين ، وقرئ بفتح الياء والعين فى الأول ، وضمها وكسر العين فى الثانى ، على أن الضمير يعود إلى الولى المذكور ، وخص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام ؛ لأن الحاجة إليه أمس .

قوله : ﴿ **قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم** ﴾ أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير الله وليًا أن يقول لهم إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه . وأخلص من أمته ، وقيل : معنى ﴿ **أسلم** ﴾ : استسلم لأمر الله ، ثم نهاه الله عز وجل أن يكون من المشركين . والمعنى : أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك ، أى يقول لهم هذا ، ثم أمره أن يقول : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ أى إن عصيته بعبادة غيره، أو مخالفة أمره ونهيه ، والخوف : توقع المكروه . وقيل : هو هنا بمعنى العلم ، أى إنى أعلم إن عصيت ربى أن لى عذاباً عظيماً .

قوله : ﴿ **من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه** ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل مكة وابن عامر على البناء للمفعول ، أى من يُصرف عنه العذاب ، واختار هذه القراءة سيبويه ، وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل وهو اختيار أبى حاتم ، فيكون الضمير على هذه القراءة لله . ومعنى ﴿ **يومئذ** ﴾:

يوم العذاب العظيم ﴿ **فقد رحمه** ﴾ اللّه ، أي نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة ، والإشارة بذلك إلى الصرف ، أو إلى الرحمة ، أي فذلك الصرف أو الرحمة ﴿ **الفوز المبين** ﴾ أي الظاهر الواضح ، وقرأ أبيّ : ﴿ **من يُصرف عنه** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن يمسسك اللّه بضر** ﴾ أي إن ينزل اللّه بك ضراً من فقر أو مرض ﴿ **فلا كاشف له إلا هو** ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه ﴿ **وإن يمسسك بخير** ﴾ من رخاء أو عافية ﴿**فهو على كل شيء قدير** ﴾ ومن جملة ذلك المس بالشر والخير . قوله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ القهر : الغلبة . والقاهر : الغالب ، وأقهر الرجل : إذا صار مقهوراً ذليلاً ، ومنه قول الشاعر (١) :

تَمَنَّى حُصَين أنْ يَسُودَ خزاعةً ... فَأمْسَى حُصَين قد أذلَّ وأقْهَرا

ومعنى : ﴿ **فوق عباده** ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته ، أي بالمنزلة والرفعة ، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة ، وهو منع غيره من بلوغ المراد ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ في أمره ﴿ **الخبير** ﴾ بأفعال عباده . قوله : ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة** ﴾ أي مبتدأ ، وأكبر خبره ، وشهادة تمييز ، والشيء يطلق على القديم والحادث ، والمحال ، والممكن . والمعنى : أيُّ شهيد أكبر شهادة ، فوضع شيء موضع شهيد. وقيل : إن ﴿ **شيء** ﴾ هنا موضوع موضع اسم الله تعالى ، والمعنى : الله أكبر شهادة ، أي انفراده بالربوبية ، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم ، فهو شهيد بيني وبينكم . وقيل : إن قوله : ﴿ **اللّه شهيد بيني وبينكم** ﴾ هو الجواب ؛ لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم، كان أكبر شهادة له ﷺ . وقيل : إنه قد تم الجواب عند قوله : ﴿ **قل اللّه** ﴾ يعني اللّه أكبر شهادة ، ثم ابتدأ فقال: ﴿ **شهيد بيني وبينكم** ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم .

قوله : ﴿ **وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ أي أوحى اللّه إليّ هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به ، وأنذر به من بلغ إليه ، أي كل من بلغ إليه من موجود ، ومعدوم ، وسيوجد في الأزمنة المستقبلة ، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة في علم أصول الفقه ، وقرأ أبو نَهِيك : « وَأَوْحَى » على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عدى على البناء للمفعول . قوله : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع اللّه آلهة أخرى** ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية ، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم ، وإنما قال : ﴿ **آلهة أخرى** ﴾ لأن الآلهة جمع ، والجمع يقع عليه التأنيث ، كذا قال الفراء ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال : ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ [طه : ٥١] . ﴿ **قل لا أشهد**﴾ أي فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه ، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة ، ومثله :

---

(١) ربيعة بن مالك بن عوف يهجو الزبرقان بن بدر وقومه .

﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ [الأنعام : ١٥٠] . و« ما » فى ﴿ **مما تشركون**﴾ موصولة أو مصدرية ، أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة ، أو من إشراككم بالله .

قوله : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ الكتاب للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما ، أى يعرفون رسول الله ﷺ . قال به جماعة من السلف ، وإليه ذهب الزجاج . وقيل : إن الضمير يرجع إلى الكتاب ، أى يعرفونه معرفة محققة ، بحيث لا يلتبس عليهم منه شىء ، و﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾ بيان لتحقيق تلك المعرفة وكمالها ، وعدم وجود شك فيها ، فإن معرفة الآباء للأبناء هى المبالغة إلى غاية الإتقان إجمالاً وتفصيلاً. قوله: ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ فى محل رفع على الابتداء وخبره : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط . وقيل : إن الموصول خبر مبتدأ محذوف . وقيل : هو نعت للموصول الأول وعلى الوجهين الأخيرين يكون : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ معطوفًا على جملة : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ والمعنى على الوجه الأول : أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم ، لا يؤمنون بما جاء به رسول الله ﷺ ، وعلى الوجهين الأخيرين : أن أولئك الذين آتيناهم الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق ، وعدم العمل بالمعرفة التى ثبتت لهم فهم لا يؤمنون .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ أى اختلق على الله الكذب فقال : إن فى التوراة والإنجيل ما لم يكن فيهما ﴿ **أو كذب بآياته** ﴾ التى يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة ، فجمع بين كونه كاذبًا على الله ومكذبًا بما أمره الله بالإيمان به ، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه ، والضمير فى : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ للشأن.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سلمان الفارسى قال : إنا نجد فى التوراة أن الله خلق السموات والأرض ، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتبادلون ، وبها يتزاورون ، وبها تحن الناقة ، وبها تنتج البقرة ، وبها تيعر الشاة ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع (١) . وقد أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن سلمان عن النبى ﷺ قال : « خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة : منها رحمة يتراحم بها الخلق ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة » (٢) . وثبت فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت

---

(١) ابن جرير ٧/ ٩٩ .

(٢) أحمد ٥ / ٤٣٩ ومسلم فى التوبة (٢٧٥٣/ ٢٠ ، ٢١) والطبرانى (٦١٢٦) .

غضبى » [١] ، وقد روى من طرق أخرى بنحو هذا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وله ما سكن فى الليل والنهار** ﴾ يقول : ما استقر فى الليل والنهار ، وفى قوله : ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليا** ﴾ قال : أما الولى فالذى تولاه ويقر له بالربوبية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ قال : بديع السموات والأرض . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن جرير وابن الأنبارى عنه قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض؟حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها ،يقول: أنا ابتدأتها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو يطعم ولا يطعم**﴾ قال : يرزق ولا يرزق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **من يصرف عنه** ﴾ قال : من يصرف عنه العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وإن يمسسك بخير** ﴾ يقول : بعافية .

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء النحام [٢] بن زيد ، وقردم بن كعب ، وبحرى بن عمرو ، فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهًا غيره ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله ، بذلك بُعثت وإلى ذلك أدعو » ، فأنزل الله : ﴿ **قل أى شىء أكبر شهادة** ﴾ الآية [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد قال: أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشًا : أى شىء أكبر شهادة ؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول : الله شهيد بينى وبينكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به** ﴾ يعنى أهل مكة ﴿ **ومن بلغ** ﴾ يعنى من بلغه هذا القرآن من الناس فهو نذير له . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن** ﴾ كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشى وكل جبار ، يدعوهم إلى الله عز وجل . وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى ﷺ . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به » ، ثم قرأ : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) وفى التوحيد (٧٤٠٤ ، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤) وتعليقا (٧٥٥٣) ومسلم فى التوبة (٢٧٥١/ ١٤ ـ ١٦) والنسائى فى الكبرى فى النعوت (٧٧٥٠، ٧٧٥١) .

(٢) فى المطبوعة : « النمام » والصحيح : « النحام » كما فى المخطوطة ، وكما عند ابن إسحاق وابن جرير.

(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٩، ٢١٠ وابن جرير ٧/ ١٠٤ .

عن محمد بن كعب القرظى قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبىّ ﷺ . وفى لفظ : من بلغه القرآن حتى تفهمه وتعقله كان كمن عاين رسول الله ﷺ وكلمه . وأخرج عبد بن حمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به** ﴾ قال : العرب ، ﴿ **ومن بلغ** ﴾ قال : العجم. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر وهو من بنى عبد الدار : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى فأنزل الله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ الآية .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ قرأ الجمهور بالنون فى الفعلين ، وقرئ بالياء فيهما ،وناصب الظرف محذوف مقدر متأخرًا ، أى يوم نحشرهم كان كيت وكيت . والاستفهام فى : ﴿ **أين شركاؤكم** ﴾ للتقريع والتوبيخ للمشركين ، وأضاف الشركاء إليهم ؛ لأنها لم تكن شركاء لله فى الحقيقة ، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم ، وهى ما كانوا يعبدونه من دون الله ، أو يعبدونه مع الله . قوله : ﴿ **الذين كنتم تزعمون** ﴾ أى تزعمونها شركاء فحذف المفعولان معًا، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام : أن معبوداتهم غابت عنهم فى تلك الحال أو كانت حاضرة ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه ، فكان وجودها كعدمها .

قوله : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ قال الزجاج : تأويل هذه الآية : أن الله عز وجل أخبر بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حتى رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك ، ونظير هذا فى اللغة أن ترى إنسانًا يحب غاويا ، فإذا وقع فى هلكة تبرأ منه فتقول : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه . انتهى.

فالمراد بالفتنة على هذا : كفرهم ، أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتخروا به وقاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقولهم : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ وقيل : المراد بالفتنة هنا : جوابهم ، أى لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرى ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا ، وجملة : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ معطوفة على عامل الظرف المقدر كما مر ، والاستثناء مفرغ ، وقرئ : « فتنتهم » بالرفع والنصب ، ويكن وتكن والوجه ظاهر ، وقرئ : « وما كان فتنتهم » وقرئ : « ربنا » بالنصب على النداء ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ بإنكار ما وقع منهم فى الدنيا من الشرك ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى زال وذهب افتراؤهم ، وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من أن الشركاء يقربونهم إلى الله . هذا على أن « ما » مصدرية. وقيل : هى موصولة عبارة عن الآلهة ، أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئا . وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة . وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة ؛ لأنها دار لا يجرى فيها إلا الصدق ، فمعنى ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ : نفى شركهم عند أنفسهم وفى اعتقادهم ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ [النساء : ٤٢] .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين فى الدنيا ، والضمير عائد إلى الذين أشركوا ، أى وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم ، والأكنة : الأغطية جمع كنان مثل الأسنة والسنان ، كننت الشىء فى كنه [1] : إذا جعلته فيه ، وأكننته: أخفيته ، وجملة : ﴿ **جعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ مستأنفة للإخبار بمضمونها ، أو فى محل نصب على الحال ، أى وقد جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا القرآن ، أو لئلا يفقهوه، والوقر : الصمم ، يقال : وقرت أذنه تقر وقرا ، أى صمت . وقرأ طلحة بن مصرف: « وِقرًا » بكسر الواو ، أى جعل فى آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير ، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله ؛ وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه ، كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ أى لا يؤمنوا بشىء من الآيات التى يرونها من المعجزات ، ونحوها لعنادهم وتمردهم .

قوله: ﴿ **حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ «حتى» هنا هى الابتدائية التى تقع بعدها الجمل ، وجملة: ﴿ **يجادلونك** ﴾ فى محل نصب على الحال. والمعنى: أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاؤوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأولين. وقيل: «حتى» هى الجارة وما بعدها فى محل جر، والمعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون : إن هذا إلا أساطير الأولين ، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد. والأساطير قال الزجاج: واحدها أسطار. وقال الأخفش: أسطورة. وقال أبو عبيدة: أسطارة.

---

(١) الكن : ما يحفظ فيه الشىء . اللسان ١٣ / ٣٦١ .

وقال النحاس: أسطور. وقال القشيرى: أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له كعباديد وأبابيل، والمعنى: ما سطره الأولون فى الكتب من القصص والأحاديث. قال الجوهرى: الأساطير: الأباطيل والترهات.

قوله: ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾ أى ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن، أو بمحمد ﷺ ويبعدون هم فى أنفسهم عنه. وقيل: إنها نزلت فى أبى طالب، فإنه ينهى الكفار عن أذية النبى ﷺ ويبعد هو عن إجابته ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ أى ما يهلكون بما يقع منهم من النهى والنأى إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه، والحال أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم.

قوله: ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية. وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضى تنبيهًا على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعانى، و ﴿ **وُقفوا** ﴾ معناه: حبسوا، يقال: وقفته وقفًا ووقف وقوفًا. وقيل: معنى ﴿ **وقفوا على النار** ﴾: أدخلوها، فتكون: « على » بمعنى: « فى ». وقيل: هى بمعنى: الباء، أى وقفوا بالنار، أى بقربها معاينين لها، ومفعول ترى محذوف وجواب « لو » محذوف ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلاً وحالاً فظيعًا ﴿ **فقالوا ياليتنا نرد** ﴾ أى إلى الدنيا ﴿ **ولا نكذب بآيات ربنا** ﴾ أى التى جاءنا بها رسوله ﷺ ﴿ **ونكون من المؤمنين** ﴾ بها العاملين بما فيها، والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمنى، أى تمنوا الرد، وألا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هى قراءة الكسائى وأهل المدينة وشعبة وابن كثير وأبى عمرو. وقرأ حفص وحمزة بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمنى، واختار سيبويه القطع فى ﴿ **ولا نكذب** ﴾ فيكون غير داخل فى التمنى، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب، أى لا نكذب رددنا أو لم نرد، قال: وهو مثل: دعنى ولا أعود، أى لا أعود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى. واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمنى بقوله: ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ لأن الكذب لا يكون فى التمنى. وقرأ ابن عامر: ﴿ **ونكون** ﴾ بالنصب وأدخل الفعلين الأولين فى التمنى. وقرأ أبى: « ولا نكذب بآيات ربنا أبدا » وقرأ هو وابن مسعود: « ياليتنا نرد فلا نكذب » بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها فى جواب التمنى كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء.

قوله: ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ هذا إضراب عما يدل عليه التمنى من الوعد بالإيمان والتصديق، أى لم يكن ذلك التمنى منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد؛ بل هو لسبب آخر، وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون، أى يجحدون من الشرك وعرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمنى والمواعيد الكاذبة. وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم. وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ [الزمر: ٤٧]. وقال المبرد:

بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه وهو مثل المعنى : أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة ﴿ **ولو ردوا** ﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿ **لعادوا** ﴾ لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ أى متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا . وقيل : المعنى : وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان . وقرأ يحيى بن وثاب : « ولو رِدوا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رددوا ، فنقلت كسرة الدال إلى الراء ، وجملة : ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ معترضة بين المعطوف وهو : ﴿ **وقالوا** ﴾ وبين المعطوف عليه وهو : ﴿ **لعادوا** ﴾ أى لعادوا إلى ما نهوا عنه ﴿ **وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أى ما هى إلا حياتنا الدنيا ﴿ **وما نحن بمبعوثين** ﴾ بعد الموت ، وهذا من شدة تمردهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث .

قوله : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قوله : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار** ﴾ أى حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم . وقيل : « على » بمعنى : « عند »، وجواب « لو » محذوف ، أى لشاهدت أمرًا عظيمًا ، والاستفهام فى : ﴿ **أليس هذا بالحق**﴾ للتقريع والتوبيخ ، أى أليس هذا البعث الذى ينكرونه كائنًا موجودًا ، وهذا الجزاء الذى يجحدونه حاضرًا . ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم ﴿**قال فذوقوا العذاب** ﴾ الذى تشاهدونه وهو عذاب النار ﴿ **بما كنتم تكفرون** ﴾ أى بسبب كفركم به أو بكل شىء مما أمرتم بالإيمان به فى دار الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ قال : معذرتهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ قال : حجتهم ﴿ **إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ يعنى المنافقين والمشركين قالوا وهم فى النار: هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا. فقال الله: ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم**﴾ فى القيامة ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ يكذبون فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ ثم قال: ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ [النساء: ٤٢]، قال: بجوارحهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ قال: باعتذارهم الباطل ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ قال: ما كانوا يشركون. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ قال: قريش، وفى قوله: ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ قال: كالجعبة للنبل. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ﴾ قال: يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئًا كمثل البهيمة التى لا تسمع النداء ولا تدرى ما يقال لها. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال: الغطاء أكن قلوبهم أن يفقهوه ، والوقر: الصمم، و﴿ **أساطير الأولين** ﴾: أساجيع الأولين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال:

أساطير الأولين: أحاديث الأولين. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن قتادة قال : أساطير الأولين : كذب الأولين وباطلهم .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ،والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾ قال : نزلت فى أبى طالب كان ينهى المشركين أن يردوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن القاسم بن مخيمرة نحوه.وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه أيضًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال:ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به،وينأون عنه:يتباعدون.وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه قال:لا يلقونه ولا يدعون أحدًا يأتيه.وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن الحنفية فى الآية قال:كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يحبونه.وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه.وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال:ينهون عن القرآن وعن النبى ﷺ، وينأون عنه:يتباعدون عنه.وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال فى الآية قال: نزلت فى عمومة النبى ﷺ وكانوا عشرة،فكانوا أشد الناس معه فى العلانية،وأشد الناس عليه فى السر.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ قال : من أعمالهم ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه** ﴾ يقول : ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التى كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء التى كانوا نهوا عنها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى ، فقال : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه** ﴾ أى ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أول مرة وهم فى الدنيا .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ

(١) ابن جرير ٧/ ١١٠ والطبرانى (١٢٦٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣ : « وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة وغيره ، وضعفه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله ثقات » وصححه الحاكم ٢/ ٣١٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٤٠، ٣٤١.

سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله** ﴾ هم الذين تقدم ذكرهم . والمراد من تكذيبهم بلقاء الله : تكذيبهم بالبعث . وقيل : تكذيبهم بالجزاء . والأول أولى ؛ لأنهم الذين قالوا قريبًا : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام : ٢٩] ﴿ **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة** ﴾ أى القيامة ، وسميت ساعة ؛ لسرعة الحساب فيها . ومعنى بغتة : فجأة ، يقال : بغتهم الأمر يبغتهم بغتًا وبغتة . قال سيبويه : وهى مصدر فى موضع الحال ، قال : ولا يجوز أن يقاس عليه ، فلا يقال : جاء فلان سرعة ، و« حتى » غاية للتكذيب لا للخسران ، فإنه لا غاية له ، ﴿ **قالوا يا حسرتنا** ﴾ هذا جواب ﴿ **إذا جاءتهم** ﴾ أوقعوا النداء على الحسرة ، وليست بمنادى فى الحقيقة ليدل ذلك على كثرة تحسرهم . والمعنى : يا حسرتنا احضرى فهذا أوانك ، كذا قال سيبويه فى هذا النداء وأمثاله كقولهم : ياللعجب ، ويا للرجل . وقيل : هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة ، كأنهم قالوا : يأيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة ، والحسرة : الندم الشديد ﴿ **على ما فرطنا فيها** ﴾ أى على تفريطنا فى الساعة ، أى فى الاعتداد لها ، والاحتفال بشأنها والتصديق بها ، ومعنى فرطنا : ضيعنا ، وأصله : التقدم ، يقال : فرط فلان ، أى تقدم وسبق إلى الماء ، ومنه قوله ﷺ : «وأنا فرطكم على الحوض » ، ومنه الفارط ، أى المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم : ﴿ **على ما فرطنا** ﴾ أى على ما قدمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها ، وقال ابن جرير الطبرى : إن الضمير فى : ﴿ **فرطنا فيها** ﴾ يرجع إلى الصفقة ، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والدنيا بالآخرة ﴿ **قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها** ﴾ فى صفقتنا ، وإن لم تذكر فى الكلام فهو دال عليها ؛ لأن الخسران لا يكون إلا فى صفقة . وقيل : الضمير راجع إلى الحياة ، أى على ما فرطنا فى حياتنا .

قوله : ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ هذه الجملة حالية ، أى يقولون تلك المقالة والحال أنهم ﴿ **يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ أى ذنوبهم ، جمع وزر يقال : وزر يزر ، فهو وازرٌ موزور ، وأصله من الوزر . قال أبو عبيدة : يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع : احمل وزرك ، أى ثقلك ، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية ، والمعنى أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها ، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل . ﴿ **ألا ساء ما يزرون** ﴾ أى بئس ما يحملون .

قوله : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو** ﴾ أى وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو ، على تقدير حذف مضاف ، أو : وما الدنيا من حيث هى إلا لعب ولهو . والقصد بالآية تكذيب الكفار فى قولهم : ﴿ **ما هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ واللعب معروف وكذلك اللهو ، وكل ما يشغلك فقد ألهاك . وقيل : أصله الصرف عن الشيء . ورد بأن اللهو بمعنى الصرف لامه «ياء » ،

يقال : لهيت عنه ، ولام اللهو واو ، يقال : لهوت بكذا ﴿ **وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا ، أى هى خير للذين يتقون الشرك والمعاصى ، أفلا تعقلون ذلك ؟. قرأ ابن عامر : « ولدار الآخرة » بلام واحدة وبالإضافة ، وقرأ الجمهور باللام التى للتعريف معها ، وجعل الآخرة نعتًا لها ، والخبر « خير » ، وقرئ :﴿ **تعقلون** ﴾ بالفوقية والتحتية .

قوله : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون** ﴾ هذا الكلام [1] مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن ، بتكذيب الكفار له، ودخول قد للتكثير فإنها قد تأتى لإفادته كما تأتى رب . والضمير فى « إنه » للشأن ، وقرئ بفتح الياء من ﴿ **يحزنك** ﴾ وضمها ، وقرئ : ﴿ **يكذبونك** ﴾ مشددًا ومخففًا ، واختار أبو عبيدة قراءة التخفيف . قال النحاس : وقد خولف أبو عبيدة فى هذا ، ومعنى ﴿ **يكذبونك** ﴾ على التشديد : ينسبونك إلى الكذب ويردون عليك ما قلته . ومعنى المخفف : أنهم لا يجدونك كذابًا ، يقال : أكذبته : وجدته كذابًا ، وأبخلته : وجدته بخيلا . وحكى الكسائى عن العرب : أكذبت الرجل : أخبرت أنه جاء بالكذب ، وكذبته : أخبرت أنه كاذب . وقال الزجاج : كذبته إذا قلت له : كذبت ، وأكذبته : إذا أردت أن ما أتى به كذب ، والمعنى : أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق،ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به ، ولهذا قال : ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر؛لزيادة التوبيخ لهم ، والإزراء عليهم ، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذى وقع منهم ظلم بين .

قوله : ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا** ﴾ هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ ، أى أن هذا الذى وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم ، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد بهم ولا تحزن ، واصبر كما صبروا على ماكذبوا به وأوذوا ، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإنا لا نخلف الميعاد ، و﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : ٣٨] ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ [غافر : ٥١] ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات : ١٧١ ــ ١٧٣] ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١] ﴿ **ولامبدل لكلمات الله** ﴾ بل وعده كائن وأنت منصور على المكذبين ظاهر عليهم ، وقد كان ذلك ولله الحمد ﴿ **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ ما جاءك من تجرّى قومهم عليهم فى الابتداء ، وتكذيبهم لهم ، ثم نصرهم عليهم فى الانتهاء ، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل فيرجعون إليك ، ويدخلون فى الدين الذى تدعوهم إليه طوعا أو كرها .

---

(١) فى المطبوعة : « اللام » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قوله : ﴿ **وإن كان كبر عليك إعراضهم** ﴾ كان النبى ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له ، فبين له الله سبحانه أن هذا الذى وقع منهم من توليهم عن الإجابة له ، والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة لما سبق فى علم الله عز وجل ، وليس فى استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك ، ثم علق ذلك بما هو محال فقال : ﴿ **فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض** ﴾ فتأتيهم بآية منه ﴿ **أو سلمًا فى السماء فتأتيهم بآية** ﴾ منها فافعل ، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن،و﴿ لا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر:٨] وما أنت عليهم بمسيطر. والنفق : السرب والمنفذ ، ومنه النافقاء لجحر اليربوع ، ومنه المنافق . وقد تقدم فى البقرة ما يغنى عن الإعادة . والسلم : الدرج الذى يرتقى عليه ، وهو مذكر لا يؤنث . وقال الفراء : إنه يؤنث . قال الزجاج : وهو مشتق من السلامة ؛ لأنه يسلك به إلى موضع الأمن . وقيل : إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته ؛ لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم ، ولا يشعرون أن لله سبحانه فى ذلك حكمة لا تبلغها العقول ولا تدركها الأفهام ، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال: ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾ جمع إلجاء وقسر ، ولكنه لم يشأ ذلك ولله الحكمة البالغة ﴿ **فلا تكونن من الجاهلين** ﴾ فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم ، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة ، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التى لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطرارًا ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ أى إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول ، وتوجبه الأفهام وهؤلاء ليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون ، لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفى آذانهم من الوقر، ولهذا قال : ﴿ **والموتى يبعثهم الله** ﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعًا لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق ، أى أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادرًا على ذلك كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ﴿ **ثم إليه يرجعون** ﴾ إلى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قالوا يا حسرتنا** ﴾ قال : الحسرة : الندامة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **يا حسرتنا** ﴾ قال : « الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة فتلك الحسرة »(١). وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ألا ساء ما يزرون** ﴾ قال : مايعملون .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لعب ولهو** ﴾ قال : كل لعب لهو .

---

(١) ابن جرير ٧/ ١١٣ ، ١١٤ والخطيب فى تاريخه ٣/ ٣٨٩ فى ترجمة محمد بن يعقوب الحربى .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والضياء فى المختارة عن على بن أبى طالب قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى يزيد المدنى أن أبا جهل قال : والله لأعلم أنه صادق ، ولكن متى كنا تبعًا لبنى عبد مناف ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى ميسرة نحو رواية على بن أبى طالب. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ قال : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولقد كُذبت رسل من قبلك** ﴾ قال : يعزى نبيه ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : ﴿ **فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض** ﴾ والنفق : السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لهم سلمًا فى السماء فتصعد عليه﴿ **فتأتيهم بآية** ﴾ أفضل مما أتيناهم به فافعل ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾ يقول سبحانه : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **نفقًا فى الأرض** ﴾ قال : سربًا ﴿ **أو سلما فى السماء** ﴾ قال : يعنى الدرج ، وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ قال : المؤمنون ، ﴿ **والموتى** ﴾ قال : الكفار . وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله .

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)** ﴾ .

هذا كان منهم تعنتًا ومكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البينات التى من جملتها القرآن ، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله . ومرادهم بالآية هنا هى التى تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع ، أو نتق الجبل كما وقع لبنى إسرائيل فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٦٤) وابن جرير ٧/ ١١٦ لكن عن ناجية بن كعب ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٥ على شرط الشيخين وقال الذهبى : «قلت : ما خرجا لناجية ــ الراوى عن على ــ شيئا » .

تضطرهم إلى الإيمان ، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذى هو الابتلاء والامتحان ، وأيضًا لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها ؛ بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا . قال الزجاج : طلبوا أن يجمعهم على الهدى يعنى جمع إلجاء ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أن الله قادر على ذلك وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم .

قوله : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ الدابة من دب يدبّ فهو داب: إذا مشى مشيًا فيه تقارب خطو . وقد تقدم بيان ذلك فى البقرة ﴿ **ولا طائر** ﴾ معطوف على ﴿ **دابة** ﴾ مجرور فى قراءة الجمهور وقرأ الحسن وعبد الله بن أبى إسحاق: « ولا طائر » بالرفع عطفًا على موضع من دابة على تقدير زيادة من ، و﴿ **بجناحيه** ﴾ لدفع الإيهام ؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير ، كقولهم : طر فى حاجتى ، أى أسرع . وقيل : إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ، ومع عدم الاعتدال يميل فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين . وقيل : ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه . والجناح : أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء ، وأصله: الميل إلى ناحية من النواحى ، والمعنى : ما من دابة من الدواب التى تدبّ فى أى مكان من أمكنة الأرض ، ولا طائر يطير فى أى ناحية من نواحيها ﴿ **إلا أمم أمثالكم** ﴾ أى جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شىء . وقيل : أمثالنا فى ذكر الله والدلالة عليه. وقيل : أمثالنا فى كونهم محشورين ، روى ذلك عن أبى هريرة . وقال سفيان ابن عيينة : أى ما من صنف من الدواب والطير إلا فى الناس شبه منه ، فمنهم من يعدو كالأسد ، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوى كالكلب ، ومنهم من يزهو كالطاوس. وقيل : أمثالكم فى أن لها أسماء تعرف بها ، وقال الزجاج : أمثالكم فى الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص . والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان .

قوله : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾ أى ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شىء ، والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث . وقيل : إن المراد به القرآن ، أى ما تركنا فى القرآن من شىء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ [النحل :٨٩]، وقال : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [النحل : ٤٤] ومن جملة ما أجمله فى الكتاب العزيز قوله : ﴿ و(١) ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] فأمر فى

(١) فى المخطوطة بدون الواو .

هـذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ فكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره الله سبحانه فى كتابه العزيز ،بهذه الآية وبنحو قوله تعالى:﴿ قل إن كنتـم تحبون الله فاتبعونى ﴾ [آل عمران: ٣١] وبقوله :﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب : ٢١] و« من » فى ﴿ **من شىء** ﴾ مزيدة للاستغراق .

قوله : ﴿ **ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ يعنى الأمم المذكورة ، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء ، ومنهم أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم ، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها ، وبه قال الضحاك . والأول أرجح للآية ، ولما صح فى السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ولقول الله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ [التكوير : ٥] . وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور فى الآية : حشر الكفار ، وما تخلل كلام معترض قالوا : وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص ، واستدلوا أيضا بأن فى هذا الحديث ــ خارج الصحيح ــ عن بعض الرواة زيادة . ولفظه : « حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء ، وللحجر لم ركب على الحجر ؟ والعود لم خدش العود ؟ » قالوا : والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها .

قوله : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم** ﴾ أى لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بألسنتهم ، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق ؛ لعدم قبولهم لما ينبغى قوله من الحجج الواضحة ، والدلائل الصحيحة . وقال أبو على : يجوز أن يكون صممهم وبكمهم فى الآخرة. قوله : ﴿ **فى الظلمات** ﴾ أى فى ظلمات الكفر والجهل والحيرة لايهتدون لشىء مما فيه صلاحهم . والمعنى : كائنـين فى الظلمات التى تمنع من إبصار المبصرات ، وضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار ؛ لتراكم الظلمة عليهم ، فكانت حواسهم كالمسلوبة التى لا ينتفع بها بحال، وقد تقدم فى البقرة تحقيق المقام بما يغنى عن الإعادة ، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل،من شاء تعالى أن يضله أضله ، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم ، لا يذهب به إلى غير الحق ، ولا يمشى فيه إلا إلى صواب الاستقامة.

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **إلا أمم أمثالكم** ﴾ قال: أصنافًا مصنفة تعرف بأسمائها ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : الطير أمة ، والإنس أمة، والجن أمة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى : قال : خلق أمثالكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى الآيب قال : الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من

الدواب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾ يعنى ماتركنا شيئًا إلا وقد كتبناه فى أم الكتاب . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ قال : موت البهائم حشرها ، وفى لفظ قال : يعنى بالحشر الموت . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة . ثم يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن ، ثم يقال لها : كونى ترابًا ، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿ يا ليتنى كنت ترابا﴾ [النبأ: ٤٠] وإن شئتم فاقرؤوا : ﴿ **وما من دابة فى الأرض** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن جرير عن أبى ذر قال : انتطحت شاتان عند النبى ﷺ فقال لى : « يا أبا ذر، أتدرى فيم انتطحتا ؟ » قلت : لا . قال : « لكن الله يدرى وسيقضى بينهما » . قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما . وأخرجه أيضا أحمد(٢) ، وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (٣) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **أرأيتكم** ﴾ الكاف والميم عند البصريين للخطاب ولا حظ لهما فى الإعراب ، وهو اختيار الزجاج . وقال الكسائى والفراء وغيرهما : إن الكاف والميم فى محل نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى: أرأيتم أنفسكم . قال فى الكشاف مرجحاً للمذهب الأول : إنه لا محل للضمير الثانى ، يعنى الكاف من الإعراب ؛ لأنك تقول : أرأيتك زيداً ما شأنه ، فلو

(١) ابن جرير ٧/ ١٢٠ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٦ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٥/ ١٦٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٥٥ : « رجاله رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يسم » وابن جرير ٧/ ١٢٠ .

(٣) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٢ / ٦٠) وأحمد ٢/ ٣٠١ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٠) وقال: « حسن صحيح ». كلهم عن أبى هريرة .

جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرأيت نفسك زيداً ما شأنه ، وهو خلف من القول . انتهى (١) . والمعنى : أخبرونى ﴿ **إن أتاكم عذاب الله** ﴾ كما أتى غيركم من الأمم ﴿ **أو أتتكم الساعة** ﴾ أى القيامة ﴿ **أغير الله تدعون** ﴾ هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ ، أى أتدعون غير الله فى هذه الحالة من الأصنام التى تعبدونها أم تدعون الله سبحانه . . ؟ وقوله : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ ، أى أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع وأنها آلهة كما تزعمون .

قوله : ﴿ **بل إياه تدعون** ﴾ معطوف على منفى مقدر ، أو لا تدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء ﴿ **فيكشف ما تدعون إليه** ﴾ أى فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك . قوله : ﴿ **وتنسون ما تشركون** ﴾ أى وتنسون عند أن يأتيكم العذاب ما تشركون به تعالى ، أى ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها ، ولا ترجون كشف ما بكم منها ؛ بل تعرضون عنها إعراض الناس . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وتتركون ما تشركون .

قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبى ﷺ ، أى ولقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلا فكذبوهم ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء** ﴾ أى البؤس والضر . وقيل : البأساء : المصائب فى الأموال ، والضراء : المصائب فى الأبدان ، وبه قال الأكثر ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ أى يدعون الله بضراعة، مأخوذ من الضراعة وهى الذل ، يقال : ضرع فهو ضارع ، ومنه قول الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

قوله : ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا** ﴾ أى فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا ، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء فى كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم ، وغلوهم فى الكفر، ويجوز أن يكون المعنى : أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب ، وذلك تضرع ضرورى لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه ، والأول أولى كما يدل عليه : ﴿ **ولكن قست قلوبهم** ﴾ أى صلبت وغلظت ﴿ **وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ أى أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصى .

قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أى تركوا ما ذكروا به ، أو أعرضوا عما ذكروا به ؛ لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به ؛ إذ ليس هو من فعلهم ، وبه قال ابن عباس

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢ .

وابن جريج وأبو على الفارسى . والمعنى : أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شىء** ﴾ أى لما نسوا ما ذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ من الخيرعلى أنواعه فَرح بطر وأشر، وأعجبوا بذلك ، وظنوا أنهم إنما أعْطوه لكون كفرهم الذى هم عليه حقاً وصواباً ﴿ **أخذناهم بغتة** ﴾ أى فجأة وهم غير مترقبين لذلك ، والبغتة : الأخذ على غرة من غير تقدمة أمارة. وهى مصدر فى موضع الحال لا يقاس عليها عند سيبويه . قوله : ﴿ **فإذا هم مبلسون** ﴾ المبلس : الحزن الآيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال ، ومن ذلك اشتق اسم إبليس ، يقال : أبلس الرجل : إذا سكت ، وأبلست الناقة : إذا لم ترع ، قال العجاج :

صاحِ هَلْ تَعرِفُ رَسْماً مُكْرَساً (١) قَالَ نعم أَعْرِفُه وأَبْلَسَا

أى تحول لهول ما رأى ، والمعنى: فإذا هم محزونون متحيرون آيسون من الفرح . قوله : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ الدابر : الآخر ، يقال : دبر القوم يدبرهم دبرا : إذا كان آخرهم فى المجىء ، والمعنى : أنه قطع آخرهم ، أى استؤصلوا جميعاً حتى آخرهم . قال قطرب : يعنى أنهم استؤصلوا وأهلكوا . قال أمية بن أبى الصلت :

فَأهْلِكُوا بِعَذابٍ حَصَّ دابِرهُم فَما اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفاً ولا انْتَصرُوا

ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور . قوله : ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ أى على هلاكهم . وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التى من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون ، فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد ، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين ، واقطع دابرهم ، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم .

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء** ﴾ قال: خوف السلطان ، وغلاء السعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ قال : يعنى تركوا ما ذكروا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ قال : مادعاهم الله إليه ورسله أبَوْه وردّوه عليهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شىء** ﴾ قال: رخاء الدنيا ويسرها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ قال: من الرزق ﴿ **أخذناهم**

---

(١) المكرس : الذى صار فيه الكرس ، والكرس بالكسر : أبوال الإبل وأبعارها ، يتلبد بعضها إلى بعض فى الدار ، وأبلس : سكت غما . اللسان ٦ / ١٩٣ .

بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ قال : مهلكون متغير حالهم. ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ يقول: فقطع أصل الذين ظلموا. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثى فى قوله : ﴿ **أخذناهم بغتة** ﴾ قال : أمهلوا عشرين سنة ، ولا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغتة لغة ، ومحتاج إلى نقل عن الشارع وإلا فهو كلام لا طائل تحته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : المبلس : المجهود المكروب الذى قد نزل به الشر الذى لا يدفعه ، والمبلس أشد من المستكين ، وفى قوله : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ قال : استؤصلوا .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾ .

هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم ، ووحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر ولهذا جمعه . والختم : الطبع ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة ، والمراد : أخذ المعانى القائمة بهذه الجوارح ، أو أخذ الجوارح نفسها ، والاستفهام فى :﴿ **مَنْ إله غير الله يأتيكم به** ﴾ للتوبيخ ، و« من » مبتدأ و ﴿ **إله** ﴾ خبره و﴿ **غير الله**﴾ صفة للخبر ، ووحد الضمير فى « به » مع أن المرجع متعدد على معنى : فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور . وقيل : الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات . وقيل : إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة ، أى يأتيكم بذلك المذكور، ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر فى تصريف الآيات وعدم قبولهم لها تعجباً له من ذلك، والتصريف : المجىء بها على جهات مختلفة ، تارة إنذار ، وتارة إعذار ، وتارة ترغيب ، وتارة ترهيب .

وقوله : ﴿ **ثم هم يصدفون** ﴾ عطف على نصرف ، ومعنى يصدون : يعرضون ، يقال : صدف عن الشىء: إذا أعرض عنه صدفاً وصدوفاً .

قوله :﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله** ﴾ أى أخبرونى عن ذلك ، وقد تقدم تفسيرالبغتة قريبا أنها الفجأة . قال الكسائى : بغتهم يبغتهم بغتاً وبغتة : إذا أتاهم فجأة ، أى من دون تقديم مقدمات تدل على العذاب . والجهرة أن يأتى العذاب بعد ظهور مقدمات

تدل عليه . وقيل : البغتة : إتيان العذاب ليلا ، والجهرة : إتيان العذاب نهارا ،كما فى قوله تعالى :﴿ بياتا أو نهارا﴾ [يونس : ٥٠] ﴿ **هل يهلك إلا القوم الظالمون** ﴾ الاستفهام للتقرير ، أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون . وقرئ : « يهلك » على البناء للفاعل . قال الزجاج : معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ؟ انتهى .

قوله: ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين** ﴾ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل، أى مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل. وقيل: مبشرين فى الدنيا بسعة الرزق وفى الآخرة بالثواب، ومنذرين: مخوفين بالعقاب ، وهما حالان مقدرتان ،أى ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وإنذارهم ﴿ **فمن آمن وأصلح** ﴾ أى آمن بما جاءت به الرسل ﴿**وأصلح** ﴾ حال نفسه بفعل ما يدعون إليه ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ بحال من الأحوال، هذا حال من آمن وأصلح، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم، أى خروجهم عن التصديق والطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يصدفون** ﴾ قال : يعدلون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يصدفون** ﴾ قال : يعرضون ، وقال فى قوله : ﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة** ﴾ قال : فجأة آمنين ، ﴿ **أو جهرة** ﴾ ، قال : وهم ينظرون . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كل فسق فى القرآن فمعناه الكذب .

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) ﴾ .

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه وتعنتهم، بإنزال الآيات التى تضطرهم إلى الإيمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات ، والمراد : خزائن قدرته التى تشتمل على كل شىء من الأشياء ، ويقول لهم : إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرفهم بما سيكون فى مستقبل الدهر . ﴿ **ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ حتى تكلفونى من

الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر . وليس فى هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم ، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية ؛ بل الكلام فى مثل هذا من الاشتغال بما لا يـعنى ، و« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) . ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع إلا ما يوحيه اللّه إلىّ . وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملا بما يفيده القصر فى هذه الآية ، والمسألة مدونة فى الأصول والأدلة عليها معروفة ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « أوتيت القرآن ومثله معه » (٢) . ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، والمراد : أنه لا يستوى الضال والمهتدى ، أو المسلم والكافر ، أو من اتبع ما أوحى إليه ومن لم يتبعه . والكلام تمثيل ﴿ **أفلا تتفكرون** ﴾ فى ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما فإنه بين لا يلتبس على من له أدنى عقل وأقل تفكر .

قوله : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ الإنذار : الإعلام . والضمـير فى به راجع إلى ﴿ **ما يوحى** ﴾ . وقيل : إلى ﴿ **اللّه** ﴾ وقيل : إلى ﴿ **اليوم الآخر** ﴾ وخص الذين يخافون أن يحشروا ؛ لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف ، خلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به ، وإنكاره له ، فإنه لا يؤثر فيه ذلك . قيل : ومعنى يخافون :يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون . فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين . وقيل : معنى الخوف على حقيقته ، والمعنى : أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبى ﷺ يذكره ، وإن لم يكن مصدقًا به فى الأصل ، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبى ﷺ ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع . قوله : ﴿ **ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال، أى أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولى لهـم يواليهم ، ولا نصير يناصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم من دون اللّه ، وفيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم ، وهم أهل الكتاب ، أو أن أصنامهم تشفع لهم ، وهم المشركون .

قوله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه** ﴾ الدعاء : العبادة مطلقًا . وقيل : المحافظة على صلاة الجماعة . وقيل : الذكر وقراءة القرآن . وقيل : المراد الدعاء للّه بجلب النفع ودفع الضرر. قيل : والمراد بذكر الغداة والعشى : الدوام على ذلك والاستمرار. وقيل : هو على ظاهره ، و ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ فى محل نصب على الحال ،

---

(١) الحديث عن أبى هريرة عند الترمذى فى الزهد (٢٣١٧) وقال : « غريب » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٦) .
(٢) أحمد ٤ / ١٣١ وأبو داود فى السنة (٤٦٠٤) .

والمعنى : أنهم مخلصون فى عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى ، أى يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره .

قوله : ﴿ **ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء** ﴾ هذا كلام معترض بين النهى وجوابه متضمن لنفى الحامل على الطرد ، أى حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شىء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شىء فعلام تطردهم ؟ هذا عن فرض صحة وصف من وصفهم بقوله : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ [هود : ٢٧] وطعن عندك فى دينهم وحسبهم ، فكيف وقد زكاهم الله عز وجل بالعبادة والإخلاص ؟! وهذا هو مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم : ٣٩] وقوله : ﴿ إن حسابهم إلا على ربى ﴾ [الشعراء : ١١٣] قوله : ﴿ **فتطردهم** ﴾ جواب النفى فى قوله : ﴿ **ما عليك من حسابهم من شىء** ﴾ وهو من تمام الاعتراض ، أى إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم فى الدين والفضل و « من » فى :﴿ **ما عليك من حسابهم من شىء** ﴾ للتبعيض والثانية للتوكيد ، وكذا فى : ﴿ **ما من حسابك عليهم من شىء** ﴾ .

قوله : ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ جواب للنهى أعنى ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم** ﴾ أى إن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، وحاشاه عن وقوع ذلك ، وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام كقوله تعالى:﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر: ٦٥] . وقيل : إن ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ معطوف على ﴿ **فتطردهم** ﴾ على طريق التسبب ، والأول أولى .

قوله : ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض** ﴾ أى مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض ، والفتنة: الاختبار ، أى عاملناهم معاملة المختبرين ، واللام فى ﴿ **ليقولوا** ﴾ للعاقبة ، أى ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثانى ﴿ **أهؤلاء** ﴾ الذين ﴿ **مَنَّ الله عليهم من بيننا** ﴾ أى أكرمهم بإصابة الحق دوننا . قال النحاس : وهذا من المشكل ؛ لأنه يقال : كيف فتنوا ليقولوا هذا القول ؟ وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر ، وأجاب بجوابين : الأول : أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار ، والثانى : أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبة هذا القول منهم ، كقوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] قوله : ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ هذا الاستفهام للتقرير. والمعنى :أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له ، فما بالكم تعترضون بالجهل وتنكرون الفضل .

قوله : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا** ﴾ هم الذين نهاه اللّه عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين ، كما سيأتى بيانه ﴿ **فقل سلام عليكم** ﴾ أمره اللّه بأن يقول لهم هذا القول تطييبًا لخواطرهم وإكرامًا لهم . والسلام والسلامة : بمعنى واحد ، فمعنى سلام عليكم : سلمكم اللّه . وقد كان النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام (١) . وقيل : إن هذا السلام هو من جهة اللّه ، أى أبلغهم منا السلام . قوله : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ أى أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان. وقيل : كتب ذلك فى اللوح المحفوظ . قيل : هذا من جملة ما أمره اللّه سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيرًا بسعة مغفرة اللّه وعظيم رحمته.

قوله : ﴿ **أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع بفتح « أن » من ﴿ **أنه** ﴾ وقرأ الباقون بكسرها . فعلى القراءة الأولى : تكون هذه الجملة بدلا من الرحمة ، أى كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره . وعلى القراءة الثانية : تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف ، وموضع بجهالة النصب على الحال، أى عمله وهو جاهل . قيل : والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين ؛ لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل والسفه لا فعل أهل الحكمة والتدبير . وقيل : المعنى : أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة ، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدى إلى الضرر .

قوله : ﴿ **ثم تاب من بعده** ﴾ أى من بعد عمله ﴿ **وأصلح** ﴾ ما أفسده بالمعصية ، فراجع الصواب ، وعمل الطاعة ﴿ **فإنه غفور رحيم** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة من ﴿ **فإنه** ﴾ وقرأ الباقون بالكسر ، فعلى القراءة الأولى : تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى فأمره أن اللّه غفور رحيم ، وهذا اختيار سيبويه ، واختار أبو حاتم أن الجملة فى محل رفع على الابتداء ، والخبر مضمر، كأنه قيل : فله « أنه غفور رحيم » قال : لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء ، وأما على القراءة الثانية : فالجملة مستأنفة .

قوله: ﴿ **وكذلك نفصل الآيات** ﴾ أى مثل ذلك التفصيل نفصلها ، والتفصيل : التبيين ، والمعنى: أن اللّه فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبين لهم حكم كل طائفة. قوله : ﴿ **ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ قال الكوفيون : هو معطوف على مقدر ، أى وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين . قال النحاس : وهذا الحذف لا يحتاج إليه . وقيل : إن دخول الواو للعطف على المعنى . قرئ : ﴿ **لتستبين** ﴾ بالفوقية والتحتية ، فالخطاب على الفوقية : للنبى ﷺ ، أى لتستبين يا محمد سبيل المجرمين ، وسبيل منصوب على قراءة نافع . وأما على

(١) قال عكرمة : نزلت فى الذين نهى اللّه تعالى نبيه ﷺ عن طردهم ، فكان إذا رآهم النبى ﷺ بدأهم بالسلام وقال : « الحمد للّه الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام » . انظر : أسباب النزول للواحدى ص ١٢٥ .

قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص بالرفع ، فالفعل مسند إلى سبيل ، وأما على التحتية : فالفعل مسند إلى سبيل أيضا ، وهى قراءة حمزة والكسائى وشعبة بالرفع ، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ قال : الأعمى : الكافر الذى عمى عن حق الله وأمره ونعمه عليه ، والبصير : العبد المؤمن الذى أبصر بصرًا نافعًا فوحد الله وحده وعمل بطاعة ربه ، وانتفع بما أتاه الله . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ ﴿ **أهؤلاء من الله عليهم من بيننا** ﴾ ؟ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء ؟ اطردهم عنا فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله فيهم القرآن : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ (١) .

وقد أخرج هذا السبب مطولا ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وفيه : إن الذين جاؤوا إلى النبى ﷺ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدى بن الخيار بن نوفل فى أشراف الكفار من عبد مناف (٢) . وأخرجه ابن أبى شيبة وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى الدلائل عن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى ، فذكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطولا (٣) . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر (٤) .

وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجة وغيرهم عن سعد بن أبى وقاص قال : لقد نزلت هذه الآية فى ستة: أنا وعبد الله بن مسعود ، وبلال ، ورجل من هذيل ، ورجلان لست أسميهما، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة**

---

(١) أحمد ١/ ٤٢٠ وابن جرير ٧/ ١٢٧ والطبرانى (١٠٥٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣، ٢٤ : « ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة » .

(٢) ابن جرير ٧/ ١٢٨ .

(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢٥٦٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٢٧) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » وابن جرير ٧/ ١٢٧، ١٢٨ والطبرانى (٣٦٩٣) وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة خباب ١/ ١٤٦، ١٤٧ والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٢، ٣٥٣ . والحديث فى إسناده من تكلم فيهم الحفاظ .

(٤) ابن كثير ٣/ ٢٦ ، ٢٧ .

والعشى ﴾ (١) وقد روى فى بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا فى المعنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بالغداة والعشى** ﴾ **قال** : يعنى الصلاة المكتوبة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : الصلاة المكتوبة الصبح والعصر. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم النخعى فى الآية قال : هم أهل الذكر لا تطردهم عن الذكر . قال سفيان : أى أهل الفقه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض** ﴾ يعنى أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء ، فقال الأغنياء للفقراء : ﴿ **أهؤلاء من الله عليهم من بيننا** ﴾يعنى أهؤلاء هداهم الله،وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ **أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا** ﴾ أى لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ماهان قال : أتى قوم النبى ﷺ ، فقالوا : إنا أصبنا ذنوبًا عظامًا ، فما رد عليهم شيئا فانصرفوا ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا** ﴾ الآية فدعاهم فقرأها عليهم (٢) . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أخبرت أن قوله : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ كانوا إذا دخلوا على النبى ﷺ بدأهم بالسلام ، فقال : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ وإذا لقيهم فكذلك أيضًا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات** ﴾ قال : نبين الآيات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ قال : الذين يأمرونك بطرد هؤلاء .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ .

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤١٣/ ٤٥ ، ٤٦) والنسائى فى التفسير (١٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤١٢٨) وابن جرير ٧/ ١٢٨ وأبو يعلى (٨٢٦) وصححه الحاكم ٣/ ٣١٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى إلا أنه قال: « نزلت فى خمس » وليس فى « ستة » ، والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٣ .

(٢) ابن جرير ٧ / ١٣٢ .

قوله : ﴿ قل إنى نهيت ﴾ أمره اللّه سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ، ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه ويعبدونه من دون اللّه ، أى نهاه اللّه عن ذلك ، وصرفه وزجره، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم :﴿ لا أتبع أهواءكم ﴾ أى لا أسلك المسلك الذى سلكتموه فى دينكم من اتباع الأهواء ، والمشى على ما توجبه المقاصد الفاسدة التى يتسبب عنها الوقوع فى الضلال . قوله : ﴿ قد ضللت إذا ﴾ أى إن اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم وطرد من أردتم طرده ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ إن فعلت ذلك ، وهذه الجملة الإسمية معطوفة على الجملة التى قبلها والمجىء بها إسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات، وقرئ: « ضللت » بفتح اللام وكسرها وهما لغتان . قال أبو عمرو : ضللت بكسر اللام لغة تميم ، وهى قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف ، والأولى هى الأصح والأفصح ؛ لأنها لغة أهل الحجاز ، وهى قراءة الجمهور . قال الجوهرى : والضلال والضلالة ضد الرشاد ، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ ، قال اللّه تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ﴾ [سبأ : ٥٠] قال : فهذه ، يعنى : المفتوحة ، لغة نجد وهى الفصيحة ، وأهل العالية يقول : « ضَلِلْتُ » بالكسر أضَلّ . انتهى (١) .

قوله : ﴿ قل إنى على بينة من ربى ﴾ البينة : الحجة والبرهان ، أى إنى على برهان من ربى ويقين ، لا على هوى وشك ، أمره اللّه سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية ، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التى لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة .قوله : ﴿ وكذبتم به ﴾ أى بالرب أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينة ، والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد ، أى والحال أن قد كذبتم به ، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول اللّه ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة .

قوله: ﴿ ما عندى ما تستعجلون به ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء، نحو قوله :﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ [الإسراء:٩٢] وقولهم:﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾[الأنفال :٣٢] وقولهم:﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الأنبياء : ٣٨] . وقيل : ﴿ ما عندى ما تستعجلون به ﴾ من الآيات التى تقترحونها علىّ .

قوله : ﴿ إن الحكم إلا للّه ﴾ أى ما الحكم فى كل شىء إلا للّه سبحانه ، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب ، أو الآيات المقترحة . والمراد : الحكم الفاصل بين الحق والباطل .

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٤٣٥.

قوله : ﴿ **يقص الحق** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم : ﴿ **يقص** ﴾ بالقاف والصاد المهملة، وقرأ الباقون : « يقضى » بالضاد المعجمة والياء ، وكذا قرأ على وأبو عبد الرحمن السلمى وسعيد بن المسيب ، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء . فعلى القراءة الأولى : هو من القصص ، أى يقص القصص الحق ، أو من قص أثره ، أى يتبع الحق فيما يحكم به . وعلى القراءة الثانية : هو من القضاء ، أى يقضى القضاء بين عباده ، و﴿ **الحق** ﴾ منتصب على المفعولية ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى يقضى القضاء الحق ، أو يقص القصص الحق ﴿ **وهو خير الفاصلين** ﴾ أى بين الحق والباطل بما يقضى به بين عباده ويفصله لهم فى كتابه . ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم : ﴿ **لو أن عندى ما تستعجلون به** ﴾ أى ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدوراً إلىّ وفى وسعى ﴿ **لقضى الأمر بينى وبينكم** ﴾ أى لقضى اللّه الأمر بيننا بأن ينزله اللّه سبحانه بكم بسؤالى له وطلبى ذلك ، أو المعنى : لو كان العذاب الذى تطلبونه وتستعجلون به عندى وفى قبضتى لأنزلته بكم ، وعند ذلك يقضى الأمر بينى وبينكم ﴿ **واللّه أعلم بالظالمين** ﴾ وبالوقت الذى ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجًا لهم وإعذارا إليهم .

قوله : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ المفاتح جمع مفتح بالفتح وهو المخزن ، أى عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة ، أو جمع مِفتح بكسر الميم ، وهو مفتاح ، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما فى المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا ، ويؤيد أنها لجمع مِفتح بالكسر قراءة ابن السَّمَيْفَع : « وعنده مفاتيح الغيب » فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى : إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتيح التى يتوصل بها . وقوله : ﴿ **لا يعلمها إلا هو** ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى ، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشىء من الأمور الغيبية التى استأثر اللّه بعلمها ، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجًا أوليا ، وفى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان، والمنجمين ، والرمليين، وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ : « من أتى كاهنًا أو منجمًا فقد كفر بما أنزل على محمد» (١) .

قوله : ﴿ **ويعلم ما فى البر والبحر** ﴾ خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات اللّه ، أى يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علمًا مفصلا لا يخفى عليه منه شىء ، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ أى من

---

(١) أحمد ٢/ ٤٢٩ عن أبى هريرة والحسن .

ورق الشجر، وهو تخصيص بعد التعميم ، أى يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه . وقيل : المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق . وحكى النقاش عن جعفر بن محمد :أن الورقة يراد بها هنا : السقط من أولاد بنى آدم ، قال ابن عطية : وهذا قول جار على طريقة الرموز ، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغى أن يلتفت إليه ﴿ **ولا حبة** ﴾ كائنة ﴿ **فى ظلمات الأرض** ﴾ أى فى الأمكنة المظلمة . وقيل : فى بطن الأرض ﴿ **ولا رطب ولا يابس** ﴾ بالخفض عطفًا على حبة ، وهى معطوفة على ورقة. وقرأ ابن السميفع والحسن وغيرهما بالرفع عطفًا على موضع ﴿ **من ورقة** ﴾ وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات . قوله : ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾ هو اللوح المحفوظ فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من ﴿ **إلا يعلمها** ﴾.وقيل : هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله : ﴿ **قل إنى على بينة من ربى** ﴾ قال : على ثقة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لقضى الأمر بينى وبينكم** ﴾ قال : لقامت الساعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ قال : يقول: خزائن الغيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ قال: هنّ خمس: ﴿إن اللّه عنده علم الساعة ﴾ إلى قوله: ﴿ عليم خبير ﴾ [لقمان : ٣٤] . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه : لا يعلم ما فى غد إلا اللّه ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه ، ولا يعلم متى يأتى المطر إلا اللّه، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا اللّه ، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا اللّه » (١) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس :﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ قال : ما من شجرة فى بر ولا بحر إلا وبها ملك يكتب ما يسقط من ورقها . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد نحوه .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن جحادة فى قوله : ﴿ **وما تسقط من ورقة** ﴾ قال : للّه تبارك وتعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده ، فذلك قوله : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ . وأخرج الخطيب فى تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من زرع على الأرض ، ولا ثمار على أشجار ، إلا عليها مكتوب بسم اللّه الرحمن الرحيم ، هذا رزق فلان ابن فلان » فذلك قوله تعالى : ﴿ **وما تسقط من** ﴾ الآية (٢) . وقد رواه يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية :

---

(١) أحمد ٢/ ٥٢ ، ٥٨ والبخارى فى التفسير (٤٦٩٧) وابن حبان فى العلم (٧٠ ، ٧١) .

(٢) الخطيب فى تاريخه ، ترجمة : أحمد بن الخليل أبو على التاجر ٤/ ١٣٠ .

﴿ **ولا رطب ولا يابس** ﴾ فقال : الرطب واليابس من كل شيء .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾ .

قوله :﴿ **يتوفاكم بالليل** ﴾ أى ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التى بها تميزون وليس ذلك موتًا حقيقة ، فهو مثل قوله : ﴿ اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ [الزمر : ٤٢] والتوفى : استيفاء الشيء ، وتوفيت الشيء واستوفيته : إذا أخذته أجمع ، قال الشاعر (١) :

إن بنِي الأَدْرَم لَيْسُوا مِنْ أَحدٍ ولا توفاهم قريشٌ فى العَدَد

قيل : الروح إذا خرجت من البدن فى المنام بقيت فيه الحياة . قيل : ولا تخرج منه الروح بل الذهن فقط ، والأولى أن هذا لا يعرفه إلا اللّه سبحانه . قوله : ﴿ **ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾ أى كسبتم بجوارحكم من الخير والشر . قوله : ﴿ **ثم يبعثكم فيه** ﴾ أى فى النهار يعنى اليقظة . وقيل : يبعثكم من القبور فيه ، أى فى شأن ذلك الذى قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : هو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه . وقيل : ثم يبعثكم فيه ، أى فى المنام ، ومعنى الآية : أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم ، فإنه عالم بذلك ولكن ﴿ **ليقضى أجل مسمى** ﴾ أى معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ **ثم إليه مرجعكم**﴾ أى رجوعكم بعد الموت ﴿ **ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

قوله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ المراد : فوقية القدرة والرتبة كما يقال : السلطان فوق الرعية ، وقد تقدم بيانه فى أول السورة . قوله : ﴿ **ويرسل عليكم حفظة** ﴾ أى ملائكة جعلهم اللّه حافظين لكم ، ومنه قوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] بمعنى أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات ويحفظ أعمالكم ، والحفظة : جمع حافظ ، مثل كتبة جمع كاتب ﴿ **وعليكم** ﴾ متعلق بـ﴿ **يرسل** ﴾ لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه ، وأنه أمر حقيق بذلك . وقيل : هو متعلق بحفظة .

(١) هو منظور الوبرى .

قوله: ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا** ﴾ « حتى » يحتمل أن تكون هى الغائية ، أى ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت** ﴾ ويحتمل أن تكون الابتدائية. والمراد: بمجىء الموت مجىء علاماته. وقرأ حمزة : « توفاه رسلنا » وقرأ الأعمش : « تتوفاه » والرسل : هم أعوان ملك الموت ، ومعنى توفته: استوفت روحه ﴿ **لا يفرطون** ﴾ أى لايقصرون ولايضيعون [١] ، وأصله: من التقدم ، وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير : « لا يفرطون » بالتخفيف ، أى لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإهانة .

قوله : ﴿ **ثم ردوا إلى اللّه مولاهم الحق** ﴾ معطوف على توفته ، والضمير راجع إلى أحد لأنه فى معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، أى ردوا بعد الحشر إلى اللّه ، أى إلى حكمه وجزائه ﴿ **مولاهم** ﴾ مالكهم الذى يلى أمورهم ﴿ **الحق** ﴾ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم اللّه. وقرأ الحسن : « الحق » بالنصب على إضمار فعل ، أى أعنى أو أمدح ، أوعلى المصدر ﴿ **وهو أسرع الحاسبين** ﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ :« مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه ، فإذا أذن اللّه فى قبض روحه قبضه وإلا ردّها إليه فذلك قوله تعالى : ﴿ **يتوفاكم بالليل** ﴾ » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : ما من ليلة إلا واللّه يقبض الأرواح كلها فيسأل كل نفس عما عمل صاحبها من النهار ، ثم يدعو ملك الموت فيقول : اقبض روح هذا وما من يوم إلا وملك الموت ينظر فى كتاب حياة الإنسان ، قائل يقول ثلاثًا وقائل يقول خمسًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : أما وفاته إياهم بالليل فمنامهم ، وأما ﴿ **جرحتم بالنهار** ﴾ فيقول :ما اكتسبتم بالنهار ﴿ **ثم يبعثكم فيه** ﴾ قال : فى النهار ﴿ **ليقضى أجل مسمى** ﴾ وهو الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ويعلم ما جرحتم** ﴾ قال : ما كسبتم من الإثم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **ويرسل عليكم حفظة** ﴾ قال : هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال :أعوان ملك الموت من الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وهم لا يفرطون** ﴾ يقول : لا يضيعون .

---

(١) فى المخطوطة : « يضيعون » بدون « لا » ، والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾ .

قيل : المراد بظلمات البر والبحر : شدائدهما . قال النحاس : والعرب تقول : يوم مظلم إذا كان شديدًا ، فإذا عظمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب ، أى يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كواكب . وأنشد سيبويه :

بَنى أَسدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بلاَءنا ... إذا كَانَ يَومٌ ذو كواكب أشْنَعَا (١)

والاستفهام للتقريع والتوبيخ، أى من ينجيكم من شدائدهما العظيمة ؟ قرأ أبو بكر عن عاصم : « خِفية » بكسر الخاء. وقرأ الباقون بضمها ، وهما لغتان. وقرأ الأعمش : « وخيفة » من الخوف . وجملة ﴿ **تدعونه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية ، أو متضرعين ومخفين . والمراد بالتضرع هنا : دعاء الجهر . قوله: ﴿ **لئن أنجيتنا** ﴾ كذا قرأ أهل المدينة ، وأهل الشام ، وقرأ الكوفيون : « لئن أنجانا » والجملة فى محل نصب على تقدير القول ،أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدة التى نزلت بنا ، وهى الظلمات المذكورة ﴿ **لنكونن من الشاكرين** ﴾لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد .

قوله : ﴿ **قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب** ﴾ قرأ الكوفيون وهشام : « يُنَجّيكُمْ » بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقراءة التشديد تفيد التكثير . وقيل : معناهما واحد ، والضمير فى : ﴿ **منها** ﴾ راجع إلى الظلمات . والكرب : الغم يأخذ بالنفس ، ومنه رجل مكروب . قال عنترة :

وَمَكروب كَشَفْتُ الكَرْبَ عَنْهُ ... بطعنةِ فَيْصَلٍ لَما دَعَانى

﴿ **ثم أنتم تشركون** ﴾ بالله سبحانه بعد أن أحسن إليكم (٢) بالخلوص من الشدائد ، وذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم ولا يضرونكم ، ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم ، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿ **هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا** ﴾ أى الذى قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ، ودفع عنكم تلك الكروب ، قادر على أن يعيدكم فى شدة ومحنة وكرب ،

---

(١) الشناعة : الفظاعة .

(٢) فى المطبوعة : « بعد أن أحسن إليك » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

يبعث عذابه عليكم من كل جانب ، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق : ما ينزل من السماء من المطر والصواعق ، والمبعوث من تحت الأرجل : الخسف والزلازل والغرق . وقيل : ﴿ **من فوقكم** ﴾ يعنى الأمراء الظلمة ﴿ **ومن تحت أرجلكم** ﴾ يعنى السفلة ، وعبيد السوء .

قوله :﴿ **أو يلبسكم شيعًا** ﴾ قرأ الجمهور بفتح التحتية ، من لبس الأمر : إذا خلطه . وقرأ أبو عبد الله المدينى بضمها ، أى يجعل ذلك لباسًا لكم . قيل : والأصل : أو يلبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما فى قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ [المطففين : ٣] . والمعنى : يجعلكم مختلطى الأهواء ، مختلفى النحل ، متفرقى الآراء . وقيل : يجعلكم فرقًا يقاتل بعضكم بعضا . والشيع : الفرق ، أى يخلطكم فرقا . قوله : ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ أى يصيب بعضكم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب ﴿ **ويذيق** ﴾ معطوف على ﴿ **يبعث** ﴾ ، وقرئ : « نذيق » بالنون ﴿ **انظر كيف نصرف الآيات** ﴾ نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة ﴿ **لعلهم يفقهون** ﴾ الحقيقة فيعودون إلى الحق الذى بيناه لهم بيانات متنوعة .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر** ﴾ يقول : من كرب البر والبحر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن ابن عباس قال : يقول : إذا أضل الرجل الطريق دعا الله لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله:﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم** ﴾ قال : يعنى من أمرائكم ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ يعنى سفلتكم ﴿ **أو يلبسكم شيعًا** ﴾ يعنى بالشيع :الأهواء المختلفة ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال:يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه من وجه آخر فى تفسير الآية قال:﴿ **عذابًا من فوقكم** ﴾ أئمة السوء ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال:خدم السوء. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضًا من وجه آخر قال:﴿**من فوقكم**﴾من قبل أمرائكم وأشرافكم ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال :من قبل سفلتكم وعبيدكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى مالك ﴿ **عذابا من فوقكم** ﴾ قال : القذف ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : الخسف . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أيضًا ﴿ **من فوقكم** ﴾ قال : الصيحة والحجارة والريح ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : الرجفة والخسف ، وهما عذاب أهل التكذيب ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال :عذاب أهل الإقرار. وأخرج البخارى وغيره عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم** ﴾ قال رسول الله ﷺ :« أعوذ بوجهك » ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ **أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال : « هذا أهون

وأيسر » (١) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم من حديث طويل عن ثوبان ، وفيه : « وسألته : ألا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها » (٢) . وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص ، أن النبى ﷺ أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال : « سألت ربى ثلاثًا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة : سألته ألا يهلك أمتى بالغرق ، وسألته ألا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيهما ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » (٣) . وأخرج أحمد والحاكم وصححه من حديث جابر بن عتيك نحوه (٤) . وأخرج نحوه أيضا ابن مردويه من حديث أبى هريرة . وأخرج أيضا ابن أبى شيبة وابن مردويه من حديث حذيفة بن اليمان نحوه (٥) . وأخرج أحمد والنسائى وابن مردويه عن أنس نحوه أيضا (٦) .

وأخرج أحمد، والترمذى وحسنه، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ فى هذه الآية : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم** ﴾ فقال النبى ﷺ : « أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد» (٧) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية ، والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب فى هذه الآية قال : هن أربع وكلهن عذاب وكلهن واقع لا محالة ، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول اللّه ﷺ بخمس وعشرين سنة ، فألبسوا شيعًا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف والرجم (٨) . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية (٩) .

---

(١) أحمد ٣/ ٣٠٩ والبخارى فى التفسير (٤٦٢٨) وفى الاعتصام (٧٣١٣) وفى التوحيد (٧٤٠٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٥) وقال : « حسن صحيح » وابن حبان فى فضل الأمة (٧١٧٦) والنسائى فى التفسير (١٨٤، ١٨٥) .

(٢) أحمد ٥ / ٢٧٨ ، ٢٨٤ ومسلم فى الفتن (٢٨٨٩ / ١٩) وأبو داود فى الفتن (٤٢٥٢) والترمذى (٢١٧٦) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٢) والبيهقى فى السير ٩ / ١٨١ .

(٣) أحمد ١ / ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ومسلم فى الفتن (٢٨٩٠ / ٢٠) .

(٤) أحمد ٥ / ٤٤٥ وصححه الحاكم ٤ / ٥١٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٥) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٥٥٥) .

(٦) أحمد ٣ / ١٤٦ .

(٧) أحمد ١ / ١٧٠ ، ١٧١ والترمذى فى التفسير (٣٠٦٦) وقال : « حسن غريب » .

(٨) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٤٤٩) وأحمد ٥ / ١٣٤ ، ١٣٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٢٤ : « ورجاله ثقات » ثم قال : « والظاهر أن من قوله : «فمضت اثنتان » إلى آخره من قول « رفيع » فإن أبى بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة واللّه أعلم »، وابن جرير ٧ / ١٤٦ ، ١٤٧ وأبو نعيم فى الحلية ترجمة أبى بن كعب ١ / ٢٥٣ .

(٩) الأحاديث التى ذكرها المؤلف والتى لم يذكرها لا بحال أن يكون تفرق الأمة بعضها على بعض أمرًا لازمًا ، ودائمًا وعامًا ، يشمل كل الأزمنة، وكل الأمكنة ، وكل الأحوال إلى يوم القيامة. . وإلا لم يكن هناك معنى =

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وكذب به قومك** ﴾ الضمير راجع إلى القرآن ، أو إلى العذاب ، وقومه المكذبون : هم قريش . وقيل : كل معاند ، وجملة : ﴿ **وهو الحق** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كذبوا بالقرآن ، أو العذاب ، والحال أنه حق ، وقرأ ابن أبى عبلة : « وكذبت » بالتاء ﴿ **قل لست عليكم بوكيل** ﴾ أى لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها . وقيل: وهذه الآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم فى وسعه.

قوله : ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ أى لكل شىء وقت يقع فيه . والنبأ : الشيء الذى ينبأ عنه. وقيل: المعنى : لكل عمل جزاء . قال الزجاج : يجوز أن يكون وعيدًا لهم بما ينزل بهم فى الدنيا . وقال الحسن : هذا وعيد من الله للكفار؛ لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث ﴿ **وسوف تعلمون** ﴾ ذلك بحصوله ونزوله بهم ، كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبى ﷺ يتوعدهم به .

= لقوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، ولا لقوله سبحانه : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

فالتفرق داء وبيل تصاب به الأمة كلما تهيأت أسبابه ، ولم تتحصن منه بما ينبغى ، كما يصاب الفرد بالمرض إذا أهمل الوقاية ، أو قصر فى العلاج . للتوسع انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للدكتور القرضاوى ص ٤٣ ـ ٤٩ .

قوله : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم** ﴾ الخطاب للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له. والخوض : أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيهًا بغمرات الماء ، فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيل :هو مأخوذ من الخلط ، وكل شيء خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل : خلطه . والمعنى : إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء ، فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم ، حتى يخوضوا فى حديث مغاير له ، أمره اللّه سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التى يستهان فيها بآيات اللّه إلى غاية هى الخوض فى غير ذلك .

وفى هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة ، الذين يحرفون كلام اللّه ، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة ، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم،وذلك يسير عليه غير عسير . وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة ، فيكون فى حضوره مفسدة زائدة ، على مجرد سماع المنكر . وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة مالا يأتى عليه الحصر ، وقمنا فى نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه ، وبلغت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما فى مجالسة من يعصى اللّه بفعل شيء من المحرمات ، ولا سيما بمن كان غير راسخ القدم فى علم الكتاب والسنة ، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ، ما هو من البطلان بأوضح مكان فينقدح فى قلبه ما يصعب علاجه، ويعسر دفعه ، فيعمل بذلك مدة عمره ، ويلقى اللّه به معتقداً أنه من الحق ، وهو من أبطل الباطل ، وأنكر المنكر .

قوله : ﴿ **وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى** ﴾ « إما » هذه هى الشرطية وتلزمها غالبًا نون التأكيد ولا تلزمها نادرًا ، ومنه قول الشاعر :

إِما يصيبك عدو فى منازلة   يَوْمًا فقل كيف يَستعلى ويَنْتَصِرُ

وقرأ ابن عباس : « ينسينك » بتشديد السين ، ومثله قول الشاعر :

وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل

والمعنى : إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت ﴿ **مع القوم الظالمين** ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها . قيل : وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبى ﷺ ؛ فالمراد التعريض لأمته لتنزهه عن أن ينسيه الشيطان . وقيل : لا وجه لهذا ، فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى » [(١)] ، ونحو ذلك .

(١) جزء من حديث رواه عبد اللّه بن مسعود وهو عند : أحمد ١/ ٣٧٩، ٤٢٤ ، ٤٢٨ وأبو داود فى الصلاة (١٠٢٢) والنسائى فى السهو ٣ / ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٠٣) .

قوله : ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء** ﴾ أى ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم فى آيات اللّه من حساب الكفار من شيء . وقيل : المعنى : ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض فى آيات اللّه فى مجالستهم لهم من شيء ، وعلى هذا التفسير ففى الآية الترخيص للمتقين من المؤمنين فى مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى ذلك كما سيأتى عند ذكر السبب . قيل : وهذا الترخيص كان فى أول الإسلام ، وكان الوقت وقت تقية ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات اللّه يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ [النساء : ١٤٠]. فنسخ ذلك قوله : ﴿ **ولكن ذكرى لعلهم** ﴾ : « ذكرى » فى موضع نصب على المصدر ، أو رفع على أنها مبتدأ ، وخبرها محذوف، أى ولكن عليهم ذكرى . وقال الكسائى :المعنى : ولكن هذه ذكرى ، والمعنى على الاستدراك من النفى السابق : أى ولكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز ، أما على التفسير الأول : فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون فى آيات اللّه لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأما على التفسير الثانى : فالترخيص فى المجالسة لا يسقط التذكير ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ الخوض فى آيات اللّه إذا وقعت منكم الذكرى لهم ، وأما جعل الضمير للمتقين فبعيد جدًا .

قوله : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا** ﴾ أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذى كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه لعبًا ولهوًا ، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت وإن كنت مأمورًا بإبلاغهم الحجة . وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال . وقيل : المعنى : أنهم اتخذوا دينهم الذى هم عليه لعبًا ولهوًا ، كما فى فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها .

وقيل : المراد بالدين هنا : العيد ، أى اتخذوا عيدهم لعبًا ولهوًا ، وجملة: ﴿ **وغرتهم الحياة الدنيا** ﴾ معطوفة على : ﴿ **اتخذوا** ﴾ أى غرتهم حتى آثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا : ﴿ إن هى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون : ٣٧] .

قوله : ﴿ **وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت** ﴾ الضمير فى « به » للقرآن ، أو للحساب . والإبسال : تسليم المرء نفسه للهلاك ، ومنه أبسلت ولدى ، أى رهنته فى الدم ؛ لأن عاقبة ذلك الهلاك . قال النابغة :

ونحن رَهَنَّا بالأُفاقة [(١)] عامرًا ... بما كان فى الدرداء رَهْنًا فَأبْسلاَ

أى فهلك ، والدرداء كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم ، فالمعنى : وذكر به خشية أو

---

(١) الأُفاقة : ككناسة : موضع فى أرض الحزن قرب الكوفة ، وفى المطبوعة محرفة حيث قال : « الإفاقة » بكسر الهمزة . والصحيح الضم وهو ما أثبتناه .

مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت، أى ترتهن وتسلم للهلكة ، وأصل الإبسال: المنع ، ومنه شجاع باسل ، أى ممتنع من قرنه.

قوله : ﴿ **وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها** ﴾ العدل : هنا الفدية ، والمعنى : وإن بذلت تلك النفس التى سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك ، وفاعل ﴿ **يؤخذ** ﴾ ضمير يرجع إلى العدل ، لأنه بمعنى المفدى به كما فى قوله : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ [البقرة : ٤٨] . وقيل : فاعله ﴿ **منها** ﴾ لأن العدل هنا مصدر لا يسند إليه الفعل . وكل عدل منصوب على المصدر ، أى عدلا كل عدل ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتخذين دينهم لعبًا ولهوًا ، وخبره ﴿ **الذين أبسلوا بما كسبوا** ﴾ أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا ، و ﴿ **لهم شراب من حميم** ﴾ جواب سؤال مقدر كأنه قيل : كيف حال هؤلاء ؟ فقيل : لهم شراب من حميم ، وهو الماء الحار ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ [الحج : ١٩] وهو هنا : شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم .

قوله : ﴿ **قل أندعو من دون اللّه ما لا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ ، أى كيف ندعوا من دون اللّه أصنامًا لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن أردنا منها نفعًا ، ولا نخشى ضرها بوجه من الوجوه ، ومن كان هكذا فلايستحق العبادة ﴿ **ونردّ على أعقابنا** ﴾ عطف على﴿ **ندعو** ﴾ والأعقاب :جمع عقب ، أى كيف ندعو من كان كذلك ونرجع إلى الضلالة التى أخرجنا اللّه منها . قال أبو عبيدة : يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها : قد ردّ على عقبيه . وقال المبرد :

نعقب بالشر بعد الخير

وأصله من المعاقبة والعقبى ، وهما ما كان تاليًا للشىء واجبًا أن يتبعه ، ومنه : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، ومنه : عقب الرجل ، ومنه العقوبة ؛ لأنها تالية للذنب .

قوله : ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض** ﴾ هوى يهوى إلى الشىء أسرع إليه ، وقال الزجاج : هو من هوى النفس ، أى زين له الشيطان هواه ، و ﴿ **استهوته الشياطين** ﴾ هوت به والكاف فى:﴿ **كالذى** ﴾ إما نعت مصدر محذوف ، أى نرد على أعقابنا ردا كالذى ، أو محل نصب على الحال من فاعل نرد ،أى نرد حال كوننا مشبهين للذى استهوته الشياطين ، أى ذهبت به مردة الجن بعد أن كان بين الإنس . قرأ الجمهور : ﴿ **استهوته** ﴾ وقرأ حمزة : « استهواه » على تذكير الجمع . وقرأ ابن مسعود والحسن : « استهواه الشيطان » وهو كذلك فى قراءة أبى ، و﴿ **حيران** ﴾ حال ، أى حال كونه متحيرًا تائهًا لا يدرى كيف يصنع ؟ والحيران : هو الذى لا يهتدى لجهة ، وقد حار يَحار حَيْرَة وحَيْرورة : إذا تردد ، وبه

سُمى الماء المستنقع الذى لا منفذ له حائرًا .

قوله : ﴿ **له أصحاب يدعونه إلى الهدى** ﴾ صفة لحيران ، أو حالية ، أى له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له : ائتنا فلا يجيبهم ولا يهتدى بهديهم . قوله : ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم : ﴿ **إن هدى اللّه** ﴾ أى دينه الذى ارتضاه لعباده ﴿ **هو الهدى** ﴾ وما عداه باطل ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ [آل عمران : ٨٥] ﴿ **وأمرنا** ﴾ معطوف على الجملة الإسمية، أى من جملة ما أمره اللّه بأن يقوله ، واللام فى: ﴿ **لنسلم** ﴾ هى لام العلة ، والمعلل هو الأمر ، أى أمرنا لأجل نسلم لرب العالمين . وقال الفراء: المعنى: أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول أمرتك لتذهب ، وبأن تذهب بمعنى . وقال النحاس : سمعت ابن كيسان يقول : هى لام الخفض .

قوله : ﴿ **وأن أقيموا الصلاة واتقوه** ﴾ معطوف على : ﴿ **لنسلم** ﴾ على معنى وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ، ويجوز أن يكون عطفًا على : ﴿ **يدعونه** ﴾ على المعنى ، أى يدعونه إلى الهدى ، ويدعونه أن أقيموا ﴿ **وهو الذى إليه تحشرون** ﴾ فكيف تخالفون أمره ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض** ﴾ خلقًا ﴿ **بالحق** ﴾ أوحال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة ؟ قوله: ﴿ **ويوم يقول كن فيكون قوله الحق** ﴾ أى واذكر يوم يقول « كن فيكون» أو اتقوا يوم يقول : كن فيكون وقيل : هو عطف على الهاء فى : ﴿ **واتقوه** ﴾ . وقيل : إن ﴿ **يوم** ﴾ ظرف لمضمون جملة ﴿ **قوله الحق** ﴾ والمعنى : وأمره المتعلق بالأشياء الحق ، أى المشهود له بأنه حق . وقيل : ﴿ قوله ﴾ مبتدأ و﴿ **الحق** ﴾ صفة له و﴿ **يوم يقول كن فيكون** ﴾ خبره مقدمًا عليه، والمعنى : قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون . وقيل : إن ﴿ **قوله** ﴾ مرتفع بـ « يكون » ، و﴿ **الحق** ﴾ صفته ، أى يوم يقول كن يكون قوله الحق . وقرأ ابن عامر : « فنكون » بالنون وهو إشارة إلى سرعة الحساب . وقرأ الباقون بالياء التحتية وهو الصواب .

قوله : ﴿ **وله الملك يوم ينفخ فى الصور** ﴾ الظرف منصوب بما قبله ، أى له الملك فى هذا اليوم . وقيل : هو بدل من اليوم الأول ، والصور : قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، والثانية للإنشاء ، وكذا قال الجوهرى : إن الصور القرن ، قال الراجز :

لَقَدْ نَطَحْنَاهُمْ غَداة الْجَمْعَيْن نَطْحًا شَدِيدًا لا كَنَطْحِ الصُّوَرَيْن

والصور بفتح الصاد وبكسرها لغة، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ :« يوم ينفخ فى الصُّوَر» بتحريك الواو ، جمع صورة ، والمراد : الخلق . قال أبو عبيدة : وهذا وإن كان محتملا يرد بما فى الكتاب والسنة . وقال الفراء : كن فيكون ، يقال : إنه للصور خاصة ، أى ويوم يقول للصور كن فيكون . قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ رفع ﴿ **عالم** ﴾ على أنه صفة للذى خلق السموات والأرض ، ويجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ ، أى هو عالم الغيب

والشهادة ، وروى عن بعضهم أنه قرأ : « ينفخ » بالبناء للفاعل ، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل ﴿ **عالم الغيب** ﴾ ويجوز أن يرتفع بفعل مقدر كما أنشد سيبويه [(١)] :

لِيُبكَ يَزيدٌ ضَارِعٌ لخُصومَة   وَمخْتَبِط مِما تُطيحُ الطَّوائحُ

أى يبكيه مختبط . وقرأ الحسن والأعمش : « عالم » بالخفض على البدل من الهاء فى : ﴿ **له الملك** ﴾ . ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ فى جميع ما يصدر عنه ﴿ **الخبير** ﴾ بكل شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وكذب به قومك** ﴾ يقول : كذبت قريش بالقرآن ﴿ **وهو الحق** ﴾ وأما الوكيل فالحفيظ ، وأما ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ فكان نبأ القوم استقر يوم بدر بما كان بعدهم من العذاب . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ قال : نسخ هذه الآية آية السيف ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ [التوبة : ٥] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ قال : حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ قال : فعل وحقيقة ما كان منه فى الدنيا وما كان منه فى الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم** ﴾ ونحو هذا فى القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا** ﴾ قال : يستهزئون بها ، نهى محمدًا ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى ، فإذا ذكر فليقم وذلك قول الله : ﴿ **فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين ، أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت فى أهل الأهواء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم فى الحلية عن أبى جعفر قال : لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن على قال : إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون فى آيات الله . وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبى ﷺ خاضوا واستهزؤوا ، فقال المسلمون : لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ أيضًا عن السدى أنه قال : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف .

---

(١) هذا البيت للشاعر : الحارث بن نهيك . وصف أنه كان مقيمًا لحجة المظلوم ناصرًا له ، والمختبط : الطالب المعروف ، وتطيح : تذهب وتهلك .

وأخرج النحاس عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء** ﴾ قال : نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية ، وهى قوله : ﴿ **وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا** سمعتم آيات الله يكفر بها ﴾ الآية [النساء : ١٤٠] . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء** ﴾ إن قعدوا ولكن لا يقعدوا . وأخرج ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال : لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا** ﴾ قال : هو مثل قوله : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدًا ﴾ [المدثر : ١١] يعنى أنه للتهديد . وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه عن قتادة فى هذه الآية قال : نسختها آية السيف . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **لعبًا ولهوًا** ﴾ قال: أكلا وشربًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أن تبسل** ﴾ قال: تسلم، وفى قوله: ﴿ **أبسلوا بما كسبوا** ﴾ قال: أسلموا بجرائرهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **قل أندعو من دون الله** ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله للآلهة وللدعاة الذين يدعون إلى الله . وقوله : ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض** ﴾ يقول : أضلته ، وهم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ، ويرى أنه فى شىء ، فيصبح وقد ألقته فى هلكة ، وربما أكلته ، أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشًا . فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله: ﴿ **كالذى استهوته الشياطين** ﴾ قال : هو الرجل لا يستجيب لهدى الله ، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل فى الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه ، و﴿ **له أصحاب يدعونه إلى الهدى** ﴾ ويزعمون أن الذى يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس يقول : ﴿ **إن الهدى هدى الله** ﴾ والضلالة ما تدعو إليه الجن .

وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن عمرو قال : سئل النبى ﷺ عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » [(١)] .

---

(١) ابن المبارك فى الزهد (١٥٩٩) وأبو داود فى السنة (٤٧٤٢) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٠) وفى التفسير (٣٢٤٤) وقال : « حسن » والنسائى فى التفسير (٣٣٢ ، ٤٠١ ، ٤٧٦) وابن حبان فى إخباره عن البعث وأحوال الناس فيه (٧٢٦٨) وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، ٤/ ٥٦٠ ووافقه الذهبى. ورواه كذلك أحمد ٢/ ١٦٢، ١٩٢ والدارمى فى الرقائق٢/ ٣٢٥ وابن جرير١٦/ ٢٤ وأبو نعيم ٧/ ٢٤٣ فى ترجمة مسعر بن كدام .

والأحاديث الواردة فى كيفية النفخ ثابتة فى كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها ها هنا.
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ يعنى : إن عالم الغيب والشهادة هو الذى ينفخ فى الصور .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ .

قوله: ﴿ **لأبيه آزر** ﴾ قال الجوهرى : آزر اسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلانًا : إذا عاونه ، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام . وقال ابن فارس : إنه مشتق من القوة : قال الجوينى فى النكت من التفسير له : ليس بين الناس اختلاف فى أنه اسم والد إبراهيم تارخ ، والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر . وقد تعقب فى دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق والضحاك والكلبى أنه كان له اسمان آزر وتارخ . وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارخ اسم ، وقال سليمان التيمى : إن آزر سب وعتب ، ومعناه فى كلامهم: المعوج. وقال الضحاك: معنى آزر : الشيخ الهرم بالفارسية . وقال الفراء : هى صفة ذم بلغتهم كأنه قال : يا مخطئ . وروى مثله عن الزجاج . وقال مجاهد : هو اسم صنم . وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه : إما للتعيير له لكونه معبوده ، أو على حذف مضاف ، أى قال لأبيه عابد آزر أو أتعبد آزر على حذف الفعل ، وقرأ ابن عباس : « أإزر » بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ، وروى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين ، ومحل ﴿ **إذ قال** ﴾ النصب على تقدير : واذكر إذ قال إبراهيم ، ويكون هذا المقدر معطوفا على ﴿ **قل أندعو من دون الله** ﴾ وقيل : هو معطوف على ﴿ **وذكر به أن تُبسل** ﴾ وآزر عطف بيان .

قوله : ﴿ **أتتخذ أصناما آلهة** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى أتجعلها آلهة لك تعبدها ﴿ **إنى أراك وقومك** ﴾ المتبعين لك فى عبادة الأصنام ﴿ **فى ضلال** ﴾ عن طريق الحق ﴿ **مبين** ﴾ واضح ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم** ﴾ أى ومثل تلك الإراءة نرى إبراهيم،والجملة معترضة ، و﴿ **ملكوت السموات والأرض** ﴾ ملكهما ، وزيدت التاء والواو للمبالغة فى الصفة ، ومثله الرغبوت والرهبوت مبالغة فى الرغبة والرهبة . قيل: أراد بملكوت السموات والأرض ما فيهما من الخلق . وقيل : كشف الله عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى أسفل الأرضين . وقيل : رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه الله فى هذه الآية . وقيل : المراد بملكوتهما : الربوبية والإلهية ،أى نريه ذلك ونوفقه لمعرفته بطريق الاستدلال التى سلكها.ومعنى ﴿ **نرى** ﴾ أريناه ، حكاية حال ماضية .

قوله : ﴿ **وليكون من الموقنين** ﴾ متعلق بمقدر ، أى أريناه ذلك ﴿ **ليكون من الموقنين** ﴾ وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام،والكواكب والشمس والقمر ، فأراد أن ينبههم على الخطأ ، وقيل : إنه ولد فى سرب وجعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يمصها ، وسبب جعله فى السرب:أن النمروذ رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود، والله أعلم.

قوله : ﴿ **فلما جنّ عليه الليل** ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنّةَ والمِجَنْ والجِنُّ كلُّه من الستر . قال الشاعر(١) :

وَلَولا جَنَان اللَّيلِ أَدْرَكَ رَكْضُنَا ... بِذِى الرِّمْث (٢) والأرطى عِياضَ بن ثَابتِ

والفاء للعطف على : ﴿ **قال إبراهيم** ﴾ أى واذكر إذ قال : وإذ جنّ عليه الليل ، فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه ، وجواب لما : ﴿ **رأى كوكبا** ﴾ قيل : رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذى كان فيه . وقيل : رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس . قيل : رأى المشترى . وقيل : الزهرة .

قوله : ﴿ **هذا ربى** ﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال عند رؤية الكوكب ؟ قيل : وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه فى زمن الطفولية . وقيل : أراد قيام الحجة على قومه كالحاكى لما هو عندهم ، وما يعتقدونه ، لأجل إلزامهم ، وبالثانى قال الزجاج. وقيل : هو على حذف حرف الاستفهام ، أى أهذا ربى ؟ ومعناه: إنكار أن يكون مثل هذا ربًا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾[الأنبياء : ٣٤] أى أفهم الخالدون ، ومثله قول الهُذَلى :

رَفَوْنى وَقَالوا يا خُوَيْلدُ لم تُرَعْ ... فَقُلْتُ وَأَنكرْتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

(١) الشاعر : دريد بن الصمة ، وقيل : خفاف بن ندبة .

(٢) الرمث بالكسر : مرعى من مراعى الإبل ، واسم وادكان لبنى أسد ، والأرطى : جمع أرطاة وهو شجر ينبت بالرمل .

أى أهم هم ؟ وقول الآخر (١) :

لَعَمْرُكَ مَا أدْرى وَإن كُنْتُ دَارِيا بسبع رَمينَ الجَمْرَ أمْ بثمانيا

أى أبسبع ،وقيل:المعنى:وأنتم تقولون:هذا ربى،فأضمر القول، وقيل : المعنى على حذف مضاف ، أى هذا دليل ربى ﴿ **فلما أفل** ﴾ أى غرب ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **لا أحب الآفلين** ﴾ أى الآلهة التى تغرب،فإن الغروب تغير من حال إلى حال ، وهو دليل الحدوث ﴿ **فلما رأى القمر بازغًا** ﴾ أى طالعًا ، يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ فى الطلوع ، والبزغ : الشق كأنه (٢) يشق بنوره الظلمة ﴿ **فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى** ﴾ أى لئن لم يثبتنى على الهداية ويوفقنى للحجة ﴿ **لأكونن من القوم الضالين** ﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ، ويحرمونها حظها من الخير﴿ **فلما رأى الشمس بازغة** ﴾ بازغًا وبازغة منصوبان على الحال ؛ لأن الرؤية بصرية،وإنما ﴿ **قال هذا ربى** ﴾ مع كون الشمس مؤنثة؛ لأن مراده هذا الطالع ، قاله الكسائى والأخفش.وقيل:هذا الضوء.وقيل: الشخص ﴿ **هذا أكبر** ﴾ أى بما تقدمه من الكوكب والقمر﴿**قال يا قوم إنى برىء مما تشركون** ﴾أى من الأشياء التى تجعلونها شركاء لله وتعبدونها، وما موصولة أو مصدرية ، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر مستدلا على ذلك بأفولها الذى هو دليل حدوثها ﴿ **إنى وجهت وجهى** ﴾ أى قصدت بعبادتى وتوحيدى الله عز وجل،وذكر الوجه لأنه العضو الذى يعرف به الشخص،أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم ، وقد تقدم معنى ﴿ **فطر السموات والأرض حنيفًا** ﴾ مائلا إلى الدين الحق .

قوله : ﴿ **وحاجه قومه** ﴾ أى وقعت منهم المحاجة له فى التوحيد بما يدل على ما يدعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة ، فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال : ﴿ **أتحاجونى فى الله** ﴾ أى فى كونه لا شريك له ولاند ولا ضدّ . وقرأ نافع بتخفيف نون أتحاجونى . وقرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية ونافع خفف فحذف إحدى النونين وقد أجاز ذلك سيبويه . وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن ، وجملة : ﴿ **وقد هدانى** ﴾ فى محل نصب على الحال أى هدانى إلى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم فى الضلالة والجهالة وعدم الهداية .

قوله : ﴿ **ولا أخاف ما تشركون به** ﴾ قال هذا لما خوّفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه ، أى إنى لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع ، والضمير فى « به » يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المدلول عليها بما فى ﴿ **تشركون به إلا**

(١) الشاعر هو : عمر بن أبى ربيعة .

(٢) فى المطبوعة : «كان » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أن يشاء ربى شيئًا ﴾ أى إلا وقت مشيئة ربى يلحقنى شيئا من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التى لا تضر ولا تنفع ، والمعنى : على نفى حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال ، وإثبات الضرر والنفع للّه سبحانه وصدورهما حسب مشيئته ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **وسع ربى كل شىء علما** ﴾ أى إن علمه محيط بكل شىء فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته ، وإذا شاء إنزال شَر بِى كان ،ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، ثم قال لهم مكملا للحجة عليهم ودافعا لما خوفوه به ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم باللّه ما لم ينزل به عليكم سلطانا** ﴾ أى كيف أخاف مالا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق ، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك باللِه ، وهو الضار ، النافع ، الخالق ، الرازق ، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم و « ما » فى ﴿ **ما لم ينزل به عليكم سلطانا** ﴾ مفعول أشركتم ، أى ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التى لم ينزل بها عليكم سلطانا شركاء للّه ، أو المعنى : أن اللّه سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له ، ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها فكيف عبدوها واتخذوها آلهة وجعلوها شركاء للّه سبحانه ؟

قوله :﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن** ﴾ المراد بالفريقين : فريق المؤمنين ، وفريق المشركين ، أى إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودى هو اللّه المتصف بتلك الصفات ، ومعبودكم هى تلك المخلوقات ، فكيف تخوفونى بها ، وكيف أخافها وهى بهذه المنزلة ولا تخافون من إشراككم باللّه سبحانه ، وبعد هذا فأخبرونى أى الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ بحقيقة الحال وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة ؟ ثم قال اللّه سبحانه قاضيا بينهم ومبينًا لهم : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ أى هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا . وقيل : هومن تمام قول إبراهيم ، وقيل :هو من قول قوم إبراهيم . ومعنى ﴿ **لم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ :لم يخلطوه بظلم ، والمراد بالظلم :الشرك ، لما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول اللّه ﷺ . وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « **ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان:﴿ يا بنى لا تشرك باللّه إن الشرك لظلم عظيم ﴾** »[(١)] [لقمان :١٣]. والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول فى تفسير هذه الآية : وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس [(٢)] . وهو لا يدرى أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا ، وإذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل. والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول المتصف بما سبق. و﴿ **لهم الأمن** ﴾ جملة وقعت خبرًا عن اسم الإشارة . هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ إلى الحق ثابتون عليه وغيرهم على ضلال وجهل .

(١) البخارى فى الإيمان (٣٢) وفى الأنبياء (٣٣٦٠ ،٣٤٢٨ ، ٣٤٢٩) وفى التفسير(٤٦٢٩ ،٤٧٧٦) وفى استتابة المرتدين (٦٩١٨، ٦٩٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٢٤ / ١٩٧ ، ١٩٨) .
(٢) الكشاف ٢/ ٤٣.

والإشارة بقوله : ﴿ **تلك حجتنا** ﴾ إلى ما تقدم من الحجج التى أوردها إبراهيم عليهم ، أى تلك البراهين التى أوردها إبراهيم عليهم من قوله : ﴿ **فلما جنّ عليه الليل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ . ﴿ **تلك حجتنا آتيناها إبراهيم** ﴾ أى أعطيناه إياها وأرشدناه إليها ،وجملة : ﴿ **آتيناها إبراهيم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة ﴿ **على قومه** ﴾ أى حجة على قومه﴿**نرفع درجات من نشاء** ﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة ، أو بما هو أعم من ذلك ﴿ **إن ربك حكيم عليم** ﴾ أى حكيم فى كل ما يصدر عنه ، عليم بحال عباده ، وأن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾ قال: الآزر: الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه يازر ، وأمه اسمها مثلى وامرأته اسمها سارة ، وسريته أم إسماعيل اسمها هاجر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اسم أبيه تارخ ، واسم الصنم آزر . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سليمان التيمى ، أنه قرأ : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾ قال : بلغنى أنها أعوج وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ، أنه قال : إن والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما اسمه تارخ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض** ﴾ قال :الشمس والقمر والنجوم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال فى الآية : كشف ما بين السموات حتى نظر إليهن على صخرة ، والصخرة على حوت ، وهو الحوت الذى منه طعام الناس ، والحوت فى سلسلة ، والسلسلة فى خاتم العزة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : سلطانهما .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **وحاجه قومه** ﴾ يقول :خاصموه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أتحاجونى** ﴾ قال : أتخاصمونى .

وأخرج ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى بكر الصديق أنه فسر ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ بالشرك . وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب . وكذلك أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن حذيفة بن اليمان . وكذلك أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سلمان الفارسى . وكذلك أخرجا أيضا عن أبى بن كعب . وكذلك أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عنه من طريق أخرى عن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ

مثله ، وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك ، ويغنى عن الجميع ما قدمنا عن رسول الله ﷺ فى تفسير الآية كما هو ثابت فى الصحيحين وغيرهما (١) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾ قال : خصمهم . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ قال :بالعلم . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء .

﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ووهبنا له** ﴾ معطوف على جملة :﴿ **وتلك حجتنا** ﴾ عطف جملة فعلية على جملة إسمية. وقيل : معطوف على ﴿ **آتيناها** ﴾ والأول أولى . والمعنى : ووهبنا له ذلك جزاء له على الاحتجاج فى الدين وبذل النفس فيه ، و﴿ **كلا هدينا** ﴾ انتصاب ﴿ **كلا** ﴾ على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للقصر ، أى كل واحد منهما هديناه ، وكذلك نوحًا منصوب بهدينا الثانى أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿ **ومن ذريته** ﴾ أى من ذرية إبراهيم ، وقال الفراء : من ذرية نوح . واختاره ابن جرير الطبرى والقشيرى وابن عطية ، واختار الأول الزجاج ، واعترض عليه بأنه عد من هذه الذرية يونس ولوطًا وما كان من ذرية إبراهيم ، فإن لوطا هو ابن أخى إبراهيم (٢) ، وانتصب ﴿ **داود وسليمان** ﴾ بفعل مضمر ، أى وهدينا من ذرية داود وسليمان وكذلك ما بعدها ، وإنما عدَّ اللّه سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التى عددها على إبراهيم ؛ لأن شرف الأبناء متصل بالآباء . ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ فى قوله : ﴿ **ونوحًا هدينا من قبل** ﴾ أى من قبل إبراهيم ، والإشارة بقوله : ﴿ **وكذلك** ﴾ إلى مصدر الفعل

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) والعرب تجعل العم أبا كما أخبر اللّه عن ولد يعقوب أنهم قالوا : ﴿ **نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق** ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

المتأخر ، أى ومثل ذلك الجزاء ﴿ **نجزى المحسنين** ﴾ .

﴿ **وإلياس** ﴾ قال الضحاك : هو من ولد إسماعيل ، وقال القتيبى : هو من سبط يوشع ابن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقتادة : « والياس » بوصل الهمزة ، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم : « واليسع » مخففا . وقرأ الكوفيون إلا عاصمًا بلامين ، وكذلك قرأ الكسائى ورد القراءة الأولى ، ولا وجه للرد فهو اسم أعجمى ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس بل تؤدى على حسب السماع ، ولا يمتنع أن يكون فى الاسم لغتان للعجم ، أو تغيره العرب تغييرين : قال المهدوى من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع، والألف واللام مزيدتان، كما فى قول الشاعر(١):

رأيت الوَلِيد بنَ اليَزِيدَ مُبَارَكًا   شديدًا بأعباء الخلافة كَاهله

ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع ، وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم فإن اللّه أفرد كل واحد منهما، وقال وهب : اليسع صاحب إلياس ، وكانوا قبل يحيى وعيسى وزكريا . وقيل : إلياس هو إدريس ، وهذا غير صحيح ؛ لأن إدريس جد نوح وإلياس من ذريته . وقيل : إلياس هو الخضر . وقيل : لا بل اليسع هو الخضر ﴿ **وكلا فضلنا على العالمين** ﴾ أى كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمى زمانه والجملة معترضة .

قوله :﴿ **ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم** ﴾ أى هدينا و« من » للتبعيض، أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وأزواجهم ﴿ **واجتبيناهم** ﴾ معطوف على فضلنا . والاجتباء : الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار ، مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته ، فالاجتباء : ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك . قال الكسائى : جبيت الماء فى الحوض جبًا مقصورة ، والجابية الحوض ، قال الشاعر (٢) :

كجابية الشيخ العراقى تفهق (٣)

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك هدى اللّه** ﴾ إلى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿ **يهدى به** ﴾ اللّه ﴿ **من يشاء من عباده** ﴾ وهم الذين وفقهم للخير واتباع الحق ﴿**ولو أشركوا** ﴾ أى هؤلاء المذكورون بعبادة غير اللّه ﴿ **لحبط عنهم** ﴾ من حسناتهم ﴿ **ما كانوا يعملون** ﴾ والحبوط : البطلان . وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ إلى الأنبياء المذكورين سابقا ، أى جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين ﴿ **والحكم** ﴾ العلم ﴿ **والنبوة** ﴾ الرسالة ، أى ما هو أعم من ذلك ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء** ﴾ الضمير فى بها للحكم والنبوة والكتاب ، أو للنبوة فقط ، والإشارة بهؤلاء

---

(١) الشاعر هو ابن ميادة .

(٢) الشاعر : أعشى قيس .

(٣) هذا عجز البيت وصدره :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة

والجفنة : القصعة . والفهق : الامتلاء .

إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ ﴿ **فقد وكلنا بها قومًا** ﴾ هذا جواب الشرط ، أى ألزمنا بالإيمان بها قومًا ﴿ **ليسوا بها بكافرين** ﴾ وهم المهاجرون والأنصار أوالأنبياء المذكورون سابقًا ، وهذا أولى لقوله فيما بعد : ﴿ **أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده** ﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار ، إذ لا يصح أن يؤمر النبى ﷺ بالاقتداء بهداهم ، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء . والاقتداء : طلب موافقة الغير فى فعله. وقيل : المعنى :اصبر كما صبروا . وقيل : اقتد بهم فى التوحيد ، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة ، وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص .

قوله : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ أمره اللّه بأن يخبرهم بأنه لا يسألهم أجرًا على القرآن ، وأن يقول لهم ما ﴿ **هو إلا ذكرى** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **للعالمين** ﴾ أى موعظة وتذكير للخلق كافة ، الموجودين عند نزوله ، ومن سيوجد من بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال :الخال والد ، والعم والد ، نسب اللّه عيسى إلى أخواله فقال : ﴿ **ومن ذريته** ﴾ حتى بلغ إلى قوله : ﴿ **وزكريا ويحيى وعيسى** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقى عن عبد الملك بن عمير قال : دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فذكر الحسين ، فقال الحجاج :لم يكن من ذرية النبى، فقال يحيى: كذبت ، فقال : لتأتينى على ما قلت ببينة ، فتلا : ﴿ **ومن ذريته** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وعيسى** ﴾ فأخبر اللّه بأن عيسى من ذرية آدم بأمه ، فقال : صدقت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى تجده فى كتاب الله ؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ، فذكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **واجتبيناهم** ﴾ قال :أخلصناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ قال : يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : الحكم : اللب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء** ﴾ يعنى أهل مكة ، يقول : إن يكفروا بالقرآن ﴿ **فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين** ﴾ يعنى أهل المدينة والأنصار . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فقد وكلنا بها قومًا** ﴾ قال : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم : ﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رجاء العطاردى قال فى الآية:هم الملائكة.وأخرج البخارى والنسائى وغيرهما عن ابن عباس فى قوله:

﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ قال: أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهداهم وكان يسجد فى ص[(١)]، ولفظ ابن أبى حاتم عن مجاهد: سألت ابن عباس عن السجدة التى فى ص، فقال: هذه الآية، وقال: أمر نبيكم أن يقتدى بداود عليه السلام[(٢)]. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرًا**﴾ قال: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضًا من عروض الدنيا .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ قدرت الشيء وقدرته : عرفت مقداره ، وأصله : الستر ، ثم استعمل فى معرفة الشيء ، أى لم يعرفوه حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل، وإنزاله للكتب . وقيل : المعنى: وما قدروا نعم اللّه حق تقديرها . وقرأ أبو حيوة : « وما قدروا اللّه حق قدره » بفتح الدال : وهى لغة ، ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم من اليهود أمر اللّه نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها ، فقال : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ وهم يعترفون بذلك ويذعنون له، فكان فى هذا من التبكيت لهم والتقريع مالا يقادر قدره ، مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه ، من وقوع إنزال اللّه على البشر، وهم الأنبياء عليهم السلام ، فبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم . وقيل : إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش ، فيكون إلزامهم بإنزال اللّه الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ،

(١) أحمد ١/ ٢٧٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ والبخارى فى سجود القرآن (١٠٦٩) وفى الأنبياء (٣٤٢٢) وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٩) والترمذى فى الصلاة (٥٧٧) وقال : « حسن صحيح » كلهم أخرجوه مختصرا ، والنسائى فى التفسير (١٩٠) بلفظ قريب من نصه هنا .

(٢) أحمد ١/ ٣٦٠ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٢١) وفى التفسير (٤٦٣٢، ٤٨٠٦، ٤٨٠٧) والنسائى فى التفسير (١٨٩) وابن خزيمة (٥٥٢) وابن حبان (٢٧٥٥) .

ويعلمونه بالأخبار من اليهود ، وقد كانوا يصدقونهم ،و﴿ **نوراً وهدى** ﴾ منتصبان على الحال ، و﴿ **للناس** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لهدى ، أى كائنًا للناس .

قوله : ﴿ **تجعلونه قراطيس** ﴾ أى تجعلون الكتاب الذى جاء به موسى فى قراطيس تضعونه فيها ليتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل ، وكتم صفة النبى ﷺ المذكورة فيه ، وهذا ذم لهم ، والضمير فى : ﴿ **تبدونها** ﴾ راجع إلى القراطيس ، وفى ﴿ **تجعلونه** ﴾ راجع إلى الكتاب، وجملة :﴿ **تجعلونه** ﴾ فى محل نصب على الحال، وجملة:﴿ **تبدونها** ﴾ صفة لقراطيس ﴿ **وتخفون كثيراً** ﴾ معطوف على ﴿ **تبدونها** ﴾ أى وتخفون كثيرًا منها،والخطاب فى : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ لليهود ، أى والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقررة لما قبلها ، والذى علموه هو الذى أخبرهم به نبينا محمد ﷺ من الأمور التى أوحى اللّه إليه بها، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم ولا على لسان أنبيائهم ،ولا علمه آباؤهم ويجوز أن تكون « ما » فى ﴿ **مالم تعلموا** ﴾ عبارة عما علموه من التوراة ، فيكون ذلك على وجه المن عليهم بإنزال التوراة.وقيل : الخطاب للمشركين من قريش وغيرهم ، فتكون « ما » عبارة عما علموه من رسول اللّه ﷺ ، ثم أمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذى ألزمهم به حيث قال : ﴿ **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ فقال : ﴿ **قل اللّه** ﴾ أى أنزله اللّه ﴿ **ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ أى ذرهم فى باطلهم حال كونهم يلعبون ، أى يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون .

قوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ هذا من جملة الرد عليهم فى قولهم : ﴿ **ما أنزل اللّه على بشر من شىء** ﴾ أخبرهم بأن اللّه أنزل التوراة على موسى ، وعقبه بقوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه** ﴾ يعنى على محمد ﷺ فكيف تقولون : ﴿ **ما أنزل اللّه على بشر من شىء** ﴾؟ ومبارك ومصدق صفتان لكتاب ، والمبارك : كثير البركة ، والمصدق : كثير التصديق ، والذى بين يديه : ما أنزل اللّه من الكتب على الأنبياء من قبله : كالتوراة والإنجيل ، فإنه يوافقها فى الدعوة إلى اللّه وإلى توحيده ، وإن خالفها فى بعض الأحكام .

قوله : ﴿ **ولتنذر** ﴾ قيل : هو معطوف على ما دل عليه ، مبارك كأنه قيل : أنزلناه للبركات ولتنذر ، وخص أم القرى وهى مكة ؛ لكونها أعظم القرى شأنًا ولكونها أول بيت وضع للناس ، ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم ، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض ، والمراد بمن حولها : جميع أهل الأرض ، والمراد بإنذار أم القرى : إنذار أهلها وأهل سائر الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية ﴿ **والذين يؤمنون بالآخرة** ﴾ مبتدأ ، و﴿ **يؤمنون به** ﴾ خبره والمعنى : أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب ، ويصدق ويعمل بما فيه ؛ لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها ، ويندفع به ضرها . وجملة : ﴿ **وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وخص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات ؛ لكونها عمادها وبمنزلة الرأس

لها .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله ، أى كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شىء وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا فزعم أنه نبى وليس بنبى ، أو كذب على الله فى شىء من الأشياء ﴿ **أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء** ﴾ أى والحال أنه لم يوح إليه شىء ،وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم ، وإنما هذا شأن الكذابين رؤوس الإضلال كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، وسجاح .

قوله : ﴿ **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** ﴾ معطوف على ﴿ **من افترى** ﴾ أى ومن أظلم ممن افترى أو ممن قال : أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ، أو ممن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهم القائلون :﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] وقيل : هو عبد الله بن أبى سرح (١)، فإنه كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فأملى عليه رسول الله ﷺ: ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ فقال عبد الله :﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤] فقال رسول الله ﷺ : «هكذا أنزلت » فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقًا لقد أوحى إلى كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذبًا لقد قلت كما قال: ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف. ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، والمراد كل ظالم ، ويدخل فيه الجاحدون لما أنزل الله والمدعون للنبوات افتراء على الله دخولاً أوليًا ، وجواب « لو » محذوف ، أى لرأيت أمرًا عظيمًا . والغمرات جمع غمرة : وهى الشدة ، وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ومنه غمرة الماء ، ثم استعملت فى الشدائد ، ومنه غمرة الحرب . قال الجوهرى : والغَمْرة: الشدة ، والجمع غمر : مثل نَوْبة ونُوب ، وجملة : ﴿ **والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ فى محل نصب ، أى والحال أن الملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواح الكفار. وقيل : للعذاب ، وفى أيديهم مطارق الحديد ، ومثله قوله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

قوله : ﴿ **أخرجوا أنفسكم** ﴾ أى قائلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها إلينا لنقبضها ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم ، أو أرادوا باليوم الوقت الذى يعذبون فيه الذى مبدؤه عذاب القبر ، والهون والهوان بمعنى ، أى

---

(١) راجع كلمة وافية عن عبد الله بن أبى سرح فى كتابنا : رجال أنزل الله فيهم قرآنا . ط . دار الجيل ، لبنان «المحقق » .

اليوم تجزون عذاب الهوان الذى تصيرون به فى إهانة ومذلة ، بعد ما كنتم فيه من الكبر والتعاظم ، والباء فى : ﴿ **بما كنتم تقولون على اللّه غير الحق** ﴾ للسببية ، أى بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال اللّه كتبه على رسله والإشراك به ﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ عن التصديق لها والعمل بها فكان ما جوزيتم به من عذاب الهون ، جزاءً وفاقا .

قوله : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى** ﴾ قرأ أبو حيوة : « فرادى » بالتنوين ، وهى لغة تميم ، وقرأ الباقون بألف التأنيث للجمع فلم ينصرف . وحكى ثعلب : « فراد » بلا تنوين مثل : ثلاث ورباع ، وفرادى جمع فرد،كسكارى جمع سكران وكسالى جمع كسلان ، والمعنى : جئتمونا منفردين واحدًا واحدًا كل واحد منفرد عن أهله وماله ، وما كان يعبده من دون اللّه فلم ينتفع بشىء من ذلك ﴿ **كما خلقناكم أول مرة** ﴾ أى على الصفة التى كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم ، والكاف نعت مصدر محذوف، أى جئتمونا مجيئًا مثل مجيئكم عند خلقنا لكم ، أوحال من ضمير﴿ **فرادى** ﴾ أى متشابهين ابتداء خلقنا لكم ﴿ **وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ أى أعطيناكم . والخول : ما أعطاه اللّه للإنسان من متاع الدنيا ، أى تركتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشىء منه ، ولا انتفعتم به بوجه من الوجوه ﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم الذين** ﴾ عبدتموهم وقلتم:﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى ﴾ [الزمر : ٣] و﴿ **زعمتم أنهم فيكم شركاء** ﴾ للّه يستحقون منكم العبادة كما يستحقها .

قوله :﴿ **لقد تقطع بينكم** ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص بنصب ﴿ **بينكم** ﴾ على الظرفية ، وفاعل ﴿ **تقطع** ﴾ محذوف ، أى تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم كما يدل عليه ﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم** ﴾ وقرأ الباقون بالرفع على إسناد التقطع إلى البين ، أى وقع التقطع بينكم ، ويجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع فى إسناد الفعل إلى الظرف ، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفًا . وقرأ ابن مسعود :« لقد تقطع ما بينكم » على إسناد الفعل إلى « ما » أى الذى بينكم ﴿ **وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ من الشركاء والشرك وحيل بينكم وبينهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ قال :هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة اللّه ، فمن آمن أن اللّه على كل شىء قدير . قد قدر اللّه حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر اللّه حق قدره إذ قالوا : ما أنزل اللّه على بشر من شىء . قالت اليهود:يا محمد ، أنزل الله عليك كتابا ؟ قال : « نعم ».قالوا : والله ما أنزل اللّه من السماء كتابًا ، فأنزل اللّه : ﴿ **قل** ﴾ يا محمد : ﴿ **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ إلى آخر الآية (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره إذ قالوا ما أنزل اللّه على بشر من شىء** ﴾ قالها

(١) ابن جرير ٧/ ١٧٧ مختصراً .

مشركو قريش . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : قال فنحاص اليهودى : ما أنزل اللّه على محمد من شيء ، فنزلت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت فى مالك بن الصيف (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن اللّه يبغض الحبر السمين ؟ » وكان حبرًا سمينًا فغضب وقال : واللّه ما أنزل اللّه على بشر من شيء ، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى ؟ قال : ما أنزل اللّه على بشر من شيء ، فنزلت (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تجعلونه قراطيس** ﴾ قال:اليهود ، وقوله : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ قال : هذه للمسلمين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وعلمتم مالم تعلموا** ﴾ قال : هم اليهود آتاهم اللّه علما فلم يقتدوا به ولم يأخذوا به ولم يعملوا به ، فذمهم اللّه فى علمهم ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ قال : هو القرآن الذى أنزله اللّه على محمد ﷺ . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ﴿ **مصدق الذى بين يديه** ﴾ أى من الكتب التى قد خلت قبله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **ولتنذر أم القرى** ﴾ قال : مكة ومن حولها . قال : يعنى ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : إنما سميت أم القرى ؛ لأن أول بيت وضعت بها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولتنذر أم القرى** ﴾ قال : هى مكة ، قال : وبلغنى أن الأرض دحيت من مكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار نحوه . وأخرج الحاكم فى المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال : نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبًا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء** ﴾ الآية . فلما دخل رسول اللّه ﷺ مكة فرّ إلى عثمان أخيه من الرضاعة فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة ، ثم استأمن له (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى خلف الأعمى : أنها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح . وكذلك روى ابن أبى حاتم عن السدى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء** ﴾ قال : نزلت فى مسيلمة الكذاب ونحوه ممن

(١) ابن جرير ٧/ ١٧٦ ، ١٧٧ . (٢) المرجع السابق ٧/ ١٧٦ .
(٣) الحاكم فى المستدرك ٣/ ٤٥ ، ٤٦ وسكت عنه وكذلك الذهبى .

دعا إلى مثل ما دعا إليه ﴿ **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** ﴾ قال: نزلت فى عبد الله بن سعد ابن أبى سرح . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه (١) . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت : ﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا ﴾ [المرسلات : ١ ، ٢] . قال النضر وهو من بنى عبد الدار : والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا قولا كثيرا ، فأنزل الله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ الآية : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **غمرات الموت** ﴾ قال : سكرات الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال فى قوله : ﴿ **والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ هذا عند الموت ، والبسط : الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [محمد : ٢٧] . وأخرج أبو الشيخ عنه قال فى الآية : هذا ملك الموت عليه السلام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ قال : بالعذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عذاب الهون** ﴾ قال : الهوان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : قال النضر بن الحارث : سوف تشفع لى اللات والعزى ، فنزلت : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى** ﴾ الآية ، قال : كيوم ولد يردّ عليه كل شىء نقص منه يوم ولد (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وتركتم ما خولناكم** ﴾ قال : من المال والخدم ﴿ **وراء ظهوركم** ﴾ قال : فى الدنيا ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **لقد تقطع بينكم** ﴾ قال : تواصلكم فى الدنيا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ .

---

(١) المرجع السابق ٧/ ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ٥ / ١٨٩ .

قوله : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ هذا شروع فى تعداد عجائب صنعه تعالى ، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه ، والفلق : الشق ، أى هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبات ، وفالق النوى فيخرج منه الشجر. وقيل : معنى ﴿ **فالق الحب والنوى** ﴾ : الشق الذى فيهما من أصل الخلقة. وقيل :معنى ﴿ **فالق** ﴾ خالق . والنوى : جمع نواة ، يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر ، والمشمش ، والخوخ .

قوله : ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر فهى فى محل رفع . وقيل : هى جملة مفسرة لما قبلها ؛ لأن معناها معناه ، والأول أولى ، فإن معنى ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ :يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهى ميتة. ومعنى ﴿ **ومخرج الميت من الحى** ﴾ : مخرج النطفة والبيضة وهى ميتة من الحى ، وجملة : ﴿ **ومخرج الميت من الحى** ﴾ معطوفة على ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ عطف جملة إسمية على جملة فعلية ، ولا ضير فى ذلك . وقيل : معطوفة على ﴿ **فالق** ﴾ على تقدير أن جملة : ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ مفسرة لما قبلها ، والأول أولى ، والإشارة بـ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً و﴿ **الله** ﴾ خبره ، والمعنى : أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال ، والمُفْضِل بكل إفضال ، والمستحق لكل حمد وإجلال ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته ؟ ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ مرتفع على أنه من جملة أخبار « إنّ » فى ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾. وقيل: هو نعت للاسم الشريف فى ﴿ **ذلكم الله** ﴾ وقرأ الحسن وعيسى بن عمر : « فالق الأصباح » بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بكسرها، وهو على قراءة الفتح جمع صبح ، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح. والصبح والصباح: أول النهار ، وكذا الإصباح ، وقرأ النخعى : « فلق الإصباح » بفعل وهمزة مكسورة . والمعنى فى : ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه ، أو يكون المعنى على حذف مضاف ، أى فالق ظلمة الإصباح ، وهى الغبش ، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار ؛ لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وعاصم وحمزة والكسائى : ﴿ **وجعل الليل سكنًا** ﴾ حملا على معنى :﴿ **فالق** ﴾ عند حمزة والكسائى ، وأما عند الحسن وعيسى فعطفا على « فلق » . وقرأ الجمهور : « وجاعل » عطفاً على ﴿ **فالق** ﴾ وقرئ : « فالق ، وجاعل » بنصبهما على المدح . وقرأ يعقوب : « وجاعل الليل ساكنا » . والسكن محل السكون ، من سكن إليه : إذا اطمأن إليه ؛ لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة فى معاشهم ويستريحون من التعب والنصب .

قوله : ﴿ **والشمس والقمر حسبانا** ﴾ بالنصب على إضمار فعل ، أى وجعل الشمس والقمر ، وبالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره: والشمس والقمر مجعولان حسبانا ، وبالجر عطفا على الليل على قراءة من قرأ :« وجاعل الليل » ، قال الأخفش : والحسبان :

جمع حساب ، مثل شهبان وشِهاب . وقال يعقوب : حُسبان مصدر حَسَبْت الشىء أحسُبه حِسابًا وحُسبانًا . والحساب : الاسم . وقيل : الحسبان بالضم : مصدر حسب بالفتح ، والحِسبان بالكسر : مصدر حسب . والمعنى : جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه. وقيل: الحُسبان : الضياء ، وفى لغة : أن الحسبان النار ومنه قوله تعالى : ﴿ ويرسل عليها حسبانا من السماء ﴾ [الكهف : ٤٠] والإشارة بـ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل ، أو يجعل على القراءتين . والعزيز: القاهر الغالب. والعليم : كثير العلم ، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم .

قوله : ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ أى خلقها للاهتداء بها ﴿ **فى ظلمات** ﴾ الليل عند المسير ﴿ **فى البر والبحر** ﴾ وإضافة الظلمات إلى البر؛ لكونها ملابسة لهما ، أو المراد بالظلمات : اشتباه طرقهما التى لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التى خلقها الله لها، ومنها ما ذكره الله فى قوله : ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ [الصافات : ٧] ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين﴾ [الملك : ٥] ومنها : جعلها زينة للسماء ، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿ **قد فصلنا الآيات** ﴾ التى بيناها بيانًا مفصلاً لتكون أبلغ فى الاعتبار ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ بما فى هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته .

قوله : ﴿ **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة** ﴾ أى آدم عليه السلام كما تقدم . وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعى بكسر القاف والباقون بفتحها، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف، والتقدير: فمنكم مستقر أوفلكم مستقر ؛ التقدير الأول على القراءة الأولى ، والثانى على الثانية ، أى فمنكم مستقر على ظهر الأرض ، أو فلكم مستقر على ظهرها ، ومنكم مستودع فى الرحم،أو فى باطن الأرض ، أو فى الصلب . وقيل : المستقر فى الرحم ، والمستودع فى الأرض . وقيل : المستقر فى القبر . قال القرطبى : وأكثر أهل التفسير يقولون : المستقر ما كان فى الرحم ، والمستودع ما كان فى الصلب . وقيل : المستقر من خلق ، والمستودع من لم يخلق . وقيل : الاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبور إلى المبعث (١) . ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : ٣٦] وذكر سبحانه هاهنا ﴿ **يفقهون** ﴾ وفيما قبله ﴿ **يعلمون** ﴾ لأن فى إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقراً وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ما ليس فى خلق النجوم للاهتداء ،فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تدقيق ،

---

(١) القرطبى ٤ / ٢٤٨٢ ، ٢٤٨٣ .

وإمعان فكر .

قوله : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء** ﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته . والماء هو ماء المطر ، وفى ﴿ **فأخرجنا به** ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ، إظهاراً للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه ، والضمير فى « به » عائد إلى الماء ، و﴿ **نبات كل شىء** ﴾ يعنى كل صنف من أصناف النبات المختلفة. وقيل : المعنى: رزق كل شىء ، والتفسير الأول أولى ، ثم فصل هذا الإجمال فقال : ﴿ **فأخرجنا منه خضراً** ﴾ قال الأخفش: أى أخضر . والخضر : رطب البقول ، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة. وقيل :يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب ﴿ **نخرج منه حبًا** ﴾ هذه الجملة صفة لـ ﴿**خضر** ﴾ ، أى نخرج من الأغصان الخضرحبًا متراكبًا ، أى مركبا بعضه على بعض كما فى السنابل ﴿ **ومن النخل** ﴾ خبر مقدم و﴿ **من طلعها** ﴾ بدل منه ، وعلى قراءة من قرأ : « يخرج منه حب » يكون ارتفاع ﴿ **قنوان** ﴾ على أنه معطوف على حب ، وأجاز الفراء فى غير القرآن « قِنْوانًا » عطفا على ﴿**حبا** ﴾ ، وتميم يقولون : قنيان . وقرئ بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز . والطَّلْع : الكُفُرَّى قبل أن ينشق عن الإغريض ، والإغريض يسمى طلعًا أيضًا . والقنوان : جمع قِنْو . والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثنى مكسور النون ، والجمع على ما يقتضيه الإعراب ، ومثله صنوان ، والقِنْو : العذْق . والمعنى : أن القنوان : أصله من الطلع . والعذق : هو عنقود النخل ، وقيل : القنوان : الجمار. والدانية : القريبة التى ينالها القائم والقاعد . قال الزجاج : المعنى : منها دانية ومنها بعيدة فحذف ، ومثله ﴿ سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل:٨١] وخص الدانية بالذكر؛ لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان ، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر .

قوله : ﴿ **وجنات من أعناب** ﴾ قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى والأعمش وعاصم فى قراءته الصحيحة عنه برفع « جنات » ، وقرأ الباقون بالنصب . وأنكر القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم ؛ حتى قال أبو حاتم : هى محال ، لأن الجنات لا تكون من النخل .قال النحاس: ليس تأويل الرفع على هذا ولكنه رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أى ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء ﴿ وحور عين ﴾ [الواقعة : ٢٢] وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائى والفراء ، وأما على النصب فقيل : هو معطوف على ﴿ **نبات كل شىء** ﴾ أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب أو النصب بفعل يقدر متأخراً ، أى وجنات من أعناب أخرجناها ، وهكذا القول فى انتصاب الزيتون والرمان . وقيل : هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين ، و﴿ **مشتبهًا** ﴾ منتصب على الحال ، أى كل واحد منهما يشبه بعضه بعضا فى بعض أوصافه ، ولا يشبه بعضه بعضًا فى البعض الآخر ، وقيل : إن أحدهما يشبه الآخر فى الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن وباعتبار حجمه،ولا يشبه أحدهما الآخر فى الطعم ، وقيل : خص الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما فى قول الله سبحانه : ﴿ أفلا ينظرون إلى

الإبل كيف خلقت ﴾ [الغاشية : ١٧] ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر ، وإلى ينعه إذا أينع . والثمر فى اللغة : جنى الشجر . واليانع : الناضج الذى قد أدرك وحان قطافه . قال ابن الأنبارى : الينع : جمع يانع ، كركب وراكب ، وقال الفراء : أينع : احمرّ . قرأ حمزة والكسائى :« ثمره » بضم الثاء والميم ، وقرأ الباقون بفتحها ، إلا الأعمش فإنه قرأ « ثمره » بضم الثاء وسكون الميم تخفيفاً . وقرأ محمد بن السميفع ، وابن محيصن ، وابن أبى إسحاق : « وينعه » بضم الياء التحتية . قال الفراء : هى لغة بعض أهل نجد ، وقرأ الباقون بفتحها ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن فى ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم ذكره مجملاً ومفصلاً ﴿ **لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ بالله استدلالا بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التى قصها عليهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ يقول : خلق الحب والنوى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : يفلق الحب والنوى عن النبات . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الشقان اللذان فيهما . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ قال : النخلة من النواة ، والسنبلة من الحبة ﴿ **ومخرج الميت من الحى** ﴾ قال : النواة من النخلة ، والحبة من السنبلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى** ﴾ قال : الناس الأحياء من النطف، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أى فكيف تكذبون ، وأخرج أيضا عن الحسن قال : أنى تصرفون .

وأخرج أيضا عن ابن عباس فى ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ قال : خلق الليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : يعنى بالإصباح ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ قال : إضاءة الفجر . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ قال : فالق الصبح . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وجاعل الليل سكنا** ﴾ قال : سكن فيه كل طير ودابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **والشمس والقمر حسبانا** ﴾ يعنى : عدد الأيام والشهور والسنين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ قال : يضل الرجل ، وهو فى الظلمة والجور عن الطريق . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر والخطيب فى كتاب النجوم عن عمر بن الخطاب قال : تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى بركم وبحركم ثم أمسكوا فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء،

ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ثم انتهوا » .

وقد ورد فى استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث ، منها عند الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ:« أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله » . وأخرج ابن شاهين والطبرانى والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبى أوفى قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه (١) . وأخرج أحمد فى الزهد والخطيب عن أبى الدرداء نحوه (٢) . وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن أبى هريرة نحو حديثه الأول مرفوعًا . وأخرج الحاكم فى تاريخه ، والديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : التاجر الأمين ، والإمام المقتصد ، وراعى الشمس بالنهار» . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن سلمان الفارسى قال :سبعة فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم الرجل الذى يراعى الشمس لمواقيت الصلاة (٣) . فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله والصلاة لا لغير ذلك .

وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس ، وأول صلاة الظهر زوالها ، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية ، ووقت المغرب غروب الشمس ، وورد فى صلاة العشاء أن النبى ﷺكان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر ، وبها يعرف أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها ، فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذى أراده ﷺ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد .

وهكذا النجوم ، وورد النهى عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه والخطيب عن على قال: نهانى رسول الله ﷺ عن النظر فى النجوم .وأخرج ابن مردويه والمرهبى والخطيب عن أبى هريرة قال :نهى رسول الله ﷺ عن النظر فى النجوم . وأخرج الخطيب عن عائشة مرفوعاً مثله. وأخرج الطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا»(٤) .

---

(١) صححه الحاكم ١/ ٥١ ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى المجمع ١/ ٣٣٢ إلى الطبرانى فى الكبير والبزار ، وقال : « ورجاله موثقون لكنه معلول » كما رواه البيهقى فى الصلاة ١/ ٣٧٩ .

(٢) ابن المبارك فى الزهد (١٣٠٣) والبيهقى فى الصلاة ١/ ٣٧٩ والحاكم ١/ ٥١ .

(٣) أحمد فى الزهد (٨١٦) .

(٤) الطبرانى فى الكبير (١٠٤٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٠٥ ، ٢٢٦ : « وفيه مسهر بن عبد الملك ، وثقه ابن حبان وغيره ، وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وأبو نعيم فى الحلية ترجمة شقيق بن سلمة ٤/ ١٠٨ ، وحكم عليه الشيخ الألبانى بالصحة فى السلسلة الصحيحة (٣٤) .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال ﷺ: « من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » (١) فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لماعدا الاهتداء والتفكر والاعتبار . وما ورد فى جواز النظر فى النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكر والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق ، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه :أنه سأل رجلا عن حساب النجوم ، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره ، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول : علم عجز الناس عنه ووددت أنى علمته . وقد أخرج أبو داود والخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثًا عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أما بعد ، فإن ناسًا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنهم قد كذبوا ، ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة » (٢) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما فى كسوف الشمس والقمر عن النبى ﷺ: « إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده » (٣) .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعا : « إن الله نصب آدم بين يديه ، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذريته من صلبه حتى ملؤوا الأرض » فهذا الحديث هو معنى ما فى الآية، ﴿ **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة** ﴾. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾ قال : المستقر ما كان فى الرحم ، والمستودع ما استودع فى أصلاب الرجال والدواب . وفى لفظ : المستقر ما فى الرحم وعلى ظهر الأرض وبطنها مما هو حىّ ومما قد مات. وفى لفظ : المستقر : ما كان فى الأرض ، والمستودع ما كان فى الصلب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى الآية قال : مستقرها فى الدنيا ، ومستودعها فى الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : المستقر : الرحم ، والمستودع : المكان الذى يموت فيه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى الآية قالا : مستقر فى القبر ، ومستودع فى الدنيا أوشك أن يلحق بصاحبه .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله:﴿ **نخرج منه حبًا متراكبًا** ﴾ قال : هذا السنبل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **قنوان دانية** ﴾ قال : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . وأخرج ابن أبى حاتم

---

(١) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٦٩٨) وأبو داود فى الطب (٣٩٠٥) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٢٦) .

(٢) أحمد ٥/ ١٦ وأبو داود فى الصلاة (١١٨٤) والترمذى فى الصلاة (٥٦٢) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى صلاة الكسوف ٣/ ١٤٠ ، ١٤١ وابن ماجة فى الصلاة (١٢٦٤) كلهم أخرجه مختصراً عدا الإمام أحمد .

(٣) البخارى فى الكسوف (١٠٤٨) والنسائى ٣/ ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ وفى التفسير (٤٩١) .

وأبو الشيخ عنه قنوان : الكبائس . والدانية : المنصوبة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى ﴿ **قنوان دانية** ﴾ قال : تهدل العذوق من الطلع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **مشتبهاً وغير متشابه** ﴾ قال : متشابهًا ورقه مختلفًا ثمره . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **انظروا إلى ثمره إذا أثمر** ﴾ قال : رطبه وعنبه. وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء: ﴿ **وينعه** ﴾ قال : نضجه .

﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٠٣)** ﴾ .

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم . قال النحاس : ﴿ **الجن** ﴾ المفعول الأول ، و﴿ **شركاء** ﴾ المفعول الثانى كقوله تعالى : ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ [المائدة : ٢٠] ﴿ وجعلت له مالا ممدودا ﴾ [المدثر : ١٢] وأجاز الفراء : أن يكون الجن بدلا من شركاء ومفسراً له . وأجاز الكسائى رفع الجن بمعنى هم الجن ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : الجن ، وبالرفع قرأ يزيد بن أبى قطيب وأبو حيان ، وقرئ بالجر على إضافة شركاء إلى الجن للبيان. والمعنى : أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبدوه ، وعظموهم كما عظموه . وقيل : المراد بالجن ها هنا : الملائكة لاجتنانهم،أى استتارهم ، وهم الذين قالوا: الملائكة بنات الله . وقيل : نزلت فى الزنادقة الذين قالوا : إن الله تعالى وإبليس أخوان ، فالله خالق الناس والدواب ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب ، وروى ذلك عن الكلبى (١) ، ويقرب من هذا قول المجوس ، فإنهم قالوا : للعالم صانعان هما : الرب سبحانه ، والشيطان . وهكذا القائلون : كل خير من النور ، وكل شر من الظلمة ، وهم المانوية (٢) .

قوله :﴿ **وخلقهم** ﴾ جملة حالية بتقدير قد ، أى وقد علموا أن الله خلقهم ، أو خلق ما جعلوه شريكا لله . قوله : ﴿ **وخرقوا له بنين وبنات** ﴾ قرأ نافع بالتشديد على التكثير لأن المشركين ادعوا أن الملائكة بنات الله ، والنصارى ادعوا أن المسيح ابن الله ، واليهود ادعوا أن عزيراً ابن الله ، فكثر ذلك من كفرهم فشدد الفعل لمطابقة المعنى . وقرأ الباقون بالتخفيف .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٢٦ .

(٢) زعيمهم مانى بن ماش ، ثنوى ، تنسب إليه هذه الطائفة ، كان فى الأصل مجوسيا ، فأحدث دينا ودعا إليه ، وزعم أن صانع العالم اثنان : أحدهما : فاعل الخير ، وثانيهما :فاعل الشر ، وهو ظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا ، وهما مختلفان فى النفس والصورة ، متضادان فى الفعل والتدبير . راجع : الفرق بين الفرق ٢٧١ ، والملل والنحل ١/ ٢٤٤ .

وقرئ :« حرفوا » من التحريف أى زوروا ، قال أهل اللغة :معنى ﴿ **خرقوا** ﴾ اختلقوا ، وافتعلوا ، وكذبوا ، يقال : اختلق الإفك واخترقه وخرقه ، أو أصله من خرق الثوب : إذا شقه ، أى اشتقوا له بنين وبنات . قوله : ﴿ **بغير علم** ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أى كائنين بغير علم ؛ بل قالوا ذلك عن جهل خالص ، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين والبهت الفظيع من جعل الجن شركاء لله ، وإثبات بنين وبنات له نزه الله نفسه ، فقال : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يصفون** ﴾ وقد تقدم الكلام فى معنى ﴿ **سبحانه** ﴾ ومعنى ﴿ **تعالى** ﴾ تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذى وصفوه به .

قوله: ﴿ **بديع السموات والأرض** ﴾ أى مبدعهما ، فكيف يجوز أن ﴿ **يكون له ولد** ﴾ وقد جاء البديع بمعنى المبدع ،كالسميع بمعنى المسمع كثيراً ،ومنه قول عمرو بن معدى كرب(١) :

أمن رَيْحَانَةِ الدَّاعى السَّميع ... يُؤرقنى وأَصْحَابى هجوعُ

أى المسمع . وقيل : هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل ، والأصل : بديع سمواته وأرضه ، وأجاز الكسائى خفضه على النعت لله. والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ وخبره : ﴿ **أنى يكون له ولد** ﴾. وقيل :هو مرفوع على أنه فاعل ﴿ **تعالى** ﴾، وقرئ بالنصب على المدح ، والاستفهام فى ﴿ **أنى يكون له ولد** ﴾ للإنكار والاستبعاد ، أى من كان هذا وصفه ، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما كيف يكون له ولد ؟ وهو من جملة مخلوقاته وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً . ثم بالغ فى نفى الولد ، فقال : ﴿ **ولم تكن له صاحبة** ﴾ أى كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة؟ والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد ، وجملة :﴿ **وخلق كل شىء** ﴾ لتقرير ما قبلها ، لأن من كان خالقاً لكل شىء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً ﴿ **وهو بكل شىء عليم** ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى الأوصاف السابقة، وهو فى موضع رفع على الابتداء وما بعده خبر، وهو الاسم الشريف، و﴿ **ربكم** ﴾ خبر ثان ، و﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ خبر ثالث ، و﴿ **خالق كل شىء** ﴾ خبر رابع ، ويجوز أن يكون ﴿ **الله ربكم** ﴾ بدلا من اسم الإشارة ، وكذلك ﴿ **لا إله إلا هو خالق كل شىء** ﴾ خبراً لمبتدأ ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ ، وأجاز الكسائى والفراء النصب فيه . ﴿ **فاعبدوه** ﴾ أى من كانت هذه صفاته فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شىء .

قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ الأبصار : جمع بصر ، وهو الحاسة ، وإدراك الشىء :

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدى ، فارس اليمن ، وصاحب الغارات المذكورة ، وفد على المدينة سنة ٩ هـ فى وفد من قومه فأسلم وأسلموا ، شهد اليرموك ، وفيها ذهبت إحدى عينيه ، توفى عام ٢١ هـ . راجع الإصابة (٥٩٧٠) وشرح الشواهد ١٤٣ .

عبارة عن الإحاطة به . قال الزجاج : أى لا تبلغ كنه حقيقته ، فالمنفى هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية . فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لاشك فيه ولا شبهة ، ولا يجهله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيمًا ، وأيضًا قد تقرر فى علم البيان والميزان أن رفع الإيجاب الكلى سلب جزئى ، فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار ، وهى أبصار الكفار ، هذا على تسليم أن نفى الإدراك يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد به : هذه الرؤية الخاصة ، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب ، والأول تخلفه الجزئية ، والتقدير : لا تدركه كل الأبصار بل بعضها ، وهى أبصار المؤمنين . والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرفناك من تواتر الرؤية فى الآخرة ، واعتضادها بقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ الآية [القيامة : ٢٢] .

قوله : ﴿ **وهو يدرك الأبصار** ﴾ أى يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية ، وخص الأبصار ليجانس ما قبله . وقال الزجاج : فى هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار ، أى لا يعرفون كيفية حقيقة البصر ، وما الشىء الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . انتهى . ﴿ **وهو اللطيف** ﴾ أى الرفيق بعباده ، يقال : لطف فلان بفلان ، أى رفق به ، واللطف فى العمل الرفق به ، واللطف من الله التوفيق والعصمة ، وألطفه بكذا : إذا أبره . والملاطفة : المبارة ، هكذا قال الجوهرى وابن فارس ، و﴿ **الخبير** ﴾ المختبر بكل شىء بحيث لا يخفى عليه شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم** ﴾ قال : والله خلقهم ﴿ **وخرقوا له بنين وبنات بغير علم** ﴾ قال : تخرّصوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله :﴿ **وخرقوا** ﴾ قال :جعلوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كذبوا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم والعقيلى وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ قال : « لو أن الإنس والجن والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً » (١) . قال الذهبى : هذا حديث منكر. انتهى . وفى إسناده عطية العوفى وهو ضعيف . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه . قال عكرمة : فقلت له : أليس الله يقول : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ قال : لا أم لك ، ذاك نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شىء .

---

(١) العقيلى فى الضعفاء ١/ ١٤٠ وابن عدى فى الكامل ٢/ ١٠ وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٣/ ٧٤ ، ٧٥ وقال : « غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة » .

وفى لفظ : إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر [(١)] . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا يحيط بصر أحد بالله . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى كتاب الرؤية عن الحسن فى قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ قال : فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إسماعيل بن علية مثله .

﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)** ﴾ .

البصائر : جمع بصيرة ، وهى فى الأصل : نور القلب ، والمراد بها هنا : الحجة البينة ، والبرهان الواضح . وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ، ولهذا قال فى آخره : ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ ووصف البصائر بالمجيء تفخيماً لشأنها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال: جاءت العافية ، وانصرف المرض ، وأقبلت السعود ، وأدبرت النحوس ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ أى فمن تعقل الحجة وعرفها وأذعن لها فنفع ذلك لنفسه ؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿ **ومن عمى** ﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها ، فضرر ذلك على نفسه ؛ لأنه يتعرض لغضب الله فى الدنيا ويكون مصيره النار ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ برقيب أحصى عليكم أعمالكم وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى وهو الحفيظ عليكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

﴿ **وكذلك نصرف الآيات** ﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرفها فى الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه . قوله : ﴿ **وليقولوا درست** ﴾ العطف على محذوف ، أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . أو علة لفعل محذوف يقدر متأخرا ، أى وليقولوا درست صرفناها ، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة والمعنى : ومثل ذلك التصريف نصرف الآيات وليقولوا درست ، فإنه لا احتفال بقولهم ، ولا اعتداد بهم ، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم ، وعدم الاكتراث بقولهم . وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج . وقال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى ﴿ **نصرف الآيات** ﴾ نأتى بها آية بعد آية

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٧٩) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٥٧٧) والطبرانى (١١٦١٩) ، وصححه الحاكم ٢/٣١٦ وخالفه الذهبى حيث قال : « إبراهيم متروك » .

﴿ **وليقولوا درست** ﴾ علينا فينكرون الأول بالآخر ، فهذا حقيقته ، والذى قاله أبو إسحاق ، يعنى الزجاج ، مجاز .

وفى ﴿ **درست** ﴾ قراءات ، قرأ أبو عمرو وابن كثير : « دارست » بألف بين الدال والراء كفاعلت ، وهى قراءة على وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة . وقرأ ابن عامر : « درست » بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت ، وهى قراءة الحسن . وقرأ الباقون: « درست » كضربت، فعلى القراءة الأولى المعنى : دارست أهل الكتاب ودارسوك، أى ذاكرتهم وذاكروك ، ويدل على هذا ما وقع فى الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله : ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ [الفرقان : ٤] أى أعان اليهود النبى ﷺ على القرآن ، ومثله قولهم:﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ [الفرقان : ٥] قولهم :﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : ١٠٣] والمعنى على القراءة الثانية : قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت وهو كقولهم : ﴿ أساطير الأولين ﴾ . والمعنى على القراءة الثالثة مثل المعنى على القراءة الأولى . قال الأخفش : هى بمعنى دارست إلا أنه أبلغ . وحكى عن المبرد أنه قرأ : « وليقولوا » بإسكان اللام فيكون فيه معنى التهديد ، أى وليقولوا ما شاؤوا فإن الحق بين ، وفى اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس وهو القراءة . وقيل : من درسته، أى ذللته بكثرة القراءة وأصله درس الطعام ، أى داسه. والدياس : الدراس بلغة أهل الشام . وقيل : أصله من درست الثوب أدرسه درساً ، أى أخلقته ، ودرست المرأة درساً ، أى حاضت ، ويقال : إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض ، والدرس أيضا : الطريق الخفى . وحكى الأصمعى :بعير لم يدرس ، أى لم يركب . وروى عن ابن عباس وأصحابه وأبى وابن مسعود والأعمش أنهم قرؤوا : « درس » أى درس محمد الآيات ، وقرئ : « درِسَتْ » وبه قرأ زيد بن ثابت ، أى الآيات على البناء للمفعول ، و« دارست » أى دارست اليهود محمداً . واللام فى : ﴿ **لنبينه** ﴾ لام كى ، أى نصرف الآيات لكى نبينه لقوم يعلمون ، والضمير راجع إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن ، أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر ، لأنه معلوم من السياق ، أو إلى التبيين المدلول عليه بالفعل .

قوله : ﴿ **اتبع ما أوحى إليك من ربك** ﴾ أمره الله باتباع ما أوحى إليه وألا يشغل خاطره بهم بل يشتغل باتباع ما أمره الله ، وجملة :﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لقصد تأكيد إيجاب الاتباع ﴿ **وأعرض** ﴾ معطوف على ﴿ **اتبع** ﴾ أمره الله بالإعراض عن المشركين بعد ما أمره باتباع ما أوحى إليه ، وهذا قبل نزول آية السيف ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾ أى لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا ، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه ، والكلام فى تقرير هذا على الوجه الذى يتعارف به أهل علم الكلام ، والميزان معروف فلا نطيل بإيراده ﴿ **وما جعلناك عليهم حفيظا** ﴾ أى رقيباً ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة .

قوله : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم** ﴾ الموصول عبارة عن الآلهة التى كانت تعبدها الكفار. والمعنى :لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التى يدعونها من دون الله فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزًا عن الحق ، وجهلا منهم ، وفى هذه الآية دليل على أن الداعى إلى الحق ، والناهى عن الباطل ، إذا خشى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ، ومخالفة حق ، ووقوع فى باطل أشد كان الترك أولى به ؛ بل كان واجبًا عليه ، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس ، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه ، وتركوا غيره من المعروف . وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عناداً للحق وبغضًا لاتباع المحقين وجراءة على الله سبحانه ، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف ، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة ، وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه ، كما يشاهد ذلك فى أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا فى كثير من الباطل ، وإذا أرشدوا إلى السنة قابلوها بما لديهم من البدعة (١) ، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع ، وهم شر من الزنادقة ؛ لأنهم يحتجون بالباطل ، وينتمون إلى البدع ، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين ، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام ، وتحاماهم أهله ، وقد ينفق كيدهم ، ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين ، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل ، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة وهى أصل أصيل فى سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه . وقرأ أهل مكة : « عُدُوّا » بضم العين والدال وتشديد الواو وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقتادة . وقرأ من عَداهم بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو ، ومعنى القراءتين واحد ، أى ظلما وعدوانا ، وهو منتصب على الحال ، أو على المصدر ، أو على أنه مفعول له ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾ أى مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار عملهم من الخير والشر ﴿ يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾[فاطر : ٨] ﴿ **ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾ فى الدنيا من المعاصى التى لم ينتهوا عنها ولا قبلوا من المرسلين ما أرسل الله به إليهم ، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **قد جاءكم بصائر** ﴾ أى بينة ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ أى فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴿ **ومن عمى** ﴾ أى من ضل ﴿ **فعليها** ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « دارست » وقال :قرأت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير

---

(١) فى المطبوعة : « البديعة » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه﴿ **درست** ﴾ قال : قرأت وتعلمت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : « دارست » خاصمت ، جادلت ، تلوْت .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى :﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ قال :كف عنهم ، وهذا منسوخ ، نسخه القتال ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾ يقول الله تبارك وتعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى بحفيظ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله** ﴾ قال : قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك،فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ **فيسبوا الله عدواً بغير علم** ﴾ (١) . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من سبّ والديه » قالوا : يارسول الله ، وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال :« يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسبْ أمه» (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وأقسموا بالله** ﴾ أى الكفار مطلقاً ، أو كفار قريش ، وجهد الأيمان : أشدها ، أى أقسموا بالله أشد أيمانهم التى بلغتها قدرتهم ، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، فلهذا أقسموا به، وانتصاب ﴿ **جهد** ﴾ على المصدرية ، وهو بفتح الميم : المشقة ، وبضمها : الطاقة ، ومن أهل اللغة من يجعلها لمعنى واحد ، والمعنى : أنهم اقترحوا على

---

(١) ابن جرير ٢٠٧/٧ .
(٢) الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو عند : البخارى فى الأدب (٥٩٧٣) ومسلم فى الإيمان (١٤٦/٩٠) وأبو داود فى الأدب (٥١٤١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٠٢) وقال : « حسن صحيح » .

النبى ﷺ آية من الآيات التى كانوا يقترحونها ، وأقسموا لئن جاءتهم هذه الآية التى اقترحوها ﴿ **ليؤمنن بها** ﴾ وليس غرضهم الإيمان ؛ بل معظم قصدهم التهكم على رسول الله ﷺ ، والتلاعب بآيات الله ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **إنما الآيات عند الله** ﴾ هذه الآية التى يقترحونها وغيرها وليس عندى من ذلك شىء ، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها ، وإن أراد ألا ينزلها لم ينزلها . قوله : ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ . قرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة من « أنها » وهى قراءة مجاهد ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود : « وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون » قال مجاهد وابن زيد : المخاطب بهذا : المشركون ، أى وما يدريكم ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ وقال الفراء وغيره : الخطاب للمؤمنين ، لأن المؤمنين قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله ، لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون ، فقال الله تعالى : ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ وقرأ أهل المدينة والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم ، وابن عامر : ﴿ **أنها إذا جاءت** ﴾ بفتح الهمزة . قال الخليل : « أنها » بمعنى: لعلها ، وفى التنزيل : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ [عبس : ٣] أى أنه يزكى . وحكى عن العرب ائت السوق أنك تشترى لنا شيئاً ، أى لعلك ، ومنه قول عدى بن زيد :

أَعَاذِلُ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ منيتى إلى ساعةٍ فى اليومِ أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعل منيتى ، ومنه قول دريد بن الصمة :

أرينى جواداً ماتَ هزلا لأنَّنى أَرَى مَا ترَين أَوْ بخيلا مخلدا

أى لعلنى ، وقول أبى النجم :

قُلْتُ لشَيْبَان ادنُ مِنْ لقَائه أنَّى نُغَدِّ اليوم من شوائه

أى لعلى ، وقول جرير :

هَلْ أَنتُمْ عَائجُون بِنا لأن نَرَى العَرَصَاتِ أو أَثَرَ الخِيَامِ

أى لعلنا .اهـ . وقد وردت فى كلام العرب كثيراً بمعنى : لعل ، وحكى الكسائى أنها كذلك فى مصحف أبى بن كعب . وقال الكسائى أيضا والفراء : إن « لا » زائدة والمعنى : وما يشعركم أنها ، أى الآيات ، إذا جاءت يؤمنون فزيدت كما زيدت فى قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : ٩٥] وفى قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ . وذكر النحاس وغيره أن فى الكلام حذفاً والتقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع .

قوله : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ معطوف على : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ قيل : والمعنى :

نقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار ، وحر الجمر ﴿ **كما لم يؤمنوا** ﴾ فى الدنيا ﴿ **ونذرهم** ﴾ فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهم فعلى هذا بعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيا . وقيل : المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم فى الدنيا ، أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، أى يتحيرون ، والكاف فى : ﴿ **كما لم يؤمنوا** ﴾ نعت مصدر محذوف، و« ما » مصدرية ، و﴿ **يعمهون** ﴾ فى محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة** ﴾ أى لا يؤمنون ولو نزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : ٨] ﴿ **وكلمهم الموتى** ﴾ الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم ، فقالوا لهم : إن هذا النبى صادق مرسل من عند الله فآمنوا به لم يؤمنوا ﴿ **وحشرنا عليهم كل شىء** ﴾ مما سألوه من الآيات ﴿ **قبلا** ﴾ أى كفلا وضمنا بما جئناهم به من الآيات البينات . هذا على قراءة من قرأ :﴿ **قُبُلا** ﴾ بضم القاف وهم الجمهور. وقرأ نافع ، وابن عامر: « قبلا » بكسرها ، أى مقابلة .وقال محمد بن يزيد المبرد : ﴿ **قبلا** ﴾ بمعنى ناحية كما تقول : لى قبل فلان مال ، فقبلا نصب على الظرف ، وعلى المعنى الأول ورد قوله تعالى : ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ [الإسراء : ٩٢] أى يضمنون ، كذا قال الفراء . وقال الأخفش : هو بمعنى قبيل قبيل ، أى جماعة جماعة . وحكى أبو يزيد : لقيت فلانًا قبلا ومقابلة و قبلا كله واحد بمعنى المواجهة ، فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوى القراءتان . والحشر : الجمع ﴿ **ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله** ﴾ إيمانهم ، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والاستثناء مفرغ ﴿ **ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ جهلا يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب .

قوله : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى** ﴾ هذا الكلام لتسلية رسول الله ﷺ ودفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم ، أى مثل هذا الجعل ﴿ **جعلنا لكل نبى عدوا** ﴾ والمعنى كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار، فجعلنا لكل واحد منهم عدواً من كفار زمنهم ، و﴿ **شياطين الإنس والجن** ﴾ بدل من ﴿ **عدوا** ﴾ . وقيل : هو المفعول الثانى لجعلنا . وقرأ الأعمش : « الجن والإنس » بتقديم الجن ، والمراد بالشياطين : المردة من الفريقين ، والإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأصل : الإنس والجن : الشياطين ، وجملة ﴿ **يوحى بعضهم إلى بعض** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض . وقيل : إن الجملة مستأنفة لبيان حال العدو ، وسمى وحياً ؛ لأنه إنما يكون خفية بينهم ، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه ، والمزخرف المزين وزخارف الماء :طرائقه ﴿ **وغروراً** ﴾ منتصب على المصدر؛لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض : يغرونهم بذلك غرورا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولا له ،

والغرور : الباطل .

قوله : ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه** ﴾ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقًا من الأمور التى جرت من الكفار فى زمنه وزمن الأنبياء قبله ، أى لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم ذكره ما فعلوه وأوقعوه ، وقيل : ما فعلوا الإيحاء المدلول عليه بالفعل ﴿ **فذرهم** ﴾ أى اتركهم ، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله: ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ [المدثر :١١] ﴿ **وما يفترون** ﴾ إن كانت « ما » مصدرية فالتقدير : اتركهم وافتراءهم ، وإن كانت موصولة فالتقدير : اتركهم والذى يفترونه .

قوله : ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ اللام فى لتصغى لام كى فتكون علة كقوله : ﴿ **يوحى** ﴾ والتقدير : يوحى بعضهم إلى بعض لغرورهم ولتصغى . وقيل : هو متعلق بمحذوف يقدر متأخرا ، أى لتصغى ﴿ **جعلنا لكل نبى عدوا** ﴾ وقيل : إن اللام للأمر وهو غلط فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل ، والإصغاء : الميل ، يقال : صغوت أصغو صغوا وصغيت أصغى ويقال : صغيت بالكسر، ويقال : أصغيت الإناء : إذا أملته ليجتمع ما فيه ، وأصله : الميل إلى الشىء لغرض من الأغراض ، ويقال :صغت النجوم :إذا مالت للغروب ، وأصغت الناقة: إذا أمالت رأسها ، ومنه قول ذى الرمة :

تُصْغِى إذا شدَّهَا بِالكُور جَانحةً ... حَتَّى إِذَا ما استَوى فى غَرْزها تثِبُ

والضمير فى ﴿ **إليه** ﴾ لزخرف القول،أو لما ذكر سابقًا من زخرف القول وغيره،أى أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ من الكفار ﴿ **وليرضوه** ﴾ لأنفسهم بعد الإصغاء إليه ﴿ **وليقترفوا ما هم مقترفون** ﴾ من الآثام ، والاقتراف : الاكتساب ، يقال : خرج ليقترف لأهله ، أى ليكتسب لهم ، وقارف فلان هذا الأمر: إذا واقعه ، وقرفه : إذا رماه بالريبة ، واقترف : كذب ، وأصله : اقتطاع قطعة من الشىء .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ فى قريش ﴿ **وما يشعركم** ﴾ يأيها المسلمون ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم رسول الله ﷺ قريشاً فقالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى ، وأن ثمود لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ :« أى شىء تحبون أن آتيكم به ؟ » قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً ، قال : « فإن فعلت تصدقونى ؟ » قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل فقال له : إن شئت أصبح ذهبًا فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال : « بل يتوب تائبهم » ، فأنزل الله : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يجهلون** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ قال : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شىء وردّت عن كل أمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **وحشرنا عليهم كل شىء قبلا** ﴾ قال : معاينة ﴿ **ما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أى أهل الشقاء ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى أهل السعادة والذين سبق لهم فى علمه أن يدخلوا فى الإيمان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **وحشرنا عليهم كل شىء قبلا** ﴾ أى فعاينوا ذلك معاينة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : أفواجاً قبيلا .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن** ﴾ قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم ، فيلتقى شيطان الإنس وشيطان الجن ، فيقول هذا لهذا : أضلله بكذا ، وأضلله بكذا ، فهو ﴿ **يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾ وقال ابن عباس : الجن : هم الجانّ وليسوا شياطين ، والشياطين : ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس ، والجنّ يموتون ، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال : الكهنة : هم شياطين الإنس . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوحى بعضهم إلى بعض** ﴾ قال : شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ، فإن الله يقول : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : من الإنس شياطين ، ومن الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس زخرف القول قال : يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم فى فتنتهم . وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أباذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس » قال : يا نبى الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » (١) . وأخرج أحمد وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى ذر مرفوعا نحوه (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **ولتصغى** ﴾ لتميل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه : ﴿ **ولتصغى** ﴾ تزيغ ﴿ **وليقترفوا** ﴾ يكتسبوا .

---

(١) أحمد ٥/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ والطبرانى (٧٨٧١) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٨ : « وفيه على بن زيد وفيه كلام » وأورده ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٨٢ ، ٨٣ من طرق متعددة ومنها رواية ابن أبى حاتم وقال : « فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته » .

(٢) أحمد ٥/ ١٧٨ ، ١٧٩ والبيهقى فى الشعب (٣٢٩٨) وإسناده ضعيف . ورواه كذلك النسائى فى الاستعاذة ٨/ ٢٧٥ والبزار فى العلم (١٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٦٤ ، ١٦٥ : « وفيه المسعودى وهو ثقة ، ولكنه اختلط » .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **أفغير الله** ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على فعل مقدر ، والكلام هو على إرادة القول ، والتقدير: قل لهم يا محمد: كيف أضل أو أبتغى غير الله حكمًا ؟ و« غير » مفعول لأبتغى مقدم عليه ، وحكمًا المفعول الثانى أو العكس . ويجوز أن ينتصب ﴿ **حكمًا** ﴾ على الحال ، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر فى مثل هذه الصفة المشتقة ، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه ، من أن يجعل بينه وبينهم حكمًا فيما اختلفوا فيه ، وإن الله هو الحكم العدل بينه وبينهم ، وجملة : ﴿ **وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كيف أطلب حكمًا غير الله ؛ وهو الذى أنزل عليكم القرآن مفصلا مبيناً واضحاً ، مستوفيا لكل قضية على التفصيل ؟ ثم أخبر نبيه ﷺ بأن أهل الكتاب وإن أظهروا الجحود والمكابرة فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله ، بما دلتهم عليه كتب الله المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء ، و﴿ **بالحق** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا ، أى متلبساً بالحق الذى لاشك فيه ولا شبهة ، ثم نهاه الله عن أن يكون من الممترين فى أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق ، أو نهاه عن مطلق الامتراء، ويكون ذلك تعريضاً لأمته عن أن يمترى أحد منهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له ، أى فلا يكونن أحد من الناس من الممترين، ولا يقدح فى ذلك كون الخطاب لرسول الله ﷺ ؛ فإن خطابه خطاب لأمته .

قوله : ﴿ **وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا** ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿ **كلمة** ﴾ بالتوحيد ؛ وقرأ الباقون بالجمع ، والمراد بالكلمات : العبارات ، أو متعلقاتها من الوعد والوعيد . والمعنى : أن الله قد أتم وعده ووعيده فظهر الحق وانطمس الباطل . وقيل : المراد بالكلمة أو الكلمات : القرآن ، و﴿ **صدقًا وعدلا** ﴾ منتصبان على التمييز ،أو الحال على أنهما نعت مصدر محذوف ، أى تمام صدق وعدل ﴿ **لا مبدل لكلماته** ﴾ لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به ، والجملة المنفية فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ﴿ **وهو السميع** ﴾ لكل مسموع ﴿ **العليم** ﴾ بكل معلوم .

قوله : ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من فى الأرض أضلوه ؛ لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين ، وهم الطائفة التى

لا تزال على الحق ولا يضرها خلاف من يخالفها ، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ (١) . وقيل : المراد بالأكثر : الكفار. وقيل : المراد بالأرض : مكة ، أى أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾ أى ما يتبعون إلا الظن الذى لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقربهم إلى الله ﴿ **وإن هم إلا يخرصون** ﴾ أى وما هم إلا يخرصون ، أى يحدسون (٢) ويقدرون ، وأصل الخرص : القطع ، ومنه خرص النخل يخرص : إذا حزره ليأخذ منه الزكاة ، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين منه . وإذا كان هذا حال أكثر من فى الأرض فالعلم الحقيقى هو عند الله ، فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره ، وهو العالم بمن يضل عن سبيله ومن يهتدى إليه . قال بعض أهل العلم : إن ﴿ **أعلم** ﴾ فى الموضعين بمعنى يعلم ، قال : ومنه قول حاتم الطائى :

فحالفَتْ طيٌّ مِنْ دُوننا حَلِفًا والله أَعْلَمُ مَاكُنَّا لَهُمْ خُولا

والوجه فى هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر ، فتكون « من » منصوبة بالفعل الذى جعل أفعل التفضيل نائباً عنه . وقيل : إن أفعل التفضيل على بابه والنصب بفعل مقدر . وقيل : إنها منصوبة بأفعل التفضيل ، أى إن ربك أعلم أى الناس يضل عن سبيله ، وقيل : فى محل نصب بنزع الخافض ، أى بمن يضل ، قاله بعض البصريين . وقيل : فى محل جر بإضافة أفعل التفضيل إليها .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **مفصلا** ﴾ قال : مبيناً . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **صدقًا وعدلا** ﴾ قال : صدقا فيما وعد ، وعدلا فيما حكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **لا مبدل لكلماته** ﴾ قال : لا تبديل لشىء قاله فى الدنيا والآخرة لقوله : ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ [ق: ٢٩] . وأخرج ابن مردويه وابن النجار عن أنس عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا** ﴾ قال : « لا إله إلا الله » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى اليمان عامر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ، ولكل قوم صنم يعبدونه فجعل يأتيها صنما صنما ، ويطعن فى صدر الصنم بعصا ، ثم يعقره ، فكلما طعن صنما أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسروه ، ويطرحوه خارجاً من المسجد ، والنبى ﷺ يقول : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم** ﴾ .

---

(١) عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » رواه مسلم فى الإمارة (١٩٢٠/ ١٧٠) والترمذى فى الفتن (٢٢٢٩) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (١٠) .

(٢) الحدس : الظن والتخمين . اللسان ٦/ ٤٦ ، ٤٧ .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) ﴾ .

لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار فى الأنعام من تلك السنن الجاهلية ، أمر الله المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه . وقيل : إنها نزلت فى سبب خاص وسيأتى ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله حلٌّ إن كان مما أباح الله أكله . وقال عطاء : فى هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والذبح ، وكل مطعوم ، والشرط فى ﴿ **إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾ للتهييج والإلهاب ، أى بأحكامه من الأوامر والنواهى التى من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، والاستفهام فى ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه** ﴾ للإنكار ، أى ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك ؟ والحال أن ﴿ **قد فصل لكم ما حرم عليكم** ﴾ أى بين لكم بياناً مفصلا يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً** ﴾ إلى آخر الآية ، ثم استثنى فقال: ﴿ **إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ أى من جميع ما حرمه عليكم ، فإن الضرورة تحلل الحرام ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . قرأ نافع ويعقوب :« وقد فصل لكم ما حرم عليكم » بفتح الفعلين على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما على البناء للمفعول . وقرأ عطية العوفى : « فصل » بالتخفيف ، أى أبان وأظهر .

قوله : ﴿ **وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم** ﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما ، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة لا يرجع إلى شىء من العلم ، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه. والظاهر: ما كان يظهر كأفعال الجوارح. والباطن: ما كان لا يظهر كأفعال القلب. وقيل: ما أعلنتم وما أسررتم. وقيل: الزنا الظاهر، والزنا المكتوم. وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم؛ لأنه يتسبب عنهما ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله سبحانه .

وقد أخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبى ﷺ قالوا : إنا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ، فأنزل الله: ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **فكلوا مما ذكر**

---

(١) أبو داود فى الأضاحى (٢٨١٩) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٩) وقال : « حسن غريب » وابن جرير ٨/ ١٥ والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩/ ٢٤٠ .

اسم الله عليه ﴾ فإنه حلال ﴿ إن كنتم بآياته ﴾ يعنى القرآن ﴿مؤمنين﴾ قال : مصدقين ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ يعنى الذبائح ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ يعنى ما حرم عليكم من الميتة ﴿ وإن كثيراً ﴾ يعنى من مشركى العرب ﴿ ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾ يعنى فى أمر الذبائح . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ أى من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ وذروا ظاهر الإثم ﴾ قال:هو نكاح الأمهات والبنات ﴿ وباطنه ﴾ قال:هو الزنا.وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : الظاهر منه ﴿ لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ [النساء:٢٢] ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾الآية [النساء:٢٣] ، والباطن : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : علانيته وسره .

﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ .

نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .

وقد اختلف أهل العلم فى ذلك ، فذهب ابن عمر ونافع مولاه والشعبى وابن سيرين ، وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل ، وبه قال أبو ثور وداود الظاهرى : أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسى لهذه الآية . ولقوله تعالى فى آية الصيد : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه فى هذه الآية : ﴿ وإنه لفسق ﴾ .

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية فى الصيد وغيره .. وذهب الشافعى وأصحابه ، وهو رواية عن مالك ، ورواية عن أحمد : أن التسمية مستحبة لا واجبة ، وهو مروى عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رباح ، وحمل الشافعى الآية على من ذبح لغير الله وهو تخصيص للآية بغير مخصص،وقد روى أبو داود فى المرسل أن النبى ﷺ قال : « ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر » (١) وليس فى هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية ، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : إن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : « سموا أنتم وكلوا » (٢) يفيد أن التسمية عند

(١) أبو داود فى المراسيل (٣٧٨) عن الصلت السدوسى .

(٢) البخارى فى البيوع (٢٠٥٧) وفى الذبائح والصيد (٥٥٠٧) وفى التوحيد (٧٣٩٨) وأبو داود فى الأضاحى (٢٨٢٩) والدارمى فى الأضاحى ٢ / ٨٣ والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩ / ٢٣٩ والدارقطنى فى الصيد والذبائح (٩٩) .

الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح . وذهب مالك وأحمد فى المشهور عنهما وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه أن التسمية إن تركت نسيانا لم تضر ، وإن تركت عمدا لم يحلّ أكل الذبيحة ، وهو مروى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وأبى مالك وعبدالرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبى عبدالرحمن واستدلوا بما أخرجه البيهقى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « المسلم إن نسى أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله » (١) وهذا الحديث رفعه خطأ ، وإنما هو من قول ابن عباس . وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾[البقرة : ٢٨٦] كما سبق تقريره ، وبقوله ﷺ :« رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » (٢) وأما حديث أبى هريرة الذى أخرجه ابن عدى ، أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ فقال النبى ﷺ : « اسم الله على كل مسلم » (٣) فهو حديث ضعيف قد ضعفه البيهقى وغيره .

قوله : ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ الضمير يرجع إلى « ما » بتقدير مضاف ، أى وإن أكل ما لم يذكر لفسق ،ويجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا ،أى فإن الأكل لفسق وقد تقدم تحقيق الفسق . وقد استدل من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله بقوله : ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقًا ؛ بل الفسق : الذبح لغير الله . ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعًا ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ أى يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق ، المباينة للصواب ، قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾ فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ﴿ **إنكم لمشركون** ﴾ مثلهم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : قال المشركون ، وفى لفظ : قال اليهود : لا تأكلوا مما قتل الله وتأكلوا مما قتلتم أنتم ، فأنزل الله﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ (٤) . وأخرج ابن جرير

---

(١) البيهقى فى الصيد والذبائح ٩/ ٢٣٩ والدارقطنى فى الصيد والذبائح (٩٨).

(٢) الحديث من رواية ابن عباس عند ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٥) وابن حبان فى فضل الأمة (٧١٧٥) والدارقطنى فى النذور (٣٣) والطبرانى (١١٢٧٤) وفى الصغير ١/ ٢٧٠ والبيهقى فى الخلع والطلاق ٧/ ٣٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

تنبيه : تكرر هذا الحديث فى كتب الفقهاء والأصوليين بلفظ : « رفع عن أمتى » ، ولم نره بها فى الأحاديث المتقدمة عند جميع من أخرجه ، حيث إن لفظه : « إن الله تجاوز » ، وعند بعضهم : « إن الله وضع» . انظر : تلخيص الحبير ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٣ .

(٣) ابن عدى فى الكامل ٦/ ٣٨٥ ترجمة : مروان بن سالم الجزرى . والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩/ ٢٤٠ .

(٤) أبو داود فى الأضاحى (٢٨١٨ ، ٢٨١٩) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٩) وقال : « حسن غريب » وابن =

والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : لما نزلت : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه** ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا ، فقالوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح اللّه بشمشار من ذهب يعنى الميتة فهو حرام ؟ فنزلت﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾ قال :الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش (١) . وقد روى نحو ما تقدم فى حديث ابن عباس الأول من غير طريق .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى قوله :﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ قال : إبليس أوحى إلى مشركى قريش . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله :﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه وإنه لفسق** ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال:﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ [المائدة : ٥] (٢) . وأخرج عبد بن حميد عن عبداللّه بن يزيد الخطمى قال : كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم اللّه عليه . وروى ابن أبى حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس فى النسخ .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **أو من كان ميتًا فأحييناه** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام ، وقرأ نافع وابن أبى نعيم بإسكانها، قال النحاس : يجوز أن يكون محمولاً على المعنى ، أى انظروا وتدبروا ﴿ أفغير(٣) اللّه أبتغى حكمًا ﴾ . ﴿ **أوْ مَن كان ميتا فأحييناه** ﴾ والمراد بالميت هنا : الكافر، أحياه اللّه بالإسلام . وقيل : معناه : كان ميتًا حين كان نطفة ، فأحييناه بنفخ الروح فيه ، والأول أولى ؛ لأن السياق يشعر بذلك لكونه فى تنفير المسلمين عن اتباع المشركين ،

= ماجة فى الذبائح (٣١٧٣) والنحاس فى ناسخه ص ١٧٨ والطبرانى (١٢٢٩٥) وصححه الحاكم ٤/ ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩ / ٢٤٠ ، ٢٤١ .

تنبيه : فى بعض الروايات : جاءت اليهود إلى النبى ﷺ قال ابن كثير تعليقا على هذه الرواية ٣/ ٩١ ، ٩٢: « وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة : أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا . الثانى : أن الآية من الأنعام وهى مكية . الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذى عن محمد بن موسى الجرسى عن زياد بن عبداللّه البكائى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ورواه الترمذى بلفظ : أتى ناس النبى ﷺ ، فذكره » .

(١) ابن جرير ٨/ ١٢ ، ١٣ والطبرانى (١١٦١٤) . (٢) أبو داود فى الأضاحى (٢٨١٧) .

(٣) فى المطبوعة : « أغير» .

وكثيرًا ما تستعار الحياة للهداية والعلم ، ومنه قول القائل :

وفى الجهل قَبْلَ الموتِ موتٌ لأهله ... فأجسَامُهم قَبْلَ القُبُورِ قُبورُ
وإن امرأ لم يَحْىَ بالعِلم مَيِّتٌ ... فليس له حتى النشور نُشُورُ

والنور : عبارة عن الهداية والإيمان . وقيل : هو القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله تعالى : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [الحديد : ١٢] والضمير فى « به » راجع إلى النور ﴿ **كمن مثلُه فى الظلمات** ﴾ أى كمن صفتُه فى الظلمات ، ومثله مبتدأ ، والظلمات خبره ، والجملة صفة لمن . وقيل : مَثل زائدة ، والمعنى: كمن فى الظلمات كما تقول : أنا أكرم من مثلك ، أى منك ، ومثله : ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ [المائدة : ٩٥] ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ [الشورى : ١١] . وقيل : المعنى كمن مثله مثل من هو فى الظلمات،و﴿ **ليس بخارج منها** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال .

قوله :﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾ أى مثل ذلك الجعل جعلنا فى كل قرية . والأكابر :جمع أكبر، قيل : هم الرؤساء والعظماء وخصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد ، والمكر : الحيلة فى مخالفة الاستقامة، وأصله: الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة ، أى يصرف عنها ﴿ **وما يمكرون إلا بأنفسهم** ﴾ أى وبال مكرهم عائد عليهم ﴿ **وما يشعرون** ﴾ بذلك لفرط جهلهم ﴿ **وإذا جاءتهم آية** ﴾ من الآيات ﴿ **قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتى مِثْلَ ما أوتى رُسلُ اللّه** ﴾ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء ، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ، ونظيره :﴿ يريد كل امرئ منهم أن يُؤتى صحفًا منشرة ﴾ [المدثر : ٥٢] والمعنى : إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة ، فأجاب اللّه عنهم بقوله : ﴿ **اللّه أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ أى إن اللّه أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ، ويكون موضعًا لها ، وأمينًا عليها ، وقد اختار أن يجعل فى محمد صفيه وحبيبه ، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم ، ثم توعدهم بقوله : ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغار** ﴾ أى ذل وهوان ، وأصله من الصغر كأن الذلّ يصغر إلى المرء نفسه. وقيل : الصغار : هو الرضا بالذل ، روى ذلك عن ابن السكيت .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **أوَ مَنْ كان ميتًا فَأحيينَاه** ﴾ قال : كان كافرًا ضالاً فهديناه ﴿ **وجعلنا له نورًا** ﴾ هو القرآن ﴿ **كمن مثلُه فى الظلمات** ﴾ الكفر والضلالة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى عمار بن ياسر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو مَن كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس** ﴾ يعنى عمر بن الخطاب ﴿ **كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ يعنى أبا جهل بن هشام . وأخرج ابن

المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى الآية قال : نزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام كانا ميتين فى ضلالتهما فأحيا اللّه عمر بالإسلام وأعزه ، وأقر أبا جهل فى ضلالته وموته، وذلك أن رسول اللّه ﷺ دعا فقال : « اللهم أعزَّ الإسلام بأبى جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب » (١) .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها** ﴾ قال:نزلت فى المستهزئين (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : سلطنا شرارها فعصوا فيها،فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ﴿ **أكابر مجرميها** ﴾ عظماءها .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وإذا جاءتهم آية** ﴾ الآية قال : قالوا لمحمد حين دعاهم إلى مادعاهم إليه من الحق : لو كان هذا حقًّا لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به من محمد ﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿**سيصيب الذين أجرموا** ﴾ قال : أشركوا ﴿ **صَغَار** ﴾ قال : هَوان .

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ الشرح : الشق ، وأصله : التوسعة ، وشرحت الأمر : بينته وأوضحته ، والمعنى : مَن يُرد اللّه هدايته للحق يوسع صدره ، حتى يقبله بصدر منشرح ، ﴿ **ومَن يُرد** ﴾ إضلاله ﴿ **يجعل صدره ضيقًا حرجًا** ﴾ . قرأ ابن كثير: « ضيقًا » بالتخفيف مثل هين ولين . وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان ، وقرأ نافع : « حرجا » بالكسر ، ومعناه : الضيق ،كرر المعنى تأكيدًا ، وحسن ذلك اختلاف اللفظ. وقرأ الباقون بالفتح ، جمع حرجة وهى شدة الضيق ، والحرجة الغليظة ، والجمع حرج

(١)الحديث من رواية عبداللّه بن عمر عند أحمد ٢/ ٩٥ والترمذى فى المناقب (٣٦٨١) وقال : « حسن صحيح غريب » وابن حبان فى إخباره ﷺعن مناقب الصحابة (٦٨٤٢) .
(٢) ابن جرير ٨/ ١٩ .

وحرجات ، ومنه : فلان يتحرج ، أى يضيق على نفسه . وقال الجوهرى : مكان حرج وحرج ، أى ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية ، والحرج : الإثم . وقال الزجاج : الحرج أضيق الضيق . وقال النحاس: حرج : اسم الفاعل وحرج مصدر وصف به كما يقال : رجل عدل .

قوله : ﴿ **كأنما يصَّعَّد فى السماء** ﴾ . قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود ، شبه الكافر فى ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء. وقرأ النخعى: « **يصاعد** » وأصله : يتصاعد . وقرأ الباقون : ﴿ **يصعد** ﴾ بالتشديد وأصله : يتصعد ، ومعناه : يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة ،كما يتكلف مَنْ يريد الصعود إلى السماء . وقيل : المعنى على جميع القراءات : كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوا على الإسلام . و« ما » فى ﴿ **كأنما** ﴾ هى المهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية. قوله: ﴿ **كذلك يجعلُ الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾ أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر ضيّقًا حرجًا يجعل اللّه الرجس. والرجس فى اللغة : النتْن . وقيل : هو العذاب . وقيل : هو الشيطان يسلطه اللّه عليهم . وقيل : هو ما لا خير فيه . والمعنى الأول هو المشهور فى لغة العرب ، وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعانى المذكورة . والإشارة بقوله : ﴿ **وهذا صراط ربك** ﴾ إلى ما عليه النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين ، أى هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه . وقيل : الإشارة إلى ما تقدم مما يدل على التوفيق والخذلان ، أى هذا هو عادة اللّه فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وانتصاب ﴿ **مستقيمًا** ﴾ على الحال كقوله تعالى :﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ [البقرة:٩١] ﴿ وهذا بعلى شيخا ﴾ [هود : ٧٢] ﴿ **قد فصلنا الآيات** ﴾ أى بيناها وأوضحناها ﴿ **لقوم يذكرون** ﴾ ما فيها ويتفهمون معانيها . ﴿ **لهم دار السلام عند ربهم** ﴾ أى لهؤلاء المتذكرين الجنة ؛ لأنها دار السلام من كل مكروه ، أو دار الرب السلام مدخرة لهم عند ربهم يوصلهم إليها ﴿ **وهو وليهم** ﴾ أى ناصرهم ، والباء فى﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ للسببية ، أى بسبب أعمالهم .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعًا** ﴾ الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدما ، أى واذكر يوم نحشرهم أو ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ نقول : ﴿ **يا معشر الجن** ﴾ ، والمراد :حشر جميع الخلق فى القيامة ، والمعشر: الجماعة ، أى يوم الحشر نقول: ياجماعة الجن﴿ **قد استكثرتم من الإنس** ﴾ أى من الاستمتاع بهم كقوله : ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ . وقيل : استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا فى حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم ، ومثل قوله: استكثر الأمير من الجنود ، والمراد : التقريع والتوبيخ ، وعلى الأول فالمراد بالاستمتاع : التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم ﴿ **وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ أما استمتاع الجن بالإنس : فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم ، وأما استمتاع الإنس بالجن : فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصى فوقعوا فيها وتلذذوا بها ، فذلك هو

استمتاعهم بالجن. وقيل : استمتاع الإنس بالجن : أنه كان إذا مر الرجل بواد فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ برب هذا الوادى من جميع ما أحذر ، يعنى ربه من الجن ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقًا ﴾ [الجن:٦] . وقيل : استمتاع الجن بالإنس : أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة ، واستمتاع الإنس بالجن : أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب ، وينالون بذلك شيئًا من حظوظ الدنيا كالكهان ﴿ **وبلغنا أجلنا الذى أجَّلْتَ لنا** ﴾ أى يوم القيامة اعترافًا منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به . ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم فقال : ﴿ **النار مثواكم** ﴾ أى موضع مقامكم . والمثوى : المقام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر .

قوله : ﴿ **خالدين فيها إلا ما شاء الله** ﴾ المعنى الذى تقتضيه لغة العرب فى هذا التركيب أنهم يخلدون فى النار فى كل الأوقات إلا فى الوقت الذى يشاء الله عدم بقائهم فيها . وقال الزجاج : إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم فى الحساب ، وهو تعسف ؛ لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ، ولا يصدق على من لم يدخل النار. وقيل : الاستثناء راجع إلى النار ، أى إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها فى بعض الأوقات كالزمهرير. وقيل : الاستثناء لأهل الإيمان ، و« ما » بمعنى من ، أى إلا ما شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار . وقيل : المعنى : إلا ما شاء الله من كونهم فى الدنيا بغير عذاب. وكل هذه التأويلات متكلفة ، والذى ألجأ إليها ما ورد فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار فى النار أبدًا، ولكن لا تعارض بين عام وخاص ، لاسيما بعد وروده فى القرآن مكررا كما سيأتى فى سورة هود ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعَّال لما يريد ﴾ [هود : ١٠٧] ولعلَّه يأتى هنالك إن شاء الله زيادة تحقيق .

وقد أخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبدالرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى جعفر المدائنى ، رجل من بنى هاشم ، وليس هو محمد بن على، قال :سئل النبى ﷺ عن هذه الآية ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له » قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » (١). وأخرج عبد بن حميد عن فضيل نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبوالشيخ والحاكم وابن مردويه،

---

(١) ابن المبارك فى الزهد (٣١٥) وابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٦١) وابن جرير ٨/ ٢٠ ،٢١ والبيهقى فى الأسماء والصفات١/ ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية ، فذكر نحوه [(١)] . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعًا من طريق أخرى . وأخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عن عبد الله بن المستورد (٢) وكان من ولد جعفر بن أبى طالب قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ، فذكر نحوه (٣) . وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، والمتصل يقوى المرسل (٤) ، فالمصير إلى هذا التفسير النبوى متعين .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله فى قلبه . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية يقول : من أراد أن يضله يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقا ، والإسلام واسع وذلك حين يقول :﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] يقول : ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق [(٥)] .

وأخرج عبدالرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **دار السلام** ﴾ قال : الجنة. وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن زيد قال : السلام هو الله . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : الله هو السلام ، وداره الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قد استكثرتم من الإنس** ﴾ يقول : من ضلالتكم إياهم، يعنى أضللتم منهم كثيرًا ، وفى قوله :﴿ **خالدين فيها إلا ما شاء الله** ﴾ قال : إن هذه الآية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، لا ينزلهم جنة ولا نارا .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن

(١) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٦٢) وابن جرير ٨/ ٢١ وسكت عنه الحاكم ٤/ ٣١١ وقال الذهبى : « عدى ساقط » والبيهقى فى الشعب (١٠٥٥٢) ط . الكتب العلمية .

(٢) فى المخطوطة : « المستورد » ، وعند ابن جرير والبيهقى والسيوطى فى الدر المنثور: « المسور » .

(٣) ابن جرير ٨/ ٢١ والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٥٨ وقال : « هذا منقطع » .

(٤) انظر : ابن كثير ٣/ ٩٨ ، وقد علق الشيخ الألبانى على قول ابن كثير بقوله : « وهذا من أوهامه رحمه الله تعالى ، فإن طريقه الأولى معضلة مع كذب الذى أعضله ، والثانية منقطعة ، مع ضعف أحد رواته ، والثالثة معضلة أيضا مع ضعف أحد رواته ، فأين الطريق المتصلة ؟ » .

ثم قال : « وجملة القول : أن هذا الحديث ضعيف لايطمئن القلب لثبوته عن رسول الله ﷺ لشدة الضعف الذى فى جميع طرقه ، وبعضها أشد ضعفا من بعض ، فليس فيها ما ضعفه يسير يمكن أن ينجبر » . انظر: السلسلة الضعيفة (٩٦٥) .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٥٧ .

رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ .

قوله : ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا ﴾ أى مثل ما جعلنا بين الجن والإنس ما سلف ﴿ كذلك نولى بعض الظالمين بعضا ﴾ والمعنى : نجعل بعضهم يتولى البعض فيكونون أولياء لبعضهم بعضًا ، ثم يتبرأ بعضهم من البعض ، فمعنى نولى على هذا : نجعله وليًا له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : معناه : نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس ، وروى عنه أيضًا أنه فسر هذه الآية بأن المعنى : نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله ، فيكون فى الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالمًا آخر . وقال فضيل بن عياض: إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجبا [١]. وقيل : معنى نولى : نكل بعضهم إلى بعض فيما يختازونه من الكفر ، والباء فى ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ للسببية، أى بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضا .

قوله : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أى يوم نحشرهم نقول لهم : ﴿ ألم يأتكم ﴾ أو هو شروع فى حكاية ما سيكون فى الحشر، وظاهره أن الله يبعث فى الدنيا إلى الجن رسلاً منهم ، كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم . وقيل : معنى منكم : أى ممن هو مجانس لكم فى الخلق والتكليف ، والقصد بالمخاطبة ، فإن الجن والإنس متحدون فى ذلك ، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجن من تلك الحيثية . وقيل : إنه من باب تغليب الإنس على الجن كما يغلب الذكر على الأنثى . وقيل : المراد بالرسل إلى الجن ها هنا : هم النذر منهم ، كما فى قوله : ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ [الأحقاف : ٢٩] . قوله : ﴿ يقصون عليكم آياتى ﴾ صفة أخرى لرسل ، وقد تقدم بيان معنى القص . قوله : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم ، والجملة جواب سؤال مقدّر فهى مستأنفة ، وجملة : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو هى جملة معترضة ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا بالرسل المرسلين إليهم ، والآيات التى جاؤوا بها ، وقد تقدم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصرّحة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم ، ومثل قولهم :﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] محمول على أنهم يقرون فى بعض مواطن يوم القيامة وينكرون فى موطن آخر لطول ذلك اليوم ، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول ، وانغلاق الأفهام وتبلد الأذهان .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم . وأن

---

(١) وفى الخبر عن النبى ﷺ : « من أعان ظالمًا سلطه الله عليه » .

فى : ﴿ **أن لم يكن ربك مهلك القرى** ﴾ هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، والمعنى : ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ، أو هى المصدرية ، والباء فى ﴿ **بظلم** ﴾ سببية، أى لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم ، والحال أن أهلها غافلون لم يرسل اللّه إليهم رسولاً ، والمعنى : أن اللّه أرسل الرسل إلى عباده ؛ لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى ، والحال أنهم غافلون على الأعذار والإنذار بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم ، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] وقيل : المعنى : ما كان اللّه مهلك أهل القرى بظلم منه ، فهو سبحانه يتعالى عن الظلم بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء ؛ وقيل : المعنى : أن اللّه لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم من كون الآخرين غافلين عن ذلك ، فهو مثل قوله: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ٦٤] .

﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾ أى لكل من الجن والإنس درجات متفاوتة مما عملوا فنجازيهم بأعمالهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ [الأحقاف : ١٩] وفيه دليل على أن المطيع من الجن فى الجنة ، والعاصى فى النار ﴿ **وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ من أعمال الخير والشر ، والغفلة ذهاب الشىء عنك لاشتغالك بغيره ، قرأ ابن عامر : « تعملون » بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج عبدالرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا** ﴾ قال : يولى اللّه بعض الظالمين بعضًا فى الدنيا يتبع بعضهم بعضا فى النار . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن زيد فى الآية مثل ما حكينا عنه قريبًا . وأخرج أبو الشيخ عن الأعمش فى تفسير الآية قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الزمان أمِّر عليهم شرارهم . وأخرج الحاكم فى التاريخ ، والبيهقى فى الشعب من طريق يحيى بن هاشم ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كما تكونون كذلك يؤمَّر عليكم » (١) . قال البيهقى : هذا منقطع ويحيى ضعيف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **رسل منكم** ﴾ قال : ليس فى الجن رسل ، وإنما الرسل فى الإنس ، والنذارة فى الجن ، وقرأ ﴿ فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين ﴾ [الأحقاف : ٢٩] . وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ليث بن أبى سليم قال : مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن اللّه أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضًا عن ابن عباس قال : الخلق أربعة فخلق فى الجنة كلهم ، وخلق فى النار كلهم ، وخلقان فى الجنة والنار ، فأما

---

(١) البيهقى فى الشعب (٧٣٩١) ط : الكتب العلمية .

الذين فى الجنة كلهم فالملائكة ، وأما الذين فى النار كلهم فالشياطين ، وأما الذين فى الجنة والنار فالإنس والجن ، لهم الثواب وعليهم العقاب .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **وربك الغنى** ﴾ أى عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم، ولا يضره كفرهم ، ومع كونه غنيًا عنهم ، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعا من رحمته لهم ، وما أحسن هذا الكلام الربانى وأبلغه ، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة فى هذا المقام ، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هى غاية التفضل والتطول ﴿ **إن يشأ يذهبكم** ﴾ أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضى إلى الهلاك ويستخلف من بعد إهلاككم ما يشاء من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منكم﴿ **كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية، أى ويستخلف استخلافًا مثل إنشائكم من ذرية قوم آخرين ، قيل : هم أهل سفينة نوح ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم ، ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ، ولطفا بهم ﴿ **إن ما توعدون** ﴾ من البعث والمجازاة ﴿ **لآت** ﴾ لا محالة فإن اللّه لايخلف الميعاد ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أى بفائتين عما هو نازل بكم ، وواقع عليكم : يقال : أعجزنى فلان ، أى فاتنى وغلبنى .

قوله : ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ المكانة : الطريقة ، أى اثبتوا على ما أنتم عليه ، فإنى غير مبال بكم ولامكترث بكفركم ، إنى ثابت عَلَى ما أنا عليه﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد ، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر : و﴿ **عاقبة الدار** ﴾ هى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها ، أى من له النصر فى دار الدنيا ، ومن له وراثة الأرض ومَن له الدار الآخرة . وقال الزجاج : معنى مكانتكم : تمكنكم فى الدنيا ، أى اعملوا على تمكنكم من أمركم . وقيل : على ناحيتكم . وقيل : على موضعكم . قرأ حمزة والكسائى : « من يكون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية. والضمير فى﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ للشأن ، أى لا يفلح من اتصف بصفة الظلم ،

وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم .

قوله : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام** ﴾ هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وتأثيرهم لآلهتهم على اللّه سبحانه، أى جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابّهم نصيبًا ، ولآلهتهم نصيبًا من ذلك ، يصرفونه فى سدنتها والقائمين بخدمتها ، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه فى ذلك عوضوا عنه ماجعلوه لله، وقالوا : اللّه غنى عن ذلك ، والزعم الكذب . قرأ يحيى بن وثاب والسلمى والأعمش والكسائى : « بزعمهم » بضم الزاى ، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان ﴿ **فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله** ﴾ أى إلى المصارف التى شرع الله الصرف فيها كالصدقة، وصلة الرحم، وقرى الضيف ﴿ **وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم** ﴾ أى يجعلونه لآلهتهم وينفقونه فى مصالحها ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى ساء الحكم حكمهم فى إيثار آلهتهم على الله سبحانه . وقيل : معنى الآية : أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم ، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله ، فهذا معنى الوصول إلى الله ، والوصول إلى شركائهم ، وقد قدمنا الكلام فى ذرأ .

قوله : ﴿ **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم** ﴾ أى ومثل ذلك التزيين الذى زينه الشيطان لهم فى قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم ، زين لهم قتل أولادهم . قال الفراء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان . وقيل : هم الغواة من الناس . وقيل : هم الشياطين ، وأشار بهذا إلى الوأد، وهو دفن البنات مخافة السبى والحاجة . وقيل : كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور ليَنحرَنّ أحدهم كما فعل عبدالمطلب . قرأ الجمهور : ﴿ **زين** ﴾ بالبناء للفاعل ونصب ﴿ **قتل** ﴾ على أنه مفعول زيَّن ، وجر أولاد بإضافة قتل إليه، ورفع شركاؤهم على أنه فاعل زين ، وقرأ الحسن بضم الزاى ورفع قتل وخفض أولاد ، ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل ، ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه ، أى زينه شركاؤهم ، ومثله قول الشاعر :

لِيُبْك يَزِيدٌ ضَارِعٌ لِخصومةٍ وَمُخْتَبِطٌ مَا تَطِيح الطَوائِحُ

أى يبكيه ضارع ، وقرأ ابن عامر وأهل الشام بضم الزاى ، ورفع قتل ، ونصب أولاد ، وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم،ومعموله أولادهم ، ففيه الفصل بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول ، ومثله فى الفصل بين المصدر وما أضيف إليه قول الشاعر :

تَمُر عَلَى مَا تَسْتَمِر وقَدْ شَفَتْ غَلائل عبدُ القيس منها صُدُورِها

بجر صدورها ، والتقدير : شفت عبد القيس غلائل صدورها . قال النحاس : إن هذه القراءة لا تجوز فى كلام ولا فى شعر ، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف فى الشعر لاتساعهم فى الظروف ، وهو أى الفصل بالمفعول به فى الشعر بعيد ،

فإجازته فى القرآن أبعد ، وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى : إن قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية وهى زلة عالم ، وإذا زلَّ العالم لم يجز اتباعه وردّ قوله إلى الإجماع ، وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ، كقول الشاعر :

كما خُطَّ الكتابُ بكف يومًا يَهودِى يُقَارِبُ أو يُزِيلُ

وقول آخر :

لِلّه دَرُّ اليَوْمَ مَن لامَهَا

وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة : إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبى ﷺ فهى فصيحة لا قبيحة . قالوا : وقد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان رضى الله عنه « شركايهم » بالياء .

وأقول : دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعتبرين كما بينا ذلك فى رسالة مستقلة ، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوى فقراءته ردّ عليه ، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل فى النظم كما قدمنا ، وكقول الشاعر :

فَزَجَجْتُها بِمَزَجّة زَجَّ القَلوصَ أبى مَزَاده

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها ، وفى الآية قراءة رابعة وهى جر الأولاد والشركاء ، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم فى النسب والميراث . قوله : ﴿ **ليردوهم** ﴾ اللام لام كى ، أى لكى يردوهم ، من الإرداء وهو الإهلاك ﴿ **وليلبسوا عليهم دينهم** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخلط دينهم عليهم ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه** ﴾ أى لو شاء الله عدم فعلهم ما فعلوه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وإذا كان ذلك بمشيئة الله ﴿ **فذرهم وما يفترون** ﴾ فدعهم وافتراءهم فذلك لا يضرك .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبان بن عثمان قال : الذرية الأصل ، والذرية النسل . وأخرجا أيضا عن ابن عباس ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ قال : بسابقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **على مكانتكم** ﴾ قال : على ناحيتكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وجعلوا لله** ﴾ الآية . قال : جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيبًا ، وللشيطان والأوثان نصيبًا ، فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه ، وإن سقط مما جعلوه للشياطين فى نصيب الله ردّوه إلى نصيب الشيطان ، وإن انفجر من سقى ما جعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه ، وإن انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان فى نصيب الله نزحوه، فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقى الماء ، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ﴾ الآية [المائدة :١٠٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءًا أو

لشركائهم جزءًا ، فما ذهب به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه ، وقالوا : الله عن هذا غنى ، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه ،والأنعام التى سموا لله : البحيرة والسائبة .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم** ﴾ قال : شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خوف العيلة [1] .

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾ .

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم ، والحجر بكسر أوله وسكون ثانية فى قراءة الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان : « حجر » بضم الحاء والجيم ، وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير : « حرج » بتقديم الراء على الجيم وكذا هو فى مصحف أُبى ، وهو من الحرج ، يقال : فلان يتحرج ، أى يضيق على نفسه الدخول فيما يشتبه عليه ، والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول ، أى محجور، وأصله المنع ، فمعنى الآية : هذه أنعام وحرث ممنوعة يعنون أنها لأصنامهم ، لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم وهم خدام الأصنام ، والقسم الثانى قولهم : ﴿ **وأنعام حرمت ظهورها** ﴾ وهى البحيرة والسائبة والحام . وقيل :إن هذا القسم الثانى مما جعلوه لآلهتهم أيضا . والقسم الثالث :﴿ **أنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ وهى ما ذبحوا لآلهتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله . وقيل : إن المراد : لا يحجون عليها افتراء على الله، أى للافتراء عليه ﴿ **سيجزيهم بما كانوا يفترون** ﴾ أى بافترائهم أو بالذى يفترونه ، ويجوز أن يكون افتراء منتصبًا على أنه مصدر ، أى افتروا افتراء أو حال ، أى مفترين ، وانتصابه على العلة أظهر، ثم بين الله سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال : ﴿ **وقالوا ما فى بُطون هذه الأنعام** ﴾ يعنون البحائر والسوائب من الأجنة ﴿ **خالصة لذكورنا** ﴾ أى حلال لهم ﴿ **ومحرم على أزواجنا** ﴾ أى على جنس الأزواج ، وهن النساء فيدخل فى ذلك البنات والأخوات ونحوهن . وقيل : هو اللبن جعلوه حلالا للذكور ومحرمًا على الإناث ، والهاء فى خالصة للمبالغة فى

---

(١) وقد روى هذا الأثر أيضا ابن جرير : ٨/ ٣٢ . والعيلة : ـ بفتح فسكون ـ الفقر وشدة الحاجة .

الخلوص كعلامة ونسابة ، قاله الكسائى والأخفش ، وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . ورد بأن ما فى بطون الأنعام غير الأنعام ، وتعقب هذا الرد بأن ما فى بطون الأنعام أنعام ، وهى الأجنة ، وما عبارة عنها ، فيكون تأنيث خالصة بمعنى ما وتذكير محرم باعتبار لفظها . وقرأ الأعمش :« خالص » قال الكسائى : معنى خالص وخالصة واحد إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه. وقرأ قتادة : « خالصة » بالنصب على الحال من الضمير فى متعلق الظرف الذى هو صلة لما وخبر المبتدأ محذوف كقولك :الذى فى الدار قائما زيد ، هذا قول البصريين . وقال الفراء : إنه انتصب على القطع . وقرأ ابن عباس « خالصة » بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما .وقرأ سعيد بن جبير: « خالصا » ﴿ **وإن يكن ميتة** ﴾ قرئ بالتحتية والفوقية ، أى وإن يكن الذى فى بطون الأنعام ﴿ **ميتة فهم فيه** ﴾ أى فى الذى فى البطون ﴿ **شركاء** ﴾ يأكل منه الذكور والإناث ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ أى بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، والمعنى :سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله . وقيل : المعنى : سيجزيهم جزاء وصفهم . ثم بين الله سبحانه نوعًا آخر من جهالاتهم فقال :﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها** ﴾ أى بناتهم بالوأد الذى كانوا يفعلونه سفها ، أى لأجل السفه ، وهو الطيش والخفة لا لحجة عقلية ولا شرعية كائنا ذلك منهم ﴿ **بغير علم** ﴾ يهتدون به . قوله : ﴿ **وحرموا ما رزقهم الله** ﴾ من الأنعام التى سموها بحائر وسوائب ﴿ **افتراء على الله** ﴾ أى للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه ﴿ **قد ضلوا** ﴾ عن طريق الصواب بهذه الأفعال ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ إلى الحق ولا هم من أهل الاستعداد لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** ﴾ قال : الحجر ما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** ﴾ قال : ما جعلوا لله ولشركائهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ **وحرث حجر** ﴾ قال : حرام . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : يقولون حرام أن يطعم الابن شيئا ﴿ **وأنعام حرمت ظهورها** ﴾ قال : البحيرة والسائبة والحامى ﴿ **وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ إذا نحروها .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى وائل فى قوله : ﴿ **وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ قال : لم تكن يحج عليها وهى البحيرة .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿**وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام** ﴾ الآية قال : اللبن . وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال : السائبة ، والبحيرة محرم على أزواجنا قال : النساء ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ قال : قولهم الكذب فى ذلك . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه ، فكان للرجال دون النساء ، وإن

كانت أنثى تركوها فلم تذبح ، وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء . وأخرج عبد بن حميد والبخارى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام : ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ [1] . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى والفاقة ، ويغذو كلبه ﴿ **وحرموا ما رزقهم اللّه** ﴾ قال : جعلوه بحيرة، وسائبة ، ووصيلة ، وحاميًا تحكما من الشيطان فى أموالهم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ﴾ .

هذا فيه تذكير لهم ببديع قدرة اللّه وعظيم صنعه ﴿ **أنشأ** ﴾ أى خلق ، والجنات : البساتين ﴿ **معروشات** ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿ **وغير معروشات** ﴾ غير مرفوعات عليها . وقيل : المعروشات : ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ ، وغير المعروشات : ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار . وقيل : المعروشات : ما أنبته الناس وعرشوه ، وغير المعروشات : ما نبت فى البرارى والجبال . قوله : ﴿ **والنخل والزرع** ﴾ معطوف على جنات ، وخصهما بالذكر مع دخولهما فى الجنات لما فيها من الفضيلة ﴿ **مختلفا أكله** ﴾ أى حال كونه مختلفا أكله فى الطعم والجودة والرداءة . قال الزجاج : وهذه مسألة مشكلة فى النحو، يعنى انتصاب ﴿ **مختلفا** ﴾ على الحال لأنه يقال : قد أنشأها ولم يختلف أكلها ، فالجواب أن اللّه سبحانه أنشأها مقدرًا فيها الاختلاف ، وقد بين هذا سيبويه بقوله : مررت برجل معه صقر صائدًا به غدا، أى مقدرًا للصيد به غدًا ،كما تقول : لتدخلن الدار آكلين شاربين ، أى مقدرين ذلك،وهذه هى الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدونة فى كتب النحو ، وقال: ﴿ **مختلفا أكله** ﴾ ولم يقل: أكلها ، اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : ١١] أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة ، أى أكل ذلك . قوله : ﴿ **والزيتون والرمان** ﴾ معطوف على جنات ، أى وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابها وغير متشابه ، وقد تقدم الكلام عن تفسير هذا ﴿ **كلوا من ثمره** ﴾ أى من ثمركل واحد

---

(١) البخارى فى المناقب (٣٥٢٤) .

منهما،أو من ثمر ذلك ﴿ **إذا أثمر** ﴾ أى إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد . قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ .

وقد اختلف أهل العلم : هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب ؟ فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما . وذهب ابن عباس ومحمد بن الحنفية والحسن والنخعى وطاوس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريج أن هذه الآية منسوخة بالزكاة . واختاره ابن جرير ، ويؤيده أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية فى السنة الثانية بعد الهجرة ، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف . وقالت طائفة من العلماء : إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب . قوله : ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ أى فى التصدق ، وأصل الإسراف فى اللغة : الخطأ . والإسراف فى النفقة : التبذير . وقيل : هوخطاب للولاة يقول لهم : لا تأخذوا فوق حقكم . وقيل : المعنى : لا تأخذوا الشىء بغير حقه وتضعونه فى غير مستحقه .

قوله : ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشًا** ﴾ معطوف على جنات ، أى وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشًا ، والحمولة ما يحمل عليها ، وهو يختص بالإبل فهى فعولة بمعنى فاعلة ، والفَرش ما يتخذ من الوبر ، والصوف والشعر ، فراشًا يفترشه الناس . وقيل : الحمولة : الإبل والفرش : الغنم .وقيل الحمولة :كل ماحمل عليه الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، والفَرش : الغنم ، وهذا لايتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات . وقيل : الحمولة : ما تركب ، والفرش : ما يؤكل لحمه ﴿ **كلوا مما رزقكم** ﴾ من هذه الأشياء ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه الله وتحليل ما لم يحلله ﴿ **إنه** ﴾ أى الشيطان ﴿ **لكم عدو مبين** ﴾ مظهر للعداوة ومكاشف بها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات** ﴾ قال : المعروشات : ما عرش الناس ﴿ **وغير معروشات** ﴾ ما خرج فى الجبال والبريّة من الثمار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : معروشات بالعيدان والقصب وغير معروشات قال : الضاحى . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **معروشات** ﴾ قال : الكرم خاصة .

وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ قال : « ما سقط من السنبل » (١) . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن المنذر والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ قال: كانوا يعطون من اعتزّ بهم شيئًا

(١) عزاه ابن كثير ٣/ ١١٠ لابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعًا .

سوى الصدقة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن مجاهد فى الآية قال : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران ويزيد الأصم قال: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد فيجىء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه فهو قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حماد بن أبى سليمان فى الآية قال : كانوا يطعمون منه رطبًا . وأخرج أحمد وأبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله ؛ أن النبى ﷺ أمر من كل حادى عشرة أوسُق من التمر بقنو يعلق فى المسجد للمساكين (١) . وإسناده جيد . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ نسخها العشر ونصف العشر (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ،وابن المنذر عن السدى نحوه (٣) . وأخرج النحاس وأبو الشيخ والبيهقى عن سعيد بن جبير نحوه (٤). وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك نحوه (٥) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبى قال : إن فى المال حقًا سوى الزكاة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى العالية قال : ما كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة ، ثم إنهم تبادروا وأسرفوا فأنزل الله: ﴿ **ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ (٦) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس جذّ نخلا قال : لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليس له تمرة ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ (٧) . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لو أنفقت مثل أبى قبيس ذهبًا فى طاعة الله لم يكن إسرافا . ولو أنفقت صاعًا فى معصية الله كان إسرافًا ، وللسلف فى هذا مقالات طويلة .

وأخرج الفريابى وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : الحمولة ما حمل عليه من الإبل ، والفرش صغار الإبل التى لا تحمل . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الحمولة : الكبار من الإبل ، والفرش: الصغار من الإبل. وأخرج أبو الشيخ عنه قال : الحمولة : ما حمل عليه ، والفرش : ما أكل منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحمولة الإبل

---

(١) أحمد ٣/ ٣٥٩ ، ٣٦٠ وأبو داود فى الزكاة (١٦٦٢) .
(٢) ابن أبى شيبة ٣/ ١٨٦ والبيهقى ٤/ ١٣٢ .
(٣) ابن أبى شيبة ٣/ ١٨٦ .
(٤) البيهقى ٤/ ١٣٣ .
(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ١٨٦ .
(٦) المصدر السابق ٣/ ١٨٥ وابن جرير ٨/ ٤٥ .
(٧) ابن جرير ٨/ ٤٥ .

والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، والفرش : الغنم . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : الحمولة : الإبل والبقر ، والفرش الضأن والمعز .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ .

اختلف فى انتصاب ﴿ ثمانية ﴾ على ماذا ؟ فقال الكسائى : بفعل مضمر ، أى وأنشأ ثمانية أزواج ، وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرشا ؛ وقال الأخفش على بن سليمان : هو منصوب بـ﴿ كلوا ﴾ ، أى كلوا لحم ثمانية أزواج . وقيل : منصوب على أنه بدل من « ما » فى ﴿ مما رزقكم الله ﴾ والزوج : خلاف الفرد يقال : زوج أو فرد ، كما يقال : شفع أو وتر ، فقوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ يعنى ثمانية أفراد وإنما سمى الفرد زوجًا فى هذه الآية ؛ لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر ، ويقع لفظ الزوج على الواحد ، فيقال : هما زوج وهو زوج ، ويقول : اشتريت زوجى حمام ، أى ذكرًا وأنثى ، والحاصل أن الواحد إذا كان منفردًا سواء كان ذكرا أو أنثى ، قيل له فرد ، وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما زوج ، ولكل واحد على انفراده منهما زوج ، ويقال لهما أيضا : زوجان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : ٣٩] .

قوله : ﴿ من الضأن اثنين ﴾ بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق ، والضأن ذوات الصوف من الغنم ، وهو جمع ضائن. ويقال للأنثى: ضائنة ، والجمع ضوائن . وقيل : هو جمع لا واحد له. وقيل : فى جمعه: ضئين كعبد وعبيد . وقرأ طلحة بن مصرف: « الضأن » بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بسكونها . وقرأ أبان بن عثمان : « ومن الضأن اثنان ومن المعز اثنان » رفعًا بالابتداء .

قوله : ﴿ ومن المعز اثنين ﴾ معطوف على ما قبله مشارك له فى حكمه ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير وأهل البصرة بفتح العين ﴿ من المعز ﴾ . وقرأ الباقون بسكونها ، قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المعز والضأن بالإسكان ، والمعز من الغنم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشعار والأذناب القصار ، وهو اسم جنس ، وواحد المعز ماعز ، مثل صحب وصاحب ، وركب وراكب ، وتجر وتاجر ، والأنثى ماعزة ، والمراد من هذه الآية : أن الله سبحانه بيَّن حال الأنعام وتفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحًا للامتنان بها على عباده ،

ودفعًا لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعضها تقوّلاً على الله سبحانه وافتراءً عليه ، والهمزة فى : ﴿ **قل آلذكرين حرم أم الأنثيين** ﴾ للإنكار ، والمراد بالذكرين الكبش والتيس ، وبالأنثيين النعجة والعنز ، وانتصاب الذكرين بحرّم، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه . والمعنى : الإنكار على المشركين فى أمر البحيرة وما ذكر معها . وقولهم : ﴿ **ما فى بُطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرم على أزواجنا** ﴾ أى قل لهم : إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام ، وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام ، وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين يعنى من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرًا كان أو أنثى ، وكلها مولود . فيستلزم أن كلها حرام . وقوله : ﴿ **نبئونى بعلم إن كنتم صادقين** ﴾ أى أخبرونى بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين . والمراد من هذا : التبكيت لهم ، وإلزام الحجة ؛ لأنه يعلم أنه لا علم عندهم ، وهكذا الكلام فى قوله : ﴿ **ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين** ﴾ إلى آخره .

قوله : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا** ﴾ أم هى المنقطعة ، والاستفهام للإنكار ، وهى بمعنى بل والهمزة ،أى بل أكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم ؟ والمراد : التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله. قوله : ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا** ﴾ أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا فحرَّم شيئًا لم يحرمه الله ونسب ذلك افتراءً عليه كما فعله كبراء المشركين، واللام فى ﴿ **ليُضلَّ الناس بغير علم** ﴾ للعلة ،أى لأجل أن يضل الناس بجهل ، وهو متعلق بـ﴿ **افترى** ﴾ ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ على العموم . وهؤلاء المذكورون فى السياق داخلون فى ذلك دخولا أوليًا ، وينبغى أن ينظر فى وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر مع كون الإبل والبقر أكثر نفعًا وأكبر أجسامًا وأعود فائدة ، لاسيما فى الحمولة والفرش اللّذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح فى إعراب ثمانية .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه ، من طرق عن ابن عباس قال : الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز ، وليت شعرى ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة ، فإنها لا تتعلق به فائدة ، وكون الأزواج الثمانية هى المذكورة هو هكذا فى الآية مصرحًا به تصريحًا لا لبس فيه . وأخرج عبد ابن حميد عن قتادة قال : الذكر والأنثى زوجان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله :﴿ **ثمانية أزواج** ﴾ قال : فى شأن ما نهى الله عنه من البحيرة والسائبة. وأخرج ابن أبى حاتم عن ليث بن أبى سليم قال : الجاموس والبختى من الأزواج الثمانية .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين** ﴾ قال : فهذه أربعة ﴿ **قل آلذكرين حرم أم الأنثيين** ﴾ يقول : لم أحرم شيئًا من ذلك ﴿ **أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين** ﴾ يعنى : هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم يحرّمون بعضًا ويُحلون بعضًا ؟ ﴿ **نبئونى بعلم إن كنتم صادقين** ﴾ يقول : كلها حلال يعنى ما تقدم ذكره مما حرمه أهل الجاهلية .

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ .

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شىء مما أوحى إليه محرما غير هذه المذكورات، فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها لولا أنها مكية ، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وصح عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير، وتحريم الحمر الأهلية(١) والكلاب ونحو ذلك . وبالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدل عليه السياق ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شىء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ماورد بعده مما فيه تحريم شىء من الأشياء . وقد روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة . أنه لا حرام إلا ما ذكره الله فى هذه الآية ، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط ، ومذهب فى غاية الضعف ، لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعده من القرآن ، وإهمال ما صح عن النبى ﷺ ، أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلاسبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجبه .

قوله : ﴿ **محرّما** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى طعاما محرما « على » أى ﴿ **طاعم يطعمه** ﴾ من المطاعم ، وفى ﴿ **يطعمه** ﴾ زيادة تأكيد وتقريرلما قبله ﴿ **إلا أن يكون ميتة** ﴾ أى ذلك الشىء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس . وقرئ : ﴿ **يكون** ﴾ بالتحتية والفوقية ، وقرئ :« ميتة » بالرفع على أن يكون تامة . والدم المسفوح : الجارى ، وغير المسفوح : معفوّ عنه كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذبح، ومنه الكبد والطحال ، وهكذا ما يتلطخ به اللحم من الدم . وقد حكى القرطبى الإجماع على هذا (٢) .

قوله : ﴿ **أولحم خنزير**﴾ ظاهرتخصيص اللحم أنه لايحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم ، والضمير فى ﴿ **فإنه** ﴾ راجع للحم أو إلى الخنزير ، والرجس : النجس ، وقد تقدم تحقيقه . قوله : ﴿ **أو فسقا** ﴾ عطف على لحم خنزير، و﴿ **أهلّ به لغير الله** ﴾ صفة فسق ، أى ذبح على الأصنام ، وسمى فسقًا ؛ لتوغله فى باب الفسق . قيل : ويجوز أن يكون ﴿ **فسقًا** ﴾ مفعولا له لأهلَّ ، أى أَهَلَّ به لغير الله فسقًا على عطف أهَلَّ على يكون ، وهو تكلف لا حاجة إليه ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد** ﴾ قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فلا نعيده ﴿ **فإن ربك غفور**

---

(١) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥٢٧) عن الزهرى ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٣٤ / ١٦) عن ابن عباس . ونصه : « نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع ، وعن كل ذى مخلب من الطير » .
(٢) القرطبى ٤/ ٢٥٦٠ .

رحيم ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة فلا يؤاخذ المضطر بما دعت إليه ضرورته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويحلون أشياء ، فنزلت : ﴿ **قل لا أجد** ﴾ الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تعذرًا ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ **قل لا أجد** ﴾ إلى آخرها [(١)]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أنه تلا هذه الآية فقال : ما خلا هذا فهو حلال . وأخرج البخارى وأبو داود وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال :قلت لجابر بن زيد : إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر ؛ فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفارى عندنا بالبصرة عن رسول الله ﷺ ، ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ :﴿ **قل لا أجد** ﴾ الآية [(٢)] ، وأقول : وإن أبى ذلك البحر فقد صح عن رسول الله ﷺ، والتمسك بقول صحابى فى مقابلة قول النبى ﷺ من سوء الاختيار وعدم الإنصاف .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ليس شىء من الدواب حرام إلا ما حرم الله فى كتابه ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما** ﴾ الآية . وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أنه سئل عن أكل القُنْفُذَ ، فقرأ : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما** ﴾ الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبى ﷺ فقال : « خبيثة من الخبائث » ، فقال ابن عمر :إن كان النبى ﷺ قال فهوكما قال[(٣)] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير تَلَتْ : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما** ﴾ الآية .

وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ، أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت :يا رسول الله، ماتت فلانة ، تعنى : الشاة، قال : « فلولا أخذتم مسكها » ؟ قالت :يا رسول الله ، أنأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقرأ رسول الله ﷺ : « ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة** ﴾ وأنتم لا تطعمونه ، وإنما تدبغونه حتى تستنفعوا به » فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته

---

(١) أبو داود فى الأطعمة (٣٨٠٠) وصححه الحاكم ٤/١١٥ ووافقه الذهبى .
(٢) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥٢٩) وأبو داود فى الأطعمة (٣٨٠٨) .
(٣) أبو داود فى الأطعمة (٣٧٩٩) .

فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها [١]. ومثل هذا حديث شاة ميمونة، وهو فى الصحيح [٢] ، ومثله حديث : « إنما حرم من الميتة أكلها » وهو أيضا فى الصحيح [٣] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أو دمًا مسفوحًا** ﴾ قال : مهراقا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه ، قال : هو دم مسفوح. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبى : أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرمًا** ﴾ الآية . والأحاديث الواردة بتحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير والحمر الأهلية ونحوها مستوفاة فى كتب الحديث .

﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)** ﴾ .

قدم ﴿ **عَلَى الذين هادُوا** ﴾ على الفعل ؛ للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم ، والذين هادوا : اليهود ، ذكر الله ما حرمه عليهم عقب ذكر ما حرمه على المسلمين . والظُّفُر : واحد الأظفار، ويجمع أيضا على أظافير، وزاد الفراء فى جموع ظفر أظافر وأظافرة، وذو الظفر ماله أصبع من دابة أو طائر، ويدخل فيه الحافر والخف والمخلب ، فيتناول الإبل والبقر والغنم والنعام والأوز والبط ، وكل ماله مخلب من الطير ، وتسمية الحافر والخف ظفرًا مجازًا والأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر فى لغة العرب ؛ لأن هذا التعميم يأباه ما سيأتى من قوله :﴿ **ومن البقر والغنم** ﴾ فإن كان فى لغة العرب بحيث يقال على البقروالغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصًا حرّم الله ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من الظلم ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظلْم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحِلت لهم ﴾ [النساء : ١٦٠] .

قوله : ﴿ **ومن البقر والغنم حرَّمْنا عليهم شحومهما** ﴾ لا غير هذه المذكورات كلحمهما ، والشحوم يدخل فيها الثروب وشحم الكلية . وقيل : الثروب جمع ثرب ، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش ، ثم استثنى الله سبحانه من الشحوم ما حملت ظهورهما من الشحم فإنه لم يحرمه الله عليهم ، و « ما » فى موضع نصب على الاستثناء ﴿ **أو الحوايا** ﴾ معطوف على ظهورهما ، أى إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وهى المباعر التى يجتمع البعر

---

(١) أحمد ١/ ٣٢٧ ، ٣٢٨ والبخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٨٦) والنسائى ٧/ ١٧٣ والطبرانى (١١٧٦٥) .
(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٩٢) ومسلم فى الحيض (٣٦٣/ ١٠٠ ، ١٠١) وأبو داود فى اللباس (٤١٢٠) والنسائى ٧ / ١٧٢ ــ ١٧٥ والطبرانى (١١٣٨٣) وكلهم عن ابن عباس رضى الله عنه .
(٣) البخارى فى البيوع (٢٢٢١) عن ابن عباس رضى الله عنه .

فيها ، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم ،وواحدها حاوية ،مثل ضاربة وضوارب. وقيل : واحدها حاوياء ، مثل قاصعاء وقواصع . وقيل : حوية ، كسفينة وسفائن . وقال أبو عبيدة : الحوايا ما تحوّى من البطن ، أى استدار ، وهى متحوية ، أى مستديرة . وقيل : الحوايا : خزائن اللبن ، وهى تتصل بالمباعر . وقيل : الحوايا : الأمعاء التى عليها الشحوم .

قوله :﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ معطوف على « ما » فى ﴿ **ما حملت** ﴾ كذا قال الكسائى والفراء وثعلب . وقيل : إن الحوايا وما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم . والمعنى : حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرم ولا وجْه لهذا التكلف ولا موجب له لأنه يكون المعنى : إن الله حرم عليهم إحدى هذه المذكورات . والمراد بما اختلط بعظم : ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان ، ومنه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى التحريم المدلول عليه بحرَّمنا ، أى ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم.وقيل : إن الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله : ﴿ **جزيناهم** ﴾ أى ذلك الجزاء جزيناهم ، وهو تحريم ما حرَّمه الله عليهم ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فى كل ما نخبر به ، ومن جملة ذلك هذا الخبر وهو موجود عندهم فى التوراة ونصها : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.وكل دابة ليست مشقوقة الحافر وكل حوت ليس فيه سفاسف ، أى بياض . انتهى .

والضمير فى﴿ **كذبوك** ﴾ لليهود ، أى فإن كذبك اليهود فيما وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء ﴿ **فقل ربكم ذو رحمة واسعة** ﴾ ومن رحمته حلمه عنكم وعدم معاجلته لكم بالعقوبة فى الدنيا ، وهو وإن أمهلكم ورحمكم فـ﴿ **لا يرد بأسه عن القوم المجرمين** ﴾ إذا أنزله بهم واستحقوا المعاجلة بالعقوبة. وقيل : المراد : لا يُرد بأسه فى الآخرة عن القوم المجرمين . والأول أولى ، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم فى الدنيا . وقيل : الضمير يعود إلى المشركين ، الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام ، وحللوا بعضها وحرموا بعضها . وقيل : المراد : أنه ذو رحمة للمطيعين ﴿ **ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين** ﴾ ولا مُلجئ لهذا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل ذى ظفر** ﴾ قال : هو الذى ليس بمنفرج الأصابع يعنى ليس بمشقوق الأصابع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . والبيهقى فى سننه عنه ﴿ **كل ذى ظُفُر** ﴾ قال : البعير والنعامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هو كل شىء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود ، قال : انفرجت قوائم الدجاج والعصافير ، فيهود تأكله ، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة ، ولا قائمة الوزينة فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوزينة ، ولا كل شىء لم تنفرج قائمته كذلك ، ولا تأكل حمار الوحش .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ يعنى : ما علق بالظهر من الشحم ﴿ **أو الحوايا** ﴾ هى المبعر. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله :﴿ **إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ قال : الإلية ﴿ **أو الحوايا** ﴾ قال : المبعر ﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ قال: الشحم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أو الحوايا** ﴾ قال : المباعر. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ **أو الحوايا** ﴾ قال : المرائض والمباعر. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ قال: الإلية اختلط شحم الإلية بالعصعص فهو حلال ، وكل شحم القوائم والجنب والرأس والعين والأذن يقولون : قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم ، إنماحرم عليهم الثرب وشحم الكلية، وكل شىء كان كذلك ليس فى عظم .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإن كذبوك** ﴾ قال : اليهود. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال :كانت اليهود يقولون :إن ما حرمه إسرائيل فنحن نحرمه ؛ فلذلك قوله : ﴿ **فإن كذّبوك** ﴾ الآية .

﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)** ﴾ .

أخبر الله عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة ، وهم كفار قريش أوجميع المشركين ، يريدون أنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا هم ولا آباؤهم ، ولا حرّموا شيئًا من الأنعام ، كالبحيرة ونحوها ، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التى ألزمهم بها رسول الله ﷺ وأن ما فعلوه حق ، ولو لم يكن حقا لأرسل الله إلى آبائهم الذين ماتوا على الشرك ، وعلى تحريم ما لم يحرمه الله رسلاً يأمرونهم بترك الشرك ، وبترك التحريم لما لم يحرمه الله ، والتحليل لما لم يحلله ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء الله﴿ **حتى ذاقوا بأسنا** ﴾ أى استمروا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذى أنزلناه بهم ، ثم أمره الله أن يقول لهم : ﴿ **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا** ﴾ أى هل عندكم دليل صحيح بعد من العلم النافع ، فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره، والمقصود من هذا التبكيت لهم ؛ لأنه قد علم أنه لاعلم عندهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان ، ثم أوضح لهم

أنهم ليسوا على شىء من العلم ، وأنهم إنما يتبعون الظنون ، أى ما يتبعون إلا الظن الذى هو محل الخطأ ومكان الجهل ﴿ **وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾ أى تتوهمون مجرد توهم فقط كما يتوهم الخارص، وقد سبق تحقيقه، ثم أمره الله سبحانه بأن يخبرهم بأن لله الحجة البالغة على الناس ، أى التى تنقطع عندهم معاذيرهم وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم . والمراد : بها الكتب المنزلة ، والرسل المرسلة ، وما جاؤوا به من المعجزات ﴿ **فلو شاء** ﴾ هدايتكم جميعا ﴿ **لهداكم أجمعين** ﴾ ولكنه لم يشأ ذلك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [الأنعام : ١٠٧] ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام : ١١١] ومثله كثير ، ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء المشركين : ﴿ **هلم شهداءكم** ﴾ أى هاتوهم وأحضروهم وهو اسم فعل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والمثنى ، والمجموع عند أهل الحجاز وأهل نجد يقولون : هلما هلمى هلموا ، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال وبلغة أهل الحجاز نزل القرآن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والقائلين لإخوانهم هَلُم إلينا ﴾ [الأحزاب : ١٨] والأصل عند الخليل « ها » ضُمَّت إليها « لم» ، وقال غيره: أصلها « هل » زيدت عليها الميم ، وفى كتاب العين للخليل : أن أصلها هل أؤم ، أى هل أقصدك ، ثم كثر استعمالهم لها ، وهذا أيضا من باب التبكيت لهم حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرَّم تلك الأشياء مع علمه أن لا شهود لهم ﴿ **فإن شهدوا** ﴾ لهم بغير علم بل مجازفة وتعصب ﴿ **فلا تشهد معهم** ﴾ أى فلا تصدقهم ، ولا تسلم لهم ، فإنهم كاذبون جاهلون ، وشهادتهم باطلة ، ﴿ **ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى ولا تتبع أهواءهم ، فإنهم رأس المكذبين بآياتنا .

قوله : ﴿ **والذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ معطوف على الموصول ، أى لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، وأهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ **وهم بربهم يعدلون** ﴾ أى يجعلون له عدلا من مخلوقاته كالأوثان . والجملة إما فى محل نصب على الحال ، أو معطوفة على لا يؤمنون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد فى قوله : ﴿ **سيقول الذين أشركوا** ﴾ قال : هذا قول قريش : إن الله حرم هذا ، أى البحيرة والسائبة ، والوصيلة والحام .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة ﴿ **قل فلله الحجة البالغة** ﴾ قال : السلطان . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ، أنه قيل له : إن ناسًا يقولون : ليس الشر بقدر ، فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : ﴿ **سيقول الذين أشركوا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ قال ابن عباس : والعجز والكيس من القدر . وأخرج أبو الشيخ عن على بن زيد قال : انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية : ﴿ **قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **قل هلم شهداءكم** ﴾ قال : أرونى شهداءكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ أى تقدموا . قال ابن الشجرى : إن المأمور بالتقدم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدًا، فقيل له : تعال ، أى ارفع شخصك بالقيام وتقدم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى. وهكذا قال الزمخشرى فى الكشاف : إنه من الخاص الذى صار عاما ، وأصله أن يقوله : من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ (١) .

قوله :﴿ **أتل ما حرم ربكم** ﴾ ﴿ **أتل** ﴾ جواب الأمر ، و « **ما** » موصولة فى محل نصب به ، أى أتل الذى حرمه ربكم عليكم . والمراد من تلاوة ما حرم الله: تلاوة الآيات المشتملة عليه ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، أى أتل تحريم ربكم . والمعنى : ما اشتمل على التحريم . قيل : ويجوز أن تكون « ما » استفهامية ، أى أتل أى شىء حرم ربكم على جعل التلاوة بمعنى القول ، وهو ضعيف جدًا، و﴿ **عليكم** ﴾ إن تعلق بـ ﴿ **أتل** ﴾ فالمعنى: أتل عليكم الذى حرم ربكم ، وإن تعلق بـ ﴿**حرم** ﴾ فالمعنى : أتل الذى حرم ربكم عليكم ، وهذا أولى ؛ لأن المقام مقام بيان ما هو حرم عليكم لا مقام بيان ما هو محرم مطلقًا . وقيل : إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها ، والمعنى : عليكم أن لا تشركوا إلى آخره ، أى الزموا ذلك كقوله تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم﴾[المائدة : ١٠٥] وهو أضعف مما قبله ، وأن فى ﴿ **أن لا تشركوا** ﴾ مفسرة لفعل التلاوة ، وقال النحاس : يجوز أن تكون فى موضع نصب بدلاً من « ما » ، أى أتل عليكم تحريم الإشراك . وقيل : يجوز أن يكون فى محل رفع بتقدير مبتدأ ، أى المتلو أن لا تشركوا ، و ﴿ **شيئًا** ﴾ مفعول أو مصدر ، أى لا تشركوا به شيئًا من الأشياء ، أو شيئًا من الإشراك . قوله : ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ أى أحسنوا بهما إحسانا ، والإحسان إليهما البر بهما ، وامتثال أمرهما ونهيهما . وقد تقدم الكلام على هذا .

قوله :﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ لما ذكر حق الوالدين على الأولاد ، ذكر حق

(١) الكشاف ٧٨/٢ .

الأولاد على الوالدين ، وهو أن لا يقتلوهم من أجل إملاق . والإملاق: الفقر ، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والإناث خشية الإملاق وتفعله بالإناث خاصة خشية العار ، وحكى النقاش عن مؤرج أن الإملاق : الجوع بلغة لخم ، وذكر منذر بن سعيد البلوطى أن الإملاق : الإنفاق . يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . والمعنى الأول هو الذى أطبق عليه أئمة اللغة ، وأئمة التفسير ها هنا ﴿ **ولا تقربوا الفواحش** ﴾ أى المعاصى ومنه ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ [الإسراء : ٣٢] وما فى ﴿ **ما ظهر** ﴾ بدل من الفواحش ، وكذا ما بطن والمراد بـ ﴿ **ما ظهر** ﴾ :ما أعلن به منها ، ﴿ **وما بطن** ﴾ : ما أسر. وقد تقدم ﴿ **ولا تقتلوا النفس** ﴾ اللام فى النفس للجنس و﴿ **التى حرم الله** ﴾ صفة للنفس ، أى لا تقتلوا شيئًا من الأنفس التى حرمها الله ﴿ **إلا بالحق** ﴾ أى إلا بما يوجبه الحق ، والاستثناء مفرغ ، أى لا تقتلوه فى حال من الأحوال إلا فى حال الحق أولا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، ومن الحق قتلها قصاصًا وقتلها بسبب زنا المحصن ، وقتلها بسبب الردة ، ونحو ذلك من الأسباب التى ورد الشرع بها، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم مما تلاه عليهم ، وهو مبتدأ ﴿ **ووصّاكم به** ﴾ خبره ، أى أمركم به وأوجبه عليكم ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم** ﴾ أى لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالخصلة ﴿ **التى هى أحسن** ﴾ من غيرها ، وهى ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته ، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم وزيادة فى ماله . وقيل : المراد بالتى هى أحسن : التجارة ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ أى إلى غاية هى أن يبلغ اليتيم أشده ، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله ،كما قال تعالى :﴿ فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : ٦] .

واختلف أهل العلم فى الأشد ، فقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده.وقال أبو حنيفة : خمس وعشرون سنة . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو البلوغ . وقيل : إنه انتهاء الكهولة ، ومنه قول سحيم الرباحى :

أخُو الخمسين مُجْتَمعٌ أشُدّى ويحدبنى (١) مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ

والأولى فى تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد ، وهو أن يكون فى تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء ، لا مسلك أهل السفه والتبذير ، ويدل على هذا قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : ٦] فجعل بلوغ النكاح ، وهو بلوغ سن التكليف مقيدًا بإيناس الرشد ، ولعله قد سبق هنالك كلام فى هذا ، والأشد واحد لا جمع له. وقيل : واحده شد كفلس وأفلس ، وأصله من شد النهار ، أى ارتفع . وقال سيبويه: واحده شدة . قال الجوهرى: وهوحسن فى المعنى؛ لأنه يقال:بلغ الكلام شدته ، ولكن لا تجمع فعلة على أفعل .

---

(١) فى القرطبى ٤/ ٢٥٧١ « ونجذنى » .

قوله : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ أى بالعدل فى الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء ﴿ **لا نكلف نفسًا إلا وسعها** ﴾ أى إلا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف ، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن ، فلا يخاطب المتولى لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه فى الزيادة والنقصان ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا** ﴾ أى إذا قلتم بقول فى خير أوشهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه وتحروا الصواب ، ولا تتعصبوا فى ذلك لقريب ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو ، بل سووا بين الناس فإن ذلك من العدل الذى أمر الله به ، والضمير فى ﴿ **ولو كان** ﴾ راجع إلى ما يفيده ﴿ **وإذا قلتم** ﴾ فإنه لا بد للقول من مقول فيه ،أو مقول له ، أى ولو كان المقول فيه أو المقول له ﴿ **ذا قربى** ﴾ أى صاحب قرابة لكم . وقيل : إن المعنى : ولو كان الحق على مثل قراباتكم ، والأول أولى ، ومثل هذه الآية قوله :﴿ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [النساء : ١٣٥] .

قوله : ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾ أى أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم ، ومن جملة ما عهده إليكم ما تلاه عليكم رسوله بأمره فى هذا المقام ، ويجوز أن يراد به كل عهد ولو كان بين المخلوقين ؛ لأن الله سبحانه لما أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوّغا لإضافته إليه. والإشارة بقوله :﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم ذكره ﴿ **وصاكم به** ﴾ أمركم به أمرًا مؤكدا ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ فتتعظون بذلك .

قوله: ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيمًا** ﴾ أن فى موضع نصب، أى واتل أن هذا صراطى قاله الفراء والكسائى . قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضًا ، أى وصاكم به ، وبأن هذا . وقال الخليل وسيبويه : إن التقدير: ولأن هذا صراطى مستقيما كما فى قوله سبحانه : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : ١٨] وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « وإن هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ، والتقدير : الذى ذكر فى هذه الآيات صراطى . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب : « وإن هذا صراطى » بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن ، وقرأ الأعمش : « وهذا صراطى » وفى مصحف عبدالله بن مسعود :« وهذا صراط ربكم » و فى مصحف أبىّ :« وهذا صراط ربك » والصراط : الطريق ، وهو طريق الإسلام ، ونصب مستقيمًا على الحال ، والمستقيم : المستوى الذى لا اعوجاج فيه ، ثم أمرهم باتباعه ،ونهاهم عن اتباع سائر السبل ، أى الأديان المتباينة طرقها ﴿ **فتفرّق بكم** ﴾ أى تميل بكم ﴿ **عن سبيله** ﴾ أى عن سبيل الله المستقيم الذى هو دين الإسلام . قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد (١) . والإشارة بـ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم وهو مبتدأ وخبره ﴿ **وصاكم به** ﴾ أى أكد عليكم الوصية به ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ ما نهاكم عنه.

(١) القرطبى ٤/ ٢٥٧٤ .

وقد أخرج الترمذى وحسنه، وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّكم يبايِعنى على هؤلاء الآيات ؟ » ثم تلا : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ إلى ثلاث آيات ، ثم قال : « فَمن وفَّى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه ، وإن شاء عفا عنه » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن المنذر عن كعب الأحبار قال : أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات ، وهى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى آخرها . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبدالله بن عدى بن الخيار قال : سمع كعب رجلا يقرأ : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا** ﴾ فقال كعب : والذى نفس كعب بيده إنها لأول آية فى التوراة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى آخر الآيات . انتهى.

قلت : هى الوصايا العشر التى فى التوراة ، وأولها : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله غيرى . ومنها : أكرم أباك وأمك ، ليطول عمرك فى الأرض ، التى يعطيك الرب إلهك ، لا تقتل ، لا تزن ، لاتسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بنت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك ، فلعل مراد كعب الأحبار هذا ، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور فى آخر زبورهم ، وأهل الإنجيل فى أول إنجيلهم . وهى مكتوبة فى لوحين ، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ قال : من خشية الفاقة ، قال : وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبى ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ قال : سرها وعلانيتها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ قال : خشية الفقر ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ قال : كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزنا بأسًا فى السر ويستقبحونه فى العلانية ، فحرم الله الزنا فى السر والعلانية .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيمًا** ﴾ قال : اعلموا أن السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة ، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعه الضلالة ومصيرها النار . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار والنسائى وابن المنذر وابن

---

(١) البخارى فى الحدود (٦٧٨٤) ومسلم فى الحدود (١٧٠٩/ ٤١) والترمذى فى الحدود (١٤٣٩) وقال : «حسن صحيح » والنسائى ٧/ ١٤٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٨ ووافقه الذهبى .

أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطّا بيده ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيما » ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : « وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ (١) . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن مردويه من حديث جابر نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود ، أن رجلا سأله : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمداً ﷺ فى أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد ، وثَم رجال يدعون مَنْ مَرَّ بهم فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا تتبعوا السبل** ﴾ قال : الضلالات .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾ .

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التى وصى الله عباده بها ، وقد استشكل العطف بِثُمَّ مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه، وهو ما تقدم من قوله : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ فقيل : إن ثُم ها هنا بمعنى الواو. وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ . وقيل : المعنى : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ثم اتل إيتاء موسى الكتاب . وقيل : إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبى يوصى بها أمته . وقيل : إن ثم للتراخى فى الإخبار كما تقول : بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب .

قوله : ﴿ **تماما** ﴾ مفعول لأجله أو مصدر ، و﴿ **على الذى أحسن** ﴾ قرئ بالرفع وهى

(١) أحمد ١ /٤٦٥ والنسائى فى التفسير (١٩٤) وصححه الحاكم ٢ /٣١٨ ووافقه الذهبى ، والدارمى ٦٧/١ ، ٦٨ .

(٢) ابن جرير ٨/ ٦٥ .

قراءة يحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق ، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ ، أى على الذى هو أحسن ، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع : ما أنا بالذى قائل لك شيئًا . وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين ، وأجاز الفراء والكسائى اسما نعتًا للذى ، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتم ، والمعنى عندهم تمامًا على من أحسن قبوله والقيام به كائنا من كان ، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ :« تماما على الذين أحسنوا» وقال الحسن : كان فيهم محسن وغير محسن ، فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين . وقيل : المعنى : أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه . وقيل : المعنى : تماما على الذى أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها. وقيل : تماما على إحسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء . قوله : ﴿ **وتفصيلاً لكل شىء** ﴾ معطوف على تماما ، أى ولأجل تفصيل كل شىء وكذا ﴿ **هدى ورحمة** ﴾ معطوفتان عليه ، أى وللهدى والرحمة ، والضمير فى لعلهم راجع إلى بنى إسرائيل المدلول عليه بذكر موسى ، والباء فى ﴿ **بلقاء** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **يؤمنون** ﴾ .

قوله :﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ الإشارة إلى القرآن ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب ، وأنزلناه صفة لكتاب، ومبارك صفة أخرى له، وتقديم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقا بها ، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية ﴿ **فاتبعوه** ﴾ فإنه لما كان من عند الله،وكان مشتملا على البركة،كان اتباعه متحتما عليكم ﴿ **واتقوا**﴾ مخالفته والتكذيب بما فيه ﴿ **لعلكم** ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿ **ترحمون** ﴾ برحمة الله سبحانه. و« أن » فى ﴿ **أن تقولوا** ﴾ فى موضع نصب . قال الكوفيون : لئلا تقولوا . وقال البصريون : كراهة أن تقولوا . وقال الفراء والكسائى:المعنى : فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة : ﴿ **إنما أنزل الكتاب** ﴾ أى التوراة والإنجيل ﴿ **على طائفتين من قبلنا** ﴾ وهم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب ﴿ **وإن كنا عن دراستهم** ﴾ أى عن تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿ **لغافلين** ﴾ أى لا ندرى ما فيها ، ومرادهم : إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم والغفلة عن معناهما.

قوله :﴿ **أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب** ﴾ معطوف على ﴿ **تقولوا** ﴾ أى أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿ **لكنا أهدى منهم** ﴾ إلى الحق الذى طلبه الله ، فإن هذه المقالة والمعذرة منهم مندفعة بإرسال محمد ﷺ إليهم ، وإنزال القرآن عليه ، ولهذا قال : ﴿ **فقد جاءكم بينة من ربكم** ﴾ أى كتاب أنزله الله على نبيكم ، وهو منكم يا معشر العرب ، فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة ، فقد أسفر الصبح لذى عينين ﴿ **وهدى ورحمة** ﴾ معطوف على ﴿ **بينة** ﴾ أى جاءكم البينة الواضحة والهدى الذى يهتدى به كل من له رغبة فى الاهتداء، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله والصدوف عنها ، أى الانصراف

عنها ، وصرف من أراد الإقبال إليها ﴿ **فَمن أظلم ممن كذَّب بآيات الله** ﴾ التى هى رحمة وهدى للناس ﴿ **وصدف عنها** ﴾ فضَّل بانصرافه عنها، وأضل بصرف غيره عن الإقبال إليها ﴿ **سَنَجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب** ﴾ أى العذاب السيئ بسبب ﴿ **ما كانوا يصدفون** ﴾ وقيل : معنى صدف : أعرض ، ويصدفون : يعرضون ، وهو مقارب لمعنى الصرف ،وقد تقدم تحقيق معنى هذا اللفظ ، والاستفهام فى ﴿ **فمن أظلم** ﴾ للإنكار، أى إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها ، مع ما يفيده ذلك من التبكيت لهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **تماما على الذى أحسن** ﴾ قال : على المؤمنين المحسنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر ﴿ **تماما على الذى أحسن** ﴾ قال : تمامًا لما كان قد أحسن الله. وأخرج أيضًا عن ابن زيد قال : تمامًا لنعمته عليهم وإحسانه إليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله :﴿ **وهذا كتاب** ﴾ قال : هو القرآن الذى أنزله الله على محمد ﴿ **فاتبعوه واتقوا** ﴾ يقول : فاتبعوا ما أحل الله فيه ، واتقوا ما حرَّم . وأخرج هؤلاء عن مجاهد ، فى قوله : ﴿ **على طائفتين من قبلنا** ﴾ قال : اليهود والنصارى ، خاف أن تقوله قريش . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هم اليهود والنصارى ﴿ **وإن كنا عن دراستهم** ﴾ قال : تلاوتهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:﴿ **لكنا أهدى منهم** ﴾ قال : هذا قول كفار العرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فقد جاءكم بينة من ربكم** ﴾ يقول : قد جاءتكم بينة لسان عربى مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **صدف عنها** ﴾ قال : أعرض عنها . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يصدفون** ﴾ قال :يعرضون .

﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)** ﴾ .

أى لما أقمنا عليهم الحجة : وأنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل إليهم ، فلم ينفعهم ذلك ولم يرجعوا به عن غوايتهم فما بقى بعد هذا إلا أنهم ﴿ **ينظرون** ﴾ أى ينتظرون ﴿ **أن تأتيهم الملائكة** ﴾ أى ملائكة الموت لقبض أرواحهم ، وعند ذلك لاينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿ **أو يأتى ربك** ﴾ يا محمد كما اقترحوه بقولهم:﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : ٢١] وقيل : معناه : أو يأتى أمر ربك بإهلاكهم . وقيل : المعنى : أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله : ﴿ **أو يأتى بعض آيات ربك** ﴾ وقيل : هو من المتشابه الذى لا يعلم

تأويله إلا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيرا ، كقوله :﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] وقوله :﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ [البقرة : ٩٣] أي حب العجل . وقيل : إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه ، كقوله: ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ [الفجر : ٢٢] .

قوله : ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك** ﴾ قرأ ابن عمر وابن الزبير:« يوم تأتي » بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية . قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث ، لا على الأصل ، ومنه قول جرير :

لما أَتَى خَبَرُ الزبير تواضَعَتْ سُوُر المدينة والجبال الخُشَّعُ (١)

وقرأ ابن سيرين : « لا تنفع » بالفوقية ، قال أبو حاتم : إن هذا غلط عن ابن سيرين . وقد قال الناس : في هذا شيء دقيق من النحو ذكره نفطويه ، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر ، فأنَّث الإيمان إذ هو من النفس. قال النحاس : وفيه وجه آخر ، وهو : أن يؤنث الإيمان لأنه مصدر ، كما يذكر المصدر المؤنث مثل : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ومعنى ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك** ﴾ : يوم يأتي الآيات التي اقترحوها ، وهي التي تضطرهم إلى الإيمان ﴿ **لا ينفع نفسًا إيمانها** ﴾ أو ما هو أعم من ذلك ، فيدخل فيه ما ينتظرونه . وقيل : هي الآيات التي هي علامات القيامة المذكورة في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ ، فهي التي إذا جاءت لا ينفع نفسًا إيمانها .

قوله : ﴿ **لم تكن آمنت من قبل** ﴾ أي من قبل إتيان بعض الآيات ، فأما التي قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها ، وجملة : ﴿ **لم تكن آمنت من قبل** ﴾ في محل نصب على أنها صفة ﴿ **نفسًا** ﴾ ، قوله : ﴿ **أوكسبت في إيمانها خيرا** ﴾ معطوف على ﴿ **آمنت** ﴾ والمعنى : أنه لا ينفع نفسًا إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل ، أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب في إيمانها خيرًا ، فحصل من هذا : أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير في الإيمان ، فمن آمن من قبل فقط ولم يكسب خيرًا في إيمانه ، أو كسب خيرًا ولم يؤمن ، فإن ذلك غير نافعه ، وهذا التركيب هو كقولك : لا أعطي رجلاً اليوم أتاني لم يأتني بالأمس ، أو لم يمدحني في إتيانه إليّ بالأمس ، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحق العطاء إلا رجل أتاه بالأمس ومدحه في إتيانه إليه بالأمس ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم :﴿ **انتظروا** ﴾ ما تريدون إتيانه ﴿ **إنا منتظرون** ﴾ له وهذا تهديد شديد ، ووعيد عظيم ، وهو يقوّي ما قيل في تفسير ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك** ﴾ إنها الآيات التي اقترحوها من إتيان الملائكة ، وإتيان العذاب لهم من قبل

(١) وصف مقتل الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ صاحب رسول الله ﷺ حين انصرف يوم الجمل ، وقتل في الطريق غيلة .

الله كما تقدم بيانه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة** ﴾ قال : عند الموت ﴿ **أو يأتى ربك** ﴾ قال :يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى تفسير الآية مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل ﴿ **أو يأتى ربك** ﴾ قال : يوم القيامة فى ظلل من الغمام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد فى مسنده ، والترمذى وأبو يعلى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ قال :« طلوع الشمس من مغربها » قال الترمذى:غريب(١). ورواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى سعيد موقوفا (٢). وأخرجه الطبرانى وابن عدى وابن مردويه من حديث أبى هريرة مرفوعا (٣).وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد والطبرانى عن ابن مسعود موقوفا (٤) . فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوى من وجه صحيح لا قادح فيه ، فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال :قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها » ، ثم قرأ الآية (٥) . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى ذر مرفوعا نحوه (٦) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا (٧) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **أو كسبت فى إيمانها خيرا** ﴾ يقول : كسبت فى تصديقها عملاً صالحا ، هؤلاء أهل القبلة ، وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرًا فعملت بعد أن رأت الآية لم يُقبل منها ، وإن عملت قبل الآية خيرًا ، ثم عملت

---

(١) أحمد ٣/ ٣١ والترمذى فى التفسير (٣٠٧١) وقال: « حسن غريب » وأبو يعلى (١٣٥٣/ ٣٧٩) وابن جرير ٩٧/٨.

(٢) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٤٤٣) وعبد بن حميد فى المنتخب (٩٠٢) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات » .

(٤) ابن أبى شيبة (١٩٤٤٤) والطبرانى (٩٠١٩ ، ٩٠٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٥ عن الرواية الثانية : «رجالها ثقات » .

(٥) البخارى فى التفسير (٤٦٣٥) ومسلم فى الإيمان (٢٤٨/١٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١٢) والنسائى فى التفسير (١٩٧) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٨) .

(٦) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠) وأبو داود فى الحروف (٤٠٠٢) ـ بمعناه ـ والترمذى فى الفتن (٢١٨٦) وفى التفسير(٣٢٢٧) والنسائى فى التفسير (١٩٦) والطبرى ٩٧/٨ ، ١٠٠ وأصله عند البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٩) والتفسير (٤٨٠٣) والتوحيد (٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٧) أورد ابن كثير ٣/ ١٣٤ رواية ابن مردويه وقال : « هو حديث غريب جدًا ، بل منكر ، بل موضوع ، وإن ادعى أنه مرفوع » .

بعد الآية خيرًا قبل منها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله : ﴿ **أو كسبت فى إيمانها خيرًا** ﴾ قال : يعنى : المسلم الذى لم يعمل فى إيمانه خيرًا ، وكان قبل الآية مقيمًا على الكبائر ، والآيات التى هى علامات القيامة قد وردت الأحاديث المتكاثرة فى بيانها ، وتعدادها ، وهى مذكورة فى كتب السنة .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)** ﴾ .

قرأ حمزة والكسائى: « فارقوا دينهم » وهى قراءة على بن أبى طالب ، أى تركوا دينهم ، وخرجوا عنه ، قرأ الباقون : ﴿ **فرقوا** ﴾ بالتشديد إلا النخعى ، فإنه قرأ بالتخفيف . والمعنى : أنهم جعلوا دينهم متفرقًا ، فأخذوا ببعضه، وتركوا بعضه . قيل : المراد بهم : اليهود والنصارى . وقد ورد فى معنى هذا فى اليهود قوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة : ٤] . وقيل : المراد بهم : المشركون ؛ عبد بعضهم الصنم ، وبعضهم الملائكة . وقيل : الآية عامة فى جميع الكفار ، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله ، وهذا هو الصواب ؛ لأن اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب ، وطوائف المشركين وغيرهم ، ممن ابتدع من أهل الإسلام ، ومعنى ﴿ **شيعًا** ﴾ : فرقًا وأحزابًا ، فتصدق على كل قوم كان أمرهم فى الدين واحدًا مجتمعًا ، ثم اتبع كل جماعة رأى كبير من كبرائهم ، يخالف الصواب ويباين الحق ﴿ **لست منهم فى شىء** ﴾ أى لست من تفرقهم ، أو من السؤال عن سبب تفرقهم ، والبحث عن موجب تحزبهم ، فى شىء من الأشياء ، فلا يلزمك من ذلك شىء ، ولا تخاطب به ، إنما عليك البلاغ ، وهو مثل قوله ﷺ : « من غشنا فليس منا » (١) أى نحن برآء منه،وموضع ﴿ **فى شىء** ﴾ نصب على الحال. قال الفراء : هو على حذف مضاف ، أى لست من عقابهم فى شىء ، وإنما عليك الإنذار ، ثم سلاه الله تعالى بقوله : ﴿ **إنما أمرهم إلى الله** ﴾ فهو مُجَازٍ لهم بماتقتضيه مشيئته ، والحصر بإنما هو فى حكم التعليل لما قبله ، والتأكيد له « ثم » هو يوم القيامة ﴿ **ينبئهم** ﴾ أى يخبرهم بما ينزله بهم من المجاراة ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ من الأعمال التى تخالف ما شرعه الله لهم،وأوجبه عليهم ، وهذه الآية من جملة ما هو منسوخ بآية السيف .

قوله : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد ، بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به ، الممتثلين لما شرعه لهم ، بأنَّ من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات ، والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ،

(١) جزء من حديث أبى هريرة أخرجه مسلم فى الإيمان (١٠١ / ١٦٤) وأبو داود فى البيوع (٣٤٥٢) والترمذى فى البيوع (١٣١٥) وابن ماجة فى التجارات (٢٢٢٤) .

فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، قال أبو على الفارسى : حسن التأنيث فى عشر أمثالها لما كان الأمثال مضافًا إلى مؤنث ، نحو ذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جبير والأعمش : « فله عشر أمثالها » برفعهما .

وقد ثبت هذا التضعيف فى السنة بأحاديث كثيرة ، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة . وقد وردت الزيادة على هذا عمومًا وخصوصًا ، ففى القرآن كقوله : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ [البقرة : ٢٦١] وورد فى بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب ، وورد فى السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألوف مؤلفة . وقد قدمنا تحقيق هذا فى موضعين من هذا التفسير فليرجع إليهما .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ من الأعمال السيئة ﴿ **فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ من دون زيادة عليها على قدرها فى الخفة والعظم ، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده فى النار ، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها ، مما ورد تقديره من العقوبات ، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا ، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب فعلينا أن نقول: يجازيه الله بمثله ، وإن لم تقف على حقيقة ما يجازى به ، وهذا إن لم يتب ، أما إذا تاب وغلبت حسناته سيئاته أو تغمده الله برحمته ، وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة ، وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحًا لا يبقى بعده ريب لمرتاب ﴿ **وهم** ﴾ أى من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ﴿ **لا يظلمون** ﴾ بنقص ثواب حسنات المحسنين ، ولا بزيادة عقوبات المسيئين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث محمد أنزل عليه : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم** ﴾ الآية . وأخرج النحاس عنه فى ناسخه :﴿ **إن الذين فرقوا دينهم** ﴾ قال : اليهود والنصارى تركوا الإسلام ، والدين الذى أمروا به ﴿ **وكانوا شيعًا** ﴾ فرقًا وأحزابا مختلفة﴿ **لست منهم فى شىء** ﴾ نزلت بمكة ثم نسخها : ﴿ وقاتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٣٦] . وأخرج أبوالشيخ عنه ﴿ **وكانوا شيعًا** ﴾ قال :مللاً شتى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم** ﴾ الآية ، قال : هم فى هذه الأمة.

وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى ، والشيرازى فى الألقاب ، وابن مردويه عنه عن النبى ﷺ فى الآية ، قال :« هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة » ، وفى إسناده عبد بن كثير ، وهو متروك الحديث ولم يرفعه غيره ، ومن عداه وقفوه على أبى هريرة (١).

---

(١) ابن جرير ٧٨/٨ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٢٦/٧ للطبرانى فى الأوسط وقال : « رجاله رجال الصحيح ، غير معلل بن نفيل وهو ثقة » .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة فى الآية قال : هم الحرورية ، وقد رواه ابن أبى حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبى غالب عن أبى أمامة مرفوعا ولا يصح رفعه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن شاهين وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : « يا عائشة ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا** ﴾ هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة . يا عائشة ، إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم منى برآء » (١) قال ابن كثير: هو غريب ولا يصح رفعه (٢) .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ قال رجل من المسلمين : يا رسول الله، لا إله إلا الله حسنة ؟ قال : « نعم أفضل الحسنات » ، وهذا مرسل ، ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ قال : لا إله إلا الله. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة مثله أيضا . وقد قدمنا الإشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها ، فلا نطيل بذكرها ، ووردت أحاديث كثيرة فى الزيادة على هذا المقدار ، وفضل الله واسع ، وعطاؤه جم .

﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)** ﴾ .

لما بين سبحانه أن الكفار تفرقوا فرقًا ، وتحزبوا أحزابًا ، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **إننى هدانى ربى** ﴾ أى أرشدنى بما أوحاه إلىَّ ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ وهو ملة إبراهيم عليه السلام ، و﴿ **دينًا** ﴾ منتصب على الحال كما قال قطرب ، أو على أنه مفعول ﴿ **هدانى** ﴾ كما قال الأخفش . وقيل : منتصب بفعل يدل عليه ﴿ **هدانى** ﴾ لأن معناه : عرَّفنى ، أى عرفنى دينًا . وقيل : إنه بدل من محل ﴿ **إلى صراط** ﴾ لأن معناه : هدانى صراطاً مستقيمًا كقوله تعالى : ﴿ ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ [الفتح : ٢٠] وقيل : منصوب بإضمار فعل ، كأنه قيل : اتبعوا دينا .

---

(١) الطبرانى فى الصغير ١/٢٠٣ وقال الهيثمى فى المجمع ١/١٩٣ : « فيه بقية ومجالد بن سعيد ، وكلاهما ضعيف » وقال ٧/٢٥: « إسناده جيد » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٤/١٣٨ وقال : « غريب » والبيهقى فى الشعب ٥/٤٤٩ ، ٤٥٠ . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أورد ابن كثير ٣/١٣٥ رواية ابن مردويه ، وقال ذلك .

قوله : ﴿ **قيما** ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف ، والتخفيف وفتح الياء ، وقرأ الباقون بفتح القاف وكسر الياء المشددة ، وهما لغتان : ومعناه : الدين الذى لا عوج فيه ، وهو صفة لـ ﴿ **دينا** ﴾ وصف به مع كونه مصدرا مبالغة ، وانتصاب ﴿ **ملة إبراهيم** ﴾ على أنها عطف بيان لـ﴿ **دينا** ﴾ ، ويجوز نصبها بتقدير: أعنى . والحنيف [١] المائل إلى الحق ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ فى محل نصب معطوف على ﴿ **حنيفا** ﴾ أو جملة معترضة مقررة لما قبلها .

قوله :﴿ **قل إن صلاتى** ﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهم بهذه المقالة ، عقب أمره بأن يقول لهم بالمقالة السابقة. قيل:ووجه ذلك أن ما تضمنه القول الأول إشارة إلى أصول الدين ، وهذا إلى فروعها ، والمراد بالصلاة جنسها ، فيدخل فيه جميع أنواعها.وقيل : المراد بها هنا : صلاة الليل . وقيل:صلاة العيد.والنسك جمع نسيكة ،وهى الذبيحة كذا قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم ، أى ذبيحتى فى الحج والعمرة. وقال الحسن : دينى.وقال الزجاج : عبادتى ، من قولهم : نسك فلان هو ناسك ، إذا تعبَّد ، وبه قال جماعة من أهل العلم ﴿ **ومحياى ومماتى** ﴾ أى ما أعمله فى حياتى ، ومماتى من أعمال الخير ، ومن أعمال الخير فى الممات الوصية بالصدقات ، وأنواع القربات . وقيل : نفس الحياة . ونفس الموت ﴿ **لله** ﴾ قرأ الحسن : « نُسْكى » بسكون السين . وقرأ الباقون بضمها . وقرأ أهل المدينة:« محياى » بسكون الياء ، وقرأ الباقون بفتحها لئلا يجتمع ساكنان . قال النحاس : لم يجزه ، أى السكون ، أحد من النحويين إلا يونس ، وإنما أجازه لأن المدة التى فى الألف تقوم مقام الحركة . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وعاصم الجحدرى : « محيى » من غير ألف وهى لغة عليا مضر ، ومنه قول الشاعر :

سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

﴿ **لله رب العالمين** ﴾ أى خالصا له لا شريك له فيه ، والإشارة ﴿ **بذلك** ﴾ إلى ما أفاده ﴿ **لله رب العالمين .لا شريك له** ﴾ من الإخلاص فى الطاعة وجعلها لله وحده . قوله : ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ أى أول مسلمى أمته . وقيل : أول المسلمين أجمعين ؛ لأنه وإن كان متأخرا فى الرسالة فهو أولهم فى الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ الآية [الأحزاب : ٧] ، والأول أولى .

قال ابن جرير الطبرى : استدل بهذه الآية الشافعى على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر، فإن الله أمر به نبيه وأنزله فى كتابه ، ثم ذكرحديثا على أن النبى ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال : ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾

---

(١) الحنف : هوميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والجنف : ميل عن الاستقامة إلى الضلال ، والحنيف : المائل إلى ذلك . قال عز وجل : ﴿ قانتا لله حنيفا ﴾ [النحل : ١٢٠] ، وقال :﴿ حنيفا مسلما ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

[الأنعام : ٧٩] إلى قوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ (١) . قلت : هذا هو فى صحيح مسلم مطولا (٢) ،وهو أحد التوجهات الواردة ،ولكنه مقيد بصلاة الليل كما فى الروايات الصحيحة ، وأصح التوجهات الذى كان يلازمه النبى ﷺ ويرشد إليه هو:« اللهم باعد بينى وبين خطاياى » (٣) إلخ،وقد أوضحنا هذا فى شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ إن صلاتى ﴾ قال : يعنى المفروضة ﴿ ونسكى ﴾ يعنى الحج .وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير: ﴿ ونسكى ﴾ قال : ذبيحتى . وأخرجا أيضا عن قتادة ﴿ إن صلاتى ونسكى ﴾ قال : حجى وذبيحتى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ ونسكى ﴾ قال : ذبيحتى فى الحج والعمرة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ ونسكى ﴾ قال : ضحيتى . وفى قوله: ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال : من هذه الأمة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « يا فاطمة، قومى فاشهدى أضحيتك ، فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملتيه (٤) ، وقولى :﴿ إن صلاتى ﴾ إلى ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ » قلت : يا رسول الله، هذا لك ولأهل بيتك خاصة ، فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة ؟ قال : « لا بل للمسلمين عامة » (٥) .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾ .

الاستفهام فى:﴿ أَغَيْرَ الله أَبْغِى رَبًّا ﴾ للإنكار ، وهو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير الله،أى كيف أبغى غير الله ربا مستقلا وأترك عبادة الله أو شريكا لله فأعبدهما معًا، والحال أنه رب كل شىء ، والذى تدعوننى إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق

(١) أى آية الأنعام (٧٩) وآيتى الأنعام (١٦٢ ، ١٦٣) .
(٢) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١ / ٢٠١) .
(٣) الحديث عن عائشة وأخرجه البخارى فى الدعوات (٦٣٦٨) و(٦٣٧٥) ومسلم فى المساجد (٥٩٨/ ١٤٧) وأبو داود فى الصلاة (٧٨١) والترمذى فى الدعوات (٣٤٩٥) وقال : « حسن صحيح » .
(٤) فى المطبوعة : « عملته » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة وهو ثابت فى مصادر التخريج التالية .
(٥) صححه الحاكم ٤/ ٢٢٢ وتعقبه الذهبى بأن فيه أبا حمزة ضعيف جدًا ، وإسماعيل ليس بذاك . وأخرجه البيهقى فى الشعب (٧٣٣٨) والطبرانى ١٨/ ٢٣٩ (٦٠٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٠ : « فيه أبو حمزة الثمالى وهو ضعيف » .

مثلى لا يقدر على نفع ولا ضرّ ، وفى هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم ما لا يقادر قدره ، و﴿ **غير** ﴾ منصوب بالفعل الذى بعده ، و﴿ **ربا** ﴾ تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصبا لمفعولين . قوله : ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها** ﴾ أى لا يؤاخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها ، فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وقوله : ﴿ لتجزى [١] كل نفس بما تسعى ﴾ [طه :١٥] .قوله : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وِزْرك ﴾ [الشرح : ٢] وهو هنا الذنب ، ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] قال الأخفش: يقال : وزر يُوزر ، ووزر يزر وزرا ، ويجوز إزرا ، وفيه ردّ لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه ، والواحد من القبيلة بذنب الآخر .وقد قيل : إن المراد بهذه الآية فى الآخرة وكذلك التى قبلها لقوله تعالى : ﴿ واتَّقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] ومثله قول زينب بنت جحش: يا رسول الله،أنهلك وفينا الصالحون؟قال:« نعم إذا كثر الخبث »[٢]والأولى حمل الآية على ظاهرها ، أعنى العموم ، وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التى تحملها العاقلة ونحو ذلك فيكون فى حكم المخصص بهذا العموم ويقر فى موضعه ، ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى:﴿ وليحملُنَّ أثقالهـم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت:١٣] فإن المراد بالأثقال التى مع أثقالهم هى أثقال الذين يضلونهم كما فى الآية الأخرى:﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل :٢٥] ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم** ﴾ يوم القيامة ﴿ **فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ فى الدنيا ، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين .

قوله : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ خلائف : جمع خليفة ، أى جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة . قال الشماخ :

أصيبهم وتخطئنى المنايا ... وأخلف فى ربوع عن ربوع [٣]

---

(١) فى المطبوعة « ولتجزى » وهو تحريف .

(٢) البخارى فى الفتن (٧٠٥٩ ، ٧١٣٥) ومسلم فى الفتن (٢٨٨٠ / ١ ، ٢) والترمذى فى الفتن (٢١٨٧) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٣) .

(٣) ومثله قول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

والخليفة : السلطان الأعظم .

وأنشد الفراء :

أبـوك خليفـة ولـدتـه أخـرى ... وأنـت خليفـة ذاك الكمـال

والجمع : الخلائف .

أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضا، أو أن هذا النوع الإنسانى خلفاء الله فى أرضه ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ فى الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم ، و﴿ **درجات** ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أى إلى درجات ﴿ **ليبْلُوكم فيما آتاكم** ﴾ أى ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور ، أوليبتلي بعضكم ببعض ، كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ [الفرقان : ٢٠] ثم خوفهم ، فقال : ﴿ **إن ربك سريع العقاب** ﴾ فإنه وإن كان فى الآخرة فكل آت قريب، كما قال : ﴿ وما أمْر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ [النحل : ٧٧] ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال : ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ أى كثير الغفران والرحمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تزر وازرة** ﴾ قال : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ قال : أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ قال : فى الرزق .

تفسير سورة الأعراف

هي مكية إلاثمان آيات ، وهي قوله : ﴿ **واسألهم عن القرية** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ .

وقد أخرج ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: سورة الأعراف نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة ، قال : آية من الأعراف مدنية وهي : ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ إلى آخر الآية . وسائرها مكية .

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المغرب يفرقها في الركعتين [(١)] . وآياتها مائتان وست آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **المص** ﴾ قد تقدم في فاتحة سورة البقرة ما يغني عن الإعادة ، وهو إما مبتدأ وخبره ﴿ **كتاب** ﴾ ، أي ﴿ **المص**﴾ حروف ﴿ **كتاب أُنزل إليك** ﴾ ، أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا ﴿ **المص** ﴾ ، أي المسمى به ، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، و ﴿ **كتاب** ﴾ خبر المبتدأ على الوجه الأول، أو خبر مبتدأ محذوف على الثاني،أي هو كتاب . قال الكسائي : أي هذا كتاب ، و ﴿ **أنزل إليك** ﴾ صفة له. ﴿ **فلا يكن في صدرك حرج منه** ﴾ الحرج : الضيق[(٢)] ، أي لا يكن في صدرك ضيق منه من إبلاغه إلى الناس مخافة أن يكذبوك ويؤذوك، فإن الله حافظك وناصرك. وقيل: المراد: لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك [(٣)] ﴿ **فإنما عليك البلاغ** ﴾،وقال مجاهد وقتادة :

---

(١) النسائي في الصلاة ٢/ ١٧٠ عن عائشة .

(٢) ومثله قوله : ﴿ **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً** ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

(٣) وقد ورد في صحيح مسلم ما يوافق ذلك عن عياض بن حمار المجاشعي في الجنة (٢٨٦٥ / ٦٣) وقال فيه : «رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة»، والثلغ : الشرخ ، وقيل : هو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشرخ .

الحرج هنا : الشك ، لأن الشاك ضيق الصدر ، أى لا تشك فى أنه منزل من عند الله ، وعلى هذا يكون النهى له ﷺ من باب التعريض ، والمراد : أمته ، أى لا يشك أحد منهم فى ذلك ، والضمير فى ﴿ **منه** ﴾ راجع إلى الكتاب ، فعلى الوجه الأول يكون على تقدير مضاف، أى من إبلاغه ، وعلى الثانى يكون التقدير من إنزاله ، والضمير فى ﴿ **لتنذر به** ﴾ راجع إلى الكتاب ، أى لتنذر الناس بالكتاب الذى أنزلناه إليك، وهو متعلق بأنزل، أى أنزل إليك لإنذارك للناس به، أو متعلق بالنهى، لأن انتفاء الشك فى كونه منزلا من عند الله أو انتفاء الخوف من قومه يقوِّيه على الإنذار ويشجعه، لأن المتيقن يقدم على بصيرة ويباشر بقوة نفس .

قوله : ﴿ **وذكرى للمؤمنين** ﴾ الذكرى : التذكير . قال البصريون : الذكرى : فى محل رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائى : هى فى محل رفع عطفا على كتاب ، ويجوز النصب على المصدر ، أى وذكر به ذكرى، قال البصريون :ويجوز الجر حملا على موضع ﴿ **لتنذر**﴾ ، أى للإنذار والذكرى ، وتخصيص الذكرى بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع [١] فيهم ذلك . وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين .

قوله : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ يعنى : الكتاب، ومثله السنة لقوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] ونحوها من الآيات ، وهو أمر للنبى ﷺ ولأمته . وقيل : هو أمر للأمة بعد أمره ﷺ بالتبليغ ، وهو منزل عليهم بواسطة إنزاله إلى النبى ﷺ ﴿ **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ نهى للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله ، فالضمير على هذا فى ﴿ **من دونه** ﴾ يرجع إلى رب ، ويجوز أن يرجع إلى «ما» فى ﴿ **ما أنزل إليكم** ﴾ أى لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلدونهم فى دينكم كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه عليهم . قوله : ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾ انتصاب ﴿ **قليلا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر ، أى تذكرا قليلا ، و« ما » مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل ﴿**لا تتبعوا**﴾ ، و «ما» مصدرية ، أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكرهم ، قرئ : « تذكرون » بالتخفيف بحذف إحدى التاءين ، وقرئ بالتشديد على الإدغام .

قوله : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ « كم » هى الخبرية المفيدة للتكثير وهى فى موضع رفع على الابتداء ، و﴿ **أهلكناها** ﴾ الخبر ﴿ **من قرية** ﴾ تمييز ، ويجوز أن تكون فى محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها ، لأن لها صدر الكلام ، ولولا اشتغال ﴿ **أهلكناها** ﴾ بالضمير لجاز انتصاب «كم» به ، والقرية : موضع اجتماع الناس ، أى كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها ، أو أهلكنا أهلها ، والمراد : أردنا إهلاكها .

قوله : ﴿ **فجاءها بأسنا** ﴾ معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مرَّ [٢] ؛ لأن ترتيب

---

(١) نجع : أى أثرَّ ، نجع الخطاب فيه أى أثر ونفع .

(٢) ومثله : قوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ [النحل : ٩٨].

مجيء البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير ، إذ الإهلاك هو نفس مجيء البأس . وقال الفراء : إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير ، والمعنى : أهلكناها وجاءها بأسنا ، والواو لمطلق الجمع ، لا ترتيب فيها . وقيل : إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية ؛ فيكون المعنى : وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع . وقيل : المعنى : وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا . وقيل : أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا ، والبأس هو العذاب . وحكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ، مثل : دنا فقرب وقرب فدنا . ﴿ **بياتاً** ﴾ أى ليلا ، لأنه يبات فيه ، ويقال : بات يبيت بيتا وبياتا ، وهو مصدر واقع موقع الحال ، أى بائتين.

قوله : ﴿ **أوهم قائلون** ﴾ معطوف على ﴿ **بياتا** ﴾ أى بائتين أو قائلين ، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استثقالا لاجتماع الواوين ، واو العطف ، وواو الحال ، هكذا قال الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو ، تقول : جاءنى زيد راكبا أو هو ماش ؛ لأن فى الجملة ضميرا قد عاد إلى الأول ، و « أو » فى هذا الموضع للتفصيل لا للشك. والقيلولة : هى نوم نصف النهار . وقيل : هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم ، وخصَّ الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة فمجيء العذاب فيهما أشد وأفظع .

قوله : ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ الدعوى : الدعاء، أى فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم ومثله ﴿ وآخر دعواهم ﴾ [يونس : ١٠] أى آخر دعائهم . وقيل : الدعوى هنا بمعنى: الادعاء ، والمعنى : ما كان يدعونه لدينهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده ، واسم كان: ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾. وخبرها : ﴿ **دعواهم** ﴾ ويجوز العكس ، والمعنى : ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين .

قوله : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم** ﴾ هذا وعيد شديد ، والسؤال للقوم الذين أرسل إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ ، واللام لام القسم ، أى لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عن دعوتهم ، والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية ﴿ **ولنسألن المرسلين** ﴾ أى الأنبياء الذين بعثهم الله ، أى نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ، ومن أطاع منهم ومن عصى (١) . وقيل : المعنى : فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ، يعنى : الأنبياء ، ولنسألن المرسلين ، يعنى : الملائكة ، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه : ﴿ ولا يسأل عن

---

(١) وقيل : سؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح ، أى عن جواب القوم ، وهو معنى قوله : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ [الأحزاب:٨].

ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص:٧٨] لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففى موطن يسألون ، وفى موطن لا يسألون ، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أُثبت تارة ، ونفى أخرى بالنسبة إلى يوم القيامة ، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم** ﴾ أى على الرسل والمرسل إليهم ما وقع بينهم عند الدعوة منهم بعلم لا بجهل، أى عالمين بما يسرون وما يعلنون ﴿ **وما كنا غائبين** ﴾ عنهم فى حال من الأحوال حتى يخفى علينا شىء مما وقع بينهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **المص** ﴾ قال : أنا الله أفصل(١). وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله(٢). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به، وهى من أسماء الله (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **المص** ﴾ قال : هو المصور (٤) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **المص** ﴾ قال : الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال معناه : أنا الله الصادق ، ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن وتفسير بالحدس ، ولا حجة فى شىء من ذلك ، والحق ما قدمنا فى فاتحة سورة البقرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فلا يكن فى صدرك حرج منه** ﴾ قال : الشك ، وقال الأعرابى : ما الحرج فيكم ؟ قال : اللبس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : ضيق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ، ثم قرأ : ﴿ **فما كان دعواهم** ﴾ الآية . وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعا (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ قال : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ونسأل المرسلين عما بلغوا ، ﴿ **فلنقصّن عليهم بعلم** ﴾ قال: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون (٦) . وأخرج عبد بن حميد عن فرقد فى الآية قال : أحدهما الأنبياء ، وأحدهما الملائكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : نسأل عن قول لا إله إلا الله ونسأل جبريل .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ

(١ ـ ٤) ابن جرير ٨/ ٨٥ .   (٥، ٦) المصدر السابق ٨/ ٨٩ .

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ الوزن مبتدأ وخبره الحق ، أى الوزن فى هذا اليوم العدلُ الذى لا جور فيه ،أو الخبر يومئذ، والحق وصف للمبتدأ ،أى الوزن العدل كائن فى هذا اليوم . وقيل : إن الحق خبر مبتدأ محذوف واختلف أهل العلم فى كيفية هذا الوزن الكائن فى هذا اليوم ، فقيل : المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزنا حقيقياً ، وهذا هو الصحيح ، وهو الذى قامت عليه الأدلة . وقيل : توزن نفس الأعمال وإن كانت أعراضا فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساما كما جاء فى الخبر الصحيح : « إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافّ» (١) . وكذلك ثبت فى الصحيح أنه يأتى القرآن فى صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك (٢) . وقيل : الميزان : الكتاب الذى فيه أعمال الخلق . وقيل : الوزن والميزان بمعنى : العدل والقضاء ، وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام فى وزن هذا . قال الزجاج : هذا سائغ من جهة اللسان ، والأولى أن نتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القشيرى : وقد أحسن الزجاج فيما قال ، إذ لو حمل [الميزان على هذا ، فليُحمَل] (٣) الصراط على الدين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة والملائكة على القوى المحمودة ، ثم قال : وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر وصارت هذه الظواهر نصوصا . انتهى . والحق هو القول الأول .

وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون باستبعادهم بشىء من الشرع يرجع إليه ، بل غاية ماتشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس فى ذلك حجة على أحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هى أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين

(١) الحديث عن بريدة بن الحصيب ، أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٨ ومسلم فى صلاة المسافرين (٤٠٨ / ٢٥٢) والدارمى ٢/ ٤٥٠ .

(٢) الحديث عن بريدة أخرجه ابن ماجة فى الأدب (٣٧٨١) وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات» ، وهو جزء من الحديث السابق عند أحمد والدارمى .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل ، والصواب إثباته كما فى القرطبى ٤/ ٢٦٠١ .

وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كلٌ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها ، بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه .

وقد ورد ذكر الوزن والموازين فى مواضع من القرآن كقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، وقوله : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ [المؤمنون : ١٠١]، وقوله: ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون﴾ [المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣] ،وقوله:﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء: ٤٠] ،وقوله:﴿ فأما من ثقلت موازينه. فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية ﴾ [القارعة : ٦ ــ ٩] .

والفاء فى ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ للتفصيل ، والموازين :جمع ميزان ، وأصله : موزان ، قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال . وقيل : إن الموازين جمع موزون، أى فمن رجحت أعماله الموزونة ، والأول أولى . وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله . وقيل : هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال : خرج فلان إلى مكة على البغال، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى « من » ، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير ﴿ **موازينه** ﴾ باعتبار لفظه وهو مبتدأ خبره ﴿ **هم المفلحون** ﴾ ، والكلام فى قوله : ﴿ **ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ مثله ، والباء فى ﴿ **بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ سببية ، و « ما » مصدرية . ومعنى ﴿ **يظلمون** ﴾ : يكذبون .

قوله : ﴿ **ولقد مكناكم فى الأرض** ﴾ أى جعلنا لكم فيها مكانا وهيأنا لكم فيها أسباب المعايش ، والمعايش : جمع معيشة ، أى ما يتعايش به من المطعوم والمشروب وما تكون به الحياة ، يقال : عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا . قال الزجاج : المعيشة : ما يتوصلون به إلى العيش ، والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة . وقرأ الأعرج : « معائش » بالهمز ، وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع ، قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ، لأن الواحدة معيشة والياء أصلية كمدينة ومداين ، وصحيفة وصحايف . قوله : ﴿ **قليلا ما تشكرون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا من قوله تعالى : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ [الأعراف : ٣] .

قوله : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبيده ، والمعنى : خلقناكم نطفا ثم صورناكم بعد ذلك ، وقيل : المعنى : خلقنا آدم من تراب ثم

صورناكم فى ظهره . وقيل : ﴿ **ولقد خلقناكم** ﴾ يعنى : آدم، ذكر بلفظ الجمع ، لأنه أبو البشر ﴿ **ثم صورناكم** ﴾ راجع إليه ، ويدل عليه ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم عليه السلام . وقال الأخفش: إن « ثم » فى ﴿ **ثم صورناكم** ﴾ بمعنى الواو . وقيل :المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ، ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال . وقيل : المعنى : ولقد خلقنا الأرواح أولا ، ثم صورنا الأشباح ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، أى أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر ﴿ **إلا إبليس** ﴾ قيل : الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفرداً بينهم ، أو كما قيل : لأن من الملائكة جنسا يقال لهم الجن . وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة (١). قوله: ﴿ **لم يكن من الساجدين** ﴾ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ، ومن جعل الاستثناء منقطعا قال : معناه : لكن إبليس لم يكن من الساجدين .

وجملة : ﴿ **قال ما منعك ألا تسجد** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قال له الله ؟ و « لا » في ﴿ **ألا تسجد** ﴾ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى فى سورة ص :﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ [ص : ٧٥](٢). وقيل : إن «منع » بمعنى : قال ، والتقدير : من قال لك أن لا تسجد . وقيل :« منع » بمعنى : دعا ، أى ما دعاك إلى أن لا تسجد . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد ﴿ **إذ أمرتك** ﴾ أى وقت أمرتك ، وقد استدل بـه على أن الأمـر للفور ، والبحث مقرر فى علم الأصول ، والاستفهام فى ﴿ **ما منعك** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك ، وجملة : ﴿ **قال أنا خير منه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما قال إبليس ؟ وإنما قال فى الجواب : ﴿ **أنا خير منه** ﴾ ولم يقل منعنى كذا ، لأن فى هذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله : ﴿ **خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، وقد أخطأ عدو الله فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه ، وطول بقائه ، وهى حقيقة مضطربة سريعة

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ [البقرة : ٣٤] .

(٢) مثله قوله تعالى : ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ [الحديد : ٢٩] . قال ابن قتيبة : وقد تزاد لا فى الكلام والمعنى: طرحها لإباء فى الكلام أوجحد كهذه الآية وإنما زاد « لا » لأنه لم يسجد ومثله : ﴿ **أنها إذاجاءت لا يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ١٠٩] على قراءة من فتح « أنها » فزاد « لا » لأنهم لم يؤمنوا ، ومثله ﴿ **وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون** ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

النفاذ ، ومع هذا فهو موجود فى الجنة دونها [(١)] ، وهى عذاب دونه ، وهى محتاجة إليه لتتحيز فيه، وهو مسجد وطهور[(٢)]، ولولا سبق شقاوته وصدق كلمة الله عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة ، فعنصرهم النورى أشرف من عنصره النارى .

وجملة : ﴿ **قال فاهبط** ﴾ استئنافية كالتى قبلها ، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر ، أى اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع ، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصى أمر ربه مثلك ، ولهذا قال : ﴿ **فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾ . ومن التفاسير الباطلة ما قيل : إن معنى ﴿ **اهبط منها** ﴾ أى اخرج من صورتك النارية التى افتخرت بها صورة مشوهة مظلمة. وقيل : المراد : هبوطه من الجنة . وقيل : من زمرة الملائكة ، وجملة : ﴿ **فاخرج** ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط ، وجملة : ﴿ **إنك من الصاغرين** ﴾ تعليل للأمر ، أى إنك من أهل الصغار والهوان على الله ، وعلى صالحى عباده ، وهكذا كل من تردّى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع .

وجملة : ﴿ **قال أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ استئنافية كما تقدم فى الجمل السابقة ، أى أمهلنى إلى يوم البعث ، وكأنه طلب أن لا يموت ، لأن يوم البعث لا موت بعده والضمير فى ﴿ **يبعثون** ﴾ لآدم وذريته ، فأجابه الله بقوله : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ أى الممهلين إلى ذلك اليوم ، ثم تعاقب بما قضاه الله لك ، وأنزله بك فى دركات النار . قيل : الحكمة فى إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه .

وجملة : ﴿ **قال فبما أغويتنى** ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة واردة جواباً لسؤال مقدر ، والباء فى « فبما » للسببية والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها . وقيل : الباء للقسم كقوله :﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٢] أى فبإغوائك إياى ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ والإغواء : الإيقاع فى الغى . وقيل : الباء بمعنى اللام . وقيل : بمعنى مع . والمعنى: فمع إغوائك إياى . وقيل : « ما » فى ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ للاستفهام . والمعنى : فبأى شىء أغويتنى ؟ والأول أولى. ومراده بهذا الإغواء الذى جعله سبباً لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه وأن ذلك كان بإغواء الله له ، حتى اختار الضلالة على الهدى . وقيل : أراد به اللعنة التى لعنه الله ، أى فبما لعنتنى فأهلكتنى لأقعدنّ لهم ، ومنه : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ [مريم : ٥٩] أى هلاكا . وقال ابن الأعرابى : يقال : غَوِى الرجل يَغْوَى غيا ، إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه، ومنه: ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [طه : ١٢١] أى فسد عيشه

---

(١) كما جاء فى الخبر : « وتراب الجنة مسك أذفر » أخرجه أحمد ٥/ ١٤٤ عن أبى بن كعب ومثله فى البخارى فى الصلاة (٣٤٩) عن أبى ذر، وفى الأنبياء (٣٣٤٢) والدارمى ٢/ ٣٣٣ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) قال الرسول ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » وهو فى البخارى فى الصلاة (٤٣٨) ، والنار تخويف وعذاب قال تعالى : ﴿**ذلك يخوف الله به عباده** ﴾ [الزمر : ١٦] .

فى الجنة ﴿ **لأقعدن لهم** ﴾ أى لأجهدنّ فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسبب تركى السجود لأبيهم. والصراط المستقيم: هو الطريق الموصل إلى الجنة . وانتصابه على الظرفية ، أى فى صراطك المستقيم كما حكى سيبويه: ضرب زيد الظهر والبطن ، واللام فى ﴿**لأقعدن**﴾ لام القسم، والباء فى ﴿ **فبما أغويتنى**﴾ متعلقة بفعل القسم المحذوف، أى فبما أغويتنى أقسم لأقعدن.

قوله : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ ذكر الجهات الأربع لأنها هى التى يأتى منها العدو عدوّه ، ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت ، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بـ « من » وإلى الأخريين بـ « عن » ، لأن الغالب فيمن يأتى من قدام وخلف أن يكون متوجها إلى ما يأتيه بكلية بدنه ، والغالب فيمن يأتى من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفا ، فناسب فى الأوليين التعدية بحرف الابتداء ، وفى الأخريين التعدية بحرف المجاوزة ، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتى حقيقة ؛ وقيل : المراد : ﴿ **من بين أيديهم** ﴾ من دنياهم، ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ من آخرتهم، ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ من جهة حسناتهم ﴿**وعن شمائلهم** ﴾ من جهة سيئاتهم ، واستحسنه النحاس. قوله : ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ أى وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين ؛ لتأثير وسوستى فيهم وإغوائى لهم ، و هذا قاله على الظن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه ﴾ [سبأ : ٢٠] . قيل : إنه سمع ذلك من الملائكة فقاله ، وعبر بالشكر عن الطاعة أو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء .

وجملة : ﴿ **قال اخرج منها** ﴾ استئناف كالجمل التى قبلها ، أى من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدم ﴿**مذؤوماً**﴾ أى مذموما من ذأمه إذا ذمَّه (١) يقال : ذأمته وذممته بمعنى ، وقرأ الأعمش: « مذموما » ، وقرأ الزهرى: « مذوما » بغير همزة . وقيل : المذؤوم : المنفى ، والمدحور : المطرود . قوله ﴿ **لمن تبعك منهم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، وجوابه : ﴿ **لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾ وقيل : اللام فى ﴿ **لمن تبعك** ﴾ للتوكيد ، وفى ﴿ **لأملأن** ﴾ لام القسم والأول أولى ، وجواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط لأن مَنْ شرطية ، وفى هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره ، وقرأ عاصم فى رواية عنه : « لمن تبعك » بكسر اللام وأنكره بعض النحويين . قال النحاس : وتقديره والله أعلم : من أجل من اتبعك كما يقال : أكرمت فلانا لك . وقيل : هو علة لاخرج ، وضمير ﴿ **منكم** ﴾ له ولمن اتبعه ، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ، والأصل منك ومنهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ قال : العدل ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ قال: حسناته ﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ قال :

(١) فى المطبوعة : « زمه » بالزاى ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

حسناته . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى: توزن الأعمال. وقد ورد فى كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة .

وقد أخرج أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « يُصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل[١] منها مد البصر فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يـارب ، فيقـول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا يارب ، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » وقد صححه أيضا الترمذى، وإسناد أحمد حسن [٢].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ قال : خلقوا فى أصلاب الرجال وصوّروا فى أرحام النساء [٣] . وأخرج الفريابى عنه أنه قال : خلقوا فى ظهر آدم ثم صُورا فى الأرحام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : أما ﴿ **خلقناكم** ﴾ فآدم ، وأما ﴿ **ثم صورناكم** ﴾ فذريته .

وأخرج أبو الشيخ عن عكـرمة فى الآيـة قال : خـلق إبليس من نـار العـزة . وقـد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة قالت : قـال رسـول الله ﷺ : « خلقـت الملائكة من نـور ، وخـلق إبليـس مـن نار ، وخلق آدم مما وصف لكم»[٤]. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: أول من قاس إبليس فى قوله: ﴿ **خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وإسناده صحيح إلى الحسن . وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، والديلمى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من قـاس أمـر الدين برأيه إبليس قال الله له: اسجد لآدم ، فقال: ﴿ **أنا خير منـه خلـقتنى من نار وخلقـته من طين** ﴾ » . قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس . وينبغى أن ينظر فى إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة [٥] .

(١) السجل : هو الكتاب الكبير .

(٢) أحمد ٢/ ٢١٣ والترمذى فى الإيمان (٢٦٣٩) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الزهد (٤٣٠٠) وصححه ابن حبان (٢٢٤) والحاكم ١/ ٥٢٩ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ٨/ ٩٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٩ على شرطيهما ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٦) وإسناده صحيح .

(٤) مسلم فى الزهد (٢٩٩٦ / ٦٠) وأحمد ٦/ ١٦٨ .

(٥) أبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٩٧ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ أضللتنى . وأخرج عبد بن حميد فى قوله : ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ قال : طريق مكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم** ﴾ قال: أشككهم فى آخرتهم ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ قال : أرغبهم فى دنياهم ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ قال : أسنّ لهم المعاصى وأحق عليهم الباطل ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ قال : موحدين .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم** ﴾ يقول : من حيث يبصرون ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ من حيث لا يبصرون ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ من حيث يبصرون ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ من حيث لا يبصرون. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : لم يستطع أن يقول من فوقهم . وفى لفظ علم أن الرحمة تنزل من فوقهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **مذؤوما** ﴾ قال : ملوما ، ﴿ **مدحورا** ﴾ قال :مقيتا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **مذؤوما** ﴾ قال : منفيا ﴿ **مدحورا** ﴾ قال : مطرودا .

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **ويا آدم** ﴾ هو على تقدير القول ، أى وقلنا يا آدم ، قال له هذا القول بعد إخراج إبليس من الجنة أو من السماء ،أو من بين الملائكة كما تقدم.وقد تقدم معنى الإسكان ، ومعنى ﴿ **ولا تقربا** [١] **هذه الشجرة** ﴾ فى البقرة ومعنى ﴿ **من حيث شئتما** ﴾ : من أى نوع من

(١) فى المخطوطة : « لا تقربا » بدون الواو .

أنواع الجنة شئتما أكله، ومثله ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾[البقرة: ٣٥] وحذف النون من ﴿ **فتكونا** ﴾ لكونه معطوفا على المجزوم، أو منصوبا على أنه جواب النهى.

قوله :﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ الوسوسة: الصوت الخفى ، والوسوسة: حديث النفس ، يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا بكسر الواو ، والوسوسة بالفتح الاسم ، مثل : الزلزلة والزلزال ، ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى : وسواس . قال الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت (١)

والوسواس : اسم الشيطان . ومعنى وسوس له : وسوس إليه أو فعل الوسوسة لأجله . قوله : ﴿ **ليبدى لهما** ﴾ أى ليظهر لهما ، واللام للعاقبة كما فى قوله : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ [القصص : ٨] . وقيل : هى لام كى ، أى فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء ، أو لكى يقع الإيذاء . قوله : ﴿ **ماوورى** ﴾ أى ما ستر وغطى ﴿**عنهما من سوآتهما** ﴾ سمى الفرج سوءة ، لأن ظهوره يسوء صاحبه ، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستورا عنهما من عوراتهما فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما ولا يراها أحدهما من الآخر ، وإنما لم تقلب الواو فى ﴿ **وورى** ﴾ همزة لأن الثانية مدة . قيل : إنما بدت عورتهما لهما لا لغيرهما ، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها ﴿ **وقال** ﴾ أى الشيطان لهما ﴿ **ما نهاكما ربكما عن**﴾ أكل هذه الشجرة ﴿ **إلا أن تكونا ملكين** ﴾ « أن » فى موضع نصب ، وفى الكلام مضاف محذوف تقديره: ولا كراهة أن تكونا ملكين هكذا قال البصريون . وقال الكوفيون : التقدير : لئلا تكونا ملكين ﴿ **أو تكونا من الخالدين** ﴾ فى الجنة أو من الذين لا يموتون . قال النحاس: فضل الله الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع فى القرآن ، فمنها هذا ، ومنها : ﴿ ولا أقول إنى ملك﴾ [الأنعام : ٥٠] ومنها : ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ [النساء: ١٧٢] . قال ابن فورك : لا حجة فى هذه الآية ؛ لأنه يحتمل أن يريد ملكين فى أن لا يكون لهما شهوة فى الطعام . وقد اختلف الناس فى هذه المسألة اختلافا كثيرا وأطالوا الكلام فى غير طائل وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه ، فالكلام فيها لا يعنينا . وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبى كثير والضحاك : « ملِكين » بكسر اللام ، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال : لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين . وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى : ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى ﴾ [طه: ١٢٠]. قال أبو عبيد: هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس: هى قراءة شاذة، وأنكر على أبى عبيد هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش. قال: وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهى غاية

(١) وعجز البيت :

كما استعان بريح عشرق زجل

والعشرق : كزبرج : وهو شجر له حب صغار إذا جف صوت بمر الريح .

الطالبين ؟ وإنما معنى ﴿ وملك لا يبلى ﴾ : المقام فى ملك الجنة والخلود فيه .

قوله : ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ أى حلف لهما فقال : أقسم قساما ، أى حلف ، ومنه قول الشاعر:

وقاسمهما بالله جهدا لأنتما ... ألذّ من السلوى إذا ما نشورها (١)

وصيغة المفاعلة وإن كانت فى الأصل تدلّ على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك ، وقد قدمنا تحقيق هذا فى المائدة، والمراد بها هنا :المبالغة فى صدور الإقسام لهما من إبليس . وقيل : إنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة . قوله : ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ التدلية والإدلاء : إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ، يقال : أدلى دلوه : أرسلها ، والمعنى : أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة. وقيل : معناه : أوقعهما فى الهلاك . وقيل: خدعهما وأنشد نفطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعته ... وترى اللئيم مجربا لا يخدع (٢)

وقيل : معنى ﴿ **دلاهما** ﴾ : دللهما من الدالة ، وهى الجرأة ، أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة . قوله: ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما** ﴾ أى لما طعماها ظهرت لهما عوراتهما بسبب زوال ما كان ساتراً لهما وهو تقلص النور الذى كان عليها،وقد تقدم فى البقرة. قوله : ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ طفق يفعل كذا ، بمعنى شرع يفعل كذا . وحكى الأخفش : طفق يطفق مثل ضرب يضرب ، أى شرعا أو جعلا يخصفان عليهما . قرأ الحسن : «يخصفان » بكسر الخاء وتشديد الصاد ، والأصل يختصفان فأدغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء . وقرأ الزهرى :« يخصفان » من أخصف . وقرأ الجمهور : ﴿ **يخصفان** ﴾ من خصف . والمعنى : أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها ، من خصف النعل : إذا جعله طبقة فوق طبقة ﴿ **وناداهما ربهما** ﴾ قائلا لهما : ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة** ﴾ التى نهيتكما عن أكلها ، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه ﴿ **وأقل لكما** ﴾ معطوف على ﴿ **أنهكما**﴾ ﴿ **إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ أى مظهر للعداوة .

قوله : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل : فماذا

---

(١) السلوى : العسل ، وشار العسل : اجتناه وأخذه من موضعه ، والبيت ذكره القرطبى غير منسوب . وذكره صاحب اللسان فى: « سلا » منسوبا إلى خالد بن زهير ، قال الزجاج : « أخطأ خالد ، إنما السلوى : طائر». قال الفارسى : « السلوى : كل ما سلاك ، وقيل : العسل سلوى لأنه يسليك بحلاوته وتأتيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤنة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة ». يرد بذلك على أبى إسحاق الزجاج .

(٢) البيت كما قال المصنف لنفطويه وهو : إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى . راجع : الفهرست لابن النديم ، ومعجم الأدباء ١/١٥٩ ووفيات الأعيان ١/ ١١ ولسان الميزان ١/ ١٠٩ وفيه : « نفطويه على وزن سيبويه » وتاريخ بغداد ٦/ ١٥٩ .

قالا ؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب وأنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة ، ثم قالا : ﴿ **وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين** ﴾ .

وجملة : ﴿ **قال اهبطوا** ﴾ استئناف كالتى قبلها ، والخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو لهما ولإبليس ، وجملة : ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر** ﴾ أى موضع استقرار ولكم ﴿ **متاع** ﴾ تتمتعون به فى الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما ﴿ **إلى حين** ﴾ أى إلى وقت ، وهو وقت موتكم .

وجملة :﴿ **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ استئنافية كالتى قبلها ، أى فى الأرض تحيون ، وفيها يأتيكم الموت ، ومنها تخرجون إلى دار الآخرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه : ٥٥] . واعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى فى البقرة فارجع إليه .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن وهب بن منبه فى قوله : ﴿ **ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما** ﴾ قال : كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوءة صاحبه ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتاهما إبليس فقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين مثله ، يعنى مثل الله عز وجل ، فلم يصدقاه حتى دخل فى جوف الحية فكلمهما . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية ﴿ **إلا أن تكونا ملكين** ﴾ فإن أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبدا ﴿ **وقاسمهما** ﴾ قال : حلف لهما ﴿ **إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ قال : منَّاهما بغرور . وأخرج ابن المنذر وابن أبى شيبة عن عكرمة قال : لباس كل دابة منها ، ولباس الإنسان الظفر ، فأدركت آدم التوبة عند ظفره . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لباس آدم وحواء كالظفر ، فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقى فى أطراف أصابعه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه نحوه من طريق أخرى (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال : كان لباس آدم فى الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر .

---

(١) ابن جرير ٨/ ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق ٨/ ١٠٥
(٣) المرجع السابق ٨/١٠٦ .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وطفقا يخصفان** ﴾ قال : يرقعان كهيئة الثوب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة** ﴾ قال آدم : رب إنه حلف لى بك ولم أكن أعلم أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صادقا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ الآية قال : هى الكلمات التى تلقى آدم من ربه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ .

عبر سبحانه بالإنزال عن الخلق ، أى خلقنا لكم لباسا يوارى سوآتكم التى أظهرها إبليس من أبويكم ، والسوأة : العورة كما سلف ، والكلام فى قدرها وما يجب ستره منها مبين فى كتب الفروع . قوله : ﴿ **وريشا** ﴾ قرأ الحسن وعاصم من رواية المفضل الضبى وأبو عمرو من رواية الحسن بن على الجُعفى: « ورياشا » وقرأ الباقون: ﴿ **وريشا** ﴾ ، والرياش : جمع ريش : وهو اللباس . قال الفراء : ريش ورياش كما يقال : لبس ولباس ، وريش الطائر: ما ستره الله به . وقيل : المراد بالريش هنا : الخصب ورفاهية العيش . قال القرطبى : والذى عليه أكثر أهل اللغة : أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة (١). وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبت له دابة وريشها ، أى وما عليها من اللباس . وقيل : المراد بالريش هنا : لباس الزينة لذكره بعد قوله : ﴿ **قد أنزلنا عليكم لباسا** ﴾ وعطفه عليه .

قوله : ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائى بنصب لباس . وقرأ الباقون بالرفع ؛ فالنصب على أنه معطوف على لباس الأول ، والرفع على أنه مبتدأ ، وجملة ﴿ **ذلك خير** ﴾ : خبره ، والمراد بلباس التقوى : لباس الورع واتقاء معاصى الله ، وهو الورع نفسه والخشية من الله فذلك خير لباس وأجمل زينة . وقيل : لباس التقوى : الحياء. وقيل : العمل الصالح . وقيل : هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله .وقيل : هو الدرع والمغفر الذى يلبسه من يجاهد فى سبيل الله ، والأول أولى . وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال ، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع فى كلام العرب ومنه :

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٦٢٠ .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا (١)

ومثله :

تغط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والإشارة بقوله. ﴿ **ذلك** ﴾ إلى لباس التقوى ،أى هو خير لباس،وقرأ الأعمش : « ولباس التقوى خير » والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ إلى الإنزال المدلول عليه بأنزلنا ، أى ذلك الإنزال من آيات الله الدالة على أن له خالقا. ثم كرر الله سبحانه النداء لبنى آدم تحذيرا لهم من الشيطان ، فقال : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان** ﴾ أى لا يوقعنكم فى الفتنة ، فالنهى وإن كان للشيطان فهو فى الحقيقة لبنى آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك ، والكاف فى ﴿ **كما أخرج** ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة ، وجملة ﴿ **ينزع عنهما لباسهما** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وقد تقدم تفسيره ، واللام فى ﴿ **ليريهما سوآتهما** ﴾ لام كى ، أى لكى يريهما ، وقد تقدم تفسيره أيضا . قوله : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما تتضمنه من المبالغة فى تحذيرهم منه ، لأن من كان بهذه المثابة يرى بنى آدم من حيث لا يرونه ، كان عظيم الكيد ، وكان حقيقا بأن يحترس منه أبلغ احتراس ﴿ **وقبيله** ﴾ أعوانه من الشياطين وجنوده .

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة ، وليس فى الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه ، وليس فيها أنا لا نراه أبداً ، فإن انتفاء الرؤية منا له فى وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً ، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم** ﴾ قال : كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة ، وفى قوله ﴿ **وريشا** ﴾ قال : المال. وأخرج ابن جرير عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **لباسا يوارى سوآتكم** ﴾ قال : الثياب ﴿ **وريشا** ﴾ قال : المال ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال:خشية الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن على فى قوله : ﴿ **لباسا يوارى سوآتكم** ﴾ قال:لباس العامة ﴿ **وريشا** ﴾ قال: لباس الزينة ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال :الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وريشا** ﴾ قال : المال واللباس والعيش والنعيم ، وفى قوله : ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال : الإيمان والعمل الصالح ﴿ **ذلك خير** ﴾ قال : الإيمان والعمل خير من الريش واللباس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله:« ورياشا » يقول: المال. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن

---

(١) وبعد هذا البيت :

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ينزع عنهما لباسهما** ﴾ قال : التقوى ، وفى قوله: ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله** ﴾ قال : الجن والشياطين .

﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)** ﴾ .

الفاحشة : ما تبالغ فى فحشه وقبحه من الذنوب . قال أكثر المفسرين : هى طواف المشركين بالبيت عراة . وقيل : هى الشرك ، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعا ، والمعنى : أنهم إذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا فى القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين : الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداءً بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة ، والثانى: أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه . وكلا العذرين فى غاية البطلان والفساد ؛ لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله،والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء [1] ، بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتها ، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش ، ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه ، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه ، فقال : ﴿ **أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ وهو من تمام ما أمر النبىﷺ بأن يقوله لهم، وفيه من التقريع والتوبيخ أمر عظيم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحا فى كل شىء فكيف إذا كان فى التقول على الله؟

وإن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : ٢٣] والقائلون: ﴿ **وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾ والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه ، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية ، والنصرانى على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية أو البدعية ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه

---

(١) الفحش ، والفحشاء ، والفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحش فلان : صار فاحشا ، ومنه قول الشاعر :

عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعنى به : العظيم القبح فى البخل ، والمتفحش : الذى يأتى بالفحش .

هو الحق الذى أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب وبحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص ، فيا مَن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه ونهى عن مخالفته فقال: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر:٧] ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى المكلفين للناس بمالم يكلفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ، ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذونهما عنه ، ووجود آلة الفهم لديهم وملَكة العقل عندهم .

قوله : ﴿ **قل أمر ربى بالقسط** ﴾ القسط : العدل ، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء . وقيل : القسط هنا هو : لا إله إلا الله ، وفى الكلام حذف ، أى قل أمر ربى بالقسط فأطيعوه . قوله : ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ معطوف على المحذوف المقدر ، أى توجهوا إليه فى صلاتكم إلى القبلة فى أى مسجد كنتم ، أو فى كل وقت سجود ، أو فى كل مكان سجود ، على أن المراد بالسجود : الصلاة ﴿ **وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أى ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء أو العبادة له . وقيل : وحدوه ولا تشركوا به .

قوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف . وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله . والمعنى : كما أنشأكم فى ابتداء الخلق يعيدكم ، فيكون المقصود : الاحتجاج على منكرى البعث ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته . وقيل : كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شىء ، فيكون مثل قوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وقيل : كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب ﴿ **فريقا هدى** ﴾ منتصب بفعل يفسره ما بعده . وقيل : منتصب على الحال من المضمر فى تعودون ، أى تعودون فريقين: سعداء وأشقياء ويقويه قراءة أُبى « فريقين فريقا هدى » ، والفريق الذين هداهم الله : هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذى حقت عليه الضلالة : هم الكفار (١) .

قوله : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله** ﴾ تعليل لقوله : ﴿ **وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ أى ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين فى معصية الله ، ومع هذا فإنهم

---

(١) قال القرطبى ٤ / ٢٦٢٤ : « وفى هذا ردٌ واضح على القدرية ومن تابعهم ، وقيل :﴿ **فريقاً** ﴾ نصب بـ﴿ **هدَى** ﴾ ، و﴿ **فريقاً** ﴾ الثانى نصب بإضمار فعل أى:وأضل فريقاً . وأنشد سيبويه :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدى وأخشى الرياح والمطرا

﴿ **يحسبون أنهم مهتدون** ﴾ ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة ، وهذا أشد فى تمردهم وعنادهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة** ﴾(١) قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة فنهوا عن ذلك (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال : والله ما أكرم الله عبدا قط على معصية ولا رضيها له ولا أمر بها ، ولكن رضى لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أمر ربى بالقسط** ﴾ قال : بالعدل ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ قال : إلى الكعبة حيث صليتم فى كنيسة أو غيرها ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ قال : شقى وسعيد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ الآية قال : إن الله بدأ خلق بنى آدم مؤمناً وكافرا كما قال : ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا (٤) . وأخرج ابن جرير ، عن جابر فى الآية قال : يبعثون على ما كانوا عليه : المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه (٥) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أنه ذكر القدرية فقال : قاتلهم الله أليس قد قال الله تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية يقول : كما خلقناكم أول مرة كذلك تعودون .

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ .

هذا خطاب لجميع بنى آدم وإن كان واردا على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس ، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف . وقد استدلّ بالآية على وجوب ستر العورة فى الصلاة ، وإليه ذهب جمهور أهل العلم بل سترها واجب فى كل حال من الأحوال وإن كان الرجل خالياً كما دلت

(١) فى المخطوطة : « والذين إذا فعلوا فاحشة » . (٢ ، ٣) ابن جرير ٨/ ١٤ .
(٤) المرجع السابق ٨/ ١١٥ ، ١١٦ . (٥) المرجع السابق ٨/ ١١٦ .

عليه الأحاديث الصحيحة (١) ، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل فى كتب الفـروع .

قوله : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الإسراف فلا زهد فى ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه ، وهو من أهل النار ، كما صح فى الأحاديث الصحيحة والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعى على نفسه ، وعلى من يعـول مخالفا لما أمر الله بـه وأرشـد إليه ، والمسرف فى إنفـاقه على وجـه لا يفعله إلا أهـل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع فى النهى القرآنى ، وهكذا من حرم حلالاً أو حلل حراما فإنه يدخل فى المسرفين ويخرج عن المقتصدين ، ومن الإسراف : الأكل لا لحاجة وفى وقت شبع .

قوله : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ﴾ الزينة : ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن التى لم يرد نهى عن التزين بها والجواهر ونحوها . وقيل : الملبوس خاصة ولا وجه له ، بل هو من جملة ما تشتمله الآية ، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله ، ولا حرج على من تزين بشىء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة ولم يمنع منها مانع شرعى ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيناً . وقد قدمنا فى هذا ما يكفى ، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس فإنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه أوحرمه على غيره . وما أحسن ما قال ابن جرير الطبرى : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة . وقد قدمنا نقل مثل هذا عنه مطولا (٢) . والطيبات المستلذات من الطعام . وقيل : هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعما .

قوله : ﴿ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾ أى أنها لهم بالأصالة وإن شاركهم الكفار فيها ماداموا فى الحياة ﴿خالصة يوم القيامة ﴾ أى مختصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار . وقرأ نافع : « خالصة » بالرفع ، وهى قراءة ابن عباس على أنها خبر بعد خبر ، وقرأ الباقون بالنصب على الحال . قال أبو على الفارسى : ولا يجوز الوقف على الدنيا لأن ما بعدها متعلق بقوله : ﴿ للذين آمنوا ﴾ حال منه بتقدير : قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال

---

(١) البيهقى ٢/ ٢٢٥ وقال : « أشار إليه البخارى فى الترجمة وهو عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده » وقال فيه : قال : أرأيت يا رسول الله إن كان أحدنا خاليا قال : « الله أحق أن يستحيا منه » .

(٢) يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء ، والعلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان . فقال له على: قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا . فقـال لـه : وما هى ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [الأعراف : ٣١] .

خلوصها لهم يوم القيامة . قوله : ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم .

قوله ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش** ﴾ جمع فاحشة . وقد تقدم تفسيرها ﴿ **ما ظهر منها وما بطن** ﴾ أى ما أعلن منها وما أسر . وقيل : هى خاصة بفواحش الزنا ولا وجه لذلك ، والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم ، وقيل : هى الخمر خاصة، ومنه قول الشاعر :

شَرِبتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِى كَذَاكَ الإِثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ

ومثله قول الآخر :

يشرب الإثم بالصواع جهارا (١)

وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر . قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، وحقيقته أنه جميع المعاصى ، كما قال الشاعر :

إنى وجدتُ الأمرَ أرشَدُه تَقْوَى الإله وشرُّه الإِثْمُ

قال الفراء : الإثم مادون الحق والاستطالة على الناس . انتهى . وليس فى إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به،فهو أحد المعاصى التى يصدق عليها . قال فى الصحاح : وقد يسمى الخمر إثما ، وأنشد :

شربت الإثم . . . .

البيت . وكذا أنشده الهروى قبله فى غريبه . قوله : ﴿ **والبغى بغير الحق** ﴾ أى الظلم المجاوز للحد ، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النحل : ٩٠] ﴿ **وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا** ﴾ أى وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة . والمراد : التهكم بالمشركين ، لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له ﴿ **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ بحقيقته وأن الله قاله ، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها .

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس ؛ أن النساء كُنَّ يَطُفْن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلُّهُ

---

(١) الصواع : إناء يشرب فيه ، وعجز البيت :

وترى المسك بيننا مستعارا

ومعنى مستعار : متداول ، أى نتعاوره بأيدينا ، نشتمُّه .

فنزلت ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة . والزينة : اللباس وما يوارى السوأة وما سوى ذلك من جيد البرد والمتاع (٢). وأخرج ابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا زينة الصلاة»، قالوا: وما زينة الصلاة؟ قال: « البسوا نعالكم فصلوا فيها ». وأخرج العقيلى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبى ﷺ فى قول الله: ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ قال: « صلوا فى نعالكم ». والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدا، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روى فى هذين الحديثين فلا أدرى كيف إسنادهما، وقد ورد النهى عن أن يصلى الرجل فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء ، وهو فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة (٣) .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أحلَّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة (٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **إنه لا يحب المسرفين** ﴾ قال : فى الطعام والشراب . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٥) .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله : ﴿ **قل مَنْ حرَّم زينة الله** ﴾ فأمروا بالثياب أن يلبسوها ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ قال : ينتفعون بها فى الدنيا لا يتبعهم فيها مأثم يوم القيامة (٦) . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ قال : المشركون يشاركون المؤمنين فى زهرة الدنيا وهى خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **والطيبات من الرزق** ﴾ قال : الودك (٧) واللحم والسمن . وأخرج ابن جرير وابن

---

(١) أخرجه ابن جرير ٨/ ١١٩ ، ١٢٠ ومسلم فى التفسير (٣٠٢٨/ ٢٥) والنسائى فى التفسير (٢٠٢) ووهم الحاكم فاستدركه ٢/ ٣١٩ ، ٣٢٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والحديث كما رأيت موجود فى صحيح مسلم بنفس السند والمتن .

(٢) فى المخطوطة : « من جيد البر والمتاع » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٣) البخارى فى الصلاة (٣٥٩ ، ٣٦٠) ومسلم فى الصلاة (٥١٦/ ٢٧٧) والبيهقى ٢/ ٢٢٤ .

(٤) ابن جرير ٨/ ١٢٠ والبيهقى فى الشعب (٦٥٧٢) ط : الكتب العلمية .

(٥) الترمذى فى الأدب (٢٨١٩) وقال : « حديث حسن » والنسائى ٥/ ٧٩ وابن ماجه فى اللباس (٣٦٠٥) والبيهقى فى الشعب (٦١٩٦) ط : الكتب العلمية .

(٦) الطبرانى (١٢٣٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٦ : « فيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » .

(٧) الودك : دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه .

المنذر وابن أبى حاتم عنه قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها . وهو قول الله : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ [يونس : ٥٩] . وهو [١] هذا ، فأنزل الله : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ يعنى : شارك المسلمون الكفار فى الطيبات فى الحياة الدنيا ، فأكلوا من طيبات طعامها ، ولبسوا من جياد ثيابها،ونكحوا من صالحى نسائها . ثم يخلص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء [٢] .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : ما ظهر منها : العرية . وما بطن : الزنا . وكانوا يطوفون بالبيت عراة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى الآية ، قال : ما ظهر منها طواف الجاهلية عراة. وما بطن : الزنا . وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن السدى فى قوله:﴿ **والإثم** ﴾ قال : المعصية ﴿ **والبغى** ﴾ قال : أن يبغى على الناس بغير حق .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولكل أمة أجل** ﴾ أى وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أويميتهم فيه ، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً . والضمير فى ﴿ **أجلهم** ﴾ لكل أمة، أى إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدره عليهم واقعاً فى ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة . قال أبو السعود ما معناه : إن قوله : ﴿ **ولا يستقدمون** ﴾ عطف على ﴿ **يستأخرون** ﴾ لكن « لا » لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه فى نفسه كالتأخر ، بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلاً . وقيل : المراد بالمجيء : الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة ، كمجيء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذاك . وقرأ ابن

(١) فى المخطوطة : « وهذا هذا » ، والصواب ما أثبتناه من ابن جرير ٨/ ١٢١ .
(٢) ابن جرير ٨/ ١٢١ .

سيرين : «آجالهم » بالجمع . وخص الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات ، وقد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله وإن كان موته بالقتل أو التردى أو نحو ذلك . والبحث فى ذلك طويل جداً ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ [الحجر : ٥ ، المؤمنون : ٤٣] .

قوله : ﴿ **يا بنى آدم إما يأتينكم** ... ﴾ الآية : « إن » هى الشرطية ، و « ما » زائدة للتوكيد ، ولهذا لزمت الفعل النون المؤكدة . والقصص قد تقدم معناه ، والمعنى : إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامى ويبينونها لكم ﴿ **فمن اتقى وأصلح** ﴾ أى اتقى معاصى الله وأصلح حال نفسه باتباع الرسل وإجابتهم ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وهذه الجملة الشرطية هى الجواب للشرط الأول . وقيل : جوابه ما دل عليه الكلام ، أى إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فأطيعوهم . والأول أولى ، وبه قال الزجاج . ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا** ﴾ التى يقصها عليهم رسلنا ﴿ **واستكبروا** ﴾ عن إجابتها والعمل بما فيها ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ لا يخرجون منها بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل . ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته** ﴾ أى لا أحد أظلم منه. وقد تقدم تحقيقه. والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المكذبين المستكبرين ﴿ **ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ أى مما كتب الله لهم من خير وشر . وقيل : ينالهم من العذاب بقدر كفرهم . وقيل : الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل : هو اللوح المحفوظ .

قوله : ﴿ **حتى إذا جاءتهم رسلنا** ﴾ أى إلى غاية هى هذه . وجملة : ﴿ **يتوفونهم** ﴾ فى محل نصب على الحال . والمراد بالرسل هنا : ملك الموت وأعوانه . وقيل : ﴿ **حتى** ﴾ هنا هى التى للابتداء. ولكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافى كونها غاية لما قبلها . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أين ما كنتم تدعون من دون الله** ﴾ للتقريع والتوبيخ، أى أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ؟ وجملة : ﴿ **قالوا ضلوا عنا** ﴾ استئنافية بتقدير سؤال وقعت هى جواباً عنه ، أى ذهبوا عنا وغابوا فلا ندرى أين هم ؟ ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ أى أقروا بالكفر على أنفسهم .

قوله: ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم** ﴾ القائل : هو الله عز وجل . و « فى » بمعنى: « مع » ، أى مع أمم. وقيل : هى على بابها . والمعنى : ادخلوا فى جملتهم . وقيل : هو قول مالك خازن النار . والمراد بالأمم التى قد خلت من قبلهم من الجن والإنس : هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية ﴿ **كلما دخلت أمة** ﴾ من الأمم الماضية ﴿ **لعنت أختها** ﴾ أى الأمة الأخرى التى سبقتها إلى النار ، وجعلت أختاً لها باعتبار الدين ، أو الضلالة ، أو الكون فى النار . ﴿ **حتى إذا اداركوا فيها** ﴾ أى تداركوا . والتدارك : التلاحق والتتابع والاجتماع فى النار . وقرأ الأعمش : « تداركوا » على الأصل من دون إدغام . وقرأ ابن مسعود: «حتى إذا ادركوا » أى أدرك بعضهم بعضا . وروى عن أبى عمرو أنه قرأ بقطع ألف

الوصل. فكأنه سكت على « إذا » للتذكر. فلما طال سكوته ، قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها . وهو مثل قول الشاعر :

يا نفس صبراً كل حى لاقى ... وكل اثنين إلى افتــراق

﴿ **قالت أخراهم لأولاهم** ﴾ أى أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً . وقيل : ﴿ **أخراهم** ﴾ أى سفلتهم وأتباعهم ﴿ **لأولاهم** ﴾ لرؤسائهم وكبارهم . وهذا أولى[١] كما يدل عليه: ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا** ﴾ فإن المضلين هم الرؤساء . ويجوز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم تبعوهم واقتدوا بدينهم من بعدهم ، فيصح الوجه الأول ، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم.

قوله : ﴿ **فآتهم عذابا ضعفا من النار** ﴾ الضعف : الزائد على مثله مرة أو مرات . ومثله قوله تعالى: ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ [الأحزاب : ٦٨]. وقيل : الضعف هنا : الأفاعى والحيات .وجملة: ﴿ **قال لكل ضعف** ﴾ استئنافية جوابا لسؤال مقدر ، والمعنى : لكل طائفة منكم ضعف من العذاب ، أى الطائفة الأولى والطائفة الأخرى ﴿ **ولكن لا تعلمون** ﴾ بما لكل نوع من العذاب . ﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم** ﴾ أى قال السابقون للاحقين ، أو المَتّبَعُونَ للتابعين : ﴿ **فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ بل نحن سواء فى الكفر بالله واستحقاق عذابه . ﴿ **فذوقوا** ﴾ عذاب النار كما ذقناه ﴿ **بما كنتم تكسبون** ﴾ من معاصى الله والكفر به .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أبى الدرداء قال : تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ فقلنا : من وصل رحمه أنسئ فى أجله ، فقال : « إنه ليس بزائد فى عمره ، قال الله تعالى : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة ، فيدعون الله من بعده ، فيبلغه ذلك ، فذلك الذى ينسأ فى أجله » . وفى لفظ : « فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » [٢] . وهذا الحديث ينبغى أن يكشف عن إسناده ، ففيه نكارة ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما بخلافه [٣]. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى عروبة ، قال : كان الحسن يقول : ما أحمق هؤلاء القوم يقولـون : اللهم أطل عمره . والله يقـول : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق الزهرى عن ابن المسيب ، قال : لما طعن عمر ، قال كعب :

---

(١) فى المطبوعة : « أول » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) الطبرانى فى الصغير والأوسط ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٥٦ : « ليس فى إسناده متروك ، ولكنهم ضعفوا » .

(٣) هناك أحاديث كثيرة فى هذا الشأن . راجع : البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٧ / ٢٠، ٢١) وأبا داود فى الزكاة (١٦٩٣) ، كلهم عن أنس رضى الله عنه .

لو دعا الله ، لأخر في أجله ، فقيل له : أليس قد قال الله : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ فقال كعب : وقد قال الله : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ [فاطر : ١١] .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ قال : ما قدر لهم من خير وشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : من الأعمال من عمل خيراً جزى به ، ومن عمل شراً جزى به . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضاً ، قال : نصيبهم من الشقاوة والسعادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية ، قال : ما سبق من الكتاب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية ، قال : رزقه وأجله وعمله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في الآية ، قال : من العذاب . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿ **قد خلت** ﴾ قال: قد مضت. ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾ قال: كلما دخلت أهل ملة، لعنوا أصحابهم على ذلك، يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين ، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى. ﴿ **حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم** ﴾ الذين كانوا في آخر الزمان ﴿ **لأولاهم** ﴾ الذين شرعوا لهم ذلك الدين: ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف** ﴾ الأولى والآخرة ﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ وقد ضللتم كما ضللنا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ **عذاباً ضعفاً** ﴾ قال: مضاعفاً . ﴿ **قال لكل ضعف** ﴾ قال : مضاعف . وفي قوله : ﴿ **فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ قال : تخفيف من العذاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ قرأ ابن عباس وحمزة والكسائي بفتح التحتية ، لكون تأنيث الجمع غير حقيقي ، فجاز تذكيره . وقرأ الباقون بالفوقية على التأنيث . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « تفتح » بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ، والمعنى : أنها

لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا . وقد دل على هذا المعنى وأنه المراد من الآية ما جاء فى الأحاديث الصحيحة أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء (١). وقيل: لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا ، قاله مجاهد والنخعى. وقيل : لأعمالهم ، أى لا تقبل بل ترد عليهم ، فيضرب بها فى وجوههم (٢) . وقيل : المعنى: أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها ، لأن الجنة فى السماء ، فيكون على هذا القول العطف لجملة : ﴿ **ولا يدخلون الجنة** ﴾ من عطف التفسير ، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال ، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه ، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية .

قوله : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ أى أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال. ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال : ﴿ **حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ وهو لا يلج أبداً، وخص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل فى كبر الذات ، وخص سم الخياط ، وهو ثقب الإبرة بالذكر، لكونه غاية فى الضيق . والجمل : الذكر من الإبل ، والجمع : جمال وأجمال وجمالات . وإنما يسمى جملاً إذا أربع . وقرأ ابن عباس : « الجُمَّل » بضم الجيم وفتح الميم مشددة . وهو حبل السفينة الذى يقال له : القَلْس . وهو حبال مجموعة ، قاله: ثعلب. وقيل: الحبل الغليظ من القنب. وقيل : الحبل الذى يصعد به فى النخل. وقرأ سعيد بن جبير: « الجُمَل » بضم الجيم وتخفيف الميم . وهو القَلْس أيضاً . وقرأ أبو السماك: « الجُمْل » بضم الجيم، وسكون الميم . وقرئ أيضاً بضمهما. وقرأ عبد الله بن مسعود : « حتى يلج الجمل الأصغر فى سم الخياط ». وقرئ : « فى سم » بالحركات الثلاث. والسم: كل ثقب لطيف. ومنه ثقب الإبرة. والخياط ما يخاط به يقال: خياط ومخيط. ﴿ **وكذلك نجزى المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين ، أى جنس من أجرم. وقد تقدم تحقيقه . والمهاد : الفراش ، والغواش : جمع غاشية ، أى نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية . ﴿ **وكذلك نجزى الظالمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من اتصف بصفة الظلم.

قوله : ﴿ **لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ أى لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه. ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم. وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر .

---

(١) من ذلك حديث البراء بن عازب . أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء قال: « فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث . . . ؟ فيقولون : فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ وهو عند أحمد ٢٨٧/٤ ، ٢٨٨ وأبى داود فى الجنائز (٣٢١٢) والنسائى ٧٨/٤ وابن ماجة فى الجنائز (١٥٤٨ ، ١٥٤٩) .

(٢) قال تعالى : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [فاطر : ١٠] .

ومثله: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق: ٧] وقرأ الأعمش : « تكلف » بالفوقية ، ورفع « نفس » . والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول ، وخبره ﴿ **أصحاب الجنة** ﴾ والجملة خبر الموصول . وجملة: ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ (١) فى محل نصب على الحال.

قوله : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** ﴾ هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع الله ما فى قلوبهم من الغل على بعضهم بعضاً ، حتى تصفو قلوبهم ، ويود بعضهم بعضاً ، فإن الغل لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا ، لكان فى ذلك تنغيص لنعيم الجنة لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر . والغل : الحقد الكامن فى الصدور . وقيل : نزع الغل فى الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً فى تفاضل المنازل (٢) . ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا** ﴾ أى لهذا الجزاء العظيم ، وهو الخلود فى الجنة ، ونزع الغل من صدورهم ، والهداية هذه ﴿ **لهذا** ﴾ هى الهداية لسببه من الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا . ﴿ **وما كنا لنهتدى** ﴾ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو ، وقرأ الباقون بإثباتها ، وما كنا نطيق أن نهتدى بهذا الأمر لولا هداية الله لنا ، والجملة مستأنفة أو حالية ، وجواب ﴿ **لولا** ﴾ محذوف يدل عليه ما قبله ، أى لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدى .

قوله : ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ اللام لام القسم ، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به فى الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذى صاروا فيه .

قوله : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أى وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقيل لهم : تلكم الجنة أورثتموها ، أى ورثتم منازلها بعملكم . قال فى الكشاف : بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل كما تقوله المبطلة . انتهى (٣) .

أقول : يا مسكين هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه : « سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » (٤) . والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر . ولولا التفضل من الله

---

(١) فى المطبوعة : « وهم فيها خالدون » .

(٢) وقال القرطبى فى التفسير ٤/ ٢٦٤٤ وقد قيل : إن ذلك يكون عن شراب الجنة ولهذا قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شراباً طهورا** ﴾ [الإنسان: ٢١]، أى يطهر الأوضار من الصدور .

(٣) تفسير الكشاف ٢/ ١٠٦ وفى الهامش : قوله : «كما تقول المبطلة ». يريد أهل السنة القائلين : دخولها بالفضل واقتسامها بالأعمال كما فى الحديث .

(٤) الحديث عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) وفى الرقاق (٦٤٦٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦ / ٧١ ــ ٧٦) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠١) وأحمد ٢/ ٢٥٦ ، ٣١٩ ، ٤٦٦ . وعن عائشة أخرجه البخارى فى الرقاق (٦٤٦٧) ومسلم فى السابق (٢٨١٨ / ٧٨) . وعن جابر أخرجه مسلم فى السابق (٢٨١٧ / ٧٧) والدارمى ٢/ ٣٠٥ .

سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل ، لم يكن عمل أصلاً ، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار ، لكان القائلون به محققة لا مبطلة ، وفي التنزيل : ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ [النساء : ٧٠] وفيه: ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ [النساء : ١٧٥] .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ يعني : لا يصعد إلى الله من عملهم شيء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : لا تفتح لهم لعمل ولا لدعاء. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا في الآية ، قال: لا تفتح لأرواحهم، وهي تفتح لأرواح المؤمنين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **حتى يلج الجمل** ﴾ قال : ذو القوائم .﴿ **في سم الخياط** ﴾ قال: في خرت الإبرة (١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والطبراني في الكبير ، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **حتى يلج الجمل** ﴾ قال : زوج الناقة . وأخرج أبوعبيد وابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : «الجُمّل » بضم الجيم وتشديد الميم. وقال : هو الحبل الغليظ ، أو هو من حبال السفن . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر ؛ أنه سئل عن سم الخياط ، قال : الجمل في ثقب الإبرة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : المهاد : الفراش ، والغواش : اللحف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب مثله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب ، قال: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ (٢) . وأخرج النسائي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول : لو هدانا الله . فيكون حسرة عليهم . وكل أهل الجنة يرى منزله من النار ، فيقول : لولا أن هدانا الله . فهذا شكرهم » (٣) . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والدارمي ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ قال : « نودوا أن صحوا فلا تسقموا ، وانعموا فلا تبأسوا، وشبوا فلا تهرموا ، واخلدوا فلا تموتوا » (٤) .

---

(١) (خرت الإبرة) بضم الخاء أو فتحها وسكون الراء : هو ثقبها .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٣٣ .

(٣) النسائي في التفسير (٤٧٤) وأحمد ٢/ ٥١٢ وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٥ ، ٤٣٦ ووافقه الذهبي . وأخرجه ابن جرير ٨/ ١٣٤ ولكن في النسخة المطبوعة « عن أبي سعيد » بدلا من « عن أبي هريرة » .

(٤) أحمد ٣/ ٩٥ والدارمي ٢/ ٣٣٤ ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٧/ ٢٢) والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٤٦) والنسائي في التفسير (٢٠٤) وابن جرير ٨/ ١٣٤ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ .

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به ، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة فى قلوبهم. و﴿ **أن قد وجدنا** ﴾ هو نفس النداء ، أى إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم ، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم ؟ والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ . وحذف مفعول وعد الثانى لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم ، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب. وقيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد . ﴿ **قالوا نعم** ﴾ أى وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . وقرأ الأعمش والكسائى : « نعِم » بكسر العين . قال مكى : من قال : « نعِم » بكسر العين ، فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التى جواب وبين نعم التى هى اسم للبقر والغنم والإبل (١) . والمؤذن المنادى ، أى فنادى مناد بينهم ، أى بين الفريقين ؛ قيل : هو من الملائكة . ﴿ **أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى والبَزِّى بتشديد « أنّ » وهو الأصل . وقرأ الباقون بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة ، وقرأ الأعمش بكسر همزة « إن » على إضمار القول ، وجملة : ﴿ **الذين يصدون عن سبيل الله** ﴾ صفة للظالمين ، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم، أو أعنى . والصد : المنع ، أى يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق . ﴿**ويبغونها عوجاً** ﴾ أى يطلبون اعوجاجها ، أى : ينفرون الناس عنها ويقدحون فى استقامتها بقولهم : إنها غير حق، وإن الحق ما هم فيه ، والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان ، مالم يكن منتصباً ، وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح ، وجملة ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ فى محل نصب على الحال . قوله : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ أى بين الفريقين . أوبين الجنة والنار . والحجاب : هو السور

---

(١) روى عن بعض الكوفيين أنه قرأ : « قالوا نعِمْ » بكسر العين وقد أنشد بيتا لبنى كلب :

نعِـمْ إذا قالهـا منه محققـة ... ولا يخيب عسى منه ولا قَمِنُ

بكسر عين « نعِم » .

المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ [الحديد : ١٣].

قوله: ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾، الأعراف: جمع عرف، وهى شرفات السور المضروب بينهم. ومنه عرف الفرس، وعرف الديك ، والأعراف فى اللغة : المكان المرتفع (١). وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما فى قوله: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور : ٣٧] .

وقد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف من هم ؟ فقيل : هم الشهداء ، ذكره القشيرى وشرحبيل بن سعد . وقيل : هم فضلاء المؤمنين ، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره مجاهد. وقيل: هم قوم أنبياء ، ذكره الزجاج. وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل : هم العباس وحمزة وعلى وجعفر الطيار ، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ، ومبغضيهم بسوادها ، حكى ذلك عن ابن عباس . وقيل : هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة ، واختار هذا القول النحاس . وقيل : هم أولاد الزنا ، روى ذلك عن ابن عباس. وقيل : هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ، ذكره أبو مِجْلَز .

وجملة: ﴿ **يعرفون كلا بسيماهم** ﴾ صفة لرجال. والسيما : العلامة ، أى يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها ، أو مواضع الوضوء من المؤمنين ، أو علامة يجعلها الله لكل فريق(٢) فى ذلك الموقف ، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء.

﴿ **ونادوا أصحاب الجنة** ﴾ أى نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم . ﴿ **أن سلام عليكم** ﴾ أى نادوهم بقولهم : سلام عليكم ، تحية لهم وإكراما وتبشيرا ، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب .

قوله : ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ أى لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، والحال : أنهم يطمعون فى دخولها . وقيل: معنى ﴿ **يطمعون** ﴾ يعلمون أنهم يدخلونها ، وذلك معروف عند أهل اللغة ، أى طمع بمعنى : علم ، ذكره النحاس ، وهذا القول ، أعنى كونهم أهل الأعراف ، مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود . وقال أبو مجلز : هم أهل الجنة ، أى إن أهل الأعراف قالوا لهم : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ حال كون أهل الجنة لم يدخلوها ، والحال أنهم يطمعون فى دخولها .

قوله : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار** ﴾ أى إذا صرفت أبصار أهل الأعراف

---

(١) قال الشماخ بن ضرار :

وظلت بأعراف تغالى كأنها رماح نحاها وجهة الريح راكز

راجع ديوانه ٥٣ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢١٥ .

(٢) فى المطبوعة : « فرق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تلقاء أصحاب النار ، أى جهة أصحاب ، وأصل معنى ﴿ **تلقاء** ﴾ : جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة ، ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أوله غير مصدرين أحدهما هذا ، والآخر تبيان . وما عداهما بالفتح . ﴿ **قالوا** ﴾ أى قال أهل الأعراف : ﴿**ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ سألوا الله أن لا يجعلهم منهم . ﴿ **ونادى أصحاب الأعراف رجالاً** ﴾ من الكفار ﴿ **يعرفونهم بسيماهم** ﴾ أى بعلاماتهم ﴿ **قالوا** ﴾ : بدل من نادى ، ﴿ **ما أغنى عنكم جمعكم** ﴾ الذى كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله . والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

قوله: ﴿ **وما كنتم تستكبرون** ﴾: « ما » مصدرية ،أى وما أغنى عنكم استكباركم. ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ هذا من كلام أصحاب الأعراف ، أى قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة . وقد كان الكفار يقسمون فى الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم . وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم .

قوله: ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ هذا تمام كلام أصحاب الأعراف ، أى قالوا للمسلمين : ادخلوا الجنة ، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول . وقرأ طلحة ابن مصرف : « ادخِلوا » بكسر الخاء .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا** ﴾ قال : من النعيم والكرامة . ﴿ **فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا** ﴾ قال : من الخزى والهوان والعذاب . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن النبى ﷺ لما وقف على قليب بدر ، تلا هذه الآية (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ قال : هو السور ، وهو الأعراف . وإنما سمى الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن حذيفة قال : الأعراف: سور بين الجنة والنار . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس قال : الأعراف هو الشىء المشرف . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال: الأعراف: سور له عرف كعرف الديك. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : الأعراف : جبال بين الجنة والنار ، فهم على أعرافها ، يقول : على ذراها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنها: تل بين الجنة والنار ، حبس عليه ناس من أهل الذنوب . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن جرير ، قال : زعموا أنه الصراط . وأخرج ابن جرير عن حذيفة ، قال : أصحاب الأعراف : قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار ، وهم آخر من يدخل الجنة ، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنهم من استوت حسناتهم

(١) ابن أبى شيبة ١٤/ ٣٧٧ (١٨٥٥٢) ، وانظر: ابن إسحاق ٢/ ٢٠٤ والبخارى فى المغازى (٣٩٨٠) .

وسيئاتهم، يقفون على الصراط. وأخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه . وكذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال: « هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عتقائى ، فارعوا من الجنة حيث شئتم » . قال ابن كثير : وهذا مرسل حسن [(١)] . وأخرج البيهقى فى البعث عن حذيفة ، أراه قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الناس يوم القيامة، فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، ويؤمر بأهل النار إلى النار . ثم يقال لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا : ننتظر أمرك . فيقال لهم : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم ، فادخلوا بمغفرتى ورحمتى » . وأخرج سعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن عبد الرحمن المزنى ، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال: « هم قوم قتلوا فى سبيل الله فى معصية آبائهم ، فمنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله ، ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم » [(٢)] . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى ـ مرفوعاً ـ نحوه[(٣)] . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة ـ مرفوعاً ـ نحوه أيضاً. وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن مالك الهلالى عن أبيه ـ مرفوعاً ـ نحوه[(٤)]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن رجل من مزينة ـ مرفوعاً ـ نحوه .

وأخرج أبو الشيخ عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار ، أنه سئل عن قوله: ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ قال : سلمت عليهم الملائكة وهم لم يدخلوها ، وهم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدى قال : أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، أهل النار بسواد وجوههم ، وأهل الجنة ببياض وجوههم ، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة ، قالوا : سلام عليكم ، وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار ، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين [(٥)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **ونادى**

---

(١) ابن جرير ٨/ ١٣٩ وهو فى الدر المنثور للسيوطى ٣/ ٨٧ ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن كثير ٣/ ١٧٣ .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٣٩ وعزاه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٢٣) لأحمد بن منيع وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٦ ، ٢٧ للطبرانى وقال : «فيه أبو معشر نجيح ، وهو ضعيف » وعزاه ابن حجر فى الإصابة ٢/ ٢٤٦ (٥٢٣١) للبغوى وابن مردويه وعبد بن حميد ، كلهم من طريق أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن .

(٣) أورده الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٦ وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه محمد بن مخلد الرعيتى وهو ضعيف » .

(٤) ابن جرير ٨/ ١٣٨ وهذا الخبر ضعيف لما فيه من المجاهيل ، ولأن أبا معشر نفسه قد تكلموا فيه وضعفوه .

(٥) ابن جرير ٨/ ١٤٠ .

أصحاب الأعراف رجالاً ﴾ قال : فى النار . ﴿ **يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾**، قال الله لأهل التكبر: ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾** ؟ يعنى أصحاب الأعراف ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾** .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **أن أفيضوا علينا من الماء ﴾** الإفاضة : التوسعة ، يقال : أفاض عليه نعمه . طلبوا منهم أن يواسوهم بشىء من الماء أو بشىء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أو الأطعمة (١) ، فأجابوا بقولهم: ﴿ **إن الله حرمهما ﴾** أى الماء وما رزقهم الله من غيره ﴿ **على الكافرين ﴾** فلا نواسيكم بشىء مما حرمه الله عليكم . وقيل : إن هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة . وجملة : ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾** فى محل جر صفة الكافرين . وقد تقدم تفسير اللهو واللعب والغرر .

قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم ﴾** أى نتركهم فى النار ﴿ **كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾** « الكاف » نعت مصدر محذوف ، و « ما » مصدرية ، أى نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا .

قوله : ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾** معطوف على ما نسوا ، أى كما نسوا ، وكما كانوا بآياتنا يجحدون ، أى ينكرونها . واللام فى : ﴿ **ولقد جئناهم ﴾** جواب القسم . والمراد بالكتاب : الجنس ؛ إن كان الضمير للكفار جميعاً ، وإن كان للمعاصرين للنبى ﷺ فالمراد بالكتاب : القرآن . والتفصيل : التبيين . و ﴿ **على علم ﴾** فى محل نصب على الحال ، أى

---

(١) يقول صاحب الكشاف ٢/ ١٠٨ : ﴿ **أو مما رزقكم الله ﴾** من غيره من الأشربة لدخوله فى حكم الإفاضة ويجوز أن يراد : أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة . كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً

أى علفتها تبناً وسقيتها ماءً بادراً .

عالمين حال كونه ﴿ هدى ﴾ للمؤمنين ﴿ ورحمة ﴾ لهم. قال الكسائى والفراء : ويجوز « هدى ورحمة » بالخفض على النعت لكتاب .

قوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ بالهمز من آل ، وأهل المدينة يخفون الهمزة ، والنظر : الانتظار ، أى هل ينتظرون إلا ما وعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يؤول الأمر إليه . وقيل : تأويله : جزاؤه . وقيل : عاقبته ، والمعنى متقارب . و﴿ يوم ﴾ : ظرف لـ ﴿ يقول ﴾ أى يوم يأتى تأويله ، وهو يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أى تركوه من قبل أن يأتى تأويله ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ الذى أرسلهم الله به إلينا ، ﴿ فهل لنا من شفعاء ﴾ استفهام منهم ، ومعناه : التمنى ، ﴿ فيشفعوا لنا ﴾ منصوب لكونه جواباً للاستفهام .

قوله : ﴿ أو نرد ﴾ ، قال الفراء : المعنى أو هل نرد ﴿ فنعمل غير الذى كنا نعمل ﴾ . وقال الزجاج : ﴿ نرد ﴾ : عطف على المعنى ، أى هل يشفع لنا أحد ، أو نرد . وقرأ ابن أبى إسحاق : « أو نردَ فنعملَ » بنصبهما ، كقول امرئ القيس:

فقلت له لا تبك عيناً إنما ... نحاول ملكاً أو نموتَ فنعذرا (١)

وقرأ الحسن برفعهما . ومعنى الآية : هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب ، أو هل نُردُّ إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصى . ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ أى لم ينتفعوا بها ، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم ، فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله . وقيل : خسروا النعيم وحظ الأنفس . ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أى افتراؤهم أو الذى كانوا يفترونه ، والمعنى : أنه بطل كذبهم الذى كانوا يقولونه فى الدنيا ، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله ، فلم ينفعهم ولا حضر معهم .

قوله: ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالإيجاد الذى يوجب على العباد توحيده وعبادته . وأصل ستة : سدسة ، أبدلت التاء من أحد السينين ، وأدغم فيها الدال . والدليل على هذا أنك تقول فى التصغير : سديسة ، وفى الجمع : أسداس . وتقول : جاء فلان سادساً . واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبها . قيل : هذه الأيام من أيام الدنيا . وقيل : من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة . وهو سبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة ، يقول لها:

---

(١) البيت فى ديوانه : ٨٩ ، ويقال : لما قصد امرؤ القيس أرض الروم مستنجداً بالقيصر على بنى أسد ورد ملك أبيه إليه ، صحب معه عمرو بن قميئة وكان من أقدم شعراء بكر ومن أقواهم عارضة ، قال : وهو مع امرئ القيس وقد بكت بنته فبكى لبكائها ، فقال امرؤ القيس : بكى صاحبى . ومات عمرو فى هذه الرحلة فقيل له : عمرو الضائع . وقبل هذا البيت :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

كونى ، فتكون . ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأنى فى الأمور . أو خلقها فى ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً . وفى آية أخرى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق: ٣٨] .

قوله : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً . وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح : أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف ، بل على الوجه الذى يليق به ، مع تنزهه عما لا يجوز عليه ، والاستواء فى لغة العرب : هو العلو والاستقرار . قال الجوهرى : استوى على ظهر دابته ، أى استقر . واستوى إلى السماء ، أى صعد . واستوى ، أى استولى وظهر ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل ، أى انتهى شبابه . واستوى ، أى انتسق واعتدل . وحكى عن أبى عبيدة أن معنى ﴿ **استوى** ﴾ هنا : علا . ومنه قول الشاعر :

فأورد بهم ماء ثقيفا بقفرة ... وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

أى علا وارتفع . ﴿ **والعرش** ﴾ قال الجوهرى : هو سرير الملك . ويطلق العرش على معان أخر ، منها : عرش البيت : سقفه، وعرش البئر : طيها بالخشب . وعرش السماك : أربعة كواكب صغار . ويطلق على : المُلْك والسلطان والعز . ومنه قول زهير :

تداركتما عبسا وقد ثُلَّ عرشها ... وذبيان إذ ذلت بأقدامها النعل (١)

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث (٢) بن شهاب

وقول الآخر :

رأوا عرشى تثلم جانباه ... فلما أن تثلم أفردونى

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما ، وهو المراد هنا .

قوله : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ أى يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطى بظلمته ضياءه . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى: « يغشى » بالتشديد . وقرأ الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان . يقال : أغشى يغشى ، وغشى يغشى ، والتغشية فى الأصل : إلباس الشيء الشيء . ولم

---

(١) اللسان: ١٤/ ٤١٤ وفيه تداركتما الأحلاف بدلاً من (عبساً) . وثل عرشه :هدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل : وهى أمره وذهب عزه.

(٢) فى المطبوعة : « الحرث » ، وقد أثبتناه من المخطوطة بألف المد .

يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحر﴾ (١) . وقرأ حميد بن قيس « يغشى الليل النهار » على إسناد الفعل إلى الليل ، ومحل هذه الجملة النصب على الحال . والتقدير : استوى على العرش مُغْشياً الليل والنهار . وهكذا قوله: ﴿ **يطلبه حثيثاً** ﴾ حال من الليل ، أى حال كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً لا يفتر عنه بحال . وحثيثاً صفة مصدر محذوف،أى يطلبه طلباً حثيثاً،أو حال من فاعل يطلب . والحث : الاستعجال والسرعة . يقال : ولى حثيثاً ، أى مسرعاً .

قوله : ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ قال الأخفش : معطوف على السموات . وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر ، والمعنى على الأول : وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات ، وعلى الثانى الإخبار عن هذه بالتسخير .

قوله : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ : إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له ، والخلق : المخلوق . والأمر : كلامه ، وهو « كن » فى قوله : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : ٤٠] (٢) أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل ، أو التصرف فى مخلوقاته . ولما ذكر سبحانه فى هذه الآية خلق السموات والأرض فى ذلك الأمد اليسير ، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وأن له الخلق والأمر ، قال : ﴿ **تبارك الله رب العالمين** ﴾ أى كثرت بركته واتسعت . ومنه : بورك الشىء ، وبورك فيه . كذا قال ابن عرفة . وقال الأزهرى فى ﴿ **تبارك** ﴾ معناه : تعالى وتعاظم . وقد تقدم تفسير ﴿ **رب العالمين** ﴾ فى الفاتحة مستكملاً .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ...** ﴾ الآية ، قال : ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى أغثنى ، فإنى قد احترقت، فأفض علىَّ من الماء . فيقال : أجبه ؟ فيقول : ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** ﴾ قال : من الطعام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : يستسقونهم ويستطعمونهم . وفى قوله : ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ قال : طعام الجنة وشرابها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ يقول: نتركهم فى النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ قال: نؤخرهم.

---

(١) النحل : ٨١ ، وقوله تعالى ﴿ **بيدك الخير** ﴾ [آل عمران : ٢٦] .
(٢) فى المخطوطة : « إنما أمرنا لشىء » .
(٣) ابن أبى شيبة (١٦٦٢٢) وابن جرير ٨/ ١٤٤ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ قال :عاقبته . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ، قال : ﴿ **يوم يأتى تأويله** ﴾ : جزاؤه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **يوم يأتى تأويله** ﴾ قال: يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ قال : ما كانوا يكذبون فى الدنيا .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ قال:كل يوم مقداره ألف سنة. وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة، قالت[١] فى قوله: ﴿ **استوى على العرش** ﴾ الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان ، والجحود كفر. وأخرج اللالكائى عن مالك أن رجلاً سأله:كيف استوى على العرش ؟ فقال : الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الدعاء، والخطيب فى تاريخه عن الحسن بن على ، قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية فى كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضارى، ومن كل لص عادى:آية الكرسى، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ [الأعراف:٥٤] وعشراً من أول سورة الصافات ، وثلاث آيات من الرحمن أولها : ﴿ يا معشر الجن والإنس . . ﴾ [الرحمن : ٣٣] وخاتمة الحشر . وأخرج أبو الشيخ عن [٢] عبيد بن أبى مرزوق ، قال : من قرأ عند نومه : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض...** ﴾ الآية ، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح ، وعوفى من السَّرَق . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز ، قال : مرض رجل من أهل المدينة ، فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه ، فقرأ رجل منهم : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ الآية كلها ، وقد أصمت الرجل ، فتحرك ، ثم استوى جالساً ، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التى سجد فيها ، قال له أهله : الحمد لله الذى عافاك. قال : بعث إلى نفسى ملك يتوفاها ، فلما قرأ صاحبكم الآية التى قرأ ، سجد الملك ، وسجدت بسجوده . فهذا حين رفع رأسه . ثم مال فقضى .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾، قال : يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعا حتى يدركه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : يلبس الليل النهار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حثيثاً** ﴾ قال:سريعا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ ، قال : الخلق : ما دون العرش ، والأمر : ما فوق ذلك. وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه ، قال : الخلق : هو الخلق ، والأمر : هو الكلام .

---

(١) فى المخطوطة : « قال » والصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) فى المطبوعة : « بن » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾ .

أمرهم الله سبحانه بالدعاء ، وقيد ذلك بكون الداعى متضرعاً بدعائه مخفياً له. وانتصاب ﴿ تضرعاً وخفية ﴾على الحال ،أى متضرعين بالدعاء ، مخفين له ، أو صفة مصدر محذوف ، أى ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية، والتضرع من الضراعة ، وهى الذلة والخشوع والاستكانة . والخفية : الإسرار به ، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص [١] . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ أى المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء وفى كل شيء . فمن جاوز ما أمره الله به فى شيء من الأشياء فقد اعتدى ، والله لا يحب المعتدين . وتدخل المجاوزة فى الدعاء فى هذا العموم دخولاً أوليا . ومن الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعى ما ليس له كالخلود فى الدنيا ، أو إدراك ما هو محال فى نفسه ، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة ، أو يرفع صوته بالدعاء صارخا به .

قوله : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ نهاهم الله سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه قليلاً كان أو كثيراً ، ومنه : قتل الناس ، وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم ، وتغوير أنهارهم . ومن الفساد فى الأرض : الكفر بالله والوقوع فى معاصيه . ومعنى ﴿ بعد إصلاحها ﴾ : بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتقرير الشرائع .

قوله: ﴿ وادعوه خوفا وطمعاً ﴾ إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين فى﴿ تضرعا وخفية ﴾. وفيه أنه يشرع للداعى أن يكون عند دعائه خائفا وجلاً طامعا فى إجابة الله لدعائه . فإنه إذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف والرجاء[٢]، ظفر بمطلوبه . والخوف : الانزعاج من المضارّ التى لا يؤمن من وقوعها . والطمع : توقع حصول الأمور المحبوبة.

قوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ، هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأى نوع من الأنواع كان إحسانهم . وفى هذا ترغيب للعباد إلى الخير

---

(١) قال أحمد :« وحسبُك فى تعيين الإسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية . فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله فى الدعاء ، وإن دعاءً لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى ، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه » .

(٢) راجع :حقيقة الخوف والرجاء فى كتابنا : « التصوف الإسلامى منهجا وسلوكا » ط : المكتبات الأزهرية ـ القاهرة .

وتنشيط لهم . فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله .

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة الله ، حيث قال : ﴿ **قريب** ﴾ ولم يقل : قريبة ، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم لكونها بمعنى : العفو والغفران . ورجح هذا التأويل النحاس . وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى: الترَحم. وحق المصدر التذكير. وقال الأخفش سعيد: أراد بالرحمة هنا: المطر، وتذكير بعض المؤنث جائز. وأنشد :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل أبقالها (١)

وقال أبو عبيدة : تذكير قريب على تذكير المكان ، أى مكان قريب . قال على بن سليمان الأخفش : وهذا خطأ ، ولو كان كما قال ، لكان قريب منصوبا كما تقول : إن زيدا قريبا منك . وقال الفراء : إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر ويؤنث ، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم . وروى عن الفراء أنه قال : يقال فى النسب : قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث ، فيقال : دارك عنا قريب ، وفلانة منا قريب . قال الله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ [الأحزاب : ٦٣] ومنه قول امرئ القيس :

لك الويل أن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكر (٢)

وروى عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله ، وقال : إن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما . وقيل: إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقى ، جاز فى خبرها التذكير ، ذكر معناه الجوهرى .

قوله : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ يتضمن ذكر نعمة من النعم التى أنعم بها على عباده مع ما فى ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته . ورياح : جمع ريح . وأصل ريح : روح . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو : « نشرا » بضم النون والشين ، جمع ناشر على معنى النسب . أى ذات نشر . وقرأ الحسن وقتادة ، وابن عامر : « نُشْرا » بضم النون ، وإسكان الشين من نُشْر . وقرأ الأعمش ، وحمزة ، والكسائى : « نشرا » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذى هو خلاف الطى ، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ،ثم ترسل من طيها ، فتصير كالمنفتحة. وقال أبو عبيدة : معناه : متفرقة فى وجوهها على معنى ننشرها هاهنا . وقرأ عاصم ﴿ **بشرا** ﴾ بالباء الموحدة،

---

(١) البيت من شعر عامر بن جوين الطائى فى سيبويه ١/ ٣٤٠ ، ومعانى القرآن ١/ ١٢٧ والخزانة ١/ ٢١ ـ ٢٦ وشرح شواهد المغنى ٣١٩ والكامل ١/ ٤٠٦ ، ٢/ ٦٨ .

(٢) البيت فى ديوانه ص ٩١ . له الويل : له الشقاء والحزن الطويل يعنى : نفسه . وأم هاشم : كنية ابنة غفرر ، والبسباسة ابنة يشكر: امرأة أخرى من صواحباته .

وإسكان الشين جمع بشير ، أى الرياح تبشر بالمطر . ومثله قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ (١) . [الروم : ٤٦] .

قوله : ﴿ **بين يدى رحمته** ﴾ أراد بالرحمة هنا : المطر ، أى قدام رحمته ، والمعنى : أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدى المطر .

قوله : ﴿ **حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً** ﴾ أقل فلان الشىء : حمله ورفعه . والسحاب يذكر ويؤنث . والمعنى : حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالاً بالماء الذى صارت تحمله ﴿ **سقناه** ﴾ أى السحاب ﴿ **لبلد ميت** ﴾ أى مجدب ليس فيه نبات. يقال : سقته لبلد كذا ، وإلى بلد كذا . وقيل : اللام هنا لام العلة ، أى لأجل بلد ميت. والبلد : هو الموضع العامر من الأرض . ﴿ **فأنزلنا به الماء** ﴾ أى بالبلد الذى سقناه لأجله ، أو بالسحاب أى أنزلنا بالسحاب الماء الذى تحمله ، أو بالريح أى فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدى المطر الماء . وقيل : إن « الباء » هنا بمعنى : « من » أى فأنزلنا منه الماء . ﴿ **فأخرجنا به** ﴾ أى بالماء ﴿ **من كل الثمرات** ﴾ أى من جميع أنواعها.

قوله : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾ أى مثل ذلك الإخراج ، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم. ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أى تتذكرون ، فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته ، وأنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التى تشاهدونها .

قوله : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه** ﴾ أى التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجا حسنا تاما وافيا ﴿ **والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾ أى والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدا أى لا خير فيه (٢) . وقرأ طلحة بن مصرِّف : «نكْدا » بسكون الكاف . وقرأ ابن القعقاع : « نكَدا » بفتح الكاف أى ذا نكد. وقرأ الباقون : ﴿ **نَكِدا** ﴾ بفتح النون وكسر الكاف . وقرئ : « يخرج » أى يخرجه البلَد . قيل : ومعنى الآية التشبيه ، شبه تعالى السريع الفهم : بالبلد الطيب . والبليد : بالبلد الخبيث ، ذكره النحاس . وقيل : هذا مثل للقلوب،فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب،والنائى عنه بالبلد الخبيث ، قاله الحسن . وقيل : هو مثل لقلب المؤمن والمنافق . قاله قتادة . وقيل : هو مثل للطيب والخبيث من بنى آدم . قاله مجاهد. ﴿ **كذلك نصرف الآيات** ﴾ ، أى : مثل ذلك التصريف ﴿ **لقوم يشكرون** ﴾ الله ، ويعترفون بنعمته .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾

---

(١) فى المخطوطة : « وهو الذى يرسل الرياح مبشرات » .

(٢) كما قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن ... أعطيت أعطيت تافها نكدا

قال : السر ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ فى الدعاء ولا فى غيره . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ، قال : التضرع : علانية . والخفية : سر. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ يعنى : مستكينا . وخفية يعنى : فى خفض وسكون فى حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة . ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ يقول : لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر : اللهم اخزه والعنه . . . ونحو ذلك، فإن ذلك عدوان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى مِجْلَز فى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ قال : لا تسألوا منازل الأنبياء . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن ، قال : لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدا صالحاً فرضى قوله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ (١) [مريم : ٣] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح (٢) فى قوله : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾ ، قال : بعد ما أصلحها الأنبياء وأصحابهم . وأخرج أبو الشيخ عن أبى سنان فى الآية قال : أحللت حلالى ، وحرمت حرامى، وحددت حدودى ، فلا تفسدوها . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ادعوه خوفاً وطمعاً** ﴾ قال : خوفا منه ، وطمعا لما عنده . ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ يعنى : المؤمنين . ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين .

وأخرج ابن جرير (٣) وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح** ﴾ قال : إن الله يرسل الريح فيأتى بالسحاب من بين الخافقين ، طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان ، فيخرجه من ثَم ، ثم ينشره فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ثم يفتح أبواب السماء ، فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك (٤) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بشراً بين يدى رحمته** ﴾ قال : يستبشر بها الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **بين يدى رحمته** ﴾ قال : هو المطر . وفى قوله : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾ قال : كذلك تخرجون ، وكذلك النشور كما يخرج الزرع بالماء . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾ قال : إذا أراد الله أن يخرج الموتى، أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض ، ثم يرسل الأرواح فيهوى كل روح إلى جسده ، فكذلك يحيى الله الموتى بالمطر . كإحيائه الأرض (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والبلد الطيب** ...﴾

---

(١) ابن جرير ٨/ ١٤٧ وفيه زيادة .

(٢) فى المطبوعة : « ابن صالح » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، وانظر: الدر المنثور ٣/ ٩٣ .

(٣) فى المطبوعة : « ابن جريج » ، والصواب ما أثبتناه .

(٤ ، ٥) ابن جرير ٨/ ١٤٩ .

الآية ، قال : هو مثل ضربه الله للمؤمن ، يقول : هو طيب وعمله طيب ، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب . ﴿ **والذى خبث** ﴾ ضرب مثلاً للكافر ، كالبلد السبخة المالحة التى لا تخرج منها البركة . فالكافر هو الخبيث ، وعمله خبيث وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين .

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)** ﴾ .

لما بين سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته فى الآيات السابقة ، ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب ، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة . واللام جواب قسم محذوف . وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم . وقد تقدم ذكر نوح فى آل عمران، فأغنى عن الإعادة هنا [1]. وما قيل من أن إدريس قبل نوح ، فقال ابن العربى : إنه وهم . قال المازرى : فإن صح ما ذكره المؤرخون ، كان محمولاً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل . وجملة : ﴿ **فقال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ استئنافية جواب سؤال مقدر .

قوله: ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ هذه الجملة فى حكم العلة لقوله: ﴿ **اعبدوا** ﴾ أى اعبدوه ؛ لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً . قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة وابن كثير وابن عامر برفع ﴿ **غيره** ﴾ على أنه نعت لإله على الموضع . وقرأ الكسائى : بالخفض فى جميع القرآن على أنه نعت على اللفظ . وأجاز الفراء والكسائى النصب على الاستثناء . يعنى : مالكم من إله إلا إياه . وقال أبو عمرو : ما أعرف الجر ولا النصب . ويرده أن بعض بنى أسد ينصبون « غير » فى جميع الأحوال . ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت　　　حمامة فى غصون [2] ذات أوْقال [3]

وجملة : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة أى إن

---

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا** ﴾ الآية : ٣٣ من سورة آل عمران .

(٢) فى المخطوطة : « سحوق » بدلاً من « غصون » .

(٣) البيت لأبى قيس بن الأسلت ، والسحوق : ما طال من الدوم ، وفى الخزانة . فى غصون وأوقاله : ثماره .

لم تعبدوه ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان .

قوله : ﴿ **قال الملأ من قومه** ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدر . والملأ : أشراف القوم ، ورؤساؤهم . وقيل : هم الرجال . وقد تقدم بيانه فى البقرة . والضلال : العدول عن طريق الحق، والذهاب عنه، أى إنا لنراك فى دعائك إلى عبادة الله وحده فى ضلال عن طريق الحق .

وجملة : ﴿ **قال يا قوم** ﴾ استئنافية أيضا جواب سؤال مقدر . ﴿ **ليس بى ضلالة** ﴾ كما تزعمون ، ﴿ **ولكنى رسول من رب العالمين** ﴾ أرسلنى إليكم لسوق الخير إليكم ، ودفع الشر عنكم ، نفى عن نفسه الضلالة، وأثبت لها ما هو أعلى منصبا وأشرف رفعة ، وهو أنه رسول الله إليهم .

وجملة : ﴿ **أبلغكم رسالات ربى** ﴾ فى محل رفع ، على أنها صفة لرسول ، أو هى مستأنفة مبينة لحال الرسول . والرسالات : ما أرسله الله به إليهم مما أوحاه إليه . ﴿ **وأنصح لكم** ﴾ عطف على ﴿ **أبلغكم** ﴾ يقال : نصحته ، ونصحت له . وفى زيادة اللام دلالة على المبالغة فى إمحاض النصح . قال الأصمعى : الناصح : الخالص من الغل . وكل شىء خلص فقد نصح . فمعنى أنصح هنا : أخلص النية لكم عن شوائب الفساد ، والاسم: النصيحة [(١)]. وجملة : ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، مقررة لرسالاته ، ومبينة لمزيد علمه . وأنه يختص بعلم الأشياء التى لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك .

قوله : ﴿ **أوعجبتم** ﴾ فتحت الواو لكونها العاطفة ، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم . والمعطوف عليه مقدر ، كأنه قيل : أستبعدتم ، وعجبتم . أو أكذبتم ، وعجبتم . أو أنكرتم ، وعجبتم ﴿ **أن جاءكم ذكر من ربكم** ﴾ أى وحى، وموعظة ﴿ **على رجل منكم** ﴾ أى على لسان رجل منكم تعرفونه . ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه ، أو لا تعرفون لغته . وقيل : « على » بمعنى : « مع » ، أى مع رجل منكم ، لأجل ينذركم به . ﴿ **ولتتقوا** ﴾ ما يخالفه ﴿ **ولعلكم ترحمون** ﴾ بسبب ما يفيده الإنذار لكم ، والتقوى منكم، من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ، ورضوانه عنكم . ﴿ **فكذبوه** ﴾ أى فبعد ذلك كذبوه ، ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار ﴿ **فأنجيناه والذين معه** ﴾ من المؤمنين به ، المستقرين معه ﴿ **فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ واستمروا على ذلك ، ولم يرجعوا إلى التوبة . وجملة ﴿ **إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ علة لقوله : ﴿ **وأغرقنا** ﴾ أى أغرقنا المكذبين ، لكونهم عمى القلوب ، لا تنجع فيهم الموعظة ، ولا يفيدهم التذكير .

---

(١) ورجل ناصح الجيب ، أى نقى القلب . قال الأصمعى : الناصح : الخالص من العمل وغيره مثل الناصع . وكل شىء خلص فقد نصح ، وانتصح فلان : أقبل على النصيحة . والناصح : الخياط ، والنِّصاح : السلك يخاط به ، والنِّصاحات أيضاً : الجلود .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس ؛ أن النبى ﷺ قال : « أول نبى أرسل نوح »(١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وأبونعيم وابن عساكر عن يزيد الرقاشي قال : إنما سمى نوح ــ عليه السلام ــ نوحا لطول ما ناح على نفسه . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: الملأ يعنى: الأشراف من قومه. وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **أن جاءكم ذكر من ربكم** ﴾ يقول : بيان من ربكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ قال: كفاراً. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ **إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ قال: عن الحق .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ .

قوله: ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾، أى وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم أى واحدا من قبيلتهم، أو صاحبهم، أو سماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم . وعاد هو من ولد سام بن نوح . قيل : هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وهود : هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود (٢) بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . و﴿ **هودا** ﴾

---

(١) ذكر ابن كثير فى : البداية والنهاية ١/ ٩٢ أن أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث ــ عليهما السلام ــ إدريس . كما يذكر فى نفس الجزء (٩٣) : « وقد زعم بعضهم أن إدريس ــ عليه السلام ــ لم يكن قبل نوح ، بل فى زمان بنى إسرائيل » ، و فى (٩٤) يقول فى ترجمته : « نوح ــ عليه السلام ــ كان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة » .

(٢) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١١٣ : « ويقال : الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام » .

عطف بيان . ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ قد تقدم تفسير هذا قريبا . والاستفهام فى ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ للإنكار ، وقد تقدم أيضاً تفسير الملأ . والسفاهة : الخفة والحمق . وقد تقدم بيان ذلك فى البقرة (١) . نسبوه إلى الخفة والطيش ، ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ **وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة ، ثم أجاب عليهم بنفى السفاهة عنه . واستدرك من ذلك بأنه رسول رب العالمين ، وقد تقدم بيان معنى هذا قريبا ، وكذلك سبق تفسير ﴿ **أبلغكم رسالات ربى** ﴾ وتقدم معنى الناصح . والأمين : المعروف بالأمانة . وسبق أيضا تفسير ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ فى قصة نوح التى قبل هذه القصة .

قوله : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ أذكرهم نعمة من نعم الله عليهم ، وهى أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح أى جعلهم سكان الأرض التى كانوا فيها أو جعلهم ملوكاً . و « إذ » منصوب بـ ﴿ **اذكر** ﴾ وجعل الذكر للوقت . والمراد : ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة ؛ لأن الشىء إذا كان وقته مستحقاً للذكر فهو مستحق له بالأولى ﴿ **وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ أى طولاً فى الخلق ، وعظم جسم ، زيادة على ما كان عليه آباؤهم فى الأبدان ، وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد .

قوله : ﴿ **فاذكروا آلاء الله** ﴾ ، الآلاء جمع إِلَى (٢) ، ومن جملتها نعمة الاستخلاف فى الأرض ، والبسطة فى الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم ، وكرر التذكير لزيادة التقرير ، والآلاء : النعم . ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ إن تذكرتم ذلك ، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ، ومن شكر فقد أفلح .

قوله : ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده** ﴾ هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده ، دون معبوداتهم التى جعلوها شركاء لله ، وإنما كان هذا مستنكرا عندهم ، لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه . ﴿ **ونذر ما كان يعبد آباؤنا** ﴾ أى نترك الذى كانوا يعبدونه ، وهذا داخل فى جملة ما استنكروه .

قوله : ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذى كان هود يعدهم به ، لشدة تمردهم على الله ، ونكوصهم عن طريق الحق ، وبعدهم عن اتباع الصواب ، فأجابهم بقوله : ﴿ **قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب** ﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع ، تنبيهاً على تحقق وقوعه ، كما ذكره أئمة المعانى والبيان . وقيل : معنى وقع : وجب . والرجس : العذاب . وقيل : هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر . ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة فقال: ﴿ **أتجادلوننى فى أسماء** ﴾ ، يعنى أسماء الأصنام التى كانوا يعبدونها ، جعلها أسماء ، لأن مسمياتها لا حقيقة لها ، بل تسميتها بالآلهة باطلة ، فكأنها معدومة لم توجد ، بل الموجود أسماؤها فقط ﴿ **سميتموها أنتم وآباؤكم** ﴾ أى سميتم

---

(١) راجع : تفسير الآية ١٣ من سورة البقرة .

(٢) نحو : إنى وإناء ، وضلع وأضلاع ، وعنب وأعناب ، ومِعًى وأمعاء .

بها معبوداتكم من جهة أنفسكم ، أنتم وآباؤكم ، ولا حقيقة لذلك . ﴿ **ما نزل الله بها من سلطان** ﴾ أى من حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من الدعاوى الباطلة ، ثم توعدهم بأشد وعيد ، فقال : ﴿ **فانتظروا إنى معكم من المنتظرين**﴾ أى فانتظروا ما طلبتموه من العذاب ، فإنى معكم من المنتظرين له ، وهو واقع بكم لا محالة ، ونازل عليكم بلا شك . ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هودا ومن معه من المؤمنين به، من العذاب النازل بمن كفر به، ولم تقبل رسالته، وأنه قطع دابر القوم المكذبين أى استأصلهم جميعا، وقد تقدم تحقيق معناه. وجملة: ﴿ **وما كانوا مؤمنين** ﴾ معطوفة على ﴿**كذبوا** ﴾ أى استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا، وعدم الإيمان .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ قال : ليس بأخيهم فى الدين ، ولكنه أخوهم فى النسب ؛ لأنه منهم ، فلذلك جعل أخاهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن خثيم قال : كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر [(١)] . وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرجل من عاد ستين ذراعا بذراعهم ، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ، قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر ذراعاً طولاً . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس ، قال : كان الرجل منهم ثمانين باعا ، وكانت البرة [(٢)] فيهم ككلية البقرة . والرمانة الواحدة يقعد فى قشرها عشرة نفر .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه : ﴿ **وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ قال : شدة . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن أبى هريرة ، قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع [(٣)] من الحجارة ، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه ، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**آلاء الله** ﴾ قال: نعم الله وفى قوله: ﴿ **رجس** ﴾ قال : سخط . وأخرج ابن عساكر قال : لما أرسل الله الريح على عاد ، اعتزل هود ومن معه من المؤسنين فى حظيرة ، ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلتذ به الأنفس . وإنها لتمر بالعادى ، فتحمله بين السماء والأرض ، وتدمغه بالحجارة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وقطعنا دابر الذين كذبوا** ﴾ قال : استأصلناهم. وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن عساكر عن على بن أبى

---

(١) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١١٣ : «كانوا عربا يسكنون الأحقاف : وهى جبال الرمل وكانت بين اليمن وعمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها : الشجر، واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالىٰ : ﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ [الفجر : ٧] أى عاد إرم وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فمتأخرة » .

(٢) البُرَّةُ : الواحدة من القمح ، والبُّر بالضم : القمح .

(٣) مصراع الباب : أحد جزأيه وهما مصراعان أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار .

طالب قال : قبر هود بحضرموت ، فى كثيب أحمر ، عند رأسه سدرة . وأخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبى العاتكة ، قال قبلة مسجد دمشق ، قبر هود . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال: كان عمر هود أربعمائة سنة واثنتين وسبعين سنة .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ .

قوله: ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً** ﴾ معطوف على ما تقدم أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وثمود قبيلة سموا باسم أبيهم ، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [(١)] . وصالح عطف بيان وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وامتناع ثمود من الصرف ؛ لأنه جعل اسما للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه أعجمى. قال النحاس : وهو غلط لأنه من الثمد ، وهو الماء القليل. وقد قرأ القراء : « ألا إن ثمودا كفروا ربهم » [هود : ٦٨] على أنه اسم للحى ، وكانت مساكن ثمود الحجر ، بين الحجاز والشام إلى وادى القرى .

قوله : ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قصة نوح. ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم** ﴾ أى معجزة ظاهرة، وهى إخراج الناقة من الحجر الصلد . وجملة ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ مشتملة على بيان البينة المذكورة، وانتصاب ﴿ **آية** ﴾ على الحال . والعامل فيها معنى الإشارة ، وفى إضافة الناقة إلى الله، تشريف لها وتكريم .

قوله : ﴿ **فذروها تأكل فى أرض الله** ﴾ أى دعوها تأكل فى أرض الله ، فهى ناقة الله .

---

(١) فى المخطوطة : « عا » قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١٢٣: « وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم: ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى كان بين الحجاز وتبوك » .

والأرض أرضه ، فلا تمنعوها مما ليس لكم ، ولا تملكونه . ﴿ **ولا تمسوها** ﴾ بشيء من السوء ، أى لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التى تسوءها . قوله: ﴿ **فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ هو جواب النهى أى إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء ، أخذكم عذاب أليم أى شديد الألم .

قوله : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ أى استخلفكم فى الأرض ، أو جعلكم ملوكاً فيها ، كما تقدم فى قصة هود . ﴿ **وبوأكم فى الأرض** ﴾ أى جعل لكم فيها مباءة . وهى المنزل الذى تسكنونه . ﴿ **تتخذون من سهولها قصورا** ﴾ أى تتخذون من سهولة الأرض قصورا ، أو هذه الجملة مبينة لجملة ﴿ **وبوأكم فى الأرض** ﴾ وسهول الأرض : ترابها ، يتخذون منه اللبن والآجر ، ونحو ذلك ، فيبنون به القصور . ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتا** ﴾ أى تتخذون فى الجبال التى هى صخور،بيوتا تسكنون فيها ، وقد كانوا لقوتهم ،وصلابة أبدانهم ، ينحتون الجبال ، فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها ، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم . وانتصاب ﴿ **بيوتا** ﴾ على أنها حال مقدرة ، أو على أنها مفعول ثان لـ ﴿ **تنحتون** ﴾ على تضمينه معنى ﴿ **تتخذون** ﴾ . قوله : ﴿ **فاذكروا آلاء الله** ﴾ تقدم تفسيره فى القصة التى قبل هذه .

قوله : ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ العثى والعثو لغتان ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة بما يغنى عن الإعادة (١) . ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه** ﴾ أى قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين ، الذين استضعفهم المستكبرون، و ﴿ **لمن آمن منهم** ﴾ بدل من الذين ﴿ **استضعفوا** ﴾ بإعادة حرف الجر ، بدل البعض من الكل ، لأن فى المستضعفين من ليس بمؤمن ، هذا على عود ضمير ﴿ **منهم** ﴾ إلى الذين استضعفوا . فإن عاد إلى قومه ، كان بدل كل من المستضعفين . ومقول القول ﴿ **أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه** ﴾ قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية .

قوله : ﴿ **قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته ، مع كون سؤال المستكبرين لهم، إنما هو عن العلم منهم : هل تعلمون برسالته ، أم لا ؟ مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان ، وتنبيها على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف،لا يحتاج إلى السؤال عنه . فأجابوا تمردا وعنادا بقولهم : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ (٢) وهذه الجمل المعنوية ، يقال : مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كما سبق بيانه .

قوله : ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾ العقر : الجرح . وقيل : قطع عضو يؤثر فى تلف النفس . يقال : عقرت الفرس ، إذا ضربت قوائمه بالسيف . وقيل : أصل العقر كسر عرقوب البعير ،

---

(١) راجع تفسير الآية رقم ٦٠ من سورة البقرة .

(٢) قال أحمد بن المنير السكندرى : « ولو طابقوا بين الكلامين لكانت تقتضى المطابقة أن يقولوا : « إنا بما أرسل به كافرون » ، ولكن أبوا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها . وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم كما قال فرعون : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ فأثبت إرساله تهكما » .

ثم قيل للنحر : عقر ؛ لأن العقر سبب النحر فى الغالب ، وأسند العقر إلى الجميع ، مع كون العاقر واحدا منهم ، لأنهم راضون بذلك ، موافقون عليه . وقد اختلف فى عاقر الناقة ، ما كان اسمه ؟ فقيل : قدار بن سالف . وقيل غير ذلك : ﴿ **وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ أى استكبروا . يقال : عتا يعتو عتوا : استكبر، وتعتى فلان : إذا لم يطع . والليل العاتى : الشديد الظلمة . ﴿ **وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب ﴿ **إن كنت من المرسلين** ﴾ هذا استعجال منهم للنقمة ، وطلب منهم لنزول العذاب ، وحلول البلية بهم . ﴿ **فأخذتهم الرجفة**﴾ أى الزلزلة . يقال : رجف الشيء يرجف رجفاناً . وأصله حركة من صوت ، ومنه: ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ [النازعات: ٦] وقيل:كانت صيحة شديدة ،خلعت قلوبهم . ﴿**فأصبحوا فى دارهم** ﴾ أى بلدهم ﴿ **جاثمين** ﴾ لاصقين بالأرض، على ركبهم ،ووجوههم ، كما يجثم الطائر . وأصل الجثوم للأرنب وشبهها . وقيل : للناس والطير ، والمراد : أنهم أصبحوا فى دورهم ميتين لا حراك بهم [(١)] ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ صالح ، عند اليأس من إجابتهم ﴿ **وقال** ﴾ لهم هذه المقالة : ﴿ **لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ . ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية . كما وقع من النبيص من التكليم لأهل قليب [(٢)] بدر بعد موتهم [(٣)] ، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم،وكأنه كان مشاهدا لذلك ، فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب ، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدا فى إبلاغهم الرسالة ، ومحض النصح ، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه ، فحق عليهم العذاب . ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الطفيل ، قال : قالت ثمود لصالح : ﴿ ائتنا بآية إن كنت من الصادقين ﴾ [الشعراء : ١٥٤] قال : اخرجوا . فخرجوا إلى هضبة من الأرض ، فإذا هى تمخض كما تمخض الحامل ،ثم إنها انفرجت ، فخرجت الناقة من وسطها ، فقال لهم صالح : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ [هود : ٦٤] فلما ملوها عقروها . فقال : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ [هود : ٦٥] . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة؛أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة:تمتعوا ثلاثة أيام.ثم قال لهم:آية هلاككم أن تصبح

---

(١) ومنه المجثمة التى جاء النهى عنها وذلك أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من فى السقاء وعن ركوب الجلالة وعن المجثمة . وهى : التى تضرب بالنبل . رواه أصحاب السنن وابن ماجة والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما .

(٢) القُليب عند العرب : البئر العادية القديمة مطوية كانت أو غير مطوية .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٤: حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أهل القليب : بئس عشرة النبى كنتم لنبيكم ،كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس» ، ثم قال: ﴿ **هل وجدتم ما وعد ربكم حقا** ﴾ [الأعراف : ٤٤] . وانظر: ابن أبى شيبة (١٨٥٥٢) والبخارى فى المغازى (٣٩٧٩ ـ ٣٩٨١) .

وجوهكم غدا مصفرة ، وتصبح اليوم الثانى محمرة ، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة . فأصبحت كذلك. فلما كان اليوم الثالث ، أيقنوا بالهلاك،فتكفنوا وتحنطوا. ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم. وقال عاقر الناقة : لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين ، فجعلوا يدخلون على المرأة فى خدرها (١)، فيقولون : أترضين ؟ فتقول : نعم . والصبى ، حتى رضوا أجمعون ، فعقرها (٢) .

وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر(٣) ، قام فخطب ، فقال : « يأيها الناس ، لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد (٤) من هذا الفج (٥) ، فتشرب ماءهم يوم وردها ،ويحتلبون من لبنها مثل الذى كانوا يأخذون من مائها يوم غبها (٦) ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها . فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعد من الله غير مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً كان فى حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله » فقيل: يا رسول الله ، من هو ؟ فقال: « أبو رغال . فلما خرج من الحرم ، أصابه ما أصاب قومه » (٧) . قال ابن كثير : هذا الحديث على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أبى الطفيل مرفوعا مثله (٨) .

وأخرج أحمد من حديث ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »(٩) . وأصل الحديث فى الصحيحين من غير وجه (١٠) . وفى لفظ لأحمد من هذا الحديث ، قال : لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود . وأخرج أحمد ، وابن المنذر نحوه مرفوعا من حديث أبى كبشة الأنمارى (١١) . وأخرج

(١) الخدر : هو الستر ، والجمع (خدور) ويطلق (الخدر) على البيت إن كان فيه امرأة ، وإلا فلا .
(٢) ابن جرير ٨/ ١٦٢ .
(٣) الحجر ـ بالفتح ـ كسارة الصخور أو الصخور الصلبة المكونة من تجمع الكسارة وتصلبها ، وبالكسر : حطيم مكة وهو المدار بالبيت من جهة الميزاب .
(٤) ترد : إذا أخرجت .
(٥) الفجُّ : الطريق الواضح الواسع والجمع (فجاج) .
(٦) غبها : أغب القوم : أى شربت ماشيتهم يوما وتركت يوما .
(٧) أحمد ٣/ ٢٩٦ وقال الهيثمى فى المجمع بعد أن عزاه لأحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط ٧/ ٤١ : «ورجال أحمد رجال الصحيح » وابن جرير ٧/ ١٦٢ وصححه الحاكم ٢/ ٢٣٠ ووافقه الذهبى ، وقال ابن كثير ٣/ ١٩٠ : « ليس فى شىء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم».
(٨) ابن جرير ٨/ ١٥٨ .
(٩) أحمد ٢/ ٩ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٦ .
(١٠) البخارى فى الصلاة (٤٤٣) ومسلم فى الزهد (٢٩٨٠/ ٣٨ ، ٣٩) .
(١١) أحمد ٤/ ٢٣١ والطبرانى ٢٢/ ٣٤٠ (٨٥١ ، ٨٥٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٩٤ : « رواه الطبرانى وأحمد بأسانيد ، وأحدها حسن » .

ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ﴿ **ولا تمسوها بسوء** ﴾ قال : لا تعقروها .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتا** ﴾ ، قال : كانوا ينقبون فى الجبال البيوت . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ قال : غلوا فى الباطل ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ قال : الصيحة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ قال : ميتين . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولوطاً** ﴾ معطوف على ما سبق ، أى وأرسلنا لوطاً ، أو منصوب بفعل مقدر ، أى واذكر لوطاً وقت قال لقومه . قال الفراء : لوط مشتق من قولهم : هذا أليط بقلبى ، أى ألصق . قال الزجاج : زعم بعض النحويين أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لُطْتُ الحوض : إذا ملسته بالطين . وهذا غلط ، لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق . وقال سيبويه : نوح ولوط أسماء أعجمية ، إلا أنها خفيفة ، فلذلك صرفت . ولوط هو ابن هاران بن تارخ ، فهو ابن أخى إبراهيم ، بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم (١) . ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ أى الخصلة الفاحشة المتمادية فى الفحش والقبح . قال ذلك : إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ أى لم يفعلها أحد قبلكم . فإن اللواط لم يكن فى أمة من الأمم قبل هذه الأمة . و« من » مزيدة للتوكيد ، للعموم فى النفى، وأنه مستغرق لما دخل عليه ، والجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم .

قوله : ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة** ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة ، وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ والتقريع ،واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، والكسائى وغيرهما . واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله : ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ وكذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة فى التقريع والتوبيخ،وانتصاب ﴿ **شهوة** ﴾ على المصدرية ،أى تشتهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال ، أى مشتهين . ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى

---

(١) قال أبو منصور :« سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط ، كان قاضيها يقال له : سدوم ، وهذا القاضى يضرب به المثل فيقال : أجور من قاضى سدوم، وذكر الميدانى أن سدوم هى سرمين بلدة من أعمال حلب معروفة عندهم ».

لأجل الشهوة ، وفيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة ، من غير أن يكون لهم فى ذلك غرض يوافق العقل، فهم فى هذا كالبهائم التى ينزو بعضها على بعض ، لما يتقاضاها من الشهوة (١) . ﴿ من دون النساء ﴾ أى متجاوزين فى فعلكم هذا للنساء ، اللاتى هن محل لقضاء الشهوة ، وموضع لطلب اللذة ، ثم أضرب عن الإنكار المتقدم إلى الإخبار بما هم عليه من الإسراف ، الذى تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة .

قوله : ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ الواقعين فى هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها ﴿ **إلا أن قالوا أخرجوهم** ﴾، أى لوطاً وأتباعه ﴿ **من قريتكم** ﴾ أى ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للإنصاف، المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليهم ، وجملة : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر ، يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع فى هذه الفاحشة ، فلا يساكنونا فى قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء ، ثم أخبر الله سبحانه أنه أنجى لوطاً وأهله المؤمنين به ، واستثنى امرأته من الأهل ، لكونها لم تؤمن به ، ومعنى ﴿ **كانت من الغابرين** ﴾ أنها كانت من الباقين فى عذاب الله ، يقال : غبر الشىء : إذا مضى . وغبر إذا بقى ، فهو من الأضداد . وحكى ابن فارس فى المجمل عن قوم أنهم قالوا : الماضى عَابر ، بالعين المهملة ، والباقى غابر بالمعجمة . وقال الزجاج : ﴿ **من الغابرين** ﴾ أى من الغائبين عن النجاة ، وقال أبو عبيد : المعنى : ﴿ **من الغابرين** ﴾ أى من المعمرين ، وكانت قد هرمت ، وأكثر أهل اللغة على أن الغابر الباقى (٢) .

قوله ﴿ **وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ قيل : أمطر بمعنى إرسال المطر . وقال أبو عبيدة : مطر فى الرحمة ، وأمطر فى العذاب. والمعنى هنا : أن الله أمطر عليهم مطرا غير ما يعتادونه ، وهو رميهم بالحجارة ، كما فى قوله : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ [الحجر : ٧٤] . ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ هذا خطاب لكل من يصلح له ، أو لمحمد ﷺ ، وسيأتى فى هود قصة لوط بأبين مما هنا .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ قال : أدبار الرجال . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان بدء عمل قوم لوط أن إبليس جاءهم فى هيئة صبى ، أجمل صبى

---

(١) الشهوة : الفعلة ، وهى مصدر من قول القائل : شهيت هذا الشىء أشهاه شهوة ، ومن ذلك قول الشاعر :

وأشعث يشهى النوم قلت له ارتحل إذا ما النجوم أعرضت واسبطرت
فقام يجر البُرد لو أن نفسه يقال لها : خذها بكفيك خرّت

(٢) الفعل من الغابرين : غبر يغبر غبورا : وغبرا وذلك إذا بقى كما قال الأعشى :

عفى بما أبقى المواسى له من أمة فى الزمن الغابر

راجع : ديوانه ١٠٦ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢١٩ .

رآه الناس ، فدعاهم إلى نفسه ، فنكحوه ، ثم جَسَرُوا على ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ قال : من أدبار الرجال، ومن أدبار النساء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ قال : من الباقين فى عذاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة ، قال : كان قوم لوط أربعة آلاف ألف .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** ﴾ معطوف على ما تقدم ، أى وأرسلنا . ومدين اسم قبيلة. وقيل : اسم بلد . والأول أولى . وسميت القبيلة باسم أبيهم ،وهو مدين بن إبراهيم (١) كما يقال: بكر وتميم. قوله: ﴿ **أخاهم شعيبا**﴾ شعيب عطف بيان ، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب (٢) بن مدين بن إبراهيم ،قاله عطاء،وابن إسحاق وغيرهما . وقال الشرقى (٣) بن القطامى: إنه شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم. وزعم ابن سمعان أنه شعيب بن

(١) فى البداية والنهاية ١/ ١٧٣ : « مدين بن مديان بن إبراهيم ».

(٢) فى البداية والنهاية : يشجن (بالنون) وفى القرطبى : يشجر ، بالراء .

(٣) فى المطبوعة : « الشرفى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

حرة بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وقال قتادة : هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم (١) . قوله : ﴿ **قال يا قوم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **بينة من ربكم** ﴾ قد سبق شرحه فى قصة نوح .

قوله : ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان** ﴾ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ؛ لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن ، وكانوا لا يوفونهما ، وذكر الكيل الذى هو المصدر ، وعطف عليه الميزان الذى هو اسم للآلة. واختلف فى توجيه ذلك، فقيل: المراد بالكيل: المكيال، فتناسب عطف الميزان عليه. وقيل: المراد بالميزان: الوزن، فيناسب الكيل. والفاء فى ﴿ **فأوفوا** ﴾ للعطف على ﴿ **اعبدوا** ﴾ .

قوله : ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ البخس : النقص وهو يكون بالتعييب للسلعة ، أو التزهيد فيها ، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وظاهر قوله : ﴿ **أشياءهم** ﴾ أنهم كانوا يبخسون الناس فى كل الأشياء . وقيل : كانوا مكاسين (٢) ، يمكسون كل ما دخل إلى أسواقهم . ومنه قول زهير (٣) :

أفى كل أسواق العراق إتاوة　　　وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

قوله : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾ قد تقدم تفسيره قريبا ، ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى العمل بما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، والمراد بالخيرية هنا : الزيادة المطلقة ، لأنه لا خير فى عدم إيفاء الكيل والوزن ، وفى بخس الناس ، وفى الفساد فى الأرض أصلاً .

قوله : ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ الصراط : الطريق ، أى لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب . قيل: كانوا يقعدون فى الطرقات المفضية إلى شعيب ، فيتوعدون من أراد المجىء إليه ، ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه ، كما كانت قريش تفعله مع النبى ﷺ قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدى وغيرهم . وقيل : المراد : القعود على طرق الدين ، ومنع من أراد سلوكها . وليس المراد بـه القعود علـى الطـرق حقيقة . ويؤيده: ﴿ **وتصدون عن سبيل الله من آمن به** ﴾ وقيل : المراد بالآية النهى عن قطع الطريق ، وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم . وقيل : إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية فى الطرق من أموال الناس ، فنهوا عن ذلك . والقول الأول أقربها إلى الصواب ، مع أنه لا مانع من حمل النهى على جميع هذه الأقوال المذكورة . وجملة : ﴿ **توعدون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكذلك ما عطف عليها ، أى لا تقعدوا بكل طريق موعدين لأهله ، صادين عن سبيل الله، باغين لها عوجا ، والمراد بالصد ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ صد الناس عن الطريق، الذى قعدوا عليه ،

(١) فى البداية والنهاية ١/ ١٧٣ حقق ابن كثير كل ذلك .

(٢) ينقصون الثمن . ماكسه فى البيع مماكسة أى : طلب منه أن ينقص الثمن . الحديث : « لا يدخل صاحب مكس الجنة » أحمد ٤/ ١٤٣ وأبو داود فى الإمارة (٢٩٣٧) والدارمى فى الزكاة ١/ ٣٩٣ .

(٣) فى الصحاح : الشعر لجابر التغلبى .

ومنعهم من الوصول إلى شعيب ، فإن سلوك الناس فى ذلك السبيل للوصول إلى نبى الله هو سلوك سبيل الله ، و ﴿ **من آمن به** ﴾ مفعول ﴿ **تصدون** ﴾ . والضمير فى ﴿ **آمن به** ﴾ يرجع إلى الله ، أو إلى سبيل الله ، أو إلى كل صراط ، أوإلى شعيب . ﴿ **وتبغونها عوجاً** ﴾ أى تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة ، وقد سبق الكلام على العوج (١) . قال الزجاج : كسر العين فى المعانى ، وفتحها فى الأجرام (٢) . ﴿ **واذكروا إذ كنتم** ﴾ أى وقت كنتم ﴿ **قليلاً** ﴾ عددكم ﴿ **فكثركم** ﴾ بالنسل . وقيل : كنتم فقراء فأغناكم .

﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ من الأمم الماضية . فإن الله أهلكهم ، وأنزل بهم من العقوبات ماذهب بهم ومحا أثرهم . ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به** ﴾ إليكم من الأحكام التى شرعها الله لكم . ﴿ **وطائفة** ﴾ منكم ﴿ **لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ ، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر ، وحكم الله بين الفريقين ، هو نصر المحقين على المبطلين . ومثله قوله تعالى : ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ [التوبة : ٥٢] أوهو أمر للمؤمنين بالصبر ، على ما يحل بهم من أذى الكفار ، حتى ينصرهم الله عليهم .

﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه** ﴾ أى قال الأشراف المستكبرون : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك** ﴾ . لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه ، بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا وأشرا إلى توعد نبيهم، ومن آمن به ، بالإخراج من قريتهم ، أو عوده هو ومن معه فى ملتهم الكفرية ، أى لابد من أحد الأمرين : إما الإخراج ، أو العود . قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء . يقال : عاد إلىَّ من فلان مكروه ، أى صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، فلا يرد ما يقال : كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولاً ؟ ويحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه فى الخطاب ، بالعود إلى ملتهم(٣) .

وجملة : ﴿ **قال أو لو كنا كارهين** ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر . والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود والواو للحال ، أى أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا

---

(١) راجع الآية ٩٩ من سورة آل عمران .

(٢) فى المطبوعة : « الإحرام » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى ٤/ ٢٦٨٥ .

(٣) يقول بعض العلماء : إن الفعل « عاد » كثيرا ما يستعمل بمعنى « صار » وحينئذ يكون المعنى : الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل «صار». وكأنهم قالوا : ـ والله أعلم ـ ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾ أو لتصيرن كفارا مثلنا ، وحينئذ يندفع السؤال ، أو يسلم استعمال العود بمعنى : الرجوع إلى أمر سابق ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] والإخراج يستدعى دخولا سابقا فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ فى الإيمان ، لم يدخل قط فى ظلمة الكفر ، ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلى لم يدخل قط فى نور الإيمان ، ولاكان فيه .

للعود إليها ، أو أتخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها ، أو فى حال كراهتنا للأمرين جميعاً ، والمعنى : إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ، ولا يصح لكم ذلك، فإن المكره لا اختيار له ، ولا تعد موافقته مكرها موافقة ، ولا عوده إلى ملتكم مكرها عودا ، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين فى هذا المقام ، حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام .

﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم** ﴾ التى هى الشرك ﴿ **بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ بالإيمان ، فلا يكون منا عود إليها أصلاً . ﴿ **وما يكون لنا** ﴾ أى ما يصح لنا ولا يستقيم ﴿ **أن نعود فيها** ﴾ بحال من الأحوال ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى إلا حال مشيئته سبحانه، فإنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن . قال الزجاج : أى إلا بمشيئة الله عز وجل ، قال: وهذا قول أهل السنة. والمعنى : أنه لا يكون منا العود إلى الكفر ، إلا أن يشاء الله ذلك ، فالاستثناء منقطع . وقيل : إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل ؛ كما فى قوله : ﴿ وما توفيقى إلا بالله ﴾ [هود : ٨٨] . وقيل : هو كقولهم: لا أكلمك حتى يبيض الغراب ، وحتى يلج الجمل فى سم الخياط، والغراب لا يَبْيَضُّ ، والجمل لا يلج ، فهو من باب التعليق بالمحال .

﴿ **وسع ربنا كل شىء علما** ﴾ أى أحاط علمه بكل المعلومات ، فلا يخرج عنه منها شىء، و ﴿ **علما** ﴾ منصوب على التمييز . وقيل : المعنى ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ أى القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم ﴿**إلا أن يشاء الله** ﴾ عودنا إليها . ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ أى عليه اعتمدنا ، فى أن يثبتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ، ويتم علينا نعمته ، ويعصمنا من نقمته .

قوله: ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ الفتاحة : الحكومة (١)، أى احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين . دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ، ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين ، كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه ، فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين ، وحلول نقمة الله بهم . ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ معطوف على﴿ **قال الملأ الذين استكبروا** ﴾ يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك، ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار ، الذين أرسل إليهم شعيب ، واللام فى ﴿**لئن اتبعتم شعيبا** ﴾ موطئة لجواب قسم محذوف ، أى دخلتم فى دينه،وتركتم دينكم. ﴿ **إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط . وخسرانهم : هلاكهم ، أو ما يخسرونه

(١) ذكر الفراء أن أهل عمان يسمون القاضى (الفاتح) و (الفتاح) وذكر غيره من أهل العلم بكلام العرب أنه من لغة مراد ، وأنشد لبعضهم بيتا وهو :

ألا أبلغ بنى عصم رسولا بأنى عن فتاحتكم غنى

راجع : مجاز القرآن الكريم لأبى عبيدة ١/ ٢٢٠ ، ٢٢١

بسبب إيفاء الكيل والوزن ،وترك التطفيف ، الذى كانوا يعاملون الناس به ﴿**فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى الزلزلة . وقيل : الصيحة كما فى قوله : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾[هود: ٩٤] ﴿**فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قصة صالح .

قوله: ﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها** ﴾ هذه الجملة مستأنفة ،مبينة لما حل بهم من النعمة ،والموصول مبتدأ ،و﴿ **كأن لم يغنوا** ﴾ خبره. يقال: غنيت بالمكان ، إذا أقمت به ، وغنى القوم فى دارهم،أى طال مقامهم فيها،والمغنى : المنزل. والجمع : المغانى . قال حاتم الطائى:

غنينا زماناً بالتصعلك [١] والغنى وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر [٢]

فمـا زادنا بغيـا على ذى قـرابــة غنانا ولا أزرى بإحساننا الفقر[٣]

ومعنى الآية:الذين كذبوا شعيبا كأن لم يقيموا فى دارهم ،لأن الله ــ سبحانه ــ استأصلهم بالعذاب ، والموصول فى ﴿ **الذين كذبوا شعيبا** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **كانوا هم الخاسرين** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة كالأولى ، متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين . ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ أى : شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم . ﴿ **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى** ﴾ التى أرسلنى بها إليكـم ، ﴿ **ونصحت لكم** ﴾ ببيان ما فيه سلامة دينكم ، ودنياكم ، ﴿ **فكيف آسى** ﴾ أى أحزن ﴿ **على قوم كافرين** ﴾ بالله ، مصرين على كفرهم ، متمردين عن الإجابة ؛ والأسى: شدة الحزن ، أسى على ذلك فهو آس. قال شعيب : هذه المقالة ؛ تحسرا على عدم إيمان قومه ، ثم سلا نفسه بأنه : كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله ، وعدم قبولهم لما جاء به رسوله.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن عساكر عن عكرمة والسدى قالا : ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا ، مرة إلى مدين ، فأخذتهم الصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة [٤] ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ [الشعراء : ١٨٩] وأخرج ابن أبى حاتم عــن ابن عباس : ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ قال : لا تظلموا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ قال : لا تظلموهم . ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيبا وغشيه وأراد الإسلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط**

---

(١) تصعلك : افتقر ، والتصعلُك : الفقر . (٢) يطلق على الزمان وهو الدهر قل أو كثر .
(٣) فى ديوانه ١١٩ :

غـنيـنـا زمانـا بالتصـعلك والغنـى كما الدهر فى أيامه العسر واليسر
كسبنا صروف الدهر لينا وغلظة وكلا سـقانـاه بكأسيـهمـا الدهـر

وراجع : الأغانى ١٧ / ٢٩٦ وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ١٦٣ .

(٤) الأيك : الشجر الملتف الكثير . الواحدة : أيكة ، قال قتادة : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر ، وكانت عامة شجرهم الدوم ، وهو : شجر المُقل .

توعدون ﴾ قال : كانوا يجلسون فى الطريق ، فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **بكل صراط توعدون** ﴾ قال: بكل سبيل حق . ﴿**وتصدون عن سبيل الله** ﴾ قال : تصدون أهلها . ﴿ **وتبغونها عوجا** ﴾ قال : تلتمسون لها الزيغ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ قال: هو العاشر [(١)] . ﴿ **وتصدون عن سبيل الله** ﴾ ، قال : تصدون عن الإسلام . ﴿ **وتبغونها عوجا** ﴾ قال : هلاكاً . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هم العُشَّار . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية عن أبى هريرة أو غيره ، شك أبو العالية ، قال : أتى النبى ﷺ ليلة أسرى به على خشبة على الطريق ، لا يمر بها ثوب ، إلا شقته ، ولا شىء إلا خرقته ، قال : « ما هذا يا جبريل ؟ » . قال: هذا مثل أقوام من أمتك ، يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا: ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ [(٢)] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ ، قال : ما ينبغى لنا أن نعود فى شرككم بعد إذ نجانا الله ﴿ **إلا أن يشاء الله ربنا** ﴾ والله لا يشاء الشرك ، ولكن يقول : إلا أن يكون الله قد علم شيئاً ، فإنه قد وسع كل شىء علما . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء عن ابن عباس قال : ما كنت أدرى ما قوله : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول : تعال أفاتحك . تعنى : أقاضيك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ربنا افتح** ﴾ يقول : اقض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : الفتح : القضاء ، لغة يمانية. إذا قال أحدهم : تعال أقاضك القضاء قال : تعال أفاتحك.

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **لم يغنوا فيها** ﴾ قال:لم يعيشوا فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فكيف آسى** ﴾ ، قال : أحزن . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس ، قال : فى المسجد الحرام قبران ، ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب ، فقبر إسماعيل فى الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود . وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيبا مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة وبين باب بنى سهم . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم عن ابن إسحاق قال : ذكر لى يعقوب بن أبى مسلمة ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيبا ، قال : « ذاك خطيب الأنبياء ؛ لحسن

---

(١) العاشر : من يأخذ على السلع مكْسا ، وقد كانوا فى الجاهلية يأخذون العشر من الأموال ، فجاء الإسلام بربع العشر . وجمع العاشر : العشار أوالعاشرون .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٦٧ والبيهقى ٢/ ٣٩٨ .

مراجعته قومه ، فيما يريدهم به ، فلما كذبوه ، وتوعدوه بالرجم ، والنفى من بلادهم ، وعتوا على الله ، أخذهم عذاب يوم الظلة »[1] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى** ﴾ لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وهم المذكورون سابقاً، أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها ، أى وما أرسلنا فى قرية من القرى من نبى من الأنبياء . وفى الكلام محذوف، أى فكذب أهلها ﴿ **إلا أخذناهم** ﴾ والاستثناء مفرغ ، أى ما أرسلنا فى حال من الأحوال، إلا فى حال أخذنا أهلها ، فمحل أخذنا النصب . والبأساء : البؤس والفقر . والضراء :الضر. وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء . ﴿ **لعلهم يضرعون** ﴾ أى لكى يتضرعوا ويتذللوا ، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار، وتكذيب الأنبياء .

قوله : ﴿ **ثم بدلنا** ﴾ معطوف على ﴿ **أخذنا** ﴾ أى ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدلناهم ﴿ **مكان السيئة** ﴾ التى أصبناهم بها من البلاء ، والامتحان ﴿ **الحسنة** ﴾ أى الخصلة الحسنة ، فصاروا فى خير وسعة وأمن ﴿ **حتى عفوا** ﴾ ، يقال: عفا : كثر ، وعفا: درس . فهو من أسماء الأضداد ، والمراد هنا : أنهم كثروا فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، أى أعطيناهم الحسنة ، مكان السيئة ، حتى كثروا ﴿ **وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ أى قالوا هذه المقالة عند أن صاروا فى الحسنة ، بعد السيئة ، أى أن هذا الذى مسنا من البأساء والضراء ، ثم من الرخاء والخصب من بعد ،هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله. فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ، ومن النعمة والخير ما نلناه، ومعناهم : أن هذه العادة الجارية فى السلف والخلف ، وأن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم ، واختبارا لما عندهم ، وفى هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم مالا يخفى ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ، ولم يمهلهم، فقال : ﴿ **فأخذناهم بغتة** ﴾ أى فجأة ، عقب أن قالوا : هذه المقالة من دون تراخٍ ، ولا إمهال « و » الحال أن ﴿**هم لا**

---

(١) أخرجه الحاكم ٥/ ٥٦٨ عن ابن إسحاق من قوله مختصرا ، وسكت عليه هو والذهبى .

يشعرون ﴾ بذلك ، ولا يترقبونه . واللام فى ﴿ **القرى** ﴾ للعهد، أى ﴿ **ولو أن أهل القرى** ﴾ التى أرسلنا إليها رسلنا . ﴿ **آمنوا** ﴾ بالرسل المرسلين إليهم ﴿ **واتقوا** ﴾ ما صمموا عليه من الكفر ،ولم يُصروا على ما فعلوا من القبائح. ﴿ **لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ ، أى يسرنا لهم خير السماء والأرض،كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة ، بفتح أبوابها . قيل : المراد بخير السماء : المطر ، وخير الأرض : النبات . والأولى حمل ما فى الآية على ما هو أعم من ذلك ، ويجوز أن تكون اللام فى ﴿ **القرى** ﴾ للجنس . والمراد : لو أن أهل القرى أين كانوا ، وفى أى بلاد سكنوا ، ﴿ **آمنوا واتقوا** ...﴾ إلى آخر الآية .﴿ **ولكن كذبوا** ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يـؤمنوا ولا اتقوا ﴿ **فأخذناهم** ﴾ بالعـذاب بـسبب ﴿ **ما كانوا يكسبون** ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم . والاستفهام فى ﴿ **أفأمن أهل القرى** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وأهل القـرى : هم أهل القرى المذكورة قبله ، والفاء للعطف ، وهو مثل ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ [المائدة : ٥٠] . وقيل : المراد بالقرى : مكة وما حولها ، لتكذيبهم للنبى ﷺ والحمل على العموم أولى.

قوله : ﴿ **أن يأتيهم بأسنا بياتاً** ﴾ ، أى وقت بيات وهو الليل ، على أنه منصوب على الظرفية ، ويجوز أن يكون مصدراً ، بمعنى تبييتا [(١)] ، أو مصدراً فى موضع الحال،أى مبيتين ، وجملة : ﴿ **وهم نائمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والاستفهام فى ﴿ **أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون** ﴾ كالاستفهام الذى قبله . والضحى ضحوة النهار ، وهو فى الأصل : اسم لضوء الشمس ، إذا أشرقت وارتفعت ، قرأ ابن عامر ، والحرميان : « أوْ أمن » بإسكـان الـواو ، وقـرأ الباقون بفتحهـا . وجملـة : ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ فى محـل نصب على الحال ، أى يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة .والاستفهام فى ﴿ **أفأمنوا مكر الله** ﴾ للتقريع ، والتوبيخ ، وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم ، وفى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير ، لإنكار ما أنكره عليهم ، ثم بين حال من أمن مكر الله فقال: ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلاَّ القوم الخاسرون** ﴾ ، أى الذين أفرطوا فى الخسران ، ووقعوا فى وعيده الشديد . وقيل: مكر الله هنا :هو استدراجه بالنعمة والصحة . والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك .

قوله : ﴿ **أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها** ﴾ قرئ : « نهد » بالنون وبالتحتية . فعلى القـراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ، ومفعول الفعل ﴿ **أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم** ﴾ أى أن الشأن هو هذا،وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو ﴿ **أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم** ﴾ أى أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم . والهداية هنا بمعنى : التبيين ،

---

(١) فى المطبوعة : « تبيتا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ولهذا عديت باللام .

قوله : ﴿ **ونطبع على قلوبهم** ﴾ أى ونحن نطبع على قلوبهم ، على الاستئناف ، ولا يصح عطفه على ﴿ **أصبنا** ﴾ لأنهم ممن طبع الله على قلبه ، لعدم قبولهم للإيمان (١) . وقيل : هو معطوف على فعل مقدر دل عليه الكلام . كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ، ونطبع . وقيل : معطوف على ﴿ **يرثون** ﴾ . قوله : ﴿ **فهم لا يسمعون** ﴾ جواب « لو » أى صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم ، والطبع على قلوبهم ، لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ والإعذار والإنذار .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة** ﴾ قال : مكان الشدة الرخاء . ﴿ **حتى عفوا** ﴾ ، قال : كثروا ، وكثرت أموالهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى عفوا** ﴾ ، قال : جَمُّوا (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ ، قال : قالوا : قد أتى على آبائنا مثل هذا ، فلم يكن شيئا . ﴿ **فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا** ﴾ قال : بما أنزل الله . ﴿ **واتقوا** ﴾ قال : ما حرمه الله . ﴿ **لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ يقول : أعطتهم السماء بركتها، والأرض نباتها . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق معاذ بن رفاعة ، عن موسى الطائفى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الخبز ، فإن الله أنزله من بركات السماء ، وأخرجه من بركات الأرض » . وأخرج البزار والطبرانى ، قال السيوطى : بسند ضعيف، عن عبد الله بن أم حرام قال : صليت القبلتين مع رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ يقول: « أكرموا الخبز ، فإن الله أنزله من بركات السماء ، وسخر له بركات الأرض ، ومن تتبع ما يسقط من السفرة (٣) ، غفر له » (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة عن

---

(١) قال ابن الأنبارى : « يجوز أن يكون معطوفا على : أصبنا ، إذا كان بمعنى نصيب ، فوضع الماضى فى موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا** ﴾ [الفرقان: ١٠] » .

(٢) أى : كثروا ، ومنه : مال جم أى كثير .

(٣) السُّفْرَةُ : طعام يصنع للمسافر ، والجمع (سُفَرٌ) وسميت الجلدة التى يصنع فيها الطعام (سفرة) مجازا .

(٤) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ١٤٠ وقال : « أخرجه البزار والطبرانى بسند ضعيف » . وأورده البخارى فى التاريخ الكبير (١٩٦٨) عن موسى الطائفى ، و عزاه الهيثمى فى المجمع ٥/ ٣٧ للبزار والطبرانى ، وقال: « وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الشامى ، ولم أعرفه ، وصوابه عبد الملك بن عبد الرحمن الشامى ، وهو ضعيف » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٥/ ٢٤٦ . والحديث مروى عن جماعة من الصحابة من طرق كلها ضعيفة ، غير أنه لا يصل إلى درجة الوضع . انظر فى ذلك : المقاصد الحسنة ص ٧٨ (١٥٣) وكشف الخفاء ١/ ١٧٠ ، ١٧١ (٥٠٨) .

الحسن ، قال : كان أهل قرية أوسع الله عليهم ، حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو لم يهد** ﴾ قال : أو لم يبين . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **للذين يرثون الأرض من بعد أهلها** ﴾ قال : المشركون .

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **تلك القرى** ﴾ أى التى أهلكناها . وهى قرى قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، المتقدم ذكرها ، ﴿**نقص عليك** ﴾ أى نتلو عليك ﴿ **من أنبائها** ﴾ أى من أخبارها . وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين . و﴿**نقص** ﴾ إما فى محل نصب على أنه حال ، و ﴿ **تلك القرى** ﴾ مبتدأ وخبر ، أو يكون فى محل رفع على أنه الخبر. و ﴿ **القرى** ﴾ صفة لـ ﴿ **تلك** ﴾.و ﴿ **من** ﴾ فى ﴿ **من أنبائها** ﴾ للتبعيض ، أى نقص عليك بعض أنبائها ، واللام فى ﴿ **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ جواب القسم ، والمعنى : أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته ، كما سبق بيانه فى قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا . ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ عند مجىء الرسل ﴿ **بما كذبوا** ﴾ به ﴿ **من قبل** ﴾ مجيئهم، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ، فى حال من الأحوال ، ولا فى وقت من الأوقات ، بما كذبوا به قبل مجيئهم ، بل هم مستمرون على الكفر ، متشبثون بأذيال الطغيان (١) دائماً ، ولم ينجع فيهم مجىء الرسل ، ولا ظهر له أثر ، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله . وقيل : المعنى : فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم ، بما كذبوا به لو أحييناهم، كقوله:﴿ ولو ردوا لعادوا ﴾ [الأنعام : ٢٨] وقيل :سألوا المعجزات ، فلما رأوها ، لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها، والأول أولى ، ومعنى تكذيبهم قبل مجىء الرسل:أنهم كانوا فى الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به ، من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

قوله : ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ أى مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب. قوله : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ ، الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً ، أى ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد ، أى عهد يحافظون عليه ، ويتمسكون به ، بل دأبهم

---

(١) الطغيان : هو مجاوزة الحد ، وكل من جاوز المقدار والحد فى العصيان فهو : طاغ .

نقض العهود فى كل حال . وقيل : الضمير يرجع إلى الناس على العموم ، أى ما وجدنا لأكثر الناس من عهد . وقيل : المراد بالعهد : هو المأخوذ عليهم فى عالم الذر . وقيل : الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى ، أى الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء. والقليل منهم قد يفى بعهده ويحافظ عليه ،و « إن » فى ﴿ **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن محذوف ، أى إن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، أو هى النافية. واللام فى ﴿ **لفاسقين** ﴾ بمعنى إلا ، أى إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ قال : كان فى علم الله يوم أقروا له بالميثاق من يكذب به ممن يصدق به . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ قال : مثل قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ قال : الوفاء . وأخرج ابن أبى حاتم فى الآية قال : هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ قال : ذاك أن الله إنما أهلك القرى ، لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا

كَانُوا يَعْمَلُون (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى** ﴾ أى من بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، أى ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل. وقيل: الضمير فى ﴿ **من بعدهم** ﴾ راجع إلى الأمم السابقة ، أى من بعد إهلاكهم . ﴿ **إلى فرعون وملئه**﴾ فرعون : هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالقة (١) . وملأ فرعون : أشراف قومه ، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم ، لأن من عداهم كالأتباع لهم . قوله:﴿ **فظلموا بها** ﴾ أى كفروا بها . وأطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التى جاء بها موسى كان كفرا متبالغاً ، لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة ، التى جاءهم بها . والمراد بالآيات هنا: هى الآيات التسع . أو معنى ﴿**فظلموا بها** ﴾، ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الإيمان بها ، أو ظلموا أنفسهم بسببها.﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أى المكذبين بالآيات الكافرين بها، وجعلهم مفسدين لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد .

قوله : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين** ﴾ أخبره بأنه مرسل من الله إليه ، وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه ؛ لأن من كان مرسلاً من جهة مَنْ هو رب العالمين أجمعين ، فهو حقيق بالقبول لما جاء به ، كما يقول من أرسله الملك فى حاجة إلى رعيته : أنا رسول الملك إليكم ، ثم يحكى ما أرسل له ، فإن فى ذلك من تربية المهابة وإدخال الروعة ما لا يقادر قدره.

قوله : ﴿ **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق** ﴾: قرئ : « حقيق علىَّ أن لا أقول » أى واجب علىَّ ولازم لى ، أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق. وقرئ : ﴿ **حقيق على أن لا أقول** ﴾ بدون ضمير فى «على » قيل فى توجيهه : إن « **على** » بمعنى الباء ، أى حقيق بأن لا أقول . ويؤيده قراءة أبى والأعمش ، فإنهما قرآ : « حقيق بأن لا أقول». وقيل : إن ﴿**حقيق**﴾ مضمن معنى حريص . وقيل : إنه لما كان لازماً للحق ، كان الحق لازماً له . فقول الحق حقيق عليه ، وهو حقيق على قول الحق . وقيل : إنه أغرق فى وصف نفسه فى ذلك المقام ، حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق ، كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله. وقرأ عبد الله بن مسعود : « حقيق أن لا أقول » بإسقاط «على » . ومعناها واضح . ثم قال بعد هذا : ﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم** ﴾ أى بما يتبين به صدقى ، وأنى رسول من رب

---

(١) وقيل : « إذا أضيفت إليه الإسكندرية سمى عزيزا ، واختلف فى اسمه ، فقيل : مصعب بن الوليد ، وقيل : ريان بن الوليد ، وقيل : الوليد بن ريان، وكان أصله من خراسان من مدينة بورمان » . قال الشاعر :

تكبر فرعون القبيطى عاتيا ... فصار غريق البحر فى قعر يمِّه
كما تاه إبليس اللعين تجبرا ... وكـان وَقـُودا للسعير بغمـه

العالمين ، وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاورة ، كما فى موضع آخر أنه قال فرعون : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ [طه : ٤٩] . ثم قال بعد جواب موسى : ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٢٣] الآيات الحاكية لما دار بينهما .

قوله : ﴿ **فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾ : أمره بأن يدع بنى إسرائيل يذهبون معه ، ويرجعون إلى أوطانهم ، وهى الأرض المقدسة ، وقد كانوا باقين لديه ، مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فلما قال ذلك، ﴿ **قال** ﴾ له فرعون ﴿ **إن كنت جئت بآية** ﴾ من عند الله كما تزعم ، ﴿ **فأت بها** ﴾ حتى نشاهدها ، وننظر فيها ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فى هذه الدعوى ، التى جئت بها .

قوله : ﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ أى وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً ، أى حية عظيمة من ذكور الحيات . ومعنى ﴿ **مبين** ﴾ أن كونها حيَّة فى تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه . ﴿ **ونزع يده** ﴾ أى أخرجها وأظهرها من جيبه ، أو من تحت إبطه ، وفى التنزيل : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ [النمل : ١٢]. قوله: ﴿ **فإذا هى بيضاء للناظرين** ﴾ أى فإذا يده التى أخرجها بيضاء تتلألأ نوراً ، يظهر لكل مبصر .

﴿ **قال الملأ** ﴾ أى الأشراف ﴿ **من قوم فرعون** ﴾ لما شاهدوا انقلاب العصا حية ، ومصير يده بيضاء من غير سوء: ﴿ **إن هذا** ﴾ أى موسى ﴿ **لساحر عليم** ﴾ أى كثير العلم بالسحر[1]. ولا تنافى بين نسبة هذا القول إلى الملأ هنا وإلى فرعون فى سورة الشعراء ، فكلهم قد قالوه . فكان ذلك مصححا لنسبته إليهم تارة وإليه أخرى.

وجملة : ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم** ﴾ وصف ﴿ **لساحر**﴾ . والأرض المنسوبة إليهم هى أرض مصر . وهذا من كلام الملأ . وأما ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ فقيل : هو من كلام فرعون ، قال للملأ لما قالوا بما تقدم ، أى بأى شىء تأمروننى . وقيل : هو من كلام الملأ ، أى قالوا لفرعون : فبأى شىء تأمرنا ، وخاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيماً له ، كما يخاطب الرؤساء أتباعهم . و « ما » فى موضع نصب بالفعل الذى بعدها . ويجوز أن تكون « ذا » بمعنى الذى كما ذكره النحاة فى ماذا صنعت ، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى ، بدليل ما بعده، وهو : ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ قال : الملأ جواباً لكلام فرعون ، حيث استشارهم ، وطلب ما عندهم من الرأى: ﴿ **أرجه** ﴾ أى أخره وأخاه . يقال : أرجأته وأرجيته : أخرته . قرأ عاصم والكسائى وحمزة وأهل المدينة : « ارجه » بغير همز . وقرأ الباقون بالهمز . وقرأ

---

(١) اختلف فى معنى السحر ، فقال بعضهم : هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر ، حتى يخيل إلى المسحور الشىء أنه بخلاف ما هو به نظير الذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، ومنه قيل : سحر المطر الأرض إذا جادها ، فقطع نباتها من أصوله ، وقلب الأرض ظهراً لبطن فهو يسحرها سحرا ، والأرض مسحورة إذا أصابها ذلك . فشبه سحرَ الساحر بذلك لتخييله إلى من سحره أنه يرى الشىء بخلاف ما هو به .

أهل الكوفة إلا الكسائى: « أرجه » بسكون الهاء . قال الفراء : هى لغة للعرب يقفون على الهاء فى الوصل ، وأنكر ذلك البصريون (١) . وقيل : معنى ﴿ **أرجه** ﴾ : احبسه . وقيل : هو من رجا يرجو ، أى أطعمه ودعه يرجوك ، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد. ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ أى أرسل جماعة حاشرين فى المدائن التى فيها السحرة ، و﴿**حاشرين** ﴾ مفعول ﴿ **أرسل** ﴾ . وقيل : هو منصوب على الحال . و ﴿ **يأتوك** ﴾ جواب الأمر ، أى يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم ﴿ **بكل سحار عليم** ﴾ أى بكل ماهر فى السحر ، كثير العلم بصناعته. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصم: « سحَّار ». وقرأ من عداهم: ﴿ **ساحر** ﴾.

قوله : ﴿ **وجاء السحرة فرعون** ﴾ فى الكلام طىّ ، أى فبعث فى المدائن حاشرين ، وجاء السحرة فرعون . قوله: ﴿ **قالوا إن لنا لأجرا** ﴾ أى فلما جاؤوا فرعون قالوا له : إن لنا لأجرا ، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: أى شىء قالوا له لما جاؤوه ؟ والأجر : الجائزة والجعل (٢) ، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جُعلاً ، إن غلبوا موسى بسحرهم ، قرأ نافع وابن كثير ﴿ **إن لنا** ﴾ على الإخبار . وقرأ الباقون : « أئن لنا » على الاستفهام . استفهموا فرعون عن الجعل الذى سيجعله لهم على الغلبة ، ومعنى الاستفهام : التقرير . وأما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل ،وأنه لابد لهم منه ، فأجابهم فرعون بقوله : ﴿ **نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ أى إن لكم لأجراً ، وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا.

قوله : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ هذه الجملة مستأنفة ، جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون :﴿ **نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ ؟ والمعنى : أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بإلقاء ما يلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك ، تأدبا معه ، وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون وإن تأخروا . و« أن » فى موضع نصب ، قاله الكسائى والفراء ، أى إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن ، فأجابهم موسى بقوله : ﴿ **ألقوا** ﴾ ، اختار أن يكونوا المتقدمين عليه ، بإلقاء ما يلقونه غير مُبَال بهم ، ولا هائب لما جاؤوا به . قال الفراء: فى الكلام حذف ، المعنى : قال لهم موسى : إنكم لن تغلبوا ربكم ، ولن تبطلوا آياته . وقيل : هو تهديد ، أى ابتدئوا بالإلقاء، فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح . والموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما، أنه لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر . ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ أى حبالهم وعصيهم ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾ أى قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها ، بما جاؤوا به من التمويه والتخييل ، الذى يفعله المشعوذون وأهل الخفة. ﴿ **واسترهبوهم** ﴾ أى أدخلوا الرهبة فى قلوبهم إدخالاً شديدا. ﴿ **وجاؤوا بسحر عظيم** ﴾

---

(١) وقال أيضا : بنو أسد تقول : « ارجيت الأمر» ، بغير همز ، وكذلك عامة قيس ، وبعض بنى تميم يقولون : «أرجأت الأمر» بالهمز ، والقراء مولعون بهمزها ، وترك الهمز أجود .

(٢) الجُعل : ما جعله له على عمله ، وهو أعم من الأجرة والثواب .

فى أعين الناظرين لما جاؤوا به ، وإن كان لا حقيقة له فى الواقع .

قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك** ﴾ أمره الله سبحانه ، عند أن جاء السحرة بما جاؤوا به من السحر ،أن يلقى عصاه ﴿ **فإذا هى** ﴾ أى العصا ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾ قرأ حفص : ﴿ **تلقف** ﴾ بإسكان اللام ، وتخفيف القاف ، من لقف يلقف [١] . وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف من تلقَّف يتلقَّف .يقال :لقفت الشيء وتلقفته : إذا أخذته ، أو بلعْته. قال أبو حاتم : وبلغنى فى بعض القراءات : « تلقم » بالميم ، والتشديد . قال الشاعر :

أنت عصا موسى التى لم تزل　　　تلقـم ما يأفكــه الســاحر

و « ما » فى ﴿ **ما يأفكون** ﴾ مصدرية ، أو موصولة ، أى إفكهم ، أو ما يأفكونه ، سماه إفكاً ، لأنه لاحقيقة له فى الواقع ، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة . ﴿ **فوقع الحق** ﴾ أى ظهر وتبين لما جاء به موسى ﴿ **وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ من سحرهم ، أى تبين بطلانه ﴿ **فغلبوا** ﴾ أى السحرة ﴿ **هنالك** ﴾ أى فى الموقف الذى أظهروا فيه سحرهم . ﴿ **وانقلبوا** ﴾ من ذلك الموقف ﴿ **صاغرين** ﴾ أذلاء مقهورين . ﴿ **وألقى السحرة ساجدين** ﴾ أى خروا ساجدين،كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود ،أو لم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم ألقوا أنفسهم ، وجملة : ﴿ **قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قالوا عند سجودهم ، أو فى سجودهم ؟ وإنما قالوا هذه المقالة ، وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ **رب موسى وهارون** ﴾ لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته ، أن السجود له .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم بعثنا موسى** ﴾ قال : إنما سمى موسى ، لأنه أُلقى بين ماء وشجر، فالماء بالقبطية : مو ، والشجر : سى [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ أن فرعون كان فارسيا من أهل اصطخر .وأخرج أيضا عن ابن لهيعة ؛ أنه كان من أبناء مصر . وأخرج أيضا أبو الشيخ عن محمد بن المنكدر قال : عاش فرعون ثلثمائة سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طلحة ؛ أن فرعون كان قبطيا ، ولد زنا طوله سبعة أشبار. وأخرج أيضا عن الحسن قال : كان علجا [٣] من همذان . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن مقسم الهذلى قال : مكث فرعون أربعمائة سنة ، لم يصدع له رأس .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فألقى عصاه** ﴾ قال : ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم ، أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين ، فكانت تضيء بالليل ، ويضرب بها الأرض بالنهار ، فتخرج له رزقه ، ويهش بها على غنمه. ﴿ **فإذا هى ثعبان مبين** ﴾

---

(١) راجع : سورة طه : ٦٩ والشعراء : ٤٥ .

(٢) قال صاحب البصائر : « وهو موضع معروف بمصر لا ينبت شجر البلسان إلا فيه ». راجع : بصائر ذوى التمييز فى كلمات الكتاب العزيز ٦/ ٦١.

(٣) العِلْج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يُطلق (العِلْجَ) على الكافر مطلقا .

قال : حية تكاد تساوره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : لقد دخل موسى على فرعون ، وعليه زُرْمَانِقَةٌ (١) من صوف ما تجاوز مرفقيه ، فاستأذن على فرعون ، فقال : أدخلوه . فدخل ، فقال: إن إلهى أرسلنى إليك ، فقال للقوم حوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] خذوه . قال : إنى قد جئتك بآية ، قال : فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فصارت ثعباناً بين لحييه ، ما بين السقف إلى الأرض، وأدخل يده فى جيبه ، فأخرجها مثل البرق ، تلتمع الأبصار ، فخروا على وجوههم ، وأخذ موسى عصاه ، ثم خرج ليس أحد من الناس إلا نفر منه . فلما أفاق، وذهب عن فرعون الروع ، قال للملأ حوله : ماذا تأمروننى ؟ ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ ولا تأتنا به ولايقربنا، ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ وكانت السحرة يخشون من فرعون ، فلما أرسل إليهم قالوا : قد احتاج إليكم إلهكم . قال : إن هذا فعل كذا وكذا . قالوا : إن هذا ساحر سحر ﴿ **إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : عصا موسى اسمها ماشا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عنه فى قوله : ﴿ **فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ قال : الحية الذكر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ ، قال : الذكر من الحيات ، فاتحة فمها ، واضعة لحيها (٢) الأسفل فى الأرض ، والأعلى على سور القصر ،ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ،فلما رآها ذُعِر منها ووثب فأحدث ، ولم يكن يُحْدِث قبل ذلك . فصاح : يا موسى ، خذها وأنا أومن بربك ، وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذها موسى فصارت عصا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أرجه** ﴾ ، قال : أخره . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ، قال : احبسه وأخاه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس من طرق فى قوله : ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ قال : الشُّرَط (٣) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **وجاء السحرة** ﴾ ، قال : كانوا سبعين رجلاً ، أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء.

وقد اختلفت كلمة السلف فى عددهم ، فقيل: كانوا سبعين ، كما قال ابن عباس . وقيل: كانوا اثنى عشر. وقيل:خمسة عشر ألفا .وقيل: سبعة عشر ألفاً. وقيل: تسعة عشر ألفا. وقيل :

---

(١) زُرْمَانِقة : أى جبة ، وهى كلمة عبرانية .

(٢) اللحَى (بفتح اللام وسكون الحاء) : هما « لحيان » وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لحي .

(٣) الشُّرَطُ : على لفظ الجمع : أعوان السلطان لأنهم جعلوا لأنفسهم ، علامات ، يعرفون بها للأعداء ، الواحدة (شُرْطَة) ، وإذا نسب إلى هذا قيل: « شُرَطِىٌّ » .

ثلاثين ألفاً . وقيل : سبعين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفا . وقيل : ثلاثمائة ألف . وقيل : تسعمائة ألف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **إن لنا لأجراً** ﴾ أى عطاء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ قال : ألقوا حبالاً غلاظاً ، وخشباً طوالاً ، فأقبلت يخيل إليه من سحرهم، أنها تسعى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : ألقى موسى عصاه ، فأكلت كل حية لهم ، فلما رأوا ذلك سجدوا ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾ قال : ما يكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾، قال: تسترط [(١)] حبالهم وعصيهم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : التقى موسى وأمير السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك ، أتؤمن بى ؟ وتشهد أن ما جئت به حق ؟ فقال الساحر: لآتين غداً بسحر ، لا يغلبه سحر . فو الله لئن غلبتنى لأؤمنن بك ، ولأشهدن أنه حق ، وفرعون ينظر إليهما ، وهو قول فرعون: ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة ﴾ [(٢)] [الأعراف: ١٢٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى قال : لما خرَّ السحرة سجداً ، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها .

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **آمنتم به** ﴾ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار ، وبإثباتها . أنكر على السحرة فرعونُ إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك ، ثم قال بعد الإنكار عليهم ، مبيناً لما هو الحامل

(١) سرط الطعام ، واسترطه : إذا ازدرده ، وابتلعه ابتلاعا سهلا سريعا ، لا غُصَّة فيه .
(٢) هذا جزء من خبر طويل رواه أبو جعفر فى تاريخه ١ / ٢١٣ .

لهم على ذلك ، فى زعمه : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة** ﴾ أى حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطأة بينكم سابقة ﴿ **لتخرجوا** ﴾ من مدينة مصر ﴿ **أهلها** ﴾ من القبط ، وتستولوا عليها وتسكنوا فيها ، أنتم وبنو إسرائيل . ومعنى ﴿ **فى المدينة** ﴾ أن هذه الحيلة والمواطأة كانت بينكم وأنتم بالمدينة ــ مدينة مصر ــ قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء . ثم هددهم بقوله : ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ عاقبة صنعكم هذا وسوء مغبته ، ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل، بل فصّله فقال : ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ أى الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى، ثم لم يكتف عدو الله بهذا ، بل جاوزه إلى غيره فقال: ﴿ **ثم لأصلبنكم** ﴾ فى جذوع النخل ، أى أجعلكم عليها مصلوبين ، زيادة تنكيل بهم ، وإفراطا فى تعذيبهم ، وجملة : ﴿ **قالوا إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ استئنافية جواب سؤال كما تقدم ومعناه : إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل، فبعْدَه يومُ الجزاء، سيجازيك الله بصنعك ، ويحسن إلينا بما أصابنا فى ذاته، فتوعدوه بعذاب الله فى الآخرة ، لما توعدهم بعذاب الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ بالموت، أى لابد لنا من الموت، ولا يضرنا كونه بسبب منك .

قوله : ﴿ **وما تنقم منا** ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هى لغة . وقرأ الباقون بكسرها . يقال : نقمت الأمر: أنكرته ، أى لست تعيب علينا ، وتنكر منا ﴿ **إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل ، ومثله لا يكون موضعاً للعيب ، ومكاناً للإنكار،بل هو حقيق بالثناء الحسن ، والاستحسان البالغ،ثم تركوا خطابه ، وقطعوا الكلام معه ، والتفتوا إلى خطاب الجناب العلى ، مفوضين الأمر إليه ، طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر ، قائلين: ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً** ﴾ الإفراغ : الصب، أى اصببه علينا ، حتى يفيض ويغمرنا . طلبوا أبلغ أنواع الصبر ، استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله ، وتوطيناً لأنفسهم ، على التصلب فى الحق، وثبوت القدم على الإيمان ، ثم قالوا: ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾ (١) أى توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام ، غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين ، ولقد كان ماهم عليه من السحر ، والمهارة فى علمه ، مع كونه شراً محضاً ، سبباً للفوز بالسعادة ، لأنهم علموا أن هذا الذى جاء به موسى خارج عن طوق البشر ، وأنه من فعل الله سبحانه ، فوصلوا بالشر إلى الخير ، ولم يحصل من غيرهم

(١) وهذا يدل دلالة واضحة على أن الإسلام هو دين الرسل جميعا . قال تعالى : فى شأن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾ [البقرة : ١٢٨] . وقال تعالى فى شأن الحواريين أتباع سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران : ٥٢]. وقال تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ [يوسف : ١٠١] .

ممن لايعرف هذا العلم من أتباع فرعون ، ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان ، وإذا كانت المهارة فى علم الشر قد تأتى بمثل هذه الفائدة ، فما بالك بالمهارة فى علم الخير . اللهم انفعنا بما علمتنا ، وثبت أقدامنا على الحق ، وأفرغ علينا سجال الصبر، وتوفنا مسلمين .

قوله : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض** ﴾ ؟ هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه ، أى أتتركه وقومه ليفسدوا فى الأرض بإيقاع الفرقة ، وتشتيت الشمل ؟ والمراد بالأرض هنا :أرض مصر. قوله : ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾، قرأ نعيم بن ميسرة : « ويذرك » بالرفع على تقدير مبتدأ ، أى وهو يذرك، أو على العطف على : ﴿ **أتذر موسى** ﴾ أى أتذره ويذرك . وقرأ الأشهب العقيلى : « ويذرك » بالجزم ، إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو على ما قيل فى:﴿وأكن من الصالحين ﴾ [المنافقون : ١٠] فى توجيه الجزم . وقرأ أنس بن مالك : « ونذرك » بالنون والرفع ، ومعناه : أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه وآلهته . وقرأ الباقون : ﴿ **ويذرك** ﴾ بالنصب بأن مقدرة على أنه جواب الاستفهام ، والواو نائبة عن الفاء ، أو عطفا على: ﴿ **يفسدوا** ﴾ أى ليفسدوا ، وليذرك ، لأنهم على الفساد فى زعمهم ، وهو يؤدى إلى ترك فرعون وآلهته.

واختلف المفسرون فى معنى: ﴿ **وآلهتك** ﴾ لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما فى قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى﴾ [القصص : ٣٨] وقوله :﴿ أنا ربكم ﴾ [النازعات : ٢٤] فقيل :معنى ﴿ **وآلهتك** ﴾ :[١] وطاعتك . وقيل : معناه : وعبادتك . ويؤيده قراءة على وابن عباس والضحاك : « وإلهتك » ، وفى حرف أُبَىّ : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، وقد تركوك أن يعبدوك . وقيل : إنه كان يعبد بقرة . وقيل : كان يعبد النجوم . وقيل : كان له أصنام يعبدها قومه تقربا إليه ، فنسبت إليه .ولهذا قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : ٢٤] قاله الزجاج . وقيل : كان يعبد الشمس ، فقال فرعون مجيبا لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر : ﴿ **سنقتل أبناءهم** ﴾ قرأ نافع وابن كثير : « سنقتل » بالتخفيف . وقرأ الباقون بالتشديد [٢] ، أى سنقتل الأبناء ، ونستحيى النساء ، أى نتركهن فى الحياة . ولم يقل : سنقتل موسى ؛ لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه . ﴿ **وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ أى مستعلون عليهم بالقهر والغلبة ، أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا . ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه .

وجملة : ﴿ **قال موسى لقومه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ، ثم أخبرهم ﴿ **أن الأرض** ﴾ يعنى :أرض مصر ﴿ **لله يورثها من يشاء من عباده** ﴾ ، أو جنس الأرض، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه ، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم ، ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين ، أى

(١) كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ [التوبة : ٣١] : إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ، فصار تمثيلا .

(٢) ومثله قوله تعالى : ﴿ **يقتلون أبناءكم** ﴾ بالتشديد . [الأعراف : ١٤١] .

العاقبة المحمودة فى الدنيا والآخرة للمتقين من عباده ، وهم موسى ومن معه . وعاقبة كل شىء آخره . وقرئ : « والعاقبة» بالنصب عطفاً على الأرض .

وجملة : ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالتى قبلها ، أى أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً ، وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك ؛ لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده . ﴿ **ومن بعد ما جئتنا** ﴾ رسولاً بقتل أبنائنا الآن . وقيل : المعنى : أوذينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا فى الأعمال الشاقة بغير جعل ، ﴿ **ومن بعدما جئتنا** ﴾ بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا . وقيل : إن الأذى من قبل ومن بعد واحد ، وهو قبض الجزية منهم . وجملة: ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم** ﴾ مستأنفة كالتى قبلها ، وعدهم بإهلاك الله لعدوهم ، وهو فرعون وقومه .

قوله : ﴿ **ويستخلفكم فى الأرض** ﴾ هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله ، وقد حقق الله رجاءه ، وملكوا مصر فى زمان داود وسليمان ، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم ﴿ **فينظر كيف تعملون** ﴾ من الأعمال بعد أن يمن عليكم بإهلاك عدوكم ﴿ **ويستخلفكم فى الأرض** ﴾ فيجازيكم بما عملتم فيه من خير وشر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة** ﴾ إذ [١] التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها . ﴿ **لأقطعن أيديكم ...** ﴾ الآية ، قال : فقتلهم وقطعهم كما قال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان أول من صلب فرعون ، وهو أول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **من خلاف** ﴾ قال : يداً من هاهنا ورجلاً من هاهنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾، قال : من قبل إرسال الله إياك ومن بعده . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه فى الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى : كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا . فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضا . فقال موسى : أى رب أهلك فرعون حتى متى تبقيه ؟ فأوحى الله إليه: إنهم لم يعملوا الذنب الذى أهلكهم به . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية ، قال : حزا [٢] لعدو الله حازٍ [٣] أنه يولد فى العام غلام يسلب ملكك . قال : فتتبع أولادهم فى ذلك العام بذبح الذكر منهم ، ثم ذبحهم أيضاً بعد ما جاءهم موسى .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن بنا أهلَ البيت يفتح ويختم ، ولابد أن

---

(١) فى المطبوعة : « إذا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢ ، ٣) حزا ، من التحزِّى ، وهو التكهن ، والحازى : الكاهن الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلات الوجه يتكهن. انظر : لسان العرب ١٤/ ١٧٤ وما بعدها .

تقع دولة لبنى هاشم فانظروا فيمن تكون من بنى هاشم ؟ وفيهم نزلت : ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ . وينبغى أن ينظر فى صحة هذا عن ابن عباس . فالآية نازلة فى بنى إسرائيل لا فى بنى هاشم ، واقعة فى هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ .

المراد بآل فرعون هنا : قومه . والمراد بالسنين : الجدب . وهذا معروف عند أهل اللغة . يقولون : أصابتهم سنة ، أى جدب سنة . وفى الحديث : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » (١) . وأكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم . ومن العرب من يعربه إعراب المفرد ويجرى الحركات على النون ، وأنشد الفراء:

أرى مر السنينِ أخذن منى ... كما أخذ السرار من الهلال (٢)

بكسر النون من السنين . قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون .

أقول : قد ورد ما لا احتمال فيه وهو قول الشاعر :

وماذا تزدرى الأقوام منى ... وقد جاوزت حد الأربعينِ

وبعده :

أخو الخمسين مجتمع أشدى ... وتجدبنى مداورة السنين

فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة . وأول هذه الأبيات :

---

(١) الحديث عن أبى هريرة أخرجه أحمد ٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١ والبخارى فى الاستسقاء (١٠٠٦) وفى الأدب (٦٢٠٠) وفى الدعوات (٦٣٩٣) والبيهقى فى السنن ، فى الصلاة ٢/ ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٢) السِّرار ، بفتح السين المشددة أو كسرها : آخر ليلة أو ليلتين من الشهر .

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

وحكى الفراء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمت عنده سنينا ، مصروفا . قال : وبنو تميم لا يصرفونه . ويقال: أسنت القوم ، أى أجدبوا . ومنه قول ابن الزِّبَعْرِى :

ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ فيتعظون ويرجعون عن غوايتهم .

قوله :﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه** ﴾ أى الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر ، وصلاح الثمرات ، ورخاء الأسعار . ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾ أى أعطيناها باستحقاق ، وهى مختصة بنا . ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أى خصلة سيئة من الجدب والقحط وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء ﴿ **يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ أى يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به . والأصل يتطيروا ، أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة : « تطيروا » على أنه فعل ماض . وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات ، ثم استعمل بعد ذلك فى كل من تشاءم بشىء . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ [النساء : ٧٨] قيل : ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع ، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها .

قوله : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أى سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط هو من عند الله ، ليس بسبب موسى ومن معه . وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه . ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذى يجرى بقدر الله وحكمته ومشيئته ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم . وقرأ الحسن : « طيرهم » .

قوله : ﴿ **وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ قال الخليل : أصل ﴿ **مهما** ﴾ : «ما » الشرطية ، زيدت عليه « ما » التى للتوكيد كما تزاد فى سائر الحروف مثل : حيثما ، وأينما ، وكيفما ، ومتى ما . ولكنهم كرهوا اجتماع المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء . وقال الكسائى : أصله : مه ، أى اكفف ما تأتينا به من آية ، وزيدت عليها « ما » الشرطية . وقيل : هى كلمة مفردة يجازى بها . ومحل ﴿ **مهما** ﴾ الرفع على الابتداء ، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها . و ﴿ **من آية** ﴾ لبيان ﴿**مهما** ﴾ وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده . وهو : ﴿ **لتسحرنا بها** ﴾ أى لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم. والضمير فى « به » عائد إلى ﴿ **مهما** ﴾ والضمير فى ﴿ **بها** ﴾ عائد إلى ﴿ **آية** ﴾ . وقيل : إنهما جميعاً عائدان إلى ﴿**مهما**﴾. وتذكير الأول باعتبار اللفظ ، وتأنيث الثانى باعتبار المعنى، ﴿ **فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ جواب الشرط ، أى فما نحن لك بمصدقين . أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشىء مما يجىء به من الآيات التى هى فى زعمهم من السحر ، فعند

ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله: ﴿فأرسلنا عليهم **الطوفان**﴾ ، وهو المطر الشديد . قال الأخفش : واحده طوفانة . وقيل : هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له . وقيل : الطوفان : الموت . وقال النحاس : الطوفان فى اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل ، أى ما يطيف بهم فيهلكهم . والجراد : هو الحيوان المعروف . أرسله الله لأكل زروعهم فأكلها . والقمل قيل : هى الدباء . والدباء : الجراد قبل أن تطير . وقيل : هو السوس . و قيل : البراغيث . وقيل : دواب سود صغار . وقيل : ضرب من القردان . وقيل: الجعلان . قال النحاس : يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. وقرأ الحسن : « القمل » بفتح القاف وإسكان الميم . وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة (١) . وقد فسر عطاء الخراسانى ﴿ **القمل** ﴾ بالقمل ﴿**والضفادع**﴾ جمع ضفدع ، وهو الحيوان المعروف الذى يكون فى الماء . ﴿ **والدم** ﴾ روى أنه سال النيل عليهم دما . وقيل : هو الرعاف .

قوله : ﴿ **آيات مفصلات** ﴾ أى مبينات . قال الزجاج : هو منصوب على الحال والمعنى : أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات . ﴿ **فاستكبروا** ﴾ أى ترفعوا عن الإيمان بالله ﴿ **وكانوا قوما مجرمين** ﴾ لا يهتدون إلى حق ولا ينزعون عن باطل .

قوله : ﴿ **ولما وقع عليهم الرجز** ﴾ أى العذاب بهذه الأمور التى أرسلها الله عليهم . وقرئ بضم الراء وهما لغتان . وقيل : كان هذا الرجز طاعوناً مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفاً . ﴿ **قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أى بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به من النبوة ، أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك. والباء متعلقة بـ﴿ **ادع** ﴾ على معنى أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله ، أو ادع لنا متوسلاً إليه بعهده عندك . وقيل : إن الباء للقسم . وجوابه لنؤمنن ، أى أقسمنا بعهد الله عندك ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك** ﴾ على أن جواب الشرط سد مسد جواب القسم ، وعلى أن الباء ليست للقسم تكون اللام فى ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز** ﴾ (٢) جواب قسم محذوف. و﴿ **لنؤمنن** ﴾ جواب الشرط ساد مسد جواب القسم .﴿ **ولنرسلن معك بنى إسرائيل** ﴾ معطوف على لنؤمنن . وقد كانوا حابسين لبنى إسرائيل عندهم يمتهنونهم فى الأعمال فوعدوه بإرسالهم معه .

﴿ **فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه** ﴾ أى رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا

---

(١) قال الأعشى :

قومًا تُعالج قُمَّلا أبناؤهم وسلاسلاً أجُدا وبابا مؤصدا

راجع : ديوانه ١٥٤ واللسان (قمل) من قصيدته التى قالها لكسرى حين أراد من بنى ضبيعة ــ رهط الأعشى ــ رهائن .

(٢) أصل الرجز فى اللغة : تتابع الحركات ، فمن ذلك قولهم : ناقة رجزاء : إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها ، ومنه رجز الشعر : لأنه أقصر أبيات الشعر ، والانتقال من بيت إلى بيت سريع نحو قوله :

يا ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

وزعم الخليل : أن الرجز ليس بشعر ؛ وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث .

إلى موسى وسألوه بما سألوه ؛ لكن لا رفعا مطلقا؛ بل رفعا مقيدا بغاية هى الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق . وجواب « لما » ﴿ **إذا هم ينكثون** ﴾ أى ينقضون ما عقدوه على أنفسهم . و « إذا » هى الفجائية ، أى فاجؤوا النكث وبادروه .

﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ أى أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة. ﴿ **فأغرقناهم فى اليم** ﴾ أى فى البحر . قيل : هو الذى لا يدرك قعره . وقيل : هو لجته وأوسطه . وجملة :﴿ **بأنهم كذبوا بآياتنا** ﴾ تعليل للإغراق . ﴿ **وكانوا عنها غافلين** ﴾ معطوف على كذبوا ، أى كانوا غافلين عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا ، أو عن الآيات التى لم يؤمنوا بها ؛ بل كذبوا بها وكانوا فى تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها . والثانى أولى لأن الجملتين تعليل للإغراق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين** ﴾ قال : السنين : الجوع . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : السنين : الجوائح . ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ دون ذلك . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين ، يبس كل شىء لهم ، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر ، واجتمعوا إلى فرعون ، فقالوا : إن كنت كما تزعم فائتنا فى نيل مصر بماء . قال : غدوة يصبحكم الماء . فلما خرجوا من عنده ، قال : أى شىء صنعت ، إن لم أقدر على أن أجرى فى نيل مصر ماء غدوة كذبونى . فلما كان جوف الليل ، قام فاغتسل ، ولبس مدرعة صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء . فما علم إلا بجزر الماء يقبل ، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ قال : العافية والرخاء . ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾ نحن أحق بها . ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ قال : بلاء وعقوبة. ﴿**يطيروا بموسى** ﴾ قال : يتشاءموا به . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ قال : الأمر من قبل الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :«الطوفان: الموت »[1]. قال ابن كثير : هو حديث غريب [2] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: الطوفان : الغرق . وأخرج هؤلاء عن مجاهد

(١) ابن جرير ٩/ ٢١ وعزاه ابن حجر فى فتح البارى ٨/ ٣٠٠ لابن مردويه وقال : « بإسنادين ضعيفين » .
(٢) ابن كثير ٣/ ٢١١ .

قال : الطوفان : الموت على كل حال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الطوفان: مطروا دائماً بالليل والنهار ثمانية أيام . والقمل : الجراد الذى له أجنحة. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الطوفان : أمر من أمر ربك ، ثم قرأ : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك﴾ [القلم : ١٩] : وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الطوفان : الماء والطاعون والجراد . قال : يأكل مسامير رُتُجهم(١) يعنى : أبوابهم ، وثيابهم . والقمل : الدباء . والضفادع تسقط على فرشهم وفى أطعمتهم . والدم يكون فى ثيابهم ومائهم وطعامهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : القمل : الدباء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف نفسها فى القدر وهى تغلى ، وفى التنانير وهى تفور .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سال النيل دما ، فكان الإسرائيلى يستقى ماء طيبا ، ويستقى الفرعونى دماً ، ويشتركان فى إناء واحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء طيبا وما يلى الفرعونى دما. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **والدم** ﴾ قال : سلط الله عليهم الرعاف.وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : مكث موسى فى آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات والجراد والقمل والضفادع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **آيات مفصلات** ﴾ قال : كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضا ليكون لله الحجة عليهم. وأخرج ابن المنذر عنه قال : يتبع بعضها بعضا ، تمكث فيهم سبتا إلى سبت ، ثم ترفع عنهم شهرا .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى ﷺ قال : « الرجز : العذاب » .وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ، قال : الرجز : الطاعون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلى أجل هم بالغوه**﴾ قال : الغرق . وأخرج ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال : اليم : البحر وأخرج أيضا عن السدى مثله .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ

---

(١) فى المطبوعة : « أرتجهم » بالهمزة فى أوله ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة « والرُّتُج » بضم الراء والتاء : جمع رتاج ، وهو الباب العظيم ، وقيل : الباب المغلق . انظر : لسان العرب ٢/ ٢٧٩ .

(٢) فى المطبوعة : « ما ينفق » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ .

قوله : ﴿ **وأورثنا القوم** ﴾ يعنى : بنى إسرائيل ﴿ **الذين كانوا يستضعفون** ﴾ أى يذلون ويمتهنون بالخدمة لفرعون وقومه . ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ منصوبان بأورثنا . وقال الكسائى والفراء : إن الأصل : فى مشارق الأرض ومغاربها : جهات مغربها، ثم حذفت فى فنصبا . والأول أظهر لأنه يقال : أورثته المال . والأرض : هى مصر والشام . ومشارقها : جهات مشرقها . ومغاربها . وهى التى كانت لفرعون وقومه من القبط . وقيل : المراد جميع الأرض ؛ لأن داود وسليمان من بنى إسرائيل ، وقد ملكا الأرض . قوله : ﴿ **التى باركنا فيها**﴾ صفة للمشارق والمغارب . وقيل : صفة الأرض . والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون وأنفع ما يتفق (١) .

قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى** ﴾ أى مضت واستمرت على التمام . والكلمة هى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ [القصص: ٥] وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم.و﴿ **الحسنى** ﴾: صفة للكلمة . وهى تأنيث الأحسن . وتمام هذه الكلمة ﴿ **على بنى إسرائيل**﴾ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه .

قوله : ﴿ **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه** ﴾ التدمير : الإهلاك ، أى أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ **يعرشُون** ﴾ بضم الراء . قال الكسائى: هى لغة تميم. وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة « يُعَرّشون » بتشديد الراء ، وضم حرف المضارعة . وقرأ الباقون بكسر الراء مخففة ، أى ما كانوا يعرشونه من الجنات . ومنه قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ . [الأنعام : ١٤١]. وقيل : معنى يعرشون : يبنون . يقال : عرش يعرش ، أى بنى يبنى .

قوله : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ هذا شروع فى بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه. ومعنى جاوزنا ببنى إسرائيل البحر : جزناه بهم وقطعناه . وقرئ « جوزنا » بالتشديد . وهو بمعنى قراءة الجمهور . ﴿ **فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم** ﴾ قرأ حمزة والكسائى « يعكِفون » بكسر الكاف . وقرأ الباقون بضمها . يقال : عكف يعكف . ويعكف بمعنى أقام على الشيء ولزمه . والمصدر منها عكوف . قيل: هؤلاء القوم الذين آتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقة ، كانت أصنامه تماثيل بقر . وقيل : كانوا من

(١) فى المطبوعة : « ما ينفق » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الكنعانيين. ﴿ **قالوا** ﴾ أى بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل: ﴿ **يا موسى اجعل لنا إلهاً**﴾ أى صنماً نعبده كائنا كالذى لهؤلاء القوم ، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لـ ﴿ **إلهًا** ﴾ ، فأجاب عليهم موسى و ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون** ﴾ وصفهم بالجهل لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله . ولكن هؤلاء القوم ، أعنى بنى إسرائيل ، أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوناً . وقد سلف فى سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك . ثم قال لهم موسى : ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ يعنى القوم العاكفين على الأصنام ﴿ **متبر ماهم فيه** ﴾ التبار : الهلاك . وكل إناء منكسر فهو متبر ، أى إن هؤلاء هالك ما هم فيه، مدمر مكسر . والذى هم فيه عبادة الأصنام . أخبرهم بأن هذا الدين الذى هؤلاء القوم عليه هالك مدمر ، لا يتم منه شىء.

قوله : ﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ أى ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام . قال فى الكشاف : وفى إيقاع ﴿ **هؤلاء** ﴾ اسما لإن وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها وَسْم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا،ويبغض إليهم ما أحبوا (١) .
قوله : ﴿ **أغير الله أبغيكم إلها** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى كيف أطلب لكم غير الله إلها تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفى البعض منه ؟ والمعنى : أن هذا الذى طلبتم لا يكون أبدا. وإدخال الهمزة على ﴿ **غير** ﴾ للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلها ، و ﴿ **غير** ﴾ مفعول للفعل الذى بعده . و ﴿ **إلهاً** ﴾ تمييز أو حال . وجملة : ﴿ **وهو فضلكم على العالمين** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوكم ، واستخلافكم فى الأرض ، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة ، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره ؟

قوله : ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون** ﴾ أى واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات . هذا على أن هذا الكلام محكى عن موسى . وأما إذا كان فى حكم الخطاب لليهود الموجودين فى عصر محمد ، فهو بمعنى : اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون . وجملة : ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ . ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه . وجملة : ﴿ **يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ مفسرة للجملة التى قبلها ، أو بدل منها ، وقد سبق بيان ذلك . والإشارة بقوله : ﴿ **وفى ذلكم** ﴾ إلى العذاب، أى فى هذا العذاب الذى كنتم فيه ﴿ **بلاء** ﴾ عليكم ﴿ **من ربكم عظيم** ﴾ . وقيل : الإشارة إلى الإنجاء . والبلاء : النعمة .

(١) الكشاف ٢/ ١٥٠ .

والأول أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله : ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ قال : الشام . وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله . وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن شوذب قال : هي فلسطين . وقد روى عن النبي ﷺ في فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى** ﴾ قال : ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض وما ورثهم منها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ قال : يبنون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم** ﴾ قال : لخم وجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوني مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري ، شبه لهم أنه من تلك البقر . فذلك كان أول شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة ، فينتقم منهم بعد ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة (١) ، فقلت : يا رسول الله ، اجعل لنا هذه ذات أنواط (٢) كما للكفار ذات أنواط ــ وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ــ فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم » (٣) . وأخرج نحوه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق كثير بن عبد الله بن عوف (٤) عن أبيه عن جده مرفوعاً . وكثير ضعيف جداً (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ **متبر** ﴾ قال : خسران . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : هلاك .

(١) السدرة : واحدة السدر ، وهو شجر النبق .

(٢) ناط الشيء ينوطه نوطا : علقه ، والأنواط : ما يعلق على الهودج أو غيره ، وهي المعاليق .

(٣) ابن أبي شيبة (١٩٢٢٢) وأحمد ٥/ ٢١٨ والترمذي في الفتن (٢١٨٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائي في التفسير (٢٠٥) وابن جرير ٩/ ٣١ ، ٣٢ والطبراني في الكبير (٣٢٩٠ ــ ٣٢٩٤) .

(٤) اسمه: كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف .

(٥) الطبراني في الكبير ١٧ / ٢١ (٢٧) وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٢٧ : « وفيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور ، وحسن الترمذي حديثه ».

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ .

هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه والثلاثين هى : ذو القعدة ، والعشر هى : عشر ذى الحجة ضرب الله هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته . قيل : وكان التكليم فى يوم النحر . والفائدة فى ﴿ **فتم ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ؛ لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ، فبين أن العشر غير الثلاثين. و ﴿ **أربعين ليلة** ﴾ منصوب على الحال ، أى فتم حال كونه بالغاً أربعين ليلة .

قوله : ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى** ﴾ أى كن خليفتى فيهم . قال موسى هذا لما أراد المضى إلى المناجاة . ﴿ **وأصلح** ﴾ أمر بنى إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم . ﴿ **ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ أى لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عوناً للظالمين .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وواعدنا موسى** ﴾ الآية قال: ذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : إن موسى قال لقومه : إن ربى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف هارون فيكم . فلما فصل موسى إلى ربه ، زاده الله عشراً ، فكانت فتنتهم فى العشر التى زاده الله . فلما مضى ثلاثون ليلة ، كان السامرى قد أبصر جبريل ، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب . ثم ذكر قصة السامرى.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾ .

اللام في ﴿ **لميقاتنا** ﴾ للاختصاص ، أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور ، بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود[١] . ﴿**وكلمه ربه** ﴾ أي أسمعه كلامه من غير واسطة . قوله : ﴿ **أرني أنظر إليك** ﴾ أي أرني نفسك أنظر إليك ، أي سأله النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لما أسمعه كلامه . وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة. ولو كانت مستحيلة عنده ، لما سألها . والجواب بقوله: ﴿ **لن تراني** ﴾ [٢] يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه ، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا ، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة ، ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده ؛ مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب . والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق ، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ؛ غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم. وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع ،فإنه صار بها باب الحق مُرْتَجاً [٣] ، وطريق الإنصاف مستوعرة . والأمر لله سبحانه . والهداية منه :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وجملة : ﴿ **قال لن تراني** ﴾ مستأنفة لكونها جواباً لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال الله له ؟ والاستدراك بقوله : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني** ﴾ معناه أنك لا تثبت لرؤيتي ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة وهو الجبل فانظر إليه . ﴿ **فإن استقر مكانه** ﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿ **فسوف تراني** ﴾ وإن ضعف عن ذلك ، فأنت منه أضعف . فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل . وقيل : هو من باب التعليق بالمحال . وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدمنا .

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والأشعرية . فالمعتزلة استدلوا بقوله : ﴿ **لن تراني** ﴾ وبأمره بأن ينظر إلى الجبل . والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة [٤] . ولا يخفاك أن هناك الرؤية الأخروية هي بمعزل عن هذا كله . والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا ، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة ،

---

(١) قال الزجاج : للوقت الذي وقتنا له .

(٢) تعلق بهذا نفاة الرؤية وقالوا : « لن » لنفي الأبد ، وذلك غلط ؛ لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله تعالى : ﴿ **ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم** ﴾ [البقرة : ٩٥] ثم أخبر عنهم بتمنيه في النار بقوله : ﴿ **يا مالك ليقض علينا ربك** ﴾ [الزخرف : ٧٧] ، ولأن ابن عباس قال في تفسيرها : « لن تراني في الدنيا » . انظر : ابن الجوزي في التفسير ٣/ ٢٥٦ .

(٣) مُرْتَجاً : مغلقا .

(٤) يقول ابن الجوزي : علقها باستقرار الجبل ، وذلك جائز غير مستحيل فدل على أنها جائزة ، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علقه بمستحيل فقال : ﴿ **حتى يلج الجمل في سم الخياط** ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وكلامهم فيها معروف .

قولـه : ﴿ **فلمـا تجلى ربه للجبل جعله دكا** ﴾ : تجلى معناه : ظهر ، من قولك : جلوت العروس ، أى أبرزتها . وجلوت السيف: أخلصته من الصدأ . وتجلى الشىء : انكشف . والمعنى: فلما ظهر ربه للجبل ، جعله دكاً . وقيل : المتجلى هو أمره وقدرته . قاله قطرب وغيره . والدَّكُ : مصدر بمعنى المفعول ، أى جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا . هذا على قراءة من قرأ : ﴿ **دكاً** ﴾ بالمصدر . وهم أهل المدينة وأهل البصرة. وأما على قراءة أهل الكوفة : « جعله دكاء » على التأنيث . والجمع : دكاوات ، كحمراء وحمراوات . وهى اسم للرابية الناشزة من الأرض ، أو للأرض المستوية . فالمعنى: أن الجبل صار صغيرا كالرابية ، أو أرضاً مستوية . قال الكسائى: الدك : الجبال العراض . واحدها أدك . والدكاوات : جمع دكاء . وهى رَوَابٍ من طين ليست بالغلاظ. والدكادك : ما التبد من الأرض فلم يرتفع . وناقة دكاء : لا سنام لها .

﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ أى مغشيا عليه مأخوذا من الصاعقة . والمعنى : أنه صار حاله لما غشى عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له . يقال : صعق الرجل فهو صعق ومصعوق إذا أصابته الصاعقة . ﴿ **فلما أفاق** ﴾ من غشيته ﴿ **قال سبحانك** ﴾ أى أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئا لم تأذن لى به ﴿ **تبت إليك** ﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال . قال القرطبى : وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ؛ فإن الأنبياء معصومون . وقيل : هى توبة من قتله للقبطى. ذكره القشيرى (١) . ولا وجه له فى مثل هذا المقام . ﴿ **وأنا أول المؤمنين** ﴾ بك قبل قومى الموجودين فى هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك .

وجملة : ﴿ **قال يا موسى** ﴾ مستأنفة كالتى قبلها متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به . والاصطفاء: الاجتباء والاختيار ، أى اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتى. كذا قرأ نافع وابن كثير بالإفراد. وقرأ الباقون بالجمع. والرسالة مصدر . والأصل فيه الإفراد. ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هى على ضروب ، فجمع لاختلاف الأنواع . والمراد بالكلام هنا : التكليم. امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة ، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه ، أى أعطاه من هذا الشرف الكريم . وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل .

قوله: ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء** ﴾ من كل شىء ، أى من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى دينهم ودنياهم . وهذه الألواح هى التوراة . قيل : كانت من زمردة خضراء . وقيل : من ياقوته حمراء . وقيل : من زبرجد . وقيل : من صخرة صماء . وقد اختلف فى عدد الألواح وفى مقدار طولها وعرضها . والألواح: جمع لوح .

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٧١٥ .

وسمى لوحاً لكونه تلوح فيه المعانى (١) . وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفا للمكتوب فى الألواح . وهى مكتوبة بأمره سبحانه. وقيل : هى كتابة خلقها الله فى الألواح . و ﴿ **من كل شيء** ﴾ فى محل نصب على أنه مفعول ﴿ **كتبنا** ﴾ و ﴿ **موعظة وتفصيلا** ﴾ بدل من محل كل شيء ، أى موعظة لمن يتعظ بها من بنى إسرائيل وغيرهم ، وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل . ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ أى خذ الألواح بقوة ، أى بجد ونشاط . وقيل : الضمير عائد إلى الرسالات ، أو إلى كل شيء ، أو إلى التوراة . قيل : وهذا الأمر على إضمار القول. أى : فقلنا له : خذها . وقيل : إن ﴿ **فخذها** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **فخذ ما آتيتك** ﴾ ﴿ **وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ أى بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره . وهو مثل قوله تعالى: ﴿ اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الزمر: ٥٥] وقوله : ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : ١٨] ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة ، وبالفريضة دون النافلة ، وفعل المأمور به ، وترك المنهى عنه .

قوله: ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ قيل: هى أرض مصر التى كانت لفرعون وقومه. وقيل : منازل عاد وثمود. وقيل : هى جهنم. وقيل : منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها . وقيل : الدار : الهلاك . والمعنى : سأريكم هلاك الفاسقين . وقد تقدم تحقيق معنى الفسق .

قوله: ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾ قيل: معنى ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون** ﴾ سأمنعهم فهم كتابى . وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها . وقيل : سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما فى قوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] . وقيل : سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها . واختلف فى تفسير الآيات ، فقيل : هى المعجزات . وقيل : الكتب المنزلة . وقيل : هى خلق السموات والأرض وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها . ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعانى المذكورة . و﴿ **بغير الحق** ﴾ إما متعلق بقوله : ﴿**يتكبرون** ﴾ أى يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالا، أى يتكبرون متلبسين بغير الحق .

قوله : ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ معطوف على ﴿ **يتكبرون** ﴾ منتظم معه فى حكم الصفة . والمعنى : سأصرف عن آياتى المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات . ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة ، والآيات التكوينية والمعجزات ، أى لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت . وقرأ مالك بن دينار : « يروا » بضم الياء فى الموضعين . وجملة : ﴿ **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا** ﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة فى حكمها . وكذلك جملة : ﴿ **وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً** ﴾ . والمعنى : أنهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد تركوه وتجنبوه . وإن رأوا سبيلاً من سبل الغى سلكوه واختاروه لأنفسهم . قرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ **الرشد** ﴾ بضم الراء وإسكان الشين . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح

---

(١) ومثله قوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ** ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] وقيل فى عددها : لوحان . وإنما سماها الله تعالى ألواحاً على مذهب العرب فى إيقاع الجمع على التثنية كقوله تعالى : ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ [الأنبياء : ٧٨] . يريد داود وسليمان .

الراء والشين . قال أبو عبيدة : فرق أبوعمرو بين الرشد والرشد ، فقال : الرُّشْد : الصلاح ، والرَّشَد : فى الدين [١] . قال النحاس : سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد كالسخط والسخط . قال الكسائى : والصحيح عن أبى عمرو وغيره ما قال أبو عبيدة . وأصل الرشد فى اللغة : أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضد الخيبة. والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى الصرف ، أى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم ، أو الإشارة إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد ، وسلوك سبيل الغى ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره جملة : ﴿ **بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ أى بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها . والموصول فى ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة** ﴾ مبتدأ. وخبره ﴿**حبطت أعمالهم** ﴾ والمراد بلقاء الآخرة : لقاء الدار الآخرة، أى لقائهم لها، أو لقائهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف، وحباط الأعمال: بطلانها، أى بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وإن كانوا فى حال كفرهم لا طاعات لهم. ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم لما فى الحديث الصحيح: « أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير » [٢]. ﴿ **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾ من الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ، وتنكب سبيل الحق ، وسلوك سبيل الغى .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن كعب قال : لما كلم الله موسى ، قال : يا رب ، أهكذا كلامك ؟ قال : يا موسى ، إنما أكلمك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولى قوة الألسن كلها . ولو كلمتك بكنه كلامى لم تك شيئاً . وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كلم الله موسى يوم الطور ، كلمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه فقال له موسى : يا رب ، أهذا كلامك الذى كلمتنى به ؟ قال : يا موسى ، إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولى قوة الألسن كلها ، وأقوى من ذلك . فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل ، قالوا: يا موسى ، صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لاتستطيعونه . ألـم تروا إلى أصوات الصواعق التى تقبل [٣] فى أحلى حلاوة [٤] سمعتوه ، فذاك قريب منه وليس به» [٥]. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى الحويرث عبد الرحمن بن معاوية قال : إنما كلم الله موسى

(١) ذكر عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : معناه إذا ضمت راؤه ، وسكنت شينه : الصلاح ، كما قال تعالى: ﴿ **فإن آنستم منهم رشدا** ﴾ [النساء:٦] بمعنى: صلاحاً ، وكذلك كان يقرأه هو . ومعناه إذا فتحت راؤه وشينه: الرشد فى الدين ، كما قال جل ثناؤه ﴿ **وهيئ لنا من أمرنا رشدا**﴾ [الكهف : ١٠] . بمعنى : الاستقامة والصواب فى الدين .

(٢) جزء من حديث ونصه : عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت أشياء كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة أوعتاقة ومن صلة رحم ، فهل فيها من أجر ؟ فقال النبى ﷺ : « أسلمت على ما سلف من خير » . أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤٣٦) وفى البيوع (٢٢٢٠) وفى العتق (٢٥٣٨) وفى الأدب (٥٩٩٢) ومسلم فى الإيمان (١٢٣ / ١٩٤ ـ ١٩٦) .

(٣) فى المخطوطة : « تقتل » وما أثبتناه هو الموافق لما فى المصادر المذكورة بعد . (٤) فى الحلية : فى أجلى جلاء .

(٥) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٤١٤ ، ٤١٥ ، وضعّفه لأجل أن فيه الفضل بن عيسى الرقاشى ضعيف ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٦/ ٢١٠ ، وضعفه لنفس السبب ، وعزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٠٧ للبزار ، وضعفه لنفس السبب . وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ١/١١٢، ١١٣ .

بقدر ما يطيق من كلامه . ولو تكلم بكلامه كله ، لم يطقه شيء . فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين (١) .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قال رب أرنى أنظر إليك** ﴾ يقول : أعطنى أنظر إليك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : لما سمع الكلام طمع فى الرؤية . وأخرج أبوالشيخ عن ابن عباس قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى : ﴿ **رب أرنى أنظر إليك** ﴾ قال الله : يا موسى ، إنك لن ترانى . قال : يقول : ليس ترانى ولا يكون ذلك أبدا ، يا موسى ، إنه لن يرانى أحد فيحيا . قال موسى : رب ، إنى أراك ثم أموت أحب إلىَّ من ألا أراك ثم أحيا . فقال الله لموسى : يا موسى ، انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد ﴿ **فإن استقر مكانه** ﴾ يقول : فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ولم يَنْهدّ لبعض ما يرى من عظمتى ﴿ **فسوف ترانى** ﴾ أنت لضعفك وذلتك ، وإنِ الجبلُ انهَدَّ بقوته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذل .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى فى الكامل ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى كتاب الرؤية من طرق عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً** ﴾ قال : هكذا . وأشار بإصبعيه ، ووضع إبهامه على أنملة الخنصر . وفى لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر . فساخ الجبل ﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ . وفى لفظ : فساخ الجبل فى الأرض ، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة . وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم (٢) .
وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الجبل الذى أمره الله أن ينظر إليه الطور .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ،والبيهقى فى كتاب الرؤية عن ابن عباس : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل** ﴾ قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر . ﴿ **جعله دكاً** ﴾ قال : ترابا . ﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ .قال : مغشيا عليه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والديلمى عن أنس ؛ أن النبى ﷺ قال : « لما تجلى الله للجبل ، طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة ، وثلاثة بمكة .بالمدينة:أحد ، ووَرِقان ، ورضوى . وبمكة: حراء ، وثَبِير ، وثور » (٣) .وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس ؛ أن رسول الله

---

(١) الحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٧٦ مختصرا ، وسكت عنه ، وقال الذهبى : « إسناده لين » .

(٢) أحمد ٣/ ١٢٥ والترمذى فى التفسير (٣٠٧٤) وقال : « حسن غريب صحيح » وابن جرير ٩/ ٣٧ وابن عدى فى الكامل ٢/ ٢٦٠ ترجمة: حماد بن سلمة ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٠ ، ٣٢١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٣) الخطيب فى تاريخه ١٠/ ٤٤١ ترجمة : عبد العزيز بن أبى ثابت الأعرج وابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ١٢٠، ١٢١ والمصنف فى الفوائد المجموعة ص ٤٤٥ رقم (٩) وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٣/ ٢١٨ ، ٢١٩ وقال : « وهذا حديث غريب ؛ بل منكر » .

فائدة: هذا الحديث عزاه المصنف لأبى نعيم فى الحلية والديلمى عن أنس ولم أعثر عليه عند أبى نعيم فى =

ﷺ قال: « لما تجلى الله لموسى، تطايرت سبعة أجبل، ففى الحجاز خمسة منها ، وفى اليمن اثنان. فى الحجاز: أحد ، وثبير، وحراء، وثور ، ووَرِقان. وفى اليمن: حضور، وصبر » (١) .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس؛ أن موسى لما كلمه ربه ، أحب أن ينظر إليه فسأله فقال : ﴿ **لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل** ﴾ . قال : فحف حول الجبل الملائكة ، وحف حول الملائكة بنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحف حولهم بنار ، ثم تجلى ربه للجبل تجلى منه مثل الخنصر ، فجعل الجبل دكاً ، وخر موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء الله، ثم أفاق فقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين من بنى إسرائيل (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام فى لوح . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال : « الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة ، كان طول اللوح اثنى عشر ذراعاً » . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا يقولون : كانت الألواح من ياقوتة . وأنا أقول : إنما كانت من زمرد وكتابها الذهب، كتبها الله بيده ، فسمع أهل السموات صريف الأقلام .

أقول : رحم الله سعيداً ، ما كان أغناه عن هذا الذى قاله من جهة نفسه ، فمثله لا يقال بالرأى ولا بالحدس. والذى يغلب به الظن أن كثيرا من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور. فلهذا اختلفت واضطربت، فهذا يقول: من خشب ، وهذا يقول : من ياقوت ، وهذا يقول: من زمرد، وهذا يقول: من زبرجد ، وهذا يقول: من برد ، وهذا يقول : من حجر .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى : ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شىء** ﴾ : كل شىء أمروا به ونهوا عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وقد اختلف السلف فى المكتوب فى الألواح اختلافاً كثيراً . ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافى .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ قال : بجد وحزم . ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ قال : دار الكفار . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **وأمر قومك يأخذوا**

= الحلية ، ولم أجد أحداً عزاه إليه من رواية أنس ؛ لكن عزاه السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ١٢٠ لأبى نعيم فى الحلية من رواية معاوية بن قرة عن أبيه ، ولم أعثر عليه أيضا . وأما رواية الديلمى عن أنس فلم أعثر عليها فى مسند الفردوس ولم أجد من عزاه للديلمى غير المصنف .

(١) عزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٧ وقال : « وفيه طلحة بن عمرو المكى وهو متروك » .

تنبيه : عزا المصنف الحديث للطبرانى فى الأوسط عن أنس ؛ والصحيح عن ابن عباس . انظر : الدر المنثور ٣/ ١١٩ ومجمع الزوائد ٧/ ٢٧ والفوائد المجموعة ص ٤٤٥ .

(٢) ابن جرير ٩/ ٣٤ لكن عن السدى ، وصحح الحاكم إسناده ٢/ ٥٧٦ ووافقه الذهبى .

بأحسنها ﴾ قال : أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ قال: بطاعة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ يعنى : بجد واجتهاد ﴿ **وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ قال : بأحسن ما يجدون منها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ قال: مصيرهم فى الآخرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة قال : منازلهم فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : جهنم . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : مصر .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **سأصرف عن آياتى** ﴾ قال : عن أن يتفكروا فى آياتى . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **عن آياتى** ﴾ قال : عن خلق السموات والأرض والآيات التى فيها، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها أويعتبروا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة فى الآية ، قال: أنزع عنهم فهم القرآن (٢) .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ .

قوله : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده** ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطور ﴿ **من حليهم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اتخذ** ﴾ أو بمحذوف وقع حالاً و ﴿ **من** ﴾:للتبعيض ، أو للابتداء ، أو للبيان . والحُلِيُّ : جمع حَلْى.وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ **من حُلِيِّهم** ﴾ بضم الحاء وتشديد الياء . وقرأ أهل الكوفة ، إلا عاصماً :بكسر الحاء . وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء . قال النحاس :جمع حَلْيٍ وحُلِيٍ وحِلِي ، مثلُ : ثَدْى وثُدِى وثِدِيِ . والأصل : حلوى أدغمت

---

(١) المصدر السابق ٩/ ٤٠ .

(٢) ابن جرير ٩/ ٤١ بزيادة « وأصرفهم عن آياتى » بسنده عن محمد بن عبد الله بن بكر قال : سمعت ابن عيينة يقول . . . وذكره .

الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل . وأضيفت الحلى إليهم وإن كانت لغيرهم ؛ لأن الإضافة تجوز لأدنى ملابسة و ﴿ **عجلاً** ﴾ مفعول ﴿ **اتخذ** ﴾ . وقيل : هو بمعنى التصيير ، فيتعدى إلى مفعولين ، ثانيهما محذوف ، أى اتخذوا عجلاً إلها ، و ﴿ **جسداً** ﴾ (١) بدل من عجل . وقيل : وصف له . والخوار : الصياح . يقال : خار يخور خوراً إذا صاح . وكذلك خار يخار خواراً . ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً مع أنه اتخذه السامرى وحده لكونه واحداً منهم ، وهم راضون بفعله .

روى أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة ، فأبطأ عليهم فى العشر المزيدة ، قال السامرى لبنى إسرائيل ، وكان مطاعاً فيهم: إن معكم حلياً من حلى آل فرعون الذى استعرتموه منهم لتزينوا به فى العيد وخرجتم وهو معكم ، وقد أغرق الله أهله من القبط ، فهاتوها ، فدفعوها إليه ، فاتخذ منها العجل المذكور .

قوله : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم** ﴾ الاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، أى ألم يعتبروا بأن هذا الذى اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم ، فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضر عنهم . ﴿ **ولا يهديهم سبيلاً** ﴾ أى طريقاً واضحة يسلكونها ﴿ **اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ أى اتخذوه إلهاً ﴿ **وكانوا ظالمين** ﴾ لأنفسهم فى اتخاذه ، أو فى كل شىء . ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ .

قوله : ﴿ **ولما سقط فى أيديهم** ﴾ أى ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات ، يقال للنادم المتحير : قد سقط فى يده . قال الأخفش : يقال : سقط فى يده وأسقط . ومن قال : ﴿ **سقط فى أيديهم** ﴾ على البناء للفاعل، فالمعنى عنده سقط الندم . وأصله : أن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . وقال الأزهرى والزجاج والنحاس وغيرهم : معنى ﴿ **سقط فى أيديهم** ﴾ أى فى قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال : حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون فى اليد تشبيهاً لما يحصل فى القلب والنفس بما يحصل فى اليد ، لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد ، قال الله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك﴾ [الحج : ١٠] وأيضاً الندم وإن حل القلب، فأثره يظهر فى البدن ، لأن النادم يعض يده ، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ [الكهف : ٤٢] ومنه : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ [الفرقان : ٢٧] أى من الندم . وأيضاً النادم يضع ذقنه فى يده .

﴿ **ورأوا أنهم قد ضلوا** ﴾ معطوف على ﴿ **سقط** ﴾ أى تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل ، وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه . ﴿ **قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى بالفوقية فى الفعلين جميعاً . وقرأ الباقون بالتحتية ، واللام للقسم ، وجوابه :

---

(١) الجسد : هو الذى لا يعقل ولا يميز ، إنما هو بمعنى الجثة فقط قال ابن الأنبارى : « ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه وأن شخصه شخص مثال وصورة ، غير منضم إليها روح ولا نفس » .

﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ وفى هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال فى السؤال . وسيأتى فى سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكى عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى . وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد .

قوله : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه. وانتصاب غضبان وأسفاً على الحال . والأسف : شديد الغضب . قيل : هو منزلة وراء الغضب أشد منه. وهو :أَسِف وأَسِيف وأَسْفَان وَأَسْوَف .قال ابن جرير الطبرى : أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا. فلذلك رجع وهوغضبان أسفا (١) .

﴿ قال بئسما خلفتمونى من بعدى ﴾ هذا ذم من موسى لقومه ، أى بئس العمل ما عملتموه من بعدى ، أى من بعد غيبتى عنكم ، يقال : خلفه بخير وخلفه بشر ، استنكر عليهم ما فعلوه ، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بنى إسرائيل فى تلون حالهم واضطراب أفعالهم . ثم قال منكراً عليهم ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ والعجلة : التقدم بالشىء قبل وقته . يقال : عجلت الشىء: سبقته ، وأعجلت الرجل : حملته على العجلة . والمعنى : أعجلتم عن انتظار أمر ربكم ؟ أى ميعاده الذى وعدنيه، وهو الأربعون ، ففعلتم ما فعلتم . وقيل معناه : تعجلتم سخط ربكم . وقيل : معناه : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم .

﴿ وألقى الألواح ﴾ أى طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل .

قوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ أى أخذ برأس أخيه هارون ، أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه . فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامرى ولا غيره ، ما رآه من عبادة بنى إسرائيل للعجل ، فقال هارون معتذراً منه : ﴿ ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ﴾ أى إنى لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين ،استضعافهم لى ومقاربتهم لقتلى . وإنما قال ﴿ ابن أم ﴾ (٢) مع كونه أخاه من أبيه وأمه ، لأنها كلمة لين وعطف، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة . وقال الزجاج : قيل : كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه . قرئ :﴿ ابن

(١) قال القرطبى ٤/ ٢٧٢٣ : « وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضباً ، ولكنه كان سريع الفيئة ؛ فتلك بتلك » . قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول : « كان موسى عليه السلام إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته، ورفع شعر بدنه جُبته . وذلك أن الغضب جمرة تتوقد فى القلب . ولأجله أمر النبى ﷺ من غضب أن يضطجع فإن لم يذهب غضبه اغتسل ؛ فيخمدها اضطجاعه ويطفئها اغتساله » .

(٢) قال ابن الجوزى : ومن العرب من يقول : « يا ابن أمى » بإثبات الياء ، كما قال أبو زبيد :

يا ابن أمى ، ويا شقيق نفسى أنت خلفتنى لدهر شديد

راجع : أمالى اليزيدى ٩ وجمهرة أشعار العرب ١٣٩واللسان (شفق) وهامش خزانة الأدب ٤/ ٢٢٢ .

أم ﴾ بفتح الميم تشبيها له بخمسة عشر ، فصار كقولك : يا خمسة عشر أقبلوا . وقال الكسائى والفراء وأبو عبيد : إن الفتح على تقدير يابن أما . وقال البصريون : هذا القول خطأ ، لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين اسما واحدا : كخمسة عشر واختاره الزجاج والنحاس . وأما من قرأ بكسر الميم فهو على تقدير : ابن أمى ، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة لتدل عليها. وقال الأخفش وأبو حاتم : ابن أم بالكسر ، كما تقول : يا غلام ، أقبل . وهى لغة شاذة . والقراءة بها بعيدة . وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك . وقرئ « ابن أمى » باثبات الياء .

قوله : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ﴾ الشماتة : السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه مع المصائب . ومنه قوله ﷺ :« اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء [١] ، ودرك الشقاء [٢] ، وجهد البلاء [٣] ، وشماتة الأعداء[٤] » ، وهو فى الصحيح [٥] . ومنه قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلا كلـه أناخ بـآخرينـا
فـقـل للشامتـين بنـا أفيقـوا سيلقى الشامتون كما لقينـا

والمعنى : لا تفعل بى ما يكون سببا للشماتة منهم . وقرأ مجاهد ومالك بن دينار : « فلا تشمت بى الأعداء» بفتح حرف المضارعة ، وفتح الميم ، ورفع الأعداء ، على أن الفعل مسند إليهم ، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بى. وروى عن مجاهد أنه قرأ : « تشمت » كما تقدم عنه مع نصب الأعداء . قال ابن جنى : والمعنى: فلا تشمت بى أنت يارب . وجاز هذا كما فى قوله : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة : ١٥] ونحوه ، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء كأنه قال : ولا تشمت يا رب بى الأعداء . وما أبعد هذه القراءة عن الصواب ، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب .

قوله : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ أى لا تجعلنى بغضبك على فى عداد القوم الظالمين . يعنى : الذين عبدوا العجل ، أو لا تعتقد أنى منهم .

قوله : ﴿ قال رب اغفر لى ولأخى ﴾ هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا ؟ فقيل :﴿ قال رب اغفر لى ولأخى ﴾ طلب المغفرة له أولاً ، ولأخيه ثانيا ، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة ، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه ،

---

(١) سوء القضاء : يدخل فيه سوء قضاء الدين فى الدين والدنيا والبدن والمال .
(٢) درك الشقاء : والمشهور فيها بفتح الراء ، ومعناه : أعوذ بك أن يدركنى شقاء .
(٣) جهد البلاء : فسره ابن عمر : بقلة المال ، وكثرة العيال ، وقال غيره : « هى الحالة الشاقة » .
(٤) شماتة الأعداء : هى فرح العدو ببلية تنزل بعدوه .
(٥) الحديث عن أبى هريرة. أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٦ والبخارى فى القدر (٦٦١٦) ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٧/٥٣) والنسائى فى الاستعاذة ٨/ ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه فى جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه (١) من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم. ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه فى رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فهو ﴿ **أرحم الراحمين** ﴾ .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **واتخذ قوم موسى** ﴾ الآية ، قال :حين دفنوها ، ألقى عليها السامرى قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام .وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : استعاروا حلياً من آل فرعون فجمعه السامرى ، فصاغ منه ﴿ **عجلاً** ﴾ فجعله ﴿**جسداً**﴾ لحماً ودماً ﴿ **له خوار** ﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله :﴿ **خوار** ﴾ قال : الصوت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : خار العجل خورة لم يثن ، ألم تر أن الله قال : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سقط فى أيديهم** ﴾ قال : ندموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس ﴿ **أسفاً** ﴾ ، قال : حزيناً (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك. وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال : الأسف : الغضب الشديد .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : رفع الله منها ستة أسباعها وبقى سبع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : لما ألقاها موسى ، ذهب التفصيل وبقى الهدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت تسعة رفع منها لوحان وبقى سبعة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ قال : مع أصحاب العجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾ .

الغضَب : ما نزل بهم من العقوبة فى الدنيا بقتل أنفسهم وما سينزل بهم فى الآخرة من العذاب . والذلة : هى التى ضربها الله عليهم بقوله : ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ [البقرة :

(١) فى المطبوعة : « عليهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ٩/ ٤٤ وفيه زيادة ﴿ **فلما آسفونا** ﴾ [الزخرف : ٥٥] يقول : أغضبونا والأسف على وجهين : الغضب والحزن .

٦١ ، وآل عمران : ١١٢] . وقيل : هى إخراجهم من ديارهم. وقيل : هى الجزية ، وفيه نظر ، لأنها لم تؤخذ منهم ، وإنما أخذت من ذراريهم ، والأولى : أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا، لقوله : ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ ، وأن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلهاً ، لا لمن بعدهم من ذراريهم . ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء .وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء . وأما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصح تفسير ما فى الآية به ، إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقى ، وهو لم يتعذر هنا . ﴿ وكذلك نجزى المفترين﴾ أى مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . والافتراء : الكذب . فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا (١) ، وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء ، بل المراد: ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه ، وأن فيه ذلة بأى نوع كان . ﴿ والذين عملوا السيئات﴾ أى سيئة كانت ﴿ ثم تابوا ﴾ عنها ﴿ من بعد ﴾ عملها ﴿ وآمنوا ﴾ بالله ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أى من بعد هذه التوبة ، أو من بعد عمل هذه السيئات التى قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله ﴿ لغفور رحيم ﴾ أى كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم .

قوله : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ أصل السكوت : السكون والإمساك ، يقال : جرى الوادى ثلاثاً ثم سكن ، أى أمسك عن الجرى . قيل : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك . فترك الإغراء وسكت . وقيل : هذا الكلام فيه قلب . والأصل : سكت موسى عن الغضب ، كقولهم : أدخلت الإصبع الخاتم ، والخاتم الإصبع . وأدخلت القلنسوة رأسى ، ورأسى القلنسوة (٢) . وقرأ معاوية بن قرة : « ولما سكن عن موسى الغضب » . وقرئ : « سكت وأسكت » .

﴿ أخذ الألواح ﴾ التى ألقاها عند غضبه ﴿ وفى نسختها هدى ورحمة ﴾ النسخ : نقل ما فى كتاب إلى كتاب آخر . ويقال للأصل الذى كان النقل منه : نسخة ، وللمنقول : نسخة أيضاً . قال القشيرى : والمعنى : ﴿وفى نسختها﴾ أى فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿ هدى ورحمة ﴾ . وقيل : المعنى : وفيما نسخ له منها ، أى من اللوح المحفوظ. وقيل : المعنى : وفيما كتب له فيها هدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه . وهذا كما يقال : انسخ ما يقول فلان ، أى أثبته فى كتابك . والنسخة فعلة ، بمعنى : مفعولة كالخطبة ، والهدى ما يهتدون به من الأحكام ، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة . واللام فى ﴿ للذين هم ﴾ متعلقة بمحذوف ، أى كائنة لهم أو

---

(١) يقول صاحب الكشاف ٢/ ١٦٢ : « وأى فرية أعظم من قول السامرى : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : ٨٨] » .

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٢٩ .

لأجلهم ، واللام فى ﴿ **لربهم يرهبون** ﴾ للتقوية للفعل لما كان مفعوله متقدماً عليه فإنه يضعف بذلك بعض الضعف (١) . وقد صرح الكسائى بأنها زائدة . وقال الأخفش : هى لام الأجل ، أى لأجل ربهم يرهبون وقال محمد بن يزيد المبرد : هى متعلقة بمصدر الفعل المذكور ، والتقدير : للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أيوب قال : تلا أبو قلابة هذه الآية : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكذلك نجزى المفترين** ﴾ قال : هو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أعطى موسى التوراة فى سبعة ألواح من زبرجد ، فيها تبيان لكل شىء وموعظة . ولما جاء فرأى بنى إسرائيل عكوفاً على العجل ، رمى التوراة من يده فتحطمت ، وأقبل على هارون فأخذ برأسه، فرفع الله منها ستة أسباع وبقى سبع . ﴿ **فلما ذهب عن موسى الغـضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة**﴾ قال : فيما بقى منها . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : كانت الألواح من زمرد . فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل ، وبقى الهدى والرحمة . وقرأ : ﴿**وكتبنا له فى الألواح [من كل شىء]** (٢) **موعظة وتفصيلاً لكل شىء** ﴾ . وقرأ : ﴿ **ولما سكت عن موسى الغـضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة** ﴾ قال : ولم يذكر التفصيل هاهنا.

﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا** ﴾ هذا شروع فى بيان ما كان من موسى

(١) ومن ذلك قوله جل ثناؤه : ﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ [يوسف : ٤٣] .
(٢) سقط من المخطوطة قوله تعالى : ﴿ **من كل شىء** ﴾ .

ومن القوم الذين اختارهم، و ﴿ **سبعين** ﴾ مفعول ﴿ **اختار** ﴾ ، و ﴿ **قومه** ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أى من قومه على الحذف والإيصال . ومثله قول الراعى :

اخترتك الناسَ إذ رثَّت خلائقهم ... واعتل من كان يرجى عنده السول (١)

يريد اخترتك من الناس . ومعنى ﴿ **لميقاتنا** ﴾ : للوقت الذى وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع . والميقات الكلام الذى تقدم ذكره ، لأن الله أمره أن يأتى إلى الطور فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل . كذا قيل . والرجفة فى اللغة : الزلزلة الشديدة . قيل : إنهم زلزلوا حتى ماتوا ، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم ﴿ **قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى** ﴾ قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً ، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ﴾ على ما تقدم فى البقرة [الآية:٥٥] . وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : ١٥٣] بل أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل . وقيل : إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامرى ومن معه عن عبادته ، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم. والمعنى : لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنب وتلهفاً على ما فرط من قومه . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ للجحد ، أى لست ممن يفعل ذلك . قاله ثقة منه برحمة الله . والمقصود منه الاستعطاف والتضرع. وقيل : معناه : الدعاء والطلب ، أى لا تهلكنا . قال المبرد : المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول : [لا تهلكنا] (٢) وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره . ولكنه كقول عيسى : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ [المائدة : ١١٨] . وقيل : المراد بالسفهاء : السبعون ، والمعنى : أتهلك بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : ١٥٣] . وقيل : المراد بهم السامرى وأصحابه.

قوله : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ أى ما الفتنة التى وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التى تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت . ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه : ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ [طه:٨٥] ﴿ **تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ أى تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدى بها من تشاء منهم . ومثله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [هود : ٧ ، الملك : ٢] ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال : ﴿ **أنت ولينا** ﴾ أى المتولى لأمورنا. ﴿ **فاغفر لنا** ﴾ ما أذنبناه ﴿ **وارحمنا** ﴾ برحمتك التى وسعت كل شيء . ﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ للذنوب .

﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة ، أو تفضل علينا بإفاضة

---

(١) رثت خلائقهم : صارت رديئة خسيسة ، واعتل : طلب العلل لمنع العطاء ، والسُّول : أصلها بالهمزة وحذفت للتخفيف .

(٢) هذا القول ساقط من المخطوطة ، والصواب إثباته كما فى القرطبى ٤/ ٢٧٣١ .

النعم فى هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق ﴿ **وفى الآخرة** ﴾ أى واكتب لنا فى الآخرة الجنة بما تجازينا به أو بما تتفضل به علينا من النعيم فى الآخرة. وجملة :﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة فى الدنيا وفى الآخرة ، أى إنا تبنا إليك ورجعنا عن الغواية التى وقعت من بنى إسرائيل . والهود: التوبة. وقد تقدم فى البقرة.

وجملة : ﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء** ﴾ مستأنفة كنظائرها فيما تقدم . قيل : المراد بالعذاب هنا : الرجفة . وقيل : أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم ، أى ليس هذا إليك يا موسى ، بل ما شئتُ كان ، وما لم أشأ لم يكن . والظاهر : أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولاً أولياً . وقيل : المراد: مَنْ أشاء من المستحقين للعذاب ، أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق . ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ (١) من الأشياء من المكلفين وغيرهم . ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الذنوب ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ المفروضةعليهم ﴿ **والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أى يصدقون بها ويذعنون لها .

ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل . والأمى : إما نسبة إلى الأمة الأمية التى لا تكتب ولا تحسب ، وهم العرب ، أو نسبة إلى الأم . والمعنى : أنه باق على حالته التى ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ؛ وقيل : نسبة إلى أم القرى . وهى مكة .

﴿ **الذى يجدونه** ﴾ يعنى : اليهود والنصارى ، أى يجدون نعته ، ﴿ **مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾ وهما مرجعهم فى الدين . وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل ، فهو من باب الإخبار بما سيكون . ثم وصف هذا النبى الذى يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف ، أى بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق . ﴿ **وينهاهم عن المنكر** ﴾ أى ما تنكره القلوب ولا تعرفه . وهو ما كان من مساوئ الأخلاق . قيل : إن قوله : ﴿ **يأمرهم بالمعروف** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها . ذكر معناه الزجاج . وقيل : هو فى محل نصب على الحال من النبى . وقيل: هو مفسر لقوله : ﴿ **مكتوباً** ﴾ .

---

(١) فى هذا الكلام أقوال :

أحدها : أن مخرجه عام وخاص وتأويله : ورحمتى وسعت المؤمنين من أمة محمد ﷺ . لقوله تعالى : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ قاله ابن عباس .

والثانى : أن هذه الرحمة على العموم فى الدنيا والخصوص فى الآخرة وتأويلها : ورحمتى وسعت كل شىء فى الدنيا البر والفاجر ، وفى الآخرة هى للمتقين خاصة .

والثالث : أن الرحمة التوبة ، فهى على العموم . قاله ابن زيد .

قوله : ﴿ **يحل لهم الطيبات** ﴾ أى المستلذات . وقيل : يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء التى حرمت عليهم بسبب ذنوبهم . ﴿ **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ أى المستخبثات [(١)] ، كالحشرات والخنازير . ﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ الإصر : الثقل ، أى يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة . وقد تقدم بيانه فى البقرة [الآية :٢٨٦] . ﴿ **والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ أى ويضع عنهم الأغلال التى كانت عليهم. الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التى كانوا قد كلفوها. ﴿ **فالذين آمنوا به** ﴾ أى بمحمد ﷺ ﴿ **واتبعوه** ﴾ فيما جاء به من الشرائع ﴿ **وعزروه** ﴾ أى عظموه ووقروه ، قاله الأخفش . وقيل : معناه : منعوه من عدوه . وأصل العزر: المنع . وقرأ الجحدرى: « وعزروه » بالتخفيف. ﴿ **ونصروه** ﴾ أى قاموا بنصره على من يعاديه. ﴿ **واتبعوا النور الذى أنزل معه** ﴾ أى اتبعوا القرآن الذى أنزل عليه مع نبوته . وقيل : المعنى : واتبعوا القرآن المنزل إليه مع إتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهى عنه ، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه . والإشارة بـ ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف ﴿ **هم المفلحون** ﴾ الفائزون بالخير والفلاح ، لا غيرهم من الأمم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واختار موسى قومه** .. ﴾ الآية ، قال: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً ، فبرز بهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا مالم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا . فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة ، ﴿ **قال** ﴾ موسى: ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبل** ﴾ ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ يقول : إن هى إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عمن تشاء [(٢)] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: ﴿ **لميقاتنا** ﴾ قال: لتمام الموعد، وفى قوله : ﴿ **فلما أخذتهم الرجفة** ﴾ قال : ماتوا ثم أحياهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ قال : بليتك . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ قال : مشيئتك . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه إنما أخذتهم الرجفة ، لأنهم لم يرضوا بالعمل ، ولم ينهوا عنه .

وأخرج سعيد بن منصور عنه فى قوله : ﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة** ﴾ فلم يعطها موسى ﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **المفلحون** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة** ﴾ قال : فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ قال : تبنا إليك . وأخرج ابن أبى حاتم

---

(١) فى المطبوعة : « المستخبثات » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ٩/ ٥٠ .

عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى وجزة السعدى ، وكان من أعلم الناس بالعربية ، قال : لا والله ما أعلمها فى كلام العرب ﴿ هُدنا ﴾ قيل : فكيف : «هِدنا » بكسر الهاء . يقول : مِلنا .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد فى الزهد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى قوله : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ قال : وسعت رحمته فى الدنيا البر والفاجر ، وهى يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. وأخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبى ﷺ ، قال: « إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق. وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » (١). وأخرج نحوه أحمد وأبو داود والطبرانى والحاكم والضياء المقدسى من حديث جندب بن عبد الله البجلى (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال: لما نزلت: ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ قال إبليس: وأنا من الشىء . فنسخها الله ، فنزلت : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون .. ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: لما نزلت: ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ قال إبليس :أنا من الشىء . قال الله تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ قالت اليهود: فنحن نتقى ونؤتى الزكاة ، قال الله : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود ، وجعلها لأمة محمد ﷺ (٣) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه(٤).

وأخرج البزار فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمداً ﷺ، قوله: ﴿ واختار موسى قومه ... ﴾ إلى قوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾، (٥) فأعطى محمداً كل شىء سأل موسى ربه فى هذه الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ قال : كتبها الله لهذه الأمة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية ، قال : يتقون الشرك .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن النخعى فى قوله : ﴿ النبى الأمى ﴾ قال : كان لا يقرأ ولا يكتب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ الذى يجدونه مكتوباً عندهم ﴾ قال : يجدون نعته وأمره ونبوته مكتوباً عندهم . وأخرج ابن سعد والبخارى وابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل عن عطاء بن يسار قال : لقيت

(١) مسلم فى التوبة (٢٧٥٣/ ٢٠ ، ٢١) .

(٢) فى المطبوعة « العجلى » بالعين بدل الباء ، وهو تحريف ، والصواب « البجلى » كما أثبتناه من المخطوطة ، والحديث أخرجه أحمد ٤/ ٣١٢ وأبوداود فى الأدب (٤٨٨٥) والطبرانى (١٦٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢١٧ : « ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبى عبد الله الجشمى ولم يضعفه أحد » والحاكم ١/ ٥٦ وسكت عنه ، و الذهبى أيضا .

(٣) وهذا الأثر موجود فى ابن جرير ٩/ ٥٤ لكن عن أبى بكر الهذلى .

(٤) ابن جرير ٩/ ٥٥ . (٥) كشف الأستار (٢٢١٣) .

عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا تجزى بالسيئة السيئة ولكن تعفو وتصفح . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ،ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً » (١). وأخرج ابن سعد (٢) والدارمى فى مسنده ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله (٣) . وقد روى نحو هذا مع اختلاف فى بعض الألفاظ ، وزيادة فى بعض ، ونقص فى بعض عن جماعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ويحل لهم الطيبات** ﴾ قال : الحلال . ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ قال : التثقيل الذى كان فى دينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ قال : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله ، وفى قوله : ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ قال : هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرم عليهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله:﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ قال: ما غلظ على بنى إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم، ونحوه (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وعزروه** ﴾ يعنى : عظموه ووقروه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ .

لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة فى التوراة والإنجيل ، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس جميعاً ،لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة ، و﴿ **جميعاً** ﴾: منصوب على الحال ، أى حال كونكم جميعاً .و﴿ **الذى له ملك السموات والأرض** ﴾ إما فى محل جر على الصفة للاسم الشريف، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وجملة : ﴿ **لا إله إلا هو**﴾ بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها ؛ لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله

(١) ابن سعد ١/ ٣٦٢ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٨) وابن جرير ٩/ ٥٧ والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٧٤ .
(٢) فى المطبوعة « ابن سعيد » والصواب ما أثبتناه وانظر التخريج التالى .
(٣) ابن سعد ١ / ٣٦٠ والدارمى ١ / ٥ والبيهقى فى الدلائل ١ / ٣٧٦ .
(٤) ابن جرير ٩/ ٥٨ .

على الحقيقة وهكذا من كان يحيى ويميت هو المستحق لتفرده بالربوبية ونفى الشركاء عنه . والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله . وقد تقدم تفسير النبى الأمى . وهما وصفان لرسوله . وكذلك ﴿ **الذى يؤمن بالله وكلماته** ﴾ وصف له . والمراد بالكلمات : ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله ، أو القرآن فقط . وجملة : ﴿ **واتبعوه** ﴾ مقررة لجملة : ﴿ **فآمنوا بالله** ﴾ و﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ علة للأمر بالإيمان والاتباع .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث الله محمداً ﷺ إلى الأحمر والأسود ، فقال : ﴿ **يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ . والأحاديث الصحيحة الكثيرة فى هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يؤمن بالله وكلماته** ﴾ قال: آياته [(١)] . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وكلماته** ﴾ قال : عيسى [(٢)] .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **ومن قوم موسى** ﴾ لما قص الله علينا ما وقع من السامرى وأصحابه وما حصل من بنى إسرائيل من التزلزل فى الدين ، قص علينا سبحانه أن من قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم ، ووصفهم بأنهم ﴿ **يهدون بالحق** ﴾ أى يدعون الناس إلى الهداية

(١، ٢) المرجع السابق ٩/ ٥٩ .

حال كونهم متلبسين بالحق ﴿ **وبه** ﴾ أى بالحق﴿ **يعدلون** ﴾ بين الناس فى الحكم . وقيل : هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ منهم .

قوله : ﴿ **وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً** ﴾ (١) الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم ، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، والمعنى : صيرناهم قطعاً متفرقة ، وميزنا بعضهم من بعض . وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، والمعنى : أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب كما فى قوله تعالى : ﴿ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ﴾ [المائدة : ١٢] وقد تقدم .وقوله: ﴿ **اثنتى عشرة** ﴾ هو ثانى مفعولى ﴿ **قطّعنا** ﴾ لتضمنه معنى التصيير . و﴿ **أسباطاً** ﴾ تمييز له أو بدل منه. و﴿ **أمماً** ﴾ نعت للأسباط أو بدل منه . والأسباط : جمع سبط ، وهو ولد الولد. صاروا اثنتى عشرة أمة من اثنى عشر ولداً ، وأراد بالأسباط : القبائل ، ولهذا أنث العدد كما فى قول الشاعر :

وإن قريشاً كلها عشر أبطن وأنت برىء من قبائلها العشر (٢)

أراد بالبطن : القبيلة . وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط فى البقرة [الآية : ٥٨] . وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ : « قطعناهم » مخففاً ، وسماهم أمماً ؛ لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد ، وكانوا مختلفى الآراء ، يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر .

﴿ **وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه** ﴾ أى وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش فى التيه ﴿ **أن اضرب بعصاك الحجر** ﴾ تفسير لفعل الإيحاء ﴿ **فانبجست** ﴾ عطف على مقدر يدل عليه السياق ، أى فضرب فانبجست ، والانبجاس : الانفجار، أى فانفجرت . ﴿ **منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾ بعدد الأسباط لكل سبطٍ عينٌ يشربون منها . ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ أى كل سبط منهم العين المختصة به التى يشرب منها . وقد تقدم فى البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة . ﴿ **وظللنا عليهم الغمام** ﴾ أى جعلناه ظللاً عليهم فى التيه ، يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم ﴿ **وأنزلنا عليهم المن والسلوى** ﴾ أى الترنجبين والسمانى كما تقدم تحقيقه فى البقرة . ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ أى وقلنا لهم كلوا من المستلذات التى رزقناكم ﴿ **وما ظلمونا** ﴾ بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها ، ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أى كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم .

﴿ **وإذ قيل لهم** ﴾ أى واذكر وقت قيل لهم هذا القول وهو : ﴿ **اسكنوا هذه القرية** ﴾ أى

---

(١) الأسباط : جمع سبط وهو ولد الولد ، والأسباط بنو يعقوب عليه السلام كانوا اثنى عشر رجلاً ، كل واحد منهم ولد سبطاً أمة من الناس ، فإنه يقال للفريق من اليهود : سبط ، والفريق من العرب : قبائل .

(٢) الشاعر هو : النواح الكلابى رجل من بنى كلاب . راجع : سيبويه ٢/ ١٧٤ ومعانى القرآن للفراء ١/ ١٢٦ والإنصاف ٣٢٣ والعينى (هامش الخزانة) ٤/ ٤٨٤ واللسان (بطن) وعند ابن جرير ٩/ ٦٠ (كلاباً) بدلاً من (قريشا) .

بيت المقدس أو أريحاء. وقيل : غير ذلك مما تقدم بيانه ﴿ **وكلوا منها** ﴾ أى من المأكولات الموجودة فيها ﴿ **حيث شئتم** ﴾ أى فى أى مكان شئتم من أمكنتها لا مانع لكم من الأكل فيه . ﴿ **وقولوا حطة** ﴾ قد تقدم تفسيرها فى البقرة [الآية:٥٨]. ﴿**وادخلوا الباب** ﴾ أى باب القرية المتقدمة حال كونكم ﴿ **سجداً** ﴾ أمروا بأن يجمعوا بين قولهم :﴿ **حطة** ﴾ وبين الدخول ساجدين . فلا يقال : كيف قدم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخره فى البقرة ؟ وقد تقدم بيان معنى السجود الذى أمروا به.﴿ **نغفر لكم خطيئاتكم** ﴾ جواب الأمر ،وقرئ :« خطيتكم » ثم وعدهم بقوله : ﴿ **سنزيد المحسنين** ﴾ أى سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم . والجملة استئنافية ، جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا لهم بعد المغفرة ؟ ﴿ **فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم** ﴾ قد تقدم بيان ذلك فى البقرة [الآية :٥٩] ﴿ **فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء** ﴾ أى عذاباً كائناً منها ﴿ **بما كانوا يظلمون** ﴾ أى بسبب ظلمهم .

قوله : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر** ﴾ معطوف على عامل إذ المقدر ، أى اذكر إذ قيل لهم : واسألهم ، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ ، والمراد من سؤال القرية : سؤال أهلها ، أى اسألهم عن هذا الحادث الذى حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به ، وفى ضمن هذا السؤال فائدة جليلة ، وهى تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ﷺ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من الله سبحانه ، فيكون دليلاً على صدقه .

واختلف أهل التفسير فى هذه القرية ، أى قرية هى ؟ فقيل : أيلة . وقيل : طبرية . وقيل : مدين . وقيل : إيليا . وقيل : قرية من قرى ساحل الشام التى كانت حاضرة البحر ، أى التى كانت بقرب البحر [١] . يقال : كنت بحضرة الدار، أىْ بقربها ، والمعنى : سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة . قرئ : ﴿ **واسألهم** ﴾، وقرئ : « سلهم » .

﴿ **إذ يعدون** ﴾ أى وقت يعدون ، وهو ظرف لمحذوف دل عليه الكلام لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون . وقيل : إنه ظرف لـ ﴿ **كانت** ﴾ أو لـ ﴿ **حاضرة** ﴾ وقرئ : « يُعِدُّون » بضم الياء ، وكسر العين ، وتشديد الدال ، من الإعداد للآلة . وقرأ الجمهور : ﴿ **يَعْدُون** ﴾ بفتح الياء ، وسكون العين ، وضم الدال مخففة ، أى يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذى نهوا عن الاصطياد فيه .وقرئ : « يَعَدُّون » بفتح الياء والعين ، وضم

---

(١) وقيل : هى قرية يقال لها (مقناة) بين مدين وعينون . وعينون ذكرها ياقوت فى معجمه فى الباب ، وذكرها البكرى فى معجم ما استعجم فى (حبرى) ولم يفرد لها باباً .

قال ياقوت : من قرى باب المقدس ؛ وقيل : قرية من وراء البثنية من دون القلزم فى طرف الشام . وفى الخبر (ابن سعد ١/ ٢ / ٢١ ،٢٢) أن رسول الله ﷺ كتب لنعيم بن أوس أخى تميم الدارى أن له (حبرى) و (عينون) بالشام قريتها كلها سهلها وجبلها وماؤها وأنباطها وبقرها .

الدال مشددة بمعنى يعتدون، أدغمت التاء فى الدال. والسبت: هو اليوم المعروف، وأصله السكون . يقال : سبت إذا سكن ، وسبت اليهود : تركوا العمل فى سبتهم ، والجمع أَسْبُت وسُبُوت وأَسْبات ، وقرأ ابن السميفع : « فى الأسبات » على الجمع . ﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم** ﴾ ظرف لـ ﴿ **يعدون** ﴾ والحيتان : جمع حوت ، وأضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه . و ﴿ **يوم سبتهم** ﴾ : ظرف لـ ﴿ **تأتيهم** ﴾ وقرئ : « يوم أسباتهم » . و ﴿ **شُرَّعاً** ﴾ حال ، وهو جمع شارع ، أى ظاهرة على الماء . وقيل : رافعة رؤوسها . وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكباش البيض . قال فى الكشاف : يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنى منا وأشرف علينا . وشرعت على فلان فى بيته فرأيته يفعل كذا . انتهى (١) . ﴿ **ويوم لا يسبتون لا تأتيهم** ﴾ أى لا يفعلون السبت . وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيهم الحيتان ، كما كانت تأتيهم فى يوم السبت ﴿ **كذلك نبلوهم** ﴾ أى مثل ذلك البلاء العظيم ، نبلوهم بسبب فسقهم . والابتلاء : الامتحان والاختبار .

﴿ **وإذ قالت أمة** ﴾ معطوف على ﴿ **إذ يعدون** ﴾ معمول لعامله ، داخل فى حكمه. والأمة : الجماعة ، أى قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد فى وعظ المتعدين فى السبت ، حين أيسوا من قبولهم للموعظة ، وإقلاعهم عن المعصية : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ أى مستأمل لهم بالعقوبة ﴿ **أو معذبهم عذاباً شديداً** ﴾ بما انتهكوا من الحرمة ، وفعلوا من المعصية ، وقيل : إن الجماعة القائلة : ﴿ **لم تعظون قوماً** ﴾ ؟ هم العصاة الفاعلون للصيد فى يوم السبت ، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم ، والمعنى : إذا علمتم أن الله مهلكنا ، كما تزعمون، فلم تعظونا ؟ ﴿ **قالوا معذرة إلى ربكم** ﴾ أى قال الواعظون للجماعة القائلين لهم : ﴿ **لم تعظون** ﴾ وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول ، أو الفاعلين على الوجه الثانى ، ﴿ **معذرة إلى ربكم** ﴾ قرأ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف ﴿ **معذرة** ﴾ بالنصب ، وهى قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الباقون بالرفع . قال الكسائى : ونصبه على وجهين ، أحدهما على المصدر ، والثانى على تقدير: فعلنا ذلك معذرة ، أى لأجل المعذرة ، والرفع على تقدير مبتدأ ، أى موعظتنا معذرة إلى الله ،حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، اللذين أوجبهما علينا ، ولرجاء أن يتعظوا ، فيتقوا ،ويقلعوا عما هم فيه من المعصية .

قال جمهور المفسرين : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق فرقة عصت وصادت ، وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص ، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التى لم تنه ، ولم تعص للفرقة الناهية: ﴿ **لم تعظون قوماً** ﴾ يريدون الفرقة العاصية ﴿ **الله مهلكهم أو معذبهم** ﴾ قالوا ذلك على غلبة الظن ، لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة ، أو تعذيبهم ، من دون استئصال بالهلاك ، فقالت الناهية : موعظتنا معذرة

---

(١) الكشاف ٢/ ١٧١ .

إلى الله،ولعلهم يتقون،ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية،وعاصية لقال : لعلكم تتقون .

قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أى لما ترك العصاة من أهل القرية ، ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر، ترك الناسى للشىء المعرض عنه كلية الإعراض ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ أى الذين فعلوا النهى ، ولم يتركوه ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا** ﴾ وهم العصاة المعتدون فى السبت ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ أى شديد ، من بؤس الشىء يبؤس بأساً، إذا اشتد ، وفيه إحدى عشرة قراءة [(١)] ،للسبعة وغيرهم ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أى بسبب فسقهم ، والجار والمجرور متعلق بأخذنا ﴿ **فلما عتوا عما نهوا عنه** ﴾ أى تجاوزوا الحد فى معصية الله تمرداً وتكبراً ﴿ **قلنا لهم كونوا قردة** ﴾ أى أمرناهم أمراً كونياً لا أمراً قولياً ، أى مسخناهم قردة . قيل : إنه سبحانه عذبهم أولاً ، بسبب المعصية ، فلما لم يقلعوا ، مسخهم قردة . وقيل : إن قوله : ﴿ **فلما عتوا عما نهوا عنه** ﴾ تكرير لقوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ للتأكيد ، والتقرير . وأن المسخ هو العذاب البئيس ، والخاسئ : الصاغر الذليل ، أو المباعد المطرود ، يقال : خسأته فخسئ ، أى باعدته فتباعد .

واعلم أن ظاهر النظم القرآنى هو أنه لم ينج من العذاب ، إلا الفرقة الناهية التى لم تعص لقوله : ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله : ﴿ **فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ فإن كانت الطوائف منهم ثلاثاً كما تقدم ، فالطائفة التى لم تنه ولم تعص ، يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية ؛ لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهى ، وعتت عما نهاها الله عنه ، من ترك النهى عن المنكر ، ويحتمل أنها لم تمسخ ؛ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه ، لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة ، وهى صيد الحوت فى يوم السبت ، ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد . وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية ، وإنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقاولة بينها ، وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين ، فهما فى الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما فى النهى ، والاعتزال ، والنجاة من المسخ .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال موسى : يا رب ، أجد أمة أناجيلهم فى قلوبهم . قال : تلك أمة تكون بعدك ، أمة أحمد . قال : يا رب ، أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن . قال : تلك أمة تكون بعدك ، أمة أحمد . قال : يا رب ، أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ، ثم ترجع فيهم فيأكلون . قال : تلك أمة بعدك ، أمة أحمد . قال : يا رب اجعلنى من أمة أحمد . فأنزل الله كهيئة المرضاة لموسى: ﴿ **ومن قوم**

---

(١) قال أبو جعفر : وأولى هذه القراءات عندى بالصواب : قراءة من قرأ : ﴿ **بئيس** ﴾ بفتح الباء ، وكسر الهمزة ، ومدها على مثال فعيل ، كما قال ذو الأصبع العدوانى :

حنقاً علي وما ترى لى فيهم أثرا بئيسا

راجع : الأغانى ٣/ ١٠٢ ، ١٠٣ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢٣١ .

موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن قوم موسى أمة** ﴾ الآية ، قال : بلغنى أن بنى إسرائيل لماقتلوا أنبيائهم وكفروا ، وكانوا اثنى عشر سبطاً ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم ، ففتح الله لهم نفقاً فى الأرض ، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين ،يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله :﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ [الإسراء:١٠٤] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم . قال ابن عباس : ساروا فى السَّرَب (١) ، سنة ونصفا . أقول : ومثل هذا الخبر العجيب ، والنبأ الغريب ، محتاج إلى تصحيح النقل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة ، كلها فى النار ، إلا فرقة ، وافترقت النصارى بعد عيسى ، على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة ، ولتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة ، فأما اليهود فإن الله يقول : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ فهذه التى تنجو . وأما النصارى فإن الله يقول :﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ [المائدة :٦٦] فهذه التى تنجو. وأما نحن فيقول :﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : ١٨١] فهذه التى تنجو من هذه الأمة ، وقد قدمنا أن زيادة : « كلها فى النار » لم تصح لا مرفوعة ، ولا موقوفة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانبجست** ﴾ قال : فانفجرت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر** ﴾ قال : يا عكرمة ، هل تدرى أى قرية هذه ؟ قلت : لا. قال : هى أيلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال : هى طبرية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ يعدون فى السبت** ﴾ قال : يظلمون . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **شرعاً** ﴾ ، يقول : من كل مكان . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ظاهرة على الماء . وأخرج ابن المنذر عنه قال : واردة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال : هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها : أيلة . فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم ، فكانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها . فمكثوا كذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة فلم

(١) السِّرْبُ ـ بالكسر ـ الجماعة من الناس ، والبقر والشاء ، والقطا ، والوحش والجمع (أسراب) والسَّرَبُ : بالفتح : المسلك فى خُفية ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سربا** ﴾ [الكهف : ٦١] . حفير فى الأرض لا منفذ له وهو (الوكر) وإن كان له منفذ إلى موضع آخر فهو (النفق) .

يزدادوا إلا غياً ، فقالت طائفة من النهاة ، يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب: ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ وكانوا أشد غضباً من الطائفة الأخرى ، وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ **لم تعظون** ﴾ والذين قالوا : ﴿ **معذرة إلى ربكم** ﴾ وأهلك الله أهل معصيته ، الذين أخذوا الحيتان ، فجعلهم قردة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أنهم ثلاث فرق : فرقة العصاة وفرقة الناهين [١] وفرقة القائلين[٢]: ﴿ **لم تعظون** ﴾ فما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم . فأصبح الذين نهوا ذات غداة فى مجالسهم، يتفقدون الناس لا يرونهم ، وقد باتوا من ليلتهم ، وغلقوا عليهم دورهم، فجعلوا يقولون: إن للناس لشأناً فانظروا ما شأنهم ؟ فاطلعوا فى دورهم ، فإذا القوم قد مسخوا ، يعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم، والبيهقى فى سننه عن عكرمة عن ابن عباس . . . فذكر القصة ، وفى آخرها أنه قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ، ولا أرى الآخرين ذكروا . ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قال عكرمة : فقلت : جعلنى الله فداك . ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، وخالفوهم . وقالوا : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ . قال : فأمر بى فكُسِيت ثوبين غليظين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قال : نجا الناهون، وهلك الفاعلون . ولا أدرى ما صنع بالساكتين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عنه قال : والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا : ﴿ **لم تعظون قوماً** ﴾ نجوا مع الذين نهوا عن السوء ، أحب إلىَّ مما عدل به . وفى لفظ : من حمر النعم ، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعاً . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: قال ابن عباس : ما أدرى أنجا الذين قالوا : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ أم لا ؟ قال : فما زلت أبصره ، حتى عرف أنهم قد نجوا ، فكسانى حلة . وأخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبى سُلَيم قال : مسخوا حجارة الذين قالوا : ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ ، قال : أليم وجيع .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ

(١ ،٢) فى المخطوطة : « الناهون » و« القائلون » بالرفع ، والصحيح ما أثبتناه من الجر بالإضافة .

عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ تأذن ربك** ﴾ معطوفة على ما قبله ، أى واسألهم وقت تأذن ربك ، وتأذن فعل من الإيذان ، وهو الإعلام . قال أبو على الفارسى : آذن بالمد : أعلم . وأذَّن بالتشديد : نادى . وقال قوم :كلاهما بمعنى أعلم ، كما يقال : أيقن وتيقن والمعنى فى الآية : واسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ربك ليبعثن عليهم . قيل : وفى هذا الفعل معنى القسم كعلم الله ، وشهد الله ، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم حيث قال : ﴿ **ليبعثن عليهم** ﴾ أى ليرسلن عليهم ، ويسلطن،كقوله :﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾ [الإسراء :٥] ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ غاية لسومهم سوء العذاب ، ممن يبعثه الله عليهم ، وقد كانوا أقمأهم الله هكذا أذلاء مستضعفين،معذبين بأيدى أهل الملل،وهكذا فى هذه الملة الإسلامية، فى كل قطر من أقطار الأرض،فى الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار،يسلمون الجزية بحقن دمائهم، ويمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التى يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار،ومعنى﴿ **يسومهم** ﴾ يذيقهم . وقد تقدم بيان أصل معناه، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن ربك لسريع العقاب** ﴾ يعاجل به فى الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ أى كثير الغفران والرحمة .

﴿ **وقطعناهم فى الأرض** ﴾ أى فرقناهم فى جوانبها ، أو شتتنا أمرهم ، فلم تجتمع لهم كلمة ، و ﴿ **أمماً** ﴾ منتصب على الحال ، أو مفعول ثان لقطعنا ، على تضمينه معنى صيرنا ، وجملة : ﴿ **منهم الصالحون** ﴾ بدل من ﴿ **أمما** ﴾ . قيل : هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل . وقيل : هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدم بيانه قبل هذا . ﴿ **ومنهم دون ذلك** ﴾ أى دون هذا الوصف الذى اتصفت به الطائفة الأولى ، وهو الصلاح . ومحل ﴿ **دون ذلك** ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير :ومنهم أناس دون ذلك ، والمراد بهؤلاء : هم من لم يؤمن ، بل انهمك فى المخالفة لما أمره الله به . قال النحاس : ﴿ **دون** ﴾ منصوب على الظرف ، ولا نعلم أحداً رفعه . ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات** ﴾ أى امتحناهم بالخير والشر ، رجاء أن يرجعوا مما هم فيه (١) من الكفر والمعاصى .

﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ المراد بهم : أولاد الذين قطعهم الله فى الأرض . قال أبو حاتم : الخلف بسكون اللام: الأولاد . الواحد والجمع سواء . والخلف بفتح اللام البدل ولداً كان أو غيره . وقال ابن الأعرابى : الخلف بالفتح: الصالح. وبالسكون : الطالح . قال لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب (٢)

---

(١) فى المطبوعة : « مما هم من الكفر » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) راجع ديوانه : القصيدة ٨ واللسان (خلف) يرثى بها أربد صاحبه وابن عمه قال : =

ومنه قيل للردىء من الكلام : خلف بالسكون . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر ، ومنه قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا فى طاعة الله تابع [١]

﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى : التوراة من أسلافهم يقرؤونها ، ولا يعملون بها . ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم ، والأدنى مأخوذ من الدنو ، وهو القرب . أى يأخذون عرض هذا الشىء الأدنى ، وهو الدنيا ، يتعجلون مصالحها بالرشاء[٢] ، وما هو مجعول لهم من السحت ، فى مقابلة تحريفهم لكلمات الله ، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة ، وكتمهم لما يكتمونه منها . وقيل : إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط ، أى أنهم يأخذون عرض الشىء الدنىء الساقط .

﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ أى يعللون أنفسهم بالمغفرة، مع تماديهم فى الضلالة، وعدم رجوعهم إلى الحق . وجملة: ﴿ يأخذون ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة ، لبيان حالهم ، أو فى محل نصب على الحال . وجملة : ﴿ ويقولون ﴾ معطوفة عليها . والمراد : بهذا الكلام التقريع والتوبيخ لهم ، وجملة : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾[٣] فى محل نصب على الحال ، أى يتعللون بالمغفرة ، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذى كانوا يأخذونه ، أخذوه غير مبالين بالعقوبة ، ولا خائفين من التبعة . وقيل : الضمير فى ﴿ يأتهم ﴾ ليهود المدينة ، أى وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم فى عصر محمد ﷺ عرض مثل العرض الذى كان يأخذه أسلافهم ، أخذوه كما أخذه أسلافهم .

﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ أى التوراة ﴿ أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ والاستفهام للتقريع ، والتوبيخ ، وجملة : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ معطوفة على ﴿ يؤخذ ﴾ على المعنى . وقيل : على ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ والأولى أن تكون فى محل نصب على الحال بتقدير قد . والمعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم فى الكتاب ، والحال أن قد درسوا ما فى

= قضِّ اللبانة لا أبالك واذهب والحق بأسرتك الكرام الغيَّب
ذهب الذين . . . .

إلى أن قال :

إن الرزيـة لا رزيـة مـثلها فقدان كل أخ كضوء الكوكب

(١) راجع : ديوانه ٢٥٤ وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٣ واللسان : (خلف) والقدم الأولى : يعنى سابقة الأنصار فى الإسلام ، وفى السيرة « فى ملة الله تابع » .

(٢) الرشاء : الحبل ، أو حبل الدلو ونحوها . ويطلق على الرِّشوة التى تعطى لقضاء مصلحة ، أو ما يعطى لإحقاق باطل ، أو إبطال حق .

(٣) العرض : ما لا يكون له ثبات ، ومنه استعار المتكلمون العرض لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والطعم ، وقيل: الدنيا عرض حاضر تنبيها أن لا ثبات لها قال تعالى : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

الكتاب وعلموه ، فكان الترك منهم عن علم ، لا عن جهل ، وذلك أشد ذنباً ، وأعظم جرماً. وقيل : معنى ﴿ **درسوا ما فيه** ﴾ أى محوه بترك العمل به ، والفهم له ، من قولهم : درست الريح الآثار إذا محتها (١) . ﴿ **والدار الآخرة خير** ﴾ من ذلك العرض الذى أخذوه ، وآثروه عليها ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الله ويجتنبون معاصيه ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه ، وفى هذا من التوبيخ والتقريع مالا يقادر قدره .

قوله : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يمسكون** ﴾ بالتشديد من مسك وتمسك ، أى استمسك بالكتاب ، وهو التوراة . وقرأ أبو العالية ، وعاصم فى رواية أبى بكر بالتخفيف ، من أمسك يمسك . وروى عن أُبَىٍّ بن كعب أنه قرأ : « مسكوا » . والمعنى : أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه ، مع كونهم قد درسوه وعرفوه، وهم من تقدم ذكره . وطائفة يتمسكون بالكتاب ، أى التوراة ويعملون بما فيه ، ويرجعون إليه فى أمر دينهم ، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله ، والموصول مبتدأ . و ﴿ **إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ خبره ، أى لا نضيع أجر المصلحين منهم ، وإنما وقع التنصيص على الصلاة ، مع كونها داخلة فى سائر العبادات التى يفعلها المتمسكون بالتوراة ، لأنها رأس العبادات وأعظمها فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر . وقيل : لأنها تقام فى أوقات مخصوصة ، والتمسك بالكتاب مستمر ، فذكرت لهذا . وفيه نظر . فإن كل عبادة فى الغالب تختص بوقت معين ، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذى قبله. وهو ﴿ **للذين يتقون** ﴾ وتكون (٢) ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ جملة معترضة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسومهم سوء العذاب** ﴾ قال : محمد وأمته إلى يوم القيامة . و ﴿ **سوء العذاب** ﴾ الجزية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : ﴿ **سوء العذاب** ﴾ الخراج . وفى قوله : ﴿ **وقطعناهم** ﴾ قال : هم اليهود ، بسطهم الله فى الأرض ، فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **ليبعثن عليهم** ﴾ ، قال : على اليهود والنصارى ﴿ **إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ فبعث الله عليهم أمة محمد ﷺ يأخذون منهم الجزية ، وهم صاغرون ﴿ **وقطعناهم فى الأرض أمماً** ﴾ قال : يهود ﴿ **منهم الصالحون** ﴾ ، وهم مسلمة أهل الكتاب . ﴿ **ومنهم دون ذلك** ﴾ قال : اليهود .﴿ **وبلوناهم بالحسنات** ﴾ قال : الرخاء والعافية ﴿ **والسيئات** ﴾ قال : البلاء ، والعقوبة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات** ﴾ بالخصب والجدب.

---

(١) وقيل : ﴿ **درسوا ما فيه** ﴾ أى قرؤوه ، وقرأ أبو عبد الرحمن : « وادارسوا ما فيه » قال ابن زيد : كان يأتيهم المُحقّ برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة ، وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم ، وحكموا له .

(٢) فى المطبوعة : « ولكون » باللام ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وأخرج أبو الشيخ عنه أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾ قال : أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ، ويتبعون رخص القرآن ﴿ **ويقولون سيغفر لنا** ﴾ ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ قال : النصارى ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾ قال : ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ، ويتمنون المغفرة ، وإن يجدوا الغد مثله يأخذوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ الآية يقول : يأخذون ما أصابوا ، ويتركون ما شاؤوا من حلال أو حرام . ﴿ **ويقولون سيغفر لنا** ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق** ﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ، ولا يتوبون منها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى زيد فى قوله : ﴿ **ودرسوا ما فيه** ﴾ قال : علموا ما فى الكتاب ، لم يأتوه بجهالة .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب** ﴾ قال : هى لأهل الإيمان منهم. وأخرج ابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب** ﴾ ، قال : من اليهود والنصارى .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ** ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله ، أى واسألهم إذ نتقنا الجبل ، أى رفعنا الجبل ﴿ **فوقهم** ﴾ و ﴿ **كأنه ظلة** ﴾ أى كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم ، والظلة اسم لكل ما أظل ، وقرئ : « طلة » بالطاء، من أطل عليه إذا أشرف . ﴿ **وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ أى ساقط عليهم . قيل : الظن هنا بمعنى العلم . وقيل : هو على بابه . ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ هو على تقدير القول ، أى وقلنا لهم : خذوا . والقوة : الجد والعزيمة ، أى أخذاً كائناً بقوة . ﴿ **واذكروا ما فيه** ﴾ من الأحكام التى شرعها الله لكم ولا تنسوه . ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ رجاء أن تتقوا ما نهيتم عنه ، وتعملوا ما أمرتم به ، وقد تقدم تفسير « ما » هنا فى البقرة مستوفى ، فلا نعيده [1] .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل** ﴾ يقول:رفعناه ، وهو قوله : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾ [النساء: ١٥٤] فقال: ﴿ **خذوا**

---

(١) فى المطبوعة : « فلا نعده » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ما آتيناكم بقوة ﴾ وإلا أرسلته عليكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم ، فقيل لهم : ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ ، فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا : سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب ، قالوا : سمعنا وعصينا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضاً قال : إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف . قال الله : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ [(١)] قال : لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه ، فاتخذوها سنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **وإذ نتقنا الجبل** ﴾ قال : انتزعه الله من أصله ، ثم جعله فوق رؤوسهم ، ثم قال : لتأخذن أمرى ، أو لأرمينكم به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ** ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله كما تقدم . قوله : ﴿ **من بنى آدم** ﴾ استدل بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا ، هم ذرية بنى آدم ، أخرجهم الله من أصلابهم ، نسلاً بعد نسل ، وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين ، قالوا : ومعنى ﴿ **أشهدهم على أنفسهم** ﴾: دلهم بخلقه على أنه خالقهم ، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد ، فتكون هذه الآية من باب التمثيل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : ١١] . وقيل : المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجسام ، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه .وقيل : المراد ببنى آدم هنا آدم نفسه ، كما وقع فى غير هذا الموضع . والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذريته ، وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر ، وهذا هو الحق الذى لا ينبغى العدول عنه ، ولا المصير إلى غيره ، لثبوته مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، وموقوفاً على غيره من الصحابة، ولا ملجئ للمصير إلى المجاز ، وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر مَعْقِل . وسنذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد فى ذلك .

---

(١) قال بعضهم : أصل النتق ، والنتوق كل شيء قلعته من موضعه فرميت به يقال : نتقت نتقا . قال : ولهذا قيل للمرأة الكثيرة الولد : ناتق . لأنها ترمى بأولادها رميا ، واستشهد ببيت النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم دحقت عليك بناتق مذكار

راجع : ديوانه ٥٠ واللسان (دحق) و (نتق) من قصيدته التى قالها فى زرعة بن عمرو بن خويلد ، حين لقى النابغة بعكاظ ، فأشار عليه أن يشير على قومه بنى ذبيان بترك حلف بنى أسد فأبى النابغة الغدر ، فتهدده زرعة وتوعده ، فلما بلغه تهديده ، ذمه وهجاه .

قوله : ﴿ **من ظهورهم** ﴾ هو بدل من بنى آدم ، بدل بعض من كل . وقيل : بدل اشتمال . قوله: ﴿ **ذرياتهم** ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير: ﴿ **ذريتهم** ﴾ بالتوحيد ، وهى تقع على الواحد والجمع. وقرأ الباقون « ذرياتهم » بالجمع ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم** ﴾ أى أشهد كل واحد منهم ﴿ **ألست بربكم** ﴾ أى قائلا: ألست بربكم ، فهو على إرادة القول ﴿ **قالوا بلى شهدنا** ﴾ أى على أنفسنا بأنك ربنا .

قوله : ﴿ **أن تقولوا** ﴾ ، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية فى هذا ، وفى قوله : ﴿ **أو يقولوا** ﴾ على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، والمعنى : كراهة أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا ، أى فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد ، كراهة أن يقولوا ﴿ **يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ أى عن كون الله ربنا وحده لا شريك له .

قوله: ﴿ **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل** ﴾ معطوف على ﴿ **تقولوا** ﴾ الأول، أى فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و « أو » لمنع الخلو دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين ، ﴿ **من قبل** ﴾ أى من قبل زماننا ﴿ **وكنا ذرية من بعدهم** ﴾ لا نهتدى إلى الحق ، ولا نعرف الصواب ﴿ **أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، واقتفائنا آثار سلفنا ، بين الله سبحانه فى هذه الحكمة التى لأجلها أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم، لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ، ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة: ﴿ **وكذلك** ﴾ أى ومثل ذلك التفصيل ﴿ **نفصل الآيات ولعلهم يرجعون** ﴾ إلى الحق ، ويتركون ما هم عليه من الباطل .

وقد أخرج مالك فى الموطأ، وأحمد فى المسند ، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان فى صحيحه ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة ؛ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ **وإذ أخذ ربك** ﴾ الآية، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال : « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال: « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله النار » (١) .

---

(١) مالك فى القدر (٢) وأحمد ١/ ٤٤ ، ٤٥ والبخارى فى التاريخ ٨/ ٩٦ ، ٩٧ وأبو داود فى السنة (٤٧٠٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٧٥) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٢١٠) وابن جرير ٣/ ٧٧، ٧٨ وابن حبان (٦١٣٣) وصححه الحاكم ١/ ٢٧ على شرط الشيخين ، وقال الذهبى : « فيه إرسال » وصححه ٢/ ٣٢٥ على شرط مسلم ، وسكت عنه الذهبى وصححه ٣/ ٥٤٥ على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبى وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٥٧ وقال : « فيه إرسال » .

وأخرج أحمد وابن جرير [١] والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان ،يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها [٢] فنثرها [٣] بين يديه،ثم كلمهم فقال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ **المبطلون** ﴾ »[٤] وإسناده لا مطعن فيه. وقد أخرجه ابن أبى حاتم موقوفاً عن ابن عباس .

وأخرج ابن جرير ، وابن منده فى كتاب « الرد على الجهمية » عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم** ﴾ قال : « أخذهم من ظهره كما يأخذ المشط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة : ﴿ **شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ » وفى إسناده أحمد بن أبى طيبة [٥] أبو محمد الجرجانى قاضى قومس كان أحد الزهاد ، وأخرج له النسائى فى سننه [٦] .و قال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه . وقال ابن عدى :حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر. وهؤلاء أئمة ثقات.

وأخرج عبد بن حميد ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ قال :« لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين بيمينه ، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدى الرحمن يمين ، فقال: يا أصحاب اليمين. فاستجابوا له فقالوا : لبيك ربنا وسعديك . قال : ألست بربكم. قالوا بلى . . . » الحديث [٧] . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، بعضها مقيد بتفسير هذه الآية ، وبعضها مطلق يشتمل على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ العهد عليهم ، كما فى حديث أنس مرفوعاً فى الصحيحين وغيرهما .

وأما المروى عن الصحابة فى تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه فى عالم الذر ، وأخذ العهد عليهم ، وإشهادهم على أنفسهم ، فهى كثيرة ، منها عن ابن عباس عند عبد بن

---

(١) فى المطبوعة : « أحمد والنسائى وابن جرير » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) « ذرأها » : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا إذا خلقهم .

(٣) فى الطبوعة : « فنشرها » والصحيح : « فنثرها » بالثاء ، كما فى مراجع التخريج ، ونثرها : أى رمى بها .

(٤) أحمد ١/ ٢٧٢ والنسائى فى التفسير (٢١١) وابن جرير ٩/ ٧٥ وصححه الحاكم ١/ ٢٧ ، ٢٨ وأقره الذهبى وقال : « احتج مسلم بكلثوم بن جبير » والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٥٨ وقال الهيثمى عن حديث أحمد فى المجمع ٧/ ٢٨ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) فى المطبوعة : « ابن أبى ظبية » ، والصواب : « ابن أبى طيبة » كما أثبتناه من المخطوطة ، وانظر : ترجمته فى التهذيب ١/ ٣٩ وفى التقريب ص ٨٠ (٥٢) .

(٦) ابن جرير ٣/ ٧٧ .

(٧) الطبرانى (٨٩٤٠ ، ٨٩٤٣) وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٩٢ إليه فى الأوسط أيضا ، وقال : « فيه جعفر ابن الزبير ، وهو ضعيف » .

حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ... ﴾ الآية ، قال : خلق الله آدم ، وأخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله، ورزقه، ثم أخرج ولده من ظهره ، كهيئة الذر ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم ، وكتب آجالهم ، وأرزاقهم ، ومصيباتهم . وأخرج نحوه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وأخرج نحوه عنه أيضاً ابن جرير ، وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبدالرزاق وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن منده . وهذا المعنى مروى عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ الآية ، قال : أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس . وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، فى تفسير الآية نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد [١] المسند ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن منده وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة ، وابن عساكر فى تاريخه عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ الآية ، قال: جمعهم جميعاً ، فجعلهم أرواحاً فى صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، ثم أشهدهم على أنفسهم [٢] .

وقد روى عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره ، وفيما قاله رسول الله ﷺ فى تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغنى عن التطويل .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **واتل** ﴾ معطوف على الأفعال المقدرة فى القصص السابقة . وإيراد هذه القصة منه سبحانه ، وتذكير أهل الكتاب بها ؛ لأنها كانت مذكورة عندهم فى التوراة .

وقد اختلف فى هذا الذى أوتى الآيات ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ فقيل : هو بلعم بن باعوراء ،

---

(١) فى المطبوعة : «رواية »، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ٣٥١(١٤٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٨ : « رواه عبد الله بن أحمد عن شيخه محمد بن يعقوب الربالى، وهو مستور ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وصحح الحاكم إسناده ٢/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ووافقه الذهبى .

وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة . وقيل : كان قد أوتى النبوة ، وكان مجاب الدعوة . بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان ، فأعطوه الأعطية الواسعة ، فاتبع دينهم ، وترك ما بعث به . فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل لقتال الجبارين ، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى ، فقام ليدعو عليه ، فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه ، فقيل له فى ذلك فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون . واندلع لسانه على صدره ، فقال : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة ، وسأمكر لكم ، وإنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم ، فإن الله يبغض الزنا ، فإن وقعوا فيه هلكوا ، فوقع بنو إسرائيل فى الزنا ، فأرسل الله عليهم الطاعون ، فمات منهم سبعون ألفاً . وقيل : إن هذا الرجل اسمه باعم ، وهو من بنى إسرائيل . وقيل : المراد به أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً فى ذلك ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به. وقيل : هو أبو عامر بن صيفى ، وكان يلبس المسوح فى الجاهلية ، فكفر بمحمد ﷺ . وقيل :نزلت فى قريش آتاهم الله آياته التى أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها . وقيل : نزلت فى اليهود والنصارى ، انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به .

قوله : ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ أى من هذه الآيات التى أوتيها ، كما تنسلخ الشاة عن جلدها ، فلم يبق له بها اتصال ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ عند انسلاخه عن الآيات ، أى لحقه فأدركه ، وصار قريناً له،أو : فأتبعه خطواته ، وقرئ : « فاتَّبعه » بالتشديد بمعنى تبعه ﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ المتمكنين فى الغواية ، وهم الكفار .

قوله : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ : الضمير يعود إلى الذى أوتى الآيات، والمعنى :لوشئنا رفعه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها ، أى بسببها ، ولكن لم نشأ ذلك ، لانسلاخه عنها ، وتركه للعمل بها . وقيل : المعنى : ولو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى، فرفعناه إلى الجنة بها ، أى بالعمل بها . ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ أصل الإخلاد اللزوم . يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه (١) ، والمعنى هنا : أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها ، وآثرها على الآخرة . ﴿ **واتبع هواه** ﴾ أى اتبع ما يهواه ، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذى علمه الله ، وهو حطام الدنيا . وقيل : كان هواه مع الكفار . وقيل : اتبع رضا زوجته ، وكانت هى التى حملته على الانسلاخ من آيات الله .

قوله : ﴿ **فمثله كمثل الكلب** ﴾ أى فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها ، منحطاً

---

(١) ومنه قول الشاعر زهير :

لمن الديار غشيتها بالفرقد كالرحى فى حجر المسيل المخلد

يعنى : المقيم ، ومنه قول مالك بن نويرة :

بأبناء حى من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

راجع : الأصمعيات ٣٢٣ من قصيدة قالها فى يوم مخطط .

إلى أسفل رتبة ، مشابهاً لأخس الحيوانات فى الدناءة ، مماثلاً له فى أقبح أوصافه ، وهو أنه يلهث فى كلا حالتى قصد الإنسان له وتركه . فهو لاهث ، سواء زجر أو ترك ، طرد أو لم يطرد ، شد عليه أو لم يشد عليه ، وليس بعد هذا فى الخسة والدناءة شىء . وجملة: ﴿ **إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مثله كمثل الكلب ، حال كونه متصفاً بهذه الصفة ، والمعنى : أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية فى جميع أحواله ، سواء وعظه الواعظ ، وذكره المذكر ، وزجره الزاجر ، أو لم يقع شىء من ذلك .

قال القتيبى : كل شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة ، وحال المرض وحال الصحة ، وحال الرى وحال العطش . فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، فقال: إن وعظته ضل ، وإن تركته ضل ، فهو كالكلب : إن تركته لهث ، وإن طردته لهث ، كقوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ [الأعراف:١٩٣] واللهث : إخراج اللسان لتعب ، أو عطش، أو غير ذلك . قال الجوهرى : لَهَثَ الكلب ، بالفتح ، يَلْهَث لَهْثاً ولُهاثاً ، بالضم ، إذا أخرج لسانه من التعب ، أو العطش . وكذلك الرجل إذا أعيا . قيل : معنى الآية : إنك إذا حملت على الكلب،نبح وولى هارباً،وإن تركته شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ، ومدبراً عنك ، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان .

والإشارة بقوله ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة،وهو مبتدأ وخبره: ﴿ **مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود،بعد أن علموا بها وعرفوها ، فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ ، وكذبوا بها . ﴿ **فاقصص القصص** ﴾ (١) أى فاقصص عليهم هذا القصص ، الذى هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات ، فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فى ذلك ويعملون فيه أفهامهم ، فينزجرون عن الضلال ، ويقبلون على الصواب .

قوله: ﴿ **ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم ، البالغة فى القبح إلى الغاية ، يقال : ساء الشىء : قَبُح ، فهو لازم . وساءه يسوؤه مساءة ، فهو مُتَعَدٍّ ، وهو من أفعال الذم كبئس ، وفاعله ضمير مستتر فيه و﴿ **مثلاً** ﴾ تمييز مفسر له ،

---

(١) القصص : تتبع الأثر ، يقال : قصصت أثره ، والقصص : الأثر قال تعالى : ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ [الكهف : ٦٤] وقال تعالى: ﴿**وقالت لأخته قصيه** ﴾ [القصص : ١١] والقصص : الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق** ﴾[آل عمران : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾[يوسف : ١١١] . والقِصاص : تتبع الدم بالقود قال تعالى :﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ [البقرة: ١٧٩] والقص : الجص ، ونهى رسول الله ﷺ عن تقصيص القبور .

والمخصوص بالذم هو ﴿ **الذين كذبوا بآياتنا** ﴾. ولابد من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة ، أى ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا . وقال الأخفش : جعل المثل القوم مجازاً . والقوم مرفوع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ ، التقدير : ساء المثل مثلاً هو مثل القوم ، كذا قال. وقدره أبو على الفارسى: ساء مثلاً مثل القوم،كما قدمنا .وقرأ الجحدرى والأعمش : « ساء مثل القوم » .

قوله : ﴿ **وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ أى ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم ، لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ، ولا يتجاوزها . والجملة معطوفة على التى قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله ، وظلم أنفسهم . ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى** ﴾ لما أمر به ، وشرعه لعباده . ﴿ **ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ الكاملون فى الخسران،من هداه فلا مضل له ، ومن أضله فلا هادى له ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وقد أخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبوالشيخ، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا** ﴾ قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن أبر (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء . وفى لفظ بلعام بن باعر (٢) الذى أوتى (٣) الاسم كان فى بنى إسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا** ﴾ قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم ، تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد (٤) ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ، ومن معه. قال : إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ، مضت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى دعا الله ، فسلخ ما كان فيه ، وفى قوله : ﴿ **إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ قال : إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير ، كالكلب إن كان رابضاً لهث ، وإن يطرد لهث (٥) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها واحدة . قال : فلك واحدة ، فما الذى تريدين . قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ،

---

(١) فى المطبوعة « آبز » بالمد وبالزاى ، والصواب « أبر » بالهمز وبالراء ، كما أثبتناه من المخطوطة . والحديث أخرجه النسائى فى التفسير (٢١٣) وابن جرير ٩/ ٨٢ والحاكم ٢/ ٣٢٥ والطبرانى (٩٠٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٨ : « رجاله رجال الصحيح » ، وليس عند النسائى «ابن أبر» .

(٢) انظر: فى تسميته وأدلة كل اسم الخبر (٥٩٤) من كتاب المستفاد من مبهمات المتن والإسناد ، لأبى زرعة بن العراقى . تحقيق الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر . ط : دار الوفاء .

(٣) فى المطبوعة : « أولى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) يقال : فلانٌ حديد : أى كثير الغضب وسريعه ، فيه حدة .

(٥) ابن جرير ٩/ ٨٢ .

فدعا الله ،فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها،رغبت عنه ، وأرادت شيئاً آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة ، يعايرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليه ، فدعا الله ، فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث ، وسميت البسوس (١) .

وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو فى الآية قال : هو أمية بن أبى الصلت الثقفى . وفى لفظ : نزلت فى صاحبكم أمية بن أبى الصلت (٢). وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الشعبى فى هذه الآية قال : قال ابن عباس : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له: بلعام بن باعوراء . وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق . وكانت ثقيف تقول : هو أمية بن أبى الصلت . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : هو صيفى بن الراهب .وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ قال : نزع منه العلم . وفى قوله : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ قال : رفعه الله بعلمه . وأخرج مسلم والنسائى ، وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ فى خطبته ، يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله ، ثم يقول : « من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له ، أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » ثم يقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » (٣) .

﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩)** ﴾ .

﴿ **ولقد ذرأنا** ﴾ أى خلقنا . وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ﴿**لجهنم**﴾ أى للتعذيب بها ﴿ **كثيراً** ﴾ أى خلقاً كثيراً ﴿ **من الجن والإنس** ﴾ أى من طائفتى الجن والإنس ، جعلهم سبحانه للنار بِعَدْلِه ، وبعمل أهلها يعملون . وقد علم

(١) أورده ابن كثير بإسناد ابن أبى حاتم ٣/ ٢٥٢ وقال : « حديث غريب » وأخرجه ابن بشكوال فى غوامض الأسماء المبهمة (٢٣١) .
(٢) النسائى فى التفسير (٢١٢ ، ٢١٤) وابن جرير ٩/ ٨٣ وإسناده صحيح .
(٣) مسلم فى الجمعة (٨٦٧/ ٤٣) والنسائى فى العيدين ٣/ ١٨٨ ،١٨٩ وابن ماجة فى المقدمة (٤٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ٣٠٩/١.

ما هم عاملون قبل كونهم ، كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة ، ثم وصف هؤلاء فقال : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ كما يفقه غيرهم بعقولهم. وجملة: ﴿ **لا يفقهون بها** ﴾ فى محل رفع على أنها صفة لقلوب. وجملة: ﴿ **لهم قلوب** ﴾ فى محل نصب صفة لـ ﴿ **كثيراً** ﴾ ، جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم وإرشادهم غير فاقهة مطلقاً ، وإن كانت تفقه فى غير ما فيه النفع والرشاد ، فهو كالعدم. وهكذا معنى: ﴿ **ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ فإن الذى انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر، والاعتبار، وإن كانت مبصرة فى غير ذلك، والذى انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التى اشتملت عليها الكتب المنزلة ، وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك [(١)]. والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام فى انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنهم أضل منها لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها ، فتنتفع بما ينفع ، وتجتنب ما يضر. وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل وبصر وسمع.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا** ﴾ قال : خلقنا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : خلقنا لجهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم » [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم** ﴾ قال : لقد خلقنا لجهنم ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ قال: لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة . ﴿ **ولهم أعين لا يبصرون بها** ﴾ الهدى. ﴿ **ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ الحق . ثم جعلهم كالأنعام ، ثم جعلهم شراً من الأنعام ، فقال : ﴿ **بل هم أضل** ﴾ ، ثم أخبر أنهم الغافلون.

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾ .

---

(١) ويعرضون عن سماع آيات الله عز وجل ، كما قال الله تعالى حاكيا عنهم : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ [فصلت:٢٦] وقال تعالى : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾ [الكهف : ١٠٠، ١٠١] . والعرب تقول ذلك للتارك بعض جوارحه فيما يصلح له . ومنه قول مسكين الدارمى :

أعمى إذا ما جارتى خرجت ... حتى يوارى جارتى الستر
وأصم عما كان بينهما ... سمعى وما بالسمع من وقر

راجع : أمالى المرتضى ١/ ٤٣ ، ٤٤ ثم ٤٧٤ وخزانة الأدب ١/ ٤٦٨ .

(٢) ابن جرير ٩/ ٩٠ وضعفه الشيخ شاكر فى تحقيقه لتفسير ابن جرير (١٥٤٤٦) وأخرجه ابن النجار فى ذيل تاريخ بغداد فى الترجمة رقم (٥٨٧) ١٨ / ٩٣ .

هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل والحسنى تأنيث الأحسن ، أى التى هى أحسن الأسماء ، لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول ، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة ، فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة ، وقد ثبت فى الصحيح : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها ، دخل الجنة »[(١)] . وسيأتى ، ويأتى أيضاً بيان عددها ، آخر البحث إن شاء الله .

قوله : ﴿ **وذروا الذين يلحدون فى أسمائه** ﴾ الإلحاد : الميل وترك القصد . يقال : لحد الرجل فى الدين ، وألحد : إذا مال . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه فى ناحية ، وقرئ : « يلحدون » وهما لغتان . والإلحاد فى أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه : إما بالتغيير كما فعله المشركون ، فإنهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. ومعنى: ﴿ **وذروا الذين يلحدون** ﴾ : اتركوهم ولا تحاجوهم ، ولا تعرضوا لهم، وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال، وقيل: معناه الوعيد كقوله تعالى: ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : ١١] وقوله :﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ [الحجر : ٣] وهذا أولى لقوله :﴿ **سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ ، فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة ، وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم. وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين؛ أن هذه الآية نزلت فى رجل من المسلمين ، كان يقول فى صلاته : يارحمن يا رحيم ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ حكى ذلك القرطبى[(٢)] .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر »[(٣)]. وفى لفظ ابن مردويه ، وأبى نعيم : « من دعا بها استجاب الله دعاءه »[(٤)] . وزاد الترمذى فى سننه بعد قوله : « يحب الوتر » : « هو الله ، الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ،

---

(١) أحمد ٢/ ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ والبخارى فى التوحيد (٧٣٩٢) وفى الشروط (٢٧٣٦) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦).

(٢) القرطبى ٤/ ٢٧٦١ .

(٣) أحمد ٢/ ٢٥٨ ، ٢٦٧ والبخارى فى الدعوات (٦٤١٠) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧ / ٥ ، ٦) والترمذى (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٧) وقال : «حديث غريب » وابن حبان (٨٠٤ ، ٨٠٥) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦١) وابن جرير ٩/ ٩١ والحاكم ١/ ١٦ وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٢٢، ٦/ ٢٧٤ والبيهقى ١٠ / ٢٧ .

(٤) أبو نعيم فى الحلية ١٠/ ٣٨٠ .

العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الأحد، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . هكذا أخرج الترمذى هذه الزيادة عن الجوزجانى ، عن صفوان ابن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، عن شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد ،عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعة وقال : هذا حديث غريب (١). وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا يعلم فى كثير شىء من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، وابن خزيمة والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق . ورواه ابن ماجة فى سننه من طريق أخرى عن موسى بن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعاً فسرد الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان .

قال ابن كثير فى تفسيره : والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه . وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد ، وسفيان بن عيينة، وأبى زيد اللغوى (٢).

قال : ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قال : « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن ، فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك وأمتك ، ناصيتى بيدك، ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً » . فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ فقال : « بلى،

---

(١) الرواية بذكر الأسامى عند الترمذى وابن ماجة وابن حبان والحاكم ، وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجة ٣/ ٢٠٧ ، ٢٠٨ : « وطريق الترمذى أصح شىء فى هذا الباب . . . وإسناد طريق ابن ماجة ضعيف ، لضعف عبد الملك بن محمد الصنعانى » . وقد انتصر الحاكم لتصحيحه ووافقه الذهبى .

(٢) ابن كثير ٣/ ٢٥٧ .

ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » [١] . وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان فى صحيحه بمثله[٢] انتهى . وأخرجه البيهقى أيضاً فى الأسماء والصفات [٣] .

قال ابن حزم : جاءت فى إحصائها ، يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شىء أصلاً ، وقد أخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ . . . فذكراه . ولا أدرى كيف إسناده .

وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى كلاهما فى الدعاء ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها ، دخل الجنة : أسأل الله ، الرحمن ، الرحيم ، الإله ، الرب ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الحليم ، العليم ، السميع ، البصير ، الحى ، القيوم ، الواسع ، اللطيف ، الخبير ، الحنان ، المنان ، البديع ، الغفور ، الودود ، الشكور ، المجيد ، المبدئ، المعيد ، النور ، البارئ ــ وفى لفظ : القائم ــ الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، العفو ، الغفار ، الوهاب ، الفرد ــ وفى لفظ: القادر ــ الأحد ، الصمد ، الوكيل ، الكافى ، الباقى ، المغيث ، الدائم ، المتعالى ، ذا الجلال والإكرام ، المولى، البصير، الحق ، المتين ، الوارث ، المنير ، الباعث ، القدير ــ وفى لفظ : المجيب ــ المحيى ، المميت ، الحميد ــ وفى لفظ : الجميل ــ الصادق ، الحفيظ ، المحيط ، الكبير ، القريب ،الرقيب ، الفتاح ، التواب ، القديم ، الوتر ، الفاطر ، الرزاق ، العلام ، العلى ، العظيم ، الغنى ، الملك ، المقتدر ، الأكرم ، الرؤوف ، المدبر ، المالك ، القاهر ، الهادى ، الشاكر ، الكريم ، الرفيع ، الشهيد ، الواحد ، ذا الطول ، ذا المعارج ، ذا الفضل ، الخلاق، الكفيل ، الجليل .

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر ، قال : سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التى من أحصاها دخل الجنة ؟ فقال : هى فى القرآن . ففى الفاتحة خمسة أسماء : يا الله ، يا رب ، يا رحمن ،يا رحيم ، ياملك. وفى البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً : يا محيط ، يا قدير ، يا عليم ، يا حكيم ، يا على ، يا عظيم ، يا تواب ، يا بصير، يا ولى، يا واسع ، يا كافى ، يا رؤوف ، يا بديع ، يا شاكر ، يا واحد ، يا سميع، ياقابض، يا باسط ، يا حى ، يا قيوم ، يا غنى ، يا حميد ، يا غفور ، يا حليم ، يا إله ، يا قريب ، يا مجيب ، يا عزيز ، يا نصير ، يا قوى ، يا شديد ، يا سريع ، ياخبير . وفى آل عمران : يا وهاب ، يا قائم ، يا صادق ، يا باعث ، يامنعم ، يا متفضل . وفى النساء :

---

(١) أحمد ١/ ١٩٣وعزاه الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٨٩ لأبى يعلى والطبرانى أيضاً وقال : « ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى ، وقد وثقه ابن حبان » .
(٢) ابن حبان (٨٠٥) .
(٣) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٩ .

يا رقيب، يا حسيب ، يا شهيد ، يا مقيت ، يا وكيل ، يا على ، يا كبير . وفى الأنعام : يا فاطر ، يا قاهر ، يا لطيف ، يا برهان . وفى الأعراف : يا محيى ، يا مميت . وفى الأنفال : يا نعم المولى ، ويا نعم النصير. وفى هود: يا حفيظ ، يا مجيد ، ياودود ، يا فعال لما تريد . وفى الرعد : يا كبير، يا متعالى . وفى إبراهيم : يا منان ، يا وارث . وفى الحجر : يا خلاّق . وفى مريم : يا فرد . وفى طه : ياغفار . وفى قد أفلح : يا كريم . وفى النور : يا حق ، يا مبين . وفى الفرقان : يا هادى . وفى سبأ : يا فتاح . وفى الزمر : يا عالم . وفى غافر : يا قابل التوب ، ياذا الطول ، يا رفيع . وفى الذاريات: يا رزاق ، ياذا القوة ، يا متين . وفى الطور: يا بر . وفى اقتربت: يا مقتدر ، يا مليك . وفى الرحمن : ياذا الجلال والإكرام ، يا رب المشرقين ، يا رب المغربين ، يا باقى ، يا معين ، وفى الحديد : يا أول ، يا آخر ، يا ظاهر ، ياباطن . وفى الحشر : يا ملك ، يا قدوس ، يا سلام ، يا مؤمن ، يا مهيمن ، يا عزيز ، يا جبار ، يا متكبر ، يا خالق ، يا بارئ، يا مصور . وفى البروج : يا مبدئ ، يا معيد . وفى الفجر : يا وتر . وفى الإخلاص : يا أحد ، يا صمد . انتهى .

وقد ذكر ابن حجر فى التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة وتسعين ، ثم سردها فابحثه . ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ : «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها، دخل الجنة ، وهى فى القرآن» .

وأخرج البيهقى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، علمنى اسم الله الذى إذا دعى به أجاب. قال لها: «قومى فتوضئى وادخلى المسجد فصلِّى ركعتين، ثم ادعى حتى أسمع ». ففعلت ؛ فلما جلست للدعاء ، قال النبى ﷺ : «اللهم وفقها » . فقالت : اللهم إنى أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، وأسألك باسمك العظيم الأعظم ، الكبير ، الأكبر ، الذى من دعاك به أجبته ، ومن سألك به أعطيته. قال النبى ﷺ : «أصبتيه أصبتيه» .

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى ، حتى أن ابن العربى فى شرح الترمذى حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وذروا الذين يلحدون فى أسمائه** ﴾ قال : الإلحاد : أن يدعو اللات والعزى فى أسماء الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الإلحاد : التكذيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى الآية ، قال : اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية قال : الإلحاد : المضاهاة [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش أنه قرأ :

(١) وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدول عن القصد، والجور عنه والإعراض، ثم يستعمل فى كل معوج غير مستقيم ؛ ولذلك قيل للَّحْد : القبر (لحد) لأنه فى ناحية منه ، وليس فى وسطه يقال منه : (ألحد فلان يلحد إلحادا) ولحد يلحد لحداً ولحوداً .

﴿ **يلحدون** ﴾ من لحد . وقال : تفسيرها : يدخلون فيها ما ليس منها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : يشركون .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **وممن خلقنا** ﴾ خبر مقدم ، و ﴿ **أمة** ﴾ مبتدأ مؤخر ، و ﴿ **يهدون** ﴾ وما بعده صفة له . ويجوز أن يكون ﴿**وممن خلقنا** ﴾ هو المبتدأ كما تقدم في قوله : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] . والمعنى أن من جملة من خلقه الله أمة يهدون الناس متلبسين بالحق ، أو يهدونهم بما عرفوه من الحق . « و » بالحق ﴿ **يعدلون** ﴾ بينهم. قيل : هم من هذه الأمة . وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين ، كما ورد في الحديث الصحيح [(١)] .

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة ، بين حال من يخالفهم فقال : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ والاستدراج: هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة. والدرج : كف الشيء . يقال : أدرجته ودرجته . ومنه : إدراج الميت في أكفانه . وقيل : هو من الدرجة . فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود . ومنه : درج الصبي : إذا قارب بين خطاه . وأدرج الكتاب : طواه شيئاً بعد شيء . ودرج القوم : مات بعضهم في إثر بعض[(٢)] . والمعنى : سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم . وذلك بإدرار النعم عليهم ، وإنسائهم شكرها ، فينهمكون في الغواية ، ويتنكبون طرق الهداية ، لاغترارهم بذلك ، وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة .

---

(١) أحمد ٤/ ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٥/ ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ والبخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١١) وفي المناقب (٣٦٤٠ ، ٣٦٤١) ومسلم في الإيمان (١٥٦/ ٢٤٧) وفي الإمارة (١٩٢٠/ ١٧٠) ، (١٩٢١/ ١٧١)، (١٩٢٢/ ١٧٢) ، (١٩٢٣/ ١٧٣) ، (١٩٢٤/ ١٧٤) ، (١٩٢٥/ ١٧٥) .

(٢) وقال صاحب الكشاف ٢/ ١٨٢ : الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى :

فَلَوْ كُنتَ في جُبٍّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلّم
لَيَستَدْرجنك القولُ حتى تهرَّه وتعلم أني عنكم غير مُفَحِم

قوله : ﴿ **وأملى لهم** ﴾ معطوف على سنستدرجهم ، أى أطيل لهم المدة وأمهلهم ، وأؤخر عنهم العقوبة . وجملة : ﴿**إن كيدى متين** ﴾ مقررة لما قبلها من الاستدراج والإملاء ، ومؤكدة له . والكيد : المكر . والمتين : الشديد القوى . وأصله من المتن ، وهو اللحم الغليظ الذى على جانب الصلب قال فى الكشاف : سماه [1] كيدا ، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه فى الظاهر إحسان ، وفى الحقيقة خذلان .

والاستفهام فى﴿ **أو لم يتفكروا** ﴾ للإنكار عليهم،حيث لم يتفكروا فى شأن رسول الله ﷺ وفيما جاء به. و«ما » فى ﴿ **ما بصاحبهم** ﴾ للاستفهام الإنكارى،وهى فى محل رفع بالابتداء والخبر ﴿ **بصاحبهم** ﴾ والجنة مصدر،أى وقع منهم التكذيب،ولم يتفكروا أى شىء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون،فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا،وقولهم زوراً وبهتاً. وقيل : إن « ما » نافية،واسمها ﴿ **من جنة** ﴾ وخبرها بصاحبهم ، أى ليس بصاحبهم شىء مما يدّعونه من الجنون ، فيكون هذا رداً لقولهم:﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر: ٦] ويكون الكلام قد تم عند قوله:﴿ **أو لم يتفكروا** ﴾. والوقف عليه من الأوقاف الحسنة. وجملة: ﴿ **إن هو إلا نذير مبين** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ،ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ. والاستفهام فى: ﴿ **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض** ﴾ للإنكار والتقريع والتوبيخ، ولقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر فى الآيات البينة،الدالة على كمال قدرته،وتفرده بالإلهية، والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه . والمعنى : إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ولا نظروا فى مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به ، بل هم سادرون فى ضلالتهم، خائضون فى غوايتهم ، لا يعملون فكراً ، ولا يمعنون نظراً .

قوله : ﴿ **وما خلق الله من شىء** ﴾ أى لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولا فيما خلق الله من شىء من الأشياء كائناً ما كان ، فإن فى كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتفكرين ، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض ، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته .

قوله : ﴿ **وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم** ﴾ معطوف على ملكوت . و« **أن** » هى المخففة من الثقيلة . واسمها ضمير الشأن ، وخبرها ﴿ **عسى** ﴾ وما بعدها ، أى أو لم ينظروا فى أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتون عن قريب . والمعنى :أنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم ،فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به، وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به .﴿ **فبأى حديث بعده يؤمنون** ﴾ الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكر والنظر فى الأمور المذكورة ، أى فبأى حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون ؟ وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ مالا يقادر قدره . وقيل : الضمير للقرآن . وقيل : لمحمد ﷺ . وقيل :

---

(١) فى المطبوعة : « سماء » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن الكشاف ٢/ ١٨٢ .

للأجل المذكور قبله .

وجملة : ﴿ **من يضلل الله فلا هادى له** ﴾ مقررة لما قبلها ، أى إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله ، ومن يضلله فلا هادى له ، أى فلا يوجد من يهديه إلى الحق ، وينزعه عن الضلالة البتة ﴿ **ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ . قرئ بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم عطفاً على محل الجزاء . وقرئ بالنون. ومعنى يعمهون : يتحيرون . وقيل : يترددون ، وهو فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق** ﴾ قال: ذكر لنا أن النبى ﷺ قال : « هذه أمتى بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون » (١) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : بلغنا أن نبى الله ﷺ كان يقول إذا قرأها : « هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ، ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : ١٥٩] » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل » .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ يقول : سنأخذهم من حيث لا يعلمون . قال : عذاب بدر . وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن المثنى فى الآية قال : كلما أحدثوا ذنباً ، جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن سفيان فى الآية ، قال : نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن ثابت البنانى ؛ أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين .

وأخرج أبو الشيخ فى قوله : ﴿ **وأملى لهم** ﴾ يقول : أكف عنهم . ﴿ **إن كيدى متين** ﴾ إن مكرى شديد . ثم نسخها الله فأنزل: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كيد الله العذاب والنقمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قام على الصفا ، فدعا قريشاً فخذا فخذا ، يا بنى فلان ،يا بنى فلان ، يحذرهم بأس الله ، ووقائع الله ، حتى قال قائل : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوت حتى أصبح ، فأنزل الله: ﴿ **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين** ﴾ (٣) .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ

(١، ٢) ابن جرير ٩/ ٩٢ . (٣) ابن جرير : ٩/ ٩٣.

اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) ﴾.

قوله : ﴿ **يسألونك عن الساعة** ﴾ السائلون : هم اليهود . وقيل : قريش . والساعة : القيامة . وهى من الأسماء الغالبة ، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة ، أو لسرعة حسابها . و ﴿ **أيَّان** ﴾ ظرف زمان مبنى على الفتح . قال الراجز:

أيان تقضى حاجتى أيانا   أما ترى لنجحها أوانا (١)

ومعناه معنى متى . واشتقاقه من أى . وقيل : من أين . وقرأ السلمى : « إيان » بكسر الهمزة ، وهو فى موضع رفع على الخبر . و ﴿ **مرساها** ﴾ المبتدأ عند سيبويه . و ﴿ **مرساها** ﴾ بضم الميم ، أى وقت إرسائها من أرساها الله ،أى أثبتها ،وبفتح الميم من رست، أى ثبتت . ومنه : ﴿ وقدور راسيات ﴾ [سبأ : ١٣] ومنه رسا الجبل . والمعنى : متى يرسيها الله ، أى يثبتها ويوقعها . وظاهر ﴿ **يسألونك عن الساعة** ﴾ أن السؤال عن نفس الساعة . وظاهر ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أن السؤال عن وقتها ، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها فى الوقت المعين لذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله : ﴿ **قل إنما علمها عند ربى** ﴾ أى علمها باعتبار وقوعها عند الله ، لا يعلمها غيره ولا يهتدى إليها سواه . ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ أى لا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه . والتجلية : إظهار الشىء ، يقال : جلى لى فلان الخبر : إذا أظهره وأوضحه . وفى استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة ، وتدبير بليغ ، كسائر الأشياء التى أخفاها الله واستأثر بعلمها . وهذه الجملة مقررة لمضمون التى قبلها.

قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قيل : معنى ذلك أنه لما خفى علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة ؛ لأن كل ما خفى علمه ثقيل على القلوب . وقيل : المعنى : لا تطيقها السموات والأرض لعظمها ، لأن السماء تنشق،والنجوم تتناثر ، والبحار تنضب.وقيل : عظم وصفها عليهم . وقيل : ثقلت المسألة عنها . وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أيضاً .

---

(١) عند الطبرى (إيَّانا) بدلا من (أوانا) . وراجع مجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢٣٤ واللسان (أين) و إياناً هو: زمن الشىء ووقته الذى يصلح فيه، أو يكون فيه .

﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ إلا فجأة على غفلة . والبغتة مصدر فى موضع الحال . وهذه الجملة كالتى قبلها فى التقرير .

قوله : ﴿ **يسألونك كأنك حفى عنها** ﴾ قال ابن فارس : الحفى : العالم بالشىء . والحفى : المستقصى فى السؤال. ومنه قول الأعشى :

فإن تسألى عنى فيا رب سائل حفى عن الأعشى به حيث أصعدا (١)

يقال : أحفى فى المسألة وفى الطلب ، فهو محف . وحَفِى على التكثير مثل مُخصب وخصيب . والمعنى : يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها ، أو كأنك (٢) مستقص للسؤال عنها ، ومستكثر منه . والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال ، أى يسألونك مشبهاً حالك حال من هو حفى عنها . وقيل : المعنى : يسألونك عنها كأنك حفى بهم ، أى حفى ببرهم ، وفرح بسؤالهم . والأول هو معنى النظم القرآنى على مقتضى المسلك العربى .

قوله :﴿ **قل إنما علمها عند ربى** ﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقاً ، لتقرير الحكم وتأكيده . وقيل : ليس التكرير . بل أحدهما معناه الاستئثار بوقوعها ، والآخر الاستئثار بكنهها نفسها . ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ باستئثار الله بهذا ، وعدم علم خلقه به ، لم يعلمه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

قوله : ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله** ﴾ هذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ، ومتى تقع ، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له ، أو دفع ضر عنه إلا ما شاء الله ـ سبحانه من النفع له ، والدفع عنه ، فبالأولى ألا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه ، وفى هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التى ليست من شأن العبيد ، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له ﷺ ما فيه أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، لمن يدعى لنفسه ما ليس من شأنها ، وينتحل علم الغيب بالنجامة ، أو الرمل ، أو الطرق بالحصا ، أو الزجر . ثم أكد هذا وقرره بقوله : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ أى لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسى ، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسنى ، ولكنى عبد لا أدرى ما عند ربى ، ولا ما قضاه فىَّ ، وقدره لى، فكيف أدرى غير ذلك وأتكلف علمه؟ وقيل:المعنى: لوكنت أعلم ما يريد الله عز وجل منى من قبل أن يعرفنيه لفعلته.وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب ، لقاتلت فلم أغلب. وقيل : لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه.والأولى حمل الآية على العموم فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها. وقد قيل:إن ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ كلام مستأنف ، أى

---

(١) راجع : الصحاح ٦/ ٢٣١٦ وفيه : الإحفاء : الاستقصاء فى الكلام والمنازعة ، ومنه قول الحارث بن حلزة اليشكرى :

إن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا فى قيلهم إحفاء

(٢) فى المخطوطة : « كأنه » ، و الصواب ما أثبتناه من سياق المعنى .

ليس بى ما تزعمون من الجنون. والأولى أنه متصل بما قبله. والمعنى: لو علمت الغيب ما مسنى السوء ، ولحذرت عنه، كما قدمنا ذلك .

قوله : ﴿ **إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ أى ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً ، وأبشر بها آخرين ، ولست أعلم بغيب الله سبحانه . واللام فى ﴿ **لقوم** ﴾ متعلق بكلا الصفتين ، أى بشير لقوم ، ونذير لقوم . وقيل: هو متعلق ببشير ، والمتعلق بنذير محذوف ، أى نذير لقوم يكفرون ، وبشير لقوم يؤمنون .

قوله : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده ، وعدم مكافأتهم لها ، مما يجب من الشكر، والاعتراف بالعبودية ،وأنه المنفرد بالإلهية . قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم . وقوله : ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ معطوف على ﴿ **خلقكم** ﴾ أى هو الذى خلقكم من نفس آدم ، وجعل من هذه النفس زوجها . وهى حواء ، خلقها من ضلع من أضلاعه. وقيل : المعنى ﴿ **جعل منها** ﴾ من جنسها كما فى قوله : ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [النحل : ٧٢] والأول أولى . ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ علة للجعل ، أى جعله منها لأجل ﴿ **يسكن إليها** ﴾ ، يأنس إليها ، ويطمئن بها ، فإن الجنس بجنسه أسكن ، وإليه آنس . وكان هذا فى الجنة ، كما وردت بذلك الأخبار . ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما ، فقال : ﴿ **فلما تغشاها** ﴾ والتغشى كناية عن الوقاع ، أى فلما جامعها ، ﴿ **حملت حملاً خفيفاً** ﴾ علقت به بعد الجماع ، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة ، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة ، وعند كونه مضغة أخف مما بعده . وقيل : إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ، ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء لقوله:﴿ **فمرت به** ﴾ أى استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضى فى حوائجها لا تجد به ثقلاً . والوجه الأول أولى لقوله : ﴿ **فلما أثقلت** ﴾ فإن معناه : فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها . وقرئ « فمرت به » بالتخفيف ، أى فجزعت لذلك . وقرئ : « فمارت به » من المور ، وهو المجىء والذهاب . وقيل : المعنى : فاستمرت به . وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس ، ويحيى ابن يعمر. ورويت قراءة « فمارت » عن عبد الله بن عمر . وروى عن ابن عباس أنه قرأ « فاستمرت به » .

قوله :﴿ **دعوا الله ربهما** ﴾ جواب لما، أى دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما . ﴿ **لئن آتيتنا صالحاً** ﴾ أى ولدًا صالحا واللام جواب قسم محذوف ، و ﴿ **لنكونن من الشاكرين** ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط ، أى من الشاكرين لك على هذه النعمة. وفى هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث فى بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما ،

وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب . ﴿ **فلما آتاهما** ﴾ ما طلباه من الولد الصالح ، وأجاب دعاءهما ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ قال كثير من المفسرين : إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها : إن ولدت ولدًا فسميه باسمى فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث [١] . ولو سمى لها نفسه لعرفته، فسمته عبد الحارث [٢] ، فكان هذا شركًا فى التسمية ، ولم يكن شركًا فى العبادة ، وإنما قصدا أن الحارث [٣] كان سبب نجاة الولد ، كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه ، كما قال حاتم الطائى :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا وما فىَّ إلا تلك من شيمة العبد [٤]

وقال جماعة من المفسرين : إن الجاعل شركًا فيما آتاهما هم جنس بنى آدم ، كما وقع من المشركين منهم ، ولم يكن ذلك من آدم وحواء ، ويدل على هذا جمع الضمير فى قوله : ﴿ **فتعالى اللّه عما يشركون** ﴾ وذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى ﴿ **من نفس واحدة** ﴾ من هيئة واحدة ، وشكل واحد . ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ أى من جنسها ﴿ **فلما تغشاها** ﴾ يعنى جنس الذكر جنس الأنثى . وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر فى الآية ، وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين . وقد قدمنا الإشارة إلى نحو هذا وذكرناه أنه خلاف الأولى لأمور منها : ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ بأن هذا إنما هو لحواء . ومنها : ﴿ **دعوا اللّه ربهما** ﴾ فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. وقد قرأ أهل المدينة وعاصم : « شركا » على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع ، وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى . وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف ، أى جعلا له ذا شرك، أو ذوى شرك .

والاستفهام فى ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، أى كيف يجعلون للّه شريكا لا يخلق شيئا ولا يقدر على نفع لهم ، ولا دفع عنهم . قوله : ﴿ **وهم يخلقون** ﴾ عطف على ﴿ **ما لا يخلق** ﴾ والضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئا ، أى وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون . وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك . ﴿ **ولا يستطيعون لهم** ﴾ أى لمن جعلهم شركاء ﴿**نصرًا** ﴾ إن طلبه منهم ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ إن حصل عليهم شىء من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه ، فهو عن نصر غيره أعجز .

(١ـ ٣) فى المطبوعة : « الحرث » بغير مد وفى المخطوطة بالمد ولعل المطبوعة على قاعدة عدم إثبات الألف ،كما فى مخطوطات السابقين من الكتّاب.

(٤) ويقال : إن البيت للمقنع الكندى كما فى ديوان الحماسة ١١٨/٣ والأمالى ٢٧٧/١، ورواية الشطر الثانى :

وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال حمل بن أبى قيس وشمول بن زيد لرسول الله ﷺ : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول . فإنا نعلم ما هى ؟ فأنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمهاعند ربى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (١) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أى متى قيامها ؟ ﴿ **قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ قال : قالت قريش : يا محمد ، أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة ؟ قال : ﴿ **يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله** ﴾ وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « تهيج الساعة بالناس ، والرجل يسقى على ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ،والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلعته فى السوق ، قضاء الله لا تأتيكم إلا بغتة » (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أيان مرساها** ﴾ قال : ﴿ **منتهاها** ﴾ وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ يقول : لا يأتى بها إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قال : ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض . يقول : كبرت عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قال : إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وما يصيب الأرض . وكان ما قال الله سبحانه ، فذلك ثقلها فيهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ قال : فجأة آمنين .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى البعث عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمتها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ يقول : كأنك عالم بها ، أى لست تعلمها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عنه ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ قال : لطيف بها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه أيضا ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ،

---

(١) ابن هشام ٢/ ٢١٠ وابن جرير ٩/ ٩٤ .
(٢) ابن جرير ٩/ ٩٥ ، وهذا مرسل .

كأنك صديق لهم . قال : لما سأل الناس محمدًا ﷺ عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا حفى بهم ، فأوحى الله إليه ﴿ **إنما علمها عند الله** ﴾ استأثر بعلمها فلم يُطلع ملكا ولا رسولا . وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس يقرأ : «كأنك حفى بها » .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا** ﴾ قال : الهدى والضلالة ،﴿ **ولو كنت أعلم الغيب** ﴾ متى أموت . ﴿ **لا ستكثرت من الخير** ﴾ قال : العمل الصالح . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ قال : لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئا لا ربح فيه . ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ قال : ولا يصيبنى الفقر. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون.

وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والرويانى والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم صححه ، وابن مردويه عن سمرة عن النبى ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال:سميه عبد الحارث ، فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش ، فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » (١) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سمرة فى قوله : ﴿ **فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء** ﴾ قال : سمياه عبد الحارث. وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى بن كعب نحو حديث سمرة المرفوع موقوفًا عليه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : حملت حواء ، فأتاها إبليس فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة ، لتطيعننى أو لأجعلن له قرنى أيل (٢) ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ، ولأفعلن ، يخوفهما ، سمياه

---

(١) أحمد ٥/ ١١ والترمذى فى التفسير (٣٠٧٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. رواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه ، عمر بن إبراهيم شيخ بصرى » وابن جرير ٩/ ٩٩ والحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٤٥ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى، وقال ابن كثير ٣/ ٢٦٤ هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به ، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمرعن أبيه عن سمرة عن الحسن مرفوعا ، فالله أعلم .

الثانى : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر عن أبيه ، حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه .

(٢) الأيل : التَّيس الجبلى . (مجمل اللغة ص ١٠٨) .

عبدالحارث . فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتًا ، ثم حملت فأتاهما أيضا فقال مثل ذلك ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاهما ، فذكر لهما فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث . فذلك قوله : ﴿**جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : كان هذا فى بعض أهل الملل وليس بآدم .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن سمرة فى قوله : ﴿ **حملت حملا خفيفًا** ﴾ لم يستبن ﴿ **فمرت به** ﴾ لما استبان حملها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : فشكت أحملت أم لا ؟ وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أيوب قال : سئل الحسن عن قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : لو كنت عربيا لعرفتها ، إنما هى استمرت بالحمل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **حملت حملا خفيفًا** ﴾ قال : هى النطفة ﴿ **فمرت به** ﴾ يقول : استمرت به . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : فاستمرت به . وأخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران ﴿ **فمرت به** ﴾ يقول : استخفته . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله : ﴿ **لئن آتيتنا صالحًا** ﴾ فقال: أشفق أن يكون بهيمة ، فقالا : لئن آتيتنا بشرًا سويا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية ، قال : غلامًا سويا .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعلا له شركاء** ﴾ قال : كان شريكا فى طاعة ، ولم يكن شريكا فى عبادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ما أشرك آدم ، إن أولها شكر ، وآخرها مثل ضربه لمن بعده . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ هذا فصل من آية آدم، خاصة فى آلهة العرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: هذا فى الكفار يدعون الله ، فإذا أتاهما صالحًا هودًا أو نصرا ، ثم قال : ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون** ﴾ يقول : يطيعون مالا يخلق شيئا ، وهى الشياطين لا تخلق شيئا وهى تخلق . ﴿ **ولا يستطيعون لهم نصرا** ﴾ يقول لمن يدعوهم .

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا

أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم** ﴾ هذا خطاب للمشركين ، أى وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك ، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع ، ودفع الضر ، والنصر على الأعداء . قال الأخفش : معناه وإن تدعوهم ، أى الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . وقيل : المراد من سبق فى علم اللّه أنه لا يؤمن وقرئ : ﴿ **لا يتبعوكم** ﴾ مشدداً ومخففًا . وهما لغتان. وقال بعض أهل اللغة : اتبعه مخففا : إذا مضى خلفه ولم يدركه ، واتبعه مشدداً : إذا مضى خلفه فأدركه . وجملة ﴿ **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها . أى دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء ، لا فرق بينهما لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ، ولا يسمعون ، ولا يجيبون . وقال : ﴿ **أم أنتم صامتون** ﴾ مكان أصمتم لما فى الجملة الإسمية من المبالغة (١) وقال محمد بن يحيى : إنما جاء بالجملة الإسمية لكونها رأس آية ، يعنى : لمطابقة ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ وما قبله .

قوله : ﴿ **إن الذين تدعون من دون اللّه عباد أمثالكم** ﴾ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد للّه كما أنتم عباد له ، مع أنكم أكمل منهم ، لأنكم أحياء تنطقون وتمشون ، وتسمعون ، وتبصرون . وهذه الأصنام ليست كذلك ، ولكنها مثلكم فى كونها مملوكة للّه ، مسخرة لأمره . وفى هذا تقريع لهم بالغ ، وتوبيخ لهم عظيم. وجملة : ﴿ **فادعوهم فليستجيبوا لكم** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم ، وأنهم لا يستطيعون شيئا ، أى ادعوا هؤلاء الشركاء ، فإن كانوا كما تزعمون ﴿ **فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **ألهم أرجل** ﴾ ؟ وما بعده للتقريع والتوبيخ ، أى هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شىء من الآلات التى هى ثابتة لكم فضلا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم . فإنهم كما ترون هـذه الأصنـام التى تعكفـون علـى عبادتها ليست لهم ﴿ **أرجل** ﴾ يمشون بها فى نفع أنفسهم فضلا عن أن يمشوا فى نفعكم ، وليس ﴿ **لهم أيد يبطشون بها** ﴾ كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس ﴿ **لهم أعين يبصرون بها** ﴾ كما تبصرون، وليس ﴿ **لهم آذان يسمعون بها** ﴾ كما تسمعون . فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات ، وبهذه المنزلة من العجز و« أم » فى هذه المواضع هى المنقطعة التى بمعنى بل

---

(١) قال ابن جرير : عطف بقوله : ﴿ **صامتون** ﴾ وهو اسم على قوله : ﴿ **أدعوتموهم** ﴾ : وهو فعل ماض ولم يقل : « أم صمتم » كما قال الشاعر :

سواء عليك النفر أم بت ليلة ... بأهل القباب من نمير بن عامر

والهمزة كما ذكره أئمة النحو . وقرأ سعيد بن جبير : « إن الذين تدعون » بتخفيف « إن » ونصب « عبادًا » أى ما الذين تدعون ﴿ من دون اللّه عبادا أمثالكم ﴾ أى إعمال إن النافية عمل ما الحجازية . وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع فى خبرها . وبأن الكسائى قال : إنها لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى « ما » إلا أن يكون بعدها إيجاب كما فى قوله : ﴿ إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ [الملك : ٢٠] والبطش : الأخذ بقوة . وقرأ أبو جعفر « يبطشون » بضم الطاء . وهى لغة . ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعاور (١) وجوه النقص والعجز لها من كل باب ، أمره اللّه بأن يقول لهم : ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر . ﴿ ثم كيدون ﴾ أنتم وهم جميعًا بما شئتم من وجوه الكيد ﴿ فلا تنظرون ﴾ أى فلا تمهلونى ، ولا تؤخروا (٢) إنزال الضرر بى من جهتها . والكيد : المكر . وليس بعد هذا التحدى لهم ، والتعجيز لأصنامهم شىء.

ثم قال لهم : ﴿ إن ولیی اللّه الذى نزل الكتاب ﴾ أى كيف أخاف هذه الأصنام التى هذه صفتها ولى ولِىٌّ ألجأ إليه وأستنصر به وهو اللّه عز وجل ﴿ الذى نزل الكتاب ﴾ وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها . وولى الشىء وهو الذى يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ أى يحفظهم وينصرهم ، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم. قال الأخفش : وقرئ: « إن ولى اللّه الذى نزل الكتاب » يعنى جبرائيل . قال النحاس : هى قراءة عاصم الجحدرى. والقراءة الأولى أبين لقوله : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ (٣) .

قوله : ﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير ، ولما فى تكرار التوبيخ ، والتقريع من الإهانة للمشركين ، والتنقيص بهم ، وإظهار سخف عقولهم ، وركاكة أحلامهم ، ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ جملة مبتدأة لبيان عجزهم ،أو حالية،أى والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون . والمراد الأصنام أنهم يشبهون الناظرين ، ولا أعين لهم يبصرون بها . قيل : كانوا يجعلون للأصنام أعينا من جواهر مصنوعة ، فكانوا بذلك فى هيئة الناظرين ولا يبصرون . وقيل : المراد بذلك المشركون . أخبر اللّه عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم ، وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : يجاء بالشمس والقمر حتى يلقيا بين يدى اللّه تعالى ، ويجاء بمن كان يعبدهما ، فيقال : ﴿ ادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾

---

(١) تعاور وجوه النقص : يعنى تداولها وجها بعد وجه .

(٢) فى المخطوطة : « ولا تؤخرون » بالرفع ، والصحيح ما أثبتناه على الجزم بلا الناهية .

(٣) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ جهارا غير سر يقول : « إن آل أبى ـ يعنى فلانا ـ ليسوا بأوليائى إنما وليىّ الله وصالح المؤمنين » البخارى فى الأدب (٥٩٩٠) ومسلم فى الإيمان (٢١٥ / ٣٦٦) وأحمد ٤ / ٢٠٣ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وتراهم ينظرون إليك** ﴾ قال : هؤلاء المشركون .

وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾ ما يدعوهم إليه من الهدى .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ لما عدد الله ما عدده من أحوال المشركين ، وتسفيه رأيهم ، وضلال سعيهم ، أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاقهم . يقال: أخذت حقى عفواً ، أى سهلا . وهذا نوع من التيسير الذى كان يأمر به رسول الله ﷺ كما ثبت فى الصحيح أنه كان يقول : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » (١) والمراد بالعفو هنا ضد الجهد . وقيل : المراد : خذ العفو من صدقاتهم ، ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم . وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة . ﴿ **وأمر بالعرف** ﴾ أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمر « بالعُرُف » بضمتين . وهما لغتان . والعرف والمعروف والعارفة : كل خصلة حسنة ترتضيها العقول ، وتطمئن إليها النفوس ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ أى إذا أقمت الحجة فى أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ، ولا تمارهم ، ولا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة . قيل: وهذه الآية هى جملة ما نسخ بآية السيف قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء . وقيل: هى محكمة . قاله مجاهد وقتادة.

قوله : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ** ﴾ النزغ (٢) : الوسوسة . وكذا النغز ، والنخس .

---

(١) أحمد ١/ ٣٦٥ عن ابن عباس ٣/ ١٣١ عن أنس والبخارى فى العلم (٦٩) عن أنس وفى الأدب (٦١٢٥) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٣٢ / ٦) عن أبى موسى .

(٢) نزغ بين القوم نزغا : أفسد وحمل بعضهم على بعض وفى التنزيل العزيز : ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى** ﴾ [يوسف : ١٠٠] . ويقال : نزغ فلانا : اغتابه وذكره بقبيح ، ونزغه إلى المعاصى : حثه .

قال الزجاج : النزغ : أدنى حركة تكون. ومن الشيطان : أدنى وسوسة . وأصل النزغ الفساد . يقال : نزغ بيننا ، أى أفسد . وقيل : النزغ : الإغواء . والمعنى متقارب . أمر اللّه سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك شيئا من وسوسة الشيطان أن يستعيذ باللّه . وقيل : إنه لما نزل قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال النبى ﷺ: « كيف يارب بالغضب ؟ » فنزلت[1] ، وجملة ﴿ **إنه سميع عليم** ﴾ علة لأمره بالاستعاذة ، أى استعذ به والتجئ إليه ، فإنه يسمع ذلك منك، ويعلم به .

وجملة :﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ، أى : إن شأن الذين يتقون اللّه ، وحالهم هو التذكر لما أمر اللّه به من الاستعاذة به ، والالتجاء إليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان وإن كان يسيرا . قرأ أهل البصرة « طيف » وكذا أهل مكة، وقرأ أهل المدينة والكوفة ﴿ **طائف** ﴾ وقرأ سعيد بن جبير « طيف » بالتشديد . قال النحاس : كلام العرب [2] فى مثل هذا « طيف » بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف[3] . قال الكسائى : هو مخفف مثل : ميت وميت .

قال النحاس : ومعناه فى اللغة : ما يتخيل فى القلب ، أو يرى فى النوم . وكذا معنى طائف . قال أبو حاتم : سألت الأصمعى عن طيف فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو مصدرا ، ولكن يكون بمعنى طائف . وقيل : الطيف والطائف معنيان مختلفان. فالأول : التخيل . والثانى : الشيطان نفسه . فالأول من طاف الخيال يطوف طيفا ، ولم يقولوا من هذا طائف . قال السهيلى: لأنه تخيل لا حقيقة له . فأما قوله : ﴿ فطاف عليهم طائف من ربك ﴾ [القلم : ١٩] فلا يقال فيه طيف ؛ لأنه اسم فاعل حقيقة . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف ، فطاف الخيال يطيف قال حسان :

فدع هذا ولكن مَنْ لطيف ... يؤرقنى إذا ذهب العشاء [4]

وسميت الوسوسة طيفا ، لأنها لَمةٌ من الشيطان تشبه لمة الخيال . ﴿ **فإذا هم مبصرون** ﴾ بسبب التذكر ، أى منتبهون . وقيل : على بصيرة . قرأ سعيد بن جبير « تذكروا » بتشديد الذال . قال النحاس : ولا وجه له فى العربية . قوله: ﴿ **وإخوانهم يمدونهم فى الغى** ﴾ قيل :

---

(١) ابن جرير ٩/١٠٦ .
(٢) هذا نص كلام أبى عبيدة فى مجاز القرآن ١/ ٢٣٧ .
(٣) قال كعب بن زهير :

أنى ألم بك الخيال يطيف ... ومطافه لك ذكرة وشعوف

راجع : ديوانه ١١٣ ، ومجاز القرآن الكريم لأبى عبيدة ١/ ٢٣٧ واللسان (طيف) .
(٤) البيت فى قصيدته التى يمدح فيها رسول اللّه ﷺ ويهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . والطيف : الخيال يلم فى النوم ، ويؤرقنى : أى يسهرنى ويذهب بلبى . وقوله : إذا ذهب العشاء : إذا آن النوم ، والعشاء : أول الليل عند ما يخيم الظلام وبعد هذا البيت :

لشعثاء التى قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء

راجع ديوانه : ص ٥٨ ، ٥٩ .

المعنى : وإخوان الشياطين ، وهم الفجار من ضلال الإنس ، على أن الضمير فى إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقا . والمراد به الجنس . فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه. ﴿ **يمدونهم فى الغى** ﴾ أى تمدهم الشياطين فى الغى ، وتكون مددًا لهم . وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين ، لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم. وقيل : إن المراد: بالإخوان: الشياطين ، وبالضمير : الفجار من الإنس ، فيكون الخبر جاريا على من هو له . وقال الزجاج : فى الكلام تقديم وتأخير . والمعنى : ﴿**والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ ﴿ **وإخوانهم يمدونهم فى الغى**﴾ (١) لأن الكفار إخوان الشياطين ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ الإقصار : الانتهاء عن الشىء ، أى لا تقصر الشياطين فى مد الكفار فى الغى . قيل : إن ﴿ **فى الغى** ﴾ متصلا بقوله : ﴿ **يمدونهم** ﴾ وقيل : بالإخوان . والغى : الجهل . قرأ نافع « يمدونهم » بضم حرف المضارعة وكسر الميم . وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة وضم الميم ، وهما لغتان . يقال : مد وأمد . قال مكى : ومد : أكثر. وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة : فإنه يقال إذا كثر شىء شيئا بنفسه مده . وإذا كثره بغيره ، قيل : أمده ، نحو ﴿ **يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة** ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقيل : يقال : مددت في الشر . وأمددت فى الخير . وقرأ عاصم الجحدرى « يمادونهم فى الغى » . وقرأ عيسى بن عمر « ثم لا يقصرون » بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف .

قوله : ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ : اجتبى الشىء بمعنى جباه لنفسه ، أى جمعه ، أى هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسك (٢) . وقيل : المعنى اختلقتها . يقال : اجتبيت الكلام : انتحلته واختلقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك . كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحى هذه المقالة ، فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **إنما أتبع ما يوحى إلى** ﴾ أى لست ممن يأتى بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون ، بل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى فما أوحاه إلى وأنزله على أبلغته إليكم . وبصائر جمع بصيرة ، أى هذا القرآن المنزل علىَّ هو ﴿ **بصائر من ربكم** ﴾ يتبصر بها من قبلها . وقيل: البصائر: الحجج ، والبراهين (٣) . وقال الزجاج: البصائر : الطرق . ﴿ **وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ معطوف على بصائر ، أى هذا القرآن هو بصائر وهدى ، يهتدى به المؤمنون ورحمة لهم .

---

(١) غوى : غيا ، وغواية : انهمك فى الجهل وأمعن فى الضلال وهو خلاف الرشد ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ [النجم:٢] أغواه: أضله وأغراه ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ **ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا** ﴾ [القصص : ٦٣] تغاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر .

(٢) وقيل : لولا اجتبيتها : اخترتها واصطفيتها ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ **ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** ﴾ [آل عمران :١٧٩] يعنى يختار ويصطفى .

(٣) كما قال جل ثناؤه : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ [الجاثية : ٢٠] .

قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ أمرهم اللّه سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له [١] عند قراءته ، لينتفعوا به ، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح . قيل : هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام . ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا . والعام لا يقصر على سببه ، فيكون الاستماع ، والإنصات عند قراءة القرآن فى كل حالة وعلى أى صفة مما يجب على السامع . وقيل : هذا خاص بقراءة رسول اللّه ﷺ للقرآن دون غيره ، ولا وجه لذلك .

﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أى تنالون الرحمة وتفوزون بها ،بامتثال أمر اللّه سبحانه ، ثم أمره اللّه سبحانه أن يذكره فى نفسه . فإن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأدعى للقبول . قيل : المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن ، وغيره من الأذكار التى يذكر اللّه بها . وقال النحاس : لم يختلف فى معنى : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك** ﴾ أنه الدعاء . وقيل : هو خاص بالقرآن ، أى اقرأ القرآن بتأمل وتدبر ، و ﴿ **تضرعًا وخيفة** ﴾ منتصبان على الحال ، أى متضرعًا ، وخائفًا . والخيفة : الخوف . وأصلها خوفة ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وحكى الفراء أنه يقال فى جمع خيفة : خيف . قال الجوهرى: والخيفة : الخوف . والجمع : خيف . وأصله : الواو ، أى خوف .

﴿ **ودون الجهر من القول** ﴾ أى دون المجهور به من القول [٢] ،وهو معطوف على ما قبله ، أى متضرعا وخائفا ، ومتكلمًا بكلام هو دون الجهر من القول . و ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اذكر** ﴾ أى أوقات الغدوات وأوقات الأصائل . والغدو: جمع غدوة [٣] . والآصال : جمع أُصيل .قاله الزجاج والأخفش ، مثل يمين وأيمان . وقيل :الآصال : جمع أُصل . والأُصُل : جمع أصيل فهو على هذا جمع الجمع . قاله الفراء . قال الجوهرى : الأصيل : الوقت من بعد العصر إلى المغرب . وجمعه أُصل وآصال ، وأصائل . كأنه جمع أصيلة ، قال الشاعر :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفنائه بالأصائل [٤]

ويجمع أيضا على أصلان ، مثل : بعير وبعران . وقرأ أبو مجلز : « والإيصال » . وهو

---

(١) الإنصات : السكوت للاستماع ، والإصغاء والمراعاة ، قال الشاعر :

قال الإمام عليكم أمر سيدكم فلم نخالف وأنصتنا كما قالا

القرطبى ٤/ ٢٧٩٠ .

(٢) أى اسمع نفسك كما قال تعالى : ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

(٣) غدا غُدُوا : ذهب وانطلق ، وغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس وجمع الغدوة (غدى) مثل مُدْيَة ومُدى . هذا أصله ، ثم كثر حتى استعمل فى الذهاب والانطلاق أى وقت كان ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « واغد يا أنيسْ» أى وانطلق .

(٤) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين ١/ ١٤١ ومجاز القرآن الكريم ١/ ٢٣٩ والأغانى ٦/ ٥٧ والخزانة ٢/ ٤٧٩، ٥٦٤ .

مصدر . وخص هذين الوقتين لشرفهما . والمراد : دوام الذكر لله . ﴿ **ولا تكن من الغافلين** ﴾ أى عن ذكر الله .

﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ المراد بهم : الملائكة . قال القرطبى : بالإجماع (١) . قال الزجاج: وقال ﴿ **عند ربك** ﴾ والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته ، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده . وقال غيره : لأنهم فى موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله . وقيل : إنهم رسل الله ، كما يقال : عند الخليفة جيش كثير . وقيل : هذا على جهة التشريف والتكريم لهم ومعنى ﴿ **يسبحونه** ﴾ :يعظمونه ، وينزهونه عن كل شين. ﴿ **وله يسجدون** ﴾ أى يخصونه بعبادة السجود التى هى أشرف عبادة . وقيل : المراد بالسجود : الخضوع والذلة . وفى ذكر الملأ الأعلى تعريض لبنى آدم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى وأبو داود والنسائى ، والنحاس فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿**خذ العفو**﴾ الآية ، قال : مانزلت هذه الآية إلا فى اختلاف الناس . وفى لفظه أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس (٣) .

وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى ، قال: لما أنزل الله ﴿ **خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال رسول الله ﷺ:« ما هذا يا جبريل ؟ قال : لا أدرى حتى أسأل العالم . فذهب ثم رجع فقال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك »(٤). وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه (٥) . وأخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال : لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة بن عبد المطلب قال : « والله لأمثلن بسبعين منهم » ، فجاءه جبريل بهذه الآية .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة فى قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال : ما عفا لك من مكارم الأخلاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال : خذ ما عفا من أموالهم ، ما أتوك به من شىء فخذه . وهذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها (٦) . وأخرج ابن جرير ، والنحاس فى ناسخه عن السدى فى الآية قال : الفضل من

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٧٩٢ وقال :« فهو عبارة عن قربهم فى الكرامة لا المسافة » .

(٢) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦٦٧٦) والبخارى فى التفسير (٤٦٤٣) وأبو داود فى الأدب (٤٧٨٧) والنسائى فى التفسير (٢١٥) وابن جرير ٩/ ١٠٤ .

(٣) قال الهيثمى ٧/ ٢٨ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٠٥ وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٣/ ٢٦٧ وقال : « وهذا مرسل على كل حال » .

(٥) أورد ابن كثير رواية ابن مردويه وقال : « روى مرفوعا » .

(٦) ابن جرير ٩/ ١٠٤ .

المال نسخته الزكاة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزلت : ﴿ **خذ العفو** ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « كيف بالغضب يارب؟ » فنزل : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ** ﴾ (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن الذين اتقوا** ﴾ قال : هم المؤمنون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : « إذا مسهم طيف من الشيطان» قال : الغضب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الطيف : الغضب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **تذكروا** ﴾ قال : إذا زلوا تابوا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : الطائف : اللمة من الشيطان . ﴿ **تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ يقول : فإذا هم منتهون عن المعصية ، آخذون بأمر الله ، عاصون للشيطان ﴿**وإخوانهم**﴾ قال : إخوان الشياطين ﴿ **يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون** ﴾ قال : لا الإنس يمسكون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم . ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ يقول : لولا أحدثتها ، لولا تلقيتها فأنشأتها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه :﴿ **وإخوانهم يمدونهم فى الغى**﴾ قال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ يقول : لا يسأمون ﴿**وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ يقول : هلا افتعلتها من تلقاء نفسك .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن** ﴾ الآية ، قال : نزلت فى رفع الأصوات ، وهم خلف رسول الله ﷺ فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : يعنى فى الصلاة المفروضة . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عنه قال :صلى النبى ﷺ فقرأ خلفه قوم فخلطوا ، فنزلت : ﴿ **وإذا قرئ القرآن** ﴾ الآية . فهذه فى المكتوبة . قال : وإن كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والبيهقى عن محمد بن كعب القرظى نحوه وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن مغفل نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن ابن مسعود نحوه أيضا.

وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف ، وصرحوا بأن هذه الآية نزلت فى قراءة الصلاة من الإمام . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى الآية قال : عند الصلاة المكتوبة وعند الذكر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : فى الصلاة

---

(١) المرجع السابق ١٠٦/٩.

وحين ينزل الوحى . وأخرج البيهقى عنه فى الآية أنه قال : هذا فى الصلاة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك** ﴾ الآية ، قال : أمره اللّه أن يذكره ، ونهاه عن الغفلة ، أما بالغدو: فصلاة الصبح ،والآصال : بالعشى. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر ، قال : الآصال ما بين الظهر والعصر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: لا تجهر بذاك ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ بالبكر ، والعشى . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **بالغدو** ﴾ قال: آخر الفجر صلاة الصبح. والآصال : آخر العشى صلاة العصر[١] .

والأحاديث والآثار عن الصحابة فى سجود التلاوة ، وعدد المواضع التى يسجد فيها ، وكيفية السجود، وما يقال فيه مستوفاة فى كتب الحديث والفقه ، فلا نطول بإيراد ذلك ها هنا.

(١) وفيه زيادة : « قال : كل ذلك لها وقت ، أول الفجر وآخره . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ [آل عمران: ٤١] . وقيل : العشى : ميل الشمس إلى المغيب ، والإبكار : أول الفجر » .

تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ، ولم يستثنوا منها شيئا ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء . وقد روى مثل هذا عن ابن عباس . أخرجه النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : سورة الأنفال نزلت بالمدينة. وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله ابن الزبير . وأخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت . وأخرج سعيد بن منصور والبخارى وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى بدر . وفى لفظ : تلك سورة بدر (١) .

قال القرطبى : قال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات من قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ... ﴾ إلى آخر سبع آيات ، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية . وقد كان النبى ﷺ يقرأ بها فى صلاة المغرب كما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن أبى أيوب (٢) . وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبى ﷺ أنه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ .

الأنفال : جمع نَفَل محرَّكاً ، وهو الغنيمة ، ومنه قول عنترة :

إنا إذا احمر الوغى نروى القنا ونعف عند تقاسم الأنفال (٤)

أى الغنائم . وأصل النفل : الزيادة . وسميت الغنيمة به ؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم . أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد. ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف . والنافلة : التطوع لكونها زائدة على الواجب (٥) . والنافلة : ولد الولد ؛ لأنه زيادة على الولد (٦) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٤٥) .

(٢) الطبرانى (٣٨٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ :« رجاله رجال الصحيح » .

(٣) الطبرانى (٤٨٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ : « ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البيت يوجد فى ديوانه من قصيدته المعنونة (من مثل قومى) والتى بدأها بقوله :

عفت الديار وباقى الأطلال ريح الصبا وتقلب الأحوال

وقد جاء فى المخطوطة : « مقاسم » : والصحيح : « تقاسم »كى يستقيم المعنى .

(٥) النافلة : ما زاد على النصيب أو الحق أو الفرض يقال : هو يصلى النافلة وفى التنزيل العزيز: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

(٦) ومنه قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ [الأنبياء : ٧٢] .

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى يوم بدر كما سيأتى بيانه ، فنزع الله ما غنموه من أيديهم ، وجعله لله والرسول ، فقال : ﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أى حكمها مختص بهما ، يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه ، وليس لكم حكم فى ذلك . وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة ، ليس لأحد فيها شىء حتى نزل قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه** ﴾ وثم أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما ، وترك الاختلاف الذى وقع بينهم ، ثم قال : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله . وفيه من التهييج والإلهاب ما لا يخفى ، مع كونهم فى تلك الحال على الإيمان ، فكأنه قال : إن كنتم مستمرين على الإيمان بالله ؛ لأن هذه الأمور الثلاثة التى هى : تقوى الله، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول ، لا يكمل الإيمان بدونها ، بل لا يثبت أصلا لمن لم يمتثلها ، فإن من ليس بمتق ، وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن.

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى الرسول ﷺ ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء . يقول : عن سواء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبادة بن الصامت ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا . فالتقى الناس فهزم الله العدو . فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار فى أرض العدو ، نفل الربع ، وإذا أقبل راجعًا وكل الناس نفل الثلث . وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قوى المسلمين على ضعيفهم(١) .

وأخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى

---

(١) أحمد ٥/٣٢٣ ، ٣٢٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٢٩ : « ورجاله ثقات » وابن جرير ٩/١١٦ وصححه الحاكم ٢/١٣٥ ، ١٣٦ : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/٢٩٢ .

قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من أتاه بشيء نفله من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون ، وتركوا الغنائم خلفهم ، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً ، فقالوا : يا رسول الله ، ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله ﷺ، ونزل : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ الآية . فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « ردوا ما أخذتم ، واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك » فقالوا : قد أنفقنا وأكلنا ، فقال : « احتسبوا ذلك » (١) .

وأخرج أحمد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن سعد ابن أبى وقاص ، قال : قلت : يا رسول الله ، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف. فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لى . ضعه » . فوضعته ، ثم رجعت قلت : عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى ، إذا رجل يدعونى من ورائى . قلت : قد أنزل الله فىَّ شيئًا ؟ قال : «كنت سألتنى هذا السيف وليس هو لى، وإنه قد وهب لى فهو لك». وأنزل الله هذه الآية : ﴿ **يسألونك على الأنفال** ﴾ (٢) ، وفى لفظ لأحمد أن سعداً قال: لما قتل أخى يوم بدر ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة (٣) ، فأتيت به رسول الله ﷺ ثم ذكر نحو ما تقدم (٤) . وقد روى هذا الحديث عن سعد من وجوه أخر .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ (٥) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبى ﷺ بعد إذ نزلت عليه : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ إلا من الخمس ، فإنه نفل يوم خيبر من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى ، وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر ، قال النبى ﷺ : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا » . فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإنا كنا لكم رِدْءاً . ولو كان منكم شيء

(١) عزاه فى المطالب العالية (٣٦٢٨) لإسحاق ، ونقل المحقق عن البوصيرى أنه قال : « رواه إسحاق بسند ضعيف لضعف واصل بن السائب » .

(٢) أحمد ١/ ١٧٨ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٤٠) والترمذى فى التفسير (٣٠٧٩) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢١٦) وابن جرير ٩/ ١١٧ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣١٢ وصححه الحاكم ٢/ ١٣٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٢٩١ .

(٣) فى المطبوعة : « الكنيفة » بالنون ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة بالتاء .

(٤) أحمد ١/ ١٨٠ .

(٥) ابن جرير ٩/ ١١٨ .

للجأتم إلينا . فاختصموا إلى النبى ﷺ فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ الآية ، فقسم النبى ﷺ الغنائم بينهم بالسوية (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : الأنفال : المغانم . كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شىء ما أصاب من سرايا المسلمين من شىء أتوه به . فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئا فأنزل الله: ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال** ﴾ لى جعلتها لرسولى ليس لكم فيها شىء . ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، ثم أنزل الله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية [الأنفال: ٤١] ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذى القربى ، واليتامى، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء ، للفرس سهمان. ولصاحبه سهم ، وللراجل سهم (٢). وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : هى الغنائم ، ثم نسخها : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ الآية .

وأخرج مالك وابن أبى شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل . فأعاد المسألة فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ (٣) الذى ضربه عمر . وفى لفظ : فقال : ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ العراقى . وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: الأنفال : المغانم . أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها ، فيرد القوى على الضعيف. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس ، وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : هو ماشذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، من عبد أو دابة أو متاع ، فذلك للنبى ﷺ يصنع به ما شاء (٥) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا إلى سعيد

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٧٣٧ ، ٢٧٣٨) والنسائى فى التفسير (٢١٧) وابن جرير ٩/ ١١٦ وابن حبان (٥٠٧١) والحاكم ٢/ ١٣٢ وقال : «هذا حديث صحيح فقد احتج البخارى بعكرمة ، وقد احتج مسلم بداود بن أبى هند ولم يخرجاه » وقال الذهبى : « هو على شرط البخارى » ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٣٦ .

(٢) ابن جرير ٩/ ١١٨ والبيهقى ٦/ ٢٩٣ .

(٣) فى المخطوطة : « ضبيع » ، بالضاد المعجمة فى أوله والعين المهملة فى آخره ، والصواب بالصاد المهملة والغين المعجمة على وزن « فعيل » واسمه: صَبِيغ بن عِسْل .

(٤) مالك فى الجهاد ٢/ ٤٥٥ وابن أبى شيبة (١٥١٣٤) وابن جرير ٩/ ١١٥ وقال ابن كثير ٣/ ٢٧٤ : « إسناده صحيح إلى ابن عباس ، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل » .

(٥) ابن جرير ٩/ ١١٤ .

ابن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألونى عن الأنفال ،وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ(١). وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال : ما كانوا ينفلون إلا من الخمس . وروى عبد الرزاق عنه أنه قال : لا نفل فى غنائم المسلمين إلا فى خمس الخمس . وأخرج عبدالرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه ، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الشعبى فى قوله: ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : ما أصابت السرايا (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، والنحاس فى ناسخه عن مجاهد وعكرمة ، قال : كانت الأنفال لله والرسول حتى نسختها آية الخمس : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية [الأنفال : ٤١] (٣).

وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ قال : هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ، وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال . وأخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم ، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ وبين من قاتل وغنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ .

الوجل : الخوف والفزع . والمراد أن حصول الخوف من الله ، والفزع منه عند ذكره هو من شأن المؤمنين الكاملى الإيمان ، المخلصين لله . فالحصر باعتبار كمال الإيمان ، لا باعتبار أصل الإيمان .

قال جماعة من المفسرين : هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله ، يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول . ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال ، ولا بوقت دون وقت ، ولا بواقعة دون واقعة .

والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة ، أو التعبير عن بديع صنعته ، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع ، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون . قيل : والمراد

---

(١) ابن جرير ٩/١١٩ .
(٢) ابن أبى شيبة (١٥١٣٥) .
(٣) ابن جرير ٩/١١٨ .

بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات . وقيل : المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل ؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص (١) . والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه .

﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ لا على غيره . والتوكل على الله : تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور . والموصول فى قوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ فى محل رفع ، على أنه وصف للموصول الذى قبله ، أو بدل منه أو بيان له ، أو فى محل نصب على المدح . وخص إقامة الصلاة والصدقة ؛ لكونهما أصل الخير وأساسه . و« من » فى ﴿ **مما** ﴾ للتبعيض.

والإشارة بقـوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بالأوصـاف المتقدمة ، وهـو مبتدأ وخبره : ﴿ **هم المؤمنون** ﴾ أى إن هؤلاء هم الكاملون الإيمان ، البالغون فيه إلى أعلى درجاته ، وأقصى غاياته . و﴿ **حقاً** ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة: ﴿**هم المؤمنون** ﴾ أى حق ذلك حقا ، أو صفة مصدر محذوف ، أى هم المؤمنون إيماناً حقًا . ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال : ﴿ **لهم درجات** ﴾ أى منازل خير وكرامة وشرف فى الجنة ، كائنة عند ربهم. وفى كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم ، وتعظيم وتفخيم . وجملة :﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ خبر ثان لـ ﴿ **أولئك** ﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر . ﴿ **ومغفرة** ﴾ معطوف على درجات ، أى مغفرة لذنوبهم . ﴿**ورزق كريم** ﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجلت قلوبهم** ﴾ قال : فرقَتْ قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ،ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ فأدوا فرائضه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة (٢) يا شهر بن حوشب ، أما تجد قشعريرة ؟ قلت : بلى . قالت : فادع عندها ، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك .

وأخرج الحكيم الترمذى عن ثابت البنانى ، قال : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين لك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . وأخرج أيضا عن عائشة قالت : ما الوجل فى قلب المؤمن إلا كضرمة (٣)

---

(١) مسألة زيادة الإيمان ونقصانه اختلفت حولها الفرق ، والصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة أنه يزيد وينقص . راجع : فتاوى ابن تيمية ، والعقيدة الطحاوية وغيرهما .

(٢) السعفة ــ بفتحتين ــ : ورق جريد النخل إذا يبس .

(٣) الضرمة : الجمرة ، والنار ، والسعفة فى طرفها نار .

السعفة ، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له : اتق الله . فيجل قلبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **زادتهم إيمانًا** ﴾ قال: تصديقا . وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **زادتهم إيمانا** ﴾ قال : خشية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

وأخرجا عنه فى قوله : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقًا** ﴾ قال : برئوا من الكفر . وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿**حقاً**﴾ قال : خالصاً . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله :﴿ **لهم درجات** ﴾ يعنى : فضائل ورحمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ قال : أعمال رفيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ قال : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه . ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ومغفرة** ﴾ قال : بترك الذنوب . ﴿ **ورزق كريم** ﴾ قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ، قال : إذا سمعتم الله يقول : ﴿ **ورزق كريم** ﴾ فهى الجنة .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ، أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أى مثل إخراج ربك . والمعنى : امضى لأمرك فى الغنائم . ونفل من شئت ، وإن كرهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً . قال : بقى أكثر الناس بغير شىء . فموضع الكاف نصب كما ذكرنا . وبه قال الفراء . وقال أبو عبيدة : هو قسم ، أى والذى أخرجك . فالكاف بمعنى الواو. و« ما » بمعنى الذى . وقال الأخفش سعيد بن مسعدة : المعنى : أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك . وقال عكرمة : المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك .

وقيل : ﴿ كما أخرجك ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لهم درجات ﴾ أى هذا الوعد للمؤمنين حق فى الآخرة . ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ الواجب له، فأنجز وعدك وظفرك بعدوّك ، وأوفى لك . ذكره النحاس واختاره . وقيل: الكاف فى ﴿ كما ﴾ كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده : كما وجهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددًا فأمددتك وقويتك ، وأزحت علتك ، فخذهم الآن فعاقبهم . وقيل : إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجهم للحرب ، ذكره صاحب الكشاف (١) .

و﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : إخراجاً متلبساً بالحق الذى لا شبهة فيه . وجملة : ﴿ وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كما أخرجك فى حال كراهتهم لذلك ؛ لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين إما العير أو النفير ، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة ، والسلامة من القتال ، كما سيأتى بيانه.

وجملة : ﴿ يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾ إما فى محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر . ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين ، وفات العير، وأمرهم بقتال النفير ، ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة ، وأكملنا الأهبة . ومعنى : ﴿ فى الحق ﴾ أى فى القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشىء إلا بإذن الله ، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين . وأن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير . و﴿ بعد ﴾ ظرف ليجادلونك . و﴿ ما ﴾ مصدرية ، أى يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم .

قوله : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ الكاف فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ لكارهون ﴾ أى حال كونهم فى شدة فزعهم من القتال ، يشبهون حال من يساق ليقتل ، وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها لا يشك فيها .

قوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين . وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث بقصد المبالغة . والطائفتان هما : العير والنفير. و﴿ إحدى ﴾ هو ثانى مفعولى ﴿ يعد ﴾ و﴿ أنها لكم ﴾ بدل منه بدل اشتمال. ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها وتغنمون منها ، وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة ، لا يطيقون لكم دفعاً ، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً . وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم .

(١) الكشاف ٢/ ١٩٧ .

قوله : ﴿ **وتودون** ﴾ معطوف على ﴿ **يعدكم** ﴾ من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها. ﴿ **أن غير ذات الشوكة** ﴾ من الطائفتين،وهى طائفة العير ﴿ **تكون لكم** ﴾ دون ذات الشوكة ، وهى طائفة النفير ، أى غير ذات الحد. والشوكة : السلاح . والشوكة : النبت الذى له حد . ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكى السلاح . فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك . والمعنى : وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ، وهى طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال ، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها .

قوله : ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته** ﴾ معطوف على ﴿ **تودون** ﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته ، أى ويريد الله غير ما تريدون ، وهو أن يحق الحق بظاهره ، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة ، وقتلهم لصناديدهم وأسر كثير منهم ، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم ، وراموا دفعكم بها . والمراد بالكلمات : الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة ، ووعدكم منه بالظفر بها . ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ الدابر : الآخر . وقطعه عبارة عن الاستئصال ، والمعنى : ويستأصلهم جميعاً .

قوله : ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله ، أى أراد ذلك ، أو يريد ذلك ليظهر الحق ويرفعه ﴿ **ويبطل الباطل** ﴾ ويضعه ، أو اللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليحق الحق.وقيل : متعلق بـ﴿ **يقطع** ﴾ وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها ؛ لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين . وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له . والمصلحة المترتبة عليه . وإحقاق الحق : إظهاره . وإبطال الباطل : إعدامه . ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [الأنبياء : ١٨] ومفعول ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ محذوف،أى ولو كرهوا أن يحق الحق ، ويبطل الباطل . والمجرمون هم المشركون من قريش ، أو جميع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله ﷺ ، ونحن بالمدينة ، وبلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت فقال : « ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا»، فخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين ، أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاد ، ففعلنا . فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فأخبرنا النبى ﷺ بعدتنا ، فسر بذلك وحمد الله وقال : « عدة أصحاب طالوت » . فقال : « ما ترون فى قتال القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم » . فقلنا : يا رسول الله ، لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للعير ، ثم قال : « ما ترون في قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا

قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] فأنزل الله : ﴿ **كما أخرجك ربك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾ . فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم ، وإما العير ، طابت أنفسنا . ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا ، فقال رسول الله ﷺ :« اللهم إنى أنشدك وعدك». فقال ابن رواحة : يارسول الله ، إنى أريد أن أشير عليك ، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه : إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده . فقال : « يا ابن رواحة ، لأنشدن الله وعده ، فإن الله لا يخلف الميعاد » . فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها رسول الله ﷺ فى وجوه القوم فانهزموا . فأنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ فقتلنا وأسرنا ، فقال عمر : يا رسول الله ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا : يا معشر الأنصار ، إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا. فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال : « ادعوا لى عمر » . فدعى له ، فقال : « إن الله قد أنزل علىَّ : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾ » الآية [الأنفال : ٦٧]. وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » . فقال أبو بكر : يارسول الله ، بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر . ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ، فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن ، لنسيرن معك ،ولا نكونن كالذين قالوا لموسى :﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبى سفيان ، فأحدث الله إليه القتال .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : كذلك يجادلونك فى خروج القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال :السدى فى قوله :﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : خروج

(١) الطبرانى (٤٠٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع : ٦/ ٧٦ « إسناده حسن » وقال محقق الطبرانى : « قلت ليس بحسن لأن فى إسناده ابن لهيعة ، والراوى عنه من غير العبادلة » .

النبى ﷺ إلى بدر ﴿ **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ قال : لطلب المشركين . ﴿**يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ إنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ قال: هى عير أبى سفيان . ودَّ أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم ، وأن القتال صرف عنهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة : ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ أى شأفتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث ، والسير ، والتاريخ مستوفاة ، فلا نطيل بذكرها .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ تستغيثون** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكروا وقت استغاثتكم .وقيل : بدل من : ﴿ **وإذ يعدكم الله** ﴾ معمول لعامله . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ **ليحق الحق** ﴾ والاستغاثة طلب الغوث . يقال : استغاثنى فلان فأغثته . والاسم : الغياث . والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لابد من قتال الطائفة ذات الشوكة ، وهم النفير كما أمرهم الله بذلك ، وأراده منهم ، ورأوا كثرة عدد النفير ، وقلة عددهم ، استغاثوا بالله سبحانه . وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف ، وعدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبى ﷺ لما رأى ذلك ، استقبل القبلة ، ثم مَدَّ يَدَيْهِ فجعل يهتف بربه : « اللهم انجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض »(١) الحديث ﴿ **فاستجاب لكم** ﴾ عطف على ﴿ **تستغيثون** ﴾ داخل معه فى التذكير ، وهو وإن كان مستقبلا فهو بمعنى الماضى . ولهذا عطف عليه ﴿ **استجاب** ﴾ .

قوله : ﴿ **أنى ممدكم بألف من الملائكة** ﴾ أى بأنى ممدكم فحذف حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المفعول . وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول ، أو على أن فى ﴿ **استجاب** ﴾ معنى القول .

قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول . وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل . وانتصابه على الحال . والمعنى على القراءة الأولى : أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض . وعلى القراءة الثانية : أنهم جعلوا بعضهم تابعًا لبعض . وقيل: إن ﴿ **مردفين** ﴾ على القراءتين نعت

(١) مسلم فى الجهاد (١٧٦٣/٥٨) .

لألف . وقيل : إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ﴿ **ممدكم** ﴾ أى ممدكم فى حال إردافكم بألفٍ من الملائكة . وقد قيل : إن ردف وأردف بمعنى واحد . وأنكره أبو عبيدة قال : لقوله تعالى: ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات:٧] ولم يقل المردفة . قال سيبويه : وفى الآية قراءة ثالثة وهى: « مردفين » بضم الراء وكسر الدال مشددة ، وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال ، وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدرى :« بآلاف » جمع ألف ، وهو الموافق لما تقدم فى آل عمران .

والضمير فى ﴿ **وما جعله الله** ﴾ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله : ﴿ **أنى ممدكم** ﴾. ﴿ **إلا بشرى** ﴾ أى إلا بشارة لكم بنصره ، وهو استثناء مفرغ ، أى ما جعل إمدادكم لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر . ﴿ **ولتطمئن به**﴾ أى بالإمداد قلوبكم . وفى هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ، وتطمين قلوبهم، وتثبيتها . واللام فى ﴿ **لتطمئن** ﴾ متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً ، أى ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر . ﴿**وما النصر إلا من عند الله** ﴾ لا من عند غيره ، ليس للملائكة فى ذلك أثر ، فهو الناصر على الحقيقة،وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التى سببها الله لكم ، وأمدكم بها. ﴿ **إن الله عزيز**﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير عن على رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ وفيها أبوبكر، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ما أمد النبى ﷺ بأكثر من هذه الألف التى ذكر الله فى الأنفال ، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشرى .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قال: متتابعين . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ يقول : المدد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضًا فى الآية قال : وراء كل ملك ملك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قال : مجدين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: متتابعين ، أمدهم الله بألف ، ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف. ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى** ﴾ لكم ﴿ **ولتطمئن به قلوبكم** ﴾ قال: يعنى نزول الملائكة . قال : وذكر لنا أن عمر قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا . وأما بعد ذلك فالله أعلم. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **مردفين** ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ يغشاكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذى قبله ، أو بدل ثان من ﴿ **إذ يعدكم** ﴾ أو منصوب بالنصر المذكور قبله . وقيل غير ذلك مما لا وجه له . و﴿ **يغشيكم** ﴾ هى قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه. وهذه القراءة هى المطابقة لما قبلها . أعنى قوله : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ ولما بعدها أعنى : ﴿ **وينزل عليكم** ﴾ فيتشاكل الكلام ويتناسب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « يغشاكم » على أن الفاعل للنعاس . وقرأ الباقون: ﴿**يغشيكم** ﴾ بفتح الغين وتشديد الشين ، وهى كقراءة نافع وأهل المدينة فى إسناد الفعل إلى الله ، ونصب النعاس . قال مكى : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب النعاس لأن بعده ﴿ **أمنة منه**﴾ . والهاء فى ﴿ **منه** ﴾ لله ، فهو الذى يغشيهم النعاس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب ﴿ **أمنة** ﴾ على أنها مفعول له . ولايحتاج فى ذلك إلى تأويل وتكلف ؛ لأن فاعل الفعل المعلل والعلة واحد ، بخلاف انتصابها على العلة باعتبار القراءة الثانية ، فإنه يحتاج إلى تكلف. وأما على جعل الأمنة مصدراً فلا إشكال . يقال : أمن أمنة وأمنا وأماناً . وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهى أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه ، سكن الله قلوبهم وأمَّنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها . قيل : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما : أنه قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد . الثانى : أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم . وقيل : إن النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران .

قوله :﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس . وقيل : قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر ، فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لا ماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر. والذى فى سيرة ابن إسحاق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر ، وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم ، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس (١) الوادى ، وأعانهم على المسير (٢) .

(١) الدهس : المكان السهل اللين ليس برمل ولا تراب ولا طين ، والأرض لا يغلب عليها لون الأرض ، ولا لون النبات . اللسان ٦/ ٨٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

ومعنى ﴿ **ليطهركم به** ﴾ : ليرفع عنكم الأحداث ﴿ **ويذهب عنكم رجز الشيطان** ﴾ أى وسوسته لكم ، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت . ﴿**وليربط على قلوبكم** ﴾ فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب . والضمير فى ﴿ **به** ﴾ من قوله : ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ راجع إلى الماء الذى أنزله الله ، أى يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال . وقيل : الضمير راجع إلى الرابط المدلول عليه بالفعل .

قوله : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبى ﷺ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه ، أى واذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة . وقيل : هو بدل من ﴿ **إذ يعدكم** ﴾ كما تقدم. ولكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون ، فلا يكون من جملة النعم التى عددها الله عليهم . وقيل : العامل فيه يثبت، فيكون المعنى يثبت الأقدام وقت الوحى ، وليس لهذا التقييد معنى . وقيل : العامل فيه ﴿ **ليربط** ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء . ومعنى الآية : إنى معكم بالنصر والمعونة . فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿**يوحى**﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول . ومعنى ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾: بشروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، وتكثير سوادهم. وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

قوله : ﴿ **سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران . قيل : هذه الجملة تفسير لقوله : ﴿ **إنى معكم** ﴾ . قوله :﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ قيل: المراد : الأعناق أنفسها. و﴿ **فوق** ﴾ زائدة. قاله الأخفش وغيره .وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن ﴿ **فوق** ﴾ يفيد معنى ، فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقيل : المراد بما فوق الأعناق ؛ الرؤوس . وقيل : المراد بفوق الأعناق أعاليها ؛ لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع . قيل: وهذا أمر للملائكة . وقيل: للمؤمنين. وعلى الأول قيل : هو تفسير لقوله : ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾.

قوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال الزجاج : واحد البنان : بنانة . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء ، والبنان مشتق من قولهم : أبن الرجل بالمكان . إذا أقام به ، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين ، والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب . فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال ، بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وقد كان فى الهيجاء يحمى ذمارها ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال عنترة أيضا :

وإن المـوت طـوع يـدى إذا مـا وصـلـت بـنـانـهـا بـالـهـنـدوانـى

قال ابن فارس : البنان : الأصابع . ويقال : الأطراف ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل ، ودخل فى قلوبهم من الرعب ، وهو مبتدأ . و﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ خبره ، أى ذلك بسبب مشاقتهم . والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق . وقد تقدم تحقيق ذلك . ﴿ **ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ له ، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق .

قوله : ﴿ **ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من العقاب ، أو الخطاب هنا للكافرين ، كما أن الخطاب فى قوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ للنبى ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج : ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة . أى الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه. قال : ويجوز أن يضمر واعلموا . قال فى الكشاف : ويجوز أن يكون نصباً على عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك : زيداً فاضرب به. قال أبو حيان : لا يجوز تقدير : عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماء الأفعال لا تضمر ، وتشبيهه بـ : زيدا فاضربه غير صحيح ؛ لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال . وجملة : ﴿**وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به ، ويكون ﴿ **وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن على قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية ، قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أمنة منه** ﴾ قال : أمنا من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **أمنة منه** ﴾ قال : رحمة منه أمنة من العدو . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ قال : طش (٢) كان يوم بدر . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية ، قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت به أقدامهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء ، وكان الوادى دهسًا ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ، ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : إن المشركين

(١) البيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٩ .

(٢) الطش : المطر القليل وهو فوق الرذاذ . اللسان ٦/ ٣١١.

غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء ، فضحى المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن ، وقال : أتزعمون أن فيكم نبيًا وأنكم أولياء الله ، وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته (١) . وقد قدمنا أن المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء ، بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء . وهذا المروى عن ابن عباس فى إسناده العوفى ، وهو ضعيف جداً.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **رجز الشيطان** ﴾ قال : وسوسته . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وليربط على قلوبكم** ﴾ قال: بالصبر ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ قال: كان بطن الوادى دهاسًا ، فلما مطروا اشتدت الرملة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ قال : حتى تشتد على الرمل ، وهو كهيئة الأرض . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال : كان رسول الله ﷺ يصلى تلك الليلة ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد » ، وأصابهم تلك الليلة مطر شديد ، فذلك قوله : ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ (٢) .

وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال لى أبى : يا بنى ، لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ يقول : الرؤوس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية ﴿**فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ قال : اضربوا الأعناق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿**فاضربوا فوق الأعناق**﴾ يقول: اضربوا الرقاب.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : يعنى بالبنان الأطراف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطية ﴿**واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : كل مفصل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٣١ .
(٢) ابن جرير ٩/ ١٣٠ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

الزحف : الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الإلية . ثم سمى كل ماش فى الحرب إلى آخر زاحفاً . والتزاحف : التدانى والتقارب . تقول : زحف إلى العدو زحفا ، وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض ، وانتصاب ﴿ زحفا ﴾ إما على أنه مصدر لفعل محذوف، أى تزحفون زحفا ، أو على أنه من المؤمنين ، أى حال كونكم زاحفين إلى الكفار ، أو حال من الذين كفروا ، أى حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين، أى متزاحفين .

﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم ، وقد دب بعضهم إلى بعض للقتال ، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال إلا حالة التحرف والتحيز . وقد روى عن عمر وابن عمر(١) وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك ؛ أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختص بيوم بدر . وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ، إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لهم فئة إلا النبى ﷺ. فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . وبه قال أبو حنيفة . قالوا : ويؤيده قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فإنه إشارة إلى يوم بدر . وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف . وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف محرم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر .

وأجيب عن قول الأولين : بأن الإشارة فى ﴿ يومئذ ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه الله فى آية الضعف . ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن فى الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها ، فقد كان فى المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون فى الابتداء أنه سيكون قتال . ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما فى حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات» . وفيه : « والتولى يوم الزحف » (٢) . ونحوه من الأحاديث . وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه ، وهو مبين فى مواطنه . قال ابن عطية :

(١) وحديث ابن عمرحديث حسن تفرد به النسائى فى التفسير (٢٢٠) وقال ابن جرير ٩/ ١٣٥ : « وأولى التأويلين فى هذه الآية بالصواب عندى قول من قال حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين ، وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف لقتال أو لتحيز إلى فئة » .

(٢) الحديث عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٧٦٦) وفى الطب (٥٧٦٤) وفى الحدود (٦٨٥٧) ومسلم فى الإيمان (٨٩/ ١٤٥) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٤) والنسائى فى الكبرى فى الوصايا (٣٦٧١) وفى التفسير (٣٨١) .

والأدبار : جمع دبر . والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة فى الفصاحة لما فى ذلك من الشناعة على الفارّ والذم له .

قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال** ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء ، والمراد به هنا : التحرف من جانب إلى جانب فى المعركة طلبا لمكائد الحرب وخدعا للعدو ، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة.

قوله : ﴿ **أو متحيزا إلى فئة** ﴾ أى إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو . وانتصاب ﴿**متحرفا**﴾ و﴿**متحيزا** ﴾ على الاستثناء من المولين ، أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا . ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له . وجملة : ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ جزاء للشرط ، والمعنى : من ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز . ﴿ **ومأواه جهنم** ﴾ أى المكان الذى يأوى إليه هو النار . ففراره أوقعه إلى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة . والمأوى: ما يأوى إليه الإنسان . ﴿ **وبئس المصير** ﴾ ما صار إليه من عذاب النار . وقد اشتملت هذه الآية على الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف،وفى ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة .

قوله : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أى إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة ، وإيقاع الرعب فى قلوبهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر .

قوله: ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الرمى على أقوال : فروى عن مالك أن المراد به : ما كان منه ﷺ فى يوم حنين ، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادى ، فأصابت كل واحد منهم . وقيل : المراد به : الرمية التى رمى رسول الله ﷺ أُبى بن خلف بالحربة فى عنقه فانهزم ومات منها . وقيل : المراد به السهم الذى رمى به رسول الله ﷺ فى حصن خيبر ، فسار فى الهوى حتى أصاب ابن أبى الحقيق وهو على فراشه .

وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر . وأيضا المشهور فى كتب السير والحديث فى قتل ابن أبى الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة . والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره أن المراد بالرمي المذكور فى هذه الآية: هو ما كان منه ﷺ فى يوم بدر ، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين ، فأصابت كل واحد منهم ودخلت فى عينيه ومنخريه وأنفه (١) .

قال ثعلب : المعنى : ﴿ **وما رميت** ﴾ الفزع والرعب فى قلوبهم ﴿ **إذ رميت** ﴾ بالحصباء فانهزموا . ﴿**ولكن الله رمى** ﴾ أى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هذا أبوعبيدة فى كتاب المجاز . وقال محمد بن

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣١٠ ، ٣١١ .

يزيد المبرد : المعنى : ﴿ **وما رميت** ﴾ بقوتك ﴿ **إذ رميت** ﴾ ولكنك بقوة الله رميت .

وقيل: المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ؛ لأنك لورميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ ؛ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلا . هكذا فى الكشاف (١) .

قوله : ﴿ **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا** ﴾ البلاء هاهنا : النعمة . والمعنى : ولينعم على المؤمنين إنعاما جميلا . واللام متعلقة بمحذوف ، أى وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره . أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها ، أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا . ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ لدعائهم ، عليم بأحوالهم . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى البلاء الحسن ، وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى الغرض ﴿ **ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين** ﴾ أى إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين . وقيل : المشار إليه القتل والرمى . وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين ، وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة ، والكيد : المكر ، وقد تقدم بيانه .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع ؛ أنه سأل ابن عمر قال : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة أمامنا أو عسكرنا ؟ فقال لى: الفئة رسول الله ﷺ ،فقلت: إن الله يقول: ﴿ **إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار** ﴾ قال: إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر ،لا قبلها ولا بعدها (٢). وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره ...** ﴾ الآية ، قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة (٣). وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر ، وأنا فئة لكل مسلم (٤). وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى أهل

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠٧ .

(٢) النسائى فى التفسير (٢٢٠) وإسناده حسن ورجاله ثقات غير حسان بن عبد الله بن سهل الكندى المصرى فهو صدوق يخطئ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٦٤٨) والنسائى فى التفسير (٢٢٣ ، ٢٢٤) وابن جرير ٩/ ١٣٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وابن الجوزى فى نواسخ القرآن ص ٣٤٥، وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

بدر خاصة ، ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه . وقد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال** ﴾ يعنى مستطردا يريد الكرة على المشركين . ﴿ **أو متحيزا إلى فئة** ﴾ يعنى أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة ﴿ **فقد باء بغضب من الله**﴾ يقول : استوجبوا سخطا من الله ﴿ **ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ فهذا يوم بدر خاصة ، كان شديدا على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين ، وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : المتحرف : المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها . والمتحيز : الفار إلى رسول الله ﷺ ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره** ﴾ قال: هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال: ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾(١) الآية [الأنفال: ٦٦].

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب المفرد واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر قال : كنا فى غزاة فحاص الناس حيصة(٢) ، قلنا : كيف نلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا: نحن الفرارون. فقال: « لا ، بل أنتم العكارون »(٣) . فقبلنا يده فقال : « أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ :﴿ **إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة** ﴾ »(٤) .

وقد روى فى تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من الكبائر أحاديث . وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٥) ـ وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عمر (٦) ـ وأخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب (٧) .

(١) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

(٢) حاصوا حيصة: أى جالوا جولة يطلبون الفرار . اللسان ٧/ ١٩.

(٣) والعكارون : العائدون إلى القتال والعاطفون عليه ، يقال : عكرت على الشىء ، أى : عطفت عليه ، وانصرفت إليه بعد الذهاب عنه .اللسان ٤ / ٥٩٩ .

(٤) سعيد بن منصور فى الجهاد (٢٥٣٩) وابن سعد ٤/ ٤٥ وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٣) وأحمد ٢/ ٧٠ وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٧) والترمذى فى الجهاد (١٧١٦) وقال : « هذا حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد » والبيهقى فى الشعب (٤٠٠٢) وقال : « إسناده ضعيف » .

(٥) ابن جرير ٩/ ١٣٥ . (٦) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٩) .

(٧) المرجع السابق فى الجهاد (١٥٥٣٨) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**فلم تقتلوهم**﴾ قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال : هذا قتلت ، وهذا قتلت . ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال : رماهم يوم بدر بالحصباء. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت فى طست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال : « شاهت الوجوه » فانهزمنا . فذلك قوله تعالى : ﴿ **وما رميت إذ رميت. . .** ﴾ الآية [١] .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال : سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فى طست . فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن فى وجوه المشركين فانهزموا ، فذلك قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال : قال رسول الله لعلى : « ناولنى قبضة من حصباء » فناوله ، فرمى بها فى وجوه القوم فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وما رميت إذ رميت**﴾[٢] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب ، قال : لما كان يوم أحد أخذ أبى بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله ﷺ ، واعترض رجال من المسلمين لأبى بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ: « استأخروا » . فاستأخروا ، فأخذ رسول الله ﷺ حربته فى يده ، فرمى بها أبى بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فرجع أبىٌّ ابن خلف إلى أصحابه ثقيلا ، فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون : لا بأس . فقال أبى حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم . ألم يقل : إنى أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه . قال ابن المسيب : وفى ذلك أنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾[٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب والزهرى نحوه . وإسناده صحيح إليهما. وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك[٤] . قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً . ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها . وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتى [٥] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير : أن رسول الله ﷺ [لما

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٣٦ والطبرانى (٣١٢٧ ، ٣١٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٧ : « إسناده حسن » .

(٢) الطبرانى (١١٧٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٧ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) ابن جرير ٩/ ١٣٦ ، ١٣٧ عن الزهرى نحوه .

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٢٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٥) ابن كثير ٣/ ٢٩٢ .

خرج] يؤم ابن أبى الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن . فأقبل السهم حتى قتل ابن أبى الحقيق فى فراشه ، فأنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **ولكن الله رمى** ﴾ أى لم يكن ذلك برميتك لولا الذى جعل الله من نصرك ، وما ألقى فى صدور عدوك حتى هزمهم ﴿ **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا** ﴾ أى ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فى إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ؛ ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته .

﴿ **إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)** ﴾ .

الاستفتاح : طلب النصر . وقد اختلف فى المخاطبين بالآية من هم ؟ فقيل : إنها خطاب للكفار تهكما بهم ، والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر . وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر ، فتهكم الله بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً . ومعنى بقية الآية على هذا القول . ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﴿ **فهو** ﴾ أى الانتهاء ﴿**خير لكم وإن تعودوا** ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿ **نعد** ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم فى يوم بدر . ﴿ **ولن تغنى عنكم فئتكم** ﴾ أى جماعتكم ﴿ **شيئاً ولو كثرت** ﴾ أى لا تغنى عنكم فى حال من الأحوال ولو فى حال كثرتها . ثم قال : ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور . ومن كان الله عليه فهو المخذول . قرئ بكسر :« إن » وفتحها . فالكسر على الاستئناف . والفتح على تقدير : ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك .

وقيل : إن الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى : إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر فى يوم بدر . وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك فهو خير لكم . وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم،كما فى قوله : ﴿لولا كتاب من الله سبق . . . ﴾ الآية [الأنفال : ٦٨] . ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى : ﴿ **ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا** ﴾ ويأباه أيضا : ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف .

وقيل : إن الخطاب فى ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ للمؤمنين ، وما بعده للكافرين ، ولا يخفى ما فى هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية فى الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن

شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه [١] الغداة . فكان ذلك استفتاحًا منه ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ الآية [٢]. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهدى الفئتين ، وأفضل الفئتين ، وخير الفئتين ، فنزلت الآية [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ يعنى المشركين ، أى إن تستنصروا فقد جاءكم المدد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ قال : كفار قريش فى قولهم : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه ، ففتح بينهم يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ قال : إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء فى يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله :﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ قال : عن قتال محمد ﷺ . ﴿**وإن تعودوا نعد** ﴾ قال : إن تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد . ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ قال : مع محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **وإن تعودوا نعد** ﴾ يقول : نعد لكم بالأسر والقتل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾ .

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولى عن رسوله .فالضمير فى ﴿ **عنه** ﴾ عائد إلى الرسول؛ لأن طاعة رسول الله ﷺ هى من طاعة الله . و﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠]. ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله كما فى قوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة : ٦٢] وقيل : الضمير راجع إلى الأمر الذى دل عليه ﴿ **أطيعوا** ﴾ وأصل تولوا : تتولوا ، فطرحت إحدى التاءين . هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين . وبه قال الجمهور .

وقيل : إنه خطاب للمنافقين . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله وصف من خاطبه فى هذه

---

(١) فأحنه أى : أهلكه ، والحَيْنُ ــ : بالفتح هو الهلاك . اللسان ١٣/ ١٣٦ .

(٢) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٢١) وأحمد ٥/ ٤٣١ والنسائى فى التفسير (٢٢١) وابن جرير ٩/ ١٣٨ وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٤ .

(٣) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٢٨) وابن جرير ٩/ ١٣٨ .

الآية بالإيمان ، وهو : التصديق . والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء .

وأبعد من هذا من قال : الخطاب لبنى إسرائيل ، فإنه أجنبى من الآية . وجملة : ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ فى محل نصب على الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين ، وتصدقون بها ولستم كالصم البكم . ﴿ **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا** ﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء ، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل ، فهم كالذى لم يسمع أصلا ؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه .

ثم أخبر سبحانه بـ ﴿ **إن شر الدواب** ﴾ أى ما دب على الأرض ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى حكمه ﴿ **الصم البكم** ﴾ أى الذين لا يسمعون ولا ينطقون . وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق ؛ لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ **الذين لا يعقلون** ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه ، فهم شر الدواب عند الله ؛ لأنها تميز بعض تمييز ، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها .

﴿ **ولو علم الله فيهم** ﴾ أى فى هؤلاء الصم البكم ﴿ **خيراً لأسمعهم** ﴾ سماعا ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين . قال الزجاج : ﴿ **لأسمعهم** ﴾ جواب كل ما سألوا عنه . وقيل : ﴿ **لأسمعهم** ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قصى بن كلاب وغيره ، ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ . ﴿ **ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون . وجملة : ﴿ **وهم معرضون** ﴾ فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**وهم لا يسمعون** ﴾ قال : عاصون [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **إن شر الدواب عند الله** . . . ﴾ الآية . قال : إن هذه الآية نزلت فى فلان وأصحاب له . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إن شر الدواب عند الله** ﴾ قال: هم نفر من قريش من بنى عبد الدار .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ قال : لا يتبعون الحق . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث وقومه . ولعله المكنى عنه « بفلان » فيما تقدم من قول على رضى الله عنه . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم** ﴾ أى لأنفذ لهم قولهم الذى قالوا بألسنتهم ، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم [(٢)] . وأخرج أبوالشيخ عن عكرمة فى الآية قال : قالوا نحن صم عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه ، بكم لا نجيبه فيه

(١) فى المطبوعة : « غاضبون » وفى ابن جرير ٦/ ١٤٠ « عاصون » ، وهو الصواب كما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ٣١١.

بتصديق ، قتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾ .

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة ، ووحد الضمير هنا حيث قال : ﴿ **إذا دعاكم** ﴾ كما وحده فى قوله : ﴿ **ولا تتولوا عنه** ﴾ . وقد قدمنا الكلام فى وجه ذلك . والاستجابة : الطاعة . قال أبو عبيدة : معنى استجيبوا : أجيبوا . وإن كان استجاب يتعدى باللام ، وأجاب بنفسه كما فى قوله : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله ﴾ [الأحقاف : ٣١] وقد يتعدى استجاب بنفسه ،كما فى قول الشاعر (١) :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ **استجيبوا** ﴾ أى استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم ، ولا مانع من أن تكون متعلقة بـ « دعا » ، أى إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة ، فإن العلم حياة ، كما أن الجهل موت . فالحياة هنا مستعارة للعلم . قال الجمهور من المفسرين : المعنى : استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **لما يحييكم** ﴾ : الجهاد ، فإنه سبب الحياة فى الظاهر ؛ لأن العدو إذا لم يغز غزا .

ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان ، ويدع ما خالفه من الرأى وأقوال الرجال . وفى هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة ، وترك التقيد بالمذاهب ، وعدم الاعتداد بما يخالف ما فى الكتاب والسنة كائنا ما كان .

قوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قيل : معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التى تعقلون بها بالموت الذى كتبه الله عليكم. وقيل : معناه : إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا . وقيل : هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق : ١٦] ومعناه : أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية .

واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم،

---

(١) الشاعر : هو كعب بن سعد الغنوى ، قاله يرثى أخاه أبا المغوار .

وأنه يحول بينهم إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته عز وجل . ولايخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى . ﴿ **وأنه إليه تحشرون** ﴾ معطوف على ﴿ **أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ وأنكم محشورون إليه ، وهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً . قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت همزة « إنه » لكان صوابا . ولعل مراده أن مثل هذا جائز فى العربية .

قوله : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ أى اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم . وقد اختلف النحاة فى دخول هذه النون المؤكدة فى ﴿**تصيبن** ﴾ فقال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك . فهو جواب الأمر بلفظ النهى، أى إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [النمل : ١٨] أى إن تدخلوا ، لا يحطمنكم . فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

وقال المبرد : إنه نهى بعد أمر . والمعنى : النهى للظالمين ، أى لا يقربن الظلم . ومثله ما روى عن سيبويه : لا أرينك هاهنا ، فإن معناه : لا تكن هاهنا ، فإن من كان هاهنا رأيته . وقال الجرجانى : إن ﴿ **لا تصيبن** ﴾ نهى فى موضع وصف لفتنة . وقرأ على وزيد بن ثابت وأبى وابن مسعود : « لتصيبن » على أن اللام جواب لقسم محذوف ، والتقدير : اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة ؛ لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة .

﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ، ولا يعذب إلا بجنايته ، فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض . ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم . ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب ، كترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فتكون الأسباب المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ قال : للحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ أى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم [١] . وقد ثبت فى الصحيح من

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣١٢ .

حديث أبى سعيد بن المعلى ، قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ ، فلم أجبه، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى. فقال: « ألم يقل الله : ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم** ﴾ » (١) الحديث. وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله . ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال : علمه يحول بين المرء وقلبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية ، قال : يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال: فى القرب منه .

وأخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف ، قال: قلت للزبير: يا أبا عبد الله ، ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه . قال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان : ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتي وقعت فينا حيث وقعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : قرأ الزبير : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ قال : البلاء والأمر الذى هو كائن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى الآية ، قال : نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير (٢) .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : نزلت فى أصحاب النبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير وأبوالشيخ عن السدى قال : نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير ، وهما من أهل بدر(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هى مثل : ﴿ **يحول بين المرء وقلبه** ﴾ حتى يتركه لا يعقل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ، قال : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب (٤) . وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، عمهم الله بعذاب من عنده (٥) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٤٧٤، ٤٧٠٣) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٨) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٥) .
(٢ ، ٣) ابن جرير ٩/ ١٤٤ . (٤) ابن جرير ٩/ ١٤٤ .
(٥) ومنها هذا الحديث عن أبى بكر رضى الله عنه قال : يا أيها الناس : إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: =

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ للمهاجرين ، أى اذكروا وقت قِلَّتكِمْ . و﴿ **مستضعفون** ﴾ خبر ثان للمبتدأ . والأرض : هى أرض مكة . والخطف : الأخذ بسرعة . والمراد بالناس : مشركو قريش . وقيل : فارس والروم . ﴿**فآواكم** ﴾ يقال : آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى انضم إليه . فالمعنى : ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿ **وأيدكم بنصره**﴾ أى قواكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر . أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ التى من جملتها الغنائم . ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أى إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم. والخون : أصله كما فى الكشاف : النقص . كما أن الوفاء : التمام [(١)] ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شيء فقد أدخلت عليه النقصان. وقيل : معناه الغدر وإخفاء الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ [غافر : ١٩] . نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمنهم عليه ، أو بترك شيء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى اؤتمنوا عليها ؛ وسميت أمانات ؛ لأنه يؤمن معها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن .

وجملة :﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة ، فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل . ثم قال : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب ، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده . وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الأخرى . ﴿ **وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ قال:كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالة ، من عاش عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ،

= « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » أبوداود فى الملاحم (٤٣٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٦٨) وعن حذيفة بن اليمان حديث آخر (٢١٦٩) والنسائى فى التفسير (١٧٧). وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠٥) وحديث آخر عن عائشة (٤٠٠٤) .

(١) الكشاف : ٢ / ٢١٣ .

لا والله ما نعلم قبيلا من حاضرى الأرض يومئذ كان أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يتخطفكم الناس** ﴾ قال : فى الجاهلية بمكة. ﴿ **فآواكم** ﴾ إلى الإسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب في قوله : ﴿ **يتخطفكم الناس** ﴾ قال : الناس إذ ذاك فارس والروم . وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم ، والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس** ﴾ قيل : يا رسول الله ، ومن الناس ؟ قال : « أهل فارس » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **فآواكم** ﴾ قال : إلى الأنصار بالمدينة ﴿ **وأيدكم بنصره** ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبى ﷺ فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبا سفيان فى مكان كذا وكذا ، فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان : إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم ، فأنزل الله: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول** . . . ﴾ الآية (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن أبى قتادة ، قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **لا تخونوا الله والرسول**﴾ فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، سألوه يوم قريظة : ما هذا الأمر ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، فنزلت . قال أبو لبابة : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله (٢) . وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهرى نحوه بأطول منه(٣) . وأخرج عبد بن حميد عن الكلبى : أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفًا لهم ، فأومأ بيده أنه الذبح ، فنزلت . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى هذه الآية أنها نزلت فى أبى لبابة ، ونسختها الآية التى فى براءة : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ [التوبة : ١٠٢].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا تخونوا الله** ﴾ قال : بترك فرائضه ﴿**والرسول** ﴾ بترك سننه وارتكاب معصيته ﴿ **وتخونوا أماناتكم** ﴾ يقول : لا تنقصوها . والأمانة : الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد . وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان . ولعل مراده أن من جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان (٤) . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبى حبيب فى الآية ، قال : هو

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٤٦ وقال الشيخ محمود شاكر فى تحقيقه لابن جرير : « وهذا خبر ضعيف جداً لضعف محمد المحرم وهو متروك الحديث » وقد ذكر الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٠٤ وقال : « هذا إسناد غريب جدا وفى سنده وسياقه نظر » .

(٢ ـ ٤) ابن جرير ٩/ ١٤٦ .

الإخلال بالسلاح فى المغازى . ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ؛ وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة لأن الله يقول : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن (١) . وأخرج هؤلاء عن ابن زيد فى الآية قال : فتنة الاختبار اختبرهم . وقرأ : ﴿ ونبلوكم(٢) بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : ٣٥].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)** ﴾.

جعل الله سبحانه التقوى شرطا فى الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون ، جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا . والتقوى : اتقاء مخالفة أوامره ، والوقوع فى مناهيه . والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل . والمعنى : أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس . وقيل : الفرقان : المخرج من الشبهات ، والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجو الخلد والموت طالبى ومالى من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان : الفتح والنصر . قال ابن إسحاق : الفرقان : الفصل بين الحق والباطل . وبمثله قال ابن زيد . وقال السدى : الفرقان : النجاة . ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ [الطلاق : ٢] . وبه قال مجاهد ومالك بن أنس .

﴿ **ويكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ أى يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ما اقترفتم من الذنوب . وقد قيل : إن المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التى تغفر : الكبائر . وقيل : المعنى : أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر . ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يجعل لكم فرقانا** ﴾ قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس، قال : هو النصر .

---

(١) المرجع السابق ٩/١٤٧.

(٢) فى المخطوطة : « ولنبلونكم » ، وهو خطأ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف ، أى واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك ،أو معطوف على ما تقدم من قوله : ﴿ **واذكروا** ﴾ ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه ، وهى نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتى بيانه . ﴿ **ليثبتوك** ﴾ أى يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما، ومنه قول الشاعر :

فقلت ويحكم ما فى صحيفتكم ... قالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعًا

وقيل المعنى : ليحبسوك . يقال : أثبته إذا حبسه . وقيل : ليوثقوك . ومنه : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ [محمد : ٤] وقرأ الشعبى : « ليبيتوك » من البيات . وقرئ : « ليثبتوك » بالتشديد . ﴿ **أو يخرجوك** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى يخرجوك من مكة التى هى بلدك وبلد أهلك . وجملة : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ مستأنفة. والمكر: التدبير فى الأمر فى خفية . والمعنى : أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكايد ، فيجازيهم الله على ذلك ، ويرد كيدهم فى نحورهم . وسمى ما يقع منه تعالى مكرا مشاكلة كما فى نظائره . ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ أى المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم ، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون ، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم .

قوله : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى التى تأتيهم بها وتتلوها عليهم . ﴿ **قالوا** ﴾ تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق : ﴿**قد سمعنا** ﴾ ما تتلوه علينا ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ الذى تلوته علينا . قيل : إنهم قالوا هذا توهمًا منهم أنهم يقدرون على ذلك . فلما راموا أن يقولوا مثله ، عجزوا عنه ، ثم قالوا [١] عنادًا وتمردا : ﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين . وقد تقدم بيانه مستوفى .

﴿ **وإذ قالوا** ﴾ أى واذكر إذ قالوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان ، والضمير للفصل . ويجوز الرفع . قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة . والمعنى : إن كان القرآن

---

(١) فى المطبوعة :« قال » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الذى جاءنا به محمد هو الحق ﴿ **فأمطر علينا** ﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة فى الجحود والإنكار . قال أبو عبيدة : يقال : أمطر فى العذاب ، ومطر فى الرحمة . وقال فى الكشاف : قد كثر الإمطار فى معنى العذاب (١) .

﴿ **أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء ، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد. فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت** ﴾ يا محمد ﴿ **فيهم** ﴾ موجود ، فإنك ما دمت فيهم فهم فى مهلة من العذاب الذى هو الاستئصال . ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ روى أنهم كانوا يقولون فى الطواف: غفرانك ، أى وما كان الله معذبهم فى حال كونهم يستغفرونه . وقيل : المعنى : لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفره لم يعذبهم . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أى وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم ، عذبهم بيوم بدر وما بعده . وقيل : المعنى : وما كان الله معذبهم وفى أصلابهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل، والخطيب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ قالوا : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق . يريدون النبى ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات علىّ على فراش النبى ﷺ حتى لحق بالغار ،فلما أصبحوا ، ثاروا إليه ، فلما رأوه عليا ، رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدرى ، فاقتصوا أثره . فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل ، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال (٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبونعيم والبيهقى عن ابن عباس ، فذكر القصة بأطول مما هنا . وفيها ذكر الشيخ النجدى ، أى إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى ﷺ ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ، ويعطوا كل واحد منهم سيفا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه ، تفرق دمه فى القبائل ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى .فتفرقوا على ذلك (٣) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير ، قال : لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أويقتلوه أويخرجوه ، قال له عمه أبو طالب : هل

---

(١) الكشاف : ٢/ ٢١٧ .

(٢) عبد الرزاق (٩٧٤٣) وأحمد ١/ ٣٤٨ والطبرانى (١٢١٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٠: « فيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (٣٢٥١) : « فى إسناده نظر » وأبو نعيم فى الدلائل ١٤٩، ١٥٠ وابن جرير ٩/ ١٥٠ .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٥ وابن جرير ٩/ ١٤٩ .

تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال : «يريدون أن يسجنونى ، أو يقتلونى ، أو يخرجونى » . قال : من حدثك بهذا ؟ قال : « ربى » . قال : نعم الرب ربك ، استوص به خيرا ، قال : «أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » (١) وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه (٢) . وهذا لا يصح فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ قال : قال عكرمة : هى مكية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله :﴿ **ليثبتوك** ﴾ يعنى:ليوثقوك. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبى ﷺ يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط ، وطعيمة بن عدى ، والنضر ابن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول ».قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ وهذا مرسل (٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى النضر بن الحارث .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أنس بن مالك ، قال : قال أبو جهل بن هشام : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** .... ﴾ الآية ، فنزلت : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** .. ﴾ الآية(٥). وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنها نزلت فى النضر بن الحارث (٦) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله (٧) . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه (٨) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ، قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم**... ﴾ الآية .

قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى ﷺ والاستغفار، فذهب النبى ﷺ وبقى الاستغفار (٩). وأخرج الترمذى وضعفه عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال النبى ﷺ: « أنزل الله علىّ أمانين لأمتى: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم**.. ﴾ الآية. فإذا مضيت،تركت فيهم الاستغفار »(١٠).

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٤٩ وقال ابن كثير ٣/ ٣٠٦ : « وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا ، بل منكر ؛لأن هذه الآية مدنية ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء ؛ وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين » .

(٢) ابن جرير ٩/ ١٤٩ .
(٣) المرجع السابق ٩/ ١٥١ .
(٤) ابن جرير ٩/ ١٥٢ .
(٥) البخارى فى التفسير (٤٦٤٨) ، (٤٦٤٩) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٥.
(٦ ـ ٨) ابن جرير ٩/ ١٥٢ .
(٩) ابن جرير ٩/ ١٥٤ والبيهقى ٥/ ٤٥ ، ٤٦ .
(١٠) الترمذى فى التفسير (٣٠٨٢) وقال : « هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضَعفُ فى الحديث » .

وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما ، وبقى الآخر ، قال: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم ....** ﴾ الآية (١) . وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى نحوه أيضا (٢). والأحاديث عن رسول الله ﷺ فى مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة فى كتب الحديث .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله** ﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان : وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار ، ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفارــ أعنى كفار مكة ــ مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح . والمعنى : أى شىء لهم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش : إن « أن » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال ، لرفع ﴿ **يعذبهم** ﴾ وجملة : ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت . وجملة : ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ فى محل نصب على أنها حال من فاعل﴿ **يصدون** ﴾ وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت ، وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبينا لمن له ذلك : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ أى ما أولياؤه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك والمعاصى ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ذلك . والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون .

قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ المكاء : الصفير من مكا يمكو مكاء . ومنه قول عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلا   تمكو فريصته كشدق الأعلم

أى تصوت . ومنه مكت است الدابة : إذا نفخت بالريح . قيل : المكاء : هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له : المكاء . قال الشاعر :

(١) صححه الحاكم ١/٥٤٢ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٥٤).
(٢) ابن جرير ٩/١٥٤ والحاكم ١/٥٤٢ وسكت عنه وكذا الذهبى ، وهو موقوف .

إذا غرد المكاء فى غير دوحة فويل لأهل الشاء والحمرات

والتصدية : التصفيق ، يقال : صد يصدى تصدية : إذا صفق . ومنه قول عمرو بن الإطنابة :

وظلوا جميعا لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

أى بالتصفيق. وقيل : المكاء : الضرب بالأيدى . والتصدية : الصياح . وقيل : المكاء : إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية : الصفير. وقيل : التصدية : صدهم عن البيت . قيل : والأصل على هذا : تصددة ، فأبدل من إحدى الدالين ياء . ومعنى الآية : أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع للصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة . وقرئ بنصب : « صلاتهم » على أنها خبر كان ، وما بعده اسمها . قوله : ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة فى إدخال الروعة فى قلوبهم . والمراد به : عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة .

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية ، أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية . والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك ، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب . فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال : ﴿ **فسينفقونها** ﴾ أى سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿**ثم تكون** ﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم،وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندما. ﴿ ثم ﴾ آخر الأمر ﴿ **يغلبون** ﴾ كما وعد الله به فى مثل قوله: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة: ٢١] ومعنى ﴿ثم ﴾ فى الموضعين : إما التراخى فى الزمان لما بين الإنفاق المذكور ، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخى فى الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال : ﴿**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ أى استمروا على الكفر ؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه ، أى يساقون إليها لا إلى غيرها . ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله ، فقال : ﴿ **ليميز الله الخبيث** ﴾ أى الفريق الخبيث من الكفار ﴿ **من** ﴾ الفريق ﴿ **الطيب** ﴾ وهم المؤمنون. ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض**﴾ أى يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿ **فيركمه جميعا**﴾ عبارة عن الجمع والضم ، أى يجمع بعضهم إلى بعض ، ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم . يقال : ركم الشىء يركمه : إذا جمعه وألقى بعضه على بعض. والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الفريق الخبيث . ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون

فى الخسران . وقيل : الخبيث والطيب : صفة للمال . والتقدير : يميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقيه فى جهنم ، ويعذبهم بها كما فى قوله تعالى : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ [التوبة : ٣٥] . قال فى الكشاف : واللام على هذا متعلقة بقوله : ﴿ **ثم تكون عليهم حسرة** ﴾ وعلى الأول بـ ﴿**يحشرون** ﴾ . و﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى الذين كفروا . انتهى(١) .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال : ﴿**ومالهم ألا يعذبهم الله** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله**﴾ قال : عذابهم فتح مكة . وأخرج ابن إسحاق وأبو حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله**﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ أى من آمن بالله وعبده أنت ومن اتبعك . ﴿ **وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده ، أى أنت ومن آمن بك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ قال : من كانوا حيث كانوا.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش يعارضون النبى ﷺ فى الطواف ويستهزئون ويصفرون ويصفقون ، فنزلت : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ قال:والمكاء : الصفير . إنما شبهوا بصفير الطير . ﴿ **وتصدية** ﴾ : التصفيق . وأنزل الله فيهم : ﴿ قل من حرم زينة الله . . . ﴾ الآية [الأعراف : ٣٢] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه نحوه أيضا (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : المكاء : إدخال أصابعهم فى أفواههم . والتصدية : الصفير ، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : المكاء : الصفير ، على نحو طير أبيض يقال له : المكاء . يكون بأرض الحجاز . والتصدية : التصفيق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا مكاء** ﴾ قال : كانوا

(١) الكشاف : ٢/٢١٩ .

(٢، ٣) ابن جرير ١٥٨/٩ .

يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهن . ﴿ **وتصدية** ﴾ قال : صدهم الناس . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال ، وهو قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق . والتصدية : طوافهم على الشمال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ قال : يعنى أهل بدر ، عذبهم الله بالقتل والأسر .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ، كلهم من طريقه ، قال : حدثنى الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم [١] إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم ، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال على حربه . فلعلنا أن ندرك منه ثأراً . ففعلوا ، ففيهم ــ كما ذكر ابن عباس أنزل الله : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ إلى ﴿**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ [٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى سفيان بن حرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه (٣) . وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه [٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة فى الآية قال : نزلت فى أبى سفيان ، أنفق على مشركى قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا من ذهب[٥].

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن شمر بن عطية فى قوله : ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ قال : يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح فى الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى فى جهنم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فيركمه جميعاً** ﴾ قال : يجمعه جميعاً .

﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)** ﴾.

---

(١) فلُّهم : الفَلُّ : المنهزم . اللسان ١١/ ٣٥٠ .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ٣١٤ وابن جرير ٩/ ١٦٠ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٢٥ .
(٣) ابن جرير ٩/ ١٦٠ . (٤) المرجع السابق ٩/ ١٥٩ .
(٥) المرجع السابق ٩/ ١٦٠ .

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى. وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائى : إنه فى مصحف عبد الله بن مسعود : « قل للذين كفروا إن تنتهوا » يعنى بالتاء المثناة من فوق ، لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها . وقال فى الكشاف: أى قل لأجلهم هذا القول. وهو ﴿ إن ينتهوا ﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم ، لقيل : إن تنتهوا يغفر لكم . وهى قراءة ابن مسعود ونحوه : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : ١١] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ لهم من العداوة . انتهى [(١)] . وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر . قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿يغفر لهم ما قد سلف ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر ، وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله .

﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذى هم عليه ، ويكون العود بمعنى الاستمرار . ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ هذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله ، أى قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب ، فليتوقعوا مثل ذلك .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ أى كفر . وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى . ﴿فإن انتهوا ﴾ عما ذكر ﴿فإن الله بما يعملون بصير ﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء ﴿ وإن تولوا ﴾ عما أمروا به من الانتهاء ﴿فاعلموا﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن الله مولاكم ﴾ أى ناصركم عليهم ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ فمن والاه فاز ، ومن نصره غلب.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ قال : فى قريش وغيرها يوم بدر ، والأمم قبل ذلك . وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل الله الإسلام فى قلبى، أتيت النبى ﷺ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك . فبسط يمينه ، فقبضت يدى. قال : « مالك » . قلت : أردت أن أشترط . قال : « تشترط ماذا ؟ » قلت : أن تستغفر لى . قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » [(٢)]. وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » .

وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ بما مضى فى الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر . وقال السدى ومحمد بن إسحاق : المراد بالآية : يوم بدر . وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا : بالكفر . وقال محمد بن إسحاق

(١) الكشاف ٢/٢١٩ . (٢) أحمد ٤/١٩٨ ، ١٩٩ ومسلم فى الإيمان (١٢١/١٩٢)

بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : ﴿ **حتى لا تكون فتنة** ﴾ : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)** ﴾ .

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ، ذكر حكم الغنيمة ، والغنيمة قد قدمنا أن أصلها : إصابة الغنم من العدو ، ثم استعملت فى كل ما يصاب منهم ، وقد تستعمل فى كل ما ينال بسعى . ومنه قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الآخر :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة فى الشرع : فحكى القرطبى الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى : ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شىء**﴾: مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر . قال: ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ [الأنفال : ١] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين . وأن قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر على ما تقدم أول السورة .

وقيل : إنها ـ أعنى قوله ـ : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ ، محكمة غير منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين ، وكذلك لمن بعده من الأئمة ، حكاه الماوردى عن كثير من المالكية . قالوا : وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ، ومن على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً . وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين . وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى والقاضى عياض وابن العربى . والأحاديث الواردة فى قسمة الغنمية بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جداً .

قال القرطبى : ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال .....﴾

الآية ناسخ لقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ....﴾ الآية . بل قال الجمهور : إن قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها(١) . قال : وأما قصة حنين فقد عوض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشا وتتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه ، فقال لهم : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟ »(٢) كما فى مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول ، بل ذلك خاص به .

قوله : ﴿ أنما غنمتم من شيء ﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة . و﴿ من شيء ﴾ بيان لـ « ما » الموصولة . وقد خصص الإجماع من عموم الآية الأسارى ، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف . وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام . وقيل : كذلك الأرض المغنومة . ورد بأنه لا إجماع على الأرض .

قوله : ﴿ فأن لله خمسه ﴾ قرأ النخعى : « فإن لله » بكسر إن ، وقرأ الباقون بفتحها على أن ﴿أن﴾ وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير : فحق أو فواجب أن لله خمسه .

وقد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة :

الأول : قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ، فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله ، والثانى لرسول الله . والثالث لذوى القربى ، والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ، والسادس لابن السبيل .

والقول الثانى : قاله أبو العالية والربيع : إنها تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، ويقسم أربعة على الغانمين ، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله ، فما قبضه من شيء جعله للكعبة ، ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول ومن بعده . . الآية .

القول الثالث : روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا . فقيل له : إن الله يقول : ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ فقال : يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

القول الرابع : قول الشافعى : إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية .

القول الخامس : قول أبى حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه . قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعى .

---

(١) القرطبى ٣/٢٨٤٦ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٣٧) ومسلم فى الزكاة (١٠٥٩/ ١٣٥) وكلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

القول السادس : قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ،فيأخذ منه بغير تقدير ، ويعطى منه الغزاة باجتهاد، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين .

قال القرطبى : وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله ﷺ : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » (١) . فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا ، وإنما ذكر ما فى الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج محتجا لهذا القول : قال الله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [البقرة : ٢١٥] . وجائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك (٢) .

قوله : ﴿ **ولذى القربى** ﴾ قيل : إعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى ﷺ .

وقد اختلف العلماء فى القربى على أقوال : الأول : أنهم قريش كلها ، روى ذلك عن بعض السلف ، واستدل بما روى عن النبى ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا : « يا بنى فلان ، يا بنى فلان » (٣) .

وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جرير ومسلم بن خالد : هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ: « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبك بين أصابعه . وهو فى الصحيح (٤) .

وقيل : هم بنو هاشم خاصة . وبه قال مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم . وهو مروى عن على بن الحسين ومجاهد.

قوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله** ﴾ قال الزجاج عن فرقة : إن المعنى : فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله . وقالت فرقة أخرى : إن ﴿ **إن** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم** ﴾ قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله : ﴿ **واعلموا** ﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم ، فعلق ﴿ **إن** ﴾ بقوله : ﴿ **واعلموا** ﴾ على هذا المعنى ، أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة . وقال فى الكشاف : إنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿ **واعلموا** ﴾ بمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن

---

(١) مالك فى الجهاد (٢٢) عن عمرو بن شعيب ، وأحمد ٤/ ١٢٢ عن العرباض بن سارية ، ٥/ ٣١٦ عن عبادة بن الصامت ، والنسائى ٧/ ١٣١ ، ١٣٢ عن عبادة أيضا .

(٢) القرطبى ٤/ ٢٨٥٠ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٠١) ومسلم فى الإيمان (٢٠٨/ ٣٥٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٦٣) وقال : « حسن صحيح » كلهم عن ابن عباس رضى الله عنه .

(٤) البخارى فى فرض الخمس (٣١٤٠) وفى المناقب (٣٥٠٢) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٧٨ ، ٢٩٨٠) والنسائى فى قسم الفىء ٧/ ١٣١ وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٨١) عن جبير بن مطعم رضى الله عنه .

الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله ؛ لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر . انتهى (١) .

قوله : ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا** ﴾ معطوف على الاسم الجليل ، أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا . و﴿ **يوم الفرقان** ﴾: يوم بدر ؛ لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل . و﴿ **الجمعان** ﴾ : الفريقان من المسلمين والكافرين ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر .

قوله : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين فى العدوة فى الموضعين . وقرأ الباقون بالضم فيهما. و« إذ » بدل من يوم الفرقان ، ويجوز أن يكون العامل محذوفا ، أى واذكروا إذ أنتم . والعدوة : جانب الوادى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا يدنو ، وقصا يقصو . ويقال : القصيا ، والأصل الواو . وهى لغة أهل الحجاز. والعدوة الدنيا : كانت مما يلى المدينة ، والقصوى : كانت مما يلى مكة ، والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلى مكة ، وجملة :﴿ **الركب أسفل منكم** ﴾ : فى محل نصب على الحال . وانتصاب ﴿ **أسفل** ﴾ على الظرف . ومحله الرفع على الخبرية ، أى والحال أن الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء رفع أسفل على معنى أشد سفلا منكم ، والركب : جمع راكب. ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل . ولايقال لمن كان على فرس وغيرها : ركب . وكذا قال ابن فارس ، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة . والمراد بالركب هاهنا : ركب أبى سفيان ، وهى المراد بالعير ، فإنهم كانوا فى موضع أسفل منهم مما يلى ساحل البحر .

قيل : وفائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها ، من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم : الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته . وذلك لأن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا يابس بها . وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها . وكانت العير وراء ظهر العدومع كثرة عددهم . فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم . والحال هذه .

قوله : ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** ﴾ أى لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا فى هذا الموضع للقتال ، لخالف بعضكم بعضا ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ. ﴿ **ولكن** ﴾ جمع الله بينكم فى هذا الموطن ﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ أى حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر ، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم ، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ، ولم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة . واللام فى ﴿ **ليقضى** ﴾ متعلقة بمحذوف ، والتقدير : جمعهم ليقضى .

وجملة : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى** ﴾ بدل من الجملة التى قبلها ، أى ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة ، لئلا يبقى لأحد على الله حجة . وقيل : الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام ، أى ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق ، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة . قرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبزى وأبو بكر : « من حيى » بياءين على الأصل . وقرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام ، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف. ﴿ **وإن الله لسميع عليم** ﴾ أى سميع بكفر الكافرين عليم به ، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال :ثم وضع مقاسم الفىء فقال : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ بعد الذى كان مضى من بدر ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى قال : سألت الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول الله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه** ﴾ قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة . ﴿ **وللرسول ولذى القربى** ﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فى هذين السهمين ، قال قائل منهم : سهم ذى القربى لقرابة رسول الله ﷺ . وقال قائل منهم : سهم ذى القربى لقرابة الخليفة . وقال قائل منهم : سهم النبى ﷺ للخليفة من بعده ، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله ، فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر [١] .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك فى خمسه ، ثم قرأ : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم** ﴾ الآية . قال : قوله : ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ مفتاح كلام ، لله ما فى السموات وما فى الأرض ، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿ **ولذى القربى** ﴾ فجعل هذين السهمين قوة فى الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهما ولراكبه سهما ، وللراجل سهما [٢] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس : فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس ، فربع لله

---

(١) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥١٥٣) وابن جرير ١٠/ ٣ والحاكم ٢/ ١٢٨ .

(٢) ابن جرير ١٠/ ٣ والطبرانى (١٢٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٣٤٣:« فيه نهشل بن سعيد وهو متروك ».

وللرسول ولذى القربى ، يعنى : قرابة رسول الله ﷺ ، فماكان لله وللرسول فهو لقرابة النبى ﷺ ، ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئا ، والربع الثانى لليتامى، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو : الضيف الفقيرالذى ينزل بالمسلمين (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ الآية ، قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، يقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم ، فيعزل سهما منها ، ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، يعنى : لمن شهد الوقعة ، ثم يضرب بيده فى جميع السهم الذى عزله ، فما قبض عليه من شىء جعله للكعبة ، فهو الذى سمى الله : لا تجعلوا لله نصيبا فأن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم : سهم للنبى ﷺ ، وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل(٢) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يجعل سهم الله فى السلاح والكراع وفى سبيل الله وفى كسوة الكعبة وطيبها ، وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول فى الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذى القربى لقرابته يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء ، ليس لبنى عبد المطلب فى هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله : ﴿**فأن لله خمسه وللرسول** ﴾ فقال: الذى لله لنبيه ، والذى للرسول لأزواجه . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه: إنا كنا نرى أنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربى ، وزيادة قوله : وقالوا : قريش كلها ، تفرد بها أبو معشر . وفيه ضعف (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس أن نجدة الحرورى أرسل إليه يسأله عن سهم ذى القربى ، ويقول : لمن تراه ؟ فقال ابن عباس : هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبينا أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم ، وأن يقضى عن غارمهم ، وأن يعطى فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رغبت لكم عن غسالة الأيدى لأن لكم فى خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم . رواه ابن أبى حاتم عن إبراهيم بن مهدى المصيصى ،

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٤ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥١٤٥) وابن جرير ١٠/ ٤ .

(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٣٠١) ومسلم فى الجهاد والسير (١٨١٢/ ١٤٠) وابن جرير ١٠/ ٥ .

(٤) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٧) .

حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة عنه مرفوعا. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين : يأتى بمناكير (١). أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن الزهرى وعبد الله بن أبى بكر عن جبير بن مطعم؛ أن النبى ﷺ قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم وبنى المطلب. قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم، أرأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا ، فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة فى النسب ؟ فقال : « إنهم لم يفارقونا فى الجاهلية والإسلام » . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٢).

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم ، قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل على ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : كان للنبى ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن على قال : قلت : يا رسول الله ، ألا وليتنى ما خصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولانى رسول الله ﷺ خمس الخمس ، فوضعته مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر (٤).

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ قال : هو يوم بدر ، وبدر ما بين مكة والمدينة (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ قال : هو يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب ، قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان . وأخرجه عنه ابن جرير أيضا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا** ﴾ قال : العدوة الدنيا شاطئ الوادى . ﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ قال : أبو سفيان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدوة الدنيا : شفير الوادى الأدنى . والعدوة القصوى : شفير الوادى الأقصى .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٤ .

(٢) فى المخطوطة : «مسلم » ، ولم تعزه التحفة إلى مسلم وإنما للبخارى ولعله سهو أو سبق قلم من المصنف والحديث سبق تخريجه .

(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٦) .

(٤) صحيح الحاكم ٢/ ١٢٨ ، ٣/ ٣٩ ، ٤٠ ووافقه الذهبى

(٥) ابن جرير ١٠/ ٧ ، ٨ .

أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤) ﴾ .

« إذ » منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر ، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان . والمعنى : أن النبى ﷺ رآهم فى منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سببا لثباتهم . ولو رآهم فى منامه كثيرا ، لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر ، هل يلاقونهم أم لا ؟ ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ أى سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع ، فقللهم فى عين رسول الله ﷺ فى المنام . وقيل : عنى بالمنام محل النوم ، وهو العين ، أى فى موضع منامك وهو عينك . روى ذلك عن الحسن . قال الزجاج : هذا مذهب حسن ، ولكن الأول أسوغ فى العربية ؛ لقوله : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم** ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وأن تلك رؤية النوم .

قوله : ﴿ **وإذ يريكموهم** ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول ، أى واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلا ، حتى قال القائل من المسلمين لآخر : أتراهم سبعين ؟ قال: هم نحو المائة . وقلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم : إنما هم أكلة جزور ، وكان هذا قبل القتال ، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ، كما قال فى آل عمران : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ [آل عمران : ١٣] ووجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو : أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على القتال غير خائفين ، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه . واللام فى :﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريبا . وإنما كرره لاختلاف المعلل به . ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضى فى شأنها ما يشاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا** ﴾ قال : أراه الله إياهم فى منامه قليلا ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولو أراكهم كثيرا لفشلتم** ﴾ يقول : لجبنتم ﴿**ولتنازعتم فى الأمر** ﴾ قال : لاختلفتم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ أى أتم ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ يقول : سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وإذ يريكموهم ....**﴾ الآية قال : لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم ، فسألناه قال : كنا ألفا. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال :حضض بعضهم على بعض . قال ابن كثير : إسناده صحيح (١) . وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

قوله: ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ أى ليلقى [(١)] بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته[(٢)].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾ .

قوله : ﴿ إذا لقيتم فئة ﴾ اللقاء : الحرب ، والفئة : الجماعة ، أى إذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿ فاثبتوا ﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم ، وهذا لا ينافى الرخصة المتقدمة فى قوله : ﴿ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ﴾ فإن الأمر بالثبات هو فى حال السعة ، والرخصة هى فى حال الضرورة . وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيز .﴿ واذكروا الله ﴾ أى اذكروا الله عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد . وقيل : المعنى : اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان . قيل : وينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت:﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٥٠] وفى الآية دليل على مشروعية الذكر فى جميع الأحوال ، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه ، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف فى الرأى، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن فى الحرب . والفاء جواب النهى ، والفعل منصوب بإضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على ﴿ تنازعوا ﴾ مجزوما بجازمه . قوله : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ قرئ بنصب الفعل، وجزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين . والريح : القوة والنصر ، كما يقال : الريح لفلان : إذا كان غالبا فى الأمر . وقيل : الريح : الدولة ، شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها ، ومنه قول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فعقبى كل خافقة سكون

---

(١) فى المخطوطة : « ليلف » والصحيح ما أثبتناه من ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

(٢) قال ابن كثير ٣/ ٣٢٩ : « ومعنى ذلك : أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه » .

وقيل : المراد بالريح : ريح الصبا ؛ لأن بها كان ينصر النبى ﷺ ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه ، ويا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس وهم قريش ، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان ومعهم القيان والمعازف ، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا : لابد لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر وتغنى لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلبا للثناء من الناس وللتمديح إليهم والفخر عندهم وهو الرياء . قيل : والبطر فى اللغة : التقوى بنعم الله على معاصيه وهو مصدر فى موضع الحال ، أى خَرجوا بطرين مرائين . وقيل : هو مفعول له وكذا رياء ، أى خرجوا للبطر والرياء .

وقوله : ﴿ **ويصدون** ﴾ معطوف على بطرا ، والمعنى كما تقدم ، أى خرجوا بطرين مرائين صادين عن سبيل الله أو للصد عن سبيل الله ، والصد : إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ، ويجوز أن يكون ﴿ **ويصدون** ﴾ معطوفا على يخرجون ، والمعنى : يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد . ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها .

قوله : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم . والتزيين : التحسين ، وقد روى أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة وهى : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ (١) أى مجير لكم من كل عدو أو من بنى كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، وكان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم (٢) ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم . وقيل: المعنى : إنه ألقى فى روعهم هذه المقالة . وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ﴿ **فلما تراءت الفئتان** ﴾ أى فئة المسلمين والمشركين ﴿ **نكص على عقبيه** ﴾ أى رجع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة ... إن المكارم إقدام على الأمل

وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم ... ولا ضر أهل السابقات التقدم

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣٠٤ .

(٢) صحابى ، له شعر ، وله فى كتب الحديث تسعة عشر حديثا ، وكان فى الجاهلية قائفا ــ اقتصاص الأثر وإصابة الفراسة ــ أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ ،و توفى عام ٢٤ هـ .الإصابة ٢/ ١٩ وأسد الغابة ٢/ ٢٦٤ .

وقيل : معنى نكص ها هنا : بطل كيده وذهب ما خيله . ﴿ **وقال إنى برىء منكم** ﴾ أى تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ يعنى الملائكة ، ثم علل بعلة أخرى فقال : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ قيل: خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة . وقيل : إن دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك ، وجملة : ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس ، ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه.

قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون** ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو : اذكر ، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب . قيل : المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ هم الشاكون من غير نفاق بل لكونهم حديثى عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين فى قولهم بهذه المقالة أعنى : ﴿ **غر هؤلاء** ﴾ أى المسلمين ﴿ **دينهم** ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش . وقيل : الذين فى قلوبهم مرض : هم المشركون ، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون فى المدينة وما حولها . وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم فى قلة من العَدَد وضعف من العُدَد ، فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز** ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه ﴿ **حكيم** ﴾ له الحكمة البالغة التى تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **واذكروا الله** ﴾ قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون : عند الضراب بالسيوف . وأخرج الحاكم وصححه ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا يردان : الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا » (١) . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ يقول : لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وتذهب ريحكم** ﴾ قال: نصركم . وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم** ﴾ الآية ، يعنى : المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان

---

(١) صححه الحاكم ٢/١١٣، ١١٤ ووافقه الذهبى .
(٢) صححه الحاكم ٢/١١٦ ووافقه الذهبى .

والدفوف ، فأنزل الله هذه الآية [١] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد فى الآية قال : أبو جهل وأصحابه يوم بدر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبى الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر، وقد قيل لهم يومئذ : ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم ، فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا . وذكر لنا : أن نبى الله ﷺ قال يومئذ : « اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك » وذكر لنا أنه قال يومئذ : « جاءت من مكة أفلاذها » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ وأقبل جبريل على إبليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبرا وشيعته، فقال الرجال : يا سراقة ، إنك جار لنا فقال : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿ **إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ [٢] قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين وقلل المشركين فى أعين المسلمين . فقال المشركون : وما هؤلاء ؟ غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك . فقال الله : ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ . وأخرج [٣] الطبرانى وأبو نعيم عن رفاعة بن رافع الأنصارى قال : لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث ابن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز فى صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه فى البحر ورفع يديه فقال : اللهم إنى أسألك نظرتك إياى [٤] . وأخرج الواقدى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة وقال : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ وكذب عدو الله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك ، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون** ﴾ قال: وهو يومئذ فى المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين . وأخرج عبد الرزاق

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٣.
(٢) ابن جرير ١٠/ ١٤ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٩ .
(٣) فى المطبوعة : « أو خرج » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٤) الطبرانى (٤٥٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٠ : « فيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف » وهذا الأثر روى ابن جرير أيضا عن ابن عباس مثله ١٠/ ١٤ .

وابن المنذر عن الكلبى فى قوله : ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قال : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا المسلمين قالوا : ﴿ **غر هؤلاء دينهم** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبى نحوه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾.

قوله : ﴿ **ولو ترى** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه فى غير موضع ، والمعنى : ولو رأيت ؛ لأن « لو » تقلب المضارع ماضيا . و « إذ » ظرف لترى ، والمفعول محذوف ، أى ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم . قيل: أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر . وقيل : هى فيمن قتل ببدر وجواب «لو» محذوف تقديره : لرأيت أمرا عظيما . وجملة : ﴿ **يضربون وجوههم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمراد بأدبارهم : استاههم ، كنى عنها بالأدبار . وقيل : ظهورهم . قيل : هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفى . وقيل : هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار . قوله : ﴿**وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ قال الفراء ، المعنى : ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق ، والجملة معطوفة على يضربون. وقيل : إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم ، والذوق قد يكون محسوسا ، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ، وأصله من الذوق بالضم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الضرب والعذاب ، والباء فى : ﴿ **بما قدمت أيديكم** ﴾ سببية ، أى ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى واقترفتم من الذنوب ، وجملة : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه لا يظلمهم ، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبـرا لقولـه : ﴿ **ذلك** ﴾ وهى ﴿ **بما قدمت أيديكم** ﴾ أى ذلك العذاب بسبب المعاصى، وبسبب ﴿ **أن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وأوضح لهم السبيل ، وهداهم النجدين كما قال سبحانه : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [النحل : ١١٨] .

قوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين . والدأب : العادة ، والكاف فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ

محذوف ، أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ﴿ **والذين من قبلهم** ﴾ . والمعنى : أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك ، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله فى تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله : ﴿ **كفروا بآيات الله** ﴾ مفسرة لدأب آل فرعون ، أى دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله ، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على كفرهم ، فيكون الباء فى: ﴿ **بذنوبهم** ﴾ للملابسة ، أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجملة : ﴿ **إن الله قوى شديد العقاب** ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى العقاب الذى أنزله الله بهم ، وهو مبتدأ وخبره ما بعده. والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله . والمعنى : أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم ﴿ **حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه ، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين ، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم،كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه ،والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة : ﴿ **وأن الله سميع عليم** ﴾ معطوفة على ﴿ **بأن الله لم يك مغيرا نعمة** ﴾ داخلة معها فى التعليل ، أى ذلك بسبب أن الله لم يك مغيرا ، إلخ . وبسبب أن الله سميع عليم : يسمع ما يقولونه ، ويعلم ما يفعلونه . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف .

ثم كرر ما تقدم ، فقال : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم** ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق ، وقيل : إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثانى : باعتبار ما فعل بهم . وقيل : المراد بالأول : كفرهم بالله ، والثانى : تكذيبهم الأنبياء . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام فى: ﴿ **أهلكناهم بذنوبهم** ﴾ كالكلام المتقدم فى : ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ . ﴿ **وأغرقنا آل فرعون** ﴾ معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم ، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم ، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة** ﴾ قال : الذين قتلهم الله ببدر من المشركين . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رجل : يا رسول الله، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك. قال : « ذلك ضرب الملائكة » وهذا مرسل (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

(١) ابن جرير ١٧/١٠ .

في قوله : ﴿ **وأدبارهم** ﴾ قال : وأستاههم ، ولكن الله كريم يكنى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ قال : نعمة الله : محمد ﷺ ، أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن شر الدواب** ﴾ أى شر ما يدب على وجه الأرض ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى حكمه ﴿ **الذين كفروا** ﴾ أى المصرون على الكفر المتمادون فى الضلال . ولذا قال : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ أى إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا ، ولا يرجعون عن الغواية أصلا ، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم . قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم** ﴾ بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو فى محل نصب على الذم . والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين هو شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم ، أى أخذت منهم عهدهم ، ثم هم ﴿ **ينقضون عهدهم** ﴾ الذى عاهدتهم ﴿ **فى كل مرة** ﴾ من مرات المعاهدة ، والحال أنهم ﴿ **لا يتقون** ﴾ النقض ، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه . وقيل : إن « من » فى قوله : ﴿ **منهم** ﴾ للتبعيض ، ومفعول عاهدت محذوف ، أى الذين عاهدتهم ، وهم بعض أولئك الكفرة ، يعنى الأشراف منهم ، وعطف المستقبل وهو ﴿ **ثم ينقضون** ﴾ على الماضى ، وهو ﴿ **عاهدت** ﴾ ؛ للدلالة على استمرار النقض منهم ، وهؤلاء هم قريظة ، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتى ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم ، فقال : ﴿ **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى فإما تصادفنهم فى ثقاف وتلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء . والثقاف فى أصل اللغة : ما يشد به القناة أو نحوها ، ومنه قول النابغة :

تدعو قعيبا وقد غض الحديد بها غض الثقاف على صم الأنابيب [(١)]

---

(١) البيت يوجد فى ديوانه ص ٥٩ وهو من قصيدته « لم يبق غير طريد » ، وقد جاء البيت فى المطبوعة محرفا ففيه : « غص » بدلا من « غضّ » ، وأيضا « ضم » بدلا من « صم » .

يقال: ثقفته : وجدته ، وفلان ثقف : سريع الوجود لما يحاوله ، والتشريد : التفريق مع الاضطراب . وقال أبو عبيدة :﴿ **شرد بهم** ﴾ : سمع بهم . وقال الزجاج : افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم ، يقال : شردت بنى فلان : قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . قال الشاعر :

أطوّف فى الأباطح كل يوم مخافة أن يشردنى حكيم

ومنه شرد البعير : إذا فارق صاحبه ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « فشرذ بهم » بالذال المعجمة . قال قطرب : التشريذ بالذال المعجمة هو: التنكيل ، وبالمهملة : هو التفريق . وقال المهدوى : الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما . قال : ولا يعرف فشرذ فى اللغة ، وقرئ : « من خلفهم » بكسر الميم والفاء .

قوله : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة** ﴾ أى غشا ونقضا للعهد من القوم المعاهدين ﴿ **فانبذ إليهم** ﴾ أى فاطرح إليهم العهد الذى بينك وبينهم ﴿ **على سواء** ﴾ : على طريق مستوية . والمعنى : أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة . وقيل : معنى ﴿ **على سواء** ﴾ : على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوى أنت وهم فيه . قال الكسائى : السواء : العدل ، وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله : ﴿ فى سواء الجحيم ﴾ [الصافات : ٥٥] ، ومنه قول حسان :

يا ويح أنصار النبى ورهطه بعد المغيب فى سواء الملحد

ومن الأول قول الشاعر :

فاضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل : معنى ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ : على جهر لا على سر ، والظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾، ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ تعليل لما قبلها ، ويحتمل أن تكون تحذيرا لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة .

قوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالمثناة من فوق . فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا : فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأول محذوفا ، أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، ومفعوله الثانى : سبقوا ، ومعناه : فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم . وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ . ومفعوله الأول:الذين كفروا ، والثانى : سبقوا . وقرئ : « إنهم سبقوا » ، وقرئ :« يحسبن » بكسر

الياء . وجملة : ﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم . وقرأ ابن عامر : « أنهم » بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها ، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية . وقيل : المراد بهذه الآية : من أفلت من وقعة بدر من المشركين . والمعنى : أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون . بل هم واقعون فى عذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة . وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ : « يحسبن » بالتحتية لحن ، لا تحل القراءة بها ؛لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول. وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد . ومعنى هذه القراءة : ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين . وقال المهدوى : يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا . والمفعول الأول محذوف ، والمعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . قال مكى : ويجوز أن يضمر مع سبقوا « أن» فتسد مسد المفعولين، والتقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ، فهو مثل : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ [العنكبوت : ٢] فى سد أن مسد المفعولين .

ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء ، والقوة : كل ما يتقوى به فى الحرب ، ومن ذلك السلاح والقسى . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :« ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ألا إن القوة الرمى» قالها ثلاث مرات (١) .وقيل : هى الحصون ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين.قوله : ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ قرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو حيوة : « ومن ربط الخيل » بضم الراء والباء ككتب جمع كتاب . قال أبو حاتم : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وهى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو . ومنه قول الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه ... فى الحرب إن الله خير موفق

قال فى الكشاف : والرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله . ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ،ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. انتهى(٢) . ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وجملة: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ،والترهيب: التخويف. والضمير فى: ﴿ **به** ﴾ عائد إلى « ما » فى ﴿ **ما استطعتم** ﴾ أو إلى المصدر المفهوم من ﴿ **وأعدوا** ﴾ وهو الإعداد . والمراد بعدو الله وعدوهم:هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركى العرب.قوله: ﴿ **وآخرين من دونهم** ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم،ومعنى من دونهم : من

---

(١) أحمد ٤ / ١٥٧ ومسلم فى الإمارة (١٩١٧ / ١٦٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٥١٤) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٣) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨١٣) والدارمى فى الجهاد ٢ / ٢٠٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٣٢ .

غيرهم . قيل : هم اليهود. وقيل : فارس والروم . وقيل : الجن ، ورجحه ابن جرير (١). وقيل : المراد بالآخرين من عدوهم : كل من لا تعرف عداوته ، قاله السهيلى . وقيل : هم بنو قريظة خاصة ، وقيل غير ذلك ، والأولى الوقف فى تعيينهم لقوله : ﴿ **لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ . قوله: ﴿ **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله** ﴾ أى فى الجهاد وإن كان يسيرا حقيرا ﴿ **يوف إليكم** ﴾ جزاؤه فى الآخرة ، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا . ﴿**وأنتم لا تظلمون** ﴾ فى شىء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل الله ،أى من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[النساء: ٤٠]. ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : نزلت ﴿ **إن شر الدواب عند الله ....**﴾ الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم** ﴾ قال : قريظة يوم الخندق مالؤوا على رسول الله ﷺ أعداءه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ قال : نكل بهم من بعدهم . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال :نكل بهم من وراءهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال: أنذر بهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : عظ بهم من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال :أخفهم بهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله:﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ يقول:لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا فى طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة . . .**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ قال : لا يفوتونا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ قال : الرمى والسيوف والسلاح .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ قال : أمرهم بإعداد الخيل . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة فى الآية قال: القوة:ذكور الخيل، والرباط : الإناث . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال : القوة: الفرس إلى السهم فما دونه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال: القوة :الحصون ، ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ قال : الإناث . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة

---

(١) ابن جرير ١٠ / ٢٣ .

وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ قال : تخزون به عدوّ الله وعدوكم . وقد ورد فى استحباب الرمى وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد فى استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها . وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات .

﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)** ﴾.

الجنوح: الميل ، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه، ومنه قيل للأضالع : جوانح ؛ لأنها مالت إلى الحنوة ، وجنحت الإبل : مالت أعناقها فى السير ، ومنه قول ذى الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه ... بذكراك والعيس المراسيل جنح

ومثله قول عنترة :

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب

يعنى الطير ، والسلم : الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضل بكسر السين ، وقرأ الباقون بفتحها ، وقرأ العقيلى : « فاجنح » بضم النون ، وقرأ الباقون بفتحها . والأولى : لغة قيس ، والثانية : لغة تميم . قال ابن جنى : ولغة قيس هى القياس ، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب ، أو هى مؤولة بالخصلة ، أو الفعلة . وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟ فقيل : هى منسوخة بقوله: ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] . وقيل : ليست بمنسوخة ؛ لأن المراد بها الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم ، فتكون خاصة بأهل الكتاب . وقيل : إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه ، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا (١) وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [محمد : ٣٥] . وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون فى عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك ، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش ، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم فى هذه المسألة معروف مقرر فى مواطنه ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ فى جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم (٢) ، فـ ﴿ **إنه** ﴾ سبحانه ﴿ **هو السميع** ﴾ لما يقولون ﴿ **العليم** ﴾ بما يفعلون .

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ بالصلح ، وهم مضمرون الغدر والخدع ﴿**فإن حسبك الله**﴾ أى كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ، وجملة ﴿**هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين**﴾

(١) فى المطبوعة : « ولا تهنوا » .

(٢) فى المطبوعة : « مكرمهم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تعليلية ، أى لا تخف من خدعهم ومكرهم فإن الله الذى قواك عليهم بالنصر فيما مضى ـ وهو يوم بدرـ هو الذى سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث ، والمراد بالمؤمنين : المهاجرون والأنصار ، ثم بيّن كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال : ﴿**وألف بين قلوبهم**﴾ وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التى أيد الله بها رسوله . وقال جمهور المفسرين : المراد : الأوس والخزرج ، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار ، والحمل على العموم أولى ، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه ، حتى جاء الإسلام فصاروا يدا واحدة ، وذهب ما كان بينهم من العصبية ، وجملة : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع ما فى الأرض لم يتم له ما طلبه من التأليف ؛ لأن أمرهم فى ذلك قد تفاقم جدا ﴿ **ولكن الله ألف بينهم** ﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه ﴿ **إنه عزيز** ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصى عليه أمر من الأمور ﴿ **حكيم** ﴾ فى تدبيره ونفوذ نهيه وأمره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن جنحوا للسلم** ﴾ قال : قريظة . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : نزلت فى بنى قريظة نسختها : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . . . ﴾ إلى آخر الآية [محمد : ٣٥] .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلم : الطاعة. وأخرج أبو الشيخ عنه فى الآية قال : إن رضوا فارض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : إن أرادوا الصلح فأرده . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال :نسختها هذه الآية: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ إلى قوله :﴿ وهم صاغرون ﴾ [التوبة : ٢٩] .وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، والنحاس فى ناسخه،وأبو الشيخ عن قتادة قال:ثم نسخ ذلك:﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ قال : قريظة .وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وبالمؤمنين** ﴾ قال : بالأنصار . وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير نحوه .وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج ابن عساكر عن أبى هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا الله ، أنا الله وحدى لا شريك لى، ومحمد عبدى ورسولى، أيدته بعلمى ، وذلك قوله : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ .

وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن

هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ...** ﴾ الآية (١) .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، واللفظ له عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة المنعم تكفر ، ولم نر مثل تقارب القلوب ، يقول الله : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ...** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقى عنه نحوه ، وليس فى هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول ، ولكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى الله عنه : إن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله مع أن الواقع قبلها : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ والواقع بعدها : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ومع كون الضمير فى قوله : ﴿ **ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة ، وكذلك الضمير فى قوله : ﴿ **ولكن الله ألف بينهم** ﴾ فإن هذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ليس هذا تكريرا لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة الخدع ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ فهذه كفاية خاصة ، وفى قوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله** ﴾ كفاية عامة غير مقيدة ، أى حسبك الله فى كل حال ، والواو فى قوله : ﴿ **ومن اتبعك** ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف ، والمعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنين ، أى كافيك الله وكافيك المؤمنين ، ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول : حسبك وزيدا درهم ، والمعنى: كافيك وكافى المؤمنين الله ؛ لأن عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر فى علم النحو ، وأجازه الكوفيون . قال الفراء: ليس بكثير فى كلامهم أن تقول : حسبك وأخيك ، بل المستعمل أن يقال : حسبك وحسب

---

(١) ابن المبارك فى الزهد (٣٦٣) وابن أبى شيبة ١٣ / ٥٦٧ ولكنه عن مجاهد ، وابن أبى الدنيا فى الإخوان (١٤) والنسائى فى التفسير (٢٣٠) والبزار فى كشف الأستار (٢٢١٥) وصححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ ووافقه الذهبى ، والذهبى فى السير ٥ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ والبيهقى فى الشعب (٩٠١٣) ط : الكتب العلمية . وذكره الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣٠ ، ٣١ وقال : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير جنادة بن سلم وهو ثقة » كذا قال. وفى مسند البزار : « مسلم بن جنادة » وهو الصواب كما لا يخفى .

(٢) البيهقى فى الشعب (٩٠٣٢ ـ ٩٠٣٤) .

أخيك بإعادة الجار ، فلو كان قوله : ﴿ **ومن اتبعك** ﴾ مجرورا لقيل : حسبك الله وحسب من اتبعك ، واختار النصب على المفعول معه النحاس . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر .

وقوله : ﴿ **حرض المؤمنين على القتال** ﴾ أى حثهم وحضهم ، والتحريض فى اللغة : المبالغة فى الحث وهو : كالتحضيض ، مأخوذ من الحرض ، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به . ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار ، فقال : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ ثم زاد هذا إيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد ، بل هى جارية فى كل عدد فقال : ﴿ **وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا** ﴾ وفى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال ، وقد وجد فى الخارج ما يخالف ذلك .فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين ، بل مثل نصفهم بل مثلهم . وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا بالخارج لا يخالف ما فى الآية لاحتمال ألا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر . وقيل : إن هذا الخبر الواقع فى الآية هو فى معنى الأمر ، كقوله تعالى:﴿ والوالدات يرضعن ﴾ [البقرة:٢٣٣] ،﴿ والمطلقات يتربصن ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال : ﴿ **فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين** ﴾ إلى آخر الآية ، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم : ﴿ **ضعفا** ﴾ بفتح الضاد .

وقوله : ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **يغلبوا** ﴾ ،أى إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم ،وأنهم يقاتلون على غير بصيرة،ومن كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب . وقد قيل فى نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين ، والمائة للألف : إن سراياه التى كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة . وقيل فى التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين والألف للألفين : على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف ، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره لا بقوتهم وجلادتهم ، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين ، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به ، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر ؛ لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه . وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال :لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ . وأخرج الطبرانى

وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل :﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت ﴿ **يأيها النبى حسبك الله**﴾(٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن الزهرى فى الآية قال : نزلت فى الأنصار . وأخرج البخارى فى تاريخه،وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى فى قوله:﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ قال : حسبك الله وحسب من اتبعك .

وأخرج البخارى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ فكتب عليهم ألا يفر واحد من العشرة ، وألا يفر عشرون من مائتين . ثم نزلت ﴿ **الآن خفف الله عنكم ...** ﴾ الآية ، فكتب ألا يفر مائة من مائتين . قال سفيان : وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا (٣) ، وإن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم .وأخرج البخارى ، والنحاس فى ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف : ﴿ **الآن خفف الله عنكم ...** ﴾ الآية . قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٤) .

﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾** ﴾ .

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد . ومعنى : ﴿ **ما كان لنبى** ﴾ ما صح له وما استقام ، وقرأ أبو عمرو وسهيل ويعقوب ويزيد والمفضل أن تكون بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وقرأ أيضا يزيد والمفضل : « أسارى » ، وقرأ الباقون : ﴿ **أسرى** ﴾ والأسرى : جمع أسير ، مثل : قتلى وقتيل ، وجرحى وجريح . وقال فى جمع أسير أيضا : أسارى بضم الهمزة وبفتحها ، وهو مأخوذ من الأسر ، وهو القد ؛ لأنهم كانوا يشدون به الأسير فسمى كل أخيذ

---

(١) الطبرانى (١٢٤٧٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣١ : « وفيه إسحاق بن بشر الكاهلى وهو كذاب » .

(٢) قال ابن كثير ٣ / ٣٤٤ : « وهذا فيه نظر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، وقبل الهجرة إلى المدينة » .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٥٢) والبيهقى فى الشعب (٤٣١٠) ورجاله كلهم ثقات .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٦٥٣) والبيهقى ٩ / ٧٦ .

وإن لم يشد بالقيد : أسيرا . قال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته كما قيدت الأسرات الحمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأسارى : هم الموثقون ربطا . والإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ؛ تقول العرب : أثخن فلان هذا الأمر ، أى بالغ فيه . فالمعنى : ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتل الكافرين ويستكثر من ذلك . وقيل : معنى الإثخان : التمكن . وقيل : هو القوة . وأخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله فى ذلك فقال : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [محمد : ٤] كما يأتى فى سورة القتال إن شاء الله. قوله: ﴿**تريدون عرض**﴾ الحياة ﴿ **الدنيا** ﴾ أى نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ، وسمى عرضا ؛ لأنه سريع الزوال ، كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر ﴿ **والله يريد الآخرة** ﴾ أى يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب فى الإثخان بالقتل . وقرئ: « يريد الآخرة » بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله ، أى والله يريد عرض الآخرة ﴿ **والله عزيز** ﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله .

قوله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو ؟ على أقوال : الأول : ما سبق فى علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم . والثانى : أنه مغفرة الله لأهل بدر، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ،كما فى الحديث الصحيح : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١). القول الثالث : هو أنه لا يعذبهم ورسوله ﷺ فيهم كما قال سبحانه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] . القول الرابع : أنه لا يعذب بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا . القول الخامس : أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر . القول السادس : أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك . وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها ﴿ **لمسكم** ﴾ أى لحل بكم ﴿ **فيما أخذتم** ﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ **عذاب عظيم** ﴾ والفاء فى : ﴿ **فكلوا مما غنمتم** ﴾ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف ، أى قد أبحت لكم الغنائم ، فكلوا مما غنمتم ، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف ، أى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره . وقيل : إن: « ما » عبارة عن الفداء ، أى كلوا من الفداء الذى غنمتم فإنه من جملة الغنائم التى أحلها الله لكم ،و ﴿ **حلالا طيبا** ﴾ منتصبان على الحال أو صفة المصدر المحذوف ،أى أكلا حلالا طيبا ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤ / ١٦١) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٥) وقال : « حسن صحيح » وكلهم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

شيء لم يأذن الله لكم به ﴿ **إن الله غفور** ﴾ لما فرط منكم ﴿**رحيم**﴾ بكم، فلذلك رخص لكم فى أخذ الفداء فى مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد عن أنس قال : استشار النبى ﷺ الناس فى الأسرى يوم بدر فقال : «إن الله قد أمكنكم منهم » ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » ، فقام عمر فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، فأنزل الله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق ...** ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبـو بكر : يـا رسول الله ، قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ،قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس ـ وهو يسمع ـ : قطعت رحمك ، فدخل النبى ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ،فخرج رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، ومثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ من تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ [إبراهيم : ٣٦] . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٨] . ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦].ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس: ٨٨]. أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ ، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال

---

(١) أحمد ٣ / ٢٤٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه أحمد عن شيخه على بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ ، ولا يرجع إذا قيل له الصواب ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

رسول الله ﷺ: «إلا سهيل ابن بيضاء»، فأنزل الله: ﴿**ما كان لنبى أن يكون له أسرى...**﴾ الآية(١) .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على قال : قال النبى ﷺ فى الأسرى يوم بدر : « إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم ، فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليمامة » (٢) . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه وابن أبى شيبة عن عبيدة نحوه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: « نعم » فأتى عمر الأنصار فقال : أرسلوا العباس . فقالوا : لا و الله لا نرسله . فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا ، قالوا : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا فخذه ، فأخذه عمر ، فلما صار فى يده قال له : يا عباس ، أسلم ، فوالله إن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ، قال : فاستشار رسول الله أبا بكر، فقال أبو بكر : عشيرتك فأرسلهم ، فاستشار عمر، فقال : اقتلهم ، ففاداهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله: ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى ...** ﴾ الآية (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى يثخن فى الأرض** ﴾ يقول : حتى يظهروا على الأرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : الإثخان : هو القتل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد أيضا فى الآية قال : ثم نزلت الرخصة بعد: إن شئت فمنّ ، وإن شئت ففاد. وأخرج ابن المنذر عن قتادة : ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ قال : أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ قال: الخراج. وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق** ﴾ قال : سبق لهم المغفرة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : ما سبق لأهل بدر من السعادة . وأخرج النسائى وابن مردويه وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية (٥) . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سبق ألا يعذب

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٣٧) وأحمد ١ / ٣٨٣ والترمذى فى التفسير(٣٠٨٤) وقال: « حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه » والطبرانى (١٠٢٥٧ ، ١٠٢٥٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه الطبرانى أيضا وفيه أبو عبيدة لم يسمع من أبيه ، ولكن رجاله ثقات ، وفى رواية عند الطبرانى . . . وهى متصلة وفيها موسى بن مطير وهو ضعيف » وصححه الحاكم ٣ / ٢١ ، ٢٢ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ وفى السنن ٦ / ٣٢١ .

(٢) صحيحه الحاكم ٢ / ١٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦ / ٣٢١ .

(٣) عبد الرزاق (٩٤٠٢) وابن أبى شيبة (١٨٥٣٣) .

(٤) صححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

(٥) النسائى فى التفسير (٢٣١) إسناده حسن تفرد به النسائى ورجاله ثقات غير على بن أبى طلحة الوالبى وثقه بعضهم وضعفه يعقوب بن سفيان، ولذا قال عنه الحافظ: « صدوق قد يخطئ » فهو حسن الحديث إن شاء الله .

أحدا حتى يبين له ويتقدم إليه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ .

اختلاف القراء فى أسرى (١) والأسارى هو هنا كما سبق فى الآية قبل هذه . خاطب الله النبى ﷺ بهذا ، أى قل لهؤلاء الأسرى الذين هم فى أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء : ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا** ﴾ من حسن إيمان ، وصلاح نية ، وخلوص طوية ﴿**يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾ من الفداء ، أى يعوضكم فى هذه الدنيا رزقا خيرا منه وأنفع لكم ، أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ذنوبكم ﴿**والله غفور رحيم** ﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم ، ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم فى قلبه خيرا ذكر من هو ضد ذلك منهم فقال : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة ، بل هو مماكرة ومخادعة ، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم ، فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ بأن نصرك عليهم فى يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ﴿ **والله عليم** ﴾ بما فى ضمائرهم ﴿**حكيم**﴾ فى أفعاله بهم .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص وبعثت فيه بقلادة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها » ، وقال العباس: إنى كنت مسلما يا رسول الله ، قال : « الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فالله يجزيك ، فافد نفسك وابنى أخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو » ، قال : ما ذاك عندى يا رسول الله ، قال : « فأين المال الذى دفنت أنت وأم الفضل؟ فقلت لها : إن أصبت فهذا المال لبنى ؟ » فقال : والله يا رسول الله، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغيرها ، فاحسب لى ما أصبتم منى عشرون أوقية من مال كان معى ، قال : « لا أفعل» ، ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، ونزلت : ﴿ **قل لمن فى أيديكم من الأسرى** ... ﴾ الآية ، فأعطانى مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله (٢) .

وأخرج ابن سعد ، والحاكم وصححه عن أبى موسى أن العلاء بن الحضرمى بعث إلى

---

(١) هكذا بالمخطوطة ، ولعله فى « الأسارى » فقط .

(٢) صححه الحاكم ٣/ ٢٣ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٣٢٢ .

رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفا ، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه ، فنشر على حصير ، وجاء الناس فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم ، وما كان يومئذ عدد ولا وزن ، فجاء العباس فقال : يا رسول الله ، إنى أعطيت فدائى وفداء عقيل يوم بدر ، أعطنى من هذا المال ، فقال : « خذ » فحثا فى خميصته، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع ، فرفع رأسه وقال : يا رسول الله ، ارفع علىّ ، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول : أما أحد اللذين وعد الله فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع فى الأخرى ﴿ **قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم** ﴾ فهذا خير مما أخذ منى ولا أدرى ما يصنع فى المغفرة (١) . والروايات فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب (٢). وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى قوله :﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ إن كان قولهم كذبا ﴿ **فقد خانوا الله من قبل** ﴾ فقد كفروا وقاتلوك فأمكنك الله منهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾.

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذى يستعين به ، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم ؛ لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله ، وإجابة لداعيه . ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ هم الأنصار ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى الموصول الأول والآخر ، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده ، ويجوز أن يكون ﴿**بعضهم**﴾ بدلا من اسم الإشارة ، والخبر ﴿ **أولياء بعض** ﴾ أى بعضهم أولياء بعض فى النصرة والمعونة . وقيل : المعنى : إن بعضهم أولياء بعض فى الميراث . وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ .

---

(١) ابن سعد ٤/ ١٥ ، ١٦ وصححه الحاكم ٣/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٢) ابن سعد ٤/ ١٥ .

قوله : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ **مالكم من ولايتهم من شيء** ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : ﴿ **من ولايتهم** ﴾ بكسر الواو . وقرأ الباقون بفتحها ، أى ما لكم من نصرتهم وإعانتهم ، أو من ميراثهم ، ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿ **حتى يهاجروا** ﴾ فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة ﴿**وإن استنصروكم** ﴾ أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿**فعليكم النصر** ﴾ أى فواجب عليكم النصر ﴿ **إلا** ﴾ أن يستنصروكم ﴿ **على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته . قال الزجاج : ويجوز : فعليكم النصر بالنصب على الإغراء .

قوله : ﴿ **والذين كفروا** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى بعضهم ينصر بعضا ويتولاه فى أموره، أو يرثه إذا مات ، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم . قوله : ﴿ **إلا تفعلوه** ﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور ، وترك موالاة الكافرين ﴿ **تكن فتنة فى الأرض**﴾ أى تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿ **وفساد كبير** ﴾ أى مفسدة كبيرة فى الدين والدنيا ، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار ، فقال : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾ أى الكاملون فى الإيمان ، وليس فى هذا تكرير لما قبله فإنه وارد فى الثناء على هؤلاء ، والأول وارد فى إيجاب الموالاة والنصرة ، ثم أخبر سبحانه أن ﴿ **لهم** ﴾ منه ﴿ **مغفرة** ﴾ لذنوبهم فى الآخرة و لهم فى الدنيا ﴿ **رزق كريم** ﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ . ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم ، أى من جملة المهاجرين الأولين والأنصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم فى الميراث ، والمراد بهم : القرابات ، فيتناول كل قرابة . وقيل : المراد بهم هنا: العصبات ، قالوا : ومنه قول العرب : وصلتك رحم ، فإنهم لا يريدون قرابة الأم . قالوا : ومنه قول قتيلة :

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

ولا يخفاك أنه ليس فى هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات ، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام ، وهم من ليس بعصبة ولا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث ، والخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواطنه . وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ وما بعده بالتوارث ، وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخبارا منه سبحانه وتعالى بأن

القرابات ﴿ **بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن ، ويدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوليا لوجود سببه ــ أعنى ــ القرابة : ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء من الأشياء كائنا ما كان ، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا...** ﴾ الآية قال : إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل ، منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه ، وفى قوله : ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ قال : آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض ، وفى قوله : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ قال : كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين ، وكان الذى آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر ، فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم ، وهى الولاية التى قال : ﴿ **ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ كان حقا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم فى الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبى ﷺ ميثاق ، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذى لا ميثاق لهم ، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبا مفروضا لقوله : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ...** ﴾ الآية . وفى رواية لابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : يعنى فى الميراث ، جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء** ﴾ ما لكم من ميراثهم من شىء ﴿**حتى يهاجروا** (١) **وإن استنصروكم فى الدين** ﴾ يعنى : إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فنسخت الآية التى قبلها ، وصارت المواريث لذوى الأرحام .

وأخرج أبو عبيد وأبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآيات قال : كان المهاجر لا يتولى الأعرابى ولا يرثه وهو مؤمن ، ولا يرث الأعرابى المهاجر ، فنسختها هذه الآية: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : قال رجل من المسلمين : لنورثن ذوى القربى منا من المشركين ، فنزلت : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء**

---

(١) فى المطبوعة : « يهاجرون » .

(٢) أبو داود فى الفرائض (٢٩٢٤) .

بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾(١) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «المهاجرون بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة » (٢) . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أسامة عن النبى ﷺ قال : «لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافرا ، ولا كافر مسلما » ثم قرأ : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ... ﴾ الآية (٣) .

وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله فينا خاصة معشر قريش : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم وورثناهم فآخونا ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخى عمر فلانا ، وآخى عثمان بن عفان رجلا من بنى زريق بن أسعد الزرقى ، قال الزبير : وآخيت أنا كعب ابن مالك ، وورثونا وورثناهم ، فلما كان يوم أحد قيل لى: قد قتل أخوك كعب بن مالك ، فجئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيما يرى ، فوالله يا بنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار ، فرجعنا إلى مواريثنا (٤) . وأخرج أبو داود الطيالسى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب (٥) .

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٣٩ .

(٢) أحمد ٤/ ٣٦٣ ، وصححه الحاكم ٤/ ٨١ ووافقه الذهبى .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٠ ووافقه الذهبى .

(٤) صححه الحاكم ٤/ ٣٤٥ ووافقه الذهبى .

(٥) أبو داود الطيالسى (٢٦٧٦) والطبرانى (١١٧٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣١ : « ورجاله رجال الصحيح».

تفسير سورة براءة

هى مائة وثلاثون آية ، وقيل : مائة وسبع وعشرون آية ، ولها أسماء: منها سورة التوبة ؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لأنه مازال ينزل فيها : ومنهم، ومنهم حتى كادت أن لاتدع أحدا ، وتسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين ، وتسمى المبعثرة : والبعثرة البحث ، وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة ؛ لكونها تقشقش من النفاق ، أى تبرئ منه ؛ والمخزية لكونها أخزت المنافقين ، والمثيرة لكونها تثير أسرارهم ، والحافرة لكونها تحفر عنها ، والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم ، والمدمدمة لأنها تدمدم عليهم .

وهى مدنية . قال القرطبى : باتفاق (١) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت براءة بعد فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة التوبة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والنسائى وابن الضريس وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء قال : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ [النساء : ١٧٦] . وآخر سورة نزلت تامة براءة (٢) .

وقد اختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّلها على أقوال :

الأوّل عن المبرد وغيره : أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد ، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة ؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ، بعث بها النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل فى ذلك على ما جرت به عادة العرب . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : سألت علىّ بن أبى طالب : لم لا تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللّه الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود، والترمذى وحسنه، والنسائى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المثين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٩٠٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٠٢٦٢) والبخارى فى التفسير(٤٦٠٥ ، ٤٦٥٤) وفى المغازى (٤٣٦٤) ومسلم فى الفرائض (١٦١٨/ ١١ ، ١٢) والنسائى فى التفسير (٢٣٢) وابن الضريس فى فضائل القرآن (١٩ ، ٢٠) والنحاس فى ناسخه ١٩٤ ، وابن جرير ٦/ ٢٩ والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣٦ .

الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول [١]. وأخرج أبو الشيخ عن أبى رجاء قال : سألت الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورة ؟ قال : سورتان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : يسمون هذه السورة سورة التوبة ، وهى سورة العذاب . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : فى هذه السورة هى الفاضحة ما زالت تنزل : ومنهم ، حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها. وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلا قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة ، فقال ابن عمر: وأيتهن سورة التوبة ، ثم قال : وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هى ؟ ما كنا ندعوها إلا المقشقشة. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : يسمونها سورة التوبة ، وإنها لسورة عذاب . وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال : كانت براءة تسمى فى زمن النبى ﷺ وبعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عمير قال : كانت براءة تسمى المنقرة نقرت عما فى قلوب المشركين . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أبى عطية الهمدانى قال : كتب عمر بن الخطاب : تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور .

ومن جملة الأقوال فى حذف البسملة أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريبا منها ، وأنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روى هذا عن مالك بن أنس وابن عجلان .

ومن جملة الأقوال فى سقوط البسملة أنهم لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان . قاله خارجة وأبوعصمة وغيرهما . وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر ؛ لأنهما جميعا فى القتال ، وتعدان جميعا سابعة السبع الطول .

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ .

(١) أحمد ١/ ٥٧ وأبو داود فى الصلاة (٧٨٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٨٦) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٠٧) ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٠ ووافقه الذهبى .

قوله : ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾ : برئت من الشيء أبرأ براءة ، وأنا منه بريء : إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه ، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هذه براءة ، ويجوز أن ترتفع على الابتداء لأنها نكرة موصوفة ، والخبر ﴿ **إلى الذين عاهدتم**﴾ .وقرأ عيسى بن عمر « براءة » بالنصب على تقدير: اسمعوا براءة ، أو على تقدير : التزموا براءة ، لأن فيها معنى الإغراء ، و« من » فى قوله : ﴿ **من الله** ﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة ، أى واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم . وقرأ روح وزيد بنصب ﴿ **رسوله** ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع . والعهد : العقد الموثق باليمين . والخطاب فى عاهدتم للمسلمين ، وقد كانوا عاهدوا مشركى مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول ﷺ ، والمعنى : الإخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض ، فصار النبذ إليهم بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين ، ومعنى براءة الله سبحانه : وقوع الإذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم ، وفى ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذلّ والهوان ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة ، والسياحة : السير ، يقال : ساح فلان فى الأرض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ، ومنه سيح الماء فى الأرض وسيح الخيل ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفت هذا منك ما نلتنى حتى ترى خيلا أمامى تسيح

ومعنى الآية : أن الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب فى الأرض والذهاب إلى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر ، وليس المراد من الأمربالسياحة تكليفهم بها . قال محمد بن إسحاق وغيره : إن المشركين صنفان : صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه ، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد ، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر ، فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم ، وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجة وشهر محرم. وقال الكلبى: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر،ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذى أمر الله أن يتمّ له عهده بقوله: ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ ورجح هذا ابن جرير وغيره(١) ، وسيأتى فى آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية. ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ أى اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب ، وفى ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل : افعلوا

---

(١) ابن جرير ١٠/٤٢ والقرطبى ٤/٢٩٠٣ .

فى هذه المدّة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تفوتون اللّه وهو مخزيكم ، أى مذلكم ومهينكم فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب ، وفى وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو الكفر ، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوّليا .

قوله : ﴿ **وأذان من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر** ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده على ما تقدّم فى ارتفاع براءة ، والجملة هذه معطوفة على جملة : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ وقال الزجاج : إن قوله : ﴿ **وأذان** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **براءة** ﴾ . واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكان ﴿ **أذان** ﴾ مخبر عنه بالخبر الأوّل ، وهو : ﴿ **إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ وليس ذلك بصحيح . بل الخبر عنه هو : ﴿ **إلى الناس** ﴾ والأذان بمعنى : الإيذان وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء ، ومعنى قوله : ﴿ **إلى الناس** ﴾ التعميم فى هذا ، أى أنه إيذان من اللّه إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم ، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس ، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة ، و ﴿ **يوم الحج** ﴾ ظرف لقوله : ﴿ **وأذان** ﴾ ، ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه .

وقد اختلف العلماء فى تعيين هذا اليوم المذكور فى الآية ، فذهب جمع ، منهم على بن أبى طالب وابن مسعود وابن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد أنه يوم النحر ، ورجحه ابن جرير(١) . وذهب آخرون ، منهم عمر وابن عباس وطاوس أنه يوم عرفة . والأوّل أرجح ؛ لأن النبى ﷺ أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر(٢) . قوله : ﴿ **أن اللّه برىء من المشركين ورسوله** ﴾ قرئ بفتح « أن » على تقدير : بأن الله برىء من المشركين ، فحذفت الباء تخفيفا . وقرئ بكسرها ؛ لأن فى الإيذان معنى القول ، وارتفاع ﴿ **رسوله** ﴾ على أنه معطوف على موضع اسم « أن » ، أو على الضمير فى ﴿ **برىء** ﴾ ، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير : ورسوله برىء منهم . وقرأ الحسن وغيره : « ورسوله » بالنصب عطفا على لفظ اسم ﴿ **أن** ﴾ . وقرئ: « ورسوله » بالجرّ على أن الواو للقسم ، روى ذلك عن الحسن ، وهى قراءة ضعيفة جدا ، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ ها هنا مع ما ثبت من النهى عن الحلف بغير الله ، وقيل : أنه مجرور على الجوار .

قوله : ﴿ **فإن تبتم** ﴾ أى من الكفر ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، قيل : وفائدة

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٥٠ والقرطبى ٤/٢٩٠٨ .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :« بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك . . . » إلى آخر الحديث . أخرجه البخارى فى التفسير (٤٦٥٦ ، ٤٦٥٧) .

هذا الالتفات زيادة التهديد ، والضمير في قوله : ﴿ **فهو** ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم ﴿ **خير لكم** ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿**وإن توليتم** ﴾ أى أعرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر ﴿ **فاعلموا أنكم غير معجزى اللّه** ﴾ أى غير فائتين عليه،بل هو مدرككم فمجازيكم بأعمالكم . قوله : ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ هذا تهكم بهم ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ، ثم قال : إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحجّ حتى لا يكون ذلك،فأرسل أبا بكر وعليا فطافا فى الناس بذى المجاز،وبأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله ، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، وهى : الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات ، عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا (١) . وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن علىّ قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على (٢) النبىّ ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعانى فقال لى : « أدرك أبا بكر ، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة » ، فلحقته فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبوبكر وقال : يا رسول الله ، نزل فىّ شىء ؟ قال : « لا ، ولكن جبريل جاءنى فقال : لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس نحوه (٤) . وأخرج ابن مردويه من حديث سعد بن أبى وقاص نحوه أيضا .

وأخرج أحمد والنسائى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة قال : كنت مع علىّ حين بعثه رسول اللّه ﷺ إلى أهل مكة ببراءة ، فكنا نادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول اللّه ﷺ عهد فإن أجله وأمده إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن اللّه برىء من المشركين ورسوله،ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : بعثنى أبوبكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحجّ بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن على فى يوم النحر ببراءة : ألا

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٤٤ .

(٢) فى المطبوعة : «عن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٥٩ ، ٣٦٠ وقال: « هذا إسناد ضعيف ، وليس المراد أن أبا بكر رضى الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التى أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء ذلك مبينًا فى رواية أخرى » ، وقال الهيثمى فى المجمع٧/ ٣٢:« رواه عبد الله بن أحمد وفيه محمد بن جابر السحيمى وهو ضعيف وقد وثق » .

(٤) الترمذى فى التفسير مختصرًا (٣٠٩٠) وقال : «حسن غريب » .

يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان [١]. وأخرج الترمذى وحسنه، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ؛ أن رسول اللّه ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، فانطلقا فحجا ، فقام علىّ فى أيام التشريق فنادى : إن اللّه برىء من المشركين ورسوله فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن ؛ فكان علىّ ينادى ، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها [٢] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه ، وابن المنذر والنحاس ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن زيد بن تبيع [٣] قال : سألت عليا بأى شىء بعثت مع أبى بكر فى الحج ؟ قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر [٤] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ الآية قال : حدّ اللّه للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا ، وحدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا الإسلام ونقض ما سمى لهم من العهد والميثاق،وأذهب الشرط الأوّل ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ يعنى : أهل مكة . وأخرج النحاس عنه نحو هذا ، وقال : ولم يعاهد رسول اللّه ﷺ بعد هذا أحدا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والنحاس عن الزهرى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ قال : نزلت فى شوال فهى الأربعة أشهر : شوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرّم[٥] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وأذان من الله ورسوله** ﴾ قال : هو إعلام من اللّه ورسوله .

وأخرج الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن علىّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحجّ الأكبر فقال : يوم النحر[٦] . وأخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وأبو الشيخ

---

(١) أحمد ٢/ ٢٩٩ والبخارى فى الصلاة (٣٦٩) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٣٤ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩١) وقال : « حسن غريب » وصححه الحاكم ٣/ ٥٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٣) كذا ، والصواب : « زيد بن يُثَيعْ » كما هو فى الترمذى والحاكم والبيهقى فى الدلائل .

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٢) وقال : « حديث حسن » ، وصححه الحاكم ٣/ ٥٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٩٧ . .

(٥) ابن جرير ١٠/ ٤٤ ، ٤٥ .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٠٨٨) .

عنه من قوله . وأخرج أبو داود والنسائى، والحاكم وصححه عن عبد اللّه بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : « أعظم الأيام عند اللّه يوم النحر ثم يوم القرّ » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال : « يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر». وأخرج البخارى تعليقا وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فقال : « أىّ يوم هذا ؟ » قالوا : يوم النحر ، قال : « هذا يوم الحج الأكبر» (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وأبوداود والنسائى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر : يوم النحر ، والحج الأكبر : الحجّ ؛ وإنما قيل الأكبر : من أجل قول الناس الحجّ الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحجّ عام حجة الوداع التى حجّ فيها رسول الله ﷺ مشرك ، وأنزل اللّه فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ﴾ (٣) الآية [التوبة : ٢٨] .

وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب . أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح : « إن هذا عام الحج الأكبر » ، قال : « اجتمع حجّ المسلمين وحجّ المشركين فى ثلاثة أيام متتابعات ، واجتمع النصارى واليهود فى ثلاثة أيام متتابعات ؛ فاجتمع حجّ المسلمين والمشركين والنصارى واليهود فى ستة أيام متتابعات ، ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام ، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة » (٤) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال : مالكم وللحج الأكبر ؟ ذاك عام حجّ فيه أبوبكر استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس ، واجتمع فيه المسلمون والمشركون فلذلك سمى الحج الأكبر ، ووافق عيد اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : الحجّ الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر ، ألم تر أن الإمام يخطب فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المسور بن مخرمة ، أن رسول الله ﷺ قال يوم عرفة : « هذا يوم الحجّ الأكبر » . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الحج الأكبر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن أبى الصهباء البكرى قال : سألت علىّ ابن أبى طالب عن يوم الحج الأكبر فقال : يوم عرفة . وأخرج أبو عبيدة وابن المنذر وابن أبى

(١) أبو داود فى المناسك (١٧٦٥) وصححه الحاكم ٤/ ٢٢١ ووافقه الذهبى ،والقر: هو اليوم الذى يلى يوم النحر .

(٢) البخارى فى الحج (١٧٤٢) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٥٨) وابن جرير ١٠/ ٥٢، ٥٣ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٧٤ .

(٣) البخارى فى الحج (١٦٢٢) وفى الجزية (٣١٧٧) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٣٤ .

(٤) الطبرانى (٧٠٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٨١ : « رواه البزار وفيه يوسف بن خالد السمتى وهو ضعيف » .

حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر . وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه .

ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر : هو يوم الحج الأكبر ، هى ثابتة فى الصحيحين وغيرهم من طرق ، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة . وأخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه سئل : هذا الحج الأكبر ، فما الحج الأصغر ؟ قال : عمرة فى رمضان . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن إسحاق قال : سألت عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر فقال : الحج الأكبر يوم النحر ، والحج الأصغر : العمرة . وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن مسعود قال : سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون فى المكروه فقال : ألم تسمع قوله : ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ .

الاستثناء بقوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال الزجاج : إنه يعود إلى قوله : ﴿ **براءة** ﴾ والتقدير : براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم . وقال فى الكشاف : إنه مستثنى من قوله : ﴿**فسيحوا**﴾ والتقدير : فقولوا لهم : فسيحوا إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا إليهم عهدهم . قال : والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين : ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم(١) . وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه ، وهو ﴿ **وأذان من الله**﴾ إلخ . وأجيب بأن ذلك لا يضرّ لأنه ليس بأجنبى . وقيل : إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله فيكون متصلا وهو ضعيف . قوله : ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئا** ﴾ أى لم يقع منهم أىّ نقص ، وإن كان يسيرا ، وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار : « ينقضوكم » بالضاد المعجمة ، أى لم ينقضوا عهدكم ، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ، ومنهم من ثبت عليه ، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض ، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحدا** ﴾ المظاهرة : المعاونة ، أى لم يعاونوا

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

عليكم أحدا من أعدائكم ﴿**فأتموا إليهم عهدهم**﴾ أى أدّوا إليهم عهدهم تاما غير ناقص ﴿ **إلى مدتهم** ﴾ التى عاهدتموهم إليها وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ، ولا تعاملوهم معاملة الماكثين من القتال بعد مضى المدّة المذكورة سابقا ، وهى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق .

قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ انسلاخ الشهر : تكامله جزءا فجزءا إلى أن ينقضى كانسلاخ الجلد عما يحويه ، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه ، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده . فاستعير لانقضاء الأشهر ، يقال : سلخت الشهر تسلخه سلخا وسلوخا بمعنى : خرجت منه ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخى الشهور وإهلالى

ويقال : سلخت المرأة درعها : نزعته ، وفى التنزيل : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس : ٣٧] .

واختلف العلماء فى تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا ، فقيل : هى الأشهر الحرم المعروفة التى هى ذو القعدة، وذو الحجة ، ومحرّم ، ورجب : ثلاثة سرد ، وواحد فرد . ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر ، فكان الباقى من الأشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرم فأمرهم اللّه بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر . وروى عن ابن عباس واختاره ابن جرير . وقيل : المراد بها شهور العهد المشار إليها بقوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ وسميت حرما؛لأن اللّه سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل : هى الأشهر المذكورة فى قوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر**﴾ . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة ، ورجحه ابن كثير ، وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدّى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وسيأتى بيان حكم القتال فى الأشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة إن شاء اللّه.ومعنى:﴿ **حيث وجدتموهم** ﴾: فى أى مكان وجدتموهم من حلّ أو حرم . ومعنى ﴿ **خذوهم** ﴾ : الأسر فإن الأخيذ هو الأسير . ومعنى الحصر : منعهم من التصرّف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم ، والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدوّ ، يقال : رصدت فلانا أرصده ، أى رقبته ، أى اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها . قال عامر بن الطفيل :

ولقد علمت وما أخالك عالما أن المنية للفتى بالمرصد

وقال النابغة :

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا للنفوس بمرصد

و﴿ كل ﴾ فى ﴿ كل مرصد ﴾ : منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج ؛ وقيل هو منتصب بنزع الخافض، أى فى كل مرصد ، وخطأ أبو علىّ الفارسى الزجاج فى جعله ظرفا . وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة ، وهو المرأة والصبىّ والعاجز الذى لايقاتل ، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم ، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم . وقال الضحاك وعطاء والسدّى : هى منسوخة بقوله : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [محمد : ٤] . وأن الأسير لا يقتل صبرا بل يمن عليه أويفادى ، وقال مجاهد وقتادة : بل هى ناسخة لقوله : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ وأنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . قال القرطبى : وهو الصحيح لأن المنّ والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أوّل حرب جاء بهم وهو يوم بدر (١) . قوله: ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ أى تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام ، وهو إقامة الصلاة ، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها ، واكتفى بالركن الآخر المالى ، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات لأنه أعظمها ﴿ **فخلوا سبيلهم** ﴾ أى اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ﴿ **إن اللّه غفور** ﴾ لهم ﴿ **رحيم** ﴾ بهم .

قوله : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره** ﴾ ، يقال : استجرت فلانا ، أى طلبت أن يكون جارا،أى محاميا ومحافظا من أن يظلمنى ظالم ، أو يتعرّض لى متعرّض.و ﴿ **أحد** ﴾ مرتفع بفعل مقدّر يفسره المذكور بعده ، أى وإن استجارك أحد استجارك ، وكرهوا الجمع بين المفسر والمفسر . والمعنى : وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأجره ، أى كن جارا له مؤمنا محاميا ﴿ **حتى يسمع كلام اللّه** ﴾ منك ويتدبره حق تدبره ، ويقف على حقيقة ما تدعوا إليه ﴿ **ثم أبلغه مأمنه** ﴾ أى إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام اللّه إن لم يسلم ، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه ، ووجوب قتله حيث يوجد ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٩١٢ .

وما بعده ﴿ **بأنهم قوم لايعلمون** ﴾ أى بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر فى الحال والمآل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال : هم قريش . وأخرج أيضا عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبىّ اللّه زمن الحديبية ، وكان بقى من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر ، فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا إلى مدتهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن عباد بن جعفر فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال : هم بنو جذيمة بن عامر من بنى بكر بن كنانة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ قال : كان بقى لبنى مذحج وخزاعة عهد ، فهو الذى قال اللّه : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ قال : هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبى ﷺ فى غزوة العُشَيْرَة من بطن ينبع ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئا** ﴾ ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحدا** ﴾ قال: لم يظاهروا عدوّكم عليكم ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ يقول : أجلهم الذى شرطتم لهم ﴿ **إن اللّه يحب المتقين** ﴾ يقول: الذين يتقون اللّه فيما حرّم عليهم فيوفون بالعهد . قال : فلم يعاهد النبى ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحدا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ قال : هى الأربعة : عشرون من ذى الحجة والمحرّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأوّل ، وعشر من ربيع الآخر. قلت : مراد السدّى أن هذه الأشهر تسمى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال ، لا أنها الأشهرالحرم المعروفة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : هى عشر من ذى القعدة وذو الحجة والمحرم ، سبعون ليلة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هى الأربعة الأشهر التى قال : ﴿**فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدّى السابق . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ ثم نسخ واستثنى . فقال : ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللّه** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره** ﴾ يقول: من جاءك واستمع ما تقول ، واستمع ما أنزل إليك ، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام اللّه حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله :

﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ قال : إن لم يوافقه ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه ، وهذا ليس بمنسوخ . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ حتى يسمع كلام اللّه ﴾ أى كتاب اللّه . وأخرج أبوالشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال : كان الرجل يجىء إذا سمع كتاب اللّه وأقرّ به وأسلم فذاك الذى دعى إليه ، وإن أنكر ولم يقرّ به ردّ مأمنه ، ثم نسخ ذلك ، فقال : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [التوبة : ٢٦] .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله ﴾ : الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهد : اسم يكون ، وفى خبره ثلاثة أوجه : الأول : أنه كيف ، وقدم للاستفهام ؛ والثانى : للمشركين ، ﴿وعند ﴾ على هذين : ظرف للعهد ، أو ليكون ، أو صفة للعهد ؛ والثالث : أن الخبر عند اللّه ، وفى الآية إضمار، والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه . وقيل : معنى الآية : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا فى ذلك ولا يحدّثوا به أنفسهم ، ثم استدرك ، فقال : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ أى لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم ، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم وبينهم ﴿فاستقيموا لهم ﴾ قيل : هم بنو بكر . وقيل : بنو كنانة وبنو ضمرة ، وفى « ما » وجهان: أحدهما : أنها مصدرية زمانية ، والثانى : أنها شرطية ، وفى قوله : ﴿ إن اللّه يحبّ المتقين ﴾ إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين ، فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة .

قوله : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم ﴾ أعاد الاستفهام التعجبى للتأكيد والتقرير ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد عند اللّه وعند رسوله ؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم ﴿ لا يرقبوا ﴾ أى لا يراعوا فيكم ﴿إلا ﴾ أى عهدا ﴿ولا ذمة ﴾.قال فى الصحاح : الإلّ : العهد والقرابة : ومنه قول حسان :

لعمرك أن إلك من قريش كإلّ السقب من رئل النعام

قال الزجاج : الإل عندى على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة ، ومنه الإلة للحربة ، ومنه أذن مؤللة ، أى محددة ، ومنه قولة طرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة والانتصاب :

مؤللتان يعرف العتق منهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

قال أبو عبيدة : الإلّ : العهد ، والذمة والنديم . وقال الأزهرى :هو اسم للّه بالعبرانية ، وأصله من الأليل ، وهو البريق، يقال : ألّ لونه يولّ إلا ، أى صفا ولمع . والذمة: العهد ، وجمعها: ذمم ،فمن فسر الإلّ بالعهد كان التكريرللتأكيد مع اختلاف اللفظين. وقال أبو عبيدة : الذمة: التذمم. وقال أبو عبيدة: الذمة: الأمان كما فى قوله ﷺ : « ويسعى بذمتهم أدناهم » (١) وروى عن أبى عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذمم به ، أى ما يجتنب فيه الذّم. قوله : ﴿ **يرضونكم بأفواههم** ﴾ أى يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتودّ ما فيه مساءتكم ومضرتكم ، كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين ؛ ثم حكم عليهم بالفسق ، وهو التمرّد والتجرى ، والخروج عن الحق لنقضهم العهود ، وعدم مراعاتهم للعقود ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ أى استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيرا ، وهو ما آثروه من حطام الدنيا ﴿ **فصدّوا عن سبيله** ﴾ أى فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق ، أو صرفوا غيرهم عنه .

قوله : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ قال النحاس : ليس هذا تكريرًا ، ولكن الأوّل لجميع المشركين ، والثانى: لليهود خاصة ، والدليل على هذا : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ يعنى : اليهود . وقيل : هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق ، وفى الأوّل المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة : ﴿ **وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد ، أو البالغون فى الشرّ والتمرد إلى الغاية القصوى : ﴿ **فإن تابوا** ﴾ عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام ﴿ **فإخوانكم** ﴾ أى فهم إخوانكم ﴿ **فى الدين** ﴾ أى فى دين الإسلام ﴿ **ونفصل الآيات** ﴾ أى نبينها ونوضحها ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه ، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات : ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم .

وقد أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ قال: قريش. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل قال : كان النبى ﷺ عاهد أناسا من بنى ضمرة بن بكر وكنانة

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الحج (١٣٧٠/٤٦٧) عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : خطبنا على بن أبى طالب فقال ، وذكره بطوله ، وذكره البخارى أيضا فى الفرائض (٦٧٥٥) وأبو داود فى المناسك (٢٠٣٤)

خاصة ، عاهدهم عند المسجد الحرام ، وجعل مدتهم أربعة أشهر ، وهم الذين ذكر الله ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** ﴾ يقول : ما وفوا لكم بالعهد فقوا لهم. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هم بنو جذيمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ قال: هو يوم الحديبية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا ولا ذمة** ﴾ قال : الإلّ: القرابة، والذمة: العهد . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الإلّ: اللّه عزّ وجلّ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ قال : أبوسفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن تابوا** ﴾ الآية يقول : إن تركوا اللات والعزّى وشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه فإخوانكم فى الدين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : حرّمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصلاة (١).

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن نكثوا** ﴾ معطوف على ﴿ **فإن تابوا** ﴾ والنكث : النقض ، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه ، ثم استعمل فى كل نقض ، ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة . ومعنى : ﴿ **من بعد عهدهم** ﴾ أى من بعد أن عاهدوكم . والمعنى : أن الكفار إن نكثوا العهود التى عاهدوا بها المسلمين ، ووثقوا بها وضموا إلى ذلك الطعن فى دين الإسلام ، والقدح فيه فقد وجب على المسلمين قتالهم . وأئمة الكفر : جمع إمام ، والمراد : صناديد المشركين ، وأهل الرئاسة فيهم على العموم . وقرأ حمزة :« أإمة » وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن ؛ لأن فيه الجمع بين همزتين فى كلمة واحدة . وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٦٢ .

بين بين ، أى بين مخرج الهمزة والياء . وقرئ بإخلاص الياء وهو لحن، كما قال الزمخشرى(١). قوله : ﴿ **إنهم لا أيمان لهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، والأيمان : جمع يمين فى قراءة الجمهور . وقرأ ابن عامر : « لا إيمان لهم » بكسر الهمزة . والمعنى على قراءة الجمهور : أن أيمان الكافرين وإن كانت فى الصورة يمينا فهى فى الحقيقة ليست بيمين . وعلى القراءة الثانية : أن هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين فى الدين ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم ، فقتالهم واجب على المسلمين . قوله :﴿ **لعلهم ينتهون** ﴾ أى عن كفرهم ونكثهم وطعنهم فى دين الإسلام . والمعنى : أن قتالهم يكون إلى الغاية هى الانتهاء عن ذلك .

وقد استدل بهذه الآية على أن الذمىّ إذا طعن فى الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة ، لأن اللّه إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما : نقض العهد ، والثانى : الطعن فى الدين . وذهب مالك والشافعى وغيرهما إلى أنه إذا طعن فى الدين قتل ؛ لأنه ينتقض عهده بذلك ، قالوا : وكذلك إذا حصل من الذمىّ مجرد النكث فقط من دون طعن فى الدين فإنه يقتل .

قوله : ﴿ **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم** ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفى للاستفهام التوبيخى مع مايستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة فى تحقيقه ، والمعنى : أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبداءة بالقتال ، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله ، وأن يوبخ من فرط فى ذلك . ثم زاد فى التوبيخ فقال : ﴿**أتخشونهم**﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أى تخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه ، فقال : ﴿ **فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى هو أحق بالخشية منكم ، فإنه الضارّ النافع بالحقيقة ، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله ، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم. ثم زاد فى تأكيد الأمر بالقتال فقال : ﴿ **قاتلوهم** ﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد : الأولى : تعذيب اللّه للكفار بأيدى المؤمنين بالقتل والأسر . والثانية : إخزاؤهم ، قيل : بالأسر . وقيل : بما نزل بهم من الذل والهوان . والثالثة : نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم . والرابعة : أن اللّه يشفى بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره . والخامسة : أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذى نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر .

فإن قيل : شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكرارا . قيل فى الجواب : إن القلب أخص من الصدر . وقيل : إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح ، ولا

(١) الكشاف ٢/ ٢٥١ .

ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح ، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها ، ثم قال: ﴿ **ويتوب الله على من يشاء** ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون ، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح ، فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم ، وهذا على قراءة الرفع فى ﴿ **يتوب**﴾، وهى قراءة الجمهور . وقرئ بنصب ﴿ **يتوب** ﴾ بإضمار أن ، ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى . قرأ بذلك ابن أبى إسحاق وعيسى الثقفى والأعرج . فإن قيل : كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة ؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سببا لها إذا كانت من جهة الكفار ، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه : أن النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب .

قوله : ﴿ **أم حسبتم أن تتركوا** ﴾ أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة والاستفهام للتوبيخ ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر ، والمعنى : كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه ، وقوله : ﴿ **أن تتركوا** ﴾ فى موضع مفعولى الحسبان عند سيبويه . وقال المبرد : إنه حذف الثانى ، والتقدير : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب ، وجملة ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ : فى محل نصب على الحال ، والمراد من نفى العلم نفى المعلوم ، والمعنى : كيف تحسبون أنكم تتركوا ولما يتبين المخلص منكم فى جهاده من غير المخلص ، وجملة :﴿ **ولم يتخذوا**﴾ معطوفة على جاهدوا داخلة معه فى حكم النفى واقعة فى حيز الصلة ، والوليجة : من الولوج : وهو الدخول ، ولج يلج ولوجا : إذا دخل ، فالوليجة: الدخيلة . قال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة . قال أبان ابن تغلب :

فبئس الوليجة للهاربيـ ـن والمعتدين وأهل الريب

وقال الفراء : الوليجة: البطانة من المشركين ، والمعنى واحد ، أى كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أى بجميع أعمالكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم** ﴾ قال : عهدهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : يقول الله لنبيه : وإن نكثوا العهد الذى بينك وبينهم فقاتلهم إنهم أئمة الكفر. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أئمة الكفر** ﴾ قال : أبو سفيان ابن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل بن عمرو، وهم الذين

نكثوا عهد الله وهموا بإخراج الرسول من مكة [١] . وأخرج ابن عساكر عن مالك بن أنس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر**﴾ قال : رؤوس قريش . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : أبو سفيان بن حرب منهم. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد [٢] . وأخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن مردويه عن حذيفة قال : ما بقى من أهل هذه الآية إلا ثلاثة ، ولا من المنافقين إلا أربعة ، فقال أعرابىّ : إنكم أصحاب محمد تخبروننا لا ندرى فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلاقنا ، قال : أولئك الفساق ، أجل لم يبق منهم إلا أربعة،أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[٣] . والأولى أن الآية عامة فى كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال : إنكم ستجدون قوما مجوّفة رؤوسهم ، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف ، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحبّ إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن اللّه يقول : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة : ﴿ **لا أيمان لهم**﴾ قال : لا عهود لهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار مثله .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ألا تـقاتلون قوما نكثوا أيمانهم** ﴾ قال : قتال قريش حلفاء النبىّ ﷺ وهمهم بإخراج الرسول ، زعموا أن ذلك عام عمرة النبى ﷺ فى العام التابع للحديبية ، نكثت قريش العهد عهد الحديبية ، وجعلوا فى أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها ؛ فذلك همهم بإخراجه ، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك ، فلما خرج النبىّ ﷺ من مكة قالت قريش لخزاعة :عميتمونا عن إخراجه ، فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : نزلت فى خزاعة ﴿ **قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم ويخزهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضا وقد ساق القصة ابن إسحاق فى سيرته ، وأورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة إلى النبىّ ﷺ ، وأوله :

يارب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

(١) ابن جرير ١٠/٦٢ . (٢) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٨٩٩٥ ، ١٩٢٣٩) .
(٣) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٢٣٨) والبخارى فى التفسير (٤٦٥٨) .

وأخرج القصة البيهقى فى الدلائل [١] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الوليجة: البطانة من غير دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : ﴿ وليجة ﴾ أى خيانة .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ يعمروا ﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر . وقرأ ابن السميفع بضم حرف المضارعة من أعمر يعمر ، أى يجعلون لها من يعمرها . وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى ربـاح ومجاهـد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وسهم ويعقوب « مسجد الله » بالإفراد . وقرأ الباقون ﴿ مساجد ﴾ بالجمع ، واختارها أبو عبيدة . قال النحاس : لأنها أعمّ ، والخاص يدخل تحت العام ، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة ، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا قال : وقد أجمعوا على الجمع فى قوله: ﴿ إنما يعمر مساجد الله ﴾ وروى عن الحسن البصرى : أنه تعالى إنما قال : ﴿ مساجد ﴾ والمراد : المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعامره كعامر جميع المساجد . قال الفراء : العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم : فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم : فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكا واحدا . والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقى أو المعنى المجازى ، وهو ملازمته والتعبد فيه ، وكلاهما ليس للمشركين ، أما الأول : فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثانى : فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام ، ومعنى : ﴿ ما كان للمشركين ﴾ ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك ، و ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ حال ، أى ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها وجعلها آلهة ، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر وإن أبوا

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/٧٠٦ .

ذلك بألسنتهم ، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التى هى من شأن المؤمنين ، والشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرّب إلى اللّه بعمارة مساجده . وقيل : المراد بهذه الشهادة قولهم فى طوافهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . وقيل : شهادتهم على أنفسهم بالكفر: أن اليهودى يقول هو يهودى ، والنصرانى يقول هو نصرانى ، والصابئ يقول هو صابئ ، والمشرك يقول هو مشرك : ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ التى يفتخرون بها ويظنون أنها من أعمال الخير ، أى بطلت ولم يبقى لها أثر ﴿ **وفى النار هم خالدون** ﴾ وفى هذه الجملة الإسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها .

ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ **ولم يخش** ﴾ أحدا ﴿ **إلا اللّه** ﴾ فمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد ، لا من كان خاليًا منها أو من بعضها ، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه اللّه على عباده ؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان ، وقد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد وفى بيان ماهية العمارة ، ومن جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما ، وفى قوله : ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم ، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوًا فقط ، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات . وقيل : «عسى » من الله واجبة . وقيل : هى بمعنى خليق ، أى فخليق أن يكونوا من المهتدين . وقيل : إن الرجاء راجع إلى العبادة .

والاستفهام فى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام** ﴾ للإنكار ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد ، أو أهلهما ﴿**كمن آمن** ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير فى الخبر ، أى جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كعمل من آمن أو كإيمان من آمن . وقرأ ابن أبى وجرة السعدى وابن الزبير وسعيد بن جبير : « أجعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام » جمع ساق وعامر ، وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف ، والمعنى : أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التى صورتها صورة الخير ، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم فى سبيل اللّه ، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونهما على عمل المسلمين ، فأنكر اللّه عليهم ذلك ، ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال : ﴿ **لا يستوون عند اللّه** ﴾ أى لا تساوى تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة باللّه واليوم الآخر المجاهدة فى سبيله ، ودلّ سبحانه بنفى الاستواء على نفى الفضيلة التى يدّعيها المشركون ، أى

إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين ، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون ، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من اللّه سبحانه ، وفى هذا إشارة إلى الفريق المفضول .

ثم صرّح بالفريق الفاضل فقال : ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ إلى آخره ، أى الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿ **أعظم درجة عند اللّه** ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة الباطلة . وفى قوله : ﴿ **عند اللّه** ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿**هم الفائزون** ﴾ أى المختصون بالفوز عند اللّه . ثم فسر الفوز بقوله : ﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم** ﴾ والتنكير فى الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم ، والمعنى : أنها فوق وصف الواصفين وتصوّر المتصوّرين . والنعيم المقيم : الدائم المستمر الذى لا يفارق صاحبه ، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له ، وجملة : ﴿**إن اللّه عنده أجر عظيم**﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل ، أى أعطاهم اللّه سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم يهب منه ما يشاء لمن يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه** ﴾ وقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ فنفى المشركين من المسجد ﴿ **من آمن باللّه** ﴾ يقول : من وحد اللّه وآمن بما أنزل اللّه ﴿ **وأقام الصلاة** ﴾ يعنى : الصلوات الخمس ﴿ **ولم يخش إلا اللّه** ﴾ . يقول : لم يعبد إلا اللّه ﴿ **فعسى أولئك** ﴾ يقول : أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . يقول : إن ربك سيبعثك مقاما محمودا ، وهى الشفاعة، وكل « عسى » فى القرآن فهى واجبة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى،والترمذى وحسنه،وابن ماجة وابن المنذر، والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال اللّه تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردّد إليها للطاعات .

وأخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول اللّه ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل للّه عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل جهاد فى سبيل اللّه خير مما قلتم ،

---

(١) أحمد ٣/ ٦٨ ، ٧٦ والدارمى فى الصلاة ١/ ٢٧٨ والترمذى فى الإيمان (٢٦١٧) وقال : « غريب حسن » وفى التفسير (٣٠٩٣) إلا أنه قال: «يتعاهد الصلاة » وابن ماجة فى المساجد والجماعات (٨٠٢) والبيهقى ٣/ ٦٦ .

فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللّه ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول اللّه ﷺ فأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فأنزل اللّه : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ إلى قوله : ﴿**لا يهدى القوم الظالمين**﴾(١) .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ الآية ، وذلك أن المشركين قالوا : عمارة بيت اللّه والقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر اللّه سبحانه استكبارهم وإعراضهم ، فقال لأهل الحرم من المشركين ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ [المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧] يعنى : أنهم كانوا يستكبرون بالحرم ، وقال : ﴿ به سامرا ﴾ : كانوا به يسمرون ويهجرون بالقرآن والنبى ﷺ ، فخير الإيمان باللّه والجهاد مع نبىّ اللّه على عمران المشركين البيت وقيامهم على السعاية ولم يكن لينفعهم عند اللّه مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال اللّه : ﴿ **لا يستوون عند اللّه واللّه لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ يعنى : الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا ، وفى إسناده العوفى وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفكّ العانى ، فأنزل اللّه : ﴿**أجعلتم سقاية الحاج**﴾ الآية ، يعنى : أن ذلك كان فى الشرك فلا أقبل ما كان فى الشرك (٢) . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى علىّ بن أبى طالب والعباس . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى قال : تفاخر علىّ والعباس وشيبة فى السقاية والحجابة فأنزل اللّه : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج**﴾ الآية(٣) ، وقد روى معنى هذا من طرق .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ .

---

(١) أحمد ٤/٢٦٩ ومسلم فى الإمارة (١٨٧٩/١١١) وابن جرير ١٠/٦٧ وابن حبان فى الجهاد (٤٥٧٢) .
(٢) ابن جرير ١٠/٦٧ . (٣) الواحدى ص١٣٩ .

الخطاب للمؤمنين كافة ، وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقالت طائفة من أهل العلم : إنها نزلت فى الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر ، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب ، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة فيكونون لهم تبعا فى سكنى بلاد [1] الكفر إن استحبوا ،أى أحبوا ،كما يقال : استجاب ، بمعنى أجاب ، وهو فى الأصل : طلب المحبة ، وقد تقدّم تحقيق المقام فى سورة المائدة فى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ [المائدة : ٥١] ، ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم . فدل ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها،ثم أمر اللّه رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ﴿ **إن كان آباؤكم** ﴾ إلى آخره . والعشيرة : الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد ، وعشيرة الرجل : قرابته الأدنون ، وهم الذين يعاشرونه ، وهى اسم جمع . وقرأ أبو بكر وحماد : « عشيراتكم » بالجمع . قال الأخفش : لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات ، وإنما يجمعونها على عشائر . وقرأ الحسن : « عشائركم » . وقرأ الباقون : ﴿**عشيرتكم** ﴾ . والاقتراف : الاكتساب ، وأصله : اقتطاع الشيء من مكانه ، والتركيب يدور على الدنو ، والكاسب يدنى الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه ، والتجارة الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها . والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان . ومن غرائب التفسير ما روى عن ابن المبارك أنه قال : إن المراد بالتجارة فى هذه الآية البنات والأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهنّ خاطبا ، واستشهد لذلك بقول الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهنّ ... وقد زادهن مقامى كسادا

وهذا البيت وإن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهنّ . والمراد بالمساكن التى يرضونها : المنازل التى تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحبّ إليهم من المهاجرة إلى اللّه ورسوله ، و ﴿ **أحب** ﴾ خبر ﴿ **كان** ﴾ أى كانت هذه الأشياء المذكورة فى الآية أحب إليكم من اللّه ورسوله ومن الجهاد فى سبيل اللّه ﴿ **فتربصوا** ﴾ أى انتظروا ﴿ **حتى يأتى اللّه بأمره** ﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم ، وقيل المراد بأمر اللّه سبحانه : القتال . وقيل : فتح مكة وفيه بعد ، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح . وفى هذا وعيد شديد ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردّد بين أنواع العقوبات ﴿ **واللّه لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى الخارجين عن طاعته ، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبدالمطلب:أنا أسقى الحاج ، وقال طلحة أخو بنى عبد الدار :

---

(١) فى المطبوعة :« البلاد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر ، فأنزلت ﴿**لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى هذه الآية قال : هى الهجرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **اقترفتموها** ﴾ قال : أصبتموها. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حتى يأتى اللّه بأمره** ﴾ قال: بالفتح فى أمره بالهجرة ، هذا كله قبل فتح مكة . وأخرج البيهقى من حديث عبد اللّه بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل اللّه ﴿ لا تجد قوما يؤمنون باللّه واليوم الآخر ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، وهى تؤكد معنى هذه الآية ، وقد تقدم بيان حكم الهجرة فى سورة النساء .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾ .

المواطن : جمع موطن ، ومواطن الحرب : مقاماتها ، والمواطن التى نصر اللّه المسلمين فيها هى : يوم بدر ومابعده من المواطن التى نصر اللّه المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين . ﴿ **ويوم حنين** ﴾ معطوف على ﴿**مواطن**﴾ بتقدير مضاف: إما فى الأول وتقديره : فى أيام مواطن ، أو فى الثانى وتقديره : وموطن يوم حنين ، لئلا يعطف الزمان على المكان، ورد بأنه لا استبعاد فى عطف الزمان على المكان فلا يحتاج إلى تقدير . وقيل : إن ﴿ **يوم حنين** ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ﴿ **نصركم** ﴾ أى ونصركم يوم حنين ، ورجح هذا صاحب الكشاف ، قال : وموجب ذلك أن قوله : ﴿ **إذ أعجبتكم** ﴾ بدل من ﴿ **يوم حنين** ﴾ ، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح ؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن ، ولم يكونوا كثيرا فى جميعها ، ورد بأن العطف لا يجب فيه تشارك المتعاطفين فى جميع ما ثبت للمعطوف ، كما تقول : جاءنى زيد وعمرو مع قومه . أو فى ثيابه أو على فرسه ، وقيل : إن ﴿ **إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾ ليس ببدل من ﴿ **يوم حنين** ﴾ بل منصوب بفعل مقدر، أى اذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم . وحنين : واد بين مكة والطائف (١) ، وانصرف على أنه اسم للمكان ، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

---

(١) راجع الكشاف ٢/ ٢٥٩ .

وإنما أعجب من أعجب المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أحد عشر ألفا . وقيل : ستة عشر ألفا فقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فوكلوا إلى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم ، بل انهزموا ، وثبت رسول اللّه ﷺ ، وثبت معه طائفة يسيرة ، منهم : عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث ، ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر . والإغناء : إعطاء ما يدفع الحاجة ، أى لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم ولم تفدكم . قوله : ﴿ **بما رحبت** ﴾ الرحب بضم الراء : السعة ، والرحب بفتح الراء : المكان الواسع ، والباء : بمعنى : «مع » ، و « ما » مصدرية ، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال ، والمعنى : أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف والوجل . وقيل : إن الباء بمعنى : « على » أى على رحبها ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ أى انهزمتم حال كونكم مدبرين ، أى مولين أدباركم جاعلين لها إلى جهة عدوكم .

قوله : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أى أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين . والمراد بالمؤمنين : هم الذين لم ينهزموا . وقيل : الذين انهزموا . والظاهر : جميع من حضر منهم ؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا .

قوله : ﴿ **وأنزل جنودا لم تروها** ﴾ هم الملائكة . وقد اختلف فى عددهم على أقوال : قيل : خمسة آلاف . وقيل : ثمانية آلاف . وقيل : ستة عشر ألفا . وقيل غير ذلك ، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوّة . واختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة فى هذا اليوم أم لا ؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر ، وأنهم إنما حضروا فى غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين ، وإدخال الرعب فى قلوب المشركين ﴿ **وعذب الذين كفروا** ﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبى الذرية ، والإشارة بقوله : ﴿ **وذلك** ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب ، وسمى ما حل بهم من العذاب فى هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لابد من عذاب الآخرة مبالغة فى وصف ما وقع عليهم وتعظيمًا له : ﴿ **ثم يتوب اللّه من بعد ذلك على من يشاء** ﴾ أى من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ﴿ **واللّه غفور** ﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ﴿ **رحيم** ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: حنين ما بين مكة والطائف ، قاتل نبى اللّه هوازن وثقيف ، وعلى هوازن مالك بن عوف ، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفى . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول اللّه ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم ، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول اللّه ﷺ ينادى أحياء العرب : « إلىّ إلىّ » ، فواللّه ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه ، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم : « يا أنصار اللّه وأنصار رسوله ، إلى عباد اللّه ، أنا رسول اللّه » فجثوا يبكون وقالوا : يا رسول اللّه ، ورب

الكعبة إليك والله ؛ فنكسوا رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدى رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليهم [(١)]. وأخرج البيهقى فى الدلائل ، عن الربيع أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾ قال الربيع : وكانوا اثنى عشر ألفا ، منهم ألفان من أهل مكة [(٢)] . وأخرج الطبرانى ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار . فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما ، فقال : «ناولنى كفا من تراب » ، فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا ، وولى المشركون أدبارهم . ووقعة حنين مذكورة فى كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك [(٣)] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وأنزل جنودا لم تروها** ﴾ قال : هم الملائكة ﴿ **وعذب الذين كفروا**﴾ قال : قتلهم بالسيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : في يوم حنين أمدّ الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويومئذ سمى الله الأنصار مؤمنين قال : فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم قال : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد [(٤)] الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن إلا هزيمة القوم [(٥)] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾ .

---

(١) ابن إسحاق ٤١/٨٦ .

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) أحمد ١/٤٥٣ ، ٤٥٤ وقال الشيخ شاكر فى تحقيقه للمسند (٤٣٣٦) : « إسناده صحيح » والطبرانى (١٠٣٥١) وصححه الحاكم ٢/١١٧ وقال الذهبى : « الحارث وعبد الله ذوا مناكير هذا منها ثم فيه إرسال » والبيهقى فى الدلائل ٥/١٤٢ وقال الهيثمي فى المجمع ٦/١٨٣ « رجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة » .

(٤) فى المطبوعة : «النجاد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن البيهقى وابن كثير وابن إسحاق . والبجاد : الكساء .

(٥) ابن إسحاق ٤/٩٢ والبيهقى فى الدلائل ٥/١٤٦ وابن كثير فى البداية والنهاية ٤/٣٣٢ .

النجس : مصدر لا يثنى ولا يجمع ، يقال: رجل نجس ، وامرأة نجس ، ورجلان نجس ، وامرأتان نجس ، ورجال نجس، ونساء نجس . ويقال : نجس ونجُس بكسر الجيم وضمها . ويقال : نِجْس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك. قيل : لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس . وقيل : ذلك أكثرى لا كلىّ. و﴿ المشركون ﴾ مبتدأ ، وخبره : المصدر ، مبالغة فى وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة ، أو على تقدير مضاف ، أى ذوو نجس ؛ لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس . وقال قتادة ومعمر وغيرهما : إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولايتجنبون النجاسات .

وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات ، كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيدية، وروى عن الحسن البصرى وهو محكى عن ابن عباس . وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات ؛ لأن اللّه سبحانه أحلّ طعامهم ، وثبت عن النبى ﷺ فى ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم ، فأكل فى آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم فى مسجده .

قوله : ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ الفاء للتفريع ، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم . والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، روى ذلك عن عطاء ، فيمنعون عنده من جميع الحرم ، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد ؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد . وقال الشافعى : الآية عامة فى سائر المشركين خاصة فى المسجد الحرام ، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد . قال ابن العربى : وهذا جمود منه على الظاهر ، لأن قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه ﷺ لثمامة بن أثال فى مسجده ، وإنزال وفد ثقيف فيه . وروى عن أبى حنيفة مثل قول الشافعى ، وزاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة ، وقيده الشافعى بالحاجة . وقال قتادة : إنه يجوز ذلك للذمى دون المشرك. وروى عن أبى حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد . ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى المسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك ، فهو من باب قولهم : لا أرينك هاهنا .

قوله : ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه سنة تسع ، وهى التى حج فيها أبو بكر على الموسم . والثانى : أنه سنة عشر قاله قتادة ، قال ابن العربى : وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ ، ومن العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العام الذى وقع فيه الأذان ، ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن

المراد اليوم الذى دخل فيه . انتهى . ويجاب عنه بأن الذى يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه ، فإن الإشارة بقوله : ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء . وهكذا فى المثال الذى ذكره ، المراد النهى عن دخولها بعد يوم الدخول الذى وقع فيه الخطاب ، والأمر ظاهر لا يخفى ، ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر ، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا ، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع ، وعلى هذا يحمل قول قتادة . وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد ، أعنى : قوله ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ قائلا : إن النهى مختص بوقت الحج والعمرة فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لا عن مطلق الدخول . ويجاب عنه بأن ظاهر النهى عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان فى كل وقت من الأوقات الكائنة بعده ، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص . قوله : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم اللّه من فضله** ﴾ العيلة : الفقر ، يقال : عال الرجل يعيل : إذا افتقر، قال الشاعر:

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عايلة » وهو مصدر : كالقايلة والعافية والعاقبة ؛ وقيل : معناه : خصلة شاقة ، يقال : عالنى الأمر يعولنى ، أى شقّ علىّ واشتد . وحكى ابن جرير الطبرى أنه يقال : عال يعول: إذا افتقر ، وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش ؟ فوعدهم اللّه أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح اللّه عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه** ﴾ الآية . وقال عكرمة : أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض ، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم اللّه به . وقيل : أغناهم بالفىء ، وفائدة التقييد بالمشيئة : التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك فى كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل ، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع ﴿ **إن اللّه عليم** ﴾ بأحوالكم ﴿ **حكيم** ﴾ فى إعطائه ومنعه ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه** ﴾ الآية ، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف . قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله : ﴿ **قاتلوا** ﴾ أمر بالعقوبة ، ثم قال : ﴿ **الذين لا يؤمنون باللّه** ﴾ فبين الذنب الذى توجبه العقوبة ، ثم قال : ﴿ **ولا باليوم الآخر** ﴾ فأكد الذنب فى جانب الاعتقاد ، ثم قال : ﴿ **ولا يحرمون ما حرّم اللّه ورسوله** ﴾ فيه زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال ، ثم قال : ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام ، ثم قال : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ثم قال : ﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ فبين الغاية التى تمتد إليها العقوبة. انتهى .

قوله : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ بيان للموصول مع ما فى حيزه ، وهم أهل التوراة والإنجيل . قوله : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد** ﴾ الجزية وزنها فعلة من جزى يجزى : إذا كافأ عما أسدى إليه ، فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن . وقيل : سميت جزية ؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه ، أى يقضوه ، وهى فى الشرع : ما يعطيه المعاهد على عهده ،و ﴿ **عن يد** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى: عن يد مواتية غير ممتنعة . وقيل : معناه : يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا . وقيل : معناه: نقد غير نسيئة . وقيل : عن قهر . وقيل : معناه : عن إنعام منكم عليهم ؛ لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم . وقيل : معناه : مذمومون . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعى وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثورى وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب . وقال الأوزاعى ومالك : إن الجزية تأخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان ، ويدخل فى أهل الكتاب على القول الأوّل المجوس . قال ابن المنذر : لا أعلم خلافا فى أن الجزية تؤخذ منهم .

واختلف أهل العلم فى مقدار الجزية ، فقال عطاء : لا مقدار لها ، وإنما تؤخذ على ما صولحوا عليه ، وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال : أقلها دينار وأكثرها لا حد له . وقال الشافعى : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شىء ، وبه قال أبو ثور . قال الشافعى : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم . وقال مالك : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب . وأربعون درهما على أهل الورق ، الغنى والفقير سواء ، ولو كان مجوسيا لا يزيد ولا ينقص . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون . والكلام فى الجزية مقررٌ فى مواطنه ، والحق من هذه الأقوال قد قررناه فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا .

قوله : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والصغار : الذل ، والمعنى : إن الذمى يعطى الجزية حال كونه صاغرا ، قيل : وهو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم ، والمتسلم قاعد . وبالجملة ينبغى للقابض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه فى قوله:﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ الآية قال:إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول اللّه ﷺ :« لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم » . قال ابن كثير : تفرد به أحمد مرفوعا . والموقوف أصح [(١)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن

(١) أحمد ٣/ ٣٣٩، ٣٩٢ ، وقال ابن كثير ٣/ ٣٨٢ : «تفرد به أحمد مرفوعا والموقوف أصح إسنادًا ».

أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت ، قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾ قال : فأنزل الله عليهم المطر ، وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم . وأخرج ابن مردويه عنه قال فأغناهم الله من فضله وأمرهم بقتال أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **وإن خفتم عيلة** ﴾ قال : الفاقة . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ قال: بالجزية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن الضحاك مثله . وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ قال: قذر .وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : من صافحهم فليتوضأ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ قال : نزلت هذه الآية حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك (١) . وأخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال : نزلت فى كفار قريش والعرب : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ ، وأنزلت فى أهل الكتاب : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ الآية إلى قوله:﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ يعنى : الذين لا يصدقون بتوحيد الله ﴿**ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله** ﴾ يعنى : الخمر والحرير ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ يعنى : دين الإسلام ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ يعنى: مذللون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**عن يد** ﴾ قال : عن قهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال : من يده ولا يبعث بها غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى سنان فى قوله : ﴿**عن يد** ﴾ قال :عن قدرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ قال: يمشون بها متلتلين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : يلكزون (٢) وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سلمان فى الآية قال : غير محمودين .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ

---

(١) ابن جرير : ١٠/ ٧٧ والبيهقى ٩/ ١٨٥ .

(٢) لكزه : ضربه بيده على صدره . وقيل : على جميع البدن . اللسان ٥/ ٤٠٦ .

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

قولـه : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن اللّه** ﴾ كلام مبتـدأ لبيان شرك أهل الكتابين و ﴿ **عزيـر**﴾ مبتدأ و ﴿ **ابن اللّه** ﴾ خبره ، وقد قرأ عاصم والكسائى ﴿ **عزير**﴾ بالتنوين ،وقرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه. ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا. وقيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ: ﴿ قل هو اللّه أحد. اللّه الصمد ﴾ [الإخلاص: ١، ٢] قال أبو على الفارسى: وهو كثير فى الشعر ، وأنشد ابن جرير الطبرى :

لتجدينى بالأمير برا وبالقناة لامرا مكرا إذا غطيت السلمى فرا

وظاهر قوله : ﴿ **وقالت اليهود** ﴾ أن هذه المقالة لجميعهم . وقيل : هو لفظ خرج على العموم ، ومعناه : الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم . وقال النقاش : لم يبق يهودى يقولها بل قد انقرضوا . وقيل : إنه قال ذلك للنبى ﷺ جماعة منهم ، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لأن قول بعضهم لازم لجميعهم . قوله : ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن اللّه** ﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب ، فكان ذلك سببا لهذه المقالة ، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون فى الإنجيل وصفه تارة بابن اللّه وتارة بابن الإنسان ، كما رأينا ذلك فى مواضع متعددة من الإنجيل ، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم ، أو لم يظهر أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة . قيل : وهذه المقالة إنما هى لبعض النصارى لا لكلهم .

قوله: ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة . ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم: بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتد بها. وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما فى: كتبت بيدى ومشيت برجلى ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله: ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] . وقال بعض أهل العلم إن اللّه سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ [الكهف: ٥] ، وقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾ ، [الفتح : ١١].

قوله : ﴿ **يـضاهئون قول الذين كفروا** ﴾ المضاهاة : المشابهة ، قيل : ومنه قول العرب

امرأة ضهياء ، وهى التى لا تحيض لأنها شابهت الرجال . قال أبو على الفارسى : من قال ﴿ يضاهئون ﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء فقوله خطأ ؛ لأن الهمزة فى ضاهأ أصلية ، وفى ضهياء زائدة كحمراء ، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء . ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم : الأول : أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم: واللات والعزى ومناة بنات الله . القول الثانى : أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين : إن الملائكة بنات الله . الثالث : أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيرا ابن الله وأن المسيح ابن الله . قوله : ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم بالهلاك ؛ لأن من قاتله الله هلك . وقيل : هو تعجب من شناعة قولهم . وقيل : معنى قاتلهم الله : لعنهم الله ، ومنه قول أبان بن تغلب :

قاتلها الله تلحانى وقد علمت أنى لنفسى إفسادى وإصلاحى

وحكى النقاش أن أصل قاتل الله : الدعاء . ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعى :

ياقاتل الله ليلى كيف تعجبنى وأخبر الناس أنى لا أباليها

﴿ أنى يؤفكون ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم (١) ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ الأحبار : جمع حبر . وهو الذى يحسن القول . ومنه ثوب محبر . وقيل : جمع حبر بكسر الحاء . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء . وقال الفراء : الفتح والكسر لغتان. وقال ابن السكيت : الحبر بالكسر: العالم. والحبر بالفتح : العالم. والرهبان : جمع راهب مأخوذ من الرهبة ، وهم علماء النصارى كما أن الأحبار علماء اليهود . ومعنى الآية : أنهم لما أطاعوه فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب . قوله : ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ معطوف على رهبانهم ، أى اتخذه النصارى ربًا معبودًا . وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيرا (٢) ربا معبودًا .

وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله ، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه ، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة ؛ والتمرة بالتمرة ، والماء بالماء ؛ فياعباد الله ، ويا أتباع محمد بن عبد الله ، ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا ، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا

---

(١) فى المطبوعة : «أحبار» . (٢) فى المخطوطة : «عزير» والصحيح «عزيرًا» بالنصب .

عليه وأفاده . فعلتم بما جاؤوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة ، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه ، فأعرتموهما آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأفهاما مريضة ، وعقولا مهيضة ، وأذهانا كليلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم اللّه وإياى ـ كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم ، واستبدلوا بها كتاب اللّه خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبد اللّه ﷺ .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آبن فى دينه كمخاطر (١)

اللهم هادى الضال ، مرشد التائه ، موضح السبيل ، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب ، وأوضح لنا منهج الهداية.

قوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ، والحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة اللّه وحده ، أو وما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا . قوله : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ صفة ثانية لقوله : ﴿ **إلها** ﴾ : ﴿ **سبحانه عما يشركون** ﴾ أى تنزيها له عن الإشراك فى طاعته وعبادته .

قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم** ﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق وهو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم فى محاولة إبطال الحق ونبوة نبى الصدق ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه ﴿ **ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره** ﴾ أى دينه القويم . وقد قيل : كيف دخلت إلا الاستثنائية على ﴿ **يأبى** ﴾ ، ولا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا . قال الفراء : إنما دخلت لأن فى الكلام طرفا من الجحد . وقال الزجاج : إن العرب تحذف مع « أبى » . والتقدير : ويأبى اللّه كل شىء إلا أن يتم نوره . وقال على بن سليمان : إنما جاز هذا فى أبى ، لأنها منع أو امتناع فضارعت النفى . قال النحاس : وهذا أحسن .كما قال الشاعر :

وهل لى أم غيرها إن تركتها أبى اللّه إلا أن أكون لها ابنا

وقال صاحب الكشاف : إن أبى قد أجرى مجرى لم يرد: أى ولا يريد إلا أن يتم نوره .

(١) آبن : يقال : أبن الرجل يأبنه ويأبُنُهُ أبنا أى اتهمه وعابه . اللسان ٣/١٣.

قوله ﴿ **ولوكره الكافرون** ﴾ معطوف على جملة قبله مقدرة ، أى أبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوا (١) . ثم أكد هذا بقوله : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أى بما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها اللّه لعباده ﴿ **ودين الحق** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **ليظهره** ﴾ أى ليظهر رسوله ، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين ، وقد وقع ذلك وللّه الحمد ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ كما قدمنا ذلك .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى رسول اللّه ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك ابن الصيف ، فقالوا كيف نتبعك وقد (٢) تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن اللّه ؟ فأنزل اللّه ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن اللّه** ﴾ الآية (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه قال : كن نساء بنى إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين ويعتزلن ويذكرن ما فضل اللّه به بنى إسرائيل وما أعطاهم ، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر ، فحرق التوراة وخرب بيت المقدس ، وعزير يومئذ غلام ، فقال عزير : أو كان هذا ؟ فلحق بالجبال والوحش فجعل يتعبد فيها . وجعل لا يخالط الناس. فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهى تبكى . فقال : يا أمة ، اتقى اللّه واحتسبى واصبرى أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت ؟ فقالت : يا عزير ، أتنهانى أن أبكى وأنت قد خلفت بنى إسرائيل ولحقت بالجبال والوحش ؟ ثم قالت : إنى لست بامرأة ولكنى الدنيا . وإنه سينبع فى مصلاك عين وتنبت شجرة ، فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة ، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا ، فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة ، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه اللّه التوراة ، فجاء فأملاه على الناس ، فعند ذلك قالوا : عزير ابن اللّه . تعالى اللّه عن ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فذكر قصة وفيها: أن عزيرا سأل اللّه بعد ما أنسى بنى إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يرد الذى نسخ من صدره . فبينما هو يصلى نزل نور من اللّه عز وجل فدخل جوفه ، فعاد إليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة . فأذن فى قومه فقال : يا قوم قد آتانى اللّه التوراة وردها إلى .

وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال : دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى فى قلبه فأنزلها اللّه عليه ، فبعد ذلك قالوا : عزير ابن اللّه . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن : فلا أدرى عزير كان نبيا أم لا ؟ ولا أدرى ألعن تبع أم لا ؟ قال : ونسيت الثالثة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يضاهئون** ﴾ قال: يشبهون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **قاتلهم**

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٦٥ . (٢) فى المطبوعة : « وقت » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢١١ وابن جرير ١٠/ ٧٨.

الله ﴾ قال : لعنهم الله وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ فقال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه. وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه» (١). وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير(٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه عن أبى البخترى قال : سأل رجل حذيفة فقال : أرأيت قوله: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ أكانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : أحبارهم : قراؤهم ، ورهبانهم : علماؤهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. وأخرج أيضا عن الفضيل بن عياض قال : الأحبار : العلماء، والرهبان : العباد.

وأخرج أيضا عن السدّى فى قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ قال : يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج أبوالشيخ عن السدّى ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ يعنى : بالتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان المتخذين لهم أربابا ذكر حال المتبوعين فقال : ﴿ **إن كثيرا من الأحبار** ﴾ إلى آخره ، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل : أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة ، وأثبت هذا للكثير منهم ؛ لأن فيهم من لم يتلبس بذلك، بل بقى على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل ولاميل إلى حطام الدنيا ، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان، فالله المستعان.

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : « غريب » . (٢) ابن جرير ١٠/ ٨٠ .
(٣) البيهقى فى الشعب (٩٣٩٤) وابن جرير ١٠/ ٨١ ، ٨٢ .

قوله : ﴿ **ويصدّون عن سبيل الله** ﴾ أى عن الطريق إليه وهو دين الإسلام ، أو عن ما كان حقا فى شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل . قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قيل : هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار والرهبان ، وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع . وقيل : هم من يفعل ذلك من المسلمين ، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك . وأصل الكنز فى اللغة : الضم والجمع ، ولايختص بالذهب والفضة . قال ابن جرير : الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . انتهى . ومنه ناقة كناز ، أى مكتنزة اللحم ، واكتنز الشىء : اجتمع .

واختلف أهل العلم فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا ؟ فقال قوم: هو كنز ، وقال آخرون : ليس بكنز . ومن القائلين بالقول الأوّل أبو ذر ، وقيده بما فضل عن الحاجة . ومن القائلين بالقول الثانى عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو الحق لما سيأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

قوله : ﴿ **ولا ينفقونها فى سبيل الله** ﴾ اختلف فى وجه إفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين ، هما : الذهب والفضة ، فقال ابن الأنبارى : إنه قصد إلى الأعمّ الأغلب وهو الفضة قال : ومثله قوله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة ﴾ [البقرة : ٤٥] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ ، ومثله قوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾[الجمعة : ١١] أعاد الضمير إلى التجارة ؛ لأنها الأهم . وقيل : إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه ، والعرب تؤنث الذهب وتذكره . وقيل : إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله ﴿ **يكنزون** ﴾ . وقيل : إلى الأموال . وقيل : للزكاة . وقيل : إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى . وهو كثير فى كلام العرب ، وأنشد سيبويه :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

ولم يقل : راضون ، ومثله قول الآخر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ... بريا ومن أجل الطوى رمانى

ولم يقل : بريين ، ومثله قول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ... ـود مالم يعاض كان جنونا

ولم يقل : يعاضا . وقيل : إن إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ ؛ لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية ، وعدّة كثيرة ، ودنانير ودراهم . فهو كقوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : ٩] . وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء . وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما فى

تحريم الكنز . قوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ هو خبر الموصول . وهو من باب التهكم بهم كما فى قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . وقيل : إن البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغمّ .

ومعنى ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم ﴾ : أن النار توقد عليها وهى ذات حمى وحرّ شديد . ولو قال : يوم تحمى، أى الكنوز لم يعط هذا المعنى . فجعل الإحماء للنار مبالغة . ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجار كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير . وقرأ ابن عامر : « تحمى » بالمثناة الفوقية ، وقرأ أبو حيوة : «فيكوى » بالتحتية . وخص الجباه ، والجنوب والظهور لكون التألم بكيها أشدّ لما فى داخلها من الأعْضاء الشريفة . وقيل : ليكون الكىّ فى الجهات الأربع : من قدّام ، وخلف ، وعن يمين ، وعن يسار . وقيل : لأن الجمال فى الوجه ، والقوّة فى الظهر والجنبين ، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوّة . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف . قوله : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴾ أى يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، أى كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ ما : مصدرية أو موصولة، أى ذوقوا وباله، وسوء عاقبته ، وقبح مغبته ، وشؤم فائدته .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ إن كثيرا من الأحبار والرهبان ﴾ يعنى : علماء اليهود والنصارى ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ والباطل : كتب كتبوها لم ينزلها اللّه فأكلوا بها أموال الناس . وذلك قول اللّه تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند اللّه ﴾ [البقرة : ٧٩] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون الزكاة من أموالهم ، وكل مال لا تؤدى زكاته كان على ظهر الأرض أو فى بطنها فهو كنز ، وكل مال أدّيت زكاته فليس بكنز ، كان على ظهر الأرض أو فى بطنها . وأخرجه عنه ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ من وجه آخر . وأخرج مالك وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدّى والخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة عنه موقوفا . وأخرج أحمد فى الزهد والبخارى وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى الآية قال : إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها اللّه طهرة للأموال ، ثم قال : ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهبا أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعات اللّه[(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن عمربن الخطاب قال : ليس بكنز ما أدّى زكاته . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أمّ سلمة مرفوعا نحوه[(٢)] .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٦١) وابن ماجة فى الزكاة (١٧٨٧) والبيهقى ٤/ ٨٢ .

(٢) البيهقى ٤/ ٨٣ .

وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا: مايستطيع أحد منا لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يا نبى اللّه ، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » ، فكبر عمر ، ثم قال له النبى ﷺ: « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته »(١). وقد أخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة عن سالم بن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان (٢) . وحكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، وقال : هى خاصة وعامة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : حلية السيوف من الكنوز ما أحدّثكم إلا ما سمعت(٣) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز أنهما قالا فى قوله : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ إنها نسختها الآية الأخرى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية [التوبة : ١٠٣]. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح ، ثم أحمى عليها فى نار جهنم ، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار»(٤) . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على أبى ذّر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض ؟ فقال : كنا بالشام فقرأت : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ الآية ، فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا فى أهل الكتاب ، قلت : إنها لفينا وفيهم (٥) .

---

(١) أبو داود فى الزكاة (١٦٦٤) وأبو يعلى (٢٤٩٩) وصححه الحاكم ١/ ٤٠٩ على شرط الشيخين : ووافقه الذهبى، و٢/ ٣٣٣ ووافقه الذهبى أيضا ، والبيهقى ٤/ ٨٣ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٤) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى النكاح (١٨٥٦) وقال فى الزوائد : « عبد اللّه بن عمرو بن مرة ضعفه النسائى ، ووثقه الحاكم وابن حبان » . وقال ابن معين : « لا بأس به » .

(٣) الطبرانى (٧٥٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع : ٣/ ٧٠ ، « وفيه بقية وهو ثقة ولكنه مدلس » .

(٤) أحمد ٢/ ٢٦٢ ، ٢٧٦ ومسلم فى الزكاة (٩٨٧/ ٢٤) .

(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ٢١٢ والبخارى فى الزكاة (١٤٠٦) .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن اللّه سبحانه لما حكم فى كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسىء والكبيسة فأخبرنا اللّه بما هو حكمه فقال: ﴿ **إن عدّة الشهور** ﴾ أى عدد شهور السنة عند اللّه فى حكمه وقضائه وحكمته اثنا عشر شهرا. قوله : ﴿ **فى كتاب اللّه**﴾ أى فيما أثبته فى كتابه . قال أبو على الفارسى : لا يجوز أن يتعلق فى ﴿ **فى كتاب اللّه**﴾ بقوله : ﴿ **عدّة الشهور** ﴾ . للفصل بالأجنبى وهو الخبر ، أعنى ﴿ **اثنا عشر شهرا** ﴾ ، فقوله : ﴿ **فى كتاب اللّه** ﴾ ، وقوله : ﴿**يوم خلق**﴾ بدل من قوله : ﴿ **عند اللّه** ﴾ والتقدير : إن عدة الشهور عند اللّه فى كتاب اللّه يوم خلق السموات والأرض ، وفائدة الإبدالين تقرير الكلام فى الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند اللّه فى كتاب اللّه ، وثابت فى علمه فى أوّل ما خلق اللّه العالم . ويجوز أن يكون ﴿ **فى كتاب اللّه**﴾ صفة ﴿ **اثنا عشر** ﴾ أى اثنا عشر مثبتة فى كتاب اللّه وهو اللوح المحفوظ . وفى هذه الآية بيان أن اللّهّ سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض ، وأن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب . وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التى يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوما ، وبعضها أكثر ، وبعضها أقل .

قوله: ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ هى ذى القعدة ،وذو الحجة،والمحرم،ورجب،ثلاثة سرد وواحد فرد.كما ورد بيان ذلك فى السنة المطهرة [(١)].قوله : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم،والحساب الصحيح، والعدد المستوفى . قوله: ﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أى فى هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها ، وقيل : إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها،وإن اللّه نهى عن الظلم فيها،والأوّل أولى .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية،ولقوله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر اللّه ولا الشهر الحرام ﴾ [المائدة : ٢] ،

---

(١) أحمد ٥/ ٣٧ والبخارى فى التفسير (٤٦٦٢) وفى بدء الخلق (٣١٩٧) ومسلم فى القسامة (١٦٧٩/ ٢٩) وأبو داود فى الحج (١٩٤٧) وكلهم عن أبى بكرة رضى الله عنه .

ولقوله : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ الآية ، وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف . ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما فى الآية المذكورة ، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم . كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه . وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم فى ذى القعدة بل فى شوّال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمامه. وبهذا يحصل الجمع .

قوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ أى جميعا ، وهو مصدر فى موضع الحال . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع . ﴿ كما يقاتلونكم كافة ﴾ أى جميعا ، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين ، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض . ﴿ واعلموا أن اللّه مع المتقين ﴾ أى ينصرهم ويثبتهم، ومن كان اللّه معه فهو الغالب ، وله العاقبة والغلبة .

قوله : ﴿ إنما النسىءُ زيادة فى الكفر ﴾ قرأ نافع فى رواية ورش عنه: « النسىّ » بياء مشدّدة بدون همز . وقرأ الباقون بياء بعدها همزة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده. وهو مشتق من نسأه ، وأنسأه: إذا أخره، حكى ذلك الكسائى. قال الجوهرى : النسىء فعيل بمعنى مفعول من قولك : نسأت الشىء فهو منسوء : إذا أخرته ، ثم تحوّل منسوء إلى نسىء كما تحوّل مقتول إلى قتيل . قال ابن جرير : فى النسىء بالهمزة معنى الزيادة يقال : نسأ ينسأ : إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى : ﴿نسوا اللّه فنسيهم ﴾[التوبة:٦٧] وردّ على نافع قراءته . وكانت العرب تحرّم القتال فى الأشهر الحرم المذكورة ، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها . فإذا قاتلوا فى المحرّم حرّموا بدله شهر صفر ، وهكذا فى غيره ، وكان الذى يحملهم على هذا أن كثيرا منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض ، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال . وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها وتشتدّ حاجتهم وتعظم فاقتهم . فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم ، فهذا هومعنى النسىء الذى كانوا يفعلونه . وقد وقع الخلاف فى أوّل من فعل ذلك ، فقيل : هو رجل من بنى كنانة يقال له حذيفة بن عتيد . ويلقب القلمس ، وإليه يشير الكميت بقوله :

ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحلّ نجعلها حراما

وفيه يقول قائلهم :

ومنا ناسئ الشهر القلمس

وقيل : هو عمرو بن لحىّ . وقيل : هو نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة وسمى اللّه سبحانه النسىء زيادة فى الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم ، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم باللّه وكتبه ورسله واليوم الآخر . قوله : ﴿**يضلّ به الذين كفروا**﴾ قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر « يضلّ » على البناء للمعلوم . وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول . ومعنى القراءة الأولى : أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسىء ، ومعنى القراءة الثانية : أن الذى سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة ، وقد اختار القراءة الأولى أبوحاتم ، واختار القراءة الثانية أبوعبيد . وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب : « يضل » بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول ومفعوله محذوف . ويجوز أن يكون فاعله هو اللّه سبحانه ومفعوله الموصول . وقرئ بفتح الياء والضاد من ضل يضلّ . وقرئ « نضل » بالنون .

قوله : ﴿ **يحلونه عاما ويحرّمونه عاما** ﴾ الضمير راجع إلى النسىء ، أى يحلون النسىء عاما ويحرّمونه عاما، أو إلى الشهر الذى يؤخرونه ويقاتلون فيه ، أى يحلونه عاما بإبداله بشهر آخر من شهور الحل ، ويحرّمون عاما أى يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته . قوله : ﴿ **ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه** ﴾ أى لكى يواطئوا ، والمواطأة الموافقة ، يقال : تواطأ القوم على كذا ، أى توافقوا عليه واجتمعوا . والمعنى : إنهم لم يحلوا شهرًا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة. قال قطرب : معناه عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرّم فى التحريم . وكذا قال الطبرى . قوله:﴿**فيحلوا ما حرّم اللّه**﴾ أى من الأشهر الحرم التى أبدلوها بغيرها ﴿ **زين لهم سوء أعمالهم** ﴾ أى زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التى يعملونها ، ومن جملتها النسىء . وقرئ على البناء للفاعل . ﴿ **واللّه لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ أى المصرّين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب ، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها اللهّ سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرًا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذوالقعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » (١) . وأخرج نحوه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث ابن عمر(٢) . وأخرج نحوه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا البزار وابن جرير وابن مردويه من حديث أبى هريرة (٣) . وأخرجه أحمد وابن مردويه من حديث أبى حرة الرقاشى عن

---

(١) سبق تخريجه . فى المطبوعة « أبى بكر » ، والصواب: ما أثبتناه من المخطوطة ومن البخارى ومسلم وغيرهما .
(٢ ، ٣) ابن جرير ١٠/٨٨ .

عمه مرفوعا مطوّلا (١) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ قال : المحرّم ، ورجب ، وذوالقعدة، وذو الحجة . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إنما سمين حرما لئلا يكون فيهن حرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله** ﴾ ثم اختصّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرما ، وعظم حرماتهن ، وجعل الدين فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿ **فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم** ﴾ قال: فى كلهنّ ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ يقول جميعا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ قال : نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة .

وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كانت العرب يحلون عاما شهرا وعاما شهرين ، ولا يصيبون الحج إلا فى كل سنة وعشرين سنة مرة ، وهى النسىء الذى ذكره الله فى كتابه ، فلما كان عام حجّ أبو بكر بالناس وافق ذلك العام ، فسماه الله الحجّ الأكبر ، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل ، واستقبل الناس الأهلة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض »(٢). وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال : « إنما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما ، فكانوا يحرّمون المحرّم عاما ويستحلون صفر، ويحرّمون صفر عاما ويستحلون المحرّم ، وهى النسىء » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان جنادة بن عوف الكنانى يوافى الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادى ألا إن أبا ثمامة لا يخاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر الأوّل العام حلال فيحله للناس . فيحرم صفر عاما ، ويحرّم المحرّم عاما . فذلك قوله تعالى ﴿ **إنما النسىء زيادة فى الكفر** ﴾ الآية (٣). وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:المحرّم كانوا يسمونه صفر ، وصفر يقولون : صفران الأوّل والآخر ، يحلّ لهم مرّة الأوّل ، ومرة الآخر . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كانت النساءة حى من بنى مالك من كنانة من بنى فقيم ، فكان آخرهم رجلا يقال له : القلمس . وهو الذى أنشأ المحرم .

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**

(١) أحمد ٧٢/٥ ، ٧٣ ، وذكر الطبرانى جزءًا منه (٣٦٠٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع : ٢٦٨/٣ ، ٢٦٩ ، ١١٩/٤ ، ١٧٥ « أبو حرة الرقاشى وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وفيه على بن زيد وفيه كلام » ، وقد اعتمد الحافظ فى التقريب قول أبى داود فقال : « أبو حرة ثقة ، وعلى ضعيف، لكن للحديث شواهد » .

(٢) رواه الهيثمى فى المجمع عن عبد الله بن عمر وليس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ٣٢/٧ وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات».

(٣) ابن جرير ٩١/١٠ ، ٩٢ .

أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ لما شرح معايب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين فى قتالهم ، والاستفهام فى ﴿**مالكم** ﴾ للإنكار والتوبيخ ، أى أىّ شيء يمنعكم عن ذلك ، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، والنفر:هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث . قوله : ﴿ **اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ أصله تثاقلتم أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها ، وجيء بألف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن ، ومثله : ادّاركوا ، واطيرتم ، واطيروا ، وأنشد الكسائى :

توالى الضجيع إذا ما اشتاقها حضرا　　　عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

وقرأ الأعمش « تثاقلتم » على الأصل ، ومعناه : تباطأتم ، وعدّى بـ « إلى » لتضمنه معنى الميل والإخلاد. وقيل : معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ : « آثاقلتم » على الاستفهام ، ومعناه : التوبيخ ،والعامل فى الظرف «ما» فى ﴿ **مالكم** ﴾ من معنى الفعل ، كأنه قيل: ما يمنعكم ، أو ما تصنعون إذا قيل لكم ؟ و﴿ **إلى الأرض** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اثاقلتم** ﴾ وكما مرّ . قوله : ﴿ **أرضيتم بالحياة الدنيا** ﴾ أى بنعيمها بدلا من الآخرة كقوله تعالى:﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف : ٦٠] أى بدلا منكم ، ومثله قول الشاعر :

قلبت لنا من ماء زمزم شربة　　　مبـردة باتت على طهيـان

أى بدلا من ماء زمزم ، والطهيان : عود ينصب فى ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد ، ومعنى : ﴿ **من الآخرة** ﴾ أى فى جنب الآخرة ، وفى مقابلها ﴿ **إلا قليل** ﴾ أى إلا متاع حقير لا يعبأ به ، ويجوز أن يراد بالقليل العدم ، إذ لا نسبة للمتناهى الزائل إلى غير

المتناهى الباقى ، والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل ، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ والتثاقل ، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل،وهو كثير شائع .

قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم** ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد موكد لمن ترك النفير مع رسول اللّه ﷺ ﴿**يعذبكم عذابا أليما** ﴾ أى يهلككم بعذاب شديد مؤلم ، قيل : فى الدنيا فقط . وقيل : هو أعم من ذلك . قوله: ﴿ **ويستبدل قوما غيركم**﴾ أى يجعل لرسله بدلا منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم . واختلف فى هؤلاء القوم من هم ؟ فقيل : أهل اليمن. وقيل : أهل فارس،ولا وجه للتعين بدون دليل.قوله:﴿ **ولا تضرّوه شيئا** ﴾ معطوف على ﴿ **يستبدل** ﴾، والضمير قيل : للّه ، وقيل : للنبى ﷺ ، أى ولا تضرّوا اللّه بترك امتثال أمره بالنفيرشيئا ، أو لا تضرّوا رسول اللّه بترك نصره والنفير معه شيئا ﴿ **واللّه على كل شىء قدير** ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم .

قوله : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره اللّه** ﴾ أى إن تركتم نصره فاللّه متكفل به ، فقد نصره فى مواطن القلة ، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر ، أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ **ثانى اثنين** ﴾ أى أحد اثنين ، وهما رسول اللّه ﷺ وأبو بكر الصديق رضى اللّه عنه ، وقرئ بسكون الياء . قال ابن جنى : حكاها أبو عمرو بن العلاء ، ووجهها أن تسكن الياء تشبيها لها بالألف قال ابن عطية : فهى كقراءة الحسن ما بقى من الربا ، وكقول جرير :

هو الخليفة فارضوا ما رضيه لكم ماضى العزيمة ما فى حكمه جنف

قوله : ﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ بدل من ﴿ **إذ أخرجه** ﴾ بدل بعض ، والغار : ثقب فى الجبل المسمى ثورا ، وهو المشهور بغار ثور ، وهو جبل قريب من مكة ، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة فى كتب السير والحديث . قوله : ﴿ **إذ يقول لصاحبه** ﴾ بدل ثان ، أى وقت قوله لأبى بكر ﴿ **لا تحزن إن اللّه معنا** ﴾ أى دع الحزن فإن اللّه بنصره وعونه وتأييده معنا ، ومن كان اللّه معه فلن يغلب ، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن . قوله : ﴿ **فأنزل اللّه سكينته عليه** ﴾ السكينة : تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن ، على أن الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ لأبى بكر ؛ وقيل : هو للنبى ﷺ ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه : عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له ، ويؤيد كون الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ للنبى ﷺ الضمير فى ﴿ **وأيده بجنود لم تروها** ﴾ فإنه للنبى ﷺ لأنه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة كما كان فى يوم بدر . وقيل : إنه لا محذور فى رجوع الضمير من ﴿ **عليه** ﴾ إلى أبى بكر ، ومن ﴿**وأيده**﴾ إلى النبى ﷺ ، فإن ذلك كثير فى القرآن وفى كلام العرب ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ أى كلمة الشرك ، وهى دعوتهم إليه،ونداؤهم للأصنام ﴿ **وكلمة اللّه هى العليا** ﴾ قرأ الأعمش ويعقوب بنصب «كلمة »

حملا على جعل ، وقرأ الباقون برفعها على الاستئناف . وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم، وفى ضمير الفصل ، أعنى : ﴿ **هى** ﴾ تأكيد لفضل كلمته فى العلوّ وأنها المختصة به دون غيرها ، وكلمة اللّه هى كلمة التوحيد ، والدعوة إلى الإسلام ﴿ **واللّه عزيز حكيم** ﴾ أى غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب .

ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ماذكره عقبه بالأمر الجزم فقال : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ أى حال كونكم خفافا وثقالا ، قيل : المراد منفردين أو مجتمعين . وقيل : نشاطا وغير نشاط . وقيل : فقراء وأغنياء . وقيل : شبابا وشيوخا . وقيل : رجالا وفرسانا . وقيل : من لا عيال له ومن له عيال ، وقيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع ، ومن يتأخر كالجيش ، وقيل غير ذلك . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى ، لأن معنى الآية : انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . قيل : وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ [التوبة : ٩١] . وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ الآية [التوبة : ١٢٢] . وقيل : هى محكمة وليست بمنسوخة ، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ﴾ [النور : ٦١] . وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ من باب التخصيص. لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله : ﴿**خفافا وثقالا** ﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم . قوله : ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل اللّه** ﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد . فالفقراء يجاهدون بأنفسهم ، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم . والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها . وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدّو وبدفعه ، فإن كان لا يقوم بالعدّو إلا جميع المسلمين فى قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد ﴿ **خير لكم** ﴾ أى خير عظيم فى نفسه ، وخير من السكون والدعة ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ ذلك وتعرفون الأشياء الفاصلة وتميزونها عن المفضولة .

قوله: ﴿ **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** ﴾. قال الزجاج : لو كان المدعو إليه ، فحذف لدلالة ما تقدّم عليه ، والعرض : مايعرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿ **وسفرا قاصدا** ﴾ عطف على ما قبله ، أى سفرا متوسطا بين القرب والبعد . وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد ﴿ **ولكن بعدت عليهم الشقة** ﴾ قال أبوعبيدة وغيره : إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة ، يقال : منه شقة شاقة ، قال : الجوهرى : الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضا : السفر البعيد ، وربما قالوه بالكسر . والمراد بهذا غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة. وقرأ عيسى بن عمر: «بعدت عليهم الشقة » بكسر العين والشين ﴿ **وسيحلفون باللّه** ﴾ أى المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين : ﴿ **لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ أى

لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بدّ منه ﴿ **لخرجنا معكم** ﴾ هذه الجملة سادّةٌ مسدّ جواب القسم والشرط. قوله: ﴿ **يهلكون أنفسهم** ﴾ هو بدل من قوله : ﴿ **سيحلفون** ﴾ لأن من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه أو يكون حالا ، أى مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿ **والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ فى حلفهم الذى سيحلفون به لكم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا** ﴾ الآية ، قال : هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وحين أمرهم بالنفير فى الصيف وحين خرفت النخل وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج . فأنزل الله ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ (١) .

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما** ﴾ قال : إن رسول الله ﷺ استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما** ﴾ وقد كان تخلف عنه أناس فى البدو يفقهون قومهم ، فقال المؤمنون : قد بقى ناس فى البوادى وقالوا : هلك أصحاب البوادى ، فنزلت ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ . وأخرج أبو داود وابن أبى حاتم والنحاس ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إلا تنفروا** ﴾ الآية قال : نسختها ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله** ﴾ قال : ذكر ما كان من أوّل شأنه حين بعث . يقول : فأنا فاعل ذلك به ، وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثانى اثنين . وأخرج أبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعروة ؛ أنهم ركبوا فى كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبى ﷺ ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الحمل العظيم ، وأتوا على ثور الجبل الذى فيه الغار والذى فيه النبى ﷺ حتى طلعوا فوقه ، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم ، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهمّ والخوف ، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه السكينة من الله﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ الآية (٤). وأخرج ابن شاهين وابن مردويه وابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال: قال أبو بكر : يارسول الله ، لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا ، فقال : « يا أبا بكر ، لا تحزن إن الله معنا » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهرى فى قوله : ﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ قال :

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٩٤ .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠٦) وابن جرير ١٠/ ٩٥ وصححه الحاكم ٢/١١٨ وقال : « وعبد المؤمن بن خالد الحنفى من ثقات المراوزة » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩/٤٨ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠٥) والبيهقى ٩/٤٧ .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٢/٤٧٨ .

هو الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثورًا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأنزل اللّه سكينته عليه** ﴾ قال : على أبى بكر لأن النبىّ ﷺ لم تزل معه السكينة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخل النبىّ ﷺ وأبو بكر غار حراء ، فقال أبو بكر للنبىّ ﷺ : لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى وإياك ، فقال ﷺ : « ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما يا أبا بكر ؟ إن اللّه أنزل سكينته عليك وأيدنى بجنود لم يروها » . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن حبيب بن أبى ثابت ﴿ **فأنزل اللّه سكينته عليه** ﴾ قال : على أبى بكر ، فأما النبىّ ﷺ فقد كانت عليه السكينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ قال: هى الشرك باللّه ﴿ **وكلمة اللّه هى العليا** ﴾ قال : لا إله إلا اللّه .

وأخرج الفريابى وأبو الشيخ عن أبى الضحى قال : أوّل ما أنزل من براءة ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ ثم نزل أوّلها وآخرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **خفافا وثقالا** ﴾ قال : نشاطا وغير نشاط . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم فى الآية قال : مشاغيل وغير مشاغيل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : فى العسر واليسر . وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال: فتيانا وكهولا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال : شبابا وشيوخا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : قالوا : إن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل فأنزل اللّه : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا ، وعلى ما كان منهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال : جاء رجل زعموا أنه المقداد ، وكان عظيما سمينا ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى ، فنزلت : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنها فنسخها اللّه ، فقال : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ الآية [التوبة : ٩١] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ قيل له : ألا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم ؟ فقال رجلان : قد علمت يا رسول الله ، أن النساء فتنة فلا تفتنا بهنّ فأذن لنا ، فأذن لهما ، فلما انطلقنا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأوّل آكل ، فسار رسول اللّه ﷺ ولم ينزل عليه شىء فى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه ﴿ **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** ﴾ ونزل عليه : ﴿ **عفا اللّه عنك لم أذنت لهم** ﴾. ونزل عليه : ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ ونزل عليه : ﴿ إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ [التوبة : ٩٥] (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **لو كان عرضا قريبا** ﴾ قال: غنيمة قريبة ، ﴿ **ولكن بعدت**

---

(١) ابن جرير ١١ / ٣.

عليهم الشقة ﴾ قال : المسير . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿**والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ قال : لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

الاستفهام فى: ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ ، حيث وقع منه الإذن لما استأذنه فى القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم فى عذره الذى أبداه، ومن هو كاذب فيه . وفى ذكر العفو عنه ﷺ ما يدلّ على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى ، وفى هذا عتاب لطيف من الله سبحانه . وقيل : إن هذا عتاب له ﷺ فى إذنه للمنافقين بالخروج معه ، لا فى إذنه لهم بالقعود عن الخروج . والأوّل أولى ، وقد رخص له سبحانه فى سورة النور بقوله :﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [النور : ٦٢] . ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات والله أعلم . وقيل : إن قوله : ﴿ **عفا الله عنك** ﴾ هى افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزّك ورحمك كيف فعلت كذا ، وكذا حكاه مكى والنحاس والمهدوى ، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك ، وعلى التأويل الأوّل لا يحسن . ولا يخفاك أن التفسير الأوّل هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربى ، وفى الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ ، والمسألة مدوّنة فى الأصول ، وفيها أيضا دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاغترار بظواهر الأمور ،و « حتى » فى ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا** ﴾ للغاية ، كأنه قيل : لم سارعت إلى الإذن لهم ، وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم فى العـذر الذى أبداه ، وكذب من هو كاذب منهم فى ذلك ؟

ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ فى القعود عن الجهاد ،

بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك . فقال : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا** ﴾ وهذا أن معنى الآية ألا يجاهدوا على حذف حرف النفى ؛ وقيل : المعنى : لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد . وقيل : إن معنى الاستئذان فى الشىء الكراهة له ، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى : لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منك فضلا عن أن يستأذنك فى التخلف . قال الزجاج: ﴿ **أن يجاهدوا** ﴾ فى موضع نصب بإضمار فى ، أى فى أن يجاهدوا ﴿ **واللّه عليم بالمتقين** ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا ﴿ **إنما يستأذنك** ﴾ فى القعود عن الجهاد ، والتخلف عنه ﴿ **الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر** ﴾ وهم المنافقون ، ذكر الإيمان باللّه أوّلا ، ثم باليوم الآخر ثانيا فى الموضعين ، لأنهما الباعثان على الجهاد فى سبيل اللّه. قوله: ﴿ **وارتابت قلوبهم** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **الذين لا يؤمنون** ﴾ وجاء بالماضى للدلالة على تحقق الريب فى قلوبهم ، وهو الشك . قوله : ﴿ **فهم فى ريبهم يتردّدون** ﴾ أى فى شكهم الذى حلّ بقلوبهم يتحيرون ، والتردّد : التحير . والمعنى : فهؤلاء الذين يستأذنوك ليسوا بمؤمنين بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق .

قوله : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له[1] عدّة** ﴾ أى لو كانوا صادقين فيما يدّعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك ، ولكن لم يكن معهم من العدّة للجهاد ما يحتاج إليه لما تركوا إعداد العدّة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون ، فمعنى هذا الكلام : أنهم لم يريدوا الخروج أصلا ولا استعدّوا للغزو . والعدّة : ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح . قوله : ﴿ **ولكن كره اللّه انبعاثهم** ﴾ أى ولكن كره اللّه خروجهم فتثبطوا عن الخروج .فيكون المعنى : ما خرجوا ولكن تثبطوا ، لأن كراهة اللّه انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج ، والانبعاث : الخروج ، أى حبسهم اللّه عن الخروج معك وخذلهم ، لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . وقيل : المعنى : لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ، ولكن ما أرادوه لكراهة اللّه له . قوله : ﴿ **وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ قيل : القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة . وقيل : قاله بعضهم لبعض . وقيل : قاله رسول الله ﷺ غضبا عليهم . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ، أى أوقع اللّه فى قلوبهم القعود خذلانا لهم . ومعنى ﴿ **مع القاعدين** ﴾ أى مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان ، وفيه من الذمّ لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا** ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين ، والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف .قيل:هذا الاستثناء

---

(١) فى المطبوعة :« لهم ».

منقطع ، أى ما زادوكم قوّة ، ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى : لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأى إلا خبالا فيكون متصلا . وقيل : هو استثناء من أعمّ العام ، أى ما زادوكم شيئا إلا خبالا ، فيكون الاستثناء من قسم المتصل ؛ لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء . قوله : ﴿**ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة**﴾ الإيضاع : سرعة السير ، ومنه قول ورقة بن نوفل :

ياليتنى فيها جذع　　　أخبّ فيها وأضع

يقال : أوضع البعير : إذا أسرع السير . وقيل : الإيضاع : سير الخبب ، والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال ، أى الفرج التى تكون بين الصفوف ، والمعنى : لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين . قوله : ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ يقال : بغيته كذا : طلبته له ، وأبغيته كذا : أعنته على طلبه. والمعنى : يطلبون لكم الفتنة فى ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد . وقيل : الفتنة هنا الشرك . وجملة : ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنّ فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم ، والفساد لإخوانكم ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم ، لذلك اقتضت حكمته البالغة ألا يخرجوا معكم ، وكره انبعاثهم معكم، ولا ينافى حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم فى التخلف ، لأنه سارع إلى الإذن لهم ، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل ، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم فى عذره من الكاذب ، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتى فى هذه السورة : ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ﴾ الآية [التوبة : ٨٣] ، وقال فى سورة الفتح : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم ﴾ إلى قوله : ﴿ قل لن تتبعونا ﴾ [الفتح: ١٥] .

قوله : ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل** ﴾ أى لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التى تخلفوا عنك فيها . كما وقع من عبد الله بن أبىّ وغيره ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾. وقوله : ﴿ **وقلبوا لك الأمور** ﴾ أى صرّفوها من أمر إلى أمر ، ودبروا لك الحيل والمكائد ، ومنه قول العرب : حوّل قلب : إذا كان دائرا حول المكائد والحيل يدير الرأى فيها ويتدبره . وقرئ : «وقلبوا » بالتخفيف ﴿ **حتى جاء الحق** ﴾ أى إلى غاية هى مجيء الحق ، وهو النصر لك والتأييد ﴿ **وظهر أمر الله**﴾ بإعزاز دينه وإعلاء شرعه وقهر أعدائه . وقيل : الحق : القرآن ﴿ **وهم كارهون** ﴾ أى والحال أنهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله ، ولكن كان ذلك على رغم منهم . ﴿ **ومنهم** ﴾ أى من المنافقين ﴿ **من يقول** ﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ **ائذن لى** ﴾ فى التخلف عن الجهاد ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ أى

لا توقعنى فى الفتنة ، أى الإثم إذا لم تأذن لى فتخلفت بغير إذنك؛ وقيل : معناه : لا توقعنى فى الهلكة بالخروج ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ أى فى نفس الفتنة سقطوا ، وهى فتنة التخلف عن الجهاد ، والاعتذار الباطل . والمعنى : أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون فى الفتنة ، وهم بهذا التخلف سقطوا فى الفتنة العظيمة . وفى التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل ، وذلك أشدّ من مجرّد الدخول فى الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أى مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصا ، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال .

وقد أخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير عن عمرو بن ميمون قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشىء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فأنزل اللّه : ﴿ **عفا اللّه عنك لم أذنت لهم** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبد اللّه قال : ما سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : ﴿ **عفا اللّه عنك لم أذنت لهم** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك** ﴾ الآية قال : ناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ الثلاث الآيات ، قال : نسخها ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [النور : ٦٢] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه عنه فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله** ﴾ الآية . قال: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر ، وعذر الله المؤمنين فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ (٣) [النور : ٦٢] . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك** ﴾ الآيتين قال : نسختها الآية التى فى سورة النور ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ إلى ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ [النور: ٦٢]. فجعل الله النبى ﷺ بأعلى النظرين فى ذلك ، من غزا غزا فى فضيلة ، ومن قعد قعد فى غير حرج إن شاء الله (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ قال : خروجهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فثبطهم** ﴾ قال : حبسهم. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما**

---

(١) عبد الرزاق (٩٤٠٣) وابن جرير ١٠/ ١٠٠ . (٢) ابن أبى شيبة (١٦٠٦٩) .
(٣) ابن جرير ١٠ / ١٠٠ . (٤) البيهقى ٩/ ١٧٣ ، ١٧٤ .

زادوكم إلا خبالا ﴾ قال : هؤلاء المنافقون فى غزوة تبوك . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ قال : لأسرعوا بينكم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ قال : لأرفضوا ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ يبطئونكم ، عبد الله بن نبتل ، وعبد الله بن أبى بن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وأوس بن قيظى ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين ، وهم عيون للمنافقين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن ابن عباس قال : لما أراد النبى ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس :« يا جد بن قيس [١] ، ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر ؟» فقال : يا رسول الله ، إنى امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن ، فأذن لى ولا تفتنى ، فأنزل الله ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ قال : لا تخرجنى ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ يعنى : فى الخروج . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ قال : لا تؤثمنى ﴿ **ألا فى الفتنة** ﴾ قال : ألا فى الإثم ، وقصة تبوك مذكورة فى كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها [٣] .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾ .

(١) فى المطبوعة : « جر بن قيس» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) الطبرانى (٢١٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٣ : « وفيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » .
(٣) راجع : سيرة ابن هشام ٤/ ١٥٥ ـ ١٧٩ والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣ ـ ١٧ .

قوله : ﴿ **إن تصبك حسنة** ﴾ أى حسنة كانت بأى سبب اتفق ، كما يفيده وقوعها فى حيز الشرط ، وكذلك القول فى المصيبة ، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة فى القتال كما يفيده السياق دخولا أوليا ، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة : الغنيمة والظفر . ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة : الخيبة والانهزام ، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم ، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، فإن المساءة بالحسنة ، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم فى العداوة قد بلغوا إلى الغاية ، ومعنى ﴿ **تولوا** ﴾ : رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التى أصابت المؤمنين ، ومعنى قولهم : ﴿ **قد أخذنا أمرنا من قبل** ﴾ أى احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم ، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة .

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ أى فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتابه المنزل علينا ، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن ، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفى الحسدة . ﴿ **هو مولانا** ﴾ أى ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان . والتوكل على الله تفويض الأمور إليه ، والمعنى : أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره . وقرأ طلحة بن مصرف : « يصيبنا » بتشديد الياء . وقرأ أعين قاضى الرى : «يصيبنا » بنون مشددة ، وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد ، ورد بمثل قوله تعالى : ﴿ هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ [الحج : ١٥] . وقال الزجاج : معناه : لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة ، وعلى هذا القول يكون قوله : ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ تكريرا لغرض التأكيد ، والأول أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيدا لفائدة غير فائدة الآخر ، والتأسيس خير من التأكيد ، ومعنى ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ : هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيين : إما النصرة أو الشهادة ، وكلاهما مما يحسن لدينا ، والحسنى : تأنيث الأحسن ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ ﴿ **ونحن نتربص بكم** ﴾ إحدى المساءتين لكم : إما ﴿ **أن يصيبكم الله بعذاب من عنده** ﴾ أى قارعة نازلة من السماء فيسحتكم بعذابه . ﴿ **أو** ﴾ بعذاب لكم ﴿ **بأيدينا** ﴾ أى بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبى . والفاء فى ﴿ **فتربصوا** ﴾ فصيحة ، والأمر للتهديد كما فى قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩] أى تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم . وقرأ البزى وابن فليح : « هل تربصون » بإظهار اللام وتشديد التاء . وقرأ الكوفيون بإدغام اللام فى التاء . وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء .

قوله : ﴿ **قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم** ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء ؛ لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم ، والتقدير : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم . وقيل : هو أمر فى معنى الخبر ، أى أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ، فهو كقوله : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : ٨٠] وفيه الإشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول ، وانتصاب طوعا أو كرها على الحال فهما مصدران فى موقع المشتقين ، أى أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما . وسمى الأمر منهما إكراها لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر ، فكانوا بأمرهم الذى لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق ، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم ، وجملة : ﴿ **إنكم كنتم قوما فاسقين** ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم ، والفسق : التمرد والعتو ، وقد سبق بيانه لغة وشرعا .

ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال : ﴿ **وما منعهم** (١) **أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله** ﴾ أى كفرهم بالله وبرسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور ، الأول : الكفر ، الثانى : أنهم لا يصلون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل والتثاقل ؛ لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظهراً بالإسلام الذى يبطنون خلافه ، والثالث : أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون ، ولا ينفقونها طوعا لأنهم يعدون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله .

قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم** ﴾ الإعجاب بالشيء : أن يسر به سرورا راض به متعجب من حسنه ، قيل : مع نوع من الافتخار ، واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ؛ والمعنى : لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا**﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون ويأخذوها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم ، وكذا فى الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ذلك ، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها ، والتصدق بما يحق التصدق به . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون ، قوله : ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ الزهوق : الخروج بصعوبة ، والمعنى : أن الله يريد أن تزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل ، وتصميمهم على الكفر وتماديهم فى الضلالة .

ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾ أى من جملتكم فى دين الإسلام والانقياد لرسول الله ﷺ ولكتاب الله سبحانه ﴿ **وما هم منكم**﴾ فى ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿ **ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ أى يخافون أن

(١) فى المطبوعة : « معهم » .

ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبى ، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره ﴿ **أو مغارات** ﴾ جمع مغارة ، من غار يغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يغير ، والمغارات : الغيران والسراديب ، وهى المواضع التى يستتر فيها ، ومنه غار الماء وغارت العين، والمعنى : لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم ﴿ **أو مدخلا** ﴾ من الدخول ، أى مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التى ليست مغارات . قال النحاس : الأصل فيه متدخل ، قلبت التاء دالا ، وقيل : أصله : مدتخل . وقرأ أبى : « متدخلا » ، وروى عنه أنه قرأ : «مندخلا» بالنون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن محيصن : « أو مدخلا » بفتح الميم وإسكان الدال. قال الزجاج : ويقرأ : « أو مدخلا » بضم الميم وإسكان الدال . وقرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم ﴿ **لولوا إليه** ﴾ أى لا لتجؤوا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه ، والحال أنهم ﴿**يجمحون** ﴾ أى يسرعون إسراعا لا يردهم شىء ، من جمع الفرس : إذا لم يرده اللجام ، ومنه قول الشاعر :

سبوح جموح وإحضارها كمعمعة السعف الموقد

والمعنى : لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هربا من المسلمين . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبى ﷺ أخبار السوء يقولون : إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبى وأصحابه ، فساءهم ذلك فأنزل الله : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ الآية . وأخرج سنيد وابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ يقول : إن يصبك فى سفرك هذه الغزوة ـ تبوك ـ حسنة تسؤهم قال : الجد وأصحابه ، يعنى : الجد بن قيس .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ قال : إلا ما قضى الله لنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ قال : فتح أو شهادة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **أو بأيدينا** ﴾ قال : القتل بالسيوف . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس : إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالى ، قال : ففيه نزلت : ﴿ **قل أنفقوا طوعا أو كرها** ﴾ الآية [١] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم**﴾ قال : هذه من تقاديم الكلام ، يقول : لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما

(١) ابن جرير ١٠/ ١٠٧ .

يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة ، وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ قال : تزهق أنفسهم فى الحياة الدنيا ﴿ **وهم كافرون** ﴾ قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **فلا تعجبك** ﴾ يقول : لا يغررك ﴿**وتزهق** ﴾ قال : تخرج أنفسهم ، قال : فى الدنيا وهم كافرون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ الآية ، قال : الملجأ : الحرز فى الجبال ، والمغارات : الغيران ، والمدخل : السرب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى ﴿ **وهم يجمحون** ﴾ قال : يسرعون .

﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ومنهم من يلزمك** ﴾: هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم ، يقال : لمزه يلمزه : إذا عابه . قال الجوهرى : اللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يَلْمِزه ويَلْمُزه، ورجل لماز ، ولمزة ، أى عياب . قال الزجاج : لمزت الرجل ألمِزه و ألُمزه ، بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذا همزته . ومعنى الآية : ومن المنافقين من يعيبك فى الصدقات، أى فى تفريقها وقسمتها ، وروى عن مجاهد أنه قال : معنى ﴿ **يلزمك** ﴾ : يرزؤك ويسألك ، والقول عند أهل اللغة هو الأول كما قال النحاس . وقرئ : « يلمزك » بضم الميم ، و« يلمزك» بكسرها مع التشديد . وقرأ الجمهور بكسرها مخففة . ﴿ **فإن أعطوا منها** ﴾ أى من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ **رضوا** ﴾ بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه ، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا ، وليسوا من الدين فى شيء ﴿ **وإن لم يعطوا منها** ﴾ أى من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه ﴿ **إذا هم يسخطون** ﴾ أى وإن لم يعطوا فاجؤوا السخط ، وفائدة إذا الفجائية: أن الشرط مفاجئ للجزاء وهاجم عليه . وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء . ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾ أى ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات ، وجواب « لو » محـذوف أى لكـان خيرا لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل ﴿ **وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾ أى قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم ، أى كفانا الله ، سيعطينا من فضله ويعطينا رسوله بعد هذا

ما نرجوه ونؤمله ﴿ **إنا إلى الله راغبون** ﴾ فى أن يعطينا من فضله ما نرجوه .

قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ فى قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم ، و ﴿ **إنما** ﴾ من صيغ القصر ، وتعريف الصدقات للجنس ، أى جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها ، بل هى لهم لا لغيرهم .

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية ، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة ؟ فذهب إلى الأول الشافعى وجماعة من أهل العلم ، وذهب إلى الثانى مالك وأبو حنيفة ، وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران . قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم : احتج الأولون بما فى الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائى عند أبى داود والدارقطنى قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة ، فقال له : « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » . وأجاب الآخرون بأن ما فى الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف ، لا لوجوب استيعاب الأصناف ، وبأنه فى إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى وهو ضعيف . ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ [البقرة : ٢٧١] . والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة . وصح عنه ﷺ أنه قال : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها فى فقرائكم » (١) . وقد ادعى مالك الإجماع على القول الآخر . قال ابن عبد البر : يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفا منهم .

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾: قدمهم ؛ لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم. وقد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال : فقال يعقوب بن السكيت والقتيبى ويونس بن حبيب : إن الفقير أحسن حالا من المسكين ، قالوا : لأن الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين الذى لا شىء له ، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة . وقال آخرون بالعكس ، فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ [الكهف : ٧٩] . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال ، ويؤيده تعوذ النبى ﷺ من الفقر مع قوله: « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا » (٢) . وإلى هذا ذهب الأصمعى وغيره من أهل

---

(١) جزء من حديث ابن عباس قال : إن النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال . . . وذكر الحديث ، وهو فى البخارى فى الزكاة (١٣٩٥) .

(٢) جزء من حديث أنس رضى الله عنه ، وهو فى الترمذى فى الزهد (٢٣٥٢) وقال : « غريب » .

اللغة ، وحكاه الطحاوى عن الكوفيين ، وهو أحد قولى الشافعى وأكثر أصحابه . وقال قوم : إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولى الشافعى ، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف . وقال قوم : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين : السائل . قاله الأزهرى ، واختاره ابن شعبان ، وهو مروى عن ابن عباس . وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتى الاستكثار منه بفائدة يعتد بها . والأولى فى بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول اله ﷺ عند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة ؛ أن رسول اله ﷺ قال : «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان » ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » (١) .

قوله : ﴿ **والعاملين عليها** ﴾: أى السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة ؛ فإنهم يستحقون منها قسطا . وقد اختلف فى القدر الذى يأخذونه منها ، فقيل : الثمن ، روى ذلك عن مجاهد والشافعى . وقيل : على قدر أعمالهم من الأجرة ، روى ذلك عن أبى حنيفة وأصحابه . وقيل : يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روى ذلك عن مالك ، ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها ؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا ؟ فمنعه قوم ، وأجازه آخرون . قالوا : ويعطى من غير الصدقة .

قوله : ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ : هم قوم كانوا فى صدر الإسلام ، فقيل : هم الكفار الذين كان النبى ﷺ يتألفهم ليسلموا ، وكانوا لا يدخلون فى الإسلام بالقهر والسيف ، بل بالعطاء . وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء وقيل: هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع ، أعطاهم النبى ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام وقد أعطى النبى ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك ، وأعطى آخرين دونهم .

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا ؟ فقال عمر والحسن والشعبى : قد انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك . وقال جماعة من العلماء : سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس : سألت الزهرى عنهم فقال : لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف .

---

(١) البخارى فى الزكاة (١٤٧٦ ، ١٤٧٩) ومسلم فى الزكاة (١٠٣٩ / ١٠١، ١٠٢) ومالك فى الموطأ فى صفة النبى ﷺ (٧) .

قوله : ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ أى : فى فك الرقاب بأن يشترى رقابا ثم يعتقها . روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر ، وبه قال مالك وأحمد بن حنبل وإسحق وأبو عبيد . وقال الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعى والزهرى وابن زيد : إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ، وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى ورواية عن مالك ، والأولى حمل ما فى الآية على القولين جميعا لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: ﴿ **والغارمين** ﴾ هم الذين ركبتهم الديون(١) ولا وفاء عندهم بها ، ولا خلاف فى ذلك إلا من لزمه دين فى سفاهة ؛ فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب . وقد أعان النبى ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها . قوله : « ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون فى غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء ، وهذا قول أكثر العلماء. وقال ابن عمر : هم الحجاج والعمار، وروى عن أحمد وإسحق أنهما جعلا الحج من سبيل الله. وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يعطى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطعا به .

قوله : ﴿ **وابن السبيل** ﴾ هو المسافر ، والسبيل : الطريق ، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها ، والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وإن كان غنيا فى بلده. وإن وجد من يسلفه. وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى. قوله : ﴿ **فريضة من الله** ﴾ مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ معناه : فرض الله الصدقات لهم . والمعنى : أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوال عباده ﴿ **حكيم** ﴾ فى أفعاله ؛ وقيل : إن ﴿**فريضة** ﴾ منتصبة بفعل مقدر ، أى فرض الله ذلك فريضة . قال فى الكشاف : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى « فى » فى الأربعة الآخرة ؟ قلت : للإيذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره(٢)، وقيل : النكتة فى العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤوا ، وفى الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة، كذا قيل.

وقد أخرج البخارى والنسائى وابن جريج وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قسما إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التيمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : « ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فقال عمر ابن الخطاب : ائذن لى فأضرب عنقه فقال النبى ﷺ : « دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »

---

(١) فى المطبوعة : « الذنوب » .
(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٣ .

الحديث (١) حتى قال : وفيهم نزلت : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ومنهم من يلمزك** ﴾ قال: يرزؤك ويسألك. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : يطعن عليك . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : لما قسم النبى ﷺ غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه لقسمة ما أريد بها الله ، فأتيت النبى ﷺ وذكرت ذلك له ، فقال : « رحمة الله على موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » ، ونزل : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية كل صدقة فى القرآن : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن حذيفة فى قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية قال : إن شئت جعلتها فى صنف واحد من الأصناف الثمانية التى سمى الله أو صنفين أو ثلاثة. وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى العالية والحسن وعطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ عن قتادة قال : الفقير الذى به زمانة ، والمسكين : المحتاج الذى ليس به زمانة . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر فى قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ قال : هم زمنى أهل الكتاب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والعاملين عليها** ﴾ قال : السعاة أصحاب الصدقة .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرا قالوا : هذا دين صالح ، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه . وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : بعث على بن أبى طالب من اليمن إلى النبى ﷺ بذهيبة فيها تربتها ، فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلى، وعلقمة بن علاثة العامرى ، وعيينة بن بدر الفزارى ، وزيد الخيل الطائى ؛ فقالت قريش والأنصار: يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبى ﷺ : « إنما أتألفهم »(٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الزهرى أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال : من أسلم من يهودى أو نصرانى ، قلت : وإن كان موسرا ؟ قال : وإن كان موسرا . وأخرج هؤلاء عن أبى جعفر قال : « ليس اليوم مؤلفة قلوبهم . وأخرج هؤلاء أيضا عن الشعبى مثله .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ قال : هم المكاتبون . وأخرج ابن المنذر عن النخعى نحوه . وأخرج أيضا عن عمر بن عبد الله قال : سهم الرقاب نصفان : نصف لكل مكاتب ممن يدعى الإسلام ، والنصف الآخر يشترى به رقاب ممن صلى

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤٣٥١) ومسلم فى الزكاة (١٠٦٤/ ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٨) وأبو داود فى السنة (٤٧٦٤) وابن جرير ١٠/ ١٠٩ .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٢) وفى الأنبياء (٣٣٤٤) .

وصام وقدم إسلامه من ذكر وأنثى يعتقون لله. وأخرج ابن أبى شيبة وأبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لا يرى بأسا أن يعطى الرجل من زكاته فى الحج وأن يعتق منها رقبة. وأخرج ابن أبى شيبة عن الزهرى أنه سئل عن الغارمين قال : أصحاب الدين .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى جعفر فى قوله : ﴿**والغارمين**﴾ قال : هو الذى يسأل فى دم أو جائحة تصيبه ﴿**وفى سبيل الله**﴾ قال : هم المجاهدون ﴿**وابن السبيل**﴾ قال : المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل : هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ: « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : العامل عليها ، أو الرجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز فى سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغنى » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى عن عبدالله بن عمر عن النبى ﷺ قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » (٢) . وأخرج أحمد عن رجل من بنى هلال قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر مثله(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار (٤) قال : أخبرنى رجلان أنهما أتيا رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين ، فقال : « إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب»(٥) .

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ .

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢١٠ وأبو داود فى الزكاة (١٦٣٧) وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤١) .
(٢) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٧ وفى الرد على أبى حنيفة١٤/ ٢٧٥ (١٨٣٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٣٤) والترمذى فى الزكاة (٦٥٢) وقال : «حديث حسن » .
(٣) أحمد ٥/ ٣٧٥ .
(٤) فى المطبوعة : «عبد الله بن عدى بن الجبار» وفى المخطوطة : عبد الله بن عدى بن الخيار» ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج التالية فى الهامش التالى .
(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٨ وأبوداود فى الزكاة(١٦٣٣) والنسائى فى الزكاة ٥/ ٩٩ ، ١٠٠ .

قوله : ﴿ **ومنهم** ﴾ هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ على وجه الطعن والذم ﴿ **هو أذن** ﴾ قال الجوهرى : يقال : رجل أذن: إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ومرادهم ، أقمأهم الله ، أنهم إذا آذوا النبى وبسطوا فيه ألسنهم ، وبلغه ذلك اعتذروا له وقبل ذلك منهم ، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه ، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه أنه أذن مبالغة ، لأنهم سموه بالجارحة التى هى آلة السماع ، حتى كأن جملته أذن سامعة ، ونظيره قولهم للربيئة : عين ، وإيذاؤهم له هو قولهم : ﴿ **هو أذن** ﴾ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرما وحلما وتغاضيا ، ثم أجاب الله عن قولهم هذا ، فقال : ﴿ **قل أذن خير لكم** ﴾ بالإضافة على قراءة الجمهور . وقرأ الحسن بالتنوين ، وكذا قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير لكم وليس بأذن فى غير ذلك ، كقولهم رجل صدق ، يريدون الجودة والصلاح ، والمعنى : أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرئ «أذن» بسكون الذال وضمها ، ثم فسر كونه أذن خير بقوله : ﴿ **يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ أى يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان ، فتكون اللام فى ﴿ **للمؤمنين** ﴾ للتقوية ، كما قال الكوفيون ، أو متعلقة بمصدر محذوف . كما قال المبرد . وقرأ الجمهور : ﴿**ورحمة** ﴾ بالرفع عطف على أذن . وقرأ حمزة بالخفض عطفا على خير . والمعنى على القراءة الأولى : هو أنه أذن خير ، وأنه هو رحمة للمؤمنين ، وعلى القراءة الثانية : أنه أذن خير وأذن رحمة . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد ، يعنى قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين ، وهذا يقبح فى المخفوض ، والمعنى : أن النبى ﷺ أذن خير للمنافقين ﴿ **ورحمة** ﴾ لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكأنه قال : هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء ، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته ، ومعنى : ﴿ **للذين آمنوا منكم** ﴾ أى الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿ **والذين يؤذون رسول الله** ﴾ ﷺ بما تقدم من قولهم : هو أذن ، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله ﷺ ﴿ **لهم عذاب أليم** ﴾ أى شديد الألم . وقرأ ابن أبى عبلة : «ورحمة للمؤمنين » بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف ، أى ورحمة لكم يأذن لكم .

ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** ﴾ والخطاب للمؤمنين . وذلك أن المنافقين كانوا فى خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبى ﷺ فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم ، وقال : ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ أى هما أحق بذلك من

إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة ، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم ، وإفراد الضمير فى ﴿ **يرضوه** ﴾ إما للتعظيم للجناب الإلهى بإفراده بالذكر أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله ، فإرضاء الله إرضاء لرسوله ؛ أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، كما قال سيبويه ، ورجحه النحاس ، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة ؛ فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد ، أو الضمير راجع إلى المذكور ، وهو يصدق عليهما . وقال الفراء : المعنى : ورسوله أحق أن يرضوه . ﴿ **والله** ﴾ افتتاح كلام كما تقول : ما شاء الله وشئت ، وهذه الجملة ، أعنى : ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ ، فى محل نصب على الحال ، وجواب ﴿ **إن كانوا مؤمنين** ﴾ محذوف ، أى إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله .

قوله : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم** ﴾ . قرأ الحسن وابن هرمز : « ألم تعلموا » بالفوقية . وقرأ الباقون بالتحتية ، والمحاددة : وقوع هذا فى حد ، وذلك فى حد كالمشاقة ، يقال : حاد فلان فلانا : أى صار فى حد غير حده ﴿ **فإن له نار جهنم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى فحق أن له نار جهنم . وقال الخليل وسيبويه : إن « أن » الثانية مبدلة من الأولى ، وزعم المبرد أن هذا القول مردود ، وأن الصحيح ما قال الجرمى أن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام . وقال الأخفش : المعنى: فوجوب النار له ، وأنكره المبرد وقال : هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر . وقرئ بكسر الهمزة . قال سيبويه ، وهى قراءة جيدة ، وأنشد :

وإنى إذا ملت ركابى مناخها ... فإنى على حظى من الأمر جامح

وانتصاب ﴿**خالدا**﴾ على الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من العذاب ، وهو مبتدأ وخبره ﴿**الخزى العظيم** ﴾ أى الخزى البالغ إلى الغاية التى لا يبلغ إليها غيره ، وهو الذل والهوان .

قوله : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة** ﴾ قيل : هو خبر وليس بأمر . وقال الزجاج : معناه : ليحذر . فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم ، وعلى الثانى : الأمر لهم بأن يحذروا ذلك ، و﴿**أن تنزل** ﴾ فى موضع نصب ، أى من أن تنزل . ويجوز على قول سيبويه أن يكون فى موضع خفض على تقدير « من » وإعمالها ، ويجوز أن يكون النصب على المفعولية . وقد أجاز سيبويه : حذرت زيدا ، وأنشد :

حذر أمورا لا تضير وآمن ... ما ليس ينجيه من الأقدار

ومنع من النصب على المفعولية المبرد . ومعنى : ﴿ **عليهم** ﴾ أى على المؤمنين فى شأن المنافقين ، على أن الضمير للمؤمنين ، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين ، أى فى شأنهم ﴿**تنبئهم** ﴾ أى المنافقين ﴿ **بما فى قلوبهم**﴾ مما يسرونه فضلا عما يظهرونه ، وهم وإن كانوا

عالمين بما فى قلوبهم فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ **قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾ هو أمر تهديد ، أى افعلوا الاستهزاء إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون ، إما بإنزال سورة . أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك .

قوله : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب ، ولم نكن فى شىء من أمرك ولا أمر المؤمنين . ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ والاستفهام : للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم ، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به ، والباء لحرف النفى ، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ، ثم قال : ﴿ **لا تعتذروا**﴾ نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة ، فإن ذلك غير مقبول منهم . وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة : أن معنى الاعتذار : محو أثر الذنب وقطعه ، من قولهم : اعتذر المنزل : إذا درس ، واعتذرت المياه : إذا انقطعت ﴿ **قد**[(١)] **كفرتم** ﴾ أى أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿ **بعد إيمانكم** ﴾ أى بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر ﴿ **إن نعف عن طائفة منكم** ﴾ وهم من أخلص الإيمان وترك النفاق وتاب عنه . قال الزجاج : الطائفة فى اللغة : الجماعة . قال ابن الأنبارى : ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿ **نعذب طائفة** ﴾ بسبب ﴿ **أنهم كانوا مجرمين** ﴾ مصرين على النفاق لم يتوبوا منه . قرئ : ﴿ **نعذب** ﴾ بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم : إنما محمد أذن ، من حدثه بشىء صدقه ، فأنزل الله فيه : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن** ﴾ [(٢)] الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومخشى بن حمير ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ فنهى بعضهم بعضا وقالوا : إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم ، فقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا فنزل:﴿**ومنهم الذين يؤذون النبى** ﴾ [(٣)] الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هو أذن**﴾ يعنى : أنه يسمع من كل أحد قال الله تعالى : ﴿ **أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ يعنى : يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وأخرج الطبرانى وابن عساكر وابن مردويه عن عمير بن

(١) فى المطبوعة : «فقد» . (٢) ابن إسحاق ٤/ ١٩٤ ، والواحدى ص ١٤٣ .
(٣) أسباب النزول للواحدى ص ١٤٣ .

سعد قال : فى أنزلت هذه الآية ﴿ **ويقولون هو أذن** ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة ، فيأتى النبى ﷺ فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته ، وقال : ﴿ **هو أذن** ﴾ فأنزلت فيه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمير ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمار ، فسعى بها الرجل إلى نبى الله ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله ، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ يقول : يعادى الله ورسوله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يحذر المنافقون** ﴾ الآية قال: يقولون القول فيما بينهم ، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن شريح بن عبيد أن رجلا قال لأبى الدرداء: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقما إذا أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه بشىء فأخبر بذلك عمر بن الخطاب ، فانطلق عمر إلى الرجل الذى قال ذلك، فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبى ﷺ ، فقال الرجل : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل فى المجلس : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى ﷺ يقول : ﴿ **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ (١) . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى فى الضعفاء وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب فى رواية مالك عن ابن عمر ، فقال : رأيت عبد الله بن أبى وهو يشتد قدام النبى ﷺ والأحجار تنكبه وهو يقول : يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب والنبى ﷺ يقول : ﴿ **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : بينما رسول الله ﷺ فى غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبى الله ﷺ : « احبسوا على هؤلاء الركب» ، فأتاهم فقال :

---

(١) ابن جرير ١٠/١١٩ .

« قلتم كذا » . قالوا يا نبى الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون . وقد روى نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن نعف عن طائفة﴾ قال : الطائفة : الرجل والنفر .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ .

قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين ، وأن ذكورهم فى ذلك كإناثهم ، وأنهم متناهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، وفيه إشارة إلى نفى أن يكونوا من المؤمنين ، ورد لقولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال المؤمنين [(١)] فقال : ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ وهو كل قبيح عقلا أو شرعا ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ وهو كل حسن عقلا أو شرعا . قال الزجاج : هذا متصل بقوله : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ [التوبة: ٥٦] أى ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض ، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أى يشحون فيما ينبغى إخراجه من المال فى الصدقة والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح ، كما أن البسط كناية عن الكرم . والنسيان الترك ، أى تركوا ما أمرهم به ، فتركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقى لا يصح إطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة فى علم البيان ، ثم حكم عليهم بالفسق ، أى الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه ، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون فى الفسق . ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه ﴿نار جهنم ﴾ و﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة أى مقدرين الخلود . وفى هذه الآية دليل على أن وعد يقال فى الشر كما يقال فى الخير . ﴿ هى حسبهم ﴾ أى كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها ، « و » مع ذلك فقد ﴿لعنهم الله ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أى نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم .

---

(١) فى المطبوعة « المنافقين » ، والصحيح ما أثبتناه .

قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف ، أى أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو محلها نصب ، أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم . وقال الزجاج : التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلكم ؛ وقيل : المعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فحذف المضاف . ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم ، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبى ﷺ ﴿ **قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا** [١] ﴾ أى تمتعوا ﴿ **بخلاقهم** ﴾ أى نصيبهم الذى قدره الله لهم من ملاذ الدنيا ﴿**فاستمتعم** ﴾ [٢] أنتم ﴿ **بخلاقكم** ﴾ أى نصيبكم الذى قدره الله لكم ﴿ **كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ أى انتفعتم به كما انتفعوا به ، والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم الله . وقد قيل : ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الأولين مرة ، ثم فى حق المنافقين ثانيا ، ثم تكريره فى حق الأولين ثالثا ؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ ، فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة .

قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى كالفوج الذى خاضوا ، أو كالخوض الذى خاضوا . وقيل : أصله كالذين فحذفت النون ، والأولى أن يقال : إن «الذى » اسم موصول مثل من وما ، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال : خضت الماء أخوضه خوضا وخياضا ، والموضع مخاضة ، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا ، وجمعها المخاض والمخاوض . ويقال منه : خاض القوم فى الحديث وتخاوضوا فيه ، أى تفاوضوا فيه ، والمعنى: خضتم فى أسباب الدنيا واللهو واللعب . وقيل : فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب ، أى دخلتم فى ذلك ، والإشارة بقوله : ﴿**أولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين ، والمشبه بهم ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ أى بطلت ، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو فى صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصى ، ومعنى : ﴿ **فى الدنيا و الآخرة** ﴾ أنها باطلة على كل حال : أما بطلانها فى الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقرا ، ومن العز ذلا ، ومن القوة ضعفا ، وأما فى الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار ولا ينتفعون بشىء مما عملوه من الأعمال التى يظنونها طاعة وقربة ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ أى المتمكنون فى الخسران الكاملون فيه فى الدنيا والآخرة .

﴿ **ألم يأتهم** ﴾ أى المنافقين ﴿ **نبأ الذين من قبلهم** ﴾ أى خبرهم الذى له شأن ، وهو ما

---

(١) فى المطبوعة : « استعمتوا » .　　(٢) فى المطبوعة : « ما استمعتم » .

فعلوه وما فعل بهم ، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال فى المشبه بهم ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم ، لأن بلادهم وهى الشام قريبة من بلاد العرب ، فالاستفهام للتقرير ، وأولهم : قوم نوح وقد أهلكوا بالإغراق ، وثانيهم : قوم عاد وقد أهلكوا بالريح العقيم ، وثالثهم : قوم ثمود وقد أخذوا بالصيحة، ورابعهم : قوم إبراهيم وقد سلط الله عليهم البعوض ، وخامسهم : أصحاب مدين وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة ، وسادسهم : أصحاب المؤتفكات وهى قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة ، وسميت مؤتفكات ؛ لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها ، والائتفاك : الانقلاب ﴿ **أتتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى رسل هذه الطوائف الست . وقيل : رسل أصحاب المؤتفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا ، والفاء فى ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام ، أى فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ، لأنه قد بعث إليهم رسله فأنذروهم وحذروهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ بسبب مافعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه ، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يأمرون بالمنكر** ﴾ قال : هو التكذيب ، قال : وهو أنكر المنكر ﴿**وينهون عن المعروف** ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما أنزل الله ، وهو أعظم المعروف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ قال : لا يبسطونها بنفقة فى حق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ قال : تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ قال : صنيع الكفار كالكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه [١] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿**بخلاقهم**﴾ قال : بدينهم . وأخرجا أيضا عن أبى هريرة قال : الخلاق : الدين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فاستمتعوا بخلاقهم** ﴾ قال : بنصيبهم فى الدنيا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ قال : لعبتم كالذى لعبوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والمؤتفكات** ﴾ قال : قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم ، فجعل عاليها سافلها .

---

(١) ابن جرير ١٠/١٢٢ .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى قلوبهم متحدة فى التوادد والتحابب والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله ، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال : ﴿**يأمرون بالمعروف**﴾ أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر . ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ أى عما هو منكر فى الدين غير معروف ، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال ، وقد تقدم معنى هذا ﴿ **ويطيعون الله**﴾ فى صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه ، والإشارة بـ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف ، والسين فى ﴿**سيرحمهم الله** ﴾ للمبالغة فى إنجاز الوعد ﴿**إن الله عزيز** ﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى أقواله وأفعاله .

ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالا باعتبار الرحمة فى الدار الآخرة فقال : ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير ؛ ومعنى جرى الأنهار من تحت الجنات : أنها تجرى تحت أشجارها وغرفها ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . ﴿ **ومساكن طيبة** ﴾ أى منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت، و﴿ **جنات عدن** ﴾ يقال : : عدن بالمكان : إذا أقام به ، ومنه : المعدن . قيل : هى أعلى الجنة . وقيل: أوسطها ، وقيل : قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبى أو صديق أو شهيد . وصف الجنة بأوصاف ، الأول : جرى الأنهار من تحتها ، والثانى : أنهم فيها خالدون ، والثالث : طيب مساكنها ، والرابع : أنها دار عدن ، أى إقامة غير منقطعة ، هذا على ما هو معنى عدن لغة . وقيل: هو علم ، والتنكير فى ﴿ **رضوان**﴾ للتحقير ، أى ورضوان حقير يستر « من» رضوان ﴿ **الله أكبر** ﴾ من ذلك كله الذى أعطاهم الله إياه . وفيه دليل على أنه لا شىء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه ، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شىء من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية . اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه سخط ولايكدره نكد ، يا من بيده الخير كله دقه وجله . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ دون كل فوز مما يعده الناس فوزا .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يأمرون بالمعروف** ﴾ قال : يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والنفقات فى سبيل الله وما كان من طاعة الله ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ عن

الشرك والكفر قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : إخاؤهم فى الله يتحابون بجلال الله والولاية لله ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى : ﴿**ومساكن طيبة فى جنات عدن**﴾ قالا : على الخبير سقطت ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قصر من لؤلؤة فى الجنة ، فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، فى كل مائدة سبعون لونا من كل طعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة فى كل غداة ما يأتى على ذلك كله ». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جنات عدن**﴾ قال : معدن الرجل الذى يكون فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : معدنهم فيها أبدا. وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ يعنى : إذا أخبروا أن الله عنهم راض ، فهو أكبر عندهم من التحف والتسنيم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون: ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ .

الأمر للنبى ﷺ بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا . وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله . وقال الحسن : إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، واختاره قتادة . قيل فى توجيهه : إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود . قال ابن العربى : إن هذه دعوى لا برهان عليها ،

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ فى حديث طويل وهذا جزء منه : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا » رواه أبو داود والترمذى وقال : « حسن » .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٥١٨) ومسلم فى الجنة (٩/٢٨٢٩) والترمذى فى الجنة (٢٥٥٥) وقال : « حسن صحيح » .

وليس العاصى بمنافق ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق دائما لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا ، وأخبار المحدودين تشهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين . قوله : ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة ، وهو شدة القلب وخشونة الجانب ، قيل : وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح ، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ .

وقد اختلف أئمة التفسير فى سبب نزول هذه الآية ، فقيل : نزلت فى الجلاس بن سويد ابن الصامت ووديعة بن ثابت(١) ، وذلك أنه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين وذمهم ، فقالا : لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس : أجل والله إن محمدا لصادق مصدق ، وإنك لشر من الحمار ؛ وأخبر عامر بذلك النبى ﷺ، وجاء الجلاس فحلف بالله أن عامرا لكاذب ، وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك شيئا فنزلت . وقيل : إن الذى سمع ذلك عاصم بن عدى . وقيل : حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته ، أى امرأة الجلاس ، واسمه عمير بن سعد ، فهم الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أبى رأس المنافقين لما قال : ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل :سمن كلبك يأكلك (٢)، و﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون:٨] . فأخبر النبى ﷺ بذلك ، فجاء عبد الله بن أبى فحلف أنه لم يقله . وقيل: إنه قول جميع المنافقين وأن الآية نزلت فيهم ، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هى باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف . ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذبا ، فقال : ﴿**ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾ وهى ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ أى كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام وإن كانوا كفارا فى الباطن . والمعنى : أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

قوله : ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ قيل : هو همهم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة فى غزوة تبوك . وقيل : هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبى . وقيل : هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة ، فأخبر رسول الله ﷺ . قوله: ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أى وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء . وهو إغناء الله لهم من فضله ، والاستثناء مفرغ من أعم العام ، وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

ومن باب قول الشاعر :

ما نقموا من بنى أمية إلا   أنهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم . وقد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش . فلما

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٤٣ وهو الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصارى ، كان متهما بالنفاق نزل فيه : ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم ﴾ فتاب الجلاس وحسنت توبته . الإصابة ٢٤١/١ .

(٢) فى المطبوعة : «يأكك» ، والصحيح ما أثبتناه .

قدم النبى ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم . قوله : ﴿ **فإن يتوبوا يك خيرا لهم** ﴾ أى فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذى فعلوه من التوبة خيرا لهم فى الدين والدنيا . وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن إسلامه ، وفى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر .

وقد اختلف العلماء فى قبولها من الزنديق ، فمنع من قبولها مالك وأتباعه ، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو فى كل حين يظهر التوبة والإسلام . ﴿ **وإن يتولوا** ﴾ أى يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿ **يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا** ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال « و » فى ﴿ **الآخرة** ﴾ بعذاب النار ﴿ **وما لهم فى الأرض من ولى** ﴾ يواليهم ﴿**ولانصير**﴾ينصرهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير ، فسمعها عمير ابن سعد. فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى أثرا وأعزهم على أن يدخل عليه شىء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها لتهلكنى، ولإحداهما أشد على من الأخرى ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس ، فحلف بالله ما قال ولكن كذب على عمير ، فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية(١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك قال : سمع زيد بن أرقم رجلا من المنافقين يقول والنبى ﷺ يخطب : إن كان هذا صادقا لنحن شر من الحمير ؛ قال زيد : هو والله صادق وأنت شر من الحمار ، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فجحد القائل ، فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية(٢). وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه » ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمنى أنت وأصحابك »، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وأنزل الله: ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا**﴾ الآية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا ، أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار،فظهر الغفارى على الجهنى، فقال عبد الله بن أبى للأوس : انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، والله ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : ٨] . فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله

(١) ابن إسحاق ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ والصواب والله أعلم أنه من كلام ابن إسحاق وليس من كلام كعب . والمشهور فى القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق كما قال ابن كثير٣/ ٤٢٤ .

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٢ من رواية عامر بن قيس . (٣) ابن جرير ١٠/ ١٢٨ .

﴿**يحلفون بالله**﴾ الآية[١] . وفى الباب أحاديث مختلفة فى سبب نزول هذه الآية ، وفيما ذكرناه كفاية .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وهموا بما لم ينالوا**﴾ قال : هم رجل يقال له الأسود بقتل النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهموا بما لم ينالوا**﴾ قال: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى بتاج . وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل ديته اثنى عشر ألفا ، وذلك قوله : ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله**﴾ قال : بأخذهم الدية [٢] .

﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)** ﴾ .

اللام الأولى وهى : ﴿ **لئن آتانا** ﴾ الله ﴿ **من فضله** ﴾ لام القسم ، واللام الثانية وهى : ﴿ **لنصدقن** ﴾ لام الجواب للقسم والشرط . ومعنى ﴿ **لنصدقن** ﴾ : لنخرج الصدقة ، وهى أعم من المفروضة وغيرها ﴿ **ولنكونن من الصالحين** ﴾ أى من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته ﴿ **فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون** ﴾ أى لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به ، أى بما آتاهم من فضله فلم يتصدقوا بشىء منه كما حلفوا به ﴿**وتولوا** ﴾ أى أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ، والحال أنهم ﴿**معرضون**﴾ فى جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده .

قوله : ﴿ **فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾ الفاعل : هو الله سبحانه ، أى فأعقبهم الله بسبب البخل الذى وقع منهم والإعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم ، متمكنا منها ، مستمرا فيها إلى يوم يلقون الله عز وجل . وقيل : إن الضمير يرجع إلى البخل ، أى فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم ، أى جزاء بخلهم . ومعنى ﴿ **فأعقبهم** ﴾ : أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن فى قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل ، والباء فى ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه** ﴾ للسببية ، أى بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح ، وكذلك الباء فى ﴿ **وبما كانوا يكذبون** ﴾ أى وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ .

---

(١) ابن جرير ١٠/١٢٨ . (٢) ابن ماجة فى الديات (٢٦٣٢) وابن جرير ١٠/١٢٩ والبيهقى ٨/٧٨ .

ثم أنكر عليهم فقال : ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أى المنافقون . وقرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين . ﴿ **أن الله يعلم سرهم ونجواهم** ﴾ أى جميع ما يسرونه من النفاق وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبى ﷺ وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿ **وأن الله علام الغيوب** ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء المغيبة كائنا ماكان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين .

قوله : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الموصول محله النصب ، أو الرفع على الذم ، أو الجر بدلا من الضمير فى سرهم ونجواهم ، ومعنى ﴿ **يلمزون** ﴾ :يعيبون . وقد تقدم تحقيقه ، والمطوعين أى المتطوعين ، والتطوع : التبرع ، والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوعوا بشىء من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون : ما أغنى الله عن هذا ، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء ، ولم يكن لله خالصا ، و﴿ **فى الصدقات** ﴾ متعلق بيلمزون ، أى يعيبونهم فى شأنها . قوله : ﴿ **والذين لا يجدون إلا جهدهم** ﴾ معطوف على المطوعين ، أى يلمزون المتطوعين ، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم . وقيل : معطوف على المؤمنين ، أى يلمزون المتطوعين من المؤمنين ، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم ، وقرئ : «جهدهم» بفتح الجيم ، والجهد بالضم : الطاقة ، وبالفتح : المشقة . وقيل : هما لغتان ومعناهما واحد وقد تقدم بيان ذلك . والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم . قوله : ﴿ **فيسخرون منهم**﴾ معطوف على ﴿ **يلمزون** ﴾ أى يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه فى الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه . قوله : ﴿ **سخر الله منهم** ﴾ أى جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم ، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره . وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى ثابت مستمر شديد الألم . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والعسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منده والباوردى وأبو نعيم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : « ويلك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » قال : يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : «ويحك يا ثعلبة ، أما تحب أن تكون مثلى ، فلو شئت أن يسير ربى هذه الجبال معى ذهبا لسارت » . فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، قال : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه » ، قال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ: « اللهم ارزقه مالا » . قال : فاتخذ غنما فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة . فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه . فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار ، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه . فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره ، فقال رسول الله ﷺ : « ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب » ؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ

الصدقات ، وأنزل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية [التوبة : ١٠٣] فبعث رسول الله ﷺ رجلين ، رجلا من جهينة ورجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بنى سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة ، فقال : أريانى كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مرا إلى ، فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا : إنما عليك دون هذا ، فقال : ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالى ، فقبلا ، فلما فرغا مرا بثعلبة ، فقال : أريانى كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما : «ويح ثعلبة بن حاطب » ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأنزل الله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ الثلاث الآيات ، قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة ، فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا ، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد منعنى أن أقبل منك » ، فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ : « هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى » ، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى، ثم أتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار ، فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها ؟ فلم يقبلها أبو بكر ؛ ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى، قال : ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبى ﷺ ، فقال عمر : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ فأبى أن يقبلها ؛ ثم ولى عثمان فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك فى خلافة عثمان ، وفيه نزلت : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات** ﴾ قال : وذلك فى الصدقة ، وهذا الحديث هو مروى من حديث معاذ بن رفاعة عن على بن زيد عن أبى عبدالرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ الآية ، وذلك أن رجلا كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلسا فأشهدهم فقال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدقت منه ، وجعلت منه للقرابة ؛ فابتلاه الله فآتاه من فضله فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذى قال هذا ، فمات ابن عم له فورث منه مالا فبخل به ولم يف بما عاهد الله عليه ، فأعقبه

(١) الطبرانى (٧٨٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٤ ، ٣٥: « وفيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك » وابن جرير ١٠/ ١٣٠ ، ١٣١ ، والواحدى فى أسباب النزول ١٤٥، ١٤٦ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٩ ــ ٢٩٢ .
وهذا الحديث مشهور بين أهل التفسير ، وإنما يروى موصولا بأسانيد ضعاف ، فإن كان امتناعه من قبول توبته وقبول صدقته محفوظا ، فكأنه عرف نفاقه قديما ثم زيادة نفاقه وموته عليه ثم أنزل الله تعالى عليه من الآية حديثا فلم ير كونه من أهل الصدقة فلم يأخذها منه . وذكرها ابن كثير فى التاريخ وفى التفسير .

(٢) ابن جرير ١٠/ ١٣٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٩ .

بذلك نفاقا فى قلبه إلى أن يلقاه ، قال ذلك ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود [1] قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا : مراء ؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الآية (٢) ، وفى الباب روايات كثيرة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**الذين يلمزون المطوعين** ﴾ أى يطعنون على المطوعين .

﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)** ﴾ .

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء ، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم ، فهو كقوله تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم﴾ [التوبة : ٥٣] ثم قال : ﴿ **إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وإن أكثر النبى ﷺ من الاستغفار لهم ، وليس المراد من هذا : أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما فى سائر مفاهيم الأعداد ، بل المراد بهذا : المبالغة فى عدم القبول . فقد كانت العرب تجرى ذلك مجرى المثل فى كلامهاعند إرادة التكثير ، والمعنى : أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفارا بالغا فى الكثرة غاية المبالغ . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ، ويدل لذلك ما سيأتى عن النبى ﷺ أنه قال : « لأزيدن على السبعين » . وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها فقال : إن السبعة عدد شريف ؛ لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع ، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة ؛ لأن الحسنة بعشرة أمثالها . وقيل : خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة بإذاء تكبيراتك على حمزة . وانتصاب ﴿ **سبعين** ﴾ على المصدر كقولهم : ضربته عشرين ضربة . ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله : ﴿ **ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ أى ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين

---

(١) فى المخطوطة «ابن مسعود» ، والصحيح ما أثبتناه كما فى مراجع التخريج .
(٢) البخارى فى الزكاة (١٤١٥) وفى التفسير (٤٦٦٨) ومسلم فى الزكاة (١٠١٨/ ٧٢) والنسائى فى التفسير (٢٤٣) .

لحدودها ، والمراد هنا الهداية الموصلة إلى المطلوب ، لا الهداية التى بمعنى الدلالة وإراءة الطريق .

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله** ﴾ المخلفون : المتروكون ، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم الله وثبطهم ، أو الشيطان أو كسلهم أو المؤمنون ، ومعنى ﴿ **بمقعدهم** ﴾ أى بقعودهم يقال : قعد قعودا ومقعدا ، أى جلس ، وأقعده غيره ، ذكر معناه الجوهرى فهو متعلق بفرح ، أى فرح المخلفون بقعودهم ، ﴿ **وخلاف رسول الله** ﴾ منتصب على أنه ظرف لمقعدهم . قال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف ، أى بعد رسول الله ﷺ ، وذلك أن جهة الأمام التى يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف . وقال قطرب والزجاج : معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار وأقاموا فانتصابه على أنه مفعول له ، أى قعدوا لأجل المخالفة ، أو على الحال مثل : وأرسلها العراك ، أى مخالفين له ، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبى حيوة : « خلف رسول الله » . قوله : ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس ، وعدم وجود باعث الإيمان ، وداعى الإخلاص ووجود الصارف عن ذلك ، وهو ما هم فيه من النفاق ، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لوجود الداعى معهم ، وانتفاء الصارف عنهم ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر** ﴾ أى قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطا لهم، وكسرا لنشاطهم ، وتواصيا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ والمعنى : أنكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير ، ونار جهنم التى ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشد حرا مما فررتم منه ، فإنكم إنما فررتم من حر يسير فى زمن قصير ، ووقعتم فى حر كثير فى زمن كبير ، بل غير متناه أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

فكنت كالساعى إلى مثعب   موائلا من سبل الراعد

وجواب « لو » فى ﴿ **لو كانوا يفقهون** ﴾ مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا .

قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا** ﴾ هذان الأمران معناهما الخبر ، والمعنى : فسيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا ، وإنما جىء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره . وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية ، أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا . أو زمانا قليلاً وزمانًا كثيرا ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ أى جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصى ، وانتصاب ﴿ **جزاء** ﴾ على المصدرية ، أى يجزون جزاء ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ الرجع متعد كالرد والرجوع لازم ، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها وإنما قال: ﴿ **إلى طائفة** ﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة ، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له ، ثم عفا عنهم رسول الله

ﷺ . وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا ، وسيأتي بيان ذلك . وقيل : إنما قال : ﴿ **إلى طائفة** ﴾ لأن منهم من تاب على النفاق ، وندم على التخلف ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ معك فى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿ **فقل** ﴾ لهم ﴿ **لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا** ﴾ أى قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما فى استصحابهم من المفاسد كما تقدم فى قوله : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ [التوبة : ٤٧] . وقرئ بفتح الياء من « معى » فى الموضعين . وقرئ بسكونها فيهما ، وجملة : ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ للتعليل ، أى لن تخرجوا معى ، ولن تقاتلوا ، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أول مرة ، وهى غزوة تبوك. والفاء فى ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، والخالفين جمع خالف ، كأنهم خلفوا الخارجين ، والمراد بهم: من تخلف عن الخروج . وقيل : المعنى : فاقعدوا مع الفاسدين . من قولهم : فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم ، من قولك :خلف اللبن ، أى فسد بطول المكث فى السقاء . وذكر معناه الأصمعى . وقرئ :« فاقعدوا مع الخلفين » وقال الفراء : معناه : المخالفين .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عروة أن عبد اللّه بن أبى قال : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : ٨] . فأنزل الله : ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم** ﴾ فقال النبى ﷺ : «لأزيدن على السبعين »، فأنزل اللّه : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾[1] [المنافقون : ٦] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه [2] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن أبى حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفى عبد اللّه بن أبى دعى رسول اللّه ﷺ للصلاة عليه فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعلى عدو اللّه عبد اللّه بن أبى القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ، أعدد أيامه ، ورسول اللّه ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت قال : « يا عمر أخر عنى ، إنى قد خيرت ، قد قيل لى : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر اللّه لهم** ﴾ فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » . ثم صلى عليه رسول اللّه ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره ، حتى فرغ منه ، فعجبت لى ولجرأتى على رسول اللّه ﷺ واللّه ورسوله أعلم . فواللّه ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره** ﴾ فما صلى رسول اللّه ﷺ على منافق بعد حتى قبضه اللّه عز وجل [3] .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فرح المخلفون** ﴾ الآية قال : عن

---

(١) ابن جرير ١٠/١٣٨ . (٢) ابن أبى شيبة ١٤/٤٢٨ (١٨٦٨٤) وابن جرير ١٠/١٣٨.

(٣) أحمد ١/١٦ والبخارى فى التفسير (٤٦٧١) وفى الجنائز (١٣٦٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٢٤٥) وأبو نعيم فى الحلية ١/٤٣.

غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله ، الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر ، فقال الله : ﴿ **قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ فأمره بالخروج (١) . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا** ﴾ قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا . يقول الله : فليضحكوا قليلا في الدنيا ، وليبكوا كثيرا في الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا من المنافقين وفيهم قيل ما قيل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ قال : هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو .

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **مات** ﴾ صفة لأحد ، و ﴿ **أبدا** ﴾ ظرف لتأبيد النفي . قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أن رسول الله ﷺ كان إذا دفن الميت وقف على قبره ، ودعا له ، فمنع ها هنا منه ؛ وقيل : معناه : لا تقم بمهمات إصلاح قبره . وجملة : ﴿ **إنهم كفروا** ﴾ : تعليل للنهي ، وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؛ لأن الكافر قد يكون عدلا في دينه ، والكذب والنفاق والخداع والجبن والخبث مستقبحة في كل دين ، ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم ، وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه . وقيل : إن الآية المتقدمة في قوم ، وهذه في آخرين . وقيل : هذه في اليهود . والأولى في المنافقين ، وقيل : غير ذلك . وقد تقدم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية .

ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين ، فقال : ﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ أي من القرآن ، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها ، وقيل : هي هذه السورة ، أي سورة براءة ، و«أن» في ﴿ **أن آمنوا بالله** ﴾ مفسرة لما في الإنزال من معنى القول ؛ أو مصدرية حذف منها الجار ، أي بأن آمنوا ، وإنما قدّم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان : ﴿ **استأذنك أولو الطول منهم** ﴾ أي ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولا ، كذا قال ابن عباس والحسن ، وقال الأصم : الرؤساء والكبراء المنظورإليهم ، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم

(١) ابن جرير ١٠/١٣٩ .

ألزم ، إذ لا عذر لهم فى القعود ﴿ **وقالوا ذرنا**﴾ أى اتركنا ﴿ **نكن مع القاعدين** ﴾ أى المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمنى ، والخوالف : النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت . جمع خالفة ، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف ، وهو من لا خير فيه ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ هو كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : ٧] وقد مر تفسيره ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ شيئا مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه ، وقد نهاك الله أن تصلى على المنافقين ؟ فقال : « إن ربى خيرنى وقال : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وسأزيد على السبعين » فقال : إنه منافق ، فصلى عليه فأنزل الله : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا** ﴾ الآية، فترك الصلاة عليهم [(١)] . وأخرج ابن ماجة والبزار وابن جرير وابن مردويه عن جابر قال : مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبى ﷺ وأن يكفنه فى قميصه ، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك ، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره ، فأنزل الله ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أولو الطول** ﴾ قال : أهل الغنى. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ قال : مع النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الخوالف النساء .

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) ﴾ .

المقصود من الاستدراك بقوله : ﴿ **لكن الرسول** ﴾ إلى آخره الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر ، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما فى قوله : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ [الأنعام : ٨٩] . وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والأنفس ، ثم ذكر منافع الجهاد فقال : ﴿**وأولئك لهم الخيرات** ﴾ وهى جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين ، وقيل : المراد به : النساء الحسان ، كقوله تعالى : ﴿**فيهن خيرات حسان** ﴾ [الرحمن: ٧٠] ومفرده خيرة بالتشديد ، ثم خففت مثل هينة وهينة : وقد تقدم معنى

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٧٢) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٤ / ٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٨) وقال : « هذا حديث صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٤٤) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٢٣) .

الفلاح والمراد هنا : الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم ، والجنات: البساتين . وقد تقدم بيان جرى الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الخيرات والفلاح ، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيمًا يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز .

وقد أخرج القرطبى فى تفسيره عن الحسن أنه قال : الخيرات : هن النساء الحسان (١) .

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ﴾ .

قرأ الأعرج والضحاك : « المعذرون » بالتخفيف، من أعذر ، ورواها أبوكريب عن أبى بكر عن عاصم ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال فى الصحاح : وكان ابن عباس يقرأ : « وجاء المعذرون » مخففة من أعذر ، ويقول: واللّه هكذا أنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكلبى ، وهى من أعذر : إذا بالغ فى العذر ، ومنه :« من أنذر فقد أعذر » أى بالغ فى العذر . وقرأ الجمهور : ﴿ **المعذرون** ﴾ بالتشديد ففيه وجهان ، أحدهما : أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء فى الذال ، وهم الذين لهم عذر ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا : هم المحقون فى اعتذارهم . وقد روى هذا عن الفراء والزجاج وابن الأنبارى ، وقيل : هو من عذر، وهو الذى يعتذر ولا عذر له ، يقال : عذر فى الأمر : إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر ، ذكره الجوهرى وصاحب الكشاف : فالمعذرون على هذا : هم المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها . وروى عن الأخفش والفراء وأبى حاتم وأبى عبيد أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع ، والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول اللّه ﷺ بالتخلف عن الغزو ، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا اللّه ورسوله ، ولم يؤمنوا ، ولا صدقوا ، ثم توعدهم اللّه سبحانه. فقال : ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم**﴾ أى من الأعراب ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذبوا باللّه ورسوله ﴿**عذاب أليم** ﴾ أى كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب** ﴾ أى أهل العذر منهم ، وروى ابن أبى حاتم عنه نحو ذلك . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب (الأضداد) عنه أيضا أنه كان يقول : « لعن اللّه المعذرين » ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذر

(١) القرطبى ٣٠٦٣/٥ .

بالتشديد : هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن إسحاق فى قوله : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب** ﴾ قال : ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار جاؤوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء ؛ وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا ومواشينا .

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو . وبدأ بالعذر فى أصل الخلقة . فقال : ﴿**ليس على الضعفاء** ﴾ وهم أرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك ، ثم ذكر العذر العارض فقال : ﴿ **ولا على المرضى** ﴾ والمراد بالمرضى : كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا . وقيل : إنه يدخل فى المرضى الأعمى ، والأعرج ونحوهما . ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال : ﴿ **ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون** ﴾ أى ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج ، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعذارساقط عنهم غير واجب عليهم مقيدا بقوله : ﴿ **إذا نصحوا لله ورسوله** ﴾ وأصل النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النصوح . قال نفطويه : نصح الشىء : إذا خلص . ونصح له القول ، أى أخلصه له . والنصح لله: الإيمان به والعمل بشريعته ، وترك ما يخالفها كائنًا ما كان، ويدخل تحته دخولا أوليا نصح عباده . ومحبة المجاهدين فى سبيله ، وبذل النصيحة لهم فى أمر الجهاد ، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ؛ ونصيحة الرسول ﷺ : التصديق بنبوته وبما جاء به ، وطاعته فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه . وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، ومحبته وتعظيم سنته ، وإحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : «الدين النصيحة » ثلاثا ، قالوا : لمن ؟ قال : «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١) وجملة : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ مقررة لمضمون ما سبق ، أى ليس على المعذورين الناصحين من سبيل ، أى طريق عقاب ومؤاخذة . و« من » مزيدة للتأكيد ، وعلى هذا فيكون لفظ ﴿**المحسنين** ﴾ موضوعا فى موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا ، أو

---

(١) أحمد ١/ ٣٥١ ، ٢/ ٢٩٧ والبخارى فى الإيمان (٥٧) ومسلم فى الإيمان (٥٥/ ٩٥) وأبو داود فى الأدب (٤٩٤٤) والترمذى فى البر والصلة (١٩٢٦) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٧/ ١٥٦، ١٥٧ .

يكون المراد : ما على جنس المحسنين من سبيل وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم فتكون الجملة تعليلية ، وجملة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ تذييلية . وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقوله: ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ [النور : ٦١] .

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذى عذرهم الله عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه ، ومنه حديث أنس عند أبى داود وأحمد ، وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « **لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم فيه** »، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال: «حبسهم العذر» (١) . وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر (٢) .

ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ والعطف على جملة ﴿ **ما على المحسنين** ﴾ أى ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل ، ويجوز أن تكون عطفا على الضعفاء ، أى ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج . والمعنى : أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه فى الغزو فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك . قيل : وجملة ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ فى محل نصب على الحال من الكاف فى ﴿ **أتوك** ﴾ بإضمار قد ، أى إذا ما أتوك قائلا . لا أجد . وقيل : هى بدل من أتوك . وقيل : جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، والأول أولى . وقوله : ﴿**تولوا** ﴾ جواب « إذا » وجملة : ﴿ **وأعينهم تفيض من الدمع** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى تولوا عنك لما قلت لهم : لا أجد ما أحملكم عليه حال كونهم باكين ، و﴿**حزنا**﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية ، أو الحالية ، و ﴿ **أن لا يجدوا** ﴾ مفعول له ، وناصبه ﴿ **حزنا** ﴾ وقال الفراء : إن « لا » بمعنى ليس ، أى حزنا أن ليس يجدوا . وقيل : المعنى : حزنا على ألا يجدوا . وقيل : المعنى : حزنا أنهم لا يجدون ما ينفقون ، لا عند أنفسهم ولا عندك .

ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال : ﴿ **إنما السبيل** ﴾ أى طريق العقوبة والمؤاخذة ﴿**على الذين يستأذنونك** ﴾(٣) فى التخلف عن الغزو ، والحال أنهم ﴿**أغنياء**﴾ أى يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به، وجملة : ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء ، وقد تقدم تفسير الخوالف قريبا . وجملة : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾ معطوفة على ﴿ **رضوا** ﴾ أى السبب الاستئذان مع الغنى أمران : أحدهما :

---

(١) أحمد ٣/١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢، ٢١٤ والبخارى فى المغازى (٤٤٢٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠٨) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٦٤) .

(٢) أحمد ٣/ ٣٠٠ ، ٣٤١ .

(٣) فى المطبوعة : « يستأذونك » والصواب ما أثبتناه .

الرضا بالصفقة الخاسرة ، وهى أن يكونوا مع الخوالف ، والثانى : الطبع من الله على قلوبهم، ﴿فهم﴾ بسبب هذا الطبع ﴿ لا يعلمون ﴾ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة ، فكنت أكتب ما أنزل عليه ، فإنى لواضع القلم عن أذنى إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله ، وأنا أعمى ؟ فنزلت : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : أنزلت هذه الآية فى عابد بن عمر المزنى [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل من عند قوله : ﴿ عفا الله عنك ﴾ إلى قوله : ﴿ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾ فى المنافقين . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ ما على المحسنين من سبيل﴾ قال : ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطيقوا الجهاد فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين . ألم تسمع أن الله يقول: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ﴾ [النساء: ٩٥]. فجعل الله للذين عذر من الضعفاء ، وأولى الضرر والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ قال : والله لأهل الإساءة ﴿غفور رحيم﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾ الآية ، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزنى ، فقالوا : يا رسول الله ، احملنا ، فقال:«والله ما أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا ولهم بكاء ، وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فأنزل الله عذرهم : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾ الآية . وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : إنى لا أجد الرهط الذين ذكر الله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : هم سبعة نفر : من بنى عمر بن عوف سالم بن عمير، من بنى واقف حرمىّ بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ، ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ، ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزنى . وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة . واختلفوا فى البعض ولا يأتى التطويل فى ذلك بكثير فائدة .

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم ؛ أن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم

---

(٤) ابن جرير : ١٠/ ١٤٥.

البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، ثم ذكروا أسماءهم ، وفيه : فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة قال : ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن الحسن قال : كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله: ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية. وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك فى قوله : ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ قال : الماء والزاد . وأخرج ابن المنذر عن على بن صالح قال : حدثنى مشيخة من جهينة . قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحملان ، فقالوا : ما سألناه إلا الحملان على النعال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم عمن حدثه فى قوله : ﴿**ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ قال : ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح فى الآية قال : استحملوه النعال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنما السبيل على الذين يستأذنونك** ﴾ قال : هى وما بعدها إلى قوله : ﴿**إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ فى المنافقين .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **يعتذرون إليكم** ﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو ، وهذا كلام مستأنف ، وإنما قال :﴿ **إليهم** ﴾ أى إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل : إلى المدينة ؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة ، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها . ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجيب به عليهم ، فقال : ﴿ **قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم** ﴾ فنهاهم أولا عن الاعتذار بالباطل ، ثم علله بقوله : ﴿ **لن نؤمن لكم** ﴾ أى لن نصدقكم ، كأنهم ادعوا أنهم صادقون فى اعتذارهم ، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار ، وجملة ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ تعليلية للتى قبلها ، أى لا يقع منا تصديق

لكم لأن اللّه قد أعلمنا بالوحى ما هو مناف لصدق اعتذاركم ، وإنما خص الرسول ﷺ بالجواب عليهم . فقال : ﴿قل لا تعتذروا﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين ، لأنه ﷺ رأسهم ، والمتولى لما يرد عليهم من جهة الغير. ويحتمل أن يكون المراد بالضمير فى قوله: ﴿إليكم﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور فى مثل هذا .

قوله :﴿ وسيرى اللّه عملكم ﴾ أى ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه ؟ وقوله : ﴿ ورسوله ﴾ معطوف على الاسم الشريف . ووسط مفعول الرؤية إيذانا بأن رؤية اللّه سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هى التى يدور عليها الإثابة أو العقوبة . وفى جملة : ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب ﴾ إلى آخرها تخويف شديد . لما هى مشتملة عليه من التهديد ، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع المضمر ، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شىء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به ، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه.

ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو . وغرضهم من هذا التأكيد هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ، ولا يؤاخذونهم بالتخلف ، ويظهرون الرضا عنهم ، كما يفيده ذكر الرضا من بعد. وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه ، وهو اعتذارهم الباطل . وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به تركهم والمهاجرة لهم . لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم . كما تفيده جملة : ﴿ إنهم رجس﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنهم فى أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة . فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسا. أو أنهم ذوو رجس ، أى ذوو أعمال قبيحة. ومثله : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ [التوبة : ٢٨] . وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير ، والتحذير من الشر . فليس لهم إلا الترك . وقوله: ﴿ومأواهم جهنم﴾ من تمام التعليل . فإن من كان من أهل النار لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير. والمأوى : كل مكان يأوى إليه الشىء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أويا وإيواء. و ﴿ جزاء ﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية . والباء فى ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ للسببية ، وجملة : ﴿ يحلفون لكم ﴾ بدل مما تقدم ، وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق ، والمحلوف عليه لمثل ما تقدم . وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم . ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل . فقال : ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿ فإن اللّه لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ وإذا كان هذا هو ما يريده اللّه سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة ، فينبغى لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم

لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم . والمقصود من إخبار اللّه سبحانه بعدم رضاه عنهم نهى المؤمنين عن ذلك ؛ لأن الرضا على من لا يرضى اللّه عليه مما لا يفعله مؤمن .

قوله : ﴿ **الأعراب أشد كفرا ونفاقا** ﴾ : لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب ، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم ؛ لأنهم أقسى قلبا ، وأغلظ طبعا ، وأجفى قولا، وأبعد عن سماع كتب اللّه ، وما جاءت به رسله . والأعراب : هم من سكن البوادى بخلاف العرب ، فإنه عام لهذا النوع من بنى آدم سواء سكنوا البوادى أو القرى ، هكذا قال أهل اللغة . ولهذا قال سيبويه : إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب . قال النيسابورى : قال أهل اللغة : رجل عربى إذا كان نسبه إلى العرب ثابتا ، وجمعه عرب كالمجوسى والمجوس . واليهودى واليهود ؛ فالأعرابى إذا قيل له : يا عربى ، فرح ، وإذا قيل للعربى : يا أعرابى ، غضب. وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربى ، ومن نزل البادية فهو أعرابى ، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار : أعراب . وإنما هم عرب ، قال : قيل : إنماسمى العرب عربا ؛لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب ، وهى من تهامة فنسبوا إلى بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم . وقيل : لأن ألسنتهم معربة عما فى ضمائرهم ، ولما فى لسانهم من الفصاحة والبلاغة . انتهى. ﴿ **وأجدر**﴾ معطوف على ﴿ **أشد** ﴾ . ومعناه : أخلق ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدر أو جديرون ، وأصله من جدر الحائط ، وهو رفعه بالبناء. والمعنى : أنهم أحق وأخلق بألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه من الشرائع والأحكام ، لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل . ﴿ **واللّه عليم** ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم . وهؤلاء منهم ﴿**حكيم**﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر .

قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين ، الأول : هؤلاء ، والثانى : ﴿**ومن الأعراب من يؤمن باللّه** ﴾ والمغرم : الغرامة والخسران ، وهو ثانى مفعولى يتخذ لأنه بمعنى الجُعل ، والمعنى : اعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل اللّه غرامة وخسران، وأصل الغرم والغرامة : ما ينفقه الرجل وليس بلازم له فى اعتقاده ، ولكنه ينفقه للرياء والتقية ؛ وقيل : أصل الغرم : اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس . و ﴿ **الدوائر** ﴾ جمع دائرة ، وهى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية . وأصلها ما يحيط بالشىء ، ودوائر الزمان : نوبه وتصاريفه ودوله ، وكأنها لا تستعمل إلا فى المكروه ، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين . و ﴿ **السوء** ﴾ بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة كقولك: رجل صدق. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بضم السين ، وهو المكروه. قال الأخفش: أى

عليهم دائرة الهزيمة والشرّ . وقال الفراء : ﴿عليهم دائرة السوء ﴾ : العذاب والبلاء . قال : والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة ، وبالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك : دائرة البلاء والمكروه . ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه .

قوله : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ هذا النوع الثانى من أنواع الأعراب كما تقدم ، أى يصدق بهما ﴿ ويتخذ ما ينفق ﴾ أى يجعل ما ينفقه فى سبيل الله ﴿ قربات ﴾ وهى جمع قربة . وهى ما يتقرب به إلى الله سبحانه ، تقول منه قربت لله قربانا ، والجمع قرب وقربات ، والمعنى : أنه يجعل ما ينفقه سببا لحصول القربات ﴿ عند الله ﴾ و سببا لـ ﴿صلوات الرسول ﴾ أى لدعوات الرسول لهم ، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ، ومنه قوله: ﴿وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم ﴾ [التوبة : ١٠٣] ومنه قوله ﷺ : «اللهم صل على آل أبى أوفى » (١) . ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقربا إلى الله مقبول واقع على الوجه الذى أرادوه فقال :﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ فأخبر سبحانه بقبولها خبرًا مؤكدا باسمية الجملة ، وحرفى التنبيه والتحقيق ، وفى هذا من التطييب لخواطرهم ، والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره ، مع ما يتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما ، والتوبيخ له بأبلغ وجه ، والضمير فى ﴿ إنها ﴾ راجع إلى « ما » فى﴿ ما ينفق ﴾ ، وتأنيثه باعتبار الخبر . وقرأ نافع فى رواية عنه :« قُربة » بضم الراء ، وقرأ الباقون بسكونها تخفيفا ، ثم فسر سبحانه القربة بقوله : ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ والسين لتحقيق الوعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالا ، وفى قوله : ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ قال : لما رجع النبى ﷺ قال للمؤمنين: «لا تكلموهم ولا تجالسوهم»، فأعرضوا عنهم كما أمر الله . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ قال : لتجاوزوا عنهم . وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا ﴾ قال : من منافقى المدينة ﴿ وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ يعنى : الفرائضَ وما أمر به من الجهاد. وأخرج أبو الشيخ عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أسد وغطفان . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: « من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن »(٢) وإسناد أحمد هكذا : حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى ، حدثنا سفيان عن أبى موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن النبى ﷺ

---

(١) أحمد ٤/ ٣٥٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ والبخارى فى الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم فى الزكاة (١٠٧٨/ ١٧٦) وأبو داود فى الزكاة (١٥٩٠) والنسائى ٥/ ٣١ وابن ماجة فى الزكاة (١٧٩٦) .

(٢) أحمد ١/ ٣٥٧ وأبو داود فى الصيد (٢٨٥٩) والترمذى فى الفتن (٢٢٥٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى ٧/ ١٩٥، ١٩٦ والبيهقى فى الشعب (٩٤٠٣) ط. الكتب العلمية . عن أبى هريرة وليس عن ابن عباس .

فذكره . قال فى التقريب : وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة ، ووهم من قال : إنه إسرائيل بن موسى . وقال الترمذى بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى . وأخرج أبو داود والبيهقى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعدا » (١) .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ قال: يعنى بالمغرم أنه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة ، وإنما يعطى من يعطى من الصدقات كرها . ﴿ **ويتربص بكم الدوائر** ﴾ المهلكات . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا، ويقاتلوا ، ويرون نفقاتهم مغرما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال : كنا عشرة ولد مقرن . فنزلت فينا : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصلوات الرسول** ﴾ يعنى استغفار النبى ﷺ .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) ﴾ .

---

(١) أحمد ٢/ ٣٧١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ وأبو داود فى الصيد (٢٨٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٤٩ :« رواه أحمد والبزار ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح خلا الحسن بن الحكم النخعى وهو ثقة » .

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار . وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة . وأن منهم التابعين لهم . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ : «والأنصار » بالرفع على ﴿ والسابقون ﴾ وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهم يدخلون فى قوله : ﴿والسابقون﴾ وفى الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا القبلتين فى قول سعيد بن المسيب وطائفة . أو الذين شهدوا بيعة الرضوان. وهى بيعة الحديبية فى قول الشعبى. أو أهل بدر فى قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار . ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها . قال أبو منصور البغدادى : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة. ثم الستة الباقون . ثم البدريون . ثم أصحاب أحد . ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

قوله: ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « الذين اتبعوهم» محذوف الواو وصفا للأنصار على قراءته برفع الأنصار . فراجعه فى ذلك زيد بن ثابت . فسأل أبى بن كعب فصدق زيدا فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه . ومعنى ﴿ الذين اتبعوهم بإحسان ﴾ : الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحًا ، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبى ﷺ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية ، فتكون «من» فى قوله : ﴿ من المهاجرين ﴾ على هذا للتبعيض ، وقيل : إنها للبيان ، فيتناول المدح جميع الصحابة ، ويكون المراد بالتابعين : من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة . وقوله :﴿بإحسان ﴾ قيد للتابعين ، أى والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان فى الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين . قوله : ﴿ رضى الله عنهم ﴾ خبر للمبتدأ وما عطف عليه . ومعنى رضاه سبحانه عنهم : أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بما أعطاهم من فضله . ومع رضاه عنهم فقد ﴿ أعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار ﴾ فى الدار الآخرة . وقرأ ابن كثير :« تجرى من تحتها الأنهار » بزيادة «من ». وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية، وقد تقدم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود والفوز .

قوله : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ، ومن يقرب منها من الأعراب ، ﴿ وممن حولكم ﴾ خبر مقدم ، و ﴿ من الأعراب ﴾ بيان ، وهو فى محل نصب على الحال ، ﴿ومنافقون﴾ هو المبتدأ . قيل : وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار . وجملة ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴾ معطوفة على الجملة الأولى عطف جملة على جملة . وقيل : إن من أهل المدينة عطف على الخبر فى الجملة الأولى . فعلى الأول يكون المبتدأ مقدرًا ، أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، وعلى الثانى يكون التقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة

منافقون مردوا ، ولكون جملة ﴿مردوا على النفاق﴾ مستأنفة لا محل لها ، وأصل مرد وتمرد: اللين والملاسة والتجرد ، فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه : غصن أمرد : لا ورق عليه ، وفرس أمرد : لا شعر فيه ، وغلام أمرد : لا شعر بوجهه ، وأرض مرداء : لا نبات فيها ، وصرح ممرد : مجرد ؛ فالمعنى : أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه . قال ابن زيد : معناه : لجوا فيه وأتوا غيره ، وجملة : ﴿ لا تعلمهم ﴾ مبينة للجملة الأولى ، وهى ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أى ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفى أمرهم على رسول الله ﷺ فكيف سائر المؤمنين ؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعيانهم لا من حيث الجملة ، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة: ﴿ نحن نعلمهم ﴾ مقررة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم فى النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر . ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوى عليه السرائر . ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿ سنعذبهم مرتين﴾ قيل : المراد بالمرتين : عذاب الدنيا بالقتل والسبى ، وعذاب الآخرة ، وقيل : الفضيحة بانكشاف نفاقهم، والعذاب فى الآخرة . وقيل : المصائب فى أموالهم وأولادهم . وعذاب القبر ، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه . والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو فى الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب ، وأنهم يعذبون مرة بعد مرة ، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة ، وهو المراد بقوله : ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ ومن قال : إن العذاب فى المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال : معنى قوله ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ : أنهم يردون بعد عذابهم فى النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها، أو أنهم يعذبون فى النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار . ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار .

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون فى دينهم فقال : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ منافقون ﴾ أى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون . ويجوز أن يكون ﴿آخرون﴾ مبتدأ ، واعترفوا بذنوبهم صفته ، و﴿خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ خبره ، والمعنى : أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم . والمراد بالعمل الصالح : ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد فى سائر المواطن . والمراد بالعمل السيئ : هو تخلفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا ، وهو الاعتراف به والتوبة عنه ، وأصل الاعتراف :الإقرار بالشىء . ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضى والعزم على تركه فى الحال والاستقبال ، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتى بيانه إن شاء الله . ومعنى الخلط : أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء . ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولك : بعت الشاة شاة ودرهما[(١)] : أى بدرهم . وفى قوله : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ دليل على أنه

(١) فى المطبوعة : «دردهما » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة ، أو أن مقدمة التوبة وهى الاعتراف قامت مقام التوبة. وحرف الترجى وهو « عسى »هو فى كلام اللّه سبحانه يفيد تحقيق الوقوع ؛ لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿ **إن اللّه غفور رحيم**﴾ أى يغفر الذنوب ويتفضل على عباده.

قوله : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ اختلف أهل العلم فى هذه الصدقة المأمور بها ، فقيل: هى صدقة الفرض. وقيل : هى مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول اللّه ﷺ فنزلت هذه الآية، و « من » للتبعيض على التفسيرين ، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة . والصدقة مأخوذة من الصدق ، إذ هى دليل على صدق مخرجها فى إيمانه . قوله : ﴿ **تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ الضمير فى الفعلين للنبى ﷺ ، أى تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم . وقيل : الضمير فى ﴿**تطهرهم**﴾ للصدقة ، أى تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم. والضمير فى ﴿ **تزكيهم** ﴾ للنبى ﷺ ، أى تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة . والأول أولى لما فى الثانى من الاختلاف فى الضميرين فى الفعلين المتعاطفين ، وعلى الأول فالفعلان منتصبان على الحال ، وعلى الثانى فالفعل الأول صفة لصدقة ، والثانى حال منه ﷺ . ومعنى التطهير : إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب . ومعنى التزكية : المبالغة فى التطهير . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبى ﷺ، أى فإنك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ، ويجوز الجزم على جواب الأمر ، والمعنى : أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم . وقد قرأ الحسن : بجزم «تطهرهم ». وعلى هذه القراءة فيكون ﴿**وتزكيهم**﴾ على تقدير مبتدأ ، أى وأنت تزكيهم بها . قوله : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ أى ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم. قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعًا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب :الدعاء . ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال :﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائى ﴿**صلاتك**﴾ بالتوحيد . وقرأ الباقون بالجمع ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وتطمئن به .

قوله : ﴿ **ألم يعلموا أن اللّه هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ لما تاب اللّه سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا . قال اللّه: ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أى غير التائبين ، أو التائبون قبل أن يتوب اللّه عليهم ويقبل صدقاتهم ﴿ **أن اللّه هو يقبل التوبة**﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين ، وعدم مبالاته بمعصية العاصين . وقرئ :« ألم تعلموا » بالفوقية ، وهو إما خطاب للتائبين ، أو لجماعة من المؤمنين ، ومعنى ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ ، أى يتقبلها منهم ، وفى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها . وقوله : ﴿ **وأن اللّه هو التواب الرحيم** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **أن اللّه هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه ، أى أن هذا شأنه سبحانه . وفى صيغة المبالغة فى التواب وفى

الرحيم مع توسيط ضمير الفصل ، والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم مالا يخفى .

قوله : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ فيه تخويف وتهديد ، أى إن عملكم لا يخفى على اللّه ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم للّه عز وجل ، وفيه أيضا ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيرًا أو شرا رغب إلى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا : العلم بما يصدر منهم من الأعمال ، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿ **وستردون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى وستردون بعد الموت إلى اللّه سبحانه الذى يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه . وفى تقديم الغيب على الشهادة إشعار بسعة علمه عز وجل ، وأنه لا يخفى عليه شىء ، ويستوى عنده كل معلوم ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم إليه فقال : ﴿ **فينبئكم** ﴾ أى يخبركم ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

قوله : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين : الأول : المنافقون الذين مردوا على النفاق ، والثانى : التائبون المعترفون بذنوبهم ، الثالث : الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال ، وهم المرجون لأمر الله ، من أرجيته وأرجأته : إذا أخرته . قرأ حمزة والكسائى ونافع وحفص : ﴿ **مرجون** ﴾ بالواو من غير همزة وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم ، والمعنى : أنهم مؤخرون فى تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه فى شأنهم ﴿ **إما يعذبهم** ﴾ إن بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا ﴿ **وإما يتوب عليهم** ﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصا تاما . والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ﴾ حال كونهم ، إما معذبين، وإما متوبا عليهم ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوالهم ﴿ **حكيم** ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو نعيم فى المعرفة عن أبى موسى؛ أنه سئل عن قوله : ﴿**والسابقون الأولون** ﴾ فقال : هم الذين صلوا القبلتين جميعا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو نعيم عن الحسن ومحمد بن سيرين مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أبو بكر وعمر وعلى وسلمان وعمار بن ياسر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن الشعبى قال : هم من أدرك بيعة الرضوان . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ قال : التابعون . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : هم من بقى من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة . وأخرج أبـو الشيخ وابن عساكر عن أبى صخر حميد بن زياد

قال : قلت لمحمد بن كعب القرظى : أخبرنى عن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما أريد الفتن ، قال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبى ﷺ وأوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له : وفى أى موضع أوجب الله لهم الجنة فى كتابه ؟ قال : ألا تقرؤون قوله تعالى : ﴿**والسابقون الأولون**﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبى ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم ، قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتدون بهم فى أعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم فى غير ذلك . قال أبو صخر : فوالله لكأنى لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها على محمد بن كعب(١) . وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعى قال : حدثنى يحيى بن أبى كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبى لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ **والسابقون الأولون** ﴾ إلى قوله : ﴿**ورضوا عنه**﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا لأمتى كلهم ، وليس بعد الرضا سخط » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وممن حولكم من الأعراب**﴾ الآية ، قال : قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبا ، فقال : « قم يا فلان ، فاخرج فإنك منافق ، اخرج يا فلان فإنك منافق » ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن الناس قد انصرفوا ، واختبؤوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا . فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهو العذاب الأول ، والعذاب الثانى عذاب القبر (٢) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب** ﴾ قال : جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ قال : أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب آخرون . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبى ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾ قال : بالجوع والقتل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك قال : بالجوع وعذاب القبر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن قتادة قال : عذاب فى القبر ، وعذاب فى النار . وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا فى تعيين العذابين . والظاهر ما قدمنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا**﴾ قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم

---

(١) فى المطبوعة : «ابن كعب » بدون « محمد » .

(٢) ابن جرير ١١/٨ .

أنفسهم بسوارى المسجد ، وكان ممر النبى ﷺ إذا رجع عليهم فلما رآهم قال : «من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ » قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، حتى تطلقهم وتعذرهم ، قـال : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فنزلت : ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ و«عسى » من الله واجب ، فلما نزلت أرسل إليهم النبى ﷺ فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، قال : « ما أمرت أن آخذ أموالكم » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم** ﴾ يقول : استغفر لهم ﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنـزل الله عـــز وجل : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ إلى قـوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ثم تاب عليهـم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ يعنى : إن استقاموا (١). وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله سواء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد فى قوله: ﴿ **اعترفوا بذنوبهم** ﴾ قال : هو أبولبابة إذ قال لقريظة ما قال وأشار إلى حلقه بأن محمدا يذبحكم إن نزلتم على حكمه ، والقصة مذكورة فى كتب السير . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **خلطوا عملا صالحا** ﴾ قال غزوهم مع رسول الله ﷺ ﴿ **وآخر سيئا**﴾ قال : تخلفهم عنه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ قال : استغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوها ﴿ **إن صلواتك سكن لهم**﴾ قال : رحمة لهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال : « اللهم صل على آل فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهـم صل على آل أبى أوفـــى»(٢) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**﴾ قال : هذا وعيد من الله عز وجل . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم ، والبيهقى فى الشعب ، وابن أبى الدنيا ، والضياء فى المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » (٣) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وآخرون**

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٧٢ . (٢) سبق تخريجه .
(٣) أحمد ٣/ ٢٨ وأبو يعلى (١٣٧٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٩٤٠) .

مرجون لأمر الله﴾ قال : هم الثلاثة الذين خلفوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **إما يعذبهم** ﴾ يقول: يميتهم على معصية ﴿ **وإما يتوب عليهم** ﴾ فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾ .

لما ذكر الله أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم ، وهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، فيكون التقدير : ومنهم الذين اتخذوا ، على أن ﴿ **الذين** ﴾ مبتدأ ، وخبره « منهم » المحذوف ، والجملة معطوفة على ما تقدمها ، ويجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الذم . وقرأ المدنيون وابن عامر « الذين اتخذوا » بغير واو ، فتكون قصة مستقلة ، الموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ **لا تقم** ﴾ قاله الكسائى . وقال النحاس : إن الخبر هو ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا** ﴾ وقيل : الخبر محذوف ، والتقدير : يعذبون ، وسيأتى بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار .

و ﴿ **ضرارا** ﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية . ﴿ **وكفرا وتفريقا وإرصادا** ﴾ معطوفة على ﴿**ضرارا**﴾. فقد أخبر اللّه سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو المضاررة . الثانى : الكفر باللّه والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق . الثالث : التفريق بين المؤمنين ؛ لأنهم أرادوا ألا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين ، وفى ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى. الرابع : الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أى الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله . قال الزجاج : الإرصاد : الانتظار . وقال ابن قتيبة : الإرصاد الانتظار مع العداوة . وقال الأكثرون: هو الإعداد ، والمعنى متقارب. يقال : أرصدت لكذا : إذا أعددته مرتقبا له به . وقال أبو زيد : يقال : رصدته وأرصدته فى الخير ، وأرصدت له فى الشرّ . وقال ابن الأعرابى: لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه: ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله : المنافقون ،

ومنهم أبو عامر الراهب ، أى أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين ، وقوله: ﴿من قبل﴾ متعلق بـ ﴿ اتخذوا ﴾ أى اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار . أو متعلق بـ ﴿ حارب ﴾ أى لمن وقع منه الحرب للّه ولرسوله من قبل بناء مسجد الضرار .

قوله : ﴿ وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى ﴾ أى ما أردنا إلا الخصلة الحسنى ، وهى الرفق بالمسلمين ، فردّ اللّه عليهم بقوله : ﴿ واللّه يشهد إنهم لكاذبون ﴾ فيما حلفوا عليه . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة فى مسجد الضرار ، فقال : ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ أى فى وقت من الأوقات ، والنهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه . وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال : فلان يقوم الليل ، أى يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه » (١) . ثم ذكر اللّه سبحانه علة النهى عن القيام فيه بقوله : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه ﴾ واللام فى ﴿ لمسجد ﴾ لام القسم ، وقيل : لام الابتداء . وفى ذلك تأكيد لمضمون الجملة ، وتأسيس البناء : تثبيته ورفعه . ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التى تتقى بها العقوبة.

واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبى وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبى ﷺ . والأول أرجح لما سيأتى قريبا إن شاء اللّه .

و ﴿ من أول يوم ﴾ متعلق بأسس ، أى أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه . قال بعض النحاة : إن ﴿من﴾ هنا بمعنى منذ ، أى منذ أوّل يوم ابتدئ ببنائه . وقوله : ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ خبر المبتدأ ، والمعنى : لو كان القيام فى غيره جائزا لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر اللّه ، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم ، ولكون ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه ، أى كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحال فيه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد . ومعنى محبتهم للتطهر : أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه . وقيل : معناه : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار . والأوّل أولى . وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة من الذنوب فحموا جميعا ، وهذا ضعيف جدا . ومعنى محبة اللّه لهم الرضا عنهم ، والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه .

---

(١) أحمد ٢/ ٢٨١ ، ٤٠٨ ، ٤٢٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ والبخارى فى الإيمان (٣٧) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٩ / ١٧٣) وأبو داود فى الصلاة (١٣٧١) والترمذى فى الصوم (٨٠٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٣/ ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٤/ ١٥٤ ـ ١٥٧ ، ٨/ ١١٨ ، والدارمى ٢/ ٢٦ .

ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا ، فقال : ﴿ **أفمن أسس بنيانه** ﴾ والهمزة للإنكار التقريرى ، والبنيان مصدر كالعمران ، وأريد به المبنى ، والجملة مستأنفة ، والمعنى : أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى تقوى اللّه ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضدّ ذلك ، وهو الباطل والنفاق ، والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ **خير** ﴾ ، وقرئ : «أسس بنيانه » على بناء الفعل للفاعل ، ونصب بنيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرئ على البناء للمجهول ، وقرئ : « أساس بنيانه » بإضافة أساس إلى بنيانه ، وقرئ : « أسّ بنيانه » والمراد : أصول البناء . وحكى أبو حاتم قراءة أخرى وهى : « آساس بنيانه » على الجمع ، ومنه :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس

والشفا : الشفير ، والجرف : ما يتجرف بالسيول ، وهى الجوانب التى تنجرف بالماء ، والاجتراف : اقتلاع الشىء من أصله ، وقرئ بضم الراء من « جرف » وبإسكانها . والهار : الساقط ، يقال : هار البناء : إذا سقط ، وأصله : هائر كما قالوا : شاك السلاح وشائك ، كذا قال الزجاج . وقال أبو حاتم : إن أصله : هاور . قال فى شمس العلوم : الجرف ما جرف السيل أصله ، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار اهـ . جعل اللّه سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ، ثم قال : ﴿ **فانهار به فى نار جهنم** ﴾ وفاعل فانهار ضمير يعود على الجرف ، أى فانهار الجرف بالبنيان فى النار ، ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ **به** ﴾ يعود إلى ﴿ **من** ﴾ وهو البانى ، والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو البانى فى نار جهنم . وجاء بالانهيار الذى هو للجرف ترشيحا للمجاز . وسبحان اللّه ما أبلغ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه ، وأوقع معناه ، وأفصح مبناه .

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم . واستمرار ترددهم وشكهم فقال : ﴿**لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ أى شكا فى قلوبهم ونفاقا . ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء اللّه للمرء مذهب

وقيل : معنى الريبة : الحسرة والندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه . وقال المبرد : أى حرارة وغيظا . وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين فى دينهم . ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقا وتصميما على الكفر ، ومقتا للإسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ، ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها، وهو قوله : ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ أى لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعا ، وتتفرّق أجزاء : إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ماداموا أحياء ، ويجوز أن يكون ذكر

التقطع تصويرا لحال زوال الريبة . وقيل : معناه : إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب وأبو جعفر بفتح حرف المضارعة . وقرأ الجمهور بضمها . وروى عن يعقوب أنه قرأ : « تقطع » بالتخفيف ، والخطاب للنبى ﷺ ، أى إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم . وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود : « ولو تقطعت قلوبهم » . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم : « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا**﴾ قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا ، فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم . فآتى بجند من الروم . فأخرج محمدا وأصحابه ؛ فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله : ﴿ **لا تقم فيه أبدا** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد الله ابن حنيف ووديعة بن حزام ومجمع بن جارية الأنصارى فبنوا مسجد النفاق . فقال رسول الله ﷺ لبجدح : « ويلك يا بجدح ، ما أردت إلى ما أرى » ، فقال : يارسول الله ، والله ما أردت إلا الحسنى وهو كاذب ، فصدّقه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره ، فأنزل الله تعالى : ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرار وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله**﴾ يعنى : رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول الله ﷺ وكان قد انطلق إلى هرقل ، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلى فيه ، وكان قد خرج من المدينة محاربا للّه ولرسوله (٢) .

وأخرج ابن إسحاق وابن مردويه عنه أيضا قال : دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، فقال مالك لعاصم : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه . وخرج أهله فتفرّقوا عنه . فأنزل اللّه هذه الآية . ولعل فى هذه الرواية حذفا بين قوله ﷺ دعا رسول الله ﷺ مالك ابن الدخشم وبين قوله : فقال مالك لعاصم (٣) ، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق وابن مردويه عن أبى رهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، قال : أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا : يا رسول

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٩ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
(٢) ابن جرير ١١/ ١٩ . (٣) ابن إسحاق : ١٧١ ، ١٧٢ .

الله، إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة ، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه ؛ قال : « إنى على جناح سفر » ، ولو قدمنا إن شاء اللّه أتيناكم فصلينا لكم فيه ؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى ، وأخاه عاصم بن عدى أحد بنى العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان . وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا** ﴾ إلى آخر القصة . واخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم : إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثنى عشر رجلا ، وذكرا أسماءهم .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبوالشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : اختلف رجلان : رجل من بنى خدرة ، وفى لفظ : تماريت أنا ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال الخدرى : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال العمرى : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال : «هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله ﷺ ، وقال : « فى ذلك خير كثير » يعنى مسجد قباء[(١)]. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، وأبو يعلى، وابن حبان والطبرانى ، والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب ، والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب قال : سألت النبى ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى قال : «هو مسجدى هذا » [(٢)] . وأخرج الطبرانى ، والضياء المقدسى فى المختارة ، عن زيد بن ثابت، مرفوعاً مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه والطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد ابن ثابت قال : المسجد الذى أسس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبى ﷺ . قال عروة : مسجد النبى ﷺ خير منه ، إنما أنزلت فى مسجد قباء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : المسجد الذى أسس على التقوى : مسجد النبى ﷺ . وأخرج المذكوران عن أبى سعيد الخدرى مثله . وقد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم . وأخرج ابن جرير وابن

(١) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٧٢ وأحمد ٣/ ٢٣ ، ٢٤ ، ٩١ ، ومسلم فى الحج (١٣٩٨/ ٥١٤) والترمذى فى الصلاة (٣٢٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وفى التفسير (٣٠٩٩) وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب» والنسائى فى التفسير (٢٤٨) وابن جرير ١١/ ٢١ وابن حبان (١٦٠٤) ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٤ ووافقه الذهبى، و البيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥/ ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

(٢) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٧٣ .

المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنه مسجد قباء . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله .

ولا يخفاك أن النبى ﷺ قد عين هذا المسجد الذى أسس على التقوى ، وجزم بأنه مسجده ﷺ كما قدمنا من الأحاديث الصحيحة ، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا غيرهم ، ولا يصح لإيراده فى مقابله ما قد صحّ عن النبى ﷺ ، ولا فائدة فى إيراد ما ورد فى فضل الصلاة فى مسجد قباء ، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذى أسس على التقوى ، على أن ما ورد فى فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد فى فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة تعمّ.

وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجة وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ قال : وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ، وفى إسناده يونس بن الحارث ، وهو ضعيف [1] . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء: ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ بعث رسول اللّه ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : ما هذا الطهور الذى أثنى اللّه عليكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته ، فقال النبى ﷺ : « هو هذا » . وأخرج أحمد وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة الأنصارى ؛ أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : « إن الله قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تتطهرون به ؟ » قالوا : واللّه يا رسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا [2] . رواه أحمد عن حسن بن محمد ، حدّثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره . وقد أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الجارود فى المنتقى ، والدارقطنى والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع قال : حدثنى أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم خيرا فى الطهور فما طهوركم هذا ؟» قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، قال : « فهل مع ذلك غيره ؟»

---

(١) أبو داود فى الطهارة (٤٤) والترمذى فى التفسير (٣١٠٠) وقال : « حديث غريب » وابن ماجة فى الطهارة (٣٥٧) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٢٢ وابن خزيمة (٨٣) والطبرانى (١١٠٦٥) ، وصححه الحاكم ١/ ١٥٥ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢١٧: « إسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه » .

قالوا : لا ، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء ، قال : « هو ذاك فعليكموه » (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى تاريخه وابن جرير والبغوى فى معجمه ، والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال : لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذى أسس على التقوى مسجد قباء فقال : « إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور خيرا أفلا تخبرونى ؟ يعنى : قوله تعالى : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ ، فقالوا : يا رسول اللّه ، إنا لنجده مكتوبا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم (٢) . وإسناد أحمد فى هذا الحديث هكذا : حدّثنا يحيى بن آدم حدّثنى مالك ، يعنى ابن مغول ، سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام . وقد روى عن جماعة من التابعين فى ذكر سبب نزول الآية نحو هذا . ولا يخفاك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله ، وبعضها ضعيف ، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، وعلى كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى ﷺ فى صحتها وصراحتها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانهار به فى نار جهنم** ﴾ قال : يعنى قواعده فى نار جهنم. وأخرج مسدد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ قال : يعنى الشك ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ يعنى الموت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبى ثابت فى قوله : ﴿ **ريبة فى قلبوهم** ﴾ قال : غيظا فى قلوبهم ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ قال : إلى أن يموتوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله : ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ قال : إلا أن يتوبوا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ .

---

(١) ابن ماجة فى الطهارة (٣٥٥) والدارقطنى ١/ ٦٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٤ ووافقه الذهبى .
(٢) ابن أبى شيبة ١/ ١٥٣ وأحمد ٦/ ٦ وابن جرير ١١/ ٢٢ .

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك . وذكر أقسامهم . وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه . وذكر الشراء تمثيل كما فى قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة : ١٦] مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد: هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التى أعدها للمؤمنين ، أى بأن يكونوا من جملة أهل الجنة . وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم ، وهى أنفس الأعلاق (١) . والجود بها غاية الجود :

يجود بالنفس أن ضن الجبان بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد الله عليهم بالجنة ، وهى أعظم ما يطلبه العباد . ويتوسلون إليه بالأعمال ؛ والمراد بالأنفس هنا أنفس المجاهدين. وبالأموال ما ينفقونه في الجهاد . قوله : ﴿ **يقاتلون فى سبيل الله**﴾ بيان للبيع الذى يقتضيه الاشتراء المذكور كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل : يقاتلون فى سبيل الله ، ثم بين هذه المقاتلة فى سبيل الله بقوله : ﴿ **فيقتلون ويقتلون** ﴾ والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار فى الحرب ويبذلون أنفسهم فى ذلك ، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء فى الجهاد والتعرض للموت بالإقدام على الكفار . قرأ الأعمش والنخعى وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المبنى للمفعول على المبنى للفاعل . وقرأ الباقون بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول . وقوله : ﴿ **وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله فى التوراة والإنجيل كما وقع فى القرآن ، وانتصاب ﴿ **وعدا** ﴾ و﴿**حقا**﴾ على المصدرية أو الثانى نعت للأوّل ، و ﴿ **فى التوراة** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى وعدا ثابتا فيها .

قوله : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ فى هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين فى الجهاد ، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال ما لا يخفى فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وجاء بهذه العبارة الفخيمة ، وهى كون الجنة قد صارت ملكا لهم ، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك فى كتبه المنزلة ، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لابد من حصول الموعود به فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وحبوراً ، فقال: ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به** ﴾ أى أظهروا السرور بذلك ، والبشارة هى إظهار السرور ، وظهوره يكون فى بشرة الوجه ، ولذا يقال : أسارير الوجه ، أى التى يظهر فيها السرور . وقد تقدم إيضاح هذا ، والفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله . والمعنى : أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك**﴾ إلى الجنة ، أو إلى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة ، ووصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب

(١) علق بقلبه علاقة وهو الحب اللازم للقلب . اللسان ١٠/ ٢٦٢ .

بالعظم يدل على أنه فوز لا فوز مثله .

قوله : ﴿ **التائبون** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم التائبون ، يعنى : المؤمنون ، والتائب الراجع ، أى هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة . وقال الزجاج : الذى عندى أن قوله : ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر ، أى التائبون ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا . قال : وهذا أحسن ، إذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله : ﴿ **اشترى من المؤمنين** ﴾ لكان الوعد خاصا بمجاهدين ، وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين ، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين فى الآية الأولى ، وأنها على جهة الشرط ، أى لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف . وفى مصحف عبد الله بن مسعود : التائبين العابدين إلى آخرها ــ وفيه وجهان : أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين ، الثانى : أن النصب على المدح . وقيل : إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير ﴿**يقاتلون** ﴾ ، وجوز صاحب الكشاف أن يكون ﴿ **التائبون** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**العابدون**﴾ القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص و ﴿ **الحامدون** ﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء ، و ﴿ **السائحون** ﴾ قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عابدات سائحات ﴾ [التحريم : ٥] وإنما قيل للصائم سائح ؛ لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض ، ومنه قول أبى طالب بن عبد المطلب :

وبالسائحين لا يذوقون فطرة لربهم والراكدات العوامل

وقال آخر :

تــراه يصــلى لـيــله ونهــاره يظل كثير الذكر لله سائحا

قال الزجاج : ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم الذين يصومون الفرض ؛ وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : السائحون المهاجرون . وقال عكرمة : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر . والسياحة فى اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ، وهى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات الله سبحانه ، و ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ معناه المصلون ، و ﴿ **الآمرون بالمعروف** ﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة ﴿ **والناهون عن المنكر** ﴾ القائمون بالإنكار على من فعل منكراً ، أى شيئا ينكره الشرع ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه وعلى لسان رسله، وإنما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين ، وهما : ﴿ **والناهون عن المنكر والحافظون** ﴾ إلخ ، لأن

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة ، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه . وقيل : إن العطف فى الصفات يجيء بالواو وبغيرها كقوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [غافر : ٢] . وقيل : إن الواو زائدة . وقيل : هى واو الثمانية المعروفة عند النحاة ، كما فى قوله تعالى: ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم:٥] وقوله : ﴿ وفتحت أبوابها﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : ٢٢] وقد أنكروا الثمانية؛ أبو على الفارسى وناظره فى ذلك ابن خالويه ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » ، قال : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر ابن عبد الله قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو فى المسجد : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ فكبر الناس فى المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ قال : « نعم » ، فقال الأنصارى : بيع ربيح لا نقيل ، ولا نستقيل . وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت ؛ أن النبى ﷺ اشترط فى بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا ينازعوا فى الأمر أهله . ويمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، قالوا : نعم ؛ قال قائل الأنصار : نعم ، هذا لك يا رسول الله . فما لنا ؟ قال : « الجنة » . وأخرجه ابن سعد أيضا من وجه آخر وليس فى قصة العقبة ما يدل على أنها سبب نزول الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسع فهو فى سبيل الله ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن المنذر عن ابن عباس قال : الشهيد من كان له التسع الخصال المذكورة فى هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : العابدون الذين يقيمون الصلاة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء » (٢) .

وأخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال : سئل النبى ﷺ عن السائحين فقال : « هم الصائمون » (٣) . وأخرج الفريابى وابن جرير ، والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق عبيد بن

(١) ابن جرير ١١/ ٢٦ . (٢) البيهقى فى الشعب (٤٠٦٣) . (٣) ابن جرير ١١/ ٢٨ .

عمير عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار ، من طريق أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله . وقد روى عن أبى هريرة موقوفا ، وهو أصح من المرفوع من طريقه ، وحديث عبيد بن عمير مرسل ، وقد أسنده من طريق أبى هريرة فى الرواية الثانية . وقد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا : منهم عائشة عند ابن جرير وابن المنذر ، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ ، ومنهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال : « إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » (١) وصححه عبد الحق . وأخرج أبو الشيخ عن الربيع فى هذه الآية قال : هذه أعمال قال فيها أصحاب النبى ﷺ : إن الله قضى على نفسه فى التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيدا ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله . وأخرج ابن المنذر عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة . قال : وقال ابن عباس : من مات وفيه تسع فهو شهيد . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** ﴾ يعنى بالجنة ، ثم قال ﴿**التائبون** ﴾ إلى قوله ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ يعنى القائمين على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد . وإذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ .

لما بين الله سبحانه فى أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا ، وصرح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولى قربى . وأن القرابة فى مثل هذا الحكم لا تأثير لها . وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ **ما كان** ﴾ فى القرآن يأتى على وجهين : الأول : على النفى نحو : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ [آل عمران: ١٤٥] والآخر : على معنى النهى نحو : ﴿ ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ [الأحزاب :٣٥] و ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا ، ولا ينافى

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٤٨٦) والطبرانى (٧٧٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ٧٣ ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب (٣٩٢٢) .

هذا ما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (١) ؛ لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين . وعلى فرض أنه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول ، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة . وسيأتى . فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء كما فى صحيح مسلم عن عبد الله . قال : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»(٢). وفى البخارى : أن النبى ﷺ ذكر نبيا قبله شجه قومه ، فجعل النبى ﷺ يخبر عنه بأنه قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (٣) . قوله : ﴿ **من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهى عن الاستغفار . والمعنى : أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ [النساء : ٤٨] . فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

قوله : ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه** ﴾ الآية : ذكر الله سبحانه السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار . ومن أعداء الله ، فلا حاجة إلى السؤال الذى يورده كثير من المفسرين أنه كيف خفى ذلك على إبراهيم فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه ، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو الله . فإن ثبوت هذه العدواة تدل على الكفر ، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية ، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل . وقيل : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه : دعاؤه إلى الإسلام ، وهو ضعيف جدا . وقيل : المراد بالاستغفار فى هذه الآية : النهى عن الصلاة على جنائز الكفار ، فهو كقوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ﴾ [التوبة : ٨٤] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك ، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم ، فقال : ﴿ **إن إبراهيم لأواه** ﴾ وهو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى الأواه ، فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير : إنه الذى يكثر الدعاء . وقال الحسن وقتادة : إنه الرحيم بعباد الله . وروى عن ابن عباس : أنه المؤمن بلغة الحبشة . وقال الكلبى : إنه الذى يذكر الله فى الأرض القفر (٤) . وروى مثله عن ابن المسيب. وقيل : الذى يكثر الذكر لله من غير تقييد ، روى ذلك عن عقبة بن عامر . وقيل : هو الذى

---

(١) أحمد ١/ ٤٤١ والطبرانى (٥٦٩٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٢٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) مسلم فى الجهاد (١٧٩٢ / ١٠٥) . (٣) البخارى فى الأنبياء (٣٤٧٧) ، وفى استتابة المرتدين (٦٩٢٩) .
(٤) القفر : الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ . اللسان ٥/ ١١٠ .

يكثر التلاوة ، حكى ذلك عن ابن عباس . وقيل: إنه الفقيه ، قاله مجاهد والنخعي . وقيل : المتضرع الخاضع ، روى ذلك عن عبد الله بن شداد بن الهاد . وقيل هو الذى إذا ذكر خطاياه استغفر لها ، روى ذلك عن أبى أيوب . وقيل : هو الشفيق ، قاله عبد العزيز بن يحيى . وقيل : إنه المعلم للخير . وقيل : إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله ، قاله عطاء . والمطابق لمعنى الأواه لغة أن يقال : إنه الذى يكثر التأوه من ذنوبه ، فيقول مثلا : آه من ذنوبى آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك ، وبه قال الفراء ، وهو مروى عن أبى ذر . ومعنى التأوه : هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء . قال فى الصحاح : وقد أوه الرجل تأويها ، وتأوه تأوها إذا قال أوه ، والاسم منه آهة بالمدّ ، قال :

إذا ما قمت أرحلها بليل　　　　تأوه آهة الرجل الحزين

و ﴿ **الحليم** ﴾ الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لا يعاقب أحدا قط إلا لله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال النبى ﷺ : « أى عم ، قل لا إله إلا اللّه أحاج لك بها عند اللّه » ، فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاندانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله . فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك مالم أنه عنك » . فنزلت : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية : وأنزل الله فى أبى طالب: ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ (١). وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء فى المختارة عن علىّ قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت: ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر ، عن علىّ قال : أخبرت النبى ﷺ بموت أبى طالب ، فبكى ، فقال : « اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » ، ففعلت ، وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية .

وقد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبى ﷺ لأبى طالب من طرق كثيرة : منها عن

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٦٠) و فى مناقب الأنصار (٣٨٨٤) وفى التفسير (٤٦٧٥) ومسلم فى الإيمان (٢٤/ ٣٩) والنسائى٤/ ٩٠، ٩١.

(٢) أحمد ١/ ١٣٠ ، ١٣١ والترمذى فى التفسير (٣١٠١) وقال : « حديث حسن » والنسائى ٤/ ٩١ وابن جرير ١١/ ٣٢ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٥ والبيهقى فى الشعب (٩٣٧٨) ط : الكتب العلمية .

محمد بن كعب عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وهو مرسل . ومنها عن عمرو بن دينار عند ابن جرير وهو مرسل أيضا . ومنها عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضا . ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد وأبي الشيخ وابن عساكر . ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساكر وهو مرسل . وروى أنها نزلت بسبب زيارة النبي ﷺ لقبر أمه واستغفاره لها من طريق ابن عباس عند الطبراني (١) وابن مردويه ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم والحاكم (٢) وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، وعن بريدة عند ابن مردويه ، وما في الصحيحين مقدم على مالم يكن فيهما على فرض أنه صحيح . فكيف وهو ضعيف غالبهُ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى قوله: ﴿ كما ربياني صغيرا﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] . قال : ثم استثنى فقال : ﴿ **ما كان للنبي** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله** ﴾ قال : تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، وأبو بكر الشافعي في فوائده ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وأخرج ابن مردويه عن جابر ، أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعه فإنه أوّاه » . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إنه أواه » ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء . وأخرجه أيضا أحمد قال : حدثنا موسى بن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن عليّ بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : قال رجل : يا رسول الله ، ما الأواه ؟ قال : « الخاشع المتضرع الدعاء » (٣) . وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأواه ، وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدّثني المثنى حدثني الحجاج ابن منهال حدثنا عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد فذكره . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله :﴿ **إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ قال : كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

(١) الطبراني (١٢٠٤٩) .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٣٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . (٣) ابن جرير ١١/ ٣٧ .

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ .

لما نزلت الآية المتقدمة فى النهى عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **وما كان الله ليضل قوما** ﴾ إلخ ، أى أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام ، والقيام بشرائعه مالم يقدموا على شىء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولايؤاخذون به ، ومعنى : ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ، ومن سائر الأشياء التى خلقها ، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع يتصرف فى ملكه بما شاء من التصرفات التى من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه ، ويميت من قضت مشيئته بإماتته ، وما لعباده من دونه من ولى يواليهم ولا نصير ينصرهم ، فلا يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى ، فإن القرابة لا تنفع شيئا ولا تؤثر أثرا ، بل التصرف فى جميع الأشياء لله وحده .

قوله : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ فيما وقع منه ﷺ من الإذن فى التخلف ، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين ، وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار ، وقد تكون التوبة منه تعالى على النبى من باب أنه ترك ماهو الأولى والأليق كما فى قوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة : ٤٣] . ويجوز أن يكون ذكر النبى ﷺ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب . ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١) ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبى ﷺ فلم يتخلفوا عنه ، وساعة العسرة هى غزوة تبوك ، فإنهم كانوا فى عسرة شديدة ، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة ، ولم يرد ساعة بعينها ، والعسرة: صعوبة الأمر .

قوله: ﴿ **من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ فى ﴿ **كاد**﴾ ضمير الشأن، و ﴿ **قلوب** ﴾

---

(١) البخارى فى المغازى (٤٢٧٤) وفى الجهاد (٣٠٠٧) وفى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤/ ١٦١) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٥) وقال : « حسن صحيح » .

مرفوع بـ ﴿**تزيغ**﴾ عند سيبويه . وقيل : هى مرفوعة بـ ﴿ **كاد** ﴾ ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص : « يزيغ » بالتحتية . قال أبو حاتم : من قرأ بالياء التحتية فلا يجوز له أن يرفع القلوب بـ ﴿ **كاد** ﴾ . قال النحاس : والذى لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع ، ومعنى ﴿ **تزيغ** ﴾ : تتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقيل : معناه : تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة . وقيل : معناه : تهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة . وفى قراءة ابن مسعود : « من بعد ما زاغت » وهم المتخلفون على هذه القراءة ، وفى تكرير التوبة عليهم بقوله : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعا إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار .

قوله :﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ أى وتاب على الثلاثة الذين خلفوا ، أى أخروا ولم تقبل توبتهم فى الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . قال ابن جرير : معنى خلفوا : تركوا ، يقال : خلفت فلانا فارقته . وقرأ عكرمة بن خالد : « خلفوا » بالتخفيف ، أى أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو . وقرأ جعفر بن محمد « خالفوا » وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك . ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبى ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم . وقيل : معنى ﴿**خلفوا**﴾: فسدوا ، مأخوذ من خلوف الفم . قوله : ﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾ معناه : أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية ، وهى وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، و « ما » مصدرية ، أى برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، لأن النبى ﷺ نهى الناس أن يكالموهم ، والرحب : الواسع، يقال : منزل رحب ورحيب ورحاب . وفى هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصى تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصى . ومعنى ضيق أنفسهم عليهم : أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة ، وعبر بالظن فى قوله : ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه** ﴾ عن العلم ، أى علموا أن لا ملجأ يلجؤون إليه قط إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار . قوله : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾ أى رجع عليهم بالقبول والرحمة ، وأنزل فى القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿ **إن الله هو التواب** ﴾ أى الكثير القبول لتوبة التائبين ، ﴿ **الرحيم** ﴾ أى الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله ، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم** ﴾

قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى . قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ، ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : بيان الله للمؤمنين فى الاستغفار للمشركين خاصة . وفى بيانه طاعته ومعصيته عاما (١) ما فعلوا أو تركوا .

وأخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، أنه قال لعمر بن الخطاب : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا فأصبنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (٢) . وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هى غزوة تبوك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن منده وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله فى قوله : ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر منها فى الناس وأشهر ، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة فى كتب الحديث والسير (٣) ، وهى معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال: يعنى : خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب الله على أبى لبابة وأصحابه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن نافع فى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين**﴾ قال : نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا ، قيل لهم : كونوا مع محمد وأصحابه . وأخرج ابن

---

(١) فى المطبوعة: «غامض» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) ابن جرير ١١/ ٤٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٣١ .
(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٧٧) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٩/ ٥٣) وأبو داود (٢٢٠٢) والنسائى فى التفسير (٢٥٢) .

جرير عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ قال : مع أبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الضحاك فى الآية قال: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مع على بن أبى طالب . وأخرج ابن عساكر عن أبى جعفر قال : مع الثلاثة الذين خلفوا .

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ .

فى قوله : ﴿ **ما كان لأهل المدينة** ﴾ إلخ زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وتحريم التخلف عنه ، أى ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿ **ومن حولهم من الأعراب** ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ **أن يتخلفوا عن رسول الله** ﴾ ﷺ فى غزوة تبوك ، وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿ **ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه**﴾ أى وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس رسول الله ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال : رغبت عن كذا، أى ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق ، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وفى هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد . والتهييج لهم ، والإزراء عليهم . والإشارة بقوله: ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله ﷺ ، أى ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد . والظمأ : العطش . والنصب: التعب . والمخمصة : المجاعة الشديدة التى يظهر عندها ضمور البطن . وقرأ عبيد بن عمير «ظماء » بالمد . وقرأ غيره بالقصر ، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . و « لا » فى هذه المواضع زائدة للتأكيد . ومعنى ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ فى طاعة الله .

قوله : ﴿ **ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار** ﴾ أى لا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار . والموطئ : اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرا ﴿ **ولا ينالون من عدوٍ نيلا** ﴾ أى يصيبون من عدوهم قتلا أو أسرا أو هزيمة أو غنيمة ، وأصله : من نلت الشىء أنال ، أى أصيب . قال الكسائى : هو من قولهم : أمر منيل منه ، وليس هو من التناول ، إنما التناول من نلته بالعطية . قال غيره :

نلت أنول من العطية ، ونلته أناله : أدركته ، والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة ، والعمل الصالح : الحسنة المقبولة ، أى إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها ، وجملة : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ فى حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا أوليا .

قوله : ﴿ ولا ينفقون نفقة ﴾ معطوف على ما قبله ، أى ولا يقع منهم الإنفاق فى الحرب وإن كان شيئا صغيرا يسيرا ﴿ ولا يقطعون واديا ﴾ وهو فى الأصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل ، والعرب تقول : واد وأودية على غير قياس . قال النحاس : ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعله ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أى كتب لهم ذلك الذى عملوه من النفقة والسفر فى الجهاد ﴿ ليجزيهم الله ﴾ به ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أى أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال ، ويجوز أن يكون فى قوله : ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح . وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها ،هى قوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ فإنها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض ، وسيأتى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصحابة قال : لما نزلت : ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ما كان لأهل المدينة ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى وعبدالله بن المبارك وإبراهيم بن محمد الفزارى وعيسى بن يوسف السبيعى ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى : ﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ قالوا : هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ .

اختلف المفسرون فى معنى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ : فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد ؛ لأنه سبحانه لما بلغ فى الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية من الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك ، أى ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة . قالوا : ويكون الضمير

فى قوله : ﴿**ليتفقهوا**﴾ عائدا إلى الفرقة الباقية . والمعنى : أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم . وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين ، جعله الله سبحانه متصلا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد ، فيكون السفر نوعين : الأول سفر الجهاد . والثانى : السفر لطلب العلم . ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر . والفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية ، وبما يتوصل به إلى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان وأصول . ومعنى ﴿ **فلولا نفر** ﴾ : فهلا نفر ، والطائفة فى اللغة الجماعة . وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه فى الدين ، وإنذار من لم يتفقه ، فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى ، فهو كما قلت :

وطالب الدنيا بعلم الدين أى بائس كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

ومعنى ﴿ **لعلهم يحذرون** ﴾ : الترجى لوقوع الحذر منهم عن التعريض فيما يجب فعله فيترك ، أو فيما يجب تركه فيفعل . ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار ، وأن يأخذوا فى حربهم بالغلظة والشدة والجهاد واجب لكل الكفار ، وإن كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهم وأقدم ، ثم الأقرب فالأقرب ؛ ثم أخبرهم الله بما يقوى عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال : ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ أى بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شىء .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ [التوبة : ٤١] و ﴿ إن لا تنفروا يعذبكم ﴾ [التوبة: ٣٩] قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ يقول : لتنفر طائفة وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون فى الدين وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، ولعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله فى كتابه وحدوده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه نحوه من طريق أخرى بسياق أتم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآية قال : ليست هذه الآية فى الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يخلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين .

فردهم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله : ﴿ **وليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ وفى الباب روايات عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم** ﴾ قال : الأدنى ، فالأدنى . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، أنه سئل عن غزو الديلم فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ قال: « الروم » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وليجدوا فيكم غلظة**﴾ قال : شدة .

﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة** ﴾ : حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين ، أى إذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من كتابه العزيز فمن المنافقين ﴿ **من يقول** ﴾ لإخوانه منهم ﴿**أيكم زادته هذه**﴾ السورة النازلة ﴿ **إيمانا** ﴾ يقولون هذا : استهزاء بالمؤمنين ، ويجوز أن يقولوه: لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وتزهيدهم فيه ، و﴿**أيكم**﴾ مرفوع بالابتداء وخبره زادته . وقد تقدم بيان معنى السورة . ثم حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا إلى إيمانهم ، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحى وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ وهم المنافقون ﴿**فزادتهم** ﴾ السورة المنزلة ﴿ **رجسا إلى رجسهم** ﴾ أى خبثا إلى خبثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد ، وإظهار غير ما يضمرونه وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفارا منافقين . والمراد بالمرض هنا : الشك والنفاق ؛ وقيل : المعنى : زادتهم إثما إلى إثمهم.

قوله : ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **يرون** ﴾ بالتحتية . وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطابا للمؤمنين . وقرأ الأعمش : « أو لم يروا » . وقرأ طلحة بن مصرف : « أولا ترى » خطابا لرسول الله ﷺ ، وهى قراءة ابن مسعود .

ومعنى ﴿ **يفتنون** ﴾ : يختبرون ، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة، قاله مجاهد . وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع . وقال قتادة والحسن بالغزو والجهاد مع النبى ﷺ ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ **ثم لا يتوبون** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **ولا هم يذكرون** ﴾ و « ثم» لعطف ما بعدها على يرون ، والهمزة فى أولا يرون للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر ، أى لا ينظرون ولا يرون ، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم فى النفاق وإهمالهم للنظر والاعتبار .

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه ، فقال : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ أى نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين : ﴿ **هل يراكم من أحد** ﴾ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى ، فإنه لا صبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك . وقيل: المعنى: وإذا نزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبعض الآخر منهم : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال : ﴿**نظر**﴾ فى هذه الآية موضوع موضع قال ، أى قال بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ؟ قوله : ﴿ **ثم انصرفوا**﴾ أى عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق ، ثم دعا الله سبحانه عليهم ، فقال : ﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ أى صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها . وقيل : المعنى : أنه خذلهم عن قبول الهداية. وقيل : هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم : قاتله الله ، ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية ، أو السبب الذى لأجلـه استحقوا الدعاء عليهم بقوله : ﴿**صرف الله قلوبهم** ﴾ فقال : ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وإنصافهم .

ثـم ختم الله سبحانه هـذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة ، فقال : ﴿ **لقد جاءكم** ﴾ يا معشر العرب ﴿ **رسول** ﴾ أرسله الله إليكم له شأن عظيم ﴿ **من أنفسكم** ﴾ من جنسكم فى كونه عربيا وإلى كون هذه الآية خطابا للعرب ذهب جمهور المفسرين . وقال الزجاج : هى خطاب لجميع العالم . والمعنى: ﴿**لقد جاءكم رسول من** ﴾ جنسكم فى البشرية ﴿ **عزيز عليه ما عنتم** ﴾ « ما » مصدرية ، والمعنى : شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم . والعنت : التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه ، أو بعذاب الآخرة بالنار ، أو بمجموعهما ﴿ **حريص عليكم** ﴾ أى شحيح عليكم بأن تدخلوا النار ، أو حريص على إيمانكم . والأول أولى ، وبه قال الفـراء . والرؤوف والرحيم قد تقدم بيان معناهما ، أى هذا الرسول ﴿**بالمؤمنين** ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿ **رؤوف**

رحيــم ﴾ ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ، ومرشدا له إلى ما يقوله عند أن يعصى ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿ **فقل** ﴾ يا محمد ﴿**حسبى الله** ﴾ أى كافى الله سبحانه المنفرد بالألوهية ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أى فوضت جميع أمورى ﴿**وهو رب العرش العظيم**﴾ وصفه بالعظم ، لأنه أعظم المخلوقات . وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش . وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب . وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا**﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيمانا وتصديقا وكانوا بها يستبشرون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدي فى قوله : ﴿ **رجسا إلى رجسهم** ﴾ قال : شكا إلى شكهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون** ﴾ قــال: يقتلــون . وأخــرج ابن أبى شيبة وابن جريــر وابن المــنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه وقال : بالسنة والجوع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بالعدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بالغزو فى سبيل الله . وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك قال : يمرضون فى كل عام مرة أو مرتين . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال : كانت لهم فى كل عام كذبة أو كذبتان. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ قال : هم المنافقون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لاتقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوما انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا : قضينا الصلاة . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر نحوه . وأقول : الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر . وليس فى إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الأمور المتعددة إذا استعمل فى القرآن فى حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله فى حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود . واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله ، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى .

وأخرج عبد بن حميد والحارث بن أبى أسامة فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى ﷺ مضريها وربيعها ويمانيها . وأخرج ابن سعد عنه فى قوله : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ قال : قد ولدتموه يا معشر العرب . وأخرج

عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ قال : لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » (١) وهذا فيه انقطاع ، ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى . فقال : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر ابن محمد قال : أشهد على أبى يحدثنى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى » (٢). وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ فقال على بن أبى طالب : يا رسول الله ، ما معنى ﴿ **من أنفسكم** ﴾ ؟ قال : «نسبا وصهرا وحسبا ، ليس فى ولا فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح » . وأخرج الحاكم عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ يعنى: من أعظمكم قدرا (٣) . وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث على الأول . وأخرج الطبرانى عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة نحوه . وفى الباب أحاديث بمعناه ، ويؤيده ما فى صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم»(٤).

وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلنى فى خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » (٥) وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن أبى شيبة وإسحاق بن راهويه وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل من طريق يوسف ابن مهران عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبى ﷺ ، وفى لفظ : آخر ما أنزل من القرآن : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ إلى آخر الآية ، وروى عنه نحوه

(١) ابن جرير : ١١/ ٥٦ .
(٢) البيهقى ٧/ ١٩٠ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢١٧ : « رجاله ثقات إلا محمد بن جعفر بن محمد بن على فقد تكلم فيه وصحح له الحاكم».
(٣)صححه الحاكم ٢/ ٢٤٠ على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبى .
(٤) أحمد ٤/ ١٠٧ ومسلم فى الفضائل (١/٢٢٧٦) والترمذى فى المناقب (٣٦٠٥) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » .
(٥) أحمد ١/ ٢١٠ ، والترمذى فى المناقب (٣٦٠٧) وقال : « حديث حسن » والبيهقى فى الدلائل ١/ ١٦٧ ، ١٦٨ .

من طريق أخرى أخرجها عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن الضريس فى فضائله ، وابن أبى داود فى المصاحف ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل، والخطيب فى تلخيص المتشابه ، والضياء فى المختارة . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : « ولم سألتم هذا ؟ » قالوا : نطلب الأمن ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإن تولوا فقل حسبى الله** ﴾ يعنى : الكفار تولوا عن النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه ، وقد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش وماهيته وقدره .

وإلى هنا انتهى الثلث الأول من التفسير المسمى: « فتح القدير » الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه : محمد بن على الشوكانى ، غفر الله لهما . وكان تمام هذا الثلث فى نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرم سنة ١٢٢٧ هـ .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

الحمد لله : انتهى سماعا على مؤلفه . أطال الله مدته فى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٣٥ هـ .

يحيى بن على الشوكانى

غفر الله لهما آمين

تفسير سورة يونس

• هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله : ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ إلى آخرهنّ ، هكذا روى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس . وحكى عن مقاتل أنها مكية إلا آيتين ، وهى قوله : ﴿**فإن كنت فى شك** ﴾ فإنها نزلت فى المدينة. وحكى عن الكلبى أنها مكية إلا قوله : ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ فإنها نزلت بالمدينة . وحكى عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر أنها مكية من غير استثناء . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يونس بمكة . وأخرج أبوالشيخ عن ابن سيرين قال : كانت سورة يونس بعد السابعة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه أعطانى الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل ». وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن الأحنف قال : صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما .

﴿ **الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **الر** ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة فلا نعيده ، ففيه ما يغنى عن الإعادة . وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو وحمزة وخلف وغيرهم . وقرأ جماعة من غير إمالة . وقد قيل: إن معنى ﴿ **الر** ﴾ : أنا اللّه أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب ، وأنشد :

بالخير خيرات وإن شرافا

أى وإن شرّا فشرّ . وقال الحسن وعكرمة :﴿ **الر** ﴾ قسم . وقال سعيد عن قتادة : ﴿**الر**﴾ اسم للسورة . وقيل :غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر اللّهّ بعلمه ، وقد اتفق القراء على أن ﴿ **الر** ﴾ ليس بآية . وعلى أن ﴿ طه ﴾ آية ، وفى مقنع أبى عمرو الدانى أن العادّين لطـه آية هم الكوفيون فقط ، قيل : ولعل الفرق أن ﴿ **الر** ﴾ لا يشاكل مقاطع الآى التى بعده . والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم ،

واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده . وقال مجاهد وقتادة :أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث. قيل :﴿ **تلك** ﴾ بمعنى هذه ، أى هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن . ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر . وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره ، و﴿ **الحكيم** ﴾ المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم معناه : الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل ، كقوله : ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة : ٢١٣]. وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه فهو فعيل بمعنى مفعول ، أى حكم اللّه فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره . وقيل : الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **أكان للناس عجبا** ﴾ لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ . واسم كان ﴿ **أن أوحينا** ﴾ وخبرها ﴿ **عجبا** ﴾ أى أكان إيحاؤنا عجبا للناس . وقرأ ابن مسعود : « عجب » على أنه اسم كان ، على أن كان تامة ، و﴿ **أن أوحينا** ﴾ بدل من عجب . وقرئ بإسكان الجيم من ﴿ **رجل** ﴾ فى قوله : ﴿**إلى رجل منهم** ﴾ أى من جنسهم وليس فى هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن اللهّ سبحانه إلا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجنّ ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال؛ لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه . ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره ، فإما أن يظهر فى غير شكل النوع الإنسانى ، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم ، أو فى الشكل الإنسانى فلا بدّ من إنكارهم لكونه فى الأصل غير إنسان ، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم . وإن كان لكونه يتيما أو فقيرا . فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره ، وبالغا فى كمال الصفات إلى حدّ يقصرّ عنه من كان غنيا ، أو كان غير يتيم . وقد كان لرسول اللّه ﷺ قبل أن يصطفيه اللّه بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين . قوله: ﴿ **أن أنذر الناس** ﴾ فى موضع نصب بنزع الخافض، أى بأن أنذر الناس . وقيل : هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . قوله :﴿ **قدم صدق** ﴾ أى منزل صدق ، وقال الزجاج : درجة عالية . ومنه قول ذى الرمة :

لـكم قدم لا ينكر الناس أنـها مع الحسب العالى طمت (١) على البحر

وقال ابن الأعرابى : القدم المتقدّم فى الشرف . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم ، يقال : لفلان قدم فى الإسلام ، وله عندى قدم صدق ، وقدم خير ، وقدم شرّ ، ومنه قول العجاج:

---

(١) طم الأمر طما : علا وغلب ، ومنه قيل للقيامة : الطامة . اللسان ١٢/ ٣٧٠ .

زلّ بنو العوام عند آل الحكم وتـركـوا الملـك لملـك ذى قـــدم

وقال ثعلب :القدم كل ما قدمت من خير. وقال ابن الأنبارى :القدم كناية عن العمل الذى لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء . وقال قتادة : سلف صدق ، وقال الربيع : ثواب صدق . وقال الحسن : هو محمد ﷺ ، وقال الحكيم الترمذى : قدمه ﷺ فى المقام المحمود ، وقال مقاتل : أعمالا قدّموها واختاره ابن جرير ، ومنه قول الوضاح :

صـل لذى العرش واتخذ قدما ينجـيـك يـــوم الخـصـام والـزلل

وقيل : غير ما تقدّم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده . قوله :﴿ **قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ . قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش وابن محيصن : ﴿**لساحر** ﴾ على أنهم أرادوا رسول اللّه ﷺ باسم الإشارة . وقرأ الباقون « لسحر » على أنهم أرادوا القرآن . وقد تقدّم معنى السحر فى البقرة . وجملة : ﴿ **قال الكافرون** ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب ؛ وقال القفال : فيه إضمار . والتقدير : فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك .

ثم إن اللّه سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذى حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم فقال : ﴿ **إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ أى من كان له هذا الاقتدار العظيم الذى تضيق العقول عن تصورّه كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك ، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأعراف فى قوله : ﴿ إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [الأعراف : ٥٤] . فلا نعيده هنا ، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال : ﴿ **يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ وترك العاطف لأن جملة : ﴿ **يدبر** ﴾ كالتفسير والتفصيل لما قبلها ، وقيل : هى فى محل نصب على الحال من ضمير استوى . وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدّر . وأصل التدبير: النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول . وقال مجاهد : يقضيه ويقدرّه وحده . وقيل : يبعث الأمر . وقيل : ينزل الأمر . وقيل : يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب ، واشتقاقه من الدبر ، والأمر: الشأن ، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق . قال الزجاج : إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون : إن الأصنام شفعاؤنا عند اللّه ، فردّ اللّه عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه فى شىء إلا بعد إذنه ؛ لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب . وقد تقدّم معنى الشفاعة فى البقرة . وفى هذا بيان لاستبداده بالأمور فى كل شىء سبحانه وتعالى ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير ، أى الذى فعل هذه الأشياء العظيمة ﴿ **اللّه ربكم** ﴾ واسم الإشارة مبتدأ وخبره الاسم الشريف ، و﴿ **ربكم** ﴾ بدل منه أو بيان له أو خبر ثان ، وفى هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله :

﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره . فكيف يعبدون الجمادات التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ؟ والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع ، لأن من له أدنى تذكر وأقلّ اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه .

ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ وفى هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، وانتصاب ﴿ **وعد الله** ﴾ على المصدر ، لأن فى قوله : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر ، والمراد بالمرجع : الرجوع إليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما ، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿ **حقا** ﴾ فهو تأكيد لتأكيد فيكون فى الكلام من الوكادة ما هو الغاية فى ذلك . وقرأ ابن أبى عبلة : «وعد الله حق » على الاستئناف ، ثم علل سبحانه ما تقدّم بقوله : ﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب ، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة . قال مجاهد : ينشئه ثم يميته ، ثم يحييه للبعث . وقيل : ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد بن القعقاع : أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة ، فتكون الجملة فى موضع نصب بما نصب به وعد الله ، أى وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويجوز أن يكون التقدير : لأنه يبدأ الخلق ، وأجاز الفراء ان تكون « أن » فى موضع رفع فتكون اسما . قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير :حقا إبداؤه الخلق ، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال : ﴿**ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط** ﴾ أى بالعدل الذى لا جور فيه ﴿ **والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأوّل ، أى ليجزى الذين آمنوا ويجزى الذين كفروا وتكون جملة : ﴿**لهم شراب من حميم** ﴾ فى محل نصب على الحال هى وما عطف عليها ، أى وعذاب أليم ، ويكون التقدير هكذا : ويجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب ، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء . ويمكن أن يقال : إن الموصول فى ﴿**والذين كفروا**﴾ مبتدأ وما بعده خبر . فلا يكون معطوفا على الموصول الأوّل ، والباء فى ﴿ **بما كانوا يكفرون**﴾ للسببية، أى بسبب كفرهم ، والحميم : الماء الحار ، وكل مسخن عند العرب فهو حميم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ **الر** ﴾ قال : فواتح [السور] (١) أسماء من أسماء الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عنه قال : فى قوله : ﴿ **الر** ﴾ أنا الله أرى . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك مثله أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : يعنى هذه .

(١) سقطت من المطبوعة لفظ (السور) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : الكتب التى خلت قبل القرآن.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم . فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد . فأنزل الله ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم** ﴾ الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ الآية [النحل : ٤٣] . فلما كرّر الله سبحانه عليهم الحجج [١] قالوا : وإذا كان بشرا ، فغير محمد كان أحق بالرسالة ﴿ لولا [٢] نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] . يقول : أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف ، فأنزل الله ردًا عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية [الزخرف ٣٢] [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة فى الذكر الأوّل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : القدم هو العمل الذى قدموا . قال الله سبحانه : ﴿ ونكتب [٤] ما قدموا وآثارهم ﴾ [يس : ١٢] . والآثار: ممشاهم . قال : مشى رسول الله ﷺ بين اسطوانتين [٥] من مسجدهم ثم قال : هذا أثر مكتوب . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **قدم صدق** ﴾ قال : محمد ﷺ يشفع لهم . وأخرج ابن مردويه عن علىّ ابن أبى طالب مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى بن كعب قال : سلف صدق . والروايات عن التابعين وغيرهم فى هذا كثيرة. وقد قدّمنا أكثرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يدبر الأمر** ﴾ قال : يقضيه وحده . وفى قوله :﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾ .

ذكر هاهنا بعض نعمه على المكلّفين . وهى مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته بإتقان صنعه فى هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض ، واستواءه على العرش وغير ذلك . والضياء قيل : جمع ضوء كالسياط

(١) فى المطبوعة: « الحج » والصحيح ما أثبتناه.

(٢) فى المطبوعة : « فلولا » والصحيح ما أثبتناه.

(٣) ابن جرير ١١/٥٨ .

(٤) فى المطبوعة : « سيكتب » والصحيح ما أثبتناه.

(٥) الاسطوانة : العمود أو السارية .

والحياض . وقرأ قنبل عن ابن كثير: « ضئاء » بجعل الياء همزة مع الهمزة . ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة ، وأصله ضواء فقلبت ياء لكسر ما قبلها . قال المهدوى : ومن قرأ: « ضئاء » بالهمزة فهو مقلوب قدّمت الهمزة التى بعد الألف . فصارت قبل الألف ، ثم قلبت الياء همزة ، والأولى أن يكون ﴿ **ضياء** ﴾ مصدرا لا جمعا . مثل : قام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، ولابدّ من تقدير مضاف ، أى جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور ، إلا أن يحمل على المبالغة ، وكأنهما جعلا نفس الضياء والنور . قيل : الضياء أقوى من النور. وقيل : الضياء هو ما كان بالذات ، والنور ما كان بالعرض . ومن هنا قال الحكماء : إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس .

قوله : ﴿ **وقدره منازل** ﴾ أى قدر مسيره فى منازل ، أو قدره ذا منازل . والضمير راجع إلى القمر . ومنازل القمر : هى المسافة التى يقطعها فى يوم وليلة بحركته الخاصة به ، وجملتها ثمانية وعشرون وهى معروفة . ينزل القمر فى كل ليلة منها منزلا لا يتخطاه ، فيبدو صغيرا فى أول منازله ، ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو كاملا . وإذا كان فى آخر منازله رقّ واستقوس . ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملا ، أو ليلة إذا كان ناقصا ، والكلام فى هذا يطول ، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام . وقيل : إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر . كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة:١١] . وفى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

وقد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده . كما فى قوله تعالى: ﴿ والقمر قدّرناه منازل ﴾ [يس : ٢٩] ، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير . فقال : ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ فإن فى العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى . وفى العلم بحساب الأشهر والأيام والليالى من ذلك ما لايخفى . ولولا هذا التقدير الذى قدّره اللّه سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولاعرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم . والسنة تتحصل من اثنى عشر شهرا . والشهر يتحصل من ثلاثين يوما إن كان كاملا . واليوم يتحصل من ساعات معلومة هى أربع وعشرون ساعة لليل والنهار قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة فى أيام الاستواء . ويزيد أحدهما على الآخر فى أيام الزيادة وأيام النقصان . والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف . ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب دون الباطل والعبث . فالإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المذكور قبله . والاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال ، ومعنى تفصيل الآيات : تبيينها . والمراد بالآيات : التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوّليا فى ذلك . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب : ﴿**يفصل** ﴾ بالتحتية . وقرأ ابن السميفع : « تفصل » بالفوقية على البناء للمفعول . وقرأ

الباقون بالنون . واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى ، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ وبعده ﴿ **وما خلق الله فى السموات والأرض** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق فى السموات والأرض من تلك المخلوقات، فقال : ﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ أى الذين يتقون الله سبحانه ويجتنبون معاصيه وخصهم بهذه الآيات ؛ لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه حذرا منهم عن الوقوع فى شىء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظرا لعاقبة أمرهم . وما يصلحهم فى معادهم . قال القفال : من تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها . وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلابد من أمر ونهى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله تعالى : ﴿ **جعل الشمس ضياء والقمر نورا** ﴾ قال : لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكى يعرف الليل من النهار ، وهو قوله : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ الآية [الإسراء :١٢]. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : وجوههما إلى السموات . وأقفيتهما إلى الأرض. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن عمرو مثله . وأخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدى قال : لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد . ولكن المؤمنون تفكروا فى مجىء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شىء وغطى كل شىء ، وفى مجىء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل ، وفى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفى النجوم ، وفى الشتاء والصيف ، فوالله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ ..

شرع الله سبحانه فى شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ، ومن يؤمن به ، وقدّم الطائفة التى لم تؤمن ؛ لأن الكلام فى هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغى إهماله مما هو مشاهد لكل حىّ طول حياته . فيتسبب عن إهمال النظر ، والتفكر الصادق : عدم الإيمان بالمعاد . ومعنى الرجاء هنا : الخوف ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها فى بيت نُوبٍ (١) عَواسلِ

(١) النُوب : النحل وسميت بذلك ؛لأنها ترعى وتنوب إلى مكانها .

وقيل : ﴿ **يرجون** ﴾ : يطمعون . ومنه قول الشاعر :

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا

فالمعنى على الأوّل : لا يخافون عقابا ، وعلى الثانى لا يطمعون فى ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته ، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى : لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون فى رؤيتنا . وقيل : المراد بالرجاء هنا : التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع ، فيكون المعنى ﴿**لا يرجون لقاءنا** ﴾ : لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ أى رضوا بها عرضا عن الآخرة . فعملوا لها ﴿ **واطمأنوا بها** ﴾ أى سكنت أنفسهم إليها وفرحوا بها ﴿**والذين هم عن آياتنا غافلون** ﴾ لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها ﴿ **أولئك مأواهم**﴾ أى مثواهم ومكان إقامتهم النار ، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء ، وحصول الرضا والاطمئنان ، والغفلة ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أى بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد .

وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى فعلوا الإيمان الذى طلبه اللّه منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدّم ذكره من الآيات ﴿**وعملوا الصالحات** ﴾ التى يقتضيها الإيمان . وهى ما شرعه اللّه لعباده المؤمنين ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ أى يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة ، وجملة : ﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ مستأنفة أو خبر ثان أو فى محل نصب على الحال . ومعنى ﴿ **من تحتهم** ﴾ : من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم ؛ لأنهم على سرر مرفوعة . وقوله : ﴿ **فى جنات النعيم** ﴾ متعلق بـ ﴿**تجرى** ﴾ أو بـ ﴿ **يهديهم** ﴾ أو خبر آخر أو حال من ﴿**الأنهار**﴾ .

قوله : ﴿ **دعواهم** ﴾ أى دعاؤهم ونداؤهم . وقيل : الدعاء : العبادة كقوله تعالى : ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون اللّه ﴾ [مريم : ٤٨] . وقيل : معنى ﴿ **دعواهم** ﴾ هنا : الإدّعاء الكائن بين المتخاصمين ، والمعنى : أن أهل الجنة يدعون فى الدنيا والآخرة تنزيه اللّه سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية . قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما . وقيل معناه : طريقتهم وسيرتهم . وذلك أن المدّعى للشىء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن فى قوله : ﴿ **سبحانك اللهم** ﴾ دعوى ولا دعاء . وقيل : معناه : تمنيهم كقوله :﴿ ولهم ما يدعون ﴾ [يس : ٥٧]، وكأن تمنيهم فى الجنة ليس إلا تسبيح اللّه وتقديسه ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **سبحانك اللهم**﴾ . و﴿ **فيها** ﴾ أى فى الجنة . والمعنى على القول الأوّل : أن دعاءهم الذى يدعون به فى الجنة هو تسبيح اللّه وتقديسه ، والمعنى: نسبحك يا اللّه تسبيحا . قوله : ﴿ **وتحيتهم فيها سلام**﴾ أى تحية بعضهم للبعض . فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، أو تحية اللّه أو الملائكة لهم ،

فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول . وقد مضى تفسير هذا فى سورة النساء . قوله : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين** ﴾ أى وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح أن يقولوا : الحمد للّه رب العالمين . قال النحاس : مذهب الخليل : أن « أن » هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى : أنه الحمد للّه . وقال محمد بن يزيد المبرد : ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة . والرفع أقيس، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف . وقرأ ابن محيصن بتشديد أنّ ونصب الحمد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ قال: مثل قوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ الآية [هود: ١٥] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا فى قوله: ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : يكون لهم نور يمشون به. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : حدّثنا الحسن قال : بلغنا أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة ، فيقول له : ما أنت ؟ فواللّه إنى لأراك عين امرئ صدق، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ؛ وأما الكافر فإذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة. فيقول له : ما أنت ؟ فواللّه إنى لأراك عين امرئ سوء ، فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار » (١). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول اللّه ﷺ: « إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم » . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى الهذيل قال : الحمد أوّل الكلام وآخر الكلام . ثم تلا : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين** ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

(١) ابن جرير ١١/٦٣ .

عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ .

لما ذكر اللّه سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد ، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا . قال القفال : لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب . فبين اللّه سبحانه أنه لا مصلحة فى إيصال الشرّ إليهم، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن ، قيل : معنى ﴿ **ولو يعجل اللّه للناس الشرّ استعجالهم بالخير** ﴾: لو عجل اللّه للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب والخير ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ أى ماتوا . وقيل: المعنى لو فعل اللّه مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم . وقيل : الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث وما يترتب عليه . قال فى الكشاف : وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له(١). والمراد : أهل مكة، وقولهم :﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] . قيل : والتقدير : ولو يعجل اللّه لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم بالخير عند استعجالهم به ، فحذف ما حذف لدلالة الباقى عليه . قال أبو على الفارسى : فى الكلام حذف ، والتقدير : ﴿**ولو يعجل اللّه للناس الشر** ﴾ تعجيلا مثل ﴿ **استعجالهم بالخير** ﴾ ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال : هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو قول الأخفش والفرّاء ، قالوا : وأصله كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . وقال الفراء : كما تقول : ضربت زيدا ضربك ، أى كضربك ، ومعنى ﴿**لقضى إليهم أجلهم** ﴾ : لأهلكوا ، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا . وقيل : معناه : أميتوا . وقرأ ابن عامر : «لقضى» على البناء للفاعل ، وهى قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله : ﴿ **ولو يعجل اللّه** ﴾ قوله : ﴿ **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون** ﴾ الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام، لأن قوله : ﴿ **ولو يعجل اللّه** ﴾ يتضمن نفى التعجيل . فكأنه قيل : لكن لا يعجل لهم الشرّ ولا يقضى إليهم أجلهم فنذرهم إلخ ، أى فنتركهم ونمهلهم ، والطغيان : التطاول . وهو العلوّ والارتفاع . ومعنى ﴿ **يعمهون** ﴾ :يتحيرون ، أى نتركهم يتحيرون فى تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا .

ثم بين اللّه سبحانه أنهم كاذبون فى استعجال الشرّ ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضرّ** ﴾ أى هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به ﴿ **دعانا لجنبه** ﴾ اللام للوقت كقوله : جئته لشهر كذا . أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أو قائما عليه . وتكون اللام بمعنى على، أى دعانا مضطجعا ﴿ **أو قاعدا أو قائما** ﴾ وكأنه قال : دعانا فى جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة بالذكر؛ لأنها

---

(١) الكشاف : ٢/ ٣٣١ .

الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو اللّه حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، وقاعدا غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على المشى. والأوّل أولى . قال الزجاج : إن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة ؛ لأنه إذا كان داعيا على الدوام ، ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب .

قوله : ﴿ **فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه** ﴾ أى فلما كشفنا عنه ضرّه الذى مسه ، كما تفيده الفاء ، مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمسه الضرّ ونسى حالة الجهد والبلاء ، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه ؛ كأنه لا عهد له به ؛ كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذى مسه. وقيل :معنى ﴿ **مرّ** ﴾ : استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتعظ . قال الأخفش : « أن » فى ﴿ **كأن لم يدعنا** ﴾ : هى المخففة من الثقيلة ، والمعنى : كأنه انتهى والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال . وهذه الحالة التى ذكرها اللّه سبحانه للداعى لا تختص بأهل الكفر . بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم ، فإذا كشفه اللّه عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع . وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم اللّه بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذى لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره . وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : ٧] . والإشارة بقوله : ﴿**كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مرّ غير مرة ، أى مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم . والمسرف فى اللغة : هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس . ومحل ﴿ **كذلك** ﴾ النصب على المصدرية . والتزيين هو إما من جهة اللّه تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم ، أو من طريق الشيطان بالوسوسة ، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء . والمعنى : أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا**﴾ يعنى : الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبى ﷺ ، أى أهلكناهم من قبل زمانكم . وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة فى الزجر ، و« لما » ظرف لـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ ، أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب ، والتجارى على الرسل. والتطاول فى المعاصى من غير تأخير لإهلاكهم كما أخرنا إهلاككم، والواو فى ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ للحال بإضمار قد ، أى وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات ، أى بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل ، وقيل: الواو للعطف على ﴿**ظلموا** ﴾ والأوّل أولى ، وقيل : المراد بالظلم هنا هو الشرك . والواو فى

﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ للعطف على ظلموا ، أو الجملة اعتراضية . واللام لتأكيد النفى ، أى وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك وسلب الألطاف عنهم ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزى القوم المجرمين . وهو الاستئصال الكلى لكل مجرم . وهذا وعيد شديد لمن كان فى عصره من الكفار .أو لكفار مكة على الخصوص .

ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول اللّه ﷺ فقال : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف** ﴾ أى استخلفناكم فى الأرض بعد تلك القرون التى تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها والخلائف جمع خليفة . وقد تقدّم الكلام عليه فى آخر سورة الأنعام (١) ، واللام فى : ﴿ **لننظر كيف تعملون** ﴾ لام كى ، أى لكى ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرّ ، و ﴿ **كيف**﴾ فى محل نصب بالفعل الذى بعده ، أى لننظر أىّ عمل تعملونه ، أو فى محل نصب على الحالية ، أى على أىّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف .

ثم حكى اللّه سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآيات اللّه فقال : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، والمراد بالآيات : الآيات التى فى الكتاب العزيز ، أى وإذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها بينات ، أى واضحات الدلالة على المطلوب ﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ وهم المنكرون للمعاد ، وقد تقدّم تفسيره قريبا ، أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول اللّه ﷺ ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ طلبوا من رسول اللّه ﷺ لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان ، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم ، فأمره اللهّ أن يقول فى جوابهم: ﴿ **ما يكون لى** ﴾ أى ما ينبغى لى ولايحلّ لى ﴿ **أن أبدّله من تلقاء نفسى** ﴾ فنفى عن نفسه أحد القسمين ، وهو التبديل ؛ لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا ، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر ، فإن ذلك ليس فى وسعه ولا يقدر عليه . وقيل : إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الأولى ، وهذا منه ﷺ من باب مجاراة السفهاء ، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره اللّه سبحانه بذلك . وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة ، و﴿ **تلقاء** ﴾ مصدر استعمل ظرفا ، ﴿ **من تلقاء نفسى** ﴾ قال الزجاج: سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. وقيل : سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم . وقيل : سألوه أن يحوّل الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له ولا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع

---

(١) تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾[الأنعام : ١٦٥].

شيئا من الأشياء إلا ما يوحى إلىّ من عند اللّه سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف ، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه ، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى ﷺ بأن القرآن كلامه وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له ، ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم**﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها . واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، أى ﴿**إنى أخاف إن عصيت ربى** ﴾ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند اللّه وأنه ﷺ إنما يبلغ إليهم منه ما أمره اللّه بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال : ﴿ **قل لو شاء اللّه ما تلوته عليكم** ﴾ أى أن هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وإرادته ، ولو شاء اللّه أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ما تلوته ، فالأمر كله منوط بمشيئة اللّه ليس لى فى ذلك شىء . قوله : ﴿**ولاأدراكم به** ﴾ معطوف على ما تلوته ، ولو شاء اللّه ما أدراكم بالقرآن ، أى ما أعلمكم به على لسانى يقال : دريت الشىء وأدرانى اللهّ به . هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه . وقرأ ابن كثير : «ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة ، والمعنى : ولو شاء اللّه لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم . فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقد قرئ : « أدرؤكم » بالهمزة ، فقيل : هى منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد ، ويحتمل أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته داريا . والمعنى : لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤوننى بالجدال وتكذبوننى . وقرأ ابن عباس والحسن : « ولا أدراتكم به » قال أبو حاتم :أصله: ولا أدريتكم به ، فأبدل من الياء ألفا . قال النحاس : وهذا غلط . والرواية عن الحسن : « ولا أدرأتكم » بالهمزة . قوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله** ﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة اللّه ولم يكن من النبى ﷺ إلا التبليغ ، أى قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله، أى زمانا طويلا . وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفوننى بالصدق والأمانة . لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿**أفلا تعقلون** ﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ ، أى أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبى لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدق والأمانة . وعدم قراءتى للكتب المنزلة على الرسل وتعلمى لما عند أهلها من العلم . ولا طلبى لشىء من هذا الشأن ولا حرصى عليه ، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة ، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**ولو يعجل اللّه للناس الشرّ** ﴾ الآية . قال : هو قول (١) الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم : اللهم لا تبارك فيه والعنه. ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ قال : لأهلك من دعا عليه وأماته . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : قول الرجل للرجل : اللهم

---

(١) فى المطبوعة : «قولى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

العنه ، اللهم اخزه . وهو يحب أن يستجاب له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له . وحكى القرطبى فى تفسيره عن ابن إسحاق ومقاتل فى الآية قالا : هو قول النضر بن الحارث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : ٣٢] . فلو عجل لهم هذا لهلكوا (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله :﴿ **دعانا لجنبه** ﴾ قال : مضطجعا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله :﴿ **دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما** ﴾ قال : على كل حال . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال : ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرّائك .

وأقول أنا : أكثر من شكر الله على السرّاء يدفع عنك الضرّاء . فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة ، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم ، فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان . ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض** ﴾ الآية ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف فى الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا . فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسرّ والعلانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : ﴿ **خلائف فى الأرض** ﴾ لأمة محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ قال: هذا قول مشركى أهل مكة للنبى ﷺ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ أعلمكم به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال :﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ ولا أشعركم به. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ : « ولا أنذرتكم به ». وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمراً من قبله** ﴾ قال: لم أتل عليكم ولم أذكر . وأخرجا عنه قال : لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين ، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة ، وعشرا بالمدينة ، وتوفى وهو ابن اثنتين وستين سنة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والترمذى عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه . ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة (٢).

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢١٣ والقرطبى ٥/ ٣١٥٥ .

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٢٢) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **فمن أظلم** ﴾ استفهام فيه معنى الجحد ، أى لا أحد أظلم ﴿ **ممن افترى على الله** ﴾ الكذب وزيادة ﴿**كذبا**﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب فى نفسه . فربما يكون الافتراء كذبا فى الإسناد فقط ، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو . ذكر معنى هذا أبو السعود فى تفسيره . قيل : وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن ، أو يبدّله ، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله ، ولا ظلم يماثل ذلك ، وقيل : المفترى على الله الكذب هم المشركون ، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب ﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، أى لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ، والضمير فى ﴿**إنه**﴾ للشأن ، أى إن الشأن هذا .

ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام ، وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضرّ من لم يعبدها فقال : ﴿**ويعبدون من دون الله** ﴾ أى متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿ **ما لا يضرّهم ولا ينفعهم** ﴾ أى ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع ، ومن حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه معاقبا لمن عصاه ، والواو لعطف هذه الجملة على جملة : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ و« ما » فى ﴿ **مالا يضرهم** ﴾ موصولة أو موصوفة ، والواو فى : ﴿**ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ للعطف على ﴿ **ويعبدون** ﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله فلا يعذبهم بذنوبهم . وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرّ فى الحال . وقيل : أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم ، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ قرأ أبو السمال العدوى : « تنبئون » بالتخفيف من أنبأنا ينبئ. وقرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبئ ، والمعنى : أتخبرون الله أن له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد ، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سمواته وفى أرضه ؟ وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا . وفى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى ، ثم نزّه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم ، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم جوابا عليهم. قرأ حمزة والكسائى :﴿ **عما يشركون** ﴾ بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد .

قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى البقرة [(١)] . والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعا إلا أمة واحدة موحدة للّه سبحانه مؤمنة به ، فصار البعض كافرا وبقى البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقال : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلفوا عند البلوغ ، والأوّل أظهر . وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى ، بل المراد : كفر البعض وبقى البعض على التوحيد كما قدّمنا ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ وهى أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ فى الدنيا ﴿ **فيما** ﴾ هم ﴿ **فيه يختلفون** ﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف . وقيل : معنى ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ : بإقامة الساعة عليهم . وقيل : لفرغ من هلاكهم . وقيل : الكلمة : أن اللّه أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا . وقيل : الكلمة : أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة ، وهى إرسال الرسل كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] . وقيل : الكلمة : قوله : « سبقت رحمتى غضبى » [(٢)] . وقرأ عيسى بن عمر : «لقضى» بالبناء للفاعل . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزّى ، فأنزل اللّه : ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون . ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ قال ابن مسعود : كانوا على هدى . وروى أنه قرأ هكذا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة** ﴾ قال : آدم وحده ﴿ **فاختلفوا** ﴾ قال: حين قتل أحد ابنى آدم أخاه. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا ، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ

(١) تفسير قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ [البقرة : ٢١٣] .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **ويقولون** ﴾ ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم ، وهو معطوف على قوله: ﴿**ويعبدون**﴾ ، وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه . قيل : والقائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول اللّه ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التى لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلا بينا ومصدقًا قاطعا ، أى هلا أنزلت عليه آية من الآيات التى نقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك ؟ ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **فقل إنما الغيب للّه** ﴾ أى أن نزول الآية غيب ، واللّه هو المختص بعلمه ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته ﴿ **فانتظروا** ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿ **إنى معكم من المنتظرين** ﴾ لنزولها . وقيل : المعنى : انتظروا قضاء اللّه بينى وبينكم بإظهار الحق على الباطل .

قوله : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ لما بين سبحانه فى الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا ، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضرّاء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم فى آيات اللّه ؛ والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه : أنه وسع عليهم فى الأرزاق ، وأدرّ عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضرّاء بالجدب وضيق المعايش ، فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها ، بل أضافوها إلى أصنامهم التى لا تنفع ولا تضرّ ، وطعنوا فى آيات اللّه واحتالوا فى دفعها بكل حيلة ، وهو معنى المكر فيها . و« إذا » الأولى شرطية ، وجوابها ﴿ **إذا لهم مكر** ﴾ ، وهى فجائية ، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه . ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل اللّه أسرع مكرا** ﴾ أى أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعا ، ولكن مكر اللّه أسرع منه . وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة ، لأن المعنى أنهم فاجؤوا المكر ، أى أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة و تسمية عقوبة اللّه سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرّر فى مواطن من عبارات الكتاب العزيز ﴿ **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ قرأ يعقوب فى رواية وأبو عمرو فى رواية : « يمكرون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، والمعنى : أن رسل اللّه وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة ، فكيف يخفى على العليم الخبير ؟ وفى هذا وعيد لهم شديد ، وهذه الجملة تعليلية للجملة التى قبلها ، فإن مكرهم إذا كان ظاهرا لا يخفى ، فعقوبة اللّه كائنة لا محالة ، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدّمة وهى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضرّ ﴾ [يونس : ١٢] وفى هذه زيادة ، وهى أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض ، بل يطلبون الغوائل لآيات اللّه بما يدبرونه من المكر .

﴿ **هو الذى يسيركم فى البرّ والبحر** ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما . ومعنى تسييرهم فى البر : أنهم يمشون على أقدامهم التى خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون ما خلقه اللّه لركوبهم من الدواب ، ومعنى تسييرهم فى البحر : أنه ألهمهم لعمل السفائن التى يركبون فيها فى لجج البحر ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك . وقد قرأ ابن عامر : « وهو الذى ينشركم فى البحر » بالنون والشين المعجمة من النشر كما فى قوله : ﴿ فانتشروا فى الأرض﴾ [الجمعة : ١٠] . أى ينشرهم سبحانه فى البحر فينجى من يشاء ويغرق من يشاء ﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم** ﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ **وجرين** ﴾ أى السفن بهم ، أى بالراكبين عليها ، و﴿**حتى**﴾ لانتهاء الغاية والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ، فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة : أوّلها : الكون فى الفلك ، والثانى : جريها بهم بالريح الطيبة التى ليست بعاصفة ، وثالثها : فرحهم . والقيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة : الأوّل ﴿ **جاءتها** ﴾ أى جاءت الفلك ريح عاصف أو جاءت الريح الطيبة ، أى تلقتها ريح عاصف ، والعصوف شدّة هبوب الريح ، والثانى : ﴿ **وجاءهم الموج من كل مكان** ﴾ أى من جميع الجوانب للفلك ، والمراد جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ، والثالث : ﴿ **ظنوا أنهم أحيط بهم** ﴾ أى غلب على ظنونهم الهلاك . وأصله من إحاطة العدّو بقوم أو ببلد . فجعل هذه الإحاطة مثلا فى الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا . وجواب إذا فى قوله : ﴿ **إذا كنتم فى الفلك** ﴾. قوله : ﴿ **جاءتها** ﴾ إلى آخره ، ويكون قوله : ﴿ **دعوا اللّه** ﴾ بدلا من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه ، فكان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله عليه . ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا ؟ فقيل : دعوا اللّه ، وفى قوله : ﴿ **وجرين بهم** ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف (١) المبالغة . وقال الرازى : الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة فى هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك فى قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة : ٥] دليل الرضا والتقريب، وانتصاب ﴿ **مخلصين** ﴾ على الحال ، أى لم يشوبوا دعاءهم بشىء من الشوائب كما جرت عادتهم فى غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم فى الدعاء ، وليس هذا لأجل الإيمان باللّه وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى اللّه سبحانه ، وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى اللّه فى الشدائد ، وأن المضطرّ يجاب دعاؤه وإن كان كافرا . وفى هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم فى هذه الحالة وما يشابهها ، فيا عجبا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ؟ فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء للّه كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك اللّهّ ما فعلت هذه

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان ، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأوثان ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون . واللام فى : ﴿ **لئن أنجيتنا من هذه** ﴾ هى اللام الموطئة للقسم ، أى قائلين ذلك ، والإشارة : ﴿ **من هذه** ﴾ إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك فى البحر . واللام فى ﴿**لنكونن**﴾ جواب القسم ، أى لنكونن فى كل حال ممن يشكر نعمك التى أنعمت بها علينا ، منها هذه النعمة التى نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها ، وقيل : إن هذه الجملة مفعول ﴿**دعوا**﴾ .

﴿ **فلما نجاهم** ﴾ اللّه من هذه المحنة التى وقعوا فيها ، وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم . بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين ، وجعلوا البغى فى الأرض بغير الحق مكان الشكر . و« إذا » فى ﴿ **إذا هم يبغون**﴾ هى الفجائية، أى فاجؤوا البغى فى الأرض بغير الحق . والبغى : هو الفساد ، من قولهم بغى الجرح إذا ترامى فى الفساد ، وزيادة فى الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض ، والبغى وإن كان ينافى أن يكون بحق ، بل لا يكون إلا بالباطل ، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم : بل تمردًا وعنادا ؛ لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة .

قوله : ﴿ **يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** ﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدّم ذكرهم يبغون فى الأرض بغير الحق ذكر عاقبة البغى وسوء مغبته . قرأ ابن إسحاق وحفص والمفضل بنصب ﴿**متاع** ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع . فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة، أى بغيكم وبال على أنفسكم، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره ، ويكون ﴿ **متاع** ﴾ فى موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استئنافا ، وقيل : إن ﴿ **متاع** ﴾ على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج ، أى زمن متاع الحياة الدنيا ، وقيل : هو مفعول له ، أى لأجل متاع الحياة الدنيا، وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى كمتاع . وقيل : على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول، أى ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال فى توجيه النصب. وأما من قرأ برفع﴿ **متاع** ﴾ فجعله خبر المبتدأ ، أى بغيكم متاع الحياة الدنيا ، ويكون ﴿ **على أنفسكم** ﴾ متعلق بالمصدر ، والتقدير : إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التى لا بقاء لها ، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه : أبناء جنسهم ، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة ، وقيل : ارتفاع متاع على أنه خبر ثان . وقيل : على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو متاع . قال النحاس : على قراءة الرفع يكون ﴿ **بغيكم** ﴾ مرتفعا بالابتداء وخبره ﴿**متاع الحياة الدنيا** ﴾ و﴿ **على أنفسكم** ﴾ مفعول البغى ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ **على أنفسكم** ﴾ ويضمر مبتدأ ، أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا . انتهى . وقد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه المذكورة فى توجيه الرفع بما يطول به

البحث فى غير طائل . والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ ﴿ **على أنفسكم** ﴾ فالمعنى: أن ما يقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه ، وإن جعل الخبر ﴿ **متاع** ﴾ فالمراد أن بغى هذا الجنس الإنسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا ؛ فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى . ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال :﴿ **ثم إلينا مرجعكم** ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على القصر . والمعنى : أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله فيجازى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه ﴿ **فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا ، أى فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشرّ والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء : سأخبرك بما صنعت، وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ قال: خوفهم عذابه وعقوبته وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ قال : استهزاء وتكذيب . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وظنوا أنهم أحيط بهم**﴾ قال : هلكوا . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ما حاصله :أن النبى ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبى جهل ، هرب من مكة وركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا ، فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر الإخلاص ما ينجينى فى البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما ، فجاء فأسلم (١). وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم ، والخطيب فى تاريخه ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر ، والنكث ، والبغى » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ ، ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ [فاطر : ٤٣] ﴿فمن (٢) نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [الفتح : ١٠] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تبغ ولا تكن باغيا ، فإن الله يقول : ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ » (٣) . وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال : ثلاث من كن فيه كن عليه : المكر ، والبغى ، والنكث ، قال الله سبحانه: ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ .

(١) ابن إسحاق ٤/ ٥٢ مختصرا ، والطبرى فى التاريخ ٣/ ٣٠ .
(٢) فى المخطوطة: « ومن » والصحيح ما أثبتناه .
(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣٣٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٦٧١) ط . دار الكتب العلمية .

أقول أنا : وينبغى أن يلحق بهذه الثلاث التى دل القرآن على أنها تعود على فاعلها : الخدع ، فإن الله يقول : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ [البقرة : ٩]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما » [(١)] . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ .**

لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها ، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها ، وتجتلب النفوس ببهجتها . وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا ، ويهتكوا حرمهم حيالها وعشقا لجمالها الظاهرى ، وتكالبا على التمتع بها ، وتهافتا على نيل ما تشتهى الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب . فقال : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ إلى آخر الآية . والمعنى : أن مثلها فى سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه ، مثل ما على الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه ، بعد أن كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة ، وزهت أوراقه المتصافحة ، وتلألأت أنوار نوره . وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف فى قوله : ﴿ **كماء أنزلناه من السماء** ﴾ بل ما يفهم من الكلام ، والباء فى : ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ للسببية ، أى فاختلط بسببه نبات

(١) المقاصد الحسنة (٨٨٨) ، وروى موقوفا ومرفوعا على ابن عباس والموقوف أصح .

الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال ، ويحتمل أن يراد أن النبات كان فى أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿ **مما يأكل الناس والأنعام** ﴾ من الحبوب والثمار والكلأ والتبن وأخذت الأرض زخرفها . قال فى الصحاح : الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مموه مزور . انتهى. والمعنى : أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب ، وبعضه للون الفضة ، وبعضه للون الياقوت ، وبعضه للون الزمرد. وأصل ازينت : تزينت ، أدغمت التاء فى الزاى وجيء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن . والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبى بن كعب : « وتزينت » على الأصل . وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأزينت » على وزن أفعلت ، أى أزينت بالزينة التى عليها ، شبهها بالعروس التى تلبس الثياب الجيدة الملونة ألوانا كثيرة . وقال عوف ابن أبى جميلة : قرأ أشياخنا « وازيانت » على وزن اسوادت ، وفى رواية المقدمى : « وازانت » والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت . وقرأ الشعبى وقتادة : « أزينت » ، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا .﴿ **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ أى غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها ، والضمير فى عليها للأرض ، والمراد: النبات الذى هو عليها ﴿ **أتاها أمرنا** ﴾ جواب إذا ، أى جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ **فجعلناها حصيدا**﴾ أى جعلنا زرعها شبيها بالمحصود فى قطعة من أصوله . قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ أى كأن لم يكن زرعها موجودا فيه بالأمس مخضرا طريا، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به ، والمراد بالأمس : الوقت القريب ، والمغانى فى اللغة : المنازل. وقال قتادة : كأن لم تنعم ، قال لبيد :

غنيت سنينا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

وقرأ قتادة : « كأن لم يغن » بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف . وقرأ من عداه : ﴿**تغن** ﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿ **كذلك** ﴾ أى مثل ذلك التفصيل البديع ﴿**نفصل الآيات** ﴾ القرآنية التى من جملتها هذه الآية ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فيما اشتملت عليه ، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية .

قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق رغبهم فى الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام ، قال الحسن وقتادة : السلام : هو الله تعالى ، وداره الجنة . وقال الزجاج : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة . ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة، ومنه قول الشاعر :

تحيى بالسلامة أم بكر وهل لك بعد قومك من سلام

وقيل : أراد دار السلام الذى هو التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية

كما فى قوله : ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [إبراهيم : ٢٣] . وقيل : السلام اسم لأحد الجنان السبع : أحدها : دار السلام ، والثانية: دار الجلال ، والثالثة : جنة عدن ، والرابعة : جنة المأوى ، والخامسة : جنة الخلد ، والسادسة : جنة الفردوس ، والسابعة : جنة النعيم. وقيل : المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض فى الجنة ، وقد اتفقوا على أن دار السلام هى الجنة ، وإنما اختلفوا فى سبب التسميه بدار السلام ﴿ **ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة ، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلا للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه .

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين ، وبين حال كل طائفة فقال : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ أى الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصى ، والمراد بالحسنى : المثوبة الحسنى . قال ابن الأنبارى : العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ، ولذلك ترك موصوفها . وقيل: المراد بالحسنى الجنة، وأما الزيادة ، فقيل : المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل ، كقوله : ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [فاطر : ٣٠] . وقيل : الزيادة : النظر إلى وجهه الكريم . وقيل : الزيادة: هى مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها . وقيل : الزيادة : غرفة من لؤلؤ . وقيل : الزيادة : مغفرة من الله ورضوان . وقيل : هى أنه سبحانه يعطيهم فى الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى ذكره، وسيأتى بيان ما هو الحق فى آخر البحث. ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ معنى ﴿ **يرهق** ﴾ : يلحق ، ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل : يعلو. وقيل : يغشى ، والمعنى متقارب . والقتر : الغبار، ومنه قول الفرزدق :

متوج بـرداء الملك يتبعـه   موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقرأ الحسن : « قتر » بإسكان المثناة ، و المعنى واحد ، قاله النحاس ، وواحد القتر : قترة . والذلة : ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان ، والمعنى : أنه لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان . وقيل : القتر : الكآبة . وقيل : سواد الوجوه . وقيل : هو دخان النار . ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها ، المتنعمون بأنواع نعيمها . ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها**﴾ هذا الفريق الثانى من أهـل الدعوة ، وهو معطوف على ﴿ **للذين أحسنوا** ﴾ كأنه قيل : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أو يقدر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أى يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها ، وهذا أولى من الأول لكونه من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين ، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصى التى ليست بشرك، وهى ما يتلبس به العصاة من المعاصى ، قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى : جزاء سيئة مثلها ، وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت

مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها كقولك : إنما أنا بك ، ويجوز أن يتعلق بجزاء والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن فحذف خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿**جزاء**﴾ مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة فيكون مثل قوله: ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ [البقرة : ١٨٤] أى فعليه عدة . والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

قوله : ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . وقرئ : « يرهقهم » بالتحتية . ﴿**ما لهم من الله من عاصم** ﴾ أى لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط الله وعذابه ، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، والأول أولى . والجملة فى محل نصب على الحالية ، أو مستأنفة ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما**﴾ قطعا جمع قطعة ، وعلى هذا يكون ﴿ **مظلما** ﴾ منتصبا على الحال من الليل ، أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حالة ظلمته . وقد قرأ بالجمع جمهور القراء . وقرأ الكسائى وابن كثير : « قطعا» بإسكان الطاء ، فيكون ﴿**مظلما** ﴾ على هذا صفة لـ ﴿ **قطعا** ﴾ ويجوز أن يكون حالا من ﴿**الليل**﴾ قال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل . ﴿ **أولئك** ﴾ أى الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿ **أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا** ﴾ الحشر الجمع ، وجميعا منتصب على الحال ﴿ **ويوم** ﴾ منصوب بمضمر ، أى أنذرهم يوم نحشرهم ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة . والمعنى : أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا** ﴾ فى حالة الحشر ووقت الجمع تقريعا لهم على رؤوس الأشهاد ، وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة وحضور معبوداتهم ﴿ **مكانكم** ﴾ أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا فى موضعكم ﴿**أنتم وشركاؤكم** ﴾ هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسده مسد الزموا ، و ﴿ **شركاؤكم**﴾ معطوف عليه . وقرئ بنصب ﴿ **شركاؤكم** ﴾ على أن الواو واو مع .

قوله :﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا ، يقال : زيلته فتزيل ، أى فرقته فتفرق ، والمزايلة المفارقة ، يقال : زايله مزايلة وزيالا إذا فارقه ، والتزايل : التباين قال الفراء : وقرأ بعضهم : « فزايلنا » والمراد بالشركاء هنا : الملائكة . وقيل : الشياطين . وقيل : الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها فى هذا الوقت . وقيل : المسيح، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان ، وجملة : ﴿ **وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه : ما كنتم إيانا تعبدون ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم ، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه ، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية .

وقيل : لكونهم شركاؤهم فى هذا الخطاب ، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم ، فمعناه : إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم** ﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم ﴿ **إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، والقائل لهذا الكلام هم المعبودون . قالوا لمن عبدهم من المشركين : إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين ، والمراد بالغفلة هنا : عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم ، وفى هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين ؛ لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم ، ويمكن أن يكونوا من الشياطين، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، ولا أكرهوهم عليها .

﴿ **هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ أى فى ذلك المكان وفى ذلك الموقف ، أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل ، فمعنى ﴿ **تبلو** ﴾ : تذوق وتختبر . وقيل : تعلم . وقيل :تتبع ، وهذا على قراءة من قرأ ﴿**تبلو** ﴾ بالمثناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس ، وأما على قراءة من قرأ : « نبلو » بالنون، فالمعنى : أن الله يبتلى كل نفس ويختبرها ، ويكون ما أسلفت بدلا من كل نفس . والمعنى : أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها . قوله : ﴿ **وردوا إلى الله مولاهم الحق**﴾ معطوف على ﴿ **زيلنا** ﴾ ، والضمير فى ﴿ **ردوا** ﴾ عائد إلى الذين أشركوا ، أى ردوا إلى جزائه ، وما أعد لهم من عقابه ، و ﴿ **مولاهم** ﴾ : ربهم ، و ﴿ **الحق** ﴾ صفة له ، أى الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة ، وقرئ : « الحق » بالنصب على المدح كقولهم : الحمد لله أهل الحمد ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التى لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه . والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون فى ذلك المقام إلى الحق ، ويعترفون به ، ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلها ، ولكن حين لا ينفعهم ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ قال : اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿ **مما يأكل الناس** ﴾ كالحنطة والشعير ، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار ، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**وازينت** ﴾ قال : أنبتت وحسنت ، وفى قوله : ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ قال : كأن لم تعش ، كأن لم تنعم . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب وابن عباس ومروان بن الحكم أنهم كانوا يقرؤون بعد قوله: ﴿ **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه كان يقرأ «وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات » . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال : كان مكتوب فى سورة يونس إلى حيث هذه الآية : ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها** ﴾ إلى ﴿ **يتفكرون** ﴾ ،

ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، فمحيت .

وأخرج أبو نعيم ، والدمياطى فى معجمه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ يقول : يدعو إلى عمل الجنة ، والله : السلام ، والجنه : داره . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **ويهدى من يشاء** ﴾ قال : يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، فما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا ، ﴿والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى﴾ إلى قوله : ﴿للعسرى﴾ [الليل :١ــ١٠] »(١) . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن سعيد بن أبى هلال سمعت أبا جعفر محمد بن على وتلا : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فقال : حدثنى جابر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى ، وميكائيل عند رجلى ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا ، ثم بنى فيها بيتا ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من ترك ؛ فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يامحمد رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها » (٢) وقد روى معنى هذا من طرق . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ قال : ذكر لنا أن فى التوراة مكتوبا : يا باغى الخير هلم ، ويا باغى الشر اتقه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه كان إذا قرأ : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ قال : لبيك ربنا وسعديك .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب ؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة ،

(١) أحمد ٥/ ١٩٧ والطيالسى فى مسنده (٩٧٤) وابن جرير ١١/ ٧٣ وابن حبان (٦٨٥) وصححه الحاكم ٢/ ٤٤٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣١٣٩) وإسناده رجال موثقون .

(٢) ابن جرير ٧/ ٧٣ وصححه الحاكم ٤/ ٣٩٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٧٠ .

إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؛ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم » (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الرؤية ، وابن مردويه عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ: « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسمعه أولهم وآخرهم : إن الله وعدكم الحسنى وزيادة » فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الرؤية عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الزيادة : النظر إلى وجه الرحمن » (٣) . وأخرج هؤلاء والدارقطنى وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الذين أحسنوا : أهل التوحيد ، والحسنى : الجنة ، والزيادة: النظر إلى وجه الله » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ والدارقطنى وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطنى وابن مردويه والبيهقى عن أبى بكر الصديق فى الآية قال : الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن مردويـه من طريق الحرث عن على بن أبى طالب فى الآية مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطنى والبيهقى عن حذيفة فى الآية قال : الزيادة : النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والدارقطنى والبيهقى عن أبى موسى نحوه . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم واللالكائى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن على قال : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وزيادة** ﴾ قال : هو مثل قوله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ [ق: ٣٥] يقول : يجزيهم بعملهم ، ويزيدهم من فضله . وقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠] . وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات فى تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه . وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال ، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به ، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم ، والله المستعان .

---

(١) أحمد ٤/ ٣٣٢ ، ٣٣٣ ومسلم فى الإيمان (١٨١/ ٢٩٧) والترمذى فى صفة الجنة ونعيمها (٢٥٥٢) وقال الترمذى : « إنما أسنده حماد بن مسلمة ورفعه » وابن ماجة فى المقدمة (١٨٧) وابن جرير ١١/ ٧٥ .
(٢ ، ٣) ابن جرير ١١/ ٧٤ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يرهق وجوههم** ﴾ قال : لا يغشاهم ﴿**قتر**﴾ قال : سواد الوجوه . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال : القتر : سواد الوجه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : خزى . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب عن النبى ﷺ ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ قال : « بعد نظرهم إليه عز وجل » . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **والذين كسبوا السيئات** ﴾ قال : الذين عملوا الكبائر ﴿ **جزاء سيئة بمثلها** ﴾ قال : النار ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما** ﴾ القطع : السواد . نسختها الآية فى البقرة : ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية [البقرة : ٨١] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وترهقهم ذلة** ﴾ قال : تغشاهم ذلة وشدة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **مالهم من الله من عاصم** ﴾ يقول : من مانع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ قال : الحشر الموت [1] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ قال : فرقنا بينهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : تنصب الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فيقول : هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون : نعم هؤلاء الذين كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا . فيقولون : بلى والله لإياكم كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة: ﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله ، فيتبعونهم حتى يؤدوهم النار » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **هنالك تبلو** ﴾ يقول : تتبع . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: ﴿ **تبلو** ﴾ : تختبر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **تبلو** ﴾ قال : تعاين ﴿ **كل نفس ما أسلفت** ﴾ ما عملت ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ ما كانوا يدعون معه من الأنداد . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿**وردوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ قال : نسخها قوله : ﴿ الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد: ١١].

﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**

---

(١) ابن جرير ١١/ ٧٨ بدون سند ، قال :« عن مجاهد أنه كان يتأول الحشر فى هذا الموضع : الموت» .

عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والإعادة والإرشاد والهدى ، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ فى إلزام الحجة وأوقع فى النفوس، فقال: ﴿ **قل** ﴾ يا محمد، للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ماهم عليه من الشرك ﴿ **من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ، فإن اعترفوا حصل المطلوب ، وإن لم يعترفوا فلابد أن يعترفوا بأن الله هو الذى خلقهما ﴿ **أم من يملك السمع والأبصار** ﴾ «أم » هى المنقطعة، وفى هذا انتقال من سؤال إلى سؤال ، وخص السمع والبصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والقدرة الباهرة العظيمة ، أى من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ، ويحصلون بهما من الفوائد مالا يدخل تحت حصر الحاصرين . ثم انتقل إلى حجة ثالثة ، فقال : ﴿ **ومن يخرج الحى من الميت** ﴾ الإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والنبات من الحبة ، أو المؤمن من الكافر ﴿ **ويخرج الميت من الحى** ﴾ أى النطفة من الإنسان ، أو الكافر من المؤمن ، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيى ويميت . ثم انتقل إلى حجة رابعة ، فقال : ﴿ **ومن يدبر الأمر**﴾ أى يقدره ويقضيه ، وهذا من عطف العام على الخاص ؛ لأنه قد عم ما تقدم وغيره ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أى سيكون قولهم فى جواب هذه الاستفهامات : إن الفاعل لهذه الأمور هو الله سبحانه إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أى الله يفعل ذلك ، ثم أمره الله سبحانه بعد

أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم : ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ والاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر ، أى تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذى يفعل هذه الأفعال .

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ أى فذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق لا ما جعلتموهم شركاء له ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ للتقريع والتوبيخ إن كانت « ما » استفهامية ، لا إن كانت نافية كما يحتمله الكلام ، والمعنى أى شىء بعد الحق إلا الضلال ، فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم فكان غيره باطلا؛ لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا فى ذاته وصفاته : ﴿**فأنى تصرفون** ﴾ أى كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون فى الضلال إذ لا واسطة بينهما ؟ فمن تخطى أحدهما وقع فى الآخر، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** ﴾ أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة ربك، أى حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا ، أى خرجوا من الحق إلى الباطل وتمردوا فى كفرهم عنادا ومكابرة ، وجملة ﴿**أنهم لا يؤمنون** ﴾ بدل من الكلمة . قاله الزجاج : أى حقت عليهم هذه الكلمة ، وهى عدم إيمانهم ، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام ، أى لأنهم لا يؤمنون . وقال الفراء : إنه يجوز أنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف ، وقد قرأ نافع وابن عامر : «كلمات ربك » بالجمع . وقرأ الباقون بالإفراد .

قوله : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده** ﴾ أورد سبحانه فى هذا حجة خامسة على المشركين ، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم ، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد ، ولكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا ، وقد أقام الأدلة عليه فى هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذى لا جحد له ولا إنكار فيه ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم : ﴿ **قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ أى هو الذى يفعل ذلك لا غيره وهذا القول الذى قاله النبى ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين فى الجواب ، إما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وإرشادهم إلى ما يقولون . وإما لكون هذا المعنى قد بلغ فى الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ومعرفة ما لديه، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب فى هذا الجواب فرارا منه عن أن تلزمهم الحجة أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق ، ومعنى ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ : فكيف تؤفكون ، أى تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره .

ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال : ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق** ﴾ والاستفهام هاهنا ، كالاستفهامات السابقة ، والاستدلال بالهداية بعد

الاستدلال بالخلق وقع كثيرا فى القرآن كقوله : ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ [الشعراء : ٧٨] وقوله : ﴿ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ [طه: ٥٠] ، وقوله : ﴿ الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى ﴾ [الأعلى : ٢، ٣] ، وفعل الهداية يجىء متعديا باللام وإلى ، وهما بمعنى واحد. روى ذلك عن الزجاج . والمعنى : قل لهم يا محمد ، هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام ويدعو الناس إلى الحق ؟ فإذا قالوا : لا ، فقل لهم : الله يهدى للحق دون غيره ، ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا ، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هى بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات ، وإرساله للرسل وإنزاله للكتب ، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفمن يـهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ للتقرير وإلـزام الحجـة .

وقد اختلف القراء فى ﴿ **لا يهدى** ﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعا : « يهدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا فى قراءتهم هذه بين ساكنين . قال النحاس : والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد: لابد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاسا . وقرأ أبو عمرو وقالون فى رواية بين الفتح والإسكان . وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال النحاس هذه القراءة بينة فى العربية ، والأصل فيها يهتدى ، أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها إلى الهاء . وقرأ حفص ويعقوب والأعمش مثل قراءة ابن كثير إلا أنهم كسروا الهاء ، قالوا : لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر عن عاصم : « يهدى » بكسر الياء والهاء وتشديد الدال وذلك للاتباع . وقـرأ حمزة والكسائى وخـلف ويحيى بـن وثاب : « يهدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من هدى يهدى . قال النحاس :وهذه القراءة لها وجهان فى العربية ، وإن كانت بعيدة : الأول أن الكسائى والفراء قالا : إن ﴿ **يهدى** ﴾ بمعنى يهتدى . الثانى : أن أبا العباس قال : إن التقدير أم من لا يهدى غيره ، ثم تم الكلام وقال بعد ذلك : ﴿ **إلا أن يهدى** ﴾ أى لكنه يحتاج أن يهدى فهو استثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أى لكنه يحتاج أن يسمع ، والمعنى على القراءات المتقدمة : أفمن يهدى الناس إلى الحق ، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدى به ، أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره ؟ والاستثناء على هذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

قوله : ﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين ، أى أىّ شىء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ، و﴿ **كيف** ﴾ فى محل نصب بـ ﴿**تحكمون**﴾، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه فى أمر دينهم ، وعلى أى شىء بنوه . وبأى شىء اتبعوا هذا الدين الباطل ، وهو الشرك فقال : ﴿**وما يتبع**

أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ وهذا كلام مبتدأ غير داخل فى الأوامر السابقة، والمعنى : ما يتبع هؤلاء المشركون فى إشراكهم بالله وجعلهم له أندادا إلا مجرد الظن والتخمين والحدس (١) ، ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله ، وأنها تشفع لهم ، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط ، بل مجرد خيال مختل وحدس باطل ، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير : أى إلا ظنا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون . وقيل : المراد بالآية : إنه ما يتبع أكثرهم فى الإيمان بالله والإقرار به إلا ظنا . والأول أولى . ثم أخبرنا الله سبحانه بأن مجرد الظن لا يغنى من الحق شيئا ، لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم ، وبه يتضح الحق من الباطل ، والظن لا يقوم مقام العلم ، ولا يدرك به الحق ، ولا يغنى عن الحق فى شىء من الأشياء ، ويجوز انتصاب شيئا على المصدرية أو على أنه مفعول به ، و ﴿ **من الحق**﴾ حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿ **إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان .

قوله : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع فى تثبيت أمر النبوة : أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون الله ، وإنما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح أن يكون مفترى ، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا وأدقهم أذهانا ﴿ **ولكن** ﴾ كان هذا القرآن ﴿ **تصديق الذى بين يديه** ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء ، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ؛ لأن أقاصيصه موافقة لما فى الكتب المتقدمة ، مع أن النبى ﷺ لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك ، وانتصاب ﴿ **تصديق** ﴾ على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن ، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف ، أى لكن أنزله الله تصديق الذى بين يديه. قال الفراء: ومعنى الآية : وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى ، كقوله : ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ [آل عمران:١٦١] ، ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة : ١٢٢] . وقيل : إن ﴿**أن** ﴾ بمعنى اللام ، أى وما كان هذا القرآن ليفترى. وقيل : بمعنى لا ، أى لا يفترى . قال الكسائى والفراء : إن التقدير فى قوله : ﴿ **ولكن تصديق** ﴾ ولكن كان تصديق ، ويجوز عندهما الرفع، أى ولكن هو تصديق . وقيل : المعنى : ولكن القرآن تصديق ﴿ **الذى بين يديه** ﴾ من الكتب ، أى أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقا لها . وقيل : المعنى : ولكن تصديق النبى الذى بين يدى القرآن ، وهو محمد ﷺ ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن .

قوله : ﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **ولكن تصديق الذى بين يديه** ﴾ فيجىء

(١) حدس فى الأرض حدسا : ذهب على غير هداية ، وفى السير : أسرع ومضى على غير استقامة ، وفى الأمر ونحوه ظن وخمّن .

فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين فى ﴿ **تصديق** ﴾ ، والتفصيل : التبيين ، أى يبين ما فى كتب الله المتقدمة ، والكتاب للجنس . وقيل: أراد ما بين فى القرآن من الأحكام ، فيكون المراد بالكتاب : القرآن . قوله : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ الضمير عائد إلى القرآن ، وهو داخل فى حكم الاستدراك خبر ثالث ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال من الكتاب ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محل لها ، و ﴿ **من رب العالمين** ﴾ خبر رابع ، أى كائن من رب العالمين ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب ، أو من ضمير القرآن فى قوله : ﴿**لا ريب فيه** ﴾ أى كائنا من رب العالمين ، ويجوز أن يكون متعلقا بتصديق وتفصيل ، وجملة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ معترضة.

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة ، و « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أيقولون افتراه واختلقه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ، أى ويقولون افتراه . وقيل : الميم زائدة ، والتقدير : أيقولون افتراه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ . ثم أمره الله سبحانه أن يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بسورة مثله** ﴾ أى إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله فى البلاغة ، وجودة الصناعة ، فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ﴿**وادعوا** ﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿ **من استطعتم** ﴾ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ، ومن آلهتكم التى تجعلونهم شركاء لله . وقوله : ﴿ **من دون الله** ﴾ متعلق بـ ﴿ **ادعوا** ﴾ أى ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى .

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول ، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم فى البشرية والعربية ، قال لهم : هذا الذى نسبتموه إلى وأنا واحد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع الجم بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم ، أو من غيرهم من بنى آدم ، أو من الجن ، أو من الأصنام ، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتى فأنتم صادقون فيما نسبتموه إلى وألصقتموه بى ، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة ، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة ، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدى البالغ : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ فأضرب عن الكلام الأول ، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه ، وهكذا صنع من تصلب فى التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف ، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه ، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه ، كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا . والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشىء فى هذا

التكذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به ، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت ، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

قوله : ﴿ **ولما يأتهم تأويله** ﴾ معطوف على : ﴿ **لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم . والمعنى : أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه ، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين والأمم السابقين ، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التى أخبر عنها قبل كونها ، أو قبل أن يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم ، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغى ، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعانى الرشيقة واللطائف الأنيقة ، وكلمة التوقع أظهر فى المعنى الأول . ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه . فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه ، وقبل أن يأتيهم تأويله . ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم كما حكى ذلك القرآن عنهم ، واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم .

قوله : ﴿ **ومنهم من يؤمن به** ﴾ أى ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به فى نفسه ويعلم أنه صدق وحق ، ولكنه كذب به مكابرة وعنادا : وقيل : المراد : ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن كذب به فى الحال ، والموصول مبتدأ ، وخبره منهم ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ ولا يصدقه فى نفسه ، بل كذب به جهلا كما مر تحقيقه ، أو لا يؤمن به فى المستقبل ، بل يبقى على جحوده وإصراره . وقيل : الضمير في الموضعين للنبى ﷺ . وقد قيل : إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة ، وقيل : عام فى جميع الكفار ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، والمراد بهم : المصرون المعاندون ، أو بكلا الطائفتين ، وهم الذين يؤمنون به فى أنفسهم ويكذبون به فى الظاهر ، والذين يكذبون به جهلا ، أو الذين يؤمنون به فى المستقبل ، والذين لا يؤمنون به . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا عليه : ﴿ **لى عملى ولكم عملكم** ﴾ أى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه ، وليس على غير ذلك ، ثم أكد هذا بقوله : ﴿ **أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ أى لا تؤاخذون بعملى ، ولا أؤاخذ بعملكم . وقد قيل : إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك** ﴾ يقول : سبقت كلمة ربك . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : صدقت : وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أم من لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ قال : الأوثان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى** ﴾ الآية ، قال : أمره بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم .

﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمعون** ﴾ إلخ بين اللّه سبحانه فى هذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النفرة والعداوة إلى هذا الحد ، وهى أنهم يستمعون إلى النبىّ ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع فى الظاهر ، ولكنهم لا يسمعون فى الحقيقة لعدم حصول أثر السماع ، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه ولهذا قال : ﴿ **أفأنت تسمع الصمّ** ﴾ يعنى : أن هؤلاء إن استمعوا فى الظاهر فهم صمّ ، والصمم مانع من سماعهم ، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع ، وهو الصمم ، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنهم لا يعقلون ، فإن من كان أصمّ غير عاقل لايفهم شيئا ولا يسمع ما يقال له . وجمع الضمير فى ﴿**يستمعون** ﴾ حملا على معنى من ، وأفرده فى ﴿ **ومنهم من ينظر** ﴾ حملا على لفظه . قيل : والنكتة : كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناشرين ؛ لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع ، والنور الموافق لنور البصر ، والتقدير فى قوله :﴿ **ومنهم من يستمعون** ﴾،﴿ **ومنهم من ينظر** ﴾ : ومنهم ناس يستمعون ، ومنهم بعض ينظر ، والهمزتان فى ﴿**أفأنت تسمع** ﴾ ﴿ **أفأنت تهدى** ﴾ للإنكار والفاء فى الموضعين للعطف على مقدر ، كأنه قيل : أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم ؟ والكلام فى : ﴿ **ومنهم**

من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ كالكلام فى ﴿ **ومنهم من يستمعون**﴾ إلخ ؛ لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه فى النظر . وقد انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة ؛ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح مايفهم به فى بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر ، وكذلك الأصمّ العاقل قد يتحدّس تحدّسا يفيده بعض فائدة ، بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الإدراك . وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسدّ عليه باب الهدى ، وجواب « لو » فى الموضعين محذوف دلّ عليهما ماقبلهما ، والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول اللّه ﷺ ، فإن الطبيب إذا رأى مريضا لا يقبل العلاج أصلا أعرض عنه واستراح من الاشتغال به .

قوله : ﴿ **إن اللّه لا يظلم الناس شيئا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه اللّه لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة ، بل لأجل ما صار فى طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والإصرار على الكفر ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ، ولم يظلمهم اللّه شيئا من الأشياء ، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك ، وركب فيهم من الحواس مايصلون به إلى ما يريدون ، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم ، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية ، فعلى نفسها براقش تجنى . وقرأ حمزة والكسائى : « ولكن الناس » بتخفيف النون ورفع الناس ، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب الناس . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء ، أن العرب إذا قالت : « ولكن » بالواو شدّدوا النون ، وإذا حذفوا الواو خففوها . وقيل : والنكتة فى وضع الظاهر موضع المضمر زيادة التعيين والتقرير ، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر ، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الظرف منصوب بمضمر ، أى واذكر يوم نحشرهم ﴿ **كأن لم يلبثوا** ﴾ أى كأنهم لم يلبثوا ، والجملة فى محلّ نصب على الحال ، أى مشبهين من لم يلبث ﴿ **إلا ساعة من النهار** ﴾ أى شيئا قليلا منه ، والمراد باللبث : هو اللبث فى الدنيا ، وقيل : فى القبور ، واستقلوا المدّة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم فى الدنيا ، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة ، أو لطول وقوفهم فى المحشر ، أو لشدّة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ، ومثل هذا قولهم : ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ [المؤمنون : ١١٣] . وجملة : ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة . والمعنى: يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام . وقيل : إن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ [المعارج : ١٠] وقوله : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ [المؤمنون : ١٠١]

فيجمع بأن المراد بالتعارف ؛ هو تعارف التوبيخ وعليه يحمل قوله : ﴿ ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ [سبأ : ٣١] ، وقد جمع بين الآيات المختلفة فى مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون فى بعض المواقف ما لا يكون فى الآخر﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء اللّه وما كانوا مهتدين**﴾ هذا تسجيل من اللّه سبحانه عليهم بالخسران ، والجملة فى محل النصب على الحال ، والمراد بلقاء اللّه يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم .

قوله : ﴿ **وإما نرينك بعض الذى نعدهم** ﴾ أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد ، والمعنى إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذى وعدناهم من إظهار دينك فى حياتك. بقتلهم وأسرهم ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فتراه ، أو فذاك ، وجملة ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ معطوفة على ما قبلها ، والمعنى : أو لا نرينك ذلك فى حياتك بل نتوفينك قبل ذلك ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ فعند ذلك نعذبهم فى الآخرة فنريك عذابهم فيها ، وجواب ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ محذوف أيضا ، والتقدير : أو نتوفينك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك فى الآخرة ؛ وقيل : إن جواب ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ هو قوله : ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ لدلالته على ماهو المراد من إراءة النبى ﷺ تعذيبهم فى الآخرة ، وقيل : العدول إلى صيغة المستقبل فى الموضعين لاستحضار الصورة ، والأصل أريناك أو توفيناك ، وفيه نظر ، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد اللّه المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة . وحاصل معنى هذه الآية : إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . وقد أراه اللّه سبحانه قتلهم وأسرهم وذلهم وذهاب عزّهم وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فى يوم بدر وما بعده من المواطن ، فلله الحمد .

قوله : ﴿ **ثم اللّه شهيد على مايفعلون** ﴾ جاء بثم الدالة على التبعيد مع كون اللّه سبحانه شهيدا على ما يفعلونه فى الدارين للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة ، فجعل ذلك بمنزلة شهادة اللّه عليهم كما ذكره النيسابورى ﴿ **ولكل أمة** ﴾ من الأمم الخالية فى وقت من الأوقات ﴿ **رسول** ﴾ يرسله اللّه إليهم ، ويبين لهم ما شرعه اللّه لهم من الأحكام على حسب ماتقتضيه المصلحة ﴿**فإذا جاء رسولهم** ﴾ إليهم وبلغهم ما أرسله اللّه به فكذبوه جميعا ﴿ **قضى بينهم** ﴾ أى بين الأمة ورسولها ﴿ **بالقسط** ﴾ أى العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له كما قال سبحانه : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] . ويجوز أن يراد بالضمير فى ﴿ **بينهم** ﴾ الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم.وصدقه البعض الآخر ، فيهلك المكذبون وينجو المصدقون ﴿**وهم لا يظلمون** ﴾ فى ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : ٤١] . والمراد المبالغة فى إظهار العدل والنصفة بين

العباد ، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار ، وذلك أن النبى ﷺ كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿ **يقولون متى هذا الوعد** ﴾ والاستفهام منهم للإنكار والاستبعاد وللقدح فى النبوّة ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ خطابا منهم للنبىّ ﷺ وللمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله ، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم اللّه إليهم .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشبهة ويقطع اللجاج فقال : ﴿**قل لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا** ﴾ أى لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضرّ عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيرى، وقدّم الضرّ، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذى استعجلوه واستبعدوه، والاستثناء فى قوله: ﴿**إلا ما شاء اللّه** ﴾ منقطع كما ذكره أئمة التفسير ، أى ولكن ما شاء اللّه من ذلك كان ، فكيف أقدر على أن أملك لنفسى ضرا أو نفعا ، وفى هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول اللّه ﷺ والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا اللّه سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لايقدر على تحصيله إلا اللّه سبحانه ، فإن هذا مقام ربّ العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شىء الخالق الرازق المعطى المانع ؟ وحسبك بما فى هذه الآية موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره اللّه بأن يقول لعباده : لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا ، فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ، فياعجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ وجلّ ؟ كيف لايتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا اللّه ، ومدلول ﴿قل هو اللّه أحد ﴾ [الإخلاص : ١] ؟ وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشدّ منها فإن أولئك يعترفون بأن اللّه سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت الضارّ النافع ، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند اللّه ومقرّبين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من شرّ سماعه واللّه ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، ولقد توسل الشيطان أخزاه اللّه بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [الكهف : ١٠٤] إنا للّه وإنا إليه راجعون .

ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حدّا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿ **لكل أمة أجل**﴾ فإذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده وجازى كلا بما يستحقه ، والمعنى : أن لكل

أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم ، أو بين بعضهم البعض أجلا معينا ووقتا خاصا يحلّ بهم مايريده الله سبحانه لهم عند حلوله ﴿ **إذا جاء أجلهم** ﴾ أى ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿ **فلا يستأخرون** ﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿**ساعة** ﴾ أى شيئا قليلا من الزمان ﴿ **ولا يستقدمون** ﴾ عليه ، وجملة : ﴿ **لا يستقدمون** ﴾ معطوفة على جملة ﴿**لا يستأخرون** ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ [الحجر : ٥]. والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم فى تفسير الآية التى فى أوّل الأعراف فلا نعيده.

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله: ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإما نرينك**﴾ الآية ، قال : سوء العذاب فى حياتك ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ قبل ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم** ﴾ قال : يوم القيامة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه** ﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار فى استعجال العذاب بعد التزييف الأوّل ، أى أخبرونى إن أتاكم عذاب الله ﴿ **بياتا** ﴾ أى وقت بيات . والمراد به : الوقت الذى يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز ، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم ، وهو منتصب على الظرفية . وكذلك نهارا ، أى وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب ، والضمير فى ﴿ **منه** ﴾ راجع إلى العذاب ، وقيل : راجع إلى الله ، والاستفهام فى : ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ للإنكار المتضمن للنهى كما فى قوله :﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : ١] ووجه الإنكار عليهم فى استعجالهم أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له ؟ والجملة المصدرة بالاستفهام جواب

الشرط بحذف الفاء . وقيل : إن الجواب محذوف ، والمعنى : تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه . وقيل : إن الجواب قوله : ﴿ **أثم إذا ماوقع** ﴾ وتكون جملة : ﴿ **ماذا يستعجل منه المجرمون** ﴾ اعتراضا ، والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان . والأوّل أولى ، وإنما قال : ﴿ **يستعجل منه المجرمون** ﴾ ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ؛ لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه ، فكيف يستعجله ؟ كما يقال لمن يستوخم أمرا إذا طلبه : ماذا تجنى على نفسك . وحكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى ﴿ **منه** ﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك فى ﴿**ماذا** ﴾ تقديران : أحدهما : أن تكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و« ذا » بمعنى الذى، وهو خبر ما ، والعائد محذوف ، والتقدير الآخر : أن يكون ﴿ **ماذا** ﴾ اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر ما بعده ، وإن جعل الضمير فى﴿ **منه** ﴾ عائدا إلى اللّه تعالى كان ﴿**ماذا**﴾ شيئا واحدًا فى موضع نصب بـ﴿ **يستعجل** ﴾. والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون ، أى من اللّه عزّ وجلّ .

ودخول الهمزة الاستفهامية فى : ﴿ **أثم إذا ما وقع آمنتم به** ﴾ على ثم كدخولها على الواو والفاء ، وهى لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع ما فعلوه فى غير وقته مع تركهم له فى وقته الذى يحصل به النفع والدفع ، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به . وجىء بكلمة « ثم » التى للتراخى دلالة على الاستبعاد ، وجىء بـ﴿ **إذا** ﴾ مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة استجهال لهم ، والمعنى : أبعد ما وقع عذاب اللّه عليكم . وحلّ بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئا ، ولا يدفع عنكم ضرًا . وقيل: إن هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزراء عليهم والأول أولى . وقيل إن ثم هاهنا هى بفتح الثاء فتكون ظرفية بمعنى هناك والأوّل أولى .

قوله : ﴿**آلآن وقد كنتم به تستعجلون** ﴾ قيل : هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذى أمر اللّه رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، أى قيل ، لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون ، أى بالعذاب تكذيبا منكم واستهزاء ؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول التوبيخ لهم والاستهزاء بهم والإزراء عليهم ، وجملة : ﴿ **وقد كنتم به تستعجلون**﴾ فى محل نصب على الحال ، وقرئ : « آلان » بحذف الهمزة التى بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

قوله : ﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد** ﴾ معطوف على الفعل المقدّر ، قيل : آلآن ، والمراد منه: التقريع والتوبيخ لهم ، أى قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان : إن هذا الذى تطلبونه ضرر محض ، عار عن النفع من كل وجه ، والعاقل لا يطلب ذلك ،

ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم : ذوقوا عذاب الخلد ، أى العذاب الدائم الذى لا ينقطع ، والقائل لهم هذه المقالة والتى قبلها قيل : هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص ، أو المؤمنون على العموم ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ فى الحياة من الكفر والمعاصى . والاستفهام للتقرير ، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة .

ثم حكى اللّه سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة ، والجوابات عن أقوالهم الباطلة : أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب ، فقال : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو** ﴾ أى يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار أحق ما تعدنا به من العذاب فى العاجل والآجل، وهذا السؤال منهم جهل محض . وظلمات بعضها فوق بعض ، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه ، فصنيعهم فى هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا يقال له . وقيل : المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن ، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم . والمبتدأ هو الضمير الذى بعده، وتقديم الخبر للاهتمام ، أو هو مبتدأ ، والضمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر، والجملة فى موضع نصب بـ ﴿**يستنبئونك**﴾ ، وقرئ « آلحق هو » على أن اللام للجنس ، فكأنه قيل أهو الحق لا الباطل .

قوله : ﴿ **قل إى وربى إنه لحق** ﴾ أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جوابا عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء ، أى قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء : إى وربى إنه لحق ، أى نعم وربى إن ما أعدكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة . وفى هذا الجواب تأكيد من وجوه : الأوّل : القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم ؛ الثانى : دخول إن المؤكدة ؛ الثالث : اللام فى لحق ؛ الرابع: إسمية الجملة ، وذلك يدلّ على أنهم قد بلغوا فى الإنكار والتمرّد إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ، ثم توعدهم بأشدّ توعد ، ورهبهم بأعظم ترهيب ، فقال : ﴿ **وما أنتم بمعجزين**﴾ أى فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذى لا ينفع والمكابرة التى لا تدفع من قضاء اللّه شيئا ، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم ، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب اللّه بوجه من الوجوه .

ثم زاد فى التأكيد ، فقال : ﴿ **ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به** ﴾ أى ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر باللّه وعدم الإيمان به ما فى الأرض من كل شىء من الأشياء التى تشتمل عليها من الأموال النفيسة والذخائر الفائقة لافتدت به : أى جعلته فدية لها من العذاب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به ﴾ [آل عمران : ٩١] . وقد تقدم قوله : ﴿ **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب** ﴾ الضمير راجع إلى الكفارالذين سياق الكلام معهم . وقيل : راجع إلى الأنفس المدلول عليها بكل نفس . ومعنى ﴿ **أسروا** ﴾ : أخفوا ، أى لم يظهروا

الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه فى ذلك الموطن مما سلب عقولهم ، وذهب بتجلدهم ، ويمكن أنه بقى فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التى كانوا عليها فى الدنيا ، فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون ، وقيل : أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضلوهم وحالوا بينهم وبين الإسلام ، ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : ١٠٦] . وقيل : معنى ﴿ **أسروا** ﴾ : أظهروا . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها ، ومنه قول كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى　　　بردّ جمال عاضرة المنادى

وذكر المبرد فى ذلك وجهين : الأوّل : أنها بدت فى وجوههم أسرة الندامة ، وهى الانكسار ، واحدها سرار، وجمعها أسارير ، والثانى : ما تقدّم . وقيل : معنى ﴿ **أسرّوا الندامة** ﴾ : أخلصوها ؛ لأن إخفاءها إخلاصها ، و ﴿ **لما** ﴾ فى قوله : ﴿ **لما رأوا العذاب** ﴾ ظرف بمعنى حين منصوب بأسرّوا ، أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿**وقضى بينهم بالقسط**﴾ أى قضى اللّه بين المؤمنين وبين الكافرين أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين . وقيل: معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقسط : العدل ، وجملة : ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى لا يظلمهم اللّه فيما فعله بهم من العذاب الذى حلّ بهم فإنه بسبب ما كسبوا .

وجملة : ﴿ **ألا إن للّه ما فى السموات والأرض** ﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته ؛ لأن من ملك ما فى السموات والأرض تصرف به كيف يشاء ، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات ، قيل : لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها للّه ، وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به . وقيل : لما أقسم على حقية ما جاء به النبى ﷺ أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين بأن ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه يتصرّف به كيف يشاء ، وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين ، وإيقاظ للذاهلين ، ثم أكد ما سبق بقوله : ﴿ **ألا إن وعد اللّه حق**﴾ أى كائن لا محالة ، وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجا أوّليا ، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿**ولكن أكثر الناس** ﴾ أى الكفار ﴿ **لا يعلمون** ﴾ ما فيه صلاحهم فيعملون به ، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿ **هويحيى ويميت** ﴾ يهب الحياة ويسلبها ﴿**وإليه ترجعون** ﴾ فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

قوله : ﴿ **يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم** ﴾ يعنى القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه ، والوعظ فى الأصل : هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب ،

والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضرّه ، و« مِنْ » فى ﴿ **من ربكم** ﴾ متعلقة بالفعل ، وهو ﴿ **جاءتكم** ﴾ ، فتكون ابتدائية ، أو متعلقة بمحذوف ، فتكون تبعيضية ﴿ **وشفاء لما فى الصدور**﴾ من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة ، والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبرمعانيه إلى الموصلة إلى الجنة ، والرحمة : هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأموال التى يرحم الله بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها ، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور .

ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم . فقال : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده فى الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم . وروى عن ابن عباس أنه قال : فضل الله : القرآن . ورحمته : الإسلام ، وروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل الله : الإيمان . ورحمته : القرآن : والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل فى ذلك ما فى القرآن منهما دخولا أوّلياء ، وأصل الكلام : قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثانى فى قوله : ﴿ **فبذلك فليفرحوا** ﴾ عليه ، قيل : والفاء فى هذا الفعل المحذوف داخلة فى جواب شرط مقدّر كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح . وتكرير الباء فى برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقلّ فى الفرح ، والفرح : هو اللذة فى القلب بسبب إدراك المطلوب ، وقد ذمّ الله سبحانه الفرح فى مواطن كقوله : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص : ٧٦] . وجوّزه فى قوله: ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [آل عمران : ١٧٠] . وكما فى هذه الآية ، ويجوز أن تتعلق الباء فى : ﴿ **بفضل الله وبرحمته** ﴾ بقوله : ﴿ **جاءتكم** ﴾ ، والتقدير : جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك ، أى فبمجيئها فليفرحوا ، وقرأ يزيد ابن القعقاع ويعقوب : « فلتفرحوا » بالفوقية ، وقرأ الجمهور بالتحتية ، والضمير فى ﴿ **هو خير**﴾ راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة ، أو إلى المجىء على الوجه الثانى ، أو إلى اسم الإشارة فى قوله : ﴿ **فبذلك** ﴾ والمعنى : أن هذا خير لهم مما يجمعون من حطام الدنيا . وقد قرئ بالتاء الفوقية فى ﴿ **يجمعون** ﴾ مطابقة للقراءة بها فى ﴿ **فلتفرحوا** ﴾ . وقد تقرّر فى العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا فى لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها ، وقرأ الجمهور بالمثناة التحتية فى يجمعون كما قرؤوا فى :﴿ **فليفرحوا** ﴾ وروى عن ابن عامر أنه قرأ بالفوقية فى :« يجمعون »والتحتية فى « فلتفرحوا » .

قد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن أبى الأحوص قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال : إن أخى يشتكى بطنه ، فوصف له الخمر ، فقال : سبحان الله ! ما جعل الله فى رجس شفاء، إنما الشفاء فى شىء من القرآن والعسل، فهما شفاء لما فى الصدور وشفاء للناس. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : إن الله جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله

شفاء لأمراضكم . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أشتكى صدرى ، فقال : « اقرأ القرآن ، يقول اللّه : شفاء لما فى الصدور ». وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع . أن رجلا شكا إلى النبىّ ﷺ وجع حلقه قال : « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما فى الصدور ، والعسل شفاء من كل داء» [١] .

وأخرج أبو داود ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبىّ قال : أقرأنى رسول اللّه ﷺ بالتاء يعنى الفوقية[٢] ، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ ﴿ **قل بفضل اللّه وبرحمته** ﴾ قال :« بفضل اللّه : القرآن ، وبرحمته : أن جعلكم من أهله» . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن البراء مثله من قوله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى مثله [٣] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب اللّه وبالإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال : فضله : الإسلام ، ورحمته : القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا قال : بفضل اللّه : القرآن، وبرحمته : حين جعلهم من أهله [٤] . وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ .

---

(١)البيهقى فى الشعب (٢٣٤٤) .

(٢) أبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٠) (٣٩٨١) وصححه الحاكم ٢/ ٢٣٣ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠١١٥) وابن جرير ١١/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٢٣٦٠) وإسناده ليس بالقوى.

(٤) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠١١٧) .

أشار سبحانه بقوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله** ﴾ إلخ إلى طريق أخرى غير ما تقدّم فى إثبات النبوّة ، وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض ، فإن كان بمجرد التشهى والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم ، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله ، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ، ومعنى ﴿ **أرأيتم** ﴾ : أخبرونى ، و﴿ **ما** ﴾ فى محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبرونى ، وقيل : إن ﴿ **ما** ﴾ فى محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ **آللّه أذن لكم** ﴾ و﴿ **قل** ﴾ فى قوله : ﴿**قل آللّه أذن لكم** ﴾ تكريرللتأكيد والرابط محذوف ، ومجموع المبتدأ والخبر فى محل نصب بـ﴿ **أرأيتم**﴾، والمعنى : أخبرونى الذى أنزل الله إليكم من زرق فجعلتم منه حراما وحلالا ، الله أذن لكم فى تحليله وتحريمه ﴿ **أم على الله تفترون** ﴾ وعلى الوجهين ، فمن فى ﴿ **منه حراما** ﴾ للتبعيض ، والتقدير: فجعلتم بعضه حراما وجعلتم بعضه حلالا وذلك كما كانوا يفعلونه فى الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم فى الكتاب العزيز ؛ ومعنى إنزال الرزق : كون المطر ينزل من جهة العلوّ ، وكذلك يقضى الأمر فى أرزاق العباد فى السماء على ما قد ثبت فى اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى لكل شيء فيــه . وروى عــن الزجــاج أن ﴿ **مــا** ﴾ فــى موضــع نصب بـ﴿ **أنزل**﴾ ، وأنزل بمعنى خلق كما قال : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : ٦] . ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ [الحديد : ٢٥] . وعلى هذا القول والقول الأوّل يكون قوله : ﴿ **قل آللّه أذن لكم** ﴾ مستأنفا : قيل : ويجوز أن تكون الهمزة فى ﴿ **آللّه أذن لكم** ﴾ للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على الله ، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء .

وفى هذه الآية الشريفة مايصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله فى شريعته ، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه ، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ، ولا يفهمونها ولا يدرون ماهى ، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه فى دينهم ، وجعلوه شارعا مستقلا ، ماعمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم ، وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه ، أو فهمه وأخطأ الصواب فى اجتهاده وترجيحه ، فهو فى حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد ، مع كون من قلدوه متعبدًا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها ، وقد اجتهد رأيه وأدّى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع خطأ ؛ إنما الشأن فى جعلهم لرأيه الذى أخطأ فيه شريعة مستقلة ، ودليلا معمولا به ، وقد أخطؤوا فى هذا خطأ بينا ، وغلطوا غلطا فاحشا ، فإن الترخيص للمجتهد فى اجتهاد رأيه يخصه وحده ، ولا قائل من أهل الإسلام المعتمدّ بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له واقتداء به ، وما جاء به المقلدة فى تقوّم هذا الباطل ، فهو من الجهل العاطل ، اللهمّ كما رزقتنا من العلم مانميز به بين الحق والباطل ، فارزقنا من الإنصاف مانظفر عنده بما هو الحق عندك ياواهب الخير .

ثم قال : ﴿ **وما ظنّ الذين يفترون على اللّه الكذب يوم القيامة** ﴾ أى أىّ شىء ظنهم فى هذا اليوم ، وما يصنع بهم فيه . وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر اللّه رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم من عذاب اللّه ، و﴿ **يوم القيامة** ﴾ منصوب بالظن ، وذكر الكذب بعد الافتراء ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد . وقرأ عيسى بن عمر : « وما ظنّ » على أنه فعل ﴿**إن اللّه لذو فضل على الناس**﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم فى الدنيا والآخرة ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ اللّه على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه فى كل وقت من الأوقات ، وطرفة من الطرفات .

قوله : ﴿ **وما تكون فى شأن** ﴾ الخطاب لرسول ﷺ ، و« ما » نافية ، والشأن : الأمر ، بمعنى القصد ، وأصله الهمز ، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب : ما شأنت شأنه ، أى ما عملت عمله ﴿**وما تتلوا منه من قرآن** ﴾ قال الفراء والزجاج : الضمير فى منه يعود على الشأن ، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف ، أى تلاوة كائنة منه ، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ ؛ والمعنى: أنه يتلو من أجل الشأن الذى حدث القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو يتلوا القرآن الذى ينزل فى ذلك الشأن . وقال ابن جرير الطبرى : الضمير عائد فى ﴿ **منه** ﴾ إلى الكتاب ، أى ما يكون من كتاب اللّه من قرآن ، وأعاده تفخيما له كقوله : ﴿إننى أنا اللّه﴾ (١) [طه : ١٤] ، والخطاب فى ﴿ **ولا تعملون من عمل** ﴾ لرسول اللّه وللأمة ،وقيل : الخطاب لكفار قريش ﴿ **إلا كنا عليكم شهودا** ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين ، أى شهودا عليكم بعمله منكم ، والضمير ، فى ﴿ **فيه** ﴾ من قوله : ﴿ **تفيضون فيه** ﴾ عائد على العمل . يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل : إذا اندفع فيه . وقال الضحاك : الضمير فى ﴿ فيه ﴾ عائد على القرآن . والمعنى : إذ تشيعون فى القرآن الكذب .

قوله : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ قرأ الكسائى : « يعزب » بكسر الزاى ، وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان فصيحتان ، ومعنى يعزب : يغيب . وقيل يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب ، وهذه المعانى متقاربة ، و « من » فى ﴿**من مثقال** ﴾ زائدة للتأكيد ، أى وما يغيب عن ربك وزن ذرة ، أى نملة حمراء ، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شىء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما ، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات ، وقدم الأرض على السماء ؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب ، والواو فى ﴿**ولا أصغر من ذلك ولا أكبر** ﴾ للعطف على لفظ مثقال . وانتصبا لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة. وقيل : انتصابهما بلا التى لنفى الجنس ، والواو للاستئناف ، وليس من متعلقات وما يعزب ، وخبر لا ﴿ **إلا فى كتاب**﴾ والمعنى: ولا أصغرمن مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا وهو فى كتاب مبين فكيف يغيب

(١) فى المطبوعة :« إنى »، وهو خطأ .

عنه ؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر ، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال ، ومحله الرفع ، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله ، أو على لفظ ، ذرة إشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية : لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا فى السماء إلا فى كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال . وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى سلسلة العلية عن مرتبة الأول ، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء فى الأرض ولا فى السماء إلا وهو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات ، والغرض : الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات . وأجيب أيضا بأن الاستثناء منقطع : أى لكن هو فى كتاب مبين . وذكر أبو على الجرجانى أن « إلا » بمعنى الواو . على أن الكلام قد تم عند قوله : ﴿**ولا أكبر**﴾ ثم وقع الابتداء بقوله : ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾ أى وهو أيضا فى كتاب مبين والعرب قد تضع إلا موضع الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ﴾ [النمل : ١٠، ١١] يعنى: ومن ظلم ، وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا ﴾ [البقرة : ١٥٠] أى والذين ظلموا ، وقدر هو بعد الواو التى جاءت إلا بمعناها كما فى قوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ [البقرة : ٥٨] أى هى حطة، ومثله : ﴿ولا تقولوا ثلاثة ﴾ [النساء : ١٧١] ، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ [الأنعام :٥٩]. وقال الزجاج : إن الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ بالرفع ، وخبره ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ واختاره صاحب الكشاف ، واختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التى لنفى الجنس ، واستشكل العطف بنحو ما قدمنا .

ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء ، وكان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين ، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين ، فقال : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ الولى فى اللغة : القريب . والمراد بأولياء الله : خلص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته . وقد فسر سبحانه ، هؤلاء الأولياء بقوله : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أى يؤمنون بما يجب الإيمان به ، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصى الله سبحانه ، والمراد بنفى الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبدا كما يخاف غيرهم ؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم ، وانتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها ، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم ، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب ، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر ، فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة ، وقلوبهم مسرورة : ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو

الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى : فيكون غير متصل بما قبله ، أو النصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء .

قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء اللّه ، أى لهم البشرى من اللّه ما داموا فى الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه ، وينزله فى كتبه ، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم ، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم ، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة ، وما يتفضل اللّه به عليهم من إجابة دعائهم ، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم : لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ؛ وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب . والبشرى مصدر أريد به المبشر به ، والظرفان فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم فى الدنياوحال كونهم فى الآخرة ، ومعنى ﴿ **لا تبديل لكلمات اللّه** ﴾ : لا تغيير لأقواله على العموم ، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولا أوّليا ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ الذى لايقادر قدره ولا يماثله غيره ، والجملتان ، أعنى : ﴿ **لا تبديل لكلمات اللّه**﴾ و ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ ، اعتراض فى آخر الكلام عند من يجوّزه ، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، أو الأولى اعتراضية ، والثانية تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل اللّه لكم من رزق** ﴾ قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث ماشاؤوا ويحرّمون ما شاؤوا وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إذ تفيضون فيه** ﴾ قال : إذ تفعلون . وأخرج الفريابى وابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ﴿ **وما يعزب عن ربك** ﴾ قال: لا يغيب عنه وزن ذرة ﴿ **ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال: هو الكتاب الذى عند اللّه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ألا إن أولياء اللّه** ﴾ قيل : من هم يارب ؟ قال : هم ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : هم الذين إذا رؤوا ذكر اللّه . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا وموقوفا قال : هم الذين إذا رؤوا يذكر اللّه لرؤيتهم . وأخرج عنه ابن المبارك والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والبزار وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه مرفوعًا مثله . وأخرجه ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا وهو مرسل. وروى نحوه من طرق أخرى مرفوعا وموقوفا . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى عن عمرو بن الجموح؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « لا يحقّ العبد حق صريح الإيمان حتى يحبّ للّه ويبغض للّه ، فإذا أحبّ للّه وأبغض للّه فقد استحق الولاء من اللّه ، وإنّ أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر

بذكرهم»(١) . وأخرج أحمد عن عبدالرحمن بن غنم يبلغ به النبى ﷺ : « خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت » (٢) . وأخرج الحكيم الترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم من ذكركم الله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله» . وأخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعا : « إن لله عبادًا ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه » ، فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يارسول الله ، صفهم لنا حلهم لنا؟ قال : « قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل ، تصافوا فى الله وتحابوا فى الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم ، يخاف الناس ولا يخافون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٣) . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه (٤) . قال ابن كثير : وإسناده جيد ، وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه (٥) . وأخرج أحمد وابن أبى الدنيا ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا نحوه (٦) . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله : ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ الآية فقال : « الذين يتحابون فى الله » . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعًا مثله . وقد ورد فى فضل المتحابين فى الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، والحكيم فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء عن معنى قوله : ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ فقال : ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : « ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت على : هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، فهى بشراه فى الحياة الدنيا ، وبشراه فى الآخرة الجنة »، وفى إسناده هذا الرجل المجهول (٧) ، وأخرج أبو داود الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى وابن ماجة والحكيم

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٩٤ « فيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف » .
(٢) أحمد ٤/ ٢٢٧ .
(٣) صححه الحاكم ٤/ ١٧٠ ووافقه الذهبى .
(٤) ابن جرير ١١/ ٩٢ ، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٥ والبيهقي في الشعب (٨٩٩٨) ط : دار الكتب العلمية.
(٥) ابن جرير ١١/ ٩٢ .
(٦) أحمد ٥/ ٣٤٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٧٩ ، ٢٨٥ : « ورجاله وثقوا » .
(٧) ابن أبى شيبة فى الإيمان والرؤيا (١٠٥٠١) وأحمد ٦/ ٤٥٢ والترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١١/ ٩٣ والبيهقى فى الشعب (٤٧٥٢) ط : دار الكتب العلمية .

الترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿**لهم البشرى فى الحياة الدنيا**﴾ قال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » [(١)] . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا** ﴾ قال :« الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها »الحديث[(٢)] . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « هى فى الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفى الآخرة الجنة » [(٣)] . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده من طريق أبى جعفر عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ فسر البشرى فى الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة ، وفى الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت : إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأوّل من حديث جابر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن عباس مثله . وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات وأنها جزء من أجزاء النبوّة ، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية . وقد روى أن المراد بالبشرى فى الآية هى قوله : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ [الأحزاب : ٤٧] ، أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم أنها قوله: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : ٣٠] وأخرج ابن جرير والحاكم والبيهقى عن نافع قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بدّل كتاب الله ، فقال ابن عمر : لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير ، ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ [(٤)] .

﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ

---

(١) أبو داود الطيالسى (٥٨٣) وأحمد ٥/ ٣١٥ والدارمى ٢/ ١٢٣ والترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى الرؤيا (٣٨٩٨) وابن جرير ١١/ ٩٣ وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٤٧٥٣) ط : دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٢١٨ وابن جرير ١١/ ٩٦ والبيهقى فى الشعب (٤٧٦٤) ط : دار الكتب العلمية .

(٣) ابن جرير ١١/ ٩٤ .

(٤) ابن جرير ١١/ ٩٦، ٩٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٩ ، ٣٤٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ : نهى للنبى ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح فى دينه ، والمقصود التسلية له والتبشير ، ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول اللّه ﷺ معللا لما ذكره من النهى لرسوله ﷺ فقال : ﴿ **إن العزّة للّه جميعا** ﴾ أى الغلبة والقهر له فى مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئا . وقرئ : «يحزنك » من أحزنه . وقرئ : « أن العزة » بفتح الهمزة على معنى : لأن العزّة للّه ، ولا ينافى ما فى هذه الآية من جعل العزّة جميعها للّه تعالى قوله سبحانه : ﴿ ولله[1] العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون : ٨] لأن كل عزّة باللّه فهى كلها للّه ، ومنه قوله : ﴿ كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١]، ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ [غافر : ٥١] .

﴿ **ألا إن للّه من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبى ﷺ ، وإذا كانوا فى ملكه يتصرّف فيهم كيف يشاء ، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول اللّه ﷺ بما لا يأذن اللّه به وغلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف . وفى الآية نعى على عباد البشر والملائكة والجمادات ؛ لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك ، وذلك مخالف لما يوجبه العقل ، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ **وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء** ﴾ والمعنى : أنهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله فليست شركاء له على الحقيقة ، لأن ذلك محال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] و« ما » فى ﴿ **وما يتبع** ﴾ نافية وشركاء مفعول يتبع ، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفا ، والأصل : وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء فى الحقيقة ، إنما هى أسماء لا مسميات لها ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن يكون المذكور مفعول ﴿ **يدعون** ﴾ وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، ويكون على هذا الوجه ﴿**شركاء** ﴾ منصوبا بـ﴿ **يدعون** ﴾ ، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والإزراء عليهم . ويجوز أن تكون« ما » موصولة معطوفة على ﴿**من فى السموات** ﴾ أى للّه مَن فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، والمعنى : أن اللّه مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من فى السموات ومن فى الأرض ، ثم زاد سبحانه فى تأكيد الردّ عليهم والدفع لأقوالهم فقال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن**﴾ أى ما يتبعون يقينا إنما يتبعون ظنا ، والظنّ لا يغنى من الحق شيئا ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى يقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا ، وقد تقدّمت هذه الآية فى الأنعام .

---

(١) فى المطبوعة : «فلله » .

ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال : ﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾ أى جعل لعباده الزمان منقسما إلى قسمين : أحدهما : مظلم وهو الليل لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكدّ والكسب ، والآخر مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ، ويحصلون مايحتاجون إليه فى وقت مضىء منير ، لا يخف عليه فيه كبير ولا حقير ، وجعله سبحانه للنهار مبصرا مجاز، والمعنى : أنه مبصرصاحبه كقولهم : نهاره صائم ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن فى ذلك**﴾ إلى الجعل المذكور﴿ **لآيات** ﴾ عجيبة كثيرة ﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ أى يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره اللّه سبحانه هاهنا منها ومن غيرها مما لم يذكره ، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون . فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان .

قوله : ﴿ **قالوا اتخذ اللّه ولدا سبحانه هو الغنىّ** ﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التى كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن اللّه سبحانه اتخذ ولدا ، فردّ ذلك عليهم بقوله : ﴿**سبحانه هو الغنىّ** ﴾ فنزّه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غنى عن ذلك وأن الولد إنما يطلب للحاجة ، والغنىّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضا إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه ، والأزلى القديم لايفتقر إلى ذلك . وقد تقدّم تفسير الآية فى البقرة . ثم بالغ فى الردّ عليهم بما هو كالبرهان ، فقال : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ ، وإذا كان الكل له وفى ملكه فلا يصح أن يكون شىء مما فيهما ولدا له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوّة . ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال : ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ أى ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذى تم لونه ، و« من » فى:﴿**من سلطان** ﴾ زائدة للتأكيد ، والجار والمجرور فى﴿ **بهذا** ﴾ متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار . ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال : ﴿ **أتقولون على اللّه مالا تعلمون** ﴾ ، ويستفاد من هذا أن كل قول لادليل عليه ليس هو من العلم فى شىء ، بل من الجهل المحض .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولا يدل على أن ما قالوه كذب ، وأن من كذب على اللّه لا يفلح فقال : ﴿**قل إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون** ﴾ أى كل مفتر هذا شأنه ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوّليا ، وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق فى مواضع من الكتاب العزيز ، والمعنى : أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب . ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشىء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل فى الدنيا ، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى اللّه ، فيعذب المفترى عذابا مؤبدًا ، فيكون ﴿**متاع** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة

يعتدّ بها ، بل هو متاع يسير فى الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله . وقال الأخفش : إن التقدير : لهم متاع فى الدنيا ، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر . وقال الكسائى : التقدير : ذلك متاع أو هو متاع ، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ : لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله وأقاموا على كفرهم كبر ذلك على رسول الله ﷺ ، فجاءه من الله فيما يعاتبه : ﴿ **ولا يحزنك قولهم إن العزّة لله جميعا هو السميع العليم** ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**والنهار مبصرا** ﴾ قال : منيرا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ يقول : ماعندكم سلطان بهذا .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤) ﴾ .

لما بالغ سبحانه فى تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة ؛ شرع فى ذكر قصص الأنبياء لما فى ذلك من التسلية لرسول الله ﷺ فقال : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ أى على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿ **نبأ نوح**﴾ أى خبره ، والنبأ هو الخبر الذى له خطر وشأن ، والمراد : ماجرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم ﴿ **إذ قال لقومه** ﴾ أى وقت قال لقومه ، والظرف منصوب بنبأ أو بدل منه بدل اشتمال ، واللام فى ﴿ **لقومه** ﴾ لام التبليغ ﴿ **يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى** ﴾ أى عظم وثقل ، والمقام بفتح الميم : الموضع الذى يقام فيه ، وبالضم الإقامة . وقد اتفق القراء على الفتح ، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان : أى لأجله ، ومنه : ﴿**ولمن خاف مقام ربه** ﴾ [الرحمن : ٤٦] أى خاف ربه ، ويجوز أن يراد بالمقام المكث : أى شق عليكم مكثى بين أظهركم ، ويجوز أن يراد بالمقام القيام ؛ لأن الواعظ يقوم حال وعظه ، والمعنى : إن كان كبر عليكم قيامى بالوعظ فى مواطن اجتماعكم ، وكبر عليكم تذكيرى لكم ﴿ **بآيات**

اللّه ﴾ التكوينية والتنزيلية ﴿ **فعلى اللّه توكلت** ﴾ هذه الجملة جواب الشرط ، والمعنى : إنى لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على اللّه ، فإن ذلك دأبى الذى أنا عليه قديما وحديثا ، ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل ، ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿ **فأجمعوا**﴾ وجملة ﴿**فعلى اللّه توكلت** ﴾ اعتراض ، كقولك : إن كنت أنكرت علىّ شيئا فاللّه حسبى ، ومعنى ﴿ **فأجمعوا أمركم** ﴾ : اعتزموا عليه ، من أجمع الأمر: إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء، وروى عن الفراء أنه قال : أجمع الشىء : أعدّه . وقال مؤرج السدوسى : أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه ، وأنشد :

ياليت شعرى والمنى لا تنفع   هل أغدون يوما وأمرى مجمع

وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله جميعا بعد ما كان متفرّقا ، وتفرّقه أن تقول مرّة أفعل كذا ، ومرّة أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه ، أى جعله جميعا ، فهذا هو الأصل فى الإجماع ، ثم صار بمعنى العزم ، وقد اتفق جمهور القراء على نصب ﴿ **شركاءكم**﴾ وقطع الهمزة من أجمعوا . وقرأ يعقوب وعاصم الجحدرى بهمزة وصل فى ﴿ **أجمعوا**﴾ على أنه من جمع يجمع جمعا ، وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « وشركاؤكم » بالرفع ، قال النحاس : وفى نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه : الأوّل بمعنى : وادعوا شركاءكم ، قاله الكسائى والفراء ، أى ادعوهم لنصرتكم ، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر. وقال محمد بن يزيد المبرد : هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر :

ياليت زوجك فى الوغى   متقلدا سيفا ورمحا

والرمح لا يتقلد به ، لكنه محمول كالسيف . وقال الزجاج : المعنى : مع شركائكم ، فالواو على هذا واو مع. وأما على قراءة « اجمعوا » بهمزة وصل فالعطف ظاهر ، أى اجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم . وأما توجيه قراءة الرفع ، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع فى ﴿ **أجمعوا** ﴾ ، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر فى ذلك أن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة بعيدة لأنه لو كان ﴿**شركاءكم** ﴾ مرفوعا لرسم فى المصحف بالواو ، وليس ذلك موجودا فيه . قال المهدوى : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء ، والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم ، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها ، وروى عن أبىّ أنه قرأ : « وادعوا شركاءكم » بإظهار الفعل ، قوله : ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ الغمة : التغطية من قولهم ، غمّ الهلال : إذا استتر ، أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغمة   نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد

هكذا قال الزجاج ، وقال الهيثم : معناه لا يكن أمركم عليكم مبهما . وقيل: إن الغمة : ضيق الأمر كذا روى عن أبى عبيدة ، والمعنى : لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتى والمجاملة لى

ضيقا شديدا ، بل ادفعوا هذا الضيق والشدّة بما شئتم وقدرتم عليه ، وعلى الوجهين الأوّلين يكون المراد بالأمرالثانى هو الأمر الأول ، وعلى الثالث يكون المراد به غيره . قوله : ﴿ **ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون** ﴾ أى ذلك الأمرالذى تريدونه بى ، وأصل اقضوا : من القضاء ، وهو الإحكام ، والمعنى : أحكموا ذلك الأمر ، قال الأخفش والكسائى : هو مثل : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ [الحجر : ٦٦] أى أنهيناه إليه وأبلغناه إياه ، ثم ﴿ **لا تنظرون** ﴾ أى لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم ، وقيل : معناه : ثم امضوا إلىّ ولا تؤخرون، قال النحاس : هذا قول صحيح فى اللغة ، ومنه: قضى الميت : مضى ، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ :« ثم أفضوا » بالفاء وقطع الهمزة ، أى توجهوا ، وفى هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدّل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه .

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار وتبليغ الشريعة عن اللّه ليس هو لطمع دنيوىّ ، ولا لغرض خسيس ، فقال : ﴿ **فإن توليتم فما سألتكم من أجر** ﴾ أى إن أعرضتم عن العمل بنصحى لكم وتذكيرى إياكم ، فما سألتكم فى مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إلىّ حتى تتهمونى فيما جئت به ، والفاء فى ﴿ **فإن توليتم** ﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها ، والفاء فى ﴿ **فما سألتكم** ﴾ جزائية ﴿ **إن أجرى إلا على اللّه** ﴾ أى ما ثوابى فى النصح والتذكير إلا عليه سبحانه فهو يثيبنى آمنتم أو توليتم . قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص بتحريك الياء من ﴿ **أجرى** ﴾ ، وقرأ الباقون بالسكون . ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ المنقادين لحكم اللّه الذين يجعلون أعمالهم خالصة للّه سبحانه لا يأخذون عليها أجرا ولا يطمعون فى عاجل .

قوله : ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك** ﴾ أى استمروا على تكذيبه وأصرّوا على ذلك ، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن ، والمراد بمن معه من قد أجابه وصار على دينه ، والخلائف جمع خليفة ، والمعنى : أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها ﴿ **وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم اللّه بالطوفان ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾ فيه تسلية لرسول اللّه ﷺ وتهديد للمشركين وتهويل عليهم .

﴿ **ثم بعثنا من بعده** ﴾ أى من بعد نوح ﴿ **رسلا** ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿ **فجاؤوهم بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات وبما أرسلهم اللّه به من الشرائع التى شرعها اللّه لقوم كل نبىّ ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أى فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر وأصرّوا عليه ، والمعنى : أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل اللّه إليهم رسله أن يؤمنوا فى وقت من الأوقات ﴿ **بما كذبوا به من قبل** ﴾ أى من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجىء الرسل إليهم ، والمعنى : أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل اللّه إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين بــه من قبل مجيئه إليهــم ؛ لأنهــم كانــوا غير

مؤمنين بل مكذبين بالدين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولا ، وهذا مبنىّ على أن الضمير فى : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ وفى : ﴿ **بما كذبوا** ﴾ راجع إلى القوم المذكورين فى قوله: ﴿ **إلى قومهم** ﴾ وقيل: ضمير﴿ **كذبوا** ﴾راجع إلى قوم نوح ، أى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتى هؤلاء الأقوام الذين جاؤوا من بعدهم ﴿**وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ وقيل : إن الباء فى ﴿ **بما كذبوا به من قبل** ﴾ للسببية ، أى فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم ، وفيه نظر . وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل ، أى فى عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه ، وإن آمنوا ظاهرا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل : إنه لقوم بأعيانهم ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ أى مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود فى الكفر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى غير موضع وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الأعرج فى قوله : ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** ﴾ يقول : فأحكموا أمركم وادعوا شركاءكم ، وأخرج أيضا عن الحسن فى الآية : أى فليجمعوا أمرهم معكم ، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ قال : لا يكبر عليكم أمركم ﴿ **ثم اقضوا** ﴾ ما أنتم قاضون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم اقضوا** ﴾ قال : انهضوا ﴿ **إلىّ ولا تنظرون** ﴾ يقول : ولا تؤخرون.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلا** ﴾ والضمير فى : ﴿ **من بعدهم** ﴾ راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم ، وخصّ موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ، والمراد بالملأ : الأشراف ، والمراد بالآيات : المعجزات ؛ وهى التسع المذكورة فى الكتاب العزيز ﴿**فاستكبروا** ﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها ﴿ **وكانوا قوما مجرمين** ﴾ أى كانوا ذوى إجرام عظام وآثام كبيرة ، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردّها ؛ لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب . قيل : وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها .

قوله : ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين** ﴾ أى فلما جاء فرعون وملأه الحق من عند اللّه وهو المعجزات لم يؤمنوا بها بل حملوها على مكابرة منهم ، فردّ عليهم موسى قائلا : ﴿ **أتقولون للحقّ لما جاءكم أسحر هذا**﴾ قيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : أتقولون للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك ، ثم استأنف إنكارا آخر من جهة نفسه فقال : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى ، والملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ما قالوه بقوله : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ بل هم قاطعون بأنه سحر؛ لأنهم قالوا : ﴿**إن هذا لسحر مبين** ﴾ فحينئذ لا يكون قوله : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ من قولهم ، وقال الأخفش :هو من قولهم ، وفيه نظر لما قدّمنا ، وقيل : معنى ﴿**أتقولون** ﴾ : أتعيبون الحقّ وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ، ثم قال : أسحر هذا منكرا لما قالوه . وقيل : إن مفعول ﴿ **أتقولون** ﴾ محذوف ، وهو ما دلّ عليه قولهم: ﴿ **إن هذا لسحر**﴾ والتقدير : أتقولون ما تقولون ، يعنى : قولهم : إن هذا لسحر مبين ثم قيل : أسحر هذا ، وعلى هذا التقدير والتقدير الأوّل فتكون جملة : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ مستأنفة من جهة موسى عليه السلام ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبين ؟ فقيل : قال : أتقولون للحق لما جاءكم ، على طريقة الاستفهام الإنكارى ، والمعنى : أتقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين ، وهو أبعد شىء من السحر . ثم أنكر عليهم وقرّعهم ووبخهم فقال : ﴿ **أسحر هذا**﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكاربعد إنكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل، وجملة: ﴿ **ولا يفلح الساحرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح الساحرون فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه ، فكيف يقع فى هذا من هو مرسل من عند اللّه ، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة ؟

وجملة : ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال ؟ وفى هذا ما يدّل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة ، ولم يجحدوا مايجيبون به عما أورده عليهم ، بل لجؤوا إلى

ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة ، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر ، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة ، وهو الرياسة الدنيوية التى خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا ، وكم بقى على الباطل ، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر ولاحقه ، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة ، وإلى الرواية الصحيحة من الرأى البحت ، يقال : لفته لفتا ، إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه ، ومنه قال الشاعر :

تلفت نحو الحىّ حتى رأيتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

أى تريد أن تصرفنا عن الشيء الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، والمراد بالكبرياء : الملك ، قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ؛ وقيل : بذلك لأن الملك يتكبر .

والحاصل : أنهم عللوا عدم قبولهم بدعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد للآباء ، والحرص على الرياسة الدنيوية ؛ لأنهم إذا أجابوا النبى وصدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، ولم يبق للملك رئاسة تامة ؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ، ثم قالوا : ﴿ **وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ تصريحا منهم بالتكذيب وقطعا للطمع فى إيمانهم ، وقد أفرد الخطاب لموسى فى قولهم :﴿**أجئتنا لتلفتنا**﴾ ثم جمعوا بينه وبين هارون فى الخطاب فى قولهم : ﴿**وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ ، ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم إلى موسى ، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن اللّه ما شرعه لهم ، وجمعوا بينهما فى الضميرين الآخرين ؛ لأن الكبرياء شامل لهما فى زعمهم ولكون ترك الإيمان بموسى يسلتزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة فى الأعراف .

قوله : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا ؛ لأنه اعتقد أنهما من السحر ، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم هكذا . قرأ حمزة والكسائى وابن وثاب والأعمش :« سحار » . وقرأ الباقون: ﴿ **ساحر** ﴾ وقد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف . والسحار صيغة مبالغة ، أى كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه ﴿**فلما جاء السحرة** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير هكذا : وقال فرعون ائتونى بكل سحار عليم فأتوا بهم إليه ، فلما جاء السحرة ، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف ، قوله : ﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ أى قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له : إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقون ، أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ ما ألقوه من ذلك ﴿ **قال** ﴾ لهم ﴿ **موسى ما جئتم به السحر** ﴾ أى الذى جئتم به السحر على أن « ما » موصولة مبتدأ والخبر السحر ؛ والمعنى : أنه سحر ، لا أنه آية من آيات اللّه ، وأجاز الفراء

نصب السحر بـ﴿ جئتم ﴾ وتكون « ما » شرطية ، والشرط : ﴿ جئتم ﴾ والجزاء : ﴿ **إن اللّه سيبطله** ﴾ على تقدير الفاء ، أى فإن اللّه سيبطله . وقيل : إن السحر منتصب على المصدر ، أى ماجئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء ، واختاره النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر :« آلسحر » على أن الهمزة للاستفهام ، والتقدير : أهو السحر فتكون « ما » على هذه القراءة استفهامية . وقرأ أبىّ « ما أتيتم به سحر إن اللّه سيبطله » أى سيمحقه فيصير باطلا بما يظهره على يدىّ من الآيات المعجزة ﴿ **إن اللّه لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ أى عمل هذا الجنس ، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا أوّليا . والواو فى﴿ **ويحق اللّه الحق**﴾للعطف على سيبطله، أى يبينه ويوضحه ﴿ **بكلماته**﴾ التى أنزلها فى كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ من آل فرعون أو المجرمون على العموم ، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوّليا ، والإجرام : الآثام .

قوله : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه** ﴾ الضمير يرجع إلى موسى ، أى من قوم موسى ، وهم طائفة من ذرارى بنى إسرائيل . وقيل : المراد : طائفة من ذرارى فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون. قيل : ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته.وماشطة ابنته وامرأة خازنه . وقيل : هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل ، وروى هذا عن الفراء ﴿**على خوف من فرعون وملئهم** ﴾ الضمير لفرعون ، وجمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له . وقيل : إن قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود ، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار . وقيل : إنه عائد على مضاف محذوف ، والتقدير:على خوف من آل فرعون ، وروى هذا عن الفراء . ومنع ذلك الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما : قامت هند وأنت تريد غلامها . وروى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية . وقوّاه النحاس ﴿ **أن يفتنهم** ﴾ أى يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذى كان ينزله بهم ، وهو بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بالمصدر ﴿ **وإن فرعون لعال فى الأرض** ﴾ أى عات متكبر متغلب على أرض مصر ﴿**وإنه لمن المسرفين** ﴾ المجاوزين للحد فى الكفر ، وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات .

قوله : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ قيل : إن هذا من باب التكرير للشرط ، فشرط فى التوكل على اللّه الإيمان به والإسلام ، أى الاستسلام لقضائه وقدره . وقيل : إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل ، والمشروط بالإسلام وجوده ، والمعنى : أن يسلموا أنفسهم للّه ، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها ؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط . قال فى الكشاف : ونظيره فى الكلام : إن ضربك زيد فاضربه إن كانت لك به قوّة (١) ﴿ **فقالوا** ﴾ أى قوم موسى

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٤ .

مجيبين له ﴿ **على اللّه توكلنا** ﴾ ثم دعوا اللّه مخلصين فقالوا : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة** ﴾ أى موضع فتنة ﴿ **للقوم الظالمين** ﴾ والمعنى : لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا ، ولا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم : لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم ، وعلى المعنى الأوّل تكون الفتنة بمعنى المفتون . ولما قدّموا التضرّع إلى اللّه سبحانه فى أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا : ﴿ **ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ وفى هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم .

قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا** ﴾ « أن » هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول أن تبوآ ، أى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا ؛ يقال : بوّأت زيدا مكانا وبوأت لزيد مكانا ، والمبوأ : المنزل الملزوم ، ومنه : بوّأه اللّه منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه فيه ، ومن الحديث : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) ومنه قول الراجز:

نحن بنو عدنان ليس شك تبوّأ المجد بنا والملك

قيل: ومصر فى هذه الآية هى الإسكندرية. وقيل: هى مصر المعروفة لا الإسكندرية ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ أى متوجهة إلى جهة القبلة . قيل : والمراد بالبيوت هنا : المساجد ، وإليه ذهب جماعة من السلف . وقيل : المراد بالبيوت التى يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوا منها قبلة ، والمراد بالقبلة على القول الأول : هى جهة بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود إلى اليوم . وقيل : جهة الكعبة ، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه . وقيل : المراد : أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرّا لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة ، ومما يؤيد هذا قوله : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ أى التى أمركم اللّه بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هى قبلة الصلاة إما فى المساجد أو فى البيوت لا جعل البيوت متقابلة ، وإنما جعل الخطاب فى أوّل الكلام مع موسى وهارون ، ثم جعله لهما ولقومهما فى قوله :﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة** ﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك ، فقال :﴿**وبشر المؤمنين** ﴾ لأن اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء ، ثم جعل عاما فى استقبال القبلة وإقامة الصلاة ؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء ، ثم جعل خاصا بموسى ؛ لأنه الأصل فى الرسالة وهارون تابع له ، فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها . وقيل : إن الخطاب فى ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض ، والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**لتلفتنا**﴾ قال : لتلوينا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : لتصدنا عن آلهتنا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر ومجاهد فى قوله:﴿**وتكون لكما الكبرياء فى الأرض** ﴾

---

(١) أحمد ١/ ٢٩٣ ، ٣٢٣ والبخارى فى العلم (١٠٧) وفى الجنائز (١٢٩١) ومسلم فى المقدمة (٣/٣ ، ٤/٤) وأبو داود فى العلم (٣٦٥١) والترمذى فى الفتن (٢٢٥٧) وفى العلم (٢٦٥٩) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجة فى المقدمة(٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧) والدارمى ١/ ٧٦.

قال : العظمة والملك والسلطان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية** ﴾ قال : الذرية : القليل . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ **ذرية من قومه** ﴾ قال : من بنى إسرائيل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه .

وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور ونعيم بن حماد فى الفتن وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين** ﴾ قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال فى تفسير الآية : لا تعذبنا بأيدى قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق ماعذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنون بنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى قلابة فى الآية قال : سأل ربه ألا يظهر علينا عدوّنا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مجلز نحوه.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه** ﴾ الآية . قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم وأن يوجهوها نحو القبلة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أن تبوآ لقومكما بمصر** ﴾ قال : مصر : الإسكندرية . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : كانوا لا يصلون إلا فى البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : أمروا أن يتخذوا فى بيوتهم مساجد . وأخرج أبو الشيخ عن أبى سنان قال : القبلة: الكعبة ، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قال : يقابل بعضها بعضا .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا

لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ .

لما بالغ موسى عليه السلام فى إظهار المعجزات وإقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فى أمر أرسل إليهم دعا عليهم أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد ، فقال مبينًا للسبب أولا : ﴿ **ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا** ﴾ قد تقدم أن الملأ : هم الأشراف . والزينة : اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك . ثم كرر النداء للتأكيد فقال : ﴿ **ربنا ليضلوا عن سبيلك**﴾ وقد اختلف فى هذه اللام الداخلة على الفعل ، فقال الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة ،والمعنى : أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا ، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت.وقيل : إنها لام كى أى أعطيتهم لكى يضلوا . وقال قوم : إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال سبحانه:﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٧٦] قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن ، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ ، وقيل : اللام للدعاء عليهم ، والمعنى : ابتلهم بالهلاك عن سبيلك ، واستدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا : ﴿ **اطمس** ﴾ و ﴿ **اشدد** ﴾ . وقد أطال صاحب الكشاف فى تقرير هذا بما لا طائل تحته (١)، والقول الأوّل هو الأولى . وقرأ الكوفيون :« ليضلوا » بضم حرف المضارعة ، أى يوقعوا الإضلال على غيرهم ، وقرأ الباقون بالفتح ، أى يضلون فى أنفسهم ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ . قال الزجاج : طمس الشىء : إذهابه عن صورته ؛ والمعنى : الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ أى اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان . قوله : ﴿ **فلا يؤمنوا** ﴾ قال المبرد والزجاج : هو معطوف على ﴿**ليضلوا**﴾، والمعنى : آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضا . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء بلفظ النهى ، والتقدير : اللهمّ فلا يؤمنوا ، ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقنى إلا وأنفك راغم

وقال الأخفش : إنه جواب الأمر : أى اطمس واشدد فلا يؤمنوا ، فيكون منصوبا . ورِوى هذا عن الفراء أيضا ، ومنه:

ياناق سيرى عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أى لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم . وقد استشكل بعض أهل العلم ما فى هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم . وأجيب بأنه لا يجوز لنبى أن

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

يدعو على قومه إلا بإذن اللّه سبحانه ، وإنما يأذن اللّه بذلك لعلمه بأنه ليس فيه من يؤمن ، ولهذا لما أعلم اللّه نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال : ﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] ﴿ **قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما** ﴾ جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده ، فقيل : إن هارون كان يؤمِّن على دعاء موسى فسمي هاهنا داعيا ، وإن كان الداعى موسى وحده ، ففى أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعى ، وهاهنا أضافه إليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعى ، ويجوز أن يكونا جميعا داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى فى أوّل الكلام لأصالته فى الرسالة ، قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى : ﴿ **ربنا** ﴾ ولم يقل : رب ، وقرأ عليّ والسلمى : « دعاؤكما » وقرأ ابن السميفع : « دعوا كما » . والاستقامة : الثبات على ماهما عليه من الدعاء إلى اللّه . قال الفراء وغيره : أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة ، ثم أهلكوا . وقيل : معنى الاستقامة : ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضا والتسليم لما يقضى به اللّه سبحانه . قوله : ﴿ **ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ بتشديد النون للتأكيد وحركت بالكسر لكونه الأصل ولكونها أشبهت نون التثنية وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفى لا على النهى . وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من ﴿ **تتبعان** ﴾ ، والمعنى : النهى لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة اللّه سبحانه فى إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتأجيلا .

قوله : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ هو من جاوز المكان : إذ خلفه وتخطاه ، والباء للتعدية ، أى جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط ؛ لأن اللّه سبحانه جعل البحر يبسا فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البرّ . وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة البقرة فى قوله سبحانه : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [البقرة : ٥٠] وقرأ الحسن : « وجوّزنا » وهما لغتان ﴿ **فأتبعهم فرعون وجنوده** ﴾ يقال : تبع وأتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه ، وقال الأصمعى : يقال : أتبعه بقطع الألف ، إذا لحقه وأدركه ، واتبعه بوصل الألف ، إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد . وقال أبو عمرو : إنّ اتبعه بالوصل : اقتدى به ، وانتصاب بغيا وعدوا على الحال ، والبغى : الظلم ، والعدو : الاعتداء ، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة ، أى للبغى والعدو . وقرأ الحسن : « وعدوا » بضم العين والدال وتشديد الواو مثل علا يعلو علوّا . وقيل : إن البغى : طلب الاستعلاء فى القول بغير حق ، والعدو : فى الفعل ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق** ﴾ أى ناله ووصله وألجمه . وذلك أن موسى خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون ، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ، ففرق اللّه البحر لموسى وبنى إسرائيل ، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر ، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التى كان عليها عند مضيّ موسى ومن معه ، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من

الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى اللّه سبحانه ذلك ﴿ **قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ أى صدّقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، فحذفت الباء ، والضمير للشأن ، وقرئ بكسر إنّ على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أى آمنت ، فقلت: إنه . ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله كما تقدّم فى النساء ، ولم يقل اللعين : آمنت باللّه أو بربّ العالمين ، بل قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية . قوله : ﴿ **وأنا من المسلمين** ﴾ أى المستسلمين لأمر اللّه المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ماسواه ، وهذه الجملة إما فى محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنت .

قوله : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿ **قال آمنت** ﴾ أى فقيل له: أتؤمن الآن ؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة ؟ فقيل : هى من قول اللّه سبحانه . وقيل : من قول جبريل . وقيل : من قول ميكائيل . وقيل : من قول فرعون قال ذلك فى نفسه لنفسه . وجملة : ﴿ **وقد عصيت قبل** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر ، وهو أتؤمن الآن ، والمعنى : إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، والحال أنه قد عصى اللّه من قبل ، والمقصود التقريع والتوبيخ له ، وجملة : ﴿ **وكنت من المفسدين** ﴾ معطوفة على عصيت داخلة فى الحال ، أى كنت من المفسدين فى الأرض بضلالك عن الحق وإضلالك لغيرك .

قوله :﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قرئ: « ننجيك » بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل . وقرأ اليزيدى : « ننحك » بالحاء المهملة من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ، ومعنى ﴿ **ننجيك** ﴾ بالجيم : نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذاك ، فألقاه اللّه على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه . وقيل : المعنى : نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قعر البحر ونجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق ، ومعنى « ننحيك » بالمهملة : نطرحك على ناحية من الأرض . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: « بأبدانك » .

وقد اختلف المفسرون فى معنى ببدنك ، فقيل : معناه : بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل : معناه : بدرعك والدرع يسمى بدنا، ومنه قول كعب بن مالك :

تـرى الأبـــدان فيهـا مـسبغـات ... على الأبطال واليلب [1] الحصينا

أراد بالأبدان : الدروع ، وقال عمرو بن معدى كرب :

ومضى نساؤهم بكل مُضَاضةٍ ... جـــدلاء سابغــة وبــالأبـــدان

(١) واليَلَبُ : الدروع اليمانية ، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض ؛ وهو اسم جنس الواحد يلبة اللسان ٨٠٦/١ .

أى بدروع سابغة ودروع قصيرة ، وهى التى يقال لها : أبدان كما قال أبو عبيدة . وقال الأخفش : وأما قول من قال: بدرعك ، فليس بشيء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد . قوله : ﴿ **لتكون لمن خلفك آية** ﴾ هذا تعليل لتنحيته ببدنه ، وفى ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية : العلامة ، أى لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدعى ، ويندفع عنهم الشك فى كونك قد صرت ميتا بالغرق . وقيل : المراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله ، يعتبر بها الناس أو يعتبربها من سيأتى من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه ، فإن هذا الذى بلغ إلى مابلغ إليه من دعوى الإلهية واستمرّ على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة وقرئ :« لمن خلفك » على صيغة الفعل الماضى أى لمن يأتى بعدك من القرون أو من خلفك فى الرياسة أو فى السكون فى المسكن الذى كنت تسكنه ﴿ **وإن كثيرا من الناس عن آياتنا** ﴾ التى توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة ﴿ **لغافلون** ﴾ عما توجبه الآيات ، وهذه الجملة تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ يقول : دمرعلى أموالهم وأهلكها ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ قال : اطبع :﴿ **فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ وهو الغرق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : سألنى عمر بن عبد العزيز عن قوله : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة ، فقال عمر : كما أنت حتى آتيك ، فدعا بكيس مختوم ففكه ، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها . وقد روى أن أموالهم تحوّلت حجارة من طريق جماعة من السلف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ قال : فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الإيمان . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول آمين . قال أبو هريرة: وهو اسم من أسماء الله ، فذلك قوله : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظى نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج الحكيم الترمذى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فاستقيما فامضيا لأمرى ، وهى الاستقامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : العدو والعتوّ والعلوّ فى كتاب الله : التجبر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر

أصحاب فرعون أوحى اللّه إلى البحر أن انطبق عليهم ، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل : فعرفت أن الربّ رحيم وخفت أن تدركه الرحمة ، فرمسته بجناحى وقلت : آلآن وقد عصيت قبل ؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون : ماغرق فرعون ولا أصحابه ، ولكنهم فى جزائر البحريتصيدون ، فأوحى اللّه إلى البحر أن الفظ فرعون عريانا ، فلفظه عريانا أصلع أخينس (١) قصيرا فهو قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ لمن قال : إن فرعون لم يغرق ، وكأن نجاة غيره لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى اللّه إلى البحر أن الفظ مافيك فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لايلفظ غريقا فى بطنه حتى يأكله السمك ، فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أغرق اللّه فرعون فقال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ قال لى جبريل : يا محمد ، لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة » (٢) . وقد روى هذا الحديث الترمذى من غير وجه ، وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه أيضا الحاكم (٣) . وروى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى (٤) .وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « قال لى جبريل : ما كان على الأرض شيء أبغض إلىّ من فرعون ، فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة ». وأخرج ابن جرير والبيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعًا نحوه(٥) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة مرفوعا نحوه أيضا ، وفى إسناد حديث أبى هريرة رجل مجهول ، وباقى رجاله ثقات .

والعجب كل العجب ممن لاعلم له بفنّ الرواية من المفسرين ، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه ، كيف يتجارى على الكلام فى أحاديث رسول اللّه ﷺ والحكم ببطلان ما صح منها ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت ، والقصور الفاضح الذى يضحك منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث ، فيامسكين مالك ولهذا الشأن الذى لست منه فى شيء ؟ ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك،وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين ، وتشتغل بما هو علمك الذى لا تجاوزه ، وحاصلك الذى ليس لك غيره ، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية،ولقد صار صاحب الكشاف رحمه اللّه،بسبب ما يتعرض له فى تفسيره من علم الحديث الذى ليس هو منه فى ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين ، فتارة يروى فى كتابه الموضوعات وهو لا يدرى أنها موضوعات ، وتارة يتعرض لردّ ما صح ،

(١) تصغير أخنس ، يخنِسُ خُنوسا : تأخر اللسان ٦/ ٧١ .
(٢) أحمد ١/ ٢٤٥ والترمذى فى التفسير (٣١٠٧) وقال :« حديث حسن » وابن جرير ١١/ ١١٢ .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣١٠٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٤) ابن جرير ١١/ ١١٣ .
(٥) ابن جرير ١١/ ١١٢ والبيهقى فى الشعب (٧٣٩٠) ط . دار الكتب العلمية .

ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله والبهت عليه ، وقد يكون فى الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج ، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم فى علم لا يعلمه ولا يدرى به أقلّ دراية ، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التى يتواضع عليها طائفة من الناس ، ويصطلحون على أمور فيما بينهم ، فما بالك بعلم السنة الذى هو قسيم كتاب الله ، وقائله رسول الله ﷺ ، وراويه عنه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ لجميع أهل الإسلام .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قال : أنجى الله فرعون لبنى إسرائيل من البحر فنظر إليه بعد ما غرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بجسدك ، قال : كذب بعض بنى إسرائيل بموت فرعون ، فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور. وأخرج ابن الأنبارى عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قال : بدرعك، وكان درعه من لؤلؤة يلاقى فيها الحروب .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد بوأنا** ﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، ومعنى ﴿**بوأنا**﴾ : أسكنا ، يقال: بوأت زيدا منزلا ، أسكنته فيه ، والمبوأ اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق، والمراد به هنا : المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر . وقيل : الأردن وفلسطين . وقيل : الشام ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات من الرزق

﴿ **فما اختلفوا** ﴾ فى أمر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿ **حتى جاءهم العلم** ﴾ أى لم يقع منهم الاختلاف فى الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها ، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوة محمد ﷺ . وقيل : المعنى : أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ ، فاختلفوا فى نعته وصفته ، وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر . فيكون المراد بالمختلفين على القول الأول : هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثانى : هم اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، والمحق بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل .

﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك** ﴾ الشك فى أصل اللغة : ضم الشىء بعضه إلى بعض ، ومنه شك الجوهر فى العقد ، والشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردد ويتحير ، والخطاب للنبى ﷺ ، والمراد غيره كما ورد فى القرآن فى غير موضع . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلبا والمبرد يقولان : معنى ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ أى قل يا محمد للكافر : فإن كنت فى شك ﴿ **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك** ﴾ يعنى : مسلمى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بأنهم أعلم منهم ، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا ، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا ، وأن هذا رسوله ، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به ، وفى هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر . وقال القتيبى : المراد بهذه الآية : من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبى ﷺ ولا بتصديقه ، بل كان فى شك. وقيل : المراد بالخطاب : النبى ﷺ لا غيره . والمعنى : لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك هو ضيق الصدر ، أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم . وقيل : معنى الآية : الفرض والتقدير ، كأنه قال له : فإن وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا . فاسأل الذين يقرؤون الكتاب ، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ، ويعترفون بذلك ؛ لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم .

قوله : ﴿ **لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ فى هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير فى الشاك هو الحق الذى لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهى للنبى ﷺ عن الامتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك . ويمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول فى نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله ، فإن الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : ﴿ **فتكون**

من الخاسرين ﴾ وفى هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهى لهم أنفسهم ؛ لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك .

قوله : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾ قد تقدم مثله فى هذه السورة ، والمعنى : أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر ويموتون عليه ، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال ، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو فى حكم العدم ﴿ **ولو جاءتهم كل آية** ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية ، فإن ذلك لا ينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم :﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان وليس بإيمان . ولا يترتب عليه شيء من أحكامه .

قوله : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ : « لولا » هذه هى التحضيضية التى بمعنى هلا ، كما قال الأخفش والكسائى وغيرهما ، ويدل على ذلك ما فى مصحف أبى وابن مسعود « فهلا قرية » ، والمعنى : فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدا به ، وذلك بأن يكون خالصا لله قبل معاينة عذابه ولم يؤخره كما أخره فرعون ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا قوم يونس** ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد : أهلها ، والمعنى : لكن قوم يونس ﴿ **لما آمنوا** ﴾ إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿**كشفنا عنهم عذاب الخزى** ﴾ وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة منهم الكسائى والأخفش والفراء. وقيل : يجوز أن يكون متصلا ، والجملة فى معنى النفى . كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء ، وقرئ بالرفع على البدل ، وقال الزجاج فى توجيه الرفع : يكون المعنى : غير قوم يونس ، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب عليها ، فأعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير . قال ابن جرير : خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنه لم يقع العذاب، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب . ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان ، وهذا أولى من قول ابن جرير . والمراد بعذاب الخزى الذى كشفه الله عنهم ، وهو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه . أو الذى قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ **ومتعناهم إلى حين** ﴾ أى بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله فى الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم .

ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره ، فقال : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم** ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿ **جميعا** ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يتفرقون فيه ويختلفون ، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التى أرادها الله سبحانه ، وانتصاب جميعاعلى الحال كما قال سيبويه . قال الأخفش : جاء بقوله : ﴿ **جميعا** ﴾ بعد ﴿ **كلهم** ﴾ للتأكيد كقوله : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ [النحل : ٥١] ولما كان النبى ﷺ

حريصا على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون ؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضى ذلك. فقال: ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ فإن ذلك ليس فى وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك، وفى هذا تسلية له ﷺ ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذى لو كان صلاحا محققا بل يكون إلى الفساد أقرب . ولله الحكمة البالغة .

ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله : ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ أى ما صح وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه ، أى بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان ﴿ **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** ﴾ أى العذاب أو الكفر أو الخذلان الذى هو سبب العذاب . وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل :« ونجعل » بالنون . وفى الرجس لغتان ضم الراء وكسرها . والمراد بالذين لا يعقلون : هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ، ولا يتفكرون فى آياته ، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق** ﴾ قال : بوأهم الله الشام وبيت المقدس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : منازل صدق مصر والشام . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ قال : العلم : كتاب الله الذى أنزله وأمره الذى أمرهم به . وقد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، وهو فى السنن والمسانيد ، والكلام فيه يطول (١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ الآية ، قال: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال:« لا أشك ولا أسأل »(٢) . وهو مرسل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك** ﴾ قال :التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمدا من أهل الكتاب وآمنوا به ، يقول : سلهم إن كنت فى شك بأنك مكتوب عندهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾ قال : حق عليهم سخط الله بما عصوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله :﴿ **فلولا كانت قرية آمنت** ﴾ يقول : فما كانت

---

(١) أحمد ٢/ ٣٣٢ وأبو داود فى السنة (٤٥٩٦) والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٠) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة (٣٩٩١) .

(٢) ابن جرير ١١/ ١١٦ .

قرية آمنت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى الله قوم يونس . قال : وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى [١] من أرض الموصل . فلما فقدوا نبيهم قذف الله فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشى وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، فعجوا إلى الله أربعين صباحا ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :« إن يونس دعا قومه . فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب . فقال : إنه يأتيكم يوم كذا وكذا . ثم خرج عنهم ، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها ، وبين السخلة [٢] وولدها . وخرجوا يعجون إلى الله ، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب ، وقعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر . فمر به رجل فقال : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا ، فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وانطلق مغاضبا يعنى: مراغما. وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دما . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن ابن عباس أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثى ميل . فلما دعوا كشفه الله عنهم . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الجلد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له ما ترى ؟ قال : قولوا : ياحى حين لا حى . وياحى محيى الموتى ، وياحى لا إله إلا أنت ، فقالوا ، فكشف عنهم العذاب [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويجعل الرجس** ﴾ قال : السخط . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الرجس : الشيطان ، والرجس : العذاب .

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ

---

(١) نينوى : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وفتح النون والواو بالموصل ، وبسواد الكوفة ، ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التى قتل بها الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ معجم البلدان ٥/ ٣٣٩ .

(٢) تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والماعز ساعة تولد ، والجمع سخال اللسان ١١/ ٣٣٢ .

(٣) أحمد فى الزهد ٦١ وابن جرير ١١/ ١١٩ .

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ : لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية ، والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار ، أى قل يا محمد للكفار : تفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته . و﴿**ماذا**﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**فى السموات والأرض**﴾ ، أو المبتدأ « ما » ، و« ذا » بمعنى الذى ، و﴿ **فى السموات والأرض** ﴾ صلته ، والموصول وصلته خبر المبتدأ ، أى أى شيء الذى فى السموات والأرض ، وعلى التقديرين فالجملة فى محل نصب بالفعل الذى قبلها . ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر فى هذه الدلائل لا ينفع فى حق من استحكمت شقاوته فقال : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر**﴾ أى ما تنفع على أن ما نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أى أى شيء ينفع والآيات هى التى عبر عنها بقوله: ﴿ **ماذا فى السموات والأرض** ﴾ والنذر جمع نذير ، وهم الرسل أو جمع إنذار وهو المصدر ﴿ **عن قوم لا يؤمنون** ﴾ فى علم الله سبحانه ؛ والمعنى أن من كان هكذا لا يجدى فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع .

قوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ أى فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد ﷺ إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء ، فقد كان الأنبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه ، ثم قال : ﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿ **فانتظروا** ﴾ أى تربصوا لوعد ربكم إنى معكم من المتربصين لوعد ربى ، وفى هذا تهديد شديد ، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك ، و« ثم » فى قوله : ﴿ **ثم ننجى رسلنا**﴾ للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل : أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم . وقرأ يعقوب :« ثم ننجى» مخففا . وقرأ كذلك أيضا فى: ﴿ **حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾ . وروى كذلك عن الكسائى وحفص فى الثانية . وقرأ الباقون بالتشديد ، وهما لغتان فصيحتان : أنجى ينجى إنجاء ، ونجى ينجى تنجية بمعنى واحد ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ معطوف على رسلنا : أى نجيناهم ونجينا الذين آمنوا ، والتعبير بلفظ

الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لأمرها ﴿**كذلك حقا علينا**﴾ أى حق ذلك علينا حقا ، أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقا ﴿ **ننج المؤمنين** ﴾ من عذابنا للكفار ، والمراد بالمؤمنين : الجنس ، فيدخل فى ذلك الرسل وأتباعهم ، أو يكون خاصا بالمؤمنين وهم أتباع الرسل ؛ لأن الرسل داخلون فى ذلك بالأولى .

قوله : ﴿ **قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى** ﴾ أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس ، أو للكفار منهم ، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله : إن كنتم فى شك من دينى الذى أنا عليه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته ، وأنه الدين الحق الذى لا دين غيره ، فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها ﴿ **فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله** ﴾ فى حال من الأحوال ﴿ **ولكن أعبد الله الذين يتوفاكم** ﴾ أى أخصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها ، وخص صفة المتوفى من بين الصفات لما فى ذلك من التهديد لهم ، أى أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولكونه يدل على الخلق أولا ، وعلى الإعادة ثانيا ، ولكونه أشد الأحوال مهابة فى القلوب ، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة ، فكأنه قال : أعبد الله الذى وعدنى بإهلاككم . ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان فقال : ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ أى بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين .

وجملة : ﴿ **وأن أقم وجهك للدين** ﴾ معطوفة على جملة :﴿ **أن أكون من المؤمنين** ﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر ؛ لأن المقصود من « أن » الدلالة على المصدر ، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ، أو يكون المعطوف عليه فى معنى الإنشاء ، كأنه قيل : كن مؤمنا ثم أقم ؛ والمعنى : أن الله سبحانه أمره بالاستقامة فى الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال . وخص الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ، أو أمره باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم التحول عنها ، و﴿**حنيفا**﴾ حال من الدين ، أو من الوجه ، أى مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام . ثم أكد الأمر المتقدم للنهى عن ضده فقال : ﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾ وهو معطوف على ﴿ **أقم** ﴾ ، وهو من باب التعريض لغيره ﷺ .

قوله: ﴿ **ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ معطوف على ﴿ **قل يأيها الناس** ﴾ غير داخل تحت الأمر ، وقيل : معطوف على ﴿ **ولا تكونن** ﴾ أى لا تدع من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشىء من النفع والضر إن دعوته ، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا ، ولا يقدر على ضر ضائع لا يفعله عاقل على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره ، فكيف إذا كان موجودا ؟ فإن العدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح ﴿ **فإن فعلت** ﴾ أى فإن دعوت ، ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿ **فإنك إذا من الظالمين** ﴾ هذا جزاء الشرط ، أى فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك فى

عداد الظالمين لأنفسهم ، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ .

وجملة : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر** ﴾ إلى آخرها مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى : أن الله سبحانه هو الضار النافع . فإن أنزل بعبده ضرا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان ، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ أى خير كان لم يستطع أحد أن يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائنا من كان ، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم . قال الواحدى : إن قوله :﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ هو من القلب ، وأصله وإن يرد بك الخير ، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر . قال النيسابورى : وفى تخصيص الإرادة بجانب الخير ، والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات ، والشر بالعرض . قلت : وفى هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها ، والضمير فى ﴿**يصيب به** ﴾ راجع إلى فضله ، أى يصيب بفضله من يشاء من عباده ، وجملة : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ تذييلية .

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره ، فقال :﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ أى القرآن ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾ أى منفعة اهتدائه مختصة به ، وضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه ، وليس لله حاجة فى شىء من ذلك ، ولا غرض يعود إليه ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ أى بحفيظ يحفظ أموركم وتوكل إليه ، إنما أنا بشير ونذير ، ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهى التى يشرعها الله له ولأمته ، ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ ، وما يعانيه من تلون أخلاق المشركين وتعجرفهم ، وجعل ذلك الصبر ممتدا إلى غاية هى قوله :﴿ **حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ أى يحكم الله بينه وبينهم فى الدنيا بالنصر له عليهم ، وفى الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه ﷺ هو وأمته المتبعون له المؤمنون به ، العاملون بما يأمرهم به ، المنتهون عما ينهاهم عنه ، يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لا ينفد ، ولا يمكن وصفه ، ولا يوقف على أدنى مزاياه .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر عن قوم** ﴾ يقول : عند قوم ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ نسخت قوله : ﴿ حكمة بالغة فما تغنِ النذر ﴾ [القمر : ٥] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ قال : وقائع الله فى الذين خلوا من قبلهم ؛ قوم نوح وعاد وثمود . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال : خوفهم عذابه ونقمته وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا ، فقال : ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا** ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ يقول : بعافية . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال : ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت

بهن عن جميع الخلائق : أولهن : ﴿ **وإن يمسسك الله بـضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفـضله**﴾ ، والثانية : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ﴾ [فاطر: ٢]، والثالثة: ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [هود : ٦] . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا راد لفـضله** ﴾ قال : هو الحق المذكور فى قوله : ﴿ **قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **واصبر حتى يحكم الله** ﴾ قال : هذا منسوخ ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم .

تفسير سورة هود

هى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهى قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ وأخرج النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة هود بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله . وأخرج الدارمى ، وأبو داود فى مراسيله ، وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر ، والبيهقى فى الشعب عن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا هود يوم الجمعة » (١) . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر من طريق مسروق عن أبى بكر الصديق قال: قلت :يا رسول اللّه ، لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » (٢). وأخرج البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعا بلفظ : قلت: يا رسول اللّه ، عجل إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها ، والواقعة ، والحاقة ، وعمّ يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية » . وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مردويه ، عن أنس قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : لقد عجل إليك الشيب . فقال : « شيبتنى هود وأخواتها من المفصل » . وأخرج الترمذى وحسنه، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شبت ، قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » (٣). وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه أن الصحابه قالوا :يا رسول الله ، لقد أسرع إليك الشيب ، قال : « أجل شيبتنى هود وأخواتها ». قال عطاء : وأخواتها : اقتربت الساعة. والمرسلات ، وإذا الشمس كوّرت . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أسرع إليك الشيب ، قال:« شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة،وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت » (٤) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول اللّه ﷺ :« شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة، والحاقة ، وإذا الشمس كوّرت » (٥) . وأخرجا أيضا عن ابن مسعود : أن أبا بكر قال : يا رسول اللّه ، ما شيبك ؟ قال : «هود والواقعة». وفى إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك (٦) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند

---

(١) الدارمى ٢/ ٤٥٤ والبيهقى فى الشعب (٢٢١٤) ورجاله ثقات لكنه مرسل .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٩٧) وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٣ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

(٤) البيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٨ .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : «رواه الطبرانى وفيه سعيد بن سلام العطار وهو كذاب » .

(٦) قال الهيثمى فى المجمع : ٧/ ٤٠ : « رواه الطبرانى وفى إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك » .

صحيح عن عقبة بن عامر ، أن رجلا قال :يا رسول الله ، قد شبت ، قال:« شيبتنى هود ، وإذا الشمس كوّرت وأخواتها » (١) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وعبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد، وأبو يعلى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبى جحيفة قال : قالوا : يا رسول الله ، نراك قد شبت ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها » (٢) . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عمران بن حصين ؛ أن رسول الله ﷺ قال له أصحابه : قد أسرع إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها من المفصل » . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « شيبتنى هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾.

قوله ﴿ الر ﴾ : إن كان مسرودا على سبيل التعديد كما فى سائر فواتح السور فلا محل له، وإن كان اسما للسورة فهو فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف، و﴿ كتاب ﴾ يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ محذوف ، أى هذا كتاب ، وكذا على تقدير أن ﴿ الر ﴾ لامحل له، ويجوز أن يكون ﴿ الر ﴾ فى محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اذكر،أو اقرأ ، فيكون ﴿ كتاب ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف،

---

(١) الطبرانى (٧٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .

(٢) أبو يعلى (٨٨٠) وإسناده ضعيف حيث إن على بن صالح متأخر السماع من أبى إسحاق السبيعى ، والطبرانى (٣١٨) .

والإشارة فى المبتدأ المقدر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، ومعنى ﴿أحكمت آياته﴾ : صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم ، وقيل : معناه : إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذى لم ينسخ . وقيل : معناه : أحكمت آياته بالأمر والنهى ، ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقيل : أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام . وقيل : أحكمت جملته ، ثم فصلت آياته . وقيل: جمعت فى اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحى ، وقيل : أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله ، وقيل معنى إحكامها أن لا فساد فيها ، أخذا من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، و ﴿ ثم فصلت ﴾ معطوف على ﴿ أحكمت ﴾ ، ومعناه ما تقدّم ، والتراخى المستفاد من « ثم » إما زمانى إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ، وإما رتبىّ إن فسر بغيره مما تقدّم ، والجمل فى محل رفع على أنها صفة لكتاب أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف ، وفى قوله : ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور .

قوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ مفعول له حذف منه اللام ، كذا فى الكشاف [١] وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل . وقيل : « أنّ » هى المفسرة لما فى التفصيل من معنى القول . وقيل : هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله محكيا على لسان النبىّ ﷺ . قال الكسائى والفراء : التقدير: أحكمت بأن لا تعبدوا إلا الله . وقال الزجاج : أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله ، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بأنه نذير وبشير فقال : ﴿ إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ أى ينذرهم ويخوّفهم من عذابه لمن عصاه، ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه ، والضمير فى ﴿منه ﴾ راجع إلى الله سبحانه ، أى إننى لكم نذير وبشير من جهة الله سبحانه . وقيل: هو من كلام الله سبحانه كقوله: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

قوله :﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ معطوف على ﴿ ألا تعبدوا ﴾ والكلام فى « أن » هذه كالكلام فى التى قبلها . وقوله : ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ معطوف على ﴿ استغفروا ﴾ ، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة إليها ، وقيل : إن التوبة من متممات الاستغفار. وقيل : معنى ﴿ استغفروا ﴾ : توبوا . ومعنى ﴿ توبوا ﴾ : أخلصوا التوبة واستقيموا عليها . وقيل : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها . وقيل : استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة .قال الفراء : « ثم » هاهنا بمعنى الواو ، أى وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ، وما كان آخرا فى الحصول كان أوّلا فى الطلب . وقيل : استغفروا فى الصغائر وتوبوا إليه فى الكبائر ؛ ثم رتب على ما تقدّم

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٧ .

أمرين الأول : ﴿ **يمتعكم متاعا حسنا** ﴾ أصل الإمتاع :الإطالة، ومنه أمتع الله بك ؛ فمعنى الآية : يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ إلى وقت مقدّر عند الله وهو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة ؛ والأوّل أولى . والأمر الثانى : قوله : ﴿ **ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى يعط كل ذى فضل فى الطاعة والعمل فضله ، أى جزاء فضله إما فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعا ، والضمير فى ﴿ **فضله** ﴾ راجع إلى كل ذى فضل . وقيل : راجع إلى الله سبحانه على معنى: أن الله يعطى كل من فضلت حسناته فضله الذى يتفضل به على عباده . ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال : ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أى تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص فى العبادة والاستغفار والتوبة ﴿ **فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ وهو يوم القيامة ، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير : يوم بدر .

ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله:﴿ **إلى الله مرجعكم** ﴾ أى رجوعكم إليه بالموت. ثم البعث ، ثم الجزاء ، لا إلى غيره ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال ، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها . ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ، ولا لانت له قلوبهم ، بل هم مصرّون على العناد مصممون على الكفر ، فقال مصدرا لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم ، وأنه أمر ينبغى أن يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ يقال: ثنى صدره عن الشىء؛ إذا ازورّ عنه وانحرف منه ، فيكون فى الكلام كناية عن الإعراض ؛ لأن من أعرض عن الشىء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه (١) . وقيل : معناه : يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق ، فيكون فى الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين .والوجه الثانى أولى ، ويؤيده قوله : ﴿ **ليستخفوا منه** ﴾ أى ليستخفوا من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين ، أو ليستخفوا من رسول الله ﷺ؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ أى يستخفون فى وقت استغشاء الثياب ، وهو التغطى بها ، وقد كانوا يقولون : إذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ وقيل : معنى ﴿ **حين يستغشون**﴾:حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم . وقيل : إنه حقيقة وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله ﷺ . وجملة : ﴿ **يعلم ما يسرّون وما يعلنون** ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم فى الاستخفاء ؛ لأن الله سبحانه يعلم ما يسرّونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم وما يظهرونه ، فالظاهر والباطن عنده سواء ، والسّر والجهر سيان ، وجملة ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ تعليل لما قبلها وتقرير له،

---

(١) ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .

و﴿ **ذات الصدور** ﴾ هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور ، وقيل : هى القلوب ، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر ، أو عليم بالقلوب وأحوالها فى الإسرار والإظهار ، فلا يخفى عليه شيء من ذلك .

ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الإحسان فقال : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلاعلى الله رزقها** ﴾ أى الرزق الذى تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه تفضلا منه وإحسانا، وإنما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة «على» اعتبارا بسبق الوعد به منه ، و« من » زائدة للتأكيد ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق ، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله. والدابة : كل حيوان يدب ﴿ **ويعلم مستقرّها** ﴾ أى محل استقرارها فى الأرض أو محل قرارها فى الأصلاب ﴿**ومستودعها** ﴾ موضعها فى الأرحام ، وما يجرى مجراها كالبيضة ونحوها . وقال الفراء : مستقرها :حيث تأوى إليه ليلا ونهارا ، ومستودعها : موضعها الذى تموت فيه ، وقد مرّ تمام الأقوال فى سورة الأنعام ، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر، وأما على القول الأوّل فلعل وجه ذلك : أن المستقر أنسب باعتبار ما هى عليه حال كونها دابة. والمعنى: وما من دابة فى الأرض إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة ، وذلك حيث تكون فى الرحم ونحوه ؛ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ **كل فى كتاب مبين** ﴾ أى كل من ما تقدّم ذكره من الدواب ومستقرّها ومستودعها ورزقها فى كتاب مبين ، وهو اللوح المحفوظ ، أى مثبت فيه .

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات والأرض ، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف ، قيل : والمراد بالأيام : الأوقات ، أى فى ستة أوقات كما فى قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ [الأنفال : ١٦] وقيل : مقدار ستة أيام ، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة ، وهى المقابلة لليالى ، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء وليس اليوم إلا عبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض ، وكان خلق السموات فى يومين ، والأرضين فى يومين ، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد فى يومين كما سيأتى فى حم السجدة . قوله : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ أى كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين .

قوله : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ اللام متعلقة بخلق ، أى خلق هذه المخلوقات ليبتلى عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملا فيما أمر به ونهى عنه ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره ، ويدخل فى العمل الاعتقاد ، لأنه من أعمال القلب . وقيل : المراد

بالأحسن عملا: الأتمّ عقلا. وقيل : الأزهد فى الدنيا . وقيل : الأكثر شكرا . وقيل: الأتقى للّه . قوله : ﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره ، والمعنى : لئن قلت لهم يا محمد على ماتوجبه قضية الابتلاء: إنكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذى تقوله يا محمد إلا باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه . ويجوز أن تكون الإشارة بـ ﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن ؛ لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث . وقرأ حمزة والكسائى : « إن هذا إلا ساحر » يعنون النبى ﷺ وكسرت «إنّ » من قوله ﴿ **إنكم** ﴾ لأنها بعد القول . وحكى سيبويه الفتح على تضمين ﴿ **قلت**﴾ معنى : ذكرت ، أو على «أن » بمعنى : علّ أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون ، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين ، أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بإنكاره .

﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب** ﴾ أى الذى تقدّم ذكره فى قوله : ﴿ **عذاب يوم كبير** ﴾ وقيل : عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل :يوم بدر ﴿ **إلى أمة معدودة** ﴾ أى إلى طائفة من الأيام قليلة ؛ لأن ما يحصره العدّ قليل ، والأمة : اشتقاقها من الأم وهو القصد ، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب . وقيل : هى فى الأصل الجماعة من الناس ، وقد يسمى الحين باسم مايحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر ، أى فى ذلك الحين ، فالمراد على هذا : إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس ﴿ **ليقولن مايحبسه** ﴾ أى أىّ شىء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب ، فأجابهم اللّه بقوله : ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم** ﴾ أى ليس محبوسا عنهم ، بل واقع بهم لا محالة ، و﴿ **يوم** ﴾ منصوب بـ﴿ **مصروفا** ﴾ ،﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾ أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزئون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قرأ : ﴿ **الر كتاب أحكمت آياته** ﴾ قال : هى كلها محكمة يعنى سورة هود ﴿ **ثم فصلت** ﴾ قال : ثم ذكر محمدا ﷺ فحكم فيها بينه وبين من خالفه وقرأ : ﴿ مثل الفريقين . . .﴾ الآية كلها [هود: ٢٤] ،ثم ذكر قوم نوح ثم هود ، فكان هذا تفصيل ذلك ، وكان أوّله محكما قال : وكان أبى يقول ذلك ، يعنى زيد بن أسلم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته** ﴾ قال : أحكمت بالأمر والنهى ، وفصلت بالوعد والوعيد . وأخرج هؤلاء عن مجاهد : ﴿ **فصلت** ﴾ قال : فسرت. وأخرج هؤلاء أيضا عن قتادة فى الآية قال: أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بعلمه ، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته [١] ، وفى

(١) ابن جرير ١١/ ١٢٣ .

قوله : ﴿ **من لدن حكيم** ﴾ يعنى : من عند حكيم ، وفى قوله : ﴿ **يمتعكم متاعا حسنا** ﴾ : قال : فأنتم فى ذلك المتاع فخذوه بطاعة اللّه ومعرفة حقه ، فإن اللّه منعم يحبّ الشاكرين وأهل الشكر فى مزيد من اللّه ، وذلك قضاؤه الذى قضاه ؛ وفى قوله : ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ يعنى : الموت ، وفى قوله : ﴿ **يؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى فى الآخرة . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى فى الآخرة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : يؤت كل ذى فضل فى الإسلام فضل الدرجات فى الآخرة . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله :﴿ **ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشرحسنات ، فإن عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشرحسنات ، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول :هلك من غلب آحاده أعشاره (١) .

وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم . قال البخارى : وعن ابن عباس ﴿ **يستغشون** ﴾ يغطون رؤوسهم . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ، يعنى به الشك فى اللّه ، وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهما ، أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من اللّه بذلك ، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل ﴿ **يعلم ما يسرّون** ﴾ من القول ﴿ **وما يعلنون** ﴾ (٢) . وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد اللّه بن شداد بن الهاد فى قوله : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ قال : كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبىّ ﷺ ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه ، فنزلت . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله :﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ قال : فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رزين فى الآية قال : كان أحدهم يحنى ظهره ويستغشى بثوبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب اللّه . قال تعالى : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون** ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره واستغشى بثوبه ، وأضمر همه فى نفسه ، فإن اللّه لا يخفى عليه ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى الآية : يكتمون ما فى قلوبهم ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما من دابة** ﴾ الآية قال :

(١) المصدر السابق ١١/ ١٢٤ . (٢) البخارى فى التفسير (٤٦٨٣) .

يعنى كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما من دابة** ﴾ الآية قال : يعنى ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا . ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ويعلم مستقرّها** ﴾ قال: حيث تأوى، و﴿ **مستودعها** ﴾ قال : حيث تموت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **ويعلم مستقرّها** ﴾ قال : يأتيها رزقها حيث كانت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرّها فى الأرحام ، ومستودعها حيث تموت، ويؤيد هذا التفسير الذى ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى» (١) .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ على أىّ شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وقد وردت أحاديث كثيرة فى صفة العرش ، وفى كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ فقال :ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلا » ، ثم قال : « وأحسنكم عقلا : أورعكم عن محارم الله وأعملكم بطاعة الله » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : إنكم أتم عقلا. وأخرج أيضا عن سفيان قال : أزهدكم فى الدنيا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزلت : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : ١] قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل : ١] فقال ناس من أهل الضلال : هذا أمر الله قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلى أمة معدودة** ﴾ قال: إلى أجل معدود . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة: ﴿ **ليقولنّ**

---

(١) ابن ماجة فى الزهد (٤٢٦٣) والطبرانى (١٠٤٠٣) قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » والحاكم ١/٣٦٧ وسكت عنه وافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٩٨٨٩) .

(٢) ابن جرير ١٢/٤ وصححه الحاكم ٢/٣٤١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

ما يحبسه ﴾ يعنى أهل النفاق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ يقول : وقع بهم العذاب الذى استهزؤوا به .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾ .

اللام فى : ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان** ﴾ هى الموطئة للقسم ، والإنسان الجنس ، فيشمل المؤمن والكافر ، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله : ﴿ **إلا الذين صبروا** ﴾ وقيل : المراد : جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هى أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام فى الغالب . وقيل : المراد بالإنسان الوليد بن المغيرة . وقيل : عبد اللّه بن أمية المخزومى . والمراد بالرحمة هنا : النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ **ثم نزعناها منه** ﴾ أى سلبناه إياها ﴿ **إنه ليؤوس** ﴾ أى آيس من الرحمة ، شديد القنوط من عودها وأمثالها ، والكفور : عظيم الكفران وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابى ؛ وفى إيراد صيغتى المبالغة فى ﴿ **ليؤوس كفور** ﴾ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس، وكثير الجحد عند أن يسلبه اللّه بعض نعمه فلايرجو عودها ، ولا يشكر ما قد سلف له منها . وفى التعبير بالذوق ما يدلّ على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم اللّه بها عليه ؛ لأن الإذاقة والذوق أقلّ ما يوجد به الطعم ، والنعماء : إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضّراء : ظهور أثر الإضرار على من أصيب به . والمعنى : أنه إن أذاق اللّه سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة ، والغنى بعد أن كان فى ضرّ من فقر أو مرض أو خوف ، لم يقابل ذلك بما يليق

به من الشكر للّه سبحانه ، بل يقول : ذهب السيئات، أى المصائب التى ساءته من الضرّ والفقر والخوف والمرض عنه ، وزال أثرها غير شاكر للّه ولا مثن عليه بنعمه ﴿ **إنه لفرح فخور**﴾ أى كثير الفرح بطرا وأشرا ، كثير الفخر على الناس ، والتطاول عليهم بما يتفضل اللّه به عليه من النعم، وفى التعبير عن ملابسة الضرّ له بالمس مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالإذاقة، فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة، كما تقدّم . ﴿ **إلا الذين صبروا** ﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن ، والشكر عند حصول المنن . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأوّل ، أى ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء: هو استثناء من ﴿ **لئن أذقناه** ﴾ أى من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ، فهو استثناء متصل ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ﴿ **وأجر** ﴾ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة ﴿ **كبير** ﴾ متناه فى الكبر .

ثم سلّى اللّه سبحانه رسوله ﷺ ، فقال : ﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك** ﴾ أى فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب ، واقتراح الآيات التى يقترحونها عليه على حسب هواهم وتعنتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله اللّه عليك وأمرك بتبليغه ، مما يشق عليهم سماعه ، أو يستشقون العمل به ، كسبّ آلهتهم وأمرهم بالإيمان باللّه وحده . وقيل : وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام ، أى هل أنت تارك ؟ وقيل : هو فى معنى النفى مع الاستبعاد ، أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم جميع ما أنزل اللّه عليك ، أحبوا ذلك أم كرهوه ، شاؤوا أم أبوا ﴿ **وضائق به صدرك** ﴾ معطوف على ﴿ **تارك** ﴾ ، والضمير فى « به » راجع إلى « ما » أو إلى ﴿ **بعض** ﴾ ، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿ **أن يقولوا** ﴾ أى كراهة أن يقولوا ، أو مخافة أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا ﴿ **لولا أنزل عليه كنز** ﴾ أى هلا أنزل عليه كنز ، أى مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿ **أو جاء معه ملك** ﴾ يصدّقه ويبين لنا صحة رسالته ؛ ثم بين سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة ، فقال : ﴿ **إنما أنت نذير** ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجـاد مقترحاتهم ﴿ **واللّه على كل شىء وكيل** ﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل .

قوله : ﴿ **أم يقولون افـتراه** ﴾ « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، وأضرب عما تقدّم من تهاونهم بالوحى ، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة ، وشرع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك ، وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والضمير المستتر فى﴿ **افتراه** ﴾ للنبى ﷺ ، والبارز إلى ما يوحى . ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بعشر سور مثله**﴾

أى مماثلة له فى البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعانى، ووصف السور بما يوصف به المفرد ، فقال: مثله ولم يقل: أمثاله؛ لأن المراد مماثلة كل واحد من السور ، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه ، ومداره المماثلة فى شىء واحد ، وهو البلاغة البالغة إلى حدّ الإعجاز وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة فى الجمع والتثنية والإفراد شرط ، ثم وصف السور بصفة أخرى ، فقال : ﴿ **مفتريات وادعوا** ﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿ **من استطعتم**﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الإنسانى ، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكا للّه سبحانه . وقوله : ﴿ **من دون اللّه** ﴾ متعلق بـ﴿ **ادعوا** ﴾ أى ادعوا من استطعتم متجاوزين اللّه تعالى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تزعمون من افترائى له .

﴿ **فإن لم يستجيبوا لكم** ﴾ أى فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحدّيتهم به من الإتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير فى « لكم » لرسول اللّه ﷺ وللمؤمنين ، أو للنبى ﷺ وحده وجمع تعظيما وتفخيما ﴿ **فاعلموا** ﴾ أمر لرسول اللّه ﷺ وللمؤمنين أو للرسول ﷺ وحده على التأويل الذى سلف قريبا . ومعنى أمرهم بالعلم : أمرهم بالثبات عليه ؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله ، أو المراد بالأمر بالعلم : الأمر بالازدياد منه إلى حدّ لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة وهو علم اليقين ، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **أنما أنزل بعلم اللّه** ﴾: أنه أنزل متلبسا بعلم اللّه المختص به، الذى لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الأفهام ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿ **وأن لا إله إلا هو** ﴾ أى واعلموا أن اللّه هو المتفرد بالألوهية لا شريك له، ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه. ثم ختم الآية بقوله:﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ أى ثابتون على الإسلام مخلصون له مزدادون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه وبصيرة زائدة ، وإن كنتم مسلمين من قبل هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **فإن لم يستجيبوا** ﴾ للموصول فى ﴿ **من استطعتم** ﴾، وضمير ﴿ **لكم** ﴾ للكفار الذين تحدّاهم رسول اللّه ﷺ ، وكذلك ضمير ﴿ **فاعلموا** ﴾ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرّون وينفعون ، فاعلموا أن هذا القرآن الذى أنزله اللّه على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذى تتقاصر دونه قوّة المخلوقين ، وأنه أنزل بعلم اللّه الذى لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأفهام ، واعلموا أنه المنفرد بالألوهية لا شريك له ، فهل أنتم بعد هذا مسلمون ؟ أى داخلون فى الإسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه . وهذا الوجه أقوى من الوجه الأوّل من جهة وأضعف منه من جهة ، فأما جهة قوّته: فلاتساق الضمائر وتناسبها ، وعدم احتياج بعضها إلى تأويل ، وأما ضعفه : فلِما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى

تكلف . وهو أن يقال : إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم فى عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بأن هذا القرآن من عند اللّه ، وأن اللّه سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم فى الإسلام. واعلم أنه قد اختلف التحدّى للكفار بمعارضة القرآن ، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : ٨٨] وبعشر سور كما فى هذه الآية ، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود ، وبسورة منه كما تقدّم ؛ وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه.

ثم إن اللّه سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال: ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ قال الفراء: إن ﴿**كان**﴾ هذه زائدة ، ولهذا جزم الجواب . وقال الزجاج : ﴿ **من كان** ﴾ فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه ﴿ **نوفّ إليهم** ﴾ أى من يكن يريد واختلف أهل التفسير فى هذه الآية. فقال الضحاك: نزلت فى الكفار ، واختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها ﴿ **أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ . وقيل : الآية واردة فى الناس على العموم كافرهم ومسلمهم ، والمعنى : أن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلك ، والمراد بزينتها : ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وارتفاع الحظّ ونفاذ القول ونحو ذلك . وإدخال ﴿ **كان** ﴾ فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ، ولهذا قيل : إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة . وظاهر قوله : ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوى ولا محالة ، ولكنّ الواقع فى الخارج يخالف ذلك . فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته وإن عمل لها وأرادها ، فلابدّ من تقييد ذلك بمشيئة اللّه سبحانه . قال القرطبى : ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ، وكذلك الآية التى فى الشورى ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ [الشورى : ٢٠] وكذلك ﴿ ومن يُرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ [آل عمران : ١٤٥] قيدتها وفسرتها التى فى سبحان ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ [الإسراء : ١٨] قوله :﴿ **وهم فيها لا يبخسون**﴾ أى و هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها ، أى فى الدنيا لا يبخسون ، أى لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها ، وذلك فى الغالب وليس بمطرد ، بل إن قضت به مشيئته سبحانه ، ورجحته حكمته البالغة . وقال القاضى : معنى الآية : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا ، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع ، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا .

قوله : ﴿ **أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ الإشارة إلى المريدين المذكورين ، ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتدّ بها الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة ، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدّم ﴿ **وحبط ما صنعوا** ﴾ أى ظهر فى الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التى كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروى ، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم ، وعدم الخلوص ، وإرادة ما عند الله فى دار الجزاء ، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ أى أنه كان عملهم فى نفسه باطلا غير معتدّ به ؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح .

قوله : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ بين سبحانه أن بين من كان طالبا للدنيا فقط ، ومن كان طالبا للآخرة تفاوتا عظيما ، وتباينا بعيدا ، والمعنى : أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبىّ ﷺ والإيمان بالله كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها . وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه بالنبى ﷺ ، أى أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل ، وقد بشرت به الكتب السالفة، كمن كان يريد الحياة وزينتها . ومعنى البينة : البرهان الذى يدلّ على الحق ، والضمير فى قوله : ﴿ **ويتلوه شاهد** ﴾ راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان ، والضمير فى ﴿ **منه** ﴾ راجع إلى القرآن ؛ لأن قد تقدّم ذكره فى قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ [يونس : ٣٨] أو راجع إلى الله تعالى . والمعنى : ويتلو البرهان الذى هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن ، أو من الله سبحانه . والشاهد : هو الإعجاز الكائن فى القرآن ، أو المعجزات التى ظهرت لرسول الله ﷺ ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن . وقال الفراء : قال بعضهم : ﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ : الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ، والهاء فى : ﴿ **منه** ﴾ لله عزّ وجلّ ؛ وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه : هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه .

قوله: ﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ معطوف على ﴿ **شاهد** ﴾ ،والتقدير: ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى ، فهو وإن كان متقدمًا فى النزول فهو يتلو الشاهد فى الشهادة ، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق، فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى. ومعنى شهادة كتاب موسى، وهو التوراة: أنه بشر بمحمد ﷺ وأخبر بأنه رسول من الله. قال الزجاج: والمعنى: ويتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبى ﷺ موصوف فى كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل. وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ: «ومن قبله كتاب موسى » بالنصب ،وحكاه المهدوى عن الكلبى فيكون معطوفا على الهاء فى ﴿**يتلوه**﴾. والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل، وانتصاب ﴿ **إماما ورحمة** ﴾ على الحال ، والإمام: هو الذى يؤتمّ به فى الدين ويقتدى به،

والرحمة : النعمة العظيمة التى أنعم اللّه بها على من أنزله عليهم ، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة ، وهو الكون على البينة من اللّه ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿**يؤمنون به** ﴾ أى يصدّقون بالنبىّ ﷺ أوبالقرآن ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ أى بالنبىّ أو بالقرآن . والأحزاب المتحزّبون على رسول اللّه ﷺ من أهل مكة وغيرهم ، أو المتحزّبون من أهل الأديان كلها ﴿ **فالنار موعده** ﴾ أى هو من أهل النار لا محالة ، وفى جعل النار موعدا إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب ، ومثله قول حسان :

أوردتموها حياض الموت صاحية فالنار موعدها والموت لاقيها

﴿ **فلا تك فى مرية منه** ﴾ أى لاتك فى شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ لأنه معصوم عن الشك فى القرآن، أو من الموعد ﴿ **إنه الحق من ربك** ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿ **ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به ، وظهور الدلائل الموجبة له ، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا ، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله :﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ قال : لأصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه عن أنس فى قوله:﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ قال : نزلت فى اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن معبد قال : قام رجل إلى علىّ فقال : أخبرنا عن هذه الآية : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا** ﴾ إلى قوله:﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ قال : ويحك ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة . وأخرج النحاس عن ابن عباس ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا** ﴾ أى ثوابها ﴿ **وزينتها** ﴾ مالها ﴿ **نوفّ إليهم** ﴾ نوفر لهم بالصحة والسرور فى الأهل والمال والولد﴿ **وهم فيها لا يبخسون** ﴾ لا ينقصون . ثم نسخها :﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ الآية [الإسراء : ١٨] . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : من عمل صالحا : التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول اللّه أوفيه الذى التمس فى الدنيا وحبط عمله الذى كان يعمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت هذه الآية فى أهل الشرك . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم** ﴾ قال : طيباتهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **وحبط ما صنعوا فيها** ﴾ قال : حبط ماعملوا من خير وبطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم

أهل الرياء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن علىّ بن أبى طالب قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن ، فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** ﴾ رسول الله ﷺ بينة من ربه ، وأنا شاهد منه . وأخرج ابن عساكر وابن مردويه من وجه آخر عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفمن كان على بينة من ربه : أنا ، ويتلوه شاهد منه : علىٌّ » . وأخرج أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ قال : ذاك محمد ﷺ . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم نحوه . وأخر ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ عن محمد بن علىّ بن أبى طالب قال : قلت لأبى : إن الناس يزعمون فى قول الله سبحانه : ﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ أنك أنت التالى ، قال : وددت أنى أنا هو ، ولكنه لسان محمد ﷺ . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال :جبريل فهو شاهد من الله بالذى يتلوه من كتاب الله الذى أنزل على محمد﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ قال : ومن قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكرعن الحسن بن علىّ فى قوله:﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ قال : محمد هو الشاهد من الله . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ قال:ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ قال : من اليهود والنصارى .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُوْلَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ

يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا** ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على اللّه كذبا بقولهم لأصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه ، وقولهم : الملائكة بنات اللّه ، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره ، واللفظ وإن كان لا يقتضى إلا نفى وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكارى ، فالمقام يفيد نفى المساوى لهم فى الظلم . فالمعنى على هذا : لا أحد مثلهم فى الظلم فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ **يعرضون على ربهم** ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم ، أو المراد بعرضهم : عرض أعمالهم: ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ الأشهاد : هم الملائكة الحفظة ، وقيل : المرسلون . وقيل : الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم اللّه بإبلاغه . وقيل : جميع الخلائق . والمعنى : أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض : هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرّحوا بما كذبوا به ، كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف . قوله : ﴿ **ألا لعنة اللّه على الظالمين** ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد ، أى يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ويقولون : ألا لعنة اللّه على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء ، ويجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه قاله بعد ما قال الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾. والأشهاد جمع شهيد ، ورجحه أبو علىّ بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] . وقيل : هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب ،والفائدة فى قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة فى فضيحة الكفار ، والتقريع لهم على رؤوس الأشهاد .

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل اللّه** ﴾ أى يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ أى يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها : أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر ، يقال: بغيتك شراً ، أى طلبته لك ، والحال أنهم ﴿ **بالآخرة هم كافرون** ﴾ أى يصفونها بالعوج ، والحال أنهم بالآخرة غيرمصدّقين فكيف يصدّون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت؟ وتكريرالضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به،حتى كأن كفرغيرهم غيرمعتدّ به بالنسبة إلى عظيم كفرهم ﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿**لم يكونوا معجزين فى الأرض**﴾ أى ما كانوا يعجزون اللّه فى الدنيا إن أراد عقوبتهم ﴿ **وما كان لهم من دون اللّه من أولياء** ﴾ يدفعون عنهم ما يريده اللّه سبحانه من عقوبتهم وإنزال بأسه بهم،وجملة ﴿ **يضاعف لهم العذاب**﴾ مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخى عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويزيد ويعقوب: «يضعف » مشدّدا ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ أى أفرطوا فى

إعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع ولا يقدرون على الإبصار لفرط تعاميهم عن الصواب . ويجوز أن يراد بقوله : ﴿ **وما كان لهم من دون الله من أولياء** ﴾ أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك ، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضررا ، ويجوز أن تكون « ما » هى المدّية . والمعنى : أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع والبصر . قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبى ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه . قال النحاس : هذا معروف فى كلام العرب ، يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان ، إذا كان ثقيلا عليه ﴿ **أولئك** ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ بعبادة غير الله. والمعنى : اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران ﴿**وضلّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى ذهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التى يدّعون أنها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران .

قوله :﴿ **لا جرم** ﴾ قال الخليل وسيبويه :« لا جرم » بمعنى حق فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة ، وبه قال الفراء . وروى عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك : لابدّ ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا. وقال الزجاج : إن جرم بمعنى كسب ، أى كسب ذلك الفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، وأنّ منصوبة بجرم . قال الأزهرى : وهذا من أحسن ما نقل فى هذه اللغة . وقال الكسائى : معنى لا جرم : لا صدّ ولا منع عن أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . وقال جماعة من النحويين :إن معنى لاجرم لا قطع قاطع ﴿ **أنهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ قالوا : والجرم : القطع ، وقد جرم النخل واجترمه ، أى قطعه ، وفى هذه الآية بيان أنهم فى الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ إليه ، وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وبين من كان على بينة من ربه ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الإيمان ﴿ **وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم** ﴾ أى أنابوا إليه ، وقيل :خشعوا . وقيل :خضعوا . قيل: وأصل الإخبات:الاستواء فى الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان . قال الفراء : إلى ربهم، ولربهم واحد ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿ **أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ .

قوله : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع** ﴾ ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع،على أن كل فريق شبه بشيئين ، أوشبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى

والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو فى ﴿**والأصم**﴾ ، وفى ﴿ **والسميع** ﴾ لعطف الصفة على الصفة ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرْم (١) وابن الهُمام (٢)

والاستفهام فى قوله: ﴿ **هل يستويان** ﴾ للإنكار: يعنى الفريقين، وهذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله: ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ وانتصاب مثلا على التميز من فاعل يستويان ، أى هل يستويان حالا وصفة ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ فى عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذى لايخفى على من له تذكر ، وعنده تفكر وتأمل ، والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن أظلم** ﴾ قال : الكافر والمنافق ﴿ **أولئك يعرضون على ربهم** ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿ **ويقول الأشهاد** ﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ شهدوا به عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : « الأشهاد : الملائكة » . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه . وفى الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « إن اللّه يدنى المؤمن حتى يضع كنفه (٣) ويستره من الناس ويقرّره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : ربّ ، أعرف ، حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة اللّه على الظالمين** ﴾ (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل اللّه**﴾ قال : هو محمد يعنى سبيل اللّه ، صدّت قريش عنه الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ يعنى : يرجون بمكة غير الإسلام دينا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض** ﴾ الآية قال : أخبر اللّه سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه قال :﴿ **ما كانوا يستطيعون.السمع وما كانوا يبصرون** ﴾ وأما فى الآخرة فإنه قال : ﴿ فلا يستطيعون . خاشعة ﴾ [القلم : ٤٢، ٤٣] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ قال : ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به . ولا يبصروا خيرا فيأخذوا به .

---

(١) القرم : المعظم والمبجل . (٢) الهمام :الشجاع .
(٣) كَنَفُهُ : ستره وعفوه .
(٤) أحمد ٢/ ٧٤ والبخارى فى المظالم (٢٤٤١) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٨/ ٥٢) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٣) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أخبتوا** ﴾ قال: خافوا . وأخرج ابن جرير عنه قال:الإخبات : الإنابة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ قال: الإخبات : الخشوع والتواضع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : اطمأنوا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم** ﴾ قال : الكافر ﴿ **والبصير والسميع** ﴾ قال : المؤمن .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التى هى أوضح من الشمس ، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن فى الكلام ، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين ، والقبول أتمّ ، فقال : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر، أى أرسلناه بأنى ، أى أرسلناه متلبسا بذلك الكلام ، وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول ، أى قائلا :إنى لكم ، والواو فى :﴿ **ولقد** ﴾ للابتداء ، واللام هى الموطئة للقسم ، واقتصر على النذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار ، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وجملة : ﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ بدل من إنى لكم نذير مبين ، أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله ، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا ، أو بنذير، أو بمبين ، وجملة : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ تعليلية . والمعنى :

نهيتكم عن عبادة غير الله لأنى أخاف عليكم ، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار ، واليوم الأليم: هو يوم القيامة ، أو يوم الطوفان ، ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازى مبالغة .

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم فى نبوّته من ثلاث جهات فقال : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ والملأ : الأشراف ، كما تقدم غير مرة ، ووصفهم بالكفر ذما لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوّته، أى نحن وأنت مشتركون فى البشرية فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا ، والجهة الثانية : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ ولـم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأرذل بك. والأرذل جمع أرذل ، وأرذل جمع رذل مثل : أكالب وأكلب وكلب . وقيل : الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود ، وهم السفلة . قال النحاس : الأراذل: الفقراء والذين لا حسب لهم ، والحسب الصناعات . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحياكة ، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : السفلة هو الذى يصلح الدنيا بدينه ، قيل له : فمن سفلة السفلة ؟ قال : الذى يصلح دنيا غيره بفساد دينه . والظاهر من كلام أهل اللغة أن السفلة هو الذى يدخل فى الحرف الدنية . والرؤية فى الموضعين إن كانت القلبية فـ﴿ **بشرا** ﴾ فى الأوّل و﴿ **اتبعك** ﴾ فى الثانى هما المفعول الثانى ، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال وانتصاب ﴿ **بادى الرأى** ﴾ على الظرفية والعامل فيه ﴿ **اتبعك** ﴾ . والمعنى : فى ظاهر الرأى من غير تعمق ، يقال : بدا يبدو : إذا ظهر . قال الأزهرى : معناه : فيما يبدو لنا من الرأى . والوجه الثالث من جهات قدحهم فى نبوّته : ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ خاطبوه فى الوجهين الأولين منفردا ، وفى هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه ، أى ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به وتستحقون ماتدّعونه ، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذى لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد ، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية ، فقالوا: ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ فيما تدّعونه ، ويجوز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم ؛ والأوّل أولى ، لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم ، فقال : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ أى أخبرونى إن كنت على برهان من ربى فى النبوّة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحا ليس بقادح فى الحقيقة ، فإن المساواة فى صفة البشرية لا تمنع المفارقة فى صفة النبوّة ، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوّة فإنهم مثلكم فى البشرية والعقل والفهم ، فاتباعهم لى حجة عليكم لا لكم ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة ﴿ **وآتانى رحمة من عنده** ﴾ هى النبوّة ، وقيل : الرحمة : المعجزة ، والبينة : النبوّة. قيل : ويجوز أن تكون الرحمة هى البينة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به

البينة، والإفراد فى : ﴿ فعميت ﴾ على إرادة كل واحدة منهما ، أو على إرادة البينة ، لأنها هى التى تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر ، ومعنى عميت : خفيت . وقيل : الرحمة هى على الخلق . وقيل : هى الهداية إلى معرفة البرهان . وقيل : الإيمان ، يقال : عميت عن كذا ، وعمى علىّ كذا : إذا لم أفهمه . قيل: وهو من باب القلب ، لأن البينة أوالرحمة لا تعمى ، وإنما يعمى عنها فهو كقولهم : أدخلت القلنسوة رأسى . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص :﴿ فعميت ﴾ بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول ، أى فعماها الله عليكم ، وفى قراءة أبىّ : « فعماها عليكم » والاستفهام فى : ﴿أنلزمكموها﴾ للإنكار، أى لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها، والحال أنكم ﴿ لها كارهون ﴾ ، والمعنى: أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتى إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها ، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجلّ . وحكى الكسائى والفراء إسكان الميم الأولى فى ﴿ أنلزمكموها ﴾ تخفيفا كما فى قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب (١) إثما من الله ولا واغل (٢)

فإن إسكان الباء فى أشرب للتخفيف . وقد قرأ أبو عمر كذلك .

قوله : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادعى طلبا للدنيا ، والضمير فى عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا . وقوله : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم: ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه . وقيل : إنهم سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا ، ثم علل ذلك بقوله :﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ أى لا أطردهم فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا ما عنده سبحانه ، وكأنه قال : هذا على وجه الإعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم ؛ ثم بين لهم ما هم عليه فى هذه المطالب التى طلبوها منه والعلل التى اعتلوا بها عن إجابته فقال : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ كل ماينبغى أن يعلم ، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه ، وسؤالهم له أن يطردهم . ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله : ﴿ ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ﴾ أى من يمنعنى من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم ؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان ، والإجابة إلى الدعوة التى أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم ، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة ، ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه

(١) احتقب الإثم واستحقبه : احتمله .
(٢) الواغل : الداخل على الشراب ولم يدع له .

من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس . وقوله :﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ معطوف على مقدّر ، كأنه قيل : أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل بما ذكر ، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره ، وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ ، وما هم عليه من الصواب .

قوله : ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن اللّه** ﴾ بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة،كذلك لايدّعى أن عنده خزائن اللّه حتى يستدلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا :﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ والمراد بخزائن اللّه:خزائن رزقه﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ أى ولا أدّعى أنى أعلم بغيب اللّه، بل لم أقل لكم إلا أنى نذير مبين ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴿ **ولا أقول** ﴾ لكم ﴿ **إنى ملك** ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشرًا مثلنا . وقد استدلّ بهذا من قال : إن الملائكة أفضل من الأنبياء ، والأدلة فى هذه المسألة مختلفة ، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة ، فليست مما كلفنا اللّه بعلمه ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم** ﴾ أى تحتقر ، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه : إذا عابه ، وزرى عليه : إذا احتقره ، وأنشد الفراء :

يباعده الصديق وتزدريه   خليلته وينهره الصغير

والمعنى : إنى لا أقول لهؤلاء المتبعين لى المؤمنين باللّه الذين تعيبونهم وتحتقرونهم : ﴿**لن يؤتيهم اللّه خيرا**﴾ بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة ، ورافعهم فى الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئا ﴿**اللّه أعلم بما فى أنفسهم** ﴾ من الإيمان به والإخلاص له فمجازيهم على ذلك ، ليس لى ولا لكم من أمرهم شىء ﴿ **إنى إذا لمن الظالمين** ﴾ لهم إن فعلت ما تريدونه بهم ، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم ، ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم وكلامه ، عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ أى خاصمتنا بأنواع الخصام ، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام ، ولم يبق لنا فى هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك وانسدّت أبواب الحيل ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب الذى تخوّفنا منه وتخافه علينا ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فيما تقوله لنا . فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة اللّه وإرادته ، و﴿ **قال إنما يأتيكم به اللّه إن شاء** ﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم ، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ بفائتين عما أراده اللّه بكم بهرب أو مدافعة .

﴿ **ولا ينفعكم نصحى** ﴾ الذى أبذله لكم وأستكثر منه قياما منى بحق النصيحة للّه بإبلاغ رسالته ، ولكم بإيضاح الحق ، وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿ **إن أردت أن أنصح لكم** ﴾ وجواب هذا الشرط محذوف ، والتقدير : إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى ، كما

يدل عليه ماقبله ، ﴿ **إن كان اللّه يريد أن يغويكم** ﴾ أى إن كان اللّه يريد إغواءكم فلا ينفعكم النصح منى ، فكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأوّل ، وتقديره ماذكرنا ، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزاء على الشرط ، وأما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشرط الأوّل : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى** ﴾ ، وجزاء الشرط الثانى الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها . قال ابن جرير : معنى ﴿ **يغويكم** ﴾ : يهلككم بعذابه ، وظاهر لغة العرب أن الإغواء : الإضلال ؛ فمعنى الآية : لا ينفعكم نصحى إن كان اللّه يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ، ويخذلكم عن طريق الحق . وحكى عن طىّ : أصبح فلان غاويا ، أى مريضا ، وليس هذا المعنى هو المراد فى الآية . وقد ورد الإغواء :بمعنى الإهلاك ، ومنه : ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ [مريم : ٥٩] وهو غير ما فى هذه الآية ﴿ **هو ربكم** ﴾ فإليه الإغواء وإليه الهداية ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ قال : فيما ظهر لنا . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **إن كنت على بينة من ربى** ﴾ قال : قد عرفتها وعرفت بها أمره ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿ **وآتانى رحمة من عنده** ﴾ قال : الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوّة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ قال : أما واللّه لو استطاع نبىّ اللّه لألزمها قومه ، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال فى قراءة أبىّ : « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه قرأ : « أنلزمكموها من شطر قلوبنا » .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ ، قال : قالوا له : يانوح ، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم ، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأرض سواء ، وفى قوله : ﴿ **إنهم ملاقو ربهم** ﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن اللّه** ﴾ التى لا يفنيها شىء ، فأكون إنما دعوتكم لتتبعونى عليها، لا أعطيكم بملكه لى عليها ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ لا أقول : اتبعونى على علمى بالغيب ﴿ **ولا أقول إنى ملك** ﴾ نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم** ﴾ . قال : حقرتموهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **لن يؤتيهم اللّه خيرا** ﴾ قال : يعنى إيمانا : وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ قال : تكذيبا بالعذاب وأنه باطل .

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** (٣٥) **وَأُوحِيَ**

إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم : إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ ثم أمره أن يجيب بكلام متصف ، فقال : ﴿ **قل إن افتريته فعلىّ إجرامى** ﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور ، مصدر أجرم : أى فعل ما يوجب الإثم ، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس ، والمعنى : فعلىّ إثمى أو جزاء كسبى . ومن قرأ بفتح الهمزة، قال: هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا ﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾ أى من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلىّ من الافتراء . قيل : وفى الكلام حذف والتقدير : لكن ما افتريته ، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم وأنا برىء منه . وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية ، فقيل : إنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه . وقيل : هى حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة . والأوّل أولى ، لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام .

قوله : ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ : ﴿ **أنه لن يؤمن** ﴾ فى محل رفع على أنه نائب الفاعل الذى لم يسمّ . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بتقدير الباء . أى بأنه ، وفى الكلام تأييس له من إيمانهم . وأنهم مستمرّون على كفرهم . مصممون عليه ، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه ﴿ **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ البؤس : الحزن ، أى فلا تحزن ، والبائس : المستكين . فنهاه اللّه سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن فى استكانة . ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أوحميم رُزِئته ... فلم أبتئس والرّزءُ فيه جَلِيلُ

ثم إن الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون ألبتة عرفه وجه إهلاكهم ، وألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه . فقال : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ أى اعمل السفينة متلبسا بأعيننا ، أى بمرأى منا . والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية ، والرؤية هى التى تكون بها الحراسة والحفظ فى الغالب ، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير . وقيل : المعنى : ﴿ **بأعيننا** ﴾ أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك . وقيل : ﴿**بأعيننا** ﴾ : بعلمنا . وقيل : بأمرنا . ومعنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ أى لا تطلب إمهالهم ، فقد حان وقت الانتقام منهم ، وجملة ﴿ إنهم مغرقون ﴾ للتعليل ، أى لا تطلب منا إمهالهم ، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق ، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخيره : وقيل : المعنى : ولا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم ، فإنهم مغرقون فى الوقت المضروب لذلك ، لا يتأخر إغراقهم عنه . وقيل : المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه .

﴿ **ويصنع الفلك** ﴾ أى وطفق يصنع الفلك ، أو وأخذ يصنع الفلك . وقيل : هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ، وجملة : ﴿ **وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى استهزؤوا به لعمله السفينة . قال الأخفش والكسائى : يقال: سخرت به ومنه . وفى وجه سخريتهم منه قولان : أحدهما : أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة. فيقولون : يانوح صرت بعد النبوّة نجارا . والثانى : أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة ، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ، قالوا : يانوح ، ماتصنع بها ؟ قال : أمشى بها على الماء فعجبوا من قوله ، وسخروا به . ثم أجاب عليهم بقوله: ﴿ **إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ والمعنى : إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق . ومعنى السخرية هنا : الاستجهال ، أى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون ، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم . وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده ، والتشبيه فى قوله : ﴿ **كما تسخرون**﴾ لمجرد التحقق والوقوع ، أو التجدّد والتكرّر ، والمعنى : إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك ، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك ، وقيل : معناه: نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق ، وفيه نظر فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية ، إذ هم فى شغل شاغل عنها .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ وهو عذاب الغرق فى الدنيا ﴿ **ويحلّ عليه عذاب مقيم** ﴾ وهو عذاب النار الدائم : ومعنى يحلّ : يجعل المؤجل حالا . مأخوذ من حلول الدّين المؤجل ، و« من » موصولة فى محل نصب ويجوز أن تكون استفهامية فى محل رفع ، أى أينا يأتيه عذاب يخزيه . وقيل : فى موضع رفع بالابتداء، و﴿**يأتيه** ﴾ الخبر ، و﴿ **يخزيه** ﴾ صفة لعذاب . قال الكسائى : إن ناسا من أهل الحجاز

يقولون :« سوف تعلمون » قال: ومن قال:« ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا، وجوّز الكوفيون : « سف تعلمون » ومنعه البصريون ، والمراد بعذاب الخزى : العذاب الذى يخزى صاحبه ويحل عليه العار .

قوله : ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** ﴾ «حتى» هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا** ﴾ . والتنور : اختلف فى تفسيرها على أقوال : الأوّل : أنها وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً . روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة . الثانى : أنه تنور الخبز الذى يخبزونه فيه ، وبه قال مجاهد وعطية والحسن ، وروى عن ابن عباس أيضا . الثالث : أنه موضع اجتماع الماء فى السفينة ، روى عن الحسن . الرابع : أنه طلوع الفجر ، من قولهم تنوّر الفجر ، روى عن علىّ بن أبى طالب. الخامس : أنه مسجد الكوفة ، روى عن علىّ أيضا ومجاهد ؛ قال مجاهد : كان ناحية التنوّر بالكوفة . السادس : أنه أعالى الأرض والمواضع المرتفعة ، قاله قتادة . السابع: أنه العين التى بالجزيرة المسماة عين الوردة ، روى ذلك عن عكرمة . الثامن : أنه موضع بالهند ؛ قال ابن عباس : كان تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن اللّه سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض ، قال :﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ﴾ [القمر : ١١ ، ١٢] فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . هكذا قال ، وفيه-نظر ، فإن القول الرابع ينافى هذا الجمع ، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء . إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا . وقد ذكر أهل اللغة أن الفور : الغليان ، والتنور : اسم عجمى عرّبته العرب . وقيل : معنى فار التنور : التمثيل بحضور العذاب كقولهم : حمِىَ الوطيس: إذا اشتدّ الحرب ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قِدْركم لا شىء فيها وقِدْرُ القوم حاميةٌ تَفورُ

يريد الحرب . قوله : ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ أى قلنا : يا نوح ، احمل فى السفينة من كل زوجين مما فى الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا وأنثى . وقرأ حفص: ﴿ **من كل** ﴾ بتنوين كل ، أى من كل شىء زوجين ، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ويطلق على كل واحد منهما زوج ، كما يقال للرجل زوج وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلا للفرد ، ويطلق الزوج على الضرب والصنف . ومثله قوله تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [الحج : ٥] ومثله قول الأعشى :

وكل ضرب من الديباج يلبسه أبو حذافة مخبوّ بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج ﴿ **وأهلك** ﴾ عطف على ﴿ **زوجين** ﴾ ، أو على اثنين على قراءة حفص ، وعلى محل كل زوجين ، فإنه فى محلّ نصب بـ﴿ **احمل** ﴾ ، أو على

﴿**اثنين**﴾ على قراءة الجمهور ، والمراد : امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿ **إلا من سبق عليه القول** ﴾ أى من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين فى قوله :﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ على الاختلاف السابق فيهم ، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة : ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك** ﴾ ومن قال : المراد بهم : ولده كنعان وامرأته واعلة أمّ كنعان جعل الاستثناء من أهلك، ويكون متصلا إن أريد بالأهل ماهو أعمّ من المسلم والكافرمنهم ، ومنقطعا إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط . قوله : ﴿ **ومن آمن** ﴾ معطوف على ﴿ **أهلك** ﴾ أى واحمل فى السفينة من آمن من قومك ، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم ، أو للاستثناء منهم على القول الآخر . ثم وصف اللّه سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به فقال : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ قيل : هم ثمانون إنسانا : منهم ثلاثة من بنيه ، وهو سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين ، وهى موجودة بناحية الموصل ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل : سبعة . وقيل : كانوا اثنين وسبعين . وقيل غير ذلك .

قوله : ﴿ **وقال اركبوا فيها** ﴾ القائل نوح . وقيل : اللّه سبحانه . والأوّل أولى لقوله : ﴿ **إن ربى لغفور رحيم** ﴾ والركوب : العلوّ على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة ، أو مجازا نحو ركبه الدين ، وفى الكلام حذف ، أى اركبوا الماء فى السفينة فلا يرد أن ركب يتعدّى بنفسه . وقيل : إن الفائدة فى زيادة « فى » أنه أمرهم بأن يكونوا فى جوف السفينة لا على ظهرها . وقيل : إنها زيدت لرعاية جانب المحلية فى السفينة كما فى قوله : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ، وقوله : ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة ﴾ [الكهف : ٧١] قيل : ولعلّ نوحا قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج ، كأنه قيل : فحمل الأزواج وأدخلها فى الفلك ، وقال للمؤمنين ، ويمكن أن يقال : إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين ، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات ، أو يكون هذا على طريقة التغليب . قوله : ﴿ **بسم اللّه** ﴾ متعلق بـ﴿ **اركبوا** ﴾ ، أو حال من فاعله ، أى مسمين اللّه ، أو قائلين : ﴿ **بسم اللّه مجراها ومرساها** ﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان ، وهما فى موضع نصب على الظرفية ، أى وقت مجراها ومرساها ، ويجوز أن يكونا مصدرين ، أى وقت إجرائها وإرسائها. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص :﴿ **مجراها** ﴾ بفتح الميم ، و ﴿ **مرساها** ﴾ بضمها ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدرى وأبو رجاء العطاردى :﴿ **مجريها ومرسيها** ﴾ على أنهما وصفان للّه ، ويجوز أن يكونا فى موضع رفع بإضمار مبتدأ، أى هو مجريها ومرسيها ﴿ **إنّ ربى لغفور** ﴾ للذنوب ﴿**رحيم** ﴾ بعباده ، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا الجنس الحيوانى، وعدم استئصاله بالغرق .

قوله : ﴿ **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين وهى تجرى بهم ، والموج جمع موجة ، وهى ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح ، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض . قوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ هو كنعان ، قيل : وكان كافرًا ، واستبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله :﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[نوح : ٢٦] وأجيب بأنه كان منافقا فظن نوح أنه مؤمن . وقيل : حملته شفقة الأبوّة على ذلك . وقيل : إنه كان ابن امرأته ولم يكن بابنه ، ويؤيده ما روى أن عليا قرأ:«ونادى نوح ابنها » . وقيل : إنه كان لغير رشدة ، وولد على فراش نوح . وردّ بأن قوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ ، وقوله : ﴿ **إن ابنى من أهلى** ﴾ يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوّة ﴿ **وكان فى معزل** ﴾ أى فى مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح : اركبوا فيها : وقيل : فى معزل من دين أبيه ، وقيل : من السفينة. قيل : وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان فى أوّل فور التنور .

قوله : ﴿ **يا بنىّ اركب معنا** ﴾ قرأ عاصم بفتح الياء ، والباقون بكسرها ، فأما الكسر فلجعله بدلا من ياء الإضافة ، لأن الأصل يا بنىّ ، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه . قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة . وقال أبو حاتم : أصله يا بنياه ثم تحذف ، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين ، وللكسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل ما ذكرناه ، والوجه الثانى : أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين، وأما الكسر فالوجه الأوّل ما ذكرناه ، والثانى : أن تحذف لالتقاء الساكنين كذا حكى عنه النحاس . وقرأ أبو عمر والكسائى وحفص : ﴿ **اركب معنا** ﴾ بإدغام الباء فى الميم لتقاربهما في المخرج . وقرأ الباقون بعدم الإدغام ﴿ **ولا تكن مع الكافرين** ﴾ نهاه عن الكون مع الكافرين ، أى خارج السفينة ، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم .

ثم حكى اللّه سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال : ﴿ **قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** ﴾ أى يمنعنى بارتفاعه من وصول الماء إلى ، فأجاب عنه نوح بقوله :﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله** ﴾ أى لا مانع فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه ، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق فى ذلك اليوم اندراجا أوليا ، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره . والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع ، أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ، فيكون ﴿ **من رحم** ﴾ فى موضع نصب ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم ، أى لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله ، مثل ﴿ ماء دافق ﴾[الطارق : ٦] ، ﴿ عيشة راضية ﴾

[الحاقة : ٢١] ومنه قول الشاعر :

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعم المكسو، واختار هذا الوجه ابن جرير . وقيل : العاصم بمعنى ذى العصمة ، كلابن وتامر ، والتقدير : لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة ، وحينئذ فلا يرد ما يقال : إن معنى من رحم : من رحمه الله . ومن رحمه الله هو معصوم ، فكيف يصح استثناؤه عن العاصم ؟ لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال . وقرئ : « إلا من رحم » على البناء للمفعول ﴿ **وحال بينهما الموج** ﴾ أى حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق . وقيل : بين ابن نوح وبين الجبل ، والأول أولى ، لأن تفرع ﴿ **فكان من المغرقين** ﴾ عليه يدل على الأول لا على الثانى ، لأن الجبل ليس بعاصم .

قوله : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك** ﴾ يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ، وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى والفراء . والبلع : الشرب ، ومنه البالوعة ، وهى الموضع الذى يشرب الماء ، والازدراد ، يقال : بلع ما فى فمه من الطعام : إذا ازدرده ، واستعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج ﴿ **ويا سماء أقلعى** ﴾ الإقلاع : الإمساك، يقال :أقلع المطر : إذا انقطع . والمعنى : أمر السماء بإمساك الماء عن الإرسال ، وقدم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها ﴿ **وغيض الماء** ﴾ أى نقص ، يقال : غاض الماء وغضته أنا ﴿ **وقضى الأمر** ﴾ أى أحكم وفرغ منه ، يعنى أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام ﴿ **واستوت على الجودى** ﴾ أى استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى ، وهو جبل بقرب الموصل . وقيل : إن الجودى : اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبح الجودى والجمد

ويقال : إنه من جبال الجنة فلذا استوت عليه ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية. وقيل : هو نوح وأصحابه . والمعنى : وقيل هلاكا للقوم الظالمين ، وهو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك ، وللإيماء إلى قوله : ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا** ﴾ وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف ، وتتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة ، الثابتين الأقدام فى علم البيان ، الراسخين فى علم اللغة ، المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم ، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها . وقد تعرض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا وأطابوا ، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فعلى إجرامى** ﴾ قال : عملى ﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾ أى مما تعملون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ وذلك حين دعا عليهم نوح قال : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن قال : إن نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه ، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا تبتئس**﴾ قال : فلا تحزن .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عنه فى قوله : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ قال : بعين الله ووحيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم ، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة فيسخرون منه ، ويقولون : يعمل سفينة فى البر ، وكيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون ، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيته أم الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى » (١) وقد ضعفه الذهبى فى مستدركه على مستدرك الحاكم . وقد روى فى صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس فى ذكرها هنا كثير فائدة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ قال : هو الغرق ﴿ **ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ قال : هو الخلود فى النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عنه قال : كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند ، وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعا (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : التنور: العين التى بالجزيرة عين الوردة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة . وقد روى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : التنور : وجه الأرض . قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض .

---

(١) ابن جرير ١٢/٢١، ٢٢ ، وصححه الحاكم ٢/٣٤٢ ، ٥٤٧ وقال الذهبى : « صحيح ، وإسناده مظلم ، وموسى بن يعقوب ليس بذاك » وابن كثير ٣/ ٥٥٥ وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٤٣ وقال الذهبى : « النفر ضعفوه » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن على : ﴿ وفار التنور ﴾ قال : طلع الفجر ، قيل له : إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك . وقد روى فى تفسير التنور غير هذا ، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك . وروى فى صفة القصة وما حمله نوح فى السفينة ، وكيف كان الغرق ، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها فى تفسير كلام الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ قال : حين يركبون ويجرون ويرسون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كان إذا أراد أن ترسى قال: بسم الله ، فأرست . وإذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وأخرج أبو يعلى والطبرانى وابن السنى وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن بن على قال : قال رسول الله ﷺ : « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر الآية [الزمر : ٦٧] » (١) . وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ (٢) . وأخرجه أيضا أبو الشيخ عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كان اسم ابن نوح الذى غرق كنعان . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه فى النية والعمل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ قال : لا ناج إلا أهل السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن القاسم ابن أبى برة فى قوله : ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ قال : بين ابن نوح والجبل . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ يا أرض ابلعى ﴾ قال : هو بالحبشية. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه فى ﴿ ابلعى ﴾ قال : بالحبشية ، أى ازدرديه . وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : معناه : اشربى ، بلغة الهند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . أقول : وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه فى لغة العرب ظاهر مكشوف ، فما لنا وللحبشة والهند .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ

(١) أبو يعلى ١٢/ ١٥٢ وإسناده تالف ، وابن عدى فى الكامل ٧/ ١٩٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٥ : «رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مغلس وهو ضعيف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية ٣/ ٢٣٧ وفيه ضعف .

(٢) الطبرانى (١٢٦٦١) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٥: « فيه نهشل بن سعيد ، وهو متروك » .

عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ .

معنى : ﴿ **ونادى نوح ربه** ﴾ دعاه ، والمراد : أراد دعاءه ، بدليل الفاء فى : ﴿ **فقال رب إن ابنى من أهلى** ﴾ وعطف الشىء على نفسه غير سائغ ، فلابد من التقدير المذكور ، ومعنى قوله : ﴿ **إن ابنى من أهلى** ﴾ أنه من الأهل الذين وعدتنى بتنجيتهم بقولك : وأهلك. فإن قيل : كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله :﴿ **وأهلك** ﴾ وهو المستثنى منه ، وترك ما يفيده الاستثناء ، وهو : ﴿ **إلا من سبق عليه القول** ﴾ ؟ فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿ **وإن وعدك الحق** ﴾ الذى لا خلف فيه ، وهذا منه ﴿ **وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ أى أتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض . وقيل : أراد بـ ﴿ **أحكم الحاكمين** ﴾ : أعلمهم وأعدلهم ، أى أنت أكثر علما وعدلا من ذوى الحكم. وقيل : إن الحاكم بمعنى : ذى الحكمة كدارع .

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل فى عموم الأهل ، وأنه خارج بقيد الاستثناء فقال : ﴿ **يا نوح إنه ليس من أهلك** ﴾ الذين آمنوا بك وتابعوك وإن كان من أهلك باعتبار القرابة ؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة: قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال : ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ قرأ الجمهور:﴿**عمل** ﴾ على لفظ المصدر. وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائى ويعقوب :﴿ **عمل** ﴾ على لفظ الفعل ؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة فى ذمه كأنه جعل نفس العمل ، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل ، كذا قال الزجاج وغيره . ومعنى القراءة الثانية ظاهر ، أى إنه عمل عملا غير صالح ، وهو كفره وتركه لمتابعة أبيه ؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال ، فقال : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرع على ذلك النهى عن السؤال ، وهو وإن كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب ، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوليا، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع . وسمى دعاءه سؤالا ؛ لتضمنه معنى السؤال . ﴿ **إنى أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ أى أحذرك أن تكون من الجاهلين كقوله : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ﴾ [النور : ١٧] وقيل : المعنى :

أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين .

ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع . وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه بادر إلى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة . فقال : ﴿ **رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم** ﴾ أى أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لى بصحته وجوازه . ﴿ **وإلا تغفر لى** ﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم منى ﴿ **وترحمنى** ﴾ برحمتك التى وسعت كل شىء فتقبل توبتى ﴿ **أكن من الخاسرين** ﴾ فى أعمالى فلا أربح فيها . القائل هو الله . أو الملائكة ﴿ **قيل يا نوح اهبط** ﴾ أى انزل من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض فقد بلعت الأرض ماءها وجفت ﴿ **بسلام منا** ﴾ أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحية ﴿ **وبركات** ﴾ أى نعم ثابتة . مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها. وفى هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ أى ناشئة ممن معك ، وهم المتشعبون من ذرية من كان معه فى السفينة . وقيل : أراد من فى السفينة ، فإنهم أمم مختلفة ، وأنواع من الحيوانات متباينة ؛ قيل : أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم . وأراد بقوله : ﴿ **وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ من صار كافرا من ذريتهم إلى يوم القيامة . وارتفاع أمم فى قوله : ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى ومنهم أمم . وقيل : على تقدير : ويكون أمم . وقال الأخفش : هو كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة « وأمما سنمتعهم » أى ونمتع أمما ، ومعنى الآية : وأمم سنمتعهم فى الدنيا بما فيها من المتاع ، ونعطيهم منها ما يعيشون به ، ثم يمسهم منا فى الآخرة عذاب أليم . وقيل : يمسهم إما فى الدنيا أو فى الآخرة.

والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى قصة نوح ، وهى مبتدأ والجمل بعده أخبار ﴿ **من أنباء الغيب** ﴾ من جنس أنباء الغيب . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر ، أى من أخبار الغيب التى مرت بك فى هذه السورة . والضمير فى ﴿ **نوحيها إليك** ﴾ راجع إلى القصة . والمجىء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿ **ما كنت** ﴾ يا محمد ﴿ **تعلمها أنت ولا** ﴾ يعلمها ﴿**قومك**﴾ بل هى مجهولة عندكم من قبل الوحى ، أو من قبل هذا الوقت ﴿ **فاصبر** ﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك . والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ **إن العاقبة** ﴾ المحمودة فى الدنيا والآخرة ﴿ **للمتقين** ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن الظفر للمتقين فى عاقبة الأمر ، ولا اعتبار بمباديه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : نادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإنك قد وعدتنى أن تنجى لى أهلى ، وإن ابنى من أهلى . وأخرج عبد

الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال : ما بغت امرأة نبى قط . وقوله : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ يقول : ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : إن نساء الأنبياء لا يزنين . وكان يقرؤها : ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ يقول : مسألتك إياى يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ قال : بين الله لنوح أنه ليس بأبيه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **يا نوح اهبط بسلام منا** ﴾ قال : أهبطوا والله عنهم راض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : دخل فى ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل فى ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ يعنى : ممن لم يولد ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم فى علم الله من السعادة ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ يعنى متاع الحياة الدنيا ﴿ **ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ لما سبق لهم فى علم الله من الشقاوة . وأخرج أبو الشيخ قال : ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك** ﴾ يعنى العرب ﴿ **من قبل هذا** ﴾ القرآن .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ

هُودٍ (٦٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾ معطوف على ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا** ﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم : أى واحدا منهم . وهودا عطف بيان ، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا فى الأعراف . وقيل : هم عاد الأولى وعاد الأخرى. فهؤلاء هم عاد الأولى ، وعاد الأخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون فى قوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ [الفجر: ٧] . وأصل عاد ، اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ قرئ : «غيره» بالجر على اللفظ . وبالرفع على محل من إله . وقرئ بالنصب على الاستثناء ﴿ **إن أنتم إلا مفترون** ﴾ أى ما أنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عز وجل . ثم خاطبهم فقال : ﴿ **ياقوم لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ أى لا أطلب منكم أجرا على ما أبلغه إليكم وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده وأنه لا إله لكم سواه . فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. وقد تقدم معنى هذا فى قصة نوح ﴿ **إن أجرى إلا على الذى فطرنى** ﴾ أى ما أجرى الذى أطلب إلا من الذى فطرنى ، أى خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن أجر الناصحين إنما هو من رب العالمين . قيل : إنما قال فيما تقدم فى قصة نوح: مالا ، وهنا قال : أجرا ؛ لذكر الخزائن بعده فى قصة نوح ، ولفظ المال بها أليق ، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة . والمعنى : اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ثم توسلوا إليه بالتوبة . وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح ، ثم رغبهم فى الإيمان بالخير العاجل ، فقال : ﴿ **يرسل السماء** ﴾ أى المطر ﴿ **عليكم مدرارا** ﴾ أى كثير الدرور ، وهو منصوب على الحال ، درت السماء تدر وتدر فهى مدرار ، وكان قوم هود أهل بساتين وزرع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن ﴿ **ويزدكم قوة إلى قوتكم** ﴾ معطوف على يرسل ، أى شدة مضافة إلى شدتكم ، أو خصبا إلى خصبكم . أو عزا إلى عزكم . قال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم ﴿ **ولا تتولوا مجرمين** ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه ، والإجرام : الآثام كما تقدم .

ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم ، وعظيم غباوتهم ، فقالوا : ﴿ **ياهود ما جئتنا ببينة** ﴾ أى بحجة واضحة نعمل عليها ، ونـؤمن لك بها غـير معترفـين بما جاءهم به من حجـج الله وبراهينـه عنادا وبعدل عن الحق ﴿ **وما نحن بتاركى آلهتنا** ﴾ التى نعبدها من دون الله . ومعنى ﴿ **عن قولك** ﴾ : صادرين عن قولك ، فالظرف فى محل نصب على الحال ﴿**وما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أى بمصدقين فى شىء مما جئت به ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ أى ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التى تعيبها وتسفه رأينا فى عبادتها بسوء بجنون ، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها ، يقال : عراه الأمر واعتراه : إذا ألم به ، فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه ، وأنهم لا يقدرون على شىء مما يريده الكفار به ، بل الله سبحانه هو الضار النافع فقال : ﴿**إنى**

أشهد الله واشهدوا ﴾ أنتم ﴿ **أني برىء مما تشركون** ﴾ به ﴿ **من دونه** ﴾ أى من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطانا ﴿ **فكيدونى جميعا** ﴾ أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بى وأنها اعترتنى بسوء ﴿ **ثم لا تنظرون** ﴾ أى لا تمهلونى، بل عاجلونى واصنعوا ما بدا لكم ؛ وفى هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التى يعبدونها ما يصك مسامعهم ، ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شىء .

﴿ **إنى توكلت على الله ربى وربكم** ﴾ فهو يعصمنى من كيدكم ، وإن بلغتم فى تطلب وجوه الإضرار بى كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه . ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته ، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل دابة من دواب الأرض بيده ، وفى قبضته وتحت قهره . وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل . وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره . قال الفراء :معنى آخذ بناصيتها: مالكها والقادر عليها ، وقال القتيبى : قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته . والناصية: قصاص الشعر من مقدم الرأس ؛ ثم علل ما تقدم بقوله : ﴿ **إن ربى على صراط مستقيم** ﴾ أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على .﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى تتولوا فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى : فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ **فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم** ﴾ ليس على إلا ذلك ، وقد لزمتكم الحجة ﴿**ويستخلف ربى قوما غيركم** ﴾ جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك ، أى يستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين ، ويجوز أن يكون عطفا على ﴿ **فقد أبلغتكم** ﴾ وروى حفص عن عاصم أنه قرأ : ﴿ **ويستخلف** ﴾ بالجزم حملا على موضع فقد أبلغتكم ﴿ **ولا تضرونه شيئا** ﴾ أى بتوليكم ، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير ﴿ **إن ربى على كل شىء حفيظ** ﴾ أى رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شىء . قيل : و« على » بمعنى اللام ، فيكون المعنى : لكل شىء حفيظ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

﴿ **ولما جاء أمرنا** ﴾ أى عذابنا الذى هو إهلاك عاد ﴿ **نجينا هودا والذين آمنوا معه** ﴾ من قومه ﴿ **برحمة منا** ﴾ أى برحمة عظيمة كائنة منا لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله . وقيل : هى الإيمان ﴿ **من عذاب غليظ** ﴾ أى شديد ، قيل : وهو السموم التى كانت تدخل أنوفهم . ﴿ **وتلك عاد** ﴾ مبتدأ وخبر ، وأنث الإشارة اعتبارا بالقبيلة . قال الكسائى : إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله اسما للقبيلة ﴿ **جحدوا بآيات ربهم** ﴾ أى كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات ﴿**وعصوا رسله** ﴾ أى هودا وحده ؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا ؛ لأن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل . وقيل : إنهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلا متعددين لكذبوهم ﴿**واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾ الجبار: المتكبر ، والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا

يذعن له . قال أبو عبيدة : العنيد العنود والعاند والمعاند . وهو المعارض بالخلاف منه ، ومنه قيل للعرق الذى يتفجر بالدم : عاند . قال الراجز :

إنى كبير لا أطيق العندا

﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ أى ألحقوها ، وهى الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى : أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا فى الدنيا وأتبعوها ﴿ يوم القيامة ﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا فى الدنيا ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ﴾ أى بربهم . وقال الفراء : كفروا نعمة ربهم، يقال : كفرته وكفرت به ، مثل : شكرته وشكرت له ﴿ ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ أى لا زالوا مبعدين من رحمة الله ، والبعد : الهلاك ، والبعد : التباعد من الخير ، يقال : بعد يبعد بعدا: إذا تأخر وتباعد ، وبعد يبعد بعدا : إذا هلك ، ومنه قول الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن إن المنية منهل ... وكل امرئ يوما به الحال زائل

ومنه قول الشاعر :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم ... وقتلت دون رجالهم لاتبعد

وقد تقدم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ إلا على الذى فطرنى ﴾ أى خلقنى . وأخرج ابن عساكر عن الضحاك قال : أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين ، فقال لهم هود : ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ فأبوا إلا تماديا . وأخرج أبو الشيخ عن هارون التيمى فى قوله : ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ قال : المطر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ قال : شدة إلى شدتكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ قال : ولد الولد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ قال : أصابتك بالجنون . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن سعيد قال : ما من أحد يخاف لصا عاديا ، أو سبعا ضاريا ، أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾ قال : الحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ عذاب غليظ ﴾ قال : شديد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ كل جبار عنيد ﴾ قال : المشرك . وأخرج ابن

أبى حاتم عن السدى قال : العنيد : المشاق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ قال : لم يبعث نبى بعد عاد إلا لعنت على لسانه. وأخرج ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : تتابعت عليهم لعنتان من الله : لعنة فى الدنيا ، ولعنة فى الآخرة .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾ معطوف على ما تقدم ، والتقدير : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، والكلام فيه ، وفى قوله : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ كما تقدم فى قصة هود . وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب : «وإلى ثمود » بالتنوين فى جميع المواضع . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع ، فالصرف باعتبار التأويل بالحى ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة ، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان ، وأنشد سيبويه فى التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة :

غلب المساميح الوليد جماعة وكفى قريش المعضلات وسادها

﴿ **هو أنشأكم من الأرض** ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، لأن كل بنى آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أى جعلكم عمارها وسكانها ، من قولهم: أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى ، فيكون استفعل بمعنى أفعل ، مثل : استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : معناه : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف. وقيل : معناه : أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار ﴿ **فاستغفروه** ﴾ أى سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ أى ارجعوا إلى عبادته ﴿ **إن ربى قريب مجيب** ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه ،وقد تقدم القول فيه فى البقرة عند قوله تعالى:

﴿ فإنى قريب أجيب دعوة الداع ﴾ [البقرة : ١٨٦] ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا** ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد . وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ للإنكار أنكروا عليه هذا النهى ، وأن نعبد فى محل نصب بحذف الجار ، أى بأن نعبد ، ومعنى ما يعبد آباؤنا : ما كان يعبد آباؤنا . فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿ **وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ من أربته فأنا أريبه : إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة ، وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، أو من أراب الرجل : إذا كان ذا ريبة ، والمعنى : إننا لفى شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان موقع فى الريب .

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ أى حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿**وآتانى منه** ﴾ أى من جهته ﴿ **رحمة** ﴾ أى نبوة . وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع ، لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين ، لأنهم فى شك من ذلك ، كما وصفوه عن أنفسهم ﴿ **فمن ينصرنى من الله** ﴾ استفهام معناه النفى ، أى لا ناصر لى يمنعنى من عذاب الله ﴿ **إن عصيته** ﴾ فى تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب على من البلاغ ﴿ **فما تزيدوننى** ﴾ بتثبيطكم إياى ﴿ **غير تخسير** ﴾ بأن تجعلونى خاسرا بإبطال عملى ، والتعرض لعقوبة الله لى . قال الفراء : أى تضليل وإبعاد من الخير . وقيل : المعنى : فما تزيدوننى باحتجاجكم (١) بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم .

قوله : ﴿ **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ قد مر تفسير هذه الآية فى الأعراف ، ومعنى﴿**لكم آية** ﴾ : معجزة ظاهرة، وهى منتصبة على الحال ، ولكم فى محل نصب على الحال من ﴿ **آية** ﴾ مقدمة عليها ، ولو تأخرت لكانت صفة لها . وقيل : إن ناقة الله بدل من هذه ، والخبر لكم ، والأول أولى ، وإنما قال : ﴿ **ناقة الله** ﴾ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم . وقيل : من صخرة صماء ﴿ **فذروها تأكل فى أرض الله** ﴾ أى دعوها تأكل فى أرض الله مما فيها من المراعى التى تأكلها الحيوانات . قال أبو إسحاق الزجاج : ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف ، ولعله يعنى فى الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا فى الآية ، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿ **ولا تمسوها بسوء** ﴾ قال الفراء : بعقر، والظاهر أن النهى عما هو أعم من ذلك ﴿ **فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ جواب النهى ، أى قريب من عقرها ، وذلك ثلاثة أيام ﴿ **فعقروها** ﴾ أى فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهى ، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها ﴿ **فقال** ﴾ لهم صالح﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ أى تمتعوا

---

(١) فى المطبوعة : « باحتياجكم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

بالعيش فى منازلكم ثلاثة أيام ، فإن العقاب نازل عليكم بعدها . قيل : إنهم عقروها يوم الأربعاء ، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد ، والإشارة بقوله : ﴿ذلك﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ أى غير مكذوب فيه، فحذف الجار اتساعا ، أو من باب المجاز ، كأن الوعد إذا وفى به صدق ولم يكذب ، ويجوز أن يكون مصدرا ، أى وعد غير كذب .

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى عذابنا ، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى قصة هود ﴿ ومن خزى يومئذ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة ، والخزى : الذل والمهانة . وقيل : من عذاب يوم القيامة ، والأول أولى . وقرأ نافع والكسائى بفتح :« يوم » على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه . وقرأ الباقون بالكسر: ﴿ إن ربك هو القوى العزيز﴾ القادر الغالب الذى لا يعجزه شىء ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ أى فى اليوم الرابع من عقر الناقة ، صيح بهم فماتوا ، وذكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى . قيل : صيحة جبريل ، وقيل : صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا ، وتقدم فى الأعراف ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [الأعراف: ٧٨] قيل : ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ أى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى كأنهم لم يقيموا فى بلادهم أو ديارهم، والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير : مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ؛ لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله : ﴿ ألا بعدا لثمود ﴾ وقرأ الكسائى بالتنوين . وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما فى إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ قال : خلقكم من الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ واستعمركم فيها ﴾ قال: أعمركم فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ واستعمركم فيها ﴾ قال : استخلفكم فيها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ يقول : ما تزدادون أنتم إلا خسارا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراسانى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ قال : ميتين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يعيشوا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه ، قال : كأن لم يعمروا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كأن لم ينعموا فيها .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ

حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ .

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام وإبراهيم ببلاد فلسطين . فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة ، فظنهم أضيافا ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : كانوا تسعة . وقيل: أحد عشر ، والبشرى التى بشروه بها هى بشارته بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . والأولى أولى ﴿ **قالوا سلاما** ﴾ منصوب بفعل مقدر ، أى سلمنا عليك سلاما ﴿ **قال سلام** ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى أمركم سلام ، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : عليكم سلام ﴿ **فما لبث** ﴾ أى إبراهيم ﴿ **أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ قال أكثر النحويين :« أن » هنا بمعنى حتى ، أى فما لبث حتى جاء . وقيل : إنها فى محل نصب بسقوط حرف الجر ، والتقدير : فما لبث عن أن جاء ، أى ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل و« ما » نافية ، قاله سيبويه. وقال الفراء : فما لبث مجيئه ، أى ما أبطأ مجيئه . وقيل : إن « ما » موصولة وهى مبتدأ والخبر ﴿ **أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ والتقدير : فالذى لبث إبراهيم هو مجيؤه بعجل حنيذ ، والحنيذ : المشوى مطلقا . وقيل : المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار ، يقال : حنذ الشاة يحنذها : جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ . وقيل : معنى حنيذ : سمين . وقيل : الحنيذ : هو السميط . وقيل : النضيج ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وإنما جاءهم بعجل ؛ لأن البقر كانت أكثر أمواله ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه** ﴾ أى لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل ﴿ **نكرهم** ﴾ يقال : نكرته وأنكرته واستنكرته : إذا وجدته على غير ما تعهد ، ومنه قول الشاعر :

فأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين ، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازى على سواد

وقيل : يقال : أنكرت لما تراه بعينك ، ونكرت لما تراه بقلبك ، قيل : وإنما استنكر

منهم ذلك ، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر ﴿ وأوجس منهم ﴾ أى أحس فى نفسه منهم ﴿ خيفة ﴾ أى خوفا وفزعا . وقيل : معنى أوجس : أضمر فى نفسه خيفة ، والأول ألصق بالمعنى اللغوى ، ومنه قول الشاعر :

جاء البريد بقرطاس يحث به   فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

وكأنه ظن أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره ، أو لتعذيب قومه ﴿ قالوا لا تخف ﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف ، بل أوجس ذلك فى نفسه ، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه ، أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس فى نفسه من الخيفة قولا يدل على الخوف ، كما فى قوله فى سورة الحجر : ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ [الحجر : ٥٢] ، ولم يذكر ذلك هاهنا اكتفاء بما هنالك . ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم : ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ أى أرسلنا إليهم خاصة ، ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ [الذاريات : ٣١ ، ٣٢] ، وجملة : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ فى محل نصب على الحال . قيل : كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر . وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس . والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور . وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض . ومنه قول الشاعر:

وإنى لآتى العرس عند طهورها   وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقال الآخر :

وضحك الأرانب فوق الصفا   كمثل دم الخوف يوم اللقا

والعرب تقول : ضحكت الأرانب : إذا حاضت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت . ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير . والمعنى : فبشرناها فضحكت سرورا بالولد . وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة : « فضحكت » بفتح الحاء ، وأنكره المهدوى . ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قرأ حمزة وابن عامر وحفص بنصب ﴿ يعقوب ﴾ على أنه مفعول فعل دل عليه ﴿ فبشرناها ﴾ ، كأنه قال : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون ﴿ يعقوب ﴾ فى موضع جر . وقال الفراء : لا يجوز الجر إلا بإعادة حرفه . قال سيبويه : ولو قلت : مررت بزيد أول من أمس ، وأمس عمر ، كان قبيحا خبيثا ، لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه كما يفرق بين الجار والمجرور . وقرأ الباقون برفع: « يعقوب » على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذى قبله . وقيل :الرفع بتقدير فعل محذوف،

أى ويحدث لها ، أو وثبت لها . وقد وقع التبشير هنا لها ، ووقع لإبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [الصافات : ١٠١] ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [الذاريات : ٢٨] لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما .

وجملة : ﴿ **قالت ياويلتا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالت ؟ قال الزجاج : أصلها ياويلتى ، فأبدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة . وهى لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه . وأصل الويل : الخزى ، ثم شاع فى كل أمر فظيع . والاستفهام فى قولها : ﴿ **أألد وأنا عجوز** ﴾ للتعجب ، أى كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت فى السن ، يقال : عجزت تعجز مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا ، أى طعنت فى السن . ويقال : عجوز وعجوزة ، وأما عجزت بكسر الجيم ، فمعناه : عظمت عجيزتها . قيل : كانت بنت تسع وتسعين ، وقيل : بنت تسعين ﴿ **وهذا بعلى شيخا** ﴾ أى وهذا زوجى إبراهيم شيخا لا تحبل من مثله النساء ، و﴿**شيخا** ﴾ منتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة . قال النحاس : وفى قراءة أبى وابن مسعود :« شيخ » بالرفع على أنه خبر المبتدأ ، أوخبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف، وعلى الأول يكون ﴿ **بعلى** ﴾ بدلا من اسم الإشارة . قيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة . وهذه المبشرة هى سارة امرأة إبراهيم . وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل ، فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها ، فبشرها الله به على لسان ملائكته ﴿ **إن هذا لشىء عجيب** ﴾ أى ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها فى هذه السن العالية التى لا يولد لمثلها شىء يقضى منه العجب .

وجملة : ﴿ **قالوا أتعجبين من أمر الله** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والاستفهام فيها للإنكار ، أى كيف تعجبين من قضاء الله وقدره ، وهو لا يستحيل عليه شىء ، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة ، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه ، ولهذا قالوا : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ أى الرحمة التى وسعت كل شىء والبركات وهى النمو والزيادة . وقيل : الرحمة : النبوة ، والبركات : الأسباط من بنى إسرائيل لما فيهم من الأنبياء ، وانتصاب ﴿ **أهل البيت** ﴾ على المدح أو الاختصاص ، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم ﴿ **إنه حميد** ﴾ أى يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة ﴿ **مجيد** ﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات ، والجملة تعليل لقوله : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ . قوله : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع** ﴾ أى الخيفة التى أوجسها فى نفسه ، يقال: ارتاع من كذا : إذا خاف ، ومنه قول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له ... طوع الشوامت من خوف ومن حذر

﴿ وجاءته البشرى﴾ أى بالولد، أو بقولهم: لا تخف. قوله: ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾. قال الأخفش والكسائى: إن ﴿ يجادلنا ﴾ فى موضع جادلنا ، فيكون هو جواب ﴿لما ﴾ . لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضى لا بالمستقبل . قال النحاس : جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل فى الشرط . وقيل : إن الجواب محذوف . و﴿يجادلنا﴾ فى موضع نصب على الحال قاله الفراء ، وتقديره : فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا ، أى يجادل رسلنا . وقيل : إن المعنى: أخذ يجادلنا ، ومجادلته لهم قيل : إنه لما سمع قولهم : ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ [العنكبوت : ٣١] قال : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال: فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ؟ قالوا : لا ، ثم قال : فعشرة ، فخمسة ؟ قالوا: لا . قال: فواحد ؟ قالوا : لا ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ﴾ الآية [العنكبوت : ٣٢] ، فهذا معنى مجادلته فى قوم لوط ، أى فى شأنهم وأمرهم . ثم أثنوا على إبراهيم . أو أثنى الله عليه فقال : ﴿ إن إبراهيم لحليم ﴾ أى ليس بعجول فى الأمور ، ولا بموقع لها على غير ما ينبغى . والأواه : كثير التأوه . والمنيب: الراجع إلى الله. وقد تقدم فى براءة الكلام على الأواه(١) .

قوله : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ هذا قول الملائكة له، أى أعرض عن هذا الجدال فى أمر قد فرغ منه ، وجف به القلم ، وحق به القضاء ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ الضمير للشأن ، ومعنى مجىء أمر الله : مجىء عذابه الذى قدره عليهم ، وسبق به قضاؤه ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ أى لا يرده دعاء ولا جدال ، بل هو واقع بهم لا محالة ، ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عثمان بن محصن فى ضيف إبراهيم قال : كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل . وإسرافيل . ورافئيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بعجل حنيذ ﴾ قال : نضيج . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : مشوى . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : سميط . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الحنيذ : الذى أنضج بالحجارة . وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى يزيد البصرى فى قوله : ﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ﴾ قال : لم ير لهم أيديا فنكرهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ نكرهم ﴾ قال : كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير ، وأنه يحدث نفسه بشر ، ثم حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه فضحكت امرأته . وأخرج ابن المنذر عن المغيرة قال : فى مصحف ابن مسعود : « وامرأته قائمة وهو جالس » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ وامرأته قائمة ﴾ قال : فى خدمة أضياف إبراهيم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : لما

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ [التوبة : ١١٤] .

أوجس إبراهيم فى نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه . فضحكت امرأته تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ، ومما أتاهم من العذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ فضحكت ﴾ قال : فحاضت وهى بنت ثمان وتسعين سنة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ فضحكت ﴾ قال : حاضت وكانت ابنة بضع وتسعين سنة . وكان إبراهيم ابن مائة سنة . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : حاضت . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال : هو ولد الولد . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن أبجر قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل من هذيل، فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال : ولد الولد. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس ، أنه كان ينهى عن أن يزاد فى جواب التحية على قولهم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ويتلو هذه الآية : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ . وأخرج البيهقى عن ابن عمر نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ قال : الفرق ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾ قال : يخاصمنا . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة فى تفسير المجادلة قال : إنه قال لهم يومئذ : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟ قالوا : إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم . قال : أربعون ؟ قالوا: وأربعون . قال : ثلاثون ؟ قالوا : وثلاثون ، حتى بلغوا عشرة . قالوا : إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم . قال : ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير ؟ قال قتادة : إنه كان فى قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان . أو ما شاء الله من ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون قال : الأواه : الرحيم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المنيب : المقبل إلى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : المنيب : المخلص .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ .

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ جاؤوا إلى لوط ، فلما رآهم لوط وكانوا فى صورة غلمان حسان مرد ﴿ سيء بهم ﴾ أى ساءه مجيئهم . يقال : ساءه يسؤوه ، وأصل سيء بهم : سوىء بهم ، نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء ، ولما خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء . وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو بإشمام السين الضم ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ قال الأزهرى : الذرع يوضع موضع الطاقة . وأصله بأن البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعة خطوه ، أى يبسطها . فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك . فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر . وقيل : هو من ذرعه القيء : إذا غلبه وضاق عن حبسه . والمعنى : أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة فى تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ﴿وقال هذا يوم عصيب ﴾ أى شديد . قال الشاعر :

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال : عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير ، أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر ، ومنه قيل : عصبة وعصابة ، أى مجتمعو الكلمة ، ورجل معصوب ، أى مجتمع الخلق ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ أى جاؤوا لوطا . الجملة فى محل نصب على الحال . ومعنى ﴿يهرعون إليه ﴾ : يسرعون إليه . قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة ، يقال : أهرع الرجل إهراعا ، أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أوحمى ، قال مهلهل :

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى ... نهودهم على رغم الأنوف

وقيل : يهرعون : يهرولون . وقيل : هو مشى بين الهرولة والعدو ، والمعنى : أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا إليه ، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ أى ومن قبل مجيء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات . وقيل : ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات ، أى كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاؤوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه لذلك العمل ، قام إليهم لوط مدافعا و﴿قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ أى تزوجوهن ، ودعوا ما تطلبونه من

الفاحشة بأضيافى ، وقد كان له ثلاث بنات . وقيل : اثنتان ، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم ، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه . وقيل : أراد بقوله : ﴿هؤلاء بناتى﴾ النساء جملة ، لأن نبى القوم أب لهم ، وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة . ومعنى ﴿ هن أطهر لكم ﴾ أى أحل وأنزه ؛ والتطهر : التنزه عما لا يحل ، وليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هى مثل : « الله أكبر » . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر بنصب :« أطهر » ، وقرأ الباقون بالرفع ؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ بناتى ﴾ ، و﴿ هن ﴾ ضمير فصل ، و﴿أطهر﴾ حال . وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا ، لأن ضمير الفصل الذى يسمى عمادا إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ﴿فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ﴾ أى اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ؛ ولا تذلونى وتجلبوا على العار فى ضيفى ، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، لأنه فى الأصل مصدر ، ومنه قول الشاعر :

لا تعدمى الدهر شفار الجازر   للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأول أكثر . يقال : خزى الرجل خزاية ، أى استحيا أو ذل أو هان ، وخزى خزيا :إذا افتضح ، ومعنى ﴿ فى ضيفى ﴾ : فى حق ضيفى ، فخزى الضيف خزى للمضيف ، ثم وبخهم فقال : ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه ، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به ، وأرشدهم إليه بقولهم: ﴿ ما لنا فى بناتك من حق ﴾ أى مالنا فيهم من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء ؛ ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا فى نكاحهن ، لأنه لا ينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن ونحن لا نؤمن أبدا . وقيل : إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم ، وكان من سنتهم أن من خطب فرد فلا تحل المخطوبة أبدا ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ من إتيان الذكور .

ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿ قال لو أن لى بكم قوة ﴾ وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ، وهذا منه عليه السلام على طريق التمنى ، أى لو وجدت معينا وناصرا. فسمى ما يتقوى به قوة ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ عطف على ما بعد « لو » لما فيه من معنى الفعل ، والتقدير : لو قويت على دفعكم ، أو آويت إلى ركن شديد . وقرئ :« أو آوى » بالنصب عطفا على قوة كأنه قال : لو أن لى بكم قوة، أو إيواء إلى ركن شديد ، ومراده بالركن الشديد : العشيرة ، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه . وقيل : أراد بالقوة : الولد، وبالركن الشديد : من ينصره من غير ولده.

وقيل : أراد بالقوة : قوته في نفسه . ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿ **قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾ أخبروه أولا أنهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم : ﴿ **لن يصلوا إليك** ﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها ؛ لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقدروا عليه ، ثم أمروه أن يخرج عنهم فقالوا له : ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل** ﴾ قرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وقرأ غيرهما بالقطع ، وهما لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ [الفجر : ٤] وقال: ﴿سبحان الذى أسرى ﴾ [الإسراء : ١] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال :

حى النضير وربة الخدر   أسرت عليه ولم تكن تسرى

وقيل : إن أسرى للمسير من أول الليل ، وسرى للمسير من آخره . والقطع من الليل : الطائفة منه . قال ابن الأعرابى : ﴿**بقطع من الليل** ﴾ : بساعة منه . وقال الأخفش : بجنح من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدو من الليل . قيل : إن السرى لا يكون إلا في الليل ، فما وجه زيادة بقطع من الليل ؟ قيل : لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ أى لا ينظر إلى ما وراءه ، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره . قيل : وجه النهى عن الالتفات ألا يروا عذاب قومهم ، وهول ما نزل بهم فيرحموهم ويرقوا لهم ، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات ،فإنه لابد للملتفت من فترة في سيره ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ بالنصب على قراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالرفع على البدل ، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله: ﴿ **فأسر بأهلك**﴾ أى أسر بأهلك جميعا إلا امرأتك فلا تسر بها ، فإنه﴿ **مصيبها ما أصابهم** ﴾ من العذاب ، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة ؛ وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال : لا يصح ذلك إلا برفع ﴿ **يلتفت** ﴾ ويكون نعتا، لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات وليس المعنى كذلك. قال النحاس : وهذا العمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، وهو أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات ، أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك . وقيل : إن الرفع على البدل من ﴿ **أحد** ﴾ ، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف ، فكأنه قال : ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك ، فإنها تتخلف ، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ، والضمير في ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ للشأن، والجملة خبر إن ، ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدم من الأمر بالإسراء والنهى عن الالتفات ، والمعنى : أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام في :﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ للإنكار التقريرى ، والجملة تأكيد للتعليل . وقرأ عيسى بن عمر : « أليس الصبح » بضم الباء وهى لغة ، ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن ،

والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم .

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه ، أو المراد بالأمر : نفس العذاب ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ أى عالى قرى قوم لوط سافلها ، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة ، وهى كون عاليها صار سافلها ، وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ قيل : إنه يقال : أمطرنا فى العذاب ومطرنا فى الرحمة . وقيل : هما لغتان ، يقال : مطرت السماء و أمطرت حكى ذلك الهروى . والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره . وقيل : هو الشديد الصلب من الحجارة . وقيل : السجيل الكثير . وقيل : إن السجيل لفظة غير عربية ، أصله سج وجيل ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وذكر الهروى : أن السجيل اسم لسماء الدنيا . قال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود . وقيل : هو بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض . وقيل : هى جبال فى السماء . وقال الزجاج : هو من التسجيل لهم ، أى ما كتب لهم من العذاب فهو فى معنى سجين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ [المطففين : ٨ ، ٩] وقيل : هو من أسجلته : إذا أعطيته ، فكأنه عذاب أعطوه ، ومنه قول الشاعر :

من يساجلنى يساجل ماجدا   يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ومعنى : ﴿ منضود ﴾ أنه نضد بعضه فوق بعض . وقيل : بعضه فى أثر بعض ، يقال: نضدت المتاع : إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونضيد . والمسومة : المعلمة، أى التى لها علامة . قيل : كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رمى به . وقال الفراء . زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد فى بياض . فذلك تسويمها؛ ومعنى : ﴿ عند ربك ﴾ فى خزائنه ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ أى وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد ، أو ما هى من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد . فهم لظلمهم مستحقون لها . وقيل : ﴿ وما هى ﴾ أى قرى ﴿ من الظالمين ﴾ من كفر بالنبى ﷺ ﴿ ببعيد ﴾ فإنها بين الشام والمدينة. وفى إمطار الحجارة قولان : أحدهما : أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . والثانى : أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها . وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر، أى شىء بعيد ، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدرا كالزفير والصهيل ، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ قال : ساء ظنا بقومه ، وضاق ذرعا بأضيافه ﴿ وقال

هذا يوم عصيب ﴾ يقول : شديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**يهرعون إليه** ﴾ قال : يسرعون ﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ قال : يأتون الرجال. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال : ﴿ **يهرعون إليه** ﴾ يستمعون إليه . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله : ﴿ **هؤلاء بناتى** ﴾ قال : ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحا ولا نكاحا . إنما قال هؤلاء نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرانى قوم فهو أبوهم . قال الله تعالى فى القرآن : « وأزواجه أمهاتهم وهو أبوهم » فى قراءة أبى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لم تكن بناته ولكن كن من أمته . وكل نبى أبو أمته وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن السدى نحوه . قال : وفى قراءة عبد الله : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن حذيفة بن اليمان قال : عرض عليهم بناته تزويجا . وأراد أن يقى أضيافه بتزويج بناته . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله :﴿ **ولا تخزونى فى ضيفى** ﴾ قال : لا تفضحونى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك : ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ قال : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿ **أليس منكم رجل رشيد**﴾ قال : واحد يقول : لا إله إلا الله . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ قال : إنما نريد الرجال ﴿ **قال** ﴾ لوط ﴿ **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ يقول : إلى جند شديد لمقاتلتكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ قال : عشيرة . وقد ثبت فى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « يغفر الله للوط إن كان يأوى إلى ركن شديد » [1] وهو مروى فى غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **بقطع من الليل** ﴾ قال : جوف الليل . وأخرجا عنه قال : بسواد الليل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ قال : لا يتخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ قال : لا ينظر وراءه أحد ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ . وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هارون قال : فى حرف ابن مسعود : « فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك » .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها** ﴾ قال : لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها . ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافى جناحه بما فيها ، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم

---

(١) أحمد ٢ / ٣٢٢ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٨٧) ومسلم فى الفضائل (١٥١ / ١٥٣) .

قلبها، فكان أول ما سقط منها سرادقها ، فلم يصب قوما ما أصابهم ، ثم إن الله طمس على أعينهم ، ثم قلبت قريتهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل . وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا فى كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة . وليس فى ذكرها فائدة لاسيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له فى مثله إسناد صحيح . وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب . وحالهم فى الرواية معروف .وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم . فاعرف هذا ، فهو الوجه فى حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة فى قصص الأنبياء وقومهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**وما هى من الظالمين ببعيد**﴾ قال :يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبى حاتم عن قتادة قال : من ظالمى هذه الأمة .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

أى وأرسلنا إلى مدين وهم قوم شعيب أخاهم فى النسب شعيبا . وسموا مدين باسم أبيهم ، وهو مدين بن إبراهيم . وقيل : باسم مدينتهم . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة ، وقد تقدم الكلام على هذا فى الأعراف بأبسط مما هنا ، وقد تقدم تفسير : ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فى أول السورة ، وهذه الجملة مستأنفة ؛ كأنه قيل : ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم ؟ وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، أمرهم أولا بعبادة الله سبحانه الذى هو الإله وحده لا شريك له ، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان ، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف ، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص ؛ وجملة : ﴿ إنى أراكم بخير ﴾ تعليل للنهى ، أى لا تنقصوا المكيال والميزان لأنى أراكم بخير ، أى بثروة واسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها؛ ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى ، فقال : ﴿ وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا ، ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب ، لأن العذاب واقع فى اليوم ؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم : أنه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا ، واليوم هو يوم القيامة . وقيل : هو يوم الانتقام منهم فى الدنيا بالصيحة .

ثم أكد النهى عن نقص الكيل والوزن بقوله : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ والإيفاء : هو الإتمام . والقسط : العدل ، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير ، ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل ، والنهى عن النقص وإن كان يستلزم الإيفاء ففى تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن ، ثم زاد ذلك تأكيدا فقال : ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ قد مر تفسير هذا فى الأعراف ، وفيه النهى عن البخس على العموم، والأشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن فى هذا دخولا أوليا . وقيل: البخس [١] : المكس خاصة ، ثم قال : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ قد مر أيضا تفسيره فى البقرة . والعثى فى الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس فيدخل فيه ما فى السياق من نقص المكيال والميزان ، وقيده بالحال وهو قوله : ﴿ مفسدين ﴾ ليخرج ما كان صورته من العثى فى الأرض ، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر فى السفينة ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ أى ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد فى الأرض . ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين . وقال مجاهد : بقية الله : طاعته . وقال الربيع : وصيته . وقال الفراء : مراقبته،

---

(١) وقيل : البخس : الهضم والنقص والظلم .

وإنما قيد ذلك بقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر ، أو المراد بالمؤمنين هنا : المصدقون لشعيب ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أحفظكم من الوقوع فى المعاصى من التطفيف والبخس وغيرهما . أو أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها .

وجملة : ﴿ **قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قالوا لشعيب ؟ وقرئ : « أصلاتك » بالإفراد ، و﴿ **أن نترك** ﴾ فى موضع نصب . وقال الكسائى : موضعها خفض على إضمار الباء ، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان ، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به ؛ لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذى يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صعوبته ، كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لايناسب الصواب : أصدقتك أمرتك بهذا . وقيل : المراد بالصلاة هنا : القراءة . وقيل : المراد بها : الدين . وقيل : المراد بالصلوات : أتباعه ، ومنه المصلى الذى يتلو السابق ؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده ، وقولهم : ﴿ **أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء** ﴾ جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن ، ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثى فى الأرض ، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ **ما** ﴾ فى : ﴿ **ما يعبد آباؤنا** ﴾ . والمعنى : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وتأمرك أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص . وقرئ : « تفعل ما تشاء » بالفوقية فيهما . قال النحاس : فتكون ﴿ **أو** ﴾ على هذه القراءة للعطف على أن الأولى ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن تفعل فى أموالنا ما تشاء . وقرئ « نفعل » بالنون و« ما تشاء » بالفوقية ، ومعناه : أصلواتك تأمرك أن نفعل نحن فى أموالنا ما تشاؤه أنت وندع ما نشاؤه نحن وما يجرى به التراضى بيننا ؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ على طريقة التهكم به ، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما ، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك وفى اعتقادك ، ومعناهم : أن هذا الذى نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده فى نفسك من الحلم والرشد . وقيل : إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك ، وأنكروا عليه الأمر والنهى منه لهم بما يخالف الحلم والرشد فى اعتقادهم . وقد تقدم تفسير الحلم والرشد.

وجملة : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ مستأنفة كالجمل التى قبلها، والمعنى : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿**ورزقنى منه** ﴾ أى من فضله وخزائن ملكه ﴿ **رزقا حسنا** ﴾ أى كثيرا واسعا حلالا طيبا ، وقد كان عليه السلام كثير المال . وقيل : أراد بالرزق : النبوة . وقيل : الحكمة . وقيل : العلم . وقيل : التوفيق ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره : أترك أمركم ونهيكم ، أو أتقولون فى شأنى ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ أى وما أريد بنهى لكم عن التطفيف والبخس أن

أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم ، يقال : خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه ، وخالفته عن كذا فى عكس ذلك ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح** ﴾ أى ما أريد بالأمر والنهى إلا الإصلاح لكم ، ودفع الفساد فى دينكم ومعاملاتكم ﴿ **ما استطعت** ﴾ ما بلغت إليه استطاعتى، وتمكنت منه طاقتى ﴿ **وما توفيقى إلا بالله** ﴾ أى ما صرت موفقا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد الله سبحانه ، وإقدارى عليه ، ومنحى إياه ﴿ **عليه توكلت** ﴾ فى جميع أمورى التى منها أمركم ونهيكم ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ أى أرجع فى كل ما نابنى من الأمور وأفوض جميع أمورى إلى ما يختاره لى من قضائه وقدره . وقيل : معناه : وإليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة : الدعاء ، ومعناه : وله أدعو.

قوله : ﴿ **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى** ﴾ قال الزجاج : معناه لا يكسبنكم شقاقى إصابة العذاب إياكم كما أصاب من كان قبلكم ؛ وقيل : معناه : لا يحملنكم شقاقى ، والشقاق : العداوة ، ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عنى رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق

و﴿ **أن يصيبكم** ﴾ فى محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم ﴿ **مثل ما أصاب قوم نوح** ﴾ من الغرق ﴿ **أو قوم هود** ﴾ من الريح ﴿ **أو قوم صالح** ﴾ من الصيحة ، وقد تقدم تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم ، أو ليسوا ببعيد منكم فى السبب الموجب لعقوبتهم ، وهو مطلق الكفر ، وأفرد لفظ ﴿ **بعيد** ﴾ لمثل ما سبق فى ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ .

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال : ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود** ﴾ وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه فى أول السورة . وتقدم تفسير الرحيم . والمراد هنا : أنه عظيم الرحمة للتائبين . والودود : المحب . قال فى الصحاح (١) : وددت الرجل أوده ودا : إذا أحببته ، والودود : المحب ، والودّ والوُدّ والوِدّ : المحبة ، والمعنى هنا : أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير إليه ودفع الشر عنه . وفى هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة .

وجملة : ﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول** ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة ، والمعنى : أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفقه ذلك ، أى نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة ، فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لا مجازا . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم ، فلا

---

(١) مختار الصحاح ص٧١٤ .

يكون نفى الفقه حقيقة بل مجازا . يقال : فقه يفقه : إذا فهم فِقْها وفَقها ، وحكى الكسائى فقهانا . ويقال : فقه فقها : إذا صار فقيها ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ أى : لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا . وقيل : المراد أنه ضعيف فى بدنه ، قاله على بن عيسى . وقيل : إنه كان مصابا ببصره . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى : ضعيف ، أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له : ضرير ، أى قد ضر بذهاب بصره . وقيل : الضعيف : المهين . وهو قريب من القول الأول ﴿ولولا رهطك لرجمناك ﴾ رهط الرجل : عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم ، ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة . وإنما جعلوا رهطه مانعا من إنزال الضرر به مع كونهم فى قلة والكفار ألوف مؤلفة ؛ لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم لا خوفا منهم ، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم : ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ حتى نكف عنك لأجل عزتك عندنا ، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى ﴿ لرجمناك ﴾ : لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة . وقيل : معنى ﴿ لرجمناك ﴾ لشتمناك ، ومنه قول الجعدى :

تراجمنا بمر القول حتى نصير كأننا فرسا رهان

ويطلق الرجم على اللعن ، ومنه الشيطان الرجيم . وجملة : ﴿ قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ﴾ مستأنفة ، وإنما قال : أعز عليكم من الله ، ولم يقل : أعز عليكم منى ؛ لأن نفى العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفى استهانة به ، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه ، وألزمهم مالا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام ، وفى هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى ، ولأمر ما سمى شعيب خطيب الأنبياء ، والضمير فى ﴿ واتخذتموه ﴾ راجع إلى الله سبحانه ، والمعنى: واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذى أرسله إليكم ﴿ وراءكم ظهريا ﴾ أى منبوذا وراء الظهر لا تبالون به . وقيل : المعنى : واتخذتم أمر الله الذى أمرنى بإبلاغه إليكم ، وهو ماجئتكم به وراء ظهوركم ، يقال : جعلت أمره بظهر : إذا قصرت فيه، و﴿ ظهريا ﴾ منسوب إلى الظهر ، والكسر لتغيير النسب ﴿ إن ربى بما تعملون محيط ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوالكم وأفعالكم .

﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ﴾ : لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم ، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم ، يقال : مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له ، ثم بالغ فى التهديد والوعيد بقوله : ﴿ سوف تعلمون ﴾

أى عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده ، وقد تقدم مثله فى الأنعام ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ : « من » فى محل نصب بـ ﴿ تعلمون ﴾ ، أى سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار ﴿ ومن هو كاذب ﴾ معطوف على : ﴿ من يأتيه ﴾ ، والمعنى : ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب ؟ وفيه تعريض بكذبهم فى قولهم : ﴿ لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ . وقيل : إن « من » مبتدأ وما بعدها صلتها ، والخبر محذوف ، والتقدير : من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره . قال الفراء : إنما جاء بهو فى ﴿ من هو كاذب ﴾ لأنهم لا يقولون : من قائم ، إنما يقولون : من قام ، ومن يقوم ، ومن القائم ، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قول الشاعر:

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

﴿ وارتقبوا إنى معكم رقيب ﴾ أى انتظروا إنى معكم منتظر لما يقضى به الله بيننا ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه ﴾ أى لما جاء عذابنا أو أمرنا بعذابهم نجينا شعيبا وأتباعه الذين آمنوا به ﴿ برحمة منا ﴾ لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم ، وهى هدايتهم للإيمان ﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿ الصيحة ﴾ التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم ، وفى الأعراف : ﴿ فأخذتهم الرجفة﴾ [الآية : ٧٨] وكذا فى العنكبوت . وقد قدمنا أن الرجفة : الزلزلة ، وأنها تكون تابعة للصيحة لتموج الهوى المفضى إليها ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ أى ميتين . وقد تقدم تفسيره وتفسير﴿ كأن لم يغنوا فيها﴾ قريبا ، وكذا تفسير﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ : «كما بعدت ثمود » بضم العين . قال المهدوى : من ضم العين من « بعدت » فهى لغة تستعمل فى الخير والشر ، و« بعدت » بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل فى الشر خاصة ، وهى هنا بمعنى اللعنة .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنى أراكم بخير ﴾ قال : رخص السعر ﴿ وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ قال : غلاء السعر . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ بقية الله ﴾ قال : رزق الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ يقول : حظكم من ربكم خير لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : طاعة الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله : ﴿ أصلواتك تأمرك ﴾ قال : أقراءتك . وأخرج ابن عساكر عن الأحنف : أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ﴾ قال : نهاهم عن

قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا : إنما هى أموالنا نفعل فيها ما نشاء ، إن شئنا قطعناها ، وإن شئنا أحرقناها ، وإن شئنا طرحناها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه . وأخرجا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ قال : يقولون : إنك لست بحليم ولا رشيد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : استهزاء به .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ورزقنى منه رزقا حسنا** ﴾ قال : الحلال. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ قال : يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ قال : إليه أرجع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على قال : قلت :يا رسول الله ، أوصنى ، قال :« قل الله ربى ثم استقم » ، قلت : ربى الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، قال : « ليهنك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا »[1] وفى إسناده محمد بن يوسف الكديمى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **لا يجرمنكم شقاقى** ﴾ لا يحملنكم فراقى . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : شقاقى :عداوتى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال . لا تحملنكم عداوتى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ قال : إنما كانوا حديثى عهد قريب بعد نوح وثمود .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان أعمى ،وإنما عمى من بكائه من حب الله عز وجل.وأخرج الواحدى وابن عساكر عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمى »[2]. وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان ضرير البصر . وأخرج أبو الشيخ عن أبى صالح مثله . وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى قوله :﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال :كان أعمى ، وكان يقال له خطيب الأنبياء . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : معناه : إنما أنت واحد . وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب أنه خطب فتلا هذه الآية فى شعيب ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان مكفوفا ، فنسبوه إلى الضعف ﴿ **ولولا رهطك لرجمناك** ﴾ قال

(١) أبو نعيم ١/ ٦٥ .

(٢) أورده الخطيب فى تاريخه ٦/ ٣١٥ وقال : « فيه إسماعيل بن على بن الحسن ، وقال : قدم علينا بغداد حاجا وسمعت منه بها حديثا واحدا مسندا منكرا ولم يكن موثوقا به فى الرواية » والأحاديث الموضوعة والضعيفة ٢/ ٤٢٦ وكذلك كنز العمال ١١/ ٤٩٩ وميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩ وقال : « هذا حديث باطل لا أصل له » .

على : فوالله الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ قال : نبذتم أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال فى الآية : لا تخافونه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : تهاونتم به .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ .

المراد بالآيات: التوراة . والسلطان المبين :المعجزات [(١)] . وقيل : المراد بالآيات : هى التسع المذكورة فى غير هذا الموضع ، والسلطان المبين : العصا . وهى وإن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر . وقيل : المراد بالآيات: ما يفيد الظن ، والسلطان المبين: ما يفيد القطع بما جاء به موسى . وقيل : هما جميعا عبارة عن شيء واحد أى أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية ، وكونه سلطانا مبينا . وقيل : إن السلطان المبين : ما أورده موسى على فرعون فى المحاورة بينهما ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى أرسلناه بذلك إلى هؤلاء ، وقد تقدم أن الملأ أشراف القوم ، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم ؛ لأنهم أتباع لهم فى الإصدار والإيراد ، وخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله : ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أى أمره لهم بالكفر؛ لأن حال فرعون فى الكفر أمر واضح ، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره ، ويجوز أن يراد بأمر فرعون : شأنه وطريقته فيعم الكفر وغيره ﴿ وما أمر

(١) فى المطبوعة : « المعزات » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فرعون برشيد ﴾ أى ليس فيه رشد قط ، بل هو غى وضلال ، والرشيد بمعنى المرشد ، والإسناد مجازى ، أو بمعنى ذى رشد ، وفيه تعريض بأن الرشد فى أمر موسى . ﴿يقدم قومه يوم القيامة ﴾ من قدمه بمعنى تقدمه ، أى يصير متقدما لهم يوم القيامة ، سابقا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدمهم فى الدنيا ﴿ فأوردهم النار ﴾ أى إنه لا يزال متقدما لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار . وعبر بالماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، ثم ذم الورد الذى أوردهم إليه، فقال :﴿ وبئس الورد المورود ﴾ لأن الوارد إلى الماء الذى يقول له الورد ، إنما يرده ليطفئ حر العطش ، ويذهب ظمأه ، والنار على ضد ذلك .

ثم ذمهم بعد ذم المكان الذى يردونه ، فقال : ﴿ وأتبعوا فى هذه لعنة ﴾ أى أتبع قوم فرعون مطلقا ، أو الملأ خاصة ، أو هم وفرعون فى هذه الدنيا لعنة عظيمة ، أى طردا وإبعادا ﴿ ويوم القيامة ﴾ أى وأتبعوا لعنة يوم القيامة يلعنهم أهل المحشر جميعا ، ثم إنه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم ، فقال : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ . قال الكسائى وأبو عبيدة : رفدته أرفده رفدا : أمنته وأعطيته ، واسم العطية الرفد ، أى بئس العطاء ، والإعانة ما أعطوهم إياه، وأعانوهم به ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى رفدهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ، كأنها لعنة بعد لعنة تمد الأخرى الأولى وتؤيدها . وذكر الماوردى حكاية عن الأصمعى أن الرفد بالفتح : القدح ، وبالكسر : ما فيه من الشراب ، فكأنه ذم ما يستقونه فى النار ، وهذا أنسب بالمقام . وقيل : إن الرفد : الزيادة ، أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق ، وهو الزيادة قاله الكلبى .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾ أى ما قصه الله سبحانه فى هذه السورة من أخبار الأمم السالفة وما فعلوه مع أنبيائهم ، أى هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ، والضمير فى ﴿ منها ﴾ عائد إلى ﴿ القرى ﴾ أى من القرى قائم ، ومنها حصيد . والقائم : ما كان قائما على عروشه ، والحصيد : ما لا أثر له . وقيل: القائم : العامر ، والحصيد : الخراب . وقيل : القائم : القرى الخاوية على عروشها، والحصيد : المستأصل بمعنى محصود ، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع . قال الشاعر :

والناس فى قسم المنية بينهم ... كالزرع منه قائم وحصيد

﴿ وما ظلمناهم ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أى فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون الله شيئا من العذاب ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾ أى لما جاء عذابه ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ الهلاك والخسران ، أى ما زادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكا وخسرانا ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ قرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف : « أخذ»

على أنه فعل، وقرأ غيرهما : ﴿ أخذ ﴾ على المصدر ﴿ إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾ أى أهلها وهم ظالمون ﴿ إن أخذه ﴾ أى عقوبته للكافرين ﴿ أليم شديد ﴾ أى موجع غليظ ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى فى أخذ الله سبحانه لأهل القرى ، أو فى القصص الذى قصه على رسوله لعبرة وموعظة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ، ويتعظون بالمواعظ . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة ﴿ وذلك ﴾ أى يوم القيامة ﴿ يوم مشهود ﴾ أى يشهده أهل المحشر ، أو مشهود فيه الخلائق ، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أى وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد، قد عين الله سبحانه وقوع الجزاء بعده ﴿ يوم يأت ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الدرج ، وحذفها فى الوقف . وقرأ أبى وابن مسعود بإثباتها وصلا ووقفا . وقرأ الأعمش بحذفها فيهما ، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائى : إن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم .فحذفت الياء كما تحذف الضمة . ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلك ، وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول : لا أدر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفراء فى حذف الياء :

كفاك كف ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ، والمعنى : حين يأتى يوم القيامة ﴿ لا تكلم نفس ﴾ أى لا تتكلم حذفت إحدى التاءين تخفيفا ، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام . وقيل : لا تكلم بحجة ولا شفاعة ﴿ إلا بإذنه ﴾ سبحانه لها فى التكلم بذلك ، وقد جمع بين هذا وبين قوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة . وقد تكرر مثل هذا الجمع فى مواضع ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ أى من الأنفس شقى ومنهم سعيد ؛ فالشقى من كتبت عليه الشقاوة، والسعيد من كتبت له السعادة ، وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام تحذير ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ أى فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرون فى النار لهم فيها زفير وشهيق . قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين ، وهو المرتفع جدا. قال : وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق بمنزلة آخره. وقيل : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف . وقيل : الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رد النفس . وقيل : الزفير : من الصدر ، والشهيق: من الحلق . وقيل: الزفير : ترديد النفس من شدة الخوف ، والشهيق : النفس الطويل الممتد ، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل : ما حالهم فيها ؟ أو فى محل نصب على الحال ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ أى مدة دوامهما .

وقد اختلف العلماء فى بيان معنى هذا التوقيت ؛ لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار فى النار ، وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أيضا أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فقالت طائفة : إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشىء ، قالوا : هو دائم ما دامت السموات والأرض ، ومنه قولهم : لا آتيك ما جن ليل ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ونحو ذلك . فيكون معنى الآية : أنهم خالدون فيها أبدا لاانقطاع لذلك ولا انتهاء له . وقيل : إن المراد سموات الآخرة وأرضها ، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة فى الدنيا ، وهى دائمة بدوام دار الآخرة . وأيضا لابد لهم من موضع يقلهم ، وآخر يظلهم ، وهما أرض وسماء .

قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على أقوال : الأول : أنه من قوله : ﴿ **ففى النار** ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك . روى هذا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى . الثانى : أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله سبحانه : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من ﴿ **خالدين** ﴾ ، وتكون « ما » بمعنى من ، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم . الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ﴿ **إلا ما شاء ربك**﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ، قاله ابن الأنبارى . الرابع : أن معنى الاستثناء : أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون إلا ما شاء ربك ، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا، ثم يجدد الله خلقهم ، روى ذلك عن ابن مسعود . الخامس : أن ﴿ **إلا** ﴾ بمعنى سوى، والمعنى : ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود ، كأنه ذكر فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له ، حكاه الزجاج . السادس : ما روى عن الفراء وابن الأنبارى وابن قتيبة من أن هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك ، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التى شاء الله، فالمشيئة قد حصلت جزما. وقد حكى هذا القول الزجاج أيضا . السابع: أن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم فى قبوركم وللحساب ، حكاه الزجاج أيضا . الثامن : أن المعنى : خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم ، حكاه أيضا الزجاج ، واختاره الحكيم الترمذى . التاسع : أن ﴿ **إلا** ﴾ بمعنى الواو ، قاله الفراء ؛ والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة ، قال مكى : وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو . العاشر : أن ﴿**إلا**﴾ بمعنى الكاف ، والتقدير : كما شاء ربك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] أى كما قد سلف . الحادى عشر :

أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذى ندب إليه الشارع فى كل كلام ، فهو على حد قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ [الفتح : ٢٧] روى نحو هذا عن أبى عبيد . وهذه الأقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم . وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت بدفوعات. وقد أوضحت ذلك فى رسالة مستقلة جمعتها فى جواب سؤال ورد من بعض الأعلام .

﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض** ﴾ قرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ﴿ **سعدوا** ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقون بفتح السين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال سيبويه: لا يقال : سعد فلان ،كما لا يقال: شقى فلان:لكونه مما لا يتعدى ، قال النحاس: ورأيت على بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى بضم السين مع علمه بالعربية ، وهذا لحن لا يجوز . ومعنى الآية كما مر فى قوله : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ . قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ أى يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ ، والمجذوذ : المقطوع ، من جذه يجذه إذا قطعه ، والمعنى : أنه ممتد إلى غير نهاية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة** ﴾ يقول : أضلهم فأوردهم النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ قال : الورود الدخول . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بئس الرفد المرفود**﴾ قال : لعنة الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه :﴿ **منها قائم وحصيد** ﴾ يعنى : قرى عامرة وقرى خامدة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **منها قائم** ﴾ يرى مكانه ، و﴿ **حصيد**﴾ لا يرى له أثر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج : ﴿ **منها قائم** ﴾ خاو على عروشه ، و﴿**حصيد** ﴾ ملصق بالأرض . وأخرج أبو الشيخ عن أبى عاصم :﴿ **فما أغنت عنهم** ﴾ قال: ما نفعت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر فى قوله: ﴿ **وما زادوهم غير تتبيب** ﴾ أى هلكة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : تخسير . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة معناه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ :« إن الله سبحانه وتعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة** ﴾

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٨٦) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٣/٦٦) والترمذى فى التفسير (٣١١٠) وقال: « حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٢٦٥) وابن ماجة فى الفتن (٤٠١٨) والبيهقى ٦/ ٩٤ .

يقول : إنا سوف نفى لهم بما وعدناهم فى الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾ قال : يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يوم يأت** ﴾ قال : ذلك اليوم . وأخرج الترمذى وحسنه ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ قلت : يا رسول الله ، فعلام نعمل ، على شىء قد فرغ منه ، أو على شىء لم يفرغ منه ؟ قال : « بلى على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : هاتان من المخبآت ،قول الله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ و﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ [المائدة : ١٠٩] أما قوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ، ثم يأذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة ، فسماهم أشقياء حين عذبهم فى النار ﴿ **فأما (٢) الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ حين أذن فى الشفاعة لهم ،وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ يعنى بعد الشقاء الذى كانوا فيه ﴿ **ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ يعنى الذين كانوا فى النار .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة أنه تلا هذه الآية : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ فقال : حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال : « يخرج قوم من النار ،ولا نقول كما قال أهل حروراء : إن من دخلها بقى فيها » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن شاء الله أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن خالد بن معدان فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : إنها فى التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد الرزاق وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله ، أو عن أبى سعيد الخدرى أو رجل من أصحاب النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله ، يقول حيث كان فى القرآن خالدين فيها تأتى عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن أبى نضرة قال : ينتهى القرآن كله إلى هذه الآية: ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١١) وقال : « حديث حسن غريب من هذا الوجه ولا نعرفه إلا من حديث عبد الملك ابن عمرو » وأبو يعلى (٥٥٧١) وابن جرير ١٢/ ٧٠ .

(٢) فى المخطوطة « أما » .

(٣) ابن جرير ١٢/ ٧٠ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما دامت السموات والأرض** ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج البيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء فى النار وأن يخلد هؤلاء فى الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : استثنى الله من النار أن تأكلهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها. فأنزل بالمدينة : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا﴾ إلى آخر الآية [النساء : ١٦٨] ، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها ، وأوجب لهم خلود الأبد . وقوله : ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ الآية . قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها ، فأنزل بالمدينة : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات ﴾ إلى قوله : ﴿ ظلا ظليلا ﴾ [النساء : ٥٧] فأوجب لهم خلود الأبد .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر : لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . وأخرج إسحاق بن راهويه عن أبى هريرة قال : سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما فى القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية : ﴿**خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ . قال : وقال ابن مسعود : ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها . وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك**﴾ قال : الله أعلم بثنيته على ما وقعت . وقد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر وأبو هريرة وابن مسعود كابن عباس وعبد الله بن عمر وجابر وأبى سعيد من الصحابة ، وعن أبى مجلز وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما من التابعين . وورد فى ذلك حديث فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى ، وإسناده ضعيف . ولقد تكلم صاحب الكشاف [١] فى هذا الموضع بما كان له فى تركه سعة ، وفى السكوت عنه غنى ، فقال : ولا يخدعنك قول المجبرة [٢] إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار ، فإن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد . ثم قال : وأقول ما كان لابن عمرو فى سيفيه ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى .

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٠ .

(٢) يريد أهل السنة . أما المعتزلة فيقولون : فاعل الكبيرة فى مرتبة بين المؤمن والكافر ، وخلوده فى النار أبدى ، وتحقيق بطلانه فى علم التوحيد .

وأقول : أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار . فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ كما صح عنه فى دواوين الإسلام التى هى دفاتر السنة المطهرة ، وكما صح عنه فى غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه فى مسافة بعيدة . وأى مانع من حمل الاستثناء على هذا الذى جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف . وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة، وأى مانع من حمل الاستثناء فى الموضعين على العصاة من هذه الأمة ، فالاستثناء الأول يحمل على معنى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من خروج العصاة من هذه الأمة من النار ، والاستثناء الثانى يحمل على معنى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من عدم خلودهم فى الجنة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التى لبثوا فيها فى النار . وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره ، وبه قال ابن عباس حبر الأمة . وأما الطعن على صاحب رسول الله وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ، فإلى أين يا محمود ، أتدرى ما صنعت ، وفى أى واد وقعت ، وعلى أى جنب سقطت ؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة ورجلك العرجاء ، أما كان لك فى مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدرى ، فيالله العجب ما يفعل القصور فى علم الرواية والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه .

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء ، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه فى ضمن النهى له عن الامتراء فى أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار ولا تأثير له فى شىء . وحذف النون فى « لاتك » لكثرة الاستعمال ، والمرية : الشك . والإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره ﷺ . وقيل : المعنى : لاتك فى شك من بطلان ما يعبد

هؤلاء . وقيل : لا تك فى شك من سوء عاقبتهم . ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى، وهذا النهى له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك ، فإنه ﷺ لا يشك فى ذلك أبدا . ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم ، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل ، وفى هذا استثناء تعليل للنهى عن الشك . والمعنى : أنهم سواء فى الشرك بالله وعبادة غيره . فلا يكن فى صدرك حرج مما تراه من قومك ، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك ، وجاء بالمضارع فى ﴿ **كما يعبد آباؤهم** ﴾ لاستحضار الصورة . ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال : ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم** ﴾ من العذاب كما وفينا آباءهم لا ينقص من ذلك شيء ، وانتصاب غير الحال ، والتوفية لا تستلزم عدم النقص . فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص ، كما يجوز أن يوفى وهو كامل . وقيل : المراد نصيبهم من الرزق . وقيل : ما هو أعم من الخير والشر .

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أى : التوراة ﴿ **فاختلف فيه** ﴾ أى : فى شأنه وتفاصيل أحكامه ، فآمن به قوم وكفر به آخرون ، وعمل بأحكامه قوم ، ترك العمل ببعضها آخرون ، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** ﴾ أى لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم ، أى بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين . فأثيب المحق وعذب المبطل ؛ أو الكلمة هى : إن رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك . وقيل : إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له ﷺ ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب فقال : ﴿ **وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ أى من القرآن إن حمل على قوم محمد ﷺ ، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ، والمريب : الموقع فى الريبة .

ثم جمع الأولين والآخرين فى حكم توفيه العذاب لهم . أو هو والثواب فقال : ﴿ **وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر : « وإن » بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت فى ﴿ **كلا** ﴾ النصب ، وقد جوز عملها الخليل وسيبويه ، وقد جوز البصريون تخفيف « إن » مع إعمالها . وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شيء قرئ : ﴿ **وإن كلا** ﴾ ؟ وزعم الفراء أن انتصاب ﴿ **كلا** ﴾ بقوله : ﴿ **ليوفينهم** ﴾ ، والتقدير : وإن ليوفينهم كلا . وأنكر ذلك عليه جميع النحويين . وقرأ الباقون بتشديد : ﴿**إن**﴾ ونصبوا بها ﴿ **كلا** ﴾ . وعلى كلا القراءتين فالتنوين فى ﴿ **كلا** ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أى وإن كل المختلفين . وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر : ﴿ **لما** ﴾ بالتشديد . وخففها الباقون. قال الزجاج : لام ﴿ **لما** ﴾ لام إن ، و« ما » زائدة مؤكدة ، وقال الفراء: « ما » بمعنى من كقوله:﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ [النساء : ٧٣] أى وإن كلا لمن ليوفينهم ! وقيل : ليست بزائدة بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد ، والتقدير : وإن كلا لمن خلق . قيل :

وهى مركبة ، وأصلها لمن ما ، فقلبت النون ميما واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس عن النحويين : وزيف الزجاج هذا وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون . وذهب بعض النحويين إلى أن « لما » هذه بمعنى إلا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : ٤] وقال المازنى : الأصل لما المخففة ثم ثقلت، قال الزجاج : وهذا خطأ ، إنما يخفف المثقل ولا يثقل المخفف . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لممت الشىء ألمه : إذا جمعته ، ثم بنى منه فعلى كما قرئ : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ [المؤمنون : ٤٤] وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية . وقد روى ذلك عن الخليل وسيبويه وجميع البصريين ورجحه الزجاج ويؤيده أن فى حرف أبى : « وإن كلا إلا ليوفينهم » كما حكاه أبو حاتم عنه . وقرئ بالتنوين ، أى جميعا . وقرأ الأعمش : « وإن كل لما » بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما . وتكون إن على هذه القراءة نافية ﴿ إنه بما يعملون ﴾ أيها المختلفون ﴿ خبير ﴾ لا يخفى عليه منه شىء ، والجملة تعليل لما قبلها .

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أى كما أمرك الله ، فيدخل فى ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه ، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه ، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله ، وأمته أسوته فى ذلك . ولهذا قال: ﴿ ومن تاب معك ﴾ أى رجع من الكفر إلى الإسلام وشاركك فى الإيمان ، وهو معطوف على الضمير فى : ﴿ فاستقم ﴾ ؛ لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد أى وليستقم من تاب معك وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها ، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة والذوات المقدسة ، ولهذا يقول المصطفى ﷺ : «شيبتنى هود » كما تقدم ﴿ ولا تطغوا ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد. لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلو فى العبادة ، والإفراط فى الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذى حد . والمقدار الذى قدره ممنوع منه منهى عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ، ويقوم الليل ولا ينام ، ويترك الحلال الذى أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء ؛ فمن رغب عن سنتى فليس منى(١) » ، والخطاب للنبى ﷺ ولأمته تغليبا لحالهم على حاله ، أو النهى عن الطغيان خاص بالأمة. ﴿إنه بما تعملون بصير ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون ، والجملة تعليل لما قبلها .

قوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ . قرأ الجمهور بفتح الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة وغيرهما «تركنوا » بضم الكاف . قال الفراء : وهى لغة تميم وقيس ، قال أبو عمرو : وقراءة الجمهور هى لغة أهل الحجاز ، قال : ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف . وهم

---

(١) أحمد ١٥٨/٢ ومسلم فى النكاح (١٤٠١ / ٥) .

يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم . وقرأ ابن أبي عبلة بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه . قال في الصحاح : ركن إليه يركن بالضم . وحكى أبو زيد : ركن إليه بالكسر يركن ركونا فيهما ، أي مال إليه وسكن قال الله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين ، انتهى . وقال في شمس العلوم : الركون السكون يقال : ركن إليه ركونا ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ انتهى . وقال في القاموس : ركن إليه كنصر وعلم . ومنع، ركونا : مال وسكن ، انتهى ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال : فإن الركون هو الميل اليسير (١) ، وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة. قال القرطبي في تفسيره : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به(٢) . ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي . فروى عن قتادة وعكرمة في تفسير الآية أن معناها : لا تودوهم ولا تطيعوهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية : الركون هنا :الإدهان ، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم . وقال أبو العالية : معناه لا ترضوا أعمالهم .

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقيل : خاصة ، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين ، وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فإن قلت : وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح : « أطيعوا السلطان وإن كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة » (٣) . وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة ، وما لم يظهر منهم الكفر البواح ، وما لم يأمروا بمعصية الله . وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح ، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم . والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به الجهاد ، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا ، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم ، وإقامة الحدود على من وجبت عليه ، وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٣ . (٢) القرطبي ٥/ ٣٣٣٦ .

(٣) أحمد ٣/ ١١٤ ، ١٧١ والبخاري في الأحكام (٧١٤٢) وابن ماجة في الجهاد (٢٨٦٠) .

يأمرون به مما لم يكن من معصية الله . ولابد فى مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ، ونحو ذلك مما لابد منه ، ولا محيص عن هذا الذى ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به ، بل قد ورد به الكتاب العزيز ﴿ أطيعوا [١] الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ [النساء : ٥] بل ورد أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة ، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما فى بعض الأحاديث الصحيحة : « أعطوهم الذى لهم ، واسألوا الله الذى لكم » ، بل ورد الأمر بطاعة السلطان ، وبالغ فى ذلك النبى ﷺ حتى قال : « وإن أخذ مالك وضرب ظهرك». فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هى ميل وسكون ، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال إليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة ، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، إذا لم يكن له ميل إليهم فى الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم . قلت : أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى معصية الله ، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدمنا الإشارة إليها ، ولاشك فى هذا ولا ريب ، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل فى شىء من الأعمال التى أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه ، فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له. وأما ما ورد من النهى عن الدخول فى الإمارة ، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعا بين الأدلة ، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهى عن الدخول فى الإمارة بذلك فى بعض الأحاديث الصحيحة ، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم ، وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا ، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية ؛ وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتى وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك « فعلى نفسها براقش تجنى » ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له ، والأليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وقونا على ذلك ويسره لنا ، وأعنا عليه . قال القرطبى فى تفسيره : وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار انتهى[٢]. وقال النيسابورى فى تفسيره : قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا

---

(١) فى المطبوعة : « وأطيعوا » .
(٢) القرطبى ٥/٣٣٣٦ .

بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شىء من تلك الأبواب ؛ فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخلة فى الركون . قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أليس الله بكاف عبده﴾ [الزمر: ٣٦] انتهى .

قوله : ﴿ **فتمسكم النار** ﴾ بسبب الركون إليهم ، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار ، أو كالنار ، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار ، وجملة : ﴿ **وما لكم من دون الله من أولياء** ﴾ فى محل نصب على الحال من قوله : فتمسكم النار ، والمعنى : أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ﴿ **ثم لا تنصرون** ﴾ من جهة الله سبحانه ، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذى نهيتم عنه فلم تنتهوا عنادا وتمردا .

قوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان ، وانتصاب ﴿ **طرفى النهار** ﴾ على الظرفية ، والمراد : صلاة الغداة والعشى ، وهما الفجر والعصر . وقيل : الظهر موضع العصر . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب . وقيل : هما الظهر والعصر . ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب ، قال: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدل على أن الطرف الآخر المغرب ﴿**وزلفا من الليل** ﴾ أى فى زلف من الليل . والزلف : الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما: « زلفا » بضم اللام جمع زليف ، ويجوز أن يكون واحده زلفة . وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام . وقرأ مجاهد : « زلفى » مثل فعلى . وقرأ الباقون : « زلفا » بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابى : الزلف الساعات واحدتها زلفة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس . قال الأخفش : معنى ﴿ **زلفا من الليل** ﴾ : صلاة الليل ، ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ أى إن الحسنات على العموم ، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم . وقيل : المراد بالسيئات : الصغائر ، ومعنى ﴿ **يذهبن السيئات** ﴾ : يكفرنها حتى كأنها لم تكن ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ إلى قوله : ﴿**فاستقم** ﴾ وما بعده . وقيل : إلى القرآن ذكرى للذاكرين ، أى موعظة للمتعظين ﴿ **واصبر**﴾ على ما أمرت به من الاستقامة ، وعدم الطغيان ، والركون إلى الذين ظلموا ! وقيل : إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه ، لأنه لا مشقة فى اجتنابه وفيه نظر ، فإن المشقة فى اجتناب المنهى عنه كائنة ، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ أى يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ قال : ما قدر لهم من خير أو شر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : من العذاب . وأخرجا عن أبى العالية .

قال من الرزق . وأخرجا أيضا عن قتادة فى قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره ، ولا يطغى فى نعمته ، وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى الآية قال: استقم على القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿فاستقم كما أمرت ﴾ قال : شمروا شمروا فما رؤى ضاحكا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ومن تاب معك ﴾ قال : آمن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن العلاء بن عبد الله بن بدر فى قوله : ﴿ ولا تطغوا ﴾ قال : لم يرد أصحاب النبى ﷺ إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ ولا تطغوا ﴾ يقول : لا تظلموا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : الطغيان : خلاف أمره وارتكاب معصيته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قال : يعنى الركون إلى الشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ ولا تركنوا ﴾ قال : لا تميلوا. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ﴿ ولا تركنوا ﴾ لا تدهنوا . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : أن تطيعوهم أوتودوهم أو تصطنعوهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار﴾ قال : صلاة المغرب والغداة ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال : صلاة العتمة . وأخرجا عن الحسن قال: الفجر والعصر ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال : هما زلفتان : صلاة المغرب وصلاة العشاء . قال : وقال رسول الله ﷺ : « هما زلفتا الليل » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين قال : صلاة الفجر ، وصلاتى العشى : يعنى الظهر والعصر ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال : المغرب والعشاء . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال : ساعة بعد ساعة ، يعنى صلاة العشاء الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء ، ويقرأ : ﴿ زلفا من الليل ﴾ .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ قال : الصلوات الخمس. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ومحمد ابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ قال : الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود : أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فقال الرجل: يارسول الله إلى هذه؟ قال: « هى لمن عمل بها من أمتى » (١). وأخـرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن

---

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٢٦) وفى التفسير (٤٦٨٧) ومسلم فى التوبة (٣٩/٢٧٦٣، ٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١١٤) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٤) وفى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٩٨).

أبى أمامة ؛ أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أقم فى حد الله . مرة أو مرتين . فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ قال :« أين الرجل ؟ » قال : أنا ذا . قال : «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟» قال : نعم . قال : « فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » ، وأنزل الله حينئذ على رسوله :﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ (١). وفى الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ، ووردت أحاديث أيضا أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ قال : هم الذين يذكرون الله فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال :لما نزع الذى قبل المرأة تذكر فذلك قوله :﴿ **ذكرى للذاكرين** ﴾ .

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ .

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد . فقال : ﴿ **فلولا** ﴾ أى فهلا ﴿ **كان من القرون** ﴾ الكائنة ﴿ **من قبلكم أولوا بقية** ﴾ من الرأى والعقل والدين ﴿ **ينهون** ﴾ قومهم ﴿ **عن الفساد فى الأرض** ﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل ، وقوة الدين . وفى هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى . والبقية فى الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرجه ، وهو لا يستبقى إلا أجوده وأفضله ، فصار لفظ البقية مثلا فى الجودة ، والاستثناء فى ﴿ **إلا قليلا** ﴾ منقطع ، أى لكن قليلا ممن أنجينا منهم ينهون عن الفساد فى الأرض . وقيل: هو متصل لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، و« من » فى : ﴿ **ممن أنجينا** ﴾ بيانية، لأنه لم ينج إلا

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥١ ، ٢٥٢ ومسلم فى التوبة (٢٧٦٥/ ٤٥) وأبو داود فى الحدود (٤٣٨١) .

(٢) أحمد ٢/ ٤٨٤ ومسلم فى الطهارة (٢٣٣/ ١٤) والترمذى فى الصلاة (٢١٤) وقال: «حديث حسن صحيح » .

الناهون . قيل : هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر : ﴿ إلا قوم يونس﴾ [يونس : ٩٨] وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه الكلام . تقديره : إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ؛ والمعنى : أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهى عنه ما أترفوا فيه. والمترف : الذى أبطرته النعمة ، يقال : صبى مترف : منعم البدن ، أى صاروا تابعين للنعم التى صاروا بها مترفين من خصب العيش ، ورفاهية الحال ، وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم فى الشهوات النفسانية . وقيل : المراد بالذين ظلموا : تاركو النهى . ورد بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلما ممن لم يباشر ، وكان ذنبه ترك النهى . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه:« وأتبع الذين ظلموا » على البناء للمفعول ، ومعناه : أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ، وجملة:﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم ، وهى معطوفة على أترفوا أى وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين ، والإجرام : الأثام والمعنى :أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات ،واشتغالهم بها عن الأمور التى يحق الاشتغال بها ،ويجوز أن تكون جملة ﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ معطوفة على ﴿**واتبع الذين ظلموا** ﴾ أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين .

﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ أى ما صح ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك ، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم فى تعاطى الحقوق لا يظلمون الناس شيئا ، والمعنى : أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد فى الأرض ، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم ، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء . وقيل : إن قوله : ﴿ **بظلم**﴾ حال من الفاعل ، والمعنى : وما كان الله ليهلك القرى ظالما لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين فى الأرض . ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه ، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه ، وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأن تصرفه فى ملكه ، دليله قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ [يونس : ٤٤] وقيل : المعنى : وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ، أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ أى أهل دين واحد ، إما أهل ضلالة ، أو أهل هدى . وقيل : معناه : جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه ، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال : ﴿ **ولا يزالون**

مختلفين ﴾ فى ذات بينهم على أديان شتى ، أو لا يزالون مختلفين فى الحق أو دين الإسلام . وقيل : مختلفين فى الرزق : فهذا غنى ، وهذا فقير ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ بالهداية إلى الدين الحق ، فإنهم لم يختلفوا ، أو إلا من رحم ربك من المختلفين فى الحق أو دين الإسلام ، بهدايته إلى الصواب الذى هو حكم الله ، وهو الحق الذى لا حق غيره ، أو إلا من رحم ربك بالقناعة . والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء فى ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ واضحا غير محتاج إلى تكلف ﴿ **ولذلك** ﴾ أى لما ذكر من الاختلاف ﴿ **خلقهم** ﴾ أو ولرحمته خلقهم ، وصح تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى . والضمير فى خلقهم راجع إلى الناس ، أو إلى ﴿ **من** ﴾ فى : ﴿ **من رحم ربك** ﴾ . وقيل : الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] . ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ [الإسراء : ١١٠] ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : ٥٨] قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك** ﴾ معنى تمت ثبتت كما قدره فى أزله ، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل . وقيل : الكلمة هى قوله : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ أى ممن يستحقها من الطائفتين، والتنوين فى ﴿ **وكلا** ﴾ للتعويض عن المضاف إليه ، وهو منصوب بـ ﴿ **نقص** ﴾ ، والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك ، أى ، نخبرك به . وقال الأخفش : ﴿**كلا** ﴾ حال مقدمة ، كقولك : كلا ضربت القوم ، والأنباء: الأخبار ﴿ **ما نثبت به فؤادك** ﴾ أى ما نجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفور طمأنينته ؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ فى النفس وأقوى للعلم ، وجملة : ﴿ **ما نثبت** ﴾ بدل من أنباء الرسل ، وهو بيان لكلا ، ويجوز أن يكون ﴿ **ما نثبت** ﴾ مفعولا لنقص ، ويكون ﴿ **كلا** ﴾ مفعولا مطلقا ، والتقدير : كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك ﴿**وجاءك فى هذه الحق** ﴾ أى جاءك[1] فى هذه السورة ، أو فى هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿**وموعظة** ﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ **وذكرى** ﴾ يتذكر بها من تفكر فيها منهم ، وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر ، وقيل : المعنى : وجاءك فى هذه الدنيا الحق ، وهو النبوة ؛ وعلى التفسير الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها مع كونه قد جاء فى غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك ، لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها .

﴿ **وقل للذين لا يؤمنون** ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون ﴿ **اعملوا على مكانتكم**﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ **إنا عاملون** ﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق والاتعاظ والتذكر ، وفى هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم ،

---

(١) فى المخطوطة : « جاك » وهى على عادة المصنف فى تليين الهمزة .

وكذلك قوله : ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى ، والمعنى : انتظروا عاقبة أمرنا فإنا منتظرون عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته .

﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ أى علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما ، وخص الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود ، كما يعلم بما هو مغيب ، لكونه من العلم الذى لا يشاركه فيه غيره . وقيل : إن غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض ، والأول أولى ، وبه قال أبوعلى الفارسى وغيره ، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعا ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كلا بعمله. وقرأ نافع وحفص : ﴿ **يرجع**﴾ على البناء للمفعول . وقرأ الباقون على البناء للفاعل ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ فإنه كافيك كل ما تكره ، ومعطيك كل ما تحب ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة ، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿ **تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **فلولا** ﴾ قال : فهلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى بن كعب قال : أقرأنى رسول الله ﷺ : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية** ﴾ وأحلام ينهون عن الفساد فى الأرض . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **إلا قليلا ممن أنجينا منهم** ﴾ يستقلهم الله من كل قوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ قال : فى ملكهم وتجبرهم وتركهم الحق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج قال : قال ابن عباس أترفوا فيه: أبطروا فيه .

وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن جرير قال : سمعت رسول الله ﷺ يسئل عن تفسير هذه الآية ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وأهلها ينصف بعضهم بعضا » (١). وأخرجه ابن أبى حاتم والخرائطى، فى مساوئ الأخلاق موقوفا على جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ قال : أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ قال : أهل الحق وأهل الباطل ﴿ **إلا من رحم ربك**﴾ قال : أهل الحق ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للرحمة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ قال : إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لا يزالون مختلفين فى الأهواء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ أى اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية . وهم

---

(١) الطبرانى (٢٢٨١) .

الذين رحم ربك الحنيفية . وأخرج هؤلاء عن الحسن فى الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للاختلاف. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ قال : أهل الباطل ﴿**إلا من رحم ربك**﴾ قال : أهل الحق ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرجا عن الحسن قال : لا يزالون مختلفين فى الرزق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ولذلك خلقهم قال : خلقهم فريقين : فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم يختلف . فذلك قوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أممهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : ﴿ **وجاءك فى هذه الحق** ﴾ قال : فى هذه السورة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : فى هذه الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **اعملوا على مكانتكم** ﴾ أى منازلكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج : ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ قال : يقول : انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم ، وفى قوله : ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ قال : فيقضى بينهم بحكم العدل . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن الضريس فى فضائل القرآن وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب قال : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ إلى آخر الآية .

بحمد الله تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث

وأوله تفسير سورة يوسف

فهرس الموضوعات

تفسير سـورة المائـدة

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة براءة

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م

I.S.B.N:977-15-0122-4

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني
المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه
الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه
لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

تفسير سورة يوسف

قيل : هى مائة وإحدى عشرة آية . وهى مكية كلها (١) . وقيل : نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة وقال ابن عباس فى رواية عنه وقتادة : إلا أربع آيات (٢) . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يوسف بمكة .وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع الزرقى ؛ أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء ، حتى قدما مكة ، وذكر قصة وفى آخرها : أن رسول الله ﷺ علمهما سورة يوسف ، و﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : ١] ثم رجعا (٣) . وأخرج البيهقى فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ؛ أن حبرًا من اليهود دخل على رسول الله ﷺ ، فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف فقال : يا محمد ، من علمكها ؟ قال: « الله علمنيها » ، فعجب الحبر لما سمع منه ، فرجع إلى اليهود ، فقال لهم : والله إن محمدًا ليقرأ القرآن كما أنزل فى التوراة ، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة ، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فجعلوا سمعهم إلى قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه ، وأسلموا عند ذلك (٤) .

وأخرج الثعلبى عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « علموا أقاربكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله ، وما ملكت يمينه ، هون الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلمًا » (٥) . وفى إسناده سلام بن سالم ويقال : ابن سليم المدائنى، وهو متروك عن هارون بن كثير . قال أبو حاتم : مجهول ، وقد ذكر له الحافظ ابن عساكر متابعًا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير ، ومن طريق شبابة عن مجلز بن عبد الواحد البصرى ، عن على بن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن ميمون عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب مرفوعًا فذكر نحوه ، وهو منكر من جميع طرقه .

قال القرطبى : قال سعد بن أبى وقاص : أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا فقالوا : لو حدثتنا ، فنزل قوله تعالى:﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ [الزمر : ٢٣] (٦)

(١ ، ٢) القرطبى ٥ / ٣٣٤٧ .

(٣) صححه الحاكم ٤ / ١٤٩ ، ١٥٠ وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وقال الذهبى : « يحيى الشجرى صاحب مناكير » .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٧٦ .

(٥) قال ابن كثير فى تفسيره ٤/٥ : « وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية » .

(٦) القرطبى ٨ / ٥٦٩٢ .

قال : قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكررها بمعنى واحد ، فى وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ .

قوله: ﴿ **الٓر** ﴾: قد تقدم الكلام فيه فى فاتحة سورة يونس ، والإشارة بقوله: ﴿ **تلك** ﴾ إلى آيات السورة ، و﴿ **الكتاب المبين** ﴾: السورة ، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وتبكيتهم. والمبين من أبان ، بمعنى بان ، أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله وفى إعجازه ، أو المبين بمعنى : الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه ، أو المبين لما فيه من الأحكام .

﴿ **إنا أنزلناه** ﴾ : أى الكتاب المبين حال كونه ﴿ **قرآنا عربيا** ﴾ فعلى تقدير أن الكتاب : السورة تكون تسميتها قرآنا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل ، وعلى البعض ، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن: فتكون تسميته قرآنا واضحة، و﴿**عربيا**﴾صفة لـ﴿ **قرآنا** ﴾ ، أى على لغة العرب ﴿**لعلكم تعقلون** ﴾ أى لكى تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه.

﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾ القصص : تتبع الشىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿وقالت لأخته قصيه ﴾ [القصص : ١١] أى تتبعى أثره وهو مصدر ، والتقدير : نحن نقص عليك قصصًا أحسن القصص ، فيكون بمعنى الاقتصاص، أو بمعنى المفعول ، أى المقصوص ﴿**بما أوحينا إليك** ﴾ أى بإيحائنا إليك ﴿ **هذا القرآن** ﴾ وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة ، أو بدل منه ، أو عطف بيان ، وأجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ ، وأجاز الفراء الجر، ولعل وجهه أن يقدر حرف الجر فى ﴿ **بما أوحينا** ﴾ داخلاً على اسم الإشارة ، فيكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن ،﴿ **وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ : «إن » هى المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة بينها وبين النافية ، والضمير فى :﴿ **من قبله** ﴾ عائد على الإيحاء المفهوم من أوحينا ، والمعنى :أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة.

واختلف في وجه كون ما في هذه السورة هو أحسن القصص ، فقيل : لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها . وقيل : لما فيها من حسن المحاورة ، وما كان يوسف عليه من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس ، والأنعام والطير ، وسير الملوك والمماليك ، والتجار، والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب ، وما دار بينهما . وقيل : إن ﴿ **أحسن** ﴾ هنا بمعنى : أعجب. وقيل : إن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة .

قوله : ﴿ **إذ قال يوسف لأبيه** ﴾ « إذ » منصوب على الظرفية بفعل مقدر ، أي اذكر وقت قال يوسف . قرأ الجمهور : ﴿ **يوسف** ﴾ بضم السين ، وقرأ طلحة بن مصرف بكسرها مع الهمز مكان الواو ، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين ، وهو غير منصرف للعجمة والعلمية. وقيل : هو عربي ، والأول أولى بدليل عدم صرفه ﴿ **لأبيه** ﴾ أي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ **يا أبتِ** ﴾ بكسر التاء في قراءة أبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ونافع وابن كثير، وهي عند البصريين علامة التأنيث ولحقت في لفظ أب في النداء خاصة بدلاً من الياء وأصله : يا أبي ، وكسرها للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر ، وقرأ ابن عامر بفتحها ؛ لأن الأصل عنده يا أبتا ، ولا يجمع بين العوض والمعوض ، فيقال : يا أبتي، وأجاز الفراء «يا أبت » بضم التاء ﴿ **إني رأيت** ﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك** ﴾ .

قوله : ﴿ **أحد عشر كوكبا** ﴾ : قرئ بسكون العين تخفيفًا لتوالي الحركات ، وقرئ بفتحها على الأصل ﴿ **والشمس والقمر** ﴾ إنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما، كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة. وقيل : إن الواو بمعنى :« مع » ، وجملة : ﴿ **رأيتهم لي ساجدين** ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها . وأجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء،وهو كونها ساجدة ، كذا قال الخليل وسيبويه، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل ، إذا أنزلوه منزلته . ﴿ **قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك** ﴾ الرؤيا مصدر رأى في المنام ، رؤيا على وزن فعلى ، كالسقيا والبشرى وألفه للتأنيث ، ولذلك لم يصرف . نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته ؛ لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ، ولهذا قال : ﴿ **فيكيدوا لك كيدا** ﴾ وهذا جواب النهي وهو منصوب بإضمار أن ، أي فيفعلوا لك ، أي لأجلك كيدًا مثبتا راسخًا لا تقدر على الخلوص منه ، أو كيدًا خفيا عن فهمك . وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال : فيكيدوا كيدا . وقيل : إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدي باللام ، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعا ، الكيد والاحتيال ، كما هو القاعدة في التضمين ، أي يقدر أحدهما أصلاً

والآخر حالا . وجملة : ﴿**إن الشيطان للإنسان عدو مبين**﴾ مستأنفة ، كأن يوسف عليه السلام قال : كيف يقع منهم ؟ فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك ؛ لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة ، مجاهر بها .

قوله : ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك** ﴾ أى مثل ذلك الاجتباء البديع الذى رأيته فى النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك ، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا ، فيجعلك نبيًا ، ويصطفيك على سائر العباد ، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التى رأيتها فى منامك ، فصارت ساجدة لك . قال النحاس : والاجتباء : أصله من جبيت الشىء حصلته ، ومنه : جبيت الماء فى الحوض جمعته . ومعنى الاجتباء : الاصطفاء ، وهذا يتضمن الثناء على يوسف ، وتعديد نعم الله عليه ، ومنها : ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ أى تأويل الرؤيا . قال القرطبى : وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها . وقيل : المراد : ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب. وقيل : المراد به : إحواج إخوته إليه . وقيل : إنجاؤه من القتل خاصة [(١)] .

﴿ **ويتم نعمته عليك** ﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك ، كما تدل عليه هذه الرؤيا التى أراك الله ، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا والآخرة ﴿ **وعلى آل يعقوب** ﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم ، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة ، كما قاله جماعة من المفسرين ، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر ، من النعم التى من جملتها كون الملك فيهم ، مع كونهم أنبياء ﴿ **كما أتمها على أبويك** ﴾ أى إتمامًا مثل إتمامها على أبويك وهى نعمة النبوة عليهما ، مع كون إبراهيم اتخذه الله خليلا ، ومع كون إسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح [(٢)] ، وصار لهما الذرية الطيبة وهم : يعقوب ويوسف وسائر الأسباط . ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ : من قبل هذا الوقت الذى أنت فيه ، أو من قبلك ، وإبراهيم وإسحاق عطف بيان لأبويك ، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدًا وهو إبراهيم ؛ لأن الجد أب ﴿ **إن ربك عليم** ﴾ بكل شىء ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله . والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له ، أى فعل ذلك لأنه عليم حكيم ، وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيرًا لرؤياه على طريق الإجمال ، أو علم ذلك من طريق الوحى ، أو عرفه بطريق الفراسة ، وما تقتضيه المخايل اليوسفية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ قال : بين الله حلاله وحرامه . وأخرج ابن جرير عن معاذ قال : بين الله الحروف التى سقطت عن ألسن

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٣٥٨ .

(٢) هذه من الإسرائيليات التى وقع فيها الإمام الشوكانى ، إذ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . انظر : الإسرائيليات والموضوعات فى التفسير ، ص ٣٥٦ .

الأعاجم ، وهى ستة أحرف . وأخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا ﴿ قرآنا عربيا﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهامًا » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل القرآن بلسان قريش ، وهو كلامهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ قال : من الكتب الماضية ، وأمور الله السالفة فى الأمم ﴿ وإن كنت من قبله ﴾ أى من قبل هذا القرآن ﴿ لمن الغافلين ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنى رأيت أحد عشر كوكبا ﴾ قال : رؤيا الأنبياء وحى (٣) . وأخرج سعيد بن منصور والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى ، وابن حبان فى الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جابر بن عبد الله قال : جاء بستانى اليهودى إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟ فسكت النبى ﷺ فلم يجبه بشىء ، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها . فبعث رسول الله ﷺ إلى اليهودى فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ » قال : نعم ، قال : « خرثان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرغ ، والضياء ، والنور ، رآها فى أفق السماء ساجدة له ، فلما قص يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد » . فقال اليهودى : إى والله إنها لأسماؤها (٤) . هكذا ساقه السيوطى فى الدر المنثور (٥) . وأما ابن كثير فجعل قوله : « فلما قص .. » إلخ رواية منفردة ، وقال : تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزارى وقد ضعفوه وتركه الأكثرون (٦) . وقال الجوزجانى : ساقط، وقال ابن الجوزى : هو موضوع . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أحد عشر كوكبا﴾ قال : إخوته ﴿والشمس ﴾ قال: أمه ﴿ والقمر ﴾ قال : أبوه . وأخرج عبد

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٣٩ وقال : « لم يخرجاه » ووافقه الذهبى وقال : « قلت : حقه أن يقول (م) ـ أى مسلم ـ ولكن مدار الحديث على إبراهيم بن إسحاق العيلى ، وكان ممن يسرق الحديث ، رواه عن عبيد الله ابن سعد عن عمه يعقوب عن أبيه عن سفيان » .

(٢) ابن جرير ١٢ / ٩٠ .

(٣) ابن جرير ١٢ / ٩٠ وصححه الحاكم ٤ / ٣٩٦ على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقال الذهبى:« قلت:خ م » .

(٤) ابن جرير ١٢ / ٩٠ ، ٩١ وصححه الحاكم ٤ / ٣٩٦ على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٧٧.

(٥) الدر المنثور ٤ / ٤ .

(٦) ابن كثير ٤ / ٩ ، ١٠ .

الرزاق وابن جرير عن السدى نحوه أيضا. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه أيضا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك** ﴾ قال : يصطفيك [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ قال : عبارة الرؤيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ قال : تأويل العلم والحلم ، وكان يوسف من أعبر الناس . وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ **كما أتمها على أبويك** ﴾ قال : فنعمته على إبراهيم أن نجاه من النار ، وعلى إسحاق أن نجاه من الذبح [٢] .

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)** ﴾ .

أى لقد كان فى قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ﴿ **للسائلين** ﴾ من الناس عنها ، وقرأ أهل مكة: « آية » على التوحيد ، وقرأ الباقون على الجمع واختار قراءة الجمع أبو عبيد . وقال النحاس : و « آية» هاهنا قراءة حسنة. وقيل : المعنى : لقد كان فى يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود ، فإنه روى أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى ، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا ، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة [٣] . وقيل : معنى ﴿**آيات للسائلين** ﴾ : عجب لهم . وقيل : بصيرة . وقيل : عبرة . قال القرطبى : وأسماؤهم يعنى إخوة يوسف : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وريالون، ويشجر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب. وولد له من سريتين أربعة وهم : دان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر ، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين ، وقال السهيلى : إن أم يوسف اسمها وقفا، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين [٤] ، وهو أكبر من يوسف .

﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه** ﴾ أى وقت قالوا والظرف متعلق بكان ﴿ **أحب إلى أبينا منا** ﴾ والمراد بقوله : ﴿**وأخوه** ﴾ هو بنيامين ، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعا إخوته لأنه

---

(١) أصل الصفاء : خلوص الشىء من الشوب .

(٢) سبق التعليق على أن الذبيح هو إسماعيل ، وهذا من الإسرائيليات التى وقع فيها الإمام الشوكانى .

(٣، ٤) القرطبى ٥ / ٣٣٥٩ .

أخوه لأبويه كما تقدم . ووحد الخبر فقال : ﴿ **أحب** ﴾ مع تعدد المبتدأ ؛ لأن أفعل التفضيل يستوى فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف ، واللام فى﴿ **ليوسف** ﴾ هى الموطئة للقسم وإنما قالوا: هذه ؛ لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده ، وجملة :﴿ **ونحن عصبة** ﴾ فى محل نصب على الحال . والعصبة : الجماعة ، قيل : وهى ما بين الواحد إلى العشرة . وقيل: إلى الخمسة عشر . وقيل : من العشرة إلى الأربعين ، ولا واحد لها من لفظها ، بل هى كالنفر ، والرهط ، وقد كانوا عشرة ﴿ **إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ أى لفى ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا ، وإيثارهما دوننا مع استوائنا فى الانتساب إليه ، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه فى دينه فى ضلال مبين .

﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا** ﴾ أى قالوا : افعلوا به أحد الأمرين : إما القتل ، أو الطرح فى أرض ، أو المشير بالقتل بعضهم والمشير بالطرح البعض الآخر ، أو كان المتكلم بذلك واحدًا منهم فوافقه الباقون ، فكانوا كالقائل فى نسبة هذا المقول إليهم ، وانتصاب أرضًا على الظرفية ، والتنكير للإبهام ، أى أرضًا مجهولة ، وجواب الأمر : ﴿ **يخل لكم وجه أبيكم**﴾ أى يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملاً ﴿**وتكونوا**﴾ معطوف على ﴿**يخل**﴾ ويجوز أن يكون منصوبًا بإضمار أن ﴿ **من بعده** ﴾ أى من بعد يوسف ، والمراد : بعد الفراغ من قتله أو طرحه . وقيل : من بعد الذنب الذى اقترفوه فى يوسف ﴿ **قوما صالحين** ﴾ فى أمور دينكم ، وطاعة أبيكم ، أو صالحين فى أمور دنياكم ، لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك ، وهو الحسد ليوسف ، وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم ، هو وأخوه ، أو المراد بالصالحين : التائبون من الذنب .

﴿ **قال قائل منهم** ﴾ أى من الإخوة ، قيل : هو يهوذا . وقيل : روبيل . وقيل : شمعون. ﴿ **لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب** ﴾ قيل : ووجه الإظهار فى ﴿ **لا تقتلوا يوسف** ﴾ استجلاب شفقتهم عليه . قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام : ﴿**فى غيابة الجب** ﴾ بالإفراد ، وقرأ أهل المدينة : « فى غيابات » بالجمع ، واختار أبو عبيد الإفراد ، وأنكر الجمع ؛ لأن الموضع الذى ألقوه فيه واحد ، قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة ، و« غيابات » على الجمع تجوز . والغيابة : كل شىء غيب عنك شيئا . وقيل للقبر : غيابة ، والمراد بها هنا :غور البئر الذى لا يقع البصر عليه ، أو طاقة فيه ، قال الشاعر :

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث إلى ذا كما قد غيبتنى غيابيا

والجب : البئر التى لم تطو ، ويقال لها قبل الطى : ركية ، فإذا طويت قيل لها : بئر ، سميت جبا ؛ لأنها قطعت فى الأرض قطعًا ، وجمع الجب جيب ، وجيابٌ ، وأجباب . وجمع بين الغيابة والجب مبالغة فى أن يلقوه فى مكان الجب شديد الظلمة ، حتى لا يدركه نظر الناظرين . قيل : وهذه البئر ببيت المقدس . وقيل : بالأردن . وجواب الأمر : ﴿**يلتقطه بعض السيارة**﴾ ، قرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تلتقطه » بالمثناة الفوقية

ووجهه أن بعض السيارة سيارة ،وحكى عن سيبويه سقطت بعض أصابعه ، ومنه قول الشاعر:

أرى مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال [١]

وقرأ الباقون : ﴿ **يلتقطه** ﴾ بالتحتية . والسيارة : الجمع الذى يسيرون فى الطريق ، والالتقاط : هو أخذ شيء مشرف على الضياع ، وكأنهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد ، بحيث يخفى عن أبيه ، ومن يعرفه ، ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد ، فربما أن والدهم لا يأذن لهم بذلك ومعنى ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾: إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم فى أمره ، كأنه لم يجزم بالأمر بل وكله[٢] إلى ما يجمعون عليه ، كما يفعله المشير مع من استشاره ، وفى هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلما وبغيًا . وقيل : كانوا أنبياء ، وكان ذلك منهم زلة قدم ، وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد فى صدورهم واضطرام جمرات الغيظ فى قلوبهم . ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة ، المتبالغة فى الكبر ، مع ما فى ذلك من قطع الرحم ، وعقوق الوالد ، وافتراء الكذب . وقيل : إنهم لم يكونوا فى ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **آيات للسائلين** ﴾ قال : عبرة . وأخرج أيضا عن قتادة فى الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به ، وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال : إنما قص الله على محمد ﷺ خبر يوسف وبغى إخوته عليه وحسدهم إياه ،حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغى قومه عليه ، وحسدهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسى به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه** ﴾ يعنى :بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه ، وفى قوله : ﴿ **ونحن عصبة** ﴾ قال : العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين . وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن زيد قال : العصبة: الجماعة ﴿**إن أبانا في ضلال مبين** ﴾ قال : لفى خطأ من رأيه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى قوله: ﴿ **قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف** ﴾ قال : قاله كبيرهم الذى تخلف ، قال : والجب بئر بالشام ﴿ **يلتقطه بعض السيارة** ﴾ قال : التقطه ناس من الأعراب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وألقوه فى غيابة الجب** ﴾ يعنى : الركية . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الجب : البئر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ قال : هى بئر ببيت المقدس ، يقول : فى

---

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيبانى .

(٢) فى المطبوعة : « وبل وكله » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

بعض نواحيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : الجب بحذاء طبرية [(١)] ، بينه وبينها أميال .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ .

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه فى غيابات الجب ، جاؤوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافًا له ، وتحريكًا للحنو الذى جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء ، وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذى دبروه واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغى أن يكون الواقع على خلافه، فـ ﴿ **قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا علي يوسف** ﴾ أى أىُّ شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه،وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى . وقرأ يزيد بن القعقاع ، وعمرو بن عبيد والزهرى : «لا تأمنا » بالإدغام بغير إشمام ، وقرأ طلحة بن مصرف : « لا تأمننا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رزين والأعمش : « لا تيمنا » وهو لغة تميم كما تقدم . وقرأ سائر القراء بالإدغام والإشمام ، ليدل على حال الحرف قبل إدغامه ﴿ **وإنا له لناصحون** ﴾ فى حفظه وحيطته حتى نرده إليك ﴿ **أرسله معنا غدا** ﴾ أى إلى الصحراء التى أرادوا الخروج إليها ، و ﴿ **غدا** ﴾ ظرف ، والأصل عند سيبويه غدوة ، قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له: غدوة ، وكذا يقال له: بكرة ﴿ **يرتع ويلعب** ﴾ هذا جواب الأمر ، قرأ أهل البصرة وأهل مكة ، وأهل الشام بالنون وإسكان العين ، كما رواه البعض عنهم ، وقرؤوا أيضًا بالاختلاس ، وقرأ الباقون بالنون وكسر العين ، والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب : رتع الإنسان أو البعير : إذا أكل كيف شاء ، أو المعنى : نتسع فى الخصب ، وكل مخصب راتع ، قال الشاعر :

فارعى فزارة لا هناك المرتع

---

(١) هى بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وهى فى طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها . وهى من أعمال الأردن ، كان أول من بناها ملك من ملوك الروم يقال له : طبارا وسميت باسمه ، وفتحت طبرية على يد شرحبيل بن حَسَنة فى سنة ١٣ هـ صلحًا . معجم البلدان ٤ / ١٧ .

ومنه قول الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت　　　فإنما هى إقبال وإدبار (١)

والقراءة الثانية مأخوذة من رعى الغنم ، وقرأ مجاهد وقتادة : « يرتع ويلعب » بالتحتية فيهما ، ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف ، وقال القتيبى : معنى ﴿ **يرتع** ﴾ نتحارس ونتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ، من قولهم : رعاك الله ، أى حفظك و ﴿ **يلعب** ﴾ من اللعب . قيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء ، فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد به : اللعب المباح من الأنبياء ، وهو مجرد الانبساط . وقيل : هو اللعب الذى يتعلمون به الحرب ، ويتقوون به عليه كما فى قولهم : ﴿ **إنا ذهبنا نستبق** ﴾ لا اللعب المحظور الذى هو ضد الحق ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا ونلعب ، ومنه قوله ﷺ لجابر : « فهلاً بكرا تلاعبها وتلاعبك » (٢) ، فأجابهم يعقوب بقوله : ﴿**إنى ليحزننى أن تذهبوا به** ﴾ أى ذهابكم به . واللام فى ﴿ **ليحزننى** ﴾ لام الابتداء للتأكيد ، ولتخصيص المضارع بالحال ، أخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب** ﴾ أى ومع ذلك أخاف أن يأكله الذئب ، قال يعقوب هذا تخوفًا عليه منهم ، فكنى عن ذلك بالذئب . وقيل : إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة ؛ لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه . قال ثعلب : والذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا هاجت من كل وجه ، قال : والذئب مهموز ؛ لأنه يجىء من كل وجه ، وقد قرأ ابن كثير ، ونافع فى رواية عنه بالهمز على الأصل ، وكذلك أبو عمرو ، فى رواية عنه ، وابن عامر وعاصم وحمزة ، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿ **وأنتم عنه غافلون** ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب ، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه .

﴿ **قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة** ﴾ : اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : والله لئن أكله الذئب ، والحال : إن نحن عصبة ، أى جماعة كثيرة عشرة ﴿ **إنا إذا لخاسرون** ﴾ أى إننا فى ذلك الوقت ، وهو أكل الذئب له ﴿**لخاسرون**﴾ هالكون ضعفا وعجزا ، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا ، وانتفاء القدرة على أيسر شىء وأقله ، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسارة والدمار . وقيل : ﴿ **لخاسرون** ﴾ لجاهلون حقه ، وهذه الجملة جواب القسم المقدر فى الجملة التى قبلها .

﴿ **فلما ذهبوا به** ﴾ من عند يعقوب ﴿ **وأجمعوا** ﴾ أمرهم ﴿ **أن يجعلوه فى غيابة الجب** ﴾

---

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخرًا .

(٢) البخارى فى الدعوات (٦٣٨٧) وفى البيوع (٢٠٩٧) وفى الوكالة (٢٣٠٩) وفى الجهاد (٢٩٦٧) ومسلم فى الرضاع (٧١٥ / ٥٤ ـ ٥٨) وأبو داود فى النكاح (٢٠٤٨) والترمذى فى النكاح (١١٠٠) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى البيوع ٧ / ٣٩٧ ، ٣٩٨ وابن ماجة فى النكاح (١٨٦٠) والدارمى فى النكاح ٢/ ١٤٦ .

قد تقدم تفسير الغيابة والجب قريبا ، وجواب « لما » محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه ، والتقدير : فعلوا به ما فعلوا ، وقيل : جوابه : ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ . وقيل : الجواب المقدر جعلوه فيها . وقيل: الجواب : ﴿ أوحينا ﴾، والواو مقحمة ، ومثله قوله تعالى: ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] أى ناديناه ﴿وأوحينا إليه﴾ أى إلى يوسف تيسيرا له وتأنيسًا لوحشته مع كونه صغيرًا اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته ، بقلوب غليظة فقد نزعت عنها الرحمة ، وسلبت منها الرأفة، فإن الطبع البشرى ــ دع عنك الدين ــ يتجاوز عن ذنب الصغير ، ويغتفره لضعفه عن الدفع ، وعجزه عن أيسر شيء يراد منه ، فكيف بصغير لا ذنب له ؟ بل كيف بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب ؟ فلقد أبعد من قال : إنهم كانوا أنبياء فى ذلك الوقت ، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين ، وفى هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله إلى من كان صغيرًا ويعطيه النبوة حينئذ ، كما وقع فى عيسى ، ويحيى بن زكريا ، وقد قيل : إنه كان فى ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال ، وهو بعيد جدا ، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ أى لتخبرن إخوتك بأمرهم هذا الذى فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد، وأنزلوه عليك من الضرر ، وجملة : ﴿وهم لا يشعرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك فى غيابة الجب ، ولبعد عهدهم بك ، ولكونك قد صرت عند ذلك فى حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك ، وسيأتى ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر .

قوله : ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ﴾ ﴿ عشاء ﴾ منتصب على الظرفية وهو آخر النهار . وقيل : فى الليل ، و ﴿ يبكون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة ، بل فعلوا فعل من يبكى ترويجًا لكذبهم وتنفيقا لمكرهم وغدرهم . فلما وصلوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى نتسابق فى العدو أو فى الرمى . وقيل : ننتضل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود « ننتضل » ، قال الزجاج : وهو نوع من المسابقة ، وقال الأزهرى : النضال فى السهام ، والرهان فى الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القشيرى : نستبق أى فى الرمى ، أو على الفرس أو على الأقدام ، والغرض من المسابقة التدرب بذلك فى القتال ، ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى عند ثيابنا ليحرسها ﴿ فأكله الذئب ﴾ الفاء للتعقيب ، أى أكله عقب ذلك ، وقد اعتذروا عليه بما خافه سابقا عليه ، ورب كلمة تقول لصاحبها دعنى. ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ بمصدق لنا فى هذا العذر الذى أبدينا ، والكلمة التى قلناها ﴿ ولو كنا ﴾ عندك أو فى الواقع ﴿صادقين ﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا فى ذلك مع شدة محبتك له . قال الزجاج : والمعنى : ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا فى هذه القضية ، لشدة محبتك ليوسف ، وكذا ذكره ابن جرير وغيره .

﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذبٍ ﴾ ﴿ على قميصه ﴾ فى محل نصب على الظرفية ، أى جاؤوا فوق قميصه بدم . ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف فى وصف اسم العين باسم المعنى . وقيل : المعنى : بدم ذى كذب أو بدم مكذوب فيه ، وقرأ الحسن وعائشة : «بدم كدب » بالدال المهملة، أى بدم طرى، يقال : للدم الطرى كدب . وقال الشعبى: إنه المتغير ، والكدب أيضا : البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ، فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة اللونين ، وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ؟

ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾ أى زينت وسهلت . قال النيسابورى : التسويل تقرير فى معنى النفس مع الطمع فى تمامه ، وهو تفعيل من السول وهـو الأمنية . قال الأزهرى : وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة ﴿ فصبر جميل ﴾ قال الزجاج : أى فشأنى أو الذى أعتقده صبر جميل . وقال قطرب : أى فصبرى صبر جميل . وقيل : فصبر جميل أولـى بـى . وقيل : والصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه ، قـال الزجاج : قـرأ عيسى بن عمـر فيمـا زعـم سهـل بـن يوسف « فصبراً جميلا » قال : وكذا فى مصحف أنس ، قال المبرد :﴿ فصبر جميـل ﴾ بالـرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال : رب عندى صبر جميل ، وإنما النصب على المصدر، أى فلأصبرن صبراً جميلا . قال الشاعر :

شكا إلىّ جملى طول السرى صبرا جميلا فكلانا مبتلى

﴿ والله المستعان ﴾ أى المطلوب منه العون ﴿ على ما تـصفـون ﴾ أى على إظهار حال ما تصفون ، أو على احتمال ما تصفون ، وهذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ﴾ قال : نسعى وننشط ونلهو . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تلقنوا الناس فيكذبوا ؛ فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس،فلما لقنهـم أبـوهم كذبوا ، فقالوا : أكله الذئب»[(١)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ وأوحينا إليه﴾ قال : أوحى إلى يوسف وهو فى الجب لتنبئن إخوتك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحى. وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : أوحى الله إليه وحيًا وهو فى الجب أن سينبئهـم بمـا صنعوا ﴿ وهم ﴾ أى إخـوتـه ﴿ لا يشعرون ﴾ بذلك الوحى ، فهون ذلك الوحى عليه ما صنع به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال: لم يعلموا بوحى الله إليه. وأخرج ابن جرير وابـن أبى حاتم ، عنه قال : لما دخل إخوة

(١) الدر المنثور ٤ / ٩ .

يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب ، فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره بخبركم [١] ، فقال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فى ذلك ﴿ **لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ [٢] .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى بكر بن عياش قال : كان يوسف فى الجب ثلاثة أيام . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا** ﴾ قال : بمصدق لنا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿**وجاؤوا على قميصه بدم كذب**﴾ قال : كان دم سخلة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **وجاؤوا على قميصه بدم كذب** ﴾ قال : لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقًا ، قال : كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا** ﴾ يقول : بل زينت لكم أنفسكم أمرًا ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾ أى على ما تكذبون . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبان بن أبى حبلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ قال : « لا شكوى فيه ، من بث لم يصبر » ، وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن عن حبان بن أبى حبلة وهو مرسل [٣] . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ قال : ليس فيه جزع .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ .

هذا شروع فى حكاية خلاص يوسف ، وما كان بعد ذلك من خبره ، وقد تقدم تفسير السيارة ، والمراد بها هنا : رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر ، فأخطؤوا الطريق وهاموا حتى

---

(١) فى المخطوطة : « ويخبركم » ، والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) ابن جرير ١٢ / ٩٦ .

(٣) ابن جرير ١٢ / ٩٩ وقال ابن كثير ٤ / ١٥ : « هذا مرسل » .

نزلوا قريبًا من الجب ، وكان فى قفرة بعيدة من العمران ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون: مالك بن ذعر من العرب العاربة ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ أى أرسله ، يقال أدلى دلوه : إذا أرسلها ليملأها ، ودلاها إذا أخرجها قاله الأصمعى وغيره ، فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد فقال : « يا بشراى » هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة ، وأهل البصرة وأهل الشام بإضافة البشرى إلى الضمير ، وقرأ أهل الكوفة ﴿ **يا بشرى** ﴾ غير مضاف ، ومعنى مناداته للبشرى : أنه أراد حضورها فى ذلك الوقت، فكأنه قال : هذا وقت مجيئك وأوان حضورك. وقيل : إنه نادى رجلاً اسمه بشرى والأول أولى ، قال النحاس : والمعنى من نداء البشرى: للتبشير لمن حضر ، وهو أوكد من قولك : بشرته ، كما تقول :يا عجبا ، أى ياعجب هذا من أيامك فاحضر ، قال : وهذا مذهب سيبويه ﴿ **وأسروه** ﴾ أى أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم . وقيل : إنهم لم يخفوه بل أخفوا وجدانهم له فى الجب ، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر . وقيل : ضمير الفاعل فى ﴿ **أسروه** ﴾ لإخوة يوسف ، وضمير المفعول ليوسف ، وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته ، فأتوا الرفقة وقالوا : هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه ، والأول أولى . وانتصاب ﴿ **بضاعة** ﴾ على الحال ، أى أخفوه حال كونه بضاعة ، أى متاعًا للتجارة ، والبضاعة ما يبضع من المال ، أى يقطع منه ؛ لأنها قطعة من المال الذى يتجر به ، قيل : قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام ، مخافة أن يشاركوهم فيه ، وفى قوله : ﴿ **والله عليم بما يعملون** ﴾ وعيد شديد لمن كان فعله سببًا لما وقع فيه يوسف من المحن ، وما صار فيه من الابتذال يجرى البيع والشراء فيه ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، كما قال نبينا ﷺ فى وصفه بذلك (١) .

قوله :﴿ **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة** ﴾ يقال: شراه بمعنى : اشتراه ، وشراه بمعنى: باعه، قال الشاعر (٢) :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِى ... مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَه

أى بعته .

وقال آخر :

فلما شراها فاضت العين عبرة (٣)

---

(١) أحمد ٢ / ٣٣٢ ، ٤١٦ عن أبى هريرة ، والبخارى فى الأنبياء (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) والتفسير (٤٦٨٨) عن عبد الله بن عمر .

(٢) الشاعر هو : يزيد بن مفرغ الحميرى .

(٣) البيت للشماخ قاله فى رجل باع قوسه من رجل .

أى اشتراها .

والمراد هنا : وباعوه ، أى باعه الوارد وأصحابه ﴿ **بثمن بخس** ﴾ أى ناقص ، أوزائف . وقيل : يعود إلى إخوة يوسف على القول السابق . وقيل : عائد إلى الرفقة ، والمعنى : اشتروه . وقيل : بخس : ظلم . وقيل : حرام . قيل : باعوه بعشرين درهمًا . وقيل : بأربعين . و ﴿ **دراهم** ﴾ بدل من ثمن أى دنانير ، و ﴿ **معدودة** ﴾ وصف لدراهم ، وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعد ولا توزن ؛ لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهى أربعون درهمًا ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ يقال : زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها ، قال سيبويه والكسائى : قال أهل اللغة : يقال : زهد فيه ، أى رغب عنه ، وزهد عنه أى رغب فيه ، والمعنى : أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به ، فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس ؛ وذلك لأنهم التقطوه ، والملتقط للشىء متهاون به ، والضمير من ﴿ **كانوا** ﴾ يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه .

﴿ **وقال الذى اشتراه من مصر** ﴾ هو العزيز الذى كان على خزائن مصر ، وكان وزيرًا لملك مصر ، وهو الريان بن الوليد من العمالقة . وقيل : إن الملك هو فرعون موسى . قيل : اشتراه بعشرين دينارًا . وقيل : تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكًا وعنبرًا وحريرًا وورقًا وذهبًا ولآلئ وجواهر ، فلما اشتراه العزيز قال ﴿ **لامرأته** ﴾ واللام متعلقة بـ﴿**اشتراه**﴾ ، ﴿**أكرمى مثواه** ﴾ أى منزله الذى يثوى فيه بالطعام الطيب ، واللباس الحسن ، يقال : ثوى بالمكان ، أى أقام به . ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ أى يكفينا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه ﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ أى نتبناه فنجعله ولدًا لنا . قيل : كان العزيز حصورًا لا يولد له. وقيل : كان لا يأتى النساء ، وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة .

قوله : ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف** ﴾ : الكاف فى محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف، والإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجب ، وعطف قلب العزيز عليه ، أى مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار متمكنا من الأمر والنهى ، يقال : مكنه فيه ، أى أثبته فيه ، ومكن له فيه ، أى جعل له فيه مكانًا ، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر .

قوله : ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل : فعلنا ذلك التمكين لنعلمه من تأويل الأحاديث ، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة ، أو معطوف على مقدر، وهو أن يقال : ملكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ﴿**ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ ومعنى تأويل الأحاديث : تأويل الرؤيا ، فإنها كانت من الأسباب التى بلغ بها ما بلغ من التمكن . وقيل : معنى تأويل الأحاديث : فهم أسرار الكتب الإلهية ، وسنن من قبله من الأنبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع .

﴿ والله غالب على أمره ﴾ أى على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير، ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التى أرادها الله سبحانه فى شأنه . وقيل : معنى ﴿ والله غالب على أمره﴾ : أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤيا يوسف على إخوته ، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جدًا . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى لا يطلعون على غيب الله ، وما فى طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة . وقيل : المراد بالأكثر : الجميع ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله . وقيل : إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه ، كما فى قوله: ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا. إلا من ارتضى من رسول ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] . وقيل : المعنى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر .

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ الأشد : قال سيبويه: جمع واحده شدّة ، وقال الكسائى : واحده شدّ ، وقال أبو عبيد : إنه لا واحد له من لفظه عند العرب ويرده قول الشاعر [١] :

عَهْدِى به شَدَّ النَّهارِ كَأَنَّمَا   خُضِبَ البنانُ ورأسه بالعِظْلِم

والأشد : هو وقت استكمال القوة ، ثم يكون بعده النقصان ، قيل : هو ثلاث وثلاثون سنة . وقيل : بلوغ الحلم . وقيل : ثمانى عشرة سنة . وقيل غير ذلك مما قدمنا بيانه فى النساء والأنعام . والحكم : هو ما كان يقع منه من الأحكام فى سلطان ملك مصر . والعلم : هو العلم بالحكم الذى كان يحكمه . وقيل : العقل والفهم والنبوة وقيل : الحكم : هو النبوة، والعلم : هو العلم بالدين . وقيل : علم الرؤيا ، ومن قال : إنه أوتى النبوة صبيًا ؛ قال : المراد بهذا الحكم والعلم الذى آتاه الله هو : الزيادة فيهما . ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ أى ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزى المحسنين ، فكل من أحسن فى عمله أحسن الله جزاءه ، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به ، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أوليًا . قال الطبرى : هذا وإن كان مخرجه ظاهرًا على كل محسن فالمراد به: محمد ﷺ، يقول الله تعالى : كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض ، والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ماذكره ابن جرير الطبرى .

---

(١) هو : عنترة العبسى ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد ، أمه حبشية، وكان من أحسن العرب شيمة ، ومن أعزهم نفسًا ، شهد داحس والغبراء ، وعاش طويلا ومات مقتولا . الأعلام ٥ / ٩١ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿**وجاءت سيارة** ﴾ قال : جاءت سيارة فنزلت على الجب ﴿ **فأرسلوا واردهم** ﴾ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف ، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلامًا لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه ، فزهدوا فيه فباعوه ، وكان بيعه حرامًا ، وباعوه بدراهم معدودة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **فأرسلوا واردهم** ﴾ يقول : فأرسلوا رسولهم ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ فنشب الغلام بالدلو ، فلما خرج ﴿ **قال يابشراى هذا غلام** ﴾ تباشروا به حين استخرجوه ، وهى بئر ببيت المقدس معلوم مكانه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **يا بشراى** ﴾ قال : كان اسم صاحبه بشرى كما تقول : يا زيد . وهذا على ما فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ : ﴿ **يابشرى**﴾ ، بدون إضافة ، وأخرج أبو الشيخ عن الشعبى نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأسروه بضاعة** ﴾ يعنى : إخوة يوسف أسروا شأنه ، وكتموا أن يكون أخاهم ، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أسره التجار بعضهم من بعض . وأخرج ابن أبى شيبة، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه : ﴿ **وأسروه بضاعة** ﴾ قال : صاحب الدلو ومن معه ، قالوا لأصحابهم : إنا استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا به ، واتبعهم إخوته يقولون للمدلى وأصحابه : استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوا بمصر ، فقال : من يبتاعنى ويبشر ، فابتاعه الملك والملك مسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وشروه** ﴾ قال : إخوة يوسف باعوه حين أخرجه المدلى دلوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : بيع بينهم بثمن بخس قال : حرام لم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه . وأخرج ابن جرير عن قتادة : ﴿ **وشروه بثمن بخس** ﴾ قال :هم السيارة. وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب أنه قضى فى اللقيط أنه حر ، وقرأ : ﴿ **وشروه بثمن بخس** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : البخس القليل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبى مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنما اشترى يوسف بعشرين درهمًا ، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلاثمائة وتسعين إنسانًا ، رجالهم أنبياء، ونساؤهم صديقات والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفًا ، وقد روى فى مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وقال الذى اشتراه من مصر**﴾ قال : كان اسمه قطفير . وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائى أن اسم امرأة العزيز: زليخا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال : الذى اشتراه أطيفير ابن روحب ، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل . وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وأبو

الشيخ عن ابن عباس قال : اسم الذى باعه من العزيز مالك بن زعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿أكرمى مثواه﴾ قال : منزلته. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال :أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس فى يوسف ، فقال لامرأته: ﴿ أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ ، والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها : ﴿ يا أبت استأجره ﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ قال : عبارة الرؤيا . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ (١) قال : ثلاثًا وثلاثين سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : أربعين سنة . وأخرج عن عكرمة قال : خمسًا وعشرين سنة . وأخرج عن السدى قال : ثلاثين سنة وأخرج عن سعيد بن جبير قال : ثمانى عشرة سنة . وأخرج عن ربيعة قال : الحلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الشعبى نحوه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال :عشرين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ قال : هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ قال : المهتدين .

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

---

(١) قال الأزهرى : « الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها ، قوله تعالى فى يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ [يوسف : ٢٢] الإدراك والبلوغ ، وحينئذ راودته امرأة العزيز . وقوله تعالى فى الأنعام : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ [الأنعام: ١٥٢] قال : يحفظ له ماله ويدفع إليه عندما يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغًا ، وفى قصة موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ [القصص : ١٤] فإنه قرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه ، وأما قوله تعالى فى سورة الأحقاف : ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ [الأحقاف :١٥] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وعند تمامها بُعث محمد ﷺ نبيًا وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . اللسان ٣ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

الصَّادِقِينَ(٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ .

المراودة :الإرادة والطلب برفق ولين . وقيل : هى مأخوذة من الرَّود ، أى الرفق والتأنى، يقال : أرودنى أمهلنى . وقيل: المراودة مأخوذة من راد يرود : إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : أنها فعلت فى مراودتها له فعل المخادع ، ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ ، وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال : راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودته هى عن نفسه ، إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع ، وهى مفاعلة وأصلها أن تكون من الجانبين . فجعل السبب هنا فى أحد الجانبين قائمًا مقام المسبب ، فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة فى الحسن ، سببًا لمراودة امرأة العزيز له مراود ، وإنما قال: ﴿ **التى هو فى بيتها** ﴾ ولم يقل : امرأة العزيز وزليخا قصدًا إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة، والمحافظة على الستر عليها . ﴿ **وغلقت الأبواب** ﴾ قيل : فى هذه الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال : غلق الأبواب ، ولا يقال : غلق الباب ، بل يقال : أغلق الباب ، وقد يقال : أغلق الأبواب ، ومنه قول الفرزدق فى أبى عمرو بن العلاء :

مَازلتُ أغلق أبْواباً وَأفْتحهَا حَتَّى أتيتُ أبا عمرٍو بن عمَّارِ

قيل : وكانت الأبواب سبعة .

قوله : ﴿ **هيت لك** ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائى وحمزة والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء ، وفتح التاء . وبها قرأ ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة . قال ابن مسعود : لا تنطعوا فى القراءة ، فإنما هو مثل قول أحدكم :هلم وتعال ، وقرأ ابن أبى إسحاق النحوى بفتح الهاء وكسر التاء ، وقرأ عبد الرحمن السلمى ، وابن كثير: « هيت » بفتح الهاء وضم التاء ، ومنه قول طرفة :

كيْسَ قَوْمى بَالأبْعَدين إذَا مَا قَالَ دَاعٍ من العَشِيرةِ هَيْتُ

وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء ، وقرأ على وابن عباس فى رواية عنه وهشام بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء . وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء ، ومعنى هيت على جميع القراءات معنى هلم وتعال ؛ لأنها من أسماء الأفعال ، إلا فى قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة ، فإنها بمعنى : تهيأت لك ، وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ، وقال أبو عبيدة : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء فقال : باطل جعلها بمعنى : تهيأت ، اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن ، هل تعرف أحدًا يقول هكذا ؟ وأنكرها أيضا الكسائى ، وقال النحاس: هى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هاء الرجل يهاء ويهىء هيئة، ورجح الزجاج القراءة

الأولى . وأنشد بيت طرفة المذكور هيتا بالفتح ، ومنه قول الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أبلـــغ أميـــر المــؤمنـــين ... أخـــا العـــراق إذا أتيتـــا

أن العـــراق وأهـــلـــه ... سلـــم إليـك فـهيـت هيتـا

وتكون اللام فى ﴿ لك ﴾ على القراءات الأولى التى هى فيها بمعنى اسم الفعل للبيان ، أى لك أقول هذا ، كما فى هلم لك ، قال النحويون : هيت جاء بالحركات الثلاث ، فالفتح للخفة ، والكسر لالتقاء الساكنين ، والضم تشبيها بحيث ، وإذا بين باللام نحو: ﴿ هيت لك﴾ فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له ، أى لك أقول هذا ، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل ، إما خبر أى تهيأت ، وإما أمر أى أقبل ، وقال فى الصحاح : يقال : هوت به وهيت به إذا صاح به ودعاه . ومنه قول الشاعر :

يَحْدو بِها كلُّ فتى هَيَّاتِ

وقد روى عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها . قال أبو عبيدة : كان الكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران ، وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال ، قال أبوعبيدة فسألت شيخًا عالمًا من حوران فذكر أنها لغتهم . ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى أعوذ بالله معاذًا مما دعوتنى إليه، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف ، مضاف إلى اسم الله سبحانه . وجملة : ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التى هى أقرب إلى فهم امرأة العزيز ، والضمير للشأن ، أى إن الشأن ربى ، يعنى: العزيز ، أى سيدى الذى ربانى ، وأحسن مثواى حيث أمرك بقوله : ﴿أكرمى مثواه ﴾ فكيف أخونه فى أهله وأجيبك إلى ما تريـدين مـن ذلك ؟ وقال الزجاج : إن الضمير لله سبحانه ، أى إن الله ربى تولانى بلطفه ، فلا أركب مـا حرمـه ، وجملـة : ﴿ إنَّه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها . والفلاح : الظفر ، والمعنى : أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومن جملة الظالمين الواقعون فى مثل هذه المعصية التى تطلبها امرأة العزيز من يوسف .

قوله : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ يقال : هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه ، والمعنى : أنه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختيارًا كما يفيده ما تقدم من استعاذته بالله ، وإن ذلك النوع من الظلم ، ولما كان الأنبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد إليها ، شطح أهل العلم فى تفسير هذه الآية بمـا فيه نـوع تكـلف ، فمن ذلـك ما قاله أبو حاتم قال : كنت أقرأ على أبى عبيدة غريب القـرآن ، فلمـا أتيت على : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ قال : هذا على التقديم والتأخير : كأنه قال : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . وقال أحمد بن يحيى ثعلب : أى همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة ،

وهم يوسف ولم يوقع ما هم به ، فبين الهمين فرق ، ومن هذا قول الشاعر (١) :

هَمَمْتُ بِهَم من ثنية لؤلؤ   شَفَيتُ غَلِيلاتِ الهَوى مِن فُؤاديَا

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم . وقيل : هم بها بمعنى :تمنى أن يتزوجها . وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوى ، ويدل على هذا ما سيأتى من قوله : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ [يوسف : ٥٢]، وقوله : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : ٥٣] ومجرد الهم لا ينافى العصمة ، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع فى المعصية . وذلك المطلوب وجواب « لو » فى ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ محذوف أى لولا أن رأى برهان ربه لفعل ما هم به .

واختلف فى هذا البرهان الذى رآه ما هو ؟ فقيل : إن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها إلى صنم لها فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هذا أن يرانى على هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله تعالى وقيل : إنه رأى فى سقف البيت مكتوبا : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ الآية [الإسراء : ٣٢]. وقيل : رأى كفا مكتوبا عليها : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] . وقيل : إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده . وقيل : نودى : يا يوسف أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ . وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدار عاضا على أنملته يتوعده (٢) . وقيل غير ذلك مما يطول ذكره . والحاصل : أنه رأى شيئا حال بينه وبين ما هم به .

قوله : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف ، والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك ، أى مثل تلك الإراءة أريناه ، أومثل ذلك التثبيت ثبتناه . ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ أى كل ما يسوؤه ، والفحشاء كل أمر مفرط القبح . وقيل : السوء : الثناء القبيح . والأولى : الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أوليًا . وجملة : ﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ تعليل لما قبله . قرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمر : « المخلصين » بكسر اللام ، وقرأ الآخرون بفتحها . والمعنى على القراءة الأولى : أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله ، وعلى الثانية : أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة ، وقد كان عليه السلام مخلصًا مستخلصا .

---

(١) الشاعر : جميل بن عبد الله بن معمر العذرى القضاعى . وافتتن ببثينة ، من فتيات قومه . وكانت منازل بنى عذرة فى وادى القرى ثم إلى أطراف الشام ، وبعدها قصد مصر . الأعلام ١٣٨/٢ .

(٢) لم يصح من هذا شيء ، ومن العجيب أن يروى هذه الآثار مفسرون كالطبرى والشوكانى ــ دون أدنى نقد ــ وهذه الصورة التى صور بها يوسف عليه السلام بعيدة كل البعد عن عصمة الأنبياء ؛ لأن الله عصمهم عن الخطايا والدنايا ، قال ابن كثير ٤ / ٢١: « ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى » .

﴿ **واستبقا الباب** ﴾ أى تسابقا إليه فحذف حرف الجر وأوصل الفعل بالمفعول ، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بنفسه كابتدرا الباب وهذا الكلام متصل بقوله : ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ وما بينهما اعتراض . ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب ، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه ، ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم ؛ لأن تسابقهما كان إلى الباب الذى يخلص منه إلى خارج الدار ، ﴿ **وقدت قميصه من دبر** ﴾ أى جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله . والقد : القطع ، وأكثر مايستعمل فيما كان طولا ، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضًا ، وقع منها ذلك عند أن فر يوسف لما رأى برهان ربه ، فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبها لقميصه ، ﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ أى وجدا العزيز هنالك وعنى بالسيد الزوج ؛ لأن القبط يسمون الزوج سيدًا وإنما لم يقل : سيدهما ؛ لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحًا ، فلم يكن سيدًا له .

وجملة : ﴿ **قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب و« ما » استفهامية، والمراد بالسوء هنا: الزنا . قالت هذه المقالة طلبًا منها للحيلة وللتستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف ، أى جزاء يستحقه من فعل مثل هذا ؟ ثم أجابت عن استفهامها بقولها :﴿ **إلا أن يسجن**﴾ أى ما جزاؤه إلا أن يسجن . ويحتمل أن تكون « ما » نافية ، أى ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم . قيل : والعذاب الأليم هو : الضرب بالسياط ، والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره ، وفى الإبهام للعذاب زيادة تهويل .

وجملة : ﴿ **قال هى راودتنى عن نفسى** ﴾ مستأنفة كالجملة الأولى . وقد تقدم بيان معنى المراودة أى هى التى طلبت منى ذلك ، ولم أرد بها سوءا ﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ أى من قرابتها ، وسمى الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل . قيل : لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب . قيل: كان ابن عم لها واقفًا مع العزيز فى الباب . وقيل : ابن خال لها . وقيل : إنه طفل فى المهد تكلم ، قال السهيلى : وهو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى ﷺ فى ذكر من تكلم فى المهد ، وذكر من جملتهم شاهد يوسف . وقيل : إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره وكان من قرابة المرأة ﴿ **إن كان قميصه قد من قبل** ﴾ أى فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصادق منهما ، وكذب الكاذب ، بأن قميص يوسف إن كان مقطوعًا من قبل ، أى من جهة القبل ﴿ **فصدقت** ﴾ ، أى فقد صدقت بأنه أراد بها سوءًا ﴿ **وهو من الكاذبين** ﴾ فى قوله: إنها راودته عن نفسه . وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق : « من قبل » بضم اللام ، وكذا قرأ « من دبر » قال الزجاج : جعلاهما غايتين كقبل وبعد،كأنه قيل : من قبله ومن دبره ، فلما حذف المضاف إليه وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية .

﴿ **وإن كان قميصه قد من دبر** ﴾ أى من ورائه ﴿ **فكذبت** ﴾ فى دعواها عليه ﴿ **وهو من الصادقين** ﴾ فى دعواه عليها ، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتاليهما ، لاعقلا ولاعادة وليس ها هنا إلا مجرد أمارة غير مطردة ، إذ من الجائز أن تجذبه إليها ، وهو مقبل عليها فينقدّ القميص من دبر ، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقدّ القميص من قبل .

﴿ **فلما رأى** ﴾ أى العزيز ﴿ **قميصه** ﴾ أى قميص يوسف ﴿ **قد من دبر قال إنه** ﴾ أى هذا الأمر الذى وقع فيه الاختلاف بينكما ، أو أن قولك : ﴿ **ماجزاء من أراد بأهلك سوءا** ﴾ ﴿ **من كيدكن** ﴾ أى من جنس كيدكن يامعشر النساء ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ والكيد : المكر والحيلة .

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله :﴿ **يوسف أعرض عن هذا** ﴾ أى عن هذا الأمر الذى جرى واكتمه ولا تتحدث به ، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال : ﴿ **واستغفرى لذنبك** ﴾ الذى وقع منك ﴿ **إنك كنت** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **من الخاطئين** ﴾ أى من جنسهم . والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ، ولم يقل : من الخاطئات تغليباً للمذكر على المؤنث كما فى قوله : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ [التحريم : ١٢] ومعنى ﴿ **من الخاطئين** ﴾ : من المتعمدين . يقال : خطئ: إذا أذنب متعمدًا . وقيل : إن القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة : هو الشاهد الذى حكم بينهما .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه** ﴾ قال : هى امرأة العزيز . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : راودته حين بلغ مبلغ الرجال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله :﴿ **هيت لك** ﴾ قال:هلم لك تدعوه إلى نفسها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : هلم لك بالقبطية . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : هى كلمة بالسريانية أى عليك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : معناها تعال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها. وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ **هئت لك** ﴾ مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة ، قال : تهيأت لك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنه ربى** ﴾ قال : سيدى ، قال : يعنى : زوج المرأة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها ﴿ **وهم بها** ﴾ جلس بين رجليها يحل ثيابه ، فنودى من السماء : يابن يعقوب ، لا تكن كطائر نتف ريشه ، فبقى لا ريش له ، فلم يتعظ على النداء شيئًا حتى رأى برهان ربه جبريل فى صورة يعقوب ، عاضًا على أصبعه ، ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب

فوجده مغلقًا ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته ، فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه ، فألفيا سيدها لدى الباب . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **همت به وهم بها** ﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها . وكان فيه من الطمع أن هم بحل التكة فقامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه فقال : أى شىء تصنعين ؟ فقالت : أستحى من إلهى أن يرانى على هذه السوءة، فقال يوسف : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال: لا تناليها منى أبدًا ، وهو البرهان الذى رأى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله :﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ قال : مثل له يعقوب فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله(١). وقد أطال المفسرون فى تعيين البرهان الذى رآه ، واختلفت أقوالهم فى ذلك اختلافًا كثيرًا .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال : السيد : الزوج يعنى فى قوله : ﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ قال : القيد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ قال : صبى أنطقه الله كان فى الدار . وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون (٢) ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » (٣) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها**﴾ قال : كان رجلاً ذا لحية . وأخرج الفريابى وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : كان من خاصة الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : هو رجل له فهم وعلم. وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: ابن عم لها كان حكيما. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : إنه ليس بإنسى ولا جنى هو خلق من خلق الله . قلت : ولعله لم يستحضر قوله تعالى : ﴿ **من أهلها** ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا

(١) سبق الكلام على مثل هذه الروايات فى أنها لا تصح أن تضاف إلى الأنبياء ؛ لأن الله عصمهم عن ذلك .

(٢) فى المطبوعة : « ابن ماشطة فرعون » ، والصحيح ما أثبتناه كما هو عند أحمد وابن جرير .

(٣) أحمد ١ / ٣٠٩ ، ٣١٠ وابن جرير ١٢ / ١١٥ والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٣٨٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٧٠ : «رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه عطاء بن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط » .

بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾ .

يقال : « نُسوة » بضم النون ، وهى قراءة الأعمش ، والمفضل ، والسُّلَمىّ (١) ، ويقال : ﴿ **نسوة** ﴾ بكسر النون ، وهى قراءة الباقين والمراد :جماعة من النساء ، ويجوز التذكير فى الفعل المسند إليهن ، كما يجوز التأنيث ، قيل : وهى امرأة ساقى العزيز، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه . والفتى فى كلام العرب : الشاب . والفتاة : الشابة ، والمراد به هنا : غلامها ، يقال : فتاى وفتاتى ، أى غلامى وجاريتى ، وجملة :﴿ **قد شغفها حبا** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر ثان للمبتدأ ، أو فى محل نصب على الحال ، ومعنى : ﴿ **شغفها حبا** ﴾ غلبها حبه . وقيل : دخل حبه فى شغافها ، قال أبو عبيدة : وشغاف القلب : غلافه وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب ، وعلى هذا يكون المعنى : دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه . وأنشد الأصمعى قول الراجز :

يتبعها وهى له شغاف

وقرأ جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن : « شعفها » بالعين المهملة . قال ابن الأعرابى : معناه : أجرى حبه عليها، وقرأ غيرهم بالمعجمة . قال الجوهرى : شغفه الحب : أحرق قلبه ، وقال أبو زيد : أمرضه ، قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة : قد ذهب بها كل مذهب ؛ لأن شغاف الجبال أعاليها ، وقد شغف بذلك شغفًا بإسكان الغين المعجمة إذا ولع به ، وأنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس :

أتقتلنى وقد شَغَفْتُ فؤادها كما شغف المهنوءَة (٢) الرّجلُ الطالى

قال : فشبهت لوعة الحب بذلك وقرأ الحسن :« قد شغفها» بضم الغين ، قال النحاس : وحكى قد شغفها بكسر الغين ، ولا يعرف ذلك فى كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين . ويقال : إن الشغاف : الجلدة اللاصقة بالكبد التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء . فكأنه لصق حبه بقلبها . كلصوق الجلدة بالكبد ، وجملة : ﴿ **إنا لنراها فى ضلال مبين** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : إنا لنراها ، أى نعلمها فى فعلها هذا ، وهو المراودة لفتاها فى ضلال عن طريق الرشد والصواب المبين ، واضح لا يلتبس على من نظر فيه .

(١) فى المطبوعة : « والفضل وسليمان » والصحيح ما أثبتناه .

(٢) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنئ البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

﴿ **فلما سمعت** ﴾ امرأة العزيز ﴿ **بمكرهن** ﴾ أى بغيبتهن إياها سميت الغيبة مكرًا لاشتراكهما فى الإخفاء . وقيل : أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف فلهذا سمى قولهن مكرًا . وقيل : إنها أسرت عليهن فأفشين سرها فسمى ذلك مكرًا ﴿ **أرسلت إليهن** ﴾ أى تدعوهن إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿ **وأعتدت لهن متكأ** ﴾ أى هيأت لهن مجالس يتكئن عليها ، وأعتدت من الاعتداد وهو كل ما جعلته عدة لشىء . وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير : «مُتْكا » مخففًا غير مهموز . والمُتْك : هو الأتْرُجّ بلغة القبط ، ومنه قول الشاعر :

نَشْربُ الإثم بالصُّواعِ جِهَارًا وتَــرى المُتْــك بَيْنَنَــا مُسْتَعَــارَا

وقيل : إن ذلك هو لغة أزد شنوءة . وقيل : حكى ذلك عن الأخفش . وقال الفراء : إنه ماء الورد ، وقرأ الجمهور : ﴿**متكأ** ﴾ بالهمز والتشديد ، وأصح ما قيل فيه: إنه المجلس . وقيل : هو الطعام . وقيل : المتكأ : كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ، وحكى القتيبى أنه يقال : اتكأنا عند فلان ، أى أكلنا ، ومنه قول الشاعر :

فَظَـلِلْنـا بنعمــةٍ واتـكَــأنـــا وشَرِبْنــا الحَــلالَ مِــنْ قُلَلِـه

ويؤيد هذا قوله : ﴿ **وآتت كل واحدة منهن سكينا** ﴾ فإن ذلك إنما يكون لشىء يأكلنه بعد أن يقطعنه ، والسكين تذكر وتؤنث ، قاله الكسائى والفراء . قال الجوهرى : والغالب عليه التذكير ، والمراد من إعطائها لكل واحدة سكينا : أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهن من تقطيع أيديهن وقالت ليوسف : ﴿**اخرج عليهن** ﴾ أى فى تلك الحالة التى هن عليها من الاتكاء ، والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام .

قوله : ﴿ **فلما رأينه أكبرنه** ﴾ أى عظمنه . وقيل : أمْذَيْن ، ومنه قول الشاعر :

إذا مَارأين الفحْلَ من فـوق قلـة صَهَلْــنَ وَأكْبَــرن المنىَّ المقطــرا

وقيل : حضن ، قال الأزهرى : « أكبرن » بمعنى:حضن ، والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة ، أى دخلت فى الكبر بالحيض ، وقع منهن ذلك دهشًا وفزعا لما شاهدنه من جماله الفائق ، وحسنه الرائق ، ومن ذلك قول الشاعر :

نَأْتِى النِساءَ عَلى أَطْهَارِهنَّ وَلاَ نَأْتِى النِسَاءَ إِذَا أَكْبَرنَ إِكْبارَا (١)

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره ، وقالوا : ليس ذلك فى كلام العرب .قال الزجاج : يقال:

---

(١) قال ابن جرير : « وقد زعم بعض الرواة أن بعض الناس أنشده فى أكبرن بمعنى حضن ، بيتا لا أحسب أن له أصلاً ؛ لأنه ليس بالمعروف عند الرواة » .

أكبرنه ولا يقال : حضنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ، وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ، وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط فى الوصل . وقال ابن الأنبارى : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل أى أكبرن إكبارًا بمعنى: حضن حيضًا ﴿**وقطعن أيديهن**﴾ أى جرحنها ، وليس المراد به القطع : الذى تبين منه اليد ، بل المراد به : الخدش والحز ، وذلك معروف فى اللغة كما قال النحاس، يقال : قطع يد صاحبه إذا خدشها . وقيل: المراد بأيديهن هنا : أناملهن . وقيل : أكمامهن ، والمعنى : أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمنه ودهشن ، وراعهن حسنه ، حتى اضطربت أيديهن فوقع القطع عليها ، وهن فى شغل عن ذلك ، بما دهمهن مما تطيش عنده الأحلام ، وتضطرب له الأبدان ، وتزول به العقول «وقلن حاشا لله » كذا قرأ أبو عمرو بن العلاء بإثبات الألف فى حاشا . وقرأ الباقون بحذفها. وقرأ الحسن : « حاش لله » بإسكان الشين ، وروى عنه أنه قرأ : « حاش الإله » ، وقرأ ابن مسعود وأبيّ : « حاشا لله » . قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية تقول : كنت فى حاشية فلان ، أى فى ناحيته ، فقولك : حاشا لزيد من هذا ، أى تباعد منه ، وقال أبو عليّ : هو من المحاشاة . وقيل : إن حاش حرف وحاشا فعل ، وكلام أهل النحو فى هذه الكلمة معروف ، ومعناها هنا التنزيه ، كما تقول: أتى القوم حاشا زيدا ، فمعنى ﴿ **حاشا لله**﴾ : براءة لله وتنزيه له .

قوله : ﴿ **ما هذا بشرا** ﴾ إعمال « ما » عمل ليس هى لغة أهل الحجاز ، وبها نزل القرآن كهذه الآية ، وكقوله سبحانه : ﴿ ماهن أمهاتهم ﴾ [المجادلة : ٢] وأما بنوتميم فلا يعملونها عمل ليس ، وقال الكوفيون : أصله : ما هذا ببشر ، فلما حذفت الباء انتصب . قال أحمد ابن يحيى ثعلب : إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض ، وأما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس ، وبه قال البصريون، والبحث مقرر فى كتب النحو بشواهده وحججه ، وإنما نفين عنه البشرية ؛ لأنه قد برز فى صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر ، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه فى جميع الصور البشرية ، ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية ، وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنه قد تقرر فى الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر فى الذات والصفات، وأنهم فائقون فى كل شيء كما تقرر أن الشياطين على العكس من ذلك، ومن هذا قول الشاعر :

فلستَ لإنْسيٍّ ولكن لِمَلَاكٍ ... تَنزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصُوب

وقرأ الحسن :« ما هذا بشِراء » ، على أن الباء حرف جر والشين مكسورة ، أى ما هذا بعبد يشترى ، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله : ﴿ **إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ .

واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بنى آدم فإنهن لم يقلنه لدليل ، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز فى طباعهن وذلك

ممنوع ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ [التين : ٤] وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات فى حسن تقويمه وكمال صورته . فما قاله صاحب الكشاف فى هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ فى عقله من أقوال المعتزلة [١] ، على أن هذه المسألة ، أعنى مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر، ليست من مسائل الدين فى ورد ولا صدر ، فما أغنى عباد الله عنها ، وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف .

﴿ **قالت فذلكن الذى لمتننى فيه** ﴾ الإشارة إلى يوسف والخطاب للنسوة ، أى عيرتننى فيه، قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف إظهارًا لعذر نفسها ، ومعنى ﴿ **فيه** ﴾ : أى فى حبه . وقيل : الإشارة إلى الحب ، والضمير له أيضًا ، والمعنى : فذلك الحب الذى لمتننى فيه هو ذلك الحب ، والأول أولى ، ورجحه ابن جرير . وأصل اللوم : الوصف القبيح ، ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده فى قلبها من حبه ، فأقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له فقالت : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أى استعف وامتنع مما أريده ، طالبًا لعصمة نفسه عن ذلك ، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده ، كاشفة لجلباب الحياء ، هاتكة لستر العفاف ، فقالت : ﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين** ﴾ أى لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدم ذكره عند أن غلقت الأبواب ، وقالت: هيت لك ﴿ **ليسجنن** ﴾ أى يعتقل فى السجن ﴿**وليكونا من الصاغرين** ﴾ الأذلاء لما يناله من الإهانة ، ويسلب عنه من النعمة والعزة فى زعمها. قرئ : « ليكونن » بالتثقيل والتخفيف . قيل : والتخفيف أولى ؛ لأن النون كتبت فى المصحف ألفًا على حكم الوقف ، وذلك لا يكون إلا فى الخفيفة ، وأما ﴿**ليسجنن** ﴾ فبالتثقيل لا غير .

فلما سمع يوسف مقالها هذا ، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز ، قال مناجيًا لربه سبحانه : ﴿ **رب السجن** ﴾ أى يارب السجن الذى أوعدتنى هذه به ﴿ **أحب إلىَ مما يدعوننى إليه** ﴾ من مؤاتاتها والوقوع فى المعصية العظيمة التى تذهب بخير الدنيا والآخرة . قال الزجاج : أى دخول السجن ، فحذف المضاف . وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قرأ : « السجن » بفتح السين ، وقرأ كذلك ابن أبى إسحاق وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب ، وهو مصدر سجنه سجنا ، وإسناد الدعوة إليهن جميعا ؛ لأن النسوة رغبنه فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها ، ثم جرى على هذا فى نسبة الكيد إليهن جميعًا فقال : ﴿ **وإلا تصرف عنى كيدهن** ﴾ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه فى هذه السورة ، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له فى المطاوعة والتخويف من المخالفة . وقيل : إنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها ، وتقول له : يا يوسف اقض لى

---

(١) الكشاف ٢ / ٤٦٦ .

حاجتى فأنا خير لك من امرأة العزيز . وقيل : إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيمًا لها أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض . والكيد : الاحتيال ، وجزم ﴿أصب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط ، أى أمل إليهن من صبا يصبو إذا مال واشتاق ، ومنه قول الشاعر (١) :

إِلى هِنْدٍ صبا قَلْبِى وهِنْدٌ حُبُّها يُصْبِى

﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ معطوف على ﴿ أصب ﴾ ، أى أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه ، أو ممن يعمل عمل الجهال .

قوله : ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ لما قال : ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن ﴾ كان ذلك منه تعرضًا للدعاء ، وكأنه قال : اللهم اصرف عنى كيدهن ، فالاستجابة من الله تعالى له هى بهذا الاعتبار ؛ لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام ، والمعنى : أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية ؛ لأنه إذا صرف عنه كيدهن لم يقع شىء مما رمنه منه ، ووجه إسناد الكيد قد تقدم ، وجملة : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه ، أى: إنه هو السميع لدعوات الداعين له ، العليم بأحوال الملتجئين إليه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قد شغفها ﴾ غلبها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه : ﴿ قد شغفها ﴾ قال : قتلها حب يوسف . الشغف: الحب القاتل ، والشعف :حب دون ذلك ، والشغاف:حجاب القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ قد شغفها ﴾ قال : قد علقها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ قال : بحديثهن . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان : ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ قال : بعملهن وكل مكر فى القرآن فهو عمل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ قال : هيأت لهن مجلسًا ، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكينا يأكل بها ﴿ فلما رأينه ﴾ قال : فلما خرج عليهن يوسف ﴿ أكبرنه ﴾ قال : أعظمنه ونظرن إليه ، وأقبلن يحززن أيديهن بالسكاكين ، وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿وأعتدت لهن متكأ ﴾ قال : أعطتهن أترنجًا وأعطت كل واحدة منهن سكينا ، فلما رأين يوسف أكبرنه ، وجعلن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترنج . وأخرج مسدد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه: المتكأ : الأترنج وكان يقرأها خفيفة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ متكأ ﴾ قال : طعامًا . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عنه قال: هو الأترنج .

---

(١) الشاعر : هو يزيد ابن ضبة الثقفى ، وضبة : أمه ، شاعر كبير ، من أهل الطائف مات أبوه وخلفه صغيرا فحضنته أمه ، فنسب إليها . الأعلام ٨ / ١٨٩ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : هو كل شىء يقطع بالسكين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد قال : حدثنى أبى عن جدى يقول فى قوله : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ قال : أمْنَيْن ، وأنشد :

ولما رأته الخيل من رأس شاهق صهلن وأمنين المنى المدفقا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عبد الصمد بن على بن عبد الله ابن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس فى قوله : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ قال : لما خرج عليهن يوسف حضن من الفرح ، وذكر قول الشاعر الذى قدمنا ذكره :

نأتِى النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلاَ نَأتِى النِّسَاءَ إِذَ أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ أكبرنه ﴾ أعظمنه ﴿وقطعن أيديهن ﴾ قال : حزا بالسكين حتى ألقينها ﴿ وقلن حاش لله ﴾ قال : معاذ الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ قال : قلن : ملك من الملائكة ، من حسنه. وأخرج أبو الشيخ عن منبه عن أبيه قال : مات من النسوة التى قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمدًا . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن أنس عن النبى ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » [(١)] . وقد وردت روايات عن جماعة من السلف فى وصف حسن يوسف والمبالغة فى ذلك ، ففى بعضها أنه أعطى نصف الحسن ، وفى بعضها ثلثه ، وفى بعضها ثلثيه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ فاستعصم ﴾ قال : امتنع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ فاستعصم ﴾ قال : فاستعصى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن ﴾ قال : إلا تكن منك أنت القوى والمنعة لا تكن منى ولا عندى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ : ﴿ أصب إليهن ﴾ قال : أتبعهن . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : أطاوعهن .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ

---

(١) أحمد ٣ / ٢٨٦ وابن جرير ١٢ / ٢٣ وفى التاريخ ١ / ١٦٨ وصححه الحاكم ٢/ ٥٧٠ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ .

معنى : ﴿ **بدا لهم** ﴾ : ظهر لهم ، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه ، وأما فاعل ﴿ **بدا لهم** ﴾ فقال سيبويه : هو ﴿ **ليسجننه** ﴾ أى ظهر لهم أن يسجنوه . قال المبرد : وهذا غلط ؛ لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه ﴿**بدا**﴾ وهو المصدر كما قال الشاعر :

وحقَّ لمن أبو موسى أبوهُ يُوَفِّقه الذى نصَبَ الجِبالاَ

أى وحق الحق ، فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه . وقيل : الفاعل المحذوف هو رأى ، أى وظهر لهم رأى لم يكونوا يعرفونه من قبل ، وهذا الفاعل حذف لدلالة ﴿ **ليسجننه** ﴾ عليه، واللام فى ﴿ **ليسجننه** ﴾ جواب قسم محذوف على تقدير القول ،أى ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين : والله ليسجننه ، وقرئ : « لتسجننه » بالمثناة الفوقية على الخطاب، إما للعزيز ومن معه أو له وحده على طريق التعظيم . والآيات : قيل : هى القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدى . وقيل : هى البركات التى فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ، ولم يجد ذلك فيهم ، بل كانت امرأته هى الغالبة على رأيه ، الفاعلة لما يطابق هواها فى يوسف ، وإنفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها : ﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين** ﴾ . قيل : وسبب ظهور هذا الرأى لهم فى سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة، وكتم ما شاع فى الناس ، من قصة امرأة العزيز معه . وقيل : إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته ، لما علم أنها قد صارتِ بمكان من حبه لا تبالى معه بحمل نفسها عليه على أى صفة كانت ، ومعنى قوله : ﴿ **حتى حين** ﴾ إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين . وقيل : إلى انقطاع ما شاع فى المدينة . وقال سعيد بن جبير إلى سبع سنين . وقيل : إلى خمس . وقيل : إلى ستة أشهر،وقد تقدم فى البقرة الكلام على تفسير الحين (١). وحتى بمعنى إلى (٢) .

(١) عند قوله تعالى : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ [البقرة : ٣٦] .
(٢) كقوله تعالى : ﴿ **حتى مطلع الفجر** ﴾ [القدر : ٥] .

قوله : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ فى الكلام حذف متقدم عليه ، والتقدير : وبدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه . ﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ ومع للمصاحبة ، وفتيان تثنية فتى ، وهذا يدل على أنهما عبدان له ، ويحتمل أن يكون الفتى اسمًا للخادم وإن لم يكن مملوكًا . وقد قيل : إن أحدهما خباز الملك ، والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالاً فى مقابلة ذلك ، ثم إن الساقى رجع عن ذلك وقال للملك : لا تأكل الطعام فإنه مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب فإن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى : اشرب ، فشرب فلم يضره ، وقال للخباز : كل فأبى فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما ، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف . وقيل : قبله . وقيل : بعده . قال ابن جرير : إنهما سألا يوسف عن علمه فقال : إنى أعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله سبحانه : ﴿ **قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا** ﴾ أى رأيتنى ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ، والمعنى : إنى أرانى أعصر عنبا فسماه باسم ما يؤول إليه ؛ لكونه المقصود من العصر ، وفى قراءة ابن مسعود « أعصر عنبًا» ، قال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيًا ومعه عنب ، فقال له : ما معك ؟ فقال : خمر . وقيل : معنى ﴿**أعصر خمرا** ﴾ ، أى : عنب خمر [1] ، فهو على حذف مضاف ، وهذا الذى رأى هذه الرؤيا هو الساقى ، وهذه الجملة مستأنفة لتقدير سؤال ، وكذلك الجملة التى بعدها ، وهى : ﴿**وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا** ﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله : ﴿ **تأكل الطير منه**﴾ وهذا الرائى لهذه الرؤيا هو الخباز ثم قالا ليوسف جميعًا بعد أن قصّا رؤياهما عليه ﴿**نبئنا بتأويله** ﴾ أى تأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين أو بتأويل المذكور لك من كلامنا . وقيل : إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه ، فيكون الضمير راجعًا إلى مارآه كل واحد منهما . وقيل : إن الضمير فى تأويله موضوع موضع اسم الإشارة ، والتقدير بتأويل ذلك ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ أى من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، وكذا قال الفراء : إن معنى ﴿ **من المحسنين** ﴾ : من العالمين الذين أحسنوا العلم ، وقال ابن إسحاق : من المحسنين إلينا، إن فسرت ذلك ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، فقد روى أنه كان ذلك .

وجملة : ﴿ **قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومعنى ذلك : أنه يعلم شيئا من الغيب ، وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما ، وهذا ليس من جواب سؤاليهما تعبير ما قصّاه عليه ، بل جعله عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانًا لعلو مرتبته فى العلم ، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين ، فهو كقول عيسى عليه السلام : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون ﴾ [آل عمران : ٤٩] وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر ، ومعنى ﴿ **ترزقانه** ﴾ :

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٤١٩ .

يجرى عليهما من جهة الملك أو غيره ، والجملة صفة لطعام أو يرزقكما الله سبحانه ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلانبأتكما بتأويله** ﴾ مفرغ من أعم الأحوال ، أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما ، أى بينت لكما ماهيته وكيفيته ، قبل أن يأتيكما ، وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة ؛ لأن الكلام فى تأويل الرؤيا ، أو المعنى : إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكما** ﴾ إلى التأويل ، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿ **مما علمنى ربى** ﴾ بما أوحاه إلىَّ وألهمنى إياه . لا من قبيل الكهانة والتنجيم (١) ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ، ثم بين لهما أن ذلك الذى ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التى لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال : ﴿ **إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله** ﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله ، والمراد بالترك : هو عدم التلبس بذلك من الأصل ؛ لا أنه قد كان تلبس به ثم تركه ، كما يدل عليه قوله : ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله** ﴾ ، ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم فى الكفر وتهالكهم عليه ، فقال : ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ أى هم مختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم فى الكفر بالله .

وقوله : ﴿ **واتبعت** ﴾ معطوف على ﴿ **تركت** ﴾ ، وسماهم آباء جميعًا ؛ لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ، ثم الجد الأقرب ، ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التى كان عليها أولاده ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم يعقوب ، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه فى الإيمان بالله ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله** ﴾ أى ما صح لنا ذلك فضلاً عن وقوعه ، والضمير فى ﴿ **لنا** ﴾ له وللأنبياء المذكورين . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله : ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله** ﴾ ، و ﴿ **من فضل الله علينا** ﴾ خبر اسم الإشارة ، أى ناشئ من تفضلات الله علينا ولطفه بنا بما يجعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ، ومن فضل الله على الناس كافة ببعثة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم ، وتبيين طرائق الحق لهم ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ الله سبحانه على نعمه التى أنعم بها عليهم ، فيؤمنون به ويوحدون ، ويعملون بما شرعه لهم .

قوله : ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه . وقيل المراد : ياصاحبى فى السجن ؛ لأن السجن ليس بمصحوب فيه ، وأن ذلك من باب ياسارق الليلة ، وعلى الأول يكون من باب قوله : ﴿ أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف: ٤٢] ﴿ أصحاب النار ﴾ [المائدة: ٢٩] والاستفهام للإنكار مع التقريع والتوبيخ .

ومعنى التفرق هنا هو التفرق فى الذوات والصفات والعدد أى : هل الأرباب المتفرقون فى

---

(١) المُنَجِّمُ والمُتَنَجِّمُ : الذى ينظر فى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها . اللسان ١٢ / ٥٧٠ .

ذواتهم ، المختلفون فى صفاتهم ، المتنافون فى عددهم خير لكما يا صاحبى السجن أم الله المعبود بحق ، المتفرد فى ذاته وصفاته ، الذى لا ضد له ولا ند ولا شريك ، القهار الذى لا يغالبه مغالب ، ولا يعانده معاند ؟

أورد يوسف عليه السلام على صاحبى السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام ؛ لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام. وقد قيل : إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ، ولهذا قال لهما : ﴿ **ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها** ﴾ أى إلا أسماء فارغة سميتموها ولا مسميات لها ، وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات ، وهى الآلهة التى تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها . وقيل: المعنى : ما تعبدون من دون الله إلا مسميات أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفسكم ، وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وإنما قال : ﴿ **ما تعبدون** ﴾ على خطاب الجمع ، وكذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنه قصد خطاب صاحبى السجن ومن كان على دينهم ، ومفعول سميتموها الثانى محذوف ، أى سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿ **ما أنزل الله بها** ﴾ أى بتلك التسمية ﴿ **من سلطان** ﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿**إن الحكم إلا لله** ﴾ أى ما الحكم إلا لله فى العباد ، فهو الذى خلقكم وخلق هذه الأصنام التى جعلتموها معبودة بدون حجة ولابرهان، وجملة : ﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ مستأنفة ، والمعنى : أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود ، ثم بين لهم أن عبادته وحده دون غيره هى دين الله الذى لا دين غيره ، فقال : ﴿**ذلك**﴾ أى تخصيصه بالعبادة ﴿ **الدين القيم** ﴾ أى المستقيم الثابت ، ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أن ذلك هو دينه القويم ، وصراطه المستقيم لجهلكم وبعدكم عن الحقائق .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿**ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات** ﴾ فقال : ما سألنى عنها أحد قبلك ، من الآيات : قد القميص ، وأثرها فى جسده ، وأثر السكين ، وقالت امرأة العزيز : إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : من الآيات : كلام الصبى . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : الآيات : حزهن أيديهن ، وقد القميص .

وأقول : إن كان المراد بالآيات : الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع أيدى النسوة منها ؛ لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن ، مع ما ألبسه الله سبحانه من الجمال ، الذى تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر ، وتضعف عند رؤيته قوى التجلد، وإن كان المراد : الآيات الدالة على أنه قد أعطى من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ، ويذهب بإدراك الناظرين ، فنعم يصح عد قطع الأيدى من جملة الآيات ، ولكن ليس هذه الآيات هى المرادة هنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال عوقب يوسف ثلاث مرات : أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها ، والثانية لقوله: ﴿ **اذكرنى عند ربك** ﴾ ﴿ **فلبث فى السجن بضع سنين** ﴾ عوقب بطول الحبس ، والثالثة حيث قال : ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ فاستقبل فى وجهه: ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما** ﴾ خازن الملك على طعامه ، والآخر ساقيه على شرابه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **إنى أرانى أعصر خمرا** ﴾ قال : عنبًا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **نبئنا بتأويله** ﴾ قال : عبارته . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ قال : كان إحسانه فيما ذكر لنا أنه كان يعزى حزينهم ، ويداوى مريضهم ، ورأوا منه عبادة واجتهادا فأحبوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن الضحاك قال : كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان فى السجن قام عليه ، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له ، وإذا احتاج جمع له . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : دعا يوسف لأهل السجن فقال : اللهم لا تعم عليهم الأخبار ، وهون عليهم مر الأيام .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **لا يأتيكما طعام** ﴾ الآية قال : كرهَ العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أنه عنده علمًا ، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا معلومًا فأرسل به إليه ، فقال يوسف : ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يشكرون** ﴾ فلم يدعه صاحبا الرؤيا حتى يعبر لهما ، فكره العبارة فقال : ﴿ **ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ قال : إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ، ويشكر ما بالناس من نعم الله، وذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول : يارب شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدرى ، ويارب حامل فقه غير فقيه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أأرباب متفرقون** ﴾ الآية قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما ، وإلى نصيبهما من آخرتهما. وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ قال : العدل، فقال :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ .

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما ، والمراد بقوله : ﴿ **أما أحدكما** ﴾ هو الساقى، وإنما أبهمه لكونه مفهومًا أو لكراهة التصريح للخباز بأنه الذى سيصلب ﴿ **فيسقى ربه خمرا** ﴾ أى مالكه ، وهى عهدته التى كان قائما بها فى خدمة الملك ، فكأنه قال : أما أنت أيها الساقى فستعود إلى ما كنت عليه ، ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس ﴿ **وأما الآخر** ﴾ وهو الخباز ﴿ **فيصلب فتأكل الطير من رأسه** ﴾ تعبيرًا لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزًا فتأكل الطير منه ﴿ **قضى الأمر الذى فيه تستفتيان** ﴾ وهو ما رأياه وقصاه عليه . يقال : استفتاه : إذا طلب منه بيان حكم شىء سأله عنه مما أشكل عليه ، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا .

﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما** ﴾ أى قال يوسف ، والظان هو أيضًا يوسف . والمراد بالظن : العلم ؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابى وهلاك الخباز ، هكذا قال جمهور المفسرين . وقيل : الظاهر على معناه ؛ لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظنا والأول أولى وأنسب بحال الأنبياء ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شىء من علم الغيب ، كما فى قوله : ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه** ﴾ الآية . وجملة : ﴿ **اذكرنى عند ربك** ﴾ هى مقول القول ، أمره بأن يذكره عند سيده ، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شىء من علم الغيب ، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول فى أنساه عائدًا إلى يوسف ، هكذا قال بعض المفسرين ، ويكون المراد بربه فى قوله : ﴿ **ذكر ربه** ﴾ هو الله سبحانه ، أى إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى فى تلك الحال . ﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما** ﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات مايدل على براءته .

وذهب كثير من المفسرين إلى آن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذى نجا من الغلامين وهو الشرابى ، والمعنى : إنساء الشيطان الشرابى ذكر سيده ، أى ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى : فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ، ورجوعه إلى ماكان عليه من القيام بسقى الملك ، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء ، وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى »[(١)] ورجح أيضًا بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك ؛ وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير إلى

---

(١) البخارى فى الصلاة (٤٠١) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٢ / ٨٩) كلاهما عن عبد الله بن مسعود .

يوسف ما بعده من قولـه : ﴿ فلبث فى السجن بـضـع سنين ﴾ ، ويؤيد رجوعه إلى الذى نجا من الغلامين قوله فيما سيأتى : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمـة﴾[يوسف:٤٥] سنة .

﴿ فلبث ﴾ أى يوسف ﴿فى السجن﴾ بسبب ذلك القول الذى قاله للذى نجا من الغلامين، أو بسبب ذلك الإنساء ﴿ بـضع سنين ﴾ البضع : ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروى عن العرب ، وحكى عن أبى عبيدة أن البضع : ما دون نصف العقد . يعنى : ما بين واحد إلى أربعة . وقيل : ما بين ثلاث إلى سبع ، حكاه قطرب ، وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس . وقد اختلف فى تعيين قدر المدة التى لبث فيها يوسف فى السجن ، فقيل : سبع سنين. وقيل : اثنتا عشرة سنة . وقيل : أربـع عشرة سـنة . وقيـل : خمس سنين .

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله ﴿ أما أحدكما ﴾ قال : أتاه فقال : رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبلة(١) من عنب فنبتت ، فخرج فيه عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال : تمكث فى السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمرًا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئاً ، إنما تحالما ليجربا علمه ، فلما أول رؤياهما قالا : إنما كنا نلعب ، ولم نر شيئا فقال : ﴿ قـضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾ يقول : وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال : كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذبًا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن ساباط : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عنـد ربـك ﴾ قال : عند ملك الأرض . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب العقوبات ، وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم يقل يوسف الكلمة التى قال ، ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله» (٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة مرفوعًا نحوه ، وهو مرسل (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن مرفوعًا نحوه ، وهو مرسل (٤) . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه ، وهو مرسل أيضًا(٥) .

---

(١) الحَبَلة : طاق من قضبان الكرم . والحَبَلُ : شجر العنب واحدته حَبَلة . اللسان ١١ / ١٣٨ .

(٢) ابن جرير ١٢ / ١٣٢ والطبرانى (١١٦٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٢ ، ٤٣ : « وفيه إبراهيم بن يزيد القرشى المكى وهو متروك » ، وقال ابن كثير ٤ / ٢٩ : « وهذا الحديث ضعيف جدا ؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو الجوزى أضعف منه أيضًا ، وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما ، وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل من قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الموطن والله أعلم » .

(٣) ابن جرير ١٢ / ١٣٢ .

(٤) أحمد فى الزهد (٤١٧) وابن جرير ١٢ / ١٣٢ .

(٥) ابن جرير ١٢ / ١٣٢ . وسبق التعليق على هذه المرسلات بكلام لابن كثير فى تفسيره فليرجع إليه .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أنس قال : أوحى إلي يوسف : من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب ، قال: فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يارب . قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال : أنت يارب ، قال : فمالك نسيتنى ، وذكرت آدميا ؟ قال : جزعًا ، وكلمة تكلم بها لسانى ، قال : فوعزتى لأخلدنك فى السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين . وقد اختلف السلف فى تقدير مدة لبثه فى السجن على حسب ما قدمنا ذكره . فلم نشتغل ها هنا بذكر من قال بذلك ومن خرجه .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ .

المراد بالملك هنا : هو الملك الأكبر ، وهو الريان بن الوليد الذى كان العزيز وزيرًا له ، رأى فى نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس ﴿ **سبع بقرات سمان** ﴾ جمع سمين وسمينة فى إثرهن سبع عجاف أى مهازيل ، وقد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهن ، والمعنى : إنى رأيت ، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة ، وكذلك قوله : ﴿**يأكلهن** ﴾ عبر بالمضارع للاستحضار ، والعجاف جمع عجفاء ، وقياس جمعه عجف ؛ لأن فعلاء وأفعل لا تجمع على فعال ، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان ﴿ **سبع سنبلات** ﴾ معطوف على سبع بقرات . والمراد بقوله : ﴿**خضر** ﴾ أنه قد انعقد حبها ، واليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ، ولعل عدم التعرض لذكر هذا فى النظم القرآنى للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات . ﴿ **يأيها الملأ** ﴾ خطاب للأشراف من قومه ﴿**أفتونى فى رؤياى** ﴾ أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا ﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ أى تعلمون عبارة الرؤيا ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر فمعنى عبرت النهر : بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها . قال الزجاج : اللام فى : ﴿ **للرؤيا** ﴾ للتبيين ، أى إن كنتم تعبرون ثم بين فقال : ﴿ **للرؤيا** ﴾ وقيل : هو للتقوية ، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل .

وجملة : ﴿ **قالوا أضغاث أحلام** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، والأضغاث :جمع ضغث. وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، والمعنى : أخاليط أحلام ، والأحلام : جمع حلم ، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والإضافة بمعنى من ، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم في وضعها بالبطلان ، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾[1] قال الزجاج : المعنى : بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا مطلق العلم بالتأويل . وقيل : إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقًا ، ولم يدعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا . وقيل : إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ، ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة .

﴿ **وقال الذي نجا منهما** ﴾ أي من الغلامين وهو الساقي الذي قال له يوسف : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ ، ﴿ **وادكر بعد أمة** ﴾ بالدال المهملة على قراءة الجمهور ، وهي القراءة الفصيحة، أي تذكر الساقي يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا ، وقرئ بالمعجمة ، ومعنى ﴿**بعد أمة** ﴾ : بعد حين ، ومنه : ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ [هود : ٨] . أي إلى وقت ، قال ابن درستويه [2] : والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال والله أعلم : وادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة والأمة : الجماعة الكثيرة من الناس ، قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة . وقرأ ابن عباس وعكرمة : « بعد أَمَهٍ » بفتح الهمزة وتخفيف الميم ، أي بعد نسيان. ومنه قول الشاعر :

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لا أَنْسَى حَدِيثًا كذاكَ الدَّهْرُ يُودِي بالعقـولِ

ويقال : أمه يأمه أمها : إذا نسي . وقرأ الأشهب العقيلي « بعد إِمَّة » بكسر الهمزة ، أي بعد نعمة ، وهي نعمة النجاة . ﴿ **أنا أنبئكم بتأويله** ﴾ أي أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله وهو يوسف . ﴿ **فأرسلون** ﴾ خاطب الملك بلفظ التعظيم ، أو خاطبه ومن كان عنده من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك .

﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ أي يا يوسف ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه فقال له : ﴿ **يوسف أيها الصديق** ﴾ إلى آخر الكلام ، والمعنى : أخبرنا في رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ ، وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا ، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿ **لعلي أرجع إلى الناس** ﴾ أي إلى الملك ومن عنده من

(١) الأحلام : جمع حُلم ، والحُلْمُ (بالضم) مايراه النائم .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن دُرُستَويه بن المرزبان : من علماء اللغة ، فارسي الأصل ، له تصانيف كثيرة ، توفي سنة ٣٤٧ هـ . الأعلام ٤ / ٧٦ .

الملأ ﴿ **لعلهم يعلمون** ﴾ ما تأتى به من تأويل هذه الرؤيا ، أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفن التعبير .

وجملة : ﴿ **قال تزرعون** ﴾ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿**سبع سنين دأبا** ﴾ أى متوالية متتابعة ، وهو مصدر . وقيل : هو حال ، أى دائبين . وقيل : صفة لسبع ، أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ « دأَبًا » بتحريك الهمزة ، وكذا روى حفص عن عاصم وهما لغتان . قال الفراء : حرك لأن فيه حرفًا من حروف الحلق ، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز فى كلمات معروفة ، فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف بسبع سنين فيها جدب ، وهكذا عبر السبع السنبلات الخضر ، والسبع السنبلات اليابسات ، واستدل بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره فى التعبير من قوله : ﴿ **فما حصدتم فذروه فى سنبله** ﴾ أى ما حصدتم فى كل سنة من السنين المخصبة فذروا ذلك المحصود فى سنبله ولا تفصلوه عنها ؛ لئلا يأكله السوس إلا قليلا مما تأكلون فى هذه السنين المخصبة ، فإنه لابد لكم من فصله عن سنبله وإخراجه عنها . واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذى يبذرونه فى أموالهم ، لأنه قد علم من قوله : ﴿ **تزرعون** ﴾ .

﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد السنين المخصبة ﴿ **سبع شداد** ﴾ أى سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس ﴿ **يأكلن ما قدمتم لهن** ﴾ من تلك الحبوب المتروكة فى سنابلها، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز ، والمعنى : يأكل الناس فيهن ، أو يأكل أهلهن ما قدمتم لهن أى ما ادخرتم لأجلهن ، فهو من باب نهاره صائم ، ومنه قول الشاعر (١) :

نَهارُك يا مَغْرُورُ سَهْـوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلكُ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ

﴿ **إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ أى مما تحبسون من الحب لتزرعوا به ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : معنى ﴿ **تحصنون** ﴾ : تحرزون . وقيل : تدخرون والمعنى واحد .

قوله : ﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ أى من بعد السنين المجدبات ، فالإشارة إليها ، والعام السنة ﴿ **فيه يغاث الناس** ﴾ من الإغاثة أو الغوث ، والغيث المطر ، وقد غاث الغيث : بالأرض ، أى أصابها ، وغاث الله البلاد يغيثها غوثًا : أمطرها ، فمعنى ﴿ **يغاث الناس** ﴾ : يمطرون ﴿ **وفيه يعصرون** ﴾ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب والسمسم والزيتون . وقيل : أراد حلب الألبان . وقيل : معنى ﴿ **يعصرون** ﴾: ينجون،مأخوذ من العصرة وهى المنجاة ، قال أبو عبيدة : والعصر بالتحريك:

---

(١) هو عبد الله بن عبد الأعلى بن أبى عمرة .

الملجأ والمنجاة ، ومنه قول الشاعر :

صادِيًا يَستغيثُ غَير مُغاث وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

واعتصرت بفلان : التجأت به ، وقرأ حمزة والكسائى :« تعصرون » بتاء الخطاب ، وقرئ : « يعصرون » بضم حرف المضارعة وفتح الصاد ، ومعناه يمطرون ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنـزلنا من المعصرات مـاء ثجاجـا ﴾ [النبأ : ١٤] .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك ، أى الملك الأعظم ، ومظلمتى وحبسى فى غير شىء ، فقال : أفعل ، فلما خرج الساقى رد على ما كان عليه ، ورضى عنه صاحبه ، وأنساه الشيطان ذكر الملك الذى أمره يوسف أن يذكره له ، فلبث يوسف بعد ذلك فى السجن بضع سنين . ثم إن الملك ريان بن الوليد رأى رؤياه التى أرى فيها فهالته ، وعرف أنها رؤيـا واقعـة ، ولـم يدر ما تأويلها ، فقال للملأ حوله من أهل مملكته : ﴿ **إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومسألته عن تأويلها ، ذكر يوسف ما كان عبَّر له ولصاحبه، وما جاء من ذلك على ما قال ، فقال : أنا أنبئكم بتأويله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أضغاث أحلام** ﴾ يقول : مشتبهة . وأخرج أبو يعلى وابن جرير عنه قال : من الأحلام الكاذبة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وادكر بعد أمة** ﴾ قال : بعد حين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدى مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بعد سنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بعد أمة من الناس .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **أفتنا فى سبع بقرات** ﴾ الآية قال : أما السمان فسنون فيها خصب ، وأما العجاف فسنون مجدبة ، وسبع سنبلات خضر هى السنون المخاصيب ، تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها ، وأخر يابسات : المحول الجُدُوب لا تنبت شيئًا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قـال : قـال رسـول اللـه ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترطت عليهم أن يخرجونى ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر »[1] . وأخرج ابـن جـرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ يقول:

(١) ابن جرير ١٢ / ١٣٩ .

تخزنون . وفى قوله : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يقول : الأعناب والدهن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ يقول : يصيبهم فيه غيث . ﴿ وفيه يعصرون﴾ يقول : يعصرون فيه العنب ، ويعصرون فيه الزبيب ، ويعصرون من كل الثمرات وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا ﴿ وفيه يعصرون ﴾ قال : يحتلبون . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضًا ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام ﴾ قال : أخبرهم بشىء لم يسألوه عنه كأن الله قد علمه إياه ، فيه يغاث الناس بالمطر وفيه يعصرون السمسم دهنًا ، والعنب خمرًا والزيتون زيتًا .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ وقال الملك ائتونى به ﴾ فى الكلام حذف قبل هذا ، والتقدير : فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا ، وقال الملك لمن بحضرته : ﴿ائتونى به ﴾ أى بيوسف ، رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله ، بعد أن علم من فضله ما علمه ، من وصف الرسول له ، ومن تعبيره لرؤياه . ﴿ فلما جاءه ﴾ أى جاء إلى يوسف ﴿ الرسول ﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك ، وأمره بالخروج من السجن ﴿ قال ﴾ يوسف للرسول : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ أى سيدك ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك ، وتوقف عن الخروج من السجن ، ولم يسارع إلى إجابة الملك ، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه ، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلمًا بينًا ، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوره ، ولهذا ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : «ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » [1] يعنى الرسول الذى جاء يدعوه إلى

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٩٤) . ومسلم فى الإيمان (١٥١/ ٢٣٨) .

الملك . قال ابن عطية : هذا الفعل من يوسف أناة وصبرًا ، وطلبًا لبراءة ساحته ، وذلك أنه خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة ، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون: هذا الذى راود امرأة العزيز . وإنما قال : ﴿ فاسأله ما بال النسوة ﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لزمام الملك العزيز ، أو خوفًا منه من كيدها وعظيم شرها ، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدى ولم يذكر مراودتهن له تنزهًا عن نسبة ذلك إليهن ؛ ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت ، وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله : ﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيًا عن التصريح .

وجملة : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف ؟ والخطب : الشأن العظيم الذى يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة ، والمعنى: ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ وقد تقدم معنى المراودة ، وإنما نسب إليهن المراودة ، لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ، ومن جملة ما شمله خطاب الملك امرأة العزيز أو أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن فى الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشيًا عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز ، فأجبن عليه بقولهن : ﴿ قلن حاش لله﴾ أى معاذ الله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى من أمر سيئ ينسب إليه فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ منزهة لجانبه مقرة على نفسها بالمراودة له ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى تبين وظهر ، وأصله : حص ، فقيل : حصحص كما قيل فى كبو : ﴿ فكبكبوا ﴾ [الشعراء : ٩٤] قاله الزجاج ، وأصل الحص : استئصال الشيء ، يقال : حصَّ شعره ، إذا استأصله ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حَصّتِ البَيْضَةُ رأسِى فَمَا ... أطْعَمُ نَوماً غيرَ تَهْجاعِ

والمعنى : أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، ومنه :

فَمَنْ مُبْلغٌ عني خِدَاشًا فإنَّه ... كَذَوبٌ إذا مَا حَصْحَصَ الحقُّ ظَالِمُ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة ، والمعنى : بانت حصّة الباطل . قال الخليل : معناه : ظهر الحق بعد خفائه ، ثم أوضحت ذلك بقولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ ولم تقع منه المراودة لى أصلاً ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ، ونسبة المراودة إليها ، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام .

قوله : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ : ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر ، إذا دلت القرينة الصارفة إلى كل منهما إلى ما يليق به ، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه ، وهى تثبته وتأنيه ، أى فعلت ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله بالغيب ، والمعنى : بظهر الغيب ، والجار

والمجرور فى محل نصب على الحال ، أى وهو غائب عنى ، أو وأنا غائب عنه ، قيل : إنه قال ذلك وهو فى السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة ، وما قالته امرأة العزيز . وقيل : إنه قال ذلك وقد صار عند الملك والأول أولى ، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز ، والمعنى : ذلك القول الذى قلته فى تنزيهه ، والإقرار على نفسى بالمراودة ليعلم يوسف أنى لم أخنه ؛ فأنسب إليه ما لم يكن منه ، وهو غائب عنى ، أو وأنا غائبة عنه ، والإقرار على نفسى به . ﴿ **وأن الله لا يهدى كيد الخائنين** ﴾ أى لا يثبته ويسدده أو لا يهديهم فى كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم ، وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز ، حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها . وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته .

﴿ **وما أبرئ نفسى** ﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس ، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه برىء ، وظهر ذلك ظهور الشمس ، وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة ؛ لأنها قد أقرت بالذنب ، واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف . وقد قيل : إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جدًا ومعناه : وما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ أى إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات ، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قهرها ، وكفها عن ذلك . ﴿ **إلا ما رحم ربى** ﴾ أى إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء ، أو إلا وقت رحمة ربى وعصمته لها ، وقيل : الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكن رحمة ربى هى التى تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء ، وجملة :﴿ **إن ربى غفور رحيم** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم .

قوله :﴿ **وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى** ﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم . ومعنى ﴿ **أستخلصه لنفسى** ﴾ : أجعله خالصًا لى دون غيرى وقد كان قبل ذلك خالصًا للعزيز ، والاستخلاص طلب خلوص الشىء من شوائب الشركة ، قال ذلك لما كان يوسف نفيسًا ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿ **فلما كلمه** ﴾ فى الكلام حذف وتقديره : فأتوه به ، فلما كلمه ، أى فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى : فلما كلم يوسف الملك ، قيل : والأول أولى ؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم. وقيل : الثانى أولى ؛ لقول الملك : ﴿ **قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف فى مقام الملك جاء بما حببه إلى الملك ، وقربه من قلبه ، فقال هذه المقالة، ومعنى ﴿ **مكين** ﴾ : ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره ، أو على ما يكله إليه من ذلك . قيل : إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره ، وقال له : إنى أحب أن أسمع منك تعبير رؤياى ،

فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

فلما سمع يوسف منه ذلك قال : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض** ﴾ وهى الأمكنة التى تخزن فيها الأموال . طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ، ورفع الظلم ، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان .

وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل فى أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ، ويهدم ما أمكنه من الباطل ، وطلب ذلك لنفسه ، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التى لها ، ترغيبا فيما يرومه ، وتنشيطًا لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه ، وجعلها منوطة به ، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهى عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها (١) ، أو حرص عليها . والخزائن جمع خِزَانة . وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء ، والحفيظ : الذى يحفظ الشىء ، أى ﴿ **إنى حفيظ** ﴾ لما جعلته إلىَّ من حفظ الأموال لا أخرجها فى غير مخارجها ، ولا أصرفها فى غير مصارفها ﴿ **عليم** ﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها .

﴿ **وكذلك مكنا ليوسف** ﴾ أى ومثل ذلك التمكين العجيب مكنا ليوسف فى الأرض ، أى جعلنا له مكانًا ، وهو عبارة عن كمال قدرته ، ونفوذ أمره ونهيه ، حتى صار الملك يصدر عن رأيه ، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه ﴿**يتبوأ منها حيث يشاء** ﴾ أى ينزل منها حيث أراد ويتخذه مباءة ، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم ، وكأنه يتصرف فى الأرض التى أمرها إلى سلطان مصر ، كما يتصرف الرجل فى منزله ، وقرأ ابن كثير بالنون ، وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولى الأعمال من جهة السلطان الجائر ، بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق ، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفيا فى قوله سبحانه : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ [هود : ١١٣] ﴿ **نصيب برحمتنا من نشاء** ﴾ من العباد فنرحمه فى الدنيا بالإحسان إليه ، والإنعام عليه ، وفى الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ **ولا نضيع أجر المحسنين**﴾ فى أعمالهم الحسنة التى هى مطلوب الله منهم ، أى لا نضيع ثوابهم فيها ، ومجازاتهم عليها ﴿**ولأجر الآخرة** ﴾ أى أجرهم فى الآخرة وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة ، وأجرهم هو الجزاء الذى يجازيهم الله به فيها ، وهو الجنة التى لا ينفد نعيمها ولا تنقضى مدتها ﴿ **خير للذين آمنوا** ﴾ بالله ﴿ **وكانوا يتقون** ﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم ، والمراد بهم : المحسنون المتقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به : هو الإيمان والتقوى

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما بال النسوة** ﴾ قال : أراد يوسف العذر

---

(١) عن عبد الرحمن بن سمرة: قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » . مسلم فى الإمارة (١٦٥٢ / ١٣) .

قبل أن يخرج من السجن: وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والبيهقى فى الشعب عنه قال : لما قالت امرأة العزيز : أنا راودته ، قال يوسف : ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب** ﴾ فغمزه جبريل فقال : ولا حين هممت بها ؟ فقال ﴿ **وما أبرئ نفسي** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **حصحص الحق** ﴾ قال : تبين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدى مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن حكيم بن حزام فى قوله : ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب** ﴾ فقال له جبريل ولا حين حللت السراويل ؟ فقال عند ذلك : ﴿**وما أبرئ نفسي**﴾ .

وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ قال : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثيابًا جددًا وقم إلى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رأى غلامًا حدثًا ، فقال : أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة . وأقعده قدامه وقال :لا تخف وألبسه طوقًا من ذهب وثياب حرير ، وأعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك ، وضرب الطبل بمصر : إن يوسف خليفة الملك . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال الملك ليوسف : إنى أحب أن تخالطنى فى كل شىء إلا فى أهلى ، وأنا آنف أن تأكل معى ، فغضب يوسف ، وقال : أنا أحق أن آنف ؛ أنا ابن إبراهيم خليل الله ، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله [(١)] ، وأنا ابن يعقوب نبى الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن شيبة بن نعامة الضبى [(٢)] فى قوله : ﴿**اجعلني على خزائن الأرض**﴾ يقول : على جميع الطعام ﴿ **إني حفيظ** ﴾ لما استودعتنى ﴿**عليم**﴾ بسنى المجاعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** ﴾ قال : ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم ؛ أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرًا وكان زوجها عنينًا .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا

---

(١) سبق التنبيه على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

(٢) هو شيبة بن نعامة الضبى أبو نعامة : ضعفه يحيى بن معين . وقال ابن حبان : « لا يجوز الاحتجاج به » . لسان الميزان ٣/ ١٩٢ وميزان الاعتدال ٢/ ٢٨٦ .

رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ .

قوله : ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ أى جاؤوا إلى مصر من أرض كنعان ليمتاروا (١) لما أصابهم القحط ﴿ فدخلوا ﴾ على يوسف ﴿ فعرفهم ﴾ لأنه فارقهم رجالاً ﴿ وهم له منكرون ﴾ لأنهم فارقوه صبيًا يباع بالدراهم فى أيدى السيارة بعد أن أخرجوه من الجب ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ، ورونق الرئاسة ، وعنده الخدم والحشم . وقيل : إنهم أنكروه لكونه كان فى تلك الحال على هيئة ملك مصر ، ولبس تاجه وتطوق بطوقه . وقيل : كانوا بعيدًا منه فلم يعرفوه . وقيل غير ذلك .

﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة ، وما يصلحون به سفرهم من العدة التى يحتاجها المسافر ، يقال : جهزت القوم تجهيزًا إذا تكلفت لهم جهازًا للسفر . قال الأزهرى : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة جيدة ﴿ قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ قيل : لابد من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، فروى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : ما أنتم وما شأنكم فإنى أنكركم فقالوا : نحن قوم من أهل الشام جئنا نمتار ولنا أب شيخ صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب قال : كم أنتم ؟ قالوا: عشرة ، وقد كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باق لديه ، يتسلى به ، فقال لهم حينئذ : ﴿ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ يعنى : أخاه « بنيامين » الذى تقدم ذكره ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، فوعدوه بذلك ، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذى طلبه ، فاقترعوا فأصابت القرعة « شمعون » فخلفوه عنده، ثم قال لهم : ﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل ﴾ أى أتمه ، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقًا به وتصديقًا لقوله ، فقال : ﴿ وأنا خير المنزلين﴾ أى والحال أنى خير المنزلين لمن نزل بى كما فعلته بكم من حسن الضيافة ، وحسن الإنزال . قال الزجاج : قال يوسف : ﴿وأنا خير المنزلين ﴾ لأنه حين أنزلهم أحسن ضافتهم .

(١) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان ، وقد مار أهله أى أتاهم بالطعام ، ومنه قولهم : « ما عنده خير ولا مير » .

ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال : ﴿ **فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون** ﴾ أى فلا أبيعكم شيئًا فيما بعد ، وأما فى الحال فقد أوفاهم كيلهم ، ومعنى لا تقربون : لا تدخلون بلادى فضلاً عن أن أحسن إليكم . وقيل : معناه : لا أنزلكم عندى كما أنزلتكم هذه المرة ، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده و﴿ **تقربون** ﴾ مجزوم إما على أن « لا » ناهية أو على أنها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل فى حكمه كأنه قال : فإن لم تأتونى تحرموا ولا تقربوا .

فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم ، قالوا: ﴿ **سنراود عنه أباه** ﴾ أى سنطلبه منه، ونجتهد فى ذلك بما نقدر عليه . وقيل : معنى المراودة هنا : المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿ **وإنا لفاعلون** ﴾ هذه المراودة غير مقصرين فيها . وقيل : معناه : وإنا لقادرون على ذلك ، لا نتعانى به ولا نتعاظمه.

﴿ **وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم** ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر : «لفتيته » واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿ **لفتيانه** ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وفى مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الأخيرة قال النحاس : ﴿ **لفتيانه** ﴾ مخالف للسواد الأعظم ، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ، وأيضًا : فإن فتية أشبه من « فتيان » ، لأن فتية عند العرب لأقل العدد وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه ، والجملة مستأنفة جواب سؤال ، كأنه قيل : فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك فأجيب بأنه قال لفتيته . قال الزجاج : الفتية والفتيان فى هذا الموضع : المماليك . وقال الثعلبى : هما لغتان جيدتان ، مثل الصبيان والصبية . والمراد بالبضاعة هنا هى التى وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، وكانت نعالاً وأدمًا ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم . وقيل : فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن . قاله الفراء . وقيل : فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام . وقيل : إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام .

ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة فى رحالهم بقوله : ﴿ **لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم**﴾ فجعل علة جعل البضاعة فى الرحال هى معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التى جعلوا فيها الطعام ، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم ، ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم ، المجعولة فى رحالهم بقوله : ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن وأن ما دفعوه عوضًا عنه قد رجع إليهم ، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم ؛ نشطوا إلى العود إليه ؛ ولا سيما مع ماهم فيه من الجدب الشديد ، والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد ، وهو رجوعهم إليه ، فلا يتم تعليل ردها

بغير ذلك ، والرحال : جمع رحل ، والمراد به هنا : ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث . قال الواحدى : الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ، ومركب للبعير ، ومجلس ورسن انتهى. والمراد هنا : الأوعية التى يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام. قال ابن الأنبارى: يقال للوعاء : رحل ، وللبيت : رحل .

﴿ **فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل** ﴾ أرادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف لهم : ﴿ **فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى** ﴾ أى منع منا الكيل فى المستقبل وفيه دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ، ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد : ﴿ **ولما فتحوا متاعهم** ﴾ إلى آخره ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف ، فقالوا : ﴿ **فأرسل معنا أخانا** ﴾ يعنون بنيامين ، و ﴿**نكتل**﴾ جواب الأمر ، أى نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر وعاصم : ﴿**نكتل** ﴾ بالنون ، وقرأ سائر الكوفيين بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى. قال : ليكونوا [1] كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده ، أى يكتال أخونا بنيامين ، واعترضه النحاس مما حاصله : أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافى كونه للجميع ، والمعنى : يكتال بنيامين لنا جميعًا . قال الزجاج : أى إن أرسلته اكتلنا وإلا منعنا الكيل ﴿ **وإنا له** ﴾ أى لأخيهم بنيامين ﴿ **لحافظون** ﴾ من أن يصيبه سوء أو مكروه .

وجملة : ﴿ **قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كما تقدم فى نظائر ذلك فى مواضع كثيرة ، والمعنى : أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما أمنهم على أخيه يوسف ، وقد قالوا له فى يوسف: ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾كما قالوا هنا : ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ ثم خانوه فى يوسف فهو إن أمنهم فى بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه فى يوسف ﴿ **فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين** ﴾ لعل هنا إضمار والتقدير ؛ فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم ، وقال : ﴿ **فالله خير حافظا** ﴾ قرأ أهل المدينة : « حفظًا » وهو منتصب على التمييز . وهى قراءة أبى عمرو وعاصم وابن عامر ، وقرأ سائر الكوفيين :﴿ **حافظا** ﴾ وهو منتصب على الحال . وقال الزجاج : على البيان يعنى التمييز ، ومعنى الآية : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له ، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه ، ولما قال فى يوسف : ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب** ﴾ وقع له من الامتحان ما وقع .

﴿ **ولما فتحوا متاعهم** ﴾ أى أوعية الطعام أو ماهو أعم من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذى فيه طعامًا أو غير طعام ﴿ **وجدوا بضاعتهم ردت إليهم** ﴾ أى البضاعة التى حملوها إلى مصر ليمتاروا بها ، وقد تقدم بيانها . وجملة : ﴿ **قالوا يا أبانا** ﴾ مستأنفة كما

---

(١) فى المطبوعة : « ليكونون » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تقدم ﴿ ما نبغى ﴾ :« ما » استفهامية ، والمعنى : أى شىء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان برد البضاعة والإكرام عند القدوم إليه ، وتوفير ما أردناه من الميرة ؟ ويكون الاستفهام للإنكار، وجملة : ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ مقررة لما دل عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شىء مع كونها قد ردت إليهم . وقيل : إن « ما » فى﴿ ما نبغى﴾ نافية ، أى ما نبغى فى القول ، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا ، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد فى وصف الملك بقولهم : ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ فإن من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به .

ومعنى ﴿ ونمير أهلنا ﴾ : نجلب إليهم الميرة وهى الطعام ، والمائر الذى يأتى بالطعام . وقرأ السلمى بضم النون ، وهو معطوف على مقدر يدل عليه السياق ، والتقدير : هذه بضاعتنا ردت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ، ونمير أهلنا . ﴿ونحفظ أخانا ﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿ ونزداد ﴾ بسبب إرساله معنا ﴿ كيل بعير﴾ أى حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة ، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير ومعنى ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أن زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك ، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرًا لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه . وقيل : إن المعنى : ذلك المكيل لأجلنا قليل ، نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا ، واختار الزجاج الأول . وقيل : إن هذا من كلام يعقوب جوابًا على ما قاله أولاده ﴿ونزداد كيل بعير ﴾ يعنى : إن حمل بعير شىء يسير لا يخاطر لأجله بالولد ، وهو ضعيف؛ لأن جواب يعقوب هو ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله ﴾ أى حتى تعطونى ما أثق به ، وأركن إليه من جهة الله سبحانه ، وهو الحلف به واللام فى : ﴿ لتأتننى به ﴾ جواب القسم ؛ لأن معنى ﴿ حتى تؤتون موثقا من الله ﴾ : حتى تحلفوا بالله لتأتننى به ، أى لتردن بنيامين إلى .

والاستثناء بقوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ هو من أعم العام ؛ لأن ﴿ لتأتننى به ﴾ وإن كان كلامًا مثبتا فهو فى معنى النفى ، فكأنه قال : لا تمنعون من إتيانى به فى حال من الأحوال لعلة من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم ، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو ، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك . فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه فيكون ذلك عذرًا لكم عندى ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أى أعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ [1] أى : قال يعقوب : الله على ما قلناه من طلبى الموثق منكم وإعطائكم لى ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس فى عهده ، وفجر فى الحلف به أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا .

---

(١) هذه الآية أصل فى جواز الكفالة بالعين والوثيقة بالنفس ، وقد اختلف العلماء فى ذلك ، فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : « هى جائزة إذا كان المحتمل به مالاً » ، وقد ضعَّف الشافعى الحمالة بالوجه فى المال وله قول كقول مالك . القرطبى ٩ / ٢٢٥ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون جاء بصواع الملك الذى كان يشرب فيه فوضعه على يده فجعل ينقره ويطن ، وينقره ويطن فقال : إن هذا الجام ليخبرنى عنكم خبراً ، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ؟ وكان أبوه يحبه دونكم ، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه فى الجب ، وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ؟ قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون . وأخرج أبو الشيخ عن وهيب قال : لما جعل يوسف ينقر الصواع ويخبرهم ، قام إليه بعض إخوته فقال : أنشدك بالله أن لا تكشف لنا عورة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ائتونى بأخ لكم من أبيكم** ﴾ قال: يعنى بنيامين وهوأخو يوسف لأبيه وأمه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنا خير المنزلين** ﴾ قال : خير من يضيف بمصر .

وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **لفتيانه** ﴾ أى لغلمانه ﴿ **اجعلوا بضاعتهم** ﴾ أى أوراقهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا** ﴾ يقولون : ما نبغى وراء هذا ﴿**ونزداد كيل بعير** ﴾ أى حمل بعير . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **ونزداد كيل بعير** ﴾ قال : حمل حمار، قال : وهى لغة . قال أبو عبيد : يعنى هذا أن الحمار يقال له فى بعض اللغات : بعير .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ قال : تهلكوا جميعا ؛ وفى قوله : ﴿ **فلما آتوه موثقهم** ﴾ قال : عهدهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**إلا أن يحاط بكم** ﴾ قال : إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ

أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ .

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين ؛ لكونهم كانوا ذوى جمال ظاهر ، وثياب حسنة ، مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد ؛ لأن فى ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ولم يكتف بقوله : ﴿ **لا تدخلوا من باب واحد** ﴾ عن قوله : ﴿**وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النهى عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان فى الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين ، أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، قيل : وكانت أبواب مصر أربعة .

وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم [(١)] ، والبلخى [(٢)] ، أن للعين تأثيرًا ، وقالا : لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشىء وأعجب به كانت المصلحة له فى تكليفه أن يغير الله ذلك الشىء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقًا به، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك ؟

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق [(٣)] ، وأصيب بها جماعة فى عصر النبوة ، ومنهم رسول الله ﷺ ، وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لـمجرد الاستبعاد العقلى والتنطع فى العبارات كالزمخشرى فى تفسيره ، فإنه فى كثير من المواطن لا يقف على دفع الشرع بالاستبعاد الذى يدعيه على العقل حتى يضم إلى ذلك الوقاحة فى العبارة على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة ، والمذاهب الزائفة ، وبالجملة فقول هؤلاء مدفـوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفًا وخلفًا وبما هو مشاهد فى الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب .

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين ، فقال قوم : يمنع من الاتصال بالناس دفعًا لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته . وقيل : ينفى ، وأبعد من قال : إنه يقتل ، إلا إذا

---

(١) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائى ،من كبار المعتزلة عاش ما بين عامى ٢٤٧ ـ ٣٢١ هـ . وفيات الأعيان ١ / ٩٢ .

(٢) أحمد بن سهل أبو زيد البلخى : صاحب التصانيف المشهورة . قال النديم : « كان فاضلاً فى علوم كثيرة » . ويقال له : جاحظ زمانه ، وكان يرمى بالإلحاد ، وذكر الفخر الرازى أنه طعن فى عدة أحاديث صحيحة. وقد بالغ أبو حيان التوحيدى فى إطرائه والرفع من قدره . لسان الميزان ١ / ١٩٦ .

(٣) روى أبو هريرة رضى الله عنه : عن النبى ﷺ قال : « العين حق » البخارى فى الطب (٥٧٤٠) .

كان يتعمد ذلك ، وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ، ولم ينزجر عن ذلك ، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل .

ثم قال يعقوب لأولاده : ﴿ **وما أغنى عنكم من الله من شيء** ﴾ أى لا أدفع عنكم ضررًا ، ولا أجلب إليكم نفعًا بتدبيرى هذا ، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة . قال الزجاج وابن الأنبارى : لو سبق فى علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم . وقال آخرون : ما كان يغنى عنهم يعقوب شيئًا قط ؛ حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم ، من إضافة السرقة إليهم ، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال : ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك فى ذلك ﴿ **عليه توكلت** ﴾ فى كل إيراد وإصدار لا على غيره ، أى اعتمدت ووثقت ﴿ **وعليه** ﴾ لا على غيره ﴿ **فليتوكل المتوكلون** ﴾ على العموم، ويدخل فيه أولاده دخولاً أوليًا .

﴿ **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم** ﴾ أى من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد وجواب لما ﴿ **ما كان يغنى عنهم** ﴾ ذلك الدخول ﴿ **من الله** ﴾ أى من جهته ﴿ **من شيء** ﴾ من الأشياء مما قدره الله عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها** ﴾ منقطع ، والمعنى : ولكن حاجة فى نفس يعقوب ، وهى شفقته عليهم ، ومحبته لسلامتهم ، قضاها يعقوب ، أى أظهرها لهم ، ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذى دبره لهم تأثيرًا فى دفع ما قضاه الله عليهم . وقيل : إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة ، وسيما الشجاعة أوقع بهم حسدًا وحقدًا أو خوفًا منهم ، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة . وقد اختار هذا النحاس وقال : لا معنى للعين ها هنا . وفيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرق ، ولم يخص النهى عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد ؛ لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة ، كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد . وقيل : إن الفاعل فى ﴿ **قضاها** ﴾ ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب ، والمعنى : ما كان الدخول يغنى عنهم من جهة الله شيئا ، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة فى نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿**وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾ أى وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة . ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ بذلك كما ينبغى . وقيل : لا يعلمون أن الحذر مندوب إليه ، وإن كان لا يغنى من القدر شيئًا ، والسياق يدفعه . وقيل : المراد بأكثر الناس : المشركون .

﴿ **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه** ﴾ أى ضم إليه أخاه بنيامين ، قيل : إنه أمر بإنزال كل اثنين فى منزل فبقى أخوه منفردًا فضمه إليه ﴿ **وقال إنى أنا أخوك** ﴾ يوسف ، قال له ذلك سرًا من دون أن يطلع عليه إخوته ﴿ **فلا تبتئس**﴾ أى فلا تحزن ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ أى إخوتك من الأعمال الماضية التى عملوها . وقيل : إنه لم يخبره بأنه يوسف ، بل قال له :

إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسدًا وبغيًا . وقيل : إنه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية في رحله . فقال : لا أبالي . وقيل : إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال : لا تردني إليهم فقال : قد علمت اغتمام أبينا يعقوب ، فإذا حبستك عندي ازداد غمه ، فأتى بنيامين فقال له يوسف : لا يمكن حبسك عندي إلا بأن أنسبك إلى مالا يجمل بك ، فقال : لا أبالي فدس الصاع في رحله ، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التي يشرب بها ، جعلت صاعًا يكال به. وقيل : كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب . وقيل : كانت من فضة . وقيل : كانت من ذهب . وقيل : غير ذلك . وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل ، والمعنى : أنه جعل السقاية التي هي الصواع [١] في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ﴿ **ثم** ﴾ بعد ذلك ﴿ **أذن مؤذن** ﴾ أي نادى مناد قائلاً : ﴿ **أيتها العير** ﴾ قال الزجاج : معناه : يا أصحاب العير ، وكل ما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير . وقال : هي قافلة الحمير . وقال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ نسبة السرقة إليهم على حقيقتها ؛ لأن المنادى غير عالم بما دبره يوسف . وقيل : إن المعنى : إن حالكم حال السارقين كونَ الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك .

﴿ **قالوا** ﴾ أي إخوة يوسف ﴿ **وأقبلوا عليهم** ﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادى من أصحاب الملك ﴿ **ماذا تفقدون** ﴾ أي ما الذي فقدتموه ؟ يقال: فقدت الشيء : إذا عدمته بضياع أو نحوه ، فكأنهم قالوا : ماذا ضاع عليكم ؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة ﴿ **قالوا** ﴾ في جوابهم ﴿ **نفقد صواع الملك** ﴾ قرأ يحيى بن يعمر : « صواغ » بالغين المعجمة ، وقرأ أبو رجاء : « صُوع » بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة ، وقرأ أبي : « صياع » وقرأ أبو جعفر : « صاع » وبها قرأ أبو هريرة ، وقرأ الجمهور : ﴿**صواع** ﴾ بالصاد والعين المهملتين ، قال الزجاج : الصواع : هو الصاع بعينه . وهو يذكر ويؤنث ، وهو السقاية ، ومنه قول الشاعر :

نشرب الخمر بالصواع جهارا

﴿ **ولمن جاء به حمل بعير** ﴾ أي قالوا : ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير ، والبعير : الجمل ، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار . والمراد بالحمل ها هنا : ما يحمله البعير من الطعام ، ثم قال المنادى : ﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ أي بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية ، والزعيم هو الكفيل ، ولعل القائل : ﴿ **نفقد صواع الملك**﴾ هو المنادى ، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحدا منهم ، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادى وحده ؛ لأنه القائل بالحقيقة .

---

(١) في المطبوعة : « التي هو الصواع » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض** ﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور. وقيل : من الباء . وقيل : أصل بنفسها ، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه ، وقد دخلت نادراً على الرب ، وعلى الرحمن ، والكلام على هذا مستوفى فى علم الإعراب ، وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم، وطهارة ذيلهم ، عن التلوث بقذر الفساد فى الأرض ، الذى من أعظم أنواعه السرقة . لأنهم قد شاهدوا منهم فى قدومهم عليه المرة الأولى ، وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة ؛ بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك إلا ردهم لبضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر. ثم أكدوا هذه الجملة التى أقسموا بالله عليها بقولهم : ﴿ **وما كنا سارقين** ﴾ لزيادة التبرى مما قذفوهم به ، والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشنعاء .

﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ هذه الجملة مستأنفة كما تقدم غير مرة فى نظائرها . والقائلون : هم أصحاب يوسف ، أو المنادى منهم وحده كما مر ، والضمير فى ﴿ **جزاؤه** ﴾ للصواع على حذف مضاف أى فما جزاء سرقة الصواع عندكم ، أو الضمير للسارق ، أى فما جزاء سارق الصواع عندكم ﴿ **إن كنتم كاذبين** ﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ، وذلك بأن يوجد الصواع معكم ، فأجاب إخوة يوسف و قالوا : ﴿ **جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه** ﴾ أى جزاء سرقة الصواع ، أو جزاء سارق الصواع ، وجزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية وهى : ﴿ **من وجد فى رحله فهو جزاؤه**﴾ خبر المبتدأ ، على إقامة الظاهر مقام المضمر فيها والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو ، فيكون الضمير الثانى عائدًا إلى المبتدأ ، والأول إلى «من » ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ : ﴿ **من وجد فى رحله** ﴾ ، والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله ، وتكون جملة : ﴿ **فهو جزاؤه** ﴾ لتأكيد الجملة الأولى ، وتقريرها . قال الزجاج : وقوله : ﴿ **فهو جزاؤه** ﴾ زيادة فى البيان أى جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير . قال المفسرون : وكان حكم السارق فى آل يعقوب أن يسترقّ سنة ، فلذلك استفتوهم فى جزائه ﴿ **كذلك نجزى الظالمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ،وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف ، أى كذلك نحن نجزى الظالمين بالرق (١) .

ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك ، فبدأ بتفتيش ﴿ **أوعيتهم** ﴾ أى أوعية الإخوة العشرة ﴿ **قبل وعاء أخيه** ﴾ أى قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعًا للتهمة ورفعًا لما دبره من الحيلة ﴿ **ثم استخرجها** ﴾ أى السقاية أو الصواع ؛ لأنه يذكر ويؤنث ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ أى مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف : يعنى علمناه إياه وأوحيناه إليه ، والكيد مبدؤه السعى فى الحيلة والخديعة ،

---

(١) فى المطبوعة : « بالسرق » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر فى أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه ، وهو محمول فى حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية ، قال القتيبى : معنى ﴿ **كدنا** ﴾ : دبرنا ، وقال ابن الأنبارى : أردنا ، وفى الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعًا ثابتا .

﴿ **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك** ﴾ أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين فى دين الملك، أى ملك مصر ، وفى شريعته التى كان عليها ، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة ، كما هو دين يعقوب وشريعته ، وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفًا لدين الملك وشريعته، لولا ماكاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل إليه ، وهو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم : إن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره وهو معنى قوله: ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له ، وهذه الجملة ، أعنى : ﴿**ما كان ليأخذ أخاه** ﴾ إلخ ، تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف ، أو تفسير له ﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك ﴿**وفوق كل ذى علم** ﴾ ممن رفعه الله بالعلم ﴿ **عليم** ﴾ أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه، ولا يرتقون شأوه . وقيل : معنى ذلك : أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد** ﴾ قال : رهب يعقوب عليهم العين . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب قال : خشى عليهم العين . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ عن النخعى فى قوله : ﴿ **وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾ قال أحب يعقوب أن يلقى يوسف أخاه فى خلوة .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها** ﴾ قال : خيفة العين على بنيه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾ قال : إنه لعامل بما علم ، ومن لا يعمل لا يكون عالمًا . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ **آوى إليه أخاه** ﴾ قال: ضمه إليه ، وفى قوله : ﴿ **فلا تبتئس** ﴾ قال : لا تحزن ولا تيأس ، وفى قوله : ﴿ **فلما جهزهم بجهازهم** ﴾ قال : قضى حاجتهم ، وكال لهم طعامهم ، وفى قوله : ﴿ **جعل السقاية**﴾ قال : هو إناء الملك الذى يشرب منه ﴿ **فى رحل أخيه** ﴾ قال : فى متاع أخيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعل السقاية** ﴾ قال : هو الصواع ، وكل شىء يشرب منه فهو صواع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه أيضًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أيتها العير** ﴾ قال : كانت العير حميرًا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **ولمن جاء به حمل بعير** ﴾ قال : حمل حمار طعام وهى لغة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ يقول : كفيل . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **ما جئنا لنفسد فى الأرض** ﴾ يقول : ماجئنا لنعصى فى الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فما جزاؤه** ﴾ قال : عرفوا الحكم فى حكمهم فقالوا : ﴿ **من وجد في رحله فهو جزاؤه** ﴾ وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقته عبدًا يسترق. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **فبدأ بأوعيتهم** ﴾ قال : ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثمًا . مما صنع حتى بقى متاع الغلام ، قال : ما أظن أن هذا أخذ شيئًا قالوا : بلى فاستَبْره .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿**كذلك كدنا ليوسف** ﴾ قال: كذلك صنعنا ليوسف ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك** ﴾ يقول : فى سلطان الملك ، قال : كان فى دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك** ﴾ يقول : فى سلطان الملك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ قال : إلا بعلة كادها الله ليوسف فاعتل بها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله: ﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ قال : يوسف وإخوته أوتوا علمًا فرفعنا يوسف فى العلم فوقهم درجة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ، فقال رجل عنده : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ فقال ابن عباس : بئس ما قلت . الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : سأل رجل عليا عن مسألة ، فقال فيها ، فقال الرجل: ليس هكذا ولكن كذا وكذا قال على : أصبت وأخطأت ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ قال : علم الله فوق كل علم .

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ

أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **قالوا إن يسرق** ﴾ أى بنيامين ﴿ **فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ يعنون يوسف . وقد اختلف المفسرون فى هذه السرقة التى نسبوها إلى يوسف ما هى ؟ فقيل : إنه كان ليوسف عمة هى أكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنًا ، من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حبًا شديدًا ، فلما ترعرع قال لها يعقوب : سلمى يوسف إلىَّ فأشفقت من فراقه ، واحتالت فى بقائه لديها ، فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ، ثم قالت : قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقها ، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء فى ذلك الوقت من آل إبراهيم وقد سبق بيان شريعتهم فى السرقة . وقيل : إن يوسف أخذ صنمًا كان لجده ــ أبى أمه ــ فكسره وألقاه على الطريق تغييرًا للمنكر . وحكى عن الزجاج أنه كان صنمًا من ذهب . وحكى الواحدى عن الزجـاج أنه قال : الله أعلم ، أسرق أخ له أم لا ؟ وحكى القرطبى فى تفسيره عن الزجاج أنه قال كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ، قلت : وهذا أولى ، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم ، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال : إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم .

قوله : ﴿ **فأسرها يوسف فى نفسه** ﴾ قال الزجاج وغيره : الضمير فى أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة كأنه قيل : فأسر الجملة فى نفسه ﴿ **ولم يبدها لهم** ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ **قال أنتم شر مكانا** ﴾ وقد رد أبو على الفارسى هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمـل . وقيـل : الضمير عائـد إلى الإجابة ، أى أسر يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت إلى وقت آخر ، وقيل : أسر فى نفسه قولهم : ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ وهذا هو الأولى ، ويكون معنى ﴿ **ولم يبدها لهم** ﴾ : أنه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرها فى نفسه بأن يذكر لهم صحتها ، أو بطلانها ، وجملة : ﴿ **قال أنتم شر مكانا** ﴾ مفسرة على القول الأول ، ومستأنفة على القولين الآخرين ، كأنه قيل : فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أى ﴿ **أنتم شر مكانا** ﴾ أى موضعًا ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ؛ فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجب ، والكذب على أبيكـم وغير ذلك من أفاعيلكـم

ثم قال : ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ من الباطل بنسبة السرقة (١) إلى يوسف ، وأنه لا حقيقة لذلك .

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه إليه فقالوا : ﴿ يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ﴾ أى إن لبنيامين هذا أبا متصفًا بهذه الصفة ، وهى كونه شيخا كبيرًا لا يستطيع فراقه ، ولا يصبر عنه ، ولا يقدر على الوصول إليه ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ يبقى لديك . فإن له منزلة فى قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين ، ثم عللوا ذلك بقوله: ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ إلى الناس كافة وإلينا خاصة ، فنعم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب ، فأجاب يوسف عليهم بقوله : ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أى نعوذ بالله معاذًا . فهو مصدر منصوب بفعل محذوف ، والمستعيذ بالله هو المعتصم به ، وأن نأخذ منصوب بنزع الخافض ، والأصل من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، وهو بنيامين لأنه الذى وجد الصواع فى رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التى أفتيتموها بقولكم : ﴿جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾ ﴿ إنا إذا لظالمون ﴾ أى إنا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون فى دينكم وما تقتضيه فتواكم .

﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ أى يئسوا من يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذى طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة ﴿خلصوا نجيا ﴾ أى انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم ، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما فى قوله : ﴿وقربناه نجيا ﴾ [مريم : ٥٢] قال الزجاج : معناه : انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به فى ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ قيل : هو « روبيل » لأنه الأسن . وقيل : « يهوذا » لأنه الأوفر عقلاً. وقيل : «شمعون » لأنه رئيسهم ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ أى عهدًا من الله فى حفظ ابنه ورده إليه، ومعنى كونه من الله أنه بإذنه ﴿ ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ﴾ معطوف على ما قبله والتقدير ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفريطكم فى يوسف ذكر هذا النحاس وغيره ، و ﴿ من قبل ﴾ متعلقة بـ ﴿ تعلموا ﴾ ، أى وتعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل ، على أن « ما » مصدرية ، ويجوز أن تكون زائدة . وقيل : ﴿ ما فرطتم ﴾ مرفوع المحل على الابتداء وخبره ﴿ من قبل ﴾ وقيل : إن « ما » موصولة ، أو موصوفة ، وكلاهما فى محل النصب أو الرفع ، وما ذكرناه هو الأولى، ومعنى ﴿ فرطتم ﴾ : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه. ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ يقال: برح براحًا وبروحا ، أى زال ، فإذا دخله النفى صار مثبتا ، أى لن أبرح من الأرض بل ألزمها ولا أزال مقيمًا فيها ﴿ حتى يأذن لى أبى ﴾ فى مفارقتها والخروج منها . وإنما قال ذلك لأنه يستحى من أبيه أن يأتى إليه بغير ولده الذى أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم ﴿أو يحكم الله لى ﴾ بمفارقتها والخروج منها . وقيل : المعنى : أو يحكم الله لى بخلاص أخى من الأسر حتى يعود

(١) فى المطبوعة : « السراق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

إلى أبى أعود معه . وقيل : المعنى : أو يحكم الله لى بالنصر على من أخذ أخى فأحاربه وآخذ أخى منه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ لأن أحكامه لا تجرى إلا على ما يوافق الحق ، ويطابق الصواب .

ثم قال كبيرهم مخاطبًا لهم : ﴿ **ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق** ﴾ : قرأ الجمهور : ﴿**سرق** ﴾ على البناء للفاعل ، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه ، وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول ، وروى ذلك النحاس عن الكسائى . قال الزجاج : إن سرق يحتمل معنيين : أحدهما علم منه السرق ، والآخر اتهم بالسرق ﴿ **وما شهدنا إلا بما علمنا** ﴾ من استخراج الصواع من وعائه . وقيل : المعنى : ماشهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿ **وما كنا للغيب حافظين** ﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شهدناه أو على خلافه ؟ وقيل : المعنى : ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج (١) معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرق الذى افتضحنا به . وقيل : الغيب هو: الليل ، ومرادهم أنه سرق وهم نيام . وقيل : مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم ، فخفى عليهم فعله .

﴿ **واسأل القرية التى كنا فيها** ﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم أى قولوا لأبيكم : اسأل القرية التى كنا فيها أى مصر ، والمراد أهلها ، أى اسأل أهل القرية . وقيل : هى قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها . وقيل : المعنى : واسأل القرية نفسها وإن كانت جمادًا فإنك نبى الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك ، ومما يؤيد هذا أنه قال سيبويه: لا يجوز كلم هندًا وأنت تريد غلام هند ﴿ **والعير التى أقبلنا فيها** ﴾ أى وقولوا لأبيكم : اسأل العير التى أقبلنا فيها أى أصحابها وكانوا قومًا معروفين من جيران يعقوب . ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما قلنا. جاؤوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد؛ لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة فى خبرهم هذا عند السامع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ قال : يعنون يوسف. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : سرق مكحلة لخالته . يعنى : يوسف . وأخرج أبو الشيخ عن عطية قال : سرق فى صباه ميلين من ذهب وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال :« سرق يوسف صنما لجده ــ أبى أمه ــ من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيره بذلك إخوته » . وأخرج ابن جرير ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله غير مرفوع (٢) . وقد روى نحوه جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأسرها يوسف فى نفسه** ﴾ قال : أسر فى نفسه قوله : ﴿ **أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون** ﴾ وأخرج عبد

(١) فى المطبوعة : « ليخرجا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ١٣ / ٢١ .

الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة مثله.

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق في قوله : ﴿ **فلما استيأسوا منه** ﴾ قال : أيسوا منه ، ورأوا شدته في أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿**خلصوا نجيا** ﴾ قال : وحدهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ **قال كبيرهم** ﴾ قال : « شمعون » الذي تخلف ، أكبرهم عقلاً ، وأكبر منه في الميلاد « روبيل » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كبيرهم هو « روبيل » وهو الذي كان نهاهم عن قتله ، وكان أكبر القوم . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ **أو يحكم الله لي** ﴾ قال : أقاتل بسيفي حتى أقتل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبي صالح نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة : ﴿ **وما كنا للغيب حافظين** ﴾ قال : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ **واسأل القرية** ﴾ قال : يعنون مصر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مثله .

﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا** ﴾ أي زينت ، والأمر هنا قولهم : ﴿ **إن ابنك سرق** ﴾ وما سرق في الحقيقة . وقيل : المراد بالأمر إخراجهم بنيامين والمضي به إلى مصر طلبًا للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة . وقيل : التسويل : التخييل ، أي خيلت لكم أنفسكم أمرًا لا أصل له . وقيل : الأمر الذي سولت لهم أنفسهم : فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقته، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح . والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها ، وجملة : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أي فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل بي ، وأولى لي . والصبر الجميل : هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى ، بل يُفَوِّضُ أمره إلى الله

ويسترجع وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة ﴿ **عسى الله أن يأتينى بهم جميعا** ﴾ أى بيوسف وأخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقى بمصر وهو كبيرهم كما تقدم ، وإنما قال هكذا ؛ لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت ، وأنه باق علي الحياة وإن غاب عنه خبره ﴿ **إنه هو العليم** ﴾ بحالى ، ﴿ **الحكيم** ﴾ فيما يقضى به . ﴿ **وتولى عنهم** ﴾ أى أعرض عنهم ، وقطع الكلام معهم وقال : ﴿ **يا أسفا على يوسف** ﴾ قال الزجاج : الأصل يا أسفى . فأبدل من الياء ألفًا لخفة الفتحة والأسف شدة الجزع . وقيل : شدة الحزن ، ومنه قول كثير :

فَيَا أسَفًا للقَلبِ كَيفَ انصرافُهُ ... وللنَّفْسِ لَمَّا سلِّيت فَتَسلَّتِ

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبلغه بسبب فراقه ليوسف ، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين . وبلوغ مابلغه من كونه أسيرًا عند ملك مصر ، فتضاعفت أحزانه ، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير ، وقد روى عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت فى شريعتنا من الاسترجاع ، والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال : ﴿**ياأسفا علي يوسف** ﴾ ومعنى المناداة للأسف : طلب حضوره ، كأنه قال : تعال ياأسفى ، وأقبل إلىّ ﴿**وابيضت عيناه من الحزن** ﴾ أى انقلب سواد عينيه بياضًا من كثرة البكاء ، قيل: إنه زال إدراكه بحاسة البصر بالمرة . وقيل : كان يدرك إدراكًا ضعيفًا . وقد قيل توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضى إلى ذهاب بصره كلاً أو بعضًا بأنه : إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف حى فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر وأهلها حينئذ كفار. وقيل : إن مجرد الحزن ليس بمحرم ، وإنما المحرم ما يفضى منه إلى الوله ، وشق الثياب، والتكلم بما لا ينبغى وقد قال النبى ﷺ عند موت ولده إبراهيم : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[1] ويؤيد هذا قوله: ﴿**فهو كظيم** ﴾ أى مكظوم ، فإن معناه : أنه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ، من كظم السقاء إذ سده على ما فيه ، والكظم بفتح الظاء : مخرج النفس يقال : أخذ بأكظامه . وقيل : الكظيم بمعنى الكاظم ، أى المشتمل على حزنه ، الممسك له . ومنه :

فَإِنْ أَكُ كاظِمًا لُمصَابِ نَاسٍ ... فإنى اليومَ مُنطلِقٌ لسانى

ومنه : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال الزجاج : معنى كظيم : محزون ، وروى عن ابن عباس أنه قال : معناه : مغموم مكروب . قال بعض أهل اللغة : الحزن بالضم والسكون : البكاء ، وبفتحتين ضد الفرح ، وقال أكثر أهل اللغة :هما لغتان : ﴿ **قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف** ﴾ أى لا تفتأ ، محذوف حرف النفى لعدم اللبس ، قال

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٠٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٥ / ٦٢) وأبو داود فى الجنائز (٣١٢٦) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٨٩) وفى الزوائد : « إسناده حسن » .

الكسائى : فتأت وفتئت أفعل كذا ، أى ما زلت ، وقال الفراء : إن « لا » مضمرة ، أى لا تفتأ . قال النحاس : والذى قال صحيح ، وقد روى عن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، وأنشد الفراء محتجا على ما قاله :

فقلت يمين اللـه أبرح قاعدًا ولو قَطعُوا رأسى لدَيكِ وأوْصَالِى

ويقال : فتئ ، وفتأ لغتان ، ومنه قول الشاعر (١) :

فما فَتِئَتْ حَتَّى كَأنَّ غُبَارَهَا سُرَادِقُ يَوْمٍ ذى رِياحٍ تُرفَّعُ

﴿ حتى تكون حرضا﴾ الحرض مصدر يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والصفة المشبهة . حرض بكسر الراء كدنف ودنف . وأصل الحرض : الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، حكى ذلك عن أبى عبيدة وغيره ، ومنه قول الشاعر :

سَرَى هَمِّى فَأمْرضَنى وقدمًا زادنى مَرَضًا

كَذَاكَ الحبُّ قَبْلَ اليو مِ ممَّ يُورِث الحَرَضَا

وقيل : الحرض ما دون الموت ، وقيل : الحارض : البالى الدائر ، وقال الفراء : الحارض: الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرض . وقال مؤرج: هو الذائب من الهم ، ويدل عليه قول الشاعر (٢) :

إنِّى امرؤٌ لَجَّ بى حُبٌّ فَأحْرضَنَى حَتَّى بَلِيتُ وَحتّى شَفَنِى السَّقَم

ويقال : رجل محرض ، ومنه قول الشاعر :

طَلَبَتْهُ الخَيْلُ يَوْمًا كَامِلاً وَلَوَ اَلْفتْهُ لأضْحَى مُحْرَضا

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهم : إذا أسقمه ، ورجل حارض ، أى أحمق. وقال الأخفش : الحارض الذاهب . وقال ابن الأنبارى : هو الهالك ، والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعانى المذكورة حتى يكون لقوله : ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ معنى غير معنى الحرض ، فالتأسيس أولى من التأكيد ومعنى ﴿ من الهالكين ﴾ : من الميتين . وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه .

﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ هذه الجملة مستأنفة كأنه قيل : فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا ؟ والبث : ما يرد على الإنسان من الأشياء التى يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها ، كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثثته ، أى فرقته ، فسميت

(١) هو : أوس بن حجر التميمى الجاهلى .

(٢) هو العرجى : عبد الله بن عمر بن عمرو . أموى . شاعر غزل . وأديب وفارس سكن قرية العرج قرب الطائف فلقب بالعرجىّ .

المصيبة بثّا مجازًا ، قال ذو الرّمة :

وَقَفْتُ على رَبع لِمَيَّةَ ناقَتى فَما زِلتُ أَبْكى عِنده وأُخَاطِبُه
وأسْقيه حتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّه تُكَلِّمنى أَحْجارُهُ وَمَلاعبُه

وقد ذكر المفسرون : أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنًا، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثًا ، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه . وقيل : البث : الهم . وقيل : هو الحاجة وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى . وأما على تفسير البث بالحزن العظيم ، فكأنه قال : إنما أشكو حزنى العظيم وما دونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس . وقد قرئ : ﴿ **حزنى** ﴾ بضم الحاء وسكون الزاى و « حزنى » بفتحهما ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ أى أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة مالاتعلمونه أنتم . وقيل : أراد علمه بأن يوسف حىّ . وقيل : أراد علمه بأن رؤياه صادقة . وقيل : أعلم من إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون .

﴿ **يا بنى اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه**﴾ التحسس بمهملات : طلب الشىء بالحواس، مأخوذ من الحس أو من الإحساس ، أى اذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه . وقرئ بالجيم ، وهو أيضًا التطلب ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ أى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه . قال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح ، وحكى الواحدى عن الأصمعى أيضا أنه قال : الروح : الاستراحة من غم القلب ، وقال أبو عمرو : الروح : الفرج . وقيل : الرحمة ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه ، وعظيم صنعه ، وخفى ألطافه .

قوله :﴿ **فلما دخلوا عليه** ﴾ أى على يوسف ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، فلما دخلوا على يوسف ﴿ **قالوا يأيها العزيز** ﴾ أى الملك الممتنع القادر﴿ **مسنا وأهلنا الضر** ﴾ أى الجوع والحاجة وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه ، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة وهذه المرة التى دخلوا فيها مصر هى المرة الثالثة ، كما يفيده ما تقدم من سياق الكتاب العزيز ﴿ **وجئنا ببضاعة مزجاة** ﴾ البضاعة هى القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ، يقال : أبضعت الشىء واستبضعته إذا جعلته بضاعة . وفى المثل كمستبضع التمر إلى هجر . والإزجاء : السوق بدفع . قال الواحدى : الإزجاء فى اللغة : السوق والدفع قليلاً قليلا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ [النور : ٤٣] والمعنى : أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار ، قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . قال أبو عبيدة : إنما قيل للدراهم الرديئة: مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

واختلف فى هذه البضاعة ما هى ؟ فقيل : كانت قديدًا وحيسًا . وقيل : صوف وسمن . وقيل : الحبة الخضراء والصنوبر . وقيل : دراهم رديئة . وقيل : النعال والأدم ، ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التى معهم أن يوفى لهم الكيل ، أى يجعله تامًا لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم ، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التى جاؤوا بها ، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة فى إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين . وقد قيل : كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء ، والصدقة محرمة على الأنبياء ؟ وأجيب : باختصاص ذلك بنبينا محمد ﷺ ﴿ **إن الله يجزى المتصدقين** ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروى ، أو التوسيع عليهم فى الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **عسى الله أن يأتينى بهم جميعا** ﴾ قال : يوسف وأخيه وروبيل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يوسف وأخيه وكبيرهم الذى تخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يا أسفا على يوسف** ﴾ قال : يا حزنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله . وأخرجوا عن مجاهد قال : ياجزعًا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهوكظيم** ﴾ قال : حزين . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كظم على الحزن فلم يقل إلا خيرًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال: كظيم : مكروب . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الكظيم : الكمد . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **تالله تفتأ تذكر يوسف** ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ﴿ **حتى تكون حرضا** ﴾ قال : دنفًا من المرض . ﴿ **أو تكون من الهالكين** ﴾ قال : الميتين . وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **تفتأ تذكر يوسف** ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ﴿ **حتى تكون حرضا** ﴾ قال : هرمًا . ﴿ **أو تكون من الهالكين**﴾ قال : أو تموت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك : ﴿ **حتى تكون حرضا** ﴾ قال : الحرض: البالى ﴿ **أو تكون من الهالكين** ﴾ قال : من الميتين .

وأخرج ابن جرير وعبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبى ﷺ قال :« من بث لم يصبر » ثم قرأ ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾ (١) وأخرج ابن منده فى المعرفة عن مسلم ابن يسار عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن مردويه من حديث

---

(١) ابن جرير ١٣ / ٣٢ .

عبد الله بن عمرو مرفوعًا مثله [١] . وأخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعًا مرسلاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما أشكو بثى** ﴾ قال : همى. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ قال : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ قال : من رحمة الله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : من فرج الله يفرج عنكم الغم الذى أنتم فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **مسنا وأهلنا الضر** ﴾ قال : أى الضر فى المعيشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ببضاعة** ﴾ قال : دراهم ﴿ **مزجاة** ﴾ قال : كاسدة . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : ﴿ **مزجاة** ﴾ قال : كاسدة . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : ﴿**مزجاة** ﴾ رثة المتاع ، خلقة الحبل والغرارة والشىء . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا ﴿ **مزجاة** ﴾ قال : الورق الزيوف التى لا تنفق حتى يوضع منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله : ﴿ **وتصدق علينا** ﴾ قال : اردد علينا أخانا .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ .

الاستفهام في قوله : ﴿ **هل علمتم** ﴾ للتوبيخ والتقريع ، وقد كانوا عالمين بذلك ، ولكنه أراد ما ذكرناه ، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه فى قوة : ما أعظم الأمر الذى ارتكبتم من يوسف وأخيه . وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ كما يقال للمذنب: هل تدرى من عصيت ؟ والذى

---

(١) الحديث رواه البيهقى فى الشعب عن ابن عمر (١٠٠٥٠) . ط . الكتب العلمية .

فعلوا بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا فى هذه السورة ، وأما ما فعلوا بأخيه ، فقال جماعة من المفسرين : هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف ، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة . ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب ، مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى . قال الواحدى : ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيما له ، ورفعًا من قدره ، وعلمًا بأنه ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد فى درجته عنده ، ﴿ **إذ أنتم جاهلون** ﴾ نفى عنهم العلم ، وأثبت لهم صفة الجهل، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم . وقيل : إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم ، وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال : إنما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم ، وقصور معارفكم عن عاقبته ، وما يترتب عليه ، أو أراد عند ذلك فى أوان الصبا وزمان الصغر اعتذارًا لهم ، ورفعا لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا فى ذلك الوقت كبارا .

﴿ **قالوا أئنك لأنت يوسف** ﴾ قرأ ابن كثير : « إنك » على الخبر بدون استفهام ، وقرأ الباقون على الاستفهام التقريرى ، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب . قيل : سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم : ﴿ **ما فعلتم بيوسف وأخيه** ﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو . وقيل : إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه . وقيل : إنه تبسم فعرفوا ثناياه ﴿ **قال أنا يوسف وهذا أخى** ﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه . قال ابن الأنبارى : أظهر الاسم فقال : أنا يوسف ، ولم يقل أنا هو ، تعظيمًا لما وقع به من ظلم إخوته ، كأنه قال : أنا المظلوم المستحل منه المحرم ، والمراد قتله ، فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعانى ، وقال : وهذا أخى مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه ؛ لأن قصده وهذا أخى المظلوم كظلمى ﴿ **قد من الله علينا** ﴾ بالخلاص عما ابتلينا به . وقيل : منَّ الله علينا بكل خير فى الدنيا والآخرة . وقيل : بالجمع بيننا بعد التفرق ، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿ **إنه من يتق ويصبر** ﴾ قرأ الجمهور بالجزم على أن « من » شرطية . وقرأ ابن كثير بإثبات الياء فى يتقى ، كما فى قول الشاعر :

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تنمِى بِما لاقَتْ لَبُونُ بَنِى زِيادِ

وقيل : إنه جعل « من » موصولة لا شرطية ، وهو بعيد ، والمعنى : إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب ويصبر على المصائب ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ على العموم ، فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولاً أوليا وجاء بالظاهر ، وكان المقام مقام المضمر، أى أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿ **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا** ﴾ أى لقد اختارك وفضلك علينا بما خصك به من صفات الكمال ، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره ولا يلزم من ذلك ألا يكونوا أنبياء ، فإن درج الأنبياء متفاوتة قال الله تعالى: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ﴿ **وإن كنا لخاطئين** ﴾ أى

وإن الشأن ذلك . قال أبو عبيدة : خطئ وأخطأ بمعنى واحد . وقال الأزهرى : المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد يخطئ ويصيب ، والخاطئ من تعمد ما لا ينبغى. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلابًا لعفوه واستجذابًا لصفحه.

﴿ **قال لا تثريب عليكم** ﴾ التثريب التعيير والتوبيخ أى لا تعيير ولا توبيخ ، ولا لوم عليكم . قال الأصمعى : ثربت عليه ، قبحت عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بينى وبينكم من الحرمة وحق الأخوة ولكم عندى الصلح والعفو ، وأصل التثريب : الإفساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وقال ابن الأنبارى : معناه : قد انقطع عنكم توبيخى عند اعترافكم بالذنب . قال ثعلب : ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه وأصل التثريب من الثرب ، وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ومعناه : إزالة التثريب ، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع . وانتصاب ﴿ **اليوم** ﴾ بالتثريب ، أى لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقدر فى ﴿ **عليكم** ﴾ ، وهو مستقر أو ثابت أو نحوهما ، أى لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم ، وقد جوز الأخفش الوقف على ﴿ **عليكم** ﴾ ، فيكون : اليوم متعلق بالفعل الذى بعده ، وقد ذكر مثل هذا ابن الأنبارى . ثم دعا لهم بقوله : ﴿ **يغفر الله لكم** ﴾ على تقدير الوقف على اليوم أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿ **اليوم** ﴾، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿**عليكم**﴾ ﴿ **وهو أرحم الراحمين** ﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازى محسنهم ويغفر لمسيئهم .

قوله : ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا** ﴾ قيل : هذا القميص هو القميص الذى ألبسه الله إبراهيم لما ألقى فى النار وكساه إبراهيم إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، وكان يعقوب أدرج هذا القميص فى قضيب وعلقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره ؛ لأن فيه ريح الجنة ، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفى ، ولا مبتلى إلا عوفى ﴿ **فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا** ﴾ أى يصرْ بصيرًا ، على أن ﴿ **يأت** ﴾ هى التى من أخوات كان . قال الفراء : يرجع بصيرًا . وقال السدى : يعد بصيرًا. وقيل : معناه : يأت إلىَّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ويؤيده قوله : ﴿**وأتونى بأهلكم أجمعين** ﴾ أى جميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذرارى . وقيل : كانوا نحو سبعين . وقيل : ثلاثة وتسعين .

﴿ **ولما فصلت العير** ﴾ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام ، يقال : فصل فصولاً ، وفصلته فصلاً لازم ومتعد ، ويقال : فصل من البلد فصولا : إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه ﴿**قال أبوهم** ﴾ أى يعقوب لمن عنده فى أرض كنعان من أهله ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف** ﴾ قيل : إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة فأخبرهم بما وجد ، ثم قال: ﴿ **لولا أن تفندون** ﴾ لولا أن تنسبونى إلى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم . يقال : أفند الرجل : إذا خرف وتغير عقله . وقال أبو عبيدة : لولا أن تسفهون ، فجعل الفند السفه .

وقال الزجاج : لولا أن تجهلون ، فجعل الفند الجهل ، ويؤيد ذلك قول من قال : إنه السفه قول النابغة :

إلاَّ سُليمان إِذْ قَالَ المليكُ لَــهُ ... قُمْ فى البرِية فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

أى امنعها عن السفه .

وقال أبو عمرو الشيبانى : التفنيد : التقبيح ، ومنه قول الشاعر :

يا صاحبىّ دَعَا لَوْمِى وتَفْنِيدى ... فليس ما فاتَ مِن أمرى بمردودِ

وقيل : هو الكذب ، ومنه قول الشاعر :

هَلْ فى افْتِخَارِ الكَرِيمِ مِنْ أودِ ؟ ... أَمْ هَلْ لقول الصَّديقِ من فَنَــدِ ؟

وقال ابن الأعرابى : ﴿ **لولا أن تفندون** ﴾ : لولا أن تضعفوا رأيى ، وروى مثله عن أبى عبيدة . وقال الأخفش : التفنيد : اللوم وضعف الرأى ، وكل هذه المعانى راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى . يقال : فنده تفنيدًا ، إذا أعجزه : وأفند: إذا تكلم بالخطأ . والفند : الخطأ من الكلام ، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر :

يَــاعَــاذِلى دَعَــا المَـلامَ وَأَقْصِـرَا ... طَـالَ الهوَى وَأَطَلْتُمـا التَّفْنِيَــدا

أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه ، وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك فى ذلك :

فــإن الصبـــا ريـح إذا تنفســت ... عـلى نفس مهمـوم تجـلت هـمومهـا

* * *

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنى ... نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفـجر

* * *

ولقد تهب لى الصبا من أرضها ... فيلــذ مـــس هـبوبهـــا ويطـــيب

﴿ **قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم** ﴾ أى قال الحاضرون عنده من أهله : إنك يا يعقوب لفى ذهابك عن طريق الصواب الذى كنت عليه قديمًا من إفراط حبك ليوسف لا تنساه ولا تفتر عنه ، ولسان حال يعقوب يقول لهم :

لاَ يَعْرِفُ الشَّوقَ إلا مَن يُكَابِـدُه ... وَلا الصَّبَـابَــةَ إِلا مَــنْ يُعَــانِيهــا

لا تَعْـذِلِ المُشْتَاقَ فى أَشْــوَاقِــه ... حَتَّى تكُـون حَشَــاك فى أَحْشَــائِــه

وقيل : المعنى : إنك لفى جنونك القديم . وقيل : فى محبتك القديمة . قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير. ﴿ **فلما أن جاء البشير** ﴾ قال المفسرون : البشير هو يهوذا

ابن يعقوب قال لإخوته : أنا جئته بالقميص ملطخًا بالدم فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى ، فأفرحه كما أحزنته ﴿ **ألقاه على وجهه** ﴾ أى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿ **فارتد بصيرا** ﴾ الارتداد انقلاب الشىء إلى حال قد كان عليها ، والمعنى : عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره ﴿ **قال ألم أقل لكم** ﴾ أى قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم : ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف** ﴾ : ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم ؟ ويكون قوله : ﴿ **إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول . ويجوز أن تكون جملة : ﴿ **إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ مقول القول ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقا: ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ ﴿ **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين** ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم ، واعترفوا بالذنب وفى الكلام حذف ، والتقدير : ولما رجعوا من مصر ، ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول ، فوعدهم بما طلبوه منه ، و ﴿ **قال سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ قال الزجاج : أراد يعقوب أن يستغفر لهم وقت السحر ؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء ،لا أنه بخل عليهم بالاستغفار . وقيل : أخره إلى ليلة الجمعة ، وقيل : أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف ، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم ، وجملة : ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ تعليل لما قبله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لا تثريب** ﴾ قال : لا تعيير . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت إلى الناس فقال : « ماذا تقولون وماذا تظنون ؟ » فقالوا : ابن عم كريم ، فقال : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعًا نحوه . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه [1] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراسانى ، قال : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ، ألم تر إلى قول يوسف : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم**﴾ ؟ وقال يعقوب : ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ .

أقول : وفى هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم : ﴿ **لقد آثرك الله علينا** ﴾ فقال : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم ، وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل ، وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم ، ولاسيما إذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة فإنه لو طلبه لهم فى الحال لم يحصل له علم بالقبول .

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما كان من أمر إخوة يوسف

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٥ / ٨٧ .

ما كان كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون : سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد : فإنا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء ، كان جدى إبراهيم خليل الله ألقى فى النار فى طاعة ربه ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا ، وأمر الله جدى أن يذبح له أبى(١) ففداه الله بما فداه ، وكان لى ابن وكان من أحب الناس إلىّ ففقدته ، فأذهب حزنى عليه نور بصرى ، وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدرى فأذهب عنى بعض وجدى، وهو المحبوس عنـدك فى السرقة . وإنى أخبرك أنى لم أسرق ، ولم ألد سارقًا ، فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال: ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا**﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال فى قوله:﴿ **اذهبوا بقميصى هذا** ﴾: أن نمروذ لما ألقى إبراهيم فى النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يتحدث ، فأوحى الله إلى النار ﴿ كونى بردا وسلاما﴾ [الأنبياء : ٦٩] ولولا أنه قال : ﴿ **وسلاما** ﴾ لآذاه البرد . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعًا : إن الله كسا إبراهيم ثوبًا من الجنة ، فكساه إبراهيم إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، فأخذه يعقوب فجعله فى قصبة من حديد وعلقه فى عنق يوسف ، ولو علم إخوته إذ ألقوه فى الجب لأخذوه ، فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة ، أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل ، فوجد يعقوب ريحه فقال : ﴿**إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيرًا وليس يقع شىء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وأحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما فصلت العير** ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت الريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ تسفهون ، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عنه قال : وجده من مسيرة ثمانين فرسخًا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا ﴿ **لولا أن تفندون** ﴾ قال : تجهلون . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا : قال: تكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : تهرمون ، يقولون : قد ذهب عقلك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع قال : لولا أن تحمقون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إنك لفى ضلالك القديم**﴾ يقول : خطئك القديم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جنونك القديم .

---

(١) الأرجح أن هذا من الإسرائيليات كما تقدم ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : حبك القديم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : البشير : البريد . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سفيان قال : البشير هو يهوذا بن يعقوب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : لما أن جاء البشير إلى يعقوب فألقى عليه القميص قال: على أى دين خلفت يوسف ؟ قال : على الإسلام قال : الآن تمت النعمة .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿سوف أستغفرلكم ربى ﴾ قال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : أخرهم إلى السحر ، وكان يصلى بالسحر. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضًا قال : قال النبى ﷺ فى قصة : « هو قول أخى يعقوب لبنيه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة » [1] .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ .

قوله : ﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾ لعل فى الكلام محذوفًا مقدرًا ، وهو : فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، أى ضمهما وأنزلهما عنده، قال المفسرون : المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف ؛ لأن أمه قد كانت ماتت فى ولادتها لأخيه بنيامين ، كما تقدم . وقيل : أحيا الله له أمه تحقيقًا للرؤيا حتى سجدت له ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ مما تكرهون ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجواز منهم . قيل : والتقييد بالمشيئة عائد إلى الأمن ، ولا مانع من عوده إلى الجميع ؛ لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته . وقيل : إن التقييد بالمشيئة راجع إلى قوله : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ وهو بعيد ،

(١) جزء من حديث طويل رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٧٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم » . والحاكم ١ / ٣١٦ من الطريق نفسها ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » . وقد علق عليه الذهبى فقال : « هذا حديث منكر شاذ أخاف لا يكون موضوعًا وقد حيرنى والله جودة سنده فالله أعلم » ، كما أخرجه ابن جرير ١٣ / ٤٢ .

وظاهر النظم القرآنى : أن يوسف قال لهم هذه المقالة ، أى ادخلوا مصر قبل دخولهم . وقد قيل فى توجيه ذلك : أنه تلقاهم إلى خارج مصر ، فوقف منتظرًا لهم فى مكان أو خيمة فدخلوا عليه ، فـ ﴿ **آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر** ﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولاً آخر فى المكان الذى له بمصر ﴿ **رفع أبويه على العرش** ﴾ أى أجلسهما معه على السرير الذى يجلس عليه كما هو عادة الملوك .

﴿ **وخروا له سجدا** ﴾ أى الأبوان والإخوة ، والمعنى : أنهم خروا ليوسف سجدًا ، وكان ذلك جائزًا فى شريعتهم منزلاً منزلة التحية . وقيل : لم يكن ذلك سجودًا بل هو مجرد إيماء، وكانت تلك تحيتهم ، وهو يخالف معنى ﴿ **وخروا له سجدا** ﴾ فإن الخرور فى اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض . وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **له** ﴾ راجع إلى الله سبحانه أى وخروا لله سجدًا ، وهو بعيد جدًا . وقيل : إن الضمير ليوسف ، واللام للتعليل ، أى وخروا لأجله سجدًا ، وفيه أيضا بعد ، وقال يوسف : ﴿ **يأبت هذا تأويل رؤياى** ﴾ يعنى التى تقدم ذكرها ﴿ **من قبل** ﴾ أى من قبل هذا الوقت ﴿ **قد جعلها ربى حقا** ﴾ بوقوع تأويلها على ما دلت عليه ﴿ **وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن** ﴾ الأصل أن يتعدى فعل الإحسان بإلى ، وقد يتعدى بالباء كما فى قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء: ٢٣] . وقيل : إنه ضمن أحسن معنى لطف ، أى وقد لطف بى محسنًا ، ولم يذكر إخراجه من الجب ، لأن فى ذكره نوع تثريب للإخوة . وقد قال : لا تثريب عليكم ، وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه، وقد قيل : إن وجه عدم ذكر إخراجه من الجب أن المنة كانت فى إخراجه من السجن أكبر من المنة فى إخراجه من الجب ، وفيه نظر .﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ أى البادية ، وهى أرض كنعان بالشام ، وكانوا أهل مواش وبرية . وقيل : إن الله لم يبعث نبيًا من البادية ، وأن المكان الذى كان فيه يعقوب يقال له : بدا ، وإياه عنى جميل بقوله :

وَأَنتِ التى حَبَّبْت شَغْبًا إلى بَدَا ... إلىّ وأوْطانِى بِلادٌ سِواهُمَا (١)

وفيه نظر ، ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى** ﴾ أى أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض ، يقال : نزغه: إذا نخسه ، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرمًا منه وتأدبا ﴿ **إن ربى لطيف لما يشاء** ﴾ اللطيف : الرفيق . قال الأزهرى : اللطيف من أسماء الله تعالى معناه : الرفيق بعباده ، يقال : لطف فلان بفلان يلطف : إذا رفق به . وقال عمرو بن أبى عمرو : اللطيف : الذى يوصل إليك أربك فى لطف . قال الخطابى : اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون . وقيل : اللطيف : العالم بدقائق الأمور . ومعنى ﴿ **لما**

---

(١) فى المخطوطة : « الذى » بدلاً من « التى » « وشعبا » بدلاً من « شغبا » والشغب : موضع بين المدينة والشام .

يشاء ﴾ : لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿ **إنه هو العليم الحكيم** ﴾ أى العليم بالأمور ، الحكيم فى أفعاله .

ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما أخلصه منه من المحن العظيمة ، وبما خوله من الملك ، وعلمه من العلم ، تاقت نفسه إلى الخير الأخروى الدائم الذى لا ينقطع فقال : ﴿**رب قد آتيتنى من الملك** ﴾ : « من » للتبعيض ، أى بعض الملك لأنه لم يؤت كل الملك ، إنما أوتى ملكًا خاصا ، وهو ملك مصر فى زمن خاص ﴿ **وعلمتنى من تأويل الأحاديث** ﴾ أى بعضها ، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل ، سواء أريد به مطلق العلم والفهم ، أو مجرد تأويل الرؤيا . وقيل : « من » للجنس ، كما فى قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : ٣٠] . وقيل : زائدة ، أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ منتصب على أنه صفة لرب ، لكونه منادى مضافًا ، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدر ، أى يافاطر ، والفاطر : الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع ﴿ **أنت وليى**﴾ أى ناصرى ومتولى أمورى ﴿ **فى الدنيا والآخرة** ﴾ تتولانى فيهما ﴿ **توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ أى توفنى على الإسلام لا يفارقنى حتى أموت ، وألحقنى بالصالحين من النبيين من آبائى وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ، ودرجاتهم عندك . وقيل : إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل . قيل : كان عمره عند أن ألقى فى الجب سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه ، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذى سيأتى وتوفاه الله . قيل : لم يتمن الموت أحد غير يوسف لانبى ولا غيره . وذهب الجمهور إلى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء ، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام ، ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله .

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : دخل يعقوب مصر فى ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة ، وعاش فى ملكه ثلاثين سنة ، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة . قال أبو هريرة : وبلغنى أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسًا وتسعين سنة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **آوى إليه أبويه** ﴾ قال : أبوه وأمه ضمهما . وأخرجا عن وهب قال : أبوه وخالته ، وكانت توفيت أم يوسف فى نفاس أخيه بنيامين . وأخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ قال : السرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن عدى بن حاتم فى قوله : ﴿ **وخروا له سجدا** ﴾ قال: كانت تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم ، وليس سجود عبادة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله . ﴿ **إن ربى لطيف لما يشاء** ﴾ قال : لطيف

ليوسف ، وصنع له حين أخرجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان ، وتحريشه على إخوته .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ما سأل نبى الوفاة غير يوسف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال : اشتاق إلى لقاء الله ، وأحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه ، وأن يلحقه بهم . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وألحقنى بالصالحين** ﴾ قال : يعنى : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : يعنى أهل الجنة .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره ﴿ **من أنباء الغيب** ﴾ و﴿ **نوحيه إليك** ﴾ خبر ثان ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذلك بمعنى : الذى ، ونوحيه إليك خبره ، أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك والمعنى : الإخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن هذا الذى قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التى كانت غائبة عن رسول الله ﷺ وأوحاه الله إليه وأعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحى شىء من ذلك ، وفيه تعريض بكفار قريش لأنهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جحودًا وعنادًا وحسدًا ، مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿ **إذ أجمعوا أمرهم** ﴾ إجماع الأمر : العزم عليه ، أى وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعا على إلقائه فى الجب وهم فى تلك الحالة ﴿ **يمكرون** ﴾ به أى بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به ، ويبغونه الغوائل . وقيل: الضمير ليعقوب ، أى يمكرون بيعقوب حين جاؤوه بقميص يوسف ملطخًا بالدم ، وقالوا : أكله الذئب .

وإذا لم يكن رسول الله ﷺ لديهم عند أن فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحى من الله سبحانه ، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكرًا لهذا: ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ أى وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو أكثر

الناس على العموم، ولو حرصت على هدايتهم وبالغت فى ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم ، يقال : حَرَصَ يَحْرِصُ مثل : ضَرَبَ يَضْرِبُ ، وفى لغة ضعيفة : حَرِصَ يَحرص مثل حَمِد يَحْمَدَ ، والحِرْص : طلب الشيء باجتهاد . قال الزجاج : ومعناه : وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم ؛ لأنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . قال ابن الأنبارى : إن قريشًا واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته فشرحهما شرحًا شافيًا وهو يأمل أن يكون ذلك سببًا لإسلامهم ؛ فخالفوا ظنه، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه اللهِ بقوله : ﴿ **وما أكثر الناس** ﴾ الآية.

﴿ **وما تسألهم عليه من أجر** ﴾ أى على القرآن وما تتلوه عليهم منه ، أو على الإيمان ، وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث ﴿ **من أجر** ﴾ من مال يعطونك إياه ، ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم ﴿ **إن هو** ﴾ أى القرآن ، أو الحديث الذى حدثهم به ﴿ **إلا ذكر للعالمين** ﴾ أى ما هو إلا ذكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم . ﴿**وكأين من آية فى السموات والأرض** ﴾ قال الخليل وسيبويه : والأكثرون أن ﴿**كأين**﴾ أصلها: أى ، دخل عليها كاف التشبيه لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الإفرادى وصار المجموع كاسم واحد بمعنى « كَمْ » الخبرية ، والأكثر إدخال «من» فى مميزه وهو يتميز عن الكاف لا عن أى كما فى مثلك رجلاً وقد مر الكلام على هذا مستوفى فى آل عمران ، والمعنى: كم من آية تدلهم على توحيد الله كائنة فى السموات من كونها منصوبة بغير عمد ، مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت ، وفى الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه ، وأنه الخالق لذلك ، الرزاق له ، المحيى والمميت ، ولكن أكثر الناس يمرون على هذه الآيات غير متأملين لها ، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ماتدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ﴿ **يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ وإن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة ، وهى التفكر والاعتبار والاستدلال ، وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع ﴿ **الأرض** ﴾ على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿ **يمرون عليها** ﴾، وقرأ السدى بنصب ﴿**الأرض**﴾ بتقدير فعل ، وقرأ ابن مسعود : « يمشون عليها » .

﴿ **ومايؤمن أكثرهم بالله** ﴾ أى وما يصدق ويقر أكثر الناس بالله مع كونه الخالق الرزاق المحيى المميت ﴿ **إلا وهم مشركون** ﴾ بالله يعبدون معه غيره ، كما كانت تفعله الجاهلية فإنهم مقرون بالله سبحانه ، وبأنه الخالق لهم ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [الزخرف : ٨٧] ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان:٢٥] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله﴾(١) [الزمر : ٣] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله المعتقدون فى الأموات بأنهم يقدرون على مالا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد

---

(١) فى المطبوعة : « إنما نعبدهم » .

القبور ، ولا ينافى هذا ما قيل من أن الآية نزلت فى قوم مخصوصين [١] ، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببًا لنزول الحكم .

﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله** ﴾ الاستفهام للإنكار ، والغاشية : ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى : ﴿ **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ [العنكبوت : ٥٥] وقيل : هى الساعة . وقيل : هى الصواعق والقوارع ، ولا مانع للحمل على العموم ﴿ **أو تأتيهم الساعة بغتة** ﴾ أى فجأة ، وانتصاب بغتة على الحال ، قال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة ، وهو قولهم : وقع أمر بغتة ، يقال : بغتهم الأمر بغتًا وبغتة إذا فاجأهم ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بإتيانه ، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف .

﴿ **قل هذه سبيلى** ﴾ أى قل يا محمد للمشركين : هذه الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها سبيلى ، أى طريقتى وسنتى فاسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلى ، وفسر ذلك بقوله : ﴿ **أدعو إلى الله على بصيرة** ﴾ أى على حجة واضحة ، والبصيرة : المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل ، والجملة فى محل نصب على الحال ﴿ **أنا ومن اتبعنى** ﴾ واهتدى بهدى ، قال الفراء : والمعنى : ومن اتبعنى يدعو إلى الله كما أدعو ، وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى الله ، أى الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده، والعمل بما شرعه لعباده ﴿ **وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ أى وقل يا محمد لهم: سبحان الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أندادًا . قال ابن الأنبارى : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ **أدعو إلى الله** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **على بصيرة أنا ومن اتبعنى** ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ قال : هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية يقول : وما كنت لديهم وهم يلقونه فى غيابة الجب ، وهم يمكرون بيوسف . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ **وكأين من آية** ﴾ قال : كم من آية فى السماء يعنى :شمسها وقمرها ونجومها وسحابها ، وفى الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ قال : سلهم من خلقهم ، ومن خلق السموات والأرض ، فسيقولون الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ قال :

---

(١) قيل : نزلت فى قوم أقروا بالله وعبدوا الأوثان وقيل : نزلت فى أهل كتاب آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ وقيل: نزلت فى تلبية مشركى العرب وقيل : نزلت فى المشبهة . وقيل : فى المنافقين وقيل : فى قصة الدخان. القرطبى ٥ / ٣٥٠١ ، ٣٥٠٢ .

كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم وكانوا مع ذلك يشركون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال : كانوا يشركون به فى تلبيتهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **غاشية من عذاب الله** ﴾ قال : وقيعة تغشاهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هذه سبيلى** ﴾ قل : هذه دعوتى . وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿ **قل هذه سبيلى**﴾ قال : صلاتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : أمرى ومشيئتى ومنهاجى . وأخرجا عن قتادة فى قوله : ﴿ **على بصيرة** ﴾ أى على هدى ﴿ **أنا ومن اتبعنى** ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا** ﴾ هذا رد على من قال : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : ٨] أى لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالاً لا ملائكة ، فكيف ينكرون إرسالنا إياك ؟ وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبيًا من النساء ولا من الجن ، وهذا يرد على من قال إن فى النساء أربع نبيات : حواء ، وآسية وأم موسى ، ومريم ، وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرًا معروفًا عند العرب ، حتى قال قيس بن عاصم فى سجاح المتنبئة :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم ... على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿ **نوحى إليهم** ﴾ كما نوحى إليك ﴿ **من أهل القرى** ﴾ أى المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ؛ ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلمًا وأجل فضلا ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ يعنى : المشركين المنكرين لنبوة محمد ﷺ ، أى أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب ﴿ **ولدار الآخرة خير للذين اتقوا** ﴾ أى لدار الساعة الآخرة ، أو

الحالة الآخرة على حذف الموصوف . وقال الفراء : إن الدار هى الآخرة ، وأضيف الشىء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة ، وصلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، والكلام فى ذلك مبين فى كتب الإعراب ، والمراد بهذه الدار : الجنة ، أى هى خير للمتقين من دار الدنيا ، وقرئ : «وللدار الآخرة » ، وقرأ نافع وعاصم ويعقوب : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب وقرأ الباقون بالتحتية .

﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ هذه الغاية لمحذوف دل عليه الكلام ، وتقديره : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك** ﴾ يا محمد إلا رجالاً ، ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاؤوا به بالعقوبة ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ من النصر بعقوبة قومهم ، أو ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ من إيمان قومهم لانهماكهم فى الكفر ﴿ **وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ قرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمى وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العطاردى وعاصم وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف ﴿ **كذبوا** ﴾ بالتخفيف أى ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا . وقيل : المعنى : ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعَوا من نصرهم . وقيل : المعنى : وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم ، أو كذبهم رجاؤهم للنصر ، وقرأ الباقون : « كذّبوا » بالتشديد ، والمعنى عليها واضح ، أى ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز فى هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى : أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاؤوا به من الوعد والوعيد . وقرأ مجاهد وحميد : « قد كَذَبوا » بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا . وقد قيل : إن الظن فى هذه الآية بمعنى اليقين ؛ لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظن منهم . والذى ينبغى أن يفسر الظن باليقين فى مثل هذه الصورة ويفسر بمعناه الأصلى فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة .

﴿ **جاءهم نصرنا** ﴾ أى فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة ، أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين ﴿ **فنجى من نشاء** ﴾ قرأ عاصم : ﴿**فنجى** ﴾ بنون واحدة وقرأ الباقون « فننجى » بنونين . واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ؛ لأنها فى مصحف عثمان كذلك . وقرأ ابن محيصن : « فنجا » على البناء للفاعل ، فتكون من على القراءة الأولى فى محل رفع على أنها فاعل ، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم ، وهلك المكذبون ، ﴿ **ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ عند نزوله بهم ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين .

﴿ **لقد كان فى قصصهم** ﴾ أى قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم ، أو فى قصص يوسف وإخوته وأبيه ﴿ **عبرة لأولى الألباب** ﴾ والعبرة : الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة . وقيل : هى نوع من الاعتبار ، وهى العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول .

وأولو الألباب : هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم ، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبى ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم ، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم ﴿ **ما كان حديثا يفترى** ﴾ أى ما كان هذا المقصوص الذى يدل عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثا يفترى ﴿ **ولكن تصديق الذى بين يديه**﴾ أى ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور وقرئ برفع : « تصديق » ؛ على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو تصديق ، وتفصيل كل شيء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها ؛ لأن الله سبحانه لم يفرط فى الكتاب من شيء . وقيل : تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع إخوته وأبيه . وقيل : وليس المراد به ما يقتضيه من العموم، بل المراد به الأصول والقوانين وما يؤول إليها ﴿ **وهدى** ﴾ فى الدنيا يهتدى به كل من أراد الله هدايته ﴿ **ورحمة** ﴾ فى الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح ، ولهذا قال : ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ أى يصدقون به وبما تضمنه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدى بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا** ﴾ قال: أى ليسوا من أهل السماء، كما قلتم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ قال : كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط ، وقوم صالح ، والأمم التى عذب الله ؟

وأخرج البخارى وغيره من طريق عروة ؛ أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ قال : قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ يعنى على هذه الكلمة مخففة أم مشددة ، فقالت : بل كُذِّبوا تعنى بالتشديد ، قلت : والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، فقلت : لعلها ، وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك (٢) .

---

(١) العمود : بفتح العين : الخشبة القائمة فى وسط الخباء ، والأخبية بيوت أهل البادية ، فقوله : أهل العمود يعنى : أهل البادية كما يدل عليه السياق .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٩٥) والنسائى فى التفسير (٢٧٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن أبى مليكة ؛ أن ابن عباس قرأها عليه : **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾** مخففة ، يقول : أخلفوا ، وقال ابن عباس : كانوا بشرًا ، وتلا : **﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾** [البقرة : ٢١٤] قال ابن أبى مليكة : وأخبرنى عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت: ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرؤها مثقلة [(١)] . وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبى ﷺ قرأ : **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾** مخففة . وأخرج أبو عبيدة وسعيد بن منصور والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : **﴿ قد كذبوا ﴾** مخففة قال : يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاؤوا به [(٢)] **﴿ جاءهم نصرنا ﴾** قال : جاء الرسل نصرنا .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ عن تميم بن حذلم [(٣)] قال : قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ على إلا حرفين **﴿ وكل [(٤)] أتوه داخرين ﴾** [النمل : ٨٧] فقال : أتوه مخففة . وقرأت عليه : **﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** فقال : **﴿ كذبوا ﴾** مخففة . قال : استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا . وأخرج ابن مردويه من طريق أبى الأحوص عنه قال : حفظت عن رسول الله ﷺ فى سورة يوسف : **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾** خفيفة وللسلف فى هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس « فننجى من نشاء » قال : فننجى الرسل ومن نشاء **﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾** وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم ، فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ، ومن عصاه عذب وغوى . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : **﴿ جاءهم نصرنا ﴾** العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدى **﴿ ولا يرد بأسنا ﴾** قال : عذابه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : **﴿ لقد كان فى قصصهم ﴾** قال : يوسف وإخوته. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ : **﴿ عبرة لأولى الألباب ﴾** قال : معروفة لذوى العقول . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة : **﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾** قال : الفرية : الكذب **﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾** قال : القرآن

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٢٤ ، ٤٥٢٥) .

(٢) النسائى فى التفسير (٢٧٧) وابن جرير ١٣ / ٥٤ .

(٣) تميم بن حذلم الضبى ، أبو سلمة الكوفى ، من أصحاب ابن مسعود أدرك أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . قال ابن سعد : « كان ثقة قليل الحديث» . (تهذيب التهذيب ١ / ٥١٢ ، ٩٥٢) .

(٤) فى المطبوعة : « كل » .

يصدق الكتب التى كانت قبله من كتب الله التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور ، ويصدق ذلك كله ، ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله ﴿ **وتفصيل كل شىء** ﴾ فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته .

تفسير سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هى مكية أو مدنية ؟ فروى النحاس فى ناسخه عن ابن عباس ؛ أنها نزلت بمكة . وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة . وممن ذهب إلى أنها مكية سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد ، وممن ذهب إلى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير والكلبى ومقاتل . وقول ثالث : أنها مدنية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكة . وهما قوله تعالى : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ . وقيل : قوله : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ وقد روى هذا عن ابن عباس أيضا وقتادة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة والمروزى فى الجنائز عن جابر بن زيد قال : كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد [١] . فإن ذلك يخفف عن الميت ، وإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **الـمر** ﴾ . قد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور بما يغنى عن الإعادة ، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، والتقدير على الأول : هذه السورة اسمها هذا ، والإشارة بقوله: ﴿ **تلك** ﴾ إلى آيات هذه السورة، والمراد بالكتاب : السورة أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن ، ويكون قوله :﴿ **والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ مرادًا به القرآن كله، أى هو الحق البالغ فى اتصافه بهذه الصفة ، أو تكون الإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن . ويكون قوله : ﴿ **والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ جملة مبينة

---

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٣٧ .

لكون هذا المنزل هو الحق . قال الفراء: ﴿والذى﴾ رفع بالاستئناف وخبره : ﴿ الحق ﴾ قال : وإن شئت جعلت ﴿ الذى ﴾ خفضًا نعتاً للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما فى قوله :

إلى المَلِكَ القَرْمِ وابن الهُمَامِ

ويجوز أن يكون محل ﴿ والذى أنزل إليك ﴾ الجر على تقدير: وآيات الذى أنزل إليك ، فيكون الحق على هذا خبرا لمبتدأ محذوف ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بهذا الحق الذى أنزله الله عليك . قال الزجاج : لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق فقال : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ﴾ والعمد : الأساطين جمع عماد ، أى قائمات بغير عمد تعتمد عليه ، وقيل : لها عمد ولكن لا نراه . قال الزجاج : العمد : قدرته التى يمسك بها السموات ، وهى غير مرئية لنا ، وقرئ : « عمد » على أنه جمع عمود يعمد به ، أى يسند إليه ، قال النابغة :

وخبر الجن أنى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد [(١)]

وجملة ﴿ ترونها ﴾ مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك . وقيل : هى صفة لعمد . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : رفع السموات ترونها بغير عمد ، ولا ملجئ إلى مثل هذا التكلف ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أى استولى عليه بالحفظ والتدبير ، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر فى موضعه من علم الكلام ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أى ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ، ومصالح العباد ﴿ كل يجرى لأجل مسمى ﴾ [(٢)] أى كل من الشمس والقمر يجرى إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التى تكوّر عندها الشمس ويخسف القمر ، وتنكدر النجوم وتنتثر . وقيل : المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى تنتهيان إليها لا يجاوزنها ، وهى سنة للشمس ، وشهر للقمر ﴿ يدبر الأمر ﴾ أى يصرفه على ما يريد ، وهو أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يفصل الآيات ﴾ أى يبينها ، وهى الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى ، والجملتان فى محل نصب على الحال أوخبران لقوله : ﴿ الله الذى رفع ﴾ على أن الموصول صفة للمبتدأ ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة ، ولذا قال : ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أى لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه ولا تمترون فى صدقه .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : ﴿ وهو الذى مد الأرض ﴾

(١) تَدْمُر : بلد قديمة مشهورة بالشام . زُعم أن الجن بنتها لسليمان عليه السلام ، وقيل : بل هى قبله . معجم البلدان٢/ ١٧ .

(٢) فى المخطوطة : « إلى أجل مسمى » .

قال الفراء : بسطها طولاً وعرضاً. وقال الأصم : إن المد : هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه ، وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافى كريتها فى نفسها لتباعد أطرافها ﴿**وجعل فيها رواسى**﴾ أى جبالاً ثوابت ، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت . والإرساء : الثبوت . قال عنترة :

فَصَبرت عـارِفةً لذلك حُرَّةً   تَرْسُو إذَا نَفْسُ الجَبَانِ تطـلع

وقال جميل :

أُحِبُّها والذى أرْسَى قواعِدَهُ   حَتَى إذا ظَهَرَتْ آياتُهُ بَطـنَا

﴿ **وأنهارا** ﴾ أى مياها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجارى الماء ﴿ **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** ﴾ من كل الثمرات متعلق بالفعل الذى بعده ، أى جعل فيها من كل الثمرات ﴿ **زوجين اثنين** ﴾ الزوج يطلق على الاثنين وعلى الواحد المزاوج لآخر ، والمراد هنا بالزوج الواحد ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين ، وقد تقدم تحقيق هذا مستوفى ، أى جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ، إما فى اللونية كالبياض والسواد ونحوهما ، أو فى الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو فى القدر كالصغر والكبر ، أو فى الكيفية كالحر والبرد .

قال الفراء : يعنى بالزوجين هنا : الذكر والأنثى ، والأول أولى ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ أى يلبسه مكانه فيصير أسود مظلمًا بعد ما كان أبيض منيرًا ، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التى تسترها ، وقد سبق تفسير هذه فى الأعراف ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أى فيما ذكر من مد الأرض وإثباتها بالجبال . وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة ، وتعاقب النور والظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين .

﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾ هذا كلام مستأنف يشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات ، قيل : وفى الكلام حذف ، أى قطع متجاورات ، وغير متجاورات ، كما فى قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] أى وتقيكم البرد . قيل: والمتجاورات : المدن وما كان عامرًا ، وغير المتجاورات : الصحارى وما كان غير عامر . وقيل : المعنى : متجاورات متدانيات ، ترابها واحد وماؤها واحد . وفيها زرع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضًا ، والبعض طيبًا والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر ﴿**وجنات من أعناب**﴾ والجنات : البساتين ، قرأ الجمهور برفع ﴿**جنات**﴾ على تقدير: وفى الأرض جنات ، فهو معطوف على قطع متجاورات. أو على تقدير: وبينها جنات . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير : وجعل فيها جنات ، وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل ، لأنه يكون فى الخارج كثيرًا كذلك ، ومثله فى قوله سبحانه : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ﴾ [الكهف: ٣٢] .

﴿ **صنوان وغير صنوان** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وحفص ﴿ **وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان** ﴾ برفع هذه الأربع عطفا على جنات، وقرأ الباقون بالجر عطفا على أعناب . وقرأ مجاهد والسلمى بضم الصاد من صنوان، وقرأ الباقون بالكسر ، وهما لغتان .

قال أبو عبيدة : صنوان جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحدًا ، ثم يتفرع فيصير نخلاً ، ثم يحمل ، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير . قال ابن الأعرابى : الصنو : المثل ومنه قوله ﷺ : « عم الرجل صنو أبيه » (١) ، فمعنى الآية على هذا : أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون . قال فى الكشاف : والصنوان جمع صنو وهى النخلة لها رأسان وأصلها واحد . وقيل : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق .قال النحاس : وهو كذلك فى اللغة ، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر : صنوان ، والصنو: المثل ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون فى المثنى ، وبما يقتضيه الإعراب فى الجمع .

﴿ **يسقى بماء واحد** ﴾ قرأ عاصم وابن عامر :﴿ **يسقى** ﴾ بالتحتية ، أى يسقى ذلك كله ، وقرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو . قال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله : ﴿ **ونفضل بعضها على بعض فى الأكل** ﴾ ولم يقل : بعضه. وقرأ حمزة والكسائى: « يفضل » بالتحتية كما فى قوله: ﴿ **يدبر الأمر يفصل الآيات** ﴾ وقرأ الباقون بالنون على تقدير : ونحن نفضل .

وفى هذا من الدلالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل ؛ فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل فى الثمرات فى الأكل ، فيكون طعم بعضها حلوًا والآخر حامضًا، وهذا فى غاية الجودة وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق فى حسنه ، وهذا غير فائق ، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون فى نظر العقلاء إلا لسببين : إما اختلاف المكان الذى هو المنبت، أو اختلاف الماء الذى تسقى به ، فإذا كان المكان متجاورًا ، وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذى تسقى به واحدًا ، لم يبق سبب للاختلاف فى نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب . ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أى يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر فى المخلوقات والاعتبار فى العبر الموجودات .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **المر** ﴾ قال : أنا الله

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ ومسلم فى الزكاة (٩٨٣ / ١١) وأبو داود فى الزكاة (١٦٢٣) والترمذى فى المناقب (٣٧٦١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه من حديث أبى الزناد إلا من هذا الوجه » ، كلهم عن أبى هريرة .

أرى. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **الـمر** ﴾ فواتح يفتتح بها كلامه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : التوراة والإنجيل ﴿ **والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **رفع السموات** [1] **بغير عمد ترونها** ﴾ قال : وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : يقول لها عمد ولكن لا ترونها .يعنى الأعماد . وأخرج ابن جرير عن إياس بن معاوية فى الآية قال : السماء مقببة على الأرض مثل القبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك ، كل زاوية موكل بها ملك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى قوله ﴿ **لأجل مسمى** ﴾ قال : الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يدبر الأمر**﴾ قال : يقضيه وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن عمرو قال : الدنيا مسيرة خمسمائة عام ؛ أربعمائة خراب ، ومائة عمران ، فى أيدى المسلمين من ذلك مسيرة سنة . وقد روى عن جماعة من السلف فى ذلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصح .

وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : لما خلق الله الأرض قمصت . وقالت : أى رب ، تجعل علىّ بنى آدم يعملون علىّ الخطايا ويجعلون علىّ الخبث ، فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون ، فكان إقرارها كاللحم ترجرج. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ أى يلبس الليل النهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾ قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التى يخرج نباتها بإذن ربها ، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التى لا تخرج ، وهما أرض واحدة ، وماؤها شىء واحد ، ملح أو عذب ففضلت إحداهما على الأخرى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: قرئ : « متجاورات قريب بعضها من بعض » .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : الأرض تنبت حلوًا ، والأرض تنبت حامضًا ، وهى متجاورات تسقى بماء واحد .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ **صنوان وغيرصنوان** ﴾ قال : الصنوان: ما كان أصله واحدًا وهو متفرق ، ﴿ **وغيرصنوان** ﴾ التى تنبت وحدها. وفى لفظ : صنوان : النخلة فى النخلة ملتصقة ، وغير صنوان : النخل المتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **صنوان** ﴾ قال: مجتمع النخل فى أصل واحد ﴿ **وغير صنوان** ﴾ قال:

(١) فى المخطوطة : « السماء » .

النخل المتفرق . وأخرج الترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **ونفضل بعضها على بعض فى الأكل** ﴾ قال: « الدقل ، والفارسى ، والحلو ، والحامض » [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هذا حامض ، وهذا حلو، وهذا دقل ، وهذا فارسى .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم** ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغير النفس بشىء تخفى أسبابه وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه . قال الزجاج : أى هذا موضوع عجب أيضا أنهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل فى القدرة . وقيل : الآية فى منكرى الصانع، أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لابد له من مغير ، فهو محل التعجب ، والأول أولى لقوله : ﴿ **أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد**﴾ وهذه الجملة فى محل رفع على البدلية من ﴿**قولهم**﴾ ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على أنها مقول القول ، والعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك ، والعامل فى « أإذا » [(٢)] يفيده قوله : ﴿ **أإنا لفى خلق جديد** ﴾ وهو نبعث أو نعاد . والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد ، وتقديم

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ١٣/ ٦٩ وفى إسناده سيف بن محمد الثورى قال عنه البخارى : «ضعفه أحمد » التاريخ الكبير ٤/ ١٧٢ . روى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال : « كذاب » . وقال أبو حاتم : « لا يكتب حديثه » وعن ابن معين : « كذاب » وقال النسائى: « ضعيف ». وقال الدارقطنى وغيره :«متروك » ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) راجع ما كتبه ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية ١٣/ ٦٩ ، ٧٠ .

الظرف فى قوله: ﴿ **لفى خلق** ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث،وكذلك تكرير الهمزة فى قوله:« أإنا ». ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة : الأول : ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم** ﴾ أى أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث،هم المتمادون فى الكفر الكاملون فيه . والثانى : ﴿ **وأولئك الأغلال فى أعناقهم** ﴾ الأغلال : جمع غل ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق ، أى يغلون بها يوم القيامة . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق . والثالث : ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفى توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكرى البعث .

﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ السيئة : العقوبة المهلكة . والحسنة : العافية والسلامة . قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم وتهالكهم على الكفر . وقيل : معنى الآية : أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة، وهى الإيمان ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾ قرأ الجمهور « مَثُلات » بفتح الميم وضم المثلثة جمع مثلة كسمرة، وهى العقوبة. قال ابن الأنبارى : المثلة : العقوبة التى تبقى فى المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم : مثل فلان بفلان :إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه . وقرأ الأعمش بفتح الميم وإسكان المثلثة تخفيفا لثقل الضمة . وفى لغة تميم بضم الميم والمثلثة جميعًا، واحدتها على لغتهم مُثْلة بضم الميم وسكون المثلثة مثل غُرْفة وغُرُفات . وحكى عن الأعمش فى رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم . والمعنى أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم ، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لا يعتبرون بهم ، ويحذرون من حلول ما حل بهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] ﴿**وإن ربك لذو مغفرة** ﴾ أى لذو تجاوز عظيم ﴿**للناس على ظلمهم** ﴾ أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم فى المعاصى إن تابوا عن ذلك ، ورجعوا إلى الله سبحانه ، والجار والمجرور أى على ظلمهم فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم ظالمين ، و« على » بمعنى : « مع » أى مع ظلمهم ، وفى الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير ؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائبًا ، ولهذا قيل : إنها فى عصاة الموحدين خاصة . وقيل : المراد بالمغفرة هنا: تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية . وهى ﴿ **وإن ربك لشديد العقاب** ﴾ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقابًا شديدًا على ما تقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة .

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ أى هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات ، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب . قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ، فقال الله تعالى:﴿ **إنما أنت منذر**﴾ تنذرهم بالنار وليس إليك من الآيات شىء . انتهى . وهذا مكابرة من الكفار وعناد ، وإلا فقد

أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغنى البعض منه ، وجاء فى ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾ بصيغة الحصر لبيان أنه ﷺ مرسل لإنذار العباد ، وبيان ما يحذرون عاقبته ، وليس عليه غير ذلك وقد فعل ما هو عليه ، وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئا مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره ، فجزاه الله عن أمته خيرًا .

﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ أى نبى يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم ، وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة . هذا يأتى بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت إلى مكان عظيم ، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لا يختص بفرد منها ولا بأفراد معينة ، وقيل : إن المعنى : ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ وهو الله ـ عز وجل ـ فإنه القادر على ذلك ، وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار .

﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه ، وعلمه بالغيب الذى هذه الأمور المذكورة منه . قيل : ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبرًا لمبتدأ محذوف ، أى ولكل قوم هاد وهو الله . وجملة ﴿ **يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ تفسير لهاد على الوجه الأخير وهذا بعيد جدا ، و« ما » موصولة ، أى يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة ، أو مضغة أو ذكر أو أنثى ، أو صبيح أو قبيح ، أو سعيد أو شقى ، ويجوز أن تكون استفهامية ، أى يعلم أى شىء فى بطنها ، وعلى أى حال هو . ويجوز أن تكون مصدرية ، أى يعلم حملها . ﴿ **وما تغيض الأرحام وما تزداد** ﴾ الغيض : النقص ، أى يعلم الذى تغيضه الأرحام ، أى تنقصه ، ويعلم ما تزداده ، فقيل : المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص إصبع أو زيادتها . وقيل : إن المراد نقص مدة الحمل على تسعة أشهر ، أو زيادتها. وقيل : إذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصًا فى ولدها . وقيل : الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، و « ما » فى : ﴿ **ما تغيض** ﴾ ، ﴿**وما تزداد** ﴾ تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدمة فى: ﴿ **ما تحمل كل أنثى** ﴾ ، ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار**﴾ أى كل شىء من الأشياء التى من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار ، والمقدار : القدر الذى قدره الله .

وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : ٤٩] أى كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذى قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شىء .

﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر ، أو كل معدوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك ﴿ **الكبير المتعال** ﴾ أى العظيم الذى كل شىء دونه ، المتعالى عما يقوله المشركون ، أو المستعلى على كل شىء بقدرته وعظمته وقهره .

ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شيء منها ، بين أنه عالم بما يسرونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به** ﴾ فهو يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر ، وقوله : ﴿ **منكم** ﴾ متعلق بسواء على معنى : يستوى منكم من أسر ومن جهر أو سر من أسر وجهر من جهر ﴿ **ومن هو مستخف بالليل** ﴾ أى مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل متوار عن الأعين ، يقال: خفى الشيء واستخفى ، أى استتر وتوارى ﴿**وسارب بالنهار** ﴾ قال الكسائى : سَرَبَ يَسْرُبُ سُرُبًا وسُرُوبًا : إذا ذهب، ومنه قول الشاعر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أى ذهب . وقال القتيبى : سارب بالنهار متصرف فى حوائجه بسرعة من قولهم : أسرب الماء . قال الأصمعى : حل سربه ، أى طريقته ، وقال الزجاج : معنى الآية : الجاهر بنطقه والمضمر فى نفسه ، والظاهر فى الطرقات والمستخفى فى الظلمات علم الله فيهم جميعًا سوى ، وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفى والسارب ، فالمستخفى : المستتر ، والسارب : البارز الظاهر .

﴿ **له معقبات** ﴾ الضمير فى « له » راجع إلى « من » فى قوله : ﴿ **من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف** ﴾ أى لكل من هؤلاء معقبات ، والمعقبات :المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ، ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض ، وإنما قال : معقبات مع كون الملائكة ذكورًا ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها : معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات ، ذكر معناه الفراء . وقيل : أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة. قال الجوهرى : والتعقب العود بعد البدء ، قال الله تعالى : ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ [النمل: ١٠] وقرئ : « معاقيب » جمع معقب ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أى من بين يدى من له المعقبات ، والمراد : أن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه . وقيل : المراد بالمعقبات : الأعمال ، ومعنى ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ : ما تقدم منها وما تأخر .

﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾ أى من أجل أمر الله ، وقيل : يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب . قال الفراء : فى هذا قولان : أحدهما : أنه على التقديم والتأخير. تقديره : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، والثانى: أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به . قال الزجاج : المعنى : حفظهم إياه من أمر الله أى مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله . قال ابن الأنبارى : وفى هذا قول آخر وهو أن « من » بمعنى الباء ، أى يحفظونه بأمر الله . وقيل : إن « من » بمعنى عن ، أى يحفظونه عن أمر الله ، بمعنى من عند الله ، لا من عند أنفسهم كقوله: ﴿أطعمهم من جوع ﴾ [قريش : ٤] أى عن جوع . وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب . وقيل : يحفظونه من

الجن . واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب بين أيدى الأمراء على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم** ﴾ من النعمة والعافية ﴿ **حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ من طاعة الله، والمعنى: أنه لا يسلب قومًا نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذى بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة أو يغيروا الفطرة التى فطرهم الله عليها ، قيل: وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما فى الحديث إنه سأل رسول الله ﷺ سائل فقال : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال :« نعم إذا كثر الخبث » [(١)] . ﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءا** ﴾ أى هلاكًا وعذابًا ﴿ **فلا مرد له** ﴾ أى فلا رد له . وقيل : المعنى : إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى قلوبهم ؛ حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿ **وما لهم من دونه من وال** ﴾ يلى أمرهم ويلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من اللّه سبحانه من العقاب ، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله ، والمعنى : أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقص لحكمه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم** ﴾ قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم ، وهم رأوا من قدرة الله وأمره ، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿ **فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد** ﴾ أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام ؟

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾ قال : العقوبات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى ﴿**المثلات**﴾ قال : وقائع الله فى الأمم فيمن خلا قبلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :﴿ **المثلات**﴾ ما أصاب القرون الماضية من العذاب. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ نبى يدعوهم إلى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : محمد المنذر ، والهادى الله ـ عز وجل .وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادى .وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبى الضحى نحوه . وأخرج ابن

(١) سبق تخريجه .

جرير وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والديلمى وابن عساكر وابن النجار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: « أنا المنذر » ، وأومأ بيده إلى منكب على فقال : « أنت الهادى يا على ، بك يهتدى المهتدون من بعدى » [(١)] ، قال ابن كثير فى تفسيره: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر عن على بن أبى طالب فى الآية نحوه أيضًا [(٣)] .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ قال : كل أنثى من خلق الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يعلم ذكرًا هو أو أنثى . ﴿ **وما تغيض الأرحام**﴾ قال: هى المرأة ترى الدم فى حملها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾ قال: خروج الدم ، ﴿ **وما تزداد** ﴾ قال : استمساكه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾ قال : أن ترى الدم فى حملها ﴿ **وما تزداد** ﴾ قال : فى التسعة أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه فى الآية قال : ما تزداد على تسعة ، وما تنقص من التسعة . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى الآية: ﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾ قال : السقط ﴿**وما تزداد** ﴾ : ما زادت فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله ، وكل ذلك بعلمه تعالى .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ قال : السر والعلانية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **ومن هو مستخف بالليل** ﴾ قال : راكب رأسه فى المعاصى. ﴿ **وسارب بالنهار** ﴾ قال : ظاهر بالنهار بالمعاصى . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿**وسارب بالنهار** ﴾ قال : الظاهر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(١) ابن جرير ١٣/ ٧٢ وفى سنده الحسن بن الحسين الأنصارى العرفى كان من رؤساء الشيعة . قال عنه أبو حاتم : « لم يكن بصدوق عندهم » . وقال ابن عدى : « لا يشبه حديثه حديث الثقات . . وقد رواه عن معاذ بن مسلم وهو نكرة فلعل الآفة منه » . ميزان الاعتدال ١/ ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٢) ابن كثير ٤/ ٧٠ .

(٣) صححه الحاكم موقوفا ٣/ ١٣٠ ، وقال الذهبى : « بل كذب قبح الله واضعه » وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٤ : « رواه عبد الله بن أحمد والطبرانى فى الصغير والأوسط ورجال المسند ثقات ، ولم يسم عليا » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل من طريق عطاء بن يسار، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس على رسول الله ﷺ فى القصة المشهورة وأنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدة نزل قوله تعالى : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ إلى قوله: ﴿ **معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ قال : المعقبات من أمر الله يحفظون محمدًا ﷺ ، ثم ذكر أربد بن قيس وما قتله فقال : ﴿ **هو الذى يريكم البرق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ (١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ **معقبات** ﴾ الآية قال:هذه للنبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾ قال : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿ **من أمر الله** ﴾ قال : بإذن الله . وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : ولى السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، يقول : يحفظونه من أمرى ، فإنى إذا أردت بقوم سوءًا فلا مرد له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، يحفظونه من القتل ، ألم تسمع أن الله يقول : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له** ﴾ أى إذا أراد الله سوءًا لم يغن الحرس عنه شيئًا . وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى الآية قال : هؤلاء الأمراء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن على فى الآية قال : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط ، أو ينزوى فى بئر ، أو يأكله سبع ، أو غرق أو حرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر . وقد ورد فى ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة فى كتب الحديث .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ

---

(١) الطبرانى (١٠٧٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفى إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف».

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ .

لما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له ، أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ، ويخاف من بعضها ، وهى البرق ، والسحاب ، والرعد ، والصاعقة ، وقد مر فى أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها . وقد اختلف فى وجه انتصاب ﴿**خوفا وطمعا**﴾ فقيل على المصدرية ، أى لتخافوا خوفًا ولتطمعوا طمعًا . وقيل : على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع، لئلا يختلف فاعل الفعل المعلل وفاعل المفعول له ، أو على الحالية من البرق ، أو من المخاطبين بتقدير ذوى خوف . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه . قيل : والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق ، وبالطمع هو الحاصل فى المطر ، وقال الزجاج : الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر ؛ لأنه إذا رأى البرق طمع فى المطر ، الذى هو سبب الخصب ﴿**وينشئ السحاب الثقال**﴾ التعريف للجنس ، والواحدة سحابة ، والثقال : جمع ثقيلة ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التى ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها من الماء .

﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾ أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله ، أى متلبسًا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ [الإسراء : ٤٤] وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له ، وعناية به وقيل : المراد : ويسبح سامعو الرعد ، أى يقولون : سبحان الله والحمد لله . ﴿ **والملائكة من خيفته** ﴾ أى ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه . وقيل : من خيفة الرعد ، وقد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد ، وأن الله سبحانه جعل له أعوانًا ﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** ﴾ من خلقه فيهلكه، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذى سيقت له الآيات التى قبلها وهى الدلالة على كمال قدرته ﴿ **وهم يجادلون فى الله** ﴾ الضمير راجع إلى الكفار ، المخاطبين فى قوله : ﴿ **هو الذى يريكم البرق** ﴾ أى وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التى أراهم الله يجادلون فى شأن الله

سبحانه فينكرون البعث تارة ، ويستعجلون العذاب أخرى ، ويكذبون الرسل ويعصون الله ، وهذه الجملة فى محل نصب على الحال ويجوز أن تكون مستأنفة .

﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ قال ابن الأعرابى: المحال: المكر ، والمكر من الله: التدبير بالحق . وقال النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . وقال الأزهرى : المحال : القوة والشدة ، والميم أصلية وماحلت فلانا محالاً أينا أشد . وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه . قال الزجاج : يقال : ماحلته محالاً : إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد والْمَحْلُ فى اللغة : الشدة . وقال ابن قتيبة : أى شديد الكيد . وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان ، وأصله من الكون ، ثم يقال : تمكنت . قال الأزهرى : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة، بل هى أصلية ، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهى أصلية ، مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف . وقرأ الأعرج : « وهو شديد المحال » بفتح الميم . وقد فسرت هذه القراءة بالحول . وللصحابة والتابعين فى تفسير المحال هنا أقوال ثمانية : الأول : العداوة. الثاني: الحول. الثالث: الأخذ . الرابع : الحقد. الخامس: القوة . السادس : الغضب. السابع : الهلاك . الثامن : الحيلة .

﴿ **له دعوة الحق** ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة ، أى الدعوة الملابسة للحق المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه ، كما يقال : كلمة الحق ، والمعنى : أنها دعوة مجابة واقعة فى موقعها ، لا كدعوة من دونه . وقيل : الحق هو الله سبحانه ، والمعنى : أن لله سبحانه دعوة المدعو الحق ، وهو الذى يسمع فيجيب . وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا : كلمة التوحيد والإخلاص ، والمعنى : لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له . وقيل : دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه﴾ [الإسراء :٦٧] . وقيل : الدعوة : العبادة فإن عبادة الله هى الحق والصدق . ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء** ﴾ أى والآلهة الذين يدعونهم ـ يعنى الكفار ـ من دون الله ـ عز وجل ـ لا يستجيبون لهم بشىء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه ؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ، ولا يدرى أنه طلب منه أن يبلغ فاه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وما هو** ﴾ أى الماء ﴿ **ببالغه** ﴾ أى ببالغ فيه . قال الزجاج : إلا كما يستجاب للذى يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه ، والماء لا يستجيب . أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه ، وما الماء ببالغه . وقيل : المعنى : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل فى كفه شىء منه . وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء كما قال الشاعر [1] :

---

(١) هو الأحوص : عبد الله بن محمد بن عبد الله ، شاعر أموى ، عاصر جريراً والفرزدق ، مات فى عهد يزيد ابن عبد الملك ، شاعر هجاء وغزل . الأعلام ٤/ ١١٦ .

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِى وَبَيْنَها　　　مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ المَاءَ بِاليَدِ

وقال الآخر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض　　　على الماء خانته فروج الأصابع

وقال الفراء : إن المراد بالماء هنا ماء البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء . ضرب الله سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الأصنام . ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئًا ، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه ، بل هو ضائع ذاهب .

﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها** ﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقى ، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل ، فذلك ظاهر فى المؤمنين والملائكة ومسلمى الجن . وأما فى الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا فى حقهم فلابد أن يحمل السجود المذكور فى الآية على معنى : حق لله السجود ووجب ، حتى يناول السجود بالفعل وغيره ، أو يفسر للسجود بالانقياد ، لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله فهم منقادون لأمره، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى ، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله: ﴿ **طوعا وكرها** ﴾ فإن الكفار ينقادون كرهًا كما ينقاد المؤمنون طوعًا وهما منتصبان على المصدرية ، أى انقياد طوع وانقياد كره، أو على الحال ، أى طائعين وكارهين . وقال الفراء : الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعًا، وبعض الكفار يسجدون إكراهًا وخوفًا كالمنافقين ، فالآية محمولة على هؤلاء . وقيل : الآية فى المؤمنين ، فمنهم من سجد طوعًا لا يثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيمانًا بالله وإخلاصاً له .

﴿ **وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ وظلالهم : جمع ظل . والمراد به : ظل الإنسان الذى يتبعه . جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازمًا له لا ينفك عنه . قال الزجاج وابن الأنبارى : ولا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهامًا تسجد بها لله سبحانه ، كما جعل للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعًا ، وظل الكافر يسجد لله كرهًا . وخص الغدو والآصال بالذكر ؛ لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وهما ظرف للسجود المقدر ، أى ويسجد ظلالهم فى هذين الوقتين ، وقد تقدم تفسير الغدو والآصال فى الأعراف . وفى معنى هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم داخرون ﴾ [النحل : ٤٨] وجاء بمن فى ﴿ **من فى السموات والأرض** ﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم ولكون سجود غيرهم تبعًا لسجودهم ، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم ﴿ **لله** ﴾ على الفعل من الاختصاص ، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم ، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله فى الأمور التى يقرون على أنفسهم بأنها من الله كالخلق والحياة والموت ، ونحو ذلك .

﴿ قل من رب السموات والأرض ﴾ : أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار : من رب السموات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه فى قوله : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ [الزخرف : ٩] . وقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف : ٨٧] أمر رسوله ﷺ أن يجيب فقال : ﴿ قل الله ﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه ، لأنهم ربما تلعثموا فى الجواب حذراً مما يلزمهم ، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال : ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ والاستفهام للإنكار ، أى إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله : ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ [المؤمنون: ٨٦] يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لأنفسهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً ، وأمر رسوله ﷺ أن يقوله لهم. فقال : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ﴾ أى هل يستوى الأعمى فى دينه وهو الكافر، والبصير فيه وهو الموحد . فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه ، والثانى عالم بذلك . قرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش ، وحمزة والكسائى : « أم هل يستوى الظلمات والنور » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد . والمراد بالظلمات : الكفر ، وبالنور : الإيمان ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير ، وما بين الظلمات والنور ؟ ووحد النور وجمع الظلمات ؛ لأن طريق الحق واحدة لا تختلف وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة (١) .

﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ﴾ « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، والاستفهام لإنكار الوقوع . قال ابن الأنبارى : معناه : أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، أى ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم ، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المتفرد بالخلق ، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً ، وجملة : ﴿ خلقوا كخلقه ﴾ فى محل نصب صفة لشركاء ، والمعنى : أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه ﴿ فتشابه ﴾ بهذا السبب ﴿الخلق عليهم﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها ، وهى بمعزل عن أن تكون كذلك . ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم إلى الصواب فقال : ﴿ قل الله خالق كل شىء ﴾ كائنا ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه . قال الزجاج : والمعنى : أنه خالق كل شىء مما يصح أن يكون مخلوقاً ترى أنه تعالى خالق كل شىء وهو غير مخلوق ﴿ وهو الواحد ﴾ أى المتفرد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب .

---

(١) فى المطبوعة : « محصرة » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه ، وللباطل ومنتحليه فقال : ﴿ **أنزل من السماء ماء** ﴾ أى من جهتها ، والتنكير للتكثير أو للنوعية ﴿ **فسالت أودية**﴾ جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما . قال أبو على الفارسى : لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا ، وكأنه حمل على فعيل فجمع على أفعلة مثل جريب وأجربة ، كما أن فعيلاً حمل على فاعل ، فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام ، وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار فى صاحب وناصر . قال : وفى قوله : ﴿ **فسالت أودية** ﴾ توسع ، أى سال ماؤها ، قال : ومعنى ﴿**بقدرها** ﴾ : بقدر مائها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. قال الواحدى :والقدر مبلغ الشىء ، والمعنى : بقدرها من الماء فإن صغر الوادى قل الماء، وإن اتسع كثر ، وقال فى الكشاف : ﴿ **بقدرها** ﴾ : بمقدارها الذى يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار. قال ابن الأنبارى : شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر وشبه الأودية بالقلوب ، إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان فى قلوب المؤمنين .

﴿ **فاحتمل السيل زبدا رابيا** ﴾ الزبد : هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له: الغثاء والرغوة، والرابى: العالى المرتفع فوق الماء . قال الزجاج : هو الطافى فوق الماء ، وقال غيره : هو الزائد بسبب انتفاخه ، من ربا يربو : إذا زاد ، والمراد من هذا : تشبيه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادى وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، وقد تم المثل الأول ، ثم شرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال : ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار** ﴾ « من » لابتداء الغاية ، أى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء ، أوللتبعيض، بمعنى : وبعضه زبد مثله. والضمير للناس ، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ، هذا على قراءة ﴿ **يوقدون** ﴾ بالتحتية ، وبها قرأ حميد وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وحفص ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، والمعنى : ومما توقدون عليه فى النار فيذوب من الأجسام المنطرقة الذائبة .

﴿ **ابتغاء حلية** ﴾ أى لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة ﴿ **أو متاع**﴾ أى وطلب متاع تتمتعون به من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص ﴿ **زبد مثله** ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير فى﴿ **مثله** ﴾ يعود إلى ﴿ **زبدا رابيا** ﴾ وارتفاع ﴿ **زبد** ﴾على الابتداء وخبره ﴿ **مما يوقدون** ﴾ ، ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل**﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل ثم شرع فى تقسيم المثل فقال :﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ يقال : جفأ الوادى بالهمز جفاء: إذا رمى بالقذر والزبد. قال الفراء : الجفاء : الرمى، يقال : جفأ الوادى غثاء جفاء : إذا رمى به ، والجفاء بمنزلة الغثاء ، وكذا قال أبو عمرو بن العلاء وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ :« جفالاً » . قال أبو عبيدة: يقال: أجفلت القدر: إذا قذفت بزبدها ، وأجفلت الريح السحاب : إذا قطعته ، قال أبو حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة

لأنه كان يأكل الفأر .

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين فى الزبد الذى يحمله السيل ، والزبد الذى يعلو الأجسام المنطرقة ، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبدًا رابياً فوقه ، وكذلك ما يوقد عليه فى النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة، فإن أصله من المعادن التى تنبت فى الأرض فيخالطها التراب ، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذى خالطها خبثًا مرتفعًا فوقها .

﴿ **وأما ما ينفع الناس** ﴾ منهما وهو الماء الصافى ، والذائب الخالص من الخبث ﴿ **فيمكث فى الأرض** ﴾ أى يثبت فيها ، أما الماء فإنه يسلك فى عروق الأرض فتنتفع الناس به ، وأما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة . وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل ، يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل ، وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل ، وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث فى الأرض، وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصًا لا شوب فيه وهو مثل الحق . قال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده، ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب ، وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعًا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به ، وقد حكينا عن ابن الأنبارى فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً ضربه الله للقرآن . ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال فى كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم ، وهذا تأكيد لقوله :﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل** ﴾ .

ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده فقال فيمن ضرب له مثل الحق : ﴿ **للذين استجابوا لربهم** ﴾ أى أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه ، و ﴿ **الحسنى** ﴾ صفة موصوف محذوف ، أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل : ﴿ **والذين لم يستجيبوا** ﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه، والموصول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية وهى : ﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعا** ﴾ من أصناف الأموال التى يتملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شىء ﴿**ومثله معه** ﴾ أى مثل ما فى الأرض جميعا كائناً معه ومنضما إليه ﴿ **لافتدوا به** ﴾ أى بمجموع ما ذكر وهو ما فى الأرض ومثله ، والمعنى : ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم، ثم بين الله سبحانه ما أعده لهم فقال : ﴿ **أولئك** ﴾ يعنى : الذين لم يستجيبوا ﴿ **لهم سوء الحساب** ﴾ قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم . وقال غيره : سوء الحساب المناقشة فيه. وقيل : هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شىء ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أى مرجعهم

إليها ﴿ وبئس المهاد ﴾ أى المستقر الذى يستقرون فيه، والمخصوص بالذم محذوف .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ﴾ قال : خوفًا للمسافر يخاف أذاه ومشقته وطمعًا للمقيم يطمع فى رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : خوفًا لأهل البحر ، وطمعًا لأهل البر . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : الخوف ما يخاف من الصواعق ، والطمع : الغيث . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى سننه من طرق عن على بن أبى طالب قال : البرق : مخاريق من نار بأيدى ملائكة السحاب يزجرون به السحاب . وروى عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه. ولعلنا قد قدمنا فى سورة البقرة شيئًا من ذلك .

وأخرج أحمد عن شيخ من بنى غفار قد صحب رسول الله ﷺ قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الله ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك » (١). قيل: والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق ، وقد ثبت عند أحمد والترمذى ، والنسائى فى اليوم والليلة ، والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك » (٢). وأخرج العقيلى وضعفه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ :« ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شىء أحسن من ضحكه ، ولا شىء أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق » . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؛ أن خزيمة بن ثابت، وليس بالأنصارى ، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال : « إن ملكًا موكلا يلم القاصية ويلحم الدانية ، فى يده مخراق ، فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب ضعقت » .

وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه، وأبو نعيم فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ [يوسف : ٦٦] قال : « هاتوا » ، قالوا : أخبرنا عن علامة النبى ؟ قال : « تنام عيناه ولا ينام قلبه» ، قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : «يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت » . قالوا : أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يشتكى عرق النساء ، فلم يجد شيئا

(١) أحمد ٥/ ٤٣٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢١٦ : « ورجال أحمد رجال الصحيح » .
(٢) أحمد ٢/ ١٠٠ والترمذى فى الدعوات (٣٤٥٠) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ». وصححه الحاكم ٤/ ٢٨٦ ووافقه الذهبى .

يلائمه إلا ألبان كذا وكذا ـ يعنى الإبل ـ فحرم لحومها » . قالوا : صدقت ، قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : « ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من النار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله » . قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : « صوته » . قالوا : صدقت إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا ، إنه ليس من نبى إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : « جبريل » . قالوا: جبريل ذاك ينزل بالخراب والقتال والعذاب ، عدونا ، لو قلت : ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر ، لكان . فأنزل الله : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾[1] إلى آخر الآية [البقرة: ٩٧] .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى الدنيا فى المطر ، وابن جرير عن ابن عباس؛ أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذى سبَّحت له [2] . وقال : إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه ، وقد روى مثل هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة : إن الرعد صوت الملك. وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد ، وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه ، فتخرج الصواعق من بينه. وأخرج ابن أبى حاتم والخرائطى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى عمران الجونى قال : إن بحورا من نار دون العرش يكون منها الصواعق . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : الصواعق نار. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ قال : شديد القوة. وأخرج ابن جرير عن على قال: شديد الأخذ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه فى قوله: ﴿ **له دعوة الحق** ﴾ قال : التوحيد : لا إله إلا الله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **دعوة الحق** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ **إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** ﴾ قال : كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : هذا مثل المشرك الذى عبد مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذى ينظر إلى خياله فى الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه .

وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ قال : المؤمن والكافر. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أنزل**

---

(١) أحمد ١/ ٢٧٤ والترمذى فى التفسير (٣١١٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » . والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٢) .

(٢) البخارى فى الأدب المفرد (٧٢٢) وابن جرير ١٣/ ٨٣ .

من السماء ماء ﴾ الآية ، قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل وأما اليقين فينفع الله به أهله . وهو قوله : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ وهو الشك ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك .

وأخرج هؤلاء عنه أيضا ﴿ **فسالت أودية بقدرها** ﴾ قال: الصغير قدر صغره، والكبير قدر كبره.

﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)** ﴾ .

الهمزة فى قوله : ﴿ **أفمن يعلم** ﴾ للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزل الله سبحانه إلى رسوله ﷺ من الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن ، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ، فإن الحال بينهما متباعد جدًا كالتباعد الذى بين الماء والزبد ، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام ، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة فقال : ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ ..

ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة فقال : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله** ﴾ أى بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم ، أو فيما بينهم وبين العباد ﴿ **ولا ينقضون الميثاق** ﴾ الذى وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالأيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها ، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه ، التى وصى بها عبيده ، ويدخل فى ذلك الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه ، ويراد بالميثاق : ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم فى عالم الذر المذكور فى قوله سبحانه : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم ﴾ الآية [الأعراف : ١٧١] .

﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أوليا ، وقد

قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك (١) . ﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل ﴿ **ويخافون سوء الحساب** ﴾ وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش الحساب عذب (٢) ، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ قيل : هو كلام مستأنف . وقيل : معطوف على ما قبله ، والتعبير عنه بلفظ المضىّ للتنبيه على أنه ينبغى تحققه ، والمراد بالصبر : الصبر على الإتيان بما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه . وقيل : على الرزايا والمصائب ، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله أن يكون خالصاً له ، لا شائبة فيه لغيره . ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أى فعلوها فى أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه فى أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص ، والمراد بها : الصلوات المفروضة . وقيل : أعم من ذلك . ﴿ **وأنفقوا مما رزقناهم** ﴾ أى أنفقوا بعض ما رزقناهم ، والمراد بالسر: صدقة النفل ، والعلانية :صدقة الفرض . وقيل : السر لمن لم يعرف بالمال ، أو لا يتهم بترك الزكاة ، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة . ﴿ **ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾ أى يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما فى قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ [فصلت : ٣٤] أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ ، أو يدفعون الشر بالخير أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو ، أو الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور . والإشارة بقوله :﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة ﴿ **لهم عقبى الدار** ﴾ العقبى مصدر كالعاقبة . والمراد بالدار : الدنيا ، وعقباها: الجنة . وقيل : المراد بالدار : الدار الآخرة ، وعقباها : الجنة للمطيعين ، والنار للعصاة .

﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ بدل من عقبى الدار ، أى لهم جنات عدن ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره يدخلونها، والعدن أصله الإقامة، ثم صار علمًا لجنة من الجنان . قال القشيرى : وجنات عدن وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ، ولكن فى صحيح البخارى وغيره : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٣) .

﴿ **ومن صلح من آبائهم** ﴾ يشمل الآباء والأمهات ﴿ **وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ معطوف على الضمير فى يدخلون وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى ويدخلها أزواجهم

---

(١) عند ابن جرير ١٣/ ٩٤ : « والذين يصلون الأرحام » . وعند القرطبى ٥/٣٥٣٩ : « ظاهر فى صلة الأرحام وهو قول قتادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات » . وعند ابن كثير ٤/ ٨٥ : « من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف » .

(٢) روى البخارى فى الرقاق (٦٥٣٦) عن عائشة عن النبى ﷺ قال : « من نوقش الحساب عذب » .

(٣) أحمد ١/ ٣٣٩ والبخارى فى التوحيد (٧٤٢٣) والجهاد (٢٧٩٠) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٠) .

وذرياتهم ، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك ، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج ، أو الذرية بدون صلاح **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾** أى من جميع أبواب المنازل التى يسكنونها ، أو المراد: من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه . **﴿ سلام عليكم ﴾** أى قائلين :سلام عليكم ، أى سلمتم من الآفات ، أو دامت لكم السلامة **﴿ بما صبرتم ﴾** أى بسبب صبركم ، وهو متعلق بالسلام ، أى إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم ، أو متعلق بعليكم أو بمحذوف ، أى هذه الكرامة بسبب صبركم ، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر **﴿ فنعم عقبى الدار ﴾** جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق .

ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء فقال : **﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾** وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منها تفسير النقض والقطع ، ولم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة لدخولها فى النقض والقطع **﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾** بالكفر وارتكاب المعاصى والإضرار بالأنفس والأموال **﴿ أولئك ﴾** الموصوفون بهذه الصفات الذميمة **﴿ لهم ﴾** بسبب ذلك **﴿اللعنة﴾** أى الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه **﴿ ولهم سوء الدار ﴾** أى سوء عاقبة دار الدنيا وهى النار أو عذاب النار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى : **﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾** قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه **﴿ كمن هو أعمى ﴾** قال : عن الحق فلا يبصره ولا يعقله . **﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾** فبين من هم ؟ فقال : **﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾** . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : **﴿ أولو الألباب ﴾** قال : من كان له لب ، أى عقل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ؛ أن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين آية من القرآن .

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾** . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : **﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾** يعنى : من إيمان بالنبيين وبالكتب كلها **﴿ ويخشون ربهم ﴾** يعنى يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل **﴿ويخافون سوء الحساب﴾** يعنى : شدة الحساب ، وقد ورد فى صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك

---

(١) من ذلك ما رواه البخارى فى الأدب (٥٩٨٨) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ قال : يدفعون بالحسنة السيئة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ جنات عدن ﴾ قال : بطنان الجنة ، يعنى : وسطها . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لكعب : ما عدن ؟ قال: هو قصر فى الجنة ، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل . وأخرج ابن مردويه عن على قال : قال رسول الله ﷺ : « جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له : كن فكان » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ قال : من آمن فى الدنيا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله: ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : على دينكم ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ قال : نعم ما أعقبكم الله من الدنيا فى الجنة .

وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لا يستطيع لها قضاء . فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال الله : إن هؤلاء عبادى كانوا يعبدوننى ولا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ »(١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى أمامة : إن المؤمن ليكون متكئًا على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سِمَاطان من خدم ، وعند طرف السِّماطين بابٌ مبَّوب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقاصى الخدم للذى يليه : ملك يستأذن، ويقول الذى يليه : ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن ، فيقول : ائذنوا له ، فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب ، فيفتح له فيدخل ويسلم عليه ، ثم ينصرف . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ولهم سوء الدار ﴾ قال :سوء العاقبة .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ

---

(١) أحمد ٢/ ١٦٨ وابن حبان (٧٣٧٨) وصححه الحاكم ٢/ ٧١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٣٨٠) ط : دار الكتب العلمية ، وفى المطبوعة : « ابن عمر» والصحيح : « ابن عمرو » كما فى مراجع التخريج .

وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله : ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه ، فأجاب عن ذلك بقوله : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً ، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاء وامتحانًا ، ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة . ومعنى يقدر: يضيق ومنه: ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق :٧] أى ضيق . وقيل : معنى يقدر : يعطى بقدر الكفاية، ومعنى الآية : أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره ، ﴿ **وفرحوا بالحياة الدنيا** ﴾ أى مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله، قيل : وفى هذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا ، فيكون ﴿**وفرحوا** ﴾ معطوفًا على يفسدون . ﴿ **وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ أى ما هى إلا شىء يستمتع به . وقيل : المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة [(١)] ونحوهما . وقيل : المعنى: شىء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلابد له من زوال . وقيل : زاد كزاد الراكب يتزود به منها إلى الآخرة .

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ أى يقول أولئك المشركون من أهل مكة: هلا أنزل على محمد آية من ربه ؟ وقد تقدم تفسير هذا قريباً ، وتكرر فى مواضع ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء** ﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا وهو أن الضلال بمشيئة الله تعالى ، من شاء أن يضله ضل كما ضل هؤلاء القائلون : ﴿ **لولا أنزل عليه آية من ربه**﴾ . ﴿**ويهدى إليه من أناب** ﴾ أى ويهدى إلى الحق،أو إلى الإسلام ،أو إلى جنابه ـ عز وجل ـ ﴿**من أناب** ﴾ أى من رجع إلى الله بالتوبة ، والإقلاع عما كان عليه ، وأصل الإنابة : الدخول فى نوبة الخبر ، كذا قال النيسابورى . ومحل ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ النصب على البدلية من قوله : ﴿ **من أناب** ﴾ أى أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه [(٢)] ، ويجوز أن يكون :﴿ **الذين آمنوا**﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿ **وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ أى تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن ، والتسبيح ،

---

(١) السُّكرجة ـ بضم السين والكاف والراء مع التشديد ـ : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل ، وهى فارسية . لسان العرب ٤/ ٣٧٦ .

(٢) الإنابة : الرجوع إلى الله بالتوبة . لسان العرب ١/ ٧٧٥ .

والتحميد ، والتكبير ، والتوحيد ، أو بسماع ذلك من غيرهم ، وقد سمى سبحانه القرآن ذكرًا قال : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ، وقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر﴾ [الحجر : ٩] قال الزجاج: أى إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الزمر : ٤٥] تطمئن قلوبهم بتوحيد الله . وقيل : المراد بالذكر هنا: الطاعة . وقيل : بوعد الله . وقيل : بالحلف بالله ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : بذكر رحمته . وقيل : بذكر دلائله الدالة على توحيده ﴿ ألا بذكر الله ﴾ وحده دون غيره ﴿ تطمئن القلوب ﴾ والنظر فى مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه ، وإن كان يفيد طمأنينة فى الجملة ، لكن ليست كهذه الطمأنينة ، وكذلك النظر فى المعجزات من الأمور التى لا يطيقها البشر ، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله ؛ فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر .

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية ، وهى طوبى لهم على التأويل المشهور ، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف ، أى قلوب الذين آمنوا . قال أبو عبيدة والزجاج وأهل اللغة : طوبى فُعْلَى من الطيب . قال ابن الأنبارى : وتأويلها : الحال المستطابة . وقيل : طوبى شجرة فى الجنة . وقيل : هى الجنة . وقيل : هى البستان بلغة الهند . وقيل : معنى ﴿ طوبى لهم﴾: حسنى لهم . وقيل: خير لهم . وقيل : كرامة لهم . وقيل: غبطة لهم . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ، والأصل : طيبى ، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها ، واللام فى لهم للبيان ، مثل : سقياً لك ورعيًا لك . وقرئ :﴿ حسن مآب ﴾ بالنصب والرفع ، من آب إذا رجع ، أى وحسن مرجع ، وهو الدار الآخرة .

﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ أى مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة، أرسلناك يا محمد . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد ﷺ بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ومعنى ﴿فى أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ : فى قرن قد مضت من قبله قرون ، أو فى جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات ﴿لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ أى لتقرأ عليهم القرآن والحال أنهم ﴿ يكفرون بالرحمن ﴾ أى بالكثير الرحمة لعباده ، ومن رحمته لهم : إرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، وجملة:﴿ قل هو ربى ﴾ مستأنفة بتقدير سؤال ،كأنهم قالوا :وما الرحمن ؟فقال سبحانه:﴿ قل ﴾ يا محمد : ﴿ هو ربى﴾ أى خالقى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿ عليه توكلت﴾ فى جميع أمورى ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ متاب ﴾ أى توبتى ، وفيه تعريض بالكفار ، وحث لهم على الرجوع إلى الله ، والتوبة من الكفر، والدخول فى الإسلام.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله :

﴿ **وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ قال : كزاد الراعى يزوده أهله الكف من التمر أو الشىء من الدقيق ، أو الشىء يشرب عليه اللبن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل يخرج فى الزمان الأول فى إبله أو غنمه ، فيقول لأهله : متعونى فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر . فهذا مثل ضربه الله للدنيا . وأخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك ؟ فقال : « ما لى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » [(١)] . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة عن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ :« ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ » وأشار بالسبابة[(٢)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : إذا حلف لهم بالله صدقوا . ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ قال : تسكن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بمحمد وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ : « هل تدرون ما معنى ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « من أحب الله ورسوله وأحب أصحابى » .

وأخرج ابن مردويه عن على أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ قال : «ذاك من أحب الله ورسوله ، وأحب أهل بيتى صادقًا غير كاذب ، وأحب المؤمنين شاهداً وغائبًا ، ألا بذكر الله يتحابون » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله :﴿ **طوبى لهم** ﴾ قال: فرح وقرة عين. وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله: ﴿ **طوبى لهم** ﴾ قال : نعم ما لهم . وقد روى عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الأقوال والأرجح تفسير الآية بما روى مرفوعاً إلى النبى ﷺ .كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن عتبة ابن عبد قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، فى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم فيها شجرة تدعى طوبى » الحديث[(٣)] . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى

---

(١) الترمذى فى الزهد (٢٣٧٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤١٠٩) .

(٢) مسلم فى الجنة (٢٨٥٨ / ٥٥) والترمذى فى الزهد (٢٣٢٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤١٠٨) .

(٣) أحمد ٤/ ١٨٣ وابن جرير ١٣/ ١٠٠ وابن حبان (٧٣٧١) والطبرانى ١٧/ ١٢٦(٣١٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤١٢ : « وفيه عامر بن زياد البكالى وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله ثقات » وقال ابن كثير فى البداية ٢/ ١٥٧ :« قال الحافظ الضياء : لا أعلم لهذا الإسناد علة» .

حاتم وابن حبان والخطيب فى تاريخه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ ؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال: « طوبى لمن آمن بى ورآنى ، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » ، فقال رجل : وما طوبى ؟ قال : « شجرة فى الجنة مسير مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » الحديث(١) . وفى الباب أحاديث وآثار عن السلف،وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وظل ممدود ﴾ (٢) [الواقعة: ٣٠] ، وفى بعض الألفاظ : إنها شجرة الخلد . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿**وحسن مآب** ﴾ قال :حسن منقلب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب فى الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم ، فقال : « لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون » (٣).وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى هذه الآية نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿**وإليه متاب**﴾ قال : توبتى .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ .

(١) أحمد ٣/ ٧١ وأبو يعلى (١٣٧٤) وإسناده ضعيف ، وابن جرير ١٣/ ١٠١ وابن حبان (٧١٨٦) ولم يذكر إلا شطره الأول .

(٢) أحمد ٣/ ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٥١) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٦ / ٦ ، ٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ورواية مسلم عن أبى هريرة .

(٣) ابن جرير ١٣/ ١٠١ .

قوله : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ قيل : هذا متصل بقوله : ﴿ **لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن ، وفساد رأى الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم. ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية ، من عدم إنزال الآيات التى يؤمن عندها جميع العباد[1] ، ومعنى ﴿ **سيرت به الجبال** ﴾ أى بإنزاله وقراءته فسارت عن محل استقرارها ﴿**أو قطعت به الأرض** ﴾ أى صدعت حتى صارت قطعًا متفرقة ﴿ **أو كلم به الموتى** ﴾ أى صاروا أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء .

وقد اختلف فى جواب « لو » ماذا هو ؟ فقال الفراء : هو محذوف ، وتقديره : لكان هذا القرآن ، وروى عنه أنه قال : إن الجواب : لكفروا بالرحمن ، أى لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن ، وقيل : جوابه لما آمنوا ، كما سبق فى قوله : ﴿ ما كانوا [2] ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام : ١١١] وقيل : الجواب متقدم وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلى آخره . وكثيراً ما تحذف العرب جواب « لو » إذا دل عليه سياق الكلام ، ومنه قول امرئ القيس :

فَلَوْ أنـهَا نَفْـسٌ تَمُوتُ جـمِيعَةً ... ولَكنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنفُسًا

أى لهان علىّ ذلك . ﴿ **بل لله الأمر جميعا** ﴾ أى لو أن قرآناً فعل به ذلك لكان هذا القرآن ، ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن ، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا ، وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدى إليه كون الأمر لله سبحانه ، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله : ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا أن لويشاء الله لهدى الناس جميعا** ﴾ قال الفراء : قال الكلبى : ﴿ **أفلم ييأس** ﴾ بمعنى : أفلم يعلم وهى لغة النخع . قال فى الصحاح : وقيل : هى لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف . قال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا ، قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون ، نظيره استعمال الرجاء فى معنى الخوف ، والنسيان فى الترك لتضمنهما إياهما ، ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة : « أفلم يتبين » ، ومن هذا قول رباح بن عدى :

ألَـمْ يَيـأْسِ الأقـوَام أنى أنَا ابـنُـهُ ... وإن كُنْتُ عَنْ أرْضِ العَشيرةِ نَائيا

أى لم يعلم ، وأنشد فى هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضرى :

أقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَأسِرونَنِى ... ألَمْ تَيْأسُوا أنّى ابْنُ فَـارِسِ زَهْـدَمِ

---

(١) ابن جرير ١٣/١٠٢ .

(٢) فى المخطوطة : « وما كانوا » ، والصواب ما أثبتناه .

أى لم تعلموا ، فمعنى الآية على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : إن الإياس على معناه الحقيقى ، أى أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التى اقترحها الكفار طمعًا فى إيمانهم ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم ، أو لكفار مكة على الخصوص ، أى لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل قارعة ، أى داهية تفجؤهم يقال : قرعه الأمر: إذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل فى القرع: الضرب. قال الشاعر(١) :

أفنى تلادى وما جمعت من نشب   قرع الـقراقيـر أفـواه الأبـاريـق

والمعنى : أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر ، أو جدب أو نحو ذلك من العذاب ، وقد قيل : إن القارعة : النكبة . وقيل : الطلائع والسرايا، ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿ **أو تحل** ﴾ أى القارعة ﴿ **قريبا من دارهم**﴾ فيفزعون منها ، ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم ، وترعد منه بوادرهم . وقيل : إن الضمير فى :﴿ **تحل** ﴾ للنبى ﷺ ، والمعنى : أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانقهم كما وقع منه ﷺ لأهل الطائف .﴿ **حتى يأتى وعد الله** ﴾ وهو موتهم ، أو قيام الساعة عليهم ، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية فى الشدة . وقيل : المراد بوعد الله هنا : الإذن منه بقتال الكفار ، والأول أولى ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة.

﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا** ﴾ التنكير فى رسل للتكثير ، أى برسل كثيرة ، والإملاء : الإهمال . وقد مر تحقيقه فى الأعراف ﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ بالعذاب الذى أنزلته بهم ﴿ **فكيف كان عقاب**﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد ؛ أى فكيف كان عقابى لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل ، فأمليت لهم ثم أخذتهم .

ثم استفهم سبحانه استفهامًا آخر للتوبيخ والتقريع يجرى مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم ، فقال : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس** ﴾ القائم : الحفيظ والمتولى للأمور ، وأراد سبحانه نفسه ، فإنه المتولى لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت. والجواب محذوف ، أى أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لا تنفع ولا تضر . قال الفراء : كأنه فى المعنى : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله .

(١) هو المغيرة بن عبد الله الأسدى لقب بالأُقَيْشر؛ لأنه كان أحمر الوجه أقشر وكان يغضب من هذا اللقب . عرّفه الآمدى بصاحب الشراب لقوله هذا البيت ، ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام وقتل أيام عبد الملك بن مروان. الأعلام ٧/ ٢٧٧ .

والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما . وقيل : المراد بمن هو قائم على كل نفس : الملائكة الموكلون ببنى آدم ، والأول أولى، وجملة : ﴿ **وجعلوا لله شركاء** ﴾ معطوفة على الجواب المقدر مبينة له أو حالية بتقدير قد ، أى وقد جعلوا ، أو معطوفة على ﴿ **ولقد استهزئ** ﴾ أى استهزؤوا وجعلوا ﴿ **قل سموهم** ﴾ أى قل : يا محمد : جعلتم له شركاء فسموهم من هم ؟ وفى هذا تبكيت لهم وتوبيخ ؛ لأنه إنما يقال هكذا فى الشىء المستحقر الذى لا يستحق أن يلتفت إليه فيقال : سمه إن شئت ، يعنى أنه أحقر من أن يسمى . وقيل : إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون ، فيكون ذلك تهديدا لهم ﴿ **أم تنبئونه** ﴾ أى بل أتنبئون الله ﴿ **بما لا يعلم فى الأرض** ﴾ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما فى السموات والأرض ﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ أى بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة ، وقيل : المعنى : قل لهم : أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ؟ فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤوا بدعوى باطلة ، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما ، فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض، لأنهم ادعوا له شريكاً فى الأرض. وقيل : معنى ﴿ **أم بظاهر من القول**﴾ : أم بزائل من القول باطل ، ومنه قول الشاعر :

أعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا   وَذَلِكَ عارٌ يابن ريطَةَ ظَاهِرُ

أى زائل باطل . وقيل : بكذب من القول . وقيل : معنى ﴿ **بظاهر من القول** ﴾ : بحجة من القول ظاهرة على زعمهم ﴿ **بل زين للذين كفروا مكرهم** ﴾ أى ليس لله شريك ، بل زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ ابن عباس : «زين » على البناء للفاعل على أن الذى زين لهم ذلك هو مكرهم . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه ، أو الشيطان ، ويجوز أن يسمى المكر كفرًا ؛ لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفرًا . وأما معناه الحقيقى فهو الكيد ، أوالتمويه بالأباطيل ﴿ **وصدوا عن السبيل** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم :﴿ **صدوا** ﴾ على البناء للمفعول ، أى صدهم الله، أو صدهم الشيطان ، وقرأ الباقون على البناء للفاعل ، أى صَدُّوا غيرهم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد .﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ أى يجعله ضالاً وتقتضى مشيئته إضلاله فما له من هاد يهديه إلى الخير ، قرأ الجمهور : ﴿ **هاد** ﴾ من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة ، وقرئ بإثباتها على اللغة القليلة . ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال : ﴿ **لهم عذاب فى الحياة الدنيا** ﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك . ﴿**ولعذاب الآخرة أشق** ﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا ﴿ **وما لهم من الله من واق** ﴾ يقيهم عذابه ، ولا عاصم يعصمهم منه.

ثم لما ذكر سبحانه مما يستحقه الكفار من العذاب فى الأولى والأخرى ، ذكر ما أعده

للمؤمنين فقال : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى صفتها العجيبة الشأن التى هى فى الغرابة كالمثل . قال ابن قتيبة : المثل الشبه فى أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته ، يقال : مثلت لك كذا ، أى صورته ووصفته، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها ، ثم ذكرها فقال : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وهو كالتفسير للمثل . قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة ، وقال الخليل وغيره : إن ﴿ **مثل الجنة** ﴾ مبتدأ، والخبر : ﴿ **تجرى** ﴾ . وقال الزجاج : إنه تمثيل للغائب بالشاهد ، ومعناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار . وقيل : إن فائدة الخبر ترجع إلى : ﴿ **أكلها دائم** ﴾ أى لا ينقطع ، ومثله قوله سبحانه: ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ [الواقعة : ٣٣] وقال الفراء : المثل مقحم للتأكيد ، والمعنى: الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تفعل ذلك كثيراً ﴿ **وظلها** ﴾ أى كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخه الشمس . والإشارة بقوله : ﴿**تلك** ﴾ إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ **عقبى الذين اتقوا** ﴾ أى عاقبة الذين اتقوا المعاصى ، ومنتهى أمرهم . ﴿ **وعقبى الكافرين النار** ﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك .

وقد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا للنبى ﷺ : إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم ، وأفسح لنا هذه الجبال جبال مكة التى قد ضمتنا ، فنزلت : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ الآية(١). وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عطية العوفى قال : قالوا لمحمد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أوأحييت لنا الموتى ، كما كان يحيى عيسى الموتى لقومه ، فأنزل اللّه : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا** ﴾ قال : أفلم يتبين الذين آمنوا ، قالوا : هل تروى هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ قال : عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ . وأخرجه أيضًا ابن أبى حاتم قال : حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث ، أخبرنا بشر بن عمارة ، حدثنا عمر ابن حسان عن عطية العوفى فذكره . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه مختصراً . وأخرج أبو يعلى ، وأبو نعيم فى الدلائل ، وابن مردويه عن الزبير ابن العوام فى ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدم مطولا (٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بل لله الأمر جميعا** ﴾ لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أفلم ييأس** ﴾

(١) الطبرانى (١٢٦١٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٦ : « وفيه قابوس بن أبى ظبيان وهو ضعيف ، وقد وثق ».
(٢) أبو يعلى (٦٧٩) وإسناده ضعيف .

يقول : يعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى العالية . ﴿ **أفلم ييأس** ﴾ قال : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعا.

وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ قال : السرايا . وأخرج الطيالسى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه نحوه ، وزاد : ﴿ **أو تحل قريبا من دارهم** ﴾ قال : أنت يا محمد حتى يأتى وعد الله ، قال : فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد نحوه . وأخرج عبد بنْ حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **قارعة** ﴾ قال: نكبة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عنه قارعة ، قال : عذاب من السماء ﴿ **أو تحل قريبا من دارهم** ﴾ يعنى : رسول الله ﷺ بهم وقتاله آباءهم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً فى قوله : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾ قال : يعنى بذلك : نفسه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال : الله تعالى قائم بالقسط والعدل على كل نفس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ قال : الظاهر من القول : هو الباطل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **مثل الجنة** ﴾ قال : نعت الجنة، ليس للجنة مثل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿**أكلها دائم** ﴾ قال : لذاتها دائمة فى أفواههم .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ .

اختلف المفسرون فى تفسير الكتاب المذكور ، فقيل : هو التوراة والإنجيل ، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى . وقيل : الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما فى كتبهم مصدقاً له ، فعلى الأول يكون المراد بقوله : ﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ : من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الثانى يكون المراد به : المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم . أو يكون المراد به : البعض من أهل الكتابين ، أى من أحزابهما فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه

فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما فى الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما. وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، والمراد بمن يفرح به المسلمون ، والمراد بالأحزاب : المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذى أنكروه: من خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم . واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة فى ذكره ، وأجيب عنه بأن المراد : زيادة الفرح والاستبشار . وقال كثير من المفسرين : إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ، فأنزل الله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء: ١١٠] ففرحوا بذلك . ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يقول لهم ذلك فقال : ﴿ **قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** ﴾ أى لا أشرك به بوجه من الوجوه ، أى قل لهم يا محمد إلزاماً للحجة، وردا للإنكار : إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بعبادة الله وتوحيده ، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل . وقد اتفق القراء على نصب : ﴿ **ولا أشرك به** ﴾ عطفاً على ﴿ **أعبد** ﴾ وقرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف ، وروى هذه القراءة عن نافع ﴿ **إليه أدعو** ﴾ أى إلى الله لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به ، وهو عبادة الله وحده ، والأول أولى لقوله : ﴿ **وإليه مآب** ﴾ فإن الضمير لله سبحانه ، أى إليه وحده لا إلى غيره مرجعى .

ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال : ﴿ **وكذلك أنزلناه حكما عربيا** ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها . وقيل : المعنى : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ونريد بالحكم ما فيه من الأحكام ، أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصاب ﴿ **حكما** ﴾ على الحال ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم** ﴾ التى يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشىء مما يعتقدونه ﴿ **بعد ما جاءك من العلم** ﴾ الذى علمك الله إياه ﴿ **مالك من الله** ﴾ أى من جنابه ﴿ **من ولى** ﴾ يلى أمرك وينصرك ﴿ **ولا واق** ﴾ يقيك من عذابه . والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمته . واللام فى ﴿ **ولئن اتبعت** ﴾ هى الموطئة للقسم ، و﴿ **مالك** ﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط .

﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾ أى إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر ، لهم أزواج من النساء ، ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم ، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية . وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء ، أى أن هذا شأن رسل الله المرسلين من قبل هذا

الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه ؟ ! ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ أى لم يكن لرسول من الرسل أن يأتى بآية من الآيات ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه ، وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوه بما سبق ذكره . ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ أى لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التى قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله سبحانه : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ [الأنعام:٦٧] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره .

﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، يقال : محوت الكتاب محواً : إذا أذهبت أثره . قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم : ﴿ **ويثبت** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر ، أو خير أو شر ، ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء:٢٣] . وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم . وقيل : الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل : يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقيل : يمحو ما يشاء من الرزق . وقيل : يمحو من الأجل . وقيل : يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه . وقيل : يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء. وقيل : يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة، ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة. وقيل : يمحو الآباء ويثبت الأبناء . وقيل : يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء:١٢] . وقيل : يمحو ما يشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه . وقيل : يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها . وقيل : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره ، والأول أولى كما تفيده « ما » فى قوله : ﴿ **ما يشاء** ﴾ من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله : ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ ومع قوله: ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ ، فالمراد من الآية : أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لا ينافى ما ثبت عنه ﷺ من قوله : « جفَّ القلم » (١). وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه. وقيل : إن أم الكتاب : هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد ٢ / ١٧٦ والترمذي فى الإيمان (٢٦٤٢) وقال: «هذا حديث حسن » وابن حبان =

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**يفرحون بما أنزل إليك**﴾ قال : أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسله وصدقوا به ﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك . ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس: ٤٠] . ﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ قال : الأحزاب : الأمم اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإليه مآب** ﴾ قال : إليه مصير كل عبد .

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن التبتل [١] ، وقرأ قتادة ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة فقلت : إنى أريد أن أتبتل ؟ قالت: لا تفعل أما سمعت الله يقول: ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾ . وقد ورد فى النهى عن التبتل والترغيب فى النكاح ما هو معروف [٢] .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل : ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شىء ، ولقد فرغ من الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئا ، ويحدث الله فى كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ قال : ينزل الله فى كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا فيدبر أمر السنة إلى السنة ، فيمحو ما يشاء ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت [٣] .

= (٦١٣٧) كلهم عن عبد الله بن عمرو ، وجزء من حديث آخر رواه البخارى فى النكاح (٥٠٧٦) والنسائى ٦/ ٥٩ كلاهما عن أبى هريرة .

(١) أحمد ٥/ ١٧ والترمذى فى النكاح (١٠٨٢) وقال : « حديث حسن غريب » والنسائى ٦/ ٥٩ وابن ماجة فى النكاح (١٨٤٩) والطبرانى (٦٨٩٣) .

(٢) من ذلك ما أخرجه البخارى فى النكاح (٥٠٧٥) عن إسماعيل بن قيس قال : قال عبد الله : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شىء ، فقلنا : ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [المائدة: ٨٧] .

(٣) ابن جرير ١٣/ ١١١ والبيهقى فى الشعب (٣٣٩٤) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ،ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذى يمحو، والذى يثبت الرجل يعمل بمعصية الله، وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه أيضاً فى الآية قال : هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت ، وعنده أم الكتاب ، أى جملة الكتاب (١) . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء ، له دفتان من ياقوت ، والدفتان لوحان لله كل يوم ثلاث وستون لحظة **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾** وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدثنا محمد بن سهل بن عسكر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فذكره (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر فى الساعة الأولى منها، ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت » الحديث (٣) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه بإسناد ، قال السيوطى : ضعيف ، عن ابن عمر؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات» . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه . وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : لا ينفع الحذر من القدر ، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر (٤) . وأخرج ابن جرير عن قيس بن عباد قال : العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه ما يشاء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه نحوه بأطول منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ؛ أنه قال وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى المدخل عن ابن عباس فى قوله : **﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾** قال : يبدل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله **﴿ وعنده أم الكتاب ﴾** يقول : وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب : الناسخ والمنسوخ ما يبدل ، وما يثبت كل ذلك فى كتاب (٥) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : **﴿ وعنده أم الكتاب ﴾** قال : الذكر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج

---

(١) ابن جرير ١١/ ١١٢ والحاكم ٢/ ٣٤٩ وقال : « غريب صحيح » ووافقه الذهبى .
(٢) ابن جرير ١٣/ ١١٥ .
(٣) ابن جرير ١٣/ ١١٤ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤١٥ : «رواه البزار وفيه زيادة بن محمد ، وهو ضعيف ».
(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٥٠ ووافقه الذهبى .
(٥) ابن جرير ١٣/ ١١٥ .

عبد الرزاق وابن جرير عن يسار عن ابن عباس ؛ أنه سأل كعبا عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عالمون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتابا .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ .

﴿ **وإن ما نرينك** ﴾ « ما » زائدة ، وأصله : وإن نرك ﴿ **بعض الذى نعدهم** ﴾ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا : ﴿ **لهم عذاب فى الحياة الدنيا** ﴾ وبقولنا : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ والمراد : أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك ، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ﴿ **فإنما عليك البلاغ** ﴾ أى فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ﴿ **وعلينا الحساب** ﴾ أى محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها ، وليس ذلك عليك . وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ، ويصدق نبوءته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك .

﴿ **أو لم يروا** ﴾ يعنى : أهل مكة ، والاستفهام للإنكار ، أى أو لم ينظروا ﴿ **أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ أى نأتى أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا . قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول : أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون؟ وقيل : إن معنى الآية : موت العلماء والصلحاء ، قال القشيرى : وعلى هذا فالأطراف : الأشراف . وقد قال ابن الأعرابى : الطرف : الرجل الكريم . قال القرطبى : وهذا القول بعيد؛ لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى [1] . وقيل : المراد من الآية : خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران فى ناحية منها . وقيل : المراد بالآية : هلاك من هلك من الأمم . وقيل : المراد : نقص ثمرات الأرض . وقيل : المراد : جور ولاتها حتى تنقص .

﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ أى يحكم ما يشاء فى خلقه ، فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيى هذا ويميت هذا ، ويغنى هذا ،ويفقر هذا ، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان.

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٥٦٢ .

وجملة : ﴿ **لا معقب لحكمه** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : معترضة . والمعقب : الذى يتبع الشىء فيستدركه ، ولا يستدرك أحد عليه ، والمراد من الآية : أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير . ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته على السرعة ﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا** ﴾ أى وقد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل ؛ فكادوهم وكفروا بهم . وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ، وأن المكر كله لله ، فقال : ﴿ **فلله المكر جميعا** ﴾ لا اعتداد بمكر غيره ، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال : ﴿ **يعلم ما تكسب كل نفس** ﴾ من خير وشر فيجازيها على ذلك . ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له ؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون . وقال الواحدى : إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضر إلا بإرادته . وقيل : المعنى : فلله جزاء مكر الماكرين ﴿ **وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « الكافر » بالإفراد ، وقرأ الباقون: ﴿ **الكفار** ﴾ بالجمع ، أى سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين فى دار الدنيا ، أو فى الدار الآخرة ، أو فيهما . وقيل : المراد بالكافر : أبو جهل .

﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا** ﴾ أى يقول المشركون أو جميع الكفار : لست يا محمد مرسلاً إلى الناس من الله ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم** ﴾ فهو يعلم صحة رسالتى وصدق دعواتى ويعلم كذبكم ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ أى علم جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل ، فإن أهلهما العالمين بهما يعلمون صحة رسول الله ﷺ ، وقد أخبر بذلك من أسلم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه فى هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، ومن عنده علم منه : هم المسلمون . وقيل : من عنده علم اللوح المحفوظ ، وهو الله سبحانه ، واختار هذا الزجاج وقال : لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **ننقصها من أطرافها** ﴾ قال :« ذهاب العلماء » . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة ونعيم بن حماد فى الفتن ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ننقصها من أطرافها** ﴾ قال : موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية قال : موت العلماء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن

(١) ابن جرير ١٣/ ١١٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٠ وقال الذهبى : « فيه طلحة بن عمرو . قال أحمد : متروك ».

المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : يعنى : أن نبى الله ﷺ كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون . وقال الله فى سورة الأنبياء : ﴿ نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ [الأنبياء:٤٤] بل نبى الله وأصحابه هم الغالبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : نقصان أهلها وبركتها . وأخرج ابن المنذر عنه قال : إنما ننقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران فى ناحية منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ : ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تجدنى فى الإنجيل ؟ » قال : لا . فأنزل الله : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾ يقول : عبد الله بن سلام . وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال : جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتى [1] باب المسجد ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنى الذى أنزلت فى: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب**﴾ قالوا: اللهم نعم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام ، والجارود، وتميم الدارى ، وسلمان الفارسى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه وابن عدى بسند ضعيف عن ابن عمر؛ أن النبى ﷺ قرأ: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قال: « ومن عند الله علم الكتاب » [2] .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ يقول : ومن عند الله علم الكتاب . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،والنحاس فى ناسخه عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ أهو عبد الله بن سلام ؟ قال : كيف ، وهذه السورة مكية [3] . وأخرج ابن المنذر عن الشعبى قال: ما نزل فى عبد الله بن سلام شىء من القرآن. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : هو الله .

---

(١) فى المطبوعة : « بعضاضتى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أبو يعلى (٥٥٧٤) وإسناده تالف ، وابن جرير ١٣/ ١٢٠ وقال : هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهرى » وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٨ : « وفيه سليمان بن أرقم ، وهو متروك » .

(٣) ابن جرير ١٣ / ١١٩ .

تفسير سورة إبراهيم

اثنتان وخمسون آية ، وقيل : إحدى وخمسون .

وهى مكية ، كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وأخرجه ابن مردويه أيضًا عن الزبير وحكاه القرطبى [١] عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها . وقيل : ثلاث آيات نزلت فى الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهى قوله: ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فإن مصيركم إلى النار** ﴾. وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس قال: هى مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا** ﴾ الآيتين نزلتا فى قتلى بدر من المشركين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤ ﴾ .

قوله: ﴿ **الٓر** ﴾ قد تقدم الكلام فى أمثال هذا ، وبيان قول من قال : إنه غير متشابه ، وهو إما مبتدأ خبره كتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف ، ويكون ﴿ **كتاب** ﴾ خبرًا لمحذوف مقدر ، أو خبرًا ثانيا لهذا المبتدأ ، أو يكون ﴿ **الٓر** ﴾ مسرودًا على نمط التعديل فلا محل له ، و﴿**أنزلناه إليك** ﴾ صفة لكتاب ، أى أنزلنا الكتاب إليك يا محمد ، ومعنى ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ : لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية . جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة ، واللام فى ﴿**لتخرج** ﴾ للغرض والغاية ، والتعريف فى الناس للجنس ، والمعنى : أنه ﷺ يخرج بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور . وقيل : إن الظلمة مستعارة للبدعة ، والنور مستعار للسنة . وقيل : من الشك إلى اليقين . ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور ، والباء فى: ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ متعلقة بـ «تخرج» ،

(١) القرطبى ٥ / ٣٥٦٧ .

وأسند الفعل إلى النبى ﷺ ؛ لأنه الداعى والهادى والمنذر . قال الزجاج : بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿ **إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ هو بدل من : ﴿ **إلى النور** ﴾ بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرًا ، أى لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد ، وهو طريقة الله الواضحة التى شرعها لعباده ، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها ، ويجوز أن يكون مستأنفًا بتقدير سؤال ، كأنه قيل : ما هذا النور الذى أخرجهم إليه ؟ فقيل : صراط العزيز الحميد ، والعزيز : هو القادر الغالب ، والحميد : هو الكامل فى استحقاق الحمد .

﴿ **الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الله المتصف بملك ما فى السموات وما فى الأرض ، وقرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به ؛ لأن العلم لا يوصف به . وقيل : يجوز أن يوصف به من حيث المعنى . وقال أبو عمر : إن قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير ، والتقدير : إلى صراط الله العزيز الحميد ، وكان يعقوب إذا وقف على ﴿ **الحميد** ﴾ رفع، وإذا وصل خفض . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على وما فى الأرض . ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال : ﴿**وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾ قد تقدم بيان معنى الويل ، وأصله : النصب كسائر المصادر ، ثم رفع للدلالة على الثبات . قال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة ، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه من العذاب الشديد الذى صاروا فيه .

ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله : ﴿ **الذين يستحبون الحياة الدنيا** ﴾ أى يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿ **على الآخرة** ﴾ الدائمة والنعيم الأبدى . وقيل : إن الموصول فى موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هم الذين. وقيل : الموصول مبتدأ وخبره أولئك، وجملة: ﴿ **ويصدون** ﴾ وكذلك ﴿ **ويبغون** ﴾ معطوفتان على ﴿**يستحبون**﴾ ، ومعنى الصد عن سبيل الله: صرف الناس عنه ومنعهم منه ، وسبيل الله دينه الذى شرعه لعباده ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ أى يطلبون لها زيغًا وميلا لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، والعوج بكسر العين فى المعانى ، وبفتح العين فى الأعيان ، وقد سبق تحقيقه ، والأصل : يبغون لها ، فحذف الحرف وأوصل الفعل إلى الضمير ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال : ﴿ **أولئك فى ضلال بعيد** ﴾ والإشارة إلى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة والبعد وإن كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازًا لقصد المبالغة .

ثم لما من على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسل ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾ أى متلبسًا بلسانهم ، متكلمًا بلغتهم ؛ لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ، ولا يفهمون ما يخاطبهم به ، حتى يتعلموا

ذلك اللسان دهرًا طويلا ، ومع ذلك فلابد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ؛ ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله : ﴿ **ليبين لهم** ﴾ أى ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التى شرعها لهم ، ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة .

وقد قيل : فى هذه الآية إشكال ؛ لأن النبى ﷺ أرسل إلى الناس جميعًا ، بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة . وأجيب بأنه وإن كان ﷺ مرسلا إلى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ، ويوضحونه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه ، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم ، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحًا لباب التنازع ؛ لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها مالا يعرفه غيرها ، وربما كان ذلك أيضًا مفضيًا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون .

وجملة : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ مستأنفة ، أى يضل من يشاء إضلاله ويهدى من يشاء هدايته . قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلا للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، فيكون معنى هذه الآية : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التى ألفوها وفهموها ، ومع ذلك فإن المضل والهادى هو الله ، عز وجل ، والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسببًا ، وتقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدم عليها ، إذ هو إبقاء على الأصل ، والهداية إنشاء ما لم يكن ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذى لا يغالبه مغالب ﴿ **الحكيم** ﴾ الذى يجرى أفعاله على مقتضى الحكمة .

ثم لما بين أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك ، وخص موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية فقال: ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ أى متلبسًا بها ، والمراد بالآيات : المعجزات التى لموسى ، ومعنى ﴿ **أن أخرج** ﴾ أى أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول ، ويجوز أن يكون التقدير : بأن أخرج ، والمراد بقومه : بنو إسرائيل بعد ملك فرعون . ﴿ **من الظلمات** ﴾ من الكفر أو من الجهل الذى قالوا بسببه: ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف: ١٣٨] . ﴿ **إلى النور** ﴾ إلى الإيمان ، أو إلى العلم . ﴿ **وذكرهم بأيام الله** ﴾ أى بوقائعه . قال ابن السكيت : العرب تقول : الأيام ، فى معنى الوقائع، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعها . وقال الزجاج : أى ذكرهم بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التى انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود ، والمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى فى التذكير بأيام الله ، أو فى نفس أيام الله ﴿ **لآيات** ﴾ لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة ﴿ **لكل صبار** ﴾ أى كثير الصبر على المحن والمنح

﴿**شكور**﴾ كثير الشكر للنعم التى أنعم الله بها عليه . وقيل : المراد بذلك كل مؤمن ، وعبر عنه بالوصفين المذكورين ؛ لأنهما ملاك الإيمان، وقدم الصبار على الشكور ؛ لكون الشكر عاقبة الصبر .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك في قوله : ﴿ **يستحبون** ﴾ قال : يختارون . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : إن الله فضل محمدًا على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قيل : ما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله قال لأهل السماء:﴿ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء :٢٩]. وقال لمحمد : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] . فكتب له براءة من النار . قيل : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله يقول : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾ ، وقال لمحمد : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [سبأ : ٢٨] . فأرسله إلى الإنس والجن [١] . وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان : ﴿ **إلا بلسان قومه** ﴾ قال : نزل القرآن بلسان قريش .وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير فى قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ قال : بالآيات التسع : ألطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿**أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى . وأخرج النسائى ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وذكرهم بأيام الله**﴾ قال : « بنعم الله وآلائه » [٢]. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **وذكرهم بأيام الله**﴾ قال: نعم الله. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿**وذكرهم بأيام الله** ﴾ قال : وعظهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : بوقائع الله فى القرون الأولى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ قال :نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطى شكر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)

---

(١) أبو يعلى (٢٧٠٥) وإسناده ضعيف ، والطبرانى (١١٦١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٢٥٨/٨ : « ورجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة » وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٠ ووافقه الذهبى،والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٤٨٦ .

(٢) النسائى فى التفسير (٢٨٠) وابن جرير ١٢٣/١٣ .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ قال موسى** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو : اذكر ، أى اذكر وقت قول موسى ، و ﴿ **إذ أنجاكم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اذكروا** ﴾ أى اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون أو بالنعمة ، أو بمتعلق عليكم ، أى مستقرة عليكم وقت إنجائه ، وهو بدل اشتمال من النعمة مرادًا بها الإنعام أو العطية ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أى يبغونكم، يقال : سامه ظلمًا ، أى أولاه ظلمًا ، وأصل السوم:الذهاب فى طلب الشيء ، وسوء العذاب : مصدر ساء يسوء ، والمراد : حبس العذاب السيئ .وهو استعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة وعطف ﴿ **يذبحون أبناءكم** ﴾ على ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ وإن كان التذبيح من جنس سوء العذاب؛إخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة ، ومع طرح الواو كما فى الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيرًا لسوء العذاب ﴿**ويستحيون نساءكم**﴾ أى يتركونهن فى الحياة لإهانتهن وإذلالهن ﴿ **وفى ذلكم** ﴾ المذكور من أفعالهم ﴿ **بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أى ابتلاء لكم ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة مستوفى .

﴿ **وإذ تأذن ربكم** ﴾ : ﴿ **تأذن** ﴾ بمعنى : أذن ، قاله الفراء ، قال فى الكشاف : ولابد فى تفعل من زيادة معنى ليست فى أفعل ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيذانًا بليغا تنتفى عنه الشكوك وتنزاح الشبه . والمعنى : وإذ تأذن ربكم فقال : ﴿ **لئن شكرتم** ﴾ أو أجرى ﴿ **تأذن** ﴾ مجرى قال : لأنه ضرب من القول . انتهى . وهذا من قول موسى لقومه وهو معطوف على نعمة الله ، أى اذكروا نعمة الله عليكم ، واذكروا حين تأذن ربكم . وقيل : هو معطوف على قوله : ﴿ **إذ أنجاكم** ﴾ أى اذكروا نعمة الله تعالى فى هذين الوقتين ، فإن هذا التأذن أيضًا

نعمة. وقيل: هو من قول الله سبحانه ، أى واذكر يامحمد إذ تأذن ربكم ، وقرأ ابن مسعود : « وإذ قال ربكم » والمعنى واحد كما تقدم ، واللام فى لئن شكرتم هى الموطئة للقسم . وقوله : ﴿ **لأزيدنكم** ﴾ ساد مسد جوابى الشرط والقسم ، وكذا اللام فى ﴿ **ولئن كفرتم** ﴾ ، وقوله : ﴿**إن عذابى لشديد** ﴾ ساد مسد الجوابين أيضًا ، والمعنى : لئن شكرتم إنعامى عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلا منى. وقيل : لأزيدنكم من طاعتى . وقيل : لأزيدنكم من الثواب . والأول أظهر ، فالشكر سبب المزيد ، ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه ﴿ **إن عذابى لشديد** ﴾ ، فلابد أن يصيبكم منه ما يصيب . وقيل : إن الجواب محذوف ، أى ولئن كفرتم لأعذبنكم ، والمذكور تعليل للجواب المحذوف .

﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا** ﴾ أى إن تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها ﴿ **فإن الله** ﴾ سبحانه ﴿ **لغنى** ﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿ **حميد** ﴾ أى مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه ، وإن لم تشكروه ، أو يحمده غيركم من الملائكة .

﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم** ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطابًا من موسى لقومه فيكون داخلا تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداءً خطابًا لقوم موسى، وتذكيرًا لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ، ومجىء رسل الله إليهم ، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيرًا لهم عن مخالفته . والنبأ : الخبر ، والجمع الأنباء . ومنه قول الشاعر :

أَلم يَأتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِى   بِما لاقَتْ لَبُون بَنِى زِيَادِ

و﴿ **قوم نوح** ﴾ بدل من الموصول ، أو عطف بيان ﴿ **وعاد وثمود والذين من بعدهم** ﴾ أى من بعد هؤلاء المذكورين ﴿ **لا يعلمهم إلا الله** ﴾ أى لا يحصى عددهم ويحيط بهم علمًا إلا الله سبحانه ، والموصول مبتدأ وخبره لا يعلمهم إلا الله، والجملة معترضة ، أو يكون الموصول معطوفًا على ما قبله ، ولا يعلمهم إلا الله اعتراض ، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعًا إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم ، أى هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ، ولا يعلمها غيره ، أو يكون راجعًا إلى ذواتهم ، أى أنه لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه . وجملة: ﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ مستأنفة لبيان النبأ المذكور فى : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم** ﴾ أى جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة ﴿**فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ أى جعلوا أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضوها غيظًا مما جاءت به الرسل كما فى قوله تعالى : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ [آل عمران : ١١٩] ؛ لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم . وقيل : إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، أى اسكتوا واتركوا هذا الذى جئتم به تكذيبًا لهم

وردا لقولهم. وقيل : المعنى : أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من المقالة وهى قولهم: ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى لا جواب لكم سوى هذا الذى قلناه لكم بألسنتنا هذه . وقيل : وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبًا ، كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه . وقيل : المعنى : ردوا على الرسل قولهم ، وكذبوهم بأفواههم ، فالضمير الأول للرسل والثانى للكفار . وقيل : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردا لقولهم ، فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثانى للرسل . وقيل : معناه أومؤوا إلى الرسل أن اسكتوا . وقيل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : إن الأيدى هنا النعم، أى ردوا نعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب ، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع ، وقال أبو عبيدة : ونعم ما قال : هو ضرب مثل ، أى لـم يؤمنوا ولـم يجيبوا . والـعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد رد يده فى فيه ، وهكذا قال الأخفش، واعترض ذلك القتيبى فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول: رد يده فى فيه إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى عضوا على الأيدى حنقًا وغيظا ، كقول الشاعر :

يَرُدُّن فى فِيه غــيْظَ الحَسُود حَتَّى يَعض عـَلىّ الأكـفَّا

وهذا هو القول الذى قدمناه على جميع هذه الأقوال ومنه قول الشاعر :

لَوْ أنَّ سَلْمَى أبْصَرت تخددى عَضَّتْ مِنَ الوجْدِ بِأطْرافِ اليَد

وهو أقرب التفاسير للآية إن لم يصح عن العرب ما ذكره أبو عبيدة والأخفش ، فإن صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى قال الكفار للرسل : إنا كـفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم ﴿ وإنا لـفى شك مما تدعوننا إليه ﴾ أى فى شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿ مريب ﴾ أى موجب للريب ، يقال : أربته : إذا فعلت أمرًا أوجب ريبة وشكا . والريب : قلق النفس وعدم سكونها . وقد قيل : كيف صرحوا بالكفر ثم أمرهم على الشك ؟ وأجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنا نشك فى صحة نبوتكم ، ومع كمال الشك لا مطمع فى الاعتراف بنبوتكم .

وجملة : ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالت لهم الرسل ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى أفى وحدانيته سبحانه شك ؟ وهى فى غاية الوضوح والجلاء ، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك فى وجوده سبحانه ووحدانيته ، فقالوا : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم ﴿ يدعوكم ﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿ ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ قال أبو عبيدة : « من » زائدة ، ووجه ذلك قوله فى موضع آخر : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ [الزمر : ٥٣]. وقال سيبويه: هى للتبعيض.

ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع . وقيل : التبعيض على حقيقته، ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم. وبهذه الآية احتج من جوز زيادة « من » فى الإثبات . وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا تبعيضية ، أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ﴿**ويؤخركم إلى أجل مسمى**﴾ أى إلى وقت مسمى عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم فى الدنيا ﴿ **قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ أى ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة ، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ، ولستم ملائكة ﴿ **تريدون أن تصدونا** ﴾ وصفوهم بالبشر أولا، ثم بإرادة الصد لهم عما كان يعبد آباؤهم ثانيًا ، أى تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها ﴿ **فأتونا** ﴾ إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿ **بسلطان مبين** ﴾ أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعونه ، وقد جاؤوهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم ، ولون من تلوناتهم .

﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾ أى ما نحن فى الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم كما قلتم ﴿ **ولكن الله يمن على من يشاء من عباده** ﴾ أى يتفضل على من يشاء منهم بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والهداية ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان** ﴾ أى ماصح ولا استقام لنا أن نأتيكم بحجة من الحجج ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أى إلا بمشيئته وليس ذلك فى قدرتنا. قيل : المراد بالسلطان هنا : هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت. وقيل: أعم من ذلك ، فإن ما شاءه الله كان وما لم يشأه لم يكن ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى عليه وحده ، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه ، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصدًا أوليًا ، ولهذا قالوا : ﴿**وما لنا ألا نتوكل على الله**﴾ أى وأى عذر لنا فى ألا نتوكل عليه سبحانه ؟ ﴿ **وقد هدانا سبلنا** ﴾ أى والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته ، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه ﴿**ولنصبرن على ما آذيتمونا**﴾ بما يقع منكم من التكذيب لنا والاقتراحات الباطلة ﴿**وعلى الله**﴾ وحده دون من عداه ﴿ **فليتوكل المتوكلون** ﴾ قيل : المراد بالتوكل الأول استحداثه ، وبهذا السعى فى بقائه وثبوته . وقيل : معنى الأول : إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا فى حصولها على الله سبحانه لا علينا ، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ومعنى الثانى : إبداء التوكل على الله فى دفع شر الكفار وسفاهتهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ قال : أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله ، وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم . وأخرج ابن جرير عن الحسن : ﴿**لأزيدنكم**﴾ قال : من طاعتى . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى صالح مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سفيان الثورى فى الآية قال : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون عند الله من ذلك ، ولكن يقول : لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتى .

وأخرج أحمد والبيهقى عن أنس قال : أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ، وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال : تمرة من رسول الله ﷺ ، فقال للجارية : « اذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهمًا التى عندها » (١) . وفى إسناد أحمد : عمارة بن زاذان ، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان ، وقال ابن معين: صالح، وقال أبو زرعة : لا بأس به ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين ، وقال البخارى : ربما يضطرب فى حديثه ، وقال أحمد : روى عنه أحاديث منكرة ، وقال أبو داود : ليس بذاك . وضعفه الدارقطنى ، وقال ابن عدى : لا بأس به.

وأخرج البخارى فى تاريخه ، والضياء المقدسى فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة » ، وفيها :« ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة » . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأغر ؛ أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعًا » ، وفيها : « ومن أعطى الشكر لم يمنع الزيادة » . ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة فى الطاعة ، بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر ، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه فى رزقه ، ومن شكر الله على ما أقدره عليه من طاعته زاده من طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿ **والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله** ﴾ ويقول : كذب النسابون . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عمر بن ميمون مثله . وأخرج ابن الضريس عن أبى مجلز قال : قال رجل لعلى بن أبى طالب : أنا أنسب الناس ، قال : إنك لا تنسب الناس ، فقال : بلى ، فقال له على: أرأيت قوله:﴿ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ [الفرقان: ٣٨]. قال : أنا أنسب ذلك الكثير قال : أرأيت قوله : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله**﴾ فسكت . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير قال : ما وجدنا أحدًا يعرف ما وراء معد بن عدنان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ قال : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . ﴿ **وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكًا قويًا . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ،والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ قال : عضوا عليها ، وفى لفظ: على

---

(١) أحمد ٣/ ٢٦٠ والبيهقى فى الشعب (٩١٣٤) ط . دار الكتب العلمية .

أناملهم غيظًا على رسلهم (١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة من المتمردين عن إجابة الرسل ، واللام فى لنخرجنكم هى الموطئة للقسم ، أى والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترؤوا عليهم بهذا ، وخيروهم بين الخروج من أرضهم ، أو العود فى ملتهم الكفرية . وقد قيل : إن « أو» فى : ﴿ **أو لتعودن** ﴾ بمعنى حتى ، أو يعنى : إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين ، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك ، بل «أو» على بابها للتخيير بين أحد الأمرين ، وقد تقدم تفسير الآية فى سورة الأعراف . قيل : والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها . وقيل : إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم ﴿ **فأوحى إليهم ربهم** ﴾ أى إلى الرسل ﴿ **لنهلكن الظالمين**﴾ أى قال لهم : لنهلكن الظالمين .

﴿ **ولنسكننكم الأرض** ﴾ أى أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال: ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ [الأحزاب : ٢٧]. وقرئ : « ليهلكن » ، « وليسكننكم » بالتحتية فى الفعلين؛ اعتبارًا بقوله: ﴿ **فأوحى** ﴾ والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين فى مساكنهم ﴿ **لمن خاف مقامى**﴾ أى موقفى ، وذلك يوم الحساب فإنه موقف الله سبحانه ، والمقام بفتح الميم : مكان الإقامة ، وبالضم : فعل الإقامة. وقيل : إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام ، أى لمن خاف قيامى عليه ومراقبتى له ، كقوله تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد : ٣٣] . وقال الأخفش : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامى** ﴾ أى عذابى ﴿ **وخاف وعيد** ﴾ أى خاف

---

(١) ابن جرير ١٣/ ١٢٦ والطبرانى (٩١١٩) وصححه الحاكم ٢/ ٣٥١ وقال : « على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٦ : « رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ، وهو ضعيف » .

وعيدى بالعذاب . وقيل : بالقرآن وزواجره . وقيل : هو نفس العذاب ، والوعيد الاسم من الوعد .

﴿ **واستفتحوا** ﴾ معطوف على ﴿ **أوحى** ﴾ والمعنى: أنهم استنصروا بالله على أعدائهم ، أو سألوا الله القضاء بينهم ، من الفتاحة وهى الحكومة ومن المعنى الأول قوله : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ [الأنفال: ١٩] أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . ومن المعنى الثانى قوله : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ [الأعراف : ١٩] أى احكم ، والضمير فى ﴿**استفتحوا** ﴾ للرسل . وقيل : للكفار . وقيل : للفريقين ﴿**وخاب كل جبار عنيد** ﴾ الجبار : المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقًا ، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة ، والعنيد : المعاند للحق والمجانب له ، وهو مأخوذ من العند وهو الناحية ، أى أخذ فى ناحية معرضًا قال الشاعر:

إذا نزلتُ فاجعلونى وَسَطًا إنى كبير لا أطيقُ العُنَّدَا

قال الزجاج : العنيد : الذى يعدل عن القصد وبمثله قال الهروى ، وقال أبو عبيد : هو الذى عند وبغى . وقال ابن كيسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : المراد به العاصى . وقيل : الذى أبى أن يقول : لا إله إلا الله . ومعنى الآية : أنه خسر وهلك من كان متصفًا بهذه الصفة ﴿ **من ورائه جهنم** ﴾ أى من بعده جهنم ، والمراد بعد هلاكه على أن وراءها هنا بمعنى بعد ، ومنه قول النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أترِكْ لنفسِك ريبَة وليسَ وراء اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

أى ليس بعد الله ، ومثله قوله : ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ أى من بعده ، كذا قال الفراء . وقيل : ﴿ **من ورائه** ﴾ أى من أمامه ، قال أبو عبيد : هو من أسماء الأضداد ؛ لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر ، ومنه قول الشاعر:

ومن ورائِكَ يوم أنتَ بَالِغُهُ لا حاضر معجز عنه ولا بادى

وقال آخر :

أترجو بنو مروانَ سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاةُ ورائيا

أى أمامى،ومنه قوله تعالى:﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ [الكهف: ٧٩] أى أمامهم . ويقول أبو عبيدة : هذا قاله قطرب ، وقال الأخفش : هو كما يقال : هذا الأمر من ورائك ، أى سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان ، أى فى طلبه . وقال النحاس : ﴿ **من ورائه** ﴾ أى من أمامه وليس من الأضداد ، ولكنه من توارى ، أى استتر فصارت جهنم من ورائه ؛ لأنها لا ترى ، وحكى مثله ابن الأنبارى . ﴿ **ويسقى من ماء صديد** ﴾ معطوف على مقدر جوابًا عن سؤال سائل كأنه قيل : فماذا يكون إذن ؟ قيل : يلقى فيها ويسقى ،

والصديد :ما يسيل من جلود أهل النار ، واشتقاقه من الصد ؛لأنه يصد الناظرين عن رؤيته ، وهو دم مختلط بقيح ، والصديد صفة لماء . وقيل : عطف بيان منه و ﴿**يتجرعه**﴾ في محل جر على أنه صفة لماء ، أو في محل نصب على أنه حال . وقيل : هو استئناف مبنيّ على سؤال . والتجرع : التحسي ، أي يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ﴿ **ولا يكاد يسيغه** ﴾ أي يبتلعه ، يقال : ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا : إذا كان سهلا ، والمعنى : ولا يقارب إساغته فكيف تكون الإساغة؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة ، ويشربه على هذه الحال أخرى . وقيل : إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء ، كقوله : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : ٧١] أي يفعلون بعد إبطاء كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى : ﴿يصهر به ما في بطونهم ﴾ [الحج : ٢٠] . ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي تأتيه أسباب الموت من كل جهة من الجهات .أو من كل موضع من مواضع بدنه . وقال الأخفش : المراد بالموت هنا : البلايا التي تصيب الكافر في النار ، سماها موتًا لشدتها ﴿ **وما هو بميت**﴾ أي والحال أنه لم يمت حقيقة فيستريح . وقيل : تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا ،ومثله قوله تعالى:﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ [الأعلى : ١٣] . وقيل : معنى ﴿ **وما هو بميت**﴾ : لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه ، والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ ، وقوله : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ [فاطر : ٣٦] ﴿**ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ أي من أمامه ، أو من بعده عذاب شديد . وقيل : هو الخلود . وقيل : حبس النفس .

﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد** ﴾ قال سيبويه : مثل مرتفع على الابتداء ، والخبر مقدر ، أي فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وبه قال الزجاج . وقال الفراء : التقدير : مثل أعمال الذين كفروا فحذف المضاف ، وروى عنه أنه قال بإلغاء ﴿ **مثل** ﴾ ، والتقدير : الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد. وقيل : هو أعني ، ﴿ **مثل** ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ **أعمالهم كرماد** ﴾ على أن معناه الصفة ، فكأنه قال : صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد ، والمعنى : أن أعمالهم باطلة غير مقبولة ، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء ، ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف ، ومعنى ﴿ **اشتدت به الريح** ﴾ : حملته بشدة وسرعة ، والعصف شدة الريح ، وصف به زمانها مبالغة كما يقال : يوم حار ويوم بارد ، والبرد والحر فيهما لا منهما ﴿ **لا يقدرون مما كسبوا على شيء** ﴾ أي لا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شيء منها ، ولا يرون له أثرًا في الآخرة يجازون به ويثابون عليه ، بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها . والإشارة بقوله :﴿**ذلك**﴾ إلى ما دل عليه التمثيل ، أي هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿ **هو الضلال البعيد** ﴾ عن طريق الحق المخالف لمنهج الصواب ، لما

كان هذا خسرانًا لا يمكن تداركه سماه بعيدًا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لنخرجنكم من أرضنا** ﴾ الآية قال : كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ، ويقهرونهم ، ويكذبونهم ، ويدعونهم إلى أن يعودوا فى ملتهم ، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا فى ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله ، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم ، فأنجز لهم ما وعدهم. واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا [١]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : وعدهم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، فبين الله من يسكنها من عباده فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] وإن لله مقامًا هو قائمه ، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **واستفتحوا** ﴾ قال: للرسل كلها يقول : استنصروا ، وفى قوله : ﴿ **وخاب كل جبار عنيد** ﴾ قال : معاند للحق مجانب له . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : استنصرت الرسل على قومها ﴿ **وخاب كل جبار عنيد**﴾ يقول : عنيد عن الحق معرض عنه ، أبى أن يقول : لا إله إلا الله .وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى قال : العنيد : الناكب عن الحق .

وأخرج أحمد والترمذى والنسائى وابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **ويسقى من ماء صديد. يتجرعه** ﴾ قال : « يقرب إليه فيتكرهه، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره . يقول الله تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ [محمد : ١٥] ، وقال : ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ » [٢] [الكهف : ٢٩] . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من ماء صديد** ﴾ قال : يسيل من جلد الكافر ولحمه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ﴿ **من ماء صديد** ﴾ هو القيح والدم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ قال : أنواع العذاب وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت لأن الله يقول: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ [فاطر : ٣٦] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن

---

(١) ابن جرير ١٣ / ١٢٩ .

(٢) أحمد ٥ / ٢٦٥ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٣) وقال : « هذا حديث غريب » والنسائى فى التفسير (٢٨٣) وابن جرير ١٣ / ١٣١ والطبرانى (٧٤٦٠) وأبو نعيم فى الحلية ٨ / ٨٢ والبيهقى فى البعث والنشور (٦٠٢) .

ميمون بن مهران: ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ قال : من كل عظم وعرق وعصب. وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى قال : من موضع كل شعرة فى جسده . ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ قال : الخلود . وأخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض: ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ قال : حبس الأنفاس .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم** ﴾ الآية . قال : مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون على شيء من أعمالهم ، ينفعهم كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل فى يوم عاصف .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ الرؤية هنا هى القلبية ، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضًا لأمته ، أو الخطاب لكل من يصلح له ، وقرأ حمزة والكسائى : «خالقُ السمواتِ » ومعنى بالحق : بالوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته ، ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغناءه عن كل واحد من خلقه فقال : ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ، ويهلك العصاة ، ويأتى بمن يطيعه من خلقه، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان ، ويحتمل أن يكون من نوع آخر : ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ أى بممتنع ؛ لأنه سبحانه قادر على كل شيء ، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه ؛ فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال : ﴿ **وبرزوا لله جميعا** ﴾ أى برزوا من قبورهم يوم القيامة ، والبروز : الظهور ، والبَراز: المكان الواسع لظهوره ، ومنه : امرأة بَرْزَة ، أى تظهر للرجال ، فمعنى ﴿ **برزوا** ﴾ ظهروا من قبورهم ، وعبر بالماضى عن المستقبل ؛ تنبيها على تحقيق وقوعه كما هو مقرر فى علم المعانى ،

وإنما قال : ﴿ وبرزوا لله ﴾ مع كونه سبحانه عالمًا بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا ؛ لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصى ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى ، فالكلام خارج على ما يعتقدونه .

﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا ﴾ أى قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة : ﴿ إنا كنا لكم تبعا ﴾ أى فى الدنيا ، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم . والتبع : جمع تابع ، أو مصدر وصف به للمبالغة ، أو على تقدير : ذوى تبع . قال الزجاج : جمعهم فى حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع ، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله: إنا كنا لكم تبعًا . جمع تابع ، مثل خادم وخدم ، وحارس وحرس ، وراصد ورصد ﴿ فهل أنتم مغنون عنا ﴾ أى دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شىء ﴾ : « من » الأولى للبيان ، والثانية للتبعيض ، أى بعض الشىء الذى هو عذاب الله ، يقال : أغنى عنه : إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع .

﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ أى قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين ، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل : كيف أجابوا ؟ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه. ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أى مستو علينا الجذع والصبر، و « أم » لتأكيد التسوية كما فى قوله: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾[البقرة: ٦] . ﴿ ما لنا من محيص ﴾ أى من منجى ومهرب من العذاب . يقال : حاص فلان عن كذا، أى فر وزاغ ، يحيص حيصًا وحيوصًا وحيصانًا ، والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين وإن كان الظاهر أنه من كلام المستكبرين .

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ﴾ أى قال للفريقين هذه المقالة،ومعنى ﴿ لما قضى الأمر﴾: لما دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النارعلى ما يأتى بيانه فى سورة مريم ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ وهى وعده سبحانه بالبعث والحساب ، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ﴿ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ أى وعدتكم وعدًا باطلا بأنه لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ، فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك . قال الفراء : وعد الحق هو من إضافة الشىء إلى نفسه كقولهم : مسجد الجامع ، وقال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحق ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ أى تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ أى إلا مجرد دعائى لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان ، ودعوته إياهم ليس من جنس السلطان حتى تستثنى منه ، بل الاستثناء منقطع ، أى لكن دعوتكم فاستجبتم لى ، أى فسارعتم إلى إجابتى . وقيل : المراد بالسلطان هنا : القهر ، أى : ما كان لى عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتى . وقيل : هذا الاستثناء هو من باب : تحية بينهم ضرب وجيع . مبالغة فى نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال : إنما يكون لى عليكم سلطان إذا

كان مجرد الدعاء من السلطان ، وليس منه قطعًا .

﴿ فلا تلوموني ﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدى لكم بالباطل وإخلافى لهذا الموعد . ﴿ولوموا أنفسكم ﴾ باستجابتكم لى بمجرد الدعوة التى لا سلطان عليها ولا حجة ، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوى الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ، ولمارنه قطع [1] ، ولا سيما ودعوتى هذه الباطلة ، وموعدى الفاسد وقعا معارضَيْن لوعْد الله لكم وعد الحق ، ودعوته لكم إلى الدار السلام ، مع قيام الحجة التى لا تخفى على عاقل ، ولا تلتبس إلا على مخذول ، وقريب من هذا من يقتدى بآراء الرجال المخالفة لما فى كتاب الله سبحانه ولما فى سنة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيهما ، فإنه قد استجاب للباطل الذى لم تقع عليه حجة ، ولا دل عليه برهان ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره ، كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم ، اللهم غفرا .

﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ يقال : صرخ فلان : إذا استغاث يصرخ صراخًا وصرخًا ، واستصرخ بمعنى: صرخ ، والمصرخ : المغيث ، والمستصرخ : المستغيث . يقال : استصرخنى فأصرخته ، والصريخ : صوت المستصرخ، والصريخ أيضًا : الصارخ ، وهو المغيث والمستغيث ، وهو من أسماء الأضداد كما فى الصحاح . قال ابن الأعرابى : الصارخ : المستغيث ، والمصرخ : المغيث ، ومعنى الآية : ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه ، وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان فى تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب ، محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه ، فكيف يطمعون فى إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه ؟ ومما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبى الصلت :

فَلا تَجزَعُوا إنِّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ وَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِى غَنَاء وَلا نَفْرُ

و﴿ مصرخى ﴾ بفتح الياء فى قراءة الجمهور ، وقرأ الأعمش وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين . قال الفراء: قراءة حمزة وهم منه ، وقلَّ من سلم عن خطأ . وقال الزجاج : هى قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف ــ يعنى ما ذكرناه من أن كسرها على الأصل فى التقاء الساكنين . وقال قطرب : هذه لغة بنى يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياءً ، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر :

قُلْتُ لَهَا يا تَاء هــل لـك فِيّ قَالَــتْ لَهُ مَا أنــْتَ بِالمَرْضِى

﴿ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ لما كشف لهـم القنـاع بأنـه لا يغنى عنـهم مـن عـذاب اللـه شيئًا ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر ، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله فى الربوبية ، من قبل هذا الوقت الذى قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة ، وهو ما كان منهم فى الدنيا من جعله شريكًا . ولقد قام لهم الشيطان فى هذا اليوم مقامًا يقصم ظهورهم ويقطع

---

(١) المارن هو: الأنف ، وقيل: طرفه ، وقيل: ما لان من الأنف ، وما لان من الرمح. لسان العرب ١٣/ ٤٠٤ .

قلوبهم ، فأوضح لهم أولا أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها ، ثم أوضح لهم ثانيًا بأنهم قبلوا قوله بما ما يوجب القبول ، ولا يتفق على عقل عاقل لعدم الحجة التى لابد للعاقل منها فى قبول قول غيره ، ثم أوضح ثالثًا بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء ، ثم نعى عليهم رابعًا ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت ، الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل ، ثم أوضح لهم خامسًا بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ، ولا يستطيع لهم نفعًا ، ولا يدفع عنهم ضرًا ، بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة ، ثم صرح لهم سادسًا بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب . وإذا كان جملة ﴿ **إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فأثبت لهم الظلم ، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم ، لا على قول من قال : إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « ما » مصدرية فى ﴿ **ما أشركتمون** ﴾ وقيل : يجوز أن تكون موصولة على معنى ﴿ **إنى كفرت** ﴾ بالذى أشركتمونيه وهو الله ، عز وجل ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم .

﴿ **وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة . وقرأ الجمهور : ﴿ **أدخل** ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ الحسن : « وأدخل » على الاستقبال والبناء للفاعل ، أى وأنا أدخل الذين آمنوا ، ثم ذكر سبحانه خلودهم فى الجنات وعدم انقطاع نعيمهم ، ثم ذكر أن ذلك بإذن ربهم ، أى بتوفيقه ولطفه وهدايته هذا على قراءة الجمهور ، وأما على قراءة الحسن فيكون ﴿**بإذن ربهم** ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿ **تحيتهم فيها سلام** ﴾ أى تحية الملائكة فى الجنة سلام بإذن ربهم ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة يونس .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويأت بخلق جديد** ﴾ قال : بخلق آخر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فقال الضعفاء** ﴾ (١) قال : الأتباع ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ قال: للقادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا** ﴾ قال زيد بن أسلم : جزعوا مائة سنة . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه إلى النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **سواء علينا** ﴾ الآية قال : « يقول أهل النار : هلموا فلنصبر ، فيصبرون خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : هلموا فلنجزع ، فبكوا خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا:

(١) فى المطبوعة : « قال الضعفاء » .

﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ » (١) ، والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ [غافر : ٤٧ ، ٤٨] . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه ، وذكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال : « ويقول الكافر عند ذلك: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس فهو الذى أضلنا فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظهم بجهنم ، ويقول عند ذلك : **﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾** » الآية (٢) . وضعف السيوطى إسناده ، ولعل سبب ذلك كون فى إسناده رشدين ابن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دجين الحجزى عن عقبة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبًا على منبر من نار فقال : **﴿ إن الله وعدكم ﴾** إلى قوله : **﴿ وما أنتم بمصرخى ﴾** قال : بناصرىّ **﴿ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾** قال : بطاعتكم إياى فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبى فى هذه الآية قال :خطيبان يقومان يوم القيامة : إبليس وعيسى ، فأما إبليس فيقوم فى حزبه فيقول هذا القول : يعنى المذكور فى الآية ، وأما عيسى فيقول : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾(٣) [المائدة : ١١٧] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾** قال :ما أنا بنافعكم ، وما أنتم بنافعىّ **﴿ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾** قال: شركه : عبادته. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة : **﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾** قال : ما أنا بمغيثكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : **﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾** قال : الملائكة يسلمون عليهم فى الجنة .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ

---

(١) الطبرانى (١٧٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٦ ، ٤٧ : « وفيه أنس بن أبى القاسم وهو مجهول عند أبى حاتم والذهبى ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) ابن المبارك فى الزهد (٣٧٤) وابن جرير ١٣/ ١٣٤ والطبرانى (٨٨٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٧٩ : «وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وهو ضعيف » .

(٣) ابن جرير : ١٣/ ١٣٤ .

كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾ .

لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح ، ثم ذكر نعيم المؤمنين ، وما جزاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها ، وتحية الملائكة لهم ذكر تعالى ها هنا مثلا للكلمة الطيبة ، وهى كلمة الإسلام ، أى لا إله إلا الله ، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير ، وذكر مثلا للكلمة الخبيثة، وهى كلمة الشرك أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر ، فقال مخاطبًا لرسول الله ﷺ ، أو مخاطبًا لمن يصلح للخطاب: ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا** ﴾ أى اختار مثلا وضعه فى موضعه اللائق به ، وانتصاب ﴿ **مثلا** ﴾ على أنه مفعول ضرب ، و﴿**كلمة** ﴾ بدل منه ، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لـ ﴿ **مثلا** ﴾ ، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدر ، أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وحكم بأنها مثلها . ومحل ﴿**كشجرة** ﴾ النصب على أنها صفة لكلمة ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أى هى كشجرة ، ويجوز أن تكون ﴿ **كلمة** ﴾ أوّل مفعولى ﴿ **ضرب** ﴾، وأخرت عن المفعول الثانى وهو ﴿ **مثلا**﴾ لئلا تبعد عن صفتها ، والأول أولى . و ﴿ **كلمة** ﴾ وما بعدها تفسير للمثل ، ثم وصف الشجرة بقوله : ﴿ **أصلها ثابت** ﴾ أى راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿ **وفرعها فى السماء** ﴾ أى أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع فى الهواء .

ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿ **تؤتى أكلها كل حين** ﴾ كل وقت ﴿ **بإذن ربها** ﴾ بإرادته ومشيئته ، وقيل : وهى النخلة. وقيل غيرها . وقيل : والمراد بكونها ﴿ **تؤتى أكلها كل حين**﴾ أى كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل : المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين . وقيل : كل غدوة وعشية . وقيل :كل شهر . وقيل : كل ستة أشهر . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعى قول النابغة :

تُطَلِّقُه حِينًا وَحِينًا تُرَاجِعُ

قال النحاس : وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت وقد ورد الحين فى بعض المواضع يراد به : أكثر كقوله : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ [الإنسان : ١] . وقد تقدم بيان أقوال العلماء فى الحين فى سورة البقرة فى قوله: ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : ٣٦] . وقال الزجاج : الحين : الوقت طال أم قصر . ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد ، وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته . وفى ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعانى .

﴿ **ومثل كلمة خبيثة** ﴾ قد تقدم تفسيرها . وقيل : هى الكافر نفسه، والكلمة الطيبة: المؤمن نفسه . ﴿ **كشجرة خبيثة** ﴾ أى كمثل شجرة خبيثة ، قيل: هى شجرة الحنظل . وقيل : هى شجرة الثوم . وقيل : الكمأة . وقيل : الطحلبة ، وقيل : هى الكشوث بالضم وآخره مثلثة ، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض .قال الشاعر :

وَهُمْ كَشُوثٌ فَلا أصْلٌ وَلَا ثَمَرُ

وقرئ :« ومثلا كلمةً » بالنصب عطفًا على كلمة طيبة ﴿ **اجتثت من فوق الأرض** ﴾ أى استؤصلت واقتلعت من أصلها ، ومنه قول الشاعر :

هو الجلاء الذى يجتث أصلكم

قال المؤرج : أخذت جثّتها وهى نفسها .والجثّة: شخص الإنسان ، يقال : جثّه : قلعه ، واجتثه : اقتلعه ، ومعنى ﴿ **من فوق الأرض** ﴾ : أنه ليس لها أصل راسخ ، وعروق متمكنة من الأرض ﴿ **مالها من قرار** ﴾ أى من استقرار على الأرض . وقيل من : ثبات على الأرض كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ، ولا خير يأتى منه أصلا ، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب .

﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ أى بالحجة الواضحة وهى الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها ، وقد ثبت فى الصحيح أنها كلمة الشهادة : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وذلك إذا قعد المؤمن فى قبره . قال النبى ﷺ : « فذلك قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ »[(١)] . وقيل معنى تثبيت الله لهم : هو أن يدوموا على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

يُثَبِّتُ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حسنٍ   تَثْبِيتَ مُوسى ونَصرًا كالذى نُصِروا

ومعنى ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ : أنهم يستمرون على القول الثابت فى الحياة الدنيا . قال جماعة : المراد بالحياة فى هذه الآية : القبر ؛ لأن الموتى فى الدنيا حتى يبعثوا . ومعنى ﴿ **وفى الآخرة** ﴾ : وقت الحساب. وقيل : المراد بالحياة الدنيا: وقت المساءلة فى القبر ، وفى الآخرة : وقت المساءلة يوم القيامة . والمراد : أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ولا تردد ولا جهل كما يقول من لم يوفق : لا أدرى ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾ أى يضلهم عن حجتهم التى هى القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها فى قبورهم ، ولا عند الحساب ، كما أضلهم عن اتباع الحق فى الدنيا . قيل : والمراد بالظالمين هنا: الكفرة . وقيل : كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٩٩) .

عن البينات الواضحة ، فإنه لا يثبت فى مواقف الفتن ، ولا يهتدى إلى الحق . ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا راد لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل . قال الفراء : أى لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل ، والإظهار فى محل الإضمار فى الموضعين لتربية المهابة كما قيل . والله أعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى ، عن ابن عباس فى قوله : **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة﴾** قال : شهادة أن لا إله إلا الله **﴿ كشجرة طيبة ﴾** وهو المؤمن **﴿ أصلها ثابت ﴾** يقول: لا إله إلا الله ثابت فى قلب المؤمن **﴿وفرعها فى السماء ﴾** يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء . **﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾** وهى الشرك **﴿ كشجرة خبيثة ﴾** يعنى : الكافر **﴿ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾** يقول : الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ، ولا يقبل الله مع الشرك عملا . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وأخرج الترمذى والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال : **﴿ مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾** حتى بلغ : **﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾** قال: «هى النخلة » **﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾** حتى بلغ : **﴿ مالها من قرار ﴾** قال: « هى الحنظلة » ، وروى موقوفًا عن أنس ، قال الترمذى : الموقوف أصح [(١)] . وأخرج أحمد وابن مردويه : قال السيوطى بسند جيد عن عمر عن النبى ﷺ فى قوله : **﴿ كشجرة طيبة ﴾** قال : «هى التى لا ينقص ورقها » قال : « هى النخلة » [(٢)] . وأخرج البخارى وغيره من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه : « إن شجرة من الشجر ، لا يطرح ورقها مثل المؤمن » قال : فوقع الناس فى شجر البوادى ووقع فى قلبى أنها النخلة ، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » [(٣)] . وفى لفظ للبخارى قال : « أخبرونى عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتى أكلها كل حين » فذكر نحوه[(٤)] . وفى لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ:« هل تدرون ما الشجرة الطيبة ؟ » ثم قال : «هى النخلة » [(٥)] . وروى نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :**﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾** قال : كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف ، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٩) والنسائى فى التفسير (٢٨٢) وأبو يعلى (٤١٦٥) وابن جرير ١٣/ ١٣٦ وابن حبان (٤٧٥) وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٢ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٣١ .

(٣) البخارى فى العلم (٦١) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١١/ ٦٣) والترمذى فى الأمثال (٢٨٦٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٦٩٨) .

(٥) ابن جرير ١٣/ ١٣٧ .

والصيف .وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : يكون أخضر ثم يكون أصفر . وأخرج عنه أيضا فى قوله : ﴿ **كل حين** ﴾ قال : جذاذ النخل . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **تؤتى أكلها كل حين** ﴾ قال : تطعم فى كل ستة أشهر . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا قال : الحين هنا : سنة . وأخرج البيهقى عنه أيضًا قال : الحين : قد يكون غدوة وعشية، وقد روى عن جماعة من السلف فى هذا أقوال كثيرة .

وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله سبحانه: ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ » [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿**يثبت الله الذين آمنوا** ﴾ الآية قال : التثبيت فى الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل فى القبر فقالا : من ربك ؟ فقال : ربى الله ، قال : وما دينك ؟ قال : دينى الإسلام . قال : ومن نبيك ؟ قال : نبيى محمد ﷺ . فذلك التثبيت فى الحياة الدنيا . وأخرج البيهقى عن ابن عباس نحوه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن أبى سعيد فى الآية قال : فى الآخرة القبر . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا** ﴾ الآية . قال : «هذا فى القبر » . وأخرج البيهقى من حديثها نحوه . وأخرج البزار عنها أيضًا قالت : قلت : يارسول الله ، تبتلى هذه الأمة فى قبورها فكيف بى وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا** ﴾ الآية .وقد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره وفى جوابه عليهم وفى عذاب القبر وفتنته . وليس هذا موضع بسطها وهى معروفة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ .

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٦٩) وفى التفسير (٤٦٩٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٧١ / ٧٣) وأبو داود فى السنة (٤٧٥٠) والترمذى فى التفسير (٣١٢٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٨٤) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٦٩) وابن جرير ١٣/ ١٤٢ .

قوله : ﴿ **ألم تر** ﴾ : هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، وهو تعجيب من حال الكفارحيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر ، أى بدل شكرها الكفر بها ، وذلك بتكذيبهم محمدًا ﷺ حين بعثه الله منهم ، وأنعم عليهم به، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم . وقيل : نزلت فى الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقيل : نزلت فى بطنين من بطون قريش بنى مخزوم ، وبنى أمية . وقيل : نزلت فى منتصرة العرب . وهم جبلة بن الأيهم وأصحابه ، وفيه نظر ، فإن جبلة وأصحابه لم يسلموا إلا فى خلافة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . وقيل : إنها عامة فى جميع المشركين . وقيل : المراد بتبديل نعمة الله كفرًا أنهم لما كفروها سلبهم الله ذلك فصاروا متبدلين بها الكفر ﴿**وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ أى أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار ، وهى جهنم ، والبوار : الهلاك . وقيل : هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار ، أى الهلاك وهو القتل الذى أصيبوا به ، ومنه قول الشاعر :

فَلَمْ أرَ مِثْلَهُم أبطالَ حَرْبٍ　　غَداةَ الحربِ إذْ خِيفَ البَوَارُ

والأول أولى لقوله : ﴿ **جهنم** ﴾ فإنه عطف بيان لدار البوار ، و ﴿ **يصلونها** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿ **وبئس القرار** ﴾ أى بئس القرار قرارهم فيها أو بئس المقر جهنم ، فالمخصوص بالذم محذوف ﴿ **وجعلوا لله أندادا** ﴾ معطوف على ﴿ **وأحلوا** ﴾ أى جعلوا لله شركاء فى الربوبية، أو فى التسمية وهى الأصنام . قرأ ابن كثير وأبو عمرو : « لِيَضلوا » بفتح الياء ، أى ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله ، وتكون اللام للعاقبة ، أى يتعقب جعلهم لله أندادًا ضلالهم ؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه ، وحسن استعمال لام العاقبة هنا ؛ لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها فى آخر المراتب ، والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز. وقرأ الباقون بضم الياء ليوقعوا قومهم فى الضلال عن سبيل الله ، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أندادًا ، ثم هددهم سبحانه فقال لنبيه ﷺ : ﴿**قل تمتعوا** ﴾ بما أنتم فيه من الشهوات ، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿**فإن مصيركم إلى النار** ﴾ أى مردكم ومرجعكم إليها ليس إلا ، ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه ، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين ، جعل الأمر بمباشرته مكان النهى قربانه إيضاحًا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار فلابد لهم من تعاطى الأسباب المقتضية ذلك ، فجملة : ﴿ **فإن مصيركم إلى النار** ﴾ تعليل للأمر بالتمتع وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره . ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابًا لـمحذوف دل عليه سياق الكلام ، كأنه قيل : فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل . وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف .

﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية** ﴾ لما أمره بأن

يقول للمبدلين نعمة الله كفراً الجاعلين لله أنداداً ما قاله لهم ، أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم ، وهى طائفة المؤمنين ، هذا القول ، والمقول محذوف دل عليه المذكور ، أى قل لعبادى : أقيموا وأنفقوا ويقيموا وينفقوا ، فجزم ﴿**يقيموا**﴾ على أنه جواب الأمر المحذوف ، وكذلك ﴿ **ينفقوا** ﴾ ، ذكر معنى هذا الفراء ، وقال الزجاج : إن ﴿ **يقيموا** ﴾ مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقيموا فأسقطت اللام ، ثم ذكر وجهًا آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء ، وانتصاب ﴿**سرا**﴾ و ﴿ **علانية** ﴾ إما على الحال ، أى مسرين ومعلنين أو على المصدر ، أى إنفاق سر وإنفاق علانية ، أو على الظرف ، أى وقت سر ووقت علانية. قال الجمهور: السر: ما خفى، والعلانية : ما ظهر . وقيل : السر : التطوع ، والعلانية : الفرض ، وقد تقدم تفسير هذا عند تفسير قوله : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

﴿ **من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ : قال أبو عبيدة : البيع ها هنا : الفداء ، والخلال : المخالة وهو مصدر، قال الواحدى : هذا قول جميع أهل اللغة ، وقال أبو على الفارسى : يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة وبرام وعلبة وعلاب، والمعنى : أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصر فى العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك ، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله ، وينقذه من العذاب ، فأمرهم سبحانه بالإنفاق فى وجوه الخير مما رزقهم الله ، ما داموا فى الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتى يوم القيامة ؛ فإنهم لا يقدرون على ذلك ، بل لا مال لهم إذ ذاك ، فالجملة ، أعنى : ﴿ **من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ ، لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم الله ، ويمكن أن يكون فيها أيضًا تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة ؛ وذلك لأن تركها كثيرًا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ، ورعاية حقوق الأخلاء ، وقد تقدم فى البقرة تفسير البيع والخلال .

﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ أى أبدعهما واخترعهما على غير مثال ، وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية ، والاسم الشريف مبتدأ ، وما بعده خبره ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ المراد بالسماء هنا جهة العلو ، فإنه يدخل فى ذلك الفلك عند من قال : إن ابتداء المطر منه ، ويدخل فيه السحاب عند من قال : إن ابتداء المطر منها ، وتدخل فيه الأسباب التى تثير السحاب كالرياح ، وتنكير الماء هنا للنوعية ، أى نوعًا من أنواع الماء ، وهو ماء المطر ﴿**فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾ أى أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقًا لبنى آدم يعيشون به ، و « من » فى ﴿ **من الثمرات** ﴾ للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم . وقيل : للتبعيض ؛ لأن الثمرات منها ما هو رزق لبنى آدم ، ومنها ما ليس برزق لهم ، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ﴿ **وسخر لكم الفلك** ﴾ فجرت على إرادتكم واستعملتموها فى مصالحكم ولذا قال : ﴿ **لتجرى فى البحر** ﴾ كما تريدون وعلى ما تطلبون ﴿ **بأمره** ﴾ أى بأمر الله ومشيئته ، وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة ﴿ **وسخر لكم الأنهار** ﴾ أى ذللها لكم بالركوب عليها، والإجراء لها إلى حيث تريدون .

﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر** ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيؤوا بضوئهما، وانتصاب ﴿ **دائبين**﴾ على الحال ، والدؤوب : مرور الشيء في العمل على عادة جارية ، أي دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره . وقيل : ﴿**دائبين** ﴾ في السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى : يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ولا ينقطع سيرهما ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ يتعاقبان فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم ، وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم . والليل لتسكنوا ، كما قال سبحانه : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ [القصص: ٧٣] .﴿ **وآتاكم من كل ماسألتموه** ﴾ قال الأخفش : أي أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئًا، فحذف شيئًا . وقيل : المعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه ومن كل ما لم تسألوه فحذفت الجملة الأخرى . قاله ابن الأنباري . وقيل : « من » زائدة ،أي آتاكم كل ما سألتموه. وقيل : للتبعيض ، أي آتاكم بعض كل ما سألتموه . وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة : « من كل » بتنوين كل ، وعلى هذه القراءة يجوز أن تكون « ما » نافية ، أي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له ، ويجوز أن تكون موصولة ، أي آتاكم من كل شيء الذي سألتموه ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ أي وإن تتعرضوا لتعداد نعم الله التي أنعم بها عليكم إجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه ، ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال . وأصل الإحصاء : أن الحاسب إذا بلغ عقدًا معينًا من عقود الأعداد ، وضع حصاة ليحفظه بها ، ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه ، أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ، ولا أمكنه أصلا ، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ماخلقه الله في بدنه ، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها ، واختلاف أجناسها ، اللهم إنا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه إلا أنت ، ومما علمناه شكرًا لا يحيط به حصر ، ولا يحصره عد ، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان ﴿**إن الإنسان لظلوم** ﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان ، وقال الزجاج : إن الإنسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ [العصر: ٢]. ﴿ **كفار** ﴾ أي شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها ، غير شاكر لله سبحانه عليها ، كما ينبغي ويجب عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبخاري والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس في قوله:﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا** ﴾ قال : هم كفار أهل مكة (١) . وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا** ﴾ قال : هما الأفجران من

---

(١) البخاري في المغازي (٣٩٧٧) وفي التفسير (٤٧٠٠) والنسائي في التفسير (٢٨٨) وابن جرير ١٣/ ١٤٧ والبيهقي في الدلائل ٣/ ٩٥ .

قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين[١] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن على فى الآية نحوه أيضا [٢] .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل عليًا عن الذين بدلوا نعمة الله كفرا . قال : هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر . قال : فمن الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ؟ قال : منهم أهل حروراء [٣] . وقد روى فى تفسير هذه الآية عن على من طرق نحو هذا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم جبلة بن الأيهم ، والذين اتبعوه من العرب ، فلحقوا بالروم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ قال : الهلاك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وجعلوا لله أندادا** ﴾ قال : أشركوا بالله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وسخر لكم الأنهار** ﴾ قال : بكل فائدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين** ﴾ قال : دؤوبهما فى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ قال : من كل شىء رغبتم إليه فيه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : من كل الذى سألتموه . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب عن سليمان التيمى قال : إن الله أنعم على العباد على قدره ، وكلفهم الشكر على قدرهم . وأخرجا أيضًا عن بكر بن عبد الله المزنى قال : يا بن آدم إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك . وأخرج البيهقى عن أبى الدرداء قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قلّ عمله وحضر عذابه . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن أبى أيوب القرشى مولى بنى هاشم قال : قال داود عليه السلام : رب أخبرنى ما أدنى نعمتك علىّ ، فأوحى إلىّ : يا داود تنفس فتنفس فقال : هذا أدنى نعمتى عليك . وأخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم اغفر لى ظلمى وكفرى . فقال قائل : يا أمير المؤمنين ، هذا الظلم ، فما بال الكفر ؟ قال: ﴿ **إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ١٣/١٤٦ .

(٢) ابن جرير ١٣/١٤٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٢ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٤٧ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عمرو ذومر ، ولم يرو عنه غير أبى إسحاق السبيعى وبقية رجاله ثقات » .

(٣) النسائى فى التفسير (٢٨٧) وابن جرير ١٣ / ١٤٦ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٢ ووافقه الذهبى وفيه : « منافقو قريش بدلا من كفار قريش » والبيهقى فى الدلائل ٣ / ٩٥ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ قال إبراهيم** ﴾ : متعلق بمحذوف ، أى اذكر وقت قوله ، ولعل المراد بسياق ما قاله إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم ، وهى إسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة . وقيل : إن ذكر قصة إبراهيم ها هنا لمثال الكلمة الطيبة. وقيل : لقصد الدعاء إلى التوحيد ، وإنكار عبادة الأصنام ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ المراد بالبلد هنا : مكة . دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمناً ، أى ذا أمن ، وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده ؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشىء آخر من أمور الدين والدنيا. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى البقرة عند قوله تعالى: ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ﴾ [البقرة : ١٢٦] . والفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد ، والمطلوب هنالك البلدية والأمن ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام** ﴾ يقال : جنبته كذا ، وأجنبته وجنبته ، أى باعدته عنه ، والمعنى : باعدنى ، وباعد بنى عن عبادة الأصنام ، قيل : أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية . وقيل : أراد من كان موجودًا حال دعوته من بنيه وبنى بنيه . وقيل : أراد جميع ذريته ما تناسلوا ، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنم هو التمثال الذى كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر : « وأجنبنى » بقطع الهمزة على أنه أصله أجنب .

﴿ **رب إنهن أضللن كثيرا من الناس** ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل ؛ لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم ، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه ، ثم قال : ﴿**فمن تبعنى** ﴾ أى من تبع دينى من الناس فصار مسلمًا موحدًا ﴿ **فإنه منى** ﴾ أى من أهل دينى، جعل أهل ملته كنفسه مبالغة . ﴿ **ومن عصانى** ﴾ فلم يتابعنى ويدخل فى ملتى ﴿ **فإنك غفور رحيم** ﴾ قادر على أن تغفر له . قيل : قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به . كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك ، كذا قال ابن الأنبارى . وقيل : المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك . وقيل : إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك .

ثم قال : ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى** ﴾ قال الفراء : من للتبعيض ، أى بعض ذريتى . وقال ابن الأنبارى : إنها زائدة ، أى أسكنت ذريتى . والأول أولى ؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده ﴿ **بواد غير ذى زرع** ﴾ أى لا زرع فيه، وهو وادى مكة ﴿ **عند بيتك المحرم** ﴾ أى الذى يحرم فيه ما يستباح فى غيره . وقيل : إنه محرم على الجبابرة . وقيل: محرم من أن تنتهك حرمته ، أو يستخف به ، وقد تقدم فى سورة المائدة ما يغنى عن الإعادة، ثم قال : ﴿**ربنا ليقيموا الصلاة** ﴾ اللام متعلقة بأسكنت ، أى أسكنتهم ليقيموا الصلاة فيه متوجهين إليه، متبركين به ، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ، ولعل تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** ﴾ الأفئدة جمع فؤاد ، وهو القلب ، عبر به عن جميع البدن ؛ لأنه أشرف عضو فيه . وقيل : هو جمع وفد والأصل أوفدة ، فقدمت الفاء ، وقلبت الواو ياء ، فكأنه قال: واجعل وفودًا من الناس تهوى إليهم و « من » فى ﴿ **من الناس** ﴾ للتبعيض . وقيل : زائدة ولا يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس ؛ لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب إليهم ، لا توجيهها إلى الحج ولو كان هذا مرادًا لقال : تهوى إليه . وقيل : من للابتداء كقولك : القلب منى سقيم، يريد قلبى ، ومعنى ﴿ **تهوى إليهم** ﴾ : تنزع إليهم ، يقال : هوى نحوه : إذا مال ، وهوت الناقة تهوى هويًا فهى هاوية : إذا عدت عدوًا شديدًا كأنها تهوى فى بئر . ويحتمل أن يكون المعنى : تجىء إليهم أو تسرع إليهم والمعنى : متقارب ، ﴿ **وارزقهم من الثمرات** ﴾ أى: ارزق ذريتى الذين أسكنتهم هنالك ، أو هم ومن يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التى تنبت فيه، أو تجلب إليه ﴿ **لعلهم يشكرون** ﴾ نعمك التى أنعمت بها عليهم .

﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن** ﴾ أى ما نكتمه وما نظهره لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان .قيل: والمراد هنا بما نخفى ما يقابل ما نعلن فالمعنى : ما نظهره وما لا نظهره ، وقدم ما نخفى على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان فى علم الله سبحانه . وظاهر النظم القرآنى عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشىء معين من ذلك . وقيل : المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنهما بوادٍ غير ذى زرع . وما يعلنه من ذلك . وقيل : ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء . والمجىء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط ، بل أراد جميع العباد ، فكأن المعنى : أن الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد ، وبكل ما لا يظهرونه . وأما قوله : ﴿ **وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ فقال جمهور المفسرين : هو من كلام الله سبحانه تصديقًا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه ، فقال سبحانه : ﴿**وما يخفى على الله من شىء** ﴾ من الأشياء الموجودة كائنًا ما كان . وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل فى العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية . قيل : ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقًا لقوله الأول ،

وتعميمًا بعد التخصيص .

ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال : ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق**﴾ أى وهب لى على كبر سنى وسن امرأتى . قيل : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة ، قيل : و«على» هنا بمعنى « مع » أى وهو لى مع كبرى ويأسى عن الولد ﴿ **إن ربى لسميع الدعاء** ﴾ أى لمجيب الدعاء ، من قولهم : سمع كلامه : إذا أجابه واعتد به وعمل بمقتضاه، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول ، والمعنى : إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك ، ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة، محافظًا عليها غير مهمل لشىء منها ، ثم قال: ﴿ **ومن ذريتى**﴾ أى بعض ذريتى ، أى اجعلنى واجعل بعض ذريتى مقيمين للصلاة ، وإنما خص البعض من ذريته ؛ لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغى . قال الزجاج : أى اجعل من ذريتى من يقيم الصلاة ، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم ، ويدخل فى ذلك دعاؤه فى هذا المقام دخولا أوليًا . قيل : والمراد بالدعاء هنا : العبادة ، فيكون المعنى : وتقبل عبادتى التى أعبدك بها ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه ، مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيرًا ، لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر . ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه ، وقد قيل : إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما فى قوله سبحانه : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقيل : كانت أمه مسلمة . وقيل : أراد بوالديه : آدم وحواء . وقرأ سعيد بن جبير :« ولوالِدى » بالتوحيد على إرادة الأب وحده . وقرأ إبراهيم النخعى: « ولولدىّ » يعنى إسماعيل وإسحاق ، وكذا قرأ يحيى بن يعمر، ثم استغفر للمؤمنين. وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم . وقيل : أراد المؤمنين من ذريته فقط . ﴿ **يوم يقوم الحساب** ﴾ أى يوم يثبت حساب المكلفين فى المحشر ، استعير له لفظ يقوم الذى هو حقيقته فى قيام الرجل للدلالة على أنه فى غاية الاستقامة . وقيل : إن المعنى : يوم يقوم الناس للحساب . والأول أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذ قال إبراهيم** ﴾ **الآية** قال : فاستجاب الله لإبراهيم دعوته فى ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنمًا بعد دعوته . واستجاب الله له ، وجعل هذا البلد آمنًا ، ورزق أهله من الثمرات ، وجعله إمامًا، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة ، وتقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن عقيل بن أبى طالب ؛ أن النبى ﷺ لما أتاه الستة النفر من الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة ، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمؤازرة على دينه ، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه ، فقرأ من سورة إبراهيم ، ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام** ﴾ إلى آخر السورة فرق القوم وأخبتوا حين

سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه [١] . وأخرج الواقدى وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال : كانت سارة تحت إبراهيم فمكثت تحته دهرًا لا ترزق منه ولدًا ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية ، فولدت له إسماعيل، فغارت من ذلك سارة ووجدت فى نفسها، وعتبت على هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أطراف . فقال لها إبراهيم : هل لك أن تبرى يمينك ؟ قالت : كيف أصنع ؟ قال : اثقبى أذنيها واخفضيها ، والخفض هو الختان ، ففعلت ذلك بها ، فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حُسنًا . فقالت سارة : أرنى إنما زدتها جمالا ، فلم تقاره على كونه معها ووجد بها إبراهيم وجدًا شديدًا ، فنقلها إلى مكة فكان يزورها فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنى أسكنت من ذريتى** ﴾ قال : أسكن إسماعيل وأمه مكة . وأخرج ابن المنذر عنه قال : إن إبراهيم حين قال : ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** ﴾ لو قال : أفئدة الناس تهوى إليهم لازدحمت عليه فارس والروم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم قال : سألت عكرمة وطاوس وعطاء بن أبى رباح عن هذه الآية : ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** ﴾ فقالوا : البيت تهوى إليه قلوبهم يأتونه .وفى لفظ قالوا : هواهم إلى مكة أن يحجوا .وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **تهوى إليهم** ﴾ قال : تنزع إليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى أن إبراهيم لما دعا للحرم : ﴿ **وارزق أهله من الثمرات** ﴾ نقل الله الطائف من فلسطين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال : إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن ابن عباس قالوا : لو كان إبراهيم عليه السلام قال : فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم لحج اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال: أفئدة من الناس ، فخص به المؤمنين [٢] .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ما نخفى وما نعلن** ﴾ قال : من الحزن . وأخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى فى قوله : ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى** ﴾ قال : من حب إسماعيل وأمه ﴿ **وما نعلن** ﴾ قال : ما نظهر لسارة من الجفاء لهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق** ﴾ قال: هذا بعد ذلك بحين . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة [٣] .

---

(١) أبو نعيم فى الدلائل ص ٢٥٧ .
(٢) ابن جرير ١٣/١٥٥ .
(٣) المرجع السابق ١٣/١٥٦ .

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ خطاب للنبى ﷺ وهو تعريض لأمته ، فكأنه قال : ولا تحسب أمتك يامحمد ، ويجوز أن يكون خطابًا لكل من يصلح له من المكلفين ، وإن كان الخطاب للنبى ﷺ من غير تعريض لأمته ، فمعناه: التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ [الأنعام : ١٤] ونحوه . وقيل : المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، أو يكون المراد بالنهى عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك، لا تخفى عليه منه خافية ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله سبحانه فى إمهال العصاة . ﴿ **إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ أى يؤخر جزاءهم ، ولا يؤاخذهم بظلمهم، وهذه الجملة تعليل للنهى السابق . وقرأ الحسن والسلمى ، وهو رواية عن أبى عمرو بالنون فى : «نؤخرهم» وقرأ الباقون بالتحتية واختارها أبو عبيد ، وأبو حاتم لقوله : ﴿ **ولا تحسبن الله** ﴾ ومعنى ﴿**ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ أى ترفع فيه أبصار أهل الموقف ، ولا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم ، هكذا قال الفراء ، يقال : شخص الرجل بصره ، وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى ، والمراد : أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة .

﴿ **مهطعين** ﴾ أى مسرعين من أهطع يهطع إهطاعًا : إذا أسرع . وقيل : المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع، ومنه :

بدجلة دارهم ولقد أراهم   بدجلة مهطعين إلى السماع

وقيل : المهطع : الذى يديم النظر . قال أبو عبيدة : قد يكون الوجهان جميعًا ، يعنى الإسراع مع إدامة النظر . وقيل : المهطع : الذى لا يرفع رأسه . وقال ثعلب : المهطع الذى ينظر فى ذل وخضوع . وقيل : هو الساكت . قال النحاس : والمعروف فى اللغة أهطع : إذا أسرع ﴿ **مقنعى رؤوسهم** ﴾ أى رافعى رؤوسهم ، وإقناع الرأس : رفعه ، وأقنع صوته : إذا رفعه . والمعنى : أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذل ، ولا

ينظر بعضهم إلى بعض . وقيل : إن إقناع الرأس نكسه. وقيل : يقال : أقنع إذا رفع رأسه ، وأقنع إذا طأطأ ذلة وخضوعًا ، والآية محتملة للوجهين . قال المبرد : والقول الأول أعرف فى اللغة . قال الشاعر :

أنْغَــضَ نَحْــوِى رَأسَــهُ وَأقْنَـعَا كأنَّما أبْصَــرَ شَيْئًا أطْمَعَا

﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أى لا ترجع إليهم أبصارهم ، وأصل الطرف : تحريك الأجفان ، وسميت العين طرفًا ؛ لأنه يكون بها ، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنترة :

وأغُضُّ طَرْفِى مَا بَدَتْ لِى جَارَتِى حتَّى يُوَارِى جَارَتِى مَأوَاهَا

﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ الهواء فى اللغة : المجوف الخالى الذى لم تشغله الأجرام ، والمعنى : أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم ، لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش ، وجعلها نفس الهوى مبالغة ، ومنه قيل للأحمق والجبان : قلبه هواء ، أى لا رأى فيه ولا قوة . وقيل : معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر . وقيل : المعنى : أن أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير . وقيل المعنى : أفئدتهم ذات هواء ، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ [القصص : ١٠] أى خاليًا من كل شىء إلا من هم موسى .

﴿ وأنذر الناس ﴾ هذا رجوع إلى خطاب رسول الله ﷺ أمره الله سبحانه بأن ينذر الناس. والمراد : الناس على العموم . وقيل : المراد : كفار مكة . وقيل : الكفار على العموم . والأول أولى ؛ لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضًا للمسلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ [يس : ١١] ومعنى ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ : يوم القيامة ، أى خوفهم هذا اليوم ، وهو يوم إتيان العذاب وإنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب ؛ لأن المقام مقام تهديد . وقيل : المراد به: يوم موتهم؛ فإنه أول أوقات إتيان العذاب. وقيل : المراد : يوم هلاكهم بالعذاب العاجل. وانتصاب ﴿ يوم ﴾ على أنه مفعول ثان لأنذر . ﴿ فيقول الذين ظلموا ربَّنا أخِّرنا إلى أجل قريب ﴾ المراد بالذين ظلموا هاهنا : هم الناس ، أى فيقولون . والعدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم ، هذا إذا كان المراد بالناس : هم الكفار ، وعلى تقدير كون المراد بهم : من يعم المسلمين ، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار : ﴿ ربنا أخرنا ﴾ أمهلنا ﴿ إلى أجل قريب ﴾ إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿ نجب دعوتك ﴾ أى دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك ﴿ ونتبع الرسل ﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك ، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال وإنما جمع الرسل ؛ لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة ؛ فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم ، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق فى الآخرة ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة فقال : ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال** ﴾ أى فيقال لهم هذا القول توبيخًا وتقريعًا ، أى أو لم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا . وقيل : إنه لا قسم منهم حقيقة . وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم فى الشهوات ، وإخلادهم إلى الحياة الدنيا. وقيل : قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت﴾ [النحل : ٣٨] وجواب القسم : ﴿ **ما لكم من زوال** ﴾ وإنما جاء بلفظ الخطاب فى : ﴿**ما لكم من زوال** ﴾ لمراعاة ﴿ **أقسمتم** ﴾ ، ولولا ذلك لقال : ما لنا من زوال .

﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾ أى استقررتم ، يقال : سكن الدار وسكن فيها ، وهى بلاد ثمود ونحوهم ، من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله ، والعصيان له ﴿ **وتبين لكم كيف فعلنا بهم** ﴾ قرأ عبد الرحمن السلمى : « نبين » بالنون والفعل المضارع ، وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضى ، أى تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب ، وفاعل تبين ما دلت عليه الجملة المذكورة بعده ، أى تبين لكم فعلنا العجيب بهم ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ فى كتب الله وعلى ألسن رسله إيضاحًا لكم وتقريرًا وتكميلا للحجة عليكم.

﴿ **وقد مكروا مكرهم** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال ، أى فعلنا بهم ما فعلنا ، والحال أنهم قد مكروا فى رد الحق وإثبات الباطل مكرهم العظيم الذى استغرقوا فيه وسعهم ﴿**وعند الله مكرهم** ﴾ أى وعند الله جزاء مكرهم،أو وعند الله مكتوب مكرهم فهو مجازيهم ، أو وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به ، على أن يكون المكر مضافًا إلى المفعول ، قيل : والمراد بهم : قوم محمد ﷺ، مكروا بالنبى ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه . وقيل : المراد ماوقع من النمرود حيث حاول الصعود إلى السماء ، فاتخذ لنفسه تابوتًا ، وربط قوائمه بأربعة نسور .

﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ قرأ عمر وعلى وابن مسعود وأبى : « وإن كاد مكرهم » بالدال المهملة مكان النون ، وقرأ غيرهم من القراء ﴿ **وإن كان** ﴾ بالنون . وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائى : «لَتزول » بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود . قال ابن جرير : الاختيار هذه القراءة ، يعنى : قراءة الجمهور؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ، فعلى قراءة الكسائى ومن معه تكون « إن » هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة ، وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته ، أى وإن الشأن كان مكرهم معدا لذلك . قال الزجاج : وإن كان مكرهم يبلغ فى الكيد إلى إزالة الجبال ، فإن الله ينصر دينه .وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون « إن » هى المخففة من الثقيلة ، والمعنى كما مر .والثانى : أن تكون نافية ، واللام المكسورة لتأكيد النفى كقوله : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : ١٤٣] والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم ، على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر ، فالجملة على هذا حال

من الضمير فى ﴿ **مكروا** ﴾ لا من قوله : ﴿ **وعند الله مكرهم** ﴾ أى والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والخرائطى فى مساوئ الأخلاق عن ميمون بن مهران فى قوله: ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون** ﴾ قال : هى تعزية للمظلوم ووعيد للظالم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ قال : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد إليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مهطعين** ﴾ قال : يعنى بالإهطاع النظر من غير أن يطرف ﴿ **مقنعى رؤوسهم** ﴾ قال : الإقناع رفع رؤوسهم ﴿ **لا يرتد إليهم طرفهم** ﴾ قال : شاخصة أبصارهم ﴿ **وأفئدتهم هواء** ﴾ ليس فيها شىء من الخير ، فهى كالخربة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **مهطعين** ﴾ قال : مديمى النظر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ **مهطعين** ﴾ قال: مسرعين . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأفئدتهم هواء** ﴾ قال : ليس فيها شىء ، خرجت من صدورهم فنشبت فى حلوقهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب** ﴾ يقول : أنذرهم فى الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : ﴿ **يوم يأتيهم العذاب** ﴾ هو يوم القيامة .وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **ما لكم من زوال** ﴾ قال : عما أنتم فيه إلى ما تقولون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **مالكم من زوال** ﴾ قال : بعث بعد الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾ قال : عملتم بمثل أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن كان مكرهم** ﴾ يقول : ما كان مكرهم ﴿ **لتزول منه الجبال** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وإن كان مكرهم** ﴾ يقول : شركهم كقوله : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ [مريم : ٩٠] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن على بن أبى طالب ؛ أنه قرأ هذه الآية : ﴿**وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ ثم فسرها فقال : إن جبارا من الجبابرة قال: لا أنتهى حتى أنظر إلى ما فى السماء ، فأمر بفراخ النسور تعلف اللحم حتى شبت وغلظت ، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين ثم جعل فى وسطه خشبة ، ثم ربط أرجلهن بأوتاد ثم جوعهن، ثم جعل على رأس الخشبة لحمًا ،ثم دخل هو وصاحبه فى التابوت،ثم ربطهن إلى قوائم التابوت، ثم خلى عنهم يردن اللحم فذهبن به ما شاء الله ، ثم قال لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى ، ففتح فقال : أنظر إلى الجبال كأنها الذباب ، قال : أغلق فأغلق ، فطرن به ما شاء الله ،

ثم قال: افتح ففتح ، فقال : انظر ماذا ترى ؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما أراها تزداد إلا بعدًا ، قال: صوب الخشبة فصوبها فانقضت تريد اللحم ، فسمع الجبال هدتها فكادت تزول عن مراتبها . وقد روى نحو هذه القصة لبختنصر وللنمرود من طرق ذكرها فى الدر المنثور (١).

﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ .

﴿ **مخلف** ﴾ : منتصب على أنه مفعول ﴿ **تحسبن** ﴾ . وانتصاب ﴿ **رسله** ﴾ على أنه مفعول ﴿ **وعده** ﴾. قيل : وذلك على الاتساع ، والمعنى : مخلف رسله وعده . قال القتيبى : هو من المقدم الذى يوضحه التأخير ، والمؤخر الذى يوضحه التقديم ، وسواء فى ذلك مخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده . ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه وسائره باد إلى الشمس أجمع (٢)

وقال الزمخشرى : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله : ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ [آل عمران : ٩] ثم قال : ﴿ **رسله** ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدًا ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته . والمراد بالوعد هنا : هو ما وعدهم سبحانه بقوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ [غافر : ٥١] و﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة: ٢١] وقرئ: « مخلف وعدَه رسلِه » بجر ﴿**رسله**﴾ ونصب ﴿**وعده**﴾ . قال الزمخشرى : وهذه القراءة فى الضعف كمن قرأ : ﴿ قتل أولادهم شركائهم﴾ [الأنعام : ١٣٧] . ﴿ **إن الله عزيز** ﴾ غالب لا يغالبه أحد . ﴿ **ذو انتقام** ﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه . والجملة تعليل للنهى ، وقد مر تفسيره فى أول آل عمران .

﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال الزجاج : انتصاب ﴿ **يوم** ﴾ على البدل من ﴿ **يوم يأتيهم** ﴾ ، أو على الظرف للانتقام . انتهى . ويجوز أن ينتصب بمقدر يدل عليه الكلام ، أى واذكر ، أو وارتقب ، والتبديل قد يكون فى الذات ، كما فى : بدلت الدراهم دنانير ، وقد يكون فى الصفات كما فى : بدلت الحلقة خاتمًا . والآية تحتمل الأمرين . وقد قيل : المراد: تغير صفاتها . وبه قال الأكثر . وقيل : تغير ذاتها . ومعنى ﴿ **والسموات** ﴾ أى وتبدل

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٩ .

(٢) يصف الشاعر فى هذا البيت هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها فترى الثور مدخلا لرأسه فى ظل كناسه لما يجده من الحرارة ، وسائره بارز للشمس .

السموات غير السموات على الاختلاف الذى مر . ﴿ **وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ أى برز العباد لله ، أو الظالمون كما يفيده السياق ، أى ظهروا من قبورهم ، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه . والتعبير على المستقبل بلفظ الماضى للتنبيه على تحقق وقوعه كما فى قوله : ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ [يس : ٥١ ، والزمر : ٦٨ ، وق : ٢٠] و ﴿ **الواحد القهار** ﴾ المتفرد بالألوهية الكثير القهر لمن عانده .

﴿ **وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد** ﴾ معطوف على ﴿ **برزوا** ﴾،أو على ﴿ **تبدل** ﴾ والمجىء بالمضارع لاستحضار الصورة . والمجرمون هم : المشركون ، و ﴿ **يومئذ** ﴾ يعنى يوم القيامة . و ﴿ **مقرنين** ﴾ أى مشدودين إما بجعل بعضهم مقرونًا مع بعض ، أو قرنوا مع الشياطين ، كما فى قوله : ﴿ نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ [الزخرف : ٣٦] . أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم . والأصفاد : الأغلال والقيود . والجار والمجرور متعلق بمقرنين ، أو حال من ضميره . يقال : صفدته صفدًا ، أى قيدته ، والاسم : الصفد ، فإذا أردت التكثير ، قلت : صَفَّدْتُه . قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهـاب وبالسـبايا   وأبْنا بالملوك مصفدينـــا

وقال حسان بن ثابت :

من بـين مأسور يشـد صـفاده   صقر إذا لاقـى الـكريهة حامى

ويقال : صفدته وأصفدته : إذا أعطيته . ومنه قول النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد (١)

﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾ السرابيل: القُمْص،واحدها سربال. ومنه قول كعب بن مالك:

تلقاكم عصب حول النبى لهم   من نسج داود فى الهيجا سرابيل

والقطران : هو قطران الإبل الذى تهنأ به ، أى قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم ، حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل . وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته . وقال جماعة : هو النحاس ، أى قمصانهم من نحاس . وقرأ عيسى بن عمر : « من قطران » بفتح القاف ، وتسكين الطاء . وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء . وقرئ بفتح القاف والطاء . رويت هذه القراءة عن ابن عباس وأبى هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب . وهذه الجملة فى محل نصب على الحال ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ أى تعلو وجوههم وتضر بها . وخص الوجوه ؛ لأنها أشرف ما فى البدن ، وفيها الحواس المدركة ، والجملة فى محل نصب على

---

(١) صدر البيت :

هذا الثناء فإن تسمع لقائله

ومعنى أبيت اللعن ، أى : أبيت أن تأتى شيئًا تلعن عليه .

الحال أيضًا ، و ﴿ **ليجزى الله** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى يفعل ذلك بهم ليجزى ﴿ **كل نفس ما كسبت** ﴾ من المعاصى ، أى جزاء موافقًا لما كسبت من خير أو شر ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ لا يشغله عنه شيء . وقد تقدم تفسيره .

﴿ **هذا بلاغ** ﴾ أى هذا الذى أنزل إليك بلاغ ، أى تبليغ وكفاية فى الموعظة والتذكير . قيل : إن الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله : ﴿ **فلا تحسبن الله غافلا** . . . ﴾ إلى ﴿**سريع الحساب** ﴾ أى هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة . وقيل : الإشارة إلى جميع السورة . وقيل : إلى القرآن . ومعنى : ﴿ **للناس** ﴾ : للكفار ، أو لجميع الناس على ما قيل فى قوله : ﴿ **وأنذر الناس** ﴾، ﴿ **ولينذروا به** ﴾ معطوف على محذوف ، أى لِيُنْصَحوا ولينذروا به ، والمعنى : وليخوفوا به . وقرئ :« ولينذروا » بفتح الياء التحتية والذال المعجمة . يقال : نذرت بالشىء أنذر : إذا علمت به فاستعددت له . ﴿ **وليعلموا أنما هو إله واحد** ﴾ أى ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقًا وحدانية الله سبحانه ، وأنه لا شريك له . ﴿ **وليذكر أولو الألباب** ﴾ أى وليتعظ أصحاب العقول . وهذه اللامات متعلقة بمحذوف ، والتقدير : وكذلك أنزلنا ، أو متعلقة بالبلاغ المذكور ، أى كفاية لهم فى أن ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه ، وأنه لا شريك له ، وليتعظ بذلك أصحاب العقول التى تعقل وتدرك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إن الله عزيز ذو انتقام** ﴾ قال: عزيز والله فى أمره ، يملى وكيده متين ، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة . وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان ، قال : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فى الظلمة دون الجسر » (١) .وأخرج مسلم أيضًا وغيره من حديث عائشة ، قالت : أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قالت : أين الناس يومئذ ؟ قال : « على الصراط » (٢) . وأخرج البزار وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله :﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض**﴾ قال: « أرض بيضاء ، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل بها خطيئة» (٣) . وأخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم

(١) مسلم فى الحيض (٣١٥/ ٣٤) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٣) .

(٢) مسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩١/ ٢٩) والترمذى فى التفسير (٣١٢١) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٧٩) .

(٣) الطبرانى (١٠٣٢٣) ورواه فى الأوسط (٢٩٨ ، ٢٩٩) مجمع البحرين وقال : « لم يروه عن أبى إسحاق إلا جرير ، تفرد به أبو عتاب » والبزار ٢٨٨/١ وقال : « لا نعلم رواه بهذا الإسناد مرفوعًا إلا جرير وليس بالقوى»، وقال الهيثمى فى المجمع ٤٨/٧ : « وفيه جرير بن أيوب البجلى وهو متروك » وأبو نعيم فى الحلية ٣٤٨/٤ وقال : « تفرد به أبو عتاب ، ورواه أبو الأحوص عنه موقوفًا » .

والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عنه موقوفًا نحوه[(١)] . قال البيهقي : والموقوف أصح .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أتى اليهود النبي ﷺ فقال : «جاؤوني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني »: ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : «أرض بيضاء كالفضة » ، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقي[(٢)] . وأخرج ابن مردويه مرفوعًا عن علي نحو ما تقدم عن ابن مسعود [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس موقوفًا نحوه[(٤)] . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة . وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي » [(٥)] . وفيهما أيضًا من حديث أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده . . . » الحديث [(٦)] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **مقرنين في الأصفاد** ﴾ ، قال : الكبول . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في ﴿ **الأصفاد** ﴾ قال : القيود والأغلال . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : في السلاسل. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ **في الأصفاد** ﴾ يقول : في وثاق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي : ﴿ **سرابيلهم** ﴾ قال : قمصهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ **من قطران** ﴾ قال : قطران الإبل. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : هذا القطران يطلى به حتى يشتعل نارًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : هو النحاس المذاب .وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قرأ : ﴿ **من قطران** ﴾ فقال : القطر : الصفر ، والآن : الحار . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة نحوه .وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » [(٧)] . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ **هذا بلاغ للناس** ﴾ قال : القرآن ، ﴿ **ولينذروا به** ﴾ قال : القرآن .

(١) ابن جرير ١٣/ ١٦٤ والطبراني (١٠٠٠٩) وقال الهيثمي في المجمع ٧/٤٨ : « إسناده جيد » .

(٢) ابن جرير ١٣/ ١٦٤ . والنقي : الدقيق الحوارى ، والحوارى : ما حور ، أي : بيض .

(٣) أورد صاحب كنز العمال رواية ابن مردويه عن علي (٤٤٦٠) وفيه سيفُ بن محمد ابن أخت سفيان الثوري، كذَّاب .

(٤) ابن جرير ١٣/ ١٦٤ .

(٥) البخاري في الرقاق (٦٥٢١) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٩٠/ ٢٨) . قوله : « عفراء » العفرة : بياض ليس بالناصع . النهاية في غريب الحديث ٣ / ٢٦١ .

(٦) البخاري في الرقاق (٦٥٢٠) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٩٢/ ٣٠) .

(٧) جزء من حديث أورده مسلم في الجنائز (٩٣٤/ ٢٩) وابن ماجة في الجنائز (١٥٨١) وفي الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » .

تفسير سورة الحجر

وهى تسع وتسعون آية ، وهى مكية بالاتفاق ، كما قال القرطبى . وأخرج النحاس فى ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **الٓر** ﴾ قد تقدم الكلام فى محله مستوفى . والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى ما تضمنه السورة من الآيات، والتعريف فى ﴿ **الكتاب** ﴾ قيل : هو للجنس ، والمراد : جنس الكتب المتقدمة. وقيل : المراد به القرآن ،ولا يقدح فى هذا ذكر القرآن بعد الكتاب ، فقد قيل: إنه جمع له بين الاسمين . وقيل :المراد بالكتاب : هذه السورة ، وتنكير القرآن للتفخيم ، أى القرآن الكامل . ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ﴿ **ربما** ﴾ وقرأ الباقون بتشديدها ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ، ومنه قول الشاعر :

ربما ضربة بسيف صقيل　　　بين بصرى وطعنة نجلاء

وتميم وربيعة يثقلونها ، وقد تزاد التاء الفوقية ، وأصلها أن تستعمل فى القليل ، وقد تستعمل فى الكثير. قال الكوفيون: أى يود الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين . ومنه قول الشاعر :

رب رفد هرقته ذلك اليو　　　م وأسرى من معشر أقيال

وقيل : هى هنا للتقليل ؛ لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها لشغلهم بالعذاب . قيل : و « ما » هنا لحقت رب لتهيئها للدخول على الفعل . وقيل : هى نكرة بمعنى شىء . وإنما دخلت « رب » هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضى ؛ لأن المترقب فى أخباره سبحانه كالواقع المتحقق ، فكأنه قيل: ربما ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، أى منقادين لحكمه ، مذعنين له من جملة أهله . وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة ، والمراد : أنه لما انكشف لهم الأمر ، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره ، حصلت منهم هذه الودادة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بل هى لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت فى جنب الله . وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين . وقيل : عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر : أن هذه الودادة كائنة منهم فى كل وقت مستمرة فى كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم .

﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ هذا تهديد لهم ، أى دعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهى ، فهم لا يرعوون أبدًا ولا يخرجون من باطل ، ولا يدخلون فى حق ، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا ، فإنهم كالأنعام التى لا تهتم إلا بذلك ، ولا تشتغل بغيره ، والمعنى : اتركهم على ماهم عليه من الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم . وفى هذا من التهديد والزجر مالا يقدر قدره .يقال : أَلْهَاهُ كذا ، أى شغله ، ولهى هو عن الشىء يلهى ، أى شغلهم الأمل عن اتباع الحق ، وما زالوا فى الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين ، وانكشف الأمر ، ورأوا العذاب يوم القيامة ، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا . والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿**وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ أى وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿ **إلا ولها** ﴾ أى لتلك القرية ﴿ **كتاب** ﴾ أى أجل مقدر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿ **معلوم** ﴾ غير مجهول ولا منسى ، فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه . وجملة : ﴿ **لها كتاب** ﴾ فى محل نصب على الحال من ﴿ **قرية** ﴾ وإن كانت نكرة ؛ لأنها قد صارت بما فيها من العموم فى حكم الموصوفة ، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً أو صفة ، فإنها تعينها للحالية كقولك : حالى رجل على كتفه سيف . وقيل : إن الجملة صفة لـ ﴿ **قرية** ﴾ ، والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف .

﴿ **ما تسبق من أمة أجلها** ﴾ أى ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها ، المكتوب فى اللوح المحفوظ ، والمعنى : أنه لا يأتى هلاكها قبل مجىء أجلها ﴿ **وما يستأخرون** ﴾ أى وما يتأخرون عنه ، فيكون مجىء هلاكهم بعد مضى الأجل المضروب له ، وإيراد الفعل على صيغة

جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ، ولرعاية الفواصل ؛ ولذلك حذف الجار والمجرور. والجملة مبينة لما قبلها ، فكأنه قيل : إن هذا الإمهال لا ينبغى أن يغترَّ به العقلاء ، فإن لكل أمة وقتًا معينًا فى نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد تقدم تفسير الأجل فى أول سورة الأنعام .

ثـم لما فـرغ من تهديد الكفار ، شرع فى بيان بعض عتوهم فى الكفر ، وتماديهم فى الغى مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ، فقال : ﴿ **وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر** ﴾ أى قال كفار مكة مخاطبين لرسول اللّه ﷺ ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه ، مع إنكارهم لذلك فى الواقع أشد إنكار ، ونفيهم له أبلغ نفى ، أو أرادوا بـ ﴿ **يأيها الذى نزل عليه الذكر** ﴾ فى زعمه ، وعلى وفق ما يدعيه ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ أى إنك بسبب هذه الدعوى التى تدعيها من كونك رسولاً لله مأمورًا بتبليغ أحكامه لمجنون ، فإنه لا يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً ، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ [الشعراء: ٢٧] .

﴿ **لوما تأتينا بالملائكة** ﴾، ﴿ **لوما** ﴾ حرف تحضيض مركب من « لو » المفيدة للتمنى ، ومن « ما » المزيدة ، فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هى عليه ، والمعنى : هـلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ قال الفراء : الميم فى : ﴿ **لوما** ﴾ بدل من اللام فى :« لولا » . وقال الكسائى : لـولا ولومـا سـواء فى الخبر والاستفهام . قال النحاس : لوما ولولا وهلا واحد . وقيل : المعنى : لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك .

﴿ **ما ننزل الملائكة إلا بالحق** ﴾ قرئ: ﴿ **ما ننزل** ﴾ بالنون مبنيًا للفاعل وهو الله سبحانه، فهو على هذا من التنزيل، والمعنى : على هـذه القراءة : قال الله سبحانـه مجيبًا على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهـم : مـا ننـزل نحـن ﴿ **الملائكة إلا بالحق** ﴾ أى تنزيلاً متلبسًا بالحق الذى يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية ، وليس هذا الذى اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وقرئ : « ننزل » مخففًا من الإنزال ، أى ما ننزل نحن الملائكة إلا بالحق ، وقرئ : « ما تنزل » بالمثناة من فوق مضارعًا مثقلا مبنيا للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين ، أى تتنزل؛ وقرئ أيضًا بالفوقية مضارعًا مبنيا للمفعول. وقيل: معنى ﴿ **إلا بالحق** ﴾ : إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالـة . وقـيل : بالعـذاب . ﴿ **وما كانوا إذًا منظرين** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذاً منظرين . فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة .

ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم : ﴿ **يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ فقال سبحانه: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر** ﴾ أى نحن نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه ، ونسبوك بسببه إلى الجنون . ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف

وزيادة ونقص ونحو ذلك . وفيه وعيد شديد للمكذبين به، المستهزئين برسول الله ﷺ. وقيل: الضمير في : ﴿ **له** ﴾ لرسول الله ﷺ . والأول أولى بالمقام .

ثم ذكر سبحانه أن عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك ؛ تسلية لرسول الله ﷺ فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك** ﴾ أي رسلاً ، وحذف لدلالة الإرسال عليه ، أي رسلاً كائنة من قبلك ﴿ **في شيع الأولين** ﴾ في أممهم ، وأتباعهم ، وسائر فرقهم وطوائفهم . قال الفراء : الشيع : الأمة التابعة بعضهم بعضًا فيما يجتمعون عليه ، وأصله من شاعه : إذا تبعه . وإضافته إلى ﴿ **الأولين** ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم .

﴿ **وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ أي ما يأتي رسول من الرسل شيعته إلا كانوا به يستهزئون ، كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ . وجملة : ﴿ **إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ في محل نصب على الحال ، أو في محل رفع على أنها صفة ﴿ **رسول** ﴾ ، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل .

﴿ **كذلك نسلكه في قلوب المجرمين** ﴾ أي مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿**نسلكه**﴾ أي الذكر . ﴿ **في قلوب المجرمين** ﴾ فالإشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء . والسلك : إدخال الشيء في الشيء ، كالخيط في المخيط ، قاله الزجاج ، قال : والمعنى : كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين. وجملة :﴿ **لا يؤمنون به** ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿ **نسلكه** ﴾ ، أي لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها ، فلا محل لها . وقيل : إن الضمير في :﴿ **نسلكه** ﴾ للاستهزاء ، وفي : ﴿ **لا يؤمنون به** ﴾ للذكر ، وهو بعيد ، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿ **وقد خلت سنة الأولين** ﴾ أي مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء . وقال الزجاج : وقد مضت سنة الله في الأولين بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم .

ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر، وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء ، فقال: ﴿ **ولو فتحنا عليهم** ﴾ أي على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به ﴿ **بابا من السماء** ﴾ أي من أبوابها المعهودة ، ومكناهم من الصعود إليه ﴿ **فظلوا فيه** ﴾ أي في ذلك الباب ﴿ **يعرجون** ﴾ يصعدون بآلة أو بغير آلة، حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ، ولا يعاند عند مشاهدتها معاند . وقيل: الضمير في: ﴿ **فظلوا** ﴾ للملائكة ، أي فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب ، والكفار يشاهدونهم ، وينظرون صعودهم من ذلك الباب ﴿ **لقالوا** ﴾ أي الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم : ﴿ **إنما سكرت أبصارنا** ﴾ . قرأ ابن كثير : « سكرت » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وهو من سكر

الشراب ، أو من السكر ، وهو سدها عن الإحساس . يقال : سكر النهر : إذا سده وحبسه عن الجرى ؛ ورجح الثانى بقراءة التخفيف . وقال أبو عمرو بن العلاء : سكرت : غشيت وغطت ، ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر   وجعلت عين الجزور (١) تسكر

وبه قال أبو عبيد وأبو عبيدة . وروى عن أبى عمرو أيضًا أنه من سكر الشراب ، أى غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله . وقيل : معنى سكرت : حبست، كما تقدم ، ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليلة ساهرة   فليست بطلْقٍ ولا سَاكِرة

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ﴿ **بل نحن قوم مسحورون** ﴾ أضربوا عن قولهم : ﴿**سكرت أبصارنا** ﴾ ثم ادعوا أنهم مسحورون ، أى سحرهم محمد ﷺ وفى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شىء من الأشياء كائنًا ما كان . فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض السكر ، أو أن عقولهم قد سحرت ، فصار إدراكهم غير صحيح . ومن بلغ فى التعنت إلى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة ، ولا يهتدى بآية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : التوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى :﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : الكتب التى كانت قبل القرآن ، و﴿ **قرآن مبين**﴾ قال : مبين ، والله هداه ورشده وخيره .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وابن مسعود،وناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ قال : ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية ، قال : هذا فى الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار . وأخرج سعيد بن منصور، وهناد بن السرى فى الزهد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس، قال : ما يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول : من كان مسلمًا ، فليدخل الجنة، فذلك قوله : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ (٢) . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس وأنس ؛ أنهما تذاكرا هذه الآية : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ فقالا : هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركين فى النار، فيقول المشركون : ما أغنى عنكم

---

(١) فى المخطوطة : « الحرور » ولعلها على عادة المصنف فى عدم الاهتمام بالإعجام .

(٢) ابن جرير ١٤ / ٤ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٣ ووافقه الذهبى .

ما كنتم تعبدون ، فيغضب الله لهم ، فيخرجهم بفضله ورحمته [١] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه بسند ، قال السيوطى : صحيح ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ناسًا من أمتى يعذبون بذنوبهم ، فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك ، فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النار » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ [٢] . وأخرج ابن أبى عاصم فى السنة ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعًا نحوه[٣]. وأخرج إسحاق بن راهويه وابن حبان والطبرانى وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا نحوه [٤]. وأخرج هناد بن السرى ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم عن أنس مرفوعًا نحوه أيضًا [٥] . وفى الباب أحاديث فى تعيين هذا السبب فى نزول هذه الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ الآية ، قال : هؤلاء الكفرة . وأخرج أيضًا عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ذرهم** ﴾ قال : خل عنهم . وأخرج ابن جرير عن الزهرى فى قوله : ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ قال : نرى أنه إذا حضره أجله ، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، وأما ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء . قلت : وكلام الزهرى هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله: ﴿ **يأيها الذى نزل عليه الذكر** ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ما ننزل الملائكة إلا بالحق** ﴾ قال : بالرسالة والعذاب. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **وما كانوا إذا منظرين** ﴾ قال : وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ قال : عندنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فى شيع الأولين** ﴾ قال : أمم الأولين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله : ﴿ **كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين** ﴾ قال : الشرك نسلكه فى قلوب المشركين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الحسن مثله

---

(١) ابن جرير ١٤ / ٣ ، ٤ .

(٢) أورده الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٣٨٢ وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفى وهو ثقة » .

(٣) ابن جرير ١٤ / ٣ وصححه الحاكم ٢ / ٢٤٢ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٨ : « رواه الطبرانى وفيه خالد بن نافع الأشعرى ، قال أبو داود : متروك ، وقال الذهبى : هذا تجاوز فى الحد فلا يستحق الترك فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وبقية رجاله ثقات» .

(٤) صححه ابن حبان (٧٣٨٩) .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم » .

أيضًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وقد خلت سنة الأولين** ﴾ قال : وقائع الله فيمن خلا من الأمم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فظلوا فيه يعرجون** ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم؛ لقالوا : ﴿ **إنما سكرت أبصارنا** ﴾ قال : قريش تقوله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية عن ابن عباس أيضًا يقول : ولو فتحنا عليهم بابًا من أبواب السماء ، فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين وجائين ؛ لقال أهل الشرك : إنما أخذ أبصارنا ، وشبه علينا ، وإنما سحرنا. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد :﴿ **سكرت أبصارنا** ﴾ قال : سدت . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . قال : ومن قرأ : « سكرت » مخففة فإنه يعنى : سحرت .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾ .

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم ، ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع، ليستدل بذلك على وحدانيته ، فقال : ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجا** ﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق ، ففى السماء متعلق به ، وإن كان بمعنى التصيير، ففى السماء خبره . والبروج فى اللغة : القصور والمنازل ، والمراد بها هنا : منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهى : الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة ، والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم . ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب . وقالوا : الفلك اثنا عشر برجًا ، وأسماء هذه البروج : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدى ، الدلو ، الحوت . كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة المشتغلين بهذا العلم ، ويسمون الحمل والأسد والقوس : مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدى : مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو : مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت : مثلثة مائية . وأصل البروج: الظهور . ومنه : تبرج المرأة : بإظهار زينتها . وقال

الحسن وقتادة : البروج : النجوم . وسميت بذلك ؛ لظهورها وارتفاعها. وقيل : السبعة السيارة منها ، قاله أبو صالح . وقيل : هى قصور وبيوت فى السماء فيها حرس . والضمير فى : ﴿**وزيناها**﴾ راجع إلى السماء ، أى وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها ، أو للمتفكرين المعتبرين ، المستدلين إذا كان من النظر وهو الاستدلال .

﴿ **وحفظناها** ﴾ أى السماء ﴿ **من كل شيطان رجيم** ﴾ قال أبو عبيدة : الرجيم : المرجوم بالنجوم ،كما فى قوله : ﴿ رجوما للشياطين ﴾ [الملك : ٥] . والرجم فى اللغة : هو الرمى بالحجارة ؛ ثم قيل للعن والطرد والإبعاد : رجم ؛ لأن الرامى بالحجارة يوجب هذه المعانى . ﴿ **إلا من استرق السمع** ﴾ استثناء متصل ، أى إلا ممن استرق السمع ؛ ويجوز أن يكون منقطعًا ، أى ولكن من استرق السمع ﴿ **فأتبعه شهاب مبين** ﴾ والمعنى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئًا من الوحى وغيره إلا من استرق السمع ، فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله . ومعنى ﴿ **فأتبعه** ﴾ : تبعه ولحقه أو أدركه . والشهاب : الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما فى قوله: ﴿ بشهاب قبس ﴾ [النمل : ٧] . قال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عفريت

وسمى الكوكب شهابًا ؛ لبريقه شبه النار ، والمبين : الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم .

قال القرطبى : واختلف فى الشهاب ، هل يقتل أم لا ؟ فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل ، فعلى هذا القول فى قولهم الشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما : أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ولذلك انقطعت الكهانة . والثانى: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن . قال : ذكره الماوردى ، ثم قال: والقول الأول أصح (١) .

قال : واختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث ؟ فقال الأكثرون : نعم . وقيل : لا ، وإنما ذلك بعد المبعث ، قال الزجاج : والرمى بالشهب من آيات النبى ﷺ مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم . قال كثير من أهل العلم : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى . ثم يصير نارًا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يرمون بشعلة من نار الهواء ، فيخيل إلينا أنه نجم يسرى .

﴿ **والأرض مددناها** ﴾ أى بسطناها وفرشناها ، كما فى قوله:﴿والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات : ٣٠]، وفى قوله : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [الذاريات : ٤٨]

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٦٢٧ ، ٣٦٢٨ .

وفيه رد على من زعم أنها كالكرة . ﴿ **وألقينا فيها رواسى** ﴾ أى جبال ثابتة ، لئلا تحرك بأهلها. وقد تقدم بيان ذلك فى سورة الرعد . ﴿ **وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ أى أنبتنا فى الأرض من كل شيء مقدر معلوم ، فعبر عن ذلك بالوزن ؛ لأنه مقدار تعرف به الأشياء ، ومنه قول الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة ... عندى لِكُل مخاصم مِيزَانه

وقيل : معنى ﴿ **موزون** ﴾ : مقسوم . وقيل : معدود . والمقصود من الإثبات الإنشاء والإيجاد ؛ وقيل : الضمير راجع إلى الجبال ، أى أنبتنا فى الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك . وقيل : موزون بميزان الحكمة ، ومقدر بقدر الحاجة . وقيل : الموزون : هو المحكوم بحسنه ،كما يقال : كلام موزون ، أى حسن .

﴿ **وجعلنا لكم فيها معايش** ﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب ، جمع معيشة . وقيل : هى الملابس . وقيل : هى التصرف فى أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردى : وهو الظاهر. قلت : بل القول الأول أظهر . ومنه قول جرير :

تكلفــنى معيشــة آل زيــد ... ومن لى بالمرقق والصناب

﴿ **ومن لستم له برازقين** ﴾ معطوف على معايش ، أى وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين ، وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم فى الحقيقة هو الله ، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب ، ويجوز أن يكون معطوفًا على محل ﴿ **لكم** ﴾ أى جعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش ، وهم من تقدم ذكره . ويدخل فى ذلك الدواب على اختلاف أجناسها . ولا يجوز العطف على الضمير المجرور فى : ﴿ **لكم** ﴾ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجار . وقيل : أراد الوحش .

﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾ : « إن » هى النافية ، و« من » مزيدة للتأكيد . وهذا التركيب عام لوقوع النكرة فى حيز النفى مع زيادة « من » ومع لفظ ﴿ **شيء** ﴾ المتناول لكل الموجودات الصادقة على كل فرد منها . فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء . والخزائن جمع خزانة ، وهى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأمور . وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور. والمعنى : أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء . وقال جمهور المفسرين : إن المراد بما فى هذه الآية هو المطر ؛ لأنه سبب الأرزاق والمعايش . وقيل : الخزائن : المفاتيح ، أى ما من شيء إلا عندنا فى السماء مفاتيحه . والأولى ما ذكـرناه من العمـوم لكل موجود ، بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف فى ذلك . ﴿**وما ننزله إلا بقدر معلوم**﴾ أى ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم . والقدر: المقدار ؛ والمعنى: أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئًا من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبسًا ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته

على مقدار حاجة العباد إليه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ [الشورى : ٢٧] . وقد فسر الإنزال بالإعطاء ، وفسر بالإنشاء ، وفسر بالإيجاد . والمعنى متقارب . وجملة :﴿ وما ننزله ﴾ معطوفة على مقدر ، أى وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله ، أو فى محل نصب على الحال .

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ معطوف على ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ وما بينهما اعتراض. قرأ حمزة: « الريح » بالتوحيد ، وقرأ من عداه : ﴿ الرياح ﴾ بالجمع . وعلى قراءة حمزة فتكون اللام فى الريح للجنس . قال الأزهرى : وجعل الرياح لواقح ؛ لأنها تحمل السحاب ، أى تقله وتصرفه ، ثم تمر به فتنزله . قال الله سبحانه : ﴿ حتى إذا أقلت سحابا ثقالا ﴾ [الأعراف : ٥٧] أى حملت . وناقة لاقح : إذا حملت الجنين فى بطنها . وبه قال الفراء وابن قتيبة . وقيل : ﴿ لواقح ﴾ بمعنى : ملقحة . قال ابن الأنبارى : تقول العرب : أبقل النبت فهو باقل ، أى مبقل . والمعنى : أنها تلقح الشجر ، أى بقوتها . وقيل : معنى ﴿لواقح ﴾ : ذوات لقح . قال الزجاج: معناه : وذات لقحة؛ لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة . يقال : رامح ، أى ذو رمح . ولابن ، أى ذو لبن . وتامر ، أى ذو تمر . قال أبو عبيدة : ﴿ لواقح ﴾ بمعنى : ملاقح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة ، وفى هذه الآية تشبيه الرياح التى تحمل الماء بالحامل ، ولقاح الشجر بلقاح الحمل .

﴿ فأنزلنا من السماء ماء ﴾ أى من السحاب ، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء . وقيل : من جهة السماء . والمراد بالماء هنا : ماء المطر . ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . قال أبو على : يقال : سقيته الماء : إذا أعطيته قدرما يرويه . وأسقيته نهرًا ، أى جعلته شربًا له . وعلى هذا ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أبلغ من سقيناكموه . وقيل : سقى وأسقى بمعنى واحد . ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ، بل خزائنه عندنا ، ونحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه فى قوله : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ وقيل المعنى : إن ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم، أى لا تقدرون على حفظه فى الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه .

﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ﴾ أى نوجد الحياة فى المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا . والغرض من ذلك : الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته ـ عز وجل ـ وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقون وتقتضيه مشيئته . ولهذا قال : ﴿ ونحن الوارثون ﴾ أى للأرض ومن عليها ؛لأنه سبحانه الباقى بعد فناء خلقه ، الحى الذى لا يموت ، الدائم الذى لا ينقطع وجوده . ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ هذه اللام هى الموطئة للقسم ، وهكذا اللام فى : ﴿ولقد علمنا المستأخرين ﴾ والمراد : من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر فيهما. وقيل: من تقدم طاعة ومن

تأخر فيها .وقيل: من تقدم في صف القتال ومن تأخر. وقيل : المراد بالمستقدمين: الأموات ، وبالمستأخرين: الأحياء. وقيل: المستقدمين: هم الأمم المتقدمون على أمة محمد، والمستأخرون : هم أمة محمد . وقيل : المستقدمون : من قتل في الجهاد ، والمستأخرون : من لم يقتل .

﴿ **وإن ربك هو يحشرهم** ﴾ أي هو المتولي لذلك ، القادر عليه دون غيره ، كما يفيده ضمير الفصل من الحصر ، وفيه أنه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ؛ لأنه الأمر المقصود من الحشر ﴿ **إنه حكيم** ﴾ :يجري الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ **عليم**﴾: أحاط علمه بجميع الأشياء ، لا يخفى عليه شيء منها، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه ، وجرى فيه حكمه ، سبحانه لا إله إلا هو .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجا** ﴾ قال : كواكب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : الكواكب العظام . وأخرج أيضًا عن عطية قال : قصورًا في السماء فيها الحرس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: الرجيم : الملعون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إلا من استرق السمع** ﴾ أراد أن يخطف السمع ، كقوله : ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ [الصافات : ١٠] . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : كان ابن عباس يقول : إن الشهب لا تقتل ، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ **وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ قال : معلوم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضًا : ﴿ **من كل شيء موزون** ﴾ قال : بقدر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ، قال : الأشياء التي توزن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ، قال : ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله:﴿ **ومن لستم له برازقين** ﴾ قال : الدواب والأنعام . وأخرج هؤلاء عن منصور ، قال : الوحش .

وأخرج البزار وابن مردويه ، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « خزائن الله الكلام ، فإذا أراد شيئًا، قال له :كن فكان » [(١)]. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله:﴿ **إلا عندنا خزائنه** ﴾ قال : المطر خاصة. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما نقص المطر منذ أنزله الله . ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى . ثم قرأ : ﴿ **وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ . وأخرج ابن

---

(١) أورده صاحب كنز العمال (٢٩٨٢٨) وعزاه لأبي الشيخ في العظمة ، وأورده ابن كثير ٤ / ١٥٧ عن البزار وقال : « لا يرويه إلا (أغلب) وليس بالقوي ، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ، ولم يروه عنه إلا ابنه » وفي ميزان الاعتدال ١ / ٢٧٣ (١٠٢١) : « قال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن معين : ليس بشيء » .

جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء . ثم قرأ : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعًا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قما ، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب ، فتجعله كسفًا ، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركامًا ، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر (٢) . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه والديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول :« ريح الجنوب من الجنة ، وهى الريح اللواقح التى ذكر الله فى كتابه » (٣) .

وأخرج الطيالسى وسعيد بن منصور وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن خزيمة وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه ، فأنزل الله : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ (٤) . وهذا الحديث هو من رواية أبى الجوزاء عن ابن عباس ، وقد رواه عبد الرزاق وابن المنذر من قول أبى الجوزاء . قال الترمذى : وهذا أشبه أن يكون أصح . وقال ابن كثير : فى هذا الحديث نكارة شديدة (٥). وأخرج الحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية،

---

(١) ابن جرير ١٤ / ١٥ والطبرانى (٩٠٨٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٨ : « وفيه يحيى الحمانى ، وهو ضعيف » .

(٢) ابن جرير ١٤ / ١٥ .

(٣) ابن جرير ١٤ / ١٥ والديلمى فى الفردوس (٣٢٦٢) وفيض القدير (٤٤٨٧) وعزاه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب وابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عن أبى هريرة وضعفه ، وابن كثير ٤ / ١٥٨ وقال : « هذا إسناد ضعيف » .

(٤) الطيالسى (٢٧١٢) وأحمد ١ / ٣٠٥ والترمذى فى التفسير (٣١٢٢) وقال : « وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح » والنسائى ٢ / ١١٨ وفى التفسير (٢٩٣) وحسنه وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٠٤٦) وابن جرير ١٤ / ١٨ وابن حبان (١٧٤٩ موارد) والطبرانى (١٢٧٩١) وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٣ وقال : «قال عمرو بن على : لم يتكلم أحد فى نوح بن قيس الطاحى بحجة وله أصل من حديث سفيان الثورى » ووافقه الذهبى وقال : « هو صدوق وخرج له مسلم » .

(٥) أعله ابن كثير ٤ / ١٥٩ فقال : « وثقه أحمد ، وأبو داود وغيرهما ، وحكى ابن معين تضعيفه ، وأخرجه مسلم وأهل السنن وقال : « غريب جدًا. . . » وهذا الحديث فيه نكارة شديدة ، وقد رواه عبد الرزاق عن =

قال : المستقدمين : الصفوف المقدمة ، والمستأخرين : الصفوف المؤخرة . وقد وردت أحاديث كثيرة فى أن خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها . وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء ومقاتل بن حيان ؛ أن الآية فى صفوف القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : المستقدمين : فى طاعة الله ، والمستأخرين : فى معصية الله .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : يعنى بالمستقدمين : من مات ، وبالمستأخرين : من هو حى لم يمت . وأخرج هؤلاء عنه أيضًا، قال : المستقدمين : آدم ومن مضى من ذريته ، والمستأخرين : فى أصلاب الرجال . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة نحوه .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾ .

المراد بالإنسان فى قوله: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ هو:آدم لأنه أصل هذا النوع. والصلصال، قال أبوعبيدة: هو: الطين المخلوط بالرمل الذى يتصلصل إذا حرك ، فإذا طبخ فى النار فهو الفخار . وهذا قول أكثر المفسرين . وقال الكسائى : هو الطين المنتن، مأخوذ من قول العرب : صلّ اللحم وأصل : إذا أنتن مطبوخًا كان أو نيئًا . قال الحطيئة :

ذاك فتـــى يبـذل ذا قـدْره (١) لا يفسد اللحم لديه الصلول

= جعفر بن سليمان ، عن عمرو بن مالك النكرى أنه سمع أبا الجوزاء يقول: . . . فالظاهر : أنه من كلام أبى الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر » .

(١) فى المطبوعة : « دا قدرة » والصحيح ما أثبتنا من المخطوطة .

والحمأ : الطين الأسود المتغير ، أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكيت: تقول منه : حمأت البئر حمأ بالتسكين : إذا نزعت حمأتها ، وحمئت البئر حمأ بالتحريك : كثرت حمأتها . وأحميتها إحماء : ألقيت فيها الحمأة . قال أبو عبيدة : الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة ، يعنى : بالتحريك . والجمع : حمء ، مثل : تمرة وتمر . والحمأ المصدر مثل : الهلع والجزع ، ثم سمى به . والمسنون ، قال الفراء : هو المتغير ، وأصله من سننت الحجر على الحجر : إذا حككته. وما يخرج بين الحجرين يقال له : السنانة والسنين ، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان :

ثم حاصرتها إلى القبة الحمراء تمشى فى مرمر مسنون [1]

أى محكوك . ويقال : أسن الماء : إذا تغير . ومنه قوله : ﴿ لم يتسنه ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، وقوله : ﴿ ماء غير آسن ﴾ [محمد : ١٥] . وكلا الاشتقاقين يدل على التغير ؛ لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتنا . وقال أبو عبيدة : المسنون : المصبوب ، وهو من قول العرب : سننت الماء على الوجه: إذا صببته. والسن: الصب. وقال سيبويه: المسنون: المصور ، مأخوذ من سنة الوجه ، وهى صورته ، ومنه قول ذى الرمة :

تـريك سُنَّة وجه غَير مـُقْرِفَة مَلْسَاءُ لَيْس بِها خَالٌ وَلا نَدَبُ

وقال الأخفش : المسنون : المنصوب القائم ، من قولهم : وجه مسنون : إذا كان فيه طول . والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل ، صار طينا ، فلما أنتن ، صار حمأ مسنونًا ، فلما يبس صار صلصالاً . فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون. ولهذا وصف بهما .

﴿ **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ الجان : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل : هو إبليس . وسمى جانا ؛ لتواريه عن الأعين . يقال : جن الشيء : إذا ستره . فالجان : يستر نفسه عن أعين بنى آدم . ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ : من قبل خلق آدم . والسموم : الريح الحادة النافذة فى المسام ، تكون بالنهار ، وقد تكون بالليل. كذا قال أبو عبيدة . وذكر خلق الإنسان والجان فى هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية ، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى .

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر . بين سبحانه بعد ذكره لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له . وقد تقدم تفسير ذلك فى البقرة . والبشر : مأخوذ من البشرة ، وهى ظاهر الجلد . وقد تقدم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريبًا مستوفى. ﴿ **فإذا سويته** ﴾ أى سويت خلقه ، وعدلت صورته الإنسانية وكملت أجزاءه ﴿**ونفخت فيه من روحى**﴾ النفخ : إجراء الريح فى تجاويف جسم آخر. فمن قال : إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه

(١) فى المطبوعة : « سنون » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ظاهر، ومن قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال فى متحيز، فمعنى النفخ عنده : تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به . قال النيسابورى : ولا خلاف فى أن الإضافة فى روحى للتشريف والتكريم ، مثل : «ناقة الله » و« بيت الله » قال القرطبى : والروح :جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق . فالروح: خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا . قال : ومثله : ﴿ وروح منه ﴾ [النساء : ١٧١] وقد تقدم فى النساء (١) . ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ ، وهو أمر بالوقوع ، من وقع يقع . وفيه دليل على أن المأمور بــه هو السجود ، لا مجرد الانحناء كما قيل . وهذا السجود :هو سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة ، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء . وقيل : كان السجود لله تعالى ، وكان آدم قبلة لهم .

﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعًا عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ . قال المبرد: قوله :﴿ **كلهم** ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد . وقوله :﴿ **أجمعون** ﴾ توكيد بعد توكيد . ورجح هذا الزجاج . قال النيسابورى : وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصبًا ، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال :﴿ **إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾. قيل : هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ، ولكنه أبى ذلك استكباراً واستعظامًا لنفسه وحسدًا لآدم ، فحقت عليه كلمة الله . وقيل : إنه لم يكن من الملائكة ، ولكنه كان معهم ، فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به ، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً ، وقيل : إن الاستثناء منفصل بناء على عدم كونه منهم ، وعدم تغليبهم عليه ، أى ولكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . وقد تقدم الكلام فى هذا فى سورة البقرة. وجملة: ﴿ **أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾ استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود ؛ لأن عدم السجود قد يكون مع التردد ، فبين سبحانه أنه كان على وجه الإباء .

وجملة: ﴿ **قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين** ﴾ مستأنفة أيضًا جواب سؤال مقدر، كأنه قيل : فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم ،بل للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أى غرض لك فى الامتناع ، وأى سبب حملك عليه ، على ألا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة ، وهم فى الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التى قد علمتها ؟

وجملة :﴿ **قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** ﴾ مستأنفة كالتى قبلها ، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشرًا مخلوقًا من صلصال من حمأ مسنون ، زعمًا منه

---

(١) القرطبى ٥ / ٤٦٤٠ .

أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم . وفيه إشارة إجمالية فى كونه خيرًا منه . وقد صرح بذلك فى موضع آخر ، فقال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال فى موضع آخر:﴿ أأسجد لمن خلقت طينا ﴾[الإسراء:٦١] واللام فى ﴿**لأسجد**﴾ : لتأكيد النفى ، أى لا يصح ذلك منى ، فأجاب الله سبحانه عليه بقوله : ﴿ **قال فاخرج منها فإنك رجيم** ﴾ والضمير فى : ﴿ **منها** ﴾ ، قيل : عائد إلى الجنة ، وقيل: إلى السماء، وقيل : إلى زمرة الملائكة ، أى فاخرج من زمرة الملائكة ﴿ **فإنك رجيم** ﴾ أى مرجوم بالشهب . وقيل: معنى رجيم : ملعون ، أى مطرود ؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة .

﴿ **وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾ أى عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمرًا عليك ، لازمًا لك إلى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة . وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها فى ذلك الوقت ؛ لأن المراد دوامها من غير انقطاع ، وذكر يوم الدين ؛ للمبالغة كما فى قوله تعالى:﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ [هود : ١٠٧] . أو أن المراد أنه فى يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب ، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب.

﴿ **قال رب فأنظرنى** ﴾ أى أخرنى وأمهلنى ولا تمتنى إلى يوم يبعثون ، أى آدم وذريته . طلب أن يبقى حيًا إلى هذا اليوم لما سمع ذلك ، علم أن الله قد أخر عذابه إلى الدار الآخرة ، وكأنه طلب ألا يموت أبدًا ؛ لأنه إذا أخر موته إلى ذلك اليوم ، فهو يوم لا موت فيه . قيل: إنه لم يطلب ألا يموت ،بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ، ولا يعذب فى الدنيا ﴿**قال فإنك من المنظرين** ﴾ لما سأل الإنظار ، أجابه الله سبحانه إلى ما طلبه ، وأخبره بأنه من جملة من أنظره ممن أخر آجالهم من مخلوقاته ، أو من جملة من أخر عقوبتم بما اقترفوا .ثم بين سبحانه الغاية التى أمهله إليها، فقال :﴿ **إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ وهو يوم القيامة، فإن ﴿**يوم الدين** ﴾ و﴿ **يوم يبعثون** ﴾ و﴿ **يوم الوقت المعلوم** ﴾ كلها عبارات عن يوم القيامة . وقيل : المراد بالوقت المعلوم : هو الوقت القريب من البعث ، فعند ذلك يموت .

﴿ **قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض** ﴾ الباء للقسم، و« ما » مصدرية، وجواب القسم :﴿ **لأزينن لهم** ﴾ أى أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم فى الأرض ، أى ما داموا فى الدنيا. والتزيين منه إما بتحسين المعاصى لهم وإيقاعهم فيها، أو يشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها . وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافى إقسامه فى موضع آخر بعزة الله التى هى سلطانه وقهره ؛ لأن الإغواء (١) له هو من جملة ما تصدق عليه العزة ﴿**ولأغوينهم أجمعين** ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى ، وأوقعهم فى طريق الغواية، وأحملهم عليه . ﴿ **إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ، أى

---

(١) فى المطبوعة : « الإعزاء » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الذين استخلصتهم من العباد . وقرأ الباقون بكسر اللام ، أى الذين أخلصوا لك العبادة ، فلم يقصدوا بها غيرك .

﴿ **قال هذا صراط على مستقيم** ﴾ أى حق علىّ أن أراعيه، وهو ألا يكون لك على عبادى سلطان . قال الكسائى: هذا على الوعيد والتهديد ، كقولك لمن تهدده : طريقك علىّ ، ومصيرك إلىّ . وكقوله: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : ١٤] . فكأن معنى هذا الكلام : هذا طريق مرجعه، فأجازى كلاً بعمله. وقيل :﴿ **على** ﴾ هنا بمعنى إلى . وقيل : المعنى : على أن الصراط المستقيم بالبيان والحجة . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء وحميد ويعقوب : « هذا صراط على » على أنه صفة مشبهة ومعناه : رفيع .

﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ المراد بالعباد هنا : هم المخلصون ؛ والمراد أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم فى ذنب يهلكون به ، ولا يتوبون منه . فلا ينافى هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما ، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه . ﴿ **إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحق ، الواقعين فى الضلال ، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله :﴿ **لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ ويمكن أن يقال : إن بين الكلامين فرقًا فكلام الله سبحانه فيه نفى سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين ، فيدخل فى ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين ؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين ، فدخل فيهم من لم يكن مخلصًا ولا تابعًا لإبليس غاويًا . والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لإبليس . وقد قيل : إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل : ١٠٠] .

ثم قال الله سبحانه متوعدًا لأتباع إبليس : ﴿ **وإن جهنم لموعدهم أجمعين** ﴾ أى موعد المتبعين الغاوين . و﴿ **أجمعين** ﴾ تأكيد للضمير ، أو حال . ﴿ **لها سبعة أبواب** ﴾ يدخل أهل النار منها ، وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿ **لكل باب منهم** ﴾ أى من الأتباع الغواة ﴿ **جزء مقسوم** ﴾ أى قدر معلوم متميز عن غيره . وقيل : المراد بالأبواب : الأطباق طبق فوق طبق ، وهى جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطباق ، ثم ما بعدها تحتها ، ثم كذلك . كذا قيل .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : خلق الإنسان

من ثلاث : من طين لازب ، وصلصال ، وحمأ مسنون ، فالطين اللازب : اللازم الجيد ، والصلصال : المدقق الذى يصنع منه الفخار ، والحمأ المسنون : الطين الذى فيه الحمأة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : الصلصال : الماء يقع على الأرض الطيبة ، ثم يحسر عنها ، فتشقق ، ثم تصير مثل الخزف الرقاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : الصلصال : هو التراب اليابس الذى يبل بعد يبسه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا ، قال : الصلصال : طين خلط برمل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا ، قال : الصلصال : الذى إذا ضربته صلصل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا ، قال : الصلصال : الطين تعصر بيدك ، فيخرج الماء من بين أصابعك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **من حمأ مسنون** ﴾ قال : من طين رطب . وأخرج هؤلاء عنه أيضًا ﴿ **من حمأ مسنون** ﴾ قال : من طين منتن . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا ، قال : الجان : مسيخ الجن ، كالقردة والخنازير : مسيخ الإنس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الجان : هو إبليس ، خلق من قبل آدم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ قال : من أحسن النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : نار السموم : الحارة التى تقتل . وأخرج الطيالسى والفريابى وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : السموم التى خلق منها الجان ، جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم ، ثم قرأ : ﴿ **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ .

وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعًا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ قال :أراد إبليس لا يذوق الموت، فقيل :﴿ **إنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ قال : النفخة الأولى يموت فيها إبليس ، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن سيرين ﴿ **هذا صراط على مستقيم** ﴾ أى رفيع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لها سبعة أبواب** ﴾ بعدد أطباق جهنم كما قدّمنا . وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد ، وهناد وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى صفة النار ، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث من طرق عن على قال : أطباق جهنم سبعة ، بعضها فوق بعض ، فيملأ الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث حتى تملأ كلها . وأخرج البخارى فى تاريخه ، والترمذى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بجهنم سبعة أبواب ، باب منها لمن سل السيف على أمتى » (١) . وقد ورد

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٢٣) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول » .

فى صفة النار أحاديث وآثار. وأخرج ابن مردويه والخطيب فى تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ قال :« جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله» [(١)] .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون**﴾ أى المتقين للشرك بالله كما قال جمهور الصحابة والتابعين . وقيل : هم الذين اتقوا جميع المعاصى ﴿ **فى جنات** ﴾ وهى البساتين ﴿**وعيون**﴾ وهى الأنهار. قرئ بضم العين من:﴿ **عيون** ﴾ على الأصل ، وبالكسر مراعاة للياء . والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنة وعين .﴿ **ادخلوها** ﴾ قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول ، أى قيل لهم: ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ، وروى عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة ، وفتح الخاء على أنه فعل مبنى للمفعول ، أى أدخلهم الله إياها . وقد قيل : إنهم إذا كانوا فى جنات وعيون ، فكيف يقال لهم بعد ذلك : ادخلوها على قراءة الجمهور، فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ؟ وأجيب بأن المعنى : أنهم لما صاروا فى الجنات ، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض ، يقال لهم عند الوصول إلى التى أرادوا الانتقال إليها :

---

(١) تاريخ بغداد ٩ / ٢٩ وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ٣ / ٢٦٥ وقال : « هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ. وفيه سلام ليس بشىء. قال يحيى : لا يكتب حديثه ليس بشىء . وقال النسائى والدارقطنى : متروك . وقال ابن حبان : يروى عن الثقات الموضوعات » .

ادخلوها . ومعنى ﴿ **بسلام آمنين** ﴾ : بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، أو مسلمين على بعضهم بعضًا ، أو مسلمًا عليهم من الملائكة أو من الله ـ عز وجل .

﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** ﴾ الغل : الحقد والعداوة . وقد مر تفسيره فى الأعراف . وانتصاب ﴿ **إخوانا** ﴾ على الحال ، أى إخوة فى الدين والتعاطف ﴿ **على سرر متقابلين** ﴾ أى حال كونهم على سرر ، وعلى صورة مخصوصة وهى التقابل ، ينظر بعضهم إلى وجه بعض . والسرر : جمع سرير . وقيل : هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور . ومنه قولهم : سرّ الوادى لأفضل موضع منه . ﴿ **لا يمسهم فيها نصب** ﴾ أى تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك فى الجنة ؛ لأنها نعيم خالص ، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة ، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد ، بل بمجرد خطور شهوة الشىء بقلوبهم يحصل ذلك الشىء عندهم صفوًا عفوًا ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ أبدًا ، وفى هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم . فإنَّ علم من هو فى نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته .

ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم ، والأجر الجزيل : ﴿ **نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم** ﴾ أى أخبرهم يا محمد أنى أنا الكثير المغفرة لذنوبهم ، الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسى : « إن رحمتى سبقت غضبى »[(١)] . اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة ، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة . ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة ، أمره بأن يذكر لهم شيئًا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ، ويتقابل التبشير والتحذير ، ليكونوا راجين خائفين ، فقال : ﴿ **وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ أى الكثير الإيلام . وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير ، صاروا فى حالة وسط[(٢)] بين اليأس والرجاء ، وخير الأمور أوساطها ، وهى القيام على قدمى الرجاء والخوف ، وبين حالتى الأنس والهيبة .

وجملة : ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **نبئ عبادى** ﴾ أى أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذى اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذى خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله سبحانه فى عباده . وأيضًا : لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين ، كان فى ذلك تقرير[(٣)] لكونه الغفور الرحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم . وقد مر تفسير هذه القصة فى سورة هود . وانتصاب ﴿ **إذ دخلوا عليه** ﴾ بفعل مضمر معطوف على ﴿ **نبئ عبادى** ﴾ أى واذكر لهم دخولهم عليه ،

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه ابن ماجة فى المقدمة (١٨٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى المخطوطة : « وسطًا » بالنصب ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) فى المخطوطة : « تقريراً » بالنصب والصحيح ما أثبتناه من الرفع ؛ لأنه اسم كان .

أو فى محل نصب على الحال . والضيف فى الأصل مصدر، ولذلك وحد وإن كانوا جماعة. وسمى ضيفًا ؛ لإضافته إلى المضيف ﴿ **فقالوا سلاما** ﴾ أى سلمنا سلاما ﴿ **قال إنا منكم وجلون**﴾ أى فزعون خائفون . وإنما قال هذا بعد أن قرب إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه كما تقدم فى سورة هود ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ [هود: ٧٠] وقيل : أنكر السلام منهم ؛ لأنه لم يكن فى بلادهم . وقيل : أنكر دخولهم عليه بغير استئذان .

﴿ **قالوا لا توجل** ﴾ أى قالت الملائكة : لا تخف . وقرئ : « لا تأجل » و«لا توجل »من أوجله ، أى أخافه . وجملة: ﴿ **إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾ مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل . والعليم : كثير العلم . وقيل : هو الحليم كما وقع فى موضع آخر من القرآن . وهذا الغلام هو إسحاق كما تقدم فى هود. ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف . ﴿ **قال أبشرتمونى** ﴾ قرأ الجمهور بألف الاستفهام . وقرأ الأعمش :« بشرتمونى » بغير الألف ﴿ **على أن مسنى الكبر** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مع حالة الكبر والهرم ﴿ **فبم تبشرون** ﴾ استفهام تعجب ، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذى جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه . والمعنى : فبأى شيء تبشرون ؟ فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح . وقرأ نافع : « تبشرونِ » بكسر النون والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الياء المحذوفة. وقرأ ابن كثير وابن محيصن بكسر النون مشددة على إدغام النون فى النون ، وأصله: تبشروننى . وقرأ الباقون : « تبشرون » بفتح النون .

﴿ **قالوا بشرناك بالحق** ﴾ أى باليقين الذى لا خلف فيه، فإن ذلك وعد الله وهو لايخلف الميعاد، ولا يستحيل عليه شيء ، فإنه القادر على كل شيء ﴿ **فلا تكن من القانطين** ﴾ هكذا قرأ الجمهور بإثبات الألف . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب : « من القنطين » بغير ألف . وروى ذلك عن أبى عمرو ، أى من الآيسين من ذلك الذى بشرناك به ﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ قرئ بفتح النون من: « يقنط » وبكسرها وهما لغتان . وحكى فيه ضم النون . و﴿**الضالون**﴾ المكذبون ، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب ، أى إنما استبعدت الولد لكبر سنى ، لا لقنوطى من رحمة ربى .

ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه فقال: ﴿ **فما خطبكم أيها المرسلون** ﴾ الخطب : الأمر الخطير ، والشأن العظيم ، أى فما أمركم وشأنكم ، وما الذى جئتم به غير ما قد بشرتمونى به ؛ وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ أى إلى قوم لهم إجرام فيدخل تحت ذلك الشرك ، وما هو دونه . وهؤلاء القوم هم : قوم لوط .

ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال : ﴿ **إلا آل لوط** ﴾ وهو استثناء متصل ؛ لأنه

من الضمير فى: ﴿**مجرمين**﴾ . ولو كان من قوم لكان منقطعًا لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين . وليس آل لوط مجرمين . ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم فى إجرامهم ، فقال: ﴿ **إنا لمنجوهم أجمعين** ﴾ أى آل لوط ، وهم أتباعه وأهل دينه . وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً ، كأنه قيل : ماذا يكون حال آل لوط ؟ فقال : ﴿ **إنا لمنجوهم أجمعين** ﴾ ؛ وإنما على تقدير كون الاستثناء منقطعًا فهى خبر ، أى لكن آل لوط ناجون من عذابنا . وقرأ حمزة والكسائى :« لمنجوهم » بالتخفيف من : أنجى[(١)] ، وقرأ الباقون بالتشديد من : نجى . واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم . والتنجية والإنجاء : التخليص مما وقع فيه غيرهم .﴿ **إلا امرأته** ﴾ هذا الاستثناء من الضمير فى منجوهم إخراجًا لها من التنجية ، والمعنى : قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلا آل لوط إنا لمنجوهم إلا امرأته فإنهـا من الهالكين . ومعنى ﴿ **قدرنا إنها لمن الغابرين** ﴾ : قضينا وحكمنا أنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة . والغابر : الباقى . قال الشاعر :

لا تكْسَع [(٢)] الشَّوْلَ بأغبارها إنك لا تدرى من النَّاتِجِ

والإغبار : بقايا اللبن . قال الزجاج : معنى قدرنا : دبرنا ، وهو قريب من معنى قضينا. وأصل التقدير : جعل الشىء على مقدار الكفاية . وقرأ عاصم من رواية أبى بكر والمفضل : «قدرنا » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد . قال الهروى : هما بمعنى ، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه ؛ لما لهم من القرب عند الله .

﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك من يستحق الهلاك ، وتنجية من يستحق النجاة ﴿ **قال إنكم قوم منكرون** ﴾ أى قال لوط مخاطبًا لهم : إنكم قوم منكرون ، أى لا أعرفكم ، بل أنكركم . ﴿ **قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون** ﴾ أى بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره ، كأنهم قالوا : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل جئناك بما فيه سرورك ، وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك .

﴿ **وأتيناك بالحق** ﴾ أى باليقين الذى لا مرية فيه ولا تردد ، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فى ذلك الخبر الذى أخبرناك . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل** ﴾ فى سورة هود . ﴿ **واتبع أدبارهم** ﴾ أى كن وراءهم تذودهم لئلا يختلف منهم أحد فينـاله العذاب ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ أى لا تلتفت أنت ولا يلتفت أحد منهم ، فيرى ما نزل بهم من العذاب ، فيشتغل بالنظر فى ذلك ، ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين . وقيل : معنى لا يلتفت : لا يتخلف . ﴿ **وامضوا حيث تؤمرون** ﴾

---

(١) فى المخطوطة : « أنجا » بالألف ، على عادة المصنف فى كتابة المنطوق .

(٢) فى المطبوعة : « لا نكسح » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أى إلى الجهة التى أمركم الله سبحانه وتعالى بالمضى إليها ، وهى جهة الشام . وقيل : مصر. وقيل : قرية من قرى لوط . وقيل : أرض الخليل .

﴿ وقضينا إليه ﴾أى أوحينا إلى لوط ﴿ ذلك الأمر ﴾ وهو إهلاك قومه، ثم فسره بقوله: ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ . قال الزجاج : موضع :« أن » نصب ، وهو بدل من ﴿ ذلك الأمر ﴾ . والدابر : هو الآخر ، أى أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح . وانتصاب ﴿مصبحين ﴾ على الحال ، أى حال كونهم داخلين فى وقت الصبح . ومثله: ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله :﴿ آمنين ﴾ قال : أمنوا الموت ، فلا يموتون ، ولا يكبرون ، ولا يسقمون ، ولا يعرون ، ولا يجوعون . وأخرج ابن جرير عن على : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ قال : العداوة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن البصرى ، قال : قال على بن أبى طالب:فينا والله أهل بدر[١] نزلت :﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ [٢]. وأخرج ابن عساكر وابن مردويه عنه فى الآية ، قال : نزلت فى ثلاث أحياء من العرب ، فى بنى هاشم، وبنى تميم [٣] ، وبنى عدى ، فىَّ وفى أبى بكر وعمر . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال : قلت لأبى جعفر : إن فلانًا حدثنى عن على بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ قال : والله إنها لفيهم أنزلت، وفيمن تنزل إلا فيهم ؟ قلت : وأى غل هو؟ قال :غل الجاهلية ، إن بنى تميم وبنى عدى وبنى هاشم كان بينهم فى الجاهلية ، فلما أسلم هؤلاء القوم ، تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علىّ يسخن يده ، فيكمد بها خاصرة أبى بكر ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه عن على من طرق أنه قال لابن طلحة : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم ﴾ الآية ، فقال رجل من همدان : الله أعدل من ذلك، فصاح علىّ عليه صيحة تداعى لها القصر، وقال:فيمن إذن إن لم نكن نحن أولئك [٤] ؟ وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه عن على قال : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى هذه الآية ،

---

(١) فى المخطوطة : « الجنة » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

(٢) ابن جرير ١٤ / ٢٥ .

(٣) فى المخطوطة : « تميم » والصواب « بنى تميم »، كما يدل عليه السياق ؛ لأن أبا بكر كان من تميم .

(٤) ابن أبى شيبة فى الجمل (١٩٦٤١) وابن جرير ١٤ / ٢٥ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٤ ووافقه الذهبى .

قال : نزلت فى عشرة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح موقوفًا عليه . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**على سرر متقابلين**﴾ قال : لا يرى بعضهم قفا بعض . وأخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن مجاهد عن ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو قاسم البغوى وابن مردويه وابن عساكر عن زيد بن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية :﴿ **إخوانا على سرر متقابلين** ﴾ قال : « المتحابون فى الله فى الجنة ينظر بعضهم إلى بعض » (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **لا يمسهم فيها نصب** ﴾ قال : المشقة والأذى . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال : « ألا أراكم تضحكون » ثم أدبر ، حتى إذا كان عند الحجر ، رجع القهقرى ، فقال : « إنى لما خرجت ، جاء جبريل فقال : يا محمد ، إن الله ـ عز وجل ـ يقول : لِمَ تقنط عبادى ؟ ﴿**نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مصعب بن ثابت قال : مر النبى ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال: « اذكروا الجنة ، واذكروا النار » ، فنزلت : ﴿ **نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم** ﴾ (٣) . وأخرج الطبرانى والبزار وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير ، قال : مر النبى ﷺ . . . فذكر نحوه (٤) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عند الله من رحمته ، لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب ، لم يأمن من النار » (٥) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة :﴿ **قالوا لا توجل** ﴾ : لا تخف . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **من القانطين** ﴾ قال : الآيسين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **إنها لمن**

---

(١) الطبرانى (٥١٤٦) من حديث طويل ، وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب ٢ / ٥٣٧ : « إلا أن فى إسناده ضعفًا » وقال الحافظ فى الإصابة ٢ / ٥٩٢ : « وقال ابن السكن : روى حديثه من ثلاث طرق ليس فيها ما يصح » وقال البخارى فى التاريخ الصغير ١ / ٢١٧ : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ولا يعرف سماع بعضهم من بعض . رواه بعضهم عن إسماعيل بن أبى خالد عن عبد الله بن أبى أوفى عن النبى ﷺ ، ولا أصل له ».

(٢) ابن جرير ١٤ / ٢٧ ، وفى إسناده من لم يسمٍّ .

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره ٤/١٦٦ وقال : « رواه ابن أبى حاتم ، وهو مرسل » .

(٤) أورده الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٩ وقال : « رواه الطبرانى وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف » .

(٥) البخارى فى الرقاق (٦٤٦٩) ومسلم فى التوبة (٢٧٥٥ / ٢٣) والبيهقى ٢ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الغابرين ﴾ يعنى : الباقين فى عذاب الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنكم قوم منكرون** ﴾ قال : أنكرهم لوط . وفى قوله : ﴿ **بما كانوا فيه يمترون** ﴾ قال :بعذاب قوم لوط . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ **بما كانوا فيه يمترون** ﴾ قال : يشكون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **واتبع أدبارهم** ﴾ قال : أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم فى آخرهم إذا مشوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **وامضوا حيث تؤمرون** ﴾ قال : أخرجهم الله إلى الشام .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **وقضينا إليه ذلك الأمر** ﴾ قال : أوحيناه إليه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **أن دابر هؤلاء مقطوع** ﴾ يعنى : استئصالهم وهلاكهم [1].

﴿ **وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)** ﴾ .

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال :﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون** ﴾ أى أهل مدينة قوم لوط ، وهى سدوم [2] كما سبق . وجملة : ﴿**يستبشرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مستبشرون بأضياف لوط طمعًا فى ارتكاب الفاحشة منهم . فقال لهم لوط:﴿ **إن هؤلاء ضيفى** ﴾ وحد الضيف ؛ لأنه مصدر كما تقدم ، والمراد: أضيافى . وسماهم ضيفًا ؛ لأنه رآهم على هيئة الأضياف ، وقومه رأوهم مردًا حسان الوجه ، فلذلك طمعوا فيهم ﴿ **فلا تفضحون** ﴾ يقال : فضحه يفضحه فضيحة وفضحًا : إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره. والمعنى: لا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة ، فيعلمون أنى عاجز عن حماية من نزل بى ، أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى ، فإن من فعل ما يفضح الضيف ، فقد فعل ما يفضح المضيف . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى أمرهم ﴿ **ولا تخزون** ﴾ يجوز أن تكون من الخزى وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزاية وهى الحياء والخجل. وقد تقدم تفسير ذلك فى هود .

(١) فى المخطوطة : « استصال هلاكهم » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) فى المطبوعة : « سلوم » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، وهى قرية من قرى قوم لوط .

﴿ **قالوا** ﴾ أى قوم لوط ، مجيبين له : ﴿ **أو لم ننهك عن العالمين** ﴾ الاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على مقدر ، أى ألم نتقدم إليك وننهك عن أن تكلمنا فى شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ؟ وقيل : نهوه عن ضيافة الناس . ويجوز حمل ما فى الآية على ما هو أعم من هذين الأمرين . ﴿ **قال هؤلاء بناتى** ﴾ فتزوجوهن ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفى ، فهؤلاء بناتى تزوجوهن حلالاً ولا ترتكبوا الحرام . وقيل : أراد بناته : نساء قومه ؛ لكون النبى بمنزلة الأب لقومه . وقد تقدم تفسير هذا فى هود : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ العَمر والعُمر بالفتح والضم واحد ، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح؛ لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم . ذكر ذلك الزجاج .

قال القاضى عياض : اتفق أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله ، جل جلاله ، بمدة حياة محمد ﷺ ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربى ، فقال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريفًا له . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ ؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : ما الذى يمتنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ، ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه ، أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة، وموسى التكليم ، وأعطى ذلك لمحمد ﷺ . فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط ، فحياة محمد أرفع . قال القرطبى [1] : ما قاله حسن ، فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلامًا معترضًا فى قصة لوط . فإن قيل : قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ، ونحو ذلك فما فيهما من فضل ؟ وأجيب بأنه ما من شىء أقسم الله به إلا وفى ذلك دلالة على فضله على جنسه . وذكر صاحب الكشاف [2] وأتباعه : أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول ، أى قالت الملائكة للوط : لعمرك ، ثم قال: وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ ، وأنه أقسم بحياته ، وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له . انتهى .

وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فى النهى عن القسم بغير الله، فليس لعباده أن يقسموا بغيره. وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . وقيل : الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون ، وطور سينين ، والنجم ، والضحى ، والشمس ، والليل ، ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به ، أى وخالق التين ، وكذلك ما بعده. وفى قوله: ﴿ **لعمرك**﴾ أى وخالق عمرك.

ومعنى ﴿ **إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ : لفى غوايتهم يتحيرون ،جعل الغواية ؛ لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة . والضمير لقريش . على أن القسم بمحمد

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٦٥٦ .

(٢) الكشاف ٢ / ٥٨٥ .

ﷺ ، أو لقوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام . ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ العظيمة ، أوصيحة جبريل حال كونهم ﴿ **مشرقين** ﴾ أى داخلين فى وقت الشروق . يقال : أشرقت الشمس ، أى أضاءت . وشرقت : إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنى واحد . وأشرق القوم : إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أول العذاب كان عند شروق الفجر ، وامتد إلى طلوع الشمس . والصيحة : العذاب ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها** ﴾ أى عالى المدينة سافلها ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ من طين متحجر . وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا فى سورة هود .

﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى فى المذكور من قصتهم ، وبيان ما أصابهم ﴿ **لآيات** ﴾ : لعلامات يستدل بها ﴿**للمتوسمين** ﴾ : للمتفكرين الناظرين فى الأمر ، ومنه قول زهير :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

وقال آخر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلىَّ عريفهم يتوسم

وقال أبو عبيدة : للمتبصرين. وقال ثعلب: الواسم: الناظر إليك من قرنك إلى قدمك . والمعنى متقارب . وأصل التوسم : التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم ، وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير .﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ يعنى : قرى قوم لوط، أو مدينتهم على طريق ثابت ، وهى الطريق من المدينة إلى الشام ، فإن السالك فى هذه الطريق يمر بتلك القرى . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور من المدينة أو القرى ﴿ **لآية للمؤمنين** ﴾ يعتبرون بها ، فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله :﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون** ﴾ قال : استبشروا بأضياف نبى الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أو لم ننهك عن العالمين** ﴾ قال : يقولون : أو لم ننهك أن تضيف أحدًا ، أو تؤويه ؟ ﴿ **قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين** ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء ، وأراد أن يقى (١) أضيافه ببناته .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس، قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ يقول : وحياتك يا محمد ، وعمرك ، وبقائك فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لعمرك** ﴾ قال : لعيشك . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : ما حلف الله

(١) فى المطبوعة : « يبقى » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

بحياة أحد إلا بحياة محمد ، قال: ﴿ **لعمرك** ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى ، قال : كانوا يكرهون أن يقول الرجل : لعمرى ، يرونه كقوله : وحياتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ أى فى ضلالهم يلعبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الأعمش فى الآية : لفى غفلتهم يترددون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ : مثل الصاعقة ، وكل شيء أهلك به قوم ، فهو صاعقة وصيحة . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **مشرقين** ﴾ قال : حين أشرقت الشمس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ قال : علامة ، أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله ، فيقول : هاتوا كذا وكذا . فإذا رأوه ، عرفوا أنه حق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿**للمتوسمين** ﴾ قال: للناظرين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة ، قال : للمعتبرين . وأخرج ابن جريج وابن المنذر عن مجاهد قال : للمتفرسين . وأخرج البخارى فى التاريخ ، والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن السنى وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : ﴿ **إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ يقول : لبهلاك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال :لبطريق مقيم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لبطريق واضح .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة** ﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، أى وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . والأيكة : الغيضة ، وهى جماع الشجر. والجمع : الأيك. ويروى أن شجرهم كان دومًا . وهو المقل ، فالمعنى : وإن كان أصحاب الشجر المجتمع . وقيل : الأيكة : اسم القرية التى كانوا فيها . قال أبو عبيدة :

---

(١) البخارى فى التاريخ ٧ / ٣٥٤ (١٥٢٩) والترمذى فى التفسير (٣١٢٧) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ١٤ / ٣٢ ، وأخرجه أبو نعيم عن ابن عمر ٤ / ٩٤ وقال : « غريب » .

الأيكة ، وليكة : مدينتهم كمكة وبكة . وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب . وقد تقدم خبرهم . واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم ، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق ، والضمير فى :﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ يرجع إلى مدينة قوم لوط ، ومكان أصحاب الأيكة ، أى وإن المكانين لبطريق واضح . والإمام : اسم لما يؤتم به ، ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك . قال الفراء والزجاج : سمى الطريق إمامًا ؛ لأنه يؤتم ويتبع. وقال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده . وقيل : الضمير للأيكة ومدين ؛ لأن شعيبًا كان ينسب إليهما .

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال:﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ الحجر : اسم لديار ثمود . قاله الأزهرى ، وهى ما بين مكة وتبوك . وقال ابن جرير : هى أرض بين الحجاز والشام . وقال : ﴿ المرسلين ﴾ ، ولم يرسل إليهم إلا صالح ؛ لأن من كذب واحدًا من الرسل ، فقد كذب الباقين لكونهم متفقين فى الدعوة إلى الله . وقيل : كذبوا صالحًا ومن تقدمه من الأنبياء . وقيل : كذبوا صالحًا ، ومن معه من المؤمنين . ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ أى الآيات المنزلة على نبيهم ، ومن جملتها : الناقة . فإن فيها آيات جمة ، كخروجها من الصخرة ، ودنو نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾ أى غير معتبرين ؛ ولهذا عقروا الناقة ، وخالفوا ما أمرهم به نبيهم .

﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ﴾ النحت فى كلام العرب : البرى والنجر ، نحته ينحته بالكسر نحتًا ، أى براه. وفى التنزيل : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : ٩٥] أى تنجرون . وكانوا يتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتًا ، أى يخرقونها فى الجبال. وانتصاب ﴿آمنين ﴾ على الحال . قال الفراء : آمنين من أن يقع عليهم. وقيل : آمنين من الموت . وقيل: من العذاب ركونًا منهم على قوتها ووثاقتها . ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أى داخلين فى وقت الصبح . وقد تقدم ذكر الصيحة فى الأعراف ، وفى هود ، وتقدم أيضًا قريبًا . ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى لم يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال والحصون فى الجبال .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أى متلبسة بالحق وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح . وقيل: المراد بالحق : مجازاة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[النجم:٣١] . وقيل: المراد بالحق: الزوال ؛ لأنها مخلوقة ، وكل مخلوق زائل ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ، ويحسن إلى من يستحق الإحسان . وفيه وعيد للعصاة وتهديد ، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يصفح عن قومه ، فقال : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ أى تجاوز عنهم واعف عفوًا حسنًا . وقيل : فأعرض عنهم إعراضًا جميلاً ولا تعجل عليهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم . قيل : وهذا

منسوخ بآية السيف . ﴿ **إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾ أى الخالق للخلق جميعًا ،العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم .

وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :« إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبًا». وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال :أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب ؛ والأيكة : ذات آجام وشجر كانوا فيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : الأيكة : الغيضة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ، قال : أصحاب الأيكة : أهل مدين ، والأيكة : الملتفة من الشجر. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : الأيكة: مجمع الشىء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال فى قوله : ﴿ **وإنهما لبإمام مبين** ﴾ طريق ظاهر.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى أصحاب الحجر قال: أصحاب الوادى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال:كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح . وأخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» [١]. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، وعجنوا منها ، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم بإهراق القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، فقال : « إنى أخشى أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم ». وأخرج ابن مردويه ، عن سبرة بن معبد أن النبى ﷺ قال بالحجر لأصحابه: « من عمل من هذا الماء شيئًا فليلقه » . قال : ومنهم من عجن العجين ، ومنهم من حاس الحيس .

وأخرج ابن مردويه ، وابن النجار عن علىّ فى قوله : ﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾ قال : الرضا بغير عتاب . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : هذه الآية قبل القتال . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ

---

(١) البخارى فى الصلاة (٤٣٣) وفى المغازى (٤٤١٩ ، ٤٤٢٠) وفى التفسير (٤٧٠٢) ومسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٨٠ / ٣٨) والنسائى فى التفسير (٢٩٤) وابن جرير ١٤ / ٣٤ .

أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ .

اختلف أهل العلم فى السبع المثانى ماذا هى ؟ فقال جمهور المفسرين : إنها الفاتحة . قال الواحدى : وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلى وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبى . وزاد القرطبى : أبا هريرة وأبا العالية . وزاد النيسابورى : الضحاك وسعيد بن جبير . وقد روى ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه، فتعين المصير إليه .

وقيل : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والسابعة الأنفال والتوبة ؛ لأنهما [1] كسورة واحدة ، إذ ليس بينهما تسمية . روى هذا القول عن ابن عباس .

وقيل : المراد بالمثانى : السبعة الأحزاب ، فإنها سبع صحائف . والمثانى : جمع مثناة من التثنية ، أو جمع مثنية . وقال الزجاج : تثنى بما يقرأ بعدها معها . فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثانى : أنها تثنى ، أى تكرر فى كل صلاة . وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية : أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها . وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية : هو تكرير ما فى القرآن من القصص ونحوها . وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثانى : القرآن كله : الضحاك وطاوس وأبو مالك وهو رواية عن ابن عباس ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ كتابا متشابها مثانى ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وقيل : المراد بالسبع المثانى : أقسام القرآن ، وهى : الأمر ، والنهى ، والتبشير ، والإنذار ، وضرب الأمثال ، وتعريف النعم ، وأنباء قرون ماضية .

قال زياد بن أبى مريم : ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثانى لا تستلزم نفى تسمية غيرها بهذا الاسم . وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية ، فلا يقدح فى ذلك صدق وصف المثانى على غيرها .

﴿ **والقرآن العظيم** ﴾ معطوف على ﴿ **سبعا من المثانى** ﴾ ويكون من عطف العام على الخاص ؛ لأن الفاتحة بعض من القرآن . وكذلك إن أريد بالسبع المثانى السبع الطوال ؛ لأنها بعض من القرآن . وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه ، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر ، كما قيل فى قول الشاعر :

(١) فى المطبوعة : « لأنها » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

إلى الملك القرم وابن الهمام

ومما يقوى كون السبع المثانى هى الفاتحة : أن هذه السورة مكية ، وأكثر السبع الطوال مدنية . وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه ، وظاهر قوله : ﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى** ﴾ أنه قد تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية . و« من » فى المثانى للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال . ذكر معنى ذلك الزجاج فقال : هى للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الإشباع .

ثم لما بين لرسوله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة ، فقال : ﴿ **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا بهْ أزواجا منهم** ﴾ أى لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمن لها . والأزواج : الأصناف، قاله ابن قتيبة . وقال الجوهرى : الأزواج : القرناء . قال الواحدى : إنما يكون مادًا عينيه إلى الشىء : إذا أدام النظر نحوه . وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه . وقال بعضهم : معنى الآية : لا تحسدن أحدًا على ما أوتى من الدنيا. وردّ بأن الحسد منهى عنه مطلقًا. وإنما قال فى هذه السورة: ﴿ **لا تمدن** ﴾ بغير واو ؛ لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما فى سورة طه ، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم ، نهاه عن الالتفات إليهم فقال: ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ حيث لم يؤمنوا ، وصمموا على الكفر والعناد . وقيل : المعنى : لا تحزن على ما متعوا به فى الدنيا ، فلك الآخرة . والأول أولى . ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم ، وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم ، أمره أن يتواضع للمؤمنين ، فقال : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ وخفضْ الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ، ومنه قوله سبحانه : ﴿واخفض لهما جناح الذل ﴾ [الإسراء : ٢٤] . وقول الكميت :

خفضت لهم منى جناحى مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وأصله : أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه ، بسط جناحه ، ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفًا لتواضع الإنسان لأتباعه. ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ [طه : ٢٢] ، ومنه قول الشاعر :

وَحسبُكَ فِتنة لزعيم قوم ... يمد على أخى سُقم جناحا

﴿ **وقل إنى أنا النذير المبين** ﴾ أى المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين** ﴾ قيل: المفعول محذوف ، أى مفعول ﴿ **أنزلنا** ﴾ والتقدير : كما أنزلنا على المقتسمين عذابًا .فيكون المعنى : إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذى أنزلناه عليهم ،كقوله تعالى : ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [فصلت : ١٣] . وقيل : إن الكاف زائدة ، والتقدير : إنى أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين من

العذاب . وقيل : هو متعلق بقوله : ﴿ ولقد آتيناك ﴾ أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون . والأولى أن يتعلق بقوله : ﴿ إنى أنا النذير المبين ﴾ لأنه فى قوة الأمر بالإنذار .

وقد اختلف فى المقتسمين من هم ؟ فقال الفراء : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا أنقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون ، وربما قالوا :ساحر ، وربما قالوا : شاعر، وربما قالوا : كاهن . فقيل لهم : مقتسمين ؛ لأنهم اقتسموا هذه الطرق . وقيل : إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعرًا ، وبعضه سحرًا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . قال قتادة : وقيل : هم أهل الكتاب ، وسموا مقتسمين ؛ لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء . فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه لك . روى هذا عن ابن عباس . وقيل : إنهم قسموا كتابهم وفرقوه وبددوه وحرفوه . وقيل : المراد : قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين، كما قال تعالى :﴿ تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ [النمل : ٤٩] وقيل : تقاسموا أيمانًا تحالفوا عليها ، قاله الأخفش . وقيل: إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج . ذكره الماوردى .

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ جمع عضة ، وأصلها : عضوة ، فعلة من عضى الشاة : إذا جعلها أجزاء ، فيكون المعنى على هذا : الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة ، بعضه شعر ، وبعضه سحر ، وبعضه كهانة ، ونحو ذلك . وقيل : هو مأخوذ من عضته : إذا بهته . فالمحذوف منه الهاء لا الواو . وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحذف، فجعلوا ذلك عوضًا عما لحقها من الحذف . وقيل : معنى ﴿ عضين ﴾ : إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض . ومما يؤيد أن معنى عضين التفريق ، قول رؤبة :

وليس دين الله بالعضين

أى بالمفرق . وقيل : العِضة والعضين فى لغة قريش : السحر . وهم يقولون للساحر : عاضه ، وللساحرة : عاضهة ، ومنه قول الشاعر :

أعوذ بربى من النافثات ... فى عَقد العاضهة والعضه

وفى الحديث : أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستعضهة (١). وفسر بالساحرة والمستسحرة . والمعنى : أنهم أكثروا البهت على القرآن ، وسموه : سحرًا وكذبًا وأساطير الأولين. ونظير عضة فى النقصان: شفة. والأصل :شفهة . وكذلك سنة .والأصل : سنهة . قال الكسائى : العضة : الكذب والبهتان . وجمعها عضون . وقال الفراء : إنه مأخوذ من

(١) ابن عدى فى الكامل ٣ / ٣٣٩ عن سلمة بن وهرام وهو ضعيف .

العضاه . وهى شجر يؤذى ويجرح كالشوك . ويجوز أن يراد بالقرآن : التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ ، ويراد بالمقتسمين: هم اليهود والنصارى ، أى جعلوهما أجزاء متفرقة ، وهو أحد الأقوال المتقدمة.

﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين** ﴾ أى لنسألن هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة ﴿ **عما كانوا يعملون** ﴾ فى الدنيا من الأعمال التى يحاسبون عليها ويسألون عنها . وقيل : إن المراد : سؤالهم عن كلمة التوحيد . والعموم فى :﴿ **عما كانوا يعملون**﴾ يفيد ما هو أوسع من ذلك . وقيل :إن المسؤولين هاهنا : هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار . ويدل عليه قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾[التكاثر: ٨] . وقوله : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات : ٢٤] ، وقوله: ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾ [الغاشية : ٢٥ ، ٢٦] ، ويمكن أن يقال : إن قصر هذا السؤال على المذكورين فى السياق وصرف العموم إليهم لاينافى سؤال غيرهم .

﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ قال الزجاج : يقول : أظهر ما تؤمر به . أخذ من الصديع وهو الصبح . انتهى . وأصل الصدع:الفرق والشق. ويقال :صدعته فانصدع ، أى انشق . وتصدع القوم ، أى تفرقوا . ومنه :﴿ يومئذ يصدعون ﴾ [الروم : ٤٣] أى يتفرقون . قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر ، أى أظهر دينك . فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : فاصدع بما تؤمر ، أى فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد، فإنهم يتفرقون . والأولى أن الصدع الإظهار ، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم .قال النحويون : المعنى بما تؤمر به من الشرائع ، وجوزوا أن تكون مصدرية، أى بأمرك وشأنك . قال الواحدى : قال المفسرون : أى اجهر بالأمر ، أى بأمرك بعد إظهار الدعوة . وما زال النبى ﷺ مستخفيًا حتى نزلت هذه الآية ، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين ، فقال : ﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ أى لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة .

ثم أكد هذا الأمر، وثبت قلب رسوله بقوله :﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ مع كونهم كانوا من أكابر الكفار ، وأهل الشوكة فيهم ، فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم ، كفاه أمر من هو دونهم بالأولى . وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة : الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة[(١)] ، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطُّلاطلَة ، كذا قال القرطبى[(٢)] ، ووافقه غيره من المفسرين . وقد أهلكهم الله جميعًا وكفاهم أمرهم فى يوم واحد ، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال : ﴿**الذين**

---

(١) فى المخطوطة : « الأسود بن المطلب بن الحارث بن زمعة » والصحيح ما أثبتناه من الطبرى والقرطبى وابن كثير.

(٢) القرطبى ٦ / ٣٦٧٨ .

يجعلون مع الله إلها آخر ﴾ فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء ، بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه، ثم توعدهم فقال : ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ كيف عاقبتهم فى الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه .

ثم ذكر تسلية أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسلية الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم ، فقال : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** ﴾ من الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكذب . وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الإنسانى ، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده ، فقال :﴿ **فسبح بحمد ربك** ﴾ أى متلبسًا بحمده ، أى افعل التسبيح المتلبس بالحمد ﴿ **وكن من الساجدين** ﴾ أى المصلين ، فإنك إذا فعلت ذلك ، كشف الله همك ، وأذهب غمك ، وشرح صدرك . ثم أمره بعبادة ربه ، أى بالدوام عليها إلى غاية هى قوله : ﴿ **حتى يأتيك اليقين** ﴾ أى الموت. قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : يعنى : الموت ؛ لأنه موقن به . قال الزجاج : المعنى : اعبد ربك أبدًا ؛ لأنه لو قيل : اعبد ربك بغير توقيت ؛ لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعًا . فإذا قال : حتى يأتيك اليقين ، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبدًا ما دام حيًا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر فى قوله:﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى** ﴾ قال : السبع المثانى : فاتحة الكتاب . وأخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى وابن مردويه والبيهقى من طرق عن على بمثله . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود مثله ، وزاد : ﴿ **والقرآن العظيم** ﴾ سائر القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى الآية، قال: فاتحة الكتاب استثناها الله لأمة محمد ، فرفعها فى أم الكتاب، فادخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل . قيل : فأين الآية السابعة ؟ قال : بسم الله الرحمن الرحيم . وروى عنه نحو هذا من طرق (١). وأخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال: السبع المثانى : فاتحة الكتاب . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب قال : السبع المثانى : الحمد لله رب العالمين . وروى نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين .

وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد بن المعلى أنه قال له النبى ﷺ: « ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد ؟ » . فذهب النبى ﷺ ليخرج ، فذكرت ، فقال: « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم » (٢) . وأخرج البخارى أيضًا

---

(١) ابن جرير ١٤ / ٣٩ والطبرانى (١١٧٠٠) وصححه الحاكم ٢ / ٢٥٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢ / ٤٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٦ /٣١٤: « رواه الطبرانى وفيه أبو سعد البقال ، وهو مدلس » .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٤٧٤ ، ٤٦٤٧ ، ٤٧٠٣) وفى فضائل القرآن (٥٠٠٦) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٨) والنسائى فى التفسير (٢٩٥) .

من حديث أبى هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم » [(١)] .فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب ، ولكن تسميتها بذلك لا ينافى تسمية غيرها به كما قدمنا .

وأخرج ابن مردويه عن عمر ، قال فى الآية : هى السبع الطوال . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله [(٢)] . وأخرج الفريابى وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال فى الآية : هى السبع الطوال [(٣)] . وأخرج الدارمى وابن مردويه عن أبى بن كعب مثله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : هى فاتحة الكتاب والسبع الطوال. وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : ما ثنى [(٤)] من القرآن ، ألم تسمع لقول الله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى ﴾ [(٥)] [الزمر : ٢٣] . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : المثانى : القرآن ، يذكر الله القصة الواحدة مرارًا . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى عن زياد بن أبى مريم فى الآية قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وانه ، وبشر ، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واتل نبأ القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تمدن عينيك** ﴾ قال : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أزواجا منهم** ﴾ قال : الأغنياء الأمثال والأشباه . وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال : من أعطى القرآن فمد عينه إلى شىء مما صغر القرآن ، فقد خالف القرآن ، ألم يسمع إلى قوله: ﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى** ﴾ ، وإلى قوله : ﴿ **ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ [طه : ١٣١] . وقد فسر ابن عيينة أيضًا الحديث الصحيح : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » [(٦)] . فقال : إن المعنى : يستغنى به . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **واخفض جناحك** ﴾ قال : اخضع .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين** ﴾ الآية،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٤) . (٢) ابن جرير ١٤ / ٣٧ .

(٣) أبو داود فى الصلاة (١٤٥٩) والنسائى فى التفسير (٢٩٦) وابن جرير ١٤ / ٣٦ والطبرانى (١١٠٣٨) وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، وزاد نسبته فى الدر المنثور ٤ / ١٠٥ للبيهقى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٩ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى المطبوعة : « مائتى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) ابن جرير ١٤ / ٣٩ .

(٦) البخارى فى التوحيد (٧٥٢٦) وأبو داود فى الصلاة (١٤٧٣) عن أبى هريرة .

قال : هم أهل الكتاب ، جزؤوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه [(١)] . وأخرج ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عنه قال : عضين : فرقا . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس ؛ أنها نزلت فى نفر من قريش ، كانوا يصدون الناس عن رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة [(٢)] . وأخرج الترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون** ﴾ قال : « عن قول : لا إله إلا الله » [(٣)] . وأخرجه ابن أبى شيبة ، والترمذى وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفًا . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿ **فاصدع بما تؤمر**﴾ فامضه . وفى على بن أبى طلحة مقال معروف . وأخرج ابن جرير عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، قال : ما زال النبى ﷺ مستخفيًا حتى نزل :﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ فخرج هو وأصحابه [(٤)]. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه ، وجميع من أرسل إليه . وأخرج ابن المنذر عنه ﴿**فاصدع بما تؤمر** ﴾ قال : أعلن بما تؤمر . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ قال : نسخه قوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين** ﴾ [التوبة : ٥] .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وأبو نعيم ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ قال : المستهزئون : الوليد بن المغيرة ، والأسود ابن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل السهمى ، والعاص بن وائل ، وذكر قصة هلاكهم [(٥)] . وقد روى هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة فى عددهم ، ونقص على طول فى ذلك .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والحاكم فى التاريخ ، وابن مردويه والديلمى عن أبى مسلم الخولانى قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أوحى إلىَّ أن أجمع المال ، وأكن من التاجرين ، ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك**

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٥) وابن جرير ١٤ / ٤٢ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٥ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « أخرجه البخارى ».

(٢) ابن إسحاق ١ / ٣٠٤ والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٣١٦ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣١٢٦) وقال : « هذا حديث غريب » وأبو يعلى (٤٠٥٨) وابن جرير ١٤/ ٤٦ . وإسناده ضعيف لضعف ليث بن أبى سليم .

(٤) ابن جرير ١٤ / ٤٧ .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٥٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن عبد الحكيم النيسابورى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

اليقين ﴾ »[١] . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعًا مثله . وأخرج ابن مردويه والديلمى عن أبى الدرداء مرفوعًا نحوه . وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق من طريق عبيد الله ابن أبان بن عثمان بن حذيفة بن أوس الطائفى ، قال : حدثنى أبان بن عثمان عن أبيه عن جده يرفعه مثل حديث أبى مسلم الخولانى . وأخرج ابن أبى شيبة عن سالم بن عبد الله بن عمر : ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ قال : الموت . وأخرج ابن المبارك عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

---

(١) الديلمى فى الفردوس (٦٢٩٧) . وأبو مسلم الخولانى هو : عبد الله بن ثوب اليمانى الزاهد الشامى ، رحل يطلب النبى ﷺ وتوفى النبى وهو فى الطريق فلقى أبا بكر الصديق رضى الله عنه . ذكره ابن سعد فى الطبقة الثانية من تابعى أهل الشام وقال : « كان ثقة وتوفى فى زمن يزيد بن معاوية سنة ٦٢».

تفسير سورة النحل

آياتها مائة آية وثمان وعشرون آية ، وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ورواه ابن مردويه عن ابن عباس ، وعن أبي الزبير . وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس ، قال : سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها ، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أحد ، قيل: وهي قوله: ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ... ﴾ الآية . وقوله : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾ في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد . وقوله : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا** ... ﴾ الآية . وقيل : الثالثة : ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . وتسمى هذه السورة سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ أي عقابه للمشركين . وقال جماعة من المفسرين : القيامة . قال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه . وقيل : إن المراد بأمر الله :حكمه بذلك ، وقد وقع وأتى . فأما المحكوم به فإنه لم يقع ، لأنه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين ، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود . وقيل : إن المراد بإتيانه : إتيان مباديه ومقدماته . ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ نهاهم عن استعجاله ، أي فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت . وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحارث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ... ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] . والمعنى : قرب أمر الله فلا تستعجلوه . وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة . وفي نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم . ﴿ **سبحانه وتعالى عما**

يشركون ﴾ أى تنزه وترفع عن إشراكهم ، أو عن أن يكون له شريك . وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب ، أو قيام الساعة استهزاء وتكذيبا . فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك ، وأنه عاجز عنه . والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق ، لا من صفات الخالق ، فكان ذلك شركا .

﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره** ﴾ قرأ المفضل عن عاصم : « تنزل الملائكة ». والأصل : تتنزل ، فالفعل مسند إلى الملائكة . وقرأ الأعمش : « تنزل » على البناء للمفعول ، وقرأ الجعفى عن أبى بكر ، عن عاصم: «ننزل» بالنون ، والفاعل هو الله سبحانه . وقرأ الباقون : ﴿ **ينزل الملائكة** ﴾ بالياء التحتية ، إلا أن ابن كثير ، وأبا عمرو يسكنان النون ، والفاعل : هو الله سبحانه. ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها : أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره، ونهاهم عن الاستعجال ، ترددوا فى الطريق التى علم بها رسول الله ﷺ بذلك ، فأخبر أنه علم بها بالوحى على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته. والروح: الوحى ، ومثله : ﴿ **يلقى** الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [غافر : ١٥] وسمى الوحى روحا لأنه يحيى قلوب المؤمنين. فإن من جملة الوحى: القرآن ، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد . وقيل : المراد : أرواح الخلائق . وقيل : الروح : الرحمة . وقيل : الهداية ، لأنها تحيا بها القلوب ، كما تحيا الأبدان بالأرواح . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد إلى أمره . وقال أبو عبيد : الروح هنا جبريل . وتكون الباء على هذا بمعنى مع . و«من » فى : ﴿ **من أمره** ﴾ بيانية ، أى بأشياء ، أو مبتدئا من أمره ، أو صفة للروح ، أو متعلق بـ ﴿ **ينزل** ﴾ ومعنى ﴿ **على من يشاء من عباده** ﴾ : على من اختصه بذلك ، وهم الأنبياء ﴿ **أن أنذروا** ﴾ . قال الزجاج : ﴿ **أن أنذروا** ﴾ بدل من الروح ، أى ينزلهم بأن أنذروا . و« أن » إما مفسرة لأن تنزل الوحى فيه معنى القول ، وإما مخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن مقدر ، أى بأن الشأن أقول لكم أنذروا ، أى أعلموا الناس ﴿ **أنه لا إله إلا أنا** ﴾ أى مروهم بتوحيدى ، وأعلموهم ذلك مع تخويفهم ، لأن فى الإنذار تخويفا وتهديدا . والضمير فى أنه للشأن . ﴿**فاتقون**﴾ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات [١] . وهو تحذير لهم من الشرك بالله .

ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ، ذكر دلائل التوحيد فقال : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق**﴾ أى أوجدهما على هذه الصفة التى هما عليها بالحق ، أى للدلالة على قدرته ووحدانيته . وقيل : المراد بالحق هنا : الفناء والزوال. ﴿ **تعالى** ﴾ الله ﴿ **عما يشركون** ﴾ أى ترفع وتقدس عن إشراكهم ، أو عن شركة الذى يجعلونه شريكا له .

ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية،قدمه وخصه بالذكر، فقال: ﴿ **خلق الإنسان** ﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿ **من نطفة** ﴾ من جماد يخرج من حيوان ، وهو المنى ،

---

(١) فى المطبوعة : « التفات » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فنقله أطوارا إلى أن كملت صورته ، ونفخ فيه الروح ، وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿ **فإذا هو** ﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿ **خصيم** ﴾ أى كثير الخصومة والمجادلة . والمعنى : أنه كالمخاصم لله سبحانه فى قدرته . ومعنى : ﴿**مبين**﴾ : ظاهر الخصومة واضحها . وقيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل.والمبين:هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه. ومثله قوله تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [يس: ٧٧] .

ثم عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع . فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها، فقال : ﴿ **والأنعام خلقها لكم** ﴾ وهى : الإبل ، والبقر ، والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل . ويقال للمجموع . ولا يقال للغنم مفردة . ومنه قول حسان :

وكانت لا يزال بها أنيس　　　خلال مروجها نعم وشاء

فعطف الشاء على النعم ، وهى هنا الإبل خاصة. قال الجوهرى: والنعم: واحد الأنعام . وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل . ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبنى آدم ، بين المنفعة التى فيها لهم فقال : ﴿ **فيها دفء** ﴾ الدفء : السخانة ، وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها . والجملة فى محل النصب على الحال . ﴿ **ومنافع** ﴾ معطوف على ﴿**دفء**﴾ وهى : درها وركوبها ونتاجها ، والحراثة بها ، ونحو ذلك . وقد قيل : إن الدفء : النتاج واللبن . قال فى الصحاح : الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ، ثم قال : والدفء أيضا : السخونة ، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأول ، فلابد من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها. وإن حمل على المعنى الثانى، كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا . وقيل : المراد بالمنافع : النتاج خاصة. وقيل : الركوب. ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ أى من لحومها وشحومها . وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها . وقيل : خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التى فيها ، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل ، وغيره نادر .

﴿ **ولكم فيها جمال** ﴾ أى لكم فيها مع ما تقدم ذكره جمال . والجمال : ما يتجمل به ويتزين . والجمال : الحسن . والمعنى هنا : لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها ﴿ **حين تريحون وحين تسرحون** ﴾ أى فى هذين الوقتين ، وهما وقت ردها من مراعيها ، ووقت تسريحها إليها . فالرواح رجوعها بالعشى من المراعى. والسراح: مسيرها إلى مراعيها بالغداة . يقال : سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى ، وقدم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل ، وذواتها أحسن لكونها فى تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب ، فعظمت بطونها ، وانتفخت ضروعها . وخص هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها ، لأنها عند استقرارها فى الحظائر لا يراها أحد . وعند كونها فى مراعيها هى متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى فى جانب .

﴿ **وتحمل أثقالكم** ﴾ الأثقال : جمع ثقل ، وهو متاع المسافر من طعام وغيره ، وسمى ثقلا لأنه يثقل الإنسان حمله . وقيل : المراد : أبدانهم ﴿ **إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس** ﴾ أى لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشق الأنفس ، لبعده عنكم ، وعدم وجود ما يحمل ما لابد لكم منه فى السفر . وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين . وقيل : المراد بالبلد : مكة . وقيل : اليمن ومصر والشام ، لأنها متاجر العرب ﴿ **وشق الأنفس** ﴾ : مشقتها . قرأ الجمهور بكسر الشين ، وقرأ أبو جعفر بفتحها . قال الجوهرى : والشق : المشقة . ومنه قوله : ﴿ **لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس** ﴾ وحكى أبو عبيدة بفتح الشين . وهما بمعنى ، ويجوز أن يكون المفتوح مصدرا من شققت عليه أشق شقا . والمكسور بمعنى : النصف . يقال : أخذت شق الشاة ، وشقة الشاة . ويكون المعنى على هذا فى الآية : لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب . وقد امتن الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم ، ثم خص الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم . والاستثناء من أعم العام ، أى لم تكونوا بالغيه بشىء من الأشياء إلا بشق الأنفس .

﴿ **والخيل والبغال والحمير** ﴾ بالنصب عطفا على الأنعام ، أى وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف . وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع فيها كلها . وسميت الخيل خيلا لاختيالها فى مشيها ، وواحد الخيل : خائل . كضائن واحد الضأن . وقيل : لا واحد له . ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله : ﴿ **لتركبوها** ﴾ وهذه العلة هى باعتبار معظم منافعها ، لأن الانتفاع بها فى غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ، وعطف ﴿ **زينة** ﴾ على محل ﴿ **لتركبوها** ﴾ لأنه فى محل نصب على أنه علة لخلقها . ولم يقل : لتتزينوا بها ، حتى يطابق ﴿ **لتركبوها** ﴾ ، لأن الركوب : فعل المخاطبين ، والزينة : فعل الزائن وهو الخالق . والتحقيق فيه : أن الركوب هو المعتبر فى المقصود، بخلاف الزينة ، فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية ، لأنه يورث العجب . فكأنه سبحانه قال : خلقها لتركبوها ، فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة . وأما التزين بها فهو حاصل فى نفس الأمر ، ولكنه غير مقصود بالذات .

وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل ، قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا : ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام ، فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزا ، لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه . وقد ذهب إلى هذا مالك ، وأبو حنيفة ، وأصحابهما ، والأوزاعى ومجاهد ، وأبو عبيد وغيرهم . وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل . ولا حجة لأهل القول الأول فى التعليل بقوله : ﴿**لتركبوها** ﴾ لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافى غيره . ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ، ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب .

وأيضا لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل ، لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خيبر . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية .

والحاصل : أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن فى هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم ، لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد أوضحنا هذه المسألة فى مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ أى يخلق مالا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا . وقيل : المراد: من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض ، وفى البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : هو ما أعد الله لعباده فى الجنة وفى النار مما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولا خطر على قلب بشر . وقيل : هو خلق السوس فى النبات ، والدود فى الفواكه . وقيل : عين تحت العرش . وقيل : نهر من النور . وقيل : أرض بيضاء . ولا وجه للاقتصار فى تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع ، بل المراد : أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كل شىء لا يحيط علمهم به . والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد .

﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ : القصد : مصدر بمعنى الفاعل ، فالمعنى : وعلى الله قاصد السبيل ، أى هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع . وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير : وعلى الله بيان قصد السبيل . والسبيل : الإسلام . وبيانه بإرسال الرسل ، وإقامة الحجج والبراهين . والقصد فى السبيل هو كونه موصلا إلى المطلوب ، فالمعنى: وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب. ﴿ **ومنها جائر** ﴾ الضمير فى :﴿ **منها** ﴾ راجع إلى السبيل بمعنى : الطريق ، لأنها تذكر وتؤنث . وقيل : راجع إليها بتقدير مضاف، أى ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه، فلا يهتدى به. ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهدى   قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقيل : إن الطريق كناية عن صاحبها ، والمعنى : ومنهم جائر عن سبيل الحق ، أى عادل عنه ، فلا يهتدى إليه . قيل : وهم أهل الأهواء المختلفة . وقيل : أهل الملل الكفرية . وفى مصحف عبد الله : « ومنكم جائر » . وكذا قرأ على . ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ أى ولو شاء أن يهديكم جميعا إلى الطريق الصحيح والمنهج الحق لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق ، والدلالة عليها ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠] . وأما الإيصال إليها بالفعل ، فذلك يستلزم ألا يوجد فى العباد كافر ، ولا من يستحق النار من المسلمين . وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمنا ، والبعض كافرا كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع .

وقد أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال: لما نزل : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ ذعر أصحاب

رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ فسكنوا . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص ، قال : لما نزلت : ﴿ **أتى أمر الله**﴾ قاموا ، فنزلت : ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ (١) .وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ قال : خروج محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن أمر الله أتى، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن . فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء فنزلت: ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء: ١] فقالوا : إن هذا يزعم مثلها أيضا . فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء . فنزلت : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة . .﴾ الآية [هود : ٨] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ قال : الأحكام والحدود والفرائض .

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح** ﴾ قال : بالوحى . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عنه قال: الروح أمر من أمر الله ، وخلق من خلق الله ، وصورهم على صورة بنى آدم . وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح . ثم تلا : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ [النبأ : ٣٨] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح** ﴾ قال: القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لكم فيها دفء** ﴾ قال : الثياب ﴿**ومنافع**﴾ قال : ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا ، قال : نسل كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**وتحمل أثقالكم إلى بلد**﴾ يعنى : مكة . ﴿ **لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس** ﴾ قال : لو تكلفتموه ، لم تطيقوه إلا بجهد شديد .

وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل أحاديث ، منها فى الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء ، قالت : نحرنا فرسا على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه (٢) . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن جابر قال : أطعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية (٣) . وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا . وهما على شرط مسلم (٤) . وثبت أيضا فى الصحيحين من حديث جابر ،

---

(١) ابن جرير ١٤/٥٢ والواحدى فى أسباب النزول ص ١٥٩ بدون سند .

(٢) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥١٩) ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٤٢/٣٨) والدارقطنى فى الصيد والذبائح (٧٦) .

(٣) الترمذى فى الأطعمة (١٧٩٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٧/ ٢٠٥ .

(٤) أبو داود فى الأطعمة (٣٧٨٨، ٣٧٨٩) .

قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في الخيل[١] وأما ما أخرجه أبو عبيد، وأبو داود، والنسائي من حديث خالد بن الوليد، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير[٢]، ففي إسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام، وفيه مقال. ولو فرضنا أن الحديث صحيح، لم يقو على معارضة أحاديث الحل، على أنه يكون أن هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر، فيكون منسوخا.

وأخرج الخطيب وابن عساكر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ قال: «البراذين». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما خلق الله أرضا من لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدل على أن الحديث موضوع. ثم قال في آخره: فذلك قوله: ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ يقول: على الله أن يبين الهدى والضلالة. ﴿**ومنها جائر** ﴾ قال: السبل المتفرقة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ قال: على الله بيان حلاله، وحرامه، وطاعته، ومعصيته. ﴿ **ومنها جائر** ﴾ قال: من السبل ناكب عن الحق. قال: وفي قراءة ابن مسعود: «ومنكم جائر». وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية: «ومنكم جائر».

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾.

---

(١) البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٢٠) ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٤١/٣٦).

(٢) أبو داود في الأطعمة (٣٧٩٠) والنسائي ٧/٢٠٢.

لما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات ، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء** ﴾ أى من جهة السماء ، وهى السحاب . ﴿ **ماء** ﴾ أى نوعا من أنواع الماء ، وهو المطر ﴿ **لكم منه شراب** ﴾ يجوز أن يتعلق ﴿ **لكم** ﴾ بـ ﴿ **أنزل** ﴾ ، أو هو خبر مقدم ، وشراب مبتدأ مؤخر . والجملة : صفة لماء ، ﴿ **ومنه** ﴾ فى محل نصب على الحال . والشراب : اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم ، والمعنى : أن الماء النازل من السماء قسمان : قسم يشربه الناس ، ومن جملته ماء الآبار والعيون ، فإنه من المطر لقوله: ﴿ فسلكه ينابيع فى الأرض ﴾ [الزمر : ٢١] . وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشى . قال الزجاج : كل ما ينبت من الأرض فهو شجر، لأن التركيب يدل على الاختلاط . ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض . ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ ، وفيما له ساق . وقال ابن قتيبة : المراد من الشجر فى الآية : الكلأ. وقيل: الشجر: كل ما له ساق كقوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : ٦] والعطف يقتضى التغاير . فلما كان النجم مالا ساق له ، وجب أن يكون الشجر ما له ساق . وأجيب : بأن عطف الجنس على النوع جائز ﴿ **فيه تسيمون** ﴾ أى فى الشجر ترعون مواشيكم . يقال : سامت السائمة تسوم سوما رعت فهى سائمة . وأسمتها ، أى أخرجتها إلى الرعى ، فأنا مسيم وهى مسامة وسائمة. وأصل السوم : الإبعاد فى المرعى . قال الزجاج : أخذ من السومة ، وهى العلامة ، لأنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها .

﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب** ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم : « ننبت » بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، أى ينبت الله لكم بذلك الماء الذى أنزله من السماء ، وقدم الزرع لأنه أصل الأغذية التى يعيش بها الناس ، وأتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه وإداما من وجه لكثرة ما فيه من الدهن. وهو جمع زيتونة . ويقال : للشجرة نفسها: زيتونة . ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة ، وهو مع العنب أشرف الفواكه . وجمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة ، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال : ﴿ **ومن كل الثمرات** ﴾ كما أجمل الحيوانات التى لم يذكرها فيما سبق بقوله: ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ وقرأ أبى بن كعب: « ينبت لكم به الزرع » يرفع الزرع وما بعده . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى الإنزال والإنبات ﴿ **لآية** ﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ فى مخلوقات الله ولا يهملون النظر فى مصنوعاته .

﴿ **وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ معنى تسخيرهما للناس : تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم يتعاقبان دائما ، كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن إرادته ، ولا يهمل السعى فى نفعه . وكذا الكلام فى تسخير الشمس والقمر والنجوم ، فإنها تجرى على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ، ويهتدون بها ، ويعرفون أجزاء الزمان. ومعنى مسخرات : مذللات . وقرأ ابن عامر وأهل الشام : « والشمس

والقمر والنجوم مسخرات » بالرفع على الابتداء والخبر ، وقرأ الباقون بالنصب عطفا على **﴿الليل والنهار﴾** وقرأ حفص عن عاصم برفع **﴿ النجوم ﴾** على أنه مبتدأ،وخبره **﴿مسخرات بأمره ﴾**. وعلى قراءة النصب فى مسخرات يكون حالا مؤكدة، لأن التسخير قد فهم من قوله: **﴿وسخر ﴾** وقرأ حفص فى رواية برفع مسخرات ، مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى مسخرات ، **﴿ إن فى ذلك ﴾** التسخير **﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾** أى يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرده ، عدم وجود شريك له . وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. وجمعها ليطابق قوله : **﴿مسخرات ﴾**. وقيل : إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية فى نفسها ، بخلاف ما تقدم من الإنبات ، فإنه آية واحدة . ولا يخلو كل هذا عن تكلف . والأولى أن يقال : إن هذه المواضع الثلاثة التى أفرد الآية فى بعضها وجمعها فى بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار ، وللإفراد باعتبار ، فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانا وتنبيها على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما .

﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض ﴾ أى خلق . يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا : خلقهم ، فهو ذارئ . ومنه الذرية ، وهى : نسل الثقلين . وقد تقدم تحقيق هذا . وهو معطوف على النجوم رفعا ونصبا ، أى وسخر لكم ما ذرأ فى الأرض . فالمعنى : أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية. وانتصاب **﴿ مختلفا ألوانه ﴾** على الحال. و**﴿ ألوانه﴾**: هيئاته ومناظره . فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوى الكل فى الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده . **﴿ إن فى ذلك ﴾** التسخير لهذه الأمور ، **﴿ لآية ﴾** واضحة **﴿ لقوم يذكرون ﴾** فإن من تذكر اعتبر . ومن اعتبر ، استدل على المطلوب . قيل : وإنما خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة . وخص المقام الثانى بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة ، وإراحة العلة . فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له . وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة . فمن شك بعد ذلك ، فلا حس له . وفى هذا من التكلف مالا يخفى . والأولى : أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم فى إفراد الآية فى البعض ، وجمعها فى البعض الآخر . وبيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ، ولذكر التعقل ، ولذكر التذكر ، لاعتبارات ظاهرة غير خفية . فكان فى التعبير فى كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد فى التعبير بواحد منها فى جميع المواضع الثلاثة .

﴿ وهو الذى سخر البحر ﴾ امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه ، واستخراج ما فيه من صيد وجواهر ؛ لكونه من جملة النعم التى أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه ، وكمال قدرته . وقد جمع الله سبحانه لعباده فى هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية . فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماما للحجة ، وتكميلا للإنذار ، وتوضيحا لمنازع الاستدلال ، ومناطات البرهان ، ومواضع النظر والاعتبار ، ثم ذكر العلة فى تسخير البحر فقال : **﴿ لتأكلوا**

منه لحما طريا ﴾ المراد به : السمك ، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته ، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة . ﴿ **وتستخرجوا منه حلية تلبسونها** ﴾ أى لؤلؤا ومرجانا كما فى قوله سبحانه: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : ٢٢] وظاهر قوله: ﴿**تلبسونها** ﴾ أى يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان ، أى يجعلونه حلية لهم ، كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فى تأويل قوله : ﴿ **تلبسونها** ﴾ بقوله : تلبسه نساؤهم ، لأنهن من جملتهم ، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم . وليس فى الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبها بهن . وقد ورد الشرع بمنعه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان .

﴿ **وترى الفلك مواخر فيه** ﴾ أى ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها. ومخر السفينة : شقها الماء بصدرها . قال الجوهرى : مخر السابح : إذا شق الماء بصدره . ومخر الأرض : شقها للزراعة . وقيل : مواخر : جوارى . وقيل : معترضة. وقيل : تذهب وتجىء . وقيل : ملججة . قال ابن جرير : المخر فى اللغة : صوت هبوب الريح . ولم يقيد بكونه فى ماء ﴿**ولتبتغوا من فضله** ﴾ معطوف على ﴿ **تستخرجوا** ﴾ وما بينهما اعتراض ، أو على علة محذوفة تقديره : لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ،أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا ، أى لتتجروا فيه ، فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم ، اعترفتم بنعمته عليكم، فشكرتم ذلك باللسان والأركان . قيل : ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث إن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر ، بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك . ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس ، وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له .

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد ، المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى ، فقال : ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى** ﴾ أى جبالا ثابتة . يقال : رسا يرسو : إذا ثبت وأقام . قال الشاعر :

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

﴿ **أن تميد بكم** ﴾ أى كراهة أن تميد بكم على ما قاله البصريون ، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون . والميد : الاضطراب يمينا وشمالا ، ماد الشىء يميد ميدا ، تحرك ، ومادت الأغصان : تمايلت ، وماد الرجل : تبختر ﴿ **وأنهارا** ﴾ أى وجعل فيها أنهارا ، لأن الإلقاء ههنا بمعنى الجعل والخلق ، كقوله: ﴿ وألقيت عليك محبة منى﴾ [طه : ٣٩] . ﴿**وسبلا**﴾ . أى وجعل فيها سبلا وأظهرها وبينها لأجل تهتدون بها فى أسفاركم إلى مقاصدكم. والسبل :

الطرق . ﴿وعلامات﴾ أى وجعل فيها علامات ، وهى معالم الطرق ، والمعنى : أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ المراد بالنجم : الجنس ، أى يهتدون به فى سفرهم ليلا. وقرأ ابن وثاب : « وبالنجم » بضم النون والجيم ، ومراده : النجوم ، فقصره ، أو هو جمع نجم كسقف وسقف . وقيل : المراد بالنجم هنا : الجدى ، والفرقدان . قاله الفراء . وقيل : الثريا . وقيل : العلامات : الجبال . وقيل : هى النجوم . لأن من النجوم ما يهتدى به . ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها . وذهب الجمهور إلى أن المراد فى الآية : الاهتداء فى الأسفار . وقيل : هو الاهتداء إلى القبلة . ولا مانع من حمل ما فى الآية على ما هو أعم من ذلك . قال الأخفش : تم الكلام عند قوله: ﴿وعلامات﴾ وقوله : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ كلام منفصل عن الأول . ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته ، أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد ، فقال : ﴿ أفمن يخلق ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة ﴿ كمن لا يخلق ﴾ شيئا منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها ، وهو هذه الأصنام التى تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه . وأطلق عليها لفظ : « من» إجراء لها مجرى أولى العلم جريا على زعمهم بأنها آلهة ، أو مشاكلة لقوله : ﴿ أفمن يخلق ﴾ لوقوعها فى صحبته. وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى . وما أحقهم بذلك . فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه تعالى الله عما يشركون . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته ، فتستدلون بها على ذلك ، فإنها لوضوحها يكفى فى الاستدلال بها مجرد التذكر لها .

ثم لما فرغ من تعديد الآيات ، التى هى بالنسبة إلى المكلفين نعم ، قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ . وقد مر تفسير هذا فى سورة إبراهيم .

قال العقلاء : إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص ، لنغص النعم على الإنسان. وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل. فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له،مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه ؟ أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها . يا ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظيم نعمك، معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشىء منها، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكرلك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، واسبل ذيول سترك على عوراتنا ، فإنك إن لا تفعل ذلك ، نهلك بمجرد التقصير فى شكر نعمك ، فكيف بما قد فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك ، والانتهاء عن مناهيك . وما أحسن ما قال من قال :

العفو يرجى من بنى آدم   فكيف لا يرجى من الرب

فقلت مذيلا لهذا البيت الذى هو قصر مشيد :

فإنه أرأف بى منهم حسبى به حسبى به حسبى

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذى لا يلتبس على إنسان مشيرا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته ، فقال : ﴿ **إن الله لغفور رحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة ، لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه ، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأدناها . ومن رحمته إدامتها عليكم وإدرارها فى كل لحظة ، وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها . اللهم إنى أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ، وعدد ما سيشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ، فقد خصصتنى بنعم لم أرها على كثير من خلقك ، وإن رأيت منها شيئا على بعض خلقك ، لم أر عليه بقيتها ، فأنى أطيق شكرك ، وكيف أستطيع تأدية [١] أدنى شكر أدناها، فكيف أستطيع أعلاها ؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها ؟

ثم بين لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم ، لا تخفى عليه منهم خافية ، فقال : ﴿**والله يعلم ما تسرون**﴾ أى تضمرونه من الأمور ﴿ **وما تعلنون** ﴾ أى تظهرونه منها . وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ ، وتنبيه على أن الإله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية ، لا كالأصنام التى يعبدونها ، فإنها جمادات لا شعور لها بشىء من الظواهر ، فضلا عن السرائر، فكيف يعبدونها ؟

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**وما ذرأ لكم فى الأرض**﴾. قال : ما خلق لكم فى الأرض مختلفا من الدواب والشجر والثمار ، نعم من الله متظاهرة ، فاشكروها لله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لتأكلوا منه لحما طريا** ﴾ يعنى : حيتان البحر . ﴿**وتستخرجوا منه حلية تلبسونها**﴾ قال : هذا اللؤلؤ . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا** ﴾ قال : هو السمك وما فيه من الدواب . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى جعفر ، قال : ليس فى الحلى زكاة. ثم قرأ : ﴿ **وتستخرجوا منه حلية تلبسونها** ﴾ . أقول : وفى هذا الاستدلال نظر ، والذى ينبغى التعويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شىء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد فى الذهب والفضة ما هو معروف ، ولم يرد فى الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **مواخر**﴾ قال : جوارى . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ **مواخر** ﴾ قال : تشق الماء بصدرها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ **مواخر** ﴾ قال : السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ قال : هى التجارة .

---

(١) فى المطبوعة : « باديه » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **رواسى** ﴾ قال : الجبال ، ﴿ **أن تميد بكم** ﴾ قال : حتى لا تميد بكم ، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقر ، فأصبحوا صبحا وقد جعل الله الجبال وهى الرواسى أوتادا فى الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وسبلا** ﴾ قال : السبل هى الطرق بين الجبال . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب عن قتادة : ﴿ **وسبلا** ﴾ قال: طرقا . ﴿**وعلامات** ﴾ قال : هى النجوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : علامات النهار الجبال . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الكلبى : ﴿ **وعلامات** ﴾ قال : الجبال. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿**وعلامات** ﴾ يعنى : معالم الطرق بالنهار . ﴿ **وبالنجم هم يهتدون** ﴾ يعنى : بالليل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ قال : الله هو الخالق الرازق . وهذه الأوثان التى تعبد من دون الله تُخلق ولا تخلق شيئا ، ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ .

شرع سبحانه فى تحقيق كون الأصنام التى أشار إليها بقوله : ﴿ **كمن لا يخلق** ﴾ عاجزة على أن يصدر منها خلق شىء فلا تستحق عبادة ، فقال: ﴿ **والذين يدعون من دون الله** ﴾ أى الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة ، وهى أنهم ﴿**لا يخلقون شيئا** ﴾ من المخلوقات أصلا ، لا كبيرا ولا صغيرا ، ولا جليلا ولا حقيرا . ﴿ **وهم يخلقون** ﴾ أى وصفتهم أنهم يخلقون ، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره ؟ ففى هذه الآية زيادة بيان ، لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال بخلاف قوله : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق**﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال . وقراءة الجمهور : «والذين تدعون » بالمثناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله . وروى أبو بكر عن

عاصم ، وروى هبيرة عن حفص : ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية[(١)] وهى قراءة يعقوب .

ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ يعنى : أن هذه الأصنام أجسادها ميتة ، لاحياة بها أصلا . فزيادة ﴿ غير أحياء ﴾ لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التى تموت بعد ثبوت الحياة لها ، بل لا حياة لهذه أصلا ، فكيف يعبدونها وهم أفضل منها ؟ لأنهم أحياء . ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ الضمير فى ﴿ يشعرون ﴾ للآلهة . وفى ﴿يبعثون ﴾ للكفار الذين يعبدون الأصنام . والمعنى : ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار . ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة ، فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا الله سبحانه . وقيل : يجوز أن يكون الضمير فى ﴿يبعثون ﴾ للآلهة ، أى وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويؤيد ذلك ما روى أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحا معها شياطينها ، فيؤمر بالكل إلى النار . ويدل على هذا قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وقيل : قد تم الكلام عند قوله: ﴿ وهم يخلقون ﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون . فيكون الضميران على هذا للكفار . وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل . وقرأ السلمى : « إيان » بكسر الهمزة . وهما لغتان . وهو فى محل نصب بالفعل الذى قبله .

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان ، صرح بما هو الحق فى نفس الأمر ، وهو وحدانيته [(٢)] سبحانه ، ثم ذكر ما لأجله أصر الكفار على شركهم فقال : ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ للوحدانية، لا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تذكير . ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمرون على الجحد ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ قال الخليل : ﴿ لا جرم ﴾ كلمة تحقيق ، ولا تكون إلا جوابا ، أى حقا أن الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك . وقد مر تحقيق الكلام فى ﴿ لا جرم ﴾ ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ أى لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه . والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم .

﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ أى وإذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل : ماذا أنزل ربكم؟ أى أىُّ شىء أنزل ربكم ؟ أو ماذا الذى أنزل ؟ قيل : القائل : النضر بن الحارث . والآية نزلت فيه . فيكون هذا القول منه على طريق التهكم . وقيل : القائل هو من

---

(١) فى المطبوعة : « بالتحية » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) راجع شرح الطحاوية بتحقيقنا الجزء الأول . ط . المعارف بالرياض . السعودية .

يفد عليهم . وقيل : القائل : المسلمون . فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون فقالوا : ﴿**أساطير الأولين**﴾ بالرفع ، أى ما تدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين . أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا : المنزل عليكم أساطير الأولين . وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جوابا من المشركين ، وإلا لكان المعنى الذى أنزله ربنا أساطير الأولين ، والكفار لا يقرون بالإنزال . ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه . وقيل : هو كلام مستأنف ، أى ليس ما تدعون إنزاله أيها المسلمون منزلا ، بل هو أساطير الأولين . وقد جوز على مقتضى علم النحو نصب «أساطير » ، وإن لم تقع القراءة به . ولابد فى النصب من التأويل الذى ذكرنا ، أى أنزل على دعواكم أساطير الأولين . أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية . والأساطير : الأباطيل والترهات التى يتحدث الناس بها عن القرون الأولى ، وليس من كلام الله فى شىء ، ولا مما أنزله الله أصلا فى زعمهم .

﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة** ﴾ أى قالوا هذه المقالة لكى يحملوا أوزارهم كاملة لم يكفر منها شىء لعدم إسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب . وقيل : إن اللام هى لام العاقبة ، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار ؛ ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به ، كقوله : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ [القصص : ٨] . وقيل : هى لام الأمر ﴿ **ومن أوزار الذين يضلونهم** ﴾ أى ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم ، لأن من سن سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . وقيل : « من » للجنس ، لا للتبعيض، أى يحملون كل أوزار الذين يضلونهم . ومحل ﴿ **بغير علم** ﴾ النصب على الحال من فاعل ﴿**يضلونهم**﴾ . أى يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه . ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام . وقيل : إنه حال من المفعول، أى يضلون من لا علم له . ومثل هذه الآية : ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾[العنكبوت : ١٣] وقد تقدم فى الأنعام الكلام على قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ﴿ **ألا ساء ما يزرون** ﴾ أى بئس شيئا يزرونه ذلك .

ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدمين فقال : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم** ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به : نمروذ بن كنعان حيث بنى بناء عظيما ببابل ، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فأهب الله الريح ، فخر ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا . والأولى أن الآية عامة فى جميع المبطلين من المتقدمين الذين يحاولون إلحاق الضر بالمحقين . ومعنى المكر هنا : الكيد والتدبير الذى لا يطابق الحق . وفى هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم . ﴿ **فأتى الله بنيانهم** ﴾ أى أتى أمر الله ، وهو الريح التى أخربت بنيانهم . قال المفسرون : أرسل الله ريحا ، فألقت رأس الصرح فى البحر ، وخر عليهم الباقى ﴿ **من القواعد** ﴾ قال الزجاج : من الأساطين . والمعنى : أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها ، فزعزعها .

﴿ **فخر عليهم السقف من فوقهم** ﴾ قرأ ابن أبى هريرة ، وابن محيصن : « السقف » بضم السين والقاف جميعا. وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف. وقرأ الباقون: ﴿ **السقف** ﴾ بفتح السين وسكون القاف ، والمعنى : أنه سقط عليهم السقف ، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها . قال ابن الأعرابى : وإنما قال : ﴿ **من فوقهم** ﴾ ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته . والعرب تقول : خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه ، وإن لم يكن وقع عليه ، فجاء بقوله: ﴿ **من فوقهم** ﴾ ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال : ﴿ **من فوقهم** ﴾ أى عليهم وقع ، وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف : السماء ، أى أتاهم العذاب من السماء التى فوقهم . وقيل : إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه . وقد اختلف فى هؤلاء الذين خر عليهم السقف ، فقيل : هو نمروذ كما تقدم . وقيل : إنه بختنصر وأصحابه . وقيل : هم المقسمون الذين تقدم ذكرهم فى سورة الحجر . ﴿ **وأتاهم العذاب** ﴾ أى الهلاك ﴿ **من حيث لا يشعرون** ﴾ به ، بل من حيث إنهم فى أمان .

ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا ، فقال : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم** ﴾ بإدخالهم النار ، ويفضحهم بذلك ويهينهم . وهو معطوف على مقدر ، أى هذا عذابهم فى الدنيا ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول** ﴾ لهم مع ذلك توبيخا وتقريعا ﴿ **أين شركائى** ﴾ كما تزعمون وتدعون ؟ قرأ ابن كثير من رواية البزى : « شركاى » من دون همز ، وقرأ الباقون بالهمز . ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله : ﴿ **الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة ، وقرأ الباقون بفتحها ، أى تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم. وعلى قراءة نافع : تخاصموننى فيهم وتعادوننى ، ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا جرم** ﴾ يقول: بلى. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك : ﴿ **لا جرم** ﴾ قال : يعنى : لحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : لا كذب . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة ، وغيرهم عن ابن مسعود ، قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » . فقال رجل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص [١] الناس » [٢] .

وفى ذم الكبر ، ومدح التواضع أحاديث كثيرة ، وكذلك فى إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل ، ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة . والحاصل أن النبى ﷺ قد بين ماهية

---

(١) غمص الناس : معناه احتقارهم ، وبطره : دفعه وإنكاره .

(٢) مسلم فى الإيمان (٩١/١٤٧) وأبو داود فى اللباس (٤٠٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وقال : «حديث حسن صحيح غريب » وابن ماجة فى المقدمة (٥٩) وفى الزهد (٤١٧٣) .

الكبر أنه بطر الحق وغمص الناس . فهذا هو الكبر المذموم . وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية أعنى قوله سبحانه : ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ ، أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها ، بل المقام مقام ذكر ما له علاقة بتفسير الكتاب العزيز (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قالوا أساطير الأولين** ﴾ أن ناسا من مشركى العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبى الله ﷺ فإذا مروا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبى ﷺ فقالوا : إنما هو أساطير الأولين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ليحملوا أوزارهم** ﴾ الآية ، يقول : يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم . وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : ١٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وزاد : ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم** ﴾ قال : نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح (٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمروذ أيضا (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾ قال : أتاها أمر الله من أصلها . ﴿ **فخر عليهم السقف من فوقهم** ﴾ والسقف : أعلى البيوت ، فائتكفت بهم بيوتهم ، فأهلكهم الله ودمرهم ، ﴿ **وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **تشاقون فيهم** ﴾ قال : تخالفونى .

﴿ **قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)** ﴾ .

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١١٤، ١١٥ .

(٢، ٣) ابن جرير ١٤/ ٦٧ .

قوله : ﴿ **قال الذين أوتوا العلم** ﴾ قيل: هم العلماء ، قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ، ولا يلتفتون إلى وعظهم . وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة . وقيل : هم الأنبياء . وقيل : الملائكة . والظاهر : الأول ، لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك ، وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم ، بل هم أعرق فيه ، لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف ، وهو كونهم أنبياء ، أو كونهم ملائكة . ولا يقدح فى هذا جواز الإطلاق ، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط . ﴿ **إن الخزى اليوم** ﴾ أى الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿ **والسوء** ﴾ أى العذاب ﴿ **على الكافرين** ﴾ مختص بهم .

﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ قد تقدم تفسيره . والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين ، أو بدل منه ، أو فى محل نصب على الاختصاص ، أو فى محل رفع على تقدير مبتدأ ، أى هم الذين تتوفاهم. وانتصاب ﴿ **ظالمى أنفسهم** ﴾ على الحال ﴿ **فألقوا السلم** ﴾ معطوف على ﴿ **فيقول أين شركائى** ﴾ وما بينهما اعتراض ، أى أقروا بالربوبية ، وانقادوا عند الموت. ومعناه : الاستسلام . قاله قطرب . وقيل معناه : المسالمة ، أى سالموا وتركوا المشاقة . قاله الأخفش . وقيل معناه : الإسلام ، أى أقروا بالإسلام ، وتركوا ما كانوا فيه من الكفر . وجملة : ﴿ **ما كنا نعمل من سوء** ﴾ يجوز أن تكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه . ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا : الشرك ، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب . ومن لم يجوز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءا فى اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ، ومثله قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] فلما قالوا هذا ، أجاب عليهم أهل العلم بقولهم : ﴿ **بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ أى بلى كنتم تعملون السوء ، إن الله عليم بالذى كنتم تعملونه ، فمجازيكم عليه ، ولا ينفعكم هذا الكذب شيئا .

﴿ **فادخلوا أبواب جهنم** ﴾ أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقد تقدم ذكر أبواب جهنم ، وأن جهنم درجات بعضها فوق بعض. و﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال مقدرة، لأن خلودهم مستقبل . ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، والتقدير: لبئس مثوى المتكبرين جهنم . والمراد بتكبرهم هنا : هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة كما فى قوله : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ [الصافات : ٣٥].

ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء ، فقال : ﴿ **وقيل للذين اتقوا** ﴾ هم المؤمنون ﴿ **ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا** ﴾ أى أنزل خيرا . قال الثعلبى : فإن قيل : لم ارتفع الجواب فى قوله : ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ وانتصب فى قوله : ﴿**خيرا** ﴾ ؟ فالجواب : أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا: الذى يقوله [1] محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالنزول .

---

(١) فى المطبوعة : «يقولونه » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

فقال : أنزل خيرا. ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾ قيل: هذا من كلام الله عز وجل . وقيل : هو حكاية لكلام الذين اتقوا . فيكون على هذا بدلا من ﴿ **خيرا** ﴾ وعلى الأول يكون كلاما مستأنفا مسوقا للمدح للمتقين . والمعنى : للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا حسنة ، أى مثوبة حسنة . ﴿ **ولدار الآخرة** ﴾ أى مثوبتها ﴿ **خير** ﴾ مما أوتوا فى الدنيا ﴿ **ولنعم دار المتقين** ﴾ دار الآخرة . فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه .

وارتفاع ﴿ **جنات عدن** ﴾ على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، أو خبر مبتدأ محذوف. وقيل: يجوز أن تكون هى المخصوص بالمدح ﴿ **يدخلونها** ﴾ هو إما خبر المبتدأ أو خبر بعد خبر . وعلى تقدير تنكير ﴿ **عدن** ﴾ تكون صفة لجنات . وكذلك ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وقيل : يجوز أن تكون الجملتان فى محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ ﴿**عدن** ﴾ علم . وقد تقدم معنى جرى الأنهار من تحت الجنات . ﴿ **لهم فيها مايشاؤون** ﴾ أى لهم فى الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك . ﴿ **كذلك يجزى الله المتقين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء يجزيهم . والمراد بالمتقين : كل من يتقى الشرك وما يوجب النار من المعاصى .

والموصول فى قوله : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** ﴾ فى محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله . قرأ الأعمش وحمزة :﴿ **تتوفاهم** ﴾ فى هذا الموضع . وفى الموضع الأول بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية . واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلا بما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث ، فذكروهم أنتم . و﴿**طيبين**﴾ فيه أقوال : طاهرين من الشرك ، أو الصالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو طيبى[١] الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله ، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله ، أو طيبى الوفاة ، أى هى عليهم سهلة ، لا صعوبة فيها . وجملة : ﴿ **يقولون سلام عليكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من الملائكة ، أى قائلين : سلام عليكم . ومعناه يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى : أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ، لأن السلام أمان . وقيل : إن الملائكة يقولون : السلام عليك ولى الله ، إن الله يقرأ عليك السلام . ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ أى بسبب عملكم . قيل : يحتمل هذا وجهين : الأول : أن يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت . الثانى : أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ولا ينافى هذا دخول الجنة بالتفضل كما فى الحديث الصحيح: «سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله». قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » [٢] . وقد قدمنا البحث عن هذا .

---

(١) فى المخطوطة : « طيبين » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه على الإضافة .

(٢) أحمد ٢/ ٢٥٦ والبخارى فى المرضى (٥٦٧٣) وفى الرقاق (٦٤٦٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦/ ٧٢ ـ ٧٦) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠١) .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿وقيل للذين اتقوا ﴾ قال : هؤلاء المؤمنون ، يقال لهم : ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ فيقولون : ﴿خيرا ﴾ ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أى آمنوا بالله وكتبه ، وأمروا بطاعته ، وحثوا عباد الله على الخير ، ودعوهم إليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ قال : أحياء وأمواتا قدر الله لهم ذلك .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾ .

قوله : ﴿ هل ينظرون . . ﴾ الآية ، هذا جواب شبهة أخرى لمنكرى النبوة ، فإنهم طلبوا من النبى ﷺ أن ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه فى إدعاء النبوة، فقال : ﴿ هل ينظرون ﴾ فى تصديق نبوتك ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ شاهدين بذلك . ويحتمل أن يقال : إنهم لما طعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأولين ، أوعدهم الله بقوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أو يأتى أمر ربك ﴾ أى عذابه فى الدنيا المستأصل لهم ، أو المراد بأمر الله القيامة . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « إلا أن يأتيهم الملائكة » بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية . والمراد بكونهم ﴿ ينظرون ﴾ أى ينتظرون إتيان الملائكة أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب ، وصار منتظرا له. وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أى مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار ، فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بتدميرهم بالعذاب ، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم . ﴿ ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون ﴾ بما ارتكبوه من القبائح. وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يؤول.

وجملة : ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾ معطوفة على ﴿ **فعل الذين من قبلهم** ﴾ ، وما بينهما اعتراض . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير . والتقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله. والمعنى : فأصابهم جـزاء سيئات أعمالهـم ، أو جـزاء أعمالهـم السيئة ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أى نـزل بهم على وجه الإحاطة ﴿ **ما كانوا به يستهزئون**﴾ أى العذاب الذى كانوا به يستهزئون ، أو عقاب استهزائهم .

﴿ **وقال الذين أشركوا** ﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذى حكاه الله عنهم . والمراد بالذين أشركوا هنا : أهل مكة ﴿ **لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء** ﴾ أى لو شاء عدم عبادتنا لشىء غيره ما عبدنا ذلك ﴿ **نحن ولا آباؤنا** ﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر والشرك بالله . قال الزجاج : إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة الأنعام ﴿ **ولا حرمنا من دونه من شىء** ﴾ من السوائب والبحائر ونحوهما . ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة :الطعن فى الرسالة ، أى لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير الله ، والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكيا ذلك عـن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا ، فإنه قد شاء ذلك . وما شاءه كان ، وما لم يشأه لم يكن . فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه ، كان ذلك دليلا على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته ، مع أنهم فـى الحقيـقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به ، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل ﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾ من طوائف الكفر ، فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه ، وجادلوا رسله بالباطل ، واستهزؤوا بهم . ثم قال : ﴿ **فهل على الرسل** ﴾ الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التى رأسها توحيده ، وترك الشرك به ﴿ **إلا البلاغ** ﴾ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل إليهم ولا يلتبس عليهم .

ثم إنه سبحانه أكد هذا ، وزاده إيضاحا ، فقال : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا** ﴾ كما بعثنا فى هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء: ١٥] و«أن» فى قوله : ﴿**أن اعبدوا الله** ﴾ إما مصدرية ، أى بعثنا بأن اعبدوا الله ، أو مفسرة ؛ لأن فى البعث معنى القول ﴿ **واجتنبوا الطاغوت** ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان، والكاهن ، والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ **فمنهم** ﴾ أى من هذه الأمم التى بعث الله إليها رسله ﴿**من هدى الله** ﴾ أى أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت . ﴿**ومنهم من حقت عليه الـضلالة** ﴾ أى وجبت وثبتت ، لإصراره على الكفر والعناد . قال الزجاج : أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة ، وهو من وراء الإضلال والهداية . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فريقا هدى وفريقا حق عليهم الـضلالة ﴾ [الأعراف : ٣٠] وفى هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان ، وكل ما يدعو إلى الضلال . وأنهم بعد ذلك فريقان : فمنهم من هدى ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فكان

فى ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته ، فإنه يأمر الكل بالإيمان ، ولا يريد الهداية إلا للبعض ، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا . ﴿ **فسيروا فى الأرض** ﴾ سير معتبرين ﴿ **فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود ، أى كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب.

ثم خصص الخطاب برسوله ﷺ مؤكدا لما تقدم فقال : ﴿ **إن تحرص على هداهم** ﴾ أى تطلب بجهدك ذلك ﴿ **فإن الله لا يهدى من يضل** ﴾ قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة : ﴿ **لا يهدى** ﴾ بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه ، أى فإن الله لا يرشد من أضله. و ﴿ **من** ﴾ فى موضع نصب على المفعولية . وقرأ الباقون : « **لا يهدى** » بضم حرف المضارعة على أنه مبنى للمجهول . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم على معنى أنه لا يهديه هاد كائنا من كان . و﴿ **من** ﴾ فى موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف ، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله فى الآية الأخرى: ﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾ [الأعراف : ١٨٦] . والعائد على القراءتين محذوف ، أى من يضله . وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى : ﴿**لايهدى** ﴾ لا يهتدى ، كقوله تعالى : ﴿ أمن لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ [يونس : ٣٥] بمعنى: يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء ، وليس بمتهم فيما يحكيه . قال النحاس: حكى عن محمد بن يزيد المبرد كأن معنى : ﴿ **لا يهدى من يضل** ﴾ من علم ذلك منه ، وسبق له عنده .﴿ **وما لهم من ناصرين**﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله ، أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم .

ثم ذكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ مصدر فى موضع الحال ، أى جاهدين ﴿ **لا يبعث الله من يموت** ﴾ من عباده . زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات ، فرد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ **بلى وعدا عليه حقا** ﴾ هذا إثبات لما بعد النفى ، أى بلى يبعثهم. و ﴿ **وعدا** ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه « بلى » وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعد عباده به. والتقدير: وعد البعث وعدا عليه حقا لاخلف فيه. و﴿**حقا** ﴾ صفة لـ﴿ **وعدا** ﴾ وكذا ﴿ **عليه** ﴾ ، فإنه صفة لـ ﴿ **وعدا** ﴾ ، أى كائنا عليه . أو نصب حقا على المصدرية، أى حق حقا ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير .

وقوله : ﴿ **ليبين لهم** ﴾ أى ليظهر لهم ، وهو غاية لما دل عليه « بلى » من البعث . والضمير فى ﴿ **لهم** ﴾ راجع إلى من يموت ، والموصول فى قوله : ﴿ **الذى يختلفون فيه** ﴾ فى محل نصب ، على أنه مفعول ليبين ، أى الأمر الذى وقع الخلاف بينهم فيه ، وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ،ونزلت عليهم فيه كتب الله. وقيل: إن ﴿ **ليبين** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **ولقد بعثنا** ﴾ أى بعثنا فى كل أمة رسولا ليبين ، وهو بعيد ﴿ **وليعلم الذين كفروا** ﴾ بالله

سبحانه ، وأنكروا البعث ﴿ **أنهم كانوا كاذبين** ﴾ فى جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم : ﴿ **لا يبعث الله من يموت** ﴾ .

وجملة : ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه . قال الزجاج : أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان . وهذا كقوله: ﴿وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ [البقرة : ١١٧] وقرأ ابن عامر والكسائى : ﴿ **فيكون** ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ **أن نقول** ﴾ . قال الزجاج : يجوز أن يكون نصبا على جواب ﴿ **كن** ﴾ . وقرأ الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . قال ابن الأنبارى : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق ، لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد . وقال الزجاج : إن معنى ﴿ **لشيء** ﴾ : لأجل شيء ، فجعل اللام سببية . وقيل : هى لام التبليغ ، كما فى قولك : قلت له قم فقام . و﴿ **إنما قولنا** ﴾ مبتدأ . و﴿ **أن نقول له كن** ﴾ خبره . وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى أنه لا يمتنع عليه شيء ، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع. وليس هناك قول ولا مقول له ، ولا أمر ، ولا مأمور حتى يقال : إنه يلزم منه أحد محالين ، إما خطاب المعدوم ، أو تحصيل الحاصل . وقد مضى تفسير ذلك فى سورة البقرة مستوفى .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة** ﴾ قال : بالموت . وقال فى آية أخرى: ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : ٥٠] وهو ملك الموت ، وله رسل. ﴿ **أو يأتى أمر ربك** ﴾ وذاكم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فإن الله لا يهدى من يضل** ﴾ قال : من يضله الله لا يهديه أحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية ، قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين ، فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلم به : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا . فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت . فأنزل الله : ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن العقيلى وابن مردويه عن على فى قوله : ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾ قال : نزلت فىَّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن أبى هريرة ، قال : قال الله تعالى : « سبنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى . وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى . أما تكذيبه إياى ، فقال : ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾ . وقلت : ﴿ **بلى وعدا عليه حقا** ﴾ وأما سبه إياى فقال : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [المائدة : ٧٣] . وقلت : ﴿ [قل] (٢) هو الله

---

(١) ابن جرير ١٤ / ٧٣ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة .والصحيح إثباته كما فى ابن جرير ١٤/ ٧٣ .

أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [سورة الإخلاص] هكذا ذكره أبو هريرة موقوفا (١) ، وهو فى الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ليبين لهم الذى يختلفون فيه** ﴾ يقول : للناس عامة .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾ .

قد تقدم تحقيق معنى الهجرة فى سورة النساء ، وهى ترك الأهل والأوطان . ومعنى ﴿**هاجروا فى الله** ﴾ : فى شأن الله سبحانه وفى رضاه . وقيل : ﴿ **فى الله** ﴾ : فى دين الله . وقيل : فى معنى اللام ، أى لله . ﴿ **من بعد ما ظلموا** ﴾ أى عذبوا وأهينوا ، فإن أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم . فلما تركوهم هاجروا .

وقد اختلف فى سبب نزول الآية فقيل : نزلت فى صهيب وبلال وخباب وعمار . واعترض بأن السورة مكية ، وذلك يخالف قوله : ﴿ **والذين هاجروا** ﴾ وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية فى هذه السورة كما قدمنا فى عنوانها . وقيل : نزلت فى أبى جندل بن سهيل (٣) . وقيل : نزلت فى أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة .

﴿ **لنبوئنهم فى الدنيا حسنة** ﴾ اختلف فى معنى هذا على أقوال . فقيل : المراد : نزولهم المدينة ، قاله ابن عباس والحسن والشعبى وقتادة . وقيل : المراد : الرزق الحسن ، قاله مجاهد.

---

(١) ابن جرير ١٤/ ٧٣ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٧٤) والنسائى ٤/ ١١٢ .

(٣) القرطبى ٦/ ٣٧٢٣ وراجع كتابنا : (رجال أنزل الله فيهم قرآنا) عند حديثنا عن أبى جندل بن سهيل رضى الله عنه .

وقيل : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك . وقيل : ما استولوا عليه من فتوح البلاد ، وصار لهم فيها من الولايات . وقيل : ما بقى لهم فيها من الثناء ، وصار لأولادهم من الشرف . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور . ومعنى : ﴿ **لنبوئنهم فى الدنيا حسنة** ﴾ لنبوئنهم مباءة حسنة ، أو تبوئة حسنة . فحسنة صفة مصدر محذوف ﴿ **ولأجر الآخرة** ﴾ أى جزاء أعمالهم فى الآخرة ﴿ **أكبر** ﴾ من أن يعلمه أحد من خلق الله قبل أن يشاهده . ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾ [الإنسان : ٢٠] ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ أى لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **يعلمون** ﴾ راجع إلى المؤمنين، أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا .

﴿ **الذين صبروا** ﴾ الموصول فى محل نصب على المدح ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أو هو بدل من الموصول الأول. أو من الضمير فى ﴿ **لنبوئنهم** ﴾ . ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أى على ربهم خاصة يتوكلون فى جميع أمورهم معرضين عما سواه . والجملة معطوفة على الصلة ، أو فى محل نصب على الحال .

﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** ﴾ قرأ حفص عن عاصم :﴿ **نوحى** ﴾ بالنون. وقرأ الباقون : «يوحى » بالياء التحتية . وهذه الآية رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولا من البشر ، فرد الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل إلا رجالا من البشر يوحى إليهم . وزعم أبو على الجبائى[1] أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة . ويرد عليه بأن جبريل كان يأتى رسول الله ﷺ على صور مختلفة . ولما كان كفار مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل، صرف الخطاب إليهم ، وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب ، فقال : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ أى فاسألوا أيها المشركون من آمن من أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون ، فإنهم سيخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشرا، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر ، فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه . وقيل : المعنى : فاسألوا أهل القرآن.

و﴿ **بالبينات والزبر** ﴾ يتعلق بـ ﴿ **أرسلنا** ﴾ ، فيكون داخلا فى حكم الاستثناء مع ﴿**رجالا**﴾ . وأنكر الفراء ذلك، وقال : إن صفة ما قبل « إلا » لا تتأخر إلى ما بعدها ، لأن المستثنى منه هو مجموع ما قبل « إلا » مع صلته ، كما لو قيل: [ما] [2] أرسلنا إلا رجالا بالبينات . فلما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه ، امتنع إدخال الاستثناء عليه . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير . والتقدير : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا . وقيل :

(١) هو محمد الجبائى من كبار المعتزلة وكتب الكلام مليئة بمذهبه واعتقاده .
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، والصحيح إثباته ليستقيم المعنى .

يتعلق بمحذوف دل عليه المذكور، أى أرسلناهم بالبينات والزبر . ويكون جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل : لماذا أرسلهم ؟ فقال : أرسلناهم بالبينات والزبر. وقيل : متعلق بـ ﴿ **تعلمون** ﴾ على أنه مفعوله . والباء زائدة ، أى إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر . وقيل : متعلق بـ ﴿**رجالا** ﴾ ، أى رجالا متلبسين بالبينات والزبر . وقيل : بـ ﴿ **نوحى** ﴾ أى نوحى إليهم بالبينات والزبر . وقيل : منصوب بتقدير أعْنى ، والباء زائدة . وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدم . وقال الزجاج : اسألوا كل من يذكر بعلم. والبينات: الحجج والبراهين . والزبر : الكتب . وقد تقدم الكلام على هذا فى « آل عمران » . ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر** ﴾ أى القرآن . ثم بين الغاية المطلوبة من الإنزال ، فقال : ﴿ **لتبين للناس** ﴾ جميعا ﴿ **ما نزل إليهم** ﴾ فى هذا الذكر من الأحكام الشرعية ، والوعد والوعيد . ﴿ **ولعلهم يتفكرون** ﴾ أى إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيتعظوا .

﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات** ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ **السيئات** ﴾ صفة مصدر محذوف أى مكروا المكرات السيئات . وأن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل ، أى عملوا السيئات ، أو صفة لمفعول مقدر ، أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئات . أو على حذف حرف الجر ، أى مكروا بالسيئات ﴿ **أن يخسف الله بهم الأرض** ﴾ هو مفعول « أمن » ، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف ، وأن السيئات صفة للمحذوف والاستفهام للتقريع والتوبيخ . ومكر السيئات سعيهم فى إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء أصحابه على وجه الخفية ، واحتيالهم فى إبطال الإسلام وكيد أهله ﴿ **أن يخسف الله بهم** ﴾ كما خسف بقارون . يقال : خسف المكان يخسف خسوفا : ذهب فى الأرض . وخسف الله به الأرض خسوفا ، أى غاب به فيها . ومنه قوله : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ [القصص : ٨١] وخسف هو فى الأرض ، وخسف به ﴿ **أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ به فى حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بدر ، فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن فى حسبانهم .

﴿ **أو يأخذهم فى تقلبهم** ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوها ، فقيل : المراد : فى أسفارهم ومتاجرهم ، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم فى السفر كما يهلكهم فى الحضر ، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم فى الأرض وبعدهم عن الأوطان . وقيل: المراد : فى حال تقلبهم فى قضاء أوطارهم بوجود الحيل . فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم . وقيل : فى حال تقلبهم فى الليل على فرشهم . وقيل : فى حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار . والقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله: ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾ [آل عمران : ١٩٦] وبالمعنى الثانى مأخوذ من قوله: ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ [التوبة: ٤٨] ﴿**فما هم بمعجزين**﴾ أى بفائتين ولا ممتنعين .

﴿ **أو يأخذهم على تخوف** ﴾ أى حال تخوف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب ،

حذرين منه ، غير غافلين عنه ، فهو خلاف ما تقدم من قوله : ﴿ **أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .وقيل : معنى ﴿ **على تخوف** ﴾ : على تنقص . قال ابن الأعرابى ، أى على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم. قال الواحدى: قال عامة المفسرين: ﴿ **على تخوف** ﴾ قال : تنقص ، إما بقتل أو بموت. يعنى : بنقص من أطرافهم ونواحيهم ، يأخذهم الأول فالأول حتى يأتى الأخذ على جميعهم . قال : والتخوف : التنقص . يقال : هو يتخوف المال ، أى يتنقصه ، ويأخذ من أطرافه . انتهى . يقال : تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون : تنقصه. قال ذو الرمة :

لا ، بل هو الشوق من دار تخوفها ⁂ مرا سحاب ومرا بارح ترب (١)

وقال لبيد :

تخوفها نزولى وارتحالى

أى تنقص لحمها وشحمها . قال الهيثم بن عدى : التخوف بالفاء : التنقص . لغة لأزد شنوءة . وأنشد :

تخوف عدوهم مالى وأهدى ⁂ سلاسل فى الحلوق لها صليل

وقيل : ﴿ **على تخوف** ﴾ : على عجل ، قاله الليث بن سعد . وقيل : على تقريع بما قدموا من ذنوبهم. روى ذلك عن ابن عباس. وقيل: ﴿ **على تخوف** ﴾ أن يعاقب ويتجاوز ، قاله قتادة . ﴿ **فإن ربكم لرؤوف رحيم** ﴾ لا يعاجل ، بل يمهل رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة .

﴿ **أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء** ﴾ لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف ، أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى ومكانهما . والاستفهام فى ﴿**أو لم يروا** ﴾ للإنكار . و« ما » مبهمة مفسرة بقوله: ﴿ **من شىء** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وثاب ، والأعمش : «تروا» بالمثناة الفوقية ، على أنه خطاب لجميع الناس . وقرأ الباقون بالتحتية بإرجاع الضمير إلى ﴿ **الذين مكروا السيئات** ﴾. وقرأ أبو عمرو ويعقوب: « تتفيؤ ظلاله » بالمثناة الفوقية . وقرأ الباقون بالتحتية واختارها أبو عبيد ، أى يميل من جانب إلى جانب . ويكون أول النهار على حال ويتقلص ، ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى. قال الأزهرى : تفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار . فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشى ، وما انصرف عنه الشمس والقمر . والذى يكون بالغداة هو الظل . وقال ثعلب : أخبرت عن أبى عبيدة أن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . ومعنى ﴿ **من شىء** ﴾ : من شىء له ظل ، وهى الأجسام ، فهو عام أريد

---

(١) البارح : الريح الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير .

به الخاص . و﴿ ظلاله ﴾ جمع ظل . وهو مضاف إلى مفرد ؛ لأنه واحد يراد به الكثرة .

﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ أى عن جهة أيمانها وشمائلها ، أى عن جانبى كل واحد منها. قال الفراء : وحَّد اليمين؛ لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال،وجمع الشمائل ؛ لأنه أراد كلها، لأن ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع . وقال الواحدى : وحد اليمين ، والمراد به الجميع إيجازا فى اللفظ ، كقوله : ﴿ ويولون الدبر ﴾ [القمر : ٤٥] ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع وقيل: إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع ، عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد، كقوله: ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام:١]. و﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [البقرة: ٧] وقيل : المراد باليمين : النقطة التى هى مشرق الشمس ، وأنها واحدة . والشمائل : عبارة عن الانحراف فى فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض ، وهى كثيرة . وإنما عبر عن المشرق باليمين ؛ لأن أقوى جانبى الإنسان يمينه . ومنه تظهر الحركة القوية .

﴿ سجدا لله ﴾ منتصب على الحال ، أى حال كون الظلال سجدا لله . قال الزجاج : يعنى : أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة . وقال أيضا : سجود الجسم : انقياده وما يرى من أثر الصنعة . ﴿ وهم داخرون ﴾ فى محل نصب على الحال، أى خاضعون صاغرون . والدخور : الصغار والذل . يقال : دخر الرجل ، فهو داخر، وأدخره الله . قال الشاعر :

فلم يبق إلا داخر فى مخيس ومنجحر فى غير أرضك فى حجر (١)

ومخيس : اسم سجن كان بالعراق .

﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ﴾ أى له وحده يخضع وينقاد ، لا لغيره ما فى السموات جميعا ﴿ وما فى الأرض من دابة ﴾ تدب على الأرض . والمراد به : كل دابة . قال الأخفش : هو كقولك : ما أتانى من رجل مثله ، وما أتانى من الرجال مثله . وقد دخل فى عموم ما فى السموات وما فى الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما . وإنما خص الدابة بالذكر ، لأنه قد علم من قوله : ﴿ أو لم يروا إلى ماخلق الله من شىء ﴾ انقياد الجمادات ، وعطف الملائكة على ما قبلهم ، تشريفا لهم وتعظيما لدخولهم فى المعطوف عليه . ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أى والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم . والمراد : الملائكة . ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة . وفى هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿ يسجد ﴾ . و« ما » عطف عليه ، أى يسجد لله ما فى السموات وما فى الأرض ، والملائكة ، وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود .

﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم . أو جملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم . ومن آثار الخوف عدم

---

(١) منجحر : انجحر الضب إذا دخل الجحر .

الاستكبار . و﴿ **من فوقهم** ﴾ متعلق بـ﴿ **يخافون** ﴾ على حذف مضاف ، أى يخافون عذاب ربهم من فوقهم ، أو يكون حالا من الرب ، أى يخافون ربهم حال كونه من فوقهم . وقيل : معنى ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾: يخافون الملائكة ، فيكون على حذف المضاف ، أى يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم . وهو تكلف لا حاجة إليه . وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت فى الأذهان ، وتقررت فى القلوب . قيل : وهذه المخافة هى مخافة الإجلال . واختاره الزجاج فقال : ﴿ **يخافون ربهم** ﴾ خوف مجلين . ويدل على صحة هذا المعنى قوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : ١٨] وقوله إخبارا عن فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى ما يؤمرون به من طاعة الله ؛ يعنى : الملائكة ، أو جميع ما تقدم ذكره . وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى ، لأن فى مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه، ولا يفعل مايؤمر به ، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات ، وإبليس وجنوده .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا** ﴾ قال : هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم (١) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن داود بن أبى هند قال : نزلت هذه الآية فى أبى جندل بن سهيل (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والذين هاجروا فى الله** ﴾ الآية ، قال : هؤلاء أصحاب محمد ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك ، فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين (٣) . ﴿ **ولأجر الآخرة أكبر** ﴾ قال : أى والله لما يصيبهم الله من جنته ونعمته أكبر ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبى فى قوله:﴿ **فى الدنيا حسنة** ﴾ قال: المدينة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية، قال : لنرزقنهم فى الدنيا رزقا حسنا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : لما بعث الله محمدا رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، فأنزل الله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** ﴾ (٤) . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر . . .** ﴾ الآية ، يعنى : مشركى قريش، أن محمدا رسول الله فى التوراة والإنجيل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : نزلت فى عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة .

(١، ٢) ابن جرير ١٤/ ٧٤.
(٣) المرجع السابق ١٤/ ٧٣ ، ٧٤ .
(٤) المرجع السابق ١٤/ ٧٥.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿**بالبينات**﴾ قال : الآيات . ﴿**والزبر**﴾ قال : الكتب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات** ﴾ قال : نمروذ بن كنعان وقومه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية ، قال : أي الشرك . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ، قال : تكذيبهم الرسل وإعمالهم بالمعاصي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **أو يأخذهم في تقلبهم** ﴾ قال : في اختلافهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه : ﴿ **في تقلبهم** ﴾ قال : إن شئت أخذته في سفره ﴿ **أو يأخذهم على تخوف** ﴾ يقول : على أثر موت صاحبه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿ **على تخوف** ﴾ قال : تنقص من أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية : ﴿ **أو يأخذهم على تخوف** ﴾ فقالوا : ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردده من الآيات . فقال عمر: ما أرى إلا أنه على ما يتنقصون من معاصي الله . فخرج رجل ممن كان عند عمر ، فلقي أعرابيا ، فقال : يا فلان ، ما فعل ربك ؟ قال : قد تخيفته . يعني : انتقصته . فرجع إلى عمر فأخبره ، فقال : قد رأيته ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ **أو يأخذهم على تخوف** ﴾ قال : يأخذهم بنقص بعضهم بعضا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **يتفيؤ** ﴾ قال : يتميل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ **وهم داخرون** ﴾ قال : صاغرون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله .وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **ولله يسجد** . . . ﴾ الآية ، قال : لم يدع شيئا من خلقه إلا عبده له طائعا أو كارها . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية ، قال : يسجد من في السموات طوعا ، ومن في الأرض طوعا وكرها .

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ

بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم (٦٠) ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٦١) ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون (٦٢) ﴾ .

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له خاضعة لجلاله ، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك بقوله: ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد** ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة فى إله واحد. وهو الله سبحانه . وقد قيل : إن التثنية فى إلهين قد دلت على الاثنينية ، والإفراد فى إله قد دل على الوحدة . فما وجه وصف إلهين باثنين ووصف إله بواحد ؟ فقيل فى الجواب : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا . والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله . وقيل : إن التكرير لأجل المبالغة فى التنفير عن اتخاذ الشريك . وقيل : إن فائدة زيادة اثنين هى أن يعلم أن النهى راجع إلى التعدد ، لا إلى الجنسية . وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية ، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة فى نفسها . وإنما خلاف المشركين فى الواحدية . ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب ، فقال : ﴿ **فإياى فارهبون** ﴾ أى إن كنتم راهبين شيئا ، فإياى فارهبون لا غيرى . وقد مر مثل هذا فى أول البقرة .

ثم لما قرر سبحانه وحدانيته ، وأنه الذى يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة إليه ، ذكر أن الكل فى ملكه وتحت تصرفه ، فقال : ﴿ **وله ما فى السموات والأرض** ﴾ وهذه الجملة مقررة لمن تقدم فى قوله : ﴿ **ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض** . . . ﴾ إلى آخره . وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص . ﴿**وله الدين واصبا** ﴾ أى ثابتا واجبا دائما لا يزول ، والدين هو الطاعة والإخلاص . قال الفراء : ﴿ **واصبا** ﴾ معناه : دائما . ومنه قول الدؤلى:

لا أبتغى الحمد القليل بقاؤه بذم يكون الدهر أجمع واصبا

أى دائما . وروى عن الفراء أيضا أنه قال : الواصب : الخالص . والأول أولى . ومنه قوله سبحانه : ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ [الصافات : ٩] أى دائم . وقال الزجاج : أى طاعته واجبة أبدا . ففسر الواصب بالواجب . وقال ابن قتيبة فى تفسير الواصب : أى ليس أحد يطاع إلا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير الله تعالى ، فإن الطاعة تدوم له . ففسر الواصب بالدائم . وإذا دام الشىء دواما لا ينقطع فقد وجب وثبت .

يقال : وصب الشىء يصب وصوبا ، فهو واصب: إذا دام. ووصب الرجل على الأمر : إذا واظب عليه . وقيل: الوصب : التعب والإعياء ، أى يجب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما فى الآية . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفغير الله تتقون** ﴾ للتقريع

والتوبيخ . وهو معطوف على مقدر ، كما فى نظائره . والمعنى : إذا كان الدين ، أى الطاعة واجبا له ، دائما لا ينقطع ، كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به ، وعدم إيقاعها لغيره .

ثم امتن سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره، فقال : ﴿ **وما بكم من نعمة** ﴾ أى ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله ، أى فهى منه فتكون ما شرطية . ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط و﴿ **بكم** ﴾ صلتها ، و﴿**من نعمة** ﴾ حال من الضمير فى الجار والمجرور . أو بيان لـ « ما ». وقوله : ﴿ **فمن الله** ﴾ الخبر. وعلى كون « ما » شرطية يكون فعل الشرط محذوفا ، أى ما يكن . والنعمة إما دينية ، وهى معرفة الحق لذاته ، ومعرفة الخير لأجل العمل به . وإما دنيوية نفسانية ، أو بدنية ، أو خارجية ، كالسعادات المالية وغيرها . وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها . والكل من الله سبحانه ، فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه . ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه فى بحر النعم ، فقال : ﴿ **ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾ أى إذا مسكم الضر أى مس ، فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرعون فى كشفه ، فلا كاشف له إلا هو . يقال : جأر يجأر جؤورا ، إذا رفع صوته فى تضرع . قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة وكان النكير أن تطيف وتجأرا

والضر : المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الإنسان .

﴿ **ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون** ﴾ أى إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر ﴿ **إذا فريق** ﴾ أى جماعة منكم بربهم الذى رفع الضر عنهم يشركون ، فيجعلون معه إلها آخر من صنم أو نحوه . والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء ، حيث يضعون الإشراك بالله الذى أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له . وهذا المعنى قد تقدم فى الأنعام ويونس ، ويأتى فى سبحان . قال الزجاج : هذا خاص بمكر [من] [1] كفر، وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر . وعلى هذا فتكون « من » فى ﴿ **منكم** ﴾ للتبعيض ، حيث كان الخطاب للناس جميعا . والفريق هم الكفرة ، وإن كان الخطاب موجها إلى الكفار ، فـ «من» للبيان . واللام فى ﴿**ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ لام كى ، أى لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع فى موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم . وهذا غاية فى العتو والعناد ليس وراءها غاية . وقيل : اللام للعاقبة ، يعنى : ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفر . ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب ﴿ **فتمتعوا** ﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ عاقبة أمركم ، وما يحل بكم فى هذه الدار ، وما تصيرون إليه فى الدار الآخرة .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح أعمالهم فقال : ﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم** ﴾ أى يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار إلى الله سبحانه فى كشف الضر

(١) ما بين المعقوفتين ساقط فى المطبوعة ، والصحيح إثباته ليستقيم المعنى كما بالمخطوطة .

عنهم ، وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به ، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه . وقيل: المعنى : أنهم ، أى الكفار ، يجعلون للأصنام ، وهم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات ، ففاعل ﴿ **يعلمون** ﴾ على هذا هى الأصنام . وأجراها مجرى العقلاء فى جمعها بالواو والنون ، جريا على اعتقاد الكفار فيها . وحاصل المعنى : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التى لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التى رزقهم الله إياها ﴿ **تالله لتسألن عما كنتم تفترون** ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب . وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ . ﴿ **عما كنتم تفترون** ﴾ تختلقونه من الكذب على الله سبحانه فى الدنيا .

﴿ **ويجعلون لله البنات** ﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم . وقد كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله ﴿ **سبحانه** ﴾ نزه سبحانه نفسه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة ، ولاأفهام مستقيمة ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الفرقان: ٤٤] وفى هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ أى ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن « ما » فى محل نصب بالفعل المقدر،ويجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء. وأنكر النصب الزجاج . قال : لأن العرب لا يقولون : جعل له كذا . وهو يعنى نفسه . وإنما يقولون : جعل لنفسه كذا . فلو كان منصوبا ، لقال : ولأنفسهم ما يشتهون . وقد أجاز النصب الفراء .

ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التى جعلوها لله سبحانه فقال : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى** ﴾ أى إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ، ﴿ **ظل وجهه مسودا** ﴾ أى متغيرا . وليس المراد السواد الذى هو ضد البياض ، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم . والعرب تقول لكل من لقى مكروها : قد اسود وجهه غما وحزنا . قاله الزجاج . وقال الماوردى : بل المراد سواد اللون حقيقة . قال : وهو قول الجمهور . والأول أولى . فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل فى لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار ، لا السواد الحقيقى . وجملة : ﴿ **وهو كظيم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى ممتلئ من الغم غيظا وحنقا . قال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه ولا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذى يطبق فاه من الغم . مأخوذ من الكظامة ، وهو سد فم البئر . قاله على بن عيسى. وقد تقدم فى سورة يوسف .

﴿ **يتوارى من القوم** ﴾ أى يتغيب ويختفى . ﴿ **من سوء ما بشر به** ﴾ أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿ **أيمسكه على هون** ﴾ أى لا يزال مترددا بين الأمرين ، وهو إمساك البنت التى بشر بها، أو دفنها فى التراب ﴿ **على هون** ﴾ أى هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفى . قال اليزيدى : والهون : الهوان بلغة قريش . وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائى . وحكى عن الكسائى أنه البلاء والمشقة . قالت الخنساء :

نهين النفوس وهون النفو   س يوم الكريهة أبقى لَها

وقال الفراء : الهون : القليل بلغة تميم . وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ : « أيمسكه على سوء » ﴿ **أم يدسه فى التراب** ﴾ أى يخفيه فى التراب بالوأد كما كانت تفعله العرب . فلا يزال الذى بشر بحدوث الأنثى مترددا بين هذين الأمرين . والتذكير فى ﴿ **يمسكه** ﴾ و﴿**يدسه**﴾ مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ . وقرأ الجحدرى : « أم يدسها فى التراب » . ويلزمه أن يقرأ : « أيمسكها » . وقيل : دسها : إخفاؤها عن الناس التى لاتعرف كالمدسوس لإخفائه عن الإبصار. ﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ حيث أضافوا البنات التى يكرهونها إلى الله سبحانه ، وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم. ومثل هذا قوله تعالى:﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ [النجم : ٢١ ، ٢٢] .

﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء** ﴾ أى لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة ﴿ **مثل السوء**﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر بالله . وقيل : هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد . وقيل : هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم . ووأد البنات لدفع العار ، وخشية الإملاق . وقيل : العذاب والنار . ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل ، والجود الشامل ، والعلم الواسع ، أو التوحيد وإخلاص العبادة ، أو أنه خالق رازق قادر مجاز . وقيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ [النور : ٣٥] ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذى لا يغالب ، فلا يضره نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أفعاله وأقواله .

ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم ، بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، ولم يؤاخذهم بظلمهم فقال: ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم** ﴾ والمراد بالناس هنا : الكفار ، أو جميع العصاة ﴿ **ما ترك عليها** ﴾ أى على الأرض ، وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة . فإن الجميع مستقرون على الأرض . والمراد بالدابة : الكافر . وقيل : كل ما دب . وقد قيل على هذا : كيف يعم بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له ؟ وأجيب بإهلاك الظالم انتقاما منه ، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف ، فلأجل توفير أجره ، وإن كان من غيرهم ، فبشؤم ظلم الظالمين . ولله الحكمة البالغة ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ومثل هذا قوله :﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال: ٢٥] . وفى معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم » (١) . وكذلك حديث الجيش الذين يخسف بهم فى البيداء، وفى آخره أنهم يبعثون على نياتهم (٢) . وقد قدمنا عند تفسير قوله سبحانه : ﴿ واتقوا فتنة . . . ﴾ الآية

---

(١) أحمد ٢/ ٤٠ والبخارى فى الفتن (٧١٠٨) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٩/ ٨٤) .

(٢) سبق تخريجه .

[الأنفال: ٢٥] تحقيقا حقيقا بالمراجعة له ﴿ **ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى** ﴾ معلوم عنده ، وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم ، أو أجل عذابهم . وفى هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم . ومنها حصول من سبق فى علمه من أولادهم ﴿ **فإذا جاء أجلهم**﴾ الذى سماه لهم ، حقت عليهم كلمة الله سبحانه فى ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه . والساعة : المدة القليلة . وقد تقدم تفسيرها هذا وتحقيقه .

ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم فقال : ﴿ **ويجعلون لله ما يكرهون** ﴾ أى ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات ، وهو تكرير لما قد تقدم لقصد التأكيد والتقرير ، ولزيادة التوبيخ والتقريع ﴿**وتصف ألسنتهم الكذب** ﴾ هذا من النوع الآخر الذى ذكره سبحانه من قبائحهم ، وهو ، أى هذا الذى تصفه ألسنتهم من الكذب ، هو قولهم :﴿ **أن لهم الحسنى** ﴾ أى الخصلة الحسنى أو العاقبة الحسنى . قال الزجاج : يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن . قال الزجاج أيضا والفراء: أبدل من قوله:﴿ **وتصف ألسنتهم الكذب** ﴾ قوله : ﴿ **أن لهم الحسنى** ﴾ و﴿ **الكذب** ﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿ **تصف** ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن محيصن : « الكذب » برفع الكاف والذال والباء ، على أنه صفة للألسن . وهو جمع كذب ، فيكون المفعول على هذا هو ﴿ **أن لهم الحسنى** ﴾ .

ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **لا جرم أن لهم النار** ﴾ أى حقا أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار . وقد تقدم تحقيق هذا . ﴿ **وأنهم مفرطون** ﴾ قال ابن الأعرابى وأبو عبيدة : أى متروكون منسيون فى النار . وبه قال الكسائى والفراء ، فيكون مشتقا من أفرطت فلانا خلفى : إذا خلفته ونسيته . وقال قتادة والحسن : معجلون إليها ، مقدمون فى دخولها ، من أفرطته ، أى قدمته فى طلب الماء . والفارط : هو الذى يتقدم إلى الماء . والفراط : المتقدمون فى طلب الماء. والوراد : المتأخرون . ومنه قوله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض» (١) أى : متقدمكم . قال القطامى :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا ... كما تعجل فراط لوراد

وقرأ نافع فى رواية ورش : « مفرطون » بكسر الراء وتخفيفها . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ومعناه: مسرفون فى الذنوب والمعاصى : يقال : أفرط فلان على فلان : إذا أربى عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارى: « مفرطون » بكسر الراء وتشديدها ، أى مضيعون أمر الله . فهو من التفريط فى الواجب. وقرأ الباقون : « مفرطون » بفتح الراء مخففا . ومعناه : مقدمون إلى النار .

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد ٢٥٧/١ عن ابن عباس ٣٨٤ ، ٤٠٢ عن ابن مسعود والبخارى فى الرقاق (٦٥٧٦) ومسلم فى الطهارة (٣٩/٢٤٩) عن أبى هريرة وفى الفضائل (٢٥/٢٢٨٩) عن جندب و(٢٦/٢٢٩٠) عن سهل وابن ماجة فى الفتن (٣٩٤٤) وفى الزهد (٤٣٠٦) عن أبى هريرة .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وله الدين واصبا**﴾ قال : ﴿ **الدين** ﴾ : الإخلاص . و﴿ **واصبا** ﴾ : دائما . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح ﴿ **وله الدين واصبا** ﴾ قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **واصبا** ﴾ قال : دائما . وأخرج الفريابى وابن جرير عنه قال : واجبا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **تجأرون** ﴾ قال : تتضرعون دعاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ، قال : تصيحون بالدعاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ قال : وعيد . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون**. . .﴾ الآية ، قال: يعلمون أن الله خلقهم، ويضرهم وينفعهم . ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم ﴿ **نصيبا مما رزقناهم** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ، قال : هم مشركو العرب ، جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله ، وجزؤوا من أموالهم جزءا فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية ، قال : هو قولهم : ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويجعلون لله البنات** . . . ﴾ الآية يقول: يجعلون لى البنات يرتضونهن لى ، ولا يرتضونهن لأنفسهم . وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو دسها فى التراب وهى حية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ قال : يعنى به: البنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ **أم يدسه فى التراب** ﴾ قال: يئد ابنته . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ قال : بئس ما حكموا . يقول : شىء لا يرضونه لأنفسهم ، فكيف يرضونه لى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ قال : يقول : ليس كمثله شىء . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله : ﴿ **ما ترك عليها من دابة** ﴾ قال : ما سقاهم المطر . وأخرج أيضا عن السدى نحوه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : قد فعل ذلك فى زمن نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل فى سفينته . وأخرج أحمد فى الزهد عن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره . ثم قال : أى والله زمن غرق قوم نوح . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن

أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه قال : كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾ [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا عن أنس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ؛ أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه . قال أبو هريرة: بلى ، والله إن الحبارى لتموت هزالا فى وكرها من ظلم الظالم [٢] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ قال : يجعلون لى البنات ، ويكرهون ذلك لأنفسهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ قال : قول كفار قريش : لنا البنون ، وله البنات . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد: ﴿وأنهم مفرطون﴾ قال : منسيون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : معجلون . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾ .

بين سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم فقال مسليا لرسول الله ﷺ : ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ أى رسلا ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ الخبيثة ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا ، فيكون المعنى : فهو قرينهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة، وما بعده ، فيكون للحال الآتية ،

(١) ابن أبى شيبة (١٦٤١٣) وابن جرير ١٤/ ٨٥ والبيهقى فى الشعب (٧٤٧٨) ط . الكتب العلمية . وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٨ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١٤/ ٨٥ والبيهقى فى الشعب (٧٤٧٩) . ط . الكتب العلمية .

ويكون الولى بمعنى الناصر . والمراد : نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الدار الآخرة . وإذا كان الناصر منحصرا فيه ، لزم أن لا نصره من غيره . ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين : الأول : أن يراد البعض الذى قد مضى ، وهو الذى وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . الثانى : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد : تزيين الشيطان لكفار قريش، فيكون الضمير فى ﴿**وليهم**﴾ لكفار قريش أى فهو ولى هؤلاء اليوم . أو على حذف مضاف ، أى فهو ولى أمثال أولئك الأمم اليوم. ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

ثم ذكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم وإزاحة العلة منهم ، فقال: ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه** ﴾ . وهذا خطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد بالكتاب : القرآن . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعلة من العلل إلا لعلة التبيين لهم، أى للناس الذى اختلفوا فيه من التوحيد ، وأحوال البعث ، وسائر الأحكام الشرعية . وانتصاب ﴿ **هدى ورحمة** ﴾ على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين. ولا حاجة إلى اللام ، لأنهما فعلا فاعل الفعل المعلل ، بخلاف التبيين ، فإنه فعل المخاطب ، لا فعل المنزل . ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ بالله سبحانه ، ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده وتفرده بالإلهية بذكر آياته العظام فقال : ﴿ **والله أنزل من السماء ماء** ﴾ أى من السحاب ، أو من جهة العلو كما مر ، أى نوعا من أنواع الماء . ﴿**فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ أى أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ الإنزال والإحياء ﴿ **لآية** ﴾ أى علامة دالة على وحدانيته ، وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم. ﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض .

﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** ﴾ الأنعام هى: الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فى الغنم المعز. والعبرة أصلها : تمثيل الشىء بالشىء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة . ومنه : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ [الحشر : ٢] . وقال أبو بكر الوراق: العبرة فى الأنعام : تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم . والظاهر أن العبرة هى قوله : ﴿ **نسقيكم مما فى بطونه** ﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة . قرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر : «نسقيكم» بفتح النون ، من سقى يسقى . وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقى . قيل : هما لغتان . قال لبيد :

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال

وقرئ بالتاء الفوقية ، على أن الضمير راجع إلى الأنعام . وقرئ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه. وهما ضعيفتان . وجميع القراء على القراءتين الأوليين . والفتح لغة قريش ، والضم لغة حمير . وقيل : إن بين سقى وأسقى فرقا . فإذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى ، فيقال: سقيته. وإن كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له ، قيل: أسقاه . والضمير فى قوله : ﴿ مما فى بطونه ﴾ راجع إلى الأنعام . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . وقال الزجاج: لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث ، فيقال : هو الأنعام ، وهى الأنعام . جاز عود الضمير بالتذكير . وقال الكسائى : معناه: مما فى بطون ما ذكرنا ، فهو على هذا عائد إلى المذكور . قال الفراء : وهو صواب . وقال المبرد : هذا فاش فى القرآن كثير، مثل قوله للشمس: ﴿ هذا ربى ﴾ [الأنعام: ٧٨] يعنى: هذا الشىء الطالع . وكذلك : ﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ﴾ [النمل : ٣٥] ثم قال: ﴿ فلما جاء سليمان ﴾ [النمل: ٣٦] ولم يقل : جاءت ؛ لأن المعنى جاء الشىء الذى ذكرنا. انتهى. ومن ذلك قوله:﴿ كلا إنه [(١)] تذكرة . فمن شاء ذكره ﴾ [المدثر : ٥٤ ، ٥٥] . ومثله قول الشاعر :

مثل الفراخ نتفت حواصله

ولم يقل : حواصلها . وقول الآخر :

وطاب ألبان اللقاح وبرد

ولم يقل : وبردت . وحكى عن الكسائى أن المعنى مما فى بطون بعضه وهى الإناث ؛ لأن الذكور لا ألبان لها . وبه قال أبو عبيدة وحكى عن الفراء أنه قال : النعم والأنعام واحد ، يذكر ويؤنث . ولهذا تقول العرب : هذه نعم وارد. فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذى هو بمعنى الأنعام . وهو كقول الزجاج . ورجحه ابن العربى فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة . فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة . ﴿ من بين فرث ودم ﴾ : الفرث : الزبل الذى ينزل إلى الكرش ، فإذا خرج منه لم يسم فرثا . يقال : أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها . والمعنى : أن الشىء الذى تأكله يكون منه ما فى الكرش ، وهو الفرث ، ويكون منه الدم . فيكون أسفله فرثا ، وأعلاه دما ، وأوسطه لبنا ، فيجرى الدم فى العروق، واللبن فى الضروع ، ويبقى الفرث كما هو . ﴿ خالصا ﴾ يعنى : من حمرة الدم ، وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد ﴿ سائغا للشاربين ﴾ أى لذيذا هنيئا ، لا يغص به من شربه . يقال : ساغ الشراب ، يسوغ سوغا ، أى سهل مدخله فى الحلق .

﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ قال ابن جرير : التقدير : ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون. فحذف « ما » ودل على حذفه قوله: ﴿ منه ﴾. وقيل : هو معطوف

(١) فى المطبوعة « إن هذه تذكر » وهو خطأ ؛ لأنها ليست محل الاستشهاد .

على الأنعام ، والتقدير : وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على ﴿ **مما فى بطونه** ﴾ أى نسقيكم مما فى بطونه ومن ثمرات النخيل . ويجوز أن يتعلق بمحذوف دل عليه ما قبله ، تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل . ويكون على هذا ﴿ **تتخذون منه سكرا** ﴾ بيانا للإسقاء وكشفا عن حقيقته . ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ **تتخذون** ﴾ تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا . ويكون تكرير الظرف ، وهو قوله : ﴿ **منه** ﴾ للتأكيد ، كقولك : زيد فى الدار فيها . وإنما ذكر الضمير فى ﴿ **منه** ﴾ لأنه يعود إلى المذكور . أو إلى المضاف المحذوف ، وهو العصير ، كأنه قيل : ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه . والسكر : ما يسكر من الخمر . والرزق الحسن : جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالثمر والدبس [١] والزبيب والخل . وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر . وقيل : إن السكر : الخل بلغة الحبشة. والرزق الحسن : الطعام من الشجرتين . وقيل : السكر : العصير الحلو الحلال . وسمى سكرا ؛ لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى. فإذا بلغ الإسكار ، حرم . والقول الأول أولى وعليه الجمهور . وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر ، ولم يخالف فى ذلك إلا أبو عبيدة ، فإنه قال : السكر : الطعم . ومما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرى فيهم الهذى والسكر

ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده :

جعلت عيب الأكرمين سكرا

أى جعلت ذمهم طعما . ورجح هذا ابن جرير فقال : إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن . فاللفظ مختلف . والمعنى واحد، مثل : ﴿ إنما أشكوبثى وحزنى إلى الله ﴾ [يوسف : ٨٦] قال الزجاج : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف . وأهل التفسير على خلافه . ولا حجة فى البيت الذى أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس . وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة ، وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ . قالوا : وإنما يمتن الله على عباده بما أحله لهم، لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر[٢] . ا هـ . ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ أى لدلالة لمن يستعمل العقل ، ويعمل بما يقتضيه عند النظر فى الآيات التكوينية .

﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾ قد تقدم الكلام فى الوحى ، وأنه يكون بمعنى الإلهام . وهو ما يخلقه فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر . ومنه قوله سبحانه : ﴿ ونفس وما سواها .

---

(١) الدبس : عسل الرطب أو التمر .

(٢) القرطبى ٦/ ٣٧٤٥ .

فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس : ٧ ، ٨] ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها . وقرأ يحيى بن وثاب : « إلى النحل» بفتح الحاء . قال الزجاج : وسمى نحلا ؛ لأن الله سبحانه نحله العسل الذى يخرج منه. قال الجوهرى: النحل والنحلة : الدبر ، يقع على الذكر والأنثى . ﴿ **أن اتخذى من الجبال بيوتا** ﴾ أى بأن اتخذى على أن « أن » هى المصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية ؛ لأن فى الإيحاء معنى القول . وأنث الضمير فى ﴿**اتخذى** ﴾ لكونه أحد الجائزين كما تقدم . أو للحمل على المعنى ، أو لكون النحل جمعا. وأهل الحجاز يؤنثون النحل . و«من » فى ﴿ **من الجبال بيوتا** ﴾ وكذا فى ﴿ **من الشجر** ﴾ وكذا فى ﴿ **مما يعرشون** ﴾ للتبعيض ، أى مساكن توافقها وتليق بها فى كوى الجبال ، وتجويف الشجر ، وفى العروش التى يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها . وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب . يقال : عرش يعرش بكسر الراء وضمها . وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة . وقرأ الباقون بالكسر . وقرئ أيضا « بيوتا » بكسر الباء وضمها .

﴿ **ثم كلى من كل الثمرات** ﴾ « من » للتبعيض ، لأنها تأكل النور [(١)] من الأشجار ، فإذا أكلتها ﴿ **فاسلكى سبل ربك** ﴾ أى الطرق التى فهمك الله وعلمك وأضافها إلى الرب ، لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها ،أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر، أو اسلكى ما أكلت فى سبل ربك ، أى فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النور عسلا . أو إذا أكلت الثمار فى الأمكنة البعيدة ، فاسلكى إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تضلين فيها . وانتصاب ﴿ **ذللا** ﴾ على الحال من السبل . وهى جمع ذلول ، أى مذللة ، غير متوعرة . واختار هذا : الزجاج وابن جرير . وقيل : حال من النحل ، يعنى : مطيعة للتسخير ، وإخراج العسل من بطونها . واختار هذا ابن قتيبة .

وجملة : ﴿ **يخرج من بطونها** ﴾ مستأنفة عدل به عن خطاب النحل تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع ، وتنبيها على الغير ، وإرشادا إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب . والمراد : بالشراب : هو العسل . ومعنى ﴿ **مختلف ألوانه** ﴾ : أن بعضه أبيض ، وبعضه أحمر ، وبعضه أزرق ، وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها . وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل . وقيل : من أسفلها. وقيل : لا يدرى من أين يخرج منها . والضمير فى قوله : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل ، وهو العسل . وإلى هذا ذهب الجمهور . وقال الفراء ، وابن كيسان ، وجماعة من السلف : إن الضمير راجع إلى القرآن . ويكون التقدير : فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين . وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء،

---

(١) النور : هو ما يداخل الزهرة على ألوانه المختلفة .

أو خاص ببعض الأمراض ؟ فقالت طائفة : هو على العموم. وقالت طائفة : إن ذلك خاص ببعض الأمراض . ويدل على هذا أن العسل نكرة فى سياق الإثبات ، فلا يكون عاما. وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم . والظاهر المستفاد من التجربة ، ومن قوانين علم الطب أنه إذا استعمل منفردا ، كان دواء لأمراض خاصة ، وإن خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها ، كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض . وبالجملة فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية . وقليلا ما يجتمع هذان الأمران فى غيره . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿ **لآية لقوم يتفكرون** ﴾ أى يعملون أفكارهم عند النظر فى صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته . فإن أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها.

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس ، والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه ، وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا** ﴾ قال : السكر ما حرم من ثمرتهما ، والرزق الحسن ما حل [1] . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : السكر : الحرام . والرزق الحسن : زبيبه وخله وعنبه ومنافعه . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : السكر : النبيذ . والرزق الحسن : الزبيب . فنسختها هذه الآية ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ [المائدة : ٩٠] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا فى الآية قال: فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه. ثم قال : ﴿ **ورزقا حسنا** ﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك ، فأقره الله، وجعله حلالا للمسلمين . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر ، فقال : الخمر بعينها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال : السكر : خمر .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾ قال : ألهمها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن مجاهد فى قوله: ﴿ **فاسلكى سبل ربك ذللا** ﴾ قال : طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **ذللا** ﴾ قال : مطيعة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ، قال : ذليلة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يخرج من بطونها شراب** ﴾ قال : العسل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : هو العسل فيه الشفاء ، وفى القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن مسعود قال : إن العسل شفاء

---

(١) ابن جرير ١٤/ ٩٠ وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٥ ووافقه الذهبى ،والبيهقى ٨/ ٢٩٧ .

من كل داء . والقرآن شفاء لما فى الصدور . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن مسعود قال : عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن (١) . وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وابن السنى وأبو نعيم والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن»(٢) .

وقد وردت أحاديث فى كون العسل شفاء ، منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «الشفاء فى ثلاثة: فى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أوكية بنار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى » (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن أخى استطلق بطنه. فقال : «اسقه عسلا» . فسقاه عسلا . ثم جاء فقال : سقيته عسلا ، فما زاده إلا استطلاقا . قال :« اذهب فاسقه عسلا» . فذهب فسقاه ، ثم جاء فقال : ما زاده إلا استطلاقا . فقال رسول الله ﷺ :« صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا ». فذهب ، فسقاه عسلا ، فبرأ (٤) .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾ .

لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان ، وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة ، وخصائص القدرة القاهرة ، أتبعه بعجائب خلق الإنسان ، وما فيه من العبر ، فقال : **﴿ والله خلقكم ﴾** ولم تكونوا شيئا **﴿ ثم يتوفاكم ﴾** عند انقضاء آجالكم **﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾** يقال: رذل يرذل رذالة ، والأرذل والرذالة : أردأ الشيء وأوضعه . قال النيسابورى : واعلم أن

---

(١) ابن أبى شيبة (٣٧٤١) .

(٢) ابن ماجة فى الطب (٣٤٥٢) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » وصححه الحاكم ٤/ ٤٠٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٣٤٥) ورجال إسناده موثقون ولكن رفعه منكر ، والصواب وقفه على ابن مسعود ، والبيهقى ٩/ ٣٤٤ وأبو نعيم فى الحلية ٧/ ١٣٣ .

(٣) البخارى فى الطب (٥٦٨٠) .

(٤) البخارى فى الطب (٥٦٨٤) ومسلم فى السلام (٢٢١٧/ ٩١) والترمذى فى الطب (٢٠٨٢) وقال : « حسن صحيح » .

العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان فى أربع : أولاها : سن النشو . وثانيها : سن الوقوف ؛ وهو سن الشباب . وثالثها : سن الانحطاط اليسير ، وهو سن الكهولة . ورابعها : سن الانحطاط الظاهر، وهو سن الشيخوخة . قيل : وأرذل العمر: هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف ، وهو أن يصير بمنزلة الصبى الذى لا عقل له. وقيل : خمس وسبعون سنة . وقيل : تسعون سنة . ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : ٤ ، ٥] ثم علل سبحانه رد من يرده إلى أرذل العمر بقوله : ﴿**لكيلا يعلم بعد علم**﴾ كان قد حصل له ﴿ **شيئا** ﴾ من العلم ، لا كثيرا ولاقليلا ، أو شيئا من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم. وقيل : المراد بالعلم هنا العقل. وقيل : المراد : لئلا يعلم زيادة على علمه الذى قد حصل له قبل ذلك .

ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان ، وتقلبه فى أطوار العمر ، ذكر طرفا من أحواله ، لعله يتذكر عند ذلك ، فقال: ﴿**والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق**﴾ فجعلكم متفاوتين فيه ، فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفى ألوفا مؤلفة من بنى آدم ، وضيقه على بعض عباده ، حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها ، وكما جعل التفاوت بين عباده فى المال، جعله بينهم فى العقل والعلم والفهم وقوة البدن وضعفه ، والحسن والقبح ، والصحة والسقم ، وغير ذلك من الأحوال . وقيل : معنى الآية : أن الله سبحانه أعطى الموالى أفضل مما أعطى مماليكهم ، بدليل قوله : ﴿ **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم** ﴾ أى فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برادى رزقهم الذى رزقهم الله إياه على ما ملكت أيمانهم من المماليك ﴿ **فهم** ﴾ أى المالكون والمماليك ﴿ **فيه** ﴾ أى فى الرزق ﴿ **سواء** ﴾ أى لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم . فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوى مترتب على التراد ، أى لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى . وإنما يردون عليهم منه شيئا يسيرا . وهذا مثل ضربه الله سبحانه بعبدة الأصنام ، أى إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ، ولا ترضون بذلك ، فكيف تجعلون عبيدى معى سواء . والحال أن عبيدكم مساوون لكم فى البشرية والمخلوقية . فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم فى أموالكم ، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له ، فتعبدونهم معه ؟ أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له فى العبادة ؟ ذكر معنى هذا ابن جرير . ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ [الروم : ٢٨] وقيل: إن الفاء فى ﴿ **فهم فيه سواء** ﴾ بمعنى حتى . ﴿ **أفبنعمة الله تجحدون** ﴾ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك . والنعمة هى كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك . وقد قرئ : ﴿**يجحدون**﴾ بالتحتية والفوقية . قال أبو عبيدة وأبو حاتم : وقراءة الغيبة أولى ، لقرب المخبر عنه ؛ ولأنه لوكان خطابا ، لكان ظاهره للمسلمين . والاستفهام للإنكار . والفاء للعطف على

يجحدون وليس تجحدون

مقدر ، أي يشركون به ، فيجحدون نعمته . ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادى رزقهم على مماليكهم ، بل أنا الذى أرزقهم وإياهم ، فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئا ، وإنما هو رزقى أجريه على أيديهم ، وهم جميعا فى ذلك سواء ، لا مزية لهم على مماليكهم ، فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى ، كأن يقال : لا يفهمون ذلك ، فيجحدون نعمة الله ، ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ قال المفسرون : يعنى: النساء ؛ فإنه خلق حواء من ضلع آدم . أو المعنى : خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها ؛ لأن الجنس يأنس إلى جنسه ، ويستوحش من غير جنسه ، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذى هو المقصود بالزواج . ولهذا قال: ﴿ **وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة** ﴾ الحفدة : جمع حافد . يقال : حفد يحفد حفدا . وحفودا : إذا أسرع . فكل من أسرع فى الخدمة ، فهو حافد . قال أبو عبيد : الحفد : العمل والخدمة . قال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب : الخدم . ومن ذلك قول الشاعر ، وهو الأعشى :

كلفت مجهولنا نوقا يمانية ... إذ الحداة على أكتافها حفدوا

أى الخدم والأعوان . وقال الأزهرى : قيل : الحفدة : أولاد الأولاد . وروى عن ابن عباس ، وقيل : الأختان. قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى . ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحت ... لها حفد مما تعد كثير

ولكنها نفس على أبية ... عيوف لأصهار اللئام قذور

وقيل : الحفدة : الأصهار . قال الأصمعى : الختن : من كان من قبل المرأة ، كابنها ، وأخيها وما أشبههما . والأصهار منهما جميعا . يقال : أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقيل : هم أولاد امرأة الرجل من غيره . وقيل: الأولاد الذين يخدمونه . وقيل : البنات الخادمات لأبيهن . ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد ، لأنه سبحانه امتن على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة . فالحفدة فى الظاهر معطوفون على البنين ، وإن كان يجوز أن يكون المعنى : جعل لكم من أزواجكم بنين ، وجعل لكم حفدة . ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم . وبالحفدة من يخدم الأب منهم ، أو يراد بالحفدة البنات فقط . ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية : وجعل لكم من أزواجكم بنين . ومن البنين حفدة .

﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ التى تستطيبونها وتستلذونها ، و« من » للتبعيض ؛ لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا فى الجنة . ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿ **أفبالباطل يؤمنون** ﴾ . والاستفهام للإنكار التوبيخى . والفاء للعطف على مقدر ، أى يكفرون بالله ، فيؤمنون

بالباطل، وفى تقدم ﴿ بالباطل ﴾ على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به . والباطل : هو اعتقادهم فى أصنامهم أنها تضر وتنفع . وقيل : الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ، ونحوهما . قرأ الجمهور :﴿ يؤمنون ﴾ بالتحتية . وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب . ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أى ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر . وفى تقديم النعمة ، وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك، لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد .

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ هو معطوف على ﴿ يكفرون ﴾ داخل تحت الإنكار التوبيخى ، إنكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام ، وهى لا تنفع ولا تضر . ولهذا قال : ﴿ ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ﴾ قال الأخفش : إن ﴿ شيئا ﴾ بدل من الرزق . وقال الفراء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه . فجعل ﴿ رزقا ﴾ مصدرا عاملا فى ﴿ شيئا ﴾ . والأخفش جعله اسما للرزق . وقيل : يجوز أن يكون تأكيدا لقوله : ﴿ لا يملك ﴾ أى لا يملك شيئا من الملك . والمعنى : أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا ، أى رزق . و﴿ من السموات والأرض ﴾ صفة لرزق ، أى كائنا منهما . والضمير فى : ﴿ولايستطيعون ﴾ راجع إلى « ما » . وجمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل. والفائدة فى نفى الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق . فبين سبحانه أنها لا تملك ولاتستطيع . وقيل : يجوز أن يكون الضمير فى ﴿ يستطيعون ﴾ للكفار ، أى لا يستطيع هؤلاء الكفار ، مع كونهم أحياء متصرفين ، فكيف بالجمادات التى لا حياة لها ولا تستطيع التصرف ؟

ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه ، فقال : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ فإن ضارب المثل يشبه حالا بحال ، وقصة بقصة . قال الزجاج : لا تجعلوا لله مثلا ، لأنه واحد لا مثل له. وكانوا يقولون : إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك . وأولئك الأكابر يخدمون الملك ، فنهوا عن ذلك . وعلل النهى بقوله : ﴿ إن الله ﴾ عليم ﴿ يعلم ﴾ ماعليكم من العبادة ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ما فى عبادتها من سوء العاقبة ، والتعرض لعذاب الله سبحانه ، أو أنتم لا تعلمون بشىء من ذلك ، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل ، وخيال مختل . يجوز أن يراد : فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

وقد أخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ قال : خمس وسبعون سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ، قال : هو الخرف . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : من قرأ القرآن ، لم يرد إلى أرذل العمر . ثم قرأ : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة عن طاوس،

قال : العالم لا يخرف . وقد ثبت عنه ﷺ فى الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** ﴾ قال: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى ؟ وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: هذا مثل لآلهة الباطل مع الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ قال : خلق آدم ، ثم خلق زوجته منه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **بنين وحفدة** ﴾ قال : الحفدة: الأختان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : الحفدة : الأصهار . وأخرجا عنه ، قال : الحفدة : الولد وولد الولد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحفدة بنو البنين. وأخرج ابن جرير عن أبى حمزة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ **بنين وحفدة** ﴾ قال : من أعابك فقد حفدك . أما سمعت الشاعر يقول :

حفد الولائد حولهن وأسلمت   بأكفهن أزمة الأجمال

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا ، قال : الحفدة : بنو امرأة الرجل ، ليسوا منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون** ﴾ قال : الشرك . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : هو الشيطان . ﴿ **وبنعمة الله** ﴾ قال : محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ويعبدون من دون الله. . .** ﴾ الآية ، قال : هذه الأوثان التى تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها ﴿ **رزقا من السموات والأرض** ﴾ ولا خيرا ولا حياة ولا نشورا ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ فإنه أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ يعنى : اتخاذهم الأصنام . يقول : لا تجعلوا معى إلها غيرى . فإنه لا إله غيرى .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً

(١) قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخارى فى الجهاد (٢٨٢٢) عن سعد بن أبى وقاص وفى التفسير (٤٧٠٧) عن أنس بن مالك . وأخرجه مسلم فى الذكر (٢٧٠٦/ ٥٢) عن أنس أيضا ، والنسائى ٨/ ٢٥٦ عن سعد بن أبى وقاص .

رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ .

قوله : ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ لما قال سبحانه : ﴿ إن الله يعلم ﴾ أى بالمعلومات التى من جملتها كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون، علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال، فقال : ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ أى ذكر شيئا يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه ، وبين ما جعلوه شريكا له من الأصنام . ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عبدا مملوكا ﴾. والمثل فى الحقيقة هى حالة للعبد عارضة له ، وهى المملوكية والعجز عن التصرف . فقوله : ﴿ عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ﴾ تفسير للمثل وبدل منه . ووصفه بكونه مملوكا ؛ لأن العبد والحر مشتركان فى كون كل واحد منهما عبدا لله سبحانه . ووصفه بكونه لا يقدر على شيء ؛ لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات . فهذا الوصف لتمييزه عنهما. ﴿ ومن رزقناه ﴾: « من » هى الموصولة ، وهى معطوفة على ﴿ عبدا ﴾ أى والذى رزقناه ﴿ منا ﴾ أى من جهتنا ﴿ رزقا حسنا ﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاؤوا . والمراد بكون الرزق حسنا : أنه مما يحسن فى عيون الناس لكونه رزقا كثيرا مشتملا على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها . والفاء فى قوله : فهو ينفق منه لترتيب الإنفاق على الرزق ، أى ينفق منه فى وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البر والمعروف . وانتصاب ﴿سرا وجهرا ﴾ على الحال ، أى ينفق منه فى حال السر وحال الجهر . والمراد : بيان عموم الإنفاق للأوقات . وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه ، وأن الثواب فيه أكثر . وقيل : إن « من » فى ﴿ ومن رزقناه ﴾ موصوفة ، كأنه قيل : وحرا رزقناه ، ليطابق عبدا .

﴿ هل يستوون ﴾ أى الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة . وجمع الضمير لمكان «من» لأنه اسم مبهم يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : إنه أريد بالعبد والموصول الذى هو عبارة عن الحر الجنس، أى من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين . والاستفهام للإنكار ، أى هل يستوى العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ؟ ومن المعلوم أنهم لايستوون عندهم ، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه ؟ وحاصل المعنى : أنه كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء

ورجل حر قد رزقه الله رزقا حسنا ، فهو ينفق منه ، كذلك لا يستوى الرب الخالق الرازق ، والجمادات من الأصنام التى تعبدونها ، وهى لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع . وقيل : المراد بالعبد المملوك فى الآية: هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته. والآخر: هو المؤمن . والغرض : أنهما لا يستويان فى الرتبة والشرف . وقيل : العبد : هو الصنم . والثانى : عابد الصنم . والمراد : أنهما لا يستويان فى القدرة والتصرف ؛ لأن الأول جماد ، والثانى إنسان .

﴿ **الحمد لله** ﴾ أى الحمد لله كله ، لأنه المنعم ، لا يستحق غيره من العباد شيئا منه ، فكيف تستحق الأصنام منه شيئا ولا نعمة منها أصلا ، لا بالأصالة ولا بالتوسط ؟ وقيل : أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد . وقيل : أراد قل : الحمد لله . والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقا حسنا . وقيل : إنه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود ، قال : الحمد لله أى على قوة هذه الحجة ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة . ونفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم ، أوهم يتركون الحق عنادا مع علمهم به ، فكانوا كمن لا علم له. وخص الأكثر بنفى العلم ، إما لكونه يريد الخلق جميعا ، وأكثرهم المشركون ، أو ذكر الأكثر ، وهو يريد الكل ، أو المراد أكثر المشركين ؛ لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم .

ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه ،ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية ، وللأصنام التى هى أموات لا تضر ولا تنفع فقال : ﴿ **وضرب الله مثلا** ﴾ أى مثلا آخر أوضح مما قبله وأظهر منه . و﴿ **رجلين** ﴾ بدل من مثل وتفسير له . والأبكم العيى المفحم . وقيل : هو الأقطع اللسان الذى لا يحسن الكلام . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى أنه الذى لا يسمع ولا يبصر ، ثم وصف الأبكم فقال : ﴿ **لا يقدر على شيء** ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه ، وعدم قدرته على النطق . ومعنى ﴿ **كل على مولاه** ﴾ :ثقيل على وليه وقرابته وعيال على من يلى أمره ويعوله ، ووبال على إخوانه . وقد يسمى اليتيم :كلا ؛ لثقله على من يكفله . ومنه قول الشاعر :

أكول لمال الكل قبل شبابه إذا كان عظم الكل غير شديد

وفى هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا . ثم وصفه بصفة رابعة فقال: ﴿ **أينما يوجهه لا يأت بخير** ﴾ أى إذا وجهه إلى أى جهة لا يأت بخير قط؛ لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول. وقرأ يحيى بن وثاب: « أينما يوجه » على البناء للمجهول . وقرأ ابن مسعود: «أينما توجه » على صيغة الماضى. ﴿ **هل يستوى هو** ﴾ فى نفسه مع هذه الأوصاف التى اتصف بها . ﴿ **ومن يأمر بالعدل** ﴾ أى يأمر

الناس بالعدل مع كونه فى نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم . ويقدر على التصرف فى الأشياء . ﴿ **وهو** ﴾ فى نفسه ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ على دين قويم ، وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبى الإفراط والتفريط، قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر ؛ لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشىء . وحاصل وصفى هذا أنه مستحق أكمل استحقاق . والمقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين المذكورين على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا لهم .

ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين ، مدح نفسه بقوله : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ أى يختص ذلك به ، لا يشاركه فيه غيره ، ولا يستقل به . والمراد : علم ما غاب عن العباد فيهما ، أو أراد بغيبهما يوم القيامة ؛ لأن علمه غائب عن العباد ، ومعنى الإضافة إليهما : التعلق بهما . والمعنى : التوبيخ للمشركين والتقريع لهم ، أى أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته ، لا من كان جاهلا عاجزا لا يضر ولا ينفع ، ولا يعلم بشىء من أنواع العلم . ﴿ **وما أمر الساعة** ﴾ التى هى أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ﴿ **إلا كلمح البصر** ﴾ اللمح : النظر بسرعة . ولابد فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئى ، وكل زمان قابل للتجزئة، ولذا قال : ﴿ **أو هو** ﴾ أى أمرهما ﴿ **أقرب** ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة ، بل هو كلام فى غاية الصدق، لأن مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ، ومنها إلى الأبد غير متناه . ولا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى ، أو يقال : إن الساعة لما كانت آتية ولابد ،جعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ، لأنه يقول للشىء كن فيكون . وقيل : المعنى : هى عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة . ومثله قوله سبحانه : ﴿ إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا ﴾ [المعارج : ٦ ، ٧] ولفظ « أو » فى: ﴿ **أو هو أقرب** ﴾ ليس للشك ، بل للتمثيل . وقيل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : هى بمنزلة بل ﴿ **إن الله على كل شىء قدير**﴾ ومجىء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته.

ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته، ونهاية رأفته، فقال:﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا** ﴾ وهذا معطوف على قوله : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد ، أى أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشىء . وجملة : ﴿ **لا تعلمون شيئا** ﴾ فى محل نصب على الحال. وقيل: المراد : لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق . وقيل : لا تعلمون شيئا مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة . وقيل : لا تعلمون شيئا من منافعكم . والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ ، فإن ﴿**شيئا**﴾ نكرة واقعة فى سياق النفى . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة: « إمهاتكم » بكسر الهمزة والميم هنا ، وفى النور، والزمر ، والنجم . وقرأ الكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أى ركب فيكم هذه الأشياء ، وهو معطوف على ﴿أخرجكم﴾ . وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع . والمعنى : جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذى كان مسلوبا عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم ، وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه . والأفئدة : جمع فؤاد . وهو وسط القلب ، منزل منه بمنزلة القلب من الصدر . وقد قدمنا الوجه فى إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة ، وهو أن إفراد السمع لكونه مصدرا فى الأصل يتناول القليل والكثير ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أى لكى تصرفوا كل آلة فيما خلقت له . فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه،أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر.

ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته ، فقال : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات ﴾ أى ألم ينظروا إليها حال كونها مسخرات، أى مذللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة ، وسائر الأسباب المواتية لذلك ، كرقة قوام الهواء، وإلهامها بسط الجناح وقبضه ، كما يفعل السابح فى الماء ﴿ فى جو السماء ﴾ أى فى الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلو . وإضافته إلى السماء لكونه فى جانبها ﴿ ما يمسكهن ﴾ فى الجو ﴿ إلا الله﴾ سبحانه بقدرته الباهرة . فإن ثقل أجسامها ، ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ، لأنها لم تتعلق بشىء من فوقها ، ولا اعتمدت على شىء تحتها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب : « ألم تروا » بالفوقية على الخطاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ الباقون بالتحتية ﴿ إن فى ذلك لآيات ﴾ أى إن فى ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالله سبحانه ، وبما جاءت به رسله من الشرائع التى شرعها الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ﴾ الآية ، قال : يعنى : الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة فى سبيل الله . ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا . . ﴾ الآية ، قال : يعنى: المؤمن . وهذا المثل فى النفقة . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية وفى قوله: ﴿ مثلا رجلين أحدهما أبكم ﴾ قال : كل هذا مثل إله الحق وما تدعون من دونه الباطل . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: فى المثل الأول ، يعنى بذلك : الآلهة التى لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر على شىء ينفعها. ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ﴾ قال : علانية الذى ينفق سرا وجهرا لله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه ، قال: نزلت هذه الآية : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ﴾ فى رجل من قريش ، وعبدة بن هشام بن عمرو . وهو الذى

ينفق سرا وجهـــرا ، وفـى عبـدة أبى الجوزاء الذى كان ينهاه [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم** . . ﴾ الآية، قال : يعنى بالأبكم : الذى هو كل على مولاه الكافر . ﴿ **ومن يأمر بالعدل** ﴾: المؤمن . وهذا المثل فى الأعمال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه أيضا قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **وضرب الله مثلا رجلين** . . ﴾ الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر ، وهو أسيد بن أبى العيص كان يكره الإسلام ، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة ، وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما [(٢)] . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه ، وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ومن يأمر بالعدل** ﴾ قال : عثمان بن عفان [(٣)] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **كل** ﴾ قال : الكل : العيال . كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول ، وجعلوا معه نفرا يمسكونه خشية أن يسقط عليهم ، فهو عناء وعذاب وعيال عليهم ﴿**هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾ يعنى : نفسه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر**﴾ هو أن يقول : كن . فهو كلمح البصر . ﴿ **أو هو أقرب** ﴾ فالساعة كلمح البصر أو هى أقرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم** ﴾ قال: من الرحم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **فى جو السماء** ﴾ أى : فى كبد السماء .

﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)** ﴾ .

قوله: ﴿ **والله جعل لكم** ﴾ معطوف على ما قبله . وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان، ومن تعديد نعم الله عليه، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع . وهو بمعنى : مسكون ، أى تسكنوا فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة . وهذه نعمة ، فإن الله لو شاء لخلق العبد

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٦٠ .

(٢) ابن جرير ١٤/١٠١ .

(٣) ابن سعد ٣/ ٦٠ وابن أبى شيبة (١٢٠٨٨) .

مضطربا دائما كالأفلاك، ولوشاء لخلقه ساكنا أبدا كالأرض﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن ، وهى التى للإقامة الطويلة ، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة ، أى جعل لكم من جلود الأنعام ، وهى الأنطاع والأدم بيوتا كالخيام والقباب ﴿تستخفونها﴾ أى يخف عليكم حملها فى الأسفار وغيرها ﴿ يوم ظعنكم ﴾ والظعن بفتح العين وسكونها . وقرئ بهما : سير أهل البادية للانتجاع [١] والتحول من موضع إلى موضع . ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن: الهودج أيضا. ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ﴾ معطوف على ﴿ جعل﴾ أى وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها . والأنعام : تعم الإبل والبقر والغنم كما تقدم . والأصواف : للغنم ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز ، وهى من جملة الغنم ، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع ، كل واحد منها لواحد من الثلاثة ، أعنى : الإبل ، ونوعى الغنم ، والأثاث: متاع البيت ، وأصله الكثرة والاجتماع. ومنه : شعر أثيث، أى كثير مجتمع ، قال الشاعر :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل [٢]

قال الخليل : أثاثا ، أى منضما بعضه إلى بعض . من أث إذا أكثر . قال الفراء : لا واحد له والمتاع : مايتمتع به بأنواع التمتع . وعلى قول أبى زيد الأنصارى : إن الأثاث : المال أجمع : الإبل والغنم والصيد والمتاع . يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام . وقيل : إن الأثاث : ما يكتسى به الإنسان ويستعمله من الغطاء والوطاء . والمتاع: ما يفرش فى المنازل ويتزين به . ومعنى ﴿ إلى حين ﴾ : إلى أن تقضوا أوطاركم منه ، أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى الموت، أو إلى القيامة .

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام ، أو أبنية يستظل بها لفقر ، أو لعارض آخر ، فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك ، نبه سبحانه على ذلك فقال : ﴿وجعل لكم مما خلق ظلالا ﴾ أى أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة . والحاصل : أن الظلال تعم الأشياء التى تظل . ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوى إليه فى نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد ، نبه سبحانه على ذلك فقال : ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ وهى جمع كن ، وهو ما يستكن به من المطر ، وهى هنا الغيران فى الجبال ، جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ، ويعتزلون عن الخلق فيها . ﴿ وجعل لكم سرابيل ﴾ جمع سربال ، وهى : القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها . قال الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال. ومعنى ﴿ تقيكم الحر ﴾ : تدفع عنكم ضرر الحر ، وخص

(١) الانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .
(٢) المتعثكل : الذى دخل بعضه فى بعض لكثرته .

الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر ، لأن ما وقى من الحر ، وقى من البرد . ووجه تخصيص الحر بالذكر أن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد ، لغلبة الحر فى بلادهم ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ وهى الدروع والجواشن ، يتقون بها الطعن والضرب والرمى . والمعنى : أنها تقيهم [(١)] البأس الذى يصل من بعضهم إلى بعض فى الحرب .

﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم** ﴾ أى مثل ذلك الإتمام البالغ يتم نعمته عليكم ، فإنه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة هاهنا وبغيرها ، وهو بفضله وإحسانه سيتم لهم نعمة الدين والدنيا . ﴿ **لعلكم تسلمون**﴾ إرادة أن تسلموا . فإن من أمعن النظر فى هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام ، والانقياد للحق . وقرأ ابن محيصن وحميد: « تتم نعمته» بتاءين فوقيتين ، على أن فاعله نعمته . وقرأ الباقون بالتحتية على أن الفاعل هو الله سبحانه . وقرأ ابن عباس وعكرمة : « تسلمون» بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح . وقرأ الباقون بضم التاء وكسر اللام من الإسلام . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة ، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح . وقيل : الخطاب لأهل مكة ، أى لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية . والأولى الحمل على العموم . وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر .

﴿ **فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين** ﴾ أى إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به ، فقد تمهد عذرك ، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم ﴿ **المبين** ﴾ أى الواضح،وليس عليك غير ذلك . وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلية له.

وجملة :﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها** ﴾ استئناف لبيان توليهم ، أى هم يعرفون نعمة الله التى عددها ، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ، ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة، حيث يقولون : هى من الله ولكنها بشفاعة الأصنام . وحيث يقولون : إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم . وأيضا كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الرب سبحانه ، وفى وجوه الخير التى أمرهم الله بصرفها فيها . وقيل : نعمة الله : نبوة محمد ﷺ كانوا يعرفونه ، ثم ينكرون نبوته . ﴿ **وأكثرهم الكافرون** ﴾ أى الجاحدون لنعم الله ، أو الكافرون بالله . وعبر هنا بالأكثر عن الكل ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر بعضهم كفر جهل ، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : ١٤].

---

(١) فى المطبوعة : « تقيم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **سكنا** ﴾ قال : تسكنون فيها. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه قال : ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا** ﴾ وهى خيام العرب . ﴿ **تستخفونها** ﴾ يقول: فى الحمل ﴿ **ومتاعا** ﴾ يقول : بلاغا ﴿ **إلى حين** ﴾ قال : إلى الموت . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**تستخفونها يوم ظعنكم** ﴾ قال : بعض بيوت السيارة بنيانه فى ساعة . وفى قوله : ﴿**وأوبارها** ﴾ قال : الإبل . ﴿**وأشعارها** ﴾ قال : الغنم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أثاثا** ﴾ قال : الأثاث المتاع . وأخرج ابن جرير عنه أيضا، قال: الأثاث : المال . ﴿ **ومتاعا إلى حين** ﴾ يقول: تنتفعون به إلى حين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالا** ﴾ قال : من الشجر ومن غيرها ﴿ **وجعل لكم من الجبال أكنانا** ﴾ قال : غارات يسكن فيها . ﴿**وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر** ﴾ قال : من القطن والكتان والصوف . ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ من الحديد. ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ . ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سرابيل تقيكم الحر** ﴾ قال يعنى: الثياب. ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ قال : يعنى : الدروع والسلاح . ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ يعنى : من الجراحات . وكان ابن عباس يقرؤها : « تسلمون » كما قدمنا ، وإسناده ضعيف .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ .

لما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ،ثم أنكروها ،وأن أكثرهم كافرون ، أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة ، فقال : ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيدا** ﴾ أى واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لهم بالإيمان

والتصديق ، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب﴿ **ثم لا يؤذن للذين كفروا** ﴾ أى فى الاعتذار ؛ إذ لا حجة لهم ولا عذر ، كقوله سبحانه : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات : ٣٦] أو فى كثرة الكلام، أو فى الرجوع إلى دار الدنيا ، وإيراد « ثم » هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع مع الاعتذار المنبئ عن الإقناط الكلى أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء . ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا . فإذا كان على عزم السخط، فلا فائدة فى العتاب . والمعنى : أنهم لا يسترضون ، أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب ، وهو الموجد . يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا أفاض عليه ماعتب فيه عليه ، قيل: عاتبه . فإذا رجع إلى مسرته ، قيل : أعتبه . والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . قاله الهروى . ومنه قول النابغة :

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمته ... وإن كنت ذا عتبى فمثلك يعتب

﴿ **وإذا رأى الذين ظلموا العذاب** ﴾ أى وإذا رأى الذين أشركوا العذاب الذى يستحقونه بشركهم ، وهو عذاب جهنم ، ﴿ **فلا يخفف** ﴾ ذلك العذاب ﴿ **عنهم ولا هم ينظرون** ﴾ أى ولا هم يمهلون ليتوبوا ، إذ لا توبة هنالك . ﴿ **وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم** ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، لما تقرر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم : «من كان يعبد شيئا فليتبعه » [1] ، كما ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ . ﴿ **قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك** ﴾ أى الذين كنا نعبدهم من دونك . قال أبو مسلم الأصفهانى : مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك ، واسترواحا ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه . ﴿**فألقوا إليهم القول** ﴾ أى ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول . ﴿**إنكم لكاذبون** ﴾ أى قالوا لهم : إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذى هو مقصودكم من هذا القول .

فإن قيل : إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك . وقد كانوا صادقين فى ذلك ، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها ؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم :﴿ **هؤلاء شركاؤنا** ﴾: هؤلاء شركاء الله فى المعبودية ، فكذبتهم الأصنام فى دعوى هذه الشركة . والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق، فإن الله سبحانه ينطقها فى تلك الحال ، لتخجيل المشركين وتوبيخهم . وهذا كما قالت الملائكة : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ [سبأ : ٤١] يعنون : أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى الأذان (٨٠٦) وفى التوحيد (٧٤٣٦) ومسلم فى الإيمان (١٨٢/٢٩٩) ، كلاهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ أى ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه، والخضوع لعزته . وقيل: استسلم العابد والمعبود ، وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أى ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن لله سبحانه شركاء ، وماكانوا يزعمون من شفاعتهم لهم . وأن عبادتهم لهم تقربهم إلى الله سبحانه .

﴿ الذين كفروا ﴾ فى أنفسهم ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أى عن طريق الحق، وهى :طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر . وقيل : المراد بالصد عن سبيل الله : الصد عن المسجد الحرام. والأولى العموم . ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ أى زادهم الله عذابا لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذى استحقوه لأجل ضلالهم . وقيل : المعنى: زدنا القادة عذابا فوق عذاب أتباعهم ، أى أشد منه . وقيل : إن هذه الزيادة هى إخراجهم من النار إلى الزمهرير . وقيل غير ذلك .

﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم ﴾ أى نبيا يشهد عليهم ﴿ من أنفسهم ﴾ من جنسهم . إتماما للحجة وقطعا للمعذرة . وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد . ﴿وجئنا بك ﴾ يا محمد ﴿ شهيدا على هؤلاء ﴾ أى تشهد على هذه الأمم ، وتشهد لهم . وقيل : على أمتك . وقد تقدم مثل هذا فى البقرة والنساء ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ أى القرآن . والجملة مستأنفة ،أو فى محل نصب على الحال بتقدير قد. ﴿ تبيانا لكل شىء ﴾ أى بيانا له. والتاء : للمبالغة ، ونظيره من المصادر التلقاء ، ولم يأت غيرهما . ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ [الأنعام : ٣٨] ومعنى كونه ﴿ تبيانا لكل شىء ﴾ : أن فيه البيان لكثير من الأحكام ، والإحالة فيما بقى منها على السنة . وأمرهم باتباع رسوله ﷺ فيما يأتى به من الأحكام ، وطاعته كما فى الآيات القرآنية الدالة على ذلك . وقد صح عنه ﷺ أنه قال : «وإنى أوتيت القرآن ومثله معه »[(١)] . ﴿ وهدى ﴾ للعباد ﴿ ورحمة ﴾ لهم ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ خاصة دون غيرهم ، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم ؛ لأنهم المنتفعون بذلك .

ثم لما ذكر سبحانه أن فى القرآن تبيان كل شىء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقا لذلك ، فقال: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ . وقد اختلف أهل العلم فى تفسير العدل والإحسان ، فقيل : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل : العدل : الفرض . والإحسان: النافلة . وقيل: العدل: استواء العلانية والسريرة ، والإحسان : أن تكون السريرة أفضل من العلانية . وقيل : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل . والأولى : تفسير العدل بالمعنى اللغوى ، وهو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط . فمعنى

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى السنة (٤٦٠٤) عن المقدام بن معدى كرب .

أمره سبحانه بالعدل : أن يكون عباده فى الدين على حالة متوسطة ، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط ، وهو الغلو المذموم فى الدين ، ولا إلى جانب التفريط ، وهو الإخلال بشىء مما هو من الدين . وأما الإحسان فمعناه اللغوى يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب ، كصدقة التطوع. ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه فى العبادات وغيرها . وقد صح عن النبى ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه . فقال فى حديث ابن عمر(١) الثابت فى الصحيحين : « والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢) وهذا هو معنى الإحسان شرعا .

﴿ **وإيتاء ذى القربى** ﴾ أى إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم . وفى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب فى التصدق عليهم . وهو من باب عطف الخاص على العام ، إن كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والإحسان . وقيل : من باب عطف المندوب على الواجب . ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ [الإسراء : ٢٦] وإنما خص ذوى القربى لأن حقهم آكد . فإن الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه ، وجعل صلتها من صلته ، وقطيعتها من قطيعته .

﴿ **وينهى عن الفحشاء** ﴾ هى الخصلة المتزايدة فى القبح من قول أو فعل . وقيل : هى الزنا . وقيل : البخل . ﴿**والمنكر** ﴾ : ما أنكره الشرع بالنهى عنه . وهو يعم جميع المعاصى على اختلاف أنواعها . وقيل : هو الشرك. وأما ﴿**البغى** ﴾ فقيل : هو الكبر. وقيل : الظلم . وقيل : الحقد . وقيل : التعدى . وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المذكورة ، ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر . وإنما خص بالذكر اهتماما به لشدة ضرره ووبال عاقبته . وهو من الذنوب التى ترجع على فاعلها لقوله سبحانه : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ [يونس : ٢٣] وهذه الآية هى من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ **يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ أى يعظكم بما ذكره فى هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه . فإنها كافية فى باب الوعظ والتذكير . ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ إرادة أن تتذكروا ما ينبغى تذكره ، فتتعظوا بما وعظكم الله به .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**ويوم نبعث من كل أمة شهيدا** ﴾ قال : شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه . قال الله : ﴿ **وجئنا بك شهيدا على هؤلاء** ﴾ قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ، فاضت عيناه (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **فألقوا إليهم القول** ﴾ قال : حدثوهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿**وألقوا إلى الله يومئذ**

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب كما فى مراجع التخريج .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى الإيمان (٥٠) وفى التفسير (٤٧٧٧) عن أبى هريرة ومسلم فى الإيمان (٨/ ١) عن عمر بن الخطاب.

(٣) ابن جرير ١٤/ ١٠٦ .

السلم ﴾ قال : استسلموا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد بن السرى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث والنشور ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **زدناهم عذابا فوق العذاب** ﴾ قال : زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال (١) . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء ؛ أن النبى ﷺ سئل عن قول الله تعالى : ﴿ **زدناهم عذابا فوق العذاب** ﴾ فقال : عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم فى جهنم . وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **زدناهم عذابا فوق العذاب** ﴾ أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل ، وببعضها بالنهار (٢). وقد روى ابن مردويه من حديث جابر عن النبى ﷺ قال : «الزيادة خمسة أنهار تجرى من تحت العرش على رؤوس أهل النار ، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار ، فذلك قوله : ﴿ **زدناهم عذابا فوق العذاب** ﴾ » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود ، قال : إن الله أنزل فى هذا الكتاب تبيانا لكل شيء ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن ، ثم قرأ : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء** ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن الضريس فى فضائل القرآن ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة، والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : من أراد العلم ، فليثور (٣) القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين (٤).

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبى العاص ، قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالسا ، إذ شخص بصره فقال : « أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ الآية » (٥) . وفى إسناده شهر بن حوشب . وقال ابن كثير فى تفسيره : إسناده لا بأس به(٦) . وقد أخرجه مطولا أحمد والبخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وحسن ابن كثير إسناده (٧). وأخرج

---

(١) ابن أبى شيبة (١٥٩٨٥) وأبو يعلى (٢٦٥٩) وابن جرير ١٤/ ١٠٧ والطبرانى (٩١٠٣) وصححه الحاكم ٤/ ٥٩٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥١ : « رواه الطبرانى بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح » .

(٢) أبو يعلى (٢٦٦٠) ورجاله رجال الصحيح خلا إبراهيم بن سليمان المؤدب وهو ثقة . لكن الحسن البصرى قد عنعن ، وفى سماعه من ابن عباس كلام ،وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٩٢ : « ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) ثور القرآن : بحث عن علمه ، القاموس ٤٥٩ .

(٤) الطبرانى (٨٦٦٥ ، ٨٦٦٦) والبيهقى فى الشعب (١٨٠٨) وإسناده ليس بقوى وله طرق أخرى صحيحة ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٦٨: « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح » .

(٥) أحمد ٤/ ٢١٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥١ : « رواه أحمد وإسناده حسن » .

(٦) ابن كثير ٤/ ٢٢٠.

(٧) أحمد ١/ ٣١٨ والطبرانى (٨٢٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥١ : « رواه أحمد والطبرانى وشهر، وثقه أحمد وجماعة وفيه ضعف لا يضر، وبقية رجاله ثقات » .

الماوردى وابن السكن وابن منده ، وأبو نعيم فى معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير ؛ أن هذه الآية لما بلغت أكثم بن صيفى ، حكيم العرب قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها . ثم قال لقومه : كونوا فى هذا الأمر رؤوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا ، وكونوا فيه أولا ولا تكونوا فيه آخرا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . ﴿ **والإحسان** ﴾ أداء الفرائض . ﴿ **وإيتاء ذى القربى** ﴾ قال : إعطاء ذوى الأرحام الحق الذى أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم . ﴿ **وينهى عن الفحشاء** ﴾ قال : الزنا . ﴿ **والمنكر** ﴾ قال : الشرك . ﴿ **والبغى** ﴾ قال : الكبر والظلم ﴿ **يعظكم** ﴾ قال : يوصيكم . ﴿ **لعلكم تذكرون**﴾ . وأخرج سعيد بن منصور، والبخارى فى الأدب ، ومحمد بن نصر فى الصلاة ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب قال : أعظم آية فى كتاب الله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم .. ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ...﴾ وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا:﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق :٢، ٣] وأشد آية فى كتاب الله رجاء : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ... ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله ، والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه . وأخرج البخارى فى تاريخه من طريق الكلبى عن أبيه قال : مر على بن أبى طالب بقوم يتحدثون ، فقال: فيم أنتم ؟ قالوا: نتذاكر المروءة. فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك فى كتابه ، إذ يقول : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ فالعدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل . فما بقى بعد هذا !

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلا تَشْتَرُوا

بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون (٩٥) ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٦) ﴾ .

خص سبحانه من جملة المأمورات التى تضمنها قوله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل** ﴾ الوفاء بالعهد ، فقال : ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾ وظاهره العموم فى كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره . وخص هذا العهد المذكور فى هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن فى بيعة النبى ﷺ على الإسلام. وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله. ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود، لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب . فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب وفسره بعضهم باليمين . وهو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيث قال سبحانه : ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾ أى بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها . وليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالأيمان المؤكدة لابغيرها مما لا تأكيد فيه . فإن تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن فى نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذى فى نقض ما لم يوكد منها . يقال : وكد وأكد توكيدا وتأكيدا . وهما لغتان . وقال الزجاج : الأصل الواو ، والهمزة بدل منها . وهذا العموم مخصوص بما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » حتى بالغ فى ذلك ﷺ فقال : «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها ،إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى ». وهذه الألفاظ ثابتة فى الصحيحين وغيرهما (١) . ويخص أيضا من هذا العموم يمين اللغو ، لقوله سبحانه : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ [البقرة : ٢٢٥] ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو . وقد تقدم بسط الكلام على الأيمان فى البقرة . ﴿ **وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** ﴾ أى شهيدا . وقيل : حافظا . وقيل : ضامنا . وقيل : رقيبا ؛ لأن الكفيل يراعى حال المكفول به. وقيل : إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشىء الواحد مرارا . وحكى القرطبى عن ابن عمر : أن التوكيد هو أن يحلف مرتين . فإن حلف واحدة ، فلا كفارة عليه (٢) . ﴿ **إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وفيه ترغيب وترهيب .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض ، فقال : ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها** ﴾ أى

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٥٥٥) ومسلم فى الأيمان (١٦٤٩/٧، ٩ ، ١٠) عن أبى موسى الأشعرى (١٦٥٠/ ١٣) عن أبى هريرة (١٦٥٠/ ١٥ـ ١٧) عن عدى بن حاتم (١٦٥٢/ ١٩) عن عبد الرحمن بن سمرة ، وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٧٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٢٩) عن عبد الرحمن بن سمرة وقال : « حسن صحيح » (١٥٣٠) عن أبى هريرة.

(٢) القرطبى ٣٧٨٦/٦ .

لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها ، أي ما غزلته ﴿ **من بعد قوة** ﴾ أي من بعد إبرام الغزل وإحكامه . وهو متعلق بـ﴿ **نقضت** ﴾ ﴿ **أنكاثا** ﴾ جمع نكث بكسر النون ، ما ينكث فتله . قال الزجاج : انتصب ﴿ **أنكاثا** ﴾ على المصدر ؛ لأن معنى نقضت : نكثت . ورد بأن ﴿ **أنكاثا** ﴾ ليس بمصدر ، وإنما هو جمع كما ذكرنا . وقال الواحدى : هو منصوب على أنه مفعول ثان ، كما تقول : كسرته أقطاعا وأجزاء ، أي جعلته أقطاعا وأجزاء . ويحتمل أن يكون حالا . قال ابن قتيبة : هذه الآية متعلقة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، كنتم مثل امرأة غزلت غزلا ، وأحكمته ثم جعلته أنكاثا .

وجملة : ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلا بينكم** ﴾ في محل نصب على الحال . قال الجوهرى : والدخل : المكر والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا ، فهو دخل . وقيل : الدخل : ما أدخل في الشيء على فساده . وقال الزجاج : غشا وغلا . ﴿ **أن تكون أمة هي أربى من أمة** ﴾ أي بأن تكون جماعة هي أربى من جماعة ، أي أكثر عددا منها وأوفر مالا . يقال : ربا الشيء يربو إذا كثر . قال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عذرتموهم بالأيمان . قيل : وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادى حلفائهم ، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم . وقيل : هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم ، فينقضوا بيعة النبي ﷺ .

﴿ **إنما يبلوكم الله به** ﴾ أي يختبركم بكونكم أكثر وأوفر ، لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء ، أم تنقضون اغترارا بالكثرة ؟ فالضمير في ﴿ **به** ﴾ راجع إلى مضمون جملة : ﴿ **أن تكون أمة هي أربى من أمة** ﴾ أي إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ، ليعلم ما تصنعون ، أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم . ﴿ **وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ فيوضح الحق والمحقين ، ويرفع درجاتهم ، ويبين الباطل والمبطلين ، فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه . وفي هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل . أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار. ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيمان ، فقال : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ متفقة على الحق ﴿ **ولكن** ﴾ بحكم الإلهية ﴿ **يضل من يشاء** ﴾ بخذلانه إياهم عدلا منه فيهم ﴿ **ويهدى من يشاء** ﴾ بتوفيقه إياهم فضلا منه عليهم ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ولهذا قال : ﴿**ولتسألن عما كنتم تعملون** ﴾ من الأعمال في الدنيا . واللام في ﴿ **وليبينن لكم** ﴾ وفي ﴿**ولتسألن** ﴾ هما الموطئتان للقسم .

ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان ، نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة ، فقال : ﴿ **ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم** ﴾ وهي أيمان البيعة . قال الواحدى : قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين . واستدلوا

على هذا التخصيص بما فى قوله : ﴿ **فتزل قدم بعد ثبوتها** ﴾ من المبالغة ، وبما فى قوله : ﴿**وتذوقوا السوء بما صددتم** ﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صدوا غيرهم عن الدخول فى الإسلام. وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله ﷺ هى سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله ، لقصد التأكيد والتقرير . ومعنى ﴿ **فتزل قدم بعد ثبوتها** ﴾ فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق ﴿ **بعد ثبوتها** ﴾ عليها ورسوخها فيها . قيل : وأفرد القدم للإيذان بأن زلل قدم واحد ، أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ! وهذا استعارة للمستقيم الحال ، يقع فى شر عظيم ويسقط فيه ، لأن القدم إذا زلت ، نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر . ويقال لمن أخطأ فى شىء : زلت به قدمه . ومنه قول الشاعر :

تداركتما عبسا وقد ثل عرشها ... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

﴿ **وتذوقوا السوء بما صددتم** ﴾ أى تذوقوا العذاب السيئ فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما بما صددتم ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أى بسبب صدودكم أنتم عن سبيل الله ، وهو الإسلام ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الإسلام . فإن من نقض البيعة وارتد ، اقتدى به غيره فى ذلك ، فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها . ولهذا قال : ﴿ **ولكم عذاب عظيم** ﴾ أى متبالغ فى العظم ، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا .

ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال : ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا** ﴾ أى لا تأخذوا فى مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا . وكل عرض دنيوى وإن كان فى الصورة كثيرا ، فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير . ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال : ﴿ **إنما عند الله هوخير لكم** ﴾ أى ما عنده من النصر فى الدنيا والغنائم والرزق الواسع . وما عنده فى الآخرة من نعيم الجنة الذى لا يزول ولا ينقطع هو خير لهم . ثم علل النهى عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، وأن ما عند الله هو خير لهم بقوله : ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الأشياء .

ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ ومعلوم لكل عاقل أن ما ينفد ويزول وإن بلغ فى الكثرة إلى أى مبلغ فهو حقير يسير ، وما كان يبقى ولايزول فهو كثير جليل . أما نعيم الآخرة فظاهر . وأما نعيم الدنيا الذى أنعم الله به على المؤمنين فهو وإن كان زائلا ، لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة ، كان من هذه الحيثية فى حكم الباقى الذى لا ينقطع ، ثم قال : ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ اللام هى الموطئة ، أى لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات . قيل : وإنما خص أحسن أعمالهم ؛ لأن ما عداه وهو الحسن مباح . والجزاء إنما يكون على الطاعة. وقيل : المعنى : ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم ،

كقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠] أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل ، لا أنا نعطى الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالأجر الحسن ، والأحسن بالأحسن . كذا قيل . قرأ عاصم وابن كثير : ﴿ **لنجزين** ﴾ بالنون . وقرأ الباقون بالياء التحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن بريدة بن جابر فى قوله : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾ قال : أنزلت هذه الآية فى بيعة رسول الله ﷺ كأن من أسلم بايع على الإسلام فقال: ﴿ **وأوفوا بعهد الله** . . . ﴾ الآية . فلا يحملنكم قلة محمد وأصحابه ، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾ يقول : بعد تغليظها. وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس ؛ أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف ، فنزلت فيها هذه الآية : ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص مثله . وفى الروايتين جميعا أنها كانت مجنونة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى سبب نزول الآية ، قال : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل . فإذا أبرمت غزلها ، نقضته [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه [(٣)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن تكون أمة هى أربى من أمة** ﴾ قال : ناس أكثر من ناس . وأخرجوا عن مجاهد فى الآية ، قال : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز ، فنهوا عن ذلك .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

---

(١) ابن جرير ١٤/ ١١٠ .

(٢ ، ٣) المرجع السابق ١٤/ ١١١ .

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾ .

هذا شروع فى ترغيب كل مؤمن فى كل عمل صالح ، وتعميم للوعد . ومعنى ﴿ **من عمل صالحا** ﴾ : من عمل عملا صالحا أى عمل كان . وزيادة التمييز بذكر أو أنثى مع كون لفظ ﴿ **من** ﴾ شاملا لهما ؛ لقصد التأكيد والمبالغة فى تقرير الوعد . وقيل : إن لفظ ﴿ **من** ﴾ ظاهر فى الذكور،فكان فى التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين. وجملة: ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ فى محل نصب على الحال . جعل سبحانه الإيمان قيدا فى الجزاء المذكور ؛ لأن عمل الكافر لا اعتداد به ؛ لقوله سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال : ﴿ **فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ وقد وقع الخلاف فى الحياة الطيبة بماذا تكون ؟ فقيل : بالرزق الحلال ، روى ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك . وقيل : بالقناعة ، قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبه . وروى أيضا عن على وابن عباس . وقيل : بالتوفيق إلى الطاعة ، قاله الضحاك . وقيل : الحياة الطيبة : هى حياة الجنة . روى عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكى عن الحسن أنه قال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة . وقيل : الحياة الطيبة : هى السعادة . روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : هى المعرفة بالله حكى ذلك عن جعفر الصادق . وقال أبو بكر الوراق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التسترى: هى أن ينزع عن العبد تدبير نفسه ، ويرد تدبيره إلى الحق . وقيل : هى الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق . وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هى فى الدنيا ، لا فى الآخرة ؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله : ﴿ **ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . وقد قدمنا قريبا تفسير الجزاء بالأحسن . ووحد الضمير فى «لنحيينه » ، وجمعه فى ﴿**ولنجزينهم** ﴾ حملا على لفظ ﴿ **من** ﴾ وعلى معناه .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه ، أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ والفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح . وقيل : هذه الآية متصلة بقوله : ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء** ﴾ والتقدير : فإذا أخذت فى قراءته ، فاستعذ . قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة : معناه : إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ . وليس معناه : استعذ بعد أن تقرأ القرآن . ومثله : إذا أكلت فقل : بسم الله . قال الواحدى : وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة ، إلا ما روى عن أبى هريرة وابن سيرين وداود ومالك وحمزة من

القراء ، فإنهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة. ذهبوا إلى ظاهر الآية. ومعنى ﴿ **فاستعذ بالله**﴾ : اسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم ، أى من وساوسه . وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها ؛ للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم ؛ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند إرادة غيره أولى . كذا قيل . وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة ؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته ، فكيف بسائر أمته ؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر فى الآية للندب . وروى عن عطاء الوجوب أخذا بظاهر الأمر . وقد تقدم الكلام فى الاستعاذة مستوفى فى أول هذا التفسير .

والضمير فى : ﴿ **إنه ليس له سلطان** ﴾ للشأن أو للشيطان ، أى ليس له تسلط « على » إغواء ﴿ **الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ وحكى الواحدى عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطة بالحجة . وقالوا : المعنى : ليس له حجة على المؤمنين فى إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة . ومعنى ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ : يفوضون أمورهم إليه فى كل قول وفعل . فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم . وإن وسوس لأحد منهم ، لا تؤثر فيه وسوسته . وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة . وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: ٤٠] وقال الله فيهم : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .

ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان ، فقال : ﴿ **إنما سلطانه** ﴾ أى تسلطه على الإغواء ﴿**على الذين يتولونه** ﴾ أى يتخذونه وليا ويطيعونه فى وساوسه ﴿ **والذين هم به مشركون** ﴾ الضمير فى ﴿ **به** ﴾ يرجع إلى الله تعالى ، أى الذين هم بالله مشركون . وقيل: يرجع إلى الشيطان. والمعنى : والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله .

﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية** ﴾ هذا شروع منه سبحانه فى حكاية شبه كفرية ودفعها . ومعنى التبديل : رفع الشىء مع وضع غيره مكانه . وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها . وقد تقدم الكلام فى النسخ فى البقرة . ﴿ **قالوا** ﴾ أى كفار قريش الجاهلون للحكمة فى النسخ : ﴿ **إنما أنت** ﴾ يا محمد ﴿ **مفتر** ﴾ أى كاذب مختلق على الله ، متقول عليه بما لم يقل ، حيث تزعم أنه أمرك بشىء ، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه ، فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم ، فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ شيئا من العلم أصلا ، أو لا يعلمون بالحكمة فى النسخ ، فإنه مبنى على المصالح التى يعلمها الله سبحانه ، فقد يكون فى شرع هذا الشىء مصلحة مؤقتة بوقت ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره . ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة ، لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف .

ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله ، وأن رسوله ﷺ افتراه فقال : ﴿ **قل نزله** ﴾ أى القرآن المدلول عليه بذكر الآية ﴿ **روح**

القدس ﴾ أى جبريل. والقدس : التطهير ، والمعنى : نزله الروح المطهر من أدناس البشرية ، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ﴿**من ربك**﴾ أى ابتداء تنزيله من عنده سبحانه. و﴿ **بالحق** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى متلبسا بكونه حقًا ثابتًا لحكمة بالغة ﴿**ليثبت الذين آمنوا** ﴾ على الإيمان ، فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ؛ ولأنهم أيضا إذا عرفوا ما فى النسخ من المصالح ، ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم. وقرئ: ﴿ **ليثبت** ﴾ من الإثبات . ﴿ **وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ وهما معطوفان على محل ﴿ **ليثبت** ﴾ أى تثبيتًا لهم وهداية وبشارة . وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم .

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر**﴾ . اللام هى الموطئة ، أى ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون : إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بنى آدم غير ملك . وقد اختلف أهل العلم فى تعيين هذا البشر الذى زعموا عليه ما زعموا ، فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة ، واسمه جبر وكان نصرانيا فأسلم . وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبى ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أميا ، قالوا : إنما يعلمه جبر . وقيل : اسمه يعيش ، عبد لبنى الحضرمى. وكان يقرأ الكتب الأعجمية. وقيل : غلام لبنى عامر بن لؤى . وقيل: هما غلامان . اسم أحدهما يسار ، واسم الآخر جبر. وكانا صيقليين يعملان السيوف ، وكانا يقرآن كتابًا لهم . وقيل : كانا يقرآن التوراة والإنجيل . وقيل : هو سلمان الفارسى . وقيل : عنوا نصرانيًا بمكة اسمه بلعام ، وكان يقرأ التوراة . وقيل : عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية . وفى رواية اسمه عداس . قال النحاس : وهذه الأقوال غير متناقضة ، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعًا يعلمونه . ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال: إنه سلمان ، لأن هذه الآية مكية ، وهو إنما أتى إلى النبى ﷺ بالمدينة .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال : ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى** ﴾ الإلحاد : الميل. يقال : لحد وألحد أى مال عن القصد . وقد تقدم فى الأعراف. وقرأ حمزة والكسائى . « يلحدون » بفتح الياء والحاء . وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء ، أى لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمى. يقال : رجل أعجم وامرأة عجماء، أى لا يفصحان ، والعجمة : الإخفاء ، وهى ضد البيان . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجميًا . قال الفراء: الأعجم : الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمى : هو العجمى أصله من العجم . وقال أبو على الفارسى : العجمى المنسوب إلى العجم الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم وكذلك الأعجم . والأعجمى : المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا . ﴿ **وهذا لسان عربى مبين** ﴾ الإشارة إلى القرآن ، وسماه لسانًا لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لسان . ومنه قول الشاعر :

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا

أو أراد باللسان : البلاغة ، فكأنه قال : وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح ، فكيف تزعمون أن بشرًا يعلمه من العجم ، وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه ، وأنتم أهل اللسان العربى ورجال الفصاحة ، وقادة البلاغة . وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم .

ولما ذكر سبحانه جوابهم ، وبخهم وهددهم فقال : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ أى لا يصدقون بها ﴿ **لايهديهم الله** ﴾ إلى الحق الذى هو سبيل النجاة ، هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم. ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله .

ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله ﷺ رد عليهم بقوله : ﴿ **إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ وهو رأس المؤمنين بها ، والداعين إلى الإيمان بها . وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها ، فهم المفترون للكذب . قال الزجاج : المعنى: إنما يفترى الكذب الذين إذا رأوا الآيات التى لا يقدر عليها إلا الله، كذبوا بها . هؤلاء أكذب الكذبة ، ثم سماهم الكاذبين فقال : ﴿ **وأولئك** ﴾ أى المتصفون بذلك ﴿**هم الكاذبون** ﴾ أى إن الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم ، فهم الكاملون فى الكذب ، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة فى الآية فقال : الحياة الطيبة : الرزق الحلال فى هذه الحياة الدنيا . وإذا صار إلى ربه ، جازاه بأحسن ما كان يعمل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الكسب الطيب ، والعمل الصالح . وأخرج العسكرى فى الأمثال عن على فى الآية قال : القناعة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : القنوع . قال : وكان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف علىَّ كل غائبة لى بخير»(١). وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافًا ، وقنعه الله بما آتاه »(٢) . وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قد أفلح من هدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافًا وقنع به » (٣) .

---

(١) ابن جرير ١٤/ ١١٥ وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٣٤٣) .ط . الكتب العلمية ، واللفظ للحاكم والبيهقى .

(٢) أحمد ٢/ ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ومسلم فى الزكاة (١٠٥٤/ ١٢٥) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٨) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤١٣٨) .

(٣) الترمذى فى الزهد (٢٣٤٩) وقال : « حسن صحيح » ، وعزاه المزى فى التحفة للنسائى فى الرقائق فى الكبرى، وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال : «ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم » (١١٠٣٣) .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة وغيرها من أجل قوله : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ وقد ورد فى مشروعية الاستعاذة عند التلاوة ما لعلنا قد قدمنا ذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما سلطانه على الذين يتولونه** ﴾ يقول : سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله .

وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية** ﴾ وقوله : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا** ﴾ قال : عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان ، فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله أن يقتل يوم الفتح . فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجاره(١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية**﴾ : هو كقوله : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله ﷺ يعلم بمكة قينا اسمه بلعام وكان أعجميًا ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا إنما يعلمه بلعام: فأنزل الله: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون** . . ﴾ الآية (٢) . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان عنه فى الآية قال : قالوا : إنما يعلم محمدًا عبد بن الحضرمى وهو صاحب الكتب ، فأنزل الله هذه الآية(٣) . وأخرج آدم بن أبى إياس وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن عبد الله بن مسلم الحضرمى قال : كان لنا عبدان من أهل عين التمر ، يقال لأحدهما : يسار . والآخر: جبر . وكانا يصنعان السيوف بمكة. وكانا يقرآن الإنجيل .فربما مر بهما النبى ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع ، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما فنزلت هذه الآية(٤) .

﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ**

---

(١) صححه الحاكم ٢/٣٥٦ ، ٣٥٧ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١٤/١١٩ .

(٣) صححه الحاكم ٢/٣٥٧ ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١٤/ ١٢٠ والذى عند ابن جرير : « غير اليمن » ، بدلا من « عين التمر » .

رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾ .

قوله : ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه** ﴾ قد اختلف أهل العلم فى إعرابه ، فذهب الأكثرون على أنه بدل ، إما من ﴿ **الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : إنما يفترى الكذب من كفر. واستثنى منهم المكره . فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، ثم قال: ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدرا** ﴾ أى اعتقده وطابت به نفسه واطمأن إليه، ﴿ **فعليهم غضب** ﴾. وإما من المبتدأ الذى هو ﴿ **أولئك** ﴾ أو من الخبر الذى هو ﴿ **الكاذبون** ﴾ . وذهب الزجاج إلى الأول . وقال الأخفش : إن ﴿ **من** ﴾ مبتدأ وخبره محذوف اكتفى منه بخبر ﴿ **من** ﴾ الثانية ، كقولك : من يأتنا منكن نكرمه . وقيل : هو ، أى ﴿ **من** ﴾ فى : ﴿ **من كفر** ﴾ ، منصوب على الذم. وقيل : إن ﴿ **من** ﴾ شرطية. والجواب محذوف، لأن جواب ﴿ **من شرح** ﴾ دال عليه . وهو كقول الأخفش . وإنما خالفه فى إطلاق لفظ الشرط على ﴿**من**﴾ ، والجواب على خبرها ، فكأنه قيل على هذا : من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره . ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب . وإنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر، لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لولا الإكراه .

قال القرطبى : أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا تبين منه زوجته ، ولا يحكم عليه بحكم الكفر (١) . وحكى عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر ، كان مرتدا فى الظاهر ، وفيما بينه وبين الله على الإسلام ، وتبين منه امرأته ، ولا يصلى عليه إن مات ، ولا يرث أباه إن مات مسلما . وهذا القول مردود على قائله ، مدفوع بالكتاب والسنة . وذهب الحسن البصرى والأوزاعى والشافعى وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة فى هذه الآية إنما جاءت فى القول . وأما فى الفعل فلا رخصة ، مثل أن يكره على السجود لغير الله ، ويدفعه ظاهر الآية ، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل . ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص السبب ، لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر فى علم الأصول .

وجملة : ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ فى محل نصب على الحال من المستثنى ، أى إلا من كفر بإكراه ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته وليس بعد هذا الوعيد العظيم ، وهو الجمع للمرتدين ، بين غضب الله وعظيم عذابه .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان ، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب ، والباء فى : ﴿ **بأنهم استحبوا الحياة الدنيا** ﴾ للسببية ، أى ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا

---

(١) القرطبى ٦/٣٧٩٨ .

﴿على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ معطوف على : **﴿ أنهم استحبوا ﴾** أى ذلك بأنهم استحبوا ، وبأن الله لا يهدى القوم الكافرين إلى الإيمان به .

ثم وصفهم بقوله : **﴿ أولئك ﴾** أى الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة **﴿ الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾** فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ، ولا أبصروا الآيات التى يستدل بها على الحق . وقد سبق تحقيق الطبع فى أول البقرة . ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة ، فقال : **﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾** عما يراد بهم . وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون فى الغفلة ، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه .

﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ أى الكاملون فى الخسران ، البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية . وقد تقدم تحقيق الكلام فى معنى **﴿ لا جرم ﴾** فى مواضع ، منها ما هو فى هذه السورة .

﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام . وخبر « إن » محذوف ، والتقدير : لغفور رحيم . وإنما حذف لدلالة خبر **﴿ إن ربك ﴾** المتأخرة عليه . وقيل : الخبر هو : **﴿ للذين هاجروا ﴾** أى إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم ، وفيه بعد . وقيل : إن خبرها هو قوله : **﴿ لغفور رحيم ﴾** ، و**﴿ إن ربك﴾** الثانية تأكيد للأولى . قال فى الكشاف : ثم هاهنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء ، يعنى : الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه [1] . ويدل على ذلك ما روى أنها نزلت فى عبد الله بن أبى سرح . وسيأتى بيان ذلك . **﴿ من بعد ما فتنوا ﴾** أى فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا فى الكفر . وقرئ : « فتنوا » على البناء للفاعل ، أى الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ، **﴿ ثم جاهدوا ﴾** فى سبيل الله **﴿ وصبروا ﴾** على ما أصابهم من الكفار ، وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف **﴿ لغفور رحيم ﴾** أى كثير الغفران والرحمة لهم .

ومعنى الآية على قراءة من قرأ : « فتنوا » على البناء للفاعل واضح ظاهر ، أى إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ، ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم . وأما على قراءة البناء للمفعول ، وهى قراءة الجمهور، فالمعنى : أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا فى الله وصبروا على المكاره لغفور لهم ، رحيم بهم . وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبى سرح الذى ارتد عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام ، فالمعنى : أن هذا المفتون فى دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر ، فالله غفور له ، رحيم به . والضمير فى **﴿ بعدها ﴾** يرجع إلى الفتنة، أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر ، أو إلى الجميع .

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ : قال الزجاج : **﴿ يوم تأتى ﴾** منتصب بقوله :

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٣٧ .

﴿ **رحيم** ﴾ أو بإضمار اذكر ، أو ذكرهم ، أو أنذرهم . وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس ، ولابد من التغاير بين المضاف والمضاف إليه . وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى : جملة بدن الإنسان ، وبالنفس الثانية : الذات ، فكأن قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه غيرها . ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها ، فهو مجادل ومخاصم عن نفسه ، لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة ، قال لأصحابه : تفرقوا عنى ، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل ، ومن لم تكن به قوة ، فليذهب فى أول الليل. فإذا سمعتم بى قد استقرت بى الأرض، فالحقوا بى ، فأصبح بلال المؤذن ، وخباب ، وعمار ، وجارية من قريش ، كانت أسلمت ، فأخذهم المشركون وأبو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فجعلوا يضعون درعا من حديد فى الشمس ، ثم يلبسونها إياه . فإذا ألبسوها إياه ، قال : أحد أحد . وأما خباب ، فجعلوا يجرونه فى الشوك ، وأما عمار ، فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية . وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ، ثم مدها فأدخل الحربة فى قبلها حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار ، فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذى كان من أمرهم ، واشتد على عمار الذى كان تكلم به ، فقال له رسول الله ﷺ : « كيف كان قلبك حين قلت الذى قلت ؟ أكان منشرحا بالذى قلت أم لا ؟ » قال : لا . فأنزل الله ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر ، فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فتركوه ، فلما أتى النبى ﷺ قال : « ما وراءك ؟ » قال : شر ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : « كيف تجد قلبك ؟ » قال: مطمئنا بالإيمان. قال: « إن عادوا فعد » . فنزلت : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ قال : ذاك عمار بن ياسر . ﴿ **ولكن من شرح بالكفر صدرا** ﴾ عبد الله بن أبى سرح(١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن أبى مالك فى قوله: ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ قال: نزلت فى عمار بن ياسر (٢). وفى الباب روايات مصرحة بأنها نزلت فى عمار بن ياسر . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال: نزلت هذه الآية ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فى عياش بن أبى ربيعة.

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : فى سورة النحل ﴿ **فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ **ثم إن ربك للذين**

(١) ابن سعد ٣/٢٤٩ وابن جرير ١٤/١٢٢ وصححه الحاكم ٢/٣٥٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٨/٢٠٨ والزيلعى فى نصب الراية ٤/١٥٨ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٢٣٠٤) وابن جرير ١٤/١٢٢ .

هاجروا من بعد ما فتنوا . . ﴾ الآية ، قال : وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان ، فلحق بالكفار ، فأمر به النبي ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ فيمن كان يفتن من أصحاب النبي ﷺ [(١)] . وأخرج ابن مردويه عنه قال: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام، فنزلت فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا . . . ﴾ الآية . فكتبوا إليهم بذلك : إن الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، فنجا من نجا وقتل من قتل . وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن : أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين ، فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه ، فقال : إني أصم . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال: نعم . فأرسله . فأتى النبي ﷺ فقال له : « أما صاحبك، فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » وهو مرسل [(٢)] .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾.

قوله: ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ قد قدمنا أن ضرب مضمن معنى جعل ، حتى تكون ﴿قرية ﴾ المفعول الأول و﴿ مثلا ﴾ المفعول الثاني . وإنما تأخرت ﴿ قرية ﴾ لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها . وقدمنا أيضا أنه يجوز أن يكون ﴿ضرب ﴾ على بابه غير مضمن ، ويكون

(١) البيهقي ٩/ ١٤ .

(٢) ابن أبي شيبة (١٣٠٨٣) .

﴿ مثلا ﴾ مفعوله الأول ، و﴿ قرية ﴾ بدلا منه .

وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة ، أو المراد قرية غير معينة ؟ بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة ؟ فذهب الأكثر إلى الأول ، وصرحوا بأنها مكة ، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »(١) . فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام . والثانى : أرجح ؛ لأن تنكير قرية يفيد ذلك . ومكة تدخل فى هذا العموم البدلى دخولا أوليا . وأيضا يكون الوعيد أبلغ ، والمثل أكمل ، وغير مكة مثلها. وعلى فرض إرادتها، ففى المثل إنذار لغيرها من ٠ل عاقبتها .

ثم وصف القرية بأنها ﴿ كانت آمنة ﴾ غير خائفة ﴿ مطمئنة ﴾ غير منزعجة ، أى لا يخاف أهلها ولاينزعجون ﴿ يأتيها رزقها ﴾ أى ما يرتزق به أهلها . ﴿ رغدا ﴾ واسعا ﴿ من كل مكان ﴾ من الأمكنة التى يجلب ما فيها إليها ﴿ فكفرت ﴾ أى كفر أهلها ﴿ بأنعم الله ﴾ التى أنعم بها عليهم . والأنعم : جمع نعمة ، كالأشد جمع شدة . وقيل : جمع نعمى مثل بؤسى ، وأبؤس . وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله ﴿ فأذاقها الله ﴾ أى أذاق أهلها ﴿ لباس الجوع والخوف ﴾ سمى ذلك لباسا لأنه يظهر به عليهم من الهزال ، وشحوبة اللون ، وسوء الحال ، ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذاقة . وأصلها الذوق بالفم . ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين ، إدراك اللمس والذوق .

روى أن ابن الراوندى الزنديق (٢) قال لابن الأعرابى ـ إمام اللغة والأدب ـ : هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الأعرابى : لا بأس أيها النسناس ، هب أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا ؟ كأنه طعن فى الآية بأن المناسب أن يقال : فكساها الله لباس الجوع ، أو : فأذاقها الله طعم الجوع . فرد عليه ابن الأعرابى .

وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة وذلك أنه استعار اللباس لما غشى الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف ، لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس . ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له ، وهو الجوع والخوف ؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه غيره. فكانت الاستعارة مجردة . ولو قال : فكساها ، كانت مرشحة . قيل : وترشيح الاستعارة ، وإن كان مستحسنا من جهة المبالغة ، إلا أن للتجريد ترجيحا من حيث أنه روعى جانب

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد ٢/ ٢٥٥ والبخارى فى الأذان (٤ . ٨) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٥/ ٢٩٤) .

(٢) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الراوندى فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من مكان ببغداد نسبته إلى «راوند» من قرى أصبهان توفى عام ٢٩٨ هـ . وفيات الأعيان ١/ ٢٧ وتاريخ ابن الوردى ١/ ٢٤٨ ومروج الذهب للمسعودى ٧/ ٢٣٧ .

المستعار له ، فازداد الكلام وضوحا . وقيل : إن أصل الذوق بالفم ، ثم قد يستعار ، فيوضع موضع التعرف والاختبار . ومن ذلك قول الشاعر :

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها

وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبى إسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب الخوف عطفا على لباس ، وقرأ الباقون بالضم عطفا على الجوع . قال الفراء : كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله: ﴿**يصنعون**﴾ تنبيها على أن المراد فى الحقيقة أهلها .

﴿ **ولقد جاءهم** ﴾ يعنى: أهل مكة ﴿ **رسول منهم** ﴾ من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه ، فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضرهم ﴿ **فكذبوه** ﴾ فيما جاء به ﴿ **فأخذهم العذاب** ﴾ النازل بهم من الله سبحانه ، والحال أنهم فى حال أخذ العذاب لهم ﴿ **ظالمون** ﴾ لأنفسهم بإيقاعها فى العذاب الأبدى ، ولغيرهم بالإضرار بهم وصدهم عن سبيل الله . وهذا الكلام من تمام المثل المضروب . وقيل : إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذى أصابهم . وقيل : القتل يوم بدر .

ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة ، أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها . وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر . والمعنى : أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر ، فكلوا الحلال الطيب [1] ، وهو الغنيمة ، واتركوا الخبائث وهو الميتة والدم . ﴿ **واشكروا نعمة الله** ﴾ التى أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿ **إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ ولا تعبدون غيره ، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التى زعمتم عبادة الله تعالى . وقيل : إن الفاء فى ﴿ **فكلوا** ﴾ داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أدخلت على الأمر بالأكل ؛ لأن الأكل ذريعة إلى الشكر .

﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله** ﴾ كرر سبحانه ذكر هذه المحرمات فى البقرة والمائدة والأنعام ، وفى هذه السورة قطعا للأعذار ، وإزالة للشبهة ، ثم ذكر الرخصة فى تناول شىء مما ذكر فقال : ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم** ﴾ . وقد تقدم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى .

ثم زيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة ، وفى النقصان عنها كتحليل الميتة والدم ، فقال : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب** ﴾ قال الكسائى والزجاج : « ما » هنا مصدرية . وانتصاب الكذب بـ﴿ **لا تقولوا** ﴾ أى لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم ، ومعناه : لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة . ويجوز أن تكون « ما » موصولة ، والكذب منتصب بـ ﴿ **تصف** ﴾ أى لا تقولوا للذى تصف

---

(١) من صفات الأكل الذى أباحه الله تعالى : أن يكون حلالا وأن يكون طيبا ، ولا يجوز أن يكون حلالا فقط غير طيب . راجع كتابنا : « مع الإلحاد وجها لوجه » .

ألسنتكم الكذب فيه ﴿ **هذا حلال وهذا حرام** ﴾ فحذف لفظة فيه لكونه معلوما ، فيكون قوله : ﴿ **هذا حلال وهذا حرام** ﴾ بدلا من الكذب، ويجوز أن يكون فى الكلام حذف بتقدير القول ، أى ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم ، فتقول : هذا حلال وهذا حرام . أو قائلة : هذا حلال وهذا حرام ، ويجوز أن ينتصب الكذب أيضا بـ ﴿ **تصف** ﴾ وتكون « ما » مصدرية، أى لا تقولوا : هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب . وقرئ : « الكذب » بضم الكاف والذال والباء على أنه نعت للألسنة ، وقرأ الحسن بفتح الكاف وكسر الذال والباء نعتا لـ « ما » . وقيل : على البدل من « ما » ، أى ولا تقولوا الكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام . واللام فى ﴿ **لتفتروا على الله الكذب** ﴾ هى لام العاقبة ، لا لام العرض ، أى فيتعقب ذلك افتراؤكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم ، وإسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه ﴿ **إن الذين يفترون على الله الكذب** ﴾ أى افتراء كان ﴿ **لا يفلحون** ﴾ بنوع من أنواع الفلاح ، وهو الفوز بالمطلوب . وارتفاع ﴿ **متاع قليل** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل ، أو هو مبتدأ خبره محذوف ، **أى لهم** متاع قليل . ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ يردون إليه فى الآخرة .

ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا** ﴾ أى حرمنا عليهم خاصة دون غيرهم ﴿ **ما قصصنا عليك** ﴾ بقولنا : ﴿ **حرمنا كل ذى** ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما . . . ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٦] و﴿ **من قبل** ﴾ متعلق بـ﴿ **قصصنا** ﴾ أو بـ ﴿**حرمنا** ﴾ . ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ بذلك التحريم ، **بل جزيناهم** ببغيهم . ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك ، فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم .

ثم بين سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال : ﴿ **ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة** ﴾ ، أى متلبسين بجهالة . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة النساء ﴿ **ثم تابوا من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد عملهم للسوء ، وفيه تأكيد ، فإن « ثم » قد دلت على البعدية ، فأكدها بزيادة ذكر البعدية ﴿ **وأصلحوا** ﴾ أعمالهم التى كان فيها فساد بالسوء الذى عملوه . ثم كرر ذلك تأكيدا وتقريرا فقال : ﴿ **إن ربك من بعدها** ﴾ أى من بعد التوبة ﴿ **لغفور رحيم** ﴾ كثير الغفران ، وواسع الرحمة .

وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس فى قوله:﴿ **وضرب الله مثلا قرية** ﴾ قال : يعنى : مكة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية فى الآية مثله. وزاد فقال: ألا ترى أنه قال : ﴿ **ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن شهاب قال : القرية التى قال الله: ﴿ **كانت آمنة مطمئنة** ﴾ هى : يثرب . قلت : ولا أدرى أى دليل دله على هذا التعيين ، ولا أى قرينة قامت له على ذلك ؟ ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله ؟ وأى وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف ؟ وهى التى تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد ، كما صح ذلك عن

الصادق المصدوق [١]. وصح عنه أيضا أنه قال : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » [٢] .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب** ﴾ الآية ، قال : فى البحيرة والسائبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل: ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام** . . . ﴾ إلى آخر الآية ، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا. قلت : صدق رحمه الله ، فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ﷺ ، كما يقع كثيرًا من المؤثرين للرأى المقدمين له على الرواية ، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة ، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويمنعوا من جهالاتهم ، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير ، فضلوا وأضلوا، فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الجائر

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : عسى رجل أن يقول : إن الله أمر بكذا ، أو نهى عن كذا ، فيقول الله عز وجل له : كذبت أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحل كذا . فيقول الله له : كذبت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك** ﴾ قال : فى سورة الأنعام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة مثله ، وقال : حيث يقول : ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ [الأنعام:١٤٦].

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ .

---

(١) أخرج مسلم فى الحج (١٣٨٢/٤٨٨) عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أمرت بقرية تأكل القرى يقولون : يثرب ـ وهى المدينة ـ تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الحج (١٣٨٨/٤٩٦ ، ٤٩٧) عن سفيان بن أبى زهير .

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم وكان إبراهيم عليه السلام من الموحدين ، وهو قدوة كثير من النبيين، ذكره اللّه فى آخر هذه السورة فقال :﴿ **إن إبراهيم كان أمة** ﴾ قال ابن الأعرابى : يقال للرجل العالم : أمة . والأمة : الرجل الجامع للخير . قال الواحدى : قال أكثر أهل التفسير أى معلما للخير . وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمة : أنه كان معلما للخير أو جامعا لخصال الخير ، أو عالما بما علمه اللّه من الشرائع . وقيل : أمة بمعنى : مأموم ، أى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير . كما قال سبحانه : ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ [البقرة : ١٢٤] والقانت :المطيع . وقد تقدم بيان معانى القنوت فى البقرة . والحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق . وقد تقدم بيانه فى الأنعام ﴿ **ولم يك من المشركين** ﴾ باللّه كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل .

﴿ **شاكرا لأنعمه** ﴾ التى أنعم اللّه بها عليه وإن كانت قليلة ، كما يدل عليه جمع القلة ، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى : ﴿ **اجتباه** ﴾ أى اختاره للنبوة واختصه بها ﴿ **وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾ وهو ملة الإسلام ودين الحق .

﴿ **وآتيناه فى الدنيا حسنة** ﴾ أى خصلة حسنة أو حالة حسنة . وقيل : هى الولد الصالح. وقيل : الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة منا عليه فى التشهد . وقيل : هى أنه يتولاه جميع أهل الأديان . ولا مانع من أن يكون ما آتاه اللّه شاملا لذلك كله ولما عداه من خصال الخير. ﴿ **وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ حسبما وقع منه(١) السؤال لربه حيث قال: ﴿وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ [الشعراء : ٨٣ ـ ٨٥] .

﴿ **ثم أوحينا إليك** ﴾ يا محمد مع علو درجتك ، وسمو منزلتك ، وكونك سيد ولد آدم ﴿**أن اتبع ملة إبراهيم** ﴾ وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبى من أنبيائه . قيل : والمراد هنا إتباع النبى ﷺ لملة إبراهيم فى التوحيد والدعوة إليه . وقال ابن جرير : فى التبرى من الأوثان ، والتدين بدين الإسلام . وقيل : فى مناسك الحج . وقيل : فى الأصول دون الفروع . وقيل : فى جميع شريعته ، إلا ما نسخ منها . وهذا هو الظاهر . وقد أمر النبى ﷺ بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم ، فقال تعالى : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : ٩٠] وانتصاب ﴿ **حنيفا** ﴾ على الحال من إبراهيم ، وجاز مجىء الحال منه ؛ لأن المادة كالجزء منه . وقد تقرر فى علم النحو أن الحال من المضاف إليه جائز إذا كان يقتضى المضاف العمل فى المضاف إليه ، أو كان جزءا منه أو كالجزء. ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ وهو تكرير لما سبق للنكتة التى ذكرناها .

﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه** ﴾ أى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على

(١) فى المطبوعة : « منهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الذين اختلفوا فيه، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه ، لا على غيرهم من الأمم . وقد اختلف العلماء فى كيفية الاختلاف الكائن بينهم فى السبت ، فقالت طائفة : إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه وقالوا : إن السبت أفضل . فقال الله له : دعهم وما اختاروا لأنفسهم . وقيل : إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم فى الأسبوع ، فاختلف اجتهادهم فيه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق . فألزم الله كلا منهم ما أدى إليه اجتهاده ، وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة . ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم ، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿ **وإن ربك ليحكم بينهم** ﴾ أى بين المختلفين فيه ﴿ **يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ فيجازى كلا فيه بما يستحقه ثوابا وعقابا ، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك** ﴾ وحذف المفعول للتعميم ، لكونه بعث إلى الناس كافة . وسبيل الله هو الإسلام ﴿ **بالحكمة** ﴾ أى بالمقالة المحكمة الصحيحة. قيل: وهى الحجج القطعية المفيدة لليقين . ﴿ **والموعظة الحسنة** ﴾ وهى المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التى يستحسنها السامع ، وتكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها . قيل: وهى الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة . قيل : وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان . ولكن الداعى قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ، ونحو ذلك من الجدل. ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ أى بالطريق التى هى أحسن طرق المجادلة . وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعى محقا وغرضه صحيحا ، وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا . ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله** ﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة ، بين أن الرشد والهداية ليس إلى النبى ﷺ ، وإنما ذلك إليه تعالى فقال : ﴿ **إن ربك هو أعلم** ﴾ أى : هو العالم بمن يضل ومن يهتدى . ﴿ **وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أى بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت . وإنما شرع لك الدعوة ، وأمرك بها قطعا للمعذرة ، وتتميما للحجة، وإزاحة للشبهة،وليس عليك غير ذلك .

ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع إلى الحق ، فإن أبوا قوتلوا ، أمر الداعى بأن يعدل فى العقوبة فقال : ﴿ **وإن عاقبتم** ﴾ أى أردتم المعاقبة ﴿ **فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ أى بمثل ما فعل بكم ، لا تجاوزوا ذلك . قال ابن جرير : أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته، لايتعداها إلى غيرها [١] . وهذا صواب . لأن الآية وإن قيل : إن لها سببا خاصا كما سيأتى ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، وعمومه يؤدى

---

(١) ابن جرير ١٤ / ١٣١ .

هذا المعنى الذى ذكره. وسمى سبحانه الفعل الأول الذى هو فعل البادئ بالشر عقوبة ، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثانى ، وهو المجازى للمشاكلة ، وهى باب معروف وقع فى كثير من الكتاب العزيز . ثم حث سبحانه على العفو فقال: ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ أى لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، فالصبر خير لكم من الانتصاف . ووضع ﴿ **الصابرين** ﴾ موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة فى الصبر عن المعاقبة ، والثناء على الصابرين على العموم . وقيل : هى منسوخة بآيات القتال . ولا وجه لذلك .

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال : ﴿ **واصبر** ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ أى بتوفيقه وتثبيته . والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى وما صبرك مصحوبا بشىء من الأشياء إلا بتوفيقه لك . وفيه تسلية للنبى ﷺ ، ثم نهاه عن الحزن فقال : ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ أى على الكافرين فى إعراضهم عنك ، أو لا تحزن على قتلى أحد ، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله ﴿ **ولا تك فى ضيق مما يمكرون** ﴾ : قرأ الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسرها . قال ابن السكيت : هما سواء ، يعنى : المفتوح والمكسور . وقال الفراء : الضيق بالفتح : ما ضاق عنه صدرك ، والضيق بالكسر : ما يكون فى الذى يتسع ، مثل الدار والثوب . وكذا قال الأخفش . وهو من الكلام المقلوب ؛ لأن الضيق: وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه . وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشىء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه . ومعنى ﴿ **مما يمكرون** ﴾ : من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان .

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا**﴾ أى اتقوا المعاصى على اختلاف أنواعها . ﴿ **والذين هم محسنون** ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها . وقيل : المعنى : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا** ﴾ الزيادة فى العقوبة ﴿ **والذين هم محسنون** ﴾ فى أصل الانتقام ، فيكون الأول : إشارة إلى قوله : ﴿ **فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ والثانى : إشارة إلى قوله: ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾. وقيل : ﴿ **الذين اتقوا**﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿ **والذين هم محسنون** ﴾ إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن الأمة ما هى ؟ فقال : الذى يعلم الناس الخير . قالوا: فما القانت؟ قال: الذى يطيع الله ورسوله (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله** ﴾ ، قال : كان

---

(١) ابن جرير ١٤/١٢٨ والطبرانى (٩٩٣) وصححه الحاكم ٢/٣٥٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٥٢ : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح » وقال ٩/٣١٤ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير الحجاج بن إبراهيم وهو ثقة».

على الإسلام ، ولم يكن فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره . فلذلك قال الله : ﴿ **كان أمة قانتا لله** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله: ﴿ **كان أمة** ﴾ قال: إماما فى الخير. ﴿ **قانتا** ﴾ قال : مطيعا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد تشهد له أمة ، إلا قبل الله شهادتهم » . والأمة : الرجل فما فوقه . إن الله يقول : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة** ﴾ والأمة : الرجل فما فوقه .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن ابن عمرو قال : صلى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات ، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به ، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ، ثم صلى الفجر به كأسرع ما يصلى أحدكم من المسلمين ، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين ، دفع به ، ثم رمى الجمرة ، ثم ذبح ، ثم حلق ، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به ، فقال الله لنبيه : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ (١) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه** ﴾ قال : أراد الجمعة ، فأخذوا السبت مكانها (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى الآية قال : باستحلالهم إياه . رأى موسى رجلا يحمل حطبا يوم السبت ، فضرب عنقه . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم ــ يعنى : الجمعة ــ فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس فيه لنا تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » (٣) . وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه (٤) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ قال : أعرض عن أذاهم إياك . وأخرج الترمذى وحسنه ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن خزيمة فى الفوائد وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة ، عن أبى بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد ، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، منهم حمزة ، فمثلوا به . فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم . فلما كان يوم فتح مكة ، أنزل الله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا**

---

(١) البيهقى ٥/ ١٤٥ .

(٢) ابن جرير ١٤/ ١٣٠ .

(٣) البخارى فى الوضوء (٢٣٨) وفى الجمعة (٨٧٦ ، ٨٩٦) وفى الجهاد (٢٩٥٦) وفى الأنبياء (٣٤٨٦) وفى الأيمان والنذور (٦٦٢٤) ومسلم فى الجمعة (٨٥٥/ ١٩ ــ ٢١) والنسائى ٣/ ٨٥ .

(٤) مسلم فى الجمعة (٨٥٦/ ٢٢ ، ٢٣) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٠٨٣) .

بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « نصبر ولا نعاقب ، كفوا عن القوم إلا أربعة » (١) . وأخرج ابن سعد والبزار وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه ، ونظر إليه قد مثل به ، فقال : « رحمة الله عليك ، فإنك كنت ما علمت وصولا للرحم ، فعولا للخير ، ولولا حزن من بعدك عليك ، لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى . أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك ».فنزل جبريل ،والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿ **وإن عاقبتم. . .** ﴾ الآية. فكفر النبى ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذى أراد وصبر(٢). وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن ابن عباس مرفوعا نحوه (٣) .وأخرج ابن جرير وابن مردويه. عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وإن عاقبتم. . .** ﴾ الآية ،قال :هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله،ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم،فهذا منسوخ(٤). وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،عن الحسن فى قوله: ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ قال : اتقوا فيما حرم عليهم ، وأحسنوا فيما افترض عليهم .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٢٩) وقال : « حسن غريب » وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ٥/ ١٣٥ والنسائى فى التفسير (٢٩٩) وابن حبان فى الموارد (١٦٩٥) وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٨٩ .

(٢) الحاكم ٣/ ١٩٧ وقال الذهبى : « قلت : « صالح » واه سمعه منه خالد بن خداش» ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٨٨ وقال عنه الهيثمى فى المجمع ٦/ ٢٢ : « أخرجه الطبرانى والبزار وفيه صالح بن بشير المرى وهو ضعيف» ، وقال البخارى : «منكر الحديث » .

(٣) الطبرانى (١١٥١) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٨٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٢٣ : « فيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف » .

(٤) ابن جرير ١٤/ ١٣٢

تفسير سورة الإسراء

آياتها مائة وإحدى عشرة آية ، وهى مكية إلا ثلاث آيات . قوله عز وجل : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف ، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق** ﴾. وقوله : ﴿ **إن ربك أحاط بالناس**﴾ وزاد مقاتل قوله : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله** ﴾ .

وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة بنى إسرائيل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى[١] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر [٢]. وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى عمرو الشيبانى ، قال : صلى بنا عبد الله الفجر ، فقرأ السورتين ، الآخرة منهما بنو إسرائيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾.

قوله : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ هو مصدر سبح . يقال : سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً ، مثل كفر اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه : التنزيه والبراءة لله من كل نقص . وقال سيبويه : العامل فيه فعل لا من لفظه، والتقدير: أنزه الله تنزيها. فوقع سبحان مكان تنزيها ، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء ، واشتمل الصماء. وقيل : هو علم للتسبيح كعثمان للرجل . وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره : أسبح الله سبحان ، ثم نزل منزلة الفعل ، وسد مسده . وقد قدمنا فى قوله : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ [البقرة: ٣٢] طرفاً من الكلام المتعلق بسبحان . والإسراء : قيل : هو سير الليل . يقال : سرى وأسرى . كسقى

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨) وتلادى : يعنى : من قديم ما أخذت من القرآن ، شبههن بتلاد المال ، أى قديمه وأصيله .

(٢) أحمد ٢/ ٦٨ ، ١٢٢ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٠) وقال : « حسن غريب » وفى الدعوات (٣٤٠٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٨) وفى التفسير (٤٦٤) والحاكم ٢/ ٤٣٤ وسكت عنه ، والذهبى أيضاً .

وأسقى . لغتان. وقد جمع بينهما الشاعر فى قوله :

حى النضيرة ربة الخدر　　　أسرت إلىَّ ولم تكن تسرى

وقيل : هو سير أول الليل خاصة . وإذا كان الإسراء لا يكون إلا فى الليل ، فلابد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة، فقيل : أراد بقوله : ﴿ ليلا ﴾ تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به فى بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة . ووجه دلالة ﴿ ليلا ﴾ على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية ، بخلاف ما إذا قلت : سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً . وقد استدل صاحب الكشاف على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة : « من الليل»[١] . وقال الزجاج : معنى ﴿ أسرى بعبده ليلا ﴾ سير عبده ، يعنى : محمداً ليلاً. وعلى هذا فيكون معنى أسرى: معنى سير، فيكون للتقييد بالليل فائدة . وقال : ﴿ بعبده ﴾ ولم يقل : بنبيه أو رسوله ، أو بمحمد تشريفاً له ﷺ. قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه ، لسماه الله سبحانه به فى هذا المقام العظيم ، والحالة العلية :

لا تدعنى إلا بيا عبدها　　　فإنه أشرف أسمائى

ادعاء بأسماء نبزاً فى قبائلها　　　كأن أسماء أضحت بعض أسمائى

﴿ من المسجد الحرام ﴾ قال الحسن وقتادة : يعنى : المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن . وقال عامة المفسرين: أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ ، فحملوا المسجد الحرام على مكة، أو الحرام ؛ لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كله مسجد . ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ وهو بيت المقدس. وسمى الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام . ولم يكن حينئذ وراءه مسجد . ثم وصف المسجد الأقصى بقوله : ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين . فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة. وفى ﴿ باركنا ﴾ بعد قوله: ﴿أسرى ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم . ثم ذكر العلة التى أسرى به لأجلها فقال : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ أى ما أراه الله سبحانه فى تلك الليلة من العجائب التى من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة فى جزء من الليل ﴿ إنه ﴾ سبحانه ﴿ هو السميع ﴾ بكل مسموع ، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ ﴿ البصير ﴾ بكل مبصر ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله .

وقد اختلف أهل العلم : هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه ، أو بروحه فقط ؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول . وذهب إلى الثانى طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن إسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان . وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا : كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح . واستدلوا

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٤٦، ٦٤٧ .

على هذا التفصيل بقوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ . فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء ، وقع بذاته لذكره .

والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس ، ثم إلى السموات . ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآنى وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة ، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شىء . ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط ، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبى ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدراً . فإن الإنسان قد يرى فى نومه ما هو مستبعد ، بل ما هو محال ، ولا ينكر ذلك أحد . وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ [الإسراء: ٦٠] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا : هو هذا الإسراء ، فالتصريح الواقع هنا بقوله : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾ والتصريح فى الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين . فإنه قد يقال لرؤية العين : رؤيا . وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبى ﷺ ركب البراق ؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب ؟ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان ؟

وقد اختلف أيضاً فى تاريخ الإسراء ، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة . وروى أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام . ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبى ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين . وقيل: بثلاث . وقيل : بأربع . ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء . وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك . وقد اختلفت الرواية عن الزهرى . وممن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة : الزهرى فى رواية عنه . وكذلك الحربى فإنه قال : أسرى بالنبى ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وقال ابن القاسم فى تاريخه : كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً . قال ابن عبد البر : لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا. وروى عن الزهرى أنه أسرى به بعد (١) مبعثه بسبعة أعوام . وروى عنه أنه قال : كان بعد (٢) مبعثه بخمس سنين. وروى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة . قيل : والمعنى : كرمنا محمداً بالمعراج وأكرمنا

(١، ٢) فى المخطوطة : « قبل » ، والصحيح ما أثبتناه .

موسى بالكتاب . ﴿**وجعلناه**﴾ أى ذلك الكتاب ، وقيل : موسى ﴿ **هدى لبنى إسرائيل** ﴾ يهتدون به ﴿ **أن لا تتخذوا** ﴾ قرأ أبوعمرو بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، أى لئلا يتخذوا ، والمعنى : آتيناه الكتاب لهداية بنى إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿ **من دونى وكيلا** ﴾ . قال الفراء : أى كفيلا بأمورهم . وروى عنه أنه قال : كافياً . وقيل : معناه : أى متوكلون عليه فى أمورهم . وقيل : شريكاً . ومعنى الوكيل فى اللغة : من توكل إليه الأمور .

﴿ **ذرية من حملنا مع نوح** ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء . ذكرهم سبحانه إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق . ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله : ﴿ **أن لا تتخذوا** ﴾ أى لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ، كقوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ﴾ [آل عمران : ٨٠] . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من فاعل ﴿ **تتخذوا** ﴾ . وقرأ مجاهد بفتح الذال . وقرأ زيد بن ثابت بكسرها . والمراد بالذرية هنا : جميع من فى الأرض ؛ لأنهم من ذرية من كان فى السفينة . وقيل : موسى وقومه من بنى إسرائيل . وهذا هو المناسب ؛ لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص ، والرفع على البدل وعلى الخبر ؛ فإنها كلها راجعة إلى بنى إسرائيل المذكورين . وأما على جعل النصب على أن ﴿ **ذرية** ﴾ هى المفعول الأول لقوله : ﴿ **لا تتخذوا**﴾ . فالأولى تفسير الذرية بجميع من فى الأرض من بنى آدم. ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾ أى نوحاً . وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أسرى بالنبى ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال : أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة (١) . وأخرج البيهقى عن عروة مثله . وأخرج البيهقى أيضاً عن السدى قال : أسرى برسول الله ﷺ قبل مهاجره بستة عشر شهراً (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **الذى باركنا حوله** ﴾ قال : أنبتنا حوله الشجر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ قال : جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعله رحمة لهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ألا تتخذوا من دونى وكيلا** ﴾ قال : شريكاً .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح** ﴾ قال : هو على النداء :

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٥٤ .

(٢) البيهقى ٢/ ٣٥٥ .

يا ذرية من حملنا مع نوح. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ذرية من حملنامع نوح ﴾ : « ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد : حام ، وسام ، ويافث ، وكوش ، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق» .

واعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطى [1] وغيرهما فى هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء على اختلاف ألفاظها ، وليس فى ذلك كثير فائدة ، فهى معروفة فى موضعها من كتب الحديث. وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، وهو مبحث آخر. والمقصود فى كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز ، وذكر أسباب النزول ، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية . وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة .

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (١١)﴾ .

قوله: ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب** ﴾ أى أعلمنا وأخبرنا ، أو حكمنا وأتممنا . وأصل القضاء : الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : أوحينا . ويدل عليه قوله : ﴿ **إلى بنى إسرائيل** ﴾ . ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال : قضينا بنى إسرائيل . ولو كان بمعنى حكمنا لقال: على بنى إسرائيل. ولو كان بمعنى أتممنا لقال: لبنى إسرائيل . والمراد بالكتاب : التوراة. ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه. وقيل: المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير : « فى الكتب » . وقرأ عيسى الثقفى: «لتفسدن فى الأرض » بفتح المثناة. ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور ، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا فى نفوسهم . والمراد بالفساد : مخالفة ما شرعه الله لهم فى التوراة . والمراد

---

(١) ابن كثير ٤/ ٢٣٩ ــ ٢٨٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٣٦ ــ ١٤٩ .

بالأرض : أرض الشام وبيت المقدس . وقيل : أرض مصر . واللام فى ﴿ **لتفسدن** ﴾ : جواب قسم محذوف . قال النيسابورى : أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن . وانتصاب ﴿**مرتين** ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف، أو على أنه فى نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه . والمرة الأولى : قتل شعياء أو حبس أرمياء ، أو مخالفة أحكام التوراة ، والثانية : قتل يحيى بن زكريا ، والعزم على قتل عيسى ﴿ **ولتعلن علوا كبيرا** ﴾ هذه اللام كاللام التى قبلها ، أى لتستكبرن عن طاعة الله ، ولتستعلن على الناس بالظلم والبغى مجاوزين للحد فى ذلك .

﴿ **فإذا جاء وعد أولاهما** ﴾ أى أولى المرتين المذكورتين ﴿ **بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد** ﴾ أى قوة فى الحروب وبطش عند اللقاء. قيل : هو بختنصر وجنوده. وقيل: جالوت . وقيل : جند من فارس . وقيل: جند من بابل . ﴿ **فجاسوا خلال الديار** ﴾ أى عاثوا وترددوا . يقال : جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى . ذكره ابن جرير والقتيبى . قال الزجاج : معناه طافوا خلال الديار ، هل بقى أحد لم يقتلوه ؟ قال: والجوس طلب الشىء باستقصاء. قال الجوهرى: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أى تخللوها ، كما يجوس الرجل للأخبار ، أى يطلبها . وكذا قال أبو عبيدة . وقال ابن جرير : معنى جاسوا : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين . وقال الفراء : معناه : قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لحسان :

وَمِنَّا الذى لاقى بسَيْفِ مُحَمَّدٍ فَجاسَ بِهِ الأعْداءَ عُرْض العَساكِرِ

وقال قطرب : معناه : نزلوا ، وأنشد قول الشاعر :

فجسنا ديارهم عنوة وأُبنَا بساداتهم موثقينا

وقرأ ابن عباس : « فحاسوا » بالحاء المهملة . قال أبو زيد : الحوس ، والجوس ، والعوس ، والهوس : الطوف بالليل . وقيل : الطوف بالليل هو الجوسان محركاً كذا قال أبو عبيدة . وقرئ : « خلل الديار » . ومعناه معنى خلال ، وهو : وسط الديار .﴿ **وكان** ﴾ ذلك ﴿ **وعدا مفعولا** ﴾ أى كائناً لا محالة .

﴿ **ثم رددنا لكم الكرة عليهم** ﴾ أى الدولة والغلبة والرجعة ، وذلك عند توبتهم . قيل : وذلك حين قتل داود جالوت . وقيل : حين قتل بختنصر . ﴿ **وأمددناكم بأموال وبنين** ﴾ بعد نهب أموالكم وسبى أبنائكم ، حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ **وجعلناكم أكثر نفيرا** ﴾ قال أبو عبيدة : النفير : العدد من الرجال . فالمعنى : أكثر رجالاً من عدوكم . والنفير : من ينفر مع الرجل من عشيرته . يقال : نفير ونافر مثل : قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع : نفر .

﴿ **إن أحسنتم** ﴾ أى أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ، ﴿ **أحسنتم لأنفسكم** ﴾ أى ثواب ذلك عائد إليكم ﴿ **وإن أسأتم** ﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب

منكم ، ﴿ فلها ﴾ ، أى فعليها . ومثله قول الشاعر :

فخر صريعاً لليدين وللفم

أى على اليدين والفم قال ابن جرير : اللام بمعنى إلى ، أى فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : ٥] أى إليها . وقيل : المعنى : فلها الجزاء أو العقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الإساءة . وهذا الخطاب قيل : هو لبنى إسرائيل الملابثين لما ذكر فى هذه الآيات . وقيل : لبنى إسرائيل الكائنين فى زمن محمد ﷺ . ومعناه : إعلامهم ما حل بسلفهم ، فليرتقبوا مثل ذلك . وقيل : هو خطاب لمشركى قريش .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أى حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة. والمرة الآخرة: هى قتلهم يحيى بن زكريا ، كما سبق. وقصة قتله مستوفاة فى الإنجيل ، واسمه فيه : يوحنا ، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله ، واسم الملك : لاخت . قاله ابن قتيبة . وقال ابن جرير : هيردوس . وجواب ﴿إذا﴾ محذوف ، تقديره : بعثناهم ، لدلالة جواب «إذا» الأولى عليه . و ﴿ ليسوؤوا وجوهكم ﴾ متعلق بهذا الجواب المحذوف ، أى ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة ، وتتبين فى وجوهكم الكآبة. وقيل : المراد بالوجوه : السادة منهم . وقرأ الكسائى : « لنسوء » بالنون ، على أن الضمير لله سبحانه . وقرأ أبى: « لنسوءن » بنون التأكيد. وقرأ أبو بكر، والأعمش وابن وثاب وحمزة وابن عامر : « ليسوء » بالتحتية والإفراد .قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته ، فقد تبرته . والضمير : لله أو الوعد ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ معطوف على ﴿ ليسوؤوا ﴾ . ﴿ كما دخلوه أول مرة وليتبروا ﴾ أى يدمروا ويهلكوا . وقال قطرب: يهدموا . ومنه قول الشاعر :

فما الناسُ إلاَّ عَامِلان : فَعَامِلٌ   يُتـبِّر ما يَبْنِى ، وآخر رافـع

وقرأ الباقون بالتحتية ، وضم الهمزة ، وإثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا . ﴿ ما علوا ﴾ أى ما غلبوا عليه من بلادكم ، أو مدة علوهم . ﴿ تتبيرا ﴾ أى تدميرا . ذكر المصدر إزالة للشك ، وتحقيقا للخبر .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ يا بنى إسرائيل بعد انتقامه منكم فى المرة الثانية . ﴿ وإن عدتم ﴾ للثالثة ﴿عدنا ﴾ إلى عقوبتكم . قال أهل السير : ثم إنهم عادوا إلى مالا ينبغى ، وهو تكذيب محمد ﷺ ، وكتمان ماورد من بعثه فى التوراة والإنجيل ، فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدى العرب . فجرى على بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وخيبر ما جرى من القتل ، والسبى ، والإجلاء ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وضرب الذلة والمسكنة. ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ وهو المحبس ، فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول . والمعنى : إنهم محبوسون فى جهنم لا يتخلصون عنها أبداً . قال الجوهرى : حصره يحصره حصراً : ضيق عليه وأحاط به . وقيل : فراشاً ومهاداً . وأراد ــ على هذا ــ بالحصير : الحصير الذى يفرشه

الناس .

﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ يعنى : القرآن ، يهدى الناس الطريقة التى هى أقوم من غيرها من الطرق ، وهى ملة الإسلام ، فالتى هى أقوم صفة لموصوف محذوف وهى الطريق . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات ، وهى توحيد الله ، والإيمان برسله . وكذا قال الفراء . ﴿ **ويبشر المؤمنين** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : «يبشر» بفتح الياء وضم الشين . وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الشين من التبشير ، أى يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً للمؤمنين . ﴿ **الذين يعملون الصالحات** ﴾ التى أرشد إلى عملها القرآن ﴿ **أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ أى بأن لهم .

﴿ **وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وأحكامها المبينة فى القرآن ﴿ **أعتدنا لهم عذابا أليما** ﴾ وهو عذاب النار . وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير : يخبر ، أى ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة . وقيل : معطوفة على قوله : ﴿ **أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ ويراد بالتبشير : مطلق الإخبار ، أو يكون المراد منه معناه الحقيقى ، ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين : الأولى : ما لهم من الثواب . والثانية : ما لأعدائهم من العقاب .

﴿ **ويدع الإنسان بالشر** ﴾ المراد بالإنسان هنا : الجنس ، لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده ، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له . ﴿ **دعاءه بالخير** ﴾ أى مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما . فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر ، هلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة . ومثل ذلك : ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير. . .﴾ [يونس:١١] وقد تقدم. وقيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة : هو الكافر يدعو لنفسه بالشر ، وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور كدعائه فى طلب المباح . وحذفت الواو من ﴿**ويدع الإنسان** ﴾ فى رسم المصحف ؛ لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله: ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق: ١٨] ، و ﴿ يمح الله الباطل ﴾ [الشورى: ٢٤] ، و ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين ﴾ [النساء : ١٤٦] ونحو ذلك . ﴿ **وكان الإنسان عجولاً** ﴾ أى مطبوعاً على العجلة . ومن عجلته : أنه : يسأل الشر كما يسأل الخير . وقيل : إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح . والمناسب للسياق هو الأول .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل** ﴾ قال: أعلمناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : أخبرناهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل** ﴾ قضينا عليهم . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على فى قوله: ﴿ **لتفسدن فى الأرض مرتين** ﴾ قال : الأولى : قتل زكريا . والآخرة : قتل يحيى .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية ، قال : كان أول الفساد قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط، ثم إن بنى إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط ، فأصابوا منهم ، فذلك قوله : ﴿ **ثم رددنا لكم الكرة عليهم** ﴾ (١) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، وبعث عليهم فى المرة الأخرى بختنصر ، فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **فجاسوا** ﴾ قال: فمشوا . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ﴿ **تتبيرا** ﴾ : تدميراً .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ قال : كانت الرحمة التى وعدهم بعث محمد ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ قال : فعادوا ، فبعث الله سبحانه عليهم محمداً ﷺ . فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (٣) . واعلم أنها قد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرتين ، وفى تعيين من سلطه الله عليهم ، وفى كيفية الانتقام منهم. ولا يتعلق بذلك كثير فائدة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** ﴾ قال : سجناً . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : معنى حصيرا : جعل الله مأواهم فيها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **حصيرا** ﴾ قال : فراشاً ومهاداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ قال : للتى هى أصوب .. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر » بالتخفيف. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير** ﴾ يعنى : قول الإنسان : اللهم العنه واغضب عليه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ قال : ضجراً ، لا صبر له على سراء ولا ضراء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن سلمان الفارسى ، قال : أول ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر ، قال: يا رب أعجل قبل الليل . فذلك قوله: ﴿ **وكان الإنسان عجولا**﴾ (٤) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ

(١) ابن جرير ١٥/ ١٧ وفى المطبوعة : « فرددنا » .
(٢) ابن جرير ١٥/ ٣٥ .
(٣) عبد الرزاق (٩٨٨٢) وابن جرير ١٥/ ٣٥ .
(٤) ابن أبى شيبة (١٧٧٦٠) وابن جرير ١٥/ ٣٧ .

عَلَيْكَ حَسِيباً ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴿١٧﴾ ﴾ .

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد ، أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين** ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التى تحار فى وصفها الأفهام . ومعنى كونهما آيتين : أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته . وقدم الليل على النهار لكونه الأصل . ﴿ **فمحونا آية الليل** ﴾ أى طمسنا نورها . وقد كان القمر كالشمس فى الإنارة والضوء . قيل : ومن آثار المحو السواد الذى يرى فى القمر . وقيل : المراد بمحوها : أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة . وليس المراد : أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك . ﴿ **وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ أى جعل سبحانه شمسه مضيئة تبصر فيها الأشياء . قال أبو عمرو بن العلاء والكسائى : هو من قول العرب : أبصر النهار : إذا صار بحالة يبصر بها . وقيل : مبصرة للناس من قوله : أبصره فبصر . فالأول : وصف لها بحال أهلها ، والثانى : وصف لها بحال نفسها . وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل والآية التى هى النهار كقولهم نفس الشىء وذاته .

﴿ **لتبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ أى لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف فى وجوه المعاش . واللام متعلق بقوله: ﴿ **وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ أى جعلناها لتبتغوا فضلاً من ربكم ، أى رزقاً ، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار . ولم يذكر هنا السكون فى الليل اكتفاء بما قاله فى موضع آخر ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ [يونس: ٦٧] .

ثم ذكر مصلحة أخرى فى ذلك الجعل فقال : ﴿ **ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً ، أعنى : محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لا بأحدهما فقط كالأول . إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب إلا باختلاف الجديدين ، ومعرفة الأيام والشهور والسنين . والفرق بين العدد والحساب : أن العدد : إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شىء . والحساب : إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص . فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها، فذلك هو العدد . وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر ، قد يحصل كل شهر من عدة أيام ، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات، قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق، فذلك هو الحساب .

﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ أى كل ما تفتقرون إليه فى أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس. وعند ذلك تنزاح العلل ، وتزول الأعذار ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ [الأنفال : ٤٢] . ولهذا قال : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب : الحظ . ويقال له : البخت . فالطائر : ما وقع للشخص فى الأزل بما هو نصيبه من العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة . كأن طائراً يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ، ولا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص فى وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص. وقال الأزهرى : الأصل فى هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم، علم المطيع من ذريته والعاصى، فكتب ما علمه منهم أجمعين ، وقضى سعادة من علمه مطيعاً ، وشقاوة من علمه عاصياً ، فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه . وذلك قوله : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ أى ما طار له فى علم الله ، وفى عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس . قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم ، كلزوم القلادة العنق .

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ قرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب: « ويخرج » بالمثناة التحتية المفتوحة ، وبالراء المضمومة على معنى : ويخرج له الطائر . و ﴿ كتابا ﴾ منصوب على الحال. ويجوز أن يكون المعنى : يخرج له الطائر فيصير كتاباً . وقرأ يحيى بن وثاب: « يُخرِج » بضم الياء وكسر الراء، أى يخرج الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السميفع [1] ، وروى أيضاً عن أبى جعفر : «يُخرج » بضم الياء ، وفتح الراء على البناء للمفعول ، أى ويخرج له الطائر كتابا . وقرأ الباقون :﴿ ونخرج﴾ بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه. و﴿كتابا﴾ مفعول به . واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى : ﴿ألزمناه ﴾ . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر : «يلقاه » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف . وقرأ الباقون بفتح الياء ، وسكون اللام ، وتخفيف القاف . وإنما قال سبحانه : ﴿يلقاه منشورا ﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة وللتوبيخ على السيئة .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ أى نقول له : اقرأ كتابك . أو قائلين له . قيل : يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئا ومن لم يكن قارئا. ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ الباء فى : ﴿ بنفسك ﴾ زائدة . و ﴿ حسيبا ﴾ تمييز ، أى حاسباً . قال سيبويه : ضريب القداح بمعنى: ضاربها ، وصريم بمعنى :صارم . ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى: الكافى . ثم وضع موضع الشهيد، فعدى بـ « على » ، والنفس بمعنى :الشخص . ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى: المحاسب ، كالشريك والجليس .

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده

---

(١) فى المطبوعة : « السميقع » والصواب ما أثبتناه .

يختصان بفاعلهما، لا يتعديان منه إلى غيره . فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به ، وترك ما نهاه الله عنه ، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه. ﴿ **ومن ضل** ﴾ عن طريق الحق ، فلم يفعل ما أمر به ، ولم يترك ما نهى عنه ﴿ **فإنما يضل عليها** ﴾ أى فإن وبال ضلاله واقع على نفسه ، لا يجاوزها . فكل أحد محاسب عن نفسه ، مجزى بطاعته ، معاقب بمعصيته . ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ والوزر : الإثم . يقال : وزر يزر وزراً ووزرة ، أى إثما ، والجمع أوزار. والوزر: الثقل. ومنه : ﴿ يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] . أى أثقال ذنوبهم . ومعنى الآية : لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى ، حتى تخلص الأخرى عن وزرها، وتؤخذ به الأولى . وقد تقدم مثل هذا فى الأنعام . قال الزجاج فى تفسير هذه الآية : إن الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره .

﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدى بهدايته ، والضال بضلاله ، وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره ، ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم . والظاهر : أنه لا يعذبهم ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل . وبه قالت طائفة من أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن المنفى هنا هو عذاب الدنيا ، لا عذاب الآخرة .

﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا** ﴾ : اختلف المفسرون فى معنى ﴿ **أمرنا** ﴾ على قولين :

الأول : أن المراد به : الأمر الذى هو نقيض النهى . وعلى هذا اختلفوا فى المأمور به . فالأكثر على أنه : الطاعة والخير. وقال فى الكشاف : معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا [(١)] . وأطال الكلام فى تقرير هذا ، وتبعه المقتدون به فى التفسير . وما ذكر هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل : أمرته فعصانى . فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شىء غير المعصية ، لأن المعصية منافية للأمر ، مناقضة له . فكذلك : أمرته ففسق ، يدل على أن المأمور به شىء غير الفسق؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به . فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به ويناقضه .

القول الثانى : أن معنى ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ : أكثرنا فساقها . قال الواحدى : تقول العرب : أمر القوم ، إذا كثروا . وأمرهم الله : إذا أكثرهم .

وقد قرأ أبو عثمان النهدى وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن : « أمّرنا » بتشديد الميم ، أى جعلناهم أمراء مسلطين . وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حيوة الشامى ويعقوب وخارجة عن نافع ، وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعلى وابن عباس : « آمرنا » بالمد والتخفيف ، أى : أكثرنا جبابرتها وأمراءها . قاله الكسائى. وقال أبو عبيدة : « آمرته » بالمد،

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٥٤ .

و « أمرته » لغتان بمعنى كثرته . ومنه الحديث : « خير المال مهرة مأمورة »(١) أى كثيرة النتاج والنسل . وكذا قال ابن عزيز . وقرأ الحسن أيضا ويحيى بن يعمر : « أمرنا » بالقصر ، وكسر الميم على معنى فعلنا . ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى : أكثرنا . وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد ، وأنكره الكسائى . وقال : لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد . قال فى الصحاح : وقال أبو الحسن : أمر ماله بالكسر ، أى كثر ، وأمر القوم ، أى كثروا . ومنه قول لبيد :

إن يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وَ إِنْ أمِرُوا يوماً يكن للهَلاكِ والفَنَدِ

وقرأ الجمهور : ﴿ أمرنا ﴾ من الأمر . ومعناه ما قدمنا فى القول الأول . ومعنى : ﴿مترفيها ﴾ : المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش . والمفسرون يقولون فى تفسير المترفين : إنهم الجبارون المتسلطون . والملوك الجائرون . قالوا : وإنما خصوا بالذكر ؛ لأن من عداهم أتباع لهم . ومعنى ﴿ فسقوا فيها ﴾ : خرجوا عن الطاعة ، وتمردوا فى كفرهم ، لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش . ﴿ فحق عليها القول ﴾ أى ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم. ﴿ فدمرناها تدميرا ﴾ أى تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشدته وعظم موقعه. وقد قيل فى تأويل ﴿ أمرنا ﴾ : بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق ، وهو إدرار النعم عليهم . وقيل أيضاً: إن المراد بـ ﴿ أردنا أن نهلك قرية ﴾ أنه قرب إهلاك قرية ، وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه .

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية ، فقال : ﴿ وكم أهلكنا من القرون ﴾ أى كثيراً ما أهلكنا منهم ، فـ « كم » مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ و ﴿ من القرون ﴾ بيان لـ « كم » وتمييز له ، أى كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود ، فحل بهم البوار ، ونزل بهم سوط العذاب . وفيه تخويف لكفار مكة . ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة فقال : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ . قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به . كقولك : كفاك ، وأكرم به رجلاً وطاب بطعامك طعاما . ولا يقال : قام بأخيك ، وأنت تريد : قام أخوك . وفى الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة ، وتخويف شديد لأهل المعصية ؛ لأن العلم التام ، والخبرة الكاملة، والبصيرة النافذة تقتضى إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك . والمراد بكونه سبحانه ﴿ خبيرا بصيرا ﴾ : أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً ، لا تخفى عليه منها خافية .

وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة ، وابن عساكر عن سعيد المقبرى ؛ أن عبد الله بن سلام سأل النبى ﷺ عن السواد الذى فى القمر ، فقال :« كانا شمسين ، قال الله : ﴿ وجعلنا

(١) أحمد ٣/ ٤٦٨ والبيهقى ١٠/ ٦٤ وشرح السنة للبغوى ١٠/ ٣٨٧ .

الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل﴾ فالسواد الذى رأيت هو المحو » [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، معنى هذا بأطول منه . قال السيوطى: وإسناده واه [(٢)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الانبارى فى المصاحف عن على فى قوله : ﴿ **فمحونا آية الليل** ﴾ قال : هو السواد الذى فى القمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ ، قال : منيرة . ﴿ **لتبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ قال : جعل لكم سبحاً طويلاً. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فصلناه** ﴾، قال : بيناه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طائر كل إنسان فى عنقه » [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ قال : سعادته وشقاوته ، وما قدر الله له وعليه ، فهو لازمه أين كان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أنس فى قوله: ﴿ **طائره** ﴾ قال : كتابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : عمله . ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا** ﴾ قال : هو عمله الذى أحصى عليه ، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل ، فقرأه منشوراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **اقرأ كتابك** ﴾ قال : سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً فى الدنيا. وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد عن عائشة فى قوله : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ قال : سألت خديجة عن أولاد المشركين ، فقال : « هم من آبائهم » . ثم سألته بعد ذلك ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . ثم سألته بعدما استحكم الإسلام، فنزلت : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ ، فقال : « هم على الفطرة » ، أو قال : «فى الجنة » . قال السيوطى : وسنده ضعيف [(٤)] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ سئل ، فقيل له : يارسول الله ، إنا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين . قال : « هم منهم » [(٥)] . وفى ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل . وقد ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم فى المسألة ، فليرجع إليها[(٦)] .

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٦٢ .
(٢) السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٦٦ .
(٣) أحمد ٣/ ٣٦٠ وابن جرير ١٥/ ٣٩ .
(٤) السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٦٨ .
(٥) البخارى فى الجهاد (٣٠١٢ ، ٣٠١٣) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٥/ ٢٦ ، ٢٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٧٢) والترمذى فى السير (١٥٧٠) وقال: « حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦٢٢ ، ٨٦٢٤) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٣٩) . وكلهم عن الصعب بن جثامة .
(٦) ابن كثير ٤/ ٢٨٨ ـ ٢٩٥ .

وأخرج إسحاق بن راهويه وأحمد وابن حبان ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع ؛ أن النبى ﷺ قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى الفترة » ثم قال : « فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار » . قال : « فو الذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً . ومن لم يدخلها ، يسحب إليها » ، وإسناده عند أحمد هكذا : حدثنا على بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن أبى قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع[١] . وأخرج نحوه إسحاق ابن راهويه وأحمد وابن مردويه عن أبى هريرة . وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة، عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة [٢] . وأخرج قاسم بن أصبغ والبزار وأبو يعلى ، وابن عبد البر فى التمهيد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وجعل مكان الأحمق المعتوه [٣] . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والطبرانى وأبو نعيم عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً ، وبالهالك فى الفترة، وبالهالك صغيراً » فذكر معناه مطولاً [٤] .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ قال : بطاعة الله ، فعصوا [٥] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن شهر بن حوشب، قال: سمعت ابن عباس يقول فى الآية: ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ بحق فخالفوه ، فحق عليهم بذلك التدمير. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية ، قال : سلطنا شرارنا فعصوا ، فإذا فعلوا ذلك ، أهلكناهم بالعذاب، وهو كقوله : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ [الأنعام : ١٢٣]. وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال : كنا نقول للحى إذا كثروا فى الجاهلية : قد أمر بنو فلان [٦] .

---

(١) أحمد ٤/ ٢٤ وابن حبان (٧٣١٣) والطبرانى (٨٤١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١٩ : « رجال أحمد فى طريق الأسود بن سريع وأبى هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما » .

(٢) أحمد ٤/ ٢٤ وارجع لما قاله الهيثمى فى المجمع فى الحديث السابق فالكلام فى الحديثين معا .

(٣) أبو يعلى (٤٢٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١٩ : « فيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس ، وبقية رجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

(٤) الطبرانى ٢٠/ ٨٣ (١٥٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١٩ ، ٢٢٠ : « فيه عمرو بن واقد وهو متروك عند البخارى وغيره ورمى بالكذب وقال محمد بن المبارك الصورى : كان يتبع السلطان وكان صدوقا ، وبقية رجال الكبير رجال الصحيح » .

(٥) ابن جرير ١٥/ ٤٢ .

(٦) البخارى فى التفسير (٤٧١١) .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

قوله : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة : ﴿ **كل إنسان ألزمناه** ﴾ ومن جملة: ﴿ **من اهتدى** ﴾ ، والمراد بالعاجلة : المنفعة العاجلة ،أو الدار العاجلة ، والمعنى : من كان يريد بأعمال البر أوبأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكفرة والفسقة ، والمراؤون ، والمنافقون ﴿ **عجلنا له** ﴾ أى عجلنا لذلك المريد ﴿ **فيها** ﴾ أى فى تلك العاجلة، ثم قيد المعجل بقيدين : الأول : قوله : ﴿ **ما نشاء** ﴾ أى ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها ، لا ما يشاؤه ذلك المريد . ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا مالا ينالون ، ويتمنون مالا يصلون إليه . والقيد الثانى : قوله: ﴿ **لمن نريد** ﴾ أى لمن نريد التعجيل له منهم مااقتضته مشيئتنا . وجملة : ﴿ **لمن نريد** ﴾ بدل من الضمير فى : « له » بإعادة الجار بدل البعض من الكل، لأن الضمير يرجع إلى « من » وهو للعموم.وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة ، كقوله سبحانه : ﴿ ومن [1] كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ [هود:١٥] . وقد قيل : إنه قرئ : « ما يشاء » بالياء التحتية . ولا ندرى من قرأ بذلك من أهل الشواذ . وعلى هذه القراءة فقيل : الضمير لله سبحانه ، أى ما يشاؤه الله ، فيكون معناها معنى القراءة بالنون. وفيه بعد لمخالفته لما قبله. وهو ﴿**عجلنا**﴾ وما بعده وهو ﴿ **لمن نريد**﴾ . وقيل : الضمير راجع إلى ﴿**من**﴾ فى قوله : ﴿ **من كان يريد** ﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله : ﴿**لمن نريد** ﴾ أى عجلنا له ما يشاؤه ، لكن بحسب إرادتنا ، فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا إذا أراد الله له ذلك .

ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التى لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم . ولهذا قال: ﴿ **ثم جعلنا له جهنم** ﴾ أى جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿ **يصلاها** ﴾ فى محل

(١) فى المطبوعة : « من » بدون واو العطف .

نصب على الحال ، أى يدخلها ﴿ **مذموما مدحورا** ﴾ أى مطروداً من رحمة الله ، مبعداً عنها ، فهذه عقوبته فى الآخرة ، مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له . فأين حال هذا الشقى من حال المؤمن التقى ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع ، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه ، وهو مع ذلك عامل للآخرة ، منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال : ﴿ **ومن أراد الآخرة** ﴾ أى أراد بأعماله الدار الآخرة ، ﴿ **وسعى لها سعيها** ﴾ أى السعى الحقيق بها اللائق بطالبها ، وهو الإتيان بما أمر به ، وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب،وكان الإتيان به على القانون الشرعى من دون ابتداع ولا هوى ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ بالله إيماناً صحيحاً ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ [المائدة : ٢٧] . والجملة فى محل نصب على الحال . والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها ، وخبره : ﴿ **كان سعيهم مشكورا** ﴾ عند الله ، أى مقبولاً غير مردود . وقيل : مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة . فقد اعتبر سبحانه فى كون السعى مشكوراً أموراً ثلاثة : الأول : إرادة الآخرة . الثانى : أن يسعى لها السعى الذى يحق لها .والثالث: أن يكون مؤمناً .

ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال :﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك** ﴾ التنوين فى « كلاً » عوض عن المضاف إليه ، والتقدير : كل واحد من الفريقين نمد ، أى نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ، نرزق المؤمنين والكفار ، وأهل الطاعة وأهل المعصية ، لا تؤثر معصية العاصى فى قطع رزقه ، وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا . وما أنعم به فى الأولى والأخرى على من يريد الآخرة . وفى قوله : ﴿ **من عطاء ربك** ﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل ، وهو متعلق بـ ﴿ **نمد** ﴾ ، ﴿ **وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾، أى: ممنوعا . يقال : حظره يحظره حظراً : منعه. وكل ما حال بينك وبين شيء ، فقد حظره عليك. و﴿ **هؤلاء** ﴾ بدل من «كلاً » و ﴿ **هؤلاء** ﴾ معطوف على البدل . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أنه يعطى المسلم والكافر وأنه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال : ﴿ **هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك** ﴾.

﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ . ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار. وهذه الجملة مقررة لما مر من الإمداد ، وموضحة له . والمعنى : انظر كيف فضلنا فى العطايا العاجلة بعض العباد على بعض. فمن غنى وفقير ، وقوى وضعيف ، وصحيح ومريض ، وعاقل وأحمق ،وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها. ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل فى درجات الآخرة إلى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا . وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار . فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . وقيل: المراد : أن المؤمنين يدخلون الجنة ، والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين . وحاصل المعنى : أن التفاضل

فى الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل فى الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما .

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر فى قوله : ﴿ **وسعى لها سعيها وهو مؤمن** ﴾ أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذى هو التوحيد ، فقال : ﴿ **لا تجعل مع الله إلها آخر** ﴾ ، والخطاب للنبى ﷺ ، والمراد به: أمته ، تهييجاً وإلهاباً، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه . وقيل : هو على إضمار القول . والتقدير : قل لكل مكلف: لا تجعل . وانتصاب ﴿**تقعد**﴾ على جواب النهى ، والتقدير : لا يكن منك جعل فقعود . ومعنى ﴿ **تقعد** ﴾ : تصير ، من قولهم : شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة . وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام . وقيل : هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فإن السعى فيه إنما يتأتى بالقيام ، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب . وقيل : إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه ، فالقعود على هذا حقيقة . وانتصاب ﴿ **مذموما مخذولا** ﴾ على خبرية تقعد أو على الحال ، أى فتصير جامعاً بين الأمرين : الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحى عباده ، والخذلان لك منه سبحانه أو حال كونك جامعا بين الأمرين .

ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد ، أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال : ﴿**وقضى ربك** ﴾ أى أمر أمراً جزماً ، وحكماً قطعاً وحتماً مبرماً ﴿ **أن لا تعبدوا** ﴾ أى بأن لا تعبدوا ، فتكون « أن » ناصبة ، ويجوز أن تكون مفسرة، و « لا » نهى . وقرئ : « ووصى ربك » أى وصى عباده بعبادته وحده ، ثم أردفه بالأمر ببر الوالدين ، فقال : ﴿**وبالوالدين إحسانا** ﴾ أى وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، أو وأحسنوا بهما إحسانا ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿**بالوالدين** ﴾ بـ ﴿ **إحسانا** ﴾ لأن المصدر لا يتقدم عليه ما هو متعلق به . قيل : ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر فى وجود المتولد بينهما ، وفى جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى . وهكذا جعل سبحانه فى آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره ، فقال : ﴿أن اشكر لى ولوالديك ﴾ [لقمان : ١٤] .

ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر، لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها ، فقال: ﴿ **إما يبلغن عندك الكبرأحدهما أو كلاهما** ﴾ : « إما » مركبة من « إن » الشرطية و « ما » الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ، ثم أدخلت نون التوكيد فى الفعل لزيادة التقرير ، كأنه قيل : إن هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة . قال النحويون : إن الشرط يشبه النهى من حيث الجزم وعدم الثبوت . فلهذا صح دخول النون المؤكدة عليه . وقرأ حمزة والكسائى : « يبلغان » . قال الفراء : ثنى لأن الوالدين قد ذكرا قبله ، فصار الفعل على عددهما . ثم قال : ﴿ **أحدهما أو كلاهما** ﴾ على الاستئناف. وأما على قراءة: ﴿ **يبلغن** ﴾ فأحدهما فاعل بالاستقلال . وقوله : ﴿ **أو كلاهما** ﴾ فاعل أيضاً ، لكن لا بالاستقلال ، بل بتبعية العطف ، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة « يبلغان » بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين فى الفعل . ويكون

﴿**كلاهما**﴾ عطفاً على البدل . ولا يصح جعل ﴿ **كلاهما** ﴾ تأكيداً للضمير ، لاستلزام العطف المشاركة ومعنى ﴿ **عندك** ﴾ : فى كنفك وكفالتك . وتوحيد الضمير فى ﴿ **عندك** ﴾ و ﴿ **لا تقل** ﴾ وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهى ، ومأمور بما فيه الأمر . ومعنى : ﴿ **فلا تقل لهما أف** ﴾ : لا تقل لواحد منهما فى حالتى الاجتماع والانفراد . وليس المراد حالة الاجتماع فقط .

وفى ﴿ **أف** ﴾ لغات : ضم الهمزة مع الحركات الثلاث فى الفاء ، وبالتنوين وعدمه ، وبكسر الهمز . والفاء بلا تنوين. وأفى ممالا . وأفه بالهاء . قال الفراء : تقول العرب : فلان يتأفف من ريح وجدها . أى يقول: أف أف . وقال الأصمعى: الأف : وسخ الأذن. والتف : وسخ الأظفار . يقال ذلك عند استقذار الشىء . ثم كثر حتى استعملوه فى كل ما يتأذون به . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى أن الأفف : الضجر . وقال القتيبى : أصله : أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه ، نفخ فيه ليزيله . فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل : أف . ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم . وقال الزجاج : معناه : النتن . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأف : وسخ بين الأظفار . والتف : قلامتها . والحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال ، أو صوت ينبئ عن ذلك . فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما . وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر فى الأصول .

﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ النهر : الزجر والغلظة ، يقال : نهره وانتهره : إذا استقبله بكلام يزجره . قال الزجاج : معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً فى وجوههما . ﴿ **وقل لهما** ﴾ بدل التأفيف والنهر . ﴿ **قولا كريما** ﴾ أى ليناً لطيفاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأدب والحياء والاحتشام .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية ، خفض لها جناحه . فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير . فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك . والثانى: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع ، نشر جناحه . وإذا أراد النزول ، خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع . وفى إضافة الجناح إلى الذل وجهان : الأول : أنها كإضافة حاتم إلى الجود فى قولك : حاتم الجود . فالأصل فيه : الجناح الذليل . والثانى : سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً . وقرأ الجمهور : ﴿ **الذل** ﴾ بضم الذال من ذل يذل ذلاً وذلة ومذلة فهو ذليل . وقرأ سعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير بكسر الذال . وروى ذلك عن ابن عباس وعاصم من قولهم : دابة ذلول . بينة الذل ، أى منقادة سهلة لا صعوبة فيها .

و ﴿ **من الرحمة** ﴾ فيه معنى التعليل ، أى من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . ثم كأنه قال له سبحانه : ولا تكتف برحمتك التى لا دوام لها ولكن ﴿ **قل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ والكاف فى محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى رحمة مثل تربيتهما لى ، أو مثل رحمتهما لى . وقيل : ليس المراد رحمة مثل الرحمة ، بل الكاف لاقترانهما فى الوجود ، فلتقع هذه كما وقعت تلك . والتربية :التنمية . ويجوز أن يكون الكاف للتعليل ، أى لأجل تربيتهما لى ، كقوله: ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : ١٩٨]. ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقول وتقف عندها شعورهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ قال : من كان يريد بعمله الدنيا. ﴿ **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ ذاك به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن الحسن فى قوله : ﴿ **كلا نمد** ﴾ الآية ، قال : كل يرزق الله فى الدنيا البر والفاجر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية ، قال : يرزق الله من أراد الدنيا ، ويرزق من أراد الآخرة وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : ﴿ **محظورا** ﴾ : ممنوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد مثله .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن سلمان عن النبى ﷺ ، قال : «ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة ، فارتفع بها إلا وضعه الله فى الآخرة درجة أكبر منها وأطول » ، ثم قرأ : ﴿ **وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ . وهو من رواية زاذان عن سلمان (١) . وثبت فى الصحيحين : « أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر فى أفق السماء » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مذموما** ﴾ ، يقول : ملوماً .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ : « ووصى ربك » مكان ﴿ **وقضى** ﴾ وقال : التزقت الواو والصاد ، وأنتم تقرؤونها : ﴿ **وقضى ربك**﴾. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه مثله . وأخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أيضاً مثله . وزاد : « ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد » . وأقول : إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر . وهو وإن كان أحد معانى مطلق القضاء كما فى قوله : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ [يوسف : ٤١] ، وقوله : ﴿ فإذا قضيتم

---

(١) الطبرانى (٦١٠١) وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ٢٠٤ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٢ : « فيه أبو الصباح عبد الغفور وهو متروك » .

(٢) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) وفى الرقاق (٦٥٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١/ ١١) والترمذى فى المناقب (٣٦٥٨) وقال : «حديث حسن » وابن ماجة فى المقدمة (٩٦) وكلهم عن أبى سعيد الخدرى .

مناسككم ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ، ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ [النساء : ١٠٣] ولكنه هاهنا بمعنى الأمر . وهو أحد معانى القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه . ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم ألا يقع الشرك من المشركين. ومن معانى مطلق القضاء معان أخر غير هذين المعنيين، كالقضاء بمعنى : الخلق. ومنه : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : ١٢] . وبمعنى : الإرادة كقوله : ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [آل عمران : ٤٧] . وبمعنى : العهد كقوله : ﴿وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ [القصص : ٤٤] .وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقضى ربك** ﴾ قال : أمر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : عهد ربك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ يقول : براً . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا تقل لهما أف** ﴾ لما تميط عنهما من الأذى : الخلاء ، والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول . وأخرج الديلمى عن الحسين بن على مرفوعاً : لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرمه [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد فى قوله : ﴿ **وقل لهما قولاً كريما** ﴾ قال : إذا دعواك ، فقل : لبيكما وسعديكما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ، قال : قولاً ليناً سهلاً . وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة فى قوله : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل** ﴾ قال : يلين لهما حتى لا يمتنع من شىء أحباه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية ، قال : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقل رب ارحمهما** ﴾ ، ثم أنزل الله بعد هذا ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى﴾ [التوبة:١١٣]. وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه نحوه . وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وهى معروفة فى كتب الحديث .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

(١) الديلمى فى الفردوس (٥٠٦٣) .

مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾.

قوله : ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم** ﴾ أى بما فى ضمائركم من الإخلاص وعدمه فى كل الطاعات ، ومن التوبة من الذنب الذى فرط منكم أو الإصرار عليه . ويندرج تحت هذا العموم ما فى النفس من البر والعقوق اندراجاً أولياً . وقيل : إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البر . ويحرم على الأولاد من العقوق . والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ قاصدين الصلاح والتوبة من الذنب ، والإخلاص للطاعة فلا يضركم ما وقع من الذنب الذى تبتم عنه . ﴿ **فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ أى الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة ، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص . ﴿ **غفورا** ﴾ لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد . فمن تاب ، تاب الله عليه . ومن رجع إلى الله ، رجع الله إليه .

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ ، والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة ، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما فى قوله : ﴿ **وقضى ربك** ﴾ والمراد بذى القربى : ذو القرابة . وحقهم هو صلة الرحم التى أمر الله بها ، وكرر التوصية فيها . والخلاف بين أهل العلم فى وجوب النفقة للقرابة ، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد ، والأولاد على الوالدين معروف . والذى ينبغى الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال و﴿**المسكين**﴾ معطوف على ﴿ **ذا القربى** ﴾ وفى هذا العطف دليل على أن المراد بالحق : الحق المالى و ﴿ **ابن السبيل** ﴾ معطوف على المسكين ، والمعنى : وآت من اتصف بالمسكنة أو بكونه من أبناء السبيل حقه . وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل فى البقرة وفى التوبة . والمراد فى هذه الآية : التصدق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل ، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض ، فإنهما من الأصناف الثمانية التى هى مصرف الزكاة .

ثم لما أمر سبحانه بما أمر به هاهنا ، نهى عن التبذير فقال: ﴿ **ولا تبذر تبذيرا** ﴾ التبذير : تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، وهو الإسراف المذموم ، لمجاوزته للحد المستحسن شرعاً فى الإنفاق ، أو هو الإنفاق فى غير الحق ، وإن كان يسيراً . قال الشافعى : التبذير : إنفاق المال فى غير حقه . ولا تبذير فى عمل الخير . قال القرطبى بعد

حكايته لقول الشافعى هذا : وهذا قول الجمهور [(١)] . قال أشهب عن مالك : التبذير : هو أخذ المال من حقه ، ووضعه فى غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله : ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهى عن التبذير . والمراد بالإخوة : المماثلة التامة . وتجنب مماثلة الشيطان ولو فى خصلة واحدة من خصاله واجب ، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة . والإسراف فى الإنفاق من عمل الشيطان . فإذا فعله أحد من بنى آدم ، فقد أطاع الشيطان واقتدى به . ﴿ **وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾ أى كثير الكفران ، عظيم التمرد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شرا ،ولا يأمر إلا بعمل الشر ، ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه . وفى هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين . ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور . فاقتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان . وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان . وكل شيطان كفور . فالمبذر كفور .

﴿ **وإما تعرضن عنهم** ﴾ قد تقدم قريباً أن أصل « إما » هذه مركب من « إن » الشرطية و«ما » الإبهامية ، وأن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهى ، أى إن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك إلى ذلك الإعراض ﴿ **ابتغاء رحمة من ربك** ﴾ أى لفقد رزق من ربك ، ولكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذى هو فقد الرزق ، لأن فاقد الرزق مبتغ له ، والمعنى : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿ **فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ أى قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل ، أوالاعتذار المقبول . قال الكسائى : يسرت له القول ، أى لينته . قال الفراء : معنى الآية : إن تعرض عن السائل إضاقة وإعساراً ﴿ **فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ : عدهم عدة حسنة . ويجوز أن يكون المعنى : وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك ، فقل لهم قولا ميسوراً . وليس المراد هنا الإعراض بالوجه . وفى هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون ، وبما يردون. ولقد أحسن من قال :

إِنْ لا يكُنْ وَرِقٌ يـَوْماً أَجـُودُ بِهـا ... للسَائلين فـإِنِّى ليـّن العـُودِ
لا يَعْدم السَائلُون الخَيْرَ مِنْ خـُلقِى ... إِمَّا نَوالٌ وإِمَّا حُسنُ مـَرْدُودِ

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التبذير ، بين أدب الإنفاق فقال : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾ وهذا النهى يتناول كل مكلف ، سواء كان الخطاب للنبى ﷺ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمراد : النهى للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ، ولا يوسع فى الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يكون به مسرفاً ، فهو نهى عن جانبى الإفراط والتفريط. ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط . وهو العدل الذى ندب الله إليه .

---

(١) القرطبى ٦/ ٣٨٦٣ .

ولا تك فيها مُفْرِطاً أومُفَرِّطاً   كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقد مثل الله سبحانه فى هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه . بحيث لا يستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحد فى التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدى عليه . وفى هذا التصوير مبالغة بليغة . ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهى عنهما فقال : ﴿ **فتقعد ملوما** ﴾ عن الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿ **محسورا** ﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف ، أى منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر . والمحسور فى الأصل : المنقطع عن السير ، من حسره السفر : إذا بلغ منه . والبعير الحسير : هو الذى ذهبت قوته ، فلا انبعاث به . ومنه قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ [الملك:٤]، أى : كليل منقطع . وقيل : معناه : نادماً على ما سلف . فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة . وفيه نظر، لأن الفاعل من الحسرة : حسران . ولا يقال : محسور إلا للملوم .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضاقة ليس لهوانهم على الله سبحانه ، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أى يوسعه على بعض ، ويضيقه على بعض لحكمة بالغة ، لا لكون من وسع له رزقه مكرماً عنده ، ومن ضيقه عليه هائنا لديه . قيل : ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذى لاتفنى خزائنه ، فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا . ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله : ﴿ **إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ أى يعلم ما يسرون وما يعلنون ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ، فهو الخبير بأحوالهم ، البصير بكيفية تدبيرهم فى أرزاقهم . وفى هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده . فلذلك قال بعدها : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ أملق الرجل : لم يبق له إلا الملقات ، وهى الحجارة العظام الملس ، قال الهذلى يصف صائداً :

أتيح لها أقيدر ذو خشيف   إذا سامت على الملقات ساما

الأقيدر : تصغير الأقدر وهو الرجل القصير ، والخشيف من الثياب : الخلق . وسامت : مرت . ويقال : أملق: إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده . قال أوس :

وأملق ما عندى خطوب تنبل

نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك . ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له . فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده ، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء ، فقال : ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع . وقد مر مثل هذه الآية فى الأنعام . ثم علل سبحانه النهى عن قتل الأولاد لذلك بقوله : ﴿ **إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾ . قرأ الجمهور بكسر الخاء

وسكون الطاء ، وبالهمز المقصور . وقرأ ابن عامر : « خطأ » بفتح الخاء والطاء والقصر فى الهمز . يقال : خطئ فى دينه خطئاً : إذا أثم . وأخطأ : إذا سلك سبيل خطأ عامدا أو غير عامد . قال الأزهرى : خطئ يخطأ خطئا ، مثل : أثم يأثم إثما ، إذا تعمد الخطأ. وأخطأ : إذا لم يتعمد إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعِينى إنَّمَا خَطَئِى وصَوْبِى   علىَّ ، وأنَّ ما أهلكتُ ، مالُ (١)

والخطأ : الاسم يقوم مقام الأخطاء . وفيه لغتان : القصر ، وهو الجيد ، والمد ، وهو قليل . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ، ومد الهمز . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً . وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. وقرأ الحسن : «خطا» بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز .

ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعى لإفناء النسل ، ذكر النهى عن الزنى المفضى إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب ، فقال : ﴿ **ولا تقربوا الزنى** ﴾ وفى النهى عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى ، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً ، كان المتوسل إليه حراماً بفحوى الخطاب . والزنى فيه لغتان : المد والقصر . قال الشاعر :

كَانَتْ فَرِيضةُ مَا تَقُول كَمَا   كان الزناء فريضـةَ الرَّجْـمِ

ثم علل النهى عن الزنا بقوله : ﴿ **إنه كان فاحشة** ﴾ أى قبيحا متبالغا فى القبح ، مجاوزاً للحد . ﴿ **وساء سبيلا** ﴾ أى بئس طريقا طريقه ، وذلك لأنه يؤدى إلى النار . ولا خلاف فى كونه من كبائر الذنوب . وقد ورد فى تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم .

ولما فرغ من ذكر النهى عن القتل لخصوص الأولاد ، وعن النهى عن الزنا الذى يفضى إلى ما يفضى إليه قتل الأولاد ، من اختلاط الأنساب ، وعدم استقرارها ، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال : ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ والمراد بالتى حرم الله : التى جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد . والمراد بالحق الذى استثناه : هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة فى الأصل . وذلك كالردة ، والزنا من المحصن ، وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا ، وما يلتحق بذلك . والاستثناء مفرغ ، أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق ، أو إلا متلبسين بالحق . وقد تقدم الكلام فى هذا فى الأنعام .

ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال : ﴿ **ومن قتل مظلوما** ﴾ أى لا بسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ أى لمن يلى أمره من ورثته إن كانوا موجودين ، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين . والسلطان : التسلط على القاتل ، إن

---

(١) فى المخطوطة : « أخطاء وصد . . . ماليّ » ، و الصواب ما أثبتناه من لسان العرب ١/ ٥٣٥ .

شاء قتل ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية . ثم لما بين إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول ، أو ما هو عوض عن القصاص ، نهاه عن مجاوزة الحد فقال: ﴿ **فلا يسرف فى القتل** ﴾ أى لا يجاوز ما أباحه الله له ، فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة ، أو يمثل بالقاتل ، أو يعذبه . قرأ الجمهور : ﴿ **لا يسرف** ﴾ بالياء التحتية، أى الولى . وقرأ حمزة والكسائى : « تسرف » بالتاء الفوقية . وهو خطاب للقاتل الأول . ونهى له عن القتل ، أى فلا تسرف أيها القاتل بالقتل ، فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته . وقال ابن جرير[1] : الخطاب للنبى ﷺ وللأئمة من بعده ، أى لا تقتل يا محمد غير القاتل ، ولا يفعل ذلك الأئمة بعدك . وفى قراءة أبى : « ولا تسرفوا » ، ثم علل النهى عن السرف فقال : ﴿ **إنه كان منصورا** ﴾ أى مؤيداً معاناً ، يعنى: الولى . فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة. وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه . ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول ، أى إن الله نصره بوليه . قيل : وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ، لأنها مكية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ قال : تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله : ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ إن تكن النية صادقة ﴿ **فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ للبادرة التى بدرت منه . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب عنه فى قوله : ﴿ **إنه كان للأوابين غفورا** ﴾ ، قال: الرجاعين إلى الخير .وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن أبى حاتم والبيهقى عن الضحاك فى الآية، قال : الرجاعين من الذنب إلى التوبة ومن السيئات إلى الحسنات. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **للأوابين** ﴾ قال: للمطيعين المحسنين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه ، قال : للتوابين .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ قال : أمره بأحق الحقوق ، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده ، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده فقال : ﴿ **وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها** ﴾ قال : إذا سألوك وليس عندك شىء انتظرت رزقاً من الله ﴿ **فقل لهم قولاً ميسورا** ﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة . قال سفيان : والعدة من النبى ﷺ دين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية، قال : هو أن تصل ذا القرابة ، وتطعم المسكين ، وتحسن إلى ابن السبيل . وأخرج ابن جرير عن على بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : فما قرأت فى بنى إسرائيل : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ ؟ قال: وإنكم للقرابة التى أمر الله أن يؤتى حقهم ؟ قال : نعم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية ، قال : والقربى : قربى بنى عبد المطلب .

---

(١) ابن جرير ١٥/ ٥٩ .

وأقول : ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص ، ولا دل على ذلك دليل . ومعنى النظم القرآني واضح ، إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة ؛ لأن معناه : أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها . وإن كان الخطاب للنبي ﷺ فإن كان على وجه التعريض لأمته ، فالأمر فيه كالأول. وإن كان خطاباً له من دون تعريض ، فأمته أسوته ، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذي القربى حقه، أمر لكل فرد من أفراد أمته. والظاهر : أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ بدليل ما قبل هذه الآية ، وهي قوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : ٢٣] وما بعدها ، وهي قوله: ﴿ **ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ . وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة .

وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أنس ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة . فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ قال : « تخرج الزكاة المفروضة ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقاربك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين»، فقال : يا رسول الله ، أقلل لي . قال : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا » . قال : حسبي يا رسول الله [(١)] . وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت: ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فدك . قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا ما لفظه : وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده . لأن الآية مكية . وفدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة ، فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟ انتهى[(٣)] .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، والبخاري في الأدب ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **ولا تبذر تبذيرا** ﴾ قال : التبذير : إنفاق المال في غير حقه . وأخرج ابن جرير عنه قال : كنا ـ أصحاب محمد ـ نتحدث أن التبذير : النفقة في غير حقه . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في الأدب ، وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن المبذرين** ﴾ قال : هم الذين ينفقون المال في غير حقه . وأخرج

---

(١) أحمد ٣/ ١٣٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٦١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٢) أبو يعلى (١٠٧٥ ، ١٤٠٩) وإسناده ضعيف لضعف عطية ، وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٥٢ : « رواه الطبراني وفيه عطية العوفي ، وهو ضعيف متروك » .

والفدك بالتحريك : هي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله ﷺ صلحاً في سنة سبع . فصالح النبي ﷺ أهلها على النصف من ثمارهم وأموالهم ، فأجابهم في ذلك .

(٣) ابن كثير ٤/ ٣٠٢ وقال : « فهذا إذاً منكر ، والأشبه أنه من وضع الرافضة ، والله أعلم » .

البيهقى فى الشعب عن على قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك . وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ قال : العدة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن يسار بن الحكم [(١)] ، قال : أتى رسول الله ﷺ بر من العراق ، وكان معطاء كريماً، فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب ، فقالوا : إنا نأتى النبى ﷺ نسأله ، فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ قال: محبوسة ﴿ **ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما** ﴾ يلومك الناس ﴿ **محسورا**﴾ ليس بيدك شىء . أقول : ولا أدرى كيف هذا ؟ فالآية مكية . ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله ﷺ ، ولا يحمل إليه شىء من العراق ولا مما هو أقرب منه ، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ . وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو : بعثت امرأة إلى النبى ﷺ بابنها فقالت : قل له : اكسنى ثوباً . فقال : « ما عندى شىء » . فقالت : ارجع إليه فقل له : اكسنى قميصك . فرجع إليه ، فنزع قميصه فأعطاها إياه . فنزلت : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة** . . . ﴾ الآية [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال لعائشة وضرب بيده : « أنفقى ما على ظهر كفى » . قالت : إذن لا يبقى شىء . قال : ذلك ثلاث مرات . فأنزل الله : ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة** . . . ﴾ الآية . ويقدح فى ذلك أنه ﷺ لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولاتجعل يدك مغلولة** ﴾ قال : يعنى بذلك : البخل . وأخرجا عنه فى الآية ، قال : هذا فى النفقة ، يقول : لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير ، ولا تبسطها كل البسط يعنى : التبذير . ﴿ **فتقعد ملوما** ﴾ يلوم نفسه على ما فاته من ماله ﴿ **محسورا** ﴾ ذهب ماله كله .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ قال: ينظر له ، فإن كان الغنى خيراً له ، أغناه . وإن كان الفقر خيراً له ، أفقره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **خشية إملاق** ﴾ قال : مخافة الفقر والفاقة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**خطأ** ﴾ قال : خطيئة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ قال : يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود ، فجاءت بعد ذلك الحدود فى سورة النور . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبى بن كعب ؛ أنه قرأ : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ، إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيماً » . فذكر لعمر ، فأتاه فسأله . فقال : أخذتها من فى رسول

---

(١) فى المخطوطة : « سيار بن الحكم » ، والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤/ ١٧٨ .

(٢) ليس فى ابن جرير ، وإنما نسبه السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٧٨ لابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو .

الله ، وليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع . وقد ورد فى الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولا تقتلوا النفس** . . . ﴾ الآية ، قال : هذا بمكة ونبى الله ﷺ بها ، وهو أول شىء نزل من القرآن فى شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله : من قتلكم من المشركين فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبا أو أخاً أو واحداً من عشيرته ، وإن كانوا مشركين ، فلا تقتلوا إلا قاتلكم ، وهذا قبل أن تنزل براءة . وقبل أن يؤمر بقتال المشركين، فذلك قوله : ﴿ **فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا** ﴾ يقول : لا تقتل غير قاتلك . وهى اليوم على ذلك الموضع من المسلمين ، لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم [(١)] . وأخرج البيهقى فى سننه عن زيد ابن أسلم ؛ أن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً ، لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً وإذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره . فوعظوا فى ذلك بقول الله سبحانه : ﴿ **ولا تقتلوا النفس** . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا يسرف فى القتل** ﴾ [(٢)] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ قال : بينة من الله أنزلها ، يطلبها ولى المقتول ، القود أو العقل . وذلك السلطان [(٣)] . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عنه : ﴿ **فلا يسرف فى القتل** ﴾ قال : لا يكثر فى القتل . وأخرج ابن المنذر ، من طريق أبى صالح عنه أيضاً: لا يقتل إلا قاتل رحمه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾.

---

(١) ابن جرير ١٥/ ٦٠ ، ٦١ . (٢) البيهقى ٨/ ٢٥ .
(٣) ابن جرير ١٥/ ٥٩ .

لما ذكر سبحانه النهى عن إتلاف النفوس ، أتبعه بالنهى عن إتلاف الأموال ، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم** ﴾ ، والنهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة له وإتلافه . ثم بين سبحانه أن النهى عن قربانه ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده ، بل يجوز لولى اليتيم أن يفعل فى مال اليتيم ما يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته ، فقال : ﴿ **إلا بالتى هى أحسن** ﴾ أى إلا بالخصلة التى هى أحسن الخصال ، وهى حفظه ، وطلب الربح فيه ، والسعى فيما يزيد به . ثم ذكر الغاية التى للنهى عن قربان مال اليتيم فقال: ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ أى لا تقربوه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اليتيم أشده. فإذا بلغ أشده ، كان لكم أن تدفعوه إليه ، أو تتصرفوا فيه بإذنه . وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى فى الأنعام . ﴿ **وأوفوا بالعهد** ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه ، فهو من العهد . فيدخل فى ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم البعض. والوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى، إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض . ﴿ **إن العهد كان مسؤولا** ﴾ أى مسؤولاً عنه . المسؤول هنا : هو صاحبه . وقيل : إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه .

﴿ **وأفوا الكيل إذا كلتم** ﴾ أى أتموا الكيل ، ولا تخسروه وقت كيلكم للناس . ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ قال الزجاج : هو ميزان العدل ، أى ميزان كان ، من موازين الدراهم وغيرها . وفيه لغتان : ضم القاف وكسرها . وقيل : هو القبان المسمى بالقرسطون . وقيل : هو العدل نفسه . وهى لغة الروم . وقيل : لغة سريانية . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامـر وعاصـم فى رواية أبى بكر : « القُسطاس » بضم القاف . وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بكسر القاف . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **خير** ﴾ أى خير لكم عند الله وعند الناس ، يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس فى معاملة من كان كذلك ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ أى أحسن عاقبة ، من آل : إذا رجع .

ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب ، فقال : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ أى لا تتبع مالا تعلم .من قولك: قفوت فلاناً : إذا اتبعت أثره . ومنه : قافية الشعر ، لأنها تقفو كل بيت ، ومنه : القبيلة المشهورة بالقافة، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس . وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف ، مثل : عثا وعاث . قال منذر بن سعيد البلوطى : قفا وقاف، مثل : جذب وجبذ . وحكى الكسائى عن بعض القراء أنه قرأ : « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الفراء بفتح القاف . وهى لغة لبعض العرب ، وأنكرها أبو حاتم وغيره . ومعنى الآية : النهى عن أن يقول الإنسان مالا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به . وهذه قضية كلية . وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور . فقيل: لا تذم أحداً بما ليس لك به علم. وقيل : هى فى شهادة الزور . وقيل : هى فى القذف . وقال القتيبى : معنى الآية : لا تتبع الحدس والظنون . وهذا صواب . فإن ما عدا ذلك هو العلم . وقيل : المراد بالعلم هنا : هو

الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيا كان أو ظنيا . قال أبو السعود فى تفسيره : واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه (١) .

وأقول : إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام ، وبخبر الواحد ، والعمل بالشهادة ، والاجتهاد فى القبلة وفى جزاء الصيد ، ونحو ذلك . فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ [النجم : ٢٨] . إلا ما قام دليل جواز العمل به ، فالعمل بالرأى فى مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل فى الكتاب والسنة ، فقد رخص فيه النبى ﷺ كما فى قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضيا : « بم تقضى ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : فبسنة رسول الله . قال : «فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأيى (٢) . وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك فى بحث مفرد . وأما التوثب على الرأى مع وجود الدليل فى الكتاب أو السنة ولكن قصر صاحب الرأى عن البحث ، فجاء برأيه ، فهو داخل تحت هذا النهى دخولاً أولياً ، لأنه محض رأى فى شرع الله ، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسول الله ﷺ ولم تدع إليه حاجة ، على أن الترخيص فى الرأى عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به . ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به ، وينزله منزلة مسائل الشرع . وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة فى الكتب الفروعية ليست من الشرع فى شىء . والعامل بها على شفا جرف هار . فالمجتهد المستكثر من الرأى قد قفا ما ليس له به علم . والمقلد المسكين العامل برأى ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده . ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ [النور : ٤٠] . وقد قيل : إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً.

ثم علل سبحانه النهى عن العمل بما ليس يعلم بقوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. وقال الزجاج : إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بـ: أولئك . وأنشد ابن جرير ، مستدلا على جواز هذا ، قول الشاعر :

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الأيام

واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام. وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف(٣).

---

(١) أبو السعود فى التفسير ٣/ ٣٢٧ .

(٢) أحمد ٥/ ٢٣٦ وأبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢ ، ٣٥٩٣) والترمذى فى الأحكام (١٣٢٧ ، ١٣٢٨) وقال : « هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندى بمتصل » ، وهو عن رجال من أصحاب معاذ ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) الكشاف ٢/ ٢٦٧ .

والضمير فى ﴿كان﴾ من قوله : ﴿ كان عنه مسؤولا ﴾ يرجع إلى « كل » . وكذا الضمير فى « عنه » . وقيل : الضمير فى ﴿ كان ﴾ يعود إلى القافى المدلول عليه بقوله : ﴿ ولا تقف ﴾ . وقوله : « عنه » فى محل رفع لإسناد ﴿ مسؤولا ﴾ إليه . ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أومجروراً . قيل : والأولى أن يقال : إنه فاعل ﴿ مسؤولا ﴾ المحذوف . والمذكور مفسر له . ومعنى سؤال هذه الجوارح : أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات. والمستعمل لها : هو الروح الإنسانى . فإن استعملها فى الخير استحق الثواب ، وإن استعملها فى الشر استحق العقاب . وقيل : إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها .

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ المرح : قيل : هو شدة الفرح. وقيل : التكبر فى المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقيل : الخيلاء فى المشى . وقيل : البطر والأشر . وقيل : النشاط . والظاهر أن المراد به هنا : الخيلاء والفخر . قال الزجاج فى تفسير الآية : لا تمش فى الأرض مختالاً فخوراً . وذكر الأرض مع أن المشى لايكون إلا عليها ، أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً . ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت فى عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح : مصدر وقع حالاً ، أى ذا مرح . وفى وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد . وقرأ الجمهور : ﴿ مرحا ﴾ بفتح الراء على المصدر . وحكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل . ثم علل سبحانه هذا النهى فقال : ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ . يقال : خرق الثوب ، أى شقه . وخرق الأرض : قطعها . والخرق : الواسع من الأرض ، والمعنى : إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً . وفيه تهكم بالمختال المتكبر . ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ أى ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال ، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشى عليها ، ولا عظم فى بدنك حتى تطاول الجبال ، فما الحامل لك على ما أنت فيه ؟ و ﴿ طولا ﴾ مصدر فى موضع الحال ، أو تمييز ، أو مفعول له . وقيل : المراد بخرق الأرض: نقبها ، لا قطعها بالمسافة . وقال الأزهرى : خرقها: قطعها . قال النحاس : وهذا أبين ، كأنه مأخوذ من الخرق ، وهو : الفتحة الواسعة . ويقال : فلان أخرق من فلان، أى أكثر سفراً . والإشارة بقوله : ﴿ كل ذلك ﴾ إلى جميع ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهى ، أو إلى مانهى عنه فقط من قوله: ﴿ ولا تقف ﴾ ﴿ولا تمش﴾ .

قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق: ﴿ سيئه﴾ على إضافة سيئ إلى الضمير. ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿ مكروها ﴾ فإن السيئ هو المكروه . ويؤيدها أيضاً قراءة أبى : « كان سيئاته » . واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : « سيئة » على أنها

واحدة السيئات . وانتصابها على خبرية كان . ويكون ﴿ **مكروها** ﴾ صفة لـ « سيئة » على المعنى . فإنها بمعنى :« سيئاً » ، أو هو بدل من « سيئة » . وقيل : هو خبر ثان لـ ﴿ **كان** ﴾ حملاً على لفظ ﴿ **كل** ﴾ . ورجح أبوعلى الفارسى البدل . وقد قيل فى توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى . قال الزجاج: والإضافة أحسن ، لأن ما تقدم من الآيات فيها سيئ وحسن ، فسيئه المكروه . ويقوى ذلك التذكير فى المكروه . قال : ومن قرأ بالتنوين ، جعل ﴿ **كل ذلك** ﴾ إحاطة بالمنهى عنه دون الحسن . المعنى : كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً . قال : والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة ، وليس بنعت .

والمراد بالمكروه عند الله : هو الذى يبغضه ولا يرضاه ، لا أنه غير مراد مطلقاً لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه . وذكر مطلق الكراهة مع أن فى الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك . والحاصل : أن فى الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به ، وما هو مكروه وهو المنهى عنه. فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله : ﴿**كل ذلك** ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروهها. ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء وهو المنهى عنه مكروه ، عند الله . وعلى قراءة الإفراد من دون إضافة ، تكون الإشارة إلى المنهيات. ثم الإخبار عن هذه المنهيات ، بأنها سيئة مكروهة عند الله .

﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿ **لا تجعل**﴾ إلى هذه الغاية ، وترتقى إلى خمسة وعشرين تكليفاً ﴿ **مما أوحى إليك ربك** ﴾ أى من جنسه أو بعض منه . وسمى حكمة ؛ لأنه كلام محكم . وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرق إليها الفساد . وعند الحكماء : أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته . و ﴿ **من الحكمة** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أى كائناً من الحكمة ، أو بدل من الموصول بإعادة الجار ، أو متعلق بـ ﴿ **أوحى** ﴾ . ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ كرر سبحانه النهى عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً على أنه رأس خصال الدين [1] وعمدته . قيل : وقد راعى سبحانه فى هذا التأكيد دقيقة ، فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً . وذلك إشارة إلى حال الشرك فى الدنيا . ورتب على الثانى أنه يلقى ﴿ **فى جهنم ملوماً مدحورا** ﴾ وذلك إشارة إلى حاله فى الآخرة ، وفى القعود هناك . والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان فى الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة. وقد تقدم تفسير الملوم والمدحور .

﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا** ﴾ قال أبو عبيدة : ﴿ **أصفاكم** ﴾ : خصكم . وقال الفضل : أخلصكم . وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله . وفيه

---

(١) قوله : وتنبيهاً على أنه رأس خصال الدين وعمدته : الضمير فى قوله : « أنه » راجع إلى التوحيد ، حيث أنه لا دين بغير التوحيد ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

توبيخ شديد ، وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل . والفاء للعطف على مقدر ، كنظائره مما قد كررناه ﴿ **إنكم لتقولون** ﴾ يعنى : القائلين بأن لهم الذكور ولله الإناث ﴿ **قولا عظيما** ﴾ بالغاً فى العظم والجراءة على الله إلى مكان لا يقادر قدره .

﴿ **ولقد صرفنا فى هذا القرآن** ﴾ أى بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها ، أو كررنا فيه . وقيل : « فى » زائدة. والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن . والتصريف فى الأصل : صرف الشىء من جهة إلى جهة . وقيل : معنى التصريف: المغايرة ، أى غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا . وقراءة الجمهور : ﴿ **صرفنا** ﴾ بالتشديد . وقرأ الحسن بالتخفيف ، ثم علل تعالى ذلك فقال : ﴿ **ليذكروا** ﴾ أى ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ليذكروا » مخففاً ، والباقون بالتشديد . واختارها أبوعبيد لما تفيده من معنى التكثير . وجملة : ﴿ **وما يزيدهم إلا نفورا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلا تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر فى الصواب ؛ لأنهم قد اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر ، وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم** ﴾ قال : كانوا لا يخالطونهم فى مال ولامأكل ولا مركب حتى نزلت : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة: ٢٢٠] (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إن العهد كان مسؤولا**﴾ قال : يسأل الله ناقض العهد عن نقضه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية، قال : يسأل عهده من أعطاه إياه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم** ﴾ يعنى : لغيركم . ﴿ **وزنوا بالقسطاس** ﴾ يعنى : الميزان . وبلغة الروم : الميزان : القسطاس . ﴿ **ذلك خير** ﴾ يعنى : وفاء الكيل والميزان خير من النقصان . ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ : عاقبة . وأخرج ابن أبى شيبة والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : القسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ، قال : القسطاس : القبان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : الحديد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا تقف** ﴾ قال : لا تقل . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن الحنفية فى الآية قال : شهادة الزور . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ يقول : سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه . وأخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾

---

(١) ابن جرير ١٥ / ٦٠، ٦١ .

قال : يوم القيامة ، أكذلك كان أم لا ؟

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ قال : لا تمش فخراً وكبراً ، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ، ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ، قال : إن التوراة فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ، ثم تلا : ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مدحورا** ﴾ قال : مطروداً .

﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما تقولون** ﴾ : قرأ ابن كثير وحفص : ﴿ **يقولون** ﴾ بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ، وإذن : جواب عن مقالتهم الباطلة وجزاء لـ :« لو» . ﴿ **لابتغوا إلى ذى العرش** ﴾ وهو الله سبحانه . ﴿**سبيلا**﴾: طريقا للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصاولة . وقيل : معناه : إذن لابتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده ، لأنهم دونه ، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله. والظاهر المعنى الأول ، ومثل معناه قوله سبحانه : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٣]. ثم نـزه تعالى نفسه ، فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ والتسبيح : التـنزيه ، وقد تقدم ﴿ **وتعالى** ﴾ متباعد ﴿ **عما يقولون** ﴾ من الأقـوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿ **علوا** ﴾ أى تعالياً ، ولكنه وضع العلو مـوضع التعالى كقوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتـا ﴾ [نوح : ١٧] . ثم وصف العلو بالكبر مبالغة فى النزاهة، وتنبيها على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين الغنى المطلق ، والفقير المطلق ، مباينة لا تعقل الزيادة عليها .

ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال : ﴿ **يسبح له السموات السبع والأرض**

ومن فيهن ﴾ قرئ بالمثناة التحتية فى يسبح وبالفوقية ، وقال : ﴿ **فيهن** ﴾ بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التى لا تعقل ، ثم زاد ذلك تعميما وتأكيداً فقال: ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ فشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان . وقيل : إنه يحمل قوله : ﴿ **ومن فيهن** ﴾ على الملائكة والثقلين ، ويحمل ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة : ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة ، لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره . والمراد : أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوما لكل أحد . وأجيب : بأن المراد بقوله : ﴿**لاتفقهون** ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار . وقالت طائفة : إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات . وقيل : خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها ، وقد استدل لذلك بحديث : أن النبى ﷺ مر على قبرين . . . وفيه : ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، وقال : « إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا» [(١)] ، ويؤيد حمل الآية على العموم قوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ [ص : ١٨] ، وقوله : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ [البقرة : ٧٤] ، وقوله : ﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ [مريم : ٩٠] ونحو ذلك من الآيات ، وثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام ، وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ [(٢)]. وهكذا حديث حنين الجذع[(٣)]، وحديث : أن حجراً بمكة كان يسلم على النبى ﷺ [(٤)]، وكلها فى الصحيح ، ومن ذلك « تسبيح الحصى فى كفه ﷺ» ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده .

ومعنى : ﴿ **إلا يسبح بحمده** ﴾ إلا يسبح متلبساً بحمده ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ .

---

(١) أحمد ١/ ٢٢٥ والبخارى فى الوضوء (٢١٦ ، ٢١٨) وأبو داود فى الطهارة (٢٠) والترمذى فى الطهارة (٧٠) وقال : « حسن صحيح» وابن ماجة فى الطهارة (٣٤٧) وكلهم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) البخارى فى المناقب (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما (٣٥٨٤ ، ٣٥٨٥) من حديث جابر بن عبد الله .

(٤) مسلم فى الفضائل (٢٢٧٧/ ٢) من حديث جابر بن سَمُرَة .

قرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائى وخلف : « تسبح » بالمثناة الفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم ، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم .

ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع فى ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا ، أى إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك . ذكر معناه الزجاج وغيره ، ومعنى ﴿ **مستورا** ﴾ : ساتر . قال الأخفش : أراد ساترا ، والفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول : إنك لمشؤوم وميمون ، وإنما هو شائم ويامن. وقيل : معنى ﴿ **مستورا** ﴾: ذا ستر ، كقولهم : سيل مفعم ، أى ذو إفعام . وقيل : هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها . وقيل : حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره . وقيل : المراد بالحجاب المستور : الطبع والختم .

﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ الأكنة : جمع كنان . وقد تقدم تفسيره فى الأنعام (١) . وقيل : هو حكاية لما كانوا يقولونه ، من قولهم : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : ٨٨] .﴿ وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : ٥] و﴿ **أن يفقهوه** ﴾ مفعول لأجله ، أى كراهة أن يفقهوه ، أولئلا يفقهوه ، أى يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم والمعانى ﴿**وفى آذانهم وقرا** ﴾ أى صمما وثقلا ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : أن يسمعوه . ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه ، فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس ، ولهذا قال الله : ﴿ **وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده** ﴾ أى واحدا غير مشفوع بذكر آلهتهم ، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿ **ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ هو مصدر ، والتقدير : هربوا نفوراً ، أو نفروا نفوراً . وقيل : جمع نافر كقاعد وقعود . والأول أولى. ويكون المصدر فى موضع الحال ، أى ولوا نافرين .

﴿ **نحن أعلم بما يستمعون به** ﴾ أى يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو فى ذكرك لربك وحده. وقيل : الباء زائدة والظرف فى ﴿ **إذ يستمعون إليك** ﴾ متعلق بـ ﴿ **أعلم** ﴾ أى نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، وفيه تأكيد للوعيد ، وقوله : ﴿**وإذ هم نجوى** ﴾ متعلق بأعلم أيضا ، أى ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم، وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ﴿ **يقول**﴾ بدل من ﴿ **إذ هم نجوى** ﴾. ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم : ما تتبعون إلا

(١) عند قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ﴾ [الأنعام : ٢٥] .

رجلا سحر فاختلط عقله وزال عن حدّ الاعتدال . قال ابن الأعرابى : المسحور : الذاهب العقل الذى أفسد ، من قولهم طعام مسحور إذا أفسد عمله ، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها . وقيل : المسحور : المخدوع ، لأن السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأنهم زعموا أن محمدا ﷺ كان يتعلم من بعض الناس ، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم . وقال أبو عبيدة : معنى ﴿**مسحورا**﴾: أن له سحراً ، أى رئة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب فهو مثلكم ، وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سحره ، وكل من كان يأكل من آدمى أو غيره مسحور ، ومنه قول امرئ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى نغذى ونعلل . قال ابن قتيبة : لا أدرى ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال** ﴾ أى قالوا تارة : إنك كاهن ، وتارة ساحر ، وتارة شاعر ، وتارة مجنون ﴿ **فضلوا** ﴾ عن طريق الصواب فى جميع ذلك ﴿ **فلا يستطيعون سبيلا** ﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذى تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن ، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه . وقيل : لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم : ساحر مجنون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا**﴾ قال : على أن يزيلوا ملكه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط ؛ أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجع قال : « سمعت تسبيحا من السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى »[(١)] . وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال: «أطت السماء ويحقها أن تئط ، والذى نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا قال لابنه : يا بنى ، آمرك أن تقول سبحان الله ، فإنها صلاة الخلائق ، وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى: ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ »[(٢)] .

(١) أبو نعيم فى الحلية ٢/ ٧ ، ٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٣ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، ومسكين بن ميمون ذكر له الذهبى هذا الحديث وقال : إنه منكر » .

(٢) ابن جرير ١٥/ ٦٥ وقال ابن كثير ٤/ ٣١٢ : « إسناده فيه ضعف فإن الأودى ضعيف عند الأكثرين » .

وأخرج أحمد وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال : ما من عبد سبح تسبيحة إلا سبح ما خلق الله من شيء ، قال الله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال ابن كثير: إسناده فيه ضعف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قرصت نملة نبيا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه : من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح » [(١)] . وأخرج النسائى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : «نقيقها تسبيح » [(٢)].

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال : الزرع يسبح وأجره لصاحبه ، والثوب يسبح ويقول الوسخ : إن كنت مؤمنا فاغسلنى إذن . وأخرج أبوالشيخ عنه قال : كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار . وأخرج ابن راهويه فى مسنده من طريق الزهرى قال : أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحيه ويقول : ما صِيد من صيدٍ ولا عضد من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح . وأخرج أحمد فى الزهد ، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه من حديث أبى هريرة بنحوه . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه . وأخرج أبو الشيخ من حديث أبى الدرداء بمعناه . وأخرج ابن عساكر من حديث أبى رهم نحوه . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : هذه الآية فى التوراة كقدر ألف آية ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال : فى التوراة تسبح له الجبال ، ويسبح له الشجر ، ويسبح له كذا ، ويسبح له كذا . وأخرج أحمد وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : صلى داود ليلة حتى أصبح ، فلما أصبح وجد فى نفسه سرورا ، فنادته ضفدعة : يا داود ، كنت أدأب منك قد أغفيت إغفاء . وأخرج البيهقى فى الشعب عن صدقة بن يسار قال : كان داود فى محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر فى خلقها وقال : ما يعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله فقالت : يا داود، أتعجبك نفسك ، لأنا على قدر ما آتانى الله أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك الله ، قال الله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ [(٣)] . وفى الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات.

وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما نزلت : ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ [المسد : ١] أقبلت

---

(١) البخارى فى الجهاد (٣٠١٩) ومسلم فى السلام (٢٢٤١/ ١٤٨) وأبو داود فى الأدب (٥٢٦٦) والنسائى ٧/ ٢١٠ وابن ماجة فى الصيد (٣٢٢٥) .

(٢) النسائى ٧/ ٢١٠ ولكنها عن عبد الرحمن بن عثمان وليس عن ابن عمرو .

(٣) البيهقى فى الشعب (٤٢٦٠) فيه عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى رواد ، صدوق يخطئ . وإسناده فيه : محمد بن بشير الكندى متكلم فيه .

العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : « إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا** ﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها [(١)] ، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ قال : الحجاب المستور:أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في الآية قال : ذاك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ قال : الشياطين . وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ **إذ يستمعون إليك** ﴾ قال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل .

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)** ﴾.

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال : ﴿**وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا** ﴾ والاستفهام ، للاستنكار والاستبعاد . وتقرير الشبهة : أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم ، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر ، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع ، فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن ، ولو فرضتم أن بدنه قد

---

(١) أبو يعلى (٥٣) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦١ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ١٩٥ ، ١٩٦ .

صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد ، فهو كقول القائل : **أتطمع فى** وأنا ابن فلان ؟ فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت ، فسأطلب منك حقى . والرفات : ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض[1]، قاله أبو عبيدة والكسائى والفراء والأخفش ، تقول منه : رفت الشيء رفتا ، أى حطم فهو مرفوت . وقيل : الرفات : الغبار. وقيل : التراب ﴿ **أإنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد ؛ تأكيدا وتقريرا . والعامل فى « إذا » هو ما دل عليه ﴿**لمبعوثون**﴾ لا هو نفسه ، لأن ما بعد إن والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها ، والتقدير: ﴿ **أئذا كنا عظاما ورفاتا** ﴾ نبعث ﴿ **أإنا لمبعوثون**﴾ ، وانتصاب ﴿ **خلقا** ﴾ على المصدرية من غير لفظه ، أو على الحال ، أى مخلوقين ، و ﴿**جديدا** ﴾ صفة له.

﴿ **قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا** ﴾ آخر ﴿ **مما يكبر فى صدوركم** ﴾ قال ابن جرير : معناه : إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك ، وقال على بن عيسى : معناه : إنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عزّ وجل إذا أرادكم . إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ فى الإلزام ، وقيل : معناه : لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم . قال النحاس : وهذا قول حسن ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا ، وإنما المعنى : أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث ، فقيل لهم : استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة . قلت: وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا . ﴿ **أو خلقا مما يكبر فى صدوركم** ﴾ أى يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة . وقيل: المراد به : السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : المراد به : الموت ، لأنه ليس شيء أكبر فى نفس ابن آدم منه . والمعنى : لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم ، ولا يخفى ما فى هذا من البعد ، فإن معنى الآية : الترقى من الحجارة إلى الحديد ، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر فى صدور القوم منه ، والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحس حتى يقع الترقى من الحديد إليه ﴿ **فسيقولون من يعيدنا** ﴾ إذا كنا عظاما ورفاتا ، أو حجارة أو حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت . ﴿ **قل الذى فطركم أول مرة** ﴾ أى يعيدكم الذى خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة ﴿ **فسينغضون إليك رؤوسهم** ﴾ أى يحركونها استهزاءً . يقال : نغض رأسه ينغض وينغض نغضاً ونغوضاً ، أى تحرك ، وأنغض رأسه :حركه كالمتعجب ، ومنه قول الراجز:

أنغض نحوى رأسه وأقنعا

---

(١) الرضاض :ما دق من الحصى وكل شيء كسَّرته فقد رضرضته .راجع : مختار الصحاح ٢٤٥ .

وقول الراجز الآخر :

ونغضت من هرم أسنانها

وقال آخر :

لما رأتنى أنغضت لى رأسها

﴿ **ويقولون متى هو** ﴾ أى البعث والإعادة استهزاءً منهم وسخرية ﴿ **قل عسى أن يكون قريبا** ﴾ أى هو قريب ، لأن عسى فى كلام الله واجب الوقوع ، ومثله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ [الأحزاب:٦٣] . وكل ما هو آت قريب ﴿ **يوم يدعوكم** ﴾ الظرف منتصب بفعل مضمر ، أى اذكر ، أو بدل من ﴿ **قريبا** ﴾ أو التقدير : يوم يدعوكم كان ما كان . الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق. وقيل : هو الصيحة التى تسمعونها ، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض المحشر ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾ أى منقادين له ، حامدين لما فعله بكم فهو فى محل نصب على الحال . وقيل : المعنى : فتستجيبون والحمد لله كما قال الشاعر:

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر (١) لبست ولا من غدرة أتقنع

وقد روى أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، وقيل : المراد بالدعاء هنا : البعث ، وبالاستجابة : أنهم يبعثون ، فالمعنى : يوم يبعثكم فتبعثون منقادين ﴿ **وتظنون إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ أى تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم فى قبوركم إلا زمناً قليلا . وقيل : بين النفختين ، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاما ينامون فيها ، فلذلك ﴿ قالوا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : ٥٢] . وقيل : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة ، فقالوا هذه المقالة .

﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾ أى قل يا محمد ، لعبادى المؤمنين أن يقولوا عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، وقوله : ﴿ فقولا له قولا لينا﴾ [طه : ٤٤] ، لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدى إلى ما قال سبحانه : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وهذا كان قبل نزول آية السيف. وقيل : المعنى : قل لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه . وقيل : هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة ، والأول أولى كما يشهد به السبب الذى سنذكره إن شاء الله ﴿ **إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء . قال اليزيدى :

---

(١) فى المطبوعة : « فاخر » بالخاء ، وفى القرطبى ٦/ ٣٨٩٢ «فاجر» بالجيم ، وفى المخطوطة علق كاتبها وقال : بهما .

يقال : نزغ بيننا ، أى أفسد . وقال غيره : النزغ :الإغراء ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا** ﴾ أى متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها ، وهو تعليل لما قبله ، وقد تقدم مثل هذا فى البقرة .

﴿ **ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ قيل : هذا خطاب للمشركين . والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتكم عن الشرك فيعذبكم . وقيل : هو خطاب للمؤمنين ، أى ﴿ **إن يشأ يرحمكم** ﴾ بأن يحفظكم من الكفار ﴿ **أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ بتسليطهم عليكم . وقيل : إن هذا تفسير لكلمة ﴿ **التى هى أحسن** ﴾ ﴿**وما أرسلناك عليهم وكيلا**﴾ أى ما وكلناك فى منعهم من الكفر ، وقسرهم على الإيمان . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ، ومنه قول الشاعر :

ذكرت أبا أروى فبت كأننى   برد الأمور الماضيات وكيل

أى كفيل . ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالا واستحقاقاً ، وهو أعم من قوله : ﴿ **ربكم أعلم بكم** ﴾ لأن هذا يشمل كل ما فى السموات والأرض من مخلوقاته ، وذاك خاص ببنى آدم أو ببعضهم ، وهذا كالتوطئة لقوله : ﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ أى إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن دونه وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله . وقد تقدم هذا فى البقرة . وقد اتخذ الله إبراهيم خليلا ، وموسى كليما ، وجعل عيسى كلمته وروحه ، وجعل لسليمان ملكا عظيما ، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وجعله سيد ولد آدم . وفى هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل ،ثم ذكر ما فضل به داود ، فقال : ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ أى كتابا مزبورا . قال الزجاج : أى فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ورفاتا** ﴾ قال: غباراً . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿**ورفاتا** ﴾ قال : تراباً ، وفى قوله : ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديدا** ﴾ قال : ما شئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله كما كنتم . وأخرج ابن أبى شيبة ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: ﴿ **أو خلقا مما يكبر فى صدوركم** ﴾ قال: الموت ، لو كنتم موتاً لأحييتكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير والحاكم عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن مثله أيضا . وأخرج عبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه ، وزاد قال : فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فسينغضون إليك رؤوسهم** ﴾ قال : سيحركونها استهزاءً . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله :

﴿ويقولون متى هو﴾ قال : الإعادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : **﴿ فتستجيبون بحمده ﴾** قال : بأمره . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة **﴿ فتستجيبون بحمده ﴾** قال : بمعرفته وطاعته **﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾** أى فى الدنيا ، تحاقرت الدنيا فى أنفسهم ، وقلت حين عاينوا يوم القيامة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين فى قوله : **﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾** قال : لا إله إلا الله. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يعفو عن السيئة . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : يقول له: يرحمك الله ، يغفر الله لك . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : نزغ الشيطان : تحريشه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: **﴿ وآتينا داود زبورا ﴾** قال : كنا نحدث أنه دعاء علمه داود ، وتحميد وتمجيد لله عز وجل ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : الزبور: ثناء على الله ودعاء وتسبيح . قلت : الأمر كما قاله قتادة والربيع ، فإنا وقفنا على الزبور فوجدناه خطبا يخطبها داود عليه السلام ، ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخول الكنيسة ، وجملته مائة وخمسون خطبة ، كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الأولى وسكون الزاى وضم الميم الثانية وآخره راء ، ففى بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم ، وفى بعضها يحمد الله ويمجده ويثنى عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم ، وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة ، وهى آلة من آلات الملاهى . وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور ها هنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون ألفاظا وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة ، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

(١) ابن جرير ١٥/ ٧١ .

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً (٦٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه** ﴾ هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله . وقيل : أراد بـ ﴿ **الذين زعمتم** ﴾ نفراً من الجن عبدهم ناس من العرب ، وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله : ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ ، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ **فلا يملكون كشف الضر عنكم** ﴾ أى لا يستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضر ، وعلى تحويله من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التى تزعمونها آلهة ، ليست بآلهة .

ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ، ببيان غاية افتقارهم إلى الله فى جلب المنافع ودفع المضار ، فقال : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ فـ ﴿ **أولئك** ﴾ مبتدأ و﴿**الذين يدعون** ﴾ صفته ، وضمير الصلة محذوف ، أى يدعونهم ، وخبر المبتدأ : ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ **الذين يدعون** ﴾ خبر المبتدأ ، أى الذين يدعون عباده إلى عبادتهم ، ويكون ﴿ **يبتغون** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقرأ ابن مسعود : « تدعون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، ولا خلاف فى ﴿ **يبتغون** ﴾ أنه بالتحتية . و ﴿ **الوسيلة** ﴾ : القربة بالطاعة والعبادة ، أى يتضرعون إلى الله فى طلب ما يقربهم إلى ربهم ، والضمير فى ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿ **أيهم أقرب** ﴾ مبتدأ وخبر . قال الزجاج: المعنى: أيهم أقرب بالوسيلة إلى الله ، أى يتقرب إليه بالعمل الصالح ، ويجوز أن يكون بدلا من الضمير فى ﴿ **يبتغون** ﴾ أى يبتغى من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة ، فكيف بمن دونه ؟ وقيل : إن ﴿**يبتغون**﴾ مضمن معنى يحرصون ، أى يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ **ويرجون رحمته** ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ **ويخافون عذابه** ﴾ كما يخافه غيرهم ﴿ **إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾ تعليل قوله : ﴿ **يخافون عذابه** ﴾ أى إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم .

ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال: ﴿ **وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة** ﴾ « إن » نافية ، و «من» للاستغراق ، أى ما من قرية ، أى قرية كانت من قرى الكفار . قال الزجاج: أى ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم ، فالمراد بالقرية : أهلها . وإنما قيل : ﴿ **قبل يوم القيامة** ﴾ لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة ، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا . وقيل : الإهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة ، والأول أولى لقوله : ﴿وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص : ٥٩] . ﴿ **كان ذلك**﴾ المذكور من الإهلاك والتعذيب ﴿ **فى الكتاب** ﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿ **مسطورا** ﴾ أى

مكتوباً ، والسطر : الخط ، وهو فى الأصل مصدر ، والسطر بالتحريك مثله . قال جرير :

من شاء بايعته مالى وخلعته ما تكمل التيم فى ديوانهم سطرا

والخلعة بضم الخاء : خيار المال ، والسَّطَر : جمع أسطار ، وجمع السطْر بالسكون أسطر .

﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ قال المفسرون : إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأل قومك ، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا ، وإن شئت استأنيت بهم ، فأنزل الله هذه الآية . والمعنى : وما منعنا من إرسال الآيات التى سألوها إلا تكذيب الأولين ،فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه فى عباده ، فالمنع مستعار للترك ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى ما تركنا إرسالها لشىء من الأشياء إلا تكذيب الأولين ، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم فى الكفر والعناد حل بهم ما حل بهم ، و « أن » الأولى فى محل نصب بإيقاع المنع عليها ، و« أن » الثانية فى محل رفع ، والباء فى ﴿**بالآيات**﴾ زائدة . والحاصل : أن المانع من إرسال الآيات التى اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلى وهو الاستئصال ، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة . وقيل : معنى الآية : إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون ألبتة كما لم يؤمن أولئك ، فيكون إرسال الآيات ضائعا ، ثم إنه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته ، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التى قد بينت فى محل آخر ، وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب .

وإنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد ؛ لأن إهلاكهم فى بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** ﴾ أى ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله : ﴿ جعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء : ١٢] . أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازا ، أو أنها جعلتهم ذوى إبصار ، من أبصره جعله بصيرا . وقرئ على صيغة المفعول . وقرئ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال . وقرئ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام ، أى فكذبوها وآتينا ثمود الناقة ، ومعنى ﴿ **فظلموا بها** ﴾ : فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا ، أى فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ اختلف فى تفسير ﴿ **بالآيات** ﴾ على وجوه : الأول : ان المراد بها : العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين. الثانى : أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى . الثالث : تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى

تكهل ثم إلى شيب ، ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره . الرابع : آيات القرآن. الخامس : الموت الذريع ، والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة ، أى لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب ، فإن لم يخافوا وقع عليهم . والجملة مستأنفة لا محل لها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها ، أى فظلموا بها ولم يخافوا ، والحال أن ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها إلا تخويفاً . قال ابن قتيبة : وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب العاجل .

ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المذكور ، قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال: ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى اذكر إذ قلنا لك ، أى أنهم فى قبضته وتحت قدرته ، فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته . وقيل : المراد بالناس : أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ، أى إن الله سيهلكهم . وعبر بالماضى ؛ تنبيها على تحقق وقوعه ؛ وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : المراد : أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء، وهى المذكورة فى صدر السورة ،وسماها رؤيا ، لأنها وقعت بالليل ، أو لأن الكفرة قالوا: لعلها رؤيا ، وقد قدمنا فى صدر السورة وجها آخر فى تفسير هذه الرؤيا ، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى ﷺ أنه أسرى به . وقيل : كانت رؤيا نوم ، وأن النبى ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك ، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : ٢٧] وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية ، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة . وقيل : إن هذه الرؤيا المذكورة فى هذه الآية هى أنه رأى بنى مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، فقيل : إنما هى الدنيا أعطوها فسرّى عنه ، وفيه ضعف ، فإنه لا فتنة للناس فى هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده ، ويراد بالفتنة : ما حصل من المساءة لرسول الله ﷺ أو يحمل على أنه قد كان اخبر الناس بها فافتتنوا . وقيل : إن الله سبحانه أراه فى المنام مصارع قريش حتى قال : «والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وهو يومئ إلى الأرض ويقول: « هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان » ، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية .

﴿ **والشجرة الملعونة فى القرآن** ﴾ عطف على الرؤيا ، قيل : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس . قال جمهور المفسرين : وهى شجرة الزقوم ، والمراد بلعنها : لعن آكلها كما قال سبحانه : ﴿ إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم ﴾ [الدخان ٤٣ ، ٤٤] . وقال الزجاج : إن العرب تقول لكل طعام مكروه : ملعون ، ومعنى الفتنة فيها : أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ، ثم يقول : ينبت فيها الشجر ، فأنزل الله هذه الآية . وروى أن أبا جهل

أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تزقموا . وقال ابن الزبعرى : كثر الله من الزقوم فى داركم ؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وقيل : إن الشجرة الملعونة : هى الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتلها ، وهى شجرة الكشوث . وقيل : هى الشيطان . وقيل : اليهود . وقيل : بنو أمية ﴿**ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيرا**﴾ أى نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا متجاوزا للحد ، متماديا غاية التمادى ، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة فى الكفر ، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار ، وهو عذاب الاستئصال ، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخاري والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا** ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم ، فأنزل الله : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ كلاهما ، يعنى : الفعلين بالياء التحتية ، وروى نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرا . وروى عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير . وروى عنه أيضا من وجه آخر بلفظ : هم عيسى وعزير ، والشمس والقمر (٢) . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله لى الوسيلة » قالوا : وما الوسيلة ؟ قال: « القرب من الله » ، ثم قرأ : ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب** ﴾ (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ قال : فى اللوح المحفوظ .

وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال: « لا ، بل أستأنى بهم » ،فأنزل الله: ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات** ﴾ الآية (٤) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧١٤ ، ٤٧١٥) ومسلم فى التفسير (٣٠٣٠ / ٢٨ ـ ٣٠) والنسائى فى التفسير (٣٠٧ـ ٣٠٩) وابن جرير ١٥/ ٧٢ والطبرانى (٩٠٧٧) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الحلية ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) ابن جرير ١٥/ ٧٣ .

(٣) الترمذى فى المناقب (٣٦١٢) وقال : « هذا حديث غريب ، إسناده ليس بالقوى » .

(٤) أحمد ١/ ٢٥٨ والنسائى فى التفسير (٣١٠) والبزار فى كشف الأستار (٢٢٢٥، ٢٢٢٦) وابن جرير ١٥/ ٧٤،=

وأخرج أحمد والبيهقى من طريق أخرى عنه نحوه (١) . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله ﷺ: لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ؟ فقال رسول الله ﷺ: « إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم» ، فقالوا : لا نريدها (٢) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس ﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ قال : عصمك من الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : فهم فى قبضته . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا** ﴾ الآية قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام ﴿ **والشجرة الملعونة فى القرآن** ﴾ قال : هى شجرة الزقوم (٣) . وأخرج أبو سعيد وأبو يعلى وابن عساكر عن أم هانئ ؛ أن رسول الله ﷺ لما أسرى به أصبح يحدث نفرا من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر ، فأنزل الله إليه : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : رأى رسول الله ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نزو القردة ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكاً حتى مات ، فأنزل الله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ (٤) . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا السند ضعيف جدا ، وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبالة (٥) وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جدا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال : « رأيت ولد الحكم بن أبى العاص على المنابر كأنهم القردة ، فأنزل الله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس**

= وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٧١ ، ٢٧٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٣ : « رجال الروايتين رجال الصحيح » . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على المسند (٢٣٣٣) : «إسناده صحيح » .

(١) البيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣ . (٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣ .

(٣) أحمد ١/ ٢٢١ والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٨٨) وفى التفسير (٤٧١٦) وفي القدر (٦٦١٣) والترمذي فى التفسير (٣١٣٤) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١١، ٣١٢) وابن جرير ١٥/ ٧٦ والطبرانى (١١٦٤١) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٢ ، ٣٦٣ على شرط البخاري ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١٥/ ٧٧.

(٥) ابن كثير ٤/ ٣٢٤ . وفى المطبوعة : « محمد بن الحسن بن زبان » ،والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير وابن كثير ومن المخطوطة .

والشجرة الملعونة ﴾ » يعنى : الحكم وولده . وأخرج ابن أبى حاتم عن يعلى بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ: « رأيت بنى أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء» ، واهتم رسول الله ﷺ لذلك ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن على نحوه مرفوعا وهو مرسل . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل . وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك : « إنكم الشجرة الملعونة فى القرآن » وفى هذا نكارة ، لقولها . يقول لأبيك وجدك ، ولعل جد مروان لم يدرك زمن النبوة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فرده المشركون ، فقال ناس : قد ردّ وقد كان حدثنا أنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم (١) . وقد تعارضت هذه الأسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح ، والراجح كثرةً وصحةً هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك . وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك فى الرؤيا ، وفى تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم ، فلا اعتبار بغيرهم معهم . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما ذكر رسول الله ﷺ شجرة الزقوم تخويفا لهم : يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنزقمنها تزقما قال الله سبحانه : ﴿إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم ﴾ [الدخان : ٤٣، ٤٤] ، وأنزل : ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿والشجرة الملعونة ﴾ قال : ملعونة لأنه قال : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [الصافات: ٦٥] والشياطين ملعونون .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾.

---

(١) ابن جرير ١٥/ ٧٧ .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٦ .

لما ذكر سبحانه أن رسول الله ﷺ كان فى بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك ، حتى أن هذه عادة قديمة ، سنها إبليس اللعين ، وأيضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر هاهنا ما يحقق ذلك فقال : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه فى سبعة مواضع : فى البقرة ، والأعراف ، والحجر ، وهذه السورة ، والكهف ، وطه ، وص، وقد تقدم تفسيرها مبسوطا فلنقتصر هاهنا على تفسير ما لم يتقدم ذكره من الألفاظ ، فقوله : ﴿**طينا** ﴾ منتصب بنزع الخافض، أى من طين ، أو على الحال . قال الزجاج : المعنى : لمن خلقته طينا ، وهو منصوب على الحال .

﴿ **أرأيتك** ﴾ أى أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ لم فضلته ؟ وقد ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف: ١٢] فحذف هذا للعلم به ﴿ **لأحتنكن ذريته** ﴾ أى لأستولين عليهم بالإغواء والإضلال . قال الواحدى : أصله من احتناك الجراد الزرع ، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده ، هذا هو الأصل ، ثم سمى الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكا. وقيل: معناه : لأسوقنهم حيث شئت ، وأقودنهم حيث أردت ، من قولهم : حنكت الفرس أحنكه حنكاً : إذا جعلت فى فيه الرسن ، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية ، ومنه قول الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجحفت   جهداً إلى جهد بنا وأضعفت
واحتنكت أموالنا واجتلفت

أى استأصلت أموالنا ، واللام فى ﴿ **لئن أخرتن** ﴾ هى الموطئة . وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره ، لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه ، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده فى بنى آدم ، وأنه يجرى منهم فى مجارى الدم ، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصم الله ، وهم المرادون بقوله: ﴿ **إلا قليلا** ﴾ وفى معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ [سبأ: ٢٠] فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن. وقيل : إنه استنبط ذلك من قول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : ٣٠] . وقيل : علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات ،أو ظن ذلك لأنه وسوس لآدم ، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزما ، كما روى عن الحسن .

﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم** ﴾ أى أطاعك ﴿ **فإن جهنم جزاؤكم** ﴾ أى إبليس ومن أطاعه ﴿ **جزاء موفورا** ﴾ أى وافراً مكملاً ، يقال : وفرته أفره وفراً ، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً ، فهو وافر ، فهو مصدر ، ومنه قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم

ثم كرر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ أى استزعج واستخف من استطعت من بنى آدم ، يقال: أفزه واستفزه ، أى أزعجه واستخفه ، والمعنى : استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله. وقيل : هو الغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة: أجلب من الجلبة والصياح ، أى صح عليهم . وقال الزجاج : أى اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك . فالإجلاب : الجمع ، والباء فى ﴿ **بخيلك** ﴾ زائدة . وقال ابن السكيت : الإجلاب : الإعانة . والخيل تقع على الفرسان كقوله ﷺ : « يا خيل الله اركبى » [(١)] . وتقع على الأفراس ، والرجل بسكون الجيم : جمع راجل كتاجر وتجر ،وصاحب وصحب ،وقرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة . قال أبو زيد : يقال : رجل ورجل ، بمعنى راجل ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان ، أو المراد : كل راكب وراجل فى معصية الله . ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ أما المشاركة فى الأموال ، فهى : كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذا من غير حق ، أو وضعا فى غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة فى الأولاد : دعوى الولد بغير سبب شرعى ، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى ، والإساءة فى تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق ، ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها ، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم ، ثم قال : ﴿**وعدهم** ﴾ قال الفراء : قل لهم : لا جنة ولا نار . وقال الزجاج : وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ أى باطلا ، وأصل الغرور: تزيين الخطأ بما يوهم الصواب . وقيل : معناه : وعدهم النصرة على من خالفهم ، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد . وقيل: هى على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه .

﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ يعنى : عباده المؤمنين كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها: المؤمنون لما فى الإضافة من التشريف. وقيل : المراد : جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع : ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين﴾ [الحجر : ٤٢] . والمراد بالسلطان : التسلط ﴿ **وكفى بربك وكيلا** ﴾ يتوكلون عليه ، فهو الذى يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال إبليس : إن آدم خلق من تراب من طين ، خلق ضعيفا وأنى خلقت من نار ، والنار تحرق كل شىء ﴿ **لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ فصدق ظنه عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **لأحتنكن ذريته** ﴾ قال: لأستولين. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **لأحتنكن ذريته** ﴾ قال: لأحتوينهم.

---

(١) جزء من حديث فى الحاكم ٢/٣٩٦ قاله على كرم الله وجهه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : لأضلنهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **موفورا** ﴾ قال : وافرا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال: صوته : كل داع دعا إلى معصية الله ﴿**وأجلب عليهم بخيلك** ﴾ قال : كل راكب فى معصية الله ﴿ **ورجلك** ﴾ قال: كل راجل فى معصية الله ﴿ **وشاركهم فى الأموال** ﴾ قال : كل مال فى معصية الله ﴿ **والأولاد** ﴾ قال : كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : كل خيل تسير فى معصية الله ، وكل مال أخذ بغير حقه ، وكل ولد زنا . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: ﴿ **الأموال** ﴾ ما كانوا يحرمون من أنعامهم ﴿ **والأولاد** ﴾ أولاد الزنا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ﴿ **الأموال** ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ﴿ **والأولاد** ﴾ سموا عبد الحارث وعبد شمس .

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾.

قوله : ﴿ **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر** ﴾ الإزجاء : السوق والإجراء والتسيير ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ [النور : ٤٣] . وقول الشاعر :

يأيها الراكب المزجى مطيته ... سائل بنى أسد : ما هذه الصور

وقول الآخر :

عوذا تزجى خلفها أطفالها

والمعنى : أن الله سبحانه يسير الفلك فى البحر بالريح ،والفلك هاهنا جمع. وقد تقدم ، والبحر : هو الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿ **لتبتغوا من فضله** ﴾ أى من رزقه الذى تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة ، و « من » زائدة أو للتبعيض ، وفى هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركوا به أحدا ، وجملة : ﴿ **إنه كان بكم رحيما** ﴾ تعليل لما تقدم أى كان بكم رحيما فهداكم إلى

مصالح دنياكم .

﴿ وإذا مسكم الضر ﴾ يعنى : خوف الغرق ﴿ فى البحر ضل من تدعون ﴾ من الآلهة وذهب عن خواطركم ، ولم يوجد لإغاثتكم ماكنتم تدعون من دونه من صنم ، أو جن ، أو ملك ، أو بشر ﴿ إلا إياه ﴾ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته وإغاثته ، والاستثناء منقطع. ومعنى الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم فى غير هذه الحالة ، فأما فى هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ أى كثير الكفران لنعمة الله ، وهو تعليل لما تقدمه ، والمعنى : أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وفى الرخاء يعرضون عنه .

ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلا : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم فى البر وإن سلموا من البحر . والخسف : أن تنهار الأرض بالشىء ، يقال: بئر خسيف : إذا انهدم أصلها ، وعين خاسف:أى غائرة حدقتها فى الرأس ، وخسفت عين الماء : إذا غار ماؤها ، وخسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض و﴿جانب البر﴾ : ناحية الأرض ، وسماه جانبا ؛ لأنه يصير بعد الخسف جانبا ، وأيضا فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب . وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر ، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر ﴿ أو يرسل عليكم حاصبا ﴾ قال أبو عبيدة والقتيبى : الحصب : الرمى ، أى ريحاً شديدة حاصبة ، وهى التى ترمى بالحصى الصغار . وقال الزجاج : الحاصب : التراب الذى فيه حصباء ، فالحاصب : ذو الحصباء كاللابن ، والتامر . وقيل : الحاصب : حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال، للسحابة التى ترمى بالبرد : حاصب ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله . ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ أى فى البحر مرة أخرى بأن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه ، وجاء بفى ولم يقل إلى البحر ؛ للدلالة على استقرارهم فيه ﴿ فيرسل عليكم قاصفا من الريح ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة من قصف الشىء يقصفه،أى كسره بشدة ، والقصف: الكسر ، أو هو الريح التى لها قصيف ، أى صوت شديد من قولهم: رعد قاصف ، أى شديد الصوت ﴿ فيغرقكم ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ورويس ومجاهد : « فتغرقكم » بالتاء الفوقية على أن فاعله الريح ، وقرأ الحسن وقتادة وابن وردان : « فيغرقكم » بالتحتية والتشديد

فى الراء . وقرأ أبو جعفر أيضا : « الرياح » . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فى جميع هذه الأفعال . وقرأ الباقون بالياء التحتية فى جميعها أيضا ، والباء فى ﴿ **بما كفرتم** ﴾ للسببية ، أى بسبب كفركم ﴿ **ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا . قال الزجاج : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحاس : وهو من الثأر ، وكذا يقال لك من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع .

﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ هذا إجمال لذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى آدم، أى كرمناهم جميعا وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله . وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم ، وسائر الحيوانات تأكل بالفم ، وكذا حكاه النحاس . وقيل : ميزهم بالنطق والعقل والتميز . وقيل : أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب . وقال ابن جرير أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل: بالكلام والخط والفهم ، ولا مانع من حمل التكريم المذكور فى الآية على جميع هذه الأشياء . وأعظم خصال التكريم العقل ، فإن به تسلطوا على سائر الحيوانات،وميزوا بين الحسن والقبيح،وتوسعوا فى المطاعم والمشارب ، وكسبوا الأموال التى تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التى تمنعهم مما يخافون ، وعلى تحصيل الأكسية التى تقيهم الحرّ والبرد . وقيل : تكريمهم : هو أن جعل محمداً ﷺ منهم ﴿ **وحملناهم فى البر والبحر** ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم ، حملهم سبحانه فى البر على الدواب ، وفى البحر على السفن . وقيل : حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿ **وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بنى آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته، وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه.

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة ، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية ، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب فى هذه المسألة هو الذى حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة ، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، ولا دلالة بها على ذلك ، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بنى آدم، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلا عليه ، فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال ، والتأكيد بقوله : ﴿ **تفضيلا** ﴾ يدل على عظم

هذا التفضيل وأنه بمكان مكين ، فعلى بنى آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يزجى** ﴾ قال: يجرى ، وأخرجوا عن قتادة قال : يسيرها فى البحر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حاصبا** ﴾ قال : مطر الحجارة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : حجارة من السماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **قاصفا من الريح** ﴾ قال : التى تغرق. وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : القاصف والعاصف فى البحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **قاصفا** ﴾ قال: عاصفا ، وفى قوله : ﴿ **ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ قال : نصيرا .

وأخرج الطبرانى ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب فى تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ :« ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل :يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال :« ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » (١) . وأخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا قال: وهو الصحيح (٢) . وأخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : المؤمن أكرم على الله من ملائكته (٣) . وأخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : «إن الملائكة قالت : يا رب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان » . وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة (٤). وإسناد الطبرانى هكذا :حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى ، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصى ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبوغسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم فقال : حدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة . وأخرج نحوه البيهقى أيضا فى الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ فذكره (٥) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ قال : جعلناهم يأكلون بأيديهم وسائر الخلق يأكلون بأفواههم . وأخرج الحاكم فى

---

(١) الطبرانى فى الصغير ٢/ ٤٧ ولم يروه عن يونس إلا عبيد الله ، تفرد به معمر ، والبيهقى فى الشعب (١٥١) وهو ضعيف ، والخطيب فى تاريخه ٤/ ٤٥ وفيه عبيد الله أيضا وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٦ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف جدا » ، وقال ابن كثير ٤/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ : « وهذا حديث غريب جدا » .

(٢) البيهقى فى الشعب (١٥٢) وإسناد رجاله ثقات .

(٣) المصدر السابق (١٥٠) وإسناده ضعيف .

(٤) ابن جرير ١٥/ ٨٥ .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٤٦ .

التاريخ ، والديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الكرامة الأكل بالأصابع » [(١)] .

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال الزجاج : يعنى : يوم القيامة ، وهو منصوب على معنى اذكر يوم ندعو . وقرئ : « يدعو » بالياء التحتية على البناء للفاعل و« يدعى » على البناء للمفعول ، والباء فى ﴿ **بإمامهم** ﴾ للإلصاق كما تقول: أدعوك باسمك، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال ، والتقدير : ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم ، أى يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده ، والأول أولى . والإمام فى اللغة : كل ما يؤتم به من نبى أو مقدّم فى الدين أو كتاب .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين الإمام الذى تدعى كل أناس به ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : إنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله ، أى يدعى كل إنسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ فأما من [(٢)] أوتى كتابه﴾الآية [الحاقة : ١٩] ، وقال ابن زيد : الإمام : هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الإنجيل بالإنجيل ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن . وقال مجاهد وقتادة : إمامهم : نبيهم ، فيقال : هاتوا متبعى إبراهيم ، هاتوا متبعى موسى ، هاتوا متبعى عيسى ، هاتوا متبعى محمد ، وبه قال الزجاج. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : المراد بالإمام: إمام عصرهم ، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذى كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه . وقال الحسن وأبو العالية : المراد ﴿**بإمامهم** ﴾ : أعمالهم ، فيقال مثلا : أين المجاهدون ، أين الصابرون ، أين الصائمون ، أين المصلون ؟ ونحو ذلك . وروى عن ابن عباس وأبى هريرة . وقال أبو عبيدة : المراد ﴿ **بإمامهم** ﴾ : صاحب مذهبهم ، فيقال مثلا : أين التابعون للعالم فلان ابن فلان . وهذا من البعد بمكان . وقال محمد بن كعب : ﴿ **بإمامهم** ﴾ : بأمهاتهم ،

---

(١) الديلمى فى الفردوس (٧٢٢٣) .

(٢) فى المخطوطة : « فمن » والصواب ما أثبتناه .

على أن إمام جمع أم كخف وخفاف ، وهذا بعيد جدا . وقيل : الإمام: هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة ، أوقبيح كأضدادها ، فالداعى إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام ، ذكر معناه الرازى فى تفسيره .

﴿ **فمن أوتى كتابه بيمينه** ﴾ من أولئك المدعوين ، وتخصيص اليمين بالذكر ؛ للتشريف والتبشير ﴿ **فأولئك**﴾ الإشارة إلى « من » باعتبار معناه . قيل : ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل ، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿ **يقرؤون كتابهم** ﴾ الذى أوتوه ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو القشرة التى فى شق النواة ، أو هو عبارة عن أقل شىء ، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً ، ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال : ﴿ **ومن كان فى هذه أعمى** ﴾ أى من كان من المدعوين فى هذه الدنيا أعمى ، أى فاقد البصيرة . قال النيسابورى : لا خلاف أن المراد بهذا العمى : عمى القلب ، وأما قوله : ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ فيحتمل أن يراد به : عمى البصر، كقوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ [طه : ١٢٤ ، ١٢٥] . وفى هذا زيادة العقوبة . ويحتمل أن يراد : عمى القلب . وقيل : المراد بالآخرة : عمل الآخرة ، أى فهو فى عمل ، أو فى أمر الآخرة أعمى . وقيل: المراد: من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل: من كان فى الدنيا التى تقبل فيها التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله فهو فى الآخرة أعمى . وقد قيل : إن قوله : ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ أفعل تفضيل،أى أشد عمى ، وهذا مبنى على أنه من عمى القلب ، إذ لا يقال ذلك فى عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال : ما أعماه ، كما لا يقال : ماأيداه . وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف . وقد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول : ما أسود شعره ، ومن ذلك قول الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم ‏ ‏ ‏ لؤما وأبيضهم سربال طباخ

والبحث مستوفى فى النحو . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى وخلف : « أعمى » بالإمالة فى الموضعين ، وقرأهما أبوعمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة ، وأمال أبو عبيد الأول دون الثانى ﴿ **وأضل سبيلا** ﴾ يعنى : أن هذا أضل سبيلا من الأعمى لكونه لا يجد طريقا إلى الهداية ، بخلاف الأعمى فقد يهتدى فى بعض الأحوال .

ثم لما عدد سبحانه فى الآيات المتقدمة أقسام النعم على بنى آدم أردفه بما يجرى مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال: ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك** ﴾ : « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير شأن محذوف ، واللام : هى الفارقة بينها

وبين النافية ، والمعنى : وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين . وأصل الفتنة : الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ، ثم استعمل فى كل من أزال الشىء عن حده وجهته ، وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك ﴿ **عن الذى أوحينا إليك** ﴾ من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد ﴿**لتفترى علينا غيره** ﴾ لتتقول علينا غير الذى أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿ **وإذا لاتخذوك خليلا** ﴾ أى لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلا لهم، أى والوك وصافوك ، مأخوذ من الخلة بفتح الخاء .

﴿ **ولولا أن ثبتناك** ﴾ على الحق وعصمناك عن موافقتهم ﴿ **لقد كدت تركن إليهم** ﴾ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل ، والركون : هو الميل اليسير ، ولهذا قال : ﴿ **شيئا قليلا** ﴾ لكن أدركته ﷺ العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم ، فضلا عن نفس الركون . وهذا دليل على أنه ﷺ ما هم بإجابتهم ، ذكر معناه القشيرى وغيره . وقيل : المعنى: وإن كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم ، فنسب فعلهم إليه مجازا واتساعا كما تقول للرجل : كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوى .

ثم توعده سبحانه فى ذلك أشد الوعيد فقال: ﴿ **إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات** ﴾ أى لو قاربت أن تركن إليهم، أى مثلى ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل فى الدارين ، والمعنى : عذاباً ضعفاً فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ، أى مضاعفا ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت ، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : ٣٠] . وضعف الشىء : مثلاه ، وقد يكون الضعف النصيب كقوله : ﴿ لكل ضعف ﴾ [الأعراف :٣٨] . أى نصيب . قال الرازى : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة ﴿ **ثم لا تجد لك علينا نصيرا** ﴾ ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب. قال النيسابورى : اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها ، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها ، فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة .

﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك** ﴾ أى وإن الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها ، ولكنه لم يقع ذلك منهم ، بل منعهم الله منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به . وقيل : إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزا ﴿ **وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا** ﴾ معطوف على ﴿ **ليستفزونك** ﴾ أى لا يبقون بعد إخراجك إلا زمنا قليلا ، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعا . وقرأ عطاء بن أبى رباح : « لا يلبثوا » بتشديد الباء الموحدة. وقرئ : « لا يلبثوا » بالنصب على إعمال « إذا » ، على أن الجملة معطوف على جملة : ﴿ **وإن كادوا** ﴾ لا على الخبر فقط . وقرأ نافع وابن كثير وأبو

بكر وأبو عمرو : «خلفك » ومعناه : بعدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى : ﴿**خلافك**﴾ ومعناه أيضا : بعدك . وقال ابن الأنبارى : ﴿ **خلافك** ﴾ بمعنى : مخالفتك ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله:﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة: ٨١]. ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد ، قول الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيراً

يقال : شطبت المرأة الجريد : إذا شققته لتعمل منه الحصير . قال أبو عبيدة : ثم تلقيه الشاطبة إلى المثقبة . ﴿ **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا** ﴾ ﴿ **سنة** ﴾ منتصبة على المصدرية ، أى سن الله سنة . وقال الفراء : أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل . وقيل : المعنى : سنتنا سنة من قد أرسلنا . قال الزجاج : يقول : إن سنتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿ **ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ أى ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : إمام هدى وإمام ضلالة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه عن أنس فى الآية قال : نبيهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب أعمالهم . وأخرج ابن مردويه عن على فى الآية قال : يدعى كل قوم بإمام زمانهم ، وكتاب ربهم وسنة نبيهم . وأخرج الترمذى وحسنه، والبزار وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعا ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لولؤ يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا ، حتى يأتيهم فيقول : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ، ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، قال : فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا» . قال البزار بعد إخراجه : لا يروى إلا من هذا الوجه (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن كان فى هذه أعمى** ﴾ يقول : من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿ **فهو** ﴾ عما وصفت له ﴿ **فى الآخرة** ﴾ ولم يره

---

(١) الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٣٦) وقال : « حسن غريب » وابن حبان (٧٣٠٥) وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

﴿ **أعمى وأضل سبيلا** ﴾ يقول : أبعد حجة . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا يقول : من عمى عن قدرة الله فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم ، فأنزل الله: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**﴾ إلى قوله : ﴿ **نصيرا** ﴾. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن باذان عن جابر بن عبد الله مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا : لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « وما على لو فعلت والله يعلم منى خلافه ؟ » فأنزل الله: ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك**﴾ الآية [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير؛ أن قريشا أتوا النبى ﷺ فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ، فركن إليهم، فأوحى الله إليه : ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: أنزل الله : ﴿والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : ١] . فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ [النجم : ١٩] فألقى عليه الشيطان : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى، فقرأ النبى ﷺ مابقى من السورة وسجد ، فأنزل الله : ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك** ﴾ الآية ، فما زال مهموما مغموما حتى أنزل الله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ﴾ الآية [الحج : ٥٢]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس؛ أن ثقيفا قالوا للنبى ﷺ : أجلنا سنة حتى يُهدى لآلهتنا ، فإذا قبضنا الذى يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهم أن يؤجلهم ، فنزلت ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك**﴾ الآية [٢].

وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **ضعف الحياة وضعف الممات** ﴾ يعنى : ضعف عذاب الدنيا والآخرة . وأخرج البيهقى عن الحسن فى الآية قال : هو عذاب القبر . وأخرج أيضا عن عطاء مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون للنبى ﷺ : كانت الأنبياء تسكن الشام ، فمالك والمدينة ؟ فهم أن يشخص، فأنزل الله : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن حضرمى أنه بلغه أن بعض اليهود . . . فذكر نحوه [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن عبد الرحمن ابن غنم؛ أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن كنت نبيا فالحق بالشام ، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدق النبى ﷺ ما قالوا ، فتحرى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ،

(١، ٢) ابن جرير ١٥ / ٨٨ . (٣) المصدر السابق : ١٥ / ٨٩ ، ٩٠ .

فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **تحويلا** ﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث ، وقال له جبريل : سل ربك ، فإن لكل نبى مسألة فقال : « ما تأمرنى أن أسأل ؟ » قال: ﴿ **قل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا**﴾ فهؤلاء نزلن عليه فى رجعته من تبوك [1] . قال ابن كثير : وفى هذا الإسناد نظر ، والظاهر أنه ليس بصحيح ، فإن النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتثالا لقوله : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة : ١٢٣] . وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه [2] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض** ﴾ قال : هم أهل مكة بإخراج النبى ﷺ من مكة ، وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله فى الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا** ﴾ قال : يعنى بالقليل : يوم أخذهم ببدر ، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده .

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾.

لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات ، وهى الصلاة ، فقال : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس** ﴾ . وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها : الصلوات المفروضة .وقد اختلف العلماء فى الدلوك المذكور فى هذه الآية على قولين: أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وأبو برزة وابن عباس والحسن والشعبى وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبوجعفر الباقر، واختاره ابن جرير. والقول الثانى : أنه غروب الشمس ، قاله على وابن مسعود وأبى بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الفراء: دلوك الشمس : من لدن زوالها إلى غروبها . قال الأزهرى : معنى الدلوك فى كلام

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ . (٢) ابن كثير ٤/ ٣٣٢ .

العرب : الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دالكة . وقيل لها إذا أفلت : دالكة ، لأنها فى الحالتين زائلة . قال : والقول عندى أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، والمعنى : أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾ فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ هذه خمس صلوات . وقال أبو عبيد : دلوكها : غروبها ، ودلكت براح : يعنى الشمس ، أى غابت ، وأنشد قطرب على هذا قول الشاعر :

هذا مقام قدمى رباح ذبَّبَ حتى دلكت براح

اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام ، ومن ذلك قول ذى الرمة :

مصابيح ليست باللواتى تقودها نجـــوم ، ولا بالآفـلات الـدوالك

أى الغوارب ، وغسق الليل : اجتماع الظلمة . قال الفراء والزجاج : يقال : غسق الليل وأغسق : إذا أقبل بظلامه . قال أبوعبيد : الغسق : سواد الليل . قال قيس بن الرقيات :

إن هـذا الليل قد غسقا واشتكيت الهـم والأرقـا

وقيل : غسق الليل : مغيب الشفق ، ومنه قول زهير :

ظلت تجود يداها وهى لاهية حتى إذا جنح الإظلام والغسق

وأصل الكلمة من السيلان يقال: غسقت: إذا سالت . وحكى الفراء غسق الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجى وأدجى، وغبش وأغبش ، وقد استدل بهذه الغاية ، أعنى قوله : ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾ ، من قال : إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ، روى ذلك عن الأوزاعى وأبى حنيفة وجوزه مالك والشافعى فى حال الضرورة . وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ فى تعيين أوقات الصلوات ، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك . قوله : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ انتصاب ﴿ **قرآن** ﴾ لكونه معطوفا على ﴿ **الصلاة** ﴾ أى وأقم قرآن الفجر ، قاله الفراء. وقال الزجاج والبصريون : انتصابه على الإغراء ، أى فعليك قرآن الفجر . قال المفسرون : المراد بقرآن الفجر : صلاة الصبح . قال الزجاج : وفى هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» (١) ، وفى بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن، « وقرآن معها» (٢) . وورد ما يدل على وجوب

(١) مسلم فى الصلاة (٣٩٤٠/ ٣٤ ــ٣٧) وأبو داود فى الصلاة (٨٢٢ ، ٨٢٣) والترمذى فى الصلاة (٢٤٧) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الصلاة (٨٣٧) وكلهم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أبو داود فى الصلاة (٨١٨) والترمذى فى الصلاة (٢٣٨) وقال : « حديث حسن ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه » .

الفاتحة فى كل ركعة ، وقد حررته فى مؤلفاتى تحريراً مجودا . ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إن قرآن الفجر كان مشهودا**﴾ أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح ، وبذلك قال جمهور المفسرين . ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾: « من » للتبعيض ، وانتصابه على الظرفية بمضمر ، أى قم بعض الليل فتهجد به ، والضمير المجرور راجع إلى القرآن ، وما قيل من أنه منتصب على الإغراء ، والتقدير : عليك بعض الليل، فبعيد جدا . والتهجد مأخوذ من الهجود . قال أبو عبيدة وابن الأعرابى : هو من الأضداد ، لأنه يقال : هجد الرجل : إذا نام ، وهجد: إذا سهر ، فمن استعماله فى السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هجود فليت خيالها بمنى يعود

يعنى : منتبهين ، ومن استعماله فى النوم قول الآخر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات [١] النوال تجود

يعنى : نياما . وقال الأزهرى : الهجود فى الأصل : هو النوم بالليل ، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرج، أى تجنب الإثم والحرج ، فالمتهجد: من تجنب الهجود ، فقام بالليل . وروى عن الأزهرى أيضا أنه قال : المتهجد : القائم إلى الصلاة من النوم ، هكذا حكى عنه الواحدى فقيد التهجد بالقيام من النوم ، وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود ، فقالوا : التهجد بعد النوم . قال الليث : تهجد إذا استيقظ للصلاة ﴿ **نافلة لك** ﴾ معنى النافلة فى اللغة: الزيادة على الأصل ، فالمعنى: أنها للنبى ﷺ نافلة زائدة على الفرائض . والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر. وقيل : المراد بالنافلة هنا : أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس فى حقه ﷺ ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة . وقيل: كانت صلاة الليل فريضة فى حقه ﷺ ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا ، وعلى هذا يحمل ما ورد فى الحديث أنها عليه فريضة ولأمته تطوع . قال الواحدى : إن صلاة الليل كانت زيادة للنبى ﷺ خاصة لرفع الدرجات ، لا للكفارات ، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة: لكثرة ذنوبنا، إنما نعمل لكفارتها ، قال : وهو قول جميع المفسرين . والحاصل : أن الخطاب فى هذه الآية وإن كان خاصا بالنبى ﷺ فى قوله : ﴿ **أقم الصلاة** ﴾ فالأمر له أمر لأمته ، فهو شرع عام ، ومن ذلك الترغيب فى صلاة الليل ، فإنه يعم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف . ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ قد ذكرنا فى مواضع أن ﴿**عسى**﴾ من الكريم إطماع واجب الوقوع ، وانتصاب ﴿ **مقاما** ﴾ على الظرفية بإضمار فعل ، أو بتضمين البعث معنى الإقامة ، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال ، أى يبعثك ذا مقام محمود . ومعنى كون المقام

(١) العلات : هى ما يتعلل به .

محمودا : أنه يحمده كل من علم به .

وقد اختلف فى تعيين هذا المقام على أقوال : الأول : أنه المقام الذى يقومه النبى ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه ، وهذا القول هو الذى دلت عليه الأدلة الصحيحة فى تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل . قال الواحدى: وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة . القول الثانى : أن المقام المحمود: إعطاء النبى ﷺ لواء الحمد يوم القيامة . ويمكن أن يقال : إن هذا لا ينافى القول الأول ، إذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد . القول الثالث : أن المقام المحمود : هــو أن الله سبحانه يجلس محمدا ﷺ معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد فى ذلك حديث. وحكى النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث . قال ابن عبد البر: مجاهد وإن كان أحد الأئمة يقول بالتأويل ، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هـذا ، والثانى فى تأويل : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] قال: معناه : تنتظر الثواب ، وليس من النظر . انتهى ، وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأول لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة . القول الرابع : أنه مطلق فى كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به فى التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة فى تعيين هذا المقام المحمود متواترة ، فالمصير إليها متعين ، وليس فى الآية عموم فى اللفظ حتى يقال : الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومعنى قوله : « وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد » : أنه عام فى كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق ، كما ذكره فى ذبح البقرة ، ولهذا قال هنا . وقيل : المراد : الشفاعة ، وهى نوع واحد مما يتناوله ، يعنى : لفظ المقام ، والفرق بين العموم البدلى والعموم الشمولى معروف ، فلا نطيل بذكره .

﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ﴾ وقرأ الجمهور : **﴿ مدخل صدق﴾** و**﴿ مخرج صدق ﴾** بضم الميمين. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم بفتحهما ، وهما مصدران بمعنى : الإدخال والإخراج ، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود ، أى إدخالا يستأهل أن يسمى إدخالا ، ولا يرى فيه ما يكره . قال الواحدى : وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما ، وكل شىء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

وقد اختلف المفسرون فى معنى الآية ، فقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير . وقيل : المعنى : أمتنى إماتة صدق ، وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق. وقيل : المعنى: أدخلنى فيما أمرتنى به ، وأخرجنى مما نهيتنى عنه . وقيل : إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأول . وقيل : المراد إدخال عزٍ وإخراج نصر . وقيل : المعنى : أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل

صدق ، وأخرجني منه إذا أمتني مخرج صدق. وقيل: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق ، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق ، وأخرجني بالصدق . وقيل : الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء ، ومعناها : رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري عنها.

﴿ **واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ أي حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني . وقيل : اجعل لي من لدنك ملكا وعزا قويا وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا . وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ [الحديد : ٢٥] . وفي الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع . انتهى (١) .

﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل** ﴾ المراد بالحق: الإسلام. وقيل : القرآن. وقيل : الجهاد . ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان ، والمراد بالباطل : الشرك . وقيل : الشيطان ، ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل . ومعنى زهق : بطل واضمحل ، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها ﴿ **إن الباطل كان زهوقا** ﴾ أي إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائما .

﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ننزل** ﴾ بالنون وقرأ أبو عمرو بالتخفيف . وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف ، ورواها المروزي عن حفص ، و«من » لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس . وقيل : للتبعيض ، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لاشفاء فيه ، ورده ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله. واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين : الأول : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه . القول الثاني : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك ، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز ، أو من باب حمل المشترك على معنييه .

ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٤٢ .

يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ [فصلت : ٤٤] . ثم لما ذكر سبحانه ما فى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين، ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال : ﴿ **ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾ أى ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق ، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿ **إلا خسارا** ﴾ أى هلاكاً لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً ، فعند ذلك يهلكون. وقيل: الخسار: النقص ،كقوله : ﴿ فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ [التوبة : ١٢٥] .

ثم نبه سبحانه على فضح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان**﴾ أى على هذا الجنس بالنعم التى توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿ **أعرض**﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿ **ونأى بجانبه** ﴾ النأى: البعد ، والباء للتعدية أو للمصاحبة ، وهو تأكيد للإعراض ؛ لأن الإعراض عن الشىء هو أن يوليه عرض وجهه ، أى ناحيته ، والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره ، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا : الإعراض عن الدعاء والابتهال الذى كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ، ويراد بالنأى بجانبه : التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم . وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان وأبوجعفر : « ناء » مثل باع بتأخير الهمزة على القلب ، وقرأ حمزة : « ناءى » بإمالة الفتحتين ووافقه الكسائى ، وأمال شعبة والسوسى الهمزة فقط . وقرأ الباقون بالفتح فيهما ﴿ **وإذا مسه الشر** ﴾ من مرض أو فقر ﴿ **كان يؤوسا** ﴾ شديد اليأس من رحمة الله ، والمعنى : أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوى ، وظفر بالمقصود، نسى المعبود، وإن فاته شىء من ذلك استولى عليه الأسف ، وغلب عليه القنوط ، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافى ما فى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : ٥١] ونظائره ، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور فى هذه الآية ، ولا يبعد أن يقال : لا منافاة بين الآيتين ، فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه، كثير الدعاء بلسانه .

﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ الشاكلة قال الفراء : الطريقة . وقيل : الناحية . وقيل : الطبيعة . وقيل : الدين . وقيل: النية . وقيل : الجبلة ، وهى مأخوذة من الشكل ، يقال : لست على شكلى ولا على شاكلتى ، والشكل : هو المثل والنظير . والمعنى : إن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التى ألفها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن ﴿ **فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا** ﴾ لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق، فهو الذى يميز بين المؤمن الذى لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة ، وبين الكافر الذى شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم .

ثم لما انجر الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال : ﴿**ويسألونك عن الروح** ﴾ قد اختلف الناس فى الروح المسؤول عنه ، فقيل : هو الروح المدبر للبدن الذى تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين . قال الفراء :

الروح : الذى يعيش به الإنسان، لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه ، ولم يعط علمه أحدا من عباده فقال : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ أى إنكم لا تعلمونه . وقيل : الروح المسؤول عنه: جبريل . وقيل: عيسى . وقيل : القرآن . وقيل : ملك من الملائكة عظيم الخلق. وقيل : خلق كخلق بنى آدم . وقيل : غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة فى إيراده ، والظاهر : القول الأول ، وسيأتى ذكر سبب نزول هذه الآية ، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح . ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح ؛ لأن معرفة حقيقة الشىء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله . ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ : « من » بيانية ، والأمر: الشأن ، والإضافة للاختصاص ، أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التى لم يعلم بها عباده. وقيل: معنى ﴿ **من أمر ربى** ﴾: من وحيه وكلامه لا من كلام البشر .

وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث بما لا يتم له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين ولا دنيا . وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين فى الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع ، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلا عن أممهم المقتدين بهم ، فيا لله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذى لم تبلغه ولا بعضه فى غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ، ولم يستأثر بعلمه . ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه : ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ أى أن علمكم الذى علمكم الله ، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتى حظا من العلم وافرا ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر فى منقاره من البحر ، كما فى حديث موسى والخضر عليهما السلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ﴿ **دلوك الشمس** ﴾ : غروبها ، تقول العرب إذا غربت الشمس : دلكت الشمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على قال : دلوكها : غروبها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : ﴿ **لدلوك الشمس** ﴾ : لزوال الشمس وأخرج البزار وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « دلوك الشمس زوالها » وضعف السيوطى إسناده [(١)] ، وأخرجه مالك فى الموطأ وعبد الرزاق والفريابى وابن

(١) السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٩٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٤ : « رواه البزار وفيه عمر بن قيس المعروف بسندل ، وهو متروك » .

أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر من قوله . وأخرج عبد الرزاق عنه قال : دلوك الشمس : زياغها بعد نصف النهار . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس قال : دلوكها : زوالها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه فى قوله : **﴿ لدلوك الشمس ﴾** قال : إذا فاء الفيء . وأخرج ابن جرير عن أبى مسعود وعقبة بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر » (١) . وأخرج ابن جرير عن أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا : **﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾** (٢) . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه ، مما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندى ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبى ﷺ فقال : « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس» . وفى إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنبرى عن جابر فذكر نحوه مرفوعا (٣) .

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: **﴿ إلى غسق الليل ﴾** قال: إلى العشاء الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : **﴿ غسق الليل ﴾** اجتماع الليل وظلمته . وأخرج ابن جرير عنه قال : **﴿ غسق الليل ﴾** : بدو الليل . وأخرج عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : دلوك الشمس : إذا زالت الشمس عن بطن السماء . وغسق الليل : غروب الشمس . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : **﴿ وقرآن الفجر ﴾** قال : صلاة الصبح . وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : **﴿وقرآن الفجرإن قرآن الفجركان مشهودا ﴾** قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها » (٤) ، وهو فى الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ: « تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : **﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾** (٥) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود موقوفاً نحوه. وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قرأ رسول الله ﷺ : **﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾** قال :« تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » (٦) .

(١ـ٣) ابن جرير ١٥/ ٩٣ .

(٤) أحمد ٢/ ٤٧٤ والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) وقال: « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١٣) وابن ماجة فى الصلاة (٦٧٠) وابن جرير ١٥/ ٩٤ وصححه الحاكم ١/ ٢١١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الشعب (٢٥٧٦) .

(٥) البخارى فى الأذان (٦٤٨) وفى التفسير (٤٧١٧) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦٤٩/ ٢٤٦) .

(٦) ابن جرير ١٥/ ٩٤ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ نافلة لك ﴾ يعنى : خاصة للنبى ﷺ ، أمر بقيام الليل وكتب عليه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ، أن النبى ﷺ قال : « ثلاث هن على فرائض وهن لكم سنة : الوتر: والسواك ،وقيام الليل » (١). وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة فى قوله: ﴿ نافلة لك ﴾ قال : كانت للنبى ﷺ نافلة ولكم فضيلة ، وفى لفظ : إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ﴾ وسئل عنه ، قال : « هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى»(٢). وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ، ويكسونى ربى حلة خضراء،ثم يؤذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود» (٣). وأخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان ، اشفع ، يا فلان ، اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا . وأخرج عنه نحوه مرفوعاً (٤) ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر فى أحاديث الشفاعة فى الأمهات وغيرها . وأخرج الطبرانى فى قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ قال : يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته ، فذلك المقام المحمود (٥) . وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ ، قال : «يجلسنى معه على السرير » (٦) وينبغى الكشف عن إسناد هذين الحديثين .

وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم. والبيهقى والضياء فى المختارة ، عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله: ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ (٧) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى

---

(١) البيهقى ٧/ ٣٩ .

(٢) أحمد ٢/ ٤٤١ ، ٥٢٨ والترمذى فى التفسير (٣١٣٧) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١٥ / ٩٨ والبيهقى فى الشعب (٢٩٥) .

(٣) أحمد ٣/ ٤٥٦ وابن جرير ١٥/ ٩٨ وابن حبان (٦٤٤٥) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٣ ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٧١٨) والنسائى فى التفسير (٣١٥) .

(٥) الطبرانى (١٢٤٧٤) عن ابن عباس ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٤ : « وفيه ابن لهيعة ، وهو ضعيف إذا لم يتابع . وعطاء بن دينار قيل : لم يسمع من سعيد بن المسيب » .

(٦) الديلمى فى الفردوس (٤١٥٩) .

(٧) أحمد ١/ ٢٢٣ والترمذى فى التفسير (٣١٣٩) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ١٥/ ١٠٠وصححه الحاكم ٣/ ٣ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥١٦ .

الدلائل عن قتادة فى قوله : ﴿ وقل رب أدخلنى ﴾ الآية : قال : أخرجه الله من مكة مخرج صدق ، وأدخله المدينة مدخل صدق . قال: وعلم نبى الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله وحدوده وفرائضه ولإقامة كتاب الله ، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، وأكل شديدهم ضعيفهم (١) .

وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال : والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ ، و﴿ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾(٢) [سبأ : ٤٩]. وفى الباب أحاديث.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ونأى بجانبه ﴾ قال : تباعد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كان يؤوسا ﴾ قال : قنوطا ، وفى قوله : ﴿ كل يعمل على شاكلته ﴾ قال : على ناحيته . وأخرج هناد وابن المنذر عن الحسن قال : على شاكلته : على نيته . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى خرب المدينة وهو متكئ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه، فقالوا : يا محمد ، ما الروح ؟ فما زال متكئاً على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (٣) .

وأخرج أحمد ،والترمذى وصححه ، والنسائى وابن المنذر وابن حبان،وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ،وابن مردويه وأبونعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، قالوا :سلوه عن الروح ، فنزلت: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ قالوا : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فأنزل الله : ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ (٤) [الكهف: ١٠٩] وفى الباب أحاديث وآثار .

---

(١) الحاكم ٣/ ٣ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥١٧ .

(٢) البخارى فى المظالم (٢٤٧٨) وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١/ ٨٧ ، ٨٧ مكرر) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١٧ ، ٤٤٨) .

(٣) البخارى فى العلم (١٢٥) وفى التفسير (٤٧٢١) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٩٧) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٧٩٤ / ٣٢ ، ٣٣) والترمذى فى التفسير (٣١٤١) والنسائى فى التفسير (٣١٩).

(٤) أحمد ١/ ٢٥٥ والترمذى فى التفسير (٣١٤٠) وقال : « حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٣٣٤) وابن حبان (٩٩) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٤٦ .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل ، فقال : ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك** ﴾ واللام هى الموطئة ، و ﴿ **لنذهبن** ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط . قال الزجاج : معناه : لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر . انتهى . وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه ﴿ **ثم لا تجد لك به** ﴾ أى بالقرآن ﴿ **علينا وكيلا** ﴾ أى لا تجد من يتوكل علينا فى رد شيء منه بعد أن ذهبنا به . والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا رحمة من ربك** ﴾ إن كان متصلا فمعناه : إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به ، وإن كان منقطعا فمعناه: لكن لا يشاء ذلك رحمة من ربك ، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ﴿ **إن فضله كان عليك كبيرا** ﴾ حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه .

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن** ﴾ المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿ **لا يأتون بمثله** ﴾ أظهر فى مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور ، لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللإشعار بأن المراد نفى المثل على أى صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة ، وساد مسد جواب الشرط ، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدى لها كل واحد منهم على الانفراد ، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال : ﴿**ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ أى عوناً ونصيراً ، وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يأتون بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال وقد تقدم وجه إعجاز القرآن فى أوائل سورة البقرة ، وفى هذه الآية رد لما قاله الكفار : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] ، وإكذاب لهم .

ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿ **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى رددنا القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ يعنى : من أهل مكة ، فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم ، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ، وأظهر فى مقام الإضمار حيث قال : ﴿ **فأبى أكثر الناس** ﴾ توكيدا أو توضيحا ، ولما كان ﴿ **أبى** ﴾ مؤولا بالنفى ، أى ما قبل ، أو لم يرض ، صح الاستثناء منه قوله : ﴿ **إلا كفورا** ﴾ .

﴿ **وقالوا لن نؤمن لك** ﴾ أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان والنضر ابن الحارث ، ثم علقوا نفى إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا : ﴿ **حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم ﴿**حتى تفجر** ﴾ مخففا ، مثل : تقتل . وقرأ الباقون بالتشديد ، ولم يختلفوا فى ﴿ **فتفجر الأنهار** ﴾ أنها مشددة ، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهو جمع . وأجيب عنه: بأن الينبوع وإن كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع ، فإن الينبوع العيون التى لا تنضب . ويرد بأن الينبوع : عين الماء والجمع : الينابيع ، وإنما يقال للعين ينبوع: إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع ، والياء زائدة كيعبوب ، من عب الماء .

﴿ **أو تكون لك جنة** ﴾ أى بستان تستر أشجاره أرضه . والمعنى : هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿ **من نخيل وعنب فتفجر الأنهار** ﴾ أى تجريها بقوة ﴿ **خلالها تفجيرا** ﴾ أى وسطها تفجيرا كثيرا ﴿ **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** ﴾ قرأ مجاهد : « أو تسقط » مسندا إلى السماء . وقرأ من عداه : ﴿ **أو تسقط** ﴾ على الخطاب، أى أو تسقط أنت يا محمد السماء . والكسف بفتح السين جمع كسفة ، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم ، والكسفة : القطعة . وقرأ الباقون :« كسفا » بإسكان السين . قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحدا ومن قرأ بفتحها جعله جمعا . قال المهدوى : ويجوز أن يكون على قراءة السكون جمع كسفة ، ويجوز أن يكون مصدرا . قال الجوهرى : الكسفة : القطعة من الشيء ، يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع : كِسْفٌ و كِسَفٌ ويقال : الكسف والكسفة واحد ، وانتصاب ﴿ **كسفا** ﴾ على الحال ، والكاف فى ﴿ **كما زعمت**﴾ فى محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف ، أى إسقاطا مماثلا لما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ﴾ [سبأ : ٩]. قال أبو على : الكسف بالسكون : الشيء المقطوع ، كالطحن للمطحون ، واشتقاقه على ما قال أبوزيد من كسفت الثوب كسفا: إذا قطعته . وقال الزجاج : من كسفت الشيء : إذا غطيته ، كأنه قيل : أوتسقطها طبقا علينا ﴿ **أو تأتى بالله والملائكة قبيلا** ﴾ . اختلف المفسرون فى معنى ﴿ **قبيلا** ﴾ : فقيل : معناه : معاينة ، قاله قتادة وابن جريج ،

واختاره أبو على الفارسي فقال : إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير . وقيل : معناه : كفيلا ، قاله الضحاك . وقيل : شهيدا ، قاله مقاتل . وقيل : هو جمع القبيلة ، أى تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ، قاله مجاهد وعطاء . وقيل : ضمناً . وقيل : مقابلا كالعشير والمعاشر .

﴿ **أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ أى من ذهب ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأصله: الزينة ، والمزخرف : المزين ، وزخارف الماء : طرائقه . وقال الزجاج : هو الزينة ، فرجع إلى الأصل معنى الزخرف ، وهو بعيد ؛ لأنه يصير المعنى : أو يكون لك بيت من زينة ﴿ **أو ترقى فى السماء** ﴾ أى تصعد فى معارجها ، يقال : رقيت فى السلم : إذا صعدت وارتقيت . مثله : ﴿**ولن نؤمن لرقيك** ﴾ أى لأجل رقيك ، وهو مصدر نحو : مضى يمضى مضيا ، وهوى يهوى هويا ﴿ **حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** ﴾ أى حتى تنزل علينا من السماء كتابًا يصدقك ويدل على نبوتك نقرؤه جميعا ، أو يقرؤه كل واحد منا . وقيل : معناه : كتابا من الله إلى كل واحد منا فى قوله : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ [المدثر : ٥٢] . فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتى بما يفيد التعجب من قولهم ، والتنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال : ﴿ **قل سبحان ربى** ﴾ أى تنزيهًا لله عن أن يعجز عن شىء . وقرأ أهل مكة والشام : « قال سبحان ربى » يعنى : النبى ﷺ ﴿ **هل كنت إلا بشرا** ﴾ من البشر لا ملكا حتى أصعد السماء ﴿ **رسولا** ﴾ مأمورا من الله سبحانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شىء منها ؟ وإن أردتم أنى أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدى ، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك ، لأن بها يتبين صدقه ، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة ، وأنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكم على ربى بما ليس بضرورى ، ولا دعت إليه حاجة ، ولو لزمتنى الإجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند فى كل وقت اقتراحات ، وطلب لنفسه إظهار آيات ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وتنزه عن تعنتاتهم ، وتقدس عن اقتراحاتهم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : إن هذا القرآن سيرفع ، قيل : كيف يرفع وقد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال : يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا يترك منه آية فى قلب ولامصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شىء، ثم قرأ : ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك** ﴾ وقد روى عنه هذا من طرق [(١)] .وأخرج ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه .وأخرج محمد بن نصر عن عبد الله

---

(١) ابن أبى شيبة (١٠٢٤٢ ، ١٩٤٣١) وابن جرير ١٥/ ١٠٦ والطبرانى (٨٦٩٨ ، ٨٦٩٩ ، ٨٧٠٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٤، ٥٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة » .

ابن عمرو نحوه موقوفا .. وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة موقوفا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن حذيفة بن اليمان مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ محمود بن شيحان ونعيمان بن آصى وبحرى بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذى جئت به أحق من عند اللّه ، فإنا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة ؟ فقال لهم : « والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله » ، قالوا : إنا نجيئك بمثل ما تأتى به ، فأنزل الله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ الآية [(١)] .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ؛ أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بنى عبد الدار وأبا البخترى أخا بنى أسيد والأسود بن عبد المطلب وربيعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه ، وذكر حديثا طويلا يشتمل على ما سألوه عنه وتعنتوه ، وأن ذلك كان سبب نزول قوله : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بشرا رسولا** ﴾[(٢)]. وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق حدثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة عن ابن عباس فذكره ، ففيه هذا الرجل المجهول . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿**وقالوا لن نؤمن لك** ﴾ قال : نزلت فى أخى أم سلمة عبد الله بن أبى أمية [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ينبوعا** ﴾ قال : عيونا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : الينبوع : هو النهر الذى يجرى من العين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو تكون لك جنة** ﴾ يقول : ضيعة . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **كسفا** ﴾ قال : قطعا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **قبيلا** ﴾ قال : عيانا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **من زخرف** ﴾ قال : من ذهب . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وأبو نعيم عن مجاهد قال : لم أكن أحس ما الزخرف ؟ حتى سمعتها فى قراءة عبد الله : « أو يكون لك بيت من ذهب » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **كتابا نقرؤه** ﴾ قال :

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢١١ ، ٢١٢ وابن جرير ١٥/ ١٠٦ ، ١٠٧ . « وفى هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة فالله أعلم » . عن ابن كثير ٤/ ٣٤٨ .

(٢) ابن إسحاق ١/ ٣٢٤ وابن جرير ١٥/ ١١٠ . (٣) ابن جرير ١٥/ ١١١ .

من رب العالمين إلى فلان بن فلان . يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾ .

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى قد تكرر فى الكتاب العزيز التعرض لإيرادها وردها فى غير موضع فقال : **﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾** المراد : الناس على العموم . وقيل : المراد : أهل مكة على الخصوص ، أى ما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ وهو المفعول الثانى لمنع ، ومعنى **﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾** : أنه جاءهم الوحى من الله سبحانه على رسوله ، وبين ذلك لهم وأرشدهم إليه ، وهو ظرف لـ **﴿ منع ﴾** أو **﴿ يؤمنوا ﴾** أى ما منعهم وقت مجىء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوة **﴿ إلا أن قالوا ﴾** أى ما منعهم إلا قولهم ، فهو فى محل رفع على أنه فاعل منع ، والهمزة فى **﴿ أبعث الله بشرا رسولا ﴾** للإنكار منهم أن يكون الرسول بشراً ، والمعنى : أن هذا الاعتقاد الشامل لهم ، وهو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر، هو الذى منعهم عن الإيمان بالكتاب وبالرسول ، وعبر عنه بالقول ؛ للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال : **﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾** أى لو وجد وثبت أن فى الأرض بدل من فيها من البشر، ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشى الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها . قال الزجاج : **﴿ مطمئنين ﴾** : مستوطنين فى الأرض ، ومعنى الطمأنينة : السكون ، فالمراد هاهنا : المقام والاستيطان ، فإنه يقال : سكن البلد فلان : إذا أقام فيها وإن كان ماشيا متقلبا فى حاجاته **﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾** حتى يكون من جنسهم ، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغى أن تكون من جنس المرسل إليهم ، فكأنه سبحانه اعتبر فى تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين: الأول : كون سكان الأرض ملائكة . والثانى : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها ، وسمعوا من

أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون فى بعثة الملائكة إليهم فائدة . وانتصاب ﴿ بشرا ﴾ و﴿ ملكا ﴾ على أنهما مفعولان للفعلين ، و﴿ رسولا ﴾ فى الموضعين وصف لهما . وجوز صاحب الكشاف أن يكونا حالين فى الموضعين من ﴿ رسولا﴾ فيهما وقواه صاحب الكشاف[1]، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية فى الموضع الأول ، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك .

ثم ختم الكلام بما يجرى مجرى التهديد ، فقال : ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ﴾ أى قل لهم يامحمد من جهتك : كفى بالله وحده شهيدا على إبلاغى إليكم ما أمرنى به من أمور الرسالة ، وقال : ﴿ بينى وبينكم ﴾ ولم يقل : بيننا ؛ تحقيقا للمفارقة الكلية . وقيل : إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبى شهادة من الله له على الصدق ، ثم علل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله : ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ أى عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها وبواطنها بصيرا بما كان منها وما يكون .

ثم بين سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتدى ﴾ أى من يرد الله هدايته فهو المهتدى إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿ ومن يضلل ﴾ أى يرد إضلاله ﴿ فلن تجد لهم أولياء ﴾ ينصرونهم ﴿ من دونه ﴾ يعنى الله سبحانه ويهدونهم إلى الحق الذى أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة ، وقوله: ﴿ فهو المهتدى ﴾ حملا على لفظ من ، وقوله : ﴿ فلن تجد لهم ﴾ حملا على المعنى ، والخطاب فى قوله : ﴿ فلن تجد ﴾ إما للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأول: أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ، من قول العرب: قد مر القوم على وجوههم : إذا أسرعوا . الثانى : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾ [القمر : ٤٨] ، ولما صح فى السنة كما سيأتى ، ومحل ﴿ على وجوههم ﴾ النصب على الحال من ضمير المفعول. و ﴿ عميا ﴾ منتصب على الحال ﴿ وبكما وصما ﴾ معطوفان عليه. والأبكم : الذى لا ينطق. والأصم: الذى لا يسمع ، وهذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، ثم من وراء ذلك ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أى المكان الذى يأوون إليه، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة لا محل لها ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ أى كلما سكن لهبها ، يقال: خبت النار تخبو خبوا : إذا خمدت وسكن لهبها . قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ زدناهم سعيرا ﴾: تسعرا ، وهو التلهب . وقد قيل : إن فى خبو النار تخفيفا لعذاب أهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله: ﴿ لايخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : ١٦٢] ؟ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف : أنه لا يتخلل زمان

---

(١) الكشاف ٢ / ٦٩٤ .

محسوس بين الخبو والتسعر . وقيل : إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها .

﴿ **ذلك** ﴾ أى العذاب ﴿ **جزاؤهم** ﴾ الذى أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ، والباء فى قوله : ﴿ **بأنهم كفروا بآياتنا** ﴾ للسببية ، أى بسبب كفرهم بها فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ، ولا تفكروا فى الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ **جزاؤهم** ﴾ و ﴿ **بأنهم كفروا** ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون ﴿ **جزاؤهم** ﴾ مبتدأ ثانياً ، وخبره ما بعده، والجملة خبر المبتدأ الأول ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا** ﴾ الهمزة للإنكار ، وقد تقدم تفسير الآية فى هذه السورة، و ﴿ **خلقا** ﴾ فى قوله : ﴿ **أإنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ مصدر من غير لفظه أو حال، أى مخلوقين . فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردهم عن الجحود . فقال : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ أى من هو قادر على خلق هذا ، فهو على إعادة ماهو دون منه أقدر . وقيل : المراد : أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم ، وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة ، وعلى هذا القول هو على حقيقته ، وجملة : ﴿**وجعل لهم أجلا لا ريب فيه** ﴾ عطف على ﴿ **أو لم يروا** ﴾. والمعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن كما قال : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء ﴾ [النازعات : ٢٧] . ﴿ **وجعل لهم أجلا لا ريب فيه** ﴾ وهو الموت أو القيامة ، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف . وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير ، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿ **فأبى الظالمون إلا كفورا** ﴾ أى أبى المشركون إلا جحودا ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد .

ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون فى أراضيهم لتتسع معايشهم ، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون ، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى** ﴾ : ﴿ **أنتم** ﴾ مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده ، أى لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو الواو ، وخزائن رحمته سبحانه : هى خزائن الأرزاق . قال الزجاج : أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلاً ، وهو خشية الإنفاق ، أى خشية أن ينفقوا فيفتقروا ، وفى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم ، وإيراد الكلام فى صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح. قال أهل اللغة : أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى : قل ماله ، فيكون المعنى : لأمسكتم خشية قل المال ﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ أى بخيلا مضيقا عليه . يقال : قتر على عياله يقتر ويقتر قترا وقتورا : ضيق عليهم فى النفقة ، ويجوز أن يراد : وكان الإنسان قتوراً ، أى قليل المال ، والظاهر : أن المراد : المبالغة فى وصفه بالشح ، لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم . بل بعضهم كثير المال ، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنسانى قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده . وقد اختلف فى هذه الآية على قولين : أحدهما : أنها نزلت فى

المشركين خاصة ، وبه قال الحسن . والثانى : أنها عامة وهو قول الجمهور ، حكاه الماوردى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال : «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم »(١) . وأخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبانا ، وصنف على وجوههم » ثم ذكر نحو حديث أنس (٢) . وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **مأواهم جهنم** ﴾ قال : يعنى : أنهم وقودها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عنه فى قوله : ﴿ **كلما خبت**﴾ قال : سكنت . وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى الآية قال: كلما أحرقهم سعرتهم حطبا ، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شىء صارت جمرا تتوهج فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **خزائن رحمة ربى** ﴾ قال : الرزق . وأخرج أيضا عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾ قال : إذا ما أطعمتم أحداً شيئاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خشية الإنفاق** ﴾ قال : الفقر ﴿**وكان الإنسان قتورا** ﴾ قال : بخيلا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿**خشية الإنفاق** ﴾ قال : خشية الفاقة ﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ قال: بخيلا ممسكا .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)** ﴾ .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٦٠) وفى الرقاق (٦٥٢٣) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٦/ ٥٤) وابن جرير ١٨/ ٩ .

(٢) أبو داود الطيالسى (٢٥٦٦) والترمذى فى التفسير (٣١٤٢) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١٨/ ٩ والبيهقى فى الشعب (٣٥٣) من طريق على بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف وليس بالقوى .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات** ﴾ أى علامات دالة على نبوته . قيل : ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التى اقترحها كفار قريش ، بل أقوى منها ، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة فى استئصالهم إن لم يؤمنوا بها . قال أكثر المفسرين : الآيات التسع : هى الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات . وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل . وقال محمد بن كعب القرظى : هى الخمس التى فى الأعراف ، والبحر ، والعصا ، والحجر ، والطمس على أموالهم . وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى ، وسيأتى حديث صفوان بن عسال فى تعداد هذه الآيات التسع .

﴿ **فاسأل بنى إسرائيل** ﴾ قرأ ابن عباس وابن نهيك : « فسأل » على الخبر ، أى سأل موسى فرعون أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وقرأ الآخرون: ﴿ **فاسأل**﴾ على الأمر ، أى سلهم يا محمد حين ﴿ **جاءهم** ﴾ موسى ، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان ، لأن الأدلة إذا تظافرت كان ذلك أقوى . والمسؤولون : مؤمنو بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ **فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا** ﴾ الفاء هى الفصيحة ، أى فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون . المسحور : الذى سحر فخولط عقله . وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر ، فوضع المفعول موضع الفاعل ، فـ ﴿ **قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء** ﴾ يعنى : الآيات التى أظهرها ، وأنزل بمعنى : أوجد ﴿ **إلا رب السموات والأرض بصائر** ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ، وانتصاب ﴿ **بصائر** ﴾ على الحال . قرأ الكسائى بضم التاء من : «علمت » على أنها لموسى ، وروى ذلك عن على ، وقرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون. ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك ، وإنما علمه موسى. ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالما بذلك كما قال تعالى:﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ [النمل: ١٤] . قال أبو عبيد: المأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى ،لأن موسى لا يقول : علمت أنا وهو الداعى،وروى نحو هذا عن الزجاج ﴿ **وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا** ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين ، والثبور : الهلاك والخسران . قال الكميت :

ورأت قضاعة فى الأيا من رأى مثبور وثابر

أى مخسور وخاسر . وقيل : المثبور : الملعون ، ومنه قول الشاعر :

يا قومنا لا تروموا حربنا (١) سفهاً إن السفاه وإن البغى مثبور

أى ملعون ، وقيل : المثبور : ناقص العقل . وقيل : هو الممنوع من الخير ، يقال : ما ثبرك عن كذا : ما منعك منه ، حكاه أهل اللغة . وقيل : المسحور .

(١) فى المخطوطة : « حزبنا » ، وفى القرطبى : « حربنا » وهو الموافق للمعنى . والشاعر هو : أبان بن تغلب .

﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض** ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج بنى إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، يعنى : أرض مصر بإبعادهم عنها . وقيل : أراد أن يقتلهم . وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وقد تقدم قريبا معنى الاستفزاز ﴿ **فأغرقناه ومن معه جميعا** ﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحدا ﴿ **وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض** ﴾ أى من بعد إغراقه ومن معه ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر التى أراد أن يستفزهم منها ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ أى الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرة الآخرة ، أوالساعة الآخرة ﴿**جئنا بكم لفيفا** ﴾ قال الجوهرى : اللفيف : ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال : جاء القوم بلفهم ولفيفهم ، أى بأخلاطهم ، فالمراد هنا : جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر . قال الأصمعى : اللفيف جمع وليس له واحد ، وهو مثل الجمع .

﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن ، ومعنى ﴿ **بالحق أنزلناه** ﴾ : أوحيناه متلبسا بالحق . ومعنى ﴿ **وبالحق نزل** ﴾ : أنه نزل وفيه الحق . وقيل : الباقى ، وبالحق الأول بمعنى : مع ، أى مع الحق أنزلناه كقولهم ركب الأمير بسيفه ، أى مع سيفه ، و ﴿ **بالحق نزل** ﴾ أى بمحمد ، كما تقول : نزلت بزيد . وقال أبو على الفارسى : الباء فى الموضعين بمعنى : مع . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل، أو: ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً ،وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين، والتقديم فى الموضعين للتخصص ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ أى مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيرا مخوفا لمن عصى بالنار.

﴿ **وقرآنا فرقناه** ﴾ انتصاب ﴿ **قرآنا** ﴾ بفعل مضمر يفسره ما بعده . قرأ على وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبى : « فرقناه » بالتشديد ، أى أنزلناه شيئا بعد شىء لا جملة واحدة . وقرأ الجمهور: ﴿ **فرقناه** ﴾ بالتخفيف ، أى بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل . وقال الزجاج : فرقه فى التنزيل ليفهمه الناس . قال أبو عبيد : التخفيف أعجب إلى ، لأن تفسيره بيناه ، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً . ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال : فرقت مخففاً بين الكلام ، وفرقت مشددا بين الأجسام ، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله : فرقناه ، فقال : ﴿ **لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ أى على تطاول فى المدة شيئا بعد شىء على القراءة الأولى ، أو أنزلناه آية آية ، وسورة سورة . ومعناه على القراءة الثانية . ﴿ **على مكث** ﴾ أى على ترسل وتمهل فى التلاوة ، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ . وقد اتفق القراء على ضم الميم فى : ﴿ **مكث** ﴾ إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة ، والمعنى : أنزلناه منجماً مفرقا لما فى ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا .

﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا** ﴾ أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لاتؤمنوا ، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك ولا ينقصه . وفى هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله** ﴾ أى أن العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام: ﴿ **إذا يتلى عليهم** ﴾ أى القرآن ﴿ **يخرون للأذقان سجدا** ﴾ أى يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه. وإنما قيد الخرور ، وهو السقوط ، بكونه للأذقان ، أى عليها ؛ لأن الذقن ، وهو مجتمع اللحيين أول مايحاذى الأرض . قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود ، فأول مايحاذى الأرض به من وجهه الذقن . وقيل : المراد : تعفير اللحية فى التراب، فإن ذلك غاية الخضوع ، وإيثار اللام فى للأذقان على « على » للدلالة على الاختصاص ، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور ، أو خصوا الخرور بأذقانهم . وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **من قبله** ﴾ راجع إلى النبى ﷺ ، والأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ . وحاصلها : أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لاعلم عندهم ولامعرفة بكتب الله ولا بأنبيائه ، فلا تبال بذلك ، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرون على أذقانهم سجدا لله .

﴿ **ويقولون سبحان ربنا** ﴾ أى يقولون فى سجودهم تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب ، أوتنزيها له عن خلف وعده ﴿ **إن كان وعد ربنا لمفعولا** ﴾ « إن » هذه هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة . ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال : ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون** ﴾ وكرّر ذكر الخرور للأذقان ؛ لاختلاف السبب ، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه . والثانى : للبكاء بتأثير مواعظ القرآن فى قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال : ﴿**ويزيدهم** ﴾ أى سماع القرآن ، أو القرآن بسماعهم له ﴿**خشوعا** ﴾ أى لين قلب ورطوبة عين.

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **تسع آيات** ﴾ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : يده ، وعصاه ، ولسانه ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وأخرج الطيالسى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن قانع ، والحاكم وصححه، وأبو نعيم والبيهقى وابن مردويه عن صفوان بن عسال ؛ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبى نسأله ، فأتياه فسألاه عن قول الله : ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ فقال: « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ،ولا تسرفوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببرىء إلى

سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ــ أو قال : لا تفروا من الزحف ــ شك شعبة ــ وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا فى السبت » ، فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبى الله ، قال : « فما يمنعكما أن تسلما ؟ » قالا: إن داود دعا الله أن يزاد فى ذريته نبى، وإنا نخاف إن أسلمنا أن يقتلنا اليهود (١) .

وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله : ﴿ **وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا** ﴾ قال : مخالفا ، وقال : الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس مثبوراً قال : ملعوناً . وأخرج الشيرازى فى الألقاب وابن مردويه عنه قال : قليل العقل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ﴿**لفيفا**﴾ قال : جميعا . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ؛ أنه قرأ :« وقرآنا فرقناه » مثقلاً قال : نزل القرآن إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر من رمضان جملة واحدة ، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا ، ففرقه الله فى عشرين سنة (٢) . وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **فرقناه** ﴾ قال : فصلناه على مكث بأمد ﴿ **يخرون للأذقان** ﴾ يقول: للوجوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **إذا يتلى عليهم** ﴾ قال : كتابهم .

﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)** ﴾ .

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن**﴾ ومعناه : أنهما مستويان فى جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ، ولهذا قال : ﴿ **أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ التنوين فى « أيا » عوض عن المضاف إليه ، و « ما » مزيدة لتوكيد الإبهام فى : « أيا » والضمير فى « له » راجع إلى المسمى ، وكان أصل الكلام : أيا ما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة ، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماؤه

---

(١) أبو داود الطيالسى (١١٦٤) وابن أبى شيبة (١٨٣٩٢) وأحمد ٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ والترمذى فى الاستئذان (٢٧٣٣) وفى التفسير (٣١٤٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٧/ ١١١ وابن ماجة فى الأدب (٣٧٠٥) مختصرا وابن جرير ١٥/ ١١٥ والطبرانى (٧٣٩٦) وصححه الحاكم ١/ ٩ وقال : « لم نعرف له علة » ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الحلية ٥/ ٩٧ ، ٩٨ والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٦٨ . وقال ابن كثير ٤/ ٣٥٧ : « هو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون . والله أعلم » .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٩٢) وابن جرير ١٥/ ١١٩ وصححه الحاكم ٢/ ٢٢٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣١ ، ١٣٢ .

كلها حسن هذان الإسمان ، ومعنى حسن الأسماء : استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ، ذكر معنى هذا النيسابورى وتبعه أبوالسعود . قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية، وبه يتضح المراد منها . ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ أى بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت ، لا من نعوت أفعال الصلاة ، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، يقال: خفت صوته خفوتا : إذا انقطع كلامه وضعف وسكن ، وخفت الزرع إذا ذبل ، وخافت الرجل بقراءته : إذا لم يرفع بها صوته. وقيل : معناه : لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، والأول أولى ﴿ **وابتغ بين ذلك** ﴾ أى الجهر والمخافتة المدلول عليها بالفعلين ﴿ **سبيلا** ﴾ أى طريقا متوسطا بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها ، وعلى التفسير الثانى يكون معنى ذلك : النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها ، والنهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها ، والأمر بجعل البعض منها مجهورا به ، وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار . وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ولما أمر ألا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ كما تقوله اليهود والنصارى ، ومن قال من المشركين : إن الملائكة بنات الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيراً ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾ أى مشارك له فى ملكه وربوبيته ، كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ أى لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولى والنصير . قال الزجاج : أى لم يحتج أن ينتصر بغيره ، وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم ، لكون الولد مجبنة ومبخلة ، ولأنه أيضا يستلزم حدوث الأب ، لأنه متولد من جزء من أجزائه ، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام ، والشركة فى الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له ، فضلا عن نظام ما هو عليه ، وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين ، فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤدية إلى الفساد : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . والمحتاج إلى ولى يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله، ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنى بنفسه ﴿ **وكبره تكبيرا** ﴾ أى عظمه تعظيماً ، وصفه بأنه أعظم من كل شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات

يوم فقال في دعائه : « يا الله، يا رحمن » ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو إلهين ، وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾ الآية (١).
وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن ، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن ، فنزلت الآية ، وهو مرسل . وأخرج ابن جرير عن مكحول ، أن النبي ﷺ كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده :« يا رحمن ، يارحيم » ، فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال لأصحابه : إن ابن أبي كبشة يدعو الليلة الرحمن الذي باليمن ، وكان رجل باليمن يقال له : رحمن ، فنزلت (٢) . وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا** ﴾ إلى آخر الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « هو أمان من السرق » ، وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه ، فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً ، فوضع الكارة ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فضحك صاحب الدار ثم قال : إني حصنت بيتي (٣) .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ الآية. قال : نزلت ورسول الله ﷺ متوار ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله لنبيه : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون ، فيسبوا القرآن ﴿ **ولا تخافت بها** ﴾ عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ يقول: بين الجهر والمخافتة (٤) .
وأخرج ابن مردويه عنه قال :كان نبي الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى ، فأنزل الله ﴿**ولا تجهر بصلاتك** ﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة عنه أيضا نحوه . وأخرج أبو داود في ناسخه عنه نحوه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضا قال : كان مسيلمة الكذاب قد سمى الرحمن ، فكان النبي إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون : يذكر إله اليمامة ، فأنزل الله ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض ، وكان عمر إذا قرأ جهر ، فقيل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أنا أناجي ربي ، وقد عرف حاجتي ، وقيل

(١، ٢) ابن جرير ١٥/ ١٢١ .

(٣) البيهقي في الدلائل ٧/ ١٢١ . ونهشل بن سعيد بن وردان ، متروك وكذبه إسحاق بن راهويه . والضحاك بن مزاحم الهلالي صدوق كثير الإرسال . وقال النسائي : « الضحاك لم يسمع من ابن عباس . والحديث إسناده ضعيف » .

(٤) البخاري في التفسير (٤٧٢٢) وفي التوحيد (٧٤٩٠) ومسلم في الصلاة (٤٤٦ / ١٤٥) والترمذي في التفسير (٣١٤٥ ، ٣١٤٦) والنسائي في التفسير (٣٢٠) .

لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزل : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ قيل لأبى بكر : ارفع شيئا ، وقيل لعمر : اخفض شيئا (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : إنما نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ فى الدعاء (٢) . وأخرج ابن جرير والحاكم عنها قالت : نزلت فى التشهد (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأول (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولدا ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وقل الحمد لله** ﴾ إلى آخرها (٥) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ قال : لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد . وأخرج أحمد والطبرانى عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « آية العزّ : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ » الآية كلها (٦) . وأخرج أبو يعلى وابن السنى عن أبى هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده فى يدى ، فأتى على رجل رث الهيئة فقال : « أى فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال : السقم والضر ، قال : « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ توكلت على الحى الذى لا يموت ، الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا» إلى آخر الآية ، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال: « مَه » : قال : لم أزل أقول الكلمات التى علمتنى . وفى لفظ : أن النبى ﷺ علم ذلك أبا هريرة . قال ابن كثير : وإسناده ضعيف وفى متنه نكارة (٧) . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ إلى آخرها الصغير من أهله

---

(١) ابن جرير ١٥/ ١٢٤ .

(٢) ابن أبى شيبة (٩٨٠٩) والبخارى فى التفسير (٤٧٢٣) وفى الدعوات (٦٣٢٧) وفى التوحيد (٧٥٢٦) ومسلم فى الصلاة (١٤٦/٤٤٧) والنسائى فى التفسير (٣٢١) .

(٣) ابن جرير ١٥/ ١٢٤وصححه الحاكم ١/ ٢٣٠ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١٥/ ١٢٢ ونسبه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧١) لابن منيع . وقال البوصيرى : « رواه أحمد ابن منيع بإسناد حسن » .

(٥) ابن جرير ١٥/ ١٢٦ .

(٦) أحمد ٣/ ٤٣٩ والطبرانى ٢٠/ ١٩٢ (٤٢٩ ، ٤٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٥ : « رواه أحمد من طريقين فى أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف ، وفى الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه وكذلك الطبرانى». قلت : « وفيهما زبان بن فائد وهو ضعيف » .

(٧) أبو يعلى (٦٦٧١) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٤٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٥ : « فيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » وضعفه البوصيرى أيضا فى المطالب العالية لابن حجر (٢٤١١) وابن كثير ٤/ ٣٦٢ .

والكبير [١] . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح سبع مرات : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ إلى آخر السورة [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره[٣]. وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

---

(١) ابن جرير ١٥ / ١٢٦ .

(٢) عبد الرزاق (٧٩٧٦) .

(٣) ابن أبى شيبة (١٠٣٢٨) .

تفسير سورة الكهف

وهى مائة وإحدى عشرة آية قال القرطبى : وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة : أن أول السورة نـزل بالمدينة إلى قوله : ﴿ جرزا ﴾ والأول أصح . انتهى [١] . ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس ، أخرجه عنه النحاس وابن مردويه ومنهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مردويه .

وقد ورد فى فضلها أحاديث : منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » [٢] . وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن حبان عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » [٣] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء قال : قرأ رجل سورة الكهف وفى الدار دابة فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « اقرأ فلان ، فإن السكينة نزلت للقرآن » [٤] . وهذا الذى كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبرانى . وأخرج الترمذى وصححه عن أبى الدرداء قال :قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » [٥] وفى قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث . وأخرج ابن مردويه، والضياء فى المختارة عن على قال : قال رسول الله ﷺ :« من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون ، فإن خرج الدجال عصم منه » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى والضياء عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره » [٦] . وأخرج الحاكم

(١) القرطبى ٦/ ٣٩٦٣ .

(٢) أحمد ٦/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ومسلم فى صلاة المسافرين (٩٠٨/ ٢٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٣) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » ، إلا أنه قال ثلاث بدلا من عشر آيات ، والنسائى فى السنن الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٢٥) .

(٣) أحمد ٦/ ٤٤٦ ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٩/ ٢٥٧) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) .

(٤) البخارى فى المناقب (٢٦١٤) وفى التفسير (٤٨٣٩) وفى فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٩٥/ ٢٤٠) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٥) وقال : « حسن صحيح » .

(٥) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٦) صححه الحاكم ١/ ٥٦٤ على شرط مسلم وقال الذهبى : « ووقفه ابن مهدى عن الثورى عن أبى هاشم » ، والبيهقى موقوفا ٣/ ٢٤٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٦ : « رواه الطبرانى فى الأوسط فى حديث طويل وهو بتمامه فى كتاب الطهارة ، ورجاله رجال الصحيح » .

وصححه من حديث أبى سعيد ؛ أن النبى ﷺ قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » [١] . وأخرجه البيهقى أيضا فى السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر [٢] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين» [٣] . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أى الليل شاء ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « سورة أصحاب الكهف » . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : «البيت الذى تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة » وفى الباب أحاديث وآثار ، وفيما أوردناه كفاية مغنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾ .

علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ : كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ، وأحوال الملائكة والأنبياء ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التى تعبده الله وتعبد أمته بها ، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه فى النبى ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ أى شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى اللفظ والمعنى . والعوج بالكسر فى المعانى ، وبالفتح فى الأعيان كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه : ﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ [طه: ١٠٧] يعنى: الجبال ، وهى من الأعيان .

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٦٨ وقال الذهبى : « قلت : نعيم ذو مناكير » .
(٢) البيهقى ٣/ ٢٤٩ .
(٣) قال ابن كثير ٤/ ٣٦٤ : « رواه ابن مردويه بإسناد له غريب وقال : هذا الحديث فى رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف » .

قال الزجاج : المعنى فى الآية : لم يجعل فيها اختلافا كما قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ [النساء : ٨٢] . والقيم : المستقيم الذى لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها ، وعلى الأول يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج، فرب مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة ، وانتصاب ﴿ قيما ﴾ بمضمر ، أى جعله قيما ، ومنع صاحب الكشاف [(١)] أن يكون حالا من الكتاب ، لأن قوله: ﴿ ولم يجعل ﴾ معطوف على ﴿ أنزل ﴾ فهو داخل فى حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة. وقال الأصفهانى: هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثانى مفرد ، وهذا صواب لأن قوله : ﴿ ولم يجعل ﴾ لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة . وقيل : إن ﴿ قيما ﴾ حال من ضمير ﴿ لم يجعل له ﴾ . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير :أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله فى قوله قيما فقال :﴿ لينذر بأسا شديدا ﴾ وحذف المنذر للعلم بـه مـع قصد التعميم ، والمعنى: لينذر الكافرين. والبأس : العذاب ، ومعنى ﴿ من لدنه ﴾ : صادرا من لدنه نازلا من عنده . روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ : « من لدنه » بإشمام الدال الضمة، وبكسر النون والهاء . وهى لغة الكلابيين . وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ قرئ : « يبشر » بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ، لأن مدار قبول الأعمال هـو الإيمان ﴿ أن لهم أجرا حسنا ﴾ وهـو الجـنة حـال كونهم ﴿ ماكثين فيه ﴾ أى فـى ذلك الأجـر ﴿ أبدا ﴾ أى مكثا دائما لا انقطاع له، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد ، لتقدم ذكره فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش . القائلون بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية ، وهى إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هى بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية . فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

﴿ ما لهم به من علم ﴾ أى بالولد ، أو اتخاذ الله إياه ، و« من » مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة ، والمعنى : ما لهم بذلك علم أصلا ﴿ ولا لآبائهم ﴾ علم ، بل كانوا فى زعمهم هذا على ضلالة ، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ انتصاب ﴿كلمة﴾ على التمييز ، وقرئ بالرفع على الفاعلية . قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة . وقال الزجاج : كبـرت مقـالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هى قولهم : اتخذ الله ولدا . ثم وصف الكلمة بقوله : ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ وفائدة هذا

---

(١) الكشاف ٢ / ٧٠٢ .

الوصف : استعظام اجترائهم على التفوه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل . ثم زاد فى تقبيح ما وقع منهم فقال: ﴿ إن يقولون إلا كذبا ﴾ أى ما يقولون إلا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال .

ثم سلى رسوله ﷺ بقوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ قال الأخفش والفراء : البخع: الجهد. وقال الكسائى : بخعت الأرض بالزراعة : إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها . وقال أبو عبيدة : معناه : مهلك نفسك ، ومنه قول ذى الرمة :

ألا أيهاذا الباخع الوجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال : لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿ على آثارهم﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أى القرآن : وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح « أن » أى لأن لم يؤمنوا ﴿ أسفا ﴾ أى غيظا وحزنا وهو مفعول له أو مصدر فى موضع الحال ، كذا قال الزجاج .

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ هذه الجملة استئناف . والمعنى : إنا جعلنا ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد ، كقوله سبحانه : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ [البقرة : ٢٩] وانتصاب ﴿ زينة ﴾ على أنها مفعول ثان لـ ﴿ جعل ﴾ واللام فى ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ متعلقة بـ ﴿جعلنا ﴾ وهى إما للغرض أو للعاقبة ، والمراد بالابتلاء : أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان . وقال الزجاج : ﴿ أيهم ﴾ رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى : لنمتحن أهذا أحسن عملا أم ذاك ؟ قال الحسن : أيهم أزهد . وقال مقاتل : أيهم أصلح فيما أوتى من المال .

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ أى لجاعلون ماعليها من هذه الزينة عند تناهى عمر الدنيا ﴿صعيدا ﴾ : ترابا . قال أبو عبيدة : الصعيد : المستوى من الأرض . وقال الزجاج : هو الطريق الذى لا نبات فيه . قال الفراء : الجرز: الأرض التى لا نبات فيها ، ومن قولهم : امرأة جرزا : إذا كانت أكولا، وسيفا جرازا: إذا كان مستأصلا ، وجرز الجراد والشاة والإبل :الأرض إذا أكلت ما عليها . قال ذو الرمة :

طوى النحز والإجراز ما فى بطونها

ومعنى النظم : لا تحزن يا محمد، مما وقع من هؤلاء من التكذيب ، فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا ، فمجازوهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾ الآية . قال : أنزل الكتاب عدلا قيما ﴿ **ولم يجعل له عوجا** ﴾ ملتبسا. وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ **قيما** ﴾ قال : مستقيما . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **من لدنه** ﴾ أى من عنده . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **حسنا** ﴾ يعنى : الجنة ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحترى فى نفر من قريش ، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه حزنا شديدا ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **باخع نفسك** ﴾ يقول : قاتل نفسك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله . أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **أسفا** ﴾ قال : جزعا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **أسفا** ﴾ قال : حزنا .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها** ﴾ قال : الرجال . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله. وأخرج أبو نصر السجزى فى الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية قال : العلماء زينة الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى التاريخ ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرعكم فى طاعة الله » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : ليختبرهم ﴿ **أيهم أحسن عملا** ﴾ قال : أيهم أتم عقلا . وأخرج عن الحسن ﴿ **أيهم أحسن عملا** ﴾ قال : أشدهم للدنيا تركا ، وأخرج أيضا عن الثورى قال : أزهدهم فى الدنيا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ قال : يهلك كل شىء ويبيد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الصعيد : التراب والجبال التى ليس فيها زرع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : يعنى بالجرز : الخراب .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ

(١) ابن جرير ١٢ / ٥ .

عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **أم حسبت** ﴾ « أم » هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير: بل أحسبت ، أو بل حسبت ، ومعناها : الانتقال من حديث إلى حديث آخر ، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل . والمعنى : أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، قال سبحانه : بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط ؟ لاتحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادرا على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ، ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس ، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة ، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة ، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك . و﴿ **عجبا** ﴾ منتصبة على أنه خبر كان ، أى ذات عجب ، أو موصوفة بالعجب مبالغة ، ﴿ **من آياتنا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ **إذ أوى الفتية** ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقدر ، وهو اذكر، أى صاروا إليه وجعلوه مأواهم ، والفتية : هم أصحاب الكهف . والكهف : هو الغار الواسع فى الجبل . فإن كان صغيرا سمى غارا ، والرقيم قال كعب والسدى : إنه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف . قال الفراء : ويروى أنه إنما سمى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه . والرقم : الكتابة . وروى مثل ذلك عن ابن عباس . ومنه قول العجاج فى أرجوزة له :

ومستقرى المصحف الرقيم

وقيل : إن الرقيم : اسم كلبهم . وقيل : هو اسم الوادى الذى كانوا فيه . وقيل :اسم الجبل الذى فيه الغار . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿**فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة** ﴾ أى من عندك ، و«من » ابتدائية متعلقة بـ ﴿ **آتنا** ﴾، أو لمحذوف وقع حالا ، والتنوين فى ﴿ **رحمة** ﴾ إما للتعظيم أو للتنويع ، وتقديم ﴿ **من لدنك** ﴾ للاختصاص، أى رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك ، وهى المغفرة فى الآخرة والأمن من الأعداء ، والرزق فى الدنيا ﴿ **وهيئ لنا من أمرنا رشدا** ﴾ أى أصلح لنا ، من قولك: هيأت

الأمر فتهيأ ، والمراد بأمرهم : الأمر الذى هم عليه وهو مفارقتهم للكفار . والرشد: نقيض الضلال ، و« من » للابتداء . ويجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك : رأيت منك رشدا . وتقديم المجرورين للاهتمام بهما .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ قال المفسرون : أنمناهم . والمعنى : سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات ، والمفعول محذوف ، أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، و﴿ فى الكهف ﴾ ظرف لضربنا ، وانتصاب ﴿ سنين ﴾ على الظرفية ، و﴿ عددا ﴾ صفة لسنين ، أى ذوات عدد على أنه مصدر، أو بمعنى : معدودة على أنه لمعنى المفعول ، ويستفاد من وصف السنين بالعدد : الكثرة . قال الزجاج: إن الشىء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد ، وإن كثر احتاج إلى أن يعد . وقيل : يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : ٤٧] .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة ﴿ لنعلم ﴾ أى ليظهر معلومنا ، وقرئ بالتحتية مبنيا للفاعل على طريقة الالتفات ، و﴿ أى الحزبين ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أى من الاستفهام ، وخبره ﴿ أحصى ﴾ وهو فعل ماض. قيل : والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث : هو الاختبار مجازا فيكون المعنى : بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده ، والمراد بالحزبين : الفريقان من المؤمنين والكافرين من أصحاب الكهف المختلفين فى مدة لبثهم . ومعنى أحصى : أضبط . وكأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف ، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، و« ما » فى ﴿لما لبثوا ﴾ مصدرية ، أى أحصى للبثهم . وقيل : اللام زائدة ، و« ما » بمعنى : الذى و﴿ أمدا ﴾ تمييز ، والأمد : الغاية . وقيل : إن ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل. ورد بأنه خلاف ما تقرر فى علم الإعراب ، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم : أفلس من ابن المذلق ، وأعدى من الجرب . وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه وابن عصفور . وقيل : إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا . وقيل : إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب . وقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم .

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ إذ أوى الفتية ﴾ أى نحن نخبرك بخبرهم بالحق ، أى قصصناه بالحق ، أو متلبسا بالحق ﴿ إنهم فتية ﴾ أى أحداث شبان ، و﴿ آمنوا بربهم ﴾ صفة لـ ﴿ فتية ﴾. والجملة مستأنفة بتقدير سؤال . والفتية جمع قلة ، و﴿ زدناهم هدى ﴾ بالتثبيت والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ أى قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان ، وفراق الخلان والأخدان ﴿ إذ قاموا ﴾ الظرف منصوب بربطنا . واختلف أهل التفسير فى هذا القيام

على أقوال : فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إنى لأجد فى نفسى شيئا ، إن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا : ونحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا ، فقاموا جميعا ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ قاله مجاهد . وقال أكثر المفسرين : إنه كان لهم ملك جبار يقال له : دقيانوس ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ . وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿ لن ندعو من دونه إلها ﴾ أى لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ أى قولا ذا شطط ،أو قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر. واللام هى الموطئة للقسم ، والشطط : الغلو ومجاوزة الحد . قال أعشى بن قيس :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ﴾ ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ اتخذوا ﴾ ، و﴿قومنا ﴾ عطف بيان، وفى هذا الإخبار معنى للإنكار ، وفى الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أى هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ فزعم أن له شريكا فى العبادة، أى لا أحد أظلم منه.

﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ أى فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانبا ، أى عن العابدين للأصنام ، وقوله: ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ معطوف على الضمير المنصوب، و« ما » موصولة أو مصدرية ، أى وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه ، وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع على تقدير : أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام ، أو متصل على تقدير : أنهم أشركوها فى العبادة مع الله سبحانه . وقيل : هو دليل على جوابه ، أى إذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا ، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، وإذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أى يبسط ويوسع ﴿ ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ أى يسهل وييسرلكم من أمركم الذى أنتم بصدده ﴿ مرفقا ﴾ المرفق بفتح الميم وكسرها لغتان قرئ بهما، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع . وقيل : فتح الميم أقيس ، وكسرها أكثر . قال الفراء : وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الإنسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان ، وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر ، والمرفق من الإنسان . وقال الكسائى : الكسر فى مرفق اليد . وقيل : المرفق بالكسر : ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح: الأمر الرافق ، والمراد هنا: ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله ، والتقديم فى الموضعين يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : الرقيم : الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه قال : الرقيم : وادٍ دون فلسطين قريب من أيلة ، والراويان عن ابن عباس ضعيفان. وأخرج ابن جرير من طريق

ابن جريج عنه أيضا قال : هو الجبل الذى فيه الكهف . وأخرج ابن المنذر عنه ، قال: والله ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم بنيان ؟ وفى رواية عنه من طريق أخرى قال : وسألت كعبا فقال : اسم القرية التى خرجوا منها . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : الرقيم : الكلب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**كانوا من آياتنا عجبا**﴾ يقول : الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ يقول : أرقدناهم ﴿**ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين** ﴾ من قوم الفتية ، أهل الهدى ، وأهل الضلالة ﴿ **أحصى لما لبثوا**﴾ ، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه والشهر والسنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **وزدناهم هدى** ﴾ قال : إخلاصا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ قال : بالإيمان . وفى قوله : ﴿ **لقد قلنا إذا شططا** ﴾ قال : كذبا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : جورا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله : ﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله** ﴾ قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآى قال : هى فى مصحف ابن مسعود ، وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها .

﴿ **وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت** ﴾ شرع سبحانه فى بيان حالهم ، بعد ما أووا إلى الكهف . ﴿ **تزاور**﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل ، وقرأ ابن عامر : « تزور » قال الأخفش : لا يوضع الازورار فى هذا المعنى ، إنما يقال : هو مزور عنى ، أى منقبض . وقرأ الباقون بتشديد الزاى وإدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها. وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو ، وهو الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور : الميل . فمعنى الآية : أن الشمس إذا طلعت

تميل وتتنحى ﴿ عن كهفهم ﴾ قال الراجز الكلبي :

جاب المندا عن هوانا أزور

أى مائل ﴿ ذات اليمين ﴾ أى ناحية اليمين ، وهى الجهة المسماة باليمين ، وانتصاب ﴿ذات ﴾ على الظرف ، ﴿ وإذا غربت تقرضهم ﴾ القرض : القطع . قال الكسائى والأخفش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتتركهم ، قرضت المكان : عدلت عنه ، تقول لصاحبك : هل وردت مكان كذا ؟ فيقول : إنما قرضته : إذا مر به وتجاوز عنه ، والمعنى : أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر ﴿ ذات الشمال ﴾ أى شمال الكهف لا تصيبه . بل تعدل عن سمته إلى الجهتين ، والفجوة : المكان المتسع ، وجملة : ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ فى محل نصب على الحال ، وللمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان : الأول : أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، لأن الله سبحانه حجبها عنهم . والثانى : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره ، ويؤيد القول الأول قوله : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ، ويؤيده أيضا إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ من يهد الله ﴾ أى إلى الحق ﴿ فهو المهتد ﴾ الذى ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ أى ناصرا يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه .

ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم فقال : ﴿ وتحسبهم أيقاظا ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿ وهم رقود ﴾ أى نيام ، وهو جمع راقد كقعود فى قاعد . قيل : وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج : لكثرة تقلبهم ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ أى نقلبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿وكلبهم باسط ذراعيه ﴾ حكاية حال ماضية ، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضى كما تقرر فى علم النحو . قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلا ، فمروا براع معه كلب فتبعهم . والوصيد : قال أبو عبيد وأبو عبيدة : هو فناء الباب ، وكذا قال المفسرون . وقيل : العتبة ، ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ﴾ قال الزجاج : فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية ، والفرار : الهرب ﴿ ولملئت ﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ منهم رعبا ﴾ قرئ

بسكون العين وضمها ، أى خوفا يملأ الصدر ، وانتصاب ﴿ رعبا ﴾ على التمييز ، أو على أنه مفعول ثان . وسبب الرعب الهيبة التى ألبسهم الله إياها . وقيل : طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿ **لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئا ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة .

﴿ **وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم** ﴾ الإشارة إلى المذكور قبله ، أى وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعا ، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم فقال : ليتساءلوا بينهم ، أى ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع فى مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة ، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفى غيرها ، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ، وجملة : ﴿ **قال قائل منهم كم لبثتم** ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل ، أى كم مدة لُبثكم فى النوم ؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة ﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ أى قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم ، قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا : يوما ، فلما رأوا الشمس قالوا : أو بعض يوم ، وكان قد بقيت بقية من النهار ، وقد مر مثل هذا الجواب فى قصة عزير فى البقرة. ﴿ **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم** ﴾ أى قال البعض الآخر هذا القول ، إما على طريق الاستدلال ، أو كان ذلك إلهاما لهم من الله سبحانه ، أى أنكم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿ **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة** ﴾ أعرضوا عن التحاور فى مدة اللبث ، وأخذوا فى شىء آخر ، كأنه قال القائل منهم : اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة ، وخذوا فى شىء آخر مما يهمكم ، والفاء : للسببية ، والورق : الفضة مضروبة أو غير مضروبة. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم بسكونها ، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف ، وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء . وفى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافى التوكل على الله ، والمدينة : دقسوس ، وهى مدينتهم التى كانوا فيها ، ويقال لها اليوم : طرسوس ، كذا قال الواحدى : ﴿ **فلينظر أيها أزكى طعاما** ﴾ اى ينظر أى أهلها أطيب طعاما ، وأحل مكسبا ، أو أرخص سعرا . وقيل : يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها فى المقام كما يقال : زيد طبت أبا ، على أن الأب هو زيد ، وفيه بعد . واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفارا ، وفيهم قوم يخفون إيمانهم ، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿**وليتلطف**﴾ أى يدقق النظرحتى لا يعرف أولا يغبن ، والأول أولى ، ويؤيده ﴿ **ولا يشعرن بكم أحدا** ﴾ أى لا يفعلن ما يؤدى إلى الشعور ويتسبب له ، فهذا النهى يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علل ما سبق من الأمر والنهى فقال : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾ أى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ، يعنى : أهل المدينة ﴿ يرجموكم ﴾ يقتلوكم بالرجم ، وهذه القتلة هى أخبث قتلة ، وكان ذلك عادة لهم ، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿ أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ أى يردوكم إلى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد بالعود هنا : الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم ، وإيثار كلمة « فى » على كلمة « إلى » للدلالة على الاستقرار ﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ فى ﴿ إذا ﴾ معنى الشرط ، كأنه قال : إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ تزاور ﴾ قال : تميل ، وفى قوله : ﴿تقرضهم ﴾ قال : تذرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ تقرضهم﴾ قال : تتركهم ، ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ قال : المكان الداخل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض ، ويعنى بالخلوة : الناحية من الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ونقلبهم﴾ الآية قال : ستة أشهر على ذى الجنب اليمين ، وستة أشهر على ذى الجنب الشمال. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية قال : كى لا تأكل الأرض لحومهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم : قطمورا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : اسمه قطمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بالفناء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : بالباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ أزكى طعاما﴾ قال : أحل ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ أزكى طعاما ﴾ يعنى : أطهر ، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾

قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أى وكما أنمناهم وبعثناهم ، أعثرنا عليهم، أى أطلعنا الناس عليهم وسمى الإعلام : إعثارا ؛ لأن من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه ، فكان الإعثار سببا لحصول العلم ﴿ليعلموا أن وعد الله حق﴾ أى ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق . قيل : وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث ، فأراه الله هذه الآية . قيل : وسبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق ، وكانت من ضربة دقيانوس، إلى السوق ، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك ، فقال له : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال : بعت بها أمس شيئا من التمر ، فعرف الملك صدقه ، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف ﴿وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ أى وليعلموا أن القيامة لا شك فى حصولها ، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ أعثرنا ﴾ ، أى أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله فى أمر البعث . وقيل : فى أمر أصحاب الكهف فى قدر مكثهم ، وفى عددهم ، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية ، فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس .

ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم وفى عددهم ، وفى مدة لبثهم ، وفى نحو ذلك مما يتعلق بهم: ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم ، قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى الله سبحانه . وقيل : هو من كلام الله سبحانه ، ردا لقول المتنازعين فيهم ، أى دعوا ما أنتم فيه من التنازع ، فإنى أعلم بهم منكم . وقيل : إن الظرف فى ﴿ إذ يتنازعون ﴾ متعلق بمحذوف هو اذكر ، ويؤيده أن الإعثار ليس فى زمن التنازع بل قبله ، ويمكن أن يقال : إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعثار، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون . وقيل : هم أهل السلطان . والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم ، والأول أولى . قال الزجاج : هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور . لأن المساجد للمؤمنين .

﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين . وقيل : هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ أى هم ثلاثة أشخاص ،

وجملة: ﴿ **رابعهم كلبهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿**ويقولون خمسة سادسهم كلبهم** ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله ، وانتصاب ﴿**رجما بالغيب** ﴾ على الحال ، أى راجمين أو على المصدر ، أى يرجمون رجما ، والرجم بالغيب : هو القول بالظن والحدس من غير يقين ، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة ، والقائلين بأنهم خمسة ﴿ **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلك الراجمين بالغيب . قيل : وإظهار الواو فى هذه الجملة يدل على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين . قال أبو على الفارسى قوله : ﴿ **رابعهم كلبهم** ﴾ و﴿ **سادسهم كلبهم** ﴾ جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهى قوله : ﴿ **ثلاثة** ﴾ والتقدير : هم ثلاثة ، هكذا حكاه الواحدى عن أبى على ، ثم قال : وهذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى : ﴿ **وثامنهم** ﴾ وإخراجها من الأول . وقيل : هى مزيدة للتوكيد . وقيل : إنها واو الثمانية ، وإن ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما فى قوله تعالى : ﴿وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم : ٥] .

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال : ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ منكم أيها المختلفون ، ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس فقال : ﴿ **ما يعلمهم** ﴾ أى يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف ﴿ **إلا قليل** ﴾ من الناس . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف فقال : ﴿ **فلا تمار فيهم** ﴾ المراء فى اللغة : الجدال ، يقال : مارى يمارى مماراة ومراء : أى جادل ، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا فقال: ﴿ **إلا مراء ظاهرا**﴾ أى غير متعمق فيه وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب . وقال الرازى : هو ألا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد، بل يقول : هذا التعيين لا دليل عليه ، فوجب التوقف ، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم فقال : ﴿**ولاتستفت فيهم منهم أحدا** ﴾ أى لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم ، لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتى ، وهاهنا الأمر بالعكس ، ولاسيما فى واقعة أهل الكهف ، وفيما قص الله عليك فى ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا** ﴾ أى لأجل شىء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا . قال الواحدى : قال المفسرون :لما سألت اليهود النبى ﷺ عن خبر الفتية فقال : « أخبركم غدا » ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحى عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول : إذا قلت لشىء : إنى فاعل ذلك غدا ، فقل : إن شاء الله . وقال الأخفش والمبرد والكسائى والفراء : لا تقولن لشىء : إنى فاعل ذلك غدا ، إلا أن تقول : إن شاء الله ،

فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال . قيل : وهذا الاستثناء مفرغ ، أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال ،إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول: إن شاء الله ، أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا . وقيل : الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل : لا تقولنه أبدا كقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ [الأعراف : ٨٩] . لأن عودهم فى ملتهم مما لا يشاؤه الله .

﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ الاستثناء بمشيئة الله ، أى فقل : إن شاء الله ، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة. وقد اختلف أهل العلم فى المدة التى يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة فى مواضعها . وقيل : المعنى: ﴿ **واذكر ربك** ﴾ بالاستغفار ﴿ **إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا** ﴾ المشار إليه بقوله : ﴿ **من هذا** ﴾ هو نبأ أصحاب الكهف ، أى قل يا محمد : عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى . قال الزجاج : عسى أن يعطينى ربى من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب فى الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح فى الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل : الإشارة إلى قوله : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ أى عسى أن يهدينى ربى عند هذا النسيان لشىء آخر بدل هذا المنسى ، وأقرب منه رشدا وأدنى منه خيرا ومنفعة ، والأول أولى .

﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **مائة** ﴾ ونصب ﴿ **سنين** ﴾ ، فيكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان . وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائى : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : سنين ثلاثمائة . ورجح الأول أبو على الفارسى . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى : ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ [الكهف : ١٠٣] قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو على الفارسى : هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع ، وفى مصحف عبد الله : « ثلثمائة سنة » . وقال الأخفش : لا تكاد العرب تقول: مائة سنين . وقرأ الضحاك : « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ الجمهور : ﴿**تسعا** ﴾ بكسر التاء . وقرأ أبو عمرو بفتحها ، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم .

قال ابن جرير : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة فى كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر الله أن يرد علم ذلك إليه ، فقال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأول : يريد فى يوم الكهف ، ولبثوا الثانى : يريد بعد الإعثار عليهم إلى مدة محمد ﷺ ، أو إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه

لما قال : ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة . والأول أولى ؛ لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام بدليل أن العدد فى هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات . وعن الزجاج أن المراد : ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب .

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله : ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أى ما خفى فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شىء ، ثم زاد فى المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين ، وأنه يستوى فى علمه الغائب والحاضر ،والخفى والظاهر ،والصغير والكبير واللطيف والكثيف، وكأن أصله ما أبصره وما أسمعه ، ثم نقل بإلى صيغة الأمر للإنشاء ، والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر فى علم النحو﴿ ما لهم من دونه من ولى ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض . وقيل : لأهل الكهف . وقيل :لمعاصرى محمد ﷺ من الكفار ، أى ما لهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم ، وفى هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ قرأ الجمهوربرفع الكاف فى ﴿ يشرك ﴾ على الخبر عن الله سبحانه . وقرأ ابن عباس والحسن وأبورجاء وقتادة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهى للنبى ﷺ أن يجعل الله شريكا فى حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر . وقرأ مجاهد بالتحتية والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهها ، والمراد بحكم الله : مايقضيه، أو علم الغيب . والأول أولى. ويدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوليا، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ قال : أطلعنا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ قال : الأمراء ، أو قال : السلاطين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ قال : اليهود ﴿ ويقولون خمسة ﴾ قال : النصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ رجما بالغيب ﴾ قال : قذفا بالظن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : أنا من القليل كانوا سبعة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ، قال السيوطى : بسند صحيح ، فى قوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم . وحكاه ابن كثير عن ابن عباس فى رواية قتادة وعطاء وعكرمة ، ثم قال:فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ يقول : حسبك ما قصصت

عليك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تستفت فيهم منهم أحدا** ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا تقولن لشىء** ﴾ الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشىء إنى أفعله فنسيت أن تقول : إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ، ثم قرأ : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هى خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد أن يستثنى إلا فى صلة يمين . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حانث. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ــ وفى رواية : تسعين ــ تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله ، فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا لحاجته » [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة : ﴿ **إذا نسيت** ﴾ قال : إذا غضبت . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن الحسن : ﴿ **إذا نسيت** ﴾ قال : إذا لم تقل : إن شاء الله .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم** ﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال : ﴿**سيقولون ثلاثة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **رجما بالغيب** ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال : ﴿**سيقولون** ﴾ : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى حرف ابن مسعود ، وقالوا : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم** ﴾ الآية : يعنى : إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة** ﴾ قيل : يا رسول الله ، أياما أم أشهرا أم سنين ؟ فأنزل الله : ﴿ **سنين وازدادوا تسعا** ﴾ . وأخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أبصر به وأسمع** ﴾ قال : الله يقوله .

---

(١) البخارى معلقا فى الجهاد (٢٨١٩) وفى النكاح موصولا (٥٢٤٢) وفيه : « مائة امرأة » ومسلم فى الأيمان (١٦٥٤/٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥) والنسائى فى التفسير (٣٢٢) .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾ .

قوله : ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه ، قيل : ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ **واتل** ﴾ : واتبع ، أمرا من التلو ، لا من التلاوة ، و﴿ **من كتاب ربك** ﴾ بيان للذى أوحى إليه ﴿ **لامبدل لكلماته** ﴾ أى لا قادر على تبديلها وتغييرها ، وإنما يقدر على ذلك هو وحده . قال الزجاج : أى ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له ، وعلى هذا يكون التقدير: لا مبدل لحكم كلماته ﴿ **ولن تجد من دونه ملتحدا** ﴾ الملتحد : الملتجأ ، وأصل اللحد : الميل . قال الزجاج : لن تجد معدلا عن أمره ونهيه ، والمعنى: أنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه، وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف .

ثم شرح سبحانه فى نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** ﴾ قد تقدم فى الأنعام نهيه ﷺ عن طرد فقراء المؤمنين بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم ، فصبر النفس هو حبسها ، وذكر الغداة والعشى كناية عن الاستمرار على الدعاء فى جميع الأوقات . وقيل : فى طرفى النهار ، وقيل : المراد : صلاة العصر والفجر . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر : « بالغدوة » بالواو ، واحتجوا بأنها فى المصحف كذلك مكتوبة بالواو . قال النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول : الغدوة، ومعنى ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ : أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال : ﴿ **ولا تعد عيناك عنهم** ﴾ أى لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم . قال الفراء : معناه : لا تصرف عيناك عنهم ، وقال الزجاج : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبو ، من عدوته عن الأمر ، أى صرفته منه. وقيل : معناه : لا تحتقرهم عيناك ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ أى مجالسة أهل الشرف والغنى ، والجملة فى محل نصب على الحال، أى

حال كونك مريدا لذلك ، هذا إذا كان فاعل ﴿ **تريد** ﴾ هو النبى ﷺ ، وإن كان الفاعل ضميرا يعود إلى العينين، فالتقدير : مريدة زينة الحياة الدنيا ، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز ، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر :

لمن زحلوقة زل　　　بها العينان تنهل

﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ أى جعلناه غافلا بالختم عليه ، نهى رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحى الفقراء عن مجلسه ، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ أى متجاوزا عن حد الاعتدال ، من قولهم : فرس فرط : إذا كان متقدما للخيل ، فهو على هذا من الإفراط . وقيل : هو من التفريط ، وهو التقصير والتضييع . قال الزجاج : ومن قدم العجز فى أمره أضاعه وأهلكه .

ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ ما يقوله لأولئك الغافلين ، فقال : ﴿ **وقل الحق من ربكم** ﴾ أى قل لهم : إن ماأوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله ، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير . وقيل : المراد بالحق : الصبر مع الفقراء . قال الزجاج : أى الذين أتيتكم به الحق من ربكم يعنى : لم آتكم به من قبل نفسى إنما أتيتكم به من الله ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ قيل : هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذى أمر به رسول الله ﷺ ، وفيه تهديد شديد ، ويكون المعنى : قل لهم يا محمد : الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر . ثم أكد الوعيد وشدده فقال : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين** ﴾ أى أعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأنبيائه نارا عظيمة ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ أى اشتمل عليهم . والسرادق : واحد السرادقات . قال الجوهرى : وهى التى تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف فهو سرادق ، ومنه قول رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن جارود　　　سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه　　　صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. وقال ابن الأعرابى: سرادقها: سورها . وقال القتيبى : السرادق : الحجرة التى تكون حول الفسطاط . والمعنى : أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه ﴿ **وإن يستغيثوا** ﴾ من حر النار ﴿ **يغاثوا بماء كالمهل** ﴾ وهو الحديد

المذاب. قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر. وقيل: هو دردى الزيت. وقال أبو عبيدة والأخفش : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس . وقيل : هو ضرب من القطران . ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه ﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ إذا قدم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿ **بئس الشراب** ﴾ شرابهم هذا ﴿**وساءت**﴾ النار ﴿ **مرتفقا** ﴾ متكأ، يقال : ارتفقت، أى اتكأت ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق . ويقال: ارتفق الرجل : إذا نام على مرفقه ، وقال القتيبى: هو المجلس ، وقيل : المجتمع .

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين . والمعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ هذا خبر ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ ، والعائد محذوف ، أى من أحسن منهم عملا ، وجملة : ﴿ **أولئك لهم جنات عدن** ﴾ استئناف لبيان الأجر، والإشارة إلى من تقدم ذكره . وقيل : يجوز أن يكون ﴿ **أولئك** ﴾ خبر ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ ، وتكون جملة : ﴿ **إنا لا نضيع** ﴾ اعتراضا ، ويجوز أن يكون ﴿ **أولئك** ﴾ خبرا بعد خبر ، وقد تقدم الكلام فى ﴿ **جنات عدن** ﴾ ، وفى كيفية جرى الأنهار من تحتها ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب** ﴾ قال الزجاج : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهى زينة تلبس فى الزند من اليد وهى من زينة الملوك . قيل : يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور : واحد من فضة ، وواحد من لؤلؤ ، وواحد من ذهب ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، ويمكن أن يكون قول القائل هذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أساور من فضة ﴾[الإنسان : ٢١] ولقوله فى آية أخرى : ﴿ ولؤلؤا ﴾ [الحج:٢٣] «ومن » فى قول : ﴿ **من أساور** ﴾ للابتداء ، وفى : ﴿ **من ذهب** ﴾ للبيان . وحكى الفراء : « يحلون » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلى فهى حالية : إذا لبست الحلى ﴿ **ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق** ﴾ قال الكسائى: السندس : الرقيق ، واحده سندسة ، والإستبرق: ما ثخن ، وكذا قال المفسرون . وقيل : الإستبرق:هو الديباج كما قال الشاعر :

وإستبرق الديباج طورا لباسها

وقيل : هو المنسوج بالذهب . قال القتيبى : هو فارسى معرب . قال الجوهرى : وتصغيره أبيرق ، وخص الأخضر لأنه الموافق للبصر ، ولكونه أحسن الألوان ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة ، وهى السرر فى الحجال . قيل : هى أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وأصل اتكأ : اوتكأ ، وأصل متكئين : موتكئين ، والاتكاء : التحامل على الشيء ﴿ **نعم الثواب** ﴾ ذلك الذى أثابهم الله به ﴿ **وحسنت** ﴾ تلك الأرائك ﴿ **مرتفقا** ﴾ أى متكأ وقد تقدم قريبا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿**ملتحدا** ﴾ قال:

ملتجأ . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله ، لو جلست فى صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله : ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا** ﴾ زاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى ، معكم المحيا والممات » (١).

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق ، فلما رآهم جلس معهم وقال :« الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم» (٢) . وأخرج البزار عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا :جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » وفى الباب روايات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع قال : أخبرنى عبد الله بن عمر فى هذه الآية ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** ﴾ أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى قوله : ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ الآية قال : نزلت فى صلاة الصبح وصلاة العصر .

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ قال : نزلت فى أمية بن خلف ، وذلك أنه دعا النبى ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ، فأنزل الله هذه الآية ، يعنى : من ختمنا على قلبه يعنى : التوحيد ﴿ **واتبع هواه** ﴾ يعنى : الشرك ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ يعنى : فرطا فى أمر الله وجهالة بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبى ﷺ فى يوم حار ، وعنده سلمان عليه جبة صوف ، فصار منه ريح العرق فى الصوف ، فقال عيينة : يا محمد ، إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا ، فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم ، فأنزل الله ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه** ﴾ الآية . وقد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى ﷺ

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٤٥ .

(٢) ابن جرير ١٥/ ١٥٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٤ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه، فأنزل الله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ الآية(١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ قال : ضياعا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ وقل الحق ﴾ قال : هو القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ يقول : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء له الكفركفر ، وهو قوله :﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير : ٢٩] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال فى الآية : هذا تهديد ووعيد . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ قال : حائط من نار . وأخرج أحمد والترمذى وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبو يعلى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة » (٢) . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه (٣) وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البحر هو من جهنم » ، ثم تلا ﴿ نارا أحاط بهم سرادقها ﴾ (٤) . وأخرج أحمد والترمذى وأبويعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ بماء كالمهل ﴾ قال : « كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه» (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ كالمهل ﴾ قال : أسود كعكر الزيت . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : سئل ابن عباس عن المهل فقال : ماء

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٣٤١٣/ ٤٥ ، ٤٦) .

(٢) أحمد ٣/ ٢٩ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وقال: «هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد ، وفى رشدين مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وابن جرير ١٥/ ١٥٧ وأبو يعلى (١٣٨٩) وصححه الحاكم ٤/ ٦٠٠ ، ٦٠١ وسكت عنه الذهبى وإسناده ضعيف.

(٣) فى المخطوطة«البخارى» والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤/ ٢٢٠كما ورد الحديث فى كشف الخفا ١/ ٢٨١ (٨٨٣) ولم يذكر البخارى ممن أخرج الحديث .

(٤) أحمد ٤/ ٢٢٣ وابن جرير ١٥/ ١٥٧ ، وصححه الحاكم ٤/ ٥٩٦ ووافقه الذهبى وقد تقدمت الرواية الصحيحة: « إن جهنم تحت الأرض السابعة » .

(٥) أحمد ٣/ ٧٠ ، ٧١ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وفى التفسير (٣٣١٩) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين . ورشدين فيه مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وأبو يعلى (١٣٧٥) وابن جرير ١٥/ ١٧٥ وصححه ابن حبان (٧٤٣٠) والحاكم ٢/ ٥٠١ ووافقه الذهبى .

غليظ كدردى الزيت . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن المهل ، فدعا بذهب وفضة فأذابه ، فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذى هو شراب أهل النار ولونه لون السماء ، غير أن شراب أهل النار أشد حرا من هذا . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : هل تدرون ما المهل ؟ المهل : سهل الزيت ،يعنى : آخره . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وساءت مرتفقا﴾ قال : مجتمعا .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» [(١)]. وأخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد بن عبد الله قال : فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عكرمة قال : الإستبرق : الديباج الغليظ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن الهيثم بن مالك الطائى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول منه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأرائك : السرر فى جوف الحجال عليها الفرش منضود فى السماء فرسخ . وأخرج البيهقى فى البعث عنه قال : لا تكون أريكة حتى يكون السرير فى الحجلة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة أنه سئل عن الأرائك فقال : هى الحجال على السرر .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا

(١) البخارى فى اللباس (٥٩٥٣) ومسلم فى الطهارة (٢٥٠/ ٤٠) والنسائى ١/ ٩٣.

كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين** ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله : ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ . وقد اختلف فى الرجلين هل هما مقدران أو محققان ؟ فقال بالأول بعض المفسرين . وقال بالآخر بعض آخر . واختلفوا فى تعيينهما ، فقيل : هما أخوان من بنى إسرائيل . وقيل : هما أخوان مخزوميان من أهل مكة : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر . وقيل : هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله : ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ﴾ [الصافات : ٥١] وانتصاب ﴿**مثلا**﴾ و﴿ **رجلين** ﴾ على أنهما مفعولا ﴿ **اضرب** ﴾ ، قيل : والأول هو الثانى والثانى هو الأول ﴿**جعلنا لأحدهما جنتين** ﴾ هو الكافر، و﴿ **من أعناب** ﴾ بيان لما فى الجنتين ، أى من كروم متنوعة ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ الحف : الإحاطة ، ومنه: ﴿ حافين من حول العرش ﴾ [الزمر : ٧٥] ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفا ، أى أطافوا به ، فمعنى الآية : وجعلنا النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿ **وجعلنا بينهما زرعا** ﴾ أى بين الجنتين ، وهو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات والفواكه .

ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدى حملها وما فيها ، فقال : ﴿ **كلتا الجنتين آتت أكلها** ﴾ أخبر عن ﴿ **كلتا** ﴾ بـ ﴿ **آتت** ﴾ ، لأن لفظه مفرد ، فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثنى . وقال الفراء : هو مثنى ، وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وقال سيبويه : ألف كلتا للتأنيث ، والتاء بدل من لام الفعل ، وهى واو ، والأصل : كلوا ، وقال أبو عمرو : التاء ملحقة ، وأكلهما : هو ثمرهما، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحا للأكل . وقرأ عبد الله بن مسعود : «كل الجنتين آتى أكله » . ﴿ **ولم تظلم منه شيئا** ﴾ أى لم تنقص من أكلها شيئا ، يقال : ظلمه حقه ، أى نقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين ؛ فإنها فى الغالب تكثر فى عام ، وتقل فى عام ﴿ **وفجرنا خلالهما نهرا** ﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهرا ليسقيهما دائما من غير انقطاع ، وقرئ:﴿**فجرنا** ﴾ بالتشديد للمبالغة، وبالتخفيف على الأصل .

﴿ **وكان له** ﴾ أى لصاحب الجنتين ﴿ **ثمر** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبى إسحاق ﴿**ثمر**﴾ بفتح الثاء والميم ، وكذلك قرؤوا فى قوله : ﴿ **أحيط بثمره** ﴾ وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم فيهما ، وقرأ الباقون بضمهما جميعا فى الموضعين . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر ، وجمع الثمر: ثمار ، مثل : جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار: ثمر. مثل : كتاب وكتب ، وجمع الثمر: أثمار. مثل : عنق وأعناق . وقيل : الثمر : جميع المال من الذهب والفضة، والحيوان وغير ذلك . وقيل : هو الذهب والفضة خالصة ﴿ **فقال لصاحبه** ﴾ أى قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿ **وهو يحاوره** ﴾ أى

والكافر يحاور المؤمن ، والمعنى: يراجعه الكلام ويجاوبه ، والمحاورة : المراجعة ، والتحاور: التجاوب ﴿ **أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** ﴾ النفر : الرهط ، وهو ما دون العشرة ، وأرادها هنا الأتباع والخدم والأولاد .

﴿ **ودخل جنته** ﴾ أى دخل الكافر جنة نفسه . قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم ، فأدخله جنته يطوف به فيها ، ويريه عجائبها ، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه: كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما ، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة ، أو لأنه أدخله فى واحدة ، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما . وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف [1] أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، وجملة : ﴿ **وهو ظالم لنفسه** ﴾ فى محل نصب على الحال أى وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿ **قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا** ﴾ أى قال الكافر لفرط غفلته وطول أمله: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التى تشاهدها .

﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته . قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منهما منقلبا** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : أنه إن يرد إلى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه ، واللام فى ﴿**لأجدن** ﴾ جواب القسم ، والشرط ، أى لأجدن يومئذ خيرا من هذه الجنة . فى مصاحف مكة والمدينة والشام : « خيرا منهما » وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة ﴿ **خيرا منها** ﴾ على الإفراد ، و﴿**منقلبا** ﴾ منتصب على التمييز ، أى مرجعا وعاقبة ، قال هذا قياسا للغائب على الحاضر ، وأنه لما كان غنيا فى الدنيا ، سيكون غنيا فى الأخرى ، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من الله .

﴿ **قال له صاحبه** ﴾ أى قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله : ﴿**أكفرت بالذى خلقك من تراب** ﴾بقولك: ﴿ **ما أظن الساعة قائمة** ﴾ وقال: خلقك من تراب، أى جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه ، وهو أصلك ، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك . وقيل : يحتمل أنه كان كافرا بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ **ثم من نطفة** ﴾ وهى المادة القريبة ﴿ **ثم سواك رجلا**﴾ أى صيرك إنسانا ذكرا ، وعدل أعضاءك وكملك ،وفى هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، وانتصاب ﴿ **رجلا** ﴾ على الحال أو التمييز .

﴿ **لكنا هو الله ربى** ﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة. وأصله:لكن أنا ، حذفت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا ، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت الثانية ، وضمير هو للشأن ، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا ، والراجع ياء الضمير ، وتقدير الكلام : لكن أنا الشأن الله ربى . قال أهل العربية : إثبات

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٢١ .

ألف أنا فى الوصل ضعيف . قال النحاس : مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل : لكن أنا ، وذكر نحو ما قدمنا . وروى عن الكسائى أن الأصل : لكن الله هو ربى أنا . قال الزجاج : إثبات الألف فى لكنا فى الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا ، فجاؤوا بها عوضا ، قال : وفى قراءة أبى : « لكن أنا هو الله ربى » وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع ، وورش عن يعقوب : ﴿ **لكنا** ﴾ فى حال الوصل والوقف معا بإثبات الألف، ومثله قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونى　　　جميعا قد تـذريت السنامـــا

ومنه قول الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوافـــى　　　بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وأبو العالية ، وروى عن الكسائى : « لكن هو الله ربى » ثم نفى عن نفسه الشرك بالله ، فقال : ﴿ **ولا أشرك بربى أحدا** ﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركا .

ثم أقبل عليه يلومه فقال : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله** ﴾ لولا للتحضيض ، أى هلا قلت عندما دخلتها هذا القول. قال الفراء والزجاج: « ما » فى موضع رفع على معنى : الأمر ما شاء الله ، أى هلا قلت حين دخلتها : الأمر بمشيئة الله ، وما شاء الله كان ، ويجوز أن تكون « ما » مبتدأ والخبر مقدر ، أى ما شاء الله كائن ، ويجوز أن تكون « ما » شرطية والجواب محذوف ، أى أى شيء شاء الله كان ﴿ **لا قوة إلا بالله** ﴾ أى هلا قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، تحضيضا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله ، لا بقوته وقدرته . قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما فى يده من ملك ونعمة إلا بالله ، ولا يكون إلا ما شاء الله . ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿ **إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا** ﴾ المفعول الأول :ياء الضمير ، و ﴿ **أنا** ﴾ : ضمير فصل ، و ﴿ **أقل** ﴾ : المفعول الثانى للرؤية إن كانت علمية ، وإن جعلت بصرية كان انتصاب ﴿ **أقل** ﴾ على الحال ، ويجوز أن يكون ﴿ **أنا** ﴾ تأكيد لياء الضمير ، وانتصاب ﴿**مالا**﴾ و﴿ **ولدا** ﴾ على التمييز .

﴿ **فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك** ﴾ هذا جواب الشرط ، أى إن ترنى أفقر منك ، فأنا أرجو أن يرزقنى الله سبحانه جنة خيرا من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ﴿**ويرسل عليها حسبانا** ﴾ أى ويرسل على جنتك حسبانا . والحسبان مصدر ، بمعنى : الحساب كالغفران ، أى مقدار قدره الله عليها ، ووقع فى حسابه سبحانه ، وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: الحسبان من الحساب ، أى يرسل عليها عذاب الحساب ،وهو حساب ما كسبت يداك . وقال الأخفش : حسبانا : أى مرامى ﴿ **من السماء** ﴾ واحدها حسبانه ، وكذا قال أبوعبيدة

والقتيبى . وقال ابن الأعرابى : الحسبانة : السحابة ، والحسبانة : الوسادة ، والحسبانة : الصاعقة . وقال النضر بن شميل : الحسبان : سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس ، ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى: يرسل عليها مرامى من عذابه: إما برد ، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب . ومنه قول زياد الكلابى :

أصاب الأرض حسبان

أى جراد . ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ أى فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسبانا صعيدا ، أى أرضا لا نبات بها وقد تقدم تحقيقه ، ﴿ **زلقا** ﴾ أى تزلق فيها الأقدام لملاستها ، يقال : مكان زلق بالتحريك ، أى دحض، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلقت رجله تزلق زلقا وأزلقها غيره ، والمزلقة : الموضع الذى لا يثبت عليه قدم ، وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة ، أو أريد به المفعول . وجملة : ﴿ **أو يصبح ماؤها غورا** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، والغور : الغائر . وصف الماء بالمصدر مبالغة ، والمعنى : أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما ، ويجىء الغور بمعنى : الغروب ، ومنه قول أبى ذؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

﴿ **فلن تستطيع له طلبا** ﴾ أى لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل . وقيل المعنى : فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه .

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال : ﴿**وأحيط بثمره** ﴾ قد قدمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف وتفسيره ، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم فى قوله : ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ [يوسف : ٦٦] وهى عبارة عن إهلاكه وإفنائه ، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره ﴿**فأصبح يقلب كفيه** ﴾ أى يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وهو كناية عن الندم ،كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿ **على ما أنفق فيها** ﴾ أى فى عمارتها وإصلاحها من الأموال وقيل : المعنى : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم: فى يده مال، وهو بعيد جدا ، وجملة : ﴿ **وهى خاوية على عروشها** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى : إذا سقطت ولم تمطر فى نوئها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [النمل : ٥٢] قيل : وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل ، وأيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقى ، وجملة : ﴿ **ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا** ﴾ معطوفة على ﴿ **يقلب كفيه** ﴾ ، أو حال من ضميره أى وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك ، أو كان

هذا القول منه علـى حقيقته ، لا لما فاته من الغرض الدنيوى ، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه .

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ ﴿ فئة ﴾ اسم كان و﴿ له ﴾ خبرها ، و﴿ينصرونه ﴾ صفة لفئة أى فئة ناصرة ، ويجوز أن تكون ، ﴿ ينصرونه ﴾ الخبر ، ورجح الأول سيبويه ،ورجح الثانى : المبرد ، واحتج بقوله:﴿ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص : ٤] والمعنى : أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿ وما كان ﴾ فى نفسه ﴿منتصرا﴾ أى ممتنعا بقوته عن إهلاك الله لجنته ، وانتقامه منه .

﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى: « الحق » بالرفع نعتا للولاية ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة : ﴿ الحق ﴾ بالجر نعتا لله سبحانه . قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « الولاية » بكسر الواو ، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان بمعنى ، والمعنى: هنالك ، أى فى ذلك المقام ، النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره . وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى الولاية لله الحق هنالك ﴿ هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى هو سبحانه خير ثوابا لأوليائه فى الدنيا والآخرة ﴿وخير عقبا ﴾ أى عاقبة ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة: ﴿ عقبا ﴾ بسكون القاف ، وقرأ الباقون بضمها ، وهما بمعنى واحد أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به ، يقال : هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه ، أى أخراه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ قال : الجنة : هى البستان ، فكان له بستان واحد وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ، فلذلك كانا جنتين ، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذى عليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى قال : نهر أبى قرطس نهر الجنتين . قال ابن أبى حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ولم تظلم منه شيئا ﴾ قال : لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عنه ﴿ وكان له ثمر﴾ يقول : مال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : قرأها ابن عباس : « وكان له ثمر » بالضم ، وقال : هى أنواع المال . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ وكان له ثمر ﴾ قال : ذهب وفضة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ يقول : كفور بنعمة ربه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب : «الله الله ربى لا أشرك به شيئا » . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفى عمن ذكره قال : « طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال : ما شاء الله ، فإذا حاجته بين يديه ، فقال : يارب، إنى أطلب حاجتى منذ كذا وكذا أعطيتها

الآن ، فأوحى الله إليه : يا موسى ، أما علمت أن قولك : ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج » . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته ، وقرأ : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾ » (١) وفى إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس . قال أبو الفتح الأزدى : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا. وأخرج البيهقى فى الشعب عنه نحوه مرفوعا . وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال: قال لى نبى الله ﷺ:« ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ » قلت : نعم ، قال : « أن تقول : لا قوة إلا بالله » (٣). وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى أن النبى ﷺ قال له: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » (٤) . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى فضل هذه الكلمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ قال : مثل الجرز . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **حسبانا من السماء**﴾ قال : عذابا ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ أى قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شىء ﴿ **أو يصبح ماؤها غورا** ﴾ أى ذاهبا قد غار فى الأرض ﴿ **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه** ﴾ قال : يصفق ﴿**على ما أنفق فيها** ﴾ متلهفا على ما فاته .

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا** (٤٥) **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** (٤٦) ﴾ .

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا** ﴾ أى اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها . وقد تقدم هذا المثل فى سورة يونس ، ثم بين سبحانه هذا المثل فقال : ﴿ **كماء أنزلناه من السماء** ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثانى لقوله: ﴿ **اضرب** ﴾ على جعله بمعنى: صير ﴿ **فاختلط به نبات الأرض**﴾أى اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى. وقيل: المعنى: إن النبات اختلط بعضه

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٢٠٧) وإسناده ضعيف . وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧٣) ونسبه لأبى يعلى.
(٢) ابن كثير ٤/٣٨٨ .
(٣) أحمد ٢/٤٦٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٠٢ : « خرجه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير أبى بلج الكبير وهو ثقة » .
(٤) البخارى فى المغازى (٤٢٠٥) وفى الدعوات (٦٤٠٩) وفى القدر(٦٦١٠) ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٤/٤٤،٤٥) .

ببعض حين نزل عليه الماء ، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر ، فتكون الباء فى ﴿ به ﴾ سببية ﴿ فأصبح ﴾ النبات ﴿ هشيما ﴾ الهشيم : الكسير ، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ، ورجل هشيم : ضعيف البدن ، وتهشم عليه فلان : إذا تعطف ، واهتشم ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده ، ومنه قول ابن الزبعرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿ تذروه الرياح ﴾ : تفرقه . قال أبو عبيدة وابن قتيبة : تذروه : تنسفه ، وقال ابن كيسان : تذهب به وتجىء ، والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مصرف : « تذريه الريح » قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله « تذريه » يقال : ذرته الريح تذروه ، وأذرته تذريه . وحكى الفراء أذريت الرجل عن فرسه ، أى قلبته ﴿ وكان الله على كل شىء مقتدرا ﴾ أى على كل شىء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شىء .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ هذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء ، فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به فى الدنيا لا مما ينفع فى الآخرة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] وقال : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : ١٤]ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أى أعمال الخير ، وهى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿ خير عند ربك ثوابا ﴾ أى أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابا ، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿ وخير أملا ﴾ أى أفضل أملا ، يعنى : أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين ، لأنهم ينالون بها فى الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء فى الدنيا ، وليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات فى الأحاديث بما سيأتى لا ينافى إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على قال : ﴿ المال والبنون ﴾ حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات » ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال :« التكبير والتهليل والتسبيح

والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) . وأخرج الطبرانى وابن شاهين وابن مردويه عن أبى الدرداء مرفوعا بلفظ : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قـوة إلا بالله ، هـن الباقيات الصالحـات » . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الصغير ، والحاكم وصححـه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا : «خذوا جنتكم » ، قيل : يا رسول الله ، من أى عدو قد حضر ؟ قال : « بل جنتكم من النار قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات، وهى الباقيات الصالحات » (٢). وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال:« ألا وإن سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله ،الباقيات الصالحات » (٣). وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعا ، وزاد : « التكبير » وسماهن الباقيات الصالحات . وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبى هريرة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعا نحوه ،وزادت: « ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث على مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فذكر نحوه دون الحوقلة . وأخرج الطبرانى عن سعد بن جنادة مرفوعا نحوه (٤) . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه . وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات ، وأما ما ورد فى فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة فى الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة فى ذكرها هنا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كل شىء من طاعة الله ، فهو من الباقيات الصالحات .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلى (١٣٨٤) وابن جرير ١٥/ ١٦٧ وابن حبان (٨٣٧) وصححه الحاكم ١/ ٥١٢ ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٩٠ : « رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن . وله شواهد » .

(٢) النسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٨٤) وابن جرير ١٥/ ١٦٦ والطبرانى فى الصغير ١/ ١٤٥ وصححه الحاكم ١/ ٥٤١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٩٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٩٢ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله فى الصغير رجال الصحيح غير داود بن بلال وهو ثقة » .

(٣) أحمد ٤/ ٢٦٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٥٠ : « قلت له : حديث فى الباقيات الصالحات غير هذا رواه ابن ماجة : رواه أحمد وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) الطبرانى (٥٤٨٢ ، ٥٤٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٦٩ : « وفيه الحسين بن الحسن العوفى ، وهو ضعيف » .

(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾.

وقوله : ﴿ **ويوم نسير الجبال** ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « تسير » بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول ، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل. وقرأ ابن محيصن ومجاهد: « تسير» بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل. وقرأ الباقون: ﴿ **نسير** ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ [التكوير : ٣] ، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى : ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ [الطور : ١٠] واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله : ﴿ **وحشرناهم** ﴾ قال بعض النحويين : التقدير : والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال. وقيل: العامل فى الظرف فعل محذوف ، والتقدير : واذكر يوم نسير الجبال ، ومعنى تسيير الجبال: إزالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهى تمر مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨]، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال : ﴿ وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا ﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦]. والخطاب فى قوله : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح للرؤية ، ومعنى بروزها : ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان . وقيل : المعنى ببروزها : بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه :﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ [الانشقاق : ٤] ، وقال : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] فيكون المعنى : وترى الأرض بارزا ما فى جوفها ﴿ **وحشرناهم** ﴾ أى الخلائق ، ومعنى الحشر : الجمع ، أى جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ **فلم نغادر منهم أحدا** ﴾ فلم نترك منهم أحدا ، يقال : غادره وأغدره إذا تركه ، قال عنترة :

غادرته متعفرا أوصاله والقوم بين مجرح ومجندل

أى تركته ، ومنه الغدر ،لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور ، قالوا:وإنما سمى الغدير غديرا ؛ لأن الماء ذهب وتركه ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿ **وعرضوا على ربك صفا** ﴾

انتصاب ﴿ **صفا** ﴾ على الحال ، أى مصفوفين كل أمة وزمرة صف . وقيل : عرضوا صفا واحدا كما فى قوله: ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ [طه : ٦٤] أى جميعا . وقيل : قياما . وفى الآيـة تشبيه حالهـم بحـال الجيش الذى يعـرض على السلطان ﴿ **لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ هو على إضمار القول، أى قلنا لهم لقد جئتمونا ، والكاف فى ﴿ **كما خلقناكم** ﴾نعت مصدر محذوف ، أى مجيئا كائنا كمجيئكم عندما خلقناكم أول مرة،أو كائنين كما خلقناكم أول مرة، أى حفاة عراة غرلا ، كما ورد ذلك فى الحديث (١) . قال الزجاج : أى بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم ، لأن قوله : ﴿**لقد جئتمونا** ﴾ معناه : بعثناكم ﴿ **بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا**﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكرى البعث ، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، وأن لن نجعل لكم موعدا نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

وجملة : ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ معطوفة على ﴿ **عرضوا** ﴾ ، والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس . والوضع إما حسى بأن يوضع صحيفة كل واحد فى يده : السعيد فى يمينه ، والشقى فى شماله ؛ أو فى الميزان . وإما عقلى ، أى أظهر عمل كل واحد من خير وشر بالحساب الكائن فى ذلك اليوم ﴿ **فترى المجرمين مشفقين مما فيه** ﴾ أى خائفين وجلين مما فى الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح فى ذلك الجمع ، والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ **ويقولون يا ويلتنا** ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك ، ومعنى هذا النداء قد تقدم تحقيقه فى المائدة ﴿ **مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ أى أى شىء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها ﴿ **ووجدوا ما عملوا** ﴾ فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة ، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿ **حاضرا** ﴾ مكتوبا مثبتا ﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ أى لا يعاقب أحدا من عباده بغير ذنب ، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقه .

ثم إنه سبحانه عاد إلى الرد على أرباب الخيلاء من قريش ، فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ أى واذكر وقت قولنا لهم : اسجدوا سجود تحية وتكريم ، كما مر تحقيقه ﴿ **فسجدوا** ﴾ طاعة لأمر الله وامتثالا لطلبه السجود ﴿ **إلا إبليس** ﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، وجملة ﴿ **كان من الجن** ﴾ مستأنفة لبيان سـبب عصيانه وأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، ومعنى : ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ أنه خرج عن طاعة ربه . قال الفراء : العرب تقول : فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحاس : اختلف فى معنى ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ على قولين : الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه. كما تقول: أطعمه عن جوع .

---

(١) روى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون يوم القيامه حفاة عراة غرلا » الحديث. البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٩/٥٦ ، ٥٦ م) .

والقول الآخر قول قطرب : أن المعنى على حذف المضاف ، أى فسق عن ترك أمره . ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس فى الكفر والمعاصى وخالف أمر الله فقال : **﴿أفتتخذونه وذريته أولياء ﴾** كأنه قال : أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذريته أى أولاده ، وقيل : أتباعه مجازا . **﴿ أولياء من دونى ﴾** فتطيعونهم بدل طاعتى وتستبدلونهم بى ، والحال أنهم ، أى إبليس وذريته **﴿ لكم عدو ﴾** أى أعداء . وأفرده لكونه اسم جنس ، أو لتشبيهه بالمصادر كما فى قوله : ﴿ فإنهم عدو لى ﴾ [الشعراء : ٧٧] ، وقوله : ﴿ هم العدو ﴾ [المنافقون :٤] أى كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم ؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط ؛ بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل وقت**﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾** أى الواضعين للشىء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان ، فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلا عن الله سبحانه .

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ قال أكثر المفسرين : إن الضمير للشركاء ، والمعنى : أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسهم لكانوا شاهدين خلق ذلك مشاركين لى فيه ، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء . وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم . وقيل : الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد : أنهم ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم بدليل أنى **﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾** : ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق ، وقيل : المعنى : أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل ، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور ، وقرأ أبو جعفر : «ماأشهدناهم» وقرأ الباقون :**﴿ ما أشهدتهم ﴾** ويؤيده **﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾** والعضد يستعمل كثيرا فى معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد ، ومنه قوله: ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ [القصص :٣٥] أى سنعينك ونقويك به ، ويقال : أعضدت بفلان : إذا استعنت به ، وذكر العضد على جهة المثل ، وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ ، والمعنى : ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وماكنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا ، ووحد العضد لموافقة الفواصل . وقرأ أبو جعفر الجحدرى : « وما كنت» بفتح التاء على أن الخطاب للنبى ﷺ أى وما كنت يا محمد متخذا لهم عضدا ولا صح لك ذلك ، وقرأ الباقون بضم التاء ، وفى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين وضم الضاد ، وبها قرأ الجمهور . وقرأ الحسن : « عضد » بضم العين والضاد ، وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما ، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد .

ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال : **﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين**

زعمتم ﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر : « نقول » بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، أى اذكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيخا لهم وتقريعا : نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم ، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جريا على ما يعتقده المشركون ، تعالى الله عن ذلك ﴿ **فدعوهم** ﴾ أى فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿**فلم يستجيبوا لهم** ﴾ إذ ذاك ، أى لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم ، فضلا عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿ **وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ أى جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقا ، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق فرق الله به تعالى بينهم ، وعلى هذا فهو اسم مكان . قال ابن الأعرابى : كل حاجز بين شيئين فهو موبق . وقال الفراء : الموبق: المهلك . والمعنى : جعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة . يقال : وبق يوبق فهو وبق ، هكذا ذكره الفراء فى المصادر . وحكى الكسائى : وبق يبق وبوقا فهو وابق، والمراد بالمهلك على هذا هو : عذاب النار يشتركون فيه . والأول أولى ؛ لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء الله : الملائكة وعزير والمسيح ، فالموبق: هو المكان الحائل بينهم. وقال أبو عبيدة: الموبق هنا : الموعد للهلاك، وقد ثبت فى اللغة : أوبقه بمعنى أهلكه ، ومنه قول زهير :

ومن يشترى حسن الثناء بماله ..... يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول .

﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾ : ﴿ **المجرمون** ﴾ موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ، والظن هنا بمعنى اليقين. والمواقعة: المخالطة بالوقوع فيها . وقيل : إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظنا ﴿ **ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾ أى معدلا يعدلون إليه ، أو انصرافا ، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب . قال الواحدى : المصرف : الموضع الذى ينصرف إليه . وقال القتيبى : أى معدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجؤون إليه . والمعنى متقارب فى الجميع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ قال : ليس عليها بناء ولا شجر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يغادر صغيرة ولا كبيرة** ﴾ قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك . وزاد ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عنه قال: الصغيرة : التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة : القهقهة بذلك . وأقول : صغيرة وكبيرة نكرتان فى سياق النفى ، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر ، وكل ذنب يتصف بالكبر ، فلا يبقى من الذنوب شىء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا ، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس

قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ، فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطانا رجيما (١) . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **كان من الجن** ﴾ قال : كان خازن الجنان ، فسمى بالجان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : قاتل الله أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة طرفة عين ، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض** ﴾ قال: يقول ماأشهدت الشياطين الذين اتخذتم معى هذا ﴿ **وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ قال: الشياطين عضدا ، قال : ولا اتخذتهم عضدا على شيء عضدونى عليه فأعانونى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ يقول : مهلكا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج أبو عبيد وهناد وابن المنذر عنه قال : واد فى جهنم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن أنس فى الآية قال: واد فى جهنم من قيح ودم . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمرو قال : هو واد عميق فى النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة : وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾ قال : علموا .

﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ١٥/ ١٧٠ والبيهقى فى الشعب (١٤٢) وقال : البيهقى رحمه الله : « فهذا إن ثبت دل على مفارقة هذه القبيلة غيرهم من الملائكة فى التسمية » . وإسناده حسن . وإبراهيم بن الحارث بن إسماعيل ثقة روى عنه البخارى ، ومترجم له فى سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٣ .

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال : ﴿ **ولقد صرفنا** ﴾ أى كررنا ورددنا ﴿ **فى هذا القرآن للناس** ﴾ أى لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿ **من كل مثل** ﴾ من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السورة ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة بنى إسرائيل ، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل ، ختم الآية بقوله : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلا** ﴾ قال الزجاج : المراد بالإنسان : الكافر ، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى : ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل** ﴾ وقيل : المراد به فى الآية : النضر ابن الحرث، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدال جدلا ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث على ، أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة ليلا ، فقال: « ألا تصليان ؟ » فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلا** ﴾ (١) . وانتصاب ﴿ **جدلا** ﴾ على التمييز .

﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين** ﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل ، وذكرنا أن « أن » الأولى فى محل نصب ، والثانية فى محل رفع . والهدى : القرآن ومحمد ﷺ ، والناس هنا هم : أهل مكة ، والمعنى على حذف مضاف : أى ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين ، أو انتظار إتيان سنة الأولين ، وزاد الاستغفار فى هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التى من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال الزجاج: سنتهم هو قولهم : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية: [الأنفال : ٣٢] ﴿ **أو يأتيهم العذاب** ﴾ أى عذاب الآخرة ﴿ **قبلا** ﴾ قال الفراء : إن قبلا جمع قبيل ، أى متفرقا يتلو بعضه بعضا . وقيل : عيانا . وقيل : فجأة . ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبى جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب وخلف ﴿ **قبلا** ﴾ بضمتين فإنه جمع قبيل ، نحو سبيل وسبل ، والمراد : أصناف العذاب ؛ ويناسب التفسير الثانى ، أى عيانا ، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء أى مقابلة ومعاينة . وقرئ بفتحتين على معنى : أو يأتيهم العذاب مستقبلا ، وانتصابه على الحال . فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم ، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته .

﴿ **وما نرسل المرسلين** ﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿ **إلا** ﴾ حال كونهم ﴿ **مبشرين** ﴾ للمؤمنين ﴿ **ومنذرين** ﴾ للكافرين، فالاستثناء مفرغ من أعم العام ، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ **ويجادل**

---

(١) البخارى فى التهجد (١١٢٧) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٥/٢٠٦) والنسائى فى التفسير (٣٢٥) .

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أى ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوه وأصل الدحض : الزلق . يقال : دحضت رجله ، أى زلقت تدحض دحضا ، ودحضت الشمس عن كبد السماء : زالت ، ودحضت حجته دحوضا : بطلت ، ومن ذلك قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاد فهبته ... وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل: ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [الشعراء : ١٥٤] ونحو ذلك : ﴿ **واتخذوا آياتى** ﴾ أى القرآن ﴿ **وما أنذروا** ﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿**هزوا**﴾ أى لعبا وباطلا، وقد تقدم هذا فى البقرة .

﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها** ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكر ﴿ **ونسى ما قدمت يداه** ﴾ من الكفر والمعاصى ، فلم يتب عنها . قيل: والنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : هو على حقيقته ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ أى أغطية . والأكنة : جمع كنان ، والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿ **وفى آذانهم وقرا** ﴾ أى وجعلنا فى آذانهم ثقلا يمنع من استماعه ، وقد تقدم تفسير هذا فى الأنعام ﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا** ﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة** ﴾ أى كثير المغفرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال : ﴿ **لو يؤاخذهم بما كسبوا** ﴾ أى بسبب ما كسبوه من المعاصى التى من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿ **لعجل لهم العذاب** ﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿ **بل** ﴾ جعل ﴿ **لهم موعد** ﴾ أى أجل مقدر لعذابهم . قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : يوم بدر ﴿ **لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ أى ملجأ يلجؤون إليه . وقال أبو عبيدة : منجا . وقيل : محيصا، ومنه قول الشاعر :

لا وا ألت نفسك خليتها ... للعامريين ولم تكلم

وقال الأعشى :

وقد أخالس رب البيت غفلته ... وقد يحاذر منى ثم ما يئل

أى ما ينجو . ﴿ **وتلك القرى** ﴾ أى قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿ **أهلكناهم** ﴾ هذا خبر اسم الإشارة و﴿ **القرى** ﴾ صفته ، والكلام على حذف مضاف ، أى أهل القرى أهلكناهم ﴿ **لما ظلموا** ﴾ أى وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصى ﴿ **وجعلنا لمهلكهم موعدا** ﴾ أى وقتا معينا، وقرأ أبو بكر عن عاصم مهلكهم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر هلك ، وأجاز الكسائى والفراء كسر اللام وفتح الميم ، وبذلك قرأ حفص ، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام . وقال الزجاج مهلك : اسم للزمان ، والتقدير : لوقت مهلكهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا أن تأتيهم سنة الأولين** ﴾ قال : عقوبة الأولين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله : ﴿ **قبلا** ﴾ قال : جهارا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : فجأة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ونسى ما قدمت يداه** ﴾ قال : نسى ما سلف من الذنوب الكثيرة . وأخرج أيضا عن ابن عباس :﴿ **بما كسبوا** ﴾ يقول :بما عملوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ **بل لهم موعد** ﴾ قال: الموعد يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **موئلا** ﴾ قال : ملجأ : وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **موئلا** ﴾ قال : محرزا .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾.

الظرف فى قوله : ﴿ **وإذ قال** ﴾ متعلق بفعل محذوف هو اذكر . قيل : ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة ، أن اليهود لما سألوا النبى ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا : إن أخبركم فهو نبى وإلا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبى لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار . وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى ابن عمران النبى المرسل إلى فرعون ، وقالت فرقة لا التفات إلى ما تقوله منهم نوف البكالى : إنه ليس ابن عمران ، وإنما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب ، وكان نبيا قبل موسى ابن عمران ، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما فى صحيح البخارى وغيره ، والمراد بفتاه هنا : هو يوشع بن نون . قال الواحدى : أجمعوا على أنه يوشع ابن نون ، وقد مضى ذكره فى المائدة ، وفى آخر سورة يوسف ، ومن قال : إن موسى هو ابن ميشى قال : إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون . قال الفراء : وإنما سمى فتى موسى لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه ، ومعنى ﴿ **لا أبرح** ﴾ لا أزال ، ومنه قوله : ﴿ لن

نبرح عليه عاكفين ﴾ [طه : ٩١] ومنه قول الشاعر (١) :

وأبرح ما أدام الله قومى بحمد الله منتطقا مجيدا

وبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة ، وخبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده وهو ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال الزجاج : لا أبرح بمعنى : لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله: ﴿ حتى أبلغ ﴾ غاية مضروبة ، فلابد لها من ذى غاية ، فالمعنى : لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد : لا يبرح مسيرى حتى أبلغ وقيل : معنى ﴿ لا أبرح ﴾ : لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين . وقيل : يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى زال يزال ، ومجمع البحرين: ملتقاهما . قيل : المراد بالبحرين: بحر فارس والروم . وقيل : بحر الأردن وبحر القلزم. وقيل : مجمع البحرين عند طنجة . وقيل : بإفريقية . وقالت طائفة : المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان ، وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح .﴿ أو أمضى حقبا ﴾ أى أسير زمانا طويلا . قال الجوهرى : الحقب بالضم : ثمانون سنة . وقال النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة : زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطا وقوما منهم غير محدود ، وجمعه أحقاب . وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ، فأوحى الله إليه : إن أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين .

﴿ فلما بلغا ﴾ أى موسى وفتاه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أى بين البحرين ، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعا. وقيل : البين: بمعنى الافتراق ، أى البحران المفترقان يجتمعان هناك . وقيل : الضمير لموسى والخضر أى وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما ، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل ، لأنه من الأضداد ، والأول أولى . ﴿ نسيا حوتهما ﴾ قال المفسرون: إنهما تزودا حوتا مملحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب . والمعنى : أنهما نسيا بفقد أمره . وقيل : الذى نسى إنما هو فتى موسى ، لأنه وكل أمر الحوت إليه ، وأمره أن يخبره إذا فقده ، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فأحياه الله ، فتحرك واضطرب فى المكتل ، ثم انسرب فى البحر ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ انتصاب ﴿ سربا ﴾ على أنه المفعول الثانى لـ ﴿ اتخذ ﴾ أى اتخذ سبيلا سربا . والسرب : النفق الذى يكون فى الأرض للضب ونحوه من الحيوانات ، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوة المحفورة فى الأرض . قال الفراء : لما وقع فى الماء جمد مذهبه فى البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا ،

(١) الشاعر : هو خداش بن زهير ، وكان يثنى فيه على قومه .

فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر ، ولهذا قال سبحانه :﴿ **فلما جاوزا** ﴾ أى : مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة ﴿ **قال لفتاه آتنا غداءنا** ﴾ وهو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذى حملاه معهما ﴿ **لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ أى تعبا وإعياء ، قال المفسرون : الإشارة بقوله: ﴿ **سفرنا هذا** ﴾ إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور ، فإنهما لم يجدا النصب إلا فى ذلك دون ما قبله .

﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة** ﴾ أى قال فتى موسى لموسى ، ومعنى الاستفهام : تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى ، لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة الله الباهرة ، ومفعول ﴿ **أرأيت** ﴾ محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه ، والتقدير : أرأيت ما دهانى ، أو نابنى فى ذلك الوقت والمكان . وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد ، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان ، لاحتمال أن يكون المجمع مكانا متسعا يتناول مكان الصخرة وغيره ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما، وأمارة لوجدان مطلوبهما . ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان فقال : ﴿ **وما أنسانيه إلا الشيطان** ﴾ بما يقع منه من الوسوسة ، و﴿ **أن أذكره** ﴾ بدل اشتمال من الضمير فى ﴿ **أنسانيه** ﴾ وفى مصحف عبد الله : وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان . ﴿ **واتخذ سبيله فى البحر عجبا** ﴾ انتصاب ﴿ **عجبا** ﴾ على أنه المفعول الثانى كما مر فى ﴿ **سربا** ﴾ والظرف فى محل نصب على الحال ، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس ، وموضع التعجب : أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت ، فيكون ما بين الكلامين اعتراضا .

﴿ **قال ذلك ما كنا نبغ** ﴾ أى قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع هو الذى كنا نطلبه ، فإن الرجل الذى نريده هو هنالك ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ أى رجعا على الطريق التى جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما ،وانتصاب ﴿ **قصصا**﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أو على الحال ، أى قاصين أو مقتصين ، والقصص فى اللغة اتباع الأثر . ﴿ **فوجدا عبدا من عبادنا** ﴾ هو الخضر فى قول جمهور المفسرين ، وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف فى ذلك من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس هو الخضر بل عالم آخر . قيل : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . قيل : واسمه بليا بن ملكان ، ثم وصفه الله سبحانه فقال : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ قيل: الرحمة هى النبوة . وقيل : النعمة التى أنعم الله بها عليه ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم

الغيب الذى استأثر به ، وفى قوله : ﴿ **من لدنا** ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم ، وتعظيم له . قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم ، والرحلة فى ذلك ما يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه .

ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال : ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** ﴾ فى هذا السؤال ملاطفة ومبالغة فى حسن الأدب ، لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم . والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لـ﴿ **تعلمنى** ﴾ أى علما ذا رشد أرشد به ، وقرئ : « رشدا » بفتحتين ، وهما لغتان كالبخل والبخل . وفى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب . وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن .

﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ أى قال الخضر لموسى : إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى، لأن الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك . ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة ، فقال : ﴿ **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** ﴾ أى : كيف تصبر على علم ظاهره منكر ، وأنت لا تعلم ، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه ، و﴿ **خبرا** ﴾ منتصب على التمييز ، أى لم تحط به خبرك: والخبر العلم بالشىء ، والخبير بالأمور هو : العالم بخفاياها ، وبما يحتاج إلى الاختبار منها .

﴿ **قال ستجدنى إن شاء الله صابرا** ﴾ أى قال موسى للخضر : ستجدنى صابرا معك ، ملتزما طاعتك ﴿**ولا أعصى لك أمرا** ﴾ فجملة : ﴿ **ولا أعصى** ﴾ معطوفة على ﴿ **صابرا** ﴾ ، فيكون التقييد بقوله : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ شاملا للصبر ونفى المعصية . وقيل : إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ، لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه ، ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ، ونفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوم عليه فى الحال ، وفى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل . ﴿ **قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء** ﴾ مما تشاهده من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك الله به ﴿**حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ أى حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره ، وبيان وجهه وما يؤول إليه، وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

وقد أخرج الدارقطنى فى الأفراد ، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك

عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء» (١). وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن مجاهد إنما سمى الخضر لأنه إذا صلى اخضر ما حوله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ قال : حتى أنتهى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **مجمع البحرين** ﴾ . قال : بحر فارس والروم ، وهما نحو المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال : ﴿ **مجمع البحرين** ﴾ إفريقية . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : طنجة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أو أمضى حقبا** ﴾ قال : سبعين خريفا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : دهرا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **نسيا حوتهما** ﴾ قال : كان مملوحا مشقوق البطن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سربا** ﴾ قال : أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ قال : عودهما على بدئهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ قال : أعطيناه الهدى والنبوة .

واعلم أنها قد رويت فى قصة الخضر مع موسى المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، وأتمها وأكملها ما روى عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه ، وبعضها فى الصحيحين وغيرهما ، وبعضها فى أحدهما ، وبعضها خارج عنهما . وقد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ، ومن طريق هارون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب وابن عساكر ، فلنقتصر على الرواية التى هى أتم الروايات الثابتة فى الصحيحين ، ففى ذلك ما يغنى عن غيره، وهى : قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل: أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب ، فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل . ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٠٢) والترمذى فى التفسير (٣١٥١) وقال : « حسن صحيح » .

الماء، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به، فقال له فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا** ﴾ قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ﴿ **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش ، قال : وكان الحوت قد أكل منه ، فلما قطر عليه الماء عاش ، قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ،فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ؟ قال: أنا موسى قال: موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال : ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ يا موسى ، إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه ؛ قال موسى : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا** ﴾ فقال له الخضر : ﴿ **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (١) ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ **لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ ؟ قال : ﴿ **ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾. قال : وقال رسول الله ﷺ :« فكانت الأولى من موسى نسيانا » . قال :« وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى: ﴿ **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى﴿ **قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه** ﴾ قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى : قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » (٢) قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس

---

(١) النول : الجعل والأجر .

(٢) البخارى فى العلم (٧٤ ، ٧٨ ، ١٢٢) وفى الإجارة (٢٢٦٧) وفى الشروط (٢٧٢٨) وفى بدء الخلق (٣٢٧٨) وفى الأنبياء: (٣٤٠٠ ، ٣٤٠١) وفى التفسير (٤٧٢٥ــ ٤٧٢٧) وفى الأيمان والنذور (٦٦٧٢) وفى التوحيد (٧٤٧٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٨٠/ ١٧٠ ــ ١٧٢ ، ١٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٤٩) وقال : «حسن صحيح » . والنسائى فى التفسير (٣٢٧ ــ ٣٢٩) .

يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وكان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب هى موافقة لهذه الرواية فـى المعنى وإن تفاوتت الألفاظ فى بعضها فلا فائدة فى الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾.

قوله : ﴿ **فانطلقا** ﴾ أى موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم ﴿ **حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها** ﴾ قيل : قلع لوحا من ألواحها . وقيل : لوحين مما يلى الماء . وقيل : خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ أى لقد أتيت أمرا عظيما . يقال : أمر الأمر إذا كبر ، والإمر الاسم منه . وقال أبو عبيدة : الإمر: الداهية العظيمة ، وأنشد :

قد لقى الأقران منى نكرا   داهية دهياء وأمرا إمرا

وقال القتيبى : الأمر العجب . وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد ، والاسم الإمر . قرأ حمزة والكسائى «ليغرق أهلها » بالياء التحتية المفتوحة ، ورفع « أهلها » على أنه فاعل . وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب ﴿ **أهلها** ﴾ على المفعولية ﴿ **قال** ﴾ أى الخضر ﴿ **ألم أقل**

إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ أذكره ما تقدم من قوله له سابقا : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ [الكهف: ٦٧] فقال له موسى: ﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت** ﴾ يحتمل أن تكون « ما » مصدرية ، أى لا تؤاخذنى بنسيانى ، أو موصولة أى لا تؤاخذنى بالذى نسيته ، وهو قول الخضر : ﴿ **فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسى ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ، ولكنه ترك العمل به ﴿ **ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾ قال أبو زيد: أرهقته عسرا إذا كلفته ذلك : والمعنى : عاملنى باليسر لا بالعسر . وقرئ : « عسرا » بضمتين .

﴿ **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله** ﴾ أى الخضر ، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير . قيل : كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتلع الخضر رأسه ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿**أقتلت نفسا زكية بغير نفس** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأويس بألف بعد الزاى وتخفيف الياء اسم فاعل . وقرأ الباقون بتشديد الياء من دون ألف ، الزاكية : البريئة من الذنوب . قال أبو عمرو : الزاكية : التى لم تذنب ، والزكية : التى أذنبت ثم تابت . وقال الكسائى : الزاكية والزكية لغتان . وقال الفراء : الزاكية والزكية مثل : القاسية والقسية ، ومعنى ﴿ **بغير نفس** ﴾ : بغير قتل نفس محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصا ﴿ **لقد جئت شيئا نكرا** ﴾ أى فظيعا منكرا لا يعرف فى الشرع . قيل : معناه : أنكر من الأمر الأول لكون القتل لا يمكن تداركه ، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه . وقيل : النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة . قيل : استبعد موسى أن يقتل نفسا بغير نفس ، ولم يتأول للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخرى ﴿ **قال** ﴾ الخضر ﴿ **ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ زاد هنا لفظ « لك » ، لأن سبب العتاب أكثر ، وموجبه أقوى. وقيل : زاد لفظ « لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعنى ﴿**قال** ﴾ موسى ﴿ **إن سألتك عن شيء بعدها** ﴾ أى بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿**فلا تصاحبنى** ﴾ أى لا تجعلنى صاحبا لك، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ، ولذا قال : ﴿ **قد بلغت من لدنى عذرا** ﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات ، وهذا كلام نادم شديد الندامة ، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف . قرأ الأعرج : « تصحبنى » بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرأ الجمهور : ﴿ **تصاحبنى** ﴾ وقرأ يعقوب : « تصحبنى » بضم التاء وكسر الحاء ، ورواها سهل عن أبى عمرو . قال الكسائى : معناه : لا تتركنى أصحبك . وقرأ الجمهور :﴿ **لدنى** ﴾ بضم الدال إلا أن نافعا وعاصما خففا النون ، وشددها الباقون . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « لدنى » بضم اللام وسكون الدال قال ابن مجاهد : وهى غلط . قال أبو على: هذا التغليط لعله من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فصحيحة . وقرأ الجمهور :﴿ **عذرا** ﴾ بسكون الذال . وقرأ عيسى بن عمر بضم الذال . وحكى الدانى أن أبيا روى عن النبى ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة

العذر إلى نفسه .

﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية** ﴾ قيل : هى أيلة . وقيل : أنطاكية . وقيل : برقة . وقيل : قرية من قرى أذربيجان. وقيل : قرية من قرى الروم ﴿ **استطعما أهلها** ﴾ هذه الجملة فى محل الجر على أنها صفة لـ ﴿ **قرية** ﴾ ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد ، أو لكراهة اجتماع الضميرين فى هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿ **فأبوا أن يضيفوهما** ﴾ أى أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية (١) فقد أخطأ خطأ بينا ، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما فى الرد منقصة على قد رد موسى قبل والخضر

وقد ثبت فى السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿ **فوجدا فيها** ﴾ أى فى القرية ﴿ **جدارا يريد أن ينقض** ﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز . قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ، ومنه قول الراعى :

فى مهمه فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

ومعنى الانقضاض : السقوط بسرعة ، يقال : انقض الحائط إذا وقع ، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شىء ، ومعنى ﴿ **فأقامه** ﴾ : فسواه ، لأنه وجده مائلا فرده كما كان . وقيل : نقضه وبناه . وقيل : أقامه بعمود ، وقد تقدم فى الحديث الصحيح أنه مسحه بيده ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرا** ﴾ أى على إقامته وإصلاحه ، تحريضا من موسى للخضر على أخذ الأجر. قال الفراء: معناه: لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر ، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير وابن محيصن واليزيدى والحسن « لتخذت » يقال : تخذ فلان يتخذ تخذا مثل : اتخذ . وقرأ الباقون ﴿ **لاتخذت** ﴾. ﴿ **قال** ﴾ الخضر ﴿ **هذا فراق بينى وبينك** ﴾ على إضافة ﴿ **فراق** ﴾ إلى الظرف اتساعا ، أى هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا . قال الزجاج : المعنى : هذا فراق بيننا ، أى هذا فراق اتصالنا ، وكرر « بين » تأكيدا ، ولما قال الخضر لموسى بهذا، أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الأفعال التى أنكرها موسى فقال: ﴿ **سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا** ﴾ والتأويل : رجوع الشىء إلى مآله .

ثم شرع فى البيان له فقال : ﴿ **أما السفينة** ﴾ يعنى : التى خرقها ﴿ **فكانت لمساكين** ﴾ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم ﴿ **يعملون فى البحر** ﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك

---

(١) الكدية : تكفف الناس وسؤالهم .

السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة ، وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿ **وكان وراءهم ملك** ﴾ قال المفسرون : يعنى : أمامهم ، ووراء يكون بمعنى : أمام، وقد مر الكلام على هذا فى قوله: ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ [إبراهيم: ١٧] وقيل : أراد خلفهم ، وكان طريقهم فى الرجوع عليه ، وما كان عندهم خبر بأنه ﴿ **يأخذ كل سفينة غصبا** ﴾ أى كل سفينة صالحة لا معيبة ، وقد قرئ بزيادة « صالحة » ، روى ذلك عن أبى وابن عباس . وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين ، واختلف فى معناها ، فقيل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك السفينة ، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿ **وأما الغلام** ﴾ يعنى : الذى قتله ﴿ **فكان أبواه مؤمنين** ﴾ أى ولم يكن هو كذلك ﴿**فخشينا أن يرهقهما** ﴾ أى يرهق الغلام أبويه ، يقال : رهقه أى غشيه ، وأرهقه أغشاه . قال المفسرون : معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه ، وهو الكفر ، و﴿ **طغيانا** ﴾ مفعول ﴿ **يرهقهما** ﴾ ﴿ **وكفرا** ﴾ معطوف عليه . وقيل : المعنى : فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه . قيل : ويجوز أن يكون ﴿ **فخشينا** ﴾ من كلام الله ، ويكون المعنى : كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره ، وهذا ضعيف جدا ، فالكلام كلام الخضر . وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة ، فقيل : إنه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره . وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ، ويكون معنى ﴿ **فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا** ﴾ : أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا فى المعصية ، وقد يؤدى ذلك إلى الكفر والارتداد . والحاصل أنه لا إشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا أو قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك ، وأما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ ، فقيل : إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما ، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه ، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل فى الشريعة المحمدية ، ولكنه حل فى شريعة أخرى ، فلا إشكال . وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبيا ﴿ **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال . وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال ، والمعنى : أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدا خيرا منه ﴿ **زكاة** ﴾ أى دينا وصلاحا وطهارة من الذنوب ﴿ **وأقرب رحما** ﴾ قرأ ابن عباس وحمزة والكسائى وابن كثير وابن عامر : « رحما » بضم الحاء . وقرأ الباقون بسكونها ، ومعنى الرحم : الرحمة ، يقال : رحمه الله رحمة ورحمى ، والألف للتأنيث .

﴿ **وأما الجدار** ﴾ يعنى : الذى أصلحه ﴿ **فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** ﴾ هى القرية

المذكورة سابقا ، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قيل : كان مالا جسيما كما يفيده اسم الكنز ، إذ هو المال المجموع . قال الزجاج : المعروف فى اللغة أن الكنز إذا أفرد : فمعناه : المال المدفون ، فإذا لم يكن مالا قيل : كنز علم وكنز فهم . وقيل : لوح من ذهب . وقيل : صحف مكتوبة ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه وحفظ مالهما . قيل: هو الذى دفنه. وقيل: هو الأب السابع من عند الدافن له . وقيل : العاشر ﴿ **فأراد ربك** ﴾ أى مالك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له﴿ **أن يبلغا أشدهما** ﴾ أى كمالهما وتمام نموهما ﴿ **ويستخرجا كنزهما** ﴾ من ذلك الموضع الذى عليه الجدار ، ولو انقض لخرج الكنز من تحته﴿ **رحمة من ربك** ﴾ لهما، وهو مصدر فى موضع الحال ، أى مرحومين من الله سبحانه ﴿ **وما فعلته عن أمرى** ﴾ أى عن اجتهادى ورأيى ، وهو تأكيد لما قبله ، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿ **ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا** ﴾ أى ذلك المذكور من تلك البيانات التى بينتها لك وأوضحت وجوهها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ، ومعنى التأويل هنا : هو المآل الذى آلت إليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من ﴿ **تسطع** ﴾ تخفيفا.

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله :﴿ **لقد جئت شيئا إمرا** ﴾يقول : نكرا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:﴿ **إمرا** ﴾ فـقال : عجبا . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب فى قوله :﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت** ﴾ قال : لم ينس ، ولكنها من معاريض الكلام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان الخضر عبدا لا تراه الأعين ، إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام . وأقول : ينبغى أن ينظر من أين له هذا ؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله : ولو رآه القوم إلخ ، فليس ذلك بموجب لما ذكره ، أما أولا : فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام ، لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم . وأما ثانيا : فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء ، فسلموا لأمر الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **نفسا زكية** ﴾ قال : مسلمة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : لم تبلغ الخطايا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **شيئا نكرا** ﴾ قال : النكر أنكر من العجب . وأخرج أحمد عن عطاء قال : كتب نجدة الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم . وزاد ابن أبى شيبة من طريق أخرى عنه : ولكنك لا تعلم ،

قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ، ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا » [(١)] . وأخرج أبو داود والترمذى وعبد الله بن أحمد والبزار وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ من لدنى عذرا ﴾ مثقلة[(٢)] .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ أن يضيفوهما ﴾ مشددة . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فهدمه ، ثم قعد يبنيه » . قلت : ورواية الصحيحين التى قدمناها أنه مسحه بيده أولى . وأخرج الفريابى فى معجمه، وابن حبان ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : « لو شئت لتخذت عليه أجرا » مخففة [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن أبى ابن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر لقص الله علينا من خبره ، ولكن قال :﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى﴾ » [(٤)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقرأ : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» [(٥)] . وأخرج ابن الأنبارى عن أبى بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبى الزاهرية قال: كتب عثمان : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال: هى فى مصحف عبد الله: « فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ خيرا منه زكاة ﴾ قال : دينا ﴿وأقرب رحما ﴾ قال : مودة ، فأبدلا جارية ولدت نبيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا، فلا يعجبن الرجل ، فيقول : فما شأن الكنز ،

---

(١) مسلم فى القدر (٢٦٦١/ ٢٩) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) أبو داود فى القرآن والحروف (٣٩٨٥) والترمذى فى القراءات (٢٩٣٣) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٥٤٣) .

(٣) صححه الحاكم ٢/٢٤٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبة (٩٢٧٥) وأبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٤) والترمذى فى الدعاء (٣٣٨٥) وقال : « حسن غريب صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٣٠) وصححه الحاكم ٢/ ٥٧٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ١٦ / ٢٢ وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبى : « قلت : فيه هارون بن حاتم : واه » .

أحل لمن قبلنا وحرم علينا ؟ فإن الله يحل من أمره ما يشاء ويحرم ما يشاء ، وهى السنن والفرائض ، يحل لأمة ويحرم على أخرى . وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : « ذهب وفضة» [(١)] . وأخرج الطبرانى عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز . وأخرج البزار وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى ذر رفعه قال : إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد فى الزهد ، والحميدى فى مسنده وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ قال : حفظا بصلاح أبيهما . وأخرج ابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح، ولده، وولد ولده، وأهل دويرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون فى حفظ الله تعالى ما دام فيهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده ، وولد ولده ، ويحفظه فى دويرته ، والدويرات حوله ، فما يزالون فى ستر من الله وعافية . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال : قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال ابن عباس : قال فيما يذكر من حديث الفتى إنه شرب من الماء فخلد ، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر ، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، الحسن متروك وأبوه غير معروف [(٢)] .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

---

(١) البخارى فى تاريخه (٣٣٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٥٢) وقال : « حديث غريب » . وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٩ وقال الذهبى : «قلت بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز » . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٧ بعد أن أورد الرواية الموقوفة : « وقد روى الترمذى حديثا غير هذا . رواه الطبرانى وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٢) ابن كثير ٤/ ٤١٧ .

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ .

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود ، وانتهى الكلام إلى حيث انتهى ، شرع سبحانه فى السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود .

واختلفوا فى ذى القرنين اختلافا كثيرا فقيل : هو الإسكندر بن فيلقوس الذى ملك الدنيا بأسرها اليونانى بانى الإسكندرية . وقال ابن إسحاق : هو رجل من أهل مصر ، اسمه مرزبان ابن مرزبة اليونانى ، من ولد يونان بن يافث بن نوح . وقيل : هو ملك اسمه هرمس . وقيل: ملك اسمه هردبس . وقيل : شاب من الروم . وقيل : كان نبيا . وقيل : كان عبدا صالحا . وقيل : اسمه عبد الله بن الضحاك . وقيل : مصعب بن عبد الله ، من أولاد كهلان بن سبأ . وحكى القرطبى[1] عن السهيلى أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما : كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، والآخر : كان قريبا من عيسى عليه السلام . وقيل : هو أبو كرب الحميرى . وقيل : هو ملك من الملائكة ، ورجح الرازى القول الأول ، قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ ، قال : فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر ، قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذا لأرسطاطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل إليه . قال النيسابورى : قلت : ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر، والله أعلم .

ورجح ابن كثير [2] ما ذكره السهيلى أنهما اثنان كما قدمنا ذلك ، وبين أن الأول : طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر . وأما الثانى : فهو الإسكندر المقدونى اليونانى ، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة . فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقى وغيره ؛ ثم قال : وقد ذكرنا طرفا صالحا فى أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية. وحكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال:وإنما بينا هذا ، يعنى أنهما اثنان ، لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير ، كيف لا ، والأول : كان عبدا صالحا مؤمنا ، وملكا عادلا ، ووزيره الخضر ، وقد قيل : إنه كان نبيا . وأما الثانى : فقد كان كافرا ، ووزيره

(١) القرطبى ٦/ ٤٠٨٥ .
(٢) ابن كثير ٤/ ٤١٨ .

أرسطاطاليس الفيلسوف ، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذاك ؟ انتهى [١] . قلت : لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكرْه سابقا، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذى يستفاد من كتب التاريخ هو : أنهما اثنان ، كما ذكره السهيلى والأزرقى وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازى وادعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ ، وقد وقع الخلاف هل هو نبى أم لا ؟ وسيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله .

وأما السبب الذى لأجله سمى ذا القرنين ، فقال الزجاج والأزهرى:إنما سمى ذا القرنين ، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها . وقيل : إنه كان له ضفيرتان من شعر ، والضفائر تسمى قرونا ، ومنه قول الشاعر [٢] :

فلثمت فاها آخذا بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

والحشرج : ماء من مياه العرب . وقيل : إنه رأى فى أول ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس فسمى بذلك . وقيل : كان له قرنان تحت عمامته . وقيل : إنه دعا إلى الله فشجه قومه على قرنه ، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل : لأنه ملك الروم والترك . وقيل : لأنه كان لتاجه قرنان . قوله : ﴿ **قل سأتلوا عليكم منه ذكرا** ﴾ أى سأتلو عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا ، وذلك بطريق الوحى المتلو .

ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال : ﴿ **إنا مكنا له فى الأرض** ﴾ أى أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب ، فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها ، وسهل عليه المسير فى مواضعها ، وذلل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء فى الإضاءة ﴿ **وآتيناه من كل شىء** ﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿ **سببا** ﴾ أى طريقا يتوصل بها إلى ما يريده ﴿ **فأتبع سببا** ﴾ من تلك الأسباب . قال المفسرون : والمعنى : طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس . قال الزجاج : فأتبع سببا من الأسباب التى أوتى، وذلك أنه أوتى من كل شىء سببا فأتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب، وقيل: أتبع من كل شىء علما يتسبب به إلى ما يريد . وقيل : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شىء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شىء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب : الحبل ، فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شىء . قرأ ابن عامر وأهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائى :« وأتبع » بقطع الهمزة ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى،

(١) أبو السعود فى تفسيره ٣/ ٤٠٠ .

(٢) الشاعر : هو عمر بن أبى ربيعة .

مثل : ردغته وأردفته، ومنه قوله :﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : ١٠] قال النحاس: واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال : لأنها من السير. وحكى هو والأصمعى أنه يقال : تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه ، واتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: ومثله : ﴿ فأتبعوهم مشرقين﴾ [الشعراء : ٦٠] . قال النحاس : وهذا من الفرق وإن كان الأصمعى قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو دليل،وقوله عز وجل:﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ ليس فى الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه فى البحر انطبق عليهم البحر . والحق فى هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهو بمعنى : السير .

﴿ **حتى إذا بلغ مغرب الشمس** ﴾ أى نهاية الأرض من جهة المغرب ، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضى فيه ﴿ **وجدها تغرب فى عين حمئة** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى: « حامية » أى حارة . وقرأ الباقون :﴿ **حمئة** ﴾ أى كثيرة الحمأة ، وهى الطينة السوداء ، تقول : حمئت البئر حمأ بالتسكين: إذا نزعت حمأتها ، وحمأت البئر حمأتها بالتحريك : كثرت حمأتها ، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة ، فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة . قيل : ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك فى نظره ، ولا يبعد أن يقال : لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التى تغرب فيها الشمس، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له فى الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره ﴿ **ووجد عندها قوما** ﴾ الضمير فى عندها إما للعين أو للشمس . قيل : هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفارا ، فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم ، فقال : ﴿ **إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا** ﴾ أى إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن أو أمرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد : دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

﴿ **قال** ﴾ ذو القرنين مختارا للدعوة التى هى الشق الأخير من الترديد ﴿ **أما من ظلم** ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتى ﴿ **فسوف نعذبه** ﴾ بالقتل فى الدنيا ﴿ **ثم يرد إلى ربه** ﴾ فى الآخرة ﴿ **فيعذبه** ﴾ فيها ﴿ **عذابا نكرا** ﴾ أى منكرا فظيعا . قال الزجاج : خيره الله بين الأمرين . قال النحاس : ورد على بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عز وجل:﴿ **ثم يرد إلى ربه** ﴾ وكيف يقول ﴿ **فسوف نعذبه**﴾ فيخاطبه بالنون ، قال : والتقدير : قلنا : يا محمد ، قالوا : يا ذا القرنين . قال النحاس : وهذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته ، وكأن ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره . ويمكن أن يكون مخاطبا للنبى الذى خاطبه الله على لسانه ، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع . قال ثعلب : إن فى قوله : ﴿ **إما أن تعذب وإما أن تتخذ** ﴾ فى موضع نصب ، ولو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو كقول

الشاعر :

فسيروا فإما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق

﴿ وأما من آمن ﴾ بالله وصدق دعوتى ﴿ وعمل ﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسنى ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر: « فله جزاء » بالرفع على الابتداء ، أى جزاء الخصلة الحسنى عند الله، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة قاله الفراء. وإضافة الجزاء إلى الحسنى التى هى الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين ، أى أعطيه وأتفضل عليه ، وقرأ سائر الكوفيين :﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ بنصب ﴿جزاء﴾ وتنوينه . قال الفراء : انتصابه على التمييز . وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحال ، أى مجزيا بها جزاء ، وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب « جزاء » من غير تنوين . قال أبو حاتم : هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين . وقرئ برفع: « جزاء » منونا على أنه مبتدأ ، ﴿ الحسنى ﴾ بدل منه والخبر الجار والمجرور ﴿ وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ أى مما نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة .

﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا آخر غير الطريق الأولى وهى التى رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ أى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض ، مكان طلوع لعدم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ يسترهم ، لا من البيوت ولا من اللباس ، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شىء من العمارة . قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ أى كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به ، وقيل :المعنى :لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الأبنية والثياب . وقيل : المعنى : كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها . وقيل : المعنى : كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم ، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين ، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا فى الوجه الأول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : قالت اليهود للنبى ﷺ : يا محمد ، إنك إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، إنك سمعت ذكرهم منا ، فأخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة إلا فى مكان واحد، قال : « ومن هو ؟ » قالوا: ذو القرنين ، قال : « ما بلغنى عنه شىء » ، فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« ما أدرى

أتبع كان نبيا أم لا ؟ وما أدرى أذو القرنين كان نبيا أم لا ؟ وما أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا » [(١)] . وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبى الجعد قال : سئل على عن ذى القرنين أنبى هو ؟ قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « هو عبد ناصح الله فنصحه » . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن أبى عاصم في السنة ، وابن مردويه من طريق أبى الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل على بن أبى طالب عن ذى القرنين : أنبيا كان أم ملكا ؟ قال : لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم ، فلذلك سمى ذو القرنين ، وإن فيكم مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمرو قال : ذو القرنين نبى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأخرص بن حكيم عن أبيه ؛ أن النبى ﷺ سئل عن ذى القرنين فقال:« هو ملك مسح الأرض بالأسباب» . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن خالد بن معدان الكلاعى مرفوعا مثله . وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادى بمنى : يا ذا القرنين ، فقال عمر : ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ؟ وفى الباب غير ما ذكرناه مما يغنى عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل عن عقبة بن عامر الجهنى حديثا يتضمن أن نفرا من اليهود سألوا النبى ﷺ عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء ، وكان فيما أخبرهم به :« أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك فى السماء ، وذهب به إلى السد »[(٢)] . وإسناده ضعيف ، وفى متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير فى تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموى فى مغازيه ؛ ثم قال بعد ذلك : والعجب أن أبا زرعة الدارى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة ، انتهى . وقد ساقه بتمامه السيوطى فى الدر المنثور ، وساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم والشيرازى فى الألقاب وأبى الشيخ ، وفيه أشياء منكرة جدا [(٣)] ، وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا .

---

(١) صححه الحاكم ١ / ٣٦ على شرط الشيخين وقال : « ولا أعلم له علة » ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١٦ / ٧ والبيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٩٦ وابن كثير ٤ / ٤١٨ .

(٣) السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٢٤٢ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وآتيناه من كل شىء سببا** ﴾ قال : علما . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال ؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، قال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال : ﴿ **وآتيناه من كل شىء سببا** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن أبى حاصر . أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف « تغرب فى عين حامية » قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : ما نقرؤها إلا ﴿**حمئة**﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتها ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : فى بيتى نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب ، فقال له : أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ فقال له كعب : سل أهل العربية فإنهم أعلم بها ، وأما أنا فإنى أجد فى التوراة فى ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب . قال ابن أبى حاصر: لو أنى عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة . قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم واتباعه إياه :

قد كان ذو القرنين عمر مسلما ... ملكا تذل له الملوك وتحشد
فأتى المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خلب وثاط خرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت: الطين بكلامهم ، قال : فما الثاط ؟ قلت : الحمأة . قال : فما الخرمد ؟ قلت : الأسود ؛ فدعا ابن عباس غلاما فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل (١) . وأخرج الترمذى وأبو داود الطيالسى وابن جرير وابن المنذر عن أبى بن كعب ؛ أن النبى كان يقرأ :﴿ **فى عين حمئة** ﴾ (٢) . وأخرج الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله (٣) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ

---

(١) ابن جرير مختصرا ١٦ / ٩ ، ١٠ .

(٢) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٤) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والصحيح ما روى عن ابن عباس قراءته » وأبو داود الطيالسى (٥٣٦) وابن جرير ١٦/٩ .

(٣) الطبرانى (١٢٤٨٠) وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع ١٥٨/٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير عن شيخه الوليد بن العباس المصرى ، ضعفه الدارقطنى » .

نارًا قال آتوني أُفْرِغْ عليه قطرًا (٩٦) فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا (٩٧) قال هذا رحمةٌ من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكَّاء وكان وعد ربي حقًّا (٩٨) ﴾ .

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى ، وهى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه فقال : ﴿ **ثم أتبع سببا** ﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وابن محيصن ويحيى اليزيدى وأبو زيد عن المفضل بفتح السين. وقرأ الباقون بضمها. قال أبو عبيدة وابن الأنبارى وأبو عمرو بن العلاء : السد إن كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول ، أى هو مما فعله الله وخلقه ، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا . وقال ابن الأعرابى : كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سد وسد نحو الضعف والضعف ، الفقر والفقر ، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وانتصاب « بين » على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وقيل : موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان . وحكى ابن جرير فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا من ناحية الجزر فشاهده ، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع . و﴿ وجد من دونهما ﴾ أى من ورائهما مجازا عنهما . وقيل : أمامهما ﴿ **قوما لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « يفقهون » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان ، أى لا يبينون لغيرهم كلاما ، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف ، أى لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ، ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم .

﴿ **قالوا** ﴾ أى هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا . قيل : إن فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه الله . وقيل : إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ، فقال لذى القرنين بما قالوا له : ﴿ **ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض** ﴾ يأجوج ومأجوج : اسمان عجميان بدليل منع صرفهما ، وبه قال الأكثر . وقيل : مشتقان من أج الظليم فى مشيه : إذا هرول ، وتأججت النار : إذا تلهبت ، قرأهما الجمهور غير همز ، وقرأ عاصم بالهمز . قال ابن الأنبارى : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم : كبأت ورثأت واستشأت الريح . قال أبو على : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل : يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل : رأس . وأما مأجوج ، فهو مفعول من أج ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . قال : وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح . وقيل : يأجوج من الترك

ومأجوج من الجيل والديلم . وقال كعب الأحبار : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبى : وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، كذلك قال مقاتل وغيره .

وقد وقع الخلاف فى صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يقول : لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفا يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم وأفعالهم .

واختلف فى إفسادهم فى الأرض ، فقيل : هو أكل بنى آدم . وقيل : هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد . وقيل : كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذى القرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه .

﴿ **فهل نجعل لك خرجا** ﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين . وقرئ : « خراجا » . قال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفىء ، ويقع على الجزية وعلى الغلة . والخراج أيضا اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال ، والخرج : المصدر . وقال قطرب : الخرج : الجزية والخراج فى الأرض . وقيل : الخرج : ما يخرجه كل أحد من ماله ، والخراج : ما يجبيه السلطان . وقيل : هما بمعنى واحد ﴿ **على أن تجعل بيننا وبينهم سدا** ﴾ أى ردما حاجزا بيننا وبينهم . وقرئ : ﴿ **سدا** ﴾ بفتح السين . قال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد ، وقد سبق قريبا ما حكيناه عن أبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة وابن الأنبارى من الفرق بينهما . وقال ابن أبى إسحاق: ما رأته عيناك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهوسد بالفتح ، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم فى السدين .

﴿ **قال ما مكنى فيه ربى** ﴾ أى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله لى من القدرة والملك ﴿ **خير** ﴾ من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال : ﴿ **فأعينونى بقوة** ﴾ أى برجال منكم يعملون بأيديهم ، أو أعينونى بآلات البناء ، أو بمجموعهما . قال الزجاج : بعمل تعملونه معى . قرأ ابن كثير وحده : « ما مكننى » بنونين ، وقرأ الباقون بنون واحدة. ﴿ **أجعل بينكم وبينهم ردما** ﴾ هذا جواب الأمر ، والردم : ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل . قال الهروى : يقال : ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما أى سددتها ، والردم أيضا الاسم ، وهو السد . وقيل : الردم أبلغ من السد ، إذ السد كل ما يسد به ، والردم : وضع الشىء على الشىء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم

أى من قول يركب بعضه على بعض . ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ أى أعطونى وناولونى ، وزبر الحديد :جمع زبرة ، وهى القطعة . قال الخليل : الزبرة من الحديد : القطعة الضخمة . قال الفراء معنى : ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ ائتونى بها فلما ألقيت الياء زيدت ألفا ، وعلى هذا فانتصاب ﴿ زبر ﴾ بنزع الخافض ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ والصدفان : جانبا الجبل . قال الأزهرى : يقال لجانبى الجبل صدفان :إذا تحاذيا لتصادفهما ، أى تلاقيهما ، وكذا قال أبو عبيدة والهروى . قال الشاعر :

كلا الصدفين ينفده سناها   توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع :صدف ، قاله أبو عبيدة ، قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص: ﴿ الصدفين ﴾ بفتح الصاد والدال . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب واليزيدى وابن محيصن بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات ، ومعنى الآية : أنهم أعطوه زبر الحديد ، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿ قال انفخوا ﴾ أى قال للعملة : انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ حتى إذا جعله نارا﴾ أى جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر نارا ، أى كالنار فى حرها وإسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ . قيل : كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يتحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ قال آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ قال أهل اللغة : القطر : النحاس الذائب ، والإفراغ : الصب، وكذا قال أكثر المفسرين . وقالت طائفة: القطر : الحديد المذاب. وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنبارى : هو الرصاص المذاب .

﴿ فما اسطاعوا ﴾ أصله : استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف . قال ابن السكيت : يقال : ما أستطيع ، وما أسطيع ، وما أستيع . وبالتخفيف قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة وحده :« فما اسطاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء وهى قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو على الفارسى : هى غير جائزة . وقرأ الأعمش : «فما استطاعوا » على الأصل ، ومعنى ﴿ أن يظهروه ﴾ أن يعلوه أى فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ يقال : نقبت الحائط : إذا خرقت فيه خرقا فخلص إلى ما وراءه . قال الزجاج : ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته .

﴿ قال هذا رحمة من ربى ﴾ أى قال ذو القرنين مشيرا إلى السد: هذا السد رحمة من ربى، أى أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد. وقيل : الإشارة إلى التمكين من بنائه ﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾ أى أجل ربى أن يخرجوا منه . وقيل :هو مصدر بمعنى المفعول ، وهو يوم القيامة ﴿ جعله دكاء ﴾ أى مستويا

بالأرض ومنه قوله : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا ﴾ [الفجر : ٢١] . قال الترمذى : أى مستويا ، يقال : ناقة دكاء : إذا ذهب سنامها . وقال القتيبى : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الحليمى : قطعا متكسرا . قال الشاعر :

هل غير غار دك غارا فانهدم

قال الأزهرى : دككته ، أى دقته. ومن قرأ: ﴿ **دكاء** ﴾ بالمد وهو عاصم وحمزة والكسائى أراد التشبيه بالناقة الدكاء ، وهى التى لا سنام لها ، أى مثل دكاء ، لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء . وقرأ الباقون :« دكا » بالتنوين على أنه مصدر ، ومعناه ما تقدم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال، أى مدكوكا﴿ وكان وعد ربى حقا﴾ أى وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذى القرنين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ **قال** :الجبلين أرمينية وأذربيجان . وأخرج أيضا عن ابن جريج ﴿ **لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ قال : الترك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، وابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ومنسك » . وأخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا : « أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا » [(١)] وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا ، فيعودون إليه أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا إن شاء الله ، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من فى الأرض وعلونا من فى السماء قسرا وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أقفائهم فيهلكون » ، قال رسول الله ﷺ : « فوالذى نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٥٤) وإسناده ضعيف ؛لأن فى إسناده ابن عمرو بن أوس ولا يعرف حاله ولم يذكر فيه جرح ولا تعديل ، ولم يرو عنه غير النعمان بن سالم .

لتسمن وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم » (١) وقد ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول :«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق ، قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » (٢) .

وأخرجا نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعا (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهل نجعل لك خرجا** ﴾ قال : أجرا عظيما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ردما** ﴾ قال : هو كأشد الحجاب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **زبر الحديد** ﴾ قال : قطع الحديد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بين الصدفين** ﴾ . قال: الجبلين. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : رؤوس الجبلين . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قطرا** ﴾ قال : النحاس : وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ قال : أن يرتقوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أن يعلوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **جعله دكاء** ﴾ قال : لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) ﴾ .

---

(١) أحمد ٢/ ٥١٠ ، ٥١١ والترمذى فى التفسير (٣١٥٣) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٨٠) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » وابن حبان (٦٧٩٠) . ومعنى « نغفا » بفتح النون والغين المعجمة : هو ما يكون فى أنوف الإبل والغنم ، جمع نغفة .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٦) وفى المناقب (٣٥٩٨) وفى الفتن (٧٠٥٩ ، ٧١٣٥) ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠/١ ، ٢) .

(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٧) وفى الفتن (٧١٣٦) ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨١/٣) .

قوله : ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض** ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين ، والضمير فى ﴿ **بعضهم** ﴾ ليأجوج ومأجوج ، أى تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد ، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم ، يقال : ماج الناس : إذا دخل بعضهم فى بعض حيارى كموج الماء ، والمعنى : أنهم يضطربون ويختلطون . وقيل : الضمير فى ﴿ **بعضهم** ﴾ للخلق ، واليوم :يوم القيامة ، أى وجعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج فى بعض . وقيل : المعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج فى بعض ، وقد تقدم تفسير ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ فى الأنعام . قيل : هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد :﴿ **فجمعناهم جمعا** ﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ، ولم يذكر النفخة الأولى، لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة ، والمعنى : جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم ومصيرهم ترابا جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب .

﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا** ﴾ المراد بالعرض هنا : الإظهار ، أى أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ، ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله : ﴿ **الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى** ﴾ أى كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء ، وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب ﴿ **عن ذكرى** ﴾ عن سبب ذكرى ، وهو الآيات التى يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، فأطلق المسبب على السبب ، أو عن القرآن العظيم ، وتأمل معانيه وتدبر فوائده . ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال : ﴿ **وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾ أى لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صما ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية ، وفى ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية .

﴿ **أفحسب الذين كفروا** ﴾ الحسبان هنا بمعنى: الظن ، والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره . والمعنى : أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق ، ومعنى : ﴿ **أن يتخذوا عبادى من دونى** ﴾ أى يتخذوهم من دون الله ،وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿**أولياء**﴾ أى معبودين ، قال الزجاج: المعنى : أيحسبون أن ينفعهم ذلك ، وقرئ : « أفحسب » بسكون السين، ومعناه : أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر ، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿ **إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا** ﴾ أى هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل . وقيل : إنه الذى يعد للضيف ، فيكون تهكما

بهم كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : ٤] ، والمعنى : أن جهنم معدة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف .

﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ انتصاب ﴿ **أعمالا** ﴾ على التمييز ، والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها ، ومحل الموصول وهو ﴿ **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا** ﴾ الفعل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل: من هم ؟ فقيل : هم الذين ضل سعيهم ، والمراد بضلال السعى : بطلانه وضياعه ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذم ، ويكون الجواب : ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ ويجوز أن يكون فى محل جر على أنه نعت لـ﴿**الأخسرين**﴾ أو بدل منه ، ويكون الجواب أيضا هو أولئك وما بعده ، وأول هذه الوجوه هو أولاها ، وجملة : ﴿ **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **ضل** ﴾ ، أى والحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره ، وتكون جملة ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه ، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الآخرة ، فإنها هى الجواب كما قدمنا ، ومعنى كفرهم بآيات ربهم : كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ، ومعنى كفرهم بلقائه : كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخـرة ، ثم رتب على ذلك قوله : ﴿ **فحبطت أعمالهم** ﴾ أى التى عملوها مما يظنونه حسنا ، وهو خسران وضلال ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ أى لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم . وقيل : لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم ، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم . قال ابن الأعرابى : العرب تقول : ما لفلان عندنا وزن ، أى قدر لخسته ، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته ، وسرعة طيشه ، وقلة تثبته . والمعنى على هذا : أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ، وقرأ مجاهد : « يقيم » بالياء التحتية ، أى فلا يقيم الله ، وقرأ الباقون بالنون .

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤول إليه أمرهم فقال : ﴿ **ذلك** ﴾ أى : الذى ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم ، ويكون قوله :﴿ **جهنم** ﴾ عطف بيان للجزاء ، أو جملة ﴿**جزاؤهم جهنم** ﴾مبتدأ وخبر، والجملة خبر ﴿ **ذلك**﴾ ، والسبب فى ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزوا ، فالباء فى ﴿ **بما كفروا** ﴾ للسببية ، ومعنى كونهم هزوا : أنهم مهزوء بهم. وقد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا . فقيل : اليهود والنصارى. وقيل : كفار مكة . وقيل : الخوارج . وقيل : الرهبان أصحاب الصوامع . والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿ **كانت لهم** ﴾ قال ابن الأنبارى : كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿ **جنات الفردوس نزلا** ﴾ قال

المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب . واختار الزجاج ما قاله مجاهد : إن الفردوس : البستان باللغة الرومية ، وقد تقدم بيان النزل ، وانتصابه على أنه خبر كان . والمعنى : كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا معدا لهم مبالغة فى إكرامهم ، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، وكذلك جملة : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والحول : مصدر ، أى لا يطلبون تحولا عنها إذ هى أعز من أن يطلبوا غيرها ، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها . قال ابن الأعرابى وابن قتيبة والأزهرى : الحول اسم بمعنى : التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتركنا بعضهم** ﴾ الآية قال : الجن والإنس ﴿ **يموج** ﴾ بعضهم ﴿**فى بعض** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا يستطيعون سمعا** ﴾ قال : لا يعقلون سمعا . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن على أنه قرأ : « أفحسب الذين كفروا » قال أبو عبيد بجزم السين وضم الباء . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال : سألت أبى ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا**﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين (١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن مصعب قال : قلت لأبى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ الحرورية هم ؟ قال : لا ولكنهم أصحاب الصوامع . والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى حميصة عبد الله بن قيس قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : فى هذه الآية ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ : إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : سمعت على بن أبى طالب وسأله ابن الكوا فقال : ﴿ **هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ قال : فجرة قريش . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريقين عن على أنه سئل عن هذه الآية: ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ قال :

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٨) والنسائى فى التفسير (٣٣٣) وابن جرير ١٦/ ٢٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٠ ووافقه الذهبى . والحرورية : نسبة إلى حروراء ، وهى القرية التى كان ابتداء خروج الخوارج على على ـ رضى الله عنه ـ منها .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٧٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

لا أظن إلا أن الخوارج منهم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » ، وقال : «اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ »(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله الفردوس ، فإنها سرة الجنة ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش »(٢) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والترمذى وابن جرير والحاكم والبيهقى وابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال: « إن فى الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » (٤) والأحاديث بهذا المعنى كثيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : الفردوس بستان بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدي قال : هو الكرم بالنبطية ، وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث ؛ أن ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال : هى جنات الأعناب بالسريانية ، وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾ قال : متحولا .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى** ﴾ قال ابن الأنبارى : سمى المداد مدادا لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجىء الشىء بعد الشىء ، ويقال للزيت الذى يوقد به السراج : مداد ، والمراد بالبحر هنا : الجنس .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٩) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٥/١٨) .

(٢) الطبرانى (٧٩٦٦) والحاكم ٢/ ٣٧١ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من هذا الإسناد ولم نجد بدا من إخراجه » . وقال الذهبى : « جعفرهالك». وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ : ٤٠١ : « رواه الطبرانى وفيه جعفر بن الزبير وهو متروك » .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٧٩٠) وفى التوحيد (٧٤٢٣) وأحمد ٢/ ٣٣٣، ٣٣٩ .

(٤) ابن أبى شيبة (١٥٩٢٣) وأحمد ٥/٣١٦ ، ٣٢١ والترمذى فى صفه الجنة (٢٥٣١) ، وابن جرير ١٦/ ٣٠ والحاكم ١/ ٨٠ .

والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ، ولو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا . وقيل فى بيان المعنى : لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب ﴿ لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ وقوله : ﴿ ولو جئنا بمثله مددا﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: ﴿ قل لو كان ﴾ وفيه زيادة مبالغة وتأكيد، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها ، أى لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجىء بمثله مددا ولو جئنا بمثله مددا ، والمدد الزيادة . وقيل : عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد ، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع ، قال الأعشى :

ووجه نقى اللون صاف يزينه ... مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة . قال الجبائى : إن قوله : ﴿ قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد فى الجملة، وما ثبت عدمه امتنع قدمه . وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية . وقيل فى الجواب : إن نفاد شىء قبل نفاد شىء آخر لا يدل على نفاد الشىء الآخر ، ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية ، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية . والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته ، وهى غير متناهية ، فالكلمات غير متناهية . وقرأ مجاهد وابن محيصن وحميد :« ولو جئنا بمثله مدادا» وهى كذلك فى مصحف أبى ، وقرأ الباقون :﴿مددا﴾ وقرأ حمزة والكسائى: « قبل أن ينفد » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية .

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع ، فقال : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ أى إن حالى مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ، ومن كان هكذا فهو لا يدعى الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحى إليه من الله سبحانه فقال : ﴿ يوحى إلى ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقا بينه وبين سائر أنواع البشر ، ثم بين أن الذى أوحى إليه هو قوله: ﴿أنما إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له فى ألوهيته ، وفى هذا إرشاد إلى التوحيد ، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، والمعنى : من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين ﴿ فليعمل عملا صالحا ﴾ وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ من خلقه سواء كان صالحا ، أو طالحا ، حيوانا أو جمادا ، قال الماوردى : قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية:إن المعنى لا يرائى بعمله أحدا . وأقول : إن دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء ، ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها ، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ لكلمات ربى ﴾ يقول : علم ربى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يقول ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام

الله وحكمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية قال : أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره، وليست هذه فى المؤمنين (١). وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقى عن ابن عباس قال: قال رجل: يا نبى الله ، إنى أقف المواقف أبتغى وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ (٢) . وأخرج ابن مندة ، وأبو نعيم فى الصحابة ، وابن عساكر من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد فى ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله ، فنزل فى ذلك : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال :قال رجل : يا رسول الله ، أعتق وأحب أن يرى ، وأتصدق وأحب أن يرى ، فنزلت : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية وهو مرسل . وأخرجه هناد فى الزهد عنه أيضا .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذى وابن ماجة ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى هريرة ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، الرجل يجاهد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا ؟ فقال : « لا أجر له » ، فأعظم الناس ذلك ، فعاد الرجل فقال : « لا أجر له » (٤) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الإخلاص ، وابن جرير فى تهذيبه ، والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ : الشرك الأصغر . وأخرج الطيالسى وأحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن شداد بن أوس أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » ، ثم قرأ : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية (٥) . وأخرج الطيالسى وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم عن شداد أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره

---

(١) البيهقى فى الشعب (٦٨٥٣) . ط . الكتب العلمية .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ١١١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ،والبيهقى فى الشعب (٦٨٥٤) ط .الكتب العلمية.

(٣) أحمد ٤/ ٢١٥ والترمذى فى التفسير (٣١٥٤) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٣) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٧) . ط . الكتب العلمية .

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٧١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٤٠) . ط .الكتب العلمية .

(٥) الطيالسى (١١٢٠) وأحمد ٤/ ١٢٦ والطبرانى (٧١٣٩) والحاكم ٤/ ٣٢٩ وسكت عليه الذهبى أيضا ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٤٤) .ط. الكتب العلمية .

لشريكه الذى أشركه أنا عنه غنى » (١) . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ ؟ الشرك الخفى ؛ أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل » (٢) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن شداد بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » ، قلت : أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم » قلت : يا رسول الله ، ما الشهوة الخفية ؟ قال : «يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته » (٣) . وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ عن ربه أنه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه، وهـو للـذى أشرك » وفى لفظ : « فمن أشرك بى أحدا فهو له كله » (٤) وفى الباب أحاديث كثيرة فى التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر ، وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاها صاحب الدر المنثور فى هذا الموضع فليرجع إليه ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، بل الشرك الجلى يدخل تحتها دخولا أوليا ، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو مقرر فى علم الأصول .

وقد ورد فى فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن أبى حكيم قال : قـال رسول الله ﷺ: « لو لم ينزل على أمتى إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم » . وأخرج ابن راهويه والبزار ، والحاكم وصححه ، والشيرازى فى الألقاب ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ فى ليلة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية ، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة » قال ابن كثير بعد إخراجه : غريب جدا (٥) . وأخرج ابن الضريس عن أبى الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن معاوية بن أبى سفيان ، أنه تلا هذه الآية : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن . قال ابن كثير : وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية هى آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ،

---

(١) الطيالسى (١١٢١) وأحمد ٤/ ١٢٦ وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٦٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٢٤ : « رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره وضعفه غير واحد ، وبقية رجاله ثقات» .

(٢) أحمد ٣/ ٣٠ وصححه الحاكم ٤/ ٣٢٩ ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ٤/ ١٢٤ والطبرانى (٧١٤٤) وصححه الحاكم ٤/ ٣٣٠ وقال الذهبى : « عبد الواحد متروك » والبيهقى فى الشعب (٦٨٣٠) . ط. الكتب العلمية . ورواية الطبرانى فيها : « الحارث بن نبهان وعبد الواحد بن زيد وهما متروكان » .

(٤) أحمد ٢ / ٣٠١ ومسلم فى الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٥) . ط . الكتب العلمية .

(٥) صححه الحاكم ٢/ ٣٧١ وقال الذهبى : « أبو قرة فيه جهالة ولم يضعف » وابن كثير ٤/ ٤٣٦ .

ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه [١] .

(١) ابن جرير ١٦/٣٢ ، وابن كثير ٤/٤٣٥ ، ٤٣٦ .

تفسير سورة مريم

هي مكية وآياتها ثمانٍ وتسعون آية. أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة سورة ﴿ كهيعص ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن أم سلمة ؛ أن النجاشى قال لجعفر بن أبى طالب : هل معك مما جاء به ، يعنى رسول الله ﷺ ، عن الله شيء ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كهيعص ﴾ فبكى النجاشى حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وقد ذكر ابن إسحاق القصة بطولها (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾ .

قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة ، وأمالهما جميعا الكسائى وأبو بكر وخلف ، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم « كاف » ، وحكى عن غيره أنه كان يضم « ها » . وقال أبو حاتم : لا يجوز ضمّ الكاف ولا الهاء ولا الياء . قال النحاس : قراءة أهل المدينة من أحسن ما فى هذا ، والإمالة جائزة فى «ها» وفى « يا » وقد اعترض على قراءة الحسن جماعة . وقيل فى تأويلها : أنه كان يشم الرفع

---

(١) أحمد ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٠٠ وابن إسحاق ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٣ .

فقط . وأظهر الدال من هجاء « صاد » نافع وأبو جعفر وابن كثير وعاصم ويعقوب ، وهو اختيار أبي عبيد وأدغمها الباقون . وقد قيل فى توجيه هذه القراءات : إن التفخيم هو الأصل ، والإمالة فرع عنه ، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل ، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع ، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين ، وقد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السور مستوفى فى أوائل سورة البقرة .

ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسما للسورة على ، ما عليه الأكثر، الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، قاله الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا محال لأن ﴿ **كهيعص** ﴾ ليس هو مما أنبأنا اللّه عزّ وجلّ به عن زكريا ، وقد أخبر اللّه تبارك وتعالى عنه وعما بشر به ، وليس ﴿ **كهيعص** ﴾ من قصته ، أو على أنها خبرمبتدأ محذوف . وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فقوله :﴿ **ذكر رحمة ربك** ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا ذكر رحمة ربك. وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، أى فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك . قال الزجاج : ﴿ **ذكر** ﴾ مرتفع بالضمير ، والمعنى : هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك ﴿ **عبده زكريا** ﴾ يعنى : إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد ، وانتصاب ﴿ **عبده** ﴾ على أنه مفعول للرحمة ، قاله الأخفش . وقيل : للذكر . ومعنى ذكر الرحمة : بلوغها وإصابتها ، كما يقال : ذكرنى معروف فلان ، أى بلغنى . وقرأ يحيى بن يعمر : « ذكر » بالنصب ، وقرأ أبو العالية «عبده» بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول ، وفاعل الذكر هو عبده ، وزكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه ، وقرأ الكلبى : « ذكر » على صيغة الفعل الماضى مشدّدًا ومخففًا على أن الفاعل عبده ، وقرأ ابن معمر على الأمر ، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا ، لأن كل نبى رحمة لأمته .

﴿ **إذ نادى ربه نداء خفيا** ﴾ العامل فى الظرف : رحمة . وقيل : ذكر . وقيل : هو بدل اشتمال من زكريا . واختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيًا ، فقيل : لأنه أبعد عن الرياء ، وقيل : أخفاه ، لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا . وقيل : أخفاه مخافة من قومه . وقيل : كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفًا هرمًا لا يقدر على الجهر . ﴿ **قال رب إنى وهن العظم منى** ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله:﴿ **نادى ربه** ﴾ يقال : وهن يهن وهنا: إذا ضعف فهو واهن ، وقرئ بالحركات الثلاث، أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم ، لأنه عمود البدن ، وبه قوامه، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته ، ولأن أشد ما فى الإنسان صلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحد العظم قصدًا إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿ **واشتعل الرأس شيبا** ﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين فى الشين ، والباقون بعدمه ، والاشتعال فى الأصل: انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس فى سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جدًا : قد اشتعل رأس فلان ، وأنشد للبيد :

فإن ترى رأسى أمسى واضحًا   سلط الشيب عليه فاشتعل

وانتصاب ﴿ **شيبا** ﴾ على التمييز ، قاله الزجاج . وقال الأخفش : انتصابه على المصدر ، لأن معنى اشتعل : شاب . قال النحاس :قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل ، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك، وكان الأصل اشتعل شيب رأسى ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ أى لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لى . قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع ، وذكر نعم اللّه عليه كما فعل زكريا ها هنا ، فإن فى قوله : ﴿ **وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا** ﴾ غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه ، وبلوغ مآربه ، وفى قوله: ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ ذكر ما عوّده اللّه من الإنعام عليه بإجابة أدعيته ، يقال: شقى بكذا ، أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه .

﴿ **وإنى خفت الموالى من ورائى** ﴾ قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على بن الحسين وأبوه على ويحيى بن يعمر : « خفت » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله ﴿ **الموالى** ﴾ أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدى ، أو انقطعوا بالموت ، مأخوذًا من خفت القوم إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب . وقرأ الباقون : ﴿ **خفت** ﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكريا ، ومفعوله الموالى ، ومن ورائى متعلق بمحذوف لا بـ ﴿ **خفت** ﴾ وتقديره : خفت فعل الموالى من بعدى . قرأ الجمهور:﴿ **ورائى** ﴾ بالهمز والمد وسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بالهمز والمدّ وفتح الياء. وروى عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء ، مثل عصاى . والموالى هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بنى العمّ ونحوهم ، والعرب تسمى هؤلاء موالى ، قال الشاعر :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا   لا تنشروا بيننا ما كان مدفونا

قيل : الموالى الناصرون له . واختلفوا فى وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل : خاف أن يرثوا ماله ، وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من اللّه سبحانه أن يرزقه ولدًا. وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين ، فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب وليًا يقوم به بعد موته . وهذا القول أرجح من الأول لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا : وراثة المال ، بل المراد : وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » (١) ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ العاقر : هى التى لا تلد لكبر سنها ، والتى لا تلد أيضًا لغير كبر وهى المرادة هنا ، ويقال للرجل الذى لا يلد : عاقر أيضًا ، ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا

---

(١) أحمد ١/ ١٠ .

قال ابن جرير : وكان اسم امرأته : أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهى أخت حنة ، وحنة هى أم مريم . وقال القتيبى : هى أشاع بنت عمران ، فعلى القول الأول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى ، وعلى القول الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح (١) . ﴿ فهب لى من لدنك وليا ﴾ أى أعطنى من فضلك وليا ، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما . وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة . وقيل : بل أراد بالولى الذى طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة ، فإن اللّه سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم .

﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾ قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة وابن محيصن واليزيدى ويحيى بن المبارك (٢) بالرفع فى الفعلين جميعًا ، على أنهما صفتان للولى وليسا بجواب للدعاء . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائى بالجزم فيهما ، على أنهما جواب للدعاء. ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال: هى أصوب فى المعنى؛ لأنه طلب وليًا هذه صفته فقال : هب لى الذى يكون وارثى . ورجح ذلك النحاس وقال : لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطع اللّه يدخلك الجنة ، أى إن تطعه يدخلك الجنة ، وكيف يخبر اللّه سبحانه بهذا ، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه ، وهو أعلم بذلك ، والوراثة هنا هى وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف . وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبى ومقاتل ، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين، وقد كان فيهم أنبياء وملوك، وقرئ : « يرثنى وارث من آل يعقوب » على أنه فاعل يرثنى . وقرئ : « وأرث آل يعقوب » أى أنا . وقرئ : « أويرث آل يعقوب » بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثنى . وهذه القراءات فى غاية الشذوذ لفظًا ومعنى ﴿ واجعله رب رضيا ﴾ أى مرضيًا فى أخلاقه وأفعاله ، وقيل :راضيًا بقضائك وقدرك ، وقيل : رجلاً صالحًا ترضى عنه ، وقيل : نبيًا كما جعلت آباءه أنبياء .

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من اللّه سبحانه . وقيل : إنه من جهة الملائكة ، لقوله فى آل عمران : ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ، وفى الكلام حذف ، أى فاستجاب له دعاءه ، فقال : يا زكريا، وقد تقدم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا . قال الزجاج :سمى يحيى لأنه حيى بالعلم والحكمة التى أوتيها﴿ لم نجعل له

(١) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٣٠) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة . . . « فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة » .

(٢) فى المخطوطة : « واليزيدى ويحيى بن المبارك » والصواب : « ويحيى بن المبارك اليزيدى » . معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٥١ (٦٢) .

من قبل سميا ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه : لم نسم أحدًا قبله يحيى . وقال مجاهد وجماعة : معنى **﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾** : أنه لم يجعل له مثلا ولا نظيرًا ، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ ، وردّ هذا بأنه يقتضى تفضيله على إبراهيم وموسى . وقيل : معناه : لم تلد عاقر مثله ، والأول أولى . وفى إخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين : الأولى : أن الله سبحانه هو الذى تولى تسميته به ، ولم يكلها إلى الأبوين . والجهة الثانية : أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه .

﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ﴾ أى كيف أو من أين يكون لى غلام ؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعه ، حيث يخرج ولدًا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى آل عمران ، **﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾** يقال : عتا الشيخ يعتوعتيًا إذا انتهى سنه وكبر ، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف ، والأصل عتوا لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخف ، ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يعـ ـــذر من كان فى الزمان عتيًا

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وحفص والأعمش **﴿ عتيا ﴾** بكسر العين ، وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان ، ومحل جملة **﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾** النصب على الحال من ضمير المتكلم ، ومحل جملة **﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾** النصب أيضًا على الحال، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله: **﴿ أنى يكون لى غلام ﴾** أى كيف يحصل بيننا ولد الآن ، وقد كانت امرأتى عاقرًا لم تلد فى شبابها وشبابى ، وهى الآن عجوز ، وأنا شيخ هرم ؟

ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : **﴿ قال كذلك قال ربك ﴾** الكاف فى محل رفع ، أى الأمر كذلك ، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا ، ثم ابتدأ بقوله : **﴿ قال ربك ﴾** ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية ، أى قال قولا مثل ذلك ، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله: **﴿ هو على هين ﴾** وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة **﴿ هو على هين ﴾** مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، أى قال : هو مع بعده عندك ، على هين ، وهو فيعل من هان الشىء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد . قال الفراء : أى خلقه على هين **﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾** هذه الجملة مقررة لما قبلها، قال الزجاج :أى فخلق الولد لك ،كخلقك ، والمعنى : أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئًا ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم . قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر **﴿ وقد خلقتك من**

قبل ﴾ وقرأ سائر الكوفيين : « وقد خلقناك من قبل » .

﴿ **قال رب اجعل لى آية** ﴾ أى علامة تدلنى على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل ، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه. قال ابن الأنبارى : وجه ذلك : أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر ، فسأل اللّه آية يستدل بها على قرب ما منّ به عليه . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى من اللّه سبحانه لا من الشيطان ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدّى وهو بعيد جدًا ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى آل عمران مستوفى ، وانتصاب ﴿ **سويا** ﴾ على الحال، والمعنى : آيتك ألا تقدر على الكلام والحال أنك سوى الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، وقد دل بذكر الليالى هنا والأيام فى آل عمران . أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن .

﴿ **فخرج على قومه من المحراب** ﴾ وهو مصلاه ، واشتقاقه من الحرب ، كأن ملازمه يحارب الشيطان . وقيل : من الحرب محركًا ، كأن ملازمه يلقى حربًا وتعبًا ونصبًا﴿ **فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ قيل :معنى ﴿ **أوحى** ﴾ : أومأ بدليل قوله فى آل عمران : ﴿ **إلا رمزا** ﴾ [آل عمران : ٤١] . وقيل : كتب لهم فى الأرض . وبالأول قال الكلبى والقرظى وقتادة وابن منبه ، وبالثانى قال مجاهد . وقد يطلق الوحى على الكتابة ومنه قول ذى الرّمة :

سوى الأربع الدهم اللواتى كأنها بقية وحي فى بطون الصحائف

وقال عنترة :

كوحى صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطمىّ

و« أن » فى قوله :﴿ **أن سبحوه** ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى :فأوحى إليهم بأن صلوا، أو أى صلوا ، وانتصاب ﴿ **بكرة** ﴾ و ﴿ **عشيا** ﴾ على الظرفية . قال الفراء : العشى يؤنث ، ويجوز تذكيره إذا أبهم . قال : وقد يقال : العشى جمع عشية ، قيل : والمراد : صلاة الفجر والعصر . وقيل : المراد بالتسبيح : هو قولهم سبحان اللّه فى الوقتين : أى نزهوا ربكم طرفى النهار .

وقد أخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كهيعص** ﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفى لفظ : كاف بدل كبير . وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبى أياس ، وعثمان ابن سعيد الدارمى فى التوحيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **كهيعص** ﴾ قال : كاف من كريم ، وهاء من هاد ، وياء من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة : ﴿**كهيعص** ﴾ هو الهجاء المقطع ، والكاف من

الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصور . وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿ كهيعص ﴾ فحدّث عن أبي صالح عن أم هانئ عن رسول الله ﷺ قال : « كاف هاد عالم صادق » . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجة وابن جرير عن فاطمة ابنة علي قالت : كان علي يقول : يا كهيعص اغفر لي . وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف الكافي ، والهاء الهادي ، والعين العالم ، والصاد الصادق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن السدي قال : كان ابن عباس يقول في كهيعص وحم ويس وأشباه هذا : هو اسم الله الأعظم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة في ذلك وقع بين من بعدهم ، ولم يصح مرفوعًا في ذُلك شيء. ومن روى عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، ورد العلم في مثلها إلى الله سبحانه ، وقد قدمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة .

وأخرج أحمد وأبويعلى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :« كان زكريا نجارًا » (١). وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرًا ﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ إلى قوله : ﴿ خفت الموالي ﴾ قال : وهم العصبة ﴿ يرثني ﴾ نبوتي ونبوة آل يعقوب ، فنادته الملائكة ، وهوجبريل : إن الله يبشرك ﴿ بغلام اسمه يحيى ﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال : يا زكريا ، إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك، فشك وقال: ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ يقول: من أين يكون وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال الله : ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ قال : الورثة : وهم عصبة الرجل . وأخرج الفريابي عنه قال : كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : ﴿ رب هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قال : يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال : مثلا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : لا أدري كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتيا أو عسيا . وأخرج ابن أبي حاتم عن

(١) أحمد ٢/ ٢٦٩ وأبو يعلى (٦٤٢٦) وصححه الحاكم ٢/ ٥٩٠ وسكت عنه الذهبي .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبي ،ولكن الإمام الشوكاني كان لا يحتج بهذه السلسلة.

عطاء فى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : لبث زمانًا فى الكبر. وأخرج أيضًا عن السدى قال : هرمًا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ قال : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفي لفظ من غير خرس ؛ أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **فأوحى إليهم** ﴾ قال : كتب لهم كتابًا . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن سبحوا** ﴾ قال : أمرهم بالصلاة ﴿ **بكرة وعشيا** ﴾ .

﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يا يحيى** ﴾ ها هنا حذف ، وتقديره : وقال اللّه للمولود : يا يحيى ، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له : يا يحيى . وقال الزجاج : المعنى: فوهبنا له وقلنا له : يا يحيى . والمراد بالكتاب : التوراة ، لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتابًا مختصًا به وإن كنا لا نعرفه الآن ، والمراد بالأخذ : إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغى ، وذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به ، والإحجام عن المنهى عنه ، ثم أكده بقوله : ﴿ **بقوة** ﴾ أى بجد وعزيمة واجتهاد ﴿**وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ المراد بالحكم : الحكمة وهى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية . وقيل : هى العلم وحفظه والعمل به . وقيل : النبوة . وقيل : العقل ، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحًا لحمله على جميع ما ذكر . قيل : كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين ، وقيل : ابن ثلاث .

﴿ **وحنانا من لدنا** ﴾ معطوف على الحكم . قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة ، وأصله: توقان النفس ، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة : تقول :حنانك يارب ، وحنانيك ياربّ ، بمعنى واحد ، يريد : رحمتك . قال طرفة :

أبا منذرأفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وقال امرؤ القيس :

ويمنحها بنو سلخ بن بكر ... معيزهم ، حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى :الحنان مشدّدًا من صفات اللّه عزّ وجلّ ، والحنان مخففًا:العطف والرحمة . والحنان :الرزق والبركة . قال ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضًا ما عظم من الأمور فى ذات اللّه ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل : واللّه لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حنانًا ، يعنى : بلالاً ، لما مرّ به وهو يعذب . وقيل : إن القائل لذلك هو ورقة بن

نوفل . قال الأزهرى : معنى ذلك : لأترحمن عليه ، ولأتعطفن عليه لأنه من أهل الجنة ، ومثله قول الحطيئة :

تحنن علىّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

ومعنى ﴿ **من لدنا** ﴾ : من جنابنا . قيل : ويجوز أن يكون المعنى : أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنن بها على الناس ، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر ﴿**وزكاة**﴾ معطوف على ما قبله ، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر، أى جعلناه مباركا للناس يهديهم إلى الخير . وقيل : زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهور. وقيل : صدقة تصدقنا به على أبويه ، قاله ابن قتيبة ﴿ **وكان تقيا** ﴾ أى متجنبا لمعاصى اللّه مطيعًا له . وقد روى أنه لم يعمل معصية قط .

﴿ **وبرا بوالديه** ﴾ معطوف على ﴿ **تقيا** ﴾ البرّ هنا بمعنى البار ، فعل بمعنى فاعل ، والمعنى : لطيفًا بهما محسنًا إليهما ﴿ **ولم يكن جبارا عصيا** ﴾ أى لم يكن متكبرًا ولا عاصيًا لوالديه أو لربه ، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿ **وسلام عليه** ﴾ قال ابن جرير وغيره : معناه : أمان عليه من اللّه . قال ابن عطية: والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة، فهى أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه ، وهو أقل درجاته ، وإنما الشرف فى أن يسلم اللّه عليه ، ومعنى ﴿ **يوم ولد** ﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره فى ذلك اليوم ، أو أن اللّه حياه فى ذلك اليوم ،وهكذا معنى ﴿ **يوم يموت** ﴾ وهكذا معنى ﴿**يوم يبعث حيا** ﴾ قيل:أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن : يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قومًا لم يكن قد عرفهم وأحكامًا ليس له بها عهد ، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة . فخصّ اللّه سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ قال : بجد ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ قال : الفهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : يقول : اعمل بما فيه من فرائض . وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال : اللب . وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ قال : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » (١) وأخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة : بدله وهو ابن ثلاث سنين . وأخرج الحاكم فى تاريخه من طريق نهشل بن سعد عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال يحيى : ما للعب خلقنا ، اذهبوا نصلى ، فهو قول اللّه :﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ ». وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ القرآن قبل أن

---

(١) الديلمى (٧١٦٨) .

يحتلم، فهو ممن أوتى الحكم صبيًا» [1] وأخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفًا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وحنانا** ﴾ قال : لا أدرى ما هو إلا أنى أظنه يعطف اللّه على عبده بالرحمة ، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وزكاة**﴾ قال : بركة ، وفى قوله : ﴿ **وكان تقيا** ﴾ قال : طهر فلم يعمل بذنب .

﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم** ﴾ هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى . والمراد بالكتاب : هذه السورة ، أى اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم ، ويجوز أن يراد بالكتاب : جنس القرآن وهذه السورة منه ، ولما كان الذكر لا يتعلق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر ، وهو قصة مريم ، أو خبر مريم ﴿ **إذ انتبذت** ﴾ العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدّر ،ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم ، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها، ويكون المراد بمريم : خبرها ، وفى هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه ، والنبذ : الطرح والرمى . قال اللّه سبحانه: ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ [آل عمران : ١٨٧] والمعنى : أنها تنحت وتباعدت . وقال ابن قتيبة: اعتزلت. وقيل : انفردت ، والمعانى متقاربة . واختلفوا فى سبب انتباذها ، فقيل : لأجل أن تعبد اللّه سبحانه . وقيل : لتطهر من حيضها ، و ﴿ **من أهلها** ﴾ متعلق بـ ﴿ **انتبذت** ﴾ ، وانتصاب ﴿ **مكانا شرقيا** ﴾ على المفعولية للفعل المذكور ، أى مكانًا من جانب الشرق ، والشرق بسكون الراء : المكان الذى

(١) البيهقى فى الشعب (١٧٩٨) وإسناده ضعيف فيه الحسن بن أبى جعفر الجفرى وهو ضعيف .

تشرق فيه الشمس ، وإنما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير . وقد اختلف الناس فى نبوة مريم ، فقيل : إنها نبية بمجرد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك . وقيل : لم تكن نبية ، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر ، وقد تقدم الكلام فى هذا فى آل عمران .

﴿ **فاتخذت من دونهم حجابا** ﴾ أى اتخذت من دون أهلها حجابًا يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، أو حال التطهر من الحيض ، والحجاب الستر والحاجز ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾ هو جبريل عليه السلام. وقيل : هو روح عيسى ، لأن اللّه سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد ، والأول أولى لقوله :﴿ **فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ أى تمثل جبريل لها بشرًا مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيئًا . قيل : ووجه تمثل الملك لها بشرًا أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رأته فى صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء، فاستعاذت باللّه منه ، و ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ أى ممن يتقى اللّه ويخافه . وقيل : إن تقيًا اسم رجل صالح ، فتعوذت منه تعجبًا . وقيل : إنه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت ، والأوّل أولى . وجواب الشرط محذوف ، أى فلا تتعرض لى .

﴿ **قال إنما أنا رسول ربك** ﴾ أى قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء ﴿ **لأهب لك غلاما زكيا** ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سببا فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به فى الظاهر. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وورش عن نافع « ليهب » على معنى أرسلنى ليهب لك ، وقرأ الباقون بالهمز ، والزكى : الطاهر من الذنوب الذى ينمو على النزاهة والعفة وقيل : المراد بالزكى النبىّ .

﴿ **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر** ﴾ أى لم يقربنى زوج ولا غيره ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ البغى هى : الزانية التى تبغى الرجال . قال المبرد : أصله : بغوى على فعول ، قلبت الواو ياء ثم أدغمت فى الياء وكسرت الغين للمناسبة . وقال ابن جنى : إنه فعيل . وزيادة ذكركونها لم تك بغيًا مع كون قولها: لم يمسسنى بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيها لجانبها من الفحشاء . وقيل : ما استبعدت من قدرة اللّه شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه فى المستقبل أم يخلقه اللّه سبحانه ابتداء ؟ وقيل : إن المس عبارة عن النكاح الحلال ، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها : ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ وما ذكرناه من شموله ، أولى باستعمالات أهل اللغة ، وما يوجد فى محاوراتهم مما يطول تعداده.ا.هـ .﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ أى ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة ، وهو علة لمعلل محذوف ، والتقدير خلقناه لنجعله ، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه:﴿ **هو على هين** ﴾ وجملة ﴿**قال**

كذلك قال ربك هو على هين ﴾ مستأنفة ، والقائل هو الملك ، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا . وقوله : ﴿ **ورحمة منا** ﴾ معطوف على آية ، أى ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبى رحمة لأمته ﴿ **وكان أمرا مقضيا** ﴾ أى وكان ذلك المذكور أمرًا مقدرا قد قدره اللّه سبحانه وجف به القلم .

﴿ **فحملته** ﴾ ها هنا كلام مطوى ، والتقدير : فاطمأنت إلى قوله ، فدنا منها ، فنفخ فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته . وقيل : كانت النفخة فى ذيلها . وقيل : فى فمها . قيل : إن وضعها كان متصلا بهذا الحمل من غير مضى مدة الحمل ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **فانتبذت به مكانا قصيا** ﴾ أى تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد ، والقصى هو البعيد . قيل : كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل : أبعد مكان فى تلك الدار . وقيل : أقصى الوادى . وقيل : إنها حملت به ستة أشهر . وقيل : ثمانية أشهر وقيل :سبعة ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة** ﴾ أى ألجأها واضطرها ، ومنه قول زهير :

أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ شبل : « فاجأها » من المفاجأة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، وقرأ الحسن بغير همز ، وفى مصحف أبى : « فلما أجاءها » قال فى الكشاف : إن « أجاءها » منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضًا ومخاضا إذا دنا ولادها . وقرأ الجمهور بفتح الميم . وقرأ ابن كثير بكسرها ، والجذع :ساق النخلة اليابسة ، كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشىء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ﴿ **قالت يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ أى قبل هذا الوقت ، تمنت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء فى دينها ، أو لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان ﴿ **وكنت نسيا** ﴾ النسى فى كلام العرب : الشىء الحقير الذى من شأنه أن يُنسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، ومنه قول الكميت :

أتجعلنا خسرًا لكلب قضاعة ولسنا بنسى فى معدّ ولا دخل

وقال الفراء : النسى : ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : ﴿ **نسيا منسيا**﴾ أى حيضة ملقاة ، وقد قرئ بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان مثل الحجر والحجر ، والوتر والوتر . وقرأ محمد بن كعب القرظى : « نساء » بالهمز مع كسر النون . وقرأ نوف البكالى بالهمز مع فتح النون . وقرأ بكر بن حبيب :﴿ **نسيا** ﴾ بفتح النون وتشديد الياء بدون همز، والمنسى المتروك الذى لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ أى جبريل لما سمع قولها ، وكان أسفل منها تحت الأكمة. وقيل :تحت النخلة . وقيل : المنادى هو عيسى ، وقد قرئ بفتح الميم من ﴿ **من** ﴾ وكسرها . وقوله : ﴿ **ألا تحزنى** ﴾ تفسير للنداء ،

أى لا تحزنى أو بمعنى بأن لا تحزنى على أنها المصدرية ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ قال جمهور من المفسرين : السرىّ :النهر الصغير، والمعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهرًا. قيل: كان نهرًا قد انقطع عنه الماء ، فأرسل اللّه فيه الماء لمريم ، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذى اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر . وقيل : المراد بالسرى هنا : عيسى ، والسرىّ : العظيم من الرجال ؛ ومنه قولهم : فلان سرى ، أى عظيم ، ومن قوم سراة ، أى عظام .

﴿ **وهزى إليك بجزع النخلة** ﴾ الهز : التحريك ، يقال : هزه فاهتز ، والباء فى بجذع النخلة مزيدة للتوكيد . وقال الفراء : العرب تقول هزه وهزبه ، والجذع هو : أسفل الشجرة . قال قطرب : كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع ، ومعنى إليك : إلى جهتك ، وأصل تساقط : تتساقط ، فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة والأعمش ﴿ **تساقط** ﴾ مخففًا . وقرأ عاصم فى رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف . وقرئ : « تتساقط » بإظهار التاءين . وقرئ بالتحتية مع تشديد السين . وقرئ « تسقط ، ويسقط » وقرأ الباقون بإدغام التاء فى السين ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع ؛ وانتصاب ﴿ **رطبا** ﴾ على بعض هذه القراءات للتمييز ، وعلى البعض الآخر على المفعولية لتساقط . قال المبرد والأخفش : يجوز انتصاب رطبًا بهزى :أى هزى إليك رطبًا ﴿**جنيا** ﴾ بجذع النخلة ، أى على جذعها وضعفه الزمخشرى ، والجنى: المأخوذ طريًا . وقيل : هو ما طاب وصلح للاجتناء ، وهو فعيل بمعنى مفعول . قال الفراء : الجنى والمجنى واحد . وقيل : هو فعيل بمعنى فاعل ، أى رطبًا طريا طيبا .

﴿ **فكلى واشربى** ﴾ أى من ذلك الرطب وذلك الماء ، أو من الرطب وعصيره ، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب ، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء ، ثم قال : ﴿ **وقرى عينا** ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف . وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها قال : وهى لغة نجد . والمعنى : طيبى نفسًا وارفضى عنك الحزن ، وهو مأخوذ من القرّ والقرة وهما البرد ، والمسرور : بارد القلب ساكن الجوارح . وقيل : المعنى : وقرى عينًا برؤية الولد الموهوب لك . وقال الشيبانى : معناه : نامى . قال أبو عمرو : أقر اللّه عينه ، أى أنام عينه وأذهب سهره ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا** ﴾ أصله : ترأيين : مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد ، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد :

أما ترى رأسى حاكى لونه   طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « ترين » بسكون الياء وفتح النون مخففة . قال أبو الفتح : وهى شاذة ، وجواب الشرط ﴿ **فقولى إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ أى قولى إن طلب منك الكلام أحد من الناس : إنى نذرت للرحمن صومًا أى صمتا. وقيل : المراد به : الصوم الشرعى ، وهو الإمساك عن المفطرات ، والأوّل أولى . وفى قراءة أبىّ : « إنى نذرت للرحمن

صومًا صمتًا » بالجمع بين اللفظين ، وكذا روى عن أنس . وروى عنه أنه قرأ : « صومًا وصمتًا » بالواو ، والذى عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت ، ويدل عليه ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ ومعنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين . قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم . وقراءة أبىّ تدل على أن المراد بالصوم هنا : الصمت ، لأنه تفسير للصوم . وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو ومعنى ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ أنها لا تكلم أحدا من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجى ربها . وقيل : إنها لم تخبرهم هنا باللفظ ، بل بالإشارة المفيدة للنذر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **انتبذت من أهلها مكانا شرقيا** ﴾ قال: مكانًا أظلها الشمس أن يراها أحد منهم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكانًا شرقيًا ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه ، يتخوّفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيها اللّه ، فاتخذوها سنة . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء وابن عساكر من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود قالا : خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذا هى برجل معها ﴿ **فتمثل لها بشرا**﴾ ففزعت و ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ فخرجت وعليها جلبابها ، فأخذ بكمها فنفخ فى جنب درعها ، وكان مشقوقًا من قدامها ، فدخلت النفخة صدرها فحملت ، فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أنى حبلى ، قالت مريم : أشعرت أنى حبلى ، فقالت امرأة زكريا : فإنى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **مصدقا بكلمة من الله** ﴾ فولدت امرأة زكريا يحيى ، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ الآية ﴿ **فناداها** ﴾ جبريل ﴿ **من تحتها ألا تحزنى** ﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم فقال : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب** ﴾ الآيات ، ولما ولد لم يبق فى الأرض صنم إلا خرّ لوجهه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم قال : حين حملت وضعت . وأخرج ابن عساكر عنه قال : وضعت لثمانية أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾ قال : جبريل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضًا. وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن عساكر عن أبى بن كعب فى الآية قال : تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته ، قال :

حملت الذى خاطبها ، دخل فى فيها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مكانا قصيا** ﴾ قال : نائيًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾ قال : كان جذعا يابسا . وأخرج ابن جرير وابن المنذرعنه أيضا فى قوله : ﴿ **وكنت نسيا منسيا** ﴾ قال : لم أخلق ولم أك شيئًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ﴿ **وكنت نسيا منسيا** ﴾ قال : حيضة ملقاة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذرعن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ قال : الذى ناداها جبريل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الذى ناداها من تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها . وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال : قرأ عاصم بن أبى النجود ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ بالنصب ، قال : وقال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى ، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن السرى الذى قال الله لمريم ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه» (١) وفى إسناده أيوب بن نهيك الجبلى قال فيه أبو حاتم الرازى : ضعيف ، وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، قال أبو فتح الأزدى :متروك الحديث ، وقال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث :إنه غريب جدًا . وأخرج الطبرانى فى الصغير، وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ قال : « النهر » (٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وصححه والحاكم ، وابن مردويه عن البراء قال فى الآية : هو الجدول ، وهو النهر الصغير ، فظهر بهذا أن الموقوف أصح . وقد روى عن جماعة من التابعين أن السرى هو عيسى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رطبا جنيا** ﴾ قال : طريًا . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه في قوله : ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ قال : صمتًا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عنه أنه قرأ : « صومًا صمتًا » .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)

---

(١) الطبرانى (١٣٣٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٥٨ : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتى وهو ضعيف » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/٥٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير ،وفيه معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف » .

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ .

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿ **أتت به** ﴾ أي بعيسى ، وجملة : ﴿ **تحمله** ﴾ في محل نصب على الحال ، وكان إتيانها إليهم من المكان القصى التي انتبذت فيه ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿ **فقالوا** ﴾ منكرين لذلك ﴿ **يا مريم لقد جئت** ﴾ أي فعلت ﴿ **شيئا فريا** ﴾ قال أبو عبيدة : الفرى : العجيب النادر ، وكذا قال الأخفش . والفرى : القطع ، كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع بكونه عجيبًا نادرًا . وقال قطرب : الفرى : الجديد من الأسقية ، أي جئت بأمر بديع جديد لم تسبقى إليه . وقال سعيد بن مسعدة : الفرى : المختلق المفتعل ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشيء المفترى ، قال تعالى : ﴿ ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ [الممتحنة : ١٢] وقال مجاهد : الفرى : العظيم .

﴿ **يا أخت هارون** ﴾ قد وقع الخلاف في معنى هذه الأخوة ، وفي هارون المذكور من هو ؟ فقيل : هو هارون أخو موسى ، والمعنى : أن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا . وقيل : كانت مريم من ولد هارون أخي موسى، فقيل لها: يا أخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون . وقيل : هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت . وقيل : بل كان في ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون ، فنسبوها إليه على وجهة التعيير والتوبيخ ، حكاه ابن جرير ولم يسمّ قائله وهو ضعيف ﴿ **ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾ هذا فيه تقريرلما تقدم من التعيير والتوبيخ ، وتنبيه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين مما لا ينبغي أن تكون .

﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أي إلى عيسى ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدّم ، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها ، فيمكن أن يقال : إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة ﴿ **قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا**﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم. قال أبو عبيدة: في الكلام حشو زائد. والمعنى : كيف نكلم صبيا في المهد ، كقول الشاعر :

وجيران لنا كانوا كراما

وقال الزجاج : الأجود أن تكون من في معنى الشرط والجزاء ، والمعنى : من يكون في المهد صبيا فكيف نكلمه . ورجحه ابن الأنباري وقال : لا يجوز أن يقال : إن ﴿ **كان** ﴾ زائدة وقد نصبت ﴿ **صبيا** ﴾ ويجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل ، وهو ﴿**نكلم**﴾ كما سبق تقديره . وقيل : إن ﴿ **كان** ﴾ هنا هي التامة التي بمعنى الحدوث والوجود . وردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، والمهد هو : شيء معروف يتخذ لتنويم الصبي .

والمعنى : كيف نكلم من سبيله أن ينوم فى المهد لصغره . وقيل : هو هنا حجر الأم . وقيل : سرير كالمهد ، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿ **قال إني عبد الله** ﴾ فكان أول ما نطق به ، الاعتراف بالعبودية له ﴿ **آتاني الكتاب** ﴾ أى الإنجيل ، أى حكم لى بإيتائى الكتاب والنبوة فى الأزل ، وإن لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال ولا قد صار نبيا . وقيل : إنه آتاه الكتاب وجعله نبيا فى تلك الحال ، وهو بعيد ﴿ **وجعلني مباركا أين ما كنت** ﴾ أى حيثما كنت ، والبركة أصلها من بروك البعير والمعنى : جعلنى ثابتًا فى دين اللّه . وقيل : البركة هى : الزيادة والعلو ، فكأنه قال : جعلنى فى جميع الأشياء زائدًا عاليًا منجحًا . وقيل : معنى المبارك: النفاع للعباد، وقيل : المعلم للخير . وقيل :الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر .﴿ **وأوصاني بالصلاة** ﴾ أى أمرنى بها ﴿ **والزكاة** ﴾ زكاة المال ، أو تطهير النفس ﴿ **ما دمت حيا** ﴾ أى مدة دوام حياتى ، وهذه الأفعال الماضية هى من باب تنزيل مالم يقع منزلة الواقع تنبيهًا على تحقيق وقوعه لكونه قد سبق فى القضاء المبرم .

﴿ **وبرا بوالدتي** ﴾ معطوف على ﴿ **مباركا** ﴾ واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم فى تلك الحال أنه لم يكن له أب، وقرئ : « وبرا » بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ **ولم يجعلني جبارا شقيا** ﴾ الجبار: المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقى : العاصى لربه . وقيل : الخائب . وقيل : العاق . ﴿ **والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ قال المفسرون :السلام هنا بمعنى السلامة: أى السلامة على يوم ولدت ، فلم يضرنى الشيطان فى ذلك الوقت ولا أغوانى عند الموت ولا عند البعث . وقيل : المراد به : التحية . قيل : واللام للجنس . وقيل : للعهد ، أى وذلك السلام الموجه إلى يحيى فى هذه المواطن الثلاثة موجه إلى . قيل : إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التى تتكلم فيها الصبيان فى العادة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأتت به قومها تحمله**﴾ قال : بعد أربعين يومًا بعد ما تعلّت من نفاسها . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد ابن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول اللّه ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ » [(١)] وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٨٦٥) وأحمد ٤/ ٢٥٢ ومسلم فى الآداب (٢١٣٥ / ٩) والترمذى فى التفسير (٣١٥٥) وقال : « هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس » والنسائى فى التفسير (٣٣٥) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها فى بطن أمه ، فذلك قوله : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾ الآية ، قال : قضى أن أكون كذلك . وأخرج الإسماعيلى فى معجمه وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه وابن النجارعن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ فى قول عيسى : ﴿ **وجعلنى مباركا أين ما كنت** ﴾ قال : « جعلنى نفاعًا للناس أينما اتجهت » (١) وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ **وجعلنى مباركا** ﴾ قال : معلمًا ومؤدبًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **ولم يجعلنى جبارا شقيا** ﴾ يقول : عصيا .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ .

الإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المتصف بالأوصاف السابقة . قال الزجاج : ذلك الذى قال : إنى عبد اللّه عيسى ابن مريم ، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن اللّه وأنه إله . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب :﴿ **قول الحق** ﴾ بالنصب . وقرأ الباقون بالرفع . فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح ، أو على أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبد اللّه ، قاله الزجاج . ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى ، أى ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ ، قاله الكسائى . وسمى قول الحق كما سمى كلمة اللّه ، والحق هو اللّه عز وجلّ . وقال أبو حاتم : المعنى : هو قول الحق . وقيل : التقدير : هذا الكلام قول الحق ، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين . وقيل : الإضافة للبيان . وقرئ : « قال الحق » وروى ذلك عن ابن مسعود ، وقرأ الحسن : « قول الحق » بضم القاف ، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد ، و﴿**الذى فيه يمترون** ﴾ صفة لعيسى : أى ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق ، ومعنى ﴿ **يمترون** ﴾ : يختلفون ، على أنه من المماراة ، أو يشكوا على أنه من المرية . وقد وقع الاختلاف فى عيسى ؛ فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : هو ابن اللّه .

﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد** ﴾ أى ما صح ولا استقام ذلك ، فـ « أن » فى محل رفع

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ٣/ ٢٥ وقال : « غريب من حديث يونس تفرد به هشيم وعنه شعيب » .

على أنها اسم كان . قال الزجاج : « من » فى ﴿ **من ولد** ﴾ مؤكدة تدل على نفى الواحد والجماعة ؛ ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه ؛ ثم صرح سبحانه بما هو شأنه ـ تعالى سلطانه ـ فقال: ﴿ **إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أى إذا قضى أمرًا من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير . وقد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة ، وفى إيراده فى هذا الموضوع تبكيت عظيم للنصارى، أى من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ ﴿ **وأن الله ربى وربكم فاعبدوه** ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن ». وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها ، وهو من تمام كلام عيسى، وقرأ أبىّ:« إن اللّه » بغير واو ، قال الخليل وسيبويه : فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى : ولأن اللّه ربى وربكم ، وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفًا على الصلاة، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على ﴿ **أمرا** ﴾ . ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربى وربكم ، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه .

﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾: « من » زائدة للتوكيد ، والأحزاب: اليهود والنصارى ، أى فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى ، فاليهود قالوا : إنه ساحر ، كما تقدّم ، وقالوا : إنه ابن يوسف النجار . والنصارى اختلفت فرقهم فيه ، فقالت النسطورية منهم : هو ابن اللّه . وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو اللّه تعالى ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت ﴿ **فويل للذين كفروا** ﴾ وهم المختلفون فى أمره ﴿**من مشهد يوم عظيم** ﴾ أى من شهود يوم القيامة وما يجرى فيه من الحساب والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم . وقيل : المعنى : فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ، فيقولون: أسمع بزيد وأبصر به ، أى ما أسمعه وأبصره ، فعجب اللّه سبحانه نبيه ﷺ منهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ أى للحساب والجزاء ﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى واضح ظاهر ، ولكنهم أغفلوا التفكر ، والاعتبار والنظر فى الآثار. ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ أى يوم يتحسرون جميعًا ، فالمسىء على إساءته ، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿ **إذ قضى الأمر** ﴾ أى فرغ من الحساب وطويت الصحف ، وصار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وجملة : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ فى محل نصب على الحال : أى غافلين عما يعمل بهم ، وكذلك جملة ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها** ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعًا ﴿ **وإلينا يرجعون** ﴾ أى يردون إلينا يوم القيامة فنجازى كلا بعمله ، وقد تقدّم مثل هذا فى سورة الحجر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قول الحق** ﴾ قال : اللّه الحقّ

عز وجلّ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عنه في قوله : ﴿ الذى فيه يمترون ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم ،فامتروا فى عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو اللّه هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية ؛ فقالت الثلاثة :كذبت ؛ ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، فقال: هو ابن اللّه ، وهم النسطورية ؛ فقال اثنان : كذبت ؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، اللّه إله ، وعيسى إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ، وهم ملوك النصارى ؛ فقال الرابع : كذبت ، هو عبد اللّه ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا ، فظهروا على المسلمين ، فذلك قول اللّه سبحانه : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ [آل عمران : ٢١] قال قتادة : وهم الذين قال اللّه : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزابًا ، فاختصم القوم ، فقال المرء المسلم : أنشدكم باللّه هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن اللّه لا يطعم ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن اللّه لا ينام ؟ قالوا :اللهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم ، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أسمع بهم وأبصر﴾ يقول الكفار يومئذ : أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ يوم يأتوننا ﴾ قال : ذلك يوم القيامة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون إليه ، فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ الآية ، وأشار بيده وقال : «أهل الدنيا فى غفلة » (١) . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه (٢). وأخرج ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال: يوم الحسرة : هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ [الزمر : ٥٦] وعلى هذا ضعيف ، والآية التى استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٣٠) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩/ ٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١٥٦) وقال: « حسن صحيح » .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٣٦) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾.

قوله : ﴿ **واذكر** ﴾ معطوف على « وأنذر » والمراد بذكر الرسول إياه فى الكتاب : أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء: ٦٩] ، وجملة : ﴿**إنه كان صديقا نبيا** ﴾ تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول اللّه ﷺ بأن يذكره، وهى معترضة ما بين البدل والمبدل منه، والصديق: كثير الصدق ، وانتصاب ﴿ **نبيا** ﴾ على أنه خبر آخر لكان ، أى اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين ، و ﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ، وأبو إبراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره ، والتاء فى ﴿ **يا أبت** ﴾ عوض عن الياء ، ولهذا لا يجتمعان ، والاستفهام فى ﴿ **لم تعبد** ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿ **ما لا يسمع** ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿ **ولا يبصر** ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التى تفعلها مريدًا بها الثواب ، ويجوز أن يحمل نفى السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك ، أى لا يسمع شيئًا من المسموعات ، ولا يبصر شيئًا من المبصرات ﴿ **ولا يغنى عنك شيئا** ﴾ من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضررًا ، وهى الأصنام التى كان يعبدها آزر ، أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح ، وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه ، وامتثالا لأمر ربه .

ثم كرر دعوته إلى الحق فقال : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك** ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه ، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ، ويقتدربه على إرشاد الضال ، ولهذا أمره باتباعه فقال : ﴿ **فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ مستويا موصلا إلى المطلوب منجيًا من المكروه . ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾ أى لا تطعه ، فإن عبادة الأصنام هى من طاعة الشيطان ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم ، ومن أطاع من هو عاص للّه سبحانه فهو عاص للّه ، والعاصى حقيق بأن تسلب

عنه النعم وتحلّ به النقم . قال الكسائى : العصى والعاصى بمعنى واحد .

ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ **يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن** ﴾ قال الفراء : معنى أخاف هنا : أعلم . وقال الأكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره ، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازمًا بذلك لم يشتغل بنصحه ، ومعنى الخوف على الغير : هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿ **فتكون للشيطان وليا** ﴾ أى إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه فى النار واللعنة ، فتكون بهذا السبب مواليًا ، أو تكون بسبب موالاته فى العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف: ٦٧] . وقيل : الولى بمعنى التالى . وقيل : الولىّ بمعنى القريب ، أى تكون للشيطان قريبًا منه فى النار ، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة فقال : ﴿ **أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم** ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، والمعنى : أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره ؟ ثم توعده فقال : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ أى بالحجارة . وقيل : باللسان ، فيكون معناه لأشتمنك . وقيل : معناه لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك ﴿**واهجرنى مليا** ﴾ أى زمانًا طويلا . قال الكسائى : يقال : هجرته مليا وملوة وملاوة ، بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل ، ومنه قول مهلهل :

فتصدّعت صمّ الجبال لموته　　　وبكت عليه المرملات مليا

وقيل : معناه : اعتزلنى سالم العرض لا تصيبك منى معرة ، واختار هذا ابن جرير ، فمليا على هذا منتصب على الحال من إبراهيم ، وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ **قال سلام عليك** ﴾ أى تحية توديع ومتاركة كقوله : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وقيل : معناه : أمنة منى لك ، قاله ابن جرير . وإنما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله ، والأول أولى ، وبه قال الجمهور. وقيل : معناه الدعاء له بالسلامة ، استمالة له ورفقًا به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفًا له وطمعًا فى لينه وذهاب قسوته :

والشيخ لا يترك أخلاقه　　　حتى يوارى فى ثرى رمسه

وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال اللّه سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فلما تبين له أنه عدو للّه تبرأ منه ﴾ بعد قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : ١١٤] وجملة : ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ تعليل لما قبلها ؛ والمعنى سأطلب لك المغفرة من اللّه ، فإنه كان بى كثير البرّ واللطف، يقال :حفى به وتحفى : إذا بره . قال الكسائى :يقال :حفى بى حفاوة وحفوة . وقال الفراء : إنه كان بى حفيًا ، أى عالمًا لطيفًا يجيبنى إذا دعوته .

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾ أى أهاجر بدينى عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحى ولا نجعت فيكم دعوتى ﴿ **وأدعو ربى** ﴾ وحده ﴿ **عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾ أى خائبًا . وقيل : عاصيًا . قيل : أراد بهذا الدعاء : هو أن يهب اللّه له ولدًا وأهلا يستأنس بهم فى اعتزاله ويطمأن إليهم عند وحشته . وقيل : أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ، والأول أولى لقوله : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ أى جعلنا هؤلاء الموهوبين له ، أهلا وولدًا بدل الأهل الذين فارقهم ﴿ **وكلا جعلنا نبيا** ﴾ أى كل واحد منهما، وانتصاب﴿ **كلا** ﴾ على أنه المفعول الأول لجعلنا قدّم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم ، أى كل واحد منهم جعلنا نبيا ، لا بعضهم دون بعض .

﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هى من باب الرحمة . وقيل : المراد بالرحمة هنا : المال . وقيل : الأولاد . وقيل : الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ لسان الصدق : الثناء الحسن ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لأرجمنك** ﴾ قال : لأشتمنك ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ قال : حينًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ قال : اجتنبنى سويا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى الآية قال : اجتنبنى سالمًا قبل أن تصيبك منى عقوبة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة: ﴿ **مليا** ﴾ : دهرًا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : سالمًا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ قال : لطيفًا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ قال : يقول : وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ قال : الثناء الحسن .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا

(٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا
(٥٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن
تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ
الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ
فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾ .

قفّى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلاه فى الشرف، وقدمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب ، أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿ **إنه كان مخلصا** ﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام ، أى جعلناه مختارًا وأخلصناه . وقرأ الباقون بكسرها ، أى أخلص العبادة والتوحيد للّه غير مراء للعباد ﴿ **إنه كان رسولا نبيا** ﴾ أى أرسله اللّه إلى عباده فأنبأهم عن اللّه بشرائعه التى شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبى بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى ، واللّه أعلم . وقال النيسابورى : الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء ، والنبى الذى ينبئ عن اللّه عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص ، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله فى طه: ﴿ رب هارون وموسى ﴾ [طه : ٧٠] انتهى .

﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن** ﴾ أى كلمناه من جانب الطور، وهوجبل بين مصر ومدين اسمه زبير ، ومعنى الأيمن : أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى ، فإن الشجرة كانت فى ذلك الجانب والنداء وقع منها ، وليس المراد : يمين الجبل نفسه . فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . وقيل : معنى الأيمن : الميمون ، ومعنى النداء : أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿ **وقربناه نجيا** ﴾ أى أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجى بمعنى المناجى كالجليس والنديم ، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام ، مثلت حاله بحال من قربه منه الملك لمناجاته . قال الزجاج : قربه فى المنزلة حتى سمع مناجاته . وقيل : إن اللّه سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم . روى هذا عن بعض السلف .

﴿ **ووهبنا له من رحمتنا** ﴾ أى من نعمتنا ، وقيل : من أجل رحمتنا ، و﴿ **هارون** ﴾ عطف بيان ، و﴿ **نبيا** ﴾ حال منه ، وذلك حين سأل ربه قال : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ﴾ [طه : ٢٩ ، ٣٠] . ووصف اللّه سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهورًا بذلك مبالغًا فيه، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك ، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالى، حتى قيل : إنه انتظر لبعض من وعده حولا . والمراد بإسماعيل هنا : هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولم يخالف فى ذلك إلا

من لا يعتد به فقال : هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه اللّه إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره اللّه فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه . وقد استدل بقوله تعالى فى إسماعيل : ﴿**وكان رسولا نبيا**﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته . وقيل :إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾ قيل :المراد بأهله هنا أمته. وقيل : جرهم ، وقيل : عشيرته كما فى قوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . والمراد بالصلاة والزكاة هنا : هما العباداتان الشرعيتان ويجوز أن يراد : معناهما اللغوى ﴿ **وكان عند ربه مرضيا** ﴾ أى رضيا زاكيًا صالحًا . قال الكسائى والفراء : من قال مرضى ؛ بنى على رضيت ، قالا: وأهل الحجاز يقولون مرضوّ .

﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس** ﴾ اسم إدريس أخنوخ ، قيل : هو جد نوح ، فإن نوحًا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبى نوح .ذكره الثعلبى وغيره . وقد قيل : إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية . وهو أول من خط بالقلم ونظر فى النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب . قيل : وهو أول من أعطى النبوّة من بنى آدم . وقد اختلف فى معنى قوله: ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ فقيل : إن اللّه رفعه إلى السماء الرابعة. وقيل : إلى السادسة . وقيل: إلى الثانية وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث الإسراء وفيه : ومنهم إدريس فى الثانية (١) ، وهو غلط من رواية شريك بن عبد اللّه بن أبى نمر . والصحيح أنه فى السماء الرابعة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبىّ (٢) وقيل: إن المراد برفعه مكانًا عليا : ما أعطيه من شرف النبوّة . وقيل : إنه رفع إلى الجنة .

﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين** ﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، والموصول صفته ، و﴿ **من النبيين** ﴾ بيان للموصول ، و﴿ **من ذرية آدم** ﴾ بدل منه بإعادة الخافض . وقيل : إن « من » فى ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ للتبعيض ﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ أى من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس ، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ وهم الباقون ﴿ **وإسرائيل** ﴾ أى ومن ذرية إسرائيل ، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى . وقيل : إنه أراد بقوله : ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ إدريس وحده ، وأراد بقوله : ﴿**وممن حملنا مع نوح** ﴾ إبراهيم وحده ، وأراد بقوله : ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأراد بقوله : ﴿ **ومن ذرية إسرائيل** ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ **وممن هدينا** ﴾ أى من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ **واجتبينا** ﴾ بالإيمان ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ وهذا خبر لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿**الذين أنعم الله عليهم** ﴾ وهذا استئناف لبيان خشوعهم للّه وخشيتهم منه. وقد تقدم فى سبحان

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٢) .

(٢) مسلم فى الإيمان (١٦٢/ ٢٥٩) .

بيان معنى خرّوا سجدًا :يقال : بكى يبكى بكاء وبكيا . قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أى ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر:

بكت عينى وحق لها بكاها وما يغنى البكاء ولا العويل

و ﴿ **سجدا** ﴾ منصوب على الحال . قال الزجاج : قد بين اللّه أن الأنبياء إذا سمعوا آيات اللّه بكوا وسجدوا ، وقد استدل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة .

ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيبًا لغيرهم فى الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيرًا للناس عن طريقتهم فقال : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ أى عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير : خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر : خلف بسكون اللام ، وقد قدمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ قال الأكثر : معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها . وقيل : أضاعوا الوقت . وقيل : كفروا بها وجحدوا وجوبها . وقيل : لم يأتوا بها على الوجه المشروع . والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضًا من فروضها أو شرطًا من شروطها أو ركنًا من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو أحدها دخولا أوليا . واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقيل : فى اليهود . وقيل : فى النصارى . وقيل : فى قوم من أمة محمد ﷺ يأتون فى آخر الزمان ، ومعنى ﴿**واتبعوا الشهوات** ﴾ أى فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ الغى : هو الشر عند أهل اللغة ، كما أن الخير : هو الرشاد ، والمعنى : أنهم سيلقون شرا لا خيرا . وقيل : الغىّ : الضلال ، وقيل : الخيبة . وقيل :هو اسم وادٍ فى جهنم . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : سيلقون جزاء الغىّ ، كذا قال الزجاجّ ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ يلق أثاما ﴾ [الفرقان : ٦٨] . أى جزاء أثام .

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أى تاب مما فرط منه من تضييع الصلوات واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة اللّه وآمن به وعمل عملا صالحًا ، وفى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لا فى المسلمين ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر :« يدخلون » بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء ﴿ **ولا يظلمون شيئا** ﴾ أى لا ينقص من أجورهم شىء وإن كان قليلا، فإن اللّه سبحانه يوفى إليهم أجورهم . وانتصاب ﴿ **جنات عدن** ﴾ على البدل من الجنة ، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة . قال الزجاج : ويجوز « جنات عدن » بالرفع على الابتداء، وقرئ كذلك . قال أبو حاتم: لولا الخط لكان جنة عدن ، يعنى: بالإفراد ، مكان الجمع وليس هذا بشىء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس . وقرئ بنصب الجنات على المدح ، وقد قرئ جنة بالإفراد ﴿ **التى وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن و ﴿ **بالغيب** ﴾ فى محل نصب على الحال من الجنات ، أو من عباده ، أى متلبسة ، أو متلبسين بالغيب ، وقرئ : بصرف عدن ، ومنعها على أنها علم لمعنى

العدن وهو الإقامة ، أو علم لأرض الجنة ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ أى موعوده على العموم ، فتدخل فيه الجنات دخولا أوليا . قال الفراء : لم يقل آتيًا ، لأن كل ما أتاك فقد آتيته ، وكذا قال الزجاج .

﴿ **لا يسمعون فيها لغوا** ﴾ هو الهذر من الكلام الذى يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم، وقيل :اللغو: كل ما لم يكن فيه ذكر اللّه ﴿ **إلا سلاما** ﴾ هو استثناء منقطع : أى سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم . وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى : أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ قال المفسرون : ليس فى الجنة بكرة ولا عشية ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه . قرأ يعقوب : « نورث » بفتح الواو وتشديد الراء ، وقرأ الباقون بالتخفيف . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : نورث من كان تقيا من عبادنا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وكان رسولا نبيا** ﴾ قال : النبىّ الذى يكلم وينزل عليه ولا يرسل . ولفظ ابن أبى حاتم : الأنبياء الذين ليسوا برسل : يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد . والرسل : الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**جانب الطور الأيمن** ﴾ قال : جانب الجبل الأيمن ﴿ **وقربناه نجيا** ﴾ قال : نجا بصدقه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : قربه حتى سمع صريف القلم ، يكتب فى اللوح . وأخرجه الديلمى عنه مرفوعًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون** ﴾ قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن إنما وهب له نبوته .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ قال :كان إدريس خياطا وكان لا يغرز غرزة إلا قال :سبحان اللّه ، وكان يمسى حين يمسى وليس على الأرض أفضل عملا منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال : يارب ائذن لى فأهبط إلى إدريس ، فأذن له فأتى إدريس فقال : إنى جئتك لأخدمك ، قال : كيف تخدمنى وأنت ملك وأنا إنسان؟ ثم قال إدريس : هل بينك وبين ملك الموت شىء ؟ قال الملك: ذاك أخى من الملائكة، قال : هل تستطيع أن تنفعنى ؟ قال: أما يؤخر شيئًا أو يقدمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال : اركب بين جناحى ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا فلقى ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لى إليك حاجة ، قال : علمت حاجتك تكلمنى فى إدريس وقد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات

إدريس بين جناحي الملك [١] . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سألت كعبًا فذكر نحوه ، فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : رفع إدريس إلى السماء السادسة . وأخرج الترمذي وصححه، وابن المنذر وابن مردويه قال :حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة » [٢] . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال :رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : إدريس هو إلياس .وحسنه السيوطي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم** ﴾ إلى آخره ، قال : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ؛ أما من ذرية آدم : فإدريس ونوح ؛ وأما من حمل مع نوح فإبراهيم ؛ وأما ذرية إبراهيم : فإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب ؛ وأما ذرية إسرائيل : فموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال:هم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله في السماء . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ قال : ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه، ولكن إضاعتها :إذا لم يصلها لوقتها . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾ الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ ، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » [٣] وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن » قلت : يا رسول الله ، ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » ، قلت: ما أهل اللبن ؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات » [٤]. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ،والحاكم وصححه عن عائشة ؛

---

(١) ذكر الإمام ابن كثير ٤/ ٤٦٥، ٤٤٦ هذا الأثر ونحوه من رواية ابن أبي حاتم وابن جرير وقال : « هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات ، وفي بعضه نكارة ، والله أعلم » .

(٢) الترمذي في التفسير (٣١٥٧) .

(٣) أحمد ٣/ ٣٨ ، ٣٩ وابن حبان (٧٥٢) وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٤ وقال :« رواته حجازيون وشاميون أثبات » ، وقال الذهبي : «صحيح» والبيهقي في الشعب (٢٣٨٥) ورجاله موثقون غير شيخ الحاكم عبد الله بن إسحاق . قال الدارقطني : « فيه لين فلعله هو » .

(٤) أحمد ٤/ ١٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٤ووافقه الذهبي .

أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربريا ولا بربرية ، فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « هم الخلف الذين قال اللّه: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ »(١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ قال : خسرًا .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث من طرق عن ابن مسعود فى قوله: ﴿**فسوف يلقون غيا** ﴾ قال: الغىّ : نهر ، أو واد فى جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم ، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات . وقد قال بأنه واد فى جهنم البراء بن عازب . وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبرانى . وأخرج ابن جرير والطبرانى والبيهقى عن أبى أمامة قال :قال رسول اللّه ﷺ : « لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفًا ، ثم تنتهى إلى غىّ وأثام » ، قلت : وما غىّ وأثام ؟ قال : « نهران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر اللّه فى كتابه : ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾ » [الفرقان : ٦٨] (٢) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « الغى وادٍ فى جهنم » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **بكرة وعشيا** ﴾ قال : يؤتون به فى الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : قال رجل : يا رسول اللّه، هل فى الجنة من ليل ؟ قال : « وما هيجك على هذا؟» قال : سمعت اللّه يذكر فى الكتاب : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ فقلت : الليل من البكرة والعشى ، فقال رسول اللّه ﷺ : «ليس هناك ليل، وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدّو على الرواح والرواح على الغدّو، تأتيهم طرف الهدايا من اللّه لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة». وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات ، إلا (٣) أنه يزف إلى ولى اللّه فيها زوجة من الحور العين وأدناهنّ التى خلقت من الزعفران » قال بعد إخراجه : قال أبو محمد : هذا حديث منكر.

﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ**

---

(١) صحيح الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبى : « عبيد اللّه مختلف فى توثيقه ، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع » وقال ابن كثير : « هذا حديث غريب » .

(٢) ابن جرير ١٦/ ٧٥ والطبرانى (٧٧٣١) وقال ابن كثير ٤/ ٤٧٠ : « هذا حديث غريب ورفعه منكر » .

(٣) فى المطبوعة : « إلى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وما نتنزل** ﴾ أى قال اللّه سبحانه : قل يا جبريل : وما نتنزل، وذلك أن رسول اللّه ﷺ استبطأ نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر اللّه [1] قيل : احتبس جبريل عن رسول اللّه ﷺ أربعين يومًا. وقيل : خمسة عشر. وقيل : اثنى عشر. وقيل : ثلاثة أيام . وقيل : إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وأنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان ﴿ **إلا بأمر ربك** ﴾ والأوّل أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين : الأوّل : وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. والثانى : وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك ، والتنزّل : النزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبى ﷺ فقال : ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ أى من الجهات والأماكن ،أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة، وما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه ، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيئته. وقيل : المعنى : له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ، وهو ما بين النفختين . وقيل : الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض . وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التى نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : أن اللّه سبحانه هو المحيط بكل شىء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة ، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، وقال : ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ ولم يقل : وما بين ذينك ، لأن المراد : وما بين ما ذكرنا كما فى قوله سبحانه : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ أى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى : إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئًا . وقيل: المعنى : وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله .

﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى خالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر اللّه نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته** ﴾ والفاء للسببية لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدّى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾

(١) الترمذى (٣١٥٨) .

الاستفهام للإنكار. والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه فى العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق اللّه سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبنى على أن المراد بالسمى : هو الشريك فى المسمى . وقيل : المراد به : الشريك فى الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل : المعنى : إنه لم يسم شىء من الأصنام ولا غيرها باللّه قط، يعنى بعد دخول الألف واللام التى عوضت عن الهمزة ولزمت. وقيل : المراد : هل تعلم أحدًا اسمه الرحمن غيره ؟. قال الزجاج : تأويله واللّه أعلم : هل تعلم له سميا يستحق أن يقال له : خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ، وعلى هذا لا سمىّ للّه فى جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمى بشىء من أسمائه، فللّه سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفى العلم المستفاد من الإنكار هنا : نفى المعلوم على أبلغ وجه وأكمله .

﴿ **ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام ، وقرأ ابن ذكوان : « إذا ما مت » على الخبر، والمراد بالإنسان ها هنا : الكافر؛ لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث. وقيل : اللام فى الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض ، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم ، والمراد بقوله : ﴿ **أخرج** ﴾ أى من القبر، والعامل فى الظرف فعل دل عليه أخرج ، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها . ﴿ **أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخى ، والواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة قبلها ، والمراد بالذكر هنا : إعمال الفكر ، أى ألا يتفكر هذا الجاحد فى أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هى إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعًا واختراعًا، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾: قبل الحالة التى هو عليها الآن، وجملة: ﴿ **ولم يك شيئا** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئًا من الأشياء أصلا، فإعادته بعد أن كان شيئًا موجودًا أسهل وأيسر . قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبوجعفر وأهل الكوفة إلا عاصمًا : « أو لا يذكر » بالتشديد ، وأصله: يتذكر. وقرأ شيبة ونافع وعاصم وابن عامر «يذكر » بالتخفيف ، وفى قراءة أبى : « أو لا يتذكر » .

ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التى أجمع العقلاء على أنه لم يكن فى حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافًا إلى رسوله تشريفًا له وتعظيمًا، فقال : ﴿ **فوربك لنحشرنهم** ﴾ ومعنى ﴿ **لنحشرنهم** ﴾ لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والواو فى قوله: ﴿ **والشياطين** ﴾ للعطف على المنصوب ، أو بمعنى مع. والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم اللّه مع شياطينهم الذين أغروهم وأضلوهم ، وهذا ظاهر على جعل اللام فى الإنسان للعهد ، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد فى الجنس من يحشر مع شيطانه﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ الجثىّ جمع

جاث، من قولهم :جثا على ركبتيه يجثو جثوا ، وهومنتصب على الحال ، أى جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه:﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ [الجاثية : ٢٨] . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **جثيا** ﴾ : جماعات ، وأصله : جمع جثوة ، والجثوة هى : المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة :

أرى جثوتين من تراب عليهما   صفائح صم من صفيح منضد

﴿ **ثم لننزعن من كل شيعة** ﴾ : الشيعة : الفرقة التى تبعت دينًا من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشرى فقال: هى الطائفة التى شاعت: أى تبعت غاويًا من الغواة قال اللّه تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] . ومعنى : ﴿ **أيهم أشد على الرحمن عتيا** ﴾ من كان أعصى للّه وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغى والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم . والعتى ها هنا مصدركالعتو، وهو التمرّد فى العصيان. وقيل : المعنى : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشرّ. وقد اتفق القراء على قراءة ﴿ **أيهم** ﴾ بالضم إلا هارون الغازى فإنه قرأها بالفتح . قال الزجاج :فى رفع أيهم ثلاثة أقوال : الأوّل : قول الخليل بن أحمد : إنه مرفوع على الحكاية، والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم : أيهم أشد. وأنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر :

وقد أبيت من الفتاة بمنزل   فأبيت لا حرج ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له : هو لا حرج ولا محروم. قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق ، يعنى الزجاج، يختار هذا القول ويستحسنه. القول الثانى : قول يونس : وهو أن ﴿**لننزعن** ﴾ بمنزلة الأفعال التى تلغى وتعلق. فهذا الفعل عنده معلق عن العمل فى أى، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه . القول الثالث : قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبنى على الضم ، لأنه خالف أخواته فى الحذف ، وقد غلط سيبويه فى قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج : ما تبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما ، وللنحويين فى إعراب « أيهم » هذه فى هذا الموضع كلام طويل .

﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾ يقال : صلى يصلى صليا مثل مضى الشىء يمضى مضيا. قال الجوهرى : يقال صليت الرجل نارًا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصليته تصلية ومنه : ﴿ ويصلى سعيرا﴾ [الانشقاق :١٢] ومن خفف فهومن قولهم : صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق ، قال اللّه تعالى : ﴿ **الذين هم أولى بها صليا** ﴾ قال العجاج :

والله لولا النار أن تصلاها

ومعنى الآية : أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتيا هم أولى بصليها ، أو صليهم أولى بالنار .

﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتا ، أى ما منكم من أحد إلا واردها ، أى واصلها . وقد اختلف الناس فى هذا الورود. قيل : الورود: الدخول ويكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورود هو : المرور على الصراط. وقيل : ليس الورود الدخول إنما هو كما يقول : وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء:١٠١] قالوا: فلا يدخل النار من ضمن اللّه أن يبعده عنها، ومما يدّل على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : ٢٣] فإن المراد : أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقًا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو : المرور على الصراط، أوالورود على جهنم وهى خامدة فيه، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدًا من عذابهما ، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط ﴿ **كان على ربك حتما مقضيا** ﴾ أى كان ورودهم المذكور أمرًا محتومًا قد قضى سبحانه أنه لابد من وقوعه لا محالة. وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على اللّه، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه.

﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ أى اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر باللّه ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به. قرأ عاصم والجحدرى ومعاوية بن قرة : « ننجى » بالتخفيف من أنجى، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائى، وقرأ الباقون بالتشديد ، وقرأ ابن أبى ليلى : « ثم نذر » بفتح الثاء من ثم ، والمراد بالظالمين : الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض، والجثى جمع جاث، وقد تقدم قريبًا تفسير الجثى وإعرابه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ لجبريل :« ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ إلى آخر الآية [(١)] . وزاد ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وكان ذلك الجواب لمحمد . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال : سئل رسول اللّه ﷺ :أى البقاع أحب إلى اللّه ، وأيها أبغض إلى اللّه ؟ قال :

---

(١) البخارى فى التفسير(٤٧٣١) والترمذى فى التفسير (٣١٥٨) وقال: « حديث حسن غريب » .

«ما أدرى حتى أسأل » ، فنزل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه ، فقال : « لقد أبطأت على حتى ظننت أن بربى على موجدة » ، فقال : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل على النبى ﷺ أربعين يومًا ثم نزل، فقال له النبى ﷺ : « ما نزلت حتى اشتقت إليك » ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أشوق ، ولكنى مأمور، فأوحى اللّه إلى جبريل أن قل له: ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وهو مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على رسول اللّه ﷺ ، ثم أتاه جبريل فقال له : « ما حبسك عنى ؟ » قال : وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستاكون ؟ وقرأ : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وهو مرسل أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **له ما بين أيدينا** ﴾ قال من أمر الآخرة ﴿ **وما خلفنا** ﴾ قال : من أمر الدنيا ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ قال : ما بين الدنيا والآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ قال: ما بين النفختين. وأخرج ابن المنذر عن أبى العالية مثله . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى والبيهقى، والحاكم وصححه عن أبى الدرداء رفع الحديث قال : « ما أحل اللّه فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا » ثم تلا : ﴿ **وما كان ربك نسيا**﴾ (١) .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ قال : هل تعرف للربّ شبهًا أو مثلا. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عنه :﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره . وأخرج ابن مردويه عنه أيضًا فى الآية قال : يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ويقول الإنسان** ﴾ قال : العاص بن وائل، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جثيا** ﴾ قال : قعودًا، وفى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : معصية. وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : عصيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم لننزعن** ﴾ قال : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم فى الشر. وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود قال : نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا، ثم قرأ : ﴿ **فوربك لنحشرنهم**﴾ إلى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾

---

(١) البيهقى ١٠/ ١٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٥ ووافقه الذهبى .

قال : يقول : إنهم أولى بالخلود فى جهنم . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا :يدخلونها جميعًا ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له ، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول :« لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجًا من بردها . ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ » (١) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس ، فقال ابن عباس : الورود : الدخول، وقال نافع : لا، فقرأ ابن عباس : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وقال : وردوا أم لا ؟ وقرأ : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود : ٩٨] أوردوا أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها. وأخرج هناد والطبرانى عنه فى الآية قال: ورودها الصراط. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى وابن الأنبارى وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ: « ليرد الناس كلهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولّهم كلمح البرق، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشدّ الرحل . ثم كمشيه » (٢) وقد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ يقول : « مجتاز فيها » .

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية » ، قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قالت : ألم تسمعيه يقول : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ (٣). وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم » ثم قرأ سفيان : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ (٤) . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه، وأبو يعلى والطبرانى وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « من حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعًا لا يأخذه سلطان ؛ لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ **وإن منكم**

---

(١) أحمد ٣/ ٣٢٩ وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٧ عن ابن مسعود ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨ : «رجاله ثقات » والبيهقى فى الشعب (٣٦٤) وقال : « هذا إسناد حسن ذكره البخارى فى التاريخ » .

(٢) أحمد ١/ ٤٣٣ والترمذى فى التفسير (٣١٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب بمعناه موقوفًا ٢/ ٣٥٧ .

(٣) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٦/ ١٦٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨١).

(٤) البخارى فى الجنائز (١٢٥١) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٢/ ١٥٠) وأحمد ٢/ ٢٣٩، ٢٤٠ .

إلا واردها ﴾ »(١) والأحاديث فى تفسير هذه الآية كثيرة جدًا. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حتما مقضيا** ﴾ قال : قضاء من اللّه. وأخرج الخطيب فى تالى التلخيص عن عكرمة حتمًا مقضيا قال : قسمًا واجبًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ قال : باقين فيها .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾ .

الضمير فى ﴿ **عليهم** ﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم فى قوله :﴿ **أئذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ أى هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا، وقالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أطيب من حالنا ، ولم يكن بالعكس ، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه ويعزّ أعداءه ، ومعنى البينات : الواضحات التى لا تلتبس معانيها. وقيل : ظاهرات الإعجاز. وقيل : إنها حجج وبراهين، والأوّل أولى . وهى حال مؤكدة لأن آيات اللّه لا تكون إلا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله : ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم . وقيل : المراد بالذين كفروا هنا : هم المتمردون المصرون منهم ، ومعنى قالوا ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ : قالوا لأجلهم. وقيل :هذه اللام هى لام التبليغ كما فى قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ [البقرة : ٢٤٧] أى خاطبوهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ المراد بالفريقين : المؤمنون والكافرون ، كأنهم قالوا : أفريقنا خير أم فريقكم ، قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مقامًا » بضم الميم ، وهو موضع الإقامة ، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإقامة ، قرأ الباقون بالفتح ، أى منزلا ومسكنًا . وقيل : المقام : الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة، والمعنى : أى الفريقين أكبر جاهًا وأكثر أنصارًا وأعوانًا، والندى والنادى : مجلس القوم ومجتمعهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تأتون فى ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت : ٢٩] وناداه : جالسه فى النادى، ومنه

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ وأبو يعلى (١٤٩٠) وإسناده ضعيف ؛ فيه رشدين بن سعد وزبان بن فائد ، والطبرانى ٢٠ / ١٨٥ (٤٠٢) .

دار الندوة ؛ لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم، ومنه أيضًا قول الشاعر :

أنادى به آل الوليد وجعفرا

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ القرن : الأمة والجماعة ﴿ **هم أحسن أثاثا ورئيا** ﴾ الأثاث : المال أجمع ، الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع. وقيل : هو متاع البيت خاصة. وقيل : هو الجديد من الفرش. وقيل : اللباس خاصة. واختلفت القراءات فى : ﴿ **ورئيا** ﴾ ، فقرأ أهل المدينة وابن ذكوان : « وريا » بياء مشدّدة ، وفى ذلك وجهان : أحدهما : أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء فى الياء والمعنى على هذه القراءة : هم أحسن منظرًا وبه قول جمهور المفسرين ، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس ، أو حسن الأبدان وتنعمها ، أو مجموع الأمرين . وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير : « ورئيًا » وحكاها ورش عن نافع وهشام عن ابن عامر، ومعناها معنى بالقراءة الأولى. وقال الجوهرى : من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا   بذى الرئى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز : إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريًا، أى امتلأت وحسنت. وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى. وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل : إن هذه القراءة غلط ، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالزاى مكان الراء، وروى مثل ذلك عن أبى بن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكى واليزيدى. والزى : الهيئة والحسن. وقيل : ويجوز أن يكون من زويت : أى جمعت، فيكون أصلها : زويا، فقلبت الواو ياء، والزى : محاسن مجموعة .

﴿ **قل من كان فى الضلالة** ﴾ أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية، أى من كان مستقرًا فى الضلالة ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : ٣٧] أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ [آل عمران :١٧٨] وقيل: المراد بالآية : الدعاء بالمد والتنفيس. قال الزجاج : تأويله : أن اللّه جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها ، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول : أفعل ذلك وآمر به نفسى ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون** ﴾ يعنى الذين مد لهم فى الضلالة، وجاء بضمير الجماعة اعتبارًا بمعنى من، كما أن قوله: ﴿ **كان فى الضلالة فليمدد له** ﴾ اعتبار بلفظها،وهذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿ **إما العذاب**

وإما الساعة﴾ هذا تفصيل لقوله : ﴿ **ما يوعدون** ﴾ أى هذا الذى توعدون هو أحد أمرين: إما العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخروى ﴿**فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو جواب على المفتخرين ، أى هؤلاء القائلون : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين ، أو الأخروى ، فسيعلمون عند ذلك من هو شر مكانًا من الفريقين ، وأضعف جندًا منهما ، أي أنصارًا وأعوانًا . والمعنى : أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكانًا لا خير مكاناً، وأضعف جندًا لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين؛ وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندًا ضعفاء ، بل لا جند لهم أصلا كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون اللّه وما كان منتصرا ﴾ [الكهف : ٤٣] .

ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال : ﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ وذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير . وقيل : المراد بالزيادة : العبادة من المؤمنين ، والواو فى ﴿ **ويزيد** ﴾ للاستئناف ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين . وقيل : الواو للعطف على ﴿ **فليمدد** ﴾ . وقيل : للعطف على جملة ﴿ **من كان فى الضلالة** ﴾. قال الزجاج : المعنى : أن اللّه يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينًا كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم فى ضلالتهم ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا** ﴾ هى الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيرًا عند اللّه ثوابًا : أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿ **وخير مردا** ﴾ المردّ هاهنا مصدر كالردّ، والمعنى : وخير مردًا للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها، والمردّ : المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلا .

ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال : ﴿**أفرأيت الذى كفر بآياتنا** ﴾ أى أخبرنى بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث أولئك، وإنما استعملوا أرأيت بمعنى أخبر، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية ومن جملتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام، أى أنظرت فرأيت، واللام فى ﴿ **لأوتين مالا وولدا** ﴾ هى الموطئة للقسم، كأنه قال : واللّه لأوتين فى الآخرة مالا وولدًا، أى انظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على اللّه مع كفره به وتكذيبه بآياته .

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال:﴿ **أطلع** ﴾ على ﴿ **الغيب** ﴾ أى أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين . وقيل : المعنى : أنظر فى اللوح المحفوظ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهدًا ؟ وقيل : معنى ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ : أم قال : لا إله إلا

اللّه فأرحمه بها. وقيل : المعنى : أم قدّم عملا صالحًا فهو يرجوه. واطلع مأخوذ من قولهم : اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش : « وولدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها ، فقيل : هما لغتان معناهما واحد، يقال : ولد وولد كما يقال : عدم وعُدم ، قال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشرًا ... قد ثمروا مالا وولدًا

وقال آخر :

فليت فلانًا كان فى بطن أمه ... وليت فلانًا كان ولد حمار

وقيل : الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله : ﴿ **لأوتين مالا وولدا** ﴾ أنه يؤتى ذلك فى الدنيا. وقال جماعة : فى الجنة، وقيل : المعنى : إن أقمت على دين آبائى لأوتين . وقيل : المعنى : لو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدًا .

﴿ **كلا سنكتب ما يقول** ﴾ : « كلا » حرف ردع وزجر، أى ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد ، سيكتب ما يقول : أى سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه فى الآخرة ، أو سنظهر ما يقول ، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ **ونمد له من العذاب مدا** ﴾ أى نزيده عذابًا فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أو نطول له من العذاب ما يستحق وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء . ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ أى نميته فنرثه المال والولد الذى يقول إنه يؤتاه. والمعنى : مسمى ما يقول ومصداقه. وقيل : المعنى نحرمه ما تمناه ونعطيه غيره . ﴿ **ويأتينا فردا** ﴾ أى يوم القيامة لا مال له ولا ولد ،بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع فى أن نؤتيه. وقيل : المراد بما يقول : نفس القول لا مسماه ، والمعنى : إنما يقول هذا القول ما دام حيا ، فإذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خير مقاما** ﴾ قال : المنازل ﴿ **وأحسن نديا** ﴾ قال : المجالس ، وفى قوله : ﴿ **أحسن أثاثا** ﴾ قال : المتاع والمال ﴿ **ورئيا** ﴾ قال : المنظر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ : فليدعه اللّه فى طغيانه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى حرف أبى : « قل من كان فى الضلالة فإنه يزيده اللّه ضلالة » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما فى قوله : ﴿ **أفرأيت الذى كفر** ﴾ من حديث خباب بن

الأرت قال : كنت رجلا قينًا وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت : والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله فيه هذه الآية [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : لا إله إلا الله يرجو بها. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ قال : ماله وولده .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ .

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه، وتألوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل يتعززون بذلك. قال الهروى : معنى ﴿ **ليكونوا لهم عزا** ﴾ : ليكونوا لهم أعوانًا. قال الفراء : معناه : ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة. وقيل : معناه : ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها . ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، والضمير فى الفعل إما للآلهة ، أى ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه ، لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك، وإما للمشركين ، أى سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] وقوله : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ [النحل : ٨٦] ويدل على الوجه الثانى قوله تعالى :﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] وقرأ ابن أبى نهيك : « كلا » بالتنوين ، وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها ، فعلى الضم هى بمعنى جميعًا ، وانتصابها بفعل مضمر ، كأنه قال : سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم ، وعلى الفتح يكون مصدرًا لفعل محذوف تقديره : كل هذا الرأى كلا،

---

(١) أحمد ٥ / ١١٠ ، ١١١ والبخارى فى التفسير (٤٧٣٢) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٥ / ٣٥) .

وقراءة الجمهور هى الصواب ، وهى حرف ردع وزجر ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أى تكون هذه الآلهة التى ظنوها عزا لهم ضدًا عليهم ، أى ضدا للعز وضد العز : الذّل ، هذا على الوجه الأول . وأما على الوجه الثانى فيكون المشركون للآلهة ضدا وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها.

﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين** ﴾ ذكر الزجاج فى معنى هذا وجهين: أحدهما : أن معناه: خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم (١) منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : ٦٥] الوجه الثانى: أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم قال :﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ﴾ [الزخرف : ٣٦] فمعنى الإرسال ها هنا : التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ [الإسراء:٦٤] ويؤيد الوجه الثانى تمام الآية ، وهو﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ فإن الأز والهز والاستفزاز معناه: التحريك والتهييج والإزعاج ، فأخبر اللّه سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم ، وذلك هو التسليط لها عليهم . وقيل : معنى الأز: الاستعجال ، وهو مقارب لما ذكرنا ؛ لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول اللّه ﷺ من حالهم ، وللتنبيه له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، وجملة :﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام ،كأنه قيل : ماذا تفعل الشياطين بهم ؟

﴿ **فلا تعجل عليهم** ﴾ بأن تطلب من اللّه إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر، وعنادهم للحق ، وتمردهم عن داعى اللّه سبحانه. ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله : ﴿ **إنما نعد لهم عدا**﴾ يعنى نعد الأيام والليالى والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم . وقيل : نعدّ أنفاسهم . وقيل : خطواتهم . وقيل : لحظاتهم . وقيل : الساعات. وقال قطرب : نعد أعمالهم . وقيل : المعنى : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثمًا .

ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر، أى اذكر يا محمد يوم الحشر. وقيل: منصوب بالفعل الذى بعده ، ومعنى حشرهم إلى الرحمن : حشرهم إلى جنته ودار كرامته ، كقوله : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى ﴾ [الصافات:٩٩] والوفد جمع وافد ، كالركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب، يقال : وفد يفد وفدًا إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهرى. ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا** ﴾ السوق : الحث على السير، والورد: العطاش، قاله الأخفش وغيره. وقال الفراء وابن الأعرابى :هم المشاة، وقال الأزهرى : هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء. وقيل: ﴿ **وردا** ﴾ أى للورد، كقولك : جئتك إكرامًا، أى

---

(١) فى المطبوعة : « فلم نعصهم » والصواب ما أثبتناه .

للإكرام. وقيل: أفرادًا. قيل: ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشًا أفرادًا، وأصل الورد: الجماعة التى ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك . والورد : الماء الذى يورد.

وجملة : ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور، والضمير فى ﴿ **يملكون** ﴾ راجع إلى الفريقين. وقيل : للمتقين خاصة. وقيل : للمجرمين خاصة، والأول أولى. ومعنى ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ : أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم. وقيل : لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، والأوّل أولى ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول : أى لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنًا متقيًا، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله. وقيل : معنى اتخاذ العهد : أن الله أمره بذلك كقولهم : عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به . وقيل : معنى اتخاذ العهد : شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل غير ذلك. وعلى الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل « من » فى ﴿ **من اتخذ** ﴾ الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء. وأما على الوجه الثانى: فالاستثناء منقطع ؛ لأن التقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ وهم المسلمون. وقيل هو متصل على هذا الوجه أيضًا، والتقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلمًا .

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ولدًا » بضم الواو وإسكان اللام ، وقرأ الباقون فى المواضع الأربعة المذكورة فى هذه السورة بفتح الواو واللام . وقد قدمنا الفرق بين القراءتين . والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، وفى قوله : ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإد كما قال الجوهرى : الداهية والأمر الفظيع، وكذلك الإدة، وجمع الإدة إدد، يقال : أدت فلانًا الداهية تؤده أدا بالفتح . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى :« أدًا » بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ ابن عباس وأبو العالية : «آدًا » مثل مادا، وهى مأخوذة من الثقل ، يقال : آده الحمل يؤوده : إذا أثقله. قال الواحدى: ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ أى عظيمًا فى قول الجميع ، ومعنى الآية : قلتم قولا عظيمًا. وقيل : الإد : العجب ، والإدة : الشدة ، والمعنى متقارب، والتركيب يدور على الشدة والثقل .

﴿ **يكاد السموات يتفطرن منه** ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص (١) ويحيى بن وثاب « يكاد » بالتحتية، وقرأ الباقون بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص « يتفطرن » بالتاء الفوقية، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل ﴿ **ينفطرن** ﴾ بالتحتية (٢) من الانفطار ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار :١] ،وقوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ [المزمل : ١٨] وقرأ ابن مسعود : « يتصدعن » والانفطار والتفطر : التشقق ﴿**وتنشق الأرض** ﴾ أى وتكاد أن تنشق الأرض ، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق

---

(١) المعروف عن حفص بالتاء.
(٢) كذا والصواب : « بالنون ».

معناهـا واحـد ﴿ **وتخر الجبال** ﴾ أى تسقط وتنهدم. وانتصاب ﴿ **هدا** ﴾ على أنه مصدر مؤكد؛ لأن الخرور فى معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدّر، أى وتنهد هدا، أو على الحال أى مهدودة ، أو على أنه مفعول له ، أى لأنها تنهد. قال الهروى: يقال : هدنى الأمر وهدّ ركنى، أى كسرنى وبلغ منى. قال الجوهرى : هدّ البناء يهدّه هدا كسره وضعضعه، وهدته المصيبة أوهنت ركنه ، وانهد الجبل ،أى انكسر، والهدة: صوت وقع الحائط ، كما قال ابن الأعرابى ، ومحل ﴿ **أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ الجرّ بدلا من الضمير فى ﴿**منه** ﴾ وقال الفراء : فى محل نصب بمعنى لأن دعوا . وقال الكسائى : هو فى محل خفض بتقدير الخافض. وقيل : فى محل رفع على أنه فاعل ﴿ **هدا** ﴾ والدعاء بمعنى التسمية ، أى سموا للرحمن ولدًا، أو بمعنى النسبة أى نسبوا له ولدًا .

﴿ **وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا** ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه ؛ لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث، والجملة فى محل نصب على الحال، أى قالوا اتخذ الرحمن ولدًا، أو أن دعوا للرحمن ولدًا، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك. ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض** ﴾ أى ما كل من فى السموات والأرض ﴿ **إلا** ﴾ وهو ﴿ **آتى** ﴾ الله يوم القيامة مقرًا بالعبودية خاضعًا ذليلا كما قال : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ [النمل : ٧٨] أى صاغرين. والمعنى : أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولدًا له؟ وقرئ : « آت » على الأصل. ﴿ **لقد أحصاهم** ﴾ أى حصرهم وعلم عددهم ﴿ **وعدهم عدا** ﴾ أى عد أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهـم . ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ أى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردًا لا ناصر له ولا مال معه، كما قال سبحانه :﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ [الشعراء: ٨٨] .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ قال أعوانًا. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ **ضدا** ﴾ قال : حسرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : ﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ : تغويهم إغواء. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**تؤزهم أزا** ﴾ قال : تحرّض المشركين على محمد وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال :تزعجهم إزعاجًا إلى معاصى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس : ﴿ **وفدا** ﴾ قال : ركبانًا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أبى هريرة ﴿ **وفدا** ﴾ قال : على الإبل . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا» (١) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدًا.

---

(١) البخارى فى الرقاق (٦٥٢٢) ومسلم فى الجنة (٢٨٦١/٥٩) والنسائى فى الجنائز ٤/ ١١٤.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس: ﴿ **وردا**﴾ قال : عطاشًا. وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وتبرأ من الحول والقوّة ، ولا يرجو إلا اللّه. وأخرج ابن مردويه عنه فى الآية قال : من مات لا يشرك باللّه شيئًا دخل الجنة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ :﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : إن اللّه يقول يوم القيامة : من كان له عندى عهد فليقم ، فلا يقوم إلا من قال هذا فى الدنيا، قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عملى تقربنى من الشرّ وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لى عندك عهدًا تؤديه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من أدخل على مؤمن سرورًا فقد سرنى، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدًا، ومن اتخذ عند الرحمن عهدًا فلا تمسه النار، إن اللّه لا يخلف الميعاد ». وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول اللّه ﷺ :« من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئًا جاء وله عند اللّه عهد ألا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئًا فليس له عند اللّه عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » (١).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ قال : قولا عظيمًا، وفى قوله : ﴿ **يكاد السموات** ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة اللّه سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك يرجو أن يغفر اللّه ذنوب الموحدين، وفى قوله: ﴿ **وتخر الجبال هدا** ﴾ قال : هدمًا. وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة، وأحمد فى الزهد، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى والبيهقى فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادى الجبل باسمه ، يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر اللّه ؟ فإذا قال : نعم ، استبشر . قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير؟ هن للخير أسمع ، وقرأ : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ الآيات .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ .

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٩٧، ٢٩٨: « رواه الطبرانى فى الأوسط وقال : لم يروه عن محمد بن عمرو إلا عيسى بن واقد ، قلت : ولم أجد من ذكره »، والحديث عن عائشة .

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ أى حبًا فى قلوب عباده، يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التى توجب ذلك، كما يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب ، والسين فى : ﴿ **سيجعل** ﴾ للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية. وقرئ :« ودًا » بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصًا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾ أى يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل:بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿ **فإنما يسرناه**﴾ الآية . ثم علل ما ذكره من التيسير فقال : ﴿ **لتبشر به المتقين** ﴾ أى المتلبسين بالتقوى ، المتصفين بها ﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ اللد :جمع الألد ،وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **ألد الخصام** ﴾ [البقرة : ٢٠٤] قال الشاعر :

أبيت نجيًا للهموم كأننى ... أخاصم أقوامًا ذوى جدل لدًا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدّعى الباطل. وقيل: اللد : الصم . وقيل : الظلمة. ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس، وفى هذا وعد لرسول اللّه ﷺ بهلاك الكافرين ووعيد لهم ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، أى هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿ **أو تسمع لهم ركزا** ﴾ الركز : الصوت الخفى، ومنه ركز الرمح : إذا غيب طرفه فى الأرض . قال طرفة :

وصادفتها سمع التوجس للسرى ... لركز خفى أو لصوت مفند

وقال ذو الرمة :

إذا توجس ركزًا مقفر ندس ... بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى فى استماعه كذب بل هو صادق الاستماع، والندس : الحاذق ، والنبأة : الصوت الخفى.

وقال اليزيدى وأبو عبيدة : الركز : ما لا يفهم من صوت أو حركة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أنه لما هاجر إلى المدينة وجد فى نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، فأنزل اللّه : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ الآية (١). قال ابن كثير : وهو خطأ، فإن السورة مكية بكمالها لم ينزل شيء منها بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى على بن أبى طالب: ﴿ **إن الذين آمنوا**

(١) ابن جرير ١٦/١٠١.

وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ قال : محبة فى قلوب المؤمنين [١]. وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول اللّه ﷺ لعلى : « قل : اللهم اجعل لى عندك عهدًا ، واجعل لى عندك ودًا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » ، فأنزل اللّه الآية فى علىّ [٢] . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ﴿ **ودا** ﴾ قال: محبة فى الناس فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى وابن مردويه عن على قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله : ﴿ **سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ ما هو ؟ قال : « المحبة الصادقة فى صدور المؤمنين » . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « إذا أحب اللّه عبدًا نادى جبريل : إنى قد أحببت فلانًا فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ وإذا أبغض اللّه عبدًا نادى جبريل إنى قد أبغضت فلانًا، فينادى فى أهل السماء ، ثم ينزل له البغضاء فى الأرض » [٣]. والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ قال : فجارًا. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : صمًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ قال : هل ترى منهم من أحد. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ركزا** ﴾ قال : صوتًا.

(١) الطبرانى (١٢٦٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨، ٥٩ : « فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف » .
(٢) الديلمى (١٩٣٢) .
(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم فى البر والصلة (١٥٧/٢٦٣٧) والترمذى فى التفسير (٣١٦١) وقال : «حديث حسن صحيح » .

تفسير سورة طـــه

هى مكية . وآياتها مائة وخمس وثلاثون آية . قال القرطبى : مكية فى قول الجميع . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة طه بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الدارمى ، وابن خزيمة فى التوحيد ، والعقيلى فى الضعفاء ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن عدىّ وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تكلمت بهذا » [١] . قال ابن خزيمة بعد إخراجه : حديث غريب ، وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما ، يعنى إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان وهما من رجال إسناده . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت السورة التى ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأوّل ، وأعطيت سورة طه والطواسين من ألواح موسى،وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة » . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئاً إلا سورة طه ويس ، فإنهم يقرؤون بهما فى الجنة». وأخرج الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك ، فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه ، وكان ذلك سبب إسلام عمر ، والقصة مشهورة فى كتب السير [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ

---

(١) الدارمى ٢/ ٤٥٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٩ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار وضعفه البخارى بهذا الحديث ووثقه ابن معين » والبيهقى فى الشعب (٢٢٢٥) وإسناده ضعيف .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٦٩ ـ ٣٧٦ .

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾.

قوله : ﴿ طه ﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبى إسحاق ، وأمالهما جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ الباقون بالتفخيم . قال الثعلبى : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . وقال النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : الأولى : أنه ليس هاهنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة . والعلة الثانية : أن الطاء من موانع الإمالة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الكلمة على أقوال : الأول : أنها من المتشابه الذى لا يفهم المراد به . والثانى: أنها بمعنى: يا رجل فى لغة عكل ، وفى لغة عك. قال الكلبى : لو قلت لرجل من عك : يا رجل ، لم يجب حتى تقول : طه، وأنشد ابن جرير فى ذلك :

دعوت بطه فى القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون موائلاً

ويروى مزايلاً . وقيل : إنها فى لغة عكّ بمعنى : يا حبيبى . وقال قطرب :هى كذلك فى لغة طىّ أى بمعنى : يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة . وقيل : هى كذلك فى اللغة السريانية ، حكاه المهدوى . وحكى ابن جرير أنها كذلك فى اللغة النبطية ، وبه قال السدّى وسعيد بن جبير . وحكى الثعلبى : عن عكرمة أنها كذلك فى لغة الحبشة ، ورواه عن عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى فى تلك اللغات كلها إذا صح النقل . القول الثالث : أنها اسم من أسماء الله سبحانه . والقول الرابع : أنها اسم للنبى ﷺ . القول الخامس : أنها اسم للسورة . القول السادس : أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى . ثم اختلفوا فى هذه المعانى التى تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة . القول السابع : أن معناها : طوبى لمن اهتدى . القول الثامن : أن معناها طأ الأرض يا محمد . قال ابن الأنبارى : وذلك أن النبى ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى التروح ، فقيل له : طأ الأرض ، أى لا تتعب حتى تحتاج إلى التروّح . وحكى القاضى عياض فى الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ يعنى : طأ الأرض يا محمد ، وحكى عن الحسن البصرى أنه قرأ : «طه» على وزن دع،أمر بالوطء ، والأصل : طأ ، فقلبت الهمزة هاء. وقد حكى الواحدى عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل ، يريد النبى ﷺ، قال : وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحّاك وقتادة ومجاهد وابن عباس فى رواية عطاء والكلبى غير أن بعضهم يقول : هى بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ، ويقول الكلبى : هى بلغة عك . قال ابن الأنبارى : ولغة قريش وافقت تلك اللغة فى هذا المعنى ؛ لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش . انتهى .

وإذا تقرر أنها لهذا المعنى فى لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التى قدّمنا بيان كونها من المتشابه فى فاتحة سورة البقرة ، وهكذا إذا كانت لهذا المعنى فى لغة من لغات العجم واستعملتها العرب فى كلامها فى ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التى استعملتها العرب الموجودة فى الكتاب العزيز ، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب .

وجملة : ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب ، والشقاء يجىء فى معنى التعب . قال ابن كيسان : وأصل الشقاء فى اللغة : العناء والتعب ، ومنه قول الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ، فهو كقوله سبحانه: ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ [الكهف: ٦] . قال النحاس : بعض النحويين يقول : هذه اللام فى :﴿ **لتشقى** ﴾ لام النفى ، وبعضهم يقول : لام الجحود . وقال ابن كيسان : هى لام الخفض ، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال : إن طه كسائر فواتح السور التى ذكرت تعديداً لأسماء الحروف ، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله : ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ خبراً عنها ، وهى فى موضع المبتدأ ، وأما على قول من قال : إن معناها : يا رجل ، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض ، فتكون الجملة مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة فى العبادة .

وانتصاب ﴿ **إلا تذكرة** ﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا ، كقولك :ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً عليك . وقال الزجاج: هو بدل من لتشقى ، أى ما أنزلناه إلا تذكرة . وأنكره أبو على الفارسى من جهة أن التذكرة ليست بشقاء ، قال : وإنما هو منصوب على المصدرية ، أى أنزلناه لتذكر به تذكرة ، أو على المفعول من أجله ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ، ما أنزلناه إلا للتذكرة .

وانتصاب ﴿ **تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى** ﴾ على المصدرية ، أى أنزلناه تنزيلاً. وقيل : بدل من قوله: ﴿ **تذكرة** ﴾ .وقيل : هو منصوب على المدح . وقيل : منصوب بـ﴿**يخشى** ﴾ أى يخشى تنزيلاً من الله على أنه مفعول به . وقيل : منصوب على الحال بتأويله باسم الفاعل . وقرأ أبو حيوة الشامى : « تنزيل » بالرفع على معنى هذا تنزيل، و﴿ **ممن خلق**﴾ متعلق بـ﴿ **تنزيلا** ﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له ، وتخصيص خلق الأرض والسموات ؛ لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عزّ وجلّ ، والعلى : جمع العليا ، أى المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر . ومعنى الآية : إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله .

وارتفاع ﴿ **الرحمن** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش ، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء . وقرئ بالجر ، قال الزجاج : على البدل ممن ، وجوز النحاس أن يكون مرتفعا على البدل من المضمر فى خلق ، وجملة : ﴿ **على العرش استوى** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ . قال أحمد بن يحيى ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء . وقيل: هو كناية عن الملك والسلطان ، والبحث فى تحقيق هذا يطول ، وقد تقدم البحث عنه فى الأعراف . والذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى: أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ ولا كيف ، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذى يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل .

﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ أى أنه مالك كل شيء ومدبره ﴿ **وما بينهما** ﴾ من الموجودات ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ الثرى فى اللغة : التراب النديّ ،أى ما تحت التراب من شيء. قال الواحدى : والمفسرون يقولون : إنه سبحانه أراد الثرى الذى تحت الصخرة التى عليها الثور الذى تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه . ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى** ﴾ الجهر بالقول: هو رفع الصوت به ، والسرّ : ما حدث به الإنسان غيره وأسره إليه ، والأخفى من السر : هو ما حدث به الإنسان نفسه وأخطره بباله . والمعنى : إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنى عن ذلك ، فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول ، وفى هذا معنى النهى عن الجهر ، كقوله سبحانه : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرّعا وخيفة ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]. وقيل : السر : ما أسر الإنسان فى نفسه ، والأخفى منه : هو ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه . وقيل : السر : ما أضمره الإنسان فى نفسه ، والأخفى منه : ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقيل السرّ : سر الخلائق ، والأخفى منه : سرّ الله عزّ وجلّ ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال : إن الأخفى : ما ليس فى سرّ الإنسان وسيكون فى نفسه .

ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى، فقال : ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ فالله خبر مبتدأ محذوف ، أى الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله ، وجملة : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه ، أى لا إله فى الوجود إلا هو ، وهكذا جملة :﴿ **له الأسماء الحسنى** ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى ، وهى التسعة والتسعون التى ورد بها الحديث الصحيح . وقد تقدم بيانها فى قوله سبحانه:﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ من سورة الأعراف [الآية : ١٨٠] . والحسنى تأنيث الأحسن ، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنى . ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التى بعده ،ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير فى يعلم.

ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال : ﴿ **وهل أتاك حديث موسى** ﴾ الاستفهام للتقرير ، ومعناه : أليس قد أتاك حديث موسى . وقيل : معناه : قد أتاك حديث موسى . وقال الكلبى : لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك . وفى سياق هذه القصة تسلية للنبى ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة ، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها ، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله. والمراد بالحديث : القصة الواقعة لموسى ، و﴿ **إذ رأى نارا** ﴾ ظرف للحديث . وقيل : العامل فيه مقدر ، أى اذكر . وقيل : يقدر مؤخراً ، أى حين رأى ناراً كان كيت وكيت ، وكانت رؤيته للنار فى ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استئذانه لشعيب ، فلما رآها ﴿ **قال لأهله امكثوا** ﴾ والمراد بالأهل هنا : امرأته ، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم . وقيل : المراد بهم : المرأة والولد والخادم ، ومعنى ﴿ **امكثوا** ﴾ : أقيموا مكانكم ، وعبر بالمكث دون الإقامة ؛ لأن الإقامة تقتضى الدوام، والمكث ليس كذلك . وقرأ حمزة : « لأهله » بضم الهاء ، وكذا فى القصص . قال النحاس : وهذا على لغة من قال : مررت بهو يا رجل ، فجاء به على الأصل وهو جائز ، إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة .

﴿ **إنى آنست نارا** ﴾ أى أبصرت ، يقال : آنست الصوت : سمعته ، وآنست الرجل : أبصرته . وقيل : الإيناس : الإبصار البين . وقيل : الإيناس مختص بإبصار ما يؤنس . والجملة تعليل للأمر بالمكث ، ولما كان الإتيان بالقبس ، ووجود الهدى متوقعين بنى الأمر على الرجاء ، فقال : ﴿ **لعلى آتيكم منها بقبس** ﴾ أى أجيئكم من النار بقبس . والقبس : شعلة من النار ، وكذا المقباس ، يقال : قبست منه أقبس ناراً قبساً فأقبسنى ، أى أعطانى وكذا اقتبست. قال اليزيدى : أقبست الرجل علماً وقبسته ناراً ، فإن كنت طلبتها له قلت : أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته ناراً وعلماً سواء ، قال : وقبسته أيضاً فيهما . ﴿ **أو أجد على النار هدى** ﴾ أى هادياً يهدينى إلى الطريق ويدلنى عليها . قال الفراء : أراد هادياً ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر ؛ لقصد المبالغة على حذف المضاف ، أى ذا هدى ، وكلمة :« أو » فى الموضعين لمنع الخلو دون الجمع ، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها .

﴿ **فلما أتاها نودى** ﴾ أى فلما أتى النار التى آنسها ﴿ **نودى** ﴾ من الشجرة ، كما هو مصرّح بذلك فى سورة القصص ، أى من جهتها ، ومن ناحيتها ﴿ **يا موسى . إنى أنا ربك** ﴾ أى نودى ، فقيل : يا موسى . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبوجعفر وابن محيصن وحميد واليزيدى : « أنى » بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بكسرها ، أى بأنى . ﴿ **فاخلع نعليك** ﴾ أمره الله سبحانه بخلع نعليه ؛ لأن ذلك أبلغ فى التواضع ، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب . وقيل : إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ . وقيل : معنى الخلع للنعلين : تفريغ القلب من الأهل والمال ، وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال ، ﴿ **إنك**

بالواد المقدس طوى ﴾ المقدس :المطهر . والقدس : الطهارة . والأرض المقدسة: المطهرة . سميت بذلك ؛ لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ، و ﴿ **طوى** ﴾ اسم للوادى . قال الجوهرى : وطوى : اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ، يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، وقرأ عكرمة : « طوى » بكسر الطاء ، وقرأ الباقون بضمها . وقيل : إن طوى كثنى من الطى مصدر لنودى ، أو للمقدس ، أى نودى نداءين ، أو قدس مرة بعد أخرى .

﴿ **وأنا اخترتك** ﴾ قرأ أهل المدينة ، وأهل مكة وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : ﴿ **وأنا اخترتك** ﴾ بالإفراد. وقرأ حمزة : « وإنا اخترناك » بالجمع . قال النحاس : والقراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما: أنها أشبه بالخط، والثانية: أنها أولى بنسق الكلام لقوله : ﴿ **يا موسى إنى أنا ربك** ﴾ ومعنى ﴿ **اخترتك** ﴾: اصطفيتك للنبوة والرسالة ،والفاء فى قوله : ﴿ **فاستمع لما يوحى** ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها و« ما » موصولة أو مصدرية ، أى فاستمع للذى يوحى إليك ، أو للوحى ، وجملة: ﴿ **إننى أنا الله** ﴾ بدل من ما فى: ﴿ **لما يوحى** ﴾ . ثم أمره سبحانه بالعبادة، فقال : ﴿ **فاعبدنى** ﴾ والفاء هنا كالفاء التى قبلها ؛لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ، ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ خص الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة ؛ لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة ، وعلل الأمر بإقامة الصلاة لقوله : ﴿**لذكرى** ﴾ أى لتذكرنى فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو المعنى : لتذكرنى فيهما لاشتمالهما على الأذكار، أو المعنى : أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة . وقيل : المعنى : لأذكرك بالمدح فى عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول .

وجملة : ﴿ **إن الساعة آتية** ﴾ تعليل ما قبلها من الأمر ، أى إن الساعة التى هى وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة .

ومعنى ﴿ **أكاد أخفيها** ﴾ : مختلف فيه . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسى ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشىء : كتمته حتى من نفسى ، أى لم أطلع عليه أحداً ؛ ومعنى الآية : أن الله بالغ فى إخفاء الساعة ، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب . وقد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ : « أخفيها » بفتح الهمزة ، ومعناه : أظهرها . وكذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير . قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا . قال القرطبى : وكذا رواه ابن الأنبارى فى كتاب الردّ قال : حدّثنى أبى ، حدثنا محمد بن الجهم ، حدّثنا الفراء حدّثنا الكسائى فذكره . قال النحاس : وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ :﴿ **أخفيها** ﴾ بضم الهمزة . قال ابن الأنبارى : قال الفراء : ومعنى قراءة الفتح:

أكاد أظهرها ، من خفيت الشيء: إذا أظهرته أخفيه . قال القرطبي: وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون : ﴿ أخفيها ﴾ بضم الألف معناه : أظهرها ؛ لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد . قال النحاس : وهذا حسن ، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر ، وذلك قول امرئ القيس :

فإن تكتموا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أى وإن تكتموا الداء لا نظهره. وقد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من نخفه ، وقال امرؤ القيس :

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عَشىّ مُجَلِّب

أى أظهرهن . وقد زيف النحاس هذا القول وقال : ليس المعنى : على أظهرها ، ولاسيما و« أخفيها » قراءة شاذة ، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة . وقال ابن الأنبارى : فى الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على : ﴿ أكاد ﴾ وبعده مضمر ، أى أكاد آتى بها ، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمى (١):

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

أى وكدت أفعل . واختار هذا النحاس . وقال أبو علىّ الفارسى : هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها : أزيل عنها خفاءها ، وهو سترها ، ومن هذا قولهم : أشكيته ، أى أزلت شكواه . وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن ﴿ أكاد ﴾ زائدة للتأكيد ، قال: ومثله : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ [النور : ٤٠] ، ومثله قول الشاعر :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه فمـا إن يكـاد قـرنه يتنفس

قال : والمعنى : أكاد أخفيها ؛ أى أقارب ذلك ، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم ، جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا. وقوله: ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآتية ، أو بأخفيها، و« ما » مصدرية ، أى لتجزى كل نفس بسعيها . والسعى وإن كان ظاهراً فى الأفعال، فهو هنا يعم الأفعال والتروك؛ للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به . ﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ، والتصديق بها ، أو عن ذكرها ومراقبتها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ من الكفرة ، وهذا النهى وإن كان للكافر بحسب الظاهر ، فهو فى الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد ، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، كما هو معروف . وقيل : الضمير فى : ﴿ عنها ﴾ للصلاة وهو بعيد ، وقوله: ﴿ واتبع هواه ﴾ معطوف على ما قبله ، أى من لا يؤمن ، ومن اتبع هواه: أى هوى نفسه بالانهماك فى اللذات الحسية الفانية ﴿ فتردى ﴾ أى

(١) هذا خطأ ، فالبيت لأبيه ضابئ بلا خلاف .

فتهلك ؛ لأن انصدادك عنها بصدّ الكفارين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له .

وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ : أول ما نزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿**طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾ (١) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : قالوا : لقد شقى هذا الرجل بربه ، فأنزل الله هذه الآية (٢). وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج البزار عن علىّ قال : كان النبى ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت :﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ وحسن السيوطى إسناده. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل الله : ﴿ **طه** ﴾ برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه فى قوله: ﴿ **طه** ﴾ قال : يا رجل . وأخرج الحارث ابن أبى أسامة وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **طه** ﴾ بالنبطية ، أى طأ يا رجل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : هو كقولك : اقعد . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : ﴿ **طه** ﴾ بالنبطية : يا رجل . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ **طه** ﴾ : يا رجل بالسريانية . وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال : ﴿ **طه** ﴾ هو كقولك : يا محمد بلسان الحبش . وفى هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتدافع . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى عند ربى عشرة أسماء»، قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية: محمد ، وأحمد ، وأبو القاسم ،والفاتح ، والخاتم ،والماحى، والعاقب ، والحاشر. وزعم سيف أن أبا جعفر قال له : الاسمان الباقيان طه ويس . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ قال : يا رجل ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وكان يقوم الليل على رجليه فهى لغة لعك إن قلت لعكى : يا رجل ، لم يلتفت، وإذا قلت : طه ، التفت إليك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ **طه** ﴾ قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ قال : الثرى : كل شىء مبتل . وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبى ﷺ سئل ما تحت هذه الأرض ؟ قال « الماء » قيل : فما تحت الماء ؟ قال : « ظلمة » قيل : فما تحت الظلمة؟ قال : « الهواء » قيل : فما تحت الهواء ؟ قال : « الثرى » قيل : فما تحت الثرى ؟ قال : « انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق» . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: و﴿ **يعلم السر وأخفى** ﴾ قال: السر :

---

(١) البيهقى فى الشعب (١٤١٦) وإسناده ضعيف ؛ لضعف محمد بن زياد اليشكرى .

(٢) ابن جرير ١٦/ ١٠٢ .

ما أسره ابن آدم فى نفسه ، وأخفى : ما خفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله ، فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد وجميع الخلائق عنده فى ذلك كنفس واحدة وهو كقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان : ٢٨] . وأخرج الحاكم وصححه عنه فى الآية قال : السرّ : ما علمته أنت ، وأخفى : ما قذف الله فى قلبك مما لم تعلمه . وأخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى بلفظ : يعلم ما تسرّ فى نفسك ويعلم ما تعمل غداً.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ يقول : من يدل على الطريق . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله : ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال : كانتا من جلد حمار ميت فقيل له : اخلعهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ قال المبارك ﴿طوى﴾ قال : اسم الوادى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ بالواد المقدس طوى ﴾ يعنى : الأرض المقدسة ، وذلك أنه مرّ بواديها ليلاً فطوى : يقال : طويت وادى كذا وكذا . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً فى قوله : ﴿ طوى ﴾ قال : طأ الوادى .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكرى﴾ » (١). وأخرج الترمذى وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿أقم الصلاة لذكرى ﴾ » (٢) وكان ابن شهاب يقرؤها : « للذكرى » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ أكاد أخفيها﴾ من نفسى .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي

---

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٩٧) ومسلم فى المساجد (٦٨٤/ ٣١٦) وأحمد ٣/ ١٨٤ .

(٢) الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٦٣) بمعناه ، وابن ماجة فى الصلاة (٦٩٧) وابن حبان (٢٦٤٢ ، ٢٦٤٣) بمعناه .

وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾ قال الزجاج والفراء : إن ﴿ **تلك** ﴾ اسم ناقص وصلت ﴿ **بيمينك** ﴾ أى ما التى بيمينك ؟ وروى عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ، ولو قال : ما ذلك لجاز ، أى ما ذلك الشيء ؟ وبالأوّل قال الكوفيون . قال الزجاج : ومعنى سؤال موسى عما فى يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها . قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هى عصاى لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هى فى الأزل ، ومحل: « ما » الرفع على الابتداء ، و﴿ **تلك** ﴾ خبره ، و﴿ **بيمينك** ﴾ فى محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ ، وإن كانت اسماً موصولاً كان ﴿ **بيمينك** ﴾ صلة للموصول .

﴿ **قال هى عصاى** ﴾ قرأ ابن أبى إسحاق : « عصى » على لغة هذيل. وقرأ الحسن : «عصاى » بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ﴿ **أتوكأ عليها** ﴾ أى أتحامل عليها فى المشى وأعتمدها عند الإعياء والوقوف ، ومنه الاتكاء . ﴿ **وأهش بها على غنمى** ﴾ هش بالعصا يهش هشاً : إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق . قال الشاعر :

أهش بالعصا على أغنامى من ناعم الأراك والبشام

وقرأ النخعى : « أهس » بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة . وقيل : هما لغتان لمعنى واحد ﴿ **ولى فيها مآرب أخرى** ﴾ أى حوائج ، واحدها مأربة ومَأْرَبَة ومَأْرُبُة مثلث الراء ، كذا قال ابن الأعرابى وقطرب ، ذكر تفصيل منافع العصا ، ثم عقبه بالإجمال .

وقد تعرّض قوم لتعداد منافع العصى ، فذكروا من ذلك أشياء منها قول بعض العرب : عصاى أركزها لصلاتى ، وأعدها لعداتى ، وأسوق بها دابتى ، وأقوى بها على سفرى ، وأعتمد بها فى مشيتى ، ليتسع خطوى ، وأثب بها النهر ، وتؤمننى العثر ، وألقى عليها كسائى ، فتقينى الحرّ ، وتدفينى من القرّ ، وتدنى إلىّ ما بعد منى ، وهى تحمل سفرتى ، وعلاقة إداوتى ، أعصى بها عند الضراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأقى بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح فى الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبى وأورثها بعدى بنىّ . انتهى .

وقد وقفت على مصنف فى مجلد لطيف فى منافع العصا لبعض المتأخرين ، وذكر فيه أخبارا وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتا رشيقة . وقد جمع الله سبحانه لموسى فى عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبى ﷺ وعنزته ، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند

الكلام ، وفى المحافل والخطب .

﴿ **قال ألقها يا موسى** ﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿ **فألقاها** ﴾ موسى على الأرض ﴿ **فإذا هى حية تسعى** ﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى،أى تمشى بسرعة وخفة . قيل : كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وباقيها جسم حية ، تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها ، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب ، فعند ذلك ﴿ **قال** ﴾ سبحانه : ﴿ **خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ قال الأخفش والزجاج : التقدير : إلى سيرتها ، مثل : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف:١٥٥] قال : ويجوز أن يكون مصدراً ؛ لأن معنى سنعيدها : سنسيرها ، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أى سائرة ، أو بمعنى اسم المفعول ، أى مسيرة . والمعنى: سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التى هى العصوية . قيل : إنه لما قيل له : ﴿ **لا تخف** ﴾ بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحيها .

﴿ **واضمم يدك إلى جناحك** ﴾ قال الفراء والزجاج : جناح الإنسان : عضده ، وقال قطرب : جناح الإنسان :جنبه، وعبر عن الجنب بالجناح ؛ لأنه فى محل الجناح ، وقيل : إلى بمعنى مع ، أى مع جناحك ، وجواب الأمر ﴿ **تخرج بيضاء** ﴾ أى تخرج يدك حال كونها بيضاء ، ومحل ﴿ **من غير سوء** ﴾ النصب على الحال ، أى كائنة من غير سوء . والسوء : العيب ، كنى به عن البرص، أى تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضىء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص . وانتصاب ﴿ **آية أخرى** ﴾ على الحال أيضاً ، أى معجزة أخرى غير العصا . وقال الأخفش : إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء . قال النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى : آتيناك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال : ﴿ **تخرج بيضاء** ﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿ **لنريك من آياتنا الكبرى** ﴾ قيل: والتقدير : فعلنا ذلك لنريك، و﴿ **من آياتنا** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، و﴿**الكبرى**﴾ معناها : العظمى ، وهو صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : لنريك من آياتنا الآية الكبرى ، أى لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى ، فلا يلزم أن تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن فى اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا ، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة .

ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات ، فقال : ﴿ **اذهب إلى فرعون** ﴾ وخصه بالذكر ؛ لأن قومه تبع له ، ثم علل ذلك بقوله :﴿ **إنه طغى** ﴾ أى عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحدّ ، وجملة :﴿ **قال رب اشرح لى صدرى** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال ؟ ومعنى شرح الصدر : توسيعه ، تضرّع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه

بقوله : ﴿ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ [الشعراء: ١٣] ومعنى تيسير الأمر :تسهيله. ﴿ **واحلل عقدة من لسانى** ﴾ يعنى العجمة التى كانت فيه من الجمرة التى ألقاها فى فيه وهو طفل ، أى أطلق عن لسانى العقدة التى فيه ، قيل : أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ وقيل : لم تذهب كلها؛ لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بدليل قوله : ﴿ **من لسانى** ﴾ أى كائنة من عقد لسانى ، ويؤيد ذلك قوله :﴿ هو أفصح منى لسانا ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقوله حكاية عن فرعون :﴿ ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، وجواب الأمر قوله : ﴿ **يفقهوا قولى** ﴾ أى يفهموا كلامى ، والفقه فى كلام العرب : الفهم ، ثم خص به علم الشريعة والعالم به فقيه ، قاله الجوهرى .

﴿ **واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى** ﴾ الوزير : الموازر ، كالأكيل المواكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره ، أى ثقله . قال الزجاج : واشتقاقه فى اللغة من الوزر ، وهو الجبل الذى يعتصم به لينج من الهلكة . والوزير : الذى يعتمد الملك على رأيه فى الأمور ويلتجئ إليه . وقال الأصمعى : هو مشتق من الموازرة ، وهى المعاونة . وانتصاب ﴿ **وزيرا** ﴾ و﴿**هارون** ﴾ على أنهما مفعولا اجعل ، وقيل : مفعولاه : لى وزيراً ، ويكون هارون عطف بيان للوزير ، والأوّل أظهر ، ويكون لى متعلقاً بمحذوف ، أى كائناً لى ، و﴿ **من أهلى** ﴾ صفة لـ ﴿ **وزيرا** ﴾ ، وأخى بدل من هارون . قرأ الجمهور : ﴿ **اشدد** ﴾ بهمزة وصل ، و﴿**أشركه** ﴾ بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء ، أى يا رب أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، والأزر : القوة ، يقال : آزره ، أى قواه . وقيل : الظهر ، أى أشدد به ظهرى . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبى إسحاق : «أشدد » بهمزة قطع « وأشركه » بضم الهمزة ، أى أشدد أنا به أزرى وأشركه أنا فى أمرى . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جواباً لقوله : ﴿ **اجعل لى وزيرا** ﴾ ، وقرأ بفتح الياء من : « أخى » ابن كثير وأبو عمرو .

﴿ **كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيرا** ﴾ هذا التسبيح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدم . والمراد التسبيح هنا باللسان . وقيل : المراد به : الصلاة ، وانتصاب ﴿ **كثيرا** ﴾ فى الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف ، أو لزمان محذوف ﴿ **إنك كنت بنا بصيرا** ﴾ البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور ، وهو المراد هنا ، أى إنك كنت بنا عالماً فى صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى عصا موسى قال : أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضىء له بالليل ، ويضرب بها الأرض فتخرج له النبات ، ويهش بها على غنمه ورق الشجر. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وأهش بها على غنمى** ﴾ قال : أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمى ، وقد روى

نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ولي فيها مآرب﴾ قال : حوائج . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج أيضاً عن قتادة قال: كانت تضىء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ قال : ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبراً ، فنودى أن يا موسى خذها ، فلم يأخذها ، ثم نودى الثانية : أن خذها ولا تخف ، فقيل له فى الثالثة : إنك من الآمنين فأخذها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ قال : حالتها الأولى . وأخرجا عنه أيضاً : ﴿من غير سوء ﴾ قال : من غير برص . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ﴾ قال :كان أكبر من موسى. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ وأشركه فى أمرى ﴾ قال نبئ هارون ساعتئذٍ حين نبئ موسى .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾.

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ويجعل له وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء ، فقال : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أى أعطيت ما سألته ، والسؤل : المسؤول ، أى المطلوب ، كقولك : خبر بمعنى مخبور ، وزيادة قوله : ﴿ يا موسى ﴾ لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل ، وجملة : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه ، والمنّ : الإحسان والإفضال ، والمعنى : ولقد أحسنا إليك مرّة أخرى قبل هذه المرّة ، وهى حفظ الله سبحانه له من شرّ الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا ، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير .

﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ أى مننا ذلك الوقت وهو وقت الإيحاء ، فإذ ظرف للإيحاء ، والمراد بالإيحاء إليها : إما مجرد الإلهام لها ، أو فى النوم بأن أراها ذلك ، أو على

لسان نبى ، أو على لسان ملك ، لا على طريق النبوة كالوحى إلى مريم ، أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها ، والمراد بـ ﴿ **ما يوحى** ﴾ : ما سيأتى من الأمر لها ، أبهمه أولاً ، وفسره ثانياً ؛ تفخيماً لشأنه ، وجملة : ﴿ **أن اقذفيه فى التابوت** ﴾ مفسرة ؛ لأن الوحى فيه معنى القول ، أو مصدرية على تقدير بأن اقذفيه ، والقذف ها هنا : الطرح ، أى اطرحيه فى التابوت وقد مرّ تفسير التابوت فى البقرة فى قصة طالوت ﴿ **فاقذفيه فى اليم** ﴾ أى اطرحيه فى البحر ، واليم : البحر أو النهر الكبير . قال الفراء : هذا أمر وفيه المجازاة ، أى اقذفيه يلقه اليم بالساحل ، والأمر للبحر مبنى على تنزيله منزلة من يفهم ويميز ، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع . والساحل : هو شط البحر ، سمى ساحلاً ؛ لأن الماء سحله ، قاله ابن دريد . والمراد هنا : ما يلى الساحل من البحر لا نفس الساحل ، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت ، وإن كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له . وجملة : ﴿ **يأخذه عدو لى وعدو له** ﴾ جواب الأمر بالإلقاء ، والمراد بالعدوّ : فرعون ، فإن أمّ موسى لما ألقته فى البحر ، وهو النيل المعروف ، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون ، فساقه الله فى ذلك النهر إلى داره ، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه . وقيل : إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه . وقيل وجدته ابنة فرعون ، والأوّل أولى .

﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾ أى ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى فى قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه . وقيل : جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه . وقال ابن جرير : المعنى : وألقيت عليك رحمتى . وقيل كلمة « من » متعلقة بـ﴿ **ألقيت** ﴾ فيكون المعنى: ألقيت منى عليك محبة ، أى أحببتك ،ومن أحبه الله أحبه الناس. ﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾ أى ولتربى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا رباها ، وصنع فرسه : إذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير ﴿ **على عينى** ﴾ : بمرأى منى صحيح. قال النحاس: وذلك معروف فى اللغة ،ولكن لا يكون فى هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من الله . وقال أبو عبيدة وابن الأنبارى : إن المعنى : لتغذى على محبتى وإرادتى ، تقول : أتخذ الأشياء على عينى ، أى على محبتى . قال ابن الأنبارى : العين فى هذه الآية يقصد بها: قصد الإرادة والاختيار ، من قول العرب: غدا فلان على عينى ، أى على المحبة منى . قيل : واللام متعلقة بمحذوف ، أى فعلت ذلك لتصنع ، وقيل : متعلقة بـ﴿ **ألقيت** ﴾ . وقيل : متعلقة بما بعده ، أى ولتصنع على عينى قدرنا مشى أختك . وقرأ ابن القعقاع : «ولتصنع» بإسكان اللام على الأمر ، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء . والمعنى : ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى ، وعلى عين منى .

﴿ **إذ تمشى أختك** ﴾ ظرف لألقيت ، أو لتصنع ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ **إذ أوحينا** ﴾ وأخته اسمها مريم ﴿ **فتقول هل أدلكم على من يكفله** ﴾ وذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره ، فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول ، أى هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ؟ فقالا لها : ومن هو ؟ قالت : أمى ، فقالا : هل لها

لبن ؟ قالت : نعم لبن أخى هارون ، وكان هارون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بأكثر ، فجاءت الأم فقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثدى مرضعة غيرها ، وهذا هو معنى : ﴿ **فرجعناك إلى أمك** ﴾ وفى مصحف أبى : « فرددناك » والفاء فصيحة. ﴿ **كى تقر عينها** ﴾ قرأ ابن عامر فى رواية عبد الحميد عنه:« كى تقرّ » بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها . قال الجوهرى : قررت به عيناً قرّة وقروراً ، ورجل قرير العين ، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ ، نقيض سخنت ، والمراد بقرّة العين : السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته فى البحر وعظم عليها فراقه . ﴿**ولا تحزن** ﴾ أى لا يحصل لها ما يكدّر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذى قرّت عينها بزواله لقدّم نفى الحزن على قرّة العين ، فيحمل هذا النفى للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال : إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين . وقيل : المعنى: ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها ، وهو تعسف .

﴿ **وقتلت نفسا** ﴾ المراد بالنفس هنا : نفس القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه ، وكان قتله له خطأ . ﴿ **فنجيناك من الغم** ﴾ أى الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً . وقيل : الغم هو : القتل بلغة قريش ، وما أبعد هذا . ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة ، وبمعنى الأمر الشاقّ، وكل ما يبتلى به الإنسان . والفتون يجوز أن يكون مصدراً كالثبور والشكور والكفور ، أى ابتليناك ابتلاءً ، واختبرناك اختباراً ، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور فى حجرة وبدور فى بدرة ، أى خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته . ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو: الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له ، وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبنى إسرائيل ﴿ **فلبثت سنين فى أهل مدين** ﴾ قال الفراء : تقدير الكلام : وفتناك فتوناً ، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ، ومثل هذا الحذف كثير فى التنزيل ، وكذا فى كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً . ومدين : هى بلد شعيب ، وكانت على ثمانى مراحل من مصر، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين ، وهى أتمّ الأجلين . وقيل : أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة، منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له ، والفاء فى : ﴿ **فلبثت** ﴾ تدل على أن المراد بالمحن المذكورة : هى ما كان قبل لبثه فى أهل مدين ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ أى فى وقت سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك وأجعلك نبياً ، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به . قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة : « ثم » المفيدة للتراخى للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدّة ، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرّق غنمه ونحو ذلك . ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ الاصطناع : اتخاذ الصنعة ، وهى الخير تسديه إلى إنسان ، والمعنى : اصطنعتك لوحيى ورسالتى لتتصرّف على إرادتى . قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامة حجتى ، وجعلتك بينى وبين خلقى ، وصرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم . قيل : وهو تمثيل لما خوّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه . ﴿**اذهب أنت وأخوك** ﴾ أى وليذهب أخوك ، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ، ومعنى ﴿ **بآياتى** ﴾ : بمعجزاتى التى جعلتها لك آية ، وهى التسع الآيات . ﴿ **ولا تنيا فى ذكرى** ﴾ أى لا تضعفا ولا تفترا ، يقال : ونى ينى ونياً : إذا ضعف . قال الشاعر :

فما ونى محمد مذ أن غفر   له الإله ما مضى وما غبر

وقال امرؤ القيس :

مسح إذا ما السابحات على الونى   أثرن غباراً بالكديد المركل

قال الفراء : فى ذكرى وعن ذكرى سواء ، والمعنى : لا تقصرا عن ذكرى بالإحسان إليكما ، والإنعام عليكما وذكر النعمة شكرها . وقيل : معنى ﴿ **لا تنيا** ﴾ : لا تبطئا فى تبليغ الرسالة ، وفى قراءة ابن مسعود : « لا تهنا فى ذكرى » .

﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب ، وموسى حاضر وهارون غائب تغليباً لموسى ؛ لأنه الأصل فى أداء الرسالة ، وعلل الأمر بالذهاب بقوله : ﴿ **إنه طغى**﴾ أى جاوز الحدّ فى الكفر والتمرد ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم ، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده ، وتأكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير . وقيل : إن فى هذا دليلاً على أنه لا يكفى ذهاب أحدهما . وقيل : الأوّل أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس ، والثانى : أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما فى ذلك من التأثير فى الإجابة، فإن التخشين بادئ [ذى] بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب فى الكفر ، والقول اللين :هو الذى لاخشونة فيه ، يقال : لان الشىء يلين ليناً ، والمراد : تركهما للتعنيف، كقولهما : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : ١٨] . وقيل : القول اللين هو الكنية له. وقيل : أن يعداه بنعيم الدنيا إن أجاب ، ثم علل الأمر بإلانة القول له بقوله : ﴿**لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ أى باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع ، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين :سيبويه وغيره. وقد تقدم تحقيقه فى غير موضع. قال الزجاج:« لعل» لفظة طمع وترج ، فخاطبهم بما يعقلون . وقيل: لعل ها هنا بمعنى الاستفهام . والمعنى : فانظرا هل يتذكر أو يخشى ؟ وقيل : بمعنى كى . والتذكر : النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً فى الإجابة ، والخشية هى خشية عقاب الله الموعود به على

لسانهما ، وكلمة « أو » لمنع الخلو دون الجمع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فاقذفيه في اليم** ﴾ قال : هو النيل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾ قال : كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سلمة بن كهيل قال : حببتك إلى عبادى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى فى قوله : ﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾ قال : تربى بعين الله . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال ، لتغذى على عينى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال :يقول : أنت بعينى ، إذ جعلتك أمك فى التابوت ، ثم فى البحر ، وإذ تمشى أختك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ » يقول الله سبحانه : ﴿ **وقتلت نفساً فنجيناك من الغم** ﴾ قال : « من قتل النفس » ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ قال : « أخلصناك إخلاصاً » .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ قال : ابتليناك ابتلاءً . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : اختبرناك اختباراً . وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً فى تفسير الآية ، فمن أحبّ استيفاء ذلك فلينظره فى كتاب التفسير من سنن النسائى (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم جئت على قدر** ﴾ قال : لميقات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد وقتادة ﴿ **على قدر** ﴾ قال : موعد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا تنيا** ﴾ قال : لا تبطئا . وأخرج ابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله : ﴿ **قولا لينا** ﴾ قال : كنه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : كنياه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ قال : هل يتذكر ؟

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٤٦) ورجاله ثقات ، وابن جرير ١٦/ ١٢٥ . قال الحافظ ابن كثير ٤/ ٥١٥ : « وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا القليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضى الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم ؛ وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضا » .

لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

قرأ الجمهور : ﴿ **أن يفرط** ﴾ بفتح الياء وضم الراء ، ومعنى ذلك : أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا ، يقال : فرط منه أمر ، أى بدر ، ومنه الفارط ، وهو الذى يتقدّم القوم إلى الماء ، أى يعذبنا عذاب الفارط فى الذنب ، وهو المتقدّم فيه ، كذا قال المبرد . وقال أيضاً: فرط منه أمر وأفرط : أسرف ، وفرط : ترك . وقرأ ابن محيصن : « يفرط » بضم الياء وفتح الراء ، أى يحمله حامل على التسرع إلينا ، وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء ، ومنهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة من الإفراط ، أى يشتط فى أذيتنا . قال الراجز :

قد أفرط العلج علينا وعجل

ومعنى ﴿ **أو أن يطغى** ﴾ قد تقدم قريباً ، وجملة : ﴿ **قال لا تخافا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، نهى لهما عن الخوف الذى حصل معهما من فرعون ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إننى معكما** ﴾ أى بالنصر لهما ، والمعونة على فرعون ، ومعنى ﴿ **أسمع وأرى** ﴾ : إدراك ما يجرى بينهما وبينه ، بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية ، وليس بغافل عنهما ، ثم أمرهما بإتيانه الذى هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرار . ﴿ **فقولا إنا رسولا ربك** ﴾ أرسلنا إليك ﴿ **فأرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ أى خل عنهم وأطلقهم من الأسر ﴿**ولا تعذبهم** ﴾ بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون فى عذاب شديد : يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه ، ثم أمرهما سبحانه أن يقولا لفرعون : ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ قيل : هى العصا واليد . وقيل : إن فرعون قال لهما : وما هى ؟ فأدخل موسى يده فى جيب قميصه ، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى**﴾ أى السلامة . قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجل ومن عذابه ، وليس بتحية ، قال : والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب . قال الفراء : السلام على من اتبع الهدى ، ولمن اتبع الهدى سواء .

﴿ **إنا قد أوحى إلينا** ﴾ من جهة الله سبحانه ﴿ **أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ المراد بالعذاب : الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى النار . والمراد بالتكذيب : التكذيب بآيات الله وبرسله. والتولى : الإعراض عن قبولها والإيمان بها . ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى** ﴾ أى قال

فرعون لهما : فمن ربكما ؟ فأضاف الرب إليهما ولم يضفه إلى نفسه ؛ لعدم تصديقه لهما ولجحده للربوبية . وخص موسى بالنداء ؛ لكونه الأصل فى الرسالة . وقيل: لمطابقة رؤوس الآى. ﴿ **قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه** ﴾ أى قال موسى مجيباً له، و﴿ **ربنا** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ **الذى أعطى كل شىء خلقه** ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ **ربنا** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، وما بعده صفته . قرأ الجمهور : ﴿ **خلقه** ﴾ بسكون اللام ، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ : «خلقه » بفتح اللام على أنه فعل ، وهى قراءة ابن أبى إسحاق ، ورواها نصير عن الكسائى . فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثانى مفعولى أعطى . والمعنى : أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شىء صلاحه وهداه لما يصلحه. وقال مجاهد : المعنى لم يخلق خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شىء فقدره تقديراً ، ومنه قول الشاعر :

وله فى كل شىء خِلْقَةٌ وكذاك الله ما شاء فعلْ

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث . ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى ، أى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ومعنى ﴿ **ثم هدى** ﴾: أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شىء فيما خلق له ، وأما على القراءة الآخرة ، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أى أعطى كل شىء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه ، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثانى محذوفاً، أى أعطى كل شىء خلقه ما يحتاج إليه ، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى .

﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ لما سمع فرعون ما احتج به موسى فى ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ، ولابدّ لهما من خالق وهادٍ ، وذلك الخالق والهادى هو الله سبحانه لا ربّ غيره . قال فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ فإنها لم تقرّ بالربّ الذى تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات ، ومعنى البال : الحال والشان ، أى ما حالهم وما شأنهم ؟ وقيل : إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة ، أى ما حال القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث ؟ فأجابه موسى ، فقال : ﴿ **علمها عند ربى** ﴾ أى إن هذا الذى سألت عنه ليس مما نحن بصدده ، بل هو من علم الغيب الذى استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا . وعلى التفسير الأوّل يكون معنى ﴿ **علمها عند ربى** ﴾ : أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله فى كتابه سيجازيهم عليها ، ومعنى كونها فى كتاب :أنها مثبتة فى اللوح المحفوظ .قال الزجاج: المعنى : أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها ، والتقدير : علم أعمالها عند ربى فى كتاب .

وقد اختلف فى معنى ﴿ **لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ على أقوال : الأوّل : إنه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد تمّ الكلام عند قوله: ﴿ **فى كتاب** ﴾ كذا قال الزجاج، قال : ومعنى ﴿ **لا يضل** ﴾ : لا يهلك من قوله : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ [السجدة : ١٠] ﴿ **ولا ينسى** ﴾ شيئاً من الأشياء ، فقد نزّهه عن الهلاك والنسيان . القول الثانى : أن معنى ﴿**لا يضل** ﴾ : لا يخطئ . القول الثالث : أن معناه : لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع : أن المعنى : لا يحتاج إلى كتاب ، ولا يضل عنه علم شىء من الأشياء ، ولا ينسى ما علمه منها ، حكى هذا عن الزجاج أيضاً . قال النحاس : وهو أشبهها بالمعنى . ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابى . القول الخامس : أن هاتين الجملتين صفة لكتاب ، والمعنى : أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له .

﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهادا** ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه صفة لربى متضمنة لزيادة البيان ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على المدح . قرأ الكوفيون :﴿ **مهدا** ﴾ على أنه مصدر لفعل مقدّر ، أى مهدها مهداً ، أو على تقدير محذوف ، أى ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش . وقرأ الباقون : ﴿ **مهادا** ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالا: لاتفاقهم على قراءة:﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ [النبأ : ٦]. قال النحاس : والجمع أولى من المصدر؛ لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على حذف المضاف. قيل : يجوز أن يكون مهاداً مفرداً كالفراش ، ويجوز أن يكون جمعاً. ومعنى المهاد : الفراش ، فالمهاد جمع المهد ، أى جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم .﴿ **وسلك لكم فيها سبلا** ﴾ السلك : إدخال الشىء فى الشىء . والمعنى : أدخل فى الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم . وفى الآية الأخرى: ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴾ [الزخرف : ١٠] .

ثم قال سبحانه ممتناً على عباده : ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ هو ماء المطر . قيل : إلى هنا انتهى كلام موسى ، وما بعده هو :﴿ **فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى** ﴾ من كلام الله سبحانه . وقيل : هو من الكلام المحكىّ عن موسى معطوف على أنزل ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة . ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه : بأن الكلام كله محكىّ عن واحد هو موسى ، والحاكى للجميع هو الله سبحانه . والمعنى : فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أزواجاً ، أى ضروباً وأشباهاً من أصناف النبات المختلفة . وقوله : ﴿ **من نبات** ﴾ صفة لـ﴿ **أزواجا** ﴾ أو بيان له ، وكذا ﴿ **شتى** ﴾ صفة أخرى له ، أى متفرقة جمع شتيت. وقال الأخفش : التقدير : أزواجاً شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى ، فيجوز أن يكون ﴿ **شتى** ﴾ نعتاً لـ﴿ **أزواجا** ﴾ ويجوز أن يكون نعتاً للنبات ، يقال : أمر شَتٌّ ، أى متفرق ، وشت الأمر شتاً وشتاتاً : تفرق ، واستشت مثله، والشتيت : المتفرق . قال رؤبة :

جاءت معاً واطَّرقتْ شتيتاً

وجملة : ﴿ **كلوا وارعوا** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى قائلين لهم ذلك ، والأمر للإباحة، يقال : رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية ، أى أسامها وسرحها يجىء لازماً ومتعدّياً . والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ إلى ما تقدم ذكره فى هذه الآيات ، والنهى : العقول جمع نهية ، وخص ذوى النهى ؛ لأنهم الذين يُنتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح ، وهذا كله من موسى ، احتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جواباً لقوله : ﴿ **فمن ربكما يا موسى** ﴾ . والضمير فى :﴿ **منها خلقناكم** ﴾ وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً . قال الزجاج وغيره : يعنى أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه. وقيل : المعنى : أن كل نطفة مخلوقة من التراب فى ضمن خلق آدم ؛ لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه ﴿ **وفيها** ﴾ أى فى الأرض ﴿ **نعيدكم** ﴾ بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بفى دون إلى ؛ للدلالة على الاستقرار ﴿ **ومنها** ﴾ أى من الأرض ﴿ **نخرجكم تارة أخرى** ﴾ أى بالبعث والنشور وتأليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت ، والتارة كالمرة .

﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها** ﴾ أى أرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها ، والمراد بالآيات هى : الآيات التسع المذكورة فى قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ﴾ [الإسراء : ١٠١] على أن الإضافة للعهد . وقيل : المراد : جميع الآيات التى جاء بها موسى ، والتى جاء بها غيره من الأنبياء ، وأن موسى قد كان عرفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء ، والأوّل أولى . وقيل : المراد بالآيات : حجج الله سبحانه الدالة على توحيده .﴿ **فكذب وأبى** ﴾ أى كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد ؛ لأنه رأى الآيات وكذب بها كما فى قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ [النمل: ١٤] .

وجملة : ﴿ **قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال فرعون بعد هذا ؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات ، أى جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبىّ يجب عليهم اتباعك ، والإيمان بما جئت به ، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذى هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها . وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض ؛ لتنفير قومه عن إجابة موسى ، فإنه إذا وقع فى أذهانهم وتقرّر فى أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين فى معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير .

﴿ **فلنأتينك بسحر مثله** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هى الموطئة للقسم ، أى والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتى يتبين للناس أن الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر .﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا** ﴾ هو مصدر ، أى وعداً . وقيل : اسم مكان ، أى اجعل لنا يوماً معلوماً ، أو مكانا معلوما لا نخلفه . قال القشيرى : والأظهر أنه

مصدر ، ولهذا قال : ﴿ **لا نخلفه** ﴾ أى لا نخلف ذلك الوعد . والإخلاف :أن تعد شيئاً ولا تنجزه .قال الجوهرى : الميعاد: المواعدة والوقت والموضع ، وكذلك الموعد . وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج : « لا نخلفه » بالجزم على أنه جواب لقوله : ﴿ **اجعل** ﴾ . وقرأ الباقون بالرفع على أنه صفة لموعداً ، أى لا نخلف ذلك الوعد ﴿ **نحن ولا أنت** ﴾ وفوض تعيين الموعد إلى موسى ؛ إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى . وانتصاب: ﴿ **مكانا سوى** ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه المصدر ، أو على أنه بدلا من موعد . قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة :﴿ **سوى** ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها وهما لغتان . واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين ؛ لأنها اللغة العالية الفصيحة، والمراد : مكاناً مستوياً . وقيل : مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك . قال سيبويه : يقال :سوى وسوى ، أى عدل ، يعنى مكانا عدلاً بين المكانين . قال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها ۝ يسوى بيننا فيها السواء

قال أبو عبيدة والقتيبى : معناه مكانا وسطاً بين الفريقين ، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى :

وجدنا أبانا كان حل ببلدة ۝ سوًى بين قيس قيس عَيْلان والفِزْر

والفزر:سعد بن زيد مناة . ثم واعده موسى بوقت معلوم فقال : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدى : كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه . وقال سعيد بن جبير : كان ذلك يوم عاشوراء . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيل : يوم النيروز . وقيل : يوم كسر الخليج . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسلمى وهبيرة عن حفص: « يوم الزينة» بالنصب ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، أى فى يوم الزينة إنجاز موعدنا ، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدكم ، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى ؛ لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، أو على تقدير مضاف محذوف ، أى موعدكم مكان يوم الزينة .

﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ معطوف على ﴿ **يوم الزينة** ﴾ فيكون فى محل رفع ، أو على ﴿ **الزينة** ﴾ فيكون فى محل جر ، يعنى ضحى ذلك اليوم . والمراد بالناس : أهل مصر . والمعنى : يحشرون إلى العيد وقت الضحى ، وينظرون فى أمر موسى وفرعون . قال الفراء : المعنى : إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد . قال : وجرت عادتهم بحشر الناس فى ذلك اليوم . والضحى قال الجوهرى : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى ، وهو حين تشرق الشمس . وخص الضحى ؛ لأنه أوّل النهار، فإذا امتدّ الأمر بينهما كان فى النهار متسع . وقرأ ابن مسعود والجحدرى : « وأن يحشر» على البناء للفاعل ، أى وأن يحشر الله الناس ضحى . وروى عن الجحدرى أنه قرأ:« وأن نحشر» بالنون وقرأ

بعض القرّاء بالتاء الفوقية ، أى وأن تحشر أنت يا فرعون ، وقرأ الباقون بالتحتية على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إننا نخاف أن يفرط علينا** ﴾ قال : يعجل ﴿ **أو أن يطغى** ﴾ قال : يعتدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **أسمع وأرى** ﴾ قال : أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به ، فأوحى إليكما فتجاوبانه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : ربّ أى شيء أقول ؟ قال : قل : أهيا شراهيا . قال الأعمش : تفسير ذلك الحى قبل كل شيء ، والحى بعد كل شيء . وجوّد السيوطى إسناده، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير فى تفسيره . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **على من كذب وتولى** ﴾ قال : كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أعطى كل شيء خلقه** ﴾ قال: خلق لكل شيء روحه ﴿ **ثم هدى** ﴾ قال: هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يضل ربى** ﴾ قال : لا يخطئ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من نبات شتى** ﴾ قال : مختلف . وفى قوله : ﴿ **لأولى النهى** ﴾ قال : لأولى التقى . وأخرج ابن المنذر عنه ﴿**لأولى النهى** ﴾ قال : لأولى الحجا والعقل . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله :﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم** ﴾ . وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : لما وضعت أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ: « ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ بسم الله، وفى سبيل الله، وعلى ملة رسول الله » (١) . وفى حديث فى السنن : « أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : ﴿ **منها خلقناكم** ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿ **وفيها نعيدكم** ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿**ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ قال : يوم عاشوراء . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥٤ والحاكم ٢/ ٣٧٩ وقال الذهبى : « خبره واه ؛لأن على بن زيد متروك » .

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾.

قوله : ﴿ **فتولى فرعون** ﴾ أى انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه . وقيل : معنى تولى : أعرض عن الحق ، والأوّل أولى ﴿ **فجمع كيده** ﴾ أى جمع ما يكيد به من سحره وحيلته . والمراد : أنه جمع السحرة . قيل : كانوا اثنين وسبعين . وقيل : أربعمائة . وقيل : اثنا عشر ألفاً . وقيل : أربعة عشر ألفاً . وقال ابن المنذر : كانوا ثمانين ألفاً ﴿ **ثم أتى**﴾ أى أتى الموعد الذى تواعدا إليه مع جمعه الذى جمعه ، وجملة : ﴿ **قال لهم موسى** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا** ﴾ دعا عليهم بالويل ، ونهاهم عن افتراء الكذب . قال الزجاج : هو منصوب بمحذوف ، والتقدير : ألزمهم الله ويلاً . قال : ويجوز أن يكون نداء ،كقوله : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : ٥١] ﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾ السحت : الاستئصال ، يقال : سحت وأسحت بمعنى ، وأصله استقصاء الشعر . وقرأ الكوفيون إلا شعبة: ﴿ **فيسحتكم** ﴾ بضم حرف المضارعة من أسحت ، وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقون بفتحه من سحت ، وهى لغة الحجاز ، وانتصابه على أنه جواب للنهى ﴿ **وقد خاب من افترى** ﴾ أى خسر وهلك والمعنى : قد خسر من افترى على الله أى كذب كان .

﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ أى السحرة لما سمعوا كلام موسى ، تناظروا وتشاوروا وتجاذبوا أطراف الكلام فى ذلك ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ أى من موسى ، وكانت نجواهم هى قولهم : ﴿**إن هذان لساحران** ﴾ . وقيل : إنهم تناجوا فيما بينهم فقالوا : إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر . وقيل : الذى أسروه : أنه إذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفرّاء والزجاج . وقيل : الذى أسروه : أنهم لما سمعوا قول موسى : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله** ﴾ قالوا : ما هذا بقول ساحر . والنجوى : المناجاة يكون اسماً ومصدراً .

قرأ أبو عمرو: « إن هذين لساحران » بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء فى اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف ، وهو نصب الاسم ورفع الخبر . ورويت هذه القراءة عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن وسعيد بن جبير والنخعى وغيرهم من التابعين ، وبها قرأ عاصم الجحدرى وعيسى بن عمر كما حكاه النحاس ، وهذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف . وقرأ الزهرى والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه : « إن هذان» بتخفيف إن على أنها نافية ، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وللإعراب . وقرأ ابن كثير

مثل قراءتهم إلا أنه يشدّد النون من هذان . وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر : ﴿ **إن هذان**﴾ بتشديد إن وبالألف ، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر . وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر ، وقد استوفى ذكر ذلك ابن الأنبارى والنحاس ، فقيل : إنها لغة بنى الحارث بن كعب وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف ، ومنه قول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقول الآخر :

تزودّ منا بين أذناه ضربة

وقول الآخر :

إن أباها وأبا أباها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ قد بلغا فى المجد غايتاها

ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه والأخفش وأبى زيد والكسائى والفراء : إن هذه القراءة على لغة بنى الحارث بن كعب . وحكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنها لغة بنى كنانة . وحكى غيره أنه لغة خثعم . وقيل : إن « إنّ » بمعنى نعم هاهنا ، كما حكاه الكسائى عن عاصم ، وكذا حكاه سيبويه . قال النحاس : رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه ، فيكون التقدير : نعم هذان لساحران ، ومنه قول الشاعر :

ليت شعرى هل للمحبّ شفاء ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ من جوى حبهنّ إن اللقاء

أى نعم اللقاء . قال الزجاج : والمعنى فى الآية : أن هذان لهما ساحران ، ثم حذف المبتدأ وهو هما . وأنكره أبو على الفارسى وأبو الفتح بن جنى ، وقيل : إن الألف فى ﴿هذان﴾ مشبهة بالألف فى يفعلان فلم تغير . وقيل : إن الهاء مقدّرة ، أى إنه هذان لساحران، حكاه الزجاج عن قدماء النحويين ، وكذا حكاه ابن الأنبارى . وقال ابن كيسان : إنه لما كان يقال : هذا بالألف فى الرفع والنصب والجر على حال واحدة ، وكانت التثنية لا تغير الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف فى الرفع والنصب والجر ، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجيها تصح به وتخرج به عن الخطأ ، وبذلك يندفع ما روى عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف .

﴿ **يريدان أن يخرجاكم من أرضكم** ﴾ وهى أرض مصر﴿ **بسحرهما** ﴾ الذى أظهراه ﴿**ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ قال الكسائى : بطريقتكم : بسنتكم . و﴿ **المثلى** ﴾ نعت ، كقولك : امرأة كبرى ، تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى ، يعنون :على الهدى المستقيم . قال الفراء :العرب تقول :هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم . والمثلى تأنيث الأمثل ، وهو الأفضل ، يقال : فلان أمثل قومه ، أى أفضلهم ، وهم الأماثل . والمعنى : أنهما إن

يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم ، أو يذهبا بمذهبكم الذى هو أمثل المذاهب .

﴿ **فأجمعوا كيدكم** ﴾ الإجماع : الإحكام ، والعزم على الشيء ، قاله الفراء . تقول : أجمعت على الخروج مثل أزمعت . وقال الزجاج : معناه : ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعاً عليه . وقد اتفق القراء على قطع الهمزة فى أجمعوا إلا أبا عمرو ، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع . قال النحاس : وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس .﴿ **ثم ائتوا صفا** ﴾ أى مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمورهم وأشد لهيبتهم ، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال أبوعبيدة :الصف: موضع المجمع ، ويسمى المصلى: الصف . قال الزجاج : وعلى هذا معناه : ثم ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال :أتيت الصف بمعنى : أتيت المصلى ، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب ﴿ **صفا** ﴾ على الحال ، وعلى تفسير أبى عبيدة يكون انتصابه على المفعولية . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون ، فيكون على هذا مصدراً فى موضع الحال ، ولذلك لم يجمع . وقرئ بكسر الهمزة بعدها ياء ، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفاً ﴿ **وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ أى من غلب ، يقال : استعلى عليه : إذا غلبه ، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

وجملة : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تلقى** ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا ؟ فقيل : قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإن مع ما فى حيزها فى محل نصب بفعل مضمر ، أى اختر إلقاءك أولا أو إلقاءنا ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر إلقاؤك ، أو إلقاؤنا ، ومفعول تلقى محذوف ، والتقدير : إما أن تلقى ما تلقيه أولا ﴿ **وإما أن نكون** ﴾ نحن ﴿ **أول من ألقى**﴾ ما يلقيه ، أو أول من يفعل الإلقاء . والمراد : إلقاء العصى على الأرض ، وكانت السحرة معهم عصى ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون ، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول ، فقال لهم موسى : ﴿ **بل ألقوا** ﴾ أمرهم بالإلقاء أولا ؛ لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقى هو عصاه فتبتلع ذلك ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : ألقوا فإذا حبالهم، والفاء فصيحة ، وإذا للمفاجأة أو ظرفية . والمعنى : فألقوا ففاجأ موسى وقت أن ﴿ **يخيل إليه** ﴾ سعى حبالهم وعصيهم ، وقرأ الحسن : « عصيهم » بضم العين وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقون بكسرها اتباعاً لكسرة الصاد ، وقرأ ابن عباس وابن ذكوان وروح عن يعقوب :« تخيل » بالمثناة ؛ لأن العصىّ والحبال مؤنثة ، وذلك أنهم لطخوها بالزئبق ، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت واهتزّت ، وقرئ :« نخيل » بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرئ : « يخيل » بالياء التحتية مبنياً للفاعل ، على أن المخيل هو الكيد . وقيل : المخيل هو أنها تسعى ، فإن فى موضع رفع ، أى يخيل إليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج . وقال الفراء : إنها

فى موضع نصب ، أى بأنها ثم حذف الباء . قال الزجاج : ومن قرأ بالتاء : يعنى الفوقية جعل أنّ فى موضع نصب ، أى تخيل إليه ذات سعى . قال : ويجوز أن يكون فى موضع رفع بدلاً من الضمير فى تخيل ، وهو عائد على الحبال والعصىّ ، والبدل فيه بدل اشتمال ، يقال : خيل إليه: إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة .

﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾ أى أحس . وقيل : وجد . وقيل : أضمر . وقيل : خاف ، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه . وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه . وقيل : إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا ، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ أى المستعلى عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهى عن الخوف .

﴿ **وألق ما فى يمينك** ﴾ يعنى العصا ، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً ، وجزم ﴿ **تلقف ما صنعوا** ﴾ على أنه جواب الأمر ، قرئ تشديد القاف ، والأصل : تتلقف ، فحذف إحدى التاءين ، وقرئ : « تلقف » بكسر اللام من لقفه : إذا ابتلعه بسرعة ، وقرئ :« تلقف » بالرفع على تقدير فإنها تتلقف ، ومعنى ﴿ **ما صنعوا** ﴾ : الذى صنعوه من الحبال والعصى . قال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال ، كأنه قال : ألقها متلقفة ، وجملة : ﴿ **إنما صنعوا كيد ساحر** ﴾ تعليل لقوله : ﴿ **تلقف** ﴾ وارتفاع كيد على أنه خبر لإن ، وهى قراءة الكوفيين إلا عاصماً. وقرأ هؤلاء: «سحر » بكسر السين وسكون الحاء ، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذى سحر . وقرأ الباقون : ﴿**كيد ساحر** ﴾ ، ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾ أى لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وأين توجه ، وهذا من تمام التعليل .

﴿ **فألقى السحرة سجدا** ﴾ أى فألقى ذلك الأمر الذى شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجداً لله تعالى، وقد مرّ تحقيق هذا فى سورة الأعراف . ﴿ **قالوا آمنا برب هارون وموسى** ﴾ إنما قدّم هارون على موسى فى حكاية كلامهم ؛ رعاية لفواصل الآى وعناية بتوافق رؤوسها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾ قال: يهلككم. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذرعن قتادة : ﴿ **فيسحتكم** ﴾ قال : يستأصلكم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى صالح قال :فيذبحكم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن علىّ :﴿ **ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ قال : يصرفا وجوه الناس إليهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : يقول : أمثلكم ، وهم بنو إسرائيل .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق فى قوله : ﴿ **تلقف ما صنعوا** ﴾ ما يأفكون ، عن قتادة

قال: ألقاها موسى فتحولت حية تأكل حبالهم وما صنعوا. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة؛ أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحران فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا، وإن كانا من ربّ العالمين فإنه لا طاقة لنا بربّ العالمين، فلما كان من أمرهم أن خرّوا سجداً أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى إليها يصيرون فعندها ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ إلى قوله: ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾.

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾.

قوله: ﴿ **قال آمنتم له** ﴾ يقال: آمن له وآمن به، فمن الأول: قوله: ﴿ فآمن له لوط ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ومن الثانى: قوله فى الأعراف: ﴿ آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ [الآية: ١٢٣]. وقيل: إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع. وقرئ على الاستفهام التوبيخى، أى كيف آمنتم به من غير إذن منى لكم بذلك؟ ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ أى إن موسى لكبيركم، أى أسحركم وأعلاكم درجة فى صناعة السحر، أو معلمكم وأستاذكم كما يدل عليه قوله: ﴿ **الذى علمكم السحر** ﴾ قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبيرى. وقال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر. قال الواحدى: والكبير فى اللغة: الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير. أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة ﴿ **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ أى والله لأفعلن بكم ذلك. والتقطيع للأيدى والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، و« من » للابتداء ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ أى على جذوعها، كقوله: ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ [الطور: ٣٨] أى عليه، ومنه قول سويد بن أبى كاهل:

هم صلبوا العبدىّ فى جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

وإنما آثر كلمة « فى » للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف فى الظرف ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى** ﴾ أراد: لتعلمن هل أنا أشدّ عذاباً لكم أم موسى؟ ومعنى

﴿أبقى ﴾ : أدوم ، وهو يريد بكلامه هذا : الاستهزاء بموسى ؛ لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء ، ويمكن أن يريد : العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا . وقيل : أراد بموسى ربّ موسى على حذف المضاف .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا . وقيل : إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه في سجودهم من المنازل المعدة لهم في الجنة **﴿ والذي فطرنا ﴾** معطوف على **﴿ ما جاءنا ﴾** أي لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذي فطرنا ، أي خلقنا . وقيل : هو قسم ، أي والله الذي فطرنا لن نؤثرك ، أو لا نؤثرك ، وهذان الوجهان في تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج **﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾** هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم : **﴿لأقطعن﴾** إلخ ، والمعنى : فاصنع ما أنت صانع ، واحكم ما أنت حاكم ، والتقدير : ما أنت صانعه **﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾** أي إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها ، فاسم الإشارة في محل نصب على الظرفية أو على المفعولية و« ما » كافة، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذي ، أي أن الذي تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره **﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾** معطوف على **﴿ خطايانا ﴾** أي ويغفر لنا الذي أكرهتنا عليه من عمل السحر في معارضة موسى فما في محل نصب على المفعولية . وقيل : هي نافية ، قال النحاس : والأوّل أولى . قيل : ويجوز أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر مقدّر ، أي وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا **﴿ والله خير وأبقى ﴾** أي خير منك ثواباً وأبقى منك عقاباً ، وهذا جواب قوله : **﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾** . **﴿ إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾** المجرم هو : المتلبس بالكفر والمعاصي ، ومعنى **﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾** : أنه لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه . قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحي ، ويبلغ به حال الموت في المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ، والعرب تقول : فلان لا حي ولا ميت ، إذا كان غير منتفع بحياته ، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا :

ألا من لنفس لا تموت فينقضي شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وهذه الآية من جملة ما حكاه الله سبحانه من قول السحرة . وقيل : هو ابتداء كلام . والضمير في : **﴿ إنه ﴾** على هذا الوجه للشأن **﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات ﴾** أي ومن يأت ربه مصدقاً به قد عمل الصالحات ، أي الطاعات ، والموصوف محذوف ، والتقدير : الأعمال الصالحات ، وجملة: **﴿ قد عمل ﴾** في محل نصب على الحال ، وهكذا **﴿ مؤمنا ﴾** منتصب على الحال ، والإشارة بـ **﴿ أولئك ﴾** إلى من باعتبار معناه **﴿ لهم الدرجات العلى ﴾**

أى المنازل الرفيعة التى قصرت دونها الصفات ﴿ **جنات عدن** ﴾ بيان للدرجات أو بدل منها، والعدن : الإقامة ، وقد تقدّم بيانه ، وجملة : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ حال من الجنات ؛ لأنها مضافة إلى عدن ، وعدن علم للإقامة كما سبق . وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال من ضمير الجماعة فى لهم ، أى ماكثين دائمين ، والإشارة ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم لهم من الأجر ، وهو مبتدأ ، و﴿ **جزاء من تزكى** ﴾ خبره ، أى جزاء من تطهر من الكفر والمعاصى الموجبة للنار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرما ، قال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد فى الأرض . قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى ، وهم الذين قالوا : ﴿ **آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ قال : خير منك إن أطيع ، وأبقى منك عذاباً إن عصى .

وأخرج أحمد ومسلم وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له : الحياة أو الحيوان ، فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل » (١). وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:«إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرىّ فى أفق السماء،وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما» (٢). وفى الصحيحين بلفظ : « إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب العابر فى أفق السماء» (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ

---

(١) أحمد ٣/ ٥ ومسلم فى الإيمان (١٨٥/ ٣٠٦) .

(٢) أبو داود فى الحروف (٣٩٨٧) .

(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١/ ١٠ ، ١١) .

اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾.

هذا شروع فى إنجاء بنى إسرائيل وإهلاك عدوّهم ، وقد تقدّم فى البقرة ، وفى الأعراف ، وفى يونس . واللام فى : ﴿ **لقد** ﴾ هى الموطئة للقسم ، وفى ذلك من التأكيد ما لا يخفى ، و« أن » فى : ﴿ **أن أسر بعبادى** ﴾ إما المفسرة لأن فى الوحى معنى القول ، أو مصدرية ، أى بأن أسر ، أى أسر بهم من مصر . وقد تقدّم هذا مستوفى . ﴿ **فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبسا** ﴾ أى اجعل لهم طريقا ، ومعنى ﴿ **يبسا** ﴾ : يابساً ، وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين . وقرئ : « يبسا » بسكون الباء ، على أنه مخفف من يبسا المحرك ، أو جمع يابس كصحب فى صاحب . وجملة: ﴿ **لا تخاف دركا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى آمنا من أن يدرككم العدوّ ، أو صفة أخرى لطريق ، والدرك : اللحاق بهم من فرعون وجنوده . وقرأ حمزة : « لا تخف » على أنه جواب الأمر ، والتقدير : إن تضرب لا تخف ، و﴿ **لا تخشى** ﴾ على هذه القراءة مستأنف ، أى ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر . وقرأ الجمهور : ﴿ **لا تخاف** ﴾ وهى أرجح لعدم الجزم فى : ﴿ **تخشى** ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق ، أى لا تخاف منه ولا تخشى منه .

﴿ **فأتبعهم فرعون بجنوده** ﴾ أتبع هنا مطاوع تبع ، يقال : أتبعتهم : إذا تبعتهم ، وذلك إذا سبقوك فلحقتهم ، فالمعنى: تبعهم فرعون ومعه جنوده . وقيل :الباء زائدة والأصل اتبعهم جنوده، أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه، وقرئ : « فاتبعهم » بالتشديد ، أى لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال : ركب الأمير بسيفه ، أى معه سيفه ، ومحل بجنوده النصب على الحال ، أى سابقاً جنوده معه ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ أى علاهم وأصابهم ما علاهم وأصابهم ، والتكرير للتعظيم والتهويل كما فى قوله :﴿ الحاقة . ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ١، ٢]. وقيل : غشيهم ما سمعت قصته . وقال ابن الأنبارى : غشيهم البعض الذى غشيهم ؛ لأنه لم

يغشهم كل ماء البحر، بل الذى غشيهم بعضه . فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء ، والأوّل أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم . وقرئ : « فغشاهم من اليمّ ما غشاهم » أى غطاهم ما غطاهم .

﴿ **وأضل فرعون قومه وما هدى** ﴾ أى أضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى طريق النجاة ؛ لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة ، وبين أيديهم البحر ، وفى قوله : ﴿ **وما هدى** ﴾ تأكيد لإضلاله ؛ لأن المضل قد يرشد من يضله فى بعض الأمور .

﴿ **يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم** ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بنى إسرائيل بعد إنجائهم ، والتقدير : قلنا لهم بعد إنجائهم : ﴿ **يا بنى إسرائيل** ﴾ ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا ﷺ ؛ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء . والمراد بعدوّهم هنا : فرعون وجنوده ،وذلك بإغراقه وإغراق قومه فى البحر بمرأى من بنى إسرائيل . ﴿ **وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ انتصاب ﴿ **جانب** ﴾ على أنه مفعول به، لا على الظرفية ؛ لأنه مكان معين غير مبهم ، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة . قال مكى : وهذا أصل لا خلاف فيه . قال النحاس : والمعنى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور ، فالوعد كان لموسى ، وإنما خوطبوا به ؛ لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب : « ووعدناكم » بغير ألف ، واختاره أبو عبيدة؛ لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ، وقد قدّمنا فى البقرة هذا المعنى . و﴿**الأيمن** ﴾ منصوب على أنه صفة للجانب ، والمراد : يمين الشخص ؛ لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل بمعناه : عن يمينك من الجبل . وقرئ بجرّ الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿ **ونزلنا عليكم المن والسلوى** ﴾ قد تقدّم تفسير المنّ بالترنجبين والسلوى بالسمانى ، وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وإنزال ذلك عليهم كان فى التيه .

﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ أى وقلنا لهم : كلوا . والمراد بالطيبات : المستلذات . وقيل : الحلال ، على الخلاف المشهور فى ذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش : « قد أنجيتكم من عدوّكم ووعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتكم » بتاء المتكلم فى الثلاثة. وقرأ الباقون بنون العظمة فيها .﴿ **ولا تطغوا فيه** ﴾ الطغيان : التجاوز ، أى لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى : لا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين . وقيل : لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها. وقيل : لا تعصوا المنعم ، أى لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعانى ، فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان ﴿ **فيحل عليكم غضبى** ﴾ هذا جواب النهى ، أى يلزمكم غضبى وينزل بكم ، وهو مأخوذ من حلول الدين ، أى حضور وقت أدائه ﴿ **ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى** ﴾ قرأ

الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي : « فيحل » بضم الحاء ، وكذلك قرؤوا :« يحلل » بضم اللام الأولى ، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان . قال الفراء : والكسر أحبّ إليّ من الضم ؛ لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع . ويحل بالكسر : يجب ، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع ، وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره. ومعنى ﴿ **فقد هوى** ﴾ : فقد هلك. قال الزجاج: ﴿ **فقد هوى** ﴾ أي صار إلى الهاوية ، وهي قعر النار من هوى يهوى هوياً ، أي سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان ، أي مات .

﴿ **وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أي لمن تاب من الذنوب التي أعظمها الشرك باللّه ، وآمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ أي استقام على ذلك حتى يموت ، كذا قال الزجاج وغيره . وقيل : لم يشك في إيمانه. وقيل : أقام على السنة والجماعة. وقيل : تعلم العلم ليهتدي به . وقيل : علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً ، والأوّل أرجح مما بعده .

﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى** ﴾ هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات . قال المفسرون : وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه . فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه ، فقال الله له : ما أعجلك ؟ أي ما الذي حملك على العجلة ، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ، فأجاب موسى عن ذلك : ﴿**قال هم أولاء على أثري** ﴾ أي هم بالقرب مني ، تابعون لأثري واصلون بعدي . وقيل : لم يرد أنهم يسيرون خلفه ، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم . ثم قال مصرحاً بسبب ما سأله الله عنه فقال : ﴿ **وعجلت إليك رب لترضى** ﴾ أي لترضى عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك. قال أبو حاتم : قال عيسى بن عمر: بنو تميم يقولون : « أولا » مقصورة ، وأهل الحجاز يقولون : « أولاء » ممدودة . وقرأ ابن أبي إسحاق ونصر ورويس عن يعقوب : « على إثري » بكسر الهمزة وإسكان الثاء ، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان . ومعنى ﴿ **عجلت إليك** ﴾ : عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني. يقال : رجل عجل وعجول وعجلان : بين العجلة . والعجلة خلاف البطء .

وجملة : ﴿ **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال الله له ؟ فقيل : قال : إنا قد فتنا قومك من بعدك ، أي ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم في فتنة ومحنة . قال ابن الأنباري : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون ﴿ **وأضلهم السامري** ﴾ أي دعاهم إلى الضلالة ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر ، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقال لمن معه من بني إسرائيل : إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحليّ ، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في النار ، فكان من أمر العجل ما كان .

﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ قيل : وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً : ذا القعدة ، وعشر ذى الحجة ، والأسف : الشديد الغضب . وقيل : الحزين ، وقد مضى فى الأعراف بيان هذا مستوفى . ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخى ، والوعد الحسن : وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أن يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها ، فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل: وعدهم النصر والظفر . وقيل : هو قوله : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ الآية . ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ الفاء للعطف على مقدّر ، أى أوعدكم ذلك ، فطال عليكم الزمان فنسيتم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ أى يلزمكم وينزل بكم ، والغضب: العقوبة والنقمة . والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم ﴿ فأخلفتم موعدى ﴾ أى موعدكم إياى ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ؛ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عزّ وجلّ إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات ، فتوقفوا فأجابوه ، و﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ الذى وعدناك ﴿ بملكنا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر وعاصم وعيسى بن عمر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشىء أملكه ملكاً ، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، أى بملكنا أمورنا ، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ ،وقرأ حمزة والكسائى : « بملكنا » بضمّ الميم ، والمعنى : بسلطاننا ، أى لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك . وقيل : إن الفتح والكسر والضم فى :« بملكنا » كلها لغات فى مصدر ملكت الشىء .

﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس : ﴿حملنا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم ، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبوحاتم ؛لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم ، وما حملوها كرهاً ، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل ، وسميت أوزاراً ، أى آثاماً ؛ لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم والأوزار فى الأصل : الأثقال ، كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا : الحلى .﴿ فقذفناها ﴾ أى طرحناها فى النار طلباً للخلاص من إثمها . وقيل : المعنى : طرحناها إلى السامرىّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه ﴿ فكذلك ألقى السامرى ﴾ أى فمثل ذلك القذف ألقاها السامرى. قيل : إن السامرىّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى : إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلىّ ، فجمعوه ودفعوه إليه ، فرمى به فى النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل ، فصار ﴿ عجلا جسدا له خوار ﴾ أى يخور كما يخور الحىّ من العجول ، والخوار : صوت البقر . وقيل : خواره كان بالريح ؛ لأنه

كان عمل فيه خروقاً ، فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم يكن فيه حياة ﴿ **فقالوا هذا إلهكم وإله موسى** ﴾ أي قال السامريّ ومن وافقه هذه المقالة ﴿ **فنسى** ﴾ أي فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه في الطور . وقيل : المعنى : فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم . وقيل : الناسي هو السامريّ ، أي تـرك السامـريّ ما أمر به موسى من الإيمان وضل ، كذا قال ابن الأعرابي .

﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا** ﴾ أي أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولاً ، أي لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يكلمهم إذا كلموه ، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة ؟ فأن في : ﴿ **ألا يرجع** ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير مقدّر يرجع إلى العجل ، ولهذا ارتفع الفعل بعدها ، ومنه قول الشاعر:

في فتية من سيوف الهند قد علموا ... أن هالك كل من يحفى وينتعل

أي أنه هالك . وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة ، وجملة :﴿ **ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا** ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ **لا يرجع** ﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ولا يجلب إليهم نفعاً .

﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل** ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ، أي ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ﴿ **يا قوم إنما فتنتم به** ﴾ أي وقعتم في الفتنة بسبب العجل ، وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لأجله . قيل : ومعنى القصر المستفاد من إنما هو : أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم ، وليس معناه : أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره ﴿ **وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري** ﴾ أي ربكم الرحمن لا العجل ، فاتبعوني في أمري لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامريّ في أمره لكم بعبادة العجل ، وأطيعوا أمري لا أمره .

﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ أجابوا هارون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه ، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشر ، أي لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ، حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر : هل يقررنا على عبادته أو ينهانا عنها ؟ فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامريّ .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله : ﴿**يبسا** ﴾ قال : يابساً ليس فيه ماء ولا طين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس :﴿ **لا تخاف دركا** ﴾ من آل فرعون ﴿ **ولا تخشى** ﴾ من البحر غرقاً. وأخرجا عنه أيضاً في قوله :﴿ **فقد هوى**﴾: شقي. وأخرجا عنه أيضاً :﴿ **وإني لغفار لمن تاب** ﴾ قال : من الشرك ﴿ **وآمن** ﴾ قال : وحد الله ﴿ **وعمل صالحا** ﴾ قال : أدّى الفرائض ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ قال : لم يشكك . وأخرج سعيد

ابن منصور والفريابى عنه أيضاً : ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب** ﴾ قال : من تاب من الذنب ، وآمن من الشرك ، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ قال : ثم استقام ، لزم السنة والجماعة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، والبيهقى فى البعث من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : تعجل موسى إلى ربه ، فقال الله : ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى** ﴾ الآية ، قال : فرأى فى ظل العرش رجلاً فعجب له ، فقال : من هذا يا ربّ ؟ قال : لا أحدثك من هو ، لكن سأخبرك بثلاث فيه : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعقّ والديه ، ولا يمشى بالنميمة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن علىّ قال : لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامرىّ فجمع ما قدر عليه من حلىّ بنى إسرائيل فضربه عجلاً ، ثم ألقى القبضة فى جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار ، فقال لهم السامرىّ : ﴿ **هذا إلهكم وإله موسى** ﴾ فقال لهم هارون : ﴿ **يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا** ﴾ فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه ، فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامرىّ : ما خطبك ؟ قال: ﴿ **قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى** ﴾ فعمد موسى إلى العجل ، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالى بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم ، فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقى (١) . والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بملكنا** ﴾ قال : بأمرنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة : ﴿ **بملكنا** ﴾ قال : بطاقتنا .وأخرج ابن أبى حاتم عن السدىّ مثله . وأخرج أيضاً عن الحسن قال : بسلطاننا . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هذا إلهكم وإله موسى فنسى** ﴾ قال : فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ على شرط الشيخين وقال : « لم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١) ﴾ .

جملة : ﴿ **قال يا هارون** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والمعنى : أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته وقال : ﴿ **ما منعك** ﴾ من اتباعى واللحوق بى عندما وقعوا فى هذه الضلالة ودخلوا فى الفتنة . وقيل : معنى ﴿ **ما منعك** . . . **ألا تتبعن** ﴾ : ما منعك من اتباعى فى الإنكار عليهم . وقيل : معناه : هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم . وقيل : معناه : هلا فارقتهم . و« لا » فى : ﴿ **ألا تتبعن** ﴾ زائدة ، وهو فى محل نصب على أنه مفعول ثان لمنع ، أى أىّ شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعى ، والاستفهام فى :﴿ **أفعصيت أمرى** ﴾ للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، والمعنى : كيف خالفت أمرى لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ؟ وقيل المراد بقوله : ﴿**أمرى**﴾ هو قوله الذى حكى الله عنه : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فلما أقام معهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه .

﴿ **قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى** ﴾ قرئ بالفتح والكسر للميم ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة الأعراف . ونسبه إلى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه وأمه ، عند الجمهور ؛ استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ، ومعنى ﴿ **ولا برأسى** ﴾ : ولا بشعر رأسى ، أى لا تفعل هذا بى عقوبة منك لى ، فإن لى عذراً هو﴿ **إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل** ﴾ أى خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول : إنى فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامرىّ عند العجل آخرون ،وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، ومعنى ﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ : ولم تعمل بوصيتى لك فيهم ، إنى خشيت أن تقول : فرقت بينهم ، وتقول : لم تعمل بوصيتى لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له هو قوله : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ﴾ قال أبو عبيد : معنى ﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ : ولم تنتظر عهدى وقدومى لأنك أمرتنى أن أكون معهم ، فاعتذر هارون إلى موسى ها هنا بهذا ، واعتذر إليه فى الأعراف بما حكاه الله عنه هنالك حيث قال : ﴿ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامرىّ فقال : ﴿ **فما خطبك يا سامرى** ﴾ أى ما

شأنك وما الذى حملك على ما صنعت ؟ ﴿ **قال بصرت بما لم يبصروا به** ﴾ أى قال السامرىّ مجيباً على موسى : رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له ، وأراد بذلك : أنه رأى جبريل على فرس الحياة ، فألقى فى ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول ، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف : « ما لم تبصروا به » بالمثناة من فوق على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وهى أولى ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعى لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى ، وقرئ بضم الصاد فيهما وبكسرها فى الأوّل وفتحها فى الثانى ، وقرأ أبى بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة : « فقبصت قبصة » بالصاد المهملة فيهما ، وقرأ الباقون بالضاد المعجمة فيهما ، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة : هو الأخذ بجميع الكف ، وبالمهملة : بأطراف الأصابع . والقبضة بضم القاف : القدر المقبوض . قال الجوهرى :هى ما قبضت عليه من شىء، قال : وربما جاء بالفتح ، وقد قرئ : « قبضة » بضم القاف وفتحها ، ومعنى الفتح: المرة من القبض ، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف ، ومعنى ﴿ **من أثر الرسول** ﴾ : من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل ، ومعنى ﴿ **فنبذتها** ﴾ : فطرحتها فى الحلى المذابة المسبوكة على صورة العجل ﴿**وكذلك سولت لى نفسى** ﴾ قال الأخفش : أى زينت ، أى ومثل ذلك التسويل : سولت لى نفسى . وقيل : معنى ﴿ **سولت لى نفسى** ﴾ : حدّثتنى نفسى .

فلما سمع موسى منه قال : ﴿ **فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس** ﴾ أى فاذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك فى الحياة ، أى ما دمت حياً ، وأطول حياتك أن تقول : لا مساس . المساس مأخوذ من المماسة ، أى لا يمسك أحد ولا تمس أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك ، بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك ؛ لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرىّ عن قومه ، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قيل : إنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش لا يجد أحداً من الناس يمسه، حتى صار كمن يقول : لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ، كما قال الشاعر:

حمال رايات بها قناعسا   حتى تقول الأزد لا مسايسا

قال سيبويه : وهو مبنى على الكسر . قال الزجاج : كسرت السين ؛ لأن الكسرة من علامة التأنيث . قال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب : لا مساس ، مثل قطام ، فإنما بنى على الكسر ؛ لأنه معدول عن المصدر ، وهو المس . قال النحاس : وسمعت علىّ بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول : إذا اعتل الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء ، فمساس دراك اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، ومنها أنه معرفة ، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين . وقد رأيت أبا إسحاق ، يعنى الزجاج ، ذهب إلى أن هذا القول خطأ وألزم أبا العباس إذا سميت امرأة

بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد . وقد قرأ بفتح الميم أبوحيوة والباقون بكسرها. وحاصل ما قيل فى معنى ﴿ **لا مساس** ﴾ ثلاثة أوجه : الأول : أنه حرم عليه مماسة الناس ، وكان إذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس ، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً لا مساس . والثانى :أن المراد منع الناس من مخالطته ؛ واعترض بأنّ الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو : لا مساس ، وإنما يقال له. وأجيب بأن المراد الحكاية ، أي أجعلك يا سامرى بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت: لا مساس . والقول الثالث : أن المراد انقطاع نسله ، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة ، قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً .

ثم ذكر حاله فى الآخرة فقال : ﴿ **وإن لك موعدا لن تخلفه** ﴾ أى لن يخلفك الله ذلك الموعد ، وهو يوم القيامة ، والموعد مصدر ، أى إن لك وعداً لعذابك ، وهو كائن لا محالة قال الزجاج : أى يكافئك الله على ما فعلت فى القيامة والله لا يخلف الميعاد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى والحسن : «لن تخلفه » بكسر اللام ، وله على هذه القراءة معنيان : أحدهما : ستأتيه ولن تجده مخلفاً كما تقول : أحمدته ، أى وجدته محموداً . والثانى : على التهديد ، أى لابدّ لك من أن تصير إليه . وقرأ ابن مسعود : « لن نخلفه » بالنون ، أى لن يخلفه الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وبالفوقية مبنياً للمفعول ، معناه ما قدمناه .

﴿ **وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا** ﴾ ظلت أصله : ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً ، والعرب تفعل ذلك كثيرا . وقرأ الأعمش اللامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود :« ظلت » بكسر الظاء . والمعنى : انظر إلى إلهك الذى دمت وأقمت على عبادته ، والعاكف : الملازم . ﴿ **لنحرقنه** ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرّقه . وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرقه يحرقه . وقرأ على وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب والعقيلى :« لنحرقنه » بفتح النون وضم الراء مخففة ، من حرقت الشىء أحرقه حرقاً : إذا بردته وحككت بعضه ببعض ، أى لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد: المحرق . والقراءة الأولى أولى، ومعناها : الإحراق بالنار ، وكذا معنى القراءة الثانية، وقد جمع بين هذه القراءات الثلاث بأنه أحرق ، ثم برد بالمبرد ، وفى قراءة ابن مسعود : «لنذبحنه ثم لنحرقنه » واللام هى الموطئة للقسم . ﴿ **ثم لننسفنه فى اليم نسفا** ﴾ النسف :نفض الشىء ليذهب به الريح .قرأ أبو رجاء :« لننسفنه » بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وهما لغتان . والمنسف : ما ينسف به الطعام ، وهو شىء منصوب الصدر أعلاه مرتفع، والنسافة : ما يسقط منه .

﴿ **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو** ﴾ لا هذا العجل الذى فتنكم به السامرىّ ﴿ **وسع كل شىء علما** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **وسع** ﴾ بكسر السين مخففة . وهو متعد إلى مفعول واحد ، وهو ﴿ **كل شىء** ﴾ . وانتصاب ﴿ **علما** ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل ، أى وسع علمه كل

شيء . وقرأ مجاهد وقتادة : « وسع » بتشديد السين وفتحها فيتعدى إلى مفعولين ، ويكون انتصاب ﴿ **علما** ﴾ على أنه المفعول الأول وإن كان متأخراً ؛ لأنه في الأصل فاعل ، والتقدير: وسع علمه كل شيء ، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف .

﴿ **كذلك نقص عليك** ﴾ الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، أي كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك ﴿ **من أنباء ما قد سبق** ﴾ أي من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك ، و« من » للتبعيض ، أي بعض أخبار ذلك ﴿ **وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾ المراد بالذكر: القرآن ، وسمى ذكراً ؛ لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار . وقيل : المراد بالذكر : الشرف ، كقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

ثم توعد سبحانه المعرضين عن هذا الذكر فقال : ﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا** ﴾ أي أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه . وقيل : أعرض عن الله سبحانه ، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً ، أي إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿ **خالدين فيه**﴾ في الوزر ، والمعنى : أنهم يقيمون في جزائه . وانتصاب : ﴿ **خالدين** ﴾ على الحال ﴿**وساء لهم يوم القيامة حملا** ﴾ أي بئس الحمل يوم القيامة ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي ساء لهم حملاً وزرهم واللام للبيان ، كما في : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ **يا هارون ما منعك** ﴾ إلى قوله : ﴿**أفعصيت أمرى** ﴾ قال: أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين ، فكان من إصلاحه أن ينكر العجل . وأخرج عنه أيضاً في قوله : ﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ قال : لم تنتظر قولى ما انا صانع ، وقال ابن عباس : ﴿ **لم ترقب** ﴾ : لم تحفظ قولى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس** ﴾ قال : عقوبة له ﴿ **وإن لك موعدا لن تخلفه** ﴾ قال : لن تغيب عنه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا** ﴾ قال : أقمت ﴿ **لنحرقنه** ﴾ قال : بالنار ﴿ **ثم لننسفنه في اليم** ﴾ قال : لنذرينه في البحر . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ :« لنحرقنه » خفيفة ، ويقول : إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار ، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ **اليم** ﴾ : البحر . وأخرج أيضاً عن عليّ قال :﴿ **اليم** ﴾ : النهر . وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله : ﴿ **وسع كل شيء علما** ﴾ قال : ملأ . وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله : ﴿ **من لدنا ذكرا** ﴾ قال : القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ **وزرا** ﴾ قال : إثماً . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وساء لهم يوم القيامة حملا** ﴾ يقول : بئس ما حملوا .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾.

الظرف وهو : ﴿ **يوم ينفخ** ﴾ متعلق بمقدر هو اذكر . وقيل : هو بدل من يوم القيامة ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ **ينفخ** ﴾ بضم الياء التحتية مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق بالنون مبنياً للفاعل ، واستدل أبو عمرو على قراءته هذه بقوله: ﴿ **ونحشر** ﴾ فإنه بالنون ، وقرأ ابن هرمز : « ينفخ » بالتحتية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل ، وقرأ أبو عياض : « فى الصور » بفتح الواو جمع صورة ، وقرأ الباقون بسكون الواو ، وقرأ طلحة بن مصرف والحسن :« يحشر » بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع ﴿**المجرمين**﴾ وهو خلاف رسم المصحف ، وقرأ الباقون بالنون. وقد سبق تفسير هذا فى الأنعام . والمراد بالمجرمين : المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التى لم يغفرها الله لهم ، والمراد بـ﴿**يومئذ** ﴾ : يوم النفخ فى الصور . وانتصاب ﴿ **زرقا** ﴾ على الحال من المجرمين ، أى زرق العيون ، والزرقة الخضرة فى العين كعين السنور والعرب تتشاءم بزرقة العين ، وقال الفراء : ﴿**زرقا** ﴾ أى عمياء . وقال الأزهرى : عطاشاً ، وهو قول الزجاج ؛ لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقة . وقيل : إنه كنى بقوله : ﴿ **زرقا** ﴾ عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة . وقيل : هو كناية عن شخوص البصر من شدة الحوص ، ومنه قول الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا بن معكبر　　　كما كل ضبىّ من اللؤم أزرق

والقول الأول أولى ، والجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم .

وجملة : ﴿ **يتخافتون بينهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه فى ذلك اليوم ، والخفت فى اللغة : السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته : خفته . والمعنى : يتساررون ، أى يقول بعضهم لبعض سراً : ﴿ **إن لبثتم إلا عشرا** ﴾ أى ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال . وقيل : فى القبور . وقيل : بين النفختين ، والمعنى :أنهم يستقصرون مدة مقامهم

فى الدنيا ، أو فى القبور ، أو بين النفختين لشدة ما يرون من أهوال القيامة. وقيل: المراد بالعشر : عشر ساعات . ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة** ﴾ أى أعدلهم قولاً وأكملهم رأيًا وأعلمهم عند نفسه : ﴿ **إن لبثتم إلا يوما** ﴾ أى ما لبثتم إلا يوماً واحداً ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ؛ لكونه أدل على شدّة الهول ، لا لكونه أقرب إلى الصدق .

﴿ **ويسألونك عن الجبال** ﴾ أى عن حال الجبال يوم القيامة ، وقد كانوا سألوا النبى ﷺ عن ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **فقل ينسفها ربى نسفا** ﴾ قال ابن الأعرابى وغيره : يقلعها قلعاً من أصولها، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ، ثم كالهباء المنثور . والفاء فى قوله : ﴿ **فقل** ﴾ لجواب شرط مقدّر ، والتقدير: إن سألوك فقل ، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين. والضمير فى قوله : ﴿ **فيذرها** ﴾ راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها ، أى فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال ﴿ **قاعا صفصفا** ﴾ قال ابن الأعرابى : القاع الصفصف : الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء ، وقال الفراء : القاع : مستنقع الماء ، والصفصف : القرعاء الملساء التى لا نبات فيها . وقال الجوهرى : القاع : المستوى من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان . والظاهر من لغة العرب أن القاع : الموضع المنكشف ، والصفصف : المستوى الأملس ، وأنشد سيبويه :

وكم دون بيتك من صفصف ودكداك رمل وأعقادها

وانتصاب : ﴿ **قاعا** ﴾ على أنه مفعول ثان ليذر على تضمينه معنى التصيير ، أو على الحال والصفصف صفة له . ومحل :﴿ **لا ترى فيها عوجا** ﴾ النصب على أنه صفة ثانية لـ﴿**قاعا**﴾ والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار . والعوج بكسر العين : التعوج ، قاله ابن الأعرابى . والأمت : التلال الصغار . والأمت فى اللغة : المكان المرتفع . وقيل : العوج : الميل ، والأمت : الأثر مثل الشراك . وقيل : العوج : الوادى ، والأمت : الرابية . وقيل : هما الارتفاع . وقيل : العوج : المصدوع ، والأمت : الأكمة . وقيل : الأمت : الشقوق فى الأرض . وقيل : الأمت : أن يغلظ فى مكان ويدق فى مكان . ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ها هنا يدفع ما يقال : إن العوج بكسر العين فى المعانى وبفتحها فى الأعيان ، وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما عنه غنى ، وفى غيره سعة .

﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ أى يوم نسف الجبال يتبع الناس داعى الله إلى المحشر. وقال الفراء : يعنى صوت الحشر ، وقيل : الداعى هو إسرافيل إذا نفخ فى الصور لا عوج له ، أى لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين .وقيل :لا عوج لدعائه﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن**﴾ أى خضعت لهيبته ، وقيل : ذلت . وقيل : سكتت ، ومنه قول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

﴿ **فلا تسمع إلا همسا** ﴾ الهمس : الصوت الخفى . قال أكثر المفسرين : هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ، ومنه قول الشاعر :

وهنّ يمشين بنا هميسا

يعنى صوت أخفاف الإبل.

وقال رؤبة يصف نفسه :

ليث يدق الأسد الهموسا   ولا يهاب الفيل والجاموسا

يقال للأسد : الهموس ؛ لأنه يهمس فى الظلمة ، أى يطأ وطأ خفياً . والظاهر أن المراد هنا : كل صوت خفى سواء كان بالقدم ، أو من الفم ، أو غير ذلك ، ويؤيده قراءة أبى بن كعب : « فلا ينطقون إلا همساً » .

﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة** ﴾ أى يوم يقع ما ذكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائنا من كان ﴿**إلا من أذن له الرحمن** ﴾ أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له ﴿ **ورضى له قولا** ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة أو رضى لأجله قول الشافع . والمعنى : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقوله : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ [مريم : ٨٧] ، وقوله : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : ٤٨] .

﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أى ما بين أيديهم من أمر الساعة ، وما خلفهم من أمر الدنيا ، والمراد هنا : جميع الخلق . وقيل : المراد بهم : الذين يتبعون الداعى ، وقال ابن جرير : الضمير يرجع إلى الملائكة ، أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾ أى بالله سبحانه ، لا تحيط علومهم بذاته ، ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته . وقيل : الضمير راجع إلى ما فى الموضعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ﴿**وعنت الوجوه للحى القيوم** ﴾ أى ذلت وخضعت ، قاله ابن الأعرابى . قال الزجاج : معنى عنت فى اللغة : خضعت ، يقال : عنى يعنو عنواً : إذا خضع ، ومنه قيل للأسير : عان ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن   لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل : هو من العناء ، بمعنى التعب ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ أى خسر من حمل شيئاً من الظلم . وقيل: هو الشرك . ﴿ **ومن يعمل من الصالحات** ﴾ أى الأعمال الصالحة ﴿**وهو مؤمن** ﴾ بالله ؛ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان ، بل هو شرط فى القبول ﴿ **فلا يخاف ظلما** ﴾ يصاب به من نقص ثواب فى الآخرة ﴿ **ولا هضما** ﴾ الهضم : النقص والكسر ،

يقال: هضمت لك من حقى ، أى حططته وتركته . وهذا يهضم الطعام ، أى ينقص ثقله . وامرأة هضيم الكشح ، أى ضامرة البطن . وقرأ ابن كثير ومجاهد : « لا يخف » بالجزم جواباً لقوله: ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ وقرأ الباقون : ﴿ يخاف ﴾ على الخبر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه ، فقال رأيت قوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ وأخرى عمياً قال : إن يوم القيامة فيه حالات يكونون فى حال زرقاً ، وفى حال عمياً . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ قال يتساررون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ أمثلهم طريقة ﴾ قال : أوفاهم عقلاً ، وفى لفظ قال : أعلمهم فى نفسه .

وأخرج ابن المنذر وابن جريج قال : قالت قريش : كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت : ﴿ويسألونك عن الجبال ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فيذرها قاعا صفصفا ﴾ قال : لا نبات فيه ﴿ لا ترى فيها عوجا ﴾ قال : وادياً ﴿ ولا أمتا ﴾ قال : رابية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله :﴿ قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ قال : كان ابن عباس يقول : هى الأرض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ عوجا ﴾ قال : ميلاً ﴿ ولا أمتا ﴾ قال : الأمت : الأثر مثل الشراك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى منادٍ فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قول الله : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى الآية : قال لا عوج عنه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ وخشعت الأصوات ﴾ قال : سكتت ﴿ فلا تسمع إلا همسا ﴾ قال :الصوت الخفى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ إلا همسا ﴾ قال : صوت وطء الأقدام. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الصوت الخفى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : سر الحديث وصوت الأقدام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : ذلت . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : خشعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال :خضعت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :﴿ وعنت الوجوه ﴾ : الركوع والسجود. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ قال : شركاً . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة : ﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ قال : شركاً ﴿ فلا يخاف ظلما

ولا هضما ﴾ قال : ظلماً أن يزاد فى سيئاته ﴿ **ولا هضما** ﴾ قال : ينقص من حسناته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : لا يخاف أن يظلم فى سيئاته ، ولا يهضم فى حسناته . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه ﴿ **ولا هضما** ﴾ قال : غضباً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾.

قوله : ﴿ **وكذلك أنزلناه** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **كذلك نقص عليك** ﴾ أى مثل ذلك الإنزال أنزلناه ، أى القرآن حال كونه ﴿ **قرآنا عربيا** ﴾ أى بلغة العرب ليفهموه ﴿ **وصرفنا فيه من الوعيد** ﴾ بينا فيه ضروباً من الوعيد تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿ **لعلهم يتقون**﴾ أى كى يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿ **أو يحدث لهم ذكرا** ﴾ أى اعتباراً واتعاظاً. وقيل : ورعاً . وقيل : شرفاً . وقيل : طاعة وعبادة ؛ لأن الذكر يطلق عليها . وقرأ الحسن : «أو نحدث » بالنون .

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته فى شيء من الأشياء ، أى جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون فى صفاته ، فإنه الملك الذى بيده الثواب والعقاب ، وأنه الحق أى ذو الحق ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه** ﴾ أى يتم إليك وحيه . قال المفسرون : كان النبى ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصاً منه على ما كان ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك ، ومثله قوله : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : ١٦] على ما يأتى إن شاء الله . وقيل : المعنى : ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، وقرأ ابن مسعود ويعقوب والحسن والأعمش : « من قبل أن نقضى » بالنون ونصب :« وحيه » . ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ أى سل ربك زيادة العلم بكتابه.

﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من

تصريف الوعيد ، أى لقد أمرناه ووصيناه ، والمعهود محذوف ، وهو ما سيأتى من نهيه عن الأكل من الشجرة ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ : أى من قبل هذا الزمان ﴿ **فنسى** ﴾ قرأ الأعمش بإسكان الياء ، والمراد بالنسيان هنا : ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين . وقيل : النسيان على حقيقته ، وأنه نسى ما عهد الله به إليه وينتهى عنه ، وكان آدم مأخوذاً بالنسيان فى ذلك الوقت ، وإن كان النسيان مرفوعاً عن هذه الأمة . والمراد من الآية : تسلية النبى ﷺ على القول الأوّل ، أى أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيرى . واعترضه ابن عطية قائلاً بأن كون آدم مماثلاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشىء ، وقرئ : « فنسى » بضم النون وتشديد السين مكسورة مبنياً للمفعول ، أى فنساه إبليس ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ العزم فى اللغة : توطين النفس على الفعل والتصميم عليه ، والمضى على المعتقد فى أى شىء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على ألا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك ، فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر . وقيل : العزم : الصبر ، أى لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة . قال النحاس : وهو كذلك فى اللغة ، يقال : لفلان عزم ، أى صبر وثبات على التحفظ عن المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه : ﴿ كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقيل : المعنى : ولم نجد له عزماً على الذنب ، وبه قال ابن كيسان . وقيل : ولم نجد له رأياً معزوماً عليه ، وبه قال ابن قتيبة .

ثم شرع سبحانه فى كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، والعامل فى إذ مقدّر ، أى واذكر ﴿ **إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة ؛ لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة فى البقرة مستوفى ، ومعنى ﴿ **فتشقى** ﴾ : فتتعب فى تحصيل ما لابد منه فى المعاش كالحرث والزرع ، ولم يقل : « فتشقيا» ؛ لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده .

ثم علل ما يوجبه ذلك النهى بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام ، فقال :﴿ **إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾ أى فى الجنة . والمعنى : أن لك فيها تمتعاً بأنواع المعايش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية ، فإنه لما نفى عنه الجوع والعرى أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له ، وهكذا قوله : ﴿ **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ فإن نفى الظمأ يستلزم حصول الرى ووجود المسكن الذى يدفع عنه مشقة الضحو ، يقال : ضحى الرجل يضحى ضحواً : إذا برز للشمس فأصابه حرّها ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكدّ فى تحصيله ، ولا ريب أن أصول المتاعب فى الدنيا هى تحصيل الشبع والرى والكسوة والسكن ، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها ، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله فى الجنة هذا كله ، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من

الجنة إلى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعرى والظمأ والضحو . فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا ، كما قاله كثير من المفسرين ، لا شقاء الأخرى . قال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصماً : « وأنك لتظمأ » بفتح أن ، وقرأ الباقون بكسرها على العطف على إن لك .

﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى الأعراف فى قوله : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ [الآية : ٢٠] أى أنهى إليه وسوسته ، وجملة ﴿ **قال يا آدم** ﴾ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال له فى وسوسته ؟ و﴿ **شجرة الخلد**﴾ هى الشجرة التى من أكل منها لم يمت أصلاً ﴿ **وملك لا يبلى** ﴾ أى لا يزول ولا ينقضى ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى الأعراف. قال الفراء: ومعنى طفقا فى العربية : أقبلا . وقيل : جعلا يلصقان عليهما من ورق التين ﴿**وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ أى عصاه بالأكل من الشجرة فغوى فضل عن الصواب أو عن مطلوبه ، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة . وقيل : فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا . وقيل : جهل موضع رشده . وقيل : بشم من كثرة الأكل . قال ابن قتيبة : أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها باستزلال إبليس وخدائعه إياه ، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ، ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة ، فنحن نقول : عصى آدم ربه فغوى . انتهى . قال القاضى أبو بكر بن العربى : لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم . قلت : لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله فى كتابه بأنه عصاه ، وكما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومما قلته فى هذا المعنى :

عصى أبو العالم وهو الذى ... من طينــة صــوره الله
وأسجـد الأملاك مـن أجـله ... وصيـر الجـنـة مـأواه
أغواه إبليس فمن ذا أنا المسـ ... ـكين إن إبليس أغــواه

﴿ **ثم اجتباه ربه** ﴾ أى اصطفاه وقربه . قال ابن فورك : كانت المعصية من آدم قبل النبوة بدليل ما فى هذه الآية ، فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية ، وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿ **فتاب عليه وهدى** ﴾ أى تاب عليه من معصيته ، وهداه إلى الثبات على التوبة . قيل : وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٣]. وقد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**أو يحدث لهم** ﴾ أى القرآن ﴿ **ذكرا** ﴾ قال : جداً وورعاً . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن** ﴾ يقول : لا تعجل حتى نبينه لك . وأخرج الفريابى وابن جرير

وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : لطم رجل امرأته ، فجاءت إلى النبى ﷺ تطلب قصاصاً ، فجعل النبى ﷺ بينهما القصاص ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن** ﴾ الآية ، فوقف النبى ﷺ حتى نزلت : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [النساء: ٣٤] (١). وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تعجل** ﴾ الآية قال : لا تتله على أحد حتى نتمه لك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،وابن منده فى التوحيد ، والطبرانى فى الصغير وصححه عن ابن عباس قال : إنما سمى الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فنسى . وأخرج عبد الغنى وابن سعد عن ابن عباس : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم** ﴾ ألا تقرب الشجرة ﴿ **فنسى** ﴾ فترك عهدى ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ قال : حفظاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً ﴿ **فنسى**﴾ فترك ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ يقول:لم نجعل له عزماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ **إنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾ قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حرّ . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهى شجرة الخلد » (٢) . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « حاج آدم موسى قال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك ، قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى ، أو قدره على قبل أن يخلقنى » ، قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » (٣) .

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **قال اهبطا** ﴾ قد مرّ تفسيره فى البقرة ، أى انزلا من الجنة إلى الأرض ، خصهما الله سبحانه بالهبوط ؛ لأنهما أصل البشر ، ثم عمم الخطاب لهما ولذرّيتهما فقال : ﴿**بعضكم لبعض عدو** ﴾ والجملة فى محل نصب على الحال، ويجوز أن يقال : خاطبهما فى هذا وما بعده

---

(١) ابن جرير ٥/ ٣٨ . (٢) أحمد ٢/ ٤٥٥ .

(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٤٠٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٣ / ١٣) .

خطاب الجمع ؛ لأنهما منشأ الأولاد . ومعنى ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ : تعاديهم فى أمر المعاش ونحوه ، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى** ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

﴿ **ومن أعرض عن ذكرى** ﴾ أى عن دينى ، وتلاوة كتابى ، والعمل بما فيه ، ولم يتبع هداى ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ أى فإن له فى هذه الدنيا معيشة ضنكاً ، أى عيشاً ضيقاً . يقال: منزل ضنك وعيش ضنك ، مصدر يستوى فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث ، قال عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

وقرئ : « ضُنكى » بضم الضاد على فُعلى ، ومعنى الآية : أن الله عزّ وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش فى الدنيا عيشاً هنياً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة﴾ [النحل : ٩٧]. وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً وفى تعب ونصب ، ومع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب، فهو فى الأخرى أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً ، وذلك معنى : ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ أى مسلوب البصر . وقيل : المراد : العمى عن الحجة . وقيل : أعمى عن جهات الخير لا يهتدى إلى شىء منها . وقد قيل : إن المراد بالمعيشة الضنكى : عذاب القبر ، وسيأتى ما يرجح هذا ويقويه.

﴿ **قال ربى لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا** ﴾ فى الدنيا ﴿ **قال كذلك** ﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسره بقوله : ﴿ **أتتك آياتنا فنسيتها** ﴾ أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها ﴿ **وكذلك اليوم تنسى** ﴾ أى مثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا تنسى ، أى تترك فى العمى والعذاب فى النار . قال الفراء : يقال : إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى فى حشره .

﴿ **وكذلك نجزى من أسرف** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزيه . والإسراف : الانهماك فى الشهوات . وقيل : الشرك .﴿ **ولم يؤمن بآيات ربه** ﴾ بل كذب بها ﴿ **ولعذاب الآخرة أشد** ﴾ أى أفظع من المعيشة الضنكى ﴿ **وأبقى** ﴾ أى أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع .

وقد أخرج ابن أبى شيبة والطبرانى، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ: « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة فى الدنيا ،ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله يقول : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ » (١) .

---

(١) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠٠٠٤) والطبرانى (١٢٤٣٧) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة ، ثم قرأ : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ قال : لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ، ومسدد فى مسنده ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً فى قوله :﴿ **معيشة ضنكا** ﴾ قال : عذاب القبر(١). ولفظ عبد الرزاق قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه. ولفظ ابن أبى حاتم قال :ضمة القبر. وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وقد روى موقوفاً . قال ابن كثير : الموقوف أصح. وأخرج البزار وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ قال : « المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » . وأخرج ابن أبى الدنيا والحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه (٢). قال ابن كثير:رفعه منكر جداً(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فإن له معيشة ضنكاً** ﴾ قال : «عذاب القبر» (٤) . قال ابن كثير بعد إخراجه : إسناد جيد (٥) . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ قال : عذاب القبر ، ومجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود ؛ أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ قال : عمى عليه كل شىء إلا جهنم ، وفى لفظ : لا يبصر إلا النار . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله : ﴿ **وكذلك نجزى من أسرف** ﴾ قال : من أشرك بالله .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ

---

(١) ابن جرير ١٦ / ١٦٤ وصححه الحاكم ٢/ ٣٨١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) أبو يعلى (٦٦٤٤) وابن جرير ١٦/ ١٦٥ . (٣) ابن كثير ٤/ ٥٤٤ .

(٤) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦٦٨٧) والحاكم ٢/ ٣٨١ كلاهما عن أبى سعيد الخدرى .

(٥) ابن كثير ٤/ ٥٤٥ .

النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)﴾.

قوله : ﴿ **أفلم يهد لهم** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر ، كما مرّ غير مرّة ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها ، والمفعول محذوف ، وأنكر البصريون مثل هذا ؛ لأن الجمل لا تقع فاعلاً ، وجوزه غيرهم . قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم . قال النحاس: وهذا خطأ ؛ لأن «كم» استفهام ، فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى : أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى ، فالفاعل هو الهدى ،وقال: « كم » في موضع نصب بـ﴿ **أهلكنا**﴾. وقيل : إن فاعل ﴿ **يهد** ﴾ ضمير لله أو للرسول ، والجملة بعده تفسره ، ومعنى الآية على ما هو الظاهر:أفلم يتبين لأهل مكة خبر من ﴿ **أهلكنا قبلهم من القرون** ﴾ حال كون القرون ﴿**يمشون فى مساكنهم** ﴾ ويتقلبون فى ديارهم ، أو حال كون هؤلاء يمشون فى مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط،فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم ، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك . وقرأ ابن عباس والسلمى : « نهد » بالنون ، والمعنى على هذه القراءة واضح ،وجملة: ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى مضمون ﴿ **كم أهلكنا** ﴾ إلى آخره . والنهى : جمع نهية ، وهى العقل ، أى لذوى العقول التى تنهى أربابها عن القبيح .

﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ أى ولولا الكلمة السابقة ، وهى وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿ **لكان** ﴾ عقاب ذنوبهم ﴿ **لزاما** ﴾ أى لازماً لهم ، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر . وقوله : ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ معطوف على ﴿ **كلمة** ﴾ قاله الزجاج وغيره ؛ والأجل المسمى هو : يوم القيامة ، أو يوم بدر . واللزام مصدر لازم . قيل : ويجوز عطف ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ على الضمير المستتر فى كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق ؛ تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد ، أى لكان الأخذ العاجل ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، وفيه تعسف ظاهر .

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر ، فقال : ﴿ **فاصبر**

على ما يقولون ﴾ من أنك ساحر كذاب ، ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة ، والمعنى : لا تحتفل بهم ، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر . وقيل : هذا منسوخ بآية القتال ﴿**وسبح بحمد ربك** ﴾ أى متلبساً بحمده . قال أكثر المفسرين : والمراد : الصلوات الخمس كما يفيد قوله : ﴿ **قبل طلوع الشمس** ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿ **ومن آناء الليل** ﴾ العتمة ، والمراد بالآناء : الساعات ، وهى جمع إنى بالكسر والقصر ، وهو الساعة ، ومعنى ﴿ **فسبح** ﴾: أى فصل ﴿ **وأطراف النهار** ﴾ : أى المغرب والظهر لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأوّل ، وأول طرف النهار الآخر ، وقيل: إن الإشارة إلى صلاة الظهر هى بقوله : ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ لأنها هى وصلاة العصر قبل غروب الشمس . وقيل : المراد بالآية : صلاة التطوع . ولو قيل : ليس فى الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح فى هذه الأوقات ، أى قول القائل : سبحان الله ، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب . والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازى ، وجملة : ﴿ **لعلك ترضى** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **فسبح** ﴾ أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك ، هذا على قراءة الجمهور . وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم : « ترضى » بضم التاء مبنياً للمفعول ، أى يرتضيك ربك .

﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم** ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية فى الحجر . والمعنى : لا تطل نظرعينيك ، و ﴿ **أزواجا** ﴾ مفعول ﴿ **متعنا** ﴾ . و﴿ **زهرة** ﴾ منصوبة على الحال ، أو بفعل محذوف ، أى جعلنا أو أعطينا ، ذكر معنى هذا الزجاج . وقيل : هى بدل من الهاء فى : ﴿ **به** ﴾ باعتبار محله ، وهو النصب لا باعتبار لفظه ، فإنه مجرور كما تقول : مررت به أخاك . ورجح الفراء النصب على الحال ، ويجوز أن تكون بدلاً ، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله و﴿ **زهرة الحياة الدنيا** ﴾ : زينتها وبهجتها بالنبات وغيره . وقرأ عيسى بن عمر: « زهرة » بفتح الهاء ، وهى نور النبات ، واللام فى : ﴿**لنفتنهم فيه** ﴾ متعلق ﴿ **بمتعنا** ﴾ أى لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ، ابتلاءً منا لهم، كقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ [الكهف : ٩] وقيل : لنعذبنهم . وقيل : لنشدد عليهم فى التكليف ﴿ **ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ أى ثواب الله ، وما ادّخر لصالحى عباده فى الآخرة خير مما رزقهم فى الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع، وهذا ينقطع ، وهو معنى ﴿ **وأبقى** ﴾ . وقيل : المراد بهذا الرزق: ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأول أولى ؛ لأن الخيرية المحققة والدوام الذى لا ينقطع إنما يتحققان فى الرزق الأخروى لا الدنيوى ، وإن كان حلالاً طيباً : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ [النحل : ٩٦] .

﴿ **وأمر أهلك بالصلاة** ﴾ أمره الله سبحانه بأن يأمر أهله بالصلاة. والمراد بهم: أهل بيته. وقيل : جميع أمته ، ولم يذكر ها هنا الأمر من الله له بالصلاة ، بل قصر الأمر على

أهله ، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً ، أو لكون أمره بها قد تقدّم فى قوله : ﴿ **وسبح بحمد ربك** ﴾ إلى آخر الآية ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ، ولهذا قال: ﴿ **واصطبر عليها** ﴾ أى اصبر على الصلاة ، ولا تشغل عنها بشىء من أمور الدنيا ﴿ **لا نسألك رزقاً** ﴾ أى لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿ **نحن نرزقك** ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ أى العاقبة المحمودة ، وهى الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش . وفيه دليل على أن التقوى هى ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

﴿ **وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه** ﴾ أى قال كفار مكة : هلا يأتينا محمد بآية من آيات ربه كما كان يأتى بها من قبله من الأنبياء ؟ وذلك كالناقة والعصا ، أو هلا يأتينا بآية من الآيات التى قد اقترحناها عليه ؟ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ **أو لم يأتهم بينة ما فى الصحف الأولى** ﴾ يريد بالصحف الأولى : التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة ، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، وذلك يكفى ، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم . وقيل : المعنى : أولم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التى اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم . وقيل : المراد : أو لم تأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن ، فإنه برهان: لما فى سائر الكتب المنزلة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبى إسحاق وحفص : ﴿ **أو لم تأتهم** ﴾ بالتاء الفوقية، وقرأ الباقون بالتحتية ؛ لأن معنى البينة : البيان والبرهان ، فذكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة، واختار هذه القراءة ابن عبيد وأبو حاتم . قال الكسائى : ويجوز : « بينة » بالتنوين . قال النحاس: إذا نونت بينة ورفعت جعلت « ما » بدلاً منها، وإذا نصبت فعلى الحال . والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيناً ، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوى وإن لم تقع القراءة به .

﴿ **ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله** ﴾ أى من قبل بعثة محمد ﷺ ، أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿ **لقالوا** ﴾ يوم القيامة ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا** ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولاً فى الدنيا ﴿ **فنتبع آياتك**﴾ التى يأتى بها الرسول ﴿ **من قبل أن نذل** ﴾ بالعذاب فى الدنيا ﴿**ونخزى** ﴾ بدخول النار، وقرئ :«نذل ونخزى » على البناء للمفعول . وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ؛ ولهذا حكى الله عنهم أنهم : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ﴾ [الملك : ٩] .

﴿ **قل كل متربص فتربصوا** ﴾ أى قل لهم يا محمد : كل واحد منا ومنكم متربص ، أى منتظر لما يؤول إليه الأمر فتربصوا أنتم ﴿ **فستعلمون** ﴾ عن قريب ﴿ **من أصحاب الصراط السوى**﴾ أى فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم ﴿ **ومن اهتدى** ﴾

من الضلالة ونزع عن الغواية ، و« من » فى الموضعين فى محل رفع بالابتداء . قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿ **من أصحاب الصراط السوى** ﴾ : من لم يضل ، وإلى أن معنى ﴿ **من اهتدى** ﴾ : من ضل ثم اهتدى . وقيل : « من » فى الموضعين فى محل نصب ، وكذا قال الفراء . وحكى عن الزجاج أنه قال: هذا خطأ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . وقرأ أبو رافع : « فسوف تعلمون » وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى : « السوى » على فعلى ، وردت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ . وقيل : هى بمعنى الوسط والعدل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أفلم يهد لهم** ﴾ : ألم نبين لهم ﴿ **كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم** ﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم . وفى قوله : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى** ﴾ يقول : هذا من مقاديم الكلام ، يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : الأجل المسمى : الكلمة التى سبقت من ربك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **لكان لزاما** ﴾ قال : موتاً .

وأخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**وسبح بحمد ربك** ﴾ الآية قال : هى الصلاة المكتوبة . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس** ﴾ قال :«قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر » (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، وقرأ: ﴿ **فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾ (٢) . وفى صحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى عن عمارة بن رؤبة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والخرائطى وأبو نعيم عن أبى رافع قال : أضاف النبى ﷺ ضيفاً ، ولم يكن عند النبى ﷺ ما يصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من اليهود : أن بعنا أو سلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلا برهن ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فقال : « أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأديت إليه ، اذهب بدرعى الجديد » فلم

---

(١) الطبرانى (٢٢٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٠ : « فيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف » .

(٢) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٤) ومسلم فى المساجد (٦٣٣/ ٢١١) وأبو داود فى السنة (٤٧٢٩) والترمذى فى كتاب الجنة (٢٥٥٤) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) مسلم فى المساجد (٦٣٤/ ٢١٣) وأبو داود فى الصلاة (٤٢٧) والنسائى ١/ ٢٣٥ .

أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تمدن عينيك** ﴾ (١) كأنه يعزيه عن الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا » ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : « بركات الأرض » .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت : ﴿**وأمر أهلك بالصلاة** ﴾ كان النبى ﷺ يجىء إلى باب على صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول : الصلاة رحمكم الله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . وأخرج ابن مردويه عن أبى الحمراء نحوه . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ثابت قال : كان النبى ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى الشعب بإسناد ، قال السيوطى : صحيح ، عن عبد الله بن سلام قال: كان النبى ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة** ﴾ الآية (٢) .

---

(١) ابن جرير ١٦/ ١٦٩ .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات » وأبو نعيم فى الدلائل ٨/ ١٧٦ . وهو غريب من حديث معمر وابن المبارك .

تفسير سورة الأنبياء

وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وهى مائة واثنتا عشرة آية . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هن من العتاق الأول، وهنّ من تلادى (١) . وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية عن عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما فى العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر : لا حاجة لى فى قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) ﴾.

يقال : قرب الشيء واقترب وقد اقترب الحساب ، أى قرب الوقت الذى يحاسبون فيه . قال الزجاج : المعنى: ﴿ **اقترب للناس** ﴾ وقت ﴿ **حسابهم** ﴾ أى القيامة كما فى قوله : ﴿اقتربت الساعة ﴾ [القمر: ١] واللام فى ﴿ **للناس** ﴾ متعلقة بالفعل ، وتقديمها هى ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب وقت الحساب : دنوه منهم ، لأنه فى كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التى قبلها . وقيل : لأن كل ما هو آت قريب ، وموت كل إنسان قيام ساعته . والقيامة أيضًا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان فما بقى من الدنيا أقل مما مضى، والمراد بالناس : العموم . وقيل : المشركون مطلقًا. وقيل : كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل : المراد بالحساب : عذابهم يوم بدر ، وجملة : ﴿ **وهم فى غفلة معرضون** ﴾ فى محل نصب على

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨ ، ٤٧٣٩) .
(٢) أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٧٩ .

الحال ، أى هم فى غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله . والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه .

﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ : « من » لابتداء الغاية . وقد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثا على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو : القرآن . وأجيب بأنه: لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد فى النزول . فالمعنى محدث تنزيله ، وإنما النزاع فى الكلام النفسى .

وهذه المسألة ، أعنى قدم القرآن وحدوثه ، قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل فى الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية ، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعى ، وصارت فتنة عظيمة فى ذلك الوقت وما بعده .والقصة أشهر من أن تذكر . ومن أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبى . ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال : لفظ القرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف . وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب ، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسألة شىء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة فى ذلك ، فكان الامتناع من الإجابة إلى مادعوا إليه والتمسك بأذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه .

وقوله : ﴿ **إلا استمعوه** ﴾ استثناء مفرغ فى محل نصب على الحال . وجملة : ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ فى محل نصب على الحال أيضًا من فاعل استمعوه ،و﴿ **لاهية قلوبهم** ﴾ حال أيضًا ، والمعنى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا فى الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب ، وقرئ : « لاهية » بالرفع كما قرئ : « محدث » بالرفع ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا** ﴾ النجوى : اسم من التناجى ، والتناجى لا يكون إلا سراً، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة فى الإخفاء . وقد اختلف فى محل الموصول على أقوال ، فقيل : إنه فى محل رفع بدل من الواو فى ﴿ **أسروا** ﴾ قاله المبرد وغيره . وقيل : هو فى محل رفع على الذم . وقيل: هو فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : يقول الذين ظلموا، واختار هذا النحاس ، وقيل : فى محل نصب بتقدير أعنى. وقيل : فى محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد. وقيل: هو فى محل رفع على أنه فاعل ﴿ **أسروا** ﴾ على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين ، كقولهم : أكلونى البراغيث ، ذكر ذلك الأخفش ، ومثله ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾

[المائدة : ٧١] ومنه قول الشاعر :

فاهتدين النبالُ للأغراض

وقول الآخر :

ولـكن ديافيٌّ أبـوه وأمـه ... بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ، أى والذين ظلموا أسرّوا النجوى . قال أبو عبيدة : أسروا هنا من الأضداد؛ يحتمل أن يكون بمعنى : أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى : أظهروه وأعلنوه ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها ، أى قالوا : هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء؟ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من ﴿**النجوى**﴾، وهل بمعنى النفى ، أى وأسروا هذا الحديث ، والهمزة فى ﴿ **أفتأتون السحر** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وجملة : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى : إذا كان بشرًا مثلكم ، وكان الذى جاء به سحرًا ، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه .

فأطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به ، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض** ﴾ أى لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما ، وفى مصاحف أهل الكوفة : ﴿ **قال ربى** ﴾ أى قال محمد : ربى يعلم القول ، فهو عالم بما تناجيتم به . قيل القراءة الأولى أولى ، لأنهم أسرّوا هذا القول ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا . قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة آيتين ﴿ **وهو السميع** ﴾ لكل ما يسمع ﴿ **العليم** ﴾ بكل معلوم ، فيدخل فى ذلك ما أسروا دخولا أوليا .

﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ قال الزجاج : أى قالوا: الذى تأتى به أضغاث أحلام . قال القتيبى : أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة . وقال اليزيدى : الأضغاث ما لم يكن له تأويل ، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول . ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم : أضغاث أحلام ، قال : ﴿ **بل افتراه** ﴾ أى بل قالوا: افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل . ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ **بل هو شاعر** ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، وفى هذا الاضطراب منهم ، والتلوّن والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به ، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ؟ أو كانوا قد علموا أنه حق ، وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان . ثم بعد هذا كله ، قالوا : ﴿ **فليأتنا بآية** ﴾ وهذا جواب شرط محذوف ، أى إن لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية ﴿ **كما أرسل الأولون** ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجر صفة لآية ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفى ، ولو علم الله سبحانه أنهم

يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك، كما قال : ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : ٢٣] قال الزجاج : اقترحوا الآيات التى لا يقع معها إمهال ، فقال الله مجيباً لهم : ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية** ﴾ أى قبل مشركى مكة، ومعنى ﴿ **من قرية** ﴾ : من أهل قرية ، ووصف القرية بقوله : ﴿ **أهلكناها** ﴾ أى أهلكنا أهلها، أوأهلكناها بإهلاك أهلها . وفيه بيان سنة الله فى الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، و«من » فى ﴿ **من قرية** ﴾ مزيدة للتأكيد ، والمعنى : ما آمنت قرية من القرى التى أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ، فكيف نعطيهم ما يقترحون ،وهم أسوة من قبلهم ، والهمزة فى ﴿ **أفهم يؤمنون** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا ، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** ﴾ أى لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالا من البشر ، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا ﴾ [الإسراء : ٩٥] .وجملة :﴿ **نوحى إليهم** ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال ، ويجوز أن تكون صفة لـ ﴿ **رجالا** ﴾ أى متصفين بصفة الإيحاء إليهم . قرأ حفص وحمزة والكسائى : ﴿ **نوحى** ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : « يوحى » . ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ وأهل الذكر هم : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ومعنى ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ : إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر ، كذا قال أكثر المفسرين . وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه ، وتقدير الكلام : إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر . وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن الرأى البحت ، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته . وقد أوضحنا هذا فى رسالة بسيطة سميناها : « القول المفيد فى حكم التقليد ».

ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال : ﴿**وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ أى أن الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان . قال الزجاج : هو واحد ، يعنى الجسد ينبئ عن جماعة ، أى وما جعلناهم ذوى أجساد لا يأكلون الطعام فجملة : ﴿**لايأكلون الطعام** ﴾ صفة لـ ﴿ **جسدا** ﴾ أى وما جعلناهم جسدًا مستغنيا عن الأكل ، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿ **وما كانوا خالدين** ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

وجملة : ﴿ **ثم صدقناهم الوعد** ﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق ، والتقدير :

أوحينا إليهم ما أوحينا ﴿ **ثم صدقناهم الوعد** ﴾، أى أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **فأنجيناهم ومن نشاء** ﴾ من عبادنا المؤمنين ، والمراد: إنجاؤهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى ، والمراد بـ﴿ **المسرفين** ﴾ : المجاوزون للحدّ فى الكفر والمعاصى ، وهم المشركون .

وقد أخرج النسائى [١] عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وهم فى غفلة معرضون**﴾ قال :« فى الدنيا ». وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ فى الآية قال : « من أمر الدنيا » .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ أى فعل الأحلام إنما هى رؤيا رآها ﴿ **بل افتراه بل هو شاعر** ﴾ كل هذا قد كان منه ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها** ﴾ أى أن الرسل كانوا إذا جاؤوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبى ﷺ : إذا كان ما تقوله حقًا ويسرّك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبًا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا لم يُنظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : « بل أستأنى بقومى » ، فأنزل الله : ﴿ **ما آمنت قبلهم** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ يقول : لم نجعلهم جسدًا ليس يأكلون الطعام ، إنما جعلناهم جسدًا يأكلون الطعام .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٥١) .

(٢) ابن جرير ١٤/ ٧٤، ٧٥ .

فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥) ﴾.

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ صفة لـ﴿ **كتابا** ﴾ ، والمراد بالذكر هنا :الشرف ، أى فيه شرفكم كقوله :﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] وقيل : ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ أى ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب . وقيل : فيه حديثكم ، قاله مجاهد . وقيل : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم. وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم . قاله سهل بن عبد الله. وقيل : فيه موعظتكم ، والاستفهام فى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ للتوبيخ والتقريع ، أى أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أولا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر .

ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة ، فقال : ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة** ﴾ : « كم » فى محل نصب على أنها مفعول ﴿ **قصمنا** ﴾ وهى الخبرية المفيدة للتكثير . والقصم : كسر الشيء ودقه ، يقال : قصمت ظهر فلان : إذا كسرته ، وانقصمت سنه : إذا انكسرت ، والمعنى هنا : الإهلاك والعذاب .و أما الفصم بالفاء فهو الصدع فى الشيء من غير بينونة ، وجملة :﴿ **كانت ظالمة** ﴾ فى محل جرّ صفة لقرية ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين ، أى كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم فى الأصل : وضع الشيء فى غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر فى موضع الإيمان ﴿ **وأنشأنا بعدها قوما آخرين** ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قومًا ليسوا منهم .

﴿ **فلما أحسوا بأسنا** ﴾ أى أدركوا أو رأوا عذابنا ، وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا ، أو البأس : العذاب الشديد ﴿ **إذا هم منها يركضون** ﴾ الركض : الفرار والهرب والانهزام ، وأصله من : ركض الرجل الدابة برجليه ، ويقال : ركض الفرس: إذا كدّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس إذا عدا ، ومنه : ﴿ اركض برجلك ﴾ [ص : ٤٢] والمعنى : أنهم يهربون منها راكضين دوابهم . فقيل لهم : ﴿ **لا تركضوا** ﴾ أى لا تهربوا . قيل : إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم . وقيل : إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ **وارجعوا إلى ما أترفتم فيه** ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم وكفركم، والمترف: المنعم ،يقال: أترف فلان، أى وسع عليه فى معاشه ﴿**ومساكنكم** ﴾ أى وارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ **لعلكم تسألون**﴾ أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم . وقيل: المعنى : لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم . قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية : أهل حضور من اليمن ، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبيًا اسمه شعيب بن ذى

مهدم ، وقبره بجبلٍ من جبال اليمن يقال له : ضنن ، وبينه وبين حضور نحو بريد ، قالوا : وليس هو شعيبا صاحب مدين . قلت : وآثار القبر بجبل ضين موجودة ، والعامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم .

﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى قالوا لما قالت لهم الملائكة ﴿ **لا تركضوا** ﴾ : ويلنا ، أى ياهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدّمنا . فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب. ﴿ **فما زالت تلك دعواهم** ﴾ أى ما زالت هذه الكلمة دعواهم ، أى دعوتهم ، والكلمة هى قولهم : ﴿ **يا ويلنا** ﴾ أى يدعون بها ويرددونها ﴿ **حتى جعلناهم حصيدا** ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود ، ومعنى ﴿ **خامدين** ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات : قد طفئ .

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ أى لم نخلقهما عبثًا ولا باطلاً ، بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرًا يجب امتثال أمره. وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم ، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها . ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ اللهو : ما يتلهى به . قيل : اللهو : الزوجة والولد . وقيل : الزوجة فقط . وقيل الولد فقط . قال الجوهرى : قد يكنى باللهو عن الجماع ، يدل على ماقاله قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألا يحسن اللهو أمثالى

ومنه قول الآخر :

وفيهنّ ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لقوله : ﴿ **لاتخذناه من لدنا** ﴾ أى من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم . قال المفسرون : أى من الحور العين ، وفى هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علوًا كبيرا. وقيل : أراد الردّ على من قال : الأصنام أو الملائكة بنات الله . وقال ابن قتيبة : الآية ردٌّ على النصارى . ﴿ **إن كنا فاعلين** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : ما كنا فاعلين . قال الفراء والمبرد والزجاج: يجوز أن تكون «إن» للنفى كما ذكره المفسرون ، أى ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولدًا ؛ ويجوز أن تكون للشرط ، أى إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا . قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل** ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو ، أى دع ذلك الذى قالوا فإنه كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل ﴿ **فيدمغه** ﴾أى يقهره ،وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ،ومنه الدامغة. قال الزجاج : المعنى: نذهبه ذهاب الصغار

والإذلال ، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب . قيل : أراد بالحق : الحجة ، وبالباطل : شبههم . وقيل : الحق : المواعظ ، والباطل : المعاصى . وقيل :الباطل : الشيطان . وقيل : كذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿ **فإذا هو زاهق** ﴾ أى زائل ذاهب ، وقيل : هالك تالف ، والمعنى متقارب ، و« إذا » هى الفجائية ﴿ **ولكم الويل مما تصفون** ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه . وقيل : الويل : وادٍ فى جهنم ، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك ؛ ومن : هى التعليلية .

﴿ **وله من فى السموات والأرض** ﴾ عبيدًا وملكًا ، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ **ومن عنده** ﴾ يعنى الملائكة ، وفيه ردّ على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفى التعبير عنهم بكونهم ﴿ عنده ﴾ إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك،ثم وصفهم بقوله: ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ أى لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ﴿**ولا يستحسرون** ﴾ أى لا يعيون ، مأخوذ من الحسير ، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، يقال : حسر البعير يحسر حسورًا : أعيا وكلّ ، واستحسر وتحسر : مثله وحسرته أنا حسرًا ، يتعدى ولا يتعدى. قال ابن زيد: لا يكلون ، وقال ابن الأعرابى : لا يفشلون . قال الزجاج : معنى الآية: أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله، عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] وقيل : المعنى : لا ينقطعون عن عبادته . وهذه المعانى متقاربة .

﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ أى ينزهون الله سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون . وقيل : يصلون الليل والنهار . قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء ، فكذلك تسبيحهم دائم ، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أو فى محل نصب على الحال ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام : الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء ، و«أم»:هى المنقطعة ، والهمزة لإنكار الوقوع . قال المبرد : إن « أم » هنا بمعنى هل ، أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر «أم» مع الاستفهام ، فتكون « أم » المنقطعة ، فيصح المعنى، و﴿ **من الأرض**﴾ متعلق باتخذوا ، أو بمحذوف هو صفة لآلهة ، ومعنى ﴿ **هم ينشرون** ﴾ : هم يبعثون الموتى ، والجملة صفة لآلهة ، وهذه الجملة هى التى يدور عليها الإنكار والتجهيل ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع منهم لا محالة . والمعنى : بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى ، وليس الأمر كذلك ، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور: ﴿**ينشرون** ﴾ بضم الياء وكسر الشين من أنشره ، أى أحياه ، وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أى يحيون ولا يموتون .

ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدّد الآلهة ، فقال : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ أى لو كان فى السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا ، أى لبطلتا ، يعنى السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، قال الكسائى وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة : إن « إلا » هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذى بعدها وظهر فيه إعراب غير التى جاءت « إلا » بمعناها ، ومنه قول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك ، إلا الفرقدان

وقال الفراء : إن « إلا » هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرًا على الاستبداد بالتصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أى تنزّه عزّ وجلّ عما لا يليق به من ثبوت الشريك له ، وفيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عما لا يليق به. ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوّة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شىء من قضائه وقدره ﴿ **وهم** ﴾ أى العباد ﴿ **يسألون** ﴾ عما يفعلون، أى يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده . وقيل : إن المعنى : أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . قيل : والمراد بذلك: أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلها .

﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ أى بل اتخذوا ، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق ، إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، ولهذا قال : ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ على دعوى أنها آلهة ، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم إلى شىء من ذلك ، لا من عقل ولا نقل ، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله : ﴿ **هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** ﴾ أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى وذكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم . وقيل : المعنى : هذا القرآن وهذه الكتب التى أنزلت قبلى فانظروا : هل فى واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه . قال الزجاج : قيل : لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهًا غير الله ، فهل فى ذكر من معي وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟ وقيل معنى الكلام : الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرآ : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة . وقال الزجاج فى توجيه هذه القراءة : إن المعنى : هذا ذكر مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكر من قبلى. وقيل : ذكر كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى . ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق** ﴾ وهذا إضراب من جهته

سبحانه وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل . وقرأ ابن محيصن والحسن : «الحق» بالرفع على معنى هذا الحق ، أو هو الحق ، وجملة : ﴿ **فهم معرضون** ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون : أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون فى برهان ، ولا يتفكرون فى دليل .

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه** ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائى: ﴿ **نوحى**﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : أى نوحى إليه ﴿ **أنه لا إله إلا أنا** ﴾ وفى هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدّم من قوله : ﴿ **هذا ذكر من معى** ﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته ، فقال : ﴿**فاعبدون** ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم** ﴾ قال : شرفكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : فيه حديثكم . وفى رواية عنه قال : فيه دينكم . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : بعث الله نبيًا من حمير يقال له : شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ **وكم قصمنا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **خامدين** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبى فى قوله : ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ قال : هى حضور بنى أزد ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وارجعوا إلى ما أترفتم فيه** ﴾ قال : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فما زالت تلك دعواهم** ﴾ قال : هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم ، وفى قوله : ﴿ **جعلناهم حصيدا خامدين** ﴾ قال : بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال : حدثنى رجل من الجزريين قال : كان باليمن قريتان ، يقال لإحداهما: حضور، وللأخرى : قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبيًا فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يغزوهم ، فجهز لهم جيشًا ، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه ، فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأوّل ، فهزموهم أيضًا ؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه ، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا مناديًا يقول : ﴿ **لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم** ﴾ فرجعوا فسمعوا صوتًا مناديًا يقول : يالثارات النبىّ فقتلوا بالسيف، فهى التى قال الله : ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ إلى قوله : ﴿ **خامدين** ﴾. قلت : وقرى حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد فى جهة الغرب منها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى

قوله : ﴿ **حصيدا خامدين** ﴾ قال : كخمود النار إذا طفئت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ قال: اللهو: الولد. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ قال : النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يستحسرون** ﴾ يقول : لا يرجعون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**لا يسأل عما يفعل** ﴾ قال : بعباده ﴿ **وهم يسألون** ﴾ قال : عن أعمالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما فى الأرض قوم أبغض إلىّ من القدرية ، وما ذلك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله: ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة ، فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدًا . وقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله، وقالت طائفة من العرب : الملائكة بنات الله . ثم نزه عزّ وجلّ نفسه . فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزيها له عن ذلك ، وهو مقول على ألسنة العباد . ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أى ليسوا كما قالوا ، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقرّبون عنده . وقرئ : «مكرّمون » بالتشديد، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى : بل اتخذ عبادًا ، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال : ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ أى لا يقولون شيئا حتى يقوله أو يأمرهم به . كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفى هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم . وقرئ : « لا

يسبقونه » بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿ **وهم بأمره يعملون** ﴾ أى هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم .

﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، أويعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة ، وما خلفهم وهو الدنيا ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدّموا وأخروا ، لم يعملوا عملا ولم يقولوا قولا إلا بأمره ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ أن يشفع الشافعون له ، وهو من رضى عنه ، وقيل : هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ أى من خشيتهم منه فالمصدر مضاف إلى المفعول ، والخشية : الخوف مع التعظيم ، والإشفاق : الخوف مع التوقع والحذر ، أى لا يأمنون مكر الله.

﴿ **ومن يقل منهم إنى إله من دونه** ﴾ أى من يقل من الملائكة إنى إله من دون الله. قال المفسرون: عنى بهذا إبليس ، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنى إله إلا إبليس. وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة (١) ﴿ **فذلك نجزيه جهنم** ﴾ أى فذلك القائل على سبيل الفرض ، والتقدير : نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذى قاله ، كما نجزى غيره من المجرمين ﴿ **كذلك نجزى الظالمين**﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين ، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم ، فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .

﴿ **أولم ير الذين كفروا** ﴾ الهمزة للإنكار ،والواو للعطف على مقدّر ، والرؤية هى القلبية، أى ألم يتفكروا أو لم يعلموا ﴿ **أن السموات والأرض كانتا رتقا** ﴾ قال الأخفش: إنما قال : ﴿ **كانتا** ﴾ لأنهما صنفان أى جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ [فاطر : ٤١]. وقال الزجاج: إنما قال : ﴿**كانتا** ﴾ لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد ، لأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . والرتق : السدّ ضد الفتق يقال : رتقت الفتق أرتقه فارتتق ، أى التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ، يعنى أنهما كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله بينهما ، وقال: ﴿ **رتقا** ﴾ ولم يقل : « رتقين » لأنه مصدر، والتقدير: كانتا ذواتى رتق ، ومعنى ﴿ **ففتقناهما** ﴾: ففصلناهما ، أى فصلنا بعضهما من بعض ، فرفعنا السماء ، وأبقينا الأرض مكانها ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى** ﴾ أى أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شيء ، فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى : أن الماء سبب حياة كل شيء . وقيل : المراد بالماء هنا : النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية ، والهمزة فى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ للإنكار عليهم ، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية.

﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت ﴿ **أن تميد بهم** ﴾ الميد التحرّك والدوران ، أى لئلا تتحرك وتدور بهم ، أو كراهة ذلك ، وقد تقدّم تفسير ذلك فى النحل مستوفى

(١) فى المطبوعة : « الأنبياء » ، والتصويب من القرطبى.

﴿وجعلنا فيها﴾ أى فى الرواسى ، أوفى الأرض ﴿ فجاجا ﴾ قال أبو عبيدة: هـى المسالك . وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج و﴿ سبلا ﴾ تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقا نافذًا مسلوكًا ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ إلى مصالح معاشهم ، وما تدعو إليه حاجاتهم ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ من أن يقع ويسقط على الأرض كقوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ [الحج : ٦٥] . وقال الفراء : محفوظًا بالنجوم من الشيطان كقوله : ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [الحجر: ١٧] . وقيل : محفوظًا : لا يحتاج إلى عماد، وقيل المراد بالمحفوظ هنا : المرفوع . وقيل : محفوظًا عن الشرك والمعاصى . وقيل : محفوظا عن الهدم والنقض﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها ، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما. ومعنى الإعراض : أنهم لا يتدبرون فيها، ولا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان .

﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم ، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه فى معايشهم ، وخلق الشمس والقمر أى جعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه فى سبحان ﴿ كل فى فلك يسبحون ﴾ أى كل واحد من الشمس والقمر والنجوم فى فلك يسبحون ، أى يجرون فى وسط الفلك ، ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء ، والجمع فى الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل ، وجعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهنّ ضمير العقلاء ،ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء . قال الكسائى : إنما قال : ﴿ يسبحون ﴾ لأنه رأس آية . والفلك : واحد أفلاك النجوم . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلكة المغزل لاستدارتها .

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا ﴿ أفإن مت ﴾ بأجلك المحتوم ﴿ فهم الخالدون ﴾ أى أفهم الخالدون ؟ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت . قال : ويجوز حذف الفاء وإضمارها، والمعنى : إن متّ فهم يموتون أيضًا ، فلا شماتة فى الموت . وقرئ : ﴿ مت ﴾ بكسر الميم وضمها لغتان ، وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور: ٣٠] . ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أى ذائقة مفارقة جسدها ، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان . ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أى نختبركم بالشدة والرخاء، لننظر كيف شكركم وصبركم. والمراد: أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، و﴿ فتنة ﴾ مصدر لـ ﴿ نبلوكم ﴾ من غير لفظه ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ لا إلى غيرنا فنجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرًا فشرّ .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود : إن الله عزّ وجلّ صاهر الجنّ فكانت بينهم الملائكة، فقال الله تكذيبًا لهم : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أى الملائكة

ليس كما قالوا ، بل عباد أكرمهم بعبادته. ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ يثنى عليهم ﴿ **ولا يشفعون**﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ **إلا لمن ارتضى** ﴾ قال: لأهل التوحيد لمن رضى عنه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال : قول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والبيهقى في البعث عن ابن عباس فى الآية قال : الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقى فى البعث عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى : ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ قال : « إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » (١) . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كانتا رتقا ففتقناهما** ﴾ قال: فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات. وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **كانتا رتقا** ﴾ قال : لايخرج منهما شيء، وذكر مثل ما تقدم . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضا من طريق أخرى . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **كانتا رتقا** ﴾ قال : ملتصقتين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى** ﴾ قال : نطفة الرجل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿**وجعلنا فيها فجاجا سبلا** ﴾ قال : بين الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل فى فلك** ﴾ قال : دوران ﴿**يسبحون** ﴾ قال : يجرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه: ﴿ **كل فى فلك** ﴾ قال : فلك كفلكة المغزل ﴿ **يسبحون** ﴾ قال : يدورون فى أبواب السماء ، كما تدور الفلكة فى المغزل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : هو فلك السماء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه ، ثم تلا : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ قال: نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة .

﴿ **وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ**

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾.

قوله : ﴿ **وإذا رآك الذين كفروا** ﴾ يعنى المستهزئين من المشركين ﴿ **إن يتخذونك إلا هزوا**﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءا بك ، والهزؤ : السخرية ،وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : ٩٥]، والمعنى : ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزؤا ﴿ **أهذا الذى يذكر آلهتكم** ﴾ هو على تقدير القول، أى يقولون: أهذا الذى ، فعلى هذا هو جواب إذا، ويكون قوله : ﴿ **إن يتخذونك إلا هزوا** ﴾ اعتراضًا بين الشرط وجوابه ، ومعنى يذكرها : يعيبها . قال الزجاج : يقال : فلان يذكر الناس، أى يغتابهم ، ويذكرهم بالعيوب، وفلان يذكر الله ، أى يصفه بالتعظيم ويثنى عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر فى كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، قيل : ومن هذا قول عنترة :

لا تذكرى مهرى وما أطعمته   فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى لا تعيبى مهرى ، وجملة ﴿ **وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهم بالقرآن كافرون ، أو هم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون ، والمعنى : أنهم يعيبون على النبى ﷺ أن يذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو القرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم ، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره ﴿ **كافرون** ﴾ و ﴿ **بذكر** ﴾ متعلق بالخبر ، والضمير الثانى تأكيد .

﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾ أى جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل . قال الفراء: كأنه يقول : بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة . وقال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر منه الشيء : خلقت منه كما تقول : أنت من لعب ، وخلقت من لعب ، تريد المبالغة فى وصفه بذلك . ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ [الإسراء: ١١] . والمراد بالإنسان : الجنس . وقيل : المراد بالإنسان: آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقع ، فقيل : خلق الإنسان من عجل ، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدّى

والكلبى ومجاهد ، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى : العجل : الطين بلغة حمير . وأنشدوا :

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل : إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث ،وهو القائل : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : ٣٢]. وقيل : نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب . وقال الأخفش : معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان . وقيل : إن هذه الآية من المقلوب ، أى خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبى عبيدة والنحاس ، والقول الأوّل أولى ﴿ **سأريكم آياتى** ﴾ أى سأريكم نقماتى منكم بعذاب النار ﴿ **فلا تستعجلون** ﴾ أى لاتستعجلونى بالإتيان به ، فإنه نازل بكم لامحالة : وقيل : المراد بالآيات : مادل على صدق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأول أولى ، ويدل عليه قولهم: ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ أى متى حصول هذا الوعد ، الذى تعدنا به من العذاب ، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية . وقيل : المراد بالوعد هنا : القيامة ، ومعنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ : إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين فى وعدكم، والخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

وجملة : ﴿ **لو يعلم الذين كفروا** ﴾ وما بعدها مقرّرة لما قبلها ،أى لو عرفوا ذلك الوقت، وجواب لو محذوف ، والتقدير: لو علموا الوقت الذى ﴿ **لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون**﴾ لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج فى تقدير الجواب : لعلموا صدق الوعد . وقيل : لو علموه ما أقاموا على الكفر. وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدلّ عليه قوله : ﴿ **بل تأتيهم بغتة** ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى الأمام والخلف لكونهما أشهر الجوانب فى استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل ، بحيث لايقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم ، ومحل ﴿**حين لا يكفون** ﴾ النصب على أنه مفعول العلم ، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه ، ومعنى ﴿ **ولاهم ينصرون** ﴾ : ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ، وجملة ﴿ **بل تأتيهم بغتة** ﴾ معطوف على ﴿ **يكفون** ﴾ : أى لا يكفونها بل تأتيهم العدّة أو النار أو الساعة بغتة ، أى فجأة ﴿ **فتبهتهم** ﴾ قال الجوهرى : بهته بهتًا أخذه بغتة ، وقال الفراء : فتبهتهم ، أى تحيرهم . وقيل : فتفجؤهم ﴿ **فلا يستطيعون ردها** ﴾ أى صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع إلى النار. وقيل : راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة . وقيل : راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ أى يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

وجملة ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك** ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ وتعزيته ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر

شأنهم ﴿ **فحاق بالذين سخروا منهم** ﴾ أى أحاط ودار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزؤا بهم ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ : « ما » موصولة ،أو مصدرية ، أى فأحاط بهم الأمر الذى كانوا يستهزئون به ، أو فأحاط بهم استهزاؤهم ، أى جزاؤه ، على وضع السبب موضع المسبب ، أو نفس الاستهزاء ، إن أريد به العذاب الأخروى . ﴿ **قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن** ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم. والكلاءة : الحراسة والحفظ ، يقال: كلأه الله كلاء بالكسر ، أى حفظه وحرسه . قال ابن هرمة :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشىء ما كان يرزؤها

أى قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ : من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذى تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم ؟ وقال الزجاج : معناه : من يحفظكم من بأس الرحمن . وقال الفراء : المعنى : من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . وحكى الكسائى والفراء : من يكلوكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿ **بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾ أى عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولا يخطر ببالهم ، بل يعرضون عنه ، أو عن القرآن، أو عن مواعظ الله ، أو عن معرفته .

﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا** ﴾ : « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه ، والدفع عنها. والمعنى : بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم . ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا أنها تنصرهم بما يدلّ على الضعف والعجز فقال : ﴿ **لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون** ﴾ أى هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ ، أى ولاهم يجارون من عذابنا . قال ابن قتيبة : أى لا يجيرهم منا أحد ، لأن المجير صاحب الجار ، والعرب تقول : صحبك الله ، أى حفظك وأجارك ، ومنه قول الشاعر :

ينادى بأعلى صوته متعوّذًا ليصحب منها والرماح دوانى

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى مجير منه . قال المازنى : هو من أصحبت الرجل : إذا منعته.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : مرّ النبىّ ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبىّ ، فسمعها النبى ﷺ ، فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : « ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عمك » ، وقال لأبى سفيان : « أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية :﴿ **وإذا رآك الذين كفروا** ﴾.

قلت : ينظر من الذى روى عنه السدّى ؟ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نفخ فى آدم الروح صار في رأسه فعطس فقال : الحمد لله ، فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور فى رجليه فوقع ، فقال الله: ﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾. وقد أخرج نحو هذا ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير(١) . وأخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد(٢). وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل من يكلؤكم** ﴾ قال : يحرسكم ، وفى قوله : ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ قال : لا ينصرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ قال : لا يجارون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية : قال لا يمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلا إلى بيان أن ماهم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله ، لا من مانع يمنعهم من الهلاك ، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال : ﴿ **بل متعنا هؤلاء وآباءهم** ﴾ يعنى أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿ **حتى طال عليهم العمر** ﴾ فاغترّوا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك ، فرد سبحانه عليهم قائلا : ﴿ **أفلا يرون** ﴾ أى أفلا ينظرون فيرون ﴿ **أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾

(١) ابن جرير ١٧/ ١٩ .
(٢) ابن جرير ١٧/ ٢٠ .

أى أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلدًا بعد بلد وأرضًا بعد أرض ، وقيل : ننقصها بالقتل والسبى ، وقد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفهم الغالبون** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، أى كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ وفى هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون .

﴿ **قل إنما أنذركم بالوحى** ﴾ أى أخوّفكم وأحذركم بالقرآن ، وذلك شأنى وما أمرنى الله به ، وقوله : ﴿ **ولا يسمع الصم الدعاء** ﴾ إما من تتمة الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم، أو من جهة الله تعالى . والمعنى: أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء . قرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السميفع : « ولا يسمع » بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ، أى إنك يامحمد لا تسمع هؤلاء . قال أبو على الفارسى : ولو كان كما قال ابن عامر لكان : إذا ما تنذرهم ، فيحسن نظم الكلام ، فأما ﴿**إذا ما ينذرون** ﴾ فحسن أن يتبع قراءة العامة . وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل . ﴿ **ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك** ﴾ المراد بالنفحة : القليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، ومنه قول الشاعر :

وعمرة من سروات النساء   تنفَّحُ بالمسك أردانها

وقال المبرد : النفحة : الدفعة من الشىء التى دون معظمه ، يقال : نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة . وقيل: هى النصيب، وقيل : هى الطرف . والمعنى متقارب ، أى ولئن مسهم أقل شىء من العذاب ﴿ **ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى ليدعونّ على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ الموازين جمع ميزان ، وهو يدلّ على أن هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان واحد ، عبر عنه بلفظ الجمع ، وقد ورد فى السنة فى صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى فى الأعراف، وفى الكهف في هذا ما يغنى عن الإعادة . والقسط :صفة للموازين .قال الزجاج : قسط : مصدر يوصف به تقول: ميزان قسط وموازين قسط ، والمعنى : ذوات قسط ، والقسط : العدل . وقرئ : « القصط » بالصاد والطاء ، ومعنى ﴿ **ليوم القيامة** ﴾ لأهل يوم القيامة . وقيل : اللام بمعنى فى ، أى فى يوم القيامة ﴿ **فلا تظلم نفس شيئا** ﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل** ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة ، أى إن وقع أو وجد مثقال حبة . وقرأ الباقون بنصب المثقال على تقدير : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج. وقال أبو علىّ الفارسى : وإن كان الظلامة مثقال حبة . قال الواحدى : وهذا أحسن لتقدّم قوله : ﴿ **فلا تظلم نفس شيئا** ﴾ ، و مثقال الشىء ميزانه ،

أى وإن كان فى غاية الخفة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل فى الصغر ﴿ **أتينا بها** ﴾ قرأ الجمهور بالقصر ، أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ، و﴿ **بها** ﴾ أى بحبة الخردل . وقرأ مجاهد وعكرمة: « آتينا » بالمدّ على معنى : جازينا بها يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة جازى ﴿ **وكفى بنا حاسبين** ﴾ أى كفى بنا محصين . والحسب فى الأصل معناه : العدّ ، وقيل : كفى بنا عالمين ، لأن من حسب شيئًا علمه وحفظه، وقيل : كفى بنا مجازين على ما قدمّوه من خير وشرّ .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله سابقًا بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ [الأنبياء : ٧] فقال: ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين** ﴾ المراد بالفرقان هنا : التوراة ، لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام ، وقيل : الفرقان هنا هو : النصر على الأعداء كما فى قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال: ٤١] . قال الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، ومعنى ﴿ **وضياء** ﴾ أنهم استضاؤوا بها فى ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى ﴿ **وذكرا** ﴾ الموعظة ، أى أنهم يتعظون بما فيها ، وخصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك ، ووصفهم بقوله : ﴿ **الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى . ويجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين أو بيانًا له، ومحل ﴿**بالغيب**﴾ النصب على الحال ، أى يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أوهم غائبون عنه لأنهم فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة . وقرأ ابن عباس وعكرمة: ﴿ **ضياء** ﴾ بغير واو. قال الفراء : حذف الواو والمجىء بها واحد ، واعترضه الزجاج بأن الواو تجىء لمعنى فلا تزاد ﴿ **وهم من الساعة مشفقون**﴾ أى وهم من القيامة خائفون وجلون ، والإشارة بقوله : ﴿ **وهذا ذكر مبارك**﴾ إلى القرآن . قال الزجاج المعنى : وهذا القرآن ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ، والمبارك كثير البركة والخير . وقوله : ﴿ **أنزلناه** ﴾ صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفأنتم له منكرون** ﴾ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار ، أى كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده .

﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده** ﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ : أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهارون التوراة . وقال الفراء : المعنى : أعطيناه هداه من قبل النبوة ، أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وبالأوّل قال أقلهم ﴿ **وكنا به عالمين** ﴾ أنه موضع لإيتاء الرشد، وأنه يصلح لذلك ، والظرف فى قوله:﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ متعلق بآتينا أوبمحذوف أى اذكر حين قال، وأبوه هو آزر ﴿ **وقومه** ﴾ نمروذ ومن اتبعه . والتماثيل : الأصنام . وأصل التمثال: الشىء المصنوع مشابها لشىء من مخلوقات الله سبحانه ، يقال : مثلت الشىء بالشىء : إذا جعلته مشابها له ، واسم ذلك الممثل تمثال ، أنكر عليهم عبادتها بقوله : ﴿ **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾ والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء ، واللام فى ﴿ **لها** ﴾

للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على، أى ما هذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وقيل : إن العكوف مضمن معنى العبادة .

﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهو التمسك بمجرّد تقليد الآباء ، أى وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيًا على طريقتهم، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية ، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا : هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين ، وجوابهم : هو ما أجاب به الخليل هاهنا ﴿ **قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين** ﴾ أى فى خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذى عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضرّ ولاتنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران ، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنّة رسوله كتابًا قد دوّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير فى البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار:

كـــأنه عــــلم فى رأسه نـــار

وقال : هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول مـحمد   فمــا آمن فى دينـه كمخــاطر

فقالوا كما قال الأوّل :

مـا أنـــا إلا مـــن غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشـد

وقد أحسن من قال :

يــأبى الفتى إلا اتباع الـــهوى   ومنــهج الحـقّ لـــه واضـــح

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل قالوا :﴿ **أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ أى أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ قال مضربًا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد:﴿ **بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن** ﴾ أى خلقهن وأبدعهنّ ﴿ **وأنا على ذلكم** ﴾ الذى ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات والأرض دون ما عداه ﴿ **من الشاهدين** ﴾ أى العالمين به المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالمًا به مبرهنا عليه مبينًا له .

وقد أخرج أحمد والترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عائشة ؛ أن رجلا قال : يارسول الله ، إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله

ﷺ: « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا عليك ولا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل » فجعل الرجل يبكى ويهنف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتاب الله : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ » فقال له الرجل : يا رسول الله ، ما أجد لى ولهم خيرًا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار[(١)]. رواه أحمد هكذا : حدّثنا أبو نوح قراد ، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره ، وفى معناه أحاديث .

وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان** ﴾ قال: التوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : ﴿ **الفرقان** ﴾ : الحق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة: ﴿ **وهذا ذكر مبارك** ﴾ أى القرآن. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده** ﴾ قال : هديناه صغيرًا ، وفى قوله : ﴿ **ما هذه التماثيل**﴾ قال : الأصنام .

﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾.

قوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه . والكيد : المكر ، يقال : كاده يكيده كيدًا

(١) أحمد ٦/ ٢٨٠، ٢٨١ والترمذى فى التفسير (٣١٦٥) وقال : « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان» . والبيهقى فى الشعب (٨٥٨٦) . ط . دار الكتب العلمية .

ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام . قيل: إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرًا. وقيل : سمعه رجل منهم ﴿ **بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ أى بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون : كان لهم عيد فى كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة . والفاء فى قوله : ﴿ **فجعلهم جذاذا** ﴾ فصيحة ، أى فولوا ، فجعلهم جذاذًا ، الجذّ : القطع والكسر ، يقال : جذذت الشيء قطعته وكسرته ، والواحد: جذاذة ، والجذاذ : ما كسر منه . قاله الجوهرى . قال الكسائى : ويقال لحجارة الذهب : الجذاذ ؛ لأنها تكسر . قرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن : « جِذاذًا» بكسر الجيم ، أى كسرًا وقطعًا ، جمع جذيذ ، وهو الهشيم ، مثل . خفيف وخفاف ، وظريف وظراف . قال الشاعر :

جذذ الأصنام فى محرابها ذاك فى الله العلىّ المقتدر

وقرأ الباقون بالضم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، أى الحطام والرفات ، فعال بمعنى مفعول ، وهذا هو الكيد الذى وعدهم به. وقرأ ابن عباس وأبو السمال : « جَذاذًا » بفتح الجيم ﴿ **إلا كبيرا لهم** ﴾ أى للأصنام ﴿ **لعلهم إليه** ﴾ أى إلى إبراهيم ﴿ **يرجعون** ﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم . وقيل : لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى المهمات ، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبرًا ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضررًا ، ولا تعلم بخير ولاشرّ ، ولا تخبر عن الذى ينوبها من الأمر ؛ وقيل : لعلهم إلى الله يرجعون ، وهو بعيد جدًا .

﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ . وقيل : إن « من » ليست استفهامية ، بل هى مبتدأ وخبرها ﴿ **إنه لمن الظالمين** ﴾ أى فاعل هذا ظالم ، والأول أولى لقولهم :﴿ **سمعنا فتى** ﴾ إلخ ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيبًا للمستفهمين لهم ، وهذا القائل هو الذى سمع إبراهيم يقول : ﴿ **تالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ ومعنى ﴿ **يذكرهم** ﴾: يعيبهم ، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة ، وجملة : ﴿ **يقال له إبراهيم** ﴾ صفة ثانية لفتى . قال الزجاج: وارتفع إبراهيم على معنى : يقال له هو إبراهيم ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ؛ وقيل : ارتفاعه على أنه مفعول مالم يسمّ فاعله ؛ وقيل : مرتفع على النداء . ومن غرائب التدقيقات النحوية ، وعجائب التوجيهات الإعرابية ، أن الأعلم الشنتمرى الإشبيلى قال : إنه مرتفع على الإهمال . قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شيء. والفتى : هو الشاب ، والفتاة : الشابة .

﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس** ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتى به ظاهرًا بمرأى من الناس. قيل: إنه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا هذه المقالة ، ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به .

ومعنى ﴿ **لعلهم يشهدون** ﴾ : لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا . وقيل : لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم . وجملة : ﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وفى الكلام حذف تقديره : فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك ؟ لإقامة الحجة عليه فى زعمهم .

﴿ **قال بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ أى قال إبراهيم مقيمًا للحجة عليهم مبكتًا لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيرًا إلى الصنم الذى تركه ولم يكسره ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ أى إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه . أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح فى العقل أن يطلق عليه أنه إله . فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم إذا قالوا : إنهم لا ينطقون ، قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده فى المكان الذى هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته . وقيل : أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ، إرشادًا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها وخالقهم ، والأوّل أولى . وقرأ ابن السميفع : « بل فعله » بتشديد اللام على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم .

﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به مافعله إبراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقًا للعبادة ، ولهذا ﴿ **قالوا إنكم أنتم الظالمون**﴾ أى قال بعضهم لبعض : أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم : إنه لمن الظالمين ﴿ **ثم نكسوا على رؤوسهم** ﴾ أى رجعوا إلى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه . وقيل : المعنى : أنهم طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم ، وهو ضعيف ؛ لأنه لم يقل : نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال : نكسوا على رؤوسهم، وقرئ : «نكسوا» بالتشديد ، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ أى قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام ، فقال إبراهيم مبكتًا لهم ومزريًا عليهم :﴿ **أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا** ﴾ من النفع ﴿ **ولا يضركم** ﴾ بنوع من أنواع الضرر . ثم تضجر عليه السلام منهم ، فقال: ﴿ **أف لكم ولما تعبدون من دون الله** ﴾

وفى هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم ، واللام فى ﴿ **لكم** ﴾ لبيان المتأفف به ، أى لكم ولآلهتكم ، والتأفف : صوت يدّل على التضجر ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى ليس لكم عقول تتفكرون بها ، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه .

﴿ **قالوا حرقوه** ﴾ أى قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع إبراهيم ، وعجزوا عن مجادلته ، وضاقت عليهم مسالك المناظرة ، حرّقوا إبراهيم . انصرافًا منهم إلى طريق الظلم والغشم ، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأى وجه كان ، وعلى أى أمر اتفق ، ولهذا قالوا : ﴿ **وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾ أى انصروها بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر . وقيل : هذا القائل هو نمروذ ؛ وقيل رجل من الأكراد . ﴿ **قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** ﴾ فى الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار ، وذهبوا بإبراهيم إليها ، فعند ذلك قلنا : يا نار كونى ذات برد وسلام. وقيل : إن انتصاب ﴿ **سلاما** ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى وسلمنا سلامًا عليه ﴿ **وأرادوا به كيدا** ﴾ أى مكرًا ﴿ **فجعلناهم الأخسرين** ﴾ أى أخسر من كل خاسر ؛ ورددنا مكرهم عليهم؛ فجعلنا لهم عاقبة السوء ؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا : قال : إنى سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال : ﴿ **تالله لأكيدنَ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ فسمعه ناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله ، فأخذ طعامًا ثم انطلق إلى آلهتهم فقربّه إليهم ، فقال : ألا تأكلون ، فكسرها إلا كبيرهم ، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم فى يده الذى كسر به الأصنام ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿ **تالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ :﴿ **سمعنا فتى يذكرهم** ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**جذاذًا**﴾ قال: حطامًا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : فتاتًا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ قال : عظيم آلهتهم . وأخرج أبو داود والترمذى [وابن المنذر] وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث كلهنّ فى الله: قوله : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ ولم يكن سقيمًا ، وقوله لسارة : أختى ، وقوله: ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا**﴾»(١) . وهذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا (٢) . وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد (٣) .

---

(١) أبو داود فى الطلاق (٢٢١٢) والترمذى فى التفسير (٣١٦٦) .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧١ / ١٥٤) .

(٣) أبو يعلى (١٠٤٠) وإسناده ضعيف ؛ لضعف على بن زيد بن جدعان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقى فى النار جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ **كونى بردا وسلاما** ﴾ فلم يبقَ فى الأرض نار إلا طفئت . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم »، فأمر رسول الله ﷺ بقتله(١) . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر عن ابن عمر ، قال : أوّل كلمة قالها إبراهيم حين ألقى فى النار : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **يا نار كونى** ﴾ قال : كان جبريل هو الذى ناداها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ نحوه . وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار ، فقال : ياإبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أيامًا وليالى قط أطيب عيشًا إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

قد تقدّم أن لوطًا هو ابن أخى إبراهيم ، فحكى الله سبحانه هاهنا أنه نجى إبراهيم ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . قال المفسرون : وهى أرض الشام ، وكانا بالعراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ،ولأنها معادن الأنبياء ؛وأصل البركة : ثبوت الخير ،ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقيل : الأرض المباركة: مكة. وقيل :

---

(١) أحمد ١٠٩/٦ وابن ماجة فى الصيد (٣٢٣١) وابن حبان (٥٦٠٢) وأبو يعلى (٤٣٥٧) .

بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضًا كثيرة الخصب، وقد تقدم تفسير العالمين. ثم قال سبحانه ممتنا على إبراهيم ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ النافلة: الزيادة، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولدًا ، فوهب له إسحاق ، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة : أى زيادة ؛ وقيل : المراد بالنافلة هنا: العطية ، قاله الزجاج . وقيل : النافلة هنا : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وانتصاب ﴿ **نافلة** ﴾ على الحال . قال الفراء : النافلة : يعقوب خاصة ، لأنه ولد الولد ﴿ **وكلا جعلنا صالحين** ﴾ أى وكل واحد من هؤلاء الأربعة : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحا عاملاً بطاعة الله تاركًا لمعاصيه . وقيل : المراد بالصلاح هنا : النبوة .

﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى ﴿ **بأمرنا** ﴾: بأمرنا لهم بذلك ، أى بما أنزلنا عليهم من الوحى ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات** ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . وقيل : المراد بالخيرات : شرائع النبوّات ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ أى كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين ، فاعلين لما نأمرهم به ، تاركين ما ننهاهم عنه . ﴿ **ولوطا آتيناه حكما وعلما** ﴾ انتصاب ﴿ **لوطا** ﴾ بفعل مضمر دلّ عليه قوله : ﴿**آتيناه**﴾ أى وآتينا لوطًا آتيناه . وقيل : بنفس الفعل المذكور بعده . وقيل : بمحذوف هو : اذكر ، والحكم: النبوّة . والعلم : المعرفة بأمر الدين . وقيل: الحكم : هو فصل الخصومات بالحق . وقيل: هو الفهم. ﴿ **ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** ﴾ القرية هى سدوم كما تقدّم ، ومعنى ﴿ **تعمل الخبائث** ﴾ : يعمل أهلها الخبائث ، فوصفت القرية بوصف أهلها ، والخبائث التى كانوا يعملونها هى اللواط والضراط وخذف الحصى كما سيأتى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ **إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . والفسوق : الخروج كما تقدّم .

﴿ **وأدخلناه فى رحمتنا** ﴾ بإنجائنا إياه من القوم المذكورين ، ومعنى ﴿ **فى رحمتنا** ﴾ : فى أهل رحمتنا . وقيل : فى النبوة : وقيل : فى الإسلام . وقيل : فى الجنة﴿ **إنه من الصالحين**﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى . ﴿ **ونوحا إذ نادى** ﴾ أى واذكر نوحًا إذ نادى ربه﴿ **من قبل** ﴾ أى من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ دعاءه ﴿ **فنجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ أى من الغرق بالطوفان ، والكرب : الغمّ الشديد ، والمراد بأهله: المؤمنون منهم . ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى نصرناه نصرًا مستتبعًا للانتقام من القوم المذكورين . وقيل : المعنى : منعناه من القوم . وقال أبو عبيدة : من بمعنى على ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾ أى لم نترك منهم أحدًا، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى قوله : ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾ قال :الشام . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى مالك نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن

عباس قال : لوط كان ابن أخى إبراهيم. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ قال : ولدًا ﴿ **ويعقوب نافلة** ﴾ قال : ابن الابن . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ قال : أعطيناه ﴿ **ويعقوب نافلة** ﴾ قال : عطية .

﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)** ﴾.

قوله : ﴿ **وداود** ﴾ معطوف على ﴿ **نوحا** ﴾ ومعمول لعامله المذكور ، أو المقدّر كما مرّ ﴿**وسليمان** ﴾ معطوف على داود ، والظرف فى ﴿ **إذ يحكمان** ﴾ متعلق بما عمل فى داود ، أى واذكرهما وقت حكمهما . والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما . ومعنى ﴿ **فى الحرث** ﴾ : فى شأن الحرث . وقيل : كان زرعًا . وقيل : كرمًا، واسم الحرث يطلق عليهما ﴿ **إذ نفشت فيه** ﴾ أى تفرقت وانتشرت فيه ﴿ **غنم القوم** ﴾ قال ابن السكيت: النفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ أى لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشرى والرضىّ ، وتقدّمهما إلى القول به الفراء . وقيل: المراد : الحاكمان والمحكوم عليه ، ومعنى ﴿ **شاهدين** ﴾ : حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وجملة : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ معطوفة على ﴿ **إذ يحكمان** ﴾ لأنه فى حكم الماضى ، والضمير فى ﴿ **ففهمناها** ﴾، يعود إلى القضية المفهومة من الكلام ، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم . قال المفسرون : دخل رجلان على داود ، وعنده ابنه سليمان ، أحدهما :

صاحب حرث ، والآخر :صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئًا ، فقال : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أو غير ذلك ، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك . قال النحاس : إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريبًا منه ،وأما فى حكم سليمان فقد قيل:كانت قيمة ما نال من الغنم ، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء . قال جماعة من العلماء : إن داود حكم بوحى ، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحى . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد ، وكلام أهل العلم فى حكم اجتهاد الأنبياء معروف ، وهكذا ما ذكره أهل العلم فى اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ، أو الحق مع واحد ؟ وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب،ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيبًا ، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرّح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر [1] فسماه النبى ﷺ مخطئًا فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، وإلا لزم توقف حكمه عزّ وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله . وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ والحرمة حلالاً وحرامًا فى حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله . وأيضًا يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله . وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه فى المؤلف الذى سميناه « القول المفيد فى حكم التقليد » وفى « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فمن أحبّ الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما .

فإن قلت : فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود وسليمان فى هذه الشريعة المحمدية، والملة الإسلامية ؟ قلت : قد ثبت عن النبى ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار [2] ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عينًا أو قيمة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء ، وأدخلوا فسادها فى عموم قول النبى ﷺ: « جرح العجماء جبار » [3] قياسًا لجميع

---

(١) البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٧١٦/ ١٥) .

(٢) الموطأ فى الأقضية ٢ / ٧٤٧ . (٣) مسلم فى الحدود (١٧١٠ / ٤٥ ، ٤٦) .

أفعالها على جرحها . ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار ، لأنه فى مقابلة النص ، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار . ويجاب عنه بحديث البراء .

ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد. قوله : ﴿ **وكلا آتينا حكما وعلما** ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين ، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التى حكاها الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكمًا شرعيًا ، أى وكل واحد منهما أعطيناه حكما وعلمًا كثيرًا ، لا سليمان وحده . ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختص بكل واحد منهما ، فبدأ بداود فقال: ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن** ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأوّل جماعة وهو الظاهر . وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه. وقيل : إنها كانت تصلى معه إذا صلى ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبًا من عظيم خلقها وقدرة خالقها . وقيل : كانت الجبال تسير مع داود ، فكان من رآها سائرة معه سبح ﴿**والطير** ﴾ معطوف على الجبال ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أى والطير مسخرات ، ولا يصح العطف على الضمير فى ﴿ **يسبحن** ﴾ لعدم التأكيد والفصل ﴿ **وكنا فاعلين**﴾ يعنى ما ذكر من التفهيم ، وإيتاء الحكم والتسخير ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله درعًا كان أو جوشنا ، أو سيفًا ، أو رمحا . قال الهذلى :

وعندى لبوس فى اللباس كأنه . . . . . إلخ

والمراد فى الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ، كالركوب والحلوب ، والجار والمجرور أعنى لكم متعلق بعلمنا ﴿ **ليحصنكم من بأسكم** ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح ﴿ **لتحصنكم** ﴾ بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة ، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبى إسحاق « لنحصنكم » بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه . وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس ، أو إلى داود، أو إلى الله سبحانه . ومعنى ﴿ **من بأسكم** ﴾ : من حربكم ، أو من وقع السلاح فيكم ﴿ **فهل أنتم شاكرون** ﴾ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام فى معنى الأمر .

ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان . فقال: ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ أى وسخرنا له الريح ﴿**عاصفة** ﴾ أى شديدة الهبوب . يقال : عصفت الريح ، أى اشتدت ، فهى ريح عاصف

وعصوف ، وانتصاب ﴿ **الريح** ﴾ [١] على الحال . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمى وأبو بكر ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ برفع الريح على القطع مما قبله ، ويكون مبتدأ وخبره تجرى ، وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿ **تجرى بأمره** ﴾ النصب أيضًا على الحالية ، أوعلى البدلية ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾ وهى أرض الشام كما تقدم ﴿ **وكنا بكل شىء عالمين** ﴾ أى بتدبير كلّ شىء ﴿ **ومن الشياطين** ﴾ أى وسخرنا من الشياطين ﴿ **من يغوصون له** ﴾ فى البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم . وقيل : إن « من » مبتدأ وخبره ما قبله ، والغوص: النزول تحت الماء ، يقال غاص فى الماء ، والغواص : الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ ﴿ **ويعملون عملا دون ذلك** ﴾ قال الفراء : أى سوى ذلك ، وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿ **وكنا لهم حافظين** ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا ، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

﴿ **وأيوب إذ نادى ربه** ﴾ معطوف على ما قبله ، والعامل فيه : إما المذكور أو المقدّر كما مرّ ، والعامل فى الظرف وهو ﴿ **إذ نادى ربه** ﴾ هو العامل فى أيوب ﴿ **أنى مسنى الضر** ﴾ أى بأنى مسنى الضرّ . وقرئ بكسر « إنى » .

واختلف فى الضر الذى نزل به ماذا هو؟ فقيل إنه قام ليصلى فلم يقدر على النهوض . وقيل : إنه أقرّ بالعجز ، فلا يكون ذلك منافيا للصبر . وقيل : انقطع الوحى عنه أربعين يومًا . وقيل : إن دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردّها في موضعها فأكلت منه ، فصاح : مسنى الضرّ ؛ وقيل :كان الذود يتناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه . وقيل : إن ضرّه قول إبليس لزوجته: اسجدى لى ، فخاف ذهاب إيمانها ؛ وقيل : إنه تقذره قومه . وقيل : أراد بالضرّ الشماتة ، وقيل غير ذلك . ولما نادى ربه متضرّعًا إليه وصفه بغاية الرحمة فقال : ﴿**وأنت أرحم الراحمين** ﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه ، فقال : ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر** ﴾ أى شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قيل : تركهم الله عز وجلّ له ، وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعا إلا امرأته ، فأحياهم الله فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ، فيكون معنى الآية على هذا: آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم ، وانتصاب ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ على العلة: أى آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿ **وذكرى للعابدين** ﴾ أى وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر .واختلف فى مدّة إقامته على البلاء : فقيل :سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقيل : ثلاثين سنة . وقيل: ثمانى عشرة سنة .

---

(١) هكذا ، والصحيح « عاصفة » .

﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل** ﴾ أى واذكر هؤلاء ،وإدريس هو أخنوخ ، وذا الكفل : إلياس . وقيل :يوشع بن نون . وقيل :زكريا . والصحيح أنه رجل من بنى إسرائيل كان لا يتورع عن شيء من المعاصى ، فتاب فغفر الله له . وقيل : إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لى بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه ؟ فقال رجل: أنا ، فاستخلفه وسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع فى شيء من المهمات. وقيل غير ذلك . وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبىّ . وقال جماعة : هو نبىّ . ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال :﴿ **كل من الصابرين** ﴾ أى كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به . ﴿ **وأدخلناهم فى رحمتنا** ﴾ أى فى الجنة ، أو فى النبوّة، أو فى الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنهم من الصالحين** ﴾ أى الكاملين فى الصلاح .

﴿ **وذا النون** ﴾ أى واذكر ذا النون ، وهو يونس بن متى ، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له ، فإن النون من أسماء الحوت . وقيل : سمى ذا النون لأنه رأى صبيا مليحا فقال : دسموا نونته ، لئلا تصيبه العين . وحكى ثعلب عن ابن الأعرابى أن نونة الصبى هى النقبة التى تكون فى ذقن الصبىّ الصغير ، ومعنى دسموا سوّدوا ﴿ **إذ ذهب مغاضبا** ﴾ أى اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبًا ، أى مراغمًا . قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير : ذهب مغاضبًا لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبى والمهدوى . وحكى عن ابن مسعود : قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ،وهو قول صحيح .والمعنى: مغاضبا من أجل ربه ،كما تقول غضبت لك، أى من أجلك. وقال الضحاك : ذهب مغاضبًا لقومه، وحكى عن ابن عباس. وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبًا للملك الذى كان فى وقته واسمه حزقيا . وقيل : لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم ؛ ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر :

وأغضب أن تهجى تميم بعامر

أى آنف ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **نقدر** ﴾ بفتح النون وكسر الدال . واختلف فى معنى الآية على هذه القراءة . فقيل : معناها : أنه وقع فى ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته . وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فإن هذا الظنّ بالله كفر ، ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظنّ أن لن نضيق عليه ، كقوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الشورى : ١٢] أى يضيق ، ومنه قوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : ٧] .يقال : وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر ، أى ضيق . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ، أى فظنّ أن لن نقضى عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : هو من التقدير ليس من

القدرة ، يقال منه : قدَر الله لك الخير يقدره قدرًا ، وأنشد ثعلب :

فـليـت عشيات اللـوى برواجع   لنـا أبـدا مـا أورق السـلم النـضر

ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى   تباركت ما تقـدر يقعْ ولك الشـكر

أى ما تقدره وتقضى به ، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهرى : «فظنّ أن لن نقدّر » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس ، وقرأ ذلك أيضًا قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج: « أن لن يقدّر » بضم الياء والتشديد مبنيًا للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحاق والحسن : « يقدر » بضم الياء وفتح الدال مخففا مبنيا للمفعول . وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرًا قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ، ثم قال : فوالله لئن قدر اللّه علىّ . . . الحديث . كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية ، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا هاهنا مالا يحتاج معه الناظر إلى غيره . والفاء فى قوله : ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ أى كان ما كان من التقام الحوت له ، فنادى فى الظلمات ، والمراد بالظلمات: ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وكان نداؤه : هو قوله : ﴿ **أن لا إله إلا الله أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ أى بأن لا إله إلا أنت . . إلخ ، ومعنى ﴿ **سبحانك** ﴾ تنزيها لك من أن يعجزك شىء ، إنى كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم ؛ قال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته ، قال ذلك وهو فى بطن الحوت .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ دعاءه الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه ﴿ **ونجيناه من الغم** ﴾ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة ، وهذا هو معنى الآية الأخرى ، وهى قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : ١٤٣، ١٤٤] . قرأ الجمهور: ﴿**ننجى**﴾ بنونين . وقرأ ابن عامر: « نُجِّى » بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمارالمصدر ، أى وكذلك نُجى النجاءُ المؤمنين، كما تقول : ضُرِب زيدًا ، أى ضُرِب الضربُ زيدًا ، ومنه قول الشاعر :

ولو ولدت قُفَيرة جرو كلب   لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفرّاء وأبوعبيد وثعلب ،وخطأها أبوحاتم والزجاج وقالا: هى لحن لأنه نصب اسم ما لم يسمّ فاعله ، وإنما يقال : نجى المؤمنون .ولأبى عبيده قول آخر، وهو أنه أدغم النون فى الجيم وبه قال القتيبى ، واعترضه النحاس فقال : هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ثم قال النحاس: لم أسمع فى هذا أحسن من شىء سمعته من علىّ بن سليمان الأخفش قال: الأصل : ننجى ،

فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى : ﴿ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] والأصل: ولا تتفرّقوا . قلت : وكذا الواحدى عن أبى علىّ الفارسى أنه قال : إن النون الثانية تخفى مع الجيم ، ولا يجوز تبيينها ، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام ، فظنّ أنه إدغام ، ويدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين . قلت : ولا نسلم قوله: إنه لا يجوز تبيينها فقد بينت فى قراءة الجمهور، وقرأ محمد بن السميفع وأبو العالية « وكذلك نجى المؤمنين » على البناء للفاعل ، أى نجى الله المؤمنين .

وقد أخرج ابن جرير عن مرّة فى قوله : ﴿ إذ يحكمان في الحرث ﴾ قال : كان الحرث نبتًا فنفشت فيه ليلاً فاختصموا فيه إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمرّوا على سليمان فذكروا ذلك له، فقال : لا ، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فإذا كان كما كان ردوا عليهم فنزلت :﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقد روى هذا عن مرّة عن ابن مسعود . وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم ، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبيّ الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مسروق نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، ولكنه لم يذكر الكرم . واخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿ نفشت ﴾ قال : رعت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محيصة: أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطًا فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها (١). وقد علل هذا الحديث ، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح المنتقى . وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه ، وزاد فى آخره ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وداود وسليمان ﴾ الآية. وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » (٢) ، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلا فيما حكته الآية من

(١) عبد الرزاق (١٨٤٣٧) وابن أبى شيبة فى الديات (٨٠٢٥) وأحمد ٥/ ٤٣٥ وأبو داود فى البيوع (٣٥٦٩، ٣٥٧٠) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٣٢) وابن جرير ١٧/ ٤٠ .

(٢) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم فى الأقضية (١٧٢٠ / ٢٠) .

حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة فى قوله : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ قال : يصلين مع داود إذا صلى ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ قال : كانت صفائح ، فأوّل من سردها وحلقها داود عليه السلام . وأخرج ابن أبى شيبة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسى ، ثم يجىء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجىء أشراف الجنّ فيجلسون مما يلى أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم فتسير مسيرة شهر فى الغداة الواحدة .

وأخرج ابن عساكر والديلمى وابن النجار عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله لأيوب : تدرى ما جرمك علىّ حتى ابتليتك ؟ قال : لا يارب ، قال : لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده فى كلمتين»[1] وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ، ولم يأمر بالمعروف ، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله . وفى إسناده جويبر. وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ،وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع من شىء قط مثله ، فقال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان ، وأنا أعلم مكان جائع فصدّقنى ؛ فصدّق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم ألبس قميصًا قط وأنا أعلم مكان عار فصدّقنى ، فصدّق من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجدًا وقال : اللهمّ بعزّتك لا أرفع رأسى حتى تكشف عنى ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه . وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال: قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك فى الجنة وعوضناك مثلهم ، قال: لا ، بل اتركهم لى فى الجنة ، قال : فتركوا له فى الجنة وعوّض مثلهم فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن الضحّاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية : ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال : أوتى أهلاً غير أهله ، فقال ابن مسعود : بل أوتى أهله بأعيانهم ومثلهم معهم . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والرويانى وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) انظر الفردوس (٤٤٦٨) .

«إن أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد . قال: وما ذاك؟قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ،فقال أيوب: لا أدرى ما يقول غير أن الله يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا فى حق ، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ،فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله المبتلى والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحا ؟ قال : فإنى أنا هو ، قال: وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين ،فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض»(١).

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وذا الكفل ﴾ قال: رجل صالح غير نبىّ تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان في بنى إسرائيل قاض فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامى على أن لا يغضب ، فقال رجل : أنا ، فسمى : ذا الكفل ، فكان ليله جميعًا يصلى ، ثم يصبح صائمًا فيقضى بين الناس ، وذكر قصة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال : ما كان ذو الكفل نبيا ، ولكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كلّ يوم مائة صلاة فتوفى ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « كان الكفل من بنى إسرائيل لايتورّع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبى فهى لك ، وقال : والله لا أعصى الله بعدها أبدًا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه : إن الله قد غفر للكفل » (٢) . وأخرجه الترمذى وحسنه ، والحاكم وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة . وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر وقال : فيه ذو الكفل .

---

(١) أبو يعلى (٣٦١٧) وابن جرير ٢٣/١٠٧ وابن حبان (٢٨٨٧) ،وصححه الحاكم ٢/ ٥٨١ ، ٥٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٢) أحمد ٢/ ٢٣ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن حبان (٣٨٨) =

وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا** ﴾ يقول : غضب على قومه ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ يقول : أن لن نقضى عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه فى غضبه عليهم وفراره ، قال : وعقوبته أخذ النون إياه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ قال : ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذى أصابه . وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ قال : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر. وأخرج أحمد والترمذى والنسائى ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى في الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » (١) . وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس ابن متى » ، قلت : يارسول الله ، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قوله الله : ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » (٢) . وأخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه (٣) ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (٤) . وروى أيضا فى الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود(٥). وروى أيضًا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٦) .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

= والحاكم ٤/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ وقال: «صحيح الإسناد » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧١٠٨ ، ٧١٠٩) ط. دار الكتب العلمية ، قال الإمام ابن كثير : « هذا حديث غريب وقد وقع فى هذه الرواية الكفل من غير إضافة ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث :« إن كان الكفل » ، ولم يقل: ذو الكفل فلعله رجل آخر ، والله أعلم » .

(١) أحمد ١/ ١٧٠ والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٩٢) وابن جرير ١٧/ ٦٥، وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦١١) .

(٢) ابن جرير ١٧/ ٦٥ .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) ومسلم فى الفضائل (١٦٧/٢٣٧٧) والترمذى فى الصلاة (١٨٣).

(٥) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٢) .

(٦) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٥ ، ٣٤١٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٧ / ١٦٦) .

خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وزكريا** ﴾ أى واذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال : ﴿ **رب لا تذرنى فردا** ﴾ أى منفردًا وحيدًا لا ولد لى . وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿ **وأنت خير الوارثين** ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت . فأنت حسبى إن لم ترزقنى ولدًا فإنى أعلم أنك لا تضيع دينك ، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ . ﴿**فاستجبنا له** ﴾ دعاءه ﴿ **ووهبنا له يحيى** ﴾ . وقد تقدّم مستوفى فى سورة مريم ﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾ . قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقرًا فجعلها الله ولودًا ، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه. وقيل : كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعًا ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولودًا بعد أن كانت عاقرًا ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية وجملة :﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات** ﴾ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فالضمير المذكور راجع إليهم . وقيل : هو راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى . ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه ﴿ **رغبا ورهبا** ﴾ أى يتضرّعون إليه فى حال الرّخاء وحال الشدّة ، وقيل الرغب : رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب : رفع ظهورها . وانتصاب ﴿ **رغبا** ﴾ و﴿**ورهبا**﴾ على المصدرية . أى يرغبون رغبًا ويرهبون رهبًا ، أو على العلة . أى للرغب والرهب ، أو على الحال ، أى راغبين وراهبين . وقرأ طلحة بن مصرّف « ويدعونا » بنون واحدة ، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده ، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، وقرأ الباقون بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما ﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾ أى متواضعين متضرّعين .

﴿ **والتى أحصنت فرجها** ﴾ أى واذكر خبرها ، وهى مريم ، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما فى ذكر قصتها من الآية الباهرة ﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه ، وهو للملك تشريفًا وتعظيمًا ، وهو يريد روح عيسى ﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ قال الزجاج: الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل. وقيل : إن التقدير على مذهب سيبويه :

وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه :﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢] والمعنى : أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما . وقيل : أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكل واحد منهما من آيات ، ومعنى : ﴿ **أحصنت** ﴾ عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها . وقيل : المراد بالفرج : جيب القميص ، أى أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء ومريم .

ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ والأمة : الدّين كما قال ابن قتيبة ، ومنه : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] أى على دين ، كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله . وقيل : المعنى : إن هذه الشريعة التى بينتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة. وقيل: المعنى : إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهى ملة الإسلام . وانتصاب ﴿ **أمة واحدة** ﴾ على الحال ، أى متفقة غير مختلفة، وقرئ : «إن هذه أمتكم» بنصب أمتكم على بدل من اسم إن والخبر أمة واحدة. وقرئ برفع ﴿ **أمتكم** ﴾ ورفع ﴿ **أمة** ﴾ على أنهما خبران . وقيل : على إضمار مبتدأ ، أى هى أمة واحدة . وقرأ الجمهور برفع ﴿ أمتكم ﴾ على أنه الخبر ونصب ﴿ **أمة** ﴾ على الحال كما قدمنا . وقال الفراء والزجاج :على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ خاصة ، لا تعبدوا غيرى كائنًا ما كان .

﴿ **وتقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ أى تفرقوا فرقًا فى الدين حتى صار كالقطع المتفرّقة . وقال الأخفش : اختلفوا فيه، وهو كالقول الأول . قال الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف فى ، والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله . وقيل : المراد : جميع الخلق ، وأنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعًا وتقسموه بينهم، فهذا موحد، وهذا يهودى ، وهذا نصرانى ، وهذا مجوسى ، وهذا عابد وثن . ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال : ﴿ **كل إلينا راجعون** ﴾ أى كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث ، لا إلى غيرنا .

﴿ **فمن يعمل من الصالحات** ﴾ أى من يعمل بعض الأعمال الصالحة ، لا كلها ، إذ لا يطيق ذلك أحد ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ **فلا كفران لسعيه** ﴾ أى لا جحود لعمله ، ولا تضييع لجزائه ، والكفر ضدّ الإيمان ،والكفر أيضًا جحود النعمة وهو ضدّ الشكر ، يقال: كفر كفورًا وكفرانًا ، وفى قراءة ابن مسعود: « فلا كفر لسعيه ».﴿ **وإنا له كاتبون** ﴾ أى لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

﴿ **وحرام على قرية أهلكناها** ﴾ . قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة ﴿ **وحرام** ﴾ وقرأ أهل الكوفة : « وحرم » وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبوحاتم ، ورويت القراءة الثانية عن

عليّ وابن مسعود وابن عباس : وهما لغتان مثل حلّ وحلال . وقرأ سعيد بن جبير « وحرم » بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم . وقرأ عكرمة وأبو العالية « حرم » بضم الراء وفتح الحاء والميم ، ومعنى ﴿ **أهلكناها** ﴾ : قدّرنا إهلاكها ، وجملة : ﴿ **أنهم لا يرجعون** ﴾ فى محلّ رفع على أنه مبتدأ وخبره ﴿**حرام** ﴾ أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره .والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء ؛ وقيل إن ﴿ **لا** ﴾ في ﴿ **لا يرجعون** ﴾ زائدة أى حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا واختار هـذا أبو عبيد . وقيل : أن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ، أى واجب على قرية ، ومنه قول الخنساء :

وإن حرامًا لا أرى الدهر باكيًا   على شجوه إلا بكيت على صخر

وقيل : حرام : أى ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن لا زائدة . قال النحاس : والآية مشكلة ، ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال : واجب أنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون . قال الزجاج وأبو على الفارسى : إن في الكلام إضمارًا ، أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ،أو بالختم على قلوب أهلها ، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون .

﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج** ﴾ : « حتى » هذه هى التى يحكى بعدها الكلام ، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ الذى عليهم ، على حذف المضاف . وقيل إن حتى هذه هى التى للغاية. والمعنى : أن هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة ، وهى يوم فتح سد يأجوج ومأجوج ﴿ **وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ الضمير ليأجوج ومأجوج ،والحدب كلّ أكمة من أرض مرتفعة والجمع أحداب، مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ **ينسلون** ﴾ يسرعون . وقيل : يخرجون . قال الزجاج : والنسلان مشية الذئب إذا أسرع . يقال : نسل فلان فى العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا ، أى أن يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشى ويتفرقون فى الأرض ؛ وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **وهم** ﴾ لجميع الخلق ؛ والمعنى : أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض. وقرئ بضم السين . حكى ذلك المهدوى عن ابن مسعود . وحكى هذه القراءة أيضًا الثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء.

﴿ **واقترب الوعد** ﴾ عطف على ﴿ **فتحت** ﴾ والمراد ما بعد الفتح من الحساب . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : المراد بالوعد الحق : القيامة والواو زائدة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب إذا ، وأنشد الفراء :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى

أى انتحى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات: ١٠٣ ، ١٠٤]

وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿ فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ وقال البصريون : الجواب محذوف ، والتقدير : قالوا: ياويلنا . وبه قال الزجاج ، والضمير فى ﴿ فإذا هى ﴾ للقصة ، أو مبهم يفسره ما بعده ، وإذا للمفاجأة . وقيل : إن الكلام تمّ عند قوله: ﴿ هى ﴾، والتقدير : ﴿ فإذا هي ﴾ يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ ، أى أبصار الذين كفروا شاخصة. و﴿ يا ويلنا ﴾ على تقدير القول ﴿ قد كنا فى غفلة من هذا ﴾ أى من هذا الذى دهمنا من البعث والحساب ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أى لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كانت عاقرًا فجعلها الله ولودًا ووهب له منها يحيى ، وفي قوله: ﴿وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : أذلاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ يدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال : رغبًا في رحمة الله ورهبًا من عذاب الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه : ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال : « رغبًا هكذا ورهبًا هكذا » وبسط كفيه ، يعنى جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، والبيهقى في الشعب عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ قال : إن هذا دينكم دينا واحدا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ قال تقطعوا : اختلفوا فى الدين . وأخرج الفريابى وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى في الشعب عن ابن عباس فى قوله :﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ قال : وجب إهلاكها ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ قال :لا يتوبون .وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وحرم على قرية » قال : وجب على قرية ﴿ أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ كما قال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس: ٣١] . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد ا بن جبير مثله. وأخرج ابن جرير ،وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من

كل حدب ﴾ قال شرف ﴿ ينسلون ﴾ قال : يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾.

بين سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة ، والمراد بقوله : ﴿ وما تعبدون ﴾ : الأصنام التي كانوا يعبدون . قرأ الجمهور : ﴿حصب ﴾ بالصاد المهملة ، أى وقود جهنم وحطبها ، وكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهرى . قال أبو عبيدة : كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة : ٢٤] وقرأ عليّ بن أبى طالب وعائشة : « حطب جهنم » بالطاء ، وقرأ ابن عباس : « حضب » بالضاد المعجمة . قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل اليمن: الحطب . ووجه إلقاء الأصنام فى النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحسّ به : التبكيت لمن عبدها ، وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم . وقيل : إنها تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم ، وجملة : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ إما مستأنفة أو بدل من ﴿ حصب جهنم ﴾ والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبًا ، واللام في ﴿ لها ﴾ للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل . وقيل : هى بمعنى على ، والمراد بالورود هنا : الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ، لأن ﴿ ما ﴾ لمن لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال : ومن يعبدون. قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

﴿ **لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها** ﴾ أى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ، ما وردوها أى ماورد العابدون هم والمعبودون النار . وقيل : ما ورد العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ **وكل فيها خالدون** ﴾ أى كلّ العابدين والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿ **لهم فيها زفير** ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار ، والزفير صوت نفس المغموم ، والمراد هنا : الأنين والتنفس الشديد ، وقد تقدم بيان هذا فى هود. ﴿ **وهم فيها لا يسمعون** ﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدّة الهول. وقيل : لا يسمعون شيئًا ، لأنهم يحشرون صمًا كما قال سبحانه : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوهم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّح وتأنس ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوؤهم .

ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ أى الخصلة التي هى أحسن الخصال وهى السعادة . وقيل : التوفيق ، أو التبشير بالجنة ، أو نفس الجنة .﴿ **أولئك عنها مبعدون** ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿ **عنها** ﴾ أى عن جهنم ﴿ **مبعدون** ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة . ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ الحسّ والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء يمرّ قريبًا منك . والمعنى : لا يسمعون حركة النار وحركة أهلها ، وهذه الجملة بدل من ﴿ **مبعدون** ﴾ أو حال من ضميره ﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾ أى دائمون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين كما قال سبحانه : ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ [فصلت : ٣١]. ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قرأ أبو جعفر وابن محيصن : « لا يحزنهم » بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ الباقون ﴿ **لا يحزنهم** ﴾ بفتح الياء وضم الزاى. وقال اليزيدى : حزنه لغة قريش ،وأحزنه لغة تميم . والفزع الأكبر : أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿ **وتتلقاهم الملائكة** ﴾ أى تستقبلهم علي أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿ **هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ أى توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح ، لا المسيح وعزير والملائكة، وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿ **إنكم وما تعبدون** ﴾ الآية أتى ابن الزبعرى إلى رسول الله ﷺ فقال :يا محمد، ألست تزعم أن عزيرًا رجل صالح ، وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : « بلى » فقال: فإن الملائكة وعيسى وعزيرا ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ وسيأتى بيان من أخرج هذا قريبًا إن شاء الله .

﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج والزهرى : «تطوى» بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء ، وقرأ مجاهد : « يطوى » بالتحتية المفتوحة مبنيًا للفاعل على معنى يطوى الله السماء ، وقرأ الباقون ﴿ **نطوى** ﴾ بنون العظمة

وانتصاب ﴿ **يوم** ﴾ بقوله : ﴿ **نعيده** ﴾ أى نعيده يوم نطوى السماء ، وقيل : هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون ، والتقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى . وقيل : بقوله : ﴿ **لا يحزنهم الفزع** ﴾ وقيل : بقوله :﴿ **تتلقاهم** ﴾. وقيل : متعلق بمحذوف ، وهو اذكر ، وهذا أظهر وأوضح ، والطىّ ضد النشر . وقيل : المحو، والمراد بالسماء : الجنس ، والسجل: الصحيفة ، أى طيًا كطىّ الطومار . وقيل : السجل : الصك ، وهو مشتق من المساجلة وهى المكاتبة ، وأصلها من السجل ، وهو الدلو ، يقال : ساجلت الرجل : إذا نزعت دلوًا ونزع دلوًا ، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام ، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجدًا يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير : « السجل » بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام ،والطىّ في هذه الآية يحتمل معنين : أحدهما : الطىّ الذي هو ضدّ النشر، ومنه قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ [الزمر:٦٧] والثانى : الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ويكدّر نجومها. وقيل : السجل اسم ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم . وقيل : هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ ، والأول أولى . وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : ﴿**للكتب**﴾ جمعًا ، وقرأ الباقون ﴿ **للكتاب** ﴾ وهو متعلق بمحذوف حال من السجل ، أى كطىّ السجل كائنًا للكتب أو صفة له ، أى الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها، فسجلها بعض أجزائها ، وبه يتعلق الطىّ حقيقة . وأما علي القراءة الثانية فالكتاب مصدر، واللام للتعليل ، أى كما يطوى الطومار للكتابة ، أى ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، وهذا على تقدير أن المراد بالطىّ المعنى الأوّل ، وهو ضد النشر ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرّلا كذلك نعيدهم يوم القيامة ، فأوّل خلق مفعول نعيد مقدرًا يفسره نعيده المذكور ، أو مفعول لبدأنا وما كافة أو موصولة ، والكاف متعلقة بمحذوف ، أى نعيد مثل الذى بدأناه نعيده ، على هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا، أو حال ، وإنما خص أوّل الخلق بالذكر تصويرًا للإيجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ للشمول الإمكانى الذاتى لهما وقيل معنى الآية : نهلك كل نفس كما كان أول مرة ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : ﴿ **يوم نطوى السماء** ﴾. وقيل : المعنى : نغير السماء ، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأول أولى ، وهو مثل قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة ﴾ [الأنعام : ٩٤]، ثم قال سبحانه: ﴿ **وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ انتصاب ﴿ **وعدا** ﴾ علي أنه مصدر ، أى وعدنا وعدًا علينا إنجازه والوفاء به . وهو البعث والإعادة ، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إنا كنا فاعلين**﴾. قال الزجاج : معنى ﴿ **إنا كنا فاعلين** ﴾ : إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : إنا كنا فاعلين

ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ [المزمل : ١٨] .

﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور** ﴾ الزبر فى الأصل : الكتب ، يقال : زبرت ، أى كتبت وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور . وقيل : المراد به هنا : كتاب داود ، ومعنى ﴿ **من بعد الذكر** ﴾ أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو التوراة ، أى والله لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ ﴿ **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ . قال الزجاج : الزبور جميع الكتب : التوراة والإنجيل والقرآن ، لأن الزبور والكتاب فى معنى واحد ، يقال : زبرت وكتبت ، ويؤيد ماقاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى ، فإنه جمع زبر . وقد اختلف فى معنى ﴿ **يرثها عبادى الصالحون** ﴾ فقيل: المراد : أرض الجنة ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ [الزمر: ٧٤] . وقيل : هى الأرض المقدّسة . وقيل : هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها . وقيل : المراد بذلك : بنو إسرائيل ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين . وقرأ حمزة : « عبادى » بتسكين الياء ، وقرأ الباقون بتحريكها .

﴿ **إن في هذا لبلاغا** ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه ﴿ **لبلاغا** ﴾: لكفاية ، يقال: فى هذا الشىء بلاغ وبلغة وتبلغ ، أى كفاية . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ **إن في هذا** ﴾ إلى القرآن ﴿ **لقوم عابدين** ﴾ أى مشغولين بعبادة الله مهتمين بها . والعبادة هى : الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد ﷺ ، ورأس العبادة الصلاة . ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ أى وما أرسلناك يامحمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال والعلل ، أى ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين، قيل : ومعنى كونه رحمة للكفار : أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال. وقيل : المراد بالعالمين : المؤمنون خاصة ، والأوّل أولى بدليل قوله سبحانه : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال : ﴿ **قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ إن كانت « ما » موصولة فالمعنى : أن الذى يوحى إلىّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها ، وإن كانت « ما » كافة فالمعنى : أن الوحى إلىّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ، ووجه ذلك أن القصر أبدًا يكون لما يلى إنما ، فإنما الأولى لقصر الوصف علي الشىء كقولك : إنما يقوم زيد ، أى ما يقوم إلا زيد . والثانية لقصر الشىء على الحكم كقولك : إنما زيد قائم ، أى ليس به إلا صفة القيام ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه .

﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عن الإسلام ﴿ **فقل** ﴾ لهم ﴿ **آذنتكم على سواء** ﴾ أى أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء فى الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : ٥٨] أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضًا سوّيت بينهم فيه. وقال الزجاج : المعنى : أعلمتكم ما يوحى إلىّ على استواء في العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئًا كتمته على غيره ﴿ **وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون** ﴾ أى ما أدرى ما توعدون به قريب حصوله أم بعيد ، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله . وقيل : المراد بما توعدون : القيامة . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكن لا أدرى ما يؤذن لى فى محاربتكم ﴿ **إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون** ﴾ أى يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه ﴿**وإن أدرى لعله فتنة لكم** ﴾ أى ما أدرى لعلّ الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿**ومتاع إلى حين** ﴾ أى وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته.

ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **قال رب احكم بالحق** ﴾ أى احكم بينى وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن : « رب » بضم الباء قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم : رجل أقبل ، حتى يقول : يارجل . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب : « أحكم » بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أى قال محمد : ربى أحكم بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدرى : «أحكم» بصيغة الماضى ، أى أحكم الأمور بالحق . وقرئ : « قل » بصيغة الأمر ، أى قل يا محمد . قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير : ربّ احكم بحكمك الحق ، ﴿ **رب** ﴾ فى موضع نصب ، لأنه منادى مضاف إلى الضمير ، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين . ثم قال سبحانه متممًا لتلك الحكاية : ﴿ **وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ من الكفر والتكذيب ، فـ﴿ **ربنا** ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ **الرحمن** ﴾ أى هو كثير الرحمة لعباده ، ﴿**المستعان** ﴾ خبر آخر ، أى المستعان به فى الأمور التى من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : ٣] وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن ولدا ﴾ [مريم : ٨٨] وكثيرًا ما يستعمل الوصف فى كتاب الله بمعنى الكذب كقوله : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقوله:﴿سنجزيهم وصفهم ﴾ [الأنعام:١٣٩] وقرأ المفضل والسلمى: « على ما يصفون » بالياء التحتية. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد ، وأبو داود في ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : لما نزل : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله ، فنزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾

عيسى وعزير والملائكة (١) . وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه قال : جاء عبد الله ابن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جنهم أنتم لها واردون** ﴾ قال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون. وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾[الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] ثم نزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر والطبرانى من وجه آخر عنه أيضًا نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ قال : « عيسى وعزير والملائكة » .

وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **حصب جنهم** ﴾ قال : شجر جهنم ، وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿ **حصب جهنم** ﴾ وقودها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : هو حطب جهنم بالزنجية . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ في قوله : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ قال : « حيات على الصراط تقول : حس حس » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عثمان النهدى في قوله:﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ قال :حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قالوا: حس حس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن محمد بن حاطب قال : سئل عليّ عن هذه الآية: ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ قال : هو عثمان وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا يسمعون حسيسها**﴾ يقول : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قال : النفخة الآخرة ، وفى إسناده العوفى . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أمّ قومًا وهم به راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة ، وعبد أدّى حقّ الله وحقّ مواليه » (٢) . وأخرج عبد بن حميد عن عليّ في قوله : ﴿ **كطى السجل** ﴾ قال : ملك . وأخرج عبد بن حميد عن عطية مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : السجل : ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نورا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى جعفر الباقر قال : السجل : ملك. وأخرج أبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، وابن منده فى المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه

---

(١) ابن جرير ١٧/ ٧٧ والطبرانى (١٢٧٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٥ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٢٦ والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث سفيان الثورى عن أبى اليقظان ». وفى المطبوعة « وهم له راضون » و التصويب من أحمد والترمذى .

وصححه عن ابن عباس قال : السجل : كاتب للنبى ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن عدىّ وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى : السجل ، وهو قوله : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ قال : كما يطوى السجل الكتاب كذلك نطوى السماء . وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عمر قال: كان للنبى ﷺ كاتب يقال له : السجل ، فأنزل الله : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ .

قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث : وهذا منكر جدًا من حديث نافع عن ابن عمر ، لا يصح أصلا . قال: وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لا يصح أيضًا . وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزى ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءًا له علي حدة ، ولله الحمد . قال : وقد تصدّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردّه أتمّ رد ، وقال : ولا نعرف في الصحابة أحدًا اسمه سجلّ ، وكتاب النبى ﷺ كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل . وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث . وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم . قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجلّ هو الصحيفة ، قاله علىّ بن أبى طلحة والعوفي عنه .ونصّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتاب : أى علي الكتاب ، يعنى المكتوب كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : ١٠٣] أى على الجبين ، وله نظائر في اللغة والله أعلم . قلت : أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا ، فإن علىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ضعيفان، فالأولى التعويل على معنى اللغوى والمصير إليه. وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ **السجل** ﴾ هو الرجل ، زاد ابن مردويه : بلغة الحبشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية قال : كطىّ الصحيفة على الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ يقول : نهلك كل شىء كما كان أوّل مرّة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه في قوله : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر** ﴾ قال : القرآن ﴿ **أن الأرض** ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور** ﴾ قال : الكتب ﴿ **من بعد الذكر** ﴾ قال: التوراة. وفي إسناده العوفى . وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضًا ، قال : الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن . والذكر : الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى فى السماء . والأرض : أرض الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ قال : أرض الجنة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أخبر الله

سبحانه فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون ، وفى قوله: ﴿ **لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال: عالمين ، وفى إسناده علىّ بن أبى طلحة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة : ﴿ **إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال :الصلوات الخمس . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : فى قول الله : ﴿ **إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : « فى الصلوات الخمس شغلاً للعبادة » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ **لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ قال : من آمن تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : « إنى لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة » [(١)]. وأخرج الطيالسى وأحمد والطبرانى ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين »[(٢)]. وأخرج أحمد والطبرانى عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال : « أيما رجل من أمتى سببته سبة في غضبى أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمة للعالمين ، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة» [(٣)]. وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » [(٤)] وقد روى معنى هذا من طرق .

وأخرج ابن أبى خيثمة وابن عساكر عن الربيع بن أنس قال : لما أسرى بالنبىّ ﷺ رأى فلانًا ، وهو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ يقول : هذا الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم** ﴾ يقول : ما أخبركم به من العذاب والساعة ، لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**قل رب احكم بالحق** ﴾ قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه .

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٩٩ / ٨٧) .

(٢) أحمد ٥/٢٥٧ وهو جزء من حديث طويل والطبرانى (٧٨٠٣) وقال الهيثمى في المجمع ٥/٧٢ :« فيه على ابن زيد وهو ضعيف » وأبو نعيم فى الدلائل ص ٩ .

(٣) أحمد ٥/٤٣٧ والطبرانى (٦١٥٦) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ١/١٥٨ .

تفسير سورة الحج

وهى ثمانٍ وسبعون آية . اختلف أهل العلم : هل هى مكية أو مدنية ؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير مثله . وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى** ﴾ إلى : ﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ . وحكى القرطبى عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات وقيل : أربع آيات إلى قوله : ﴿ **عذاب الحريق** ﴾ . وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات . قال القرطبى وقال الجمهور : إن السورة مختلطة، منها مكى ، ومنها مدنى . قال : وهذا هو الصحيح . قال العزيزى : وهى من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، ناسخًا ومنسوخًا ، محكمًا ومتشابها .

وقد ورد فى فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عقبة بن عامر قال : قلت : يارسول الله ، أفضلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : « نعم ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»(١) . قال الترمذى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى (٢). وأخرج أبو داود فى المراسيل ، والبيهقى عن خالد بن معدان ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين » (٣). وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والإسماعيلى وابن مردويه والبيهقى عن عمر ؛ أنه كان يسجد سجدتين فى الحجّ وقال : إن هذه السورة فضلت على سائر القرآن بسجدتين .وقد روى عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين، وبه يقول ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق. وقال بعضهم : إن فيها سجدة واحدة ، وهو قول سفيان الثورى ، وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عباس وإبراهيم النخعى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

---

(١) أحمد ٤/ ١٥١ ، ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٢) والترمذى فى الصلاة (٥٧٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢/ ٣١٧ .

(٢) قال الحاكم : « هذا حديث لم يكتب مسندا إلا من هذا الوجه ، وعبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى أحد الأئمة ، إنما نقم عليه اختلاطه فى آخر عمره وقد صحت الرواية فيه من قول عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى وأبى الدرداء وعمار رضى الله عنهم» قال الشيخ أحمد شاكر : « الحديث صحيح ، وابن لهيعة ومشرح بن هاعان ثقتان » .

(٣) أبو داود فى المراسيل (٧٨) والبيهقى ٢/ ٣١٧ .

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾.

لما انجّر الكلام فى خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها ، بدأ سبحانه فى هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها ، حثًا على التقوى التى هى أنفع زاد فقال : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ أى احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر فى موضعه ، وقد قدّمنا طرفًا من تحقيق ذلك فى سورة البقرة . وجملة : ﴿ **إن زلزلة الساعة شىء عظيم** ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى ، والزلزلة : شدة الحركة ، وأصلها من زلّ عن الموضع ، أى زال عنه وتحرّك ، وزلزل اللّه قدمه ، أى حركها ، وتكرير الحرف يدلّ على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، وهى على هذا، الزلزلة التى هى أحد أشراط الساعة التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور . وقيل : إنها تكون فى النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها . وقيل: إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف ، وهو الساعة ، إجراء له مجرى المفعول ، أو بتقدير « فى » كما فى قوله: ﴿ **بل مكر الليل والنهار** ﴾ [سبأ : ٣٣] . وهى المذكورة فى قوله : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ [الزلزلة:١] . قيل : وفى التعبير عنها بالشىء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها . ﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت** ﴾ انتصاب الظرف بما بعده ، والضمير يرجع إلى الزلزلة ، أى وقت رؤيتكم لها ، تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه . قال قطرب : تذهل : تشتغل ، وأنشد قول الشاعر :

ضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقيل : تنسى . وقيل : تلهو. وقيل : تسلو، وهذه معانيها متقاربة . قال المبرّد : إن «ما» فيما أرضعت بمعنى المصدر: أى تذهل عن الإرضاع ، قال : وهذا يدلّ على أن هذه

الزلزلة فى الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع ، إلا أن يقال : من ماتت حاملا فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال هذا مثل، كما يقال : ﴿ يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ [المزمل : ١٧]. وقيل : يكون مع النفخة الأولى ، قال : ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة ، كما فى قوله : ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ [البقرة : ٢١٤] ومعنى ﴿ **وتضع كل ذات حمل حملها** ﴾: أنها تلقى جنينها لغير تمام من شدّة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿ **وترى الناس سكارى** ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد ، أى يراهم الرائى كأنهم سكارى ﴿ **وماهم بسكارى** ﴾ حقيقة ، قرأ حمزة والكسائى : « سكرى » بغير ألف ، وقرأ الباقون بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذى لأجله شابهوا السكارى فقال : ﴿ **ولكن عذاب الله شديد** ﴾ فبسبب هذه الشدّة والهول العظيم طاشت عقولهم ، واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك . وقرئ : « وترى » بضم التاء وفتح الراء مسندًا إلى المخاطب من أرأيتك ، أى تظنهم سكارى . قال الفراء : ولهذه القراءة وجه جيد فى العربية .

ثم لما أراد سبحانه أن يحتجّ على منكرى البعث قدّم قبل ذلك مقدّمة تشمل أهل الجدال كلهم فقال : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم** ﴾ وقد تقدّم إعراب مثل هذا التركيب فى قوله: ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة: ٨] ومعنى ﴿ **فى الله** ﴾: فى شأن الله وقدرته ، ومحل ﴿ **بغير علم** ﴾ النصب على الحال . والمعنى : أنه يخاصم فى قدرة اللّه ، فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه ، ولا حجة يدلى بها ﴿**ويتبع**﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه ﴿ **كل شيطان مريد** ﴾ أى متمرد على الله وهو العاتى ، سمى بذلك لخلوه عن كل خير ، والمراد : إبليس وجنوده ، أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر . وقال الواحدى : قال المفسرون : نزلت فى النضر بن الحارث وكان كثير الجدال ، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ **كتب عليه أنه من تولاه** ﴾ أى كتب على الشيطان ، وفاعل كتب : أنه من تولاه ، والضمير للشأن ، أى من اتخذه وليا ﴿ **فأنه يضله** ﴾ أى فشأن الشيطان أن يضله عن طريق الحقّ ، فقوله : ﴿ **أنه يضله** ﴾ جواب الشرط إن جعلت من شرطية ، أو خبر الموصول إن جعلت موصولة ، فقد وصف الشيطان بوصفين : الأوّل أنه مريد ، والثانى ما أفاده جملة كتب عليه إلخ ، وجملة : ﴿ **ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **يضله** ﴾ أى يحمله على مباشرة ما يصير به فى عذاب السعير .

ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدّمة ، فقال: ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث** ﴾ قرأ الحسن: « البعث » بفتح العين وهى لغة، وقرأ الجمهور بالسكون ، وشكهم يحتمل أن يكون فى وقوعه أو فى إمكانه . والمعنى :

إن كنتم فى شكّ من الإعادة فانظروا فى مبدأ خلقكم ، أى خلق أبيكم آدم ، ليزول عنكم الريب ، ويرتفع الشكّ وتدحض الشبهة الباطلة ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب** ﴾ فى ضمن خلق أبيكم آدم « ثم » خلقناكم ﴿ **من نطفة** ﴾ أى من منى . سمى نطفة لقلته ، والنطفة : القليل من الماء . وقد يقع على الكثير منه . والنطفة : القطرة ، يقال: نطف ينطف ، أى قطر . وليلة نطوف ، أى دائمة القطر ﴿ **ثم من علقة** ﴾ والعلقة : الدم الجامد. والعلق : الدم العبيط، أى الطرى أو المتجمد . وقيل : الشديد الحمرة . والمراد : الدم الجامد المتكون من المنى ﴿ **ثم من مضغة** ﴾ وهى القطعة من اللحم، قدر ما يمضغ الماضغ تتكوّن من العلقة ﴿ **مخلقة** ﴾ بالجرّ صفة لمضغة ، أى مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿ **وغير مخلقة** ﴾ أى لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها . قال ابن الأعرابى : مخلقة يريد : قد بدأ خلقه ، وغير مخلقة : لم تصوّر. قال الأكثر : ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه ؛ فهو المخلقة وهو الذى ولد لتمام ، وما سقط ؛كان غير مخلقة أى غير حيّ بإكمال خلقته بالروح . قال الفراء : مخلقة : تامّ الخلق ، وغير مخلقة: السقط ، ومنه قول الشاعر :

أفى غير المخلقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياء ؟

والللام فى ﴿ **لنبين لكم** ﴾ متعلق بخلقنا ، أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ **ونقر فى الأرحام ما نشاء** ﴾ روى أبو حاتم عن أبى زيد عن المفضل عن عاصم أنه قرأ بنصب نقر عطفا على نبين ، وقرأ الجمهور : ﴿ **نقر** ﴾ بالرفع على الاستئناف ، أى ونحن نقرّ . قال الزجاج : نقر بالرفع لا غير ، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء . ومعنى الآية : ونثبت فى الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطًا ﴿**إلى أجل مسمى** ﴾ وهو وقت الولادة ، وقال : ما نشاء ، ولم يقل : من نشاء ، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقرئ . «ليبين » « ويقر » و « يخرجكم » بالتحتية فى الأفعال الثلاثة ، وقرأ ابن وثاب : « ما نشاء » بكسر النون ﴿ **ثم نخرجكم طفلا** ﴾ أى نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلا ، أى أطفالا ، وإنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد . قال الزجاج : طفلا فى معنى أطفالا ، ودلّ عليه ذكر الجماعة : يعنى فى : نخرجكم ، والعرب كثيرًا ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ، ومنه قول الشاعر :

يلحيننى من حبها ويلمننى إن العواذل لسن لى بأمير

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدرًا كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد والجمع ، قال الله سبحانه : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴾ [النور : ٣١] . قال ابن جرير : هو منصوب على التمييز كقوله : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا ﴾ [النساء : ٤] وفيه بعد ، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور ، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ ﴿**ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾ قيل :هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له ، كأنه قيل : نخرجكم لتكبروا شيئًا فشيئًا ثم لتبلغوا إلى الأشد . وقيل : إن ثم زائدة والتقدير : لتبلغوا .

وقيل : إنه معطوف على نبين . والأشدّ هو : كمال العقل وكمال القوّة والتمييز . قيل : وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين . وقد تقدم الكلام فى هذا مستوفى فى الأنعام ﴿ **ومنكم من يتوفى**﴾ يعنى : قبل بلوغ الأشدّ، وقرئ : « يتوفى » مبنيا للفاعل . وقرأ الجمهور : ﴿ **يتوفى** ﴾ مبنيًا للمفعول ﴿ **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر** ﴾ أى أخسه وأدونه ، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **لكيلا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾ أى شيئًا من الأشياء ، أو شيئًا من العلم ، والمعنى : أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها ، لا علم له ولا فهم ، ومثله قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين: ٤، ٥] ، وقوله : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق ﴾ [يس : ٦٨] . ﴿ **وترى الأرض هامدة** ﴾ هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء ، على إحياء الأموات ، والهامدة : اليابسة التى لا تنبت شيئًا . قال ابن قتيبة : أى ميتة يابسة كالنار إذا طفئت . وقيل : دارسة ، والهمود : الدروس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ما لجسمك شاحبًا ... وأرى ثيابك باليات همودا

وقيل : هى التى ذهب عنها الندى . وقيل : هالكة ، ومعانى هذه الأقوال متقاربة ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾ المراد بالماء هنا : المطر ، ومعنى اهتزت: تحركت. والاهتزاز : شدّة الحركة ، يقال : هززت الشىء فاهتزّ ، أى حركته فتحرك ؛ والمعنى : تحركت بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة ، فسماه اهتزازًا مجازًا . وقال المبرد : المعنى : اهتز نباتها فحذف المضاف . واهتزازه شدة حركته ، والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ومعنى ربت : ارتفعت ، وقيل : انتفخت . والمعنى واحد ، وأصله : الزيادة ، يقال : ربا الشىء يربو ربوًا: إذا زاد ، ومنه الربا والربوة . وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس : « وربأت » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ، وهو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له: رابئ ورابئة وربيئة ﴿ **وأنبتت** ﴾ أى أخرجت ﴿ **من كل زوج بهيج**﴾ أى من كلّ صنف حسن ولون مستحسن ، والبهجة : الحسن .

وجملة: ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق**﴾ مستأنفة، لما ذكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره. قال بعد ذلك هذه المقالات، وهى إثبات أنه سبحانه الحق ، وأنه المتفرد بإحياء الموتى ، وأنه قادر على كل شىء من الأشياء ، والمعنى : أنه المتفرد بهذه الأمور، وأنها من شأنه لا يدّعى غيره أنه يقدر على كل منها ، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقى الغنى المطلق ؛ وأن وجود كل موجود مستفاد منه ، والحق هو الموجود الذى لا يتغير ولا يزول. وقيل: ذو الحقّ على عباده . وقيل : الحقّ فى أفعاله. قال الزجاج: ﴿**ذلك**﴾ فى موضع رفع ، أى الأمر ما وصفه لكم وبين بأن اللّه هو الحق . قال :ويجوز أن يكون ﴿**ذلك**﴾ نصبًا .

ثم أخبر سبحانه بأن ﴿ **الساعة آتية** ﴾ أى فى مستقبل الزمان ، قيل : لا بدّ من إضمار فعل ، أى ولتعلموا أن الساعة آتية ﴿ **لا ريب فيها** ﴾ أى لا شك فيها ولا تردّد ، وجملة : ﴿**لا**

ريب فيها ﴾ خبر ثان للساعة ، أو فى محل نصب على الحال . ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، إن خيرًا فخير وإن شرا فشرّ ، وأن ذلك كائن لا محالة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم،والحاكم وصححه،وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال : لما نزلت ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ أنزلت عليه هذه وهو فى سفر ، فقال : « أتدرون أىّ يوم ذلك ؟ » قالوا : اللهّ ورسوله أعلم قال : « ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال: يارب، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحدًا إلى الجنة » ، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ:« قاربوا وسدّدوا وأبشروا، فإنها لم تكن نبوّة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدّة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة ، أو كالشامة فى جنب البعير»، ثم قال : «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال: « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ، قال: ولا أدرى قال الثلثين أم لا (١). وأخرج الترمذى وصححه، وابن جرير وابن المنذر عن عمران ابن حصين مرفوعًا نحوه، وقال فى آخره: « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج، ومن مات من بنى آدم ومن بنى إبليس » ، فسرى عن القوم بعض الذى يجدون ، قال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير، أو كالرقمة فى ذراع الدابة » (٢). وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس مرفوعًا نحوه (٣). وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس مرفوعًا نحوه أيضًا. وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال النبى ﷺ فذكر نحوه(٤) ، وفى آخره فقال : « من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد ، وهل أنتم فى الأمم إلا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود » .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ كتب عليه ﴾ قال : كتب على الشيطان . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن

---

(١) أحمد ٤/ ٤٣٥ والترمذى فى التفسير (٣١٦٨) وقال :« هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٦٠) وابن جرير ١٧/ ٨٦ وصححه الحاكم ٢/ ٢٣٣، ٢٣٤ ووافقه الذهبى .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٦٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ١٧/ ٨٦ .

(٣) ابن جرير ١٧/ ٨٧ وابن حبان (٧٣١٠) وصححه الحاكم ١/ ٢٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٨) ومسلم فى الإيمان (٢٢٢/ ٣٧٩) والنسائى فى التفسير (٣٥٩) .

جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله : ﴿ **أنه من تولاه** ﴾ قال: اتبعه . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة،ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[(١)] . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدًا . وأخرج ابن أبى حاتم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **مخلقة وغير مخلقة** ﴾ قال : المخلقة : ما كان حيا ، وغير المخلقة : ما كان سقطًا . وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من كل زوج بهيج** ﴾ قال : حسن . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن معاذ بن جبل قال: من علم أن اللّه عزّ وجلّ حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن اللّه يبعث من فى القبور ؛ دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) ﴾.

قوله : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله** ﴾ أى فى شأن اللّه ، كقول من قال : إن الملائكة بنات اللّه ، والمسيح ابن اللّه ، وعزير ابن اللّه . قيل : نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل . وقيل : هى عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم ، وعلى كل حال فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ وإن كان السبب خاصًا. ومعنى اللفظ: ومن الناس فريق يجادل فى

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم فى القدر (٢٦٤٣/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٨) والترمذى فى القدر (٣١٣٧) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (٧٦) وأحمد ١/ ٣٨٢ ، ٤٣٠ .

اللّه، فيدخل فى ذلك كل مجادل فى ذات اللّه ، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، و﴿بغير علم﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كائنًا بغير علم . قيل : والمراد بالعلم هو : العلم الضرورى، وبالهدى هو: العلم النظرى الاستدلالى. والأولى حمل العلم على العموم، وحمل الهدى على معناه اللغوى، وهو الإرشاد. والمراد بالكتاب المنير هو: القرآن، والمنير: النير البين الحجة الواضح البرهان، وهو وإن دخل تحت قوله: ﴿ بغير علم ﴾ فإفراده بالذكركإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم . وأما من حمل العلم على الضرورى والهدى على الاستدلالى ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعى ، فتكون الآية متضمنة لنفى الدليل العقلى ضروريًا كان أو استدلاليا، ومتضمنة لنفى الدليل النقلى بأقسامه ، وما ذكرناه أولى . قيل : والمرادبهذا المجادل فى هذه الآية هو المجادل فى الآية الأولى ، أعنى قوله : ﴿ ومن الناس من يجادل فى اللّه بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : ٣] وبذلك قال كثير من المفسرين . والتكريرللمبالغة فى الذم كما تقول للرجل تذمه وتوبخه : أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا ؟ ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه فى كل آية بزيادة على ما وصفه به فى الآية الأخرى ، فكأنه قال : ومن الناس من يجادل فى اللّه ويتبع كلّ شيطان مريد بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ليضل عن سبيل الله . وقيل : الآية الأولى فى المقلدين اسم فاعل . والثانية فى المقلدين اسم مفعول . ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال : إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة فى كلّ إضلال وجدال .

وانتصاب ﴿ ثانى عطفه ﴾ على الحال من فاعل يجادل، والعطف: الجانب ، عطفا الرجل : جانباه من يمين وشمال، وفى تفسيره وجهان: الأوّل: أن المراد به من يلوى عنقه مرحًا وتكبرًا ، ذكر معناه الزجاج. قال: وهذا يوصف به المتكبر. والمعنى: ومن الناس من يجادل فى اللّه متكبراً. قال المبرد: العطف: ما انثنى من العنق. والوجه الثانى: أن المراد بقوله: ﴿ثانى عطفه﴾: الإعراض، أى معرضًا عن الذكر ، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى: ﴿ ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ﴾ [لقمان :٧]، وقوله: ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ [المنافقون: ٥]، وقوله: ﴿ أعرض ونأى بجانبه﴾[الإسراء : ٨٣]، واللام فى ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ متعلق بـ﴿ يجادل﴾ أى أن غرضه هو الإضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك. وقرئ: « ليضل » بفتح الياء على أن تكون اللام هى لام العاقبة كأنه جعل ضلاله غاية لجداله، وجملة: ﴿ له فى الدنيا خزى ﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة. والخزى: الذل، وذلك بما يناله من العقوبة فى الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس. وقيل: الخزى الدنيوى هو: القتل، كما وقع فى يوم بدر ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أى عذاب النار المحرقة .

والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ماتقدّم من العذاب الدنيوى والأخروى، وهو مبتدأ خبره : ﴿ بما قدمت يداك ﴾ ، والباء للسببية ، أى ذلك العذاب النازل بك بسبب ما قدّمته يداك من الكفر والمعاصى، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها فى الغالب ،

ومحل أن وما بعدها فى قوله : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب . وقد مرّ الكلام على هذه الآية فى آخر آل عمران فلا نعيده .

﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : الحرف: الشك ، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه ، مثل حرف الجبل والحائط ، فإن القائم عليه غير مستقرّ ، والذى يعبد الله على حرف قلق فى دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذى هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطرابا ويضعف قيامه فقيل للشاك فى دينه إنه يعبد الله على حرف ؛ لأنه على غير يقين من وعده ووعيده ، بخلاف المؤمن ؛ لأنه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف. وقيل: الحرف : الشرط ، أى ومن الناس من يعبد الله على شرط ، والشرط هو قوله : ﴿ **فإن أصابه خير اطمأن به** ﴾ أى خير دنيوى من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال ، ومعنى ﴿ **اطمأن به** ﴾: ثبت على دينه واستمرّ على عبادته ، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذى أصابه ﴿ **وإن أصابته فتنة** ﴾ أى شيء يفتتن به من مكروه يصيبه فى أهله أو ماله أو نفسه ﴿ **انقلب على وجهه** ﴾ أى ارتدّ ورجع إلى الوجه الذى كان عليه من الكفر ، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال : ﴿ **خسر الدنيا والآخرة** ﴾ أى ذهبا منه وفقدهما ، فلا حظ له فى الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن ، ولا فى الآخرة من الأجر وما أعدّه الله للصالحين من عباده . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبى إسحاق : «خاسرًا الدنيا والآخرة » على صيغة اسم الفاعل منصوبًا على الحال . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿ **هو الخسران المبين** ﴾ أى الواضح الظاهر الذى لا خسران مثله ﴿ **يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه** ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر ﴿**يدعو من دون الله**﴾: أى يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ﴿ **ما لا يضره** ﴾ إن ترك عبادته ، ﴿ **ولا ينفعه** ﴾ إن عبده لكون ذلك المعبود جمادًا لا يقدر على ضرّ ولا نفع ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو، واسم الإشارة مبتدأ وخبره: ﴿ **هو الضلال البعيد** ﴾ أى عن الحق والرشد، مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيدًا عنها. قال الفراء: البعيد: الطويل .

﴿ **يدعو لمن ضره أقرب من نفعه** ﴾ يدعو بمعنى : يقول ، والجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالا بعيدا . والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال ، بل هى ضرر بحت لمن يعبدها ؛ لأنه دخل النار بسبب عبادتها . وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة فى تقبيح حال ذلك الداعى، أو ذلك من باب ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ [سبأ: ٢٤]. واللام هى: الموطئة للقسم ومن موصولة أو موصوفة ، و﴿ **ضره** ﴾ مبتدأ خبره أقرب ، والجملة صلة الموصول . وجملة : ﴿ **لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ جواب القسم . والمعنى : أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذى ضره أقرب من نفعه : لبئس المولى

ولبئس العشير. والمولى: الناصر ، والعشير : الصاحب ، ومثل ما فى هذه الآية قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم

وقال الزجاج : يجوز أن يكون ﴿ **يدعو** ﴾ فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ، أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه وعلى هذا يوقف على ﴿ **يدعو** ﴾ ويكون قوله : ﴿ **لمن ضره أقرب من نفعه** ﴾ كلامًا مستأنفًا مرفوعًا بالابتداء ، وخبره : ﴿ **لبئس المولى** ﴾ . قال : وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أوّل الكلام . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن يكون ﴿ **يدعو** ﴾ مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ،أى يدعو ما لا يضرّه ولا ينفعه يدعو، مثل ضربت زيدًا ضربت . وقال الفراء والكسائى والزجاج : معنى الكلام القسم . واللام مقدّمة على موضعها ، والتقدير : يدعو من لضرّه أقرب من نفعه ، فمن فى موضع نصب بـ﴿**يدعو**﴾ ،واللام جواب القسم و ﴿ **ضره** ﴾ مبتدأ ، و ﴿ **أقرب** ﴾ خبره ، ومن التصرف فى اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر :

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

أى لخالى أنت . قال النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ، والمعنى : يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه إلها . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطًا عن محمد بن يزيد ، ولعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها . وقال الفراء أيضًا والقفال : اللام صلة ، أى زائدة ، والمعنى : يدعو من ضرّه أقرب من نفعه ، أى يعبده ، وهكذا فى قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام ، وتكون اللام فى : ﴿ **لبئس المولى** ﴾ وفى : ﴿ **لبئس العشير** ﴾ على هذا موطئة للقسم .

﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ لما فرغ من ذكر حال المشركين،ومن يعبد اللَّه على حرف ذكر حال المؤمنين فى الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة،وقد تقدم الكلام فى جرى الأنهار من تحت الجنات،وبينا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها،فجريان الأنهار من تحتها ظاهر؛ وإن أريد بها الأرض فلابد من تقدير مضاف ، أى من تحت أشجارها ﴿ **إن الله يفعل ما يريد** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها،أى يفعل ما يريده من الأفعال ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء .

﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة** ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فى هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر اللَّه محمدًا ﷺ وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه ﴿ **فليمدد بسبب إلى السماء** ﴾ أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ **ثم ليقطع** ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تهيأ له ﴿ **فلينظر هل يذهبن كيده** ﴾ وحيلته ﴿ **ما يغيظ** ﴾ من نصر النبى ﷺ . وقيل : المعنى : من كان يظن أن لن ينصر اللَّه محمدًا حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظًا ، ثم فسره بقوله : ﴿ **فليمدد بسبب إلى السماء** ﴾ أى فليشدد حبلا فى سقف بيته

﴿ **ثم ليقطع** ﴾ أى ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقًا ، والمعنى : فليختنق غيظًا حتى يموت ، فإن اللَّه ناصره ومظهره ، ولا ينفعه غيظه ، ومعنى ﴿ **فلينظر هل يذهبن كيده** ﴾ أى صنيعه وحيلته ما يغيظ ، أى غيظه ، « وما » مصدرية . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ **ينصره** ﴾ يعود إلى من ، والمعنى : من كان يظّن أن اللَّه لا يرزقه فليقتل نفسه ، وبه قال أبو عبيدة . وقيل : إن الضمير يعود إلى الدين ، أى من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . وقرأ الكوفيون بإسكان اللام فى « ثم ليقطع » . قال النحاس : وهذه القراءة بعيدة من العربية .

﴿ **وكذلك أنزلناه آيات بينات** ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع ، أنزلناه آيات واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها ﴿ **وأن الله يهدى من يريد** ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهديا من قبل .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**ثانى عطفه** ﴾ قال : لاوى عنقه . وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس والسدّى وابن يزيد وابن جرير أنه المعرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿**ثانى عطفه** ﴾ قال : أنزلت فى النضر بن الحارث . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : هو رجل من بنى عبد الدار وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿**ثانى عطفه** ﴾ قال : مستكبرًا فى نفسه .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ يسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن . قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل اللَّه : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضًا نحوه (١) . وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن مردويه أيضًا من طريقه أيضًا عن أبى سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى أقلنى ، قال : « **إن الإسلام لا يقال** » ، فقال : لم أصب من دينى هذا خيرًا ، ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال : « **يايهودىّ ، الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة** » ، فنزلت ﴿ **ومن الناس من يعبد اللَّه على حرف** ﴾ .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم

(١) ابن جرير ١٧ / ٩٣ .

وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله** ﴾ قال من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا فى الدنيا والآخرة ﴿ **فليمدد بسبب** ﴾ قال : فليربط بحبل ﴿ **إلى السماء** ﴾ قال : إلى سماء بيته السقف ﴿ **ثم ليقطع** ﴾ قال : ثم يختنق به حتى يموت. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره** ﴾ يقول : أن لن يرزقه الله ﴿ **فليمدد بسبب إلى السماء** ﴾ فليأخذ حبلا فليربطه فى سماء بيته فليختنق به ﴿ **فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ** ﴾ قال : فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾.

قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى بالله وبرسوله ، أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿ **والذين هادوا** ﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿ **والصابئين** ﴾ قوم يعبدون النجوم . وقيل : هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء. ﴿ **والنصارى** ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿ **والمجوس** ﴾ هم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن للعالم أصلين : النور والظلمة . وقيل : هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل : هم قوم يستعملون النجاسات . وقيل: هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح . وقيل : إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿ **والذين أشركوا** ﴾ الذين يعبدون الأصنام، وقد مضى تحقيق هذا فى البقرة ، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين ، وأخرهم عنهم هنا. فقيل : وجه تقديم النصارى هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديم الصابئين هنا أن زمنهم متقدّم على زمن النصارى ، وجملة : ﴿ **إن الله يفصل بينهم يوم القيامة** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر لإنّ المتقدّمة . ومعنى الفصل : أنه سبحانه يقضى بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة والكافرين منهم النار . وقيل الفصل هو أن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما ، وجملة : ﴿ **إن الله على كل شيء شهيد** ﴾ تعليل

لما قبلها ، أى أنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شيء منها . وأنكر الفراء أن تكون جملة ﴿ **إن الله يفصل بينهم** ﴾ خبرًا لإن المتقدّمة. وقال لا يجوز فى الكلام : إن زيداً إن أخاه منطلق ، وردّ الزجاج ما قاله الفراء، وأنكره وأنكر ما جعله مماثلا للآية ، ولا شك فى جواز قولك: إن زيدًا إن الخير عنده ،وإن زيدًا إنه منطلق ، ونحو ذلك .

﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية ، أى ألم تعلم . والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو : الانقياد الكامل ، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء ، أو عامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف ﴿ **الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب** ﴾ على من ، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من ، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعدًا فى العادة ، وارتفاع ﴿ **كثير من الناس** ﴾ بفعل مضمر يدل عليه المذكور ، أى ويسجد له كثير من الناس. وقيل: مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره : وكثير من الناس يستحق الثواب ، والأوّل أظهر . وإنما لم يرتفع بالعطف على من ، لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدّم هو : الانقياد ، فلو ارتفع بالعطف على من لكان فى ذلك جمع بين معنيين مختلفين فى لفظ واحد . وأنت خبير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه على العطف لا بأس به ، وإن أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه ، وأما قوله : ﴿ **وكثير حق عليه العذاب** ﴾ فقال الكسائى والفراء : إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده . وقيل : هو معطوف على كثير الأوّل ، ويكون المعنى : وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك . وقيل : المعنى : وكثير من الناس فى الجنة ، وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنبارى ﴿ **ومن يهن الله فماله من مكرم** ﴾ أى من أهانه اللّه بأن جعله كافرًا شقيا ، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيدا عزيزا . وحكى الأخفش والكسائى والفراء أن المعنى : ومن يهن الله فما له من مكرم ، أى إكرام ﴿ **إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما تقدّم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة .

﴿ **هذان خصمان** ﴾ الخصمان أحدهما : أنجس الفرق : اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر : المسلمون ، فهما فريقان مختصمان . قاله الفراء وغيره . وقيل : المراد بالخصمين : الجنة والنار . قالت الجنة: خلقنى لرحمته ، وقالت النار : خلقنى لعقوبته . وقيل : المراد بالخصمين : هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين : حمزة وعلىّ وعبيدة ، ومن الكافرين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . وقد كان أبو ذرّ رضى

الله عنه يقسم أن هذه الآية نزلت فى هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه فى الصحيح [١] ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة ، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول . وقد ثبت فى الصحيح أيضًا عن على أنه قال : فينا نزلت هذه الآية [٢] . وقرأ ابن كثير « هذان » بتشديد النون ، وقال سبحانه : ﴿ **اختصموا** ﴾ ولم يقل : اختصما . قال الفراء : لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، ومعنى ﴿ **فى ربهم** ﴾ فى شأن ربهم ، أى فى دينه ، أو فى ذاته ، أو فى صفاته ، أو فى شريعته لعباده ، أو فى جميع ذلك .

ثم فصل سبحانه ما أجمله فى قوله : ﴿ **يفصل بينهم** ﴾ فقال : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار** ﴾ قال الأزهرى : أى سوّيت وجعلت لبوسًا لهم ، شبهت النار بالثياب ؛ لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب . وعبر بالماضى عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه . وقيل: إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار ، وهى السرابيل المذكورة فى آية أخرى. وقيل : المعنى فى الآية : أحاطت النار بهم . وقرئ : « قطعت » بالتخفيف ، ثم قال سبحانه : ﴿ **يصب من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ والحميم هو : الماء الحار المغلى بنار جهنم ، والجملة مستأنفة أو هى خبر ثانٍ للموصول ﴿ **يصهر به ما فى بطونهم** ﴾ الصهر : الإذابة ، والصهارة : ما ذاب منه ، يقال : صهرت الشيء فانصهر ،أى أذبته فذاب فهو صهير، والمعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء ﴿ **والجلود** ﴾ معطوفة على ما ، أى ويصهر به الجلود والجملة فى محل نصب على الحال. وقيل : إن الجلود لا تذاب ، بل تحرق ، فيقدّر فعل يناسب ذلك ، ويقال : وتحرق به الجلود كما فى قول الشاعر :

علفتها تبنًا وماءً باردًا

أى وسقيتها ماء ، ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا ، فإن الحميم إذا كان يذيب ما فى البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى. ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾: المقامع جمع مقمعة ومقمع ، قمعته: ضربته بالمقمعة ، وهى قطعة من حديد . والمعنى : لهم مقامع من حديد يضربون بها ، أى للكفرة ، وسميت المقامع مقامع ؛ لأنها تقمع المضروب ، أى تذلله . قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عنى إقماعًا : إذا اطلع عليك فرددته عنك ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها** ﴾ أى من النار ﴿ **أعيدوا فيها** ﴾ أى فى النار بالضرب بالمقامع ، و ﴿ **من غم** ﴾ بدل من الضمير فى منها بإعادة الجارّ أو مفعول له ، أى لأجل غمّ شديد من غموم النار ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ هو بتقدير القول ، أى أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، أى العذاب المحرق ، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق ، تحرّق الشيء بالنار واحترق حرقة واحتراقًا ، والذوق مماسة يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به إدراك الألم . قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين . وقال فى الخصم الآخر وهم المؤمنون : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا**

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٤٣) .
(٢) المرجع السابق (٤٧٤٤) .

الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ فبين سبحانه حال المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين .

ثم بين اللّه سبحانه بعض ما أعدّه لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال : ﴿ **يحلون فيها**﴾ قرأ الجمهور ﴿ **يحلون** ﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرئ مخففًا ، أى يحليهم اللّه أو الملائكة بأمره . و « من » فى قوله :﴿ **من أساور** ﴾ للتبعيض، أى يحلون بعض أساور ، أو للبيان ، أو زائدة ، و « من » فى ﴿ **من ذهب** ﴾ للبيان ، والأساور : جمع أسورة والأسورة: جمع سوار. وفى السوار لغتان: كسر السين وضمها ،وفيه لغة ثالثة ،وهى «إسوار ». قرأ نافع وابن كثير وعاصم وشيبة ﴿ **ولؤلؤا** ﴾ بالنصب عطف على محل ﴿ **أساور** ﴾ أى ويحلون لؤلؤا ، أو بفعل مقدّر ينصبه،وهكذا قرأ بالنصب يعقوب والجحدرى وعيسى بن عمر ، وهذه القراءة هى الموافقة لرسم المصحف فإن هذا الحرف مكتوب فيه بالألف، وقرأ الباقون بالجرّ عطفًا على ﴿ **أساور** ﴾ أى يحلون من أساور ومن لؤلؤ ، واللؤلؤ : ما يستخرج من البحر من جوف الصدف . قال القشيرى : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب ﴿ **ولباسهم فيها حرير**﴾ أى جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذى كان محرّمًا عليهم فى الدنيا حلال لهم فى الآخرة ، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها ، ففيها ما تشتهيه الأنفس ، وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه وينال ما يريده .

﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ أى أرشدوا إليه ، قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : الحمد لله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من اللّه سبحانه من البشارات . وقد ورد فى القرآن ما يدلّ على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه:﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ [الزمر : ٧٤] ، ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ [فاطر : ٣٤] . ومعنى ﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ : أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط اللّه الذى هو دينه القويم ، وهو الإسلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**والصابئين** ﴾ قال : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون القبلة ، ويقرؤون الزبور ﴿ **والمجوس**﴾ عبدة الشمس والقمر والنيران،﴿ **والذين أشركوا** ﴾ عبدة الأوثان ﴿ **إن الله يفصل بينهم** ﴾ قال : الأديان ستة ؛ فخمسة للشيطان ، ودين للّه عزّ وجل . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال : فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذين هادوا: اليهود ، والصابئون : ليس لهم كتاب ، والمجوس : أصحاب الأصنام ، والمشركون : نصارى العرب .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ ، أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية : ﴿**هذان خصمان** ﴾ الآية نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر ، وهم حمزة بن عبد المطلب

وعبيدة بن الحارث وعليّ بن أبي طالب ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة [١] ، قال عليّ : وأنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي اللّه يوم القيامة . وأخرجه البخاري وغيره من حديث علي[٢] . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه، وهكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ **قطعت لهم ثياب من نار** ﴾ قال : من نحاس ، وليس من الآنية شيء إذا حمِي أشدّ حرًا منه ، وفي قوله : ﴿ **يصب من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ قال : النحاس يذاب على رؤوسهم ، وقوله : ﴿ **يصهر به ما في بطونهم** ﴾ قال : تسيل أمعاؤهم ﴿ **والجلود** ﴾ قال : تتناثر جلودهم . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وعبد اللّه بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبونعيم في الحلية ، وابن مردويه عن أبي هريرة ؛ أنه تلا هذه الآية : ﴿ **يصب من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ فقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان » [٣] . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **يصهر به مافي بطونهم** ﴾ قال : يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم . وفي قوله : ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾ قال : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل والثبور . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يسقون ماء إذا دخل في بطونهم أذابها والجلود مع البطون . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللّه ﷺ قال : « لو أن مقمعًا من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان» [٤] .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها** ﴾ . وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » [٥]. وفي الباب أحاديث [٦] .

---

(١) البخاري في التفسير (٤٧٤٣) ومسلم في التفسير (٣٠٣٣ / ٣٤) .

(٢) البخاري في التفسير (٤٧٤٤) .

(٣) الترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وابن جرير ١٧/ ١٠٠ وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٧، ووافقه الذهبيّ ، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨٢ .

(٤) أحمد ٣/ ٢٩ وأبو يعلى (١٣٨٨) وإسناده ضعيف ، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٩١ : « فيه ضعفاء قد وثقوا » وصححه الحاكم ٤/ ٦٠٠ وسكت عنه الذهبي .

(٥) البخاري في اللباس (٥٨٣٠) ومسلم في اللباس (٢٠٦٩/ ١١) وأحمد ١/ ٢٠ .

(٦) أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه ﷺ قال : «حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم ».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ قال : ألهموا. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هدوا إلى الطيب من القول في الخصومة إذ قالوا : اللّه مولانا ولا مولى لكم. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد في الآية قال : القرآن ﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ قال: الإسلام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحّاك في الآية قال : الإسلام . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، والحمد للّه الذي قال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [فاطر : ١٠] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾.

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله** ﴾ عطف المضارع على الماضي ؛ لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصدّ ، ومثل هذا قوله : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ [محمد : ١] ، أو المراد بالصدّ هاهنا: الاستمرار لا مجرّد الاستقبال ، فصح بذلك عطفه على الماضي ، ويجوز أن تكون الواو في : ﴿ **ويصدون** ﴾ واو الحال ، أي كفروا والحال أنهم يصدون. وقيل : الواو زائدة والمضارع خبر إن ،والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله: ﴿ **والباد** ﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا . وقال الزجاج : إن الخبر ﴿ **نذقه من عذاب أليم** ﴾ وردّ بأنه لو كان خبرًا لإن لم يجزم وأيضًا لو كان خبرًا لإن لبقي الشرط وهو ﴿ **ومن يرد** ﴾ بغير جواب ، فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا . والمراد بالصدّ : المنع وبسبيل اللّه : دينه ، أي يمنعون من أراد الدخول في دين اللّه و ﴿ **المسجد الحرام** ﴾ معطوف على ﴿ **سبيل الله** ﴾ قيل : المراد به : المسجد نفسه، كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني . وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول اللّه ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية . وقيل : المراد به : مكة بدليل قوله : ﴿ **الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد** ﴾ أي جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويًا فيه العاكف وهو المقيم فيه الملازم له ، والباد أي الواصل من البادية ، والمراد به : الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم . وانتصاب ﴿ **سواء** ﴾ على أنه المفعول الثاني لجعلناه ، وهو بمعنى مستويًا ، و ﴿ **العاكف** ﴾ مرتفع به ، ووصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادّين عنه ، ويحتمل أن يكون انتصاب ﴿ **سواء** ﴾ على

الحال . وهذا على قراءة النصب ، وبها قرأ حفص عن عاصم ، وهى قراءة الأعمش ، وقرأ الجمهور برفع ﴿ **سواء** ﴾ على أنه مبتدأ وخبره ﴿ **العاكف** ﴾ أوعلى أنه خبر مقدم ، والمبتدأ ﴿**العاكف**﴾ أى العاكف فيه والبادى سواء ، وقرئ بنصب ﴿ **سواء** ﴾ وجر﴿ **العاكف** ﴾على أنه صفة للناس ، أى جعلناه للناس، العاكف والبادى سواء ، وأثبت الياء فى البادى ابن كثير وصلا ووقفا ، وحذفها أبو عمرو فى الوقف ،وحذفها نافع فى الوصل والوقف. قال القرطبى : وأجمع الناس على الاستواء فى المسجد الحرام نفسه .

واختلفوا فى مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوى فيها المقيم والطارئ . وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى . وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها . والحاصل أن الكلام فى هذا راجع إلى أصلين :الأصل الأول : ما فى هذه الآية : هل المراد بالمسجد الحرام: المسجد نفسه . أو جميع الحرم ، أو مكة على الخصوص ؟ والثانى : هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبّى ﷺ فى يد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ؟ وقد أوضحنا هذا فى شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة .

﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ مفعول يرد ، محذوف لقصد التعميم ، والتقدير : ومن يرد فيه مرادًا، أىّ مراد بإلحاد ، أى بعدول عن القصد . والإلحاد فى اللغة: الميل ، إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم . وقد اختلف فى هذا الظلم ماذا هو ؟ فقيل : هو الشرك . وقيل : الشرك والقتل ، وقيل : صيد حيواناته وقطع أشجاره، وقيل : هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة ، وقيل : المراد : المعاصى فيه على العموم . وقيل : المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية فى ذلك المكان . وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحّاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا : لو هم الرجل فى الحرم بقتل رجل بعدن لعذّبه اللّه . والحاصل : أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذاً بمجرد الإرادة للظلم ، فهى مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ، إلا أن يقال : إن الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس ، وبالجملة فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الإشكال يطول جدّا ، ومثل هذه الآية حديث : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قيل : يا رسول اللّه ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال: « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» (١) فدخل النار هنا بسبب مجرّد حرصه على قتل صاحبه . وقد أفردنا هذا البحث برسالة مستقلة ، والباء فى قوله : ﴿ **بإلحاد** ﴾ إن كان مفعول ﴿ **يرد** ﴾ محذوفًا كما ذكرنا فليست بزائدة . وقيل : إنها زائدة هنا كقول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج   نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

---

(١) البخارى فى الإيمان (٣١) .

أى نرجو الفرج ، ومثله :

ألم يأتيـك والأنـباء تنمى ... بما لاقـت لبـون بنـى زياد

أى ما لاقت . ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش ؛ والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم . وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى : بأن يلحد ، والباء مع أن تدخل وتحذف ، ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس بإلحاد. وقيل : إن ﴿**يرد**﴾ مضمن معنى : يهمّ ، والمعنى : ومن يهمّ فيه بإلحاد . وأما الباء فى قوله : ﴿ **بظلم** ﴾ فهى للسببية والمعنى : ومن يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم ، ويجوز أن يكون ﴿ **بظلم** ﴾ بدلا من ﴿ **بإلحاد** ﴾ بإعادة الجارّ، ويجوز أن يكون حالين مترادفين .

﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت** ﴾ أى واذكر وقت ذلك ، يقال: بوأته منزلا وبوأت له، كما يقال: مكنتك ومكنت لك . قال الزجاج: معناه: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم ، ومعنى ﴿ **بوأنا** ﴾ : بينا له مكان البيت ، ومثله قول الشاعر :

كم من أخ لى ماجد ... بوأته بيدى لحدًا

وقال الفراء : إن اللام زائدة ومكان ظرف ، أى أنزلناه فيه ﴿ **ألا تشرك بى شيئا** ﴾ قيل : إن هذه هى مفسدة لبوأنا ، لتضمنه معنى : تعبدنا ؛ لأن التبوئة هى للعبادة . وقال أبو حاتم : هى مصدرية ، أى لأن لا تشرك بى. وقيل: هى المخففة من الثقيلة. وقيل هى زائدة . وقيل : معنى الآية : وأوحينا إليه أن لا تعبد غيرى . قال المبرد : كأنه قيل له : وحدنى فى هذا البيت ، لأنى معنى لا تشرك بى : وحدنى ﴿ **وطهر بيتى** ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان . وفى الآية طعن على ما أشرك من قطان البيت ، أى هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم ، فلم تفوا بل أشركتم . وقالت فرقة: الخطاب بقوله : ﴿ **ألا تشرك** ﴾ لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جدًا . ومعنى ﴿ **وطهر بيتى** ﴾: تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات ، وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهما والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت وقد مرّ فى سورة براءة ما فيه كفاية فى هذا المعنى . والمراد بالقائمين هنا هم : المصلون وذكر ﴿**الركع السجود**﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا فى البيت فالطواف عنده والصلاة إليه .

﴿ **وأذن فى الناس بالحج** ﴾ قرأ الحسن وابن محيصن : « وآذن » بتخفيف الذال والمد . وقرأ الباقون بتشديد الذال . والأذان :الإعلام ، وقد تقدّم فى براءة . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذّن فى الناس بالحج ، فقال : يارب ، من يبلغ صوتى ؟ فقال اللّه سبحانه : أذن وعلىّ البلاغ ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال ، فأدخل أصبعيه فى أذنيه ، وأقبل بوجهه يمينًا وشمالا وشرقًا وغربًا وقال : يأيها الناس ، كتب عليكم الحجّ إلى البيت فأجيبوا ربكم ، فأجابه من كان فى

أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك . وقيل : إن الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، والمعنى : أعلمهم يامحمد بوجوب الحجّ عليهم ،وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله : ﴿ **والركع السجود** ﴾ . وقيل : إن خطابه انقضى عند قوله ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت** ﴾ وأن قوله ﴿ **أن لا تشرك بى** ﴾ وما بعده خطاب لنبينا محمد ﷺ ، وقرأ الجمهور ﴿ **بالحج** ﴾ بفتح الحاء ، وقرأ ابن أبى إسحاق فى كلّ القرآن بكسرها ﴿ **يأتوك رجالا** ﴾ هذا جواب الأمر ، وعده اللّه إجابة الناس له إلى حجّ البيت ما بين راجل وراكب، فمعنى ﴿ **رجالا** ﴾ : مشاة ، جمع راجل . وقيل :جمع رجل. وقرأ ابن أبى إسحاق « رجالا » بضم الراء وتخفيف الجيم . وقرأ مجاهد : « رجالى » على وزن فعالى مثل كسالى . وقدّم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبهم فى المشى ، وقال : ﴿ **يأتوك** ﴾ وإن كانوا يأتون البيت ، لأن من أتى الكعبة حاجًا فقد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه ﴿ **وعلى كل ضامر** ﴾ عطف على ﴿ **رجالا** ﴾ أى وركبانا على كل بعير . والضامر : البعير المهزول الذى أتعبه السفر ، يقال : ضمر يضمر ضمورًا، ووصف الضامر بقوله : ﴿ **يأتين** ﴾ باعتبار المعنى ؛ لأن ضامر فى معنى ضوامر ، وقرأ أصحاب ابن مسعود وابن أبى عبلة والضحّاك « يأتون » على أنه صفة لـ ﴿ **رجالا** ﴾: والفجّ : الطريق الواسع ، الجمع فجاج ، والعميق : البعيد .

واللام فى ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **يأتوك** ﴾.وقيل :بقوله: ﴿ **وأذن** ﴾ والشهود : الحضور ، والمنافع هى تعمّ منافع الدنيا والآخرة . وقيل :المراد بها : المناسك . وقيل : المغفرة . وقيل : التجارة كما فى قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ [البقرة : ١٩٨] . ﴿ **ويذكروا اسم اللّه فى أيام معلومات** ﴾ أى يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم اللّه . وقيل : إن هذا الذكر كناية عن الذبح ؛ لأنه لا ينفك عنه . والأيام المعلومات هى : أيام النحر ، كما يفيد ذلك قوله: ﴿ **على ما رزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾. وقيل: عشر ذى الحجة . وقد تقدّم الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات فى البقرة فلا نعيده ، والكلام فى وقت ذبح الأضحية معروف فى كتب الفقه وشروح الحديث . ومعنى ﴿ **على ما رزقهم** ﴾ : على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وهى الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هى الأنعام ،فالإضافة فى هذا كالإضافة فى قولهم: مسجد الجامع وصلاة الأولى ﴿ **فكلوا منها**﴾ الأمر هنا للندب عند الجمهور ، وذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ **وأطعموا البائس الفقير** ﴾ البائس:ذو البؤس وهو شدة الفقر ، فذكر الفقير بعده؛ لمزيد الإيضاح . والأمر هنا للوجوب . وقيل : للندب .

﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ المراد بالقضاء هنا هو : التأدية ، أى ليؤدوا إزالة وسخهم ؛ لأن التفث هو : الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون ، كما حكاه النيسابورى ، على هذا . قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث . وقال أبو عبيدة : لم يأت فى الشرع ما يحتجّ به فى معنى التفث . وقال المبرّد : أصل التفث فى اللغة : كل قاذورة

تلحق الإنسان . وقيل : قضاؤه ادّهانه ؛ لأن الحاجّ مغبرّ شعث لم يدهن ولم يستحد ، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه ، فهذا هو قضاء التفث . قال الزجاج : كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال ﴿ **وليوفوا نذورهم** ﴾ أى ما ينذرون به من البرّ فى حجهم، والأمر للوجوب . وقيل : المراد بالنذور هنا أعمال الحج ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ هذا الطواف هو طواف الإفاضة . قال ابن جرير : لا خلاف فى ذلك بين المتأوّلين . والعتيق : القديم ، كما يفيده قوله سبحانه: ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] . وقد سمى العتيق لأن اللّه أعتقه من أن يتسلط عليه جبار. وقيل : لأن اللّه يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : لأنه أعتق من غرق الطوفان . وقيل : العتيق : الكريم .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ قال : الحرم كله ، وهو المسجد الحرام ﴿ **سواء العاكف فيه والباد** ﴾ قال : خلق اللّه فيه سواء . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم فى منازل مكة سواء ، فينبغى لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم . وقال : البادى وأهل مكة سواء ، يعنى فى المنزل والحرم . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد اللّه بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل فى بطونه نارًا . وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب أن رجلا قال له عند المروة : يا أمير المؤمنين ، أقطعنى مكانًا لى ولعقبى ، فأعرض عنه عمر وقال : هو حرم اللّه ، سواء العاكف فيه والبادِ . وأخرج ابن أبى شيبة عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبوابا حتى ينزل الحاجّ فى عرصات الدور . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ فى قول اللّه : ﴿ **سواء العاكف فيه والباد** ﴾ قال : «سواء المقيم والذى يدخل»(١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال : توفى رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ،من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن (٢) . رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبى حفرة عن عثمان بن أبى سليمان عن علقمة فذكره . وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعًا : «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارًا » (٣) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن راهويه وأحمد وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى

---

(١) الطبرانى (١٢٤٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٣ : « فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف » .

(٢) ابن ماجة فى المناسك (٣١٠٧) وفى الزوائد : « إسناده صحيح على شرط مسلم . وليس لعلقمة بن نضلة عن ابن ماجة سوى هذا الحديث وليس له شىء فى بقية الكتب ، وقال الدميرى : علقمة بن نضلة لا يصح له صحبة وليس له فى الكتب شىء سواه » .

(٣) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٣٠٠ .

وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود رفعه فى قوله : ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : « لو أن رجلا هم فيه بإلحاد وهو بعدن أبين لأذاقه اللّه عذابًا أليمًا » (١) . قال ابن كثير : هذا الإسناد صحيح على شرط البخارى ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه . وأخرج سعيد بن منصور والطبرانى عن ابن مسعود فى الآية قال : من همّ بخطيئة فلم يعملها فى سوى البيت ، لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت ؛ لم يمته اللّه من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى عبد اللّه بن أنيس: أن رسول اللّه ﷺ بعثه مع رجلين ، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا فى الأنساب ، فغضب عبد اللّه بن أنيس ، فقتل الأنصارى ، ثم ارتدّ عن الإسلام وهرب إلى مكة، فنزلت فيه : ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ يعنى : من لجأ إلى الحرم بإلحاد ، يعنى بميل عن الإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : بشرك . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول اللّه ﷺ قال : « احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه » . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى تاريخه ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : بيع الطعام بمكة إلحاد . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «احتكار الطعام بمكة إلحاد» (٢) .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عن علىّ قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر ، فلما قدم مكة رأى على رابية فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس ، فكلمه فقال : يا إبراهيم ، ابْنِ على ظلى أو على قدرى ولا تزد ولا تنقص ، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر ، وذلك حين يقول اللّه: ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء ﴿**والقائمين** ﴾ قال : المصلين عنده . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة معناه . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : ربّ ، قد فرغت ، فقال : ﴿ **أذن فى الناس بالحج** ﴾ قال : ربّ ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذن وعلىّ البلاغ ، قال :

---

(١) أحمد ١/ ٤٢٨ وأبو يعلى (٥٣٨٤) وابن جرير ١٧/ ١٠٤ والطبرانى (٩٠٧٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٧، ٣٨٨ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٣ : « رواه الطبرانى وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك » وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٤/ ٦٣٠ ثم ذكره ثم قال : « ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به ؛ قلت : هذا الإسناد صحيح على شرط البخارى » .

(٢) البيهقى فى الشعب (١١٢٢١) . ط . الكتب العلمية .

ربّ، كيف أقول ؟ قال : قل : يأيها الناس ، كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق . فسمعه من في السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيؤون من أقصى الأرض يلبون . وفى الباب آثار عن جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ قال: أسواقًا كانت لهم ، ما ذكر الله منافع إلا الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة ، فأما منافع الآخرة فرضوان الله ، وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات . وأخرج أبو بكر المروزى فى كتاب العيدين عنه أيضًا قال : الأيام المعلومات : أيام العشر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا قال : أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضًا فى الأيام المعلومات قال : قبل يوم التروية بيوم ، ويوم التروية ويوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا قال : البائس : الزمن .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : التفث : المناسك كلها . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونتف الإبط وحلق العانة والوقوف بعرفة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار وقصّ الأظفار وقصّ الشارب والذبح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ هو طواف الزيارة يوم النحر ، وورد فى وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا . وورد فى فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾.

محل ﴿ **ذلك** ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره

محذوف ، أو فى محل نصب بفعل محذوف ، أى افعلوا ذلك . والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحجّ ، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفى كلام واحد . والحرمات جمع حرمة . قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وهى فى هذه الآية ما نهى عنها، ومنع من الوقوع فيها . والظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحجّ وغيره كما يفيده اللفظ وإن كان السبب خاصا ، وتعظيمها ترك ملابستها ﴿ **فهو خير له** ﴾ أى فالتعظيم خير له ﴿ **عند ربه** ﴾ يعنى فى الآخرة من التهاون بشىء منها . وقيل إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناه الحقيقى ، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به ، فهى عدة بخير ﴿ **وأحلت لكم الأنعام** ﴾ وهى الإبل والبقر والغنم ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ﴾ أى فى الكتاب العزيز من المحرّمات ، وهى الميتة وما ذكر معها فى سورة المائدة . وقيل : فى قوله : ﴿ إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : ١] .

﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾ الرجس : القذر ، والوثن : التمثال ، وأصله من وثن الشىء ، أى أقام فى مقامه ، وسمى الصليب وثنًا ؛ لأنه ينصب ويركز فى مقامه ، فلا يبرح عنه . والمراد : اجتناب عبادة الأوثان ، وسماها رجسًا ؛ لأنها سبب الرجس وهو العذاب . وقيل : جعلها سبحانه رجسًا حكمًا ، والرجس : النجس وليست النجاسة وصفًا ذاتيًا لها ولكنها وصف شرعى ، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء . قال الزجاج : « من » هنا لتخليص جنس من أجناس ، أى فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن ﴿**واجتنبوا قول الزور** ﴾ الذى هو الباطل ، وسمى زورًا ؛ لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تزاور عن كهفهم ﴾ [الكهف : ١٧] . وقولهم : مدينة زوراء ، أى مائلة، والمراد هنا قول الزور على العموم ، وأعظمه الشرك بالله بأى لفظ كان . وقال الزجاج المراد بقول الزور ها هنا : تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ [النحل: ١١٦] . وقيل : المراد به : شهادة الزور.

وانتصاب ﴿ **حنفاء** ﴾ على الحال ، أى مستقيمين على الحق ، أو مائلين إلى الحق . ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل . وقيل : معناه : حجاجًا ، ولا وجه لهذا .﴿ **غير مشركين به** ﴾ هو حال كالأول ، أى غير مشركين به شيئًا من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم ، وجملة : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء** ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب . ومعنى خرّ من السماء : سقط إلى الأرض ، أى انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ **فتخطفه الطير** ﴾ يقال : خطفه : إذا سلبه ، ومنه قوله : ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . أى تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها . قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء ، وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما ﴿ **أو تهوى به الريح** ﴾ أى تقذفه وترمى به ﴿ **فى مكان سحيق** ﴾ أى بعيد ، يقال : سحق يسحق سحقًا فهو سحيق : إذا بعد . قال الزجاج : أعلم اللّه أن بعد من أشرك به من الحقّ ، كبعد ما خرّ من

السماء ، فتذهب به الطير أو هوت به الريح فى مكان بعيد.

﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله** ﴾ الكلام فى هذه الإشارة قد تقدّم قريبًا ، والشعائر :جمع الشعيرة ، وهى كل شىء فيه للّه تعالى شعار ، ومنه شعار القوم فى الحرب ، وهو علامتهم التى يتعارفون بها ، ومنه إشعار البدن ، وهو الطعن فى جانبها الأيمن ، فشعائر اللّه : أعلام دينه ، وتدخل الهدايا فى الحجّ دخولا أوليا ، والضمير فى قوله : ﴿ **فإنها من تقوى القلوب** ﴾ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف ، أى فإن تعظيمها من تقوى القلوب ، أى من أفعال القلوب التى هى من التقوى ، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى . ﴿ **لكم فيها منافع** ﴾ أى فى الشعائر على العموم ، أو على الخصوص ، وهى البدن كما يدل عليه السياق . ومن منافعها : الركوب والدّر والنسل والصوف وغير ذلك ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ وهو وقت نحرها ﴿ **ثم محلها إلى البيت العتيق** ﴾ أى حيث يحلّ نحرها ،والمعنى: أنها تنتهى إلى البيت وما يليه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية. وقيل : إن محلها ها هنا مأخوذ من إحلال الحرام ، والمعنى : أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفه ورمى الجمار والسعى تنتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت ، فالبيت على هذا مراد بنفسه .

﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا** ﴾ المنسك ها هنا المصدر من نسك ينسك : إذا ذبح القربان ، والذبيحة : نسيكة ، وجمعها نسك . وقال الأزهرى : إن المراد بالمنسك فى الآية : موضع النحر ، ويقال : منسك بكسر السين وفتحها لغتان ، قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصما وقرأ الباقون بالفتح . وقال الفرّاء : المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد فى خير أو شرّ ، وقال ابن عرفة: ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا** ﴾ أى مذهبًا من طاعة اللّه. وروى عن الفراء أن المنسك : العيد . وقيل : الحجّ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **ليذكروا اسم الله** ﴾ إلى آخره ، والأمة : الجماعة المجتمعة على مذهب واحد ، والمعنى:وجعلنا لكل أهل دين من الأديان ذبحًا يذبحونه، ودما يريقونه ، أو متعبدًا أو طاعة أوعيدا أو حجا يحجونه ، ليذكروا اسم اللّه وحده ، ويجعلوا نسكهم خاصًا به ﴿ **على مارزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾ أى على ذبح ما رزقهم منها . وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها . وفى الآية دليل على أن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم اللّه عليه . ثم أخبرهم سبحانه بتفرّده بالإلهية وأنه لا شريك له ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالإسلام له ، والانقياد لطاعته وعبادته ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر ، والفاء هنا كالفاء التى قبلها ، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر ﴿ **المخبتين** ﴾ من عباده ، أى المتواضعين الخاشعين المخلصين ، وهو مأخوذ من الخبيت، وهو المنخفض من الأرض ، والمعنى : بشرهم يا محمد بما أعدّ اللّه لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه . وقيل : إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم ، وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله: ﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته ، وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوّة

إيمانهم ، ووصفهم بالصبر ﴿ **على ما أصابهم** ﴾ من البلايا والمحن فى طاعة اللّه ثم وصفهم بإقامة ﴿ **الصلاة** ﴾ أى الإتيان بها فى أوقاتها على وجه الكمال . قرأ الجمهور . والمقيمى الصلاة بالجرّ على ما هو الظاهر ، وقرأ أبو عَمْرو بالنصب على توهم بقاء النون ، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر :

الحافظ عورة العشيرة

البيت . بنصب عورة . وقيل : لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو ، وقرأ ابن محيصن : «والمقيمين » بإثبات النون على الأصل ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود ، ثم وصفهم سبحانه بقوله : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى يتصدقون به وينفقونه فى وجوه البرّ ، ويضعونه فى مواضع الخير ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حرمات الله** ﴾ قال : الحرمة مكة والحجّ والعمرة وما نهى اللّه عنه من معاصيه كلها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾ يقول : اجتنبوا طاعة الشيطان فى عبادة الأوثان ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾ يعنى : الافتراء على اللّه والتكذيب به. وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أيمن بن خريم قال : قام رسول اللّه ﷺ خطيبًا فقال: « يأيها الناس ، عدلت شهادة الزور شركًا باللّه » ثلاثًا ، ثم قرأ : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ (١) ، قال أحمد : غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد . وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعًا من النبى ﷺ. وقد أخرجه أحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ،والبيهقى فى الشعب من حديث خريم (٢). وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بكرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثًا ، قلنا : بلى يارسول اللّه ، قال : «الإشراك باللّه ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئًا ، فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » ، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت (٣) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **حنفاء لله غير مشركين به** ﴾

---

(١) أحمد ٤/١٧٨ ، ٢٣٣ والترمذى فى الشهادات (٢٢٩٩) وقال « هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعًا من النبى ﷺ » وابن جرير ١٧/ ٢١٢ وفى المطبوعة : « أيمن بن حريم » بالمهملة والصحيح خريم بالمعجمة كما فى مراجع التخريج والمخطوطة .

(٢) أحمد ٤/ ١٧٨ ، ٢٣٣ وأبو داود فى الأقضية (٣٥٩٩) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٧٢) وابن جرير ١٧/ ١١٢ والطبرانى (٤١٦٢) والبيهقى فى الشعب (٤٥١٩) .

(٣) البخارى فى الشهادات (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٨٧/ ١٤٣) وأحمد ٥/ ٣٨.

قال : حجاجا لله غير مشركين به ، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الإسلام ، قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصدّيق نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن يعظم شعائر الله** ﴾ قال : البدن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**ومن يعظم شعائر الله**﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، وفى قوله : ﴿ **لكم فيها منافع إلى أجل مسمى** ﴾ قال : إلى أن تسمى بدنًا . وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه ، وفيه قال : ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، فى ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هديًا ، فإذا سميت هديًا ذهبت المنافع ﴿ **ثم محلها** ﴾ يقول : حين تسمى ﴿ **إلى البيت العتيق** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا** ﴾ قال : عيدًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : إهراق الدماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ذبحًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية قال : مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكًا غيرها . وقد وردت أحاديث فى الأضحية ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وبشر المخبتين**﴾ قال : المطمئنين . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى ذمّ الغضب ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن أوس قال : المخبتون فى الآية الذين لا يظلمون الناس ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾.

قرأ ابن أبى إسحاق : « والبدن » بضم الباء والدال ، وقرأ الباقون بإسكان الدال وهما لغتان ، وهذا الاسم خاص بالإبل . وسميت بدنة ؛ لأنها تبدن ، والبدانة : السمن . وقال أبوحنيفة ومالك : إنه يطلق على غير الإبل ، والأوّل أولى لما سيأتى من الأوصاف التى هى ظاهرة فى الإبل ، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل . وقال ابن كثير فى تفسيره : واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين : أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعًا كما صح فى الحديث ﴿**جعلناها لكم**﴾ وهى ما تقدّم بيانه قريبًا ﴿ **لكم فيها خير** ﴾

أى منافع دينية ودنيوية كما تقدّم ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها** ﴾ أى على نحرها ومعنى ﴿**صواف**﴾ أنها قائمة قد صفت قوائمها ،لأنها تنحر قائمة معقولة. وأصل هذا الوصف فى الخيل ، يقال : صفن الفرس فهو صافن : إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة . وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعرى : « صوافى » أى خوالص للّه لا تشركون به فى التسمية على نحرها أحدًا ، وواحد صوافّ صافة، وهى قراءة الجمهور . وواحد صوافى صافية ، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر ومحمد بن على : «صوافن » بالنون جمع صافنة . والصافنة هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : ٣١] ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيـل عاكفـة عليـه مقلدة أعنتـها صـفـونا

وقال الآخر :

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسير

﴿ **فإذا وجبت جنوبها** ﴾ الوجوب : السقوط ، أى فإذا سقطت بعد نحرها ، وذلك عند خروج روحها ﴿ **فكلوا منها** ﴾ ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب ﴿ **وأطعموا القانع والمعتر** ﴾ هذا الأمر قيل : هو للندب كالأوّل ، وبه قال مجاهد والنخعى وابن جرير وابن سريج . وقال الشافعى وجماعة : هو للوجوب .

واختلف فى القانع من هو ؟ فقيل : هو السائل ، يقال : قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها إذا سأل ، ومنه قول الشماخ :

لمـال المرء يصلـحه فيغـنى مفاقره ؛ أعفّ من القنوع

أى السؤال ، وقيل : هو المتعفف عن السؤال المستغنى ببلغة ، ذكر معناه الخليل . قال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة . وبالأوّل قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ، وروى عن ابن عباس . وبالثانى قال عكرمة وقتادة . وأما المعترّ ، فقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد وإبراهيم والكلبى والحسن: أنه الذى يتعرّض من غير سؤال . وقيل : هو الذى يعتريك ويسألك . وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع : الفقير ، والمعترّ : الزائر . وروى عن ابن عباس : أن كليهما الذى لا يسأل ، ولكن القانع الذى يرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعترّ الذى يتعرّض لك ولا يسألك . وقرأ الحسن : « والمعترى » ومعناه كمعنى المعترّ ومنه قول زهير :

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعراه : إذا تعرّض لما عنده أو طلبه ، ذكر النحاس ﴿ **كذلك سخرناها لكم** ﴾ أى مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم ، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع

نحرها فتنحرونها ، وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ هذه النعمة التى أنعم الله بها عليكم .

﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها** ﴾ أى لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التى تتصدّقون بها ولا دماؤها التى تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء ﴿ **ولكن يناله** ﴾ أى يبلغ إليه تقوى قلوبكم ، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه ، فإن ذلك هو الذى يقبله الله ويجازى عليه. وقيل : المراد : أصحاب اللحوم والدماء ، أى لن يرضى المضحون والمتقرّبون إلى ربهم باللحوم والدماء ، ولكن بالتقوى . قال الزجاج : أعلم اللّه أن الذى يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به ، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول ، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال : قد ناله ووصل إليه ، فخاطب الله الخلق كعادته فى مخاطبتهم ﴿ **كذلك سخرها لكم** ﴾ كرّر هذا للتذكير ، ومعنى ﴿ **لتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ هو قول الناحر : الله أكبر عند النحر ، فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها . وذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير . وقيل : المراد بالتكبير : وصفه سبحانه بما يدّل على الكبرياء ، ومعنى ﴿ **على ما هداكم** ﴾ : على ما أرشدكم إليه من عملكم بكيفية التقرّب بها ، « وما » مصدرية ، أو موصولة ﴿ **وبشر المحسنين** ﴾ قيل : المراد بهم : المخلصون . وقيل : الموحدون . والظاهر أن المراد بهم : كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : البدن : ذات الجوف . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : ليس البدن إلا من الإبل . وأخرجوا عن الحكم نحوه . وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرباحى عن أبيه قال : أوصى إلىّ رجل ، وأوصى ببدنة ، فأتيت ابن عباس فقلت له : إن رجلاً أوصى إلى وأوصى ببدنة، فهل تجزئ عنى بقرة ؟ قال : نعم ، ثم قال : ممن صاحبكم ؟ فقلت : من بنى رباح ، فقال : ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الإبل ؟ وهم صاحبكم ، إنما البقر لأسد وعبد القيس . وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى الأضاحى ، وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن أبى ظبيان قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صواف** ﴾ قال : إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ، ثم قل : بسم الله والله أكبر . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **صواف** ﴾ قال : قيامًا معقولة ، وفى الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قيامًا مقيدة سنة محمد ﷺ . وأخرج أبو

عبيدة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : في قراءة ابن مسعود: «صوافن» يعني : قيامًا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فإذا وجبت** ﴾ قال : سقطت على جنبها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : نحرت . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضًا قال : ﴿**القانع** ﴾ : المتعفف ﴿ **والمعتر** ﴾ : السائل . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : القانع الذي يقنع بما آتيته . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : القانع : الذي يقنع بما أوتي، والمعترّ : الذي يعترض . وأخرج عنه أيضًا قال : القانع الذي يجلس في بيته . وأخرج عبد بن حميد ، والبيهقي في سننه عنه ، أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : أما القانع : فالقانع بما أرسلت إليه في بيته ، والمعترّ : الذي يعتريك . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا قال : القانع : الذي يسأل ، والمعترّ : الذي يتعرض ، ولا يسأل . وقد روى عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوي ، لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله: ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها** ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

قرأ أبو عمرو وابن كثير : « يدفع » وقرأ الباقون : ﴿ **يدافع** ﴾ وصيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلي ، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى . وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلي كثيرًا مثل : عاقبت اللصّ ونحو ذلك ، وقد قدمنا تحقيقه . وقيل : إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة . وقيل للدلالة على تكرر الواقع . والمعنى : يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين . وقيل : يعلي حجتهم . وقيل : يوفقهم . والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من ربّ العالمين ، وأنه المتولي للمدافعة عنهم ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾ مقررة لمضمون الجملة الأولى ، فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بأنهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له . قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرّب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور ، وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على

على أنهم كذلك فى الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم ، أو كفر دون كفرهم .

﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ قرئ : « أذن » مبنيا للفاعل ومبنيًا للمفعول وكذلك «يقاتلون » ، قرئ مبنيًا للفاعل ومبنيا للمفعول ، وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال ، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم . قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألسنتهم وأيديهم ، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم : « اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر » فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة(١) ، وهى أول آية نزلت فى القتال . وهذه الآية مقرّرة أيضًا لمضمون قوله : ﴿ **إن الله يدافع** ﴾ فإن إباحة القتال لهم هى من جملة دفع الله عنهم ، والباء فى : ﴿ **بأنهم ظلموا** ﴾ للسببية ، أى بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد . ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين ، فقال : ﴿ **وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ وفيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضًا .

ثم وصف ولاء المؤمنين بقوله : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق** ﴾ ويجوز أن يكون بدلا من الذين يقاتلون ، أو فى محل نصب على المدح ، أو محل رفع بإضمار مبتدأ ، والمراد بالديار : مكة ﴿ **إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ قال سيبويه: هو استثناء منقطع ، أى لكن لقولهم : ربنا الله أى أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم : ربـنا الله . وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل ، والتقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا : ربنا الله ، فيكون مثل قوله سبحانه: ﴿ هل تنقمون (٢) منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة : ٥٩]. وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ **ولولا دفع الله الناس** ﴾ قرأ نافع : « ولولا دفاع » وقرأ الباقون : ﴿ **ولولا دفع** ﴾ والمعنى : لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك ، وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، ومعنى ﴿ **لهدمت** ﴾ : لـخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل . فالصوامع : هى صوامع الرهبان .وقيل : صوامع الصابئين . والبيع : جمع بيعة ، وهى كنيسة النصارى ، والصلوات : هى كنائس اليهود ، واسمها بالعبرانية صلوثا بالمثلثة فعربت ، والمساجد هى مساجد المسلمين . وقيل : المعنى : لولا هذا الدفع لهدّمت فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ،وفى زمن محمد المساجد . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وقيل : المعنى : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة. وقيل : لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار. وقيل غير ذلك . والصوامع : جمع صومعة ،

---

(١) القرطبى بمعناه ٧/ ٤٤٦٠ .

(٢) فى المخطوطة : « وما تنقمون » ، وقد سقط من المطبوعة لفظ الجلالة .

وهى بناء مرتفع، يقال : صمع الثريدة : إذا رفع رأسها ، ورجل أصمع القلب ، أى حاد الفطنة ، والأصمع من الرجال : الحديد القول . وقيل : الصغير الأذن. ثم استعمل فى المواضع التى يؤذن عليها فى الإسلام ، وقد ذكر ابن عطية فى ﴿ **صلوات** ﴾ تسع قراءات ، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء وأسبق وجودًا. والظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقى كما ذكره الزجاج وغيره . وقيل : المراد به المعنى المجازى ، وهو تعطلها من العبادة ، وقرئ : ﴿ **لهدمت** ﴾ بالتشديد ، وانتصاب ﴿**كثيرا**﴾ فى قوله : ﴿ **يذكر فيها اسم الله كثيرا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى ذكرًا كثيرًا ، أو وقتا كثيرًا ، والجملة صفة للمساجد . وقيل : لجميع المذكورات .

﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾ اللام هى جواب لقسم محذوف ، أى والله لينصر الله من ينصره ، والمراد بمن ينصر الله : من ينصر دينه وأولياءه . والقوىّ : القادر على الشىء ، والعزيز : الجليل الشريف قاله الزجاج . وقيل : الممتنع الذى لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ، والموصول فى قوله : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض** ﴾ فى موضع نصب صفة لمن فى قوله : ﴿**من ينصره** ﴾ قاله الزجاج . وقال غيره : هو فى موضع جرّ صفة لقوله : ﴿ **للذين يقاتلون**﴾. وقيل : المراد بهم : المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان . وقيل : أهل الصلوات الخمس . وقيل: ولاة العدل . وقيل غير ذلك ، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على من مكنه الله فى الأرض وأقدره على القيام بذلك ، وقد تقدّم تفسير الآية ، ومعنى ﴿ **ولله عاقبة الأمور** ﴾ : أن مرجعها إلى حكمه وتدبيره دون غيره .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن ماجة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما أخرج النبىّ ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا للّه وإنا إليه راجعون ، ليهلكن القوم ، فنزلت : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ الآية (١) . قال ابن عباس : وهى أوّل آية نزلت فى القتال . قال الترمذى : حسن ، وقد رواه غير واحد عن الثورى ، وليس فيه ابن عباس . انتهى . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم** ﴾ أى من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعنى محمدًا ﷺ وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية : ﴿**الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق** ﴾ والآية بعدها ،أخرجنا من ديارنا بغير حق ، ثم مكنا فى الأرض فأقمنا (٢) الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهى لى

(١) أحمد ٢١٦/١ والترمذى فى التفسير (١٣٧١) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٣٦٥) وإسناده صحيح ، وابن جرير ١٢٣/٧ وابن حبان (٤٦٩٠) والطبرانى (١٢٣٣٦) وصححه الحاكم ٦٦/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥٧٩/٢ .

(٢) فى المخطوطة : « ثم مكناهم فى أرض أقمنا الصلاة » ، والصحيح ما أثبتناه حتى يستقيم المعنى .

ولأصحابي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب محمد : ﴿ **ولولا دفع الله الناس** ﴾ الآية . قال : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدّمت صوامع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لهدمت صوامع** ﴾ الآية قال: الصوامع: التي تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود ، وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين. وأخرجا عنه قال: البيع: بيع النصارى ، وصلوات : كنائس اليهود . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض** ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ **أقاموا الصلاة** ﴾ قال : المكتوبة ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ قال: المفروضة ﴿ **وأمروا بالمعروف** ﴾ قال : بلا إله إلا الله ﴿ **ونهوا عن المنكر** ﴾ قال: عن الشرك بالله ﴿ **ولله عاقبة الأمور** ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا .

﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن يكذبوك** ﴾ إلخ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله . وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك ، وقد تقدم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم . وإنما غير النظم في قوله : ﴿ **وكذب موسى** ﴾ فجاء بالفعل مبنيًا للمفعول ؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما كذبه غيرهم من القبط ﴿ **فأمليت للكافرين** ﴾ أي أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب ﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ أي أخذت كلّ فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدّة الإمهال ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ هذا

الاستفهام للتقرير ، أى فانظر كيف كان إنكارى عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير : اسم من المنكر . قال الزجاج : أى ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار . قال الجوهرى : النكير والإنكار : تغيير المنكر .

ثم ذكر سبحانه كيف عذّب أهل القرى المكذبة فقال : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها** ﴾ أى أهلكنا أهلها ، وقد تقدّم الكلام على هذا التركيب فى آل عمران ، وقرئ : « أهلكتها » ، وجملة : ﴿ **وهى ظالمة** ﴾ حالية ، وجملة : ﴿ **فهى خاوية** ﴾ عطف على ﴿ **أهلكناها** ﴾ ، لا على ﴿ **ظالمة** ﴾ لأنها حالية ، والعذاب ليس فى حال الظلم ، والمراد بنسبة الظلم إليها نسبته إلى أهلها . والخواء : بمعنى السقوط فهى ساقطة ﴿ **على عروشها** ﴾ أى على سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدّمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى البقرة ﴿ **وبئر معطلة** ﴾ معطوف على قرية ، والمعنى: وكم من أهل قرية ، ومن أهل بئر معطلة ، هكذا قال الزجاج . وقال الفراء : إنه معطوف على عروشها . والمراد بالمعطلة : المتروكة . وقيل : الخالية عن أهلها لهلاكهم . وقيل الغائرة . وقيل : معطلة من الدلاء والأرشية . والقصر المشيد هو: المرفوع البنيان ، كذا قال قتادة والضحّاك ، يدلّ عليه قول عدّى ابن زيد :

شاده مرمرًا وجلله كلسا فللطير فى ذراه وكور

شاده : أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : المراد بالمشيد : المجصص ، مأخوذ من الشيد ، وهو الجص ، ومنه قول الراجز :

لا تحسبني وإن كنت امرأ غمرًا كحية الماء بين الطين والشيد

وقيل : المشيد : الحصين ، قاله الكلبىّ . قال الجوهرى : المشيد : المعمول بالشيد ، والشيد ، بالكسر : كلّ شىء طليت به الحائط من جصّ أو بلاط ، وبالفتح المصدر ، تقول : شاده يشيده جصصه ، والمشيد بالتشديد : المطوّل ، قال الكسائى : للواحد من قوله تعالى : ﴿فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] والمعنى المعنيّ كم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة ومعنى التعطيل فى القصر هو : أنه معطل من أهله ، أو من آلاته ، أو نحو ذلك . قال القرطبى فى تفسيره : ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال، والبئر فى سفحه لا تقرّ الريح شيئًا سقط فيها إلا أخرجته ، وأصحاب القصر ملوك الحضر ، وأصحاب البئر ملوك البدو . حكى الثعلبى وغيره : أن البئر كان بعدن من اليمن فى بلد يقال لها : حضوراء ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح ، فسمى المكان حضر موت ؛ لأن صالحًا لما حضره مات فبنوا حضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً ، ثم ذكر قصة طويلة ، وقال بعد ذلك : وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم ين فى الأرض مثله فيما ذكروا

وزعموا ، وحاله أيضًا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحدًا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عزيف الجنّ والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك ، وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه فى هذه الآية موعظة وعبرة . قال : وقيل : إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدّم فى سورة الأنبياء فى قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ [الأنبياء : ١١] . فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم . انتهى .

ثم أنكر سبحانه على أهل مكة اعتبارهم بهذه الآثار قائلا : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ حثا لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا ، فلهذا أنكر عليهم ، كما فى قوله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] . ومعنى ﴿ **فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾: أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل . كما أن الآذان محل السمع . وقيل : إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك ، فإن القلب هو الذى يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجًا عنه . وقد اختلف علماء المعقول فى محل العقل وماهيته اختلافًا كثيرًا لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿ **أو آذان يسمعون بها** ﴾ أى ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام الله ، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار** ﴾ قال الفراء : الهاء عماد يجوز أن يقال : فإنه ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ، أى فإن الأبصار لا تعمى ، أوفإن القصة لا تعمى الأبصار ، أى أبصار العيون ﴿ **ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ أى ليس الخلل فى مشاعرهم، وإنما هو فى عقولهم أى لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار . قال الفراء والزجاج : إن قوله: ﴿ **التى فى الصدور** ﴾ من التوكيد الذى تزيده العرب فى الكلام كقوله : ﴿عشرة كاملة ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [المائدة : ٤١] ، ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال : ﴿**ويستعجلونك بالعذاب** ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشدّ إنكار ، فاستعجالهم له ، هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عزّ وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال: ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ قال الفراء : فى هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة . وذكر الزجاج وجهًا آخر فقال : اعلم أن الله لا يفوته شىء، وإن يومًا عنده وألف سنة فى قدرته واحد ، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره فى القدرة ، إلا أن الله تفضل بالإمهال . انتهى . ومحل جملة : ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ النصب على الحال ، أى والحال أنه لا يخلف وعده أبدا ،

وقد سبق الوعد فلابد من مجيئه حتما ، أو هى اعتراضية مبينة لما قبلها ، وعلى الأول تكون جملة : ﴿ **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ مستأنفة ، وعلى الثانى تكون معطوفة على الجملة التى قبلها مسوقة لبيان حالهم فى الاستعجال ، وخطابهم فى ذلك ببيان كمال حلمه ، لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما فى قوله: ﴿ إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا﴾ [المعارج : ٦ ، ٧] . قال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة ، أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة كألف سنة . وقيل : المعنى : وإن يومًا من الخوف والشدّة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياسًا . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى : « مما يعدون » بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله :﴿ **ويستعجلونك** ﴾ وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختارها أبو حاتم .

﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير** ﴾ : هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قومًا بعد الإملاء والتأخير . قيل : وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد ،وليس بتكرار فى الحقيقة ؛ لأن الأول : سيق لبيان الإهلاك مناسبًا لقوله: ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ ولهذا عطف بالفاء بدلا عن ذلك ؛ والثانى : سيق لبيان الإملاء مناسبًا لقوله : ﴿ **ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة** ﴾ فكأنه قيل : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حينًا، ثم أخذتهم بالعذاب ، ومرجع الكل إلى حكمى . فجملة : ﴿ **وإلى المصير** ﴾ تذييل لتقرير ما قبلها .ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدى الساعة مبين لهم ما نزل إليهم ، فمن آمن وعمل صالحًا فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة ، ومن كان على خلاف ذلك فهو فى النار ، وهم ﴿ **الذين سعوا فى آياتنا معاجزين** ﴾ يقال : عاجزه : سابقه ، لأن كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش . وقيل : معنى ﴿ **معاجزين** ﴾ ظانين ومقدّرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج . وقيل : معاندين ، قاله الفرّاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **فهى خاوية على عروشها** ﴾ قال : خربة ليس فيها أحد ﴿ **وبئر معطلة** ﴾ : عطلها أهلها وتركوها ﴿ **وقصر مشيد** ﴾ قال : شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **وبئر معطلة** ﴾ قال : التى تركت لا أهل لها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ **وقصر مشيد** ﴾ قال : هو المجصص . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء نحوه . أيضًا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال فى الآية : هو يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، فقد مضى منها ستة آلاف . وأخرج

ابن عدّى والديلمى عن أنس مرفوعًا نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **معاجزين**﴾ قال : مراغمين . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : مشاقين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) ﴾.

قوله : ﴿ **من رسول ولا نبى** ﴾ قيل : الرسول : الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانًا ومحاورته شفاها ، والنبىّ : الذى تكون [نبوته] (١) إلهامًا أو منامًا . وقيل : الرسول : من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبىّ : من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل عليه كتاب ، ولا بدّ لهما جميعًا من المعجزة الظاهرة ﴿ **إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته**﴾ معنى تمنى : تشهى وهيأ فى نفسه ما يهواه . قال الواحدى : وقال المفسرون : معنى تمنى : تلا . قال جماعة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية : أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنى فى نفسه أن لا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالسًا فى ناد من أنديتهم وقد نزل عليه سورة : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] . وكان ذلك التمنى فى نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه : تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى . فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين والمشركين ، فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فأتاه جبريل فقال : ما صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفًا شديدًا، فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا (٢) .

ولم يصح شىء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال الله : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه

---

(١) اللفظ بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من القرطبى ٧/ ٤٤٧٢ ، وهو ما يستقيم به المعنى .
(٢) القرطبى ٧/ ٤٤٧٢ .

باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٦] وقوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : ٣] وقوله : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون . قال البزار : هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل . وقال البيهقى: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة . قال القاضى عياض فى الشفاء : إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه ، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطًا . قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح (١) .

وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : قرأ وتلا ، كما قدّمنا من حكاية الواحدى لذلك عن المفسرين . وكذا قال البغوى : إن أكثرالمفسرين قالوا معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : تلا وقرأ كتاب الله ، ومعنى ﴿ **ألقى الشيطان فى أمنيته** ﴾ أى فى تلاوته وقراءته . قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدّم فى تفسير قوله : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ [البقرة : ٧٨] . وقيل : معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : حدّث ، ومعنى ﴿ **ألقى الشيطان فى أمنيته**﴾ : فى حديثه ، وروى هذا عن ابن عباس . وقيل معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : قال . فحاصل معنى الآية : أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ، أى لا يهولنك ذلك ولا يحزنك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء،وعلى تقدير أن معنى ﴿ **تمنى**﴾: حدّث نفسه ، كما حكاه الفرّاء والكسائى ، فإنهما قالا : تمنى إذا حدّث نفسه ، فالمعنى : أنه إذا حدّث نفسه بشىء تكلم به الشيطان وألقاه فى مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه . قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة . وقد قيل فى تأويل الآية : إن المراد بالغرانيق : الملائكة ، ويردّ بقوله : ﴿**فينسخ الله ما يلقى الشيطان** ﴾ أى يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . وقيل : إن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهواً ونسيانًا وهما مجوّزان على الأنبياء ، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر فى مواطنه ، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان به فقال : ﴿ **فينسخ الله ما يلقى الشيطان** ﴾ أى يبطله ويجعله ذاهبًا غير ثابت ﴿**ثم يحكم الله آياته**﴾ أى يثبتها ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أو كثير العلم والحكمة فى كل أقواله وأفعاله.

---

(١) ابن كثير ٤ / ٦٥٥ .

وجملة : ﴿ **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة** ﴾ للتعليل ، أى ذلك الإلقاء الذى يلقيه الشيطان فتنة ، أى ضلالة ﴿ **للذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شكّ ونفاق ﴿ **والقاسية قلوبهم** ﴾ : هم المشركون ، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبدًا ولا ترجع إلى الصواب بحال ، ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين : وهما : من فى قلبه مرض ، ومن فى قلبه قسوة ، بأنهم ظالمون فقال : ﴿ **وإن الظالمين لفى شقاق بعيد** ﴾ أى عداوة شديدة ، ووصف الشقاق بالبعد مبالغة ، والموصوف به فى الحقيقة من قام به .

ولما بين سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة فى حقّ أهل النفاق والشكّ والشرك بين أنه فى حقّ المؤمنين العالمين باللّه العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حقّ وصدق فقال : ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك** ﴾ أى الحقّ النازل من عنده . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **أنه** ﴾ راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء ، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ، ولكنه يردّ هذا قوله : ﴿ **فيؤمنوا به** ﴾ فإن المراد : الإيمان بالقرآن ، أى يثبتوا على الإيمان به ﴿**فتخبت له قلوبهم** ﴾ أى تخشع وتسكن وتنقاد ، فإن الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿ **وإن الله لهاد الذين آمنوا** ﴾ فى أمور دينهم ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ أى طريق صحيح لا عوج به . وقرأ أبو حيوة : « وإن الله لهاد الذين آمنوا » بالتنوين .

﴿ **ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه** ﴾ أى فى شكّ من القرآن . وقيل : فى الدين الذى يدل عليه ذكر الصراط المستقيم . وقيل : فى إلقاء الشيطان ، فيقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك ؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى: « فى مرية » بضم الميم ﴿ **حتى تأتيهم الساعة** ﴾ أى القيامة ﴿ **بغتة** ﴾ أى فجأة ﴿ **أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** ﴾ وهو يوم القيامة ؛ لأنه لا يوم بعده ، فكان بهذا الاعتبار عقيمًا ، والعقيم فى اللغة : من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم ، وصف بالعقم . وقيل : يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر. وقيل : إن اليوم وصف بالعقم ، لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة ، فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [الذاريات: ٤١] أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر .

﴿ **الملك يومئذ لله** ﴾ أى السلطان القاهر والاستيلاء التامّ : يوم القيامة للّه سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ، وجملة : ﴿ **يحكم بينهم** ﴾ مستأنفة جوابًا عن سؤال مقدّر ، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه : ﴿ **فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم** ﴾ أى كائنون فيها مستقرّون فى أرضها منغمسون فى نعيمها ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ أى جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿ **فأولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أى عذاب متصف بأنه مهين للمعذبين بالغ منهم المبلغ العظيم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى فى المصاحف ، عن عمرو بن دينار قال : كان ابن

عباس يقرأ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث » . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله ، وزاد: فنسخت محدّث ، قال : والمحدّثون : صاحب يس و لقمان ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب موسى . وأخرج البزار والطبرانى وابن مردويه ، والضياء فى المختارة ، قال السيوطى : بسند رجاله ثقات ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ قرأ : « أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنّ لترتجى ». ففرح المشركون بذلك وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاءه جبريل فقال : اقرأ علىّ ما جئت به ، فقرأ : « أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى » ، فقال : ما أتيتك بهذا ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن سعيد بن جبير ، قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فذكر نحوه (٢) ، ولم يذكر ابن عباس . وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية والسدّى عن سعيد مرسلاً . ورواه عبد بن حميد عن السدّى عن أبى صالح مرسلاً . ورواه ابن أبى حاتم عن ابن شهاب مرسلا . وأخرج ابن جرير عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلاً أيضًا . والحاصل : أن جميع الروايات فى هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشىء منها . وقد أسلفنا عن الحفاظ فى أوّل هذا البحث ما فيه كفاية ، وفى الباب روايات من أحبّ الوقوف على جميعها فلينظرها فى الدّر المنثور للسيوطى ، ولا يأتى التطويل بذكرها هنا بفائدة ، فقد عرفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **حتى إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته** ﴾ يقول : إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : يعنى بالتمنى التلاوة والقراءة ، ألقى الشيطان فى أمنيته : فى تلاوته ﴿**فينسخ الله** ﴾ فينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبىّ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **إذا تمنى** ﴾ قال : تكلم ﴿ **فى أمنيته** ﴾ قال : كلامه. وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله:﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ قال : يوم بدر . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن ابى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ ، قال :يوم بدر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : يوم القيامة لا ليلة له . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله .

---

(١) الطبرانى (١٢٤٥٠) .

(٢) ابن جرير ١٧ / ١٣٣ .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾.

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصًا لهم بمزيد الشرف ، فقال : ﴿ **والذين هاجروا فى سبيل الله** ﴾ قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة . وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان فى سرية أوعسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكل من سبيل الله ﴿ **ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ أى فى حال المهاجرة ، واللام فى﴿ **ليرزقنهم الله رزقا حسنا** ﴾ جواب قسم محذوف ، والجملة خبر الموصول بتقدير القول ، وانتصاب ﴿**رزقًا** ﴾ على أنه مفعول ثان ، أى مرزوقًا حسنًا ، أو على أنه مصدر مؤكدة ، والرزق الحسن : هو نعيم الجنة الذى لا ينقطع . وقيل : هو الغنيمة لأنه حلال . وقيل : هو العلم والفهم كقول شعيب : ﴿ ورزقنى منه رزقا حسنا ﴾ [هود : ٨٨] . قرأ ابن عامر وأهل الشام : « ثم قتلوا » بالتشديد على التكثير ، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿**وإن الله لهو خير الرازقين** ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب، وكل رزق يجرى على يد العباد لبعضهم البعض ، فهو منه سبحانه ، لا رازق سواه ولا معطى غيره ، والجملة تذييل مقرّرة لما قبلها .

وجملة : ﴿ **ليدخلنهم مدخلا يرضونه** ﴾ مستأنفة ، أو بدل من جملة: ﴿ **ليرزقنهم الله** ﴾. قرأ أهل المدينة: «مدخلا » بفتح الميم ، وقرأ الباقون بضمها ، وهو اسم مكان أريد به الجنة ، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمى مؤكد للفعل المذكور ، وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة سبحان . وفى هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره ، فإن المدخل الذى يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم ، على أنهم يرون فى الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذى يرضونه وفوق الرضا ﴿**وإن الله لعليم** ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿ **حليم** ﴾ عن تفريط المفرطين منهم لا

يعاجلهم بالعقوبة.

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم . قال الزجاج أى الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ، ومعنى ﴿**ومن عاقب بمثل ما عوقب به** ﴾: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه . وسمى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقوله تعالى : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : ١٩٤] . والعقوبة فى الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه . والمراد بالمثلية : أنه اقتصر على المقدار الذى ظلم به ولم يزد عليه ، ومعنى ﴿ **ثم بغى عليه** ﴾ : أن الظالم له فى الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى . قيل: المراد بهذا البغى : هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به ، واللام فى ﴿ **ينصرنه الله** ﴾ جواب قسم محذوف ، أى لينصرن الله المبغىّ عليه على الباغى ﴿ **إن الله لعفوّ غفور** ﴾ أي كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب . وقيل : العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو. وقيل : إن معنى ﴿ **ثم بغى عليه** ﴾ أى ثم كان المجازى مبغيًا عليه، أى مظلومًا ، ومعنى ثم : تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل فى أمثال العرب : البادى أظلم . وقيل : إن هذه الآية مدنية ،وهى فى القصاص والجراحات .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار** ﴾ إلى ما تقدّم من نصر الله سبحانه للمبغىّ عليه ، وهو مبتدأ وخبره جملة : ﴿ **بأن الله يولج** ﴾ والباء للسببية ، أى ذلك بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وعبر عن الزيادة بالإيلاج ، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر ، والمراد تحصيل أحد العرضين فى محل الآخر . وقد مضى فى آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿ **وأن الله سميع** ﴾ يسمع كلّ مسموع ﴿**بصير** ﴾ يبصر كلّ مبصر ، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

والإشارة بقوله :﴿ **ذلك بأن الله هو الحق** ﴾ إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام، أى هو سبحانه ذو الحق ، دينه حقّ ، وعبادته حقّ ؛ ونصره لأوليائه على أعدائه حقّ ، ووعده حقّ ، فهو عزّ وجلّ فى نفسه وأفعاله وصفاته حقّ ﴿ **وأن ما تدعون من دونه هو الباطل** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة « تدعون » بالفوقية على الخطاب للمشركين ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة . والمعنى: إن الذين تدعونه إلهًا ، وهى الأصنام ، هو الباطل الذى لا ثبوت له ولا لكونه إلهًا ﴿ **وأن الله هو العلى** ﴾ أى العالى على كل شيء بقدرته المتقدّس على الأشباه والأنداد المتنزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿ **الكبير** ﴾ أى ذو الكبرياء ، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفرّده بالإلهية .

ثم ذكر سبحانه دليلا بينًا على كمال قدرته ، فقال : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ الاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على ﴿ **أنزل** ﴾ وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه . قال الخليل : المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا ، كما قال الشاعر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

معناه : قد سألته فنطق . قال الفراء : ﴿ **ألم تر** ﴾ خبر ، كما تقول فى الكلام : إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، أى ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة ، أى ذوات بقل وسباع ، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة ، وصيغة الاستقبال ، لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره ، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين ؛ لأنه لو نصب لا نعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفى الاخضرار ، والمقصود إثباته . قال ابن عطية : هذا لا يكون ، يعنى الاخضرار فى صباح ليلة المطر ، إلا بمكة وتهامة . والظاهر أن المراد بالإخضرار اخضرار الأرض فى نفسها لا باعتبار النبات فيها كما فى قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ [الحج: ٥] . والمراد بقوله : ﴿ **إن الله لطيف** ﴾ أنه يصل علمه إلى كل دقيق وجليل . وقيل : لطيف بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج النبات، ومعنى ﴿ **خبير** ﴾ أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم . وقيل: خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر . وقيل : خبير بحاجتهم وفاقتهم .

﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ خلقًا وملكًا وتصرّفًا وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿**وإن الله لهو الغنى** ﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿ **الحميد** ﴾ المستوجب للحمد فى كل حال . ﴿**ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض** ﴾ هذه نعمة أخرى ذكرها الله سبحانه ، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم ﴿ **والفلك** ﴾ عطف على ما ،أو على اسم أن، أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها فى البحر، وقرأ عبد الرحمن الأعرج: « والفلك » بالرفع على الابتداء وما بعده خبره ، وقرأ الباقون بالنصب . ومعنى ﴿**تجرى فى البحر بأمره** ﴾ أى بتقديره ، والجملة فى محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض** ﴾ أى كراهة أن تقع ، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك ، والجملة معطوفة على تجرى ﴿ **إلا بإذنه** ﴾ أى بإرادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة ﴿ **إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ أى كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيأ لهم أسباب المعاش ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه على عباده وإنعامًا عليهم .

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال : ﴿ **وهو الذى أحياكم** ﴾ بعد أن كنتم جمادًا ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ **ثم يحييكم** ﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿ **إن الإنسان**

لكفور ﴾ أى كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ، ولا ينافى هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ؛ لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسى : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من مات مرابطًا ، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ إلى قوله : ﴿**حليم** ﴾» . وإسناد ابن أبى حاتم هكذا : حدّثنا المسيب بن واضح . حدّثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن عبد الكريم بن الحرث عن أبى عقبة ،يعنى أبا عبيدة بن عقبة قال : قال شرحبيل ابن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمرّ بى سلمان : يعنى الفارسى قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن فضالة ابن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان برودس ، فمرّوا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى ، فمال الناس عن القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل فى سبيل الله ، فقال : والله ما أبالى من أىّ حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿**والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ الآية . وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدّثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر أخبرنى ضمام ؛ أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المغافرى يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ فذكره . قلت : ويؤيد هذا قول الله سبحانه : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ [النساء: ١٠٠] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله :﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به** ﴾ قال : إن النبىّ ﷺ بعث سرية فى ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين ، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام، وإن أصحاب محمد ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم ؛ فإنهم لا يستحلون القتال فى الشهر الحرام إلا من بادأهم ، وإن المشركين بدؤوا فقاتلوهم ، فاستحلّ الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم . وهو مرسل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله :﴿ **ومن عاقب**﴾ الآية. قال: تعاون المشركون على النبى ﷺ وأصحابه فأخرجوه، فوعده الله أن ينصره، وهو فى القصاص أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **وإن ما تدعون من دونه هو الباطل** ﴾ قال : الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: ﴿ **إن الإنسان لكفور** ﴾ قال : يعدّ المصيبات وينسى النعم .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصرى رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته فقال: ﴿ **لكل أمةجعلنا منسكا** ﴾ أى لكلّ قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى ، وجملة : ﴿ **هم ناسكوه** ﴾ صفة لـ ﴿ **منسكا** ﴾ والضمير لكل أمة ، أى تلك الأمة هى العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ، والإنجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ . والقرآن منسك المسلمين ، والمنسك : مصدر ، لا اسم مكان كما يدّل عليه : ﴿ **هم ناسكوه** ﴾ ولم يقل: ناسكون فيه . وقيل : المنسك : موضع أداء الطاعة . وقيل: هو : الذبائح ، ولا وجه للتخصيص ، ولا اعتبار بخصوص السبب ، والفاء فى قوله : ﴿ **فلا ينازعنك فى الأمر** ﴾ لترتيب النهى على ما قبله ، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم ، أى قد عينا لكل أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية ، وذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم اياه فى أمر الدين والنهى إما على حقيقته ، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له . قال الزجاج : إنه نهى له ﷺ عن منازعتهم ، أى لا تنازعهم أنت ؛ كما تقول لا يخاصمك فلان ، أى لا تخاصمه ، وكما تقول: لا يضاربنك فلان ، أى لا تضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضى العكس ضمنًا ، ولا يجوز : لا يضربنك فلان وأنت تريد : لا تضربه . وحكى عن الزجاج أنه قال فى معنى الآية : فلا ينازعنك ، أى فلا يجادلنك . قال: ودلّ على هذا ﴿ **وإن جادلوك** ﴾ وقرأ أبو مجلز: « فلا ينزعنك فى الأمر » أى لايستخفنك ولا يغلبنك على دينك . وقرأ الباقون : ﴿ **ينازعنك** ﴾ من المنازعة ﴿ **وادع إلى ربك** ﴾ أى وادع هؤلاء المنازعين ، أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿ **إنك لعلى هدى مستقيم** ﴾ أى طريق مستقيم لا اعوجاج فيه .

﴿ **وإن جادلوك** ﴾ أى وإن أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿ **فقل الله أعلم بما تعملون** ﴾ أى فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿ **الله يحكم بينكم** ﴾ أى بين المسلمين والكافرين ﴿ **يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل . وفى هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغى لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل . وقيل : إنها منسوخة بآية السيف .

وجملة : ﴿ ألم تعلم ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها . والاستفهام للتقرير ، أى قد علمت يامحمد وتيقنت ﴿ أن الله يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون ﴿ إن ذلك ﴾ الذى فى السماء والأرض من معلوماته ﴿ فى كتاب ﴾ أى مكتوب عنده فى أمّ الكتاب ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أى إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير ، أو إن إحاطة علمه بما فى السماء والأرض يسير عليه.

﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ﴾ هذا حكاية لبعض فضائحهم ، أى إنهم يعبدون أصنامًا لم يتمسكوا فى عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ من دليل عقل يدّل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية فى آل عمران ، وجملة: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ معطوفة على يعبدون ، وانتصاب ﴿ بينات ﴾على الحال ، أى حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿ تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ أى الأمر الذى ينكر ، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها ، أو المراد بالمنكر: الإنكار ، أى تعرف فى وجوههم إنكارها . وقيل : هو التجبر والترفع ، وجملة : ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل: ما ذلك المنكر الذى يعرف فى وجوههم ؟ فقيل : يكادون يسطون ، أى يبطشون ، والسطوة :شدة البطش ، يقال:سطا به يسطو إذا بطش به بضرب ، أو شتم ، أو أخذ باليد ، وأصل السطو: القهر .

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز ، أو من السنة الصحيحة مخالفًا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت فى وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين ، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع مالا يحيط به الوصف ،والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم ،المبينين للناس ما نزل إليهم ،وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم أمر رسوله أن يردّ عليهم . فقال : ﴿ قل أفأنبئكم ﴾ أى أخبركم ﴿ بشر من ذلكم ﴾ الذى فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم ، وهو النار التى أعدّها الله لكم ، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : ما هذا الأمر الذى هو شرّ مما نكابده ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا ؟ فقال : هو : ﴿النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقيل : إن ﴿ النار ﴾ مبتدأ وخبره جملة: ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقيل : المعنى : أفأخبركم بشرّ مما يلحق تالى القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم ؟ وقرئ « النار » بالنصب على تقدير : أعنى . وقرئ بالجرّ بدلا من شر ﴿وبئس المصير ﴾ أى الموضع الذى تصيرون إليه ، وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هم ناسكوه ﴾ قال : يعنى : هم ذابحوه ﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ يعنى : فى أمر الذبح . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة

نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه أيضًا. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ﴿ **فلا ينازعنك فى الأمر**﴾ قول أهل الشرك : أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلوه ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، قال: ما أكتب ؟ قال : علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله للنبى ﷺ :﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض** ﴾ يعنى : ما فى السموات السبع والأراضين السبع . ﴿ **إن ذلك** ﴾ العلم ﴿ **فى كتاب** ﴾ يعنى : فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأراضين ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ يعنى : هين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **يكادون يسطون** ﴾: يبطشون .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

قوله : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل ﴾ هذا متصل بقوله :﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ﴾[الحج : ٧١] قال الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى : ضربوا لى مثلاً ﴿**فاستمعوا** ﴾ قولهم ، يعنى : أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره ، فكأنه قال : جعلوا لى شبهًا فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه . وقال القتيبى : إن المعنى : يأيها الناس، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابًا ، وإن سلبها شيئًا لم تستطع أن تستنقذه منه . قال النحاس: المعنى :ضرب الله عزّ وجلّ لما يعبدونه من دونه مثلاً . قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه، أى بين الله لكم شبهًا ولمعبودكم . وأصل المثل : جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول ، مسيرة فى الناس مستغربة عندهم ، وجعلوا مضربها مثلا لموردها ، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها فى الغرابة كهذه القصة المذكورة ، فى هذه الآية . والمراد بما يدعونه من دون الله : الأصنام التى كانت حول الكعبة وغيرها . وقيل :

المراد بهم : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحلّ والعقد فيهم . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأوّل أوفق بالمقام وأظهر فى التمثيل ، والذباب : اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى ، وجمع القلة أذبة ، والكثرة ذبان مثل غراب وأغربة وغربان . وقال الجوهرى : الذباب معروف ، الواحد ذبابة . والمعنى : لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات ، وجملة: ﴿ **ولو اجتمعوا له** ﴾ معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة ، أى لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له ، والجواب محذوف والتقدير: لن يخلقوه ، وهما فى محل نصب على الحال ، أى لن يخلقوه على كلّ حال .

ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه** ﴾ أى إذا أخذ منهم الذباب شيئًا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والإنقاذ : التخلص ، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه عليهم ؛ فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرمًا وأشدّ منه قوّة؛ أعجز وأضعف ، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب ، فقال : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه ، والمطلوب : الذباب . وقيل : الطالب : عابد الصنم ، والمطلوب : الصنم. وقيل : الطالب : الذباب ، والمطلوب : الآلهة .

ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون آلله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية فى العجز، ما عرفوا الله حقّ معرفته فقال: ﴿ **ما قدروا الله حق قدره** ﴾ أى ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد تقدّم فى الأنعام ﴿ **إن الله لقوى** ﴾ على خلق كل شىء ﴿ **عزيز** ﴾ غالب لا يغلبه أحد ، بخلاف آلهة المشركين ، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضرّ ولا تقدر على شىء .

ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه فى النبوّات والإلهيات فقال : ﴿ **الله يصطفى من الملائكة رسلا** ﴾ كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل ، ويصطفى أيضًا رسلا﴿ **من الناس** ﴾ وهم الأنبياء ، فيرسل الملك إلى النبى ، والنبىّ إلى الناس ، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أو لتحصيل ما ينفعهم (١) أو لإنزال العذاب عليهم ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لأقوال عباده ﴿ **بصير** ﴾ بمن يختاره من خلقه ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أى ما قدّموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشرّ كقوله تعالى : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ [يس : ١٢] . ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ لا إلى غيره.

ولما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه ، الزجر لعباده عن معاصيه ، والحضّ لهم على طاعاته ؛ صرح بالمقصود فقال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا** ﴾ أى صلوا الصلاة

---

(١) فى المخطوطة : « ينفعكم » ، والصحيح ما أثبتناه بضمير الغائب ليستقيم المعنى .

التى شرعها الله لكم ، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات ، ثم عمم فقال : ﴿ **واعبدوا ربكم** ﴾ أى افعلوا جميع أنواع العبادة التى أمركم الله بها ﴿ **وافعلوا الخير** ﴾ أى ما هو خير ، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة . وقيل : المراد بالخير هنا : المندوبات . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح . وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعى ومن وافقه ، لا عند أبى حنيفة ومن قال بقوله ، وقد تقدّم أن هذه السورة فضلت بسجدتين ، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية .

ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله ، فقال : ﴿ **وجاهدوا فى الله** ﴾ أى فى ذاته ومن أجله ، والمراد به الجهاد الأكبر ، وهو الغزو للكفار ومدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين . وقيل : المراد بالجهاد هنا : امتثال ما أمرهم الله به فى الآية المتقدّمة ، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم ، ومعنى ﴿ **حق جهاده** ﴾ : المبالغة فى الأمر بهذا الجهاد ؛ لأنه أضاف الحق إلى الجهاد ، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق ، أى جهادًا خالصًا لله ، فعكس ذلك لقصد المبالغة ، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعًا ، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله . وقيل : المراد ﴿ **بحق جهاده** ﴾ : هو أن لا تخافوا فى الله لومة لائم . وقيل : المراد به استفراغ ما فى وسعهم فى إحياء دين الله . وقال مقاتل والكلبى : إن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : ١٠٢] منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ . ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله : ﴿ **هو اجتباكم** ﴾ أى اختاركم لدينه ، وفيه تشريف لهم عظيم . ثم لما كان فى التكليف مشقة على النفس فى بعض الحالات قال : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ أى من ضيق وشدّة .

وقد اختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه الله ، فقيل : هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين. وقيل : المراد : قصر الصلاة ، والإفطار للمسافر ، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره ، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ فى تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة ، وكذا فى الفطر والأضحى . وقيل : المعنى : أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجًا بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التى فيها حرج ، فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بنى إسرائيل . وقيل : المراد بذلك : أنه جعل لهم من الذنب مخرجًا بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش ، أوالقصاص فى الجنايات ، وردّ المال أو مثله أو قيمته فى الغصب ونحوه . والظاهر أن الآية أعمّ من هذا كله فقد حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده : إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه ،أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذى شرعه الله، وما أنفع هذه الآية وأجلّ موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله ما

استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وقوله : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وفى الحديث الصحيح أنه سبحانه قال :« قد فعلت» كما سبق بيانه فى تفسير هذه الآية ، والأحاديث فى هذا كثيرة .

وانتصاب ملة فى ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ على المصدرية بفعل دلّ عليه ما قبله أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم . وقال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم . وقال الفراء : انتصب على تقدير حذف الكاف ، أى كملة. وقيل : التقدير : وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم ، فأقام الملة مقام الفعل. وقيل: على الإغراء . وقيل : على الاختصاص ، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنبيهم ﷺ : ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾ أى فى الكتب المتقدّمة ﴿ **وفى هذا** ﴾ أى القرآن ، والضمير لله سبحانه . وقيل : راجع إلى إبراهيم . والمعنى : هو ، أى إبراهيم، سماكم المسلمين من قبل النبى ﷺ ، وفى هذا ، أى فى حكمه ، أن من اتبع محمدًا فهو مسلم . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة . ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ **ليكون الرسول شهيدا عليكم** ﴾ أى بتبليغه إليكم ﴿**وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال : ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما ﴿ **واعتصموا بالله** ﴾ أى اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون ، والتجؤوا إليه فى جميع أموركم ، ولا تطلبوا ذلك إلا منه ﴿ **هو مولاكم** ﴾ أى ناصركم ومتولى أموركم دقيقها وجليلها ﴿ **فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ أى لا مماثل له فى الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **اعتصموا بالله** ﴾ : تمسكوا بدين الله . وقيل : ثقوا به تعالى .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يأيها الناس ضرب مثل** ﴾ قال : نزلت فى صنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ قال : الطالب آلهتهم ، والمطلوب الذباب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لا يستنقذوه منه** ﴾ قال : لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذباب. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة»(١) . وأخرج أيضًا عن أنس وصححه أن النبىّ ﷺ قال : « موسى بن عمران صفى الله » (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لى عمر : ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ : وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوّله ؟ قلت بلى : فمتى

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٥ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٦ على شرط مسلم ولم يذكره الذهبى .

هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء ، وبنو المغيرة الوزراء . أخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره . وأخرج الترمذى وصححه وابن حبان وابن مردويه والعسكرى فى الأمثال عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله » [1] . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ قال : الضيق[2] . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد قال : قال أبو هريرة لابن عباس : أما علينا فى الدين من حرج فى أن نسرق أو نزنى ؟ قال : بلى ، قال : فما جعل عليكم فى الدين من حرج ، قال : الإصر الذى كان على بنى إسرائيل وضع عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول : وما جعل عليكم فى الدين من حرج توسعة الإسلام ، ما جعل الله من التوبة والكفارات . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس : ﴿ **ما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ قال : هذا فى هلال رمضان إذا شكّ فيه الناس ، وفى الحج إذا شكوا فى الأضحى ، وفى الفطر وأشباهه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ادع لى رجلاً من هذيل ، فجاءه فقال : مما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر التى ليس فيها مخرج ، فقال ابن عباس : الذى ليس له مخرج . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه من طريق عبيد الله بن أبى يزيد ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ها هنا أحد من هذيل ؟ قال رجل: أنا ، فقال : ما تعدّون الحرجة فيكم ؟ قال : الشىء الضيق ، قال : هو ذاك . وأخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال : قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ ثم قال لى : ادع لى رجلا من بنى مدلج ، قال عمر : ما الحرج فيكم ؟ قال: الضيق .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله :﴿ **ملة أبيكم** ﴾ قال : دين أبيكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سماكم المسلمين من قبل** ﴾ قال الله عزّ وجلّ : سماكم . وروى نحوه عن جماعة من التابعين . وأخرج الطيالسى وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وصححه ، والنسائى وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والبغوى والباوردى وابن قانع والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب

---

(١) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٢١) وقال : « وحديث فضالة حديث حسن صحيح » وابن حبان فى الجهاد (٤٦٨٦) .

(٢) ابن جرير ١٧/ ١٤٣ والحاكم ٢/ ٣٩١ وقال : « صحيح الإسناد » ، وقال الذهبى : « بل الحكم تركوه ، من أهل أيلة » .

الإيمان عن الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثى جهنم » ، قال رجل : يارسول الله ، وإن صام وصلى : قال : « نعم ، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله» (١).

(١) الطيالسى (١١٦٢) وأحمد ٤/ ١٣٠ والترمذى فى الأمثال (٢٨٦٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٣٦٩) وأبو يعلى (١٥٧١) وابن خزيمة (١٨٩٥) والطبرانى (٣٤٣٠ ، ٣٤٣١) وصححه الحاكم ١/ ٤٢١ ، ٤٢٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٤٩٤) ط . الكتب العلمية .

تفسير سورة « المؤمنون »

هى مكية بلا خلاف . قال القرطبى : كلها مكية فى قول الجميع ، وآياتها مائة وتسع عشرة آية . وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال : صلى النبى ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين ، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع (١) . وأخرج البيهقى من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » (٢) . وأخرجه أيضاً ابن عدى والحاكم (٣) . وأخرج الطبرانى فى السنة وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله (٤) . وقد ورد فى فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتى قريباً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾.

قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال الفراء : « قد » ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضى من الحال ؛ لأن قد تقرّب الماضى من الحال حتى تلحقه بحكمه ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيامها ، ويكون المعنى فى الآية: وأن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه فى الحال . والفلاح : الظفر بالمراد ، والنجاة من المكروه . وقيل : البقاء فى الخير ، وأفلح إذا دخل فى الفلاح ، ويقال : أفلحه : إذا أصاره إلى الفلاح ، وقد تقدّم بيان معنى الفلاح فى أوّل البقرة . وقرأ طلحة بن مصرف: « قد أفلح » بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول. وروى عنه أنه قرأ :« أفلحوا المؤمنون» على الإبهام والتفسير، أو على لغة أكلونى البراغيث .

---

(١) أحمد ٤ / ٤١١ ومسلم فى الصلاة (١٦٣/٤٥٥) وأبو داود فى الصلاة (٦٤٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٢٠) وليس الحديث فى الترمذى .

(٢) عزاه ابن كثير ٥ / ٧ لابن أبى الدنيا .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ وقال الذهبى : « ضعيف » .

(٤) قال ابن كثير ٥ / ٦ : « رواه أبو القاسم الطبرانى عن بقية ، وهو ضعيف » .

ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ وما عطف عليه . والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو فى اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل ، وقد اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ؟ على قولين : قيل : الصحيح الأول ، وقيل : الثانى . وادّعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته ، حكاه النيسابورى فى تفسيره . قال : ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [محمد : ٢٤] . والتدبر لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ [طه:١٤] . والغفلة تضادّ الذكر ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ [الأعراف:٢٠٥] . وقوله : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء:٤٣] نهى للسكران والمستغرق فى هموم الدنيا بمنزلته . واللغو ، قال الزجاج: هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل ، وقد تقدّم تفسيره فى البقرة . قال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك ، وقال الحسن : إنه المعاصى كلها . ومعنى إعراضهم عنه : تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو فى كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة فى ذلك دخولا أوّلياً كما تفيده الجملة الاسمية ، وبناء الحكم على الضمير. ومعنى فعلهم للزكاة : تأديتهم لها ، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل ، والمراد بالزكاة هنا : المصدر ؛ لأنه الصادر عن الفاعل ، وقيل : يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف ، أى والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون .

﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ : الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، ومعنى حفظهم لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحلّ لهم . وقيل : المراد هنا : الرجال خاصة دون النساء ، بدليل قوله : ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم**﴾ للإجماع على أنه لا يحلّ للمرأة أن يطأها من تملكه . قال الفراء : إن « على » فى قوله : ﴿ **إلا على أزواجهم** ﴾ بمعنى «من » . وقال الزجاج : المعنى : أنهم يلامون فى إطلاق ما حظر عليهم فأمروا بحفظه إلا على أزواجهم ودلّ على المحذوف ذكر اللوم فى آخر الآية . والجملة فى محل نصب على الحال. وقيل : إن الاستثناء من نفى الإرسال المفهوم من الحفظ ، أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم . وقيل : المعنى : إلا والين على أزواجهم وقوّامين عليهم ومن قولهم : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان . والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال إلا فى حال تزوّجهم أو تسرّيهم ، وجملة : ﴿ **أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ فى محل جرّ عطفاً على أزواجهم ، و« ما » مصدرية . والمراد بذلك : الإماء . وعبر عنهن بـ « ما » التى لغير العقلاء ؛ ولأنه اجتمع فيهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهنّ كسائر السلع ، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، وجملة : ﴿ **فإنهم غير ملومين** ﴾ تعليل لما تقدّم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه .

﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين . ومعنى العادون : المجاوزون إلى ما لا يحل لهم ، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحلّ عادياً . ووراء هنا بمعنى : سوى ، وهو مفعول ابتغى . قال الزجاج : أى فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف . و ﴿ وراء ﴾ ظرف . وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة ، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر ، وقد جمعنا فى ذلك رسالة سميناها « بلوغ المنى فى حكم الاستمنا » ، وذكرنا فيها أدلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما .

﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لأماناتهم** ﴾ بالجمع . وقرأ ابن كثير بالإفراد . والأمانة : ما يؤتمنون عليه . والعهد : ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده ، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا ، والأمانة أعمّ من العهد ، فكل عهد أمانة ، ومعنى ﴿ **راعون** ﴾ : حافظون . ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **صلواتهم** ﴾ بالجمع . وقرأ حمزة والكسائى : «صلاتهم» بالإفراد ، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو فى معنى الجمع . والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها فى أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها .

ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال : ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾ أى الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم . ثم بين الموروث بقوله : ﴿ **الذين يرثون الفردوس** ﴾ وهو أوسط الجنة ، كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ . والمعنى : أن من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهو الوارث الذى يرث من الجنة ذلك المكان ، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم . وقيل: المعنى : أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم ؛ لأنه سبحانه خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار . ولفظ الفردوس لغة رومية معرّبة . وقيل : فارسية. وقيل : حبشية . وقيل : عربية ، وجملة : ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ فى محل نصب على الحال المقدّرة ، أو مستأنفة لا محل لها ، ومعنى الخلود : أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، وتأنيث الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة .

وقد أخرج عبد الرازق وأحمد وعبد بن حميد والترمذى والنسائى وابن المنذر والعقيلى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوىّ النحل ، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة ، فسرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارضنا وارض عنا » ، ثم قال : « لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة » ، ثم قرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر (١) .

---

(١) عبد الرزاق (٦٠٣٨) وأحمد ١ / ٣٤ والترمذى فى التفسير (٣١٧٣) والنسائى فى الكبرى فى الوتر (١٤٣٩)=

وفى إسناده يونس بن سليم الصنعانى [١] . قال النسائى : لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، والنسائى وابن المنذر، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنين ؟ اقرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى بلغ العشر ، فقالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ [٢] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، والبيهقى فى سننه عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ [٣] . وأخرجه عبد الرزاق عنه[٤] ، وزاد : فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده . وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد ، وأبو داود فى المراسيل ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن بلفظ : كان إذا قام فى الصلاة نظر هكذا وهكذا ، يميناً وشمالاً، فنزلت : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ فحنى رأسه [٥] . وروى عنه من طرق مرسلا هكذا . وأخرجه الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عنه عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ فطأطأ رأسه [٦] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن سيرين بلفظ : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء فى الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون**﴾ فمالوا برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً [٧] . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن علىّ ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿**الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وألا تلتفت فى صلاتك. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : خائفون ساكنون . وقد ورد فى مشروعية الخشوع فى

= وقال : « هذا حديث منكر » وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ ، وقال الذهبى : « سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا فقال : أظنه لا شىء » .

(١) فى المخطوطة : « يونس بن سليم الإيلى » والتصحيح من تهذيب التهذيب ٤٣٩/١١ ، ٤٤٠ .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٧٠) وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ١٨ / ٣ والبيهقى ٢ / ٢٨٣ .

(٤) عبد الرزاق (٣٢٦١) .

(٥) أبو داود فى المراسيل (٤٥) والبيهقى ٢ / ٢٨٣ .

(٦) صححه الحاكم ٢ / ٣٩٣ على شرط الشيخين وقال : « لولا خلاف فيه على محمد . فقد قيل عنه مرسل » وقال الذهبى : « الصحيح مرسل » والبيهقى ٢ / ٢٨٣ .

(٧) ابن جرير ١٨ / ٣ .

الصلاة والنهى عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة فى كتب الحديث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ قال : الباطل . وأخرج عبد الرزاق ، وأبو داود فى ناسخه عن القاسم بن محمد ؛ أنه سئل عن المتعة فقال : إنى لأرى تحريمها فى القرآن ، ثم تلا : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ [المعارج:٢٣] ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قال : ذلك على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على تركها ، قال : تركها كفر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة فى قوله: ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾ قال : يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التى أعدت لهم لو أطاعوا الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾ »(١) . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذى وقال : حسن صحيح غريب عن أنس ، فذكر قصة ، وفيها : أن النبى ﷺ قال : « الفردوس ربوة الجنة ، وأوسطها وأفضلها »(٢) ، ويدلّ على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ [مريم:٦٣] وقوله : ﴿ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف:٤٣] ويشهد لحديث أبى هريرة هذا ما فى صحيح مسلم عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: « يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى »(٣) . وفى لفظ له : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانيا ، فيقول هذا فكاكك من النار »(٤) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ

---

(١) ابن ماجة فى الزهد (٤٣٤١) وابن جرير ١٨ / ٥ .
(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٧٤) .
(٣) مسلم فى التوبة (٢٧٦٧ / ٥١) .
(٤) مسلم فى التوبة (٢٧٦٧ / ٤٩) .

وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

لما حثّ سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها ، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك فى نفوس المكلفين فقال : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ إلى آخره ، واللام جواب قسم محذوف ، والجملة مبتدأة ، وقيل : معطوفة على ما قبلها ، والمراد بالإنسان : الجنس ؛ لأنهم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم ، وقيل : المراد به آدم . والسلالة فعالة من السلّ ، وهو استخراج الشىء من الشىء ، يقال : سللت الشعرة من العجين ، والسيف من الغمد فانسلّ ، فالنطفة سلالة ، والولد سليل ، وسلالة أيضاً ، ومنه قول الشاعر :

فجاءت به عضب الأديم غضنفرا ... سلالة فرج كان غير حصين

وقول الآخر :

وهل هند إلا مهرة عربية ... سلالة أفراس تجللها بغل

و « من » فى : ﴿ **من سلالة** ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ **خلقنا** ﴾ وفى : ﴿ **من طين** ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف ، وقع صفة لسلالة ، أى كائنة من طين ، والمعنى : أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أوّلا من طين ؛ لأن الأصل آدم ، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومنىّ ، وقيل: السلالة : الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعه فالذى يخرج مضاف إن أريد بالإنسان آدم ﴿**نطفة** ﴾ وقد تقدم تفسير النطفة فى سورة الحج . وكذلك تفسير العلقة والمضغة . والمراد بالقرار المكين : الرّحم . وعبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة ، ومعنى ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة** ﴾ أى أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿ **فخلقنا العلقة مضغة** ﴾ أى قطعة لحم غير مخلقة ﴿ **فخلقنا المضغة عظاما** ﴾ أى جعلها الله سبحانه متصلبة لتكون عمودًا للبدن على أشكال مخصوصة ﴿ **فكسونا العظام لحما** ﴾ أى أنبتَ الله سبحانه على كل عظم لحمًا على مقدار الذى يليق به ويناسبه ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ أى نفخنا فيه الروح بعد أن كان جمادًا. وقيل: أخرجناه إلى الدنيا . وقيل : هو نبات الشعر . وقيل : خروج الأسنان . وقيل : تكميل القوى المخلوقة فيه ، ولا مانع من إرادة الجميع ، والمجىء بـ « ثم » لكمال التفاوت بين الخلقين ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ أى استحق التعظيم والثناء . وقيل : مأخوذ من البركة ، أى كثر خيره وبركته . والخلق فى اللغة : التقدير ، يقال : خلقت الأديم : إذا قسته لتقطع منه شيئًا، فمعنى ﴿ **أحسن الخالقين** ﴾ : أتقن الصانعين المقدّرين ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبـ ... ـعض القوم يخلق ثم لا يفرى

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الأمور المتقدّمة ، أى ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لا محالة ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب . واللام فى ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ جواب لقسم محذوف ، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم . والطرائق هى : السموات . قال الخليل والفراء والزجاج : سميت طرائق ؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل. قال أبو عبيدة : طارقت الشىء جعلت بعضه فوق بعض ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . وقيل : لأنها طرائق الكواكب ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ المراد بالخلق هنا : المخلوق ، أى وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين . وقال أكثر المفسرين : المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط ، وحفظنا من فى الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض ، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم ، ويجوز أن يراد نفى الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به ، ونفى الغفلة عن حفظهم .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه. والمراد بالماء: ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون ، والآبار المستخرجة من الأرض ، فإن أصلها من ماء السماء . وقيل : أراد سبحانه فى هذه الآية الأنهار الأربعة : سيحان ، وجيحان ، والفرات ، والنيل ، ولا وجه لهذا التخصيص . وقيل: المراد به : الماء العذب ، ولا وجه لذلك أيضًا فليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء ، ومعنى ﴿ بقدر ﴾ : بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرع والثمار ، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر:٢١] ومعنى ﴿ فأسكناه فى الأرض ﴾ : جعلناه مستقراً فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذى يبقى فى المستنقعات والغدران ونحوها ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ أى كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه ، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى ، وفى هذا تهديد شديد لما يدلّ عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ، ومثله قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ [الملك: ٣٠] .

ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أى أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين ﴿ لكم فيها ﴾ أى فى هذه الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ . تتفكهون بها وتتطعمون منها وقيل : المعنى : ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم كقوله : فلان يأكل من حرفة كذا ، وهو بعيد ، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب ؛ لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك . كذا قال ابن جرير . وقيل : لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذة . قيل : المعنى بقوله : ﴿ لكم

فيها فواكه ﴾ أن لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل . وقيل : المعنى : لكم فى هذين النوعين خاصة فواكه ؛ لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة فى الطعم واللون . وقد اختلف أهل الفقه فى لفظ الفاكهة على ماذا يطلق ؟ اختلافاً كثيرا ، وأحسن ما قيل : إنها تطلق على الثمرات التى يأكلها الناس ، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام . واختلف فى البقول هل تدخل فى الفاكهة أم لا ؟

وانتصاب ﴿ **شجرة** ﴾ على العطف على ﴿ **جنات** ﴾ . وأجاز الفراء الرفع على تقدير : وثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء ، وخبرها محذوف مقدّر قبلها ، وهو الظرف المذكور . قال الواحدى : المفسرون كلهم يقولون : إن المراد بهذه الشجرة : شجرة الزيتون ، وخصت بالذكر ؛ لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقى ، وهى التى يخرج الدهن منها ، فذكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها ؛ ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعاً وأكثرها بركة ، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿ **تخرج من طور سيناء** ﴾ هو جبل ببيت المقدس ، والطور : الجبل فى كلام العرب . وقيل : وهو مما عرّب من كلام العجم. واختلف فى معنى سيناء فقيل : هو الحسن . وقيل : هو المبارك ، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول : جبل أحد . وقيل سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقيل : هو كلّ جبل يحمل الثمار . وقرأ الكوفيون : ﴿ **سيناء** ﴾ بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسر السين ، ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة ، وزعم الأخفش أنه أعجمى . وقرأ الجمهور : ﴿ **تنبت بالدهن** ﴾ بفتح المثناة وضمّ الباء الموحدة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ المثناة وكسر الباء الموحدة . والمعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية : الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة والمعنى على القراءة الأولى : أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية : الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة . قال أبو علىّ الفارسى : التقدير : تنبت جناها ومعه الدهن . وقيل : الباء زائدة ، قاله أبو عبيدة ، ومثله قول الشاعر :

هنّ الحرائر لا ربات أحمرة ... سود المحاجر لا يقرأن بالسور

وقال آخر :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقال الفراء والزجاج : إن نبت وأنبت بمعنى ، والأصمعى ينكر أنبت ، ويرد عليه قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزهرى والحسن والأعرج : « تنبت » بضم المثناة وفتح الموحدة . قال الزجاج وابن جنى : أى تنبت ومعها الدهن ، وقرأ ابن مسعود : « تخرج بالدهن»، وقرأ زر ابن حبيش: « تنبت الدهن » بحذف حرف الجرّ . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب :

«بالدهان» ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ معطوف على الدهن ، أى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهناً يدهن به . وكونه صبغًا يؤتدم به . قرأ الجمهور : ﴿ صبغ ﴾ ، وقرأ قوم « صباغ » مثل لبس ولباس . وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ . وأصل الصبغ : ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به ؛ لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به .

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ هذه من جملة النعم التى امتنّ الله بها عليهم . وقد تقدّم تفسير الأنعام فى سورة النحل . قال النيسابورى فى تفسيره : ولعلّ القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة ؛ لأنها هى المحمول عليها فى العادة ؛ ولأنه قرنها بالفلك وهى سفائن البرّ ، كما أن الفلك سفائن البحر . وبين سبحانه أنها عبرة ؛ لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الإلهية ، ثم فصل سبحانه ما فى هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال : ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ﴾ يعنى سبحانه : اللبن المتكوّن فى بطونها المنصبّ إلى ضروعها ، فإن فى انعقاد ما تأكله من العلق واستحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ ، والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين ، وأكبر موعظة للمتعظين . وقرئ ﴿ نسقيكم ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه ، وقرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام ، ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالاً فقال : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ يعنى فى ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها ، ثم ذكر منفعة خاصة فقال : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ لما فى الأكل من عظيم الانتفاع لهم .

وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أى وعلى الأنعام ، فإن أريد بالأنعام الإبل والبقر والغنم ، فالمراد وعلى بعض الأنعام ، وهى الإبل خاصة ، وإن أريد بالأنعام الإبل خاصة فالمعنى واضح . ثم لما كانت الأنعام هى غالب ما يكون الركوب عليه فى البرّ ضمّ إليها ما يكون الركوب عليه فى البحر ، فقال : ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ تتميماً للنعمة وتكميلاً للمنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلالة : صفو الماء الرقيق الذى يكون منه الولد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إن النطفة إذا وقعت فى الرحم طارت فى [كل] (١) شعر وظفر فتمكث أربعين يوماً ، ثم تنحدر فى الرحم فتكون علقة . وللتابعين فى تفسير السلالة أقوال قد قدّمنا الإشارة إليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال : الشعر والأسنان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال : نفخ فيه الروح ، وكذا قال : مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدّى والضحّاك وابن زيد ، واختاره ابن جرير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ ثم

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من الدر المنثور ٥ / ٦ ليستقيم المعنى .

أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال : حين استوى به الشباب . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل قال : لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ إلى قوله : **﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾** قال عمر : **﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾** قال : والذين نفسى بيده إنها ختمت بالذى تكلمت به يا عمر .

وأخرج الطيالسى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى أربع ، قلت : يا رسول الله ، لو صلينا خلف المقام ؟ فأنزل الله : **﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾** [البقرة: ١٢٥] وقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البرّ والفاجر ، فأنزل الله : **﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾** [الأحزاب: ٥٣] وقلت لأزواج النبى ﷺ: لتنتهنّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكنّ ، فنزلت : ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآية [التحريم: ٥] ، ونزلت : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾** إلى قوله : **﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾** فقلت أنا : **﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾** (١).
وأخرج ابن راهويه وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال : أملى رسول الله ﷺ هذه الآية: **﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾** إلى قوله **﴿ خلقا آخر﴾** فقال معاذ بن جبل : **﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾** فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ ، مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : «بها ختمت **﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾** » (٢) .
وفى إسناده جابر الجعفى وهو ضعيف جداً . قال ابن كثير(٣) : وفى خبره هذا نكارة شديدة ، ذلك أن هذه السورة مكية ، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة ، والله أعلم .

وأخرج ابن مردويه والخطيب ، قال السيوطى(٤): بسند ضعيف ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « أنزل الله من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون وهو نهر الهند ، وجيحون وهو نهر بلخ ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق ، والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل ، فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض ، وجعلها منافع للناس فى أصناف معايشهم ، فذلك قوله: **﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ﴾** فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل ، فرفع من الأرض القرآن والعلم ، والحجر من ركن البيت ، ومقام إبراهيم، وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله:

---

(١) الطيالسى ص ٩ ، ١٠ .
(٢) الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٥ . وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جابر الجعفى وهو ضعيف وقد وثقه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٣) ابن كثير ٥ / ١٣ ، ١٤ .
(٤) الدر المنثور ٥ / ٨ .

﴿ **وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : طور سيناء هو الجبل الذى نودى منه موسى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **تنبت بالدهن**﴾ قال : هو الزيت يؤكل ويدهن به .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

لما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح ؛ لأنه أوّل من صنعه ، وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر فى مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾ وفى ذلك تعزية لرسول الله ، وتسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه ، واللام جواب قسم محذوف ﴿ **فقال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ أى اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا كما يستفاد من الآيات الآخرة ، وجملة : ﴿**ما لكم من إله غيره** ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها ، وارتفاع ﴿ **غيره** ﴾ لكونه وصفاً لإله على

المحل ؛ لأنه مبتدأ خبره لكم ، أى مالكم فى الوجود إله غيره سبحانه ، وقرئ بالجرّ اعتباراً بلفظ إله ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ أى أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذى لا يستحقّ العبادة غيره ، وليس لكم إله سواه . وقيل : المعنى : أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خوّلكم من النعم ويسلبها عنكم . وقيل : المعنى : أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم .

﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ أى قال أشراف قومه الذين كفروا به :﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ أى من جنسكم فى البشرية ، لا فرق بينكم وبينه ﴿ **يريد أن يتفضل عليكم** ﴾ أى يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره ، ثم صرّحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا : ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾ أى لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة ، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال ؛ لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ أى بمثل دعوى هذا المدّعى للنبوّة من البشر ، أو بمثل كلامه ، وهو الأمر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدّعى هذه الدعوى فى آبائنا الأولين ، أى فى الأمم الماضية قبل هذا . وقيل : الباء فى : ﴿ **بهذا** ﴾ زائدة، أى ما سمعنا هذا كائنا فى الماضين ، قالوا هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصامًا بحبله . ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكذب البحت ، والبهت الصراح فقالوا : ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة** ﴾ أى جنون لا يدرى ما يقول : ﴿ **فتربصوا به حتى حين** ﴾ أى انتظروا به حتى يستبين أمره ، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى ، أو حتى يموت فتستريحوا منه . قال الفراء : ليس يريد بالحين هنا وقتًا بعينه إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما . فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر وإصرارهم عليه ﴿ **قال رب انصرنى** ﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد ، والباء فى :﴿ **بما كذبون** ﴾ للسببية، أى بسبب تكذيبهم إياى .

﴿ **فأوحينا إليه** ﴾ عند ذلك أى أرسلنا إليه رسولا من السماء ﴿ **أن اصنع الفلك** ﴾ وأن هى مفسرة لما فى الوحى من معنى القول ﴿ **بأعيننا** ﴾ أى متلبسًا بحفظنا وكلاءتنا ، وقد تقدّم بيان هذا فى هـود. ومعنى ﴿ **ووحينا** ﴾ : أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها. والفاء فى قوله : ﴿ **فإذا جاء أمرنا** ﴾لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك، والمراد بالأمر : العذاب ﴿**وفار التنور** ﴾ معطوف على الجملة التى قبله عطف النسق ، وقيل : عطف البيان ، أى إن مجىء الأمر هو فور التنور ، أى تنور آدم الصائر إلى نوح ، أى إذا وقع ذلك ﴿ **فاسلك فيهامن كل زوجين اثنين** ﴾ أى ادخل فيها . يقال : سلكه فى كذا أدخله وأسلكته أدخلته . قرأ حفص: ﴿ **من كل** ﴾ بالتنوين ، وقرأ الباقون بالإضافة ، ومعنى القراءة الأولى : من كلّ أمة زوجين ، ومعنى الثانية : من كل زوجين ، وهما أمة الذكر والأنثى اثنين . وانتصاب ﴿ **أهلك** ﴾ بفعل معطوف على ﴿ **فاسلك** ﴾ لا بالعطف على زوجين ، أو على ﴿**اثنين**﴾ على القراءتين لأدائه إلى اختلاف المعنى ، أى واسلك أهلك ﴿ **إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾ أى القول بإهلاكهم منهم ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا** ﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم ، وجملة : ﴿ **إنهم مغرقون** ﴾ تعليل

للنهى عن المخاطبة ، أى إنهم مقضى عليهم بالإغراق لظلمهم ، ومن كان هكذا فهو لايستحق الدعاء له .

﴿ **فإذا استويت** ﴾ أى علوت ﴿ **أنت ومن معك** ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿ **على الفلك** ﴾ راكبين عليه ﴿ **فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾ أى حال بيننا وبينهم ، وخلصنا منهم ، كقوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٥] . وقد تقدّم تفسير هذه القصة فى سورة هود على التمام والكمال ، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزمًا ؛ لأنه قد سبق فى علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة ، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب .

ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتمّ فائدة فقال : ﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا** ﴾ أى أنزلنى فى السفينة . قرأ الجمهور : ﴿ **منزلا** ﴾ بضم الميم وفتح الزاى على أنه مصدر . وقرأ زرّ بن حبيش وأبو بكر عن عاصم والمفضل بفتح الميم وكسر الزاى على أنه اسم مكان . فعلى القراءة الأولى : أنزلنى إنزالاً مباركًا ، وعلى القراءة الثانية : أنزلنى مكانًا مباركًا ، قال الجوهرى : والمنزل بفتح الميم والزاى النزول ، وهو الحلول ، تقول : نزلت نزولا ومنزلا. قال الشاعر :

أإن ذكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل

بنصب منزلها ؛ لأنه مصدر .قيل : أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة . وقيل : عند خروجه منها، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول : ﴿ **وأنت خير المنزلين** ﴾ هذا ثناء منه على الله عزّ وجلّ إثر دعاءه له . قال الواحدى : قال المفسرون : إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك : الحمد لله ، وعند نزوله منها: ربّ أنزلنى منزلا مباركًا ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام : والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه ، والعلامات التى يستدلّ بها على عظيم شأنه ﴿ **وإن كنا لمبتلين** ﴾ أى لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم ؛ ليظهر المطيع والعاصى للناس أو للملائكة . وقيل : المعنى : أنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم ، تارة بالإرسال ، وتارة بالعذاب .

﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾ أى من بعد إهلاكهم . قال أكثر المفسرين : إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد قوم هود ، لمجىء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع ، و لقوله فى الأعراف: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقيل: هم ثمود ؛ لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة . وقد قال سبحانه فى هذه القصة : ﴿**فأخذتهم الصيحة** ﴾ وقيل : هم أصحاب مدين قوم شعيب ؛ لأنهم ممن أهلك بالصيحة ﴿**فأرسلنا فيهم رسولا** ﴾ عدى فعل الإرسال بفى مع أنه يتعدّى بإلى ؛ للدلالة على أن

هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم ، يعرفون مكانه ومولده ، ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم . وقيل : وجه التعدية للفعل المذكور بفى أنه ضمن معنى القول ، أى قلنا لهم على لسان الرسول ﴿ **اعبدوا الله** ﴾ ولهذا جيء بأن المفسرة . والأوّل أولى؛ لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفى، وجملة: ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ عذابه الذى يقتضيه شرككم .

﴿ **وقال الملأ من قومه** ﴾ أى أشرافهم وقادتهم . ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال : ﴿ **الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة** ﴾ أى كذبوا بما فى الآخرة من الحساب والعقاب ، أو كذبوا بالبعث ﴿ **وأترفناهم** ﴾ أى وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ أى قال الملأ لقومهم هذا القول ، وصفوه بمساواتهم فى البشرية ، وفى الأكل : ﴿ **مما تأكلون منه** ﴾ والشرب : ﴿ **مما تشربون** ﴾ منه ، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم . قال الفراء : إن معنى ﴿**ويشرب مما تشربون** ﴾ على حذف منه ، أى مما تشربون منه . وقيل : إن ما مصدرية ، فلا تحتاج إلى عائد .

﴿ **ولئن أطعتم بشرا مثلكم** ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ **إنكم إذا لخاسرون** ﴾ أى مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أيعدكم أنكم إذا متم** ﴾ للإنكار ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له . قرئ بكسر الميم من ﴿ **متم** ﴾ من مات يمات كخاف يخاف ، وقرئ بضمها من مات يموت ، كقال يقول . ﴿**وكنتم ترابا وعظاما** ﴾ أى كان بعض أجزائكم ترابًا ، وبعضها عظامًا نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها . وقيل : وتقديم التراب ؛ لكونه أبعد فى عقولهم . وقيل : المعنى: كان متقدّموكم ترابًا ، ومتأخروكم عظامًا ﴿ **أنكم مخرجون** ﴾ أى من قبوركم أحياء كما كنتم ، قال سيبويه : « أن » الأولى فى موضع نصب وبوقوع أيعدكم عليها، وأن الثانية بدل منها . وقال الفرّاء والجرمى والمبرّد :إن « أن » الثانية مكرّرة للتوكيد ، وحسن تكريرها لطول الكلام ، وبمثله قال الزجاج . وقال الأخفش :« أن » الثانية فى محل رفع بفعل مضمر ، أى يحدث إخراجكم كما تقول : اليوم القتال، فالمعنى : اليوم يحدث القتال .

﴿ **هيهات هيهات لما توعدون** ﴾ أى بعد ما توعدون ، أو بعيد ما توعدون ، والتكرير للتأكيد .قال ابن الأنبارى : وفى هيهات عشر لغات ثم سردها ، وهى مبينة فى علم النحو . وقد قرئ ببعضها ، واللام فى :﴿ **لما توعدون** ﴾ لبيان المستبعد كما فى قولهم : هيت لك ، كأنه قيل : لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل : لما توعدون . والمعنى : بعد إخراجكم للوعد الذى توعدون ، هذا على أن هيهات اسم فعل. وقال الزجاج: هو فى تقدير المصدر ،أى البعد لما توعدون ،أو بعد لما توعدون ،على قراءة من نوّن فتكون على هذا مبتدأ خبره:﴿ **لما توعدون**﴾ .

ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أى ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها ، وجملة : ﴿ **نموت ونحيا** ﴾ مفسرّة لما ادّعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا . ثم صرحوا بنفى البعث ، وأن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا :﴿ **وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا** ﴾ أى ما هو فيما يدّعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿ **وما نحن له بمؤمنين** ﴾ أى بمصدّقين له فيما يقوله. ﴿ **قال رب انصرنى**﴾ أى قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدّقونه البتة : ربّ انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى .

﴿ **قال عما قليل ليصبحن نادمين** ﴾ أى قال الله سبحانه مجيبًا لدعائه واعدًا بالقبول لما دعا به : عما قليل من الزمان ليصبحنّ نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر . و« ما » فى : ﴿ **عما قليل** ﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد لقلة الزمان ،كما فى قوله : ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ثم أخبر سبحانه بأنها ﴿ **أخذتهم الصيحة** ﴾ وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه . قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله بها فماتوا جميعًا . وقيل : الصيحة : هى نفس العذاب الذى نزل بهم ، ومنه قول الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة ... خرّوا لشدّتها على الأذقان

والباء فى : ﴿ **بالحق** ﴾ ماتعلق بالأخذ . ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم : فقال : ﴿ **فجعلناهم غثاء** ﴾ أى كغثاء السيل الذى يحمله : والغثاء ما يحمله ، والغثاء : ما يحمل السيل من بالى الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء . والمعنى : صيرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء ﴿ **فبعدا للقوم الظالمين** ﴾ انتصاب ﴿**بعدا**﴾ على المصدرية وهو من المصادر التى لا يذكر فعلها معها ، أى بعدوا بعدًا ، واللام لبيان من قيل له ذلك.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاسلك فيها** ﴾ يقول : اجعل معك فى السفينة ﴿ **من كل زوجين اثنين** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا** ﴾ قال لنوح حين أنزل من السفينة . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى الآية قال : يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم ، وكيف تقولون إذا نزلتم . أما عند الركوب : ﴿ فسبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف:١٣ ،١٤] ، ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ [هود : ٤١] ، وعند النزول: ﴿ **رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين** ﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **قرنا** ﴾ قال : أمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هيهات هيهات** ﴾ قال : بعيد بعيد . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **فجعلناهم غثاء** ﴾ قال : جعلوا كالشىء الميت البالى من الشجر .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قوله : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أى من بعد إهلاكهم ﴿ قرونا آخرين ﴾ قيل : هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الأعراف وهود . وقيل : هم بنو إسرائيل . والقرون : الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا للقرون والإفراد فيما سبق قريبًا : أنه أراد هاهنا أممًا متعدّدة وهناك أمة واحدة . ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته فى شأن عباده فقال : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ أى ما تتقدّم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك ولا تتأخر عنها ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [النحل : ٦١] .

ثم بين سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين ، وأن شأن أممهم كان واحدًا فى التكذيب لهم فقال: ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾ والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها بمعنى : أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذى أرسل إليه ، لا على معنى أن إرسال الرسل جميعًا متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعًا ، ومعنى ﴿تترا﴾: تتواتر واحدًا بعد واحد ويتبع بعضهم بعضًا ، من الوتر وهو الفرد . قال الأصمعى : واترت كتبى عليه : أتبعت بعضها بعضًا ، إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة. وقال غيره . المتواترة المتتابعة بغير مهلة . قرأ ابن كثير وأبو عمرو: « تترى » بالتنوين على أنه مصدر. قال النحاس : وعلى هذا يجوز : « تترى » بكسر التاء الأولى ؛ لأن معنى ﴿ ثم أرسلنا ﴾ : واترنا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى متواترين ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة لمجىء كل رسول لأمته على أن المراد بالمجىء : التبليغ ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضا ﴾ أى فى الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ الأحاديث جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدّث به الناس

كالأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجب الناس منه . قال الأخفش: إنما يقال : جعلناهم أحاديث فى الشرّ ، ولا يقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثا ، أى عبرة ، وكما قال سبحانه فى آية أخرى: ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ [سبأ : ١٩] . قلت : وهذه الكلية غير مسلمة ، فقد يقال: صار فلان حديثًا حسنًا،ومنه قول ابن دريد فى مقصورته:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنًا لمن روى

﴿ **فبعدا لقوم لا يؤمنون** ﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان ، وفيما سبق قريبًا بالظلم ؛ لكون كل من الوصفين صادرًا عن كل طائفة من الطائفتين ، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا مجرّد عدم التصديق ، وأولئك ضموا إليه تلك الأقوال الشنيعة التى هى من أشد الظلم وأفظعه .

ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهارون إليهم فقال : ﴿ **ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا** ﴾ هى التسع المتقدّم ذكرها غير مرّة ، ولايصح عدّ فلق البحر منها هنا ؛ لأن المراد : الآيات التى كذبوا بها واستكبروا عنها . والمراد بالسلطان المبين : الحجة الواضحة البينة . قيل : هى الآيات التسع نفسها ، والعطف من باب :

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقيل : أراد العصى ؛ لأنها أمّ الآيات ، فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة . وقيل : المراد بالآيات : التى كانت لهما ، وبالسلطان : الدلائل . المبين : التسع الآيات ، والمراد بالملأ فى قوله : ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ : هم الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرّة ﴿**فاستكبروا** ﴾ أى طلبوا الكبر وتكلفوه فلم ينقادوا للحق ﴿ **وكانوا قوما عالين** ﴾ قاهرين للناس بالبغى والظلم ، مستعلين عليهم ، متطاولين كبرًا وعنادًا وتمردًا . وجملة : ﴿ **فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ **استكبروا** ﴾ وما بينهما اعتراض ، والاستفهام للإنكار ، أى كيف نصدق من كان مثلنا فى البشرية ؟ والبشر يطلق على الواحد كقوله : ﴿ بشرا سويا ﴾ [مريم : ١٧] كما يطلق على الجمع كما فى قوله : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا ﴾[مريم:٢٦] فتثنيته هنا هى باعتبار المعنى الأول ، وأفرد المثل لأنه فى حكم المصدر ، ومعنى ﴿**وقومهما لنا عابدون** ﴾ : أنهم مطيعون لهم منقادون لما يأمرونهم به كانقياد العبيد . قال المبرّد : العابد : المطيع الخاضع . قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان الملك :عابدًا له . وقيل : يحتمل أنه كان يدّعى الإلهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه ، واللام فى: ﴿ **لنا** ﴾ متعلقة بـ﴿**عابدون**﴾ قدّمت عليه لرعاية الفواصل ، والجملة حالية ﴿ **فكذبوهما** ﴾ أى فأصروا على تكذيبهما . ﴿ **فكانوا من المهلكين** ﴾ بالغرق فى البحر .

ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوّهم فقال : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ يعنى التوراة ، وخصّ موسى بالذكر ؛ لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور ، وكان هارون خليفته فى قومه . ﴿ **لعلهم يهتدون** ﴾ أى لعلّ قوم موسى يهتدون بها إلى الحق ،

ويعملون بما فيها من الشرائع ، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاء لقومه ؛ لأنها وإن كانت منزلة على موسى فهى لإرشاد قومه . وقيل : إن ثمّ مضافًا محذوفًا أقيم المضاف إليه مقامه ، أى آتينا قوم موسى الكتاب . وقيل : إن الضمير فى :﴿ **لعلهم** ﴾ يرجع إلى فرعون وملئه ، وهو وهم ؛ لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون وقومه ،كما قال سبحانه : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ [القصص : ٤٣] .

ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالا فقال : ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** ﴾ أى علامة تدل على عظيم قدرتنا ، وبديع صنعنا ، وقد تقدّم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء فى تفسير قوله سبحانه : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء : ٩١] . ومعنى قوله : ﴿**وآويناهما إلى ربوة** ﴾ إلى مكان مرتفع ، أى جعلناهما يأويان إليها. قيل: هى أرض دمشق ، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل. وقيل: بيت المقدس ، قاله قتادة وكعب. وقيل : أرض فلسطين ، قاله السدّى .﴿ **ذات قرار** ﴾ أى ذات مستقرّ يستقرّ عليه ساكنوه ﴿**ومعين** ﴾ أى وماء معين . قال الزجاج : هو الماء الجارى فى العيون ، فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى منبع . وقيل: هو فعيل بمعنى مفعول. قال علىّ بن سليمان الأخفش: معن الماء : إذا جرى فهو معين وممعون ، وكذا قال ابن الأعرابى . وقيل : هو مأخوذ من الماعون ، وهو النفع ، وبمثل ما قاله الزجاج قال الفراء .

﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ قال الزجاج : هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ . ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبىّ ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها ، فيكون المعنى : وقلنا : يأيها الرسل ، خطابًا لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم . وقال ابن جرير : إن الخطاب لعيسى . وقال الفراء : هو كما تقول للرجل الواحد : كفوا عنا . و﴿ **الطيبات** ﴾ : ما يستطاب ويستلذّ . وقيل : هى الحلال . وقيل : هى ما جمع الوصفين المذكورين . ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال : ﴿ **واعملوا صالحا** ﴾ أى عملا صالحًا وهو ما كان موافقًا للشرع ، ثم علل هذا الأمر بقوله : ﴿ **إنى بما تعملون عليم** ﴾ لا يخفى علىّ شىء منه ، وإنى مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيرًا فخير ، وإن شرا فشرّ .

﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء ، والمعنى : أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه ، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وقيل : المعنى : إن هذا الذى تقدّم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالأمة هنا : الدين ، كما فى قوله : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

قرئ بكسر :« إن » على الاستئناف المقرّر لما تقدّمه ، وقرئ بفتحها وتشديدها . قال الخليل : هى فى موضع نصب لما زال الخافض ، أى أنا عالم بأن هذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : إن متعلقة بفعل مضمر ، وتقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وقال سيبويه : هى متعلقة بـ﴿ اتقون ﴾ والتقدير : فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة ، والفاء فى : ﴿فاتقون ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختصّ بالربوبية ، أى لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه .

ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ﴾ والفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى ، والضمير يرجع إلى ما يدلّ عليه لفظ الأمة ، والمعنى : أنهم جعلوا دينهم مع اتحاده قطعًا متفرّقة مختلفة . قال المبرّد : زبرًا : فرقًا وقطعًا مختلفة ، واحدها زبور ، وهى الفرقة والطائفة ، ومثله : الزبرة وجمعها زبر ، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا فاتبعت فرقة التوراة ، وفرقة الزبور ، وفرقة الإنجيل ثم حرّفوا وبدّلوا ، وفرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال . قرئ : ﴿زبرا ﴾ بضم الباء جمع زبور ، وقرئ بفتحها ، أى قطعًا كقطع الحديد ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى كل فريق من هؤلاء المختلفين ﴿ بما لديهم ﴾ أى بما عندهم من الدين ﴿ فرحون﴾ أى معجبون به .

﴿ فذرهم فى غمرتهم حتى حين ﴾ أى اتركهم فى جهلهم ، فليسوا بأهل للهداية ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكلّ شىء وقت . شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذى يغمر من دخل فيه . والغمرة فى الأصل : ما يغمرك ويعلوك ، وأصله : الستر . والغمر: الماء الكثير ؛ لأنه يغطى الأرض ، وغمر الرداء هو الذى يشمل الناس بالعطاء ، ويقال للحقد : الغمر ، والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة ، والآية خارجة مخرج التهديد لهم ، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكفّ عنهم ،ومعنى ﴿ حتى حين ﴾:حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أوحتى يموتوا على الكفر فيعذّبون فى النار .

﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ﴾ أى أيحسبون إنما نعطيهم فى هذه الدنيا من الأموال والبنين . ﴿نسارع﴾ به ﴿ لهم ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم ، والهمزة للإنكار ، والجواب عن هذا مقدّر يدّل عليه قوله : ﴿ بل لا يشعرون ﴾ لأنه عطف على مقدر ينسحب إليه الكلام ، أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشىء أصلاً كالبهائم التى لا تفهم ولا تعقل ، فإن ما خوّلناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثما، كما قال سبحانه : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ [آل عمران : ١٧٨] . قال الزجاج : المعنى : نسارع لهم به فى الخيرات ، فحذفت به ، و« ما » فى : ﴿إنما ﴾ موصولة ، والرابط هو هذا المحذوف . وقال الكسائى : إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط. قيل : يجوز الوقف على بنين . وقيل : لا يحسن ؛ لأن يحسبون يحتاج إلى مفعولين ، فتمام

المفعولين فى الخيرات . قال ابن الأنبارى: وهذا خطأ ؛ لأن « ما » كافة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وعبد الرحمن بن أبى بكرة : « يسارع » بالياء التحتية على أن فاعله ما يدّل عليه أمددنا، وهو الإمداد ، ويجوز أن يكون المعنى : يسارع الله لهم . وقرأ الباقون : ﴿**نسارع**﴾ بالنون . قال الثعلبى : وهذه القراءة هى الصواب لقوله: ﴿ **نمدهم** ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترا** ﴾ قال : يتبع بعضهم بعضًا . وفى لفظ قال : بعضهم على إثر بعض . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** ﴾ قال : ولدته من غير أب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ﴿**آية**﴾ قال : عبرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وآويناهما إلى ربوة** ﴾ قال: الربوة : المستوية ، والمعنى : الماء الجارى ، وهو النهر الذى قال الله : ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ [مريم : ٢٤]. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وآويناهما إلى ربوة** ﴾ قال: هى المكان المرتفع من الأرض ،وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿**ذات قرار**﴾: ذات خصب . والمعين : الماء الظاهر . وأخرج وكيع والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وتمام الرازى وابن عساكر ، قال السيوطى: بسند صحيح ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلى ربوة** ﴾ قال : أنبئنا أنها دمشق . وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله . وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عنه. وأخرج ابن عساكر عن أبى أمامة مرفوعًا نحوه ، وإسناده ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وابن عساكر عن مرة البهزى (١)، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الربوة الرملة » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم فى الكنى ، وابن عساكر عن أبى هريرة قال :هى الرملة من فلسطين .وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعًا . وأخرج الطبرانى وابن السكن وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن الأقرع بن شفى العكى مرفوعًا نحوه .

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ وقال :﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[البقرة : ١٧٢] » ثم ذكر :« الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمدّ يديه إلى السماء : ياربّ يارب، فأنى يستجاب لذلك » (٣) .وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزارى فى قوله : ﴿**يأيها الرسل**

---

(١) فى المطبوعة : « النهزى » ، والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير والدر المنثور ، وعند الهيثمى : « الزهرى » .
(٢) ابن جرير ١٨ / ٢٠ . وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم».
(٣) أحمد ٢ / ٣٢٨ ومسلم فى الزكاة (١٠١٥ / ٦٥) والدارمى فى الرقاق ٢ / ٣٠٠ .

كلوا من الطيبات ﴾ قال : ذلك عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه . وأخرجه عبدان فى الصحابة عن حفص مرفوعًا ، وهو مرسل ؛ لأن حفصًا تابعى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلا فوصفهم بصفات أربع : الأولى : قوله : **﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** الإشفاق : الخوف ، تقول : أنا مشفق من هذا الأمر ، أى خائف . قيل : الإشفاق هو الخشية ، فظاهر ما فى الآية التكرار. وأجيب بحمل الخشية على العذاب ، أى من عذاب ربهم خائفون ، وبه قال الكلبى ومقاتل . وأجيب أيضًا بحمل الإشفاق على ما هو أثر له: وهو الدوام على الطاعة ، أى الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته . وأجيب أيضًا بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار . وقيل: هو تكرار للتأكيد . والصفة الثانية : قوله : **﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾** قيل : المراد بالآيات : هى التنزيلية . وقيل: هى التكوينية . وقيل : مجموعهما . قيل : وليس المراد بالإيمان بها :هو التصديق بوجودها فقط ، فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح ، بل المراد: التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق . والصفة الثالثة : قوله : **﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾** أى يتركون الشرك تركًا كليًا ظاهرًا وباطنًا . والصفة الرابعة : قوله: **﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾** أى يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وجملة : **﴿ وقلوبهم وجلة ﴾** فى محل نصب على الحال، أى والحال أن قلوبهم خائفة أشدّ الخوف . قال الزجاج : قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون ، وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب ، لامجرّد رجوعهم إليه سبحانه . وقيل : المعنى : أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أن المجازى والمحاسب هو الربّ الذى لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل . وقرأت عائشة وابن عباس والنخعى: « يأتون ما أتوا » مقصورًا من الإتيان. قال الفراء : ولو صحت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن من

العرب من يلزم فى الهمز الألف فى كل الحالات . قال النحاس : معنى هذه القراءة : يعملون ما عملوا .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات ، ومعنى ﴿ **يسارعون فى الخيرات** ﴾ : يبادرون بها . قال الفراء والزجاج : ينافسون فيها . وقيل : يسابقون ، وقرئ : « يسرعون » . ﴿ **وهم لها سابقون** ﴾ اللام للتقوية ، والمعنى : هم سابقون إياها . وقيل : اللام بمعنى إلى ،كما فى قوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : ٥] . أى أوحى إليها، وأنشد سيبويه قول الشاعر :

تجانف عن أهل اليمامة ناقتى (١) وما قصدت من أهلها لسوائكا

أى إلى سوائكا . وقيل : المفعول محذوف ، والتقدير : وهم سابقون الناس لأجلها . ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر أعمال المكلفين ذكر لهما حكمين : الأوّل : قوله : ﴿ **ولا نكلف نفسا إلا وسعها** ﴾ الوسع هو : الطاقة ، وقد تقدم بيان هذا فى آخر سورة البقرة . وفى تفسير الوسع قولان : الأول : أنه الطاقة ، كما فسره بذلك أهل اللغة. والثانى : أنه دون الطاقة ، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبى . والمعتزلة قالوا : لأن الوسع إنما سمى وسعًا ؛ لأنه يتسع على فاعله فعله ولا ضيق عليه ، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء ، ومن لم يستطع الصوم فليفطر . وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدّى إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حدّ الوسع والطاقة ، وأن ذلك عادة الله سبحانه فى تكليف عباده ، وجملة : ﴿ **لدينا كتاب ينطق بالحق** ﴾ من تمام ما قبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع . والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هى عليه ، ومعنى ﴿ **ينطق بالحق** ﴾ : يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة ولا نقص ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية : ٢٩] وفى هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم . وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، فإنه قد كتب فيه كل شيء . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، والأول أولى . وفى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق، وقوله : ﴿**بالحق** ﴾ يتعلق بـ ﴿ **ينطق** ﴾ أو بمحذوف هو حال من فاعله ، أى ينطق ملتبسًا بالحق ، وجملة : ﴿**وهم لا يظلمون** ﴾ مبينة لما قبلها من تفضله وعدله فى جزاء عباده ، أى لا يظلمون بنقص ثواب أوبزيادة عقاب ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال : ﴿ **بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾ والضمير للكفار ،

(١) فى المطبوعة : « تجانف عن أهل اليمامة يافتى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أى بل قلوب الكفار فى غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذى ينطق بالحق ، أو عن الأمر الذى عليه المؤمنون ، يقال : غمره الماء : إذا غطاه ، ونهر غمر : يغطى من دخله ، والمراد بها هنا: الغطاء والعمه أو الحيرة والعمى ، وقد تقدّم الكلام على الغمرة قريبًا ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لابدّ أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى: ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لابدّ أن يعملوها فيدخلون بها النار ، فالإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إما إلى أعمال المؤمنين ، أو إلى أعمال الكفار ، أى لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله ، أومن دون أعمال الكفار التى تقدّم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن . قال الواحدى : إجماع المفسرين وأصحاب المعانى على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لابدّ لهم أن يعملوها ، وجملة : ﴿ **هم لها عاملون** ﴾ مقرّرة لما قبلها ، أى واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة لامحيص لهم عن ذلك .

ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال :﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب** ﴾ حتى هذه هى التى يبتدئ بعدها الكلام ،والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة ،وهذه الجملة مبينة لما قبلها، والضمير فى : ﴿ **مترفيهم** ﴾ راجع إلى من تقدّم ذكره من الكفار . والمراد بالمترفين : المتنعمين منهم ، وهم الذين أمدّهم الله بما تقدّم ذكره من المال والبنين ، أوالمراد بهم الرؤساء منهم . والمراد بالعذاب هو : عذابهم بالسيف يوم بدر ، أو بالجوع بدعاء النبىّ ﷺ عليهم حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » (١) . وقيل : المراد بالعذاب : عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن مايقع منهم من الجؤار إنما يكون عند عذاب الآخرة ؛ لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا فى سنى الجوع . ويجاب عنه بأن الجؤار فى اللغة : الصراخ والصياح . قال الجوهرى : الجؤار مثل الخوار . يقال : جأر الثور يجأر، أى صاح ، وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عندما عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع فى سنى الجوع ، وليس الجؤار ها هنا مقيد بالجؤار الذى هو التضرّع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل ، وجملة : ﴿ **إذا هم يجأرون** ﴾ جواب الشرط ، وإذا هى الفجائية، والمعنى : حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤوا بالصراخ .

ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت: ﴿ **لا تجأروا اليوم** ﴾ فالقول مضمر، والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم ، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعًا واقع على مترفيهم وغير مترفيهم ؛ لبيان أنهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها ، فانتقلوا من النعيم التامّ إلى الشقاء الخالص ، وخصّ اليوم بالذكر للتهويل ، وجملة : ﴿ **إنكم منا لا تنصرون** ﴾ تعليل للنهى عن الجؤار ، والمعنى :

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٨٦) عن أبى هريرة .

إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم . وقيل المعنى : إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب .

ثم عدّد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخًا لهم فقال : ﴿ **قد كانت آياتى تتلى عليكم** ﴾ أى فى الدنيا ؛ وهى آيات القرآن ﴿ **فكنتم على أعقابكم تنكصون** ﴾ أى ترجعون وراءكم ، وأصل النكوص : أن يرجع القهقرى، ومنه قول الشاعر :

زعموا أنهم على سبل الحق وأنا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق ، وقرأ على بن أبى طالب : « على أدباركم » بدل: ﴿ **على أعقابكم تنكصون** ﴾ بضم الكاف ، وعلى أعقابكم متعلق بـ ﴿ **تنكصون** ﴾ أو متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تنكصون ﴿ **مستكبرين به** ﴾ الضمير فى : ﴿ **به** ﴾ راجع إلى البيت العتيق . وقيل : للحرم ، والذى سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم وخدّامه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين. وقيل : الضمير عائد إلى القرآن ، والمعنى : أن سماعه يحدث لهم كبرًا وطغيانًا فلا يؤمنون به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . وقال النحاس : القول الأوّل أولى وبينه بما ذكرنا . فعلى القول الأوّل يكون ﴿**به**﴾ متعلقًا بـ ﴿ **مستكبرين** ﴾ ، وعلى الثانى يكون متعلقًا بـ ﴿ **سامرا** ﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ، والسامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع . قال الواحدى: السامر : الجماعة يسمرون بالليل ، أى يتحدثون ،ويجوز أن يتعلق ﴿ **به** ﴾ بقوله : ﴿ **تهجرون** ﴾ والهجر بالفتح : الهذيان ، أى تهذون فى شأن القرآن ، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم ، وهو الفحش . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو حيوة : « سمرا » بضم السين وفتح الميم مشدّدة، وقرأ زيد بن علىّ وأبو رجاء: « سمارا » ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وانتصاب ﴿ **سامرا** ﴾ على الحال ، إما من فاعل ﴿**تنكصون** ﴾ أو من الضمير فى: ﴿ **مستكبرين** ﴾ وقيل : هو مصدر جاء على لفظ الفاعل ، يقال:قوم سامر ،ومنه قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال الراغب : ويقال : سامر وسمار، وسمر وسامرون . قرأ الجمهور:﴿ **تهجرون** ﴾ بفتح التاء المثناة من فوق وضم الجيم . وقرأ نافع وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أهجر ، أى أفحش فى منطقه. وقرأ زيد بن على وابن محيصن وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشدّدة مضارع هجر بالتشديد . وقرأ ابن أبى عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية ، وفيه التفات .

وقد أخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة ، وابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،

والبيهقى فى الشعب عن عائشة قالت : قلت : يارسول الله ، قول الله : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : « لا ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه » (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير ، وابن الأنبارى فى المصاحف (٢) وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قالت عائشة : يارسول الله ، فذكر نحوه (٣) . وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ قال : يعطون ما أعطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وقلوبهم وجلة** ﴾ قال : يعملون خائفين . وأخرج الفريابى وابن جرير عن ابن عمر ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ قال : الزكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عائشة : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ قالت : هم الذين يخشون الله ويطيعونه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبى مليكة قال : قالت عائشة : لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبّ إلىّ من حمر النعم ، فقال لها ابن عباس : ما هى؟ قالت : ﴿ **الذين يؤتون ما أتوا** ﴾ وقد قدّمنا ذكر قراءتها ومعناها. وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عنها عن النبىّ ﷺ أنه قرأ : ﴿ **والذين يؤتون ما أتوا** ﴾ مقصورًا من المجىء. وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى شيبة، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والدارقطنى فى الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عبيد بن عمير ؛ أنه سأل عائشة : كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ **والذين يؤتون ما أتوا** ﴾ ؟ قالت : أيتهما أحبّ إليك . قلت : والذى نفسى بيده لأحدهما أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها جميعًا ، قالت : أيهما ؟ قلت : « الذين يأتون ما آتوا » فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كذلك ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرّف. وفى إسناده إسماعيل بن علىّ وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ قال : سبقت لهم السعادة من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾ يعنى بالغمرة الكفر والشك ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾ يقول : أعمال سيئة دون الشرك ﴿ **هم لها عاملون** ﴾ قال : لابدّ لهم أن يعملوها . وأخرج النسائى عنه :﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب** ﴾ قال: هم أهل بدر (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **إذا هم يجأرون** ﴾

---

(١) أحمد ٦/ ١٥٩ والترمذى فى التفسير (٣١٧٥) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٨) وابن جرير ١٨/ ٢٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٤٧) وإسناده منقطع ورجاله ثقات غير أحمد بن عبد الجبار العطارى فقد ضعفه الحافظ فى التقريب ١/ ١٩ (٧٥).

(٢) فى المخطوطة زيادة : « وابن جرير » والصحيح حذفها كما فى الدر المنثور ٥/ ١١ .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٢٦ .

(٤) أى من كفار قريش .

قال: يستغيثون ، وفي قوله : ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ قال : تدبرون ، وفي قوله : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ قال : تسمرون حول البيت وتقولون هجرًا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ﴿ مستكبرين به ﴾ قال : بحرم الله أنه لا يظهر عليهم فيه أحد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضًا : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ قال : كانت قريش يتحلقون حلقًا يتحدّثون حول البيت . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ قال : كان المشركون يهجرون برسول الله ﷺ في القول في سمرهم[1] . وأخرج النسائي وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية :﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾[2] .

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

قوله : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة : الأوّل : عدم التدبر في القرآن ، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر صدقه وآمنوا به وبما فيه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدّر ، أي فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا ، والمراد

---

(١) الطبراني (١١٠٨٩) وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٧٦: « فيه يحيى بن سلمة بن كهيل وهو ضعيف وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال في رواية ابنه إبراهيم عنه مناكير . قلت : وهذا منها ».

(٢) النسائي في التفسير ٣٧١ وإسناده حسن ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبي .

بالقول : القرآن ، ومثله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [النساء: ٨٢، محمد : ٢٤] . والثاني: قوله: ﴿**أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين**﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل جاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين ، فكان ذلك سببًا لاستنكارهم للقرآن ، والمقصود : تقرير أنه لم يأت آباءهم الأولين رسول ؛ فلذلك أنكروه ، ومثله قوله : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم﴾ [يس : ٦] . وقيل : إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم الله إليهم ، كما هى سنة الله سبحانه فى إرسال الرسل إلى عباده ، فقد عرف هؤلاء ذلك ، فكيف كذبوا هذا القرآن؟ وقيل : المعنى : أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل ومن بعده . والثالث: قوله : ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾ وفى هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدّم إلى التوبيخ بوجه آخر ، أى بل ألم يعرفوه بالأمانة والصدق فأنكروه ، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك . والرابع : قوله: ﴿ **أم يقولون به جنة** ﴾ وهذا أيضًا انتقال من توبيخ إلى توبيخ ، أى بل أتقولون به جنة ، أى جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبًا وحمية . ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال : ﴿ **بل جاءهم بالحق** ﴾ أى ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن والرسول ، بل جاءهم ملتبسًا بالحق . والحق هو : الدين القويم :﴿ **وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب ، والانحراف عن الصواب ، والبعد عن الحق ، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر ، وظاهر النظم أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ، ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفًا من الكارهين له .

وجملة : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لوجاء الحق على ما يهوونه ويريدونه لكان ذلك مستلزمًا للفساد العظيم ، وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية ، وهو معنى قوله : ﴿ **لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾ قال أبو صالح وابن جريج ومقاتل والسدّى : الحق : هو الله ، والمعنى : لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكا لفسدت السموات والأرض . وقال الفراء والزجاج : يجوز أن يكون المراد بالحق : القرآن ، أى لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم . وقيل : المعنى : ولو كان الحق ما يقولون من اتحاد الآلهة مع الله لاختلفت الآلهة ، ومثل ذلك قوله: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . وقد ذهب إلى القول الأوّل الأكثرون ، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو : الحق المذكور قبله فى قوله : ﴿ **بل جاءهم بالحق** ﴾ ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله سبحانه ، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك :بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله ، والمعنى : ولو ورد الحق متابعًا لأهوائهم موافقًا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد ، والمراد بقوله : ﴿ **ومن فيهن** ﴾ من فى السموات والأرض من المخلوقات . وقرأ ابن مسعود : « وما بينهما » وسبب فساد المكلفين من بنى آدم ظاهر ، وهو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق ، وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع ؛ لأنهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول فلما فسدوا فسدوا .

ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال : ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ والمراد بالذكر هنا : القرآن ، أى بالكتاب الذى هو فخرهم وشرفهم ، ومثله قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] والمعنى : بل آتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوه ، ويقبلوا عليه. وقال قتادة: المعنى : بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم . وقيل : المعنى : بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر:« أتيتهم » بتاء التكلم. وقرأ أبو حيوة والجحدرى : « أتيتهم » بتاء الخطاب ، أى أتيتهم يامحمد. وقرأ عيسى بن عمر :« بذكراهم » . وقرأ قتادة : « نذكرهم » بالنون والتشديد من التذكير ، وتكون الجملة على هذه القراءة فى محل نصب على الحال . وقيل : الذكر هو : الوعظ والتحذير ﴿ **فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ أى هم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم معرضون لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال ، وفى هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره.

ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ ليست مشبوهة بأطماع الدنيا فقال : ﴿ **أم تسألهم خرجا**﴾ و« أم » هى المنقطعة ، والمعنى : أم يزعمون أنك تسألهم خرجا تأخذه على الرسالة ، والخرج: الأجر والجعل ، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك ، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿ **فخراج ربك خير** ﴾ أى فرزق ربك الذى يرزقك فى الدنيا ، وأجره الذى يعطيكه فى الآخرة خير لك مما ذكر . قرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب : « أم تسألهم خراجا » ، وقرأ الباقون : ﴿ **خرجا** ﴾ وكلهم قرؤوا :﴿ **فخراج** ﴾ إلا ابن عامر وأبا حيوة فإنهما قرآ : « فخرج » بغير ألف. والخرج : هو الذى يكون مقابلا للدخل، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك : خرجا ، والخراج غالب فى الضريبة على الأرض. قال المبرد : الخرج : المصدر ، والخراج : الاسم ، قال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك ، والخرج ما تبرعت به . وروى عنه أنه قال : الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض ﴿ **وهو خير الرازقين** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خير .

ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال : ﴿ **وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم** ﴾ أى إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غيرمعوجة، والصراط فى اللغة : الطريق، فسمى الدين طريقًا لأنها تؤدى إليه . ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال : ﴿ **وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون** ﴾ يقال : نكب عن طريق ينكب نكوبًا : إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، والنكوب والنكب: العدول والميل ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك؛لعدولها عن المهابّ ، و﴿ **عن الصراط** ﴾ متعلق بـ﴿ **ناكبون** ﴾ والمعنى : أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أوجنس الصراط لعادلون عنه .

ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال : ﴿ **ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر** ﴾ أى من قحط وجدب ﴿ **للجوا فى طغيانهم** ﴾ أى لتمادوا فى طغيانهم وضلالهم ﴿ **يعمهون** ﴾ يتردّدون ويتذبذبون ويخبطون. وأصل اللجاج : التمادى فى العناد ، ومنه اللجة بالفتح لتردّد الصوت ، ولجة البحر : تردّد أمواجه ، ولجة الليل : تردّد ظلامه . وقيل : المعنى : رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا فى طغيانهم .

﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب** ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها . والعذاب قيل : هو الجوع الذى أصابهم فى سنى القحط . وقيل : المرض . وقيل : القتل يوم بدر ، واختاره الزجاج . وقيل : الموت . وقيل : المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية ﴿ **فما استكانوا لربهم** ﴾ أى ما خضعوا ولا تذللوا ، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على الله والانهماك فى معاصيه ﴿ **وما يتضرعون** ﴾ أى وما يخشعون للّه فى الشدائد عند إصابتها لهم ، ولا يدعونه لرفع ذلك ﴿ **حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد** ﴾ قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : قتلهم يوم بدر بالسيف . وقيل : القحط الذى أصابهم . وقيل : فتح مكة ﴿ **إذا هم فيه مبلسون** ﴾ أى متحيرون ، لا يدرون ما يصنعون . والإبلاس : التحير والإياس من كل خير . وقرأ السلمى : « مبلسون » بفتح اللام من أبلسه ، أى أدخله فى الإبلاس . وقد تقدّم فى الأنعام .

﴿ **وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار** ﴾ امتنّ عليهم ببعض النعم التى أعطاهم ، وهى نعمة السمع والبصر ﴿ **والأفئدة** ﴾ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشىء من ذلك لإصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق ، ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال : ﴿ **قليلا ما تشكرون** ﴾ أى شكرًا قليلاً حقيرًا غير معتدّ به باعتبار تلك النعم الجليلة . وقيل : المعنى : أنهم لا يشكرونه البتة ، لا أن لهم شكرًا قليلاً . كما يقال لجاحد النعمة : ما أقلّ شكره ، أى لا يشكره ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ﴿ **وهو الذى ذرأكم فى الأرض** ﴾ أى بثكم فيها كما تبث الحبوب لتنبت ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم .

﴿ **وهو الذى يحيى ويميت** ﴾ على جهة الانفراد والاستقلال،وفى هذا تذكير لنعمة الحياة ، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ﴿ **وله اختلاف الليل والنهار** ﴾ قال الفراء : هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض. وقيل : اختلافهما : نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : تكرّرهما يومًا بعد يوم وليلة بعد ليلة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ كنه قدرته وتتفكرون فى ذلك . ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم فى إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبنىّ على مجرد الاستبعاد فقال : ﴿ **بل قالوا مثل ما قال الأولون** ﴾ أى آباؤهم والموافقون لهم فى دينهم . ثم بين ما قاله الأوّلون فقال : ﴿ **قالوا أئذا كنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾

فهذا مجرّد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه . ثم كملوا ذلك القول بقولهم : ﴿ **لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل** ﴾ أى وعدنا هذا البعث ووعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدّقه كما لم يصدقه من قبلنا ، ثم صرّحوا بالتكذيب وفرّوا إلى مجرد الزعم الباطل فقالوا : ﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما هذا إلا أكاذيب الأوّلين التى سطروها فى الكتب جمع أسطورة كأحدوثة ، والأساطير: الأباطيل والترهات والكذب .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله : ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم** ﴾ قال : عرفوه ولكنهم حسدوه . وفى قوله : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم** ﴾ قال : الحق : الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ قال : بينا لهم ، وأخرجوا عنه فى قوله : ﴿ **عن الصراط لناكبون** ﴾ قال : عن الحقّ لحائدون . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان إلى النبى ﷺ فقال يا محمد أنشدك الله والرحم ، فقد أكلنا العلهز ، يعنى الوبر بالدم، فأنزل الله :﴿**ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون**﴾[1] ، وأصل الحديث فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال:« اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » الحديث [2] .

وأخرج ابن جرير ، وأبو نعيم فى المعرفة، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفى لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة ، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : « بلى » . قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فأنزل الله : ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب** ﴾ الآية [3] . وأخرج العسكرى فى المواعظ عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾ قال : أى لم يتواضعوا فى الدعاء ولم يخضعوا ، ولو خضعوا لله لاستجاب لهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد**﴾ قال : قد مضى ، كان يوم بدر .

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٧٢) وابن جرير ١٨/ ٣٤ والطبرانى (١٢٠٣٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٨١ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٩٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨ / ٤٠) .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٣٤ والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٨١ .

مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها ، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها** ﴾ أى قل يامحمد لأهل مكة هذه المقالة ، والمراد بمن فى الأرض الخلق جميعًا ، وعبر عنهم بمن تغليبا للعقلاء ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ شيئا من العلم ، وجواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم تعلمون فأخبرونى . وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم . ﴿ **سيقولون لله** ﴾ أى لابدّ لهم أن يقولوا ذلك ؛ لأنه معلوم ببديهة العقل . ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم : ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ ترغيبًا لهم فى التدبر وإمعان النظر والفكر ، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل ؛ لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى .

﴿ **قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله** ﴾ جاء سبحانه باللام نظرًا إلى معنى السؤال، فإن قولك : من ربه ، ولمن هو فى معنى واحد ، كقولك : من ربّ هذه الدار ؟ فيقال : زيد ، ويقال : لزيد . وقرأ أبو عمرو وأهل العراق : « سيقولون الله » بغير لام نظرًا إلى لفظ السؤال ، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام ، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون ألف ، وهكذا قرأ الجمهور فى قوله: ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله** ﴾ باللام نظرا إلى معنى السؤال كما سلف . وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظرًا إلى لفظ السؤال ، ومثل هذا قول الشاعر :

إذ قيل من ربّ المزالف والقرى ... وربّ الجياد الجرد قيل لخالد

أى لمن المزالف . والملكوت : الملك ، وزيادة التاء للمبالغة ، ونحو جبروت ورهبوت ، ومعنى ﴿ **وهو يجير** ﴾: أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿ **ولا يجار عليه** ﴾ أى لا يمنع أحد أحدًا من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته ، يقال : أجرت فلانًا : إذا استغاث بك فحميته ، وأجرت عليه : إذا حميت عنه ﴿ **قل فأنى تسحرون** ﴾ قال الفراء والزجاج : أى تصرفون عن

الحق وتخدعون ، والمعنى : كيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً ؟ والخادع لهم : هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما .

ثم بين سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال : ﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ أي الأمر الواضح الذي يحقّ اتباعه ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله** ﴾ « من » في الموضعين زائدة لتأكيد النفي. ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدّعيه الكفار من إثبات الشريك، فقال : ﴿ **إذا لذهب كل إله بما خلق** ﴾ وفي الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبدّ به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ أي غلب القويّ على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهًا ، وإذا تقرّر عدم إمكان المشاركة في ذلك ،وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دلّ على نفي الشريك فإنه يدلّ على نفي الولد ؛ لأن الله عزّ وجل ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي هو مختصّ بعلم الغيب والشهادة ، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب . قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي : ﴿ **عالم** ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو عالم ، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه صفة لله أو بدل منه . وروى عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ ﴿ **فتعالى** ﴾ الله ﴿ **عما يشركون** ﴾ معطوف على معنى ما تقدّم كأنه قال : علم الغيب فتعالى ، كقولك : زيد شجاع فعظمت منزلته ، أي شجع فعظمت ، أو يكون على إضمار القول ، أي أقول : فتعالى الله ، والمعنى : أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك في الملك .

﴿ **قل رب إما تريني ما يوعدون** ﴾ أي إن كان ولابدّ أن تريني ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم . ﴿ **رب فلا تجعلني في القوم الظالمين** ﴾ أي قل : ياربّ فلا تجعلني . قال الزجاج: أي إن أنزلت بهم النقمة ياربّ فاجعلني خارجًا عنهم، ومعنى كلامه هذا : أن النداء معترض ، و « ما » في :﴿ **إما** ﴾ زائدة ، أي قل ربّ إن تريني ، والجواب : ﴿ **فلا تجعلني**﴾ وذكر الربّ مرتين مرة قبل الشرط ، ومرة بعده مبالغة في التضرّع . وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبدًا ، تعليمًا له ﷺ من ربه كيف يتواضع ؟ وقيل : يهضم نفسه،أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله ، كقوله : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب ويسخرون من النبيّ ﷺ إذا ذكر لهم ذلك ، أكد سبحانه وقوعه بقوله: ﴿ **وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون** ﴾ أي أن الله سبحانه قادر على أن يرى رسوله عذابهم ، ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن ، أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم . وقيل : قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة . ثم أمره

سبحانه بالصبر إلى أن ينقضى الأجل المضروب للعذاب فقال : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة**﴾ أى ادفع بالخصلة التى هى أحسن من غيرها وهى الصفح والإعراض عما يفعله الكافر من الخصلة السيئة وهى الشرك . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف . وقيل : هى محكمة فى حقّ هذه الأمة فيما بينهم ، منسوخة فى حق الكفار ﴿ **نحن أعلم بما يصفون** ﴾ أى ما يصفونك به مما أنت على خلافه ، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب ، وفى هذا وعيد لهم بالعقوبة .

ثم علمه سبحانه ما يقوّيه على ما أرشده إليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال: ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين** ﴾ الهمزات جمع همزة ، وهى فى اللغة : الدفعة باليد أو بغيرها ، وهمزات الشياطين :نزغاتهم ووساوسهم كما قاله المفسرون ، يقال : همزه ولمزه ونخسه ، أى دفعه . وقيل : الهمز :كلام من وراء القفا، واللمز : المواجهة، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوّذ من الشيطان . ومن همزات الشياطين : سورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفسه . ﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ أمره سبحانه أن يتعوّذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ، والمعنى : أعوذ بك أن يكونوا معى فى حال من الأحوال ، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف عن الخير . وفى قراءة أبىّ : « وقل ربّ عائذا بك من همزات الشياطين . وعائذًا بك ربّ أن يحضرون » .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء** ﴾ قال : خزائن كل شىء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه: ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة** ﴾ يقول : أعرض عن أذاهم إياك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾ قال : بالسلام . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن أنس فى قوله: ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة** ﴾ قال : قول الرجل لأخيه ما ليس فيه ، فيقول : إن كنت كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لى .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهنّ عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون »[(١)] . قال : فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها

(١) أحمد ٢/ ١٨١ وأبو داود فى الطب (٣٨٩٣) والترمذى فى الدعوات (٣٥٢٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٠١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

فى عنقه .وفى إسناده محمد بن إسحاق ، وفيه مقال معروف . وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : يارسول الله ، إنى أجد وحشة ، قال : « إذا أخذت مضجعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يحضرك »وبالحرىّ لا يضرّك (١) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) ﴾.

« حتى » هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله: ﴿ **لكاذبون** ﴾ وقيل : بـ ﴿ **يصفون** ﴾ . والمراد بمجيء الموت : مجيء علاماته ﴿ **قال رب ارجعون** ﴾ أى قال ذلك الواحد الذى حضره الموت تحسرًا وتحزنًا على ما فرط منه : ربّ ارجعون ، أى ردونّى إلى الدنيا ، وإنما قال: ارجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب. وقيل: هو على معنى تكرير الفعل ، أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى ، ومثله قوله : ﴿ ألقيا فى جهنم ﴾ [ق :٢٤] قال المازنى : معناه : ألق ألق ، وهكذا قيل فى قول امرئ القيس :

---

(١) أحمد ٦/٦ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٢٦ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن يحيى ابن حبان لم يسمع من الوليد بن الوليد ».

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ومنه قول الحجاج :

يا حرسى اضربا عنقه

ومنه قول الشاعر :

ولو شئت حرمت النساء سواكم

وقول الآخر :

ألا فارحمونى يا إله محمد

وقيل : إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم : ربّ ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : **﴿ارجعون .لعلى أعمل صالحا﴾** أى أعمل عملاً صالحًا فى الدنيا إذا رجعت إليها من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير ، ولما تمنى أن يرجع ليعمل ردّ الله عليه ذلك بقوله : **﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾** فجاء بكلمة الردع والزجر ، والضمير فى :**﴿ إنها ﴾** يرجع إلى قوله : **﴿ رب ارجعون ﴾** أى أن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة ، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا ، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء ، كما فى قوله : ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقيل : إن الضمير فى : **﴿ قائلها ﴾** يرجع إلى الله ، أى لا خلف فى خبره ، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها **﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾** أى من أمامهم وبين أيديهم. والبرزخ هو : الحاجز بين الشيئين قاله الجوهرى. واختلف فى معنى الآية ، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد : حاجز بين الموت والبعث .و قال الكلبى : هو الأجل ما بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة . وقال السدّى : هو الأجل ، و**﴿إلى يوم يبعثون ﴾** هو يوم القيامة .

﴿ فإذا نفخ فى الصور ﴾ قيل : هذه هى النفخة الأولى . وقيل : الثانية ، وهذا أولى ، وهى النفخة التى تقع بين البعث والنشور . وقيل : المعنى . فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها وعلى أن الصور جمع صورة لا القرن ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس والحسن : « الصور » بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة . وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو ، وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو ، وهو القرن الذى ينفخ فيه **﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾** أى لا يتفاخرون بالأنساب ويذكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة **﴿ ولا يتساءلون ﴾** أى لا يسأل بعضهم بعضًا، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاغلا، ومنه قوله تعالى: ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] ، وقوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ [المعارج: ١٠] ولا ينافى هذا ما فى الآية الأخرى من قوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور: ٢٥] فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة ، فالإثبات

باعتبار بعضها،والنفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا ،مما أثبت تارة ونفى أخرى .

﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ أى موزوناته من أعماله الصالحة ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بمطالبهم المحبوبة ، الناجون من الأمور التى يخافونها ﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ وهى أعماله الصالحة ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ أى ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿ **فى جهنم خالدون** ﴾ هذا بدل من صلة الموصول ، أو خبر ثان لاسم الإشارة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده . وجملة : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ مستأنفة ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال ، أو تكون خبرًا آخر لأولئك . واللفح : الإحراق ، يقال : لفحته النار : إذا أحرقته ، ولفحته بالسيف : إذا ضربته ، وخصّ الوجوه ؛ لأنها أشرف الأعضاء ﴿**وهم فيها كالحون** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال . الكالح : الذى قد تشمرت شفتاه وبدت أسنانه ، قاله الزجاج . ودهر كالح ، أى شديد . قال أهل اللغة : الكلوح : تكنيز فى عبوس .

وجملة : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم** ﴾ هى على إضمار القول ، أى يقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا ، أى ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ﴿ **فكنتم بها تكذبون** ﴾ . وجملة : ﴿ **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ،أى غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا ، فسمى ذلك شقوة ؛ لأنه يؤول إلى الشقاء . قرأ أهل المدينة، وأبو عمرو وعاصم: ﴿ **شقوتنا** ﴾ وقرأ الباقون : « شقاوتنا » وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن ﴿ **وكنا قوما ضالين** ﴾ أى بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة. ثـم طلبوا مـا لا يجابون إليه فقالوا:﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ أى فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك ، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿ **قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون** ﴾ أى اسكنوا فى جهنم . قال المبرد : الخسء : إبعاد بمكروه ، وقال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب . فالمعنى على هذا : أبعدوا فى جهنم . كما يقال للكلب : اخسأ ، أى ابعد ، خسأت الكلب خسأ : طردته ﴿ **ولا تكلمون** ﴾ فى إخراجكم مـن النار ورجوعكم إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم . وقيل : المعنى : لا تكلمون رأسا .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنه كان فريق من عبادى يقولون** ﴾ وهم المؤمنون . وقيل : الصحابة ، يقولون : ﴿ **ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **إنه كان فريق** ﴾ بكسر إن استئنافًا تعليليًا ، وقرأ أبىّ بفتحها ﴿ **فاتخذتموهم سخريا** ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائى بضمّ السين ، وقرأ الباقون بكسرها . وفرّق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزو ، والضم من جهة السخرية . قال النحاس : ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفرّاء ، وحكى الثعلبى عن الكسائى : أن الكسر بمعنى : الاستهزاء والسخرية بالقول ، والضم بمعنى : التسخير والاستبعاد بالفعل ﴿ **حتى أنسوكم ذكرى** ﴾ أى اتخذتموهم سخريا إلى هذه الغاية فإنهـم نسوا ذكر الله لشدّة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿**وكنتم منهم**

تضحكون ﴾ فى الدنيا ، والمعنى : حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب . وجملة : ﴿ **إنى جزيتهم اليوم بما صبروا** ﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق ، والباء فى : ﴿ **بما صبروا** ﴾ للسببية ﴿ **أنهم هم الفائزون** ﴾ قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالفتح ، أى لأنهم الفائزون ، ويجوز أن يكون منصوبًا على أنه المفعول الثانى للفعل .

﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين** ﴾ القائل هو الله عزّ وجلّ وتذكيرًا لهم كم لبثوا ؟ لما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن ،كما فى قوله: ﴿ **اخسؤوا فيها**﴾ والمراد بالأرض :هى الأرض التى طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه فى الحياة وفى القبور . وقيل : هو سؤال عن مدة لبثهم فى القبور لقوله: ﴿ **فى الأرض** ﴾ ولم يقل : على الأرض ، وردّ بمثل قوله تعالى: ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ [الأعراف : ٥٦] وانتصاب ﴿ **عدد سنين** ﴾ على التمييز ، لما فى « كم » من الإبهام ﴿ **وسنين** ﴾ بفتح النون على أنها نون الجمع ، ومن العرب من يخفضها وينونها. ﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ استقصروا مدة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد . وقيل: إن العذاب رفع عنهم بين النفختين ، فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم . وقيل : أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية . ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدّة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا : ﴿ **فاسأل العادين** ﴾ أى المتمكنين من معرفة العدد ، وهم الملائكة؛ لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم . وقيل : المعنى : فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى : « قل كم لبثتم فى الأرض » على الأمر ، والمعنى : قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمرًا للملك بسؤالهم ، أو التقدير : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد ، والمراد : الجماعة . وقرأ الباقون: ﴿ **قال كم لبثتم** ﴾ على أن القائل هو الله عزّ وجلّ أوالملك.

﴿ **قال إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « قل إن لبثتم » كما فى الآية الأولى ، وقرأ الباقون : «قال» على الخبر ، وقد تقدّم توجيه القراءتين ، أى ما لبثتم فى الأرض إلا لبثًا قليلا ﴿ **لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ شيئًا من العلم ، والجواب محذوف ، أى لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم فى الأرض أو فى القبور أو فيهما ، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم . ثم زاد سبحانه فى توبيخهم فقال : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ الهمزة للتوبيخ والتقرير ، والفاء للعطف على مقدّر كما تقدّم بيانه فى مواضع ، أى ألم تعلموا شيئًا فحسبتم ، وانتصاب ﴿ **عبثا** ﴾ على الحال، أى عابثين ، أو على العلة ، أى للبعث . قال بالأوّل سيبويه وقطرب ، وبالثانى أبو عبيدة ، وقال أيضًا : يجوز أن يكون منتصبًا على المصدرية ، وجملة : ﴿ **وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ معطوفة على ﴿ **أنما خلقناكم عبثا** ﴾ والعبث فى اللغة : اللعب ، يقال: عبث يعبث عبثًا فهو عابث ، أى لاعب ، وأصله من قولهم : عبثت الأقط ، أى خلطته، والمعنى:

أفحسبتم أن خلقناكم (١) للإهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب ، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور فنجازيكم بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائى : « ترجعون » بفتح الفوقية وكسرالجيم مبنيًا للفاعل ، وقرأ الباقون على البناء للمفعول . وقيل : إنه يجوز عطف ﴿**وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ على ﴿ **عبثا** ﴾ على معنى : إنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع .

ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **فتعالى الله** ﴾ أى تنزّه عن الأولاد والشركاء أو عن أن يخلق شيئًا عبثًا ، أوعن جميع ذلك ، وهو ﴿ **الملك** ﴾ الذى يحق له الملك على الإطلاق ﴿**الحق**﴾ فى جميع أفعاله وأقواله ﴿ **لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ فكيف لا يكون إلها وربًا ، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات ؟ ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه ، أو باعتبار من استوى عليه ، كما يقال : بيت كريم : إذا كان ساكنوه كرامًا . قرأ أبو جعفر وابن محيصن وإسماعيل وأبان بن ثعلب : « الكريم » بالرفع على أنه نعت لربّ ، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه نعت للعرش .

ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخًا لهم وتقريعًا فقال : ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر** ﴾ يعبده مع الله أو يعبده وحده ، وجملة :﴿ **لا برهان له به** ﴾ فى محل نصب صفة لقوله : ﴿**إلها** ﴾ وهى صفة لازمة جىء بها للتأكيد ، كقوله : ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] . والبرهان : الحجة الواضحة والدليل الواضح ،وجواب الشرط قوله: ﴿ **فإنما حسابه عند ربه** ﴾ . وجملة :﴿ **لا برهان له به** ﴾ معترضة بين الشرط والجزاء ، كقولك : من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فالله مثيبه . وقيل : إن جواب الشرط قوله : لا برهان له به على حذف فاء الجزاء ، كقول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها

﴿ **إنه لا يفلح الكافرون** ﴾ قرأ الحسن وقتادة بفتح « أن » على التعليل ، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، وقرأ الحسن : « لا يفلح » بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح . ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعوه بالمغفرة والرحمة فقال : ﴿ **وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدى به أمته . وقيل : أمره بالاستغفار لأمته . وقد تقدّم بيان كونه أرحم الرّاحمين ، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : إذا أدخل الكافر فى قبره فيرى مقعده من النار ﴿ **قال رب ارجعون** ﴾ أتوب أعمل صالحًا ، فيقال له : قد عمرت ما كنت معمرًا ، فيضيق عليه قبره ، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوى إليه حيات الأرض وعقاربها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : زعموا أن النبى ﷺ قال

---

(١) فى المخطوطة : « خلقنا لكم » والصواب ما أثبتناه وهو ما يستقيم به المعنى .

لعائشة : « إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا : نرجعك إلى الدنيا ، فيقول : إلى دار الهموم والأحزان ، بل قدمًا إلى الله ؛ وأما الكافر فيقولون له : نرجعك ، فيقول : ﴿ **رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت** ﴾ »[1] هو مرسل . وأخرج الديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحقّ فيجعل بين عينيه ، فعند ذلك يقول : ﴿ **رب ارجعون .لعلى أعمل صالحا فيما تركت** ﴾ » . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أعمل صالحا** ﴾ قال : أقول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور ، يدخل عليهم فى قبورهم حيات سود ، حية عند رأسه وحية عند رجليه، يقرصانه حتى تلتقيا فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ قال : حين نفخ فى الصور ، فلا يبقى حىّ إلا الله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه، أنه سئل عن قوله : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ وقوله : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ فقال : إنها مواقف ، فأما الموقف الذى لا أنساب بينهم ولا يتساءلون عند الصعقة الأولى ، لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا ، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عنه أيضًا ، أنه سئل عن الآيتين فقال : أما قوله : ﴿ **ولا يتساءلون** ﴾ فهذا فى النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شيء ، وأما قوله :﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. وأخرج ابن المبارك فى الزهد ،وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين. وفى لفظ : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأوّلين والآخرين ، ثم ينادى منادٍ : ألا إن هذا فلان بن فلان ، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه . وفى لفظ : من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه ، فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرًا ،ومصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ .

وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن المسْور بن مخرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى »[2] . وأخرج البزار والطبرانى وأبونعيم والحاكم ، والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى »[3]. وأخرج ابن

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٤٠ .

(٢) أحمد ٤/ ٣٢٣ والطبرانى ٢٠/ ٢٦ (٣٠) وصححه الحاكم ٣/ ١٥٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٦٤ .

(٣) الطبرانى (٢٦٣٤ ، ٢٦٣٥ ، ٢٦٦٣) ، وصححه الحاكم ٣/ ١٤٢ وقال الذهبى : « منقطع » .

عساكر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » . وأخرج أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « ما بال رجال يقولون : إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه ، بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة ، وإنى أيها الناس فرط لكم » (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ قال : تنفخ . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى صفة النار عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ قال : « تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود فى الآية قال : لفحتهم لفحة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته على أعقابهم. وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه، وابن أبى الدنيا فى صفة النار ، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه فى قوله : ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته (٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : كلوح الرأس النضيج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **كالحون** ﴾ قال : عابسون . وقد ورد فى صفة أهل النار وما يقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة .

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ فى أذن مصاب : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ حتى ختم السورة فبرئ ، فقال رسول الله ﷺ : « بماذا قرأت فى أذنه ؟ » فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ :« والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنًا قرأ بها على جبل لزال » (٣) . وأخرج ابن السنى وابن منده ، وأبو نعيم فى المعرفة ، قال السيوطى : بسند حسن ، من طريق محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون** ﴾ فقرأناها فغنمنا وسلمنا .

---

(١) أحمد ٣/ ١٨ .

(٢) ذكر الإمام الحافظ ابن كثير ٥/ ٤١ ، ٤٢ أن هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ وقال : « رواه الترمذى عن سوير بن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال : حسن غريب » .

(٣) أبو يعلى (٥٠٤٥) وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة . وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٧ .

فهرس الموضوعات

تفسير سورة يوسف

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م

I.S.B.N:977-15-0122-4

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

تفسير سورة النور

هى مدنية ، وآياتها أربع وستون آية . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : أنزلت سورة النور بالمدينة. وأخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عائشة مرفوعا: لا تنزلوهنّ الغرف ولا تعلموهنّ الكتابة، يعنى النساء، وعلموهنّ الغزل وسورة النور [(١)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ: « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » [(٢)] وهو مرسل . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن حارثة بن مضرب قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ③ ﴾ .

السورة فى اللغة اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، ومنه قول[(٣)] النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة ، قرأ الجمهور : ﴿ سورة ﴾ بالرفع وفيه وجهان : أحدهما : أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أى هذه سورة، ورجحه الزجاج والفراء والمبرد ، قالوا : لأنها نكرة ، ولا يبتدأ بالنكرة فى كل موضع . والوجه الثانى : أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٩٦ وقال الذهبى : « بل هو موضوع وآفته عبد الوهاب . قال أبو حاتم : كذاب » والبيهقى فى الشعب (٢٢٢٧) وفى سنده عبد الوهاب بن الضحاك بن أبان كذبه أبو حاتم ، وقال البخارى : «عنده عجائب » وقال النسائى وغيره :« متروك ». وقال الدارقطنى :« منكر الحديث » . الجرح والتعديل ٦/ ٧٤ والميزان ٢/ ٦٧٩ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٠٥) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٣٧٣١) .

(٣) فى المطبوعة : « قوله زهير » ، والصحيح ما أثبتناه ، كما فى ديوان النابغة ص ٥٧ .

موصوفة بقوله : ﴿ **أنزلناها** ﴾ والخبر : ﴿ **الزانية والزانى**﴾ ويكون المعنى : السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا ، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختم ، وهذا معنى صحيح ، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة فهى نكرة مخصصة بالصفة، وهو مجمع على جواز الابتداء بها . وقيل: هى مبتدأ محذوف الخبر على تقدير : فيما أوحينا إليك سورة ، وردّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة، لا بيان أن فى جملة ما أوحى إلى النبىّ ﷺ سورة شأنها كذا وكذا . وقرأ الحسن بن عبد العزيز وعيسى الثقفى وعيسى الكوفى ومجاهد وأبو حيوة وطلحة بن مصرف بالنصب ، وفيه أوجه : الأوّل : أنها منصوبة بفعل مقدّر غير مفسر بما بعده، تقديره : اتل سورة ، أو اقرأ سورة . الثانى : أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره ما بعده على ما قيل فى باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره ، أى أنزلنا سورة أنزلناها ، فلا محل لـ ﴿ **أنزلناها** ﴾ هاهنا لأنها جملة مفسرة ، بخلاف الوجه الذى قبله فإنها فى محل نصب على أنها صفة لسورة . الوجه الثالث : أنها منصوبة على الإغراء ، أى دونك سورة، قاله صاحب الكشاف. ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء . الرابع : أنها منصوبة على الحال من ضمير﴿ **أنزلناها**﴾، قال الفراء : هى حال من الهاء والألف والحال من المكنى يجوز أن تتقدّم عليه ، وعلى هذا فالضمير فى ﴿**أنزلناها**﴾ ليس عائدا على ﴿ **سورة** ﴾ ، بل على الأحكام ، كأنه قيل : أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: « وفرّضناها » بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف . قال أبو عمرو : فرّضناها بالتشديد ، أى قطعناها فى الإنزال نجما نجما . والفرض : القطع ، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير أو للمبالغة ، ومعنى التخفيف : أوجبناها وجعلناها مقطوعا بها . وقيل : ألزمناكم العمل بها . وقيل : قدّرنا ما فيها من الحدود، والفرض : التقدير ، ومنه : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن ﴾ [القصص : ٨٥] .

﴿ **وأنزلنا فيها آيات بينات** ﴾ أى أنزلنا فى غضونها وتضاعيفها ، ومعنى كونها بينات : أنها واضحة الدلالة على مدلولها ، وتكرير ﴿ **أنزلنا** ﴾ لكمال العناية بإنزال هذه السورة ، لما اشتملت عليه من الأحكام .

﴿ **الزانية والزانى** ﴾ : هذا شروع فى تفصيل ما أجمل من الآيات البينات ، والارتفاع على الابتداء ، والخبر: ﴿ **فاجلدوا كل واحد منهما** ﴾ أو على الخبرية لسورة كما تقدّم ، والزنا هو : وطء الرجل للمرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح . وقيل : هو إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم شرعا ، والزانية هى : المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكرهة ، وكذلك الزانى ، ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، وأما على مذهب سيبويه فالخبر محذوف ، والتقدير : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله: ﴿**فاجلدوا** ﴾ والجلد : الضرب ، يقال : جلده إذا ضرب جلده ، مثل بطنه إذا ضرب بَطنه ، وَرَأَسَه إذا ضرب رأسه . وقوله : ﴿ **مائة جلدة** ﴾ هو حدّ الزانى

الحر البالغ البكر ، وكذلك الزانية ، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد ، وهى تغريب عام ، وأما المملوك والمملوكة فجلد كلّ واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه : ﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ [النساء : ٢٥] . وهذا نص فى الإماء، وألحق بهن العبيد لعدم الفارق ، وأما من كان محصنا من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة وبإجماع أهل العلم ، بل وبالقرآن المنسوخ لفظه الباقى حكمه وهو : «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة . وقد أوضحنا ما هو الحق فى ذلك فى شرحنا للمنتقى ، وقد مضى الكلام فى حدّ الزنا مستوفى . وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة النساء . وقرأ عيسى بن عمر الثقفى ويحيى ابن يعمر وأبو جعفر وأبو شيبة: «الزانية والزانى » بالنصب . وقيل: وهو القياس عند سيبويه لأنه عنده كقولك : زيدا اضرب . وأما الفراء والمبرد والزجاج فالرفع عندهم أوجه وبه قرأ الجمهور . ووجه تقديم الزانية على الزانى ها هنا ؛ أن الزنا فى ذلك الزمان كان فى النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة منهنّ . وقيل: وجه التقديم أن المرأة هى الأصل فى الفعل . وقيل : لأن الشهوة فيها أكثر وعليها أغلب . وقيل : لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجبة والصيانة ، فقدّم ذكر الزانية تغليظا واهتماما . والخطاب فى هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم ، وقيل: للمسلمين أجمعين؛ لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعا، والإمام ينوب عنهم ، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** ﴾ يقال : رأف يرأف رأفة على وزن فعلة ، ورآفة على وزن فعالة ، مثل النشأة والنشاءة وكلاهما بمعنى الرقة والرحمة. وقيل: هى أرق الرحمة . وقرأ الجمهور : ﴿ **رأفة** ﴾ بسكون الهمزة . وقرأ ابن كثير بفتحها . وقرأ ابن جريج : « رآفة » بالمد كفعالة ، ومعنى ﴿ **فى دين الله** ﴾ : فى طاعته وحكمه ، كما فى قوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ [يوسف : ٧٦] . ثم قال مثبتا للمأمورين ومهيجًا لهم : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ كما تقول للرجل تحضه على أمر : إن كنت رجلا فافعل كذا ، أى إن كنتم تصدّقون بالتوحيد والبعث الذى فيه جزاء الأعمال فلا تعطلوا الحدود ﴿ **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ أى ليحضره زيادة فى التنكيل بهما وشيوع العار عليهما وإشهار فضيحتهما ، والطائفة : الفرقة التى تكون حافة حول الشىء ، من الطوف، وأقلّ الطائفة ثلاثة. وقيل: اثنان . وقيل : واحد . وقيل : أربعة . وقيل : عشرة .

ثم ذكر سبحانه شيئا يختص بالزانى والزانية ، فقال : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة** ﴾ . قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الآية على أقوال : الأوّل : أن المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله وأنه محرّم على المؤمنين ، ويكون معنى الزانى لا ينكح : الوطء لا العقد ، أى الزانى لا يزنى إلا بزانية ، والزانية لا تزنى إلا بزان ، وزاد ذكر المشركة والمشرك

لكون الشرك أعمّ فى المعاصى من الزنا . وردّ هذا الزجاج وقال : لا يعرف النكاح فى كتاب الله إلا بمعنى التزويج ، ويردّ هذا الردّ بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت فى كتاب الله سبحانه ، ومنه قوله : ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ [البقرة : ٢٣٠] فقد بينه النبىّ ﷺ، بأن المراد به : الوطء ، ومن جملة القائلين بأن معنى الزانى لا ينكح إلا زانية : الزانى لا يزنى إلا بزانية سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة ، كما حكاه ابن جرير عنهم ، وحكاه الخطابى عن ابن عباس . القول الثانى : أن الآية هذه نزلت فى امرأة خاصة كما سيأتى بيانه ، فتكون خاصة بها كما قاله الخطابى . القول الثالث : أنها نزلت فى رجل من المسلمين ، فتكون خاصة به قاله مجاهد . الرابع : أنها نزلت فى أهل الصفة ، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح . الخامس : أن المراد بالزانى والزانية : المحدودان حكاه الزجاج وغيره عن الحسن قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة . وروى نحوه عن إبراهيم النخعى ، وبه قال بعض أصحاب الشافعى . قال ابن العربى : وهذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا . السادس : أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه :﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾ قال النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء . القول السابع : أن هذا الحكم مؤسس على الغالب ، والمعنى : أن غالب الزناة لا يرغب إلا فى الزواج بزانية مثله ، وغالب الزوانى لا يرغبن إلا فى الزواج بزان مثلهن ، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد زجرهم عن الزنا ، وهذا أرجح الأقوال ، وسبب النزول يشهد له كما سيأتى .

وقد اختلف فى جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها ، فقال الشافعى وأبو حنيفة بجواز ذلك . وروى عن ابن عباس ، وروى عن عمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز . قال ابن مسعود : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا ، وبه قال مالك ، ومعنى ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ أى نكاح الزوانى ، لما فيه من التشبه بالفسقة والتعرّض للتهمة والطعن فى النسب . وقيل : هو مكروه فقط ، وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة فى الزجر .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها** ﴾ قال : بيناها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر ؛ أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها وظهرها ، فقلت : ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** ﴾ قال : يا بنىّ ورأيتنى أخذتنى بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ولا أن أجلد رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿**وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾ قال : الطائفة الرجل فما فوقه . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وأبوداود فى ناسخه ، وابن المنذر وابن أبى

(١) ابن جرير ١٨/ ٥٢ .

حاتم ، والبيهقى فى سننه ، والضياء المقدسى فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الزانى لا ينكح** ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، ولكن الجماع ، لا يزنى بها حين يزنى إلا زان أو مشرك ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ يعنى : الزنا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ قال : كنّ نساء فى الجاهلية بغيات ، فكانت منهنّ امرأة جميلة تدعى أمّ جميل ، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهنّ لتنفق عليه من كسبها ، فنهى اللّه سبحانه أن يتزوّجهنّ أحد من المسلمين (١) ، وهو مرسل . وأخرج عبد بن حميد عن سليمان بن يسار نحوه مختصرا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال : كانت بغايا آل فلان ، وبغايا آل فلان ، فقال اللّه : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ الآية ، فأحكم اللّه ذلك فى أمر الجاهلية (٢) . وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن الضحاك فى الآية قال : إنما عنى بذلك الزنا ولم يعن به التزويج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية قال : الزانى من أهل القبلة لا يزنى إلا بزانية مثله من أهل القبلة أو مشركة من غير أهل القبلة ، والزانية من أهل القبلة لا تزنى إلا بزان مثلها من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة ، وحرّم الزنا على المؤمنين . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبد اللّه بن عمرو قال : كانت امرأة يقال لها أمّ مهزول ، وكانت تسافح وتشترط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ أن يتزوّجها ، فأنزل اللّه : ﴿ **الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك** ﴾ (٣) .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان رجل يقال له: مرثد ، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، وكانت امرأة بغىّ بمكة يقال لها عناق ، وكانت صديقة له ، وذكر قصة وفيها: فأتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يارسول اللّه ، أنكح عناقا ؟ فلم يرد علىّ شيئا حتى نزلت : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ الآية ، فقال رسول اللّه ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة**

---

(١) ابن أبى شيبة ٤/ ٢٧٣ .

(٢) ابن جرير ١٨/ ٥٧ .

(٣) أحمد ٢/ ١٥٩ ، ٢٢٥ ، والنسائى فى التفسير (٣٧٩) ، وابن جرير ١٨/ ٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٣ ، ١٩٤، ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ١٥٣ .

والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ فلا تنكحها »[١] . وأخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن عمرو فى الآية قال : كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه ، فنهاهم اللّه عن ذلك . وأخرج أبوداود فى ناسخه، وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس ؛ أنها نزلت فى بغايا معلنات كنّ فى الجاهلية وكن زوانى مشركات، فحرّم اللّه نكاحهن على المؤمنين .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال : كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال : إنى كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرّم اللّه علىّ ، وقد رزقنى اللّه منها توبة فأردت أن أتزوّجها ، فقال الناس : الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال ابن عباس : ليس هذا موضع هذه الآية ، إنما كنّ نساء بغايا متعالنات يجعلن على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفن بذلك ، فأنزل اللّه هذه الآية ، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعلىّ . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدىّ وابن مردويه والحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله »[٢] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب ؛ أن رجلا تزوّج امرأة ، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدّ ، فجاؤوا به إلى علىّ ففرق بينه وبين امرأته ، وقال : لا تتزوّج إلا مجلودة مثلك .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾.

قوله : **﴿ والذين يرمون ﴾** : استعار الرمى للشتم بفاحشة الزنا ؛ لكونه جناية بالقول ، كما قال النابغة :

وجرح اللسان كجرح اليد

---

(١) أبو داود فى النكاح (٢٠٥١) والترمذى فى التفسير (٣١٧٧) وقال : « حسن غريب » والنسائى ٦/ ٦٦ وابن جرير ١٨/ ٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٦٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ١٥٣ .

(٢) أبو داود فى النكاح (٢٠٥٢) وابن عدى ٢/ ٤١٠ وصححه الحاكم ٢/ ١٦٦ ووافقه الذهبى .

وقال آخر :

رماني بأمر كنت عنه ووالدي بريا ومن أجل الطوى رماني

ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفا ، والمراد بالمحصنات : النساء ، وخصهنّ بالذكر لأن قذفهنّ أشنع والعار فيهنّ أعظم ، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة ، وقد جمعنا في ذلك رسالة رددنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادي عشر لما نازع في ذلك. وقيل : إن الآية تعمّ الرجال والنساء ، والتقدير : والأنفس المحصنات ، ويؤيد هذا قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ [النساء : ٢٤] فإن البيان بكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء وإلا لم يكن للبيان كثير معنى . وقيل : أراد بالمحصنات: الفروج كما قال : ﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ [الأنبياء : ٩١] . فتتناول الآية الرجال والنساء . وقيل : إن لفظ المحصنات وإن كان للنساء لكنه ها هنا يشمل النساء والرجال تغليبا ، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب ، والمراد بالمحصنات هنا : العفائف ، وقد مضى في سورة النساء ذكر الإحصان وما يحتمله من المعاني(١). وللعلماء في الشروط المعتبرة في المقذوف والقاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة في كتب الفقه ، منها ما هو مأخوذ من دليل ، ومنها ما هو مجرّد رأي بحت . قرأ الجمهور ﴿ **المحصنات** ﴾ بفتح الصاد ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها . وذهب الجمهور من العلماء أنه لا حدّ على من قذف كافرا أو كافرة . وقال الزهري وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى : إنه يجب عليه الحدّ . وذهب الجمهور أيضا أن العبد يجلد أربعين جلدة . وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة : يجلد ثمانين . قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما ، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال(٢).

ثم ذكر سبحانه شرطا لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال : ﴿ **ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ﴾ أي يشهدون عليهنّ بوقوع الزنا منهنّ ، ولفظ ثم يدلّ على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف ، وبه قال الجمهور، وخالف في ذلك مالك ، وظاهر الآية أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين ، وخالف في ذلك الحسن ومالك ، وإذا لم تكمل الشهود أربعة ، كانوا قذفة يحدون حد القذف . وقال الحسن والشعبي : إنه لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه ، وبه قال أحمد وأبوحنيفة ومحمد بن الحسن . ويردّ ذلك ما وقع في خلافة عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا ، ولم يخالف في

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ [النساء : ٢٤] .

(٢) أحمد ٢/ ٤٣١ ، ٥٠٠ والبخاري في الحدود (٦٨٥٨) ومسلم في الأيمان (١٦٦٠/ ٣٧) والترمذي في البر (١٩٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وكلهم عن أبي هريرة .

ذلك أحد من الصحابة [رضى اللّه عنهم] (١) قرأ الجمهور: ﴿ **بأربعة شهداء** ﴾ بإضافة أربعة إلى شهداء ، وقرأ عبد اللّه بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بتنوين أربعة . وقد اختلف فى إعراب شهداء على هذه القراءة ، فقيل : هو تمييز . وردّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرّر فى علم النحو . وقيل : إنه فى محل نصب على الحال . وردّ بأن الحال لا يجيء من النكرة التى لم تخصص. وقيل : إن شهداء فى محل جرّ نعتا لأربعة ، ولما كان فيه ألف التأنيث لم ينصرف . وقال النحاس : يجوز أن يكون شهداء فى موضع نصب على المفعولية ، أى ثم لم يحضروا أربعة شهداء ، وقد قوّى ابن جنى هذه القراءة ، ويدفع ذلك قول سيبويه إن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز فى الشعر .

ثم بين سبحانه ما يجب على القاذف فقال :﴿ **فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ الجلد : الضرب كما تقدّم ، والمجالدة المضاربة فى الجلود أو بالجلود ، ثم استعير للضرب بالعصى والسيف وغيرهما ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

وقد تقدّم بيان الجلد قريبا ، وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ، وجلدة منتصبة على التمييز ، وجملة : ﴿ **ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا** ﴾ معطوفة على « اجلدوا » أى فاجمعوا لهم بين الأمرين : الجلد ، وترك قبول الشهادة ، لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم اللّه به عليهم فى آخر هذه الآية . واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة ولو تأخرت عليها لكانت صفة لها ، ومعنى ﴿ **أبدا** ﴾ : ما داموا فى الحياة . ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم وإصرارهم عليه وعدم رجوعهم إلى التوبة فقال : ﴿ **وأولئك هم الفاسقون** ﴾ وهذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها . والفسق : هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة الحدّ بالمعصية ، وجوّز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال .

ثم بين سبحانه أن هذا التأبيد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ وهذه الجملة فى محل نصب على الاستثناء ، لأنه من موجب . وقيل : يجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل ، ومعنى التوبة قد تقدّم تحقيقه ، ومعنى ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ من بعد اقترافهم لذنب القذف. ومعنى ﴿ **وأصلحوا** ﴾ : إصلاح أعمالهم التى من جملتها ذنب القذف ومداركة ذلك بالتوبة والانقياد للحدّ .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله ؟ وهى جملة عدم قبول الشهادة ، وجملة الحكم عليهم بالفسق ، أم إلى الجملة الأخيرة ؟ وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصرّ ، وبعد إجماعهم أيضا على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق فمحل الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول

---

(١) فى المطبوعة : « عنه » والصحيح ما أثبتناه و« رضى اللّه عنهم » ليست فى المخطوطة ولعلها إضافة مستحدثة .

الشهادة أم لا ؟ فقال الجمهور : إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته وزال عنه الفسق، لأن سبب ردّها هو ما كان متصفا به من الفسق بسبب القذف ، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة . وقال القاضى شريح وإبراهيم النخعى والحسن البصرى وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد وسفيان الثورى وأبوحنيفة : إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق ، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق ولا تقبل شهادته أبدا . وذهب الشعبى والضحاك إلى التفصيل فقالا : لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته . وقول الجمهور هو الحق ، لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدا فى واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب ، وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيدا لها لا تنفى كونه قيدا لما قبلها ، غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به ، ولهذا كان مجمعا عليه ، وكونه أظهر لا ينافى قوله فيما قبلها ظاهرا . وقد أطال أهل الأصول الكلام فى القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفنّ ، والحق هو هذا ، والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائدا إلى جميع الجمل التى قبله ، وتارة إلى بعضها لا تقوم به حجة ولا يصلح للاستدلال ، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد . ومما يؤيد ما قررناه ويقوّيه أن المانع من قبول الشهادة ، وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال ، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة .

واختلف العلماء فى صورة توبة القاذف ، فقال عمر بن الخطاب والشعبى والضحاك وأهل المدينة : إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى وقع منه وأقيم عليه الحدّ بسببه . وقالت فرقة منهم مالك وغيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله ، ويصلح عمله ، ويندم على ما فرط منه ، ويستغفر اللّه من ذلك ، ويعزم على ترك العود إلى مثله ، وإن لم يكذب نفسه ولا رجع عن قوله . ويؤيده هذا الآيات والأحاديث الواردة فى التوبة فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد .

وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب ، ولو كان كفرا فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى هكذا حكى الإجماع القرطبى(١). قال أبو عبيدة : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ، وليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرما من مرتكب الزنا، والزانى إذا تاب قبلت شهادته ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل اللّه التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن منها قوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ﴾ إلى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ [المائدة : ٣٣، ٣٤] . ولا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع . قال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، فحقه إذا تاب

---

(١) القرطبى ٥/ ٤٥٧١ .

وأصلح أن تقبل شهادته ، قال : وقوله : ﴿**أبدا**﴾ أى ما دام قاذفا ، كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ، فإن معناه : مادام كافرًا . انتهى . وجملة : ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة وصيرورته مغفوراً له ، مرحوما من الرحمن الرحيم ، غير فاسق ولا مردود الشهادة ، ولا مرفوع العدالة .

ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف ، وهو قذف الزوج للمرأة التى تحته بعقد النكاح فقال : ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم** ﴾ أى لم يكن لهم شهداء يشهدون بما رموهنّ به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البدل من شهداء . قيل : ويجوز النصب على خبر يكن . قال الزجاج : أو على الاستثناء على الوجه المرجوح ﴿ **فشهادة أحدهم أربع شهادات** ﴾ قرأ الكوفيون برفع أربع على أنها خبر لقوله: ﴿ **فشهادة أحدهم** ﴾ أى فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو : « أربع » بالنصب على المصدر ، ويكون ﴿ **فشهادة أحدهم** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى فالواجب شهادة أحدهم ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى فشهادة أحدهم واجبة . وقيل : إن أربع منصوب بتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات . وقوله : ﴿ **بالله** ﴾ متعلق بشهادة أو بشهادات ، وجملة : ﴿ **إنه لمن الصادقين** ﴾ هى المشهود به ، وأصله : على أنه ، فحذف الجار وكسرت إن ، وعلق العامل عنها .

﴿ **والخامسة** ﴾ قرأ السبعة وغيرهم الخامسة بالرفع على الابتداء ، وخبرها : ﴿ **أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين** ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة وعاصم فى رواية حفص : «والخامسة » بالنصب على معنى وتشهد الشهادة الخامسة ، ومعنى ﴿ **إن كان من الكاذبين** ﴾ : أى فيما رماها به من الزنا . قرأ الجمهور بتشديد ﴿ **أن** ﴾ من قوله : ﴿ **أن لعنة الله** ﴾ وقرأ نافع بتخفيفها ، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن ، و ﴿ **لعنة الله** ﴾ مبتدأ ، و﴿**عليه**﴾ خبره، والجملة خبر أن ، وعلى قراءة الجمهور تكون ﴿ **لعنة الله** ﴾ اسم أن ، قال سيبويه : لا تخفف أنّ فى الكلام وبعدها الأسماء إلا وأنت تريد الثقيلة . وقال الأخفش : لا أعلم الثقيلة إلا أجود فى العربية.

﴿ **ويدرأ عنها العذاب** ﴾ أى عن المرأة ، والمراد بالعذاب : الدنيوى ، وهو الحدّ ، وفاعل يدرأ قوله : ﴿ **أن تشهد أربع شهادات بالله** ﴾ والمعنى : أنه يدفع عن المرأة الحدّ شهادتها أربع شهادات باللّه : أن الزوج لمن الكاذبين ﴿**والخامسة** ﴾ بالنصب عطفا على أربع ، أى وتشهد الخامسة كذلك قرأ حفص والحسن والسلمى وطلحة والأعمش ،وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء، وخبره : ﴿ **أن غضب الله عليها إن كان** ﴾ الزوج ﴿ **من الصادقين** ﴾ فيما رماها به من الزنا ، وتخصيص الغضب بالمرأةللتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادّته ، ولأن النساء يكثرن اللعن فى العادة ، ومع استكثارهنّ منه لا يكون له فى قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب .

﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ جواب لولا محذوف . قال الزجاج : المعنى : ولولا فضل اللّه لنال الكاذب منهما عذاب عظيم . ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب وعظيم حكمته البالغة فقال :﴿ **وأن الله تواب حكيم** ﴾ أى يعود على من تاب إليه ، ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه والمغفرة له ،حكيم فيما شرع لعباده من اللعان وفرض عليهم من الحدود .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ قال : تاب اللّه عليهم من الفسوق ، وأما الشهادة فلا تجوز . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبى بكرة : إن تبت قبلت شهادتك . وأخرج ابن مردويه عنه قال : توبتهم إكذابهم أنفسهم ، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : من تاب وأصلح فشهادته فى كتاب اللّه تقبل . وفى الباب روايات عن التابعين . وقصة قذف المغيرة فى خلافة عمر مروية من طرق معروفة .

وأخرج البخارى والترمذى وابن ماجة عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة ، وإلا حدّ فى ظهرك » ، فقال : يا رسول اللّه ،إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول اللّه ﷺ يقول: « البينة وإلا حدّ فى ظهرك » ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلنّ اللّه ما يبرئ ظهرى من الحدّ ، ونزل جبريل فأنزل عليه : ﴿ **والذين يرمون أزواجهم** ﴾ حتى بلغ ﴿**إن كان من الصادقين** ﴾ فانصرف النبى ﷺ فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول: اللّه يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة ، فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت ، فقال النبىّ ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » ، فجاءت به كذلك ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب اللّه لكان لى ولها شأن » (١) . وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسى وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد (٢) وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مطوّلة (٣) . وأخرجها البخارى ومسلم وغيرهما ، ولم يسموا الرجل ولا المرأة . وفى آخر القصة : أن النبىّ ﷺ قال له : « اذهب فلا سبيل لك عليها»، فقال : يارسول اللّه مالى ، قال : « لا مال لك ، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من

---

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧١) وفى التفسير (٤٧٤٧) وفى الطلاق (٥٣٠٧) والترمذى فى التفسير (٣١٧٩) وابن ماجه فى الطلاق (٢٠٦٧).

(٢) فى المطبوعة : « عبد حميد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) أبو داود الطيالسى (٢٦٦٧) وأحمد ١/ ٢٧٣ ، ٣/ ١٤٢ ، وأبو داود فى الطلاق (٢٢٥٤) ، وابن جرير ١٨/ ٦٥ ، ٦٦ .

فرجها ، وإن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها » [(١)] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدى، فقال: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ السائل ، فقال عويمر : والله لآتينّ رسول الله ﷺ لأسأله ، فأتاه فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما فلاعن بينهما ، قال عويمر : إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها ، ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة للمتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم ، أدعج العينين ، عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أراه إلا كاذبا » ، فجاءت به مثل النعت المكروه [(٢)] . وفى الباب أحاديث كثيرة وفيما ذكرنا كفاية . وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعليّ وابن مسعود ، قالوا : لا يجتمع المتلاعنان أبدا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾.

---

(١) أحمد ٢/ ٤ والبخارى فى الطلاق (٥٣١١ ـ ٥٣١٤) ومسلم فى اللعان (١٤٩٣/ ٥) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٥٧) كلهم عن ابن عمر .

(٢) أحمد ٥/ ٣٣٤ والبخارى فى الطلاق (٥٣٠٨) ومسلم فى اللعان (١٤٩٢/ ١) وأبو داود فى اللعان (٢٢٤٥) وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٦) والدارمى فى النكاح ٢/ ١٥٠ .

خبر « إن » من قوله : ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك** ﴾ هو ﴿ **عصبة** ﴾ و ﴿ **منكم** ﴾ صفة لعصبة ، وقيل : هو ﴿ **لا تحسبوه شرا لكم** ﴾ ويكون عصبة بدلا من فاعل جاؤوا . قال ابن عطية : وهذا أنسق فى المعنى وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبة . وجملة : ﴿ **لا تحسبوه** ﴾ وإن كانت طلبية ، فجعلها خبرا يصح بتقدير كما فى نظائر ذلك . والإفك : أسوأ الكذب وأقبحه ، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه . فالإفك :هو الحديث المقلوب . وقيل : هو البهتان . وأجمع المسلمون على أن المراد بما فى الآية : ما وقع من الإفك على عائشة أمّ المؤمنين ، وإنما وصفه اللّه بأنه إفك ؛ لأن المعروف من حالها رضى اللّه عنها خلاف ذلك . قال الواحدى : ومعنى القلب فى هذا الحديث الذى جاء به أولئك النفر أن عائشة رضى اللّه عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة وشرف النسب والسبب لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه ، فهو إفك قبيح وكذب ظاهر ، والعصبة : هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، والمراد بهم : هنا عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين ، وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم . وقيل : العصبة من الثلاثة إلى العشرة . وقيل : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها فى اللغة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض. وجملة : ﴿ **لا تحسبوه شرا لكم** ﴾ إن كانت خبرا لإنّ فظاهر ، وإن كان الخبر عصبة كما تقدّم فهى مستأنفة ، خوطب بها النبى ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل الذى قذف مع أمّ المؤمنين وتسلية لهم، والشرّ مازاد ضره على نفعه ، والخير مازاد نفعه على ضره وأما الخير الذى لا شرّ فيه فهو الجنة ، والشرّ الذى لا خير فيه فهو النار ، ووجه كونه خيرا لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أمّ المؤمنين وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاما ﴿ **لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم** ﴾ أى بسبب تكلمه بالإفك ﴿ **والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ قرأ الحسن والزهرى وأبو رجاء وحميد الأعرج ويعقوب وابن أبى علية ومجاهد وعمرة بنت عبد الرحمن بضمّ الكاف . قال الفرّاء : وهو وجه جيد؛ لأن العرب تقول : فلان تولى عظيم كذا وكذا ، أى أكبره ، وقرأ الباقون بكسرها . قيل : هما لغتان . وقيل : هو بالضم معظم الإفك ، وبالكسر البداءة به . وقيل : هو بالكسر : الإثم . فالمعنى: إن الذى تولى معظم الإفك من العصبة له عذاب عظيم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما .

واختلف فى هذا الذى تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم ؟ فقيل : هو عبد اللّه بن أبيّ . وقيل : هو حسان ، والأوّل هو الصحيح . وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبى ﷺ جلد فى الإفك رجلين وامرأة ، وهم مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش(١) . وقيل : جلد عبد اللّه بن أبيّ وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ولم يجلد مسطحا ، لأنه لم يصرح بالقذف ، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح . وقيل : لم يجلد أحدا منهم . قال القرطبى : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذين حدّوا :

---

(١) ابن هشام فى السيرة ٣/ ٢٤٨ .

حسان ومسطح وحمنة . ولم يسمع بحدّ لعبد اللّه بن أبى [(١)] ، ويؤيد هذا ما فى سنن أبى داود عن عائشة ، قالت : لما نزل عذرى ، قام النبى ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم ، وسماهم : حسان ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش [(٢)] .

واختلفوا فى وجه تركه ﷺ لجلد عبد اللّه بن أبىّ ، فقيل : لتوفير العذاب العظيم له فى الآخرة ، وحدّ من عداه ليكون ذلك تكفيرا لذنبهم كما ثبت عنه ﷺ فى الحدود أنه قال : «إنها كفارة لمن أقيمت عليه » [(٣)] وقيل : ترك حدّه تألفا لقومه واحتراما لابنه ، فإنه كان من صالحى المؤمنين وإطفاء لنائرة الفتنة ، فقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه كما فى صحيح مسلم [(٤)].

ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول اللّه ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال: ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا** ﴾ « لولا » هذه هى التحضيضية تأكيدا للتوبيخ والتقريع ومبالغة فى معاتبتهم ، أى كان ينبغى للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم ، فهو فى أمّ المؤمنين أبعد . قال الحسن : معنى ﴿ **بأنفسهم** ﴾ : بأهل دينهم ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : ٢٩] . قال الزجاج : ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا : إنهم يقتلون أنفسهم . قال المبرّد: ومثله قوله سبحانه : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ [البقرة : ٥٤] . قال النحاس : ﴿ **بأنفسهم** ﴾ : بإخوانهم ، فأوجب اللّه سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه . قال العلماء: إن فى الآية دليلا على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع ﴿**وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ أى قال المؤمنون عند سماع الإفك : هذا إفك ظاهر مكشوف .

وجملة : ﴿ **لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء** ﴾ من تمام ما يقوله المؤمنون ، أى وقالوا : هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا ﴿ **فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك** ﴾ أى الخائضون فى الإفك ﴿ **عند الله هم الكاذبون**﴾ أى فى حكم اللّه تعالى هم الكاذبون الكاملون فى الكذب ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة** ﴾ هذا خطاب للسامعين ، وفيه زجر عظيم ﴿ **ولولا** ﴾ هذه هى لامتناع الشىء لوجود غيره ﴿ **لمسكم فيما أفضتم فيه** ﴾ أى بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ، يقال : أفاض فى الحديث ، واندفع وخاض .

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٥٩٣ . (٢) أبو داود فى الحدود (٤٤٧٤) .

(٣) البخارى فى الحدود (٦٧٨٤) ومسلم فى الحدود (١٧٠٩/ ٤١) والترمذى فى الحدود (١٤٣٩) وقال : « حسن صحيح » ، وقال الشافعى : «وأحب لمن أصاب ذنبًا فستره اللّه عليه أن يستر على نفسه ويتوب فيما بينه وبين ربه » . كلهم عن عبادة بن الصامت بلفظ يختلف عما أورده الشوكانى .

(٤) مسلم فى التوبة (٢٧٧٠/ ٥٦) .

والمعنى: لولا أنى قضيت عليكم بالفضل فى الدنيا بالنعم التى من جملتها الإمهال ، والرحمة فى الآخرة بالعفو ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك . وقيل : المعنى: لولا فضل اللّه عليكم لمسكم العذاب فى الدنيا والآخرة معا ، ولكن برحمته ستر عليكم فى الدنيا ، ويرحم فى الآخرة من أتاه تائبا .

﴿ **إذ تلقونه بألسنتكم** ﴾ الظرف منصوب بمسكم أو بأفضتم ، قرأ الجمهور: ﴿ **إذ تلقونه** ﴾ من التلقى ، والأصل: تتلقونه فحذف إحدى التاءين . قال مقاتل ومجاهد : المعنى يرويه بعضكم عن بعض . قال الكلبى : وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول : بلغنى كذا وكذا ويتلقونه تلقيا . قال الزجاج : معناه : يلقيه بعضكم إلى بعض . وقرأ محمد السميفع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ، من الإلقاء ، ومعنى هذه القراءة واضح . وقرأ أبىّ وابن مسعود : « تتلقونه » من التلقى ، وهى كقراءة الجمهور . وقرأ ابن عباس وعائشة وعيسى ابن عمر ويحيى بن يعمر وزيد بن علىّ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب ولق يلق ولقا : إذا كذب . قال ابن سيده : جاؤوا بالمعتدى شاهدا على غير المعتدى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد يلقون فيه فحذف حرف الجر فاتصل الضمير . قال الخليل وأبو عمرو : أصل الولق : الإسراع ، يقال : جاءت الإبل تلق ، أى تسرع ، ومنه قول الشاعر:

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق جاؤوا بأسراب من الشام ولق

وقال الآخر :

جاءت به عيس من الشام تلق

قال أبو البقاء : أى يسرعون فيه . قال ابن جرير : وهذه اللفظة أى « تلقونه » على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق، وهو الإسراع بالشىء بعد الشىء كعدد فى إثر عدد ، وكلام فى إثر كلام ، وقرأ زيد بن أسلم وأبو جعفر : «تألقونه » بفتح التاء وهمزة ساكنة ولام مكسورة وقاف مضمومة من الألق وهو الكذب ، وقرأ يعقوب : « تيلقونه » بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية ساكنة ولام مفتوحة وقاف مضمومة ، وهو مضارع ولق بكسر اللام ، ومعنى ﴿**وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم** ﴾ أن قولهم هذا مختصّ بالأفواه من غير أن يكون واقعا فى الخارج معتقدا فى القلوب. وقيل : إن ذكر الأفواه للتأكيد كما فى قوله : ﴿ يطير بجناحيه﴾ [الأنعام : ٣٨] ونحوه ، والضمير فى ﴿**تحسبونه** ﴾ راجع إلى الحديث الذى وقع الخوض فيه والإذاعة له ﴿ **وتحسبونه هينا** ﴾ أى شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم ، وجملة ﴿ **وهو عند الله عظيم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى عظيم ذنبه وعقابه .

﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا** ﴾ هذا عتاب لجميع المؤمنين ، أى هلا إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيبا للخائضين فيه المفترين له ما ينبغى لنا ولا يمكننا أن نتكلم

بهذا الحديث ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ، ومعنى قوله : ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم**﴾ التعجب من أولئك الذين جاؤوا بالإفك ، وأصله التنزيه للّه سبحانه ، ثم كثر حتى استعمل فى كلّ متعجب منه . والبهتان هو : أن يقال فى الإنسان ما ليس فيه ، أى هذا كذب عظيم لكونه قيل فى أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها ، وصدوره مستحيل شرعا من مثلها . ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا فى الإفك فقال: ﴿ **يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا** ﴾ أى ينصحكم اللّه ، أو يحرّم عليكم ، أو ينهاكم كراهة أن تعودوا ، أو من أن تعودوا ، أو فى أن تعودوا لمثل هذا القذف مدّة حياتكم ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ فإن الإيمان يقتضى عدم الوقوع فى مثله ما دمتم ، وفيه تهييج عظيم وتقريع بالغ . ﴿ **ويبين الله لكم الآيات** ﴾ فى الأمر والنهى لتعملوا بذلك وتتأدبوا بآداب اللّه وتنزجروا عن الوقوع فى محارمه ﴿ **والله عليم** ﴾ بما تبدونه وتخفونه ﴿ **حكيم** ﴾ فى تدبيراته لخلقه .

ثم هدّد سبحانه القاذفين ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين وذنوبهم فقال : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا** ﴾ أى يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر ، من قولهم : شاع الشىء يشيع شيوعا وشيعا وشيعانا : إذا ظهر وانتشر ، والمراد بالذين آمنوا : المحصنون العفيفون ، أو كلّ من اتصف بصفة الإيمان ، والفاحشة هى فاحشة الزنا أو القول السيئ ﴿ **لهم عذاب أليم فى الدنيا** ﴾ بإقامة الحدّ عليهم ﴿ **والآخرة** ﴾ بعذاب النار واللّه يعلم جميع المعلومات ﴿ **وأنتم لا تعلمون** ﴾ إلا ما علمكم به وكشفه لكم ، ومن جملة ما يعلمه اللّه عظم ذنب القذف ، وعقوبة فاعله ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ هو تكرير لما تقدّم تذكيرا للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم ﴿ **وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ ومن رأفته بعباده ألا يعاجلهم بذنوبهم ، ومن رحمته لهم أن يتقدّم إليهم بمثل هذا الإعذار والإنذار . وجملة : ﴿**وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ معطوفة على فضل اللّه ، وجواب « لولا » محذوف لدلالة ما قبله عليه، أى لعاجلكم بالعقوبة.

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ الخطوات جمع خطوة ، وهى ما بين القدمين ، والخطوة بالفتح المصدر ، أى لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه ولا تسلكوا طرائقه التى يدعوكم إليها . قرأ الجمهور : ﴿ **خطوات** ﴾ بضم الخاء والطاء ، وقرأ عاصم والأعمش بضم الخاء وإسكان الطاء ﴿ **ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر** ﴾ قيل : جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له ، كأنه قيل : فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأن دأبه أن يستمر آمرًا لغيره بهما . والفحشاء : ما أفرط قبحه . والمنكر : ما ينكره الشرع ، وضمير إنه للشيطان. وقيل: للشأن ، والأولى أن يكون عائدا إلى من يتبع خطوات الشيطان ، لأن من اتبع الشيطان صار مقتديا به فى الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ قد تقدّم بيانه وجواب « لولا » هو قوله : ﴿ **ما زكى منكم من أحد أبدا** ﴾ أى لولا التفضل والرحمة من اللّه ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها ما دام حيا. قرأ الجمهور : ﴿**زكى**﴾

بالتخفيف ، وقرأ الأعمش وابن محيصن وأبو جعفر بالتشديد ، أى ما طهره اللّه . وقال مقاتل: أى ما صلح . والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير ، وهو الذى ذكره ابن قتيبة . قال الكسائى إن قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ معترض ، وقوله : ﴿ **ما زكى منكم من أحد أبدا** ﴾ جواب لقوله أولا وثانيا ولولا فضل اللّه . وقراءة التخفيف أرجح لقوله : ﴿ **ولكن الله يزكى من يشاء** ﴾ أى من عباده بالتفضل عليهم والرحمة لهم ﴿ **والله سميع** ﴾ لما يقولونه ﴿ **عليم** ﴾ بجميع المعلومات وفيه حثّ بالغ على الإخلاص ، وتهييج عظيم لعباده التائبين ، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحبّ أن تشيع الفاحشة فى عباد اللّه المؤمنين، ولا يزجر نفسه بزواجر اللّه سبحانه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل فى سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعدّدة وطرق مختلفة . حاصله : أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم ذكرهم فى شأن عائشة رضى اللّه عنها ، وذلك أنها خرجت من هودجها تلتمس عقدا لها انقطع من جزع ، فرحلوا وهم يظنون أنها فى هودجها ، فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم ، فأقامت فى ذلك المكان ومرّ بها صفوان بن المعطل،وكان متأخرا عن الجيش ، فأناخ راحلته وحملها عليها ؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا ، فبرأها اللّه مما قالوه . هذا حاصل القصة مع طولها وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك [١] . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن الأربع وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن عائشة قالت : لما نزل عذرى قام رسول اللّه ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم . قال الترمذى : هذا حديث حسن [٢] . ووقع عند أبى داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الذين افتروا على عائشة عبد اللّه بن أبىّ بن سلول ومسطح وحسان وحمنة بنت جحش [٤] .

وأخرج البخارى وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن الزهرى قال : كنت عند الوليد بن عبد الملك ، فقال الذى تولى كبره منهم علىّ ، فقلت : لا ، حدثنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبد اللّه بن عبد الله بن عتبة بن

---

(١) أحمد ٦/ ١٩٤ـ١٩٧ والبخارى فى الشهادات (٢٦٦١) وفى التفسير (٤٧٥٠) وفى الأيمان (٦٦٦٢، ٦٦٧٩) وفى الاعتصام (٧٣٦٩) وفى التوحيد (٧٥٠٠ـ ٧٥٤٥) ومسلم فى التوبة (٥٦/٢٧٧٠) وأبو داود فى الحدود (٤٤٧٤، ٤٤٧٥) والترمذى فى التفسير (٣١٨٠) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى التفسير (٢٧١، ٣٨٠) وابن ماجة فى الحدود (٢٥٦٧) .

(٢) أحمد ٦/ ٣٥ وأبو داود فى الحدود (٤٤٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٨١) وقال : « هذا حديث حسن غريب»، والنسائى فى الكبرى فى الرجم (٧٣٥١) وابن ماجة فى الحدود (٢٥٦٧) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٧٤.

(٣) أبو داود فى الحدود (٤٤٧٥) .

(٤) ابن جرير ١٨/ ٦٩ .

مسعود كلهم سمع عائشة تقول : الذى تولى كبره منهم عبد الله بن أبىّ ، قال : فقال لى: فما كان جرمه ؟ قلت :حدّثنى شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول : كان مسيئا فى أمرى [١] . وقال يعقوب بن شيبة فى مسنده : حدّثنا الحسن بن علىّ الحلوانى ، حدّثنا الشافعى ، حدّثنا عمى قال : دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له : ياسليمان الذى تولى كبره من هو ؟ قال : عبد الله بن أبىّ . قال : كذبت هو علىّ . قال : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ، فدخل الزهرى فقال: يا ابن شهاب من الذى تولى كبره ؟ فقال : ابن أبىّ . قال : كذبت هو علىّ . قال : أنا أكذب ؟ لا أبا لك ، والله لو نادى مناد من السماء أن الله قد أحلّ الكذب ما كذبت ،حدثنى عروة وسعيد وعبد الله وعلقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبىّ. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبب وقال:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت : لكنك لست كذلك ، قلت : تدعين مثل هذا يدخل عليك ، وقد أنزل الله: ﴿**والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم**﴾ فقالت : وأىّ عذاب أشدّ من العمى ؟[٢] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن بعض الأنصار؛ أن امرأة أبى أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا : ألا تسمع مايقول الناس فى عائشة ؟ قال: بلى وذلك الكذب ، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أمّ أيوب ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله خير منك وأطيب ، إنما هذا كذب وإفك باطل [٣] ؛ فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك . ثم قال : ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ أى كما قال أبو أيوب وصاحبته . وأخرج الواقدى والحاكم وابن عساكر عن أفلح مولى أبى أيوب أن أمّ أيوب . . . فذكر نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا** ﴾ قال : يحرّج الله عليكم . وأخرج البخارى فى الأدب ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن علىّ بن أبى طالب قال : القائل الفاحشة والذى شيع بها ، فى الإثم سواء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما زكى منكم من أحد أبدا** ﴾ قال : ما اهتدى أحد من الخلائق لشىء من الخير .

---

(١) البخارى فى المغازى (٤١٤٢) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٧٢ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٥٦) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٨/ ١٥٥) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٧٣ .
وحصان : عفيفة ، رزان : كاملة العقل ، ما تزن : ما تتهم ، غرثى : جائعة ، والغوافل : الغافلات عن الشر . يريد مدحها بالعفة والرزانة وتبرئتها من أكل لحوم الناس بالغيبة .

(٣) ابن هشام فى السيرة ٣/ ٢٤٨ وابن جرير ١٨/ ٧٧ .

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾.

قوله : ﴿ **ولا يأتل** ﴾ أى يحلف وزنه : يفتعل من الألية ، وهى اليمين ، ومنه قول الشاعر :

تألّى ابن أوس حلفـة ليردّنى ... إلى نسوة كأنهن مفايد

وقول الآخر :

قـليل الألايا حافـظ ليمينه ... وإن بدرت منه الألية برّت

يقال : ائتـلى يأتـلى إذا حلف . ومـنه قـوله سبحانه : ﴿ للذين يؤلون من نسـائهم ﴾ [البقرة : ٢٢٦] وقالت فرقة: هـو من ألـوت فى كذا إذا قصرت ، ومنه : لم آل جـهدا : أى لم أقصر، وكذا منه قـوله : ﴿ لا يألـونكم خبالا ﴾ [آل عمران: ١١٨] ، ومنه قول الشاعر :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

والأوّل أولى بدليل سبب النزول ، وهو ما سيأتى ، والمراد بالفضل : الغنى والسعة فى المال ﴿ **أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله** ﴾ أى : على ألا يؤتوا . قال الزجاج : ألا يؤتوا فحذف لا ، ومنه قول الشاعر:

فقلت : يمين اللّه أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وقال أبو عبيدة : لا حاجة إلى إضمار لا ، والمعنى : لا يحلفوا على ألا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلك الأوصاف ، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى : لا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه، وقرأ أبو حيوة : « إن تؤتوا » بتاء الخطاب على الالتفات . ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال : ﴿ **وليعـفوا** ﴾ عن ذنبهم الذى أذنبوه عليهم وجنايتهم التى اقترفوها ، من عفا الربع ، أى درس ، والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع ﴿ **وليصفحوا** ﴾ بالإغضاء عن الجانى والإغماض عن جنايته ، وقرئ بالفوقية فى الفعلين جميعا . ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقال : ﴿ **ألا تحبون**

أن يغفر الله لكم ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم ، فكيف لا يقتدى العباد بربهم فى العفو والصفح عن المسيئين إليهم ؟

﴿ **إن الذين يرمون المحصنات** ﴾ قد مرّ تفسير المحصنات وذكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء فى حدّ القذف . وقد اختلف فى هذه الآية هل هى خاصة أو عامة ؟ فقال سعيد بن جبير : هى خاصة فيمن رمى عائشة رضى اللّه عنها . وقال مقاتل : هى خاصة بعبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين . وقال الضحاك والكلبى : هذه الآية هى فى عائشة وسائر أزواج النبىّ ﷺ دون سائر المؤمنين والمؤمنات ، فمن قذف إحدى أزواج النبىّ ﷺ فهو من أهل هذه الآية . قال الضحاك : ومن أحكام هذه الآية أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ ، ومن قذف غيرهنّ فقد جعل اللّه له التوبة كما تقدّم فى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ [النور : ٥] . وقيل : إن هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف ولم يتب. وقيل : إنها تعم كلّ قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين ، واختاره النحاس ، وهو الموافق لما قرّره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقيل : إنها خاصة بمشركى مكة ؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة : إنما خرجت لتفجر . قال أهل العلم : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القذفة ، فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحدّ وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين ، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور فى جانب عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين، وإن كانت فى مشركى مكة فإنهم ملعونون ﴿ **فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ والمراد بالغافلات اللاتى غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهنّ ولا يفطنّ لها ، وفى ذلك من الدلالة على كمال النزاهة وطهارة الجيب ما لم يكن فى المحصنات . وقيل : هنّ السليمات الصدور ، النقيات القلوب .

﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذى لا يحيط به وصف . وقرأ الجمهور : ﴿ **يوم تشهد** ﴾ بالفوقية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لأن الجارّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل . والمعنى : تشهد ألسنة بعضهم على بعض فى ذلك اليوم . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم فى ذلك اليوم بما تكلموا به ﴿ **وأيديهم وأرجلهم** ﴾ بما عملوا بها فى الدنيا ، وأن اللّه سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم ، والمشهود محذوف وهو ذنوبهم التى اقترفوها ، أى تشهد هذه عليهم بذنوبهم التى اقترفوها ومعاصيهم التى عملوها .

﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ أى يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم اللّه جزاءهم عليها موفرا ، فالمراد بالدّين هاهنا : الجزاء ، وبالحق : الثابت الذى

لا شك فى ثبوته . قرأ زيد بن علىّ : « يوفيهم » مخففا من أوفى ، وقرأ من عداه بالتشديد من وفى .وقرأ أبو حيوة ومجاهد : « الحق » بالرفع على أنه نعت للّه ، وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ الباقون بالنصب على أنه نعت لدينهم . قال أبو عبيدة : لولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ليكون نعتا للّه عزّ وجلّ ولتكون موافقة لقراءة أبىّ ، وذلك أن جرير ابن حازم قال : رأيت فى مصحف أبىّ : «يوفيهم اللّه الحق دينهم». قال النحاس : وهذا الكلام من أبى عبيدة غير مرضىّ ، لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم ، ولا حجة أيضا فيه ؛ لأنه لو صحّ أنه فى مصحف أبىّ كذلك جاز أن يكون دينهم بدلا من الحقّ ﴿ **ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ أى ويعلمون عند معاينتهم لذلك ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز أن اللّه هو الحقّ الثابت فى ذاته وصفاته وأفعاله . المبين : المظهر للأشياء كما هى فى أنفسها ، وإنما سمى سبحانه الحقّ لأن عبادته هى الحقّ دون عبادة غيره . وقيل : سمى بالحقّ ، أى الموجود ، لأن نقيضه الباطل وهو المعدوم .

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة فى أهل الإفك بكلمة جامعة فقال :﴿ **الخبيثات للخبيثين** ﴾ أى : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، أى مختصة بهم لا تتجاوزهم ، وكذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن ، وهكذا قوله : ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات ، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات . قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل . قال الزجاج : ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء ، وهذا ذمّ للذين قذفوا عائشة بالخبث ومدح للذين برؤوها . وقيل إن هذه الآية مبنية على قوله : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ فالخبيثات : الزوانى ، والطيبات :العفائف ، وكذا الخبيثون والطيبون ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك مبرؤون مما يقولون** ﴾ إلى الطيبين والطيبات ، أى : هم مبرؤون مما يقوله الخبيثون والخبيثات ، وقيل : الإشارة إلى أزواج النبىّ ﷺ ، وقيل : إلى رسول اللّه ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل ، وقيل عائشة وصفوان فقط . قال الفراء : وجمع كما قال : ﴿ فإن كان له إخوة ﴾ [النساء : ١١] والمراد أخوان ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ أى هؤلاء المبرؤون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب ﴿ **ورزق كريم** ﴾ وهو رزق الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يأتل** ﴾ **الآية** ، يقول : لايقسموا ألا ينفعوا أحدا . وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : كان مسطح بن أثاثة ممن تولى كبره من أهل الإفك، وكان قريبا لأبى بكر وكان فى عياله ، فحلف أبو بكر ألا ينيله خيرا أبدا ، فأنزل اللّه ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة** ﴾ الآية، قالت: فأعاده أبوبكر إلى عياله وقال : لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا تحللتها وأتيت الذى هو

خير. وقد روى هذا من طرق عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها ، فأقسم ناس من أصحاب النبىّ ﷺ منهم أبو بكر ألا يتصدّقوا على رجل تكلم بشىء من هذا ولا يصلوه ، فقال : لا يقسم أولو الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم وأن يعطوهم من أموالهم كالذى كانوا يفعلون قبل ذلك ، فأمر الله أن يغفر لهم وأن يعفى عنهم [(١)].

وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **إنّ الذين يرمون المحصنات** ﴾ الآية ، قال: نزلت فى عائشة خاصة[(٢)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : هذه فى عائشة وأزواج النبى ﷺ ، ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة ،وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى ﷺ التوبة ، ثم قرأ : ﴿ **والذين يرمون المحصنات** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾[(٣)]. وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى سعيد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرّف الكافر بعمله فجحد وخاصم ، فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، ثم يدخلهم النار » [(٤)] . وقد روى عن النبىّ ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه: ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ قال : حسابهم وكل شىء فى القرآن الدين فهو الحساب. وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه ؛ أن النبىّ ﷺ قرأ : « يومئذ يوفيهم الله الحقّ دينهم » .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الخبيثات** ﴾ قال : من الكلام ﴿**للخبيثين**﴾ قال: من الرجال ﴿ **والخبيثون** ﴾ من الرجال ﴿ **للخبيثات** ﴾ من الكلام ﴿ **والطيبات** ﴾ من الكلام ﴿ **للطيبين** ﴾ من الناس ﴿**والطيبون** ﴾ من الناس ﴿ **للطيبات** ﴾ من الكلام ، نزلت فى الذين قالوا فى زوجة النبىّ ﷺ ما قالوا من البهتان. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير والطبرانى عن قتادة نحوه أيضا ، وكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن زيد فى الآية قال : نزلت فى عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك ، وكان عبد الله بن أبى هو الخبيث ، فكان

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٨٢ .　　　(٢) صححه الحاكم ٤/ ١٠ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٨٣ والطبرانى (٢٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٣ : « وفى إسناده راوٍ لم يسم وبقية رجاله ثقات » .

(٤) أبو يعلى (١٣٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٥٤ : « رواه أبو يعلى بإسناد حسن على ضعف فيه » .

هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها ، وكان رسول الله ﷺ طيبا ، فكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة الطيبة ، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب ، وفى قوله : ﴿ **أولئك مبرؤون مما يقولون** ﴾ قال : ها هنا برئت عائشة[1] . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : لقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وعدت مغفرة وأجرا عظيما .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف ،شرع فى ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما فى ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدّى إلى أحد الأمرين المذكورين ، وأيضا : إن الإنسان يكون فى بيته ومكان خلوته على حالة قد لا يحبّ أن يراه عليها غيره ، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية ، هى قوله : ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ والاستئناس : الاستعلام والاستخبار ، أى حتى تستعلموا من فى البيت ، والمعنى : حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم ، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم ، فإذا علمتم ذلك دخلتم، ومنه قوله : ﴿ فإن آنستم منهم رشدا ﴾ [النساء : ٦] أى علمتم . قال الخليل : الاستئناس : الاستكشاف ، من أنس الشىء إذا أبصره كقوله : ﴿ إنى آنست نارا ﴾ [طه : ١٠] أى أبصرت . وقال ابن جرير : إنه بمعنى : وتؤنسوا أنفسكم . قال ابن عطية : وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس . ومعنى كلام ابن جرير هذا أنه من الاستئناس الذى هو خلاف الاستيحاش ، لأن الذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ، فهو كالمستوحش حتى يؤذن له ، فإذا أذن له استأنس ، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل. وقيل : هو من الإنس ، وهو يتعرّف هل ثم إنسان أم لا . وقيل: معنى الاستئناس : الاستئذان ، أى لا تدخلوها حتى تستأذنوا . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : حتى تستأذنوا ، ويؤيده ما حكاه القرطبى عن ابن عباس وأبىّ وسعيد بن جبير أنهم قرؤوا : « حتى تستأذنوا» قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب : الاستئناس فيما يرى والله أعلم : الاستئذان ، وقوله: ﴿ **وتسلموا على أهلها** ﴾ قد بينه النبى ﷺ كما سيأتى بأن يقول : السلام عليكم أدخل؟ مرّة أو ثلاثا كما سيأتى .

واختلفوا هل يقدّم الاستئذان على السلام أو العكس ؟ فقيل : يقدّم الاستئذان ، فيقول :

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٨٦ والطبرانى (٢٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٤ : « ورجاله ثقات إلا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم » .

أدخل ؟ سلام عليكم ، لتقديم الاستئناس فى الآية على السلام . وقال الأكثرون : إنه يقدّم السلام على الاستئذان فيقول : السلام عليكم، أدخل ؟، وهو الحقّ، لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا . وقيل : إن وقع بصره على إنسان قدّم السلام ، وإلا قدّم الاستئذان ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ الإشارة إلى الاستئناس والتسليم ، أى دخولكم مع الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أن الاستئذان خير لكم ، وهذه الجملة متعلقة بمقدّر ، أى أمرتم بالاستئذان ، والمراد بالتذكر الاتعاظ ، والعمل بما أمروا به ﴿ **فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم** ﴾ أى فإن لم تجدوا فى البيوت التى لغيركم أحدا ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : معنى فإن لم تجدوا فيها أحدا ، أى لم يكن لكم فيها متاع ، وضعفه وهو حقيق بالضعف ؛ فإن المراد بالأحد المذكور: أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها ، لا متاع الداخلين إليها ﴿ **وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا** ﴾ أى إن قال لكم أهل البيت: ارجعوا فارجعوا، ولا تعاودوهم بالاستئذان مرّة أخرى ، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع . ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح وتكرار الاستئذان والقعود على الباب فقال :﴿ **هو أزكى لكم** ﴾ أى أفضل ﴿**وأطهر** ﴾ من التدنس بالمشاحة على الدخول لما فى ذلك من سلامة الصدر ، والبعد من الريبة ، والفرار من الدناءة ﴿ **والله بما تعملون عليم** ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿ **ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم** ﴾ أي : لا جناح عليكم فى الدخول بغير استئذان إلى البيوت التى ليست بمسكونة .

وقد اختلف الناس فى المراد بهذه البيوت ، فقال محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد : هى الفنادق التى فى الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوى إليها . وقال ابن زيد والشعبى : هى حوانيت القيساريات ، قال الشعبى: لأنهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس هلمّ . وقال عطاء : المراد بها الخرب التى يدخلها الناس للبول والغائط ، ففى هذا أيضا متاع . وقيل : هى بيوت مكة . روى ذلك عن محمد بن الحنفية أيضا ، وهو موافق لقول من قال : إن الناس شركاء فيها ، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة . والمتاع : المنفعة عند أهل اللغة ، فيكون معنى الآية : فيها منفعة لكم ، ومنه قوله : ﴿**ومتعوهن** ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقولهم : أمتع اللّه بك ، وقد فسر الشعبى المتاع فى كلامه المتقدّم بالأعيان التى تباع . قال جابر بن زيد : وليس المراد بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة . قال النحاس؛ وهو حسن موافق للغة ﴿ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ أى : ما تظهرون وما تخفون ، وفيه وعيد لمن لم يتأدّب بآداب اللّه فى دخول بيوت الغير .

وقد أخرج الفريابى وابن جرير من طريق عدىّ بن ثابت عن رجل من الأنصار قال : قالت امرأة : يارسول اللّه ، إنى أكون فى بيتى على الحالة التى لا أحبّ أن يرانى عليها أحد : ولد ولا والد ، فيأتينى الأب فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ ولفظ ابن جرير : وإنه لا يزال يدخل

علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحالة ، فنزلت ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم** ﴾ الآية (١) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن منده فى غرائب شعبه ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، والضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ قال : أخطأ الكاتب « حتى تستأذنوا » ﴿ **وتسلموا على أهلها** ﴾(٢) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن إبراهيم النخعى قال فى مصحف عبد اللّه : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : الاستئناس : الاستئذان .

وأخرج ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه وابن أبى حاتم عن أبى أيوب قال : قلت : يارسول اللّه، أرأيت قول (٤) اللّه تعالى : ﴿ **حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » . قال ابن كثير : هذا حديث غريب (٥) . وأخرج الطبرانى عن أبى أيوب أن النبى ﷺ قال : « الاستئناس أن يدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين يسلم عليهم» (٦) . وأخرج ابن سعد وأحمد ، والبخارى فى الأدب ، وأبو داود والترمذى والنسائى ، والبيهقى فى الشعب من طريق كلدة ؛ أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بلبأ وضغابيس والنبى ﷺ بأعلى الوادى ، قال : فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبى ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم أأدخل ؟ » قال الترمذى : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه (٧) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى الأدب وأبو داود ، والبيهقى فى السنن

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٨٨ .

(٢) ابن جرير ١٨/ ٨٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٦ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٨٨٠٤) وقال : « وهذا الذى رواه شعبة ، واختلف عليه فى إسناده ، ورواه أبو بشر واختلف عليه فى إسناده من أخبار الآحاد . ورواية إبراهيم عن ابن مسعود منقطعة . والقراءة العامة ثبت نقلها بالتواتر ؛ فهى أولى ، ويحتمل أن تكون تلك القراءة الأولى ، ثم صارت القراءة إلى ما عليه العامة ، ونحن لانزعم أن شيئًا مما وقع عليه الإجماع أو نقل متواترًا خطأ ، وكيف يجوز أن يقال ذلك ، وله وجه يصح وإليه ذهبت العامة ».

(٣) ابن جرير ١٨/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٨٨٠٠) ، وقد سبق ذكر تعليقه عليه .

(٤) فى المطبوعة : « قبول » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٧٢٦) والطبرانى (٤٠٦٥) وفى سنده واصل بن السائب . قال البخارى وغيره : «منكر الحديث » ، وقال النسائى : «متروك » ، وقال أبو زرعة : « ضعيف » . ميزان الاعتدال ٤/ ٣٢٨ (٩٣٢٣) .

(٦) الطبرانى (٤٠٦٤) وإسناده كإسناد سابقه .

(٧) ابن سعد ٥/ ٤٥٨ وأحمد ٣/ ٤١٤ وأبو داود فى الأدب (٥١٧٦) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٠) وقال : «هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى الأطعمة (٦٧٣٥) .

من طريق ربعيّ ، قال : حدثنا رجل من بنى عامر استأذن على النبى ﷺ وهو فى بيت ، فقال: أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان . فقل له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ » (١) . وأخرج ابن جرير عن عمر بن سعيد الثقفى نحوه مرفوعا ، ولكنه قال : إن النبىّ ﷺ قال لأمة له يقال لها روضة : « قومى إلى هذا فعلميه » (٢).

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرىّ قال : كنت جالسا فى مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى فزعا ، فقلنا له : ما أفزعك قال : أمرنى عمر أن آتيه فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، فقال: ما منعك أن تأتينى ؟ فقلت : قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وقد قال رسول اللّه ﷺ : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع »: قال : لتأتينى على هذا بالبينة . فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه ليشهد له ، فقال عمر لأبى موسى : إنى لم أتهمك ، ولكن الحديث عن رسول اللّه ﷺ شديد (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد قال : اطلع رجل من جحر فى حجرة النبىّ ﷺ ومعه مدرى يحكّ بها رأسه ، قال : « لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها فى عينك ، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » . وفى لفظ : « إنما جعل الإذن من أجل البصر»(٤) وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه عن أنس قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله فى هذه الآية، فما أدركتها ، أن أستأذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : ارجع ، فأرجع وأنا مغتبط لقوله : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا (٥) فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ . وأخرج البخارى فى الأدب، وأبو داود فى الناسخ والمنسوخ ، وابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال: ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٧٢٤) وأحمد ٥/ ٣٦٩ وأبو داود فى الأدب (٥١٧٧) ، والبيهقى ٨/ ٣٤٠ .

(٢) ابن جرير ١٨/ ٨٧ .

(٣) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٥) ومسلم فى الآداب (٢١٥٣/ ٣٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٨٠) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٩٠) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الأدب (٣٧٠٦) .

(٤) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤١) ومسلم فى الآداب (٢١٥٦/ ٤٠) والترمذى فى الاستئذان (٢٧٠٩) وقال : «هذا حديث حسن صحيح ».

(٥) فى المطبوعة : « راجعوا » .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ .

لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان ، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم ، فيندرج تحته غضّ البصر من المستأذن، كما قال ﷺ : « إنما جعل الإذن من أجل البصر »[(١)] وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم ، لكون قطع ذرائع الزنا التى منها النظر هم أحق من غيرهم بها وأولى بذلك ممن سواهم . وقيل : إن فى الآية دليلا على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم . وفى الكلام حذف ، والتقدير : قل للمؤمنين غضوا ، يغضوا . ومعنى غضّ البصر : إطباق الجفن على العين بحيث تمتنع الرؤية ، ومنه قول جرير :

فغـضّ الطـرف إنـك مـن نمـير فلا كعبا بـلغـت ولا كـلابا

وقول عنترة :

وأغضّ طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتـى مـأواها

و« من » فى قوله : ﴿ **من أبصارهم** ﴾ هى التبعيضية ، وإليه ذهب الأكثرون ، وبينوه بأن المعنى غضّ البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل . وقيل : وجه التبعيض أنه يعفى للناظر أوّل نظرة تقع من غير قصد . وقال الأخفش : إنها زائدة وأنكر ذلك سيبويه . وقيل : إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء . واعترض عليه بأنه لم يتقدم مبهم يكون مفسرا بمن. وقيل : إنها لابتداء الغاية، قاله ابن عطية. وقيل : الغضّ : النقصان ، يقال : غضّ فلان من فلان ، أى وضع منه ، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه ومنقوص فتكون « من » صلة للغضّ ، وليست لمعنى من تلك المعانى الأربعة . وفى هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحلّ النظر إليه ، ومعنى ﴿ **ويحفظوا فروجهم** ﴾ : أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم . وقيل : المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها ، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج . قيل : ووجه المجىء بمن فى الأبصار دون الفروج أنه موسع فى النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى ، بخلاف حفظ الفرج فإنه مضيق فيه ، فإنه لا يحلّ منه إلا ما استثنى . وقيل : الوجه أن غضّ البصر كله كالمتعذر ، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من الغضّ والحفظ ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **أزكى لهم** ﴾ أى أطهر لهم من دنس الريبة وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة ﴿ **إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ لا يخفى عليه شىء من صنعهم ، وفى ذلك وعيد لمن لم يغضّ بصره ويحفظ فرجه .

(١) جزء من حديث سبق تخريجه .

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ خصّ سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما فى سائر الخطابات القرآنية ، وظهر التضعيف فى يغضضن ولم يظهر فى يغضوا ؛ لأن لام الفعل من الأوّل متحركة ومن الثانى ساكنة ، وهما فى موضع جزم جوابا للأمر ، وبدأ سبحانه بالغضّ فى الموضعين قبل حفظ الفرج ؛ لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج ، والوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه، ومعنى ﴿ **يغضضن من أبصارهن** ﴾ : كمعنى ﴿ **يغضوا من أبصارهم** ﴾ ، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ ، وكذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهن على الوجه الذى تقدّم فى حفظ الرجال لفروجهم ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ أى ما يتزينّ به من الحلية وغيرها ، وفى النهى عن إبداء الزينة نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهى ، فقال : ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ .

واختلف الناس فى ظاهر الزينة ما هو ؟ فقال ابن مسعود وسعيد بن جبير : ظاهر الزينة هو الثياب وزاد سعيد بن جبير الوجه . وقال عطاء والأوزاعى : الوجه والكفان . وقال ابن عباس وقتادة والمسور بن مخرمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسواك والخضاب إلى نصف الساق ونحو ذلك ، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه . وقال ابن عطية : إن المرأة لا تبدى شيئا من الزينة وتخفى كل شىء من زينتها ، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة . ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآنى النهى عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب والخمار ونحوهما مما على الكف والقدمين من الحلية ونحوها ، وإن كان المراد بالزينة : مواضعها كان الاستثناء راجعا إلى مايشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين ونحو ذلك . وهكذا إذا كان النهى عن إظهار الزينة يستلزم النهى عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب ، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه فى الموضعين ، وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة وما تتزين به النساء فالأمر واضح ، والاستثناء يكون من الجميع . قال القرطبى فى تفسيره : الزينة على قسمين : خلقية ومكتسبة ؛ فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة ، والزينة المكتسبة : ما تحاوله المرأة فى تحسين خلقها كالثياب والحلى والكحل والخضاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقول الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى   وإذا عطلن فهنّ خير عواطل (١)

﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام التى للأمر . وقرأ أبوعمرو بكسرها على الأصل لأن أصل لام الأمر الكسر ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . والخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، ومنه اختمرت المرأة وتخمرت . والجيوب : جمع جيب ، وهو موضع القطع من الدرع والقميص ، مأخوذ من الجوب وهو القطع. قال المفسرون : إن نساء الجاهلية كنّ يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ ، وكانت جيوبهنّ من

(١) القرطبى ٧ / ٤٦٢١ .

قدّام واسعة ، فكان تنكشف نحورهنّ وقلائدهنّ ، فأمرن أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو ، وفى لفظ الضرب مبالغة فى الإلقاء الذى هو الإلصاق . قرأ الجمهور : ﴿ **بخمُرهنّ** ﴾ بتحريك الميم ، وقرأ طلحة بن مصرف بسكونها . وقرأ الجمهور : ﴿ **جُيوبهنّ** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ ابن كثير وبعض الكوفيين بكسرها ، وكثير من متقدمى النحويين لا يجوّزون هذه القراءة . وقال الزجاج : يجوز أن يبدل من الضمة كسرة ، فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء ، وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدّمنا وهو المعنى الحقيقى . وقال مقاتل : إن معنى على جيوبهنّ : على صدورهنّ ، فيكون فى الآية مضاف محذوف ، أى على مواضع جيوبهنّ .

ثم كرر سبحانه النهى عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء فقال : ﴿ **ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ** ﴾ : البعل : هو الزوج والسيد فى كلام العرب ، وقدّم البعولة لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم، ومثله قوله سبحانه : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ [المؤمنون: ٥ ، ٦]. ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوى المحارم فقال : ﴿ **أو آبائهنّ أو آباء بعولتهن** ﴾ إلى قوله :﴿ **أو بنى أخواتهنّ** ﴾ فجوّز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة وعدم خشية الفتنة لما فى الطباع من النفرة عن القرائب . وقد روى عن الحسن والحسين رضى اللّه عنهما أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهابا منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبى ﷺ وهى قوله : ﴿ لا جناح عليهنّ فى آبائهن ﴾ [الأحزاب:٥٥] . والمراد بأبناء بعولتهنّ ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فى قوله : ﴿ **أو أبنائهنّ**﴾ أولاد الأولاد وإن سفلوا وأولاد بناتهنّ وإن سفلوا، وكذا آباء البعولة وآباء الآباء وآباء الأمهات وإن علوا ، وكذلك أبناء البعولة وإن سفلوا ، وكذلك أبناء الإخوة والأخوات . وذهب الجمهور إلى أن العمّ والخال كسائر المحارم فى جواز النظر إلى ما يجوز لهم ،وليس فى الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب . وقال الشعبى وعكرمة : ليس العمّ والخال من المحارم ، ومعنى ﴿ **أو نسائهنّ** ﴾ : هنّ المختصات بهنّ الملابسات لهنّ بالخدمة أو الصحبة ، ويدخل فى ذلك الإماء ، ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لهنّ أن يبدين زينتهنّ لهنّ لأنهن لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال . وفى هذه المسألة خلاف بين أهل العلم ، وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات ﴿ **أو ما ملكت أيمانهنّ** ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين ، وبه قال جماعة من أهل العلم ، وإليه ذهبت عائشة وأمّ سلمة وابن عباس ومالك . وقال سعيد بن المسيب : لا تغرّنكم هذه الآية : ﴿ **أو ما ملكت أيمانهنّ** ﴾ إنما عنى بها الإماء ولم يعن بها العبيد . وكان الشعبى يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وهو قول عطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين، وروى عن ابن مسعود ، وبه قال أبوحنيفة وابن جريج ﴿ **أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال** ﴾ قرأ

الجمهور : ﴿ غير ﴾ بالجر . وقرأ أبو بكر وابن عامر بالنصب على الاستثناء . وقيل : على القطع ، والمراد بالتابعين هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم فى النساء قاله مجاهد وعكرمة والشعبى ، ومن الرجال فى محل نصب على الحال . وأصل الإربة والأرب والمأربة الحاجة والجمع مآرب ، أى حوائج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ولى فيها مآرب أخرى ﴾ [طه : ١٨] ، ومنه قول طرفة :

إذا المرء قال الجهل والحوب والخنا تقدّم يوما ثم ضاعت مآربه

وقيل : المراد بغير أولى الإربة من الرجال: الحمقى الذين لا حاجة لهم فى النساء. وقيل: البله . وقيل : العنين . وقيل : الخصى . وقيل : المخنث . وقيل : الشيخ الكبير ، ولا وجه لهذا التخصيص ، بل المراد بالآية ظاهرها وهم من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له فى النساء ولا يحصل منه ذلك فى حال من الأحوال ، فيدخل فى[1] هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾ الطفل : يطلق على المفرد والمثنى ، أو المراد به هنا: الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع ،وفى مصحف أبىّ: « أو الأطفال » على الجمع ، يقال للإنسان طفل ما لم يراهق الحلم ، ومعنى ﴿ **لم يظهروا** ﴾ لم يطلعوا ، من الظهور بمعنى الاطلاع ، قاله ابن قتيبة. وقيل: معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة ، قاله الفراء والزجاج ، يقال : ظهرت على كذا : إذا غلبته وقهرته . والمعنى : لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع ، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع . قراءة الجمهور : ﴿**عوْراتِ** ﴾ بسكون الواو تخفيفا ، وهى لغة جمهور العرب. وقرأ ابن عامر فى رواية بفتحها . وقرأ بذلك ابن أبى إسحاق والأعمش . ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، وهى لغة هذيل ابن مدركة ، ومنه قول الشاعر الذى أنشده الفراء :

أخو بَيَضَاتٍ رائحٌ متأوبٌ رفيقٌ لمسحِ المنكبينِ سبوحُ

واختلف العلماء فى وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال ، فقيل : لا يلزم لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح. وقيل : يلزم لأنها قد تشتهى المرأة . وهكذا اختلف فى عورة الشيخ الكبير الذى قد سقطت شهوته ، والأولى بقاء الحرمة كما كانت ، فلا يحلّ النظر إلى عورته ولا يحلّ له أن يكشفها .

وقد اختلف العلماء فى حدّ العورة . قال القرطبى : أجمع المسلمون على أن السوأتين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها ويديها على خلاف فى ذلك [2] . وقال الأكثر : إن عورة الرجل من سرّته إلى ركبته ﴿**ولا يـضربن بأرجلهنّ ليعلم** [3] **ما يخفين من**

---

(١) فى المطبوعة : « من » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) القرطبى ٧/ ٤٦٢٩ .

(٣) فى المطبوعة : « ليعم » .

زينتهن ﴾ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال . قال الزجاج : وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها . ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصى فقال سبحانه: ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون** ﴾ فيه الأمر بالتوبة ، ولا خلاف بين المسلمين فى وجوبها وأنها فرض من فرائض الدين . وقد تقدّم الكلام على التوبة فى سورة النساء (١) . ثم ذكر ما يرغبهم فى التوبة ، فقال : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى تفوزون بسعادة الدنيا والآخرة . وقيل : إن المراد بالتوبة هنا: هى عما كانوا يعملونه فى الجاهلية ، والأوّل أولى لما تقرر فى السنة أن الإسلام يجب ما قبله .

وقد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال : مرّ رجل على عهد رسول اللّه ﷺ فى طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : واللّه لا أغسل الدمّ حتى آتى رسول اللّه ﷺ فأعلمه أمرى، فأتاه فقص عليه قصته ، فقال النبىّ ﷺ : « هذا عقوبة بذنبك » ، وأنزل اللّه : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ قال : يعنى من شهواتهم مما يكره اللّه . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى ، والبيهقى فى سننه عن بريدة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإن الأولى لك ، وليست لك الأخرى » (٢) . وفى مسلم وأبى داود والترمذى والنسائى عن جرير البجلى قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أَصرف بصرى (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » ، قالوا : يا رسول اللّه ، مالنا بدّ من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا : وما حقه يا رسول اللّه ؟ قال : «غضّ البصر ، وكف الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » (٤) .

وأخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال : قلت : يا رسول اللّه ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما

---

(١) عند تفسير الآيات : ١٦ـ ١٨ .

(٢) أبو داود فى النكاح (٢١٤٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٧٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والبيهقى ٧/ ٩٠ .

(٣) مسلم فى الآداب (٢١٥٩/ ٤٥) وأبو داود فى النكاح (٢١٤٨) والترمذى فى الأدب (٢٧٧٦) وقال : « هذا حديث حسنٌ صحيح » والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٢٣٣) .

(٤) أحمد ٣/ ٣٦ ، ٤٧ والبخارى فى المظالم (٢٤٦٥) وفى الاستئذان (٦٢٢٩) ومسلم فى اللباس (٢١٢١/ ١١٤) وأبو داود فى الأدب (٤٨١٥).

ملكت يمينك » . قلت : يا نبيّ اللّه ، إذا كان القوم بعضهم فى بعض ، قال : « إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها » ، قلت : إذا كان أحدنا خاليا ، قال : « فاللّه أحقّ أن يستحيا منه من الناس » (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كتب اللّه على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين السماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطو ، والنفس تتمنى ، والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه » (٢) . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف اللّه أثابه اللّه إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » (٣) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال : بلغنا واللّه أعلم أن جابر بن عبد اللّه الأنصارى حدّث أن أسماء بنت يزيد كانت فى نخل لها لبنى حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن ، يعنى الخلاخل ، وتبدو صدورهنّ وذوائبهنّ ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا ، فأنزل اللّه ذلك : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية ، وفيه ـ مع كونه مرسلا ـ مقاتل .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ولا يبدين زينتهنّ ﴾ قال : الزينة: السوار والدملج والخلخال والقرط والقلادة ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ قال : الثياب والجلباب . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال : الزينة: زينتان زينة ظاهرة وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج ، فأما الزينة الظاهرة فالثياب ، وأما الزينة الباطنة فالكحل والسوار والخاتم . ولفظ ابن جرير : فالظاهرة منها: الثياب ، وما خفى: الخلخالان والقرطان والسواران . وأخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله : ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ قال : الكحل والخاتم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : ﴿ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها ﴾ قال : الكحل والخاتم والقرط والقلادة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه قال : هو خضاب الكفّ والخاتم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : الزينة الظاهرة : الوجه والكفان . وأخرجا عن ابن عباس قال : إلا ما ظهر منها : وجهها وكفاها والخاتم . وأخرجا أيضا عنه قال : رقعة الوجه وباطن الكفّ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ؛ إنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت: القلب والفتخ وضمت طرف كمها. وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى عن عائشة : أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى

---

(١) أحمد ٥/ ٣ ، ٤ وعلقه البخارى ١/ ٣٨٥ وأبو داود فى اللباس (٤٠١٧) والترمذى فى الأدب (٢٧٦٩) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى النكاح (١٩٢٠) .

(٢) أحمد ٢/ ٣١٧ ، ٣٢٩ والبخارى فى الاستئذان (٦٣٤٣) وفى القدر (٦٦١٢) ومسلم فى القدر (٢٦٥٧/ ٢٠ ، ٢١) وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢) .

(٣) صححه الحاكم ٤/ ٣١٤ وقال الذهبى : « فيه إسحاق واهٍ ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » .

ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا » ، وأشار إلى وجهه وكفه [١] . قال أبو داود وأبو حاتم الرازى : هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة ولم يسمع منها . وأخرج البخارى وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة : قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله : ﴿ **وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ** ﴾ شققن أكثف مروطهنّ فاختمرن به [٢] . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنها بلفظ : أخذ النساء أزرهنّ فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها**﴾ والزينة الظاهرة : الوجه وكحل العينين وخضاب الكفّ والخاتم ، فهذا تظهره فى بيتها لمن دخل عليها . ثم قال : ﴿ **ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ** ﴾ الآية ، والزينة التى تبديها لهؤلاء : قرطها وقلادتها وسوارها ، فأما خلخالها ومعضدها ونحرها وشعرها، فإنها لا تبديه إلا لزوجها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : ﴿ **أو نسائهنّ** ﴾ قال : هنّ المسلمات، لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح ، وما يحرم أن يراه إلا محرم . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب ؛ أنه كتب إلى أبى عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فَانْهَ مَنْ قبلك عن ذلك ، فإنه لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها [٤] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : لا بأس أن يرى العبد شعر سيدته . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى عن أنس ؛ أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهب لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبىّ ﷺ ما تلقى قال: « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » [٥] . وإسناده فى سنن أبى داود هكذا : حدّثنا محمد بن عيسى حدّثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس فذكره . وأخرج عبد الرزاق وأحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكنّ مكاتب ، وكان له ما يؤدى فلتحتجب منه » [٦] . وإسناد أحمد هكذا : حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن نبهان أن أم سلمة. . . فذكره .

---

(١) أبو داود فى اللباس (٤١٠٤) والبيهقى ٧/ ٨٦ وفى سنده سعيد بن بشير قال ابن حجر : « ضعيف » تقريب التهذيب ١/ ٢٩٢ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٥٨) وأبو داود فى اللباس (٤١٠٢) والنسائى فى التفسير (٣٨٣) وابن جرير ١٨/ ٩٤ والبيهقى ٧/ ٨٨ .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٩٤ ، وصححه الحاكم ٤/ ١٩٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) البيهقى ٧/ ٩٥ .

(٥) أبو داود فى اللباس (٤١٠٦) والبيهقى ٧/ ٩٥ .

(٦) أحمد ٦/ ٣٠٨ .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال**﴾ قال : هذا الذى لا تستحيى منه النساء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل فى عقله ، لا يكترث للنساء ولا يشتهى النساء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية قال : كان الرجل يتبع الرجل فى الزمان الأوّل لا يغار عليه ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده ، وهو الأحمق الذى لا حاجة له فى النساء . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : هو المخنث الذى لا يقوم زبه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبىّ ﷺ مخنث ، فكانوا يدعونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبىّ ﷺ يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، قال النبىّ ﷺ : « ألا أرى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخلنّ عليكم » فحجبوه [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن**﴾ وهو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون فى رجلها خلاخل فتحركهن عند الرجال ، فنهى اللّه عن ذلك،لأنه من عمل الشيطان .

﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)** ﴾.

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى ما يحلّ للعباد من النكاح الذى يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعى الزنا ويسهل بعده غضّ البصر عن المحرمات وحفظ الفرج عما لا يحل ، فقال : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾ الأيم : التى لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيبا ، والجمع أيامى والأصل أيايم ، والأيم بتشديد الياء، ويشمل الرجل والمرأة . قال أبو عمرو والكسائى : اتفق أهل اللغة على أن الأيم فى الأصل هى المرأة التى لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا. قال أبو عبيد : يقال : رجل أيم وامرأة أيم ، وأكثر ما يكون فى النساء ، وهو

(١) أحمد ٦/ ١٥٢ ومسلم فى السلام (٢١٨١/ ٣٣) وأبو داود فى اللباس (٤١٠٧) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٢٤٦) وابن جرير ١٨/ ٩٦ والبيهقى ٧/ ٩٦ .

كالمستعار فى الرجال ، ومنه قول أمية[١]بن أبى الصلت :

للّه درّ بنى علىٍّ أيم منهم وناكح

ومنه أيضا قول الآخر :

لقد إمت حتى لامنى كلّ صاحب رجاء سليمى أن تأيم كما إمت

والخطاب فى الآية للأولياء . وقيل للأزواج ، والأوّل أرجح ، وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها ، وقد خالف فى ذلك أبوحنيفة .

واختلف أهل العلم فى النكاح : هل مباح ، أو مستحب ، أو واجب ؟ فذهب إلى الأوّل الشافعى وغيره ، وإلى الثانى مالك وأبوحنيفة ، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم فى ذلك ، فقالوا : إن خشى على نفسه الوقوع فى المعصية وجب عليه وإلا فلا . والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون فى الوجوب مع تلك الخشية ، وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح بعد ترغيبه فى النكاح : « ومن رغب عن سنتى فليس منى» [٢] ، ولكن مع القدرة عليه ، وعلى مؤنه كما سيأتى قريبا . والمراد بالأيامى هنا : الأحرار والحرائر، وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله : ﴿ **والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **عبادكم** ﴾ وقرأ الحسن: « عبيدكم » قال الفراء : ويجوز : «وإماءكم » بالنصب بردّه على الصالحين . والصلاح هو الإيمان . وذكر سبحانه الصلاح فى المماليك دون الأحرار لأن الغالب فى الأحرار الصلاح بخلاف المماليك ، وفيه دليل على أن المملوك لايزوّج نفسه ، وإنما يزوّجه مالكه . وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح. وقال مالك : لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام فى الأحرار فقال: ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ أى لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو أحدهما ، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه سبحانه ويتفضل عليهم بذلك . قال الزجاج : حثّ اللّه على النكاح وأعلم أنه سبب لنفى الفقر ، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلا لكل فقير إذا تزوّج فإن ذلك مقيد بالمشيئة . وقد يوجد فى الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوّجوا . وقيل : المعنى : إنه يغنيه بغنى النفس . وقيل : المعنى : إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم اللّه من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا. والوجه الأوّل أولى ، ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ [التوبة : ٢٨]. فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك ،وجملة: ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ مؤكدة لما قبلها ومقرّرة لها ، والمراد أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده ، عليم بمصالح خلقه ، يغنى من يشاء ويفقر من يشاء .

(١) فى المطبوعة : « أمية بنت أبو الصلت » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ٢/ ١٥٨ والبخارى فى النكاح (٥٠٦٣) ومسلم فى النكاح (٥/١٤٠٢) والنسائى ٦/ ٦٠ والدارمى ٢/ ١٣٣.

ثم ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا** ﴾ استعفّ : طلب أن يكون عفيفا ، أى ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد نكاحا ، أى سبب نكاح ، وهو المال . وقيل : النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به ، واللباس اسم لما يلبس ، وقيد سبحانه هذا النهى بتلك الغاية ، وهى : ﴿ **حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ أى يرزقهم رزقا يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح ، وفى هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى ، وهى إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه بالمشيئة كما ذكرنا ، فإنه لو كان وعدا حتما لا محالة فى حصوله ؛ لكان الغنى والزواج متلازمين، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة ، فإنه سيغنى عند تزوجه لا محالة ، فيكون فى تزوّجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال : إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح ، ولا ينافى ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح ، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحا إذا كان غير واجد لأسبابه التى يتحصل بها ، وأعظمها المال .

ثم لما رغب سبحانه فى تزويج الصالحين من العبيد والإماء ، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم** ﴾ الموصول فى محل رفع على الابتداء ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده ، أى وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب . والكتاب: مصدر كاتب كالمكاتبة ، يقال : كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة ، كما يقال : قاتل يقاتل قتالا ومقاتلة . وقيل : الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذى يكتب فيه الشىء ، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا ، فيكون المعنى: الذين يطلبون كتاب المكاتبة . ومعنى المكاتبة فى الشرع : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما ، فإذا أدّاه فهو حرّ ، وظاهر قوله : ﴿ **فكاتبوهم** ﴾ أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده ، وهو : ﴿ **إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ والخير هو القدرة على أداء ماكوتب عليه وإن لم يكن له مال . وقيل : هو المال فقط ، كما ذهب إليه مجاهد والحسن وعطاء والضحاك وطاوس ومقاتل . وذهب إلى الأوّل ابن عمر وابن زيد ، واختاره مالك ، والشافعي والفراء والزجاج . قال الفراء : يقول إن رجوتم عندهم وفاء وتأدية للمال . وقال الزجاج : لما قال ﴿ **فيهم** ﴾ كان الأظهر الاكتساب ، والوفاء وأداء الأمانة . وقال النخعى: إن الخير : الدين والأمانة . وروى مثل هذا عن الحسن . وقال عبيدة السلمانى : إقامة الصلاة . قال الطحاوى : وقول من قال : إنه المال ، لا يصح عندنا ، لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال ؟ قال : والمعنى عندنا : إن علمتم فيهم الدين والصدق . قال أبو عمر بن عبد البرّ : من لم يقل: إن الخير هنا المال ، أنكر أن يقال : إن علمتم فيهم مالا ، وإنما يقال : علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ، ولا يقال : علمت فيه المال . هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم فى الخير المذكور فى هذه الآية . وإذا تقرّر لك هذا ، فاعلم أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور فى الآية من الوجوب عكرمة

وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك وأهل الظاهر ، فقالوا : يجب على السيد أن يكاتب مملوكه إذا طلب منه ذلك وعلم فيه خيرا . وقال الجمهور من أهل العلم : لا يجب ذلك ، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك ولم يجبر عليه ، فكذا الكتابة ؛ لأنها معاوضة . ولا يخفاك أن هذه حجة واهية وشبهة داحضة ، والحق ما قاله الأوّلون ، وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس واختاره ابن جرير .

ثم أمر سبحانه الموالى بالإحسان إلى المكاتبين ، فقال: ﴿ **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم**﴾ ففى هذه الآية الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة ، إما بأن يعطوهم شيئا من المال أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه ،وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار. وقيل : الثلث. وقيل: الربع . وقيل : العشر ، ولعل وجه تخصيص الموالى بهذا الأمر، هو كون الكلام فيهم ، وسياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة . وقال الحسن والنخعى وبريدة : إن الخطاب بقوله : ﴿**وآتوهم** ﴾ لجميع الناس . وقال زيد بن أسلم : إن الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما فى قوله سبحانه : ﴿ وفى الرقاب ﴾ [التوبة : ٦٠] . وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة . ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالى إلى نكاح الصالحين من المماليك ، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال : ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء** ﴾ والمراد بالفتيات هنا : الإماء ، وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار فى مواضع أخر . والبغاء : الزنا ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء : إذا زنت ، وهذا مختصّ بزنا النساء ، فلا يقال للرجل إذا زنا إنه بغىّ ، وشرط اللّه سبحانه هذا النهى بقوله : ﴿ **إن أردن تحصنا** ﴾ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهن للتحصن ، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها : مكرهة على الزنا . والمراد بالتحصن هنا : التعفف والتزوج . وقيل : إن هذا القيد راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسن بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصنا . وقيل : هذا الشرط ملغى . وقيل : إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه ، فإنهم كانوا يكرهونهنّ وهنّ يردن التعفف ، وليس لتخصص النهى بصورة إرادتهنّ التعفف . وقيل : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب ؛ لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن ، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن ، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه ، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها فى النكاح ، والصغيرة فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن ، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن ، إلا أن يقال : إن المراد بالتحصن هنا مجرّد التعفف ، وإنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن وهو بعيد ، فقد قال الحبر ابن عباس : إن المراد بالتحصن التعفف والتزوّج ، وتابعه على ذلك غيره .

ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله ﴿ **لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** ﴾ وهو ما تكسبه الأمة

بفرجها ، وهذا التعليل أيضا خارج مخرج الغالب ، والمعنى : أن هذا العرض هو الذى كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء فى الغالب ، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلا لا يصدر مثله عن العقلاء ، فلا يدلّ هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها ، إذا لم يكن مبتغيا بإكراهها عرض الحياة الدنيا . وقيل : إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت كذلك ، لا أنه مدار للنهى عن الإكراه لهنّ ،وهذا يلاقى المعنى الأوّل ولا يخالفه﴿ **ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم**﴾ هذا مقرّر لما قبله ومؤكد له ، والمعنى : أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات ، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود وجابر بن عبد اللّه وسعيد بن جبير : « فإن اللّه غفور رحيم لهنّ » . قيل : وفى هذا التفسير بعد ، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة . وأجيب بأنها وإن كانت مكرهة ، فربما لا تخلو فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجبلة البشرية ، أو يكون الإكراه قاصرا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار . وقيل : إن المعنى : فإن اللّه من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهم : إما مطلقا ، أو بشرط التوبة .

ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام ، شرع فى وصف القرآن بصفات ثلاث : الأولى: أنه آيات مبينات ، أى واضحات فى أنفسهن أو موضحات ، فتدخل الآيات المذكورة فى هذه الصورة دخولا أولّيا . والصفة الثانية : كونه مثلا من الذين خلوا من قبل هؤلاء ، أى مثلا كائنا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة ، والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة ، فإن العجب من قصة عائشة رضى اللّه عنها ، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتهما به، ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام اللّه عليهما . والصفة الثالثة : كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة ، فيقتدون بما فيه من الأوامر ، وينزجرون عما فيه من النواهى . وأما غير المتقين ، فإن اللّه قد ختم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ ، والاعتبار بقصص الذين خلوا ، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنكحوا الأيامى** ﴾ الآية قال : أمر اللّه سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه ، وأمرهم أن يزوّجوا أحرارهم وعبيدهم ، ووعدهم فى ذلك الغنى فقال : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصدّيق قال : أطيعوا اللّه فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، قال تعالى : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وعبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال : ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى فى الباءة، وقد وعد اللّه فيها ما وعد ، فقال : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج البزار ، والدارقطنى فى العلل ، والحاكم وابن مردويه والديلمى من طريق عروة عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ : «أنكحوا

النساء، فإنهنّ يأتينكم بالمال » [١] . وأخرجه ابن أبى شيبة ، وأبو داود فى مراسيله عن عروة مرفوعا إلى النبىّ ﷺ ولم يذكر عائشة وهو مرسل [٢] . وأخرج عبد الرزاق وأحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة حقّ على اللّه عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل اللّه »[٣] . وقد ورد فى الترغيب فى مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا**﴾ قال : ليتزوج من لا يجد فإن الله سيغنيه . وأخرج ابن السكن فى معرفة الصحابة عن عبد اللّه بن صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكا لحويطب بن عبد العزى ، فسألته الكتابة فأبى ، فنزلت : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب** ﴾ الآية [٤]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أنس بن مالك قال : سألنى سيرين المكاتبة فأبيت عليه ، فأتى عمر بن الخطاب فأقبل على بالدرة وقال: كاتبه وتلا : ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ فكاتبته . قال ابن كثير : إن إسناده صحيح . وأخرج أبو داود فى المراسيل ، والبيهقى فى سننه عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول اللّه ﷺ : ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ قال: « إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كلا على الناس » [٥] . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس :﴿ **إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ قال : المال . وأخرج ابن مردويه عن علىّ مثله . وأخرج البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : أمانة ووفاء . وأخرج عنه أيضا قال : إن علمت مكاتبك يقضيك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه فى الآية قال : إن علمتم لهم حيلة ، ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين ﴿**وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ﴾ يعنى ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن نافع قال: كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ويقول : يطعمنى من أوساخ الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس فى قوله: ﴿ **وآتوهم من مال الله** ﴾ الآية : أمر المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب . وقال علىّ بن أبى طالب : أمر اللّه السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه . وهذا تعليم من اللّه ليس بفريضة ، ولكن فيه أجر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى

(١) كشف الأستار فى النكاح (١٤٠٢) وصححه الحاكم ٢/ ١٦١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن أبى شيبة ٤/ ١٢٧ ، وأبو داود فى المراسيل (٢٠٣) وقال المحقق : « رجاله ثقات ، رجال الشيخين » .

(٣) أحمد ٢/ ٢٥١ والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥٥) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى ٦/ ١٦ ، ٦١ ، وابن ماجة فى العتق (٢٥١٨) وابن حبان فى النكاح (٤٠١٩) وصححه الحاكم ٢/ ١٦٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى النكاح ٧/ ٧٨ .

(٤) الواحدى فى أسباب النزول : ١٨٦ .

(٥) أبو داود فى المراسيل (١٨٥) والبيهقى ١٠/ ٣١٧ .

حاتم ، والروياني في مسنده ، والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة في الآية قال : حثّ الناس عليه أن يعطوه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ومسلم والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي من طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله بن أبيّ يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئا، وكانت كارهة، فأنزل الله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ لهنّ غفور رحيم » هكذا كان يقرؤها [١] . وذكر مسلم في صحيحه عن جابر أن جارية لعبد الله ابن أبيّ: يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة ، فكان يريدهما على الزنا ، فشكتا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم** ﴾ الآية [٢] . وأخرج البزار وابن مردويه عن أنس نحو حديث جابر الأوّل . وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب في الآية قال : كان أهل الجاهلية يبغين إماءهم ، فنهوا عن ذلك في الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهنّ فنزلت الآية . وقد ورد النهي منه ﷺ عن مهر البغيّ وكسب الحجام وحلوان الكاهن [٣] .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾.

لما بين سبحانه من الأحكام ما بين ، أردف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال فقال : ﴿**الله نور السموات والأرض** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والاسم الشريف مبتدأ ، و﴿ **نور السموات والأرض** ﴾ خبره، إما على حذف مضاف ، أي ذو نور السموات والأرض ، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله وظهور عدله وبسطه أحكامه ،

---

(١) ابن أبي شيبة ٤/ ٣٧٦ ومسلم في التفسير (٣٠٢٩/ ٢٦) وابن جرير ١٨/ ١٠٣ والبيهقي ٨/ ٩ .

(٢) مسلم في التفسير (٣٠٢٩/ ٢٧) .

(٣) من ذلك ما أخرجه أحمد ٤/ ١١٨ والبخاري في البيوع (٢٢٣٧) ومسلم في المساقاة (١٥٦٧/ ٣٩) عن أبي مسعود الأنصاري ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن .

كما يقال : فلان نور البلد ، وقمر الزمن ، وشمس العصر ، ومنه قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ظهرت لم يبق فيهنّ كوكب

وقول الآخر :

هلا قصدت من البلاد لمفضل قمر القبائل خالد بن يزيد

ومن ذلك قول الشاعر :

إذا سار عبد اللّه من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

وقول الآخر :

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

ومعنى النور فى اللغة : الضياء ، وهو الذى يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقة ما تراه ، فيجوز إطلاق النور على اللّه سبحانه على طريقة المدح ، ولكونه أوجد الأشياء المنوّرة وأوجد أنوارها ونوّرها ، ويدلّ على هذا المعنى قراءة زيد بن على وأبى جعفر وعبد العزيز المكى : «اللّه نور السموات والأرض » على صيغة الفعل الماضى ، وفاعله ضمير يرجع إلى اللّه ، والسموات مفعوله ؛ فمعنى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ : أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما وكمال تدبيره عزّ وجلّ لمن فيهما ، كما يقال : الملك نوّر البلد ، هكذا قال الحسن ومجاهد والأزهرى والضحاك والقرطبى وابن عرفة وابن جرير وغيرهم ، ومثله قول الشاعر :

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ونبت لمن يرجو نداك وريف

وقال هشام الجواليقى وطائفة من المجسمة : إنه سبحانه نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام ، وقوله : ﴿ **مثل نوره** ﴾ مبتدأ وخبره : ﴿ **كمشكاة** ﴾ أى صفة نوره الفائض عنه ، الظاهر على الأشياء كمشكاة ، والمشكاة الكوّة فى الحائط غير النافذة ، كذا حكاه الواحدى عن جميع المفسرين ، وحكاه القرطبى عن جمهورهم[(١)] . ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذى يكون فيه من مصباح أو غيره ،وأصل المشكاة: الوعاء يجعل فيه الشىء . وقيل : المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هى القنديل . والأوّل أولى ، ومنه قول الشاعر :

كأن عينيه مشكاتان فى جحر

ثم قال: ﴿ **فيها مصباح** ﴾ وهو السراج ﴿ **المصباح فى زجاجة** ﴾ قال الزجاج : النور فى الزجاج وضوء النار أبين منه فى كل شىء وضوؤه يزيد فى الزجاج ،

(١) القرطبى ٧ / ٣٦٤٩ .

ووجه ذلك : أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور . ثم وصف الزجاجة فقال : ﴿ **الزجاجة كأنها كوكب درىّ** ﴾ أى منسوب إلى الدّر لكون فيه من الصفاء والحسن مايشابه الدّر . وقال الضحاك : الكوكب الدّرى : الزهرة . قرأ أبو عمرو : «درىّ» بكسر الدال . قال أبو عمرو : لم أسمع أعرابيا يقول : إلا كأنه كوكب درّىّ بكسر الدال ، أخذوه من درأت النجوم تدرأ : إذا اندفعت . وقرأ حمزة بضم الدال مهموزا ، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد . وقال أبو عبيد : إن ضممت الدال وجب أن لا تهمز ، لأنه ليس فى كلام العرب . والدّرارى: هى المشهورة من الكواكب كالمشترى والزهرة والمريخ وما يضاهيها من الثوابت . ثم وصف المصباح بقوله : ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ و« من » هذه : هى الابتدائية ، أى ابتداء إيقاد المصباح منها . وقيل : هو على تقدير مضاف ، أى يوقد من زيت شجرة مباركة ، والمباركة الكثيرة المنافع . وقيل : المنماة ، والزيتون من أعظم الثمار نماء ، ومنه قول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس :

ليت شعرى مسافر بن أبى عمرو ... ولـيت يـقولهـا المحـزون

بـورك الميـت الـغـريـب كـمـا ... بورك نبع الرمان والزيتون

قيل : ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها ، وهى إدام ودهان ودباغ ووقود ، وليس فيها شىء إلا وفيه منفعة ، ثم وصفها بأنها ﴿ **لا شرقية ولا غربية** ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى معنى هذا الوصف ، فقال عكرمة وقتادة وغيرهم : إن الشرقية هى التى تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت . والغربية هى التى تصيبها إذا غربت ، ولا تصيبها إذا شرقت . وهذه الزيتونة هى فى صحراء بحيث لايسترها عن الشمس شىء لا فى حال شروقها ولا فى حال غروبها ، وما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود . وقيل : إن المعنى: إنها شجرة فى دوحة قد أحاطت بها ، فهى غير منكشفة من جهة الشرق ، ولا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس . قال ابن عطية : وهذا لا يصح عن ابن عباس ، لأن الثمرة التى بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد فى الوجود . ورجح القول الأوّل الفراء والزجاج . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه اللّه لنوره ولو كانت فى الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . قال الثعلبى : قد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ، لأن قوله : ﴿ **زيتونة** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **شجرة** ﴾ . قال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن الشام لا شرقىّ ولا غربىّ ، والشام هى الأرض المباركة . وقد قرئ : « توقد » بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح ، وبها قرأ الكوفيون . وقرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتحتية مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال . وقرأ الحسن والسلمى وأبو عمرو بن العلاء وأبو جعفر « توقد » بالفوقية مفتوحة وفتح الواو وتشديد القاف وفتح الدال على أنه فعل ماض من

توقد يتوقد ، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح . قال النحاس : وهاتان القراءتان متقاربتان لأنهما جميعا للمصباح ، وهو أشبه بهذا الوصف ؛ لأنه الذى ينير ويضىء ، وإنما الزجاجة وعاء له . وقرأ نصر بن عاصم كقراءة أبى عمرو ومن معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع ، وأصله تتوقد .

ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال : ﴿ **يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **تمسسه** ﴾ بالفوقية ، لأن النار مؤنثة . قال أبو عبيد : إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم أن السدّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ : « يمسسه » بالتحتية لكون تأنيث النار غير حقيقى . والمعنى : أن هذا الزيت فى صفائه وإنارته يكاد يضىء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلا ، وارتفاع ﴿ **نور** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو نور، و﴿ **على نور** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لنور مؤكدة له ، والمعنى : هو نور كائن على نور. قال مجاهد : والمراد النار على الزيت . وقال الكلبى : المصباح نور ، والزجاجة نور . وقال السدّى : نور الإيمان ونور القرآن ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ من عباده، أى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ، وليس المراد بالهداية هنا مجرّد الدلالة ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾ أى يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها تقريبا لها إلى الأفهام وتسهيلا لإدراكها ؛ لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحا وبيانا ﴿ **والله بكل شىء عليم**﴾ لا يغيب عنه شىء من الأشياء معقولا كان أو محسوسا ، ظاهرا أو باطنا .

واختلف فى قوله: ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع** ﴾ بما هو متعلق ؛ فقيل: متعلق بما قبله ، أى كمشكاة فى بعض بيوت اللّه وهى المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما ترى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت . وقيل : متعلق بمصباح . وقال ابن الأنبارى : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ، كأنه قيل : وهى فى بيوت ، وقيل : متعلق بتوقد ؛ أى توقد فى بيوت ، وقد قيل : متعلق بما بعده ، وهو ﴿ **يسبح** ﴾ ، أى يسبح له رجال فى بيوت ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ **فيها** ﴾ تكريرا كقولك : زيد فى الدار جالس فيها . وقيل : إنه منفصل عما قبله ، كأنه قال اللّه: فى بيوت أذن اللّه أن ترفع . قال الحكيم الترمذى : وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه . وقد قيل : على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح أو بتوقد . ما الوجه فى توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت؟ ولا تكون المشكاة الواحدة ولا المصباح الواحد إلا فى بيت واحد . وأجيب بأن هذا من الخطاب الذى يفتح أوّله بالتوحيد ، ويختم بالجمع كقوله سبحانه : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : ١] ونحوه . وقيل : معنى ﴿ **فى بيوت** ﴾ : فى كلّ واحد من البيوت ، فكأنه قال : فى كلّ بيت . أو فى كلّ واحد من البيوت . واختلف الناس ، على أقوال : الأوّل: أنها المساجد ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما . الثانى : أن المراد بها بيوت بيت المقدس ، روى ذلك عن الحسن . الثالث : أنها بيوت النبىّ ﷺ ، روى عن مجاهد .

الرابع : هى البيوت كلها ، قاله عكرمة . الخامس : أنها المساجد الأربعة : الكعبة ، ومسجد قباء ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، قاله ابن زيد . والقول الأوّل أظهر لقوله: ﴿**يسبح له فيها بالغدوّ والآصال** ﴾ والباء من بيوت تضم وتكسر كلّ ذلك ثابت فى اللغة ، ومعنى ﴿ **أذن الله أن ترفع** ﴾ : أمر وقضى ، ومعنى ﴿ **ترفع** ﴾ : تبنى ، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ [البقرة : ١٢٧] . وقال الحسن البصرى وغيره : معنى ترفع تعظم ويرفع شأنها وتطهر من الأنجاس والأقذار ، ورجحه الزجاج . وقيل : المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين ، ومعنى ﴿ **يذكر فيها اسمه**﴾ : كل ذكر للّه عزّ وجلّ . وقيل : هو التوحيد ، وقيل : المراد تلاوة القرآن ، والأوّل أولى .

﴿ **يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر : « يسبح » بفتح الباء الموحدة مبنيا للمفعول ، وقرأ الباقون بكسرها مبنيا للفاعل إلا ابن وثاب وأبا حيوة فإنهما قرآ بالتاء الفوقية وكسر الموحدة ، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة ، ويكون رجال مرفوع على أحد وجهين : إما بفعل مقدّر ، وكأنه جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يسبحه رجال . الثانى : أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح ، وعلى القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضا رجال ، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث فى بعض الأحوال . واختلف فى هذا التسبيح ما هو ؟ فالأكثرون حملوه على الصلاة المفروضة ، قالوا : الغدو: صلاة الصبح ، والآصال : صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين ، لأن اسم الآصال يشملها ، ومعنى بالغدوّ والآصال : بالغداة والعشى . وقيل : صلاة الصبح والعصر . وقيل : المراد صلاة الضحى . وقيل : المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقى ، وهو تنزيه اللّه سبحانه عما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأفعاله ، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده ، وهذا أرجح مما قبله ، لكونه المعنى الحقيقى مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأوّلون ، وهو ما ذكرناه .

﴿ **لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ هذه الجملة صفة لرجال ، أى لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر ؛ وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر . وقال الفراء : التجارة لأهل الجلب ، والبيع ما باعه الرجل على بدنه ، وخصّ قوم التجارة ها هنا بالشراء لذكر البيع بعدها ، وبمثل قول الفراء قال الواقدى ، فقال : التجار :هم الجلاب المسافرون ، والباعة: هم المقيمون ، ومعنى ﴿ **عن ذكر الله** ﴾ : هو ما تقدّم فى قوله : ﴿**ويذكر فيها اسمه** ﴾ وقيل : المراد : الأذان . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى ، أى يوحدونه ويمجدونه . وقيل : المراد عن الصلاة ، ويردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا . والمراد بإقام الصلاة : إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وحذفت التاء ؛ لأن الإضافة تقوم مقامها فى ثلاث كلمات جمعها الشاعر فى قوله :

ثلاثة تحذف تاآتها ‏ ‏ ‏ ‏ مضافة عند جمع النحاة

وهى إذا شئت أبو عذرها وليت شعرى وإقام الصلاة

وأنشد الفراء فى الاستشهاد للحذف المذكور فى هذه الآية قول الشاعر :

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا

أى عدة الأمر ، وفى هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع . قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء لأنه يقال : أقمت الصلاة إقامة ، وكان الأصل : إقواما ، ولكن قلبت الواو ألفا فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فبقى أقمت الصلاة إقاما ، فأدخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الإضافة هاهنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة ، وهذا إجماع من النحويين . انتهى . وقد احتاج من حمل ذكر اللّه على الصلاة المفروضة أن يحمل إقامة الصلاة على تأديتها فى أوقاتها فرارا من التكرار ولا ملجئ إلى ذلك ، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقى كما قدّمنا . والمراد بالزكاة المذكورة هى : المفروضة ، وقيل: المراد بالزكاة : طاعة اللّه والإخلاص ، إذ ليس لكل مؤمن مال .

﴿ **يخافون يوما** ﴾ أى يوم القيامة ، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له ، ثم وصف هذا اليوم بقوله : ﴿ **تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ أى تضطرب وتتحوّل ، قيل : المراد بتقلب القلوب : انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها ولا تخرج ، والمراد بتقلب الأبصار هو : أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة . وقيل : المراد بتقلب القلوب : أنها تكون متقلبة بين الطمع فى النجاة والخوف من الهلاك ، وأما تقلب الأبصار فهو : نظرها من أىّ ناحية يؤخذون ، وإلى أىّ ناحية يصيرون . وقيل : المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين ، ومثله قوله : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : ٢٢] . فما كان يراه فى الدنيا غيا يراه فى الآخرة رشدا . وقيل : المراد : التقلب على جمر جهنم ، وقيل غير ذلك .

﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا ، أى أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله وإلى سبعمائة ضعف . وقيل : المراد بما فى هذه الآية : ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿**ويزيدهم من فضله** ﴾ فإن المراد به : التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أى من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ، أو أن عطاءه سبحانه لا نهاية له ، والجملة مقرّرة لما سبقها من الوعد بالزيادة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ قال : يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما . وأخرج الفريابى عنه فى قوله : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ مثل نوره الذى أعطاه المؤمن ﴿**كمشكاة** ﴾ وقال فى تفسير : ﴿ **زيتونة لا**

شرقية ولا غربية ﴾ إنها التى فى سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴿ **يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور** ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور . وأخرج عبد ابن حميد ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن الشعبىّ قال : فى قراءة أبىّ بن كعب : « مثل نور المؤمن كمشكاة » . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية قال: يقول : مثل نور من آمن بالله كمشكاة ، وهى الكوّة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **مثل نوره** ﴾ قال : هى خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة ، قال : مثل نور المؤمن كمشكاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ قال : هادى أهل السموات والأرض ﴿**مثل نوره** ﴾ : مثل هداه فى قلب المؤمن ﴿ **كمشكاة** ﴾ يقول : موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور، وفى إسناده علىّ بن أبى طلحة ، وفيه مقال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبىّ بن كعب : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره** ﴾ قال : هو المؤمن الذى قد جعل الإيمان والقرآن فى صدره فضرب الله مثله ، فقال : ﴿ **نور السموات والأرض مثل نوره** ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبىّ بن كعب يقرؤها : « مثل نور من آمن به » فهو المؤمن ، جعل الإيمان والقرآن فى صدره ﴿ **كمشكاة** ﴾ قال : فصدر المؤمن المشكاة ﴿ **فيها مصباح المصباح** ﴾ : النور ، وهو القرآن والإيمان الذى جعل فى صدره ﴿ **فى زجاجة** ﴾ و﴿ **الزجاجة** ﴾ قلبه ﴿ **كأنها كوكب درّى** ﴾ يقول : كوكب مضىء ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ والشجرة المباركة: أصل المبارك : الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ﴿ **زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ قال:فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر، فهى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أىّ حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يضله شىء من الفتن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة** ﴾ المشكاة كوّة البيت فيها مصباح ، وهو السراج يكون فى الزجاجة ، وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نورا ، ثم سماها أنواعا شتى [(١)]. ﴿ **لا شرقية ولا غربية** ﴾ قال : وهى وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ، وذلك أجود الزيت ﴿ **يكاد زيتها يضىء** ﴾ بغير نار ﴿ **نور على نور** ﴾ يعنى بذلك إيمان العبد وعلمه ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ وهو مثل المؤمن.

---

(١) ابن جرير ١٨ / ١٠٦ .

وأخرج الطبراني وابن عدى وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **كمشكاة فيها مصباح** ﴾ قال : المشكاة جوف محمد ﷺ ، والزجاجة قلبه ، والمصباح : النور الذى فى قلبه ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ الشجرة: إبراهيم ﴿ **زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ، ثم قرأ ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطية قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار ، فقال : حدّثنى عن قول الله: ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره** ﴾ قال: مثل نور محمد ﷺ كمشكاة قال: المشكاة : الكوّة ضربها الله مثلا لقمة فيها مصباح ، والمصباح قلبه ﴿ **المصباح فى زجاجة** ﴾ والزجاجة : صدره ﴿ **كأنها كوكب درى** ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدرّىّ ، ثم رجع المصباح إلى قلبه فقال : ﴿ **يوقد من شجرة مباركة . . . يكاد زيتها يضىء** ﴾ قال : يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبىّ ، كما يكاد الزيت أن يضىء ولو لم تمسسه نار .

وأقول : إن تفسير النظم القرآنى بهذا ونحوه مما تقدّم عن أبىّ بن كعب وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب ، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوز العدول عن المعنى العربى إلى هذه المعانى التى هى شبيهة بالألغاز والتعمية ، ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح فى المشكاة ، ولهذا قال ابن عباس : هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قدّمنا عنه ، ولا وجه لهذا الاستبعاد. فإنا قد قدّمنا فى أوّل البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه وأبلغ أسلوب ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ويفيده كلام الفصحاء ، فلا وجه للعدول عن الظاهر ، لا من كتاب ولا من سنة ولا من لغة . وأما ما حكى عن كعب الأحبار فى هذا كما قدّمنا ، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر فى تفسير الآية، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به فى مثل هذا . وقد نبهناك فيما سبق أن تفسير الصحابى إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا ، فلا تقوم به الحجة ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربى ، نعم إن صحت قراءة أبىّ بن كعب ، كانت هى المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر ، وتكون كالزيادة المبينة للمراد ، وإن لم تصح فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة وغيرهم ممن قبلهم وممن بعدهم هو المتعين .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع** ﴾ قال : هى المساجد تكرم وينهى عن اللغو فيها ، ويذكر فيها اسم الله ، يتلى فيها كتابه ﴿ **يسبح له فيها بالغدو والآصال** ﴾ صلاة الغداة وصلاة العصر ، وهما أوّل ما فرض الله من الصلاة فأحبّ أن يذكرهما ويذكر بهما عباده . وقد ورد فى تعظيم المساجد وتنزيهها عن القذر واللغو وتنظيفها وتطييبها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفى القرآن وما يغوص عليها إلا غوّاص فى قوله : ﴿ **فى بيوت**

أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ فى قوله : **﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾** قال : « هم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » . وأخرج ابن مردويه والديلمى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : **﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾** قال : «هم الذين يبتغون من فضل الله » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية ، قال : كانوا رجالا يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما فى أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم، والبيهقى فى الشعب عنه فى الآية ، قال : ضرب الله هذا المثل قوله : **﴿ كمشكاة ﴾** لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا أتجر الناس وأبيعهم ، ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا عن ذكر الله قال : عن شهود الصلاة .

وأخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر ، أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ، ثم دخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : **﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾**. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أنه رأى ناسا من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم، فقال : هؤلاء الذين قال الله فيهم : **﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾** . وأخرج هناد بن السرى فى الزهد وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، ومحمد ابن نصر فى الصلاة عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله يوم القيامة الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادى : أين الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادى : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ؛ ثم يعود فينادى : ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون » . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر مرفوعا نحوه (٢).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ

---

(١) الديلمى (٣٢٨٤) .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٩٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب عن الحسن مرسلا (٦٨٢) وفى إسناده جهالة .

يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلا للكافرين فقال : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾ المراد بالأعمال هنا : هى الأعمال التى من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفكّ العانى وعمارة البيت وسقاية الحاجّ . والسراب : ما يرى فى المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء فى ظنّ من يراه ،وسمى سرابا لأنه يسرب، أى يجرى كالماء ؛ يقال : سرب الفحل ، أى مضى وسار فى الأرض ، ويسمى : الآل أيضا. وقيل : الآل : هو الذى يكون ضحى كالماء ، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء والأرض ، قال امرؤ القيس :

ألـم أنـض المـطـىّ بـكـلّ خـرق أمَقِّ الطـول لمـاع السراب

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم كلمع سراب بالفلا متألق

والقيعة : جمع قاع : وهو الموضع المنخفض الذى يستقرّ فيه الماء ، مثل جيرة وجار ، قاله الهروى . وقال أبو عبيد : قيعة وقاع واحد . قال الجوهرى : القاع : المستوى من الأرض ، والجمع : أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ، والقيعة مثل القاع . قال : وبعضهم يقول هو جمع ﴿ **يحسبه الظمآن ماء** ﴾ هذه صفة ثانية لسراب ،والظمآن : العطشان ، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك ، لتحقيق التشبيه المبنىّ على الطمع ﴿**حتى إذا جاءه لم يجده شيئا** ﴾ أى إذا جاء العطشان ذلك الذى حسبه ماء لم يجده شيئا مما قدّره وحسبه ولا من غيره، والمعنى : أن الكفار يعوّلون على أعمالهم التى يظنونها من الخير ويطمعون فى ثوابها ، فإذا قدموا على اللّه سبحانه لم يجدوا منها شيئا ، لأن الكفر أحبطها ومحا أثرها ، والمراد بقوله : ﴿ **حتى إذا جاءه** ﴾ مع أنه ليس بشىء ، أنه جاء الموضع الذى

كان يحسبه فيه . ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة ، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرّد الخيبة كصاحب السراب فقال : ﴿ **ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ أى وجد اللّه بالمرصاد فوفاه حسابه ، أى جزاء عمله ، كما قال امرؤ القيس :

فولى مدبرا يهوى حثيثا وأيقن أنه لاقى الحسابا

وقيل : وجد وعد اللّه بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر اللّه عند حشره . وقيل : وجد حكمه وقضاءه عند المجيء . وقيل : عند العمل ، والمعنى متقارب . وقرأ مسلمة بن محارب : « بقيعاه » بهاء مدورة كما يقال : رجل عزهاه. وروى عنه أنه قرأ : « بقيعات » بتاء مبسوطة . قيل : يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأوّل ، وجمع قيعة على الثانى . وروى عن نافع وأبى جعفر وشيبة أنهم قرؤوا : « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهم الهمز.

﴿ **أو كظلمات** ﴾ معطوف على كسراب ، ضرب اللّه مثلا آخر لأعمال الكفار ، كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات ، فهى أيضا تشبه الظلمات . قال الزجاج : أعلم اللّه سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى فهى كهذه الظلمات التى وصف . قال أيضا : إن شئت مثل بالسراب ، وإن شئت مثل بهذه الظلمات ، فأو: للإباحة حسبما تقدّم من القول فى ﴿ أو كصيب ﴾ [البقرة : ١٩] . قال الجرجانى : الآية الأولى فى ذكر أعمال الكفار ، والثانية فى ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضا من أعمالهم . قال القشيرى : فعند الزجاج، التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجانى، لكفر الكفار ﴿ **فى بحر لجى** ﴾ اللجة معظم الماء، والجمع : لجج وهو الذى لا يدرك لعمقه . ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال : ﴿ **يغشاه موج** ﴾ أى يعلو هذا البحر موج فيستره ويغطيه بالكلية ، ثم وصف هذا الموج بقوله : ﴿ **من فوقه موج** ﴾ أى من فوق هذا الموج موج ثم وصف الموج الثانى فقال : ﴿ **من فوقه سحاب** ﴾ أى من فوق ذلك الموج الثانى سحاب ، فيجتمع حينئذ عليهم خوف البحر وأمواجه والسحاب المرتفعة فوقه . وقيل : إن المعنى : يغشاه موج من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدّة ؛ لأنها تستر النجوم التى يهتدى بها من فى البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحاب وهبت الريح المعتادة فى الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم وترادفت الغموم ، وبلغ الأمر إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ،ولهذا قال سبحانه: ﴿ **ظلمات بعضها فوق بعض** ﴾ أى هى ظلمات ، متكاثفة مترادفة ، ففى هذه الجملة بيان لشدّة الأمر وتعاظمه وقرأ ابن محيصن والبزى : « سحاب ظلمات » بإضافة سحاب إلى ظلمات ، ووجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات ، فأضيف إليها لهذه الملابسة . وقرأ الباقون بالقطع والتنوين . ومن غرائب التفاسير: أنه سبحانه أراد بالظلمات : أعمال الكافر ، وبالبحر اللجىّ : قلبه ، وبالموج فوق

الموج : ما يغشى قلبه من الجهل والشكّ والحيرة . والسحاب : الرين والختم والطبع على قلبه، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد .

ثم بالغ سبحانه فى هذه الظلمات المذكورة بقوله : ﴿ **إذا أخرج يده لم يكد يراها** ﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام ، أى إذا أخرج الحاضر فى هذه الظلمات أو من ابتلى بها . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى : لم يرها ولم يكد . وقال الفرّاء : إن كاد زائدة. والمعنى : إذا أخرج يده لم يرها ، كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد . قال النحاس : أصح الأقوال فى هذا أن المعنى : لم يقارب رؤيتها ، فإذن لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة ، وجملة : ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة ، والمعنى : ومن لم يجعل اللّه له هداية فما له من هداية . قال الزجاج : ذلك فى الدنيا ، والمعنى : من لم يهده اللّه لم يهتد . وقيل : المعنى : من لم يجعل له نورا يمشى به يوم القيامة فما له من نور يهتدى به إلى الجنة .

﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض** ﴾ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان . والخطاب لكلّ من له أهلية النظر ، أو للرسول ﷺ ، وقد علمه من جهة الاستدلال ؛ ومعنى ﴿ **ألم تر** ﴾ : ألم تعلم ، والهمزة للتقرير ، أى قد علمت علما يقينا شبيها بالمشاهدة ، والتسبيح : التنزيه فى ذاته وأفعاله وصفاته عن كل ما لا يليق به، ومعنى ﴿**من فى السموات والأرض** ﴾ : من هو مستقرّ فيهما من العقلاء وغيرهم ، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها . وقيل : إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء والتنزيه من غيرهم . وقد قيل : إن هذه الآية تشمل الحيوانات والجمادات ، وأن آثار الصنعة الإلهية فى الجمادات ناطق ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزّهه عن صفات النقص ، وفى ذلك تقريع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التى من شأنها التسبيح للّه سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ وجلّ . وبالجملة فإنه ينبغى حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز . قرأ الجمهور ﴿ **والطير صافات** ﴾ بالرفع للطير والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من ، وصافات منتصب على الحال . وقرأ الأعرج : « والطير » بالنصب على المفعول معه ، وصافات حال أيضا . قال الزجاج : وهى أجود من الرفع . وقرأ الحسن وخارجة عن نافع : « والطير صافات » برفعهما على الابتداء والخبر، ومفعول صافات محذوف ، أى أجنحتها . وخصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من فى السموات والأرض لعدم استمرار استقرارها فى الأرض وكثرة لبثها فى الهواء وهو ليس من السماء ولا من الأرض ، ولما فيها من الصنعة البديعة التى تقدر بها تارة على الطيران ، وتارة على المشى بخلاف غيرها من الحيوانات ، وذكر حالة من حالات الطير ، وهى كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها ، لأن هذه الحالة هى أغرب أحوالها ، فإن استقرارها فى الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها ولا استقرار على الأرض من أعظم

صنع اللّه الذى أتقن كلّ شىء .

ثم زاد فى البيان فقال : ﴿ **كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ أى كلّ واحد مما ذكر ، والضمير فى علم يرجع إلى كل ، والمعنى : أن كل واحد من هذه المسبحات للّه قد علم صلاة المصلى وتسبيح المسبح. وقيل : المعنى: أن كلّ مصلّ ومسبح قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه. قيل : والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرّر للتأكيد ، والصلاة قد تسمى تسبيحا . وقيل: المراد بالصلاة هنا : الدعاء ، أى كل واحد قد علم دعاءه وتسبيحه . وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها اللّه ذلك وألهمها إليه ، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية ، وفى ذلك زيادة دلالة على بديع صنع اللّه سبحانه وعظيم شأنه ، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له ﴿ **والله عليم بما يفعلون** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها ، أى لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ، ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ **علم** ﴾ للّه سبحانه ، أى كلّ واحد من هذه المسبحة قد علم اللّه صلاته له وتسبيحه إياه والأوّل أرجح لاتفاق القرّاء على رفع كل ،ولو كان الضمير فى علم للّه لكان نصب كل أولى . وذكر بعض المفسرين أن قراءة طائفة من القراء : علم على البناء للمفعول .

ثم بين سبحانه أن المبدأ منه والمعاد إليه فقال : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ أى له لا لغيره ﴿ **وإليه المصير** ﴾ لا إلى غيره . والمصير : الرجوع بعد الموت . وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى غير موضع . ثم ذكر سبحانه دليلا آخر من الآثار العلوية ، فقال : ﴿ **ألم تر أن الله يزجى سحابا** ﴾ الإزجاء : السوق قليلا قليلا ، ومنه قول النابغة :

إنى أتيتك من أهلى ومن وطنى　　　أزجى حشاشة نفس ما بها رمق

وقوله أيضا :

أسرت عليه من الجوزاء سارية　　　يزجى السماك عليه جامد البرد

والمعنى : أنه سبحانه يسوق السحاب سوقا رقيقا إلى حيث يشاء ﴿ **ثم يؤلف بينه** ﴾ أى بين أجزائه ، فيضم بعضه إلى بعض ويجمعه بعد تفرّقه ليقوى ويتصل ويكثف ، والأصل فى التأليف الهمز .وقرأ ورش وقالون عن نافع : « يولف » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ، ولكن معناه جمع ، ولهذا دخلت « بين » عليه لأن أجزاءه فى حكم المفردات له . قال الفراء : إن الضمير فى ﴿ **بينه** ﴾ راجع إلى جملة السحاب ، كما تقول : الشجر قد جلست بينه ، لأنه جمع ، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ **ثم يجعله ركاما** ﴾ أى متراكما يركب بعضه بعضا . والركم : جمع الشىء ، يقال : ركم الشىء يركمه ركما ، أى جمعه وألقى بعضه على بعض وارتكم الشىء وتراكم إذا اجتمع . والركمة : الطين المجموع، والركام : الرمل المتراكب ﴿ **فترى الودق يخرج من خلاله** ﴾ الودق : المطر عند جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها　　　ولا أرض أبقل إبقالها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما ودق وسح وديمة وسكب وتوكاف وتنهملان

يقال : ودقت السحاب فهى وادقة وودق المطر يدق، أى قطر يقطر ، وقيل : إن الودق البرق ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجة وخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب

والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **من خلاله** ﴾ : من فتوقه التى هى مخارج القطر ، وجملة : ﴿**يخرج من خلاله** ﴾ ، فى محل نصب على الحال ، لأن الرؤية هنا هى البصرية . وقرأ ابن عباس وابن مسعود والضحاك وأبو العالية : « من خلله » على الإفراد . وقد وقع الخلاف فى خلال : هل هو مفرد كحجاب ؟ أو جمع كجبال ؟ ﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من برد**﴾ المراد بقوله من سماء: من عال ، لأن السماء قد تطلق على جهة العلوّ ، ومعنى ﴿ **من الجبال**﴾: من قطع عظام تشبه الجبال ، ولفظ « فيها » فى محل نصب على الحال ، و« من » فى : ﴿ **من برد** ﴾ للتبعيض ، وهو مفعول ينزل . وقيل: إن المفعول محذوف ، والتقدير : ينزل من جبال فيها من برد بردا . وقيل : إن من فى : ﴿ **من برد** ﴾ زائدة ، والتقدير: ينزل من السماء من جبال فيها برد . وقيل : إن فى الكلام مضافا محذوفا ، أى ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض . قال الأخفش : إن من فى: ﴿ **من الجبال** ﴾ وفى: ﴿ **من برد**﴾ زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب ، أى ينزل من السماء بردا يكون كالجبال. والحاصل أن « من » فى : ﴿ **من السماء** ﴾ لابتداء الغاية بلا خلاف و « من » فى : ﴿ **من جبال** ﴾ فيها ثلاثة أوجه : الأوّل : لابتداء الغاية فتكون هى ومجرورها بدلا من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال . الثانى : أنها للتبعيض فتكون على هذا هى ومجرورها فى محل نصب على أنها مفعول الإنزال ، كأنه قال : وينزل بعض جبال . الثالث : أنها زائدة ، أى ينزل من السماء جبالا . وأما « من » فى ﴿ **من برد** ﴾ ففيها أربعة أوجه : الثلاثة المتقدّمة . والرابع : أنها لبيان الجنس ، فيكون التقدير على هذا الوجه : وينزل من السماء بعض جبال التى هى البرد . قال الزجاج : معنى الآية : وينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول : هذا خاتم فى يدى من حديد ، أى خاتم حديد فى يدى ، لأنك إذا قلت : هذا خاتم من حديد وخاتم حديد كان المعنى واحدا، انتهى . وعلى هذا يكون ﴿ **من برد** ﴾ فى موضع جرّ صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم ، ويكون مفعول ينزل ﴿ **من جبال** ﴾ ، ويلزم من كون الجبال بردا أن يكون المنزل بردا . وذكر أبو البقاء التقدير : شيئا من جبال ، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة ﴿ **فيصيب به من يشاء** ﴾ أى : يصيب بما ينزل من البرد من يشاء أن يصيبه من عباده ﴿ **ويصرفه عمن يشاء** ﴾ منهم ، أو يصيب به مال من يشاء ويصرفه عن مال من يشاء ، وقد تقدّم الكلام عن مثل هذا فى البقرة . ﴿ **يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾ السنا : الضوء ، أى يكاد ضوء البرق الذى فى السحاب يذهب بالأبصار من شدّة بريقه وزيادة لمعانه ، وهو

كقوله : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها ليبصر ضوءها إلا البصير

وقال امرؤ القيس :

يضيء سناه، أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

فالسنا بالقصر : ضوء البرق ، وبالمدّ : الرفعة ، كذا قال المبرّد وغيره . وقرأ طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب : «سناء برقه » بالمدّ على المبالغة في شدّة الضوء والصفاء ، فأطلق عليه اسم الرفعة والشرف . وقرأ طلحة ويحيى أيضا بضم الباء من برقه وفتح الراء . قال أحمد ابن يحيى ثعلب : وهى على هذه القراءة جمع برق . وقال النحاس : البرقة المقدار من البرق ، والبرقة الواحدة. وقرأ الجحدرى وابن القعقاع: « يذهب » بضم الياء وكسر الهاء من الإذهاب . وقرأ الباقون : ﴿ سنا ﴾ بالقصر و ﴿ برقه ﴾ بفتحْ الباء وسكون الراء و ﴿ يذهب ﴾ بفتح الياء والهاء من الذهاب ، وخطأ قراءة الجحدرى وابن القعقاع، الأخفش وأبو حاتم . ومعنى ذهاب البرق بالأبصار : خطفه إياها من شدّة الإضاءة وزيادة البريق. والباء فى: ﴿ بالأبصار ﴾ على قراءة الجمهور للإلصاق ، وعلى قراءة غيرهم زائدة .

﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أى يعاقب بينهما . وقيل : يزيد فى أحدهما وينقص الآخر. وقيل : يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشرّ ونفع وضرّ . وقيل : بالحرّ والبرد . وقيل : المراد بذلك : تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة وبضوء الشمس أخرى ، وتغيير الليل بظلمة السحاب تارة وبضوء القمر أخرى ، والإشارة بقوله: ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ إلى ما تقدّم ، ومعنى العبرة : الدلالة الواضحة التى يكون بها الاعتبار ، والمراد بأولى الأبصار: كل من له بصر يبصر به .

ثم ذكر سبحانه دليلا ثالثا من عجائب خلق الحيوان وبديع صنعته فقال : ﴿ والله خلق كلّ دابة من ماء ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « واللّه خالق كل دابة » وقرأ الباقون : ﴿ خلق ﴾ والمعنيان صحيحان. والدابة : كل ما دبّ على الأرض من الحيوان ، يقال: دبّ يدبّ فهو دابّ ، والهاء للمبالغة ، ومعنى ﴿ من ماء ﴾ من نطفة ، وهى المنىّ ، كذا قال الجمهور . وقال جماعة : إن المراد : الماء المعروف ، لأن آدم خلق من الماء والطين . وقيل : فى الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل، لأن فى الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة ، ويخرج من هذا العموم الملائكة فإنهم خلقوا من نور ، والجانّ فإنهم خلقوا من نار . ثم فصل سبحانه أحوال كلّ دابة فقال : ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ وهى الحيات والحوت والدود ونحو ذلك ﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ الإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ سائر الحيوانات . ولم يتعرّض لما يمشى على أكثر من أربع ؛ لقلته . وقيل : لأن المشى على أربع فقط وإن كانت القوائم كثيرة . وقيل : لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع ، ولا وجه

لهذا فإن المراد التنبيه على بديع الصنع وكمال القدرة ، فكيف يقال : لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع ؟ وقيل : ليس فى القرآن ما يدّل على عدم المشى على أكثر من أربع ، لأنه لم ينف ذلك ولا جاء بما يقتضى الحصر ، وفى مصحف أبىّ : « ومنهم من يمشى على أكثر » فعمّ بهذه الزيادة جميع ما يمشى على أكثر من أربع كالسرطان والعناكب وكثير من خشاش الأرض ﴿ **يخلق الله ما يشاء** ﴾ مما ذكره ها هنا ومما لم يذكره كالجمادات مركبها وبسيطها ناميها وغير ناميها ﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء بل الكلّ من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه .

﴿ **ولقد أنزلنا آيات مبينات** ﴾ أى : القرآن ، فإنه قد اشتمل على بيان كلّ شىء وما فرّطنا فى الكتاب من شىء ، وقد تقدّم بيان مثل هذا فى غير موضع ﴿ **والله يهدى من يشاء** ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح وإرشاده إلى التأمل الصادق ﴿**إلى صراط مستقيم** ﴾ إلى طريق مستوٍ لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام وهو نعيم الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب** ﴾ قال : هو مثل ضربه اللّه ، كرجل عطش فاشتدّ عطشه فرأى سرابا فحسبه ماء ، فطلبه فظن أنه قدر عليه حتى أتى ، فلما أتاه لم يجده شيئا ، وقبض عند ذلك ، يقول : الكافر كذلك السراب ، إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغنى عنه شيئا ، ولا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجىّ** ﴾ قال : يعنى بالظلمات : الأعمال ، وبالبحر اللجىّ: قلب الإنسان ﴿ **يغشاه موج** ﴾ يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **بقيعة** ﴾ بأرض مستوية. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق السدّى عن أبيه عن أصحاب النبى ﷺ قال: « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا فيقولون : أين الماء ؟ فيتمثل لهم السراب فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه فيجدون اللّه عنده فيوفيهم حسابه واللّه سريع الحساب » وفى إسناده السدّى عن أبيه،وفيه مقال معروف . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة فى قوله : ﴿ **كلّ قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ قال: الصلاة للإنسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **والطير صافات** ﴾ قال : بسط أجنحتهن . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يكاد سنا برقه** ﴾ يقول : ضوء برقه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : كل شىء يمشى على أربع إلا الإنسان . وأقول : هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشى على رجلين ، وهكذا غيرها ، كالنعامة فإنها تمشى على رجلين ، وليست من الطير ، فهذه الكلية المروية عنه رضى اللّه عنه لا تصحّ .

﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ**

بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

شرع سبحانه فى بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فإنهم كما حكى الله عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح ، ولهذا قال: ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ أى من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿ من بعد ذلك﴾ أى من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة ، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان فقال: ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة ، فيشمل الحكم بنفى الإيمان جميع القائلين ، ويندرج تحتهم من تولى اندراجا أوّليا . وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ راجع إلى من تولى ، والأوّل أولى . والكلام مشتمل على حكمين : الحكم الأوّل : على بعضهم بالتولى ، والحكم الثانى : على جميعهم بعدم الإيمان . وقيل: أراد بمن تولى : من تولى عن قبول حكمه ﷺ . وقيل : أراد بذلك رؤساء المنافقين ، وقيل : أراد بتولى هذا الفريق: رجوعهم إلى الباقين ، ولا ينافى ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ووردوها على سبب خاص كما سيأتى بيانه.

ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقا منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله وإلى رسوله فى خصوماتهم ، فقال : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ أى ليحكم الرسول

بينهم ، فالضمير راجع إليه ؛ لأنه المباشر للحكم وإن كان الحكم فى الحقيقة للّه سبحانه ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة : ٦٢] . و « إذا» فى قوله : ﴿ **إذا فريق منهم معرضون** ﴾ هى الفجائية ، أى فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى اللّه والرسول . ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحقّ عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول اللّه ﷺ لا يحكم إلا بالحق فقال : ﴿ **وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين** ﴾ قال الزجاج : الإذعان: الإسراع مع الطاعة ، يقال : أذعن لى بحقى ، أى طاوعنى لما كنت ألتمس منه وصار يسرع إليه ، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش وابن الأعرابى: مذعنين : مقرّين . وقال النقاش : مذعنين : خاضعين .

ثم قسم الأمر فى إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم فقال: ﴿ **أفى قلوبهم مرض** ﴾ وهذه الهمزة للتوبيخ والتقريع لهم ، والمرض : النفاق ، أى أكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن فى قلوبهم ﴿ **أم ارتابوا** ﴾ وشكوا فى أمر نبوّته ﷺ وعدله فى الحكم ﴿ **أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله** ﴾ والحيف : الميل فى الحكم ، يقال : حاف فى قضيته ، أى جار فيما حكم به ، ثم أضرب عن هذه الأمور التى صدّرها بالاستفهام الإنكارى فقال : ﴿**بل أولئك هم الظالمون** ﴾ أى ليس ذلك لشىء مما ذكر ، بل لظلمهم وعنادهم ؛ فإنه لو كان الإعراض لشىء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم ، وفى هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضى العالم بحكم اللّه العادل فى حكمه ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم اللّه العارفين بالكتاب والسنة ، العادلين فى القضاء هو حكم بحكم اللّه وحكم رسوله ، فالداعى إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى اللّه وإلى رسوله ، أى إلى حكمهما . قال ابن خويز منداد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق .

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم ، لأن اللّه سبحانه ذمّ من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذّم ، فقال : ﴿ **أفى قلوبهم مرض** ﴾ الآية انتهى [(١)] ، فإن كان القاضى مقصرا لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ، ولا يعقل حجج اللّه ومعانى كلامه وكلام رسوله ، بل كان جاهلا جهلا بسيطا ، وهو من لا علم له بشىء من ذلك ، أو جهلا مركبا ، وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شىء من علم الرأى ، فهذا فى الحقيقة جاهل ، وإن اعتقد أنه يعلم بشىء من العلم فاعتقاده باطل ؛ فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه ؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم اللّه ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه ، بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل ، فإنّ ما عرفه من علم الرأى إنما رخص فى العمل به للمجتهد الذى هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتى بعده . وإذا

(١) القرطبى ٧ / ٤٦٨٦ .

تقرّر لديك هذا وفهمته حق فهمه علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره والتقيد بجميع ما جاء به من رواية ورأى ، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث فى هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد أوضحنا هذا فى مؤلفنا الذى سميناه «القول المفيد فى حكم التقليد » وفى مؤلفنا الذى سميناه « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التى طبقت الأقطار الإسلامية فليرجع إليهما .

ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق ، أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله فقال : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ قرأ الجمهور بنصب: ﴿ **قول** ﴾ على أنه خبر كان واسمها ﴿ **أن يقولوا**﴾. وقرأ علىّ والحسن وابن أبى إسحاق برفع : « قول » على أنه الاسم وأن المصدرية وما فى حيزها الخبر ، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من أنه إذا اجتمع معرفتان وكانت إحداهما أعرف جعلت التى هى أعرف اسما . وأما سيبويه فقد خير بين كلّ معرفتين ولم يفرق هذه التفرقة ، وقد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى الله ورسوله للحكم بين المتخاصمين وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة ومن لا تجب ﴿ **أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ أى أن يقولوا هذا القول لا قولا آخر ، وهذا وإن كان على طريقة الخبر فليس المراد به ذلك ، بل المراد به تعليم الأدب الشرعى عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر . والمعنى : أنه ينبغى للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة والإذعان . قال مقاتل وغيره : يقولون سمعنا قول النبى ﷺ وأطعنا أمره ، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرّهم ، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **وأولئك** ﴾ أى المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿ **هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بخير الدنيا والآخرة .

ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر فقال : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾ وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم إلى الدخول فى عدادهم والمتابعة لهم فى طاعة الله ورسوله والخشية من الله عزّ وجلّ والتقوى له . قرأ حفص : ﴿ **ويتقه** ﴾ بإسكان القاف على نية الجزم . وقرأ الباقون بكسرها ، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره ، وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر واختلس الكسرة يعقوب وقالون عن نافع والمثنى عن أبى عمرو وحفص وأشبع كسرة الهاء الباقون . قال ابن الأنبارى : وقراءة حفص هى على لغة من قال : لم أر زيدا ، ولم أشتر طعاما ، يسقطون الياء للجزم ثم يسكنون الحرف الذى قبلها ، ومنه قول الشاعر :

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا

وقول الآخر :

عجبت لمولود وليس له أب   وذى ولد لم يلده أبوان

وأصله يلد بكسر اللام وسكون الدال للجزم ، فلما سكن اللام التقى ساكنان ، فلو حرك الأوّل لرجع إلى ما وقع الفرار منه ، فحرك ثانيهما وهو الدال . ويمكن أن يقال : إنه حرك الأوّل على أصل التقاء الساكنين وبقى السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة ولا يضرّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه ، فهذه الحركة غير تلك الحركة . والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك هم الفائزون** ﴾ إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة والخشية والتقوى ، أى هم الفائزون بالنعيم الدنيوى والأخروى لا من عداهم .

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا فقال : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنّ** ﴾ أى لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن ، و﴿ **جهد أيمانهم** ﴾ منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له ، أى أقسموا باللّه يجهدون أيمانهم جهدا . ومعنى ﴿ **جهد أيمانهم** ﴾ : طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم : جهد نفسه : إذا بلغ طاقتها وأقصى وسعها . وقيل : هو منتصب على الحال ، والتقدير : مجتهدين فى أيمانهم ، كقولهم : افعل ذلك جهدك وطاقتك ، وقد خلط الزمخشرى الوجهين فجعلهما واحدا . وجواب القسم قوله: ﴿**ليخرجنّ** ﴾ ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة وأيمانهم فاجرة ردّ اللّه عليهم ، فقال : ﴿ **قل لا تقسموا** ﴾ أى ردّ عليهم زاجراً لهم ، وقل لهم : لا تقسموا ، أى لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به ، وها هنا تمّ الكلام . ثم ابتدأ فقال : ﴿ **طاعة معروفة** ﴾ وارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ ، لأنها قد خصصت بالصفة ، ويكون الخبر مقدّرا ، أى طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم ، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف ، أى لتكن منكم طاعة أو لتوجد ، وفى هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدّم ما يشعر به . وقرأ زيد بن علىّ واليزيدى : «طاعة » بالنصب على المصدر لفعل محذوف ، أى أطيعوا طاعة ﴿ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ من الأعمال وما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق .

ثم أمر اللّه سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بطاعة اللّه ورسوله فقال : ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ طاعة ظاهرة وباطنة بخلوص اعتقاد وصحة نية ، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، فإن قوله : ﴿ **قل لا تقسموا طاعة معروفة** ﴾ فى حكم الأمر بالطاعة . وقيل : إنهما مختلفان ، فالأوّل : نهى بطريق الردّ والتوبيخ . والثانى: أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم ﴿ **فإن تولوا** ﴾ : خطاب للمأمورين ، وأصله : فإن تتولوا ، فحذف إحدى التاءين تخفيفا ، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول اللّه ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم والمبالغة فى العناية بهدايتهم إلى الطاعة والانقياد ، وجواب الشرط قوله : ﴿ **فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم** ﴾ أى فاعلموا أنما على النبى ﷺ ﴿ **ما حمل** ﴾ مما أمر به

من التبليغ وقد فعل ، ﴿ **وعليكم ما حملتم** ﴾ أى ما أمرتم به من الطاعة ، وهو وعيد لهم كأنه قال لهم : فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿ **وإن تطيعوه** ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ **تهتدوا** ﴾ إلى الحق وترشدوا إلى الخير وتفوزوا بالأجر ، وجملة : ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ مقرّرة لما قبلها ، واللام إما للعهد فيراد بالرسول نبينا ﷺ ، وإما للجنس فيراد كل رسول. والبلاغ المبين : التبليغ الواضح أو الموضح. قيل: يجوز أن يكون قوله:﴿ **فإن تولوا** ﴾ ماضيا وتكون الواو لضمير الغائبين ، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول اللّه ﷺ أن يقوله لهم ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأوّل أرجح . ويؤيده الخطاب فى قوله : ﴿ **وعليكم ما حملتم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ ويؤيده أيضا قراءة البزى : « فإن تولوا » بتشديد التاء وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين .

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول اللّه ﷺ سبب لهدايتهم ، وهذا وعد من اللّه سبحانه لمن آمن باللّه وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم فى الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم ، وهو وعد يعم جميع الأمة . وقيل : هو خاص بالصحابة ، ولا وجه لذلك ، فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم ، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة ، ومن عمل بكتاب اللّه وسنة رسوله فقد أطاع اللّه ورسوله . واللام فى ﴿ **ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ جواب لقسم محذوف ،أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم ، لأنه ناجز لا محالة ، ومعنى ﴿**ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى مملوكاتهم ، وقد أبعد من قال : إنها مختصة بالخلفاء الأربعة ، أو بالمهاجرين ، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة ، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وظاهر قوله : ﴿ **كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ كل من استخلفه اللّه فى أرضه فلا يخصّ ذلك ببنى إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها . قرأ الجمهور : ﴿ **كما استخلف** ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول ، ومحل الكاف النصب على المصدرية ، أى استخلافا كما استخلف ، وجملة : ﴿ **وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم** ﴾ معطوفة على ﴿ **ليستخلفنهم** ﴾ داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب ، والمراد بالتمكين هنا : التثبيت والتقرير ، أى يجعله اللّه ثابتا مقرّرا ويوسع لهم فى البلاد ويظهر دينهم على جميع الأديان ، والمراد بالدين هنا : الإسلام ، كما فى قوله : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [المائدة : ٣] . ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أوّلا ، وهو جعلهم ملوكا ، وذكر التمكين ثانيا فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروّ ، بل على وجه الاستقرار والثبات ، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم .

وجملة : ﴿ **وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾ معطوفة على التى قبلها . قرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر : « ليبدلنهم » بالتخفيف من أبدل ، وهى قراءة الحسن واختارها

أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتشديد من بدّل واختارها أبو عبيد ، وهما لغتان ، وزيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى ، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقا ، وأنه يقال : بدّلته ، أى غيرته ، وأبدلته : أزلته وجعلت غيره. قال النحاس: وهذا القول صحيح . والمعنى : أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذى كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا اللّه سبحانه ولا يرجون غيره . وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل فى خوف شديد من المشركين ، لا يخرجون إلا فى السلاح ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرّة بهم من الكفار، ثم صاروا فى غاية الأمن والدعة وأذلّ اللّه لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ، ومهد لهم فى الأرض ومكنهم منها ، فللّه الحمد . وجملة ﴿ **يعبدوننى** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم ، وجملة : ﴿ **لا يشركون بى شيئا** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يعبدوننى ، أى يعبدوننى ، غير مشركين بى فى العبادة شيئا من الأشياء . وقيل : معناه : لا يراؤون بعبادتى أحدا . وقيل : معناه : لا يخافون غيرى ، وقيل: معناه : لا يحبون غيرى ﴿ **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أى من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح ، أو من استمرّ على الكفر ، أو من كفر بعد إيمان ، فأولئك الكافرون هم الفاسقون؛ أى الكاملون فى الفسق . وهو الخروج عن الطاعة والطغيان فى الكفر .

وجملة : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ معطوفة على مقدّر يدلّ عليه ما تقدّم ، كأنه قيل لهم : فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا الصلاة . وقيل : معطوف على ﴿ **وأطيعوا الله** ﴾ وقيل التقدير : فلا تكفروا وأقيموا الصلاة . وقد تقدّم الكلام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وخصه بالطاعة ، لأن طاعته طاعة للّه ، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرّر فى علم المعانى من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أى افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم اللّه سبحانه ﴿ **لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين فى الأرض** ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو حيوة ﴿ **لا يحسبنّ** ﴾ بالتحتية بمعنى : لا تحسبنّ الذين كفروا ، وقرأ الباقون بالفوقية ، أى لا تحسبنّ يا محمد ، والموصول المفعول الأوّل ، ومعجزين الثانى ، لأن الحسبان يتعدّى إلى مفعولين ، قاله الزجاج والفرّاء وأبو على . وأما على القراءة الأولى ، فيكون المفعول الأوّل محذوفا، أى لايحسبنّ الذين كفروا أنفسهم . قال النحاس : وما علمت أحدا بصريا ولا كوفيا إلا وهو يخطئ قراءة حمزة ، و﴿ **معجزين** ﴾ معناه :فائتين. وقد تقدّم تفسيره وتفسير ما بعده.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويقولون آمنا بالله وبالرسول** ﴾ الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة ، وهم فى ذلك يصدّون عن سبيل اللّه وطاعته وجهاد مع رسوله ﷺ . وأخرجوا أيضا عن الحسن قال : إن الرجل كان

يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول اللّه ﷺ ، فإذا دعى إلى النبى ﷺ وهو محقّ أذعن وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحقّ ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى ﷺ أعرض وقال: أنطلق إلى فلان ، فأنزل اللّه سبحانه: ﴿ **وإذا دعوا إلى الله ورسوله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **هم الظالمون** ﴾ فقال رسول اللّه ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب ، فهو ظالم لا حقّ له» قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه: وهذا حديث غريب وهو مرسل [(١)] . وقال ابن العربى : هذا حديث باطل ، فأما قوله: فهو ظالم ، فكلام صحيح . وأما قوله : فلا حق له ، فلا يصح . ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق. انتهى . وأقول : أما كون الحديث مرسلا فظاهر . وأما دعوى كونه باطلا فمحتاجة إلى برهان ، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم كما ذكرنا، ويبعد كل البعد أن ينفق عليهم ما هو باطل ، وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: قال ابن أبى حاتم : حدّثنا أبىّ ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدّثنا مبارك ، حدّثنا الحسن فذكره. وليس فى هؤلاء كذاب ولا وضاع . ويشهد له ما أخرجه الطبرانى عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من دعى إلى سلطان فلم يجب ، فهو ظالم لاحقّ له»[(٢)] انتهى . ولا يخفاك أن قضاة العدل وحكام الشرع الذين هم على الصفة التى قدّمنا لك قريبا هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب والسنة،المبينون للناس ما نزل إليهم.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى قوم النبى ﷺ فقالوا : يا رسول اللّه ، لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا ، فأنزل اللّه : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى الآية قال : ذلك فى شأن الجهاد ، قال : يأمرهم ألا يحلفوا على شيء ﴿ **طاعة معروفة** ﴾ قال : أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبى ﷺ من غير أن يقسموا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد : ﴿**طاعة معروفة** ﴾ يقول : قد عرفت طاعتهم، أى إنكم تكذبون به. وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه قال : قدم زيد بن أسلم على رسول اللّه ﷺ فقال : أرأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا ؟ قال : « فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ماحملتم » [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن قانع والطبرانى عن علقمة بن وائل الحضرمى عن سلمة بن يزيد الجعفى قال : قلت : يا رسول . . . فذكر نحوه[(٤)]. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن الزبير عن جابر أنه سئل : إن كان على إمام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال : قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم ، وعلى الإمام ما حمل وعليكم ما حملتم .

---

(١) ابن كثير ٥/ ١١٦ .

(٢) الطبرانى (٦٩٣٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٠١ : « فيه روح بن عطاء وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة » .

(٣) مسلم فى الإمارة (١٨٤٦/ ٤٩) والترمذى فى الفتن (٢١٩٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » فى رواية مسلم اسم الصحابى سلمة بن يزيد الجعفى ، والترمذى لم يسم أحدًا .

(٤) الطبرانى (٦٣٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٢٣ : « فيه عبيد بن عبيدة ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات » .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء فى قوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم** ﴾ الآية . قال : فينا نزلت ونحن فى خوف شديد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان النبىّ ﷺ وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى اللّه وحده وعبادته وحده لا شريك له سرّا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة ، فأمرهم اللّه بالقتال ، وكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فغبروا بذلك ما شاء اللّه ، ثم إن رجلا من أصحابه قال : يا رسول اللّه ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ مايأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : «لن تغبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة » ، فأنزل اللّه : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ إلى آخر الآية ، فأظهر اللّه نبيه ﷺ على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن اللّه قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة ، فأدخل اللّه عليهم الخوف الذى كان رفع عنهم ، واتخذوا الحجر والشرط ، وغيروا فغير ما بهم. وأخرج ابن المنذر والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب . قال : لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد ، فكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللّه ، فنزلت : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** ﴾ الآية [1]. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس: ﴿ **يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** ﴾ قال : لا يخافون أحدا غيرى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد مثله ، قال : ﴿ **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ : العاصون . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : كفر بهذه النعمة ، ليس الكفر باللّه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **معجزين فى الأرض** ﴾ قال : سابقين فى الأرض .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٠١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٦، ٧، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٦ : «رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات ».

يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد، رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره هاهنا على وجه أخص فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ والخطاب للمؤمنين وتدخل المؤمنات فيه تغليبا كما فى غيره من الخطابات . قال العلماء : هذه الآية خاصة ببعض الأوقات . واختلفوا فى المراد بقوله : ﴿ **ليستأذنكم** ﴾ على أقوال : الأوّل أنها منسوخة ، قاله سعيد بن المسيب . وقال سعيد بن جبير : إن الأمر فيها للندب لا للوجوب . وقيل: كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاه المهدوى عن ابن عباس . وقيل : إن الأمر هاهنا للوجوب ، وإن الآية محكمة غير منسوخة ، وأن حكمها ثابت على الرجال والنساء. قال القرطبى:وهو قول أكثر أهل العلم [١]. وقال أبو عبد الرحمن السلمى : إنها خاصة بالنساء . وقال ابن عمر : هى خاصة بالرجال دون النساء . والمراد بقوله : ﴿ **ملكت أيمانكم** ﴾ : العبيد والإماء . والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم : الصبيان ﴿ **منكم** ﴾، أى من الأحرار، ومعنى ﴿ **ثلاث مرات** ﴾: ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة. وعبر بالمرات عن الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات . وانتصاب ﴿ **ثلاث مرات** ﴾ على الظرفية الزمانية ، أى ثلاثة أوقات ، ثم فسر تلك الأوقات بقوله : ﴿ **من قبل صلاة الفجر** ﴾ إلخ ، أو منصوب على المصدرية ، أى ثلاث استئذانات ؛ ورجح هذا أبو حيان فقال : والظاهر من قوله : ﴿ **ثلاث مرات** ﴾ ثلاث استئذانات ، لأنك إذا قلت : ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات . ويردّ بأن الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة ، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات . قرأ الحسن وأبو عمرو فى رواية الحلم بسكون اللام وقرأ الباقون بضمها . قال الأخفش : الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ، ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام .

ثم فسر سبحانه الثلاث المرات فقال : ﴿ **من قبل صلاة الفجر** ﴾ وذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع ، وطرح ثياب النوم ، ولبس ثياب اليقظة ، وربما يبيت عريانا ، أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره فيها ، ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث ، ويجوز أن يكون فى محل

(١) القرطبى ٧ / ٤٦٩٥ .

رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هي من قبل ، وقوله : ﴿ **وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة** ﴾ معطوف على محل ﴿ **من قبل صلاة الفجر** ﴾ و « من » في : ﴿ **من الظهيرة** ﴾ للبيان ، أو بمعنى في ، أو بمعنى اللام . والمعنى : حين تضعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار من شدة حرّ الظهيرة وذلك عند انتصاف النهار ، فإنهم قد يتجرّدون عن الثياب لأجل القيلولة . ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال : ﴿ **ومن بعد صلاة العشاء** ﴾ وذلك لأنه وقت التجرد عن الثياب والخلوة بالأهل ، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل فقال : ﴿**ثلاث عورات لكم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ثلاث عورات** ﴾ برفع ثلاث ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ثلاث مرات . قال ابن عطية : إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويحتمل أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة ؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلا من الأوقات المذكورة ، أي من قبل صلاة الفجر إلخ ؛ ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل ، أي أعني ونحوه ، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هنّ ثلاث . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفراء : الرفع أحبّ إليّ ، قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاث عورات . وقال الكسائي : إن ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء والخبر ما بعدها . قال : والعورات : الساعات التي تكون فيها العورة . قال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وعورات جمع عورة ، والعورة في الأصل : الخلل ، ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهمّ حفظه ويتعين ستره ، أي هي ثلاث أوقات يختلّ فيها الستر . وقرأ الأعمش : « عورات » بفتح الواو ، وهي لغة هذيل وتميم فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واوا أو ياء ، ومنه :

أخـو بيضـات رايـح متـأوّب رفيق بمسح المنكبين سبوح

وقوله :

أبو بيضات رايح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزوّد

و﴿ **لكم** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات ، أي كائنة لكم ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان ﴿ **ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ** ﴾ أي ليس على المماليك ولا على الصبيان جناح ، أي إثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر والاطلاع على العورات . ومعنى ﴿ **بعدهنّ** ﴾: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث ، وهي الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها ، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة ، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها . قال أبو البقاء : ﴿ **بعدهنّ** ﴾ أي بعد استئذانهم فيهنّ ، ثم حذف حرف الجرّ والمجرور فبقي بعد استئذانهم ، ثم حذف المصدر وهو الاستئذان ، والضمير المتصل به . وردّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذي ذكره ، بل المعنى: ليس عليكم جناح ولا عليهم، أي العبيد والإماء

والصبيان، جناح فى عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة ، وارتفاع ﴿ **طوّافون** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم طوّافون عليكم ، والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص فى ترك الاستئذان . قال الفراء : هذا كقولك فى الكلام : هـم خدمكم وطوّافون عليكم ، وأجاز أيضا نصب طوّافين لأنه نكرة ، والمضمر فى ﴿ **عليكم** ﴾ معرفة ولا يجيز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين فى عليكم وفى بعضكم لاختلاف العاملين . ومعنى ﴿ **طوّافون عليكم** ﴾ أى يطوفون عليكم ، ومنه الحديث فى الهرّة : « إنما هى من الطوّافين عليكم أو الطوّافات » (١) أى هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم فى غير هذه الأوقات بغير إذن ، ومعنى ﴿ **بعضكم على بعض** ﴾ : بعضكم يطوف أو طائف على بعض. وهذه الجملة بدل مما قبلها أو مؤكدة لها. والمعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالى والموالى على العبيد، ومنه قول الشاعر :

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

وقرأ ابن أبى عبلة : « طوّافين » بالنصب على الحال كما تقدّم عن الفراء ، وإنما أباح سبحانه الدخول فى غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان ، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم فى غيرها ، والإشارة بقوله : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات** ﴾ إلى مصدر الفعل الذى بعده ، كما فى سائر المواضع فى الكتاب العزيز ، أى مثل ذلك التبيين يبين اللّه لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ كثير العلم بالمعلومات وكثير الحكمة فى أفعاله .

﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم** ﴾ بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم فى أنه لا جناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال : ﴿ **فليستأذنوا** ﴾ يعنى الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم ﴿ **كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ والكاف نعت مصدر محذوف، أى استئذانا كما استأذن الذين من قبلهم ، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم : ﴿ **لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا** ﴾ الآية . والمعنى : أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون فى جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء ، ثم كرّر ما تقدّم للتأكيد فقال : ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم** ﴾ وقرأ الحسن : « الحلم » فحذف الضمة لثقلها . قال عطاء :واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال الزهرى : يستأذن الرجل على أمه ، وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية . والمراد بالقواعد من النساء : العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ، واحدتها : قاعد بلا هاء ليدل

(١) مالك ١/ ٢٣ وأحمد ٥/ ٢٩٦ وأبو داود فى الطهارة (٧٥) والترمذى فى الطهارة (٩٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ١/ ٥٥ وابن ماجة فى الطهارة (٣٦٧) والدارمى ١/ ١٨٨ ، كلهم عن كبشة بنت كعب ابن مالك .

حذفها على أنه قعود الكبر ، كما قالوا : امرأة حامل ليدل بحذف الهاء على أنه حمل حبل ، ويقال : قاعدة فى بيتها وحاملة على ظهرها . قال الزجاج : هن اللاتى قعدن عن التزويج ، وهو معنى قوله : ﴿ **اللاتى لا يرجون نكاحا** ﴾ أى لايطمعن فيه لكبرهن . وقال أبو عبيدة : اللاتى قعدن عن الولد ، وليس هذا بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع .

ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال :﴿ **فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهنّ** ﴾ أى الثياب التى تكون على ظاهر البدن كالجلباب ونحوه ، لا الثياب التى على العورة الخاصة ، وإنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الأنفس عنهنّ إذ لا رغبة للرجال فيهنّ ، فأباح اللّه سبحانه لهنّ ما لم يبحه لغيرهنّ ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ فقال : ﴿ **غير متبرّجات بزينة** ﴾ أى غير مظهرات للزينة التى أمرن بإخفائها فى قوله :﴿ **ولا يبدين زينتهنّ** ﴾ والمعنى : من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهنّ ولا متعرّضات بالتزين لينظر إليهنّ الرجال . والتبرّج : التكشف والظهور للعيون ، ومنه ﴿ بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] . وبروج السماء ، ومنه قولهم : سفينة بارجة ، أى لاغطاء عليها ﴿ **وأن يستعففن خير لهنّ** ﴾ أى وأنَ يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها . وقرأ عبد اللّه بن مسعود وأبىّ بن كعب وابن عباس : « أن يضعن من ثيابهن» بزيادة من ، وقرأ ابن مسعود : « وأن يعففن » بغير سين ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ كثير السماع والعلم أو بليغهما .

﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ قال بالأوّل جماعة من العلماء ، وبالثانى جماعة . قيل : إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا ، فكانوا يتحرّجون من ذلك وقالوا : لا ندخلها وهم غيب ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم ؛ فمعنى الآية : نفى الحرج عن الزمنى فى أكلهم من بيوت أقاربهم أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو . قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روى فى الآية لما فيه من الصحابة والتابعين من التوقيف . وقيل : إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذارا من استقذارهم إياهم وخوفا من تأذيهم بأفعالهم فنزلت . وقيل : إن اللّه رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به القدرة الكاملة على المشى على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه . وقيل : المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو: الحرج فى الغزو ، أى لا حرج على هؤلاء فى تأخرهم عن الغزو . وقيل : كان الرجل إذا أدخل أحدا من هؤلاء الزمنى إلى بيته فلم يجد فيه شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته ، فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت . ومعنى قوله : ﴿**ولا على أنفسكم** ﴾ : عليكم وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿ **أن تأكلوا** ﴾ أنتم ومن معكم ، وهذا ابتداء كلام ، أى ولا عليكم أيها الناس . والحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج

والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء ، أو دخول بيوتهم فيكون ﴿ **ولا على أنفسكم** ﴾ متصلا بما قبله ، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التى يشترط فيها وجود البصر وعدم العرج وعدم المرض ، فقوله : ﴿ **ولا على أنفسكم** ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله .

ومعنى ﴿ **من بيوتكم** ﴾ : البيوت التى فيها متاعهم وأهلهم فيدخل بيوت الأولاد ، كذا قال المفسرون ، لأنها داخلة فى بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته ، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد وذكر بيوت الآباء وبيوت الأمهات ومن بعدهم. قال النحاس : وعارض بعضهم هذا فقال : هذا تحكم على كتاب اللّه سبحانه بل الأولى فى الظاهر أن يكون الابن مخالفا لهؤلاء . ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لاتنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد ، بل للآباء مزيد خصوصية فى أموال الأولاد لحديث : «أنت ومالك لأبيك » (١) وحديث : « ولد الرجل من كسبه » (٢) ثم قد ذكر اللّه سبحانه هاهنا بيوت الإخوة والأخوات ، بل بيوت الأعمام والعمات ، بل بيوت الأخوال والخالات ، فكيف ينفى سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء ، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد ؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم . وقال آخرون : لا يشترط الإذن . قيل : وهذا إذا كان الطعام مبذولا ، فإن كان محرزا دونهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه: ﴿ **أو ما ملكتم مفاتحه** ﴾ أى البيوت التى تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها ، وذلك كالوكلاء والعبيد والخزّان ، فإنهم يملكون التصرف فى بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفاتحه . وقيل : المراد بها : بيوت المماليك . قرأ الجمهور : ﴿ **ملكتم** ﴾ بفتح الميم وتخفيف اللام . وقرأ سعيد بن جبير بضم الميم وكسر اللام مع تشديدها . وقرأ أيضا : « مفاتيحه » بياء بين التاء والحاء . وقرأ قتادة : ﴿ **مفاتحه** ﴾ على الإفراد، والمفاتح جمع مفتح ، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿ **أو صديقكم** ﴾ أى لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة، فإن الصديق فى الغالب يسمح لصديقه بذلك وتطيب به نفسه ، والصديق يطلق على الواحد والجمع ، ومنه قول جرير :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأسهم أعداء وهنّ صديق

ومثله العدوّ والخليط والقطين والعشير ، ثم قال سبحانه: ﴿ **ليس عليكم جناح أن تأكلوا** ﴾ من بيوتكم ﴿ **جميعا أو أشتاتا** ﴾ انتصاب ﴿ **جميعا** ﴾ و ﴿ **أشتاتا** ﴾ على الحال . والأشتات جمع شتّ ، والشتّ المصدر : بمعنى التفرّق ، يقال: شتّ القوم ، أى تفرقوا ، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله ، أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا

(١) أحمد ٢/ ٢٠٤ وابن ماجة فى التجارات (٢٢٩٢) كلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) أحمد ٦/ ١٧٣ وأبو داود فى البيوع (٣٥٢٨) والترمذى فى الأحكام (١٣٥٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٧/ ٢٤١ وابن ماجة فى التجارات (٢٢٩٠) والدارمى ٢/ ٢٤٧ ، كلهم عن عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة رضى اللّه عنها .

من بيوتكم مجتمعين أو متفرقين ، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن يأكل وحده حتى يجد له أكيلا يؤاكله فيأكل معه ، وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف ، ومنه قول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا ، فإنى لست آكله وحدى

﴿ **فإذا دخلتم بيوتا** ﴾ هذا شروع فى بيان أدب آخر أدّب به عباده ، أى إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التى تقدّم ذكرها ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾ أى على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. وقيل : المراد البيوت المذكورة سابقا. وعلى القول الأوّل ، فقال الحسن والنخعى: هى المساجد ، والمراد : سلموا على من فيها من صنفكم ،فإن لم يكن فى المساجد أحد ، فقيل : يقول : السلام على رسول اللّه . وقيل : يقول : السلام عليكم مريدا للملائكة . وقيل : يقول : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين. وقال بالقول الثانى ، أعنى أنها البيوت المذكورة سابقا ، جماعة من الصحابة والتابعين . وقيل : المراد بالبيوت هنا : هى كلّ البيوت المسكونة وغيرها فيسلم على أهل المسكونة ، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه . قال ابن العربى : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح ، وانتصاب ﴿ **تحية** ﴾ على المصدرية ، لأن قوله: ﴿ **فسلموا** ﴾ معناه : فحيوا ، أى تحية ثابتة ﴿ **من عند الله** ﴾ أى إن اللّه حياكم بها . وقال الفرّاء : أى إن اللّه أمركم أن تفعلوها طاعة له. ثم وصف هذه التحية فقال : ﴿ **مباركة** ﴾ أى كثيرة البركة والخير دائمتهما ﴿ **طيبة** ﴾ أى تطيب بها نفس المستمع . وقيل : حسنة جميلة. وقال الزجاج : أعلم اللّه سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب ، ثم كرّر سبحانه فقال : ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات** ﴾ تأكيدا لما سبق . وقد قدّمنا أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات اللّه سبحانه وفهم معانيها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : بلغنا أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبى ﷺ طعاما ، فقالت أسماء : يا رسول اللّه ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأنزل اللّه فى ذلك : ﴿**يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ يعنى العبيد والإماء ﴿ **والذين لم يبلغوا الحلم منكم** ﴾ قال : من أحراركم من الرجال والنساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى هذه الآية قال : كان أناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ، ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم اللّه أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن . وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظى عن عبد اللّه ابن سويد قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن العورات الثلاثة ، فقال : « إذا أنا وضعت ثيابى بعد الظهيرة لم يلج علىّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن ، وإذا وضعت ثيابى بعد صلاة العشاء . ومن قبل صلاة الصبح » . وأخرجه عبد بن حميد والبخارى فى الأدب عن عبد اللّه بن سويد من قوله . وأخرج نحوه أيضا ابن سعد عن سويد بن النعمان .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو داود وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : إنه لم يؤمن بها أكثر الناس : يعنى آية الإذن ، وإنى لآمر جاريتى هذه ، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن على[١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنّ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ ، والآية التى فى سورة النساء: ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ [الآية: ٨]، والآية التى فى الحجرات: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الآية : ١٣] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبىّ ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلى الغداة ، وإذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك، ورخص لهم فى الدخول فيما بين ذلك بغير إذن ، وهو قوله : ﴿ **ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ** ﴾ فأما من بلغ الحلم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال ، وهو قوله : ﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضا ؛ أن رجلا سأله عن الاستئذان فى الثلاث العورات التى أمر اللّه بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن اللّه ستير يحب الستر . وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب فى بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيم فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم اللّه أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى اللّه ، ثم جاء اللّه بعد بالستور ، فبسط عليهم فى الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجاب ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ قال : هى على الذكور دون الإناث ، ولا وجه لهذا التخصيص ، فالاطلاع على العورات فى هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث . وأخرج ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن بعض أزواج النبى ﷺ فى الآية قالت: نزلت فى النساء أن يستأذنّ علينا. وأخرج الحاكم وصححه عن علىّ فى الآية قال : النساء فإن الرجال يستأذنون . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن السلمى فى هذه الآية قال : هى فى النساء خاصة ، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار . وأخرج الفريابى عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت الشعبى عن هذه الآية أمنسوخة هى ؟ قال : لا . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عطاء ؛ أنه سأل ابن عباس أأستأذن على أختى ؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى وإنى أنفق عليها وإنها معى فى البيت أأستأذن عليها ؟ قال : نعم ، إن اللّه يقول : ﴿**ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم**

---

(١) أبو داود فى الأدب (٥١٩١) والبيهقى ٧/ ٩٧ .

يبلغوا الحلم منكم ﴾ الآية ، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا فى هؤلاء العورات الثلاث ، قال : ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ فالإذن واجب على كل خلق الله أجمعين. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إذن على أمهاتكم . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب عنه قال : يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخيه وأخته . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، عن جابر نحوه . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى السنن عن عطاء بن يسار أن رجلا قال : يا رسول الله ، أأستأذن على أمى ؟ قال : « نعم » ، قال : إنى معها فى البيت ، قال « استأذن عليها»، قال : إنى خادمها أفأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : « أتحبّ أن تراها عريانة ؟ » قال : لا ، قال : « فاستأذن عليها »[1] وهو مرسل . وأخرج ابن أبى شيبة نحوه عن زيد بن أسلم ؛ أن رجلا سأل النبى ﷺ وهو أيضا مرسل .

وأخرج أبو داود ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ الآية ، فنسخ واستثنى من ذلك ﴿ **والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا** ﴾ الآية [2] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن عنه قال : هى المرأة لا جناح عليها أن تجلس فى بيتها بدرع وخمار وتضع عليها الجلباب ما لم تتبرّج بما يكرهه الله ، وهو قوله : ﴿ **فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهنّ غير متبرّجات بزينة** ﴾ . وأخرج أبو عبيدة فى فضائله ، وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والبيهقى عن ابن عباس؛ أنه كان يقرأ : « أن يضعن من ثيابهنّ » ويقول : هو الجلباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عمر فى الآية قال : تضع الجلباب . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى السنن عن ابن مسعود : ﴿ **أن يضعن ثيابهنّ** ﴾ قال : الجلباب والرداء .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٩] . قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعزّ من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون : الصحيح يسبقه إلى المكان ولا يستطيع أن يزاحم ، ويتحرّجون الأكل مع المريض يقولون : لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح ، وكانوا يتحرّجون أن يأكلوا فى بيوت أقاربهم ، فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى** ﴾ يعنى فى الأكل مع الأعمى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقسم نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت

---

(١) البيهقى ٧/ ٩٧ .

(٢) أبو داود فى اللباس (٤١١١) والبيهقى ٧/ ٩٣ .

خاله أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرّجرن من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم(١) . وأخرج البزار وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول اللّه ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس ، وإنما نحن زمنى ، فأنزل اللّه : ﴿**ولا على أنفسكم أن تأكلوا**﴾ إلى قوله : ﴿ **أو ما ملكتم مفاتحه** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٦] قال المسلمون : إن اللّه قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل الأموال فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد فكفّ الناس عن ذلك ، فأنزل اللّه : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أو ماملكتم مفاتحه** ﴾ وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته ، والذى رخص اللّه أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ويشرب اللبن ، وكانوا أيضا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ،فرخص اللّه لهم فقال: ﴿ **ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا** ﴾. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبى ﷺ لا يخالطهم فى طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت رخصة فى مؤاكلتهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود فى مراسيله ، وابن جرير والبيهقى عن الزهرى أنه سئل عن قوله : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرنى عبيد اللّه بن عبد اللّه أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا ، وكانوا يتحرّجون من ذلك يقولون : لا ندخلها وهم غيب ، فأنزل اللّه هذه الآية رخصة لهم (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحى من بنى كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده فى الجاهلية ، حتى إن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل اللّه : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا** ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وأبى صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم ، فنزلت رخصة لهم . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس فى الآية ، قال : خرج الحارث غازيا مع رسول اللّه ﷺ وخلف على أهله خالد بن يزيد ، فحرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهودا فنزلت . وأخرج عبد

(١) ابن جرير ١٨/ ١٢٩ والبيهقى ٧/ ٢٧٥ .

(٢) أبو داود فى المراسيل (٤٥٩) وقال المحقق : « رجاله ثقات ، رجال الصحيح غير محمد بن ثور الصنعانى وهو ثقة » . وابن جرير ١٨/ ١٢٩ والبيهقى ٧/ ٢٧٥ .

(٣) ابن جرير ١٨/ ١٣١ .

الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **أو صديقكم** ﴾ قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته ، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **أو صديقكم** ﴾ قال : هذا شىء قد انقطع ، إنما كان هذا فى أوّله ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة ، فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، فربما وجد الطعام وهو جائع فسوّغه اللّه أن يأكله . وقال : ذهب ذلك ، اليوم البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا فقد ذهب ذلك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم** ﴾ يقول : إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أنفسكم ﴿ **تحية من عند الله** ﴾ وهو السلام ، لأنه اسم اللّه وهو تحية أهل الجنة . وأخرج البخارى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر بن عبد اللّه قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند اللّه ﴿ **مباركة طيبة** ﴾ . وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾ قال : هو المسجد إذا دخلته فقل : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب عن ابن عمر قال : إذا دخل البيت غير المسكون أو المسجد فليقل : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾.

جملة : ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدّمها من الأحكام ، و﴿ **إنما** ﴾ من صيغ الحصر . والمعنى : لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يكون ﴿ **بالله ورسوله** ﴾ . وجملة : ﴿**وإذا كانوا معه على أمر جامع** ﴾ معطوفة على آمنوا داخلة معه فى حيز الصلة ، أى إذا كانوا مع رسول اللّه على أمر جامع ، أى على أمر طاعة يجتمعون عليها ، نحو الجمعة والنحر والفطر والجهاد وأشباه ذلك ، وسمى الأمر جامعا مبالغة ﴿ **لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ قال المفسرون : كان رسول اللّه ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد

لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبىّ ﷺ حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قال الزجاج : أعلم اللّه أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، وكذلك ينبغى أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه فى جمع من جموعهم إلا بإذنه ، وللإمام أن يأذن وله أن لا يأذن على ما يرى لقوله تعالى : ﴿ **فأذن لمن شئت منهم** ﴾ وقرأ اليمانى : « على أمر جميع » . والحاصل أن الأمر الجامع أو الجميع هو الذى يعمّ نفعه أو ضرره ، وهو الأمر الجليل الذى يحتاج إلى اجتماع أهل الرأى والتجارب . قال العلماء : كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذنه . ثم قال سبحانه : ﴿ **إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله** ﴾ فبين سبحانه أن المستأذنين : هم المؤمنون باللّه ورسوله كما حكم أوّلا بأن المؤمنين الكاملين الإيمان : هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان ﴿ **فإذا استأذنوك لبعض شأنهم** ﴾ أى إذا استأذن المؤمنون رسول اللّه ﷺ لبعض الأمور التى تهمهم فإنه يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول اللّه ﷺ ، ثم أرشده اللّه سبحانه إلى الاستغفار لهم ، وفيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوّغ ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التى ليس وراءها غاية .

﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، أى لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض فى التساهل فى بعض الأحوال عن الإجابة أو الرجوع بغير استئذان أو رفع الصوت . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : المعنى : قولوا : يا رسول اللّه ، فى رفق ولين . ولا تقولوا : يا محمد ، بتجهم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ويفخموه . وقيل : المعنى : لا تتعرّضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه ، فإن دعوته موجبة ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا** ﴾ التسلل : الخروج فى خفية ، يقال : تسلل فلان من بين أصحابه : إذا خرج من بينهم ، واللواذ من الملاوذة ، وهو : أن تستتر بشىء مخافة من يراك ، وأصله أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، واللوذ : ما يطيف بالجبل ، وقيل : اللواذ : الزوغان من شىء إلى شىء فى خفية . وانتصاب ﴿ **لواذا** ﴾ على الحال، أى متلاوذين يلوذ بعضهم ببعض وينضم إليه . وقيل : هو منتصب على المصدرية لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة ، أى يلوذون لواذًا . وقرأ زيد بن قطيب : « لواذا » بفتح اللام . وفى الآية بيان ما كان يقع من المنافقين ، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتارا من رسول اللّه ﷺ وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة فكانوا يفرّون عن الحضور ويتسللون فى خفية ويستتر بعضهم ببعض وينضم إليه . وقيل : اللواذ: الفرار من الجهاد وبه قال الحسن ، ومنه قول حسان :

وقريش تلوذ منـــا لواذا   لم تحافظ وخفّ منها الحلوم

﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى يخالفون أمر النبى ﷺ بترك العمل بمقتضاه وعدى فعل المخالفة بعن مع كونه متعدّيا بنفسه لتضمينه معنى الإعراض أو الصدّ . وقيل : الضمير للّه سبحانه لأنه الآمر بالحقيقة ، و﴿ **أن تصيبهم فتنة** ﴾ مفعول يحذر ، وفاعله الموصول . والمعنى : فليحذر المخالفون عن أمر اللّه أو أمر رسوله أو أمرهما جميعا إصابة فتنة لهم ﴿ **أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ أى فى الآخرة ؛ كما أن الفتنة التى حذرهم من إصابتها لهم هى فى الدنيا ، وكلمة « أو » لمنع الخلوّ . قال القرطبى : احتجّ الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن اللّه سبحانه قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : ﴿ **أن تصيبهم فتنة** ﴾ الآية ، فيجب امتثال أمره وتحرم مخالفته ، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن . وقيل : هى القتل . وقيل : الزلازل . وقيل : تسلط سلطان جائر عليهم . وقيل : الطبع على قلوبهم . قال أبو عبيدة والأخفش : « عن » فى هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ، بل هى بمعنى بعد ، كقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ [الكهف: ٥٠] . أى بعد أمر ربه ، والأولى ما ذكرناه من التضمين .

﴿ **ألا إنّ لله ما فى السموات والأرض** ﴾ من المخلوقات بأسرها ، فهى ملكه ﴿ **قد يعلم ما أنتم عليه** ﴾ أيها العباد من الأحوال التى أنتم عليها فيجازيكم بحسب ذلك ، ويعلم هاهنا بمعنى علم ﴿ **ويوم يرجعون إليه** ﴾ معطوف على ما أنتم عليه ، أى يعلم ما أنتم عليه ويعلم يوم يرجعون إليه فيجازيكم فيه بما عملتم . وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجعهم لزيادة تحقيق علمه ، لأن العلم بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿**فينبئهم بما عملوا** ﴾ أى يخبرهم بما عملوا من الأعمال التى من جملتها مخالفة الأمر ، والظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظى قالا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة ، قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمى إلى جانب أحد ، وجاء رسول اللّه ﷺ الخبر ، فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه المسلمون ، وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ ويستأذنه فى اللحوق لحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل اللّه فى أولئك : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله** ﴾ الآية(١) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : هى فى الجهاد والجمعة والعيدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **على أمر جامع** ﴾ قال : من طاعة اللّه عامّ .

---

(١) ابن هشام ٣/ ١٦٧ ، ١٦٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٤٠٩ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عنه فى قوله : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول** ﴾ الآية قال : يعنى كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه ، ولكن وقروه وقولوا له : يا رسول الله ، يا نبيّ الله . وأخرج عبد الغنى بن سعيد فى تفسيره ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه أيضا فى الآية قال : لا تصيحوا به من بعيد : يا أبا القاسم ، ولكن كما قال الله فى الحجرات : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ [الآية :٣] . وأخرج أبو داود فى مراسيله عن مقاتل ، قال : كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن النبى ﷺ يشير إليه بأصبعه التى تلى الإبهام ، فيأذن له النبى ﷺ يشير إليه بيده ، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد ، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج . فأنزل الله : ﴿ **الذين يتسللون منكم لواذا** ﴾ الآية (١) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، والطبرانى ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فى خاتمة سورة النور وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول : «بكل شىء بصير» (٢) .

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٦٢) وقال المحقق : « رجاله ثقات » .

(٢) الطبرانى ١٧/ ٢٨٢ (٧٧٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧ : « هكذا وقع فإن كانت قراءة شاذة وإلا فالتلاوة : ﴿ **بكل شىء عليم** ﴾ وفيه ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات ».

تفسير سورة الفرقـان

هى سبع وسبعون آية . وهى مكية كلها فى قول الجمهور ، وكذا أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه من طرق عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير . قال القرطبى : وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر**﴾ الآيات [١] . وأخرج مالك والشافعى والبخارى ومسلم وابن حبان ، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت ، فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ : أرسله ، أقرئنا هشام ، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ: « كذلك أنزلت » ، ثم قال : أقرئنا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : «كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه » [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ۝٣ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُوراً ۝٤ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا ۝٦ ﴾.

تكلم سبحانه فى هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ، ثم فى النبوة لأنها الواسطة ، ثم فى المعاد لأنه الخاتمة . وأصل تبارك مأخوذ من البركة ، وهى النماء والزيادة ، حسية كانت

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٧١٧ ، والآيات ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) مالك ١/ ٢٠١ والشافعى فى المسند فى التفسير ٢/ ١٨٣ ، ١٨٤ والبخارى فى فضائل القرآن (٤٩٩٢) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٨/ ٢٧٠) والترمذى فى القراءات (٢٩٤٣) وابن حبان فى قراءة القرآن (٧٣٨) .

أو عقلية . قال الزجاج : تبارك تفاعل ، من البركة . قال : ومعنى البركة : الكثرة من كل ذى خير ، وقال الفراء : إن تبارك وتقدس فى العربية واحد ، ومعناهما : العظمة . وقيل : المعنى : تبارك عطاؤه ، أى زاد وكثر . وقيل : المعنى : دام وثبت . قال النحاس : وهذا أولاها فى اللغة ، والاشتقاق من برك الشىء : إذا ثبت ، ومنه برك الجمل ، أى دام وثبت . واعترض ما قاله الفراء بأن التقديس إنما هو من الطهارة ، وليس من ذا فى شىء. قال العلماء : هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه ولا تستعمل إلا بلفظ الماضى ، والفرقان : القرآن ، وسمى فرقانا ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه ، أوبين المحق والمبطل ، والمراد بعبده : نبينا ﷺ . ثم علل التنزيل : ﴿ **ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ فإن النذارة هى الغرض المقصود من الإنزال ، والمراد محمد ﷺ أو الفرقان ، والمراد بالعالمين هنا : الإنس والجن ؛ لأن النبى ﷺ مرسل إليهما، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلا إلى الثقلين ، والنذير : المنذر ، أى ليكون محمد منذرا ، أو ليكون إنزال القرآن منذرا ،ويجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة، أى ليكون إنزاله إنذارا ،أو ليكون محمد إنذارا ، وجعل الضمير للنبى ﷺ أولى ؛ لأن صدور الإنذار منه حقيقة ومن القرآن مجاز، والحمل على الحقيقة أولى ولكونه أقرب مذكور . وقيل : إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ [الإسراء : ٩] .

ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع : الأولى : ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ دون غيره فهو المتصرف فيهما ، ويحتمل أن يكون الموصول الآخر بدلا أو بيانا للموصول الأول ، والوصف أولى ، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه فى الوجود وتوابعه من البقاء وغيره . والصفة الثانية : ﴿ **ولم يتخذ ولدا** ﴾ وفيه رد على النصارى واليهود . والصفة الثالثة : ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾ وفيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية وأهل الشرك الخفى . والصفة الرابعة : ﴿ **وخلق كل شىء** ﴾ من الموجودات ﴿ **فقدره تقديرا** ﴾ أى قدر كل شىء مما خلق بحكمته على ما أراد وهيأه لما يصلح له . قال الواحدى : قال المفسرون : قدر له تقديرا من الأجل والرزق ، فجرت المقادير على ما خلق . وقيل : أريد بالخلق هنا : مجرد الإحداث والإيجاد مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وإن لم يخل عنه فى نفس الأمر ، فيكون المعنى: أوجد كل شىء فقدره لئلا يلزم التكرار .

ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان فقال : ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة**﴾ والضمير فى ﴿ **اتخذوا** ﴾ للمشركين وإن لم يتقدم لهم ذكر ؛ لدلالة نفى الشريك عليهم ، أى اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله آلهة ﴿ **لا يخلقون شيئا** ﴾ والجملة فى محل نصب صفة لآلهة ، أى لا يقدرون على خلق شىء من الأشياء وغلب العقلاء على غيرهم؛ لأن فى معبودات الكفار الملائكة وعزير والمسيح ﴿ **وهم يخلقون** ﴾ أى يخلقهم الله سبحانه . وقيل : عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جريا على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع . وقيل : معنى ﴿ **وهم**

يخلقون ﴾ : أن عبدتهم يصورونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ فقال : ﴿ **ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا** ﴾ أى لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعا ولا يدفعوا عنها ضررا ، وقدم ذكر الضر؛ لأن دفعه أهم من جلب النفع ، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم ؟ ثم زاد فى بيان عجزهم فنص على هذه الأمور فقال : ﴿ **ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا** ﴾ أى لا يقدرون على إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى ولا بعثهم من القبور ؛ لأن النشور الإحياء بعد الموت ، يقال : أنشر الله الموتى فنشروا ، ومنه قول الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا   يا عجبا للميت الناشر

ولما فرغ من بيان التوحيد وتزييف مذاهب المشركين شرع فى ذكر شبه منكرى النبوة ، فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله : ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك** ﴾ أى كذب ﴿**افتراه**﴾ أى اختلقه محمد ﷺ ،والإشارة بقوله : ﴿**هذا**﴾ إلى القرآن ﴿ **وأعانه عليه** ﴾ أى على الاختلاق ﴿ **قوم آخرون** ﴾ يعنون من اليهود . قيل : وهم : أبو فكيهة يسار مولى الحضرمى ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى ابن عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود ، وقد مر الكلام على مثل هذا فى النحل . ثم رد الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ **فقد جاؤوا ظلما وزورا** ﴾ أى فقد قالوا ظلما هائلا عظيما وكذبا ظاهرا ، وانتصاب ﴿ **ظلما** ﴾ بـ ﴿ **جاؤوا** ﴾ ، فإن جاء قد يستعمل استعمال أتى ويعدى تعديته . وقال الزجاج : إنه منصوب بنزع الخافض ، والأصل جاؤوا بظلم . وقيل : هو منتصب على الحال ، وإنما كان ذلك منهم ظلما لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشىء فى غير موضعه ، وهذا هو الظلم ، وأما كون ذلك منهم زورا فظاهر لأنهم قد كذبوا فى هذه المقالة .

ثم ذكر الشبهة الثانية فقال : ﴿ **وقالوا أساطير الأولين** ﴾ أى أحاديث الأولين وما سطروه من الأخبار . قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة ، وقال غيره : أساطير جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال ﴿ **اكتتبها** ﴾ أى استكتبها أو كتبها لنفسه ، ومحل اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير ، أو محله الرفع على أنه خبر ثان ؛ لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هذه أساطير الأولين اكتتبها ، ويجوز أن يكون أساطير مبتدأ واكتتبها خبره ، ويجوز أن يكون معنى اكتتبها جمعها من الكتب ، وهو الجمع ، لا من الكتابة بالقلم . والأول أولى . وقرأ طلحة : «اكتتبها » مبنيا للمفعول ، والمعنى : اكتتبها له كاتب ؛ لأنه كان أميا لا يكتب،ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه ، ثم بنى الفعل للضمير الذى هو إياه فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان منصوبا بارزا ، كذا قال فى الكشاف [(١)] ، واعترضه أبو حيان ﴿ **فهى تملى عليه** ﴾ أى تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٦٤ .

اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه ، ويجوز أن يكون المعنى : اكتتبها أراد اكتتابها ﴿ **فهى تملى عليه** ﴾ لأنه يقال: أمليت عليه فهو يكتب ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ غدوة وعشيا كأنهم قالوا : إن هؤلاء يعلمون محمدا طرفى النهار . وقيل : معنى بكرة وأصيلا : دائما فى جميع الأوقات .

فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** ﴾ أى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأخبار الأولين ، بل هو أمر سماوى أنزله الذى يعلم كل شىء لا يغيب عنه شىء من الأشياء ، فلهذا عجزتم عن معارضته ولم تأتوا بسورة منه . وخص السر ؛ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر ، والسر : الغيب ، أى يعلم الغيب الكائن فيهما ، وجملة : ﴿ **إنه كان غفورا رحيما** ﴾ تعليل لتأخير العقوبة ، أى إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله والظلم له ، فإنه لا يعجل عليكم بذلك ؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **تبارك** ﴾ : تفاعل من البركة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأعانه عليه قوم آخرون** ﴾ قال : يهود ﴿ **فقد جاؤوا ظلما وزورا** ﴾ قال : كذبا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده** ﴾ هو القرآن فيه حلاله وحرامه وشرائعه ودينه ، وفرق الله بين الحق والباطل ﴿ **ليكون للعالمين نذيرا**﴾ قال : بعث الله محمدا ﷺ نذيرا من الله لينذر الناس بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلكم ﴿**وخلق كل شىء فقدره تقديرا** ﴾ قال : بين لكل شىء من خلقه صلاحه وجعل ذلك بقدر معلوم ﴿**واتخذوا من دونه آلهة** ﴾ قال : هى الأوثان التى تعبد من دون الله ﴿ **لا يخلقون شيئا وهم يخلقون** ﴾ وهو الله الخالق الرازق ، وهذه الأوثان تخلق ولا تخلق شيئا ولا تضر ولا تنفع ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا : يعنى بعثا ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ هذا قول مشركى العرب ﴿**إن هذا إلا إفك** ﴾ هو الكذب ﴿ **افتراه وأعانه عليه** ﴾ أى على حديثه هذا وأمره قوم آخرون ، ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ كذب الأولين وأحاديثهم .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا

لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً(١٦)﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ فقال: ﴿ **وقالوا ما لهذا الرسول** ﴾ وفى الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه وهو رسول الله ﷺ، وسموه رسولا ؛ استهزاء وسخرية ﴿ **يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق** ﴾ أى ما باله يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ، وزعموا أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الطعام والكسب ، وما الاستفهامية فى محل رفع على الابتداء ، والاستفهام للاستنكار ، وخبر المبتدأ لهذا الرسول ، وجملة : ﴿ **يأكل** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وبها تتم فائدة الإخبار كقوله : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ [المدثر : ٤٩] والإنكار متوجه إلى السبب مع تحقق المسبب ، وهو الأكل والمشى ، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكما واستهزاء . والمعنى : أنه إن صح ما يدعيه من النبوة فما باله لم يخالف حاله حالنا ﴿ **لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا** ﴾ طلبوا أن يكون النبى ﷺ مصحوبا بملك يعضده ويساعده ، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول ﷺ ملكا مستغنيا عن الأكل والكسب ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويشهد له بالرسالة . قرأ الجمهور:﴿ **فيكون**﴾ بالنصب على كونه جواب التحضيض. وقرئ: « فيكون » بالرفع على أنه معطوف على أنزل ، وجاز عطفه على الماضى ؛ لأن المراد به المستقبل .

﴿ **أو يلقى إليه كنز** ﴾ معطوف على أنزل ، ولا يجوز عطفه على فيكون ، والمعنى : أو هلا يلقى إليه كنز ، تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى إليه من السماء ليستغنى به عن طلب الرزق ﴿ **أو تكون له جنة يأكل منها** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **تكون**﴾ بالمثناة الفوقية ، وقرأ الأعمش وقتادة : « يكون » بالتحتية ؛ لأن تأنيث الجنة غير حقيقى . وقرأ : « نأكل » بالنون حمزة وعلى وخلف ، وقرأ الباقون :﴿ **يأكل** ﴾ بالمثناة التحتية ، أى بستان نأكل نحن من ثماره ، أو يأكل هو وحده منه ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته . قال النحاس : والقراءتان حسنتان وإن كانت القراءة بالياء أبين ؛ لأنه قد تقدم ذكر النبى ﷺ وحده ، فعود الضمير إليه بين. ﴿ **وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ المراد بـ ﴿ **الظالمون** ﴾ هنا : هم القائلون بالمقالات الأولى ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به ، أى ما تتبعون إلا رجلا مغلوبا على عقله بالسحر . وقيل: ذا سحر ، وهى الرئة، أى بشرا له رئة لا ملكا ، وقد تقدم بيان مثل هذا فى سبحان .

﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال**﴾ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك، والأمثال هى:الأقوال

النادرة والاقتراحات الغريبة ، وهى ما ذكروه هاهنا ﴿ **فضلوا** ﴾ عن الصواب فلا يجدون طريقا إليه ولا وصلوا إلى شىء منه ، بل جاؤوا بهذه المقالات الزائفة التى لا تصدر عن أدنى العقلاء وأقلهم تمييزا ولهذا قال :﴿ **فلا يستطيعون سبيلا** ﴾ أى لا يجدون إلى القدح فى نبوة هذا النبى طريقا من الطرق . ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك** ﴾ أى تكاثر خير الذى إن شاء جعل لك فى الدنيا معجلا خيرا من ذلك الذى اقترحوه . ثم فسر الخير فقال : ﴿ **جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ فجنات بدل من ﴿ **خير** ﴾ . ﴿ **ويجعل لك قصورا** ﴾ معطوف على موضع جعل ، وهو الجزم ، وبالجزم قرأ الجمهور . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع : « يجعل » على أنه مستأنف ، وقد تقرر فى علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى جوابه الجزم والرفع فجاز أن يكون جعل هاهنا فى محل جزم ورفع فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع . وقرئ بالنصب . وقرئ بإدغام لام لك فى لام يجعل لاجتماع المثلين . وقرئ بترك الإدغام لأن الكلمتين منفصلتان، والقصر : البيت من الحجارة ؛ لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه . وقيل : هو بيت الطين وبيوت الصوف والشعر.

ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذى لا يصدر عن العقلاء فقال: ﴿ **بل كذبوا بالساعة**﴾ أى بل أتوا بأعجب من ذلك كله . وهو تكذيبهم بالساعة ، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها. ثم ذكر سبحانه ما أعده لمن كذب بالساعة فقال : ﴿**وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا** ﴾ أى نارا مشتعلة متسعرة ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى بل كذبوا بالساعة ، والحال أنا أعتدنا . قال أبو مسلم : أعتدنا : أى جعلناه عتيدا ومعدا لهم ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ هذه الجملة الشرطية فى محل نصب صفة لـ ﴿ **سعيرا** ﴾ لأنه مؤنث بمعنى النار، قيل : معنى ﴿ **إذا رأتهم** ﴾ : إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر فى البعد . وقيل : المعنى : إذا رأتهم خزنتها . وقيل : إن الرؤية منها حقيقية وكذلك التغيظ والزفير ، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك . ومعنى ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ : أنها رأتهم وهى بعيدة عنهم ، قيل : بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام . ومعنى التغيظ : أن لها صوتا يدل على التغيظ على الكفار أو لغليانها صوتا يشبه صوت المغتاظ . والزفير : هو الصوت الذى يسمع من الجوف . قال الزجاج : المراد : سماع ما يدل على الغيظ وهو الصوت ، أى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ . وقال قطرب : أراد : علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا كما قال الشاعر :

متقلدا سيفا ورمحا

أى وحاملا رمحا . وقيل : المعنى : سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للمعذبين كما قال : ﴿ **لهم فيها زفير وشهيق** ﴾ [هود : ١٠٦] وفى واللام متقاربان ، تقول : افعل هذا فى الله ولله .

﴿ **وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا** ﴾ وصف المكان بالضيق ؛ للدلالة على زيادة الشدة وتناهى البلاء عليهم ، وانتصاب ﴿ **مقرنين** ﴾ على الحال ، أى إذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم

مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد . وقيل : مكتفين . وقيل : قرنوا مع الشياطين ، أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة إبراهيم[١] ﴿ **دعوا هنالك** ﴾ أى فى ذلك المكان الضيق ﴿ **ثبورا** ﴾ أى هلاكا . قال الزجاج : وانتصابه على المصدرية ، أى ثبرنا ثبورا . وقيل : منتصب على أنه مفعول له ، والمعنى : أنهم يتمنون هنالك الهلاك وينادونه لما حل بهم من البلاء ، فأجيب عليهم بقوله : ﴿ **لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا** ﴾ أى فيقال لهم هذه المقالة ، والقائل لهم هم الملائكة ، أى اتركوا دعاء ثبور واحد ، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك وأعظم ، كذا قال الزجاج ﴿**وادعوا ثبورا كثيرا** ﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير فلهذا لم يجمع، ومثله ضربته ضربا كثيرا ، وقعد قعودا طويلا ، فالكثرة هاهنا هى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به ، لا بحسب كثرته فى نفسه ، فإنه شيء واحد . والمعنى : لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة ، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشد من ذلك لطول مدته وعدم تناهيه . وقيل : هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول . وقيل : إن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، بل هو ثبور كثير لأن العذاب أنواع ، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم : الدلالة على خلود عذابهم وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجى لهم مما هم فيه .

ثم وبخهم الله سبحانه توبيخا بالغا على لسان رسوله فقال : ﴿ **قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون** ﴾ والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة ، أى أتلك السعير خير أم جنة الخلد ؟ وفى إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها وعدم انقطاعه ، ومعنى ﴿ **التى وعد المتقون** ﴾ : التى وعدها المتقون ، والمجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير فى النار أصلا ؛ لأن العرب قد تقول ذلك، ومنه ما حكاه سيبويه عنهم أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ؟ وقيل : ليس هذا من باب التفضيل ، وإنما هو كقولك: عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن . كما قال :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء [٢]

ثم قال سبحانه : ﴿ **كانت لهم جزاء ومصيرا** ﴾ أى كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم ومصيرا يصيرون إليه . ﴿ **لهم فيها ما يشاؤون** ﴾ أى ما يشاؤونه من النعيم وضروب الملاذ كما فى قوله :﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ﴾ [فصلت : ٣١] وانتصاب خالدين على الحال ، وقد تقدم تحقيق معنى الخلود ﴿ **كان على ربك وعدا مسؤولا**﴾ أى كان ما يشاؤونه . وقيل : كان الخلود . وقيل : كان الوعد المدلول عليه بقوله : ﴿ **وعد المتقون** ﴾ ومعنى الوعد المسؤول : الوعد المحقق بأن يسأل ويطلب كما فى قوله : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾

(١) راجع : فى تفسير سورة إبراهيم آية ٤٩ .
(٢) البيت لحسان بن ثابت فى الرد على أبى سفيان بن الحارث الذي هجا الرسول ﷺ.

[آل عمران : ١٩٤] . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم الجنّة كقوله : ﴿ وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ﴾ [غافر : ٨] وقيل : المراد به : الوعد الواجب وإن لم يسأل .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البخترى والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأباجهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، قال : فجاءهم رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن نسودك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بى مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » ؛ قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك ، أو قالوا : فإذا لم تفعل هذا فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا » ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام** ﴾ ، ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا** ﴾[1] أى جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن خيثمة قال : قيل للنبى ﷺ : إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض ومفاتيحها مالم يعط نبى قبلك ولا نعطها أحدا بعدك ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئا ، وإن شئت جمعتها لك فى الآخرة ، فقال : « اجمعوها لى فى الآخرة » ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا** ﴾[2]. وأخرج نحوه عنه ابن مردويه من طريق أخرى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال : قال

(١) ابن هشام ١/ ٣٢٤ ـ ٣٣٦ وابن جرير ١٨/ ١٣٨ .

(٢) ابن أبى شيبة (١١٨٤٩) وابن جرير ١٨/ ١٤٠ .

النبى ﷺ : « من يقل على مالم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا » ، قيل : يا رسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « نعم ، أما سمعتم الله يقول: ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ » (١) . وأخرج آدم بن أبى إياس فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ قال : من مسيرة مائة عام ، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ﴿ **سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت ، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها وتبلغ القلوب الحناجر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين**﴾ قال : « والذى نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **دعوا هنالك ثبورا** ﴾ قال : ويلا ﴿ **لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا** ﴾ يقول : لا تدعوا اليوم ويلا واحدا . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى البعث ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يكسى حلته من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادى : ياثبوراه ، ويقولون : ياثبورهم حتى يقف على الناس فيقول : ياثبوراه ، ويقولون : ياثبورهم ، فيقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا»(٢) . وإسناد أحمد هكذا : حدثنا عفان عن حميد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ فذكره . وفى على بن زيد بن جدعان مقال معروف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **كان على ربك وعدا مسؤولا** ﴾ يقول: سلوا الذى وعدتكم تنجزوه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا

(١) ابن جرير ١٨/ ١٤٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٦٠١٥) وأحمد ٣/ ٢٤٩ وابن جرير ١٨/ ١٤١ .

فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الظرف منصوب بفعل مضمر ، أى واذكر ، وتعليق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد كما مر مرارا . قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو فى رواية الدورى : ﴿ **يحشرهم** ﴾ بالياء التحتية ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله فى أول الكلام :﴿كان على ربك﴾ والباقون بالنون على التعظيم ماعدا الأعرج فإنه قرأ : « نحشرهم » بكسر الشين فى جميع القرآن . قال ابن عطية : هى قليلة فى الاستعمال قوية فى القياس ؛ لأن يفعل بكسر العين فى المتعدى أقيس من يفعل بضمها ، ورده أبو حيان باستواء المضموم والمكسور إلا أن يشتهر أحدهما اتبع ﴿ **وما يعبدون من دون الله** ﴾ معطوف على مفعول نحشر ، وغلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان ونحوها على العقلاء من الملائكة والجن والمسيح تنبيها على أنها جميعا مشتركة فى كونها غير صالحة لكونها آلهة ، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها ، فغلبت اعتبارا بكثرة من يعبدها . وقال مجاهد وابن جريج : المراد : الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد . وقال الضحاك وعكرمة والكلبى : المراد : الأصنام خاصة ، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة ، ﴿ **فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو حيوة وابن كثير وحفص:«فنقول » بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، واختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها فى نحشرهم ، وكذا أبو حاتم . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أأنتم أضللتم** ﴾ للتوبيخ والتقريع . والمعنى : أكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم ؟ أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب ؟

وجملة : ﴿ **قالوا سبحانك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومعنى سبحانك : التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة أو أنبياء معصومين ، أو جمادات لا تعقل ، أى تنزيها لك ﴿ **ماكان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء** ﴾ أى ما صح ولا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء فنعبدهم ، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك ؟ والولى يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع ، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿**نتخذ** ﴾ مبنيا للفاعل . وقرأ الحسن وأبو جعفر : « نتخذ » مبنيا للمفعول ، أى ما كان ينبغى لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك . قال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر : لا تجوز هذه القراءة ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية . قال أبو عبيدة : لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه ذكر « من » مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن نتخذ من دونك أولياء . وقيل : إن « من » الثانية زائدة . ثم

حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان فقال : ﴿ **ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر** ﴾ وفى هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل ، ولم يضلهم غيرهم ، والمعنى : ما أضللناهم ، ولكنك يارب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر فى عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك . وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ : « ينبغى » مبنيا للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة . وقيل : المراد بنسيان الذكر هنا : هو ترك الشكر ﴿ **وكانوا قوما بورا** ﴾ أى وكان هؤلاء الذين أشركوا بك وعبدوا غيرك فى قضائك الأزلى قوما بورا ، أى هلكى ، مأخوذ من البوار وهو الهلاك. يقال: رجل بائر وقوم بور ، يستوى فيه الواحد والجماعة لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير ويجوز أن يكون جمع بائر. وقيل : البوار : الفساد . يقال : بارت بضاعته ، أى فسدت ، وأمر بائر ، أى فاسد وهى لغة الأزد . وقيل : المعنى : لا خير فيهم ، مأخوذ من بوار الأرض وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقيل : إن البوار : الكساد ، ومنه بارت السلعة إذا كسدت .

﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : فقال الله عند تبرى المعبودين مخاطبا للمشركين العابدين لغير الله : فقد كذبوكم ، أى فقد كذبكم المعبودون بما تقولون ، أى فى قولكم إنهم آلهة ﴿ **فما يستطيعون** ﴾ أى الآلهة ﴿ **صرفا** ﴾ أى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه . وقيل : حيلة ﴿ **ولا نصرا** ﴾ أى ولا يستطيعون نصركم. وقيل : المعنى : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفا للعذاب الذى عذبهم الله به ولا نصرا من الله ، وهذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ : « تستطيعون » بالفوقية وهى قراءة حفص ، وقرأ الباقون بالتحتية . وقال ابن زيد : المعنى: فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ﷺ ، وعلى هذا فمعنى ﴿ **بما تقولون** ﴾ : ما تقولونه من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى : فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه ولا نصرا لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقرأ الجمهور :﴿ **بما تقولون** ﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب . وحكى الفراء أنه يجوز أن يقرأ: « فقد كذبوكم » مخففا بما يقولون ، أى كذبوكم فى قولهم ، وكذا قرأ بالياء التحتية مجاهد والبزى. ﴿ **ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا** ﴾ هذا وعيد لكل ظالم ويدخل تحته الذين فيهم السياق دخولا أوليا ،والعذاب الكبير: عذاب النار ، وقرئ: « يذقه» بالتحتية ، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحا لبطلان ما تقدم من قوله : ﴿ **يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق**﴾ فقال : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق** ﴾ قال الزجاج : الجملة الواقعة بعد « إلا» صفة لموصوف محذوف ، والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف الموصوف لأن فى قوله : ﴿ **من المرسلين** ﴾ دليلا عليه ، نظيره : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : ١٦٤] أى وما

منا أحد . وقال الفراء : لا محل لها من الإعراب ، وإنما هى صلة لموصول محذوف هو المفعول، والتقدير : إلا من أنهم، فالضمير فى أنهم وما بعده راجع إلى من المقدرة ، ومثله قوله تعالى: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] أى إلا من يردها ، وبه قرأ الكسائى. قال الزجاج : هذا خطأ لأن من الموصولة لا يجوز حذفها . وقال ابن الأنبارى : إنها فى محل نصب على الحال ، والتقدير : إلا وأنهم ، فالمحذوف عنده الواو . قرأ الجمهور : ﴿ **إلا إنهم**﴾ بكسر إن لوجود اللام فى خبرها كما تقرر فى علم النحو ، وهو مجمع عليه عندهم . قال النحاس : إلا أن على بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجوز فى إن هذه الفتح وإن كان بعدها اللام وأحسبه وهما . وقرأ الجمهور:﴿ **يمشون** ﴾ بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأ على وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة ، وهى بمعنى القراءة الأولى ، قال الشاعر :

أمشى بأعطان المياه وأتقى قلائص منها صعبة وركوب

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سباع الحى ضامزة ولا تمشى بواديه الأراجيل

﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ هذا الخطاب عام للناس ، وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنة لبعض ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغنى فتنة للفقير . وقيل : المراد بالبعض الأول : كفار الأمم ، وبالبعض الثانى : الرسل . ومعنى الفتنة : الابتلاء والمحنة . والأول أولى ، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به ؛ فالمريض يقول : لم لم أجعل كالصحيح ؟ وكذا كل صاحب آفة ، والصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه ولا يحقره ، والغنى مبتلى بالفقير يواسيه ، والفقير مبتلى بالغنى يحسده ، ونحو هذا مثله . وقيل : المراد بالآية : أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال : لا أسلم بعده ، فيكون له علىّ السابقة والفضل ، فيقيم على كفره ، فذلك افتتان بعضهم لبعض، واختار هذا الفراء والزجاج. ولاوجه لقصرالآية على هذا ، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة :﴿**أتصبرون**﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، وفى الكلام حذف تقديره : أم لا تصبرون ؟ أى أتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة والابتلاء العظيم . قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية هاهنا موقع قوله : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ فى قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [الملك : ٢] ثم وعد الصابرين بقوله: ﴿ **وكان ربك بصيرا** ﴾ أى بكل من يصبر ومن لا يصبر ، فيجازى كلا منهما بما يستحقه. وقيل :معنى ﴿ **أتصبرون** ﴾ : اصبروا مثل قوله: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة: ٩١] أى انتهوا .

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التى قدحوا بها فى النبوة ،

والجملة معطوفة على ﴿ **وقالوا ما لهذا** ﴾ أى وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله ، كما فى قول الشاعر :

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

أى لا أبالى ، وقيل : المعنى : لا يخافون لقاء ربهم ،كقول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عوامل

أى لم يخف ، وهى لغة تهامة . قال الفراء : وضع الرجاء موضع الخوف . وقيل : لا يأملون ، ومنه قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب

والحمل على المعنى الحقيقى أولى ، فالمعنى : لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب ، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب ﴿ **لولا أنزل علينا الملائكة** ﴾ أى هلا أنزلوا علينا فيخبرونا أن محمدا صادق ، أو هلا أنزلوا علينا رسلا يرسلهم الله ﴿ **أو نرى ربنا**﴾ عيانا فيخبرنا بأن محمدا رسول . ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه فقال :﴿ **لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا** ﴾ أى أضمروا الاستكبار عن الحق والعناد فى قلوبهم كما فى قوله:﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ [غافر : ٥٦] ، والعتو : مجاوزة الحد فى الطغيان والبلوغ إلى أقصى غاياته ، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة فى غاية الكبر والعظم فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم ، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ورؤيته فى الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان ،ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغا هى أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله،أو تعد من المستعدين له ، وهكذا من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حده ، ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه مالا يرى .

وانتصاب ﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾بفعل محذوف ، أى واذكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذى طلبوه والصورة التى اقترحوها ، بل على وجه آخر ، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر ، ويجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدل عليه قوله : ﴿ **لا بشرى يومئذ للمجرمين** ﴾ أى يمنعون البشرى يوم يرون ، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذى يرون فيه الملائكة ، وهو وقت الموت ، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى . قال الزجاج: المجرمون فى هذا الموضع : الذين اجترموا الكفر بالله ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ أى ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة حجرا محجورا ، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعاذة، يقال للرجل: أتفعل كذا ؟ فيقول : حجرا محجورا ، أى حراما عليك التعرض لى . وقيل : إن هذا من قول الملائكة ، أى يقولون للكفار : حراما محرما أن يدخل أحدكم الجنة ، ومن ذلك قول الشاعر :

ألا أصبحت أسماء حجرا محرما وأصبحت من أدنى حمومتها حماء

أى أصبحت أسماء حراما محرما ، وقال آخر :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام إلا تلك الدهاريس

وقد ذكر سيبويه فى باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة وجعلها من جملتها . ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾ هذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالا لها صورة الخير: من صلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الطعام وأمثالها ، ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذى هم عليه ، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده ولم يترك منها شيئا ، وإلا فلا قدوم هاهنا . قال الواحدى : معنى قدمنا : عمدنا وقصدنا ، يقال : قدم فلان إلى أمر كذا : إذا قصده أو عمده ، ومنه قول الشاعر :

وقدم الخوارج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال

وقيل : هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى ، والهباء واحده هباءة ، والجمع أهباء. قال النضر بن شميل : الهباء: التراب الذى تطيره الريح كأنه دخان . وقال الزجاج : هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهرى. والمنثور: المفرق ، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور ، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد . وقيل : إن الهباء : ما أذرته الرياح من يابس أوراق الشجر . وقيل : هو الماء المهراق . وقيل : الرماد . والأول هو الذى ثبت فى لغة العرب ونقله العارفون بها . ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار فقال : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا** ﴾ أى أفضل منزلا فى الجنة ﴿ **وأحسن مقيلا** ﴾ أى موضع قائلة ، وانتصاب ﴿ **مستقرا** ﴾ على التمييز . قال الأزهرى : القيلولة عند العرب : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك يوم . قال النحاس : والكوفيون يجيزون : العسل أحلى من الخل .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الآية ، قال : عيسى وعزير والملائكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **قوما بورا** ﴾ قال : هلكى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **ومن يظلم منكم** ﴾ قال : هو الشرك . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : يشرك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق** ﴾ يقول :إن الرسل قبل

محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ قال : بلاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن الحسن : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ قال : يقول الفقير : لو شاء الله لجعلنى غنيا مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلنى صحيحا مثل فلان ، ويقول الأعمى : لو شاء الله لجعلنى بصيرا مثل فلان . وأخرج ابن المنذرعن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وعتوا عتوا كبيرا** ﴾ قال : شدة الكفر .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾ قال: يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى نحوه . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قال :عوذا معاذا ، الملائكة تقوله . وفى لفظ قال :حراما محرما أن تكون البشرى فى اليوم إلا للمؤمنين . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قال : حراما محرما أن نبشركم بما نبشر به المتقين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن وقتادة: ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قالا : هى كلمة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا نزلت به شدة قال: حجرا محجورا : حراما محرما .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل** ﴾ قال : عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه فى الدنيا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **هباء منثورا** ﴾ قال : الهباء : شعاع الشمس الذى يخرج من الكوة . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال : الهباء : وهيج الغبار يسطع ، ثم يذهب فلا يبقى منه شىء ، فجعل الله أعمالهم كذلك .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الهباء : الذى يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : هو ما تسفى الريح وتبثه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هو الماء المهراق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾ قال : فى الغرف من الجنة . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾ (١) .

(١) ابن جرير ١٩/ ٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾.

قوله ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ وصف سبحانه ها هنا بعض حوادث يوم القيامة . والتشقق : التفتح . قرأ عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وأبو عمرو : ﴿**تشقق** ﴾ بتخفيف الشين ، وأصله تتشقق، وقرأ الباقون بتشديد الشين على الإدغام . واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، واختار الثانية أبو حاتم ، ومعنى تشققها بالغمام : أنها تتشقق عن الغمام . قال أبو على الفارسى : تشقق السماء وعليها غمام كما تقول : ركب الأمير بسلاحه ، أى وعليه سلاحه ، وخرج بثيابه ، أى وعليه ثيابه . ووجه ما قاله : أن الباء وعن يتعاقبان ، كما تقول: رميت بالقوس . وعن القوس. وروى أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق أبيض . وقيل : إن السماء تتشقق بالغمام الذى بينها وبين الناس . والمعنى : أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء . وقيل : إنها تشقق لنزول الملائكة كما قال سبحانه بعد هذا : ﴿ **ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾ . وقيل : إن « الباء » فى ﴿ **بالغمام** ﴾ سببية ، أى بسبب الغمام ، يعنى بسبب طلوعه منها كأنه الذى تتشقق به السماء. وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف ، أى ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير : « وننزل الملائكة » مخففا ، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة وزاى مخففة بكسرة مضارع أنزل ، والملائكة منصوبة على المفعولية . وقرأ الباقون من السبعة : ﴿ **نزل** ﴾ بضم النون وكسر الزاى المشددة ماضيا مبنيا للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء : « نزل » بالتشديد ماضيا مبنيا للفاعل وفاعله الله سبحانه ، وقرأ أبى بن كعب :« أنزل الملائكة » وروى عنه أنه قرأ :« تنزلت الملائكة » وقد قرئ فى الشواذ بغير هذه، وتأكيد هذا الفعل بقوله : ﴿**تنزيلا** ﴾ يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب ونمط عجيب . قال أهل العلم : إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب .

﴿ **الملك يومئذ الحق للرحمن** ﴾ الملك مبتدأ ، والحق صفة له وللرحمن الخبر ، كذا قال الزجاج ، أى الملك الثابت الذى لا يزول للرحمن يومئذ ؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس

بملك فى الحقيقة. وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة فى هذا اليوم، وأما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره ملك فى الصورة وإن لم يكن حقيقيا . وقيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف ، والحق نعت للملك . والمعنى : الملك الثابت للرحمن خاص فى هذا اليوم ﴿ **وكان يوما على الكافرين عسيرا** ﴾ أى وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديدا على الكفار لما يصابون به فيه ، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب ، وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير ، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة .

﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه** ﴾ الظرف منصوب بمحذوف ، أى واذكر كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول ، أعنى ﴿ **يوم تشقق** ﴾ . ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه** ﴾ الظاهر أن العض هنا حقيقة ، ولا مانع من ذلك ولا موجب لتأويله . وقيل : هو كناية عن الغيظ والحسرة ، والمراد بالظالم : كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل ، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ **يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾ :يقول فى محل نصب على الحال ، ومقول القول هو :ياليتنى إلخ ، والمنادى محذوف ، أى يا قوم ﴿ **ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾ طريقا وهو طريق الحق ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة ، والمراد اتباع النبى ﷺ فيما جاء به . ﴿ **يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا** ﴾ دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذى أضله فى الدنيا ، وفلان كناية عن الأعلام . قال النيسابورى : زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان فى الفصيح إلا حكاية ، لا يقال : جاءنى فلان ، ولكن يقال : قال زيد: جاءنى فلان ؛ لأنه اسم اللفظ الذى هو علم الاسم ، وكذلك جاء فى كلام الله . وقيل : فلان ، كناية عن علم ذكور من يعقل ، وفلانة عن علم إناثهم . وقيل : كناية عن نكرة من يعقل من الذكور ، وفلانة عمن يعقل من الإناث ، وأما الفلان والفلانة فكناية عن غير العقلاء ، وفل يختص بالنداء إلا فى ضرورة، كقول الشاعر :

فى لجة أمسك فلانا عن فل

وقوله :

حدثانى عـــن فـــلان وفـــل

وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء . وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك وهما فى جعل فلان كناية علم من يعقل . وقرأ الحسن : « ياويلتى » بالياء الصريحة ، وقرأ الدورى بالإمالة . قال أبو على : وترك الإمالة أحسن ؛ لأن أصل هذه اللفظة الياء فأبدلت الكسرة فتحة ، والياء التاء فرارا من الياء ، فمن أمال رجع إلى الذى فر منه .

﴿ **لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى** ﴾ أى والله لقد أضلنى هذا الذى اتخذته خليلا عن القرآن أو عن الموعظة أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك ، بعد إذ جاءنى وتمكنت منه وقدرت

عليه ﴿ **وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾ الخذل : ترك الإغاثة ، ومنه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه ، ثم يتركهم عند استغاثتهم به ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى ، أو من تمام كلام الظالم ، وأنه سمى خليله شيطانا بعد أن جعله مضلا ، أو أراد بالشيطان : إبليس لكونه الذى حمله على مخاللة المضلين .

﴿ **وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾ معطوف على ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ والمعنى : إن قومى اتخذوا هذا القرآن الذى جئت به إليهم وأمرتنى بإبلاغه وأرسلتنى به مهجورا متروكا لم يؤمنوا به ، ولا قبلوه بوجه من الوجوه . وقيل : هو من هجر إذا هذى . والمعنى : أنهم اتخذوه هجرا وهذيانا . وقيل : معنى مهجورا : مهجورا فيه ، ثم حذف الجار ، وهجرهم فيه قولهم : إنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، وهذا القول يقوله الرسول ﷺ يوم القيامة . وقيل : إنه حكاية لقوله ﷺ فى الدنيا ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين** ﴾ هذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، والمعنى : أن الله سبحانه جعل لكل نبى من الأنبياء الداعين إلى الله عدوا يعاديه من مجرمى قومه ، فلا تجزع يا محمد ، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك واصبر كما صبروا ﴿ **وكفى بربك هاديا ونصيرا** ﴾ قال المفسرون : الباء زائدة ، أى كفى ربك ،وانتصاب ﴿ **نصيرا** ﴾ و﴿ **هاديا** ﴾على الحال ،أو التمييز ،أى يهدى عباده إلى مصالح الدين والدنيا وينصرهم على الأعداء .

﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم ، أى هلا نزل الله علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم . واختلف فى قائل هذه المقالة ؛ فقيل : كفار قريش . وقيل : اليهود ، قالوا : هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور ؟ وهذا زعم باطل ودعوى داحضة فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن ولكنهم معاندون ، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه . ثم رد الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ **كذلك لنثبت به فؤادك** ﴾ أى نزلنا القرآن كذلك مفرقا ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف ، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم ، أى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه ، واقترحوا خلافه نزلناه لنقوى بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك ، فإن إنزاله مفرقا منجما على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له وفهمك لمعانيه ، وذلك من أعظم أسباب التثبيت ، واللام متعلقة بالفعل المحذوف الذى قدرناه . وقال أبو حاتم : إن الأخفش قال : إنها جواب قسم محذوف . قال : وهذا قول مرجوح . وقرأ عبد الله : « ليثبت » بالتحتية ، أى الله سبحانه . وقيل: إن هذه الكلمة ، أعنى كذلك ، هى من تمام كلام المشركين ، والمعنى: كذلك ، أى كالتوراة والإنجيل والزبور ، فيوقف على قوله : ﴿ **كذلك** ﴾ ، ثم يبتدأ بقوله : ﴿ **لنثبت به فؤادك** ﴾ على معنى : أنزلناه عليك متفرقا لهذا الغرض . قال ابن الأنبارى : وهذا أجود وأحسن . قال النحاس : وكان ذلك ، أى إنزال القرآن منجما من أعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شىء إلا أجيبوا عنه ،

وهذا لا يكون إلا من نبى ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم ﴿ **ورتلناه ترتيلا** ﴾ هذا معطوف على الفعل المقدر ، أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا ، ومعنى الترتيل : أن يكون آية بعد آية، قاله النخعي والحسن وقتادة . وقيل : إن المعنى : بيناه تبيينا ، حكى هذا عن ابن عباس . وقال مجاهد : بعضه فى إثر بعض . وقال السدى : فصلناه تفصيلا . قال ابن الأعرابى : ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين .

ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون فى كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حالة فقال: ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ أى لا يأتيك يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التى من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك فى مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذى يبطل ما جاؤوا به من المثل ويدمغه ويدفعه. فالمراد بالمثل هنا : السؤال والاقتراح ، وبالحق :جوابه الذى يقطع ذريعته ويبطل شبهته ويحسم مادته . ومعنى ﴿ **أحسن تفسيرا** ﴾ : جئناك بأحسن تفسير ، فأحسن تفسيرا معطوف على الحق ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلاجئناك** ﴾ مفرغ ،والجملة فى محل نصب على الحال ،أى لا يأتونك بمثل إلا فى حال إيتائنا إياك ذلك.

ثم أوعد هؤلاء الجهلة وذمهم فقال : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم** ﴾ أى يحشرون كائنين على وجوههم ، والموصول مبتدأ ، وخبره : أولئك ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، يجوز نصبه على الذم . ومعنى ﴿ **يحشرون على وجوههم** ﴾ : يسحبون عليها إلى جهنم ﴿ **أولئك شر مكانا** ﴾ أى منزلا ومصيرا ﴿ **وأضل سبيلا** ﴾ وأخطأ طريقا ، وذلك لأنهم قد صاروا فى النار . وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان ، وقد قيل : إن هذا متصل بقوله : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾ .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾ قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد : الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق ، فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق فيقول أهل الأرض : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، ثم تنشق السماء الثانية وذكر مثل ذلك ، ثم كذلك فى كل سماء إلى السماء السابعة ، وفى كل سماء أكثر من السماء التى قبلها ، ثم ينزل ربنا فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع والإنس والجن وجميع الخلق ، لهم قرون ككعوب القثاء ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام (١) . وإسناده عند ابن جرير

(١) ابن جرير ٥/١٩ وقال ابن كثير ١٤٨/٥ : « مداره على على بن زيد بن جدعان وفيه ضعف فى سياقاته غالبا وفيها نكارة شديدة ».

هكذا : قال حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى الحجاج بن مبارك بن فضالة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس فذكره . وأخرجه ابن أبى حاتم بإسناد هكذا : قال حدثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول ، حدثنا حماد بن سلمة عن على ابن زيد به .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، بسند قال السيوطى : صحيح ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ أن أبا معيط كان يجلس مع النبى ﷺ بمكة لا يؤذيه ، وكان رجلا حليما ،وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه ،وكان لأبى معيط خليل غائب عنه بالشام ، فقالت قريش : صبأ أبو معيط ، وقدم خليله من الشام ليلا فقال لامرأته : ما فعل محمد مما كان عليه ؟ فقالت : أشد ما كان أمرا ، فقال : ما فعل خليلى أبو معيط؟ فقالت : صبأ ، فبات بليلة سوء ، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه ، فلم يرد عليه التحية ، فقال : مالك لا ترد على تحيتى ؟ فقال : كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت ؟ قال : أو قد فعلتها قريش ؟ قال : نعم ، قال : فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلته ؟ قال : تأتيه فى مجلسه فتبزق فى وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم ، ففعل فلم يزد رسول الله ﷺ على أن مسح وجهه من البزاق ، ثم التفت إليه فقال : « إن وجدتك خارجا من جبال مكة أضرب عنقك صبرا » ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، فقال له أصحابه : اخرج معنا ، قال : وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقى صبرا ، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم ، فلما هزم الله المشركين وحمل به جمله فى جدود من الأرض ، فأخذه رسول الله ﷺ أسيرا فى سبعين من قريش ، وقدم إليه أبو معيط فقال : أتقتلنى من بين هؤلاء ؟ قال : «نعم بما بزقت فى وجهى » ، فأنزل الله فى أبى معيط : **﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾** إلى قوله : **﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾** (١) . وأخرج أبو نعيم هذه القصة من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، وذكر أن خليل أبى معيط هو : أبى بن خلف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضا فى قوله : **﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾** قال : أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، وهما الخليلان فى جهنم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: **﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾** قال : كان عدو النبى ﷺ أبو جهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : قال المشركون: لو كان محمد كما يزعم نبيا فلم يعذبه ربه ؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ، ينزل عليه الآية والآيتين والسورة والسورتين ، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا : **﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾** إلى **﴿ وأضل سبيلا ﴾** . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : **﴿ لنثبت به فؤادك ﴾** قال : لنشدد به فؤادك ونربط على

(١) الرواية فى ابن هشام مختصرة ٢ / ١٥ .

قلبك ﴿ورتلناه ترتيلا﴾ قال : رسلناه ترسيلا ، يقول :شيئا بعد شىء ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ، ثم سألوك لم يكن عنده ما يجيب ، ولكنا نمسك عليك ، فإذا سألوك أجبت .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤) ﴾.

اللام فى قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ جواب قسم محذوف ، أى والله لقد آتينا موسى التوراة . ذكر سبحانه طرفا من قصص الأولين تسلية له ﷺ بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله . وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ و﴿ **هارون** ﴾ عطف بيان ، ويجوز أن ينصب على القطع و﴿ **وزيرا** ﴾ المفعول الثانى . وقيل : حال ، والمفعول الثانى معه ، والأول أولى . قال الزجاج : الوزير فى اللغة : الذى يرجع إليه ويعمل برأيه ، والوزر : ما يعتصم به ، ومنه : ﴿ كلا لا وزر ﴾ [القيامة : ١١] . وقد تقدم تفسير الوزير فى طه ، والوزارة لا تنافى النبوة ، فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء ، ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا . وقد كان هارون فى أول الأمر وزيرا لموسى ، ولاشتراكهما فى النبوة قيل لهما : ﴿**اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ وهم فرعون وقومه . والآيات هى التسع التى تقدم ذكرها، وإن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهارون بالذهاب بل كان التكذيب بعد ذلك ، لكن هذا الماضى بمعنى المستقبل على عادة إخبار الله ، أى اذهبا إلى القوم الذين يكذبون بآياتنا. وقيل: إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله ﷺ بيانا لعلة استحقاقهم للعذاب. وقيل :يجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا. وقيل: إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال: أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية وليس المراد آيات الرسالة. قال القشيرى: وقوله تعالى فى موضع آخر: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : ٢٤] لا ينافى

هذا لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. ويمكن أن يقال : إن تخصيص موسى بالخطاب فى بعض المواطن لكونه الأصل فى الرسالة ، والجمع بينهما فى الخطاب لكونهما مرسلين جميعا ﴿ **فدمرناهم تدميرا** ﴾ فى الكلام حذف ، أى فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، أى أهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكا عظيما . وقيل : إن المراد بالتدمير هنا : الحكم به ؛ لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهارون إليهم ، بل بعده بمدة .

﴿ **وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم** ﴾ فى نصب ﴿ **قوم** ﴾أقوال :العطف على الهاء والميم فى دمرناهم ،أو النصب بفعل محذوف ، أى اذكر ، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ، وهو أغرقناهم ، أى أغرقنا قوم نوح أغرقناهم ، وقال الفراء : هو منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من دون تقدير مضمر يفسره ما بعده . ورده النحاس بأن أغرقنا لا يتعدى إلى مفعولين حتى يعمل فى الضمير المتصل به ، وفى قوم نوح . ومعنى ﴿ **لما كذبوا الرسل** ﴾ : أنهم كذبوا نوحا وكذبوا من قبله من رسل الله . وقال الزجاج : من كذب نبيا فقد كذب جميع الأنبياء، وكان إغراقهم بالطوفان كما تقدم فى هود ﴿ **وجعلناهم للناس آية** ﴾ أى جعلنا إغراقهم ، أو قصتهم للناس آية ، أى عبرة لكل الناس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها وسامع لخبرها ﴿**وأعتدنا للظالمين** ﴾ المراد بالظالمين : قوم نوح على الخصوص . ويجوز أن يكون المراد : كل من سلك مسلكهم فى التكذيب ، والعذاب الأليم: هو عذاب الآخرة . وانتصاب ﴿ **عادا** ﴾ بالعطف على قوم نوح ، وقيل : على محل الظالمين ، وقيل : على مفعول جعلناهم ﴿**وثمود**﴾ معطوف على ﴿ **عادا** ﴾ وقصة عاد وثمود قد ذكرت فيما سبق ﴿**وأصحاب الرس** ﴾ الرس فى كلام العرب:البئر التى تكون غير مطوية ،والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة ،ومنه قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم تنابلة يحفرون الرساسا

قال السدى : هى بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار فنسبوا إليها ، وهو صاحب يس الذى قال : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : ٢٠] وكذا قال مقاتل وعكرمة وغيرهما . وقيل : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم فجفت أشجارهم وزروعهم ، فماتوا جوعا وعطشا . وقيل : كانوا يعبدون الشجر . وقيل : كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيبا فكذبوه وآذوه . وقيل : هم قوم أرسل الله إليهم نبيا فأكلوه ، وقيل : هم أصحاب الأخدود . وقيل : إن الرس : هى البئر المعطلة التى تقدم ذكرها ، وأصحابها : أهلها . وقال فى الصحاح : والرس : اسم بئر كانت لبقية ثمود ، وقيل : الرس : ماء ونخل لبنى أسد ، وقيل : الثلج المتراكم فى الجبال . والرس: اسم واد ، ومنه قول زهير :

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للفم

والرس أيضا : الإصلاح بين الناس والإفساد بينهم ، فهو من الأضداد . وقيل : هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعنقاء ﴿ **وقرونا بين**

ذلك كثيرا ﴾ معطوف على ما قبله. والقرون جمع قرن ، أى أهل قرون ، والقرن: مائة سنة ، وقيل : مائة وعشرون . وقيل : القرن : أربعون سنة ، والإشارة بقوله : ﴿ **بين ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الأمم . وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك .

﴿ **وكلا ضربنا له الأمثال** ﴾ قال الزجاج : أى وأنذرنا كلا ضربنا لهم الأمثال وبينا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة ، فجعله منصوبا بفعل مضمر يفسره ما بعده ؛ لأن حذرنا وذكرنا وأنذرنا فى معنى: ضربنا ، ويجوز أن يكون معطوفا على ما قبله ، والتنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف ، وهو الأمم ، أى كل الأمم ضربنا لهم الأمثال وأما ﴿ **كلا** ﴾ الأخرى فهى منصوبة بالفعل الذى بعدها. والتتبير : الإهلاك بالعذاب . قال الزجاج: كل شىء كسرته وفتته فقد تبرته. وقال المؤرج والأخفش: معنى ﴿ **تبرنا تتبيرا**﴾: دمرنا تدميرا (١) ، أبدلت التاء والباء من الدال والميم ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء** ﴾ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم . والمعنى : ولقد أتوا ، أى مشركو مكة ، على قرية قوم لوط التى أمطرت مطر السوء ، وهو الحجارة ، أى هلكت بالحجارة التى أمطروا بها ، وانتصاب مطر على المصدرية ،أو على أنه مفعول ثان ، إذ المعنى : أعطيتها وأوليتها مطر السوء ، أو على أنه نعت مصدر محذوف ، أى إمطارا مثل مطر السوء ، وقرأ أبو السموأل : « السوء » بضم السين ، وقد تقدم تفسير السوء فى براءة ﴿ **أفلم يكونوا يرونها** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ،أى يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمرون بها ، والفاء للعطف على مقدر ، أى لم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها ﴿**بل كانوا لا يرجون نشورا** ﴾ أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء ، ويجوز أن يكون معنى يرجون : يخافون .

﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزؤا** ﴾ أى ما يتخذونك إلا هزؤا ،أى مهزوءا بك ،قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزوا ، فجواب ﴿ **إذا** ﴾ هو ﴿ **إن يتخذونك** ﴾ وقيل : الجواب محذوف ، وهو : قالوا أهذا الذى ، وعلى هذا فتكون جملة : ﴿ **إن يتخذونك إلا هزؤا** ﴾ معترضة ، والأول أولى . وتكون جملة : ﴿ **أهذا الذى بعث الله رسولا** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى قائلين أهذا إلخ ، وفى اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له وتهكمهم به ، والعائد محذوف ، أى بعثه الله ، وانتصاب ﴿ **رسولا** ﴾ على الحال ، أى مرسلا ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره الموصول، وصلته ﴿ **إن كاد ليضلنا عن آلهتنا** ﴾ أى قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا : ليصرفنا عن آلهتنا فنترك عبادتها ، وإن هنا هى المخففة ، وضمير الشأن محذوف ؛ أى إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿ **لولا أن صبرنا عليها** ﴾ أى حبسنا أنفسنا على عبادتها ، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم فقال ﴿ **وسوف يعلمون حين يرون العذاب من**

(١) فى المطبوعة : « أدمرنا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أضل سبيلا ﴾ أى حين يرون عذاب يوم القيامة الذى يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضل سبيلا ، أى أبعد طريقا عن الحق والهدى ، أهم أم المؤمنون ؟

ثم بين لهم سبحانه أنه لاتمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى ، فقال معجبا لرسول الله ﷺ: ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قدم المفعول الثانى للعناية. كما تقول : علمت منطلقا زيدا ، أى أطاع هواه طاعة كطاعة الإله ، أى انظر إليه يامحمد وتعجب منه . قال الحسن : معنى الآية لا يهوى شيئا إلا اتبعه ﴿ **أفأنت تكون عليه وكيلا** ﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد ، أى أفأنت تكون عليه حفيظا وكفيلا حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من الكفر ، ولست تقدر على ذلك ولا تطيقه ، فليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك البلاغ . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بآية القتال .

ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر فقال :﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون** ﴾ أى أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتتلو عليهم من آيات القرآن ومن المواعظ ؟ أو يعقلون معانى ذلك ويفهمونه حتى تعتنى بشأنهم وتطمع فى إيمانهم ، وليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل . ثم بين سبحانه حالهم وقطع مادة الطمع فيهم فقال : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام** ﴾ أى ما هم فى الانتفاع بما يسمعونه إلا كالبهائم التى هى مسلوبة الفهم والعقل فلا تطمع فيهم ، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة ، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم ويعقلون ما يتلى عليهم ، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له . ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بأنهم كالأنعام إلى ما هو فوق ذلك فقال :﴿ **بل هم أضل سبيلا** ﴾ أى أضل من الأنعام طريقا . قال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها وتنقاد لأربابها ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : إنما كانوا أضل من الأنعام ؛ لأنه لا حساب عليها ولا عقاب لها . وقيل : إنما كانوا أضل ؛ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك ، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا ومكابرة وتعصبا وغمطا للحق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا** ﴾ قال : عونا وعضدا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فدمرناهم تدميرا** ﴾ قال : أهلكناهم بالعذاب . وأخرج ابن جرير عنه قال : الرس : قرية من ثمود . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الرس : بئر بأذربيجان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس أنه سأل كعبا عن أصحاب الرس قال: صاحب يس الذى قال : ﴿ ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : ٢٠] فرسَّه قومه فى بئر بالأحجار . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبى فحفروا له بئرا فألقوه فيها ، ثم**

أطبقوا عليه بحجر ضخم ، فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه فيشترى به طعاما وشرابا ، ثم يأتى به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة فيعينه الله عليها ، فيدلى طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت ، فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب على أذنه سبع سنين نائما ، ثم إنه ذهب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ، ثم إنه ذهب فاحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ، ثم ذهب إلى الحفرة فى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده ، وقد كان بدا لقومه فيه بد فاستخرجوه فآمنوا به وصدقوه ، وكان النبى يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟ فيقولون: ما ندرى ، حتى قبض ذلك النبى، فأهب الله الأسود من نومته بعد ذلك ، إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة» [١] . قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراجه : وفيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجا [٢] . انتهى . الحديث أيضا مرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن زرارة بن أوفى قال : القرن : مائة وعشرون عاما . وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : القرن :سبعون سنة . وأخرج ابن مردويه عن أبى سلمة قال : القرن : مائة سنة. وقد روى مرفوعا إلي النبى ﷺ أنه قال : «القرن مائة سنة » ، وقال : « القرن خمسون سنة » ، وقال : « القرن أربعون سنة » . وما أظنه يصح شيء من ذلك ، وقد سمى الجماعة من الناس قرنا كما فى الحديث الصحيح : «خير القرون قرنى » [٣] . وأخرج الحاكم فى الكنى عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معد بن عدنان أمسك ، ثم يقول : كذب النسابون . قال الله : ﴿ **وقرونا بين ذلك كثيرا** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس :﴿**ولقد أتوا على القرية** ﴾ قال:هى سدوم قرية لوط ﴿**التى أمطرت مطر السوء**﴾ قال : الحجارة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر فى الجاهلية ، فإذا وجد حجرا أحسن منه رمى به وعبد الآخر ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال : ذلك الكافر لا يهوى شيئا إلا اتبعه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ

---

(١) ابن جرير ١٩/ ١٠ ، ١١ . (٢) ابن كثير ٥/ ١٥٣ .

(٣) أحمد ١/ ٣٧٨ والبخارى فى الشهادات (٢٦٥٢) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٦٢) ، كلهم عن عبد الله بن مسعود .

النَّهَارَ نُشُوراً ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴿٥١﴾ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴿٥٤﴾ ﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام ، فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ هذه الرؤية إما بصرية ، والمراد بها : ألم تبصر إلى صنع ربك ، أو ألم تبصر إلى الظل كيف مده ربك ؟ وإما قلبية بمعنى العلم ، فإن الظل متغير ، وكل متغير حادث ، ولكل حادث موجد . قال الزجاج : ﴿ **ألم تر**﴾ ألم تعلم ، وهذا من رؤية القلب . قال : وهذا الكلام على القلب ، والتقدير : ألم تر إلى الظل كيف مده ربك ؟ يعنى الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وهو ظل لا شمس معه ، وبه قال الحسن وقتادة . وقيل : هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها . قال أبو عبيدة : الظل بالغداة والفيء بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس . سمى فيئا ؛ لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيء من برد العشى تذوق

وقال ابن السكيت : الظل : ما نسخته الشمس ، والفيء :ما نسخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . انتهى . وحقيقة الظل : أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين ، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس ، والضوء الكامل لقوته يبهر الحس البصرى ويؤذى بالتسخين ، ولذلك وصفت الجنة به بقوله :﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة : ٣٠] وجملة : ﴿ **ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكنا ثابتا دائما مستقرا لا تنسخه الشمس . وقيل : المعنى : لو شاء لمنع الشمس الطلوع ، والأول أولى . والتعبير بالسكون عن الإقامة والاستقرار سائغ ، ومنه قولهم : سكن فلان بلد كذا : إذا أقام به واستقر فيه. وقوله : ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ معطوف على قوله : مد الظل داخل فى حكمه ، أى جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله ؛ وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل فى الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص .

وقوله : ﴿ **ثم قبضناه** ﴾ معطوف أيضا على مد داخل فى حكمه . والمعنى : ثم قبضنا ذلك الظل الممدود ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإظلال إلى العدم والاضمحلال . وقيل : المراد فى الآية : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه ، وهى الأجرام النيرة ، والأول أولى . والمعنى : أن الظل يبقى فى هذا الجو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس ، فأشرقت على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما فيه بقية نور النهار ، وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها إذا لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بمجىء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : المعنى : ثم قبضنا ضياء الشمس بالفىء ﴿ **قبضا يسيرا** ﴾ ومعنى ﴿ **إلينا** ﴾ : أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه قبضا يسيرا ، أى على تدريج قليلا قليلا بقدر ارتفاع الشمس ، وقيل :يسيرا سريعا ، وقيل المعنى : يسيرا علينا ، أى يسيرا قبضه علينا ليس بعسير.

﴿ **وهو الذى جعل لكم الليل لباسا** ﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . قال ابن جرير : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها ، واللام متعلقة بجعل ﴿ **والنوم سباتا** ﴾ أى وجعل النوم سباتا ، أى راحة لكم لأنكم تنقطعون عن الاشتغال ، وأصل السبات : التمدد ، يقال : سبتت المرأة شعرها ، أى نقضته وأرسته ، ورجل مسبوت ، أى ممدود الخلقة . وقيل : للنوم سبات ؛ لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . وقيل : السبت القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه : سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال . قال الزجاج : السبات : النوم ، وهو أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه ، أى جعلنا نومكم راحة لكم. وقال الخليل : السبات : نوم ثقيل . أى جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام والراحة ﴿ **وجعل النهار نشورا** ﴾ أى زمان بعث من ذلك السبات ، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات. وقال فى الكشاف : إن السبات : الموت ، واستدل على ذلك بكون النشور فى مقابلته (١) .

﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ قرئ : « الريح » وقرئ : « بشرا » بالباء الموحدة وبالنون، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى فى الأعراف (٢) ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ أى يتطهر به كما يقال : وضوء للماء الذى يتوضأ به . قال الأزهرى : الطهور فى اللغة : الطاهر المطهر ، والطهور ما يتطهر به. قال ابن الأنبارى: الطهور بفتح الطاء: الاسم ، وكذلك الوضوء والوقود ، وبالضم المصدر ، هذا هو المعروف فى اللغة ؛ وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور: هو الطاهر المطهر ، ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة . وروى عن أبى حنيفة أنه قال : الطهور هو الطاهر ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٣ .

(٢) راجع : تفسير سورة الأعراف آية ٥٧ .

[الإنسان : ٢١] يعنى طاهرا ، ومنه قول الشاعر :

خليلى هل فى نظرة بعد توبة ... أداوى بها قلبى على فجور

إلى رجح الأكفال غيد من الظبى ... عذاب الثنايا ريقهن طهور

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر ، ورجح القول الأول ثعلب ، وهو راجح لما تقدم من حكاية الأزهرى لذلك عن أهل اللغة . وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور ، فهو على طريق المبالغة ، وعلى كل حال فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره ، قال الله تعالى :﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ [الأنفال : ١١] وقال النبى ﷺ : «خلق الماء طهورا » (١) .

ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال :﴿ **لنحيى به** ﴾ أى بالماء المنزل من السماء ﴿ **بلدة ميتا** ﴾ وصف البلدة بـ﴿ **ميتا** ﴾ ، وهى صفة للمذكر لأنها بمعنى البلد . وقال الزجاج : أراد بالبلد : المكان ، والمراد بالإحياء هنا : إخراج النبات من المكان الذى لا نبات فيه ﴿ **ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ أى نسقى ذلك الماء ، قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية عنهما وأبو حيان وابن أبى عبلة بفتح النون من : « نسقيه » وقرأ الباقون بضمها ، و«من » فى : ﴿ **مما خلقنا** ﴾ للابتداء ، وهى متعلقة بـ ﴿ **نسقيه** ﴾ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال . والأنعام قد تقدم الكلام عليها . والأناسى جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه . وقال الفراء والمبرد والزجاج : إنه جمع إنسى ، وللفراء قول آخر : إنه جمع إنسان ، والأصل : أناسين مثل سرحان وسراحين وبستان وبساتين ، فجعلوا الياء عوضا من النون .

﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكروا** ﴾ : ضمير ﴿ **صرفناه** ﴾ ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل ، أى كررنا أحوال الإظلال ، وذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر فى القرآن وفى سائر الكتب السماوية ليتفكروا ويعتبروا ، فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحدها . وقال آخرون : إنه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر ،أى صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة ، فنزيد منه فى بعض البلدان وننقص فى بعض آخر منها ، وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقد جرى ذكره فى أول السورة حيث قال: ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : ١] وقوله :﴿ لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ﴾ [الفرقان : ٢٩] وقوله :﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ [الفرقان : ٣٠] والمعنى : ولقد كررنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ليذكروا به ويعتبروا بما فيه ، فأبى أكثرهم ﴿ **إلا كفورا** ﴾ به . وقيل : هو راجع إلى الريح ، وعلى رجوع الضمير إلى المطر ، فقد اختلف فى معناه ، فقيل ما ذكرناه . وقيل : صرفناه بينهم وابلا وطشا وطلا ورذاذا ، وقيل: تصريفه : تنويع الانتفاع به فى الشرب والسقى

(١) أحمد ٣/ ٣١ وأبو داود فى الطهارة (٦٦) والترمذى فى الطهارة (٦٦) وقال : « هذا حديث حسن »، كلهم عن أبى سعيد الخدرى .

والزراعات به والطهارات . قال عكرمة : إن المراد بقوله : ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ هو قولهم: فى الأنواء مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر هنا قولهم : مطرنا بنوء كذا . وقرأ عكرمة : « صرفناه » مخففا ، وقرأ الباقون بالتثقيل . وقرأ حمزة والكسائى: « ليذكروا » مخففة الذال من الذكر ،وقرأ الباقون بالتثقيل من التذكر .

﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا** ﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم ، ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيرا واحدا ، وهو أنت يا محمد ، فقابل ذلك بشكر النعمة ﴿ **فلا تطع الكافرين** ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ، بل اجتهد فى الدعوة واثبت فيها، والضمير فى قوله : ﴿ **وجاهدهم به جهادا كبيرا** ﴾ راجع إلى القرآن ، أى جاهدهم بالقرآن واتل عليهم ما فيه من القوارع والزواجر والأوامر والنواهى. وقيل: الضمير يرجع إلى الإسلام. وقيل : بالسيف ، والأول أولى . وهذه السورة مكية ، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة . وقيل : الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله : ﴿ **فلا تطع الكافرين** ﴾ . وقيل : الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا** ﴾ لأنه سبحانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التى أرسل إليها ، وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى وهو محمد ﷺ فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات ، فكبر جهاده ، وعظم وصار جامعا لكل مجاهدة ، ولا يخفى ما فى هذين الوجهين من البعد .

ثم ذكر سبحانه دليلا رابعا على التوحيد فقال : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين** ﴾ مرج : خلى وخلط وأرسل، يقال : مرجت الدابة وأمرجتها : إذا أرسلتها فى المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر . وقال ابن عرفة : خلطهما فهما يلتقيان ، يقال : مرجته : إذا خلطته ، ومرج الدين والأمر : اختلط واضطرب ، ومنه قوله :﴿ فى أمر مريج ﴾ [ق : ٥] وقال الأزهرى : ﴿ **مرج البحرين** ﴾ خلى بينهما ، يقال: مرجت الدابة : إذا خليتها ترعى . وقال ثعلب : المرج : الإجراء ، فقوله : ﴿ **مرج البحرين**﴾ أى أجراهما . قال الأخفش : ويقول قوم : أمرج البحرين مثل مرج ، فعل وأفعل بمعنى. ﴿**هذا عذب فرات** ﴾ الفرات : البليغ العذوبة ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مرجهما ؟ فقيل : هذا عذب وهذا ملح ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال . قيل : سمى الماء الحلو فراتا ؛ لأنه يفرت العطش ، أى يقطعه ويكسره ﴿ **وهذا ملح أجاج** ﴾ أى بليغ الملوحة هذا معنى الأجاج . وقيل : الأجاج : البليغ فى الحرارة . وقيل : البليغ فى المرارة ، وقرأ طلحة : « ملح » بفتح الميم وكسر اللام ﴿ **وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** ﴾ البرزخ : الحاجز والحائل الذى جعله الله بينهما من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ، ومعنى ﴿**حجرا محجورا** ﴾ : سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر ، فالبرزخ : الحاجز ، والحجز : المانع . وقيل: معنى ﴿ **حجرا محجورا** ﴾ : هو ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعوذ كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه، ويقول له هذا القول .

وقيل :حدا محدودا . وقيل : المراد من البحر العذب :الأنهار العظام كالنيل والفرات وجيحون، ومن البحر الأجاج :البحار المشهورة ، والبرزخ بينهما : الحائل من الأرض .وقيل معنى ﴿**حجرا محجورا**﴾:حراما محرما أن يعذب هذا المالح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالمالح، ومثل هذه الآية قوله سبحانه فى سورة الرحمن : ﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ [الآيتان : ١٩ ، ٢٠] .

ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان والماء فقال : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا** ﴾ والمراد بالماء هنا : ماء النطفة ، أى خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا وصهرا . وقيل : المراد بالماء: الماء المطلق الذى يراد فى قوله:﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ [الأنبياء : ٣٠] والمراد بالنسب :هو الذى لا يحل نكاحه.قال الفراء والزجاج: واشتقاق الصهر من صهرت الشىء:إذا خلطته،وسميت المناكح صهرا ؛ لاختلاط الناس بها.وقيل : الصهر: قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان ، وقرابة الزوج هم الأحماء ، والأصهار تعمهما، قاله الأصمعى . قال الواحدى : قال المفسرون : النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ومن هنا إلى قوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ [النساء : ٢٣] تحريم بالصهر ، وهو الخلطة التى تشبه القرابة، حرم الله سبعة أصناف من النسب وسبعة من جهة الصهر ، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها ، والسابعة قوله : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ [النساء : ٢٢] وقد جعل ابن عطية والزجاج وغيرهما الرضاع من جملة النسب ، ويؤيده قوله ﷺ : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ﴿ **وكان ربك قديرا** ﴾ أى بليغ القدرة عظيمها ، ومن جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان وتقسيمه إلى القسمين المذكورين .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ قال : بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس . وأخرج ابن أبى حاتم عنه بلفظ : ألم تر أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلا ، ثم بعث الله عليه الشمس دليلا فقبض الظل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : مد الظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ **ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ قال : دائما ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ يقول : طلوع الشمس ﴿ **ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا** ﴾ قال : سريعا . وأخرج أهل السنن وأحمد وغيرهم من حديث أبى سعيد قال : قيل : يا رسول الله ، أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ وهى بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ، فقال: « إن الماء طهور لا ينجسه شىء » (١) . وفى إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه فى شرحنا على المنتقى .

---

(١) أحمد ٣/ ٣١ وأبو داود فى الطهارة (٦٦) والترمذى فى الطهارة (٦٦) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى ١/ ١٧٤ والبيهقى ١/ ٤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : ما من عام بأقل مطرا من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، ثم قرأ هذه الآية :﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكروا** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجاهدهم به** ﴾ قال : بالقرآن. وأخرج ابن جرير عنه : ﴿**هو الذى مرج البحرين** ﴾ يعنى خلط أحدهما على الآخر فليس يفسد العذب المالح وليس يفسد المالح العذب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وحجرا محجورا** ﴾ يقول : حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن المغيرة قال : سئل عمر بن الخطاب عن ﴿ **نسبا وصهرا** ﴾ ، فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب ، وأما الصهر: فالأختان والصحابة .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾.

لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار وفضائح سيرتهم فقال : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم** ﴾ إن عبدوه ﴿ **ولا يضرهم** ﴾ إن تركوه ﴿ **وكان الكافر على ربه ظهيرا** ﴾ الظهير المظاهر ، أى المعاون على ربه بالشرك والعداوة ، والمظاهرة على الرب هى المظاهرة على رسوله أو على دينه . قال الزجاج : لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله ؛ لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان . وقال أبو عبيدة : المعنى : وكان الكافر على ربه هينا ذليلا ، من قول العرب : ظهرت به ، أى جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه ، ومنه قوله: ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ [هود : ٩٢] أى هينا ، ومنه أيضا قول الفرزدق :

تميم بن بدر لا تكونن حاجتى   بظهر فلا يعيا على جوابها

وقيل : إن المعنى : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع ، ويجوز أن يكون الظهير جمعا كقوله : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ [التحريم : ٤] والمعنى : أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله أو على دينه ، والمراد بالكافر هنا : الجنس ، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافر معين، كما قيل : إنه أبو جهل . ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ أى مبشرا للمؤمنين بالجنة ومنذرا للكافرين بالنار .

﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر** ﴾ أى قل لهم يا محمد : ما أسألكم على القرآن من أجر ، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال ، والاستثناء فى قوله :﴿ **إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ منقطع ، أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل . وقيل : هو متصل . والمعنى : إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة وصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الحصول . ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره ألا يطلب منهم أجرا البتة ، أمره أن يتوكل عليه فى دفع المضار وجلب المنافع فقال : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت** ﴾ وخص صفة الحياة؛ إشارة إلى أن الحى هو الذى يوثق به فى المصالح ، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ، والتوكل : اعتماد العبد على الله فى كل الأمور ﴿ **وسبح بحمده** ﴾ أى نزهه عن صفات النقصان. وقيل : معنى ﴿ **سبح** ﴾ : صل ، والصلاة تسمى تسبيحا ﴿ **وكفى به بذنوب عباده خبيرا** ﴾ أى حسبك ، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك : كفى بالله ربا . والخبير: المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شىء . ثم زاد فى المبالغة ، فقال : ﴿ **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى الأعراف ، والموصول فى محل جر على أنه صفة للحى ، وقال : ﴿ **بينهما** ﴾ ولم يقل : بينهن ؛ لأنه أراد النوعين ، كما قال القطامى :

ألم يحزنك أن جبال قيس   وتغلب قد تباتتا انقطاعا

فإن قيل : يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض كما تفيده ثم ، فيقال: إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات والأرض ، والرحمن مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو صفة أخرى للحى، وقد قرأه الجمهور بالرفع . وقيل : يجوز أن يكون بدلا من الضمير فى ﴿ **استوى** ﴾ ، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة ، أى فاسأل على رأى الأخفش ، كما فى قول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

وقرأ زيد بن على : « الرحمن » بالجر على أنه نعت للحى أو للموصول ﴿ **فاسأل به**

خبيرا ﴾ الضمير فى به يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش . والمعنى : فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالا من هذه الأمور . وقال الزجاج والأخفش : الباء بمعنى عن ، أى فاسأل عنه ، كقوله : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج : ١] ، وقول عنترة (١) :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم

وقال علقمة بن عبدة (٢) :

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبير بأدواء النساء طبيب

والمراد بالخبير : الله سبحانه ؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو ، ومن هذا قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ، أى للقيك بلقائك إياه الأسد ، فخبيرا منتصب على المفعولية ، أو على الحال المؤكدة ، واستضعف الحالية أبو البقاء فقال : يضعف أن يكون ﴿ خبيرا ﴾ حالا من فاعل اسأل ؛ لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد كقوله: ﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ [البقرة : ٩١] قال : ويجوز أن يكون حالا من الرحمن إذا رفعته باستوى . وقال ابن جرير : يجوز أن تكون الباء فى به زائدة. والمعنى: فاسأله حال كونه خبيرا . وقيل : قوله : « به » يجرى مجرى القسم كقوله :﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به ﴾ [النساء : ١] والوجه الأول أقرب هذه الوجوه .

ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال : ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن** ﴾ قال المفسرون : إنهم قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون : مسيلمة . قال الزجاج : الرحمن : اسم من أسماء الله ، فلما سمعوه أنكروا فقالوا : وما الرحمن ﴿ **أنسجد لما تأمرنا** ﴾ والاستفهام للإنكار أى لا نسجد للرحمن الذى تأمرنا بالسجود له ، ومن قرأ بالتحتية فالمعنى : أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له . وقد قرأ المدنيون والبصريون :﴿ **لما تأمرنا** ﴾ بالفوقية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بالتحتية . قال أبو عبيد : يعنون : الرحمن . قال النحاس : وليس يجب أن يتأول على الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم : اسجدوا لما يأمرنا النبى ﷺ ، فتصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أبين ﴿ **وزادهم نفورا**﴾ أى زادهم الأمر بالسجود نفورا عن الدين وبعدا (٣)عنه . وقيل : زادهم ذكر الرحمن تباعدا من الإيمان ، كذا قال مقاتل ، والأول أولى .

---

(١) فى المخطوطة : « امرئ القيس » ، والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ٧/ ٤٧٧٩ .
(٢) فى المخطوطة : « امرؤ القيس » ، والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ٧/ ٤٧٧٩ .
(٣) فى المطبوعة : « بعد » بالرفع ، والصحيح ما أثبتناه بالنصب من المخطوطة .

ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال :﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا** ﴾ المراد بالبروج : بروج النجوم ، أى منازلها الاثنا عشر . وقيل : هى النجوم الكبار ، والأول أولى . وسميت بروجا ، وهى القصور العالية ؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها ، واشتقاق البرج من التبرج ، وهو الظهور ﴿ **وجعل فيها سراجا** ﴾ أى شمسا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ [نوح : ١٦] قرأ الجمهور : ﴿**سراجا** ﴾ بالإفراد. وقرأ حمزة والكسائى : « سرجا » بالجمع ، أى النجوم العظام الوقادة ، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد . قال الزجاج : فى تأويل قراءة حمزة والكسائى أراد الشمس والكواكب ﴿ **وقمرا منيرا** ﴾ أى ينير الأرض إذا طلع ، وقرأ الأعمش :« قمرا » بضم القاف وإسكان الميم ،وهى قراءة ضعيفة شاذة. ﴿ **وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة** ﴾ قال أبو عبيدة: الخلفة: كل شىء بعد شىء ، الليل خلفة للنهار ، والنهار خلفة لليل ؛ لأن أحدهما يخلف الآخر ويأتى بعده ؛ ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول فى الصيف ، ومنه قول زهير بن أبى سلمى :

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

قال الفراء فى تفسير الآية : يقول : يذهب هذا ويجىء هذا ، وقال مجاهد : خلفة من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود . وقيل : يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أى جعل الليل والنهار ذوى خلفة ، أى اختلاف ﴿ **لمن أراد أن يذكر** ﴾ قرأ حمزة مخففا ، وقرأ الجمهور بالتشديد ، فالقراءة الأولى من الذكر لله، والقراءة الثانية من التذكر له . وقرأ أبى بن كعب : « يتذكر » ومعنى الآية : أن المتذكر المعتبر إذا نظر فى اختلاف الليل والنهار علم أنه لابد فى انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ﴿ **أو أراد شكورا** ﴾ أى أراد أن يشكر الله على ما أودعه فى الليل والنهار من النعم العظيمة والألطاف الكثيرة .قال الفراء :ويذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد .قال الله تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ [الأعراف : ١٧١] وفى حرف عبد الله :« ويذكروا ما فيه » .

﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحى عباد الله سبحانه ، و﴿ **عباد الرحمن** ﴾ مبتدأ وخبره الموصول مع صلته . والهون مصدر ، وهو السكينة والوقار . وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بـ ﴿ **يمشون** ﴾ أى يمشون على الأرض مشيا هونا . قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشى هونا مناسبة لمشيه ، وأما أن يكون المراد : صفة المشى وحده فباطل ؛ لأنه رُبَّ ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس ، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ فى مشيه كأنما يمشى فى صبب [(١)] . ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل

(١) أحمد ٩٦/١ والترمذى فى المناقب (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، كلاهما عن على بن أبى طالب .

والسفه فلا يجهلون مع من يجهل ولا يسافهون أهل السفه . قال النحاس : ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم تقول العرب : سلاما ، أى تسلما منك ، أى براءة منك ، منصوب على أحد أمرين : إما على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى قالوا سلمنا سلاما ، وهذا على قول سيبويه ، أو على أنه مفعول به ، أى قالوا هذا اللفظ ، ورجحه ابن عطية . وقال مجاهد : ﴿**معنى سلاما**﴾ : سدادا ، أى يقول للجاهل كلاما يدفعه به برفق ولين . قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على قوله : تسليما منكم ولا خير ولا شر بيننا وبينكم . قال المبرد : كان ينبغى أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ، ثم أمروا بحربهم . وقال محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه فى هذا وأساء العبارة . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما فى معنى الناسخ والمنسوخ إلا فى هذه الآية ، لأنه قال فى آخر كلامه فنسختها آية السيف . وأقول : هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم فى غير علمه ومشى فى غير طريقته ، ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين ولا نهوا عنه ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ . قال النضر بن شميل : حدثنى الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابى ، وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا: استووا ، فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابى إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل : هو من قول الله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [البقرة : ٢٩] قال : فصعدنا إليه فقال : هل لكم فى خبز فطير ولبن هجير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاما ، فلم ندر ما قال ، فقال الأعرابى : إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر . قال الخليل : هو من قول الله : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ .

﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ البيتوتة : هى أن يدركك الليل نمت أو لم تنم . قال الزجاج : من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ، كما يقال : بات فلان قلقا ، والمعنى: يبيتون لربهم سجدا على وجوههم ، وقياما على أقدامهم ، ومنه قول امرئ القيس :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ أى هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابه ، والغرام : اللازم الدائم ، ومنه سمى الغريم لملازمته ، ويقال : فلان مغرم بكذا ، أى ملازم له مولع به ، هذا معناه فى كلام العرب ، كما ذكره ابن الأعرابى وابن عرفة وغيرهما ، ومنه قول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال الزجاج : الغرام : أشد العذاب . وقال أبو عبيدة : هو الهلاك . وقال ابن زيد : الشر ، وجملة : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ تعليل لما قبلها ، والمخصوص محذوف ، أى هى ، وانتصاب ﴿ **مستقرا** ﴾ على الحال أو التمييز ، وكذا ﴿ **مقاما** ﴾ . قيل : هما مترادفان ،

وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما . وقيل : بل هما مختلفان معنى : فالمستقر للعصاة فإنهم يخرجون ، والمقام للكفار فإنهم يخلدون ، وساءت من أفعال الذم كبئست ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم .

ثم وصفهم سبحانه بالتوسط فى الإنفاق فقال :﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾ قرأ حمزة والكسائى والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب : ﴿ **يقتروا** ﴾ بفتح التحتية وضم الفوقية ، من قتر يقتر ، كقعد يقعد ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح التحتية وكسر التاء الفوقية ، وهى لغة معروفة حسنة ، وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم التحتية وكسر الفوقية . قال أبو عبيدة : يقال : قتر الرجل على عياله يقتر قترا ، وأقتر يقتر إقتارا ، ومعنى الجميع : التضييق فى الإنفاق . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معنى الآية : أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله فهو القوام . وقال إبراهيم النخعى : هو الذى لا يجيع ولا يعرى ، ولا ينفق نفقة ، يقول الناس : قد أسرف . وقال يزيد بن أبى حبيب : أولئك أصحاب محمد كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة الله ،ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد. وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ، ولم يبخلوا كقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ [الإسراء : ٢٩] قرأ حسان بن عبد الرحمن : « وكان بين ذلك قواما » بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها. فقيل : هما بمعنى . وقيل : القوام بالكسر : ما يدوم عليه الشىء ويستقر ، وبالفتح : العدل والاستقامة ، قاله ثعلب . وقيل : بالفتح : العدل بين الشيئين ، وبالكسر: ما يقام به الشىء لا يفضل عنه ولا ينقص . وقيل : بالكسر : السداد والمبلغ ، واسم كان مقدر فيها ، أى كان إنفاقهم بين ذلك قواما وخبرها ﴿ **قواما** ﴾ ، قاله الفراء . وروى عن الفراء قول آخر ، وهو أن اسم كان ﴿ **بين ذلك** ﴾ ، وتبنى بين على الفتح لأنها من الظروف المفتوحة . وقال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا ؛ لأن بين إذا كانت فى موضع رفع رفعت .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وكان الكافر على ربه ظهيرا**﴾ يعنى أبا الحكم الذى سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر** ﴾ قال : قل لهم يا محمد : لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر ، يقول : عرض من عرض الدنيا . وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا** ﴾ قال : هى هذه الاثنا عشر برجا : أولها : الحمل ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ،

---

(١) ابن جرير ١٩ / ٨ .

ثم العقرب، ثم القوس ، ثم الجدى ، ثم الدلو ،ثم الحوت. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال : أبيض وأسود . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، ومن النهار أدركه بالليل. وأخرج الطيالسى وابن أبى حاتم عن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ، فقال: إنه بقى على من وردى شيء فأحببت أن أتمه، أو قال أقضيه ، وتلا هذه الآية :﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿وعباد الرحمن ﴾ قال : هم المؤمنون ﴿ الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ قال : بالطاعة والعفاف والتواضع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ هونا ﴾ : علما وحلما . وأخرج عبد ابن حميد عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾ قال : «الدائم ». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ قال : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا فى معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾.

قوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ : لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع فى بيان اجتنابهم للمعاصى فقال: والذين لا يدعون مع الله سبحانه ربا من الأرباب . والمعنى: لا يشركون به شيئا ، بل يوحدونه ويخلصون له العبادة والدعوة ﴿ ولا يقتلون النفس التى حرم الله ﴾ أى حرم قتلها ﴿ إلا بالحق ﴾ أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أوزنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ ولا يزنون ﴾ أى يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح، ولا ملك يمين ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى شيئا مما ذكر ﴿ يلق ﴾ فى الآخرة ﴿ أثاما ﴾ والأثام فى كلام العرب: العقاب . قال الفراء : آثمه الله يؤثمه أثاما وآثاما ، أى جازاه جزاء

الإثم . وقال عكرمة ومجاهد : إن أثاما: واد فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة. وقال السدى : جبل فيها. وقرئ : « يلق» بضم الياء وتشديد القاف . قال أبو مسلم : والأثام والإثم واحد ، والمراد هنا : جزاء الآثام فأطلق اسم الشىء على جزائه . وقرأ الحسن : « يلق أياما » ، جمع يوم ، يعنى : شدائد ، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام ، وما أظن هذه القراءة تصح عنه.

﴿ **يضاعف له العذاب** ﴾ : قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى : « يضاعف ، ويخلد » بالجزم ، وقرأ ابن كثير: «يضعف » بتشديد العين وطرح الألف والجزم ، وقرأ طلحة بن سليمان : « نضعف » بضم النون وكسر العين المشددة والجزم، وهى قراءة أبى جعفر وشيبة . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بالرفع فى الفعلين على الاستئناف . وقرأ طلحة بن سليمان : «وتخلد » بالفوقية خطابا للكافر . وروى عن أبى عمرو أنه قرأ : «ويخلد» بضم الياء التحتية وفتح اللام . قال أبو على الفارسى : وهى غلط من جهة الرواية ، ووجه الجزم فى يضاعف أنه بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى ، ومثله قول الشاعر :

إن علـى اللـه أن تبايـعا تؤخذ كـرها أو تجـىء طائـعا

والضمير فى قوله : ﴿ **ويخلد فيه** ﴾ راجع إلى العذاب المضاعف ، أى يخلد فى العذاب المضاعف ﴿ **مهانا** ﴾ ذليلا حقيرا . ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا** ﴾ قيل : هو استثناء متصل . وقيل : منقطع . قال أبو حيان : لا يظهر الاتصال لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب ، فيصير التقدير : إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف . قال : والأولى عندى أن يكون منقطعا ، أى لكن من تاب . قال القرطبى : لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام فى الكافر والزانى (١) . واختلفوا فى القاتل من المسلمين . وقد تقدم بيانه فى النساء والمائدة . والإشارة بقوله: ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ إلى المذكورين سابقا ، ومعنى تبديل السيئات حسنات : أنه يمحو عنهم المعاصى ويثبت لهم مكانها طاعات . قال النحاس : من أحسن ما قيل فى ذلك : أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاص مطيع . قال الحسن : قوم يقولون : التبديل فى الآخرة ، وليس كذلك إنما التبديل فى الدنيا ، يبدل الله لهم إيمانا مكان الشرك ، وإخلاصا من الشك ، وإحصانا من الفجور. قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة . وقيل : إن السيئات تبدل بحسنات ، وبه قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ، أى يغفر الله لهم تلك السيئات ، لا أن يبدلها حسنات . وقيل : المراد بالتبديل :أن يوفقه لأضداد ما سلف منه ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من التبديل .

﴿ **ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾ أى من تاب عما اقترف وعمل عملا

---

(١) القرطبى ٧ / ٤٧٩٣ .

صالحا بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى الله متابا ، أى يرجع إليه رجوعا صحيحا قويا . قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال :﴿ **إلا من تاب وآمن** ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا ، فله حكم التائبين أيضا. وقيل : أى من تاب بلسانه ولم يحقق التوبة بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة ، فهو الذى تاب إلى الله متابا ، أى تاب حق التوبة ، وهى النصوح ، ولذلك أكد بالمصدر ، ومعنى الآية : من أراد التوبة وعزم عليها فليتب إلى الله ، فالخبر فى معنى الأمر ، كذا قيل لئلا يتحد الشرط والجزاء ، فإنه لا يقال : من تاب فإنه يتوب .

ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ أى لا يشهدون الشهادة الكاذبة ، أو لا يحضرون الزور . والزور هو : الكذب والباطل ولا يشاهدونه ، وإلى الثانى ذهب جمهور المفسرين . قال الزجاج : الزور فى اللغة : الكذب ولا كذب فوق الشرك بالله . قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا بمعنى الشرك . والحاصل أن ﴿ **يشهدون** ﴾ إن كان من الشهادة ففى الكلام مضاف محذوف ، أى لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان من الشهود والحضور كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا فى معناه ، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقال محمد بن الحنفية : لا يحضرون اللهو والغناء . وقال ابن جريج : الكذب . وروى عن مجاهد أيضا ، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور ، بل المراد : الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنا ما كان ﴿**وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ أى معرضين عنه غير ملتفتين إليه . واللغو: كل ساقط من قول أو فعل . قال الحسن : اللغو : المعاصى كلها ، وقيل : المراد : مروا بذوى اللغو ، يقال: فلان يكرم عما يشينه ، أى يتنزه ويكرم نفسه عن الدخول فى اللغو والاختلاط بأهله .

﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم** ﴾ أى بالقرآن ، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿ **لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ أى لم يقعوا عليها حال كونهم صما وعميانا ، ولكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين وانتفعوا بها . قال ابن قتيبة : المعنى : لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها ، وعمى لم يبصروها. قال ابن جرير: ليس ثم خرور ، بل كما يقال : قعد يبكى ، وإن كان غير قاعد . قال ابن عطية : كأن المستمع للذكر قائم ، فإذا أعرض عنه كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام. قيل: المعنى: إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم ، فخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صما وعميانا . قال الفراء : أى لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .قال فى الكشاف : ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له ونفى للصمم والعمى ، وأراد أن النفى متوجه إلى القيد لا إلى المقيد .

﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ من ابتدائية ، أو بيانية . قرأ نافع وابن كثير وابن عباس والحسن : ﴿ **وذرياتنا** ﴾ بالجمع ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى

وطلحة وعيسى: « وذريتنا » بالإفراد. والذرية تقع على الجمع ، كما فى قوله :﴿ ذرية ضعافا ﴾ [النساء:٩] وتقع على الفرد كما فى قوله: ﴿ ذرية طيبة ﴾ [آل عمران:٣٨] وانتصاب ﴿ **قرة أعين** ﴾ على المفعولية ، يقال : قرت عينه قرة . قال الزجاج: يقال : أقر الله عينك ، أى صادف فؤادك ما يحبه . وقال المفضل : فى قرة العين ثلاثة أقوال : أحدها : برد دمعها ؛ لأنه دليل السرور والضحك كما أن حره دليل الحزن والغم . والثانى : نومها ؛ لأنه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن . والثالث : حصول الرضا ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير ، وإنما قال : ﴿**إماما** ﴾ ، ولم يقل : أئمة ؛ لأنه أريد به الجنس ، كقوله :﴿ ثم نخرجكم طفلا ﴾ [الحج: ٥] قال الفراء: قال ﴿ **إماما** ﴾ ولم يقل : أئمة ؛ كما قال للاثنين: ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ [الشعراء : ١٦] يعنى : أنه من الواحد الذى أريد به الجمع . وقال الأخفش : الإمام جمع أم من أم يأم ، جمع على فعال ،نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام . وقيل : إن إماما مصدر ، يقال : أم فلان فلانا إماما ، مثل الصيام والقيام . وقيل : أرادوا : اجعل كل واحد منا إماما . وقيل : أرادوا : اجعلنا إماما واحدا لاتحاد كلمتنا ، وقيل: إنه من الكلام المقلوب ، وأن المعنى : واجعل المتقين لنا إماما ، وبه قال مجاهد . وقيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد ، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء : واجعلنى للمتقين إماما ، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله : ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ [المؤمنون : ٥١] وفى هذا إبقاء ﴿ **إماما** ﴾ على حاله، مثل ما فى الآية قول الشاعر :

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتى   إن العواذل لسن لى بأمين

أى أمناء . قال القفال : وعندى : أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل : اجعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة يقال : هؤلاء بينة فلان . قال النيسابورى : قيل : فى الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ويرغب فيها ، والأقرب أنهم سألوا الله أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار إليهم ويقتدى بهم . والإشارة بقوله :﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفات ،وهو مبتدأ وخبره ما بعده ، والجمل مستأنفة . وقيل : إن ﴿ **أولئك** ﴾ وما بعده خبر لقوله :﴿ **وعباد الرحمن** ﴾ كذا قال الزجاج ، والغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها ، وهى فى الأصل لكل بناء مرتفع ، والجمع غرف . وقال الضحاك : الغرفة : الجنة ، والباء فى ﴿ **بما صبروا** ﴾ سببية ، وما مصدرية ، أى يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف ﴿ **ويلقون فيها تحية وسلاما** ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « يلقون » بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، واختار هذه القراءة الفراء ، قال : لأن العرب تقول : فلان يلقى بالسلام والتحية والخير ، وقل ما يقولون : يلقى . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ [الإنسان :

١١] والمعنى : أنه يحيى بعضهم بعضا ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام . قيل : التحية : البقاء الدائم والملك العظيم . وقيل : هى بمعنى السلام . وقيل : إن الملائكة تحييهم وتسلم عليهم ، والظاهر أن هذه التحية والسلام هى من الله سبحانه لهم ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقيل: معنى التحية : الدعاء لهم بطول الحياة. ومعنى السلام : الدعاء لهم بالسلامة من الآفات ، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، أى مقيمين فيها من غير موت ﴿ **حسنت مستقرا ومقاما** ﴾ أى حسنت الغرفة مستقرا يستقرون فيه ، ومقاما يقيمون به ، وهذا فى مقابل ما تقدم من قوله : ﴿ **ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ .

﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم** ﴾ بين سبحانه أنه غنى عن طاعة الكل ، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف . يقال: ما عبأت بفلان ، أى ما باليت به ولا له عندى قدر . وأصل يعبأ من العبء ، وهو الثقل. قال الخليل: ما أعبأ بفلان ، أى ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ، ويدعى أن وجوده وعدمه سواء ، وكذا قال أبو عبيدة . قال الزجاج : ﴿ **ما يعبأ بكم ربى** ﴾ يريد : أى وزن يكون لكم عنده ؟ والعبء : الثقل ، وما استفهامية أو نافية ، وصرح الفراء بأنها استفهامية . قال ابن الشجرى : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب، والتقدير : أى عبء يعبأ بكم ؟ أى أى مبالاة يبالى بكم ؟ ﴿ **لولا دعاؤكم** ﴾ أى لولا دعاؤكم إياه لتعبدوه ، وعلى هذا فالمصدر الذى هو الدعاء مضاف إلى مفعوله ، وهو اختيار الفراء ، وفاعله محذوف ، وجواب لولا محذوف ، تقديره : لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم ، ويؤيد هذا قوله : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] والخطاب لجميع الناس ، ثم خص الكفار منهم فقال: ﴿ **فقد كذبتم** ﴾ وقرأ ابن الزبير : « فقد كذب الكافرون » وفى هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس . وقيل : إن المصدر مضاف إلى الفاعل ، أى لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد . وقيل : المعنى : ما يعبأ بكم أى بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه . وحكى ابن جنى أن ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير . وحكى الزهراوى والنحاس أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما ، وممن قال بأن الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبى والفارسى ، قالا: والأصل : لولا دعاؤكم آلهة من دونه ، وجواب لولا محذوف تقديره على هذا الوجه : لولا دعاؤكم لم يعذبكم ، ويكون معنى ﴿ **فقد كذبتم** ﴾ على الوجه الأول: فقد كذبتم بما دعيتم إليه ، وعلى الوجه الثانى : فقد كذبتم بالتوحيد . ثم قال سبحانه : ﴿ **فسوف يكون لزاما** ﴾ أى فسوف يكون جزاء التكذيب لازما لكم. وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا: ما لزم المشركين يوم بدر ، وقالت طائفة : هو عذاب الآخرة . قال أبو عبيدة : لزاما : فيصلا ، أى فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين . قال الزجاج : فسوف يكون تكذيبكم لزاما يلزمكم فلا تعطون التوبة ، وجمهور القراء على كسر اللام من لزاما ، وأنشد أبو عبيدة لصخر :

فإمــا ينجوا مـن خسـف أرض فقــد لقيا حتوفهمـا لــزامـــا

قال ابن جرير : ﴿ **لزاما** ﴾ : عذابا دائما وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض ، كقول أبى ذؤيب :

ففاجأه بعادية لزام كما يتفجر الحوض اللفيف

يعنى باللزام : الذى يتبع بعضه بعضا ، وباللفيف : المتساقط من الحجارة المنهدمة . وحكى أبو حاتم عن أبى زيد قال: سمعت أبا السماك يقرأ : « لزاما » بفتح اللام . قال أبو جعفر يكون مصدر لزم ، والكسر أولى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ [١] . وأخرجا وغيرهما أيضا عن ابن عباس ؛ أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ **والذين لا يدعون** ﴾ الآية ، ونزلت : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] [٢]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو فى قوله : ﴿ **يلق أثاما** ﴾ قال : واد فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ،اشتد ذلك على المسلمين ، فقالوا : ما منا أحد إلا أشرك وقتل وزنى ، فأنزل الله : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية ، يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا فى الشرك، ثم نزلت هذه الآية : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ فأبدلهم الله بالكفر الإسلام ، وبالمعصية الطاعة ، وبالإنكار المعرفة ، وبالجهالة العلم . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين : ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما** ﴾ ثم نزلت : ﴿ **إلا من تاب وآمن** ﴾ فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشىء قط فرحه بها، وفرحه بـ ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ [٣] [الفتح : ١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان

---

(١) أحمد ١/ ٣٨٠ والبخارى فى التفسير (٤٧٦١) ومسلم فى الإيمان (٨٦/ ١٤٢) وأبو داود فى الطلاق (٢٣١٠) والترمذى فى التفسير (٣١٨٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٧/ ٨٩، ٩٠ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨١٠) ومسلم فى الإيمان (١٢٢/ ١٩٣) والنسائى فى التفسير (٤٦٩) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧ : « رواه الطبرانى وفيه على بن زيد ، ويوسف بن مهران وقد وثقا ، وفيهما ضعف ، وبقية رجاله ثقات »

السيئات الحسنات . وأخرج أحمد وهناد والترمذى وابن جرير والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا ، وهو يقر ، ليس ينكر ، وهو مشفق من الكبائر أن تجىء ، فيقال : أعطوه بكل سيئة عملها حسنة»(١) . والأحاديث فى تكفير السيئات وتبديلها بالحسنات كثيرة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ قال : إن الزور كان صنما بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مروا به مروا كراما لا ينظرون إليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ قال : يعنون من يعمل بالطاعة فتقر به أعيننا فى الدنيا والآخرة ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ قال : أئمة هدى يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة ؛ لأنه قال لأهل السعادة : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء : ٧٣] ولأهل الشقاوة : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص : ٤١] .

وأخرج الحكيم الترمذى عن سهل بن سعد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة** ﴾ قال : الغرفة من ياقوتة حمراء ، أو زبرجدة خضراء ، أو درة بيضاء . ليس فيها فصم ولا وصم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم** ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، فأخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ﴿ **فسوف يكون لزاما** ﴾ قال : موتا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى عنه أنه كان يقرأ : « فقد كذب الكافرون ، فسوف يكون لزاما » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه [عن ابن مسعود] (٢) فى قوله : ﴿ **فسوف يكون لزاما** ﴾ قال: القتل يوم بدر ، وفى الصحيحين عنه قال : خمس قد مضين : الدخان والقمر واللزوم والبطشة واللزام (٣) .

---

(١) أحمد ٥/ ١٥٧ ومسلم فى الإيمان (١٩٠/ ٣١٤) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ١٩/ ٣٠.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من الدر المنثور ٥/ ٨٢ وابن جرير ١٩/ ٣٦ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٧٦٧) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨/ ٤١) .

تفسير سورة الشعراء

وآياتها مائتان وسبع وعشرون آية . وهى مكية عند الجمهور . وكذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : سورة الشعراء أنزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة، وهى ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ إلى آخرها . وأخرج القرطبى فى تفسيره عن البراء أن النبى ﷺ قال :« إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطانى المئين مكان الإنجيل ، وأعطانى الطواسين مكان الزبور ، وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى » (١) . وأخرج أيضا عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : «أعطيت السورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الأول ، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة » (٢) . قال ابن كثير فى تفسيره: ووقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها بسورة الجمعة (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ
الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي
وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلاَّ
فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ
لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(١ ، ٢) القرطبى ٧ / ٤٨٠٣ . (٣) ابن كثير ٥ / ١٧٥ .

قوله : ﴿ **طسم** ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائى وخلف بإمالة الطاء . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهرى بين اللفظين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقون بالفتح مشبعا . وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائى بإدغام النون من « طسن » فى الميم ، وقرأ الأعمش وحمزة بإظهارها . قال الثعلبى : الإدغام اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . قال النحاس : وحكى الزجاج فى كتابه: « فيما يجرى وما لا يجرى » أنه يجوز أن يقال : « طاسين ميم » بفتح النون وضم الميم كما يقال : هذا معدى كرب. وقرأ عيسى ويروى عن نافع بكسر الميم على البناء . وفى مصحف عبد الله بن مسعود : « ط س م » هكذا حروفا مقطعة فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر . ومحله الرفع على الابتداء إن كان اسما للسورة كما ذهب إليه الأكثر أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون فى محل نصب بتقدير : اذكر أو اقرأ . وأما إذا كان مسرودا على نمط التعديد كما تقدّم فى غير موضع من هذا التفسير فلا محلّ له من الإعراب . وقد قيل : إنه اسم من أسماء الله سبحانه ، وقيل : اسم من أسماء القرآن . والإشارة بقوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ إلى السورة ، ومحلها الرفع على أنها وما بعدها خبر للمبتدأ إن جعلنا ﴿ **طسم** ﴾ مبتدأ ، وإن جعلناه خبرا لمبتدأ محذوف فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ﴿ **طسم** ﴾ والمراد بالكتاب هنا : القرآن. والمبين : المبين المظهر ، أو البين الظاهر إن كان من أبان بمعنى بان .

﴿ **لعلك باخع نفسك** ﴾ أى قاتل نفسك ومهلكها ﴿ **أن لا يكونوا مؤمنين** ﴾ أى لعدم إيمانهم بما جئت به ، والبخع فى الأصل : أن يبلغ بالذبح النخاع بالنون : قاموس ، وهو عرق فى القفا ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة الكهف، وقرأ قتادة : « باخع نفسك » بالإضافة . قرأ الباقون بالقطع . قال الفراء : « أن » فى قوله : ﴿ **أن لا يكونوا مؤمنين** ﴾ فى موضع نصب لأنها جزاء . قال النحاس : وإنما يقال : « إن » مكسورة لأنها جزء هكذا التعارف والقول فى هذا ما قاله الزجاج فى كتابه فى القرآن : إنها فى موضع نصب مفعول لأجله ، والمعنى : لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ لأنه كان حريصا على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم . وجملة : ﴿ **إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية** ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية ، والمعنى : إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان ، ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك ، ومعنى ﴿ **فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ : أنهم صاروا منقادين لها، أى فتظلّ أعناقهم إلخ . قيل : وأصله : فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير ؛ لأن الأعناق موضع الخضوع . وقيل : إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ووصفت بما يوصفون به . قال عيسى ابن عمر : خاضعين وخاضعة هنا سواء ،واختاره المبرد ، والمعنى: أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا ، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها ، ويسوغ فى كلام العرب أن يترك الخبر عن الأوّل

ويخبر عن الثانى ، ومنه قول الراجز :

طول الليالى أسرعت فى نقضى طوين طولى وطوين عرضى

فأخبر عن الليالى وترك الطول ، ومنه قول جرير :

أرى مـرّ السنين أخـذن مـنى كما أخذ السرار من الهلال

وقال أبو عبيد والكسائى : إن المعنى : خاضعيها هم ، وضعفه النحاس . وقال مجاهد : أعناقهم : كبراؤهم . قال النحاس : وهذا معروف فى اللغة ، يقال : جاءنى عنق من الناس ، أى رؤساء منهم . وقال أبو زيد والأخفش : أعناقهم : جماعاتهم ، يقال : جاءنى عنق من الناس ، أى جماعة .

﴿ **وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين** ﴾ بين سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان، يأتيهم بالقرآن حالا بعد حال ، وأن لا يجدّد لهم موعظة وتذكيرا إلا جددوا ما هو نقيض المقصود ، وهو الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، و«من» فى : ﴿ **من ذكر** ﴾ مزيدة لتأكيد العموم ، و« من » فى ﴿ **من ربهم** ﴾ لابتداء الغاية ، والاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم ، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة الأنبياء ﴿ **فقد كذّبوا** ﴾ أى بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا ولم يكتفوا بمجرّد الإعراض . وقيل : إن الإعراض بمعنى : التكذيب ؛ لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله فقد كذّبه ، وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح ، والأوّل أولى ، فالإعراض عن الشيء : عدم الالتفات إليه . ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه ، وهو التصريح بالتكذيب ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه ، وهو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله : ﴿ **فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون** ﴾ والأنباء هى : ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلا . وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن ، وقال : ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ ولم يقل : ما كانوا عنه معرضين ، أو ما كانوا به يكذّبون ؛ لأن الاستهزاء أشدّ منهما ومستلزم لهما ، وفى هذا وعيد شديد ، وقد مرّ تفسير مثل هذا فى سورة الأنعام .

ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية التى يحصل بها للمتأمل فيها والناظر إليها والمستدلّ بها أعظم دليل وأوضح برهان ، فقال : ﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم** ﴾ الهمزة للتوبيخ ، والواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره ، فنبه سبحانه على عظمته وقدرته ، وأن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذى يستحق أن يعبد ، والمراد بالزوج هنا: الصنف . وقال الفراء : هو اللون . وقال الزجاج : معنى زوج : نوع ، وكريم : محمود ، والمعنى : من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلا ربّ العالمين ، والكريم فى الأصل : الحسن الشريف ، يقال : نخلة كريمة أى كثيرة

الثمرة ، ورجل كريم : شريف فاضل ، وكتاب كريم : إذا كان مرضيا فى معانيه ، والنبات الكريم : هو المرضى فى منافعه . قال الشعبى : الناس مثل نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار منهم إلى النار فهو لئيم ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ إلى المذكور قبله ، أى إن فيما ذكر من الإنبات فى الأرض لدلالة بينة ، وعلامة واضحة على كمال قدرة اللّه سبحانه ، وبديع صنعته ، ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده وتكذيبه واستهزائه فقال : ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أى سبق علمى فيهم أنهم سيكونون هكذا . وقال سيبويه : إن ﴿ **كان** ﴾ هنا صلة ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع كونه كثير الرحمة ، ولذلك أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ، أو المعنى : أنه منتقم من أعدائه ، رحيم بأوليائه .

وجملة :﴿ **وإذ نادى ربك موسى** ﴾ إلخ مستأنفة مسوقة لتقريرما قبلها من الإعراض والتكذيب والاستهزاء، والعامل فى الظرف محذوف تقديره : واتل إذ نادى أو اذكر ، والنداء : الدعاء ، و« أن » فى قوله : ﴿ **أن ائت القوم الظالمين** ﴾ يجوز أن تكون مفسرة ، وأن تكون مصدرية ، ووصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر الذى ظلموا به أنفسهم وبين المعاصى التى ظلموا بها غيرهم كاستعباد بنى إسرائيل ، وذبح أبنائهم . وانتصاب ﴿ **قوم فرعون** ﴾ على أنه بدل ، أو عطف بيان من القوم الظالمين ، ومعنى ﴿ **ألا يتقون** ﴾ : ألا يخافون عقاب اللّه سبحانه فيصرفون عن أنفسهم عقوبة اللّه بطاعته . وقيل : المعنى : قل لهم ألا تتقون ؟ وجاء بالياء التحتية لأنهم غيب وقت الخطاب ، وقرأ عبيد بن عمير وأبو حازم: « ألا تتقون » بالفوقية أى قل لهم ذلك ، ومثله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : ١٢] بالتحتية والفوقية.

﴿ **قال ربّ إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ أى قال موسى هذه المقالة ، والمعنى : أخاف أن يكذبونى فى الرسالة ﴿**ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى** ﴾ معطوفان على ﴿ **أخاف** ﴾ أى يضيق صدرى لتكذيبهم إياى ، ولا ينطلق لسانى بتأدية الرسالة ، قرأ الجمهور برفع ﴿ **يضيق** ﴾ ، ﴿**لا ينطلق** ﴾ بالعطف على ﴿ **أخاف** ﴾ كما ذكرنا ، أو على الاستئناف، وقرأ يعقوب وعيسى ابن عمر وأبو حيوة بنصبهما عطفا على ﴿ **يكذبون** ﴾ . قال الفراء : كلا القراءتين له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على ﴿ **يكذبون** ﴾ وهذا بعيد ﴿ **فأرسل إلى هارون** ﴾ أى أرسل إليه جبريل بالوحى ليكون معى رسولا موازرا مظاهرا معاونا ، ولم يذكر الموازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا الموضع ، كقوله فى طه: ﴿ واجعل لى وزيرا ﴾ [طه: ٢٩] وفى القصص: ﴿ أرسله معى ردءا يصدقنى ﴾ [القصص : ٣٤] ، وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه ، لا من باب الاستعفاء من الرسالة ، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال. ﴿ **ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون** ﴾ الذنب هو قتله للقبطى ، وسماه ذنبا بحسب زعمهم ، فخاف موسى أن يقتلوه به . وفيه دليل على أن الخوف

قد يحصل مع الأنبياء فضلا عن الفضلاء .

ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع وطرف من الزجر ﴿ **قال كلا فاذهبا بآياتنا**﴾ وفى ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال : ارتدع يا موسى عن ذلك واذهب أنت ومن استدعيته ولا تخف من القبط ﴿ **إنا معكم مستمعون** ﴾ وفى هذا تعليل للردع عن الخوف ، وهو كقوله سبحانه : ﴿إننى معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٦] وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وأنه متولّ لحفظهما وكلاءتهما وأجراهما مجرى الجمع ، فقال : ﴿ **معكم** ﴾ لكون الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة ، أو لكونه أراد موسى وهارون ومن أرسلا إليه ، ويجوز أن يكون المراد : هما مع بنى إسرائيل ، و﴿ **معكم** ﴾ و﴿ **مستمعون** ﴾ خبران لأنّ ، أو الخبر﴿ **مستمعون** ﴾ ، و﴿ **معكم** ﴾ متعلق به ،ولا يخفى ما فى المعية من المجاز ؛ لأن المصاحبة من صفات الأجسام ، فالمراد : معية النصرة والمعونة ﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ووحد الرسول هنا ولم يثنه كما فى قوله : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ [طه:٤٧] لأنه مصدر بمعنى رسالة ، والمصدر يوحد ، وأما إذا كان بمعنى المرسل فإنه يثنى مع المثنى ويجمع مع الجمع . قال أبو عبيدة: رسول بمعنى : رسالة ، والتقدير على هذا : إنا ذوا رسالة ربّ العالمين ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ أبا عمرو رسولا بأنى عن فتاحتكم غنى

أى رسالة . وقال العباس بن مرداس :

ألا من مبلغ عنى خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها

أى رسالة . قال أبو عبيدة أيضا : ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع ، تقول العرب : هذا رسولى ووكيلى ، وهذان رسولى ووكيلى ، وهؤلاء رسولى ووكيلى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنهم عدوّ لى ﴾ [الشعراء : ٧٧] وقيل : معناه : إن كل واحد منا رسول ربّ العالمين ، وقيل : إنهما لما كانا متعاضدين متساندين فى الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد ، و«أن » فى قوله : ﴿ **أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول ، معنى القول ﴿ **قال ألم نربك فينا وليدا** ﴾ أى قال فرعون لموسى بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما اللّه به ، ومعنى ﴿ **فينا** ﴾ : أى فى حجرنا ومنازلنا، أراد بذلك المنّ عليه والاحتقار له أى ربيناك لدينا صغيرا ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال .﴿ **ولبثت فينا من عمرك سنين** ﴾ فمتى كان هذا الذى تدّعيه ؟ قيل : لبث فيهم ثمانى عشرة سنة . وقيل : ثلاثين سنة . وقيل : أربعين سنة . ثم قرّره [١] بقتل القبطى فقال :﴿ **وفعلت فعلتك التى فعلت** ﴾ الفعلة بفتح الفاء :

(١) فى المخطوطة : « قرر » والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ٧ / ٤٨١٠ . ط : دار الشعب .

المرّة من الفعل ، وقرأ الشعبى : « فعلتك » بكسر الفاء ، والفتح أولى ؛ لأنها للمرّة الواحدة لا للنوع ، والمعنى : أنه لما عدّد عليه النعم ذكر له ذنوبه، وأراد بالفعل : قتل القبطى ، ثم قال :﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أى من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلا من أصحابى. وقيل : المعنى : من الكافرين بأن فرعون إله ، وقيل : من الكافرين بالله فى زعمه لأنه كان معهم على دينهم ، والجملة فى محل نصب على الحال .

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين ﴾ أى قال موسى مجيبا لفرعون : فعلت هذه الفعلة التى ذكرت ، وهى قتل القبطى وأنا إذ ذاك من الضالين ، أى الجاهلين ، فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذى علمه الله . وقيل : المعنى : من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل . وقال أبو عبيدة : من الناسين ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ أى خرجت من بينكم إلى مدين كما فى سورة القصص ﴿ فوهب لى ربى حكما ﴾ أى نبوّة أو علما وفهما. وقال الزّجاج : المراد بالحكم :تعليمه التوراة التى فيها حكم الله ﴿ وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ قيل : هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة كأنه قال : نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها علىّ ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى ، وبهذا قال الفراء وابن جرير . وقيل : هو من موسى على جهة الإنكار ، أى أتمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم وهم قومى ؟ قال الزجاج : المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار بأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى ، واللفظ لفظ خبر ، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى : أنك لو كنت لا تقتل أبناء بنى إسرائيل لكانت أمى مستغنية عن قذفى فى اليم ، فكأنك تمنّ علىّ ما كان بلاؤك سببا له ، وذكر نحوه الأزهرى بأبسط منه . وقال المبرد :يقول : التربية كانت بالسبب الذى ذكرت من التعبيد، أى تربيتك إياى كانت لأجل التملك والقهر لقومى. وقيل : إن فى الكلام تقدير الاستفهام ، أى أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش ، وأنكره النحاس . قال الفراء : ومن قال : إن الكلام إنكار ، قال معناه : أو تلك نعمة ؟ ومعنى ﴿ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ : أن اتخذتهم عبيدا، يقال : عبدته وأعبدته بمعنى. كذا قال الفراء ، ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة ، والجر بإضمار الباء ، والنصب بحذفها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ قال : ذليلين . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ ولهم علىّ ذنب ﴾ قال : قتل النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ قال : للنعمة ، وإن فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر؟ وفى قوله : ﴿فعلتها إذن وأنا من الضالين ﴾ قال : من الجاهلين . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ قال : قهرتهم واستعملتهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

لما سمع فرعون قول موسى وهارون : ﴿ **إنا رسول ربّ العالمين** ﴾ قال مستفسرا لهما عن ذلك عازما على الاعتراض لـما قالاه فقال : ﴿ **وما ربّ العالمين** ﴾ أى شىء هو ؟ جاء فى الاستفهام بما التى يستفهم بها عن المجهول ويطلب بها تعيين الجنس ، فلما قال فرعون ذلك ، قال موسى :﴿ **ربّ السموات والأرض وما بينهما** ﴾ فعين له ما أراد بالعالمين ، وترك جواب ما سأل عنه فرعون ؛ لأنه سأل عن جنس ربّ العالمين ولا جنس له ، فأجابه موسى بما يدلّ على عظيم القدرة الإلهية التى تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ ولا ربّ غيره ﴿ **إن كنتم موقنين** ﴾ أى إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان .﴿ **قال** ﴾ فرعون ﴿ **لمن حوله ألا تستمعون** ﴾ أى لمن حوله من الأشراف ألا تستمعون ما قاله ؟ يعنى موسى معجبا لهم من ضعف المقالة كأنه قال : أتسمعون وتعجبون ؟ وهذا من اللعين مغالطة ، لما لم يجد جوابا عن

الحجة التى أوردها عليه موسى .

فلما سمع موسى ما قال فرعون ، أورد عليه حجة أخرى هى مندرجة تحت الحجة الأولى ولكنها أقرب إلى فهم السامعين له ، فقال : ﴿ **ربكم وربّ آبائكم الأوّلين** ﴾ فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا ربّ كما يدعيه ، والمعنى : أن هذا الربّ الذى أدعوكم إليه هو الذى خلق آباءكم الأوّلين وخلقكم ، فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلوق كخلقكم وله آباء قد فنوا كآبائكم ؟ فلم يجبه فرعون عند ذلك بشىء يعتدّ به ، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل إليهم أن هذا الذى قاله موسى مما لا يقوله العقلاء ، فقال : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ قاصدا بذلك المغالطة وإيقاعهم فى الحيرة ، مظهرا أنه مستخفّ بما قاله موسى مستهزئ به ، فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأوّل، فقال: ﴿ **ربّ المشرق والمغرب وما بينهما** ﴾ ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون ، بل بين لفرعون شمول ربوبية اللّه سبحانه للمشرق والمغرب وما بينهما وإن كان ذلك داخلا تحت ربوبيته سبحانه للسموات والأرض وما بينهما ، لكن فيه تصريح بإسناد حركات السموات وما فيها ، وتغيير أحوالها وأوضاعها ، تارة بالنور وتارة بالظلمة إلى اللّه سبحانه ، وتثنية الضمير فى : ﴿ **وما بينهما** ﴾ الأوّل لجنسى السموات والأرض كما فى قول الشاعر :

تنقلت فى أشرف التنقل ... بين رماحى مالك ونهشل

﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ أى شيئا من الأشياء ، أو إن كنتم من أهل العقل ، أى إن كنت يا فرعون ومن معك من العقلاء عرفت وعرفوا أنه لاجواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك . ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب ، فقال: ﴿ **لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ أى لأجعلنك من أهل السجن ، وكان سجن فرعون أشدّ من القتل ؛ لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت ، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعا فى إجابته وإرخاء لعنان المناظرة معه، مريدا لقهره بالحجة المعتبرة فى باب النبوة ، وهى إظهار المعجزة، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة فقال : ﴿ **أو لو جئتك بشىء مبين** ﴾ أى أتجعلنى من المسجونين ولو جئتك بشىء يتبين به صدقى ويظهر عنده صحة دعواى ؟ والهمزة هنا للاستفهام ، والواو للعطف على مقدّر كما مرّ مرارا ، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى فقال : ﴿ **فأت به إن كنت من الصادقين** ﴾ فى دعواك ، وهذا الشرط جوابه محذوف ؛ لأنه قد تقدّم ما يدل عليه فعند ذلك أبرز موسى المعجزة .

﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى سورة الأعراف . واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فى الأرض فانثعب ، أى فجرته فانفجر ، وقد عبر سبحانه فى موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله : ﴿ فإذا هى حية تسعى ﴾ [طه : ٢٠] وفى موضع بالجانّ ، فقال : ﴿ كأنها جان ﴾ [النمل : ١٠] والجانّ هو المائل إلى الصغر. والثعبان هو المائل إلى الكبر ، والحية جنس يشمل الكبير والصغير . ومعنى ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ : ما رأيكم

فيه وما مشورتكم فى مثله ؟ فأظهر لهم الميل إلى مايقولونه تألفا لهم واستجلابا لمودّتهم ، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال ، وقارب ما كان يغرّر به عليهم الاضمحلال، وإلا فهو أكبر تيها وأعظم كبرا من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم وواحد منهم ، مع كونه قبل هذا الوقت يدّعى أنه إلههم ويذعنون له بذلك ويصدّقونه فى دعواه، ومعنى ﴿ **أرجه وأخاه** ﴾ : أخر أمرهما ، من أرجأته . وقيل : المعنى: احبسهما ﴿ **وابعث فى المدائن حاشرين** ﴾ وهم الشرط الذين يحشرون الناس ، أى يجمعونهم ﴿ **يأتوك بكل سحار عليم** ﴾ هذا ما أشاروا به عليه ، والمراد بالسحار العليم : الفائق فى معرفة السحر وصنعته .

﴿ **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم** ﴾ هو يوم الزينة كما فى قوله : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ [طه : ٥٩] ﴿ **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾ حثا لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وطلبا أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده ؛ لأنه يعلم أن حجة اللّه هى البالغة ، وحجة الكافرين هى الداحضة ، وفى ظهور حجة اللّه بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين ، والانقهار للمبطلين . ومعنى ﴿ **لعلنا نتبع السحرة** ﴾ : نتبعهم فى دينهم ﴿ **إن كانوا هم الغالبين** ﴾ والمراد باتباع السحرة فى دينهم هو : البقاء على ما كانوا عليه ؛ لأنه دين السحرة إذ ذاك ،والمقصود: المخالفة لما دعاهم إليه موسى ، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه ، فقالوا لفرعون:﴿ **أئن لنا لأجرا** ﴾ أى لجزاء تجزينا به من مال أو جاه . وقيل : أرادوا : إن لنا ثوابا عظيما ، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى ، فقالوا : ﴿ **إن كنا نحن الغالبين** ﴾ فوافقهم فرعون على ذلك ، قال : ﴿**نعم وإنكم إذن لمن المقرّبين** ﴾ أى نعم لكم ذلك عندى مع زيادة عليه ، وهى كونكم من المقرّبين لدى .

﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ وفى آية أخرى : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين﴾ [الأعراف : ١١٥] فيحمل ما هنا على أنه قال لهم : ألقوا بعد أن قالوا هذا القول ، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمرا لهم بفعل السحر ، بل أراد أن يقهرهم بالحجة ويظهر لهم أن الذى جاء به ليس هو من الجنس الذى أرادوا معارضته به ﴿**فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا** ﴾ عند الإلقاء ﴿ **بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ يحتمل قولهم: ﴿**بعزّة فرعون** ﴾ وجهين : الأوّل: أنه قسم ، وجوابه إنا لنحن الغالبون ، والثانى: متعلق بمحذوف ، والباء للسببية ، أى نغلب بسبب عزته ، والمراد بالعزّة : العظمة ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا مستوفى . والمعنى : أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك بإخراج الشىء عن صورته الحقيقية ﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ أى لما شاهدوا ذلك وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر ولا من تمويه السحرة ، آمنوا باللّه

وسجدوا له وأجابوا دعوة موسى وقبلوا نبوّته ، وقد تقدّم بيان معنى ﴿ **ألقى** ﴾ ، ومن فاعله لوقوع التصريح به، وعند سجودهم ﴿ **قالوا آمنا بربّ العالمين . ربّ موسى وهارون** ﴾ ربّ موسى عطف بيان لربّ العالمين ، وأضافوه سبحانه إليهما لأنهما القائمان بالدعوة فى تلك الحال . وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس بربّ ، وأن الربّ فى الحقيقة هو هذا .

فلما سمع فرعون ذلك منهم ورأى سجودهم للّه قال : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ أى بغير إذن منى ، ثم قال مغالطا للسحرة الذين آمنوا ، وموهما للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر : ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشىء يرتفع به شأن موسى ؛ لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة ، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذى شاهدتم وإن كان قد فاق على مافعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ومن هو أستاذهم الذى أخذوا عنه هذه الصناعة ، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر ، وأنه من فعل الربّ الذى يدعو إليه موسى . ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا باللّه لما قهرتهم حجة اللّه ، فقال : ﴿ **فلسوف تعلمون** ﴾ أجمل التهديد أوّلا للتهويل ، ثم فصله فقال : ﴿ **لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ فلما سمعوا ذلك من قوله قالوا : ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ أى لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا ؛ فإن ذلك يزول وننقلب بعده إلى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم ما لايحدّ ولا يوصف . قال الهروى : لا ضير ولا ضرر ولا ضر بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة :

فإنك لا يضرك بعد حول ... أظبى كان أمك أم حمار

قال الجوهرى : ضاره يضوره ويضيره ضيرا وضورا أى ضرّه . قال الكسائى : سمعت بعضهم يقول : لا ينفعنى ذلك ولا يضورنى . ﴿ **إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا** ﴾ ثم عللوا هذا بقولهم : ﴿ **أن كنا أوّل المؤمنين** ﴾ بنصب أن أى لأن كنا أوّل المؤمنين . وأجاز الفراء والكسائى كسرها على أن يكون مجازاة ، ومعنى ﴿ **أوّل المؤمنين** ﴾ : أنهم أوّل من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية . وقال الفراء : أول مؤمنى زمانهم ، وأنكره الزجاج، وقال : قد روى أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفا ، وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون** ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ يقول : مبين : له خلق حية ﴿ **ونزع يده** ﴾ يقول: وأخرج موسى يده من جيبه ﴿ **فإذا هى بيضاء** ﴾ تلمع ﴿ **للناظرين** ﴾ : لمن ينظر إليها ويراها . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿**وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾ قال : كانوا بالإسكندرية . قال : ويقال : بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ . قال : وهربوا وأسلموا فرعون وهمت به فقال : خذها يا موسى، وكان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئا أى يوهمهم أنه لا يحدث فأحدث

يومئذ تحته . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ **لا ضير** ﴾ قال : يقولون : لا يضيرنا الذى تقول وإن صنعت بنا وصلبتنا ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ يقولون : إنا إلى ربنا راجعون وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا وثباتنا على توحيده والبراءة من الكفر، وفى قوله: ﴿ **أن كنا أوّل المؤمنين** ﴾ قالوا : كانوا كذلك يومئذ أوّل من آمن بآياته حين رأوها .

﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)** ﴾.

قوله : ﴿ **أن أسر بعبادى** ﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا ، وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به ، وقد تقدّم تفسير مثل هذا فى سورة الأعراف ، وجملة: ﴿ **إنكم متبعون** ﴾ تعليل للأمر المتقدّم ، أى يتبعكم فرعون وقومه ليردّوكم، و﴿ **فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين** ﴾ وذلك حين بلغه مسيرهم، والمراد بالحاشرين : الجامعون للجيش من الأمكنة التى فيها أتباع فرعون ، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون** ﴾ يريد : بنى إسرائيل . والشرذمة : الجمع الحقير القليل ، والجمع شراذم . قال الجوهرى : الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشىء ، وثوب شراذم أى قطع، ومنه قول الشاعر :

جاء الشتاء وقميصى أخلاق شراذم يضحك منها الخلاق

قال الفراء : يقال : عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون . قال المبرّد : الشرذمة : القطعة من الناس غير الكثير،وجمعها الشراذم . قال الواحدى : قال المفسرون : وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿ **وإنهم لنا لغائظون** ﴾ يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيظ : الغضب ، ومنه التغيظ والاغتياظ، أى غاظونا بخروجهم من غير إذن منى ﴿ **وإنا لجميع حاذرون** ﴾ قرئ : ﴿ **حذرون** ﴾ و ﴿ **حاذرون** ﴾ و« حذرون » بضم الذال، حكى ذلك الأخفش . قال الفراء : الحاذر : الذى يحذرك الآن ، والحذر : المخلوق

كذلك لا تلقاه إلا حذرا . وقال الزجاج: الحاذر : المستعد ، والحذر : المتيقظ ، وبه قال الكسائى ومحمد بن يزيد. قال النحاس: ﴿**حذرون**﴾ قراءة المدنيين وأبى عمرو ، و﴿ **حاذرون** ﴾ قراءة أهل الكوفة . قال : وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى حذرون وحاذرون واحد وهو قول سيبويه، وأنشد سيبويه :

حذر أموراً لا تضير وحاذر مااليس ينجيه من الأقدار

﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم** ﴾ يعنى فرعون وقومه أخرجهم الله من أرض مصر وفيها الجنات والعيون والكنوز ، وهى جمع جنة وعين وكنز ، والمراد بالكنوز : الخزائن . وقيل : الدفائن . وقيل : الأنهار ، وفيه نظر لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين: عيون الماء فيدخل تحتها الأنهار. واختلف فى المقام الكريم ، فقيل : المنازل الحسان . وقيل : المنابر . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء . وقيل : مرابط الخيل . والأوّل أظهر ، ومن ذلك قول الشاعر :

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل

﴿ **كذلك وأورثناها بنى إسرائيل** ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ **كذلك** ﴾ فى محل نصب ، أى أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذى وصفنا ، ويحتمل أن يكون فى محل جرّ على الوصفية ، أى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم ، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر كذلك . ومعنى ﴿ **وأورثناها بنى إسرائيل** ﴾ : جعلناها ملكا لهم، وهو معطوف على ﴿ **فأخرجناهم** ﴾ ﴿ **فأتبعوهم مشرقين** ﴾ قراءة الجمهور بقطع الهمزة ، وقرأ الحسن والحارث الديناري بوصلها وتشديد التاء ، أى فلحقوهم حال كونهم مشرقين ، أى داخلين فى وقت الشروق . يقال: شرقت الشمس شروقا إذا طلعت كأصبح وأمسى أى دخل فى هذين الوقتين . وقيل: داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم . وقيل: معنى ﴿ **مشرقين** ﴾: مضيئين. قال الزجاج : يقال : شرقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت : إذا أضاءت .

﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **تراءى** ﴾ بتخفيف الهمزة ، وقرأ ابن وثاب والأعمش من غير همز، والمعنى: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ،وهو تفاعل من الرؤية، وقرئ : « تراءت الفئتان » ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون** ﴾ أى سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم . قرأ الجمهور : ﴿ **إنا لمدركون** ﴾ اسم مفعول من أدرك، ومنه ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ [يونس : ٩٠] . وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير بفتح الدال مشددة وكسر الراء. قال الفراء : هما بمعنى واحد . قال النحاس : ليس كذلك يقول النحويون الحذاق ، إنما يقولون: مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون فى لحاقهم . قال : وهذا معنى قول سيبويه . وقال الزمخشرى : إن معنى هذه القراءة : إنا لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد (١) .

---

(١) الكشاف ٣/٣١٦ .

﴿ قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ قال موسى هذه المقالة زجرا لهم وردعا ، والمعنى : أنهم لا يدركونكم، وذكرهم وعد الله بالهداية والظفر ، والمعنى : إن معى ربى بالنصر والهداية سيهدين ، أى يدلنى على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به ، أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وذلك قوله : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ﴾ لما قال موسى : ﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ بين الله سبحانه له طريق الهداية فأمره بضرب البحر ، وبه نجا بنو إسرائيل وهلك عدوّهم ، والفاء فى ﴿ فانفلق ﴾ فصيحة ، أى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فلقا بعدد الأسباط ، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم ، وهو معنى قوله : ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ والفرق : القطعة من البحر ، وقرئ: « فلق » بلام بدل الراء . والطود : الجبل، قال امرؤ القيس :

فبينا المرء فى الأحياء طود رماه الناس عن كثب فمالا

وقال الأسود بن يعفر :

حلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد

﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أى قرّبناهم إلى البحر : يعنى فرعون وقومه . قال الشاعر :

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

قال أبو عبيدة : ﴿ أزلفنا ﴾ : جمعنا ، ومنه قيل لليلة المزدلفة : ليلة جمع ، و « ثم » ظرف مكان للبعيد . وقيل : إن المعنى : ﴿ وأزلفنا ﴾ : قربنا من النجاة . والمراد بالآخرين : موسى وأصحابه ، والأول أولى ، وقرأ الحسن وأبو حيوة : «وزلفنا » ثلاثيا ، وقرأ أبى وابن عباس وعبد الله بن الحارث: « وأزلقنا » بالقاف أى أزللنا وأهلكنا من قولهم: أزلقت الفرس : إذا ألقت ولدها . ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ بمرورهم فى البحر بعد أن جعله الله طرقا يمشون فيها ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ يعنى فرعون وقومه أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه . والإشارة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية ، ففى ذلك آية عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين ، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقيل وابنته ، وآسية امرأة فرعون ، والعجوز التى دلت على قبر يوسف ، وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى فإنهم هلكوا فى البحر جميعا بل المراد: من كان معه من الأصل ومن كان متابعا له ومنتسبا إليه ، هذا غاية ما يمكن أن يقال. وقال سيبويه وغيره: إن « كان » زائدة، وأن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة . ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ قال : ستمائة ألف وسبعون ألفا [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانوا ستمائة ألف . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثنى عشر سبطا ، فكان فى كل طريق اثنا عشر ألفا كلهم ولد يعقوب » . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا بسند . قال السيوطى: واه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فرعون عدوّ الله حيث أغرقه الله هو وأصحابه فى سبعين قائدا مع كل قائد سبعون ألفا، وكان موسى مع سبعين ألفا حيث عبروا البحر » . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : كان طلائع فرعون الذين بعثهم فى أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم . وأقول : هذه الروايات المضطربة قد روى عن كثير من السلف ما يماثلها فى الاضطراب والاختلاف ، ولا يصح منها شىء عن النبى ﷺ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ومقام كريم ﴾ قال : المنابر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ كالطود ﴾ قال : كالجبل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وأزلفنا ﴾ قال : قربنا . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبنى إسرائيل: ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل : إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : أيكم يدرى أين قبره ؟ فقالوا : ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبنى إسرائيل ، فأرسل إليها موسى فقال: دلينا على قبر يوسف ؟ فقالت: لا والله حتى تعطينى حكمى ، قال : وما حكمك ؟ قالت : أن أكون معك فى الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له : أعطها حكمها ، فأعطاها حكمها ، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء ، فقالت لهم : انضبوا عنها الماء ففعلوا ، قالت : احفروا فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار » [(٢)] .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن

(١) ابن جرير ١٩/ ٤٧ .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٠٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ معطوف على العامل فى قوله : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى** ﴾ وقد تقدّم . والمراد بنبأ إبراهيم: خبره ، أى اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم وحديثه ، و ﴿ **إذ قال** ﴾ منصوب بنبأ إبراهيم ، أى وقت قوله : ﴿ **لأبيه وقومه ما تعبدون** ﴾ . وقيل : « إذ » بدل من نبأ بدل اشتمال ، فيكون العامل فيه : اتل ، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **ما تعبدون** ﴾ : أيّ شيء تعبدون ؟ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام ، ولكنه أراد إلزامهم الحجة ﴿ **قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين** ﴾ أى فنقيم على عبادتها مستمرا لا فى وقت معين ، يقال : ظل يفعل كذا : إذا فعله نهارا ، وبات يفعل كذا إذا فعله ليلا ، فظاهره أنهم يستمرون على عبادتها نهارا لا ليلا ، والمراد من العكوف لها : الإقامة على عبادتها . وإنما قال : ﴿**لها**﴾ لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها ، فلما قالوا هذه المقالة قال إبراهيم منبها على فساد مذهبهم : ﴿ **هل يسمعونكم إذ تدعون** ﴾ قال الأخفش: فيه حذف،والمعنى: هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؟ وقرأ قتادة : « هل يسمعونكم » بضم الياء ، أى هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ؟ ﴿ **أو ينفعونكم** ﴾ بوجه من وجوه النفع ﴿ **أو يضرون** ﴾ أى يضرونكم إذا تركتم عبادتهم ، وهذا الاستفهام للتقرير ، فإنها إذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ فلا وجه لعبادتها ، فإذا قالوا : نعم هى كذلك ، أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث ، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم ، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جوابا إلا رجوعهم إلى التقليد البحت وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، أى يفعلون لهذه العبادة هذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التى هى سلب السمع والنفع والضر عنها .

وهذا الجواب هو العصى التى يتوكأ عليها كل عاجز ، ويمشى بها كل أعرج ويغتر بها كل مغرور ، وينخدع لها كل مخدوع ؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التى طبقت الأرض

بطولها والعرض ، وقلت لهم : ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء والأخذ بكل ما يقوله فى الدين ويبتدعه من الرأى المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه ، وأخذوا يعددون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم واقتداء بأقواله وأفعاله وهم قد ملؤوا صدورهم هيبة ، وضاقت أذهانهم عن تصورهم ، وظنوا أنهم خير أهل الأرض وأعلمهم وأورعهم ، فلم يسمعوا لناصح نصحا ولا لداع إلى الحق دعاء ، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم فى غرور عظيم وجهل شنيع وإنهم كالبهيمة العمياء ، وأولئك الأسلاف كالعمى الذين يقودون البهائم العمى ، كما قال الشاعر :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة، المبرأ من التعصب والتعسف، أن تورد عليهم حجج الله ، وتقيم عليهم براهينه ؛ فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد فى قلبه ، وأما من قد استحكم فى قلبه هذا الداء ، فلو أوردت عليه كل حجة وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أذنا صماء وعينا عمياء ، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذى أوجبه عليك القرآن ، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ [القصص: ٥٦] .

ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿ **قال** ﴾ الخليل ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون** ﴾ أى فهل أبصرتم وتفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة ؟ ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التى يعبدونها . فقال : ﴿ **فإنهم عدوّ لى** ﴾ ومعنى كونهم عدوا له مع كونهم جمادا : أنه إن عبدهم كانوا له عدوا يوم القيامة . قال الفراء : هذا من المقلوب ، أى فإنى عدو لهم لأن من عاديته عاداك ، والعدو كالصديق يطلق على الواحد والمثنى والجماعة والمذكر والمؤنث ، كذا قال الفراء. قال علىّ بن سليمان : من قال : عدوة الله، فأثبت الهاء ، قال هى بمعنى : المعادية ، ومن قال : عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. وقيل : المراد بقوله : ﴿ **فإنهم عدو لى** ﴾ آباؤهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام ، ورد بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا فى العابدين ، والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا ربّ العالمين** ﴾ منقطع أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو وليى فى الدنيا والآخرة . قال الزجاج : قال النحويون : هو استثناء ليس من الأوّل، وأجاز الزجاج أيضا أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله . قال الجرجانى : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى ، فجعله من باب التقديم والتأخير ، وجعل إلا بمعنى دون وسوى كقوله : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان : ٥٦] أى دون الموتة الأولى . وقال الحسن بن الفضل : إن المعنى : إلا من عبد رب العالمين .

ثم وصف ربّ العالمين بقوله : ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين** ﴾ أى فهو يرشدنى إلى مصالح الدين والدنيا . وقيل : إن الموصول مبتدأ وما بعده خبره ، والأول أولى . ويجوز أن يكون الموصول بدلا من ربّ ، وأن يكون عطف بيان له ، وأن يكون منصوبا على المدح بتقدير : أعنى أو أمدح ، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله ، فإن الخلق والهداية والرزق يدل عليه قوله : ﴿ **والذى هو يطعمنى ويسقين** ﴾ ودفع ضر المرض ، وجلب نفع الشفاء ، والإماتة والإحياء ، والمغفرة للذنب ، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلا عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التى أعلاها وأولاها العبادة . ودخول هذه الضمائر فى صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره ، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب مع الربّ ، وإلا فالمرض وغيره من الله سبحانه ، ومراده بقوله : ﴿ **ثم يحيين** ﴾ البعث ، وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآى . وقرأ ابن أبى إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الياء ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ هضما لنفسه . وقيل : إن الطمع هنا بمعنى اليقين فى حقه ، وبمعنى الرجاء فى حق سواه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق : « خطاياى » قالا : ليست خطيئته واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى خطايا فى كلام العرب . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] ، وقوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ [الصافات : ٨٩] وقوله: إن سارة أخته ، زاد الحسن : وقوله للكوكب: ﴿ هذا ربى ﴾ [الأنعام : ٨٦] وحكى الواحدى عن المفسرين أنهم فسروا الخطايا بما فسرها به مجاهد. قال الزجاج : الأنبياء بشر ، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون . والمراد بيوم الدين : يوم الجزاء للعباد بأعمالهم ، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ومن معه ضعيف ، فإن تلك معاريض ، وهى أيضا إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه .

ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه والاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء ليقتدى به غيره فى ذلك، فقال : ﴿ **رب هب لى حكما** ﴾ والمراد بالحكم : العلم والفهم. وقيل: النبوة والرسالة . وقيل: المعرفة بحدود الله وأحكامه إلى آخره ﴿ **وألحقنى بالصالحين** ﴾ يعنى: بالنبيين من قبلى . وقيل : بأهل الجنة ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾ أى اجعل لى ثناء حسنا فى الآخرين الذين يأتون بعدى إلى يوم القيامة . قال القتيبى : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ؛ لأن القول يكون به ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة ، ومنه قول الأعشى :

إنى أتتنى لسان لا أسر بها

وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ [الصافات:١٠٨] فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه . وقال مكى : قيل : معنى سؤاله : أن يكون من ذريته فى آخر الزمان من يقوم بالحق ، فأجيبت دعوته فى محمد ﷺ ، ولا وجه لهذا

التخصيص . وقال القشيرى : أراد : الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ، ولا وجه لهذا أيضا ، فإن لسان الصدق أعم من ذلك ﴿ **واجعلنى من ورثة جنة النعيم** ﴾ : ﴿ **من ورثة** ﴾ يحتمل أن يكون مفعولا ثانيا ، وأن يكون صفة لمحذوف هو المفعول الثانى ، أى وارثا من ورثة جنة النعيم ، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة ، وهى جنة النعيم ، وجعلها مما يورث تشبيها لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا ، وقد تقدّم تفسير معنى الوراثة فى سورة مريم ﴿ **واغفر لأبى إنه كان من الضالين** ﴾ كان أبوه قد وعده أن يؤمن به ، فاستغفر له ، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى فى سورة التوبة وسورة مريم ، ومعنى ﴿ **من الضالين** ﴾: من المشركين الضالين عن طريق الهداية. و ﴿ **كان** ﴾ زائدة على مذهب سيبويه كما تقدّم فى غير موضع .

﴿ **ولاتخزنى يوم يبعثون** ﴾ أى لاتفضحنى على رؤوس الأشهاد بمعاتبتى ، أو لا تعذبنى يوم القيامة ، أولاتخزنى بتعذيب أبى أو ببعثه فى جملة الضالين ، والإخزاء يطلق على الخزى وهو الهوان ، وعلى الخزاية وهى الحياء،و ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾ بدل من يوم يبعثون ، أى يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحدا من الناس ، والابن هو أخص القرابة وأولاهم بالحماية والدفع والنفع ، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة والأعوان بالأولى . وقال ابن عطية : إن هذا وما بعده من كلام الله ، وهو ضعيف ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ قيل : هو منقطع ، أى لكن من أتى الله بقلب سليم . قال فى الكشاف : إلا حال من أتى الله بقلب سليم (١) ، فقدّر مضافا محذوفا . قال أبوحيان : ولا ضرورة تدعو إلى ذلك . وقيل : إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف ، أو مستثنى منه ، إذ التقدير : لا ينفع مال ولا بنون أحدا من الناس إلا من كانت هذه صفته ، ويحتمل أن يكون بدلا من فاعل ﴿ **ينفع** ﴾ ، فيكون مرفوعا . قال أبو البقاء : فيكون التقدير : إلا مال من أو بنو من فإنه ينفع . واختلف فى معنى القلب السليم ، فقيل : السليم من الشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض. وقيل : هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة . وقيل : السالم من آفة المال والبنين . وقال الضحاك : السليم: الخالص . وقال الجنيد : السليم فى اللغة: اللديغ ، فمعناه : أنه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى ، وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن . قال الرازى : أصح الأقوال أن المراد منه :سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة .

﴿**وأزلفت الجنة للمتقين** ﴾ أى قربت وأدنيت لهم ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها ﴿ **وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ أى جعلت بارزة لهم ، والمراد بالغاوين : الكافرون ، والمعنى أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون ليشتد حزن الكافرين

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠ .

ويكثر سرور المؤمنين ﴿ **وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله** ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿**هل ينصرونكم** ﴾ فيدفعون عنكم العذاب ﴿ **أو ينتصرون** ﴾ بدفعه عن أنفسهم . وهذا كله توبيخ وتقريع لهم ، وقرأ مالك بن دينار : « وبرزت » بفتح الباء والراء مبنيا للفاعل . ﴿**فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾ أى ألقوا فى جهنم « هم » يعنى : المعبودين ، و ﴿ **الغاوون** ﴾ يعنى : العابدين لهم . وقيل : معنى كبكبوا : قلبوا على رؤوسهم. وقيل: ألقى بعضهم على بعض ، وقيل : جمعوا ، مأخوذ من الكبكبة وهى الجماعة قاله الهروى . وقال النحاس : هو مشتق من كوكب الشيء ، أى معظمه ، والجماعة من الخيل : كوكب وكبكبة . وقيل : دهدهوا ، وهذه المعانى متقاربة ، وأصله : كببوا بباءين الأولى مشددة من حرفين ، فأبدل من الباء الوسطى الكاف . وقد رجح الزجاج أن المعنى : طرح بعضهم على بعض. ورجح ابن قتيبة أن المعنى:ألقوا على رؤوسهم . وقيل: الضمير فى كبكبوا لقريش . والغاوون : الآلهة . والمراد بجنود إبليس : شياطينه الذين يغوون العباد . وقيل : ذريته . وقيل : كل من يدعو إلى عبادة الأصنام ، و ﴿ **أجمعون** ﴾ تأكيد للضمير فى كبكبوا وما عطف عليه .

وجملة : ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل ؟ ومقول القول : ﴿ **تالله إن كنا لفى ضلال مبين** ﴾ وجملة: ﴿ **وهم فيها يختصمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى قالوا هذه المقالة حال كونهم فى جهنم مختصمين و « إن » فى ﴿ **إن كنا** ﴾ هى المخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية ، أى قالوا : تالله إن الشأن كوننا فى ضلال واضح ظاهر . والمراد بالضلال هنا : الخسار والتبار والحيرة عن الحق ، والعامل فى الظرف ، أعنى : ﴿ **إذ نسويكم بربّ العالمين** ﴾ ، هو كونهم فى الضلال المبين . وقيل : العامل هو الضلال . وقيل : ما يدل عليه الكلام ، كأنه قيل : ضللنا وقت تسويتنا لكم برب العالمين. وقال الكوفيون : إن « إنْ » فى ﴿ **إن كنا** ﴾ نافية واللام بمعنى إلا ، أى ما كنا إلا فى ضلال مبين . والأول أولى ، وهو مذهب البصريين .

﴿ **فما لنا من شافعين** ﴾ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين ﴿ **ولا صديق حميم** ﴾ أى ذى قرابة . والحميم: القريب الذى تودّه ويودك . ووحد الصديق لما تقدم غير مرة أنه يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ،والحميم مأخوذ من حامة الرجل ،أى أقربائه ، ويقال : حمّ الشيء وأحم : إذا قرب منه ، ومنه الحمى لأنه يقرب من الأجل. وقال على بن عيسى : إنما سمى القريب حميما، لأنه يحمى لغضب صاحبه ، فجعله مأخوذا من الحمية . ﴿**فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين** ﴾ هذا منهم على طريق التمنى الدال على كمال التحسر كأنهم قالوا : فليت لنا كرة ، أى رجعة إلى الدنيا ، وجواب التمنى : ﴿ **فنكون من المؤمنين** ﴾ أى نصير من جملتهم . والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من نبأ إبراهيم ، والآية : العبرة والعلامة ، والتنوين يدل على التعظيم والتفخيم ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أى أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبأ إبراهيم ، وهم قريش ومن دان بدينهم .

وقيل : وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين ، وهو ضعيف لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه ، أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وألحقنى بالصالحين** ﴾ يعنى : بأهل الجنة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾ قال : اجتماع أهل الملل على إبراهيم . وأخرج عنه أيضا : ﴿ **واغفر لأبى** ﴾ قال : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك . وأخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : ربّ إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى؟ ــ الأبعد ــ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » (١) ، والذيخ هو الذكر من الضباع ، فكأنه حول آزر إلى صورة ذيخ . وقد أخرجه النسائى بأطول من هذا (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **فكبكبوا فيها** ﴾ قال : جمعوا فيها ﴿ **هم والغاوون** ﴾ قال : مشركو العرب والآلهة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **فلو أن لنا كرة** ﴾ قال : رجعة إلى الدنيا ﴿ **فنكون من المؤمنين** ﴾ حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٠) والنسائى فى التفسير (٣٩٥) .

(٢) سبق تخريجه .

قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ أنث الفعل لكونه مسندا إلى قوم ، وهو فى معنى الجماعة أو الأمة أوالقبيلة ، وأوقع التكذيب على المرسلين ، وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم ،لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل ،لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل. وقيل : كذبوا نوحا فى الرسالة وكذبوه فيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده. ﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح** ﴾ أى أخوهم من أبيهم ، لا أخوهم فى الدين . وقيل : هى أخوة المجانسة . وقيل : هو من قول العرب : يا أخا بنى تميم ، يريدون واحدا منهم ﴿ **ألا تتقون** ﴾ ألا تتقون الله بترك عبادة الأصنام وتجيبون رسوله الذى أرسله إليكم ؟ ﴿ **إنى لكم رسول أمين** ﴾ أى إنى لكم رسول من الله أمين فيما أبلغكم عنه . وقيل : أمين فيما بينكم؛ فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أى اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه وأطيعون فيما آمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك والقيام بفرائض الدين ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر** ﴾ أى ما أطلب منكم أجرا على تبليغ الرسالة ولا أطمع فى ذلك منكم ﴿ **إن أجرى** ﴾ الذى أطلبه وأريده ﴿ **إلا على ربّ العالمين**﴾ أى ما أجرى إلا عليه ، وكرر قوله: ﴿**فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ للتأكيد والتقرير فى النفوس مع كونه علق كل واحد منهم بسبب ، وهو الأمانة فى الأوّل، وقطع الطمع فى الثانى ، ونظيره قولك : ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ؟ ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا ؟ وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علة لطاعته .

﴿ **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى كيف نتبعك ونؤمن لك ، والحال أن قد اتبعك الأرذلون ؟ وهم جمع أرذل ، وجمع التكسير: أرذال ، والأنثى :رذلى ، وهم الأقلون جاها ومالا والرذالة: الخسة والذلة ، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم ، أو لاتضاع أنسابهم . وقيل : كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات فى هود . وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمى : « وأتباعك الأرذلون » قال النحاس : وهى قراءة حسنة؛ لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيرا . وأتباع جمع تابع ، فأجابهم نوح بقوله: ﴿ **وما علمى بما كانوا يعملون** ﴾ كان زائدة ، والمعنى: وما علمى بعملهم ، أى لم أكلف العلم بأعمالهم ، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان: والاعتبار به ، لا بالحرف والصنائع والفقر

والغنى ، وكأنهم أشاروا بقولهم : ﴿ **واتبعك الأرذلون** ﴾ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح فأجابهم بهذا . وقيل : المعنى : إنى لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلكم .

﴿ **إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون** ﴾ أى ما حسابهم والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم ، قرأ الجمهور :﴿ **تشعرون** ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن أبى عبلة وابن السميفع والأعرج وأبوزرعة بالتحتية ، كأنه ترك الخطاب للكفار والتفت إلى الإخبار عنهم . قال الزجاج : والصناعات لا تضر فى باب الديانات وما أحسن ما قال : ﴿**وما أنا بطارد المؤمنين** ﴾ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم . ﴿ **إن أنا إلا نذير مبين** ﴾ أى ما أنا إلا نذير موضح لما أمرنى الله سبحانه بإبلاغه إليكم ، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها . ﴿ **قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ أى إن لم تترك عيب ديننا وسبّ آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة . وقيل : من المشتومين . وقيل : من المقتولين ، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد فلما سمع نوح قولهم هذا ، قال: ﴿ **رب إن قومى كذبون** ﴾ أى أصرّوا على تكذيبى ، ولم يسمعوا قولى ولا أجابوا دعائى ﴿**فافتح بينى وبينهم فتحا** ﴾ الفتح : الحكم ، أى احكم بينى وبينهم حكما ، وقد تقدم تحقيق معنى الفتح ﴿ **ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾ .

فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له فقال : ﴿ **فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون** ﴾ أى السفينة المملوءة، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب والمتاع . ﴿ **ثم أغرقنا بعد الباقين** ﴾ أى ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ أى علامة وعبرة عظيمة ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ كان زائدة عند سيبويه وغيره على ما تقدم تحقيقه ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى القاهر لأعدائه ، الرحيم بأوليائه .

﴿ **كذبت عاد المرسلين** ﴾ أنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة ؛ لأن عادا اسم أبيهم الأعلى . ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا قد تقدّم وجهه فى قصة نوح قريبا . ﴿ **إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قول نوح المتقدم قريبا ، وكذا قوله : ﴿ **إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾ الكلام فيه كالذى قبله سواء . ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون** ﴾ الريع : المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة ، يقال : كم ريع أرضك ؟ أى كم ارتفاعها . قال أبو عبيدة : الريع :الارتفاع جمع ريعة . وقال قتادة والضحاك والكلبى : الريع : الطريق ، وبه قال مقاتل والسدى . وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة ، ومنه قول ذى الرمة :

طراقُ الخوافِى مشرف فَوقَ رِيعةٍ نَدى ليله فى ريشه يترقرقُ

وقيل: الريع : الجبل ، واحده ريعة ، والجمع أرياع . وقال مجاهد : هو الفج بين

الجبلين، وروى عنه أنه الثنية الصغيرة ، وروى عنه أيضا أنه المنظرة . ومعنى الآية : أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما تعبثون ببنيانه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم ، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون المارة وتسخرون منهم . وقال الكلبى : إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم ،حكاه الماوردى . قال ابن الأعرابى: الريع : الصومعة. والريع : البرج يكون فى الصحراء. والريع :التل العالى. وفى الريع لغتان كسر الراء وفتحها. ﴿ **وتتخذون مصانع** ﴾ المصانع : هى الأبنية التى يتخذها الناس منازل . قال أبو عبيدة : كل بناء مصنعة منه وبه قال الكلبى وغيره ، ومنه قول الشاعر :

تركنا دارهم منهم قفارا ... وهـدّمنا المـصانع والبـروجا

وقيل : هى الحصون المشيدة ، قاله مجاهد وغيره ، وقال الزجاج : إنها مصانع الماء التى تجعل تحت الأرض واحدتها: مصنعة ومصنع ، ومنه قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وليس فى هذا البيت ما يدل صريحا على ما قاله الزجاج ، ولكنه كما قال الجوهرى : المصنعة بضم النون : الحوض يجمع فيه ماء المطر ، والمصانع : الحصون . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن : القصور العالية . ومعنى ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ : راجين أن تخلدوا . وقيل : إن لعل هنا للاستفهام التوبيخى ، أى هل تخلدون ؟ كقولهم: لعلك تشتمنى ، أى هل تشتمنى ؟ وقال الفراء : كى تخلدوا (١) ، لا تتفكرون فى الموت . وقيل : المعنى : كأنكم باقون مخلدون . قرأ الجمهور : ﴿ **تخلدون** ﴾ مخففا .. وقرأ قتادة بالتشديد . وحكى النحاس أن فى بعض القراءات : « كأنكم مخلدون » . وقرأ ابن مسعود : « كى تخلدوا » .

﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ البطش : السطوة والأخذ بالعنف . قال مجاهد وغيره : البطش : العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . والمعنى : فعلتم ذلك ظلما ، وقيل : هو القتل على الغضب . قاله الحسن والكلبى . قيل : والتقدير : وإذا أردتم البطش ، لئلا يتحد الشرط والجزاء ، وانتصاب ﴿ **جبارين** ﴾ على الحال . قال الزجاج: إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم ، وأما فى الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز . ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم والعتو والتمرّد والتجبر أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أجمل التقوى ثم فصلها بقوله : ﴿ **واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين** ﴾ . وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿ **وجنات وعيون** ﴾ أى بساتين وأنهار وأبيار . ثم وعظهم وحذرهم فقال : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ إن كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم ، والمراد بالعذاب العظيم : الدنيوى والأخروى.

---

(١) فى المخطوطة : « تخلدون » ، والصحيح ما أثبتناه على النصب بأن .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **قالوا أنؤمن لك** ﴾ أى أنصدّقك ؟. وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **واتبعك الأرذلون** ﴾ قال : الحواكون . وأخرج أيضا عن قتادة قال : سفلة الناس وأرذلهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **الفلك المشحون** ﴾ قال : الممتلئ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أنه قال : « أتدرون ما المشحون ؟ قلنا : لا ، قال : هو الموقر » . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: هو المثقل. وأخرج ابن جرير عنه أيضا :﴿ **بكل ريع** ﴾ قال : طريق ﴿ **آية** ﴾ قال : علما ﴿ **تعبثون** ﴾ قال: تلعبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **بكل ريع** ﴾ قال : شرف. وأخرجوا أيضا عنه : ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ قال: كأنكم تخلدون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**جبارين**﴾ قال : أقوياء .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾.

أى وعظك وعدمه ﴿ **سواء** ﴾ عندنا لا نبالى بشيء منه ولا نلتفت إلى ما تقوله . وقد روى العباس عن أبى عمرو ، وروى بشر عن الكسائى ﴿ **أوعظت** ﴾ بإدغام الظاء فى التاء وهو بعيد ؛ لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدا . وروى ذلك عن عاصم والأعمش وابن محيصن . وقرأ الباقون بإظهار الظاء ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين** ﴾ أى ما هذا الذى جئتنا به ودعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأوّلين ، أى عادتهم التى كانوا عليها . وقيل : المعنى : ما هذا الذى نحن عليه إلا خلق الأوّلين وعادتهم،وهذا بناء على ما قاله الفراء وغيره : إن معنى خلق الأوّلين : عادة الأولين . قال النحاس: خلق الأوّلين عند الفراء بمعنى عادة

الأوّلين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : ﴿ **خلق الأولين** ﴾ : مذهبهم وما جرى عليه أمرهم ، والقولان متقاربان . قال : وحكى لنا محمد بن يزيد أن معنى ﴿ **خلق الأوّلين** ﴾ : تكذيبهم . قال مقاتل : قالوا : ما هذا الذى تدعونا إليه إلا كذب الأولين . قال الواحدى : وهو قول ابن مسعود ومجاهد . قال : والخلق والاختلاق : الكذب ، ومنه قوله : ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ [العنكبوت : ١٧] . قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ويعقوب : «خلق الأولين » بفتح الخاء وسكون اللام . وقرأ الباقون بضم الخاء واللام . قال الهروى : معناه على القراءة الأولى : اختلاقهم وكذبهم، وعلى القراءة الثانية : عادتهم ، وهذا التفصيل لابد منه . قال ابن الأعرابى : الخلق: الدين ، والخلق : الطبع ، والخلق : المروءة . وقرأ أبو قلابة بضم الخاء وسكون اللام وهى تخفيف لقراءة الضم لهما . والظاهر أن المراد بالآية هو قول من قال : ما هذا الذى نحن عليه إلا عادة الأوّلين وفعلهم ، ويؤيده قولهم : ﴿ **وما نحن بمعذبين** ﴾ أى على ما نفعل من البطش ونحوه مما نحن عليه الآن . ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم** ﴾ أى بالريح كما صرح القرآن فى غير هذا الموضع بذلك ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ تقدّم تفسير هذا قريبا فى هذه السورة .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ذكر قصة صالح وقومه ، وكانوا يسكنون الحجر فقال : ﴿ **كذبت ثمود** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا على رب العالمين** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قصة هود المذكورة قبل هذه القصة . ﴿ **أتتركون فيما ها هنا آمنين** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى أتتركون فى هذه النعم التى أعطاكم الله آمنين من الموت والعذاب باقين فى الدنيا . ولما أبهم النعم فى هذا فسرها بقوله : ﴿ **فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم** ﴾ والهضيم : النضيج الرخص اللين اللطيف ، والطلع : ما يطلع من الثمر ، وذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار ، وكثيرا ما يذكرون الشىء الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولايقصدون إلا الإبل ، وهكذا يذكرون الجنة ، ولا يريدون إلا النخل . قال زهير :

كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

وسحقا جمع سحوق ، ولا يوصف به إلا النخل . وقيل : المراد بالجنات غير النخل من الشجر ، والأوّل أولى. وحكى الماوردى فى معنى ﴿ **هضيم** ﴾ اثنى عشر قولا ، أحسنها وأوفقها للغة ما ذكرناه . ﴿ **وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين** ﴾ النحت : النجر والبرى ، نحته ينحته بالكسر : براه . والنحاتة : البراية ، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع (١) : ﴿ **فرهين** ﴾ بغير ألف . وقرأ الباقون : ﴿**فارهين** ﴾ بالألف . قال أبو عبيدة وغيره : وهما بمعنى واحد . والفره : النشاط ، وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا : ﴿ **فارهين** ﴾ حاذقين بنحتها . وقيل : متجبرين ،

(١) فى المخطوطة : « قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان » ، وعند القرطبى ٧/ ٤٨٤٥: « ونافع » بدلا من «وابن ذكوان » وهو الصحيح .

و«فرهين » بطرين أشرين ، وبه قال مجاهد وغيره . وقيل : شرهين. وقال الضحاك: كيسين . وقال قتادة : معجبين ناعمين آمنين ، وبه قال الحسن . وقيل : فرحين ، قاله الأخفش . وقال ابن زيد : أقوياء . ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين** ﴾ أى المشركين . وقيل : الذين عقروا الناقة . ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله : ﴿ **الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ أى ذلك دأبهم يفعلون الفساد فى الأرض ولا يصدر منهم الصلاح ألبتة ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين** ﴾ أى الذين أصيبوا بالسحر ، قاله مجاهد وقتادة . وقيل : المسحر هو : المعلل بالطعام والشراب ، قاله الكلبى وغيره ، فيكون المسحر الذى له سحر ، وهو الرئة ، فكأنهم قالوا : إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب . قال الفراء : أى إنك تأكل الطعام والشراب وتسحر به ، ومنه قول امرئ القيس أو لبيد :

فإن تسألينا : فيم نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس أيضا :

أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

قال المؤرج : المسحر : المخلوق ، بلغة ربيعة . ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ فى قولك ودعواك. ﴿ **قال هذه ناقة** ﴾ الله ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ أى لها نصيب من الماء ولكم نصيب منه معلوم، ليس لكم أن تشربوا فى اليوم الذى هو نصيبها ، ولا هى : تشرب فى اليوم الذى هو نصيبكم. قال الفراء : الشرب: الحظ من الماء . قال النحاس : فأما المصدر ، فيقال فيه : شرب شِربا وشُربا وأكثرها المضموم. والشرب بفتح الشين جمع شارب ، والمراد هنا : الشرب بالكسر ، وبه قرأ الجمهور فيهما ، وقرأ ابن أبى عبلة بالضم فيهما . ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ أى لا تمسوها بعقر ، أو ضرب ، أو شيء مما يسوؤها ، وجواب النهى فيأخذكم . ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين** ﴾ على عقرها ، لما عرفوا أن العذاب نازل بهم،وذلك أنه أنظرهم ثلاثا ،فظهرت عليهم العلامة فى كل يوم وندموا حيث لا ينفع الندم؛ لأن ذلك لا يجدى عند معاينة العذاب وظهور آثاره.﴿ **فأخذهم العذاب** ﴾ الذى وعدهم به . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ فى هذه السورة ، وتقدّم أيضا تفسير قصة صالح وقومه فى غير هذه السورة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **ونخل طلعها هضيم** ﴾ قال : معشب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : أينع وبلغ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : أرطب واسترخى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فرهين** ﴾ قال : حاذقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿**فرهين**﴾ أشرين . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن

مجاهد قال : شرهين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ قال : من المخلوقين ، وأنشد قول لبيد بن ربيعة :

فإن تسألينا فيم نحن . . . . البيت

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لها شرب** ﴾ قال : إذا كان يومها أصدر لها لبنا ما شاؤوا .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾.

ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم ، وهى قصة لوط . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إذ قال لهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا على ربّ العالمين** ﴾ فى هذه السورة ، وتقدم أيضا تفسير قصة لوط مستوفى فى الأعراف . قوله: ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين** ﴾ الذكران : جمع الذكر ضد الأنثى . ومعنى ﴿ **تأتون** ﴾ : تنكحون الذكران من العالمين ، وهم بنو آدم ،

أو كل حيوان ، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم فى الأعراف . ﴿ **وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ أى وتتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء ، وأراد بالأزواج : جنس الإناث ﴿ **بل أنتم قوم عادون** ﴾ أى مجاوزون للحدّ فى جميع المعاصى ، ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران ﴿ **قالوا لئن لم تنته يا لوط** ﴾ عن الإنكار علينا وتقبيح أمرنا ﴿ **لتكونن من المخرجين** ﴾ من بلدنا، المنفيين عنها . ﴿ **قال إنى لعملكم** ﴾ وهو ما أنتم فيه من إتيان الذكران ﴿ **من القالين** ﴾ المبغضين له . والقلى : البغض ، قليته أقليه قلا وقلاء ، ومنه قول الشاعر:

فلست بمقلى الخلال ولا قالى

وقال الآخر :

ومالك عندى إن نـأيت قـلاء

ثم رغب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم ، وطلب من الله عزّ وجل أن ينجيه فقال : ﴿ **رب نجنى وأهلى مما يعملون** ﴾ أى من عملهم الخبيث ، أو من عقوبته التى ستصيبهم ، فأجاب الله سبحانه دعاءه ، وقال : ﴿ **فنجيناه وأهله أجمعين** ﴾ أى أهل بيته ، ومن تابعه على دينه ، وأجاب دعوته ﴿ **إلا عجوزا فى الغابرين** ﴾ هى امرأة لوط ، ومعنى ﴿ **فى الغابرين** ﴾ من الباقين فى العذاب . وقال أبو عبيدة : من الباقين فى الهرم ، أى بقيت حتى هرمت . قال النحاس : يقال للذاهب : غابر ، وللباقى : غابر . قال الشاعر :

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تـدرى من النـاتج

والأغبار :بقية الألبان ،وتقول العرب:ما مضى وما غبر أى ما مضى وما بقى.﴿ **ثم دمرنا الآخرين** ﴾ أى أهلكناهم بالخسف والحصب.﴿ **وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ يعنى الحجارة ﴿ **فساء مطر المنذرين** ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : مطرهم ، وقد تقدم تفسير : ﴿**إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ فى هذه السورة .

﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر : « ليكة » بلام واحدة وفتح التاء جعلوه اسما غير معرف بأل مضافا إليه أصحاب ، وقرأ الباقون:﴿ **الأيكة** ﴾ معرفا ، و ﴿ **الأيكة** ﴾ : الشجر الملتف ، وهى الغيضة . وليكة : اسم للقرية . وقيل : هما بمعنى واحد اسم للغيضة . قال القرطبى : فأما ما حكاه أبو عبيد من أن ليكة اسم القرية التى كانوا فيها ، وأن الأيكة اسم البلد كله ، فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله ولوعرف لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعا على خلافه . قال أبو على الفارسى : الأيكة : تعريف أيكة ، فإذا حذفت الهمزة تخفيفا ألقيت حركتها على اللام . قال الخليل : الأيكة : غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر ﴿ **إذ قال لهم شعيب ألا تتقون** ﴾ لم يقل : أخوهم كما قال فى الأنبياء قبله ؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة فى النسب ، فلما ذكر مدين قال أخاهم

شعيبا لأنه كان منهم ، وقد مضى تحقيق نسبه فى الأعراف ، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إنى لكم رسول أمين** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إلا على رب العالمين** ﴾ فى هذه السورة .

قوله : ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين** ﴾ أى أتموا الكيل لمن أراده وعامل به ، ولا تكونوا من المخسرين : الناقصين للكيل والوزن ، يقال : أخسرت الكيل والوزن ، أى نقصته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين : ٣] ثم زاد سبحانه فى البيان فقال : ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ أى أعطوا الحق بالميزان السوى ، وقد مر بيان تفسير هذا فى سورة سبحان ، وقد قرئ : ﴿ **بالقسطاس** ﴾ مضموما ومكسورا . ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ البخس : النقص ، يقال : بخسه حقه : إذا نقصه ، أى لا تنقصوا الناس حقوقهم التى لهم ، وهذا تعميم بعد التخصيص ، وقد تقدّم تفسيره فى سورة هود ، وتقدم أيضا تفسير ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ فيها وفى غيرها . ﴿ **واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وقرأ أبو حصين والأعمش والحسن والأعرج وشيبة بضمهما وتشديد اللام، وقرأ السلمى بفتح الجيم مع سكون الباء . والجبلة : الخليقة ، قاله مجاهد وغيره . يعنى : الأمم المتقدّمة ، يقال: جبل فلان على كذا ، أى خلق . قال النحاس : الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأوّلين وبضمهما مع تشديد اللام فيهما ، وبضم الجيم وفتحها وسكون الباء ، قال الهروى : الجِبِلَّة والجُبُلَة والجِبِلّ والجُبُلّ لغات ، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جبلا كثيرا ﴾ [يس : ٦٢] أى خلقا كثيرا ، ومن ذلك قول الشاعر :

والموت أعظم حادث فيما يمـرّ على الجبـلة

﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ قد تقدّم تفسيره مستوفى فى هذه السورة . ﴿ **وإن نظنك لمن الكاذبين** ﴾ : « إن » هى المخففة من الثقيلة عملت فى ضمير شأن مقدر ، واللام هى الفارقة ، أى فيما تدعيه علينا من الرسالة . وقيل : هى النافية ، واللام بمعنى إلا ، أى ما نظنك إلا من الكاذبين ، والأول أولى . ﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء** ﴾ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ، فقالوا له هذا القول تعنتاً واستبعادا وتعجيزا . والكسف: القطعة . قال أبو عبيدة : الكسف :جمع كسفة مثل سدر وسدرة . قال الجوهرى : الكسفة : القطعة من الشىء ، يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع كسف ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة سبحان . ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فى دعواك ﴿ **قال ربى أعلم بما تعملون**﴾ من الشرك والمعاصى ، فهو مجازيكم على ذلك إن شاء ، وفى هذا تهديد شديد . ﴿**فكذبوه** ﴾ فاستمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ والظلة : السحاب ، أقامها الله فوق رؤوسهم فأمطرت عليهم نارا فهلكوا ، وقد أصابهم الله بما اقترحوا؛ لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر ، وإن أرادوا بها القطعة من السماء فقد نزل عليهم العذاب من جهتها . وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيها على أن لهم فى

ذلك اليوم عذابا غير عذاب الظلة ، كذا قيل . ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذى أصابهم بقوله : ﴿ **إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ لما فيه من الشدة عليهم التى لا يقادر قدرها ، وقد تقدّم تفسير قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ فى هذه السورة مستوفى ، فلا نعيده ، وفى هذا التكرير لهذه الكلمات فى آخر هذه القصص من التهديد والزجر والتقرير والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام ويعرف أساليبه.

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ قال : تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرجا أيضا عن قتادة : ﴿ **إلا عجوزا فى الغابرين** ﴾ قال: هى امرأة لوط غبرت فى عذاب الله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد « ليكة » قال : هى الأيكة . وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ قال :كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين ﴿ **إذ قال لهم شعيب** ﴾ ولم يقل : أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن من جنسهم ﴿ **ألا تتقون** ﴾ : كيف لا تتقون وقد علمتم أنى رسول أمين ، لا تعتبرون من هلاك مدين وقد أهلكوا فيما يأتون ؟ وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين ، فقال لهم شعيب : ﴿ **إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم** ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ **من أجر** ﴾ فى العاجل من أموالكم ، إن أجرى إلا على ربّ العالمين . ﴿ **واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأوّلين** ﴾ يعنى : القرون الأولين الذين أهلكوا بالمعاصى ولا تهلكوا مثلهم . ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين** ﴾ يعنى : من المخلوقين . ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء** ﴾ يعنى : قطعا من السماء ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ أرسل الله إليهم سموما من جهنم ، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر ، فحميت بيوتهم وغلت مياههم فى الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين ، والسموم معهم ، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم ، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء ، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **الجبلة الأولين** ﴾ : الخلق الأولين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عنه أيضا أنه سئل عن قوله : ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ قال : بعث الله عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم أجوافها فأخذ بأنفسهم ، فخرجوا من البيوت هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم

بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارا ، فذلك عذاب يوم الظلة [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم عنه أيضا قال : من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه. أقول : فما نقول له رضى الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه هاهنا ؟ ويمكن أن يقال: إنه لما كان هو الحبر الذى علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصا بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذى حدثنا به فقد وصانا بتكذيبه ؛ لأنه قد علمه ولم يعلمه غيره .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾ الضمير يرجع إلى ما نزله عليه من الأخبار ، أى وإن

---

(١) ابن جرير ١٩/ ٦٧ والحاكم ٢/ ٥٦٨ وسكت عنه الذهبى .

هذه الأخبار أو وإن القرآن وإن لم يجر له ذكر للعلم به ، قيل : وهو على تقدير مضاف محذوف أى ذو تنزيل ، وأما إذا كان تنزيل بمعنى منزل فلا حاجة إلى تقدير مضاف . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم : ﴿ **نزل** ﴾ مخففا ، وقرأه الباقون مشددا ، و﴿**الروح الأمين** ﴾ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به ، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، والروح الأمين :جبريل ، كما فى قوله : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ [البقرة : ٩٧] ومعنى ﴿ **على قلبك** ﴾ : أنه تلاه على قلبه ، ووجه تخصيص القلب ؛ لأنه أول مدرك من الحواس الباطنة . قال أبو حيان : إن ﴿ **على قلبك** ﴾ و﴿ **لتكون** ﴾ متعلقان بنزل. وقيل : يجوز أن يتعلقا بتنزيل ، والأوّل أولى، وقرئ : « نزّل » مشدّدًا مبنيا للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعا على النيابة ﴿ **لتكون من المنذرين** ﴾ علة للإنزال ، أى أنزله لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والإنذارات والعقوبات . ﴿ **بلسان عربى مبين** ﴾ متعلق بالمنذرين ، أى لتكون من المنذرين بهذا اللسان ، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلا من ﴿ **به** ﴾ . وقيل : متعلق بنزل ، وإنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار ، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربيا بلسان الرسول العربى لئلا يقول مشركو العرب : لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم وأزاح علتهم ودفع معذرتهم .

﴿ **وإنه لفى زبر الأولين** ﴾ أى إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التى أجمعت عليها الشرائع فى كتب الأولين من الأنبياء، والزبر : الكتب ، الواحد زبور ، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا . وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ . وقيل : المراد بكون القرآن فى زبر الأوّلين : أنه مذكور فيها هو نفسه ، لا ما اشتمل عليه من الأحكام ، والأوّل أولى . ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ الهمزة للإنكار ،والواو للعطف على مقدّر كما تقدم مرارا . والآية : العلامة والدلالة ، أى ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق ،وأنه تنزيل رب العالمين، وأنه فى زبر الأولين ، ﴿ **أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ على العموم ، أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم ويصدقونهم . قرأ ابن عامر : « تكن » بالفوقية « وآية » بالرفع على أنها اسم كان ، وخبرها أن يعلمه إلخ ، ويجوز أن تكون تامة ، وقرأ الباقون : « يكن » بالتحتية و﴿ **آية** ﴾ بالنصب على أنها خبر ﴿ **يكن** ﴾، واسمها ﴿ **أن يعلمه** ﴾ إلخ . قال الزجاج: ﴿**أن يعلمه** ﴾ اسم ﴿**يكن** ﴾ و ﴿ **آية** ﴾ خبره . والمعنى : أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل أن محمدا نبى حق علامة ودلالة على نبوته ؛ لأن العلماء الذين آمنوا من بنى إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره فى كتبهم ، وكذا قال الفراء ، ووجها قراءة الرفع بما ذكرنا . وفى قراءة ابن عامر نظر ؛ لأن جعل النكرة اسما والمعرفة خبرا غير سائغ، وإن ورد شاذا فى مثل قول الشاعر :

فلا يك موقف منك الوداعا

وقول الآخر :

وكان مزاجها عسل وماء

ولا وجه لما قيل : إن النكرة قد تخصصت بقولهم : ﴿ **لهم** ﴾ لأنه فى محل نصب على الحال والحال صفة فى المعنى؛ فأحسن ما يقال فى التوجيه ما قدمنا ذكره من أن ﴿ **يكن** ﴾ تامة. ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين** ﴾ أى لو أنزلنا القرآن على الصفة التى هو عليها على رجل من الأعجمين الذى لا يقدرون على التكلم بالعربية . ﴿ **فقرأه عليهم** ﴾ قراءة صحيحة ﴿ **ما كانوا به مؤمنين** ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمى للكلام العربى إلى إعجاز القرآن . وقيل : المعنى : ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به ، وقالوا : ما نفقه هذا ولا نفهمه، ومثل هذا قوله : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ [فصلت : ٤٤] يقال : رجل أعجم وأعجمى : إذا كان غير فصيح اللسان وإن كان عربيا ، ورجل عجمى : إذا كان أصله من العجم وإن كان فصيحا ، إلا أن الفراء أجاز أن يقال : رجل عجمى بمعنى أعجمى ، وقرأ الحسن : «على بعض الأعجميين » وكذلك قرأ الجحدرى . قال أبو الفتح بن جنى: أصل الأعجمين: الأعجميين ، ثم حذفت ياء النسب ، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها .

﴿ **كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك السلك سلكناه ، أى أدخلناه فى قلوبهم : يعنى : القرآن حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه معجز . وقال الحسن وغيره : سلكنا الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين. وقال عكرمة : سلكنا القسوة . والأول أولى ؛ لأن السياق فى القرآن . وجملة : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ تحتمل وجهين : الأول : الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبلها . والثانى : أنها فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿**سلكناه** ﴾ ،ويجوز أن يكون حالا من ﴿ **المجرمين** ﴾. وأجاز الفراء الجزم فى ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة ، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت « لا » موضع « كيلا » مثل هذا ربما جزمت ما بعدها ، وربما رفعت ، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه : إن لم أربطه ينفلت ، وأنشد لبعض بنى عقيل :

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا ... مساكنة لا يقرف الشر قارف

بالرفع ، ومن الجزم قول الآخر :

لطال ما حلأتماها لا ترد ... فخلياها والسجال تبترد

قال النحاس : وهذا كله فى ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم ﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أى لا يؤمنون إلى هذه الغاية وهى مشاهدتهم للعذاب الأليم. ﴿ **فيأتيهم** ﴾ العذاب ﴿ **بغتة** ﴾ أى فجأة و الحال أنهم ﴿ **لا يشعرون** ﴾ بإتيانه ، وقرأ الحسن : « فتأتيهم » بالفوقية ، أى الساعة وإن لم يتقدّم لها ذكر ، لكنه قد دل العذاب عليها.

﴿ **فيقولوا هل نحن منظرون** ﴾ أى مؤخرون وممهلون . قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنيا للرجعة إلى الدنيا لاستدراك ما فرط منهم . وقيل : إن المراد بقولهم : ﴿ **هل نحن منظرون** ﴾ : الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ ولا يخفى ما فى هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر ، فإن معنى ﴿ **هل نحن منظرون** ﴾ : طلب النظرة والإمهال ، وأما قوله : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ فالمراد به : الردّ عليهم والإنكار لما وقع منهم من قولهم : ﴿ فأمطر[1] علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] وقولهم: ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ [الأعراف: ٧٠] ﴿ **أفرأيت إن متعناهم سنين** ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام كما مرّ فى غير موضع ، ومعنى أرأيت : أخبرنى ، والخطاب لكل من يصلح له ، أى أخبرنى إن متعناهم سنين فى الدنيا متطاولة ، وطولنا لهم الأعمار ﴿ **ثم جاءهم ما كانوا يوعدون** ﴾ من العذاب والهلاك ﴿ **ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون**﴾: « ما » هى الاستفهامية ، والمعنى : أى شيء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل ؟ و« ما » فى ﴿ **ما كانوا يمتعون** ﴾ يجوز أن تكون المصدرية ، ويجوز أن تكون الموصولة ، والاستفهام للإنكار التقريرى ، ويجوز أن تكون « ما » الأولى نافية ، والمفعول محذوف ، أى لم يغن عنهم تمتيعهم شيئا ، وقرئ : « يمتعون » بإسكان الميم وتخفيف التاء من أمتع الله زيدا بكذا ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون** ﴾ : « من » مزيدة للتأكيد ، أى وما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون . وجملة : ﴿ **إلا لها منذرون** ﴾ يجوز أن تكون صفة لقرية ، ويجوز أن تكون حالا منها ، وسوغ ذلك سبق النفى ، والمعنى : ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم والإعذار بإرسال الرسل وإنزال الكتب . وقوله : ﴿ **ذكرى** ﴾ بمعنى : تذكرة ، وهى فى محل نصب على العلة أو المصدرية . وقال الكسائى : ﴿ **ذكرى** ﴾ فى موضع نصب على الحال. وقال الفراء والزجاج : إنها فى موضع نصب على المصدرية ، أى يذكرون ذكرى . قال النحاس : وهذا قول صحيح؛ لأن معنى ﴿ **إلا لها منذرون** ﴾: إلا لها مذكرون . قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذكرى فى موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى إنذارنا ذكرى ، أو ذلك ذكرى . قال ابن الأنبارى : المعنى : هى ذكرى ، أو يذكرهم ذكرى، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف ﴿ **وما كنا ظالمين** ﴾ فى تعذيبهم ، فقد قدّمنا الحجة إليهم وأنذرناهم وأعذرنا إليهم .

﴿ **وما تنزلت به الشياطين** ﴾ أى بالقرآن ، وهذا ردّ لما زعمه الكفرة فى القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة ﴿ **وما ينبغى لهم** ﴾ ذلك ، ولا يصح منهم ﴿ **وما يستطيعون** ﴾ ما نسبه الكفار إليهم أصلا . ﴿ **إنهم عن السمع** ﴾ للقرآن ، أو لكلام الملائكة ﴿ **لمعزولون** ﴾ : محجوبون مرجومون بالشهب . وقرأ الحسن وابن السميفع والأعمش: « وما تنزلت به الشياطون »[2] بالواو والنون إجراء له مجرى جمع السلامة . قال النحاس: وهذا غلط عند

---

(١) فى المخطوطة : « أمطر » وهو خطأ .

(٢) فى المطبوعة : الشياطين .

جميع النحويين . قال : وسمعت على بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا من غلط العلماء ، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا ، وهو فى موضع رفع ؛ اشتبه عليه بالجمع السالم فغلط . قال الفراء : غلط الشيخ ، يعنى: الحسن ، فقيل ذلك للنضر ابن شميل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه ، يعنى محمد بن السميفع ،مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلا وقد سمعا فيه شيئا . وقال المؤرج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه . قال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول : دخلنا بساتين من ورائها بساتون .

ثم لما قرر سبحانه حقية القرآن وأنه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده فقال : ﴿**فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين**﴾ وخطاب النبى ﷺ بهذا مع كونه منزها عنه معصوما منه لحث العباد على التوحيد ونهيهم عن شوائب الشرك ، وكأنه قال : أنت أكرم الخلق على وأعزهم عندى ولو اتخذت معى إلها لعذبتك ، فكيف بغيرك من العباد. ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ خص الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أولى ، وهدايتهم إلى الحق أقدم . قيل: هم قريش ، وقيل : بنو عبد مناف ، وقيل : بنو هاشم . وقد ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت دعا النبى ﷺ قريشا ، فاجتمعوا فعم وخص ، فذلك منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين ، وسيأتى بيان ذلك . ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ يقال : خفض جناحه : إذا ألانه ، وفيه استعارة حسنة. والمعنى : ألن جناحك وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم . ﴿ **فإن عصوك** ﴾ أى خالفوا أمرك ولم يتبعوك ﴿ **فقل إنى برىء مما تعملون** ﴾ أى من عملكم ، أو من الذى تعملونه ، وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين :المشارفون للإيمان المصدقون باللسان ؛ لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه ولا يخالفونه .

ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال : ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم** ﴾ أى فوض أمورك إليه فإنه القادر على قهر الأعداء ، وهو الرحيم للأولياء . قرأ نافع وابن عامر : «فتوكل » بالفاء . وقرأ الباقون : ﴿ **وتوكل** ﴾ بالواو ، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها مترتبا عليه ، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفا على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب . ﴿ **الذى يراك حين تقوم** ﴾ أى حين تقوم إلى الصلاة وحدك فى قول أكثر المفسرين . وقال مجاهد : حين تقوم حيثما كنت . ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ أى ويراك إن صليت فى الجماعة راكعا وساجدا وقائما ، كذا قال أكثر المفسرين . وقيل : يراك فى الموحدين من نبى إلى نبى حتى أخرجك فى هذه الأمة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **يراك حين تقوم** ﴾ : قيامه إلى التهجد ، وقوله : ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ يريد : ترددك فى تصفح أحوال المجتهدين فى العبادة وتقلب بصرك فيهم ، كذا قال مجاهد . ﴿ **إنه هو السميع** ﴾ لما تقوله ﴿ **العليم** ﴾ به .

ثم أكد سبحانه معنى قوله : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين** ﴾ وبينه فقال : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين** ﴾ أى على من تتنزل ، فحذف إحدى التاءين ، وفيه بيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ . ﴿ **تنزل على كل أفاك أثيم** ﴾ . والأفاك : الكثير الإفك ، والأثيم : كثير الإثم ، والمراد بهم : كل من كان كاهنا ، فإن الشياطين كانت تسترق السمع ثم يأتون إليهم فيلقونه إليهم ، وهو معنى قوله : ﴿ **يلقون السمع** ﴾ أى مايسمعونه مما يسترقونه ، فتكون جملة : ﴿ **يلقون السمع** ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين فى محل نصب على الحال ، أى حال كون الشياطين ملقين السمع أى ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الكهان . ويجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع ، أى ينصتون إلى الملأ الأعلى ليسترقوا منهم شيئا ، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول : المسموع ، وعلى الوجه الثانى :نفس حاسة السمع . ويجوز أن تكون جملة : ﴿**يلقون السمع** ﴾ راجعة إلى كل أفاك أثيم على أنها صفة أو مستأنفة . ومعنى الإلقاء: أنهم يسمعون ما تلقيه إليهم الشياطين من الكلمات التى تصدق الواحدة منها ، وتكذب المائة الكلمة كما ورد فى الحديث. وجملة: ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ راجعة إلى كل أفاك أثيم ، أى وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين ؛ لأنهم يضمون إلى ما يسمعونه كثيرًا من أكاذيبهم المختلقة ،أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع، أى المسموع من الشياطين إلى الناس ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ راجعة إلى الشياطين ، أى وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعونه ؛ فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيرا من الكذب . وقد قيل : كيف يصح على الوجه الأوّل وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعا بالإفك . وأجيب بأن المراد بالأفاك : الذى يكثر الكذب لا الذى لا ينطق إلا بالكذب ، فالمراد بقوله : ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ : أنه قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الشياطين . والغرض الذى سيق لأجله هذا الكلام ردّ ما كان يزعمه المشركون من كون النبى ﷺ من جملة من يلقى إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب . ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق ، فكيف يكون كما زعموا ؟ ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين ، وهذا النبى المرسل من عند الله برسالته إلى الناس يذمهم ويلعنهم ويأمر بالتعوذ منهم .

ثم لما كان قد قال قائل من المشركين : إن النبى ﷺ شاعر ، بين سبحانه حال الشعراء ومنافاة ماهم عليه لما عليه النبى ﷺ فقال : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ والمعنى : أن الشعراء يتبعهم ، أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون ، أى : الضالون عن الحق، والشعراء : جمع شاعر ، والغاوون : جمع غاوٍ ، وهم ضُلال الجن والإنس . وقيل: الزائلون عن الحق . وقيل : الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لايجوز. وقيل: المراد : شعراء الكفار خاصة. قرأ الجمهور : ﴿ **والشعراء** ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره ما بعده ، وقرأ عيسى بن عمر : « الشعراء » بالنصب على الاشتغال، وقرأ نافع وشيبة

والحسن والسلمى : « يتبعهم » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد . ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال : ﴿ **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون** ﴾ والجملة مقرّرة لما قبلها ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، يقال : هام يهيم هيما وهيمانا : إذا ذهب على وجهه ، أى ألم تر أنهم فى كل فن من فنون الكذب يخوضون ، وفى كل شعب من شعاب الزور يتكلمون ؟ فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء ، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل ، وتارة يخوضون فى بحر السفاهة والوقاحة ، ويذمون الحق ويمدحون الباطل ، ويرغبون فى فعل المحرمات ، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه فى أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وأنهم يقولون مالا يفعلون** ﴾ أى يقولون: فعلنا وفعلنا وهم كذبة فى ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه ، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده فى كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات ، وأنهم فعلوا بهن كذا وكذا ، وذلك كذب محض وافتراء بحت .

ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحرى الحق والصدق فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى دخلوا فى حزب المؤمنين وعملوا بأعمالهم الصالحة ، ﴿ **وذكروا الله كثيرا** ﴾ فى أشعارهم ﴿ **وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ كمن يهجو منهم من هجاه ، أو ينتصر لعالم أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبى ﷺ فإنهم كانوا يهجون من يهجوه ، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم، ويدخل فى هذا من انتصر بشعره لأهل السنة وكافح أهل البدعة ، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم وهجو السنة المطهرة ، كما يقع ذلك كثيرا من شعراء الرافضة ونحوهم ، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة ، وفاعله من المجاهدين فى سبيل الله ، المنتصرين لدينه ، القائمين بما أمر الله بالقيام به . واعلم أن الشعر فى نفسه ينقسم إلى أقسام ، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام . وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب . وقد وردت أحاديث فى ذمه وذم الاستكثار منه ، ووردت أحاديث أخر فى إباحته وتجويزه ، والكلام فى تحقيق ذلك يطول ، وسنذكر فى آخر البحث ما ورد فى ذلك من الأحاديث .

ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ فإن فى قوله : ﴿ **سيعلم** ﴾ تهويلا عظيما وتهديدا شديدا ، وكذا فى إطلاق ﴿**الذين ظلموا** ﴾ وإبهام ﴿ **أى منقلب ينقلبون** ﴾ . وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء ، ولا وجه لذلك فإن الاعتبار بعموم اللفظ. وقوله: ﴿ **أى منقلب** ﴾ صفة لمصدر محذوف، أى ينقلبون منقلبا أى منقلب ، وقدم لتضمنه معنى الاستفهام ، ولا يعمل فيه ﴿ **سيعلم** ﴾ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، بل هو معلق عن العمل فيه . وقرأ ابن عباس والحسن : « أى

منفلت ينفلتون » بالفاء مكان القاف ، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون والفاء الفوقية . وقرأ الباقون بالقاف والباء من الانقلاب بالنون والقاف والموحدة ، والمعنى على قراءة ابن عباس والحسن: أن الظالمين يطمعون فى الانفلات من عذاب الله والانفكاك منه ولا يقدرون على ذلك.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾ قال : هذا القرآن ﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ قال: جبريل . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **الروح الأمين** ﴾ قال : « الروح الأمين: جبريل ، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بلسان عربى مبين** ﴾ قال : بلسان قريش ولو كان غير عربى ما فهموه . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن بريدة فى قوله : ﴿ **بلسان عربى مبين** ﴾ قال : بلسان جرهم [(١)] . وأخرج مثله أيضا عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن سلام من علماء بنى إسرائيل ، وكان من خيارهم فآمن بكتاب محمد ، فقال لهم الله : ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا وعم وخص فقال: « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يامعشر بنى قصىّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك ضرا ولا نفعا ، إلا أن لكم رحما وسأبلها ببلالها » [(٢)] . وفى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الذى يراك حين تقوم** ﴾ قال : للصلاة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه: ﴿ **الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين** ﴾ يقول : قيامك وركوعك وسجودك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا:﴿ **وتقلبك فى الساجدين**﴾ قال : يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم .وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿**وتقلبك فى الساجدين** ﴾ قال : كان النبى ﷺ إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه . ومنه الحديث فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٣٩ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٣٦٠ والبخارى فى التفسير (٤٧٧١) ومسلم فى الإيمان (٣٤٨/ ٢٠٤) والترمذى فى التفسير (٣١٨٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

«هل ترون قبلتى هاهنا ؟ فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم ، وإنى لأراكم من وراء ظهرى » (١) . وأخرج ابن أبى عمر العدنى فى مسنده والبزار وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ قال : من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبيا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عنه فى الآية نحوه.

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت: سأل أناس النبى ﷺ عن الكهان قال: « إنهم ليسوا بشىء » ، قالوا: يا رسول الله ، إنهم يحدثون أحيانا بالشىء يكون حقا ؟ قال : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » وفى لفظ للبخارى : « فيزيدون معها مائة كذبة»(٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ الآيات (٣). وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن عساكر عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ **والشعراء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ما لا يفعلون** ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم ، فأنزل الله : ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ينقلبون** ﴾ (٤) ، وروى نحو هذا من طرق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **يتبعهم الغاوون** ﴾ قال : هم الكفار يتبعون ضلال الجن والإنس ﴿ **فى كل واد يهيمون** ﴾ قال : فى كل لغو يخوضون ﴿ **وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾: أكثر قولهم يكذبون ، ثم استثنى منهم فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ قال : ردّوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **والشعراء** ﴾ قال : المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبى ﷺ ﴿**يتبعهم الغاوون** ﴾ قال : غواة الجن فى كل واد يهيمون فى كل فن من الكلام يأخذون . ثم استثنى فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ الآية ، يعنى : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك كانوا يذبون عن النبى ﷺ وأصحابه بهجاء المشركين . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **الغاوون** ﴾ قال : هم الرواة. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عنه أيضا: ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ الآية قال : أبو بكر وعمر وعلى وعبد الله بن رواحة .

وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك ؛ أنه قال للنبى ﷺ : إن الله قد أنزل فى الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال :« إن المؤمن

---

(١) مالك ١/ ١٦٧ وأحمد ٢/ ٣٠٣ والبخارى فى الصلاة (٤١٨) ومسلم فى الصلاة (٤٢٤ / ١٠٩) .
(٢) أحمد ٦/ ٨٧ والبخارى فى الطب (٥٧٦٢) ومسلم فى السلام (٢٢٢٨ / ١٢٢) .
(٣) ابن جرير ١٩/ ٧٨ .
(٤) ابن سعد ٣/ ٥٢٨ .

يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبى ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا » (٢) . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود مرفوعا : « الشعراء الذين يموتون فى الإسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين لأزواجهن فى الجنة ، والذين ماتوا فى الشرك يدعون بالويل والثبور فى النار » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن من الشعر لحكمة » قال : وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت فقالوا : إنا نقول الشعر وقد نزلت هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا » فقرؤوا : ﴿**والشعراء**﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فقال: « أنتم هم » ﴿ **وذكروا الله كثيرا** ﴾ فقال: « أنتم هم » ﴿ **وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ فقال : «أنتم هم » . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : « اهج المشركين ، فإن جبريل معك » (٤) . وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال : قيل يا رسول الله ، إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك ، فقام ابن رواحة فقال : يا رسول الله، ائذن لى فيه ، فقال : « أنت الذى تقول ثبت الله؟» فقال : نعم يا رسول ، قلت :

ثبت الله ما أعطاك من حسن   تثبيت موسى ونصرا مثل ما نصرا

قال : « وأنت ، ففعل الله بك مثل ذلك » ، ثم وثب كعب فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فيه ؟ فقال : «أنت الذى تقول همت ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، قلت :

همت سخينة أن تغالب ربها   فـلتـغلـبن مـغـالب الغـــلاب

فقال : « أما إن الله لم ينس ذلك لك » ، ثم قام حسان فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فيه ،وأخرج لسانا له أسود ، فقال: يا رسول الله ، لو شئت لفريت به المراد ، ائذن لى فيه ، فقال : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم واهجهم وجبريل معك» . وأخرج أحمد وابن سعد عن أبى هريرة قال : مر عمر بحسان وهو ينشد فى المسجد فلحظ إليه فنظر إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، فسكت ثم التفت حسان إلى أبى هريرة فقال : أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس ؟ » قال: نعم (٥). وأخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعا نحوه .

(١) أحمد ٦/ ٣٨٧ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦١٣٥) وأحمد ٣/ ٤١ ومسلم فى الشعر (٢٢٥٩/ ٩) .

(٣) الديلمى (٣٦١٣) .

(٤) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٠٧٣) والبخارى فى الأدب (٦١٥٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٦/ ١٥٣) .

(٥) أحمد ٢/ ٢٦٩ وابن سعد ٥/ ١٥٧ ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٥/ ٥١) وأبو داود فى الأدب (٥٠١٣) والنسائى ٢/ ٤٨ .

وأخرج ابن أبى شيبة عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من الشعر حكما » [١] . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود عن النبى ﷺ : « إن من الشعر حكما ، ومن البيان سحرا » [٢] . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه ، خير من أن يمتلئ شعرا » [٣] . وفى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا»[٤] . قال فى الصحاح : وروى القيح جوفه يريه وريا : إذا أكله . قال القرطبى : روى إسماعيل بن عيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيح الشعر كقبيح الكلام » . قال القرطبى : رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامى وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . قال : وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام» [٥] . وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ فقال:« هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ » قلت : نعم . قال : « هيه » فأنشدته بيتا ، فقال : « هيه » ، ثم أنشدته بيتا ، فقال: « هيه » حتى أنشدته مائة بيت [٦] . وأخرج ابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد فى قوله : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ قال : هؤلاء الذين يخربون البيت .

---

(١) ابن أبى شيبة (٦٠٥٩) وأبو داود فى الأدب (٥٠١٢) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٠٦٢) .

(٣) أحمد ٢/ ٢٨٨ والبخارى فى الأدب (٦١٥٥) ومسلم فى الشعر (٢٢٥٧/ ٨) وأبو داود فى الأدب (٥٠٠٩) والترمذى فى الأدب (٢٨٥١) وقال:«هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الأدب (٣٧٥٩) .

(٤) سبق تخريجه . (٥) القرطبى ٧/ ٤٨٦٦ .

(٦) مسلم فى الشعر (٢٢٥٥/ ١) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٥٨) .

تفسير سورة النمل

هى ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون .قال القرطبى : وهى مكية كلها فى قول الجميع [(١)] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة النمل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾.

قوله: ﴿ **طس**﴾ قد مرّ الكلام مفصلا فى فواتح السور ، وهذه الحروف إن كانت اسما للسورة فمحلها الرفع على الابتداء وما بعده خبره ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا اسم هذه السورة وإن لم تكن هذه الحروف اسما للسورة ، بل مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها ، والإشارة بقوله: ﴿ **تلك** ﴾ إلى نفس السورة؛ لأنها قد ذكرت إجمالا بذكر اسمها ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ **آيات القرآن** ﴾ والجملة خبر المبتدأ الأوّل على تقدير أنه مرتفع بالابتداء ﴿**وكتاب مبين** ﴾ قرأ الجمهور بجرّ كتاب عطفا على القرآن ، أى تلك آيات القرآن

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٨٧٠ .

وآيات كتاب مبين ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ وكتاب ﴾ : القرآن نفسه ، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد المدلول ،وأن يكون المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو نفس السورة ، وقرأ ابن أبى عبلة : « وكتاب مبين » برفعهما عطفا على آيات . وقيل : هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف وإقامة المضاف إليه مقامه ، أى وآيات كتاب مبين ، فقد وصف الآيات بالوصفين : القرآنية الدالة على كونه مقروءا مع الإشارة إلى كونه قرآنا عربيا معجزا ، والكتابية الدالة على كونه مكتوبا مع الإشارة إلى كونه متصفا بصفة الكتب المنزلة ، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة مع اتحاد المدلول ، ثم ضم إلى الوصفين وصفا ثالثا ، وهى الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه ، أو هو من أبان بمعنى : بان معناه واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة . وقدّم وصف القرآنية هنا نظرا إلى تقدّم حال القرآنية على حال الكتابة وأخّره في سورة الحجر فقال : ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ [الحجر: ١] ؛ نظرا إلى حالته التى قد صار عليها ، فإنه مكتوب . والكتابة سبب القراءة والله أعلم . وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب ، وتعريف الكتاب فى سورة الحجر ، وتنكير القرآن فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف والتنكير .

﴿ **هدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ فى موضع نصب على الحال من الآيات أو من الكتاب ، أى تلك آيات هادية ومبشرة، ويجوز أن يكون فى محل رفع على الابتداء ، أى هو هدى ، أو هما خبران آخران لتلك ، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر ، أى يهدى هدى ويبشر بشرى . ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ والموصول فى محل جرّ ، أو يكون بدلا أو بيانا ،أو منصوبا على المدح ، أو مرفوعا على تقدير مبتدأ . والمراد بالصلاة : الصلوات الخمس ، والمراد بالزكاة : الزكاة المفروضة ، وجملة : ﴿**وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكرّر الضمير للدلالة على الحصر ، أى لا يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، وجعل الخبر مضارعا للدلالة على التجدد فى كلّ وقت وعدم الانقطاع .

ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وهم الكفار، أى لا يصدّقون بالبعث ﴿ **زينا لهم أعمالهم** ﴾ قيل : المراد : زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : المراد : أن الله زين لهم الأعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيرى الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك . قال الزجاج : معنى الآية أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه ﴿ **فهم يعمهون** ﴾ أى يتردّدون فيها متحيرين على الاستمرار لا يهتدون إلى طريقة ولا يقفون على حقيقة. وقيل: معنى ﴿ **يعمهون** ﴾: يتمادون . وقال قتادة : يلعبون ، وفى معنى التحير قال الشاعر :

ومهمه أطرافه فى مهمه   أعمى الهدى الحائرين العمه

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المذكورين قبله ، وهو مبتدأ خبره ﴿لهم سوء العذاب ﴾ قيل : فى الدنيا كالقتل والأسر ، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده :﴿ وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ أى هم أشدّ الناس خسرانا وأعظمهم خيبة . ثم مهد سبحانه مقدّمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة ، فقال : ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أى يلقى عليك فتلقاه وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم. قيل: إن ﴿ لدن ﴾ ها هنا بمعنى عند . وفيها لغات كما تقدّم فى سورة الكهف .

﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ الظرف منصوب بمضمر وهو اذكر . قال الزجاج : موضع « إذ » نصب ، المعنى : اذكر إذ قال موسى ، أى اذكر قصته إذ قال لأهله ، والمراد بأهله : امرأته فى مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب ، فكنى عنها بلفظ الأهل الدالّ على الكثرة ، ومثله قوله: ﴿ امكثوا ﴾ [طه : ١٠]. ومعنى ﴿ إنى آنست نارا ﴾ : أبصرتها ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ السين تدلّ على بعد مسافة النار ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتنوين ﴿ شهاب ﴾ ، وقرأ الباقون بإضافته إلى قبس ، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلا من شهاب أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس ، وعلى القراءة الثانية بالإضافة للبيان، والمعنى على القراءتين : آتيكم بشعلة نار مقبوسة ، أى مأخوذة من أصلها . قال الزجاج : من نوّن جعل ﴿ قبس ﴾ من صفة شهاب ، وقال الفراء : هذه الإضافة كالإضافة فى قولهم : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، أضاف الشىء إلى نفسه لاختلاف أسمائه . وقال النحاس : هى إضافة النوع إلى الجنس كما تقول : ثوب خز ، وخاتم حديد . قال : ويجوز فى غير القرآن بشهاب قبسا على أنه مصدر أو بيان حال ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أى رجاء أن تستدفئوا بها ، أو لكى تستدفئوا بها من البرد ، يقال : صلى بالنار واصطلى بها : إذا استدفأ بها . قال الزجاج : كلّ أبيض ذى نور فهو شهاب . وقال أبو عبيدة : الشهاب : النار، ومنه قول أبى النجم :

كأنما كان شهابا واقدا أضاء ضوءا ثم صار خامدا

وقال ثعلب : أصل الشهاب : عود فى أحد طرفيه جمرة ، والآخر لا نار فيه ، والشهاب: الشعاع المضىء ، وقيل : للكوكب :شهاب ، ومنه قول الشاعر :

فى كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس

﴿ فلما جاءها ﴾ أى جاء النار موسى ﴿ نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ﴾: « أن » هى المفسرة لما فى النداء من معنى القول ، أو هى المصدرية ، أى بأن بورك . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . قال الزجاج : « أن » فى موضع نصب ، أى بأن قال ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله . والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى . وقرأ أبى وابن عباس ومجاهد : « أن بوركت النار ومن حولها » حكى ذلك أبو حاتم . وحكى الكسائى

عن العرب : باركك اللّه ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، وكذلك حكى هذا الفراء . قال ابن جرير : قال : ﴿ **بورك من فى النار** ﴾ ولم يقل : بورك على النار على لغة من يقول : باركك اللّه . أى بورك على من فى النار ، وهو موسى ، أو على من فى قرب النار لا أنه كان فى وسطها . وقال السدّى : كان فى النار ملائكة ، والنار هنا هى مجرّد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار ، فلما وصل إليها وجدها نورا . وحكى عن الحسن وسعيد بن جبير أن المراد بمن فى النار : هو اللّه سبحانه، أى نوره . وقيل : بورك ما فى النار من أمر اللّه سبحانه الذى جعلها على تلك الصفة . قال الواحدى : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار : النور ، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **وسبحان الله ربّ العالمين** ﴾ وفيه تعجيب لموسى من ذلك.

﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾ الضمير للشأن ، أنا اللّه العزيز الغالب القاهر الحكيم فى أمره وفعله. وقيل : إن موسى قال : ياربّ من الذى نادانى ؟ فأجابه اللّه سبحانه بقوله : ﴿ **إنه أنا الله** ﴾ ثم أمره سبحانه بأن يلقى عصاه ليعرف ما أجراه اللّه سبحانه على يده من المعجزة الخارقة ، وجملة : ﴿ **وألق عصاك** ﴾ معطوفة على ﴿ **بورك** ﴾، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها من يده فصارت حية ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جان** ﴾ قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرّك الجانّ ، وهى الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجانّ فى خفة حركتها ، وشبهها فى موضع آخر بالثعبان لعظمها . وجمع الجانّ :جنان وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبى : لا صغيرة ولا كبيرة ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ من الخوف ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أى لم يرجع ، يقال : عقب فلان : إذا رجع ، وكل راجع معقب . وقيل : لم يقف ولم يلتفت. والأوّل أولى ؛ لأن التعقيب هو الكرّ بعد الفرّ .

فلما وقع منه ذلك قال اللّه سبحانه : ﴿ **يا موسى لا تخف** ﴾ أى من الحية وضررها ﴿ **إنى لا يخاف لدىّ المرسلون** ﴾ أى لا يخاف عندى من أرسلته برسالتى فلا تخف أنت . قيل : ونفى الخوف عن المرسلين ليس فى جميع الأوقات ، بل فى وقت الخطاب لهم ؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون . ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : ﴿ **إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم** ﴾ أى لكن من أذنب فى ظلم نفسه بالمعصية ﴿ **ثم بدل حسنا** ﴾ أى توبة وندما ﴿ **بعد سوء** ﴾ أى بعد عمل سوء ﴿ **فإنى غفور رحيم** ﴾ وقيل : الاستثناء من مقدّر محذوف ، أى لا يخاف لدىّ المرسلون ، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل إلخ ، كذا قال الفراء. قال النحاس : الاستثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شىء لم يذكر . وروى عن الفراء أنه قال : إلا بمعنى الواو . وقيل : إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف . والمعنى: إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد ،واختار هذا النحاس، وقال : علم من عصى منهم فاستثناه فقال : ﴿ **إلا من ظلم** ﴾ وإن كنت قد غفرت له كآدم وداود وإخوة يوسف وموسى بقتله القبطىّ . ولا مانع من الخوف بعد المغفرة ، فإن نبينا ﷺ الذى

غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر كان يقول : «وددت أني شجرة تعضد » (١) .

﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ المراد بالجيب هو المعروف ، وفي القصص : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ [القصص: ٣٢] . وفي ﴿ أدخل ﴾ من المبالغة ما لم يكن في ﴿ اسلك﴾ . ﴿تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي من غير برص أو نحوه من الآفات، فهو احتراس . وقوله : ﴿تخرج ﴾ جواب : ﴿ أدخل يدك ﴾ . وقيل : في الكلام حذف تقديره : أدخل يدك تدخل وأخرجها تخرج ، ولا حاجة لهذا الحذف ولا ملجئ إليه . قال المفسرون : كانت على موسى مدرعة من صوف لا كمّ لها ولا إزار ، فأدخل يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تبرق كالبرق، وقوله : ﴿ في تسع آيات﴾ قال أبو البقاء : هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج ، وفيه بعد. وقيل : متعلق بمحذوف ، أي اذهب في تسع آيات. وقيل : متعلق بقوله : ﴿ ألق عصاك ﴾ و ﴿ أدخل يدك﴾ في جملة تسع آيات أو مع تسع آيات . وقيل: المعنى : فهما آيتان من تسع يعني: العصا واليد ، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان ، والفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم . قال النحاس : أحسن ما قيل فيه : أن هذه الآية يعني اليد داخلة في تسع آيات ، وكذا قال المهدوي والقشيري . قال القشيري: تقول: خرجت في عشرة نفر ، وأنت أحدهم ، أي خرجت عاشر عشرة ، ففي بمعنى من لقربها منها كما تقول : خذ لي عشرا من الإبل فيها فحلان ، أي منها. قال الأصمعي في قول امرئ القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثون شهرا في ثلاثة أحوال

في بمعنى من . وقيل : في بمعنى مع ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ قال الفراء : في الكلام إضمار ، أي إنك مبعوث،أو مرسل إلى فرعون وقومه ، وكذا قال الزجاج : ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ الجملة تعليل لما قبلها . ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ أي جاءتهم آياتنا التي على يد موسى حال كونها مبصرة ، أي واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ [الإسراء : ٥٩] . قال الأخفش : ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا . وقرأ عليّ بن الحسين وقتادة : « مبصرة » بفتح الميم والصاد، أي مكانا يكثر فيه التبصر ، كما يقال : الولد مجبنة ومبخلة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ أي لما جاءتهم قالوا هذا القول ، أي سحر واضح .

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ أي كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها فالواو للحال ، وانتصاب ﴿ ظلما وعلوا ﴾ على الحال ، أي ظالمين عالين ، ويجوز أن ينتصبا على العلة ، أي الحامل لهم على ذلك الظلم والعلوّ ، ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف ، أي

---

(١) الترمذي في الزهد (٢٣١٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة في الزهد (٤١٩٠) وأحمد ١٧٣/٥ وذكر أن هذه الجملة من قول أبي ذر .

جحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . قال أبو عبيدة: والباء في ﴿ **وجحدوا بها** ﴾ زائدة ، أي وجحدوها . قال الزجاج : التقدير : وجحدوا بها ظلما وعلوّا ، أي شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند اللّه ﴿ **فانظر** ﴾ يا محمد ، ﴿ **كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي تفكر في ذلك فإن فيه معتبرا للمعتبرين ؛ وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فلما جاءها نودى أن بورك من في النار** ﴾ يعني تبارك وتعالى : نفسه كان نور ربّ العالمين في الشجرة ﴿**ومن حولها** ﴾ يعني : الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : كان اللّه في النور نودى من النور ﴿**ومن حولها** ﴾ قال : الملائكة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : ناداه اللّه وهو في النور . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **أن بورك من في النار** ﴾ قال : بوركت النار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : في مصحف أبيّ بن كعب . « بوركت النار ومن حولها » أما النار فيزعمون أنها نور ربّ العالمين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أن بورك** ﴾ قال : قدّس .

وأخرج عبد بن حميد وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي عبيدة عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول اللّه ﷺ فقال : « إن اللّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كلّ شيء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ **أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله ربّ العالمين** ﴾ . والحديث أصله مخرّج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرّة (١) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه ، فقال له : أدخل يدك في جيبك فأدخلها . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ **واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا** ﴾ قال : تكبروا وقد استيقنتها أنفسهم ، وهذا من التقديم والتأخير.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

(١) أحمد ٤/ ٤٠٥ ومسلم في الإيمان (١٧٩/ ٢٩٣) وابن ماجة في المقدمة (١٩٥) والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٢٩٦.

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾.

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع فى قصة داود وابنه سليمان ، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هى كالبيان والتقرير لقوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ والتنوين فى ﴿ **علما** ﴾ إما للنوع ، أى طائفة من العلم ، أو للتعظيم ، أى علما كثيرا ، والواو فى قوله: ﴿ **وقالا الحمد لله** ﴾ للعطف على محذوف ؛ لأن هذا المقام مقام الفاء ؛ فالتقدير : ولقد آتيناهما علما فعملا به وقالا الحمد للّه ، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقا بعمل القلب ، وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ﴿ **الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ أى فضلنا بالعلم والنبوّة وتسخير الطير والجنّ والإنس ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعا منهم . وفى الآية دليل على شرف العلم وارتفاع محله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم التى ينعم اللّه بها على عباده، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من العباد ، ومنح شرفا جليلا .

﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ أى ورثه العلم والنبوة . قال قتادة والكلبى : كان لداود تسعة عشر ولدا ذكرا فورث سليمان من بينهم نبوّته ، ولو كان المراد : وراثة المال لم يخصّ سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده فى ذلك سواء ، وكذا قال جمهور المفسرين ، فهذه الوراثة هى وراثة مجازية كما فى قوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » (١). ﴿ **وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير** ﴾ قال سليمان هذه المقالة مخاطبا للناس تحدّثا بما أنعم اللّه به عليه وشكر النعمة التى خصه بها . وقدّم منطق الطير ؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره . قال الفراء : منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل ، وأنشد قول حميد بن ثور :

عجيب لها أن يكون غناؤها فصيحا ولم يغفر بمنطقها فما

(١) أحمد ٥/ ١٩٦ وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) وابن ماجة فى المقدمة (٢٢٣) والدارمى ١/ ٩٨،كلهم عن أبى الدرداء .

ومعنى الآية : فهمنا ما يقول الطير . قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جندا من جنده يسير معه لتظليله من الشمس . وقال قتادة والشعبى : إنما علم منطق الطير خاصة ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير ، وكثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التى سمع كلامها وفهمه ، ومعنى ﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ :كل شيء تدعو إليه الحاجة ، كالعلم والنبوّة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض . وجاء سليمان بنون العظمة ، والمراد : نفسه بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف ، لا تكبرا وتعظيما لنفسه ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من التعليم والإيتاء ﴿ **لهو الفضل المبين** ﴾ أى الظاهر الواضح الذى لا يخفى على أحد ، أو المظهر لفضيلتنا .

﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير** ﴾ الحشر: الجمع ، أى جمع له جنوده من هذه الأجناس. وقد أطال المفسرون فى ذكر مقدار جنده وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ولا تصحّ من جهة النقل ، ولو صحت لكان فى القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ أى لكلّ طائفة منهم وزعة تردّ أولهم على آخرهم فيقفون على مراتبهم، يقال : وزعه يزعه وزعا : كفه ، والوازع فى الحرب : الموكل بالصفوف يزع من تقدّم منهم ، أى يردّه ، ومنه قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا | وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقول الآخر :

ومن لم يزعه لبه وحياؤه | فليس له من شيب فوديه وازع

وقول الآخر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى | من الناس إلا وافر العقل كامله

وقيل : من التوزيع بمعنى : التفريق ، يقال : القوم أوزاع ، أى طوائف . ﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل** ﴾ حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام ويكون غاية لما قبلها ، والمعنى : فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية وهو إتيانهم على واد النمل ، أى فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ ، و﴿ **على واد النمل** ﴾ متعلق بـ﴿ **أتوا** ﴾ وعدى بعلى ؛ لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون . والمعنى : أنهم قطعوا الوادى وبلغوا آخره ، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله : ﴿ الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ [الفجر : ٩] . إلا الكسائى فإنه وقف بالياء ، قال : لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل . قال كعب : واد النمل بالطائف . وقال قتادة ومقاتل : هو بالشام ﴿ **قالت نملة** ﴾ هذا جواب إذا ، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى فرت ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة : ﴿ **يأيها النمل ادخلوا مساكنكم** ﴾ جعل خطاب النمل

كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب ، والمساكن هى الأمكنة التى يسكن النمل فيها . قيل : وهذه النملة التى سمعها سليمان هى أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها . وردّ هذا أبو حيان فقال: لحاق التاء فى قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة، بل يصحّ أن يقال فى المذكر : قالت ، لأن نملة وإن كانت بالتاء فهى مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى ، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ، ولا بالتعرّض لاسم النملة ولما ذكر من القصص الموضوعة والأحاديث المكذوبة . قرأ الحسن وطلحة ومعمر بن سليمان : « نملة » والنمل بضم الميم وفتح النون بزنة رجل وسمرة . وقرأ سليمان التيمى بضمتين فيهما .

﴿ **لا يحطمنكم سليمان وجنوده** ﴾ الحطم : الكسر ، يقال : حطمته حطما ، أى كسرته كسرا ، وتحطم : تكسر ، وهذا النهى هو فى الظاهر للنمل ، وفى الحقيقة لسليمان ، فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، ويجوز أن يكون بدلا من الأمر، ويحتمل أن يكون جوابا للأمر . قال أبو حيان : أما تخريجه على جواب الأمر فلا يكون إلا على قراءة الأعمش ، فإنه قرأ : «لا يحطمكم » بالجزم بدون نون التوكيد ، وأما مع وجود نون التوكيد فلا يجوز ذلك إلا فى الشعر . قال سيبويه : وهو قليل فى الشعر ، شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما . وقرأ أبىّ : «ادخلوا مساكنكنّ » وقرأ شهر بن حوشب: « مسكنكم ». وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى الهمدانى : « لا يحطمنكم » بضمّ الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب وأبو عمرو فى رواية بسكون نون التوكيد ، وجملة :﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **يحطمنكم** ﴾ أى لا يشعرون بحطمكم ولا يعلمون بمكانكم ، وقيل : إن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها ، وهو بعيد .

﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها** ﴾ قرأ ابن السميفع : « ضحكا » وعلى قراءة الجمهور يكون ﴿**ضاحكا** ﴾ حالا مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم . وقيل : هى حال مقدّرة لأن التبسم أوّل الضحك . وقيل : لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له . وقيل : إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير ، وعلى قراءة ابن السميفع يكون « ضحكا » مصدرا منصوبا بفعل محذوف أو فى موضع الحال ، وكان ضحك سليمان تعجبا من قولها وفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل ﴿ **وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ** ﴾ قد تقدّم بيان معنى أوزعنى قريبا فى قوله: ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال فى الكشاف : وحقيقة أوزعنى : اجعلنى أزع شكر نعمك عندى وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى حتى لا أنفك شاكرا لك . انتهى[١] . قال الواحدى : أوزعنى ، أى ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ ، يقال : فلان موزع بكذا ؛ أى مولع به . انتهى . قال القرطبى : وأصله من وزع ، فكأنه قال : كفنى عما يسخطك . انتهى [٢] . والمفعول الثانى لأوزعنى هو : أن أشكر نعمتك التى أنعمت على.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٥٧.

(٢) القرطبى ٧/ ٤٨٩٣.

وقال الزجاج : إن معنى ﴿ **أوزعني** ﴾ : امنعني أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم ، ومعنى ﴿ **وعلى والدى** ﴾ : الدعاء منه بأن يوزعه اللّه شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه ، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يستوجب الشكر منه للّه سبحانه ، ثم طلب أن يضيف اللّه له لواحق نعمه إلى سوابقها ، ولا سيما النعم الدينية ، فقال :﴿ **وأن أعمل صالحا ترضاه** ﴾ أى عملا صالحا ترضاه منى . ثم دعا أن يجعله اللّه سبحانه فى الآخرة داخلا فى زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التى يتعلق الطلب بها ، فقال: ﴿ **وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ والمعنى : أدخلنى فى جملتهم ، وأثبت اسمى فى أسمائهم ، واحشرنى فى زمرتهم إلى دار الصالحين وهى الجنة .

اللهم وإنى أدعوك بما دعاك به هذا النبىّ الكريم ، فتقبل ذلك منى وتفضل علىّ به ، فإنى وإن كنت مقصرا فى العمل ففضلك هو سبب الفوز بالخير ، فهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأن دخول الجنة التى هى دار المؤمنين بالتفضل منك لا بالعمل منهم ، كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه فى الصحيح : «سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمته » (١) . فإذا لم يكن إلا تفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز، والتفريط فى التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع .

ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان ، وذلك بدلالة الهدهد فقال : ﴿ **وتفقد الطير** ﴾ التفقد : تطلب ما غاب عنك وتعرف أحواله ، والطير: اسم جنس لكل ما يطير ، والمعنى : أنه تطلب ما فقد من الطير وتعرف حال ما غاب منها ، وكانت الطير تصحبه فى سفره ، وتظله بأجنحتها ﴿ **فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ أى ما للهدهد لا أراه ؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذى تستعمله العرب كثيرا ، وقيل : لا حاجة إلى ادّعاء القلب ، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد ، كأنه قال : مالى لا أراه؟ هل ذلك لساتر يستره عنى ؟ أو لشىء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب فقال : ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾ و« أم » هى المنقطعة التى بمعنى الإضراب . قرأ ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب « مالى » بفتح الياء ، وكذلك قرؤوا فى يس : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ [يس : ٢٢] بفتح الياء وقرأ بإسكانها فى الموضعين حمزة والكسائى (٢) ، ويعقوب . وقرأ الباقون بفتح التى فى يس وإسكان التى هنا . قال أبو عمرو : لأن هذه التى هنا استفهام ، والتى فى يس نفى ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان . ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه** ﴾ اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ما هو ؟ فقال مجاهد وابن جريج : هو أن ينتف ريشه جميعا . وقال يزيد بن

(١) أحمد ٦/ ١٢٥ والبخارى فى الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٨/٧٨) ،كلهم عن عائشة رضى اللّه عنها .

(٢) الكسائى ممن يقرؤها بالفتح فى الموضعين كما ذكر القرطبى ٧/ ٤٨٩٥.

رومان : هو أن ينتف ريش جناحيه . وقيل : هو أن يحبسه مع أضداده . وقيل : أن يمنعه من خدمته ، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد . وقوله : ﴿**عذابا**﴾ اسم مصدر على حذف الزوائد كقوله: ﴿ أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ [نوح:١٧] . ﴿ **أو ليأتيني بسلطان مبين** ﴾ قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية ، وقرأ الباقون بنون مشددة فقط ، وهى نون التوكيد ، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشدّدة مفتوحة غير موصولة بالياء، والسلطان المبين هو : الحجة البينة في غيبته . ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ أى الهدهد مكث زمانا غير بعيد . قرأ الجمهور : « مكث » بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها ، ومعناه فى القراءتين : أقام زمانا غير بعيد . قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كقعد يقعد قعودا . وقيل: إن الضمير فى مكث لسليمان . والمعنى : بقى سليمان بعد التفقد والتوعد زمانا غير طويل ، والأوّل أولى ﴿ **فقال أحطت بما لم تحط به** ﴾ أى علمت ما لم تعلمه من الأمر ، والإحاطة : العلم بالشىء من جميع جهاته ، ولعل فى الكلام حذفا ، والتقدير : فمكث الهدهد غير بعيد فجاء فعوتب على مغيبه، فقال معتذرا عن ذلك: ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾. قال الفراء: ويجوز إدغام التاء فى الطاء ،فيقال :أحطّ ،وإدغام الطاء فى التاء فيقال أحتّ ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ قرأ الجمهور من سبأ بالصرف على أنه اسم رجل ، نسب إليه قوم ، ومنه قول الشاعر:

الواردون وتيم فى ذرى سبأ قد غض أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة ، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل وقال : سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام . وقيل : هو اسم امرأة سميت بها المدينة . قال القرطبى : والصحيح أنه اسم رجل كما فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مسيك المرادى . قال ابن عطية : وخفى هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء . وزعم الفراء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال : ما أدرى ما هو ؟ قال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول هذا ، قال : والقول فى سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل اسم رجل ، فإن صرفته فلأنه قد صار اسما للحيّ ، وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل ثمود ، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف . انتهى. وأقول: لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس ، وهو أيضا اسم رجل من قحطان ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، ولكن المراد هنا : أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه ، وسيأتى فى آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا ويؤيده ، ومعنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين. والنبأ هو: الخبر الخطير الشأن.

فلما قال الهدهد لسليمان ما قال ، قال له سليمان : وما ذاك ؟ فقال : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم** ﴾ وهى بلقيس بنت شرحبيل ، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ ، والجملة هذه كالبيان ، والتفسير للجملة التى قبلها ، أى ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء

﴿**وأوتيت من كلّ شيء**﴾ فيه مبالغة، والمراد : أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التى تحتاجها . وقيل : المعنى : أوتيت من كل شيء فى زمانها شيئا ، فحذف شيئا ،لأن الكلام قد دلّ عليه ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ أى سرير عظيم ، ووصفه بالعظم لأنه ــ كما قيل ــ كان من ذهب طوله ثمانون ذراعا ، وعرضه أربعون ذراعا ، وارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر. وقيل: المراد بالعرش هنا : الملك ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ، ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وسرير عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله** ﴾ أى يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه سبحانه ، قيل: كانوا مجوسا. وقيل: زنادقة . ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ التى يعملونها وهى عبادة الشمس وسائر أعمال الكفر ﴿ **فصدهم عن السبيل** ﴾ أى صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح ، وهو الإيمان باللّه وتوحيده ﴿ **فهم لا يهتدون** ﴾ إلى ذلك .

﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ قرأ الجمهور بتشديد ﴿ **ألا** ﴾ . قال ابن الأنبارى : الوقف على فهم لا يهتدون غير تام عند من شدد ألا ؛ لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا . قال النحاس: هى أن دخلت عليها لا ، وهى فى موضع نصب . قال الأخفش : أى زين لهم أن يسجدوا للّه بمعنى : لئلا يسجدوا للّه . وقال الكسائى : هى فى موضع نصب بصدّهم ؛ أى فصدهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا ، فهو على الوجهين مفعول له . وقال اليزيدى: إنه بدل من أعمالهم فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل: العامل فيها ﴿ **لا يهتدون** ﴾ أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا للّه ، وتكون لا على هذا زائدة كقوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] . وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة ؛ لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين أو بالصد ،أو بمنع الاهتداء ، وقد رجح كونه علة للصدّ الزجاج ، ورجح الفراء كونه علة لزين ، قال : زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا ، ثم حذفت اللام . وقرأ الزهرى والكسائى بتخفيف « ألا » قال الكسائى: ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر ، فتكون « ألا » على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ، واسجدوا فعل أمر ، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا ، ولكن الصحابة رضى اللّه عنهم أسقطوا الألف من يا وهمزة الوصل من اسجدوا خطأ ووصلوا الياء بسين اسجدوا ،فصارت صورة الخط ألا يسجدوا ، والمنادى محذوف ، وتقديره:ألا يا هؤلاء اسجدوا . وقد حذفت العرب المنادى كثيرا فى كلامها ، ومنه قول الشاعر :

ألا يا اسلمى يا دار مىّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول الآخر أيضا :

ألا يا اسلمى يا هند هند بنى بكر

وهو كثير فى أشعارهم . قال الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضى وجوب السجود دون قراءة التشديد ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة التشديد . قال الزجاج : ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع فى وسطه ، وكذا قال النحاس ، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ معترضة من كلام الهدهد ، أو من كلام سليمان ، أو من كلام اللّه سبحانه . وفى قراءة عبد اللّه بن مسعود : « هل لا تسجدوا » بالفوقية ، وفى قراءة أبى : « ألا تسجدوا » بالفوقية أيضا . ﴿ **الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض** ﴾ أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما ، يقال : خبأت الشىء أخبؤه خبأ ، والخبء ما خبأته . قال الزجاج : جاء فى التفسير أن الخبء ها هنا بمعنى : القطر من السماء والنبات من الأرض . وقيل : خبء الأرض : كنوزها ونباتها . وقال قتادة : الخبء : السر . قال النحاس : أى ما غاب فى السموات والأرض . وقرأ أبىّ وعيسى بن عمر : « الخب » بفتح الباء من غير همز تخفيفا ، وقرأ عبد اللّه وعكرمة ومالك بن دينار : « الخبا » بالألف. قال أبو حاتم : وهذا لا يجوز فى العربية. وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن. وفى قراءة عبد اللّه : «يخرج الخب من السموات والأرض ». قال الفراء: ومن وفى يتعاقبان ، والموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للّه سبحانه ، أو بدلا منه ، أو بيانا له ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على المدح ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وجملة : ﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾ معطوفة على يخرج ، قرأ الجمهور بالتحتية فى الفعلين ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وحفص والكسائى بالفوقية للخطاب ، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة ، وأما القراءة الثانية : فلكون قراءة الزهرى والكسائى فيها الأمر بالسجود والخطاب لهم بذلك ، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب . والمعنى : أن اللّه سبحانه يخرج ما فى هذا العالم الإنسانى من الخفاء بعلمه له كما يخرج ما خفى فى السموات والأرض .

ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته وجليل سلطانه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة قال: ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ قرأ الجمهور﴿**العظيم**﴾: بالجرّ نعتا للعرش ، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتا للربّ ، وخصّ العرش بالذكر ؛ لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك فى المرفوع إلى رسول اللّه ﷺ .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه كتب : إن اللّه لم ينعم على عبد نعمة فحمد اللّه عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل. قال الله عزّ وجل: ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى**

فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ وأى نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان ؟ أقول : ليس فى الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله ، والذى تدلّ عليه أنهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم ، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله :﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ قال : ورثه نبوّته وملكه وعلمه . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان يستسقى بالناس ، فمرّ على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا ، فقال سليمان للناس : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم (١) . وأخرج الحاكم فى المستدرك عن جعفر بن محمد قال : أعطى سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والدواب والطير والسباع ، وأعطى كل شىء ، ومنطق كل شىء ، وفى زمانه صنعت الصنائع المعجبة ، حتى إذا أراد الله أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه ، وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة(٢) . قال الذهبى : هذا باطل ، قد رويت قصص فى عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر شىء منها ، فالإمساك عن ذكرها أولى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله :﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : جعل لكل صنف وزعة تردّ أولاها على أخراها لئلا تتقدّمه فى السير كما تصنع الملوك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**أوزعنى**﴾ قال : ألهمنى . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : إن سليمان نزل منزلا فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد يدلّ سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه ففقده ، قيل : كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ويضع له الصبى الحبالة فيغيبها فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القضاء ذهب البصر (٣) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ قال : أنتف ريشه كله ، وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال : كان اسم هدهد سليمان : غبر . وأقول : من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله ، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر أن اسم النملة : حرس ، وأنها من قبيلة يقال لها : بنو الشيصان ، وأنها كانت

---

(١) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٢٠).
(٢) الحاكم ٢/ ٥٨٨.
(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٩٠٢) وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

عرجاء ، وكانت بقدر الذئب ، وهو رحمه اللّه أورع الناس عن نقل الكذب ، ونحن نعلم أنه لم يصحّ عن رسول اللّه ﷺ فى ذلك شيء ، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان أو بأحد من أصحابه ، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب،وقد أمرنا أن لا نصدّقهم ولا نكذبهم ، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ماروى : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » (١) . فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب اللّه سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم . وقد كرّرنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ قال : خبر الحق الصدق البين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس : كلّ سلطان فى القرآن حجة وذكر هذه الآية ، ثم قال : وأىّ سلطان كان للهدهد ؟ يعنى : أن المراد بالسلطان :الحجة لا السلطان الذى هو الملك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ قال : اطلعت على ما لم تطلع عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **وجئتك من سبأ** ﴾ قال : سبأ بأرض اليمن ، يقال لها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ **بنبأ يقين** ﴾ قال : بخبر حقّ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم** ﴾ قال : كان اسمها : بلقيس بنت ذى شيرة ، وكانت صلباء شعراء . وروى عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد أنها : بلقيس بنت شراحيل ، وعن ابن جريج : بنت ذى شرح . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إحدى أبوى بلقيس كان جنيا » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ قال : سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالى الثمن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يخرج الخبء** ﴾ قال : يعلم كلّ خبيئة فى السماء والأرض .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا

---

(١) أخرج أحمد ٢/ ٢٠٢ (٣٤٦١) والترمذى فى العلم (٢٦٦٩) وقال : « . . هذا حديث حسن صحيح » عن عبد اللّه بن عمرو بنِ العاص قال : قال رسول اللّه ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

(٢) ابن جرير ١٩/ ٩٥ .

بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

جملة : ﴿ **قال سننظر** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أى قال سليمان للهدهد : سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿ **أصدقت** ﴾ فيما قلت ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ هذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على أنها مفعول ﴿**سننظر** ﴾ ، وأم هى المتصلة ، وقوله : ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ أبلغ من قوله : أم كذبت ؛ لأن المعنى : من الذين اتصفوا بالكذب وصار خلقا لهم . والنظر: هو التأمل والتصفح . وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار والكشف عن الحقائق وعدم قبول خبر المخبرين تقليدا لهم واعتمادا عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بين سليمان هذا النظر الذى وعد به فقال : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم** ﴾ أى إلى أهل سبأ . قال الزجاج : فى « ألقه » خمسة أوجه : إثبات الياء فى اللفظ وحذفها ، وإثبات الكسرة للدلالة عليها ، وبضم الهاء وإثبات الواو ، وبحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها ، وبإسكان الهاء . وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو وحمزة وأبو بكر . وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء . وروى عن هشام وجهان : إثبات الياء لفظا وحذفها مع كسر الهاء . وقرأ الباقون بإثبات الياء فى اللفظ ، وقوله :﴿ **بكتابى هذا** ﴾ يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب ، وأن يكون بدلا منه ، وأن يكون بيانا له . وخص الهدهد بإرساله بالكتاب ؛ لأنه المخبر بالقصة ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضى كونه أهلا للرسالة ﴿ **ثم تول عنهم** ﴾ أى تنح عنهم ، أمره بذلك لكون التنحى بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التى يتأدب بها رسل الملوك . والمراد : التنحى إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع . وقيل : معنى التولى : الرجوع إليه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ أى تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول وما يتراجعون بينهم من الكلام .

﴿ قالت ﴾ أى بلقيس ﴿ يأيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير: فذهب الهدهد فألقاه إليهم ، فسمعها تقول : ﴿ يأيها الملأ ﴾ إلخ . ووصفت الكتاب بالكريم ؛ لكونه من عند عظيم فى نفسها فعظمته إجلالا لسليمان . وقيل : وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن . وقيل : وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوما بخاتم سليمان ، وكرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا (١).

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أى وإن ما اشتمل عليه من الكلام وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية . ﴿ أن لا تعلوا علىّ ﴾ أى لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك ، و«أن» هى المفسرة . وقيل: مصدرية ، ولا ناهية. وقيل : نافية ، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب أو خبر مبتدأ محذوف،أى هو أن لا تعلوا. قرأ الجمهور : ﴿ إنه من سليمان وإنه ﴾ بكسرهما على الاستئناف ، وقرأ عكرمة وابن أبى عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجرّ ، وقرأ أبى : « إن من سليمان وإن بسم اللّه » بحذف الضميرين وإسكان النونين على أنهما مفسرتان ،وقرأ عبد اللّه بن مسعود :« وإنه من سليمان » بزيادة الواو ، وروى ذلك أيضا عن أبى . وقرأ أشهب العقيلى وابن السميفع: « أن لا تغلوا » بالغين المعجمة من الغلوّ ، وهو تجاوز الحدّ فى الكبر ﴿ وأتونى مسلمين ﴾ أى منقادين للدين مؤمنين بما جئت به .

﴿ قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ﴾ الملأ : أشراف القوم ، والمعنى : يأيها الأشراف ، أشيروا على ، وبينوا لى الصواب فى هذا الأمر ، وأجيبونى بما يقتضيه الحزم . وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون فى ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت لهم : يأيها الملأ إنى ألقى إلى ، يأيها الملأ أفتونى . وكرر « قالت » لمزيد العناية بما قالته لهم . ثم زادت فى التأدب واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ويشيروا عليها بالصواب فقالت : ﴿ ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ أى ما كنت مبرمة أمرا من الأمور حتى تحضروا عندى وتشيروا علىّ ، فقالوا مجيبين لها : ﴿ نحن أولو قوة ﴾ فى العدد والعدة ﴿ وأولو بأس شديد ﴾ عند الحرب واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا . ثم فوضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها وقوّة عقلها فقالوا : ﴿ والأمر إليك ﴾ أى موكول إلى رأيك ونظرك ﴿ فانظرى ماذا تأمرين ﴾ أى تأملى ماذا تأمرينا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون له ؟ فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أى إذا دخلوا قرية من القرى خرّبوا

---

(١) من ذلك ما أخرج البخارى فى اللباس (٥٨٧٢) ومسلم فى اللباس (٢٠٩٢/٥٦) وأبو داود فى الخاتم (٤٢١٤) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح ».كلهم عن أنس بن مالك أن نبى الله ﷺ أراد أن يكتب إلى رهط ـ أو أناس ـ من الأعاجم ، فقيل له : إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم. . .الحديث .

مبانيها ، وغيروا مغانيها، وأتلفوا أموالها ، وفرّقوا شمل أهلها ﴿ **وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ أى أهانوا أشرافها وحطوا مراتبهم ، فصاروا عند ذلك أذلة ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك وتستحكم لهم الوطأة وتتقرّر لهم فى قلوبهم المهابة . قال الزجاج: أى إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة . والمقصود من قولها هذا : تحذير قومها من مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وقد صدقها اللّه سبحانه فيما قالت ، فقال سبحانه : ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ أى مثل ذلك الفعل يفعلون . قال ابن الأنبارى : الوقف على قوله : ﴿ **وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ وقف تام ، فقال اللّه عزّ وجلّ تحقيقا لقولها : ﴿**وكذلك يفعلون** ﴾ . وقيل : هذه الجملة من تمام كلامها ، فتكون من جملة مقول قولها ، وعلى القول الأول تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

ثم لما قدّمت لهم هذه المقدمة ، وبينت لهم ما فى دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة ، وأوضحت لهم وجه الرأى عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت: ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية** ﴾ أى إنى أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلى إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال ، فإن كان ملكا أرضيناه بذلك وكفينا أمره ، وإن كان نبيا لم يرضه ذلك ؛ لأن غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين فلا ينجينا منه إلا إجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ؛ ولهذا قالت: ﴿ **فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ الفاء للعطف على مرسلة ، و ﴿ **بم** ﴾ متعلق بـ﴿**يرجع**﴾ ، والمعنى : إنى ناظرة فيما يرجع به رسلى المرسلون بالهدية من قبول أو رد فعاملة بما يقتضيه ذلك ، وقد طوّل المفسرون فى ذكر هذه الهدية ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب والصحة.

﴿ **فلما جاء سليمان** ﴾ أى فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان ، والمراد بهذا المضمر : الجنس ، فلا ينافى كونهم جماعة كما يدل عليه قولها : ﴿ **بم يرجع المرسلون** ﴾ وقرأ عبد اللّه : « فلما جاؤوا سليمان » أى الرسل ، وجملة : ﴿ **قال أتمدونن بمال** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر والاستفهام للاستنكار ، أى قال منكرا لإمدادهم له بالمال مع علوّ سلطانه وكثرة ماله . وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب فى نون الوقاية ، والباقون بنونين من غير إدغام ، وأما الياء فإن نافعا وأبا عمرو وحمزة يثبتونها وصلا ويحذفونها وقفا ، وابن كثير يثبتها فى الحالين ، والباقون يحذفونها فى الحالين . وروى عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة ﴿ **فما آتانى الله خير مما آتاكم**﴾ أى ما آتانى من النبوة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذى هذه الهدية من جملته . قرأ أبو عمرو ونافع وحفص ﴿ **آتانى الله** ﴾ بياء مفتوحة وقرأ يعقوب بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل ، وقرأ الباقون بغير ياء فى الوصل والوقف . ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدّم فقال : ﴿ **بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ توبيخا لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء ، وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتى ؛ لأن اللّه سبحانه قد أعطانى منها ما لم يعطه أحدا من العالمين ، ومع ذلك أكرمنى بالنبوّة . والمراد بهذا

الإضراب من سليمان : بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم والحط عليهم.

﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ أى قال سليمان للرسول : ارجع إليهم ، أى إلى بلقيس وقومها ، خاطب المفرد ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل ، إما لأن الذى سيرجع هو الرسول فقط ، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا وخاطبهم معه فيما سبق افتنانا فى الكلام . وقرأ عبد اللّه بن عباس : « ارجعوا » . وقيل : إن الضمير يرجع إلى الهدهد ، واللام فى « لنأتينهم » جواب قسم محذوف . قال النحاس : وسمعت ابن كيسان يقول : هى لام توكيد ولام أمر ولام خفض ، وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشىء إلى أصله ، وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية ، ومعنى ﴿ **لا قبل لهم** ﴾ : لا طاقة لهم بها ، والجملة فى محل جرّ صفة لجنود ﴿ **ولنخرجنهم** ﴾ معطوف على جواب القسم ، أى لنخرجنهم من أرضهم التى هم فيها ﴿ **أذلة** ﴾ أى حال كونهم أذلة بعد ما كانوا أعزة ، وجملة : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ فى محل نصب على الحال. قيل: وهى حال مؤكدة لأن الصغار هو الذلة . وقيل : إن المراد بالصغار هنا : الأسر والاستعباد. وقيل : إن الصغار: الإهانة التى تسبب عنها الذلة .

ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان ، وأخبر جبريل سليمان بذلك فقال سليمان : ﴿ **يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ أى عرش بلقيس الذى تقدّم وصفه بالعظم ﴿**قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ أى قبل أن تأتينى هى وقومها مسلمين . قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا ؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم . قال ابن عطية : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هى بعد مجىء هديتها وردّه إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين . وقيل : استدعاء العرش قبل وصولها ليريها القدرة التى هى من عند اللّه ويجعله دليلا على نبوّته ، وقيل : أراد أن يختبر عقلها ، ولهذا قال : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ ....إلخ. وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد فى وصفه للعرش بالعظم ، والقول الأوّل هو الذى عليه الأكثر .

﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ قرأ الجمهور بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء وسكون المثناة التحتية وبالتاء ، وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى وابن السميفع وأبو السمال : « عفريه » بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء رويت هذه القراءة عن أبى بكر الصديق . وقرأ أبو حيان بفتح العين .والعفريت :المارد الغليظ الشديد . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء : عفر وعفريه وعفريت . وقال قتادة : هو الداهية ، وقيل : هو رئيس الجنّ . قال ابن عطية : وقرأت فرقة :« عفر» بكسر العين جمعه على عفار ، ومما ورد من أشعار العرب مطابقا لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائى :

فقال شيطان لهم عفريت ... ما لكم مكث ولا تبييت

ومما ورد على القراءة الثانية قول ذى الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عفريــة مصوّب فى سواد الليل منقضب

ومعنى قول العفريت : أنه سيأتى بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذى يجلس فيه للحكومة بين الناس ﴿ **وإني عليه لقوى أمين** ﴾ إنى لقوىّ على حمله ، أمين على ما فيه . قيل : اسم هذا العفريت : كودن ذكره النحاس عن وهب بن منبه . وقال السهيلى : ذكوان . وقيل : اسمه : دعوان . وقيل : صخر . وقوله : ﴿ **آتيك** ﴾ فعل مضارع ، وأصله أأتيك بهمزتين ، فأبدلت الثانية ألفا . وقيل : هو اسم فاعل .

﴿**قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك**﴾ **قال أكثر المفسرين** : اسم هذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو من بنى إسرائيل ، وكان وزيرا لسليمان ، وكان يعلم اسم اللّه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . قال ابن عطية وقالت فرقة : هو سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت فقال له تحقيرا له: ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ **وقيل هو جبريل** ، وقيل : الخضر. والأوّل أولى . وقد قيل : غير ذلك بما لا أصل له . والمراد بالطرف : تحريك الأجفان وفتحها للنظر وارتداده انضمامها. وقيل: هو بمعنى المطروف ، أى الشىء الذى ينظره . وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك : افعل ذلك فى لحظة : قاله مجاهد. وقال سعيد بن جبير: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به ، فوضعه بين يديه والمعنى : حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء ، والأول أولى هـذه الأقوال ، ثم الثالث ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده** ﴾ قيل : فى الآية حذف ، والتقدير : فأذن له سليمان فدعا اللّه فأتى به ، فلما رآه سليمان مستقرا عنده ، أى رأى العرش حاضرا لديه ﴿ **قال هذا من فـضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ **هذا** ﴾ إلى حضور العرش، ﴿**ليبلونى** ﴾ أى ليختبرنى أشكره بذلك وأعترف أنه من فضله من غير حول منى ولا قوّة أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به. قال الأخفش: المعنى : لينظر أأشكر أم أكفر ، وقال غيره : معنى ﴿ **ليبلونى** ﴾ : ليتعبدنى ، وهو مجاز . والأصل فى الابتلاء : الاختبار . ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها ، والمعنى : أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر ﴿ **ومن كفر** ﴾ بترك الشكر ﴿ **فإن ربى غنى** ﴾ عن شكره ﴿ **كريم** ﴾ فى ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه وسلبه ما أعطاه منها ، « وأم » فى ﴿ **أم أكفر** ﴾ هى متصلة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم** ﴾ يقول : كن قريبا منهم ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها فقرئ عليها فإذا فيه : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾. وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ **كتاب كريم** ﴾ قال : مختوم. وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ميمون بن مهران ،أن النبى ﷺ كان يكتب : « باسمك اللهم » حتى نزلت ﴿ **إنه**

من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . وأخرج أبو داود فى مراسيله عن أبى مالك مرفوعا مثله [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أفتونى فى أمرى ﴾ قال : جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم فى رأيها ، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه ، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت : أرسل إليه بهدية فإن قبلها فهو ملك أقاتله ، وإن ردّها تابعته فهو نبىّ ، فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم ، فأمر الشياطين فموّهوا ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا وقصوره ذهب وفضة ، فلما دخلوا عليه بهديتها قال : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ ثم قال سليمان : ﴿ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ فقال كاتب سليمان: ارفع بصرك ، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير ﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ فنزع منه فصوصه ومرافقه وما كان عليه من شىء فقيل لها: ﴿ أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾ وأمرالشياطين فجعلوا لها صرحا ممرّدا من قوارير وجعل فيها تماثيل السمك ، فقيل لها : ﴿ ادخلى الصرح ﴾ فكشفت عن ساقيها فإذا فيها شعر . فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت . فقيل لها : ﴿ إنه صرح ممرّد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : يقول الربّ تبارك وتعالى : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ﴾ قال : أرسلت بلبنة من ذهب ، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ الآية . وقال ثابت البنانى: أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج . وقال مجاهد : جوارى لباسهن لباس الغلمان ، وغلمان لباسهم لباس الجوارى. وقال عكرمة : أهدت مائتى فرس على كل فرس غلام وجارية ، وعلى كلّ فرس لون ليس على الآخر . وقال سعيد بن جبير : كانت الهدية جواهر ، وقيل :غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره .

وأخرج ابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله:﴿ قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ قال : طائعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه قال : اسم العفريت : صخر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه أيضا : ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قال : من مجلسك . وأخرج ابن أبى حاتم ، عنه أيضا : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ﴾ قال : هو آصف بن برخيا ، وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم . وأخرج أبو عبيد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال فى قراءة ابن مسعود: « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا أنظر فى كتاب ربى ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٣٥) وقال المحقق : « رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبى مالك وهو ثقة » .

طرفك » قال: فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش فى نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم . وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس ، فى قوله: ﴿ قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قال : قال لسليمان: انظر إلى السماء ، قال : فما أطرف حتى جاءه به فوضعه بين يديه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض ، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدى سليمان [١] .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ التنكير : التغيير ، يقول : غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته . قيل : جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه . وقيل : غير بزيادة ونقصان . قال الفراء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن فى عقلها شيئا ، فأراد أن يمتحنها. وقيل : خافت الجنّ أن يتزوّج بها سليمان ، فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدا، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الحمار ، وقوله : ﴿ ننظر ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ، وبالجزم قرأ الجمهور ، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف ﴿ أتهتدى ﴾ إلى معرفته ، أو إلى الإيمان بالله ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ إلى ذلك .

﴿ فلما جاءت ﴾ أى بلقيس إلى سليمان ﴿ قيل ﴾ لها ، والقائل هو سليمان ، أو غيره بأمره : ﴿ أهكذا عرشك ﴾ لم يقل : هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتم الاختبار لعقلها ﴿ قالت كأنه هو ﴾ قال مجاهد: جعلت تعرف وتنكر وتعجب من حضوره عند سليمان ، فقالت : كأنه هو . وقال مقاتل :عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها : أهذا عرشك ؟ لقالت : نعم . وقال عكرمة : كانت حكيمة ، قالت إن قلت : هو هو، خشيت أن أكذب ، وإن قلت : لا ، خشيت أن أكذب ، فقالت : كأنه هو ، وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وكنا مسلمين ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها .

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٩٠٣) .

وقيل: هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال .

﴿ **وصدّها ما كانت تعبد من دون الله** ﴾ هذا من كلام اللّه سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادّعته من الإسلام ، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد ، أى منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده ، وهى الشمس . قال النحاس : أى صدّها عبادتها من دون اللّه . وقيل :فاعل صد هو الله ، أى منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون « ما » فى محل نصب . وقيل : الفاعل سليمان ، أى ومنعها سليمان ما كانت تعبد ، والأول أولى ، والجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا ، وجملة : ﴿ **إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ تعليل للجملة الأولى ، أى سبب تأخرها عن عبادة اللّه ، ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر . قرأ الجمهور : ﴿ **إنها** ﴾ بالكسر. وقرأ أبو حيان بالفتح . وفى هذه القراءة وجهان : أحدهما : أن الجملة بدل مما كانت تعبد . والثانى : أن التقدير : لأنها كانت تعبد ، فسقط حرف التعليل .

﴿ **قيل لها ادخلى الصرح** ﴾. قال أبو عبيدة : الصرح: القصر. وقال الزجاج : الصرح : الصحن . يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها . قال ابن قتيبة : الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير وجعل تحته ماء وسمك. وحكى أبو عبيد فى الغريب أن الصرح: كل بناء عال مرتفع ، وأن الممرّد : الطويل ﴿ **فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها** ﴾ أى فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة ، واللجة : معظم الماء ، فلذلك كشفت عن ساقيها لتخوض الماء ، فلما فعلت ذلك ﴿ **قال** ﴾ سليمان : ﴿ **إنه صرح ممرّد من قوارير** ﴾ الممرّد : المحكوك المملس ، ومنه الأمرد ، وتمرد الرجل إذا لم تخرج لحيته ، قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء : التى لا ورق لها . والممرّد أيضا : المطوّل ، ومنه قيل للحصن : مارد، ومنه قول الشاعر :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم ... قبيل الضحى فى السابرى الممرّد

أى الدروع الواسعة الطويلة . فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت ، قالت : ﴿**ربّ إنى ظلمت نفسى**﴾ أى بما كنت عليه من عبادة غيرك . وقيل : بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها توهمت أنه أراد تغريقها فى اللجة ، والأوّل أولى ﴿ **وأسلمت مع سليمان** ﴾ متابعة له داخلة فى دينه ﴿ **لله ربّ العالمين** ﴾ التفتت من الخطاب إلى الغيبة ، قيل : لإظهار معرفتها باللّه ، والأولى أنها التفتت لما فى هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علما للذات . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ قال : زيد فيه ونقص ﴿ **ننظر أتهتدى** ﴾ قال : لننظر إلى عقلها فوجدت ثابتة العقل .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها** ﴾ قال : من قول سليمان . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد نحوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما رأته حسبته لجة** ﴾ قال : بحرا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم

عنه فى أثـر طويل ؛أن سليمان تزوّجها بعد ذلك . قال أبو بكر بن أبى شيبة : ما أحسنه من حديث . قال ابن كثير فى تفسيره بعد حكايته لقول أبى بكر بن أبى شيبة : بل هو منكر جدا، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، واللّه أعلم . والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب بما يوجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما اللّه فيما نقلا إلى هذه الأمة من بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حـــرّف وبدّل ونسخ . انتهى [(١)] . وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه فى هذا التفسير ونبهنا عليه فى عدة مواضع ، وكنت أظنّ أنه لم ينبه على ذلك غيرى . فالحمد للّه على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، والعقيلى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أوّل من صنعت له الحمامات سليمان » [(٢)] . وروى عنه مرفوعا من طريق أخرى رواها الطبرانى ، وابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى الشعب بلفظ : « أوّل من دخل الحمام سليمان فلما وجد حرّه قال : أوّه من عذاب اللّه » [(٣)] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾معطوف على قوله : ﴿ **ولقد آتينا داود** ﴾ واللام هى الموطئة للقسم ، وهذه القصة من جملة بيان قوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ و﴿**صالحا** ﴾ عطف بيان ، و﴿ **أن اعبدوا الله** ﴾ تفسير للرسالة وأن هى المفسرة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن اعبدوا اللّه ، و « إذا » فى ﴿ **فإذا هم فريقان** ﴾ هى الفجائية ، أى ففاجئوا التفرق والاختصام ، والمراد بـالـ ﴿ **فريقان** ﴾ : المؤمنون منهم والكافرون . ومعنى

---

(١) ابن كثير ٥/ ٢٤٠ .

(٢) البخارى فى التاريخ ١/ ٣٦٢ وقال : « إسماعيل بن عبد الرحمن لا يتابع عليه ، فيه نظر » .

(٣) ابن عدى ١/ ٢٨٦ والبيهقى فى الشعب (٧٧٧٨) ط:دار الكتب العلمية ، وقد تفرد به إسماعيل بن عبد الرحمن وسبق تعليق البخارى عليه . انظر : لسان الميزان ١/ ٤٦٧ .

الاختصام : أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه ويزعم أن الحقّ معه . وقيل : إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا ؟ وقيل : أحد الفريقين صالح ، والفريق الآخر جميع قومه ، وهو ضعيف .

﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أى قال صالح للفريق الكافر منهم منكرا عليهم : لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة . والمعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب وتقدّمون الكفر الذى يجلب إليكم العقوبة ؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون : ائتنا يا صالح بالعذاب ﴿ **لولا تستغفرون الله** ﴾ هلا تستغفرون اللّه وتتوبون إليه من الشرك ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ رجاء أن ترحموا أوكى ترحموا فلا تعذبوا ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشرّ ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازا ؛ إما لأن العقاب من لوازمه ؛ أوأنه يشبهه فى كونه مكروها ، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم ﴿ **قالوا اطيرنا بك وبمن معك** ﴾ أصله تطيرنا ،وقد قرئ بذلك. والتطير : التشاؤم ، أى تشاءمنا بك وبمن معك ممن أجابك ودخل فى دينك وذلك ؛ لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح ، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهم بها وكانوا إذا أرادوا سفرا أو أمرا من الأمور نفروا طائرا من وكره فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك قال لهم صالح: ﴿ **طائركم عند الله** ﴾ أى ليس ذلك بسبب الطير الذى تتشاءمون به ، بل سبب ذلك عند اللّه ، وهو ما يقدّره عليكم ، والمعنى : أن الشؤم الذى أصابكم هو من عند اللّه بسبب كفركم وهذا كقوله تعالى : ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند اللّه ﴾ [الأعراف : ١٣١] . ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان ، فقال : ﴿ **بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ أى تمتحنون وتختبرون . وقيل : تعذبون بذنوبكم . وقيل : يفتنكم غيركم . وقيل : يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعى إليه .

﴿ **وكان فى المدينة** ﴾ التى فيها صالح ، وهو الحجر ﴿ **تسعة رهط** ﴾ أى تسعة رجال من أبناء الأشراف . والرهط : اسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كلّ واحد منهم جماعة . والجمع أرهط وأراهط . وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة . ثم وصف هؤلاء بقوله : ﴿ **يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ أى شأنهم وعملهم الفساد فى الأرض الذى لا يخالطه صلاح،وقد اختلف فى أسماء هؤلاء التسعة اختلافا كثيرا لا حاجة إلى التطويل بذكره . ﴿ **قالوا تقاسموا بالله** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : احلفوا باللّه ، هذا على أن ﴿ **تقاسموا** ﴾ فعل أمر ، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا ، كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقال : تقاسموا ، أو يكون حالا على إضمار قد ، أى قالوا ذلك متقاسمين . وقرأ ابن مسعود : « يفسدون فى الأرض ولا يصلحون تقاسموا باللّه » وليس فيها قالوا ، واللام فى ﴿ **لنبيتنه وأهله** ﴾ جواب القسم ، أى لنأتينه بغتة فى وقت البيات ، فنقتله وأهله ﴿ **ثم لنقولن لوليه** ﴾ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم فى

﴿لنبيتنه﴾ وفى **﴿ لنقولن ﴾** ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ حمزة والكسائى بالفوقية فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ مجاهد وحميد بالتحتية فيهما ، والمراد بولىّ صالح : رهطه **﴿ ما شهدنا مهلك أهله ﴾** أى ما حضرنا قتلهم ولا ندرى من قتله وقتل أهله ، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفى شهودهم لنفس القتل بالأولى ، وقيل : إن المهلك بمعنى : الإهلاك ، وقرأ حفص والسلمى مهلك بفتح الميم واللام، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم وكسرها [١] . **﴿ وإنا لصادقون ﴾** فيما قلناه . قال الزجاج : وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه وكان هذا مكرا منهم ؛ ولهذا قال اللّه سبحانه: **﴿ومكروا مكرا ﴾** أى بهذه المحالفة **﴿ ومكرنا مكرا ﴾** جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم **﴿ وهم لا يشعرون ﴾** بمكر اللّه بهم .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ أى انظر ما انتهى إليه أمرهم الذى بنوه على المكر وما أصابهم بسببه **﴿ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾** قرأ الجمهور بكسر همزة أنا ، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش والحسن وابن أبى اسحاق وعاصم بفتحها ، فمن كسر جعله استئنافا . قال الفراء والزجاج : من كسر استأنف، وهو يفسر به ما كان قبله . كأنه جعله تابعا للعاقبة ، كأنه قال: العاقبة إنا دمرناهم ،وعلى قراءة الفتح يكون التقدير: بأنا دمرناهم أو لأنا دمرناهم ، وكان تامة وعاقبة فاعل لها ، أو يكون بدلا من عاقبة ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى هى أنا دمرناهم ويجوز أن تكون كان ناقصة وكيف خبرها ، ويجوز أن يكون خبرها أنا دمرنا . قال أبو حاتم : وفى حرف أبى : « أن دمرناهم » . والمعنى فى الآية : أن اللّه دمر التسعة الرهط المذكورين . ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك ، ومعنى التأكيد بأجمعين : أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وجملة : **﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾** مقرّرة لما قبلها . قرأ الجمهور : **﴿ خاوية ﴾** بالنصب على الحال . قال الزجاج : المعنى : فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية ، وكذا قال الفراء والنحاس ، أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : نصب خاوية على القطع . والأصل : فتلك بيوتهم الخاوية . فلما قطع منها الألف واللام نصبت كقوله : ﴿ وله الدين واصبا ﴾ [النحل : ٥٢] . وقرأ عاصم بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى وعيسى بن عمر برفع **﴿ خاوية ﴾** على أنه خبر اسم الإشارة وبيوتهم بدل ، أو عطف بيان ، أو خبر لاسم الإشارة وخاوية خبر آخر . والباء فى : **﴿ بما ظلموا ﴾** للسببية ، أى بسبب ظلمهم **﴿ إن فى ذلك ﴾** التدمير والإهلاك **﴿ لآية ﴾** عظيمة **﴿ لقوم يعلمون ﴾** أى يتصفون بالعلم بالأشياء . **﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾** وهم صالح ومن آمن به **﴿ وكانوا يتقون ﴾** اللّه ويخافون عذابه .

---

(١) فى المخطوطة : « قرأ حفص والسلمى مهلك بفتح الميم واللام، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم وكسر اللام» ، وفى العبارة قلب إذ الثابت أن حفصا قرأ بفتح الميم وكسر اللام وكذا السلمى، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم واللام . انظر : النشر فى القراءات العشر ٢/ ٣١١ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **طائركم** ﴾ قال : مصائبكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وكان فى المدينة تسعة رهط** ﴾ قال : هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها : نبيت صالحا وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به علم فدمرهم اللّه أجمعين .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾.

انتصاب ﴿ **لوطا** ﴾ بفعل مضمر معطوف على أرسلنا ، أى وأرسلنا لوطا ، و ﴿ **إذ قال**﴾ ظرف للفعل المقدر ويجوز أن يقدر : اذكر ؛ والمعنى : وأرسلنا لوطا وقت قوله لقومه:﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ أى الفعلة المتناهية فى القبح والشناعة ، وهم أهل سدوم ، وجملة : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ فى محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار ، أى وأنتم تعلمون أنها فاحشة. وذلك أعظم لذنوبكم ، على أن ﴿ **تبصرون** ﴾ من بصر القلب ، وهو العلم ، أو بمعنى النظر؛ لأنهم كانوا لا يسترون حال فعل الفاحشة عتوا وتمردا ، وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف مستوفى . ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال شهوة** ﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هى اللواطة ، وانتصاب ﴿ **شهوة** ﴾ على العلة ، أى للشهوة ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى إتيانا شهوة ، أو أنه بمعنى الحال ، أى مشتهين لهم ﴿ **من دون النساء** ﴾ أى

متجاوزين النساء اللاتى هنّ محل لذلك ﴿ **بل أنتم قوم تجهلون** ﴾ التحريم أو العقوبة على هذه المعصية ، واختار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة من أئنكم .

﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ **جواب** ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ أى إلا قولهم . وقرأ ابن أبى إسحاق برفع جواب على أنه اسم كان وخبرها ما بعده . ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضا من الإخراج بقولهم : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ أى يتنزهون عن أدبار الرجال : قالوا ذلك استهزاء منهم بهم. ﴿ **فأنجيناه وأهله** ﴾ من العذاب ﴿ **إلا امرأته قدّرناها من الغابرين** ﴾ أى قدّرنا أنها من الباقين فى العذاب ، ومعنى ﴿ **قدرنا** ﴾ : قضينا قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد ، وقرأ عاصم بالتخفيف . والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى . ﴿**وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ هذا التأكيد يدل على شدة المطر وأنه غير معهود ﴿ **فساء مطر المنذرين**﴾ المخصوص بالذم محذوف ، أى ساء مطر المنذرين مطرهم ، والمراد بالمنذرين : الذين أنذروا فلم يقبلوا ، وقد مضى بيان هذا كله فى الأعراف والشعراء .

﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده** ﴾ قال الفراء : قال أهل المعانى : قيل للوط : قل : الحمد للّه على هلاكهم، وخالفه جماعة فقالوا : إن هذا خطاب لنبينا ﷺ ، أى قيل : الحمد للّه على هلاك كفار الأمم الخالية ، وسلام على عباده ﴿ **الذين اصطفى** ﴾ قال النحاس : وهذا أولى لأن القرآن منزل على النبى ﷺ وكلّ ما فيه فهو مخاطب به إلا ما لم يصحّ معناه إلا لغيره . قيل : والمراد بعباده الذين اصطفى : أمة محمد ﷺ، والأولى حمله على العموم ، فيدخل فى ذلك الأنبياء(١) وأتباعهم ﴿ **آلله خير أما يشركون** ﴾ أى اللّه الذى ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام ؟ وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلى ، بل هى كقول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما فى الآية من باب التهكم بهم ، إذ لا خير فيهم أصلا . وقد حكى سيبويه أن العرب تقول : السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة ، ولا خير فى الشقاوة أصلا . وقيل : المعنى : أثواب اللّه خير ، أم عقاب ما تشركون به ؟ وقيل : قال لهم ذلك جريا على اعتقادهم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا . وقيل: المراد من هذا الاستفهام : الخبر . قرأ الجمهور : « تشركون » بالفوقية على الخطاب ، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿ **يشركون** ﴾ بالتحتية ، و« أم » فى ﴿ **أما يشركون** ﴾ هى المتصلة ، وأما فى قوله : ﴿ **أمن خلق السموات والأرض** ﴾ فهى المنقطعة . وقال أبو حاتم : تقديره : ءالهتكم خير أم من خلق السموات والأرض وقدر على خلقهنّ ؟ وقيل : المعنى : أعبادة ما

(١) فى المطبوعة :« الأنباء » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تعبدون من أوثانكم خير ، أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فتكون « أم » على هذا متصلة وفيها معنى التوبيخ والتهكم كما فى الجملة الأولى . وقرأ الأعمش: « أمن » بتخفيف الميم **﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾** أى نوعا من الماء ،وهو المطر **﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾** جمع حديقة. قال الفراء : الحديقة : البستان الذى عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق : النخل **﴿ ذات بهجة ﴾** أى ذات حسن ورونق . والبهجة : هى الحسن الذى يبتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة على الجمع ؛ لأن المعنى : جماعة حدائق **﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾** أى ما صح لكم أن تفعلوا ذلك ، ومعنى هذا النفى : الحظر والمنع من فعل هذا ، أى ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ذلك ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشىء من العدم إلى الوجود . ثم قال سبحانه موبخا لهم مقرّعا **﴿ أإله مع الله ﴾** أى هل معبود مع اللّه الذى تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل شريكا له فى العبادة ؟ وقرئ:« أإلها مع اللّه » بالنصب على تقدير: أتدعون إلها . ثم أضرب عن تقريعهم وتوبيخهم بما تقدم وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فقال: **﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾** أى يعدلون باللّه غيره، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل .

ثم شرع فى الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها فقال :**﴿ أمن جعل الأرض قرارا ﴾** القرار: المستقر ، أى دحاها وسوّاها بحيث يمكن الاستقرار عليها . وقيل : هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله : **﴿ أمن خلق السموات والأرض ﴾** ولا ملجئ لذلك ، بل هى وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشىء آخر **﴿ وجعل خلالها أنهارا ﴾** الخلال : الوسط . وقد تقدّم تحقيقه فى قوله : ﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾ [الكهف: ٣٣] ، **﴿ وجعل لها رواسى ﴾** أى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة **﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾** الحاجز : المانع ، أى جعل بين البحرين من قدرته حاجزا ، والبحران هما : العذب والمالح ، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يدخل فى هذا ، وقد مرّ بيانه فى سورة الفرقان **﴿ أإله مع الله ﴾** أى إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه فهل إله فى الوجود يصنع صنعه ويخلق خلقه؟ فكيف يشركون به مالا يضرّ ولا ينفع **﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾** توحيد ربهم وسلطان قدرته .

﴿ أمن يجيب المضطرّ إذا دعاه ﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار ، وهو المكروب المجهود الذى لا حول له ولا قوة . وقيل : هو المذنب ، وقيل : هو الذى عراه ضرّ من فقر أو مرض ، فألجأه إلى التضرّع إلى اللّه . واللام فى **﴿ المضطر ﴾** للجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه ، وإلا فقد ضمن اللّه سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه فى إجابه دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص وقطع النظر عما سوى اللّه ، وقد أخبر الله

سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين وإن كانوا كافرين فقال : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا اللّه مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ [يونس:٢٢] ، وقال : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . فأجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم ﴿**ويكشف السوء** ﴾ أى الذى يسوء العبد من غير تعيين ، وقيل : هو الضر ، وقيل : هو الجور ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ أى يخلف كل قرن منكم القرن الذى قبله بعد انقراضهم ، والمعنى : يهلك قرنا وينشئ آخرين . وقيل : يجعل أولادكم خلفا منكم . وقيل : يجعل المسلمين خلفا من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم ﴿**أإله مع الله** ﴾ الذى يوليكم هذه النعم الجسام ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾ أى تذكرا قليلا ما تذكرون . قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب بالتحتية على الخبر ردّا على قوله : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم .

﴿ **أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر** ﴾ أي يرشدكم فى الليالى المظلمات إذا سافرتم فى البرّ أو البحر . وقيل: المراد : مفاوز البرّ التى لا أعلام لها ولجج البحار ، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها ﴿ **ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ والمراد بالرحمة هنا: المطر، أى يرسل الرياح بين يدى المطر ، وقبل نزوله ﴿ **أإله مع الله** ﴾ يفعل ذلك ويوجده ﴿**تعالى الله عما يشركون** ﴾ أى تنزه وتقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكا له . ﴿ **أم من يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ كانوا يقرّون بأن اللّه سبحانه هو الخالق فألزمهم الإعادة ، أى إذا قدر على الابتداء قدر على الإعادة ﴿ **ومن يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ بالمطر والنبات ، أى هو خير أم ما تجعلونه شريكا له مما لا يقدر على شيء من ذلك ﴿ **أإله مع الله** ﴾ حتى تجعلونه شريكا له ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ أى حجتكم على أن لله سبحانه شريكا ، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعا يصنع كصنعه ، وفى هذا تبكيت لهم وتهكم بهم ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ أى لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات والأرض الغيب الذى استأثر اللّه بعلمه ، والاستثناء فى قوله إلا اللّه منقطع ، أى لكن اللّه يعلم ذلك ، ورفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعا هو على اللغة التميمية كما فى قولهم :

إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل : إن فاعل ﴿ **يعلم** ﴾ هو ما بعد إلا ، و ﴿ **من فى السموات** ﴾ مفعوله ، و﴿**الغيب**﴾ بدل من « من » ، أى لا يعلم غيب من فى السموات والأرض إلا اللّه ، وقيل : هو استثناء متصل من « من » . وقال الزجاج : ﴿ **إلا الله**﴾ بدل من « من » . قال الفراء : وإنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر كقولهم : ما ذهب أحد إلا أبوك وهو كقول الزجاج . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿ **وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾ أى لا يشعرون

متى ينشرون من القبور ، وأيان مركبة من أى وإن . وقد تقدّم تحقيقه ، والضمير للكفرة . وقرأ السلمى :« إيان » بكسر الهمزة ، وهى لغة بنى سليم وهى منصوبة بـ « يبعثون » ومعلقة لـ « يشعرون » ، فتكون هى وما بعدها فى محل نصب بنزع الخافض ، أى وما يشعرون بوقت بعثهم ، ومعنى أيان معنى متى .

﴿ بل ادّارك علمهم فى الآخرة ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ ادّارك ﴾ . وأصل ادارك : تدارك ، أدغمت التاء فى الدال وجىء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمر وحميد : « بل أدرك » من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار وسليمان بن يسار والأعمش: « بل ادّرك » بفتح لام بل وتشديد الدال . وقرأ ابن محيصن : « بل أدرك » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس وأبو رجاء وشيبة والأعمش والأعرج : « بلى أدّارك» بإثبات الياء فى بل وبهمزة قطع وتشديد الدال . وقرأ أبىّ « بل تدارك » ومعنى الآية : بل تكامل علمهم فى الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه . وقيل : معناه : تتابع علمهم فى الآخرة ، والقراءة الثانية معناها كمل علمهم فى الآخرة مع المعاينة وذلك حين لا ينفعهم العلم ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا مكذبين . وقال الزجاج : إنه على معنى الإنكار ، واستدلّ على ذلك بقوله فيما بعد : ﴿ بل هم منها عمون ﴾ أى لم يدرك علمهم علم الآخرة ، وقيل : المعنى : بل ضلّ وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم ، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى فافتعل وتفاعل قد يجيئان لمعنى ، والقراءة الرابعة هى بمعنى الإنكار . قال الفراء : وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم ، وفى الآية قراءات أخر لا ينبغى الاشتغال بذكرها وتوجيهها . ﴿ بل هم فى شك منها ﴾ أى بل هم اليوم فى الدنيا فى شك من الآخرة . ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشد منه فقال : ﴿ بل هم منها عمون ﴾ فلا يدركون شيئا من دلائلها لاختلال بصائرهم التى يكون بها الإدراك ، وعمون جمع عم : وهو من كان أعمى القلب ، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شىء مما يوصل إلى العلم بها ، فمن قال : إن معنى الآية الأولى أعنى ﴿ بل ادّارك علمهم فى الآخرة ﴾ أنه كمل علمهم وتمّ مع المعاينة فلابدّ من حمل قوله: ﴿ بل هم فى شك ﴾ إلخ على ما كانوا عليه فى الدنيا ، ومن قال: إن معنى الآية الأولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم يحتج إلى تقييد قوله : ﴿ بل هم فى شك ﴾ إلخ بما كانوا عليه فى الدنيا . وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهورا بينا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ . قال : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم اللّه لنبيه ، وروى مثله عن سفيان الثورى . والأولى ما قدمناه من التعميم فيدخل فى ذلك أصحاب نبينا ﷺ دخولا أوليا . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى والطبرانى ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت: يا رسول اللّه ، إلى ما تدعو ؟ قال : « أدعو اللّه وحده الذى إن مسك ضرّ فدعوته كشفه عنك » هذا طرف من حديث طويل . وقد رواه أحمد من وجه آخر

فبين اسم الصحابى فقال :حدّثنا عفان ، حدّثنا حماد بن سلمة ،حدّثنا يونس ،حدّثنا عبيد بن عبيدة الهجيمى عن أبيه عن أبى تميمة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى . ولهذا الحديث طرق عند أبى داود والنسائى (١) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . وقالت فى آخره : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول: ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ قال : حين لا ينفع العلم . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عنه أنه قرأ :« بل أدرك علمهم فى الآخرة » قال : لم يدرك علمهم . قال أبو عبيد : يعنى أنه قرأها بالاستفهام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : « بل ادّرك علمهم فى الآخرة » يقول : غاب علمهم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾.

لما ذكر سبحانه أن المشركين فى شك من البعث وأنهم عمون عن النظر فى دلائله أراد أن

---

(١) أحمد ٥/ ٦٤ وأبو داود فى اللباس (٤٠٨٤) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٥٥) ومسلم فى الإيمان (١٧٧/ ٢٨٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٨) وقال : « حسن صحيح » .

يبين غاية شبههم وهى مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم ترابا فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون** ﴾ والعامل فى « إذا » محذوف دلّ عليه ﴿ **مخرجون** ﴾ تقديره : أنبعث أو نخرج إذا كنا ، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء بينهما . قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة باستفهامين ، إلا أنهما حققا الهمزتين. وقرأ نافع بهمزة . وقرأ ابن عامر وورش(١) ويعقوب . ﴿ **أإذا** ﴾ بهمزتين و﴿ **إننا** ﴾ بنونين على الخبر ، ورجح أبو عبيد قراءة نافع ، وردّ على من جمع بين استفهامين ؛ ومعنى الآية : أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا ترابا ، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: ﴿ **لقد وعدنا هذا** ﴾ يعنون البعث ﴿ **نحن وآباؤنا من قبل** ﴾ أى من قبل وعد محمد لنا ، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدّرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿ **إن هذا** ﴾ الوعد بالبعث ﴿ **إلا أساطير الأولين** ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة ، وقد تقدّم تحقيق معنى الأساطير فى سورة المؤمنون .

ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث ، فأمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث ومعنى النظر هو : مشاهدة آثارهم بالبصر ، فإن فى المشاهدة زيادة اعتبار . وقيل: المعنى : فانظروا بقلوبكم وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ، والأوّل أولى لأمرهم بالسير فى الأرض ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿ **ولا تكن فى ضيق** ﴾ الضيق الحرج ، يقال : ضاق الشىء ضيقا بالفتح وضيقا بالكسر قرئ بهما ، وهما لغتان . قال ابن السكيت : يقال : فى صدر فلان ضيق وضيق وهو ما تضيق عنه الصدور . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى آخر سورة النحل ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد** ﴾ أى بالعذاب الذى تعدنا به ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى ذلك .

﴿ **قل عسى أن يكون ردف لكم** ﴾ يقال: ردفت الرجل وأردفته: إذا ركبت خلفه ، وردفه : إذا أتبعه وجاء فى أثره ، والمعنى : قل يا محمد ، لهؤلاء الكفار : عسى أن يكون هذا العذاب الذى به توعدون تبعكم ولحقكم ، فتكون اللام زائدة للتأكيد ، أو بمعنى : اقترب لكم ودنا لكم ، فتكون غير زائدة . قال ابن شجرة : معنى ردف لكم: تبعكم ، قال: ومنه ردف المرأة ، لأنه تبع لها من خلفها ، ومنه قول أبى ذؤيب :

عاد السواد بياضا فى مفارقه لا مرحبا ببياض الشيب إذ زدفا

قال الجوهرى: وأردفه لغة فى ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

(١) فى المخطوطة : « ابن عامر وورش ويعقوب » ، وفى القرطبى : « والكسائى وابن عامر ورويس ويعقوب » . انظر : القرطبى ٧/ ٤٩٤٤ .

قال الفراء : ردف لكم دنا لكم ولهذا قيل : لكم . وقرأ الأعرج : « ردف لكم » بفتح الدال وهى لغة والكسر أشهر . وقرأ ابن عباس : « أزف لكم » وارتفاع ﴿ **بعض الذى تستعجلون** ﴾ أى على أنه فاعل ردف ، والمراد : بعض الذى تستعجلونه من العذاب ، أى عسى أن يكون قد قرب ودنا وأزف بعض ذلك ، قيل : هو عذابهم بالقتل يوم بدر . وقيل: هو عذاب القبر . ثم ذكر سبحانه فضله فى تأخير العذاب فقال : ﴿ **وإن ربك لذو فضل على الناس** ﴾ فى تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون**﴾ فضله وإنعامه ولا يعرفون حق إحسانه .

ثم بين أنه مطلع على ما فى صدورهم ، فقال : ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم** ﴾ أى ما تخفيه . قرأ الجمهور: ﴿ **تكن** ﴾ بضم التاء من أكنّ . وقرأ ابن محيصن وابن السميفع وحميد بفتح التاء وضم الكاف ، يقال : كننته بمعنى : سترته وخفيت أثره ﴿ **وما يعلنون** ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم . ﴿ **وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال المفسرون : ما من شىء غائب وأمر يغيب عن الخلق فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين إلا هو مبين فى اللوح المحفوظ ، وغائبة هى من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة . قال الحسن : الغائبة هنا هى : القيامة . وقال مقاتل : علم ما تستعجلون من العذاب هو مبين عند اللّه وإن غاب عن الخلق . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا : جميع ما أخفى اللّه عن خلقه وغيبه عنهم مبين فى أمّ الكتاب ، فكيف يخفى عليه شىء من ذلك ؟ ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت ومؤجل بأجل علمه عند اللّه ، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له ؟

﴿ **إن هذا القرآن يقصّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرّقوا فرقا وتحزّبوا أحزابا يطعن بعضهم على بعض ويتبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن مبينا لما اختلفوا فيه من الحق ،فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرّقهم. ﴿ **وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ أى وإنّ القرآن لهدى ورحمة لمن آمن باللّه وتابع رسوله ، وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به ، ومن جملتهم من آمن من بنى إسرائيل . ﴿ **إن ربك يقضى بينهم بحكمه** ﴾ أى يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بما يحكم به من الحق فيجازى المحق ويعاقب المبطل . وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا فيظهر ما حرّفوه . قرأ الجمهور : ﴿**بحكمه** ﴾ بضم الحاء وسكون الكاف . وقرأ جناح بكسرها وفتح الكاف جمع حكمة ﴿ **وهو العزيز العليم** ﴾ العزيز : الذى لا يغالب ، والعليم : بما يحكم به ، أو الكثير العلم .

ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة ، فقال : ﴿ **فتوكل على الله** ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدّم ذكره، والمعنى: فوّض إليه أمرك واعتمد عليه فإنه ناصرك. ثم علل ذلك بعلتين : الأولى: قوله : ﴿ **إنك على الحق المبين** ﴾ أى الظاهر ، وقيل : المظهر . والعلة الثانية : قوله : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى فى انتفاء الجدوى بالسماع ، أو

كحال الصمّ الذين لا يسمعون ولا يفهمون ولا يـهتدون ؛ صار ذلك سببا قويا فى عدم الاعتداد بهم . شبه الكفار بالموتى الذين لا حسّ لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء إلى اللّه . ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال : ﴿ **إذا ولوا مدبرين**﴾ أى إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما ، فإن الأصمّ لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلا فكيف إذا كان معرضا عنه موليا مدبرا ؟ وظاهر نفى إسماع الموتى العموم ، فلا يخصّ منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ خاطب القتلى فى قليب بدر ، فقيل له : يا رسول اللّه ، إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها (١) وكذلك ما ورد من أن « الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا » (٢) . وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبى إسحاق : « لا يسمع » بالتحتية مفتوحة وفتح الميم ، وفاعله الصمّ . وقرأ الباقون :﴿ **تسمع** ﴾ بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع . قال قتادة : الأصمّ إذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع ، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان .

ثم ضرب العمى مثلا لهم فقال : ﴿ **وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم** ﴾ أى ما أنت بمرشد من أعماه اللّه عن الحق إرشادا يوصله إلى المطلوب منه وهو الإيمان ، وليس فى وسعك ذلك ، ومثله قوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ [القصص : ٥٦] . قرأ الجمهور بإضافة هادى إلى العمى . وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيان : « بهاد العمى » بتنوين هاد. وقرأ حمزة : « تهدى » فعلا مضارعا ، وفى حرف عبد اللّه : « وما أن تهدى العمى » . ﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أى ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر، والمراد بمن يؤمن بالآيات : من يصدّق القرآن، وجملة : ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ تعليل للإيمان ، أى فهم منقادون مخلصون .

ثم هدد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها :فقال:﴿ **وإذا وقع القول عليهم** ﴾. واختلف فى معنى وقوع القول عليهم ، فقال قتادة : وجب الغضب عليهم : وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقيل : حق العذاب عليهم ، وقيل : وجب السخط ، والمعانى متقاربة . وقيل : المراد بالقول : ما نطق به القرآن من مجىء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التى كانوا يستعجلونها . وقيل : وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم . وقيل : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . والحاصل أن المراد بوقع : وجب ، والمراد بالقول : مضمونه ، أو أطلق المصدر على المفعول ، أى القول . وجواب الشرط : ﴿ **أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ . واختلف فى هذه الدابة على أقوال ، فقيل : إنها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة ويكون من أشراط الساعة . وقيل : هى دابة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها : الجساسة . وقيل : هى دابة على خلقة بنى آدم وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض . وقيل : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إيَّل،

---

(١) مسلم فى الجنة (٢٨٧٣/ ٧٦) وفى المطبوعة : « أجسادا أرواح لها » والصحيح ماأثبتناه من المخطوطة .

(٢) مسلم فى الجنة (٢٨٧٠/ ٧١) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣١) ورواه أحمد ٢/ ٤٤٥ عن أبى هريرة .

وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا . وقيل : هى الثعبان المشرف على جدار الكعبة التى اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . والمراد : أنها هى التى تخرج فى آخر الزمان . وقيل : هى دابة ما لها ذنب ولها لحية . وقيل : هى إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره وقد رجح القول الأوّل القرطبى فى تفسيره .

واختلف من أى موضع تخرج ؟ فقيل : من جبل الصفا بمكة . وقيل : تخرج من جبل أبى قبيس . وقيل : لها ثلاث خرجات : خرجة فى بعض البوادى حتى يتقاتل عليها الناس ، وتكثر الدماء ثم تكمن ، وتخرج فى القرى ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها . وقيل : تخرج من بين الركن والمقام. وقيل: تخرج فى تهامة . و قيل : من مسجد الكوفة من حيث فار التنور . وقيل : من أرض الطائف . وقيل : من صخرة من شعب أجياد . وقيل : من صدع فى الكعبة. واختلف فى معنى قوله : ﴿ **تكلمهم** ﴾ فقيل : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوؤهم . وقيل : تكلمهم بقوله تعالى : ﴿**أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ أى بخروجها ؛لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور : ﴿ **تكلمهم** ﴾ من التكليم ، ويدلّ عليه قراءة أبىّ : « تنبئهم » وقرأ ابن عباس وأبو زرعة وأبو رجاء والحسن: « تكلمهم » بفتح الفوقية وسكون الكاف من الكلم ، وهو الجرح . قال عكرمة: أى تسمهم وسما . وقيل : تجرحهم . وقيل : إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف وسكون اللام وهو الجرح ، والتشديد للتكثير ، قاله أبو حاتم . قرأ الجمهور : « إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » بكسر إن على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحاق بفتح «أن» . قال الأخفش : المعنى على قراءة الفتح : « بأن الناس » . وكذا قرأ ابن مسعود : «بأن الناس» بالباء . وقال أبو عبيد : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ، أى تخبرهم أن الناس ، وعلى هذه القراءة فالذى تكلم الناس به هو قوله: ﴿ **أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك . وأما على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة كما قدّمنا، ولا تكون من كلام الدابة. وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين ، وجزم به الكسائى والفراء . وقال الأخفش : إن كسر « إن » هو على تقدير القول ، أى تقول لهم : « إن الناس » إلخ ، فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية، والمراد بالناس فى الآية : هم الناس على العموم ، فيدخل فى ذلك كل مكلف ، وقيل : المراد الكفار خاصة ، وقيل : كفار مكة ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عسى أن يكون ردف لكم** ﴾ قال : اقترب لكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون** ﴾ قال: يعلم ما عملوا بالليل والنهار . و أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

عنه أيضا : ﴿ وما من غائبة ﴾ الآية يقول : ما من شيء في السماء والأرض سرّا ولا علانية إلا يعلمه . وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر في قوله :﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ الآية قال : إذا لم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر. وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية أنه فسر : ﴿ وقع القول عليهم ﴾ بما أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : تحدّثهم . وأخرج ابن جرير عنه قال: كلامها: تنبئهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي داود نفيع الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ تكلمهم ﴾ يعني : هل هو من التكليم باللسان أو من الكلم وهو الجرح ؟ فقال : كل ذلك ، والله ، تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر ، أي تجرحه ، وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس ذلك حديثا ولا كلاما [1] ، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به ، فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يجرح جارح ، حتى إذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ونجا من نجا ، كان أوّل خطوة تضعها بأنطاكية » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: الدابة ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون ، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج . وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : «تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة ، فيقال له ممن اشتريتها ؟ فيقول : من الرجل المخطم » [2] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: إن للدابة ثلاث خرجات . وذكر نحو ما قدّمنا. وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد رفعه قال: تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة . وأخرج سعيد بن منصور ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : تخرج من بعض أودية تهامة .

وأخرج الطيالسي وأحمد ونعيم بن حماد ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتخطم أنف الكافر بالعصا ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » [3] . وأخرج الطيالسي ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن

---

(١) في المخطوطة : « ليس ذلك حديث ولا كلام » بالرفع والصحيح ما أثبتناه بالنصب خبر ليس .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٨ وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٩ : « رجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبد الرحمن بن عطية وهو ثقة » .

(٣) الطيالسي (٢٥٦٤) وأحمد ٢/ ٢٩٥ والترمذي في التفسير (٣١٨٧) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة في الفتن (٤٠٦٦) وابن جرير ٢٠/ ١١ والحاكم ٤/ ٤٨٥ وسكت عنه الذهبي .

أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن حذيفة بن أسيد الغفارىّ قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : «لها ثلاث خرجات من الدهر» (١) . وذكرنحو ما قدمنا فى حديث طويل . وفى صفتها ومكان خروجها وما تصنعه ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف . وأما كونها تخرج ، وكونها من علامات الساعة فالأحاديث الواردة فى ذلك صحيحة . ومنها ما هو ثابت فى الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات » (٢). وذكر منها الدابة فإنه فى صحيح مسلم وفى السنن الأربعة ، وكحديث:« بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها ،والدجال،والدابة »(٣). فإنه فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، وكحديث ابن عمرو (٤) مرفوعا : «إن أوّل الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى » (٥) فإنه فى صحيح مسلم أيضا .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة

(١) الطيالسى (١٠٦٩) وابن جرير ٢٠/ ١٠ وصححه الحاكم ٤/ ٤٨٤ وقال الذهبى : « فيه طلحة بن عمرو الحضرمى ضعفوه وتركه أحمد » .

(٢) مسلم فى الفتن (٢٩٠١/ ٣٩) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١١) والترمذى فى الفتن (٢١٨٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٠٠) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٥٥).

(٣) أحمد ٢/ ٣٣٧ ومسلم فى الفتن (٢٩٤٧/ ١٢٨) .

(٤) فى المطبوعة : « ابن عمر » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

(٥) أحمد ٢/ ٢٠١ ومسلم فى الفتن (٢٩٤١/ ١١٨) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١٠) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٩) .

فوجا ﴾ العامل فى الظرف فعل محذوف خوطب به النبى ﷺ ، والحشر: الجمع . قيل : والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق ، و « من » لابتداء الغاية ، والفوج: الجماعة كالزمرة ، و« من» فى ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ بيانية ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم ، وقد تقدّم تحقيقه فى هذه السورة مستوفى . وقيل : معناه : يدفعون ، ومنه قول الشماخ :

وسمه وزعنا من خميس جحفل

ومعنى الآية : واذكر يا محمد ، يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم أو يدفعون ، أى اذكر لهم هذا أو بينه تحذيرا لهم وترهيبا . ﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾ إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيخا وتقريعا : ﴿ أكذّبتم بآياتى ﴾ التى أنزلتها على رسلى ، وأمرتهم بإبلاغها إليكم والحال أنكم ﴿ لم تحيطوا بها علما﴾ بل كذبتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها ولا مستدلين على صحتها أو بطلانها تمردا وعنادا وجرأة على الله وعلى رسله ، وفى هذا مزيد تقريع وتوبيخ ؛ لأن من كذب بشىء ولم يحط به علما فقدكذب فى تكذيبه ، ونادى على نفسه بالجهل وعدم الإنصاف ، وسوء الفهم ، وقصور الإدراك ، ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من العلوم الشرعية أو لذم علم هو مقدّمة من مقدّمتها ، ووسيلة يتوسل بها إليها ، ويفيد زيادة بصيرة فى معرفتها ، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها ، وهى اثنا عشر علما ، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية ، وهكذا كل علم من العلوم التى لها مزيد نفع فى فهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل ، طاعن على العلوم الشرعية ، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التى تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ، ولا يعلم به ، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره ، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول وركاك الأديان ورعاع المتلبسين بالعلم زورا وكذبا .

و« أم » فى قوله : ﴿ أماذا كنتم تعملون ﴾ هى المنقطعة ، والمعنى : أم أى شىء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها والتفكر فى معانيها ؟ وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم. ﴿ ووقع القول عليهم ﴾ قد تقدم تفسيره قريبا، والباء فى ﴿ بما ظلموا ﴾ للسببية، أى وجب القول عليهم بسبب الظلم الذى أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ عند وقوع القول عليهم ، أى ليس لهم عذر ينطقون به ، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم . وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون .

ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد ، وعلى الحشر ، وعلى النبوّة مبالغة فى الإرشاد وإبلاء للمعذرة ، فقال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ أى جعلنا الليل للسكون والاستقرار والنوم ، وذلك بسبب ما

فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش ، والنهار مبصرا ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذى لا بدّ له منهم ، ووصف النهار بالإبصار ، وهو وصف للناس مبالغة فى إضاءته كأنه يبصر ما فيه . قيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : وجعلنا الليل مظلما ليسكنوا ، وحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه ، وتقدّم تحقيقه فى الإسراء وفى يونس . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور ﴿ **لآيات** ﴾ أى علامات ودلالات ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ بالله سبحانه .

ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ هو معطوف على ﴿ **ويوم نحشر** ﴾ منصوب بناصبه المتقدّم. قال الفراء: إن المعنى: وذلكم يوم ينفخ فى الصور ، والأوّل أولى . والصور : قرن ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدم فى الأنعام استيفاء الكلام عليه . والنفخات فى الصور ثلاث : الأولى : نفخة الفزع، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة البعث . وقيل : إنها نفختان ، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيرى والقرطبى(١) . وغيرهما. وقال الماوردى: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿ **ففزع من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ أى خافوا وانزعجوا لشدّة ما سمعوا . وقيل : المراد بالفزع هنا : الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا : إذا أسرعت إلى إجابتك ، والأوّل أولى بمعنى الآية . وإنما عبر بالماضى مع كونه معطوفا على مضارع : للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان . وقال الفراء : هو محمول على المعنى؛ لأن المعنى : إذا نفخ ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ أى إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة . واختلف فى تعيين من وقع الاستثناء له ، فقيل : هم الشهداء والأنبياء . وقيل : الملائكة . وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وقيل: الحور العين . وقيل : هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ ويمكن أن يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك ﴿ **وكل أتوه داخرين** ﴾ قرأ الجمهور:«آتوه » على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿ **أتوه** ﴾ فعلا ماضيا ، وكذا قرأ ابن مسعود . وقرأ قتادة : « وكل أتاه » . قال الزجاج : إن من قرأ على الفعل الماضى فقد وحد على لفظ كل ، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه ، وهو غلط ظاهر ، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها، بل التوحيد فى قراءة قتادة فقط، ومعنى﴿ **داخرين**﴾: صاغرين ذليلين ، وهو منصوب على الحال ، قرأ الجمهور : ﴿ **داخرين** ﴾ وقرأ الأعرج : «دخرين » بغير ألف ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة النحل .

﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ معطوف على ﴿ **ينفخ** ﴾ . والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكلّ من يصلح للرؤية ، و ﴿ **تحسبها جامدة** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ترى أو

---

(١) القرطبى ٧ / ٤٩٥٦ .

من مفعوله ؛ لأن الرؤية بصرية . وقيل : هى بدل من الجملة الأولى ، وفيه ضعف ، وهذه هى العلامة الثالثة لقيام الساعة ، ومعنى ﴿ **تحسبها جامدة**﴾ أى قائمة ساكنة ، وجملة: ﴿ **وهى تمرّ مر السحاب** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهى تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التى تسيرها الرياح . قال القتيبى : وذلك أن الجبال تجمع وتسير وهى فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير . قال القشيرى: وهذا يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى: ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ [النبأ : ٢٠] . قرأ أهل الكوفة تحسبها بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسرها ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شيء** ﴾ انتصاب ﴿ **صنع** ﴾ على المصدرية عند الخليل وسيبويه وغيرهما ، أى صنع الله ذلك صنعا . وقيل : هو مصدر مؤكد لقوله : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ . وقيل : منصوب على الإغراء، أى انظروا صنع الله ،ومعنى ﴿ **الذى أتقن كل شيء** ﴾: الذى أحكمه ، يقال : رجل تقن ، أى حاذق بالأشياء ، وجملة : ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شيء ، والخبير : المطلع على الظواهر والضمائر . قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالتحتية على الخبر .

﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ الألف واللام للجنس ، أى من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها ،أى أفضل منها وأكثر. وقيل: خير حاصل من جهتها ، والأول أولى . وقيل : المراد بالحسنة هنا : لا إله إلا الله. وقيل : هى الإخلاص . وقيل : أداء الفرائض ، والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص وإن قال به بعض السلف . قيل : وهذه الجملة بيان لقوله : ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ . وقيل : بيان لقوله : ﴿ **وكل أتوه داخرين**﴾ . قرأ عاصم وحمزة والكسائى : ﴿ **وهم من فزع** ﴾ بالتنوين وفتح ميم ﴿ **يومئذ** ﴾ . وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إلىّ ؛ لأنه أعم التأويلين لأن معناه : الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع . وقيل : إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر ، فتكون القراءتان بمعنى واحد . وقيل : المراد بالفزع ها هنا هو : الفزع الأكبر المذكور فى قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] . ووجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن ، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بنى ، وقد تقدم فى سورة هود كلام فى هذا مستوفى . ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار** ﴾ . قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم حتى قيل إنه مجمع عليه بين أهل التأويل : إن المراد بالسيئة هنا : الشرك ، ووجه التخصيص قوله : ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ ، فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك ، ومعنى ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ : أنهم كبوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها ، يقال : كببت الرجل : إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ ، وجملة : ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ بتقدير القول ، أى يقال ذلك ، والقائل خزنة جهنم ، أى ما تجزون إلا جزاء عملكم .

﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها** ﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة ، أى قل يا محمد : إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة وحده لا شريك له . والمراد بالبلدة : مكة ، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام ؛ ولكونها أحبّ البلاد إلى رسوله ، والموصول صفة للربّ ، وهكذا قرأ الجمهور. وقرأ ابن عباس وابن مسعود : « التى حرمها » على أن الموصول صفة للبلدة ، ومعنى ﴿**حرّمها** ﴾ : جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصطاد صيدها ، ولا يختلى خلالها ﴿ **وله كل شىء** ﴾ من الأشياء خلقا وملكا وتصرّفا ، أى ولله كل شىء ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ أى المنقادين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه . والمراد بقوله : ﴿ **أن أكون** ﴾ : أن أثبت على ما أنا عليه ﴿**وأن أتلو القرآن** ﴾ أى أداوم تلاوته وأواظب على ذلك . قيل : وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان ، والأول أولى ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه** ﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه، أى فمن اهتدى على العموم ، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه فعمل بما فيه من الإيمان بالله ، والعمل بشرائعه . قرأ الجمهور : ﴿ **وأن أتلو** ﴾ بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة وهى القراءة ، أو من التلوّ ، وهو الاتباع . وقرأ عبد الله : « وأن اتل » بحذف الواو أمرا له ﷺ وكذا وجهه الفراء . قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة ، وهى مخالفة لجميع المصاحف ﴿ **ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين** ﴾ أى ومن ضلّ بالكفر وأعرض عن الهداية فقل له : إنما أنا من المنذرين ، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم وليس علىّ غير ذلك . وقيل : الجواب محذوف ، أى فوبال ضلاله عليه ، وأقيم ﴿ **إنما أنا من المنذرين** ﴾ مقامه لكونه كالعلة له .

﴿ **وقل الحمد لله** ﴾ على نعمه التى أنعم بها علىّ من النبوّة والعلم وغير ذلك ، وقوله : ﴿ **سيريكم آياته** ﴾ هو من جملة ما أمر به النبى ﷺ أن يقوله ، أى سيريكم الله آياته فى أنفسكم وفى غيركم ﴿ **فتعرفونها** ﴾ أى تعرفون آياته ، ودلائل قدرته ووحدانيته ، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار ؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان ، وذلك عند حضور الموت . ثم ختم السورة بقوله : ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله ، وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم . قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم : ﴿**تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **داخرين** ﴾ قال : صاغرين . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ قال : قائمة ﴿**صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ قال : أحكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ قال : أحسن كل شىء خلقه وأوثقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : ﴿ **من جاء**

بالحسنة فله خير منها﴾ قال: « هى لا إله إلا اللّه » **﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ﴾** قال : « هى الشرك » [(١)] . وإذا صحّ هذا عن رسول اللّه ﷺ فالمصير إليه فى تفسيركلام اللّه سبحانه متعيَن ويحمل على أن المراد قال: لا إله إلا اللّه بحقها ،وما يجب لها ، فيدخل تحت ذلك كل طاعة ،ويشهد له ما أخرجه الحاكم فى الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إذا كان يوم القيامة : جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدى اللّه سبحانه، فيقول اللّه للإيمان : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار » ثم تلا رسول اللّه ﷺ : **﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾** ، يعنى قول: لا إله إلا اللّه **﴿ ومن جاء بالسيئة﴾** يعنى: الشرك **﴿ فكبت وجوههم فى النار﴾**. وأخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة وأنس نحوه مرفوعا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ :**﴿ من جاء بالحسنة ﴾** يعنى « شهادة أن لا إله إلا اللّه » **﴿فله خير منها ﴾** يعنى بالخير :« الجنة » **﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾** يعنى :« الشرك » **﴿فكبت وجوههم فى النار ﴾** وقال : « هذه تنجى ، وهذه تردى » . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق عن ابن مسعود : **﴿ من جاء بالحسنة ﴾** قال: لا إله إلا اللّه ، **﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾** قال : بالشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم : **﴿ فله خير منها ﴾** قال : له منها خير، يعنى: من جهتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : **﴿ فله خير منها ﴾** قال : ثواب . وأخرج أيضا عنه أيضا قال : البلدة : مكة .

---

(١) ابن جرير ٢٠ / ١٥ .

تفسير سورة القصص

آياتها ثمان وثمانون آية ، وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . وأخرج ابن الضريس وابن النجار وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة القصص بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثل ذلك . قال القرطبى : قال ابن عباس وقتادة : إنها نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة وقت هجرة رسول الله ﷺ وهى قوله عزّ وجلّ :﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ وقال مقاتل : فيها من المدنى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلى قوله :﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ (١) . وأخرج أحمد والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : سنده جيد عن معدى كرب قال : أتينا عبد الله بن مسعود فسألناه أن يقرأ علينا :﴿ طسم ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت ، فأتيت خبابا فقلت : كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ طسم ﴾ أو ﴿ طس ﴾؟ فقال : كلّ كان رسول الله ﷺ يقرأه (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ

(١) القرطبى ٧/ ٤٩٦٣ .

(٢) أحمد ١/ ٤١٩ والطبرانى (٣٦١٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧ :« رجاله ثقات » وصححه الشيخ شاكر فى تعليقه على المسند ٦/ ٣٩٧٩.

الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾.

الكلام فى فاتحة هذه السورة قد مرّ فى فاتحة الشعراء وغيرها فلا نعيده ، وكذلك مرّ الكلام على قوله: ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ فاسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده،أو خبر مبتدأ محذوف و﴿ **آيات** ﴾ بدل من اسم الإشارة ،ويجوز أن يكون تلك فى موضع نصب بـ﴿ **نتلو** ﴾ والمبين : المشتمل على بيان الحق من الباطل. قال الزجاج: مبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وهو من أبان بمعنى: أظهر ﴿ **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ أى نوحى إليك من خبرهما ملتبسا بالحق ،وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن.وقيل : إن مفعول نتلو محذوف ، والتقدير : نتلو عليك شيئا من نبئهما ، ويجوز أن تكون « من » مزيدة على رأى الأخفش ، أى نتلو عليك نبأ موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر، أو للتبعيض، ولا ملجئ للحكم بزيادتها، والحق :الصدق. وجملة : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض** ﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ . قال المفسرون: معنى ﴿**علا**﴾ : تكبر وتجبر بسلطانه. والمراد بالأرض: أرض مصر. وقيل : معنى ﴿ **علا** ﴾: ادعى الربوبية.وقيل:علا عن عبادة ربه ﴿ **وجعل أهلها شيعا** ﴾ أى فرقا وأصنافا فى خدمته يشايعونه على مايريد ويطيعونه ، وجملة : ﴿ **يستضعف طائفة منهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا ، ويجوز أن تكون فى محلّ نصب على الحال من فاعل جعل ، أى جعلهم شيعا حال كونهم مستضعفا طائفة منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة ، والطائفة هم بنو إسرائيل ، وجملة : ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم** ﴾ بدل من الجملة الأولى ، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان ، أو حالا ، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلا منها ، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك النساء ؛ لأن المنجمين فى ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل . قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذبا فلا معنى للقتل ﴿ **إنه كان من المفسدين** ﴾ فى الأرض بالمعاصى والتجبر ، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد .

﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾جاء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. واستحضارصورتها، أى نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم . والمراد بهؤلاء :بنو إسرائيل ، والواو فى ﴿**ونريد** ﴾ للعطف على جملة : ﴿ **إن فرعون علا** ﴾ وإن كانت الجملة المعطوف عليها إسمية ؛ لأن بينهما تناسبا من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان ، ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿ **يستضعف** ﴾ بتقدير مبتدأ ، أى ونحن نريد أن نمنّ على

الذين استضعفوا فى الأرض ، كما فى قول الشاعر :

نجوت وأرهنهم ملكا

والأوّل أولى . ﴿ **ونجعلهم أئمة** ﴾ أى قادة فى الخير ودعاة إليه ، وولاة على الناس وملوكا فيهم ﴿ **ونجعلهم الوارثين** ﴾ لملك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم ، فيكون ملك فرعون فيهم ويسكنون فى مساكنه ومساكن قومه ، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم ﴿ **ونمكن لهم فى الأرض** ﴾ أى نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاؤوا . قرأ الجمهور :﴿ **نمكن** ﴾ بدون لام ، وقرأ الأعمش : « لنمكن » بلام العلة . ﴿ **ونرى فرعون وهامان وجنودهما** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نرى** ﴾ بنون مضمومة وكسر الراء على أن الفاعل هو اللّه سبحانه . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « ويرى » بفتح الياء التحتية والراء ، والفاعل فرعون . والقراءة الأولى ألصق بالسياق ؛ لأن قبلها نريد ونجعل ونمكن بالنون . وأجاز الفراء : « ويرى فرعون » بضم الياء التحتية وكسر الراء ، أى ويرى اللّه فرعون ، ومعنى ﴿**منهم** ﴾ : من أولئك المستضعفين ﴿ **ماكانوا يحذرون** ﴾ الموصول هو المفعول الثانى على القراءة الأولى، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية، والمعنى: أن اللّه يريهم ، أو يرون هم الذى كانوا يحذرون منه ويجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد المولود من بنى إسرائيل المستضعفين .

﴿ **وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه** ﴾ أى ألهمناها وقذفنا فى قلبها وليس ذلك هو الوحى الذى يوحى إلى الرسل . وقيل : كان ذلك رؤيا فى منامها . وقيل : كان ذلك بملك أرسله اللّه يعلمها بذلك . وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية ، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما فى الحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما (١) ، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما فى الحديث الثابت فى الصحيح فلم يكن بذلك نبيا (٢) . و« أن » فى ﴿ **أن أرضعيه** ﴾ هى المفسرة ؛ لأن فى الوحى معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن أرضعيه ، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن ، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين ، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿ **فإذا خفت عليه** ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿ **فألقيه فى اليم** ﴾ وهو بحر النيل، وقد تقدّم بيان الكيفية التى ألقته فى اليمّ عليها فى سورة طه ﴿**ولا تخافى ولا تحزنى** ﴾ أى لا تخافى عليه الغرق أو الضيعة ، ولا تحزنى لفراقه ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿ **وجاعلوه من المرسلين** ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد .

والفاء فى قوله : ﴿ **فالتقطه آل فرعون** ﴾ هى الفصيحة ، والالتقاط : إصابة الشىء من

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦٤) ومسلم فى الزهد (٢٩٦٤/ ١٠) والبيهقى ٧/ ٢١٩كلهم عن أبى هريرة .

(٢) مسلم فى الحج (١٢٢٦/ ١٦٧) والدارمى ٢/ ٣٥ كلاهما عن مطرف عن عمران بن حصين .

غير طلب . والمراد بآل فرعون: هم الذين أخذوا التابوت الذى فيه موسى من البحر ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقته فى اليمّ بعد ما جعلته فى التابوت فالتقطه من وجده من آل فرعون ، واللام فى ﴿ **ليكون لهم عدوّا وحزنا** ﴾ لام العاقبة ، ووجه ذلك : أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولدا وقرّة عين لا ليكون عدوّا فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدوّا وحزنا ، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم وثمرة له شبهت بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله ، ومن هذا قول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

وقول الآخر :

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قرأ الجمهور : ﴿ **وحزنا** ﴾ بفتح الحاء والزاى ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : «وحزنا » بضم الحاء وسكون الزاى ، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم، وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم، والرَّشَد والرُّشْد ، والسَّقَم والسُّقْم ، وجملة : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ لتعليل ما قبلها ، أو للاعتراض لقصد التأكيد ؛ ومعنى ﴿**خاطئين** ﴾: عاصين آثمين فى كل أفعالهم وأقوالهم ، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب ، وقرئ : « خاطين » بياء من دون همزة فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور ولكنها خففت بحذف الهمزة ، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو ، أى تجاوز الصواب .

﴿ **وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك** ﴾ أى قالت امرأة فرعون لفرعون،وارتفاع ﴿ **قرّة**﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قاله الكسائى وغيره ، وقيل : على أنه مبتدأ وخبره : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ قاله الزجاج ، والأوّل أولى . وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها وأخرجته من التابوت وخاطبت بقولها : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ فرعون ومن عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له . وقرأ عبد الله بن مسعود : « وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لى ولك » ويجوز نصب « قرة » بقوله: ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ على الاشتغال. وقيل: إنها قالت : لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بنى إسرائيل . ثم عللت ما قالته بالترجى منها لحصول النفع منه لهم ، أو التبنى له فقالت : ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ فنصيب منه خيرا ﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها ، وجملة : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهم لا يشعرون أنهم على خطأ فى التقاطه ، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده ، فتكون حالا من آل فرعون ، وهى من كلام الله سبحانه . وقيل : هى من كلام المرأة ، أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه وهم لا يشعرون ، قاله الكلبى ، وهو بعيد جدا . وقد حكى الفراء عن السدّى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن قوله : ﴿**لا تقتلوه** ﴾ من كلام فرعون واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، ويكفى فى ردّه ضعف إسناده .

﴿ **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا** ﴾ قال المفسرون : معنى ذلك أنه فارغ من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه . قال أبو عبيدة : خاليا من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن وابن إسحاق وابن زيد : فارغا مما أوحى إليها من قوله : ﴿**ولا تخافي ولا تحزني** ﴾ وذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه وهلاكه . وقال الأخفش : فارغا من الخوف والغمّ لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحي إليها، وروى مثله عن أبي عبيدة أيضا . وقال الكسائي : ناسيا ذاهلا. وقال العلاء بن زياد :نافرا . وقال سعيد بن جبير: والها ، كادت تقول:وا ابناه ؛ من شدّة الجزع. وقال مقاتل :كادت تصيح شفقة عليه من الغرق. وقيل: المعنى:أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش. قال النحاس : وأصحّ هذه الأقوال الأوّل ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله ، فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي ، وقول من قال : فارغا من الغمّ غلط قبيح لأن بعده : ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري ومحمد بن السميفع وأبو العالية وابن محيصن : « فزعا » بالفاء والزاي والعين المهملة من الفزع، أي خائفا وجلا . وقرأ ابن عباس : « قرعا » بالقاف المفتوحة والراء المهملة المكسورة والعين المهملة من قرع رأسه: إذا انحسر شعره، ومعنى ﴿ **وأصبح** ﴾:وصار ،كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء في أمر رشيد وأصبحت المدينة للوليد

﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ « إن » هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، أي إنها كادت لتظهر أمر موسى وأنه ابنها من فرط مادهمها من الدهش والخوف والحزن ، من بدا يبدو: إذا ظهر ،وأبدى يبدي: إذا أظهر، وقيل: الضمير في ﴿ **به** ﴾ عائد إلى الوحي الذي أوحى إليها ، والأوّل أولى . وقال الفراء : إن كانت لتبدي باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها . قال الزجاج : ومعنى الربط على القلب : إلهام الصبر وتقويته ، وجواب لولا محذوف ، أي لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت ، واللام في : ﴿**لتكون من المؤمنين** ﴾ متعلق بـ ﴿ **ربطنا** ﴾ والمعنى:ربطنا على قلبها لتكون من المصدّقين بوعد الله وهو قوله: ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾ قيل:والباء في:﴿ **لتبدي به** ﴾ زائدة للتأكيد.والمعنى: لتبديه، كما تقول : أخذت الحبل وبالحبل . وقيل : المعنى : لتبدي القول به ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾ أي قالت أمّ موسى لأخت موسى وهي مريم : قصيه ، أي تتبعي أثره ، واعرفي خبره ، وانظري أين وقع وإلى من صار؟ يقال: قصصت الشيء: إذا اتبعت أثره متعرّفا لحاله ﴿**فبصرت به عن جنب** ﴾ أي أبصرته عن بعد ، وأصله عن مكان جنب، ومنه الأجنبي. قال الشاعر :

فلا تحرميني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط الديار غريب

وقيل : المراد بقوله : ﴿ **عن جنب** ﴾ : عن جانب ، والمعنى : أنها أبصرت إليه متجانفة مخاتلة ، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم عن جانب ، ومحل :﴿ **عن جنب** ﴾ النصب على الحال إما من الفاعل ، أي بصرت به مستخفية كائنة عن جنب ، وإما من المجرور ، أي بعيدا

منها . قرأ الجمهور : ﴿ بصرت ﴾ به بفتح الباء وضم الصاد ، وقرأ قتادة بفتح الصاد وقرأ عيسى بن عمر بكسرها . قال المبرّد : أبصرته وبصرت به بمعنى ، وقرأ الجمهور :﴿ عن جنب﴾ بضمتين ، وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن عليّ بفتح الجيم وسكون النون ، وروى عن قتادة أيضا أنه قرأ بفتحهما. وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضم الجيم وسكون النون. وقال أبو عمرو بن العلاء: إن معنى ﴿ عن جنب ﴾ : عن شوق. قال : وهى لغة جذام يقولون: جنبت إليك،أى اشتقت إليك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾أنها تقصه وتتبع خبره وأنها أخته.

﴿ وحرّمنا عليه المراضع ﴾ المراضع جمع مرضع ، أى منعناه أن يرضع من المرضعات . وقيل : المراضع جمع مرضع بفتح الضاد ، وهو الرضاع أو موضعه ، وهو الثدى ، ومعنى ﴿من قبل ﴾ : من قبل أن نردّه إلى أمه ، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره ، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه ، فلم يرضع من واحدة منهنّ فعند ذلك ﴿ قالت ﴾ أى أخته لما رأت امتناعه من الرضاع : ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ﴾ أى يضمنون لكم القيام به وإرضاعه ﴿ وهم له ناصحون ﴾ أى مشفقون عليه لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته . وفى الكلام حذف ، والتقدير: فقالوا لها : من هم ؟ فقالت : أمى ، فقيل لها : وهل لأمك لبن ؟ قالت : نعم لبن أخى هارون : فدلتهم على أمّ موسى فدفعوه إليها ، فقبل ثديها ، ورضع منه ، وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقرّ عينها ﴾ بولدها ﴿ولا تحزن ﴾ على فراقه ﴿ ولتعلم أن وعد الله ﴾ أى جميع وعده ، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله : ﴿ إنا رادّوه إليك ﴾. ﴿ حق ﴾ لا خلف فيه واقع لا محالة ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك ، بل كانوا فى غفلة عن القدر وسرّ القضاء ، أو أكثر الناس لايعلمون بذلك أو لا يعلمون أن اللّه وعدها بأن يردّه إليها .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ وجعل أهلها شيعا ﴾ قال : فرّق بينهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة:﴿ وجعل أهلها شيعا ﴾ قال: يستعبد طائفة منهم ويدع طائفة ، ويقتل طائفة ويستحيى طائفة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله :﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ﴾ قال : يوسف وولده . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ﴾ قال : هم بنو إسرائيل ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أى ولاة الأمر ﴿ونجعلهم الوارثين ﴾ أى الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾ قال : ما كان القوم حذروه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى ﴾ أى ألهمناها الذى صنعت بموسى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال : قال ابن عباس فى قوله :

﴿فإذا خفت عليه﴾ قال : أن يسمع جيرانك صوته . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا ﴾ قال : فرغ من ذكر كل شىء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى. وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله :﴿ وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا ﴾ قال : خاليا من كل شىء غير ذكر موسى . وفى قوله : ﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ قال : تقول : يا ابناه . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أى اتبعى أثره ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال : عن جانب . وأخرج الطبرانى وابن عساكر عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « أما شعرت أن الله زوّجنى مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وامرأة فرعون ؟» قالت : هنيئا لك يا رسول الله. وأخرجه ابن عساكر عن ابن أبى روّاد مرفوعا بأطول من هذا ، وفى آخره أنها قالت : بالرفاء والبنين (١) . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وحرّمنا عليه المراضع من قبل ﴾ قال : لا يؤتى بمرضع فيقبلها .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

(١) الطبرانى ٢٢/٤٥١ (١١٠٠) ولكنه عن أبى رواد لا عن أبى أمامة ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/٢٢١ : «منقطع الإسناد وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف » . وذكر الهيثمى ـ أيضاً ـ أن حديث أبى أمامة قيل للسيدة عائشة ، وفيه خالد بن يوسف السمنى وهو ضعيف .

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾.

قوله : ﴿ **ولما بلغ أشدّه** ﴾ قد تقدّم الكلام فى بلوغ الأشدّ فى الأنعام ، وقد قال ربيعة ومالك: هو الحلم لقوله تعالى:﴿حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا ﴾ الآية [النساء:٦] وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثورى وغيرهما . وقيل : الأشدّ: ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين ، والاستواء :من الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل : الاستواء هو بلوغ الأربعين ، وقيل : الاستواء : إشارة إلى كمال الخلقة . وقيل : هو بمعنى واحد ، وهو ضعيف لأن العطف يشعر بالمغايرة ﴿ **آتيناه حكما وعلما** ﴾ الحكم : الحكمة على العموم. وقيل: النبوّة. وقيل: الفقه فى الدين. والعلم : الفهم ، قاله السدّى . وقال مجاهد : الفقه . وقال ابن إسحاق : العلم بدينه ودين آبائه . وقيل : كان هذا قبل النبوّة . وقد تقدّم بيان معنى ذلك فى البقرة ﴿ **وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الذى جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله وألقت ولدها فى البحر وصدّقت بوعد اللّه نجزى المحسنين على إحسانهم ، والمراد العموم .

﴿ **ودخل المدينة** ﴾ أى ودخل موسى مدينة مصر الكبرى . وقيل : مدينة غيرها من مدائن مصر ، ومحل قوله: ﴿ **على حين غفلة من أهلها** ﴾ النصب على الحال : إما من الفاعل ، أى مستخفيا ، وإما من المفعول . قيل : لما عرف موسى ما هو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفيا . قيل: كان دخوله بين العشاء والعتمة ، وقيل : وقت القائلة . قال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم ، فكان منه ما حكى اللّه سبحانه بقوله : ﴿ **فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته** ﴾ أى ممن شايعه على دينه ، وهم بنو إسرائيل ﴿ **وهذا من عدوّه** ﴾ أى من المعادين له على دينه وهم قوم فرعون ﴿ **فاستغاثه الذى من شيعته**﴾ أى طلب منه أن ينصره ويعينه على خصمه ﴿ **على الذى من عدوّه** ﴾ فأغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب فى جميع الملل . قيل : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه واستغاث بموسى ﴿ **فوكزه موسى** ﴾ الوكز : الضرب بجمع الكف ، وهكذا اللكز واللهز . وقيل : اللكز على اللحى ، والوكز على القلب . وقيل : ضربه بعصاه. وقرأ ابن مسعود : «فلكزه » وحكى الثعلبى أن فى مصحف عثمان : « فنكزه » بالنون . قال الأصمعى : « نكزه » بالنون : ضربه ودفعه . قال الجوهرى : اللكز : الضرب على الصدر. وقال أبو زيد : فى جميع الجسد ،يعنى أنه يقال له لكز . واللهز: الضرب بجميع اليدين فى الصدر ، ومثله عن أبى عبيدة ﴿ **فقضى عليه** ﴾ أى قتله ، وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه : فقد قضيت عليه ، ومنه قول الشاعر :

قد عضه فقضى عليه الأشجع

قيل : لم يقصد موسى قتل القبطى ، وإنما قصد دفعه فأتى ذلك على نفسه ، ولهذا قال : ﴿ **هذا من عمل الشيطان** ﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل ؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار . وقيل: إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأمونا عندهم ، فلم يكن له أن يغتالهم . ثم وصف الشيطان بقوله : ﴿ **إنه عدوّ مضل مبين** ﴾ أى عدوّ للإنسان يسعى فى إضلاله ، ظاهر العداوة والإضلال. وقيل: إن الإشارة بقوله :﴿ **هذا** ﴾ إلى عمل المقتول لكونه كافرا مخالفا لما يريده اللّه . وقيل : إنه إشارة إلى المقتول نفسه ، يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه . ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه : ﴿ **قال ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر** ﴾ اللّه ﴿ **له** ﴾ ذلك ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ ووجه استغفاره: أنه لم يكن لنبىّ أن يقتل حتى يؤمر . وقيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين ، أو أراد إنى ظلمت نفسى بقتل هذا الكافر ؛ لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلنى به ، ومعنى فاغفر لى : فاستر ذلك علىّ لا تطلع عليه فرعون ، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نادما على ذلك خائفا من العقوبة بسببه ، حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول : إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، كما ثبت ذلك فى حديث الشفاعة الصحيح (١) . وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة . وقيل : كان ذلك قبل بلوغه سنّ التكليف وإنه كان إذ ذاك فى اثنتى عشرة سنة ، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ولا شك أنهم معصومون من الكبائر ، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة ؛ لأن الوكزة فى الغالب لا تقتل .

ثم لما أجاب اللّه سؤاله وغفر له ما طلب منه مغفرته ، قال : ﴿ **ربّ بما أنعمت علىّ** ﴾ هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم والجواب مقدر ، أى أقسم بإنعامك علىّ لأتوبنّ وتكون جملة : ﴿ **فلن أكون ظهيرا للمجرمين** ﴾ كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم اللّه عليه ألا يظاهر مجرما . ويجوز أن تكون هذه الباء هى باء السببية متعلقة بمحذوف ، أى اعصمنى بسبب ما أنعمت به علىّ ، ويكون قوله : ﴿ **فلن أكون ظهيرا** ﴾ مترتبا عليه ، ويكون فى ذلك استعطاف للّه تعالى وتوصل إلى إنعامه بإنعامه ، و « ما » فى قوله : ﴿ **بما أنعمت** ﴾ إما موصولة أو مصدرية ، والمراد بما أنعم به عليه : هو ما آتاه من الحكم والعلم أو بالمغفرة أو بالجميع ، وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون والانتظام فى جملته فى ظاهر الأمر ، أو مظاهرته على ما فيه إثم . قال الكسائى والفراء: ليس قوله: ﴿ **فلن أكون ظهيرا للمجرمين** ﴾ خبرا بل هو دعاء، أى فلا تجعلنى يارب ظهيرا لهم . قال الكسائى : وفى قراءة عبد اللّه :« فلا تجعلنى ياربّ

---

(١) أحمد ٢/ ٤٣٥ والبخارى فى التفسير (٤٧١٢) ومسلم فى الإيمان (١٩٤/ ٣٢٧) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٠٦) وابن ماجة مختصرا فى الأطعمة (٣٣٠٧) كلهم من طريق أبى حيان التيمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة به .

ظهيرا للمجرمين » وقال الفراء : المعنى : اللهم فلن أكون ظهيرا للمجرمين . وقال النحاس : إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام .

﴿ **فأصبح في المدينة خائفا يترقب** ﴾ أى دخل فى وقت الصباح فى المدينة التى قتل فيها القبطى ، و﴿**خائفا**﴾ خبر ﴿ **أصبح** ﴾ ويجوز أن يكون حالا ، والخبر : ﴿ **في المدينة** ﴾ و﴿**يترقب**﴾ يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا ثانية، وأن يكون بدلا من ﴿ **خائفا** ﴾ ومفعول ﴿ **يترقب** ﴾ محذوف ، والمعنى : يترقب المكروه أو يترقب الفرح ﴿ **فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ إذا هى الفجائية والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يستصرخه** ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطى الذى قد قتله موسى بالأمس ، والاستصراخ : الاستغاثة ، وهو من الصراخ ، وذلك أن المستغيث يصوّت ويصرخ فى طلب الغوث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الجواب له قرع الظنابيب

﴿ **قال له موسى إنك لغوىّ مبين** ﴾ أى بين الغواية ، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته ولا تطيقه . وقيل : إنما قال له هذه المقالة ؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر . ﴿ **فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدوّ لهما** ﴾ أى يبطش بالقبطى الذى هو عدوّ لموسى وللإسرائيلى ؛ حيث لم يكن على دينهما . وقد تقدّم معنى يبطش واختلاف القراء فيه . ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ القائل هو الإسرائيلى لما سمع موسى يقول له : ﴿ **إنك لغوى مبين** ﴾ ورآه يريد أن يبطش بالقبطى ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى :﴿ **أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ فلما سمع القبطى ذلك أفشاه ، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلى ، هكذا قال جمهور المفسرين . وقيل : إن القائل : ﴿ **أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ هو القبطى ، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلى ، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطى قبل هذا بلا فصل ؛ لأنه هو المراد بقوله عدوّ لهما، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرّة الأولى ، والمرّة الأخرى هو الذى أفشى عليه، وأيضا إن قوله :﴿ **إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض** ﴾لا يليق صدور مثله إلا من كافر، و« إن» فى قوله :﴿ **إن تريد** ﴾ هى النافية ، أى ما تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض . قال الزجاج : الجبار فى اللغة: الذى لا يتواضع لأمر اللّه ، والقاتل بغير حق جبار . وقيل : الجبار : الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل ، ولا ينظر فى العواقب ، ولا يدفع بالتى هى أحسن ﴿ **وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ أى الذين يصلحون بين الناس .

﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** ﴾ قيل : المراد بهذا الرجل : حزقيل وهو مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم موسى. وقيل: اسمه شمعون. وقيل: طالوت. وقيل: شمعان. والمراد بأقصى المدينة : آخرها وأبعدها ، و﴿ **يسعى** ﴾ يجوز أن يكون فى محل رفع صفة لرجل ،

ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال؛ لأن لفظ رجل وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله: من أقصى المدينة ﴿ **قال يا موسى إن الملأ يأتمرون** [١] **بك ليقتلوك** ﴾ أى يتشاورون فى قتلك ويتآمرون بسببك . قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضا بقتلك . وقال أبو عبيد : يتشاورون فيك ليقتلوك : يعنى أشراف قوم فرعون . قال الأزهرى : ائتمر القوم وتآمروا ، أى أمر بعضهم بعضا ، نظيره قوله: ﴿ واتمروا بينكم بمعروف ﴾ [الطلاق: ٦] . قال النمر بن تولب [٢] :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يؤتمر

﴿ **فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ فى الأمر بالخروج ، واللام للبيان ؛ لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه . ﴿ **فخرج منها خائفا يترقب** ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفا من الظالمين مترقبا لحوقهم به وإدراكهم له. ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلا : ﴿ **رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾ أى خلصنى من القوم الكافرين وادفعهم عنى ، وخل بينى وبينهم . ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ أى نحو مدين قاصدا لها . قال الزجاج : أى سلك فى الطريق الذى تلقاء مدين فيها . انتهى . يقال : داره تلقاء دار فلان ، وأصله من اللقاء . ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ، ولهذا خرج إليها ﴿ **قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** ﴾ أى يرشدنى نحو الطريق المستوية إلى مدين .

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ أى وصل إليه ، وهو الماء الذى يستقون منه ﴿ **وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ أى وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم ، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول فى المورد ، وقد يطلق على البلوغ إليه وإن لم يدخل فيه ، وهو المراد هنا ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقا جمامه

وقد تقدم تحقيق معنى الورود فى قوله: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] وقيل : مدين : اسم للقبيلة لا للقرية، وهى غير منصرفة على كلا التقديرين . ﴿ **ووجد من دونهم** ﴾ أى من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التى جاء منها . وقيل : معناه : فى موضع أسفل منهم ﴿ **امرأتين تذودان** ﴾ أى تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس ويخلو بينهما وبين الماء ، ومعنى الذود : الدفع والحبس ، ومنه قول الشاعر :

أبيت على باب القوافى كأنما أذود بها سربا من الوحش نزّعا

أى أحبس وأمنع ، وورد الذود بمعنى الطرد ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) فى المطبوعة : « يأتمرن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) شاعر مخضرم أدرك الإسلام وهو كبير السن ، وروى حديثا وعمر طويلا حتى أنكر عقله وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره. الإصابة ٣/ ٥٧٣ .

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأى عصى تذود

أى تطرد . ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ أى قال موسى للمرأتين : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ؟ والخطب : الشأن . قيل : وإنما يقال : ما خطبك لمصاب ، أو مضطهد ، أو لمن يأتى بمنكر﴿ **قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء** ﴾ أى إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم ، أو عجزا عن السقى معهم . قرأ الجمهور: ﴿ **يصدر** ﴾ بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر المتعدّى بالهمزة . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال من صدر يصدر لازما ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف ، أى يرجعون مواشيهم ، والرعاء جمع راع . قرأ الجمهور : ﴿ **الرعاء** ﴾ بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها ، قال أبو الفضل : هو مصدر أقيم مقام الصفة ، فلذلك استوى فيه الواحد والجمع . وقرئ : « الرعاء » بالضم اسم جمع . وقرأ طلحة بن مصرف : « نسقى » بضم النون من أسقى ﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾ عالى السن ، وهذا من تمام كلامهما ، أى لا يقدر أن يسقى ماشيته من الكبر ، فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقى الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك . فلما سمع موسى كلامهما ﴿ **سقى لهما** ﴾ رحمة لهما، أى سقى أغنامهما لأجلهما « ثم » لما فرغ من السقى لهما ﴿ **تولى إلى الظل** ﴾ أى انصرف إليه ، فجلس فيه . قيل : كان هذا الظل ظل سمرة هنالك . ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب مناديا لربه ﴿ **إنى لما أنزلت إلىّ من خير** ﴾ أىّ خير كان ﴿ **فقير** ﴾ أى محتاج إلى ذلك. قيل : أراد بذلك الطعام ، واللام فى:﴿ **لما أنزلت**﴾ معناها : إلى . قال الأخفش : يقال: هو فقير له وإليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والمحاملى فى أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما بلغ أشدّه** ﴾ قال : ثلاثا وثلاثين سنة ﴿ **واستوى** ﴾ قال : أربعين سنة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المعمرين من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال : الأشد : ما بين الثمانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ فى النقصان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** ﴾ قال : نصف النهار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراسانى عنه أيضا فى الآية قال : مابين المغرب والعشاء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **هذا من شيعته** ﴾ قال : إسرائيلى ﴿ **وهذا من عدوه** ﴾ قال : قبطى ﴿ **فاستغاثه الذى من شيعته** ﴾ الإسرائيلى ﴿ **على الذى من عدوه** ﴾القبطى﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ قال: فمات، قال : فكبر ذلك على موسى . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ قال : هو صاحب موسى الذى استنصره بالأمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : الذى استنصره هو الذى استصرخه . وأخرج ابن المنذر عن الشعبى قال : من قتل رجلين فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية:

﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : خرج موسى خائفا يترقب جائعا ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين، و**﴿ عليه أمة من الناس يسقون ﴾**وامرأتان جالستان بشياههما فسألهما : **﴿ ماخطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾** قال : فهل قربكما ماء ؟ قالتا : لا ، إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر ، قال: فانطلقا فأريانيها ، فانطلقتا معه ، فقال الصخرة بيده فنحاها ، ثم استقى لهما سجلا واحدا فسقى الغنم ، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها **﴿ ثم تولى إلى الظل فقال ربّ إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾** فسمعتا ، قال : فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما ، فسألهما فأخبرتاه ، فقال لإحداهما : انطلقى فادعيه، فأتت ، فقالت : **﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾** فمشت بين يديه ، فقال لها : امشى خلفى ؛ فإنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى أن أرى منك ما حرّم اللّه علىّ ، وأرشدينى الطريق**﴿ فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾** قال لها أبوها : ما رأيت من قوّته وأمانته ؟ فأخبرته بالأمر الذى كان ، قالت : أما قوّته فإنه قلب الحجر وحده ، وكان لا يقلبه إلا النفر . وأما أمانته فقال : امشى خلفى وأرشدينى الطريق لأنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى منك ما حرّمه اللّه .

قيل لابن عباس : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما .

وأخرج الفريابى ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال : إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين ، قال : ما خطبكما ؟ فحدّثتاه ، فأتى الحجر ، فرفعه وحده ، ثم استقى فلم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدّثتاه، وتولى موسى إلى الظلّ فقال : **﴿ رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾** . قال : **﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾** واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة **﴿ قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾** فقام معها موسى ، فقال لها : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ، فإنى أكره أن يصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك ، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه ، فقالت إحداهما: **﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوىَ الأمين ﴾** قال : يا بنية ما علمك بأمانته وقوّته ؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرة رجال ، وأما أمانته فقال : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ؛ فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك،

فزاده ذلك رغبة فيه ، فقال : ﴿ **إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ إلى قوله: ﴿**ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ أى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على** ﴾ قال :نعم، قال: ﴿ **والله على ما نقول وكيل** ﴾ فزوّجه وأقام معه يكفيه ويعمل فى رعاية غنمه وما يحتاج إليه وزوجه صفورا وأختها شرفا ، وهما اللتان كانتا تذودان [١] . قال ابن كثير بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث : إن إسناده صحيح [٢] . والسلفع من النساء : الجريئة السليطة .

وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ قال : ورد الماء حيث ورد وإنه لتتراءى خضرة البقل فى بطنه من الهزال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثمانى ليال ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، وخرج حافيا ، فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : ﴿ **تذودان** ﴾ : تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس ويخلو لهما البئر. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضا قال : لقد قال موسى : ﴿ **ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير** ﴾ وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع [٣] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ما سأل إلا الطعام . وأخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: سأل فلقا من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩١) وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) ابن كثير ٥/ ٢٧٢ . (٣) ابن أبي شيبة (١٦١٤٧) .

وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾.

قوله : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾ فى الكلام حذف يدل عليه السياق . قال الزجاج : تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء فى السقى ، فحدّثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل : الصغرى، أن تدعوه له فجاءته. وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب. وقيل : هما ابنتا أخى شعيب ، وأن شعيبا كان قد مات . والأوّل أرجح ، وهو ظاهر القرآن . ومحلّ ﴿ **تمشى** ﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت ، ﴿ **وعلى استحياء** ﴾ حال أخرى ، أى كائنة على استحياء حالتى المشى والمجىء فقط ، وجملة : ﴿ **قالت إن أبى يدعوك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل : ماذا قالت له لما جاءته ؟ ﴿ **ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ أى جزاء سقيك لنا ﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص** ﴾ القصص مصدر سمى به المفعول ، أى المقصوص يعنى أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطىّ إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿ **قال** ﴾ شعيب : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ أى فرعون وأصحابه؛ لأن فرعون لا سلطان له على مدين ، وللرازى فى هذا الموضع إشكالات باردة جدّا لا تستحق أن تذكر فى تفسير كلام اللّه عزّ وجلّ ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلا عن الكامل ، وأشفّ ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقى ؟ ويجاب عنه: بأنه اتبع سنة اللّه فى إجابة دعوة نبىّ من أنبياء اللّه ، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل،ولهذا ورد أنه لما قدّم إليه الطعام قال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا.

﴿ **قالت إحداهما يا أبت استأجره** ﴾ القائلة هى التى جاءته ، أى استأجره ليرعى لنا الغنم ، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة . وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصم ، وجملة : ﴿ **إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى ، أى إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعا بين خصلتى القوّة والأمانة . وقد تقدّم فى المروىّ عن ابن عباس وعمر ؛ أن أباها سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة فأجابته بما تقدّم قريبا . ﴿ **قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ فيه مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، والقصة معروفة [١] ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوّة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة

---

(١) أحمد ١/ ١٢ والبخارى فى النكاح (٥١٢٢) والنسائى ٦/ ٨٣ والطبرانى ٢٣/ ١٨٦ (٣٠٢) .

لنفسها على رسول الله ﷺ . ﴿ **على أن تأجرنى ثمانى حجج** ﴾ أى على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنين . قال الفراء : يقول: على أن تجعل ثوابى أن ترعى غنمى ثمانى سنين ، ومحل : ﴿ **على أن تأجرنى** ﴾ النصب على الحال ، وهو مضارع أجرته ، ومفعوله الثانى محذوف ، أى نفسك ، و ﴿ **ثمانى حجج** ﴾ ظرف . قال المبرد : يقال : أجرت دارى ومملوكى ، غير ممدود وممدودا والأوّل أكثر ﴿ **فإن أتممت عشرا فمن عندك** ﴾ أى إن أتممت ما استأجرتك عليه من الرعى عشر سنين فمن عندك ، أى تفضلا منك لا إلزاما منى لك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام ، موكولا إلى المروءة ، ومحل ﴿ **فمن عندك** ﴾ الرفع على تقدير مبتدأ ، أى فهى من عندك ﴿ **وما أريد أن أشق عليك** ﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام ، واشتقاق المشقة من الشق ، أى شق ظنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق ، وتارة يقول : لا أطيق . ثم رغبه فى قبول الإجارة فقال: ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ فى حسن الصحبة والوفاء . وقيل : أراد الصلاح على العموم ، فيدخل صلاح المعاملة فى تلك الإجارة تحت الآية دخولا أوليا ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضا للأمر إلى توفيق الله ومعونته .

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فقال : ﴿ **ذلك بينى وبينك** ﴾ واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه ، وجملة : ﴿ **أيما الأجلين قضيت** ﴾ شرطية وجوابها :﴿ **فلا عدوان على** ﴾ والمراد بالأجلين : الثمانية الأعوام والعشرة الأعوام ، ومعنى ﴿**قضيت** ﴾ : وفيت به وأتممته ، والأجلين مخفوض بإضافة أىّ إليه ، وما زائدة . وقال ابن كيسان: « ما » فى موضع خفض بإضافة أىّ إليها ، و ﴿ **الأجلين** ﴾ بدل منها ، وقرأ الحسن : « أيما »بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود : « أىّ الأجلين ما قضيت » ومعنى ﴿ **فلا عدوان على**﴾: فلا ظلم علىّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين ، أى كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب بالنقصان على العشرة . وقيل : المعنى : كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، وهذا أظهر . وأصل العدوان : تجاوز الحد فى غير ما يجب . قال المبرد : وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما ، ولكنه جمعهما ليجعل الأوّل كالأتمّ فى الوفاء . قرأ الجمهور : ﴿ **عدوان** ﴾ بضم العين . وقرأ أبوحيوة بكسرها . ﴿ **والله على ما نقول وكيل** ﴾ أى على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا، شاهد وحفيظ ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك. قيل: هو من قول موسى . وقيل: من قول شعيب ، والأوّل أولى لوقوعه فى جملة كلام موسى .

﴿ **فلما قضى موسى الأجل** ﴾ هو أكملهما وأوفاهما ، وهو العشرة الأعوام كما سيأتى آخر البحث ، والفاء فصيحة ﴿ **وسار بأهله** ﴾ إلى مصر . وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ﴿ **آنس من جانب الطور نارا** ﴾أى أبصر من الجهة التى تلى الطور نارا ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة طه مستوفى . ﴿ **قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ وهذا تقدّم تفسيره أيضا فى سورة طه وفى سورة النمل . ﴿ **أو جذوة** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم،

وقرأ حمزة ويحيى بن وثاب بضمها ، وقرأ عاصم والسلمي وذرّ بن حبيش بفتحها . قال الجوهرى : الجِذوة والجُذوة والجَذوة : الجمرة ، والجمع جِذًى وجُذًى وجَذى . قال مجاهد : فى الآية أن الجذوة : قطعة من الجمر فى لغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : هى القطعة الغليظة من الخشب كأن فى طرفها نارا ولم يكن ، ومما يؤيد أن الجذوة الجمرة قول السلمى :

وبدلت بعد المسك والبان شقوة دخان الجذا فى رأس أشمط شاحب

﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ أى تستدفئون بالنار . ﴿ **فلما أتاها** ﴾ أى أتى النار التى أبصرها . وقيل : أتى الشجرة، والأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة. ﴿ **نودى من شاطئ الواد الأيمن**﴾: « من » لابتداء الغاية، و﴿ **الأيمن** ﴾ صفة للشاطئ ، وهو من اليمن وهو البركة ، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى ، أى الذى يلى يمينه دون يساره ، وشاطئ الوادى : طرفه . وكذا شطه . قال الراغب : وجمع الشاطئ : أشطاء ، وقوله : ﴿ **فى البقعة المباركة** ﴾ متعلق بـ ﴿ **نودى** ﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ ، و ﴿ **من الشجرة** ﴾ بدل اشتمال من شاطئ الواد ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ . وقال الجوهرى :يقول شاطئ الأودية ولا يجمع. قرأ الجمهور : ﴿ **فى البقعة** ﴾ بضم الباء ، وقرأ أبو سلمة والأشهب العقيلى بفتحها ، وهى لغة حكاها أبو زيد ﴿ **أن يا موسى إنى أنا الله** ﴾: « أن » هى المفسرة ، ويجوز أن تكون هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن،وجملة النداء مفسرة له، والأوّل أولى . قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿ **إنى** ﴾ على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه . وقرئ بالفتح وهى قراءة ضعيفة .

وقوله : ﴿ **وأن ألق عصاك** ﴾ معطوف على ﴿ **أن يا موسى** ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى طه والنمل، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جان** ﴾ فى سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ أى منهزما ، وانتصاب ﴿**مدبرا** ﴾ على الحال ، وقوله : ﴿ **ولم يعقب** ﴾ فى محل نصب أيضا على الحال ، أى لم يرجع ﴿ **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده ، وكذلك قوله : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك** ﴾ جناح الإنسان : عضده ، ويقال لليد كلها : جناح ، أى اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع ، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات : الأولى : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك** ﴾ . والثانية: ﴿ **واضمم إليك جناحك** ﴾. والثالثة :﴿ **وأدخل يدك فى جيبك** ﴾ . ويجوز أن يراد بالضم : التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا . ومعنى ﴿ **من الرهب** ﴾ : من أجل الرهب، وهو الخوف . قرأ الجمهور :« الرهب » بفتح الراء والهاء ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ حفص والسلمى وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفصا بضم الراء وإسكان الهاء . وقال الفراء : أراد بالجناح : عصاه ، وقال بعض أهل المعانى : الرهب : الكمّ بلغة

حمير وبنى حنيفة . قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر : أعطنى ما فى رهبك ، فسألته عن الرهب ، فقال : الكم . فعلى هذا يكون معناه : اضمم إليك يدك وأخرجها من الكمّ ﴿ **فذانك** ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿ **برهانان من ربك إلى فرعون وملئه** ﴾ أى حجتان نيرتان ودليلان واضحان ، قرأ الجمهور :﴿ **فذانك** ﴾ بتخفيف النون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديدها ، قيل : والتشديد لغة قريش . وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر وشبل وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة ، والياء بدل من إحدى النونين وهى لغة هذيل ، وقيل : لغة تميم ، وقوله : ﴿ **من ربك** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى كائنان منه ، وكذلك قوله : ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى مرسلان ، أو واصلان إليهم ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ : متجاوزين الحدّ فى الظلم ، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج ، والجملة تعليل لما قبلها .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن أبى الهذيل عن عمر بن الخطاب فى قوله : ﴿ **تمشى على استحياء** ﴾ قال : جاءت مستترة بكمّ درعها على وجهها . وأخرجه ابن المنذر عن أبى الهذيل موقوفا عليه . وأخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال : لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء ، فقال له شعيب : كل ، قال موسى : أعوذ باللّه ، قال : ولم ؟ ألست بجائع ؟ قال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا ، قال : لا واللّه ولكنها عادتى وعادة آبائى ، نقرى الضيف ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قصّ عليه القصص . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال : كان صاحب موسى أثرون ابن أخى شعيب النبى . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الذى استأجر موسى يثربى صاحب مدين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه قال : كان اسم ختن موسى يثربى. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : يقول أناس : إنه شعيب ، وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذ . وأخرج ابن ماجة والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عتبة بن النذَّر(١) السلمى قال : كنا عند رسول ﷺ فقرأ سورة :﴿ **طسم** ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال : «إن موسى أجر نفسه ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل » قيل : يا رسول اللّه ، أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أبرّهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه » (٢) الحديث بطوله . وفى إسناده مسلمة بن على الحسنى الدمشقى البلاطى ضعفه الأئمة. وقد روى من وجه آخر وفيه نظر .

---

(١) فى المخطوطة : « ابن المنذر » ، والصحيح ابن النُذَّر بضم النون وتشديد الذال المفتوحة . الإصابة ٢/ ٤٥٦ (٥٤١٥) .

(٢) ابن ماجة فى الرهون (٢٤٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ :« رواه البزار والطبرانى وفى إسناده ابن لهيعة وفيه ضعف وقد يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدّثنى ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النذر(١) السلمى صاحب رسول الله ﷺ فذكره ، وابن لهيعة ضعيف ، وينظر فى بقية رجال السند . وأخرج ابن جرير عن أنس طرفا منه موقوفا عليه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد والبخارى وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل (٢) . وأخرج البزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه(٣) ، وقوله : « إن رسول الله إذا قال فعل » فيه نظر ؛ فإن موسى لم يقل إنه سيقضى أكثر الأجلين بل قال : ﴿ **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على** ﴾ وقد روى عن رسول الله ﷺ أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق(٤) . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن أبى ذرّ قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إذا سئلت أى الأجلين قضى موسى ؟ فقل : خيرهما وأبرهما، وإن سئلت أىّ المرأتين تزوّج؟ فقل الصغرى منهما ، وهى التى جاءت فقالت : ﴿ **يا أبت استأجره** ﴾ » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سألوك أيهما تزوّج؟ فقل الصغرى منهما». وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن أبى ذرّ؛ أن النبى ﷺ سئل : أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال :« أبرّهما وأوفاهما»، قال : « وإن سئلت أىّ المرأتين تزوّج؟ فقل : الصغرى منهما» . قال البزار : لا نعلم يروى عن أبى ذرّ إلا بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران، وهو ضعيف. وأما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوّى بعضها بعضا . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق السدّى قال : قال ابن عباس : لما قضى موسى الأجل سار بأهله ، فضلّ الطريق ، وكان فى الشتاء فرفعت له نار ، فلما رآها ظنّ أنها نار ، وكانت من نور الله ﴿ **فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ فإن لم أجد خبرا آتيكم بشهاب قبس ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ من البرد .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ لعلى أجد من يدلنى على

---

(١) سبق استدراك الخطأ فى هامش (١) السابق .

(٢) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٦) والبخارى فى الشهادات (٢٦٨٤) .

(٣) أبو يعلى (٢٤٠٨) وابن جرير ٢٠/٤٣ وصححه الحاكم ٢/٤٠٧ على شرط الشيخين وقال الذهبى :« حفص واهٍ » .

(٤) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٥) وصححه الحاكم ٢/٤٠٨ كلاهما عن ابن عباس ، وقال الذهبى : «إبراهيم لا يعرف » .

الطريق، وكانوا قد ضلوا الطريق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**أو جذوة**﴾ قال : شهاب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **نودى من شاطئ الواد** ﴾ قال : كان النداء من السماء الدنيا ، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضى اللّه عنه. وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن عبد اللّه بن مسعود قال : ذكرت لى الشجرة التى أوى إليها موسى ، فسرت إليها يومى وليلتى حتى صبحتها ، فإذا هى سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبى ﷺ وسلمت ، فأهوى إليها بعيرى وهو جائع ، فأخذ منها ملء فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه ، فصليت على النبىّ وسلمت ، ثم انصرفت (١) .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **واضمم إليك جناحك** ﴾ قال: يدك .

﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾** ﴾.

لما سمع موسى قول اللّه سبحانه : ﴿ **فذانك برهانان [من ربك]** (٢) **إلى فرعون** ﴾ طلب منه سبحانه أن يقوّى قلبه، فقال : ﴿ **ربّ إنى قتلت منهم نفسا** ﴾ يعنى القبطى الذى وكزه فقضى عليه ﴿ **فأخاف أن يقتلون** ﴾ بها . ﴿**وأخي هارون هو أفصح منى لسانا** ﴾ لأنه كان فى لسان موسى حبسة كما تقدّم بيانه . والفصاحة لغةً : الخلوص ، يقال : فصح اللبن وأفصح : فهو فصيح ، أى خلص من الرغوة ، ومنه فصح الرجل : جادت لغته ، وأفصح : تكلم بالعربية . وقيل : الفصيح : الذى ينطق ، والأعجم : الذى لا ينطق . وأما فى اصطلاح أهل

---

(١) ابن جرير ٢٠/٣٧ وصححه الحاكم ٢/٥٧٧ وقال الذهبى : « على شرط الشيخين » .
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة .

البيان فالفصاحة: خلوص الكلمة عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس. وفصاحة الكلام : خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد . وانتصاب ﴿ **ردءا** ﴾ على الحال، والردء: المعين ، من أردأته ، أى أعنته ، يقال : فلان ردء فلان: إذا كان ينصره ويشدّ ظهره ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر أن أصرم كان ردئى وخير الناس فى قلّ ومال

وحذفت الهمزة تخفيفا فى قراءة نافع وأبى جعفر ، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة : إذا زاد عليها ، فكان المعنى : أرسله معى زيادة فى تصديقى ، ومنه قول الشاعر :

وأسمر خطيا كأن كعوبه نوى القسب قد أردى ذراعا على العشر

وروى البيت فى الصحاح بلفظ : قد أربى ، والقسب : الصلب ، وهو الثمر اليابس الذى يتفتت فى الفم ، وهو صلب النواة . ﴿ **يصدقنى** ﴾ قرأ عاصم وحمزة :﴿**يصدقنى**﴾ بالرفع على الاستئناف ، أو صفة لـ﴿ **ردءا** ﴾ أو الحال من مفعول أرسله. وقرأ الباقون بالجزم على جواب الأمر ، وقرأ أبى وزيد ابنا على : « يصدقون » أى فرعون وملؤه ﴿ **إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ إذا لم يكن معى هارون لعدم انطلاق لسانى بالمحاجة . ﴿ **قال سنشدّ عضدك بأخيك**﴾ أى نقويك به ، فشدّ العضد كناية عن التقوية ، ويقال فى دعاء الخير : شدّ اللّه عضدك ، وفى ضدّه : فتّ اللّه فى عضدك . قرأ الجمهور : ﴿**عضُدك**﴾ بفتح العين . وقرأ الحسين وزيد ابنا علىّ بضمها . وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضمة وسكون . وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما .﴿ **ونجعل لكما سلطانا** ﴾ أى حجة وبرهانا ، أو تسلطا عليه ، وعلى قومه ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ بالأذى ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة ، و﴿ **بآياتنا** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى تمتنعان منهم بآياتنا ، أو اذهبا بآياتنا . وقيل: الباء للقسم ، وجوابه : ﴿ **يصلون** ﴾ وما أضعف هذا القول . وقال الأخفش وابن جرير : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ بآياتنا ، وأوّل هذه الوجوه أولاها ، وفى : ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ تبشير لهما وتقوية لقلوبهما .

﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات** ﴾ البينات : الواضحات الدلالة ، وقد تقدّم وجه إطلاق الآيات ، وهى جمع على العصا واليد فى سورة طه ﴿ **قالوا ما هذا إلا سحر مفترى** ﴾ أى مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ﴿ **وما سمعنا بهذا** ﴾ الذى جئت به من دعوى النبوّة ، أو ما سمعنا بهذا السحر ﴿ **فى آبائنا الأوّلين** ﴾ أى كائنا أو واقعا فى آبائنا الأوّلين. ﴿ **وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده** ﴾ يريد نفسه ، وإنما جاء بهذه العبارة ؛ لئلا يصرّح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة ، واللّه أعلم . قرأ الجمهور:﴿ **وقال موسى** ﴾ بالواو ، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن: « قال موسى » بلا واو ، وكذلك هو فى مصاحف أهل مكة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما : « ومن يكون له عاقبة الدار » بالتحتية على أن اسم يكون عاقبة الدار .

والتذكير لوقوع الفصل ؛ ولأنه تأنيث مجازى ، وقرأ الباقون : ﴿ **تكون** ﴾ بالفوقية ، وهى أوضح من القراءة الأولى . والمراد بالدار هنا : الدنيا ، وعاقبتها : هى الدار الآخرة ، والمعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة . والضمير فى : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ للشأن ، أى إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون ، أى لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة الدار : خاتمة الخير .

﴿ **وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾: تمسك اللعين بمجرّد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه ، وقد كان يعلم أن ربه اللّه عزّ وجلّ ، ثم رجع إلى تكبره وتجبره وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال: ﴿ **فأوقد لى يا هامان على الطين** ﴾ أى اطبخ لى الطين حتى يصير آجرا ﴿ **فاجعل لى صرحا** ﴾ أى اجعل لى من هذا الطين الذى توقد عليه حتى يصير آجرا صرحا ، أى قصرا عاليا ﴿ **لعلى أطلع إلى إله موسى** ﴾ أى أصعد إليه ﴿ **وإنى لأظنه من الكاذبين**﴾ والطلوع والاطلاع واحد ، يقال : طلع الجبل واطلع. ﴿ **واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق** ﴾ المراد بالأرض : أرض مصر، والاستكبار : التعظم بغير استحقاق ، بل بالعدوان ؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى ، ولا شبهة ينصبها فى مقابلة ما أظهره من المعجزات ﴿ **وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون** ﴾ أى فرعون وجنوده ، والمراد بالرجوع : البعث والمعاد . قرأ نافع وشيبة وابن محيصن وحميد ويعقوب وحمزة والكسائى : « لا يرجعون » بفتح الياء وكسر الجيم مبنيا للفاعل . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الجيم مبنيا للمفعول ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد .

﴿ **فأخذناه وجنوده** ﴾ بعد أن عتوا فى الكفر وجاوزوا الحدّ فيه ﴿ **فنبذناهم فى اليم** ﴾ أى طرحناهم فى البحر ، وقد تقدّم بيان الكلام فى هذا ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، أى انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك ؟ ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾ أى صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين فى الكافرين ، فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادى فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتدوا وسلكوا طريقتهم تقليدا لهم . وقيل : المعنى : إنه يأتمّ بهم ، أى يعتبر بهم من جاء بعدهم ويتعظ بما أصيبوا به ، والأول أولى ﴿ **ويوم القيامة لاينصرون**﴾ أى لاينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب اللّه ﴿**وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ أى طردا وإبعادا ، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من ذكرهم لعنهم ، والأوّل أولى .﴿ **ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ المقبوح : المطرود المبعد . وقال أبوعبيدة وابن كيسان : معناه : من المهلكين الممقوتين . وقال أبو زيد : قبح اللّه فلانا قبحا وقبوحا : أبعده من كل خير . قال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد ، ومثله قول الشاعر :

ألا قبح اللّه البراجم كلها وقبح يربوعا وقبح دارما

وقيل : المقبوح : المشوة الخلقة . والعامل فى يوم ، محذوف يفسره من المقبوحين . والتقدير : وقبحوا يوم القيامة . أوهو معطوف على موضع فى هذه الدنيا ، أى وأتبعناهم لعنة يوم القيامة ، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف ، أى ولعنة يوم القيامة . ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ يعنى التوراة ﴿ **من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ أى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . وقيل : من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . وانتصاب ﴿ **بصائر للناس**﴾ على أنه مفعول له أو حال ، أى آتيناه الكتاب لأجل يتبصر به الناس ، أو حال كونه بصائر للناس يبصرون به الحق ويهتدون إليه وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به . ﴿**ورحمة** ﴾ لهم من اللّه رحمهم بها ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ هذه النعم فيشكرون اللّه ويؤمنون به ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿**ردءا يصدقنى** ﴾ كى يصدقنى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما قال فرعون : ﴿ **يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ قال جبريل : يارِبّ ،طغى عبدك فائذن لى فى هلكه ، فقال : يا جبريل ، هو عبدى ولن يسبقنى ، له أجل قد أجلته حتى يجىء ذلك الأجل ، فلما قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾ قال اللّه : يا جبريل سبقت دعوتك فى عبدى وقد جاء أوان هلاكه . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ:« كلمتان قالهما فرعون:﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ وقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ » [النازعات : ٢٤] قال : « كان بينهما أربعون عاما ﴿ فأخذه اللّه نكال الآخرة والأولى ﴾ » [النازعات : ٢٥] . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بلغنى أن فرعون أوّل من طبخ الآجر . وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبى سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما أهلك اللّه قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله : ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ » (١) . وأخرجه البزار وابن جرير وابن أبى حاتم من وجه آخر عن أبى سعيد موقوفا (٢) .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٠٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ٢٠/ ٥٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ :« رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا ورجالهما رجال الصحيح ».

رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الغربى** ﴾ هذا شروع فى بيان إنزال القرآن ، أى وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربىّ، فيكون من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجاج. وقال الكلبى : بجانب الوادى الغربىّ ، أى حيث ناجى موسى ربه ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ أى عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿**وما كنت من الشاهدين**﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته وتحكيه من جهة نفسك . وإذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ والمشاهدة لها منه ، وانتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدّمنا تقريره ، تبين أنه من عند الله سبحانه بوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك ، فهذا الكلام هو على طريقة :﴿وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقيل: معنى ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ : إذ كلفناه وألزمناه . وقيل : أخبرناه أن أمة محمد خير الأمم ، ولا يستلزم نفى كونه بجانب الغربى نفى كونه من الشاهدين ؛ لأنه يجوز أن يحضر ولا يشهد . قيل: المراد بالشاهدين : السبعون الذين اختارهم موسى للميقات .

﴿ **ولكنا أنشأنا قرونا** ﴾ أى خلقنا أمما بين زمانك يا محمد وزمان موسى ﴿ **فتطاول عليهم العمر** ﴾ طالت عليهم المهلة وتمادى عليهم الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وتنوسيت الأديان

فتركوا أمر اللّه ونسوا عهده ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ [الحديد : ١٦] ، وقد استدلّ بهذا الكلام على أن اللّه سبحانه قد عهد إلى موسى عهودا فى محمد ﷺ وفى الإيمان به فلما طال عليهم العمر ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين ﴾ أى مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم وتقصّ عليهم من جهة نفسك . يقال :ثوى يثوى ثواء وثويا : فهوثاو. قال ذو الرمة :

لقد كان فى حول ثواء ثويته   تقضى لبانات ويسأم سائم

وقال العجاج :

فبات حيث يدخل الثوّى

يعنى الضيف المقيم .

وقال آخر :

طال الثواء على رسوم المنزل

﴿ تتلو عليهم آياتنا ﴾ أى تقرأ على أهل مدين آياتنا وتتعلم منهم . وقيل : تذكرهم بالوعد والوعيد ، والجملة فى محل نصب على الحال أو خبر ثان ، ويجوز أن تكون هذه الجملة هى الخبر ، و﴿ ثاويا ﴾ حال . وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل : وها أنت تتلو على أمتك ﴿ولكنا كنا مرسلين ﴾ أى أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار ولولا ذلك لما علمتها . قال الزجاج : المعنى : أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ، ولكنا أوحيناها إليك وقصصناها عليك .

﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أى وما كنت يا محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميقات مع السبعين. وقيل المنادى :هو أمة محمد ﷺ . قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر اللّه له فضل محمد وأمته قال : يارب أرنيهم ، فقال اللّه : إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم ، قال : بلى يارب ، فقال اللّه : يأمة محمد ، فأجابوا من أصلاب آبائهم . فيكون معنى الآية على هذا : ما كنت يامحمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك ، وسيأتى ما يدلّ على هذا ويقوّيه ويرجحه فى آخر البحث إن شاء اللّه ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أى ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم . وقيل : ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم . وقيل : علمناك. وقيل : عرفناك. قال الأخفش : هو منصوب ، يعنى : رحمة ، على المصدر ، أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله ، أى فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة . قال النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ولكن بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : هو خبر لكان مقدّرة ، أى ولكن كان

ذلك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر وأبوحيوة : «رحمة» بالرفع على تقدير : ولكن أنت رحمة . وقال الكسائى : الرفع على أنها اسم كان المقدّرة ، وهو بعيد إلا على تقدير أنها تامة ، واللام فى: ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك** ﴾ متعلق بالفعل المقدّر على الاختلاف فى تقديره . والقوم : هم أهل مكة ، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله ﷺ. وجملة: ﴿ **ما أتاهم** ﴾ . . . إلخ صفة لـ﴿ **قوما**﴾ ، ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ أى يتعظون بإنذارك .

﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم** ﴾ لولا هذه ، هى الامتناعية وأن وما فى حيزها فى موضع رفع بالابتداء وجوابها محذوف . قال الزجاج : وتقديره : ما أرسلنا إليهم رسلا : يعنى أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [النساء : ١٦٥] وقدّره ابن عطية : لعاجلناهم بالعقوبة ، ووافقه على هذا التقدير الواحدى فقال : والمعنى : لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم ، وقوله : ﴿ **فيقولوا** ﴾ عطف على تصيبهم ومن جملة ما هو فى حيز لولا ، أى فيقولوا : ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا** ﴾ ولولا هذه الثانية، هى التحضيضية، أى هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك ، وجوابها هو : ﴿ **فنتبع آياتك** ﴾ وهو منصوب بإضمار أن ؛ لكونه جوابا للتحضيض ، والمراد بالآيات : الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة ، وإنما عطف القول على تصيبهم ؛ لكونه هو السبب للإرسال ، ولكن العقوبة لما كانت هى السبب للقول وكان وجوده بوجودها؛ جعلت العقوبة كأنها هى السبب لإرسال الرسل بواسطة القول ﴿ **ونكون من المؤمنين** ﴾ بهذه الآيات ، ومعنى الآية : أنا لو عذبناهم لقالوا : طال العهد بالرسل ولم يرسل اللّه إلينا رسولا ، ويظنون أن ذلك عذر لهم ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم .

﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى** ﴾ أى فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند اللّه وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن ، قالوا تعنتا منهم وجدالابالباطل : هلا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى موسى من الآيات التى من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة ؟ فأجاب اللّه عليهم بقوله : ﴿ **أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل** ﴾ أى من قبل هذا القول ، أو من قبل ظهور محمد ؛ والمعنى : أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ، وجملة: ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم ، والمراد بقولهم :﴿ **ساحران** ﴾ موسى ومحمد ، والتظاهر: التعاون ، أى تعاونا على السحر ، والضمير فى قوله : ﴿ **أولم يكفروا** ﴾ لكفار قريش . وقيل : هو لليهود . والأوّل أولى ، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم إلا أن يراد من أنكر نبوّة موسى كفرعون وقومه ، فإنهم وصفوا موسى وهارون بالسحر ، ولكنهم ليسوا من اليهود ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر ،

والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضا بالسحر . وقيل: المعنى : أو لم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد .قرأ الجمهور: ﴿**ساحران**﴾وقرأ الكوفيون: ﴿**سحران**﴾ يعنون التوراة والقرآن . وقيل : الإنجيل والقرآن . قال بالأوّل الفراء ، وقال بالثانى أبو زيد. وقيل: إن الضمير فى :﴿ **أولم يكفروا** ﴾ لليهود ، وأنهم عنوا بقولهم : ﴿ **ساحران** ﴾ عيسى ومحمدا . ﴿ **وقالوا إنا بكلّ كافرون** ﴾ أى بكلّ من موسى ومحمد ، أو من موسى وهارون ، أو من موسى وعيسى على اختلاف الأقوال ، وهذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فالمراد : التوراة والقرآن أو الإنجيل والقرآن . وفى هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر ، أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك .

ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه** ﴾ أى قل لهم يا محمد : فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ، و﴿ **أتبعه** ﴾ جواب الأمر ، وقد جزمه جمهور القراء لذلك . وقرأ زيد بن علىّ برفع: « أتبعه » على الاستئناف ، أى فأنا أتبعه . قال الفراء : إنه على هذه القراءة صفة للكتاب ، وفى هذا الكلام تهكم به . وفيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور ؛ لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين ، ومعنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ : إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين صادقين . ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ أى لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين ، وجواب الشرط :﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ أى آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ولا برهان ، وقيل : المعنى : فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به . وتعدية ﴿ **يستجيبوا** ﴾ باللام هو أحد الجائزين ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ أى لا أحد أضلّ منه ، بل هو الفرد الكامل فى الضلال ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات اللّه .

﴿ **ولقد وصلنا لهم القول** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **وصلنا** ﴾ بتشديد الصاد ، وقرأ الحسن بتخفيفها ، ومعنى الآية:أتبعنا بعضه بعضا وبعثنا رسولا بعد رسول . وقال أبو عبيدة والأخفش : معناه : أتممنا . وقال ابن عيينة والسدّى : بينا . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا ، والأولى أولى . وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض ، ومنه قول الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذمتى   بحبل ضعيف لا تزال توصل

وقال امرؤ القيس :

يقلب كفيه بخيط موصل

والضمير فى :﴿ **لهم** ﴾ عائد إلى قريش . وقيل : إلى اليهود . وقيل : للجميع ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ فيكون التذكر سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم . ﴿ **الذين**

آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ أى من قبل القرآن ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **هم به يؤمنون** ﴾ أخبرسبحانه أن طائفة من بنى إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد اللّه بن سلام وسائر من أسلم من أهل الكتاب ، وقيل: الضمير فى ﴿ **من قبله** ﴾ يرجع إلى محمد ﷺ ، والأوّل أولى . والضمير فى ﴿ **به** ﴾ راجع إلى القرآن على القول الأوّل ، وإلى محمد على القول الثانى . ﴿**وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به** ﴾ أى وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدّقنا به ﴿ **إنه الحق من ربنا**﴾ أى الحق الذى نعرفه المنزل من ربنا﴿ **إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ أى مخلصين للّه بالتوحيد أو مؤمنين بمحمد وبما جاء به لما نعلمه من ذكره فى التوراة والإنجيل من التبشير به ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرّتين** ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ، والباء فى ﴿ **بما صبروا** ﴾ للسببية ، أى بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر . وبالنبىّ الأوّل والنبىّ الآخر ﴿ **ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾ الدرء: الدفع ، أى يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى . وقيل : يدفعون بالطاعة المعصية . وقيل : بالتوبة والاستغفار ، الذنوب . وقيل : بشهادة أن لا إله إلا اللّه ، الشرك ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون**﴾ أى ينفقون أموالهم فى الطاعات وفيما أمر به الشرع .

ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ تكرّما وتنزّها وتأدّبا بآداب الشرع ، ومثله قوله سبحانه:﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ [الفرقان:٧٢] واللغو هنا هو : مايسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم ﴿**وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ لا يلحقنا من ضرركفركم شىء ، ولايلحقكم من نفع إيماننا شىء ﴿**سلام عليكم** ﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ؛ ولكن المراد به :سلام المتاركة ؛ ومعناه: أمنة لكم منا وسلامة، لانجاريكم ولا نجاوبكم فيما أنتم فيه . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿ **لا نبتغى الجاهلين** ﴾ أى لا نطلب صحبتهم . وقال مقاتل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه . وقال الكلبى : لا نحبّ دينكم الذى أنتم عليه . ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت** ﴾ من الناس وليس ذلك إليك ﴿ **ولكن اللّه يهدى من يشاء** ﴾ هدايته ﴿**وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أى القابلين للهداية المستعدّين لها ، وهذه الآية نزلت فى أبى طالب كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما (١) ، وقد تقدّم ذلك فى براءة . قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب ، وقد تقرّر فى الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل فى ذلك أبو طالب دخولا أوليا .

﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ أى قال مشركو قريش ومن تابعهم : إن ندخل فى دينك يا محمد نتخطف من أرضنا ، أى يتخطفنا العرب من أرضنا ، يعنون مكة

---

(١) أحمد ٥/ ٤٣٣ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٢) ومسلم فى الإيمان (٢٤/ ٣٩) والنسائى فى التفسير (٢٥٠) كلهم عن المسيب بن حزن ، كما أخرجه أحمد ٢/ ٤٣٤ ومسلم فى الإيمان (٢٥/ ٤٢) والترمذى فى التفسير (٣١٨٨) وقال : «حسن غريب »، كلهم عن أبى هريرة .

ولا طاقة لنا بهم ، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة ، والتخطف فى الأصل هو : الانتزاع بسرعة . قرأ الجمهور: ﴿ **نتخطف**﴾ بالجزم جوابا للشرط ، وقرأ المنقرى بالرفع على الاستئناف . ثم ردّ ذلك عليهم ردًا مصدّرا باستفهام التوبيخ والتقريع فقال : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا** ﴾ أى ألم نجعل لهم حرما ذا أمن ؟ قال أبو البقاء : عدّاه بنفسه ؛ لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك فى قوله : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ثم وصف هذا الحرم بقوله : ﴿ **يجبى إليه ثمرات كل شىء** ﴾ أى تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضى المختلفة وتحمل إليه. قرأ الجمهور : ﴿ **يجبى** ﴾ بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شىء ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات ، وأيضا ليس تأنيث ثمرات بحقيقىّ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، وقرأ نافع بالفوقية اعتبارا بثمرات. وقرأ الجمهور أيضا: ﴿**ثمرات**﴾بفتحتين ، وقرأ أبان بضمتين ، جمع ثمر بضمتين ، وقرئ بفتح الثاء وسكون الميم ﴿ **رزقا من لدنا** ﴾ منتصب على المصدرية؛ لأن معنى ﴿ **يجبى** ﴾ : نرزقهم ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف ، أى نسوقه إليهم رزقا من لدنا ، ويجوز أن ينتصب على الحال ، أى رازقين ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ لفرط جهلهم ومزيد غفلتهم وعدم تفكرهم فى أمر معادهم ورشادهم ؛ لكونهم ممن طبع اللّه على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وقد أخرج الفريابى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى معا فى الدلائل عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ قال : نودوا : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى ، واستجبت لكم قبل أن تدعونى[(١)] . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا . وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة ، والديلمى عن عمرو بن عبسة قال: سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ : ما كان النداء وما كانت الرحمة ؟ قال : «كتبه اللّه قبل أن يخلق خلقه بألفى عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى: ياأمة محمد ، سبقت رحمتى غضبى ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ، فمن لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا عبدى ورسولى صادقا أدخلته الجنة » [(٢)] . وأخرج الختلى فى الديباج عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن حذيفة فى قوله: ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ مرفوعا، قال: نودوا: يا أمة محمد، ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا: « إن اللّه نادى : يا أمة محمد، أجيبوا ربكم » قال : «فأجابوا وهم فى

---

(١) النسائى فى التفسير (٤٠٢) وابن جرير ٥١/٢٠ وصححه الحاكم ٤٠٨/٢ على شرط مسلم وسكت عنه الذهبى .

(٢) الديلمى (٧٢٠٦).

أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبيك، أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا، قال : صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدى حقا ، قد عفوت عنكم قبل أن تدعونى، وأعطيتكم قبل أن تسألونى، فمن لقينى منكم بشهادة أن لا إله إلا اللّه دخل الجنة».

وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول اللّه ﷺ : «الهالك فى الفترة يقول: ربّ لم يأتنى كتاب ولا رسول»، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا**﴾ إلخ : قال : هم أهل الكتاب ﴿ **إنا بكل كافرون** ﴾ يعنى بالكتابين: التوراة ، والفرقان. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، وأبو القاسم البغوى والباوردى وابن قانع الثلاثة فى معاجم الصحابة، والطبرانى وابن مردويه بسند جيد عن رفاعة القرظى قال: نزلت: ﴿ **ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين**﴾ فى عشرة رهط أنا أحدهم [١] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ قال: يعنى من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل والآخر، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده» [٢] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبى هريرة أن قوله: ﴿ **إنك لاتهدى من أحببت**﴾ نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الإسلام [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن ناسا من قريش قالوا للنبىّ ﷺ : إن نتبعك يتخطفنا الناس، فنزلت: ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك** ﴾ الآية [٤] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **يجبى إليه ثمرات كل شىء** ﴾ قال: ثمرات الأرض.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) ابن جرير ٢٠/ ٥٦ والطبرانى (٤٥٦٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ : « رواه الطبرانى بإسنادين : أحدهما: متصل ورجاله ثقات وهو هذا والآخر : منقطع الإسناد».

(٢) أحمد ٤/ ٣٩٥ والبخارى فى العلم (٩٧) ومسلم فى الإيمان (١٥٤/ ٢٤١) والترمذى فى النكاح (١١١٦) وقال: «حسن صحيح » والنسائى فى النكاح ٦/ ١١٥ وابن ماجة فى النكاح (١٩٥٦) والدارمى فى النكاح ٢/ ١٥٥.

(٣) سبق تخريجه .

(٤) ابن جرير ٢٠/ ٦٠ .

وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾.

قوله: ﴿ **وكم أهلكنا من قرية** ﴾ أى من أهل قرية كانوا فى خفض عيش ودعة ورخاء، فوقع منهم البطر فأهلكوا. قال الزجاج: البطر: الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا فى البطر فأكلوا رزق اللّه وعبدوا الأصنام. قال الزجاج والمازنى : معنى ﴿ **بطرت معيشتها** ﴾ : بطرت فى معيشتها ، فلما حذفت « فى» تعدّى الفعل ،كقوله : ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف :١٥٥] . وقال الفراء : هو منصوب على التفسير كما تقول : أبطرك مالك وبطرته، ونظيره عنده قوله تعالى : ﴿ إلا من سفه نفسه﴾ [البقرة : ١٣٠] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير: أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى : جهلت ﴿ **فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا** ﴾ أى لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنا قليلا، كالذى يمرّ بها مسافرا فإنه يلبث فيها يوما أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها إلا أياما قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل : إن الاستثناء يرجع إلى المساكن، أى لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب، كذا قال الفراء وهو قول ضعيف ﴿**وكنا نحن الوارثين** ﴾ منهم ؛لأنهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم وأموالهم، ومحلّ جملة :﴿ **لم تسكن** ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال.

﴿ **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا** ﴾ أى وما صحّ ولا استقام أن يكون اللّه مهلك القرى الكافرة أى الكافر أهلها حتى يبعث فى أمها رسولا ينذرهم ويتلو عليهم آيات اللّه الناطقة بما أوجبه اللّه عليهم وما أعدّه من الثواب للمطيع والعقاب للعاصى، ومعنى ﴿ **أمها** ﴾ : أكبرها وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها؛ لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأى، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأمّ لما

حولها من القرى. وقال الحسن : أمّ القرى : أوّلها. وقيل : المراد بأمّ القرى هنا : مكة ،كما فى قوله : ﴿إن أوّل بيت وضع للناس﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] ، وقد تقدم بيان ماتضمنته هذه الآية فى آخر سورة يوسف، وجملة : ﴿ **يتلو عليهم آياتنا** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى تاليا عليهم ومخبرا لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا ﴿ **وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما فى قوله سبحانه : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [هود : ١١٧].

ثم قال سبحانه : ﴿ **وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها**﴾ الخطاب لكفار مكة، أى وما أعطيتم من شىء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدّة حياتكم أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه أويزول عنكم، وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء ﴿ **وما عند الله**﴾ من ثوابه وجزائه ﴿**خير**﴾ من ذلك الزائل الفانى ؛ لأنه لذّة خالصة عن شوب الكدر﴿ **وأبقى** ﴾ لأنه يدوم أبدا، وهذا ينقضى بسرعة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن الباقى أفضل من الفانى ، وما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن والقلب ، وقرئ بنصب :« متاع » على المصدرية ، أى فتمتعون متاع الحياة ، وقرأ أبو عمرو : «يعقلون» بالتحتية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب وقراءتهم أرجح ؛ لقوله : ﴿ **وما أوتيتم** ﴾ .

﴿ **أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه**﴾ أى وعدناه بالجنة وما فيها من النعم التى لاتحصى فهو لاقيه، أى مدركه لا محالة فإن الله لايخلف الميعاد ﴿ **كمن متعناه متاع الحياة الدنيا** ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغيصه ﴿**ثم هو يوم القيامة من المحضرين**﴾ هذا معطوف على قوله :﴿ **متعناه** ﴾ داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرّر له، والمعنى : ثم هذا الذى متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار ، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام ، والاستفهام للإنكار، أى ليس حالهما سواء ، فإن الموعود بالجنة لابدّ أن يظفر بما وعد به مع أنه لايفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن. وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرّد التمتيع بشىء من الدنيا يستوى فيه هو والمؤمن،وينال كل واحد منهما حظه منه ، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان ؟ قرأ الجمهور:﴿ **ثم هو** ﴾ بضم الهاء ، وقرأ الكسائى وقالون بسكون الهاء إجراء لـ« ثم » مجرى الواو والفاء.

وانتصاب يوم فى قوله : ﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ بالعطف على يوم القيامة أو بإضمار اذكر، أى يوم ينادى الله سبحانه هؤلاء المشركين ﴿ **فيقول** ﴾ لهم :﴿ **أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم، ومفعولا يزعمون محذوفان ، أى تزعمونهم شركائى لدلالة الكلام عليهما ﴿ **قال الذين حق عليهم القول** ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أربابا من دون الله، كذا قال الكلبى. وقال قتادة: هم الشياطين ﴿ **ربنا**

هؤلاء الذين أغوينا ﴾ أى دعوناهم إلى الغواية يعنون الأتباع ﴿ **أغويناهم كما غوينا**﴾ أى أضللناهم كما ضللنا ﴿ **تبرأنا إليك** ﴾ منهم، والمعنى : أن رؤساء الضلال أو الشياطين تبرّؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج : برئ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال اللّه تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، و﴿ **هؤلاء** ﴾ مبتدأ و﴿ **الذين أغوينا**﴾ صفته ، والعائد محذوف ، أى أغويناهم ، والخبر : ﴿ **أغويناهم** ﴾ ، ﴿ **كما غوينا**﴾ نعت مصدر محذوف . وقيل : إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا ، وأما ﴿ **أغويناهم كما غوينا** ﴾ فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، ورجح هذا أبو علىّ الفارسى، واعترض الوجه الأوّل ، وردّ اعتراضه أبو البقاء. ﴿ **ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم .وقيل : إن «ما» فى :﴿ **ما كانوا** ﴾ مصدرية، أى تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والأول أولى .

﴿ **وقيل ادعوا شركاءكم** ﴾ أى قيل للكفار من بنى آدم هذا القول ، والمعنى : استغيثوا بآلهتكم التى كنتم تعبدونهم من دون اللّه فى الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم ﴿ **فدعوهم** ﴾ عند ذلك ﴿ **فلم يستجيبوا لهم** ﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع ﴿ **ورأو العذاب** ﴾ أى التابع والمتبوع قد غشيهم ﴿ **لو أنهم كانوا يهتدون** ﴾ قال الزجاج: جواب لو محذوف ، والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب . وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم. وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق . وقيل : المعنى : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد آن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون. وقيل غير ذلك ، والأوّل أولى . ويوم فى قوله : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ معطوف على ماقبله، أى : ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى ؟

﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ** ﴾ أى خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمى الذين لايهتدون، والأصل فعموا عن الأنباء، ولكنه عكس الكلام للمبالغة، والأنباء : الأخبار، وإنما سمى حججهم أخبارا ؛ لأنها لم تكن من الحجة فى شىء ، وإنما هى أقاصيص وحكايات ﴿**فهم لا يتساءلون** ﴾ لا يسأل بعضهم بعضا، ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون ؛ لأن اللّه قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . قرأ الجمهور : ﴿**عميت**﴾ بفتح العين وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم. ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين** ﴾ أن تاب من الشرك وصدّق بما جاء به الرسل وأدّى الفرائض واجتنب المعاصى فعسى أن يكون من المفلحين ، أى الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإن كانت فى الأصل للرجاء فهو من اللّه واجب على ما هو عادة الكرام . وقيل: إن الترجى هو من التائب المذكور لا من جهة اللّه سبحانه.

﴿ **وربك يخلق ما يشاء** ﴾ أى يخلقه ﴿ **ويختار** ﴾ ما يشاء أن يختاره. ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم، بل

الاختيار إلى الله ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾ أى التخير. وقيل : المراد من الآية : أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار، أى الاختيار إلى الله عزّ وجلّ. وقيل: إن هذه الآية جواب عن قولهم: ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال الزجاج : الوقف على ﴿ **ويختار** ﴾ تام على أن «ما» نافية. قال : ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ ﴿ **يختار**﴾ والمعنى: ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة. والصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف . وقال ابن جرير: إن تقدير الآية : ويختار لولايته الخيرة من خلقه، وهذا فى غاية من الضعف . وجوّز ابن عطية أن تكون كان تامة ، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة. وهذا أيضا بعيد جدًا . وقيل : إن «ما » مصدرية ، أى يختار اختيارهم والمصدر واقع موقع المفعول به ، أى ويختار مختارهم ، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير. والراجح أوّل هذه التفاسير ، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة ﴾ [الأحزاب: ٣٦] والخيرة : التخير كالطيرة فإنها التطير، اسمان يستعملان استعمال المصدر، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿**سبحان الله** ﴾ أى تنزّه تنزّها خاصا به من غير أن ينازعه منازع ويشاركه مشارك ﴿ **وتعالى عما يشركون**﴾ أى عن الذين يجعلونهم شركاء له،أو عن إشراكهم.

﴿ **وربك يعلم ما تكنّ صدورهم** ﴾ أى تخفيه من الشرك، أو من عداوة رسول الله ﷺ ، أو من جميع مايخفونه مما يخالف الحق ﴿ **وما يعلنون** ﴾ أى يظهرونه من ذلك. قرأ الجمهور : ﴿ **تكن** ﴾ بضم التاء الفوقية وكسر الكاف. وقرأ ابن محيصن وحميد بفتح الفوقية وضم الكاف. ثم تمدح سبحانه وتعالى بالوحدانية والتفرّد باستحقاق الحمد فقال : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى** ﴾ أى الدنيا ﴿ **والآخرة** ﴾ أى الدار الآخرة ﴿ **وله الحكم** ﴾ يقضى بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ بالبعث فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا ترجعون إلى غيره .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون**﴾ قال : قال الله: لم نهلك قرية بإيمان،ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها ، ولو كانت مكة آمنت لم يهلكوا مع من هلك ، ولكنهم كذبوا وظلموا فبذلك هلكوا . وأخرج مسلم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عزّ وجلّ : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى » (١) الحديث بطوله. وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ماكانوا ، فمن أطعم لله عزّ وجلّ أطعمه الله ، ومن كسا لله عزّ وجلّ كساه الله، ومن سقى لله عزّ وجلّ سقاه الله، ومن كان فى رضا الله كان الله على رضاه » . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ **فعميت عليهم الأنباء** ﴾ قال:

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٦٩/ ٤٣) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٥٠ .

الحجج ﴿ **فهم لا يتساءلون** ﴾ قال :بالأنساب . وقد ثبت عنه ﷺ فى الصحيح تعليم الاستخارة وكيفية صلاتها ودعائها [(١)] ، فلا نطول بذكره .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ

---

(١) أحمد ٣/ ٣٤٤ والبخارى فى التهجد (١١٦٢) وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٨) والترمذى فى الوتر (٤٨٠) وقال : « حسن صحيح غريب » والنسائى ٦/ ٨٠ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٨٣) كلهم عن جابر بن عبد الله.

الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾.

قوله : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أى أخبرونى ﴿ **إن جعل الله عليكم الليل سرمدا** ﴾ السرمد : الدائم المستمرّ ، من السرد ، وهو المتابعة فالميم زائدة ، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمرى عليك بغمة نهارى ولا ليلى عليك بسرمد

وقيل : إن ميمه أصلية ووزنه فعلل لا مفعل ، وهوالظاهر. بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة ؛ فإنه لو كان الدهر الذى يعيشون فيه ليلا دائما إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه وطلب ما لا بدّ لهم منه ، مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس . ثم امتنّ عليهم فقال : ﴿ **من إله غير الله يأتيكم بضياء** ﴾ أى هل لكم إله من الآلهة التى تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ؟ أى بنور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه وتصلح به ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول وتدبير وتفكر .

ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود الليل فقال : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة** ﴾ أى جعل جميع الدهر الذى تعيشون فيه نهارا إلى يوم القيامة ﴿ **من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه** ﴾ أى تستقرّون فيه من النصب والتعب ، وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ ؛ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير اللّه ، وإذا أقرّوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه عزّ وجلّ فقد لزمتهم الحجة ،وبطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة ، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله: ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل قوله : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه** ﴾ أى فى الليل ﴿**ولتبتغوا من فضله** ﴾ أى فى النهار بالسعى فى المكاسب ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى ولكى تشكروا نعمة الله عليكم ، وهذه الآية من باب اللف والنشر، كما فى قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها ، العناب والحشف البالى

واعلم أنه وإن كان السكون فى النهار ممكنا ، وطلب الرزق فى الليل ممكنا ، وذلك عند طلوع القمر على الأرض ، أوعند الاستضاءة بشىء بما له نور كالسراج ، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به. ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين ؛ لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام ، وينادون أخرى

فيسكتون ، وفى هذا التكرير أيضا تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ ، وقوله : ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيدا** ﴾ عطف على ينادى ، وجاء بصيغة الماضى للدلالة على التحقق ، والمعنى : وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم .قال مجاهد :هم الأنبياء ، وقيل :عدول كل أمة، والأول أولى. ومثله قوله سبحانه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء :٤١] ثم بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله : ﴿**فقلنا هاتوا برهانكم** ﴾ أى حجتكم ودليلكم بأن معى شركاء ، فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان ، ولذا قال : ﴿ **فعلموا أن الحق لله** ﴾ فى الإلهية وأنه وحده لا شريك له ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى غاب عنهم وبطل وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب فى الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة .

ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة وعجيب الصنع فقال : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى** ﴾ قارون على وزن فاعول اسم أعجمى ممتنع للعجمة والعلمية ، وليس بعربىّ مشتق من قرنت . قال الزجاج : لو كان قارون من قرنت الشىء لانصرف . قال النخعى وقتادة وغيرهما : كان ابن عمّ موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث. وقال ابن إسحاق : كان عمّ موسى لأب وأم فجعله أخا لعمران ، وهما ابنا قاهث . وقيل : ابن خالة موسى ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، فنافق كما نافق السامرى وخرج عن طاعة موسى ، وهو معنى قوله : ﴿ **فبغى عليهم** ﴾ أى جاوز الحدّ فى التجبر والتكبر عليهم وخرج عن طاعة موسى وكفر بالله . قال الضحاك : بغيه على بنى إسرائيل : استخفافه بهم لكثرة ماله وولده . وقال قتادة : بغيه بنسبته ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته . وقيل : كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فتعدّى عليهم وظلمهم.وقيل:كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية .

﴿ **وآتيناه من الكنوز** ﴾ جمع كنز، وهو المال المدّخر . قال عطاء : أصاب كنزا من كنوز يوسف ، وقيل : كان يعمل الكيمياء ، و« ما » فى قوله : ﴿ **ما إن مفاتحه** ﴾ موصولة صلتها إنّ وما فى حيزها ، ولهذا كسرت . ونقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما فى حيزها صلة الذى ، واستقبح ذلك منهم لوروده فى الكتاب العزيز فى هذا الموضع . والمفاتح : جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل : المراد بالمفاتح : الخزائن ، فيكون واحدها مفتح بفتح الميم. قال الواحدى: إن المفاتح: الخزائن فى قول أكثر المفسرين ، كقوله: ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام : ٥٩] قال : وهو اختيار الزجاج فإنه قال : الأشبه فى التفسير أن مفاتحه :خزائن ماله . وقال آخرون : هى جمع مفتاح ، وهو ما يفتح به الباب ، وهذا قول قتادة ومجاهد ﴿ **لتنوء بالعصبة أولى القوة** ﴾ هذه الجملة خبر إن وهى واسمها وخبرها صلة ما الموصولة ، يقال: ناء بحمله: إذا نهض به مثقلا ، ويقال : ناء بى الحمل : إذا أثقلنى، والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح . قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب ، والمعنى : لتنوء

بها العصبة ، أى تنهض بها . قال أبو زيد : نؤت بالحمل : إذا نهضت به . قال الشاعر :

إنا وجدنا خلفا بئس الخلف عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

وقال الفراء : معنى تنوء بالعصبة : تميلهم بثقلها ، كما يقال : يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس وذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأته ، واختار هذا النحاس ، وبه قال كثير من السلف . وقيل : هو مأخوذ من النأى ، وهو البعد وهو بعيد . وقرأ بديل بن ميسرة: « لينوء » بالياء ، أى لينوء الواحد منها أو المذكور ، فحمل على المعنى . والمراد بالعصبة : الجماعة التى يتعصب بعضها لبعض . قيل : هى من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين العشرة إلى العشرين . وقيل : من الخمسة إلى العشرة . وقيل : أربعون . وقيل : سبعون . وقيل غير ذلك ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح** ﴾ الظرف منصوب بـ﴿ **تنوء** ﴾ . وقيل :بـ﴿ **آتيناه** ﴾ وقيل : بـ﴿ **بغى** ﴾ . وردّهما أبو حبان بأن الإيتاء والبغى لم يكونا ذلك الوقت . وقال ابن جرير : هو متعلق بمحذوف وهو : اذكر ، والمراد بقومه هنا : هم المؤمنون من بنى إسرائيل. وقال الفراء :هو موسى وهو جمع أريد به الواحد ، ومعنى ﴿ **لا تفرح** ﴾ : لا تبطر ولا تأشر ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم . قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال ، فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه . وقيل : المعنى : لا تفسد ، كقول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أى أفسدتك . قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء . وقال الفراء : معنى الفرحين : الذين هم فى حال الفرح ، والفارحين : الذين يفرحون فى المستقبل . وقال مجاهد : معنى ﴿**لا تفرح** ﴾ : لا تبغ إن اللّه لا يحبّ الفرحين الباغين . وقيل معناه : لا تبخل إن اللّه لا يحبّ الباخلين .

﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾ أى واطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال الدار الآخرة فأنفقه فيما يرضاه اللّه لا فى التجبر والبغى. وقرئ: « واتبع » ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾. قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل فى دنياه لآخرته ، ونصيب الإنسان عمره وعمله الصالح . قال الزجاج : معناه : لا تنس أن تعمل لآخرتك ؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذى يعمل به لآخرته . وقال الحسن وقتادة : معناه : لا تضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآنى ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ أى أحسن إلى عباد اللّه كما أحسن اللّه إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا . وقيل : أطع اللّه واعبده كما أنعم عليك ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ؛ أن جبريل سأل رسول اللّه ﷺ

عن الإحسان فقال : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [(١)] . ﴿ **ولا تبغ الفساد في الأرض** ﴾ أى لاتعمل فيها بمعاصى اللّه ﴿ **إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ فى الأرض .

﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ قال قارون هذه المقالة ردّا على من نصحه بما تقدّم ، أى إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمى ، فقوله : ﴿ **على علم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ **عندى** ﴾ إما ظرف لأوتيته ، وإما صلة للعلم . وهذا العلم الذى جعله سببا لما ناله من الدنيا ، قيل : هو علم التوراة . وقيل : علمه بوجوه المكاسب والتجارات . وقيل : معرفة الكنوز والدفائن . وقيل : علم الكيمياء . وقيل : المعنى إن اللّه آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى إياها لفضل علمه منى . واختار هذه الزجاج وأنكر ما عداه . ثم ردّ اللّه عليه قوله هذا فقال :﴿ **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعا** ﴾ المراد بالقرون : الأمم الخالية ، ومعنى أكثر جمعا : أكثر منه جمعا للمال ، ولوكان المال أو القوّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم اللّه . وقيل : القوّة : الآلات ، والجمع الأعوان . وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون ؛ لأنه قد قرأ التوراة ، وعلم علم القرون الأولى وإهلاك اللّه سبحانه لهم ﴿**ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ أى لا يسألون سؤال استعتاب، كما فى قوله :﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ [النحل : ٨٤]، ﴿ وما هم من المعتبين ﴾ [فصلت : ٢٤] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، كما فى قوله :﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر : ٩٢] . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ؛ لأنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية .

﴿ **فخرج على قومه فى زينته** ﴾ الفاء للعطف على ﴿ **قال** ﴾ وما بينهما اعتراض ، و﴿ **فى زينته** ﴾ متعلق بخرج ، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج ، وقد ذكر المفسرون فى هذه الزينة التى خرج فيها روايات مختلفة، والمراد : أنه خرج فى زينة انبهر لها من رآها ، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى اللّه عنهم بقوله: ﴿ **قال الذين يريدون الحياة الدنيا**﴾ وزينتها ﴿ **ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا. واختلف فى هؤلاء القائلين بهذه المقالة ، فقيل : هم من مؤمنى ذلك الوقت . وقيل : هم قوم من الكفار .

﴿ **وقال الذين أوتوا العلم** ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل قالوا للذين تمنوا : ﴿ **ويلكم ثواب الله خير** ﴾ أى ثواب اللّه فى الآخرة خير مما تمنونه ﴿ **لمن آمن وعمل صالحا** ﴾ فلا تمنوا عرض

---

(١) أحمد ١/٢٧ ومسلم فى الإيمان (١/٨) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : «حسن صحيح » والنسائى ٩٧/٨، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣) كلهم عن عمر بن الخطاب ، وأحمد ٤٢٦/٢ والبخارى فى الإيمان (٥٠) ومسلم فى الإيمان (٥/٩) والنسائى ١٠١/٨ ـ ١٠٣ وابن ماجة فى المقدمة (٦٤) كلهم عن أبى هريرة .

الدنيا الزائل الذى لا يدوم ﴿ **ولا يلقاها** ﴾ أى هذه الكلمة التى تكلم بها الأحبار . وقيل : الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة . وقيل : إلى الجنة ﴿ **إلا الصابرون** ﴾ على طاعة اللّه والمصبرون أنفسهم عن الشهوات . ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ يقال : خسف المكان يخسف خسوفا : ذهب فى الأرض ، وخسف به الأرض خسفا ، أى غاب به فيها ، والمعنى : أن اللّه سبحانه غيبه وغيب داره فى الأرض ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله** ﴾ أى ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿ **وما كان** ﴾ هو فى نفسه ﴿ **من المنتصرين** ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف .

﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس** ﴾ أى منذ زمان قريب ﴿ **يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر** ﴾ أى يقول كل واحد منهم متندّما على ما فرط منه من التمنى . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائى: إن القوم تنبهوا فقالوا : وى ، والمتندم من العرب يقول فى خلال ندمه : وى . قال الجوهرى : وى : كلمة تعجب ، ويقال : ويك ، وقد تدخل وى على كأن المخففة والمشدّدة ويكأن اللّه . قال الخليل : هى مفصولة تقول : وى ، ثم تبتدئ فيقول : كأن . وقال الفراء : هى كلمة تقرير كقولك : أما ترى صنع اللّه وإحسانه ؟ وقيل: هى كلمة تنبيه بمنزلة ألا . وقال قطرب : إنما هو : ويلك فأسقطت لامه ، ومنه قول عنترة :

ولقد شفا نفسى وأبرأ سقمها   قول الفوارس ويك عنتر أقدم

وقال ابن الأعرابى : معنى ويكأن اللّه: أعلم أن اللّه . وقال القتيبى: معناها بلغة حمير : رحمة ، وقيل : هى بمعنى : ألم تر ؟. وروى عن الكسائى أنه قال : هى كلمة تفجع ﴿ **لولا أن من الله علينا** ﴾ برحمته وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغى ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمنى﴿ **لخسف بنا** ﴾ كما خسف به . وقرأ حفص :﴿ **لخسف** ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ الباقون مبنيا للمفعول ﴿ **ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ أى لا يفوزون بمطلب من مطالبهم .﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ أى الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها، كأنه قال : تلك التى سمعت بخبرها وبلغك شأنها ﴿ **نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض**﴾ أى رفعة وتكبرا على المؤمنين ﴿ **ولا فسادا** ﴾ أى عملا بمعاصى اللّه سبحانه فيها، وذكر العلوّ والفساد منكرين فى حيز النفى ؛ يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنه علوّ وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص ، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شىء منه كائنا ما كان ، وأما العلوّ فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير والتطاول على الناس ، وليس منه طلب العلو فى الحقّ والرئاسة فى الدين ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن .

﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ وهو أن اللّه يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ أى إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه،وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى سورة النمل .

﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن** ﴾ قال المفسرون : أى أنزل عليك القرآن . وقال الزجاج : فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ، وتقدير الكلام : فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه ﴿**لرادّك إلى معاد** ﴾ قال جمهور المفسرين : أى إلى مكة . وقال مجاهد وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى: لرادّك إلى يوم القيامة. وهو اختيار الزجاج ، يقال : بينى وبينك المعاد، أى يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء. وقال أبو مالك وأبو صالح : لرادّك إلى معاد : إلى الجنة . وبه قال أبو سعيد الخدرى ، وروى عن مجاهد . وقيل : ﴿ **إلى معاد** ﴾ : إلى الموت ﴿ **قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين** ﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبىّ ﷺ: إنك فى ضلال . والمراد: بمن جاء بالهدى ، هو النبىّ ﷺ ، ومن هو فى ضلال مبين : المشركون ، والأولى حمل الآية على العموم ، وأن اللّه سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين ويجازيها بما تستحقه من خير وشر .

﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب** ﴾ أى ما كنت ترجو أنا نرسلك إلى العباد وننزل عليك القرآن . وقيل : ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك . والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا رحمة من ربك** ﴾ منقطع ، أى لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك ، ويجوز أن يكون متصلا حملا على المعنى، كأنه قيل: وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. والأوّل أولى وبه جزم الكسائى والفرّاء ﴿ **فلا تكونن ظهيرا للكافرين** ﴾ أى عونا لهم ، وفيه تعريض بغيره من الأمة. وقيل : المراد: لا تكوننّ ظهيرا لهم بمداراتهم . ﴿ **ولا يصدّنك عن آيات اللّه بعد إذ أنزلت إليك** ﴾ أى لا يصدنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم عن تلاوة آيات اللّه والعمل بها بعد إذ أنزلها اللّه إليك وفرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الصاد من صده يصده . وقرأ عاصم بضم الياء وكسر الصاد، من أصدّه بمعنى صدّه . ﴿**وادع إلى ربك** ﴾ أى ادع الناس إلى اللّه وإلى توحيده ، والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه ﴿**ولا تكوننّ من المشركين** ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدّم ؛ لأنه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال ، وكذلك قوله : ﴿ **ولا تدع مع اللّه إلها آخر**﴾ فإنه تعريض لغيره . ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال :﴿ **لا إله إلا هو كل شىء** ﴾ من الأشياء كائنا ما كان ﴿ **هالك إلا وجهه** ﴾ أى إلا ذاته . قال الزجاج : وجهه منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان مرفوعا بمعنى : كلّ شىء غير وجهه هالك ، كما قال الشاعر :

وكلّ أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كلّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه .﴿ **له الحكم** ﴾ أى القضاء النافذ يقضى بما شاء ويحكم بما أراد ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ عند البعث ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا إله غيره سبحانه وتعالى .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سرمدا** ﴾ قال : دائما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **وضلّ عنهم** ﴾ يوم القيامة ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ قال : يكذبون فى

الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى** ﴾ قال :كان ابن عمه وكان يتبع العلم حتى جمع علما فلم يزل فى أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده فقال له موسى : إن اللّه أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى ، فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم ،جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ فقالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغىّ من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك ، قالت: نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا له : ما أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا ، وأمرنى إذا زنا وقد أحصن أن يرجم ، قالوا: وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا : فإنك قد زنيت . قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت ، فقالوا : ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى : أنشدك باللّه إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى باللّه فإنهم دعونى وجعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برىء وأنك رسول اللّه ، فخرّ موسى ساجدا يبكى ، فأوحى اللّه إليه ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى، فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يقولون: ياموسى ياموسى ، فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم ، فجعلوا يقولون: يا موسى ياموسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم فغشيتهم ، فأوحى اللّه : ياموسى ، سألك عبادى وتضرّعوا إليك فلم تجبهم وعزتى لو أنهم دعونى لأجبتهم . قال ابن عباس : وذلك قوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن خيثمة قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلا أغرّ محجل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه قال : وجدت فى الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز . قلت : لم أجد فى الإنجيل هذا الذى ذكره خيثمة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لتنوء بالعصبة** ﴾ قال : تثقل . وأخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوّة. وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : العصبة: أربعون رجلا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **إن اللّه لا يحب الفرحين** ﴾ قال : المرحين ، وفى قوله : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ قال : أن تعمل فيها لآخرتك . وأخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فخرج**

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٢) وصححه الحاكم ٢/٤٠٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

على قومه فى زينته ﴾ فى أربعة آلاف بغل . وقد روى عن جماعة من التابعين أقوال فى بيان ما خرج به على قومه من الزينة ولا يصحّ منها شيء مرفوعا ، بل هى من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة ، ولا أدرى كيف إسناد هذا الحديث الذى رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه . وأخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ قال : خسف به إلى الأرض السلفى .

وأخرج المحاملى ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ فى قوله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ قال : « التجبر فى الأرض والأخذ بغير الحق » . وروى نحوه عن مسلم البطين وابن جريج وعكرمة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **لا يريدون علوا فى الأرض** ﴾ قال : بغيا فى الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هو الشرف والعلوّ عند ذوى سلطانهم . وأقول: إن كان ذلك للتقوّى به على الحق ، فهو من خصال الخير لا من خصال الشرّ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال : إن الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه ، فيدخل فى هذه الآية :﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علىّ رضى اللّه عنه : وهذا محمول على من أحبّ ذلك لالمجرّد التجمل ، فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى أحبّ أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ قال : « لا ، إن اللّه جميل يحب الجمال»(١) . وأخرج ابن مردويه وابن عساكرعن علىّ بن أبى طالب أنه قال :نزلت هذه الآية ، يعنى :﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ إلخ فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عدى بن حاتم قال : لما دخل على النبىّ ﷺ ألقى إليه وسادة ، فجلس على الأرض فقال : أشهد أنك لا تبغى علوّا فى الأرض ولا فسادا فأسلم.

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، وأخرج أيضا ابن مردويه عن علىّ بن الحسين بن واقد أن قوله تعالى : ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن** ﴾ الآية أنزلت على رسول اللّه ﷺ بالجحفة حين خرج النبىّ ﷺ مهاجرا إلى المدينة. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ قال : إلى مكة (٢) . زاد ابن مردويه: كما أخرجك منها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ قال : الآخرة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه ، وأبو يعلى وابن المنذر

(١) مسلم فى الإيمان (١٤٧/٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وقال : «حسن صحيح غريب » كلاهما عن عبد اللّه بن مسعود ، وأخرجه أحمد ١٣٣/٤ عن أبى ريحانة ، وابن كثير ٣٠٣/٥ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٧٣) والنسائى فى التفسير (٤٠٦) وابن جرير ٢٠/ ٨٠ .

عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لرادّك إلى معاد**﴾ قال : معاده : الجنة ، وفى لفظ : معاده: آخرته[١]. وأخرج الحاكم فى التاريخ ، والديلمى عن علىّ بن أبى طالب قال : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ : الجنة. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : لما نزلت :﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : ٢٦] قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فلما نزلت : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران : ١٨٥] قالت الملائكة : هلك كلّ نفس ، فلما نزلت: ﴿ **كلّ شىء هالك إلا وجهه** ﴾ قالت الملائكة : هلك أهل السماء والأرض . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ **كلّ شىء هالك إلا وجهه**﴾ قال : إلا ما أريد به وجهه .

(١) البخارى فى التاريخ ١/ ٢٨٠ وأبو يعلى (١١٣١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ : « رجاله ثقات » .

تفسير سورة العنكبوت

هى تسع وستون آية . وقد اختلف فى كونها مكية أو مدنية ، أو بعضها مكيا وبعضها مدنيا على ثلاثة أقوال : الأول: أنها مكية كلها ، أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، وأخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير ، وبه قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . والقول الثانى : أنها مدنية كلها، قال القرطبى : وهو أحد قولى ابن عباس وقتادة . والقول الثالث : أنها مكية إلا عشر آيات من أوّلها ، قال القرطبى : وهو أحد قولى ابن عباس وقتادة ، وهو قول يحيى بن سلام [(١)] . وحكى عن علىّ ابن أبى طالب أنها نزلت بين مكة والمدينة ، وهذا قول رابع . وأخرج الدارقطنى فى السنن عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يصلى فى كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات ، يقرأ فى الركعة الأولى العنكبوت أو الروم ، وفى الثانية يس [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً

---

(١) القرطبى ٧ / ٥٠٣٩ .

(٢) الدارقطنى ٢ / ٦٤ ، وفيه سعيد بن حفص ، قال ابن حجر فى تقريب التهذيب ١/ ٢٩٣ : « صدوق تغير فى آخر أيامه » .

مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾.

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى فى سورة البقرة . والاستفهام فى قوله : ﴿**أحسب الناس**﴾ للتقريع والتوبيخ ، و﴿ **أن يتركوا** ﴾ فى موضع نصب بحسب ، وهى وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه والجمهور ، و﴿ **أن يقولوا** ﴾ فى موضع نصب على تقدير : لأن يقولوا ، أو بأن يقولوا ، أو على أن يقولوا. وقيل: هو بدل من أن يتركوا ، ومعنى الآية : أن الناس لا يتركون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿ **أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ أى وهم لا يبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، وليس الأمر كما حسبوا ، بل لابد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق ، والصادق من الكاذب ، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان واستبعاده. وبيان أنه لابد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها . قال الزجاج : المعنى : أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا : إنا مؤمنون فقط ، ولا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم ؟ وهو قوله: ﴿ **أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون** ﴾ . قال السدّى وقتادة ومجاهد : أى لا يبتلون فى أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتى فى بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه ، وظاهرها شمول كلّ الناس من أهل الإيمان ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة فى سبب خاص فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدوّ وغير ذلك .

﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم** ﴾ أى هذه سنة الله فى عباده وأنه يختبر مؤمنى هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن فى غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع مع قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ومن آمن بهم من تلك الأمور التى نزلت بهم ﴿**فليعلمنّ الله الذين صدقوا**﴾ فى قولهم : آمنا ﴿ **وليعلمنّ الكاذبين** ﴾ منهم فى ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ **فليعلمن** ﴾ بفتح الياء واللام فى الموضعين ، أى ليظهرنّ الله الصادق والكاذب فى قولهم ويميز بينهم ، وقرأ علىّ بن أبى طالب فى الموضعين بضم الياء وكسر اللام . والمعنى ، أى يعلم الطائفتين فى الآخرة بمنازلهم ، أو يعلم الناس بصدق من صدق ويفضح الكاذبين بكذبهم ، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها .

﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا** ﴾ أى يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ، وهو سادّ مسد مفعولى حسب، وأم هى المنقطعة ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك . وقال الزجاج : ﴿ **ما** ﴾ فى موضع نصب بمعنى :ساء شيئًا أو حكما يحكمون . قال : ويجوز أن تكون ﴿ **ما** ﴾ فى موضع رفع بمعنى : ساء الشىء أو الحكم حكمهم ، وجعلها ابن كيسان مصدرية ، أى ساء حكمهم ﴿ **من كان يرجو لقاء الله** ﴾ أى من كان يطمع ، والرجاء بمعنى الطمع . قاله سعيد بن جبير . وقيل : الرجاء هنا بمعنى الخوف .

قال القرطبى : أجمع أهل التفسير أن المعنى : من كان يخاف الموت ، ومنه قول الهذلى :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها

قال الزجاج : معنى من كان يرجو لقاء اللّه : من كان يرجو ثواب لقاء اللّه . أى ثواب المصير إليه ، فالرجاء على هذا معناه : الأمل ﴿ **فإن أجل الله لآت** ﴾ أى الأجل المضروب للبعث آت لا محالة . قال مقاتل : يعنى يوم القيامة ، والمعنى : فليعمل لذلك اليوم كما فى قوله :﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ﴾ [الكهف : ١١٠] « ومن » فى الآية التى هنا يجوز أن تكون شرطية ، والجزاء ﴿ **فإن أجل الله لآت** ﴾ ، ويجوز أن تكون موصولة ودخلت الفاء فى جوابها تشبيها لها بالشرطية . وفى الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى ﴿ **وهو السميع** ﴾ لأقوال عباده ﴿ **العليم** ﴾ بما يسرّونه وما يعلنونه .

﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه** ﴾ أى من جاهد الكفار وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه ، أى ثواب ذلك له لالغيره ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ﴿**إن الله لغنى عن العالمين** ﴾ فلا يحتاج إلى طاعاتهم كما لا تضرّه معاصيهم . وقيل : المعنى : ومن جاهد عدّوه لنفسه لا يريد بذلك وجه اللّه ، فليس للّه حاجة بجهاده ، والأوّل أولى ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنَ عنهم سيآتهم** ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة بسبب ماعملوا من الصالحات ﴿ **ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ أى بأحسن جزاء أعمالهم . وقيل : بجزاء أحسن أعمالهم ، والمراد بأحسن : مجرّد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتا عنه . وقيل : يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما فى قوله : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا** ﴾ انتصاب ﴿ **حسنا** ﴾ على أنه نعت مصدر محذوف ، أى إيصاء حسنا على المبالغة ، أو على حذف المضاف ، أى ذا حسن . هذا مذهب البصريين ، وقال الكوفيون :تقديره : ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا ، فهو مفعول لفعل مقدّر، ومنه قول الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا
ومن أبى دهماء إذ يوصينا
خيرا بها كأنما خافونا

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا ، ومثله قول الحطيئة :

وصيت من برّة قلبا حرّا بالكلب خيرا والحمأة شرّا

قال الزجاج : معناه : ووصينا الإنسان : أن يفعل بوالديه ما يحسن . وقيل : هو صفة لموصوف محذوف ، أى ووصيناه أمرا ذا حسن ، وقيل : هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين ، أى ألزمناه حسنا . وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى ووصيناه بحسن . وقيل :

هو مصدر لفعل محذوف ، أى يحسن حسنا ، ومعنى الآية :التوصية للإنسان بوالديه بالبّر بهما والعطف عليهما . قرأ الجمهور : ﴿ **حسنا** ﴾ بضم الحاء وإسكان السين ، وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتحهما ، وقرأ الجحدرى : « إحسانا » وكذا فى مصحف أبىّ ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ أى طلبا منك وألزماك أن تشرك بى إلها ليس لك به علم بكونه إلها فلا تطعهما ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وعبر بنفى العلم عن نفى الإله لأن ما لا يعلم صحته لايجوز اتباعه ، فكيف بما علم بطلانه ؟ وإذا لم تجز طاعة الأبوين فى هذا المطلب مع المجاهدة منهم له فعدم جوازها مع مجرّد الطلب بدون مجاهدة منها أولى . ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصى اللّه سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية للّه كما صحّ ذلك عن رسول اللّه ﷺ ﴿ **إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أى أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها . فأجازى كلا منكم بما يستحقه . والموصول فى قوله : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فى محل رفع على الابتداء وخبره :﴿ **لندخلنهم فى الصالحين** ﴾ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الاشتغال ، ويجوز أن يكون المعنى : لندخلنهم فى مدخل الصالحين ، وهو الجنة كذا قيل ، والأوّل أولى .

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله** ﴾ أى فى شأن اللّه ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان ، وكما يفعله أهل المعاصى مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان باللّه والعمل بما أمربه ﴿ **جعل فتنة الناس** ﴾ التى هى ما يوقعونه عليه من الأذى ﴿**كعذاب الله** ﴾ أى جزع من أذاهم . فلم يصبر عليه وجعله فى الشدّة والعظم كعذاب اللّه فأطاع الناس كما يطيع اللّه. وقيل : هو المنافق إذا أُذى فى اللّه رجع عن الدين فكفر . قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذية فى اللّه ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك** ﴾ أى نصر من اللّه للمؤمنين وفتح وغلبة للأعداء وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ **ليقولنّ إنا كنا معكم** ﴾ أى داخلون معكم فى دينكم ومعاونون لكم على عدوّكم ، فكذبهم الله وقال : ﴿ **أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين** ﴾ أى هو سبحانه أعلم بما فى صدورهم منهم من خير وشرّ ، فكيف يدّعون هذه الدعوى الكاذبة ؟ وهؤلاء هم قوم ممن كان فى إيمانهم ضعف ، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم . وإذا ظهرت قوّة الإسلام ونصر اللّه المؤمنين فى موطن من المواطن قالوا: ﴿ **إنا كنا معكم** ﴾ وقيل : المراد بهذا وما قبله المنافقون . قال مجاهد : نزلت فى ناس كانوا يؤمنون باللّه بألسنتهم . فإذا أصابهم بلاء من اللّه أو مصيبة افتتنوا . وقال الضحاك : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون . فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ، والظاهر أن هذا النظم من قوله : ﴿ **ومن الناس من يقول** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ نازل فى المنافقين لما يظهر من السياق ، ولقوله: ﴿ **وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين** ﴾ فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيده ، أى ليميزنّ اللّه بين الطائفتين ويظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين ، فالمخلص الذى لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى ويصبر فى اللّه حق الصبر ، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب اللّه .

والمنافق الذى يميل هكذا وهكذا ، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم وكفر باللّه عزّ وجلّ ، وإن خفقت ريح الإسلام وطلع نصره ولاح فتحه رجع إلى الإسلام ، وزعم أنه من المسلمين .

﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا** ﴾ اللام فى ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ هى لام التبليغ، أى قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه فى غير موضع ، أى قالوا لهم اسلكوا طريقتنا ، وادخلوا فى ديننا ﴿ **ولنحمل خطاياكم** ﴾ أى إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم ؛ فنؤاخذ به دونكم واللام فى ﴿ **لنحمل** ﴾ لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك . وقال الفراء والزجاج : هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء ، أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، ثم ردّ اللّه عليهم بقوله :﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء** ﴾ من الأولى بيانية . والثانية مزيدة للاستغراق ، أى وماهم بحاملين شيئا من خطيئاتهم التى التزموا بها ، وضمنوا لهم حملها ،ثم وصفهم اللّه سبحانه بالكذب فى هذا التحمل فقال: ﴿ **إنهم لكاذبون** ﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم . قال المهدوى : هذا التكذيب لهم من اللّه عزّ وجلّ حمل على المعنى ؛ لأن المعنى : إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم ، فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر .

﴿ **وليحملن أثقالهم** ﴾ أى أوزارهم التى عملوها ، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿ **وأثقالا مع أثقالهم** ﴾ أى أوزارا مع أوزارهم . وهى أوزار من أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة ومثله قوله سبحانه : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾[النحل : ٢٥] ومثله قوله ﷺ : « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » (١) كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى صحيح مسلم وغيره ﴿ **وليسألنّ يوم القيامة** ﴾ تقريعا وتوبيخا ﴿ **عما كانوا يفترون** ﴾ أى يختلقونه من الأكاذيب التى كانوا يأتون بها فى الدنيا . وقال مقاتل : يعنى قولهم : نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من اللّه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله:﴿ **آلم. أحسب الناس أن يتركوا** ﴾ الآية . قال : أنزلت فى ناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول اللّه ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا ، قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردّوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل اللّه فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾(٢)

(١) مسلم فى العلم (٢٦٧٤ / ١٦) وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٦) والدارمى فى المقدمة ١ / ١٣١ .
(٢) ابن جرير ٢٠ / ٨٢ .

[النحل : ١١٠] . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه . وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال :نزلت فى عمار بن ياسر إذ كان يعذب فى الله :﴿ **آلم . أحسب الناس أن يتركوا** ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه عن ابن مسعود قال : أوّل من أظهر الله إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر . وسمية أم عمار ، وعمار ، وصهيب . وبلال ، والمقداد . فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد (٢) . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أن يسبقونا** ﴾ قال : أن يعجزونا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : قالت أمى لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بمحمد ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ وأخرجه أيضا الترمذى من حديثه ، وقال : نزلت فىّ أربع آيات وذكر نحو هذه القصة ، وقال: حسن صحيح (٣) . وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى أيضا (٤). وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة وأبو يعلى وابن حبان وأبو نعيم والبيهقى والضياء عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علىّ ثالثة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ماوارى إبط بلال » (٥) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ قال : يرتدّ عن دين الله إذا أوذى فى الله .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ**

(١) ابن سعد ٣ / ٢٥٠ وابن جرير ٢٠ / ٨٣ .
(٢) ابن ماجة فى المقدمة (١٥٠) . قال فى زوائده : « إسناده ثقات » ، وصححه الحاكم ٣ / ٢٨٤ ووافقه الذهبى، وابن حبان (٧٠٤١) .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣١٨٩) .
(٤) أحمد ١ / ١٨١ ومسلم فى فضائل الصحابة (١٧٤٨ / ٤٤) وأبو داود فى الجهاد (٢٧٤٠) والنسائى فى التفسير (٢١٦) .
(٥) أحمد ٣ / ١٢٠ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٧٢) وقال : «حسن غريب » وابن ماجة فى المقدمة (١٥١) وأبو يعلى (٣٤٢٣) وابن حبان (٦٥٢٦) وأبو نعيم فى الحلية ١/ ١٥٠ .

وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله فى أول السورة : ﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم** ﴾ فيه تثبيت للنبى ﷺ ، كأنه قيل له : إن نوحا لبث ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك . قيل : ووقع فى النظم إلا خمسين عاما ولم يقل : تسعمائة سنة وخمسين؛ لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى ، فقد يطلق على ما يقرب منه . وقد اختلف فى مقدار عمر نوح . وسيأتى آخر البحث . وليس فى الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة ، وهى لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث فى غيرهم قبل اللبث فيهم ، وقد تلبث فى الأرض بعد هلاكهم بالطوفان ، والفاء فى ﴿**فأخذهم الطوفان** ﴾ للتعقيب ، أى أخذهم عقب تمام المدة المذكورة ، والطوفان يقال لكل شىء كثير مطيف بجمع محيط بهم من مطر أو قتل أو موت قاله النحاس . وقال سعيد بن جبير وقتادة والسدى : هو المطر . وقال الضحاك : الغرق . وقيل : الموت ، ومنه قول الشاعر :

أفناهم طوفان موت جارف

وجملة : ﴿ **وهم ظالمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مستمرون على الظلم ولم

ينجع فيهم ما وعظهم به نوح وذكرهم هذه المدّة بطولها . ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة** ﴾ أى أنجينا نوحا وأنجينا من معه فى السفينة من أولاده وأتباعه . واختلف فى عددهم على أقوال : ﴿**وجعلناها** ﴾ أى السفينة ﴿ **آية للعالمين** ﴾ أى عبرة عظيمة لهم. وفى كونها آية وجوه: أحدها : أنها كانت باقية على الجودىّ مدّة مديدة . وثانيها: أن اللّه سلم السفينة من الرياح المزعجة . وثالثها : أن الماء غيض قبل نفاذ الزاد . وهذا غير مناسب لوصف السفينة بأن اللّه جعلها آية . وقيل: إن الضمير راجع فى ﴿ **جعلناها** ﴾ إلى الواقعة أو إلى النجاة ، أو إلى العقوبة بالغرق .

﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه** ﴾ انتصاب ﴿ **إبراهيم** ﴾ بالعطف على ﴿ **نوحا** ﴾ وقال النسائى : هو معطوف على الهاء فى ﴿ **جعلناها** ﴾ وقيل : منصوب بمقدّر، أى واذكر إبراهيم. و﴿ **إذ قال**﴾ منصوب على الظرفية ، أى وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه اعبدوا اللّه ، أوجعلنا إبراهيم وقت قوله هذا ، أو واذكر إبراهيم وقت قوله ، على أن الظرف بدل اشتمال من إبراهيم ﴿ **اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أى أفردوه بالعبادة وخصوه بها واتقوه أن تشركوا به شيئا ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ أى عبادة اللّه وتقواه خير لكم من الشرك ، ولاخير فى الشرك أبدا ، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ شيئا من العلم ، أو تعلمون علما تميزون به بين ما هو خير وما هو شرّ . قرأ الجمهور : ﴿ **وإبراهيم** ﴾ بالنصب ، ووجهه ما قدّمنا . وقرأ النخعى وأبوجعفر وأبوحنيفة بالرفع على الابتداء والخبر مقدّر ، أى ومن المرسلين إبراهيم .

﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانا** ﴾ بين لهم إبراهيم أنهم يعبدون مالا ينفع ولا يضرّ ولا يسمع ولا يبصر ، والأثان هى الأصنام . وقال أبو عبيدة : الصنم : ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن : ما يتخذ من جصّ أو حجارة . وقال الجوهرى : الوثن : الصنم والجمع أوثان ﴿ **وتخلقون إفكا** ﴾ أى وتكذبون كذبا على أن معنى ﴿ **تخلقون** ﴾ : تكذبون ، ويجوز أن يكون معناه : تعملون وتنحتون ، أى تعملونها وتنحتونها للإفك . قال الحسن : معنى تخلقون : تنحتون ، أى إنما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها . قرأ الجمهور : ﴿ **تخلقون** ﴾ بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق وإفكا بكسر الهمزة وسكون الفاء . وقرأ علىّ بن أبى طالب وزيد بن علىّ والسلمى وقتادة بفتح الخاء واللام مشدّدة ، والأصل تتخلقون. وروى عن زيد بن علىّ أنه قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة . وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان : « أَفكا » بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى خلقا أفكا ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا** ﴾ أى لايقدرون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ أى اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى اللّه فهو الذى عنده الرزق كله فاسألوه من فضله ووحدوه دون غيره ﴿ **واشكروا له** ﴾ أى على نعمائه، فإن الشكر موجب لبقائها وسبب للمزيد عليها ، يقال : شكرته وشكرت له ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره .

﴿ **وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم** ﴾ قيل : هذا من قول إبراهيم ، أى وإن تكذبونى

فقد وقع ذلك لغيرى ممن قبلكم . وقيل : هو من قول اللّه سبحانه ، أى وإن تكذبوا محمدا فذلك عادة الكفار مع من سلف ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ لقومه الذى أرسل إليهم ، وليس عليه هدايتهم . وليس ذلك فى وسعه ﴿ **أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **أو لم يروا** ﴾ بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال أبو عبيد : كأنه قال : أو لم ير الأمم . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه. وقيل :هوخطاب من اللّه لقريش . قرأ الجمهور : ﴿ **كيف يبدئ** ﴾ بضم التحتية من أبدأ يبدئ . وقرأ الزبيرى وعيسى بن عمر وأبوعمرو بفتحها من بدأ يبدأ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يخرجه إلى الدنيا ، ثم يتوفاه بعد ذلك ؟ وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات ، فإذا رأيتم قدرة اللّه سبحانه على الابتداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم ، والواو للعطف على مقدّر ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ لأنه إذا أراد أمرا قال له : كن، فيكون . ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسير فى الأرض ليتفكروا ويعتبروا فقال:﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ على كثرتهم واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية والأمم الخالية وآثارهم لتعلموا بذلك كمال قدرة اللّه . وقيل : إن المعنى: قل لهم يا محمد سيروا ، ومعنى قوله : ﴿ **ثم الله ينشئ النشأة الآخرة** ﴾ أن اللّه الذى بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث ، والجملة عطف على جملة: ﴿ **سيروا فى الأرض** ﴾ داخلة معها فى حيز القول ، وجملة : ﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ تعليل لما قبلها . قرأ الجمهور : بـ﴿ **النشأة** ﴾ بالقصر وسكون الشين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ وفتح الشين ، وهما لغتان كالرأفة والرآفة . وهى منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد ، والأصل الإنشاءة : ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ أى هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تعذيبه وهم الكفار والعصاة ويرحم من يشاء رحمته ، وهم المؤمنون به المصدّقون لرسله العاملون بأوامره ونواهيه ﴿ **وإليه تقلبون** ﴾ أى ترجعون وتردّون لا إلى غيره ﴿**وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ قال الفراء : ولا من فى السماء بمعجزين اللّه فيها . قال : وهو كما فى قول حسان :

فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

أى ومن يمدحه وينصره سواء. ومثله قوله تعالى:﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات: ١٦٤] أى إلا من له مقام معلوم . والمعنى : أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء إن عصوه. وقال قطرب: إن معنى الآية: ولا فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان هاهنا ولا بالبصرة ، ويعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها. وقال المبرد: المعنى : ولا من فى السماء ، على أن « من » ليست موصولة بل نكرة ، وفى السماء صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وردّ ذلك علىّ بن سليمان وقال : لا يجوز ،

ورجح ماقاله قطرب ﴿ **وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾ « من » مزيدة للتأكيد ، أى ليس لكم ولىّ يواليكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذاب اللّه ﴿ **والذين كفروا بآيات الله ولقائه** ﴾ المراد بالآيات : الآيات التنزيلية أو التكوينية أو جميعهما . وكفروا بلقاء اللّه ، أى أنكروا البعث وما بعده ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل اللّه سبحانه . والإشارة بقوله : ﴿**أولئك** ﴾ إلى الكافرين بالآية واللقاء ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **يئسوا من رحمتى** ﴾ أى إنهم فى الدنيا آيسون من رحمة اللّه لم ينجع فيهم مانزل من كتب اللّه ولا ما أخبرتهم به رسله . وقيل : المعنى : أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة اللّه وهى الجنة. والمعنى: أنهم أويسوا من الرحمة ﴿ **وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ كرّر سبحانه الإشارة للتأكيد ، ووصف العذاب بكونه أليما للدلالة على أنه فى غاية الشدّة .

﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه** ﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدّم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال : إن قوله : ﴿ **قل سيروا فى الأرض**﴾ خطاب لمحمد ﷺ . وأما على قول من قال : إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام ، فالكلام فى سياقه سابقا ولاحقا ، أى قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم : افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين ، ثم اتفقوا على تحريقه ﴿ **فأنجاه الله من النار** ﴾ وجعلها عليه بردا وسلاما ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى فى إنجاء اللّه لإبراهيم ﴿ **لآيات** ﴾ بينة ، أى دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة اللّه وبديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا أثرت فيه أثرا، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هوشأن عنصرها من الحرارة والإحراق ، وإنما خصّ المؤمنون ؛ لأنهم الذين يعتبرون بآيات اللّه سبحانه، وأما من عداهم فهم عن ذلك غافلون ، قرأ الجمهور : بنصب ﴿ **جواب قومه** ﴾ على أنه خبر كان وما بعده اسمها . وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار والحسن برفعه على أنه اسم كان وما بعده فى محل نصب على الخبر .

﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم فى الحياة الدنيا** ﴾ ، أى قال إبراهيم لقومه ، أى للتوادد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها ، وللخشية من ذهاب المودّة فيما بينكم إن تركتم عبادتها . قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « مودّة بينكم » برفع مودّة غير منوّنة ، وإضافتها إلى بينكم . وقرأ الأعمش وابن وثاب : « مودّة » برفعها منوّنة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بنصب « مودّة » منوّنة ونصب بينكم على الظرفية . وقرأ حمزة وحفص بنصب « مودّة » مضافة إلى بينكم . فأما قراءة الرفع فذكر الزجاج لها وجهين : الأوّل : أنها ارتفعت على خبر إنّ فى ﴿**إنما اتخذتم**﴾ وجعل ما موصولة ، والتقدير : إن الذى اتخذتموه من دون اللّه أوثانا مودّة بينكم . والوجه الثانى : أن تكون على إضمار مبتدأ ، أى هى مودّة أو تلك مودّة . والمعنى : أن المودّة هى التى جمعتكم على عبادة الأوثان واتخاذها . قيل : ويجوز أن تكون مودة مرتفعة بالابتداء وخبرها فى الحياة الدنيا. ومن قرأ برفع مودّة منوّنة فتوجيهه

كالقراءة الأولى، ونصب بينكم على الظرفية . ومن قرأ بنصب مودّة ولم ينوّنها جعلها مفعول اتخذتم وجعل إنما حرفا واحدا للحصر، وهكذا من نصبها ونوّنها . ويجوز أن يكون النصب في هاتين القراءتين على أن المودّة علة فهى مفعول لأجله، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثانى محذوفا ، أى أوثانا آلهة، وعلى تقدير أن « ما » فى قوله : ﴿ **إنما اتخذتم** ﴾ موصولة يكون المفعول الأوّل ضميرها ، أى اتخذتموه، والمفعول الثانى أوثانا ﴿**ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض**﴾ أى يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم ، فيتبرأ القادة من الأتباع والأتباع من القادة ، وقيل: المعنى: يتبرأ العابدون للأوثان من الأوثان ، وتتبرأ الأوثان من العابدين لها ﴿ **ويلعن بعضكم بعضا** ﴾ أى يلعن كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿ **ومأواكم النار** ﴾ أى الكفار . وقيل : يدخل فى ذلك الأوثان ، أى هى منزلكم الذى تأوون إليه ﴿ **وما لكم من ناصرين** ﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم .

﴿ **فآمن له لوط** ﴾ أى آمن لإبراهيم لوط فصدّقه فى جميع ماجاء به . وقيل : إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه ، وكان لوط ابن أخى إبراهيم ﴿ **قال إنى مهاجر إلى ربى** ﴾ قال النخعى وقتادة : الذى قال :﴿ **إنى مهاجر إلى ربى**﴾ هو إبراهيم . قال قتادة : هاجر من كوثى وهى قرية من سواد الكوفة إلى حران ، ثم إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط وامرأته سارّة. والمعنى : إنى مهاجر عن دار قومى إلى حيث أعبد ربى ﴿ **إنه هو العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب الذى أفعاله جارية على مقتضى الحكمة . وقيل : إن القائل :﴿ **إنى مهاجر إلى ربى** ﴾ هو لوط، والأوّل أولى لرجوع الضمير فى قوله : ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب**﴾ إلى إبراهيم ، وكذا فى قوله : ﴿ **وجعلنا فى ذريته النبوّة والكتاب** ﴾ ، وكذا فى قوله : ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف، أى منّ اللّه عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولدا له ويعقوب ولدا لولده إسحاق وجعل فى ذرّيته النبوّة والكتاب، فلم يبعث اللّه نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه، ووحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب ، والمراد : التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، ومعنى ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا** ﴾ : أنه أعطى فى الدنيا الأولاد، وأخبره اللّه باستمرار النبوّة فيهم، وذلك مما تقرّ به عينه ويزداد به سروره. وقيل :أجره فى الدنيا أن أهل الملل كلها تدّعيه وتقول هو منهم. وقيل : أعطاه فى الدنيا عملا صالحا وعاقبة حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين أى الكاملين فى الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة وكثرة العطاء من الربّ سبحانه.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث اللّه نوحا وهو ابن أربعين سنة، ولبث فى قومه ألف إلا خمسين عاما يدعوهم إلى اللّه وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا (١). وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى

---

(١) الحاكم ٢ / ٥٤٦ وسكت عنه ووافقه الذهبى ، وقال ابن كثير ٥ / ٣١٣ : « وهو أقرب ».

قومه وبعد ما بعث ألفا وسبعمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن عون بن أبى شدّاد قال : إن اللّه أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة (١). وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب ذمّ الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح فقال : يا أطول النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتا له بابان، فقال فى وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**وجعلناها آية للعالمين**﴾ قال : أبقاها اللّه آية فهى على الجودىّ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتخلقون إفكا** ﴾ قال : تقولون كذبا. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **النشأة الآخرة** ﴾ قال : هى الحياة بعد الموت، وهو النشور. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فآمن له لوط** ﴾ قال : صدّق لوط إبراهيم. وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال : أوّل من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبى ﷺ : «صحبهما اللّه، إن عثمان لأوّل من هاجر إلى اللّه بأهله بعد لوط» (٢). وأخرج ابن منده وابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت : هاجر عثمان إلى الحبشة فقال النبى ﷺ : «إنه أوّل من هاجر بعد إبراهيم ولوط». وأخرج ابن عساكر والطبرانى، والحاكم فى الكنى عن زيد بن ثابت قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط مهاجر» (٣) . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : أوّل من هاجر إلى رسول اللّه ﷺ عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ قال : هما ولدا إبراهيم ، وفى قوله : ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا** ﴾ قال : إن اللّه وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به. وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا** ﴾ قال: الذكر الحسن. وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الولد الصالح والثناء، وقول ابن عباس :هما ولدا إبراهيم لعله يريد ولده وولد ولده ؛ لأن ولد الولد بمنزلة الولد ،ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس فهو حبر الأمة، وهذه الرواية عنه هى من رواية العوفى، وفى الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (٤).

---

(١) ابن جرير ٢٠ / ٨٧.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٩ / ٨٤ : «رواه الطبرانى وفيه الحسن بن زياد البرجمى ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات».

(٣) الطبرانى (٤٨٨١) وقال الهيثمى فى المجمع ٩ / ٨٤ : «فيه عثمان بن خالد العثمانى وهو متروك».

(٤) أحمد ٢ / ٩٦ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٨٢).

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ **ولوطا** ﴾ منصوب بالعطف على ﴿ **نوحا** ﴾ أو على إبراهيم، أو بتقدير: اذكر. قال الكسائى: المعنى: وأنجينا لوطا، أو وأرسلنا لوطا ﴿ **إذ قال لقومه** ﴾ ظرف للعامل فى لوط ﴿ **إنكم لتأتون الفاحشة** ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر: «أئنكم» بالاستفهام. وقرأ الباقون بلا استفهام. والفاحشة: الخصلة المتناهية فى القبح، وجملة: ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ مقرّرة لكمال قبح هذه الخصلة، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال: ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال** ﴾ أى تلوطون بهم ﴿ **وتقطعون السبيل** ﴾ قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس فى الطرق بعملهم الخبيث. وقيل: كانوا يقطعون الطريق على المارّة بقتلهم ونهبهم. والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص، وقيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر** ﴾ النادى والندىّ والمنتدى: مجلس القوم ومتحدّثهم.

واختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه : فقيل : كانوا يحذفون الناس بالحصباء، ويستخفون بالغريب. وقيل: كانوا يتضارطون فى مجالسهم . وقيل : كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضا. ، وقيل : كانوا يلعبون بالحمام. وقيل : كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء. وقيل كانوا يناقرون بين الديكة، ويناطحون بين الكباش. وقيل : يلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج : وفى هذا إعلام أنه لا ينبغى أن يتعاشر الناس على المنكر وألايجتمعوا على الهزؤ، والمناهى .

ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم قوله : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ أى فما أجابوا بشىء إلا بهذا القول رجوعا منهم إلى التكذيب واللجاج والعناد، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية، وقد تقدّم فى سورة النمل :﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ [النمل : ٥٦] وتقدّم فى سورة الأعراف : ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ﴾ [الأعراف : ٨٢] وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطا كان ثابتا على الإرشاد ومكرّرا للنهى لهم والوعيد عليهم، فقالوا له أولا : ﴿ **ائتنا بعذاب الله** ﴾ كما فى هذه الآية، فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: ﴿ **أخرجوهم** ﴾ كما فى الأعراف والنمل. وقيل : إنهم قالوا أوّلا : ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ ثم قالوا ثانيا : ﴿ **ائتنا بعذاب الله** ﴾ .

ثم إن لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه فقال : ﴿ **رب انصرنى على القوم المفسدين** ﴾ بإنزال عذابك عليهم، وإفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال وعمل المنكر فى ناديهم، فاستجاب الله سبحانه وبعث لعذابهم ملائكته وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، ولهذا قال : ﴿ **ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى** ﴾ أى بالبشارة بالولد وهو إسحاق ، وبولد الولد وهو يعقوب ﴿ **قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية** ﴾ أى قالوا لإبراهيم هذه المقالة. والقرية هى قرية سدوم التى كان فيها قوم لوط ، وجملة: ﴿ **إن أهلها كانوا ظالمين** ﴾ تعليل للإهلاك، أى إهلاكنا لهم بهذا السبب ﴿ **قال إن فيها لوطا** ﴾ أى قال لهم إبراهيم : إن فى هذه القرية التى أنتم مهلكوها لوطا فكيف تهلكونها ؟ ﴿ **قالوا نحن أعلم بمن فيها** ﴾ من الأخيار والأشرار ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿**لننجينه وأهله**﴾ من العذاب. قرأ الأعمش وحمزة ويعقوب والكسائى: « لننجينه » بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ **إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أى الباقين فى العذاب ، وهو لفظ مشترك بين الماضى والباقى ،وقد تقدّم تحقيقه ، وقيل : المعنى : من الباقين فى القرية التى سينزل بها العذاب، فتعذب من جملتهم ولا تنجو فيمن نجا.

﴿ **ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم** ﴾ أى لما جاءت الرسل لوطا بعد مفارقتهم إبراهيم سىء بهم، أى جاءه ماساءه وخاف منه؛ لأنه ظنهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لكونهم فى أحسن صورة من الصور البشرية، و«أن» فى ﴿ **أن جاءت** ﴾ زائدة للتأكيد ﴿**وضاق بهم ذرعا**﴾

أى عجز عن تدبيرهم وحزن وضاق صدره، وضيق الذراع كناية عن العجز، كما يقال فى الكناية عن الفقر : ضاقت يده، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة هود. ولما شاهدت الملائكة ماحلّ به من الحزن والتضجر، قالوا : ﴿**لا تخف ولا تحزن**﴾ أى لا تخف علينا من قومك ولا تحزن فإنهم لايقدرون علينا ﴿ **إنا منجوك وأهلك** ﴾ من العذاب الذى أمرنا اللّه بأن ننزله بهم ﴿ **إلا امرأتك كانت من الغابرين** ﴾ أخبروا لوطا بما جاؤوا به من إهلاك قومه وتنجيته وأهله إلا امرأته كما أخبروا بذلك إبراهيم، قرأ حمزة والكسائى وشعبة ويعقوب والأعمش : «منجوك» بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد. قال المبرد: الكاف فى ﴿ **منجوك**﴾ مخفوض ولم يجز عطف الظاهر على المضمر المخفوض، فحمل الثانى على المعنى وصار التقدير: وننجى أهلك : ﴿ **إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله. والرجز : العذاب، أى عذابا من السماء، وهو الرمى بالحجارة. وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء. وقيل : هو الخسف والحصب كما فى غير هذا الموضع، ومعنى كون الخسف من السماء أن الأمر به نزل من السماء. قرأ ابن عامر :« منزّلون » بالتشديد . وبها قرأ ابن عباس . وقرأ الباقون بالتخفيف، والباء فى ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ للسببية، أى لسبب فسقهم ﴿ **ولقد تركنا منها آية بينة** ﴾ أى أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهى الآثار التى بها من الحجارة رجموا بها وخراب الديار. وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقى على وجه أرضهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ماذكر، وخص من يعقل ، لأنه الذى يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها .

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** ﴾ أى وأرسلناه إليهم، وقد تقدّم ذكره وذكر نسبه وذكر قومه فى سورة الأعراف وسورة هود ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ أى أفردوه بالعبادة وخصوه بها ﴿ **وارجوا اليوم الآخر** ﴾ أى توقعوه وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم. قال يونس النحوى : معناه : اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ العثو والعثى أشدّ الفساد. وقد تقدّم تفسيره ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى الزلزلة، وتقدّم فى سورة هود ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ [هود : ٦٧] أى صيحة جبريل وهى سبب الرجفة ﴿ **فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ أى أصبحوا فى بلدهم أو منازلهم جاثمين على الركب ميتين.

﴿ **وعادا وثمود** ﴾ قال الكسائى : قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة، أى ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود، قال : وأحبّ إلىّ أن تكون على ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى وأخذت عادا وثمود. وقال الزجاج : التقدير: وأهلكنا عادا وثمود. وقيل : المعنى واذكر عادا وثمود إذ أرسلنا إليهم هودا وصالحا ﴿ **وقد تبين لكم من مساكنهم**﴾ أى وقد ظهر لكم يامعاشر الكفار من مساكنهم بالحجر والأحقاف آيات بينات تتعظون بها وتتفكرون فيها ، ففاعل تبين محذوف ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ التى يعملونها من الكفر ومعاصى اللّه ﴿**فصدهم**﴾ بهذا التزيين ﴿**عن السبيل**﴾ أى الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿ **وكانوا مستبصرين**﴾ أى

أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل : المعنى : كانوا مستبصرين فى كفرهم وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حقّ، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ماعند أنفسهم.

﴿ **وقارون وفرعون وهامان** ﴾ قال الكسائى : إن شئت كان محمولا على ﴿ **عادا** ﴾ وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿ **فصدّهم عن السبيل** ﴾ أى وصدّ قارون وفرعون وهامان . وقيل : التقدير : وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ **فاستكبروا فى الأرض** ﴾ عن عبادة اللّه ﴿ **وما كانوا سابقين** ﴾ أى فائتين، يقال : سبق طالبه : إذا فاته . وقيل : وما كانوا سابقين فى الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة. ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه**﴾ أى عاقبنا بكفره وتكذيبه . قال الكسائى : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه** ﴾ أى فأخذنا كلا بذنبه ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا** ﴾ أى ريحا تأتى بالحصباء، وهى الحصى الصغار فترجمهم بها، وهم قوم لوط ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة** ﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿ **وما كان اللّه ليظلمهم** ﴾ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصى اللّه.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾ قال : مجلسكم. وأخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد، والترمذى وحسنه، وابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب وابن عساكر عن أمّ هانئ بنت أبى طالب قالت: سألت رسول اللّه ﷺ عن قول اللّه سبحانه : ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾ قال : «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم ». قال الترمذى : بعد إخراجه وتحسينه: ولا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك [(١)]. وأخرج ابن مردويه عن جابر أن النبى ﷺ نهى عن الحذف ، وهو قول اللّه سبحانه :﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : هو الحذف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج البخارى فى تاريخه، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عائشة فى الآية قالت : الضراط. وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله :﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ قال : الصيحة، وفى قوله : ﴿**وما كانوا مستبصرين** ﴾ قال : فى الضلالة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن

(١) أحمد ٦ / ٣٤١ والترمذى فى التفسير (٣١٩٠) وابن جرير ٢٠ / ٩٣ والطبرانى ٢٤ / ٤١١ (١٠٠٠) وصححه الحاكم ٢/٤٠٩ على شرط مسلم، وزاد الذهبى على شرط البخارى والبيهقى فى الشعب (٦٧٥٥) ، ط . الكتب العلمية .

عباس فى قوله : ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا** ﴾ قال : قوم لوط ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة**﴾ قال : ثمود ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ قال: قارون ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ قال: قوم نوح .

﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)** ﴾.

قوله : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾ يوالونهم ويتكلون عليهم فى حاجاتهم من دون اللّه سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ، ومن الأحياء أو من الأموات ﴿ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا** ﴾ فإن بيتها لا يغنى عنها شيئا لا فى حرّ ولا قرّ ولا مطر، كذلك ما اتخذوه وليا من دون اللّه ، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغنى عنهم شيئا. قال الفراء: هو مثل ضربه اللّه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضرّه، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّا ولا بردا. قال : ولا يحسن الوقف على العنكبوت لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شىء شبهت الآلهة التى لاتنفع ولا تضرّ به، وقد جوّز الوقف على العنكبوت الأخفش، وغلطه ابن الأنبارى قال : لأن ﴿ **اتخذت** ﴾ صلة للعنكبوت كأنه قال : كمثل العنكبوت التى اتخذت بيتا، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول. والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وتجمع على عناكب وعنكبوتات، وهى الدّويبة الصغيرة التى تنسج نسجا رقيقا. وقد يقال لها عكنبات، ومنه قول الشاعر:

كأنما يسقط من لغامها ... بيت عكنبات على زمامها

﴿**وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت**﴾ لابيت أضعف منه مما يتخذه الهوامّ بيتا ولا يدانيه فى الوهى والوهن شىء من ذلك ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون اللّه كاتخاذ العنكبوت بيتا، أو لو كانوا يعلمون شيئا من العلم يعلموا بهذا. ﴿ **إن الله يعلم ماتدعون من دونه من شىء** ﴾ ما استفهامية ، أو نافية ، أو موصولة، ومن للتبعيض أو مزيدة للتوكيد. وقيل: إن هذه الجملة على إضمار القول، أى قل للكافرين : إن اللّه يعلم أىّ شىء يدعون من دونه. وجزم أبو على الفارسى بأنها استفهامية ، وعلى تقدير النفى كأنه قيل : إن اللّه يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شىء ، يعنى : ما تدعونه ليس بشىء ، وعلى تقدير الموصولة :

إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، و﴿ **من شيء** ﴾ عبارة عن المصدر. قرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : «يدعون » بالتحتية. واختار هذه القراءة أبو عبيد لذكر الأمم قبل هذه الآية . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان .

﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس** ﴾ أى هذا المثل وغيره من الأمثال التى فى القرآن نضربها للناس تنبيها لهم وتقريبا لما بعد من أفهامهم ﴿ **وما يعقلها** ﴾ أى يفهمها ويتعقل الأمر الذى ضربناها لأجله ﴿ **إلا العالمون** ﴾ بالله الراسخون فى العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم وما يشاهدونه. ﴿**خلق الله السموات والأرض بالحق**﴾ أى بالعدل والقسط مراعيا فى خلقها مصالح عباده. وقيل : المراد بالحق : كلامه وقدرته، ومحل ﴿ **بالحق** ﴾ النصب على الحال ﴿ **إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ أى لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته وتفرّده بالإلهية، وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك.

﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب** ﴾ أى القرآن ، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن والمحافظة على قراءته مع التدبر لآياته والتفكر فى معانيه ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ أى دم على إقامتها واستمرّ على أدائها كما أمرت بذلك . وجملة : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ تعليل لما قبلها ، والفحشاء : ماقبح من العمل ، والمنكر: ما لا يعرف فى الشريعة، أى تمنعه عن معاصى الله وتبعده منها، ومعنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سببا للانتهاء، والمراد هنا الصلوات المفروضة ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ أى أكبر من كل شيء، أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. قال ابن عطية : وعندى أن المعنى : ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل مالم يكن منه فى الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له. وقيل : ذكر الله أكبر من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر مع المداومة عليه. قال الفراء وابن قتيبة : المراد بالذكر فى الآية :التسبيح والتهليل ، يقول : هو أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر. وقيل : المراد بالذكر هنا الصلاة، أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وعبر عنها بالذكر كما فى قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة :٩] ؛ للدلالة على أن مافيها من الذكر هو العمدة فى تفضيلها على سائر الطاعات. وقيل : المعنى : ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم ، واختار هذا ابن جرير، ويؤيده حديث : « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» (١) ، ﴿ **والله يعلم ماتصنعون** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشرّ شرّا .

---

(١) أحمد ٢/ ٢٥١ والبخارى فى التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٥/ ٢) والترمذى فى الدعوات (٣٦٠٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الأدب (٣٨٢٢) .كلهم عن أبى هريرة .

﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ﴾ أى بالخصلة التى هى أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى اللّه عزّ وجلّ والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ بأن أفرطوا فى المجادلة ولم يتأدّبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين فى مجادلتهم ، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى . وقيل : معنى الآية : لاتجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام وسائر من آمن منهم ﴿ **إلا بالتى هى أحسن** ﴾ يعنى : بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم : الباقون على كفرهم . وقيل : هذه الآية منسوخة بآيات القتال ، وبذلك قال قتادة ومقاتل . قال النحاس : من قال : هى منسوخة، احتج بأن الآية مكية ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك. قال سعيد بن جبير ومجاهد : إن المراد بالذين ظلموا منهم : الذين نصبوا القتال للمسلمين فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿ **وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا** ﴾ من القرآن ﴿ **وأنزل إليكم** ﴾ من التوراة والإنجيل، أى آمنا بأنهما منزلان من عند اللّه وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية والبعثة المحمدية، ولا يدخل فى ذلك ما حرّفوه وبدّلوه ﴿ **وإلهنا وإلهكم واحد** ﴾ لاشريك له ولا ضدّ ولا ندّ ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ أى ونحن معاشر أمة محمد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن اللّه ولا المسيح ابن اللّه، ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أربابا من دون اللّه، ويحتمل أن يراد : ونحن جميعا منقادون له، ولا يقدح فى هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتمّ من انقياد أهل الكتاب وطاعتهم أبلغ من طاعاتهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾ الآية قال : ذاك مثل ضربه اللّه لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. وأخرج أبو داود فى مراسيله عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول اللّه ﷺ : «العنكبوت شيطان مسخها اللّه فمن وجدها فليقتلها » [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مزيد بن ميسرة قال : العنكبوت : شيطان. وأخرج الخطيب عن علىّ قال : قال رسول اللّه ﷺ : «دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهنّ» . وروى القرطبى فى تفسيره عن علىّ أيضا أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه فى البيت يورث الفقر[(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود، والثانية على النبى ﷺ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الصلاة**

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٥٠٠) وفى سنده بقية بن الوليد قال الحافظ فى تقريب التهذيب ١/ ١٠٥ : « صدوق كثير التدليس عن الضعفاء » ، والوضين بن بقاء قال الحافظ فى التقريب ٢/ ٣٣١ « صدوق سيئ الحفظ ورمى بالقدر» .

(٢) القرطبى ٧/ ٥٠٦٢ .

تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال : فى الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصى . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عمران بن حصين قال :سئل النبى ﷺ عن قول الله:﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** فقال :«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال :قال رسول الله ﷺ :« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا » [(١)]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، والبيهقى فى الشعب عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وفى لفظ : « لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا » [(٢)] . وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه . قال السيوطى : وسنده ضعيف [(٣)] وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر، والطبرانى [والبيهقى] [(٤)] فى الشعب عنه نحوه موقوفا [(٥)]. قال ابن كثير فى تفسيره : والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم [(٦)].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولذكر الله أكبر﴾** يقول : ولذكر اللّه لعباده إذا ذكروه أكبر من ذكرهم إياه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن عبد اللّه ابن ربيعة قال : سألنى ابن عباس عن قول اللّه : ﴿**ولذكر الله أكبر﴾** فقلت : ذكر اللّه بالتسبيح والتهليل والتكبير قال: لذكر اللّه إياكم أكبر من ذكركم إياه، ثم قال: ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن جرير عن ابن مسعود :﴿**ولذكر الله أكبر﴾** قال: ذكر اللّه العبد أكبر من ذكر العبد للّه. وأخرج ابن السنى وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : لها وجهان ذكر اللّه أكبر مما سواه ، وفى لفظ ذكر اللّه عندما حرمه وذكر اللّه إياكم أعظم من ذكركم إياه.وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدمىّ عملا أنجى له من عذاب اللّه من ذكر اللّه. قالوا : ولا الجهاد فى سبيل اللّه؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع، لأن اللّه يقول فى كتابه العزيز: ﴿**ولذكر الله أكبر﴾**. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر ،والحاكم فى الكنى، والبيهقى فى الشعب عن عنترة قال : قلت لابن عباس : أىّ العمل أفضل ؟ قال : ذكر اللّه.

---

(١) الطبرانى (١١٠٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٦١ : «فيه ليث بن أبى سليم وهو ثقة ولكنه مدلس».

(٢) ابن جرير ٢٠/ ٩٩ والبيهقى فى الشعب (٢٩٩٢) وإسناده ليس بالقوى ، والحديث مرسل.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٦.

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، والصحيح ما أثبتناه.

(٥) أحمد فى الزهد (٨٧١) وابن جرير ٢٠/ ٩٩ والطبرانى (٨٥٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٦١ : «ورجاله رجال الصحيح» والبيهقى فى الشعب (٢٩٩٤) ورجاله ثقات .

(٦) ابن كثير ٥/ ٣٢٧.

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن**﴾ قال: بلا إله إلا اللّه. وأخرج البخارى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول اللّه ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (١). وأخرج البيهقى فى الشعب، والديلمى، وأبو نصر السجزى فى الإبانة عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تصدّقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، واللّه لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحلّ له إلا أن يتبعنى» (٢). وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب، وذكر نحو حديث جابر، ثم قال: فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب اللّه فخذوه، وما خالف كتاب اللّه فدعوه (٣).

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾.

قوله: ﴿ **وكذلك أنزلنا إليك الكتاب** ﴾ هذا خطاب لرسول اللّه ﷺ، والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيناه فى مواضع كثيرة، أى ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب،

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٥٤٢) والنسائى فى التفسير (٤٠٧) وابن جرير ٢١/ ٤ والبيهقى ١٠/ ١٦٣.

(٢) البيهقى فى الشعب (١٧٦) والديلمى (٧٤٦٩) وإسناده لين فيه الهيثم بن سهل ضعفه الدارقطنى. لسان الميزان ٦/ ٢٠٧.

(٣) عبد الرزاق (١٩٢١٢) وابن جرير ٢١/ ٤.

وهو القرآن. وقيل : المعنى : كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن ﴿ **فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به** ﴾ يعنى : مؤمنى أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام، وخصهم بإيتائهم الكتاب لكونهم العاملين به وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه وجحدهم لصفات رسول اللّه ﷺ المذكورة فيه ﴿ **ومن هؤلاء من يؤمن به** ﴾ الإشارة إلى أهل مكة، والمراد : أن منهم، وهومن قد أسلم من يؤمن به، أى بالقرآن. وقيل : الإشارة إلى جميع العرب ﴿ **وما يجحد بآياتنا** ﴾ أى آيات القرآن ﴿ **إلا الكافرون** ﴾ المصممون على كفرهم من المشركين وأهل الكتاب.

﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب**﴾ الضمير فى قبله راجع إلى القرآن لأنه المراد بقوله : ﴿**أنزلنا إليك الكتاب**﴾ أى ما كنت يامحمد تقرأ قبل القرآن كتابا ولا تقدر على ذلك لأنك أميّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿ **ولا تخطه بيمينك** ﴾ أى ولا تكتبه ؛ لأنك لاتقدر على الكتابة. قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس : وذلك دليل على نبوّته؛ لأنه لايكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل كتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ﴿ **إذا لارتاب المبطلون** ﴾ أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا : لعله وجد مايتلوه علينا من كتب اللّه السابقة أو من الكتب المدوّنة فى أخبار الأمم، فلما كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبدا، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرّد عناد وجحود بلا شبهة، وسماهم مبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهورنزاهته ووضوح معجزاته.

﴿ **بل هو آيات بينات** ﴾ يعنى : القرآن ﴿ **فى صدور الذين أوتوا العلم**﴾ يعنى : المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ وحفظوه بعده ، وقال قتادة ومقاتل : إن الضمير يرجع إلى النبى ﷺ ، أى بل محمد آيات بينات، أى ذو آيات. وقرأ ابن مسعود: «بل هى آيات بينات » قال الفراء : معنى هذه القراءة : بل آيات القرآن آيات بينات. واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل ، وقد استدل لما قالاه لقراءة ابن السميفع : «بل هذا آيات بينات» ولا دليل فى هذه القراءة على ذلك؛ لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبى ﷺ ،بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير:﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ أى المجاوزون للحدّ فى الظلم ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه** ﴾ أى قال المشركون هذا القول، والمعنى : هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، وذلك كآيات موسى وناقة صالح وإحياء المسيح للموتى، ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل إنما الآيات عند الله** ﴾ ينزلها على من يشاء من عباده ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿**وإنما أنا نذير مبين**﴾ أنذركم كما أمرت وأبين لكم كما ينبغى، ليس فى قدرتى غير ذلك. قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى : «لولا أنزل عليه آية» بالإفراد. وقرأ الباقون بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله :﴿ **قل إنما الآيات** ﴾ .

﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** ﴾ هذه الجملة مستأنفة للردّ على اقتراحهم

وبيان بطلانه، أى أو لم يكف المشركين من الآيات التى اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذى قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله أوبسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذى يتلى عليهم فى كل زمان ومكان ﴿**إن فى ذلك**﴾ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما ذكر ﴿ **لرحمة** ﴾ عظيمة فى الدنيا والآخرة ﴿ **وذكرى** ﴾ فى الدنيا يتذكرون بها وترشدهم إلى الحق ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ أى لقوم يصدّقون بما جئت به من عند اللّه فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك ﴿ **قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا** ﴾ أى قل للمكذبين كفى اللّه شهيدا بما وقع بينى وبينكم ﴿ **يعلم ما فى السموات والأرض** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون**﴾ أى آمنوا بما يعبدونه من دون اللّه وكفروا بالحق وهو اللّه سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة .

﴿**ويستعجلونك بالعذاب**﴾ استهزاء وتكذيبا منهم بذلك كقولهم :﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] . ﴿ **ولولا أجل مسمى** ﴾ قد جعله اللّه لعذابهم وعينه، وهو القيامة، وقال الضحاك : الأجل : مدّة أعمارهم ؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب ﴿**لجاءهم العذاب**﴾ أى لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذى يستحقونه بذنوبهم. وقيل : المراد بالأجل المسمى : النفخة الأولى. وقيل : الوقت الذى قدّره اللّه لعذابهم فى الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر. والحاصل : أن لكل عذاب أجلا لا يتقدّم عليه ولا يتأخر عنه كما فى قوله سبحانه : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ [الأنعام : ٦٧] . وجملة: ﴿**وليأتينهم بغتة**﴾ مستأنفة مبينة لمجىء العذاب المذكور قبلها. ومعنى بغتة : فجأة، وجملة: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ فى محل نصب على الحال، أى حال كونهم لا يعلمون بإتيانه.ثم ذكرسبحانه أن موعد عذابهم النار فقال :﴿ **يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أى يطلبون منك تعجيل عذابهم والحال أن مكان العذاب محيط بهم، أى سيحيط بهم عن قرب ، فإن ماهو آت قريب والمراد بالكافرين: جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولا أوّليا، فقوله :﴿ **ويستعجلونك بالعذاب**﴾ إخبار عنهم ، وقوله ثانيا : ﴿ **يستعجلونك بالعذاب** ﴾ تعجب منهم . وقيل : التكرير للتأكيد .

ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم فقال : ﴿ **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ أى من جميع جهاتهم فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة فقد أحاطت بهم جهنم ﴿ **ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون**﴾ القائل هو اللّه سبحانه أو بعض ملائكته بأمره ، أى ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصى . قرأ أهل المدينة والكوفة : «نقول » بالنون. وقرأ الباقون بالتحتية(١)، واختارالقراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله : ﴿ **قل كفى بالله** ﴾ وقرأ ابن

(١) الصواب أن أهل المدينة والكوفة يقرؤون : « ويقول» بالتحتية والباقون بالنون . انظر : النشر فى القراءات العشر: ٢ / ٣٤٣ .

مسعود وابن أبى عبلة : «ويقال ذوقوا».

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه، والإسماعيلى فى معجمه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك** ﴾ قال : لم يكن رسول اللّه ﷺ يقرأ ولا يكتب كان أميا، وفى قوله : ﴿ **بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم** ﴾ قال : كان اللّه أنزل شأن محمد فى التوراة والإنجيل لأهل العلم وعلمه لهم وجعله لهم آية فقال لهم : إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج ولا يعلم كتابا ولا يخطه بيمينه، وهى الآيات البينات التى قال اللّه تعالى. وأخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب** ﴾ الآية قال : لم يكن رسول اللّه ﷺ يقرأ ولا يكتب .

وأخرج الفريابى والدارمى ، وأبو داود فى مراسيله وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن يحيى بن جعدة قال :جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ماسمعوه من اليهود، فقال النبى ﷺ : «كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء نبيهم إليهم إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت : ﴿ **أو لم يكفهم** ﴾ الآية[(١)]. وأخرجه الإسماعيلى فى معجمه، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبى هريرة فذكره بمعناه. وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والبيهقى فى الشعب عن الزهرى ؛ أن حفصة جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف، فجعلت تقرؤه والنبى ﷺ يتلوّن وجهه فقال : «والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم». وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس ، والحاكم فى الكنى ، والبيهقى فى الشعب عن عبد اللّه بن الحارث الأنصارى قال : دخل عمر بن الخطاب على النبى ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول اللّه ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله قط، فقال عبد اللّه بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول اللّه ﷺ ، فقال عمر : رضينا باللّه ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، فسرّى عن رسول اللّه ﷺ وقال : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم » [(٢)]. وأخرج نحوه عبد الرزاق والبيهقى من طريق أبى قلابة عن عمر. وأخرج البيهقى وصححه عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن تعلم التوراة فقال : «لا تتعلمها وآمن بها، وتعلموا ما أنزل إليكم وآمنوا به» [(٣)]. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ قال : جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكون فيه الشمس والقمر ثم يستوقد فيكون هو جهنم، وفى هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة .

---

(١) الدارمى ١/ ١٢٤ وأبو داود فى المراسيل (٤٥٤) وابن جرير ٢١/٦ .

(٢) عبد الرزاق (١٩٢١٣) والبيهقى فى الشعب (١٧٤) .

(٣) البيهقى فى الشعب (٥٢٠٣) ط. الكتب العلمية .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

لما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم فى الإنذار وجعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا فى إيذاء المسلمين بكل وجه فقال اللّه سبحانه: ﴿ **يا عبادى الذين آمنوا** ﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفا وتكريما، والذين آمنوا صفة موضحة أو مميزة ﴿ **إنّ أرضى واسعة** ﴾ إن كنتم فى ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفى مكايدة للكفار فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتى وحدى وتتسهل عليكم. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذى لا يمكنهم فيه عبادة اللّه، وكذلك يجب على من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد اللّه حق عبادته. وقال مطرف بن الشخير: المعنى: إن رحمتى واسعة ورزقى لكم واسع فابتغوه فى الأرض. وقيل: المعنى إن أرضى التى هى أرض الجنة واسعة فاعبدون حتى أورثكموها. وانتصاب ﴿ **إياى**﴾ بفعل مضمر، أى فاعبدوا إياى. ثم خوّفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة فقال: ﴿**كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون**﴾ أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان والخلان، ثم إلى اللّه المرجع بالموت والبعث لا إلى غيره، فكل حىّ فى سفر إلى دار القرار وإن طال لبثه فى هذه الدار.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوَئنهم من الجنة غرفا ﴾ فى هذا الترغيب إلى الهجرة ، وأن جزاء من هاجر أن يكون فى غرف الجنة ، ومعنى ﴿لنبوّئنهم﴾ : لننزلنهم غرف الجنة ، وهى علاليها : فانتصاب ﴿غرفا﴾ على أنه المفعول الثانى على تضمين نبوّئنهم معنى: ننزلنهم ، أو على الظرفية مع عدم التضمين ؛ لأن نبوئنهم لا يتعدّى إلا إلى مفعول واحد. وإما منصوب بنزع الخافض اتساعا ، أى فى غرف الجنة ، وهو مأخوذ من المباءة وهى الإنزال . قرأ أبوعمرو ويعقوب والجحدرى وابن أبى إسحاق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وخلف : «ياعبادى» بإسكان الياء وفتحها الباقون. وقرأ ابن عامر :« إن أرضى» بفتح الياء، وسكنها الباقون. وقرأ السلمى وأبو بكر عن عاصم :« يرجعون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية . وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى : « لنثوينهم » بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة ، وقرأ الباقون بالباء الموحدة ، ومعنى لنثوينهم بالمثلثة : لنعطينهم غرفا يثوون فيها من الثوى وهو الإقامة. قال الزجاج ، ويقال : ثوى الرجل : إذا أقام ، وأثويته : إذا أنزلته منزلا يقيم فيه. قال الأخفش : لاتعجبنى هذه القراءة لأنك لا تقول : أثويته الدار، بل تقول : فى الدار، وليس فى الآية حرف جرّ فى المفعول الثانى. قال أبو على الفارسى: هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حذف كما تقول : أمرتك الخير، أى بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى من تحت الغرف ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى الغرف لا يموتون أبدا، أو فى الجنة، والأوّل أولى ﴿ نعم أجرالعاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أى نعم أجر العاملين أجرهم ، والمعنى : العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين فقال : ﴿ الذين صبروا ﴾ على مشاق التكليف وعلى أذية المشركين لهم، ويجوز أن يكون منصوبا على المدح ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى يفوّضون أمورهم إليه فى كل إقدام وإحجام.

ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل، وهو النظر فى حال الدوابّ فقال : ﴿وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾ قد تقدّم الكلام فى كأين ، وأن أصلها : أى، دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم ، كما صرح به الخليل وسيبويه، وتقديرها عندهما : كشىء كثيرمن العدد من دابة. وقيل : المعنى : وكم من دابة. ومعنى ﴿ لاتحمل رزقها ﴾ : لاتطيق حمل رزقها لضعفها ولا تدّخرة. وإنما يرزقها اللّه من فضله ويرزقكم؛ فكيف لا يتوكلون على اللّه مع قوّتهم وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على اللّه مع ضعفها وعجزها؟ قال الحسن: تأكل لوقتها، لاتدّخر شيئا. قال مجاهد: يعنى : الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا ﴿ وهو السميع ﴾ الذى يسمع كل مسموع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم. ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ويتركون عبادة غيره فقال : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ الله ﴾ أى خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك ، ولا يتمكنون من جحوده ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أى فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلهية؟ وأنه وحده لا شريك

له، والاستفهام للإنكار والاستبعاد . ولما قال المشركون لبعض المؤمنين : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله :﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ أى التوسيع فى الرزق والتقتير له هو من اللّه الباسط القابض يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء على حسب ماتقتضيه حكمته، وما يليق بحال عباده من القبض والبسط، ولهذا قال :﴿ **إنّ الله بكل شيء عليم** ﴾ يعلم مافيه صلاح عباده وفسادهم.

﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله** ﴾ أى نزّله وأحيا به الأرض اللّه، يعترفون بذلك لايجدون إلى إنكاره سبيلا . ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف فى هذه الآيات، وهو يقتضى بطلان ماهم عليه من الشرك وعدم إفراد اللّه سبحانه بالعبادة، أمر رسوله ﷺ أن يحمد اللّه على إقرارهم وعدم جحودهم مع تصلبهم فى العناد وتشدّدهم فى ردّ كل ما جاء به رسول اللّه من التوحيد فقال : ﴿ **قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون** ﴾ أى احمد اللّه على أن جعل الحق معك ، وأظهرحجتك [(١)] عليهم ، ثم ذمهم فقال : ﴿ **بل أكثرهم لايعقلون** ﴾ الأشياء التى يتعقلها العقلاء. فلذلك لايعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ماهم عليه عند كل عاقل .

ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا وأنها من جنس اللعب واللهو، وأن الدار على الحقيقة هى دار الآخرة فقال : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب** ﴾ من جنس ما يلهو به الصبيان ويلعبون به ﴿ **وإن الدار الآخرة لهى الحيوان** ﴾ قال ابن قتيبة وأبو عبيدة : إن الحيوان : الحياة. قال الواحدى : وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان ههنا : الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة لهى دار الحيوان ، أو ذات الحيوان ، أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا ينغصها موت ولا مرض ، ولا همّ ولا غمّ ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ شيئا من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة.

ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرّد تأثير الحياة فقال : ﴿ **فإذا ركبوا فى الفلك دعوا اللَه مخلصين له الدين** ﴾ أى إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا اللّه وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لايكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير اللّه سبحانه ﴿ **فلما نجاهم إلى البرّ إذا هم يشركون** ﴾ أى فاجؤوا المعاودة إلى الشرك، ودعوا غير اللّه سبحانه. والركوب هو : الاستعلاء، وهو متعدّ بنفسه، وإنما عدّى بكلمة فى للإشعار بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة، واللام فى: ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ وفى قوله:﴿ **وليتمتعوا** ﴾ للتعليل ، أى فاجؤوا الشرك باللّه ليكفروا بنعمة اللّه وليتمتعوا بهما فهما فى الفعلين لام كى، وقيل : هما لاما الأمر تهديدا ووعيدا، أى اكفروا بما أعطيناكم من النعمة وتمتعوا، ويدلّ على هذه القراءة

---

(١) فى المطبوعة : «حجرك» والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قراءة أبيّ : « وتمتعوا » وهذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أبى عمرو وابن عامر وعاصم وورش بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وفى قوله: ﴿**فسوف يعلمون**﴾ تهديد عظيم لهم، أى فسيعلمون عاقبة ذلك وما فيه من الوبال عليهم.

﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا** ﴾ أى ألم ينظروا؟ يعنى : كفار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرما آمنا يأمن فيه ساكنه من الغارة والقتل والسبى والنهب فصاروا فى سلامة وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب فإنهم فى كل حين تطرقهم الغارات ، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها ، وجملة : ﴿**ويتخطف الناس من حولهم**﴾ فى محل نصب على الحال، أى يختلسون من حولهم بالقتل والسبى والنهب. والخطف : الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة القصص ﴿**أفبالباطل يؤمنون**﴾ وهو الشرك بعد ظهور حجة اللّه عليهم وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿**وبنعمة الله يكفرون**﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها، وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ مالا يقادر قدره.

﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ أى لا أحد أظلم منه، وهومن زعم أن للّه شريكا ﴿ **أو كذّب بالحق لما جاءه** ﴾ أى كذّب بالرسول الذى أرسل إليه والكتاب الذى أنزله على رسوله. وقال السدّى :كذّب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هدّد المكذبين وتوعدهم فقال: ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ أى مكان يستقرّون فيه، والاستفهام للتقرير، والمعنى : أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلو ما فعلوا ؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم اللّه أردفه بحال عباده الصالحين، فقال :﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ أى جاهدوا فى شأن اللّه لطلب مرضاته ورجاء ما عنده من الخير لنهدينهم سبلنا، أى الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هى مكية نزلت قبل فرض الجهاد [١] العرفى، وإنما هو جهاد عامّ فى دين اللّه وطلب مرضاته، وقيل : الآية هذه نزلت فى العباد. وقال إبراهيم بن أدهم : هى فى الذين يعملون بما يعلمون ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ بالنصر والعون، ومن كان معه لم يخذل، ودخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسما، أو على أنها حرف ودخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول : إن زيدا لفى الدار، والبحث مقرّر فى علم النحو.

وقد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه ﷺ :« لما نزلت هذه الآية ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] قلت : يارب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء؟ فنزلت : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾ » . وينظر كيف صحة هذا، فإن النبى ﷺ بعد أن يسمع قول اللّه سبحانه :﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ يعلم أنه ميت ، وقد

(١) فى المطبوعة : « الجياد، » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة.

علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا ، وأنه خاتم الأنبياء فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه عليّ رضى اللّه عنه من قوله : أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء؟ فلعلّ هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة (١).

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر ـ قال السيوطى: بسند ضعيف ـ عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول اللّه ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط التمر ويأكل، فقال لى : «مالك لا تأكل ؟ » قلت : لا أشتهيه يا رسول اللّه ، قال : «لكنى أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعامًا ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يحبون رزق سنتهم ويضعف اليقين » . قال : فواللّه مابرحنا ولارمنا حتى نزلت : **﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾** الآية ، فقال رسول اللّه ﷺ : «إن اللّه لم يأمرنى بكنز الدنيا ولااباتباع الشهوات ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما، ولا أخبأ رزقا لغد » (٢) . وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبى ﷺ ، فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك فى كتب الحديث المعتبرة. وفى إسناده أبو العطوف الجوزى وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : **﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان﴾** قال : باقية. وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب عن أبى جعفر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «ياعجبا كل العجب للمصدّق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور» وهو مرسل .

---

(١) هكذا أوردها الشوكانى ، ولا يخفى ما فيها من اضطراب .

(٢) السيوطى فى الدر المنثور ٥/١٤٩ ، وعنده « يخبئون » بدل « يحبون ».

تفسير سورة الروم

هى ستون آية. قال القرطبى :كلها مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة الروم بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج عبد الرزاق وأحمد، قال السيوطى : بسند حسن ، عن رجل من الصحابة ؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها سورة الروم. وأخرج البزار عن الأغر المدنى مثله . وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير ، أن النبى ﷺ قرأ فى الفجر يوم الجمعة بسورة الروم . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وأحمد وابن قانع من طريق عبد الملك بن عمير مثل حديث الرجل الذى من الصحابة، وزاد : يتردد فيها ، فلما انصرف قال : إنما يلبس علينا فى صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة فليحسن الطهور(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾.

قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة فى فاتحة سورة البقرة وتقدم الكلام على محلها من الإعراب ومحل أمثالها فى غير موضع من فواتح السور. قرأ الجمهور :**﴿ غلبت الروم ﴾**بضم الغين المعجمة وكسر اللام مبنيا للمفعول ، وقرأ على بن أبى طالب وأبو سعيد الخدرى ومعاوية

(١) ابن أبى شيبة ١/ ٥ و أحمد ٥/ ٣٦٣ وقال ابن كثير ٥/ ٣٧٥ : « هذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سر عجيب ، ونبأ غريب وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام » .

ابن قرة وابن عمر وأهل الشام بفتح الغين واللام مبنيا للفاعل. قال النحاس : قراءة أكثر الناس: ﴿ **غلبت** ﴾بضم الغين وكسر اللام . قال أهل التفسير: غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب، وافتخروا على المسلمين وقالوا: نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب .

ومعنى﴿ **فى أدنى الأرض** ﴾ : فى أقرب أرضهم من أرض العرب ، أو فى أقرب أرض العرب منهم . قيل : هى أرض الجزيرة. وقيل : أذرعات. وقيل : كسكر. وقيل : الأردن. وقيل: فلسطين ، وهذه المواضع هى أقرب إلى بلاد العرب من غيرها، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود فى ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب. وقيل : إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه. والتقدير: فى أدنى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم ، ويكون المعنى : فى أقرب أرض الروم من العرب. قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهى أدنى إلى أرض الروم ﴿ **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ أى والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهل فارس ، والغلب والغلبة لغتان، والمصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور. وإلى الفاعل على قراءة غيرهم. قرأ الجمهور: ﴿**سيغلبون**﴾ مبنيا للفاعل. وقرأ على وأبو سعيد ومعاوية بن قرة وابن عمر وأهل الشام على البناء للمفعول، وسيأتى فى آخر البحث ما يقوى قراءة الجمهور فى الموضعين . وقرأ أبو حيوة الشامى وابن السميفع : «من بعد غلبهم » بسكون اللام .

﴿ **فى بضع سنين** ﴾ متعلق بما قبله ، وقد تقدم تفسير البضع واشتقاقه فى سورة يوسف ، والمراد به هنا : ما بين الثلاثة إلى العشرة﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ أى هو المنفرد بالقدرة وإنفاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم ووقت غالبيتهم ، فكل ذلك بأمر الله سبحانه وقضائه، قرأ الجمهور:﴿ **من قبل ومن بعد** ﴾بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، والتقدير: من قبل الغلب ومن بعده ، أو من قبل كل أمر ومن بعده. وحكى الكسائى « من قبلٍ ومن بعدُ » بكسر الأول منونا وضم الثانى بلا تنوين. وحكى الفراء « من قبلِ ومن بعدِ » بكسرهما من غير تنوين ، وغلطه النحاس . قال شهاب الدين : قد قرئ بكسرهما منونين . قال الزجاج : ومعنى الآية : من متقدّم ومن متأخر ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ أى يوم أن تغلب الروم على فارس فى بضع سنين يفرح المؤمنون بنصر الله للروم لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب ، بخلاف فارس فإنه لا كتاب لهم ، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم . وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، والأول أولى . قال الزجاج : وهذه الآية من الآيات التى تدل على أن القرآن من عند الله لأنه إنباء بما سيكون ، وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه ﴿ **ينصر من يشاء** ﴾ أن ينصره ﴿**وهو**

﴿ العزيز ﴾ الغالب القاهر **﴿ الرحيم ﴾** الكثير الرحمة لعباده المؤمنين . وقيل : المراد بالرحمة هنا: الدنيوية ، وهى شاملة للمسلم والكافر .

﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ أى وعد الله وعدا لا يخلفه ، وهو ظهور الروم على فارس **﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** أن الله لا يخلف وعده ، وهم الكفار ، وقيل : كفار مكة على الخصوص . **﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾** أى يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملاذها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع . وقيل : الظاهر : الباطل **﴿ وهم عن الآخرة ﴾** التى هى النعمة الدائمة ، واللذة الخالصة **﴿ هم غافلون ﴾** لا يلتفتون إليها ولا يعدون لها ما يحتاج إليه ، أو غافلون عن الإيمان بها والتصديق بمجيئها .

﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما ﴾ الهمزة للإنكار عليهم ، والواو للعطف على مقدر كما فى نظائره ، و **﴿ فى أنفسهم ﴾** ظرف للتفكر وليس مفعولا للتفكر والمعنى : أن أسباب التفكرحاصلة لهم، وهى أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغى لعلموا وحدانية الله وصدق أنبيائه . وقيل : إنها مفعول للتفكر . والمعنى: أو لم يتفكروا فى خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئا ؟ و « ما » فى :**﴿ ما خلق الله ﴾** نافية، أى لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذى يحق ثبوته أو هى اسم فى محل نصب على إسقاط الخافض ،أى بما خلق الله ،والعامل فيها العلم الذى يؤدى إليه التفكر. وقال الزجاج :فى الكلام حذف ، أى فيعلموا، فجعل« ما » معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول : عليه ، والباء فى : **﴿ إلا بالحق ﴾** إما للسببية ، أو هى ومجرورها فى محل نصب على الحال ، أى ملتبسة بالحق . قال الفراء : معناه : إلا للحق ، أى للثواب والعقاب . وقيل : بالحق: بالعدل. وقيل: بالحكمة . وقيل : بالحق ، أى أنه هو الحق وللحق خلقها **﴿ وأجل مسمى ﴾** معطوف على الحق ، أى وبأجل مسمى للسموات والأرض وما بينهما تنتهى إليه ، وهو يوم القيامة ، وفى هذا تنبيه على الفناء ، وأن لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه . وقيل : معنى **﴿ وأجل مسمى ﴾** : أنه خلق ما خلق فى وقت سماه لخلق ذلك الشيء **﴿ وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾** أى لكافرون بالبعث بعد الموت ، واللام هى المؤكدة ، والمراد بهؤلاء : الكفار على الإطلاق ، أو كفار مكة .

﴿ أو لم يسيروا فى الأرض ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم فى الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار ، والفاء فى: **﴿ فينظروا ﴾** للعطف على **﴿ يسيروا ﴾** داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع والتوبيخ، والمعنى : أنهم قد ساروا وشاهدوا **﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾** من طوائف الكفار الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم بالله وجحودهم للحق وتكذيبهم للرسل ، وجملة : **﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾** مبينة للكيفية التى كانوا عليها ، وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية ، ومعنى **﴿ وأثاروا الأرض ﴾** : حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث **﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾** أى

عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء ؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعمارا ، وأقوى أجساما ، وأكثر تحصيلا لأسباب المعاش ، فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس﴿ **وجاءتهم رسلهم** ﴾ بالبينات، أى المعجزات . وقيل : بالأحكام الشرعية ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ بالكفر والتكذيب .

﴿ **ثم كان عاقبة الذى أساؤوا** ﴾ أى عملوا السيئات من الشرك والمعاصى ﴿ **السوأى** ﴾ هى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ ،وهو الأقبح ، أى كان عاقبتهم العقوبة التى هى أسوأ العقوبات. وقيل: هى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدرا كالبشرى والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « عاقبة » بالرفع على أنها اسم كان ، وتذكير الفعل لكون تأنيثها مجازيا ، والخبر السوأى ، أى الفعلة أو الخصلة أو العقوبة السوأى أو الخبر﴿ **أن كذبوا** ﴾ أى كان آخر أمرهم التكذيب . وقرأ الباقون:﴿ **عاقبة** ﴾ بالنصب على خبر كان ، والاسم السوأى ، أو أن كذبوا ، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا ، والسوأى مصدر أساؤوا أو صفة لمحذوف . وقال الكسائى : إن قوله : ﴿**أن كذبوا** ﴾ فى محل نصب على العلة، أى لأن كذبوا بآيات الله التى أنزلها على رسله ، أو بأن كذبوا ، ومن القائلين بأن السوأى : جهنم : الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين ، وسميت سوأى لكونها تسوء صاحبها . قال الزجاج : المعنى :ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله واستهزائهم ، وجملة : ﴿ **وكانوا بها يستهزئون** ﴾ عطف على كذبوا ، داخلة معه فى حكم العلية على أحد القولين ، أو فى حكم الإسمية لكان ، أو الخبرية لها على القول الآخر .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ،والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله :﴿ **الم .غلبت الروم** ﴾ قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم كانوا أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال:« ألا جعلته » ــ أراه قال ــ :دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ **الم . غلبت الروم** ﴾ فغلبت ،ثم غلبت بعد بقول الله:﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**﴾ (١) . قال سفيان : سمعت أنهم

(١) أحمد ١/ ٢٧٦ والترمذى فى التفسير (٣١٩٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٤٠٩) والطبرانى ١٢٣٧٧/ ٢ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٣٠ .

ظهروا عليهم يوم بدر . وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء ابن عازب نحوه ، وزاد : أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارس، ساء النبى ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه وقال : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال :تصديقا لله ولرسوله فقال : « تعرض لهم وأعظم الخطة واجعله إلى بضع سنين » ، فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم فى العود فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا رومية ،فقمر أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ﷺ ، فقال: « هذا السحت تصدق به » .

وأخرج الترمذى وصححه ، والدارقطنى فى الأفراد ، والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والبيهقى فى الشعب عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت : ﴿ **الم .غلبت الروم** ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفى ذلك يقول الله : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة : ﴿ **الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين** ﴾ فقال ناس من قريش لأبى بكر : ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا ننتهى إليه ، قال: فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسميته ست سنين ، لأن الله قال : ﴿ **فى بضع سنين** ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير (١) . وأخرج الترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ قال لأبى بكر:« لا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع » (٢) . وأخرج البخارى عنه فى تاريخه نحوه . وأخرج الفريابى ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت : « الم . غلبت الروم » (٣) قرأها بالنصب ، يعنى للغين على البناء للفاعل إلى قوله : ﴿ **يفرح المؤمنون. بنصر الله** ﴾ . قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس ، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبى سعيد ومن معه .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٩٤) وقال : « هذا حديث صحيح حسن غريب » ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله وهو متروك » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٩١) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢١/ ١٥ .

(٣) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٥) وفى التفسير (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ١٥/٢١ .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبى الدرداء قال: سيجىء أقوام يقرؤون : « الم . غَلَبت الروم» يعنى بفتح الغين، وإنما هى ﴿ **غلِبت** ﴾ : يعنى بضمها [(١)] ، وفى الباب روايات وما ذكرناه يغنى عما سواه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا** ﴾ يعنى : معايشهم ، متى يغرسون ؟ ومتى يزرعون ؟ ومتى يحصدون ؟. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ قال : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل .

﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)** ﴾.

قوله : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى يخلقهم أولا ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ إلى موقف الحساب ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ،

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤١٠ ووافقه الذهبى .

وأفرد الضمير فى : ﴿ **يعيده** ﴾ باعتبار لفظ الخلق وجمعه فى : ﴿ **ترجعون** ﴾ باعتبار معناه . قرأ أبو بكر وأبو عمرو : « يرجعون » بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة .﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يبلس** ﴾ على البناء للفاعل. وقرأ السلمى على البناء للمفعول، يقال: أبلس الرجل : إذا سكت وانقطعت حجته . قال الفراء والزجاج : المبلس : الساكت المنقطع فى حجته الذى أيس أن يهتدى إليها ، ومنه قول العجاج :

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال :نعم أعرفه وأبلسا

وقال الكلبى :أى يئس المشركون من كل خيرحين عاينوا العذاب ، وقد قدمنا تفسيرالإبلاس عند قوله:﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ [الأنعام : ٤٤] . ﴿ **ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء** ﴾ أى لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله ﴿ **وكانوا** ﴾ فى ذلك الوقت ﴿ **بشركائهم** ﴾ أى بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿ **كافرين** ﴾ أى جاحدين لكونهم آلهة ؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون ولا يضرون. وقيل : إن معنى الآية : كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتهم ، والأول أولى . ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ أى يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله : ﴿**الله يبدأ الخلق** ﴾ والمراد بالتفرق : أن كل طائفة تنفرد ، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة ، والكافرون إلى النار ، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر ، ومثله قوله تعالى : ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ [الشورى : ٧] وذلك بعد تمام الحساب فلا يجتمعون أبدا .

ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم فقال : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون** ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول معنى « أما » : دع ما كنا فيه وخذ فى غيره ، وكذا قال سيبويه : إن معناها : مهما يكن من شىء فخذ فى غير ما كنا فيه . والروضة : كل أرض ذات نبات . قال المفسرون : والمراد بها هنا : الجنة ، ومعنى ﴿ **يحبرون** ﴾ : يسرون . والحبور والحبرة : السرور ، أى فهم فى رياض الجنة ينعمون . قال أبوعبيد : الروضة : ما كان فى سفل ، فإذا كان مرتفعا فهو : ترعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى مكان مرتفع ، ومنه قول الأعشى .

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل

وقيل : معنى ﴿ **يحبرون** ﴾ : يكرمون . قال النحاس : حكى الكسائى : حبرته ، أى أكرمته ونعمته ، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربى ، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام والنعيم ، وفى السرور زيادة على ذلك . وقيل : التحبير : التحسين ، فمعنى ﴿**يحبرون** ﴾ يحسن إليهم . وقيل : هو السماع الذى يسمعونه فى الجنة . وقيل : غير ذلك ، والوجه ما ذكرناه . ﴿ **وأما الذين كفروا** ﴾ بالله ﴿ **وكذبوا بآياتنا** ﴾ وكذبوا بـ ﴿ **لقاء الآخرة** ﴾ أى البعث والجنة والنار ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات ، وهو

مبتدأ وخبره :﴿ **في العذاب محضرون** ﴾ أى مقيمون فيه . وقيل : مجموعون . وقيل : نازلون. وقيل : معذبون ، والمعانى متقاربة ، والمراد دوام عذابهم .

ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر والخير العام فقال : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون** ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى فإذا علمتم ذلك فسبحوا الله ، أى نزهوه عما لا يليق به فى وقت الصباح والمساء وفى العشى وفى وقت الظهيرة . وقيل : المراد بالتسبيح هنا : الصلوات الخمس . فقوله : ﴿**حين تمسون** ﴾ : صلاة المغرب والعشاء ، وقوله:﴿ **وحين تصبحون** ﴾:صلاة الفجر ، وقوله : ﴿ **وعشيا** ﴾ : صلاة العصر ، وقوله : ﴿ **وحين تظهرون** ﴾ : صلاة الظهر ، وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغيرهما. قال الواحدى : قال المفسرون: إن معنى ﴿ **فسبحان الله**﴾: فصلوا لله . قال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية فى الصلوات قال : وسمعت محمد ابن يزيد يقول : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات ؛ لأن التسبيح يكون فى الصلاة . وجملة : ﴿**وله الحمد فى السموات والأرض** ﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد ، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح كما فى قوله سبحانه :﴿ فسبح بحمد ربك﴾ [الحجر: ٩٨] وقوله : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ [البقرة : ٣٠] وقيل : معنى ﴿ **وله الحمد** ﴾ أى الاختصاص له بالصلاة التى يقرأ فيها الحمد ، والأول أولى . وقرأ عكرمة : « حينا تمسون وحينا تصبحون » والمعنى :حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه . والعشى :من صلاة المغرب إلى العتمة. قاله الجوهرى ، وقال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، ومنه قول الشاعر :

غدونا غدوة سحرا بليل ... عشيا بعد ما انتصف النهار

وقوله :﴿ **عشيا** ﴾ معطوف على حين و ﴿ **فى السموات** ﴾ متعلق بنفس الحمد ، أى الحمد له يكون فى السموات والأرض ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة ﴿ **ويخرج الميت من الحيّ** ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان . وقد سبق بيان هذا فى سورة آل عمران . وقيل : ووجه تعلق هذه الآية بالتى قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿**ويحيى الأرض بعد موتها** ﴾ أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ، وهو شبيه بإخراج الحى من الميت ﴿ **وكذلك تخرجون** ﴾ أى ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم . قرأ الجمهور: ﴿**تخرجون** ﴾ على البناء للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى على البناء للفاعل ، فأسند الخروج إليهم كقوله :﴿ يوم يخرجون من الأجداث ﴾ [المعارج : ٤٣] ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب** ﴾ أى من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم ، أى خلق أباكم آدم من تراب وخلقكم فى ضمن خلقه ؛ لأن الفرع مستمد من الأصل ومأخوذ منه ، وقد مضى تفسير هذا فى الأنعام . و « أن » فى موضع رفع بالابتداء و ﴿ **من آياته** ﴾ خبره ﴿ **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾

« إذا » هى الفجائية ، أى ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الأرض . وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان كما حكاه الله فى مواضع : من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار ، ومعنى ﴿ **تنتشرون** ﴾ : تنصرفون فيما هو قوام معايشكم .

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ أى ومن علاماته ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، أى من جنسكم فى البشرية والإنسانية . وقيل : المراد : حواء ؛ فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿ **لتسكنوا إليها** ﴾ أى تألفوها وتميلوا إليها ، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر ولا يميل قلبه إليه ﴿ **وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ أى ودادا وتراحما بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة ، فضلا عن مودة ورحمة . وقال مجاهد : المودة : الجماع ، والرحمة : الولد ، وبه قال الحسن . وقال السدى : المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة . وقيل : المودة حب الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء . وقوله : ﴿ **أن خلق لكم** ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، و ﴿ **من آياته** ﴾ خبره ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور سابقا ﴿ **لآيات** ﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث والنشور ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له يتحصل عنه . وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام .

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض** ﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة ، التى هى أجرام السموات والأرض ، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار ، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ، ما هو عبرة للمعتبرين ، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم ﴿ **واختلاف ألسنتكم** ﴾ أى لغاتكم من عرب وعجم ، وترك ، وروم وغير ذلك من اللغات ﴿ **وألوانكم** ﴾ من البياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والخضرة ، مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة ، ويجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية، وفصل واحد وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين فى ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا ، بل فى كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، وفى هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يفهمه إلا المتفكرون ﴿ **إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين بر وفاجر ، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين وقرأ حفص وحده بكسرها . قال الفراء : وله وجه جيد لأنه قد قال : ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ ، ﴿ لآيات لأولى الألباب ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ﴿وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾. قيل: فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار وقيل : المعنى صحيح من دون

تقديم وتأخير ، أى ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل ، وتنامون بالنهار فى بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة ، وابتغاؤكم من فضله فيهما ، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك ، وإن كان ابتغاء الفضل فى النهار أكثر. والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة فى هذا المعنى ، والآخر هو المناسب للنظم القرآنى ها هنا . ووجه ذكر النوم والابتغاء ها هنا وجعلهما من جملة الأدلة على البعث : أن النوم شبيه بالموت ، والتصرف فى الحاجات والسعى فى المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ أى يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر ، فيستدلون بذلك على البعث ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ المعنى : أن يريكم ، فحذف « أن» لدلالة الكلام عليه ، كما قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

والتقدير : أن أحضر ، فلما حذف الحرف فى الآية والبيت بطل عمله ، ومنه المثل المشهور : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى ويريكم البرق من آياته ، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة إسمية، ويجوز أن يكون ﴿ **يريكم** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى ومن آياته آية يريكم بها وفيها البرق ، وقيل : التقدير : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته . قال الزجاج : فيكون من عطف جملة على جملة . قال قتادة : خوفا للمسافر ، وطمعا للمقيم . وقال الضحاك : خوفا من الصواعق ، وطمعا فى الغيث . وقال يحيى بن سلام :خوفا من البرد أن يهلك الزرع ، وطمعا فى المطر أن يحيى الزرع .وقال ابن بحر : خوفا أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر ، وطمعا أن يكون ممطرا ، وأنشد :

لا يكن برقك برقا خلبا إن خير البرق ما الغيث معه

وانتصاب ﴿ **خوفا** ﴾ و ﴿ **طمعا** ﴾ على العلة ﴿ **وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها** ﴾ أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة .﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ أى قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه وقدرته بلا عمد يعمدها ، ولا مستقر يستقران عليه. قال الفراء : يقول : أن تدوما قائمتين بأمره﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾أى ثم بعد موتكم ومصيركم فى القبور، إذا دعاكم دعوة واحدة فاجأتم الخروج منها بسرعة، من غير تلبث ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع. و﴿ **من الأرض** ﴾ متعلق بـ« دعا » ، أى دعاكم من الأرض التى أنتم فيها، كما يقال : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة ، أو متعلق بمحذوف يدل عليه تخرجون ، أى خرجتم من الأرض ، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿ **تخرجون** ﴾ ؛ لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها ، وهذه الدعوة هى نفخة إسرافيل الآخرة فى الصور على ما تقدم بيانه ، وقد أجمع القراء على فتح التاء فى﴿ **تخرجون** ﴾ هنا وغلط من قال إنه قرئ هنا بضمها على البناء

للمفعول ، وإنما قرئ بضمها فى الأعراف .

﴿وله من فى السموات والأرض﴾ من جميع المخلوقات ملكا وتصرفا وخلقا ، ليس لغيره فى ذلك شىء ﴿ كل له قانتون ﴾ أى مطيعون طاعة انقياد . وقيل : مقرون بالعبودية . وقيل : مصلون . وقيل : قائمون يوم القيامة كقوله: ﴿ يوم يقوم الناس لربّ العالمين ﴾ [المطففين : ٦] أى للحساب. وقيل: بالشهادة أنهم عباده. وقيل: مخلصون ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة ﴿ وهو أهون عليه ﴾ أى هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم ، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلا فلا شىء فى قدرته بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله: كن، فتكون . قال أبو عبيد: من جعل أهون ؛ عبارة عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله : ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ [النساء: ٣٠] وبقوله: ﴿ولا يؤوده حفظهما ﴾ [البقرة : ٢٥٥] والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا ، كما فى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعزّ وأطول

أى عزيزة طويلة ، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى لست بواحد ، ومثله قول الآخر :

لعمرك إن الزبرقان لباذل ... لمعروفه عند السنين وأفضل

أى وفاضل ، وقرأ عبد الله بن مسعود: « وهو عليه هين » . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن الإعادة أهون عليه، أى على الله من البداية ، أى أيسر وإن كان جميعه هينا. وقيل : المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، وقيل : الضمير فى: ﴿ عليه ﴾ للخلق، أى وهو أهون على الخلق؛ لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ، ويقال لهم : كونوا فيكونون ، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة ﴿وله المثل الأعلى ﴾ قال الخليل : المثل : الصفة ، أى وله الوصف الأعلى ﴿ فى السموات والأرض ﴾ كما قال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ [الرعد : ٣٥] أى صفتها . وقال مجاهد : المثل الأعلى قول : لا إله إلا الله ، وبه قال قتادة . وقال الزجاج : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ أى قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل. وقيل : المثل الأعلى : هو أنه ليس كمثله شىء . وقيل : هو أن ما أراده كان بقول : كن ، و﴿ فى السموات والأرض ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة ، والمعنى : أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى، ووصف به فى السموات والأرض ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو المثل ، أو من الضمير فى الأعلى ﴿ وهو العزيز ﴾ فى ملكه، القادر الذى لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يبلس** ﴾ قال : ييتئس . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم: ﴿ **يبلس** ﴾ قال: يكتئب ، وعنه: الإبلاس : الفضيحة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يحبرون** ﴾ قال: يكرمون. وأخرج الديلمى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ؟ ميزوهم، فيميزون فى كثب المسك والعنبر؛ ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحى وتحميدى وتهليلى ، قال : فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط ». وأخرج الدينورى فى المجالسة عن مجاهد قال : ينادى مناد يوم القيامة. . . فذكر نحوه ، ولم يسم من رواه له عن رسول الله. وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، والأصبهانى فى الترغيب عن محمد بن المنكدر نحوه. وأخرج ابن أبى الدنيا والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: فى الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ فى ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها، فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة مرفوعا نحوه.

وأخرج الفريابى وابن مردويه عن ابن عباس قال: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن أبى رزين قال : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال :هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقرأ: ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ : صلاة المغرب ﴿**وحين تصبحون** ﴾: صلاة الصبح ﴿ **وعشيا** ﴾ : صلاة العصر﴿ **وحين تظهرون** ﴾: صلاة الظهر، وقرأ: ﴿ من بعد صلاة العشاء ﴾ [النور:٥٨] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ قال : المغرب والعشاء ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ : الفجر﴿ **وعشيا** ﴾ : العصر﴿ **وحين تظهرون** ﴾: الظهر . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى فى عمل يوم وليلة، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال:« ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون» (١) وفى إسناده ابن لهيعة. وأخرج أبو داود والطبرانى وابن السنى وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح: ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٩ وابن جرير ٢٧/ ٤٣ والطبرانى ٢٠/ ١٩٢ (٤٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٢٠ : «وفيه ضعفاء وثقوا » .

الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ أدرك ما فاته فى يومه، ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته»[١] وإسناده ضعيف .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كل له قانتون** ﴾ يقول : مطيعون : يعنى : الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وهو أهون عليه**﴾ قال: أيسر. وأخرج ابن الأنبارى عنه أيضا فى قوله: ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾قال: الإعادة أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة: كن، فيكون، وابتدأ الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ يقول: ليس كمثله شىء.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾.

قوله: ﴿ **ضرب لكم مثلا** ﴾قد تقدم تحقيق معنى المثل ، و« من » فى : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ لابتداء الغاية وهى ومجرورها فى محل نصب صفة لمثلا، أى مثلا منتزعا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شىء منكم، وأبين من غيرها عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها فى بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا. ثم بين المثل المذكور فقال: ﴿**هل لكم مما ملكت أيمانكم من**

(١) أبو داود فى الأدب (٥٠٧٦) والطبرانى (١٢٩٩١) . وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلمانى وابنه وكلاهما ضعيف . عبد الرحمن البيلمانى لينه أبو حاتم وضعفه الدارقطنى وابنه ، قال البخارى وأبو حاتم: « منكر الحديث » ، وضعفه الدارقطنى وغيره .ميزان الاعتدال (٤٨٢٧) ، (٧٨٢٧) .

شركاء فيما رزقناكم ﴾. « من » فى: ﴿ **مما ملكت** ﴾للتبعيض، وفى: ﴿ **من شركاء** ﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذى ملكت أيمانكم؟ وهم العبيد والإماء ، والاستفهام للإنكار، وجملة: ﴿ **فأنتم فيه سواء** ﴾ جواب للاستفهام الذى بمعنى النفى، ومحققة لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم فى أموالهم، أى هل ترضون لأنفسكم ـ والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم فى البشرية ـ أن يساووكم فى التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ؟ ﴿ **تخافونهم كخيفتكم أنفسكم** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، أى تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم، أى كما تخافون الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود نفى الأشياء الثلاثة : الشركة بينهم وبين المملوكين ، والاستواء معهم ، وخوفهم إياهم . وليس المراد ثبوت الشركة ونفى الاستواء والخوف كما قيل فى قولهم: ما تأتينا فتحدثنا. والمراد: إقامة الحجة على المشركين فإنهم لابد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم فى البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ؛ بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الربّ وحده لا شريك له. قرأ الجمهور: ﴿**أنفسكم** ﴾ بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿**كذلك نفصل الآيات** ﴾ تفصيلا واضحا وبيانا جليا﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم فى تدبرها والتفكر فيها .

ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل فقال: ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم** ﴾ أى لم يعقلوا الآيات ، بل اتبعوا أهواءهم الزائغة. وآراءهم الفاسدة الزائفة ، ومحل ﴿**بغير علم** ﴾ النصب على الحال ، أى جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿ **فمن يهدى من أضل الله** ﴾ أى لا أحد يقدر على هدايته؛ لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أى ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم ، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه. ثم أمر رسوله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره فقال: ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا** ﴾شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه وإقباله عليه. وانتصاب﴿**حنيفا** ﴾ على الحال من فاعل أقم أو من مفعوله، أى مائلا إليه مستقيما عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة .

﴿ **فطرت الله التى فطر الناس عليها** ﴾ الفطرة فى الأصل: الخلقة، والمراد بها هنا : الملة، وهى الإسلام والتوحيد. قال الواحدى:هذا قول المفسرين فى فطرة الله، والمراد بالناس هنا : الذين فطرهم الله على الإسلام ؛ لأن المشرك لم يفطر على الإسلام، وهذا الخطاب وإن كان خاصا برسول الله فأمته داخلة معه فيه . قال القرطبى باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك لولا

عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ :« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ وفى رواية: على هذه الملة ـ ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ » ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ (١) . وفى رواية :« حتى تكونوا أنتم تجدعونها » . وسيأتى فى آخر البحث ما ورد معاضدا لحديث أبى هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفطور، أى مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا : الإسلام هو مذهب جمهور السلف . وقال آخرون: هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة. والفاطر فى كلام العرب هو المبتدئ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة وإهمال معناها شرعا. والمعنى الشرعىّ مقدم على المعنى اللغوى باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافى ذلك ورود الفطرة فى الكتاب أو السنة فى بعض المواضع مرادا بها المعنى اللغوى كقوله تعالى:﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ [فاطر :١] أى خالقهما ومبتديهما ، وكقوله : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ [يس : ٢٢] إذ لا نزاع فى أن المعنى اللغوى هو هذا، ولكن النزاع فى المعنى الشرعى للفطرة وهو ما ذكره الأولون كما بيناه، وانتصاب﴿**فطرة**﴾ على أنها مصدر مؤكد للجملة التى قبلها . وقال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى﴿ **فأقم وجهك للدين** ﴾ : اتبع الدين واتبع فطرة الله. وقال ابن جرير: هى مصدر من معنى﴿ **فأقم وجهك** ﴾ لأن معنى ذلك : فطرة الله الناس على الدين . وقيل : هى منصوبة على الإغراء ، أى الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، ورد هذا الوجه أبو حيان وقال : إن كلمة الإغراء لا تضمر إذ هى عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه وهو إجحاف . وأجيب بأن هذا رأى البصريين، وأما الكسائى وأتباعه فيجيزون ذلك .

وجملة: ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة، أى هذه الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل: هو نفى معناه النهى، أى لا تبدلوا خلق الله. قال مجاهد وإبراهيم النخعى: معناه: لا تبديل لدين الله. قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد: هذا فى المعتقدات. وقال عكرمة: إن المعنى: لا تغيير لخلق فى البهائم بأن تخصى فحولها ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو الدين القيم﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به. ﴿**منيبين إليه** ﴾أى راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له فى أوامره ونواهيه. ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

---

(١) أحمد ٢/ ٣١٥ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٥) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨/ ٢٢) .

فإن تابوا فإن بنى سليم   وقومهم هوازن قد أنابوا

قال الجوهرى: أناب إلى الله: أقبل وتاب، وانتصابه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى﴿ **أقم وجهك** ﴾: أقيموا وجوهكم. قال الفراء: المعنى: فأقم وجهك ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج وقال : تقديره: فأقم وجهك وأمتك، فالحال من الجميع. . وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. وقيل: هو منصوب على القطع. وقيل: على أنه خبر لكان، محذوفة، أى وكونوا منيبين إليه لدلالة﴿**ولا تكونوا من المشركين** ﴾على ذلك. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة فقال ﴿ **واتقوه** ﴾ أى :باجتناب معاصيه وهو معطوف على الفعل المقدرناصبا لمنيبين ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ التى أمرتم بها ﴿ **ولا تكونوا من المشركين** ﴾ بالله .

وقوله : ﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا** ﴾هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع: الفرق، أى لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقا فى الدين يشايع بعضهم بعضا من أهل البدع والأهواء. وقيل: المراد بالذين فرقوا دينهم شيعا: اليهود والنصارى. وقرأ حمزة والكسائى : «فارقوا دينهم » ورويت هذه القراءة عن على بن أبى طالب، أى فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه، وهوالتوحيد. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى آخر سورة الأنعام ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ أى كل فريق بما لديهم من الدين المبنى على غير الصواب مسروورن مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شىء . وقال الفراء :يجوز أن يكون قوله:﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا** ﴾ مستأنفا كما يجوز أن يكون متصلا بما قبله﴿ **وإذا مس الناس ضر** ﴾ أى قحط وشدة﴿ **دعوا ربهم** ﴾ أن يرفع ذلك عنهم واستغاثوا به﴿ **منيبين إليه** ﴾ أى راجعين إليه ملتجئين به لا يعولون على غيره. وقيل: مقبلين عليه بكل قلوبهم﴿ **ثم إذا أذاقهم منه رحمة** ﴾ بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم﴿ **إذا فريق منهم بربهم يشركون** ﴾ « إذا » هى الفجائية وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء فى إفادة التعقيب، أى فاجأ فريق منهم الإشراك وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه. وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم، واللام فى﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ هى لام كى. وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هى لام العاقبة. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال:﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم. قرأ الجمهور:﴿ **فتمتعوا** ﴾ على الخطاب. وقرأ أبو العالية بالتحتية على البناء للمفعول، وفى مصحف ابن مسعود:«فليتمتعوا » .

﴿ **أم أنزلنا عليهم سلطانا** ﴾ أم هى المنقطعة، والاستفهام للإنكار والسلطان : الحجة الظاهرة ﴿ **فهو يتكلم** ﴾ أى يدل كما فى قوله:﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾[الجاثية: ٢٩] قال الفراء: إن العرب تؤنث السلطان يقولون: قضت به عليك السلطان ، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة. وقيل : المراد بالسلطان هنا : الملك ﴿ **بما كانوا به يشركون** ﴾ أى ينطق بإشراكهم بالله سبحانه ، ويجوز أن

تكون الباء سببية ، أى بالأمر الذى بسببه يشركون ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة** ﴾ أى خصبا ونعمة وسعة وعافية﴿ **فرحوا بها** ﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : ٥٨] . ثم قال سبحانه: ﴿**وإن تصبهم سيئة** ﴾ شدة على أى صفة﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ أى بسبب ذنوبهم﴿ **إذا هم يقنطون** ﴾ القنوط: الإياس من الرحمة،كذا قال الجمهور. وقال الحسن : القنوط: ترك فرائض الله سبحانه . قرأ الجمهور:«يقنطون » بضم النون. وقرأ أبو عمرو والكسائى ويعقوب بكسرها. ﴿ **أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾من عباده ويوسع له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يضيق على من يشاء لمصلحة فى التوسيع لمن وسع له،وفى التضييق على من ضيق عليه﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ فيستدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان يلبى أهل الشرك: لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا (١) هو لك ،تملكه وما ملك، فأنزل الله:﴿ **هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هى فى الآلهة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**لا تبديل لخلق الله** ﴾ قال : دين الله﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ قال: القضاء القيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن الأسود بن سريع؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين، فانتهى القتل إلى الذرية، فلما جاؤوا قال النبى ﷺ : « ما حملكم على قتل الذرية »؟ قالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين، قال:« وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذى نفسى بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها »(٣). وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ :« كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا » (٤) رواه أحمد عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر. وقال الإمام أحمد فى المسند : حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ خطب يوما فقال فى خطبته حاكيا عن الله سبحانه:« وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم،وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » الحديث (٥) .

(١) فى المطبوعة : « شريك » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) الطبرانى (١٢٣٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٢٦ : « فيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .

(٣) عبد الرزاق (٩٣٨٦) وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٤٠٧٧) وأحمد ٣/ ٤٣٥ وذكر أن السرية كانت إلى حنين، والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦١٦) والحاكم ٢/ ١٢٣ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « على شرط البخارى ومسلم » والبيهقى ٩/ ٧٧.

(٤) أحمد ٣/ ٣٥٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢١ : « فيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات » .

(٥) أحمد ٤/ ١٦٢ ومسلم فى الجنة (٢٨٦٥/ ٦٣) والطبرانى ١٧/ ٣٥٨ (٩٨٧) .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾.

لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغى من مواساة القرابة وأهل الحاجات ممن بسط الله له فى رزقه فقال: ﴿ **فآت ذا القربى حقه** ﴾ والخطاب للنبى ﷺ وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها، والمراد: الإحسان إليهم بالصدقة والصلة والبر﴿ **والمسكين وابن السبيل** ﴾ أى وآت المسكين وابن السبيل حقهما الذى يستحقانه. ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجبا لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول. وقد اختلف فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: هى منسوخة بآية المواريث. وقيل: محكمة وللقريب فى مال قريبه الغنى حق واجب، وبه قال مجاهد وقتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج. قال مقاتل: حق المسكين أن يتصدق عليه، وحق ابن السبيل الضيافة. وقيل المراد بالقربى: قرابة النبى ﷺ . قال القرطبى: والأول أصح، فإن حقهم مبين فى كتاب الله عز وجل فى قوله: ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى ﴾[الأنفال: ٤١] [1] وقال الحسن: إن الأمر فى إيتاء ذى القربى للندب ﴿ **ذلك خير للذين يريدون وجه الله** ﴾ أى ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب إلى الله سبحانه﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالا لأمره.

---

(١) القرطبى٧/ ٥١١٧ .

﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **آتيتم** ﴾ بالمد بمعنى أعطيتم، وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير بالقصربمعنى ما فعلتم، وأجمعوا على القراءة بالمد فى قوله: ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ وأصل الربى: الزيادة، وقراءة القصر تؤول إلى قراءة المد؛ لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأ وأتيت صوابا؛ والمعنى فى الآية: ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض﴿ **ليربو فى أموال الناس** ﴾ أى ليزيد ويزكو فى أموالهم﴿ **فلا يربو عند الله** ﴾أى لا يبارك الله فيه. قال السدى: الربا فى هذا الموضع :الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة؛ لأن ذلك لا يربو عند الله، لا يؤجر عليه صاحبه ، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة والضحاك. قال الواحدى: وهذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعنى دفع الإنسان الشىء ليعوض أكثر منه وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه؛ لأن الذى يهبه يستدعى به ما هو أكثر منه. وقال الشعبى: معنى الآية أن ما خدم به الإنسان أحدا لينتفع به فى دنياه فإن ذلك النفع الذى يجزى به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: هذا كان حراما على النبى ﷺ على الخصوص لقوله سبحانه: ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾[المدثر: ٦] ومعناها: أن تعطى فتأخذ أكثر منه عوضا عنه. وقيل: إن هذه الآية نزلت فى هبة الثواب. قال ابن عطية: وما يجرى مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه. قال عكرمة: الربا ربوان: فربا حلال، وربا حرام. فأما الربا الحلال فهو الذى يهدى يلتمس ما هو أفضل منه: يعنى كما فى هذه الآية. وقيل: إن هذا الذى فى هذه الآية هو الربا المحرم، فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول لا يحكم به، بل هو للمأخوذ منه.

قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك، مثل هبة الفقير للغنى، وهبة الخادم للمخدوم، وهبة الرجل لأميره، وهو أحد قولى الشافعى . وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، وهو قول الشافعى الآخر. قرأ الجمهور:﴿**ليربو**﴾ بالتحتية على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا. وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة بمعنى لتكونوا ذوى زيادات. وقرأ أبو مالك: « لتربوها » ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصا له﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله** ﴾ أى وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله﴿ **فأولئك هم المضعفون** ﴾ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن ومعطش ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. وقرأ أبى: « المضعفون » بفتح العين اسم مفعول .

﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء** ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرازق المميت المحيى، ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿ **هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء** ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئا من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿ **سبحانه**

وتعالى عما يشركون ﴾أى نزهوه تنزيها، وهو متعال عن أن يجوز عليه شىء من ذلك، وقوله: ﴿ **من شركائكم** ﴾خبر مقدم ومن للتبعيض، والمبتدأ هو الموصول، أعنى: من يفعل، و﴿ **من ذلكم** ﴾متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من﴿ **شىء** ﴾ المذكور بعده، ومن فى: ﴿ **من شىء** ﴾ مزيدة للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ، ويجعلون لهم نصيبا من أموالهم.

﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** ﴾بين سبحانه أن الشرك والمعاصى سبب لظهور الفساد فى العالم. واختلف فى معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك. وقال مجاهد وعكرمة: فساد البر: قتل ابن آدم أخاه، يعنى قتل قابيل لهابيل، وفى البحر: الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا. وليت شعرى أى دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ ، والتعريف فى الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع فى حيزى البر والبحر. وقال السدى: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. ويمكن أن يقال: إن الشرك وإن كان الفرد الكامل فى أنواع المعاصى، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. وقيل: الفساد: كساد الأسعار وقلة المعاش. وقيل: الفساد: قطع السبل والظلم، وقيل : غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه. والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعا إلى أفعال بنى آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أوراجعا إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار. والبر والبحر هما المعروفان المشهوران. وقيل : البر: الفيافى ، والبحر: القرى التى على ماء، قاله عكرمة، والعرب تسمى الأمصار : البحار. قال مجاهد: البر: ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر: ما كان على شط نهر. والأول أولى. ويكون معنى البر: مدن البر، ومعنى البحر: مدن البحر، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها. والباء فى﴿ **بماكسبت** ﴾ للسببية،«ما » إما موصولة أو مصدرية ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا** ﴾ اللام متعلقة بظهر، وهى لام العلة، أى ليذيقهم عقاب بعض عملهم أو جزاء بعض عملهم﴿**لعلهم يرجعون**﴾ عما هم فيه من المعاصى ويتوبون إلى الله.

﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل** ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدى المشركين والعصاة بين لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار، وجملة: ﴿ **كان أكثرهم مشركين** ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى كانوا عليها، وإيضاح السبب الذى صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له** ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ وأمته أسوته فيه، كأن المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم فأقم وجهك يا محمد إلخ. قال الزجاج:

اجعل جهتك اتباع الدين القيم، وهو الإسلام المستقيم ﴿ **من قبل أن يأتى يوم** ﴾ يعنى: يوم القيامة﴿ **لا مرد له** ﴾ لا يقدر أحد على رده، والمرد مصدر ردّ. وقيل: المعنى: أوضح الحق وبالغ فى الأعذار، و﴿ **من الله** ﴾ يتعلق بـ﴿ **يأتى** ﴾ أو بمحذوف يدل عليه المصدر، أى لا يرده من الله أحد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وفيه من الضعف وسوء الأدب مع الله مالا يخفى. ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع التفرق، يقال: تصدع القوم: إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكنا كندمانى جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

والمراد بتفرقهم ها هنا : أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار. ﴿ **من كفر فعليه كفره** ﴾ أى جزاء كفره، وهو النار ﴿ **ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون**﴾ أى يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة بالعمل الصالح، والمهاد: الفراش، وقد مهدت الفراش مهدا: إذا بسطته ووطأته، فجعل الأعمال الصالحة التى هى سبب لدخول الجنة كبناء المنازل فى الجنة وفرشها. وقيل: المعنى : فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم فى المشفق: أمٌّ فرشت فأنامت، وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص. وقال مجاهد: ﴿ **فلأنفسهم يمهدون**﴾ فى القبر، واللام فى﴿ **ليجزى الذين آمنوا** ﴾ متعلقة بـ﴿ **يصدعون**﴾، أو ﴿ **يمهدون**﴾، أى يتفرقون ليجزى الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿ **من فضله** ﴾ أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم. وقيل: يتعلق بمحذوف. قال ابن عطية: تقديره: ذلك ليجزى، وتكون الإشارة إلى ماتقدم من قوله:﴿ **من عمل** ﴾ و﴿ **من كفر** ﴾. وجعل أبو حيان قسيم قوله: ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ محذوفا لدلالة قوله:﴿ **إنه لا يحب الكافرين** ﴾ عليه؛ لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه، وغضبه يستتبع عقوبته.

﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات** ﴾ أى ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدمه كما فى قوله سبحانه :﴿ بشرا بين يدى رحمته ﴾[النمل : ٦٣] قرأ الجمهور:﴿ **الرياح** ﴾ وقرأ الأعمش : « الريح » بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله: ﴿**مبشرات** ﴾ واللام فى قوله:﴿ **وليذيقكم من رحمته** ﴾ متعلقة بـ﴿ **يرسل** ﴾ ، أى يرسل الرياح مبشرات ويرسلها ليذيقكم من رحمته، يعنى: الغيث والخصب. وقيل: هو متعلق بمحذوف ، أى وليذيقكم أرسلها. وقيل : الواو مزيدة على رأى من يجوز ذلك ، فتتعلق اللام بـ﴿**يرسل**﴾ ﴿ **ولتجرى الفلك بأمره** ﴾ معطوف على﴿ **ليذيقكم من رحمته** ﴾ أى يرسل الرياح لتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها، ولما أسند الجرى إلى الفلك عقبه بقوله: ﴿ **بأمره ولتبتغوا من فضله** ﴾ أى تبتغوا الرزق بالتجارة التى تحملها السفن﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به وربا لا يصلح. فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد

فضلها وأضعافها. وأخرج البيهقى عنه قال: هذا هو الربا الحلال ، أن يهدى يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر، ونهى النبى ﷺ خاصة فقال : ﴿ولا تمنن تستكثر ﴾[المدثر : ٦]. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ قال: هى الصدقة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **ظهرالفساد فى البر والبحر**﴾ قال: البر: البرية التى ليس عندها نهر، والبحر: ما كان من المدائن والقرى على شط نهر. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا: ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال : من الذنوب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ **يصدعون** ﴾ قال: يتفرقون .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾.

قوله: ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم** ﴾ كما أرسلناك إلى قومك﴿ **فجاؤوهم بالبينات**﴾ أى بالمعجزات والحجج النيرات﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ أى فكفروا فانتقمنا ﴿ **من الذين أجرموا** ﴾ أى فعلوا الإجرام، وهى الآثام ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ هذا إخبار من الله

سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو صادق الوعد لايخلف الميعاد ، وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين ، ووقف بعض القراءعلى﴿**حقا**﴾ وجعل اسم كان ضميرا فيها وخبرها حقا، أى وكان الانتقام حقا. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، والصحيح أن نصر المؤمنين اسمها وحقا خبرها وعلينا متعلق بـ﴿**حقا**﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له. ﴿ **الله الذى يرسل الرياح** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وابن كثير وابن محيصن:« يرسل الريح »بالإفراد. وقرأ الباقون: ﴿**الرياح**﴾ قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة: ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾ إلى قوله: ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ معترضة﴿ **فتثير سحابا** ﴾ أى تزعجه من حيث هو﴿ **فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾ تارة سائرا وتارة واقفا، وتارة مطبقا، وتارة غير مطبق، وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة وفى سورة النور﴿ **ويجعله كسفا** ﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعا متفرقة، والكسف جمع كسفة. والكسفة: القطعة من السحاب . وقد تقدم تفسيره واختلاف القراءة فيه﴿**فترى الودق يخرج من خلاله**﴾ الودق: المطر، و﴿**من خلاله**﴾ : من وسطه. وقرأ أبو العالية والضحاك: « يخرج من خلله » . ﴿ **فإذا أصاب به** ﴾ أى بالمطر﴿ **من يشاء من عباده** ﴾ أى بلادهم وأرضهم﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾ إذا هى الفجائية، أى فاجؤوا الاستبشار بمجىء المطر، والاستبشار: الفرح .

﴿ **وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم** ﴾ أى من قبل أن ينزل عليهم المطر، وإن هى المخففة وفيها ضمير شأن مقدر هو اسمها، أى وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، وقوله: ﴿**من قبله** ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس . وقال قطرب: إن الضميرفى: ﴿ **قبله** ﴾ راجع إلى المطر، أى وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر. وقيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب، أى من قبل رؤيته، واختار هذا النحاس. وقيل: الضمير عائد إلى الكسف. وقيل: إلى الإرسال. وقيل: إلى الاستبشار. والراجح الوجه الأول ، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففى غاية التكلف والتعسف، وخبر كان ﴿ **لمبلسين** ﴾ أى آيسين أو بائسين . وقد تقدم تحقيق الكلام فى هذا.

﴿ **فانظرإلى أثر رحمت الله** ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع التى بها يكون الخصب ورخاء العيش، أى انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب. قرأ الجمهور:« أثر» بالتوحيد. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى :﴿ **آثار** ﴾ بالجمع ﴿ **كيف يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه. وقيل : ضمير يعود إلى الأثر، وهذه الجملة فى محل نصب بانظر، أى انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض. وقرأ الجحدرى وأبو حيوة:« تحيى » بالفوقية على أن فاعله

ضمير يعود إلى الرحمة أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلك**﴾ إلى الله سبحانه، أى إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿**لمحيى الموتى**﴾ أى لقادر على إحيائهم فى الآخرة وبعثهم ومجازاتهم، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ أى عظيم القدرة كثيرها.

﴿**ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا** ﴾ الضمير فى :﴿ **فرأوه** ﴾ يرجع إلى الزرع والنبات الذى كان من أثر رحمة الله، أى فرأوه مصفرا من البرد الناشئ عن الريح التى أرسلها الله بعد اخضراره. وقيل: راجع إلى الريح، وهو يجوز تذكيره وتأنيثه. وقيل : راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع إلى السحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر، والأول أولى. واللام هى الموطئة. وجواب القسم﴿ **لظلوا من بعده يكفرون** ﴾ وهو يسد مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله ويجحدون نعمه، وفى هذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال:﴿ **فإنك لا تسمع الموتى** ﴾ إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب ﴿ **ولا تسمع الصم الدعاء** ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة وما فيها، وقوله :﴿ **إذا ولوا مدبرين** ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صم الآذان، قد تقدم تفسير هذا فى سورة النمل. ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿ **وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم** ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغى. أو لفقدهم للبصائر﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أى ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر﴿ **فهم مسلمون** ﴾ أى منقادون للحق متبعون له.

﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف** ﴾ ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، ومعنى من ضعف: من نطفة. قال الواحدى: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذى ضعف. وقيل: المراد : حال الطفولية والصغر ﴿ **ثم جعل من بعد ضعف قوة** ﴾ وهى قوة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة وتشتد الخلقة إلى بلوغ النهاية ﴿ **ثم جعل من بعد قوة ضعفا** ﴾ أى عند الكبر والهرم﴿ **وشيبة** ﴾ الشيبة هى: تمام الضعف ونهاية الكبر. قرأ الجمهور:« ضعف» بضم الضاد فى هذه المواضع . وقرأ عاصم وحمزة بفتحها. وقرأ الجحدرى بالفتح فى الأولين والضم فى الثالث. قال الفراء: الضم لغة قريش والفتح لغة تميم. قال الجوهرى: الضعف والضعف خلاف القوة، وقيل: هو بالفتح فى الرأى، وبالضم فى الجسم ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ يعنى: من جميع الأشياء، ومن جملتها القوة والضعف فى بنى آدم ﴿ **وهو العليم** ﴾ بتدبيره ﴿ **القدير** ﴾ على خلق ما يريده، وأجاز الكوفيون:« من ضعف » بفتح الضاد والعين.

﴿ **ويوم تقوم الساعة** ﴾ أى القيامة، وسميت ساعة لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات

الدنيا ﴿ **يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾ أى يحلفون ما لبثوا فى الدنيا، أو فى قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقر ذلك فى أذهانهم، فحلفوا عليه وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كذبوا فى هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل، وهذا هو الظاهر؛ لأنهم إن أرادوا لبثهم فى الدنيا فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم فى القبور فقد حلفوا على جهالة إذ [1] كانوا لا يعرفون الأوقات فى البرزخ ﴿**كذلك كانوا يؤفكون** ﴾ يقال: أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. وقيل: المراد: يصرفون عن الحق. وقيل: عن الخير، والأول أولى، وهو دليل على أن حلفهم كذب.

﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث** ﴾ اختلف فى تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم ، فقيل: الملائكة. وقيل: الأنبياء. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع . ومعنى فى كتاب الله: فى علمه وقضائه. قال الزجاج: فى علم الله المثبت فى اللوح المحفوظ . قال الواحدى: والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله، وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبهوهم على طريقة التبكيت بأن﴿**هذا**﴾ الوقت الذى صاروا فيه هو﴿ **يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ أنه حق ، بل كنتم تستعجلونه تكذيبا واستهزاء. ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم** ﴾ أى لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ولا يفيدهم علمهم بالقيامة. وقيل: لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. قرأ الجمهور:﴿ **لا تنفع** ﴾ بالفوقية ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتحتية ﴿**ولاهم يستعتبون** ﴾ يقال: استعتبته فأعتبنى، أى استرضيته فأرضانى، وذلك إذا كنت جانيا عليه، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه، والمعنى : أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إلى ذلك فى الدنيا .

﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى من كل مثل من الأمثال التى تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك ﴿**ولئن جئتهم بآية**﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد ﴿ **ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون** ﴾ أى ما أنت يا محمد وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر وما هو مشاكل له فى البطلان ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾ أى مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذى يهتدون به إلى الحق وينجون به من الباطل. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللا لذلك بحقية وعد الله وعدم الخلف فيه، فقال: ﴿ **فاصبر**﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى وتنظره من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعدك بالنصر عليهم وإعلاء حجتك وإظهار دعوتك ووعده حق لا خلف فيه﴿**ولا يستخفنك الذين لا**

---

(١) فى المطبوعة : « إن » ، والأولى ما أثبتناه .

يوقنون﴾ أى لا يحملنك على الخفة ويستفزنك عن دينك وما أنت عليه، الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبى ﷺ . يقال: استخف فلان فلانا، أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى. قرأ الجمهور: ﴿ **يستخفنك** ﴾ بالخاء المعجمة والفاء، وقرأ يعقوب وابن إسحاق بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهى فى الآية من باب: لا أرينك ها هنا.

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »، ثم تلا: ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ (١). وهو من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء. وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عنه فى قوله: ﴿ **فيجعله كسفا** ﴾ قال: قطعا بعضها فوق بعض﴿ **فترى الودق** ﴾ قال: المطر﴿ **يخرج من خلاله** ﴾ قال: من بينه. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء** ﴾ فى دعاء النبى ﷺ لأهل بدر، والإسناد ضعيف. والمشهور فى الصحيحين وغيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة أن النبى ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص فقد قال النبى ﷺ لما قيل له: إنك تنادى أجسادا بالية: « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » (٢) وفى مسلم من حديث أنس؛ أن عمر بن الخطاب لما سمع النبى ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله، تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون ؟ يقول الله : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا » (٣) .

---

(١) أحمد ٦/ ٤٤٩ والترمذى فى البر والصلة (١٩٣١) وقال: « هذا حديث حسن » .

(٢) أحمد ٢/ ١٣١ والبخارى فى الجنائز (١٣٧٠) .

(٣) مسلم فى الجنة (٢٨٧٤/ ٧٧) .

تفسير سورة لقمان

آياتها أربع وثلاثون آية وهى مكية إلا ثلاث آيات، وهى قوله: ﴿**ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام**﴾ إلى تمام الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عنه: أنها مكية ولم يستثن، وحكى القرطبى عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين. وأخرج النسائى وابن ماجة عن البراء قال: كنا نصلى خلف النبى ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات [١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾** ﴾.

قوله : ﴿ **آلم . تلك آيات الكتاب** ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، وبيان مرجع الإشارة أيضا، و﴿ **الحكيم** ﴾ إما أن يكون بمعنى مفعل، أو بمعنى فاعل، أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله، و﴿ **هدى ورحمة** ﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى: تلك آيات الكتاب فى حال الهداية والرحمة، وقرأ حمزة: « ورحمة » بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف، أى هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكونا خبر تلك. والمحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان : فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [٢] ، ثم بين عمل المحسنين فقال : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة**

(١) النسائى فى الكبرى فى صفة الصلاة (١/١٠٤٣) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٣٠) .

(٢) سبق تخريجه .

وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ والموصول فى محل جر على الوصف للمحسنين، أو فى محل رفع، أو نصب على المدح أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث ؛ لأنها عمدة العبادات﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة ، والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التى هى أمهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى الدارين .

﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ : محل ﴿ **ومن الناس** ﴾ الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه فى سورة البقرة، وخبره ﴿ **من يشترى لهو الحديث** ﴾ و« من » إما موصولة أو موصوفة، و ﴿ **لهو الحديث** ﴾ : كل ما يلهى عن الخير من الغناء والملاهى والأحاديث المكذوبة وكل ماهو منكر، والإضافة بيانية. وقيل : المراد : شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: ومن يشترى أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث: المعازف والغناء. وروى عنه أنه قال: هو الكفر والشرك. قال القرطبى: إن أولى ما قيل فى هذا الباب هو: تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة والتابعين [١]، واللام فى﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ للتعليل. قرأ الجمهور بضم الياء من﴿ **ليضل** ﴾ أى ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق، وإذا أضل غيره فقد ضل فى نفسه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وحميد وورش وابن أبى إسحاق بفتح الياء. أى ليضل هو فى نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه: ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشترى الضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيد هذا سبب نزول الآية وسيأتى.

قال الطبرى : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبد الله العنبرى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته إذ ليس شىء منها عليه حرام لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها ؟ قلت : قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم فى الغناء وما استدل به المحللون له والمحرمون له، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها وتدبر معانيها إلى النظر فى غيرها، وسميتها [إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغى فليرجع إليها .

ومحل قوله :﴿ **بغير علم** ﴾ النصب على الحال، أى حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض﴿**ويتخذها هزوا** ﴾ قرأ الجمهور برفع :« يتخذها » عطفًا على ﴿ **يشترى** ﴾ فهو من جملة الصلة . وقيل : الرفع على الاستئناف والضمير المنصوب فى ﴿ **يتخذها** ﴾ يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول

---

(١) القرطبى ٧ / ٥١٣٣ .

أولى. وقرأ حمزة والكسائى والأعمش: ﴿**ويتخذها**﴾ بالنصب عطفا على﴿ **يضل** ﴾ ، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل ، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم ، والمعنى: أنه يشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ السبيل هزواً، أى مهزوءا به، والسبيل يذكر ويؤنث ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها ، والعذاب المهين : هو الشديد الذى يصير به من وقع عليه مهينا .

﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا** ﴾ أى وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ ﴿ **ولى مستكبرا** ﴾ أى أعرض عنها حال كونه مبالغا فى التكبر، وجملة: ﴿ **كأن لم يسمعها** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، وجملة: ﴿ **كأن فى أذنيه وقرا** ﴾ حال ثانية، أو بدل من التى قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أن تكون مستأنفة. والوقر: الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة فى إعراض ذلك المعرض﴿ **فبشره بعذاب أليم** ﴾ أى أخبره بأن له العذاب البليغ فى الألم. ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أى آمنوا بالله وبآياته ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها ﴿ **لهم جنات النعيم** ﴾ أى نعيم الجنات فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال. وقرأ زيد بن على: « خالدون فيها » على أنه خبر ثان لأن﴿ **وعد الله حقا** ﴾ هما مصدران الأول مؤكد لنفسه، أى وعد الله وعدا. والثانى مؤكد لغيره ، وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره :حق ذلك حقا . والمعنى : أن وعده كائن لا محالة ولا خلف فيه ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذى لايغلبه غالب ﴿ **الحكيم** ﴾ فى كل أفعاله وأقواله .

ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها** ﴾ العمد :جمع عماد، وقد تقدم الكلام فيه فى سورة الرعد. و ﴿ **ترونها** ﴾ فى محل جر صفة لـ ﴿ **عمد** ﴾ فيمكن أن تكون ثم عمد، ولكن لا ترى . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال ، أى ولا عمد ألبتة. قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا، أى ولا عمد ثم ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت ﴿ **أن تميد بكم** ﴾ فى محل نصب على العلة، أى كراهة أن تميد بكم . والكوفيون يقدرونه : لئلا تميد ، والمعنى : أنها خلقها وجعلها مستقرة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها ﴿ **وبث فيها من كل دابة**﴾ أى من كل نوع من أنواع الدواب، وقد تقدم بيان معنى البث ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم** ﴾ أى أنزلنا من السماء مطرا فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كل زوج، أى من كل صنف ، ووصفه بكونه كريما ؛ لحسن لونه وكثرة منافعه. وقيل : إن المراد بذلك : الناس. فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللئيم من يصير إلى النار. قاله الشعبى وغيره،

والأول أولى . والإشارة بقوله :﴿ **هذا** ﴾ إلى ما ذكر فى خلق السموات والأرض ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **خلق الله**﴾ أى مخلوقه ﴿ **فأرونى ماذا خلق الذين من دونه** ﴾ من آلهتكم التى تعبدونها، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فأرونى أى شىء خلقوا مما يحاكى خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت. ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر فقال:﴿ **بل الظالمون فى ضلال** ﴾ فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدى إلى الحق.

وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ يعنى : باطل الحديث. وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وصنيعهم فى دهرهم. وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويكذب بالقرآن (١) . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه فى الآية قال: باطل الحديث : وهو الغناء ونحوه ﴿**ليضل عن سبيل الله** ﴾ قال : قراءة القرآن وذكر الله، نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج البخارى فى الأدب المفرد، وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال : هو الغناء وأشباهه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : الجوارى الضاريات. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عن أبى الصهباء قال : سألت عبد الله بن مسعود عن قوله :﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ قال : هو والله الغناء . ولفظ ابن جرير: هو الغناء والله الذى لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذى وابن ماجة وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال:« لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام » فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿**ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ الآية (٢) ، وفى إسناده عبيد بن زحر عن على بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن وفيهم ضعف .

وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، وابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها» ، ثم قرأ: ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ . وأخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقى فى السنن عن ابن مسعود قال:

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٨٣٠) وإسناده ضعيف جدا . محمد بن مروان السدى ضعيف وأبو صالح باذام ضعيف مدلس .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٤ والترمذى فى التفسير (٣١٩٥) وقال : « هذا حديث غريب يروى من حديث القاسم عن أبى أمامة ، والقاسم ثقة ، وعلى بن زيد يضعف فى الحديث » وابن ماجة فى التجارات (٢١٦٨) وابن جرير ٢١/ ٣٩ والطبرانى (٧٧٤٩) وفيه سويد بن عبد العزيز قال الحافظ فى تقريب التهذيب (٩٩ ٥) : « لين الحديث » . والبيهقى ٦/ ١٤ .

قال رسول الله ﷺ :« الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل » (١) ورويناه عنه موقوفا. وأخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن أبى أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال:« ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك»(٢) . وفى الباب أحاديث فى كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث﴾ قال : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهارا. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فى قوله: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ :« إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل » . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر فى طريق، فسمع زمارة فوضع أصبعيه فى أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع ، أتسمع ؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أذنيه . وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع (٣). وأخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ قال:« إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن

---

(١) البيهقى فى السنن ١٠/ ٢٢٣ وفى الشعب (٤٧٤٦) وفيه محمد بن صالح . قال ابن حبان : « يخطئ ، وعبد الله بن عبد العزيز ضعيف ، وإبراهيم بن طهمان تكلم فيه » .

(٢) أخرجه الطبرانى (٧٨٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٢٢ ، ١٢٣ : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وضعفوا » .

(٣) البيهقى فى السنن ١٠/ ٢٢٢ وفى الشعب (٤٧٦٠) وأبو داود فى الأدب (٤٩٢٤) وفى إسناده من لا يعرف.

صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

اختلف فى لقمان هل هو عجمى أم عربى ؟ مشتق من اللقم . فمن قال: إنه عجمى، منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربى، منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون. واختلفوا أيضا هو نبى أم رجل صالح ؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبى . وحكى الواحدى عن عكرمة والسدى والشعبى أنه كان نبيا، والأول أرجح لما سيأتى فى آخر البحث. وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط . مع أن الراوى لذلك عنه جابر الجعفى وهو ضعيف جدا. وهو لقمان ابن باعورا بن ناحور بن تارخ ، وهو آزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن مرون، وكان نوبيا من أهل أيلة ذكره السهيلى . قال وهب : هو ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو ابن خالته، عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم، وكان يفتى قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفى إذ كفيت؟ قال الواقدى: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، والحكمة التى آتاه الله هى : الفقه والعقل والإصابة فى القول ، وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة ﴿ **أن اشكر لى** ﴾ :« أن » هى المفسرة؛ لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول. وقيل: التقدير: قلنا له: أن اشكر لى . وقال الزجاج: المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن اشكر لى. وقيل : بأن اشكر لى فشكر فكان حكيما بشكره. والشكر لله الثناء عليه فى مقابلة النعمة وطاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال :﴿ **ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه**﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه وفائدته حاصلة له؛ إذ به تستبقى النعمة وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى حميد**﴾ أى من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غنى عن شكره غير محتاج إليه، حميد مستحق للحمد من خلقه؛ لإنعامه عليهم بنعمه التى لايحاط بقدرها ولا يحصر عددها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال . قال يحيى بن سلام : غنى عن خلقه حميد فى فعله .

﴿ **وإذ قال لقمان لابنه**﴾ قال السهيلى : اسم ابنه ثاران فى قول ابن جرير والقتيبى. وقال الكلبى : مشكم. وقال النقاش: أنعم. وقيل: ماتان. قال القشيرى: كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدم، والتقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه، وحين جعلناه واعظا لغيره. قال الزجاج: « إذ » فى موضع نصب بـ﴿ **آتينا** ﴾ . والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: وأحسبه غلطا لأن فى الكلام واوا وهى تمنع من ذلك، ومعنى﴿ **وهو يعظه** ﴾ : يخاطبه بالمواعظ التى ترغبه فى التوحيد وتصده عن الشرك﴿ **يا بنى لا تشرك بالله** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الياء. وقرأ ابن كثير بإسكانها. وقرأ حفص بفتحها، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافرا كما تقدم، وجملة: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ تعليل لما قبلها، وبدأ فى وعظه بنهيه عن الشرك لأنه أهم من غيره. وقد اختلف فى هذه الجملة، فقيل: هى من كلام لقمان. وقيل : هى من كلام الله ، فتكون منقطعة عما قبلها ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الحديث الصحيح أنها لما نزلت : ﴿ ولم

يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : ٨٢] شق ذلك على الصحابة ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه. فأنزل الله : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ (١) فطابت أنفسهم .

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه** ﴾ هذه التوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله: ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهى عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هى قوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ وما بينهما اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، وفى جعل الشكر لهما مقترنا بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها وأشدها وجوبا، ومعنى: ﴿ **حملته أمه وهنا على وهن** ﴾ أنها حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل . وانتصاب ﴿**وهنا** ﴾ على المصدر. وقال النحاس : على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف، أى حملته بضعف على ضعف ، وقال الزجاج : المعنى : لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرة بعد مرة . وقيل : انتصابه على الحال من أمه ، و﴿ **على وهن** ﴾ صفة لـ﴿ **وهنا** ﴾ أى: وهنا كائنا على وهن . قرأ الجمهور بسكون الهاء فى الموضعين . وقرأ عيسى الثقفى وهى رواية عن أبى عمرو بفتحهما وهما لغتان . قال قعنب:

هل للعواذل من ناه فيزجرها إن العواذل فيها الأين والوهن

﴿ **وفصاله فى عامين** ﴾ الفصال : الفطام ، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وهو مبتدأ وخبره الظرف. وقرأ الجحدرى وقتادة وأبو رجاء والحسن ويعقوب :« وفصله » وهما لغتان، يقال : انفصل عن كذا ، أى تميز، وبه سمى الفصيل. وقد قدمنا أن أمه فى قوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ هى المفسرة . وقال الزجاج : هى مصدرية. والمعنى : بأن اشكر لى . قال النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة ، وجملة :﴿ **إلى المصير** ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر، أى الرجوع إلىّ لا إلى غيرى .

﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم** ﴾ أى ما لا علم لك بشركته﴿ **فلا تطعهما** ﴾ فى ذلك. وقد قدمنا تفسير الآية وسبب نزولها فى سورة العنكبوت ، وانتصاب ﴿**معروفا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى وصاحبهما صحابا معروفا . وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : بمعروف ﴿ **واتبع سبيل من أناب إلى** ﴾ أى اتبع سبيل من رجع إلى من عبادى الصالحين بالتوبة والإخلاص﴿ **ثم إلى مرجعكم** ﴾ جميعا لا إلى غيرى ﴿**فأنبئكم** ﴾ أى أخبركم عند رجوعكم ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ من خير وشر فأجازى كل عامل بعمله. وقد قيل : إن هذا السياق من قوله : ﴿ **ووصينا الإنسان** ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضا وفيه بعد .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٢٤ / ١٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٨٦) كلهم عن ابن مسعود .

ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان فى وعظه لابنه فقال :﴿ **يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل** ﴾ الضمير فى ﴿ **إنها** ﴾ عائد إلى الخطيئة ، لما روى أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لايرانى أحد هل يعلمها الله ؟ فقال: إنها، أى الخطيئة، والجملة الشرطية مفسرة للضمير ، أى إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير: إن التى سألتنى عنها إن تك مثقال حبة من خردل، وعبر بالخردلة؛ لأنها أصغر الحبوب ولا يدرك بالحس ثقلها ولا ترجح ميزانا. وقيل: إن الضمير فى:﴿ **إنها** ﴾ راجع إلى الخصلة من الإساءة والإحسان، أى إن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك مثقال حبة إلخ، ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال :﴿ **فتكن فى صخرة** ﴾ فإن كونها فى الصخرة قد صارت فى أخفى مكان وأحرزه ﴿ **أو فى السموات أو فى الأرض** ﴾ أى أو حيث كانت من بقاع السموات أو من بقاع الأرض﴿ **يأت بها الله** ﴾ أى يحضرها ويحاسب فاعلها عليها﴿ **إن الله لطيف**﴾ لا تخفى عليه خافية ، بل يصل علمه إلى كل خفى ﴿**خبير**﴾ بكل شىء لا يغيب عنه شىء. قرأ الجمهور: ﴿ **إن تك** ﴾ بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة أو المسألة أو الخصلة أوالقصة . وقرؤوا :﴿ **مثقال** ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها هو أحد تلك المقدرات . وقرأ نافع برفع : « مثقال » على أنه اسم كان وهى تامة . وأنث الفعل فى هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث . وقرأ الجمهور : ﴿ **فتكن** ﴾ بضم الكاف ، وقرأ الجحدرى بكسرها وتشديد النون . من الكن الذى هو الشىء المغطى . قال السدى: هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات ولا فى الأرض .

ثم حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة. ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات وعماد الخيركله، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى الطاعات المذكورة ، وخبر« إن » قوله : ﴿ **من عزم الأمور** ﴾ أى مما جعله اللّه عزيمة وأوجبه على عباده. وقيل: المعنى: من حق الأمور التى أمر الله بها . والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم ، أى من معزومات الأمور أو بمعنى العازم كقوله : ﴿فإذا عزم الأمر﴾ [محمد: ٢١] قال المبرد: إن العين تبدل حاء . فيقال: عزم وحزم. قال ابن جرير: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، وصوب هذا القرطبى . ﴿ **ولا تصاعرخدك للناس** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **تصعر**﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم :« تصاعر » والمعنى متقارب . والصعر: الميل ، يقال : صعر خده وصاعر خده: إذا أمال وجهه ، وأعرض تكبرا. والمعنى : لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم ، ومنه قول الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ورواه ابن جرير هكذا:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما

قال الهروى: ﴿ **ولا تصاعر خدك للناس** ﴾ أى لا تعرض عنهم تكبرا، يقال: أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوى عنقه. وقيل : المعنى : ولا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره. وقال ابن خويز منداد: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، ولعله فهم من التصعير التذلل﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ أى خيلاء وفرحا، والمعنى: النهى عن التكبر والتجبر، والمختال يمرح فى مشيه، وهو مصدر فى موضع الحال، وقد تقدم تحقيقه، وجملة: ﴿**إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ تعليل للنهى لأن الاختيال هو المرح ، والفخور هو الذى يفتخر على الناس بِمَا لَهُ من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك ، وليس منه التحدث بنعم الله، فإن الله يقول :﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [الضحى: ١١] .

﴿**واقصد فى مشيك**﴾ أى توسط فيه، والقصد : ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان فى مشيته: إذا مشى مستويا لا يدب دبيب المتماوتين ، ولا يثب وثوب الشياطين . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع (١) ، فلابد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد فى السرعة. وقال مقاتل: معناه : لا تختل فى مشيتك . وقال عطاء : امش بالوقار والسكينة . كقوله :﴿ يمشون على الأرض هونا ﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿ **واغضض من صوتك** ﴾ أى انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذى السامع، وجملة: ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ تعليل للأمر بالغض من الصوت، أى أوحشها وأقبحها. قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير؛ أوله زفير وآخره شهيق . قال المبرد: تأويله: إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل فى باب الصوت المنكر. واللام فى﴿ **لصوت** ﴾ للتأكيد، ووحد الصوت مع كونه مضافا إلى الجمع لأنه مصدر، وهو يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشياً ». وأخرج ابن أبى شيبة، وأحمد فى الزهد، وابن أبى الدنيا فى كتاب المملوكين، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدا حبشيا نجارا. وأخرج الطبرانى، وابن حبان فى الضعفاء، وابن عساكر عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، وبلال المؤذن » (٢). قال الطبرانى: أراد الحبشة. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة**﴾ يعنى: العقل والفهم والفطنة فى غير نبوة. وأخرج ابن جرير

---

(١) أحمد ٢/ ٣٥٠ والترمذى فى المناقب (٣٦٤٨) وقال: « هذا حديث غريب» . كلاهما عن أبى هريرة وأحمد ١/ ٩٦ والترمذى فى المناقب (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » كلاهما عن علىٍّ .

(٢) الطبرانى (١١٤٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٣٩: « فيه أبين بن سفيان وهو ضعيف » وابن حبان فى المجروحين ١/ ١٨٠ وقال : « هذا حديث باطل » وابن عساكر ٣/ ٢٣٢ وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات ٢/ ٢٣٢ .

وابن أبى حاتم عن عكرمة؛ أنه كان نبيا، وقد قدمنا أن الراوى عنه جابر الجعفى، وهو ضعيف جدا. وأخرج أحمد والحكيم الترمذى، والحاكم فى الكنى، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئا حفظه» (١) . وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شىء ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشىء منها حتى نقبله. وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه فى هذا الوضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس فى ذكره إلا شغلة للحيز وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما روى عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التى هى ضالة المؤمن .

وأخرج أبو يعلى والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى؛ أن سعد بن أبى وقاص قال: أنزلت فى هذه الآية: ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى** ﴾ (٢) ، وقد تقدم ذكر هذا. وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى سعد بن أبى وقاص. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وهنا على وهن**﴾ قال: شدة بعد شدة وخلقا بعد خلق . وأخرج الطبرانى وابن عدى وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿ **ولا تصعر خدك للناس** ﴾ فقال: « لى الشدق » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تصعرخدك للناس** ﴾ قال: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم إذا كلموك. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الذى إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ

---

(١) أحمد ٢/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٣٠٧٣) وإسناده مقبول والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٣٥٢) .

(٢) أبو يعلى (٧٨٢) والطبرانى (٣٣١) وأخرجه أحمد ١/ ١٨٦ ومسلم فى فضائل الصحابة (١٧٤٨/ ٤٣) كلهم عن مصعب بن سعد ولم أجده عن أبى عثمان النهدى .

(٣) الطبرانى (٤٠٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١١٧: « فيه واصل بن السائب وهو متروك » . وكذلك فيه أبو سورة قال الحافظ فى تقريب التهذيب ٢/ ٤٣٢ (٩٩) : « ضعيف » .

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم فقال: ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ قال الزجاج : معنى تسخيرها للآدميين : الانتفاع بها انتهى ، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبنى آدم ، أى التى ينتفعون بها : الشمس القمر والنجوم ونحو ذلك . ومن جملة ذلك : الملائكة فإنهم حفظة لبنى آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبنى آدم : الأحجار والتراب والزرع والشجر والثمر والحيوانات التى ينتفعون بها والعشب الذى يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له، سواء كان منقادا له وداخلا تحت تصرفه أم لا ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ أى أتم وأكمل عليكم نعمه ، يقال : سبغت النعمة إذا تمت وكملت. قرأ الجمهور: ﴿ **أسبغ** ﴾ بالسين ، وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة : « أصبغ » بالصاد مكان السين. والنعم جمع نعمة على قراءة نافع وأبى عمرو وحفص ، وقرأ الباقون : « نعمة » بسكون العين على الإفراد والتنوين اسم جنس يراد به الجمع ويدل به على الكثرة ، كقوله: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهى قراءة ابن عباس . والمراد بالنعم الظاهرة : ما يدرك بالعقل أو الحس ويعرفه من يتعرفه ،وبالباطنة : ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم . وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل. وقيل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله عن البعد من الآفات. وقيل: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة : نعم الآخرة . وقيل : الظاهرة : الإسلام والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله** ﴾ أى فى شأن الله سبحانه فى توحيده وصفاته؛ مكابرة وعنادا بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه، ولهذا قال : ﴿ **بغير علم** ﴾ من عقل ولا نقل ﴿ **ولا هدى** ﴾ يهتدى به إلى طريق الصواب ﴿ **ولا كتاب منير** ﴾ أنزله الله سبحانه، بل مجرد تعنت ومحض عناد. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة .

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله** ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المجادلين . والجمع باعتبار معنى من ، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت . و ﴿ **قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام ، ونمشى فى الطريق التى كانوا

يمشون بها فى دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت ﴿ **أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير**﴾ أى يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم فى دينهم ، أى يتبعونهم فى الشرك ، ولوكان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير؛ لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم ، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب ، فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم ، وجواب لو محذوف ، أى يدعوهم فيتبعونهم ، ومحل الجملة النصب على الحال . وما أقبح التقليد ، وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عاقبته ، وأشأم عائدته على من وقع فيه. فإن الداعى له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق ، فتأبى ذلك وتتهافت فى نار الحريق وعذاب السعير.

﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله** ﴾ أى يفوض إليه أمره ، ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته﴿ **وهو محسن** ﴾ فى أعماله؛ لأن العبادة من غير إحسان لها ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها، لا تقع بالموقع الذى تقع به عبادة المحسنين . وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١). ﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ أى اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرى حبل متدل منه ﴿ **وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ أى مصيرها إليه لا إلى غيره. وقرأ على بن أبى طالب والسلمى وعبد الله بن مسلم بن يسار: « ومن يسلم » بالتشديد ، قال النحاس: والتخفيف فى هذا أعرف كما قال عز وجل:﴿ فقل أسلمت وجهى لله﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿ **ومن كفر فلا يحزنك كفره**﴾ أى لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضرك، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله:﴿ **إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا** ﴾ أى نخبرهم بقبائح أعمالهم ونجازيهم عليها ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أى بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسر عنده كالعلانية.

﴿ **نمتعهم قليلا** ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب ﴿ **قليلا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف، أى تمتيعا قليلا :﴿ **ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ** ﴾ أى نلجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ أى يعترفون بالله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال :﴿ **قل الحمد لله** ﴾ أى قل يا محمد : الحمد لله على اعترافكم ، فكيف تعبدون غيره وتجعلونه شريكا له ؟ أو المعنى : فقل : الحمد لله على ما هدانا له من دينه ولا حمد لغيره ، ثم أضرب عن ذلك فقال :﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى

---

(١) سبق تخريجه .

لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذى تجب له العبادة دون غيره . ﴿ **لله ما فى السموات والأرض** ﴾ ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة غيره ﴿ **إن الله هو الغنى** ﴾ عن غيره ﴿ **الحميد** ﴾ أى المستحق للحمد أو المحمود من عباده بلسان المقال أو بلسان الحال.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما فى السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد ولايحصر بحد فقال :﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام** ﴾ أى لو أن جميع ما فى الأرض من الشجر أقلام . ووحد الشجرة لما تقرر فى علم المعانى : أن استغراق المفرد أشمل ، فكأنه قال : كل شجرة شجرة حتى لايبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاما ، وجمع الأقلام لقصد التكثير، أى لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاما. قال أبوحيان : وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله :﴿ ما ننسخ من آية﴾ [البقرة : ١٠٦] ، ثم قال سبحانه:﴿ **والبحر يمده من بعده سبعة أبحر**﴾ أى يمده من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور:﴿ **والبحر** ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ ، و﴿ **يمده** ﴾ خبره ، والجملة فى محل الحال، أى والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مدا لا ينقطع ، كذا قال سيبويه . وقال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقدر تقديره : ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر. وقيل : هو مرتفع بالعطف على أن وما فى حيزها. وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق : « والبحر » بالنصب عطفا على اسم أن ، أو بفعل مضمر يفسره ﴿ **يمده** ﴾ . وقرأ ابن هرمز والحسن : « يمده » بضم حرف المضارعة وكسرالميم، من أمد . وقرأ جعفر بن محمد : « والبحر مداده» وجواب لو: ﴿ **ما نفدت كلمات الله** ﴾ أى كلماته التى هى عبارة عن معلوماته . قال أبو على الفارسى : المراد بالكلمات والله أعلم : ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود ، ووافقه القفال فقال : المعنى : أن الأشجار لوكانت أقلاما والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القشيرى: رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى . قال النحاس : قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما فى الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخلق . وقيل : إن قريشا قالت : ما أكثر كلام محمد ، فنزلت ، قاله السدى. وقيل : إنها لما نزلت: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء: ٨٥] فى اليهود ، قالوا : كيف وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، فنزلت . قال أبو عبيدة : المراد بالبحر هنا : الماء العذب الذى ينبت الأقلام، وأما الماء المالح فلا ينبت الأقلام . قلت : ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أى غالب لايعجزه شىء ، ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته. ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ أى إلا كخلق نفس واحدة وبعثها . قال النحاس : كذا قدره النحويون كخلق نفس مثل قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] قال

الزجاج : أى قدرة الله على بعث الخلق كلهم وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لكل ما يسمع ﴿ **بصير** ﴾ بكل ما يبصر .

وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **وأسبغ عليكم** ﴾ الآية ، قال : هذه من كنوز علمى ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « أما الظاهرة: فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة : فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم » [(١)] . وأخرج ابن مردويه، والبيهقى فى الشعب ، والديلمى وابن النجار عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ فقال: « أما الظاهرة : فالإسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة : فما ستر من مساوى عملك » [(٢)]. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: النعمة الظاهرة:الإسلام ، والنعمة الباطنة: كل ما يستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه قال فى تفسير الآية هى : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن إسحاق [(٣)] وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض** ﴾ الآية ؛ أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، أرأيت قولك ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٨٥] إيانا تريد أم قومك ؟ فقال: « كُلا » ، فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال : « إنها فى علم الله قليل » ، وأنزل الله : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض** ﴾ الآية [(٤)] . وأخرجه ابن مردويه عنه بأطول منه . وأخرج ابن مردويه أيضا عن ابن مسعود نحوه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤١٨٥) وإسناده ضعيف ، فيه محمد بن عبد الرحمن بن محمد قال الدارقطنى : «متروك هو وأبوه وجده » . لسان الميزان ٥/ ٢٥٥ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٤١٨٤) وإسناده ضعيف لضعف روح بن عبد الواحد . لسان الميزان ٢/ ٤٦٦ .

(٣) فى المطبوعة : « ابن أبى إسحاق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) ابن هشام ١/ ٣٣٦ وابن جرير ٢١/ ٥٢ وقال ابن كثير ٥/ ٣٩٥ : « وهذا يقتضى أن الآية مدنية والمشهور أنها مكية والله أعلم » .

وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ **ألم تر** ﴾ لكل أحد يصلح لذلك أو للرسول ﷺ ﴿ **أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الحج والأنعام ﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ أى ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وتتميما للمنافع ، والجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما ﴿ **كل يجرى إلى أجل مسمى** ﴾ اختلف فى الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل : هو يوم القيامة . وقيل : وقت الطلوع ووقت الأفول ، والأول أولى ، وجملة : ﴿ **وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ معطوفة على ﴿ **أن الله يولج** ﴾ أى خبير بما تعملونه من الأعمال ؛ لا تخفى عليه منها خافية ؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى . قرأ الجمهور: ﴿ **تعملون** ﴾ بالفوقية، وقرأ السلمى ونصر بن عامر والدورى عن أبى عمرو بالتحتية على الخبر . والإشارة بقوله: ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره ، والباء فى ﴿ **بأن الله** ﴾ للسببية ، أى ذلك بسبب أنه سبحانه ﴿**هو الحق** ﴾ وغيره الباطل ، أو متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿ **وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ قال مجاهد : الذى يدعون من دونه هو الشيطان . وقيل : ما أشركوا به من صنم أو غيره ، وهذا أولى ﴿ **وأن الله هو العلى الكبير** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **أن الله هو الحق** ﴾ والمعنى : أن ذلك الصنع البديع الذى وصفه فى الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله ، وبطلان ما سواه ، وعلوه وكبريائه ﴿ **هو العلى** ﴾ فى مكانته ، ذو الكبرياء فى ربوبيته وسلطانه .

ثم ذكر من عجيب صنعه وبديع قدرته نوعا آخر فقال : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله** ﴾ أى بلطفه بكم ورحمته لكم ، وذلك من أعظم نعمه عليكم : لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم فى البحر لطلب الرزق ، وقرأ ابن هرمز : « بنعمات الله » جمع نعمة ﴿**ليريكم من آياته** ﴾ « من » للتبعيض ، أى ليريكم بعض آياته. قال يحيى بن سلام : وهو جرى السفن فى البحر بالريح . وقال ابن شجرة : المراد بقوله : ﴿ **من آياته** ﴾ : ما يشاهدونه من قدرة الله . وقال النقاش : ما يرزقهم الله فى البحر ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ وشكر كثير ، يصبر عن معاصى الله ويشكر نعمه .

﴿ **وإذا غشيهم موج كالظلل** ﴾ شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما ، وإنما شبه الموج وهو واحد بالظلل ، وهى جمع ، لأن الموت يأتى شيئا بعد شىء ويركب بعضه بعضا . وقيل : إن الموج فى معنى الجمع لأنه مصدر ، وأصل الموج : الحركة

والازدحام ، ومنه يقال : ماج البحر وماج الناس . وقرأ محمد بن الحنفية : « موج كالظلال » جمع ظل :﴿ **دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أى دعوا الله وحده لا يعولون على غيره فى خلاصهم ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضر ولا ينفع سواه ، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا فى مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله ، وأخلصوا دينهم له ؛ طلبا للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ﴿ **فلما نجاهم إلى البر** ﴾ صاروا على قسمين : فقسم ﴿**مقتصد** ﴾ أى موف بما عاهد عليه الله فى البحر من إخلاص الدين له ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه إلى البر سالما . قال الحسن : معنى : ﴿ **مقتصد** ﴾ مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : مقتصد فى القول مضمر للكفر ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون فى الكلام حذف ، والتقدير : فمنهم مقتصد ومنهم كافر ، ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾ الختر : أسوأ الغدر وأقبحه ، ومنه قول الأعشى :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله　　　حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهرى : الختر : الغدر ، يقال : ختره فهو ختار . قال الماوردى : وهذا قول الجمهور . وقال ابن عطية : إنه الجاحد ، وجحد الآيات : إنكارها ، والكفور : عظيم الكفر بنعم الله سبحانه . ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده** ﴾ أى لا يغنى الوالد عن ولده شيئا ، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه . وقد تقدم بيان معناه فى البقرة ﴿ **ولا مولود هو جاز عن والده شيئا** ﴾ ذكر سبحانه فردين من القرابات وهو الوالد والولد ، وهما الغاية فى الحنو والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزى بالأولى ، فكيف بالأجانب ؟ اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك ولا يعول على غيرك ﴿**إن وعد الله حق** ﴾ لا يتخلف فما وعد به من الخير وأوعد به من الشر فهو كائن لا محالة ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** ﴾ وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**الغرور** ﴾ بفتح الغين المعجمة . والغرور هو : الشيطان ؛ لأن من شأنه أن يغر الخلق ويمنيهم بالأمانى الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ، ويصدهم عن طريق الحق . وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السميفع بضم الغين مصدر غر يغر غرورا ، ويجوز أن يكون مصدرا واقعا وصفا للشيطان على المبالغة .

﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ أى علم وقتها الذى تقوم فيه . قال الفراء : إن معنى هذا الكلام النفى ، أى ما يعلمه أحد إلا الله عز وجل . قال النحاس : وإنما صار فيه معنى النفى لما ورد عن النبى ﷺ أنه قال فى قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ [الأنعام : ٥٩]:« إنها هذه » (١) ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ فى الأوقات التى جعلها معينة لإنزاله ولا يعلم ذلك

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٢٧) والنسائى فى الكبرى فى النعوت (٧٧٢٨/ ١) كلاهما عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « مفاتح الغيب خمس : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ » الآية .

غيره ﴿ **ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ من الذكور والإناث والصلاح والفساد ﴿ **وما تدرى نفس** ﴾ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجن والإنس ﴿ **ماذا تكسب غدا** ﴾ من كسب دين أو كسب دنيا ﴿ **وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ أى بأى مكان يقضى الله عليها بالموت . قرأ الجمهور : ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ مشددا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى مخففا . وقرأ الجمهور :﴿ **بأى أرض** ﴾ وقرأ أبى بن كعب وموسى الأهوازى: « بأية» وجوز ذلك الفراء وهى لغة ضعيفة . قال الأخفش: يجوز أن يقال : مررت بجارية أى جارية. قال الزجاج : من ادعى أنه يعلم شيئا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **ختّار** ﴾ قال :جحاد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ قال : هو الشيطان . وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت، فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه وزاد : وقد علمت ما كسبت اليوم، فماذا أكسب غدا ؟ وزاد أيضا أنه سأله عن قيام الساعة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما فى الأرحام إلا الله ، ولا متى ينزل الغيث إلا الله ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله » (٢) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة فى حديث سؤاله عن الساعة وجوابه بأشراطها ، ثم قال : « فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا هذه الآية » وفى الباب أحاديث .

---

(١) ابن جرير٢١/ ٥٥ .

(٢) أحمد ٢/ ٥٢ والبخارى فى التفسير (٤٦٩٧) .

تفسير سورة السجدة

هي ثلاثون آية . وهي مكية ، كما رواه ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس . ورواه ابن مردويه عن ابن الزبير . وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال : هي مكية سوى ثلاث آيات : ﴿ **أفمن كان مؤمنا** ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث ، وكذا قال الكلبي ومقاتل ، وقيل : إلا خمس آيات من قوله : ﴿ **تتجافى جنوبهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **الذى كنتم به تكذبون** ﴾ . وقد ثبت عند مسلم وأهل السنن من حديث أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بـ ﴿ **الٓمٓ . تنزيل** ﴾ السجدة ، و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الإنسان:١] . وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه أيضا [(١)] . وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وأحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي والنسائي ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن جابر قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ : ﴿ **الٓمٓ . تنزيل** ﴾ السجدة و ﴿تبارك الذى بيده الملك ﴾ [الملك : ١] [(٢)] . وأخرج أبو نصر والطبراني ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « من صلى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرة قرأ في الركعتين الأوليين ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١] و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص:١] وفي الركعتين الأخريين : ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ و﴿ **الٓمٓ . تنزيل** ﴾ السجدة كتبن له كأربع ركعات من ليلة القدر » [(٣)]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ و﴿ **الٓمٓ . تنزيل**﴾ السجدة بين المغرب والعشاء فكأنما قام ليلة القدر ».وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ﴿ **آلم . تنزيل** ﴾ السجدة و﴿ يس﴾ [يس: ١] و﴿ اقتربت الساعة﴾ [القمر:١] و﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ كن له نورا وحرزا من الشيطان ، ورفع في الدرجات إلى يوم القيامة ».وأخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع ، أن النبي ﷺ قال: «﴿ **الٓمٓ . تنزيل**﴾ تجيء لها جناحات يوم القيامة تظل صاحبها وتقول : لا سبيل عليه ، لا سبيل عليه » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ

(١) البخاري في الصلاة (٨٩١) ومسلم في الجمعة (٨٨٠/ ٦٥) والنسائي في الكبرى في افتتاح الصلاة (١٠٢٧/١) وابن ماجة في إقامة الصلاة (٨٢٣) والدارمي ١/ ٣٦٢ .

(٢) أحمد ٣/ ٣٤٠ والدارمي ٢/ ٤٥٥ والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٢) وقال : « هذا حديث رواه غير واحد عن ليث بن أبي سليم » والنسائي في الكبرى في اليوم والليلة (١٠٥٤٣) وصححه الحاكم ٢/ ٤١٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٣) الطبراني (١٢٢٤٠) وقال الهيثمي في المجمع ٢ / ٢٣٤ : « وفيه يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعفه أحمد وابن المديني وابن معين وقال البخاري : مقارب الحديث . وثقه مروان بن معاوية ، وقال أبو حاتم : محله الصدق وكانت فيه غفلة » والبيهقي ٢ / ٤٧٧ وإسناده ضعيف .

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة وعلى محلها من الإعراب فى سورة البقرة وفى مواضع كثيرة من فواتح السور ، وارتفاع ﴿ **تنزيل** ﴾ على أنه خبر لمتبدأ محذوف أو خبر بعد خبر على تقدير أن ﴿ الٓمٓ ﴾ فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو خبر لقوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ على تقدير أنه اسم للسورة ، و﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون ارتفاع ﴿ **تنزيل** ﴾ على أنه مبتدأ وخبره لا ريب فيه، و﴿ **من رب العالمين** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون هذه كلها أخبارا للمبتدأ المقدر قبل ﴿**تنزيل**﴾ ، أو لقوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسرودة على نمط التعديد . قال مكى : وأحسن الوجوه : أن تكون ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فى موضع الحال ، و﴿ **من رب العالمين** ﴾ الخبر ، والمعنى على هذه الوجوه : أن تنزيل الكتاب المتلو لا ريب فيه ولا شك وأنه منزل من رب العالمين ، وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .

و« أم » فى : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أيقولون هو مفترى ؟ فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ ، ومعنى ﴿ **افتراه** ﴾ : افتعله واختلقه . ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق فى شأن الكتاب فقال : ﴿ **بل هو الحق من ربك** ﴾ فكذبهم سبحانه فى دعوى الافتراء ، ثم بين العلة التى كان التنزيل لأجلها فقال : ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك** ﴾ وهم العرب وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول. وقيل : قريش خاصة ، والمفعول الثانى ﴿ **لتنذر** ﴾ محذوف، أى لتنذر قوما العقاب ، وجملة : ﴿ **ما أتاهم من نذير** ﴾ فى محل نصب على الحال و﴿ **من قبلك** ﴾ صفة لنذير . وجوز أبو حيان أن تكون ما موصولة ، والتقدير : لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم من نذير من قبلك ، وهو ضعيف جدا ، فإن المراد : تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله ، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به . وقيل : المراد بالقوم : أهل

الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ﴿ **لعلهم يهتدون** ﴾ رجاء أن يهتدوا ، أو كى يهتدوا .

﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ **قد تقدم تفسير** هذه الآية فى سورة الأعراف ، والمراد من ذكرها هنا :تعريفهم كمال قدرته وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى خلق :أوجد وأبدع . قال الحسن : الأيام هنا هى من أيام الدنيا . وقيل : مقدار اليوم ألف سنة من سنى الدنيا ، قاله الضحاك . فعلى هذا المراد بالأيام هنا : هى من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا ، وليست ثم للترتيب فى قوله : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ وقد تقدم تفسير هذا مستوفى ﴿ **مالكم من دونه من ولى ولا شفيع** ﴾ أى ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه من ولى يواليكم ويرد عنكم عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده ﴿**أفلا تتذكرون** ﴾ تذكر تدبر وتفكر وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم ويعقل حتى تنتفعوا بها .

﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض** ﴾ لما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما، بين تدبيره لأمرهما ، أى يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض ، والمعنى : ينزل أمره من أعلا السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ،كما قال سبحانه :﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾ [الطلاق : ١٢] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التى تحتها نزولا وطلوعا ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : المراد بالأمور: المأموربه من الأعمال ، أى ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض . وقيل : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض. وقيل :ينزل الوحى مع جبريل. وقيل : العرش موضع التدبيركما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما فى قوله : ﴿ ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات ﴾ [الرعد : ٢] وما دون السموات موضع التصرف. قال الله : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ [الفرقان : ٥٠] .

ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال : ﴿ **ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ أى ثم يرجع ذلك الأمر ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه فى يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قدمنا . وقيل : إن المراد أنه يعرج إليه فى يوم القيامة الذى مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها . وقيل : هى أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة ، والمعنى : أنه يثبت ذلك عنده ، ويكتب فى صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض فى كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها . وقيل : معنى يعرج إليه : يثبت فى علمه موجودا بالفعل فى برهة من الزمان هى مقدار ألف سنة ، والمراد : طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان . وقيل : يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ فتنزل بها الملائكة ، ثم تعرج إليه فى زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : يقضى قضاء ألف سنة فتنزل به الملائكة ، ثم تعرج بعد الألف لألف آخر . وقيل : المراد : أن

الأعمال التى هى طاعات يدبرها الله سبحانه وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليه منها إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلة المخلصين من عباده . وقيل : الضمير فى : ﴿ **يعرج** ﴾ يعود إلى الملك ، وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق ، وقد جاء صريحا فى قوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ [المعارج:٤] والضمير فى إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذى يرجع إليه وهو الذى أقره الله فيه .وقيل : المعنى : يدبر أمر الشمس فى طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة. وقيل : المعنى: إن الملك يعرج إلى الله فى يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام ، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام ، وقد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير . وقيل : مسافة النزول ألف سنة ومسافة الطلوع ألف سنة ، روى ذلك عن الضحاك . وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة ، وليس المراد به مسمى اليوم الذى هو مدة النهار بين ليلتين ، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر :

يومان : يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأديب

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين . وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم . قرأ الجمهور : ﴿ **يعرج** ﴾ على البناء للفاعل . وقرأ ابن أبى عبلة على البناء للمفعول ، والأصل : يعرج به ثم حذف حرف الجار فاستتر الضمير . وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : ٤] فقيل فى الجواب : إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة ، والعرب تصف كثيرا يوم المكروه بالطول ، كما تصف يوم السرور بالقصر ، كما قال الشاعر :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

وقول الآخر :

ويوم كإبهام القطاة قطعته

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنها ما مقداره ألف سنة ، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل: هى أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ، ثم ينقل إلى نوع آخر ، فيعذب به خمسين ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا كل موقف ألف سنة ، فيكون معنى ﴿ **يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ : أنه يعرج إليه فى وقت من تلك الأوقات أو موقف من تلك المواقف . وحكى الثعلبى عن مجاهد وقتادة والضحاك أنه أراد سبحانه فى قوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التى هى مقام جبريل ، والمراد : أنه يسير جبريل ومن معه من

الملائكة فى ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة فى مقدار يوم واحد من أيام الدنيا ، وأراد بقوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ المسافة التى بين الأرض وبين سماء الدنيا هبوطا وصعودا فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ؛ وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة ، فقوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ يعنى يدبر الأمر فى زمان يوم منه ألف سنة . فكم يكون الشهر منه ؟ وكم تكون السنة منه ؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة وبين خمسين ألف سنة . وقيل غير ذلك . وقد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتى فى آخر البحث إن شاء الله. قرأ الجمهور : ﴿ **مما تعدون** ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن والسلمى وابن وثاب والأعمش بالتحتية على الغيبة .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم . وفى هذا معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر ، فهو مجاز لكل عامل بعمله . أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿ **العزيز** ﴾ القاهر الغالب ﴿ **الرحيم** ﴾ بعباده ، وهذه أخبار لذلك المبتدأ ، وكذلك قوله :﴿ **الذى أحسن كل شيء خلقه** ﴾ هوخبر آخر . قرأ الجمهور : ﴿**خلقه** ﴾ بفتح اللام . وقرا ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بإسكانها ، فعلى القراءة الأولى هو فعل ماض نعتا لشىء ، فهو فى محل جر . وقد اختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم ، ويجوز أن تكون صفة للمضاف فيكون فى محل نصب . وأما على القراءة الثانية ففى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلا من كل شىء بدل اشتمال والضمير عائد إلى كل شىء ، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة. الثانى: أنه بدل كل من كل ، والضمير راجع إلى الله سبحانه ، ومعنى ﴿ **أحسن** ﴾ : حسن ، لأنه ما من شىء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة. الثالث : أن يكون ﴿ **كل شيء** ﴾ هو المفعول الأول ، و﴿ **خلقه** ﴾ هو المفعول الثانى على تضمين أحسن معنى : أعطى ، والمعنى : أعطى كل شىء خلقه الذى خصه به . وقيل : على تضمينه معنى: ألهم . قال الفراء : ألهم خلقه كل شىء مما يحتاجون إليه . الرابع : أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة، أى خلقه خلقا كقوله :﴿ صنع الله ﴾ [النمل : ٨٨] وهذا قول سيبويه . والضمير يعود إلى الله سبحانه . والخامس : أنه منصوب بنزع الخافض ، والمعنى : أحسن كل شىء فى خلقه ، ومعنى الآية : أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته ، فبعض المخلوقات وإن لم تكن حسنة فى نفسها ، فهى متقنة محكمة ، فتكون هذه الآية معناها معنى ﴿ أعطى كل شيء خلقه ﴾ [طه : ٥٠] أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق [١] البهيمة على خلق الإنسان . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ، أى أحسن خلق كل شىء حسن .

---

(١) فى المطبوعة : « وخلق لا البهيمة » ولعله سبق قلم ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ يعنى : آدم :خلقه من طين فصار على صورة بديعة وشكل حسن ﴿ **وجعل نسله** ﴾ أى ذريته ﴿ **من سلالة** ﴾ سميت الذرية سلالة لأنها تسل من الأصل وتنفصل عنه ، وقد تقدم تفسيرها فى سورة « المؤمنون» ؛ ومعنى ﴿ **من ماء مهين** ﴾: من ماء ممتهن لا خطر له عند الناس وهو المنى . وقال الزجاج: من ماء ضعيف . ﴿ **ثم سواه** ﴾ أى الإنسان الذى بدأ خلقه من طين ، وهو آدم ، أو جميع النوع . والمراد : أنه عدل خلقه وسوى شكله وناسب بين أعضائه ﴿ **ونفخ فيه من روحه** ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، وهذه الإضافة تقوى أن الكلام فى آدم لا فى ذريته وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع . ثم خاطب جميع النوع فقال: ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ أى خلق لكم هذه الأشياء تكميلا لنعمته عليكم وتتميما لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم ، فتسمعون كل مسموع وتبصرون كل مبصر ، وتتعقلون كل متعقل ، وتفهمون كل ما يفهم . وأفرد السمع لكونه مصدرا يشمل القليل والكثير ، وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم ولهذا جمعا ؛ لأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد ، وهو الأذن ولا اختيار لها فيه ، فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على رده ، ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض ؛ بخلاف الأبصار فمحلها العين وله فيه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب المرئى دون غيره ، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشىء ؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار فى إدراكه ، فيتعقل هذا دون هذا ، ويفهم هذا دون هذا . قرأ الجمهور : ﴿**وبدأ**﴾ بالهمز ، والزهرى بألف خالصة بدون همز ، وانتصاب ﴿ **قليلا ما تشكرون** ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف ، أى شكرا قليلا ، أو صفة زمان محذوف ، أى زمانا قليلا . وفى هذا بيان لكفرهم لنعم الله وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال .

﴿ **وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض** ﴾ قد تقدم اختلاف القراء فى هذه الهمزة وفى الهمزة التى بعدها . والضلال : الغيبوبة ، يقال : ضل الميت فى التراب : إذا غاب وبطل ، والعرب تقول للشىء إذا غلب عليه غيره حتى خفى أثره : قد ضل . ومنه قول الأخطل :

كنت القذى فى موج أكدر مزبد ... قذف الأتى بها فضل ضلالا

قال قطرب : معنى ﴿ **ضللنا فى الأرض** ﴾ : غبنا فى الأرض . قرأ الجمهور ﴿ **ضللنا** ﴾ بفتح ضاد معجمة ولام مفتوحة بمعنى : ذهبنا وضعنا وصرنا ترابا وغبنا عن الأعين ، وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء : « ضللنا » بكسر اللام ، وهى لغة العالية من نجد . قال الجوهرى : وأهل العالية يقولون : ضللت بالكسر . قال : وأضله ، أى أضاعه وأهلكه ، يقال : ضل الميت : إذا دفن . وقرأ على بن أبى طالب والحسن والأعمش وأبان بن سعيد : «صللنا » بصاد مهملة ولام مفتوحة ، أى أنتنا . قال النحاس : ولا يعرف فى اللغة : صللنا ، ولكن يقال: صل اللحم : إذا أنتن . قال الجوهرى : صل اللحم يصل بالكسر صلولا : إذا أنتن ، مطبوخا كان أونيئا ، ومنه قول الحطيئة :

ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه الصلول

﴿ **أإنا لفى خلق جديد** ﴾ أى نبعث ونصير أحياء ، والاستفهام للاستنكار . وهذا قول منكرى البعث من الكفار ، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه ، وهو كفرهم بلقاء الله ، فقال : ﴿ **بل هم بلقاء ربهم كافرون** ﴾ أى جاحدون له مكابرة وعنادا ، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة .

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يبين لهم الحق ويرد عليهم ما زعموه من الباطل ، فقال : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾ يقال :توفاه الله واستوفى روحه إذا قبضه إليه ، وملك الموت هو : عزرائيل ، ومعنى ﴿ **وكل بكم** ﴾ : وكل بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ أى تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يدبر الأمر** ﴾ الآية قال : هذا فى الدنيا ، تعرج الملائكة فى يوم مقداره ألف سنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ قال : من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف ، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبى مليكة قال: دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان ، فقال له ابن فيروز : يا أبا عباس ، قوله : ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ فكأن ابن عباس اتهمه فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ قال : إنما سألتك لتخبرنى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول فى كتاب الله مالا أعلم ، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب ، فسأله عنها إنسان فلم يخبره ولم يدر . فقلت : ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس ؟ قال : بلى ، فأخبرته فقال للسائل : هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها ، وهو أعلم منى. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كان مقداره ألف سنة** ﴾ قال : لا ينتصف النهار فى مقدار يوم من أيام الدنيا فى ذلك اليوم حتى يقضى بين العباد ، فينزل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ولو كان إلى غيره لم يفرغ من ذلك خمسين ألف سنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ثم يعرج إليه فى يوم** ﴾ من أيامكم هذه ، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

وأخرج ابن أبى شيبة ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ **الذى أحسن كلّ شىء خلقه** ﴾ قال : أما رأيت القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية أنه قال : أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها ، وقال ﴿ **خلقه** ﴾ صورته. وقال ﴿ **أحسن كلّ شىء** ﴾

القبيح والحسن والعقارب والحيات وكلّ شيء مما خلق ، وغيره لا يحسن شيئا من ذلك . وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : بينما نحن مع رسول اللّه ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصارى فى حلة قد أسبل ، فأخذ النبى ﷺ بناحية ثوبه ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحمش الساقين ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عمرو بن زرارة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء خلقه ، يا عمرو بن زرارة إن الله لا يحب المسبلين » . وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبى ﷺ رجلا قد أسبل إزاره . فقال:« ارفع إزارك » ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحنف تصطك ركبتاى ، فقال : « ارفع إزارك كل خلق الله حسن » (1) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم** ﴾ المراد بالمجرمين هم : القائلون :﴿ **أئذا ضللنا** ﴾ ، والخطاب هنا لكل من يصلح له ، أو لرسول الله ﷺ . ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم ، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولا أوليا ، ومعنى ﴿ **ناكسو رؤوسهم** ﴾: مطأطئوها حياء وندما على ما فرط منهم فى الدنيا من الشرك بالله والعصيان له ، ومعنى عند ربهم : عند محاسبته لهم . قال الزجاج : والمخاطبة للنبى ﷺ مخاطبة لأمته ، فالمعنى : ولو ترى يا محمد منكرى البعث يوم القيامة لرأيت العجب ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا** ﴾ أى يقولون : ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به وسمعنا ما كنا ننكره . وقيل : أبصرنا صدق

(1) أحمد ٤ / ٣٩٠ والطبرانى (٧٢٤٠) قال الهيثمى فى المجمع ٥ / ١٢٧ : « ورجال أحمد رجال الصحيح » .

وعيدك وسمعنا تصديق رسلك ، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿ **فارجعنا** ﴾ إلى الدنيا ﴿ **نعمل** ﴾ عملا ﴿ **صالحا** ﴾ كما أمرتنا ﴿ **إنا موقنون** ﴾ أى مصدقون . وقيل : مصدقون بالذى جاء به محمد ﷺ ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعا فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا ، وأنى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿ لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقيل : معنى ﴿ **إنا موقنون**﴾ أنها قد زالت عنهم الشكوك التى كانت تخالطهم فى الدنيا لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ **أبصرنا وسمعنا** ﴾ : صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول ، ويجوز أن يكون صالحا مفعولا لـ ﴿ **نعمل** ﴾ كما يجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف، وجواب لو محذوف ، أى لرأيت أمرا فظيعا وهولا هائلا .

﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾ هذا رد عليهم لما طلبوا الرجعة ، أى لو شئنا لآتينا كل نفس هداها فهدينا الناس جميعا فلم يكفر منهم أحد . قال النحاس : فى معنى هذا قولان : أحدهما : أنه فى الدنيا ، والآخر : أنه فى الآخرة ، أى ولوشئنا لرددناهم إلى الدنيا ﴿ **ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ وجملة:﴿ **ولو شئنا** ﴾ مقدرة بقول معطوف على المقدر قبل قوله : ﴿ **أبصرنا** ﴾ أى ونقول : لو شئنا ، ومعنى ﴿ **ولكن حق القول منى** ﴾ : أى نفذ قضائى وقدرى وسبقت كلمتى ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ هذا هو القول الذى وجب من الله وحق على عباده ونفذ فيه قضاؤه ، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كل نفس هداها ، وإنما قضى عليهم بهذا ؛ لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة ، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى .

والفاء فى قوله :﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله ، والباء فى ﴿ **بما نسيتم** ﴾ للسببية ، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدم ، بل بذاك وهذا واختلف فى النسيان المذكور هنا ، فقيل : هو النسيان الحقيقى ، وهو الذى يزول عنده الذكر . وقيل : هو الترك . والمعنى على الأول : أنهم لم يعملوا لذلك اليوم ، فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه . وعلى الثانى : لابد من تقدير مضاف قبل لقاء ، أى ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا ، ورجح الثانى المبرد وأنشد :

كأنه خارج من جنب صفحته ... سفود شرب نسوه عند مفتأد

أى تركوه ، وكذا قال الضحاك ويحيى بن سلام : إن النسيان هنا بمعنى : الترك . قال يحيى بن سلام : والمعنى : بما تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم تركناكم من الخير ، وكذا قال السدى ، وقال مجاهد :تركناكم فى العذاب. وقال مقاتل : إذا دخلوا النار . قالت لهم الخزنة : ذوقوا العذاب بما نسيتم ، واستعار الذوق للإحساس ، ومنه قول طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجة ... من الغيظ فى أكبادنا والتحوب

وقوله : ﴿ **وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾ تكرير لقصد التأكيد ، أى ذوقوا العذاب الدائم الذى لا ينقطع أبدا بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . قال الرازى فى تفسيره : إن اسم الإشارة فى قوله : ﴿ **بما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب .

وجملة : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا** ﴾ مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان ، ومن لا يستحقها . والمعنى : إنما يصدق بآياتنا وينتفع بها ﴿ **الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا** ﴾ لا غيرهم ممن يذكر بها ، أى يوعظ بها ولا يتذكر ولا يؤمن بها ، ومعنى ﴿ **خروا سجدا** ﴾ : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات الله وخوفا من سطوته وعذابه ﴿ **وسبحوا بحمد ربهم** ﴾ أى نزهوه عن كل مالا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه ، التى أجلها وأكملها الهداية إلى الإيمان ، والمعنى : قالوا فى سجودهم : سبحان الله وبحمده ، أو سبحان ربى الأعلى وبحمده . وقال سفيان : المعنى : صلوا حمدا لربهم ، وجملة : ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم خاضعين لله ، متذللين له غير مستكبرين عليه .

﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ أى ترتفع وتنبو ، يقال : جفى الشىء عن الشىء وتجافى عنه : إذا لم يلزمه ونبا عنه ، والمضاجع جمع: المضجع ، وهو الموضع الذى يضطجع فيه . قال الزجاج والرمانى : التجافى والتجفى إلى جهة فوق، وكذلك هو فى الصفح عن المخطئ فى سب ونحوه . والجنوب :جمع جنب ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى متجافية جنوبهم عن مضاجعهم ، وهم المتهجدون فى الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش ، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور . والمراد بالصلاة: صلاة التنفل بالليل من غير تقييد . وقال قتادة وعكرمة : هو التنفل ما بين المغرب والعشاء . وقيل : صلاة العشاء فقط . وهو رواية عن الحسن وعطاء . وقال الضحاك : صلاة العشاء والصبح فى جماعة . وقيل : هم الذين يقومون لذكر الله سواء كان فى صلاة أو غيرها ﴿ **يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ : هذه الجملة فى محل نصب على الحال أيضا من الضمير الذى فى جنوبهم ، فهى حال بعد حال ، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعاتهم ، والمعنى : تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى من الذى رزقناهم أو من رزقهم ، وذلك الصدقة الواجبة . وقيل : صدقة النفل ، والأولى الحمل على العموم . وانتصاب ﴿ **خوفا** ﴾ و﴿ **طمعا** ﴾ على العلة ، ويجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقدر .

﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، أى لا تعلم نفس من النفوس ، أى نفس كانت ، ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم ، مما تقر به أعينهم ، قرأ الجمهور ﴿ **من قرة** ﴾ بالإفراد . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة وأبو الدرداء : « من قرات » بالجمع ، وقرأ حمزة « ما أخفى » بسكون الياء على أنه فعل مضارع

مسند إلى الله سبحانه . وقرأ الباقون بفتحها فعلا ماضيا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود : «ما نخفى » بالنون مضمومة ، وقرأ الأعمش :« يخفى » بالتحتية مضمومة . قال الزجاج فى معنى قراءة حمزة : أى منه ما أخفى الله لهم ، وهى قراءة محمد بن كعب ، و« ما » فى موضع نصب . ثم بين سبحانه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة فقال : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ أى لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا أو جوزوا جزاء بذلك .

﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت ، ولهذا قال : ﴿ **لا يستوون** ﴾ ففيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذى أفاده الاستفهام . قال الزجاج : جعل الاثنين جماعة حيث قال : ﴿ **لا يستوون** ﴾ لأجل معنى من . وقيل : لكون الاثنين أقل الجمع ، وسيأتى بيان سبب نزولها آخر البحث . ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين فقال : ﴿ **أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **جنات** ﴾ بالجمع . وقرأ طلحة بن مصرف : « جنة المأوى » بالإفراد ، والمأوى هو الذى يأوون إليه ، وأضاف الجنات إليه ، لكونه المأوى الحقيقى. وقيل : المأوى : جنة من الجنات ، وقد تقدم الكلام على هذا ، ومعنى ﴿ **نزلا** ﴾ : أنها معدة لهم عند نزولهم ، وهو فى الأصل : ما يعد للنازل من الطعام والشراب كما بيناه فى آل عمران ، وانتصابه على الحال . وقرأ أبو حيوة : « نزلا » بسكون الزاى . والباء فى ﴿ **بما كانوا يعملون**﴾ للسببية ، أى بسبب ما كانوا يعملونه ، أو بسبب عملهم .

ثم ذكر الفريق الآخر فقال : ﴿ **وأما الذين فسقوا** ﴾ أى خرجوا عن طاعة الله وتمردوا عليه وعلى رسله ﴿ **فمأواهم النار** ﴾ أى منزلهم الذى يصيرون إليه ويستقرون فيه هو النار ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ أى إذا أرادوا الخروج منها، ردوا إليها راغمين مكرهين . وقيل : إذ دفعهم اللهب إلى أعلاها ردوا إلى مواضعهم ﴿ **وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾ والقائل لهم هذه المقالة هو خزنة جهنم من الملائكة ، أو القائل لهم هو الله عز وجل . وفى هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا فى النار من الإغاظة لهم مالا يخفى . ﴿**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى** ﴾ وهو عذاب الدنيا . قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعى : هو مصائب الدنيا وأسقامها .وقيل : الحدود . وقيل : القتل بالسيف يوم بدر. وقيل :سنين الجوع بمكة . وقيل :عذاب القبر ، ولا مانع من الحمل على الجميع ﴿ **دون العذاب الأكبر** ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ مما هم فيه من الشرك والمعاصى بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه . وفى هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال : إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر .

﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها** ﴾ أى لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة ، فجعل الإعراض مكان ذلك ، والمجىء بثم للدلالة على استبعاد ذلك . وأنه مما ينبغى أن لا يكون ﴿ **إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ أى من

أهل الإجرام على العموم فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولا أوليا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنا نسيناكم** ﴾ قال : تركناكم . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه قال : نزلت هذه الآية فى شأن الصلوات الخمس : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا** ﴾ أى أتوها ﴿ **وسبحوا** ﴾ أى صلوا بأمر ربهم ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾ عن إتيان الصلاة فى الجماعات . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة عن أنس بن مالك ؛ أن هذه الآية ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة (١). وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن مردويه عنه قال : نزلت فى صلاة العشاء. وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء . وأخرج ابن أبى شيبة عنه قال : كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن مردويه عنه أيضا قال : ما رأيت رسول الله ﷺ راقدا قط قبل العشاء ، ولا متحدثا بعدها ، فإن هذه الآية نزلت فى ذلك : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ قال: « هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم » . فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير.

وأخرج ابن مردويه عن بلال قال : كنا نجلس فى المسجد وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن عدى وابن مردويه عن أنس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود ومحمد ابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس فى قوله : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ قال : كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون(٣) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿**تتجافى جنوبهم** ﴾ قال : قيام العبد من الليل (٤) . وأخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجة وابن نصر فى كتاب الصلاة وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ ، وذكرحديثا وأرشد فيه إلى أنواع من الطاعات وقال فيه :« وصلاة الرجل فى جوف الليل » ، ثم قرأ : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن**

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٩٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » وابن جرير ٢١/ ٦٤ . قال ابن كثير ٥/ ٤٠٩ : « وإسناده جيد » .

(٢) عبد الرزاق (٢١٣٨) وأخرجه عن عائشة أيضا (٢١٣٧) وفى إسناد الأخير قال الهيثمى ١/ ٣١٦ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) ابن أبى شيبة ٢/ ١٩٨ وأبو داود فى الصلاة (١٣٢١) وابن جرير ٢١/ ٦٣ والبيهقى ٣/ ١٩ .

(٤) أحمد ٥/ ٢٣٧ وابن جرير ٢١/ ٦٥ .

المضاجع ﴾ (١) وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا فى حديث قال فيه : « وصلاة المرء فى جوف الليل » ، ثم تلا هذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن أنس فى الآية قال : كان لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد من طريق أبى عبد الله الجدلى عن عبادة بن الصامت عن كعب قال : إذا حشر الناس نادى مناد : «هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الحديث . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية يقول : تتجافى لذكر الله كلما استيقظوا ذكروا الله ، إما فى الصلاة ، وإما فى القيام أو القعود . أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : كان عرش الله على الماء فاتخذ جنة لنفسه . ثم اتخذ دونها أخرى ، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة ، ثم قال ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [الرحمن : ٦٢] لم يعلم الخلق ما فيهما . وهى التى قال الله: **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾** (٢) تأتيهم منها كل يوم تحفة . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب فى التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرب ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن : **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾** (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : **﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾** (٤). وفى الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة ، وهى معروفة فلا نطول بذكرها .

وأخرج أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى ، والواحدى وابن عدى وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعلى بن أبى طالب : أنا أحد منك سنانا ، وأنشط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت: **﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾** (٥) يعنى بالمؤمن: عليا ،

---

(١) أحمد ٥ / ٢٣٧ والترمذى فى الإيمان (٢٦١٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤١٤) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٣) وابن جرير ٢١/ ٦٤ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٣ وقال : « على شرط الشيخين » ووافقه الذهبى والبيهقى ٩/ ٢٠ .

(٢) ابن جرير ٢١/ ٦٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٣) ابن أبى شيبة فى الجنة (١٥٨٥٠) وابن جرير ٢١/ ٦٥ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٤ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٣ : « رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف » .

(٤) أحمد ٢/ ٤٣٨ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤/ ٢) والترمذى (٣١٩٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) الأغانى ٤/ ١٨٢ والواحدى فى أسباب النزول (٥٠٠) .

وبالفاسق : الوليد بن عقبة بن أبى معيط . وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه فى الآية نحوه . وروى نحو هذا عن عطاء بن يسار والسدى وعبد الرحمن بن أبى ليلى .

وأخرج الفريابى وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى** ﴾ قال :يوم بدر ﴿ **دون العذاب الأكبر** ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال : لعل من بقى منهم أن يتوب فيرجع . وأخرج ابن أبى شيبة والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود فى الآية قال : العذاب الأدنى : سنون أصابتهم ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال : يتوبون . وأخرج مسلم وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبو عوانة فى صحيحه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى** ﴾ قال : مصائب الدنيا والروم ، والبطشة والدخان . وأخرج ابن جرير عنه قال : يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **من العذاب الأدنى** ﴾ قال : الحدود ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال: يتوبون. وأخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن معاذ بن جبل :سمعت رسول الله ﷺ يقول :« ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم ، يقول الله : ﴿ **إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ »[(١)] . قال ابن كثير بعد إخراجه : هذا حديث غريب [(٢)] .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)** ﴾ .

قوله: ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أى التوراة ﴿ **فلا تكن**﴾ يا محمد ﴿ **فى مرية** ﴾ أى شك وريبة ﴿ **من لقائه** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقى موسى

---

(١) ابن جرير ٢١/ ٧٠ والطبرانى ٢٠/ ٦١ (١١٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٣ : « فيه عبد العزيز بن عبيد الله ابن حمزة وهو ضعيف » .

(٢) ابن كثير ٥/ ٤١٥ .

قبل أن يموت ، ثم لقيه فى السماء أو فى بيت المقدس حين أسرى به . وهذا قول مجاهد والكلبى والسدى . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى للكتاب . قاله الزجاج . وقال الحسن : إن معناه : ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذى ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى فيكون الضمير فى لقائه على هذا عائدا على محذوف ، والمعنى : من لقاء ما لاقى موسى . قال النحاس : وهذا قول غريب . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم، فلا تكن فى مرية من لقائه ، فجاء معترضا بين ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ وبين ﴿ **وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى الكتاب الذى هو الفرقان كقوله : ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ [النمل : ٦] والمعنى : أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وما أبعد هذا ، ولعل الحامل لقائله عليه قوله : ﴿ **وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ فإن الضمير راجع إلى الكتاب . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **لقائه** ﴾ عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله : ﴿**ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ أى لا تكن فى مرية من لقاء الرجوع ، وهذا بعيد أيضا . واختلف فى الضمير فى قوله : ﴿ **وجعلناه** ﴾ فقيل : هو راجع إلى الكتاب ، أى جعلنا التوراة هدى لبنى إسرائيل ، قاله الحسن وغيره . وقال قتادة : إنه راجع إلى موسى ، أى وجعلنا موسى هدى لبنى إسرائيل .

﴿ **وجعلنا منهم أئمة** ﴾ أى قادة يقتدون به فى دينهم ، وقرأ الكوفيون : « أئمة » قال النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ، لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة ، ومعنى ﴿**يهدون بأمرنا** ﴾: أى يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليهم من أحكام التوراة ومواعظها بأمرنا، أى بأمرنا لهم بذلك ، أو لأجل أمرنا . وقال قتادة : المراد بالأئمة : الأنبياء منهم . وقيل: العلماء ﴿ **لما صبروا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لما** ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم ، أى حين صبروا ، والضمير للأئمة، وفى «لما» معنى الجزاء ، والتقدير : لما صبروا جعلناهم أئمة . وقرأ حمزة والكسائى وخلف وورش عن يعقوب ويحيى بن وثاب بكسر اللام وتخفيف الميم ، أى جعلناهم أئمة لصبرهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلا بقراءة ابن مسعود : « بما صبروا » بالباء ، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس ، وقيل : صبروا عن الدنيا ﴿**وكانوا بآياتنا** ﴾ التنزيلية ﴿ **يوقنون** ﴾ أى يصدقونها ويعلمون أنها حق وأنها من عند الله ؛ لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم .

﴿**إن ربك هو يفصل بينهم**﴾ أى يقضى بينهم ويحكم بين المؤمنين والكفار﴿ **يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ وقيل : يقضى بين الأنبياء وأممهم ، حكاه النقاش . ﴿ **أو لم يهد لهم** ﴾ أى أو لم يبين لهم ، والهمزة للإنكار ، والفاعل ما دل عليه ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من القرون**﴾ أى أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم . قال الفراء : ﴿ **كم** ﴾ فى موضع رفع

بـ﴿ **يهد** ﴾ . وقال المبرد : إن الفاعل : الهدى المدلول عليه بـ ﴿ **يهد** ﴾ ، أى أو لم يهد لهم الهدى . وقال الزجاج : ﴿ **كم** ﴾ فى موضع نصب بـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ ، قرأ الجمهور : ﴿**أو لم يهد** ﴾ بالتحتية ، وقرأ السلمى وقتادة وأبو زيد عن يعقوب بالنون ، وهذه القراءة واضحة . قال النحاس : والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل فأين الفاعل لـ﴿ **يهد** ﴾ ؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ماقدمنا ذكره، والمراد بالقرون : عاد وثمود ونحوهم ، وجملة : ﴿ **يمشون في مساكنهم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير لهم ، أى والحال أنهم يمشون فى مساكن المهلكين ويشاهدونها ، وينظرون ما فيها من العبر ، وآثار العذاب . ولا يعتبرون بذلك . وقيل : يعود إلى المهلكين ، والمعنى : أهلكناهم حال كونهم ماشين فى مساكنهم ، والأول أولى ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور ﴿ **لآيات** ﴾ عظيمات ، أفلا يسمعونها ويتعظون بها .

﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز** ﴾ أى أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التى لا تنبت إلا بسوق الماء إليها . وقيل : هى اليابسة ، وأصله من الجرز وهو: القطع أى التى قطع نباتها لعدم الماء ، ولا يقال للتى لا تنبت أصلا كالسباخ جرز لقوله : ﴿ **فنخرج به زرعا** ﴾ قيل : هى أرض اليمن . وقيل : أرض عدن . وقال الضحاك : هى الأرض العطشى . وقال الفراء : هى الأرض التى لا نبات فيها . وقال الأصمعى : هى الأرض التى لا تنبت شيئا. قال المبرد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام . وقيل : هى مشتقة من قولهم : رجل جروز : إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله ، ومنه قول الراجز :

خب جروز وإذا جاع بكى ... ويأكل التمر ولا يلقى النوى

وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وقال مجاهد : إنها أرض النيل ؛ لأن الماء إنما يأتيها فى كل عام ﴿ **فنخرج به** ﴾ ، أى بالماء ﴿ **زرعا تأكل منه أنعامهم** ﴾ أى من الزرع كالتبن والورق ونحوهما مما لا يأكله الناس ﴿ **وأنفسهم** ﴾ أى يأكلون الحبوب الخارجة فى الزرع مما يقتاتونه ، وجملة : ﴿ **تأكل منه أنعامهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **أفلا يبصرون** ﴾ هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحدونه ، لكونه المنفرد بإيجاد ذلك . ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين** ﴾ القائلون هم الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص، أى متى الفتح الذى تعدونا به ، يعنون بالفتح: القضاء والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذى يقضى الله فيه بين عباده، قاله مجاهد وغيره . وقال الفراء والقتيبى: هو فتح مكة . قال قتادة : قال أصحاب النبى ﷺ للكفار : إن لنا يوما ننعم فيه ونستريح ويحكم الله بيننا وبينكم ، يعنون يوم القيامة ، فقال الكفار : متى هذا الفتح ؟ وقال السدى : هو يوم بدر، لأن أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون للكفار : إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم ، « ومتى » فى قوله :﴿ **متى هذا الفتح** ﴾ فى موضع رفع ، أو فى موضع نصب على الظرفية.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم فقال :﴿ **قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ وفى هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة ؛ لأن يوم فتح مكة ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان. وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح ، وقبل ذلك منهم النبى ﷺ، ومعنى ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ : لا يمهلون ولا يؤخرون ، « ويوم » فى ﴿ **يوم الفتح** ﴾ منصوب على الظرفية ، وأجاز الفراء الرفع ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ أى عن سفههم وتكذيبهم ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ **وانتظر إنهم منتظرون** ﴾ أى وانتظر يوم الفتح ، وهو يوم القيامة ، أو يوم إهلاكهم بالقتل ، إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت أو قتل أو غلبة كقوله : ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ [التوبة : ٥٢] ويجوز أن يراد : إنهم منتظرون لإهلاكهم ، والآية منسوخة بآية السيف . وقيل : غير منسوخة ، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال . وقرأ ابن السميفع : « إنهم منتظرون » بفتح الظاء مبنيا للمفعول ، ورويت هذه القراءة عن مجاهد وابن محيصن . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، أى إنهم منتظر بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ، أى انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلا طويلا جعدا كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكا خازن جهنم والدجال فى آيات أراهن الله إياه » (١) قال : ﴿ **فلا تكن فى مرية من لقائه** ﴾ فكان قتادة يفسرها : أن النبى ﷺ قد لقى موسى ﴿ **وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبنى إسرائيل. وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء فى المختارة بسند ، قال السيوطى : صحيح ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ :﴿ **فلا تكن فى مرية من لقائه** ﴾ قال :« من لقاء موسى » ، قيل : أو لقى موسى ؟ قال :نعم ، ألا ترى إلى قوله :﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ [الزخرف : ٤٥] . وأخرج الفريابى، وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز** ﴾ قال : الجرز التى لا تمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا إلا ما يأتيها من السيول . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله :﴿ **إلى الأرض الجرز** ﴾ قال : أرض باليمن . قال القرطبى فى تفسيره : والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه (٢) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين** ﴾ قال : يوم بدر فتح للنبى ﷺ فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت.

---

(١) أحمد ١ / ٢٤٥ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٣٩) ومسلم فى الإيمان (١٦٥ / ٢٦٧) .

(٢) القرطبى ٨ / ٥١٩٣ .

تفسير سورة الأحزاب

هى ثلاث وسبعون آية ، وهى مدنية . أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأحزاب بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والطيالسى وسعيد بن منصور وعبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن منيع والنسائى وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والدارقطنى فى الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن زرّ قال : قال لى أبىّ بن كعب كأيٍ تقرأ سورة الأحزاب أو كأيٍ تعدّها ، قلت : ثلاثا وسبعين آية، فقال : أقط ؟ لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » فرفع فيما رفع (١) قال ابن كثير : وإسناده حسن . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ؛ أن عمر بن الخطاب قام ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد : أيها الناس ، إن اللّه بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » ورجم رسول اللّه ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب اللّه ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها اللّه (٢) . وقد روى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قال لى عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثنتين أو ثلاثا وسبعين ، قال : إن كانت لتقارب سورة البقرة ، وإن كان فيها لآية الرجم . وأخرج البخارى فى تاريخه عن حذيفة قال : قرأت سورة الأحزاب على رسول اللّه ﷺ فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها . وأخرج أبو عبيد فى الفضائل ، وابن الأنبارى وابن مردويه عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمان النبىّ ﷺ مائتى آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقرر منها إلا على ما هو الآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

---

(١) عبد الرزاق (١٣٣٦٣) والطيالسى ٢/ ٧٣ والنسائى فى الكبرى فى الرجم (٧١٥٠) وصححه الحاكم ٢/ ٤١٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٨/ ٢١١ وقال ابن كثير ٥/ ٤٢١ : « وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا ، والله أعلم ».

(٢) مالك ٢/ ٨٢٤ وأحمد ١/ ٤٠ والبخارى فى الحدود (٦٨٣٠) ومسلم فى الحدود (١٦٩١ / ١٥) وأبو داود فى الحدود (٤٤١٨) والترمذى فى الحدود (١٤٣٢) وقال:« هذا حديث حسن صحيح » والدارمى ٢/ ١٧٩ .

وَكِيلاً (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٦) ﴾.

قوله : ﴿ **يأيها النبىّ اتق الله** ﴾ أى دم على ذلك وازدد منه ﴿ **ولا تطع الكافرين** ﴾ من أهل مكة ومن هو على مثل كفرهم ﴿ **والمنافقين** ﴾ أى الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر . قال الواحدى : إنه أراد سبحانه بالكافرين أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور السلمى ، وذلك أنهم قالوا للنبىّ ﷺ :ارفض ذكر آلهتنا ، وقل : إن لها شفاعة لمن عبدها . قال : والمنافقين عبد الله بن أبى وعبد الله بن سعد بن أبى سرح . وسيأتى آخر البحث بيان سبب نزول الآية ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ أى كثير العلم والحكمة بليغهما ، قال النحاس : ودلّ بقوله : ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ على أنه كان يميل إليهم:يعنى النبى ﷺ ، استدعاء لهم إلى الإسلام ، والمعنى : أن الله عز وجل لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنهم لأنه حكيم ، ولا يخفى بعد هذه الدلالة التى زعمها ، ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين ، والمنافقين ، والمعنى : أنه لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحا أو فسادا لكثرة علمه وسعة حكمته .

﴿ **واتبع ما يوحى إليك من ربك** ﴾ من القرآن ، أى اتبع الوحى فى كل أمورك ، ولا تتبع شيئا مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين ، ولا من الرأى البحت ؛ فإن فيما أوحى إليك ما يغنيك عن ذلك ، وجملة : ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحى إليك ، والأمر له ﷺ أمر لأمته ، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه ، ولهذا جاء بخطابه وخطابهم فى قوله :﴿ **بما تعملون** ﴾ على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبوحاتم . وقرأ أبو عمرو والسلمى وابن أبى إسحاق بالتحتية . ﴿**وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ أى اعتمد عليه وفوّض أمورك إليه ، وكفى به حافظا يحفظ من توكل عليه.

ثم ذكر سبحانه مثلا توطئة وتمهيدا لما يتعقبه من الأحكام القرآنية ، التى هى من الوحى الذى أمره الله باتباعه فقال : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ . وقد اختلف فى سبب

نزول هذه الآية كما سيأتى ، وقيل : هى مثل ضربه الله للمظاهر ، أى كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمّان ، وكذلك لا يكون الدعى ابنا لرجلين . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لى قلب يأمرنى بكذا وقلب بكذا ؛ فنزلت الآية لردّ النفاق وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام كما لا يجتمع قلبان ، والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله وجعلها محلا للعلم . ﴿ **وما جعل أزواجكم اللائى تظهرون منهنّ أمهاتكم** ﴾ وقرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ **اللائى** ﴾ بياء ساكنة بعد همزة ، وقرأ أبو عمرو والبزى بياء ساكنة بعد ألف محضة . قال أبو عمرو بن العلاء : إنها لغة قريش التى أمر الناس أن يقرؤوا بها ، وقرأ قنبل وورش بهمزة مكسورة بدون ياء. قرأ عاصم: ﴿ **تظاهرون** ﴾ بضم الفوقية وكسر الهاء بعد ألف مضارع ظاهر ، وقرأ ابن عامر بفتح الفوقية والهاء وتشديد الظاء مضارع تظاهر ، والأصل : تتظاهرون . وقرأ الباقون : « تظهرون » بفتح الفوقية وتشديد الظاء بدون ألف ، والأصل تتظهرون . والظهار مشتق من الظهر ، وأصله : أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، والمعنى : وما جعل اللهّ نساءكم اللائى تقولون لهنّ هذا القول كأمهاتكم فى التحريم، ولكنه منكر من القول وزور ، وكذلك ﴿ **ما جعل** ﴾ الأدعياء الذين تدّعون أنهم ﴿ **أبناءكم** ﴾ أبناء لكم . والأدعياء جمع دعىّ ، وهو الذى يدعى ابنا لغير أبيه ، وسيأتى الكلام فى الظهار فى سورة المجادلة . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ماتقدّم من ذكر الظهار والادعاء ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **قولكم بأفواهكم** ﴾ أى ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه ولا تأثير له، فلا تصير المرأة به أما ولا ابن الغير به ابنا، ولا يترتب على ذلك شىء من أحكام الأمومة والبنوة . وقيل: الإشارة راجعة إلى الادعاء ، أى ادعاؤكم أن أبناء الغير أبناؤكم لا حقيقة له ، بل هو مجرّد قول بالفم ﴿ **والله يقول الحق** ﴾ الذى يحقّ اتباعه لكونه حقا فى نفسه لا باطلا ، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم ﴿ **وهو يهدى السبيل** ﴾ أى يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق ، وفى هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق وترك قول الباطل والزور .

ثم صرّح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للآباء فقال : ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ للصلب وانسبوهم إليهم ولا تدعوهم إلى غيرهم ، وجملة : ﴿ **هو أقسط عند الله** ﴾ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للآباء ، والضمير راجع إلى مصدر ﴿ **ادعوهم** ﴾. ومعنى ﴿ **أقسط** ﴾ : أعدل ، أى أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك ، فترك الإضافة للعموم كقوله : الله أكبر ، وقد يكون المضاف إليه مقدرا خاصا ، أى أعدل من قولكم هو ابن فلان ولم يكن ابنه لصلبه . ثم تمم سبحانه الإرشاد للعباد فقال : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدين وهم مواليكم ، فقولوا: أخى ومولاى ولا تقولوا : ابن فلان ، حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة . قال الزجاج ويجوز أن يكون مواليكم أولياءكم فى الدين . وقيل : المعنى : فإن كانوا محررين ولم يكونوا أحرارا ، فقولوا : موالى فلان ﴿ **وليس عليكم**

جناح فيما أخطأتم به ﴾ أى لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد ، ﴿**ولكن**﴾ الإثم فى ﴿ **ما تعمدت قلوبكم** ﴾ وهو ما قلتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك . قال قتادة : لو دعوت رجلا لغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ يغفر للمخطئ ويرحمه ويتجاوز عنه ، أوغفورا للذنوب رحيما بالعباد، ومن جملة من يغفر له ويرحمه من دعا رجلا لغير أبيه خطأ . أو قبل النهى عن ذلك .

ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة وخصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال: ﴿ **النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ أى هو أحقّ بهم فى كلّ أمور الدين والدنيا ، وأولى بهم من أنفسهم فضلا عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم ، وإن كانوا محتاجين إليها ، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم ، ويجب عليهم أن يقدّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم . وبالجملة فإذا دعاهم النبىّ ﷺ لشىء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدّموا مادعاهم إليه ويؤخروا مادعتهم أنفسهم إليه ، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم ويقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم . وقيل : المراد بـ﴿ **أنفسهم** ﴾ فى الآية بعضهم ، فيكون المعنى : أن النبىّ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض . وقيل : هى خاصة بالقضاء ، أى هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم . وقيل : أولى بهم فى الجهاد بين يديه وبذل النفس دونه ، والأوّل أولى .

﴿ **وأزواجه أمهاتهم** ﴾ أى مثل أمهاتهم فى الحكم بالتحريم ومنزلات منزلتهن فى استحقاق التعظيم ؛ فلا يحلّ لأحد أن يتزوج بواحدة منهنّ كما لا يحلّ له أن يتزوج بأمه ، فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهنّ وبالتعظيم لجنابهنّ ، وتخصيص المؤمنين يدلّ على أنهنّ لسن أمهات نساء المؤمنين ولا بناتهن أخوات المؤمنين ، ولا أخواتهن أخوال المؤمنين . وقال القرطبى : الذى يظهر لى أنهنّ أمهات الرجال والنساء تعظيما لحقهنّ على الرجال والنساء كما يدل عليه قوله : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. قال: ثم إن فى مصحف أبىّ بن كعب : «وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم » وقرأ ابن عباس: « أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب وأزواجه أمهاتهم » (١) .

ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال :﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ المراد بأولى الأرحام: القرابات ، أى هم أحقّ ببعضهم البعض فى الميراث ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى آخر سورة الأنفال، وهى ناسخة لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة . قال قتادة : لما نزل قوله سبحانه فى سورة الأنفال : ﴿ والذين آمنوا ولم

---

(١) القرطبى ٨/ ٥٢٠٥ .

يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ [الأنفال:٧٢] فتوارث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية ، وكذا قال غيره . وقيل : إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة فى الدين ، و ﴿ فى كتاب الله ﴾ يجوز أن يتعلق بأفعل التفضيل فى قوله : ﴿أولى ببعض ﴾ لأنه يعمل فى الظرف ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير ، أى كائنا فى كتاب الله . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ أو القرآن أو آية المواريث ، وقوله : ﴿من المؤمنين ﴾ يجوز أن يكون بيانا لـ ﴿ أولو الأرحام ﴾ والمعنى : أن ذوى القرابات من المؤمنين ﴿والمهاجرين ﴾ بعضهم أولى ببعض ، ويجوز أن يتعلق بـ﴿ أولى ﴾ ، أى وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين الذين هم أجانب. وقيل: إن معنى الآية: وأولو الأرحام ببعضهم أولى ببعض ، إلا ما يجوز لأزواج النبىّ ﷺ من كونهم كالأمهات فى تحريم النكاح ، وفى هذا من الضعف ما لا يخفى .

﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعمّ العام ، والتقدير : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كل شيء من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، من صدقة أو وصية فإن ذلك جائز . قاله قتادة والحسن وعطاء ومحمد بن الحنفية . قال محمد بن الحنفية : نزلت فى إجازة الوصية لليهودى والنصرانى . فالكافر ولىّ فى النسب لا فى الدين ، فتجوز الوصية له ، ويجوز أن يكون منقطعا ، والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به، ومعنى الآية : أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى لهم . وقال مجاهد : أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة ، والإشارة بقوله:﴿ كان ذلك ﴾ إلى ما تقدم ذكره ، أى كان نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ، ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات ﴿ فى الكتاب مسطورا ﴾ أى فى اللوح المحفوظ، أوفى القرآن مكتوبا .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ،وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : قام النبىّ ﷺ يوما يصلى ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترى أن له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم ؟ فنزل : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ (١). وأخرج ابن مردويه عنه من طريق أخرى بلفظ: صلى لله النبى ﷺ صلاة فسها فيها . فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون ، فقالوا : إن له قلبين ، فنزلت . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا قال : كان رجل من قريش يسمى من دهائه ذا القلبين ، فأنزل الله هذا فى شأنه. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن :

---

(١) أحمد ١/ ٢٦٨ والترمذى فى التفسير (٣١٩٩) وقال : « هذا حديث حسن » وابن جرير ٢١/ ٧٤ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٥ وقال الذهبى : «قابوس ضعيف » .

﴿ادعوهم لآبائهم﴾ الآية ، فقال رسول الله: « أنت زيد بن حارثة بن شراحيل » (١) .

وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : **﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾** فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أوضياعا فليأتنى فأنا مولاه » (٢) . وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه من حديث جابر نحوه (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والنسائى عن بريدة قال : غزوت مع على إلى اليمن فرأيت منه جفوة ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليا فتنقصته ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير وقال : « يابريدة ، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » قلت: بلى يارسول اللهّ، قال: « من كنت مولاه فعلى مولاه » (٤). وقد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » (٥) .وأخرج ابن سعد وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ؛ أن امرأة قالت لها : يا أمه ، فقالت : أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم . وأخرج ابن سعد عن أم سلمة قالت: أنا أمّ الرجال منكم والنساء . وأخرج عبد الرزاق وسعيد ابن منصور وإسحاق بن راهويه وابن المنذر ، والبيهقى فى دلائله عن بجالة قال : مرّ عمر بن الخطاب بغلام وهو يقرأ فى المصحف : « النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » فقال : يا غلام حكها ، فقال : هذا مصحف أبىّ ، فذهب إليه فسأله ، فقال: إنه كان يلهينى القرآن ويلهيك الصفق فى الأسواق . وأخرج الفريابى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ :« النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم » .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٨٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٥/ ٦٢) والترمذى فى المناقب (٣٨١٤) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤١٦) .

(٢) أحمد ٢/ ٣٣٤ والبخارى فى التفسير (٤٧٨١) . (٣) أحمد ٣/ ٣٧١ .

(٤) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٨١) وأحمد ٥/ ٣٤٧ والنسائى فى الكبرى فى الخصائص (٨٤٦٧/ ٤) وصححه الحاكم ٣/ ١١٠ على شرط مسلم وسكت عنه الذهبى .

(٥) مسلم فى الإيمان (٤٤/ ٦٩) وهو عن أنس بمعناه .

زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ العامل فى الظرف محذوف ، أى واذكر ، كأنه قال : يأيها النبىّ اتق اللّه واذكر أن اللّه أخذ ميثاق النبيين . قال قتادة : أخذ اللّه الميثاق على النبيين خصوصا أن يصدق بعضهم بعضا ، ويتبع بعضهم بعضا . وقال مقاتل : أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا اللّه ، ويدعوا إلى عبادة اللّه ، وأن يصدق بعضهم بعضا ، وأن ينصحوا لقومهم . والميثاق هو اليمين ، وقيل : هو الإقرار باللّه ، والأوّل أولى ، وقد سبق تحقيقه . ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم ، فقال : ﴿ **ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** ﴾ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل ؛ لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة ومن أولى العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم مالا يخفى . قال الزجاج : وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذرّ . ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال : ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ أى عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا وما أخذه الله عليهم ، ويجوز أن يكون قد أخذ اللّه عليهم الميثاق مرّتين ، فأخذ عليهم فى المرّة الأولى مجرّد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد . ثم أخذه عليهم ثانيا مغلظا مشدّدا ، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه ﴾ [آل عمران: ٨١] .

واللام فى قوله : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ يجوز أن تكون لام كى ، أى لكى يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم فى تبليغ الرسالة إلى قومهم ، وفى هذا وعيد لغيرهم ؛ لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم ؟ وقيل : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما فى قوله : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ [الأعراف : ٦] ويجوز أن تتعلق بمحذوف ، أى فعل ذلك ليسأل ﴿ **وأعدّ للكافرين عذابا أليما** ﴾ معطوف على ما دل عليه ﴿ **ليسأل الصادقين** ﴾ إذ التقدير : أثاب الصادقين وأعدّ للكافرين ، ويجوز أن يكون معطوفا على ﴿ **أخذنا** ﴾ لأن المعنى : أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ليثيب المؤمنين وأعدّ للكافرين .

وقيل: إنه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله فى الأوّل، ومن الأوّل ما أثبت مقابله فى الثانى، والتقدير : ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم ، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم وأعدّ لهم عذابًا أليما . وقيل : إنه معطوف على المقدّر عاملا فى ليسأل كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ وتكون جملة : ﴿ وأعدّ ﴾ مستأنفة لبيان ما أعدّه للكفار .

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى اللّه بحيث لا يبقى معها خوف من أحد وقوله : ﴿ عليكم ﴾ متعلق بالنعمة إن كانت مصدرا أو بمحذوف هو حال ، أى كائنة عليكم ، ومعنى : ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ حين جاءتكم جنود ، وهو ظرف للنعمة ، أو للمقدّر عاملا فى ﴿عليكم ﴾، أو لمحذوف هو اذكر ، والمراد بالجنود : جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وغزوه إلى المدينة ، وهى الغزوة المسماة «غزوة الخندق » وهم : أبو سفيان بن حرب بقريش ومن معهم من الألفاف ، وعيينة بن حصن الفزارى ومن معه من قومه غطفان وبنو قريظة والنضير ، فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف اللّه سبحانه فى هذه الآيات ، وكانت هذه الغزوة فى شوّال سنة خمس من الهجرة ، قاله ابن إسحاق . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : كانت فى سنة أربع . وقد بسط أهل السير فى هذه الوقعة ما هو معروف فلا نطيل بذكرها ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا ﴾ معطوف على ﴿جاءتكم ﴾ . قال مجاهد : هى الصبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم ، ويدلّ على هذا ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (١) والمراد بقوله : ﴿ وجنودا لم تروها ﴾ الملائكة . قال المفسرون: بعث اللّه عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها فى بعض ، وأرسل اللّه عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه : يا بنى فلان هلمّ إلىّ ، فإذا اجتمعوا قال لهم : النجاء النجاء ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿تعملون ﴾ بالفوقية ، أى بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب ، وحفر الخندق ، واستنصاركم به ، وتوكلكم عليه ، وقرأ أبو عمرو بالتحتية أى بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله ، والتحزب على المسلمين واجتماعهم عليهم من كل جهة .

﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ﴾ « إذ» هذه وما بعدها بدل من « إذ» الأولى ، والعامل فى هذه هو العامل فى تلك. وقيل: منصوبة بمحذوف هو : اذكر ، ومعنى ﴿ من فوقكم ﴾ : من أعلى الوادى ، وهو من جهة المشرق ، والذين جاؤوا من هذه الجهة هم غطفان وسيدهم عيينة بن حصن ، وهوازن وسيدهم عوف بن مالك ، وأهل نجد وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدى ، وانضمّ إليهم عوف بن مالك وبنى النضير ، ومعنى ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ : من أسفل الوادى

(١) أحمد ١/ ٢٢٣ والبخارى فى الاستسقاء (١٠٣٥) ومسلم فى الاستسقاء (٩٠٠/ ١٧) كلهم عن ابن عباس .

من جهة المغرب من ناحية مكة ، وهم قريش ومن معهم من الأحابيش ، وسيدهم أبو سفيان ابن حرب ، وجاء أبو الأعور السلمي ومعه حييّ بن أخطب اليهودى فى يهود بنى قريظة من وجه الخندق ، ومعهم عامر بن الطفيل ، وجملة : ﴿ **وإذ زاغت الأبصار** ﴾ معطوفة على ما قبلها ، أى مالت عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى عدوّها مقبلا من كل جانب . وقيل : شخصت دهشا من فرط الهول والحيرة ﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ جمع حنجرة ، وهى جوف الحلقوم ، أى ارتفعت القلوب عن مكانها ، ووصلت من الفزع والخوف إلى الحناجر ، فلولا أنه ضاف الحلقوم عنها ، وهو الذى نهايته الحنجرة ، لخرجت ، كذا قال قتادة . وقيل : هو على طريق المبالغة المعهودة فى كلام العرب وإن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان ولا خرجت عن موضعها ولكنه مثل فى اضطرابها وجبنها . قال الفراء : والمعنى : أنهم جبنوا وجزع أكثرهم ، وسبيل الجبان إذا اشتدّ خوفه أن تنتفخ رئته ، فإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب إلى الحنجرة ، ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره .

﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ أى الظنون المختلفة ، فبعضهم ظنّ النصر ورجا الظفر ، وبعضهم ظنّ خلاف ذلك. وقال الحسن : ظنّ المنافقون أنه يستأصل محمد وأصحابه ، وظن المؤمنون أنه ينصر . وقيل : الآية خطاب للمنافقين ، والأولى ما قاله الحسن . فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعمّ من أن يكون مؤمنا فى الواقع أو منافقا واختلف القراء فى هذه الألف فى ﴿ **الظنونا** ﴾ : فأثبتها وصلا ووقفا نافع وابن عامر وأبو بكر ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو والكسائى، وتمسكوا بخط المصحف العثمانى وجميع المصاحف فى جميع البلدان فإن الألف فيها كلها ثابتة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد إلا أنه قال : لا ينبغى للقارئ أن يدرج القراءة بعدهنّ بل يقف عليهنّ ، وتمسكوا أيضا بما فى أشعار العرب من مثل هذا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والجحدرى ويعقوب بحذفها فى الوصل والوقف معا ، وقالوا : هى من زيادات الخطّ فكتبت كذلك ، ولا ينبغى النطق بها . وأما فى الشعر فهو يجوز فيه للضرورة مالا يجوز فى غيره . وقرأ ابن كثير والكسائى وابن محيصن بإثباتها وقفا وحذفها وصلا ، وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية ، وهذه الألف هى التى تسميها النحاة ألف الإطلاق ، والكلام فيها معروف فى علم النحو ، وهكذا اختلف القراء فى الألف التى فى قوله : ﴿**الرسولا**﴾ ، و﴿ **السبيلا** ﴾ كما سيأتى آخر هذه السورة .

﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون** ﴾ الظرف منتصب بالفعل الذى بعده . وقيل :بـ ﴿ **تظنون** ﴾ ، واستضعفه ابن عطية ، وهو ظرف مكان ، يقال للمكان البعيد : هنالك ، كما يقال للمكان القريب : هنا ، وللمتوسط : هناك . وقد يكون ظرف زمان ، أى عند ذلك الوقت ابتلى المؤمنون ، ومنه قول الشاعر :

وإذا الأمور تعاظمت وتشاكلت فهناك يعــترفون أيــن المـفزع ؟

أى فى ذلك الوقت ، والمعنى : أن فى ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال ؛ ليتبين المؤمن من المنافق ﴿ **وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **زلزلوا** ﴾ بضم الزاى الأولى وكسر الثانية على ماهو الأصل فى المبنىّ للمفعول ، وروى عن أبى عمرو أنه قرأ بكسر الأولى ، وروى الزمخشرى عنه أنه قرأ بإشمامها كسرا، وقرأ الجمهور : ﴿ **زلزالا** ﴾ بكسر الزاى الأولى ، وقرأ عاصم والجحدرى وعيسى بن عمر بفتحها . قال الزجاج : كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح. نحو : قلقلته قلقالا ، وزلزلوا زلزالا ، والكسر أجود . قال ابن سلام : معنى ﴿ **زلزلوا** ﴾ : حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : المعنى : أنهم اضطربوا اضطرابا مختلفا ، فمنهم من اضطرب فى نفسه ، ومنهم من اضطرب فى دينه .

﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ معطوف على ﴿ **إذ زاغت الأبصار** ﴾ ، والمرض فى القلوب هو: الشك والريبة ، والمراد بـ﴿ **المنافقون** ﴾ : عبد الله بن أبىّ وأصحابه ، وبـ﴿ **الذين فى قلوبهم مرض**﴾ : أهل الشك والاضطراب . ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ من النصر والظفر ﴿ **إلا غرورا** ﴾ أى باطلا من القول ، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلا من أهل النفاق والشك ، وهذا القول المحكى عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة ، أى كان ظنّ هؤلاء هذا الظنّ ، كما كان ظنّ المؤمنين النصر وإعلاء كلمة الله .

﴿ **وإذ قالت طائفة منهم** ﴾ أى من المنافقين . قال مقاتل : هم بنو سالم من المنافقين وقال السدّى : هم عبد الله بن أبى وأصحابه . وقيل : هم أوس بن قَيْظى وأصحابه ، والطائفة تقع على الواحد فما فوقه ، والقول الذى قالته هذه الطائفة هو قوله : ﴿ **يا أهل يثرب لا مقام لكم** ﴾ أى لا موضع إقامة لكم ، أو لا إقامة لكم ها هنا فى العسكر . قال أبو عبيد : يثرب اسم الأرض ، ومدينة النبى ﷺ فى ناحية منها . قال السهيلى : وسميت يثرب ، لأن الذى نزلها من العمالقة اسمه يثرب بن عبيل [١] ، قرأ الجمهور : « لا مقام لكم » بفتح الميم ، وقرأ حفص والسلمى والجحدرى وأبو حيوة بضمها ، على أنه مصدر من أقام يقيم ، وعلى القراءة الأولى هو اسم مكان ﴿ **فارجعوا** ﴾ أى إلى منازلكم ، أمروهم بالهرب من عسكر النبىّ ﷺ ، وذلك أن رسول الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع والخندق بينهم وبين القوم ، فقال هؤلاء المنافقون : ليس هاهنا موضع إقامة ، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة . ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى** ﴾ معطوف على ﴿ **قالت طائفة منهم** ﴾ أى يستأذنون فى الرجوع إلى منازلهم وهم بنو حارثة وبنو سلمة، وجملة : ﴿ **يقولون** ﴾ بدل من قوله: ﴿ **يستأذن** ﴾ أوحال أو استئناف جوابا لسؤال مقدّر ، والقول الذى قالوه هو قولهم :

---

(١) هو يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل . ولما نزلها الرسول ﷺ سماها طيبة وطابة كراهة للتثريب ، وسميت مدينة رسول الله ﷺ لنزوله بها معجم البلدان ٥/ ٤٣٠ .

﴿ **إن بيوتنا عورة** ﴾ أى ضائعة سائبة ليست بحصينة ولا ممتنعة من العدوّ . قال الزجاج : يقال: عور المكان يعور عورا وعورة ، وبيوت عوْرة وعوِرة ، وهى مصدر . قال مجاهد ومقاتل والحسن : قالوا : بيوتنا ضائعة نخشى عليها السرّاق . وقال قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلى العدوّ ولا نأمن على أهلنا . قال الهروى : كل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة ، والعورة فى الأصل : الخلل فأطلقت على المختل ، والمراد : ذات عورة ، وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رجاء العطاردى : « عورة » بكسر الواو ، أى قصيرة الجدران . قال الجوهرى :العورة كل حال يتخوف منه فى ثغر أو حرب . قال النحاس : يقال أعور المكان : إذا تبينت فيه عورة ، وأعور الفارس : إذا تبين منه موضع الخلل ، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **وما هى بعورة**﴾ فكذّبهم اللّه سبحانه فيما ذكروه ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم بين سبب استئذانهم وما يريدونه به ، فقال : ﴿ **إن يريدون إلافرارا** ﴾ أى ما يريدون إلا الهرب من القتال . وقيل : المراد : ما يريدون إلا الفرار من الدين .

﴿ **ولو دخلت عليهم من أقطارها** ﴾ يعنى بيوتهم أو المدينة، والأقطار: النواحى جمع قطر ، وهو الجانب والناحية ، والمعنى : لو دخلت عليهم بيوتهم أو المدينة من جوانبها جميعا لا من بعضها ، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة ، واستبيحت ديارهم ، وهتكت حرمهم ومنازلهم ﴿**ثم سئلوا الفتنة** ﴾ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم ﴿ **لآتوها** ﴾ أى لجاؤوها أو أعطوها ، ومعنى الفتنة هنا : إما القتال فى العصبية ، كما قال الضحاك ، أو الشرك باللّه والرجعة إلى الكفر الذى يبطنونه ويظهرون خلافه ، كما قال الحسن . قرأ الجمهور :﴿ **لآتوها**﴾ بالمدّ، أى لأعطوها من أنفسهم ، وقرأ نافع وابن كثير بالقصر ، أى لجاؤوها ﴿ **وما تلبثوا بها إلا يسيرا** ﴾ أى بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبثا يسيرا حتى يهلكوا ، كذا قال الحسن والسدّى والفراء والقتيبى . وقال أكثر المفسرين : إن المعنى : وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها ، لا يقفون عنها إلا مجرّد وقوع السؤال لهم ، ولا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم فى هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة، كما تعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة ، ولم تكن إذ ذاك عورة .

ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل ، من المعاهدة للّه ولرسوله بالثبات فى الحرب ، وعدم الفرار عنه فقال : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار**﴾ أى من قبل غزوة الخندق ومن بعد بدر، قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى اللّه أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا : لئن أشهدنا اللّه قتالا لنقاتلنّ ، وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿ **وكان عهد الله مسؤولا** ﴾ أى مسؤولا عنه ، ومطلوبا صاحبه بالوفاء به ، ومجازى على ترك الوفاء به . ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل** ﴾ فإن من حضر أجله مات أو قتل فرّ أو لم يفرّ ﴿ **وإذا لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ أى تمتعا قليلا أو زمانا قليلا بعد فرارهم إلى أن تنقضى آجالهم ، وكل ما هو آت فهو قريب قرأ الجمهور: ﴿ **تمتعون** ﴾

بالفوقية ، وقرأ يعقوب الحضرمى فى رواية الساجى عنه بالتحتية . وفى بعض الروايات « لا تمتعوا » بحذف النون إعمالا لـ« إذن »، وعلى قراءة الجمهور هى ملغاة .

﴿ **قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا** ﴾ أى هلاكا أو نقصا فى الأموال وجدبا ومرضا ﴿ **أو أراد بكم رحمة** ﴾ يرحمكم بها من خصب ونصر وعافية ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليا** ﴾ يواليهم ويدفع عنهم ﴿ **ولا نصيرا** ﴾ ينصرهم من عذاب الله .

وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى مريم الغسانى أن أعرابيا قال : يارسول الله ، أىّ شىء كان أوّل نبوّتك ؟ قال :« أخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ، ثم تلا : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ ، ودعوة إبراهيم قال : ﴿ وابعث فيهم رسولا منهم﴾ [البقرة : ٢٩] ، وبشرى عيسى ابن مريم » ورأت أمّ رسول الله ﷺ فى منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قيل : يارسول الله ، متى أخذ ميثاقك ؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد » [(١)] . وأخرج البزار، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه قال : قيل : يارسول الله، متى كنت نبيا ؟ قال :« وآدم بين الروح والجسد » . وفى الباب أحاديث قد صحح بعضها . وأخرج الحسن بن سفيان وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل والديلمى وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ فى قوله: ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ الآية قال : « كنت أوّل النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » [(٢)] فبدأ به قبلهم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : ﴿ **ميثاقهم** ﴾ عهدهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى بسند صحيح ، عن ابن عباس ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ قال : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل ، وابن عساكر من طرق عن حذيفة قال : لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا ؛ نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشدّ ظلمة ولا أشدّ ريحا فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحد منا

---

(١) الطبرانى ٢٢/ ٣٣٣ (٨٣٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٢٧ : «ورجاله وثقوا » وفيه حجر بن حجر قال الحافظ فى تقريب التهذيب ١/ ١٥٥ / ١٧٠ : « مقبول » وأخرج الحاكم نحوه عن العرباض بن سارية وصححه ٢/ ٤١٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ١/ ٨٣ .

(٢) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٤٠٢) عن عبد الله بن شقيق وأحمد ٥/ ٣٧٩ عنه أيضا والترمذى فى المناقب (٣٦٠٩) عن أبى هريرة وقال : «حديث حسن صحيح غريب » وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٢٦ : « رجال أحمد رجال الصحيح » كما أخرجه أبو نعيم فى الدلائل ص ١٢ والديلمى (٤٨٥٠) وقال ابن كثير ٥/ ٤٢٨ : « سعيد بن بشير فيه ضعف ، وقد رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة به مرسلا وهو أشبه ورواه بعضهم عن قتادة مرفوعا ، والله أعلم » .

أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون : ﴿ **إن بيوتنا عورة وما هى بعورة** ﴾ فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له ، فيتسللون ونحن ثلثمائة ، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلا حتى مرّ علىّ وما علىّ جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتى مايجاوز ركبتى ، فأتانى وأنا جاث على ركبتى فقال : « من هذا ؟ » فقلت : حذيفة ، قال : «حذيفة ؟ » ، فتقاصرت إلى الأرض ، فقلت: بلى يارسول الله كراهية أن أقوم، قال: « قم ». فقمت ، فقال : « إنه كان فى القوم خبر ، فأتنى بخبر القوم » ، قال : وأنا من أشدّ القوم فزعا وأشدّهم قرّا ، فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ :« اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» ؛ قال : فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد منه شيئا ؛ فلما وليت قال :« يا حذيفة لا تحدثنّ فى القوم شيئا حتى تأتينى» ، فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل ، ثم دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيل الرحيل لا مقام لكم ، وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز شبرا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضربهم ،ثم خرجت نحو النبى ﷺ فلما انتصفت فى الطريق أو نحو ذلك إذ أنا بنحو من عشرين فارسًا معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته وهو مشتمل فى شملة يصلى ، وكان إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم أنى تركتهم يترحلون ، وأنزل الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ جاءتكم جنود** ﴾ قال : كان يوم أبى سفيان يوم الأحزاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى ، وأبو الشيخ وابن مردويه، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت : انطلقى فانصرى الله ورسوله ، فقالت الجنوب : إن الحرّة لا تسرى بالليل ، فغضب الله عليها وجعلها عقيما ، فأرسل عليهم الصبا ، فأطفأت نيرانهم وقطعت أطنابهم فقال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » ، فذلك قوله : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » (٢) . وأخرج البخارى وغيره عن عائشة فى قوله : ﴿ **إذ جاؤوكم من فوقكم** ﴾ الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق(٣). وفى الباب أحاديث فى وصف

---

(١) صححه الحاكم٣/ ٣١ ووافقه الذهبى،وأبو نعيم فى الدلائل ص ٤٣٣ ـ٤٣٥ والبيهقى فى الدلائل٣/ ٤٥٠ــ٤٥٣ وابن عساكر فى التهذيب ٤/ ١٠١ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٠٣) ومسلم فى التفسير (٣٠٢٠/ ١٢) والنسائى فى التفسير (٤١٨) .

هذه الغزوة وما وقع فيها ، وقد اشتملت عليها كتب الغزوات والسير . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب ، وهى المدينة تنفى البأس كما ينفى الكير خبث الحديد »[1] . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال : قال رسول اللّه ﷺ: « من سمى المدينة يثرب فليستغفر اللّه ، هى طابة ، هى طابة، هى طابة»[2] ولفظ أحمد : « إنما هى طابة » وإسناده ضعيف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن جريروابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ويستأذن فريق منهم النبى**﴾ قال : هم بنو حارثة قالوا : ﴿ **بيوتنا عورة** ﴾ أى مختلة نخشى عليها السرق. وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة : ﴿ **ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها** ﴾ قال : لأعطوها : يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على المدينة.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾.

---

(١) البخارى فى فضائل المدينة (١٨٧١) ومسلم فى الحج (١٣٨٢ / ٤٨٨) والنسائى فى التفسير (٤١٩) .

(٢) أحمد ٤/ ٢٨٥ وأبو يعلى (١٦٨٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٣٠٣ : «رجاله ثقات » قلت : بل إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبى زياد الهاشمى قال الحافظ فى التقريب ٢/ ٣٦٥ (٢٥٤) : « ضعيف كبر فتغير ، صار يتلقن ، وكان شيعيًا » وقال ابن كثير ٥/ ٤٣٤ : « وفى إسناده ضعف » .

قوله : ﴿ قد يعلم الله المعوّقين منكم ﴾ يقال : عاقه واعتاقه وعوّقه : إذا صرفه عن الوجه الذى يريده . قال الواحدى : قال المفسرون : هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى ﷺ ، وذلك أنهم قالوا لهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان وحزبه ، فخلوهم وتعالوا إلينا . وقيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا ﴿لإخوانهم﴾ من المنافقين : ﴿ هلم إلينا ﴾ ومعنى ﴿ هلم ﴾: أقبل واحضر . وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث ، وغيرهم من العرب يقولون : هلم للواحد المذكر ، وهلمى للمؤنث ، وهلما للاثنين ، وهلموا للجماعة ، وقد مرّ الكلام على هذا فى سورة الأنعام ﴿ ولا يأتون البأس ﴾ أى الحرب ﴿ إلا قليلا ﴾ خوفا من الموت . وقيل : المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير احتساب ﴿ أشحة عليكم ﴾ أى بخلاء عليكم لا يعاونونكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة فى سبيل اللّه ، قاله مجاهد وقتادة . وقيل : أشحة بالقتال معكم . وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم . وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها . قاله السدّى . وانتصابه على الحال من فاعل ﴿ يأتون ﴾ . أومن ﴿ المعوقين ﴾ . وقال الفراء : يجوز فى نصبه أربعة أوجه : منها النصب على الذم ، ومنها بتقدير فعل محذوف ، أى يأتونه أشحة . قال النحاس: ولا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين ولا القائلين ؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول.

﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم ﴾ أى تدور يمينا وشمالا ، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه ﴿ كالذى يغشى عليه من الموت ﴾ أى كعين الذى يغشى عليه الموت ، وهو الذى نزل به الموت وغشيته أسبابه ، فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف ، ويقال للميت إذا شخص بصره : دارت عيناه ، ودارت حماليق عينيه ، والكاف نعت مصدر محذوف ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ يقال : سلق فلان فلانا بلسانه : إذا أغلظ له فى القول مجاهرا. قال الفراء : أى آذوكم بالكلام فى الأمن بألسنة سليطة ذربة. ويقال : خطيب مسلاق ومصلاق: إذا كان بليغا ، ومنه قول الأعشى :

فيهـم المجْـد والسماحة والنجـ ـدة فيهم والخاطب السلاق

قال القتيبى : المعنى : آذوكم بالكلام الشديد ، والسلق الأذى ، ومنه قول الشاعر :

ولقـــد سلقت هـــوازنا بنـــو أهـــل حتى انحنينا

قال قتادة : معنى الآية : بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت الغنيمة يقولون : أعطنا فإنا قد شهدنا معكم .فعند الغنيمة أشحّ قوم وأبسطهم لسانا ، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم . قال النحاس: وهذا قول حسن، وانتصاب ﴿ أشحة على الخير ﴾ على الحالية من فاعل ﴿ سلقوكم﴾، ويجوز أن يكون نصبه على الذمّ . وقرأ ابن أبى عبلة برفع « أشحة » ، والمراد هنا : أنهم

أشحة على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة ، قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه فى سبيل اللّه. قاله السدّى. ويمكن أن يقال :معناه : أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿ **لم يؤمنوا** ﴾ إيمانا خالصا بل هم منافقون ، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ **فأحبط الله أعمالهم** ﴾ أى أبطلها بمعنى أظهر بطلانها لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضى الثواب حتى يبطلها اللّه . قال مقاتل : أبطل جهادهم لأنه لم يكن فى إيمان ﴿ **وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ أى وكان ذلك الإحباط لأعمالهم ، أو كان نفاقهم على اللّه هينا .

﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون فى معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم ، وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع ﴿ **وإن يأت الأحزاب**﴾ مرة أخرى بعد هذه المرة ﴿ **يودّوا لو أنهم بادون فى الأعراب** ﴾ أى يتمنون أنهم فى بادية الأعراب لما حلّ بهم من الرهبة ، والبادى خلاف الحاضر ، يقال : بدا يبدو بداوة إذا خرج إلى البادية ﴿ **يسألون عن أنبائكم** ﴾ أى عن أخباركم وما جرى لكم ، كل قادم عليهم من جهتكم. أو يسأل بعضهم بعضا عن الأخبار التى بلغته من أخبار الأحزاب ورسول اللّه ﷺ . والمعنى : أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم وضعف نياتهم ﴿ **ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا** ﴾ أى لو كانوا معكم فى هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا خوفا من العار وحمية على الديار .

﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ أى قدوة صالحة ، يقال: لى فى فلان أسوة، أى لى به ، والأسوة من الائتساء ، كالقدوة من الاقتداء : اسم يوضع موضع المصدر . قال الجوهرى : والأسوة والإسوة بالضم والكسر ، والجمع أسى وإسى . قرأ الجمهور ﴿ **أسوة** ﴾ بالضم للهمزة ، وقرأ عاصم بكسرها ، وهما لغتان كما قال الفراء وغيره . وفى هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول اللّه ﷺ ، أى لقد كان لكم فى رسول اللّه حيث بذل نفسه للقتال وخرج إلى الخندق لنصرة دين اللّه أسوة ، وهذه الآية وإن كان سببها خاصا فهى عامة فى كل شىء ، ومثلها:﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر:٧]، وقوله: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١] ، واللام فى ﴿**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ متعلق بـ﴿**حسنة**﴾ ، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿**حسنة**﴾ ، أى كائنة لمن يرجو اللّه . وقيل : إن الجملة بدل من الكاف فى لكم، وردّه أبو حيان وقال : إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار . ويجاب عنه بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون والأخفش وإن منعه البصريون ، والمراد بـ﴿ **من كان يرجو الله** ﴾: المؤمنون؛ فإنهم الذين يرجون اللّه ويخافون عذابه، ومعنى يرجون اللّه : يرجون ثوابه أو لقاءه ، ومعنى يرجون اليوم الآخر: أنهم يرجون رحمة اللّه فيه ، أو يصدقون بحصوله وأنه كائن لا محالة ، وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى ﴿ **وذكر الله كثيرا** ﴾ معطوف على ﴿ **كان** ﴾، أى ولمن ذكر اللّه فى جميع

أحواله ذكرا كثيرا ، وجمع بين الرجاء للّه والذكر له ، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول اللّه ﷺ .

ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب ، ومشاهدتهم لتلك الجيوش التى أحاطت بهم كالبحر العباب فقال : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ الإشارة بقوله : ﴿**هذا**﴾ إلى ما رأوه من الجيوش ، أو إلى الخطب الذى نزل والبلاء الذى دهم ، وهذا القول منهم قالوه استبشارا بحصول ما وعدهم اللّه ورسوله من مجيء هذه الجنود ، وإنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند اللّه ، و « ما » فى: ﴿ **ما وعدنا الله** ﴾ هى الموصولة ، أو المصدرية ، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم : ﴿ **وصدق الله ورسوله** ﴾ أى ظهر صدق خبر اللّه ورسوله ﴿ **وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾ أى ما زادهم ما رأوه إلا إيمانا بالله وتسليما لأمره . قال الفراء : ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانا وتسليما . قال علىّ بن سليمان : ﴿ **رأى** ﴾ يدل على الرؤية وتأنيث الرؤية غير حقيقى ، والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيمانا للرب وتسليما للقضاء ، ولو قال : ما زادتهم لجاز .

﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ أى من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا : أتوا بالصدق ، من صدقنى إذا قال الصدق ، ومحل ﴿ **ما عاهدوا الله عليه** ﴾ النصب بنزع الخافض ، والمعنى : أنهم وفوا بما عاهدوا عليه رسول اللّه ﷺ ليلة العقبة من الثبات معه ، والمقاتلة لمن قاتله ، بخلاف من كذب فى عهده وخان اللّه ورسوله وهم المنافقون . وقيل : هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه ﷺ ثبتوا له ولم يفروا، ووجه إظهار الاسم الشريف ، والرسول فى قوله : ﴿ **صدق الله ورسوله** ﴾ بعد قوله : ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ هو قصد التعظيم كما فى قول الشاعر :

أرى الموت لا يسبق الموت شىء

وأيضا لو أضمرهما لجمع بين ضمير اللّه وضمير رسوله فى لفظ واحد . وقال صدقا ، وقد ورد النهى عن جمعهما كما فى حديث : « بئس خطيب القوم أنت » لمن قال : ومن يعصهما (١) فقد غوى (٢) . ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا اللّه ورسوله وقسمهم إلى قسمين فقال : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾ النحب : ما التزمه الإنسان واعتقد الوفاء به ، ومنه قال الشاعر :

عشية فرّ الحارثيون بعد ما ... قضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

وقال الآخر :

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا ... عشية بسطام جرين على نحب

(١) فى المطبوعة : « يعصها » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ٤/٢٥٦ ومسلم فى الجمعة (٨٧٠/٤٨) وأبوداود فى الأدب (١٠٩٩) والنسائى فى الكبرى فى النكاح (٥٥٣٠/١) كلهم عن عدى بن حاتم .

أى على أمر عظيم . والنحب يطلق على النذر والقتل والموت . قال ابن قتيبة : قضى نحبه : أى قتل وأصل النحب : النذر . كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا ، أو يفتح اللّه لهم فقتلوا ، فقيل : فلان قضى نحبه ، أى قتل ، والنحب أيضا الحاجة وإدراك الأمنية ، يقول قائلهم : ما لى عندهم نحب ، والنحب : العهد ، ومنه قول الشاعر :

لقد نحبت كلب على الناس إنهم أحقّ بتـــــاج المـاجد المتــكرّم

وقال آخر :

قـــد نحـــب المجد علينـــا نحـــبا

ومن ورود النحب فى الحاجة وإدراك الأمنية قول الشاعر:

أنحب فيقـــضى أم ضلال وباطل

ومعنى الآية : أن من المؤمنين رجالا أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا ، وذلك يوم أحد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ﴿ **ومنهم من ينتظر** ﴾ قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان وطلحة والزبير وأمثالهم ، فإنهم مستمرّون على الوفاء بما عاهدوا اللّه عليه ، من الثبات مع رسول الله ﷺ والقتال لعدّوه ، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل ، وإدراك فضل الشهادة ، وجملة : ﴿ **وما بدّلوا تبديلا** ﴾ معطوفة على صدقوا ، أى ماغيروا عهدهم الذى عاهدوا اللّه ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم ، بل ثبتوا عليه ثبوتا مستمرا ، أما الذين قضوا نحبهم فظاهر ، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدّلوا. واللام فى قوله : ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿ **صدقوا** ﴾ أو بـ﴿ **زادهم** ﴾، أو بـ﴿ **ما بدلوا** ﴾، أو بمحذوف ، كأنه قيل : وقع جميع ما وقع ليجزى اللّه الصادقين بصدقهم ﴿**ويعذب المنافقين إن شاء** ﴾ بما صدر عنهم من التغيير والتبديل ، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم ، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب ، فكأنهما استويا فى طلبها والسعى لتحصيلها ، ومفعول ﴿ **إن شاء** ﴾ وجوابها محذوفان ، أى إن شاء تعذيبهم عذبهم ، وذلك إذا أقاموا على النفاق ولم يتركوه ويتوبوا عنه ﴿ **إن الله كان غفورا رحيما** ﴾ أى لمن تاب منهم وأقلع عما كان عليه من النفاق .

ثم رجع سبحانه إلى حكاية بقية القصة وما امتنّ به على رسوله والمؤمنين من النعمة فقال: ﴿ **وردّ الله الذين كفروا** ﴾ وهم الأحزاب ، والجملة معطوفة على ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا** ﴾ أو على المقدر عاملاً فى ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** ﴾ ، كأنه قيل : وقع ماوقع من الحوادث وردّ اللّه الذين كفروا ، ومحل ﴿ **بغيظهم** ﴾ النصب على الحال، والباء للمصاحبة ، أى حال

كونهم متلبسين بغيظهم ومصاحبين له ، ويجوز أن تكون للسببية ، وجملة: ﴿ **لم ينالوا خيرا** ﴾ فى محل نصب على الحال أيضا من الموصول ،أو من الحال الأولى على التعاقب ،أو التداخل. والمعنى : أن اللّه ردّهم بغيظهم لم يشف صدورهم ولا نالوا خيرا فى اعتقادهم ، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيرا أىّ خير ، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر وغرم النفقة ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة ﴿ **وكان الله قويا عزيزا** ﴾ على كل ما يريده إذا قال له: كن ، كان ، عزيزا غالبا قاهرا لا يغالبه أحد من خلقه ولا يعارضه معارض فى سلطانه وجبروته .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **سلقوكم** ﴾ قال : استقبلوكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ قال : هينا . وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر وابن النجار عن عمر فى قوله : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ قال : فى جوع رسول اللّه ﷺ ، وقد استدلّ بهذه الآية جماعة من الصحابة فى مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة ، وهى خارجة عما نحن بصدده . وأخرج ابن جرير وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب** ﴾ إلى آخر الآية قال : إن اللّه قال لهم فى سورة البقرة : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضرّاء ﴾ [البقرة : ٢١٤] فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب فى الخندق ﴿ **قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ فتأوّل المسلمون ذلك فلم يزدهم ﴿ **إلا إيمانا وتسليما** ﴾ .

وأخرج البخارى وغيره عن أنس قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ (١) . وأخرج ابن سعد وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى ، والبغوى فى معجمه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال : أوّل مشهد شهده رسول اللّه ﷺ غبت عنه، لئن أرانى اللّه مشهدا مع رسول اللّه ﷺ فيما بعد، ليرينّ اللّه ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو وأين ؟ قال : واها لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية: ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه (٢) .وقد روى عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذى وصححه والنسائى وغيرهما (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة أن رسول اللّه

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٨٣) .

(٢) أحمد ٣/ ١٩٤ ومسلم فى الإمارة (١٩٠٣/ ٤٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٠٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى المناقب (٨٢٩١/ ٢) وابن جرير ٢١/ ٩٣ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٤٤ كلهم من رواية ثابت عن أنس .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٠١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٢٣) وأخرجه =

ﷺ حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له، ثم قرأ : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ الآية ، ثم قال : «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله فأتوهم وزوروهم ،والذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه » (١) وقد تعقب الحاكم فى تصحيحه الذهبى ، كما ذكر ذلك السيوطى ، ولكنه قد أخرج الحاكم حديثا آخر وصححه . وأخرجه أيضا البيهقى فى الدلائل عن أبى ذرّ قال : لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مرّ على مصعب بن عمير مقتولا على طريقه ، فقرأ : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله ، وهما يشهدان لحديث أبى هريرة .

وأخرج الترمذى وحسنه ، وأبو يعلى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن طلحة ؛ أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابىّ جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه ، فسأله الأعرابى فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم إنى اطلعت من باب المسجد فقال : « أين السائل عمن قضى نحبه ؟ » قال الأعرابى: أنا ، قال : « هذا ممن قضى نحبه » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من حديثه نحوه. وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه»(٤) . وأخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى وأبو نعيم وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة » (٥) . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله . وأخرج ابن منده وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبى بكر نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن علىّ؛ أن هذه الآية نزلت فى طلحة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **فمنهم من قضى نحبه** ﴾ قال : الموت على ما عاهدوا الله عليه ، ومنهم من ينتظر الموت على ذلك . وأخرج أحمد والبخارى وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن

= البخارى فى الجهاد (٢٨٠٥) كلهم عن حميد الطويل عن أنس وقد صرح حميد بالسماع عن أنس فأمن تدليسه.

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٨ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « وأنا أحسبه موضوعًا ، وقطن بن وهب لم يرو له البخارى ، وعبد الأعلى لم يخرجا له » والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٨٤ .

(٢) صححه الحاكم ٣ / ٢٠٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٨٥ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٠٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وأبو يعلى (٦٦٣) وابن جرير ٢١/ ٩٣ والطبرانى (٢١٧) .

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٢٠٢) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢١/ ٩٤ وأخرجه ابن ماجة فى المقدمة (١٢٦) . قلت : وفيه إسحاق بن يحيى بن طلحة . قال الحافظ فى التقريب ١/ ٦٢ (٤٤٣) :« ضعيف » .

(٥) أبو يعلى (٤٨٩٨) وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٨٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ١٥١ : « فيه صالح بن موسى وهو متروك » .

نغزوهم ولا يغزونا »[1] وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه** ﴾ قال : مات على ماهو عليه من التصديق والإيمان ﴿ **ومنهم من ينتظر** ﴾ ذلك ﴿ **وما بدلوا تبديلا** ﴾ لم يغيروا كما غير المنافقون .

﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)** ﴾.

قوله : ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب** ﴾ أى عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله ﷺ وهم بنو قريظة؛ فإنهم عاونوا الأحزاب ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وصاروا يدا واحدة مع الأحزاب . والصياصى جمع صيصية : وهى الحصون ، وكل شىء يتحصن به يقال له : صيصية ، ومنه صيصية الديك ، وهى الشوكة التى فى رجله ، وصياصى البقر قرونها لأنها تمتنع بها ، ويقال لشوكة الحائك التى يسوّى بها السداة واللحمة: صيصية ، ومنه قول دريد بن الصمة :

فـجئـت إلـيه والرمـاح تنـوشـه ... كوقع الصياصى فى النسيج الممدد

ومن إطلاقها على الحصون قول الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت ... نسـاء تميم يبتـدرن الـصيـاصيا

﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ أى الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى وهى معنى قوله: ﴿ **فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ فالفريق الأوّل: هم الرجال، والفريق الثانى :هم النساء والذرية، وهذه الجملة مبنية ومقرّرة لقذف الرعب فى قلوبهم . قرأ الجمهور : ﴿ **تقتلون** ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وكذلك قرؤوا ﴿ **تأسرون** ﴾ وقرأ ابن ذكوان فى رواية عنه بالتحتية فيهما ، وقرأ اليمانى بالفوقية فى الأوّل والتحتية فى الثانى ، وقرأ أبوحيوة : « تأسرون » بضم السين . وقد حكى الفراء كسر السين وضمها فهما لغتان ، ووجه تقديم مفعول الفعل الأوّل وتأخير مفعول الفعل الثانى أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة ، وكان الوارد عليهم أشدّ الأمرين وهو القتل ، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام . وقد اختلف فى عدد المقتولين والمأسورين ، فقيل :كان المقتولون من ستمائة إلى سبعمائة. وقيل :ستمائة. وقيل:سبعمائة. وقيل :ثمانمائة . وقيل: تسعمائة ، وكان المأسورون سبعمائة وخمسين . وقيل : تسعمائة .

﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم** ﴾ المراد بالأرض: العقار والنخيل، وبالديار: المنازل

(١) أحمد ٤/ ٢٦٢ والبخارى فى المغازى (٤١١٠) .

والحصون ، وبالأموال: الحليّ والأثاث والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير ﴿ **وأرضا لم تطؤوها** ﴾ أي وأورثكم أرضا لم تطؤوها ، وجملة : ﴿ **تطؤوها** ﴾ صفة لـ﴿ **أرضا** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **لم تطؤوها** ﴾ بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ زيد بن علي : « تطوها » بفتح الطاء وواو ساكنة . واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة ، فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل : إنها خيبر ، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها ، فوعدهم اللّه بها . وقال قتادة: كنا نتحدّث أنها مكة . وقال الحسن : فارس والروم. وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة . ﴿ **وكان الله على كل شيء قديرا** ﴾ أي هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير وشرّ ونعمة ونقمة ، وعلى إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ **من صياصيهم** ﴾ قال : حصونهم . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفو الناس ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ورماه رجل من قريش يقال له: ابن العرقة [1] بسهم فأصاب أكحله فقطعه، فدعا اللّه سعد فقال : اللهم لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة ، فبعث اللّه الريح على المشركين ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ، ورجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدم ، فضربت على سعد في المسجد ، قالت : فجاء جبريل ، وإن على ثناياه لوقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا واللّه ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم ، فلبس رسول اللّه ﷺ لأمته ، وأذّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما اشتدّ حصرهم واشتدّ البلاء عليهم ، قيل لهم : انزلوا على حكم رسول اللّه ، قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ ، فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار ، فقال رسول اللّه ﷺ : « احكم فيهم » ، قال : فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم ، فقال « لقد حكمت فيهم بحكم اللّه وحكم رسوله » [2] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا**

---

(١) في المخطوطة : « ابن الفرقده » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

(٢) ابن أبي شيبة في المغازي (١٨٦٤٣) وأحمد ٦/ ١٤١ وأخرج نحوه البخاري في المغازي (٤١٢٢) ومسلم في الجهاد (١٧٦٩/ ٦٥) عن عائشة أيضا .

نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾.

قوله : ﴿ **يأيها النبىّ قل لأزواجك** ﴾ قيل : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّمها من المنع من إيذاء النبىّ ﷺ ، وكان قد تأذّى ببعض الزوجات . قال الواحدى : قال المفسرون : إن أزواج النبى ﷺ سألنه شيئا من عرض الدنيا، وطلبن منه الزيادة فى النفقة ، وآذينه بغيرة بعضهنّ على بعض ، فآلى رسول اللّه ﷺ منهنّ شهرا ، وأنزل اللّه آية التخيير هذه ، وكنّ يومئذ تسعا: عائشة وحفصة وأمّ سلمة وأمّ حبيبة وسودة هؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية . ومعنى ﴿ **الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ سعتها ونضارتها ورفاهيتها والتنعم فيها ﴿ **فتعالين** ﴾ أى أقبلن إلىّ ﴿**أمتعكنّ** ﴾ بالجزم جوابا للأمر ، أى أعطيكن المتعة ،وكذا ﴿ **أسرحكنّ** ﴾ بالجزم، أى أطلقكنّ وبالجزم فى الفعلين قرأ الجمهور ، وقرأ حميد الخراز بالرفع فى الفعلين على الاستئناف ، والمراد بالسراح الجميل هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة . وقيل : إن جزم الفعلين ،على أنهما جواب الشرط ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ **فتعالين** ﴾ اعتراضا بين الشرط والجزاء . و﴿ **وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة** ﴾ أى الجنة ونعيمها ﴿ **فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكن** ﴾ أى اللاتى عملن عملا صالحا ﴿ **أجرا عظيما** ﴾ لا يمكن وصفه ، ولا يقادر قدره وذلك بسبب إحسانهن، وبمقابلة صالح عملهنّ .

وقد اختلف العلماء فى كيفية تخيير النبىّ ﷺ أزواجه على قولين : القول الأوّل : أنه خيرهنّ بإذن اللّه فى البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترن البقاء ، وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبى والزهرى وربيعة . والقول الثانى : أنه إنما خيرهنّ بين الدنيا فيفارقهنّ ، وبين الآخرة فيمسكهن ولم يخيرهنّ فى الطلاق ، وبهذا قال علىّ والحسن وقتادة ، والراجح الأوّل . واختلفوا أيضا فى المخيرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرّد ذلك التخيير على الزوج طلقة أم لا ؟ فذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا لا واحدة ولا أكثر. وقال على وزيد بن ثابت: إن اختارت زوجها فواحدة بائنة ، وبه قال الحسن والليث . وحكاه الخطابى والنقاش عن مالك . والراجح الأوّل لحديث عائشة الثابت فى الصحيحين قالت : خيرنا رسول اللهّ ﷺ فاخترناه فلم يعده طلاقا [١] . ولا وجه

(١) أحمد ٦/ ٤٥ والبخارى فى الطلاق (٥٢٦٢) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٧/ ٢٧) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠٣) =

لجعل مجرد التخيير طلاقا ، ودعوى أنه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة لمجرّد التخيير ، بل أراد تفويض المرأة وجعل أمرها بيدها ، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية ، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة .

واختلفوا فى اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة ؟ فقال بالأوّل عمر وابن مسعود وابن عباس وابن أبى ليلى والثورى والشافعى. وقال بالثانى علىّ وأبو حنيفة وأصحابه، وروى عن مالك . والراجح الأوّل ، لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول اللّه ﷺ نساءه على خلاف ما أمره اللّه به ، وقد أمره بقوله : ﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهنّ ﴾ [الطلاق:١] وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها فثلاث طلقات، وليس لهذا القول وجه . وقد روى عن علىّ أنها إذا اختارت نفسها فليس بشىء ، وإذا اختارت زوجها فواحدة رجعية.

ثم لما اختار نساء رسول اللّه ﷺ رسول الله أنزل فيهنّ هذه الآيات تكرمة لهنّ وتعظيما لحقهنّ فقال : ﴿ **يانساء النبىّ من يأت منكنّ بفاحشة مبينة** ﴾ أى ظاهرة القبح واضحة الفحش ، وقد عصمهنّ الله عن ذلك وبرأهنّ وطهرهنّ ﴿ **يضاعف لها العذاب ضعفين** ﴾ أى يعذبهنّ مثلى عذاب غيرهنّ من النساء إذا أتين بمثل تلك الفاحشة ؛ وذلك لشرفهنّ وعلوّ درجتهن وارتفاع منزلتهنّ . وقد ثبت فى هذه الشريعة فى غير موضع أنّ تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات . وقرأ أبو عمرو : « يضعف » على البناء للمفعول ، وفرق هو وأبو عبيد بين يضاعف ويضعف ، فقال : يكون يضاعف ثلاثة عذابات ويضعف عذابين . قال النحاس : هذه التفرقة التى جاء بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة، والمعنى فى يضاعف ويضعف واحد ، أى يجعل ضعفين ، وهكذا ضعف ما قالاه ابن جرير ﴿ **وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ لا يتعاظمه ولا يصعب عليه .

﴿ **ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يقنت** ﴾ بالتحتية ، وكذا قرؤوا :﴿ **يأت منكنّ** ﴾ حملا على لفظ من فى الموضعين ، وقرأ الجحدرى ويعقوب وابن عامر فى رواية وأبو جعفر بالفوقية حملا على المعنى ، ومعنى ﴿ **من يقنت** ﴾ : من يطع ، وكذا اختلف القراء فى ﴿ **مبينة** ﴾ ، فمنهم من قرأها بالكسر ومنهم من قرأها بفتح الياء كما تقدّم فى النساء . وقرأ ابن كثير وابن عامر : « نضعف » بالنون ونصب العذاب، وقرئ : « نضاعف » بكسر العين على البناء للفاعل ﴿ **نؤتها أجرها مرّتين** ﴾ قرأ حمزة والكسائى بالتحتية، وكذا قرأ: « يعمل » بالتحتية ، وقرأ الباقون : ﴿ **تعمل** ﴾ بالفوقية ، « ونؤت » بالنون . ومعنى إتيانهن الأجر مرّتين : أنه يكون لهنّ من الأجر على الطاعة مثلا ما يستحقه غيرهنّ من النساء إذا فعلن تلك الطاعة . وفى هذا دليل قوىّ على أن معنى ﴿ **يضاعف لها العذاب ضعفين** ﴾ : أنه يكون العذاب مرّتين لا ثلاثا ؛ لأن المراد إظهار شرفهن ومزيتهن فى الطاعة والمعصية بكون حسنتهنّ

= والترمذى فى الطلاق (١١٧٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٦/ ٥٦ وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٢) .

كحسنتين ، وسيئتهنّ كسيئتين ، ولو كانت سيئتهن كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهنّ كحسنتين ، فإن اللّه أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهنّ مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهنّ ﴿ **وأعتدنا لها** ﴾ زيادة على الأجر مرّتين ﴿ **رزقا كريما** ﴾.قال المفسرون: الرزق الكريم هو : نعيم الجنة ، حكى ذلك عنهم النحاس .

ثم أظهرسبحانه فضيلتهنّ على سائر النساء تصريحا فقال : ﴿ **يانساء النبىّ لستنّ كأحد من النساء** ﴾ قال الزجاج: لم يقل : كواحدة من النساء ؛ لأن أحد نفى عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة . وقد يقال على ماليس بآدمىّ كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير . والمعنى : لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف . ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال : ﴿ **إن اتقيتنّ** ﴾ فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهنّ إنما تكون بملازمتهنّ للتقوى ، لا لمجرّد اتصالهنّ بالنبىّ ﷺ . وقد وقعت منهنّ وللّه الحمد التقوى البينة ، والإيمان الخالص ، والمشى على طريقة رسول اللّه ﷺ فى حياته وبعد مماته . وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه، أى إن اتقيتنّ فلستنّ كأحد من النساء. وقيل : إن جوابه: ﴿ **فلا تخضعن** ﴾ والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **فلا تخضعن بالقول** ﴾ : لا تلنّ القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء ، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة ، وهى قوله : ﴿ **فيطمع الذى فى قلبه مرض** ﴾ أى فجور وشك ونفاق ، وانتصاب ﴿ **يطمع** ﴾ لكونه جواب النهى . كذا قرأ الجمهور. وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ : « فيطمع » بفتح الياء وكسر الميم . قال النحاس : أحسب هذا غلطا ، ورويت هذه القراءة عن أبى السمال وعيسى بن عمر وابن محيصن ، وروى عنه أنهم قرؤوا بالجزم عطفا على محل فعل النهى ﴿ **وقلن قولا معروفا** ﴾ عند الناس بعيدا من الريبة على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئا ، ولا يطمع فيهنّ أهل الفسق والفجور بسببه.

﴿ **وقرن فى بيوتكنّ** ﴾ قرأ الجمهور : « وقرن » بكسر القاف من وقر يقر وقارا ، أى سكن ، والأمر منه قر بكسر القاف ، وللنساء قرن مثل : عدن وزنّ . وقال المبرد : هو من القرار ، لا من الوقار ، تقول : قررت بالمكان بفتح الراء ، والأصل : اقررن بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفا كما قالوا فى ظللت : ظلت ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف . وقال أبو على الفارسى : أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت فى قيراط ودينار ، وصار للياء حركة الحرف الذى أبدلت منه ، والتقدير : اقيرن ، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قرن . وقرأ نافع وعاصم بفتح القاف . وأصله : قررت بالمكان : إذا أقمت فيه بكسر الراء ، أقرّ بفتح القاف كحمد يحمد ، وهى لغة أهل الحجاز ، ذكر ذلك أبو عبيد عن الكسائى ، وذكرها الزجاج وغيره . قال الفراء : هو كما تقول : هل حست صاحبك ، أى هل أحسسته ؟ قال أبو عبيد : كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف ، وذلك لأن قررت بالمكان أقرّ لا يجوّزه

كثير من أهل العربية . والصحيح قررت أقرّ بالكسر ، ومعناه : الأمر لهنّ بالتوقر والسكون فى بيوتهنّ وأن لا يخرجن ،وهذا يخالف ماذكرناه هنا عنه عن الكسائى وهو من أجلّ مشايخه ، وقد وافقه على الإنكار لهذه القراءة أبو حاتم فقال: إن «قرن» بفتح القاف لا مذهب له فى كلام العرب .قال النحاس : قد خولف أبو حاتم فى قوله إنه لا مذهب له فى كلام العرب ، بل فيه مذهبان : أحدهما : حكاه الكسائى ، والآخر : عن علىّ بن سليمان . فأما المذهب الذى حكاه الكسائى فهو ما قدّمناه من رواية أبى عبيد عنه،وأما المذهب الذى حكاه على بن سليمان، فقال: إنه من قررت به عينا أقرّ. والمعنى : واقررن به عينا فى بيوتكنّ . قال النحاس: وهو وجه حسن . وأقول : ليس بحسن ولا هو معنى الآية ، فإن المراد بها أمرهنّ بالسكون والاستقرار فى بيوتهنّ ، وليس من قرّة العين . وقرأ ابن أبى عبلة : « واقررن » بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة على الأصل .

﴿ **ولا تبرجنّ تبرّج الجاهلية الأولى** ﴾ التبرّج : أن تبدى المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما يستدعى به شهوة الرجل . وقد تقدّم معنى التبرّج فى سورة النور. قال المبرد : هو مأخوذ من السعة ، يقال : فى أسنانه برج : إذا كانت متفرّقة . وقيل : التبرّج هو التبختر فى المشى ، وهذا ضعيف جدًا . وقد اختلف فى المراد بالجاهلية الأولى ، فقيل : مابين آدم ونوح . وقيل : ما بين نوح وإدريس . وقيل : ما بين نوح وإبراهيم . وقيل : ما بين موسى وعيسى ، وقيل: ما بين عيسى ومحمد . وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء . قال: وكان نساء الجاهلية تظهر ما يقبح إظهاره ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى ، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . قال ابن عطية : والذى يظهر لى أنه أشار إلى الجاهلية التى لحقنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهنّ فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم ، وليس المعنى أنّ ثم جاهلية أخرى . كذا قال ، وهو قول حسن . ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع فى الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل ، فيكون المعنى: ولا تبرجنّ أيها المسلمات بعد إسلامكنّ تبرّجا مثل تبرّج أهل الجاهلية التى كنتّن عليها، وكان عليها من قبلكنّ أى لا تحدثن بأفعالكنّ وأقوالكنّ جاهلية تشابه الجاهلية التى كانت من قبل .

﴿ **وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾ خصّ الصلاة والزكاة لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية . ثم عمم فأمرهنّ بالطاعة للّه ولرسوله فى كل ماهو شرع ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ أى إنما أوصاكن اللّه بما أوصاكنّ من التقوى ، وألا تخضعن بالقول ، ومن قول المعروف ، والسكون فى البيوت وعدم التبرّج ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والطاعة ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، والمراد بالرجس : الإثم والذنب المدنسان للأعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر اللّه به ، وفعل ما نهى عنه ، فيدخل تحت ذلك

كل ما ليس فيه لله رضا ، وانتصاب ﴿ **أهل البيت** ﴾ على المدح كما قال الزجاج ، قال : وإن شئت على البدل. قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض فعلى أنه بدل من الكاف والميم ، واعترضه المبرد بأنه لا يجوز البدل من المخاطب ، ويجوز أن يكون نصبه على النداء ﴿ **ويطهركم تطهيرا** ﴾ أى يطهركم من الأرجاس والأدران تطهيرا كاملا . وفى استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ ، وزجر لفاعلها شديد.

وقد اختلف أهل العلم فى أهل البيت المذكورين فى الآية ، فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبى ومقاتل وسعيد بن جبير : إن أهل البيت المذكورين فى الآية هنّ زوجات النبىّ ﷺ خاصة. قالوا والمراد بالبيت بيت النبى ﷺ ومساكن زوجاته لقوله : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكنّ** ﴾ . وأيضا السياق فى الزوجات من قوله : ﴿ **يأيها النبىّ قل لأزواجك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ . وقال أبو سعيد الخدرى ومجاهد وقتادة ، وروى عن الكلبى : أن أهل البيت المذكورين فى الآية هم علىّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة ،ومن حججهم الخطاب فى الآية بما يصلح للذكور لا للإناث ، وهو قوله : ﴿ **عنكم** ﴾ و﴿ **يطهركم** ﴾ ولو كان للنساء خاصة لقال عنكنّ ويطهركن . وأجاب الأولون عن هذا أن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه : ﴿ **أتعجبين من أمر الله** رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ [هود: ٧٣] وكما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؟ يريد زوجته أوزوجاته ، فيقول : هم بخير .

ولنذكر هاهنا ما تمسك به كلّ فريق . أما الأولون فتمسكوا بالسياق ، فإنه فى الزوجات كما ذكرنا ، وبما أخرجه ابن أبى حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ قال : نزلت فى نساء النبىّ ﷺ خاصة . وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبىّ ﷺ . وأخرج نحوه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن سعد عن عروة نحوه .

وأما ما تمسك به الآخرون ، فأخرج الترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى سننه من طرق عن أمّ سلمة قالت : فى بيتى نزلت : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ وفى البيت فاطمة وعلىّ والحسن والحسين ، فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أمّ سلمة أيضا ؛ أن النبىّ ﷺ كان فى بيتها على منامة له عليه كساء خيبرىّ، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « ادعى زوجك وابنيك حسنا وحسينا»

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٠٥) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢٢/٦ وصححه الحاكم ٤١٦/٢ وقال: «على شرط البخارى » وقال الذهبى :« سمعه الوليد بن مزيد من الأوزاعى » ، والبيهقى ٢/ ١٥٠ .

فدعتهم ، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبىّ ﷺ : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ فأخذ النبىّ ﷺ بفضلة كسائه فغشاهم إياها ، ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء ، ثم قال: « اللهمّ هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ، قالها ثلاث مرّات . قالت أمّ سلمة : فأدخلت رأسى فى الستر فقلت : يارسول الله ، وأنا معكم ؟ فقال :« إنك إلى خير » مرّتين (١) . وأخرجه أيضا أحمد من حديثها قال : حدّثنا عبد الله بن نمير حدّثنا عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح ، حدّثنى من سمع أمّ سلمة تذكر أن النبىّ ﷺ، فذكره (٢) . وفى إسناده مجهول وهو شيخ عطاء ، وبقية رجاله ثقات . وقد أخرجه الطبرانى عنها من طريقين بنحوه . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره لحديث أمّ سلمة طرقا كثيرة فى مسند أحمد وغيره (٣). وأخرج ابن مردويه والخطيب من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه . وأخرج الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن عمر بن أبى سلمة ربيب النبىّ ﷺ قال : لما نزلت هذه الآية على النبىّ ﷺ: ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ وذكر نحو حديث أمّ سلمة . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد و مسلم وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم عن عائشة قالت : خرج النبىّ ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود ، فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ، ثم جاء علىّ فأدخله معه ، ثم قال : « ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ » (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن واثلة بن الأسقع قال : جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة ومعه علىّ وحسن وحسين حتى دخل ، فأدنى عليا وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ وقال : «اللهم هؤلاء أهل بيتى، اللهمّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ، قلت : يارسول الله ، وأنا من أهلك ؟ قال : «وأنت من أهلى » . قال واثلة : إنه لأرجا ما أرجوه (٥) . وله طرق

---

(١) ابن جرير ٢٢/٦ والطبرانى من عدة طرق ٢٣/٢٤٩(٥٠٣) وهو ضعيف بسبب عطية العوفى، ٢٣/٢٨٦ (٦٢٧) وفى إسناده من تكلم فيه ، ٢٣/٣٢٧ (٧٥٠) ،٢٣/ ٣٣٣ (٧٦٨) وفى إسناده شهر بن حوشب . فللحديث طرق .

(٢) أحمد ٦/ ٢٩٢ وإسناده كما قال الشوكانى ٦/٢٩٨ ، ٣٠٤ ، وفيه شهر بن حوشب .قال الحافظ فى التقريب ١/ ٣٥٥ (١١٢) : « صدوق كثير الإرسال والأوهام » .

(٣) ابن كثير ٥/ ٤٥٣ ـ ٤٥٧ .

(٤) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٥١) وأحمد ٦/ ١٦٢ ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٤/ ٦١) وأبو داود فى اللباس (٤٠٣٢) وابن جرير ٢٢/ ٥ وصححه الحاكم ٣/ ١٤٧ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وقد وهم الحاكم والذهبى فقد أخرج مسلم هذا الحديث من حديث محمد بن بشر عن زكرياء عن مصعب بن شيبة عن صفية عن عائشة .

(٥) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٥٢) وأحمد ٤/ ١٠٧ وابن جرير ٢٢/ ٦ والطبرانى ٢٢/ ٩٥ (٢٣٠) وقال =

فى مسند أحمد .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت الصلاة ، ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ »(١). وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال : « أذكركم الله فى أهل بيتى » فقيل لزيد : ومن أهل بيته ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده : آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر ، وآل العباس (٢) . وأخرج الحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله قسم الخلق قسمين ، فجعلنى فى خيرهما قسما ، فذلك قوله : ﴿ وأصحاب اليمين . . . وأصحاب الشمال ﴾ [الواقعة : ٢٧ـ٤١] فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين . ثم جعل القسمين أثلاثا ، فجعلنى فى خيرها ثلثا ، فذلك قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة . . . وأصحاب المشأمة . . . والسابقون السابقون ﴾ [الواقعة : ٨ ـ ١٠] فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين . ثم جعل الأثلاث قبائل ، فجعلنى فى خيرها قبيلة ، وذلك قوله : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خيرها بيتا ، فذلك قوله : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ فأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله قال : رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علىّ وفاطمة فقال : «الصلاة الصلاة ، ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ » (٤) . وفى إسناده أبو داود الأعمى ، وهو وضاع كذّاب . وفى الباب أحاديث وآثار ، وقد ذكرنا هاهنا ما يصلح للتمسك به دون ما لا يصلح .

= الهيثمى فى المجمع ٩/ ١٧٠ : «رواه الطبرانى بإسنادين ورجال السياق رجال الصحيح غير كلثوم بن زياد وثقه ابن حبان وفيه ضعف » .وهناك أكثر من طريق لهذا الحديث عن أبى واثلة وكلها فيها ضعف . وصححه الحاكم ١٤٧/٣ وقال: « على شرط الشيخين » وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢٣٢٢) وأحمد ٣/ ٢٥٩ والترمذى فى التفسير (٣٢٠٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢٢/ ٥ والطبرانى ٢٢/ ٤٠٢ (١٠٠٢) وصححه الحاكم ١٥٨/٣ وقال : «على شرط مسلم» وسكت عنه الذهبى . قلت: « وفيه على بن زيد بن جدعان ». قال عنه الحافظ فى التقريب ٢/ ٣٧ (٣٤٢) :« ضعيف » .

(٢) مسلم فى فضائل الصحابة (٣٦/٢٤٠٨) والنسائى فى الكبرى فى المناقب (٨١٧٥) .

(٣) الطبرانى (١٢٦٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٢١٨/٨ : «فيه يحيى بن عبد الحميد الحمانى ، وعباية بن ربيعة وكلاهما ضعيف ».

(٤) ابن جرير ٦/٢٢ وأخرجه الطبرانى (٢٦٧٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٧١/٩ : « وفيه أبو داود الأعمى وهو ضعيف » . قال الحافظ فى التقريب ٣٠٦/٢ (١٤٠) : « متروك وكذبه ابن معين » .

وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعليّ وفاطمة والحسن والحسين ، أما الزوجات فلكونهنّ المرادات فى سياق هذه الآيات كما قدّمنا ، ولكونهنّ الساكنات فى بيوته ﷺ النازلات فى منازله ، ويعضد ذلك ما تقدّم عن ابن عباس وغيره . وأما دخول عليّ وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته فى النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرّحة بأنهم سبب النزول ، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض مايجب إعماله وأهمل ما لا يجوز إهماله . وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبى وابن كثير وغيرهما [١] . وقال جماعة : هم بنو هاشم ، واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس وبقول زيد بن أرقم المتقدّم حيث قال: ولكن آله من حرم الصدقة بعده : آل عليّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس ، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت : بيت النسب .

قوله : ﴿ **واذكرن مايتلى فى بيوتكنّ من آيات الله والحكمة** ﴾ أى اذكرن موضع النعمة إذ صيركنّ اللّه فى بيوت يتلى فيها آيات اللّه والحكمة، أو اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ اللّه، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها ، أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها ولا تتركن الاستكثار من التلاوة . قال القرطبى : قال أهل التأويل : آيات اللّه هى : القرآن، والحكمة : السنة . وقال مقاتل : المراد بالآيات والحكمة : أمره ونهيه فى القرآن . وقيل : إن القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد وصدق النبوة ، وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع ﴿ **إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ أى لطيفا بأوليائه خبيرا بجميع خلقه وجميع مايصدر منهم من خير وشرّ وطاعة ومعصية ، فهو يجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر قال : أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس ، والنبىّ ﷺ جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبىّ ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنّ النبىّ ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يارسول الله ، لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر ، سألت النفقة آنفا فوجأت فى عنقها ، فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هنّ حولى يسألننى النفقة » ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان رسول اللّه ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول اللّه ﷺ ، فقلن نساؤه : واللّه لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ماليس عنده ، وأنزل اللّه الخيار ، فنادى بعائشة فقال : « إنى ذاكر لك أمرا ما أحبّ أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » ، قالت : ما هو ؟ فتلا عليها : ﴿ **يأيها النبىّ قل لأزواجك** ﴾ الآية ،

---

(١) القرطبى ٨/ ٥٢٦٥ وابن كثير ٥/ ٤٥٢ .

قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوىّ ، بل أختار اللّه ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لنسائك ما اخترت فقال : « إن اللّه لن يبعثنى متعنتا ولكن بعثنى معلما مبشرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة ؛ أن رسول اللّه ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بى فقال : « إنى ذاكر لك أمرا ، فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه ، فقال: « إن اللّه قال : ﴿ يأيها النبىّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا ﴾ » إلى تمام الآية ، فقلت له : ففى أىّ هذا أستأمر أبوىّ ؟ فإنى أريد اللّه ورسوله والدار الآخرة . وفعل أزواج النبىّ ﷺ مثل ما فعلت (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا ﴾ قال يقول : من يطع الله منكنّ وتعمل منكنّ لله ورسوله بطاعته . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ قال : يقول : لا ترخصن بالقول ولا تخضعن بالكلام . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ قال : مقارنة الرجال فى القول حتى يطمع الذى فى قلبه مرض . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال: نبئت أنه قيل لسودة زوج النبىّ ﷺ :مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت وأمرنى الله أن أقر فى بيتى فواللّه لا أخرج من بيتى حتى أموت ؛ قال: فواللّه ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن سعد ، وعبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن المنذر عن مسروق قال : كانت عائشة إذا قرأت : ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ بكت حتى تبلّ خمارها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب قال : كانت الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس وكانت ألف سنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن عمر بن الخطاب سأله فقال : أرأيت قول اللّه لأزواج النبّى ﷺ : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ هل كانت جاهلية غير واحدة ؟ فقال ابن عباس : ماسمعت بأولى إلا ولها آخرة ، فقال له عمر: فأتنى من كتاب الله ما يصدق ذلك ، فقال : إن اللّه يقول: « وجاهدوا فى اللّه حق جهاده هو اجتباكم أوّل مرّة » (٣) فقال عمر : من أمرنا أن نجاهد ؟ قال : مخزوم وعبد شمس. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا فى الآية قال : تكون جاهلية أخرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة أنها تلت هذه الآية فقالت : الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد .

---

(١) أحمد ٣/ ٣٤٢ ومسلم فى الطلاق (١٤٧٨/ ٢٩) .

(٢) أحمد ٦/ ١٠٣ والبخارى فى التفسير (٤٧٨٦) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٥/ ٢٢) والترمذى (٣٢٠٤) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٦/ ٥٥ وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٣) .

(٣) ذكرت أول مرة فى الآية ولعلها قراءة .

وقد قدّمنا ذكر الآثار الواردة فى سبب نزول قوله : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾. وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ قال : القرآن والسنة، يمتنّ بذلك عليهن . وأخرج ابن سعد عن أبى أمامة عن سهل فى قوله : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن** ﴾ الآية قال : كان رسول اللّه ﷺ يصلى فى بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار .

﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **إن المسلمين** ﴾ بدأ سبحانه بذكر الإسلام الذى هو مجرّد الدخول فى الدين والانقياد له مع العمل ، كما ثبت فى الحديث الصحيح : أن النبى ﷺ لما سأله جبريل عن الإسلام قال: « هو أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان » (١) . ثم عطف على المسلمين ﴿ **المسلمات** ﴾ تشريفا لهن بالذكر ، وهكذا فيما بعد وإن كنّ داخلات فى لفظ المسلمين والمؤمنين ونحو ذلك . والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث كما فى جميع ماورد فى الكتاب العزيز من ذلك . ثم ذكر ﴿ **المؤمنين والمؤمنات** ﴾ وهم من يؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرّه كما ثبت ذلك فى الصحيح عن رسول اللّه ﷺ (٢) . والقانت : العابد المطيع ، وكذا القانتة . وقيل : المداومين على العبادة والطاعة . والصادق والصادقة هما من يتكلم بالصدق ، ويتجنب الكذب ويفى بما عوهد عليه . والصابر والصابرة هما من يصبر عن الشهوات وعلى مشاق التكليف . والخاشع والخاشعة هما المتواضعان للّه الخائفان منه الخاضعان فى عباداتهم للّه . والمتصدّق والمتصدقة هما من تصدّق من ماله بما أوجبه الله عليه . وقيل : ذلك أعمّ من صدقة الفرض والنفل ، وكذلك الصائم والصائمة ، قيل : ذلك مختصّ بالفرض ، وقيل : هو أعمّ . والحافظ والحافظة لفرجيهما عن الحرام بالتعفف والتنزّه ، والاقتصار على الحلال . والذاكر والذاكرة هما من يذكر الله على أحواله ، وفى ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر اللّه سبحانه بالقلب واللسان ، واكتفى فى الحافظات بما تقدّم فى الحافظين من ذكر الفروج ، والتقدير : والحافظين فروجهم والحافظات فروجهن ، وكذا فى الذاكرات ، والتقدير : والذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات الله كثيرا ، والخبر لجميع ماتقدّم هو قوله : ﴿ **أعدّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ أى مغفرة

(١ ، ٢) سبق تخريجهما .

لذنوبهم التى أذنبوها ،وأجرا عظيما على طاعتهم التى فعلوها من الإسلام والإيمان ،والقنوت ، والصدق والصبر والخشوع ، والتصدق والصوم والعفاف والذكر . ووصف الأجر بالعظم للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ ، ولا شيء أعظم من أجر هو الجنة ونعيمها الدائم ، الذى لا ينقطع ولا ينفد ، اللهم اغفر ذنوبنا وأعظم أجورنا .

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ أى ماصحّ ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين ، ولفظ ماكان وما ينبغى ونحوهما معناها : المنع والحظر من الشيء والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعا ، وقد يكون لما يمتنع عقلا كقوله: ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ [النمل : ٦٠] ومعنى الآية : أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرا أن يختار من أمر نفسه ما شاء ، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ، ويوقف نفسه تحت ماقضاه الله عليه واختاره له ، وجمع الضميرين فى قوله : **﴿ لهم ﴾** و **﴿ من أمرهم﴾**: لأن مؤمن ومؤمنة وقعا فى سياق النفى فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة. قرأ الكوفيون: **﴿ أن يكون ﴾** بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لأنه قد فرّق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله : **﴿ لهم ﴾** مع كون التأنيث غير حقيقى ، وقرأ الباقون بالفوقية لكونه مسندا إلى الخيرة وهى مؤنثة لفظا . والخيرة مصدر بمعنى الاختيار . وقرأ ابن السميفع « الخيرة » بسكون التحتية، والباقون بتحريكها . ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره فقال : **﴿ من يعص الله ورسوله ﴾** فى أمر من الأمور ، ومن ذلك عدم الرضا بالقضاء **﴿ فقد ضلّ ضلالا مبينا ﴾** أى ضلّ عن طريق الحق ضلالا ظاهرا واضحا لا يخفى .

وقد أخرج أحمد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أمّ سلمة قالت : قلت : يارسول الله ، ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول : « إن الله يقول : **﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾** »(١) إلى آخر الآية . وروى نحو هذا عنها من طريق أخرى أخرجها الفريابى وابن سعد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، والطبرانى وابن مردويه عن أمّ عمارة الأنصارية ؛ أنها أتت النبىّ ﷺ فقالت : ما أرى كلّ شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ؟ فنزلت هذه الآية : **﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾**(٢) . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه بإسناد ، قال السيوطى: حسن، عن ابن عباس قال: قالت النساء : يارسول الله ، ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فنزلت: **﴿ إن المسلمين والمسلمات﴾**(٣) الآية.

---

(١) أحمد ٦/٣٠١ ، ٣٠٥ والنسائى فى التفسير (٤٢٤ ، ٤٢٥) وابن جرير ٢٢/٩ والطبرانى ٢٣/٢٩٣ (٦٥٠). وإسناده صحيح .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢١١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والطبرانى ٢٥/ ٣١ (٥١) .

(٣) ابن جرير ٢٢/ ٩ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٤ : « رواه الطبرانى وفيه قابوس وهو ضعيف وقد وثق ».

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ، قالت: لست بناكحته ، قال : بلى فانكحيه ، قالت : يارسول اللّه ، أؤامر نفسى ، فبينما هما يتحدّثان أنزل اللّه هذه الآية على رسوله : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** ﴾ الآية ، قالت : قد رضيته لى يارسول اللّه منكحا ؟ قال : « نعم » ، قالت : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسى [1] . وأخرج نحوه عنه ابن جرير من طريق أخرى . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ لزنيب : « إنى أريد أن أزوّجك زيد بن حارثة فإنى قد رضيته لك » ، قالت : يارسول اللّه، لكنى لا أرضاه لنفسى ، وأنا أيم قومى وبنت عمتك فلم أكن لأفعل ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وما كان لمؤمن** ﴾ يعنى : زيدا ﴿ **ولا مؤمنة** ﴾ يعنى : زينب ﴿**إذا قضى الله ورسوله أمرا** ﴾ يعنى النكاح فى هذا الموضع ﴿ **أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ يقول : ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر اللّه به ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا** ﴾ قالت : قد أطعتك فاصنع ماشئت ، فزوجها زيدا ودخل عليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : نزلت فى أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أوّل امرأة هاجرت فوهبت نفسها للنبىّ ﷺ ، فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هى وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول اللّه فزوّجنا عبده.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

لما زوّج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مرّ فى تفسير الآية التى قبل هذه أنزل اللّه سبحانه : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه** ﴾ أى واذكر إذ تقول للذى أنعم اللّه عليه وهو زيد بن حارثة ، أنعم اللّه عليه بالإسلام ، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن أعتقه من الرق ، وكان من سبى الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ فى الجاهلية وأعتقه وتبناه، وسيأتى فى بيان سبب نزول الآية فى آخر البحث ما يوضح المراد منها . قال القرطبى : وقد

(١) ابن جرير ٩/٢٢ .

اختلف فى تأويل هذه الآية ، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبرى وغيره إلى أن النبى ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهى فى عصمة زيد ، وكان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوّجها هو ، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر وأذى باللسان وتعظما بالشرف قال له :« اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك » وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها ، وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف . انتهى . ﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾ يعنى زينب ﴿**واتق الله** ﴾ فى أمرها ولا تعجل بطلاقها ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** ﴾ وهو نكاحها إن طلقها زيد . وقيل : حبها ﴿ **وتخشى الناس** ﴾ أى تستحييهم ، أو تخاف من تعييرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجها ﴿ **والله أحق أن تخشاه** ﴾ فى كل حال وتخاف منه وتستحييه والواو للحال ، أى تخفى فى نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس (١) . ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا** ﴾ قضاء الوطر فى اللغة : بلوغ منتهى ما فى النفس من الشىء ، يقال : قضى وطرا منه : إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

أيها الرائح المجدّ ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطارا

أى فرغ من أعمال الحج وبلغ ما أراد منه . والمراد هنا : أنه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة . وقيل : المراد به : الطلاق ؛ لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة . وقال المبرد: الوطر : الشهوة والمحبة ، وأنشد :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما قضى وطرا منها جميل بن معمر

وقال أبو عبيدة : الوطر : الأرب والحاجة ، وأنشد قول الفزارى :

ودّعـنا قبـل أن نـودّعــه لما قـضـى مــن شبابنا وطـرا

قرأ الجمهور : ﴿ **زوّجناكها** ﴾ وقرأ علىّ وابناه الحسن والحسين زوّجتكها فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شىء مما هو معتبر فى النكاح فى حق أمته . وقيل : المراد به : الأمر له بأن يتزوجها . والأوّل أولى ، وبه جاءت الأخبار الصحيحة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرج** ﴾ أى ضيق ومشقة ﴿**فى أزواج أدعيائهم** ﴾ أى فى التزوّج بأزواج من يجعلونه ابنا كما كانت تفعله العرب فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، وكان النبىّ ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال : زيد بن محمد، حتى نزل قوله سبحانه : ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنوه ، كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة . والأدعياء جمع دعىّ ، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة ، فأخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿ **إذا قضوا منهن**

---

(١) القرطبى ٨/٥٢٧١ ، ٥٢٧٢ . والذى عليه القول أن الله كان قد أعلم نبيه ﷺ أن زيداً سيطلقها وأن الله سيزوجها إياه وذلك لإبطال مساواة زوجة المتبنى بالابن الصلبى وجعل زوجة المتبنى أجنبية من المتبنى فهذا هو الذى أخفاه عندما قال لزيد : أمسك عليك زوجك .

وطرا﴾ بخلاف ابن الصلب فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها **﴿وكان أمر الله مفعولا﴾** أى كان قضاء اللّه فى زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاء ماضيا مفعولا لا محالة.

ثم بين سبحانه أنه لم يكن على رسول اللّه ﷺ حرج فى هذا النكاح فقال : **﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ﴾** أى فيما أحلّ اللّه له وقدّره وقضاه، يقال فرض له كذا ، أى قدّر له **﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾** أى إن هذا هو السنن الأقدم فى الأنبياء والأمم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره **﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾** أى قضاء مقضيا . قال مقاتل : أخبر اللّه أن أمر زينب كان من حكم الله وقدره ، وانتصاب **﴿سنة﴾** على المصدر ، أى سنّ الله سنة الله ، أو اسم وضع موضع المصدر أو منصوب بجعل أو بالإغراء . وردّه أبوحيان بأن عامل الإغراء لا يحذف .

ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم فقال : **﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾** والموصول فى محلّ جر صفة **﴿ للذين خلوا ﴾** أو منصوب على المدح ، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده وخشيته فى كل فعل وقول، ولا يخشون سواه ولا يبالون بقول الناس ولا بتعييرهم ، بل خشيتهم مقصورة على اللّه سبحانه **﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾** حاضرا فى كل مكان يكفى عباده كل ما يخافونه ، أو محاسبا لهم فى كل شىء .

ولما تزوّج ﷺ زينب قال الناس : تزوّج امرأة ابنه ، فأنزل الله : **﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾** أى ليس بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته ، ولا هو أب لأحد لم يلده قال الواحدى : قال المفسرون : لم يكن أبا أحد لم يلده ، وقد ولد له من الذكور إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر . قال القرطبى : ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا . قال : وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له[1] **﴿ ولكن رسول الله ﴾** قال الأخفش والفراء : ولكن كان رسول اللّه ، وأجازا الرفع . وكذا قرأ ابن أبى عبلة بالرفع فى رسول وفى خاتم على معنى : ولكن هو رسول اللّه وخاتم النبيين وقرأ الجمهور بتخفيف **﴿لكن ﴾** ، ونصب **﴿ رسول ﴾** و **﴿ خاتم ﴾** ، ووجه النصب على خبرية كان المقدرة كما تقدّم ، ويجوز أن يكون بالعطف على **﴿ أبا أحد ﴾** . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بتشديد «لكن » ونصب **﴿ رسول ﴾** على أنه اسمها وخبرها محذوف ، أى : ولكن رسول اللّه هو . وقرأ الجمهور : « خاتم » بكسر التاء . وقرأ عاصم بفتحها. ومعنى القراءة الأولى : أنه ختمهم ، أى جاء آخرهم . ومعنى القراءة الثانية : أنه صار كالخاتم لهم الذى يتختمون به ويتزينون بكونه منهم . وقيل : كسر التاء وفتحها لغتان . قال أبو عبيد : الوجه الكسر لأن التأويل أنه ختمهم فهو خاتمهم ، وأنه قال : « أنا خاتم النبيين » وخاتم الشىء آخره ومنه قولهم : خاتمه المسك. وقال الحسن: الخاتم هو الذى ختم به **﴿ وكان الله بكل شىء عليما ﴾** قد

(١) القرطبى ٨ / ٥٢٧٨.

أحاط علمه بكل شيء ، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا .

وقد أخرج أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، فنزلت : ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** ﴾ . قال أنس : فلو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه الآية ، فتزوّجها رسول الله ﷺ ، فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ، ذبح شاة ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** ﴾ فكانت تفخر على أزواج النبىّ ﷺ تقول : زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجنى الله من فوق سبع سموات (١) . وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم عن أنس قال : لما انقضت عدّة زينب ، قال رسول الله ﷺ لزيد : « اذهب فاذكرها على » ، فانطلق ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى ، فقلت : يازينب ، أبشرى أرسلنى رسول الله يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدّثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله واتبعته ، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهنّ ويقولون : يارسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر ، فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لا تدخلوا بيوت النبىّ إلا أن يؤذن لكم ﴾ الآية [الأحزاب : ٥٣] (٢).

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عائشة قالت : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه** ﴾ يعنى بالإسلام ﴿ **وأنعمت عليه** ﴾ يعنى بالعتق ﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾ وإن رسول الله ﷺ لما تزوّجها قالوا : تزوّج حليلة ابنه ، فأنزل الله ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ يعنى أعدل عند الله (٣) . وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل** ﴾ قال: يعنى يتزوّج من النساء ما شاء هذا فريضة ، وكان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم ، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة ، وكان لداود مائة امرأة . وأخرج ابن المنذر والطبرانى عن ابن

---

(١) أحمد ٣/ ١٧٢ والبخارى فى التوحيد (٧٤٢٠) ومسلم فى النكاح (١٤٢٨/ ٩٠) وأبو داود فى الأطعمة (٣٧٤٣) والترمذى فى التفسير (٣٢١٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى النكاح (١٩٠٨) .

(٢) أحمد ٣/ ١٩٥ ومسلم فى النكاح (١٤٢٨/ ٨٩) والنسائى فى التفسير (٤٣٠) .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٠٧) وقال : « هذا حديث غريب » ، (٣٢٠٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح» وابن جرير ٢٢/ ١١ والطبرانى ٢٤/ ٤١ (١١٢) .

جريج فى قوله : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ قال : داود والمرأة التى نكح وزوجها واسمها اليسعية ، فذلك سنة فى محمد وزينب ﴿ وكان أمرالله قدرا مقدورا ﴾ كذلك من سنته فى داود والمرأة والنبى وزينب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ قال : نزلت فى زيد بن حارثة(١) . وأخرج أحمد ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول اللهّ ﷺ : « مثلى ومثل النبيين كمثل رجل بنى دارا ، فانتهى إلا لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع اللبنة ، فأنا موضع اللبنة حتى ختم بى الأنبياء» (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة نحوه (٤) . وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه من حديث أبيّ بن كعب نحوه أيضا (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير وكل ماهو ذكر للّه تعالى . قال مجاهد : هو أن لا ينساه أبدا ، وقال الكلبى : ويقال: ذكرا كثيرا بالصلوات الخمس ، وقال مقاتل : هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال ﴿وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى نزّهوه عما لا يليق به فى وقت البكرة ووقت الأصيل ، وهما أوّل النهار وآخره ، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما . وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله :﴿ اذكروا الله ﴾ . تنبيها

(١) ابن جرير ٢٢/ ١٣ .
(٢) أحمد ٣/ ٩ ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦/ ٢٢) .
(٣) أحمد ٣/ ٣٦١ والبخارى فى المناقب (٣٥٣٤) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٧/ ٢٣) .
(٤) أحمد ٢/ ٤١٢ والبخارى فى المناقب (٣٥٣٥) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦/ ٢١) .
(٥) أحمد ٥/ ١٣٧ والترمذى فى المناقب (٣٦١٣) وقال : « هذا حديث حسن » .

على مزيد شرفه ، وإنافة ثوابه على غيره من الأذكار. وقيل المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر ، وبالتسبيح أصيلا : صلاة المغرب. وقال قتادة وابن جرير: المراد: صلاة الغداة وصلاة العصر . وقال الكلبى : أما بكرة : فصلاة الفجر ، وأما أصيلا : فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء . قال المبرّد : والأصيل العشىّ وجمعه أصائل .

﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ والصلاة من اللّه على العباد رحمته لهم وبركته عليهم ، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر:٧] قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : المعنى: ويأمر ملائكته بالاستغفار لكم ، والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح . وقيل : الصلاة من اللّه على العبد هى إشاعة الذكر الجميل له فى عباده . وقيل : الثناء عليه ، وعطف ملائكته على الضمير فى يصلى لوقوع الفصل بقوله : ﴿ **عليكم** ﴾ فأغنى ذلك عن التأكيد المراد بالضمير المنفصل. والمراد بالصلاة هنا معنى مجازى يعمّ صلاة اللّه بمعنى الرحمة ، وصلاة الملائكة بمعنى الدعاء ؛ لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز فى كلمة واحدة ، واللام فى ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ متعلق بـ﴿**يصلى**﴾ ، أى يعتنى بأموركم هو وملائكته ؛ ليخرجكم من ظلمات المعاصى إلى نور الطاعات ، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى ، ومعنى الآية، تثبيت المؤمنين على الهداية ودوامهم عليها ؛ لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيسا لهم وتثبيتا فقال : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ وفى هذه الجملة تقرير لمضمون ماتقدّمها .

ثم بين سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب ، بل هى عامة لهم ولمن بعدهم وفى الدار الآخرة فقال : ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام** ﴾ أى تحية المؤمنين من اللّه سبحانه يوم لقائهم له عند الموت أو عند البعث أو عند دخول الجنة ، هى التسليم عليهم منه عزّوجلّ . وقيل : المراد : تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام ؛ وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيما ، فلما شملتهم رحمته وأمنوا من عقابه حيا بعضهم بعضا سرورا واستبشارا . والمعنى : سلامة لنا من عذاب النار . قال الزجاج : المعنى : فيسلمهم اللّه من الآفات ، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه . وقيل : الضمير فى ﴿ **يلقونه** ﴾ راجع إلى ملك الموت ، وهو الذى يحييهم كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه . وقال مقاتل : هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الربّ كما فى قوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ﴿ **وأعدّ لهم أجرا كريما** ﴾ أعد لهم فى الجنة رزقا حسنا ، ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم .

ثم ذكر سبحانه صفات رسول اللّه ﷺ التى أرسله لها فقال : ﴿ **يأيها النبىّ إنا أرسلناك شاهدا** ﴾ أى على أمته يشهد لمن صدقه وآمن به ، وعلى من كذبه وكفر به . قال مجاهد : شاهدا على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم ﴿ **ومبشرا** ﴾ للمؤمنين برحمة اللّه وبما أعدّه لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر ﴿ **ونذيرا** ﴾ للكافرين والعصاة

بالنار، وبما أعدّه اللّه لهم من عظيم العقاب ﴿ **وداعيا إلى الله** ﴾ يدعو عباد اللّه إلى التوحيد والإيمان بما جاء به ، والعمل بما شرعه لهم ،ومعنى ﴿ **بإذنه** ﴾ بأمره له بذلك وتقديره. وقيل: بتبشيره ﴿ **وسراجا منيرا** ﴾ أى يستضاء به فى ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح فى الظلمة. قال الزجاج : ﴿**وسراجا** ﴾ أى ذا سراج منير أى كتاب نير ، وانتصاب ﴿ **شاهدا** ﴾ وما بعده على الحال ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقال كأنه قال : فاشهد وبشر ، أو فدبر أحوال الناس ، ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ أو هو من عطف جملة على جملة ، وهى المذكورة سابقا ، ولا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار والإنشاء . أمره سبحانه بأن يبشرهم بأن لهم من اللّه فضلا كبيرا على سائر الأمم ، وقد بين ذلك سبحانه بقوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [الشورى : ٢٢] ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ أى لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة فى الدين ، وفى الآية تعريض لغيره من أمته ؛ لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم فى شىء مما يريدونه ويشيرون به عليه ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى أوّل السورة ﴿ **ودع أذاهم** ﴾ أى لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب يصيبك فى دين الله وشدتك على أعدائه،أو دع أن تؤذيهم مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك ، فالمصدر على الأوّل مضاف إلى الفاعل . وعلى الثانى مضاف إلى المفعول ، وهى منسوخة بآية السيف ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ فى كل شؤونك ﴿ **وكفى بالله وكيلا** ﴾ توكل إليه الأمور وتفوّض إليه الشؤون ، فمن فوّض إليه أموره كفاه ، ومن وكل إليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **اذكروا الله ذكرا كثيرا** ﴾ يقول: لايفرض على عباده فريضة إلا جعل لها أجلا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر ، فإن اللّه لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على عقله ، فقال : ﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ [النساء : ١٠٣] بالليل والنهار ، فى البرّ والبحر ، فى السفر والحضر ، فى الغنى والفقر ، فى الصحة والسقم ، فى السرّ والعلانية وعلى كل حال ، وقال : ﴿ **وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته قال الله :﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ .

وقد ورد فى فضل الذكر والاستكثار منه أحاديث كثيرة ، وقد صنف فى الأذكار المتعلقة بالليل والنهار جماعة من الأئمة كالنسائى والنووى والجزرى وغيرهم ، وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين وفضيلة الذكر ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ [العنكبوت : ٤٥] وقد ورد أنه أفضل من الجهاد ، كما فى حديث أبى سعيد الخدرى عند أحمد والترمذى والبيهقى ؛ أن رسول اللّه ﷺ سئل : أىّ العباد أفضل درجة عند اللهّ يوم القيامة ؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا» قلت : يارسول الله ، ومن الغازى فى سبيل اللّه ؟ قال : « لو ضرب بسيفه فى الكفار

والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون أفضل منه درجة » [١] . وأخرج أحمد عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا: وما هو يارسول الله ؟ قال: « ذكر الله عزّ وجلّ ». وأخرجه أيضا الترمذى وابن ماجة [٢] . وفى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفرّدون » ، قالوا : وما المفردّون يارسول الله ؟ قال : «الذاكرون الله كثيرا » [٣] . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون » [٤] . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « اذكروا الله حتى يقول المنافقون : إنكم مراؤون » [٥] .

وورد فى فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة فى الصحيحين وغيرهما ، فمن ذلك حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال فى يوم مائة مرّة سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولوكانت مثل زبد البحر » [٦] . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال لنا : « أيعجز أحدكم أن يكتسب فى اليوم ألف حسنة ؟ » فقال رجل : كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : «يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحطّ عنه ألف خطيئة » [٧] .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى ذكر الموت ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن البراء بن عازب فى قوله: ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام** ﴾ قال : يوم يلقون ملك الموت ليس من مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه [٨] . وأخرج ابن أبى حاتم

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥ والترمذى فى الدعوات (٣٣٧٦) وقال: « هذا حديث غريب » .

(٢) أحمد ٥/ ١٩٥ . وأخرجه مالك ١/ ٢١١ والترمذى فى الدعاء (٣٣٧٧) وقال : « وقد رواه بعضهم عن عبد الله بن سعيد بهذا الإسناد وبعضهم أرسله » وابن ماجة فى الأدب (٣٧٩٠) .

(٣) أحمد ٢/ ٣٢٣ ومسلم فى الذكر (٢٦٧٦/ ٤) وصححه ابن حبان (٨٥٥) والبيهقى فى الشعب (٥٠٥) .

(٤) أحمد ٣/ ٦٨، ٧١، وأبو يعلى (١٣٧٦) وصححه ابن حبان (٨١٤) وصححه الحاكم ١/ ٤٩٩ وسكت عنه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٧٩ : « وفيه دراج وقد ضعّفه جماعة وبقية رجال أحد إسنادى أحمد ثقات » والبيهقى فى الشعب (٥٢٣) وإسناده ضعيف بسبب دراج .

(٥) الطبرانى (١٢٧٨٦) وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ٨٠، ٨١ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٧٩ : « وفيه الحسن بن أبى جعفر وهو ضعيف » .

(٦) أحمد ٢/ ٣٧٥ والبخارى فى الدعوات (٦٤٠٥) ومسلم فى الذكر (٢٦٩١/ ٢٨) والنسائى فى اليوم والليلة (١٠٦٦٢) .

(٧) أحمد ١/ ١٨٥ ومسلم فى الذكر (٢٦٩٨/ ٣٧) والترمذى فى الدعوات (٣٤٦٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى اليوم والليلة (٩٩٨٠) .

(٨) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦٦١٦) وابن جرير ١٤/ ١٠١ وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٢ ، وقال الذهبى: « عبد الله=

والطبرانى وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾ وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن ، فقال :« انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولاتعسرا ، فإنها قد أنزلت علىّ : ﴿ **يأيها النبىّ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾ » قال : شاهدا على أمتك ، ومبشرا بالجنة ، ونذيرا من النار ، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه ﴿ **بإذنه وسراجا منيرا** ﴾ بالقرآن (١) . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول اللّه ﷺ فى التوراة فقال : أجل واللّه إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ **يأيها النبىّ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾ ، وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا تجزى بالسيئة السيئة ، ولكن تعفو وتصفح » زاد أحمد :« ولن يقبضه اللّه حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا اللّه ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما، وقلوبا غلفا » (٢) . وقد ذكر البخارى فى صحيحه فى البيوع هذا الحديث فقال : وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد اللّه بن سلام ،ولم يقل عبد اللّه ابن عمرو ، وهذا أولى ، فعبد اللّه بن سلام هو الذى كان يسأل عن التوراة فيخبر بما فيها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا

= ابن عدى لا يحتج به . ومحمد ، قال ابن حبان : لا يحتج به » والبيهقى فى الشعب (٣٩٩) وفى إسناده من لا يعرف .

(١) الطبرانى (١١٨٤١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٥ : « فيه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله العرزمى وهو ضعيف » .

(٢) أحمد ٢/ ١٧٤ والبخارى فى البيوع (٢١٢٥) وقد أخرج الترمذى نحوه فى البر (٢٠١٦) عن عائشة وقال : «هذا حديث حسن صحيح » والدارمى عن عبد الله بن سلام ١/ ٥ .

مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾.

لما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب ، وكان قد دخل بها وخطبها النبىّ ﷺ بعد انقضاء عدّتها كما تقدّم ، خاطب المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات** ﴾ أى عقدتم بهنّ عقد النكاح ، ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد كما قاله صاحب الكشاف والقرطبى وغيرهما (١) .

وقد اختلف فى لفظ النكاح هل هو حقيقة فى الوطء ، أو فى العقد ، أو فيهما على طريقة الاشتراك ؟ وكلام صاحب الكشاف فى هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة فى الوطء ، فإنه قال : النكاح : الوطء ، وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه ، ونظيره تسمية الخمر إثما لأنها سبب فى اقتراف الإثم . ومعنى ﴿ **من قبل أن تمسوهنّ** ﴾ : من قبل أن تجامعوهنّ ، فكنى عن ذلك بلفظ المسّ ﴿ **فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدونها** ﴾ وهذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبى وابن كثير (٢) ، ومعنى ﴿ **تعتدونها** ﴾ : تستوفون عددها ، من عددت الدراهم فأنا أعتدّها . وإسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق لهم كما يفيده ﴿ **فما لكم عليهنّ من عدّة** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **تعتدونها** ﴾ بتشديد الدال ، وقرأ ابن كثير فى رواية عنه وأهل مكة بتخفيفها . وفى هذه القراءة وجهان : أحدهما : أن تكون بمعنى الأولى ، مأخوذة من الاعتداد ، أى تستوفون عددها ، ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف . قال الرازى : ولو كان من الاعتداء الذى هو الظلم لضعف ؛ لأن الاعتداء يتعدّى بعلى. وقيل : يجوز أن يكون من الاعتداء بحذف حرف الجرّ ، أى تعتدون عليها ، أى على العدّة مجازا ، ومثله قوله :

تحن فتبدى ما بها من صبابة وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

أى لقضى على . و الوجه الثانى : أن يكون المعنى : تعتدون فيها ، والمراد بالاعتداء هذا هو ما فى قوله : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ [البقرة : ٢٣١] فيكون معنى الآية على القراءة الآخرة : فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة . وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال : إن البزّى غلط عليه ، وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [البقرة : ٢٢٨] وبقوله : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ [الطلاق : ٤] . والمتعة المذكورة هنا قد تقدّم الكلام فيها فى البقرة . وقال سعيد بن جبير : هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التى فى البقرة وهى قوله : ﴿ وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقيل : المتعة هنا هى أعمّ من أن تكون

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٨ والقرطبى ٨/ ٥٢٨٥ .

(٢) القرطبى ٨/ ٥٢٨٤ وابن كثير ٥/ ٤٧٩ .

نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمى لها ، فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملا بقوله : ﴿ فنصف مافرضتم لهن ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملا بهذه الآية ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنّ أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وهذا الجمع لابدّ منه ، وهو مقدّم على الترجيح وعلى دعوى النسخ ، وتخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها ، فإنه إذا مات بعد العقد عليها وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتدّ أربعة أشهر وعشرا . قال ابن كثير: بالإجماع[1] فيكون المخصص هو الإجماع .

وقد استدلّ بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح ، وهم الجمهور ، وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال : إن تزوّجت فلانة فهى طالق ، فتطلق إذا تزوّجها . ووجه الاستدلال بالآية لما قاله الجمهور أنه قال : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾ فعقب الطلاق بالنكاح بلفظ ثم المشعرة بالترتيب والمهلة . ﴿ **وسرّحوهنّ سراحا جميلا** ﴾ أى أخرجوهنّ من منازلكم ؛ إذ ليس لكم عليهنّ عدّة . والسراح الجميل الذى لا ضرار فيه ، وقيل السراح الجميل ألا يطالبها بما كان قد أعطاها ، وقيل : السراح الجميل هنا كناية عن الطلاق ، وهو بعيد لأنه قد تقدّم ذكر الطلاق ورتب عليه التمتيع وعطف عليه السراح الجميل ، فلابدّ أن يراد به معنى غير الطلاق .

﴿ **يأيها النبىّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهنّ** ﴾ ذكر سبحانه فى هذه الآية أنواع الأنكحة التى أحلها لرسوله ، وبدأ بأزواجه اللاتى قد أعطاهنّ أجورهنّ ، أى مهورهنّ ، فإن المهور أجور الأبضاع ، وإيتاؤها : إما تسليمها معجلة أو تسميتها فى العقد .

واختلف فى معنى قوله : ﴿ **أحللنا لك أزواجك** ﴾ فقال ابن زيد والضحاك : إن اللّه أحلّ له أن يتزوّج كل امرأة يؤتيها مهرها ، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ماعدا ذوات المحارم . وقال الجمهور : المراد : أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك لأنهنّ قد اخترنك على الدنيا وزينتها ، وهذا هو الظاهر ؛ لأن قوله : ﴿ **أحللنا** ﴾ و﴿ **آتيت** ﴾ ماضيان ، وتقييد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحلّ عليه ، لأنه يصح العقد بلا تسمية ، ويجب مهر المثل مع الوطء، والمتعة مع عدمه ، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ماهو أفضل ﴿ **وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك** ﴾ أى السرارى اللاتى دخلن فى ملكه بالغنيمة . ومعنى ﴿ **مما أفاء الله عليك** ﴾ : مما ردّه اللّه عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر والغلبة ، وليس المراد بهذا القيد إخراج ماملكه بغير الغنيمة ، فإنها تحلّ له السرية المشتراة والموهوبة ونحوهما ، ولكنه إشارة إلى ماهو أفضل كالقيد الأوّل المصرّح بإيتاء الأجور ، وهكذا قيد المهاجرة فى قوله : ﴿**وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك** ﴾ فإنه للإشارة

(١) ابن كثير ٥/ ٤٧٩ .

إلى ماهو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر والمراد بالمعية هنا : الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها . وقيل : إن هذا القيد : أعنى المهاجرة معتبر وأنها لا تحلّ له من لم تهاجر من هؤلاء كما فى قوله : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ﴾ [الأنفال : ٧٢] ويؤيد هذا حديث أمّ هانئ ، وسيأتى آخر البحث هذا إن شاء الله تعالى . ووجه إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة ما ذكره القرطبى أن العم والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة. قال : وهذا عرف لغوى ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان . وحكاه عن ابن العربى . وقال ابن كثير : إنه وحد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الأنثى كقوله : ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ [النحل : ٤٨] وقوله : ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة : ٢٥٧] و ﴿ جعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : ١] وله نظائر كثيرة انتهى . وقال النيسابورى : وإنما لم يجمع العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لا متناع اجتماع أختين تحت واحد ، ولم يحسن هذا الاختصار فى العمة والخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة انتهى . وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض والمعارضة ، وأحسنها تعليل جمع العمة والخالة بسبق الوهم إلى أن التاء للوحدة ، وليس فى العم والخال ما يسبق الوهم إليه بأنه أريد به الوحدة إلا مجرّد صيغة الإفراد ، وهى لا تقتضى ذلك بعد إضافتها لما تقرّر من عموم أسماء الأجناس المضافة ، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة .

﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ﴾ هو معطوف على مفعول ﴿ أحللنا ﴾ ، أى وأحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها لك بغير صداق . وأما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرّد هبتها نفسها لك، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيدًا بإرادتك ، ولهذا قال : ﴿ إن أراد النبى أن يستنكحها ﴾ أى يصيرها منكوحة له ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر . وقد قيل : إنه لم ينكح النبىّ ﷺ من الواهبات أنفسهن أحدا ولم يكن عنده منهنّ شىء . وقيل : كان عنده منهنّ خولة بنت حكيم كما فى صحيح البخارى عن عائشة (١) . وقال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث . وقال الشعبى : هى زينب بنت خزيمة الأنصارية أمّ المساكين . وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل : هى أمّ شريك بنت جابر الأسدية . وقال عروة بن الزبير : هى أم حكيم بنت الأوقص السلمية . ثم بين سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله ﷺ لا يحلّ لغيره من أمته فقال : ﴿خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ أى هذا الإحلال الخالص هو خاص بك من دون غيرك من المؤمنين ولفظ ﴿ خالصة ﴾ إما حال من ﴿ امرأة ﴾، قاله الزجاج . أو مصدر مؤكد كوعد الله ، أى خالص لك خلوصا . قرأ الجمهور : ﴿ وامرأة ﴾ بالنصب . وقرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء . وقرأ الجمهور : ﴿ إن وهبت ﴾ بكسر إن . وقرأ أبى والحسن وعيسى بن عمر بفتحها على أنه

---

(١) البخارى فى النكاح (٥١١٣) .

بدل من امرأة بدل اشتمال . أو على حذف لام العلة ، أى لأن وهبت . وقرأ الجمهور : ﴿**خالصة**﴾ بالنصب ، وقرئ بالرفع على أنها صفة لـ ﴿ **امرأة** ﴾ على قراءة من قرأ « امرأة » بالرفع .

وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبىّ ﷺ ، وأنه لا يجوز لغيره ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ماروى عن أبى حنيفة وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت ، وأشهد هو على نفسه بمهر . وأما بدون مهر فلا خلاف فى أن ذلك خاص بالنبىّ ﷺ ، ولهذا قال : ﴿**قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم** ﴾ أى ما فرضه اللّه سبحانه على المؤمنين فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحلّ لهم الإخلال به ، ولا الاقتداء برسول اللّه ﷺ فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريما له ، فلا يتزوجوا إلا أربعا بمهر وبينة وولىّ ﴿ **وما ملكت أيمانهم** ﴾ أى وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهنّ ممن يجوز سبيه وحربه ، لا من كان لايجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين ﴿ **لكيلا يكون عليك حرج** ﴾ . قال المفسرون: هذا يرجع إلى أوّل الآية ، أى أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لكيلا يكون عليك حرج ، فتكون اللام متعلقة بـ﴿ **أحللنا** ﴾ . وقيل : هى متعلقة بـ﴿ **خالصة** ﴾ ، والأوّل أولى والحرج : الضيق ، أى وسعنا عليك فى التحليل لك لئلا يضيق صدرك ، فتظن أنك قد أثمت فى بعض المنكوحات ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ يغفر الذنوب ويرحم العباد ، ولذلك وسع الأمر ولم يضيقه .

﴿ **ترجى من تشاء منهنّ** ﴾ قرئ : « ترجئ » مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ، والإرجاء : التأخير ، يقال: أرجأت الأمر وأرجيته : إذا أخرته ﴿ **وتؤوى إليك من تشاء** ﴾ أى تضم إليك ، يقال آواه إليه بالمد : ضمه إليه ، وأوى مقصورا ، أى ضم إليه ، والمعنى : إن اللّه وسع على رسوله وجعل الخيار إليه فى نسائه ، فيؤخر من شاء منهنّ ويؤخر نوبتها ويتركها ولا يأتيها من غير طلاق ، ويضم إليه من شاء منهنّ ويضاجعها ويبيت عندها ، وقد كان القسم واجبا عليه حتى نزلت هذه الآية ، فارتفع الوجوب وصار الخيار إليه ، وكان ممن أوى إليه : عائشة وحفصة وأمّ سلمة وزينب ، وممن أرجأه : سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان ﷺ يسوّى بين من آواه فى القسم ، وكان يقسم لمن أرجأه ما شاء . هذا قول جمهور المفسرين فى معنى الآية ، وهو الذى دلت عليه الأدلة الثابتة فى الصحيح وغيره. وقيل: هذه الآية فى الواهبات أنفسهنّ ، لا فى غيرهنّ من الزوجات . قاله الشعبى وغيره . وقيل : معنى الآية فى الطلاق ، أى تطلق من تشاء منهنّ وتمسك من تشاء. وقال الحسن : إن المعنى : تنكح من شئت من نساء أمتك وتترك نكاح من شئت منهنّ . وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ وسيأتى بيان ذلك .

﴿ **ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ الابتغاء : الطلب ، والعزل : الإزالة ، والمعنى : أنه إن أراد أن يؤوى إليه امرأة ممن قد عزلهنّ من القسمة ويضمها إليه فلا حرج عليه

فى ذلك . والحاصل أن الله سبحانه فوّض الأمر إلى رسوله يصنع فى زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضمّ من أرجأ ، وإرجاء من ضمّ إليه ، وما شاء فى أمرهنّ فعل توسعة عليه ونفيا للحرج عنه . وأصل الجناح : الميل ، يقال : جنحت السفينة : إذا مالت . والمعنى : لا ميل عليك بلوم ولا عتب فيما فعلت ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ماتقدّم من التفويض إلى مشيئته ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **أن تقرّ أعينهنّ** ﴾ أى ذلك التفويض الذى فوّضناك أقرب إلى رضاهنّ لأنه حكم الله سبحانه . قال قتادة : أى ذلك التخيير الذى خيرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهنّ إذ كان من عندنا ؛ لأنهنّ إذا علمن أنه من الله قرّت أعينهنّ . قرأ الجمهور: ﴿ **تقرّ** ﴾ على البناء للفاعل مسندا إلى ﴿ **أعينهنّ** ﴾، وقرأ ابن محيصن : « تقرّ » بضم التاء من أقرر وفاعله ضمير المخاطب ونصب أعينهنّ على المفعولية ، وقرئ على البناء للمفعول . وقد تقدّم بيان معنى قرّة العين فى سورة مريم ومعنى ﴿ **ولا يحزنّ** ﴾ : لا يحصل معهنّ حزن بتأثيرك بعضهنّ دون بعض ﴿ **ويرضين بما آتيتهنّ كلهنّ** ﴾ أى يرضين جميعا بما أعطيتهنّ من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء. قرأ الجمهور : ﴿ **كلهنّ** ﴾ بالرفع تأكيدا لفاعل ﴿**يرضين** ﴾ . وقرأ أبو إياس بالنصب تأكيدا لضمير المفعول فى ﴿ **آتيتهنّ** ﴾ ، ﴿ **والله يعلم ما فى قلوبكم** ﴾ من كل ماتضمرونه ، ومن ذلك ماتضمرونه من أمور النساء ﴿ **وكان الله عليما** ﴾ بكل شىء لا تخفى عليه خافية ﴿ **حليما** ﴾ لا يعاجل العصاة بالعقوبة .

﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لا يحلّ** ﴾ بالتحتية للفصل بين الفعل وفاعله المؤنث ، وقرأ ابن كثير بالفوقية . وقد اختلف أهل العلم فى تفسير هذه الآية على أقوال: الأوّل : أنها محكمة ، وأنه حرمّ على رسول الله ﷺ أن يتزوّج على نسائه ؛ مكافأة لهنّ بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهنّ رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والحسن وابن سيرين ،وأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن زيد وابن جرير . وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف : لما حرّم الله عليهنّ أن يتزوجن من بعده حرّم عليه أن يتزوجّ غيرهن . وقال أبى بن كعب وعكرمة وأبو رزين : إن المعنى : لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التى سماها الله. قال القرطبى : وهو اختيار ابن جرير . وقيل : لا يحلّ لك اليهوديات ولا النصرانيات لأنهنّ لا يصح أن يتصفن بأنهنّ أمهات المؤمنين . وهذا القول فيه بُعْد لأنه يكون التقدير : لا يحّل لك النساء من بعد المسلمات ، ولم يجر للمسلمات ذكر . وقيل : هذه الآية منسوخة بالسنة وبقوله سبحانه : ﴿**ترجى من تشاء منهنّ وتؤوى إليك من تشاء** ﴾ وبهذا قالت عائشة وأم سلمة وعلى بن أبى طالب وعلى بن الحسين وغيرهم ، وهذا هو الراجح ، وسيأتى فى آخر البحث ما يدل عليه من الأدلة .

﴿ **ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج** ﴾ أى تتدبل فحذفت إحدى التاءين ، أى ليس لك أن تطلق واحدة منهنّ أوأكثر وتتزّوج بدل من طلقت منهنّ ، و « من » فى قوله :﴿ **من أزواج** ﴾

مزيدة للتأكيد . وقال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله . يقول : خذ زوجتى وأعطنى زوجتك ، وقد أنكر النحاس وابن جرير ما ذكره ابن زيد . قال ابن جرير : ما فعلت العرب هذا قط ويدفع هذا الإنكار منهما ما أخرجه الدارقطنى عن أبى هريرة قال : كان البدل فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى ، فأنزل اللهّ عزوجلّ : ﴿ **ولا أن تبدّل بهنّ** ﴾ (١) وأخرجه أيضا عنه البزار وابن مردويه ، وجملة : ﴿ **ولو أعجبك حسنهنّ** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **تبدّل** ﴾ ، والمعنى أنه لا يحل التبدّل بأزواجك ولو أعجبك حسن غيرهنّ ممن أردت أن تجعلها بدلا من إحداهن ، وهذا التبدّل أيضا من جملة ما نسخه اللّه فى حق رسوله على القول الراجح .

وقوله : ﴿ **إلا ما ملكت يمينك** ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الحرائر والإماء . وقد اختلف العلماء فى تحليل الأمة الكافرة . القول الأوّل : أنها تحلّ للنبىّ ﷺ لعموم هذه الآية ، وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم . والقول الثانى: أنها لا تحلّ له تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة . ويترجح القول الأوّل بعموم هذه الآية ، وتعليل المنع بالتنزّه ضعيف فلا تنزّه عما أحله اللّه سبحانه ، فإن ما أحله فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح ، لا باعتبار غير ذلك ، فالمشركون نجس بنص القرآن ويمكن ترجيح القول الثانى بقوله سبحانه : ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ [الممتحنة : ١٠] فإنه نهى عام ﴿ **وكان الله علي كل شيء رقيبا** ﴾ أى مراقبا حافظا مهيمنا لا يخفى عليه شيء ولا يفوته شيء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات** ﴾ قال : هذا فى الرجل يتزوّج المرأة ، ثم يطلقها من قبل أن يمسها ، فإذا طلقها واحدة بانت منه ولا عدّة عليها ، تتزوّج من شاءت ، ثم قال: ﴿ **فمتعوهنّ وسرحوهنّ سراحا جميلا** ﴾ يقول: إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقا؛ متعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ** ﴾ منسوخة نسختها التى فى البقرة ﴿ **فنصف ما فرضتم** ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج عبد ابن حميد عن الحسن وأبى العالية قالا : ليست بمنسوخة ، لها نصف الصداق ولها المتاع . وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول : إن طلق مالم ينكح فهو جائز ، فقال ابن عباس أخطأ فى هذا، إن اللّه يقول: ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهنّ** ﴾ ولم يقل : إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهنّ . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس ، أنه تلا هذه الآية وقال : لا يكون طلاق حتى

---

(١) الدارقطنى ٣/٢١٨ . وفى إسناده إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة قال البخارى : « تركوه » ونهى أحمد عن حديثه . ميزان الاعتدال ١/١٩٣/٧٦٨ ، وقال الحافظ فى الفتح : « حديث أبى هريرة فى نكاح البدل ضعيف جدًا » .

يكون نكاح. وقد وردت أحاديث منها أنه « لا طلاق إلا بعد نكاح » (١) وهى معروفة .

وأخرج ابن سعد وابن راهويه وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه وابـن مردويه والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب . قالت :خطبنى رسول اللّه ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى ، فأنزل اللّه ﴿ **يأيها النبىّ إنا أحللنا لك أزواجك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **هاجرن معك** ﴾ قالت : فلم أكن أحلّ له لأنى لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت : نزلت فىّ هذه الآية : ﴿ **وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك**﴾ أراد النبىّ أن يتزوّجنى فنهى عنى إذ لم أهاجر. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجك** ﴾ إلى قوله: ﴿ **خالصة لك** ﴾ قال: فحرّم اللّه عليه سوى ذلك من النساء ، وكان قبل ذلك ينكح فى أىّ النساء شاء لم يحرم ذلك عليه ، وكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا أن ينكح فى أىّ النساء أحبّ ،فلما أنزل إنى حرّمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى السنن عن عائشة قالت : التى وهبت نفسها للنبى ﷺ خولة بنت حكيم(٣). وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى وابن مردويه عن عروة ، أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتى وهبن أنفسهنّ لرسول اللّه ﷺ (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد اللّه بن عبيدة قالوا: تزوّج رسول اللّه ﷺ ثلاث عشرة امرأة : ست من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاث من بنى عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بنى هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث ، وهى التى وهبت نفسها للنبىّ ﷺ ، وزينب أم المساكين ، والعامرية وهى التى اختارت الدنيا ، وامرأة من بنى الجون وهى التى استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين : صفية بنت حيى ، وجويرية بنت الحارث الخزاعية . وأخرج البخارى وابن مردويه عن أنس قال : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : يانبىّ اللّه هل لك بى حاجة ؟ فقالت ابنة أنس : ما كان أقلّ حياءها ، فقال : هى خير منك رغبت فى

---

(١) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٨) عن المسور بن مخرمة وفى الزوائد :« إسناده حسن لأن على بن الحسين بن واقد ، مختلف فيه ، وكذلك هشام بن سعد وهو ضعيف ، وأخرج له مسلم فى الشواهد » . وقد أخرجه أحمد ٢/٢٠٧ وأبو داود فى الطلاق (٢١٩٠) والترمذى فى الطلاق (١١٨١) وقال : « حديث حسن صحيح وهو أحسن شىء فى هذا الباب » وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٧) كلهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « لا طلاق فيما لا يملك » .

(٢) ابن سعد ٨/١٥٣ والترمذى فى التفسير (٣٢١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ٢٢/١٥ والطبرانى ٢٤ /٤١٣ (١٠٠٧) والحاكم ٤/٥٣ وسكت عنه ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/٥٤ .

(٣) البيهقى ٧/٥٥ .

(٤) ابن سعد ٨/١٥٨ وابن أبى شيبة ٤/٣١٥ والبخارى فى النكاح (٥١١٣) وابن جرير ٢٢/١٧ والبيهقى ٧/٥٥ .

النبى ﷺ فعرضت نفسها عليه (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدى ؛ أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فوهبت نفسها له فصمت (٢) . الحديث بطوله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم** ﴾ قال : فرض اللّه عليهم أنه لا نكاح إلا بولىّ وشاهدين. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثله وزاد: ومهر . وأخرج ابن أبى شيبة عن علىّ قال: نهى رسول اللّه ﷺ أن توطأ الحامل حتى تضع ، والحائل حتى تستبرأ بحيضة (٣) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **ترجى من تشاء منهن** ﴾ قال : تؤخر . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **ترجى من تشاء منهن** ﴾ يقول: من شئت خليت سبيله منهنّ ، ومن أحببت أمسكت منهنّ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتى وهبن أنفسهنّ لرسول اللّه ﷺ وأقول : تهب المرأة نفسها ! فلما أنزل اللهّ: ﴿ **ترجى من تشاء منهنّ** ﴾ الآية قلت : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك(٤). وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى رزين قال : همّ رسول اللّه ﷺ أن يطلق من نسائه ، فلما رأين ذلك أتينه فقلن : لا تخل سبيلنا وأنت فى حلّ فيما بيننا وبينك ، افرض لنا من نفسك ومالك ماشئت ، فأنزل اللّه : ﴿ **ترجى من تشاء منهنّ** ﴾ يقول : تعزل من تشاء فأرجأ منهن نسوة وآوى نسوة ، وكان ممن أرجى ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة ، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ماشاء ، وكان ممن أوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكانت قسمته من نفسه وماله بينهنّ سواء (٥). وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول اللّه ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية : ﴿ **ترجى من تشاء منهن** ﴾ فقلت لها : ماكنت تقولين ؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذلك إلىّ فإنى لا أريد أن أوثر عليك أحدا (٦) .

وأخرج الرويانى والدارمى وابن سعد ، وعبد اللهّ بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن زياد ، رجل من الأنصار ، قال : قلت لأبى بن كعب : أوأيت لو أن أزواج النبىّ ﷺ متن أما كان يحلّ له أن يتزوّج ؟

---

(١) البخارى فى النكاح (٥١٢٠) .

(٢) أحمد ٥/ ٣٣٠ والبخارى فى النكاح (٥١٢١) ومسلم فى النكاح (١٤٢٥/ ٧٦) وأبو داود فى النكاح (٢١١١) والترمذى فى النكاح (١١١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٦/ ٥٤ وابن ماجة فى النكاح (١٨٨٩) .

(٣) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٣٧٠ .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٧٨٨) ومسلم فى الرضاع (١٤٦٤/ ٤٩) والنسائى فى النكاح ٦/ ٥٤ .

(٥) ابن أبى شيبة فى النكاح ٤/ ٢٠٤ وابن جرير ٢٢/ ١٨ .

(٦) أحمد ٦/ ٧٦ والبخارى فى التفسير (٤٧٨٩) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٦/ ٢٣) وأبو داود فى النكاح (٢١٣٦) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء(٨٩٣٦) .

قال : وما يمنعه من ذلك ؟ قلت : قوله : ﴿ **لا يحلّ لك النساء من بعد** ﴾ قال : إنما أحلّ له ضربا من النساء ووصف له صفة فقال : ﴿ **يأيها النبىّ إنا أحللنا لا أزواجك** ﴾ إلى قوله : ﴿**وامرأة مؤمنة** ﴾ ثم قال : لا يحلّ لك النساء من بعد هذه الصفة . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وحسنه ، وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : نهى رسول اللّه ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال :﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك** ﴾ فأحل له الفتيات المؤمنات ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبىّ** ﴾ وحرّم كل ذات دين غير الإسلام ، وقال ﴿ **يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ وحرّم ماسوى ذلك من أصناف النساء. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نهى النبىّ ﷺ أن يتزوّج بعد نسائه الأول شيئا . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : حبسه اللّه عليهن كما حبسهن عليه . وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أنس قال : لما خيرهنّ فاخترن اللّه ورسوله قصره عليهن فقال : ﴿ **لا يحلّ لك النساء من بعد** ﴾ . وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول اللّه ﷺ حتى أحلّ اللّه له أن يتزوّج من النساء ماشاء إلا ذات محرم ، وذلك قول اللّه : ﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء** ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، والترمذى وصححه، والنسائى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى من طريق عطاء عن عائشة قالت : لم يمت رسول اللّه ﷺ حتى أحلّ اللّه له أن يتزوّج من النساء ماشاء إلا ذات محرم لقوله : ﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء**﴾ . وأخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى رزين ﴿ **لا يحلّ لك النساء من بعد** ﴾ قال : من المشركات إلا ماسبيت فملكت يمينك . وأخرج البزار وابن مردويه عن أبى هريرة قال : كان البدل فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلنى امرأتك وأبادلك امرأتى : أى تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى ، فأنزل اللهّ : ﴿ **ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ** ﴾ قال : فدخل عيينة بن حصن الفزارى إلى النبىّ ﷺ وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول اللّه ﷺ : « أين الاستئذان ؟ » قال : يارسول اللهّ ، ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت ، ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول اللّه : « هذه عائشة أم المؤمنين » ، قال : أفلا أنزل لك عن أحسن خلق اللّه ؟ قال: «ياعيينة ، إن اللّه حرّم ذلك » ، فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا ؟ قال :« أحمق مطاع ، وإنه على ماترين لسيد قومه » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ

إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾.

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ** ﴾ هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله ﷺ إلا بإذن منه . وسبب النزول ماوقع من بعض الصحابة فى وليمة زينب ، وسيأتى بيان ذلك آخر البحث إن شاء الله . وقوله : ﴿ **إلا أن يؤذن لكم** ﴾ استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى لا تدخلوها فى حال من الأحوال إلا فى حال كونكم مأذونا لكم ، وهو فى موضع نصب على الحال ، أى إلا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض،أى إلا بأن يؤذن لكم ، أو منصوب على الظرفية ، أى إلا وقت أن يؤذن لكم ، وقوله : ﴿ **إلى طعام** ﴾ متعلق بـ﴿**يؤذن**﴾ على تضمينه معنى الدعاء ، أى إلا أن يؤذن لكم مدعوّين إلى طعام ، وانتصاب ﴿**غير ناظرين إناه**﴾ على الحال ، والعامل فيه ﴿ **يؤذن** ﴾ أو مقدّر ، أى ادخلوا غير ناظرين ومعنى ناظرين : منتظرين ، وإناه : نضجه وإدراكه ، يقال: أنى يأنى أنى: إذا حان وأدرك . قرأ الجمهور : ﴿ **غير ناظرين** ﴾ بالنصب . وقرأ ابن عبلة : «غير » بالجرّ صفة لطعام، وضعف النحاة هذه القراءة لعدم بروز الضمير لكونه جاريا على غير من هو له ، فكان حقه أن يقال : غير ناظرين إناه أنتم .

ثم بين لهم سبحانه ماينبغى فى ذلك فقال : ﴿ **ولكن إذا دعيتم فادخلوا** ﴾ وفيه تأكيد للمنع ، وبيان الوقت الذى يكون فيه الدخول ، وهو عند الإذن . قال ابن العربى : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فادخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول. وقيل : إن فيه دلالة بينة على أن المراد :بالإذن إلى الطعام : هو الدعوة إليه ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾ أمره سبحانه بالانتشار بعد الطعام ، وهو التفرق والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذى وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل ﴿ **ولا مستأنسين لحديث** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **غير ناظرين** ﴾ أوعلى مقدّر ، أى ولا تدخلوا ولا تمكثوا مستأنسين . والمعنى : النهى لهم عن أن يجلسوا بعد الطعام يتحدّثون مستأنسين بالحديث . قال الرازى فى قوله : ﴿**إلا أن يؤذن لكم إلى طعام** ﴾ إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره : ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول فى غير وقت الطعام بغير إذن. وإما أن لا يكون فيه

تقديم وتأخير فيكون معناه : ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام ، فيكون الإذن مشروطا بكونه إلى طعام ، فإن لم يؤذن إلى طعام فلا يجوز الدخول ، فلو أذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام فلا يجوز ، فنقول : المراد هو الثانى ليعمّ النهى عن الدخول . وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام فلما هو مذكور فى سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ويدخلون من غير إذن ، فمنعوا من الدخول فى وقته بغير إذن . وقال ابن عادل : الأولى أن يقال : المراد هو الثانى ؛ لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل ، وقوله : ﴿**إلى طعام**﴾ من باب التخصيص بالذكر ، فلا يدّل على نفى ماعداه ، لا سيما إذا علم مثله ، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام ، انتهى . والأولى فى التعبير عن هذا المعنى الذى أراده أن يقال : قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته ﷺ بإذنه لغير الطعام ، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم ، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذى نزلت فيه ، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه وأمثالهم ، فلا تدلّ على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام ، واللازم باطل فالملزوم مثله . قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه ، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى اللّه المؤمنين عن ذلك فى بيت النبى ﷺ ، ودخل فى النهى سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله لهم فى ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام .

والإشارة بقوله : ﴿ **إن ذلكم** ﴾ إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما فى قوله : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] أى إن ذلك المذكور من الأمرين ﴿ **كان يؤذى النبى** ﴾ لأنهم كانوا يضيقون المنزل عليه وعلى أهله ويتحدّثون بما لا يريده . قال الزجاج : كان النبىّ ﷺ يحتمل إطالتهم كرما منه فيصبر على الأذى فى ذلك ، فعلم اللّه من يحضره الأدب فصار أدبا لهم ولمن بعدهم ﴿ **فيستحيى منكم** ﴾ أى يستحيى أن يقول لكم :قوموا أو اخرجوا ﴿ **والله لا يستحيى من الحق** ﴾ أى لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق ولا يمتنع من بيانه وإظهاره ، والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة . قرأ الجمهور : ﴿**يستحيى**﴾ بياءين ، وروى عن ابن كثير أنه قرأ بياء واحدة ، وهى لغة تميم يقولون : استحى يستحى مثل استقى يستقى . ثم ذكر سبحانه أدبا آخر متعلقا بنساء النبىّ ﷺ فقال : ﴿ **وإذا سألتموهنّ متاعا** ﴾ أى شيئا يتمتع به ، من الماعون وغيره ﴿ **فاسألوهنّ من وراء حجاب** ﴾ أى من وراء ستر بينكم وبينهنّ . والمتاع يطلق على كل مايتمتع به ، فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى سؤال المتاع من وراء حجاب . وقيل : الإشارة إلى جميع ماذكر من عدم الدخول بغير إذن ، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع ،

والأوّل أولى ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ **أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ** ﴾ أى أكثر تطهيرا لها من الريبة ، وخواطر السوء التى تعرض للرجال فى أمر النساء ، وللنساء فى أمر الرجال . وفى هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له من أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحلّ له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله** ﴾ أى ماصح لكم ولا استقام أن تؤذوه بشىء من الأشياء كائنا ماكان ، ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه ، واللبث فيها على غير الوجه الذى يريده ، وتكليم نسائه من دون حجاب ﴿ **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** ﴾ أى ولا كان لكم ذلك بعد وفاته لأنهنّ أمهات المؤمنين ، ولا يحلّ للأولاد نكاح الأمهات ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلكم** ﴾ إلى نكاح أزواجه من بعده ﴿ **كان عند الله عظيما** ﴾ أى ذنبا عظيما وخطبا هائلا شديدا . وكان سبب نزول الآية أنه قال قائل : لو قد مات محمد لتزوّجنا نساءه ، وسيأتى بيان ذلك﴿ **إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما** ﴾ يعلم كل شىء من الأشياء ، ومن جملة ذلك ماتظهرونه فى شأن أزواج رسوله ، وما تكتمونه فى صدوركم . وفى هذا وعيد شديد ؛ لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرّها.

ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال : ﴿ **لا جناح عليهنّ فى آبائهنّ ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن** ﴾ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ ولا غيرهنّ من النساء الاحتجاب منهم، ولم يذكر العمّ والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقال الزجاج : العمّ والخال ربما يصفان المرأة لولديهما ، فإن المرأة تحلّ لابن العمّ وابن الخال فكره لهما الرؤية ، وهذا ضعيف جدا ، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها ، لا سيما أبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها لأنهنّ يصفنها ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وهكذا ولا وجه لما قاله الشعبى وعكرمة من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها ، والأولى أن يقال : إنه سبحانه اقتصر هاهنا على بعض ماذكره من المحارم فى سورة النور اكتفاء بما تقدّم ﴿ **ولا نسائهنّ** ﴾ هذه الإضافة تقتضى أن يكون المراد بالنساء المؤمنات ؛ لأن الكافرات غير مأمونات على العورات ، والنساء كلهنّ عورة ﴿ **ولا ماملكت أيمانهن** ﴾ من العبيد والإماء ، وقيل : الإماء خاصة ، ومن لم يبلغ من العبيد ، والخلاف فى ذلك معروف . وقد تقدّم فى سورة النور مافيه كفاية. ثم أمرهنّ سبحانه بالتقوى التى هى ملاك الأمر كله ، والمعنى : اتقين الله فى كل الأمور التى من جملتها ماهو مذكور هنا ﴿ **إن الله كان على كل شىء شهيدا** ﴾ لم يغب عنه شىء من الأشياء كائنا ماكان ، فهو مجاز للمحسن بإحسانه وللمسىء بإساءته .

وقد أخرج البخاى ومسلم عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر فلو حجبتهنّ ، فأنزل الله آية الحجاب [1] . وفى لفظ أنه قال

---

(١) أحمد ١/ ٢٤ والبخارى فى التفسير (٤٤٨٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٩٩/ ٢٤) عن أنس .

عمر : يارسول اللّه ، يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل اللّه آية الحجاب . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما تزوّج رسول اللّه ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدّثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبىّ ﷺ أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل اللّه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبىّ** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبىّ ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرّزن إلى المناصع ، وهو صعيد أفيح ، وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول اللّه ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول اللّه ﷺ يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالى عشاء وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك ياسودة حرصا على أن ينزل الحجاب ، فأنزل اللّه الحجاب قال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن سعد عن أنس قال : نزل الحجاب مبتنى رسول اللّه ﷺ بزينب بنت جحش ، وذلك سنة خمس من الهجرة ، وحجب نساءه من يومئذ وأنا ابن خمس عشرة سنة . وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان ، وقال : نزل الحجاب على نسائه فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وبه قال قتادة والواقدى . وزعم أبو عبيدة وخليفة بن خياط أن ذلك كان فى سنة ثلاث .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله** ﴾ قال : نزلت فى رجل همّ أن يتزوّج بعض نساء النبىّ ﷺ بعده . قال سفيان : وذكروا أنها عائشة. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : بلغنا أن طلحة بن عبيد اللّه قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوّج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوّجنّ نساءه من بعده ، فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : قال طلحة بن عبيد اللّه : لو قبض النبىّ ﷺ لتزوّجت عائشة . فنزلت . وأخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : نزلت فى طلحة لأنه قال : إذا توفى النبىّ ﷺ تزوّجت عائشة . قال ابن عطية : وهذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد اللّه . قال القرطبى : قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله ، وإنما الكذب فى نقله ، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال .

وأخرج البيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : قال رجل من أصحاب النبىّ ﷺ : لو قد

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٩٠) ومسلم فى النكاح (١٤٢٨/٩٢) والنسائى فى التفسير (٤٤٠) .

(٢) ابن جرير ٢٢/٢٩ وقد أخرجه مسلم فى السلام (٢١٧٠/١٨) قال ابن كثير ٥/٤٩١ . « والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب » .

مات رسول الله ﷺ تزوّجت عائشة أو أمّ سلمة ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن جرير عنه أن رجلا أتى بعض أزواج النبىّ ﷺ فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبى ﷺ :« لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا »، فقال :يارسول الله ، إنها ابنة عمى ، والله ماقلت لها منكرا ولا قالت لى ، قال النبى ﷺ : « قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله ، وإنه ليس أحد أغير منى » ، فمضى ثم قال : يمنعنى من كلام ابنة عمى لأتزوّجنها من بعده ، فأنزل الله هذه الآية ، فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله ، وحج ماشيا توبة من كلمته. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: خطبنى على فبلغ ذلك فاطمة فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن أسماء متزوجة عليا ، فقال لها النبىّ ﷺ :« ماكان لها أن تؤذى الله ورسوله » .

وأخرج ابن سعد عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف فى قوله : ﴿ **إن تبدوا شيئا أو تخفوه**﴾ قال : إن تكلموا به فتقولون تتزوّج فلانة لبعض أزواج النبىّ ﷺ ، أو تخفوا ذلك فى أنفسكم فلا تنطقوا به ؛يعلمه الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا جناح عليهنّ** ﴾ إلى آخر الآية قال : أنزلت هذه فى نساء النبىّ ﷺ خاصة ، وقوله : ﴿ **نساء النبى** ﴾ يعنى : نساء المسلمات ﴿ **وما ملكت أيمانهنّ** ﴾ من المماليك والإماء ورخص لهنّ أن يروهنّ بعد ماضرب الحجاب عليهنّ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾.

قرأ الجمهور : ﴿ **وملائكته** ﴾ بنصب الملائكة عطفا على لفظ اسم إنّ . وقرأ ابن عباس : « وملائكته » بالرفع عطفا على محل اسم إن ، والضمير فى قوله : ﴿ **يصلون** ﴾ راجع إلى الله وإلى الملائكة ، وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحدا ، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول : من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى ، فقال : « بئس خطيب القوم أنت ، قل: ومن يعص الله ورسوله » (٢) . ووجه ذلك أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره فى ضمير واحد، وهذا الحديث ثابت فى الصحيح . وثبت أيضا فى الصحيح أن رسول الله ﷺ أمر مناديا ينادى يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية (٣). ولأهل العلم

---

(١) البيهقى ٧/ ٦٩ .قلت :وفى إسناده مهران بن أبى عمر قال البخارى : «فى حديثه اضطراب » وقال ابن حجر فى تقريب التهذيبّ ٢/ ١٤١٩/٢٧٩ : « صدوق سيئ الحفظ » . وفيه محمد بن حميد الرازى قال البخارى : « فيه نظر» وكذبه أبو زرعة . ميزان الاعتدال ٣/ ٥٣٠ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٩٨) عن أنس .

أبحاث فى الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها ، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله ولملائكته واحدا ، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله فى رسول الله ﷺ ، ويحمل الذم لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه ﷺ فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله ، فيختص المنع بمثل ذلك ، وهذا أحسن ماقيل فى الجمع . وقالت طائفة : فى هذه حذف ، والتقدير : إن الله يصلى وملائكته يصلون ، وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره فى ضمير واحد ، ولا يرد أيضا ماقيل : إن الصلاة من الله الرحمة ومن ملائكته الدعاء فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين فى لفظ يصلون ؟ ويقال على القول الأوّل: إنه أريد بـ﴿ **يصلون** ﴾ معنى مجازى يعمّ المعنيين ، وذلك بأن يراد بقوله: ﴿ **يصلون**﴾ يهتمون بإظهار شرفه ، أو يعظمون شأنه ، أو يعتنون بأمره . وحكى البخارى عن أبى العالية أن صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء . وروى الترمذى فى سننه عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم أنهم قالوا: صلاة الربّ الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار . وحكى الواحدى عن مقاتل أنه قال : أما صلاة الرب فالمغفرة ، وأما صلاة الملائكة فالاستغفار . وقال عطاء بن أبى رباح: صلاته تبارك وتعالى : سبوح قدوس سبقت رحمتى غضبى . والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده فى الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه عند ملائكته وأن الملائكة تصلى عليه ، وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه .

وقد اختلف أهل العلم فى الصلاة على النبىّ ﷺ هل هى واجبة أم مستحبة ؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة . وقد حكى هذا الإجماع القرطبى فى تفسيره ، فقال قوم من أهل العلم : إنها واجبة عند ذكره ، وقال قوم : تجب فى كل مجلس مرة . وقد وردت أحاديث مصرحة بذّم من سمع ذكر النبىّ ﷺ فلم يصلّ عليه [(١)] .

واختلف العلماء فى الصلاة على النبىّ ﷺ فى تشهد الصلاة المفترضة هل هى واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة . قال ابن المنذر : يستحب أن لا يصلى أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله ﷺ ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزئة فى مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثورى وأهل الكوفة من أصحاب الرأى وغيرهم . وهو قول جمهور أهل العلم . قال : وشذّ الشافعى فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان ، وهذا القول عن الشافعى لم يروه عنه إلا حرملة بن يحيى ولا يوجد عن الشافعى إلا من روايته. قال الطحاوى : لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعى . وقال الخطابى ، وهو من الشافعية : إنها ليست بواجبة فى الصلاة ، قال : وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعى ولا أعلم له فى ذلك قدوة، انتهى . وقد قال بقول الشافعى جماعة من أهل العلم ، منهم الشعبى والباقر ومقاتل بن حيان ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيرا ، كما حكاه أبو زرعة الدمشقى ، وبه قال ابن راهويه وابن المواز من المالكية .

(١) القرطبى ٨/ ٥٣١٥ .

وقد جمعت فى هذه المسألة رسالة مستقلة ذكرت فيها ما احتج به الموجبون لها وما أجاب به الجمهور ، وأشفّ ما يستدلّ به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ : إن اللّه أمرنا أن نصلى عليك . فكيف نصلى عليك فى صلاتنا ، فقال : « قولوا » [1] الحديث . فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب . وأما على بطلان الصلاة بالترك ووجوب الإعادة لها فلا ، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والأركان .

واعلم أنه قد ورد فى فضل الصلاة على رسول اللّه ﷺ أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت فى مصنف مستقلّ ولو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة فى الصحيح من قوله ﷺ : « من صلى علىّ صلاة صلى اللّه عليه بها عشرا» [2] فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة والمكرمة النبيلة . وأما صفة الصلاة عليه ﷺ فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة فى الصحيحين وغيرهما، منها ماهو مقيد بصفة الصلاة عليه فى الصلاة ، ومنها ماهو مطلق ، وهى معروفة فى كتب الحديث فلا نطيل بذكرها . والذى يحصل به الامتثال لمطلق الأمر فى هذه الآية هو أن يقول القائل : اللهم صلّ وسلم على رسولك، أو على محمد أو على النبىّ ، أو اللهم صلّ على محمد وسلم . ومن أراد أن يصلى عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التى ورد التعليم بها والإرشاد إليها فذلك أكمل ، وهى صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة . وسيأتى بعضها آخر البحث . وسيأتى الكلام فى الصلاة على الآل . وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم فى الآية أن يقول القائل: صليت عليه وسلمت عليه ، أو الصلاة عليه والسلام عليه ، أو عليه الصلاة والتسليم ؛ لأن اللّه سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا ، فالامتثال هو أن يكون ذلك على ماذكرنا ، فكيف كان الامتثال لأمر اللّه لنا بذلك أن نقول : اللهم صلّ عليه وسلم بمقابلة أمر اللّه لنا بأمرنا له بأن يصلى عليه ويسلم عليه ؟ وقد أجيب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعارا عظيما للنبىّ ﷺ وتشريفا كريما، وكلنا ذلك إلى اللّهّ عز وجلّ وأرجعناه إليه ، وهذا الجواب ضعيف جدًا . وأحسن ما يجاب به أن يقال : إن الصلاة والتسليم المأمور بهما فى الآية هما أن نقول : اللهم صلّ عليه وسلم ، أونحو ذلك مما يؤدى معناه كما بينه رسول اللّه ﷺ لنا ، فاقتضى ذلك البيان فى الأحاديث الكثيرة أن هذه هى الصلاة الشرعية .

واعلم أن هذه الصلاة من اللّه على رسوله وإن كان معناها الرحمة ، فقد صارت شعارا له يختصّ به دون غيره، فلا يجوز لنا أن نصلى على غيره من أمته . كما يجوز لنا أن نقول : اللهم ارحم فلانا أو رحم اللّه فلانا ، وبهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم: هل هو محرّم ،

(١) مالك فى قصر الصلاة (٦٧) وأحمد ٥/ ٢٧٤ ومسلم فى الصلاة (٤٠٥/ ٦٥) وأبو داود فى الصلاة (٩٨٠) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٤٣) كلهم عن أبى مسعود .

(٢) أحمد ٢/ ٣٧٢ ومسلم فى الصلاة (٤٠٨/ ٧٠) وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٠) والترمذى فى الصلاة (٤٥٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى الصلاة ٣/ ٥٠ كلهم عن أبى هريرة .

أو مكروه كراهة شديدة ، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال . وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبى شيبة ، والبيهقى فى الشعب : لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبىّ ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار . وقال قوم : إن ذلك جائز لقوله تعالى : ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [التوبة : ١٠٣] ولقوله : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ [البقرة : ١٥٧] ولقوله : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ [الأحزاب : ٤٣] ولحديث عبد الله بن أبى أوفى الثابت فى الصحيحين وغيرهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : «اللهم صلّ عليهم، فأتاه أبى بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبى أوفى»(١). ويجاب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول اللهّ ﷺ له أن يخص به من شاء . وليس لنا أن نطلقه على غيره . وأما قوله تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ وقوله : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ﴾ [البقرة : ١٥٧] فهذا ليس فيه إلا أن الله سبحانه يصلى على طوائف من عباده كما يصلى على من صلى على رسوله مرّة واحدة عشر صلوات ، وليس فى ذلك أمر لنا ولا شرعه الله فى حقنا ، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله . وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله شعار له ، فكذا لفظ السلام عليه . وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة والسواد الأعظم من سلفها وخلفهاعلى الترضى عن الصحابة والترحم على من بعدهم والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ﴾ [الحشر : ١٠] .

ثم لما ذكر سبحانه مايجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال : ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة** ﴾ قيل : المراد بالأذى هنا هو فعل مايكرهانه من المعاصى لاستحالة التأذى منه سبحانه . قال الواحدى : قال المفسرون : هم المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله بالولد فقالوا : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والملائكة بنات الله ، وكذبوا رسول الله ، وشجوا وجهه وكسروا رباعيته وقالوا : مجنون ، شاعر ، كذاب ، ساحر. قال القرطبى : وبهذا قال جمهور العلماء . وقال عكرمة : الأذية لله سبحانه بالتصوير والتعرّض لفعل مالا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها . وقال جماعة : إن الآية على حذف مضاف ، والتقدير : إن الذين يؤذون أولياء الله ، وأما أذية رسوله فهى كل مايؤذيه من الأقوال والأفعال ، ومعنى اللعنة : الطرد والإبعاد من رحمته ، وجعل ذلك فى الدنيا والآخرة لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم ﴿ **وأعد لهم** ﴾ مع ذلك اللعن ﴿ **عذابا مهينا** ﴾ يصيرون به فى الإهانة فى الدار الآخرة لما يفيده معنى الإعداد من كونه فى الدار الآخرة .

---

(١) أحمد ٤/ ٣٥٣ والبخارى فى الزكاة (١٤٩٧) ومسلم فى الزكاة (١٠٧٨/ ١٧٦) وأبو داود (١٥٩٠) والنسائى ٥/ ٣١ وابن ماجة فى الزكاة (١٧٩٦) .

ثم لما فرغ من الذّم لمن آذى اللّه ورسوله، ذكر الأذية لصالحى عباده فقال : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات** ﴾ بوجه من وجوه الأذى من قول أو فعل . ومعنى ﴿ **بغير ما اكتسبوا**﴾ : أنه لم يكن ذلك لسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية ويستحقونها به ، فأما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حدّا أو تعزيرا أو نحوهما ، فذلك حق أثبته الشرع ، وأمر أمرنَا اللّه به وندبنا إليه ، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب ، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرّمة على أىّ وجه كان، مالم يجاوز ماشرعه الله . ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقال: ﴿ **فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا** ﴾ أى ظاهرا واضحا لا شك فى كونه من البهتان والإثم، وقد تقدّم بيان حقيقة البهتان وحقيقة الإثم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **يصلون على النبى** ﴾ يبركون . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن بنى إسرائيل قالوا لموسى : هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه : ياموسى ، سألوك هل يصلى ربك ؟ فقل : نعم ، أنا أصلى وملائكتى على أنبيائى ورسلى ، فأنزل اللّهّ على نبيه : ﴿ **إن اللّهّ وملائكته يصلون على النبىّ** ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عنه قال : إن صلاة اللّه على النبىّ هى المغفرة ، إن اللّه لا يصلى ولكن يغفر ، وأما صلاة الناس على النبى فهى الاستغفار له . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قرأ : « صلوا عليه كما صلى اللّه عليه وسلموا تسليما » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبىّ** ﴾ الآية ، قلنا : يارسول اللّهّ ، قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صلىّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . وأخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديثه بلفظ : قال رجل : يارسول اللّه ، أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قل : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائى من حديث طلحة بن عبيد اللّه قال: قلت : يارسول اللّه ، كيف الصلاة عليك ؟ قال : « قل : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد »(٢) . وفى الأحاديث اختلاف،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٩٧) ومسلم فى الصلاة (٦٦/٤٠٦) وأبو داود فى الصلاة (٩٧٦) والترمذى فى الصلاة (٤٨٣) وقال : « هذا حديث صحيح » والنسائى ٤٧/٣ وابن ماجة فى الصلاة (٩٠٤) .

(٢) ابن أبى شيبة ٥٠٧/٢ وأحمد ١٦٢/١ والنسائى ٤٨/٣ .

ففى بعضها على إبراهيم فقط . وفى بعضها على آل إبراهيم فقط ، وفى بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى حميد الساعدى أنهم قالوا: يارسول اللّه ، كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « قولوا : اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذرّيته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » (١) . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدًا ، وفى بعضها التقييد بالصلاة كما فى حديث أبى مسعود عند ابن خزيمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه ؛ أن رجلا قال : يارسول اللّه ، أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا عليك فى صلاتنا ؟ (٢) الحديث . وأخرج الشافعى فى مسنده من حديث أبى هريرة مثله(٣) .

وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ فى الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النّادر اليسير من الأحاديث ، فينبغي للمصلى عليه أن يضم آله إليه فى صلاته عليه ، وقد قال بذلك جماعة ، ونقله إمام الحرمين والغزالى قولا عن الشافعى كما رواه عنهما ابن كثير فى تفسيره ، ولا حاجة إلى التمسك بقول قائل فى مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به ، ولا وجه لقول من قال : إن هذه التعليمات الواردة عنه ﷺ فى صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة فى الصلاة حملا لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد ، لما فى حديث كعب بن عجرة وغيره أن ذلك السؤال لرسول اللّه ﷺ كان عند نزول الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: « صلوا على أنبياء اللّه ورسله . فإن اللّه بعثهم كما بعثنى»(٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾** الآية قال : نزلت فى الذين طعنوا على النبىّ ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيى ، وروى عنه أنها نزلت فى الذين قذفوا عائشة (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾

---

(١) مالك فى قصر الصلاة (٦٦) أحمد ٥/ ٤٢٤ والبخارى فى الأنبياء (٢٣٦٩) ومسلم فى الصلاة (٤٠٧/ ٦٩) ، وأبو داود فى الصلاة (٩٧٩) والنسائى ٣/ ٤٩ .

(٢) ابن خزيمة (٢٢٠) وصححه الحاكم ١/ ٢٦٨ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى والبيهقى ٢/ ١٤٦ .

(٣) الشافعى ص ٤٢ .

(٤) عبد الرزاق (٣١١٨) والبيهقى فى الشعب (١٣٠) وإسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذى ، وفيه محمد بن ثابت وهو مجهول ، وقال ابن كثير ٥/ ٥١١ : « فيه ضعيفان وهما عمرو بن هارون وشيخه » .

(٥) ابن جرير ٢٢/ ٣٢ وقال ابن كثير ٥/ ٥١٤ : « والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشىء » .

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذى رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده أمر رسوله ﷺ بأن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه فقال : ﴿ **يأيها النبىّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهن** ﴾ «من» للتبعيض ، والجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار . قال الجوهرى : الجلباب : الملحفة . وقيل : القناع. وقيل : هو ثوب يستر جميع بدن المرأة ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أم عطية أنها قالت : يارسول اللّه ، إحدانا لا يكون لها جلباب ، فقال : « لتلبسها أختها من جلبابها » [(١)] ، قال الواحدى: قال المفسرون يغطين وجوههنّ ورؤوسهنّ إلا عينا واحدة ، فيعلم أنهنّ حرائر فلا يعرض لهن بأذى . وقال الحسن : تغطى نصف وجهها . وقال قتادة : تلويه فوق الجبين وتشدّه ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه ، والإشارة بقوله : ﴿**ذلك**﴾ إلى إدناء الجلابيب ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **أدنى أن يعرفن** ﴾ أى أقرب أن يعرفن فيتميزن عن الإماء ويظهر للناس أنهنّ حرائر ﴿ **فلا يؤذين** ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهنّ مراقبة لهنّ ولأهلهنّ . وليس المراد بقوله : ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن** ﴾ أن تعرف الواحدة منهنّ من هى ، بل المراد : أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر ﴿ **وكان الله غفورا** ﴾ لما سلف منهنّ من ترك إدناء الجلابيب ﴿ **رحيما** ﴾ بهن ، أو غفوراً لذنوب المذنبين رحيما بهم فيدخلن فى ذلك دخولا أوّليا .

ثم توعد سبحانه أهل النفاق والإرجاف فقال : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون** ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿**والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب ﴿ **والمرجفون فى المدينة** ﴾ عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم . قال القرطبى : أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشىء واحد ، والمعنى : أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين ، فهو على

---

(١) أحمد ٥/ ٨٤ والبخارى فى الصلاة (٣٥١) ومسلم فى العيدين (٨٩٠/ ١٢) وأبو داود فى الصلاة (١١٣٦) والترمذى فى الصلاة (٥٣٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٣/ ١٨٠ وابن ماجة فى الصلاة (١٣٠٧) .

هذا من باب قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

أى إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتيبة . وقال عكرمة وشهر بن حوشب : ﴿ **الذين فى قلوبهم مرض**﴾: هم الزناة. والإرجاف فى اللغة : إشاعة الكذب والباطل ، يقال : أرجف بكذا : إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خيرا متزلزلا غير ثابت ، من الرجفة وهى الزلزلة. يقال : رجفت الأرض ، أى تحركت وتزلزلت ترجف رجفا . والرجفان : الاضطراب الشديد، وسمى البحر رجافا لاضطرابه ، ومنه قول الشاعر :

المطعمون اللحم كل عشية حتى تغيب الشمس فى الرجاف

والإرجاف واحد الأراجيف ، وأرجفوا فى الشيء خاضوا فيه ، ومنه قول شاعر :

فإنا وإن عيرتمونا بقتلة وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

وقول الآخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدنى وفى الأراجيف خلت اللؤم والخورا

وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا ، وتارة بأنهم قتلوا ، وتارة بأنهم غلبوا ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار ، فتوعدهم اللّه سبحانه بقوله: ﴿ **لنغرينك بهم** ﴾ أى لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك . قال المبرد : قد أغراه اللّه بهم فى قوله بعد هذه الآية : ﴿ **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾ فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم ، أى هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . قال النحاس : وهذا من أحسن ماقيل فى الآية . وأقول : ليس هذا بحسن ولا أحسن ، فإن قوله : ﴿ **ملعونين** ﴾ إلخ ، إنما هو لمجرّد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسول اللّه ﷺ بقتالهم ولا تسليط له عليهم ، وقد قيل : إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف فلم يغره اللّه بهم ، وجملة : ﴿ **لنغرينك بهم** ﴾ جواب القسم ، وجملة : ﴿ **ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا** ﴾ معطوفة على جملة جواب القسم ، أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا . وانتصاب ﴿ **ملعونين** ﴾ على الحال كما قال المبرد وغيره ، والمعنى : مطرودين ﴿ **أينما** ﴾ وجدوا وأدركوا ﴿ **أخذوا وقتلوا** ﴾ دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا ﴿**تقتيلا**﴾ وقيل : إن هذا هو الحكم فيهم وليس بدعاء عليهم ، والأوّل أولى . وقيل : معنى الآية : أنهم إن أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون .

﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل** ﴾ أى سنّ اللّه ذلك فى الأمم الماضية ، وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم ، وكذا حكم المرجفين ، وهو منتصب على المصدر . قال الزجاج : بين اللّه فى الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا ﴿ **ولن تجد لسنة الله**

تبديلا ﴾ أى تحويلا وتغييرا ، بل هى ثابتة دائمة فى أمثال هؤلاء فى الخلف والسلف .

﴿ **يسألك الناس عن الساعة** ﴾ أى عن وقت قيامها وحصولها ، قيل : السائلون عن الساعة هم أولئك المنافقون والمرجفون، لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعادا وتكذيبا ﴿**وما يدريك** ﴾ يامحمد ، أى ما يعلمك ويخبرك ﴿**لعل الساعة تكون قريبا** ﴾ أى فى زمان قريب ،وانتصاب ﴿ **قريبا** ﴾ على الظرفية ، والتذكير لكون الساعة فى معنى اليوم أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقى ، والخطاب لرسول اللّه ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها ، وهو رسول اللّه ، فكيف بغيره من الناس ؟ وفى هذا تهديد لهم عظيم .

﴿ **إن الله لعن الكافرين** ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ **وأعدّ لهم** ﴾ فى الآخرة مع ذلك اللعن منه لهمّ فى الدنيا ﴿ **سعيرا** ﴾ أى نارا شديدة التسعر ﴿ **خالدين فيها أبدا** ﴾ بلا انقطاع ﴿ **لا يجدون وليا** ﴾ يواليهم ويحفظهم من عذابها ﴿ **ولا نصيرا** ﴾ ينصرهم ويخلصهم منها ، « ويوم » فى قوله : ﴿ **يوم تقلب وجوههم فى النار** ﴾ ظرف لقوله : ﴿ **لا يجدون** ﴾ وقيل : لـ ﴿ **خالدين** ﴾ ، وقيل : لـ ﴿ **نصيرا** ﴾ ، وقيل : لفعل مقدر ، وهو اذكر . قرأ الجمهور : ﴿ **تقلب** ﴾ بضم التاء وفتح اللام على البناء للمفعول . وقرأ عيسى الهمدانى وابن أبى إسحاق « نقلب » بالنون وكسر اللام على البناء للفاعل ، وهو اللّه سبحانه . وقرأ عيسى أيضا بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم . وقرأ أبو حيوة وأبو جعفر وشيبة بفتح التاء واللام على معنى تقلب ، ومعنى هذا التقلب المذكور فى الآية : هو تقلبها تارة على جهة منها ، وتارة على جهة أخرى ظهرا لبطن، أو تغير ألوانهم بلفح النار فتسوّد تارة وتخضرّ أخرى ، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى ، فحينئذ ﴿ **يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾ والجملة مستأنفة كأنه قيل : فما حالهم ؟ فقيل : يقولون . ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوههم فى النار : ﴿ **ياليتنا** ﴾ إلخ . تمنوا أنهم أطاعوا اللّه والرسول وآمنوا بما جاء به لينجوا بما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون ، وهذه الألف فى ﴿ **الرسولا**﴾، والألف التى ستأتى فى ﴿**السبيلا**﴾ هى الألف التى تقع فى الفواصل ويسميها النحاة ألف الإطلاق ، وقد سبق بيان هذا فى أوّل هذه السورة .

﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا** ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى ، والمراد بالسادة والكبراء : هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم فى الدنيا ويقتدون بهم ، وفى هذا زجر عن التقليد شديد، وكم فى الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه ، ولكن لمن يفهم معنى كلام اللّه ويقتدى به وينصف من نفسه ، لا لمن هو من جنس الأنعام ، فى سوء الفهم ومزيد البلادة وشدّة التعصب . وقرأ الحسن وابن عامر : «ساداتنا » بكسر التاء جمع سادة فهو جمع الجمع . وقال مقاتل : هم المطعمون فى غزوة بدر ، والأوّل أولى ، ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة ﴿ **فأضلونا السبيلا** ﴾ أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر باللّه ورسوله ، والسبيل هو التوحيد ، ثم دعوا عليهم فى ذلك الموقف فقالوا: ﴿ **ربنا آتهم**

ضعفين من العذاب ﴾ أى مثل عذابنا مرتين . وقال قتادة : عذاب الدنيا والآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ﴿ **والعنهم لعنا كبيرا** ﴾ قرأ الجمهور : « كثيرا » بالمثلثة ، أى لعنا كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع ، واختار هذه القراءة أبوحاتم وأبو عبيد والنحاس . وقرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى بن وثاب وعاصم بالباء الموحدة ، أى كبيرا فى نفسه شديدا عليهم ثقيل الموقع .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : خرجت سودة بعد ماضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر فقال: ياسودة ، أما والله ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين ؟ قال : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ فى بيتى وإنه ليتعشى وفى يده عرق ، فدخلت وقالت : يارسول الله ، إنى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا وكذا . فأوحى إليه ثم رفع عنه ، وإن العرق فى يده ماوضعه فقال : « إنه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتكن » (١) ، وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: كان نساء النبىّ ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن ، وكان ناس من المنافقين يتعرّضون لهن فيؤذين ، فقيل ذلك للمنافقين ، فقالوا: إنما نفعله بالإماء ، فنزلت هذه : ﴿ **يأيها النبىّ قل لأزواجك** ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى قال : كان رجل من المنافقين يتعرّض لنساء المؤمنين يؤذيهن ، فإذا قيل له قال : كنت أحسبها أمة ، فأمرهن الله أن يخالفن زى الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها إلا إحدى عينيها ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن** ﴾ يقول : ذلك أحرى أن يعرفن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال : أمر الله نساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهنّ فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أمّ سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ خرج نساء الأنصار كأن رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها، هكذا فى الزوائد بلفظ من السكينة ، وليس لها معنى ، فإن المراد تشبيه الأكسية السود بالغربان، لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال : كأن على رؤوسهم الطير . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : رحم الله نساء الأنصار، لما نزلت : ﴿ **يأيها النبىّ قل لأزواجك** ﴾ الآية . شققن مروطهن ، فاعتجرن بها وصلين خلف رسول الله ﷺ كأنما على رؤوسهن الغربان . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كانت الحرّة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، وإدناء الجلباب أن تقنع وتشدّه على جبينها .

---

(١) أحمد ٥٦/٦ والبخارى فى التفسير (٤٧٩٥) ومسلم فى السلام (١٧/٢١٧٠) .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون** ﴾ يعنى : المنافقين بأعيانهم ﴿**والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ شك : يعنى المنافقين أيضا . وأخرج ابن سعد أيضا عن عبيد بن جبير قال : ﴿ **الذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة** ﴾ : هم المنافقون جميعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لنغرينك بهم** ﴾ قال : لنسلطنك عليهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾.

قوله : ﴿ **لا تكونوا كالذين آذوا موسى** ﴾ هو قولهم : إن به أدرة أوبرصا أو عيبا ، وسيأتى بيان ذلك آخر البحث، وفيه تأديب للمؤمنين وزجر لهم عن أن يدخلوا فى شىء من الأمور التى تؤذى رسول الله. قال مقاتل : وعظ اللّه المؤمنين أن لا يؤذوا محمدا ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى . وقد وقع الخلاف فيما أوذى به نبينا محمد ﷺ حتى نزلت هذه الآية ، فحكى النقاش أن أذيتهم محمدا قولهم : زيد بن محمد. وقال أبو وائل : إنه ﷺ قسم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه اللهّ ، وقيل : نزلت فى قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش وما سمع فيها من قالة الناس، ومعنى ﴿ **وكان عند الله وجيها** ﴾ : وكان عند الله عظيما ذا وجاهة ، والوجيه عند اللهّ : العظيم القدر الرفيع المنزلة ، وقيل فى تفسير الوجاهة : إنه كلمه تكليما. قرأ الجمهور ﴿**وكان عند الله** ﴾ بالنون على الظرفية المجازية، وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة : « عبد اللّه » بالباء الموحدة من العبودية، و « ما » فى قوله : ﴿ **فبرأه الله مما قالوا** ﴾ هى الموصولة أو المصدرية ، أى من الذى قالوه ، أو من قولهم.

﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ أى فى كل أمر من الأمور ﴿ **وقولوا قولا سديدا** ﴾ أى قولا صوابا وحقا . قال قتادة ومقاتل : يعنى : قولوا قولا سديدا فى شأن زيد وزينب ، ولا تنسبوا النبىّ ﷺ إلى مالا يحل . وقال عكرمة :إن القول السديد : لا إله إلا الله . وقيل : هو الذى يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه اللّه دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين الناس . والسديد مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض ، والظاهر من الآية أنه أمرهم بأن يقولوا قولا سديدا فى جميع ما يأتونه ويذرونه فلا يخص ذلك نوعا دون نوع ،

وإن لم يكن فى اللفظ مايقتضى العموم فالمقام يفيد هذا المعنى ؛ لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولا لا يخالف قول أهل الأذى . ثم ذكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى والقول السديد من الأجر فقال : ﴿ **يصلح لكم أعمالكم** ﴾ أى يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديهم إليه ويوفقهم فيه ﴿ **ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ أى يجعلها مكفرة مغفورة ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ فى فعل ما هو طاعة واجتناب ماهو معصية ﴿ **فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ أى ظفر بالخير ظفرا عظيما ، ونال خير الدنيا والآخرة ، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما سبقها .

ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير ، بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب ، بين عظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها فقال : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** ﴾ . واختلف فى تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا ، فقال الواحدى : معنى الأمانة هاهنا فى قول جميع المفسرين : الطاعة والفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب. قال القرطبى : والأمانة تعمّ جميع وصائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور .

وقد اختلف فى تفاصيل بعضها ، فقال ابن مسعود : هى فى أمانة الأموال كالودائع وغيرها ، وروى عنه أنها فى كل الفرائض : وأشدها أمانة المال . وقال أبىّ بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وإن اللهّ لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها . وقال ابن عمر : أوّل ما خلق اللّه من الإنسان فرجه وقال: هذه أمانة استودعكها فلا تلبسها إلا بحق ، فإن حفظتها حفظتك . فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له . وقال السدّى : هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل وخيانته إياه فى قتله . وما أبعد هذا القول ، وليت شعرى ماهو الذى سوغ للسدّى تفسير هذه الآية بهذا ، فإن كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل ، وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد ؛ حتى يكون له فى ذلك متمسك أبعد من كل بعيد ، وأوهن من بيوت العنكبوت ، وإن كان تفسير هذا عملا بما تقتضيه اللغة العربية ، فليس فى لغة العرب ما يقتضى هذا ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان فى أوّل هذا العالم ، وإن كان هذا تفسيرا منه بمحض الرأى ، فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به ، ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن برأيه ، فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير ، واشدد يديك فى تفسير كتاب اللّه على ما تقتضيه اللغة العربية ، فهو قرآن عربىّ كما وصفه اللّه ، فإن جاءك التفسير عن رسول اللّه ﷺ فلا تلتفت إلى غيره ، وإذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل ، وكذلك ماجاء عن الصحابة رضى اللّه عنهم ، فإنهم من جملة العرب ومن أهل اللغة وممن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية ، لكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به فى لغة العرب فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابى ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها، فخذ هذه كلية تنتفع بها ، وقد

ذكرنا فى خطبة هذا التفسير مايرشدك إلى هذا .

قال الحسن : إن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فقالت : وما فيها ؟ فقال لها : إن أحسنت آجرتك وإن أسأت عذبتك ، فقالت : لا . قال مجاهد : فلما خلق اللّه آدم عرضها عليه ، وقيل له ذلك فقال : قد تحملتها . وروى نحو هذا عن غير الحسن ومجاهد . قال النحاس : وهذا القول هوالذى عليه أهل التفسير . وقيل : هذه الأمانة هى ما أودعه اللّه فى السموات والأرض والجبال وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها ، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها .كذا قال بعض المتكلمين مفسرا للقرآن برأيه الزائف ، فيكون على هذا معنى ﴿ **عرضنا** ﴾ : أظهرنا . قال جماعة من العلماء : ومن المعلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلابدّ من تقدير الحياة فيها ، وهذا العرض فى الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام . وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى إن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر عظيم ،حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل ، وهذا كقوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ [الحشر : ٢١] . وقيل : إن ﴿**عرضنا** ﴾ بمعنى : عارضنا ، أى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام ، وأن اللّه أمره أن يعرض ذلك عليها ، وهذا أيضا تحريف لا تفسير . ومعنى ﴿ **وحملها الإنسان** ﴾ أى التزم بحقها ، وهو فى ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه ، أو جهول لقدر مادخل فيه كما قال سعيد بن جبير ، أو جهول بربه كما قال الحسن . وقال الزجاج : معنى ﴿ **حملها** ﴾ : خان فيها ، وجعل الآية فى الكفار والفساق والعصاة. وقيل : معنى ﴿ **حملها** ﴾ : كلفها وألزمها ، أو صار مستعدا لها بالفطرة ، أوحملها عند عرضها عليه فى عالم الذرّ عند خروج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم .

واللام فى : ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ متعلق بـ﴿ **حملها**﴾ أى ، حملها الإنسان ليعذب الله العاصى ويثيب المطيع ، وعلى هذا فجملة : ﴿ **إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ معترضة بين الجملة وغايتها للإيذان بعدم وفائه بما تحمله . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : ليعذبهم بما خانوا من الأمانة وكذبوا من الرسل ونقضوا من الميثاق الذى أقرّوا به حين أخرجوا من ظهر آدم . وقال الحسن وقتادة : هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها ، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدّوها . وقال ابن قتيبة : أى عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك ، فيعذبهما اللّه ويظهر إيمان المؤمن فيتوب اللّه عليه ، أى : يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير فى بعض الطاعات ، ولذلك ذكر بلفظ التوبة ، فدلّ على أن المؤمن العاصى خارج من العذاب ﴿**وكان الله غفورا رحيما** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة

للمؤمنين من عباده إذا قصروا فى شىء مما يجب عليهم . وقد قيل : إن المراد بالأمانة: العقل ، والراجح ماقدّمنا عن الجمهور ، وما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربى ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع ولا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة .

وقد أخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ماتستر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص، وإما أدرة ، وإما آفة ، وإن الله عز وجلّ أراد أن يبرئ موسى مما قالوا ، فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ماخلق اللّه وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا »[(١)] . وأخرج نحوه البزار وابن الأنبارى وابن مردويه من حديث أنس .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن جرير وابن المنذر ،والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا تكونوا كالذين آذوا موسى** ﴾ قال: قال له قومه إنه آدر ، فخرج ذات يوم ليغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، فخرج موسى يتبعها عريانا حتى انتهت به إلى مجالس بنى إسرائيل فرأوه وليس بآدر فذلك قوله : ﴿ **فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾[(٢)] . وأخرج الحاكم وصححه من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة : أن اللّه أوحى إلى موسى إنى متوفّ هارون فأت به جبل كذا وكذا ، فانطلقا نحو الجبل فإذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب ، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال: ياموسى، إنى أحبّ أن أنام على هذا السرير ، قال : نم عليه ، قال : نم معى ، فلما ناما أخذ هارون الموت ، فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت الشجرة ورفع السرير إلى السماء ؛ فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا : قتل هارون وحسده حب بنى إسرائيل له ، وكان هارون أألف بهم وألين ، وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال : ويحكم ! إنه كان أخى أفترونى أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا اللّه ، فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدّقوه[(٣)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه اللّه ، فذكر ذلك

---

(١) أحمد ٢/ ٥١٥ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٠٤) والترمذى فى التفسير (٣٢٢١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٤٤) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٧) وابن جرير ٢٢/ ٣٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٩ وقال : «على شرط مسلم »، وقال الذهبى : « بل على شرط الشيخين » .

للنبيّ ﷺ فاحمرّ وجهه ثم قال : « رحمة اللّه على موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر»[(١)] .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى قال : صلى بنا رسول اللّه ﷺ صلاة الظهر ثم قال: « على مكانكم اثبتوا » ، ثم أتى الرجال فقال : « إن اللّه أمرنى أن آمركم أن تتقوا اللّه وأن تقولوا قولا سديدا» ، ثم أتى النساء فقال : « إن اللّه أمرنى أن آمركنّ أن تتقين اللّه وأن تقلن قولا سديد »[(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة** ﴾ الآية قال : الأمانة: الفرائض عرضها اللّه على السموات والأرض والجبال ، إن أدّوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين اللّه أن لا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله : ﴿ **وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ يعنى : غرّا بأمر اللّه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، والحاكم وصححه عنه فى الآية قال : عرضت على آدم . فقيل : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك ، قال : قبلتها بما فيها ، فما كان إلا مابين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب[(٣)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا من طريق أخرى نحوه .

---

(١) أحمد ١/ ٤١١ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٠٥) ومسلم فى الزكاة (١٤١/١٠٦٢) .

(٢) أحمد ٤/ ٣٩١ وقال الهيثمى فى المجمع ٩٧/٧ : «ورواه الطبرانى ، وفيه ليث بن أبى سليم وهو مضطرب الحديث وبقية رجالهما رجال الصحيح » .

(٣) ابن جرير ٣٨/٢٢ وصححه الحاكم ٤٢٢/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

تفسير سورة سبأ

هى أربع وخمسون آية . وهى مكية. قال القرطبى : فى قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم** ﴾ فقالت فرقة : هى مكية ، وقالت فرقة : هى مدنية ، وسيأتى الخلاف فى معنى هذه الآية إن شاء اللّه وفيمن نزلت . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة سبأ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ﴾.

قوله : ﴿ **الحمد لله** ﴾ تعريف الحمد مع لام الاختصاص مشعران باختصاص جميع أفراد الحمد باللّه سبحانه على ما تقدّم تحقيقه فى فاتحة الكتاب. والموصول فى محل جرّ على النعت ، أو البدل ، أو النصب على الاختصاص ، أو الرفع على تقدير مبتدأ . ومعنى ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ : أن جميع ما هو فيها فى ملكه وتحت تصرفه يفعل به ما شاء ويحكم فيه بما يريد ، وكل نعمة واصلة إلى العبد فهى مما خلقه له ومن به عليه ، فحمده على ما فى السموات والأرض هو حمد له على النعم التى أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم . ولما بين أن الحمد الدنيوى من عباده الحامدين له مختص به بين أن الحمد الأخروى مختص به كذلك

فقال : ﴿ **وله الحمد فى الآخرة** ﴾ وقوله : ﴿ **له** ﴾ متعلق بنفس الحمد ، أو بما تعلق به خبر الحمد أعنى : فى الآخرة ، فإنه متعلق بمتعلق عام هو الاستقرار أو نحوه ، والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحمدونه فى الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة، كما فى قوله : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ [الزمر : ٧٤] ، وقوله : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، وقوله : ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور [(١)] .الذى أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ [فاطر : ٣٤ ، ٣٥]، وقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين ﴾ [يونس : ١٠] فهو سبحانه المحمود فى الآخرة كما أنه المحمود فى الدنيا وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ الذى أحكم أمر الدارين ﴿**الخبير** ﴾ بأمر خلقه فيهما . قيل : والفرق بين الحمدين : أن الحمد فى الدنيا عبادة ، وفى الآخرة تلذذ وابتهاج ؛ لأنه قد انقطع التكليف فيها .

ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والأرض فقال : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ أى ما يدخل فيها من مطر أو كنز أو دفين ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ من زرع ونبات وحيوان ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والبركات ، ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته وكتبه إلى أنبيائه ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ من الملائكة وأعمال العباد . قرأ الجمهور : ﴿ **ينزل** ﴾ بفتح الياء وتخفيف الزاى مسندا إلى ﴿ **ما** ﴾ وقرأ علىّ بن أبى طالب والسلمى بضم الياء وتشديد الزاى مسندا إلى اللّه سبحانه ﴿ **وهو الرحيم** ﴾ بعباده ﴿ **الغفور** ﴾ لذنوبهم .

﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة** ﴾ المراد بهؤلاء القائلين: جنس الكفرة على الإطلاق ، أو كفار مكة على الخصوص . ومعنى ﴿ **لا تأتينا الساعة** ﴾ : أنها لا تأتى بحال من الأحوال ، إنكارا منهم لوجودها لا لمجرد إتيانها فى حال تكلمهم أو فى حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد ، فردّ اللّه عليهم وأمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ **قل بلى وربى لتأتينكم** ﴾ وهذا القسم لتأكيد الإتيان ، قرأ الجمهور : ﴿ **لتأتينكم** ﴾ بالفوقية ، أى الساعة ، وقرأ طلق المعلم بالتحتية على تأويل الساعة باليوم أو الوقت . قال طلق : سمعت أشياخنا يقرؤون بالياء : يعنى التحتية على المعنى ، كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره، كما قال : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك ﴾ [النحل : ٣٣]. قرأ نافع وابن عامر : « عالم الغيب» بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره: ﴿ **لا يعزب** ﴾ أو على تقدير مبتدأ ، وقرأ عاصم وابن كثير وأبو عمرو بالجر على أنه نعت : لـ ﴿ **ربى** ﴾ وقرأ حمزة والكسائى :«علام» بالجرّ مع صيغة المبالغة ، ومعنى ﴿ **لا يعزب** ﴾: لا يغيب عنه ولا يستتر عليه ولا يبعد ﴿ **عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك** ﴾ المثقال ﴿ **ولا أكبر** ﴾ منه ﴿ **إلا فى كتاب**

---

(١) سقط من المطبوعة : ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ وهو خطأ ؛ لأن ﴿ **الذى أحلنا** ﴾ وحدها ليست موضع الاستشهاد فى الحمد .

مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ . والمعنى : إلا وهو مثبت فى اللوح المحفوظ الذى اشتمل على معلومات اللّه سبحانه فهو مؤكد لنفى العزوب . قرأ الجمهور : ﴿ **يعزب** ﴾ بضم الزاى ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها . قال الفراء : والكسر أحبّ إلىّ ، وهما لغتان ، يقال ، عزُب يعزب بالضم ، ويعزب بالكسر: إذا بعد وغاب . وقرأ الجمهور : ﴿ **ولا أصغر** ﴾، ﴿ **ولا أكبر** ﴾ بالرفع على الابتداء ، والخبر : ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ أو على العطف على ﴿ **مثقال** ﴾، وقرأ قتادة والأعمش بنصبهما عطفا على ﴿ **ذرة** ﴾ أو على أن لا هى لا التبرئة التى يبنى اسمها على الفتح.

والللام فى :﴿ **ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ للتعليل لقوله : ﴿ **لتأتينكم** ﴾ أى إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب والكافرين بالعقاب ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول ، أى أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ﴿ **ورزق كريم﴾** وهو الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من اللّه سبحانه . ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال : ﴿ **والذين سعوا فى آياتنا معاجزين** ﴾ أى سعوا فى إبطال آياتنا المنزلة على الرسل ، وقدحوا فيها وصدوا الناس عنها ، ومعنى ﴿ **معاجزين** ﴾ : مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ولا يدركون ؛ وذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون ، يقال : عاجزه وأعجزه : إذا غالبه وسبقه . قرأ الجمهور : ﴿ **معاجزين** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد وأبو عمرو : « معجزين » أى مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات ﴿ **أولئك** ﴾ أى الذين سعوا ﴿ **لهم عذاب من رجز** ﴾ الرجز هو : العذاب ، فمن للبيان ، وقيل : الرجز هو : أسوأ العذاب وأشدّه ، والأوّل أولى ، ومن ذلك قوله : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ﴾ [البقرة : ٥٩] . قرأ الجمهور : « أليم » بالجر صفة لرجز ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب ، والأليم: الشديد الألم .

﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق** ﴾ لما ذكر الذين سعوا فى إبطال آيات اللّه ذكر الذين يؤمنون بها ، ومعنى ﴿ **ويرى الذين أتوا العلم** ﴾:أى يعلمون وهم الصحابة . وقال مقاتل :هم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل : جميع المسلمين ، والموصول هو المفعول الأوّل ليرى ، والمفعول الثانى الحقّ ، والضمير هو ضمير الفصل . وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر الضمير ، والجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى ، وهى لغة تميم ، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وزعم الفرّاء أن الاختيار الرفع ، وخالفه غيره . وقالوا: النصب أكثر . قيل : وقوله: ﴿ **يرى** ﴾ معطوف على : ﴿**ليجزى** ﴾ وبه قال الزجاج والفراء ، واعترض عليهما بأن قوله : ﴿ **ليجزى** ﴾ متعلق بقوله: ﴿ **لتأتينكم** ﴾ ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا فى الآيات ، أى إن ذلك السعى منهم يدلّ على جهلهم لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم فى شأن القرآن ﴿ **ويهدى إلى صراط**

العزيز الحميد﴾ (١) معطوف على: ﴿ **الحق** ﴾ عطف فعل على اسم ؛ لأنه فى تأويله كما فى قوله : ﴿صافات ويقبضن ﴾ [الملك : ١٩] أى وقابضات ، كأنه قيل : وهاديا . وقيل : إنه مستأنف وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل ، وهو القرآن . والصراط :الطريق ، أى ويهدى إلى طريق ﴿ **العزيز** ﴾ فى ملكه ﴿ **الحميد** ﴾ عند خلقه ، والمراد : أنه يهدى إلى دين الله وهو التوحيد .

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من كلام منكرى البعث فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ أى قال بعض لبعض : ﴿ **هل ندلكم على رجل** ﴾ يعنون : محمدا ﷺ ، أى هل نرشدكم إلى رجل ﴿ **ينبئكم** ﴾ أى يخبركم بأمر عجيب ونبأ غريب هو أنكم ﴿ **إذا مزقتم كل ممزق** ﴾ أى فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتا وترابا ﴿ **إنكم لفى خلق جديد** ﴾ أى تخلقون خلقا جديدا وتبعثون من قبوركم أحياء وتعودون إلى الصور التى كنتم عليها . قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث . وأخرجوا الكلام مخرج التلهى به والتضاحك مما يقوله من ذلك ، وإذا فى موضع نصب بقوله : ﴿ **مزقتم** ﴾ . قال النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيها ينبئكم؛ لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت ، ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد إنّ ؛لأنه لا يعمل فيما قبلها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا ، والتقدير : إذا مزّقتم كل ممزّق بعثتم أو نبئتم بأنكم تبعثون إذا مزقتم ، وقال المهدوى : لا يجوز أن يعمل فيه مزقتم؛ لأنه مضاف إليه والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . وأصل المزق: خرق الأشياء ، يقال : ثوب مزيق وممزق ومتمزق وممزوق .

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم ردّدوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين فقالوا :﴿ **أفترى على الله كذبا أم به جنة** ﴾ أى أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله ؟ والهمزة فى: ﴿ **أفترى** ﴾ هى همزة الاستفهام وحذفت لأجلها همزة الوصل ، كما تقدّم فى قوله : ﴿ أطلع الغيب ﴾ [مريم: ٧٨] ثم ردّ عليهم سبحانه ما قالوه فى رسوله فقال : ﴿ **بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد** ﴾ أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق ، فكفروا بالآخرة ولم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك فى العذاب الدائم فى الآخرة ، وهم اليوم فى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد .

ثم وبخهم سبحانه بما اجترؤوا (٢) عليه من التكذيب مبينا لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكر والتدبر فى خلق السماء والأرض ، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك ، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات ، ومعنى ﴿**إلى ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ : أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم وقدّامهم ، وكذلك إذا

(١) فى المطبوعة : « صراط مستقيم » والصحيح ما أثبتناه .
(٢) فى المطبوعة : « اجترأ » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

نظروا فى الأرض رأوها خلفهم وقدّامهم ، فالسماء والأرض محيطتان بهم، فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله وإنكارهم للبعث ، فهذه الآية اشتملت على أمرين : أحدهما : أن هذا الخلق الذى خلقه الله من السماء والأرض يدلّ على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث، كما فى قوله : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس : ٨١]. والأمر الآخر : التهديد لهم بأن من خلق السماء والأرض على هذه الهيئة التى قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم. ﴿ **إن نشأ نخسف بهم الأرض** ﴾ كما خسف بقارون ﴿ **أو نسقط عليهم كسفا** ﴾ أى قطعا ﴿ **من السماء** ﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة فكيف يأمنون ذلك ؟ قرأ الجمهور : ﴿ **إن نشأ** ﴾ بنون العظمة ، وكذا نخسف ونسقط . وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية فى الأفعال الثلاثة، أى إن يشأ الله . وقرأ الكسائى وحده بإدغام الفاء فى الباء فى : ﴿**نخسف بهم**﴾ . قال أبو على الفارسى : وذلك غير جائز؛ لأن الفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا بخلاف الباء ، وقرأ الجمهور : ﴿ **كسفا** ﴾ بسكون السين. وقرأ حفص والسلمى بفتحها . ﴿**إنّ فى ذلك** ﴾ المذكور من خلق السماء والأرض ﴿ **لآية** ﴾ واضحة ودلالة بينة ﴿**لكل عبد منيب** ﴾ أى راجع إلى ربه بالتوبة والإخلاص وخصّ المنيب ،لأنه المنتفع بالتفكر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ قال : من المطر ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ قال : من النبات ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ قال : من الملائكة ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ قال : الملائكة ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **من رجز أليم** ﴾ قال : الرجز هو : العذاب الأليم الموجع ، وفى قوله : ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم** ﴾ قال : أصحاب محمد . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : يعنى المؤمنين من أهل الكتاب . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل** ﴾ قال : قال ذلك مشركو قريش ﴿ **إذا مزّقتم كل ممزّق** ﴾ يقول: إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وتقطعتكم السباع والطير ﴿ **إنكم لفى خلق جديد** ﴾ إنكم ستحيون وتبعثون ، قالوا ذلك تكذيبا به . ﴿ **أفترى على الله كذبا أم به جنة** ﴾ قال : قالوا : إما أن يكون يكذب على الله وإما أن يكون مجنونا ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض** ﴾ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك رأيت السماء والأرض ﴿ **إن نشأ نخسف بهم الأرض** ﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم ﴿ **أو نسقط عليهم كسفا من السماء** ﴾ أى قطعا من السماء إن يشأ أن يعذب بسمائه فعل، وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل وكل خلقه له جند ﴿ **إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ قال : نائب مقبل إلى الله .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⦗١٠⦘ أَنِ اعْمَلْ

سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾.

ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود وسليمان، كما قال فى داود : ﴿ فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب ﴾ [ص: ٢٤]، وقال فى سليمان : ﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ﴾ [ص : ٣٤] فقال : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا** ﴾ أى آتيناه بسبب إنابته فضلا منا على سائر الأنبياء . واختلف فى هذا الفضل على أقوال : فقيل : النبوة . وقيل : الزبور . وقيل : العلم ، وقيل : القوّة، كما فى قوله: ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ [ص : ١٧]. وقيل : تسخير الجبال، كما فى قوله : ﴿ **يا جبال أوّبى معه** ﴾. وقيل : التوبة. وقيل: الحكم بالعدل ، كما فى قوله : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ [ص : ٢٦] . وقيل : هو إلانة الحديد ،كما فى قوله: ﴿ **وألنا له الحديد** ﴾ وقيل : حسن الصوت ، والأولى أن يقال : إن هذا الفضل المذكور هو ما ذكره اللّه بعده من قوله: ﴿ **يا جبال** ﴾ إلى آخر الآية ، وجملة :﴿ **يا جبال أوّبى معه** ﴾ مقدرّة بالقول ، أى قلنا : يا جبال . والتأويب : التسبيح، كما فى قوله :﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ﴾ [ص : ١٨]. قال أبو ميسرة : هو التسبيح بلسان الحبشة . وكان إذا سبح داود سبحت معه ، ومعنى تسبيح الجبال: أن اللّه يجعلها قادرة على ذلك ، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود . وقيل : معنى ﴿ **أوّبى** ﴾ : سيرى معه ، من التأويب الذى هو سير النهار أجمع ، ومنه قول ابن مقبل :

لحقنا بحىّ أوّبوا السير بعد ما ... دفعنا شعاع الشمس والطرف مجنح

قرأ الجمهور : ﴿ **أوبى** ﴾ بفتح الهمزة وتشديد الواو على صيغة الأمر ، من التأويب وهو الترجيع أو التسبيح أو السير أو النوح . وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبى إسحاق : «أوبى » بضم الهمزة أمرا من آب يؤوب: إذا رجع، أى ارجعى معه. قرأ الجمهور: ﴿ **والطير**﴾ بالنصب عطفا على :﴿ **فضلا** ﴾ على معنى: وسخرنا له الطير؛ لأن إيتاءه إياها تسخيرها له، أو عطفا على محل :﴿ **يا جبال** ﴾ لأنه منصوب تقديرا ، إذ المعنى : نادينا الجبال والطير . وقال سيبويه وأبو عمرو بن العلاء : انتصابه بفعل مضمر على معنى: وسخرنا له الطير . وقال الزجاج والنحاس : يجوز أن يكون مفعولا معه كما تقول : استوى الماء والخشبْة . وقال الكسائى : إنه معطوف على: ﴿ **فضلا** ﴾ لكن على تقدير مضاف محذوف ، أى آتيناه فضلا

وتسبيح الطير . وقرأ السلمى والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك بالرفع عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمر فى: ﴿ أوّبى﴾ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿وألنا له الحديد ﴾ معطوف على: ﴿ آتيناه ﴾ أى جعلناه لينا ليعمل به ما شاء . قال الحسن : صار الحديد كالشمع يعمله من غير نار . وقال السدّى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة ، وكذا قال مقاتل ، وكان يفرغ من عمل الدرع فى بعض يوم .

﴿ أن اعمل سابغات ﴾ فى « أن » هذه وجهان : أحدهما : أنها مصدرية على حذف حرف الجرّ ، أى بأن اعمل ، والثانى : أنها المفسرة لقوله : ﴿ وألنا ﴾ وفيه نظر؛ لأنها لا تكون إلا بعد القول أو ما هو فى معناه . وقدّر بعضهم فعلا فيه معنى القول ، فقال: التقدير : وأمرناه أن اعمل . وقوله : ﴿ سابغات ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى دروعا سابغات ، والسابغات : الكوامل الواسعات ، يقال : سبغ الدرع والثوب وغيرهما : إذا غطى كل ماهو عليه وفضل منه فضله. ﴿ وقدّر فى السرد ﴾ السرد : نسج الدروع ، ويقال : السرد والزرد، كما يقال السراد والزراد: لصانع الدروع ، والسرد أيضا الخرز. يقال : سرد يسرد : إذا خرز ، ومنه سرد الكلام : إذا جاء به متواليا ، ومنه حديث عائشة: لم يكن النبىّ ﷺ يسرد الحديث كسردكم (١) . قال سيبويه : ومنه سريد ، أى جرى ، ومعنى سرد الدروع : إحكامها. وأن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف ، ومنه قول لبيد :

سرد الدروع مضاعفا أسراده لينال طول العيش غير مروم

وقول أبى ذؤيب الهذلى :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود إذ صنع السوابغ تبع

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود ثقالا ، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة ، أى قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه فلا تقصد الحصانة فيثقل ولا الخفة فيزيل المنعة ، وقال ابن زيد : التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحلقة أى لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها . وقيل : إن التقدير هو فى المسمار ، أى لا تجعل مسمار الدرع دقيقا فيقلق ولا غليظا فيفصم الحلق. ثم خاطب داود وأهله فقال : ﴿ واعملوا صالحا ﴾ أى عملا صالحا ،كما فى قوله : ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله: ﴿ إنى بما تعملون بصير ﴾ أى لا يخفى علىّ شىء من ذلك .

﴿ ولسليمان الريح ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الريح ﴾ بالنصب على تقدير : وسخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج ، وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بالرفع على الابتداء والخبر ، أى

(١) أحمد ٦ / ١١٨ والبخارى فى المناقب (٣٥٦٨) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٣ / ١٦٠) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٩) وقال : «هذا حديث حسن » .

ولسليمان الريح ثابتة أو مسخرة ، وقرأ الجمهور : ﴿ **الريح** ﴾ وقرأ الحسن وأبو حيوة وخالد ابن إلياس : « الرياح » بالجمع . ﴿ **غدوّها شهر ورواحها شهر** ﴾ أى تسير بالغداة مسيرة شهر وتسير بالعشى كذلك ، والجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح ، أو فى محل نصب على الحال، والمعنى : أنها كانت تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر ، وبينهما مسيرة شهر للمسرع ، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل ، وبينهما مسيرة شهر ﴿ **وأسلنا له عين القطر** ﴾ القطر : النحاس الذائب . قال الواحدى : قال المفسرون : أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجرى الماء ، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطى سليمان ، والمعنى : أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود . وقال قتادة : أسال اللّه له عينا يستعملها فيما يريد ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ من مبتدأ ويعمل خبره ومن الجنّ متعلق به أو بمحذوف على أنه حال، أو من يعمل معطوف على الريح ومن الجنّ حال ، والمعنى : وسخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجنّ بإذن ربه ، أى بأمره . والإذن مصدر مضاف إلى فاعله ، والجار والمجرور فى محل نصب على الحال ، أى مسخرا أو ميسرًا بأمر ربه ﴿ **ومن يزغ منهم عن أمرنا** ﴾ أى ومن يعدل من الجنّ عن أمرنا الذى أمرناه به وهو طاعة سليمان ﴿ **نذقه من عذاب السعير** ﴾ قال أكثر المفسرين : وذلك فى الآخرة . وقيل : فى الدنيا . قال السدّى : وكل اللّه بالجنّ ملكا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمانَ ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه .

ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجنّ لسليمان فقال: ﴿ **يعملون له ما يشاء** ﴾ و « من » فى قوله: ﴿ **من محاريب** ﴾ للبيان ، والمحاريب فى اللغة: كل موضع مرتفع وهى الأبنية الرفيعة والقصور العالية . قال المبرد : لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج ، ومنه قيل للذى يصلى فيه: محراب؛ لأنه يرفع ويعظم . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب: أشرف بيوت الدار ، ومنه قول الشاعر :

وماذا عليه إن ذكرت أوانسا ... كغزلان رمل فى محاريب أقيال

وقال الضحاك : المراد بالمحاريب هنا : المساجد ، والتماثيل جمع تمثال وهو: كل شيء مثلته بشيء ، أى صورته بصورته من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك . قيل : كانت هذه التماثيل صور الأنبياء والملائكة والعلماء والصلحاء، وكانوا يصوّرونها فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا . وقيل : هى تماثيل أشياء ليست من الحيوان . وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان ، ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ . والجفان جمع جفنة وهى: القصعة الكبيرة . ﴿ **الجواب** ﴾ جمع جابية وهى :حفيرة كالحوض . وقيل : هى الحوض الكبير يجبى الماء ، أى يجمعه . قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى قصاعا فى العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها . قال النحاس :

الأولى إثبات الياء فى الجوابى ، ومن حذف الياء قال : سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا تغيرها على حالها ، فلما كان يقال : جواب ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء . قال الكسائى : يقال : جبوت الماء وجبيته فى الحوض ، أى جمعته . والجابية : الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل . وقال النحاس : والجابية : القدر العظيمة والحوض العظيم الكبير الذى يجبى فيه الشىء ، أى يجمع ، ومنه جبيت الخراج وجبيت الجراد : جمعته فى الكساء ﴿ **وقدور راسيات** ﴾ قال قتادة : هى قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين ، ومعنى ﴿ **راسيات** ﴾ . ثابتات لا تحمل ولا تحرّك لعظمها . ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم ، أى سليمان ، وأهله ، فقال : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا** ﴾ أى وقلنا لهم اعملوا بطاعة اللّه يا آل داود شكرا له على ما آتاكم أو اعملوا عملا شكرا على أنه صفة مصدر محذوف ، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال ، أى شاكرين أو مفعول به ، وسميت الطاعة شكرا؛ لأنها من جملة أنواعه ، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر من جنسه ، أى اشكروا شكرا . ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده ليسوا بالكثير فقال : ﴿ **وقليل من عبادى الشكور** ﴾ أى العامل بطاعتى الشاكر لنعمتى قليل . وارتفاع ﴿ **قليل** ﴾ على أنه خبر مقدّم . و﴿ **من عبادى** ﴾ صفة له . والشكور مبتدأ .

﴿ **فلما قضينا عليه الموت** ﴾ أى حكمنا عليه به وألزمناه إياه ﴿ **ما دلهم على موته إلا دابة الأرض** ﴾ يعنى الأرضة. وقرئ : « الأرض » بفتح الراء ، أى الأكل ، يقال : أرضت الخشبة أرضا : إذا أكلتها الأرضة . ومعنى ﴿ **تأكل منسأته** ﴾ : تأكل عصاه التى كان متكئا عليها ، والمنسأة : العصا بلغة الحبشة ، أو هى مأخوذة من نسأت الغنم ، أى زجرتها . قال الزجاج : المنسأة التى ينسأ بها ، أى يطرد . قرأ الجمهور : ﴿ **منسأته** ﴾ بهمزة مفتوحة . وقرأ ابن ذكوان بهمزة ساكنة . وقرأ نافع وأبو عمرو بألف محضة . قال المبرد : بعض العرب يبدل من همزتها ألفا ، وأنشد :

إذا دببت على المنساة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل

ومثل قراءة الجمهور قول الشاعر :

ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهينا ذليلا

ومثله :

أمن أجل حبل لا أباك ضربته بمنسأة قد جرّ حبلك أحبلا

ومما يدلّ على قراءة ابن ذكوان قول طرفة :

أمون كألواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

﴿ فلما خرّ ﴾ أى سقط ﴿ تبينت الجنّ ﴾ أى ظهر لهم ، من تبينت الشيء : إذا علمته ، أى علمت الجنّ ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾ أى لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلموا بموته ، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة فى العذاب المهين فى العمل الذى أمرهم به ، والطاعة له وهو إذ ذاك ميت . قال مقاتل : العذاب المهين : الشقاء والنصب فى العمل . قال الواحدى : قال المفسرون : كانت الناس فى زمان سليمان يقولون : إن الجنّ تعلم الغيب ، فلما مكث سليمان قائما على عصاه حولا ميتا ، والجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة التى كانت تعمل فى حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخرّ ميتا فعلموا بموته ، وعلم الناس أن الجنّ لا تعلم الغيب ، ويجوز أن يكون تبينت الجنة من تبين الشيءُ ، لا من تبينت الشيء ، أى ظهر وتجلى ، وأن وما فى حيزها بدل اشتمال من الجنّ مع تقدير محذوف ، أى ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، أو ظهر أن الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب... إلخ . قرأ الجمهور: ﴿تبينت﴾ على البناء للفاعل مسندا إلى الجنّ . وقرأ ابن عباس ويعقوب: « تبينت» على البناء للمفعول ، ومعنى القراءتين . يعرف مما قدّمنا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أوّبى معه ﴾ قال : سبحى معه ، وروى مثله عن أبى ميسرة ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وألنا له الحديد ﴾ قال : كالعجين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله : ﴿ وقدّر فى السرد ﴾ قال : حلق الحديد . وأخرج عبد الرزاق والحاكم عنه أيضًا: ﴿ وقدّر فى السرد ﴾ قال : لا تدقّ المسامير وتوسع الحلق فتسلس ، ولا تغلظ المسامير وتضيق الحلق فتقصم ، واجعله قدرا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضًا فى قوله : ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ قال : النحاس . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : القطر : النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان ، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطى سليمان . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : القطر : الصفر . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وتماثيل ﴾ قال : اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال : يارب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ اللّه فيها الروح فكانت تخدمه ، وكان اسفنديار من بقاياهم ، فقيل لداود وسليمان :﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿كالجواب ﴾ قال : كالجوبة من الأرض ﴿ وقدور راسيات ﴾ قال : أثافيها منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ يقول : قليل من عبادى الموحدين توحيدهم . وأخرج هؤلاء عنه أيضا قال : لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات ، ثم خرّ على رأس الحول ، فأخذت الجنّ عصى مثل عصاه ودابة مثل دابته فأرسلوها عليها فأكلتها فى سنة ، وكان ابن عباس يقرأ : ﴿ فلما خرّ تبينت الجن ﴾ الآية ، قال

سفيان : وفى قراءة ابن مسعود: «وهم يدأبون له حولا » .

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن السنى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه ، فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا وكذا ، فيقول : لما أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا ، فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت ، وصلى ذات يوم فإذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت الخروب ؟ قال: لأى شىء أنت ؟ قالت: لخراب هذا البيت ، فقال سليمان: اللهم عمّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب ،فهيأ عصا فتوكأ عليها ، وقبضه الله وهو متكئ عليها ، فمكث حولا ميتا والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة فسقطت ، فعلموا عند ذلك بموته ، فتبينت الإنس ﴿ أن ﴾ الجنّ ﴿ **لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ » وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ، فشكرت الجنّ للأرضة، فأينما كانت يأتونها بالماء [(١)] . وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفا [(٢)] . وأخرج الديلمى عن زيد بن أرقم مرفوعا يقول الله عز وجلّ : « إنى تفضلت على عبادى بثلاث : ألقيت الدابة على الحبة ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب والفضة ، وألقيت النتن على الجسد ولولا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه ، واستلبت الحزن ولولا ذلك لذهب النسل » [(٣)] .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها ، فقال : ﴿**لقد كان لسبأ** ﴾ المراد بسبأ : القبيلة التى هى من أولاد سبأ ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب

---

(١) ابن جرير ٢٢/ ٥١ والطبرانى (١٢٢٨١) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢١١ : « ورواه البزاز بنحوه موقوفا ومرفوعا وفيه عطاء وقد اختلط وبقية رجالهما رجال الصحيح » .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٢٢ ووافقه الذهبى .

(٣) الديلمى (٨٠٣٦) .

ابن قحطان بن هود . قرأ الجمهور: ﴿ **لسبأ** ﴾ بالجرّ والتنوين على أنه اسم حيّ ، أى الحيّ الذين هم أولاد سبأ ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو :« لسبأ» ممنوع من الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، ويقوّى القراءة الأولى قوله : ﴿ **فى مساكنهم** ﴾ ولو كان على تأويل القبيلة لقال : فى مساكنها ، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر :

الواردون وتيم فى ذرى سبأ   قد عضّ أعناقها جلد الجواميس

ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ   يبنون من دون مسيله العرما

وقرأ قنبل وأبو حيوة والجحدرى: « لسبأ » بإسكان الهمزة ، وقرئ بقلبها ألفا . وقرأ الجمهور : ﴿ **فى مساكنهم** ﴾ على الجمع ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة ، ومساكن متعدّدة . وقرأ حمزة وحفص بالإفراد مع فتح الكاف . وقرأ الكسائى بالإفراد مع كسرها ، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب والأعمش ، ووجه الإفراد أنه مصدر يشمل القليل والكثير ، أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع ، وهذه المساكن التى كانت لهم هى التى يقال لها الآن: مأرب ،وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، ومعنى قوله : ﴿ **آية** ﴾ أى علامة دالة على كمال قدرة اللّه وبديع صنعه ، ثم بين هذه الآية فقال : ﴿ **جنتان** ﴾ وارتفاعهما على البدل من آية، قاله الفراء ، أو على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج ، أو على أنهما مبتدأ وخبره : ﴿ **عن يمين وشمال** ﴾ واختار هذا الوجه ابن عطية ، وفيه أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة من غير مسوّغ . وقرأ ابن أبى عبلة : « جنتين » بالنصب على أنهما خبر ثان واسمها آية، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا به من جهتيه ، وكانت مساكنهم فى الوادى ، والآية هى الجنتان ، كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها المكتل ، فيمتلئ من أنواع الفواكه التى تتساقط من غير أن تمسها بيدها . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابا ولا بغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غير ذلك من الهوام ، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم . قال القشيرى : ولم يرد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجهتين :يمنة ويسرة فى كل جهة بساتين كثيرة ﴿ **كلوا من رزق ربكم** ﴾ أى قيل لهم ذلك ولم يكن ثم أمر، ولكن المراد: تمكينهم من تلك النعم. وقيل: إنها قالت لهم الملائكة ، والمراد بالرزق : هو ثمار الجنتين. وقيل: إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم ﴿ **واشكروا له**﴾ على ما رزقكم من هذه النعم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه،وجملة:﴿ **بلدة طيبة ورب غفور** ﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر. والمعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها وطيب ثمارها . وقيل : معنى كونها طيبة: أنها غير سبخة . وقيل : ليس فيها هوامّ . وقال مجاهد : هى صنعاء. ومعنى ﴿ **وربّ غفور** ﴾: أن المنعم عليهم ربّ غفور لذنوبهم . قال مقاتل : المعنى : وربكم إن

شكرتم فيما رزقكم ربٌّ غفور للذنوب . وقيل : إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة؛ للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام . وقرأ ورش بنصب :«بلدة» ،« وربٌّ » على المدح ، أو على تقدير : اسكنوا بلدة واشكروا ربا .

ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التى أنعم بها عليهم فقال : ﴿ **فأعرضوا** ﴾ عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءهم . قال السدّى : بعث الله إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم ، وكذا قال وهب . ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم فقال : ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم** ﴾ وذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من أودية اليمن ، فردموا ردما بين جبلين وحبسوا الماء ، وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، وكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الباب الثانى ثم من الثالث فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذا ، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض فدخل الماء جنتهم فغرقها ودفن السيل بيوتهم ، فهذا هو سيل العرم ، وهو جمع عرمة : وهى السكر التى تحبس الماء ، وكذا قال قتادة وغيره . وقال السدّى : العرم :اسم للسدّ . والمعنى : أرسلنا عليهم سيل السدّ العرم . وقال عطاء : العرم : اسم الوادى . وقال الزجاج : العرم: اسم الجرذ الذى نقب السرد عليهم. وهو الذى يقال له الخلد ، فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه . قال ابن الأعرابى : العرم: من أسماء الفأر . وقال مجاهد وابن أبى نجيح : العرم ماء أحمر أرسله الله فى السدّ فشقه وهدمه . وقيل : إن العرم : اسم المطر الشديد ، وقيل : اسم للسيل الشديد. والعرامة فى الأصل :الشدّة والشراسة والصعوبة، يقال : عرم فلان : إذا تشدّد وتصعب . وروى عن ابن الأعرابى أنه قال: العرم: السيل الذى لا يطاق . وقال المبرّد : العرم: كل شىء حاجز بين شيئين .

﴿ **وبدّلناهم بجنتيهم جنتين** ﴾ أى أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والأنواع الحسنة ، وأعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما ، ولهذا قال : ﴿ **ذواتى أكل خمط** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين : ﴿ **أكل** ﴾ وعدم إضافته إلى ﴿ **خمط** ﴾ وقرأ أبو عمرو بالإضافة . قال الخليل : الخمط : الأراك ، وكذا قال كثير من المفسرين . وقال أبو عبيدة : الخمط: كل شجرة مرّة ذات شوك . وقال الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . وقال المبرّد : كل شىء تغير إلى ما لا يشتهى يقال له خمط ، ومنه اللبن إذا تغير ، وقراءة الجمهور أولى من قراءة أبى عمرو . والخمط نعت لأكل أو بدل منه ؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه . وقال الأخفش : الإضافة أحسن فى كلام العرب : مثل ثوب خزّ ودار آجرّ ، والأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ومن معه . قال الجوهرى : الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل ، وتسمية البدل جنتين للمشاكلة أو التهكم بهم ، والأثل: هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولا ، الواحدة أثلة ، والجمع أثلات . وقال الحسن : الأثل : الخشب . وقال أبو عبيدة: هو شجر النطار ،

والأوّل أولى ، ولا ثمر للأثل . والسدر : شجر معروف . قال الفراء: هو السمر . قال الأزهرى : السدر من الشجر سدران : برىّ لا ينتفع به ولا يصلح للغسول ، وله ثمر عفص لا يؤكل ، وهو الذى يسمى الضال . والثانى:سدر ينبت على الماء وثمره النبق ، وورقه غسول يشبه شجر العناب . قيل : ووصف السدر بالقلة؛ لأن منه نوعا يطيب أكله ، وهو النوع الثانى الذى ذكره الأزهرى . قال قتادة : بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرّ الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر . ويحتمل أن يرجع قوله : ﴿ **قليل** ﴾ إلى جميع ما ذكر من الخمط والأثل والسدر .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم من التبديل ، أو إلى مصدر ﴿ **جزيناهم** ﴾ والباء فى: ﴿ **بما كفروا** ﴾ للسببية ، أى ذلك التبديل ، أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها ﴿ **وهل نجازى إلا الكفور** ﴾ أى وهل نجازى هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه . قرأ الجمهور : «يجازى » بضم التحتية وفتح الزاى على البناء للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب وحفص بالنون وكسر الزاى على البناء للفاعل وهو الله سبحانه ، والكفور على القراءة الأولى مرفوع ، وعلى القراءة الثانية منصوب ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد وأبو حاتم قالا: لأن قبله ﴿ **جزيناهم** ﴾ وظاهر الآية: أنه لا يجازى إلا الكفور مع كون أهل المعاصى يجازون . وقد قال قوم : إن معنى الآية : أنه لا يجازى هذا الجزاء، وهو الاصطلام (١) والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد:إن المؤمن يكفر عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل عمل عمله.وقال طاووس:هو المناقشة فى الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: إن المعنى: أن يجازى الكافر مثلا بمثل ورجح هذا الجواب النحاس .

﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها** ﴾ هذا معطوف على قوله :﴿ **لقد كان لسبأ** ﴾ أى وكان من قصتهم: أنا جعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها بالماء والشجر ، وهى قرى الشام ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ أى متواصلة ، وكان متجرهم من أرضهم التى هى مأرب إلى الشام ، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد يحملونه من أرضهم إلى الشام ، فهذا من جملة الحكاية لما أنعم الله به عليهم . قال الحسن : إن هذه القرى هى بين اليمن والشام ، قيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية . وقيل : هى بين المدينة والشام . وقال المبرّد : القرى الظاهرة هى المعروفة وإنما قيل لها : ظاهرة لظهورها ، إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرى ظاهرة ، أى معروفة ، يقال: هذا أمر ظاهر، أى معروف ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ أى جعلنا السير من القرية إلى القرية مقدارا معينا واحدا ، وذلك نصف يوم كما قال المفسرون . قال الفرّاء : أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية ، والمبيت فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام ، وإنما يبالغ الإنسان فى السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل نفسه المشقة ، بل

(١) الاصطلام : الاستئصال والإبادة . لسان العرب ١٢/ ٣٤٠ .

ينزل أينما أراد . والحاصل أن اللّه سبحانه عدّد عليهم النعم ، ثم ذكر ما نزل بهم من النقم ، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر إليه ، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز والبرارى كما سيأتى وقوله : ﴿ **سيروا فيها** ﴾ هو على تقدير القول ، أى وقلنا لهم: سيروا فى تلك القرى المتصلة ، فهو أمر تمكين ، أى ومكناهم من السير فيها متى شاؤوا ﴿ **ليالي وأياما آمنين** ﴾ مما يخافونه ، وانتصاب ﴿**ليالى**﴾ و ﴿ **أياما** ﴾ على الظرفية . وانتصاب ﴿ **آمنين** ﴾ على الحال . قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظمأ ، كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرّك بعضهم بعضا ولو لقى الرجل قاتل أبيه لم يحرّكه .

ثم ذكر سبحانه أنهم لم يشكروا النعمة ، بل طلبوا التعب والكد : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ وكان هذا القول منهم بطرا وطغيانا لما سئموا النعمة ولم يصبروا على العافية ، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار ، وسألوا اللّه تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن والمفاوز والقفار والبرارى المتباعدة الأقطار ، فأجابهم اللّه إلى ذلك وخرّب تلك القرى المتواصلة وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر ، فكانت دعوتهم هذه كدعوة بنى إسرائيل حيث قالوا : ﴿ فادع [(١)] لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ﴾ الآية [البقرة: ٦١] مكان المنّ والسلوى ، وكقول النضر بن الحارث: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقَ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] . قرأ الجمهور : ﴿ **ربنا** ﴾ بالنصب على أنه منادى مضاف ، وقرؤوا أيضا : ﴿ **باعد** ﴾، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وهشام عن ابن عامر: « بعد » بتشديد العين ، وقرأ ابن السميفع بضم العين فعلا ماضيا، فيكون معنى هذه القراءة : الشكوى من بعد الأسفار ، وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب : « ربنا » بالرفع ،« باعد » بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء والخبر . والمعنى : لقد باعد ربنا بين أسفارنا ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ، قال : لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذى كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطرا وأشرا وكفرا للنعمة . وقرأ يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر : «ربنا» بالرفع ، « بعد » بفتح العين مشدّدة ، فيكون معنى هذه القراءة : الشكوى بأن ربهم بعد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء، فيكون هذا من جملة بطرهم ، وقرأ أخو الحسن البصرى كقراءة ابن السميفع السابقة مع رفع: « بين » على أنه الفاعل ،كما قيل فى قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وروى الفرّاء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب: « بين » على أنه ظرف، والتقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا . قال النحاس : وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال : إحداها أجود من الأخرى ، كما لا يقال ذلك فى أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها ، ولكن

(١) فى المخطوطة : « ادع » بدون فاء .

أخبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم ، فلما فعل ذلك بهم شكوا وتضرروا ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ حيث كفروا بالله وبطروا نعمته وتعرّضوا لنقمته ﴿ فجعلناهم أحاديث ﴾ يتحدّث الناس بأخبارهم . والمعنى : جعلناهم ذوى أحاديث يتحدّث به من بعدهم تعجبا من فعلهم واعتبارا بحالهم وعاقبتهم ﴿ ومزّقناهم كل ممزّق ﴾ أى فرّقناهم فى كل وجه من البلاد كل التفريق ، وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث. وذلك أن الله سبحانه لما أغرق مكانهم وأذهب جنتهم ، تفرّقوا فى البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال، فتقول : تفرّقوا أيدى سبا . قال الشعبى : فلحقت الأنصار بيثرب ، وغسان بالشام ، والأزد بعمان ، وخزاعة بتهامة ﴿ إنّ فى ذلك لآيات ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم وما فعل الله بهم لآيات بينات ، ودلالات واضحات ﴿ لكلّ صبار شكور ﴾ أى لكلّ من هو كثير الصبر والشكر ، وخص الصبار والشكور؛ لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات .

﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه ﴾ قرأ الجمهور: « صدق» بالتخفيف ورفع :﴿إبليس﴾ ونصب ﴿ ظنه ﴾ . قال الزجاج : وهو على المصدر ، أى صدق عليهم ظنا ظنه ، أو صدق فى ظنه ، أو على الظرف ، والمعنى : أنه ظنّ بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك ، ويجوز أن يكون منتصبا على المفعولية ، أو بإسقاط الخافض . وقرأ حمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش وعاصم :﴿ صدّق ﴾ بالتشديد ، و﴿ ظنه ﴾ بالنصب على أنه مفعول به . قال أبو علىّ الفارسى: أى صدّق الظنّ الذى ظنه. قال مجاهد : ظنّ ظنا فصدّق ظنه ، فكان كما ظنّ، وقرأ أبو جعفر وأبو الجهجاء والزّهرى وزيد بن علىّ : «صدق » بالتخفيف و « إبليس » بالنصب و « ظنه » بالرفع ، قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى، وقد أجاز هذه القراءة وذكرها الزجاج ، وجعل الظنّ فاعل صدّق وإبليس مفعوله . والمعنى : أن إبليس سوّل له ظنه شيئا فيهم فصدّق ظنه، فكأنه قال : ولقد صدق عليهم ظنّ إبليس . وروى عن أبى عمرو أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس . قيل : وهذه الآية خاصة بأهل سبأ . والمعنى : أنهم غيروا وبدّلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم . وقيل : هى عامة ، أى صدّق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله ، قاله مجاهد والحسن . قال الكلبى : إنه ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه ، وإن أضلهم أطاعوه فصدّق ظنه ﴿فاتبعوه ﴾ قال الحسن: ما ضربهم بسوط ولا بعصى ، وإنما ظنّ ظنا فكان كما ظن بوسوسته، وانتصاب ﴿ إلا فريقا من المؤمنين ﴾ على الاستثناء ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يراد به بعض المؤمنين ؛ لأن كثيرا من المؤمنين يذنب وينقاد لإبليس فى بعض المعاصى ، ولم يسلم منه إلا فريق ، وهم الذين قال فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : ٤٢]. وقيل: المراد بـ ﴿ فريقا من المؤمنين ﴾: المؤمنون كلهم على أن تكون «من » بيانية .

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أى ما كان له تسلط عليهم ،أى لم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والوسوسة والتزيين . وقيل : السلطان : القوّة . وقيل : الحجة ،

والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شكّ ﴾ منقطع ، والمعنى : لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم . وقيل : هو متصل مفرّغ من أعم العام ، أى ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال ولا لعلة من العلل إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن ؛ لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليا . وقال الفراء : المعنى : إلا لنعلم ذلك عندكم . وقيل : إلا لتعلموا أنتم . وقيل : ليعلم أولياؤنا والملائكة. وقرأ الزهرى :« إلا ليعلم » على البناء للمفعول ، والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار كما ذكرنا ﴿ وربك على كل شىء حفيظ ﴾ أى محافظ عليه . قال مقاتل : علم كل شىء من الإيمان والشكّ .

وقد أخرج أحمد ، والبخارى [فى تاريخه] [(١)] والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادى قال : أتيت النبىّ ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم ؟ فأذن لى فى قتالهم وأمرنى ، فلما خرجت من عنده أرسل فى أثرى فردّنى فقال : « ادع القوم ، فمن أسلم منهم فاقبل منه ، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك » وأنزل فى سبأ ما أنزل ، فقال رجل : يارسول اللّه ، وما سبأ : أرض أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وغسان وعاملة ؛ وأما الذين تيامنوا ، فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار » فقال رجل : يارسول اللّه، وما أنمار ؟ قال :« الذى منهم خثعم وبجيلة » [(٢)]. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والطبرانى وابن عدىّ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سيل العرم ﴾ قال : الشديد . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ سيل العرم ﴾ :واد كان باليمن كان يسيل إلى مكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ أكل خمط ﴾ قال : الأراك . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ وهل نجازى إلا الكفور ﴾ قال : تلك المناقشة .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عنه أيضا فى قوله : ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ يعنى : بين مساكنهم ﴿ وبين القرى التى باركنا فيها ﴾ يعنى الأرض المقدّسة ﴿ قرى ظاهرة ﴾ يعنى : عامرة مخصبة ﴿ وقدّرنا فيها السير ﴾ يعنى : فيما بين مساكنهم وبين أرض الشام ﴿ سيروا فيها ﴾ إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام من المقدّسة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه ﴾ قال: إبليس: إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقا ضعيفا، وإنى خلقت من نار، والنار تحرق كل شىء لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلا . قال: فصدّق ظنه عليهم ﴿ فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ قال: هم المؤمنون كلهم .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ،وهو الصحيح كما أثبتناه من الدر المنثور ٥/ ٢٣١ ومن مراجع التخريج.

(٢) البخارى فى تاريخه ٧ / ١٢٦ (٥٦٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وأبو داود فى الحروف (٣٩٨٨) .

(٣) أحمد ١ / ٣١٦ وصححه الحاكم ٢ / ٤٢٣ ووافقه الذهبى .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله** ﴾ هذا أمر للنبىّ ﷺ بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الإطلاق هذا القول ، ومفعولا زعمتم محذوفان ، أى زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما . قال مقاتل يقول : ادعوهم ليكشفوا عنكم الضّر الذى نزل بكم فى سنين الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم فقال : ﴿ **لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ أى ليس لهم قدرة على خير ولا شرّ ، ولا على جلب نفع ولا دفع ضرر فى أمر من الأمور ، وذكر السموات والأرض، لقصد التعميم لكونهما ظرفا للموجودات الخارجية ﴿ **وما لهم فيهما من شرك** ﴾ أى ليس للآلهة فى السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرّف ﴿ **وما له منهم من ظهير** ﴾ أى وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شىء من أمر السموات والأرض ومن فيهما .

﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده** ﴾ أى شفاعة من يشفع عنده من الملائكة وغيرهم ، وقوله : ﴿**إلا لمن أذن له** ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، أى لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل ، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين ، ويجوز أن يكون المعنى : لاتنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له ، أى لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة لهم ، لا من عداهم من غير المستحقين لها ، واللام فى: ﴿ **لمن**﴾ يجوز أن تتعلق بنفس الشفاعة. قال أبو البقاء: كما تقول شفعت له ، ويجوز أن تتعلق بتنفع، والأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا . قيل : والمراد بقوله : ﴿ **لا تنفع الشفاعة** ﴾: أنها لا توجد أصلا إلا لمن أذن له ، وإنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها. قرأ الجمهور: ﴿ **أذن** ﴾ بفتح الهمزة ، أى أذن له الله سبحانه ؛ لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بضمها على البناء للمفعول ، والآذن هو الله سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥]، وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء والمشفوع لهم فقال : ﴿ **حتى إذا فزّع عن قلوبهم** ﴾ قرأ

الجمهور : ﴿فزع﴾ مبنيا للمفعول ، والفاعل هو اللّه ، والقائم مقام الفاعل هو الجارّ والمجرور، وقرأ ابن عامر : « فزع » مبنيا للفاعل ، وفاعله ضمير يرجع إلى اللّه سبحانه ، وكلا القراءتين بتشديد الزاى ، وفعل معناه السلب ، فالتفزيع إزالة الفزع . وقرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزاى. قال قطرب: معنى ﴿ فزّع عن قلوبهم ﴾ أخرج ما فيها من الفزع، وهو الخوف . وقال مجاهد : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة .والمعنى : أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون اللّه من الملائكة والأنبياء والأصنام ، إلا أن اللّه سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء ونحوهم فى الشفاعة لمن يستحقها ، وهم على غاية الفزع من اللّه، كما قال تعالى : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ [الأنبياء : ٢٨] فإذا أذن لهم فى الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل والخوف الشديد من أن يحدث شىء من أقدار اللّه ، فإذا سرّى عليهم ﴿ قالوا ﴾ للملائكة فوقهم ، وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن : ﴿ماذا قال ربكم ﴾ أى ماذا أمر به ؟ فيقولون لهم : قال : القول ﴿ الحقّ ﴾ وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿ وهو العلىّ الكبير ﴾ فله أن يحكم فى عباده بما يشاء ويفعل ما يريد ، وقيل: هذا الفزع يكون للملائكة فى كل أمر يأمر به الربّ . والمعنى : لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون للّه ، دون الجمادات والشياطين . وقيل : إن الذين يقولون : ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ ؟ هم المشفوع لهم ، والذين أجابوهم هم الشفعاء من الملائكة والأنبياء . وقال الحسن وابن زيد ومجاهد : معنى الآية : حتى إذا كشف الفزع من قلوب المشركين فى الآخرة . قالت لهم الملائكة : ماذا قال ربكم فى الدنيا ؟ قالوا : الحقّ ، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار . وقرأ ابن عمر وقتادة : «فرغ » بالراء المهملة والغين المعجمة من الفراغ . والمعنى : فرغ اللّه قلوبهم ، أى كشف عنها الخوف . وقرأ ابن مسعود : « افرنقع » بعد الفاء راء مهملة ثم نون ثم قاف ثم عين مهملة من الافرنقاع وهو التفرّق .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكت المشركين ويوبخهم فقال : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ أى من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التى تتمتعون بها ، فإن آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة ، والرّزق من السماء هو المطر وماينتفع به منها من الشمس والقمر والنجوم ، والرّزق من الأرض هو النبات والمعادن ونحو ذلك ،ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام ،ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرّزق إلى آلهتهم ، وربما يتوقفون فى نسبته إلى اللّه مخافة أن تقوم عليهم الحجة ؛ فأمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال :﴿ قل الله ﴾ أى هو الذى يرزقكم من السموات والأرض. ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة ، لكن على وجه الإنصاف فى الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى ومن هو على الضلالة ، فقال : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ والمعنى : أن أحد الفريقين من الذين يوحدون اللّه الخالق الرّازق ويخصونه بالعبادة ، والذين يعبدون الجمادات التى لا تقدر على خلق ولارزق ولا نفع ولا ضرّ لعلى أحد الأمرين من الهدى

والضلالة ، ومعلوم لكلّ عاقل أن من عبد الذى يخلق ويرزق وينفع ويضرّ هو الذى على الهدى، ومن عبد الذى لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرّ هو الذى على الضلالة ، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى ، وهم المسلمون ، وفريق الضلالة، وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح . قال المبردّ : ومعني هذا الكلام معنى قول المتبصر فى الحجة لصاحبه : أحدنا كاذب ، وقد عرف أنه الصادق المصيب ، وصاحبه الكاذب المخطئ . قال : و« أو » عند البصريين على بابها وليست للشكّ ، لكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفرّاء : هى بمعنى الواو ، وتقديره : وإنا على هدى وإياكم لفى ضلال مبين ، ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أو رباحا ... عدلت بهم طهية والربابا

أى ثعلبة ورباحا ، وكذا قول الآخر :

فلما اشتد بأس الحرب فينا ... تأملنا رباحا أو رزاما

أى ورزاما . وقوله : ﴿ أو إياكم ﴾ معطوف على اسم إن وخبرها هوالمذكور ، وحذف خبر الثانى؛ للدلالة عليه، أى إنا لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، وإنكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، ويجوز العكس : وهو كون المذكورخبر الثانى ، وخبر الأوّل محذوفا، كما تقدّم فى قوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة : ٦٢] ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه فى الإنصاف،وأبعد من الجدل والمشاغبة فقال:﴿**قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون** ﴾ أى إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم ونفع ، ولا ينالنى من كفركم وترككم لإجابتى ضرر ، وهذا كقوله سبحانه:﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ [الكافرون:٦] وفى إسناد الجرم إلى المسلمين ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين ، مع كون أعمال المسلمين من البرّ الخالص والطاعة المحضة،وأعمال الكفار من المعصية البينة والإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقادر قدره. والمقصود: المهادنة والمتاركة، وقد نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف .

ثم أمره سبحانه بأن يهدّدهم بعذاب الآخرة ، لكن على وجه لا تصريح فيه فقال :﴿ **قل يجمع بيننا ربنا** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **ثم يفتح بيننا بالحقّ** ﴾ أى يحكم ويقضى بيننا بالحقّ ، فيثيب المطيع،ويعاقب العاصى ﴿ **وهو الفتاح** ﴾ أى الحاكم بالحقّ القاضى بالصواب ﴿ **العليم** ﴾ بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح . وهذه أيضا منسوخة بآية السيف . ثم أمره سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال : ﴿ **قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء** ﴾ أى أرونى الذين ألحقتموهم بالله شركاء له ، وهذه الرؤية هى القلبية ، فيكون ﴿**شركاء** ﴾ هو المفعول الثالث ؛ لأن الفعل تعدّى بالهمزة إلى ثلاثة . الأوّل : الياء فى : ﴿**أرونى** ﴾ والثانى : الموصول ، والثالث : ﴿ **شركاء** ﴾ وعائد الموصول محذوف ، أى ألحقتموهم ، ويجوز أن تكون هى البصرية ، وتعدّى الفعل بالهمزة إلى اثنين : الأوّل : الياء،

والثانى : الموصول ، ويكون ﴿ شركاء ﴾ منتصبا على الحال . ثم ردّ عليهم ما يدعونه من الشركاء وأبطل ذلك فقال: ﴿ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى ارتدعوا عن دعوى المشاركة ، بل المنفرد بالإلهية ، هو الله العزيز بالقهر والغلبة، الحكيم بالحكمة الباهرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فزّع عن قلوبهم ﴾ قال: جلى. وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى ، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ، فقالوا الحقّ ، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقا . قال ابن عباس : وصوت الوحى كصوت الحديد على الصفا ، فلما سمعوا خرّوا سجدا ، فلما رفعوا رؤوسهم ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ وهو العلىّ الكبير ﴾. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ينزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة ، فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ ثم يرجعون إلى أنفسهم فيقولون : الحق وهو العلىّ الكبير . وأخرج البخارى وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم من حديث أبى هريرة ، أن النبىّ ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ،كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال الحقّ وهو العلىّ الكبير»[1] الحديث ، وفى معناه أحاديث . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ قال : نحن على هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: ﴿ الفتاح ﴾ : القاضى.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٠٠) وأبو داود فى الحروف (٣٩٨٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (١٩٤) وابن جرير ٢٢ / ٦٢ .

وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾.

فى انتصاب ﴿ كافة ﴾ وجوه ، فقيل : إنه منتصب على الحال من الكاف فى: ﴿أرسلناك﴾ قال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ ، والكافة بمعنى الجامع ، والهاء فيه للمبالغة كعلامة . قال أبو حيان : أما قول الزجاج إن ﴿ كافة ﴾ بمعنى : جامعا ، والهاء فيه للمبالغة ؛ فإن اللغة لا تساعد عليه؛ لأن كفّ ليس معناه : جمع ، بل معناه: منع . يقال : كف يكف ، أى منع يمنع . والمعنى : إلا مانعا لهم من الكفر ، ومنه الكفّ ؛لأنها تمنع من خروج ما فيه. وقيل: إنه منتصب على المصدرية والهاء للمبالغة كالعاقبة والعافية ، والمراد: إنها صفة مصدر محذوف، أى إلا رسالة كافة. وقيل: إنه حال من الناس ، والتقدير : وما أرسلناك إلا للناس كافة ، وردّ بأنه لا يتقدّم الحال من المجرور عليه كما هو مقرّر فى علم الإعراب . ويجاب عنه بأنه قد جوّز ذلك أبو علىّ الفارسىّ وابن كيسان وابن برهان ، ومنه قول الشاعر :

إذا المرء أعيته السيادة ناشئا فمطلبها كهلا عليه عسير

وقول الآخر :

تسليت طرّا عنكم بعد بينكم بذكراكم حتى كأنكم عندى

وقول الآخر :

غافلا تعرض المنية للمر ء فيدعى ولات حين إباء

وممن رجح كونها حالا من المجرور بعدها ابن عطية ، وقال : قدمت للاهتمام والتقوى . وقيل : المعنى إلا ذا كافة ، أى ذا منع ، فحذف المضاف . قيل : واللام فى: ﴿ للناس ﴾ بمعنى إلى ، أى وما أرسلناك إلى الناس إلا جامعا لهم بالإنذار والإبلاغ ، أو مانعا لهم من الكفر والمعاصى ، وانتصاب ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ على الحال ، أى مبشرا لهم بالجنة ، ومنذرا لهم من النار ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ما عند اللّه وما لهم من النفع فى إرسال الرسل.

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أى متى يكون هذا الوعد الذى تعدونا به ؟ وهو قيام الساعة أخبرونا به إن كنتم صادقين . قالوا هذا على طريقة الاستهزاء برسول اللّه ﷺ ومن معه من المؤمنين ، فأمر اللّه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال : ﴿ قل لكم ميعاد يوم ﴾ أى ميقات يوم وهو يوم البعث . وقيل : وقت حضور الموت . وقيل : أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم فى الدنيا ، وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان ، ويجوز فى ميعاد أن يكون مصدرا مرادا به الوعد ، وأن يكون اسم زمان . قال أبو عبيدة : الوعد والوعيد والميعاد بمعنى . وقرأ ابن أبى عبلة بتنوين: « ميعاد » ورفعه ، ونصب « يوم » على أن يكون ميعاد مبتدأ ، ويوما ظرف ، والخبر لكم . وقرأ عيسى بن عمر برفع :« ميعاد » منوّنا ، ونصب :«يوم» مضافا إلى

الجملة بعده . وأجاز النحويون : « ميعاد يوم » برفعهما منونين على أن ميعاد مبتدأ ويوم بدل منه ، وجملة: ﴿ لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ صفة لميعاد ، أى هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون عليه ، بل يكون لا محالة فى الوقت الذى قد قدّر الله وقوعه فيه .

ثم ذكر سبحانه طرفا من قبائح الكفار ونوعا من أنواع كفرهم فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ وهى الكتب القديمة ، كالتوراة والإنجيل والرسل المتقدّمون . وقيل : المراد بالذى بين يديه : الدار الآخرة . ثم أخبر سبحانه عن حالهم فى الآخرة فقال : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، ومعنى ﴿ موقوفون عند ربهم ﴾ : محبوسون فى موقف الحساب ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ أى يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا فى الدنيا متعارضين متناصرين متحابين. ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال : ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون ﴿ لولا أنتم ﴾ صددتمونا عن الإيمان بالله والاتباع لرسوله ﴿ لكنا مؤمنين ﴾ بالله مصدقين لرسوله وكتابه .

﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه : ﴿أنحن صددناكم عن الهدى﴾ أى منعناكم عن الإيمان ﴿ بعد إذ جاءكم ﴾ الهدى ، قالوا هذا منكرين لما ادّعوه عليهم من الصدّ لهم ، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك ، ثم بينوا لهم أنهم الصادّون لأنفسهم الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا : ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ أى مصرّين على الكفر ، كثيرى الإجرام ، عظيمى الآثام. ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا﴾ ردّا لما أجابوا به عليهم ، ودفعا لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ أصل المكر فى كلام العرب : الخديعة والحيلة ، يقال : مكر به: إذا خدعه واحتال عليه . والمعنى : بل مكركم بنا الليل والنهار ، فحذف المضاف إليه ، وأقيم الظرف مقامه اتساعا . وقال الأخفش : هو على تقدير هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : المعنى والله أعلم : بل مكركم فى الليل والنهار ، ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذى حملنا على هذا . وقال سفيان الثورى : بل عملكم فى الليل والنهار ، ويجوز أن يجعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازى كما تقرّر فى علم المعانى . قال المبرّد : كما تقول العرب : نهاره صائم ، وليله قائم ، وأنشد قول جرير :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطىّ بنائم

وأنشد سيبويه :

قيام ليلى وتجلى همى

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر برفع: « مكر » منوّنا ، ونصب:« الليل والنهار» ، والتقدير : بل مكر كائن فى الليل والنهار . وقرأ سعيد بن جبير وأبو رزين بفتح الكاف وتشديد الراء مضافا بمعنى الكرور ، من كرّ يكرّ :إذا جاء وذهب ، وارتفاع ﴿ مكر ﴾ على هذه القراءات على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أى مكر الليل والنهار صدّنا ، أو على أنه فاعل لفعل محذوف، أى صدّنا مكر الليل والنهار ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ،كما تقدّم عن الأخفش . وقرأ طلحة بن راشد كما قرأ سعيد بن جبير ، ولكنه نصب مكر على المصدرية ، أى بل تكرّرن الإغواء مكرا دائما لا تفترون عنه ، وانتصاب ﴿ إذ تأمروننا ﴾ على أنه ظرف للمكر ، أى، بل مكركم بنا وقت أمركم لنا ﴿ أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ﴾ أى أشباها وأمثالا. قال المبرد يقال : ندّ فلان فلان ، أى مثله وأنشد :

أتيمـا تجعـلون إلىّ نـدّا وما تيم بذى حسب نديد

والضمير فى قوله : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ راجع إلى الفريقين ، أى أضمر الفريقان الندامة على مافعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم ، أو أخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة . وقيل : المراد بأسرّوا هنا : أظهروا لأنه من الأضداد ، يكون تارة بمعنى الإخفاء ، وتارة بمعنى الإظهار ، ومنه قول امرئ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر علىّ حراص لو يسرون مقتلى

وقيل : معنى ﴿ أسروا الندامة ﴾ : تبينت الندامة فى أسرة وجوههم ﴿ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ﴾ الأغلال جمع غل ، يقال : فى رقبته غلّ من حديد ، أى جعلت الأغلال من الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار ، والمراد بالذين كفروا : هم المذكورون سابقا . والإظهار لمزيد الذمّ أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوّليا ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أى إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الشرك بالله ، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ قال : إلى الناس جميعا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : أرسل الله محمدا إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ﴾ قال : هذا قول مشركى العرب كفروا بالقرآن وبالذى بين يديه من الكتب والأنبياء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ

آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾.

لما قصّ سبحانه حال من تقدّم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمرّ فى الأعصر الأول فقال : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية** ﴾ من القرى ﴿ **من نذير** ﴾ ينذرهم ويحذرهم عقاب اللّه ﴿ **إلا قال مترفوها** ﴾ أى رؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشرّ لرسلهم : ﴿ **إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ أى بما أرسلتم به من التوحيد والإيمان . وجملة : ﴿ **إلا قال مترفوها** ﴾ فى محل نصب على الحال . ثم ذكر ما افتخروا به من الأموال والأولاد ، وقاسوا حالهم فى الدار الآخرة على حالهم فى هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل فقال : ﴿ **وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين** ﴾ والمعنى : أن اللّه فضلنا عليكم بالأموال والأولاد فى الدنيا ، وذلك يدلّ على أنه قد رضى ما نحن عليه من الدين وما نحن بمعذبين فى الآخرة بعد إحسانه إلينا فى الدنيا ورضاه عنا .

فأمر اللّه نبيه ﷺ بأن يجيب عنهم وقال : ﴿ **قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾ أن يبسطه له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه ، فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصى استدراجا له ، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيرا لأجره ، وليس مجرّد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضى عنه ورضى عمله، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه ولا رضى عمله ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى فى مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة الواضحة ﴿ **ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ هذا ، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى ، ثم زاد هذا الجواب تأييدا وتأكيدا : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى** ﴾ أى ليسوا بالخصلة التى تقربكم عندنا قربى. قال مجاهد : الزلفى : القربى، والزلفة: القربة . قال الأخفش : زلفى اسم مصدر كأنه قال : بالتى تقربكم عندنا تقريبا فتكون زلفى منصوبة المحلّ . قال الفرّاء :إن التى تكون للأموال والأولاد جميعا. وقال الزجاج : إن المعنى:وما أموالكم بالتى تقرّبكم عندنا زلفى ، ولا أولادكم بالشىء يقرّبكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه وأنشد :

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ... ـدك راض والرأى مختلف

ويجوز في غير القرآن باللتين وباللاتي وباللواتي وبالذي للأولاد خاصة ، أي لا تزيدكم الأموال عندنا درجة ورفعة ولا تقربكم تقريبا ﴿ **إلا من آمن وعمل صالحا** ﴾ هو استثناء منقطع فيكون محله النصب ، أي لكن من آمن وعمل صالحا، أو في محل جرّ بدلا من الضمير في تقرّبكم ، كذا قال الزجاج . قال النحاس : وهذا القول غلط؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيدا . ويجاب عنه : بأن الأخفش والكوفيين يجوزون ذلك ، وقد قال بمثل قول الزجاج الفراء، وأجاز الفراء أن يكون في موضع رفع بمعنى ما هو إلا من آمن ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **لهم جزاء الضعف** ﴾ أي جزاء الزيادة ، وهي المرادة بقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي جزاء التضعيف للحسنات. وقيل : لهم جزاء الإضعاف لأن الضعف في معنى الجمع. والباء في:﴿ **بما عملوا** ﴾ للسببية ﴿ **وهم في الغرفات آمنون** ﴾ من جميع ما يكرهون ، والمراد: غرفات الجنة ، قرأ الجمهور: ﴿ **جزاء الضعف** ﴾ بالإضافة ، وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم وقتادة برفعهما على أن الضعف بدل من جزاء . وروى عن يعقوب أنه قرأ :« جزاء » بالنصب منوّنا ، و: « الضعف » بالرفع على تقدير : فأولئك لهم الضعف جزاء،أي حال كونه جزاء . وقرأ الجمهور : ﴿ **في الغرفات** ﴾ بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لقوله : ﴿ لنبوّئنهم من الجنة غرفا ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وخلف: « في الغرفة » بالإفراد؛ لقوله : ﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ [الفرقان : ٧٥]. ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكرحال الكافرين فقال : ﴿ **والذين يسعون في آياتنا** ﴾ بالردّ لها والطعن فيها حال كونهم ﴿ **معاجزين** ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم ، أو معاندين لنا بكفرهم ﴿**أولئك في العذاب محضرون** ﴾ أي في عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصا . ثم كرّر سبحانه ما تقدّم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة فقال : ﴿ **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ أي يوسعه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، وليس في ذلك دلالة على سعادة ولا شقاوة ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ أي يخلفه عليكم ، يقال : أخلف له وأخلف عليه: إذا أعطاه عوضه وبدله ، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة ﴿ **وهو خير الرّازقين** ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله وتقديره ، وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز ، كما يقال في الرجل : إنه يرزق عياله ، وفي الأمير:إنه يرزق جنده، والرازق للأمير والمأمور والكبير والصغير هو الخالق لهم، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئا مما رزقه الله فهو إنما تصرّف في رزق الله له ، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر الله واتفاقه فيما أمره الله .

﴿ **ويوم نحشرهم جميعا** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر نحو اذكر ، أو هو متصل بقوله : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون ﴾ [سبأ : ٣١] أي ولو تراهم أيضا يوم نحشرهم جميعا للحساب العابد والمعبود والمستكبر والمستضعف ﴿ **ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾

تقريعا للمشركين وتوبيخا لمن عبد غير الله عزّ وجلّ ،كما في قوله لعيسى: ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ [المائدة : ١١٦] وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين . قال النحاس : والمعنى : أن الملائكة إذا أكذبتهم كان فى ذلك تبكيت للمشركين ، وجملة : ﴿**قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أى تنزيها لك أنت الذى نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ، ما اتخذناهم عابدين ولا توليناهم وليس لنا غيرك وليا ، ثم صرّحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا : ﴿ **بل كانوا يعبدون الجنّ** ﴾ أى الشياطين وهم إبليس وجنوده ويزعمون أنهم يرونهم وأنهم ملائكة وأنهم بنات الله . وقيل : كانوا يدخلون أجواف الأصنام ويخاطبونهم منها ﴿ **أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ أى أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدّقون لهم . قيل : والأكثر فى معنى الكل .

﴿ **فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا** ﴾ يعنى : العابدين والمعبودين لا يملك بعضهم وهم المعبودون لبعض، وهم العابدون ﴿ **نفعا** ﴾ أى شفاعة ونجاة ﴿ **ولا ضرا** ﴾ أى عذابا وهلاكا ، وإنما قيل لهم هذا القول؛ إظهارا لعجزهم وقصورهم وتبكيتا لعابديهم ، وقوله: ﴿ **ولا ضرا** ﴾ هو على حذف مضاف ، أى لا يملكون لهم دفع ضرّ ، وقوله : ﴿**ونقول للذين ظلموا** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **نقول للملائكة** ﴾ أى للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ﴿**ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ فى الدنيا .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى رزين قال : كان رجلان شريكين ، خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث الله النبىّ ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ، وكان يقرأ الكتب ، فأتى النبىّ ﷺ فقال : إلى ما تدعو ؟ قال:«إلى كذا وكذا» ، قال : أشهد أنك رسول الله ، قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبىّ إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم ، فنزلت هذه الآيات : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها** ﴾ الآيات ، فأرسل إليه النبىّ ﷺ :« إن الله قد أنزل تصديق ما قلت» . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **جزاء الضعف** ﴾ قال: تضعيف الحسنة . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : إذا كان الرجل غنيا تقيا آتاه الله أجره مرتين ، وتلا هذه الآية : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأولئك لهم جزاء الضعف** ﴾ قال : تضعف الحسنة .

وأخرج سعيد بن منصور، والبخارى فى الأدب المفرد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه** ﴾ قال : فى غير إسراف ولا تقتير ، وعن مجاهد مثله ، وعن الحسن مثله . وأخرج الدارقطنى ، والبيهقى فى الشعب عن جابر عن النبىّ ﷺ قال : « كلما أنفق العبد من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا

إلا نفقة في بنيان [١] أو معصية » [٢] . وأخرج نحوه ابن عدى في الكامل والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعا بأطول منه . وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « قال اللّه عز وجل : أنفق يابن آدم أنفق عليك» [٣] . وثبت في الصحيح من حديثه أيضا قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » [٤] . وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن لكل يوم نحسا ، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة » ثم قال : اقرؤوا مواضع الخلف ، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ إذا لم تنفقوا كيف يخلف ؟». وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة » .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ﴾.

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أنواع كفرهم ، فقال : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أي الآيات القرآنية حال كونها ﴿ **بينات** ﴾ واضحات الدلالات ظاهرات المعاني ﴿ **قالوا ما هذا** ﴾ يعنون التالي لها ، وهو النبيّ ﷺ ﴿ **إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم** ﴾ أي أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ **وقالوا** ﴾ ثانيا: ﴿ **ما هذا** ﴾ ؟يعنون القرآن

---

(١) في المطبوعة : « بيان » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج ومن المخطوطة .

(٢) الدارقطني٣/ ٨ البيهقي في الشعب (١٠٧١٣) .

(٣) أحمد ٢ / ٢٤٢ والبخاري في التفسير (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة (٩٩٣ / ٣٧) .

(٤) البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (١٠١٠ / ٥٧) والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٧٨) .

الكريم ﴿ **إلا إفك مفترى** ﴾ أى كذب مختلق ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ ثالثا ﴿ **للحقّ لما جاءهم** ﴾ أى لأمر الدين الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد ، وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان متفقا عليه بين أهل الكتاب والمشركين ، وقيل : أريد بالأوّل : وهو قولهم: ﴿ **إلا إفك مفترى** ﴾ معناه ، وبالثانى: وهو قولهم : ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ : نظمه المعجز . وقيل : إن طائفة منهم قالوا : إنه إفك ، وطائفة قالوا: إنه سحر. وقيل: إنهم جميعا قالوا تارة :إنك إفك، وتارة :إنه سحر ، والأوّل أولى .

﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها** ﴾ أى ما أنزلنا على العرب كتبا سماوية يدرسون فيها ﴿**وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير** ﴾ يدعوهم إلى الحقّ وينذرهم بالعذاب ، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ، ولا شبهة يتشبثون بها. قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتابا قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . قال الفرّاء : أى من أين كذبوك ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذى فعلوه ؟ ثم خوّفهم سبحانه وأخبر عن عاقبتهم وعاقبة من كان قبلهم فقال : ﴿ **وكذّب الذين من قبلهم** ﴾ من القرون الخالية ﴿ **وما بلغوا معشار ما آتيناهم** ﴾ أى ما بلغ أهل مكة من مشركى قريش وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم، من القوّة وكثرة المال وطول العمر فأهلكهم الله ، كعاد وثمود وأمثالهم . والمعشار هو العشر . قال الجوهرى : معشار الشيء: عشره . وقيل : المعشار : عشر العشر ، والأوّل أولى . وقيل: إن المعنى : ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى . وقيل : ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم . وقيل : ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان ، والأوّل أولى . وقيل : المعشار : عشر العشير، والعشير عشر العشر ، فيكون جزءا من ألف جزء . قال الماوردى : وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة فى التقليل . قلت : مراعاة المبالغة فى التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربى ، وقوله: ﴿ **فكذبوا رسلى** ﴾ عطف على ﴿ **كذب الذين من قبلهم** ﴾ على طريقة التفسير، كقوله : ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ الآية [القمر:٩]. والأولى أن : يكون من عطف الخاص على العام ؛ لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم ، فمعناه : كذبوا الكتب المنزلة والرسل المرسلة والمعجزات الواضحة ، وتكذيب الرسل أخص منه ، وإن كان مستلزما له فقد روعيت الدلالة اللفظية لاالدلالة الالتزامية ﴿ **فكيف كان** ﴾ أى فكيف كان إنكارى لهم بالعذاب والعقوبة ؟ فليحذر هؤلاء من مثل ذلك ، قيل : وفى الكلام حذف ، والتقدير : فأهلكناهم فكيف كان نكير ؟ والنكير اسم بمعنى الإنكار .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة** ﴾ أى أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وأوصيكم بخصلة واحدة ، وهى : ﴿**أن تقوموا لله مثنى وفرادى** ﴾ هذا تفسير للخصلة الواحدة ، أو بدل منها ، أى هى قيامكم وتشميركم فى طلب الحقّ بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ؛ لأن الاجتماع

يشوّش الفكر ، وليس المراد : القيام على الرجلين ، بل المراد: القيام بطلب الحقّ وإصداق الفكر فيه ، كما يقال: قام فلان بأمر كذا ﴿ ثم تتفكروا ﴾ فى أمر النبىّ وما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال اللّه سبحانه : قل لهم اعتبروا أمرى بواحدة ، وهى أن تقوموا للّه وفى ذاته مجتمعين ؛ فيقول الرجل لصاحبه : هلمّ فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنة ؟ أى جنون، أوجرّبنا عليه كذبا ، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر ، فإن فى ذلك ما يدل على أن محمدا ﷺ صادق وأنه رسول من عند اللّه ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون ، وهو معنى قوله : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ أى ما هو إلا نذير لكم بين يدى الساعة . وقيل : إن جملة : ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ مستأنفة من جهة اللّه سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر العظيم والدعوى الكبيرة لا يعرّض نفسه له إلا مجنون لا يبالى بما يقال فيه وما ينسب إليه من الكذب ، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا ، فوجب أن يصدّقوه فى دعواه ، لاسيما مع انضمام المعجزة الواضحة وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفترى الكذب ، ولا قد جرّبوا عليه كذبا مدّة عمره وعمرهم . وقيل : يجوز أن تكون « ما » فى :﴿ ما بصاحبكم ﴾ استفهامية ، أى ثم تتفكروا أىّ شىء به من آثار الجنون. وقيل : المراد بقوله : ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ هى « لا إله إلا الله » كذا قال مجاهد والسدى . وقيل : القرآن ؛ لأنه يجمع المواعظ كلها ، والأولى ما ذكرناه أوّلا . قال الزجاج : إن « أن » فى قوله : ﴿ أن تقوموا ﴾ فى موضع نصب بمعنى: لأن تقوموا . وقال السدّى : معنى ﴿ مثنى وفرادى ﴾ : منفردا برأيه ومشاوراً لغيره . وقال القتيبى : مناظرا مع عشيرته ومفكرا فى نفسه . وقيل : المثنى: عمل النهار ، والفرادى: عمل الليل ، قاله الماوردى . وما أبرد هذا القول وأقلّ جدواه . واختار أبو حاتم وابن الأنبارى الوقف على قوله : ﴿ ثم تتفكروا ﴾ وعلى هذا تكون جملة :﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ مستأنفة كما قدّمنا ، وقيل : ليس بوقف ؛لأن المعنى : ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذبا ، أورأيتم منه جنة، أو فى أحواله من فساد ؟

ثم أمر سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض فى الدنيا ولا رغبة فيها ؛ حتى تنقطع عندهم الشكوك ويرتفع الريب فقال : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ أى ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لى مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه، والمراد: نفى السؤال بالكلية ، كما يقول القائل : ما أملكه فى هذا فقد وهبته لك ، يريد: أن لا ملك له فيه أصلا، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى ﴾ [الشورى : ٢٣]، وقوله: ﴿ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ [الفرقان : ٥٧] . ثم بين لهم أن أجره عند اللّه سبحانه فقال : ﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ أى ما أجرى إلا على اللّه لا على غيره ﴿ وهو على كلّ شىء شهيد ﴾ أى مطلع لا يغيب عنه منه شىء .﴿ قل إنّ ربى يقذف

بالحقّ ﴾ القذف الرمى بالسهم والحصى والكلام . قال الكلبى : يرمى على معنى يأتى به ، وقال مقاتل :يتكلم بالحق وهو القرآن والوحى ، أى يلقيه إلى أنبيائه. وقال قتادة: ﴿ **بالحق** ﴾ أى بالوحى ، والمعنى أنه يبين الحجة ويظهرها للناس على ألسن رسله. وقيل :يرمى الباطل بالحق فيدمغه ﴿ **علام الغيوب** ﴾ قرأ الجمهور برفع : ﴿ **علام** ﴾ على أنه خبر ثان لإنّ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من الضمير فى يقذف ، أو معطوف على محل اسم إن. قال الزجاج : الرفع من وجهين على الموضع ؛ لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل. وقرأ زيد بن على وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بالنصب نعتا لاسم إنّ ، أو بدلا منه ، أو على المدح . قال الفراء : والرفع فى مثل هذا أكثر، كقوله : ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ [ص : ٦٤] وقرئ: « الغيوب » بالحركات الثلاث فى الغين ، وهو جمع غيب ، والغيب هو: الأمر الذى غاب وخفى جدّا .

﴿ **قل جاء الحق** ﴾ أى الإسلام والتوحيد. وقال قتادة : القرآن . وقال النحاس : التقدير : صاحب الحقّ ، أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . وأقول : لا وجه لتقدير المضاف ؛ فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه. ﴿ **وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ أى ذهب الباطل ذهابا لم يبق منه إقبال ولا إدبار ولا إبداء ولا إعادة . قال قتادة : الباطل: هو الشيطان، أى ما يخلق لشيطان ابتداء ولا يبعث ، وبه قال مقاتل والكلبى . وقيل : يجوز أن تكون ما استفهامية ، أى أىّ شىء يبديه وأىّ شىء يعيده ؟ والأوّل أولى . ﴿ **قل إن ضللت** ﴾ عن الطريق الحقة الواضحة ﴿ **فإنما أضلّ على نفسى** ﴾ أى إثم ضلالتى يكون على نفسى ، وذلك أن الكفار قالوا له : تركت دين آبائك فضللت ، فأمره اللّه أن يقول لهم هذا القول : ﴿ **وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى** ﴾ من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن ﴿ **إنه سميع قريب** ﴾ منى ومنكم يعلم الهدى والضلالة . قرأ الجمهور : ﴿ **ضللت** ﴾ بفتح اللام ، وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب بكسر اللام ، وهى لغة أهل العالية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وما بلغوا معشار ما آتيناهم** ﴾ يقول : من القوّة فى الدنيا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى الآية قال : يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيفكر ما بصاحبه من جنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة: ﴿ **ما بصاحبكم من جنة** ﴾ يقول : إنه ليس بمجنون . وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ما سألتكم من أجر** ﴾ أى من جعل فهو لكم ، يقول : لم أسألكم على الإسلام جعلا ، وفى قوله : ﴿ **قل إن ربى يقذف بالحق** ﴾ قال : بالوحى ، وفى قوله : ﴿ **وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ قال : الشيطان لا يبدئ ولا يعيد إذا هلك . وأخرج هؤلاء أيضا عنه فى قوله : ﴿ **وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ قال : ما يخلق إبليس شيئا ولا يبعثه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن سعد فى قوله: ﴿ **إن ضللت فإنما أضلّ على نفسى** ﴾ قال: إنما أوخذ بجنايتى.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ثم ذكر سبحانه حالا من أحوال الكفار فقال : ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا** ﴾ والخطاب لرسول الله ، أو لكل من يصلح له. قيل : المراد فزعهم عند نزول الموت بهم . وقال الحسن : هو فزعهم فى القبور من الصيحة ، وقال قتادة : هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم . وقال السدّى : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة . وقال ابن مغفل : هو فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . وقال سعيد ابن جبير : هو الخسف الذى يخسف بهم فى البيداء ، فيبقى رجل منهم فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعون، وجواب لو محذوف ، أى لرأيت أمرا هائلا ، ومعنى ﴿ **فلا فوت** ﴾ : فلا يفوتنى أحد منهم ولا ينجو منهم ناج . قال مجاهد : فلا مهرب ﴿ **وأخذوا من مكان قريب** ﴾ من ظهر الأرض أو من القبور أو من موقف الحساب . وقيل : من حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه . قيل : ويجوز أن يكون هذا الفزع هو الفزع الذى بمعنى الإجابة ، يقال : فزع الرجل : إذا أجاب الصارخ الذى يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر .

﴿ **وقالوا آمنا به** ﴾ أى بمحمد . قاله قتادة ، أو بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عزّ وجلّ . وقال الحسن : بالبعث ﴿ **وأنى لهم التناوش** ﴾ التناوش : التناول ، وهو تفاعل من التناوش الذى هو التناول ، والمعنى : كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد ، يعنى فى الآخرة وقد تركوه فى الدنيا ؟ وهو معنى: ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ وهو تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد مافات عنهم . قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه أو بلحيته : ناشه ينوشه نوشا ، وأنشد :

فهى تنوش الحوض نوشا من علا   نوشا به تقطع أحواز الفلا

أى تناول ماء الحوض من فوق ، ومنه المناوشة فى القتال . وقيل : التناوش : الرجعة ، أى وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تئوب إلىّ مىّ   وليس إلى تناوشها سبيل

وجملة : ﴿ **وقد كفروا به من قبل** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت ، وذلك حال كونهم فى الدنيا . قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى والأعمش : « التناؤش » بالهمز ، وقرأ الباقون بالواو ، واستبعد أبو عبيد والنحاس القراءة الأولى ، ولا وجه للاستبعاد ، فقد ثبت ذلك فى لغة العرب وأشعارها، ومنه قول

الشاعر :

قعدت زمانًا عن طلابك للعلا وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخير

أي وجئت أخيرا . قال الفراء : الهمز وترك الهمز متقارب ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ أي يرمون بالظنّ فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل . وقيل : المعنى : يقولون في القرآن أقوالا باطلة : إنه سحر وشعر وأساطير الأوّلين . وقيل : يقولون في محمد : إنه ساحر شاعر كاهن مجنون . وقرأ أبو حيوة ومجاهد ومحبوب عن أبي عمرو : « يقذفون » مبنيا للمفعول ، أي يرجمون بما يسوؤهم من جزاء أعمالهم من حيث لا يحتسبون ، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه ، والجملة: إما معطوفة على :﴿ وقد كفروا به ﴾ على أنها حكاية للحال الماضية واستحضار لصورتها ، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم . ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من النجاة من العذاب ومنعوا من ذلك . وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم ، أو حيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أي بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، والأشياع جمع شيع ، وشيع جمع شيعة ،وجملة : ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ تعليل لما قبلها ، أي في شك موقع في الريبة، أو ذى ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار ، أو في التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين ، يقال: أراب الرجل: إذا صار ذا ريبة فهو مريب . وقيل : هو من الريب الذي هو الشك ، فهو كما يقال : عجب عجيب وشعر شاعر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا فوت ﴾ قال : فلا نجاة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب﴾ قال : هو جيش السفياني . وقيل : من أين أخذوا ؟ قال : من تحت أقدامهم . وقد ثبت في الصحيح أنه يخسف بجيش في البيداء من حديث حفصة [١] وعائشة [٢] ، وخارج الصحيح من حديث أمّ سلمة [٣] وصفية [٤] وأبي هريرة [٥] وابن مسعود ، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية ، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة ، وقال في آخرها : فذلك قوله عزّ وجلّ في سورة سبأ :﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا

(١) مسلم في الفتن (٦/٢٨٨٣) وأخرجه أحمد ١ / ٢٨٦ والنسائي في الحج ٥ / ٢٠٧ وابن ماجة في الفتن (٤٠٦٣) .

(٢) البخاري في البيوع (٢١١٨) ومسلم في الفتن (٢٨٨٤ / ٨) وأخرجه أحمد ٦ / ١٠٥ .

(٣) أحمد ٦ / ٣١٨ وأبو داود في المهدى (٤٢٨٩) والترمذي في الفتن (٢١٨٣) وقال : «وهذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة في الفتن (٤٠٦٥) . وقد أخرجه مسلم في الفتن (٢٨٨٢ / ٤) .

(٤) أحمد ٦ / ٣٣٧ والترمذي في الفتن (٢١٨٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة في الفتن (٤٠٦٤) .

(٥) النسائي ٥ / ٢٠٦ .

فوت﴾ الآية [١] . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : **﴿ وأنى لهم التناوش﴾** قال : كيف لهم الردّ ؟ **﴿ من مكان بعيد﴾** قال : يسألون الردّ ، وليس بحين رد . وأخرج ابن المنذر عن التيمى قال : أتيت ابن عباس قلت : ما التناوش ؟ قال : تناول الشىء وليس بحين ذاك .

---

(١) ابن جرير ٢٢ / ٧٢ .

تفسير سورة فاطر

هى خمس وأربعون آية . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج البخارى وابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباسٌ قال : أنزلت سورة فاطر بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾.

الفطر : الشقّ عن الشيء ، يقال : فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير: إذا طلع فهو بعير فاطر ، وتفطر الشيء : تشقق، والفطر : الابتداء والاختراع ، وهو المراد هنا ، والمعنى : ﴿ الحمد لله ﴾ مبدع ﴿ السموات والأرض ﴾ ومخترعهما ، والمقصود من هذا : أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة. قرأ الجمهور: ﴿فاطر﴾ على صيغة اسم الفاعل ، وقرأ الزهرى والضحاك: « فطر » على صيغة الفعل الماضى، فعلى القراءة الأولى هو نعت لله ؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى الماضى، وإن كانت غير محضة كان بدلا ، ومثله : ﴿جاعل الملائكة رسلا﴾ يجوز فيه الوجهان ، وانتصاب ﴿ رسلا ﴾ بفعل مضمر على الوجه الأوّل ؛ لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل ، وجوّز الكسائى عمله . وأما على الوجه الثانى ، فهو منصوب بجاعل ، والرسل من الملائكة :هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . وقرأ الحسن : « جاعل » بالرفع . وقرأ جليل بن نشيط ويحيى بن يعمر : « جعل » على صيغة

الماضى . وقرأ الحسن وحميد : «رُسْلا » بسكون السين ، وهى لغة تميم ﴿ **أولى أجنحة** ﴾ صفة لـ ﴿ **رسلا** ﴾ . والأجنحة جمع جناح ﴿ **مثنى وثلاث ورباع** ﴾ صفة لأجنحة . وقد تقدّم الكلام فى مثنى وثلاث ورباع فى النساء . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ويعرجون بها من الأرض إلى السماء . قال يحيى بن سلام : يرسلهم الله إلى الأنبياء. وقال السدّى : إلى العباد بنعمه أو نقمه. وجملة : ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة ، والمعنى : أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء . وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل : إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهرى وابن جرير : إنها حسن الصوت. وقال قتادة: الملاحة فى العينين والحسن فى الأنف والحلاوة فى الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل : الخط الحسن . وقيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . ولاوجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة . وجملة : ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ تعليل لما قبلها من أنه يزيد فى الخلق ما يشاء .

﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** ﴾ أى ما يأتيهم الله به من مطر ورزق لا يقدر أحد أن يمسكه ﴿ **وما يمسك** ﴾ من ذلك لايقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه. وقيل: المعنى : إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : هو الدعاء . وقيل : التوبة . وقيل : التوفيق والهداية . ولا وجه لهذا التخصيص ، بل المعنى : كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة أنعم الله بها على خلقه، وهكذا الإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه ، فهو سبحانه المعطى المانع القابض الباسط لا معطى سواه ولا منعم غيره . ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التى لا تعدّ ولا تحصى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ : « من » زائدة ، و﴿**خالق**﴾ مبتدأ ، و ﴿ **غير الله** ﴾ صفة له . قال الزجاج : ورفع غير على معنى : هل خالق غير الله ؟ لأن « من » زيادة مؤكدة ، ومن خفض « غير » جعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع : ﴿ **غير** ﴾ وقرأ حمزة والكسائى بخفضها ، وقرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء . وجملة : ﴿ **يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ خبر المبتدأ . أو جملة مستأنفة أو صفة أخرى لخالق ، وخبره محذوف . والرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك ، وجملة: ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ مستأنفة لتقرير النفى المستفاد من الاستفهام ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ من الأفك بالفتح وهو الصرف ، يقال : ما أفكك عن كذا ، أى ما صرفك ، أى فكيف تصرفون ؟ وقيل : هو مأخوذ من الإفك بالكسر ، وهو الكذب ؛ لأنه مصروف عن الصدق . قال الزجاج : أى من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث وأنتم مقرون بأن الله خلقكم ورزقكم ؟

ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ فقال : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك** ﴾ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء ويتسلى عن تكذيب كفارالعرب له ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ لا إلى غيره فيجازى كلا بما يستحقه . قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « ترجع » بفتح الفوقية على البناء للفاعل . وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول . ﴿ **يأيها الناس إن وعد الله حق** ﴾ أى وعده بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار ،كما أشير إليه بقوله : ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ . ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** ﴾ بزخرفها ونعيمها . قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا : أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول : ﴿ **ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾ [الفجر : ٢٤] . ﴿ **ولا يغرّنكم بالله الغرور** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الغين ، أى المبالغ فى الغرور ، وهو الشيطان . قال ابن السكيت وأبوحاتم : الغرور : الشيطان ، ويجوز أن يكون مصدرًا ، واستبعده الزجاج ؛ لأن غرر به متعدى ومصدر المتعدى إنما هو على فعل نحو : ضربته ضربًا ، إلا فى أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها ، ومعنى الآية : لا يغرنكم الشيطان بالله فيقول لكم : إنّ الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم لفضلكم أو لسعة رحمته لكم . وقرأ أبو حيوة وأبو سماك ومحمد بن السميفع بضم الغين ، وهو الباطل . قال ابن السكيت: والغرور بالضم : ما يغرّ من متاع الدنيا . وقال الزجاج : يجوز أن يكون الغرور جمع غار ، مثل قاعد وقعود . قيل : ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزوم والنهوك ، وفيه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد .

ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال : ﴿ **إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوا** ﴾ أى فعادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فى معاصى الله . ثم بين لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم فقال : ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ أى إنما يدعو أشياعه وأتباعه والمطيعين له إلى معاصى الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار ، ومحل الموصول فى قوله : ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد** ﴾ الرفع على الابتداء ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ خبره ، أو الرفع على البدل من فاعل ﴿ **يكونوا** ﴾ أو النصب على البدل من ﴿ **حزبه** ﴾ أو النعت له ، أو إضمار فعل يدل على الذمّ ، والجرّ على البدل من أصحاب ، أو النعت له . والرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه؛ لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه ذكر حال الفريقين من المطيعين له والعاصين عليه ، فالفريق الأوّل قال: ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ والفريق الآخر قال فيه : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ أى يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، ويعطيهم أجرًا كبيرًا وهو الجنة .

﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين ، و « من» فى موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف. قال الكسائى : والتقدير : ذهبت نفسك عليهم حسرات . قال: ويدل عليه قوله: ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾

قال : وهذا كلام عربىّ ظريف لا يعرفه إلا القليل، وقال الزجاج : تقديره : كمن هداه ، وقدره غيرهما : كمن لم يزين له ، وهذا أولى لموافقته لفظا ومعنى ، وقد وهم صاحب الكشاف ، فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائى . قال النحاس : والذى قاله الكسائى أحسن ما قيل فى الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى : أن الله عزّ وجل نهى نبيه ﷺ عن شدّة الاغتمام بهم والحزن عليهم ، كما قال: ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ [الكهف:٦]. وجملة : ﴿ **فإن الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ مقررّة لما قبلها ، أى يضلّ من يشاء أن يضله ويهدى من يشاء أن يهديه ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية والهاء مسندا إلى النفس ، فتكون من باب : لا أرينك هاهنا . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن محيصن والأشهب بضم التاء وكسر الهاء ، ونصب ﴿ **نفسك** ﴾ وانتصاب ﴿**حسرات** ﴾ على أنه علة ، أى للحسرات ، ويجوز أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روى عن سيبويه . وقال المبرد : إنها تمييز . والحسرة : شدّة الحزن على ما فات من الأمر ﴿ **إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ لايخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية، والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد .

وقد أخرج أبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول : ابتدأتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال : ﴿ **فاطر السموات** ﴾ : بديع السموات . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا فى قوله: ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ قال : الصوت الحسن . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة** ﴾ الآية قال: ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿ **فلا ممسك لها** ﴾ هم يتوبون إن شاؤوا وإن أبوا ، وما أمسك من باب توبة ﴿ **فلا مرسل له من بعده** ﴾ وهم لايتوبون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال: يقول : ليس لك من الأمر شىء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله :﴿ **لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ قال : كل شىء فى القرآن لهم مغفرة وأجر كبير ، ورزق كريم فهو الجنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة والحسن فى قوله : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله** ﴾ قال : الشيطان زين لهم ، هى والله الضلالات ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ أى لا تحزن عليهم .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾.

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه وعظيم قدرته ؛ ليتفكروا فى ذلك وليعتبروا به ، فقال : ﴿ **والله الذى أرسل الرياح** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **الرياح** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن محيصن والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى: « الريح » بالإفراد ﴿ **فتثير سحابا**﴾ جاء بالمضارع بعد الماضى استحضارا للصورة ؛ لأن ذلك أدخل فى اعتبار المعتبرين ، ومعنى كونها تثير السحاب: أنها تزعجه من حيث هو ﴿ **فسقناه إلى بلد ميت** ﴾ قال أبو عبيدة: سبيله: فتسوقه ؛ لأنه قال : ﴿ **فتثير سحابا** ﴾ . قيل : النكتة فى التعبير بالماضيين بعد المضارع : الدلالة على التحقق . قال المبرد : ميت وميّت واحد ، وقال هذا قول البصريين ، وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت　　　إنما الميت ميت الأحياء

﴿ **فأحيينا به الأرض** ﴾ أى أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها ، وإن لم يتقدّم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه، أو أحيينا بالسحاب ؛ لأنه سبب المطر ﴿ **بعد موتها** ﴾ أى بعد يبسها ، استعار الإحياء للنبات والموت لليبس ﴿ **كذلك النشور** ﴾ أى كذلك يحيى الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها. والنشور: البعث، من نشر الإنسان نشورا ، والكاف فى محل رفع على الخبرية ، أى مثل إحياء موات الأرض إحياء الأموات ، فكيف تنكرونه وقد شاهدتم غير مرّة ما هو مثله وشبيه به ؟

﴿ **من كان يريد العزة** ﴾ قال الفرّاء : معناه : من كان علم العزة لمن هى ؟ فإنها لله جميعا . وقال قتادة : من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله ، فجعل معنى فللّه العزّة : الدعاء إلى طاعة من له العزّة ، كما يقال : من أراد المال فالمال لفلان، أى فليطلبه من عنده . وقال الزجاج : تقديره : من كان يريد بعبادة الله العزّة ، والعزّة له سبحانه، فإن الله عزّ وجل يعزه فى الدنيا والآخرة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **من كان يريد العزّة** ﴾ : المشركون ، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام. كقوله: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّا ﴾ [مريم:٨١]. وقيل : المراد : الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم ﴿ الذين يتخذون الكافرين

أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزَة ﴾ الآية [النساء :١٣٩] . ﴿ **فلله العزّة جميعا** ﴾ أى ، فليطلبها منه لا من غيره ، والظاهر فى معنى الآية : أن من كان يريد العزّة ويطلبها فليطلبها من الله عزّ وجلّ، فلله العزّة جميعًا ، ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزّة ، ويكون المقصود بها : التنبيه لذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزّة ، ومن أىّ جهة تطلب ؟

﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ أى إلى الله يصعد لا إلى غيره ، ومعنى صعوده إليه : قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف ، وخص الكلم الطيب بالذكر؛ لبيان الثواب عليه،وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر الله ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وتلاوة وغير ذلك ، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد ، أو بالتحميد والتمجيد . وقيل : المراد بصعوده : صعوده إلى سماء الدنيا . وقيل : المراد بصعوده: علم الله به ، ومعنى ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾ : أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما قال الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبو العالية والضحاك ، ووجهه : أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح . وقيل : إن فاعل ﴿**يرفعه**﴾ هو ﴿ **الكلم الطيب** ﴾ ومفعوله : ﴿ **العمل الصالح** ﴾ . ووجهه : أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان . وقيل : إن فاعل ﴿ **يرفعه** ﴾ ضمير يعود إلى الله عزّ وجل . والمعنى : أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب؛ لأن العمل يحقق الكلام . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذى أراد العزّة . وقال قتادة : المعنى : أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه ، أى يقبله ، فيكون قوله :﴿ **والعمل الصالح** ﴾ على هذا مبتدأ خبره:﴿ **يرفعه** ﴾ ، وكذا على قول من قال : يرفع صاحبه . قرأ الجمهور: ﴿ **يصعد** ﴾ من صعد الثلاثى ﴿ **والكلم الطيب** ﴾ بالرفع على الفاعلية. وقرأ على وابن مسعود : «يصعد » بضم حرف المضارعة من أصعد «والكلم الطيب » بالنصب على المفعولية ، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول . وقرأ الجمهور : ﴿ **الكلم** ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن: « الكلام » . وقرأ الجمهور : ﴿**والعمل الصالح**﴾ بالرفع على العطف أو على الابتداء . وقرأ ابن أبى عبلة وعيسى ابن عمر بالنصب على الاشتغال. ﴿ **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد** ﴾ انتصاب ﴿**السيئات**﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف ، أى يمكرون المكرات السيئات وذلك ؛ لأن «مكر» لازم ، ويجوز أن يضمن يمكرون معنى يكسبون ، فتكون : ﴿ **السيئات** ﴾ مفعولا به . قال مجاهد وقتادة : هم أهل الرياء . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبىّ ﷺ لما اجتمعوا فى دار الندوة . وقال الكلبى : هم الذين يعملون السيئات فى الدنيا . وقال مقاتل : هم المشركون، ومعنى ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ : لهم عذاب بالغ الغاية فى الشدّة ﴿ **ومكر أولئك هو يبور** ﴾ أى يبطل ويهلك ، ومنه : ﴿ وكنتم قوما بورا ﴾ [الفتح : ١٢]. والمكر فى الأصل: الخديعة والاحتيال ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال فى تفسير مكرهم، وجملة : ﴿ **يبور** ﴾ خبر مكر أولئك .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على البعث والنشور فقال :﴿ **والله خلقكم من تراب** ﴾ أى خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. وقال قتادة : يعنى آدم ، والتقدير على هذا : خلق أباكم الأوّل ، وأصلكم الذى ترجعون إليه من تراب ﴿ **ثم من نطفة** ﴾ أخرجها من ظهر آبائكم ﴿ **ثم جعلكم أزواجا** ﴾ أى زوج بعضكم ببعض ، فالذكر زوج الأنثى ، أوجعلكم أصنافا ذكرانا وإناثا ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أى لا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره ﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب** ﴾ أى ما يطول عمر أحد ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، أى فى اللوح المحفوظ . قال الفراء : يريد آخر غير الأوّل ، فكنى عنه بالضميركأنه الأوّل ؛ لأن لفظ الثانى لو ظهر كان كالأوّل كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر ، فالكناية فى عمره ترجع إلى آخر غير الأوّل ، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر . قيل : إنما سمى معمرا باعتبار مصيره إليه . والمعنى : وما يمدّ فى عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد ، لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائدا ، بل على معنى أنه لا يجعل من الابتداء ناقصا إلا وهو فى كتاب . قال سعيد بن جبير : وما يعمر من معمر إلا كتب عمره : كم هو سنة ، كم هو شهرا ، كم هو يوما ، كم هو ساعة ؟ ثم يكتب فى كتاب آخر: نقص من عمره ساعة ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر، نقص من عمره سنة حتى يستوفى أجله ، فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل . فهو الذى يعمره . وقال قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة ، والنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . وقيل : المعنى : إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع ، ودونه إن عصى فأيهما بلغ فهو فى كتاب . والضمير على هذا يرجع إلى معمر . وقيل : المعنى : وما يعمر من معمر إلى الهرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب ، أى بقضاء الله ، قاله الضحاك ، واختاره النحاس . قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل ، والأولى أن يقال : ظاهر النظم القرآنى أن تطويل العمر وتقصيره، هما بقضاء الله وقدره لأسباب تقتضى التطويل وأسباب تقتضى التقصير . فمن أسباب التطويل : ماورد فى صلة الرّحم عن النبى ﷺ ونحو ذلك . ومن أسباب التقصير : الاستكثار من معاصى الله عزّ وجلّ ، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة ، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة ، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان ، والكلّ فى كتاب مبين فلا تخالف بين هذه الآية . وبين قوله سبحانه : ﴿ فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [الأعراف : ٣٤] ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب ﴾ [الرعد : ٣٩] وقد قدمّنا فى تفسيرها ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحا وبيانا . قرأ الجمهور: ﴿**ينقص** ﴾ مبنيا للمفعول . وقرأ يعقوب وسلام وروى عن أبى عمرو: « ينقص » مبنيا للفاعل. وقرأ الجمهور : ﴿ **من عمره** ﴾ بضم الميم . وقرأ الحسن والأعرج والزهرى بسكونها ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى ما سبق من الخلق وما بعده: ﴿ **على الله يسير** ﴾ لا يصعب عليه منه شيء ، ولا يعزب عنه كثير، ولا قليل ولا كبير ولا صغير .

ثم ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه ، وعجيب قدرته فقال : ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج** ﴾ فالمراد بـ ﴿ **البحران** ﴾ : العذب والمالح . فالعذب الفرات : الحلو ، والأجاج : المرّ . والمراد بـ ﴿ **بسائغ شرابه** ﴾ : الذى يسهل انحداره فى الحلق لعذوبته. وقرأ عيسى بن عمر : « سيغ» بتشديد الياء ، وروى تسكينها عنه . وقرأ طلحة وأبو نهيك : « ملح » بفتح الميم ﴿ **ومن كلّ** ﴾ منهما ﴿ **تأكلون لحما طريا** ﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التى تؤكل ﴿ **وتستخرجون حلية تلبسونها** ﴾ الظاهر أن المعنى : وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرد : إنما تستخرج الحلية من المالح . وروى عن الزجاج أنه قال : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا ، لا من كل واحد منهما على انفراده ، ورجح النحاس قول المبرّد . ومعنى ﴿ **تلبسونها** ﴾ : تلبسون كل شيء منها بحسبه ، كالخاتم فى الأصبع ، والسوار فى الذراع ، والقلادة فى العنق، والخلخال فى الرجل ، ومما يلبس حلية السلاح الذى يحمل كالسيف والدرع ونحوهما ﴿ **وترى الفلك فيه** ﴾ أى فى كل واحد من البحرين . وقال النحاس : الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة، ولولا ذلك لقال : فيهما ﴿ **مواخر** ﴾ يقال : مخرت السفينة تمخر : إذا شقت الماء . فالمعنى : وترى السفن فى البحرين شواقّ للماء بعضها مقبلة. وبعضها مدبرة بريح واحدة . وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة النحل . واللام فى ﴿ **لتبتغوا من فضله** ﴾ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق ، أى فعل ذلك لتبتغوا أو بمواخر . قال مجاهد : ابتغاء الفضل هو التجارة فى البحر إلى البلدان البعيدة فى مدّة قريبة كما تقدّم فى البقرة ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ الله على ما أنعم عليكم به من ذلك . قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية : ضرب المثل فى حقّ المؤمن والكافر ، والكفر والإيمان ، فكما لا يستوى البحران كذلك لا يستوى المؤمن والكافر ، ولا الكفر والإيمان .

﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى يضيف بعض أجزائهما إلى بعض ، فيزيد فى أحدهما بالنقص فى الآخر ، وقد تقدّم تفسيره فى آل عمران وفى مواضع من الكتاب العزيز ﴿ **وسخر الشمس والقمر كلّ يجرى لأجل مسمى** ﴾ قدّره الله لجريانهما ، وهو يوم القيامة . وقيل : هو المدّة التى يقطعان فى مثلها الفلك ، وهو سنة للشمس، وشهر للقمر . وقيل : المراد به :جرى الشمس فى اليوم ، والقمر فى الليلة . وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة لقمان ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى الفاعل لهذه الأفعال وهو الله سبحانه، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ **الله ربكم له الملك** ﴾ أى هذا الذى من صنعته ما تقدّم : هو الخالق المقدّر والقادر المقتدر المالك للعالم ، والمتصرّف فيه ، ويجوز أن يكون قوله : ﴿ **له الملك** ﴾ جملة مستقلة فى مقابلة قوله: ﴿ **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير** ﴾ أى لا يقدرون عليه ولا على خلقه . والقطمير : القشرة الرّقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ، وتصير على النواة كاللفافة لها . وقال المبرّد : هو شق النواة . وقال قتادة : هو القمع الذى على رأس النواة . قال الجوهرى : ويقال : هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة .

ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون فقال: ﴿ **إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم** ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لكونها جمادات لا تدرك شيئًا من المدركات ﴿ **ولو سمعوا** ﴾ على طريقة الفرض ، والتقدير : ﴿ **ما استجابوا لكم** ﴾ لعجزهم عن ذلك . قال قتادة: المعنى:ولو سمعوا لم ينفعوكم . وقيل: المعنى : لوجعلنا لهم سماعا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع للّه منكم ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر ﴿ **ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾ أى يتبرؤون من عبادتكم لهم ، ويقولون : ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ [يونس :٢٨] ويجوز أن يرجع : ﴿ **والذين تدعون من دونه**﴾ وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار ، وهم الملائكة والجنّ والشياطين . والمعنى : أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا ، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿**ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ أى لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها ، وهو الله سبحانه ، فإنه لا أحد أخبر بخلقه وأقوالهم وأفعالهم منه سبحانه ، وهو الخبير بكنه الأمور وحقائقها .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه، فلا يبقى خلق للّه فى السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات ، ثم يرسل الله من تحت العرش منيا كمنى الرجال ، فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ **الله الذى أرسل الرياح** ﴾ الآية[(١)] . وأخرج أبو داود الطيالسى وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يارسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : « أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتزّ خضراء ؟ » قلت: بلى . قال : « كذلك يحيى الله الموتى ، وكذلك النشور » [(٢)]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا اللّه والله أكبر وتبارك الله ، قبض عليهنّ ملك يضمهنّ تحت جناحه ، ثم يصعد بهنّ إلى السماء ، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهنّ حتى يجيء بهنّ وجه الرحمن ، ثم قرأ : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ قال : أداء الفرائض ، فمن ذكر الله فى أداء فرائضه حمل عمله ذكر اللّه فصعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله ، وكان عمله أولى به [(٣)] .

---

(١) ابن جرير ٢٢ / ٧٩ .

(٢) الطيالسى (١٠٨٩) وأحمد ٤/ ١١ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٢٧٤ .

(٣) ابن جرير ٢٢ / ٨٠ والطبرانى (٩١٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٩٣ : « فيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط وبقية رجاله ثقات » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى في الأسماء والصفات ٢/ ٣٤ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وما يعمر من معمر** ﴾ الآية ، قال : يقول : ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرّت له من العمر وقد قضيت له ذلك ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدّرت له لا يزاد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتب له ، فذلك قوله: ﴿**ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب** ﴾ يقول : كل ذلك فى كتاب عنده . وأخرج أحمد ومسلم وأبو عوانة وابن حبان و الطبرانى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: قال رسول الله ﷺ « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ فى الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة ، فيقول : أىّ ربّ ، أشقىّ أم سعيد ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان ، ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص »[(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم والنسائى وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أمّ حبيبة: اللهمّ أمتعنى بزوجى النبىّ ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ، فقال النبى ﷺ : «إنك سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، ولن يعجل الله شيئًا قبل حله أو يؤخر شيئًا، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر كان خيرا وأفضل »[(٢)]. وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء ، وأنه يعتلج هو والقضاء، وبما ورد فى صلة الرحم أنها تزيد فى العمر ، فلا معارضة بين الأدلة كما قدّمنا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ما يملكون من قطمير** ﴾ قال : القطمير : القشر ؛ وفى لفظ: الجلد الذى يكون على ظهر النواة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن

---

(١) أحمد ٤/٧ ومسلم فى القدر (٢٦٤٤ / ٢) وابن حبان (٦١٤٤) والطبرانى (٣٠٣٦) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩١٨٨) وأحمد ١/ ٣٩٠ ومسلم فى القدر (٢٦٦٣ / ٣٢) والنسائى فى الكبرى فى اليوم والليلة (١٠٠٩٤) .

قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾.

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ، ومزيد حاجتهم إلى فضله ، فقال : ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾ أى المحتاجون إليه فى جميع أمور الدين والدنيا ، فهم الفقراء إليه على الإطلاق ، و﴿ **هو الغنىّ** ﴾ على الإطلاق ﴿ **الحميد** ﴾ أى المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم. ثم ذكر سبحانه نوعا من الأنواع التى يتحقق عندها افتقارهم إليه واستغناؤه عنهم فقال : ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ أى إن يشأ يفنكم ويأت بدلكم بخلق جديد يطيعونه ولا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق وعالم من العالم غيرما تعرفون ﴿ **وما ذلك** ﴾ إلاذهاب لكم والإتيان بآخرين ﴿ **على الله بعزيز** ﴾ أى بممتنع ولا متعسر ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة إبراهيم ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى نفس وازرة، فحذف الموصوف للعلم به ،ومعنى ﴿ **تزر** ﴾ : تحمل . والمعنى : لا تحمل نفس حمل نفس أخرى ، أى إثمها بل كل نفس تحمل وزرها، ولا تخالف هذه الآية قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت:١٣] لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم والكل من أوزارهم ، لا من أوزار غيرهم، ومثل هذا حديث : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١] فإن الذى سنّ السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى . ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها** ﴾ قال الفراء : أى نفس مثقلة ، قال : وهذا يقع للمذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنسانا إلى حملها ، وهو ذنوبها ﴿ **لا يحمل منه** ﴾ أى من حملها ﴿ **شىء ولو كان ذا قربى** ﴾ أى ولو كان الذى تدعوه ذا قرابة لها ، لم يحمل من حملها شيئًا ، ومعنى الآية : وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى إلى حمل شىء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئًا ، ولو كانت قريبة لها فى النسب ، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها وبين الداعية لها ؟ وقرئ : « ذو قربى » على أن كان تامة ، كقوله : ﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ [البقرة: ٢٨٠] .

وجملة : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿ **يخشون ربهم بالغيب** ﴾ أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أويخشونه فى الخلوات عن الناس . قال الزجاج : تأويله: أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم ، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار ، كقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ [يس : ١١] . ومعنى ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ : أنهم احتفلوا

---

(١) أحمد ٣٥٧/٤ ومسلم فى الزكاة (١٠١٧ / ٦٩) والنسائى ٧٥/٥ ـ ٧٧ وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٣) كلهم عن جرير بن عبد الله .

بأمرها ، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم. ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه** ﴾ التزكى : التطهر من أدناس الشرك والفواحش ، والمعنى : أن من تطهر بترك المعاصى واستكثر من العمل الصالح فإنما يتطهر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك مختص به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره . قرأ الجمهور : ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى** ﴾ وقرأ أبو عمرو: « فإنما يزكى » بإدغام التاء فى الزاى . وقرأ ابن مسعود وطلحة : «ومن ازكى فإنما يزكى » . ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ لا إلى غيره،ذكر سبحانه أوّلا أنه لا يحمل أحد ذنب أحد ، ثم ذكر ثانيا: أن المذنب إن دعا غيره ولوكان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمله ،ثم ذكر ثالثا : أن ثواب الطاعة مختصّ بفاعلها ليس لغيره منه شيء.

ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر فقال : ﴿ **وما يستوى الأعمى** ﴾ أى المسلوب حاسة البصر ﴿ **والبصير** ﴾ الذى له ملكة البصر ، فشبه الكافر بالأعمى ، وشبه المؤمن بالبصير . ﴿ **ولا الظلمات ولا النور** ﴾ أى ولا تستوى الظلمات ولا النور ، فشبه الباطل بالظلمات ، وشبه الحق بالنور . قال الأخفش : و « لا » فى قوله : ﴿ **ولا النور** ﴾ ، ﴿ **ولا الحرور** ﴾ زائدة ، والتقدير وما يستوى الظلمات والنور ولا الظلّ والحرور . والحرور : شدّة حرّ الشمس . قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسموم يكون بالليل ، وقيل : عكسه. وقال رؤبةبن العجاج : الحرور يكون بالليل خاصة، والسموم يكون بالنهار خاصة. وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار ، والحرور يكون فيهما . قال النحاس : وهذا أصح . وقال قطرب: الحرور الحرّ ، والظلّ البرد ، والمعنى : أنه لا يستوى الظلّ الذى لا حرّ فيه ولا أذى، والحرّ الذى يؤذى. قيل : أراد الثواب والعقاب ، وسمى الحرّ حرورا ، مبالغة فى شدّة الحرّ ؛ لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى . وقال الكلبى: أراد بالظلّ : الجنة ، وبالحرور :النار . وقال عطاء : يعنى ظلّ الليل وشمس النهار . قيل : إنما جمع الظلمات وأفرد النور لتعدّد فنون الباطل واتحاد الحقّ .

ثم ذكر سبحانه تمثيلا آخر للمؤمن والكافر فقال : ﴿ **وما يستوى الأحياء ولا الأموات** ﴾ فشبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات . وقيل : أراد تمثيل العلماء والجهلة . وقال ابن قتيبة : الأحياء : العقلاء ، والأموات : الجهال . قال قتادة : هذه كلها أمثال ، أى كما لا تستوى هذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ﴿ **إن الله يسمع من يشاء** ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ووفقهم لطاعته ﴿ **وما أنت بمسمع من فى القبور** ﴾ يعنى : الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، أى كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه ، قرأ الجمهور بتنوين : ﴿ **مسمع** ﴾ وقطعه عن الإضافة . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى وعمرو بن ميمون بإضافته . ﴿ **إن أنت إلا نذير** ﴾ أى ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، والهدى والضلالة بيد الله عزّ وجلّ . ﴿ **إنا أرسلناك بالحقّ** ﴾ يجوز أن يكون : ﴿**بالحق**﴾ فى محل نصب على الحال من الفاعل ، أى محقين ، أو من المفعول ، أى محقًا ،

أو نعت لمصدر محذوف ، أى إرسالا ملتبسا بالحقّ ، أو هو متعلق بـ﴿**بشيرا**﴾ أى بشيراً بالوعد الحقّ ونذيرا بالوعد الحقّ . والأولى أن يكون نعتا للمصدر المحذوف ، ويكون معنى ﴿**بشيرا**﴾ : بشيراً لأهل الطاعة ونذيرا لأهل المعصية ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ أى ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها ، واقتصر على ذكر النذير دون البشير ؛ لأنه ألصق بالمقام .

ثم سلى نبيه ﷺ وعزاه ، فقال : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات الواضحة والدلالات الظاهرة ﴿ **وبالزبر** ﴾ أى الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ﴿ **وبالكتاب المنير** ﴾ كالتوراة والإنجيل . قيل : الكتاب المنير: داخل تحت الزبر وتحت البينات ، والعطف لتغاير المفهومات ، وإن كانت متحدة فى الصدق ، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات ، والزبر بالكتب التى فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام ﴿ **ثم أخذت الذين كفروا** ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذمهم بما فى حيز الصلة ، ويشعر بعلة الأخذ ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ أى فكيف كان نكيرى عليهم وعقوبتى لهم ؟ وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء فى : ﴿ **نكير** ﴾ وصلا لاوقفا ، وقد مضى بيان معنى هذا قريبا .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة عن عمرو بن الأحوص ؛ أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : « ألا لايجنى جان إلا على نفسه ، لا يجنى والد على ولده ولا مولود على والده » (١) . وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى رمثة قال : انطلقت مع أبى نحو رسول الله ﷺ ، فلما رأيته قال لأبى : « ابنك هذا ؟ » قال : إى وربّ الكعبة ، قال : « أما أنه لا يجنى عليك ولا تجنى عليه » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء** ﴾ قال : يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئًا .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ

(١) أحمد ٣/ ٤٢٦ والترمذى فى التفسير (٣٠٨٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٣٣) وابن ماجة فى المناسك (٣٠٥٥) .

(٢) أبو داود فى الديات (٤٤٩٥) والنسائى ٨/ ٥٣ والبيهقى ٤/ ٧٣ .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾.

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته الباهرة وخلقا من مخلوقاته البديعة فقال: ﴿ **ألم تر** ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكلّ من يصلح له ﴿ **أن الله أنزل من السماء ماء** ﴾ وهذه الرؤية هى القلبية ، أى ألم تعلم ، وأن واسمها وخبرها سدّت مسدّ المفعولين ﴿ **فأخرجنا به** ﴾ أى بالماء ، والنكتة فى هذا الالتفات ؛ إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع ، وانتصاب ﴿ **مختلفا ألوانها** ﴾ على الوصف لثمرات ، والمراد بالألوان : الأجناس والأصناف ، أى بعضها أبيض ، وبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ، وبعضها أسود ﴿**ومن الجبال جدد** ﴾ الجدد : جمع جدة ، وهى الطريق. قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال : جدد بضم الجيم والدال، نحو سرير وسرر . قال زهير :

كأنه أسفع الخدين ذو جدد طاوٍ ويرتع بعد الصيف أحيانا

وقيل : الجدد : القطع ، مأخوذ من جددت الشىء : إذا قطعته ، حكاه ابن بحر .قال الجوهرى : الجدة : الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة : الطريقة ، والجمع جدد وجدائد ، ومن ذلك قول أبى ذؤيب :

جون السراة له جدائد أربع

قال المبرد : جدد : طرائق وخطوط . قال الواحدى : ونحو هذا قال المفسرون فى تفسير الجدد . وقال الفراء : هى الطرق تكون فى الجبال كالعروق بيض وسود وحمر واحدها جدة . والمعنى : أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال، وهى طرائقها ، أو الخطوط التى فيها بأن لون بعضها البياض ولون بعضها الحمرة ، وهو معنى قوله : ﴿ **بيض وحمر مختلف ألوانها** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **جدد** ﴾ بضم الجيم وفتح الدال . وقرأ الزهرى بضمهما، جمع جديدة ، وروى عنه أنه قرأ بفتحهما وردّها أبو حاتم وصححها غيره وقال : الجدد : الطريق الواضح البين ﴿**وغرابيب سود** ﴾ الغربيب : الشديد الذى يشبه لونه لون الغراب . قال الجوهرى : تقول هذا أسود غربيب ، أى شديد السواد ، وإذا قلت: غرابيب سود، جعلت السود بدلا من غرابيب . قال الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : وسود غرابيب ؛ لأنه يقال : أسود غربيب ، وقلّ ما يقال : غربيب أسود ، وقوله: ﴿ **مختلف ألوانها** ﴾ صفة لجدد ، وقوله: ﴿ **وغرابيب**﴾ معطوف على جدد على معنى : ومن الجبال جدد بيض وحمر ومن الجبال غرابيب على لون واحد وهو السواد ، أو على حمر على معنى : ومن الجبال جدد بيض وحمر وسود . وقيل :

معطوف على بيض ، ولابدّ من تقدير مضاف محذوف قبل جدد ، أى ومن الجبال ذو جدد ؛ لأن الجدد إنما هى فى ألوان بعضها .

﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه** ﴾ قوله : ﴿ **مختلف** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى ومنهم صنف ، أو نوع أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة والسواد والبياض والخضرة والصفرة . قال الفراء : أى خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات والجبال ، وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان فى هذه الأشياء ؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه ، ومعنى ﴿ **كذلك** ﴾ : أى مختلفًا مثل ذلك الاختلاف ، وهو صفة لمصدر محذوف ، والتقدير : مختلف ألوانه اختلافًا كائنًا كذلك ، أى كاختلاف الجبال والثمار . وقرأ الزهرى : « والدواب » بتخفيف الباء . وقرأ ابن السميفع : « ألوانها » . وقيل : إن قوله : ﴿ **كذلك** ﴾ متعلق بما بعده ، أى مثل ذلك المطر ، والاعتبار فى مخلوقات الله واختلاف ألوانها يخشى الله من عباده العلماء ، وهذا اختاره ابن عطية ، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها ، والراجح الوجه الأوّل ، والوقف على : ﴿ **كذلك** ﴾ تامّ . ثم استؤنف الكلام وأخبر سبحانه بقوله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ أو هو من تتمة قوله : ﴿**إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ على معنى : إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين فى هذه الآية أهل خشيته، وتعظيم قدرته وهم العلماء به. قال مجاهد: إنما العالم من خشى الله عزّ وجلّ. وقال مسروق : كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا ، فمن كان أعلم بالله ،كان أخشاهم له . قال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم . وقال الشعبى : العالم من خاف اللّه . ووجه تقديم المفعول : أن المقام مقام حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر . وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف ونصب العلماء ، ورويت هذه القراءة عن أبى حنيفة . قال فى الكشاف : الخشية فى هذه القراءة استعارة، والمعنى : أنه يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس . وجملة : ﴿ **إن الله عزيز غفور** ﴾ تعليل لوجوب الخشية ؛ لدلالته على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده.

﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله** ﴾ أى يستمرّون على تلاوته ويداومونها. والكتاب : هو القرآن الكريم ، ولاوجه لما قيل: إن المراد به :جنس كتب الله ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أى فعلوها فى أوقاتها مع كمال أركانها وأذكارها ﴿ **وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية** ﴾ فيه حثّ على الإنفاق كيف ما تهيأ فإن تهيأ سرا فهو أفضل وإلا فعلانية ، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، ويمكن أن يراد بالسرّ: صدقة النفل ، وبالعلانية :صدقة الفرض ، وجملة : ﴿ **يرجون تجارة لن تبور** ﴾ فى محل رفع على خبرية إنّ ،كما قال ثعلب وغيره ، والمراد بالتجارة : ثواب الطاعة ، ومعنى ﴿**لن تبور** ﴾: لن تكسد ولن تهلك ، وهى صفة للتجارة . والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا ، بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم . واللام فى : ﴿ **ليوفيهم أجورهم** ﴾ متعلق بلن تبور على معنى: أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء:١٧٣] :

وقيل : إن اللام متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق . أى فعلوا ذلك ليوفهم ، ومعنى ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ : أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التى هى جزاء أعمالهم، وجملة :﴿ **إنه غفور شكور**﴾ تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة ، أى غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم . وقيل : إن هذه الجملة هى خبر إنّ ، وتكون جملة: يرجون فى محل نصب على الحال، والأوّل أولى.

﴿ **والذى أوحينا إليك من الكتاب** ﴾ يعنى: القرآن . وقيل : اللوح المحفوظ على أن «من» تبعيضية أو ابتدائية ، وجملة :﴿ **هو الحق** ﴾ خبر الموصول ﴿ **ومصدقا لما بين يديه** ﴾ منتصب على الحال ، أى موافقا لما تقدمه من الكتب ﴿ **إن الله بعباده لخبير بصير** ﴾ أى محيط بجميع أمورهم . ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ المفعول الأوّل لأورثنا : الموصول ، والمفعول الثانى : الكتاب ، وإنما قدّم المفعول الثانى ؛ لقصد التشريف والتعظيم للكتاب ، والمعنى : ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب ، وهو القرآن ، أى قضينا وقدرنا بأن نورث العلماء من أمتك يامحمد هذا الكتاب الذى أنزلناه عليك ، ومعنى اصطفائهم : اختيارهم واستخلاصهم ، ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم ، قد شرفهم الله على سائر العباد وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم . قال مقاتل : يعنى قرآن محمد جعلناه ينتهى إلى الذين اصطفينا من عبادنا . وقيل : إن المعنى : أورثناه من الأمم السالفة، أى أخرناه عنهم وأعطيناه الذين اصطفيناه ، والأوّل أولى . ثم قسم سبحانه هؤلاء الذى أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية ؛ لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم وهو من اصطفاهم من العباد ، فكيف يكون من اصطفاه الله ظالما لنفسه ؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد ، فمن عبادنا ، ظالم لنفسه وهو الكافر ، ويكون ضمير ﴿ **يدخلونها** ﴾ عائد إلى المقتصد والسابق. وقيل : المراد بالظالم لنفسه : هو المقصر فى العمل به وهو المرجأ لأمر الله ، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حقّ رعايته ، لقوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ [الأعراف : ١٦٩] وهذا فيه نظر ؛لأن ظلم النفس لايناسب الاصطفاء . وقيل : الظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر، وقد روى هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبى الدرداء وعائشة ، وهذا هو الراجح ؛ لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة ، يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتى . ووجه كونه ظالما لنفسه : أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيما ، وقيل : الظالم لنفسه : هو صاحب الكبائر .

وقد اختلف السلف فى تفسير السابق والمقتصد ، فقال عكرمة وقتادة والضحاك : إن المقتصد :المؤمن العاصى، والسابق : التقىّ على الإطلاق ، وبه قال الفراء ، وقال مجاهد فى تفسير الآية : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾: أصحاب المشأمة، ﴿ **ومنهم مقتصد** ﴾ :أصحاب الميمنة ﴿ **ومنهم سابق بالخيرات** ﴾ : السابقون من الناس كلهم . وقال المبرد : إن المقتصد: هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها . وقال الحسن : الظالم :الذى ترجح سيئاته على حسناته ،

والمقتصد : الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق : من رجحت حسناته على سيئاته . وقال مقاتل : الظالم لنفسه : أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ، والمقتصد :الذى لم يصب كبيرة ، والسابق : الذى سبق إلى الأعمال الصالحة ، وحكى النحاس أن الظالم : صاحب الكبائر . والمقتصد : الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ، فتكون جنات عدن يدخلونها للذين سبقوا بالخيرات لاغير ، قال : وهذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير فى حقيقة النظر لما يليه أولى . وقال الضحاك : فيهم ظالم لنفسه ، أى من ذريتهم ظالم لنفسه . وقال سهل بن عبد الله : السابق : العالم ، والمقتصد : المتعلم ، والظالم لنفسه: الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم لنفسه: الذاكر لله بلسانه فقط ، والمقتصد : الذاكر بقلبه ، والسابق : الذى لا ينساه. وقال الأنطاكى : الظالم: صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وقال ابن عطاء : الظالم : الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد : الذى يحب الله من أجل العقبى ، والسابق : الذى أسقط مراده بمراد الحقّ . وقيل: الظالم: الذى يعبد الله خوفًا من النار،والمقتصدّ: الذى يعبده طمعا فى الجنة ، والسابق: الذى يعبده لا لسبب . وقيل : الظالم : الذى يحبّ نفسه ، والمقتصد : الذى يحبّ دينه، والسابق: الذى يحبّ ربه .وقيل: الظالم :الذى ينتصف ولا ينصف، والمقتصد : الذى ينتصف وينصف، والسابق : الذى ينتصف ولا ينصف ،وقد ذكر الثعلبى وغيره أقوالا كثيرة ، ولا شك أن المعانى اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة ، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرّد إحرامها للحظ وتفويت ما هو خير لها ، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوّتها من الثواب ، وإن كان قائما بما أوجب الله عليه تاركا لما نهاه الله عنه ، فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه الله ومن أهل الجنة فلا إشكال فى الآية ، ومن هذا قول آدم : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ [الأعراف:٢٣] ،وقول يونس : ﴿ إنى كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء:٨٧]. ومعنى المقتصد : هو من يتوسط فى أمر الدين ، ولا يميل إلى جانب الإفراط ولا إلى جانب التفريط، وهذا من أهل الجنة، وأما السابق: فهو الذى سبق غيره فى أمور الدين، وهو خير الثلاثة .

وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد ، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه والسابق أفضل منهما ، فقيل : إن التقديم لا يقتضى التشريف ،كما فى قوله: ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ [الحشر : ٢٠] ونحوها من الآيات القرآنية التى فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير وتقديم المفضولين على الفاضلين. وقيل:وجه التقديم هنا : أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصى قليل ، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقلّ قليل ، فقدّم الأكثر على الأقلّ ، والأوّل أولى فإن الكثرة بمجردّها لا تقتضى تقديم الذكر، وقد قيل فى وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لاحاجة إلى التطويل به .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى توريث الكتاب والاصطفاء ، وقيل : إلى السبق بالخيرات ، والأوّل أولى ، وهو مبتدأ ، وخبره :﴿ **هو الفضل الكبير** ﴾ أى الفضل الذى لا يقادر قدره . وارتفاع ﴿ **جنات عدن** ﴾ على أنها مبتدأ وما بعدها خبرها ، أو على البدل من الفضل ؛ لأنه لما كان هو السبب فى نيل الثواب نزل منزلة المسبب . وعلى هذا فتكون جملة :

﴿ **يدخلونها** ﴾ مستأنفة وقد قدّمنا أن الضمير فى يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة ، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير ، وقرأ زرّ بن حبيش والترمذى : « جنة » بالإفراد ، وقرأ الجحدرى : « جنات » بالنصب على الاشتغال ، وجوّز أبو البقاء أن تكون جنات خبرًا ثانيا لاسم الإشارة ، وقرأ أبو عمرو : «يدخلونها» على البناء للمفعول ، وقوله : ﴿**يحلون** ﴾ خبر ثان لجنات عدن ، أو حال مقدّرة ، وهو من حليت المرأة فهى حال، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول ؛ فإن فى تحليتهم خارج الجنة تأخيرًا للدخول ، فلما قال : ﴿ **يحلون فيها** ﴾ أشار أن دخولهم على وجه السرعة ﴿ **من أساور من ذهب** ﴾ «من » الأولى تبعيضية ، والثانية بيانية ، أى يحلون بعض أساور كائنة من ذهب ، والأساور جمع أسورة جمع سوار ، وانتصاب ﴿**لؤلؤا**﴾ بالعطف على محل ﴿ **من أساور** ﴾ وقرئ بالجرّ عطفا على ذهب ﴿ **ولباسهم فيها حرير**﴾ قد تقدّم تفسير الآية مستوفى فى سورة الحج .

﴿ **وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **الحزن** ﴾ بفتحتين . وقرأ جناح بن حبيش بضمّ الحاء وسكون الزاى . والمعنى : أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة. قال قتادة : حزن الموت . وقال عكرمة : حزن السيئات والذنوب وخوف ردّ الطاعات . وقال القاسم : حزن زوال النعم وخوف العاقبة . وقيل : حزن أهوال يوم القيامة. وقال الكلبى: ما كان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير: همّ الخبز فى الدنيا ، وقيل : هم المعيشة. وقال الزجاج : أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو معاد وهذه أرجح الأقوال ، فإن الدنيا وإن بلغ نعيمها أى مبلغ (١) لا تخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان ، وخصوصًا أهل الإيمان ، فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه ، مضطربى القلوب فى كل حين ، هل تقبل أعمالهم أو تردّ ؟ حذرين من عاقبة السوء وخاتمة الشرّ ، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلون الجنة. وأما أهل العصيان : فهم وإن نفس عن خناقهم قليلا فى حياة الدنيا التى هى دار الغرور ، وتناسوا دار القرار يوما من دهرهم فلابدّ أن يشتدّ وجلهم وتعظم مصيبتهم ، وتغلى مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت وقربوا من منازل الآخرة، ثم إذا قبضت أرواحهم ولاح لهم ما يسوؤهم من جزاء أعمالهم وازدادوا غما وحزنا فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة وأدخلهم الجنة فقد أذهب عنهم أحزانهم وأزال غمومهم وهمومهم ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ أى غفور لمن عصاه ، شكور لمن أطاعه . ﴿ **الذى أحلنا دار المقامة من فضله** ﴾ أى دار الإقامة التى يقام فيها أبدًا ولا ينتقل عنها تفضلا منه ورحمة . ﴿ **لايمسنا فيها نصب** ﴾ أى لا يصيبنا فى الجنة عناء ولا تعب ولا مشقة ﴿**ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ وهو الإعياء من التعب ، والكلال من النصب .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثمرات مختلفا ألوانها** ﴾ قال : الأبيض والأحمر والأسود ، وفى قوله:﴿ **ومن الجبال جدد** ﴾ قال : طرائق ﴿ **بيض** ﴾ يعنى : الألوان . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الغربيب : الأسود الشديد السواد . وأخرج

(١) فى المطبوعة : « بلغ » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ومن الجبال جدد** ﴾ قال : طرائق تكون فى الجبل بيض ﴿ **وحمر** ﴾ فتلك الجدد ﴿ **وغرابيب سود** ﴾ قال : جبال سود ﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام** ﴾ قال : ﴿ **كذلك** ﴾ اختلاف الناس والدواب والأنعام كاختلاف الجبال ، ثم قال: ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال: فصل لما قبلها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال : العلماء بالله الذين يخافونه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عدىّ عن ابن مسعود قال : ليس العلم من كثرة الحديث ، ولكن العلم من الخشية . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد والطبرانى عنه قال : كفى بخشية الله علما ، وكفى باغترار المرء جهلا . وأخرج أحمد فى الزهد عنه أيضًا قال: ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم من الخشية . وأخرج ابن أبى شيبة عن حذيفة قال : بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله .

وأخرج عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل ، فظالمهم مغفور له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وأخرج الطيالسى وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات**﴾ قال : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم يدخلون الجنة»(١). وفى إسناده رجلان مجهولان . قال الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار ، أنه سمع رجلا من ثقيف يحدّث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد . وأخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله**﴾ فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب . وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم ، فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ **الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور** ﴾ » (٢) إلى آخر الآية . وقال البيهقى : إذا كثرت روايات فى

(١) أحمد ٣/ ٧٨ والترمذى فى التفسير (٣٢٢٥) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢٢/ ٩٠ .

(٢) أحمد ٥/ ١٩٤ وابن جرير ٢٢/ ٩٠ والحاكم ٢/ ٤٢٦ وقال : « اختلفت الروايات عن الأعمش فى إسناد هذا الحديث ، ووافقه الذهبى » .

حديث ظهر أن للحديث أصلا . ا. هـ ، وفى إسناد أحمد : محمد بن إسحاق ، وفى إسناد ابن أبى حاتم :رجل مجهول ؛ لأنه رواه من طريق الأعمش عن رجل عن أبى ثابت عن أبى الدرداء ، ورواه ابن جرير عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبراني عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « أمتى ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرًا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحصون ويكشفون ثم تأتى الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده، فيقول الله: أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب ، وهى التى قال الله: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : ١٣] وتصديقها فى التى ذكر فى الملائكة. قال الله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج؛** فمنهم ظالم لنفسه ، فهذا الذى يكشف ويمحص ، ومنهم مقتصد ، وهو الذى يحاسب حسابا يسيرا . ومنهم سابق بالخيرات، فهو الذى يلج الجنة بغير حساب ولاعذاب بإذن الله يدخلونها جميعا (١). قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث: غريب جدا . ا. هـ .وهذه الأحاديث يقوّى بعضها بعضا ويجب المصير إليها ، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر ، ويؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه، والبيهقى فى البعث عن أسامة بن زيد **﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾** الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة، وكلهم فى الجنة » (٢) وما أخرجه الطيالسى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم وابن مردويه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة: أرأيت قول الله : **﴿ثم أورثنا الكتاب﴾** الآية ، قالت : أما السابق، فمن مضى فى حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة. وأما المقتصد فمن تبع آثارهم، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم . وأما الظالم لنفسه ، فمثلى ومثلك ومن اتبعنا ، وكل فى الجنة . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا، وثلث يجيؤون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا، فيقول الربّ : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى ، ثم قرأ : **﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾** الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر، والبيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب ؛ أنه كان إذا نزع بهذه الآية : **﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾** قال : ألا إن سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له . وأخرجه العقيلى وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث من وجه آخر عنه مرفوعا . وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعا . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان أنه نزع بهذه الآية

---

(١) الطبرانى ١٨/ ٧٩ (١٤٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٩ : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » . وقال ابن كثير ٥/ ٥٨٥ : « غريب جدًا » .

(٢) الطبرانى (٤١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٩٩ : « فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وهو سيئ الحفظ » .

ثم قال : ألا إن سابقنا: أهل جهادنا ، ألا وإن مقتصدنا : أهل حضرنا ، ألا وإن ظالمنا : أهل بدونا . وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾ الآية ، قال : أشهد على الله أنه يدخلهم جميعا الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ قال : « كلهم ناج وهى هذه الأمة » . وأخرج الفريانى وعبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال : هى مثل التى فى الواقعة: و﴿ أصحاب الميمنة ﴾ و ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ و ﴿ السابقون ﴾ [الواقعه : ٨ـ١٠] صنفان ناجيان ، وصنف هالك . وأخرج الفريانى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى عنه فى قوله : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : هو الكافر، والمقتصد : أصحاب اليمين . وهذا المرويّ عنه ـ رضى الله عنه ـ لايطابق ما هو الظاهر من النظم القرآنى ، ولا يوافق ما قدّمنا من الروايات عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية ، فقال : نجوا كلهم ، ثم قال : تحاكت مناكبهم وربّ الكعبة ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم . وقد قدّمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين فتعارضت الأقوال عنه .

وأخرج الترمذى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن النبىّ ﷺ تلا قول الله: ﴿ **جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا** ﴾ فقال: « إن عليهم التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب » [(١)] . أخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقالوا الحمد لله** ﴾ الآية ، قال: هم قوم فى الدنيا يخافون الله ويجتهدون له فى العبادة سرًا وعلانية ، وفى قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم ، فهم خائفون ألا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التى سلفت، فعندها ﴿ **قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور** ﴾ غفرلنا العظيم ، وشكر لنا القليل من أعمالنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى الآية قال : حزن النار .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا

(١) الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٦٢) وقال : « هذا حديث غريب » وصححه الحاكم ٤٢٧/٢ ووافقه الذهبى .

يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾.

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين ، ذكر جزاء عباده الطالحين فقال : ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا**﴾ أى لايقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب ﴿ **ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ بل ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : ٥٦] وهذه الآية هى مثل قوله سبحانه : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ [الأعلى : ١٣] . قرأ الجمهور : ﴿ **فيموتوا** ﴾ بالنصب جوابا للنفى ، وقرأ عيسى بن عمر والحسن بإثبات النون . قال المازنى : على العطف على ﴿ **يقضى** ﴾ . وقال ابن عطية : هى قراءة ضعيفة ولا وجه لهذا التضعيف بل هى كقوله : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٦] . ﴿ **كذلك نجزى كلّ كفور** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى كل من هو مبالغ فى الكفر . وقرأ أبو عمرو : «نجزى» على البناء للمفعول .﴿ **وهم يصطرخون فيها** ﴾ من الصراخ وهو الصياح ، أى وهم يستغيثون فى النار رافعين أصواتهم ، والصارخ : المستغيث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له قرع الطنابيب

﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل** ﴾ أى وهم فيها يصطرخون يقولون: ﴿**ربنا**﴾ إلخ . قال مقاتل : هو أنهم ينادون : ﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل** ﴾ من الشرك والمعاصى ، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر ، والطاعة بدل المعصية ، وانتصاب ﴿ **صالحا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى عملا صالحا ، أو صفة لموصوف

محذوف ، أى نعمل شيئًا صالحا . قيل : وزيادة قوله : ﴿ **غير الذى كنا نعمل** ﴾ للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم فى الدنيا كانت غير صالحة، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره ، و«ما» نكرة موصوفة ، أى أو لم نعمركم عمرًا يتمكن من التذكر فيه من تذكر . فقيل : هو ستون سنة . وقيل : أربعون. وقيل: ثمانى عشرة سنة . قال بالأوّل جماعة من الصحابة ، وبالثانى الحسن ومسروق وغيرهما . وبالثالث عطاء وقتادة . وقرأ الأعمش : « ما يذكر » بالإدغام : ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ قال الواحدى : قال جمهور المفسرين : هو النبىّ ﷺ . وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسن بن الفضل والفراء وابن جرير : هو الشيب ، ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتم . وقيل : هو القرآن . وقيل: الحمى . قال الأزهرى : معناه : أن الحمى رسول الموت ، أى كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه ، والشيب نذير أيضًا ؛ لأنه يأتى فى سنّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذى هو سنّ اللهو واللعب . وقيل : هو موت الأهل والأقارب . وقيل : هو كمال العقل ، وقيل: البلوغ ﴿ **فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ أى فذوقوا عذاب جهنم ؛ لأنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا ، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ، ويحول بينكم وبينه . قال مقاتل : فذوقوا العذاب فما للمشركين من مانع يمنعهم .

﴿ **إن الله عالم غيب السموات والأرض** ﴾ قرأ الجمهور بإضافة ﴿ **عالم** ﴾ إلى ﴿ **غيب** ﴾. وقرأ جناح بن حبيش بالتنوين ونصب غيب . والمعنى : أنه عالم بكل شىء ومن ذلك أعمال لا تخفى عليه منها خافية ، فلو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا ،كما قال سبحانه : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهو عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] .﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ تعليل لما قبله ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى من كل شىء علم ما فوقها بالأولى . وقيل : هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى ﴿ **هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض** ﴾ أى جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة : خلفا بعد خلف وقرنا بعد قرن ، والخلف : هو التالى للمتقدّم . وقيل : جعلكم خلفاءه فى أرضه ﴿ **فمن كفر** ﴾ منكم هذه النعمة ﴿ **فعليه كفره** ﴾ أى عليه ضرر كفره لايتعداه إلى غيره ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا** ﴾ أى غضبا وبغضا ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا** ﴾ أى نقصا وهلاكا . والمعنى : أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقت ، ولا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار.

ثم أمره سبحانه أن يوبخهم ويبكتهم فقال : ﴿ **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله** ﴾ أى أخبرونى عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة وعبدتموهم من دون الله ، وجملة : ﴿**أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ بدل اشتمال من أرأيتم ، والمعنى : أخبرونى عن شركائكم ، أرونى أىّ شىء خلقوا من الأرض ؟ وقيل : إن الفعلان ، وهما أرأيتم وأرونى ، من باب التنازع . وقد أعمل الثانى على ما هو اختيار البصريين ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أى أم

لهم شركة مع الله فى خلقها أو ملكها أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة فى الإلهية ﴿ **أم آتيناهم كتابا** ﴾ أى أم أنزلنا عليهم كتابا بالشركة ﴿ **فهم على بينات منه** ﴾ أى على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿ **بينة**﴾ بالتوحيد ، وقرأ الباقون بالجمع . قال مقاتل :يقول : هل أعطينا كفار مكة كتابا ، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكا ؟ ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره فقال :﴿ **بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا** ﴾ أى ما يعد الظالمون بعضهم بعضا ، كما يفعله الرّؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم إلا غرورا يغرونهم به ويزينونه لهم ، وهو الأباطيل التى تغرّ ولا حقيقة لها . وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم وتقرّبهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده . وقيل : إن الشياطين تعد المشركين بذلك، وقيل : المراد بالوعد الذى يعد بعضهم بعضا : هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم .

وجملة: ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه ، وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام وعدم قدرتها على شيء . وقيل : المعنى : إن شركهم يقتضى زوال السموات والأرض ، كقوله: ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّا . أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ [مريم : ٩٠، ٩١] . ﴿ **ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ أى ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه ، أو من بعد زوالهما ، والجملة سادة مسدّ جواب القسم والشرط ، ومعنى ﴿ **أن تزولا** ﴾ : لئلا تزولا ، أو كراهة أن تزولا . قال الزجاج: المعنى : أن الله يمنع السموات والأرض من أن تزولا ، فلا حاجة إلى التقدير . قال الفرّاء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . قال : وهو مثل قوله : ﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ [الروم: ٥١] . وقيل : المراد : زوالهما يوم القيامة ، وجملة: ﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات والأرض .

﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم** ﴾ المراد : قريش ، أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، ومعنى ﴿ **من إحدى الأمم** ﴾: يعنى : المكذبة للرسل ، والنذير : النبىّ ، والهدى : الاستقامة ، وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كان الرسل فى بنى إسرائيل ﴿**فلما جاءهم** ﴾ ما تمنوه ، وهو رسول الله ﷺ الذى هو أشرف نذير وأكرم مرسل وكان من أنفسهم ﴿ **ما زادهم** ﴾ مجيئه ﴿ **إلا نفورا** ﴾ منهم عنه ، وتباعدا عن إجابته .

﴿ **استكبارا فى الأرض** ﴾ أى ؛ لأجل الاستكبار والعتوّ ولأجل ﴿ **مكر السيئ** ﴾ أى مكر العمل السيئ ، أو مكروا المكر السيئ ، والمكر: هو الحيلة والخداع والعمل القبيح، وأضيف إلى صفته كقوله : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، وأنث ﴿ **إحدى** ﴾ لكون أمة مؤنثة كما قال الأخفش . وقيل : المعنى : من إحدى الأمم على العموم . وقيل : من الأمة التى يقال لها : إحدى الأمم تفضيلا لها . قرأ الجمهور: ﴿ **ومكر السيئ** ﴾ بخفض همزة السيئ . وقرأ

الأعمش وحمزة بسكونها وصلا. وقد غلّط كثير من النحاة هذه القراءة، ونزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: وإنما كان يقف بالسكون، فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلا، وتوجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف، كما فى قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

بسكون الباء من أشرب. ومثله قراءة من قرأ: « وما يشعركم » بسكون الراء، ومثل ذلك قراءة أبى عمرو: « إلى بارئكم » بسكون الهمزة، وغير ذلك كثير. قال أبو على الفارسى: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وقرأ ابن مسعود: « ومكرا سيئًا ». ﴿ **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله** ﴾ لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبى: يحيق بمعنى: يحيط، والحوق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا: إذا أحاط به. وهذا هو الظاهر من معنى يحيق فى لغة العرب، ولكن قطرب فسره هنا بـ « ينزل »، وأنشد:

وقد رفعوا المنية فاستقلت ذراعا بعد ما كانت تحيق

أى تنزل. ﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأوّلين** ﴾ أى فهل ينتظرون إلا سنة الأوّلين؟ أى سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ أى لا يقدر أحد أن يبدّل سنة الله التى سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا عنه ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ بأن يحوّل ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم، ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما.

﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها وتأكيده، أى ألم يسيروا فى الأرض فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل؟ فإن ذلك هو من سنة الله فى المكذبين التى لا تبدّل ولا تحوّل، وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة فى مساكنهم ظاهرة فى منازلهم و الحال أن أولئك ﴿ **كانوا أشدّ منهم قوّة** ﴾ وأطول أعمارًا وأكثر أموالا وأقوى أبدانا ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ أى ما كان ليسبقه ويفوته من شىء من الأشياء كائنا ما كان فيهما ﴿ **إنه كان عليما قديرا** ﴾ أى كثير العلم وكثير القدرة لا يخفى عليه شىء ولا يصعب عليه أمر. ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا** ﴾ من الذنوب وعملوا من الخطايا ﴿ **ما ترك على ظهرها** ﴾ أى الأرض ﴿ **من دابة** ﴾ من الدوّاب التى تدّب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلذنوبهم، وأما غيرهم فلشؤم معاصى بنى آدم. وقيل: المراد: ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بنى آدم والجنّ، وقد قال بالأوّل ابن مسعود وقتادة، وقال بالثانى الكلبى. وقال ابن جريج والأخفش والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا: الناس وحدهم دون غيرهم ﴿ **ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى** ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ **فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾ أى بمن

يستحق منهم الثواب ومن يستحق منهم العقاب ، والعامل فى إذا ، هو جاء ، لا بصيرا، وفى هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ قال : ستين سنة . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عنه ؛ أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذى قال الله: ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ » (١) وفى إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى، وفيه مقال . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » (٢) . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعا نحوه(٣) . وأخرج ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال : العمر الذى عيرهم الله به ستون سنة . وأخرج الترمذى وابن ماجة والحاكم ، وابن المنذر والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » (٤) . قال الترمذى بعد إخراجه : حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، ثم أخرجه فى موضع آخر من كتاب الزهد وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد روى من غير وجه عنه. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال : هو ستّ وأربعون سنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا قال : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم فيه بقوله : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ أربعون سنة . قال: « ضرب الله له مثلا إن الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » (٥) وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق عبد الله بن سلام أن موسى قال : ياجبريل ، هل ينام ربك ؟ فذكر نحوه . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه ، أن موسى . . . فذكر نحوه . وأخرج الفريابى وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم

---

(١) ابن جرير ٢٢/ ٩٣ والطبرانى (١١٤١٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : « فيه إبراهيم بن الفضل المخزومى ، وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (١٠٢٥٤) ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٤١٧ والبخارى فى الرقاق (٦٤١٩) وابن جرير ٢٢/ ٩٣ وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٧ على شرط البخارى ، وقال الذهبى « بل على شرط البخارى ومسلم » والبيهقى ٣/ ٣٧٠ .

(٣) الطبرانى (٥٩٣٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٠٩ :« ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٨ على شرط الشيخين وافقه الذهبى .

(٤) الترمذى فى الزهد (٢٣٣١) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٣٦) وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٣/ ٣٧٠ .

(٥) أبو يعلى (٦٦٦٩) وابن جرير ٣/ ٦ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٨ : « فيه أمية بن شبل ذكره الذهبى فى =

وصححه عن ابن مسعود قال : إنه كاد الجعل ليعذب فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم**﴾ الآية (١) .

= الميزان ولم يذكر أن أحدًا ضعفه وإنما ذكر له هذا الحديث فضعفه به » وقال ابن كثير ٥/ ٥٩٤ : « والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم » .

(١) الطبرانى (٩٠٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : « فيه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٨، ووافقه الذهبى .

تفسير سورة يس

هى ثلاث وثمانون آية وهى مكية . قال القرطبى : بالإجماع إلا أن فرقة قالت : ﴿**ونكتب ما قدّموا وآثارهم**﴾ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ ، وسيأتى بيان ذلك. وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : سورة يس نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج الدارمى والترمذى ومحمد بن نصر ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكلّ شىء قلبا ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرّات »: قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن ، وفى إسناده هارون أبو محمد ، وهو شيخ مجهول ، وفى الباب عن أبى بكر ، ولا يصح لضعف إسناده[(١)] . وأخرج البزار من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » ثم قال بعد إخراجه : لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد : يعنى زيد بن الحباب عن حميد المكى مولى آل علقمة . وأخرج الدارمى وأبو يعلى والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له فى تلك الليلة »[(٢)] قال ابن كثير : إسناده جيد[(٣)].وأخرج ابن حبان والضياء عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له»[(٤)] وإسناده فى صحيح ابن حبان هكذا: حدّثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف ، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد الكوبى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خيثمة ، حدثنا محمد بن جحادة عن الحسن عن جندب ابن عبد الله قال : قام رسول الله ﷺ . . . فذكره .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة ومحمد بن نصر وابن حبان والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها عبد يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ما تقدّم من ذنبه ، فاقرؤوها على موتاكم »[(٥)] وقد ذكر له أحمد إسنادين : أحدهما فيه مجهول ، والآخر ذكر فيه عن أبى

---

(١) الدارمى ٢/٤٥٦ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٧) والبيهقى فى الشعب (٢٢٣٣) .

(٢) الدارمى ٢/٤٥٧ وأبو يعلى (٦٢٢٤) والطبرانى فى الصغير ١/١٤٩ والبيهقى فى الشعب (٢٢٣٦) وفى إسناد أبى يعلى ، هشام بن زياد وهو متروك . تقريب التهذيب ٢/٣١٨/٧٩ . وفى إسناد الطبرانى قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : « فيه أغلب بن تميم وهو ضعيف ، وإسناد البيهقى رجاله موثقون . . والحسن لم يسمع من أبى هريرة » .

(٣) ابن كثير ٥/٥٩٨ وقد أخذه من طريق أبى يعلى السابق . (٤) ابن حبان (٢٥٦٥) .

(٥) أحمد ٥/٢٦ وأبو داود فى الجنائز (٣١٢١) وابن ماجة فى الجنائز (١٤٤٨) وابن حبان (٢٩٩١) والطبرانى =

عثمان وقال : وليس بالنهدى عن أبيه عن معقل . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى عن حسان بن عطية ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ يس فكأنما قرأ القرآن عشر مرّات »(١). وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والخطيب والبيهقى عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ :« سورة يس تدعى فى التوراة : المعممة ، تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة ، تكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة ، وتدفع عنه أهاويل الآخرة ، وتدعى : الدافعة والقاضية وتدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة ، من قرأها عدلت عشرين حجة ، ومن سمعها عدلت له ألف دينار فى سبيل الله ، من كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف بركة وألف رحمة ونزعت عنه كل غلّ وداء »(٢) قال البيهقى : تفرّد به عبد الرحمن بن أبى بكر الجدعانى عن سليمان بن رافع الجندى ، وهو منكر قلت : وهذا الحديث هو الذى تقدمت الإشارة من الترمذى إلى ضعف إسناده ، ولا يبعد أن يكون موضوعا ، فهذه الألفاظ كلها منكرة بعيدة من كلام من أوتى جوامع الكلم،وقد ذكره الثعلبى من حديث عائشة، وذكره الخطيب من حديث أنس ، وذكر نحوه الخطيب من حديث علىّ بأخصر منه . وأخرج البزار عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ فى سورة يس : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » وإسناده هكذا: قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيدا » . وأخرج الدارمى عن ابن عباس قال : من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسى، ومن قرأها فى صدر ليلته أعطى يسر ليلته حتى يصبح .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ⟨١⟩ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ⟨٢⟩ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ⟨٣⟩ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ⟨٤⟩ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⟨٥⟩ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⟨٦⟩ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⟨٧⟩ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⟨٨⟩ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ⟨٩⟩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

= ٢٠/ ٢١٩ (٥١٠) والحاكم ١/ ٥٦٥ وقال : « أوقفه يحيى بن سعيد ورفعه ابن المبارك » ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب (٢٢٣٠) . وقال الحافظ فى تلخيص الحبير ٢/ ١٠٤ : « أعله ابن القطان بالاضطراب وبالوقف وبجهالة حال أبى عثمان وأبيه ، ونقل أبو بكر بن العربى عن الدارقطنى أنه قال :« هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن ولا يصح فى الباب حديث » .

(١) البيهقى فى الشعب (٢٢٣٢) . وفيه إسماعيل بن عياش . قال الحافظ فى التقريب ١/ ٧٣ (٥٤١) : «صدوق فى روايته عن أهل بلده ، مخلط فى غيرهم » .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٣٧) والخطيب ٢/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ وقال : « وفى إسناده غير واحد من المجهولين » .

أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **يس** ﴾ قرأ الجمهور بسكون النون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص وقالون وورش بإدغام النون فى الواو الذى بعدها ، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون ، وقرأ ابن عباس وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم بكسرها، فالفتح على البناء أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره : اتل يس ، والكسر على البناء أيضا كجير. وقيل : الفتح والكسر للفرار من التقاء الساكنين . وأما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون فلكونها مسرودة على نمط التعديد فلا حظ لها من الإعراب . وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السميفع والكلبى بضم النون على البناء كمنذ وحيث وقط ، وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى هذه يس ، ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث .

واختلف فى معنى هذه اللفظة : فقيل : معناها : يارجل ، أو ياإنسان . قال ابن الأنبارى: الوقف على يس حسن لمن قال هو افتتاح للسورة ، ومن قال معناه : يارجل ، لم يقف عليه . وقال سعيد بن جبير وغيره : هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليله ﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ ومنه قول السعد الحميرى :

يانفس لا تمحضى بالنصح جاهدة ... عــلى المودة إلا آل يـــاسين

ومنه قوله :﴿ سلام على إل ياسين ﴾ [الصافات : ١٣٠] أى على آل محمد ، وسيأتى فى الصافات ما المراد بآل يس. قال الواحدى قال ابن عباس والمفسرون : يريد يا إنسان : يعنى محمدا ﷺ ، وقال أبو بكر الوراق : معناه : ياسيد البشر . وقال مالك : هو اسم من أسماء الله تعالى ، روى ذلك عنه أشهب . وحكى أبو عبد الرحمن السلمى عن جعفر الصادق أن معناه : ياسيد . وقال كعب : هو قسم أقسم الله به ، ورجح الزجاج أن معناه: يامحمد . واختلفوا هل هو عربىّ أو غير عربىّ ؟ فقال سعيد بن جبير وعكرمة :حبشى . وقال الكلبى : سريانى تكلمت به العرب فصار من لغتهم . وقال الشعبى: هو بلغة طيئ . وقال الحسن : هو بلغة كلب . وقد تقدم فى طه وفى مفتتح سورة البقرة ما يغنى عن التطويل هاهنا. ﴿ **والقرآن الحكيم** ﴾ بالجرّ على أنه مقسم به ابتداء . وقيل : هو معطوف على يس على تقدير كونه مجرورا بإضمار القسم . قال النقاش : لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيما له وتمجيدا ،والحكيم المحكم الذى لا يتناقض ولا يتخالف، أوالحكيم قائله ، وجواب القسم : ﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ وهذا ردّ على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم : ﴿لست مرسلا ﴾ [الرعد : ٤٣] ، وقوله : ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ خبر آخر لإنّ ، أى

إنك على صراط مستقيم ، والصراط المستقيم : الطريق القيم الموصل إلى المطلوب . قال الزجاج : على طريقة الأنبياء الذين تقدّموك ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ﴿تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر برفع «تنزيل» على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو تنزيل ، ويجوز أن يكون خبرًا لقوله : يس إن جعل اسما للسورة ، وقرأ الباقون بالنصب على المصدرية ، أى نزل الله ذلك تنزيل العزيز الرحيم . والمعنى : أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم . وقيل : المعنى : إنك يامحمد تنزيل العزيز الرحيم ، والأول أولى . وقيل : هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب ، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل ، وقرأ أبو حيوة والترمذى وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة : « تنزيل » بالجرّ على النعت للقرآن أو البدل منه .

واللام فى : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم ﴾ يجوز أن تتعلق بـ ﴿ تنزيل ﴾ ، أو بفعل مضمر يدّل عليه ﴿ من المرسلين ﴾ أى أرسلناك لتنذر ، و « ما » فى : ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ هى النافية ، أى لم ينذر آباؤهم ، ويجوز أن تكون موصولة أو موصوفة ، أى لتنذر قوما الذى أنذره آباؤهم ، أو لتنذرهم عذابا أنذره آباؤهم ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى إنذار آبائهم ، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى : ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم ، ويجوز أن يراد: ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة ، وقوله : ﴿ فهم غافلون ﴾ متعلق بنفى الإنذار على الوجه الأوّل ، أى لم ينذر آباؤهم فهم بسبب ذلك غافلون ، وعلى الوجوه الآخرة متعلق بقوله: ﴿ لتنذر ﴾ أى فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم ، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفى ، وهو الظاهر من النظم لترتيب ﴿ فهم غافلون ﴾ على ما قبله ، واللام فى قوله : ﴿ لقد حقّ القول على أكثرهم ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لقد حق القول على أكثرهم ، ومعنى ﴿ حق ﴾ : ثبت ووجب القول ، أى العذاب على أكثرهم ، أى أكثر أهل مكة أو أكثر الكفار على الإطلاق أو أكثر كفار العرب ، وهم من مات على الكفر وأصرّ عليه طول حياته فيتفرّع قوله: ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار ، أى لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه ، وقيل : المراد بالقول المذكور هنا: هو قوله سبحانه: ﴿ فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك﴾ [ص : ٨٤ ، ٨٥].

وجملة : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فهى ﴾ أى الأغلال منتهية ﴿ إلى الأذقان ﴾ فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات ولا يتمكنون من عطفها ، وهو معنى قوله : ﴿ فهم مقمحون ﴾ أى رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم . قال الفراء والزجاج : المقمح : الغاضّ بصره بعد رفع رأسه ، ومعنى الإقماح : رفع الرأس وغض البصر ، يقال : أقمح البعير رأسه وقمح : إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء . قال الأزهرى : أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم ورؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها . وقال قتادة : معنى مقمحون : مغلولون ،

والأوّل أولى ، ومنه قول الشاعر :

ونحن على جوانبها قعود نغضّ الطرف كالإبل القماح

قال الزجاج : قيل للكانونين : شهرا قماح ؛ لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رؤوسها لشدة البرد ، وأنشد قول أبى زيد الهذلى :

فتى ، ما ابن الأغرّ إذا شتونا وحب الزاد فى شهرى قماح

قال أبو عبيدة : قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب. وقال أبو عبيدة أيضا: هو مثل ضربه الله لهم فى امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول ، كما يقال : فلان حمار ، أى لا يبصر الهدى ، وكما قال الشاعر :

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقال الفراء : هذا ضرب مثل ، أى حبسناهم عن الإنفاق فى سبيل الله ، وهو كقوله : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ [الإسراء : ٢٩] . وبه قال الضحاك . وقيل : الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم كما قال تعالى :﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم ﴾ [غافر : ٧١] . وقرأ ابن عباس : « إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا » قال الزجاج : أى فى أيديهم . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . قال: وفى الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير : إنا جعلنا فى أعناقهم وفى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان ، فلفظ «هى» كناية عن الأيدى لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا ، ونظيره ﴿سرابيل تقيكم الحرَّ ﴾ [النحل:٨١] وسرابيل تقيكم البرد لأن ماوقى من الحرّ وقى من البرد؛ لأن الغلّ إذا كان فى العنق فلا بدّ أن يكون فى اليد ، ولاسيما وقد قال الله :﴿**فهى إلى الأذقان** ﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدى فهم مقمحون ، أى : رافعو رؤوسهم لايستطيعون الإطراق ؛ لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه . وروى عن ابن عباس أنه قرأ : « إنا جعلنا فى أيديهم أغلالا » وعن ابن مسعود أنه قرأ : « إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا » كما روى سابقا من قراءة ابن عباس . ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا** ﴾ أى منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان ، كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد ، والسدّ بضم السين وفتحها لغتان ، ومن هذا المعنى فى الآية قول الشاعر :

ومن الحوادث لا أبالك أننى ضربت علىّ الأرض بالأسداد

لا أهتـدى فيها لموضع تلعة بين العـذيب وبين أرض مراد

﴿ **فأغشيناهم** ﴾ أى غطينا أبصارهم ﴿ **فهم** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **لا يبصرون** ﴾ أى لا يقدرون على إبصار شىء . قال الفراء : فألبسنا أبصارهم غشوة ، أى عمى فهم لا يبصرون سبيل الهدى ، وكذا قال قتادة : إن المعنى : لا يبصرون الهدى . وقال السدّى : لا يبصرون محمداً

حين ائتمروا على قتله . وقال الضحاك : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا** ﴾ أى الدنيا ﴿ **ومن خلفهم سدا** ﴾ أى الآخرة ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ أى عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع فى الدنيا . وقيل : ما بين أيديهم : الآخرة ، وما خلفهم : الدنيا ، قرأ الجمهور بالغين المعجمة ، أى غطينا أبصارهم ، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس وعمربن عبد العزيز والحسن ويحيى بن يعمر وأبو رجاء وعكرمة بالعين المهملة من العشا وهو ضعف البصر ومنه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ [الزخرف : ٣٦] ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ أى إنذارك إياهم وعدمه سواء . قال الزجاج : أى من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار ، إنما ينفع الإنذار من ذكر فى قوله: ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى اتبع القرآن وخشى الله فى الدنيا . وجملة : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء ، أو فى محل نصب على الحال أو بدل ، و﴿ **بالغيب** ﴾ فى محل نصب على الحال من الفاعل أو المفعول ﴿ **فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ أى بشر هذا الذى اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة وأجر كريم ، أى حسن وهو الجنة .

ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى فقال : ﴿ **إنا نحن نحيى الموتى** ﴾ أى نبعثهم بعد الموت . وقال الحسن والضحاك : أى نحييهم بالإيمان بعد الجهل ، والأوّل أولى . ثم توعدهم بكتب آثارهم فقال : ﴿ **ونكتب ما قدموا** ﴾ أى أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ **وآثارهم** ﴾ أى ما أبقوه من الحسنات التى لا ينقطع نفعها بعد الموت . كمن سنّ سنة حسنة أو نحو ذلك ، أو السيئات التى تبقى بعد موت فاعلها ، كمن سن سنة سيئة . قال مجاهد وابن زيد : ونظيره قوله : ﴿ علمت نفس ما قدّمت وأخرت ﴾ [الانفطار : ٥] ، وقوله:﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ [القيامة : ١٣] . وقيل : المراد بالآية : آثار المشائين إلى المساجد ، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين. قال النحاس: وهو أولى ما قيل فى الآية لأنها نزلت فى ذلك . ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لابخصوص سببها ، وعمومها يقتضى كتب جميع آثار الخير والشرّ ، ومن الخير : تعليم العلم وتصنيفه ، والوقف على القرب وعمارة المساجد والقناطر . ومن الشرّ : ابتداع المظالم وإحداث ما يضرّ بالناس ويقتدى به أهل الجور ويعملون عليه من مكس أو غيره ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وكلّ شيء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾ أى وكل شيء من أعمال العباد وغيرها كائنا ما كان، فى إمام مبين ، أى كتاب مقتدى به موضح لكل شيء . قال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ ، وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال . قرأ الجمهور : ﴿ **ونكتب** ﴾ على البناء للفاعل . وقرأ زرّ ومسروق على البناء للمفعول . وقرأ الجمهور : ﴿ **كل شيء أحصيناه** ﴾ بنصب « كل » على الاشتغال . وقرأ أبو السمأل بالرفع على الابتداء .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود وابن عباس . وقوله : ﴿ **يس** ﴾ قالا : يامحمد . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن

عباس فى قوله : ﴿ **يس** ﴾ قال : يا إنسان . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والضحاك وعكرمة مثله . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة ، حتى تأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم عمى لا يبصرون ، فجاؤوا إلى النبى ﷺ ، فقالوا: ننشدك الله والرحم يامحمد ، قال : ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبى ﷺ فيهم قرابة ، فدعا النبى ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت: ﴿ **يس . والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ قال : « فلم يؤمن من ذلك النفر أحد » وفى الباب روايات فى سبب نزول ذلك ، هذه الرواية أحسنها وأقربها إلى الصحة .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الأغلال : ما بين الصدر إلى الذقن ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ كما تقمح الدابة باللجام. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا** ﴾ الآية قال : كانوا يمرّون على النبى ﷺ فلا يرونه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : اجتمعت قريش بباب النبى ﷺ ينتظرون خروجه ليؤذوه ، فشقّ ذلك عليه ، فأتاه جبريل بسورة يس وأمره بالخروج عليهم، فأخذ كفا من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذرّ التراب على رؤوسهم، فما رأوه حتى جاز ، فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب ، وجاء بعضهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا ننتظر محمدا ، فقال : لقد رأيته داخلا المسجد ، قال : قوموا فقد سحركم .

وأخرج عبد الرزاق والترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى قال : كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد : فأنزل الله : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾ فدعاهم رسول الله ﷺ ، فقال : « إنه يكتب آثاركم » ، ثم قرأ عليهم الآية : فتركوا [١] . وأخرج الفريابى ، وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه[٢] . وفى صحيح مسلم وغيره من حديث جابر قال : إن بنى سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم ويتحولّوا قريبا من المسجد ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يابنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم» [٣] .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ⑬ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

---

(١) عبد الرزاق (١٩٨٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢٢/ ١٠٠ وصححه الحاكم ٢/٤٢٨، ٤٢٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٦٣٠) .

(٢) ابن ماجة فى المساجد (٧٨٥) وفى الزوائد : « هذا موقوف فيه سماك بن حرب مضطرب الحديث » وابن جرير٢٢/ ١٠٠ والطبرانى (١٢٣١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : «فيه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف ».

(٣) أحمد ٣/ ٣٣٢ ومسلم فى المساجد (٦٦٥ / ٢٨٠) وابن حبان (٢٠٤٠) وابن جرير ٢٢ / ١٠٠ وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٠٠ والبيهقى فى الشعب (٢٦٢٩) .

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **واضرب لهم مثلا أصحاب القرية** ﴾ قد تقدّم الكلام على نظير هذا فى سورة البقرة والنمل ، والمعنى : اضرب لأجلهم مثلا، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلا ، أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية ، فعلى الأوّل لما قال تعالى: ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ [يس: ٣] ، وقال ﴿ لتنذر قوما ﴾ [يس : ٦] قال : قل لهم : ما أنا بدعا من الرسل، فإن قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون ، وأنذروهم بما أنذرتكم ، وذكروا التوحيد ، وخوّفوا بالقيامة ، وبشروا بنعيم دار الإقامة ، وعلى الثانى لما قال : إن الإنذار لا ينفع من أضله الله ، وكتب عليه أنه لا يؤمن ، قال للنبى ﷺ : اضرب لنفسك ولقومك مثلا ، أى ، مثل لهم عند نفسك مثلا بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا ، وصبر الرسل على الإيذاء ، وأنت جئت إليهم واحدا ، وقومك أكثر من قوم الثلاثة ، فإنهم جاؤوا إلى أهل القرية ، وأنت بعثتك إلى الناس كافة . والمعنى : واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ، أى اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، فترك المثل وأقيم أصحاب القرية مقامه فى الإعراب . وقيل: لاحاجة إلى الإضمار ، بل المعنى : اجعل أصحاب القرية لهم مثلا على أن يكون ﴿ **مثلا** ﴾ و﴿**أصحاب القرية**﴾ مفعولين لاضرب ، أو يكون أصحاب القرية بدلا من مثلا ، و قد قدّمنا الكلام على المفعول الأوّل من هذين المفعولين هل هو مثلا أو أصحاب القرية . وقد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ [التحريم : ١٠] . ويستعمل أخرى فى ذكر حالة غريبة ، وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما فى قوله : ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ [إبراهيم : ٤٥] أى بينا لكم أحوالا بديعة غريبة ، هى فى الغرابة كالأمثال ؛ فقوله سبحانه هنا : ﴿ **واضرب لهم مثلا** ﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه . قال القرطبى : هذه القرية

هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين .

وقوله : ﴿ **إذ جاءها المرسلون** ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية ، والمرسلون : هم أصحاب عيسى ، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدّعاء إلى الله ، فأضاف الله سبحانه الإرسال إلى نفسه فى قوله : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين** ﴾ لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه ، ويجوز أن يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء ، فكذبوهما فى الرسالة ، وقيل : ضربوهما وسجنوهما . قيل : واسم الاثنين يوحنا وشمعون . وقيل : أسماء الثلاثة : صادق ومصدوق وشلوم . قاله ابن جرير وغيره. وقيل : سمعان ويحيى وبولس ﴿ **فعزّزنا بثالث** ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاى. قال الجوهرى : « فعزّزنا » يخفف ويشدّد، أى قوينا وشدّدنا فالقراءتان على هذا بمعنى . وقيل : التخفيف بمعنى : غلبنا وقهرنا، ومنه : ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ [ص : ٢٣] والتشديد بمعنى : قوّينا وكثرنا . وقيل : وهذا الثالث هو شمعون ، وقيل : غيره ﴿ **فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾ أى قال الثلاثة جميعا ، وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكدا لسبق التكذيب للاثنين ، والتكذيب لهما تكذيب للثالث ، لأنهم أرسلوا جميعا بشىء واحد ، وهو الدعاء إلى الله عزّ وجل ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ؛ كأنه قيل : ما قال هؤلاء الرّسل بعد التعزيز لهم بثالث ؟ وكذلك جملة : ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فما قال لهم أهل أنطاكية ؟ فقيل : قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، أى مشاركون لنا فى البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها . ثم صرّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا :﴿ **وما أنزل الرّحمن من شىء**﴾ مما تدّعونه أنتم ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم ﴿ **إن أنتم إلا تكذبون** ﴾ أى ما أنتم إلا تكذبون فى دعوى ما تدّعون من ذلك ، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيدا بليغا لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية ، وهو قولهم : ﴿ **ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون** ﴾ فأكدوا الجواب بالقسم الذى يفهم من قولهم : ربنا يعلم ، وبإنّ وباللام .

﴿ **وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾ أى ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور والوضوح وليس علينا غير ذلك ، وهذه الجملة مستأنفة كالتى قبلها ، وكذلك جملة : ﴿ **قالوا إنا تطيرنا بكم** ﴾ فإنها مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر ، أى إنا تشاءمنا بكم ، لم تجدوا جوابا تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبنىّ على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة ، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين . قيل : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين ، ثم رجعوا إلى التجبر والتكبر لما ضاقت صدورهم وأعيتهم العلل فقالوا : ﴿ **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم** ﴾ أى لئن لم تتركوا هذه الدعوى وتعرضوا عن هذه المقالة لنرجمنكم بالحجارة ﴿ **وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾ أى شديد فظيع . قال الفرّاء : عامة مافى القرآن من الرجم المراد به القتل . وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة . قيل : ومعنى العذاب الأليم :القتل . وقيل : الشتم . وقيل : هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع

خاص ، وهذا هو الظاهر .

ثم أجاب عليهم الرسل دفعا لما زعموه من التطير بهم فقالوا :﴿ **طائركم معكم** ﴾ أى شؤمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم فى أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا . قال الفراء : ﴿**طائركم معكم** ﴾ أى رزقكم وعملكم ، وبه قال قتادة. قرأ الجمهور: ﴿ **طائركم** ﴾ اسم فاعل، أى ما طار لكم من الخير والشرّ ، وقرأ الحسن : « اطيركم » أى تطيركم . ﴿ **أئن ذكرتم** ﴾ . قرأ الجمهور من السبعة وغيرهم بهمزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم فى التسهيل والتحقيق ، وإدخال ألف بين الهمزتين وعدمه . وقرأ أبو جعفر وزرّ بن حبيش وابن السميفع وطلحة بهمزتين مفتوحتين . وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر والحسن « أين » بفتح الهمزة وسكون الياء على صيغة الظرف . واختلف سيبويه ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب ؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب الاستفهام ، وذهب يونس إلى أنه يجاب الشرط ، وعلى القولين فالجواب هنا محذوف ، أى أئن ذكرتم فطائركم معكم لدلالة ما تقدّم عليه . وقرأ الماجشون : « أن ذكرتم » بهمزة مفتوحة ، أى لأن ذكرتم . ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم فقالوا: ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أى ليس الأمر كذلك ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى المعصية . قال قتادة : مسرفون فى تطيركم . وقال يحيى بن سلام : مسرفون فى كفركم. وقال ابن بحر : السرف هنا : الفساد ، والإسراف فى الأصل : مجاوزة الحد فى مخالفة الحق .

﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾ هو حبيب بن موسى النجار ، وكان نجارا . وقيل: إسكافا . وقيل: قصارا. وقال مجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى ، وجملة : ﴿ **قال ياقوم اتبعوا المرسلين** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر : كأنه قيل : فماذا قال لهم عند مجيئه ؟ فقيل : قال : ياقوم اتبعوا المرسلين ، هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاؤوا بحق . ثم أكد ذلك وكررّه فقال :﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجرا** ﴾ أى لا يسألونكم أجرا على ما جاؤوكم به من الهدى ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ يعنى : الرسل . ثم أبرز الكلام فى معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال : ﴿ **وما لى لا أعبد الذى فطرنى** ﴾ أى أىّ مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى ؟ ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ ولم يقل : إليه أرجع ، وفيه مبالغة فى التهديد .

ثم عاد إلى المساق الأوّل لقصد التأكيد ومزيد الإيضاح فقال : ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة** ﴾ فجعل الإنكار متوجها إلى نفسه ، وهم المرادون به ، أى أتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة وهو الذى فطرنى . ثم بين حال هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله سبحانه ؛ إنكارا عليهم . وبيانا لضلال عقولهم وقصور إدراكهم فقال : ﴿ **إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا** ﴾ أي شيئا من النفع كائنا ما كان ﴿ **ولا ينقذون** ﴾ من

ذلك الضر الذى أرادنى الرحمن به ، وهذه الجملة صفة لآلهة ، أو مستأنفة لبيان حالها فى عدم النفع والدفع ، وقوله: ﴿ لاتغن ﴾ جواب الشرط ، وقرأ طلحة بن مصرّف : « إن يردنى » بفتح الياء ، قال: ﴿ إنى إذا لفى ضلال مبين ﴾ أى إنى إذا اتخذت من دونه آلهة لفى ضلال مبين واضح ، وهذا تعريض بهم كما سبق ، والضلال : الخسران. ثم صرّح بإيمانه تصريحا لا يبقى بعده شكّ فقال : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ خاطب بهذا الكلام المرسلين . قال المفسرون : أراد القوم قتله . فأقبل هو على المرسلين ، فقال : إنى آمنت بربكم أيها الرسل فاسمعون ، أى اسمعوا إيمانى واشهدوا لى به . وقيل : إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلبا فى الدين وتشدّدا فى الحقّ ، فلما قال هذا القول وصرّح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه . وقيل : وطؤوه بأرجلهم. وقيل : حرقوه . وقيل : حفروا له حفيرة وألقوه فيها . وقيل : إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء فهو فى الجنة ، وبه قال الحسن. وقيل:نشروه بالمنشار .

﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ أى قيل له ذلك تكريما بدخولها بعد قتله كما هى سنة الله فى شهداء عباده . وعلى قول من قال : إنه رفع إلى السماء ولم يقتل ، يكون المعنى : أنهم لما أرادوا قتله نجاه الله من القتل ، وقيل له : ادخل الجنة فلما دخلها وشاهدها ﴿ قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أي فماذا قال بعد أن قيل له: ادخل الجنة فدخلها ؟ فقيل : قال :﴿ ياليت قومى ﴾ إلخ، « وما» فى ﴿بما غفر لى ﴾ هى المصدرية ، أى بغفران ربى . وقيل : هى الموصولة ، أى بالذى غفر لى ربى والعائد محذوف، أى غفره لى ربى ، واستضعف هذا لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة ، وليس المراد : إلا التمنى منه بأنه يعلم قومه بغفران ربه له. وقال الفراء : إنها استفهامية بمعنى التعجب، كأنه قال : بأىّ شىء غفر لى ربى . قال الكسائى : لو صح هذا لقال « بم» من غير ألف. ويجاب عنه بأنه قد ورد فى لغة العرب إثباتها وإن كان مكسورا بالنسبة إلى حذفها ، ومنه قول الشاعر :

على ما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى دمان

وفى معنى تمنيه قولان : أحدهما : أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته إرغاما لهم . وقيل : إنه تمنى أن يعلموا بذلك ليؤمنوا مثل إيمانه ، فيصيروا إلى مثل حاله .

وقد أخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ﴾ قال : هى أنطاكية . وأخرج ابن أبى حاتم عن بريدة مثله . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان بين موسى بن عمران وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وأنه أرسل بينهما ألف نبىّ من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبىّ ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون

سنة ، بعث فى أولها ثلاثة أنبياء وهو قوله : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث** ﴾ والذى عزّز به شمعون ، وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة[1]. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: ﴿ **طائركم معكم** ﴾ قال : شؤمكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله :﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل** ﴾ قال : هو حبيب النجار [2] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر ، قال : اسم صاحب يس : حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه . وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال : لما قال صاحب يس : ﴿ **ياقوم اتبعوا المرسلين** ﴾ خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال : ﴿**إنى آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ أى فاشهدوا لى .

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾.

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له وعجل لهم النقمة وأهلكهم بالصيحة، ومعنى ، ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده** ﴾ أى على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له ، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق ﴿ **من جند من السماء** ﴾ لإهلاكهم وللانتقام منهم ، أى لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبىّ ﷺ يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته وحرب أعدائه ﴿ **وما كنا منزلين** ﴾ أى وما صحّ فى قضائنا وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لابإنزال الجند ، وقال قتادة ومجاهد والحسن : أى ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء ولا نبىّ بعد قتله . وروى عن الحسن أنه قال : هم الملائكة النازلون بالوحى على الأنبياء ، والظاهر أن

(١) ابن سعد ١/٥٣ وتهذيب ابن عساكر ١/٢٢ . (٢) ابن جرير ٢٢/١٠٢ .

معنى النظم القرآنى تحقير شأنهم وتصغير أمرهم ، أى ليسوا بأحقاء بأن ننزل لاهلاكهم جندا من السماء ، أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ أى إن كانت العقوبة أو النقمة أو الأخذة إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل فأهلكهم. قال المفسرون : أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة ، ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا طفئت ، و هو معنى قوله : ﴿ **فإذا هم خامدون** ﴾ أى قوم خامدون ميتون ، شبههم بالنار إذا طفئت ؛ لأن الحياة كالنار الساطعة ، والموت كخمودها . قرأ الجمهور :﴿ **صيحة** ﴾ بالنصب على أن كان ناقصة. واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدمنا . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج ومعاذ القارئ برفعها على أن كان تامة ، أى وقع وحدث ، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فى قوله : ﴿ **إن كانت** ﴾ قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال : « إن كان إلا صيحة » وقدر الزجاج هذه القراءة بقوله : إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدّرها غيره : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وقرأ عبد الله بن مسعود:«إن كانت إلا زقية واحدة » والزقية: الصيحة ، قال النحاس : وهذا مخالف للمصحف ، وأيضا فإن اللغة المعروفة: زقا يزقو إذا صاح . ومنه المثل : « أثقل من الزواقى » فكان يجب على هذا أن تكون زقوة ، ويجاب عنه بما ذكره الجوهرى قال : الزقو والزقى مصدر وقد زقا الصدا يزقو زقا ، أى صاح ، وكل صائح زاق ، والزقية : الصيحة .

﴿ **ياحسرة على العباد** ﴾ قرأ الجمهور :بنصب ﴿ **حسرة** ﴾ على أنها منادى منكر ، كأنه نادى الحسرة وقال لها : هذا أوانك فاحضرى . وقيل : إنها منصوبة على المصدرية ، والمنادى محذوف ، والتقدير : ياهؤلاء تحسروا حسرة . وقرأ قتادة وأبىّ فى رواية عنه بضم حسرة على النداء . قال الفراء فى توجيه هذه القراءة : إن الاختيار النصب وإنها لو رفعت النكرة لكان صوابا ، واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب: يامهتمّ بأمرنا لاتهتم ، وأنشد :

يادار غيرها البلى تغييرا

قال النحاس : وفى هذا إبطال باب النداء أو أكثره. قال : وتقدير ما ذكره : يأيها المهتم لا تهتم بأمرنا ، وتقدير البيت: يأيتها الدار . وحقيقة الحسرة : أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا ، قال ابن جرير : المعنى: يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندّما وتلهفا فى استهزائهم برسل الله ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس وعلى بن الحسين : « ياحسرة العباد » على الإضافة ، ورويت هذه القراءة عن أبىّ . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل . وقيل : من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة . وقيل : إن القائل : ياحسرة على العباد ، هم الكفار المكذبون ، والعباد : الرسل ؛ وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية ومجاهد . وقيل : إن التحسر عليهم هو من الله عزّ وجلّ بطريق الاستعارة لتعظيم ماجنوه ، وقرأ ابن هرمز ومسلم بن جندب وعكرمة وأبو

الزناد : « ياحسره » بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف ، وقرئ : «ياحسرتا» كما قرئ بذلك فى سورة الزمر ، وجملة : ﴿ **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم ، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم .

ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية فقال : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون** ﴾ أى ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التى أهلكناها من الأمم الخالية ، وجملة ﴿ **أنهم إليهم لايرجعون** ﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى . قال سيبويه : أنّ بدل من كم وهى الخبرية ، فذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام ، والمعنى : ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : « كم » فى موضع نصب من وجهين : أحدهما بـ ﴿ **يروا** ﴾ واستشهد على هذا بأنه فى قراءة ابن مسعود : « ألم يروا من أهلكنا » ، والوجه الآخر : أن تكون « كم » فى موضع نصب بـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ . قال النحاس : القول الأوّل محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها ، لأنها استفهام ومحال أن يدخل الاستفهام فى حيز ما قبله ، وكذا حكمها إذا كانت خبرا ، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل أنهم بدلا من كم ، وقد ردّ ذلك المبرد أشدّ ردّ ﴿ **وإن كلّ لما جميع لدينا محضرون** ﴾ أى محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء . قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿ **لما** ﴾ بتشديدها ، وقرأ الباقون بتخفيفها. قال الفراء : من شدد جعل لما بمعنى إلا ، وإن بمعنى ما ، أى ما كلّ إلا جميع، لدينا محضرون ، ومعنى ﴿ **جميع** ﴾ مجموعون ، فهو فعيل بمعنى مفعول، ولدينا ظرف له ، وأما على قراءة التخفيف فإن هى المخففة من الثقيلة ، وما بعدها مرفوع بالابتداء ، وتنوين ﴿ **كل** ﴾ عوض عن المضاف إليه وما بعده الخبر ، واللام هى الفارقة بين المخففة والنافية . قال أبو عبيدة : وما على هذه القراءة زائدة ، والتقدير عنده: وإن كل لجميع . وقيل : معنى ﴿ **محضرون** ﴾ معذبون ، والأولى أنه على معناه الحقيقى من الإحضار للحساب .

ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد والحشر مع تعداد النعم وتذكيرها فقال : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة** ﴾ فآية خبر مقدّم وتنكيرها للتفخيم ولهم صفتها ، أو متعلقة بآية لأنها بمعنى علامة ، والأرض مبتدأ ، ويجوز أن تكون ﴿ **آية** ﴾ مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة ، وما بعدها الخبر . قرأ أهل المدينة : « الميتة » بالتشديد وخففها الباقون ، وجملة : ﴿ **أحييناها** ﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية . وقيل : هى صفة للأرض فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى وذكرهم نعمه وكمال قدرته ، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات ، وأخرج منها الحبوب التى يأكلونها ويتغذون بها ، وهو معنى قوله : ﴿ **وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** ﴾ وهو ما يقتاتونه من الحبوب، وتقديم ﴿ **منه** ﴾ للدلالة على أن الحبّ معظم ما يؤكل وأكثر ما يقوم به المعاش . ﴿ **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب** ﴾ أى جعلنا فى الأرض جنات من أنواع النخل والعنب، وخصصهما بالذكر، لأنهما أعلى الثمار وأنفعها للعباد ﴿ **وفجرنا فيها من العيون** ﴾ أى فجرنا

فى الأرض بعضا من العيون ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، أو المفعول العيون ، ومن مزيدة على رأى من جوّز زيادتها فى الإثبات وهو الأخفش ومن وافقه ، والمراد بالعيون : عيون الماء . قرأ الجمهور :﴿ **فجّرنا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف ، والفجر والتفجير: كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى ، واللام فى : ﴿ **ليأكلوا من ثمره** ﴾ متعلق بجعلنا ، والضمير فى ﴿ **من ثمره** ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل . وقيل : هو راجع إلى ماء العيون لأن الثمر منه قاله الجرجانى . قرأ الجمهور: ﴿ **ثمره** ﴾ بفتح الثاء والميم ، وقرأ حمزة والكسائى بضمهما ، وقرأ الأعمش بضم الثاء وإسكان الميم ، وقد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام، وقوله : ﴿ **وما عملته أيديهم** ﴾ معطوف على ﴿ **ثمره** ﴾ أى ليأكلوا من ثمره ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما ، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن « ما » موصولة . وقيل : هى نافية ، والمعنى : لم يعملوه، بل العامل له هو الله ، أى وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها ، وهو قول الضحاك ومقاتل . قرأ الجمهور : ﴿ **عملته** ﴾ ، وقرأ الكوفيون « عملت » بحذف الضمير ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ للتقريع والتوبيخ لهم لعدم شكرهم للنعم .

وجملة : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها** ﴾ مستأنفة مسوقة لتنزيهه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة والتعجب من إخلالهم بذلك ، وقد تقدّم الكلام مستوفى فى معنى سبحان ، وهو فى تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به ، والأزواج : الأنواع والأصناف ، لأن كل صنف مختلف الألوان والطعوم والأشكال ، و ﴿ **مما تنبت الأرض** ﴾ بيان للأزواج ، والمراد : كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿ **ومن أنفسهم** ﴾ أى خلق الأزواج من أنفسهم ، وهم الذكور والإناث ﴿ **ومما لا يعلمون** ﴾ من أصناف خلقه فى البرّ والبحر والسماء والأرض . ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار** ﴾ الكلام فى هذا كما قدّمنا فى قوله: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾ والمعنى : أن ذلك علامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلهيته ، والسلخ : الكشط والنزع ، يقال : سلخه الله من بدنه ، ثم يستعمل بمعنى الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجىء الظلمة كالسلخ من الشىء ، وهو استعارة بليغة ﴿ **فإذا هم مظلمون** ﴾ أى داخلون فى الظلام مفاجأة وبغتة ، يقال : أظلمنا أى دخلنا فى ظلام الليل ، وأظهرنا دخلنا فى وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأمسينا ، وقيل :« منه » بمعنى عنه، والمعنى : نسلخ عنه ضياء النهار . قال الفراء : يرمى بالنهار على الليل فيأتى بالظلمة ، وذلك أن الأصل هى الظلمة والنهار داخل عليه ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل ، أى كشط وأزيل فتظهر الظلمة .

﴿ **والشمس تجرى لمستقرّ لها** ﴾ يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل ، والتقدير : وآية لهم الشمس ، ويجوز أن تكون الواو ابتدائية : والشمس مبتدأ ، وما بعدها الخبر ، ويكون الكلام مستأنفا مشتملا على ذكر آية مستقلة . قيل : وفى الكلام حذف ، والتقدير :

تجرى لمجرى مستقرّ لها ، فتكون اللام للعلة ، أى لأجل مستقرّ لها ، وقيل : اللام بمعنى إلى وقد قرئ بذلك . قيل : المراد بالمستقرّ : يوم القيامة ، فعنده تستقرّ ولا يبقى لها حركة ، وقيل: مستقرها هو أبعد ما تنتهى إليه ولا تجاوزه ، وقيل : نهاية ارتفاعها فى الصيف ونهاية هبوطها فى الشتاء ، وقيل : مستقرها تحت العرش ؛ لأنها تذهب إلى هنالك فتسجد ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وهذا هو الرّاجح. وقال الحسن : إن للشمس فى السنة ثلاثمائة مطلعا تنزل فى كل يوم مطلعا ثم لا تنزل إلى الحول ، فهى تجرى فى تلك المنازل ، وهو مستقرّها ، وقيل :غير ذلك . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وزين العابدين وابنه الباقر والصادق بن الباقر : « لا مستقرّ لها » بلا التى لنفى الجنس ، وبناء مستقرّ على الفتح . وقرأ ابن أبى عبلة: « لا مستقرّ » ، بلا التى بمعنى ليس ،ومستقرّ اسمها ، ولها خبرها ، والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى جرى الشمس ، أى ذلك الجرى ﴿ **تقدير العزيز** ﴾ أى الغالب القاهر ﴿ **العليم** ﴾ أى المحيط علمه بكل شىء ، ويحتمل أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقرّ أى ذلك المستقرّ : تقدير الله .

﴿ **والقمر قدّرناه منازل** ﴾. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء . وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال ، وانتصاب ﴿ **منازل** ﴾ على أنه مفعول ثان ، لأن « قدرنا » بمعنى : صيرنا ، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال، أى قدّرنا سيره حال كونه ذا منازل ، ويجوز أن يكون منتصبا على الظرفية ، أى فى منازل . واختار أبو عبيد النصب فى القمر؛ لأن قبله فعلا وهو ﴿ **نسلخ** ﴾ ، وبعده فعلا وهو « قدرنا » قال النحاس : أهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إلىّ قال : وإنما كان الرفع عندهم أولى لأنه معطوف على ما قبله ، ومعناه: وآية لهم القمر. قال أبو حاتم : الرفع أولى لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء ، والمنازل هى الثمانية والعشرون التى ينزل القمر فى كل ليلة فى واحد منها وهى معروفة وسيأتى ذكرها ، فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أوّلها، فيقطع الفلك فى ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ليلتين ، ثم يطلع هلالا ، فيعود فى قطع تلك المنازل من الفلك ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ قال الزجاج : العرجون هو عود العذق الذى فيه الشماريخ ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار فى منازله ، فإذا كان فى آخرها دق واستقوس وصغر حتى صار كالعرجون القديم ، وعلى هذا فالنون زائدة. قال قتادة : وهو العذق اليابس المنحنى من النخلة . قال ثعلب : العرجون : الذى يبقى فى النخلة إذا قطعت ، والقديم : البالى . وقال الخليل : العرجون أصل العذق وهو أصفر عريض ، يشبه به الهلال إذا انحنى ، وكذا قال الجوهرى : إنه أصل العذق الذى يعوج ويقطع منه الشماريخ ، فيبقى على النخل يابسا ، وعَرَجْتُه : ضربته بالعرجون ، وعلى هذا فالنون أصلية . قرأ الجمهور: ﴿ **العرجون** ﴾ بضم العين والجيم : وقرأ سليمان التيمى بكسر العين وفتح الجيم ، وهما لغتان ، والقديم : العتيق.

﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ﴾ الشمس مرفوعة بالابتداء ، لأنه لا يجوز أن تعمل لا فى المعرفة ، أى لا يصح ولا يمكن للشمس أن تدرك القمر فى سرعة السير وتنزل فى المنزل الذى فيه القمر ؛ لأن لكل واحد منهما سلطانا على انفراده ، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر ، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها ، وقال الضحاك : معناه إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . وقال مجاهد : أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة ، وكذا قال يحيى بن سلام . وقيل : معناه : إذا اجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منزل لا يشتركان فيه . وقيل : القمر فى سماء الدنيا ، والشمس فى السماء الرابعة ، ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : وأحسن ما قيل فى معناه وأبينه : أن سير القمر سير سريع والشمس لاتدركه فى السير . وأما قوله : ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ [القيامة : ٩] . فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه فى الأنعام ، ويأتى فى سورة القيامة أيضا ، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة **﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾** أى يسبقه فيفوته ، ولكن يعاقبه. ويجىء كل واحد منهما وقته ولا يسبق صاحبه ، وقيل : المراد من الليل والنهار : آيتاهما ، وهما الشمس والقمر ، فيكون عكس قوله : **﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ﴾** أى ولا القمر سابق الشمس ، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر **﴿ وكلّ فى فلك يسبحون ﴾** التنوين فى كلّ عوض عن المضاف إليه ، وكل واحد منهما ، والفلك : هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة ، والخلاف فى كون السماء مبسوطة أو مستديرة معروف ، والسبح : السير بانبساط وسهولة ، والجمع فى قوله :**﴿ يسبحون ﴾** باعتبار اختلاف مطالعهما ، فكأنهما متعدّدان بتعدّدها أو المراد: الشمس والقمر والكواكب .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : **﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾** الآية يقول: ما كابدناهم بالجموع ، أى الأمر أيسر علينا من ذلك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ياحسرة على العباد ﴾** يقول : ياويلا للعباد . وأخرج ابن أبى حاتم ، عنه فى قوله : **﴿ ياحسرة على العباد ﴾** قال : الندامة على العباد الذين **﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾** يقول : الندامة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله :**﴿ وما عملته أيديهم ﴾** قال : وجدوه معمولا لم تعمله أيديهم ، يعنى الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباهها **﴿ أفلا يشكرون ﴾** لهذا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله:**﴿والشمس تجرى لمستقرّ لها ﴾** قال : « مستقرّها تحت العرش » [١]، وفى لفظ للبخارى وغيره من حديثه قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس فقال : « يا أبا ذرّ أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٣) ، ومسلم فى الإيمان (١٥٩/ ٢٥١) .

ورسوله أعلم ، قال : «إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله: ﴿ والشمس تجرى لمستقرّ لها ﴾ » [١] . وفى لفظ من حديثه أيضا عند أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم قال : «يا أبا ذرّ ، أتدرى أين تذهب هذه ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها فتستأذن فى الرجوع فيأذن لها ، وكأنها قد قيل لها : اطلعى من حيث جئت ، فتطلع من مغربها » . ثم قرأ : « ذلك مستقر لها » قال : وذلك قراءة عبد الله [٢] . وأخرج الترمذى والنسائى وغيرهما من قول ابن عمر نحوه .

وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ الآية قال : هى ثمانية وعشرون منزلا ينزلها القمر فى كلّ شهر : أربعة عشر منها شامية ، وأربعة عشر منها يمانية ، أولها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والدبرة والصرفة والعوّاء والسماك . وهو آخر الشامية ، والغفر والزبانا والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية ومقدّم الدلو ومؤخر الدلو والحوت ، وهو آخر اليمانية ، فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلا ﴿عاد كالعرجون القديم ﴾ كما كان فى أوّل الشهر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ كالعرجون القديم ﴾ يعنى : أصل العذق العتيق .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

---

(١) أحمد ٥/ ١٥٢ والبخارى فى التفسير (٤٨٠٢) ومسلم فى الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أحمد ٥/ ١٤٥ والترمذى فى الفتن (٢١٨٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٥٠) .

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعا آخر مما امتنّ به على عباده من النعم فقال : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم فى الفلك المشحون** ﴾ أى دلالة وعلامة ، وقيل : معنى ﴿ **آية** ﴾ هنا : العبرة ، وقيل : النعمة ، وقيل : النذارة .

وقد اختلف فى معنى ﴿ **أنا حملنا ذرياتهم** ﴾ إلى من يرجع الضمير ، لأن الضمير الأوّل وهو قوله :﴿ **وآية لهم** ﴾ لأهل مكة ، أو لكفار العرب ، أو للكفار على الإطلاق الكائنين فى عصر محمد ﷺ ، فقيل : الضمير يرجع إلى القرون الماضية ، والمعنى : أن الله حمل ذرّية القرون الماضية فى الفلك المشحون ، فالضميران مختلفان . وهذا حكاه النحاس عن علىّ بن سليمان الأخفش . وقيل : الضميران لكفار مكة ونحوهم . والمعنى : أن الله حمل ذرّياتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك ، فامتنّ الله عليهم بذلك ، أى إنهم يحملونهم معهم فى السفن إذا سافروا ، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل : الذرّية : الآباء والأجداد ، والفلك : هو سفينة نوح ، أى إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم فى سفينة نوح . قال الواحدى : والذرّية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد . قال أبو عثمان : وسمى الآباء ذرية، لأن منهم ذرء الأبناء . وقيل : الذرية : النطف الكائنة فى بطون النساء ، وشبه البطون بالفلك المشحون ، والراجح: القول الثانى ثم الأوّل ثم الثالث ، وأما الرابع ففى غاية البعد والنكارة . وقد تقدّم الكلام فى الذرية واشتقاقها فى سورة البقرة مستوفى ، والمشحون : المملوء الموقر، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدّم فى يونس ، وارتفاع آية على أنها خبر مقدّم ، والمبتدأ : ﴿ **أنا حملنا** ﴾ أوالعكس على ما قدّمنا وقيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ **وآية لهم** ﴾ يرجع إلى العباد المذكورين فى قوله : ﴿ ياحسرة على العباد ﴾ [يس: ٣٠] لأنه قال بعد ذلك: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾[يس:٣٣] وقال : ﴿ وآية لهم الليل ﴾[يس : ٣٧] ثم قال : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم** ﴾ فكأنه قال : وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين : البعض منهم ، وبالضمير الآخر: البعض الآخر ، وهذا قول حسن .

﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ أى وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هى الموصولة . قال مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير : وهى الإبل خلقها لهم للركوب فى البرّ، مثل السفن المركوبة فى البحر، والعرب تسمى الإبل سفائن البرّ . وقيل : المعنى : وخلقنا لهم سفنا أمثال تلك السفن يركبونها ، قاله الحسن والضحاك وأبو مالك . قال النحاس: وهذا أصحّ لأنه تتصل الإسناد عن ابن عباس . وقيل : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح : ﴿ **وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون** ﴾ هذا من تمام الآية التى امتنّ الله بها عليهم ، ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم فى لجج البحار مع قدرته على ذلك ، والضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية، أو إلى الذرية ، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، والصريخ بمعنى المصرخ ، والمصرخ هو المغيث ، أى فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم ، وقيل : هو

المنعة . ومعنى ﴿ ينقذون ﴾ : يخلصون ، يقال : أنقذه واستنقذه: إذا خلصه من مكروه ﴿ إلا رحمة منا ﴾ استثناء من أعمّ العلل ، أى لا صريخ لهم ولاينقذون لشىء من الأشياء إلا رحمة منا ، كذا قال الكسائى والزجاج وغيرهما ، وقيل : هو استثناء منقطع ، أى لكن لرحمة منا . وقيل : هو منصوب على المصدرية بفعل مقدر﴿ و ﴾ انتصاب ﴿ متاعا ﴾ على العطف على رحمة ، أى نمتعهم بالحياة الدنيا ﴿ إلى حين ﴾ وهو الموت ، قاله قتادة. وقال يحيى بن سلام : إلى القيامة .

﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ أى ما بين أيديكم من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم ، وما خلفكم منها . قال قتادة: معنى ﴿ اتقوا ما بين أيديكم ﴾ أى من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ﴿ وما خلفكم ﴾ فى الآخرة . وقال سعيد بن جبير ومجاهد: ﴿ ما بين أيديكم ﴾ : ما مضى من الذنوب﴿ وما خلفكم ﴾ : ما بقى منها . وقيل : ﴿ ما بين أيديكم ﴾ : الدنيا ﴿ وما خلفكم ﴾ : الآخرة ، قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبى عن ابن عباس . وقيل : ﴿ ما بين أيديكم ﴾ ما ظهر لكم ﴿ وما خلفكم ﴾ : ما خفى عنكم ، وجواب إذا محذوف ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك ، أعرضوا كما يدلّ عليه ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾، ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أى : رجاء أن ترحموا ، أو كى ترحموا ، أو راجين أن ترحموا ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ « ما » هى النافية ، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ، ومن الأولى مزيدة للتوكيد والثانية للتبعيض ، والمعنى : ما تأتيهم من آية دالة على نبوّة محمد ﷺ ، وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد فى حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين . وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية ، وجملة : ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ فى محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره فى غير موضع . والمراد بالإعراض : عدم الالتفات إليها ، وترك النظر الصحيح فيها : وهذه الآية متعلقة بقوله : ﴿ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أى إذا جاءتهم الرسل كذّبوا، وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها .

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أى تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم الله ، وأنعم به عليكم من الأموال ، قال الحسن : يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقال مقاتل : إن المؤمنين قالوا لكفار قريش : أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما فى قوله سبحانه: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ﴾ [الأنعام:١٣٦] فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم: ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أى من لو يشاء الله رزقه ، وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون : إن الرزّاق هو الله ، وأنه يغنى من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين وقالوا :نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله ، وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل ؛ فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا . وأمر

الغنىّ أن يطعم الفقير وابتلاء به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقولهم :﴿ **من لو يشاء الله أطعمه** ﴾ هو وإن كان كلاما صحيحا فى نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، أو إنكار جواز الأمر بالاتفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا . وقوله :﴿ **إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ من تمام كلام الكفار . والمعنى : إنكم أيها المسلمون فى سؤال المال وأمرنا بإطعام الفقراء لفى ضلال فى غاية الوضوح والظهور : وقيل : هو من كلام الله سبحانه جوابا على هذه المقالة التى قالها الكفار . وقال القشيرى والماوردى : إن الآية نزلت فى قوم من الزنادقة. وقد كان فى كفار قريش وغيرهم من سائر العرب قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين ومناقضة لهم . وحكى نحو هذا القرطبى عن ابن عباس .

﴿ **ويقولون متى هذا الوعد** ﴾ الذى تعدونا به من العذاب والقيامة ، والمصير إلى الجنة أو النار .﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تقولونه وتعدونا به . قالوا ذلك استهزاء منهم وسخرية بالمؤمنين . ومقصودهم إنكار ذلك بالمرّة ، ونفى تحققه وجحد وقوعه ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة** ﴾ أى ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهى نفخة إسرافيل فى الصور ﴿ **تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ أى يختصمون فى ذات بينهم فى البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا ، وهذه هى النفخة الأولى ، وهى نفخة الصعق . وقد اختلف القراء فى ﴿ **يخصمون** ﴾ فقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم ، والمعنى : يخصم بعضهم بعضا ، فالمفعول محذوف . وقرأ أبو عمرو وقالون بإخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد ، وقرأ نافع وابن كثير وهشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء ، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد . والأصل فى القراءات الثلاث يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد ، فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحة التاء إلى الساكن قبلها نقلا كاملا ، وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتها تنبيها على أن الخاء أصلها السكون ، والباقون حذفوا حركتها ، فالتقى ساكنان فكسروا أوّلهما . وروى عن أبى عمرو وقالون أنهما قرءا بتسكين الخاء وتشديد الصاد وهى قراءة مشكلة لاجتماع ساكنين فيها . وقرأ أبىّ : « يختصمون » على ما هو الأصل .

﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى إلى بعض بماله وما عليه ، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصى ، بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم ﴿ **ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ أى إلى منازلهم التى ماتوا خارجين عنها . وقيل : المعنى : لا يرجعون إلى أهلهم قولا ، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى . ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال : ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ وهى النفخة التى يبعثون بها من قبورهم ، ولهذا قال : ﴿ **فإذا هم من الأجداث** ﴾ أى القبور ﴿ **إلى ربهم ينسلون** ﴾ أى يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة . وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى حيث قال : ﴿ **ونفخ** ﴾ تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان ، وجعلوا هذه الآية مثالا له ، والصور بإسكان الواو : هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، كما وردت بذلك السنة ، وإطلاق هذا الاسم على القرن

معروف فى لغة العرب ، ومنه قول الشاعر :

نحن نطحناهم غداة الغورين نطحا شديدا لا كنطح الصورين

أى القرنين . وقد مضى هذا مستوفى فى سورة الأنعام. وقال قتادة : الصور جمع صورة ، أى نفخ فى الصور الأرواح ، والأجداث جمع جدث وهو القبر . وقرئ : « الأجداف » بالفاء وهى لغة ، واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة والنسل والنسلان : الإسراع فى السير ، يقال : نسل ينسل كضرب يضرب ، ويقال : ينسل بالضم ، ومنه قول امرئ القيس :

فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقول الآخر :

عسلان الذيب أمسى قارنا بــرد الـليــل عليــه فنســل

﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ أى قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة : ياويلنا نادوا ويلهم كأنهم قالوا له : احضر فهذا أوان حضورك ، وهؤلاء القائلون هم الكفار . قال ابن الأنبارى : الوقف على ﴿ ياويلنا ﴾ وقف حسن . ثم يبتدئ الكلام بقوله : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول ، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياما. قرأ الجمهور : ﴿ ياويلنا ﴾ وقرأ ابن أبى ليلى: « ياويلتنا » بزيادة التاء . وقرأ الجمهور: ﴿ من بعثنا ﴾ بفتح ميم « من » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ ، ورويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب وعلى هذه القراءة تكون « من » متعلقة بالويل ، وقرأ الجمهور : ﴿ من بعثنا ﴾ . وفى قراءة أبىّ : « من أهبنا » من هب نومه : إذا انتبه ، وأنشد ثعلب على هذه القراءة :

وعاذلة هبـت بليل تلومنى ولم يعتمدنى قبل ذاك عذول

وقيل : إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم . وقال أبو صالح : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية ، وجملة : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة ، أو من جهة المؤمنين . وقيل : هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض . قال بالأوّل الفراء ، وبالثانى مجاهد . وقال قتادة: هى من قول الله سبحانه ، و« ما » في قوله : ﴿ ما وعد الرحمن ﴾ موصولة وعائدها محذوف والمعنى : هذا الذى وعده الرحمن ، وصدق فيه المرسلون قد حق عليكم ونزل بكم . ومفعولا الوعد والصدق محذوفان ، أى وعدكموه الرحمن وصدقكموه المرسلون ، والأصل وعدكم به وصدقكم فيه ، أو وعدناه الرحمن وصدقناه المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين ، أو من قول الكفار . ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أى ما كانت تلك النفخة المذكورة إلاصيحة واحدة صاحها إسرافيل بنفخه فى الصور ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ أى فإذا هم مجموعون

محضرون لدينا بسرعة للحساب والعقاب . ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس** ﴾ من النفوس ﴿ **شيئا** ﴾ مما تستحقه ، أي لا ينقص من ثواب عملها شيء من النقص ، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿ **ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا ، أو إلا بما كنتم تعملونه ، أي بسببه ، أو في مقابلته .

وقد أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿ **أنا حملنا ذرياتهم** ﴾ الآية قال : في سفينة نوح حمل فيها من كلّ زوجين اثنين ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ قال : السفن التي في البحر والأنهار التي يركب الناس فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ قال : هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : يعني الإبل خلقها الله كما رأيت ، فهي سفن البرّ يحملون عليها ويركبونها . ومثله عن الحسن وعكرمة وعبد الله بن شدّاد ومجاهد .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة في قوله : ﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ الآية قال : تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن المنذر عن الزبير بن العوّام قال : إن الساعة تقوم والرجل يذرع [(١)] الثوب والرجل يحلب الناقة ، ثم قرأ: ﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ الآية. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » [(٢)] . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ **من بعثنا من مرقدنا** ﴾ قال : ينامون قبل البعث نومة .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ

---

(١) ذرع الثوب وغيره يذرعه ذرعا : قدره بالذّراع . اللسان ٨/ ٩٤ .

(٢) أحمد ٢/ ٥٣٠ والبخاري في الفتن (٧١٢١) ومسلم في الفتن (٢٩٥٤/ ١٤٠) .

﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

لما ذكر الله سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين ، وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم وتكميلا لجزعهم ، وتتميما لما نزل بهم من البلاء وما شاهدوه من الشقاء ، فإذا رأوا ما أعدّه الله لهم من أنواع العذاب ، وما أعدّه لأوليائه من أنواع النعيم ، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغا عظيما ، وزاد فى ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها . والمعنى : ﴿إن أصحاب الجنة﴾ فى ذلك ﴿ اليوم فى شغل ﴾ بما هم فيه من اللذات ، التى هى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، عن الاهتمام بأمر الكفار ومصيرهم إلى النار وإن كانوا من قراباتهم . والأولى عدم تخصيص الشغل بشىء معين . وقال قتادة ومجاهد: شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى . وقال وكيع : شغلهم بالسماع ، وقال ابن كيسان : بزيارة بعضهم بعضا . وقيل : شغلهم كونهم ذلك اليوم فى ضيافة الله . قرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ شغل ﴾ بضمتين . وقرأ الباقون بضم الشين وسكون الغين ، وهما لغتان كما قال الفراء . وقرأ مجاهد وأبو السماك بفتحتين . وقرأ النحوى وابن هبيرة بفتح الشين وسكون الغين . وقرأ الجمهور : ﴿ فاكهون ﴾ بالرفع على أنه خبر أن ، و ﴿ فى شغل ﴾ متعلق به، أو محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر إنّ و﴿فاكهون ﴾ خبر ثان. وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف: « فاكهين » بالنصب على أنه حال ، ﴿ وفى شغل ﴾ هو الخبر . وقرأ الحسن وأبو جعفر وأبو حيوة وأبو رجاء وشيبة وقتادة ومجاهد: « فكهون » قال الفراء : هما لغتان كالفاره والفره ، والحاذر والحذر . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكه : ذو الفاكهة مثل تامر ولابن ، والفكه : المتفكه والمتنعم . وقال قتادة : الفكهون: المعجبون. وقال أبو زيد : يقال رجل فكه : إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقال مجاهد والضحاك كما قال قتادة ، وقال السدّى كما قال الكسائى .

﴿ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم سرورا وبهجة من أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك ، فالضمير وهو ﴿ هم ﴾ مبتدأ ﴿ وأزواجهم ﴾ معطوف عليه والخبر: ﴿ متكئون﴾، ويجوز أن يكون هم تأكيدا للضمير فى ﴿ فاكهون ﴾ وأزواجهم معطوف على ذلك الضمير ،

وارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، و﴿ **فى ظلال** ﴾ متعلق به أو حال ، وكذا على الأرائك . وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ **فى ظلال** ﴾ هو الخبر و ﴿ **على الأرائك** ﴾ مستأنف . قرأ الجمهور :﴿ **فى ظلال** ﴾ بكسر الظاء و بالألف وهو جمع ظلّ . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف « فى ظلل » بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة ، وعلى القراءتين فالمراد : الفرش والستور التى تظللهم كالخيام والحجال ، والأرائك جمع أريكة ، كسفائن جمع سفينة ، والمراد بها : السرر التى فى الحجال . قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريرا فى قبة . وقال مقاتل : إن المراد بالظلال أكنان القصور .

وجملة ﴿ **لهم فيها فاكهة** ﴾ مبينة لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ونحوها . والمراد : فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ **ولهم ما يدّعون** ﴾ « ما » هذه هى الموصولة والعائد محذوف ، أوموصوفة أو مصدرية ، و﴿ **يدّعون** ﴾ مضارع ادّعى . قال أبو عبيدة : يدّعون : يتمنون ، والعرب تقول : ادع على ما شئت. أى تمنّ ، وفلان فى خير ما يدّعى ، أى ما يتمنى . وقال الزجاج: هو من الدعاء ، أى ما يدّعونه أهل الجنة يأتيهم ، من دعوت غلامى ، فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحل . وقيل : افتعل بمعنى تفاعل ، أى ما يتداعونه كقولهم ارتموا وتراموا . وقيل : المعنى : إن ادّعى منهم شيئا فهو له؛ لأن الله قد طبعهم على الا يدّعى أحد منهم شيئا إلا وهو يحسن ويجمل به أن يدّعيه ، « وما » مبتدأ وخبرها ﴿ **لهم** ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها . وقرئ : « يدعون» بالتخفيف ومعناها واضح . قال ابن الأنبارى : والوقف على يدعون وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿**سلام** ﴾ على معنى لهم سلام ، وقيل : إن سلام هو خبر « ما » أى مسلم خالص أو ذو سلامة. وقال الزجاج :سلام مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلم الله عليهم ، وهذا منى أهل الجنة ، والأولى أن يحمل قوله : ﴿ **ولهم ما يدّعون** ﴾ على العموم ، وهذا السلام يدخل تحته دخولا أوليا ، ولا وجه لقصره على نوع خاص ، وإن كان أشرف أنواعه تحقيقا لمعنى العموم ، ورعاية لما يقتضيه النظم القرآنى . وقيل : إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى سلام يقال لهم ﴿ **قولا** ﴾ وقيل : إن سلام مبتدأ . وخبره الناصب لـ﴿**قولا**﴾، أى سلام يقال لهم قولا . وقيل : خبره من ربّ العالمين . وقيل : التقدير : سلام ، هذا على قرآءة الجمهور، وقرأ أبىّ وابن مسعود وعيسى : « سلاما » بالنصب إما على المصدرية أو على الحالية بمعنى خالصا ، والسلام إما من التحية أو من السلامة . وقرأ محمد بن كعب القرظى : « سلم » كأنه قال : سلم لهم لا يتنازعون فيه. وانتصاب ﴿ **قولا** ﴾ على المصدرية بفعل محذوف ، على معنى : قال الله لهم ذلك قولا ، أو يقوله لهم قولا ، أويقال لهم قولا ﴿ **من رب رحيم** ﴾ أى من جهته . قيل : يرسل الله سبحانه إليهم بالسلام . وقال مقاتل : إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون : سلام عليكم يا أهل الجنة من ربّ رحيم.

﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين أى ويقال

للمجرمين : امتازوا أى انعزلوا ، من مازه غيره ، يقال : مزت الشيء من الشيء : إذا عزلته عنه ونحيته . قال مقاتل : معناه : اعتزلوا اليوم ـ يعنى فى الآخرة ـ من الصالحين . وقال السدّى : كونوا على حدة . وقال الزجاج : انفردوا عن المؤمنين . وقال قتادة : عزلوا عن كل خير . وقال الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة . والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة . وقال داود بن الجراح : يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين .

ثم وبخهم الله سبحانه وقرعهم بقوله: ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان** ﴾ وهذا من جملة ما يقال لهم . والعهد : الوصية ، أى ألم أوصكم وأبلغكم على ألسن رسلى أن لا تعبدوا الشيطان ، أى لا تطيعوه . قال الزجاج: المعنى : ألم أتقدّم إليكم على لسان الرسل يا بنى آدم . وقال مقاتل : يعنى الذين أمروا بالاعتزال . قال الكسائى : لا للنهى . وقيل : المراد بالعهد هنا : الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم . وقيل : هو ما نصبه الله لهم من الدلائل العقلية التى فى سمواته وأرضه . وجملة : ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ تعليل لما قبلها من النهى عن طاعة الشيطان وقبول وسوسته ، وجملة : ﴿ **وأن اعبدونى** ﴾ عطف على ﴿ **أن لا تعبدوا** ﴾ ، وأن فى الموضعين هى المفسرة للعهد الذى فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما ، أى لم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا ، بأن اعبدونى ، أو ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى . ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى عبادة الله وتوحيده . أو الإشارة إلى دين الإسلام .

ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبنى آدم فقال : ﴿ **ولقد أضل منكم جبلا كثيرا** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة للتقريع والتوبيخ ، أى والله لقد أضلّ إلخ . وقرأ نافع وعاصم : ﴿ **جبلا** ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الباء ، وقرأ الباقون بضمتين مع تخفيف اللام ، وقرأ ابن أبى إسحاق والزهرى وابن هرمز بضمتين مع تشديد اللام ، وكذلك قرأ الحسن وعيسى بن عمر والنضر بن أنس ، وقرأ أبو يحيى وحماد بن سلمة والأشهب العقيلى بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام . قال النحاس : وأبينها القراءة الأولى . والدليل على ذلك أنهم قد قرؤوا جميعا: ﴿ **والجبلة الأولين** ﴾ [الشعراء : ١٨٤] بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، فيكون جبلا جمع جبلة ، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق ، أى خلقهم ، ومعنى الآية : أن الشيطان قد أغوى خلقا كثيرا كما قال مجاهد . وقال قتادة : جموعا كثيرة ، وقال الكلبى : أمما كثيرة . قال الثعلبى : والقراءات كلها بمعنى الخلق ، وقرئ : « جيلا » بالجيم والياء التحتية . قال الضحاك : الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما يحصيه إلا الله عزّ وجلّ ، ورويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب، والهمزة فى قوله: ﴿ **أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام كما تقدّم فى نظائره ، أى أتشاهدون آثار العقوبات ؟ أفلم تكونوا تعقلون ؟

أو أفلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم ؟ أوأفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا ؟ قرأ الجمهور : ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ بالخطاب ، وقرأ طلحة وعيسى بالغيبة .

﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ أى ويقال لهم عند أن يدنوا من النار : هذه جهنم التى كنتم توعدون بها فى الدنيا على ألسنة الرسل ، والقائل لهم الملائكة . ثم يقولون لهم : ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ أى قاسوا حرّها اليوم وادخلوها وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون ، أى بسبب كفركم بالله فى الدنيا وطاعتكم للشيطان وعبادتكم للأوثان ، وهذا الأمر أمر تنكيل وإهانة كقوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩] .و﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ اليوم ظرف لما بعده ، وقرئ : « يختم » على البناء للمفعول ، والنائب الجار والمجرور بعده . قال المفسرون : إنهم ينكرون الشرك وتكذيب الرسل كما فى قولهم : ﴿والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] . فيختم الله على أفواههم ختما لا يقدرون معه على الكلام ، وفى هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم ، ثم قال : ﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ أى تكلمت أيديهم بما كانوا يفعلونه ، وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون . قرأ الجمهور : ﴿تكلمنا ﴾ و﴿ تشهد ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف : «ولتكلمنا » ، « ولتشهد » بلام كى . وقيل: سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف . وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم ؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ فى الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز . وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعوانا لهم فى معاصى الله صارت شهودا عليهم ، وجعل ما تنطق به الأيدى كلاما وإقرارا؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى ، وجعل نطق الأرجل شهادة ؛ لأنها حاضرة عند كل معصية . وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر شهادة ، وهذا اعتبار بالغالب ، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدى مباشرة لها .

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ أى أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن . قال الكسائى : طمس يطمس ويطمس والمطموس والطميس عند أهل اللغة الذى ليس فى عينيه شق كما فى قوله :﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . مفعول المشيئة محذوف ، أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا . قال السدّى والحسن : المعنى : لتركناهم عميا يتردّدون لا يبصرون طريق الهدى ، واختار هذا ابن جرير ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على ﴿ لطمسنا ﴾ أى تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ويمضوا فيه ، والصراط منصوب بنزع الخافض ، أى فاستبقوا إليه . وقال عطاء ومقاتل وقتادة : المعنى : لو نشاء لفقأنا أعينهم وأعميناهم عن غيهم . وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ، فأبصروا رشدهم ، واهتدوا وتبادروا إلى طريق الآخرة . ومعنى ﴿ فأنى يبصرون ﴾ أى كيف يبصرون الطريق ويحسنون سلوكه ولا أبصار لهم ؟ وقرأ عيسى بن عمر: «فاستبقوا » على صيغة الأمر ،

أى فيقال لهم : استبقوا . وفى هذا تهديد لهم .

ثم كرّر التهديد لهم فقال : ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم** ﴾ المسخ : تبديل الخلقة إلى حجر أوغيره من الجماد أو بهيمة ، والمكانة : المكان ، أى لو شئنا لبدّلنا خلقهم على المكان الذى هم فيه . قيل : والمكانة: أخص من المكان كالمقامة والمقام . قال الحسن : أى لأقعدناهم ﴿ **فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون** ﴾ أى لا يقدرون على ذهاب ولا مجىء . قال الحسن : فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم . وكذلك الجماد لا يتقدّم ولا يتأخر . وقيل : المعنى : لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم . وقيل : لمسخناهم فى المكان الذى فعلوا فيه المعصية. وقال يحيى بن سلام : هذا كله يوم القيامة. قرأ الجمهور:﴿ **على مكانتهم** ﴾ بالإفراد . وقرأ الحسن والسلمى وزرّ بن حبيش وأبو بكر عن عاصم: « مكاناتهم» بالجمع. وقرأ الجمهور : ﴿ **مضيا** ﴾ بضم الميم ، وقرأ حيوة :« مضيا » بفتحها ، وروى عنه أنه قرأ بكسرها ورويت هذه القراءة عن الكسائى . وقيل المعنى : ولا يستطيعون رجوعا . فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة ، يقال : مضى يمضى مضيا : إذا ذهب فى الأرض، ورجع يرجع رجوعا : إذا عاد من حيث جاء .

﴿ **ومن نعمره ننكسه فى الخلق** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ننكسه** ﴾ بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففة. وقرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشدّدة . والمعنى : من نطل عمره نغير خلقه ، ونجعله على عكس ما كان عليه أولا من القوّة والطراوة . قال الزجاج : المعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه ، فصار بدل القوّة الضعف ، وبدل الشباب الهرم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾ [الحج : ٥] ، وقوله: ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ [التين : ٥] . ومعنى: ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث والنشور . قرأ الجمهور: « يعقلون » بالتحتية . وقرأ نافع وابن ذكوان بالفوقية على الخطاب .

ولما قال كفار مكة : إن القرآن شعر ، وإن محمدا شاعر ، ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **وما علمناه الشعر** ﴾ والمعنى : نفى كون القرآن شعرا ، ثم نفى أن يكون النبىّ شاعرًا ، فقال : ﴿**وما ينبغى له** ﴾ أى لا يصح له الشعر ولا يتأتى منه ولا يسهل عليه لو طلبه وأراد أن يقوله ، بل كان ﷺ إذا أراد أن ينشد بيتا قد قاله شاعر متمثلا به كسر وزنه ، فإنه لما أنشد بيت طرفة ابن العبد المشهور ، وهو قوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ⁂ ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال : ويأتيك من لم تزوّده بالأخبار ، وأنشد مرّة أخرى قول العباس بن مرداس السلمى:

أتجعل نهبى ونهب العبيـ ⁂ ـد بين عيينة والأقرع

فقال : بين الأقرع وعيينة ، وأنشد أيضا :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر : يارسول الله ، إنما قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** ﴾ وقد وقع منه ﷺ كثير من مثل هذا . قال الخليل : كان الشعر أحبّ إلى رسول ﷺ من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى منه. انتهى . ووجه عدم تعليمه الشعر وعدم قدرته عليه : التكميل للحجة والدحض للشبهة ، كما جعله الله أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأما ما روى عنه من قوله ﷺ :

هـل أنت إلا أصبع دميت ... وفى سبيل الله ما لقيت (١)

وقوله :

أنـــا النبى لا كـــذب ... أنـــا ابن عبد المطلب (٢)

ونحو ذلك ، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتى فى بعض آيات القرآن ، وليس بشعر ولا مراد به الشعر ، بل اتفق ذلك اتفاقا كما يقع فى كثير من كلام الناس ، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره لكان على وزن الشعر ولا يعدّونه شعرا، وذلك كقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وقوله: ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ [سبأ:١٣] على أنه قد قال الأخفش إن قوله: « أنا النبيّ لا كذب » ليس بشعر ، وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . قال ابن العربى : والأظهر من حاله أنه قال : لا كذبُ برفع الباء من كذب ، وبخفضها من عبد المطلب. قال النحاس : قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا ؛ لأنه إذا فتح الباء من الأوّل أو ضمها أو نوّنها وكسر الباء من الثانى خرج عن وزن الشعر . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **له** ﴾ عائد إلى القرآن أى وما ينبغى للقرآن أن يكون شعرا ﴿ **إن هو إلا ذكر** ﴾ أى ما القرآن إلا ذكر من الأذكار وموعظة من المواعظ ﴿ **وقرآن مبين** ﴾ أى كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية . ﴿ **لينذر من كان حيا** ﴾ أى لينذر القرآن من كان حيا ، أى قلبه صحيح يقبل الحق ويأبى الباطل،أو لينذر الرسول من كان حيا . قرأ الجمهور بالياء التحتية. وقرأ نافع وابن عامر بالفوقية ، فعلى القراءة الأولى المراد : القرآن، وعلى الثانية المراد: النبيّ ﷺ . ﴿ **ويحق القول على الكافرين** ﴾ أى وتجب كلمة العذاب على

(١) أحمد ٣١٢/٤ والبخارى فى الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦ / ١١٢) .
(٢) البخارى فى المغازى (٤٣١٧) .

المصرّين على الكفر المتنعين من الإيمان بالله وبرسله .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فى شغل فاكهون** ﴾ قال : فى افتضاض الأبكار . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال : شغلهم : افتضاض العذارى . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وقتادة مثله . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن ابن عمر قال : إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء. وقد روى نحوه مرفوعا عن أبى سعيد مرفوعا عند الطبرانى فى الصغير ، وأبى الشيخ فى العظمة. وروى أيضا نحوه عن أبى هريرة مرفوعا عند الضياء المقدسى فى صفة الجنة. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فى شغل فاكهون** ﴾ قال : ضرب الأوتار . قال أبو حاتم : هذا لعله خطأ من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **فاكهون** ﴾ : فرحون . وأخرج ابن ماجة ، وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، والبزار وابن أبى حاتم ، والآجرّى فى الرؤية ، وابن مردويه عن جابر قال : قال النبىّ ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله : ﴿**سلام قولا من ربّ رحيم** ﴾ قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم » (١) . قال ابن كثير : فى إسناده نظر (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله هو يسلم عليهم .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائى والبزار ، وابن أبى الدنيا فى التوبة واللفظ له ، وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أنس فى قوله : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم** ﴾ قال : كنا عند النبىّ ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : « أتدرون مما ضحكت؟ » قلنا : لا يارسول الله ، قال : « من مخاطبة العبد ربه يقول : ياربّ ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إنى لا أجيز علىّ إلا شاهدا منى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه . ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل » (٣) . وأخرج مسلم والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربه فيقول الله: أى فُلْ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل

(١) ابن ماجة فى المقدمة (١٨٤) وفى الزوائد : « فيه عبد الله بن عبيد الله أبو عاصم العبادانى منكر الحديث ، والفضل كاد أن يغلب على حديثه الوهم » .

(٢) ابن كثير ٥/ ٦٢٠ .

(٣) مسلم فى الزهد (٢٩٦٩/ ١٧) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٤٦ .

وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى أى رب فيقول : أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول: لا، فيقول : إنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدّقت ويثنى بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك ، فيفكر فى نفسه من الذى يشهد علىّ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان وذلك ليعذر من نفسه ،وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط عليه»(١). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث أبى موسى نحوه(٢).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ قال : أعميناهم وأضللناهم عن الهدى ﴿فأنى يبصرون ﴾ فكيف يهتدون ؟ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ولو نشاء لمسخناهم ﴾ قال : أهلكناهم ﴿ على مكانتهم ﴾ قال: فى مساكنهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : بلغنى أنه قيل لعائشة : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس فيجعل أوّله آخره يقول : « ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار » ، فقال أبو بكر : ليس هكذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » (٣) وهذا يردّ ما نقلناه عن الخليل سابقا أن الشعر كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد (٤)

وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد (٥).

وأخرج البيهقى فى سننه عن عائشة قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتا واحدا :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما ... يقال لشىء : كان ، إلا تحقق

قالت عائشة : ولم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعرا (٦) ، وإسناده هكذا : قال :

---

(١) مسلم فى الزهد (٢٩٦٨ / ١٦) وأبو داود فى السنة (٤٧٣٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٤٥ .
(٢) ابن جرير ٢٣/ ١٧ .
(٣) ابن جرير ٢٣/ ١٩ .
(٤) أحمد ٦/ ٣١ .
(٥) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٠٦٥) .
(٦) البيهقى ٧/ ٤٣ وقال : « فى إسناده مجهولون ».

أخبرنا أبو عبيد الله الحافظ : يعنى الحاكم حدّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم حدّثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير حدّثنا على بن عمرو الأنصارى حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره . وقد سئل المزّى عن هذا الحديث فقال : هو منكر ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾.

ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة ، وإنعامه على عبيده وجحد الكفار لنعمه فقال : **﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ﴾** والهمزة للإنكار والتعجيب من حالهم ، والواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره ، والرؤية هى القلبية، أى أو لم يعلموا بالتفكر والاعتبار **﴿أنا خلقنا لهم ﴾** أى لأجلهم **﴿ مما عملت أيدينا ﴾** أى مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة، وإسناد العمل إلى الأيدى مبالغة فى الاختصاص والتفرّد بالخلق كما يقول الواحد منا : عملته بيدى للدلالة على تفرّده بعمله ، « وما » بمعنى : الذى ، وحذف العائد لطول الصلة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، والأنعام :جمع نعم وهى البقر والغنم والإبل ، وقد سبق تحقيق الكلام فيها . ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال : **﴿ فهم لها مالكون ﴾**أى ضابطون قاهرون يتصرفون بها كيف شاؤوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدروا على ضبطها، ويجوز أن يكون المراد : أنها صارت فى أملاكهم ومعدودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك .

﴿ وذللناها لهم ﴾ أى جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح ، ويقودها الصبىّ فتنقاد له ويزجرها فتنزجر ، والفاء فى قوله : **﴿ فمنها ركوبهم ﴾** لتفريع أحكام التذليل عليه ، أى فمنها مركوبهم الذى يركبونه كما يقال ناقة حلوب ، أى

محلوبة . قرأ الجمهور : ﴿ **ركوبهم** ﴾ بفتح الراء . وقرأ الأعمش والحسن وابن السميفع بضم الراء على المصدر. وقرأ أبيّ وعائشة : « ركوبتهم » والركوب والركوبة واحد ، مثل الحلوب والحلوبة والحمول والحمولة . وقال أبو عبيدة : الركوبة تكون للواحدة والجماعة ، والركوب لا يكون إلا للجماعة . وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز فمنها ركوبهم بضم الراء ؛ لأنه مصدر ، والركوب ما يركب ، وأجاز ذلك الفراء كما يقال : فمنها أكلهم ومنها شربهم ، ومعنى ﴿**ومنها يأكلون** ﴾ : ما يأكلونه من لحمها ، و « من » للتبعيض ﴿ **ولهم فيها منافع** ﴾ أى لهم فى الأنعام منافع غير الركوب لها والأكل منها وهى ما ينتفعون به من أصوافها وأوبارها وأشعارها وما يتخذونه من الأدهان من شحومها ، وكذلك الحمل عليها والحراثة بها ﴿**ومشارب**﴾ أى ولهم فيها مشارب مما يحصل من ألبانها ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ الله على هذه النعم ويوحدونه ويخصونه بالعبادة ؟.

ثم ذكر سبحانه جهلهم واغترارهم ووضعهم كفران النعم مكان شكرها فقال : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ من الأصنام ونحوها يعبدونها ولا قدرة لها على شىء ولم يحصل لهم منها فائدة ، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة ﴿ **لعلهم ينصرون** ﴾ أى رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب أودهمهم أمر من الأمور . وجملة : ﴿ **لا يستطيعون نصرهم** ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها وأملوه من نفعها ، وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء، بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ أى والكفار جند للأصنام محضرون ، أى يحضرونهم فى الدنيا . قال الحسن : يمنعون منهم ويدفعون عنهم ، وقال قتادة : أى يغضبون لهم فى الدنيا . قال الزجاج : ينتصرون للأصنام وهى لا تستطيع نصرهم . وقيل : المعنى : يعبدون الآلهة ويقومون بها فهم لهم بمنزلة الجند . هذه الأقوال على جعل ضمير « هم » للمشركين وضمير « لهم » للآلهة . وقيل: ﴿ **وهم** ﴾ أى الآلهة ﴿**لهم** ﴾ أى للمشركين ﴿ **جند محضرون** ﴾ معهم فى النار فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيل : معناه : وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم فى جهنم لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون منهم . وقيل: المعنى: إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم.

ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ فقال : ﴿ **فلا يحزنك قولهم** ﴾ هذا القول هو ما يفيده قوله : ﴿**واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ فإنهم لابدّ أن يقولوا : هؤلاء آلهتنا وإنها شركاء لله فى المعبودية ونحو ذلك ، وهو نهى للرسول ﷺ عن التأثر بذلك . وقيل : إنه نهى لهم عن الأسباب التى تحزن رسول الله ﷺ ، وإن النهى لرسول الله ﷺ عن التأثر لما يصدر منهم هو من باب : « لا أرينك هاهنا » فإنه يراد به :نهى من خاطبه عن الحضور لديه . لا نهى نفسه عن الرؤية ، وهذا بعيد ، والأوّل أولى ، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا . ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور : هو قولهم : إنه ساحر وشاعر ومجنون ، وجملة : ﴿ **إنا نعلم ما**

يسرّون وما يعلنون ﴾ لتعليل ما تقدّم من النهى . فإن علمه سبحانه بما يظهرون ويضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك ، وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافيا أو باديا سرّا أو جهرا مظهرا أو مضمرا ، وتقديم السرّ على الجهر للمبالغة فى شمول علمه لجميع المعلومات .

وجملة : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم فى أنفسهم ، على هذه الصفة من البداية إلى النهاية ، مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردّها كما كانت ، والإنسان المذكور فى الآية المراد به : جنس الإنسان كما فى قوله : ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ [مريم : ٦٧] ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل: إنه عبد الله بن أبىّ ، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث ، وقال الحسن: هو أمية بن خلف . وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمى ، وقال قتادة ومجاهد : هو أبىّ بن خلف الجمحى . فإن أحد هؤلاء وإن كان سببا للنزول فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو ، لا إنسان معين ، ويدخل من كان سببا للنزول تحت جنس الإنسان دخولا أوّليا. والنطفة : هى اليسير من الماء ، وقد تقدّم تحقيق معناها ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ هذه الجملة معطوفه على الجملة المنفية قبلها داخلة معها فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام . و«إذا» هى الفجائية ، أى ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ، ففجأ خصومتنا فى أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه . والخصيم : الشديد الخصومة الكثير الجدال ، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه . وهكذا جملة : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقهُ ﴾ معطوفة على الجملة المنفية داخلة فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام ، فهى تكميل للتعجيب من حال الإنسان وبيان جهله بالحقائق ، وإهماله فى نفسه فضلا عن التفكر فى سائر مخلوقات الله ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ فإذا هو خصيم ﴾ معطوفة على خلقنا ، وهذه معطوفة عليها ، أى أورد فى شأننا قصة غريبة كالمثل وهى إنكاره أحيانا للعظام ، ونسى خلقه ، أى خلقنا إياه ، وهذه الجملة معطوفة على ضرب . أو فى محلّ نصب على الحال بتقدير قد .

وجملة : ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ استئناف جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل : ما هذا المثل الذى ضربه ؟ فقيل : قال : من يحيى العظام وهى رميم ، وهذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد ، فأنكر أن الله يحيى العظام البالية حيث لم يكن ذلك فى مقدور البشر . يقال : رمّ العظم يرم رما إذا بلى فهو رميم ورمام وإنما قال : ﴿ رميم ﴾ ولم يقل : « رميمة » مع كونه خبرا للمونث ؛ لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرمة والرفات . وقيل : لكونه معدولا عن فاعله وكل معدول عن وجهه يكون مصروفا عن إعرابه كما فى قوله : ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ [مريم : ٢٨] ؛ لأنه مصروف عن باغية ، كذا قال

البغوى والقرطبى وقال بالأول صاحب الكشاف والأولى أن يقال : إنه فعيل بمعنى فاعل أومفعول وهو يستوى فيه المذكر والمؤنث كما قيل فى جريح وصبور .

ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل فقال : ﴿ **قل يحيها الذى أنشأها أوّل مرّة** ﴾ أى ابتدأها وخلقها أوّل مرة من غير شىء ، ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿**وهو بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه خافية ولا يخرج عن علمه خارج كائنا ما كان . وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة ، وقال الشافعى : لاتحله الحياة ، وأن المراد بقوله : ﴿ **من يحيى العظام** ﴾ : من يحيى أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف . وردّ بأن هذا التقدير خلاف الظاهر . ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا** ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقدير ما تقدّم من دفع استبعادهم ، فنبه سبحانه على وحدانيته ودل على قدرته على إحياء الموات ، بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندى الرطب ، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران . وقيل : المرخ : هو الذكر ، والعفار: هو الأنثى ، ويسمى الأوّل : الزند والثانى: الزندة ، وقال ﴿ **الأخضر** ﴾ ولم يقل : « الخضراء » اعتبارا باللفظ . وقرئ : « الخضر » اعتبارًا بالمعنى ، وقد تقرّر أنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه كما فى قوله : ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] ، وقوله : ﴿نخل خاوية ﴾ [الحاقة : ٧] فبنوتميم ونجد يذكّرونه ، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادرا ، والموصول بدل من الموصول الأول ﴿ **فإذا أنتم منه توقدون**﴾ أى تقدحون منه النار وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر .

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم خلقا من الإنسان فقال : ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ والهمزة للإنكار . والواو للعطف على مقدّر كنظائره ، ومعنى الآية : أن من قدر على خلق السموات والأرض ـ وهما فى غاية العظم وكبر الأجزاء ـ يقدر على إعادة خلق البشر الذى هو صغير الشكل ضعيف القوّة . كما قال سبحانه : ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [غافر : ٥٧] قرأ الجمهور: ﴿ **بقادر** ﴾ بصيغة اسم الفاعل . وقرأ الجحدرى وابن أبى إسحاق والأعرج وسلام بن المنذر وأبو يعقوب الحضرمى : «يقدر » بصيغة الفعل المضارع . ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريرىّ بقوله : ﴿ **بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه . وقرأ الحسن والجحدرى ومالك بن دينار : « وهو الخالق » .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته وتيسر المبدأ والإعادة عليه فقال : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ أى إنما شانه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشىء من الأشياء أن يقول له : احدث فيحدث ، من غير توقف على شىء آخر أصلا ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة النحل وفى البقرة . قرأ الجمهور : ﴿ **فيكون** ﴾ بالرفع على الاستئناف . وقرأ الكسائى

بالنصب عطفا على ﴿ **يقول** ﴾ . ثم نزّه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة فقال : ﴿**فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء** ﴾ والملكوت فى كلام العرب لفظ مبالغة فى الملك كالجبروت والرحموت كأنه قال : فسبحان الذى بيده مالكية الأشياء الكلية . قال قتادة : ملكوت كلّ شيء : مفاتح كلّ شيء . قرأ الجمهور : ﴿ **ملكوت** ﴾ وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف وإبراهيم التيمى : « ملكة » بزنة شجرة ، وقرئ : « مملكة » بزنة مفعلة ، وقرئ : «ملك». والملكوت أبلغ من الجميع . وقرأ الجمهور : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ بالفوقية على الخطاب مبنيا للمفعول . وقرأ السلمى وزر بن حبيش وأصحاب ابن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنيا للمفعول أيضا . وقرأ زيد بن علىّ على البناء للفاعل ، أى ترجعون إليه لا إلى غيره ، وذلك فى الدار الآخرة بعد البعث .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ،وابن أبى حاتم فى معجمه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده فقال : يامحمد ، أيحيى الله هذا بعد ما أرم ؟ (١) قال : « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » فنزلت الآيات من آخر يس : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة** ﴾ إلى آخر السورة (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال جاء عبد الله بن أبىّ فى يده عظم حائل إلى النبىّ ﷺ . . . وذكر مثل ما تقدّم (٣) . قال ابن كثير : وهذا منكر؛ لأن السورة مكية وعبد الله بن أبى إنما كان بالمدينة (٤). وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء أبىّ بن خلف الجمحى وذكر نحو ما تقدّم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : نزلت فى أبى جهل وذكر نحو ما تقدّم .

---

(١) فى المخطوطة : « أرى » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .
(٢) ابن جرير ٢٣/ ٢١ وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٩ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .
(٣) ابن جرير ٢٣/ ٢١ . (٤) ابن كثير ٥/ ٦٣٢ .

تفسير سورة الصافات

هي مائة واثنتان وثمانون آية . وهي مكية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن النحاس وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت بمكة . وأخرج النسائي ، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات [١] . قال ابن كثير : تفرد به النسائي . وأخرج ابن أبي داود في فضائل القرآن ، وابن النجار في تاريخه من طريق نهشل بن سعد الورداني عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله». وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، والسلفي في الطيوريات عن ابن عباس ؛ أن النبي ﷺ لما سأله ملوك حضرموت عند قدومهم عليه أن يقرأ عليهم شيئًا مما أنزل الله قرأ: ﴿ **والصافات صفا** ﴾ حتى بلغ ﴿ **رب المشارق** ﴾ الحديث .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾.

قوله : ﴿ **والصافات صفا** ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة ، وقيل : حمزة فقط ، بإدغام التاء من الصافات في صاد صفا ، وإدغام التاء من الزاجرات في زاى زجرا ، وإدغام التاء من التاليات في ذال ذكرا ، وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها . قال النحاس : وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات : الجهة الأولى : أن التاء ليست من مخرج الصاد ولا من مخرج الزاى ولا من مخرج الدال ولا من أخواتهن . الجهة الثانية : أن التاء في كلمة وما بعدها في

(١) النسائي ٢/ ٩٥ والبيهقي ٣/ ١١٨ وأخرجه أحمد ٢/ ٢٦،وصححه الشيخ شاكر في تعليقه على المسند (٤٧٩٦)، وأبو يعلى (٥٤٤٥) وصححه ابن حبان (٤٧٠) وصححه ابن خزيمة (١٦٠٦) ، والطبراني (١٣١٩٤) .

كلمة أخرى . الثالثة : أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة . وقال الواحدى : إدغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان ؟ وقرأ الباقون بإظهار جميع ذلك ، والواو للقسم ، والمقسم به: الملائكة الصافات ، والزاجرات ، والتاليات . والمراد بـ ﴿ **الصافات**﴾ : التى تصف فى السماء من الملائكة كصفوف الخلق فى الدنيا ، قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقيل : إنها تصف أجنحتها فى الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد. وقال الحسن :صفا كصفوفهم عند ربهم فى صلاتهم . وقيل : المراد بالصافات هنا : الطير كما في قوله:﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ [الملك:١٩] . والأول أولى ، والصف : ترتيب الجمع على خط كالصف فى الصلاة . وقيل : الصافات : جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفا فى الصلاة أو فى الجهاد ، ذكره القشيرى . والمراد بـ﴿**الزاجرات** ﴾ : فاعلات للزجر من الملائكة ، إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدى، وإما لأنها تزجر عن المعاصى بالمواعظ والنصائح . وقال قتادة : المراد بالزاجرات : الزواجر من القرآن ، وهى كل ما ينهى ويزجر عن القبيح. والأول أولى . وانتصاب ﴿ **صفا** ﴾ و﴿ **زجرا** ﴾ على المصدرية لتأكيد ما قبلهما . وقيل : المراد بالزاجرات : العلماء ؛ لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصى . والزجر فى الأصل : الدفع بقوة ، وهو هنا قوة التصويت ، ومنه قول الشاعر :

زجر أبى عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

ومنه زجرت الإبل والغنم : إذا أفزعتها بصوتك ، والمراد بـ ﴿ **التاليات ذكرا** ﴾ : الملائكة التى تتلو القرآن كما قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدى . وقيل : المراد :جبريل وحده ، فذكر بلفظ الجمع تعظيما له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة . وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله وكتبه . وقيل : المراد : آيات القرآن ، ووصفها بالتلاوة وإن كانت متلوة كما فى قوله : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل ﴾ [النمل:٧٦] . وقيل : لأن بعضها يتلو بعضا ويتبعه . وذكر الماوردى أن التاليات هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم ، وانتصاب ﴿ **ذكرا** ﴾ على أنه مفعول به ويجوز أن يكون مصدرا كما قبله من قوله : ﴿ **صفا** ﴾ و﴿ **زجرا** ﴾ . قيل : وهذه الفاء فى قوله :﴿ **فالزاجرات** ﴾ ، ﴿**فالتاليات** ﴾ إما لترتب الصفات أنفسها فى الوجود أو لترتب موصوفاتها فى الفضل ، وفى الكل نظر .

وقوله : ﴿ **إن إلهكم لواحد** ﴾ جواب القسم ، أى أقسم الله بهذه الأقسام أنه واحد ليس له شريك. وأجاز الكسائى فتح « إن » الواقعة فى جواب القسم . ﴿ **رب السموات والأرض** ﴾ يجوز أن يكون خبرا ثانيا ،وأن يكون بدلا من ﴿ **لواحد** ﴾ وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . قال ابن الأنبارى : الوقف على ﴿ **لواحد** ﴾ وقف حسن ، ثم يبتدئ ﴿ **رب السموات**

والأرض﴾ على معنى هو رب السموات والأرض . قال النحاس : ويجوز أن يكون بدلا من ﴿لواحد ﴾ . والمعنى فى الآية : أن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع وقدرته ،وأنه رب ذلك كله ، أى خالقه ومالكه. والمراد بما بينهما : ما بين السموات والأرض من المخلوقات . والمراد بـ ﴿ المشارق ﴾ : مشارق الشمس . قيل : إن الله سبحانه خلق للشمس كل يوم مشرقا ومغربا بعدد أيام السنة ، تطلع كل يوم من واحد منها وتغرب من واحد ، كذا قال ابن الأنبارى وابن عبد البر . وأما قوله فى سورة الرحمن : ﴿رب المشرقين ورب المغربين ﴾ [الرحمن : ١٧] فالمراد بالمشرقين : أقصى مطلع تطلع منه الشمس فى الأيام الطوال ، وأقصر يوم فى الأيام القصار ، وكذلك فى المغربين . وأما ذكر المشرق والمغرب بالإفراد فالمراد به : الجهة التى تشرق منها الشمس ، والجهة التى تغرب منها ، ولعله قد تقدم لنا فى هذا كلام أوسع من هذا .

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ المراد بالسماء الدنيا : التى تلى الأرض ، من الدنو وهو القرب، فهى أقرب السموات إلى الأرض . قرأ الجمهور :﴿ بزينة الكواكب ﴾ بإضافة زينة إلى الكواكب . والمعنى : زيناها بتزيين الكواكب ، أى بحسنها . وقرأ مسروق والأعمش والنخعى وحمزة بتنوين : ﴿ زينة ﴾ وخفض ﴿الكواكب﴾ على أنها بدل من الزينة : على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر . والتقدير بعد طرح المبدل منه : إنا زينا السماء بالكواكب ، فإن الكواكب فى أنفسها زينة عظيمة ؛ فإنها فى أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بتنوين: « زينة » ونصب « الكواكب » على أن الزينة مصدر وفاعله محذوف. والتقدير:بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة فى أنفسها ، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعنى ، أو بدلا من السماء بدل اشتمال ، وانتصاب ﴿حفظا﴾ على المصدرية بإضمار فعل ، أى حفظناها حفظا ، أو على أنه مفعول لأجله ، أى زيناها بالكواكب للحفظ ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء . ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ أى متمرد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب، كقوله:﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ [الملك :٥] .

وجملة : ﴿ لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم . وقال أبو حاتم : أى لئلا يسمعوا ، ثم حذف « إن » فرفع الفعل ، وكذا قال الكلبى ، والملأ الأعلى : أهل السماء الدنيا فما فوقها ، وسمى الكل منهم أعلى بإضافته إلى ملأ الأرض . والضمير فى ﴿ يسمعون ﴾ إلى الشياطين . وقيل : إن جملة:﴿ لا يسمعون ﴾ صفة لكل شيطان ، وقيل : جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل : فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ قرأ الجمهور: « يسمعون » بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص عنه بتشديد الميم والسين ، والأصل : يتسمعون فأدغم التاء فى السين ، فالقراءة الأولى تدل على انتفاء سماعهم دون استماعهم ، والقراءة الثانية

تدل على انتفائهما وفي معنى القراءة الأولى قوله تعالى : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ [الشعراء : ٢١٢] قال مجاهد : كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون . واختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال : لأن العرب لا تكاد تقول :سمعت إليه ، وتقول : تسمعت إليه ﴿ **ويقذفون من كل جانب . دحورا** ﴾ أي يرمون من كل جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع. وانتصاب ﴿ **دحورا** ﴾ على أنه مفعول لأجله . والدحور : الطرد ، تقول : دحرته دحرا ودحورا: طردته . قرأ الجمهور : ﴿ **دحورا** ﴾ بضم الدال ، وقرأ علي والسلمي ويعقوب الحضرمي وابن أبي عبلة بفتحها . وروى عن أبي عمرو أنه قرأ : « يقذفون » مبنيا للفاعل ، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني. وقيل: إن انتصاب ﴿ **دحورا** ﴾ على الحال ، أي مدحورين ، وقيل : هو جمع داحر نحو قاعد وقعود فيكون حالا أيضا . وقيل : إنه مصدر لمقدر ، أي يدحرون دحورا. وقال الفراء: إن المعنى : يقذفون بما يدحرهم ، أي بدحور ، ثم حذفت الباء فانتصب بنزع الخافض .

واختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث أو بعده ؟ فقال بالأول طائفة ، وبالآخر آخرون . وقالت طائفة بالجمع بين القولين : إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رميا يقطعها عن السمع ، ولكن كانت ترمى وقتا ولا ترمى وقتا آخر وترمى من جانب ولا ترمى من جانب آخر ، ثم بعد المبعث رميت في كل وقت ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع ، إلا من اختطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ، ومعنى ﴿ **ولهم عذاب واصب** ﴾ : ولهم عذاب دائم لا ينقطع ، والمراد به : العذاب في الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشهب . وقال مقاتل : يعني دائما إلى النفخة الأولى ، والأول أولى . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب : الدائم . وقال السدي وأبو صالح والكلبي : هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب ، مأخوذ من الوصب وهو المرض . وقيل : هو الشديد ، والاستثناء في قوله : ﴿ **إلا من خطف الخطفة** ﴾ هو من قوله: ﴿ **لا يسمعون** ﴾ أو من قوله : ﴿ **ويقذفون** ﴾ . وقيل : الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض . والخطف : الاختلاس مسارقة وأخذ الشيء بسرعة . قرأ الجمهور: ﴿ **خطف** ﴾ بفتح الخاء وكسر الطاء مخففة ، وقرأ قتادة والحسن بكسرهما وتشديد الطاء ، وهي لغة تميم بن مرة وبكر بن وائل. وقرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة . وقرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف الطاء ، وقيل : إن الاستثناء منقطع ﴿ **فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ أي لحقه وتبعه شهاب ثاقب : نجم مضيء فيحرقه ، وربما لا يحرقه فيلقي إلى إخوانه ما خطفه، وليست الشهب التي يرجم بها هي من الكواكب الثوابت بل من غير الثوابت ، وأصل الثقوب : الإضاءة . قال الكسائي : ثقبت النار تثقب ثقابة وثقوبا : إذا اتقدت ، وهذه الآية هي كقوله : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [الحجر: ١٨].

﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا** ﴾ أى اسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشد خلقا وأقوى أجساما وأعظم أعضاء ، أم من خلقنا من السموات والأرض والملائكة ؟ قال الزجاج : المعنى : فاسألهم سؤال تقرير أهم أشد خلقا ، أى أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة ؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذى يؤمنهم من العذاب ؟ ثم ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ أى إنا خلقناهم فى ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب ، أى لاصق ، يقال : لزب يلزب لزوبا : إذا لصق . وقال قتادة وابن زيد : اللازب :اللازق . وقال عكرمة : اللازب : اللزج . وقال سعيد بن جبير : اللازب: الجيد الذى يلصق باليد. وقال مجاهد: هو اللازم ، والعرب تقول : طين لازب ولازم تبدل الباء من الميم ،واللازم: الثابت ، كما يقال: صار الشىء ضربة لازب ، ومنه قول النابغة :

ولا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب : طين لاتب: بمعنى لازم ، واللاتب:الثابت . قال الأصمعى : واللاتب : اللاصق مثل اللازب . والمعنى فى الآية : أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد وهم مخلقون من هذا الخلق الضعيف ولم ينكره من هو مخلوق خلقا أقوى منهم وأعظم وأكمل وأتم؟ وقيل : اللازب : هو المنتن قاله مجاهد والضحاك . قرأ الجمهور: ﴿ **أم من خلقنا** ﴾ بتشديد الميم وهى أم المتصلة ، وقرأ الأعمش بالتخفيف وهو استفهام ثان على قراءته . قيل : وقد قرئ لازم ولاتب ، ولا أدرى من قرأ بذلك .

ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق فقال :﴿ **بل عجبت** ﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه ﴿**ويسخرون**﴾ منك بسبب تعجبك ، أو ويسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد . قرأ الجمهور بفتح التاء من :﴿ **عجبت** ﴾ على الخطاب للنبى ﷺ . وقرأ حمزة والكسائى بضمها ، ورويت هذه القراءة عن على وابن مسعود وابن عباس ، واختارها أبو عبيد والفراء. قال الفراء : قرأها الناس بنصب التاء ورفعها ، والرفع أحب إلى لأنها عن على وعبد الله وابن عباس. قال: والعجب إن أسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد . قال الهروى : وقال بعض الأئمة : معنى قوله : ﴿ **بل عجبت** ﴾ بل جازيتهم على عجبهم ؛ لأن الله أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم** ﴾ [ص : ٤] وقالوا : ﴿ **إن هذا لشىء عجاب**﴾ [ص : ٥] ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم**﴾ [يونس : ٢] وقال على بن سليمان : معنى القراءتين واحد ، والتقدير : قل يا محمد: بل عجبت ، لأن النبى ﷺ مخاطب بالقرآن . قال النحاس : وهذا قول حسن ، وإضمار القول كثير . وقيل : إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين. قال الهروى: ويقال: معنى عجب ربكم ، أى رضى ربكم وأثاب ، فسماه عجبا ، وليس بعجب فى الحقيقة ، فيكون معنى

﴿ عجبت ﴾ هنا : عظم فعلهم عندى . وحكى النقاش أن معنى ﴿ بل عجبت ﴾ : بل أنكرت. قال الحسن بن الفضل : التعجب من الله : إنكار الشىء وتعظيمه ، وهو لغة العرب. وقيل : معناه : أنه بلغ فى كمال قدرته وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها ، والواو فى ﴿ ويسخرون ﴾ للحال ، أى بل عجبت والحال أنهم يسخرون ، ويجوز أن تكون للاستئناف .

﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ أى وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ الله أو مواعظ رسوله لا يذكرون ، أى لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها . قال سعيد بن المسيب : أى إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا . ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أى معجزة من معجزات رسول الله ﷺ ﴿ يستسخرون ﴾ أى يبالغون فى السخرية . قال قتادة : يسخرون ويقولون : إنها سخرية ، يقال : سخر واستسخر بمعنى ، مثل قر واستقر ، وعجب واستعجب . والأول أولى ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . وقيل : معنى ﴿يستسخرون ﴾ يستدعون السخرى من غيرهم . وقال مجاهد : يستهزئون . ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أى ما هذا الذى تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر ﴿ أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى أنبعث إذا متنا ؟ فالعامل فى «إذا» هو ما دل عليه ﴿ أإنا لمبعوثون ﴾ ، وهو أنبعث ، لا نفس مبعوثون ، لتوسط ما يمنع من عمله فيه . وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذى لأجله كذبوا الرسل وما نزل عليهم ، واستهزؤوا بما جاؤوا به من المعجزات ، وقد تقدم تفسير معنى هذه الآية فى مواضع .

﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ هو مبتدأ وخبره محذوف ، أى أو آباؤنا الأولون مبعوثون. وقيل : معطوف على محل إن واسمها . وقيل : على الضمير فى ﴿ مبعوثون ﴾ لوقوع الفصل بينهما والهمزة للإنكار داخلة على حرف العطف ، ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو ، وقرأ ابن عامر وقالون بسكونها على أن « أو » هى العاطفة ، وليست الهمزة للاستفهام . ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيتا لهم ، فقال : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أى نعم تبعثون وأنتم صاغرون ذليلون . قال الواحدى : والدخور: أشد الصغار ، وجملة : ﴿ وأنتم داخرون ﴾ فى محل نصب على الحال . ثم ذكر سبحانه أن بعثهم يقع بزجرة واحدة فقال : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة ﴾ الضمير للقصة أو البعثة المفهومة مما قبلها،أى إنما قصة البعث أو البعثة زجرة واحدة ، أى صيحة واحدة من إسرافيل بنفخه فى الصور عند البعث ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾ أى يبصرون ما يفعل الله بهم من العذاب . وقال الحسن : هى النفخة الثانية . وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن المقصود منها الزجر ، وقيل : معنى ﴿ ينظرون ﴾ :ينتظرون ما يفعل بهم . والأول أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود : ﴿ والصافات صفا ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ قال : الملائكة . وأخرج عبد بن

حميد عن مجاهد وعكرمة مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أنه كان يقرأ : « لا يسمعون إلى الملأ الأعلى » مخففة ، وقال : إنهم كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **عذاب واصب** ﴾ قال :دائم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عنه أيضا : إذا رمى الشهاب لم يخط من رمى به وتلا : ﴿ **فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ قال : لا يقتلون بالشهاب ولا يموتون ، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح فى غير قتل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **من طين لازب** ﴾ قال : ملتصق . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **من طين لازب** ﴾ قال : اللزج الجيد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : اللازب والحمأ والطين واحد ، كان أوله ترابا ثم صار حمأ منتنا ، ثم صار طينا لازبا، فخلق الله منه آدم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : اللازب : الذى يلصق بعضه إلى بعض . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «بل عجبت ويسخرون » بالرفع للتاء من عجبت .

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾.

قوله : ﴿ **وقالوا ياويلنا** ﴾ أى قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذى كانوا يكذبون به فى الدنيا : ياويلنا ، دعوا بالويل على أنفسهم . قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، وقال الفراء : إن أصله : ياوى لنا ، ووى بمعنى الحزن كأنه قال : ياحزن لنا . قال النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلا ، وهو فى المصحف متصل ، ولا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا ، وجملة : ﴿ **هذا يوم الدين** ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم . والدين : الجزاء ، فكأنهم قالوا : ما هذا اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا من الكفر والتكذيب للرسل ؟ فأجاب عليهم الملائكة بقولهم : ﴿ **هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون** ﴾ ، ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض. والفصل : الحكم والقضاء لأنه يفصل فيه بين المحسن والمسىء .

وقوله : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين وأزواجهم ، وهم أشباههم فى الشرك ، والمتابعون لهم فى الكفر ، والمشايعون لهم فى تكذيب الرسل ، كذا قال قتادة وأبو العالية . وقال الحسن ومجاهد : المراد بأزواجهم : نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر والظلم . وقال الضحاك : أزواجهم : قرناؤهم من الشياطين يحشركل كافر مع شيطانه ، وبه قال مقاتل ﴿ **وما كانوا يعبدون من دون الله** ﴾ من الأصنام والشياطين ، وهذا العموم ــ المستفاد من « ما » الموصولة ، فإنها عبارة عن المعبودين ، لا عن العابدين ، كما قيل ــ مخصوص ؛ لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح ، ومنهم من عبد الملائكة فيخرجون بقوله:﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ [الأنبياء : ١٠١] ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبكيت لعابديها وتخجيلهم وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر . ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ أى عرفوا هؤلاء المحشورين طريق النار وسوقوهم إليها ، يقال : هديته الطريق وهديته إليها ، أى دللته عليها ، وفى هذا تهكم بهم .

﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ أى احبسوهم ، يقال : وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا يتعدى ولا يتعدى ، وهذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم ، أى وقفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك ، وجملة: ﴿ **إنهم مسؤولون** ﴾ تعليل للجملة الأولى. قال الكلبى : أى مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم . وقال الضحاك : عن خطاياهم ، وقيل : عن لا إله إلا الله . وقيل : عن ظلم العباد . وقيل : هذا السؤال هو المذكور بعد هذا بقوله : ﴿ **ما لكم لا تناصرون** ﴾ أى أى شىء لكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا؟ وهذا توبيخ لهم وتقريع وتهكم بهم ، وأصله تتناصرون ، فطرحت إحدى التاءين تخفيفا . قرأ الجمهور : ﴿ **إنهم مسؤولون** ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها . قال الكسائى: أى لأنهم أو بأنهم . وقيل : الإشارة بقوله :﴿ **مالكم لا تناصرون** ﴾ إلى قول أبى جهل يوم بدر : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ [القمر : ٤٤] . ثم أضرب سبحانه عما تقدم إلى بيان الحالة التى هم عليها هنالك فقال : ﴿ **بل هم اليوم مستسلمون** ﴾ أى منقادون لعجزهم عن

الحيلة . قال قتادة : مستسلمون فى عذاب الله . وقال الأخفش : ملقون بأيديهم ، يقال : استسلم للشيء : إذا انقاد له وخضع .

﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ أى أقبل بعض الكفار على بعض يتساءلون. قيل: هم الأتباع والرؤساء يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة . وقال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين . وقال قتادة : هو قول الإنس للجن . والأول أولى لقوله : ﴿**قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ : أى كنتم تأتوننا فى الدنيا عن اليمين ، أى من جهة الحق والدين والطاعة وتصدوننا عنها . قال الزجاج : كنتم تأتوننا من قبل الدين ، فتروننا أن الدين والحق ما تضلوننا به . واليمين عبارة عن الحق ، وهذا كقوله تعالى إخبارا عن إبليس : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم ﴾ [الأعراف : ١٧] قال الواحدى : قال أهل المعانى : إن الرؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الأتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم: فمعنى ﴿ **تأتوننا عن اليمين** ﴾ : أى من ناحية الأيمان التى كنتم تحلفونها فوثقنا بها . قال : والمفسرون على القول الأول . وقيل : المعنى : تأتوننا عن اليمين التى نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك عن جهة النصح ، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح . وقيل: اليمين بمعنى القوة ، أى تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر كما فى قوله : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين﴾ [الصافات : ٩٣] أى بالقوة . وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، وكذلك جملة : ﴿**قالوا بل لم تكونوا مؤمنين** ﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدر ؛ والمعنى : أنه قال الرؤساء أو الشياطين لهؤلاء القائلين : كنتم تأتوننا عن اليمين بل لم تكونوا مؤمنين ولم نمنعكم من الإيمان. والمعنى : أنكم لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم من الأصل على الكفر فأقمتم عليه .

﴿ **وما كان لنا عليكم من سلطان** ﴾ من تسلط بقهر وغلبة حتى ندخلكم فى الإيمان ونخرجكم من الكفر ﴿ **بل كنتم قوما طاغين** ﴾ أى متجاوزين الحد فى الكفر والضلال ، وقوله: ﴿ **فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون** ﴾ من قول المتبوعين ، أى وجب علينا وعليكم ولزمنا قول ربنا ، يعنون قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٥] إنا لذائقو العذاب ، أى إنا جميعا لذائقو العذاب الذى ورد به الوعيد . قال الزجاج : أى إن المضل والضال فى النار ﴿ **فأغويناكم** ﴾ أى أضللناكم عن الهدى ، ودعوناكم إلى ما كنا فيه من الغى ، وزينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ **إنا كنا غاوين** ﴾ فلا عتب علينا فى تعرضنا لإغوائكم ؛ لأنا أردنا أن تكونوا أمثالنا فى الغواية ، ومعنى الآية : أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية ، فأقروا هاهنا بأنهم تسببوا لإغوائهم ، لكن لا بطريق القهر والغلبة ، ونفوا عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم وغلبوهم ، فقالوا: وما كان لنا عليكم من سلطان .

ثم أخبر الله سبحانه عن الأتباع والمتبوعين بقوله :﴿ **فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون** ﴾ كما كانوا مشتركين فى الغواية . ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ أى إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين ، أى أهل الإجرام ، وهم المشركون كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ أى إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله يستكبرون عن القبول ، ومحل يستكبرون النصب على أنه خبر كان ، أو الرفع على أنه خبر إن، وكان ملغاة . ﴿**ويقولون أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ يعنون : النبى ﷺ ، أى لقول شاعر مجنون ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **بل جاء بالحق** ﴾ يعنى : القرآن المشتمل على التوحيد والوعد والوعيد ﴿ **وصدق المرسلين** ﴾ أى صدقهم فيما جاؤوا به من التوحيد والوعيد وإثبات الدار الآخرة ولم يخالفهم ولا جاء بشىء لم تأت به الرسل قبله . ﴿ **إنكم لذائقو العذاب الأليم** ﴾ أى إنكم بسبب شرككم وتكذيبكم لذائقو العذاب الشديد الألم . قرأ الجمهور : ﴿ **لذائقو** ﴾ بحذف النون وخفض العذاب ، وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم وأبو السماك بحذفها ونصب العذاب ، وأنشد سيبويه فى مثل هذه القراءة بالحذف للنون والنصب للعذاب قول الشاعر :

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

وأجاز سيبويه أيضا : « والمقيمى الصلاة » بنصب الصلاة على هذا التوجيه . وقد قرئ بإثبات النون ونصب العذاب على الأصل . ثم بين سبحانه أن ما ذاقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم ، فقال: ﴿ **وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ أى إلا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصى ، أو إلا بما كنتم تعملون . ثم استثنى المؤمنين فقال :﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة : ﴿ **المخلصين** ﴾ بفتح اللام ، أى الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده . وقرأ الباقون بكسرها ، أى الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد ، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب فى ﴿ **تجزون** ﴾ لجميع المكلفين أو منقطع ، أى لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب . والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المخلصين ، وهو مبتدأ وخبره قوله : ﴿ **لهم رزق معلوم** ﴾ أى لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم الله إياه معلوم فى حسنه وطيبه وعدم انقطاعه. قال قتادة : يعنى الجنة ، وقيل : معلوم الوقت ، وهو أن يعطوا منه بكرة وعشية كما فى قوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ [مريم: ٦٢] وقيل : هو المذكور فى قوله بعده : ﴿ **فواكه** ﴾ فإنه بدل من﴿ **رزق** ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هو فواكه ، وهذا هو الظاهر. والفواكه جمع الفاكهة وهى الثمار كلها رطبها ويابسها ، وخصص الفواكه بالذكر ؛ لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل . والأولى أن يقال : إن تخصيصها بالذكر ؛ لأنها أطيب ما يأكلونه وألذ ما تشتهيه أنفسهم . وقيل : إن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة ، فذكرها يغنى عن ذكر غيرها ، وجملة : ﴿ **وهم مكرمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى ولهم من الله عز وجل إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده وسماع كلامه ولقائه فى الجنة. قرأ الجمهور: ﴿ **مكرمون** ﴾ بتخفيف الراء. وقرأ أبومقسم بتشديدها. وقوله: ﴿ **فى جنات النعيم** ﴾

يجوز ان يتعلق بـ ﴿ **مكرمون** ﴾ وأن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا . وقوله : ﴿ **على سرر** ﴾ يحتمل أن يكون حالا ، وأن يكون خبرا ثالثا . وانتصاب ﴿ **متقابلين** ﴾ على الحالية من الضمير فى ﴿ **مكرمون** ﴾ ، أو من الضمير فى متعلق على﴿ **سرر** ﴾. قال عكرمة ومجاهد : معنى التقابل : أنه لا ينظر بعضهم فى قفا بعض ، وقيل : إنها تدور بهم الأسرة كيف شاؤوا فلا يرى بعضهم قفا بعض . قرأ الجمهور:﴿ **سرر** ﴾ بضم الراء . وقرأ أبو السماك بفتحها، وهى لغة بعض تميم .

ثم ذكر سبحانه صفة أخرى لهم فقال : ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين** ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة جوابا عن سؤال مقدر ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير ﴿ **متقابلين** ﴾ . والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء فيه الشراب ، فإن كان فارغا فليس بكأس . وقال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر . قال النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر : كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر فهو : قدح ، كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام : مائدة ، فإذا لم يكن عليه طعام لم يقل له مائدة ، و﴿ **من معين** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكأس . قال الزجاج : ﴿**بكأس من معين** ﴾ أى من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض ، والمعين :الماء الجارى ، وقوله : ﴿ **بيضاء لذة للشاربين** ﴾ صفتان لكأس . قال الزجاج : أى ذات لذة فحذف المضاف ، ويجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة فى كونها لذة فلا يحتاج إلى تقدير المضاف . قال الحسن : خمر الجنة أشد بياضا من اللبن له لذة لذيذة ، يقال : شراب لذ ولذيذ كما يقال : نبات غض وغضيض ، ومنه قول الشاعر :

بحديثها اللذ الذى لو كلمت ... أسد الفلاة به أتين سراعا

واللذيذ : كل شيء مستطاب . وقيل : البيضاء : هى التى لم يعتصرها الرجال . ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا فقال : ﴿ **لا فيها غول** ﴾ أى لاتغتال عقولهم فتذهب بها ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ﴿ **ولا هم عنها ينزفون** ﴾ أى يسكرون ، يقال : نزف الشارب فهو منزوف ونزيف : إذا سكر ، ومنه قول امرئ القيس :

وإذا هى تمشى كمشى النزيـ ... ـف يصرعه بالكثيب البهر

وقال أيضا :

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت

ومنه قول الآخر :

فلثمت فاها آخذا بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

قال الفراء : العرب تقول : ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء . وقال أبو عبيدة : الغول

أن تغتال عقولهم وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

وقال الواحدى : الغول حقيقته: الإهلاك ، يقال : غاله غولا واغتاله ، أى أهلكه ، والغول كل ما اغتالك ، أى أهلكك. قرأ الجمهور : ﴿ **ينزفون** ﴾ بضم الياء وفتح الزاى مبنيا للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء وكسر الزاى من أنزف الرجل : إذا ذهب عقله من السكر فهو نزيف ومنزوف ومنزف ، يقال : أحصد الزرع : إذا حان حصاده ، وأقطف الكرم : إذا حان قطافه . قال الفراء : من كسر الزاى فله معنيان ، يقال : أنزف الرجل : إذا فنيت خمره ، وأنزف : إذا ذهب عقله من السكر ، وتحمل هذه القراءة على معنى لا ينفد شرابهم لزيادة الفائدة . قال النحاس : والقراءة الأولى أبين وأصح فى المعنى ؛ لأن معنى ﴿ **لا ينزفون**﴾ عند جمهور المفسرين :لا تذهب عقولهم ، فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التى تلحق فى الدنيا من خمرها من الصداع والسكر . وقاله الزجاج وأبو على بن أبى نجيح عن مجاهد . وقال الحسن : إن الغول: الصداع . وقال ابن كيسان : هو المغص ، فيكون معنى الآية : لا فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر فى الدنيا من مغص أو وجع بطن أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم ولا هم يسكرون منها . ويؤيد هذا أن أصل الغول : الفساد الذى يلحق فى خفاء، يقال : اغتاله اغتيالا : إذا أفسد عليه أمره فى خفية ، ومنه الغول والغيلة القتل خفية . وقرأ ابن أبى إسحاق : «ينزفون » بفتح الياء وكسر الزاى . وقرأ طلحة بن مصرف بفتح الياء وضم الزاى . ولما ذكر سبحانه صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم فقال: ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف** ﴾ أى نساء قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، والقصر : معناه الحبس ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الأتب منها لأثرا

والمحول الصغير من الذر ، والأتب القميص ، وقيل : القاصرات : المحبوسات على أزواجهن ، والأول أولى لأنه قال : قاصرات الطرف ، ولم يقل مقصورات . والعين : عظام العيون جمع عيناء وهى الواسعة العين. قال الزجاج: معنى ﴿ **عين** ﴾ كبار الأعين حسانها [(١)] . وقال مجاهد : العين : حسان العيون . وقال الحسن : هن الشديدات بياض العين الشديدات سوادها ، والأول أولى . ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال الحسن وأبو زيد : شبههن ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار . فلونه أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . وقال سعيد بن جبير والسدى : شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى وبه قال ابن جرير ، ومنه قول امرئ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

(١) فى المطبوعة : « حسناها » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قال المبرد : وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطى بالريش . وقيل : المكنون : المصون عن الكسر ، أى إنهن عذارى ، وقيل :المراد بالبيض : اللؤلؤ، كما فى قوله :﴿ وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ [الواقعة : ٢٢ ، ٢٣] ومثله قول الشاعر :

وهــى بيضـاء مثـل لـؤلـؤة الغـوا ص ميزت من جوهـر مكنـون

والأول أولى ، وإنما قال : ﴿ **مكنون** ﴾ ولم يقل : مكنونات ، لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ قال : تقول الملائكة للزبانية هذا القول . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ، وابن منيع فى مسنده ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث من طريق النعمان بن بشير عن عمربن الخطاب فى قوله : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ قال : أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج فى الجنة، وأزواج فى النار . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ قال : أشباههم ، وفى لفظ : نظراءهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ قال : وجهوهم. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: دلوهم ﴿ **إلى صراط الجحيم** ﴾ قال : طريق النار . وأخرج عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ قال : احبسوهم إنهم محاسبون. وأخرج البخارى فى تاريخه،والدارمى والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفا معه يوم القيامة لازما به لا يفارقة وإن دعا رجل رجلا » ، ثم قرأ : ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ (١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ قال : ذلك إذا بعثوا فى النفخة الثانية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله :﴿ **كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ قال: كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون، ﴿ **ويقولون أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ لا يعقل ، قال : فحكى الله صدقه فقال : ﴿ **بل جاء بالحق وصدق المرسلين** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى

---

(١) الدارمى ١/ ١٣١ والترمذى فى التفسير (٣٢٢٨) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢٣/ ٣٢ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٠ وسكت عنه الذهبى .

يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » (١) . وأنزل الله فى كتابه وذكر قوما استكبروا ، فقال : ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ وقال : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ [الفتح : ٢٦] وهى : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول ﷺ على قضية الهدنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين** ﴾ قال : الخمر ﴿ **لا فيها غول** ﴾ قال : ليس فيها صداع ﴿ **ولا هم عنها ينزفون** ﴾ قال : لا تذهب عقولهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : فى الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقىء والبول ، فنزه الله خمر الجنة عنها ، فقال : ﴿ **لا فيها غول** ﴾ لاتغول عقولهم من السكر ﴿ **ولا هم عنها ينزفون** ﴾ قال : يقيئون عنها كما يقىء صاحب خمر الدنيا عنها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **لا فيها غول** ﴾ قال: هى الخمر ليس فيها وجع بطن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف** ﴾ يقول : من غير أزواجهن ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال: اللؤلؤ المكنون . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال : بياض البيضة ينزع عنها فوفها وغشاؤها .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٢٣ والبخارى فى المرتدين (٦٩٢٤) ومسلم فى الإيمان (٢١/٣٣) والنسائى ٥/١٤ .

قوله : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ معطوف على يطاف ، أى يسأل هذا ذاك وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التى كانت فى الدنيا ، وذلك من تمام نعيم الجنة ، والتقدير : فيقبل بعضهم على بعض ، وإنما عبر عنه بالماضى ، للدلالة على تحقق وقوعه ﴿**قال قائل منهم** ﴾ أى قال قائل من أهل الجنة فى حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث وسؤال بعضهم لبعض :﴿ **إنى كان لى قرين** ﴾ أى صاحب ملازم لى فى الدنيا كافر بالبعث منكر له كما يدل عليه قوله:﴿ **أإنك لمن المصدقين** ﴾ يعنى بالبعث والجزاء وهذا الاستفهام من القرين : لتوبيخ ذلك المؤمن وتبكيته بإيمانه وتصديقه بما وعد الله به من البعث ، وكان هذا القول منه فى الدنيا . ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده وفى زعمه فقال : ﴿ **أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون** ﴾ أى مجزيون بأعمالنا ومحاسبون بها بعد أن صرنا ترابا وعظاما ، وقيل : معنى « مدينون » : مسوسون ، يقال : دانه : إذا ساسه . قال سعيد بن جبير : قرينه : شريكه . وقيل : أراد بالقرين الشيطان الذى يقارنه وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث ، وقد مضى ذكر قصتهما فى سورة الكهف ، والاختلاف فى اسميهما . قرأ الجمهور : ﴿ **لمن المصدقين** ﴾ بتخفيف الصاد من التصديق ، أى لمن المصدقين بالبعث ، وقرئ بتشديدها ، ولا أدرى من قرأ بها ، ومعناها بعيد لأنها من التصدق لا من التصديق ، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصدق بماله لطلب الثواب ، وعلل ذلك باستبعاد البعث .

وقد اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة ، فقرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة ، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام . ووافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين. وابن عامر الأولى والثالثة بهمزتين ، والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، والباقون بالاستفهام فى جميعها . ثم اختلفوا ، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعده ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .

﴿ **قال هل أنتم مطلعون** ﴾ القائل : هو المؤمن الذى فى الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه فى الدنيا ، أى هل أنتم مطلعون إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذى قال لى تلك المقالة كيف منزلته فى النار ؟ قال ابن الأعرابى : والاستفهام هوبمعنى الأمر ، أى اطلعوا. وقيل : القائل هو الله سبحانه . وقيل : الملائكة ، والأول أولى . ﴿ **فاطلع فرآه فى سواء الجحيم** ﴾ أى فاطلع على النار ذلك المؤمن الذى صار يحدث أصحابه فى الجنة بما قال له قرينه فى الدنيا ، فرأى قرينه فى وسط الجحيم . قال الزجاج :سواء كل شىء : وسطه . قرأ الجمهور:﴿ **مطلعون** ﴾ بتشديد الطاء مفتوحة وبفتح النون ، فاطلع ماضيا مبنيا للفاعل من الطلوع . وقرأ ابن عباس ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو :« مطلعون » بسكون الطاء وفتح النون :« فأطلع » بقطع الهمزة مضمومة وكسر اللام ماضيا مبنيا للمفعول . قال النحاس : فأطلع فيه قولان على هذه القراءة : أحدهما : أن يكون فعلا مستقبلا ، أى فأطلع أنا ، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام . والقول الثانى : أن يكون فعلا ماضيا ، وقرأ حماد بن أبى

عمار : « مطلعون » بتخفيف الطاء وكسر النون فاطلع مبنيا للمفعول ، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وغيره . قال النحاس : هى لحن ؛ لأنه لا يجوز الجمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافا لقال : هل أنتم مطلعى ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله وأنشدا :

هم القائلون الخير والآمرونه إذا ماخشوا من محدث الدهر معظما

ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب . ﴿ **قال تالله إن كدت لتردين** ﴾ أى قال ذلك الذى من أهل الجنة لما اطلع على قرينه ورآه فى النار : ﴿ **تالله إن كدت لتردين** ﴾ أى لتهلكنى بالإغواء . قال الكسائى : لتردين : لتهلكنى ، والردى : الهلاك . قال المبرد : لو قيل : لتردين : لتوقعنى فى النار لكان جائزا . قال مقاتل : المعنى : والله لقد كدت أن تغوينى فأنزل منزلتك ، والمعنى متقارب ، فمن أغوى إنسانا فقد أهلكه ﴿ **ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين** ﴾ أى لولا رحمة ربى وإنعامه على بالإسلام وهدايتى إلى الحق وعصمتى عن الضلال لكنت من المحضرين معك فى النار . قال الفراء : أى لكنت معك فى النار محضرا . قال الماوردى :وأحضر لا يستعمل إلا فى الشر . ولما تم كلامه مع ذلك القرين ، الذى هو فى النار ، عـاد إلـى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال : ﴿ **أفما نحن بميتين** ﴾ ، والهمزة للاستفهام التقريرى وفيها معنى التعجيب ، والفاء للعطف على محذوف كما فى نظائره ، أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ﴿ **إلا موتتنا الأولى** ﴾ التى كانت فى الدنيا ، وقوله هذا كان على طريقة الابتهاج والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذى لا ينقطع وأنهم مخلـدون لا يموتون أبدا. وقوله : ﴿ **وما نحن بمعذبين** ﴾ هو من تمام كلامه ، أى وما نحن بمعذبين كما يعذب الكفار . ثم قال مشيرا إلى ما هم فيه من النعيم : ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ أى إن هذا الأمر العظيم والنعيم المقيم والخلود الدائم الذى نحن فيه لهو الفوز العظيم الذى لا يقادر قدره ولا يمكن الإحاطة بوصفه ، وقوله :﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ من تـمـام كلامه ، أى لمثل هذا العطاء والفضل العظيم فليعمل العاملون ، فإن هذه هى التجارة الرابحة ، لا العمل للدنيا الزائلة فإنها صفـقة خاسـرة نعيمهـا منقطع وخيرها زائل وصاحبها عن قريب منها راحل . وقيل :إن هذا من قول الله سبحانه. وقيل: من قول الملائكة . والأول أولى . قرأ الجمهور: ﴿ **بميتين** ﴾ وقرأ زيد بن على:« بمايتين » وانتصاب ﴿ **إلا موتتنا** ﴾ على المصدرية ، والاستثناء مفرغ ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا . أى لكن الموتة الأولى التى كانت فى الدنيا ﴿ **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم** ﴾ الإشارة بقوله ذلك : إلى ما ذكره من نعيم الجنة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **خير** ﴾ ، و﴿ **نزلا** ﴾ تمييز، والنزل فى اللغة : الرزق الذى يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه ، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره . قال الزجاج : المعنى أذلك خير فى باب الإنزال التى يبقون بها نزلا أم نزل أهل النار ؟ وهو قوله : ﴿ **أم شجرة الزقوم** ﴾ وهو ما يكره تناوله . قال الواحدى : وهو شىء مر كريه يكره أهل النار على تناوله فهم يتزقمونه ، وهى على هذا مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها . واختلف

فيها : هل هى من شجر الدنيا التى يعرفها العرب أم لا ؟ على قولين : أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا ، فقال قطرب : إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل . القول الثانى : أنها غير معروفة فى شجر الدنيا . قال قتادة : لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا : كيف تكون فى النار شجرة ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال الزجاج : حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها . وقيل : معنى جعلها فتنة لهم : أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها ، والمراد بالظالمين هنا : الكفار أو أهل المعاصى الموجبة للنار .

ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة ردا على منكريها فقال : ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾ أى فى قعرها ، قال الحسن : أصلها فى قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها ، ثم قال : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ أى ثمرها وما تحمله كأنه فى تناهى قبحه وشناعة منظره رؤوس الشياطين ، فشبه المحسوس بالمتخيل ، وإن كان غير مرئى . للدلالة على أنه غاية فى القبح كما تقول فى تشبيه من يستقبحونه :كأنه شيطان ، وفى تشبيه من يستحسنونه:كأنه ملك ، كما فى قوله : ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ [يوسف : ٣١] ومنه قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقال الزجاج والفراء : الشياطين :حيات لها رؤوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما . وقيل : إن رؤوس الشياطين : اسم لنبت قبيح معروف باليمن يقال له: الاستن ، ويقال له : الشيطان . قال النحاس : وليس ذلك معروفا عند العرب . وقيل : هو شجر خشن منتن مر منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين . ﴿ فإنهم لآكلون منها ﴾ أى من الشجرة أو من طلعها . والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿فمالئون منها البطون ﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم ، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة . ﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ بعد الأكل منها ﴿ لشوبا من حميم ﴾ الشوب : الخلط . قال الفراء : يقال:شاب طعامه وشرابه : إذا خلطهما بشىء يشوبهما شوبا وشيابة . والحميم : الماء الحار . فأخبر سبحانه أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار ليكون أفظع لعذابهم وأشنع لحالهم كما فى قوله : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ [محمد : ١٥] قرأ الجمهور :﴿ شوبا ﴾ بفتح الشين ، وهو مصدر ، وقرأ شيبان النحوى بالضم . قال الزجاج : المفتوح مصدر ، والمضموم اسم بمعنى المشوب ، كالنقص بمعنى المنقوص .

﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أى مرجعهم بعد شرب الحميم وأكل الزقوم إلى الجحيم، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه ، وهو خارج الجحيم كما تورد الإبل ، ثم يردون إلى الجحيم كما فى قوله سبحانه : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ [الرحمن : ٤٤] . وقيل :

إن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها . قال أبو عبيدة : ثم بمعنى الواو ، وقرأ ابن مسعود : « ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم » . وجملة : ﴿ **إنهم ألفوا** ﴾ أى وجدوا ﴿ **آباءهم ضالين** ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدم ذكره ، أى صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم تقليدا وضلالة لالحجة أصلا . ﴿ **فهم على آثارهم يهرعون** ﴾ الإهراع : الإسراع . قال الفراء : الإهراع : الإسراع برعدة . وقال أبو عبيدة : ﴿ **يهرعون** ﴾ : يستحثون من خلفهم ، يقال :جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها . وقال المفضل : يزعجون من شدة الإسراع . قال الزجاج : هرع وأهرع : إذا استحث وانزعج ، والمعنى: يتبعون آباءهم فى سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم . ﴿ **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين** ﴾ أى ضل قبل هؤلاء المذكورين أكثر الأولين من الأمم الماضية . ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذرين** ﴾ أى أرسلنا فى هؤلاء الأولين رسلا أنذروهم العذاب وبينوا لهم الحق فلم ينجع ذلك فيهم . ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾ أى الذين أنذرتهم الرسل فإنهم صاروا إلى النار . قال مقاتل : يقول : كان عاقبتهم العذاب ، يحذر كفار مكة ثم استثنى عباده المؤمنين فقال :﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد. وقرئ : «المخلصين » بكسر اللام ، أى الذين أخلصوا لله طاعاتهم ولم يشوبوها بشىء مما يغيرها .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **فاطلع فرآه فى سواء الجحيم** ﴾ قال: اطلع ثم التفت إلى أصحابه فقال : لقد رأيت جماجم القوم تغلى . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : قول الله لأهل الجنة : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ﴾ [الطور :١٩] قال :﴿ **هنيئا** ﴾ أى لا تموتون فيها فعند ذلك قالوا:﴿ **أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ قال: هذا قول الله : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾. وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ يده فى يدى ، فرأى جنازة فأسرع المشى حتى أتى القبر، ثم جثى على ركبتيه فجعل يبكى حتى بل الثرى، ثم قال :﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخلت مع النبى ﷺ على مريض يجود بنفسه فقال: ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون**﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مر أبو جهل برسول الله ﷺ وهو جالس، فلما بعد قال رسول الله ﷺ: ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : ٣٤ ، ٣٥]. فلما سمع أبو جهل قال : من توعد يا محمد ؟ قال : « إياك » ، قال بم توعدنى ؟ قال : «أوعدك بالعزيز الكريم » ، فقال أبو جهل : أليس أنا العزيز الكريم ؟ فأنزل الله : ﴿ إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٣ ــ ٤٩] فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه ، فأخرج إليهم زبدا وتمرا فقال : تزقموا من هذا ، فوالله مايتوعدكم محمد إلا بهذا ، فأنزل الله : ﴿ **إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة عنه قال : لو أن

قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ ثم إن لهم عليها لشوبا ﴾ قال : لمزجا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال فى قوله : ﴿ لشوبا من حميم ﴾ يخالط طعامهم ويشاب بالحميم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : لاينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء أهل الجنة وأهل النار . وقرأ : « ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ قال : وجدوا آباءهم .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾.

لما ذكر سبحانه أنه أرسل فى الأمم الماضية منذرين ذكر تفصيل بعض ما أجمله فقال : ﴿ولقد نادانا نوح ﴾ واللام هى الموطئة للقسم . وكذا اللام فى قوله : ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ أى نحن ، والمراد: أن نوحا دعا ربه على قومه لما عصوه ، فأجاب الله دعاءه وأهلك قومه

بالطوفان . فالنداء هنا هو نداء الدعاء لله والاستغاثة به ، كقوله : ﴿ رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] وقوله : ﴿ أنى مغلوب فانتصر ﴾ [القمر : ١٠] قال الكسائى: أى فلنعم المجيبون له كنا . ﴿ **فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾ المراد بأهله: أهل دينه ، وهم من آمن معه وكانوا ثمانين. والكرب العظيم هو : الغرق . وقيل :تكذيب قومه له وما يصدر منهم إليه من أنواع الأذايا .﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل ، وذلك لأن الله أهلك الكفرة بدعائه ولم يبق منهم باقية ، ومن كان معه فى السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل ولم يبق إلا أولاده . قال سعيد بن المسيب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح ، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم . ويافث أبو الصقالب والترك والخزر ويأجوج ومأجوج وغيرهم . وقيل : إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح** ﴾ [الإسراء : ٣] . وقوله : ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ [هود : ٤٨] فيكون على هذا معنى ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ : وذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر ، فإن الله أغرقهم فلم يبق لهم ذرية .

﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ يعنى : فى الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، والمتروك هذا هو قوله:﴿ **سلام على نوح** ﴾ أى تركنا هذا الكلام بعينه وارتفاعه على الحكاية ، والسلام هو: الثناء الحسن ، أى يثنون عليه ثناء حسنا ويدعون له ويترحمون عليه. قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة ، وذلك الذكر هو قوله: ﴿ سلام على نوح﴾. قال الكسائى : فى ارتفاع ﴿ **سلام** ﴾ وجهان : أحدهما : وتركنا عليه فى الآخرين يقال : سلام على نوح . والوجه الثانى أن يكون المعنى : وأبقينا عليه ، وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : سلام على نوح ، أى سلامة له من أن يذكر بسوء فى الآخرين . قال المبرد : أى تركنا عليه هذه الكلمة باقية ، يعنى : يسلمون عليه تسليما ويدعون له ، وهو من الكلام المحكى كقوله : ﴿ سورة أنزلناها ﴾ [النور : ١] وقيل : إنه ضمن تركنا معنى قلنا . قال الكوفيون : جملة: ﴿**سلام على نوح فى العالمين** ﴾ فى محل نصب مفعول ﴿ **تركنا** ﴾ ، لأنه ضمن معنى قلنا . قال الكسائى : وفى قراءة ابن مسعود: « سلاما » منصوب بتركنا ، أى تركنا عليه ثناء حسنا . وقيل : المراد بالآخرين : أمة محمد ﷺ ، و﴿ **فى العالمين** ﴾ متعلق بما تعلق به الجار والمجرور الواقع خبرا ، وهو على نوح ، أى سلام ثابت أو مستمر أو مستقر على نوح فى العالمين من الملائكة والجن والإنس، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد ﷺ كما قيل ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه وبقاء الثناء من الله عليه وبقاء ذريته، أى إنا كذلك نجزى من كان محسنا فى أقواله وأفعاله راسخا فى الإحسان معروفا به ، والكاف فى ﴿ **كذلك** ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى جزاء كذلك الجزاء

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين وتعليل له بأنه كان عبدا مؤمنا مخلصا لله ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أى الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله ولا صدقوا نوحا .

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم وبين أنه ممن شايع نوحا فقال : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ أى من أهل دينه وممن شايعه ووافقه على الدعاء إلى الله وإلى توحيده والإيمان به. قال مجاهد: أى على منهاجه وسنته. قال الأصمعى : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد ، وقال الفراء : المعنى : وإن من شيعة محمد لإبراهيم ، فالهاء فى شيعته على هذا لمحمد ﷺ ، وكذا قال الكلبى . ولا يخفى ما فى هذا من الضعف والمخالفة للسياق . والظرف فى قوله : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ منصوب بفعل محذوف ، أى اذكر . وقيل : بما فى الشيعة من معنى المتابعة . قال أبو حيان : لا يجوز لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبى وهو إبراهيم ، والأولى أن يقال : إن لام الابتداء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها . والقلب السليم : المخلص من الشرك والشك . وقيل : هو الناصح لله فى خلقه . وقيل : الذى يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين : أحدهما : عند دعائه إلى توحيده وطاعته . الثانى : عند إلقائه فى النار .

وقوله : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ بدل من الجملة الأولى ، أو ظرف لسليم ، أو ظرف لجاء ، والمعنى : وقت قال لأبيه آزر وقومه من الكفار: أى شىء تعبدون . ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ انتصاب « إفكا » على أنه مفعول لأجله ، وانتصاب ﴿ آلهة ﴾ على أنه مفعول ﴿ تريدون ﴾ والتقدير : أتريدون آلهة من دون الله للإفك ، و﴿ دون ﴾ ظرف لـ ﴿ تريدون ﴾ ، وتقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام . وقيل : انتصاب « إفكا » على أنه مفعول به لـ ﴿ تريدون ﴾ و﴿ آلهة ﴾ بدل منه . جعلها نفس الإفك مبالغة ، وهذا أولى من الوجه الأول . وقيل : انتصابه على الحال من فاعل ﴿ تريدون ﴾ أى أتريدون آلهة آفكين أو ذوى إفك . قال المبرد : الإفك : أسوأ الكذب . وهو الذى لا يثبت ويضطرب ومنه ائتفكت بهم الأرض . ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ أى ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وما ترونه يصنع بكم ؟ وهو تحذير مثل قوله : ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ [الانفطار : ٦] وقيل : المعنى : أى شىء توهمتموه بالله حتى أشركتم به غيره ؟

﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم لتلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة ، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه . وأراد أن يتخلف عنهم فاعتل بالسقم ، وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدل بها على حاله. فلما نظر إليها قال: إنى سقيم ، أى سأسقم. وقال الحسن : إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل ، فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من

الرأى ، أى فيما طلع له منه ، فعلم أن كل شىء يسقم . ﴿ **فقال إنى سقيم** ﴾ . قال الخليل والمبرد : يقال للرجل إذا فكر فى الشىء يدبره : نظر فى النجوم . وقيل : كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تعتاده فيها الحمى . وقال الضحاك : معنى ﴿ **إنى سقيم** ﴾ : سأسقم سقم الموت ؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم فى الغالب ثم يموت ، وهذا تورية وتعريض كما قال للملك لما سأله عن سارة : هى أختى ، يعنى : أخوة الدين . وقال سعيد ابن جبير : أشار لهم إلى مرض يسقم ويعدى وهو الطاعون وكانوا يهربون من ذلك ، ولهذا قال : ﴿ **فتولوا عنه مدبرين** ﴾ أى تركوه وذهبوا مخافة العدوى . ﴿ **فراغ إلى آلهتهم** ﴾ يقال : راغ يروغ روغا وروغانا: إذا مال ، ومنه طريق رائغ ، أى مائل ، ومنه قول الشاعر :

فيريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

وقال السدى: ذهب إليهم ، وقال أبو مالك : جاء إليهم ، وقال الكلبى : أقبل عليهم ، والمعنى متقارب . ﴿ **فقال ألا تأكلون** ﴾ أى فقال إبراهيم للأصنام التى راغ إليها استهزاء وسخرية : ألا تأكلون من الطعام الذى كانوا يصنعونه لها ، وخاطبها كما يخاطب من يعقل ؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة ،وكذا قوله: ﴿ **مالكم لا تنطقون** ﴾ فإنه خاطبهم خطاب من يعقل ، والاستفهام للتهكم بهم لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق . قيل : إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم. وقيل : تركوه للسدنة . وقيل : إن إبراهيم هو الذى قرب إليها الطعام مستهزئا بها . ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ أى فمال عليهم يضربهم ضربا باليمين ، فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أو هو مصدر لراغ ، لأنه بمعنى ضرب . قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى بيده اليمنى يضربهم بها . وقال السدى : بالقوة والقدرة لأن اليمين أقوى اليدين . قال الفراء وثعلب : ضربا بالقوة ، واليمين القوة . وقال الضحاك والربيع بن أنس : المراد باليمين : اليمين التى حلفها حين قال : ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [الأنبياء: ٥٧] وقيل : المراد باليمين هنا : العدل كما فى قوله : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ﴾[الحاقة : ٤٤ ، ٤٥] أى بالعدل . واليمين كناية عن العدل كما أن الشمال كناية عن الجور ، وأول هذه الأقوال أولاها .

﴿ **فأقبلوا إليه يزفون** ﴾ أى أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها ، ويزفون فى محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا . قرأ الجمهور ﴿ **يزفون** ﴾ بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة ، وقرأ حمزة بضم الياء من أزف يزف ، أى دخل فى الزفيف أو يحملون غيرهم على الزفيف . قال الأصمعى : أزففت الإبل ، أى حملتها على أن تزف . وقيل : هما لغتان ، يقال : زف القوم وأزفوا ، وزفت العروس وأزففتها ، حكى ذلك عن الخليل . قال النحاس : زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، يعنى : يزفون بضم الياء ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء ، وشبهها بقولهم: أطردت الرحل ، أى صيرته إلى ذلك ، وقال المبرد : الزفيف : الإسراع . وقال الزجاج : الزفيف : أول عدو النعلم . وقال

قتادة والسدى : معنى يزفون : يمشون . وقال الضحاك : يسعون . وقال يحيى بن سلام : يرعدون غضبا . وقال مجاهد : يختالون ، أى يمشون مشى الخيلاء . وقيل : يتسللون تسللا بين المشى والعدو ، والأولى تفسير يزفون بيسرعون ، وقرئ : «يزفون » على البناء للمفعول ، وقرئ « يزفون » كيرمون . وحكى الثعلبى عن الحسن ومجاهد وابن السميفع أنهم قرؤوا «يرفون» بالراء المهملة ، وهى ركض بين المشى والعدو .

﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها فقال مبكتا لهم ومنكرا عليهم : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أى أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها ، والنحت : النجر والبرى ، نحته ينحته بالكسر نحتا ، أى براه ، والنحاتة : البراية ، وجملة : ﴿ والله خلقكم وما تعملون﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تعبدون ، و« ما » فى : ﴿ وما تعملون ﴾ موصولة ، أى وخلق الذى تصنعونه على العموم ويدخل فيها الأصنام التى ينحتونها دخولا أوليا ، ويكون معنى العمل هنا التصوير والنحت ونحوهما ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى خلقكم وخلق عملكم ، ويجوز أن تكون استفهامية ، ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقريع ، أى وأى شيء تعملون ، ويجوز أن تكون نافية ، أى إن العمل فى الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئا ، وقد طول صاحب الكشاف الكلام فى رد قول من قال إنها مصدرية ، ولكن بما لا طائل تحته ، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام .

وجملة : ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجملة التى قبلها ، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة ، فتشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له حائطا من حجارة ويملؤوه حطبا ويضرموه ، ثم يلقوه فيه ، والجحيم : النار الشديدة الاتقاد . قال الزجاج : وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم . واللام فى الجحيم عوض عن المضاف إليه ، أى فى جحيم ذلك البنيان ، ثم لما ألقوه فيها نجاه الله منها وجعلها عليه بردا وسلاما ، وهو معنى قوله : ﴿ فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ الكيد : المكر والحيلة ، أى احتالوا لإهلاكه فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين ، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التى لا يقدرون على دفعها ولا يمكنهم جحدها، فإن النار الشديدة الاتقاد العظيمة الاضطرام المتراكمة الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها بردا وسلاما ، ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل ، وصار المنكر له سافلا ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف ، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحا ، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير .

ولما انقضت هذه الوقعة وأسفر الصبح لذى عينين ، وظهرت حجة الله لإبراهيم ، وقامت براهين نبوته ، وسطعت أنوار معجزته ﴿ قال إنى ذاهب إلى ربى ﴾ أى مهاجر من بلد قومى ، الذين فعلوا ما فعلوا تعصبا للأصنام وكفرا بالله وتكذيبا لرسله إلى حيث أمرنى بالمهاجرة إليه.

أو إلى حيث أتمكن من عبادته ﴿ **سيهدين** ﴾ أى سيهدينى إلى المكان الذى أمرنى بالذهاب إليه أو إلى مقصدى . قيل : إن الله سبحانه أمره بالمصير إلى الشام ، وقد سبق بيان هذا فى سورة الكهف مستوفى . قال مقاتل : فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال : ﴿ **رب هب لى من الصالحين** ﴾ أى ولدا صالحا من الصالحين يعيننى على طاعتك ويؤنسنى فى الغربة هكذا قال المفسرون ، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها فى الولد ، فتحمل عند الإطلاق عليه ، وإذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به كما فى قوله : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ [مريم : ٥٣] وعلى فرض أنها لم تغلب فى طلب الولد فقوله : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ يدل على أنه ما أراد بقوله: ﴿ **رب هب لى من الصالحين** ﴾ إلا الولد ، ومعنى حليم : أن يكون حليما عند كبره ، فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر ويصير حليما ، لأن الصغير لا يوصف بالحلم . قال الزجاج : هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر ، وأنه يبقى حتى ينتهى فى السن ويوصف بالحلم .

﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ فى الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة والتقدير : فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التى يسعى فيها مع أبيه فى أمور دنياه . قال مجاهد: ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى شب وأدرك سعيه سعى إبراهيم . وقال مقاتل : لما مشى معه . قال الفراء :كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة . وقال الحسن : هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة . وقال ابن زيد : هو السعى فى العبادة . وقيل :هو الاحتلام ﴿ **قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ : إنى رأيت فى المنام هذه الرؤيا . قال مقاتل : رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات . قال قتادة : رؤيا الأنبياء حق ، إذا رأوا شيئا فعلوه .

وقد اختلف أهل العلم فى الذبيح : هل هو إسحاق أو إسماعيل ؟ قال القرطبى : فقال أكثرهم : الذبيح : إسحاق وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله ، وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود ، ورواه أيضا عن جابر وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وعمر بن الخطاب ، قال : فهؤلاء سبعة من الصحابة . قال : ومن التابعين وغيرهم علقمة والشعبى ومجاهد وسعيد بن جبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبى برزة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهرى والسدى وعبد الله بن أبى الهذيل ومالك بن أنس كلهم قالوا : الذبيح إسحاق ، وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد ، منهم النحاس وابن جرير الطبرى وغيرهما . قال : وقال آخرون : هو إسماعيل ، وممن قال بذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا ، ومن التابعين سعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظى والكلبى وعلقمة ، وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعى أين عزب عنك عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان

إسماعيل بمكة[١] . قال ابن كثير فى تفسيره : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة وليس فى ذلك كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأخذ مسلما من غير حجة ، وكتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح، وقال بعد ذلك : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾[٢] اهـ .

واحتج القائلون بأنه إسحاق بأن الله عز وجل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال : ﴿ **إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾ أنه دعا فقال : ﴿ **رب هب لى من الصالحين** ﴾ فقال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ [مريم : ٤٩] ولأن الله قال : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ فذكر أنه فى الغلام الحليم الذى بشر به إبراهيم ، وإنما بشر بإسحاق ، لأنه قال : ﴿ **وبشرناه بإسحاق** ﴾ وقال هنا : ﴿ **بغلام حليم** ﴾ وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن يصير له إسماعيل ، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. قال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح ا. هـ . وما استدل به الفريقان يمكن الجواب عنه والمناقشة له .

ومن جملة ما احتج به من قال إنه إسماعيل بأن الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما فى قوله : ﴿ وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ [الأنبياء : ٨٥] وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد فى قوله : ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ [مريم : ٥٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح ، فوفى به ، ولأن الله سبحانه قال: ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا** ﴾ فكيف يأمره بذبحه ، وقد وعده أن يكون نبيا ؟ وأيضا فإن الله قال : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ [هود : ٧١] فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد فى يعقوب ؟ وأيضا ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة ،فدل على أن الذبيح إسماعيل ، ولو كان إسحاق لكان الذبح واقعا ببيت المقدس وكل هذا أيضا يحتمل المناقشة ﴿ **فانظر ماذا ترى** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : «ترى» بضم الفوقية وكسر الراء ، والمفعولان محذوفان ، أى انظر ماذا ترينى إياه من صبرك واحتمالك . وقرأ الباقون من السبعة بفتح التاء والراء من الرأى ، وهو مضارع رأيت ، وقرأ الضحاك والأعمش : « ترى » بضم التاء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، أى ماذا يخيل إليك ويسنح لخاطرك . قال الفراء فى بيان معنى القراءة الأولى : انظر ماذا ترى من صبرك وجزعك . قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره ، وإنما قال العلماء ماذا تشير ، أى ما تريك نفسك من الرأى ، وقال أبو عبيد : إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة وكذا قال

---

(١) القرطبى ٨/ ٥٥٤٤ .

(٢) ابن كثير ٦/ ٢٤ . وما قاله هو الصواب ، فإن الصحيح المقطوع به هو أن إسماعيل هو الذبيح ، ويوضح هذا أن الله بعد أن ذكر قصة ذبحه بشر إبراهيم بابنه إسحاق ، ثم إن إسماعيل هو الذى كان بمكة . وأما من قال بأن الذبيح إسحاق فكلامه مأخوذ من أقوال كعب الأحبار والله أعلم ، ولسنا بحاجة إلى حرف من كتبه .

أبو حاتم ، وغلطهما النحاس وقال : هذا يكون من رؤية العين وغيرها ، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح ، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله ، وإلا فرؤيا الأنبياء وحى ، وامتثالها لازم لهم متحتم عليهم .

﴿ **قال يا أبت افعل ما تؤمر** ﴾ أى ما تؤمر به مما أوحى إليك من ذبحى ، و« ما » موصولة. وقيل : مصدرية على معنى : افعل أمرك ، والمصدر مضاف إلى المفعول ، وتسمية المأمور به أمرا ، والأول أولى . ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ على ما ابتلانى به من الذبح . والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبركا بها منه . ﴿ **فلما أسلما** ﴾ أى استسلما لأمر الله وأطاعاه وانقادا له . قرأ الجمهور : « أسلمنا » وقرأ على وابن مسعود وابن عباس : « فلما سلما » أى فوضا أمرهما إلى الله ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ : « استسلما » قال قتادة : أسلم أحدهما نفسه لله وأسلم الآخر ابنه ، يقال : سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد. وقد اختلف فى جواب « لما » ماذا هو ؟ فقيل : هو محذوف ، وتقديره : ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما أو فديناه بكبش. هكذا قال البصريون . وقال الكوفيون : الجواب هو : ﴿**ناديناه** ﴾ ، والواو زائدة مقحمة ، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعانى ولا يجوز أن تزاد ، وقال الأخفش الجواب : ﴿ **وتله للجبين** ﴾ والواو زائدة، وروى هذا أيضا عن الكوفيين ، واعتراض النحاس يرد عليه كما رد على الأول. ﴿ **وتله للجبين** ﴾ التل : الصرع والدفع ، يقال تللت الرجل : إذا ألقيته ، والمراد: أنه أضجعه على جبينه على الأرض ، والجبين : أحد جانبى الجبهة ، فللوجه جبينان والجبهة بينهما . وقيل : كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه . واختلف فى الموضع الذى أراد ذبحه فيه ، فقيل : هو مكة فى المقام . وقيل : فى المنحر بمنى عند الجمار . وقيل : على الصخرة التى بأصل جبل ثبير ، وقيل : بالشام .

﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ أى عزمت على الإتيان بما رأيته . قال المفسرون : لما أضجعه للذبح نودى من الجبل : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وجعله مصدقا بمجرد العزم وإن لم يذبحه ؛ لأنه قد أتى بما أمكنه ، والمطلوب استسلامهما لأمر الله وقد فعلا. قال القرطبى : قال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. قال: ومعنى ﴿**صدقت الرؤيا** ﴾ : فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك ، هذا أصح ما قيل فى هذا الباب . وقالت طائفة : ليس هذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشىء : قطعته ، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين فيمر بها على حلقه فتنقلب كما قال مجاهد . وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءا التأم ، وقالت طائفة منهم السدى : ضرب الله على عنقه صفيحة نحاس ، فجعل إبراهيم يحز ولا يقطع شيئا. وقال بعضهم : إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقى الذى هو فرى الأوداج وإنهار الدم ، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح ، فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقى فلما

أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له : ﴿ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى نجزيهم بالخلاص من الشدائد والسلامة من المحن ، فالجملة كالتعليل لما قبلها . قال مقاتل : جزاه الله سبحانه بإحسانه فى طاعته ، العفو عن ذبح ابنه .

﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ البلاء والابتلاء : الاختبار ، والمعنى : إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله فى طاعته بذبح ولده . وقيل : المعنى : إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح وفداه بالكبش، يقال : أبلاه الله إبلاء وبلاء : إذا أنعم عليه ، والأول أولى ، وإن كان الابتلاء يستعمل فى الاختبار بالخير والشر ، ومنه : ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ولكن المناسب للمقام المعنى الأول . قال أبو زيد: هذا فى البلاء الذى نزل به فى أن يذبح ولده . قال: وهذا من البلاء المكروه . ﴿ وفديناه بذبح عظيم﴾ الذبح : اسم المذبوح وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون ، وبالفتح المصدر ، ومعنى عظيم : عظيم القدر ، ولم يرد عظم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح ، أو لأنه متقبل. قال النحاس : العظيم فى اللغة يكون للكبير وللشريف ، وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف ، أى المتقبل . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : أنزل عليه كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال الحسن : ما فدى إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه. قال الزجاج : قد قيل إنه فدى بوعل ، والوعل : التيس الجبلى ، ومعنى الآية : جعلنا الذبح فداء له وخلصناه به من الذبح ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين .سلام على إبراهيم ﴾ أى فى الأمم الآخرة التى تأتى بعده ، والسلام : الثناء الجميل. وقال عكرمة : سلام منا ، وقيل : سلامة من الآفات ، والكلام فى هذا كالكلام فى قوله : ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾ وقد تقدم فى هذه السورة بيان معناه ، ووجه إعرابه .

﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من انقاد لأمر الله . ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أى الذين أعطوا العبودية حقها ورسخوا فى الإيمان بالله وتوحيده . ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ أى بشرنا إبراهيم بولد يولد له ويصير نبيا بعد أن يبلغ السن التى يتأهل فيها لذلك ، وانتصاب ﴿ نبيا ﴾ على الحال ، وهى حال مقدرة . قال الزجاج: إن كان الذبيح إسحاق فيظهر كونها مقدرة والأولى أن يقال : إن من فسر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته . وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه ، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة . فإن وجود ذى الحال ليس بشرط ، وإنما الشرط المقارنة للفعل ، و﴿ من الصالحين ﴾ كما يجوز أن يكون صفة لنبيا ، يجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر فيه ، فتكون أحوالا متداخلة . ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ أى على إبراهيم وعلى إسحاق بمرادفة نعم الله عليهما . وقيل : كثرنا ولدهما . وقيل : إن الضمير فى ﴿عليه﴾ يعود إلى إسماعيل وهو بعيد . وقيل : المراد بالمباركة هنا : هى الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة . ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ أى محسن فى عمله بالإيمان والتوحيد ،

وظالم لها بالكفر والمعاصى. لما ذكر سبحانه البركة فى الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف والمحتد المبارك ليس بنافع لهم ، بل إنما ينتفعون بأعمالهم لابآبائهم ، فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين ، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ يقول : لم يبق إلا ذرية نوح ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ يقول : يذكر بخير . وأخرج الترمذى وحسنه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ قال : حام وسام ويافث. وأخرج ابن سعد وأحمد ، والترمذى وحسنه وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن سمرة أيضا ؛ أن النبى ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » (١) والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة ، وفى سماعه منه مقال معروف ، وقد قيل : إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط وما عداه فبواسطة . قال ابن عبد البر : وقد روى عن عمران ابن حصين عن النبى ﷺ مثله . وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، والخطيب فى تالى التلخيص عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم ، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم ، وولد حام القبط والبربر والسودان » وهو من حديث إسماعيل بن عياش (٢) عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب عنه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ قال : من أهل دينه . وأخرج عبد بن حميد عنه فى قوله : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ قال : مريض . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : مطعون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فأقبلوا إليه يزفون** ﴾ قال : يخرجون. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **قال إنى ذاهب إلى ربى** ﴾ قال : حين هاجر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ قال: العمل . وأخرج الطبرانى عنه أيضا قال : لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق قال لأبيه : إذا ذبحتنى فاعتزل لا أضطرب فينتضح عليك دمى، فشده ، فلما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودى من خلفه : ﴿ **أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾. وأخرج أحمد عنه أيضا مرفوعا مثله مع زيادة (٣) . وأخرجه عنه موقوفا .

(١) ابن سعد ٤٢/١ وأحمد ٩/٥ والترمذى فى المناقب (٣٩٣١) وقال : « هذا حديث حسن » والطبرانى (٦٨٧١) ، وصححه الحاكم ٥٤٦/٢ ووافقه الذهبى .

(٢) سبق ترجمته .

(٣) أحمد ٣٠٦/١ وقال الهيثمى فى المجمع ٢٦٢/٣ : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » وقد صححه الشيخ شاكر فى تعليقه على المسند (٢٧٩٥) إلا قوله : ابنه إسحاق . فقال : « هو خطأ من ابن السائب فالذبيح هو إسماعيل » .

وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضا فى قوله : ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ قال : من شيعة نوح على منهاجه وسننه ﴿فلما بلغ معه السعى﴾ قال : شب حتى بلغ سعيه سعى أبيه فى العمل ﴿فلما أسلما﴾ : سلما ما أمر به ﴿وتله﴾ : وضع وجهه إلى الأرض ، فقال : لا تذبحنى وأنت تنظر عسى أن ترحمنى ، فلا تجهز على ، وأن أجزع فأنكص فأمتنع منك ، ولكن اربط يدى إلى رقبتى ثم ضع وجهى إلى الأرض . فلما أدخل يده ليذبحه فلم تصل المدية حتى نودى : أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده ، قوله : ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ :بكبش عظيم متقبل ، وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « رؤيا الأنبياء وحى » وأخرجه البخارى وغيره من قول عبيد بن عمير واستدل بهذه الآية (٢) . وأخرج ابن جرير والحاكم من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن ابن عباس قال : الذبيح : إسماعيل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق مجاهد ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال :الذبيح : إسماعيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق يوسف بن ماهك وأبى الطفيل عن ابن عباس قال : الذبيح : إسماعيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عمر فى قوله : ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال : إسماعيل ذبح عنه إبراهيم الكبش . وأخرج عبد بن حميد من طريق الفرزدق الشاعر قال : رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله ﷺ ويقول : إن الذى أمر بذبحه : إسماعيل . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « قال نبى الله داود : يارب أسمع الناس يقولون : رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب فاجعلنى رابعا ، قال : إن إبراهيم ألقِى فى النار فصبر من أجلى ، وإن إسحاق جاد لى بنفسه ، وإن يعقوب غاب عنه يوسف ، وتلك بلية لم تنلك » (٣) وفى إسناده الحسن بن دينار البصرى ، وهو متروك عن على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف . وأخرج الديلمى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا نحوه . وأخرج الدارقطنى فى الأفراد ، والديلمى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « الذبيح إسحاق ». وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب عن النبى ﷺ قال : « الذبيح إسحاق » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن بهار وكانت له صحبة ، قال : إسحاق ذبيح الله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن مسعود قال : سئل النبى ﷺ من أكرم الناس ؟ قال : « يوسف بن

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٣٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى فى الوضوء (٢٣٨)؛وابن جرير ٢٣/ ٥٠ .

(٣) ابن جرير ٢٣/ ٥١ وصححه الحاكم ٢ / ٥٥٦ ووافقه الذهبى .

يعقوب بن إسحاق ذبيح الله » . وأخرج عبد الرزاق، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : الذبيح : إسحاق . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال : الذبيح :إسحاق . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر والحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الذبيح:إسحاق .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتله للجبين** ﴾ قال : أكبه على وجهه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : صرعه للذبح . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال : كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة فى أصل ثبير . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : فدى إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن رجلا قال : نذرت لأنحر نفسى ، فقال ابن عباس: لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، ثم تلا : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ ، فأمره بكبش فذبحه . وأخرج الطبرانى من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده .

وبما سقناه من الاختلاف فى الذبيح هل هو إسحاق أو إسماعيل ؟ وما استدل به المختلفون فى ذلك تعلم أنه لم يكن فى المقام ما يوجب القطع أو يتعين رجحانه تعيينًا ظاهرا ، وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير فإنه رجح أنه إسحاق ، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه هاهنا ، وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل ، وجعل الأدلة على ذلك أقوى وأصح ، وليس الأمر كما ذكره ، فإنها إن لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها ولا أرجح منها ، ولم يصح عن رسول الله ﷺ فى ذلك شىء ، وما روى عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جدا . ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، وهى محتملة ولا تقوم حجة بمحتمل ، فالوقف هو الذى لا ينبغى مجاوزته ، وفيه السلامة من الترجيح ، بلا مرجح ، ومن الاستدلال بما هو محتمل .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ

آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح ، وما من عليه بعد ذلك من النبوة ذكر ما من به على موسى وهارون ، فقال : ﴿ **ولقد مننا على موسى وهارون** ﴾ يعني : بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهما . ﴿ **ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم** ﴾ المراد بقومهما هم : المؤمنون من بني إسرائيل ، والمراد بالكرب العظيم هو : ما كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم ، وما كان يصيبهم من جهته من البلاء ، وقيل : هو الغرق الذي أهلك فرعون وقومه ، والأول أولى . ﴿ **ونصرناهم** ﴾ جاء بضمير الجماعة . قال الفراء : الضمير لموسى وهارون وقومهما ، لأن قبله : ﴿ **نجيناهما وقومهما** ﴾ والمراد بالنصر : التأييد لهم على عدوهم ﴿ **فكانوا** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **هم الغالبين** ﴾ على عدوهم بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم . وقيل : الضمير في ﴿ **نصرناهم**﴾ عائد على الاثنين موسى وهارون تعظيما لهما ،والأول أولى. ﴿ **وآتيناهما الكتاب المستبين** ﴾ المرادبالكتاب : التوارة ، والمستبين : البين الظاهر ، يقال استبان كذا ، أي صار بينا . ﴿ **وهديناهما الصراط المستقيم** ﴾ أي القيم لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب ﴿ **وتركنا عليهما في الآخرين . سلام على موسى وهارون** ﴾ أي أبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، وقد قدمنا الكلام في السلام وفي وجه إعرابه بالرفع ، وكذلك تقدم تفسير ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾ في هذه السورة .

﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين** ﴾ قال المفسرون : هو نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وقصته مشهورة مع قومه . قيل : وهو إلياس بن يس من سبط هارون أخي موسى . قال ابن إسحاق وغيره : كان إلياس هو القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع ، وقيل : هو إدريس ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ **إلياس** ﴾ بهمزة مكسورة مقطوعة ، وقرأ ابن ذكوان بوصلها ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر ، وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب : « وإن إدريس لمن

المرسلين » وقرأ أبى :« وإن إيليس» بهمزة مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم لام مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم سين مهملة مفتوحة ﴿ **إذ قال لقومه ألا تتقون** ﴾ هو ظرف لقوله : ﴿ **من المرسلين** ﴾ ، أو متعلق بمحذوف ، أى اذكر يا محمد إذ قال ، والمعنى : ألا تتقون عذاب الله ؟ . ثم أنكر عليهم بقوله : ﴿ **أتدعون بعلا** ﴾ هو اسم لصنم كانوا يعبدونه ، أى أتعبدون صنما وتطلبون الخير منه ؟ قال ثعلب : اختلف الناس فى قوله سبحانه: ﴿ **بعلا** ﴾ فقالت طائفة : البعل هنا : الصنم ، وقالت طائفة : البعل هنا : ملك، وقال ابن إسحاق : امرأة كانوا يعبدونها . قال الواحدى : والمفسرون يقولون : ربا ، وهو بلغة اليمن ، يقولون للسيد والرب : البعل . قال النحاس : القولان صحيحان ، أى أتدعون صنما عملتموه ربا ؟ ﴿ **وتذرون أحسن الخالقين** ﴾ أى وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وانتصاب الاسم الشريف فى قوله : ﴿ **الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ على أنه بدل من ﴿ **أحسن** ﴾ ، هذا على قراءة حمزة والكسائى والربيع ابن خثيم وابن أبى إسحاق ويحيى بن وثاب والأعمش ، فإنهم قرؤوا بنصب الثلاثة الأسماء . وقيل : النصب على المدح . وقيل :على عطف البيان ، وحكى أبو عبيد أن النصب على النعت . قال النحاس : وهو غلط وإنما هو بدل ، ولا يجوز النعت لأنه ليس بتحلية. واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع . قال أبو حاتم : بمعنى : هو الله ربكم . قال النحاس : وأولى ما قيل: إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف . وحكى عن الأخفش أن الرفع أولى وأحسن . قال ابن الأنبارى: من رفع أو نصب لم يقف على ﴿ **أحسن الخالقين** ﴾ على جهة التمام لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعا ، والمعنى: أنه خالقكم وخالق من قبلكم فهو الذى تحق له العبادة .

﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون** ﴾ أى فإنهم بسبب تكذيبه لمحضرون فى العذاب ، وقد تقدم أن الإحضار المطلق، مخصوص بالشر . ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى من كان مؤمنا به من قومه ، قرئ بكسر اللام وفتحها كما تقدم ، والمعنى على قراءة الكسر : أنهم أخلصوا لله ؛ وعلى قراءة الفتح : أن الله استخلصهم من عباده . وقد تقدم تفسير ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين** ﴾ قرأ نافع وابن عامر والأعرج وشيبة على :﴿ **آل ياسين** ﴾ باضافة آل بمعنى : آل ياسين ، وقرأ الباقون بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بياسين إلا الحسن ، فإنه قرأ «الياسين» بإدخال آلة التعريف على ياسين . قيل : المراد على هذه القراءات :كلها إلياس وعليه وقع التسليم ، ولكنه اسم أعجمى ، والعرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها . قال ابن جنى : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا ؛ فياسين وإلياس وإلياسين شىء واحد . قال الأخفش : العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون : المهالبة، على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب . قال : فعلى هذا إنه سمى كل رجل منهم بالياسين . قال الفراء : يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعا فيجعل أصحابه داخلين معه فى

اسمه . قال أبو علي الفارسي : تقديره : الياسين ، إلا أن الياءين للنسبة حذفتا كما حذفتا في الأشعرين والأعجمين . ورجح الفراء وأبو عبيدة قراءة الجمهور قالا : لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان ، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين لأنه إنما هو بمعنى إلياس أو بمعنى إلياس وأتباعه . وقال الكلبي : المراد بآل ياسين : آل محمد .قال الواحدي : وهذا بعيد لأن ما بعده من الكلام وما قبله لا يدل عليه ، وقد تقدم تفسير ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ مستوفى .

﴿ وإن لوطا لمن المرسلين ﴾ قد تقدم ذكر قصة لوط مستوفاة . ﴿ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر ولا يصح تعلقه بالمرسلين ، لأنه لم يرسل وقت تنجيته . ﴿إلا عجوزا في الغابرين ﴾ قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى الماضي ، ويكون بمعنى الباقي ، فالمعنى : إلا عجوزا في الباقين في العذاب ، أو الماضين الذين قد هلكوا. ﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم بالعقوبة ، والمعنى : أن في نجاته وأهله جميعا إلا العجوز ، وتدمير الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بينة على ثبوت كونه من المرسلين. ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ﴾ خاطب بهذا العرب أو أهل مكة على الخصوص ، أي تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب وقت الصباح ﴿ وبالليل ﴾ والمعنى:تمرون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام ورجوعكم منه نهارا وليلا ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم ، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين وموعظة للمتدبرين ؟. ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ يونس: هو ذو النون ، وهو ابن متى . قال المفسرون : وكان يونس قد وعد قومه العذاب ، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم وقصد البحر وركب السفينة ، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه فوصف بالإباق ، وهو معنى قوله : ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ وأصل الإباق: الهرب من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به . وقال المبرد : تأويل أبق :تباعد ، أي ذهب إليه ، ومن ذلك قولهم عبد آبق . وقد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده ؟ ومعنى المشحون : المملوء ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ المساهمة : أصلها المغالبة وهي الاقتراع ، وهو أن يخرج السهم على من غلب . قال المبرد: أي فقارع . قال : وأصله من السهام التي تجال ، ومعنى ﴿ فكان من المدحضين ﴾ : فصار من المغلوبين . قال : يقال: دحضت حجته وأدحضها الله ، وأصله من الزلق عن مقام الظفر ، ومنه قول الشاعر :

قتلنا المدحضين بكل فج ‏ ‏ ‏ فقد قرت بقتلهم العيون

أي المغلوبين ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ يقال: لقمت اللقمة والتقمتها : إذا ابتلعتها ، أي فابتلعه الحوت، ومعنى ﴿ وهو مليم ﴾ : وهو مستحق للوم ، يقال : رجل مليم : إذا أتى بما يلام عليه ، وأما الملوم فهو الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا . وقيل : المليم : المعيب ، يقال : ألام الرجل : إذا عمل شيئا صار به معيبا . ومعنى هذه المساهمة: أن

يونس لما ركب السفينة احتبست ، فقال الملاحون : هاهنا عبد أبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لاتجرى، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس ، فقال : أنا الآبق وزج نفسه فى الماء . قال سعيد بن جبير : لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه فى الماء أخذه الحوت . ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أى الذاكرين لله ، أو المصلين له . ﴿ للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أى لصار بطن الحوت له قبرا إلى يوم البعث . وقيل : للبث فى بطنه حيا . واختلف المفسرون : كم أقام فى بطن الحوت ؟ فقال السدى والكلبى ومقاتل بن سليمان : أربعين يوما. وقال الضحاك : عشرين يوما . وقال عطاء : سبعة أيام . وقال مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . وقيل: ساعة واحدة . وفى هذه الآية ترغيب فى ذكر الله وتنشيط للذاكرين له . ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ النبذ : الطرح . والعراء : قال ابن الأعرابى: هو الصحراء، وقال الأخفش : الفضاء ، وقال أبو عبيدة : الواسع من الأرض ، وقال الفراء : المكان الخالى. وروى عن أبى عبيدة أيضا أنه قال : هو وجه الأرض ، وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعت رجلا لا أخاف عثارها ونبذت بالبلد العراء ثيابى

والمعنى : أن الله طرحه من بطن الحوت فى الصحراء الواسعة التى لا نبات فيها ، وهو عند إلقائه سقيم لما ناله فى بطن الحوت من الضرر ، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد .

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ ، وقوله فى موضع آخر : ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ [القلم:٤٩] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء . وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبر هاهنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم ، ولولا رحمته عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم . ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ أى شجرة فوقه تظلل عليه . وقيل : معنى ﴿ عليه ﴾ : عنده . وقيل : معنى ﴿ عليه ﴾ : له . واليقطين : هى شجرة الدباء . وقال المبرد : اليقطين : يقال لكل شجرة ليس لها ساق ، بل تمتد على وجه الأرض نحو الدباء والبطيخ والحنظل ، فإن كان لها ساق يقلها فيقال لها: شجرة فقط ، وهذا قول الحسن ومقاتل وغيرهما. وقال سعيد بن جبير : هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه . قال الجوهرى : اليقطين : ما لا ساق له من شجر كشجر القرع ونحوه . قال الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان، أى أقام به فهو يفعيل . وقيل : هو اسم أعجمى . قال المفسرون : كان يستظل بظلها من الشمس ، وقيض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة وعشية ، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه ونبت شعره ثم أرسله الله بعد ذلك ، وهو معنى قوله : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر وجرى له ما جرى بعد هربه ، كما قصه الله علينا فى هذه السورة وهم أهل نينوى . قال قتادة : أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل ، وقد مر الكلام على قصته فى سورة يونس مستوفى ، و« أو » فى : ﴿ أو يزيدون ﴾ قيل : هى بمعنى الواو ،

والمعنى : ويزيدون . وقال الفراء : أو هاهنا :بمعنى بل ، وهو قول مقاتل والكلبي . وقال المبرد والزجاج والأخفش : أو هنا على أصله ، والمعنى : أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الرائي قال : هؤلاء مائة ألف أو يزيدون ، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين . قال مقاتل والكلبي : كانوا يزيدون عشرين ألفا . وقال الحسن : بضعا وثلاثين ألفا . وقال سعيد ابن جبير : سبعين ألفا . وقرأ جعفر بن محمد: «ويزيدون » بدون ألف الشك .

وقد وقع الخلاف بين المفسرين : هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له ، وتكون الواو في ﴿وأرسلناه ﴾ لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت وبين إرساله إلى قومه، من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق وتأخير ما تأخر ، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين ، وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر أو لم يرسل إلا بعد ذلك ؟ والراجح أنه كان رسولا قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس وبقي مستمرا على الرسالة ، وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته. ﴿ **فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ أي وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إلياس هو إدريس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال ﷺ : «الخضر هو إلياس » . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل وضعفه عن أنس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزل منزلا فإذا رجل في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفور المثاب لها، فأشرفت على الوادي فإذا طوله ثمانون ذراعا وأكثر ، فقال : من أنت ؟ فقلت : أنس خادم رسول الله ﷺ ، فقال : أين هو ؟ فقلت : هو ذا يسمع كلامك، قال : فأته وأقرئه مني السلام وقل له : أخوك إلياس يقرئك السلام ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى عانقه وقعدا يتحدثان ، فقال له : يا رسول الله ، إني إنما آكل في كل سنة يوما وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت ، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز وحوت وكرفس، فأكلا وأطعماني وصليا العصر ثم ودعه، ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء (١). قال الذهبي متعقبا لتصحيح الحاكم له: بل موضوع قبح الله من وضعه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ **أتدعون بعلا** ﴾ قال : صنما .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه في قوله: ﴿ **سلام على إل ياسين** ﴾ قال: نحن آل محمد آل ياسين. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : بعث الله

---

(١) الحاكم ٢/٦١٧ والبيهقي في الدلائل ٥/ ٤٢٢ .

يونس إلى أهل قريته فردوا عليه ما جاءهم به فامتنعوا منه ، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه إنى مرسل عليهم العذاب فى يوم كذا وكذا ، فاخرج من بين أظهرهم ، فأعلم قومه الذى وعد الله من عذابه إياهم ، فقالوا : ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم ، فلما كانت الليلة التى وعدوا بالعذاب فى صبيحتها أدلج فرآه القوم فحذروا ، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم وفرقوا بين كل دابة وولدها ، ثم عجوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله ، وانتظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مر به مار ، فقال : ما فعل أهل القرية ؟ قال : إن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب ، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض ، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها ثم عجوا إلى الله وتابوا إليه ، فتقبل منهم وأخر عنهم العذاب ، فقال يونس عند ذلك : لا أرجع إليهم كذابا أبدا ومضى على وجهه ، وقد قدمنا الكلام على قصته وما روى فيها فى سورة يونس فلا نكرره .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فساهم** ﴾ قال: اقترع ﴿**فكان من المدحضين** ﴾ قال: المقروعين . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وهو مليم** ﴾ قال : مسيء . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وأحمد فى الزهد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ قال : من المصلين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **فنبذناه بالعراء** ﴾ قال : ألقيناه بالساحل . وأخرج هؤلاء عنه أيضا : ﴿ **شجرة من يقطين** ﴾ قال : القرع . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عنه أيضا قال : اليقطين : كل شيء يذهب على وجه الأرض . وأخرج أحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عنه أيضا قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت ، ثم تلا : ﴿ **فنبذناه بالعراء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف** ﴾ وقد تقدم عنه ما يدل على أن رسالته كانت من قبل ذلك ، وليس فى الآية ما يدل على ما ذكره كما قدمنا . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ قال : يزيدون عشرين ألفا (١) . قال الترمذى : غريب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : يزيدون ثلاثين ألفا. وروى عنه أنهم يزيدون بضعة وثلاثين ألفا . وروى عنه أنهم يزيدون بضعة وأربعين ألفا، ولا يتعلق بالخلاف فى هذا كثير فائدة .

﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ**

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٢٩) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢٣/٦٧ .

﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

لما كانت قريش وقبائل من العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله أمر الله سبحانه رسوله ﷺ باستفتائهم على طريقة التقريع والتوبيخ ، فقال : ﴿فاستفتهم﴾ يا محمد ، أى استخبرهم ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ أى كيف يجعلون لله ، على تقدير صدق ما زعموه من الكذب ، أدنى الجنسين وأوضعهما وهو الإناث ، ولهم أعلاهما وأرفعهما وهم الذكور ؟ وهل هذا إلا حيف فى القسمة لضعف عقولهم وسوء إدراكهم ؟ ومثله قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى﴾ [النجم: ٢١ ، ٢٢]. ثم زاد فى توبيخهم وتقريعهم فقال : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ﴾ فاضرب عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه فى التبكيت والتهكم بهم، أى كيف جعلوهم إناثا وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم ؟ وهذا كقوله: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ﴾ [الزخرف : ١٩] فبين سبحانه أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ولم يشهدوا ، ولا دل دليل على قولهم من السمع ، ولا هو مما يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم .

ثم أخبر سبحانه عن كذبهم فقال : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ فبين سبحانه أن قولهم هذا هو من الإفك والافتراء من دون دليل ولا شبهة دليل فإنه لم يلد ولم يولد . قرأ الجمهور : ﴿ ولد الله ﴾ فعلا ماضيا مسندا إلى الله . وقرئ بإضافة ولد إلى الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أى يقولون : الملائكة ولد الله ، والولد بمعنى مفعول يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث . ثم كرر سبحانه تقريعهم وتوبيخهم فقال :

﴿ **أصطفى البنات على البنين** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكارى. وقد حذف معها همزة الوصل استغناء به عنها ، وقرأ نافع فى رواية عنه وأبو جعفر وشيبة والأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداء وتسقط درجا ، ويكون الاستفهام منويا قاله الفراء . وحذف حرفه للعلم به من المقام ، أو على أن اصطفى وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول . وعلى تقدير عدم الاستفهام والبدل . فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام كما فى قوله: ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] وقيل: هو على إضمار القول . ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ جملتان استفهاميتان ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب : استفهمهم أولا عما استقر لهم وثبت استفهام بإنكار ، وثانيا: استفهام تعجب من هذا الحكم الذى حكموا به ، والمعنى : أى شىء ثبت لكم كيف تحكمون لله بالبنات وهم القسم الذى تكرهونه ، ولكم بالبنين وهم القسم الذى تحبونه ؟ ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ أى تتذكرون فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى : ألا تعتبرون وتتفكرون فتتذكرون بطلان قولكم ؟ ﴿ **أم لكم سلطان مبين** ﴾ أى حجة واضحة ظاهرة على هذا الذى تقولونه ، وهو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ ، وانتقال من تقريع إلى تقريع . ﴿ **فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾ أى فأتوا بحجتكم الواضحة على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه ، أو فأتوا بالكتاب الذى ينطق لكم بالحجة ويشتمل عليها .

﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا** ﴾ قال أكثر المفسرين: إن المراد بالجنة هنا : الملائكة . قيل: لهم جنة ؛ لأنهم لا يرون . وقال مجاهد : هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة . وقال أبو مالك : إنما قيل لهم الجنة ؛ لأنهم خزان على الجنان . والنسب : الصهر . قال قتادة والكلبى : قالوا لعنهم الله : إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من أولادهم . قالا : والقائل بهذه المقالة اليهود . وقال مجاهد والسدى ومقاتل : إن القائل بذلك كنانة وخزاعة قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن . وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهو النسب الذى جعلوه . ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون** ﴾ أى علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار ويعذبون فيها . وقيل : علمت الجنة أنهم أنفسهم يحضرون للحساب . والأول أولى ، لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد العذاب . وقيل: المعنى : ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة . ثم نزه سبحانه نفسه فقال :﴿ **سبحان الله عما يصفون** ﴾ أو هو حكاية لتنزيه الملك لله عز وجل عما وصفه به المشركون ، والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ منقطع ، والتقدير : لكن عباد الله المخلصين بريئون عن أن يصفوا الله بشىء من ذلك . وقد قرئ بفتح اللام وكسرها ومعناهما ما بيناه قريبا . وقيل : هو استثناء من المحضرين ، أى إنهم يحضرون النار إلا من أخلص ، فيكون متصلا لامنقطعا ، وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة .

ثم خاطب الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص فقال : ﴿ **فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين** ﴾ أى فإنكم وآلهتكم التى تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عباده وإضلالهم ، وعلى متعلقة بفاتنين ، والواو فى : ﴿**وما تعبدون** ﴾ إما للعطف على اسم إن ، أو هو بمعنى مع ، وما موصولة أو مصدرية ، أى فإنكم والذى تعبدون أو وعبادتكم ، ومعنى ﴿ **فاتنين** ﴾ : مضلين ، يقال : فتنت الرجل وأفتنته ، ويقال : فتنه على الشىء وبالشىء كما يقال : أضله على الشىء وأضله به . قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : فتنته ، وأهل نجد يقولون : أفتنته ، ويقال : فتن فلان على فلان امرأته ، أى أفسدها عليه ، فالفتنة هنا بمعنى الإضلال والإفساد . قال مقاتل : يقول : ما أنتم بمضلين أحدا بآلهتكم إلا من قدر الله له أن يصلى الجحيم ، « وما» فى : ﴿ **ما أنتم** ﴾ نافية و﴿ **أنتم** ﴾ خطاب لهم ولمن يعبدونه على التغليب . قال الزجاج : أهل التفسير مجمعون فيما علمت أن المعنى : ما أنتم بمضلين أحدا إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل ، ومنه قول الشاعر :

فــرد بفتنته ، كيــده   عليـه ، وكـان لنـا فاتنا

أى مضلا ﴿ **إلا من هو صال الجحيم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **صال** ﴾ بكسر اللام لأنه منقوص مضاف حذفت الياء لالتقاء الساكنين وحمل على لفظ من ، وأفرد كما أفرد هو . وقرأ الحسن وابن أبى عبلة بضم اللام مع واو بعدها، وروى عنهما أنهما قرآ بضم اللام بدون واو . فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملا على معنى من، وحذفت نون الجمع للإضافة ، وأما بدون الواو فيحتمل أن يكون جمعا ، وإنما حذفت الواو خطا كما حذفت لفظا، ويحتمل أن يكون مفردا ، وحقه على هذا كسر اللام . قال النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون : إنه لحن لأنه لا يجوز: هذا قاض المدينة ، والمعنى: أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد الله ، إلا من هو من أهل النار وهم المصرون على الكفر ، وإنما يصر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة ، وإنه ممن يصلى النار ، أى يدخلها .

ثم قال الملائكة مخبرين للنبى ﷺ كما حكاه الله سبحانه عنهم : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ وفى الكلام حذف، والتقدير : وما منا أحد ، أو وما منا ملك إلا له مقام معلوم فى عبادة الله . وقيل : التقدير : وما منا إلا من له مقام معلوم ، رجح البصريون التقدير الأول ، ورجح الكوفيون الثانى . قال الزجاج : هذا قول الملائكة وفيه مضمر . المعنى : وما منا ملك إلا له مقام معلوم . ثم قالوا :﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ أى فى مواقف الطاعة . قال قتادة : هم الملائكة صفوا أقدامهم . وقال الكلبى : صفوف الملائكة فى السماء كصفوف أهل الدنيا فى الأرض . ﴿ **وإنا لنحن المسبحون** ﴾ أى المنزهون لله المقدسون له عما أضافه إليه المشركون . وقيل : المصلون ، وقيل : المراد بقولهم : ﴿ **المسبحون** ﴾ : مجموع التسبيح باللسان وبالصلاة، والمقصود أن هذه الصفات هى صفات الملائكة ، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله . ﴿ **وإن كانوا ليقولون** ﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين ، أى كانوا قبل

المبعث المحمدى إذا عيروا بالجهل قالوا : ﴿ **لو أن عندنا ذكرا من الأولين** ﴾ أى كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل ﴿ **لكنا عباد الله المخلصين** ﴾ أى لأخلصنا العبادة له ولم نكفر به ، و«إن» فى قوله : ﴿ **وإن كانوا** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير شأن محذوف ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ،أى وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون إلخ ، والفاء فى قوله : ﴿**فكفروا به** ﴾ هى الفصيحة الدالة على محذوف مقدر فى الكلام . قال الفراء : تقديره فجاءهم محمد بالذكر فكفروا به ، وهذا على طريق التعجب منهم ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ أى عاقبة كفرهم ومغبته ، وفى هذا تهديد لهم شديد .

وجملة ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ مستأنفة مقررة للوعيد ، والمراد بالكلمة : ما وعدهم الله به من النصر والظفر على الكفار . قال مقاتل : عنى بالكلمة قوله سبحانه : ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة:٢١] . وقال الفراء : سبقت كلمتنا بالسعادة لهم ، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا ،فإنه قال : ﴿ **إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ فهذه هى الكلمة المذكورة سابقا وهذا تفسير لها، والمراد بجند الله : حزبه ، وهم الرسل وأتباعهم . قال الشيبانى : جاء هنا على الجمع : يعنى قوله : ﴿ **لهم الغالبون** ﴾ من أجل أنه رأس آية ، وهذا الوعد لهم بالنصر والغلبة لا ينافيه انهزامهم فى بعض المواطن وغلبة الكفار لهم ، فإن الغالب فى كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتهم لهم ، فخرج الكلام مخرج الغالب ، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال وفى كل موطن كما قال سبحانه : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣] .

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات والضلالات فقال: ﴿ **فتول عنهم حتى حين** ﴾ أى أعرض عنهم إلى مدة معلومة عند الله سبحانه، وهى مدة الكف عن القتال . قال السدى ومجاهد : حتى نأمرك بالقتال . وقال قتادة: إلى الموت . وقيل : إلى يوم بدر ، وقيل : إلى يوم فتح مكة. وقيل : هذه الآية منسوخة بآية السيف . ﴿ **وأبصرهم فسوف يبصرون** ﴾ أى وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل والأسر فسوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار ، وعبر بالإبصار عن قرب الأمر ، أى فسوف يبصرون عن قريب . وقيل : المعنى : فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة . ثم هددهم بقوله سبحانه: ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم : متى هذا العذاب ؟ ﴿ **فإذا نزل بساحتهم** ﴾ أى إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم، والساحة فى اللغة : فناء الدار الواسع . قال الفراء : نزل بساحتهم ونزل بهم سواء . قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتل . قيل : المراد به نزول رسول الله ﷺ بساحتهم يوم فتح مكة . قرأ الجمهور : ﴿ **نزل** ﴾ مبنيا للفاعل . وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول ، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل ﴿ **فساء صباح المنذرين** ﴾ أى بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى صباحهم. وخص الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه . ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيدا للوعد

بالعذاب فقال : ﴿ **وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ وحذف مفعول أبصر هاهنا وذكره أولا إما لدلالة الأول عليه فتركه هنا اختصارا ، أو قصدا إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف . وقيل : هذه الجملة المراد بها : أحوال القيامة، والجملة الأولى المراد بها : عذابهم فى الدنيا ، وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد ، بل من باب التأسيس .

ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم فقال: ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ العزة : الغلبة والقوة، والمراد تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف ، ورب العزة بدل من ربك . ثم ذكر ما يدل على تشريف رسله وتكريمهم فقال : ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ أى الذين أرسلهم إلى عباده وبلغوا رسالاته ، وهو من السلام الذى هو التحية . وقيل : معناه : أمن لهم وسلامة من المكاره ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين ومنذرين ، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم وما يثنون عليه به . وقيل : إنه الحمد على هلاك المشركين ونصر الرسل عليهم ، والأولى أنه حمد لله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيده حذف المحمود عليه ، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرر فى علم المعانى ، والحمد : هو الثناء الجميل بقصد التعظيم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا** ﴾ قال : زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**فإنكم وما تعبدون** ﴾ قال : فإنكم يامعشر المشركين وما تعبدون ، يعنى الآلهة ﴿ **ما أنتم عليه بفاتنين** ﴾ قال : بمضلين ﴿ **إلا من هو صال الجحيم** ﴾ يقول : إلا من سبق فى علمى أنه سيصلى الجحيم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية يقول : إنكم لا تضلون أنتم ولا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ قال : الملائكة ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ قال: الملائكة ﴿ **وإنا لنحن المسبحون** ﴾ قال : الملائكة . وأخرج محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما فى السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون** ﴾»(١) . وأخرج محمد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » ، ثم قرأ: ﴿ **وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون** ﴾ . وأخرج عبد

---

(١) ابن جرير ٢٣/ ٧١ .

الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائما أو ساجدا ، ثم قرأ : ﴿ **وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون** ﴾ (١) . وأخرج الترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون ، إن السماء أطت وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله » (٢) . وقد ثبت فى الصحيح وغيره أن النبى ﷺ أمر الصحابة أن يصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم ، فقالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال : « يقيمون الصفوف المقدمة ويتراصون فى الصف » (٣) .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لو أن عندنا ذكرا من الأولين** ﴾ قال : لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين وعلم الآخرين كفروا بالكتاب ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر وقد خرجوا بالمساحى ، فلما نظروا إليه قالوا : محمد والخميس ، فقال :« الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » الحديث (٤) . وأخرج ابن سعد وابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سلمتم على المرسلين فسلموا على فإنما أنا بشر من المرسلين » وأخرج ابن مردويه من طريق أبى العوام عن قتادة عن أنس مرفوعا نحوه بأطول منه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن مردويه عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** ﴾ (٥) وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال:كنا نعرف انصراف رسول الله ﷺ من الصلاة بقوله: ﴿ **سبحان ربك** ﴾ (٦) إلى آخر الآية . وأخرج الخطيب نحوه من حديث أبى سعيد . وأخرج الطبرانى عن زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ قال : « من قال دبر كل صلاة : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما**

(١) ابن جرير ٢٣/ ٧١ والطبرانى (٩٠٤٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠١ : « فيه عبد الله بن محمد بن سعيد ابن أبى مريم وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (١٥٧) وإسناده ضعيف بسبب حاجب بن أحمد الطوسى . ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٩ / ١٦٠٣ .

(٢) الترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وأخرجه أحمد ٥/ ١٧٣ وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) ، وصححه الحاكم ٢/ ٥١٠ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٥٢ وفى الشعب (٧٦٤) .

(٣) أحمد ٥/ ١١٠ ومسلم فى الصلاة (٤٣٠/ ١١٩) وأبو داود فى الصلاة (٦٦١) ، والنسائى ٢/ ٩٢ وابن ماجة فى الإقامة (٩٩٢) ، كلهم عن جابر بن سمرة.

(٤) أحمد ٣/ ١٠٢ والبخارى فى الأذان (٦١٠) ومسلم فى الجهاد (١٣٦٥/ ٢٠) والنسائى ١/ ٢٧٢ .

(٥) أبو يعلى (١١١٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٥١ : « رجاله ثقات » . قلت : « فيه أبو هارون العبدى متروك واتهم بالكذب » تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٢/ ٦٧٠ .

(٦) الطبرانى (١١٢٢١) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٠٦ : « فيه محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير وهو متروك » .

يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ ثلاث مرات ، فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر»[(١)] . وأخرج حميد بن زنجويه فى ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن على ابن أبى طالب نحوه .

وإلى هنا انتهى الجزء الثالث من هذا التفسير المبارك بمعونة الله ، المقبول بفضل الله ، بقلم مصنفه الحقير «محمد بن على الشوكانى غفر الله لهما » ، فى نهار الخميس الحادى والعشرين من شهر محرم الحرام من شهور سنة تسع وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية ، حامدا لله شاكرا له مصليا مسلما على رسوله وآله ، ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة ص .

انتهى سماع هذا الجزء على مؤلفه حفظه الله فى يوم الإثنين غرة شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ .

كتبه

يحيى بن على الشوكانى

غفر الله لهما

(١) الطبرانى (٥١٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠٦/١٠ : « فيه عبد المنعم بن بشير وهو ضعيف جدا » .

تفسير سورة ص

آياتها ست وثمانون . وقيل : خمس وثمانون. وقيل : ثمان وثمانون آية . وهي مكية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة « ص » بمكة . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد ابن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل ، فقال : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت ، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، فخشي أبو جهل أن يجلس إلى أبي طالب ويكون أرقى عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه ، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ، ما بال قومك يشكونك ؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ، قال : وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : « يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية » ، ففزعوا لكلمته ولقوله ، فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم وأبيك عشرا ، قالوا : فما هي ؟ قال : « لا إله إلا الله » ، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، وهم يقولون : ﴿ **أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب** ﴾ فنزل فيهم : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) ابن أبي شيبة في المغازي (١٨٤١٣) وأحمد ١/ ٢٢٧ والترمذي في التفسير (٣٢٣٢) وقال : « هذا حديث حسن» والنسائي في الكبرى في السير (٨٧٦٩/ ١) وابن جرير ٢٣/ ٧٩ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٤٥ وأخرجه أبو يعلى (٢٥٨٣) .

وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١) ﴾.

قوله : ﴿ ص ﴾ قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجى فى أوائل السور فإنها ساكنة الأواخر على الوقف . وقرأ أبى بن كعب والحسن وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم وابن أبى عبلة وأبو السماك بكسر الدال من غير تنوين ، ووجه الكسر أنه لالتقاء الساكنين . وقيل : وجه الكسر : أنه من صادى يصادى إذا عارض ، والمعنى : صاد القرآن بعملك ، أى عارضه بعملك وقابله فاعمل به ، وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصرى وقال : إنه فسر قراءته هذه بهذا ، وعنه أن المعنى : اتله وتعرض لقراءته . وقرأ عيسى بن عمر : « صاد » بفتح الدال ، والفتح لالتقاء الساكنين . وقيل : نصب على الإغراء . وقيل : معناه : صاد محمد قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، وروى عن ابن أبى إسحاق أيضا أنه قرأ : « صاد » بالكسر والتنوين تشبيها لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات . وقرأ هارون الأعور وابن السميفع : « صاد » بالضم من غير تنوين على البناء نحو : منذ وحيث .

وقد اختلف فى معنى « صاد » فقال الضحاك : معناه : صدق الله . وقال عطاء : صدق محمد . وقال سعيد بن جبير : هو بحر يحيى الله به الموتى بين النفختين . وقال محمد بن كعب : هو مفتاح اسم الله . وقال قتادة : هو اسم من أسماء الله . وروى عنه أنه قال : هو اسم من أسماء الرحمن . وقال مجاهد : هو فاتحة السورة . وقيل : هو مما استأثر الله بعلمه ، وهذا هو الحق كما قدمنا فى فاتحة سورة البقرة . قيل : وهو إما اسم للحروف مسرودا على نمط التعبد أو اسم للسورة ، أو خبر مبتدأ محذوف . أو منصوب بإضمار : اذكر أو اقرأ . والواو فى قوله: ﴿ **والقرآن ذى الذكر**﴾: هى واو القسم ، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره وعلو محله ، ومعنى ﴿**ذى الذكر** ﴾ : أنه مشتمل على الذكر الذى فيه بيان كل شىء . قال مقاتل : معنى ﴿ **ذى الذكر**﴾ : ذى البيان . وقال الضحاك : ذى الشرف كما فى قوله : ﴿أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء : ١٠] أى شرفكم ، وقيل : أى ذى الموعظة .

واختلف فى جواب هذا القسم ما هو ؟ فقال الزجاج والكسائى والكوفيون غير الفراء : إنه قوله : ﴿ إن ذلك لحق ﴾ [ص : ٦٤] . وقال الفراء : لا نجده مستقيما لتأخره جدا عن قوله: ﴿ **والقرآن** ﴾ ورجح هو وثعلب أن الجواب قوله : ﴿ **كم أهلكنا** ﴾ وقال الأخفش : الجواب هو : ﴿ **إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب** ﴾ وقيل : هو صاد ، لأن معناه : حق ، فهو جواب لقوله : ﴿ **والقرآن** ﴾ كما تقول : حقا والله ، وجب والله . ذكره ابن الأنبارى ، وروى أيضا عن ثعلب والفراء ، وهو مبنى على أن جواب القسم يجوز تقدمه وهو ضعيف . وقيل : الجواب محذوف ، والتقدير : والقرآن ذى الذكر لتبعثن ونحو ذلك . وقال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار ، والقول بالحذف أولى ، وقيل : إن قوله : ﴿ **ص** ﴾ مقسم به ، وعلى هذا القول تكون الواو فى ﴿ **والقرآن** ﴾ للعطف عليه ، ولما كان الإقسام بالقرآن دالا

على صدقه ، وأنه حق ، وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه : ﴿ **بل الذين كفروا فى عزة وشقاق** ﴾ فأضرب عن ذلك وكأنه قال : لا ريب فيه قطعا ، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه . بل هم فى عزة عن قبول الحق ، أى تكبر وتجبر . وشقاق : أى وامتناع عن قبول الحق ، والعزة عند العرب : الغلبة والقهر ، يقال : من عزَّ بزَّ ، أى من غلب سلب ، ومنه : ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ [ص:٢٣] أى غلبنى ، ومنه قول الشاعر :

يعز على الطريق بمنكبيه   كما ابترك الخليع على القداح

والشقاق : مأخوذ من الشق وقد تقدم بيانه . ثم خوفهم سبحانه وهددهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار فقال : ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن** ﴾ يعنى : الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل ، أى كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا أمنع من هؤلاء وأشد قوة وأكثر أموالا ، وكم هى الخبرية الدالة على التكثير ، وهى فى محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به، و﴿ **من قرن** ﴾ تمييز ، و« من » فى : ﴿ **من قبلهم** ﴾ هى لابتداء الغاية . ﴿ **فنادوا ولات حين مناص**﴾ النداء هنا هو : نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم ، وليس الحين حين مناص. قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل . والمناص مصدر ناص ينوص، وهو الفوت والتأخر . ولات بمعنى : ليس ، بلغة أهل اليمن . وقال النحويون : هى لا التى بمعنى ليس زيدت عليها التاء كما فى قولهم : رب وربت ، وثم وثمت قال الفراء : النوص : التأخر ، وأنشد قول امرئ القيس :

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص

قال : يقال : ناص عن قرنه ينوص نوصا ، أى فر وزاغ . قال الفراء : ويقال : ناص ينوص : إذا تقدم . وقيل : المعنى : أنه قال بعضهم لبعض : مناص ، أى عليكم بالفرار والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص ، فقال الله : ﴿ **ولات حين مناص** ﴾ قال سيبويه: لات مشبهة بليس ، والاسم فيها مضمر ، أى ليس حيننا حين مناص . قال الزجاج : التقدير: وليس أواننا . قال ابن كيسان : القول كما قال سيبويه ، والوقف عليها عند الكسائى بالهاء ، وبه قال المبرد والأخفش . قال الكسائى والفراء والخليل وسيبويه والأخفش : والتاء تكتب منقطعة عن حين ، وكذلك هى فى المصاحف . وقال أبو عبيد : تكتب متصلة بحين ، فيقال : « ولا تحين » ومنه قول أبى وجرة السعدى :

العاطفون تحين ما من عاطف   والمطعمون زمان ما من مطعم

وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر :

تذكر حب ليلى لات حينا   وأمسى الشيب قد قطع القرينا

قال أبو عبيد : لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا فى حين وأوان والآن . قلت : بل قد

يزيدونها فى غير ذلك كما فى قول الشاعر :

فلتعرفن خلائقا مشمولة ولتندمن ولات ساعة مندم

وقد أنشد الفراء هذا البيت مستدلاً به على أن من العرب من يخفض بها ، وجملة : ﴿**ولات حين مناص**﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير نادوا . قرأ الجمهور : ﴿**لات**﴾ بفتح التاء ، وقرئ : « لات » بالكسر كجير . ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم**﴾ أى عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم فى عزة وشقاق أن جاءهم منذر منهم ، أى رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر ، وأن وما فى حيزها فى محل نصب بنزع الخافض ، أى من أن جاءهم ، وهو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم . ﴿**وقال الكافرون هذا ساحر كذاب**﴾ قالوا : هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، أى هذا المدعى للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله . قيل : ووضع الظاهر موضع المضمر ؛ لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون فى الكفر .

ثم أنكروا ما جاء به ﷺ من التوحيد وما نفاه من الشركاء لله فقالوا : ﴿**أجعل الآلهة إلها واحدا**﴾ أى صيرها إلها واحدا وقصرها على الله سبحانه ﴿**إن هذا لشىء عجاب**﴾ أى لأمر بالغ فى العجب إلى الغاية . قال الجوهرى : العجيب : الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العجاب بالضم والعجاب بالتشديد أكثر منه ، قرأ الجمهور : ﴿**عجاب**﴾ مخففا . وقرأ على والسلمى وعيسى بن عمر وابن مقسم بتشديد الجيم . قال مقاتل : عجاب يعنى بالتخفيف لغة أزد شنوءة . قيل : والعجاب بالتخفيف والتشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحد فى العجب ، كما يقال : الطويل الذى فيه طول ، والطوال : الذى قد تجاوز حد الطول ، وكلام الجوهرى يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشدد الجيم لا بالمخفف ، وقد قدمنا فى صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات . ﴿**وانطلق الملأ منهم**﴾ المراد بالملأ : الأشراف ، كما هو مقرر فى غير موضع من تفسير الكتاب العزيز ، أى انطلقوا من مجلسهم الذى كانوا فيه عند أبى طالب كما تقدم قائلين : ﴿**أن امشوا**﴾ أى قائلين لبعضهم بعضا : امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا فى دينه . ﴿**واصبروا على آلهتكم**﴾ أى اثبتوا على عبادتها . وقيل : المعنى : وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : امشوا واصبروا على آلهتكم ، و « أن » فى قوله : ﴿**أن امشوا**﴾ هى المفسرة للقول المقدر ، أو لقوله : ﴿**وانطلق**﴾ لأنه مضمن معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر أو للمذكور ، أى بأن امشوا . وقيل : المراد بالانطلاق: الاندفاع فى القول ، وامشوا من مشت المرأة : إذا كثرت ولادتها ، أى اجتمعوا وأكثروا ، وهو بعيد جدا ، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق والمشى بحقيقتهما ، وخلاف ما تقدم فى سبب النزول ، وجملة ﴿**إن هذا لشىء يراد**﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر : أى يريده محمد بنا وبآلهتنا ، ويود تمامه ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد ، فيكون هذا الكلام خارجا مخرج

التحذير منه والتنفير عنه . وقيل : المعنى : إن هذا الأمر يريده الله سبحانه ، وما أراده فهو كائن لا محالة ، فاصبروا على عبادة آلهتكم . وقيل : المعنى : إن دينكم لشيء يراد ، أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه ، والأول أولى .

﴿ **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة** ﴾ أى ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمد من التوحيد فى الملة الآخرة . وهى ملة النصرانية فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام ، كذا قال محمد بن كعب القرظى وقتادة ومقاتل والكلبى والسدى . وقال مجاهد : يعنون ملة قريش ، وروى مثله عن قتادة أيضا . وقال الحسن : المعنى : ما سمعنا أن هذا يكون آخر الزمان . وقيل : المعنى : ما سمعنا من اليهود والنصارى أن محمدا رسول ﴿ **إن هذا إلا اختلاق** ﴾ أى ما هذا إلا كذب اختلقه محمد وافتراه . ثم استنكروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة دونهم فقالوا : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ والاستفهام للإنكار ، أى كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف ؟ قال الزجاج : قالوا : كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا ونحن أكبر سنا وأعظم شرفا منه؟ وهذا مثل قولهم : ﴿ لولا نزل [١] هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف:٣١]. فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء . ولما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله ﷺ دونهم بين السبب الذى لأجله تركوا تصديق رسول الله ﷺ فيما جاء به ، فقال : ﴿ **بل هم فى شك من ذكرى** ﴾ أى من القرآن أو الوحى لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه ، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حق منزل من عند الله ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ أى بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابى فاغتروا بطول المهلة ، ولو ذاقوا عذابى على ما هم عليه من الشرك والشك لصدقوا ما جئت به من القرآن ولم يشكوا فيه .

﴿ **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب** ﴾ أى مفاتيح نعم ربك وهى النبوة وما هو دونها من النعم حتى يعطوها من شاؤوا ، فمالهم ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبى واختاره له واصطفاه لرسالته . والمعنى : بل أعندهم ، لأن أم هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة. والعزيز : الغالب القاهر . والوهاب : المعطى بغير حساب . ﴿ **أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ، ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاء ؟ وقوله : ﴿ **فليرتقوا فى الأسباب** ﴾ جواب شرط محذوف ، أى إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب التى توصلهم إلى السماء أو إلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ويدبروا أمر العالم بما يشتهون ، أو فليصعدوا وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحى على محمد ﷺ . والأسباب : أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها . قاله مجاهد وقتادة ، ومنه قول زهير :

ولو رام أسباب السماء بسلم

---

(١) فى المطبوعة : « أنزل » .

قال الربيع بن أنس : الأسباب : أدق من الشعر ، وأشد من الحديد ولكن لا ترى . وقال السدى : ﴿ **في الأسباب** ﴾ : فى الفضل والدين . وقيل : فليعملوا فى أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة وهو قول أبى عبيدة . وقيل : الأسباب : الحبال ، يعنى : إن وجدوا حبالا يصعدون فيها إلى السماء فعلوا ، والأسباب عند أهل اللغة : كل شىء يتوصل به إلى المطلوب كائنا ما كان . وفى هذا الكلام تهكم بهم [(١)] وتعجيز لهم . ﴿ **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصر عليهم والظفر بهم ، و﴿**جند** ﴾ مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم جند ، يعنى الكفار ، مهزوم : مكسور عما قريب ، فلا تبال بهم ولا تظن أنهم يصلون إلى شىء مما يضمرونه بك من الكيد ، و«ما » فى قوله : ﴿ **ما هنالك** ﴾ هى صفة لجند لإفادة التعظيم والتحقير ، أى جند أى جند . وقيل : هى زائدة يقال: هزمت الجيش : كسرته ، وتهزمت القرية : إذا تكسرت ، وهذا الكلام متصل بما تقدم ، هو قوله : ﴿ **بل الذين كفروا فى عزة وشقاق** ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون ، فلا تحزن لعزتهم وشقاقهم ، فإنى أسلب عزهم وأهزم جمعهم ، وقد وقع ذلك ولله الحمد فى يوم بدر وفيما بعده من مواطن الله .

وقد أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال : سئل جابر بن عبد الله وابن عباس عن ﴿**ص**﴾ فقال : لا ندرى ما هو . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ **ص** ﴾ محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **والقرآن ذى الذكر** ﴾ قال : ذى الشرف . وأخرج أبو داود الطيالسى وعبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن التميمى قال :سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : ﴿ **فنادوا ولات حين مناص** ﴾ قال : ليس بحين نزو ولا فرار . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه فى الآية قال : نادوا النداء حين لا ينفعهم ، وأنشد :

تذكرت ليلى لات حين تذكر وقد بنت منها والمناص بعيد

وأخرج عنه أيضا فى الآية قال : ليس هذا حين زوال . وأخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضا قال : لا حين فرار . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وانطلق الملأ منهم** ﴾ الآية : نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبى طالب فكلموه فى النبى ﷺ [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عنه ﴿ **وانطلق الملأ منهم** ﴾ قال : أبو جهل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة** ﴾ قال : النصرانية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فليرتقوا فى الأسباب** ﴾ قال : فى السماء .

---

(١) فى المخطوط : « بكم » ، والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) ابن جرير ٨١/٢٣ .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾.

لما ذكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ ذكر أمثالهم ممن تقدمهم وعمل عملهم من الكفر والتكذيب ، فقال : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد** ﴾ قال المفسرون : كانت له أوتاد يعذب بها الناس ، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد ، وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض . وقيل : المراد بالأوتاد : الجموع والجنود الكثيرة ، يعنى : أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه ، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا .قال ابن قتيبة : العرب تقول : هم فى عز ثابت الأوتاد ، وملك ثابت الأوتاد ، يريدون ملكا دائما شديدا ، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد . وقيل : المراد بالأوتاد هنا : البناء المحكم ، أى وفرعون ذو الأبنية المحكمة .قال الضحاك : والبنيان يسمى أوتادا ، والأوتاد جمع وتد أفصحها فتح الواو وكسر التاء ، ويقال : وتد بفتحهما وود بإدغام التاء فى الدال وودت . قال الأصمعى ويقال : وتد واتد ، مثل شغل شاغل وأنشد :

لاقت على الماء جذيلا واتدا ولم يكن يخلفها المواعدا

﴿ **وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة** ﴾ الأيكة : الغيضة ، وقد تقدم تفسيرها واختلاف القراء فى قراءتها فى سورة الشعراء ، ومعنى ﴿ **أولئك الأحزاب** ﴾ : أنهم الموصوفون بالقوة والكثرة كقولهم : فلان هو الرجل ، وقريش وإن كانوا حزبا كما قال الله سبحانه فيما تقدم :

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ [ص : ١١] ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عددا ، وأقوى أبدانا ، وأوسع أموالا وأعمارا ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ، ويجوز أن تكون خبرا ، والمبتدأ قوله : ﴿ **وعاد** ﴾ كذا قال أبو البقاء وهو ضعيف ، بل الظاهر أن ﴿ **عاد** ﴾ وما بعده معطوفات على ﴿ **قوم نوح** ﴾ ، والأولى أن تكون هذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف ، أو بدلا من الأمم المذكورة ﴿ **إن كل إلا كذب الرسل** ﴾ إن هى النافية ، والمعنى : ما كل حزب من هذه الأحزاب إلا كذب الرسل ، لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل أو هو من مقابلة الجمع بالجمع ، والمراد : تكذيب كل حزب لرسوله ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى ما كل أحد من الأحزاب فى جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ﴿ **فحق عقاب** ﴾ أى فحق عليهم عقابى بتكذيبهم ، ومعنى ﴿ **حق** ﴾ : ثبت ووجب ، وإن تأخر فكأنه واقع بهم ، وكل ما هو آت قريب . قرأ يعقوب بإثبات الياء فى ﴿ **عقاب** ﴾ وحذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآى . ﴿ **وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة** ﴾ أى ما ينتظرون إلا صيحة ، وهى النفخة الكائنة عند قيام الساعة . وقيل : هى النفخة الثانية ، وعلى الأول المراد : من عاصر نبينا ﷺ من الكفار ، وعلى الثانى المراد : كفار الأمم المذكورة ، أى ليس بينهم وبين حلول ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ فى الصور النفخة الثانية . وقيل : المراد بالصيحة : عذاب يفجؤهم فى الدنيا كما قال الشاعر :

صـــاح الزمـــان بآل برمك صيـحة ... خـــــروا لشدتـهـــا على الأذقـــــان

وجملة : ﴿ **ما لها من فواق** ﴾ فى محل نصب صفة لصيحة . قال الزجاج : فواق وفواق بفتح الفاء وضمها ، أى ما لها من رجوع ، والفواق ما بين حلبتى الناقة ، وهو مشتق من الرجوع أيضا ؛ لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، وأفاق من مرضه ، أى رجع إلى الصحة ، ولهذا قال مجاهد ومقاتل : إن الفواق : الرجوع . وقال قتادة : ما لها من مثنوية . وقال السدى : ما لها من إفاقة . وقيل : ما لها من مرد . قال الجوهرى : ما لها من نظره وراحة وإفاقة ، ومعنى الآية : أن تلك الصيحة هى ميعاد عذابهم ، فإذا جاءت لم ترجع ولا ترد عنهم ولا تصرف منهم ولا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وهى ما بين حلبتى الحالب لها ومنه قول الأعشى :

حتى إذا فيقة فى ضرعها اجتمعت ... جاءت لترضع شق النفس لو رضعا

والفيقة : اسم اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين ، وجمعها فيق وأفواق . قرأ حمزة والكسائى : « ما لها من فواق » بضم الفاء،وقرأ الباقون بفتحها . قال الفراء وأبو عبيدة : الفواق بفتح الفاء : الراحة ، أى لا يفيقون فيها كما يفيق المريض والمغشى عليه ، وبالضم الانتظار . ﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء وسخرية ، والقط فى اللغة : النصيب ، من القط ، وهو القطع ، وبهذا قال قتادة وسعيد بن جبير . قال الفراء : القط فى كلام العرب : الحظ

والنصيب، ومنه قيل للصك : قط . قال أبو عبيدة والكسائى : القط : الكتاب بالجوائز ، والجمع القطوط، ومنه قول الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطى القطوط ويأفق

ومعنى يأفق : يصلح ، ومعنى الآية : سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم وحظهم من العذاب ، وهو مثل قوله : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ [الحج : ٤٧] وقال السدى : سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به ، وقال إسماعيل بن أبى خالد: المعنى : عجل لنا أرزاقنا ، وبه قال سعيد بن جبير والسدى . وقال أبو العالية والكلبى ومقاتل : لما نزل : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ [الحاقة :١٩] . ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ [الحاقة : ٢٥] قالت قريش : زعمت يا محمد أنا نؤتى كتابنا بشمالنا فعجل لنا قطنا قبل يوم الحساب . ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال : ﴿**اصبر على ما يقولون** ﴾ من أقوالهم الباطلة التى هذا القول المحكى عنهم من جملتها ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ لما فرغ من ذكر قرون الضلالة ، وأمم الكفر والتكذيب ، وأمر نبيه ﷺ بالصبر على ما يسمعه زاد فى تسليته وتأسيته بذكر قصة داود وما بعدها . ومعنى ﴿ **اذكر عبدنا داود** ﴾ : اذكر قصته فإنك تجد فيها ما تتسلى به ، والأيد : القوة ،ومنه : رجل أيد ، أى قوى ، وتأيد الشيء : تقوى ، والمراد : ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة. قال الزجاج : وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة ، ومن قوته ما أخبرنا به نبينا ﷺ أنه كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وكان يصلى نصف الليل وكان لا يفر إذا لاقى العدو ، وجملة : ﴿ **إنه أواب** ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد ، والأواب : الرجاع عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه ، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قويا فى دينه . وقيل : معناه : كلما ذكر ذنبه استغفر منه وتاب عنه ، وهذا داخل تحت المعنى الأول ، يقال : آب يؤوب : إذا رجع ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق** ﴾ أى يقدسن الله سبحانه وينزهنه عما لا يليق به. وجملة : ﴿ **يسبحن** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وفى هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان والمعجزة ، وهو تسبيح الجبال معه . قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال . وقال محمد بن إسحاق : أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوى حسن ، فهذا معنى تسبيح الجبال ، والأول أولى . وقيل : معنى : ﴿**يسبحن**﴾: يصلين ، و﴿ **معه** ﴾ متعلق بسخرنا . ومعنى ﴿ **بالعشى والإشراق** ﴾ : قال الكلبى: غدوة وعشية ، يقال : أشرقت الشمس : إذا أضاءت ، وذلك وقت الضحى . وأما شروقها فطلوعها . قال الزجاج : شرقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت : إذا أضاءت .

﴿ **والطير محشورة** ﴾ معطوف على الجبال ، وانتصاب ﴿ **محشورة** ﴾ على الحال من

الطير، أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة ، أى مجموعة إليه تسبح الله معه . قيل : كانت تجمعها إليه الملائكة . وقيل : كانت تجمعها الريح ﴿ **كل له أواب** ﴾ أى كل واحد من داود والجبال والطير رجاع إلى طاعة الله وأمره ، والضمير فى له ، راجع إلى الله عز وجل . وقيل : الضمير لداود ، أى لأجل تسبيح داود مسبح ، فوضع أواب موضع مسبح ، والأول أولى . وقد قدمنا أن الأواب : الكثير الرجوع إلى الله سبحانه . ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ : قويناه وثبتناه بالنصر فى المواطن على أعدائه وإلقاء الرعب منه فى قلوبهم . وقيل : بكثرة الجنود . ﴿**وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ المراد بالحكمة : النبوة والمعرفة بكل ما يحكم به . وقال مقاتل: الفهم والعلم . وقال مجاهد : العدل . وقال أبو العالية : العلم بكتاب الله . وقال شريح : السنة . والمراد بفصل الخطاب : الفصل فى القضاء ، وبه قال الحسن والكلبى ومقاتل. وحكى الواحدى عن الأكثر أن فصل الخطاب : الشهود والأيمان لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا . وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل .

﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** ﴾ لما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أردف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة . قال مقاتل : بعث الله إلى داود ملكين: جبريل وميكائيل لينبهه على التوبة ، فأتياه وهو فى محرابه . قال النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم هاهنا : الملكان ، والخصم : مصدر يقع على الواحد والاثنين والجماعة . ومعنى ﴿ **تسوروا المحراب** ﴾ : أتوه من أعلى سوره ونزلوا إليه ، والسور : الحائط المرتفع ،وجاء بلفظ الجمع فى تسوروا مع كونهم اثنين ؛ نظرا إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع . ومنه قول الشاعر :

وخصم غضاب قد نفضت لحاهم كنفض البراذين العراب المخاليا

والمحراب : الغرفة ، لأنهم تسوروا عليه وهو فيها ، كذا قال يحيى بن سلام . وقال أبوعبيدة : إنه صدر المجلس ومنه محراب المسجد . وقيل : إنهما كانا إنسيين ولم يكونا ملكين، والعامل فى « إذ » فى قوله : ﴿ **إذ دخلوا** ﴾ النبأ ، أى هل أتاك الخبر الواقع فى وقت تسورهم؟ بهذا قال ابن عطية ومكى وأبو البقاء . وقيل : العامل فيه أتاك . وقيل : معمول للخصم . وقيل : معمول لمحذوف ، أى وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم . وقيل : هو معمول لتسوروا . وقيل : هو بدل مما قبله . وقال الفراء : إن أحد الظرفين المذكورين بمعنى لما ﴿**ففزع منهم** ﴾ وذلك لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم ، ودخلوا عليه بغير إذنه ولم يدخلوا من الباب الذى يدخل منه الناس . قال ابن الأعرابى : وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة ، وجملة : ﴿ **قالوا لا تخف** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالوا لداود لما فزع منهم ؟ وارتفاع ﴿ **خصمان** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى نحن خصمان ، وجاء فيما سبق بلفظ الجمع ، وهنا بلفظ التثنية ، لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد والمثنى والمجموع ، فالكل جائز . قال الخليل : هو كما تقول :

نحن فعلنا كذا ، إذا كنتما اثنين . وقال الكسائي : جمع لما كان خبرا فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة أخبر الاثنان عن أنفسهما فقالا : خصمان ، وقوله: ﴿ **بغى بعضنا على بعض**﴾ هو على سبيل الفرض والتقدير ، وعلى سبيل التعريض ؛ لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان. ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ونهياه عن الجور فقالا : ﴿ **فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط** ﴾ أى لا تجر فى حكمك ، يقال : شط الرجل وأشط شططا وإشطاطا : إذا جار فى حكمه . قال أبو عبيد : شططت عليه وأشططت ، أى جرت . وقال الأخفش : معناه : لا تسرف . وقيل: لا تفرط . وقيل : لا تمل . والمعنى متقارب ، والأصل فيه البعد ، من شطت الدار : إذا بعدت . قال أبو عمرو : الشطط : مجاوزة القدر فى كل شيء ﴿ **واهدنا إلى سواء الصراط** ﴾ سواء الصراط : وسطه . والمعنى : أرشدنا إلى الحق واحملنا عليه .

ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالا شرعا فى تفصيلهما وشرحهما فقالا : ﴿ **إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة** ﴾ المراد بالأخوة هنا : أخوة الدين أو الصحبة . والنعجة هى الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة ﴿ **ولى نعجة واحدة** ﴾ قال الواحدى : النعجة البقرة الوحشية ، والعرب تكنى عن المرأة بها ، وتشبه النساء بالنعاج من البقر . قرأ الجمهور : ﴿**تسع وتسعون** ﴾ بكسر التاء الفوقية . وقرأ الحسن وزيد بن على بفتحها . قال النحاس : وهى لغة شاذة ، وإنما عنى بـ ﴿ **هذا** ﴾ داود لأنه كان له تسع وتسعون امرأة وعنى بقوله : ﴿ **ولى نعجة واحدة** ﴾ أوريا زوج المرأة التى أراد أن يتزوجها داود كما سيأتى بيان ذلك ﴿ **فقال أكفلنيها** ﴾ أى ضمها إلى وانزل لى عنها حتى أكفلها وأصير بعلا لها . قال ابن كيسان : اجعلها كفلى ونصيبى ﴿ **وعزنى فى الخطاب** ﴾ أى غلبنى ، يقال : عزه يعزه عزا : إذا غلبه . وفى المثل : من عزَّ بزَّ ، أى من غلب سلب . والاسم العزة ، وهى القوة . قال عطاء : المعنى إن تكلم كان أفصح منى . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير : « وعازنى فى الخطاب » أى غالبنى من المعازة وهى المغالبة .

﴿ **قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه** ﴾ أى بسؤال نعجتك ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين إن كان الأمر على ما تقول ، واللام هى الموطئة للقسم ، وهى وما بعدها جواب للقسم المقدر ، وجاء بالقسم فى كلامه مبالغة فى إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة ، أن يضم إليه النعجة الواحدة التى مع صاحبه ولم يكن معه غيرها . ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الاعتراف من الآخر . قال النحاس . ويقال : إن خطيئة داود هى قوله : ﴿ **لقد ظلمك** ﴾ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت ﴿ **وإن كثيرا من الخلطاء** ﴾ وهم الشركاء واحدهم خليط ، وهو المخالط فى المال ﴿ **ليبغى بعضهم على بعض** ﴾ أى يتعدى بعضهم على بعض ويظلمه غير مراع لحقه ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فإنهم يتحامون ذلك ، ولا يظلمون خليطا ولا غيره ﴿ **وقليل ما هم** ﴾ أى وقليل هم ، و«ما » زائدة للتوكيد والتعجيب . وقيل :هى موصولة، و﴿ **هم** ﴾ مبتدأ، و﴿ **قليل** ﴾خبره ﴿ **وظن داود أنما فتناه** ﴾. قال أبو عمرو

والفراء : ظن يعنى : أيقن . ومعنى ﴿ **فتناه** ﴾ : ابتليناه ، والمعنى : أنه عند أن تخاصما إليه وقال ما قال علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به وبصاحبه الذى أراد أن ينزل له عن امرأته . قال الواحدى : قال المفسرون : فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، فعند ذلك علم داود بما أراداه . قرأ الجمهور : ﴿ **فتناه** ﴾ بالتخفيف للتاء وتشديد النون . وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء بالتشديد للتاء والنون ، وهى مبالغة فى الفتنة. وقرأ الضحاك : « افتناه » ، وقرأ قتادة وعبيد بن عمير وابن السميفع : « فتناه » بتخفيفهما وإسناد الفعل إلى الملكين ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ﴿ **فاستغفر ربه**﴾ لذنبه ﴿ **وخر راكعا** ﴾ أى ساجدا . وعبر بالركوع عن السجود . قال ابن العربى : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود ، فإن السجود هو الميل ، والركوع هو الانحناء ، وأحدهما يدخل فى الآخر ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئة . ثم جاء فى هذا على تسمية أحدهما بالآخر . وقيل : المعنى للسجود راكعا ، أى مصليا . وقيل : بل كان ركوعهم سجودا. وقيل : بل كان سجودهم ركوعا ﴿ **وأناب** ﴾ أى رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه .

وقد اختلف المفسرون فى ذنب داود الذى استغفر له وتاب عنه على أقوال : الأول : أنه نظر إلى امرأة الرجل التى أراد أن تكون زوجة له ، كذا قال سعيد بن جبير وغيره . قال الزجاج : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، وصارت الأولى له والثانية عليه . القول الثانى : أنه أرسل زوجها فى جملة الغزاة . الثالث : أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها . الرابع : أن أوريا كان خطب تلك المرأة فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخاطبها . الخامس : أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة . السادس : أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا . وأقول : الظاهر من الخصومة التى وقعت بين الملكين تعريضا لداود عليه السلام ، أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها ويضمها إلى نسائه ، ولا ينافى هذا العصمة الكائنة للأنبياء ، فقد نبهه الله على ذلك وعرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصموا فى مثل قصته حتى يستغفر لذنبه ويتوب منه فاستغفر وتاب . وقد قال سبحانه: ﴿وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [طه : ١٢١] وهو أبو البشر وأول الأنبياء ، ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا فى كتابه.

ثم أخبر سبحانه أنه قبل استغفاره وتوبته قال : ﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾ أى ذلك الذنب الذى استغفر منه . قال عطاء الخراسانى وغيره : إن داود بقى ساجدا أربعين يوما حتى نبت الرعى حول وجهه وغمر رأسه . قال ابن الأنبارى : الوقف على قوله : ﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾ تام ، ثم يبتدئ الكلام بقوله : ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ الزلفى : القربة والكرامة بعد المغفرة لذنبه . قال مجاهد: الزلفى: الدنو من الله عز وجل يوم القيامة ، والمراد بحسن المآب :

حسن المرجع وهو الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما لها من فواق** ﴾ قال : من رجعة . ﴿**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا** ﴾ قال : سألوا الله أن يعجل لهم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الزبير بن عدى عنه: ﴿ **عجل لنا قطنا** ﴾ قال : نصيبنا من الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ قال : القوة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأواب المسبح . وأخرج الديلمى عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأواب فقال: سألت النبى ﷺ عنه فقال : «هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله» . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : الأواب : الموقن . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراسانى عنه قال : لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا قال : لقد أتى على زمان وما أدرى وجه هذه الآية ﴿ **يسبحن بالعشى والإشراق** ﴾ حتى رأيت الناس يصلون الضحى. وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عنه قال : كنت أمر بهذه الآية : ﴿**يسبحن بالعشى والإشراق** ﴾ فما أدرى ما هى ؟ حتى حدثتنى أم هانىء بنت أبى طالب أن النبى ﷺ دخل عليها يوم الفتح ، فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى ، ثم قال : « يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق » (١) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من وجه آخر عنه نحوه . والأحاديث فى صلاة الضحى كثيرة جدا قد ذكرناها فى شرحنا للمنتقى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : استعدى رجل من بنى إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم فقال : إن هذا غصبنى بقرا لى ، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحده ، فسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة، فقال لهما داود : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فقاما من عنده ، فأتى داود فى منامه فقيل له: اقتل الرجل الذى استعدى، فقال : إن هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت ، فأتى الليلة الثانية فى منامه فأمر أن يقتل الرجل فلم يفعل ، ثم أتى الليلة الثالثة ، فقيل له : اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله ، فأرسل داود إلى الرجل فقال : إن الله أمرنى أن أقتلك ، قال : تقتلنى بغير بينة ولا تثبت ؟ قال : نعم ، والله لأنفذن أمر الله فيك ، فقال الرجل : لا تعجل على حتى أخبرك ، إنى والله ما أخذت بهذا الذنب ، ولكنى كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت ، فأمر به داود فقتل فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل وشدد به ملكه ، فهو قول الله : ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وآتيناه الحكمة** ﴾ قال: أعطى الفهم . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن أبى موسى الأشعرى قال : أول من قال : أما بعد داود عليه السلام وهو ﴿ **فصل الخطاب** ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن سعد وعبد بن حميد

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه أبو بكر الهذلى وهو ضعيف » .
(٢) ابن جرير ٢٣/ ٨٨ .

وابن المنذر عن الشعبى أنه سمع زياد بن أبيه يقول: فصل الخطاب الذى أوتى داود: أما بعد .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس : أن داود حدث نفسه إذا ابتلى أنه يعتصم، فقيل له : إنك ستبتلى وستعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حذرك ، فقيل له : هذا اليوم الذى تبتلى فيه ، فأخذ الزبور ودخل المحراب وأغلق باب المحراب وأخذ الزبور فى حجره ، وأقعد منصفا ، يعنى خادما ، على الباب وقال: لا تأذن لأحد على اليوم ، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون الطير ، فيه من كل لون ، فجعل يدور بين يديه ، فدنا منه فأمكن أن يأخذه ، فتناوله بيده ليأخذه فاستوفز من خلفه ، فأطبق الزبور وقام إليه ليأخذه ، فطار فوقع على كوة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فأفضى فوقع على خص فأشرف عليه لينظر أين وقع ؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها ، فغطت جسدها أجمع بشعرها ، وكان زوجها غازيا فى سبيل الله ، فكتب داود إلى رأس الغزاة : انظر أوريا فاجعله فى حملة التابوت وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم وإما أن يقتلوا ، فقدمه فى حملة التابوت فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود ، فاشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة من بعده ، وأشهدت عليه خمسين من بنى إسرائيل وكتب عليه بذلك كتابا ، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان ، وشب فتسور عليه الملكان المحراب وكان شأنهما ما قص الله فى كتابه وخر داود ساجدا ، فغفر الله له وتاب عليه [1] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عنه قال : ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب عجب بنفسه ، وذلك أنه قال : يا رب ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلى لك أو يسبح أو يكبر وذكر أشياء ، فكره الله ذلك ، فقال : يا داود إن ذلك لم يكن إلا بى فلولا عونى ما قويت عليه ، وعزتى وجلالى لأكلنك إلى نفسك يوما ، قال : يا رب فأخبرنى به ، فأخبر به فأصابته الفتنة ذلك اليوم [2] . وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن جرير وابن أبى حاتم عن أنس مرفوعا بإسناد ضعيف . وأخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطولة . وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **إن هذا أخى** ﴾ قال : على دينى . وأخرج عبد الرزاق والفريابى ، وأحمد فى الزهد ، وابن جرير والطبرانى عنه قال : مازاد داود على أن قال : ﴿ **أكفلنيها** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أكفلنيها** ﴾ قال : ما زاد داود على أن قال : تحول لى عنها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وقليل ما هم** ﴾ يقول :

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٩٤٣) .

(٢) صحيح الحاكم ٢/ ٤٣٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٢٥٣) دار الكتب العلمية .

قليل الذى هم فيه ، وفى قوله : ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ قال : اختبرناه . وأخرج أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عنه أيضا أنه قال فى السجود فى ﴿ ص ﴾ ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها (١) . وأخرج النسائى وابن مردويه بسند جيد عنه أيضا أن النبى ﷺ سجد فى ﴿ ص ﴾ وقال : سجدها داود ونسجدها شكرا (٢) . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ سجد فى ﴿ص﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعا . وأخرج الدارمى وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ ص ﴾ ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود ، فقال : إنما هى توبة ولكنى رأيتكم تهيأتم للسجود ، فنزل فسجد(٣). وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ أنه ذكر يوم القيامة فعظم شأنه وشدته قال : «ويقول الرحمن عز وجل لداود عليه السلام : مر بين يدى ، فيقول داود : يا رب أخاف أن تدحضنى خطيئتى ، فيقول : خذ بقدمى، فيأخذ بقدمه عز وجل فيمر» ، قال: « فتلك الزلفى التى قال الله: ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ ».

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾.

---

(١) أحمد ١/ ٣٦٠ والبخارى فى السجود (١٠٦٩) وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٩) والترمذى فى الصلاة (٥٧٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى بلفظ مختلف فى التفسير (١٩٠) ، والبيهقى ٢/ ٣١٨ والدارمى ١/ ٣٤٢ وابن خزيمة ١/ ٢٧٧ .

(٢) النسائى ٢/ ١٥٩ وأخرجه الدارقطنى ١/ ٤٠٧ والبيهقى ٢/ ٣١٩ وابن خزيمة ١/ ٢٧٧ .

(٣) الدارمى ١/ ٣٤٢ وأبو داود فى الصلاة (١٤١٠) وابن خزيمة ١/ ٢٧٧ وصححه ابن حبان (٢٧٥٤) والدراقطنى ١/ ٤٠٨ وصححه الحاكم ٢/ ٤٣١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢/ ٣١٨ .

لما تم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه ، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا ،أى وقلنا له :﴿ **يا داود إنا** ﴾ استخلفناك على الأرض، أو ﴿ **جعلناك خليفة** ﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق** ﴾ أى بالعدل الذى هو حكم الله بين عباده ﴿ **ولا تتبع الهوى** ﴾ أى هوى النفس فى الحكم بين العباد. وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذى عوتب عليه ليس بعدل وأن فيه شائبة من اتباع هوى لنفس ﴿ **فيضلك عن سبيل الله** ﴾ بالنصب على أنه جواب للنهى وفاعل يضلك هو الهوى، ويجوز أن يكون الفعل مجزوما بالعطف على النهى ، وإنما حرك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول يكون المنهى عنه الجمع بينهما ، وعلى الوجه الثانى يكون النهى عن كل واحد منهما على حدة . وسبيل الله : هو طريق الحق ، أو طريق الجنة .

وجملة : ﴿ **إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد** ﴾ تعليل للنهى عن اتباع الهوى والوقوع فى الضلال، والباء فى : ﴿ **بما نسوا يوم الحساب** ﴾ للسببية ، ومعنى النسيان : الترك ، أى بسبب تركهم العمل لذلك اليوم . قال الزجاج : أى بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين وإن كانوا ينذرون ويذكرون . وقال عكرمة والسدى : فى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا ، أى تركوا القضاء بالعدل، والأول أولى . وجملة ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من أمر البعث والحساب ، أى ما خلقنا هذه الأشياء خلقا باطلا خارجا على الحكمة الباهرة ، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا ، فانتصاب ﴿ **باطلا** ﴾ على المصدرية ، أو على الحالية ، أو على أنه مفعول لأجله ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المنفى قبله وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **ظن الذين كفروا** ﴾ أى مظنونهم ، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض ويقولون إنه لا قيامة ولا بعث ولا حساب ، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلا ﴿ **فويل للذين كفروا من النار** ﴾ والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل ، أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم . ثم وبخهم وبكتهم فقال : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض** ﴾ قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطى فى الآخرة كما تعطون فنزلت ، و«أم» هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، أى بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا بفرائضه كالمفسدين فى الأرض بالمعاصى . ثم أضرب سبحانه إضرابا آخر وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه فقال : ﴿ **أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ أى بل أنجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين والمنهمكين فى معاصى الله سبحانه من المسلمين ! وقيل: إن الفجار هنا خاص بالكافرين . وقيل : المراد بالمتقين الصحابة ، ولا وجه للتخصيص بغير مخصص ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك** ﴾ ارتفاع كتاب على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وأنزلناه إليك صفة له ، ومبارك خبر ثان للمبتدأ ، ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب ، لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح ، وقد جوزه بعض النحاة ، والتقدير : القرآن

كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير والبركة . وقرئ: « مباركا » على الحال وقوله : ﴿ليدبروا﴾ أصله : ليتدبروا ، فأدغمت التاء فى الدال وهو متعلق بأنزلناه . وفى الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر فى معانيه ، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر . قرأ الجمهور : ﴿ ليدبروا ﴾ بالإدغام . وقرأ أبو جعفر وشيبة : « لتدبروا » بالتاء الفوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن عاصم والكسائى ، وهى قراءة على رضى الله عنه، والأصل: لتتدبروا بتاءين ، فحذف إحداهما تخفيفا ﴿وليتذكر أولو الألباب﴾ أى ليتعظ أهل العقول ، والألباب جمع لب وهو العقل .

﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ أخبر سبحانه بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولدا، ثم مدح سليمان فقال: ﴿ نعم العبد ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف، أى نعم العبد سليمان. وقيل: إن المدح هنا بقوله : ﴿ نعم العبد ﴾ هو لداود ، والأول أولى ، وجملة : ﴿ إنه أواب ﴾ تعليل لما قبلها من المدح ، والأواب : الرجاع إلى الله بالتوبة كما تقدم بيانه ، والظرف فى قوله : ﴿ إذ عرض عليه ﴾ متعلق بمحذوف وهو اذكر ، أى اذكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه ﴿ بالعشى ﴾ وقيل : هو متعلق بنعم ، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت . وقيل : متعلق بأواب ، ولا وجه لتقييد كونه أوابا بذلك الوقت ، والعشى : من الظهر أو العصر إلى آخر النهـار ، و ﴿ الصافنات ﴾ جمع صافن .

وقد اختلف أهل اللغة فى معناه ، فقال القتيبى والفراء : الصافن فى كلام العرب :الواقف من الخيل أو غيرها ، وبه قال قتادة ، ومنه الحديث : « من أحب أن يتمثل له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار » أى يديمون القيام له ، واستدلوا بقول النابغة :

لنـا قبـة مضـروبة بفنـائها   عتاق المهارى والجياد الصوافن

ولا حجة لهم فى هذا فإنه استدلال بمحل النزاع ، وهو مصادرة ، لأن النزاع فى الصافن ماذا هو ؟ وقال الزجاج: هو الذى يقف على إحدى اليدين ويرفع الأخرى ويجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث وهى الرجلان وإحدى اليدين ، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه وهى علامة الفراهة ، وأنشد الزجاج قول الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه   ممـا يقوم عـلى الثـلاث كسيرا

ومن هذا قول عمرو بن كلثوم :

تركنـا الخيـل عاكفـة عليـه   مـقلـدة أعنـتهـا صفـونـا

فإن قوله : صفونا ، لابد أن يحمل على معنى غير مجرد القيام ؛ لأن مجرد القيام قد استفيد من قوله : عاكفة عليه . وقال أبو عبيد : الصافن : هو الذى يجمع يديه ويسويهما ، وأما الذى يقف على سنبكه فاسمه المتخيم ، والجياد جمع جواد، يقال للفرس إذا كان شديد

العدو . وقيل : إنها الطوال الأعناق ، مأخوذ من الجيد وهو العنق ، قيل : كانت مائة فرس. وقيل : كانت عشرين ألفا . وقيل : كانت عشرين فرسا . وقيل : إنها خرجت له من البحر وكانت لها أجنحة ﴿ **فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى** ﴾ انتصاب ﴿ **حب الخير** ﴾ على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت . قال الفراء: يقول : آثرت حب الخير ، وكل من أحب شيئا فقد آثره . وقيل : انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد والناصب له أحببت ، وقيل : هو مصدر تشبيهى ، أى حبا مثل حب الخير ، والأول أولى . والمراد بالخير هنا : الخيل . قال الزجاج : الخير هنا : الخيل. وقال الفراء : الخير والخيل فى كلام العرب واحد. قال النحاس : وفى الحديث : « الخيل معقود بنواصيها الخير» [(١)] فكأنها سميت خيرا لهذا . وقيل : إنها سميت خيرا لما فيها من المنافع . و« عن » فى ﴿ **عن ذكر ربى** ﴾ بمعنى على . والمعنى : آثرت حب الخيل على ذكر ربى ، يعنى :صلاة العصر ﴿ **حتى توارت بالحجاب** ﴾ يعنى الشمس ولم يتقدم لها ذكر ولكن المقام يدل على ذلك . قال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشىء أو دليل الذكر ، وقد جرى هنا الدليل وهو قوله بالعشى . والتوارى : الاستتار عن الأبصار ، والحجاب : ما يحجبها عن الأبصار. قال قتادة وكعب : الحجاب :جبل أخضر محيط بالخلائق وهو جبل قاف ، وسمى الليل حجابا ؛ لأنه يستر ما فيه . وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **حتى توارت** ﴾ للخيل ، أى حتى توارت فى المسابقة عن الأعين . والأول أولى .

وقوله : ﴿ **ردوها على** ﴾ من تمام قول سليمان ، أى أعيدوا عرضها على مرة أخرى . قال الحسن : إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله وقال : ردوها على ، أى أعيدوها . وقيل : الضمير فى : ﴿ **ردوها** ﴾ يعود إلى الشمس ويكون ذلك معجزة له ، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلى العصر ، والأول أولى ، والفاء فى قوله : ﴿ **فطفق مسحا بالسوق والأعناق** ﴾ هى الفصيحة التى تدل على محذوف فى الكلام ، والتقدير هنا : فردوها عليه. قال أبو عبيدة : طفق يفعل ، مثل ما زال يفعل ، وهو مثل ظل وبات . وانتصاب ﴿ **مسحا** ﴾ على المصدرية بفعل مقدر، أى يمسح مسحا ؛ لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلا مضارعا . وقيل : هو مصدر فى موضع الحال ، والأول أولى . والسوق جمع ساق ، والأعناق جمع عنق ، والمراد أنه طفق يضرب أعناقها وسوقها ، يقال : مسح علاوته ، أى ضرب عنقه. قال الفراء : المسح هنا القطع ، قال : والمعنى أنه أقبل يضرب سوقها وأعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته ، وكذا قال أبو عبيدة . قال الزجاج : ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له ، وجائز أن يباح ذلك لسليمان ويحظر[(٢)] فى هذا الوقت .

وقد اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآية ، فقال قوم : المراد بالمسح ما تقدم . وقال

---

(١) البخارى فى المناقب (٣٦٤٤) ومسلم فى الإمارة (١٨٧١/٩٦) كلاهما عن ابن عمر .

(٢) فى المخطوطة « ويحضر » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

آخرون منهم الزهرى وقتادة : إن المراد به : المسح على سوقها وأعناقها لكشف الغبار عنها حبا لها . والقول الأول أولى بسياق الكلام فإنه ذكر أنه آثرها [1] على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر ، ثم أمرهم بردها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك وما صده عن عبادة ربه وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه ، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردها عليه هو كشف الغبار عن سوقها وأعناقها بالمسح عليها بيده أو بثوبه ، ولا متمسك لمن قال : إن إفساد المال لا يصدر عن النبى فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرر فى شرعنا مع جواز أن يكون فى شرع سليمان أن مثل هذا مباح ، على أن إفساد المال المنهى عنه فى شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح ، وأما لغرض صحيح فقد جاز مثله فى شرعنا كما وقع منه ﷺ من إكفاء القدور التى طبخت من الغنيمة قبل القسمة [2] ، ولهذا نظائر كثيرة فى الشريعة، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض** ﴾ قال : الذين آمنوا : على وحمزة وعبيدة بن الحارث ، والمفسدين فى الأرض : عتبة وشيبة والوليد. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: ﴿ **الصافنات الجياد**﴾: خيل خلقت على ما شاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الصافنات** ﴾ قال : صفون الفرس : رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر ، وفى قوله: ﴿ **الجياد** ﴾ : السراع . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حب الخير** ﴾ قال : الماء ، وفى قوله : ﴿ **ردوها على** ﴾ قال : الخيل . ﴿ **فطفق مسحا** ﴾ قال : عقرا بالسيف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : الصلاة التى فرط فيها سليمان صلاة العصر . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿ **إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد** ﴾ قال : كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**حتى توارت بالحجاب** ﴾ قال : توارت من وراء ياقوتة خضراء ، فخضرة السماء منها . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن عباس قال : كان سليمان لا يكلم إعظاما له ، فلقد فاتته صلاة العصر وما استطاع أحد أن يكلمه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **عن ذكر ربى** ﴾ يقول: من ذكر ربى ﴿ **فطفق مسحا بالسوق والأعناق** ﴾ قال : قطع سوقها وأعناقها بالسيف .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً

(١) فى المطبوعة : « آخرها » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) البخارى فى الشركة (٢٤٨٨) وهو حديث طويل عن رافع بن خديج .

حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **ولقد فتنا سليمان** ﴾ أى ابتليناه واختبرناه . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : تزوج سليمان امرأة من بنات الملوك ، فعبدت الصنم فى داره ولم يعلم بذلك سليمان ، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك . وقيل : إن سبب الفتنة أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها : جرادة ، وكان يحبها حبا شديدا ، فاختصم إليه فريقان : أحدهما من أهل جرادة ، فأحبّ أن يكون القضاء لهم ، ثم قضى بينهم بالحق . وقيل : إن السبب أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد . وقيل : إنه تزوّج جرادة هذه وهى مشركة لأنه عرض عليها الإسلام فقالت : اقتلنى ولا أسلم . وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه . وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه فى شىء من حيض أو غيره. وقيل : إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بنى إسرائيل فتزوّج امرأة من غيرهم . وقيل : إن سبب فتنته ما ثبت فى الحديث الصحيح أنه قال: لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة تأتى كلّ واحدة بفارس يقاتل فى سبيل اللّه ، ولم يقل : إن شاء اللّه [(١)] . وقيل غير ذلك .

ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال : ﴿ **وألقينا على كرسيه جسدا** ﴾ انتصاب ﴿ **جسدا** ﴾ على أنه مفعول ﴿ **ألقينا**﴾. وقيل: انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق ، أى ضعيفا أو فارغا، والأوّل أولى . قال أكثر المفسرين: هذا الجسد الذى ألقاه اللّه على كرسى سليمان هو شيطان اسمه صخر ، وكان متمرّدا عليه غير داخل فى طاعته ، ألقى اللّه شبه سليمان عليه ومازال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان ، وذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف، فجاء صخر فى صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان ، فقعد على سرير سليمان وأقام أربعين يوما على ملكه وسليمان هارب . وقال مجاهد : إن شيطانا قال له سليمان : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرنى خاتمك أخبرك ، فلما أعطاه إياه نبذه فى البحر، فذهب ملكه وقعد الشيطان على كرسيه ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن ، وكان سليمان يستطعم فيقول : أتعرفوننى ؟ أطعمونى فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوما حوتا فشق بطنه فوجد خاتمه فى بطنه فرجع إليه ملكه ، وهو معنى قوله : ﴿ **ثم أناب** ﴾ أى رجع إلي ملكه بعد أربعين يوما . وقيل : معنى ﴿ **أناب** ﴾ : رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، وهذا هو الصواب ، وتكون جملة : ﴿ **قال رب اغفر لى** ﴾ بدلا من جملة أناب وتفسيرا له ، أى اغفر لى ما صدر عنى من الذنب الذى ابتليتنى لأجله . ثم لما قدم التوبة والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال : ﴿ **وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾ قال أبو عبيدة : معنى لا ينبغى لأحد من بعده : لا يكون لأحد من بعدى . وقيل : المعنى : لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه

---

(١) البخارى فى الأيمان (٦٦٣٩) ومسلم فى الأيمان (١٦٥٤/٢٣) كلاهما عن أبى هريرة .

السلبة ، أولا يصح لأحد من بعدى لعظمته وليس هذا من سؤال نبى الله سليمان عليه السلام للدنيا وملكها والشرف بين أهلها ، بل المراد بسؤاله الملك : أن يتمكن به من إنفاذ أحكام الله سبحانه ، والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن والإنس ، ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية فى عباد الله ، وجملة : ﴿ **إنك أنت الوهاب** ﴾ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، أى فإنك كثير الهبات عظيم الموهوبات .

ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته وإعطاءه لمسألته فقال : ﴿ **فسخرنا له الريح** ﴾ أى ذللناها له وجعلناها منقادة لأمره . ثم بين كيفية التسخير لها بقوله : ﴿ **تجرى بأمره رخاء** ﴾ أى لينة الهبوب ليست بالعاصف ، مأخوذ من الرخاوة ، والمعنى أنها ريح لينة لا تزعزع ولا تعصف مع قوة هبوبها وسرعة جريها ، ولا ينافى هذا قوله فى آية أخرى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره ﴾ [الأنبياء : ٨١] لأن المراد أنها فى قوة العاصفة ولا تعصف . وقيل : إنها كانت تارة رخاء ، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان ويشتهيه ، وهذا أولى فى الجمع بين الآيتين ﴿**حيث أصاب** ﴾ أى حيث أراد . قال الزجاج : إجماع أهل اللغة والمفسرين أن معنى ﴿ **حيث أصاب** ﴾: حيث أراد ، وحقيقته حيث قعد . وقال الأصمعى وابن الأعرابى: العرب تقول : أصاب الصواب وأخطأ الجواب . وقيل : إن معنى أصاب بلغة حمير : أراد وليس من لغة العرب . وقيل : هو بلسان هجر . والأول أولى ، وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض ﴿ **والشياطين** ﴾ معطوف على الريح ، أى وسخرنا له الشياطين. وقوله : ﴿**كل بناء وغواص** ﴾ بدل من الشياطين ، أى كل بناء منهم وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المبانى ، ويغوصون فى البحر فيستخرجون له الدر منه ، ومن هذا قول الشاعر :

إلا سليمـــان إذ قـــال الجليـــل له   قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أنى قـد أذنت لـهم   يبنون تدمر بالصـفاح والعـمد

﴿ **وآخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ معطوف على كل داخل فى حكم البدل ، وهم مردة الشياطين سخروا له حتى قرنهم فى الأصفاد . يقال: قرنهم فى الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة ، والأصفاد : الأغلال واحدها صفد . قال الزجاج : هى السلاسل ، فكل ما شددته شدا وثيقا بالحديد وغيره فقد صفدته . قال أبو عبيدة: صفدت الرجل فهو مصفود ،وصفدته فهو مصفد ، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

فـــآبـــوا بالنهـــاب وبالسبـــايا   وأبنـــا بالمـــلوك مصفـدينـــا

قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ،فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى ما تقدم من تسخير الريح والشياطين له، وهو بتقدير القول ، أى وقلنا له ﴿ **هذا عطاؤنا** ﴾ الذى أعطيناه من الملك العظيم الذى طلبته ﴿ **فامنن أو أمسك** ﴾

قال الحسن والضحاك وغيرهما: أى فأعط من شئت وامنع من شئت ﴿ **بغير حساب** ﴾ لا حساب عليك فى ذلك الإعطاء أو الإمساك، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرته وعظمته . وقال قتادة : إن قوله : ﴿ **هذا عطاؤنا** ﴾ إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع ، وهذا لا وجه لقصر الآية عليه لو قدرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات ، فكيف يدعى اختصاص الآية به مع عدم ذكره؟﴿ **وإن له عندنا لزلفى** ﴾ أى قربة فى الآخرة ﴿ **وحسن مآب** ﴾ وحسن مرجع،وهو الجنة .

وقد أخرج الفريابى والحكيم الترمذى والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا** ﴾ قال : هو الشيطان الذى كان على كرسيه يقضى بين الناس أربعين يوما ، وكان لسليمان امرأة يقال لها: جرادة ، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء ، فكان لا يدرى أيأتيه من السماء أم من الأرض[(١)] . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم قال السيوطى: بسند قوى ، عن ابن عباس قال : أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى لجرادة خاتمه . وكانت جرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى فأعطته ، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين ، فلما خرج سليمان من الخلاء قال : هاتى خاتمى ، قالت : قد أعطيته سليمان. قال أنا سليمان ، قالت : كذبت لست سليمان ، فجعل لا يأتى أحدا يقول : أنا سليمان ، إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله ، وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى فى قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن:تنكرن من أمر سليمان شيئا؟ قلن: نعم ، إنه يأتينا ونحن نحيض ، وما كان يأتينا قبل ذلك ، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتبا فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس وقالوا بهذا كان يظهرسليمان على الناس ويغلبهم فأكفر الناس سليمان فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه فى البحر فتلقفته سمكة فأخذته ، وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر،فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال:تحمل لى هذا السمك ؟ قال: نعم ، قال : بكم ؟ قال : بسمكة من هذا السمك ، فحمل سليمان السمك ثم انطلق به إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم فى جوفها فأخذه فلبسه ، فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر،فأرسل سليمان فى طلبه،وكان شيطانا مريدا،فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما فجاؤوا فبنوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ فوثب ، فجعل لايثب فى مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص فأخذوه فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان فأمر به فنقر له تخت

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٣٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

من رخام ،ثم أدخله فى جوفه، ثم شد بالنحاس، ثم أمر به فطرح فى البحر، فذلك قوله: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا﴾ يعنى: الشيطان الذى كان سلط عليه [(١)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ﴾ قال : صخر الجنى تمثل على كرسيه على صورته . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتا من الجن جعل يتفلت على البارحة ليقطع على صلاتى ، وإن الله أمكننى منه ، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان : ﴿ وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ فرده الله خاسئا » [(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فامنن ﴾ يقول: اعتق من الجن من شئت وأمسك منهم من شئت .

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله : ﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾ معطوف على قوله : ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ وأيوب عطف بيان ، و﴿ إذ نادى ربه ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿ أنى مسنى الشيطان ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذى نادى ربه به، ولو لم يحكه لقال : إنه مسه . وقرأ عيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول . وفى ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله ﷺ إلى

(١) قال ابن كثير ٦/ ٦٢ : « إسناده إلى ابن عباس قوى ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون بنبوة سليمان عليه السلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه ؛ ولهذا كان فى هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء ؛ فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله منه تشريفا وتكريما لنبيه » .

(٢) أحمد ٢/ ٢٩٨ والبخارى فى التفسير (٤٨٠٨) ومسلم فى المساجد (٥٤١/ ٣٩) والنسائى فى التفسير (٤٦٠) ، كلهم عن أبى هريرة .

الاقتداء به فى الصبر على المكاره . قرأ الجمهور بضم النون من قوله : ﴿ **بنصب** ﴾ وسكون الصاد ، فقيل : هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد وأسد . وقيل : هو لغة فى النصب ، نحو رشد ورشد . وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة وحفص ونافع فى رواية عنه بضمتين ، ورويت هذه القراءة عن الحسن . وقرأ أبو حيوة ويعقوب وحفص فى رواية بفتح وسكون ، وهذه القراءات كلها بمعنى واحد ، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات . وقال أبو عبيدة : إن النصب، بفتحتين: التعب والإعياء ، وعلى بقية القراءات الشر والبلاء ، ومعنى قوله : ﴿**وعذاب** ﴾ أى ألم . قال قتادة ومقاتل : النصب فى الجسد ، والعذاب فى المال . قال النحاس: وفيه بعد كذا قال . والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوى وهو التعب والإعياء ، وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب وهو الألم ، وكلاهما راجع إلى البدن .

﴿ **اركض برجلك** ﴾ هو بتقدير القول ، أى قلنا له: اركض برجلك كذا قال الكسائى ، والركض: الدفع بالرجل ، يقال: ركض الدابة برجله: إذا ضربها بها. وقال المبرد : الركض : التحريك. قال الأصمعى: يقال: ركضت الدابة ، ولا يقال: ركضت هى؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ، ولا فعل لها فى ذلك ، وحكى سيبويه : ركضت الدابة فركضت ، مثل جبرت العظم فجبر ﴿ **هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ هذا أيضا من مقول القول المقدر ، المغتسل : هو الماء الذى يغتسل به، والشراب: الذى يشرب منه. وقيل: إن المغتسل: هو المكان الذى يغتسل فيه. قال قتادة : هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه ، وكذا قال الحسن . وقال مقاتل: نبعت عين جارية فاغتسل فيها فخرج صحيحا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا باردا. وفى الكلام حذف، والتقدير: فركض برجله فنبعت عين، فقلنا له: ﴿ **هذا مغتسل** ﴾ إلخ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذى مسه بذلك : إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب والعذاب . فقد قيل : إنه أعجب بكثرة ماله. وقيل: استغاثه مظلوم فلم يغثه . وقيل : إنه قال ذلك على طريقة الأدب . وقيل : إنه قال ذلك لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه فرفضوه وأخرجوه من ديارهم . وقيل : المراد به : ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه وابتلائه من تحسين الجزع وعدم الصبر على المصيبة . وقيل غير ذلك .

وقوله : ﴿ **ووهبنا له أهله** ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل : فاغتسل وشرب ، فكشفنا بذلك ما به من ضر ووهبنا له أهله . قيل : أحياهم الله بعد أن أماتهم . وقيل : جمعهم بعد تفرقهم . وقيل : غيرهم مثلهم ، ثم زاده مثلهم معهم ، وهو معنى قوله : ﴿ **ومثلهم معهم** ﴾ فكانوا مثلى ما كانوا من قبل ابتلائه ، وانتصاب قوله : ﴿ **رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ على أنه مفعول لأجله ، أى وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه ، وليتذكر بحاله أولو الألباب فيصبروا على الشدائد كما صبر، وقد تقدم فى سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى فلا نعيده . ﴿**وخذ بيدك ضغثا** ﴾ معطوف على ﴿ **اركض** ﴾ أو على ﴿ **وهبنا** ﴾ ؛ أو التقدير : وقلنا له :

﴿**خذ بيدك ضغثا** ﴾ والضغث : عثكال النخل بشماريخه . وقيل: هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها . وقيل : الحزمة الكبيرة من القضبان ، وأصل المادة تدل على جمع المختلطات . قال الواحدى: الضغث: ملء الكف من الشجر والحشيش والشماريخ ﴿ **فاضرب به ولا تحنث** ﴾ أى اضرب بذلك الضغث ولا تحنث فى يمينك . والحنث : الإثم ، ويطلق على فعل ما حلف على تركه ، وكان أيوب قد حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة .

واختلف فى سبب ذلك ، فقال سعيد بن المسيب : إنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . وقال يحيى بن سلام وغيره : إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه ، فإنه إذا فعل ذلك برئ ، فحلف ليضربنها إن عوفى مائة جلدة . وقيل : باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئا وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ؛ فلهذا حلف ليضربنها . وقيل : جاءها إبليس فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ، فقال : أداويه على أنه إذا برئ قال : أنت شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه ، قالت : نعم ، فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقد اختلف العلماء هل هذا خاص بأيوب أو عام للناس كلهم ؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك . قال الشافعى : إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة أو ضرباً ولم يقل : ضربا شديدا ولم ينو بقلبه ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ، حكاه ابن المنذر عنه وعن أبى ثور وأصحاب الرأى . وقال عطاء : هو خاص بأيوب ورواه ابن القاسم عن مالك . ثم أثنى الله سبحانه على أيوب فقال : ﴿ **إنا وجدناه صابرا** ﴾ أى على البلاء الذى ابتليناه به ، فإنه ابتلى بالداء العظيم فى جسده وذهاب ماله وأهله وولده فصبر ﴿ **نعم العبد**﴾ أى أيوب ﴿ **إنه أواب** ﴾ أى رجاع إلى الله بالاستغفار والتوبة .

﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **عبادنا** ﴾ بالجمع . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير : « عبدنا » بالإفراد . فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم وإسحاق ويعقوب عطف البيان،وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان ، وما بعده عطف على عبدنا لا على إبراهيم . وقد يقال : لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه. وقيل : إن إبراهيم وما بعده بدل ،أو النصب بإضمار أعنى وعطف لبيان أظهر ، وقراءة الجمهور أبين وقد اختارها أبو عبيد وأبو حاتم ﴿ **أولى الأيدى والأبصار** ﴾ الأيدى ، جمع اليد التى بمعنى القوة والقدرة . قال قتادة : أعطوا قوة فى العبادة ونصرا في الدين . قال الواحدى : وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير والمفسرون . قال النحاس : أما الأبصار فمتفق على أنها البصائر فى الدين والعلم . وأما الأيدى فمختلف فى تأويلها ؛ فأهل التفسير يقولون : إنها القوة فى الدين ، وقوم يقولون : الأيدى جمع يد وهى النعمة : أى هم أصحاب النعم : أى الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل : هم أصحاب النعم على الناس والإحسان إليهم ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيرا ، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور: ﴿ **أولى الأيدى** ﴾ بإثبات الياء فى الأيدى . وقرأ ابن مسعود والأعمش والحسن وعيسى: « الأيد » بغير ياء . فقيل :

معناها معنى القراءة الأولى ،وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها. وقيل: الأيد: القوة .

وجملة : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ تعليل لما وصفوا به . قرأ الجمهور : ﴿**بخالصة** ﴾ بالتنوين وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى الإخلاص،فيكون ذكرى منصوبا به، أو بمعنى الخلوص فيكون ذكرى مرفوعا به، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه ، وذكرى بدل منها أو بيان لها أو بإضمار أعنى أو مرفوعة بإضمار مبتدأ ، والدار يجوز أن تكون مفعولا به لذكرى وأن تكون ظرفا:إما على الاتساع،أو على إسقاط الخافض؛وعلى كل تقدير فخالصة صفة لموصوف محذوف والباء للسببية،أى بسبب خصلة خالصة . وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى على أن الإضافة للبيان، لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى،أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله والفاعل محذوف . أى بأن أخلصوا ذكرى الدار، أو مصدر بمعنى الخلوص مضافا إلى فاعله. قال مجاهد : معنى الآية : استصفيناهم بذكر الآخرة فأخلصناهم بذكرها . وقال قتادة : كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله . وقال السدى : أخلصوا بخوف الآخرة. قال الواحدى: فمن قرأ بالتنوين فى خالصة كان المعنى:جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار،والخالصة مصدر بمعنى الخلوص والذكرى بمعنى التذكر ، أى خلص لهم تذكر الدار ، وهو أنهم يذكرون التأهب لها ويزهدون فى الدنيا ، وذلك من شأن الأنبياء . وأما من أضاف فالمعنى : أخلصنا لهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل ، والذكرى على هذا المعنى الذكر ﴿ **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾ الاصطفاء : الاختيار ، والأخيار جمع خير بالتشديد والتخفيف كأموات فى جمع ميت مشددا ومخففا؛ والمعنى: إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار .

﴿ **واذكر إسماعيل** ﴾ قيل : وجه إفراده بالذكر بعد ذكر أبيه وأخيه، وابن أخيه ؛ للإشعار بأنه عريق فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير هنا ﴿ **واليسع وذا الكفل** ﴾ قد تقدم ذكر اليسع والكلام فيه فى الأنعام ، وتقدم ذكر ذا الكفل والكلام فيه فى سورة الأنبياء ، والمراد من ذكر هؤلاء : أنهم من جملة من صبر من الأنبياء وتحملوا الشدائد فى دين الله . أمر الله رسوله ﷺ بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم فى الصبر ﴿ **وكل من الأخيار** ﴾ يعنى : الذين اختارهم الله لنبوته واصطفاهم من خلقه . ﴿ **هذا ذكر** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من ذكر أوصافهم ، أى هذا ذكر جميل فى الدنيا وشرف يذكرون به أبدا ﴿ **وإن للمتقين لحسن مآب** ﴾ أى لهم مع هذا الذكر الجميل حسن مآب فى الآخرة ، والمآب : المرجع ، والمعنى : أنهم يرجعون فى الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ونعيم جنته . ثم بين حسن المرجع فقال : ﴿**جنات عدن**﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **جنات** ﴾ بالنصب بدلا من حسن مآب ، سواء كان جنات عدن معرفة أو نكرة لأن المعرفة تبدل من النكرة وبالعكس ، ويجوز أن يكون جنات عطف بيان إن كانت نكرة ، ولا يجوز ذلك فيها إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة وقد جوزه بعضهم . ويجوز أن يكون نصب جنات بإضمار فعل . والعدن فى الأصل : الإقامة . يقال : عدن

بالمكان: إذا أقام فيه. وقيل : هو اسم لقصر فى الجنة ، وقرئ برفع جنات على أنها مبتدأ . وخبرها مفتحة أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هى جنات عدن ، وقوله : ﴿ **مفتحة لهم الأبواب** ﴾ حال من جنات ، والعامل فيها ما فى المتقين من معنى الفعل ، والأبواب مرتفعة باسم المفعول : كقوله : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧٣] والرابط بين الحال وصاحبها ضمير مقدر ، أى منها ، أو الألف واللام لقيامه مقام الضمير ؛ إذ الأصل أبوابها . وقيل : إن ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير فى مفتحة ، العائد على جنات ، وبه قال أبو على الفارسى ، أى مفتحة هى الأبواب . قال الفراء : المعنى مفتحة أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفا من الإضافة . وقال الزجاج : المعنى : مفتحة لهم الأبواب منها . قال الحسن: إن الأبواب يقال لها : انفتحى فتنفتح ، انغلقى فتنغلق . وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب . وانتصاب ﴿ **متكئين فيها** ﴾ على الحال من ضمير لهم ، والعامل فيه مفتحة . وقيل : هو حال من ﴿ **يدعون** ﴾ قدمت على العامل ﴿ **فيها** ﴾ أى يدعون فى الجنات حال كونهم متكئين فيها ﴿**بفاكهة كثيرة** ﴾ أى بألوان متنوعة متكثرة من الفواكه ﴿ **وشراب** ﴾ كثير، فحذف كثيرا لدلالة الأول عليه،وعلى جعل ﴿ **متكئين** ﴾ حالا من ضمير لهم ، والعامل فيه مفتحة ، فتكون جملة: ﴿**يدعون**﴾ مستأنفة لبيان حالهم.وقيل:إن يدعون فى محل نصب على الحال من ضمير متكئين.

﴿ **وعندهم قاصرات الطرف أتراب** ﴾ أى قاصرات طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى بيانه فى سورة الصافات. والأتراب : المتحدات فى السن ، أو المتساويات فى الحسن. وقال مجاهد: معنى ﴿ **أتراب** ﴾ : أنهن متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن . وقيل : أترابا للأزواج . والأتراب جمع ترب ، واشتقاقه من التراب لأنه يمسهن فى وقت واحد لاتحاد مولدهن. ﴿ **هذا ما توعدون ليوم الحساب** ﴾ أى هذا الجزاء الذى وعدتم به لأجل يوم الحساب، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء،أو المعنى: فى يوم الحساب. قرأ الجمهور: ﴿ **ما توعدون**﴾ بالفوقية على الخطاب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن ويعقوب بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿ **وإن للمتقين** ﴾ فإنه خبر ﴿ **إن هذا لرزقنا** ﴾ أى إن هذا المذكور من النعم والكرامات لرزقنا الذى أنعمنا به عليكم ﴿ **ماله من نفاد** ﴾ أى انقطاع ولا يفنى أبدا،ومثله قوله:﴿عطاء غير مجذوذ﴾ [هود : ١٠٨] فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها.

وقد أخرج أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وابن عساكر عن ابن عباس قال : إن الشيطان عرج إلى السماء ، فقال : يارب ، سلطنى على أيوب ، قال الله : لقد سلطتك على ماله وولده ولم أسلطك على جسده ، فنزل فجمع جنوده ، فقال لهم : قد سلطت على أيوب فأرونى سلطانكم ، فصاروا نيرانا ثم صاروا ماء ، فبينما هم فى المشرق إذا هم بالمغرب، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق. فأرسل طائفة منهم إلى زرعه وطائفة إلى أهله، وطائفة إلى بقره، وطائفة إلى غنمه وقال : إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف ، فأتوه بالمصائب بعضها على بعض، فجاء صاحب الزرع فقال : يا أيوب ، ألم تر إلى ربك أرسل على زرعك نارا فأحرقته؟

ثم جاء صاحب الإبل ، فقال : يا أيــوب ألــم تر إلى ربك أرسل إلى إبلك عدواً فذهب بها؟ ثم جاء صاحب البقر فقال : يا أيوب ، ألم تر إلى ربك أرسل إلى بقرك عدوا فذهب بها ؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال : يا أيوب ، ألم تر إلى ربك أرسل على غنمك عدوا فذهب بها؟ وتفرد هو لبنيه فجمعهم فى بيت أكبرهم ، فبينما هم يأكلون ويشربون إذ هبت ريح فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم ، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بأذنيه قرطان فقال : يا أيوب ، ألم تر إلى ربك جمع بنيك فى بيت أكبرهم فبينما هم يأكلون ويشربون ، إذ هبت ريح فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم ، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم ؟ فقال له أيوب : فأين كنت ؟ قال : كنت معهم ، قال : فكيف انفلت ؟ قال : انفلت ، قال أيوب : أنت الشيطان ؛ ثم قال أيوب : أنا اليوم كيوم ولدتنى أمى ، فقام فحلق رأسه وقام يصلى ، فرن إبليس رنة سمعها أهل السماء وأهل الأرض ، ثم عرج إلى السماء فقال : أى رب، إنه قد اعتصم فسلطنى عليه فإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك ، قال : قد سلطتك على جسده ولم أسلطك على قلبه ، فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى عليه حتى قالت له : ألا ترى يا أيوب قد نزل والله بى من الجهد والفاقة ما إن بعت قرونى برغيف فأطعمتك ، فادع الله أن يشفيك ويريحك قال : ويحك كنا فى النعيم سبعين عاما ، فاصبرى حتى نكون فى الضراء سبعين عاما ، فكان فى البلاء سبع سنين ودعا ، فجاء جبريل يوما فدعا بيده ، ثم قال : قم ، فقام فنحاه عن مكانه، وقال : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فركض برجله فنبعت عين، فقال :اغتسل ، فاغتسل منها ثم جاء أيضا ، فقال : اركض برجلك فنبعت عين أخرى فقال له: اشرب منها . وهو قوله : ﴿ **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى أيوب فجلس فى ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله ، أين المبتلى الذى كان هاهنا ؟ لعل الكلاب قد ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدى ، ورد عليه ماله وولده عيانا ومثلهم معهم ، وأمطر عليه جرادا من ذهب ، فجعل يأخذ الجراد بيده ثم يجعله فى ثوبه وينشر كساءه ويأخذه فيجعل فيه . فأوحى الله إليه : يا أيوب ، أما شبعت ؟ قال : يا رب ، من ذا الذى يشبع من فضلك ورحمتك ؟ وفى هذا نكارة شديدة ، فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبى من أنبيائه ويسلط عليه هذا التسليط العظيم .

وأخرج أحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن عساكر عن ابن عباس قال: إن إبليس قعد على الطريق وأخذ تابوتا يداوى الناس ، فقالت امرأة أيوب: يا عبد الله ، إن هاهنا مبتلى من أمره كذا وكذا فهل لك أن تداويه ؟ قال: نعم بشرط إن أنا شفيته أن يقول: أنت شفيتنى لا أريد منه أجرا غيره . فأتت أيوب فذكرت له ذلك، فقال : ويحك ذاك الشيطان . لله على إن شفانى الله أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا

فيضربها به ، فأخذ عذقا فيه مائة شمراخ فضربها ضربة واحدة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه في قوله: ﴿ **وخذ بيدك ضغثا** ﴾ قال : هو الأسل . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : الضغث : القبضة من المرعى الرطب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الضغث: الحزمة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبرانى وابن عساكر من طريق أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : « حملت وليدة فى بنى ساعدة من زنا ، فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت : من فلان المقعد . فسئل المقعد فقال : صدقت . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : خذوا عثكولا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة » (١) . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبرانى وابن عساكر نحوه من طريق أخرى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن سعيد بن سعد بن عبادة (٢) . وأخرج الطبرانى عن سهل بن سعد نحوه (٣) . وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال : أيوب رأس الصابرين يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولي الأيدى** ﴾ قال : القوة فى العبادة ﴿ **والأبصار** ﴾ قال : الفقه فى الدين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **أولى الأيدى** ﴾ قال : النعمة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ قال : أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعملوا لها .

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) ﴾.

قوله: ﴿ **هذا** ﴾ قال الزجاج : هذا خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر هذا فيوقف على هذا .

---

(١) الطبرانى (٥٥٨٧) والنسائى ٨/ ٢٤٢ والبيهقى ٨/ ٢٣٠ .

(٢) أحمد ٥/ ٢٢٢ والطبرانى (٥٥٢١) وأخرجه ابن ماجة فى الحدود (٢٥٧٤) ، وفى الزوائد : «مدار الإسناد على محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة »، والبيهقى ٨/ ٢٣٠ .

(٣) الطبرانى (٥٨٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٢٥٥ : « وفيه أبو بكر بن أبى سبرة وهو ضعيف » والبيهقى ٨/ ٢٣٠ .

قال ابن الأنبارى : وهذا وقف حسن ثم يبتدئ ﴿ وإن للطاغين ﴾ ويجوز أن يكون هذا مبتدأ وخبره محذوف ، أى هذا كما ذكر أو هذا ذكر . ثم ذكر سبحانه ما لأهل الشر بعد أن ذكر ما لأهل الخير فقال : ﴿ وإن للطاغين لشر مآب ﴾ أى الذين طغوا على الله وكذبوا رسله ﴿ لشر مآب ﴾ لشر منقلب ينقلبون إليه ، ثم بين ذلك فقال : ﴿ جهنم يصلونها ﴾ وانتصاب ﴿جهنم﴾ على أنها بدل من ﴿ شر مآب ﴾ ، أو منصوبة بأعنى ، ويجوز أن يكون عطف بيان على قول البعض كما سلف قريبا ، ويجوز أن يكون منصوبا على الاشتغال، أى يصلون جهنم يصلونها، ومعنى ﴿يصلونها ﴾ يدخلونها ، وهو فى محل نصب على الحالية ﴿ فبئس المهاد ﴾ أى بئس ما مهدوا لأنفسهم ، وهو الفراش ، مأخوذ من مهد الصبى، ويجوز أن يكون المراد بالمهد الموضع ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس المهاد هى كما فى قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ [الأعراف: ٤١] شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ هذا فى موضع رفع بالابتداء وخبره حميم وغساق على التقديم والتأخير ، أى هذا حميم وغساق فليذوقوه. قال الفراء والزجاج : تقدير الآية : هذا حميم وغساق فليذوقوه ، أو يقال لهم فى ذلك اليوم هذه المقالة . والحميم : الماء الحار الذى قد انتهى حره . والغساق : ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد ، من قولهم : غسقت عينه إذا انصبت ، والغسقان ، الانصباب . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى : الأمر هذا ، وارتفاع حميم وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف ، أى هو حميم وغساق ، ويجوز أن يكون هذا فى موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أى ليذوقوا هذا فليذوقوه ، ويجوز أن يكون حميم مرتفع على الابتداء وخبره مقدر قبله ، أى منه حميم ومنه غساق ، ومثله قول الشاعر :

حتى إذا ما أضاء البرق فى غلس ... وغودر البقل ملوى ومخضود

أى منه ملوى ومنه مخضود . وقيل : الغساق ما قتل ببرده ، ومنه قيل : لليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار . وقيل : هو الزمهرير . وقيل : الغساق : المنتن . وقيل : الغساق : عين فى جهنم يسيل منه كل ذوب حية وعقرب . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج النساء الزوانى ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم . وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار . وقال السدى: الغساق : الذى يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم ، وكذا قال ابن زيد . وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذى قد انتهى برده ، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب، ومنه قول الشاعر :

إذا ما تذكرت الحيـــاة وطيبـــها ... إلى جرى دمع من الليل غاسق

أى بـارد ، وأنسب أيضا بمقابلة الحميم . وقرأ أهل المدينـة وأهل البصرة وبعض الكـوفيين بتخفيف السـين من «غساق» وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة بالتشديد ، وهما لغتان بمعنى واحد كما قال الأخفش . وقيل : معناهما مختلف ؛ فمن خفف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب ، ومن شدد قال : هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضراب وقتال ﴿ وآخر من

شكله ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **وآخر** ﴾ مفرد مذكر ، وقرأ أبو عمرو : « وأخر » بضم الهمزة على أنه جمع ، وأنكر قراءة الجمهور لقوله أزواج ، وأنكر عاصم الجحدرى قراءة أبى عمرو وقال : لو كانت كما قرأ لقال : من شكلها ، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ وخبره أزواج ، ويجوز أن يكون من شكله خبرا مقدما وأزواج مبتدأ مؤخرا والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون خبرا آخر مقدرا ، أى وآخر لهم ، و﴿ **من شكله أزواج** ﴾ جملة مستقلة؛ ومعنى الآية على قراءة الجمهور: وعذاب آخر أو مذوق آخر ، أو نوع آخر من شكل العذاب أو المذوق أو النوع الأول والشكل المثل ، وعلى القراءة الثانية يكون معنى الآية : ومذوقات أخر أو أنواع أخر من شكل ذلك المذوق أو النوع المتقدم . وإفراد الضمير فى شكله على تأويل المذكور ، أى من شكل المذكور ، ومعنى ﴿ **أزواج** ﴾ أجناس وأنواع وأشباه . وحاصل معنى الآية : أن لأهل النار حميما وغساقا وأنواعا من العذاب من مثل الحميم والغساق . قال الواحدى: قال المفسرون : هو الزمهرير ، ولا يتم هذا الذى حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة وأجناس متفاوتة ليطابق معنى أزواج ، أو على تقدير : أن لكل فرد من أهل النار زمهريرا .

﴿ **هذا فوج مقتحم معكم** ﴾ الفوج : الجماعة . والاقتحام : الدخول ، وهذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة النار وذلك أن القادة والرؤساء إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع . قالت الخزنة للقادة : هذا فوج ، يعنون الأتباع ﴿ **مقتحم معكم** ﴾ أى داخل معكم إلى النار ، وقوله : ﴿ **لا مرحبا بهم** ﴾ من قول القادة والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا : لا مرحبا بهم ، أى لا اتسعت منازلهم فى النار ، والرحب : السعة ، والمعنى : لا كرامة لهم . وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار ، وأن المودة التى كانت بينهم تصير عداوة . وجملة لا مرحبا بهم دعائية لا محل لها من الإعراب ، أو صفة للفوج ، أو حال منه أو بتقدير القول، أى مقولا فى حقهم لا مرحبا بهم . وقيل: إنها من تمام قول الخزنة. والأول أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتى، وجملة: ﴿ **إنهم صالو النار** ﴾ تعليل من جهة القائلين: لا مرحبا بهم ، أى إنهم صالو النار كما صليناها ومستحقون لها كما استحقيناها . وجملة : ﴿ **قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أى قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم: بل أنتم لا مرحبا بكم، أى لا كرامة لكم ، ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ **أنتم قدمتموه لنا** ﴾ أى أنتم قدمتم العذاب أو الصلى لنا وأوقعتمونا فيه ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه وأن الأنبياء غير صادقين فيما جاؤوا به ﴿ **بئس القرار** ﴾ أى بئس المقر جهنم لنا ولكم . ثم حكى عن الأتباع أيضا أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر ، وهو : ﴿ **قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار** ﴾ أى زده عذابا ذا ضعف ، والضعف بأن يزيد عليه مثله ، ومعنى ﴿ **من قدم لنا هذا** ﴾ : من دعانا إليه وسوغه لنا . قال الفراء: المعنى من سوغ لنا هذا وسنه . وقيل : معناه : قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر فزده عذابا ضعفا فى النار ، أى عذابا بكفره وعذابا بدعائه إيانا ، فصار ذلك ضعفا ، ومثله قوله سبحانه: ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقوله: ﴿ ربنا آتهم ضعفين من

العذاب ﴾ [الأحزاب : ٦٨] وقيل : المراد بالضعف هنا : الحيات والعقارب .

﴿ **وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار** ﴾ قيل : هو من قول الرؤساء . وقيل : من قول الطاغين المذكورين سابقا . قال الكلبى : ينظرون فى النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها ، فعند ذلك قالوا : ﴿ **مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار** ﴾ وقيل: يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب وبلال وسالم وسلمان . وقيل : أرادوا أصحاب محمد على العموم ﴿ **أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار** ﴾ قال مجاهد : المعنى: أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا أم زاغت عنهم الأبصار فلم نعلم مكانهم ؟ والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كل واحد من الأمرين . قال الحسن : كل ذلك قد فعلوا : اتخذوهم سخريا ، وزاغت عنهم أبصارهم . قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب . قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وابن كثير والأعمش بحذف همزة اتخذناهم فى الوصل ، وهذه القراءة تحتمل أن يكون الكلام خبرا محضا ، وتكون الجملة فى محل نصب صفة ثانية لـ﴿**رجالا** ﴾ ، وأن يكون المراد : الاستفهام ، وحذفت أداته لدلالة أم عليها ، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى بل والهمزة ، أى بل أزاغت عنهم الأبصار على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ، ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير ، وعلى الثانى أم هى المتصلة . وقرأ الباقون بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل، ولا محل للجملة حينئذ وفيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعا لأن أم على هذه القراءة هى للتسوية . وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « سخريا » بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها . قال أبو عبيدة : من كسر جعله من الهزء ، ومن ضم جعله من التسخير . والإشارة بقوله : ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من حكاية حالهم ، وخبر إن قوله : ﴿ **لحق** ﴾ أى لواقع ثابت فى الدار الآخرة لا يتخلف البتة ، و﴿ **تخاصم أهل النار** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة بيان لذلك ، وقيل : بيان لحق . وقيل : بدل منه . وقيل : بدل من محل ذلك ، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم. والمعنى : إن ذلك الذى حكاه الله عنهم لحق لابد أن يتكلموا به ، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للأتباع وما قالته الأتباع لهم . وقرأ ابن أبى عبلة بنصب : « تخاصم » على أنه بدل من ذلك أو بإضمار أعنى . وقرأ ابن السميفع : « تخاصم » بصيغة الفعل الماضى فتكون جملة مستأنفة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول قولا جامعا بين التخويف والإرشاد إلى التوحيد فقال : ﴿ **قل إنما أنا منذر** ﴾ أى مخوف لكم من عقاب الله وعذابه ﴿ **وما من إله** ﴾ يستحق العبادة ﴿ **إلا الله الواحد** ﴾ الذى لا شريك له ﴿ **القهار** ﴾ لكل شىء سواه . ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ من المخلوقات ﴿ **العزيز** ﴾ الذى لا يغالبه مغالب ﴿ **الغفار** ﴾ لمن أطاعه .

وقيل : معنى ﴿ العزيز ﴾: المنيع الذى لا مثل له ، ومعنى ﴿ الغفار ﴾: الستار لذنوب خلقه . ثم أمره سبحانه أن يبالغ فى إنذارهم ويبين لهم عظم الأمر وجلالته فقال: ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أى ما أنذرتكم به من العقاب وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم ونبأ جليل ، من شأنه العناية به والتعظيم له وعدم الاستخفاف به ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ عم يتساءلون . عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : ١ ، ٢] وقال مجاهد وقتادة ومقاتل : هو القرآن ، فإنه نبأ عظيم لأنه كلام الله . قال الزجاج : قل النبأ الذى أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم ، يعنى : ما أنبأهم به من قصص الأولين، وذلك دليل على صدقه ونبوته لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحى من الله. وجملة : ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ توبيخ لهم وتقريع لكونهم أعرضوا عنه ولم يتفكروا فيه فيعلموا صدقه ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث .

وقوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى ﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم ، والملأ الأعلى هم:الملائكة ﴿ إذ يختصمون ﴾ أى وقت اختصامهم ؛ فقوله : ﴿ بالملأ الأعلى ﴾ متعلق بعلم على تضمينه معنى الإحاطة،وقوله:﴿ إذ يختصمون ﴾ متعلق بمحذوف،أى ما كان لى فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم،والضمير فى:﴿ يختصمون ﴾ راجع إلى الملأ الأعلى ، والخصومة الكائنة بينهم هى فى أمر آدم كما يفيده ما سيأتى قريبا . وجملة :﴿ إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ معترضة بين اختصامهم المجمل وبين تفصيله بقوله: ﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾. والمعنى: ما يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . قال الفراء : المعنى : ما يوحى إلى إلا أننى نذير مبين ، أبين لكم ما تأتون من الفرائض والسنن وما تدعون من الحرام والمعصية . قال : كأنك قلت : ما يوحى إلى إلا الإنذار . قال النحاس : ويجوز أن تكون فى محل نصب بمعنى ما يوحى إلى إلا لأنما أنا نذير مبين . قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها وما فى حيزها فى محل رفع لقيامها مقام الفاعل ، أى مايوحى إلى إلا الإنذار ،أو إلا كونى نذيرا مبينا ، أو فى محل نصب ، أو جر بعد إسقاط لام العلة ، والقائم مقام الفاعل على هذا الجار والمجرور . وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة لأن فى الوحى معنى القول ، وهى القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية ، كأنه قيل : ما يوحى إلى إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار ، وهو أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ يختصمون ﴾ عائد إلى قريش ؛ يعنى : قول من قال منهم : الملائكة بنات الله ، والمعنى : ما كان لى علم بالملائكة إذ تختصم فيهم قريش ، والأول أولى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وغساق ﴾ قال : الزمهرير ﴿ وآخر من شكله ﴾ قال : من نحوه ﴿ أزواج ﴾ قال : ألوان من العذاب . وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن دلوا من غساق يهراق فى الدنيا

لأنتن أهل الدنيا »[(١)] . قال الترمذى بعد إخراجه : لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. قلت : ورشدين فيه مقال معروف . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ فزده عذابا ضعفا فى النار ﴾ قال : أفاعى وحيات .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بالملأ الأعلى ﴾ قال : الملائكة حين شوروا فى خلق آدم فاختصموا فيه ، وقالوا : لا تجعل فى الأرض خليفة . وأخرج محمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ قال : هى الخصومة فى شأن آدم حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : ٣٠]. وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ،والترمذى وحسنه ، وابن نصر فى كتاب الصلاة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى الليلة ربى فى أحسن صورة أحسبه قال : فى المنام ـ قال : يا محمد ، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديى أو فى نحرى ، فعلمت ما فى السموات والأرض ، ثم قال لى : يا محمد ، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم فى الكفارات ، والكفارات : المكث فى المساجد بعد الصلوات ،والمشى على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء فى المكاره »[(٢)] الحديث . وأخرج الترمذى وصححه ، ومحمد بن نصر والطبرانى والحاكم وابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه [(٣)] ، وقال : «وإسباغ الوضوء فى السبرات » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه . وأخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه ، وفى الباب أحاديث .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

(١) أحمد ٣/ ٢٨ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وابن جرير ٢٣/ ١١٤،وصححه الحاكم ٤/ ٦٠٢ ووافقه الذهبى.
(٢) أحمد ١/ ٣٦٨ والترمذى فى التفسير (٣٢٣٤) وقال : « هذا حديث حسن غريب » كلاهما عن ابن عباس والدارمى ٢/ ١٢٦ عن عبدالرحمن بن عائش .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٣٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح . سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال : هذا حديث حسن صحيح » والطبرانى ٢٠/ ١٠٩ (٢١٦) وأخرجه أحمد ٥/ ٢٤٣ .

أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾.

لما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالا فيما تقدم ذكرها هنا تفصيلا ، فقال : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة** ﴾ « إذ » هذه هى بدل من ﴿ **إذ يختصمون** ﴾ لاشتمال ما فى حيز هذه على الخصومة . وقيل : هى منصوبة بإضمار اذكر ، والأول أولى إذا كانت خصومة الملائكة فى شأن من يستخلف فى الأرض . وأما إذا كانت فى غير ذلك مما تقدم ذكره فالثانى أولى ﴿ **إنى خالق بشرا من طين** ﴾ أى خالق فيما سيأتى من الزمن ﴿ **بشرا** ﴾ أى جسما من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض ، أو من كونه بادى البشرة . وقوله : ﴿ **من طين** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبشر أو بخالق . ومعنى ﴿ **فإذا سويته** ﴾ : صورته على صورة البشر وصارت أجزاؤه مستوية ﴿ **ونفخت فيه من روحى** ﴾ أى من الروح الذى أملكه ولا يملكه غيرى . وقيل : هو تمثيل ، ولا نفخ ولا منفوخ فيه . والمراد : جعله حيا بعد أن كان جمادا لا حياة فيه . وقد مر الكلام فى هذا فى سورة النساء ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ هو أمر من وقع يقع ، وانتصاب ﴿**ساجدين** ﴾ على الحال ، والسجود هنا هو: سجود التحية لا سجود العبادة ، وقد مضى تحقيقه فى سورة البقرة .

﴿ **فسجد الملائكة** ﴾ فى الكلام حذف تدل عليه الفاء ، والتقدير : فخلقه فسواه ونفخ فيه من روحه فسجد له الملائكة. وقوله: ﴿ **كلهم** ﴾ يفيد أنهم سجدوا جميعا ولم يبق منهم أحد . وقوله : ﴿ **أجمعون** ﴾ يفيد أنهم اجتمعوا على السجود فى وقت واحد ، فالأول لقصد الإحاطة، والثانى لقصد الاجتماع . قال فى الكشاف : فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقى منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا فى وقت واحد غير متفرقين فى أوقات . وقيل: إنه أكد بتأكيدين للمبالغة فى التعميم ﴿ **إلا إبليس** ﴾ الاستثناء متصل على تقدير أنه كان متصفا بصفات الملائكة داخلا فى عدادهم فغلبوا عليه ، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم ، أى لكن إبليس ﴿ **استكبر** ﴾ أى أنف من السجود جهلا منه بأنه طاعة لله ، وكان استكباره استكبار كفر ، فلذلك ﴿ **كان من الكافرين** ﴾ أى صار منهم بمخالفته لأمر الله واستكباره عن طاعته ، أو كان من الكافرين فى علم الله سبحانه ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى فى سورة البقرة والأعراف وبنى إسرائيل والكهف وطه . ثم إن الله سبحانه سأله عن سبب تركه للسجود الذى أمره به فقال : ﴿ **يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى** ﴾ أى ما صرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة ، وأضاف خلقه إلى نفسه ؛ تكريما له وتشريفا ، مع أنه سبحانه خالق كل شىء كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت والناقة والمساجد . قال مجاهد : اليد هنا بمعنى: التأكيد ، والصلة مجازا كقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك﴾ [الرحمن : ٢٧] وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد ، ومالى به يدان ، أى قدرة ، ومنه قول الشاعر :

تحملت من عفراء ماليس لى به ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل : التثنية فى اليد ؛ للدلالة على أنها ليست بمعنى القوة والقدرة ، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه ، و« ما » فى قوله : ﴿ **لما خلقت** ﴾ هى المصدرية أو الموصولة . وقرأ الجحدرى : « لما » بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى حين كما قال أبو على الفارسى. وقرئ: « بيدى » على الإفراد ﴿ **أستكبرت** ﴾ قرأ الجمهور بهمزة الاستفهام ، وهو استفهام توبيخ وتقريع و﴿ **أم** ﴾ متصلة . وقرأ ابن كثير فى رواية عنه وأهل مكة بألف وصل ، ويجوز أن يكون الاستفهام مرادا فيوافق القراءة الأولى كما فى قول الشاعر :

تروح من الحى أم تبتكر

وقول الآخر:

بسبع رمين الجمر أم بثمانيا

ويحتمل أن يكون خبرا محضا من غير إرادة للاستفهام فتكون « أم » منقطعة ، والمعنى : أستكبرت عن السجود الذى أمرت به بل أكنت من العالين ، أى المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك ، وقيل: المعنى : أستكبرت عن السجود الآن أم لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن ذلك ؟ وجملة : ﴿ **قال أنا خير منه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ادعى اللعين لنفسه أنه خير من آدم ، وفى ضمن كلامه هذا أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن . ثم علل ما ادعاه من كونه خيرا منه بقوله : ﴿ **خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وفى زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين ، وذهب عنه أن النار إنما هى بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم وإن استغنى عنها طردت ، وأيضا فالطين يستولى على النار فيطفئها ، وأيضا فهى لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض ، وعلى كل حال فقد شرف آدم بشرف وكرم بكرامة لا يوازيها شىء من شرف العناصر ، وذلك أن الله خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، والجواهر فى أنفسها متجانسة ، وإنما تشرف بعارض من عوارضها .

وجملة : ﴿ **قال فاخرج منها** ﴾ مستأنفة كالتى قبلها ، أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة . ثم علل أمره بالخروج بقوله : ﴿ **فإنك رجيم** ﴾ أى مرجوم بالكواكب مطرود من كل خير . ﴿ **وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين** ﴾ أى طردى لك عن الرحمة وإبعادى لك منها ، ويوم الدين : يوم الجزاء ، فأخبر سبحانه وتعالى أن تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا ، ثم فى الآخرة يلقى من أنواع عذاب الله وعقوبته وسخطه ما هو به حقيق ، وليس المراد: أن اللعنة تزول عنه فى الآخرة ، بل هو ملعون أبدا ، ولكن لما كان له فى الآخرة ما ينسى عنده اللعنة ، ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه . وجملة : ﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ مستأنفة كما تقدم فيما قبلها ، أى أمهلنى ولا تعاجلنى إلى غاية هى يوم يبعثون، يعنى : آدم وذريته . ﴿ **قال فإنك من المنظرين** ﴾ أى

المهلين ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ الذى قدره الله لفناء الخلائق ، وهو عند النفخة الآخرة . وقيل : هو النفخة الأولى. قيل: إنما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث ، وعند مجيء البعث لا يموت ، فحينئذ يتخلص من الموت . فأجيب بما يبطل مراده ، وينقض عليه مقصده ، وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو الذى يعلمه الله ولا يعلمه غيره .

فلما سمع اللعين إنظار الله له إلى ذلك الوقت قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ فأقسم بعزة الله أنه يضل بنى آدم بتزيين الشهوات لهم ، وإدخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعا . ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا فى أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصى ، استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أى الذين أخلصتهم لطاعتك وعصمتهم من الشيطان الرجيم . وقد تقدم تفسير هذه الآيات فى سورة الحجر وغيرها . وقد أقسم هاهنا بعزة الله ، وأقسم فى موضع آخر بقوله : ﴿ فبما أغويتنى ﴾ [الأعراف : ١٦] ولا تنافى بين القسمين فإن إغواءه إياه من آثار عزته سبحانه ، وجملة : ﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ مستأنفة كالجمل التى قبلها . قرأ الجمهور بنصب الحق فى الموضعين على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب ، أوهما منصوبان على الإغراء ، أى الزموا الحق ، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله : ﴿ لأملأن جهنم ﴾ وقرأ ابن عباس ومجاهد والأعمش وعاصم وحمزة برفع الأول ونصب الثانى ، فرفع الأول على أنه مبتدأ وخبره مقدر ، أى فالحق منى ، أو فالحق أنا ، أو خبره لأملأن ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ، وأما نصب الثانى فبالفعل المذكور بعده ، أى وأنا أقول الحق ، وأجاز الفراء وأبو عبيد أن يكون منصوبا بمعنى حقا لأملأن جهنم. واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها . وروى عن سيبويه والفراء أيضا أن المعنى فالحق أن إملاء جهنم . وروى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قرآ برفعهما ، فرفع الأول على ما تقدم، ورفع الثانى بالابتداء ، وخبره الجملة المذكورة بعده والعائد محذوف . وقرأ ابن السميفع وطلحة بن مصرف بخفضهما على تقدير حرف القسم . قال الفراء : كما يقول الله عز وجل لأفعلن كذا ، وغلطه أبو العباس ثعلب وقال : لا يجوز الخفض بحرف مضمر، وجملة: ﴿ لأملأن جهنم ﴾ جواب القسم على قراءة الجمهور ، وجملة : ﴿ والحق أقول ﴾ معترضة بين القسم وجوابه ، ومعنى ﴿ منك ﴾ أى من جنسك من الشياطين ﴿ وممن تبعك منهم ﴾ أى من ذرية آدم فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال والغواية و﴿أجمعين ﴾ تأكيد للمعطوف والمعطوف عليه ، أى لأملأنها من الشياطين وأتباعهم أجمعين .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره لا عرض الدنيا الزائل ، فقال : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ والضمير فى : ﴿ عليه ﴾ راجع إلى تبليغ الوحى ولم يتقدم له ذكر ، ولكنه مفهوم من السياق . وقيل : هو عائد إلى ما تقدم من قوله : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص : ٨] وقيل : الضمير راجع إلى القرآن .

وقيل : إلى الدعاء إلى الله على العموم ، فيشمل القرآن وغيره من الوحى ومن قول الرسول ﷺ . والمعنى : ما أطلب منكم من جعل تعطونيه عليه ﴿ **وما أنا من المتكلفين** ﴾ حتى أقول ما لا أعلم إذ أدعوكم إلى غير ما أمرنى الله بالدعوة إليه ، والتكلف : التصنع . ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ أى ما هذا القرآن ، أو الوحى ، أو ما أدعوكم إليه ، إلا ذكر من الله عز وجل للجن والإنس . قال الأعمش : ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ﴿ **ولتعلمن** ﴾ أيها الكفار ﴿ **نبأه** ﴾ أى ما أنبأ عنه وأخبر به من الدعاء إلى الله وتوحيده ، والترغيب إلى الجنة والتحذير من النار ﴿ **بعد حين** ﴾ قال قتادة والزجاج والفراء : بعد الموت . وقال عكرمة وابن زيد : يوم القيامة . وقال الكلبى : من بقى علم ذلك لما ظهر أمره وعلا ، ومن مات علمه بعد الموت . وقال السدى : وذلك يوم بدر .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **إذ يختصمون** ﴾ أن الخصومة هى : ﴿ **إذ قال ربك** ﴾ إلخ . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى عن ابن عمر قال : خلق الله أربعا بيده : العرش ، وجنة عدن، والقلم ، وآدم (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عبد الله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ : « خلق الله ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده » (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فالحق والحق أقول**﴾ قال : أنا الحق أقول الحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر** ﴾ قال : قل يا محمد ﴿ **ما أسألكم عليه** ﴾ ما أدعوكم إليه ﴿ **من أجر** ﴾ عرض دنيا . وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : بينما رجل يحدث فى المسجد، فقال فيما يقول:﴿ يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ [الدخان: ١٠] قال : دخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام، قال : قمنا حتى دخلنا على عبد الله وهو فى بيته وكان متكئا فاستوى قاعدا فقال : يأيها الناس، من علم منكم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم : الله أعلم ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾(٣). وأخرج البخارى عن عمر قال: نهينا عن التكلف(٤). وأخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى عن سلمان قال : نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف (٥) .

---

(١) ابن جرير ٢٣/ ١١٩ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٤٨ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٩ ووافقه الذهبى .

(٢) البيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٤٧ وقال : « هذا حديث مرسل ، وفيه إن ثبت دلالة على أن الكتب ههنا بمعنى الخلق ، وإنما أراد خلق رسوم التوراة وهى حروفها ، وأما المكتوب فهو كلام الله صفة من صفات ذاته».

(٣) البخارى في التفسير (٤٨٠٩) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨/ ٣٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٤) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» والنسائى فى التفسير (٢٢٢) .

(٤) البخارى فى الاعتصام (٧٢٩٣) .

(٥) الطبرانى (٦٠٨٤) والحاكم ٤/ ١٢٣ وسكت عنه وقال الذهبى : « فى سنده لين » ، والبيهقى فى الشعب (٩٦٠٠) . ط . دار الكتب العلمية .

تفسير سورة الزمر

هى اثنتان وسبعون آية . وقيل : خمس وسبعون .وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر بن زيد . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه ،والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الزمر بمكة . وأخرج النحاس فى ناسخه عنه قال : نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الثلاث الآيات . وقال آخرون : إلى سبع آيات من قوله : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ إلى آخر السبع . وأخرج النسائى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر (١) . وأخرجه الترمذى عنها بلفظ : كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾.

قوله: ﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة ، أى هذا تنزيل . وقال أبو حيان إن المبتدأ المقدّر لفظ هو ليعود على قوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [ص : ٨٧] كأنه قيل : وهذا الذكر ما هو ؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب . وقيل : ارتفاعه على

---

(١) النسائى ٤/ ١٩٩ وفى التفسير (٤٦٤) وأخرجه أحمد ٦/ ٦٨ والحاكم ٢/ ٤٣٤ وسكت عنه ووافقه الذهبى .
(٢) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور بعده ، أى تنزيل كائن من اللّه ، وإلى هذا ذهب الزجاج والفراء . قال الفراء : ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل ، وأجاز الفراء والكسائى النصب على أنه مفعول به لفعل مقدّر ، أى اتبعوا أو اقرؤوا تنزيل الكتاب . وقال الفراء : يجوز نصبه على الإغراء ، أى الزموا ، والكتاب هو : القرآن ، وقوله : ﴿ **من الله العزيز الحكيم** ﴾ على الوجه الأول صلة للتنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدّر ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ** ﴾ الباء سببية متعلقة بالإنزال ،أى أنزلناه بسبب الحقّ ،ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو حال من الفاعل، أى ملتبسين بالحقّ ، أو من المفعول ، أى ملتبسا بالحق، والمراد : كلّ ما فيه من إثبات التوحيد والنبوّة والمعاد وأنواع التكاليف . قال مقاتل : يقول : لم ننزله باطلا لغير شىء ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وانتصاب ﴿ **مخلصا** ﴾ على الحال من فاعل اعبد. والإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجه اللّه سبحانه ، والدين : العبادة والطاعة ، ورأسها توحيد اللّه وأنه لا شريك له . قرأ الجمهور :﴿ **الدين** ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿**مخلصا** ﴾ . وقرأ ابن أبى عبلة برفعه على أن « مخلصا » مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل : وكان عليه أن يقرأ مخلصا بفتح اللام . وفى الآية دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب ؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التى لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال والأفعال النية،كما فى حديث:«إنما الأعمال بالنيات »(١) . وحديث : «لا قول ولا عمل إلا بنية » .

وجملة : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص ؛ أى إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو للّه ، وما سواه من الأديان فليس بدين اللّه الخالص الذى أمر به . قال قتادة : الدين الخالص :شهادة أن لا إله إلا اللّه ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء** ﴾ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص، وأن الدين الخالص له لا لغيره، بين بطلان الشرك الذى هو مخالف للإخلاص والموصول عبارة عن المشركين ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله : ﴿ **إن الله يحكم بينهم** ﴾ . وجملة : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول، والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، والمعنى : والذين لم يخلصوا العبادة للّه ، بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشىء من الأشياء إلا ليقربونا إلى اللّه تقريبا والضمير فى ﴿ **نعبدهم** ﴾ : راجع إلى الأشياء التى كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام ، وهم المرادون بالأولياء ، والمراد بقوله : ﴿ **إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ : الشفاعة ، كما حكاه الواحدى عن المفسرين . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من

---

(١) أحمد ٢٥/١ والبخارى فى بدء الوحى (١) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧/ ١٥٥) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠١) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٥٨/١ وابن ماجة فى الزهد (٤٢٢٧) .

ربكم وخالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا : ليقرّبونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبى : جواب هذا الكلام قوله فى سورة الأحقاف : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾ [الأحقاف: ٢٨] والزلفى اسم أقيم مقام المصدر ، كأنه قال : إلا ليقربونا إلى الله تقريبا . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد : « قالوا ما نعبدهم ». ومعنى : ﴿ **إن الله يحكم بينهم** ﴾ أى بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحقه ، وقيل : بين المخلصين للدين وبين الذين لم يخلصوا ، وحذف الأول لدلالة الحال عليه . ومعنى ﴿ **فيما هم فيه يختلفون** ﴾ : فى الذى اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك ، فإن كل طائفة تدعى أن الحق معها ﴿ **إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾ أى لا يرشد لدينه ولا يوفق للاهتداء إلى الحقّ من هو كاذب فى زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله وكفر باتخاذها آلهة وجعلها شركاء لله ، والكفار صيغة مبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية . وقرأ الحسن والأعرج : «كذاب» على صيغة المبالغة ككفار، ورويت هذه القراءة عن أنس .

﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى** ﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات الله، لتضمنه استحالة الولد فى حقه سبحانه على الإطلاق ، فلو أراد أن يتخذ ولدا لامتنع اتخاذ الولد حقيقة ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفى ﴿ **مما يخلق ما يشاء** ﴾ أى يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه ، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولدا للخالق لعدم المجانسة بينهما ، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبدا كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ ، فمعنى الآية : لو أراد أن يتخذ ولدا لوقع منه شىء ليس هو من اتخاذ الولد ، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته ، وبهذا نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزيها له عن ذلك ، وجملة : ﴿ **هو الله الواحد القهار** ﴾ مبينة لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات ، أى هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد فى ذاته فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته ، ومن كان متصفا بهذه الصفات استحال وجود الولد فى حقه ، لأن الولد مماثل لوالده ولا مماثل له سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ﴾ [الأنبياء : ١٧] ثم لما ذكر سبحانه كونه منزها عن الولد بكونه إلها واحدا قهارا ذكر ما يدل على ذلك من صفات فقال : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى لم يخلقهما باطلا لغير شىء ، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد . ثم بين كيفية تصرفه فى السموات والأرض فقال : ﴿ **يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ التكوير فى اللغة : طرح الشىء بعضه على بعض. يقال : كوّر المتاع : إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كوّر العمامة ؛ فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه ، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه

حثيثا ﴾ [الأعراف : ٥٤] هكذا قال قتادة وغيره . وقال الضحاك : أى يلقى هذا على هذا ، وهذا على هذا ، وهو مقارب للقول الأوّل . وقيل : معنى الآية : أن ما نقص من الليل دخل فى النهار ، وما نقص من النهار دخل فى الليل ، وهو معنى قوله : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ [الحج : ٦١] . وقيل : المعنى : إن هذا يكرّ على هذا وهذا يكرّ على هذا كرورا متتابعا. قال الراغب : تكوير الشيء : إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة . ا هـ . والإشارة بهذا التكوير المذكور فى الآية إلى جريان الشمس فى مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما . قال الرازى : إن النور والظلمة عسكران عظيمان، وفى كل يوم يغلب هذا ذاك ، وذاك هذا . ثم ذكر تسخيره لسلطان النهار وسلطان الليل، وهما الشمس والقمر فقال : ﴿ **سخر الشمس والقمر** ﴾ أى جعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ، ثم بين كيفية هذا التسخير فقال : ﴿ **كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ أى يجرى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا ، وذلك يوم القيامة وقد تقدّم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى فى سورة « يس » ﴿ **ألا هو العزيز الغفار** ﴾ ألا حرف تنبيه ، والمعنى : تنبهوا أيها العباد ؛ فاللّه هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة .

ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته وبديع صنعه ، فقال : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وهى نفس آدم ﴿ **ثم جعل منها زوجها** ﴾ جاء بثم؛ للدّلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، وتراخيه عنه لأنها خلقت منه ، والعطف: إما على مقدّر هو صفة لنفس . قال الفراء والزجاج: التقدير: خلقكم من نفس خلقها واحدة ثم جعل منها زوجها . ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة ، أى من نفس انفردت ثم جعل إلخ. والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم؛ للدّلالة على أن خلق حوّاء من ضلع آدم أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة؛ لأن خلق آدم هو على عادة اللّه المستمرة فى خلقه ، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى فى سورة الأعراف . ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته الباهرة فقال : ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾ وهو معطوف على خلقكم، وعبر بالإنزال لما يروى أنه خلقها فى الجنة ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقة ، ويحتمل أن يكون مجازا ، لأنها لم تعش إلا بالنبات ، والنبات إنما يعيش بالماء والماء منزل من السماء ، كانت الأنعام كأنها منزلة ، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب فى قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم   رعيناه وإن كانوا غضابا

وقيل : إن نزل بمعنى : أنشأ وجعل ، أو بمعنى أعطى . وقيل : جعل الخلق إنزالا ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء ، والثمانية الأزواج هى ما فى قوله : ﴿ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ [الأنعام : ١٤٣] ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ويعنى فى الأربعة المواضع : الذكر والأنثى ، وقد تقدّم تفسير الآية فى سورة

الأنعام. ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته البديعة فقال : ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق** ﴾ والجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة فى خلقهم، وخلقا مصدر مؤكد للفعل المذكور ، و﴿ **من بعد خلق** ﴾ صفة له ، أى خلقا كائنا من بعد خلق . قال قتادة والسدّى : نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما . وقال ابن زيد : خلقكم خلقا فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم من ظهر آدم ، وقوله: ﴿ **فى ظلمات ثلاث** ﴾ متعلق بقوله : ﴿**يخلقكم**﴾ وهذه الظلمات الثلاث هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرّحم ، وظلمة المشيمة . قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك . وقال سعيد بن جبير : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرّحم ، وظلمة الليل . وقال أبو عبيدة : ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرّحم ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلكم الله** ﴾ إليه سبحانه باعتبار أفعاله السابقة ، والاسم الشريف خبره ﴿**ربكم** ﴾ خبر آخر ﴿ **له الملك** ﴾ الحقيقى فى الدنيا والآخرة لا شركة لغيره فيه ، وهو خبر ثالث ، وقوله : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ خبر رابع ﴿ **فأنى تصرفون** ﴾ أى فكيف تنصرفون عن عبادته وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره ؟ قرأ حمزة : «إمهاتكم » بكسر الهمزة والميم . وقرأ الكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

وقد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشى أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، إنا نعطى أموالنا التماس الذكر فهل لنا فى ذلك من أجر ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « لا » ، قال : يا رسول اللّه ، إنما نعطى التماس الأجر والذكر فهل لنا أجر ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه لا يقبل إلا ما أخلص لـه » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يكور الليل** ﴾ قال : يحمل الليل . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خلقا من بعد خلق** ﴾ قال : علقة ثم مضغة ثم عظاما ﴿ **فى ظلمات ثلاث** ﴾ : البطن والرحم والمشيمة .

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

الْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾.

لما ذكر سبحانه النعم التى أنعم بها على عباده ، وبين لهم بديع صنعه وعجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم** ﴾ أى غير محتاج إليكم ولا إلى إيمانكم ولا إلى عبادتكم له فإنه الغنى المطلق ، ومع كون كفر الكافر لا يضره كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن ، فهو أيضا ﴿ **لا يرضى لعباده الكفر** ﴾ أى لا يرضى لأحد من عباده الكفر ولا يحبه ولا يأمر به ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ﴾ [إبراهيم : ٨] ومثلها ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله ﷺ : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » [(١)]. وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية هل هى على عمومها ، وإن الكفر غير مرضىّ لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر ، أو هى خاصة ؟ والمعنى : لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه كما سيأتى بيانه آخر البحث ، وتابعه على ذلك عكرمة والسدّى وغيرهما . ثم اختلفوا فى الآية اختلافا آخر . فقال قوم : إنه يريد كفر الكافر ولا يرضاه، وقال آخرون: إنه لا يريده ولا يرضاه ، والكلام فى تحقيق مثل هذا يطول جدا . وقد استدل القائلون بتخصيص هذه الآية ، والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه ﴿يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ [النحل: ٩٣]،﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ [الإنسان: ٣٠] ونحو هذا مما يؤدى معناه كثير فى الكتاب العزيز . ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر فقال :﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ أى يرضى لكم الشكر المدلول عليه بقوله : ﴿ **وإن تشكروا** ﴾ ويثيبكم عليه،وإنما رضى لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم فى الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : ٧]. قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم بإسكان الهاء من : «يرضه»، وأشبع الضمة على الهاء ابن ذكوان وابن كثير والكسائى وابن محيصن وورش عن نافع ، واختلس الباقون . ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم** ﴾ يوم القيامة ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ من خير وشر، وفيه تهديد شديد ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أى بما تضمره القلوب وتستره ، فكيف بما تظهره وتبديه ؟

﴿ **وإذا مسّ الإنسان ضرّ** ﴾ أىّ ضر كان من مرض أو فقر أو خوف ﴿ **دعا ربه منيبا إليه** ﴾ أى راجعا إليه مستغيثا به فى دفع ما نزل به تاركا لما كان يدعوه ، ويستغيث به من ميت أو حىّ أو صنم أو غير ذلك ﴿ **ثم إذا خوّله نعمة منه** ﴾ أى أعطاه وملكه ، يقال : خوّله الشىء ، أى

---

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٧٧/ ٥٥) .

ملكه إياه ، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

ومنه قول أبى النجم :

أعطى ولم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّل كُوم الذُّرى من خَوَلِ المخوَّلِ

﴿ نسى ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ أى نسى الضرّ الذى كان يدعو اللّه إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله . قيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به وتركه أو نسى ربه الذى كان يدعوه ويتضرّع إليه ، ثم جاوز ذلك إلى الشرك باللّه ، وهو معنى قوله: ﴿ وجعل لله أندادا ﴾ أى شركاء من الأصنام أو غيرها يستغيث بها ويعبدها ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ أى ليضل الناس عن طريق اللّه التى هى الإسلام والتوحيد . وقال السدّى : يعنى أندادا من الرجال يعتمد عليهم فى جميع أموره . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يهدّد من كان متصفا بتلك الصفة فقال: ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا ﴾ أى تمتعا قليلا أو زمانا قليلا ، فمتاع الدنيا قليل ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿إنك من أصحاب النار ﴾ أى مصيرك إليها عن قريب ، وفيه من التهديد أمر عظيم . قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه التهديد والوعيد ، قرأ الجمهور : ﴿ ليضل ﴾ بضم الياء ، وقرأ ابن كثير وعمرو بفتحها .

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين وتمسكهم بغير اللّه عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ﴾ وهذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول اللّه ﷺ . والمعنى : ذلك الكافر أحسن حالا ومآلا ، أمن هو قائم بطاعات اللّه فى السراء والضراء فى ساعات الليل ، مستمرّ على ذلك ، غير مقتصر على دعاء اللّه سبحانه عند نزول الضرر به . قرأ الحسن وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : ﴿أمن﴾ بالتشديد ، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة ويحيى بن وثاب والأعمش بالتخفيف ، فعلى القراءة الأولى أم داخلة على من الموصولة وأدغمت الميم فى الميم، وأم هى المتصلة ومعادلها محذوف تقديره : الكافر خير أم الذى هو قانت ؟ وقيل : هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، أى بل أمن هو قانت كالكافر ؟ وأما على القراءة الثانية ، فقيل : الهمزة للاستفهام دخلت على من ، والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف ، أى أمن هو قانت كمن كفر ؟ وقال الفراء : إن الهمزة فى هذه القراءة للنداء ومن منادى ، وهى عبارة عن النبىّ ﷺ المأمور بقوله : ﴿ قل تمتع ﴾ والتقدير: يا من هو قانت ، قل : كيت وكيت ، وقيل : التقدير: يا من هو قانت ، إنك من أصحاب الجنة . ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفرّاء ، وضعف ذلك أبو حيان ، وقال: هو أجنبى عما قبله وعما بعده ، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علىّ الفارسى ، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم والأخفش ولا وجه لذلك فإنا إذا ثبتت الرواية بطلت الدّراية . وقد اختلف فى تفسير القانت هنا فقيل : المطيع . وقيل : الخاشع فى صلاته . وقيل : القائم فى صلاته . وقيل : الدّاعى لربه . قال النحاس : أصل القنوت : الطاعة، فكل ما قيل

فيه فهو داخل فى الطاعة، والمراد بآناء الليل : ساعاته . وقيل : جوفه . وقيل : ما بين المغرب والعشاء. وانتصاب ﴿ساجدا وقائما ﴾ على الحال ، أى جامعا بين السجود والقيام ، وقدّم السجود على القيام لكونه أدخل فى العبادة ،ومحل ﴿ يحذر الآخرة﴾ النصب على الحال أيضا ، أى يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير ومقاتل ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ فيجمع بين الرجاء والخوف ، وما اجتمعا فى قلب رجل إلا فاز . قيل : وفى الكلام حذف ، والتقدير : كمن لا يفعل شيئا من ذلك كما يدل عليه السياق . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم قولا آخر يتبين به الحقّ من الباطل فقال : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ أى الذين يعلمون أن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حقّ ، والذين لا يعلمون ذلك ، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك ، أو المراد : العلماء والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل ، ولا بين العالم والجاهل . قال الزجاج: أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى . وقيل: المراد بالذين يعلمون هم : العاملون بعلمهم فإنهم المنتفعون به ؛ لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أى إنما يتعظ ويتدبر ويتفكر أصحاب العقول ، وهم المؤمنون لا الكفار ، فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولا فهى كالعدم وهذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به بل من جهة الله سبحانه .

﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم، وبين أنه ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به . والمعنى: يأيها الذين صدّقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته ، واجتناب معاصيه ، وإخلاص الإيمان له ، ونفى الشركاء عنه . والمراد : قل لهم قولى هذا بعينه . ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما فى هذه التقوى من الفوائد فقال: ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ أي للذين عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة وهى الجنة ، وقوله : ﴿ فى هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا . وقيل : هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها ، فيكون المعنى : للذين أحسنوا فى العمل حسنة فى الدنيا بالصحة والعافية والظفر والغنيمة ، والأوّل أولى . ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات والإحسان فى وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ أى فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله . والعمل بما أمر به . والترك لما نهى عنه ، ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ [النساء : ٩٧] وقد مضى الكلام فى الهجرة مستوفى فى سورة النساء . وقيل : المراد بالأرض هنا : أرض الجنة ، رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها كما فى قوله: ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والأوّل أولى .

ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا ، وكان لا بدّ فى ذلك من الصبر على فعل

الطاعة وعلى كفّ النفس عن الشهوات ، أشار إلى فضيلة الصبر وعظيم مقداره فقال : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ أى يوفيهم اللّه أجرهم فى مقابلة صبرهم بغير حساب، أى بما لا يقدر على حصره حاصر ، ولا يستطيع حسبانه حاسب . قال عطاء : بما لا يهتدى إليه عقل ولا وصف . وقال مقاتل : أجرهم الجنة ، وأرزاقهم فيها بغير حساب . والحاصل أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له ، لأن كل شىء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة تقتضى أن على كل راغب فى ثواب اللّه، وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه بزمامه ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل، ولا يجلب خيرا قد سلب ولا يدفع مكروها قد وقع ، وإذا تصوّر العاقل هذا حق تصوره وتعقله حقّ تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم ، وظفر بهذا الجزاء الخطير ، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى ، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، فضمّ إلى مصيبته مصيبة أخرى ولم يظفر بغير الجزع ، وما أحسن قول من قال :

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب ... فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هناك يحق الصبر والصبر واجب ... وما كان منه للضرورة أوجب

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بما أمر به من التوحيد والإخلاص فقال : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدّين** ﴾ أي أعبده عبادة خالصة من الشرك والرّياء وغير ذلك . قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبيّ ﷺ : ما يحملك على الذى أتيتنا به ، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدّك وسادات قومك يعبدون اللات والعزّى فتأخذ بها ؟ فأنزل اللّه الآية ، وقد تقدّم بيان معنى الآية فى أوّل هذه السورة ﴿ **وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين** ﴾ أى من هذه الأمة ، وكذلك كان ﷺ ، فإنه أوّل من خالف دين آبائه ودعا إلى التوحيد ، واللام للتعليل ، أى وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون . وقيل : إنها مزيدة للتأكيد ، والأوّل أولى . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم** ﴾ يعنى : الكفار الذين لم يرد اللّه أن يطهر قلوبهم ، فيقولون : لا إله إلا اللّه ، ثم قال : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ وهم عباده المخلصون الذين قال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء : ٦٥] فألزمهم شهادة أن لا إله إلا اللّه وحببها إليهم . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ قال : لا يرضى لعباده المسلمين الكفر . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : واللّه ما رضى اللّه لعبد ضلالة ولا أمره بها ولا دعا إليها ، ولكن رضى لكم طاعته وأمركم بها ونهاكم عن معصيته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر عن ابن عمر أنه تلا هذه الآية : ﴿ **أمن هو**

قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ﴾ قال : ذاك عثمان بن عفان [(١)] . وفي لفظ : نزلت في عثمان بن عفان . وأخرج ابن سعد فى طبقاته ، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أمن هو قانت** ﴾ الآية قال : نزلت فى عمار بن ياسر[(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **يحذر الآخرة** ﴾ يقول : يحذر عذاب الآخرة . وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجة عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ على جل وهو فى الموت فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو ، وأمنه الذى يخاف » [(٣)] . أخرجوه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس . قال الترمذى : غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن النبىّ ﷺ مرسلا .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾.

قوله : ﴿ **قل إنى أخاف إن عصيت ربى** ﴾ أى بترك إخلاص العبادة له وتوحيده والدعاء إلى ترك الشرك وتضليل أهله ﴿ **عذاب يوم عظيم** ﴾ وهو يوم القيامة . قال أكثر المفسرين : المعنى : إنى أخاف إن عصيت ربى بإجابة المشركين إلى ما دعونى إليه من عبادة غير الله . قال أبو حمزة اليمانى وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] وفى هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب ، لأن قبله : ﴿ إنى[(٤)] أمرت أن أعبد الله ﴾ [الزمر : ١١]. فالمراد : عصيان هذا الأمر ﴿ **قل الله أعبد** ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص ، أى لا أعبد غيره لا استقلالا ولا على جهة الشركة ، ومعنى ﴿ **مخلصا**

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ٥٦.
(٢) ابن سعد ٣/ ٢٥٠.
(٣) الترمذى فى الجنائز (٩٨٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى اليوم والليلة (١٠٩٠١) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٦١).
(٤) فى المخطوطة : « إنما » .

له دينى ﴾ : أنه خالص للّه غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما ، وقد تقدّم تحقيقه فى أول السورة . قال الرازى : فإن قيل : ما معنى التكرير فى قوله : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ [الزمر: ١١] وقوله : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى** ﴾ قلنا : ليس هذا بتكرير؛ لأن الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة اللّه بالإيمان والعبادة ، والثانى إخبار بأنه أمر ألا يعبد أحدا غير اللّه ﴿ **فاعبدوا ما شئتم** ﴾ أن تعبدوه ﴿ **من دونه** ﴾ هذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : ٤٠] وقيل : إن الأمر على حقيقته ، وهو منسوخ بآية السيف ، والأوّل أولى ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى إن الكاملين فى الخسران هم هؤلاء ؛ لأن من دخل النار فقد خسر نفسه وأهله . قال الزجاج : وهذا يعنى به الكفار فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد فى النار ، وخسروا أهليهم ، لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل فى الجنة ، وجملة : ﴿ **ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها ، وتصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذى حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية،وكذلك تعريف الخسران ووصفه بكونه مبينا ، فإنه يدلّ على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران وأنه لا خسران يساويه ولا عقوبة تدانيه .

ثم بين سبحانه هذا الخسران الذى حلّ بهم والبلاء النازل عليهم بقوله : ﴿ **لهم من فوقهم ظلل من النار** ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار ، أى لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ﴿ **ومن تحتهم ظلل** ﴾ أى أطباق من النار ، وسمى ما تحتهم ظللا ؛ لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار ؛ لأن طبقات النار صار فى كلّ طبقة منها طائفة من طوائف الكفار ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [العنكبوت : ٥٥] والإشارة بقوله: ﴿**ذلك**﴾ إلى ما تقدّم ذكره من وصف عذابهم فى النار، وهو مبتدأ وخبره قوله:﴿ **يخوّف الله به عباده** ﴾ أى يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ليخافوه فيتقوه ، وهو معنى : ﴿ **يا عباد فاتقون** ﴾ أى اتقوا هذه المعاصى الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب فى القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم. وقيل: هو للكفار وأهل المعاصى. وقيل : هو عامّ للمسلمين والكفار .

﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها** ﴾ الموصول مبتدأ وخبره قوله : ﴿ **لهم البشرى** ﴾ والطاغوت بناء مبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ، وهو الأوثان والشيطان . وقال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان . وقال الضحاك والسدّى : هو الأوثان . وقيل : إنه الكاهن . وقيل : هو اسم أعجمى مثل طالوت وجالوت . وقيل: إنه اسم عربى مشتق من الطغيان . قال الأخفش: الطاغوت جمع ، ويجوز أن يكون واحده مؤنثا ، ومعنى اجتنبوا الطاغوت : أعرضوا عن عبادته وخصوا عبادتهم بالله عز وجل ، وقوله : ﴿ **أن يعبدوها** ﴾ **فى محل نصب** على البدل من الطاغوت بدل اشتمال ، كأنه قال : اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وقد تقدم الكلام

على تفسير الطاغوت مستوفى فى سورة البقرة . وقوله : ﴿ **وأنابوا إلى الله** ﴾ معطوف على اجتنبوا ، والمعنى : رجعوا إليه وأقبلوا على عبادته معرضين عما سواه ﴿ **لهم البشرى** ﴾ بالثواب الجزيل وهو الجنة ، وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل ، أو عند حضور الموت أو عند البعث ﴿ **فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ المراد بالعباد هنا : العموم ، فيدخل الموصوفون بالاجتناب والإنابة إليه دخولا أوّليا ، والمعنى : يستمعون القول الحق من كتاب الله وسنة رسوله فيتبعون أحسنه ، أى محكمه ، ويعملون به . قال السدّى : يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه . وقيل : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون الرخص والعزائم ، فيتبعون العزائم ويتركون الرخص . وقيل : يأخذون بالعفو ويتركون العقوبة . ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المذكورين فقال : ﴿ **أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ أى هم الذين أوصلهم الله إلى الحق وهم أصحاب العقول الصحيحة، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ولم ينتفع من عداهم بعقولهم .

ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة وحرم السعادة فقال: ﴿ **أفمن حقّ عليه كلمة العذاب**﴾ من هذه يحتمل أن تكون موصولة فى محل رفع بالابتداء وخبرها محذوف ، أى كمن يخاف ، أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه ، ويحتمل أن تكون شرطية ، وجوابه : ﴿ **أفأنت تنقذ من فى النار** ﴾ فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء ، وأعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار . وقال سيبويه : إنه كرّر الاستفهام لطول الكلام . وقال الفراء : المعنى : أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ، والمراد بكلمة العذاب هنا : هى قوله تعالى لإبليس : ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٥] ، وقوله : ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ [الأعراف : ١٨] ومعنى الآية : التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه كان حريصا على إيمان قومه ، فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله ﷺ أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمنا . قال عطاء : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبىّ ﷺ عن الإيمان، وفى الآية تنزيل لمن يستحق العذاب بمن قد صار فيه ، وتنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار .

ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللا من فوقهم النار ومن تحتهم ظلل ، استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية** ﴾ وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، ومعنى ﴿ **مبنية** ﴾ : أنها مبنية بناء المنازل فى إحكام أساسها وقوّة بنائها وإن كانت منازل الدنيا ليست بشىء بالنسبة إليها ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى من تحت تلك الغرف ، وفى ذلك كمال لبهجتها وزيادة لرونقها . وانتصاب ﴿ **وعد الله** ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة ؛ لأن قوله : ﴿ **لهم غرف** ﴾ فى معنى وعدهم الله بذلك ، وجملة : ﴿ **لا يخلف الله الميعاد** ﴾ مقرّرة للوعد ، أى لا يخلف الله

ما وعد به الفريقين من الخير والشرّ .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ﴾ الآية . قال : هم الكفار الذين خلقهم اللّه للنار زالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ قال : أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدّوا لهم لو عملوا بطاعة اللّه فغبنوهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: كان سعيد بن زيد وأبو ذر وسلمان يتبعون فى الجاهلية أحسن القول وأحسن القول والكلام : لا إله إلا الله ، قالوا بها ، فأنزل الله على نبيه : ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال :لما نزلت : ﴿ فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أرسل رسول الله ﷺ مناديا فنادى: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، فاستقبل عمر الرسول فرده فقال : يا رسول الله ، خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون ، فقاا رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس قدر رحمة ربى لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط ربى وعقابه لاستصغروا أعمالهم » وهذا الحديث أصله فى الصحيح من حديث أبى هريرة [1] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾.

لما ذكر سبحانه الآخرة ، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها ، والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا ، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها والنفرة منها ، فذكر تمثيلا لها فى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، مع ما فى ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة وصنعه البديع فقال : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ أى من السحاب مطرا ﴿ فسلكه ينابيع فى الأرض ﴾ أى فأدخله وأسكنه فيها ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء والأمكنة التى ينبع منها الماء ، والمعنى : أدخل الماء النازل من السماء فى الأرض وجعله فيها عيونا جارية، أو

(١) مسلم فى الإيمان (٣١/ ٥٢).

جعله في ينابيع ، أي في أمكنة ينبع منها الماء ، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل : فجعله عيونا وركايا في الأرض ﴿ **ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه** ﴾ أي يخرج بذلك الماء من الأرض زرعا مختلفا ألوانه من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر ، أو من بر وشعير وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ﴿ **ثم يهيج** ﴾ يقال : هاج النبت يهيج هيجا : إذا تم جفافه . قال الجوهري : يقال : هاج النبت هياجا : إذا يبس ، وأرض هائجة يبس بقلها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت : أيبسته . قال المبرد : قال الأصمعي : يقال : هاجت الأرض تهيج : إذا أدبر نبتها وولى . قال : وكذلك هاج النبت . ﴿ **فتراه مصفرا** ﴾ أي تراه بعد خضرته ونضارته وحسن رونقه مصفرا قد ذهبت خضرته ونضارته ﴿ **ثم يجعله حطاما** ﴾ أي متفتتا منكسرا ، من تحطم العود : إذا تفتت من اليبس ﴿ **إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب** ﴾ أي فيما تقدم ذكره تذكيرا لأهل العقول الصحيحة ، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها فيتفكرون ويعتبرون ، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم وقرب التقضي ، وذهاب بهجتها وزوال رونقها ونضارتها ، فإذا أنتج لهم التفكر والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها ، والميل إليها وإيثارها على دار النعيم الدائم ، والحياة المستمرة واللذة الخالصة ، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر ؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك . وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض . والمعنى : أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به دينا بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا ، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع ، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير . قرأ الجمهور : ﴿ **ثم يجعله** ﴾ بالرفع عطفا على ما قبله، وقرأ أبو بشر بالنصب بإضمار أن ، ولا وجه لذلك .

ثم لما ذكر سبحانه أن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ، ذكر شرح الصدر للإسلام ؛ لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾ أي وسعه لقبول الحق وفتحه للاهتداء إلى سبيل الخير. قال السدي : وسع صدره للإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ، والكلام في الهمزة والفاء كما تقدم في : ﴿ **أفمن حقّ عليه كلمة العذاب** ﴾ ومن مبتدأ وخبرها محذوف تقديره : كمن قسا قلبه وحرج صدره ، ودل على هذا الخبر المحذوف قوله : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم** ﴾ والمعنى : أفمن وسع الله صدره للإسلام فقبله واهتدى بهديه ﴿**فهو**﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿ **على نور من ربه** ﴾ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره ، فصار في ظلمات الضلالة وبليات الجهالة . قال قتادة : النور : كتاب الله به يؤخذ وإليه ينتهي . قال الزجاج : تقدير الآية : أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته؟ ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ قال الفراء والزجاج : أي عن ذكر الله كما تقول : أتخمت عن طعام أكلته ومن طعام أكلته، والمعنى : أنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله ، يقال : قسا القلب: إذا صلب ، وقلب قاس ،أي صلب لا يرق ولا يلين. وقيل: معنى ﴿ **من ذكر الله** ﴾ :

من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب ، والمعنى : أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده قراءة من قرأ « عن ذكر الله » ، والإشارة بقوله : ﴿أولئك﴾ إلى القاسية قلوبهم، وهو مبتدأ وخبره ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى ظاهر واضح .

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعنى القرآن ، وسماه حديثا لأن النبى ﷺ كان يحدث به قومه ويخبرهم بما ينزل عليه منه ، وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقا هو القرآن . وانتصاب ﴿ كتابا ﴾ على البدل من أحسن الحديث ، ويحتمل أن يكون حالا منه ﴿ متشابها ﴾ صفة لـ﴿ كتابا ﴾ ، أى يشبه بعضه بعضا فى الحسن والإحكام وصحة المعانى وقوة المبانى،وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة. وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، و﴿مثانى﴾ صفة أخرى لـ﴿ كتابا ﴾ ، أى تثنى فيه القصص وتتكرر فيه المواعظ والأحكام . وقيل : يثنى فى التلاوة فلا يمل سامعه ولا يسأم قارئه . قرأ الجمهور : ﴿ مثانى ﴾ بفتح الياء ، وقرأ هشام عن ابن عامر وبشر بسكونها تخفيفا واستثقالا لتحريكها ، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هو مثانى . وقال الرازى فى تبيين مثانى :كأن أكثر الأشياء المذكورة فى القرآن متكررة زوجين زوجين مثل الأمر والنهى والعام والخاص والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض والجنة والنار ، والنور والظلمة واللوح والقلم والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسى والوعد والوعيد والرجاء والخوف ، والمقصود من ذلك : البيان بأن كل ما سوى الحق زوج، وأن الفرد الأحد الحق هو الله . ولا يخفى ما فى كلامه هذا من التكلف والبعد عن مقصود التنزيل ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لـ ﴿ كتابا ﴾ ، وأن تكون حالا منه ، لأنه وإن كان نكرة فقد تخصص بالصفة، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه . والاقشعرار : التقبض ، يقال : اقشعر جلده : إذا تقبض وتجمع من الخوف . والمعنى : أنها تأخذهم منه قشعريرة . قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم ﴾ إذا ذكرت آيات الرحمة . قال الواحدى : وهذا قول جميع المفسرين ، ومن ذلك قول امرئ القيس :

فبت أكابد ليل التما ... م والقلب من خشية مقشعر

وقيل : المعنى : أن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاما له وتعجبا من حسنه وبلاغته ثم تلين جلودهم وقلوبهم ﴿إلى ذكر الله ﴾ عدى تلين بإلى لتضمينه فعلا يتعدى بها، كأنه قيل : سكنت واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة ، ومفعول ذكر الله محذوف ، والتقدير : إلى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته ، وحذف للعلم به . قال قتادة : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتبكى عيونهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع وهو من الشيطان ، والإشارة بقوله : ﴿ذلك﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك

الصفات ،وهو مبتدأ و﴿ **هدى الله** ﴾ خبره،أى ذلك الكتاب هدى الله ﴿ **يهدى به من يشاء** ﴾ أن يهديه من عباده . وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه ورجاء ثوابه ﴿ **ومن يضلل الله** ﴾ أى يجعل قلبه قاسيا مظلماً غير قابل للحق ﴿ **فما له من هاد** ﴾ يهديه إلى الحق ويخلصه من الضلال. قرأ الجمهور : ﴿ **من هاد** ﴾ بغير ياء . وقرأ ابن كثير وابن محيصن بالياء .

ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وهو الضلال ، حكم عليهم فى الآخرة بحكم آخر وهو العذاب فقال: ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ والاستفهام للإنكار ، وقد تقدم الكلام فيه وفى هذه الفاء الداخلة على من فى قوله : ﴿ **أفمن حق عليه كلمة العذاب** ﴾ ومن مبتدأ وخبرها محذوف لدلالة المقام عليه ، والمعنى: أفمن شأنه أن يقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة ؛ لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن، لا يعتريه شيء من ذلك ولا يحتاج إلى الاتقاء ؟ قال الزجاج : المعنى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة؟ قال عطاء وابن زيد : يرمى به مكتوفا فى النار ، فأول شيء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجر على وجهه فى النار . قال الأخفش : المعنى: أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب أفضل أم من سعد ؟ مثل قوله : ﴿ أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾ [فصلت : ٤٠] ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار فقال : ﴿ **وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ وهو معطوف على يتقى ، أى ويقال لهم ، وجاء بصيغة الماضى ؛ للدلالة على التحقيق . قال عطاء : أى جزاء ما كنتم تعملون ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [التوبة : ٣٥] وقد تقدم الكلام على معنى الذوق فى غير موضع .

ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار ، فقال : ﴿ **كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ والمعنى : أنهم كذبوا رسلهم ﴿ **فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ أى من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها وذلك عند أمنهم وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿ **فأذاقهم الله الخزى** ﴾ أى الذلّ والهوان ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ بالمسخ والخسف والقتل والأسر وغير ذلك ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر** ﴾ لكونه فى غاية الشدة مع دوامه ﴿**لو كانوا يعلمون** ﴾ أى لو كانوا ممن يعلم الأشياء ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى علمه . قال المبرد : يقال : لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أى وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال : والخزى : المكروه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء** ﴾ الآية . قال : ما فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق فى الأرض تغيره ، فذلك قوله : ﴿ **فسلكه ينابيع فى الأرض** ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله :﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾ قال : أبو بكر الصديق. وأخرج ابن

مردويه عن ابن مسعود قال : تلا النبيّ ﷺ هذه الآية : ﴿ **أفمن شرح الله صدره** ﴾ قلنا : يا نبي الله، كيف انشراح صدره : قال : « إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح » . قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت » [١] . وأخرجه ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظى مرفوعا مرسلا. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر ؛ أن رجلا قال: يا نبى الله ، أى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع» ، فقالوا: ما آية ذلك يا نبى الله ؟ قال: « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » . وأخرجه عن أبى جعفر عبد الله بن المسور عن رسول الله ﷺ بنحوه، وزاد فيه . ثم قرأ : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ [٢] . وأخرج الترمذى وابن مردويه وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى» [٣] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ، لو حدثتنا ، فنزل : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث** ﴾ الآية[٤] . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **مثانى** ﴾ قال : القرآن كله مثانى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه إلى بعض . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : كتاب الله مثانى ثنى فيه الأمر مرارا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدّتى أسماء : كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناسا هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت : أعوذ بالله من الشيطان . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب** ﴾ قال : ينطلق به إلى النار مكتوفا ثم يرمى به فيها ، فأوّل ما تمس وجهه النار.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ

(١ ، ٢) ابن جرير ٨ / ٢١ .

(٣) الترمذى فى الزهد (٢٤١١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والبيهقى فى الشعب (٤٦٠٠) وأخرجه الديلمى (٧٤٧٥) .

(٤) ابن جرير ٢٣/ ١٣٥.

جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ قد قدمنا تحقيق المثل وكيفية ضربه فى غير موضع، ومعنى ﴿ من كل مثل ﴾ : ما يحتاجون إليه ، وليس المراد ما هو أعمّ من ذلك ، فهو هنا كما فى قوله : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ [الأنعام : ٣٨] أى من شىء يحتاجون إليه فى أمر دينهم . وقيل : المعنى : ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون فيعتبرون . وانتصاب ﴿ قرآنا عربيا ﴾ على الحال من هذا وهى حال مؤكدة، وتسمى هذه حالا موطئة لأن الحال فى الحقيقة هو عربيا ، وقرآنا توطئة له ، نحو جاءنى زيد رجلا صالحا. كذا قال الأخفش ، ويجوز أن ينتصب على المدح. قال الزجاج: ﴿ عربيا ﴾ منتصب على الحال و﴿ قرآنا ﴾ توكيد ، ومعنى ﴿ غير ذى عوج ﴾: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه . قال الضحاك : أى غير مختلف . قال النحاس : أحسن ما قيل فى معناه قول الضحاك ، وقيل : غير متضاد . وقيل : غير ذى لبس . وقيل : غير ذى لحن . وقيل : غير ذى شك كما قال الشاعر :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج   من الإله وقول غير مكذوب

﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى بعد العلة الأولى . وهى : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أى لكى يتقوا الكفر والكذب . ثم ذكر سبحانه مثلا من الأمثال القرآنية للتذكير والإيقاظ ، فقال : ﴿ضرب الله مثلا ﴾ أى تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها . ثم بين المثل فقال : ﴿ رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال الكسائى : نصب ﴿ رجلا ﴾ لأنه تفسير للمثل . وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، أى ضرب الله مثلا برجل . وقيل : إن ﴿ رجلا ﴾ هو المفعول الأوّل ، و﴿مثلا ﴾ هو المفعول الثانى ، وأخر المفعول الأوّل ليتصل بما هو من تمامه ، وقد تقدم تحقيق هذا فى سورة « يس » ، وجملة : ﴿ فيه شركاء ﴾ فى محل نصب صفة لرجل . والتشاكس : التخالف . قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرد : أى متعاسرون ، من شكس يشكس شكسا فهو شكس ، مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر . قال الجوهرى : التشاكس : الاختلاف . قال : ويقال : رجل شكس بالتسكين ، أى صعب الخلق ، وهذا مثل من أشرك بالله وعبد آلهة كثيرة . ثم قال : ﴿ ورجلا سلما لرجل ﴾ أى خالصا له ، وهذا مثل من يعبد الله وحده . قرأ الجمهور : ﴿ سلما ﴾ بفتح السين واللام ، وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية بكسر السين وسكون اللام . وقرأ ابن عباس ومجاهد والجحدرى وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب : «سالما » بالألف وكسر اللام اسم فاعل من سلم له فهو سالم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأن السالم الخالص ضدّ المشترك . والسلم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هاهنا .

وأجيب عنه : بأن الحذف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فالسلم وإن كان ضدّ الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم ، من سلم له كذا : إذا خلص له . وأيضا يلزمه فى سالم ما ألزم به ، لأنه يقال : شىء سالم ، أى لا عاهة به ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى. والحاصل أن قراءة الجمهور هى على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف ، أى ذا سلم ، ومثلها قراءة سعيد بن جبير ومن معه .

ثم جاء سبحانه بما يدلّ على التفاوت بين الرجلين فقال :﴿ **هل يستويان مثلا** ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار والاستبعاد، والمعنى : هل يستوى هذا الذى يخدم جماعة شركاء ، أخلاقهم مختلفة ونياتهم متباينة ، يستخدمه كل واحد منهم ، فيتعب وينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته ، وهذا الذى يخدم واحدا لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضى عنه ، وإذا عصاه عفا عنه ؟ فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما ؛ لأن أحدهما فى أعلى المنازل والآخر فى أدناها ، وانتصاب ﴿ **مثلا** ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوى مثلهما . وأفرد التمييز ولم يثنه لأن الأصل فى التمييز الإفراد لكونه مبينا للجنس ، وجملة : ﴿ **الحمد لله** ﴾ تقرير لما قبلها من نفى الاستواء، وللإيذان للموحدين بما فى توحيدهم للّه من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به . ثم أضرب سبحانه عن نفى الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكارى ، إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ وهم المشركون فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره ووضوحه . قال الواحدى والبغوى : والمراد بالأكثر : الكلّ والظاهر خلاف ما قالاه ، فإن المؤمنين باللّه يعلمون ما فى التوحيد من رفعة شأنه وعلوّ مكانه ، وإن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه ، ولا يساويه فى وصف من الأوصاف ، ويعلمون أن اللّه سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة وأن الحمد مختصّ به .

ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بأن الموت يدركه ويدركهم لا محالة فقال :﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **ميت** ﴾ و ﴿ **ميتون** ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن وابن أبى عبلة وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق واليمانى : «مائت» و « مائتون » وبها قرأ عبد اللّه بن الزبير. وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته وموتهم مستقبلا، ولا وجه للاستحسان ، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى . قال الفراء والكسائى : الميت بالتشديد : من لم يمت وسيموت ، والميْت بالتخفيف : من قد مات وفارقته الرّوح . قال قتادة : نعيت إلى النبىّ ﷺ نفسه ونعيت إليهم أنفسهم . ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت ، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة وتمهيدا لما بعده حيث قال : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ أى تخاصمهم يا محمد وتحتجّ عليهم بأنك قد بلغتهم وأنذرتهم وهم يخاصمونك ، أو يخاصم المؤمن الكافر والظالم المظلوم .

ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين فقال : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله** ﴾

أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فزعم أن له ولدا أو شريكا أو صاحبة ﴿ **وكذّب بالصدق إذ جاءه** ﴾ وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ونهيهم عن محرماته وإخبارهم بالبعث والنشور، وما أعدّ الله للمطيع والعاصى . ثم استفهم سبحانه استفهاما تقريريا فقال : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ أى أليس لهؤلاء المفترين المكذبين بالصدق . والمثوى : المقام . وهو مشتق من ثوى بالمكان : إذا أقام به يثوى ثواء وثويا ، مثل مضى مضاء ومضيا . وحكى أبو عبيد أنه يقال أثوى وأنشد قول الأعشى :

أثوى وقَصّر ليله ليزودا ومضى وأخلف من قُتَيْلَةَ موعدا

وأنكر ذلك الأصمعى وقال :لا نعرف أثوى . ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدّقين فقال : ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدّق به** ﴾ الموصول فى موضع رفع بالابتداء ، وهو عبارة عن رسول الله ﷺ ومن تابعه وخبره : ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ وقيل : الذي جاء بالصدق : رسول الله ﷺ ، والذى صدّق به : أبو بكر . وقال مجاهد: الذى جاء بالصدق : رسول الله ﷺ ، والذى صدّق به : على بن أبى طالب . وقال السدّى : الذى جاء بالصدق : جبريل ، والذى صدّق به : رسول الله ﷺ . وقال قتادة ومقاتل وابن زيد : الذى جاء بالصدق : النبى ﷺ ، والذى صدّق به : المؤمنون . وقال النخعى : الذى جاء بالصدق وصدّق به : هم المؤمنون الذين يجيؤون بالقرآن يوم القيامة . وقيل : إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده ، واختار هذا ابن جرير وهو الذى أختاره من هذه الأقوال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : « والذين جاؤوا بالصدق وصدّقوا به » . ولفظ ﴿ **الذى** ﴾ كما وقع فى قراءة الجمهور وإن كان مفردا فمعناه الجمع ، لأنه يراد به الجنس كما يفيده قوله : ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ أى المتصفون بالتقوى التى هى عنوان النجاة . وقرأ أبو صالح : « وصدق به » مخففا أى صدق به الناس .

ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدّقين فى الآخرة فقال : ﴿ **لهم ما يشاؤون عند ربهم** ﴾ أى لهم كل ما يشاؤونه من رفع الدرجات ودفع المضرات وتكفير السيئات ، وفى هذا ترغيب عظيم وتشويق بالغ ، والإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من جزائهم وهو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ **جزاء المحسنين** ﴾ أى الذين أحسنوا فى أعمالهم. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [(١)] . ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال : ﴿ **ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا** ﴾ فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى ، واللام متعلقة بـ﴿ **يشاؤون** ﴾ أو بالمحسنين أو

---

(١) سبق تخريجه .

بمحذوف . قرأ الجمهور : ﴿ **أسوأ** ﴾ على أنه أفعل تفضيل . وقيل : ليست للتفضيل بل بمعنى سيء الذى عملوا . وقرأ ابن كثير فى رواية عنه : « أسواء » بألف بين الهمزة والواو بزنة أجمال جمع سوء . ﴿**ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون**﴾ لما ذكر سبحانه ما يدلّ على دفع المضارّ عنهم ذكر ما يدلّ على جلب أعظم المنافع إليهم وإضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه ، بل من إضافة الشىء إلى بعضه قصدا إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل . قال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى .

وقد أخرج الآجرّى والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **غير ذى عوج** ﴾ قال : غير مخلوق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا** ﴾ الآية قال : الرجل يعبد آلهة شتى ، فهذا مثل ضربه اللّه لأهل الأوثان «ورجلا سالما » يعبد إلها واحدا ضرب لنفسه مثلا . وأخرجا عنه أيضا فى قوله: « ورجلا سالما » قال : ليس لأحد فيه شىء . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ، ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين من قبلنا : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا (١) . وأخرج نعيم بن حماد فى الفتن ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عنه أيضا قال : نزلت علينا الآية :﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ وما ندرى ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة ، فقلنا: هذا الذى وعدنا ربنا أن نختصم فيه(٣) . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وابن منيع وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى البعث والنشور عن الزبير بن العوام قال : لما نزلت : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قلت : يا رسول اللّه ، أيكرر علينا ما يكون بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : « نعم ، ليكررن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه » قال الزبير : فواللّه إن الأمر لشديد (٤) . وأخرج سعيد بن منصور عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ كنا نقول : ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات

(١) النسائى فى التفسير (٤٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٣ : « رواه الطبرانى ورجاله ثقات » .
(٢) صححه الحاكم ٤/ ٥٧٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٣) ابن جرير ٢٤/ ٣ .
(٤) أحمد ١/ ١٦٧ والترمذى فى التفسير (٣٢٣٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وصححه الحاكم ٤/ ٥٧٢ وسكت عنه الذهبى وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٩١ .

عن ابن عباس فى قوله: ﴿**والذى جاء بالصدق**﴾ يعنى : بلا إله إلا اللّه ﴿ **وصدّق به** ﴾ يعنى برسول اللّه ﷺ ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ يعنى : اتقوا الشرك . وأخرج ابن جرير ، والباوردى فى معرفة الصحابة ، وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان ، وله صحبة عن عليّ ابن أبى طالب قال : الذي جاء بالصدق : محمد ﷺ ، وصدق به أبو بكر . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مثله .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾.

قوله : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **عبده** ﴾ بالإفراد . وقرأ حمزة والكسائى : « عباده » بالجمع ، فعلى القراءة الأولى المراد : النبى ﷺ أو الجنس ، ويدخل فيه رسول اللّه ﷺ دخولا أوليا ، وعلى القراءة الأخرى المراد الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع واختار أبو عبيد قراءة الجمهور لقوله عقبه : ﴿ **ويخوّفونك** ﴾ والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره . وقيل : المراد بالعبد والعباد: ما يعمّ المسلم والكافر. قال الجرجانى : إن اللّه كاف عبده المؤمن وعبده الكافر هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب ، وقرئ :« بكافى عباده » بالإضافة ، وقرئ : « يكافى » بصيغة المضارع ، وقوله :﴿ **ويخوفونك بالذين من دونه**﴾ يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ، إذ المعنى: أليس كافيك حال تخويفهم إياك ؟ ويجوز أن تكون مستأنفة . والذين من دونه عبارة عن المعبودات التى يعبدونها ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ أى من حق عليه القضاء بضلاله فما له من هاد يهديه إلى الرشد ويخرجه من الضلالة . ﴿ **ومن يهد الله فما له من مضل** ﴾ يخرجه من الهداية ويوقعه فى الضلالة ﴿ **أليس الله بعزيز** ﴾ أى غالب لكل شيء قاهر له ﴿ **ذى انتقام**﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه وما ينزله بهم من سوط عقابه .

﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا

عن الخالق بأنه اللّه سبحانه مع عبادتهم للأوثان ، واتخاذهم الآلهة من دون اللّه ، وفى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا فى غفلة شديدة وجهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون اللّه هو اللّه سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل وتشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الإدراك والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل . ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف ويوبخهم فقال: ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره**﴾ أى أخبرونى عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده اللّه بى من الضرّ ؟ والضرّ : هو الشدّة أو أعلى ﴿ **أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته** ﴾ عنى بحيث لا تصل إلىّ . والرحمة : النعمة والرخاء . قرأ الجمهور:﴿ **ممسكات** ﴾ و﴿ **كاشفات** ﴾ فى الموضعين بالإضافة وقرأهما أبو عمرو بالتنوين . قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية سألهم النبىّ ﷺ فسكتوا ، وقال غيره : قالوا : لا تدفع شيئا من قدر اللّه ولكنها تشفع ، فنزل: ﴿ **قل حسبى الله** ﴾ فى جميع أمورى فى جلب النفع ودفع الضرّ ﴿ **عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ أى عليه لا على غيره يعتمد المعتمدون ، واختار أبوعبيد وأبو حاتم قراءة أبى عمرو ؛ لأن كاشفات اسم فاعل فى معنى الاستقبال ، وما كان كذلك فتنوينه أجود ، وبها قرأ الحسن وعاصم .

ثم أمره سبحانه أن يهدّدهم ويتوعدهم فقال : ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ أى على حالتكم التى أنتم عليها وتمكنتم منها ﴿ **إنى عامل** ﴾ أى على حالتى التى أنا عليها وتمكنت منها ، وحذف ذلك للعلم به مما قبله ﴿**فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ أى يهينه ويذله فى الدنيا ، فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق ، والمراد بهذا العذاب :عذاب الدنيا وما حلّ بهم من القتل والأسر والقهر والذلة . ثم ذكر عذاب الآخرة فقال: ﴿ **ويحلّ عليه عذاب مقيم** ﴾ أى دائم مستمر فى الدار الآخرة وهو عذاب النار . ثم لما كان يعظم على رسول اللّه ﷺ إصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان ،لا بأن يهدى من ضلّ ، فقال : ﴿**إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس** ﴾ أي لأجلهم ولبيان ما كلفوا به ، ﴿**بالحق**﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أى محقين أو ملتبسا بالحق ﴿ **فمن اهتدى** ﴾ طريق الحق وسلكها ﴿ **فلنفسه ومن ضل** ﴾ عنها ﴿ **فإنما يضل عليها** ﴾ أى على نفسه ، فضر ذلك عليه لا يتعدّى إلى غيره ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى بمكلف بهدايتهم مخاطب بها ،بل ليس عليك إلا البلاغ وقد فعلت . وهذه الآيات هى منسوخة بآية السيف ، فقد أمر اللّه رسوله بعد هذا أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا اللّه ويعملوا بأحكام الإسلام .

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة وصنعته العجيبة فقال : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ أى يقبضها عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان ﴿ **والتى لم تمت فى منامها** ﴾ أى ويتوفى الأنفس التى لم تمت، أى لم يحضر أجلها فى منامها. وقد اختلف فى هذا، فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح فى الجسد . وقال الفراء : المعنى : ويقبض التى لم تمت

عند انقضاء أجلها قال : وقد يكون توفيها نومها ، فيكون التقدير على هذا : والتى لم تمت وفاتها نومها . قال الزجاج : لكل إنسان نفسان : إحداهما : نفس التمييز وهى التى تفارقه إذا نام فلا يعقل ، والأخرى : نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس . قال القشيرى : فى هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالتين شيء واحد ، ولهذا قال : ﴿ **فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى** ﴾ أى النائمة ﴿ **إلى أجل مسمى**﴾ وهو الوقت المضروب لموته ، وقد قال بمثل قول الزجاج ابن الأنبارى . وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿ **فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى**﴾ فيعيدها ، والأولى أن يقال : إن توفى الأنفس حال النوم بإزالة الإحساس وحصول الآفة به فى محل الحس ، فيمسك التى قضى عليها الموت ولا يردّها إلى الجسد الذى كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها . قيل: ومعنى ﴿ **يتوفى الأنفس عند موتها** ﴾ : هو على حذف مضاف ، أى عند موت أجسادها .

وقد اختلف العقلاء فى النفس والروح هل هما شيء واحد أو شيئان ؟ والكلام فى ذلك يطول جداً وهو معروف فى الكتب الموضوعة لهذا الشأن . قرأ الجمهور : ﴿ **قضى** ﴾ مبنيا للفاعل ، أى قضى الله عليها الموت، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب على البناء للمفعول ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لموافقتها لقوله : ﴿ **الله يتوفى الأنفس** ﴾ والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم من التوفى والإمساك والإرسال للنفوس ﴿ **لآيات** ﴾ أى لآيات عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة ، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ فى ذلك ويتدبرونه ويستدلون به على توحيد الله وكمال قدرته ، فإن فى هذا التوفى والإمساك والإرسال موعظة للمتعظين وتذكرة للمتذكرين .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ الآية . قال: نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس فى منامه ويدع الروح فى جوفه تتقلب وتعيش ، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح فمات ، وإن أخر أجله ردّ النفس إلى مكانها من جوفه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه فى الآية قال : تلتقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات فى المنام فيتساءلون بينهم ماشاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ لا يغلط بشيء منها فذلك قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا فى الآية قال : كل نفس لها سبب تجرى فيه ، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى ينقطع السبب ، والتى لم تمت فى منامها تترك . وأخرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن

أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (١) .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء** ﴾ أم هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، أى بل اتخذوا من دون اللّه آلهة شفعاء تشفع لهم عند اللّه ﴿**قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون**﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على محذوف مقدّر، أى أيشفعون ولو كانوا . . . إلخ ، وجواب لو محذوف تقديره : تتخذونهم ، أى وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم ، ومعنى ﴿ **لا يملكون شيئا** ﴾ : أنهم غير مالكين لشىء من الأشياء وتدخل الشفاعة فى ذلك دخولا أوليا ولا يعقلون شيئا من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها ، وجمعهم بالواو والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون . ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم أن الشفاعة للّه وحده فقال : ﴿ **قل لله الشفاعة جميعا** ﴾ فليس لأحد منها شىء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى ، كما فى قوله: ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وانتصاب ﴿ **جميعا** ﴾ على الحال ، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعدا ؛ لأنها مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ثم وصفه بسعة الملك فقال : ﴿ **له ملك السموات والأرض**﴾ أى يملكهما ويملك ما فيهما ويتصرف فى ذلك كيف يشاء ويفعل ما يريد ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ لا إلى غيره، وذلك بعد البعث .

﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ انتصاب ﴿ **وحده** ﴾ على الحال عند يونس، وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه ، والاشمئزاز فى اللغة : النفور. قال أبو عبيدة : اشمأزت : نفرت ، وقال المبرد : انقبضت . وبالأول قال قتادة ، وبالثانى قال مجاهد والمعنى متقارب . وقال المؤرج : أنكرت ، وقال أبو زيد : اشمأز الرجل : ذعر من الفزع ، والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت ، وهو فى الأصل : الازورار ، وكان المشركون إذا قيل لهم لا إله إلا اللّه انقبضوا ، كما حكاه اللّه عنهم فى قوله : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ [الإسراء : ٤٦] ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم

(١) أحمد ٢/ ٢٩٥ والبخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤/ ٦٤) .

فقال: ﴿ **وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ أى يفرحون بذلك ويبتهجون به، والعامل فى « إذا » فى قوله : ﴿ **وإذا ذكر الله** ﴾ الفعل الذى بعدها ، وهو اشمأزت ، والعامل فى « إذا » فى قوله: ﴿ **وإذا ذكر الذين من دونه** ﴾ الفعل العام فى إذا الفجائية، والتقدير: فاجؤوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه. ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به ﷺ من الدعاء إلى الخير وصمموا على كفرهم ، أمره الله سبحانه أن يردّ الأمر إليه فقال: ﴿ **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ وقد تقدّم تفسير فاطر السموات، وتفسير عالم الغيب والشهادة، وهما منصوبان على النداء، ومعنى ﴿ **تحكم بين عبادك** ﴾: تجازى المحسن بإحسانه وتعاقب المسيء بإساءته ، فإنه بذلك يظهر من هو المحقّ ومن هو المبطل، ويرتفع عنده خلاف المختلفين وتخاصم المتخاصمين .

ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدلّ على شدّة عذابهم وعظيم عقوبتهم فقال: ﴿ **ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا**﴾ أى جميع ما فى الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ **ومثله معه** ﴾ أى منضما إليه ﴿ **لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أى من سوء عذاب ذلك اليوم وقد مضى هذا فى آل عمران . ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون** ﴾ أى ظهر لهم من عقوبات الله وسخطه وشدّة عذابه ما لم يكن فى حسابهم ، وفى هذا وعيد عظيم وتهديد بالغ ، وقال مجاهد: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات ، وكذا قال السدّى . وقال سفيان الثورى : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة بن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله : ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون** ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب . ﴿**وبدا لهم سيئات ما كسبوا** ﴾ أى مساوى أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله، و«ما » يحتمل أن تكون المصدرية ، أى سيئات كسبهم ، وأن تكون موصولة ، أى سيئات الذى كسبوه ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى أحاط بهم ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذى كان ينذرهم به رسول الله ﷺ .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت** ﴾ الآية قال : قست ونفرت ﴿ **قلوب** ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿ **الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ أبو جهل بن هشام والوليد بن عقبة وصفوان وأبىّ بن خلف ﴿ **وإذا ذكر الذين من دونه** ﴾ اللات و العزى: ﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾. وأخرج مسلم وأبو داود ،والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته :« اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٠/ ٢٠٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب» والنسائى ٢١٣/٣ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٥٧) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١٤٦/١.

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾.

قوله: ﴿ **فإذا مسّ الإنسان** ﴾ المراد بالإنسان هنا : الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها . وقيل : المراد به: الكفار فقط والأوّل أولى ، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه ؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ وفاء بحقّ النظم القرآني ووفاء بمدلوله ، والمعنى : أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضرّ من مرض أو فقر أو غيرهما دعا اللّه وتضرع إليه فى رفعه ودفعه ﴿ **ثم إذا خوّلناه نعمة منا** ﴾ أى أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿ **قال إنما أوتيته على علم** ﴾ منى بوجوه المكاسب، أو على خير عندى ، أو على علم من اللّه بفضلى . وقال الحسن : على علم علمنى اللّه إياه . وقيل : قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند اللّه منزلة ، وجاء بالضمير فى أوتيته مذكرا مع كونه راجعا إلى النعمة ؛ لأنها بمعنى الإنعام . وقيل : إن الضمير عائد إلى ما ، وهى موصولة ، والأوّل أولى ﴿ **بل هى فتنة** ﴾ هذا ردّ لما قاله، أى ليس ذلك الذى أعطيناك لما ذكرت ، بل هو محنة لك واختبار لحالك أتشكر أم تكفر ؟ قال الفراء : أنث الضمير فى قوله : ﴿ **هى** ﴾ لتأنيث الفتنة ، ولو قال :بل هو فتنة لجاز . وقال النحاس : بل عطيته فتنة . وقيل : تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة ، وتذكير الأوّل فى قوله : ﴿ **أوتيته** ﴾ باعتبار معناها ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أن ذلك استدراج لهم من اللّه وامتحان لما عندهم

من الشكر أو الكفر .

﴿ **قد قالها الذين من قبلهم** ﴾ أى قال هذه الكلمة التى قالوها وهى قولهم : إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون وغيره ، فإن قارون قال : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ [القصص : ٧٨] ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ يجوز أن تكون « ما » هذه نافية ، أى لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا ، وأن تكون استفهامية ، أى أىّ شىء أغنى عنهم ذلك ؟ ﴿ **فأصابهم سيئات ما كسبوا** ﴾ أى جزاء سيئات كسبهم ، أو أصابهم سيئات هى جزاء كسبهم ، وسمى الجزاء سيئات ؛ لوقوعها فى مقابلة سيئاتهم ، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] . ثم أوعد سبحانه الكفار فى عصره فقال : ﴿ **والذين ظلموا من هؤلاء** ﴾ الموجودين من الكفار ﴿ **سيصيبهم سيئات ما كسبوا** ﴾ كما أصاب من قبلهم ، وقد أصابهم فى الدنيا ما أصابهم من القحط والقتل والأسر والقهر ﴿ **وما هم بمعجزين** ﴾ أى بفائتين على اللّه بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة . ﴿ **أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾ أى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يقبضه لمن يشاء أن يقبضه ويضيقه عليه . قال مقاتل : وعظهم اللّه ليعتبروا فى توحيده ، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين ، فقال : أولم يعلموا أن اللّه يوسع الرزق لمن يشاء ويقتر على من يشاء ﴿ **إن فى ذلك لآيات** ﴾ أى فى ذلك المذكور لدلالات عظيمة وعلامات جليلة ﴿**لقوم يؤمنون** ﴾ وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها .

ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد عقبه بذكر سعة رحمته وعظيم مغفرته وأمر رسوله ﷺ: أن يبشرهم بذلك ، فقال : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ المراد بالإسراف : الإفراط فى المعاصى والاستكثار منها ومعنى ﴿ **لا تقنطوا** ﴾ : لا تيأسوا من رحمة اللّه من مغفرته . ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ويجعل الرجاء مكان القنوط فقال : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ .

واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب اللّه سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أوّلا أضاف العباد إلى نفسه؛ لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى والاستكثار من الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن ، فقال : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب** ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده ، فهو فى قوة إن اللّه يغفركلّ ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النصّ القرآنى وهو الشرك : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله: ﴿ **جميعا** ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين فى رجائه ، الخالعين لثياب القنوط الرافضين

لسوء الظنّ بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين إليه فى طلب العفو الملتجئين به فى مغفرة ذنوبهم وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا : ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما ، فمن أبى هذا التفضل العظيم والعطاء الجسيم ، وظنّ أن تقنيط عباد اللّه وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم اللّه به ، فقد ركب أعظم الشطط وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير وعدم التقنيط الذى جاءت به مواعيد اللّه فى كتابه العزيز ، والمسلك الذى سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » (١) .

وإذا تقرّر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] هو أن كلّ ذنب كائنا ما كان ما عدا الشرك باللّه مغفور لمن شاء اللّه أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال : إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا ، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية . وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات . فهو جمع بين الضب والنون ، وبين الملاح والحادى ، وعلى نفسها براقش تجنى ، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع ، فإن التوبة من المشرك يغفر اللّه له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين ، وقد قال : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كانت التوبة قيدا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ [الرعد : ٦] قال الواحدى : المفسرون كلهم قالوا : إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك وقتل النفس ومعاداة النبى ﷺ .

قلت : هب أنها فى هؤلاء القوم ، فكان ماذا ؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم ، ولوكانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها ، واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله . وفى السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة فى الصحيحين وغيرهما فى هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حقّ معرفته وقدره حقّ قدره علم صحة ما ذكرناه وعرف حقية ما حررناه .

قرأ الجمهور : ﴿ **يا عبادى** ﴾ بإثبات الياء وصلا ووقفا ، وروى أبو بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء . وقرأ الجمهور: ﴿ تقنطوا ﴾ بفتح النون . وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسرها . ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾ أى ارجعوا إليه

(١) أحمد ٣/ ١٣١ والبخارى فى العلم (٦٩) كلاهما عن أنس ومسلم فى الجهاد (١٧٣٢/ ٩٦) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) كلاهما عن أبى موسى الأشعرى .

بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعا، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات واجتناب المعاصى ، وليس فى هذا ما يدلّ على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام ، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى ، ثم دعاهم إلى الخير وخوفهم من الشرّ على أنه يمكن أن يقال : إن هذه الجملة مستأنفة خطابا للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله : ﴿ **وأسلموا له** ﴾ جاء بها لتحذير الكفار وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى وتبشيرهم ، وهذا وإن كان بعيدا ولكنه يمكن أن يقال به ، والمعنى على ما هو الظاهر : أن اللّه جمع لعباده بين التبشير العظيم ، والأمر بالإنابة إليه والإخلاص له والاستسلام لأمره والخضوع لحكمه ، وقوله : ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب** ﴾ أى عذاب الدنيا كما يفيده قوله : ﴿ **من قبل أن يأتيكم** ﴾ فليس فى ذلك ما يدلّ على ما زعمه الزاعمون وتمسك به القانطون المقنطون والحمد للّه رب العالمين .

﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ يعنى : القرآن ، يقول : أحلوا حلاله وحرموا حرامه ، والقرآن كله حسن . قال الحسن : التزموا طاعته واجتنبوا معاصيه . وقال السدّى : الأحسن ما أمر اللّه به فى كتابه . وقال ابن زيد : يعنى المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقيل : الناسخ دون المنسوخ . وقيل : العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام . وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ أى من قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به . وقيل : أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون فى العذاب . والأوّل أولى لأن الذى يأتيهم بغتة هو العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر والخوف والجدب ، لا عذاب الآخرة ولا الموت ؛ لأنه لم يسند الإتيان إليه . ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب الله** ﴾ قال البصريون : أى حذرا أن تقول . وقال الكوفيون : لئلا تقول . قال المبرد : بادروا خوف أن تقول ، أو حذرا من أن تقول نفس . وقال الزجاج : خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب اللّه . قيل : والمراد بالنفس هنا النفس الكافرة . وقيل : المراد به التكثير كما فى قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير: ١٤] قرأ الجمهور: ﴿ **يا حسرتا** ﴾ بالألف بدلا من الياء المضاف إليها ،والأصل : يا حسرتى ، وقرأ ابن كثير : « يا حسرتاه » بهاء السكت وقفا. وقرأ أبو جعفر : « يا حسرتى » بالياء على الأصل . والحسرة : الندامة ، ومعنى ﴿ **على ما فرّطت فى جنب الله** ﴾ : على ما فرطت فى طاعة اللّه، قاله الحسن . وقال الضحاك : على ما فرطت فى ذكر اللّه ، ويعنى به القرآن والعمل به . وقال أبو عبيدة ﴿ **فى جنب الله** ﴾: أى فى ثواب اللّه. وقال الفراء : الجنب : القرب والجوار ، أى فى قرب اللّه وجواره ، ومنه قوله : ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ [النساء : ٣٦] والمعنى على هذا القول على ما فرّطت فى طلب جنب اللّه ، أى فى طلب جواره وقربه وهو الجنة ، وبه قال ابن الأعرابى . وقال الزجاج : أى فرّطت فى الطريق الذى هو طريق اللّه من توحيده ،

والإقرار بنبوّة رسول اللّه ﷺ ، وعلى هذا فالجنب بمعنى الجانب ، أى قصرت فى الجانب الذى يؤدى إلى رضا اللّه ، ومنه قول الشاعر :

للناس جنب والأمير جنب

أى الناس من جانب والأمير من جانب ﴿ **وإن كنت لمن الساخرين** ﴾ أى وما كنت إلا من المستهزئين بدين اللّه فى الدنيا ، ومحل الجملة النصب على الحال . قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها . ﴿ **أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين** ﴾ أى لو أن اللّه أرشدنى إلى دينه لكنت ممن يتقى الشرك والمعاصى ، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة ، ويتعللون به من العلل الباطلة كما فى قوله : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] فهى كلمة حقّ يريدون بها باطلا . ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا فقال : ﴿ **أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرّة** ﴾ أى رجعة إلى الدنيا ﴿ **فأكون من المحسنين** ﴾ المؤمنين باللّه الموحدين له ، والمحسنين فى أعمالهم ، وانتصاب أكون ، إما لكونه معطوفا على ﴿ **كرّة** ﴾ فإنها مصدر ، وأكون فى تأويل المصدر ، كما فى قول الشاعر :

للبـــــس عباءة وتقرّ عينى ... أحبّ إلىّ من لبس الشفوف

وأنشد الفرّاء على هذا :

فما لك منها غير ذكرى وخشية ... وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وإما لكونه جواب التمنى المفهوم من قوله : ﴿ **لو أن لى كرّة** ﴾ . ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال : ﴿ **بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾ . المراد بالآيات : هى الآيات التنزيلية وهو القرآن ، ومعنى التكذيب بها قوله : إنها ليست من عند اللّه وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب والاستكبار من الكافرين باللّه. وجاء سبحانه بخطاب المذكر فى قوله: جاءتك وكذّبت واستكبرت وكنت ؛ لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب : نفس واحد ، أى إنسان واحد ، وبفتح التاء فى هذه المواضع قرأ الجمهور . وقرأ الجحدرى وأبو حيوة ويحيى بن يعمر بكسرها فى جميعها ، وهى قراءة أبى بكر وابنته عائشة وأمّ سلمة ، ورويت عن ابن كثير . ﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة** ﴾ أى ترى الذين كذبوا على اللّه بأن له شركاء وصاحبة وولدا وجوههم مسودّة لما أحاط بهم من العذاب وشاهدوه من غضب اللّه ونقمته ، وجملة: ﴿ **وجوههم مسودّة** ﴾ فى محل نصب على الحال. قال الأخفش : ﴿ **ترى** ﴾ غير عامل فى ﴿ **وجوههم مسودّة** ﴾ ، إنما هو مبتدأ وخبر ، والأولى أن ﴿ **ترى** ﴾ إن كانت من الرؤية البصرية ، فجملة ﴿ **وجوههم مسودّة** ﴾ حالية، وإن كانت قلبية فهى فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لترى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين**﴾

للتقرير ، أى أليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة الله ؟ والكبر هو: بطر الحقّ وغمط الناس كما ثبت فى الحديث الصحيح (١) .

﴿ **وينجي الله الذين اتقوا** ﴾ أى اتقوا الشرك ومعاصى الله ، والباء فى :﴿ **بمفازتهم** ﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول ، أى ملتبسين بمفازتهم . قرأ الجمهور﴿ **بمفازتهم** ﴾ بالإفراد على أنها مصدر ميمىّ . والفوز : الظفر بالخير والنجاة من الشر . قال المبرد : المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة ، وإن جمع فحسن ، كقولك : السعادة والسعادات. والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم ، أى بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر: « بمفازاتهم » جمع مفازة ، وجمعها مع كونها مصدرا لاختلاف الأنواع ، وجملة : ﴿ **لا يمسهم السوء** ﴾ فى محل نصب على الحال من الموصول ، وكذلك جملة : ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ فى محل نصب على الحال،أى ينفى السوء والحزن عنهم ، ويجوز أن تكون الباء فى:﴿ **بمفازتهم** ﴾ للسببية ، أى بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم ؛ لأنهم رضوا بثواب الله وأمنوا من عقابه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ـ قال السيوطى : بسند صحيح ـ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا** ﴾ الآية ، فى مشركى أهل مكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : كنا نقول : ليس لمفتتن توبة وما الله بقابل منه شيئا ، عرفوا الله وآمنوا به وصدّقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولونه لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله فيهم ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا** ﴾ الآيات ؛ قال ابن عمر : فكتبتها بيدى ، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاص(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : لما أسلم وحشى أنزل الله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ [الفرقان : ٦٨] قال وحشىّ وأصحابه : فنحن قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل الله : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا** ﴾ الآية . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة قال : خرج النبىّ ﷺ على رهط من أصحابه وهم يضحكون ويتحدّثون فقال : «والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، ثم انصرف وبكى القوم ، وأوحى الله إليه: يا محمد لم تقنط عبادى فرجع النبىّ ﷺ فقال : «أبشروا وسدّدوا وقاربوا » . وأخرج ابن مردويه،والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب،أنها نزلت فيمن أفتن. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنها نزلت فى مشركى مكة لما قالوا : إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك وقتل الأنفس وغير ذلك .

---

(١) أحمد ١/ ٣٨٥ ومسلم فى الإيمان (٩١/ ١٤٧) والترمذى فى البر (١٩٩٩) وقال:« هذا حديث حسن صحيح» .

(٢) ابن جرير ٢٤/ ١١ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٤ : « فيه محمد بن إسحاق وهو ثقة ولكنه مدلس » ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٤٦٢ وفى الشعب (٧١٣٨). ط . دار الكتب العلمية .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أحبّ أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ » إلى آخر الآية ، فقال رجل: ومن أشرك ؟ فسكت النبى ﷺ ، قال : « ألا ومن أشرك » ثلاث مرات [(١)] . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف والحاكم وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى إنه هو الغفور الرحيم »[(٢)] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أنه مرّ على قاض يذكر الناس فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال : قال علىّ : أىّ آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه﴾ الآية [النساء: ١١٠] ونحوها ، فقال على : ما فى القرآن أوسع آية من : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية قال : قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله ، ومن زعم أن عزيرا ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء من قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال :﴿ ما علمت لكم من إله غيرى﴾ [القصص :٣٨] قال ابن عباس: ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **أن تقول نفس** ﴾ قال : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا ، وعلمهم قبل أن يعلموا .

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ

---

(١) أحمد ٥/ ٢٧٥ وابن جرير ٢٤/ ١٢ والبيهقى فى الشعب (٧١٣٧). ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٦/ ٤٥٤ والترمذى فى التفسير (٣٢٣٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والحاكم ٢/ ٢٤٩ وقال : «هذا حديث غريب عالٍ » ، وسكت عنه الذهبى .

فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾.

قوله : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ من الأشياء الموجودة فى الدنيا والآخرة كائنا ما كان من غير فرق بين شيء وشيء . وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأنعام ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾ أى الأشياءكلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير مشارك له . ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ المقاليد واحدها مقليد ومقلاد أو لا واحد له من لفظه كأساطير ، وهى مفاتيح السموات والأرض والرزق والرحمة . قاله مقاتل وقتادة وغيرهما . وقال الليث : المقلاد: الخزانة ، ومعنى الآية : له خزائن السموات والأرض ، وبه قال الضحاك والسدّى . وقيل : خزائن السموات : المطر، وخزائن الأرض : النبات . وقيل : هى عبارة عن قدرته سبحانه وحفظه لها ، والأوّل أولى . قال الجوهرى : الإقليد : المفتاح ، ثم قال : والجمع المقاليد . وقيل : هى لا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، وسبحان اللّه وبحمده ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه . وقيل غير ذلك . ﴿ **والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون** ﴾ أى بالقرآن وسائر الآيات الدالة على اللّه سبحانه وتوحيده ، ومعنى ﴿ **الخاسرون** ﴾ : الكاملون فى الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار .

﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون** ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و ﴿ **غير** ﴾ منصوب بـ ﴿ **أعبد** ﴾ وأعبد معمول لـ ﴿ **تأمرونى** ﴾ على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها ، والأصل : أفتأمرونى أن أعبد غير اللّه ؟ قاله الكسائى وغيره . ويجوز أن يكون غير منصوبا بتأمرونى ، وأعبد بدل منه بدل اشتمال ، وأن مضمرة معه أيضا . ويجوز أن يكون غير منصوبة بفعل مقدر ، أى أفتلزمونى غير اللّه ؟ أى عبادة غير اللّه أو أعبد غير اللّه أعبد . أمره اللّه سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا :هو دين آبائك . قرأ الجمهور : ﴿ **تأمرونى** ﴾ بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية على خلاف بينهم فى فتح الياء وتسكينها . وقرأ نافع : « تأمرونى » بنون خفيفة وفتح الياء ، وقرأ ابن عامر : «تأمروننى » بالفك وسكون الياء .

﴿ **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك** ﴾ أى من الرسل ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ؛ لأن اللّه سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك ؛ لأنه إذا كان موجبا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى . قيل : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ولقد أوحى إليك لئن أشركت وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أى أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف ، ثم قال : لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك ، وهو خطاب للنبى ﷺ خاصة. وقيل : إفراد الخطاب فى قوله : ﴿ **لئن أشركت** ﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء ، كأنه قيل : أوحى إليك وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام . وهو لئن أشركت ، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما فى الآية الأخرى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ [البقرة : ٢١٧] وقيل : هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنبا من الشرك من غيرهم، والأوّل أولى،ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ بتوحيده ، فقال : ﴿ **بل الله فاعبد** ﴾ وفى هذا ردّ على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام ، ووجه الردّ ما يفيده التقديم من القصر. قال الزجاج : لفظ اسم اللّه منصوب بـ ﴿ **أعبد** ﴾ قال : ولا اختلاف فى هذا بين البصريين والكوفيين . وقال الفراء : هو منصوب بإضمار فعل ، وروى مثله عن الكسائى ، والأوّل أولى . قال الزجاج : والفاء فى : ﴿**فاعبد**﴾ للمجازاة . وقال الأخفش: زائدة. قال عطاء ومقاتل معنى ﴿ **فاعبد** ﴾ : وحد ، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿ **وكن من الشاكرين** ﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء إلى دينه واختصك به من الرسالة..

﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ قال المبرد : أى ما عظموه حق عظمته ، من قولك : فلان عظيم القدر ، وإنما وصفهم بهذا ؛ لأنهم عبدوا غير اللّه وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم فى الشرك . وقرأ الحسن وأبو حيوة وعيسى بن عمر : « قدّروا» بالتشديد ﴿ **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة** ﴾ القبضة فى اللغة : ما قبضت عليه بجميع كفك ، فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها وكثافتها فى مقدوره كالشىء الذى يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو فى يد فلان وفى قبضته للشىء الذى يهون عليه التصرف فيه وإن لم يقبض عليه ، وكذا قوله : ﴿ **والسموات مطويات بيمينه** ﴾ فإن ذكر اليمين للمبالغة فى كمال القدرة كما يطوى الواحد منا الشىء المقدور له طية بيمينه ، واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك . قال الأخفش :بيمينه يقول : فى قدرته ، نحو قوله : ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : ٣] أى ما كانت لكم قدرة عليه ، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ [الحاقة : ٤٥] أى بالقوّة والقدرة ، ومنه قول الشاعر :

إذا مـــا رايـــة نصبت لمجد   تلقـاها عرابـة باليمـــين

وقول الآخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها   تناولت منها حاجتى بيمين

وقول الآخر :

عطست بأنف شامخ وتناولت   يداى الثريا قاعدا غـير قائم

وجملة : ﴿ **والأرض جميعا قبضته** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى ما عظموه حق تعظيمه ، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع: ﴿**قبضته**﴾ على أنها خبر المبتدأ ، وقرأ الحسن بنصبها، ووجهه ابن خالويه بأنه على الظرفية ، أى فى قبضته . وقرأ الجمهور : ﴿ **مطويات** ﴾ بالرفع على أنها خبر المبتدأ ، والجملة فى محل نصب على الحال كالتى قبلها ، و ﴿ **بيمينه** ﴾ متعلق بـ ﴿ **مطويات** ﴾ ، أو حال من الضمير فى : ﴿**مطويات** ﴾ أو خبر ثان ، وقرأ عيسى والجحدرى بنصب :« مطويات » ووجه ذلك أن ﴿**السموات** ﴾ معطوفة على ﴿ **الأرض** ﴾، وتكون ﴿ **قبضته** ﴾ خبرا عن الأرض والسموات ، وتكون ﴿**مطويات**﴾ حالا ، أو تكون ﴿**مطويات**﴾ منصوبة بفعل مقدّر ، و ﴿**بيمينه** ﴾ الخبر ، وخصّ يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة؛ لأن الدعاوى تنقطع فيه كما قال سبحانه : ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ [الحج : ٥٦] وقال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : ٤] ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة والحكمة الباهرة .

﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ هذه هى النفخة الأولى ، والصور: هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدّم غير مرة ، ومعنى صعق : زالت عقولهم فخرّوا مغشيا عليهم ، وقيل : ماتوا . قال الواحدى : قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت أهل السموات والأرض . قرأ الجمهور : ﴿**الصور**﴾ بسكون الواو ، وقرأ قتادة وزيد بن على بفتحها جمع صورة ، والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ متصل ، والمستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : رضوان وحملة العرش وخزنة الجنة والنار ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى** ﴾ يجوز أن يكون ﴿ **أخرى** ﴾ فى محل رفع على النيابة وهى صفة لمصدر محذوف ، أى نفخة أخرى ، ويجـوز أن يكون فى محل نصب والقائم مقام الفاعل فيه ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ يعنى الخلق كلهم قيام على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم أو ينتظرون ذلك . قرأ الجمهور : ﴿ **قيام** ﴾ بالرفع على أنه خبر ، و﴿ **ينظرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وقرأ زيد بن على بالنصب على أنه حال ، والخبر: ﴿ **ينظرون** ﴾ ، والعامل فى الحال ما عمل فى إذا الفجائية . قال الكسائى : كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا .

﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ الإشراق: الإضاءة ، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت،

وشرقت : إذا طلعت ، ومعنى ﴿ **بنور ربها** ﴾ : بعدل ربها ، قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ، والمعنى : أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وما قضى به من الحق فيهم ، فالعدل نور والظلم ظلمات. وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقى ، فإن الله سبحانه هو نور السموات والأرض . قرأ الجمهور : ﴿ **أشرقت** ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعبيد بن عمير على البناء للمفعول ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يعنى : الكتب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ، وكذا قال مقاتل . وقيل : هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أى وضع الكتاب للحساب ﴿ **وجىء بالنبيين** ﴾ أى جىء بهم إلى الموقف فسئلوا عما أجابتهم به أممهم ﴿ **والشهداء** ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد ﷺ كما فى قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة:١٤٣] وقيل : المراد بالشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله. وقيل: هم الحفظة كما قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : ٢١] ﴿**وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ أى وقضى بين العباد بالعدل والصدق، والحال أنهم لا يظلمون ، أى لا ينقصون من ثوابهم ولا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم . ﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت** ﴾ من خير وشرّ ﴿ **وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ فى الدنيا لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد ، وإنما وضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة .

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا** ﴾ أى سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمرا ، أى جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضا . قال أبو عبيدة والأخفش ، زمرا : جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ، ومنه قول الشاعر :

وترى الناس إلى أبوابه   زمرا تنتابه بعد زمر

واشتقاقه من الزمر ، وهو الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿ **حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها** ﴾ أى فتحت أبواب النار ليدخلوها ، وهى سبعة أبواب ، وقد مضى بيان ذلك فى سورة الحجر ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾ جمع خازن نحو سدنة وسادن ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ أى من أنفسكم ﴿ **يتلون عليكم آيات ربكم** ﴾ التى أنزلها عليهم ﴿**وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أى يخوّفونكم لقاء هذا اليوم الذى صرتم فيه ، قالوا لهم هذا القول تقريعا وتوبيخا ، فأجابوا بالاعتراف ولم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لانكشاف الأمر وظهوره ، ولهذا قالوا : ﴿**بلى** ﴾ أى قد أتتنا الرسل بآيات الله وأنذرونا بما سنلقاه ﴿ **ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ وهى: ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة : ١٣]، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قيل: ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم** ﴾ التى قد فتحت لكم لتدخلوها .

وانتصاب ﴿ **خالدين** ﴾ على الحال ، أى مقدّرين الخلود ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف ، أى بئس مثواهم جهنم ، وقد تقدّم تحقيق المثوى فى غير موضع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ قال: مفاتيحها . وأخرج أبو يعلى ، ويوسف القاضى فى سننه ، وأبو الحسن القطان وابن السنى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن قول اللّه: ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ فقال لى : « يا عثمان ، لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك ، مقاليد السموات والأرض : لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، وسبحان اللّه ، والحمد للّه ، وأستغفر اللّه الذى لا إله إلا هو ، الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن ، يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » ؛ ثم ذكر فضل هذه الكلمات(١) . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان جاء إلى النبىّ ﷺ فقال له : أخبرنى عن مقاليد السموات والأرض ، فذكره . وأخرجه الحارث بن أبى أسامة وابن مردويه عن أبى هريرة عن عثمان . وأخرجه العقيلى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عمر عن عثمان (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا دعت رسول اللّه ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ويطأون عقبه ، فقالوا له : هذا لك عندنا يا محمد وتكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء ، قال : « حتى أنظر ما يأتينى من ربى » ، فجاء بالوحى : ﴿قل يأيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة [سورة الكافرون]. وأنزل اللّه عليه : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من الخاسرين** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول اللّه فقال : يا محمد إنا نجد أن اللّه يحمل السموات يوم القيامة على أصبع والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك، فضحك رسول اللّه ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة** ﴾ (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « يقبض اللّه الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » (٤). وفى الباب أحاديث وآثار تقتضى حمل الآية على ظاهرها

(١) ذكره ابن كثير٦ / ١٠٦ بأطول من هذا وقال : « وفى صحته نظر ، ورواه أبو يعلى وهو غريب وفيه نكارة شديدة » .

(٢) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٤١ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ١١٨ : « فيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف » .

(٣) أحمد ١/ ٤٥٧ والبخارى فى التوحيد (٧٤١٤) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٦/ ١٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٣٨) .

(٤) أحمد ٢/ ٣٧٤ والبخارى فى التوحيد (٧٣٨٢) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٧ / ٢٣) والنسائى فى التفسير (٤٧٥) وابن ماجة فى المقدمة (١٩٢) .

من دون تكلف لتأويل ولا تعسف لقال وقيل .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى اصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ، فقال : أتقول هذا وفينا رسول اللّه ﷺ ؟ فذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ ، فقال : « قال اللّه : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ فأكون أوّل من يرفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى ،أو كان ممن استثنى اللّه » [(١)]. وأخرج أبو يعلى ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ فى قوله: ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ قال : « هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة » الحديث . وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من أقوال أبى هريرة . وأخرج الفريابى وابن جرير ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة وابن مردويه عن أنس أنه سأل رسول اللّه ﷺ عن قوله : ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ فقال : « جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش »[(٢)] . وأخرج ابن المنذر عن جابر فى قوله: ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ قال : موسى ؛ لأنه كان صعق قبل . والأحاديث الواردة فى كيفية نفخ الصور كثيرة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجىء بالنبيين والشهداء** ﴾ قال : النبيين : الرسل، والشهداء : الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان ولا لعان . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه فى الآية قال : يشهدون بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

لما ذكر فيما تقدم حال الذين كفروا وسوقهم إلى جهنم ، ذكر هنا حال المتقين وسوقهم إلى الجنة فقال : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا** ﴾ أى ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم . وقد سبق بيان معنى الزمر ﴿ **حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها** ﴾ جواب إذا محذوف . قال المبرد : تقديره : سعدوا وفتحت ، وأنشد قول الشاعر :

فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

---

(١) البخارى فى الخصومات (٢٤١١) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٣/ ١٦٠) وأبو داود فى السنة (٤٦٧١) والنسائى فى التفسير (٤٧٧) .

(٢) ابن جرير ٢٤/ ٢٠.

فحذف جواب لو ، والتقدير : لكان أروح . وقال الزجاج : القول عندى أن الجواب محذوف على تقدير : حتى إذا جاؤوها ، وكانت هذه الأشياء التى ذكرت دخلوها فالجواب دخولها ، وحذف لأن فى الكلام دليلا عليه. وقال الأخفش والكوفيون : الجواب: ﴿ **فتحت** ﴾ والواو زائدة ، وهو خطأ عند البصريين ، لأن الواو من حروف المعانى فلا تزاد . وقيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله ، والتقدير: حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ [ص : ٥٠] وحذفت الواو فى قصة أهل النار ؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا . ذكر معناه النحاس منسوبا إلى بعض أهل العلم ، قال: ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد . وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد ، أى جاؤوها وقد فتحت لهم الأبواب . وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون فى العدد : خمسة ستة سبعة وثمانية ، وقد مضى القول فى هذا فى سورة براءة مستوفى وفى سورة الكهف أيضا .

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال : ﴿ **وقال لهم خزنتها سلام عليكم** ﴾ أى سلامة لكم من كلّ آفة ﴿ **طبتم** ﴾ فى الدنيا فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصى . قال مجاهد : طبتم بطاعة الله . وقيل : بالعمل الصالح، والمعنى واحد . قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه : ﴿**سلام عليكم** ﴾ الآية ﴿ **فادخلوها** ﴾ أى ادخلوا الجنة ﴿ **خالدين** ﴾ أى مقدّرين الخلود ، فعند ذلك قال أهل الجنة : ﴿ **الحمد لله الذى صدقنا وعده** ﴾ بالبعث والثواب بالجنة ﴿ **وأورثنا الأرض** ﴾ أى أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم فملكوها وتصرفوا فيها . وقيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين . قاله أكثر المفسرين . وقيل : إنها أرض الدنيا ، وفى الكلام تقديم وتأخير ﴿ **نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ أى نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء ﴿**فنعم أجر العاملين**﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أى فنعم أجر العاملين الجنة ، وهذا من تمام قول أهل الجنة . وقيل : هو من قول الله سبحانه : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش** ﴾ أى محيطين محدقين به ، يقال : حفّ القوم بفلان : إذا أطافوا به ، و«من » مزيدة . قاله الأخفش ، أو للابتداء ، والمعنى : أن الرائى يراهم بهذه الصفة فى ذلك اليوم ، وجملة : ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم مسبحين لله ملتبسين بحمده ، وقيل: معنى ﴿ **يسبحون** ﴾ يصلون حول العرش شكرا لربهم ،والحافين جمع حافّ ، قاله الأخفش . وقال الفراء : لا واحد له إذ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين ﴿**وقضى بينهم بالحقّ** ﴾ أى بين العباد بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار ، وقيل : بين النبيين الذين جىء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق ، وقيل : بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب درجاتهم ، والأوّل أولى . ﴿ **وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ القائلون هم المؤمنون ، حمدوا الله

على قضائه بينهم وبين أهل النار بالحق . وقيل : القائلون هم الملائكة حمدوا اللّه تعالى على عدله فى الحكم وقضائه بين عباده بالحقّ .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب درّى فى السماء إضاءة » [(١)] . وأخرجا وغيرهما عن سهل بن سعد ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون » [(٢)] . وقد ورد فى كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث فى الصحيحين وغيرهما . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأورثنا الأرض** ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج هناد عن أبى العالية مثله .

---

(١) أحمد ٢ / ٢٣٠ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣٤/ ١٥) وابن ماجة فى الزهد (٤٣٣٣) وأخرجه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥٢٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) أحمد ٥/ ٣٣٣ والبخارى فى الصوم (١٨٩٦) ومسلم فى الصيام (١١٥٢/ ١٦٦) والترمذى فى الصوم (٧٦٥) وقال : « حديث حسن صحيح غريب » والنسائى ١٦٨/٤ وابن ماجة فى الصيام (١٦٤٠).

تفسير سورة غافر

وهى سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول ، وهى مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال الحسن : إلا قوله: ﴿ **وسبح بحمد ربك** ﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين نزلتا بالمدينة. وهما : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله** ﴾ والتى بعدها، وهى خمس وثمانون آية ، وقيل : اثنتان وثمانون آية وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة حم المؤمن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس والنحاس، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت الحواميم السبع بمكة. وأخرج ابن مردويه والديلمى عن سمرة بن جندب قال : نزلت الحواميم جميعًا بمكة.

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «إن اللّه أعطانى السبع الحواميم مكان التوراة، وأعطانى الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل ، وأعطانى ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى ». وأخرج أبو عبيدة فى فضائله عن ابن عباس قال : إن لكل شىء لبابا، وإن لباب القرآن آل حم. وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن المنذر والحاكم، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : الحواميم ديباج القرآن. وأخرج أبو عبيد ومحمد بن نصر وابن المنذر عنه قال: إذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن. وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الحواميم ديباج القرآن ». وأخرج البيهقى فى الشعب عن خليل بن مرّة ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « الحواميم سبع ، وأبواب النار سبع، تجىء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول : اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى ويقرؤنى ». وأخرج أبو عبيد وابن سعد ومحمد بن نصر وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ حم المؤمن إلى ﴿**إليه المصير** ﴾ ، وآية الكرسى حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأهما حين يمسى، حفظ بهما حتى يصبح »[١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢٢٤٥) وفى إسناده محمد بن أيوب بن جعفر بن أبى سعيد المقبرى لم أجد له ترجمة .

بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **حم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعًا، وقرأ حمزة والكسائى بإمالته إمالة محضة. وقرأ أبو عمرو بإمالته بين بين ، وقرأ الجمهور :﴿ **حم** ﴾ بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. وقرأ الزهرى بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ والخبر ما بعده. وقرأ عيسى ابن عمر الثقفى بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر، أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. وقرأ ابن أبى إسحاق، وأبو السماك بكسرها لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم . وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. وقرأ أبو جعفر بقطعها. وقد اختلف فى معناه، فقيل :هو اسم من أسماء اللّه. وقيل : اسم من أسماء القرآن. وقال الضحاك والكسائى معناه: قضى، وجعلاه بمعنى حم، أى قضى ووقع . وقيل : معناه : حم أمر اللّه، أى قرب نصره لأوليائه وانتقامه من أعدائه. وهذا كله تكلف لا موجب له، وتعسف لا ملجئ إليه، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة وأمثالهـا من المتشابه الذى استأثر اللّه بعلم معناه ، كما قدمنا تحقيقه فى فاتحة سورة البقرة .

﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ هو خبر لـ ﴿ **حم** ﴾ على تقدير أنه مبتدأ ، أو خبر لمبتدأ مضمر، أو هو مبتدأ وخبره : ﴿**من الله العزيز العليم**﴾ قال الرازى : المراد بتنزيل : المنزل ، والمعنى : أن القرآن منزل من عند اللّه ليس بكذب عليه. والعزيز : الغالب القاهر، والعليم : الكثير العلم بخلقه وما يقولونه ويفعلونه .﴿ **غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب** ﴾ قال الفراء :جعلها كالنعت للمعرفة، وهى نكرة، ووجه قول هذا : أن إضافتها لفظية ، ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه : أن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة ، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة . وأما الكوفيون فلم يستثنوا شيئًا بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل فى جواز جعلها إضافة محضة، وذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص ، فيجوزون فى ﴿**شديد**﴾ هنا : أن تكون إضافته محضة. وعلى قول سيبويه لابدّ من تأويله بمشدد. وقال الزجاج : إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل . وروى عنه أنه جعل غافر وقابل مخفوضين على الوصف وشديد مخفوض على البدل . والمعنى : غافر الذنب لأوليائه ، وقابل توبتهم ، وشديد العقاب لأعدائه، والتوب مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب

توبة وتوبًا . وقيل : هو جمع توبة . وقيل : غافر الذنب لمن قال : لا إله إلا اللّه، وقابل التوب من الشرك ، وشديد العقاب لمن لا يوحده . وقوله : ﴿ **ذى الطول** ﴾ يجوز أن يكون صفة ؛ لأنه معرفة وأن يكون بدلا ، وأصل الطول: الإنعام والتفضل ، أى ذى الإنعام على عباده والتفضل عليهم. وقال مجاهد : ذى الغنى والسعة ومنه قوله : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا﴾ [النساء : ٢٥] أى غنى وسعة، وقال عكرمة : ذى الطول : ذى المنّ. قال الجوهرى: والطول بالفتح: المنّ يقال: منه طال عليه، ويطول عليه: إذا امتنّ عليه. وقال محمد بن كعب : ذى الطول ذى التفضل . قال الماوردى : والفرق بين المنّ والتفضل ، أن المنّ عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق . ثم ذكر ما يدل على توحيده وأنه الحقيق بالعبادة فقال : ﴿**لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ لا إلى غيره، وذلك فى اليوم الآخر.

ثم لما ذكر أن القرآن كتاب اللّه أنزله ليهتدى به فى الدين ، ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال : ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا** ﴾ أى ما يخاصم فى دفع آيات اللّه وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد: الجدال بالباطل والقصد إلى دحض الحق كما فى قوله : ﴿ **وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ فأما الجدال لاستيضاح الحقّ ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح ، وعن المحكم والمتشابه ، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون ، وبذلك أخذ اللّه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، وقال : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ [البقرة : ١٥٩] ، وقال :﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦]. ﴿ **فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ لما حكم اللّه سبحانه على المجادلين فى آيات اللّه بالكفر، نهى رسول اللّه ﷺ عن أن يغتر بشىء من حظوظهم الدنيوية فقال : فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة فى البلاد، وما يحصلونه من الأرباح ويجمعونه من الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وإن أمهلوا فإنهم لا يهملون. قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور :﴿ **لا يغررك** ﴾ بفك الإدغام. وقرأ زيد بن على وعبيد بن عمير بالإدغام.

ثم بين حال من كان قبلهم ، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك فى التكذيب فقال : ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم** ﴾ الضمير فى من بعدهم يرجع إلى قوم نوح، أى وكذبت الأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد وثمود ﴿ **وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ أى همت كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم الذى أرسل إليهم ، ليأخذوه ليتمكنوا منه فيحبسوه ويعذّبوه ويصيبوا منه ما أرادوا. وقال قتادة والسدّى : ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ﴿ ثم أخذتهم (١) فكيف كان نكير ﴾ [الحج : ٤٤] .

(١) فى المخطوطة : « فأخذتهم » .

والعرب تسمى الأسير : الأخيذ ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ أى خاصموا رسولهم بالباطل من القول ليدحضوا به الحق ليزيلوه، ومنه : مكان دحض، أى مزلقة ومزلة أقدام، والباطل داحض ؛ لأنه يزلق ويزول فلا يستقر. قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان ﴿ **فأخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ أى فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل، فكيف كان عقابى الذى عاقبتهم به، وحذف يـاء المتكلم من عقاب اجتزاء بالكسرة عنها وصلا ووقفًا ؛ لأنها رأس آية . ﴿ **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا** ﴾ أى وجبت وثبتت ولزمت، يقال : حق الشىء : إذا لزم وثبت، والمعنى : وكما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به وجادلوك بالباطل وتحزبوا عليك، وجملة : ﴿ **أنهم أصحاب النار** ﴾ للتعليل، أى لأجل أنهم مستحقون للنار. قال الأخفش : أى لأنهم، أو بأنهم. ويجوز أن تكون فى محل رفـع بدلا من كلمة. قـرأ الجمهـور: ﴿ **كلمة** ﴾ بالتوحيد، وقرأ نافع وابن عامر : « كلمات » بالجمع .

ثـم ذكر أحوال حملة العرش ومـن حولـه فقال : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله** ﴾ والموصول مبتـدأ، وخبره ﴿ **يسبحون بحمد ربهم** ﴾ والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول اللّه ﷺ ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم يضمون إلى تسبيحهم للّه والإيمان به، الاستغفار للذين آمنوا باللّه ورسوله وصدقوا، والمراد بمن حول العرش : هم الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين، وهو فى محل رفع عطفا على الذين يحملون العرش، وهذا هو الظاهر. وقيل : يجوز أن تكون فى محل نصب عطفا على العرش ، والأول أولى. والمعنى : أن الملائكة الذين يحملون العرش، وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون اللّه ملتبسين بحمده على نعمه ويؤمنون باللّه، ويستغفرون اللّه لعباده المؤمنين به. ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمولى فقال حاكيًا عنهم : ﴿ **ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما** ﴾ وهو بتقدير القول ، أى يقولون ربنا، أو قائلين ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما. انتصاب ﴿ **رحمة** ﴾ و﴿ **علما** ﴾ على التمييز المحوّل عن الفاعل، والأصل : وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ﴿**فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك** ﴾ أى أوقعوا التوبة عن الذنوب واتبعوا سبيل اللّه، وهو دين الإسلام ﴿ **وقهم عذاب الجحيم** ﴾ أى احفظهم منه .

﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن** ﴾ و ﴿ **أدخلهم** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **قهم** ﴾ ووسط الجملة الندائية ؛ لقصد المبالغة بالتكرير، ووصف جنات عدن بأنها ﴿ **التى وعدتهم** ﴾ إياها ﴿**ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم** ﴾ أى وأدخل من صلح ، والمراد بالصلاح ها هنا : الإيمان باللّه والعمل بما شرعه اللّه، فمن فعل ذلك فقد صلح لدخول الجنة، ويجوز عطف ومن صلح على الضمير فى وعدتهم، أى ووعدت من صلح، والأولى عطفه على الضمير الأوّل فى وأدخلهم. قال الفراء والزجاج : نصبه من مكانين إن شئت على الضمير فى أدخلهم، وإن شئت على الضمير فى وعدتهم. قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح. وقرأ ابن أبى عبلة بضمها.

وقرأ الجمهور : ﴿وذرياتهم﴾ على الجمع. وقرأ عيسى بن عمر على الإفراد ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة . ﴿ **وقهم السيئات** ﴾ أى العقوبات ، أو جزاء السيئات على تقدير مضاف محذوف. قال قتادة : وقهم ما يسوؤهم من العذاب ﴿ **ومن تق السيئات يومئذ** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **فقد رحمته** ﴾ يقال : وقاه يقيه وقاية، أى حفظه، ومعنى ﴿ **فقد رحمته** ﴾ : أى رحمته من عذابك وأدخلته جنتك، والإشارة بقوله : ﴿**وذلك**﴾ إلى ما تقدم من إدخالهم الجنات، ووقايتهم السيئات وهو مبتدأ، وخبره ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ أى الظفر الذى لا ظفر مثله، والنجاة التى لا تساويها نجاة.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال :﴿ **حم** ﴾ اسم من أسماء اللّه . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف، وأبو عبيد وابن سعد وابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن المهلب بن أبى صفرة قال : حدثنى من سمع النبى ﷺ يقول ليلة الخندق : « إن أتيتم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون » (١). وأخرج ابن أبى شيبة والنسائى والحاكم وابن مردويه عن البراء بن عازب ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنكم تلقون عدوكم فليكن شعاركم : حم لا ينصرون » (٢). وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذى الطول** ﴾ قال : ذى السعة والغنى. وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: ﴿ **غافر الذنب**﴾ الآية. قال : غافر الذنب لمن يقول : لا إله إلا اللّه ﴿ **قابل التوب** ﴾ ممن يقول : لا إله إلا اللّه ﴿ **شديد العقاب**﴾ لمن لا يقول: لا إله إلا اللّه ﴿ **ذى الطول** ﴾ ذى الغنى ﴿**لا إله إلا هو** ﴾ كانت كفار قريش لايوحدونه فوحد نفسه ﴿ **إليه المصير** ﴾ مصير من يقول : لا إله إلا اللّه فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول لا إله إلا اللّه فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ :« إن جدالا فى القرآن كفر ». وأخرج عبد بن حميد وأبو داود عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مراء فى القرآن كفر » (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⁽١٠⁾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ⁽١١⁾ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ⁽١٢⁾

---

(١) عبد الرزاق (٩٤٦٧) وابن سعد ٢/ ٧٢ وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٤٢٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٩٧) والترمذى فى الجهاد (١٦٨٢) وسكت عنه الحاكم ٢/ ١٠٧وقال الذهبى :« تابعه زهير بن معاوية فهو على شرط الشيخين »والنسائى فى الكبرى فى اليوم والليلة (١٠٤٥٣) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٤٢٣) والنسائى فى اليوم والليلة فى الكبرى (١٠٤٥١) وسكت عنه الحاكم ٢/ ١٠٧ ووافقه الذهبى.

(٣) أبو داود فى السنة (٤٦٠٣) وأخرجه أحمد ٢/ ٢٥٨ .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾.

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال : ﴿ **إن الذين كفروا ينادون** ﴾. قال الواحدى : قال المفسرون : إنهم لما رأوا أعمالهم ونظروا فى كتابهم وأدخلوا النار ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم، ناداهم حين عاينوا عذاب اللّه مناد : ﴿ **لمقت الله** ﴾ إياكم فى الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴿ **أكبر من مقتكم أنفسكم** ﴾ اليوم . قال الأخفش : هذه اللام فى لمقت هى لام الابتداء أوقعت بعد ينادون ؛ لأن معناه : يقال لهم ، والنداء قول . قال الكلبى : يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار : مقتك يا نفس ، فتقول الملائكة لهم وهم فى النار : لمقت اللّه إياكم فى الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن : يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون : لمقت اللّه إياكم فى الدنيا ﴿ **إذ تدعون إلى الإيمان** ﴾ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف فى : ﴿ **إذ تدعون** ﴾ منصوب بمقدر محذوف دلّ عليه المذكور، أى مقتكم وقت دعائكم . وقيل: بمحذوف هو اذكروا . وقيل : بالمقت المذكور، والمقت : أشد البغض .

ثم أخبر سبحانه عما يقولون فى النار فقال : ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ اثنتين فى الموضعين نعتان لمصدر محذوف، أى أمتنا إماتتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين، والمراد بالإماتتين : أنهم كانوا نطفًا لا حياة لهم فى أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء فى الدنيا، والمراد بالإحياءتين : أنه أحياهم الحياة الأولى فى الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة:٢٨] . وقيل : معنى الآية : أنهم أميتوا فى الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم اللّه فى قبورهم للسؤال، ثم أميتوا ثم أحياهم اللّه فى الآخرة، ووجه هذا القول : أن الموت :سلب الحياة ولا حياة للنطفة . ووجه القول الأول: أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل، وقد ذهب إلى تفسير الأول جمهور السلف. وقال ابن زيد: المراد بالآية: أنه خلقهم فى ظهر آدم، واستخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد

أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا فقال حاكيًا عنهم : ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا** ﴾ التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرسل والإشراك بالله وترك توحيده، فاعترفوا حيث لاينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدّمة لقولهم : ﴿ **فهل إلى خروج من سبيل** ﴾ أى هل إلى خروج لنا من النار ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل ؟ ومثل هذا قولهم الذى حكاه الله عنهم: ﴿ هل[1] إلى مرد من سبيل ﴾ [الشورى:٤٤] وقوله :﴿ فارجعنا نعمل صالحا ﴾ [السجدة:١٢] وقوله : ﴿ ياليتنا نرد ﴾ الآية [الأنعام : ٢٧] .

ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله : ﴿ **ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم** ﴾ أى ذلك الذى أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعى الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به وتركتم توحيده ﴿ **وإن يشرك به** ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿ **تؤمنوا** ﴾ بالإشراك به وتجيبوا الداعى إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله وإشراك غيره به في العبادة التى رأسها الدعاء، ومحل ذلكم الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلكم أو مبتدأ خبره محذوف ، أى ذلكم العذاب الذى أنتم فيه بذلك السبب، وفي الكلام حذف، والتقدير : فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد، وذلك لأنكم كنتم إذا دعى الله . . . إلخ ﴿ **فالحكم لله** ﴾ : وحده دون غيره، وهو الذى حكم عليكم بالخلود في النار، وعدم الخروج منها و ﴿ **العلى** ﴾ : المتعالى عن أن يكون له مماثل في ذاته ولا صفاته، و ﴿ **الكبير** ﴾ : الذى كبر عن أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك ﴿ **هو الذى يريكم آياته** ﴾ أى دلائل توحيده وعلامات قدرته ﴿ **وينزل لكم من السماء رزقا** ﴾ يعنى : المطر فإنه سبب الأرزاق. جمع سبحانه بين إظهار الآيات وإنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان ، وبالأرزاق قوام الأبدان ، وهذه الآيات هى التكوينية التى جعلها الله سبحانه في سمواته وأرضه وما فيهما وما بينهما . قرأ الجمهور:﴿ **ينزل** ﴾ بالتشديد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف ﴿ **وما يتذكر إلا من ينيب** ﴾ أى ما يتذكر ويتعظ بتلك الآيات الباهرة فيستدل بها على التوحيد وصدق الوعد والوعيد إلا من ينيب، أى يرجع إلى طاعة الله بما يستفيده من النظر في آيات الله.

ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال : ﴿ **فادعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أى إذا كان الأمركما ذكر من ذلك فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها ﴿ **ولوكره الكافرون** ﴾ ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم . ﴿ **رفيع الدرجات** ﴾ وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدم، أى هو الذى يريكم آياته، وهو رفيع الدرجات، وكذلك ﴿ **ذو العرش** ﴾ خبر ثالث ، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتدأ، وخبره ﴿ **ذو العرش** ﴾ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف ، ورفيع صفة مشبهة. والمعنى : رفيع الصفات، أو رفيع درجات

(١) في المخطوطة : « فهل » .

ملائكته، أى معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه وأوليائه فى الجنة. وقال الكلبى وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى: رافع، ومعنى ذو العرش : مالكه وخالقه والمتصرف فيه، وذلك يقتضى علوّ شأنه وعظم سلطانه، ومن كان كذلك فهو الذى يحقّ له العبادة ويجب له الإخلاص، وجملة : ﴿ **يلقى الروح من أمره** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدّم أو للمقدر، ومعنى ذلك: أنه سبحانه يلقى الوحى ﴿ **على من يشاء من عباده** ﴾ ، وسمى الوحى روحًا ؛ لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح . وقوله : ﴿ **من أمره** ﴾ متعلق بـ﴿**يلقى**﴾ ، و « من » لابتداء الغاية، ويجوز أن يكون متعلقًا بمحذوف على أنه حال من الروح، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ [الشورى : ٥٢] . وقيل :الروح :جبريل كما فى قوله :﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك . . .﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤] وقوله : ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ [النحل:١٠٢] وقوله : ﴿ **على من يشاء من عباده** ﴾ هم الأنبياء، ومعنى ﴿**من أمره**﴾ : من قضائه ﴿ **لينذر يوم التلاق** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **لينذر** ﴾ مبنيا للفاعل ونصب اليوم ، والفاعل هو اللّه سبحانه أو الرسول أو من يشاء ، والمنذر به محذوف تقديره : لينذر العذاب يوم التلاق . وقرأ أبىّ وجماعة كذلك إلا أنه رفع اليوم على الفاعلية مجازا . وقرأ ابن عباس والحسن وابن السميفع : « لتنذر » بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ، أو ضمير يرجع إلى الروح لأنه يجوز تأنيثها . وقرأ اليمانى : « لينذر » على البناء للمفعول ، ورفع يوم على النيابة، ومعنى ﴿ **يوم التلاق** ﴾ : يوم يلتقى أهل السموات والأرض فى المحشر ، وبه قال قتادة . وقال أبو العالية ومقاتل : يوم يلتقى العابدون والمعبودون . وقيل : الظالم والمظلوم . وقيل : الأولون والآخرون . وقيل : جزاء الأعمال والعاملون .

وقوله : ﴿ **يوم هم بارزون** ﴾ بدل من يوم التلاق . وقال ابن عطية : هو منتصب بقوله : ﴿ **لا يخفى على الله** ﴾ وقيل : منتصب بإضمار اذكر ، والأول أولى ، ومعنى ﴿**بارزون** ﴾ : خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء ، وجملة : ﴿ **لا يخفى على الله منهم شيء** ﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير بارزون ، ويجوز أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ ، أى لا يخفى عليه سبحانه شيء منهم ولا من أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، وجملة: ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا يقال عند بروز الخلائق فى ذلك اليوم ؟ فقيل : يقال: لمن الملك اليوم ؟ قال المفسرون : إذا هلك كل من فى السموات والأرض ، فيقول الرّب تبارك وتعالى : ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ يعنى : يوم القيامة فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه ، فيقول : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ قال الحسن: هو السائل تعالى ، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه . وقيل : إنه سبحانه يأمر مناديًا ينادى بذلك ، فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ وقيل : إنه يجيب المنادى بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار ، وقيل : هو حكاية لما ينطق به لسان الحال فى

ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار : ١٧ ــ ١٩] وقوله : ﴿ **اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو اللّه سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضهم فهو مستأنف لبيان ما يقوله اللّه سبحانه بعد جوابهم ، أى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر ، لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه أو بزيادة فى عقابه ﴿ **إن الله سريع الحساب**﴾ أى سريع حسابه لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر فى ذلك كما يحتاجه غيره ، لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بإنذار عباده فقال : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة** ﴾ أى يوم القيامة سميت بذلك لقربها ، يقال : أزف فلان ، أى قرب ، يأزف أزفا ، ومنه قول النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما نزل بركابنا وكأن قد

ومنه قوله تعالى :﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم : ٥٧] أى قربت الساعة . وقيل : إن يوم الآزفة: هو يوم حضور الموت ، والأول أولى . قال الزجاج : وقيل : لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس أمرها ، وما هو كائن فهو قريب ﴿ **إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين** ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : ١٠] .﴿ **كاظمين** ﴾ مغمومين مكروبين ممتلئين غما . قال الزجاج : المعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر فى حال كظمهم . قال قتادة : وقعت قلوبهم فى الحناجر من المخافة، فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها . وقيل : هو إخبار عن نهاية الجزع ، وإنما قال : ﴿**كاظمين** ﴾ باعتبار أهل القلوب ؛ لأن المعنى : إذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، فيكون حالا منهم . وقيل : حالا من القلوب ، وجمع الحال منها جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء ، فجمعت جمعه . ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال : ﴿ **ما للظالمين من حميم** ﴾ أى قريب ينفعهم ﴿ **ولا شفيع يطاع** ﴾ فى شفاعته لهم ، ومحل ﴿**يطاع** ﴾ الجر على أنه صفة لـ﴿ **شفيع** ﴾ .

ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شىء وإن كان فى غاية الخفاء ، فقال : ﴿ **يعلم خائنة الأعين** ﴾ وهى مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه ، والجملة خبر آخر لقوله : ﴿ **هو الذى يريكم** ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير ، أى يعلم الأعين الخائنة. وقال قتادة : خائنة الأعين: الهمز بالعين فيما لا يحب اللّه . وقال الضحاك : هو قول الإنسان : ما رأيت وقد رأى ، ورأيت وما رأى . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . والأول أولى ، وبه قال مجاهد . ﴿ **وما تخفى الصدور** ﴾ من الضمائر وتسره من معاصى اللّه ﴿ **والله يقضى بالحق** ﴾ فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير وشرّ ﴿ **والذين تدعون من دونه** ﴾ أى تعبدونهم من دون اللّه ﴿**لا يقضون بشىء** ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شىء ، قرأ الجمهور: ﴿ **يدعون**﴾

بالتحتية يعنى الظالمين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ نافع وشيبة وهشام بالفوقية على الخطاب لهم ﴿ **إن الله هو السميع البصير** ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ قال :هى مثل التى فى البقرة ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة : ٢٨] كانوا أمواتا فى صلب آبائهم ، ثم أخرجهم فأحياهم ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم بعد الموت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كنتم ترابا قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فهما موتتان وحياتان كقوله: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ الآية [البقرة : ٢٨] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم التلاق** ﴾ قال : يوم القيامة يلتقى فيه آدم وآخر ولده . وأخرج عنه أيضا قال : ﴿ **يوم التلاق** ﴾ : يوم الآزفة ، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر عباده. وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضًا قال : ينادى مناد بين يدى الساعة : « يأيها الناس ، أتتكم الساعة ، فيسمعها الأحياء والأموات ، وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول : ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ » (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى البعث ، والديلمى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ مثله (٢) . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال :يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ قال: الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غضّ بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها . وأخرج ابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال : إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ؟ ﴿ **وما تخفى الصدور** ﴾ قال : إذا قدر عليها أيزنى بها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتى تليها ﴿ **والله يقضى بالحق** ﴾ قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة .وأخرج أبو داود والنسائى وابن مردويه عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة أمن النبى ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال :« اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة » منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح

---

(١) الحاكم ٢/ ٤٣٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم ١/ ٣٢٤ .
(٢) الديلمى (٨٨٦٩).

فاختبأ عند عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به ، فقال : يا رسول الله ، بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته ، ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ » فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك ؟ فقال: « إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين» (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾.

لما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال : ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم** ﴾ أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم ، فإن الذين مضوا من الكفار ﴿ **كانوا هم أشد منهم قوة** ﴾ من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى ﴿ **وآثارا في الأرض** ﴾ بما عمروا فيها من الحصون والقصور وبما لهم من العدد والعدّة ، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله . وقوله : ﴿ **فينظروا** ﴾ إما مجزوم بالعطف على يسيروا ، أو منصوب بجواب الاستفهام . وقوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك . وقوله : ﴿ **وآثارا** ﴾ عطف على قوة . قرأ الجمهور : ﴿ **أشد منهم**﴾

---

(١) أبو داود في الحدود (٤٣٥٩) والنسائي ٧/ ١٠٥ « وفيه أسباط مختلف فيه وأحمد بن الفضل شيعي في حفظه شيء » .

وقرأ ابن عامر : « أشد منكم » على الالتفات ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ أى بسبب ذنوبهم ﴿**وما كان لهم من الله من واق** ﴾ أى من دافع يدفع عنهم العذاب ، وقد مرّ تفسير هذه الآية فى مواضع . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الأخذ ﴿ **بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بالحجج الواضحة ﴿ **فكفروا** ﴾ بما جاؤوهم به ﴿ **فأخذهم الله إنه قوى** ﴾ يفعل كل ما يريده لا يعجزه شىء ﴿ **شديد العقاب** ﴾ لمن عصاه ولم يرجع إليه .

ثم ذكر سبحانه قصة موسى وفرعون ليعتبروا فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ هى التسع الآيات التى قد تقدم ذكرها فى غير موضع ﴿ **وسلطان مبين** ﴾ أى حجة بينة واضحة ، وهى : التوراة ﴿ **إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا** ﴾ إنه ﴿ **ساحركذاب** ﴾ أى فيما جاء به ، وخصهم بالذكر؛ لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ؛ ففرعون الملك ، وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ﴿ **فلما جاءهم بالحق من عندنا** ﴾ وهى معجزاته الظاهرة الواضحة ﴿**قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى ، فلما بعث اللّه موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل ، فكان يأمر بقتل الذكور وترك النساء ، ومثل هذا قول فرعون : ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ﴿ **وما كيد الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى فى خسران ووبال ، لأنه يذهب باطلا ويحيق بهم ما يريده اللّه عز وجل .

﴿ **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى** ﴾ إنما قال هذا لأنه كان فى خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب ، والمعنى : اتركونى أقتله ﴿ **وليدع ربه** ﴾ الذى يزعم أنه أرسله إلينا فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك،أى لا يهولنكم ذلك فإنه لا ربّ له حقيقة ، بل أنا ربكم الأعلى ، ثم ذكر العلة التى لأجلها أراد أن يقتله فقال : ﴿ **إنى أخاف أن يبدل دينكم** ﴾ الذى أنتم عليه من عبادة غير اللّه ويدخلهم فى دينه الذى هو عبادة اللّه وحده ﴿ **أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾ أى يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى وانتشاره فى الأرض واهتداء الناس به فسادا،وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه . قرأ الكوفيون ويعقوب : ﴿ **أو أن يظهر** ﴾ بأو التى للإبهام ، والمعنى : أنه لابد من وقوع أحد الأمرين . وقرأ الباقون: ﴿ **وأن يظهر** ﴾ بدون ألف على معنى وقوع الأمرين جميعا ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من « إنى أخاف » وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص : ﴿**يظهر**﴾ بضم الياء وكسر الهاء من أظهر ، وفاعله ضمير موسى ، والفساد نصبا على أنه مفعول به ، وقرأ الباقون بفتح الياء والهاء ، ورفع الفساد على الفاعلية ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى :﴿ **عذت** ﴾ بإدغام الذال ، وقرأ الباقون بالإظهار ، لما هدده فرعون بالقتل استعاذ باللّه عز وجل من كل متعظم عن الإيمان باللّه غير مؤمن بالبعث والنشور،ويدخل فرعون فى هذا العموم دخولا أوليًا.

﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه** ﴾ قال الحسن ومقاتل والسدى : كان قبطيًا وهو ابن عم فرعون ، وهو الذى نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله : ﴿ **وجاء رجل من أقصى**

المدينة يسعى ﴾ الآية [القصص : ٢٠] ، وقيل : كان من بنى إسرائيل ولم يكن من آل فرعون ، وهو خلاف ما فى الآية ، وقد تمحل لذلك بأن فى الآية تقديما وتأخيرًا ، والتقدير : وقال رجل مؤمن من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون ، قال القشيرى : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد ، لأنه يقال:كتمه أمر كذا ولا يقال:كتم منه كما قال سبحانه:﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ [النساء : ٤٢] وأيضًا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول.

وقد اختلف فى اسم هذا الرجل ، فقيل :حبيب . وقيل : حزقيل . وقيل :غير ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ **رجل** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ الأعمش وعبد الوارث بسكونها ، وهى لغة تميم ونجد ، والأولى هى الفصيحة ، وقرئ بكسر الجيم و ﴿**مؤمن**﴾ صفة لرجل ، و ﴿ **من آل فرعون** ﴾ صفة أخرى ، و ﴿ **يكتم إيمانه** ﴾ صفة ثالثة ، والاستفهام فى ﴿ **أتقتلون رجلا** ﴾ للإنكار ، و ﴿ **أن يقول ربى الله** ﴾ فى موضع نصب بنزع الخافض ، أى لأن يقول أو كراهة أن يقول . وجملة: ﴿ **وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات والدلالات الظاهرات على نبوته وصحة رسالته ، ثم تلطف لهم فى الدفع عنه؛ فقال : ﴿ **وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم** ﴾ ولم يكن قوله هذا لشك منه ، فإنه كان مؤمنا كما وصفه اللّه ، ولا يشك المؤمن ،ومعنى ﴿ **يصبكم بعض الذى يعدكم** ﴾: أنه إذا لم يصبكم كله فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، وحذفت النون من يكن فى الموضعين ؛ تخفيفا لكثرة الاستعمال ، كما قال سيبويه ، وقال أبو عبيدة وأبو الهيثم بعض هنا بمعنى كل ، أى يصبكم كل الذى يعدكم ، وأنشد أبو عبيدة على هذا قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أى كل النفوس ، وقد اعترض عليه ، وأجيب بأن البعض قد يستعمل فى لغة العرب بمعنى الكل ، كما فى قول الشاعر :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقول الآخر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها ... دون الشيوخ ترى فى بعضها خللا

وليس فى البيتين ما يدلّ على ما زعموه ، وأما بيت لبيد فقيل : إنه أراد ببعض النفوس نفسه ، ولا ضرورة تلجئ إلى حمل ما فى الآية على ذلك ، لأنه أراد التنزّل معهم وإيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوّته كما يفيده قوله : ﴿ **يكتم إيمانه** ﴾ قال أهل المعانى : وهذا على المظاهرة فى الحجاج ، كأنه قال لهم: أقل ما يكون فى صدقه أن يصيبكم بعض الذى يعدكم ، وفى بعض ذلك هلاككم،فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل.وقال الليث: بعض ها هنا صلة يريد يصبكم الذى يعدكم . وقيل : يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا ، وهو

بعض ما يتوعدكم به من العذاب . وقيل : إنه وعدهم بالثواب والعقاب ، فإذا كفروا أصابهم العقاب ، وهو بعض ما يتوعدهم به ﴿ **إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب** ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن ، وهو احتجاج آخر ذو وجهين : أحدهما : أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه اللّه إلى البينات ولا أيده بالمعجزات ، وثانيهما : أنه إذا كان كذلك خذله اللّه وأهلكه ، فلا حاجة لكم إلى قتله ، والمسرف : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، والكذاب المفترى .

﴿ **يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض** ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا اللّه ولا يتمادوا فى كفرهم ، ومعنى ﴿ **ظاهرين** ﴾ : الظهور على الناس والغلبة لهم والاستعلاء عليهم ، والأرض : أرض مصر ، وانتصاب ﴿ **ظاهرين** ﴾ على الحال ﴿ **فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا** ﴾ أى من يمنعنا من عذابه ويحول بيننا وبينه عند مجيئه ، وفى هذا تحذير منه لهم من نقمة اللّه بهم وإنزال عذابه عليهم ، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم ، ولهذا قال : ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ قال ابن زيد : أى ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسى . وقال الضحاك : ما أعلمكم إلا ما أعلم ، والرؤيا هنا هى : القلبية لا البصرية ، والمفعول الثانى هو إلا ما أرى ﴿**وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ أى ما أهديكم بهذا الرأى إلا طريق الحق. قرأ الجمهور : ﴿ **الرشاد** ﴾ بتخفيف الشين، وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضراب . وقال النحاس : هى لحن ، ولا وجه لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون** ﴾ قال : لم يكن فى آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى الذى قال : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص : ٢٠] قال ابن المنذر : أخبرت أن اسمه حزقيل . وأخرج عبد بن حميد عن أبى إسحاق قال : اسمه حبيب . وأخرج البخارى وغيره من طريق عروة قال : قيل لعبد اللّه بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشد شىء صنعه المشركون برسول اللّه ﷺ ، قال : بينا رسول اللّه ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول اللّه ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدًا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى ﷺ ثم قال : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ (١) . وأخرج أبو نعيم فى فضائل الصحابة ، والبزار عن على بن أبى طالب أنه قال : أيها الناس ، أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا: أنت. قال : أما أنا ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبرونى بأشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن ؟ قال : أبو بكر ، رأيت رسول اللّه ﷺ وأخذته قريش ، فهذا يجنبه وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت

---

(١) أحمد ٢/ ٢٠٤ والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٥٦) .

الذى جعلت الآلهة إلها واحدا ، قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويَجِيءُ هذا ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله** ﴾ ، ثم رفع على بردة كانت عليه ، فبكى حتى أخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم بالله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾.

ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم ، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم . فقال الله حاكيا عنه : ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب** ﴾ أى مثل يوم عذاب الأمم الماضية الذين تحزبوا على أنبيائهم . وأفرد اليوم لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه ، ثم فسر الأحزاب فقال : ﴿ **مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم** ﴾ أى مثل حالهم فى العذاب ، أو مثل عادتهم فى الإقامة على التكذيب ، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب ﴿ **وما الله يريد ظلما للعباد** ﴾ أى لا يعذبهم بغير ذنب ، ونفى الإرادة للظلم يستلزم نفى الظلم بفحوى الخطاب . ثم زاد فى الوعظ والتذكير فقال : ﴿ **ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **التناد** ﴾ بتخفيف الدال وحذف الياء . والأصل : التنادى، وهو التفاعل من النداء ، يقال: تنادى القوم ، أى نادى بعضهم بعضا ، وقرأ الحسن

وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد بإثبات الياء على الأصل ، وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة بتشديد الدال . قال بعض أهل اللغة هو لحن ، لأنه من ندّ يندّ : إذا مرّ على وجهه هاربا . قال النحاس: وهذا غلط ، والقراءة حسنة على معنى التنافى قال الضحاك فى معناه : إنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندّوا هربا . فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك قوله : ﴿ **يوم التناد** ﴾ وعلى قراءة الجمهور المعنى : يوم ينادى بعضهم بعضا ، أو ينادى أهل النار أهل الجنة وأهل الجنة أهل النار، أو ينادى فيه بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، أو يوم ينادى فيه كل أناس بإمامهم ، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى ، وقوله : ﴿ **يوم تولون مدبرين** ﴾ بدل من يوم التناد ، أى منصرفين عن الموقف إلى النار ، أو فارين منها . قال قتادة ومقاتل : المعنى : إلى النار بعد الحساب ، وجملة : ﴿ **ما لكم من الله من عاصم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مالكم من يعصمكم من عذاب اللّه ويمنعكم منه ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ يهديه إلى طريق الرشاد .

ثم زاد فى وعظهم وتذكيرهم فقال : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات** ﴾ أى يوسف ابن يعقوب ، والمعنى : أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى إليهم ، أى جاء إلى آبائكم ، فجعل المجيء إلى الآباء مجيئًا إلى الأنبياء وقيل : المراد بيوسف هنا : يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، وكان أقام فيهم نبيًا عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك أن اللّه بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف ، والأول أولى . وقد قيل : إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره ﴿ **فما زلتم فى شك مما جاءكم به** ﴾ من البينات ولم تؤمنوا به ﴿ **حتى إذا هلك** ﴾ يوسف ﴿ **قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا** ﴾ فكفروا به فى حياته وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾ أى مثل ذلك الضلال الواضح يضل اللّه من هو مسرف فى معاصى اللّه مستكثر منها مرتاب في دين اللّه شاك فى وحدانيته ووعده ووعيده .

والموصول فى قوله : ﴿ **الذين يجادلون فى آيات الله** ﴾ بدل من « من » والجمع باعتبار معناها ، أو بيان لها ، أو صفة ، أو فى محل نصب بإضمار أعنى ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، أو مبتدأ وخبره يطبع ، و ﴿ **بغير سلطان** ﴾ متعلق بيجادلون ، أى يجادلون فى آيات اللّه بغير حجة واضحة ، و ﴿ **أتاهم** ﴾ صفة لسلطان ﴿ **كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا** ﴾ يحتمل أن يراد به التعجب ، وأن يراد به الذم كبئس ، وفاعل كبر ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من يجادلون . وقيل : فاعله ضمير يعود إلى من فى : ﴿ **من هو مسرف** ﴾ والأول أولى . وقوله : ﴿ **عند الله** ﴾ متعلق بكبر ، وكذلك ﴿ **عند الذين آمنوا** ﴾ قيل : هذا من كلام الرجل المؤمن . وقيل : ابتداء كلام من اللّه سبحانه ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ أى كما طبع على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يطبع ، أي يختم على كل قلب

متكبر جبار . قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وفى الكلام حذف وتقديره : كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر ، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها ، والمعنى : أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام بتنوين قلب ، على أن متكبر صفة له . فيكون القلب مرادا به الجملة ، لأن القلب هو محل التكبر وسائر الأعضاء تبع له فى ذلك وقرأ ابن مسعود : « على قلب كل متكبر » .

ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره وتجبره معرضا عن الموعظة نافرا من قبولها وقال : **﴿ يا هامان ابن لى صرحا ﴾** أى قصراً مشيداً كما تقدم بيان تفسيره **﴿ لعلى أبلغ الأسباب ﴾** أى الطرق . قال قتادة والزهرى والسدّى والأخفش : هى الأبواب. وقوله : **﴿ أسباب السموات ﴾** بيان للأسباب ، لأن الشىء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع فى النفوس ، وأنشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل : أسباب السموات : الأمور التى يستمسك بها **﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾** قرأ الجمهور بالرفع عطفا على أبلغ . فهو على هذا داخل فى حيز الترجى . وقرأ الأعرج والسلمى وعيسى ابن عمر وحفص بالنصب على جواب الأمر فى قوله : **﴿ ابن لى ﴾** أو على جواب الترجى كما قال أبو عبيد وغيره . قال النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع ، لأن معنى النصب : متى بلغت الأسباب اطلعت ، ومعنى الرفع : لعلى أبلغ الأسباب ولعلى أطلع بعد ذلك ، وفى هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدًا **﴿ وإنى لأظنه كاذبا ﴾** أى وإنى لأظن موسى كاذبا فى ادعائه بأن له إلها ، أو فيما يدّعيه من الرسالة **﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ﴾** أى ومثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك والتكذيب ، فتمادى فى الغى واستمر على الطغيان **﴿ وصدّ عن السبيل ﴾** أى سبيل الرشاد . قرأ الجمهور : «وصَد » بفتح الصاد والدال ، أى صد فرعون الناس عن السبيل ، وقرأ الكوفيون : « وصُد » بضم الصاد مبنيًا للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه فى زين من البناء للمفعول ، وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة : « صد » بكسر الصاد ، وقرأ ابن أبى إسحاق وعبد الرحمن بن أبى بكرة بفتح الصاد وضم الدال منونًا على أنه مصدر معطوف على سوء عمله، أى زين الشيطان سوء العمل والصدّ **﴿ وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾** التباب : الخسار والهلاك ومنه ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ [المسد : ١] .

ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير والتحذير كما حكى الله عنه بقوله : **﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾** أى اقتدوا بى فى الدين أهدكم طريق الرشاد ، وهو

الجنة . وقيل : هذا قول موسى ، والأول أولى . وقرأ معاذ بن جبل : « الرشاد » بتشديد الشين كما تقدم قريبا في قول فرعون ووقع في المصحف ﴿اتبعون﴾ بدون ياء ، وكذلك قرأ أبو عمرو ونافع بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل ، وقرأ يعقوب وابن كثير بإثباتها وصلا ووقفًا ، وقرأ الباقون بحذفها وصلا ووقفًا فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل ، ومن حذفها فلكونها حذفت في المصحف ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها أياما ثم تنقطع وتزول ﴿وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرة لا تزول . ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أي من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت فلا يجزى إلا مثلها ولا يعذب إلا بقدرها ،والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة. وقيل : هي خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ أي من عمل عملا صالحا مع كونه مؤمنا بالله وبما جاءت به رسله ﴿ فأولئك ﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح والإيمان ﴿ يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي بغير تقدير ومحاسبة . قال مقاتل : يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير ، وقيل : العمل الصالح هو لا إله إلا الله . قرأ الجمهور : ﴿ يدخلون ﴾ بفتح التحتية مبنيا للفاعل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بضمها مبنيا للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ مثل دأب ﴾ قال : مثل حال . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة: ﴿ مثل دأب قوم نوح ﴾ قال : هم الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ قال : رؤيا يوسف ، وفي قوله :﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ قال يهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ إلا في تباب ﴾ قال : خسران . وأخرج عبد ابن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شيء أفضل من المرأة الصالحة ، التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » (١) .

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ

---

(١) أخرج نحوه مسلم في الرضاع (١٤٦٧/٥٩) وابن ماجة في النكاح (١٨٥٥) كلاهما عن عبد الله بن عمرو .

تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله وصرّح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدّى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه فقال : ﴿**ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار**﴾ أى أخبرونى عنكم كيف هذه الحال : أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله وإجابة رسله، وتدعوننى إلى النار بما تريدونه منى من الشرك ؟ قيل : معنى ﴿ **مالى أدعوكم** ﴾ : ما لكم أدعوكم ؟ كما تقول: ما لى أراك حزينا ، أى مالك . ثم فسر الدعوتين فقال : ﴿ **تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم** ﴾ ، فقوله : تدعوننى بدل من تدعوننى الأولى أو بيان لها ﴿ **ما ليس لى به علم** ﴾ أى ما لا علم لى بكونه شريكا لله ﴿ **وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار** ﴾ أى إلى العزيز فى انتقامه ممن كفر ﴿ **الغفار** ﴾ لذنب من آمن به .

﴿ **لا جرم** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة هود، وجرم فعل ماض بمعنى حقّ ، ولا الداخلة عليه لنفى ما ادعوه وردّ ما زعموه ، وفاعل هذا الفعل هو قوله : ﴿ **أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة** ﴾ أى حق ووجب بطلان دعوته . قال الزجاج : معناه : ليس له استجابة دعوة تنفع وقيل : ليس له دعوة توجب له الألوهية فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقال الكلبى : ليس له شفاعة ﴿ **وأن مردّنا إلى الله** ﴾ أى مرجعنا ومصيرنا إليه بالموت أولا ، وبالبعث آخرا ، فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير وشرّ ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ أى المستكثرين من معاصى الله . قال قتادة وابن سيرين : يعنى المشركين . وقال مجاهد والشعبى : هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها . وقال عكرمة : الجبارون والمتكبرون . وقيل : هم الذين تعدّوا حدود الله ، و « أن » فى الموضعين عطف على « أن » فى قوله :﴿**أنما تدعوننى إليه** ﴾ والمعنى : وحق أن مردّنا إلى الله ، وحق أن المسرفين إلخ ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم** ﴾ إذا نزل بكم العذاب وتعلمون أنى قد بالغت فى نصحكم وتذكيركم، وفى هذا الإبهام من التخويف والتهديد مالا يخفى ﴿ **وأفوض أمرى إلى الله** ﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . قيل : إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به . قال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل

فلم يقدروا عليه . وقيل : القائل هو: موسى ، والأول أولى .

﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا** ﴾ أى وقاه الله ما أرادوا به من المكر السيئ ، وما أرادوه به من الشر . قال قتادة : نجاه الله مع بنى إسرائيل ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ أى أحاط بهم ونزل عليهم سوء العذاب . قال الكسائى : يقال : حاق يحيق حيقا وحيوقا : إذا نزل ولزم . قال الكلبى : غرقوا فى البحر ودخلوا النار ، والمراد بآل فرعون : فرعون وقومه ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره لكونه أولى بذلك منهم ، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه . والأول أولى لأنهم قد عذبوا فى الدنيا جميعا بالغرق ، وسيعذبون فى الآخرة بالنار. ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب ، فقال :﴿ **النار يعرضون عليها غدوا وعشيا** ﴾ فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب . وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره يعرضون ، والأول أولى ، ورجحه الزجاج وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر . وقرئ بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى ، أى يصلون النار يعرضون عليها ، أو على الاختصاص ، وأجاز الفراء الخفض على البدل من العذاب . وذهب الجمهور أن هذا العرض هو فى البرزخ ، وقيل : هو فى الآخرة . قال الفراء: ويكون فى الآية تقديم وتأخير ، أى أدخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ، ولا ملجئ إلى هذا التكلف فإن قوله : ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو فى البرزخ ،وقوله:﴿ **أدخلوا** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون و﴿ **أشد العذاب** ﴾ هو عذاب النار . قرأ حمزة والكسائى ونافع وحفص : ﴿ **أدخلوا** ﴾ بفتح الهمزة وكسر الخاء، وهو على تقدير القول كما ذكر . وقرأ الباقون : « ادخلوا » بهمزة وصل من دخل يدخل أمرا لآل فرعون بالدخول، وهو على تقدير حرف النداء ، أى ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب .

﴿ **وإذ يتحاجون فى النار** ﴾ الظرف منصوب بإضمار اذكر . والمعنى : اذكر لقومك وقت تخاصمهم فى النار . ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال: ﴿ **فيقول الضعفاء للذين استكبروا**﴾ عن الانقياد للأنبياء والاتباع لهم ، وهم رؤساء الكفر ﴿ **إنا كنا لكم تبعا** ﴾ جمع لتابع ، كخدم وخادم ، أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل أى تابعين أو على حذف مضاف ، أى ذوى تبع . قال البصريون : التبع يكون واحدا ويكون جمعا . وقال الكوفيون : هو جمع لا واحد له ﴿**فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار** ﴾ أى هل تدفعون عنا نصيبا منها أو تحملونه معنا ، وانتصاب ﴿ **نصيبا** ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه مغنون ، أى هل تدفعون عنا نصيبا أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين ، أى هل أنتم حاملون معنا نصيبا، أو على المصدرية . ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها** ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر والمعنى : إنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف نغنى عنكم. قرأ الجمهور : ﴿**كل**﴾ بالرفع على الابتداء، وخبره :﴿ **فيها** ﴾ والجملة خبر إن ، قاله الأخفش . وقرأ ابن السميفع وعيسى بن عمر: « كلا » بالنصب . قال

الكسائي والفراء : على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف إليه . وقيل : على الحال ورجحه ابن مالك ﴿ **إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ أى قضى بينهم بأن فريقا فى الجنة، وفريقا فى السعير .

﴿ **وقال الذين فى النار** ﴾ من الأمم الكافرة ، مستكبرهم وضعيفهم ﴿ **لخزنة جهنم** ﴾ جمع خازن ، وهو القوام بتعذيب أهل النار ﴿ **ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** ﴾ يوما ظرف ليخفف ، ومفعول يخفف محذوف ، أى يخفف عنا شيئا من العذاب مقدار يوم أو فى يوم ، وجملة : ﴿ **قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ **قالوا بلى** ﴾ أى أتونا بها فكذبناهم ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج الواضحة ، فلما اعترفوا ﴿ **قالوا**﴾ أى قال لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ﴿ **فادعوا**﴾ أى إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم ، فإنا لا ندعوا لمن كفر بالله وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة . ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئًا فقالوا : ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى فى ضياع وبطلان وخسار وتبار ، وجملة : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** ﴾ مستأنفة من جهته سبحانه ، أى نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم ، والموصول فى محل نصب عطفا على رسلنا ، أى لننصر رسلنا ، وننصر الذين آمنوا معهم ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ بما عودّهم الله من الانتقام منهم بالقتل والسلب والأسر والقهر ﴿ **ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ وهو يوم القيامة . قال زيد بن أسلم: الأشهاد : هم الملائكة والنبيون. وقال مجاهد والسدّى: الأشهاد : الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب . قال الزجاج . الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . قال النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ، ولكن ما جاء منه مسموعا أدى على ما يسمع ، فهو على هذا جمع شهيد ، مثل شريف وأشراف ، ومعنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن الله يجازيهم بأعمالهم فيدخلهم الجنة ويكرمهم بكراماته ويجازى الكفار بأعمالهم فيلعنهم ويدخلهم النار ، وهو معنى قوله: ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة** ﴾ أى البعد عن الرحمة ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ أى النار . ويوم بدل من يوم يقوم الأشهاد، وإنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة وتعلة داحضة وشبهة زائغة . قرأ الجمهور : « تنفع » بالفوقية . وقرأ نافع والكوفيون بالتحتية ، والكل جائز فى اللغة .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ قال : السفاكين للدّماء بغير حقها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا

مقعدك حتى يبعثك اللّه إليه يوم القيامة » [(١)] زاد ابن مـردويه . **ثم قرأ : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾** . وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلاأثابه اللّه » ، قلنا : يا رسول اللّه ، ما إثابة الكافر ؟ قال : « المال والولد والصحة وأشباه ذلك » ، قلنا : وما إثابته فى الآخرة ؟ قال: « عذابا دون العذاب »، وقرأ رسول اللّه ﷺ : **﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾** [(٢)]. وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، وابن أبى الدنيا والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من ردّ عن عرض أخيه ردّ اللّه عن وجهه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا : **﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾**» [(٣)] . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة مثله .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٨٠) والرقاق (٦٥١٥) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٦/ ٦٥ ،٦٦) وابن ماجة (٤٢٧٠) .

(٢) زوائد البزار ١/ ٤٤٨، وصححه الحاكم ٢/ ٢٥٣ وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، وتعقبه الذهبى فقال : عتبة واه ، والبيهقى فى الشعب (٢٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٤ : « رواه البزار فيه عتبة بن يقظان وفيه كلام ، وقد وثقه ابن حبان ، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) أحمد ٦/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ والترمذى فى البر والصلة (١٩٣١) وقال : « هذا حديث حسن » والبيهقى فى الشعب (٧٦٣٥ ،٧٦٣٦) ط . الكتب العلمية .

اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الهدى**﴾ هذا من جملة ما قصه اللّه سبحانه قريبا من نصره لرسله ، أى آتيناه التوراة والنبوّة ، كما فى قوله سبحانه : ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور**﴾ [المائدة : ٤٤] قال مقاتل : الهدى من الضلالة ، يعنى : التوراة ﴿ **وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولى الألباب** ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، ومعنى ﴿**أورثنا** ﴾ :أن اللّه سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم وتوارثوها خلفا عن سلف . وقيل : المراد بالكتاب: سائر الكتب المنزلة على أنبياء بنى إسرائيل بعد موت موسى. و﴿**هدى**﴾ و﴿**ذكرى**﴾ فى محل نصب على أنهما مفعول لأجله ، أى لأجل الهدى والذكر ، أو على أنهما مصدران فى موضع الحال أى هاديا ومذكرا ، والمراد بأولى الألباب : أهل العقول السليمة . ثم أمر اللّه رسوله ﷺ بالصبر على الأذى فقال : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق** ﴾ أى اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل ، إن وعد اللّه الذى وعد به رسله حق لا خلف فيه ولا شك فى وقوعه كما فى قوله : ﴿ **إنا لننصر رسلنا** ﴾ وقوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] قال الكلبى : نسخ هذا بآية السيف .

ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه فقال: ﴿ **واستغفر لذنبك** ﴾ قيل : المراد : ذنب أمتك ، فهو على حذف مضاف . وقيل : المراد : الصغائر عند من يجوزّها على الأنبياء . وقيل : هو مجرد تعبد له ﷺ بالاستغفار لزيادة الثواب ، وقد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿**وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار** ﴾ أى دم على تنزيه اللّه ملتبسا بحمده . وقيل : المراد : صل فى الوقتين صلاة العصر وصلاة الفجر . قاله الحسن وقتادة . وقيل : هما صلاتان ركعتان غدوة وركعتان عشية ، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم** ﴾ أى بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة اللّه سبحانه ﴿ **إن فى صدورهم إلا كبر**﴾ أى ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق يحملهم على تكذيبك ، وجملة : ﴿**ما هم ببالغيه** ﴾ صفة لكبر. قال الزجاج : المعنى : ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه ، فجعله على حذف المضاف . وقال غيره : ما هم ببالغى الكبر . وقال ابن قتيبة : المعنى: إن فى صدورهم إلا كبر ، أى تكبر على محمد ﷺ وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغى ذلك ، وقيل : المراد بالكبر : الأمر الكبير ، أى يطلبون النبوة ، أو يطلبون أمرًا كبيرًا يصلون به إليك من القتل ونحوه ولا يبلغون ذلك . وقال مجاهد : معناه : فى صدورهم عظمة ما هم ببالغيها . والمراد بهذه الآية : المشركون . وقيل : اليهود ، كما سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء اللّه . ثم أمره اللّه سبحانه بأن يستعيذ باللّه من شرورهم فقال : ﴿ **فاستعذ بالله إنه هو**

السميع البصير ﴾ أى فالتجئ إليه من شرهم وكيدهم وبغيهم عليك إنه السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾ أى أعظم فى النفوس وأجل فى الصدور ، لعظم أجرامهما واستقرارهما من غير عمد وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف ينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه كما فى قوله : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس: ٨١] قال أبو العالية : المعنى : لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود . وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على منكرى البعث ، أى هما أكبر من إعادة خلق الناس ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ بعظيم قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء . ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالا للباطل والحق أنهما لا يستويان فقال:﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير**﴾ أى الذى يجادل بالباطل ،والذى يجادل بالحق ﴿ **ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء**﴾ أى ولا يستوى المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء بالكفر والمعاصى، وزيادة « لا» فى ﴿**ولا المسىء** ﴾ للتأكيد ﴿ **قليلا ما يتذكرون** ﴾ قرأ الجمهور:﴿ **يتذكرون** ﴾ بالتحتية على الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، لأن قبلها وبعدها على الغيبة لا على الخطاب ، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات ، أى تذكرا قليلا ما تتذكرون .

﴿ **إن الساعة لآتية لا ريب فيها** ﴾ أى لا شك فى مجيئها وحصولها ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ بذلك ولا يصدقونه لقصور أفهامهم وضعف عقولهم عن إدراك الحجة ، والمراد بأكثر الناس : الكفار الذين ينكرون البعث . ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه ولا شبهة ، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة فى دار الخلود ، فأمر رسوله ﷺ أن يحكى عنه ما أمره بإبلاغه وهو : ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** ﴾ قال أكثر المفسرين : المعنى : وحدونى واعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيل : المراد بالدعاء : السؤال بجلب النفع ودفع الضر . قيل : الأول أولى ؛ لأن الدعاء فى أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة . قلت : بل الثانى أولى ؛ لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعا هو الطلب ، فإن استعمل فى غير ذلك فهو مجاز ، على أن الدعاء فى نفسه باعتبار معناه الحقيقى هو عبادة ، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح ،فالله سبحانه قد أمر عباده بدعائه ووعدهم بالإجابة ووعده الحق ، وما يبدل القول لديه ولا يخلف الميعاد .

ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقى ، وهو الطلب ، وهو من عبادته فقال : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ أى ذليلين صاغرين ، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم جليل ، حيث توعد من ترك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم وعولوا فى كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه

وأرشدكم إلى التعويل عليه وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين ، قيل : وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة ، أى أستجب لكم إن شئت كقوله سبحانه : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ [الأنعام : ٤١] الله ، قرأ الجمهور : ﴿ **سيدخلون** ﴾ بفتح الياء وضم الخاء مبنيًا للفاعل ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن وورش وأبو جعفر بضم الياء وفتح الخاء مبنيا للمفعول .

ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال : ﴿ **الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه** ﴾ من الحركات فى طلب الكسب لكونه جعله مظلما باردا تناسبه الراحة بالسكون والنوم ﴿**والنهار مبصرا**﴾ أى مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا فى طلب معايشكم ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ يتفضل عليهم بنعمة التى لا تحصى ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ النعم ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لها وكفرهم بها كما هو شأن الكفار ، أو لإغفالهم للنظر وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم ، وهم الجاهلون ﴿ **ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو** ﴾ بين فى هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده ، قرأ الجمهور : ﴿ **خالق** ﴾ بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأول عن المبتدأ ، وقرأ زيد بن على بنصبه على الاختصاص ﴿ **فأنى تؤفكون**﴾ أى فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحيده ؟ ﴿ **كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون** ﴾ أى مثل الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله المنكرون لتوحيده .

ثم ذكر لهم سبحانه نوعا آخر من نعمه التى أنعم بها عليهم مع ما فى ذلك من الدلالة على كمال قدرته وتفرد بالإلهية فقال : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء** ﴾ أى موضع قرار فيها تحيون وفيها تموتون ﴿ **والسماء بناء** ﴾ أى سقفا قائما ثابتا . ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة. قال الزجاج خلقكم أحسن الحيوان كله . قرأ الجمهور : «صوركم » بضم الصاد، وقرأ الأعمش وأبو رزين بكسرها . قال الجوهرى : والصور بكسر الصاد لغة فى الصور بضمها ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات ﴿ **ذلكم** ﴾ المنعوت بهذه النعوت الجليلة ﴿ **الله ربكم فتبارك الله رب العالمين** ﴾ أى كثرة خيره وبركته ﴿ **هو الحى لا إله إلا هو** ﴾ أى الباقى الذى لا يفنى المنفرد بالألوهية ﴿ **فادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أى الطاعة والعبادة ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ قال الفراء: هو خبر وفيه إضمار أمر ، أى احمدوه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، قال السيوطى: بسند صحيح ، عن أبى العالية قال : إن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الدجال يكون منا فى آخر الزمان ، ويكون فى أمره فعظموا أمره ، وقالوا : نصنع كذا ونصنع كذا ، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه** ﴾ قال : لا يبلغ الذى يقول ﴿**فاستعذ بالله** ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الدجال .

وأخرج ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى الآية قال : هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن فى صدورهم إلا كبر** ﴾ قال : عظمة قريش .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخارى فى الأدب المفرد، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن حبان ، والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى** ﴾ قال : عن دعائى ﴿ **سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ . قال الترمذى : حسن صحيح [(١)]. وأخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن الدعاء هو العبادة ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** ﴾ » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ قال : وحدونى أغفر لكم . وأخرج الحاكم وصححه عن جرير بن عبد اللّه فى الآية قال : اعبدونى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « الدعاء الاستغفار » . وأخرج ابن أبى شيبة والحاكم وأحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من لم يدع اللّه يغضب عليه » [(٢)] . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى والطبرانى عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال :« لا ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء » [(٣)] . وأخرج الترمذى والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الدعاء مخّ العبادة » [(٤)] . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : أفضل العبادة الدعاء ، وقرأ : ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** ﴾ الآية . وأخرج البخارى فى الأدب عن عائشة قالت : سئل النبى ﷺ أى العبادة أفضل ؟ فقال :« دعاء المرء لنفسه» . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا اللّه ، فليقل على أثرها : الحمد للّه رب العالمين . وذلك قوله : ﴿ **فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين** ﴾[(٥)] .

---

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٢١٦) وأحمد ٤/ ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ والبخارى فى الأدب المفرد (٧١٤) وأبو داود فى الدعاء (١٤٧٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٤٧) وفى الدعوات (٣٣٧٢) والنسائى فى التفسير (٤٨٤) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٢٧) وابن حبان فى الأدعية (٨٨٧) ، وصححه الحاكم ١/ ٤٩١ ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ١٢٠ والبيهقى فى الشعب (١٠٧٠) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٢١٨) والحاكم ١/ ٤٩١ وسكت عنه وكذلك الذهبى ، وأحمد ٢/ ٤٧٧ .

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٤ والطبرانى ٢٠/ ٢٠١ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٤٩ : « شهر بن حوشب لم يسمع من معاذ » .

(٤) الترمذى فى الدعوات (٣٣٧١) وقال:« هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ».

(٥) ابن جرير ٢٤ / ٥٣ وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ١٧٩ .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

أمر اللّه سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن اللّه نهاه عن عبادة غيره وأمره بالتوحيد فقال: ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله** ﴾ وهى الأصنام . ثم بين وجه النهى فقال : ﴿ **لما جاءنى البينات من ربى**﴾ وهى الأدلة العقلية والنقلية ، فإنها توجب التوحيد ﴿**وأمرت أن أسلم لرب العالمين** ﴾ أى أستسلم له بالانقياد والخضوع . ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة على التوحيد فقال : ﴿ **هو الذى خلقكم من تراب** ﴾ أى خلق أباكم الأوّل ، وهو

آدم، وخلقه من تراب يستلزم خلق ذريته منه ﴿ **ثم من نطفة ثم من علقة** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى غير موضع ﴿ **ثم يخرجكم طفلا** ﴾ أى أطفالا ، وأفرده لكونه اسم جنس ، أو على معنى يخرج كل واحد منكم طفلا ﴿ **ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾ وهى الحالة التى تجتمع فيها القوّة والعقل ، وقد سبق بيان الأشدّ مستوفى فى الأنعام ، واللام التعليلية فى : ﴿ **لتبلغوا** ﴾ معطوفة على علة أخرى ﴿ **ليخرجكم** ﴾ مناسبة لها ، والتقدير: لتكبروا شيئا فشيئا ، ثم لتبلغوا غاية الكمال ، وقوله: ﴿ **ثم لتكونوا شيوخا** ﴾ معطوف على لتبلغوا ، قرأ نافع وحفص وأبو عمرو وابن محيصن وهشام :﴿ **شيوخا** ﴾ بضم الشين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وقرئ وشيخا على الإفراد لقوله طفلا ، والشيخ من جاوز أربعين سنة ﴿ **ومنكم من يتوفى من قبل** ﴾ أى من قبل الشيخوخة ﴿ **ولتبلغوا أجلا مسمى** ﴾ أى وقت الموت أو يوم القيامة ، واللام هى لام العاقبة ﴿**ولعلكم تعقلون** ﴾ أى لكى تعقلوا توحيد ربكم وقدرته البالغة فى خلقكم على هذه الأطوار المختلفة ﴿ **هو الذى يحيى ويميت** ﴾ أى يقدر على الإحياء والإماتة ﴿ **فإذا قضى أمرا** ﴾ من الأمور التى يريدها ﴿ **فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ من غير توقف ، وهو تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وقد تقدم تحقيق معناه فى البقرة وفيما بعدها .

ثم عجب سبحانه من أحوال المجادلين فى آيات اللّه فقال : ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله** ﴾ وقد سبق بيان معنى المجادلة ﴿ **أنى يصرفون** ﴾ أى كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها فى أنفسها موجبة للتوحيد؟ قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا** ﴾ قال القرطبى : وقال أكثر المفسرين نزلت فى القدرية [١] . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت فى القدرية فلا أدرى فيمن نزلت ، ويجاب عن هذا بأن اللّه سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدّل على غير ما قالوه ، فقال : ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب** ﴾ أى بالقرآن ، وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام، والموصول إما فى محل جرّ على أنه نعت للموصول الأوّل ، أو بدل منه ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذمّ ، والمراد بالكتاب: إما القرآن، أو جنس الكتب المنزلة من عند اللّه ، وقوله : ﴿ **وبما أرسلنا به رسلنا** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **بالكتاب** ﴾ ، ويراد به : ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام فى الكتاب للجنس أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ عاقبة أمرهم ووبال كفرهم ، وفى هذا وعيد شديد ، والظرف فى قوله : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **يعلمون** ﴾ أى فسوف يعلمون وقت كون الأغلال فى أعناقهم ﴿ **والسلاسل** ﴾ معطوف على الأغلال ، والتقدير : إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة فى أعناقهم عليه ، ويجوز أن يكون خبره : ﴿ **يسحبون فى الحميم** ﴾ بحذف العائد ، أى يسحبون بها فى الحميم ، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل ، وقرأ ابن عباس وابن

---

(١) القرطبى ٨/ ٥٧٧٥.

مسعود وعكرمة وأبو الجوزاء بنصبها ، وقرؤوا : « يسحبون » بفتح الياء مبنياً للفاعل ، فتكون السلاسل مفعولا مقدمًا ، وقرأ بعضهم بجر السلاسل . قال الفراء : وهذه القراءة محمولة على المعنى، إذ المعنى : أعناقهم فى الأغلال والسلاسل . وقال الزجاج : المعنى على هذه القراءة : وفى السلاسل يسحبون ، واعترضه ابن الأنبارى بأن ذلك لا يجوز فى العربية ، ومحل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال ، وعلى تقدير كونها مبتدأ ، وخبرها فى أعناقهم النصب على الحال ، أو لا محل له ، بل هو مستأنف جواب سؤال مقدّر ، والحميم : هو المتناهى فى الحرّ ، وقيل : الصديد وقد تقدم تفسيره ﴿ **ثم فى النار يسجرون** ﴾ يقال : سجرت التنور ،أى أوقدته وسجرته ملأته بالوقود ،ومنه ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور:٦] أى المملوء ، فالمعنى : توقد بهم النار أو تملأ بهم ، قال مجاهد ومقاتل : توقد بهم النار فصاروا وقودها .

﴿ **ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون . من دون الله** ﴾ هذا توبيخ وتقريع لهم ، أى أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون اللّه ﴿ **قالوا ضلوا عنا** ﴾ أى ذهبوا وفقدناهم فلا نراهم ، ثم أضربوا عن ذلك وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم وأنه لا وجود لهم فقالوا : ﴿ **بل لم نكن ندعو من قبل شيئا** ﴾ أى لم نكن نعبد شيئا ، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة وأنهم كانوا يعبدون مالا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وليس هذا إنكارا منهم لوجود الأصنام التى كانوا يعبدونها ، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ﴿ **كذلك يضل الله الكافرين** ﴾ أى مثل ذلك الضلال يضل اللّه الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التى أوصلتهم إلى النار . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى الإضلال المدلول عليه بالفعل ، أى ذلك الإضلال بسبب ﴿ **ما كنتم تفرحون فى الأرض** ﴾ أى بما كنتم تظهرون فى الدنيا من الفرح بمعاصى اللّه والسرور بمخالفة رسله وكتبه . وقيل : المراد بالفرح هنا : بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة . وقيل : بما كنتم تفرحون به من إنكار البعث . وقيل : المراد بالفرح هنا : البطر والتكبر ، وبالمرح : الزيادة فى البطر . وقال مجاهد وغيره : تمرحون ، أى تبطرون وتأشرون . وقال الضحاك : الفرح : السرور ، والمرح : العدوان . وقال مقاتل : المرح : البطر والخيلاء ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم** ﴾ حال كونكم ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى مقدرين الخلود فيها ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ عن قبول الحق جهنم .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ بالصبر ، فقال : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق** ﴾ أى وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة ، إما فى الدنيا أو فى الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ **فإما نرنيك بعض الذى نعدهم** ﴾ من العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر ، وما فى ﴿ **فإما** ﴾ زائدة على مذهب المبرد والزجاج ، والأصل : فإن نرك ، ولحقت بالفعل نون التأكيد، وقوله : ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ معطوف على ﴿ **نرينك** ﴾ أى أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم ﴿ **فإلينا يرجعون** ﴾ يوم القيامة فنعذبهم : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك** ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوه من قومهم ﴿ **ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ خبره ولا أوصلنا إليك علم ما

كان بينه وبين قومه ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ لا من قبل نفسه ، والمراد بالآية : المعجزة الدالة على نبوّته ﴿ **فإذا جاء أمر الله** ﴾ أى جاء الوقت المعين لعذابهم فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ **قضى بالحق** ﴾ فيما بينهم فينجى اللّه بقضائه الحق عباده المحقين ﴿ **وخسر هنالك** ﴾ أى فى ذلك الوقت ﴿ **المبطلون** ﴾ الذين يتبعون الباطل ويعملون به .

ثم امتنّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التى لا تحصى فقال :﴿ **الله الذى جعل لكم الأنعام** ﴾ أى خلقها لأجلكم ، قال الزجاج : الأنعام ها هنا : الإبل . وقيل : الأزواج الثمانية ﴿ **لتركبوا منها** ﴾ من للتبعيض ، وكذلك فى قوله : ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ ويجوز أن تكون لابتداء الغاية فى الموضعين ومعناها : ابتداء الركوب وابتداء الأكل ، والأول أولى . والمعنى : لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ﴿ **ولكم فيها منافع** ﴾ أخر غير الركوب والأكل من الوبر والصوف والشعر والزبد والسمن والجبن وغير ذلك ﴿ **ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم** ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة : تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ، وقد تقدم بيان هذا مستوفى فى سورة النحل ﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ أى على الإبل فى البرّ ، وعلى السفن فى البحر . وقيل : المراد بالحمل على الأنعام هنا : حمل الولدان والنساء بالهوادج ﴿ **ويريكم آياته** ﴾ أى دلالاته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ﴿ **فأى آيات الله تنكرون** ﴾ فإنها كلها من الظهور وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر ولا يجحدها جاحد ، وفيه تقريع لهم وتوبيخ عظيم ، ونصب ﴿ **أى** ﴾ بتنكرون ، وإنما قدم على العامل فيه ؛ لأن له صدر الكلام .

ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار والتفكر فى آيات اللّه فقال : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ من الأمم التى عصت اللّه وكذبت رسلها ، فإن الآثار الموجودة فى ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة وما صاروا إليه من سوء العاقبة . ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء فى الكثرة والقوة، فقال:﴿ **كانوا أكثر منهم وأشد قوة** ﴾ أى أكثر منهم عددا وأقوى منهم أجسادا وأوسع منهم أموالا وأظهر منهم ﴿ **آثارا فى الأرض** ﴾ بالعمائر والمصانع والحرث ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ يجوز أن تكون « ما » الأولى استفهامية أى أى شىء أغنى عنهم، أو نافية ، أى لم يغن عنهم ، و« ما » الثانية يجوز أن تكون موصولة وأن تكون مصدرية .

﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بالحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات ﴿ **فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾ أى أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة والدعاوى الزائغة ، وسماه علما؛ تهكما بهم ، أو على ما يعتقدونه . وقال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث . وقيل : المراد : من علم أحوال الدنيا لا الدين كما فى قوله : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ [الروم : ٧] وقيل : الذين فرحوا بما عندهم من العلم : هم الرسل ، وذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم اللّه بأنه مهلك الكافرين ومنجى المؤمنين ففرحوا بذلك ﴿ **وحاق بهم ما كانوا يستهزئون** ﴾ أى أحاط بهم جزاء استهزائهم .

﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أى عاينوا عذابنا النازل بهم **﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾** وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها **﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾** أى عند معاينة عذابنا، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فإنما ينفع الإيمان الاختيارى لا الإيمان الاضطرارى **﴿سنة الله التى قد خلت فى عباده ﴾** أى التى قد مضت فى عباده ، والمعنى : أن الله سبحانه سن هذه السنة فى الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب وقد مضى بيان هذا فى سورة النساء وسورة التوبة . وانتصاب **﴿ سنة ﴾** على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله وما أشبهه من المصادر المؤكدة . وقيل : هو منصوب على التحذير ، أى احذروا يا أهل مكة سنة الله فى الأمم الماضية ، والأول أولى . **﴿وخسر هنالك الكافرون﴾** أى وقت رؤيتهم بأس الله ومعاينتهم لعذابه . قال الزجاج : الكافر خاسر فى كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ،والبيهقى فى البعث والنشور عن عبد الله بن عمرو قال : تلا رسول الله ﷺ : **﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم ﴾** إلى قوله : **﴿ يسحبون ﴾** فقال : « لو أن رصاصة مثل هذه ، وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها» ، أو قال :« قعرها» [(١)] . وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة النار عن ابن عباس قال : يسحبون فى الحميم فينسلخ كل شىء عليهم من جلد ولحم وعرق حتى يصير فى عقبه ، حتى إن لحمه قدر طوله ، وطوله ستون ذراعا ، ثم يكسى جلدا آخر ثم يسجر فى الحميم . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن على بن أبى طالب فى قوله : **﴿ومنهم من لم نقصص عليك ﴾** قال : بعث الله عبدا حبشيًا فهو ممن لم يقصص على محمد .

---

(١) أحمد ٢/ ١٩٧ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٨) وقال « هذا حديث صحيح » وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٩ ووافقه الذهبى .

تفسير سورة حمٓ السجدة

وتسمى سورة فصلت وهى أربع وخمسون آية . وقيل : ثلاث وخمسون . قال القرطبى : وهى مكية فى قول الجميع (١) .وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل ، وابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال : اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يردّ عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : ائت يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يا محمد ، أنت خير أم عبد اللّه ، أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول اللّه ﷺ ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، أما واللّه ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا وأن فى قريش كاهنا ، واللّه ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، يا رجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أىّ نساء قريش شئت فلنزوّجنك عشرا ، فقال رسول اللّه ﷺ : « فرغت ؟ » قال : نعم ، فقال رسول اللّه ﷺ: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . حم .تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال : « لا » فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، فقالوا : فهل أجابك ؟ قال : والذى نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال ؟ قال: لا واللّه ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة (٢) . وأخرج أبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن عمر قال: لما قرأ النبىّ ﷺ على عتبة بن ربيعة : ﴿ **حم . تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾ أتى أصحابه فقال:يا قوم، أطيعونى فى هذا اليوم واعصونى بعده ، فواللّه لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذنى قط كلاما مثله،وما دريت ما أرد عليه(٣).وفى هذا الباب روايات تدلّ على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة وتلاوته ﷺ أوّل هذه السورة عليه .

---

(١) القرطبى ٨/ ٥٧٨١ .

(٢) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٤٠٩) وأبو يعلى (١٨١٨) وصححه الحاكم ٢/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الدلائل ١٨٤ ، ١٨٥ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٢٣ : « فيه الأجلح الكندى وثقه ابن معين وغيره ، وضعفه النسائى وغيره، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) أبو نعيم فى الدلائل ١٨٧ ، ١٨٨ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا
يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً
لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ
صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا
لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) ﴾.

قوله : ﴿ **حم** ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه ومعناه فى السورة التى قبل هذه السورة فلا نعيده ، وكذلك تقدّم الكلام على معنى :﴿ **تنزيل** ﴾ وإعرابه . قال الزجاج والأخفش : ﴿**تنزيل** ﴾ مرفوع بالابتداء ، وخبره : ﴿**كتاب فصلت**﴾ وقال الفراء : يجوز أن يكون على إضمار هذا ويجوز أن يقال : كتاب بدل من قوله: ﴿ **تنزيل** ﴾ ، و﴿ **من الرحمن الرحيم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **تنزيل** ﴾ ، ومعنى ﴿ **فصلت آياته** ﴾: بينت أو جعلت أساليب مختلفة ، قال قتادة: فصلت ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته . وقال الحسن : بالوعد والوعيد . وقال سفيان : بالثواب والعقاب ولا مانع من الحمل على الكل. والجملة فى محلّ نصب صفة لكتاب . وقرئ : « فصلت » بالتخفيف ، أى فرقت بين الحق والباطل. وانتصاب ﴿ **قرآنا عربيا** ﴾ على الحال ، أى فصلت آياته حال كونه قرآنا عربيا . وقال الأخفش : نصب على المدح . وقيل : على المصدرية ، أى يقرؤه قرآنا . وقيل : مفعول ثان لفصلت . وقيل : على إضمار فعل يدل عليه فصلت، أى فصلناه قرآنا عربيا ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ أى يعلمون معانيه ويفهمونها ، وهم أهل اللسان العربى . قال الضحاك : أى يعلمون أن القرآن منزل من عند الله. وقال مجاهد : أى يعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل ، واللام متعلقة بمحذوف صفة

أخرى لقرآن ، أى كائنا لقوم أو متعلق بفصلت ، والأول أولى ، وكذلك ﴿ **بشيرا ونذيرا** ﴾ صفتان أخريان لـ ﴿ **قرآنا** ﴾ أو حالان من كتاب ، والمعنى: بشيرا لأولياء اللّه ونذيرا لأعدائه. وقرئ : « بشير ونذير » بالرفع على أنهما صفة لكتاب أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ **فأعرض أكثرهم** ﴾ المراد بالأكثر هنا : الكفار ، أى فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿ **فهم لا يسمعون** ﴾ سماعا ينتفعون به لإعراضهم عنه .

﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة** ﴾ أى فى أغطية مثل الكنانة التى فيها السهام فهى لا تفقه ما تقول ولا يصل إليها قولك ، والأكنة جمع كنان وهو الغطاء ، قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل ، وقد تقدّم بيان هذا فى البقرة ﴿ **وفى آذاننا وقر** ﴾ أى صمم وأصل الوقر: الثقل . وقرأ طلحة بن مصرف : « وقر » بكسر الواو . وقرئ بفتح الواو والقاف ، و« من» فى: ﴿ **ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ لابتداء الغاية ، والمعنى : أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها ، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق ومج أسماعهم له وامتناع المواصلة بينهم وبين رسول اللّه ﷺ ﴿ **فاعمل إننا عاملون** ﴾ أى اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا . وقال الكلبى : اعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك . وقال مقاتل : اعمل لإلهك الذى أرسلك فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها . وقيل : اعمل لآخرتك فإنا عاملون لدنيانا .

ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ أى إنما أنا كواحد منكم لولا الوحى ، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم فى أكنة مما أدعوكم إليه وفى آذانكم وقر ومن بينى وبينكم حجاب ، ولم أدعكم إلى ما يخالف العقل ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد . قرأ الجمهور: ﴿ **يوحى** ﴾ مبنيا للمفعول . وقرأ الأعمش والنخعى مبنيا للفاعل ، أى يوحى اللّه إلىّ . قيل : ومعنى الآية : إنى لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قسرا فإنى بشر مثلكم ولا امتياز لى عنكم إلا أنى أوحى إلىّ التوحيد والأمر به ، فعلىّ البلاغ وحده فإن قبلتم رشدتم، وإن أبيتم هلكتم . وقيل: المعنى : إنى لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلىّ دونكم ، فصرت بالوحى نبيا ووجب عليكم اتباعى . وقال الحسن فى معنى الآية : إن اللّه سبحانه علم رسوله ﷺ كيف يتواضع ﴿ **فاستقيموا إليه** ﴾ عدّاه بإلى لتضمنه معنى توجهوا ، والمعنى : وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة ولا تميلوا عن سبيله ﴿**واستغفروه** ﴾ لما فرط منكم من الذنوب . ثم هدّد المشركين وتوعدهم فقال :﴿ **وويل للمشركين** ﴾ .

ثم وصفهم بقوله : ﴿ **الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾ أى يمنعونها ولا يخرجونها إلى الفقراء . وقال الحسن وقتادة : لا يقرّون بوجوبها . وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة . وقيل : معنى الآية : لا يشهدون أن لا إله إلا اللّه لأنها زكاة الأنفس وتطهيرها . وقال الفراء : كان المشركون ينفقون النفقات ويسقون الحجيج ويطعمونهم فحرّموا ذلك على من

آمن بمحمد ﷺ فنزلت فيهم هذه الآية :﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ معطوف على لا يؤتون داخل معه فى حيز الصلة ، أى منكرون للآخرة جاحدون لها والمجىء بضمير الفصل لقصد الحصر ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ أى غير مقطوع عنهم ، يقال : مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الأصبغ الأودى :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ولا خيرى بممنون

وقيل : الممنون : المنقوص ، قاله قطرب ، وأنشد قول زهير :

فضل الجواد على الخيل البطاء فلا يعطى بذلك ممنونا ولا نزقا

قال الجوهرى : المنّ : القطع ، ويقال : النقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **لهم أجر غير ممنون** ﴾ وقال لبيد :

غبس كواسب لا يمنّ طعامها

وقال مجاهد : غير ممنون : غير محسوب ، وقيل : معنى الآية ، لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالتفضل ، فأما الأجر فحقّ أداؤه . وقال السدّى : نزلت فى المرضى والزمنى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه.

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يوبخهم ويقرعهم فقال : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين** ﴾ أى لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم ، وقدرته هذه القدرة الباهرة . قيل: اليومان هما : يوم الأحد ويوم الإثنين ، وقيل : المراد : مقدار يومين ؛ لأن اليوم الحقيقى إنما يتحقق بعد وجود الأرض والسماء . قرأ الجمهور: ﴿ **أئنكم** ﴾ بهمزتين الثانية بين بين ، وقرأ ابن كثير بهمزة وبعدها ياء خفيفة ﴿ **وتجعلون له أندادا** ﴾ أى أضدادا وشركاء، والجملة معطوفة على تكفرون داخلة تحت الاستفهام والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الموصول المتصف بما ذكر وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **ربّ العالمين** ﴾ ومن جملة العالمين ما تجعلونها أندادا للّه فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له فى عبادته ؟ وقوله :﴿ **وجعل فيها رواسى** ﴾ معطوف على خلق ، أى كيف تكفرون بالذى خلق الأرض وجعل فيها رواسى، أى جبالا ثوابت من فوقها ، وقيل : جملة: ﴿ **وجعل فيها رواسى** ﴾ مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالأجنبى . والأوّل أولى ؛ لأن الجملة الفاصلة هى مقررة لمضمون ما قبلها فكانت بمنزلة التأكيد، ومعنى ﴿ **من فوقها** ﴾:أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض ، وإنما خالفتها باعتبار الارتفاع ، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها ﴿ **وبارك فيها** ﴾ أى جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد . قال السدى : أنبت فيها شجرها ﴿**وقدّر فيها أقواتها** ﴾ قال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ، وقال الحسن وعكرمة والضحاك : قدّر فيها أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع ، جعل فى كلّ بلد ما لم يجعله فى الأخرى ؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد، ومعنى

﴿في أربعة أيام﴾ أى فى تتمة أربعة أيام باليومين المتقدّمين ، قاله الزجاج وغيره . قال ابن الأنبارى : ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ، أى فى تتمة خمسة عشر يوما، فيكون المعنى : أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض وما بعدها فى أربعة أيام . وانتصاب **﴿ سواء ﴾** على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام ، أى استوت سواء بمعنى : استواء ، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال من الأرض أو من الضمائر الراجعة إليها . قرأ الجمهور بنصب **﴿سواء ﴾** . وقرأ زيد بن على والحسن وابن أبى إسحاق وعيسى ويعقوب وعمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة لأيام . وقرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة ، وقوله : **﴿للسائلين﴾** متعلق بسواء ، أى مستويات للسائلين ، أو بمحذوف كأنه قيل : هذا الحصر للسائلين فى كم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو متعلق بقدّر ، أى قدّر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها . قال الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى: وقدّر فيها أقواتها سواء للمحتاجين فى أربعة أيام واختار هذا ابن جرير .

ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض وما فيها ذكر كيفية خلقه للسموات فقال : **﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾** أى عمد وقصد نحوها قصدا سويا . قال الرازى : هو من قولهم : استوى إلى مكان كذا : إذا توجه إليه توجها لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذى هو ضدّ الاعوجاج ، ونظيره قولهم : استقام إليه ، ومنه قوله تعالى : **﴿ فاستقيموا إليه ﴾** والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض وما فيها . قال الحسن : معنى الآية : صعد أمره إلى السماء **﴿ وهى دخان ﴾** : الدخان ما ارتفع من لهب النار ، ويستعار لما يرى من بخار الأرض . قال المفسرون: هذا الدخان هو بخار الماء، وخص سبحانه الاستواء إلى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجها إليها وإلى الأرض كما يفيده قوله : **﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ﴾** استغناء بما تقدّم من ذكر تقديرها وتقدير ما فيها ، ومعنى ائتيا : افعلا ما آمركما به وجيئا به ، كما يقال: ائت ما هو الأحسن ، أى افعله . قال الواحدى : قال المفسرون : إن اللّه سبحانه قال : أما أنت يا سماء فأطلعى شمسك وقمرك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فشققى أنهارك وأخرجى ثمارك ونباتك. قرأ الجمهور :**﴿ ائتيا ﴾** أمرا من الإتيان. وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد : « آتيا » ،« قالتا آتينا » بالمدّ فيهما ، وهو إما من المؤاتاة ، وهى الموافقة ، أى لتوافق كلّ منكما الأخرى أو من الإيتاء وهو الإعطاء فوزنه على الأوّل فاعلا كقاتلا، وعلى الثانى افعلا كأكرما **﴿ طوعا أو كرها ﴾** مصدران فى موضع الحال ، أى طائعتين أو مكرهتين ، وقرأ الأعمش: «كرها » بالضمّ . قال الزجاج : أطيعا طاعة أو تكرهان كرها . قيل : ومعنى هذا الأمر لهما التسخير ، أى كونا فكانتا ، كما قال تعالى : ﴿إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : ٤٠] فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته واستحالة امتناعها **﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾** أى أتينا أمرك منقادين ، وجمعهما جمع

من يعقل ؛ لخطابهما بما يخاطب به العقلاء . قال القرطبى : قال أكثر أهل العلم : إن اللّه سبحانه خلق فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد سبحانه . وقيل : هو تمثيل لظهور الطاعة منهما وتأثير القدرة الربانية فيهما ﴿ **فقضاهنّ سبع سموات** ﴾ أى خلقهنّ وأحكمهنّ وفرغ منهنّ ، كما فى قول الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما   داود أو صنع السوابغ تبع

والضمير فى :« قضاهن » إما راجع إلى السماء على المعنى ؛ لأنها سبع سموات ، أو مبهم مفسر بسبع سموات، وانتصاب ﴿ **سبع سموات** ﴾ على التفسير أو على البدل من الضمير. وقيل : إن انتصابه على أنه المفعول الثانى لقضاهنّ ؛ لأنه مضمن معنى صيرهنّ ، وقيل : على الحال ، أى قضاهنّ حال كونهنّ معدودات بسبع ويكون قضى بمعنى صنع ، وقيل: على التمييز ، ومعنى ﴿ **فى يومين** ﴾ كما سبق فى قوله : ﴿ **خلق الأرض فى يومين** ﴾ فالجملة ستة أيام ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ [هود : ٧] وقد تقدّم بيانه فى سورة الأعراف . قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدّون . قال عبد اللّه بن سلام: خلق الأرض فى يوم الأحد ويوم الإثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وقوله : ﴿ **وأوحى فى كل سماء أمرها** ﴾ عطف على قضاهنّ . قال قتادة والسدّى : أى خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلوج . وقيل : المعنى : أوحى فيها ما أراده وما أمر به، والإيحاء قد يكون بمعنى الأمر، كما فى قوله: ﴿ بأن ربك أوحى ﴾ [الزلزلة:٥]، وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ [المائدة : ١١١] أى أمرتهم .

وقد استشكل الجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات: ٣٠] فإن ما فى هذه الآية من قوله : ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ مشعر بأن خلقها متأخرعن خلق الأرض ، وظاهره يخالف قوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ فقيل : إن «ثم» فى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ ليست للتراخى الزمانى بل للتراخى الرتبى ، فيندفع الإشكال من أصله ، وعلى تقدير أنها للتراخى الزمانى فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدّم على خلق السماء ، ودحوها بمعنى بسطها ، وهو أمر زائد على مجرّد خلقها فهى متقدّمة خلقا متأخرة دحوا وهذا ظاهر، ولعله يأتى عند تفسيرنا لقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ زيادة إيضاح للمقام إن شاء اللّه ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ أى بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح، وانتصاب ﴿ **حفظا** ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أى وحفظناها حفظا أو على أنه مفعول لأجله على تقدير : وخلقنا المصابيح زينة وحفظا ، والأوّل أولى . قال أبو حيان فى الوجه الثانى : هو تكلف وعدول عن السهل البين ، والمراد بالحفظ : حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره ﴿ **تقدير العزيز العليم** ﴾ أى البليغ القدرة الكثير العلم.

﴿ **فإن أعرضوا** ﴾ عن التدبر والتفكر فى هذه المخلوقات ﴿ **فقل أنذرتكم** ﴾ أى فقل لهم يامحمد : أنذرتكم : خوّفتكم ﴿ **صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ أى عـذابا مثل عذابهم . والمـراد بالصاعقة : العذاب المهلك من كلّ شىء . قال المبرد : الصاعقة : المرّة المهلكة لأىّ شىء كان . قرأ الجمهور : ﴿ **صاعقة** ﴾ فى الموضعين بالألف ، وقرأ ابن الزبير والنخعى والسلمى وابن محيصن : « صعقة » فى الموضعين ، وقد تقدّم بيان معنى الصاعقة والصعقة فى البقرة. وقوله : ﴿ **إذ جاءتهم الرسل** ﴾ ظرف لأنذرتكم ، أو لصاعقة ؛ لأنها بمعنى العذاب ، أى أنذرتكم العذاب الواقع وقت مجىء الرسل ، أو حال من صاعقة عاد ، وهذا أولى من الوجهين الأولين ؛ لأن الإنذار لم يقع وقت مجىء الرسل فلا يصحّ أن يكون ظرفا له ، وكذلك الصاعقة لا يصحّ أن يكون الوقت ظرفا لها ، وقوله : ﴿ **من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ متعلق بجاءتهم ، أى جاءتهم من جميع جوانبهم ،وقيل : المعنى : جاءتهم الرسل المتقدّمون والمتأخرون ، على تنزيل مجىء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم ، فكأن الرسل قد جاؤوهم وخاطبوهم بقولهم : ﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ أى بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية ، ويجوز أن تكون التفسيرية أو المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف . ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل فقال : ﴿ **قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة** ﴾ أى لأرسلهم إلينا ولم يرسل إلينا بشرا من جنسنا ، ثم صرّحوا بالكفر ولم يتلعثموا ، فقالوا:﴿ **فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ أى كافرون بما تزعمونه من أن اللّه أرسلكم إلينا ؛ لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته دوننا ؟ وقد تقدّم دفع هذه الشبهة الداحضة التى جاؤوا بها فى غير موضع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾ قال : لا يشهدون أن لا إله إلا اللّه ، وفى قوله : ﴿ **لهم أجر غير ممنون** ﴾ قال : غير منقوص . وأخرج ابن جرير ، والنحاس فى ناسخه ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه ؛ أن اليهود أتت النبىّ ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض فقال : « خلق اللّه الأرض فى يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال وما فيهنّ من منافع يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر والحجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة أيام ، فقال تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين .وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾ وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أوّل ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات ، وفى الثانية : ألقى فيها من كل شىء مما ينتفع به ، وفى الثالثة :خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها فى آخر ساعة » ، قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد؟ قال : « ثم استوى على العرش» ، قالوا : قد أصبت لو أتممت ، قالوا: ثم استراح ،فغضب النبىّ ﷺ غضبا شديدا ، فنزل : ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب. فاصبر على ما

يقولون﴾ [١] [ق : ٣٨ ، ٣٩]. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وقدّر فيها أقواتها**﴾ قال : شقّ الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل فى هذه ما ليس فى هذه وفى هذه ما ليس فى هذه . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : إن اللّه تعالى خلق يوما فسماه الأحد ، ثم خلق ثانيا فسماه الإثنين ، ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعا فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامسا فسماه الخميس وذكر نحو ما تقدّم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن اللّه فرغ من خلقه فى ستة أيام » وذكر نحو ما تقدّم . وأخرج ابن جرير عن أبى بكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها** ﴾ قال: قال للسماء: أخرجى شمسك وقمرك ونجومك ، وللأرض : شققى أنهارك وأخرجى ثمارك ﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ائتيا** ﴾ قال : أعطيا ، وفى قوله: ﴿ **قالتا أتينا** ﴾ قال : أعطينا.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾.

لما ذكر سبحانه عادا وثمود إجمالا ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلا ، فقال: ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى تكبروا عن الإيمان باللّه وتصديق رسله

(١) ابن جرير ٢٤/ ٦١ وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٣ وقال الذهبى : « فيه أبو سعيد البقال ، قال ابن معين : لا يكتب حديثه » والبيهقى فى الأسماء والصفات بمعناه ٢/ ١١٨، ١١٩ وقال ابن كثير ٦/ ١٦٥ : « هذا الحديث فيه غرابة » .

واستعلوا على من فى الأرض بغير الحق ، أو بغير استحقاق ذلك الذى وقع منهم من التكبر والتجبر . ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار فقال : ﴿**وقالوا من أشد منا قوة**﴾ وكانوا ذوى أجسام طوال وقوّة شديدة ، فاغترّوا بأجسامهم حين تهدّدهم هود بالعذاب، ومرادهم بهذا القول : أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب ، فردّ اللّه عليهم بقوله : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾ والاستفهام للاستنكار عليهم وللتوبيخ لهم ، أى أو لم يعلموا بأن اللّه أشد منهم قدرة ، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله :كن فيكون ﴿ **وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أى بمعجزات الرسل التى خصهم اللّه بها وجعلها دليلا على نبوّتهم ، أو بآياتنا التى أنزلناها على رسلنا ، أو بآياتنا التكوينية التى نصبناها لهم وجعلناها حجة عليهم ، أو بجميع ذلك . ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه ، فقال : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا** ﴾ الصرصر : الريح الشديدة الصوت من الصرّة ، وهى الصيحة . قال أبو عبيدة : معنى صرصر : شديدة عاصفة. وقال الفراء : هى الباردة تحرق كما تحرق النار . وقال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة : هى الباردة ، وأنشد قطرب قول الحطيئة :

المطعمون إذا هبت بصرصرة ... والحاملون إذا استودوا عن الناس

أى إذا سئلوا الدية . وقال مجاهد : هى الشديدة السموم ، والأولى تفسيرها بالبرد؛ لأن الصرّ فى كلام العرب : البرد ، ومنه قول الشاعر :

لهـا عـذر كقـرون النســا ... ء ركبـن فى يـوم ريـح وصـرّ

قال ابن السكيت : صرصر : يجوز أن يكون من الصرّ وهو البرد ، ويجوز أن يكون من صرصر الباب ومن الصرة وهى الصيحة ، ومنه:﴿ فأقبلت امرأته فى صرة ﴾ [الذاريات:٢٩]. ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم فقال : ﴿ **فى أيام نحسات** ﴾ أى مشؤومات ذوات نحوس . قال مجاهد وقتادة : كنّ آخر شوّال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما . وقيل : نحسات : باردات . وقيل : متتابعات . وقيل : شداد. وقيل: ذوات غبار . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « نحسات » بإسكان الحاء على أنه جمع نحس . وقرأ الباقون بكسرها ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله : ﴿ فى يوم نحس مستمر ﴾ [القمر : ١٤] . واختار أبو عبيدة القراءة الثانية. ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا** ﴾ أى لكى نذيقهم ، والخزى : هو الذل والهوان بسبب ذلك الاستكبار ﴿**ولعذاب الآخرة أخزى**﴾ أى أشدّ إهانة وذلا ، ووصف العذاب بذلك ، وهو فى الحقيقة وصف للمعذبين ؛ لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزى ﴿ **وهم لا ينصرون** ﴾ أى لا يمنعون من العذاب النازل بهم ولا يدفعه عنهم دافع .

ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم** ﴾ أى بينا لهم سبيل النجاة

ودللناهم على طريق الحقّ بإرسال الرسل إليهم ، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات اللّه ، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن باللّه ويصدّق رسله . قال الفراء : معنى الآية : دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل . قرأ الجمهور : ﴿ **وأما ثمود** ﴾ بالرفع ومنع الصرف . وقرأ الأعمش وابن وثاب بالرفع والصرف . وقرأ ابن عباس وابن أبى إسحاق وعاصم فى رواية بالنصب والصرف . وقرأ الحسن وابن هرمز وعاصم فى رواية بالنصب والمنع ، فأما الرفع فعلى الابتداء والجملة بعده الخبر ، وأما النصب فعلى الاشتغال ، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحى ، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة ﴿ **فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ أى اختاروا الكفر على الإيمان، وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان . وقال السدّى: اختاروا المعصية على الطاعة ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون** ﴾ قد تقدّم أن الصاعقة : اسم للشىء المهلك لأىّ شىء كان ، والهون : الهوان والإهانة ، فكأنه قال : أصابهم مهلك العذاب ذى الهوان أو الإهانة ، ويقال : عذاب هون ، أى مهين ،كقوله: ﴿ ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾ [سبأ: ١٤]. والباء فى :﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ للسببية ، أى بسبب الذى كانوا يكسبونه ، أو بسبب كسبهم ﴿ **ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ وهم صالح ومن معه من المؤمنين فإن اللّه نجاهم من ذلك العذاب . ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به فى الدنيا ذكر ما عاقبهم به فى الآخرة فقال :﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار** ﴾ وفى وصفهم بكونهم أعداء اللّه مبالغة فى ذمهم ، والعامل فى الظرف محذوف دلّ عليه ما بعده تقديره : يساق الناس يوم يحشر، أو باذكر أى اذكر يوم يحشرهم .قرأ الجمهور :﴿ **يحشر** ﴾ بتحتية مضمومة ورفع أعداء على النيابة . وقرأ نافع : « نحشر » بالنون ونصب أعداء . ومعنى حشرهم إلى النار: سوقهم إليها أو إلى موقف الحساب؛ لأنه يتبين عنده فريق الجنة وفريق النار ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ أى يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا ، كذا قال قتادة والسدّى وغيرهما ، وقد سبق تحقيق معناه فى سورة النمل مستوفى .

﴿ **حتى إذا ما جاؤوها** ﴾ أى جاؤوا النار التى حشروا إليها أو موقف الحساب ، و« ما » مزيدة للتوكيد ﴿ **شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** ﴾ فى الدنيا من المعاصى . قال مقاتل : تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم بالشرك ، والمراد بالجلود : هى جلودهم المعروفة فى قول أكثر المفسرين . وقال السدّى وعبيد اللّه بن أبى جعفر والفراء : أراد بالجلود : الفروج ، والأوّل أولى ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا** ﴾ وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما ذكره الرازى أن الحواس الخمس : وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وآلة المس هى الجلد ، فاللّه سبحانه ذكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس ، وهى السمع والبصر واللمس ، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم، فالذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه ؛ لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسة لجرم المشموم، فكانا

داخلين فى جنس اللمس، وإذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال ؛ لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس ، فكان تأتى المعصية من جهتها أكثر ، وأما على قول من فسر الجلود بالفروج فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر ؛ لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحا وأجلب للخزى والعقوبة ، وقد قدّمنا وجه إفراد السمع وجمع الأبصار ﴿ **قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء** ﴾ أى أنطق كلّ شىء مما ينطق من مخلوقاته فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح . وقيل : المعنى: ما نطقنا باختيارنا ، بل أنطقنا الله ، والأوّل أولى ﴿ **وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** ﴾ قيل : هذا من تمام كلام الجلود . وقيل: مستأنف من كلام الله ، والمعنى : أن من قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم إليه .

﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ هذا تقريع لهم وتوبيخ من جهة الله سبحانه ، أو من كلام الجلود ، أى ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة حذرا من شهادة الجوارح عليكم ، ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفى من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا : ترك المعصية . وقيل: معنى الاستتار: الاتقاء ، أى ما كنتم تتقون فى الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم فى الآخرة فتتركوا المعاصى خوفا من هذه الشهادة ، و« أن » فى قوله :﴿ **أن تشهد** ﴾ فى محل نصب على العلة ، أى لأجل أن تشهد ، أو مخافة أن تشهد . وقيل: منصوبة بنزع الخافض ، وهو الباء ، أو عن ، أو من . وقيل : إن الاستتار مضمن معنى الظنّ ، أى وما كنتم تظنون أن تشهد، وهو بعيد ﴿ **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون** ﴾ من المعاصى فاجترأتم على فعلها . قيل: كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما فى أنفسنا ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسرّ . قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى : العلم . وقيل : أريد بالظنّ معنى مجازى يعمّ معناه الحقيقى وما هو فوقه من العلم ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما ذكر من ظنهم ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **ظنكم الذى ظننتم بربكم**﴾ وقوله : ﴿ **أرداكم** ﴾ خبر آخر للمبتدأ . وقيل : إن أرداكم فى محل نصب على الحال المقدّرة . وقيل : إن ظنكم بدل من ذلكم ، والذى ظننتم خبره ، وأرداكم خبر آخر أو حال . وقيل : إن ظنكم خبر أوّل ، والموصول وصلته خبر ثان ، وأرداكم خبر ثالث ، والمعنى : أن ظنكم بأن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون أهلككم وطرحكم فى النار ﴿ **فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ أى الكاملين فى الخسران .

ثم أخبر عن حالهم فقال : ﴿ **فإن يصبروا فالنار مثوى لهم** ﴾ أى فإن يصبروا على النار فالنار مثواهم ، أى محل استقرارهم وإقامتهم لا خروج لهم منها . وقيل : المعنى :فإن يصبروا فى الدنيا على أعمال أهل النار ، فالنار مثوى لهم ﴿ **وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾ يقال : أعتبنى فلان ، أى أرضانى بعد إسخاطه إياى ، واستعتبته : طلبت منه أن يرضى ، والمعنى :أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما يحبون لم يرجع لأنهم لا يستحقون ذلك .قال

الخليل: تقول: استعتبته فأعتبنى ، أى استرضيته فأرضانى ، ومعنى الآية : إن يطلبوا الرضى لم يقع الرضى عنهم ، بل لابدّ لهم من النار. قرأ الجمهور : ﴿ **يستعتبوا** ﴾ بفتح التحتية وكسر التاء الفوقية الثانية مبنيا للفاعل . وقرؤوا :﴿ **من المعتبين** ﴾ بفتح الفوقية اسم مفعول . وقرأ الحسن وعبيد بن عمير وأبو العالية : « يستعتبوا » مبنيا للمفعول «فما هم من المعتبين » اسم فاعل ، أى إنهم إن أقالهم اللّه وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته. كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام: ٢٨] .

وقد أخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : يحبس أوّلهم على آخرهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : يدفعون . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت مستترا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر : قرشى وثقفيان ، أو ثقفىّ وقرشيان ، كثير لحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم : أترون أن اللّه يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخران : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخران : إن سمع منه شيئا سمعه كله ، قال : فذكرت ذلك للنبىّ ﷺ فأنزل اللّه: ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **من الخاسرين** ﴾ (١) . وأخرج عبد الرزاق وأحمد والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول اللّه ﷺ : «تحشرون هاهنا ، وأومأ بيده إلى الشام ، مشاة وركبانا وعلى وجوهكم ، وتعرضون على اللّه وعلى أفواهكم الفدام ، وأوّل ما يعرب عن أحدكم فخذه وكتفه » وتلا رسول اللّه ﷺ :﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم**﴾ (٢) . وأخرج أحمد وأبو داود الطيالسى وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم باللّه ، فقال اللّه : ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين**﴾»(٣) .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

(١) البخارى فى التفسير (٤٨١٦) ومسلم فى المنافقين (٢٧٧٥/ ٥) والنسائى فى التفسير (٤٨٨) .
(٢) أحمد ٥/ ٥ والنسائى فى التفسير (٤٨٩) والحاكم ٢/ ٤٤٠ وقال الذهبى : « أبو قزعة سويد بن حجير ثقة » .
(٣) أحمد ٣/ ٣٣٠ وأبو داود الطيالسى (١٧٧٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٧/ ٨٣) وأبو داود فى الجنائز (٣١١٣) وابن ماجة فى الزهد (٤١٦٧) وابن حبان (٦٣٧) .

بآياتنا يجحدون ﴿٢٨﴾ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴿٢٩﴾ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴿٣٠﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿٣١﴾ نزلا من غفور رحيم ﴿٣٢﴾ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴿٣٣﴾ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴿٣٤﴾ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴿٣٥﴾ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء** ﴾ أى هيأنا قرناء من الشياطين . وقال الزجاج : سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم . وقيل: سلطنا عليهم قرناء . وقيل : قدّرنا ، والمعانى متقاربة ، وأصل التقييض : التيسير والتهيئة ، والقرناء جمع قرين ، وهم الشياطين ، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم . وقيل : إن اللّه قيض لهم قرناء فى النار ، والأولى أن ذلك فى الدنيا لقوله : ﴿ **فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ فإن المعنى : زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها وحملوهم على الوقوع فى معاصى اللّه بانهماكهم فيها ، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة فقالوا : لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار . وقال الزجاج : ما بين أيديهم ما عملوه ، وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه . وروى عن الزجاج أيضا أنه قال : ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، وما خلفهم من أمر الدنيا ﴿ **وحقّ عليهم القول** ﴾ أى وجب وثبت عليهم العذاب،وهو قوله سبحانه:﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥] و ﴿ **فى أمم** ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم ، والمعنى : كائنين فى جملة أمم ، وقيل : « فى » بمعنى : مع ، أى مع أمم من الأمم الكافرة التى ﴿ **قد خلت** ﴾ ومضت ﴿ **من قبلهم من الجنّ والإنس** ﴾ على الكفر ، وجملة : ﴿ **إنهم كانوا خاسرين**﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب .

﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : لا تسمعوه ولا تنصتوا له . وقيل : معنى ﴿ **لا تسمعوا** ﴾ : لا تطيعوا . يقال : سمعت لك ، أى أطعتك ﴿**والغوا فيه** ﴾ أى عارضوه باللغو والباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له . وقال مجاهد : الغوا فيه بالمكاء والتصدية والتصفيق والتخليط فى الكلام حتى يصير لغوا. وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول . وقال أبو العالية : قعوا فيه وعيبوه . قرأ الجمهور : ﴿ **والغوا** ﴾ بفتح الغين ، من لغا : إذا تكلم باللغو ، وهو ما لا فائدة فيه ، أو من

لَغَى بالفتح يَلْغَى بالفتح أيضا كما حكاه الأخفش ، وقرأ عيسى بن عمر والجحدرى وابن أبى إسحاق وأبو حيوة وبكر بن حبيب السهمى وقتادة والسماك والزعفرانى بضم الغين . وقد تقدّم الكلام في اللغو فى سورة البقرة ﴿ **لعلكم تغلبون** ﴾ أى لكى تغلبوهم فيسكتوا . ثم توعدهم سبحانه على ذلك فقال : ﴿ **فلنذيقنّ الذين كفروا عذابا شديدا** ﴾ وهذا وعيد لجميع الكفار ، ويدخل فيهم الذين السياق معهم دخولا أوّليا ﴿ **ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون** ﴾ أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا . قال مقاتل: وهو الشرك . وقيل : المعنى : أنه يجازيهم بمساوئ أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام وإكرام الضيف ؛ لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ، وهو مبتدأ وخبره جزاء أعداء الله ، أو خبر مبتدأ محذوف، أى الأمر ذلك ، وجملة : ﴿**جزاء أعداء الله النار**﴾ مبينة للجملة التى قبلها،والأول أولى وتكون النار عطف بيان للجزاء ، أو بدلا منه ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ والخبر : ﴿ **لهم فيها دار الخلد** ﴾ وعلى الثلاثة الوجوه الأولى تكون جملة : ﴿ **لهم فيها دار الخلد** ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، ومعنى دار الخلد : دار الإقامة المستمرة التى لا انقطاع لها ﴿ **جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أى يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله . قال مقاتل : يعنى القرآن ، يجحدون أنه من عند الله ، وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحود ؛ لكونه سببا له ، إقامة للسبب مقام المسبب .

﴿ **وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس** ﴾ قالوا هذا وهم فى النار ، وذكره بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، والمراد : أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن والإنس من الشياطين الذين كانوا يسوّلون لهم ويحملونهم على المعاصى ، ومن الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر . وقيل: المراد : إبليس وقابيل ؛ لأنهما سنا المعصية لبنى آدم . قرأ الجمهور : ﴿ **أرنا** ﴾ بكسر الراء . وقرأ ابن محيصن والسوسى عن أبى عمرو وابن عامر بسكون الراء ، وبها قرأ أبو بكر والمفضل وهما لغتان بمعنى واحد . وقال الخليل : إذا قلت : أرنى ثوبك بالكسر فمعناه : بصرنيه ، وبالسكون : أعطينيه ﴿ **نجعلهما تحت أقدامنا** ﴾ أى ندسهما بأقدامنا لنشتفى منهم . وقيل : نجعلهم أسفل منا فى النار ﴿ **ليكونا من الأسفلين** ﴾ فيها مكانا ، أو ليكونا من الأذلين المهانين . وقيل : ليكونوا أشد عذابا منا .

ثم لما ذكر عقاب الكافرين وما أعدّه لهم ذكر حال المؤمنين وما أنعم عليهم به فقال : ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله** ﴾ أى وحده لا شريك له ﴿ **ثم استقاموا** ﴾ على التوحيد ولم يلتفتوا إلى إله غير الله . قال جماعة من الصحابة والتابعين : معنى الاستقامة : إخلاص العمل لله . وقال قتادة وابن زيد : ثم استقاموا على طاعة الله . وقال الحسن : استقاموا على أمر الله ، فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته . وقال مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا . وقال الثورى : عملوا على وفاق ما قالوا . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل بن عياض : زهدوا فى الفانية ورغبوا فى الباقية ﴿ **تتنزل عليهم الملائكة** ﴾ من عند

اللّه سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع أو دفع ضرر أو رفع حزن . قال ابن زيد ومجاهد : تتنزل عليهم عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال وكيع: البشرى فى ثلاثة مواطن : عند الموت، وفى القبر، وعند البعث **﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾** أن هى المخففة أو المفسرة أو الناصبة ، و« لا » على الوجهين الأوّلين ناهية ، وعلى الثالث نافية ، والمعنى : لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال . قال مجاهد : لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم ، فإن اللّه خليفتكم عليهم . وقال عطاء : لا تخافوا ردّ ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم . والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين ، وعدم تقييد نفى الخوف والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق فى الجميع **﴿وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾** بها فى الدنيا فإنكم واصلون إليها مستقرّون بها خالدون فى نعيمها.

ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله ، فقال : **﴿ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾** أى نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم فى أمور الدنيا وأمور الآخرة ، ومن كان اللّه وليه فاز بكلّ مطلب ونجا من كلّ مخافة . وقيل : إن هذا من قول الملائكة . قال مجاهد : يقولون لهم : نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة . وقال السدّى : نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا وأولياؤكم فى الآخرة . وقيل : إنهم يشفعون لهم فى الآخرة ويتلقونهم بالكرامة **﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ﴾** من صنوف اللذات وأنواع النعم **﴿ ولكم فيها ما تدّعون ﴾** أى ما تتمنون ، افتعال من الدعاء بمعنى الطلب ، وقد تقدّم بيان معنى هذا فى قوله : ﴿ ولهم ما يدّعون ﴾ [يس : ٥٧] مستوفى ، والفرق بين الجملتين : أن الأولى : باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية : باعتبار ما يطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أو لا . وقال الرازى : الأقرب عندى أن قوله : **﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ﴾** إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله: ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ الآية [يونس : ١٠] ، وانتصاب **﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾** على الحال من الموصول ، أو من عائده ، أو من فاعل تدّعون ، أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أى أنزلناه نزلا، والنزل : ما يعدّه لهم حال نزولهم من الرزق والضيافة ، وقد تقدم تحقيقه فى سورة آل عمران .

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ﴾ أى إلى توحيد اللّه وطاعته . قال الحسن : هو المؤمن أجاب اللّه دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب اللّه فيه من طاعته **﴿ وعمل صالحا ﴾** فى إجابته **﴿ وقال إننى من المسلمين ﴾** لربى . وقال ابن سيرين والسدّى وابن زيد : هو رسول اللّه ﷺ ، وروى هذا أيضا عن الحسن. وقال عكرمة وقيس بن حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذنين. ويجاب عن هذا : بأن الآية مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة . والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ويدخل فيها من كان سببا لنزولها دخولا أوليا ، فكل من جمع بين دعاء

العباد إلى ما شرعه اللّه وعمل عملا صالحا ، وهو تأدية ما فرضه اللّه عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين دينا لا من غيرهم فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته ولا أكثر ثوابا من عمله .

ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال ومساوئها فقال : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة** ﴾ أى لا تستوى الحسنة التى يرضى اللّه بها ويثيب عليها ، ولا السيئة التى يكرهها اللّه ويعاقب عليها ، ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات ، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصى ، فإن اللفظ أوسع من ذلك. وقيل: الحسنة: التوحيد ، والسيئة : الشرك . وقيل : الحسنة : المداراة ، والسيئة : الغلظة . وقيل : الحسنة : العفو ، والسيئة: الانتصار . وقيل : الحسنة: العلم ، والسيئة : الفحش . قال الفراء: « لا » فى قوله :﴿ **ولا السيئة** ﴾ زائدة ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾ أى ادفع السيئة إذا جاءتك من المسىء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ، والاحتمال للمكروهات . وقال مجاهد وعطاء : بالتى هى أحسن: يعنى بالسلام إذا لقى من يعاديه ، وقيل: بالمصافحة عند التلاقى ﴿ **فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم**﴾ هذه هى الفائدة الحاصلة من الدفع بالتى هى أحسن ، والمعنى : أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدوّ كالصديق ، والبعيد عنك كالقريب منك. وقال مقاتل: نزلت فى أبى سفيان ابن حرب كان معاديا للنبىّ ﷺ فصار له وليا بالمصاهرة التى وقعت بينه وبينه ، ثم أسلم فصار وليا فى الإسلام حميما بالصهارة ،وقيل غير ذلك، والأولى حمل الآية على العموم .

﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا** ﴾ قال الزجاج : ما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة ، وهى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ واحتمال المكروه ﴿**وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ فى الثواب والخير . وقال قتادة : الحظ العظيم: الجنة ، أى ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة ، وقيل: الضمير فى يلقاها عائد إلى الجنة. وقيل: راجع إلى كلمة التوحيد. قرأ الجمهور: ﴿**يلقاها** ﴾ من التلقية. وقرأ طلحة بن مصرف وابن كثير فى رواية عنه: « يلاقاها » من الملاقاة. ثم أمره سبحانه بالاستعاذة من الشيطان فقال:﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله** ﴾ النزغ شبيه النخس شبه به الوسوسة ؛ لأنها تبعث على الشر، والمعنى : وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه اللّه لك ، أو عن الدفع بالتى هى أحسن فاستعذ باللّه من شرّه ، وجعل النزغ نازغا على المجاز العقلى كقولهم: جدّ جدّه ،وجملة:﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى السميع لكلّ ما يسمع ، والعليم بكلّ ما يعلم ، ومن كان كذلك فهو يعيذ من استعاذ به .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان رسول اللّه ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحبّ أن يسمع القرآن ، فأنزل اللّه : ﴿**ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ [الإسراء : ١١٠]. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن

منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب أنه سئل عن قوله : ﴿ **ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس** ﴾ قال: هو ابن آدم الذى قتل أخاه وإبليس .

وأخرج الترمذى والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه عن أنس قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ قال : « قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها » (١) . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور ومسدد وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق سعيد بن عمران عن أبى بكر الصديق فى قوله : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ قال : الاستقامة : ألا يشركوا بالله شيئا . وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبى بكر الصديق أنه قال : ما تقولون فى هاتين الآيتين : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ و﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : ٨٢] قالوا : الذين قالوا ربنا الله ثم عملوا بها واستقاموا على أمره فلم يذنبوا ، و ﴿ لم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ : لم يذنبوا ، قال : لقد حملتموهما على أمر شديد ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ يقول: بشرك ، و﴿**الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . وأخرج ابن مردويه عن بعض الصحابة : ثم استقاموا على فرائض الله . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **ثم استقاموا** ﴾ قال : على شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور، وأحمد فى الزهد ،وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ قال : استقاموا بطاعة الله ولم يروغوا روغان الثعلب . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى ، والبخارى فى تاريخه ، ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان عن سفيان الثقفى ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » ، قلت :فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه . قال الترمذى : حسن صحيح (٢).

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عائشة فى قوله : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله** ﴾ قالت: المؤذن ﴿ **وعمل صالحا** ﴾ قالت:ركعتان فيما بين الأذان والإقامة . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وابن المنذر وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا فى المؤذنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والبيهقى فى

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب » و النسائى فى التفسير (٤٩٠) وأبو يعلى (٣٤٩٥) وإسناده ضعيف لضعف سهيل بن أبى حزم القطعى ، وابن جرير ٧٣/٣٤ وابن عدى ٣/ ٤٥٠ .

(٢) أحمد ٤١٣/٣ والدارمى فى الرقائق ٢٩٨/٢ والبخارى فى التاريخ ٢٨٩/٥ ومسلم فى الإيمان (٦٢/٣٨) والترمذى فى الزهد (٢٤١٠) والنسائى فى التفسير (٥٠٩) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٢) وابن حبان (٩٣٨) .

سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن﴾ قال : أمر المسلمين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوّهم ﴿ كأنه ولىّ حميم ﴾ . وأخرج ابن مردويه عنه: ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ قال : القه بالسلام فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم . وأخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ قال : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سليمان بن صرد قال : استبّ رجلان عند النبى ﷺ فاشتدّ غضب أحدهما، فقال النبىّ ﷺ :« إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب:أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل : أمجنون ترانى ؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم [(١)] ﴾ [(٢)] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾.

شرع سبحانه فى بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته وقوّة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ . ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس والقمر ، وأمرهم بأن يسجدوا لله ـ عزّ وجلّ ـ فقال : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ لأنهما مخلوقان من مخلوقاته ، فلا يصح أن يكونا شريكين له فى

(١) فى المطبوعة : ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ والصحيح ما أثبتناه .

(٢) البخارى فى الأدب (٦٠٤٨) ومسلم فى البر والصلة (٢٦١٠/ ١٠٩ ، ١١٠) والترمذى فى الدعوات (٢٤٥٢) .

ربوبيته ﴿ **واسجدوا لله الذى خلقهن** ﴾ أى خلق هذه الأربعة المذكورة ؛ لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث ، أو الآيات ، أو الشمس والقمر؛ لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة ﴿ **إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ قيل : كان ناس يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما : السجود للّه فنهوا عن ذلك ، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهى عنه . وقيل : وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة، وهذه الآية من آيات السجود بلا خلاف ،وإنما اختلفوا فى موضع السجدة ، فقيل: موضعه عند قوله : ﴿ **إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ لأنه متصل بالأمر ، وقيل : عند قوله : ﴿ **وهم لا يسأمون** ﴾ لأنه تمام الكلام ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ أى إن استكبر هؤلاء عن الامتثال فالملائكة يديمون التسبيح للّه سبحانه بالليل والنهار وهم لا يملون ولا يفترون .

﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة** ﴾ الخطاب هنا لكل من يصلح له أو لرسول اللّه ﷺ، والخاشعة : اليابسة الجدبة. وقيل: الغبراء التى لا تنبت. قال الأزهرى: إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل : قد خشعت ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾ أى ماء المطر ، ومعنى ﴿**اهتزت** ﴾ : تحركت بالنبات يقال: اهتزّ الإنسان : إذا تحرك ، ومنه قول الشاعر :

تراه كنصل السيف يهتزّ للندى إذا لم تجد عند امرئ السوء مطعما

ومعنى ﴿ **ربت** ﴾ : انتفخت وعلت قبل أن تنبت ، قاله مجاهد وغيره ، وعلى هذا ففى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : ربت واهتزت ، وقيل : الاهتزاز والربو قد يكونان قبل خروج النبات وقد يكونان بعده ، ومعنى الربو لغة: الارتفاع ، كما يقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى فى سورة الحج ، وقيل : اهتزت: استبشرت بالمطر ، وربت : انتفخت بالنبات . وقرأ أبو جعفر وخالد : « وربأت » . ﴿ **إن الذى أحياها لمحيى الموتى** ﴾ بالبعث والنشور ﴿ **إنه على كل شيء قدير** ﴾ لا يعجزه شيء كائنا ما كان .

﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا** ﴾ أى يميلون عن الحق ، والإلحاد : الميل والعدول ، ومنه اللحد فى القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه . يقال : ألحد فى دين اللّه ، أى مال وعدل عنه ، ويقال : لحد ، وقد تقدم تفسير الإلحاد. قال مجاهد : معنى الآية: يميلون عن الإيمان بالقرآن . وقال مجاهد : يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء . وقال قتادة : يكذبون فى آياتنا . وقال السدّى : يعاندون ويشاقون . وقال ابن زيد : يشركون ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون. ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين فى الآيات يلقون فى النار ، وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة . وظاهر الآية العموم ، اعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: المراد بمن يلقى فى النار: أبو جهل ، ومن يأتى آمنا : النبىّ ﷺ . وقيل: حمزة. وقيل : عمر بن الخطاب . وقيل :

أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ﴿ **اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾ هذا أمر تهديد ، أى اعملوا من أعمالكم التى تلقيكم فى النار ما شئتم إنه بما تعملون بصير ، فهو مجازيكم على كل ما تعملون . قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه : الوعيد .

﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم** ﴾ الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، وخبر إن محذوف ، أى إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم ، أو هالكون ، أو يعذّبون . وقيل : هو قوله : ﴿ **ينادون من مكان بعيد** ﴾ وهذا بعيد وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء . وقال الكسائى: إنه سدّ مسدّه الخبر السابق ، وهو : ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ . وقيل : إن الجملة بدل من الجملة الأولى وهى : ﴿ **الذين يلحدون فى آياتنا** ﴾ وخبر إن هو الخبر السابق ﴿ **وإنه لكتاب عزيز** ﴾ أى القرآن الذى كانوا يلحدون فيه ، أى عزيز عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون ، منيع عن كل عيب . ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه ، فقال :﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ .قال الزجاج : معناه : أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ، وبه قال قتادة والسدّى . ومعنى الباطل على هذا : الزيادة والنقصان . وقال مقاتل : لا يأتيه التكذيب من الكتب التى قبله ، ولا يجىء من بعده كتاب فيبطله، وبه قال الكلبى وسعيد بن جبير. وقيل : الباطل هو الشيطان، أى لا يستطيع أن يزيد فيه ولا ينقص منه . وقيل : لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، لا من جبريل ولا من محمد ﷺ ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوّز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح . وقيل : إنه الصفة لكتاب ، وجملة : ﴿ **لا يأتيه** ﴾ معترضة بين الموصوف والصفة .

ثم سلى سبحانه رسول اللّه ﷺ عن ما كان يتأثر له من أذية الكفار فقال : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾ أى ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر والكذب والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك ، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء . وقيل : المعنى : ما يقال لك من التوحيد وإخلاص العبادة للّه إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك . وقيل : هو استفهام ، أىْ أىّ شىء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴿ **إن ربك لذو مغفرة** ﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك وبايعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ **وذو عقاب أليم** ﴾ للكفار المكذّبين المعادين لرسل اللّه . وقيل : لذو مغفرة للأنبياء ، وذو عقاب لأعدائهم ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجميا** ﴾ أى لو جعلنا هذا القرآن الذى تقرؤه على الناس بغير لغة العرب ﴿ **لقالوا لولا فصلت آياته** ﴾ أى بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم لغة العجم ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أأعجمىّ وعربىّ** ﴾ للإنكار ، وهو من جملة قول المشركين ، أى لقالوا: أكلام أعجمىّ ورسول عربىّ . والأعجمى : الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم . والأعجم ضد الفصيح : وهو الذى لا يبين كلامه، ويقال للحيوان غير الناطق : أعجم . قرأ أبو بكر وحمزة والكسائى :﴿ **أأعجمىّ** ﴾ بهمزتين

محققتين . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم وهشام بهمزة واحدة على الخبر. وقرأ الباقون بتسهيل الثانية بين بين . وقيل : المراد : هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجميا لإفهام العجم وبعضها عربيا لإفهام العرب .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم فقال : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ أى يهتدون به إلى الحق ويشتفون به من كل شك وشبهة ، ومن الأسقام والآلام ﴿ **والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر** ﴾ أى صمم عن سماعه وفهم معانيه ، ولهذا تواصوا باللغو فيه ﴿ **وهو عليهم عمى** ﴾ قال قتادة : عموا عن القرآن وصموا عنه . وقال السدّى : عميت قلوبهم عنه . والمعنى : وهو عليهم ذو عمى ، أو وصف بالمصدر للمبالغة ، والموصول فى قوله :﴿ **والذين لا يؤمنون** ﴾ مبتدأ ، وخبره :﴿ **فى آذانهم وقر** ﴾ أو الموصول الثانى عطف على الموصول الأوّل، و﴿ **وقر** ﴾ عطف على ﴿ **هدى** ﴾ عند من جوّز العطف على عاملين مختلفين ، والتقدير : هو للأوّلين هدى وشفاء، وللآخرين وقر فى آذانهم. قرأ الجمهور : ﴿ **عمى**﴾ بفتح الميم منوّنة على أنه مصدر . وقرأ ابن عباس وعبد اللّه بن الزبير وعمرو بن العاص وابن عمر بكسر الميم منوّنة على أنه اسم منقوص على أنه وصف به مجازا .وقرأ عمرو بن دينار بكسر الميم وفتح الياء على أنه فعل ماض ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله أوّلا : ﴿ **هدى وشفاء** ﴾ ولم يقل : هاد وشاف ، وقيل : المعنى : والوقر عليهم عمى ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الذين لا يؤمنون وما فى حيزه ، وخبره : ﴿ **ينادون من مكان بعيد** ﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادى من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها . قال الفراء : تقول للرجل الذى لا يفهم كلامك : أنت تنادى من مكان بعيد . وقال الضحاك ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد . وقال مجاهد : من مكان بعيد : من قلوبهم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ أنه كان يسجد بآخر الآيتين من حم السجدة ، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة من طريق نافع عن ابن عمر أنه كان يسجد بالأولى . وأخرج سعيد بن منصور عنه أنه كان يسجد فى الآية الأخيرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا** ﴾ قال : هو أن يضع الكلام على غير موضعه . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **أفمن يلقى فى النار** ﴾ قال : أبو جهل بن هشام ﴿ **أمن يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ قال : أبو بكر الصديق . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عن بشير بن تميم قال : نزلت هذه الآية فى أبى جهم وعمار بن ياسر . وأخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**اعملوا ماشئتم** ﴾ قال : هذا لأهل بدر خاصة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولوجعلناه قرآنا أعجميا** ﴾ الآية، يقول : لو جعلنا القرآن أعجميا ولسانك يامحمد عربىّ لقالوا : أعجمىّ وعربىّ تأتينا به مختلفا أو مختلطا ﴿ **لولا فصلت آياته** ﴾ هلا

بينت آياته فكان القرآن مثل اللسان ؟ يقول : فلم نفعل لئلا يقولوا فكانت حجة عليهم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه** ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن تسلية رسول الله ﷺ عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه وطعنهم فى القرآن ، فأخبره أن هذا عادة قديمة فى أمم الرسل ، فإنهم يختلفون فى الكتب المنزلة إليهم ، والمراد بالكتاب : التوراة ، والضمير من قوله : ﴿ **فيه** ﴾ راجع إليه . وقيل : يرجع إلى موسى ، والأول أولى ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ فى تأخير العذاب عن المكذبين من أمتك ، كما فى قوله : ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ [النحل : ٦١] ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم ﴿ **وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ أى من كتابك المنزل عليك وهو القرآن. ومعنى الشك المريب: الموقع فى الريبة ، أو الشديد الريبة . وقيل : إن المراد : اليهود ، وأنهم فى شك من التوراة مريب ، والأول أولى ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه** ﴾ أى من أطاع الله وآمن برسوله ولم يكذّبهم فثواب ذلك راجع إليه ونفعه خاصّ به ﴿ **ومن أساء فعليها** ﴾ أى عقاب إساءته عليه لا على غيره ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ فلا يعذّب أحدا إلا بذنبه ، ولا يقع منه الظلم لأحد كما فى قوله سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾[يونس: ٤٤] وقد تقدّم الكلام على معنى هذه الآية فى سورة آل عمران عند قوله: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [آل عمران: ١٨٢]

وفى سورة الأنفال أيضا .

ثم أخبر سبحانه أن علم القيامة ووقت قيامها لا يعلمه غيره ، فقال : ﴿ **إليه يردّ علم الساعة** ﴾ فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يردّ علمها إليه لا إلى غيره ، وقد روى أن المشركين قالوا : يا محمد ، إن كنت نبيا فخبرنا متى تقوم الساعة ؟ فنزلت . و ﴿ **ما** ﴾ فى قوله : ﴿ **وما تخرج من ثمرات من أكمامها** ﴾ نافية و ﴿ **من** ﴾ الأولى للاستغراق ، و ﴿**من** ﴾ الثانية لابتداء الغاية . وقيل : هى موصولة فى محلّ جرّ عطفا على الساعة ، أى علم الساعة وعلم التى تخرج ، والأوّل أولى . والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو وعاء الثمرة واحدها كمّ بضمّ الكاف؛ لأنه جعله مشتركا بين كمّ القميص وكمّ الثمرة ، ولا خلاف فى كمّ القميص أنه بالضمّ . ويمكن أن يقال : إن فى الكمّ الذى هو وعاء الثمر لغتين . وقرأ الجمهور : «من ثمرة » بالإفراد ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالجمع ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أى ما تحمل أنثى حملا فى بطنها ولا تضع ذلك الحمل إلا بعلم اللّه سبحانه ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى ما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع فى حال من الأحوال إلا كائنا بعلم اللّه فإليه يرد علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور ﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ أى ينادى اللّه سبحانه المشركين ، وذلك يوم القيامة فيقول لهم: ﴿**أين شركائى** ﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائى فى الدنيا من الأصنام وغيرها فادعوهم الآن فليشفعوا لكم أو يدفعوا عنكم العذاب ، وهذا على طريقة التهكم بهم . قرأ الجمهور : ﴿**شركائى** ﴾ بسكون الياء، وقرأ ابن كثير بفتحها ، والعامل فى يوم محذوف ، أى اذكر ﴿**قالوا آذناك ما منا من شهيد** ﴾ يقال : آذن يأذن : إذا أعلم ، ومنه قول الشاعر :

آذنتنا ببينها أسماء ربّ ثاو يمل منه الثواء

والمعنى : أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا ، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الشركاء وتبرأت منهم تلك الأصنام التى كانوا يعبدونها . وقيل : إن القائل بهذا هى المعبودات التى كانوا يعبدونها ، أى ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين ، والأوّل أولى ﴿ **وضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل** ﴾ أى زال وبطل فى الآخرة ما كانوا يعبدون فى الدنيا من الأصنام ونحوها ﴿ **وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ أى أيقنوا وعلموا أنه لا محيص لهم . يقال : حاص يحيص حيصًا : إذا هرب . وقيل : الظنّ على معناه الحقيقى ؛ لأنه لهم فى تلك الحال ظنّ ورجاء ، والأوّل أولى .

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال : ﴿ **لا يسأم الإنسان من دعاء الخير** ﴾ أى لا يملّ من دعاء الخير لنفسه وجلبه إليه ، والخير هنا : المال والصحة والسلطان والرفعة . قال السدّى : والإنسان هنا يراد به : الكافر . وقيل : الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف . والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب فلا ينافيه خروج خلص العباد . وقرأ عبد اللّه بن مسعود :« لا يسأم الإنسان من دعاء المال ». ﴿ **وإن مسه الشرّ فيؤوس**

قنوط ﴾ أى وإن مسه البلاء والشدّة والفقر والمرض فيؤوس من روح اللّه قنوط من رحمته . وقيل : يؤوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظّن بربه. وقيل : يؤوس من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنّ دوامه ، وهما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط .

﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسته** ﴾ أى ولئن آتيناه خيرًا وعافية وغنى من بعد شدّة ومرض وفقر ﴿ **ليقولنّ هذا لى** ﴾ أى هذا شيء أستحقه على اللّه لرضاه بعملى ، فظنّ أن تلك النعمة التى صار فيها وصلت إليه باستحقاقه لها ولم يعلم أن اللّه يبتلى عباده بالخير والشرّ ليتبين له الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجزع . قال مجاهد : معناه : هذا بعملى وأنا محقوق به ﴿ **وما أظنّ الساعة قائمة** ﴾ أى ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء ، أو لست على يقين من البعث ، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين ، فيكون المراد بالإنسان المذكور فى صدر الآية الجنس باعتبار غالب أفراده ؛ لأن اليأس من رحمة اللّه ، والقنوط من خيره ، والشك فى البعث لا يكون إلا من الكافرين أو المتزلزلين فى الدين المتظهرين بالإسلام المبطنين للكفر ﴿**ولئن رجعت إلى ربى** ﴾ على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء من قيام الساعة وحصول البعث والنشور ﴿ **إن لى عنده للحسنى** ﴾ أى للحالة الحسنى من الكرامة ، فظنّ أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير ، واستحق خير الآخرة بذلك الذى اعتقده فى نفسه وأثبته لها ، وهو اعتقاد باطل وظنّ فاسد ﴿ **فلننبئن الذين كفروا بما عملوا** ﴾ أى لنخبرنهم بها يوم القيامة ﴿ **ولنذيقنهم من عذاب غليظ** ﴾ شديد بسبب ذنوبهم. واللام هذه والتى قبلها هى الموطئة للقسم .

﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان** ﴾ أى على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده ﴿ **أعرض** ﴾ عن الشكر ﴿ **ونأى بجانبه** ﴾ أى ترفع عن الانقياد للحق وتكبر وتجبر ، والجانب هنا مجاز عن النفس ، ويقال : نأيت وتناءيت ، أى بعدت وتباعدت ، والمنتأى : الموضع البعيد . ومنه قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ يزيد بن القعقاع : « وناء بجانبه » بالألف قبل الهمزة ﴿ **وإذا مسه الشرّ** ﴾ أى البلاء والجهد والفقر والمرض ﴿ **فذو دعاء عريض** ﴾ أى كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة مجازا ، يقال : أطال فلان فى الكلام وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر ، والمعنى : أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى اللّه واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك ، فذكره فى الشدّة ونسيه فى الرخاء واستغاث به عند نزول النقمة وتركه عند حصول النعمة ، وهذا صنيع الكافرين ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين . ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار ومحاجتهم فقال : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أخبرونى ﴿ **إن كان من عند الله** ﴾ أى القرآن ﴿ **ثم كفرتم به**﴾ أى كذبتم به ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه ﴿ **من أضل ممن هو فى شقاق بعيد** ﴾ أى لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم وشدّة عداوتكم ، والأصل : أىّ شيء أضل منكم ، فوضع :﴿ **من هو**

في شقاق ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم فى المشاقة ، وأنها السبب الأعظم فى ضلالهم.

﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق** ﴾ أى سنريهم دلالات صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله فى الآفاق ﴿**وفى أنفسهم** ﴾ الآفاق جمع أفق : وهو الناحية . والأفق بضم الهمزة والفاء ، كذا قال أهل اللغة . ونقل الراغب أنه يقال : أفق بفتحهما ، والمعنى : سنريهم آياتنا فى النواحى وفى أنفسهم . قال ابن زيد : فى الآفاق : آيات السماء ، وفى أنفسهم:حوادث الأرض . وقال مجاهد : فى الآفاق فتح القرى التى يسر الله فتحها لرسوله وللخلفاء من بعده وأنصار دينه فى آفاق الدنيا شرقا وغربا ، ومن الظهور على الجبابرة والأكاسرة ، وفى أنفسهم : فتح مكة ، ورجح هذا ابن جرير . وقال قتادة والضحاك: فى الآفاق: وقائع الله فى الأمم ، وفى أنفسهم : فى يوم بدر . وقال عطاء : فى الآفاق : يعنى : أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغير ذلك ، وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، كما فى قوله : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ٢١] . ﴿ **حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ الضمير راجع إلى القرآن . وقيل : إلى الإسلام الذى جاءهم به رسول الله . وقيل : إلى ما يريهم الله ويفعل من ذلك . وقيل : إلى محمد ﷺ أنه الرسول الحق من عند الله ، والأوّل أولى ﴿ **أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** ﴾ الجملة مسوقة لتوبيخهم وتقريعهم و ﴿ **بربك** ﴾ فى موضع رفع على أنه الفاعل ليكف ، والباء زائدة ، و ﴿ **أنه** ﴾ بدل من ربك والهمزة للإنكار . والمعنى : ألم يغنهم عن الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء ؟ وقيل: المعنى : أو لم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار ؟ وقيل : أو لم يكف بربك شاهدا على أن القرآن منزل من عنده ؟ والشهيد بمعنى : العالم ، أو هو بمعنى الشهادة التى هى الحضور . قال الزجاج: ومعنى الكناية ها هنا : أن الله ــ عزّ وجلّ ــ قد بين لهم ما فيه كفاية فى الدلالة ، والمعنى : أو لم يكف ربك أنه على كل شىء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شىء؟ ﴿ **ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم** ﴾ أى فى شك من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿ **ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات وأحاطت قدرته بجميع المقدورات ، يقال : أحاط يحيط إحاطة وحيطة ، وفى هذا وعيد شديد ؛ لأن من أحاط بكل شىء بحيث لا يخفى عليه شىء جازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال فى قوله : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ : سبق لهم من الله حين وأجل هم بالغوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما تخرج من ثمرات من أكمامها** ﴾ قال : حين تطلع . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آذناك** ﴾ قال : أعلمناك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لا يسأم الإنسان** ﴾ قال : لا يملّ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق** ﴾ قال : محمدا ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه

فى الآية قال : ما يفتح الله من القرى ﴿ **وفى أنفسهم** ﴾ قال : فتح مكة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير فى الآية قال : أمسك المطر عن الأرض كلها ﴿ **وفى أنفسهم** ﴾ قال : البلايا التى تكون فى أجسامهم . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال : كانوا يسافرون فيرون آثار عاد وثمود ، فيقولون : والله لقد صدق محمد ، وما أراهم فى أنفسهم قال : الأمراض .

تفسير سـورة الشورى

هى ثلاث وخمسون آية ، وهى مكية كلها . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ حم .عسق ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وكذا قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾ إلى آخرها . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ونعيم بن حماد والخطيب عن أرطاة بن المنذر قال : جاء رجل إلى ابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان فقال : أخبرنى عن تفسير : ﴿ حم . عسق ﴾ فأعرض عنه ، ثم كرر مقالته فأعرض عنه وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يجبه، فقال له حذيفة : أنا أنبئك بها قد عرفت لم كرهها ، نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له : عبد إله أو عبد الله ، ينزل على نهر من أنهار المشرق ،يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا ،يجتمع فيهما كل جبار عنيد ، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم بعث الله على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت ، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا ، فذلك قوله:﴿ حم . عسق ﴾ يعنى : عزيمة من الله وفتنة وقضاء حم عين ، يعنى : عدلا منه ، سين : يعنى سيكون ، ق : يعنى واقع بهاتين المدينتين . أقول: هذا الحديث لا يصح ولا يثبت وما أظنه إلا من الموضوعات المكذوبات ، والحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول والحط من شأنهم والإزراء عليهم . وأخرج أبو يعلى وابن عساكر ، قال السيوطى : بسند ضعيف . قلت : بل بسند موضوع ومتن مكذوب عن أبى معاوية قال : صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال : أيها الناس ، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿حم .عسق ﴾ ؟ فوثب ابن عباس فقال : إن ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله ، قال : فعين ، قال : عاين المذكور عذاب يوم بدر ، قال : فسين ، قال : فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، قال : فقاف ، فسكت ، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس وقال : قاف : قارعة من السماء تصيب الناس . قال ابن كثير فى الحديث الأول : إنه غريب عجيب منكر [1]، وفى الحديث الثانى : إنه أغرب من الحديث الأول [2] . وعندى أنهما موضوعان مكذوبان .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن

(١) ابن كثير ٦/١٨٦ وابن جرير ٢٥ / ٧ . (٢) ابن كثير ٦/ ١٨٧ .

فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾.

قوله :﴿ حم . عسق ﴾ قد تقدم الكلام فى أمثال هذه الفواتح ، وسئل الحسن بن الفضل: لم قطع ﴿ حم عسق ﴾ ولم يقطع :﴿ كهيعص ﴾[مريم:١] فقال : لأنها سور أولها ﴿حم﴾ فجرت مجرى نظائرها فكأن ﴿ حم ﴾ مبتدأ و﴿عسق﴾ خبره ، ولأنهما عدا آيتين ، وأخواتهما مثل : ﴿ كهيعص ﴾ و﴿ المر ﴾ و﴿ المص ﴾ آية واحدة . وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا فى : ﴿ كهيعص ﴾ وأخواتها أنها حروف التهجى لا غير ، واختلفوا فى :﴿ حم ﴾ فقيل : معناها: حم ، أى قضى ، كما تقدم. وقيل : إن « ح » حلمه و« م » مجده ، و« ع » علمه ، و« س » سناه ، و« ق » قدرته ، أقسم الله بها . وقيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدل عليه دليل ولا جاءت به حجة ولا شبهة حجة ، وقد ذكرنا قبل هذا ما روى فى ذلك مما لا أصل له ، والحق ما قدمناه لك فى فاتحة سورة البقرة . وقيل : هما اسمان للسورة . وقيل : اسم واحد لها ، فعلى الأول : يكونان خبرين لمبتدأ محذوف ، وعلى الثانى : يكون خبرا لذلك المبتدأ المحذوف . وقرأ ابن مسعود وابن عباس « حم . سق » .

﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ هذا كلام مستأنف غير متعلق بما قبله، أى مثل ذلك الإيحاء الذى أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد والبعث يوحى إليك يا محمد فى هذه السورة . وقيل: إن : ﴿حم . عسق ﴾ أوحيت إلى من قبله من الأنبياء ، فتكون الإشارة بقوله : ﴿كذلك﴾ إليها . قرأ الجمهور: ﴿ يوحى ﴾ بكسر الحاء مبنيا للفاعل وهو الله . وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن بفتحها مبنيا للمفعول ، والقائم مقام الفاعل : ضمير مستتر يعود على كذلك ، والتقدير : مثل ذلك الإيحاء يوحى هو إليك، أو القائم مقام الفاعل : إليك ، أو الجملة المذكورة ، أى يوحى إليك هذا اللفظ أو القرآن أو مصدر يوحى ، وارتفاع الاسم الشريف على

أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل : من يوحى ؟ فقيل : الله العزيز الحكيم . وأما قراءة الجمهور فهى واضحة اللفظ والمعنى ، وقد تقدم مثل هذا فى قوله : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال ﴾ [النور : ٣٦ ، ٣٧] . وقرأ أبو حيوة والأعمش وأبان : « نوحى » بالنون ، فيكون قوله : ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ فى محل نصب ، والمعنى : نوحى إليك هذا اللفظ ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ﴾ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف وهو ملك جميع ما فى السموات والأرض ؛ لدلالته على كمال قدرته ونفوذ تصرفه فى جميع مخلوقاته .

﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تكاد ﴾ بالفوقية ، وكذلك : «تتفطرن » قرؤوه بالفوقية مع تشديد الطاء . وقرأ نافع والكسائى وابن وثاب :« يكاد » . «يتفطرن » بالتحتية فيهما . وقرأ أبو عمرو ، والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد : « ينفطرن » بالتحتية والنون من الانفطار ،كقوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : ١] . والتفطر : التشقق . قال الضحاك والسدى : يتفطرن : يتشققن من عظمة الله وجلاله من فوقهن . وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة منها تتفطر فوق التى تليها من قول المشركين : اتخذ الله ولدا . وقيل : من فوقهن : من فوق الأرضين ، والأول أولى . و« من » فى : ﴿ من فوقهن ﴾ لابتداء الغاية ، أى يبتدئ التفطر من جهة الفوق . وقال الأخفش الصغير : إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار ، أى من فوق جماعات الكفار وهو بعيد جدا ، ووجه تخصيص جهة الفوق : أنها أقرب إلى الآيات العظيمة والمصنوعات الباهرة ، أو على طريق المبالغة ،كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت فى جهة الفوق ، فتأثيرها فى جهة التحت بالأولى . ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ أى ينزهونه عما لا يليق به ولا يجوز عليه متلبسين بحمده . وقيل : إن التسبيح موضوع موضع التعجب ، أى يتعجبون من جراءة المشركين على الله . وقيل : معنى ﴿ بحمد ربهم ﴾: بأمر ربهم ، قاله السدى . ﴿ ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ من عباد الله المؤمنين ، كما فى قوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : ٧] . وقيل : الاستغفار منهم بمعنى : السعى فيما يستدعى المغفرة لهم وتأخير عقوبتهم طمعا فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق ، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين وإن كانوا داخلين فيها دخولا أوليا ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته وأوليائه أو لجميع عباده ، فإن تأخير عقوبة الكفار والعصاة نوع من أنواع مغفرته ورحمته .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أى أصناما يعبدونها ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أى لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم ، ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ . قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ﴾ أى مثل ذلك الإيحاء أوحينا إليك ،وقرآنا مفعول أوحينا ، والمعنى:

أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿ **لتنذر أم القرى**﴾ وهى مكة والمراد: أهلها ﴿ **ومن حولها** ﴾ من الناس ، والمفعول الثانى محذوف ، أى لتنذرهم العذاب ﴿ **وتنذر يوم الجمع** ﴾ أى ولتنذر بيوم الجمع ، وهو يوم القيامة ؛ لأنه مجمع الخلائق . وقيل : المراد : جمع الأرواح بالأجساد . وقيل : جمع الظالم والمظلوم . وقيل : جمع العامل والعمل ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أى لا شك فيه ، والجملة معترضة مقررة لما قبلها أو صفة ليوم الجمع أو حال منه ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾ قرأ الجمهور برفع ﴿ **فريق** ﴾ فى الموضعين ، إما على أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور ، وشاع الابتداء بالنكرة ؛ لأن المقام مقام تفصيل ، أو على أن الخبر مقدر قبله ، أى منهم فريق فى الجنة ومنهم فريق فى السعير ، أو أنه خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع ، أى هم فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وقرأ زيد بن على : « فريقا » بالنصب فى الموضعين على الحال من جملة محذوفة ، أى افترقوا حال كونهم كذلك ، وأجاز الفراء والكسائى النصب على تقدير لتنذر فريقا .

﴿ **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة** ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ، إما على هدى وإما على ضلالة ، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية ، وهو معنى قوله : ﴿ **ولكن يدخل من يشاء فى رحمته** ﴾ فى الدين الحق : وهو الإسلام ﴿ **والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير**﴾ أى المشركون ما لهم من ولى يدفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم فى ذلك المقام ، ومثل هذا قوله : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام : ٣٥] ، وقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة : ١٣] وهاهنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم فدبوا عليه من بعدهم ، وليس بنا إلى ذكر شىء من ذلك فائدة كما هو عادتنا فى تفسيرنا هذا فهو تفسير سلفى يمشى مع الحق ويدور مع مدلولات النظم الشريف ، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه وتبرأ من التعصب قلبه ولحمه ودمه . وجملة : ﴿ **أم اتخذوا من دونه أولياء** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين وليا ونصيرا ، وأم هذه هى المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال وبالهمزة المفيدة للإنكار ، أى بل أتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ؟ ﴿ **فالله هو الولى** ﴾ أى هو الحقيق بأن يتخذوه وليا ، فإنه الخالق الرازق الضار النافع . وقيل : الفاء جواب شرط محذوف ، أى إن أرادوا أن يتخذوا وليا فى الحقيقة فالله هو الولى ﴿ **وهو** ﴾ أى ومن شأنه أنه ﴿ **يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير**﴾ أى يقدر على كل مقدور، فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية وإفراده بالعبادة .

﴿ **وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله** ﴾ هذا عام فى كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين ، فإن حكمه ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ويفصل خصومة المختصمين فيه ، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل ، ويتميز فريق الجنة وفريق النار . قال الكلبى : وما اختلفتم فيه من شىء ، أى من أمر الدين فحكمه إلى الله يقضى فيه . وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن وآمن به بعضهم فنزلت ،والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ويمكن أن يقال : معنى حكمه إلى الله : أنه مردود إلى كتابه ، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه ، فتكون الآية عامة فى كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يرد إلى كتاب الله ، ومثله قوله : ﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [النساء : ٥٩] وقد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام ، وأن القرآن حق ، وأن المؤمنين فى الجنة والكافرين فى النار ، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقا إلا فى الدار الآخرة وعدهم الله بذلك يوم القيامة ﴿ **ذلكم** ﴾ الحاكم بهذا الحكم ﴿ **الله ربى عليه توكلت** ﴾ اعتمدت عليه فى جميع أمورى ، لا على غيره وفوضته فى كل شؤونى ﴿**وإليه أنيب** ﴾ أى أرجع فى كل شيء يعرض لى لا إلى غيره .

﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر آخر لذلكم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره ما بعده ، أو نعت لربى ؛ لأن الإضافة محضة ، ويكون ﴿ **عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ معترضا بين الصفة والموصوف . وقرأ زيد بن على : « فاطر » بالجر على أنه نعت للاسم الشريف فى قوله : ﴿ **إلى الله** ﴾ وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء فى عليه أو إليه ،وأجاز الكسائى النصب على النداء وأجازه غيره على المدح . والفاطر : الخالق المبدع ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ **جعل لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ أى خلق لكم من جنسكم نساء ، أو المراد ، حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد : نسلا بعد نسل ﴿ **ومن الأنعام أزواجا** ﴾ أى وخلق للأنعام من جنسها إناثا ، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافا من الذكور والإناث ، وهى الثمانية التى ذكرها فى الأنعام ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ أى يبثكم ، من الذرء وهو البث ، أو يخلقكم وينشئكم ، والضمير فى يذرؤكم للمخاطبين والأنعام إلا أنه غلب فيه العقلاء ، وضمير ﴿ **فيه**﴾ راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل . وقيل : راجع إلى ما ذكر من التدبير . وقال الفراء والزجاج وابن كيسان : معنى يذرؤكم فيه : يكثركم به ، أى يكثركم به بجعلكم أزواجا ؛ لأن ذلك سبب النسل . وقال ابن قتيبة : يذرؤكم فيه ، أى فى الزوج . وقيل : فى البطن . وقيل: فى الرحم . ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ المراد بذكر المثل هنا : المبالغة فى النفى بطريق الكناية ، فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ، كقولهم : مثلك لا يبخل ، وغيرك لا يجود . وقيل : إن الكاف زائدة للتوكيد ، أى ليس مثله شيء . وقيل : إن مثل زائدة ، قاله ثعلب وغيره ، كما فى قوله : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ [البقرة : ١٣٧] أى بما آمنتم به، ومنه قول أوس بن حجر :

وقتلى كمثل جذوع النخيـ ... ـل يغشاهم مطر منهمر

أى كجذوع ، والأول أولى ، فإن الكناية باب مسلوك للعرب ، ومهيع مألوف لهم ، ومنه قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير ... خلق يوازيه فى الفضائل

وقال آخر :

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن بات من ليلى على اليأس طاويا

وقال آخر :

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم فما كمثلهم فى الناس من أحد

قال ابن قتيبة : العرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلى لا يقال له هذا ، أى أنا لا يقال لى . وقال أبو البقاء مرجحا لزيادة الكاف : إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال ، إذ يكون المعنى : أن له مثلا وليس لمثله مثل ، وفى ذلك تناقض ؛ لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل ، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال ، وهذا تقرير حسن ، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجا مخرج الكناية ، ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين فى الصفات على طريقة بيضاء واضحة ، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله : ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفى للمماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب ، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة والبرهان القوى ، فإنك تحطم بها كثيرا من البدع وتهشم بها رؤوساً من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلفين ، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ [طه : ١١٠] فإنك حينئذ قد أخذت بطرفى حبل ما يسمونه علم الكلام وعلم أصول الدين .

ودع عنك نهبا صيح فى حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل

﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ أى خزائنهما أو مفاتيحهما ، وقد تقدم تحقيقه فى سورة الزمر ، وهى جمع إقليد، وهو المفتاح جمع على خلاف القياس . قال النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن . ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليد السموات والأرض ذكر بعده البسط والقبض فقال : ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أى يوسعه لمن يشاء من خلقه ويضيقه على من يشاء ﴿ **إنه بكل شىء** ﴾ من الأشياء ﴿ **عليم** ﴾ فلا تخفى عليه خافية ، وإحاطة علمه بكل شىء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع ومعصية العاصى ، فهو يجازى كلا بما يستحقه من خير وشر .

وقد أخرج أحمد والترمذى وصححه، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله ، قال للذى فى يده اليمنى : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم » ثم قال للذى فى شماله : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا » ،

فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟ فقال : « سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل له » . قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ، ثم قال : «فرغ ربكم من العباد فريق فى الجنة وفريق فى السعير » قال الترمذى بعد إخراجه : حديث حسن صحيح غريب(١) . وروى ابن جرير طرفا منه عن ابن عمرو موقوفا عليه . قال ابن جرير : وهذا الموقوف أشبه بالصواب . قلت: بل المرفوع أشبه بالصواب ، فقد رفعه الثقة ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح ، ويقوى الرفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء . قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فى يده كتاب ينظر فيه ، قالوا : انظروا إليه كيف وهو أمى لا يقرأ ، قال : فعلمها رسول الله ﷺ ، فقال : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء قبائلهم لا يزاد منهم ولا ينقص منهم » وقال : « فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فرغ ربكم من أعمال العباد » .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾.

الخطاب فى قوله : ﴿ **شرع لكم من الدين** ﴾ لأمة محمد ﷺ ، أى بين وأوضح لكم من الدين ﴿ **ما وصى به نوحا** ﴾ من التوحيد ودين الإسلام وأصول الشرائع التى لم يختلف فيها الرسل وتوافقت عليها الكتب ﴿ **والذى أوحينا إليك** ﴾ من القرآن وشرائع الإسلام والبراءة من

---

(١) أحمد ١٦٧/٢ والترمذى فى القدر (٢١٤١) والنسائى فى التفسير (٤٩٣) وابن جرير ٧/٢٥ .

الشرك ، والتعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه ، وخص ما شرعه لنبينا ﷺ بالإيحاء مع كون ما بعده وما قبله مذكورا بالتوصية للتصريح برسالته ﴿ **وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ مما تطابقت عليه الشرائع . ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال : ﴿ **أن أقيموا الدين** ﴾ أى توحيد الله والإيمان به وطاعة رسله وقبول شرائعه ، وأن هى المصدرية ، وهى وما بعدها فى محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، كأنه قيل : ما ذلك الذى شرعه الله ؟ فقيل : هو إقامة الدين ، أو هى فى محل نصب بدلا من الموصول ، أو فى محل جر بدلا من الدين ، أو هى المفسرة ؛ لأنه قد تقدمها ما فيه معنى القول . قال مقاتل : يعنى : أنه شرع لكم ولمن قبلكم من الأنبياء دينا واحدا . قال مقاتل : يعنى التوحيد . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذى شرع لهم . وقال قتادة : يعنى: تحليل الحلال وتحريم الحرام ، وخص إبراهيم وموسى وعيسى بالذكر مع نبينا ﷺ ؛ لأنهم أرباب الشرائع . ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين ، نهاهم عن الاختلاف فيه فقال : ﴿ **ولا تتفرقوا فيه** ﴾ أى لا تختلفوا فى التوحيد والإيمان بالله وطاعة رسله وقبول شرائعه ، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع وتوافقت فيها الأديان ، فلا ينبغى الخلاف فى مثلها ، وليس من هذا فروع المسائل التى تختلف فيها الأدلة وتتعارض فيها الأمارات وتتباين فيها الأفهام ، فإنها من مطارح الاجتهاد ومواطن الخلاف . ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شق على المشركين فقال: ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ أى عظم وشق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة: كبر على المشركين واشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وحده وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها ويظفرها على من ناوأها .ثم خص أولياءه فقال :﴿ **الله يجتبى إليه من يشاء** ﴾ أى يختار ،والاجتباء: الاختيار، والمعنى : يختار لتوحيده والدخول فى دينه من يشاء من عباده ﴿ **ويهدى إليه من ينيب** ﴾ أى يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته ويقبل إلى عبادته .

ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرق والاختلاف فقال : ﴿ **وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ أى ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة ، ففعلوا ذلك التفرق للبغى بينهم بطلب الرياسة وشدة الحمية . قيل : المراد : قريش هم الذين تفرقوا بعد ما جاءهم العلم ، وهو محمد ﷺ ﴿ **بغيا** ﴾ منهم عليه ، وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله:﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير﴾ الآية [فاطر: ٤٢] ، وبقوله:﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : ٨٩] . وقيل : المراد : أمم الأنبياء المتقدمين ، وأنهم فيما ﴿ **بينهم** ﴾ اختلفوا لما طال بهم المدى فآمن قوم وكفر قوم. وقيل: اليهود والنصارى خاصة ،كما فى قوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة : ٤] .﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ وهى تأخير العقوبة ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ وهو يوم القيامة ،كما فى قوله : ﴿بل الساعة موعدهم [1] ﴾ [القمر : ٤٦] .

(١) فى المخطوطة : « والساعة موعدهم » .

وقيل : إلى الأجل الذى قضاه الله لعذابهم فى الدنيا بالقتل والأسر والذل والقهر ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ أى لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة . وقيل : لقضى بين من آمن منهم ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين ونجاة المؤمنين ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ **من بعدهم** ﴾ من بعد من قبلهم من اليهود والنصارى ﴿ **لفى شك منه** ﴾ أى من القرآن ، أو من محمد ﴿**مريب**﴾ موقع فى الريب ولذلك لم يؤمنوا . وقال مجاهد : معنى ﴿**من بعدهم** ﴾ : من قبلهم ، يعنى : من قبل مشركى مكة ، وهم اليهود والنصارى . وقيل : المراد : كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ، وصفهم بأنه فى شك من القرآن مريب. قرأ الجمهور :﴿ **أورثوا** ﴾ وقرأ زيد بن على : «ورثوا» بالتشديد .

﴿ **فلذلك فادع واستقم** ﴾ أى فلأجل ما ذكر من التفرق والشك ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع، فادع واستقم ؛ أى فادع إلى الله وإلى توحيده واستقم على ما دعوت إليه . قال الفراء والزجاج : المعنى : فإلى ذلك فادع كما تقول : دعوت إلى فلان ولفلان ، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . قال قتادة : استقم على أمر الله. وقال سفيان : استقم على القرآن. وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة ﴿ **كما أمرت** ﴾ بذلك من جهة الله ﴿**ولا تتبع أهواءهم** ﴾ الباطلة وتعصباتهم الزائغة ، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك فى ذكر الله ﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ أى بجميع الكتب التى أنزلها الله على رسله ، لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ فى أحكام الله إذا ترافعتم إلى ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله أو بنقصان منه ، وأبلغ إليكم ما أمرنى الله بتبليغه كما هو ، واللام لام كى ، أى أمرت بذلك الذى أمرت به لكى أعدل بينكم . وقيل : هى زائدة ، والمعنى : أمرت أن أعدل ، والأول أولى . قال أبو العالية : أمرت لأسوى بينكم فى الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . والظاهر أن الآية عامة فى كل شىء ، والمعنى : أمرت لأعدل بينكم فى كل شىء ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ أى إلهنا وإلهكم ، وخالقنا وخالقكم ﴿ **لنا أعمالنا** ﴾ أى ثوابها وعقابها خاص بنا ﴿ **ولكم أعمالكم** ﴾ أى ثوابها وعقابها خاص بكم ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ أى لا خصومة بيننا وبينكم ؛ لأن الحق قد ظهر ووضح ﴿ **الله يجمع بيننا**﴾ فى المحشر ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أى المرجع يوم القيامة ، فيجازى كلا بعمله ، وهذا منسوخ بآية السيف . قيل : الخطاب لليهود . وقيل : للكفار على العموم .

﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له** ﴾ أى يخاصمون فى دين الله من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا فيه . قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ومحاجتهم قولهم : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد

الأنبياء ، وكان المشركون يقولون: ﴿ أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ ؟ [مريم : ٧٢]، فنزلت هذه الآية. والموصول مبتدأ ، وخبره الجملة بعده وهى : ﴿ **حجتهم داحضة عند ربهم** ﴾ أى لا ثبات لها كالشىء الذى يزول عن موضعه ، يقال : دحضت حجته دحوضا : بطلت ، والإدحاض: الإزلاق ، ومكان دحض ، أى زلق ، ودحضت رجله: زلقت . وقيل : الضمير فى :﴿ **له** ﴾ راجع إلى الله. وقيل : راجع إلى محمد ﷺ. والأول أولى ﴿ **وعليهم غضب** ﴾ أى غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل ﴿ **ولهم عذاب شديد** ﴾ فى الآخرة ﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق** ﴾ المراد بالكتاب : الجنس ، فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل . وقيل : المراد به : القرآن خاصة ، وبالحق متعلق بمحذوف ، أى ملتبسا بالحق وهو الصدق ، والمراد بالميزان : العدل ، كذا قال أكثر المفسرين ، قالوا : وسمى العدل ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق . وقيل : الميزان : ما بين فى الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب ، وعلى المعصية بالعقاب. وقيل : إنه الميزان نفسه أنزله الله من السماء وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ، كما فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد : ٢٥] . وقيل : هو محمد ﷺ ﴿ **وما يدريك لعل الساعة قريب** ﴾ أىْ أىُّ شىء يجعلك داريا بها ، عالما بوقتها لعلها شىء قريب أو قريب مجيئها أو ذات قرب . وقال : ﴿**قريب** ﴾ ولم يقل : قريبة لأن تأنيثها غير حقيقى. قال الزجاج : المعنى لعل البعث أو لعل مجىء الساعة قريب . وقال الكسائى : ﴿**قريب**﴾ نعت ينعت به المؤنث والمذكر كما فى قوله : ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، ومنه قول الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة فلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

قيل : إن النبى ﷺ ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين ، فقالوا : متى تكون الساعة ؟ تكذيبا لها ، فأنزل الله الآية ، ويدل على هذا قوله : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها** ﴾ استعجال استهزاء منهم بها وتكذيبا بمجيئها ﴿ **والذين آمنوا مشفقون منها** ﴾ أى خائفون وجلون من مجيئها . قال مقاتل: لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه . وقال الزجاج: لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزيون ﴿ **ويعلمون أنها الحق** ﴾ أى أنها آتية لا ريب فيها ، ومثل هذا قوله : ﴿ والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ثم بين ضلال الممارين فيها فقال :﴿ **ألا إن الذين يمارون فى الساعة** ﴾ أى يخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة ، من المماراة :وهى المخاصمة والمجادلة ، أو من المرية وهى الشك والريبة ﴿ **لفى ضلال بعيد** ﴾ عن الحق لأنهم لم يتفكروا فى الموجبات للإيمان بها من الدلائل التى هى مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم ، ولو تفكروا لعلموا أن الذى خلقهم ابتداء قادر على الإعادة .

وقد أخرج ابن جرير عن السدى ﴿ **أن أقيموا الدين** ﴾ قال : اعملوا به . وأخرج عبد بن

حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ قال : ألا تعلموا أن الفرقة هلكة وأن الجماعة ثقة ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ . قال : استكبر المشركون أن قيل لهم : لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد : ﴿ **الله يجتبى إليه من يشاء** ﴾ قال : يخلص لنفسه من يشاء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له** ﴾ قال : هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله . وقال : هم قوم من أهل الضلالة وكانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **والذين يحاجون فى الله**﴾ الآية ، قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس فى دين الله أفواجا فاخرجوا من بين أظهرنا فنزلت : ﴿ **والذين يحاجون فى الله** ﴾ الآية .

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **الله لطيف بعباده** ﴾ أى كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم . قال مقاتل : لطيف بالبار والفاجر حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . قال عكرمة : بار بهم . وقال السدى : رفيق بهم. وقيل :حفى بهم . وقال القرطبى: لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . وقيل غير ذلك . والمعنى : أنه يجرى لطفه على عباده فى كل أمورهم ، ومن جملة ذلك الرزق الذى يعيشون به فى الدنيا ، وهو معنى قوله : ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾ منهم كيف يشاء ، فيوسع على هذا ويضيق على هذا ﴿ **وهو القوى** ﴾ العظيم القوة الباهرة القادرة ﴿ **العزيز** ﴾ الذى يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه** ﴾ الحرث فى اللغة: الكسب ، يقال : هو يحرث لعياله ويحترث ، أى يكتسب . ومنه سمى الرجل حارثا . وأصل معنى الحرث : إلقاء البذر فى الأرض ، فأطلق على ثمرات الأعمال وفوائدها بطريق الاستعارة ، والمعنى : من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له ذلك : الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وقيل : معناه : يزيد فى توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخير له ﴿ **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها** ﴾ أى من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الدنيا وهو متاعها ، وما يرزق الله به عباده منها ؛ نعطه منها ما قضت به مشيئتنا وقسم له فى قضائنا . قال قتادة : معنى ﴿ **نؤته منها** ﴾ : نقدر له ما قسم له ، كما قال :﴿ عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ [الإسراء : ١٨] . وقال قتادة أيضا : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . قال القشيرى : والظاهر أن الآية فى الكافر، وهو تخصيص بغير مخصص . ثم بين سبحانه أن هذا الذى يريد بعمله الدنيا لا نصيب له فى الآخرة فقال : ﴿**وما له فى الآخرة من نصيب** ﴾ لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة الإسراء .

﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾ لما بين سبحانه القانون فى أمر الدنيا والآخرة أردفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار ، والهمزة لاستفهام التقرير والتقريع ، وضمير :﴿ **شرعوا** ﴾ عائد إلى الشركاء ، وضمير:﴿ **لهم** ﴾ إلى الكفار ، وقيل : العكس ، والأول أولى . ومعنى ﴿ **ما لم يأذن به الله** ﴾ : ما لم يأذن به من الشرك والمعاصى ﴿ **ولولا كلمة الفصل** ﴾ وهى تأخير عذابهم حيث قال: ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ [القمر: ٤٦] ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ فى الدنيا فعوجلوا بالعقوبة ، والضمير فى ﴿ **بينهم** ﴾ راجع إلى المؤمنين والمشركين ، أو إلى المشركين وشركائهم ﴿ **وإن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ أى المشركين والمكذبين لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . قرأ الجمهور : ﴿ **وإن الظالمين** ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ مسلم والأعرج وابن هرمز بفتحها عطفا على ﴿ **كلمة الفصل** ﴾ .

﴿ **ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا** ﴾ أى خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات . وذلك الخوف والوجل يوم القيامة ﴿ **وهو واقع بهم** ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف ، قاله الزجاج ، أى وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ،

والجملة فى محل نصب على الحال . ولما ذكر حال الظالمين ذكر حال المؤمنين فقال : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات**﴾ روضات جمع روضة . قال أبو حيان : اللغة الكثيرة تسكين الواو ، ولغة هذيل فتحها ، والروضة : الموضع النزه الكثير الخضرة ، وقد مضى بيان هذا فى سورة الروم ، وروضة الجنة : أطيب مساكنها كما أنها فى الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿ **لهم ما يشاؤون عند ربهم** ﴾ من صنوف النعم وأنواع المستلذات ، والعامل فى عند ربهم « يشاؤون » ، أو العامل فى « روضات الجنات » وهو الاستقرار ، والإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما ذكر للمؤمنين قبله ، وخبره الجملة المذكورة بعده وهى: ﴿ **هو الفضل الكبير** ﴾ أى الذى لا يوصف ولا تهتدى العقول إلى معرفة حقيقته .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك الذى يبشر الله عباده** ﴾ إلى الفضل الكبير، أى يبشرهم به . ثم وصف العباد بقوله: ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه هم المبشرون بتلك البشارة . قرأ الجمهور : ﴿ **يبشر** ﴾ مشددا من بشر . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس بضم التحتية وسكون الموحدة وكسر الشين من أبشر . وقرأ بفتح التحتية وضم الشين بعض السبعة ، وقد تقدم بيان القراءات فى هذه اللفظة . ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام الشريفة التى اشتمل عليها كتابه أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثوابا منهم فقال : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ أى قل يامحمد : لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا ولا نفعا ﴿ **إلا المودة فى القربى** ﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلا ،أى إلا أن تودونى لقرابتى بينكم، أو تودوا أهل قرابتى ، ويجوز أن يكون منقطعا . قال الزجاج : ﴿ **إلا المودة** ﴾ استثناء ليس من الأول ، أى إلا أن تودونى لقرابتى فتحفظونى ، والخطاب لقريش ، وهذا قول عكرمة ومجاهد وأبى مالك والشعبى ، فيكون المعنى على الانقطاع : لا أسألكم أجرا قط ، ولكن أسألكم المودة فى القربى التى بينى وبينكم،ارقبونى فيها ولا تعجلوا إلى ودعونى والناس ، وبه قال قتادة ومقاتل والسدى والضحاك وابن زيد وغيرهم ، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتى . وقال سعيد بن جبير وغيره : هم آل محمد، وسيأتى ما استدل به القائلون بهذا . وقال الحسن وغيره : معنى الآية : إلا التودد إلى الله عز وجل والتقرب بطاعته. وقال الحسن بن الفضل : ورواه ابن جرير عن الضحاك إن هذه الآية منسوخة ، وإنما نزلت بمكة ، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فأمرهم الله بمودته ، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه ، فأنزل الله عليه : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ [الشعراء : ١٠٩] ، وأنزل عليه : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله﴾ [سبأ : ٤٧] . وسيأتى فى آخر البحث ما يتضح به الثواب ويظهر به معنى الآية إن شاء الله .﴿**ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا** ﴾ أصل القرف : الكسب ، يقال : فلان يقرف لعياله ، أى يكتسب ؛ والاقتراف : الاكتساب ، مأخوذ من قولهم : رجل قرفة : إذا كان محتالا . والمعنى : من يكتسب حسنة نزد له هذه الحسنة حسنا بمضاعفة ثوابها . قال مقاتل : المعنى : من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها

حسنا، نضاعفها بالواحدة عشرا فصاعدا . وقيل : المراد بهذه الحسنة: هى المودة فى القربى ، والحمل على العموم أولى ، ويدخل تحته المودة فى القربى دخولا أوليا ﴿ **إن الله غفور شكور** ﴾ أى كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين . قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات . وقال السدى : غفور لذنوب آل محمد .

﴿ **أم يقولون افترى على الله كذبا** ﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل أيقولون : افترى محمد على الله كذبا بدعوى النبوة . والإنكار للتوبيخ . ومعنى افتراء الكذب : اختلاقه . ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال : ﴿ **فإن يشأ الله يختم على قلبك** ﴾ أى لو افترى على الله الكذب لشاء عدم صدوره منه وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئا مما كذب فيه كما تزعمون . قال قتادة : يختم على قلبك فينسيك القرآن ، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به فى هذه الآية . وقال مجاهد ومقاتل : إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم . وقيل : الخطاب له، والمراد : الكفار ، أى إن يشأ يختم على قلوب الكفار ويعاجلهم بالعقوبة ، ذكره القشيرى . وقيل : المعنى : لو حدثتك نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب إلا من كان مطبوعا على قلبه، والأول أولى . وقوله : ﴿ **ويمحو الله الباطل** ﴾ استئناف مقرر لما قبله من نفى الافتراء . قال ابن الأنبارى : ﴿ **يختم على قلبك** ﴾ تام ، يعنى : وما بعده مستأنف . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ، أى والله يمحو الباطل. وقال الزجاج : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذبا** ﴾ تام . وقوله : ﴿ **ويمحو الله الباطل** ﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبى ﷺ ، أى لو كان ما أتى به النبى ﷺ باطلا لمحاه كما جرت به عادته فى المفترين ﴿ **ويحق الحق** ﴾ أى الإسلام فيبينه ﴿ **بكلماته** ﴾ أى بما أنزل من القرآن ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ عالم بما فى قلوب العباد ، وقد سقطت الواو من « ويمحو » فى بعض المصاحف كما حكاه الكسائى .

﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده** ﴾ أى يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصى واقترفوا من السيئات ، والتوبة : الندم على المعصية والعزم على عدم المعاودة لها . وقيل : يقبل التوبة عن أوليائه وأهل طاعته . والأول أولى ، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية وعزيمة صحيحة ﴿**ويعفو عن السيئات** ﴾ على العموم لمن تاب عن سيئته ﴿ **ويعلم ما تفعلون** ﴾ من خير وشر فيجازى كلا بما يستحقه . قرأ حمزة والكسائى وحفص وخلف : ﴿ **تفعلون** ﴾ بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ الموصول فى موضع نصب ، أى يستجيب الله الذين آمنوا ويعطيهم ما طلبوه منه ، يقال : أجاب واستجاب بمعنى . وقيل : المعنى: يقبل عبادة المخلصين . وقيل : التقدير ويستجيب لهم ، فحذف اللام كما حذف فى قوله : ﴿وإذا كالوهم ﴾ [المطففين : ٣] أى كالوا لهم ، وقيل : إن الموصول فى محل رفع ، أى

يجيبون ربهم إذا دعاهم ،كقوله : ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ [الأنفال : ٢٤] . قال المبرد : معنى ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا** ﴾ : ويستدعى الذين آمنوا الإجابة، هكذا حقيقة معنى استفعل ، فالذين فى موضع رفع ، والأول أولى . ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ أى يزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلا منه . وقيل : يشفعهم فى إخوانهم ﴿ **والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ هذا للكافرين مقابلا ما ذكره للمؤمنين فيما قبله .

﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض** ﴾ أى لو وسع الله لهم رزقهم لبغوا فى الأرض ، لعصوا فيها وبطروا النعمة وتكبروا وطلبوا ما ليس لهم طلبه . وقيل : المعنى : لو جعلهم سواء فى الرزق لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع ، والأول أولى . والظاهر عموم أنواع الرزق . وقيل : هو المطر خاصة ﴿ **ولكن ينزل بقدر ما يشاء** ﴾ أى ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته وما تقتضيه حكمته البالغة .﴿ **إنه بعباده خبير** ﴾ بأحوالهم ﴿**بصير**﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه ، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه ويكفه عن الفساد بالبغى فى الأرض . ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث** ﴾ أى المطر الذى هو أنفع أنواع الرزق وأعمها فائدة وأكثرها مصلحة ﴿ **من بعد ما قنطوا** ﴾ أى من بعد ما أيسوا عن ذلك فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم ، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه ﴿ **وهو الولى**﴾ للصالحين من عباده بالإحسان إليهم وجلب المنافع لهم ، ودفع الشرور عنهم ﴿ **الحميد** ﴾ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصا وعموما .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ قال : عيش الآخرة ﴿ **نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها** ﴾ الآية ، قال : من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيبا فى الآخرة إلا النار ، ولم يزدد بذلك من الدنيا شيئا إلا رزقا فرغ منه وقسم له . وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن حبان عن أبى ابن كعب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين فى الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب » (١) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة : قال : تلا رسول الله ﷺ ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ الآية ، ثم قال : « يقول الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى ؛ أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ؛ ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك» (٢) . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن على قال : الحرث حرثان : فحرث الدنيا ؛ المال والبنون ، وحرث الآخرة ؛ الباقيات الصالحات .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى ومسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **إلا المودة فى القربى** ﴾ قال

(١) أحمد ٥/ ١٣٤ وصححه الحاكم ٤/ ٣١٨ ووافقه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٤٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٣٣٩).

سعيد بن جبير : قربى آل محمد . قال ابن عباس : عجلت، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة (١) . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عنه قال : قال لهم رسول الله ﷺ : « لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودونى فى نفسى لقرابتى منكم وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم » (٢). وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن الشعبى قال : أكثر الناس علينا فى هذه الآية : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال : إن رسول الله ﷺ كان واسط النسب فى قريش ليس بطن من بطونهم إلا وله فيه قرابة ، فقال الله : ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ **إلا المودة فى القربى** ﴾ أن تودونى لقرابتى منكم وتحفظونى بها (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال : كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال: « يا قوم إذا أبيتم أن تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظى ونصرتى منكم » (٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عنه نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا من طريق أخرى نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا ، فقال العباس : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: « يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله ؟» قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : « أفلا تجيبون ؟ » قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال: « ألا تقولون : ألم يخرجك قومك فآويناك ؟ ألم يكذبوك فصدقناك ؟ ألم يخذلوك فنصرناك ؟ » فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا : أموالنا وما فى أيدينا لله ورسوله ، فنزلت : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى**﴾ (٥) وفى إسناده يزيد بن أبى زياد ، وهو ضعيف ، والأولى : أن الآية مكية لا مدنية ، وقد أشرنا فى أول السورة إلى قول من قال : إن هذه الآية وما بعدها مدنية ، وهذا متمسكهم . وأخرج أبو نعيم والديلمى من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:« ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ أى

---

(١) أحمد ١/ ٢٨٦ والبخارى فى التفسير (٤٨١٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٥١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ٢٥/ ١٥ .

(٢) الطبرانى (١٢٢٣٣ ــ ١٢٢٣٨) .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٤٤٤ على شرط البخارى ، وحديث داود بن أبى هند صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ٢٥/ ١٥ والطبرانى (١٣٠٢٦) .

(٥) ابن جرير ٢٥/ ١٦ .

تحفظونى فى أهل بيتى وتودونهم بى». وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه، قال السيوطى : بسند ضعيف ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ قالوا : يارسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : « على وفاطمة وولداهما » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية بمكة ، وكان المشركون يودون رسول الله ﷺ ، فأنزل الله: ﴿ **قل** ﴾ لهم يا محمد ﴿ **لا أسألكم عليه** ﴾ يعنى : على ما أدعوكم إليه ﴿ **أجرا** ﴾ عرضا من الدنيا ﴿ **إلا المودة فى القربى** ﴾ إلا الحفظ لى فى قرابتى فيكم ، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء فقال : ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ﴾ [سبأ : ٤٧] يعنى : ثوابه وكرامته فى الآخرة ؛ كما قال نوح : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ [الشعراء : ١٠٩] ، وكما قال هود وصالح وشعيب لم يستثنوا أجرا كما استثنى النبى ﷺ فرده عليهم ، وهى منسوخة .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى الآية : قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجرا إلا أن تودوا الله وأن تتقربوا إليه بطاعته (٢) . هذا حاصل ما روى عن حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية . والمعنى الأول هو الذى صح عنه ، ورواه عنه الجمع الجم من تلامذته فمن بعدهم ، ولا ينافيه ما روى عنه من النسخ ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن فى مكة بأن يوده كفار قريش لما بينه وبينهم من القربى ويحفظوه بها ، ثم ينسخ ذلك ويذهب هذا الاستثناء من أصله ،كما يدل عليه ما ذكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجرا على الإطلاق ، ولا يقوى ما روى من حملها على آل محمد ﷺ على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة ، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة والمزايا الجميلة ، وقد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ﴾ [الأحزاب : ٣٣] وكما لا يقوى هذا على المعارضة ، فكذلك لا يقوى ما روى عنه أن المراد بالمودة فى القربى: أن يودوا الله وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول الله ﷺ وإسناده عند أحمد فى المسند هكذا : حدثنا حسن بن موسى حدثنا قزعة بن سويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ . . . فذكره . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم

(١) الطبرانى (١٢٢٥٩) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠٦/٧ : « رواه الطبرانى من رواية حرب بن الحسن الطحان عن حسين الأشقر عن قيس بن الربيع، وقد وثقوا كلهم وضعفهم جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) أحمد ٢٦٨/١ والطبرانى (١١١٤٤) قال الهيثمى فى المجمع ١٠٦/٧: « فيهم قزعة بن سويد ، وثقه ابن معين وغيره وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات » وصححه الحاكم ٤٤٣/٢ ، ٤٤٤ ووافقه الذهبى .

عن قزعة به . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب ، قال السيوطى: بسند صحيح ، عن أبى هانئ الخولانى قال: سمعت عمر بن حريث وغيره يقولون : إنما نزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض** ﴾ وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا (١) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن على مثله (٢) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ .

ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث ، فقال : ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض**﴾ أى خلقهما على هذه الكيفية العجيبة والصنعة الغريبة ﴿ **وما بث فيهما من دابة** ﴾ يجوز عطفه على خلق ، ويجوز عطفه على السموات ، والدابة : اسم لكل ما دب . قال الفراء : أراد ما بث فى الأرض دون السماء ، كقوله: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح دون العذب . وقال أبو على الفارسى : تقديره :وما بث فى أحدهما ، فحذف المضاف . قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [النحل : ٨] . ﴿ وهو

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨ .

(٢) صحيحه الحاكم ٢/ ٤٤٥ ووافقه الذهبى .

على جمعهم ﴾ أى حشرهم يوم القيامة ﴿ **إذا يشاء قدير** ﴾ الظرف متعلق بجمعهم لا بقدير ، قاله أبو البقاء ؛ لأن ذلك يؤدى: وهو على جمعهم قدير إذا يشاء ، فتتعلق القدرة بالمشيئة وهو محال . قال شهاب الدين : ولا أدرى ما وجه كونه محالا على مذهب أهل السنة ، فإن كان يقول بقول المعتزلة وهو : أن القدرة تتعلق بما لم يشأ الله ؛ مشى كلامه ، ولكنه مذهب ردىء لا يجوز اعتقاده ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ أى ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت فبسبب ما كسبت أيديكم من المعاصى . قرأ نافع وابن عامر :« بما كسبت » بغير فاء . وقرأ الباقون بالفاء ، و« ما » فى : ﴿ **وما أصابكم** ﴾ هى الشرطية ، ولهذا دخلت الفاء فى جوابها على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه والجمهور ، وجوز الأخفش الحذف ، كما فى قوله : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ [الأنعام : ١٢١] وقول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

وقيل : هى الموصولة فيكون الحذف والإثبات جائزين ، والأول أولى . قال الزجاج : إثبات الفاء أجود؛ لأن الفاء مجازاة جواب الشرط ، ومن حذف الفاء فعلى أن ما فى معنى الذى ، والمعنى : الذى أصابكم وقع بما كسبت أيديكم . قال الحسن : المصيبة هنا : الحدود على المعاصى ، والأولى الحمل على العموم كما يفيده وقوع النكرة فى سياق النفى ودخول من الاستغراقية عليها ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ من المعاصى التى يفعلها العباد فلا يعاقب عليها ، فمعنى الآية : أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب ويعفو عن كثير من الذنوب . وقد ثبتت الأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان فى الدنيا يؤجر عليه أو يكفر عنه من ذنوبه . وقيل : هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى : أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفرا عنهم لذنب ولا محصلا لثواب ، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم فلا يعاجلهم فى الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة . والأولى حمل الآية على العموم ، والعفو يصدق على تأخير العقوبة كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطاب به . قال الواحدى : وهذه أرجى آية فى كتاب الله ؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين : صنف كفره عنهم بالمصائب ، وصنف عفا عنه فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه ، فهذه سنة الله مع المؤمنين . وأما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض** ﴾ أى بفائتين عليه هربا فى الأرض ولا فى السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿ **وما لكم من دون الله من ولى** ﴾ يواليكم فيمنع عنكم ما قضاه الله ﴿**ولا نصير** ﴾ ينصركم من عذاب الله فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده وصدق ما وعد به فقال : ﴿ **ومن آياته الجوار** ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو : « الجوارى » بإثبات الياء فى الوصل ، وأما فى الوقف فإثباتها على الأصل وحذفها للتخفيف ، وهى السفن واحدتها :جارية ، أى سائرة ﴿ فى

البحر كالأعلام ﴾ أى الجبال جمع علم وهو الجبل ، ومنه قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم . وقال مجاهد : الأعلام : القصور ، واحدها علم ﴿ **إن يشأ يسكن الريح** ﴾ قرأ الجمهور بهمز :﴿ **يشأ** ﴾ . وقرأ ورش عن نافع بلا همز . وقرأ الجمهور : ﴿ **الريح** ﴾ بالإفراد ، وقرأ نافع : «الرياح » على الجمع ، أى يسكن الريح التى تجرى بها السفن ﴿ **فيظللن** ﴾ أى السفن ﴿**رواكد** ﴾ أى سواكن ثوابت على ظهر البحر ، يقال : ركد الماء ركودا : سكن ، وكذلك : ركدت الريح وركدت السفينة وكل ثابت فى مكان فهو راكد . قرأ الجمهور :﴿ **فيظللن** ﴾ بفتح اللام الأولى ، وقرأ قتادة بكسرها وهى لغة قليلة .﴿ **إن فى ذلك** ﴾ الذى ذكر من أمر السفن ﴿**لآيات** ﴾ دلالات عظيمة ﴿ **لكل صبار شكور** ﴾ أى لكل مـن كان كثير الصبرعلى البلوى كثير الشكر على النعماء. قال قطرب : الصبار: الشكور الذى إذا أعطى شكر، وإذا ابتلى صبر . قال عون بن عبد الله :

فكم من منعم عليه غير شاكر وكم من مبتلى وهْو غير صابر

﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا** ﴾ معطوف على يسكن ، أى يهلكهن بالغرق ، والمراد : أهلكهن بما كسبوا من الذنوب ، وقيل : بما أشركوا . والأول أولى ، فإنه يهلك فى البحر المشرك وغير المشرك ، يقال : أوبقه ، أى أهلكه ﴿ **ويعف عن كثير**﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم فينجيهم من الغرق. قرأ الجمهور : ﴿ **يعف**﴾ بالجزم عطفا على جواب الشرط . قال القشيرى: وفى هذه القراءة إشكال ؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد أو يهلكها بذنوب أهلها فلا يحسن عطف ﴿**يعف**﴾ على هذا ؛ لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف وليس المعنى ذلك ، بل المعنى : الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى ، وقد قرأ قوم : « ويعفو » بالرفع وهى جيدة فى المعنى . قال أبو حيان : وما قاله ليس بجيد ، إذ لم يفهم مدلول التركيب ، والمعنى : إلا أنه تعالى أهلك ناسا وأنجى ناسا على طريق العفو عنهم ، وقرأ الأعمش : « ويعفو » بالرفع ، وقرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو، كما فى قول النابغة :

فـإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

ونـأخذ بـعـده بذناب عيـش أجب الظهر ليس له سنام

بنصب ونأخذ ﴿ **ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص** ﴾ قرأ الجمهور بنصب : ﴿ **يعلم** ﴾ قال الزجاج: على الصرف ، قال : ومعنى الصرف صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى ، قال : وذلك أنه لما لم يحسن عطف ﴿ **ويعلم** ﴾ مجزوما على ما قبله إذ يكون المعنى : إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذى قبله ، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار أن لتكون مع الفعل فى تأويل اسم ، ومن هذا بيتا النابغة المذكوران قريبا ، وكما قال

الزجاج ، قال المبرد وأبو على الفارسي واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته .وقيل : النصب على العطف على تعليل محذوف ، والتقدير: لينتقم منهم ويعلم . واعترض أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن تقدير : لينتقم منهم. وقرأ نافع وابن عامر برفع :« يعلم » على الاستئناف ، وهى قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ . وقرئ بالجزم عطفا على المجزوم قبله على معنى : وإن يشأ يجمع بين الإهلاك والنجاة والتحذير ، ومعنى : ﴿ **ما لهم من محيص** ﴾. مالهم من فرار ولا مهرب ، قاله قطرب . وقال السدى : ما لهم من ملجأ ، وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة : إذا رمى به ، ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق ، أى يميل عنه .

﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا** ﴾ لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ، ذكر التنفير عن الدنيا ، أى ما أعطيتم من الغنى والسعة فى الرزق، فإنما هو متاع قليل فى أيام قليلة ينقضى ويذهب . ثم رغبهم فى ثواب الآخرة وما عند الله من النعيم المقيم فقال : ﴿ **وماعند الله خير وأبقى** ﴾ أى ما عند الله من ثواب الطاعات والجزاء عليها بالجنات ،خير من متاع الدنيا وأبقى ؛ لأنه دائم لا ينقطع ، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة . ثم بين سبحانه لمن هذا فقال: ﴿ **للذين آمنوا**﴾ أى صدقوا وعملوا على ما يوجبه الإيمان .﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أى يفوضون إليه أمورهم ويعتمدون عليه فى كل شؤونهم لا على غيره ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ الموصول فى محل جر معطوف على الذين آمنوا أو بدلا منه أو فى محل نصب بإضمار : أعنى ، والأول أولى. والمعنى : أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وللذين يجتنبون . والمراد بكبائر الإثم : الكبائر من الذنوب ، وقد قدمنا تحقيقها فى سورة النساء . قرأ الجمهور : ﴿ **كبائر** ﴾ بالجمع . وقرأ حمزة والكسائى : « كبير » بالإفراد وهو يفيد مفاد الكبائر؛ لأن الإضافة للجنس كاللام . والفواحش : هى من الكبائر ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها ، وذلك كالقتل والزنا ونحو ذلك . وقال مقاتل : الفواحش : موجبات الحدود . وقال السدى : هى الزنا ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ أى يتجاوزون عن الذنب الذى أغضبهم ويكظمون الغيظ ويحلمون على من ظلمهم ، وخص الغضب بالغفران ؛ لأن استيلاءه على طبع الإنسان وغلبته عليه شديدة ، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره وخصه بمزية الحلم ، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله فى آل عمران : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] : قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين : صنف يعفون عن ظالمهم فبدأ بذكرهم ، وصنف ينتصرون من ظالمهم وهم الذين سيأتى ذكرهم .

﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة** ﴾ أى أجابوه إلى ما دعاهم إليه وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة. قال ابن زيد : هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة ، وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها وهيئاتها ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ أى يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأى .

والشورى مصدر شاورته مثل البشرى والذكرى . قال الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ وورود النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم فى دار أبى أيوب على الإيمان به والنصرة له . وقيل : المراد : تشاورهم فى كل أمر يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم على بعض برأى ، وما أحسن ما قاله بشار بن برد :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح ، أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم

وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى أموره ، وأمره الله سبحانه بذلك فقال : ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقد قدمنا فى آل عمران كلاما فى الشورى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى ينفقونه فى سبيل الخير ويتصدقون به على المحاويج .ثم ذكر سبحانه الطائفة التى تنتصر ممن ظلمها فقال :﴿**والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون** ﴾ أى أصابهم بغى من بغى عليهم بغير الحق .ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين فى معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب فى معرض المدح ؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال :﴿ ولله العزة[١] ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] فالانتصار عند البغى فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .قال النخعى : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء ، ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته ،كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ فبين سبحانه أن العدل فى الانتصار، هو الاقتصار على المساواة ، وظاهر هذا العموم . وقال مقاتل والشافعى وأبو حنيفة وسفيان : إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره . وقال مجاهد والسدى : هو جواب القبيح إذا قال : أخزاك الله ، يقول : أخزاك الله من غير أن يعتدى ، وتسمية الجزاء سيئة ؛ إما لكونها تسوء من وقعت عليه ، أو على طريق المشاكلة لتشابههما فى الصورة . ثم لما بين سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز ، بين فضيلة العفو فقال :﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ أى من عفا عمن ظلمه وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه ، أى أن الله سبحانه يأجره على ذلك ، وأبهم الأجر ؛ تعظيما لشأنه وتنبيها على جلالته. قال مقاتل : فكان العفو من الأعمال الصالحة ، وقد بينا هذا فى سورة آل عمران . ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التى هى سبب الفوز والنجاة فقال : ﴿ **إنه لا يحب الظالمين**﴾ أى المبتدئين بالظلم . قال مقاتل : يعنى من يبدأ بالظلم، وبه قال سعيد بن جبير . وقيل : لا يحب من يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد فيه ؛ لأن المجاوزة ظلم .

﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه** ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أى بعد أن ظلمه الظالم له ، واللام هى لام الابتداء . وقال ابن عطية : هى لام القسم ، والأول أولى . ومن هى الشرطية،

(١) فى المخطوطة: « العزة لله » .

وجوابه : ﴿ **فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ بمؤاخذة وعقوبة ، ويجوز أن تكون من هى الموصولة ودخلت الفاء فى جوابها تشبيها للموصولة بالشرطية ، والأول أولى . ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس** ﴾ أى يتعدون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر . وقال ابن جريج : أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ **ويبغون فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى يعملون فى النفوس والأموال بغير الحق كذا قال الأكثر . وقال مقاتل : بغيهم عملهم بالمعاصى . وقيل : يتكبرون ويتجبرون. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام دينا ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الذين يظلمون الناس وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿**لهم عذاب أليم** ﴾ أى لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم . ثم رغب سبحانه فى الصبر والعفو فقال : ﴿ **ولمن صبر وغفر** ﴾ أى صبر على الأذى وغفر لمن ظلمه ولم ينتصر ، والكلام فى هذه اللام ومن كالكلام فى :﴿ **ولمن انتصر**﴾ و﴿ **إن ذلك** ﴾ الصبر والمغفرة ﴿ **لمن عزم الأمور** ﴾ أى أن ذلك منه فحذف لظهوره ، كما فى قولهم :السمن منوان بدرهم . قال مقاتل : من الأمور التى أمر الله بها . وقال الزجاج : الصابر يؤتى بصبره ثوابا ، فالرغبة فى الثواب أتم عزما . قال ابن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد وأنه خاص بالمشركين . وقال قتادة : إنه عام ، وهو ظاهر النظم القرآنى ﴿ **ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده** ﴾ أى فما له من أحد يلى هدايته وينصره ، وظاهر الآية العموم . وقيل : هى خاصة بمن أعرض عن النبى ﷺ ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله والعمل بما شرعه ، والأول أولى.

وقد أخرج أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن على بن أبى طالب قال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ؟ ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ وسأفسرها لك يا على : « ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا ؛ فبما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا، فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه » (١) . وأخرج عبد بن حميد والترمذى عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أودونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » ، وقرأ : ﴿**وما أصابكم** ﴾ الآية (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى الكفارات ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عن عمران بن حصين ؛ أنه دخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتلى فى جسده، فقال : إنا لنبتئس لك لما نرى فيك ، قال : فلا تبتئس لما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة** ﴾ إلى آخرها . وأخرج أحمد عن معاوية بن أبى سفيان : سمعت

(١) أحمد ١/ ٨٥ وأبو يعلى (٤٥٣) وإسناده ضعيف وفيه أزهر بن راشد الكاهلى ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٤٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٢) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

رسول الله ﷺ يقول : « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته » (١) . وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عثرة قدم ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر » .

وأخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فيظللن رواكد على ظهره** ﴾ قال : يتحركن ولا يجرين في البحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : رواكد ، قال : وقوفا ﴿ **أو يوبقهن** ﴾ قال : يهلكهن. وأخرج النسائي وابن ماجة وابن مردويه عن عائشة ، قالت : دخلت علي زينب وعندي رسول الله ﷺ فأقبلت على فسبتني ، فردعها النبي ﷺ فلم تنته ، فقال لي : سبيها ، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سرورا (٢) . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « المستبان ما قالا من شيء فعلى البادئ حتى يعتدي المظلوم » ثم قرأ : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ (٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي : ألا ليقم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا » وذلك قوله: ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾. وأخرج البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال : « ينادي مناد : من كان له أجر على الله فليدخل الجنة ، مرتين ، فيقوم من عفا عن أخيه » قال الله: ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ (٤) .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ

---

(١) أحمد ٤/ ٩٨ .

(٢) النسائي في التفسير (٤٩٦) وإسناده حسن ، وابن ماجة في النكاح (١٩٨١) وفي الزوائد : «إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وزكريا بن أبي زائدة كان يدلس » .

(٣) أحمد ٢/ ٢٣٥ ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٧/ ٦٨) وأبو داود في الأدب (٤٨٩٤) والترمذي في البر والصلة (١٩٨١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) البيهقي في الشعب (٨٣١٣) .ط . دار الكتب العلمية .

مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **وترى الظالمين** ﴾ أى المشركين المكذبين بالبعث ﴿ **لما رأوا العذاب** ﴾ أى حين نظروا النار ، وقيل: نظروا ما أعده الله لهم عند الموت ﴿ **يقولون هل إلى مرد من سبيل** ﴾ ؟ أى هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ؟ ﴿ **وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل** ﴾ أى ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذل والهوان ، والضمير فى عليها راجع إلى العذاب وأنثه ؛ لأن العذاب هو النار ، وقوله : ﴿ **يعرضون** ﴾ فى محل نصب على الحال ؛ لأن الرؤية بصرية ، وكذلك خاشعين ، و﴿ **من الذل** ﴾ يتعلق بخاشعين ، أى من أجله ﴿ **ينظرون من طرف خفى** ﴾ « من » هى التى لابتداء الغاية ،أى يبتدئ نظرهم إلى النار، ويجوز أن تكون تبعيضية ، والطرف الخفى : الذى يخفى نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل والخوف والوجل . قال مجاهد : ﴿ **من طرف خفى** ﴾ : أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم ؛ لأنهم يحشرون عميا ، وعين القلب طرف خفى . وقال قتادة وسعيد ابن جبير والسدى والقرظى : يسارقون النظر من شدة الخوف . وقال يونس : إن « من » فى : ﴿ **من طرف** ﴾ بمعنى الباء ، أى ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف وبه قال الأخفش ﴿**وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى أن الكاملين فى الخسران ، هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين فى يوم القيامة . أما خسرانهم لأنفسهم : فلكونهم صاروا فى النار معذبين بها ، وأما خسرانهم لأهليهم : فلأنهم إن كانوا معهم فى النار فلا ينتفعون بهم ، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينهم وبينهم . وقيل : خسران الأهل : أنهم لو آمنوا لكان لهم فى الجنة أهل من الحور العين ﴿ **ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم**﴾ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه ، أى هم فى عذاب دائم لا ينقطع .

﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله** ﴾ أى لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب ، وأنصار ينصرونهم فى ذلك الموطن من دون الله ، بل هو المتصرف سبحانه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ **ومن يضلل الله فما له من سبيل** ﴾ أى من طريق يسلكها إلى النجاة. ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له وحذرهم فقال : ﴿ **استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى**

يوم لا مرد له من الله ﴾ أى استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله من قبل أن يأتى يوم لا يقدر أحد على رده ودفعه ، على معنى : من قبل أن يأتى من الله يوم لا يرده أحد ، أو لا يرده الله بعد أن حكم به على عباده ووعدهم به ، والمراد به : يوم القيامة ، أو يوم الموت ﴿**ما لكم من ملجأ يومئذ** ﴾ تلجؤون إليه ﴿ **وما لكم من نكير**﴾ أى إنكار ، والمعنى : ما لكم من إنكار يومئذ ، بل تعترفون بذنوبكم . وقال مجاهد : ﴿ **وما لكم من نكير** ﴾ أى ناصر ينصركم . وقيل : النكير بمعنى المنكر ، كالأليم بمعنى المؤلم ، أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب ، قاله الكلبى وغيره ، والأول أولى . قال الزجاج : معناه : أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها ﴿ **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا** ﴾ أى حافظا تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها ، ولا موكلا بهم رقيبا عليهم ﴿ **إن عليك إلا البلاغ**﴾ أى ما عليك إلا البلاغ لما أمرت بإبلاغه ، وليس عليك غير ذلك ، وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿ **وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها** ﴾ أى إذا أعطيناه رخاء وصحة وغنى فرح بها بطرا ، والمراد بالإنسان : الجنس ، ولهذا قال : ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أى بلاء وشدة ومرض ﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ من الذنوب ﴿ **فإن الإنسان كفور** ﴾ أى كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه ، غير شكور له عليها ، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان .

ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه فقال : ﴿ **لله ملك السموات والأرض** ﴾ أى له التصرف فيهما بما يريد ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ من الخلق ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾ . قال مجاهد والحسن والضحاك وأبو مالك وأبو عبيدة : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهن ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم . قيل: وتعريف الذكور بالألف واللام ؛ للدلالة على شرفهم على الإناث ، ويمكن أن يقال : إن التقديم للإناث قد عارض ذلك ، فلا دلالة فى الآية على المفاضلة بل هى مسوقة لمعنى آخر . وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه: ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله﴾ [النساء: ٣٤] وغير ذلك من الأدلة الدالة على شرف الذكور على الإناث . وقيل : تقديم الإناث ؛ لكثرتهن بالنسبة إلى الذكور . وقيل : لتطييب قلوب آبائهن . وقيل : لغير ذلك مما لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿ **أو يزوجهم ذكرانا وإناثا** ﴾ أى يقرن بين الإناث والذكور ويجعلهم أزواجا فيهبهما جميعا لبعض خلقه. قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد توءما غلاما وجارية . وقال القتيبى : التزويج هنا هو : الجمع بين البنين والبنات . تقول العرب : زوجت إبلى : إذا جمعت بين الصغار والكبار ، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف فى مثله ، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثا ، ويهب لبعض ذكورا ، ويجمع لبعض بين الذكور والإناث ﴿**ويجعل من يشاء عقيما** ﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى ، والعقيم : الذى لا يولد له ، يقال : رجل عقيم وامرأة عقيم ، وعقمت المرأة تعقم عقما ، وأصله : القطع ، ويقال : نساء عقم ،

ومنه قول الشاعر :

عقم النساء فما يلدن شبيـ ـهه إن النساء بمثله عقم

﴿ إنه عليم قدير ﴾ أى بليغ العلم عظيم القدرة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾ أى ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلا بأن يوحى إليه فيلهمه ويقذف ذلك فى قلبه . قال مجاهد : نفث ينفث فى قلبه ، فيكون إلهاما منه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم فى ذبح ولده ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى ، يريد : أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، وهو تمثيل بحال الملك المحتجب الذى يكلم خواصه من وراء حجاب ﴿ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ أى يرسل ملكا ، فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه. قال الزجاج : المعنى أن كلام الله للبشر : إما أن يكون بإلهام يلهمهم ، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو برسالة ملك إليهم. وتقدير الكلام : ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى وحيا ، أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا . ومن قرأ : « يرسل » رفعا أراد : وهو يرسل ، فهو ابتداء واستئناف. ا هـ . قرأ الجمهور بنصب :﴿ أو يرسل ﴾ وبنصب :﴿ فيوحى ﴾ على تقدير أن ، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على ﴿ وحيا ﴾ ، و﴿ وحيا ﴾ فى محل الحال ، والتقدير: إلا موحيا أو مرسلا ، ولا يصح عطف ﴿ أو يرسل ﴾ على ﴿ أن يكلمه ﴾ لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل الله رسولا ، وهو فاسد لفظا ومعنى . وقد قيل فى توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف . وقرأ نافع : « أو يرسل » بالرفع ، وكذلك : «فيوحى » بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : أوهو يرسل ،كما قال الزجاج وغيره ، وجملة : ﴿ إنه على حكيم ﴾ تعليل لما قبلها ، أى متعال عن صفات النقص، حكيم فى كل أحكامه .

قال المفسرون : سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ؟ فنزلت : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ (١) أى وكالوحى الذى أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك روحا من أمرنا . المراد به: القرآن . وقيل : النبوة . قال مقاتل : يعنى : الوحى بأمرنا ومعناه القرآن ؛ لأنه يهتدى به ففيه حياة من موت الكفر . ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه فقال : ﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب ﴾ أىْ أىُّ شىء هو ؛ لأنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وذلك أدخل فى الإعجاز وأدل على صحة نبوته ، ومعنى ﴿ ولا الإيمان ﴾: أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدى إلى معالمها ، وخص الإيمان ؛ لأنه رأسها وأساسها . وقيل : أراد بالإيمان هنا : الصلاة . قال بهذا جماعة من أهل العلم ، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ،

---

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢١٤ .

واحتج بقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : ١٤٣] يعنى : الصلاة ، فسماها إيمانا. وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبيا إلا وقد كان مؤمنا به ، وقالوا : معنى الآية : ما كنت تدرى قبل الوحى كيف تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؟ وقيل : كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلا وفى المهد . وقال الحسين بن الفضل : إنه على حذف مضاف ، أى ولا أهل الإيمان . وقيل: المراد بالإيمان : دين الإسلام . وقيل : الإيمان هنا : عبارة عن الإقرار بكل ما كلف الله به العباد ﴿ **ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء** ﴾ أى ولكن جعلنا الروح الذى أوحيناه إليك ضياء ودليلا على التوحيد والإيمان نهدى به من نشاء هدايته ﴿ **من عبادنا** ﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ قال قتادة والسدى ومقاتل: وإنك لتدعو إلى الإسلام ،فهو الصراط المستقيم. قرأ الجمهور : ﴿ **لتهدى** ﴾ على البناء للفاعل. وقرأ ابن حوشب على البناء للمفعول . وقرأ ابن السميفع بضم التاء وكسر الدال من أهدى ، وفى قراءة أبى : « وإنك لتدعو » . ثم بين الصراط المستقيم بقوله : ﴿**صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ وفى هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ، ومعنى ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ : أنه المالك لذلك والمتصرف فيه ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ أى تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق ، وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ينظرون من طرف خفى** ﴾ قال : ذليل. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: يسارقون النظر إلى النار . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ قال : « من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى » ؛ لأن الله قال : ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويجعل من يشاء عقيما** ﴾ قال : الذى لا يولد له . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا** ﴾ قال: إلا أن يبعث ملكا يوحى إليه من عنده ، أو يلهمه فيقذف فى قلبه ، أو يكلمه من وراء حجاب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾ قال : القرآن . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل وابن عساكر عن على قال : قيل لمحمد ﷺ ؟ هل عبدت وثنا قط ؟ قال: « لا » . قالوا: فهل شربت خمرا قط ؟ قال : « لا، وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر ، وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان » ، وبذلك نزل القرآن : ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ .

تفسير سورة الزخرف

هى تسع وثمانون آية . قال القرطبى: هى مكية بالإجماع . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ حم ﴾ الزخرف بمكة . قال مقاتل : إلا قوله : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا** ﴾ يعنى : فإنها نزلت بالمدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **حم . والكتاب المبين** ﴾ الكلام ها هنا فى الإعراب كالكلام الذى قدمناه فى: ﴿يس . والقرآن الحكيم ﴾ [يس : ١ ،٢] فإن جعلت ﴿ **حم** ﴾ قسما كانت الواو عاطفة ، وإن لم تجعل قسما فالواو للقسم ، وجواب القسم ﴿ **إنا جعلناه** ﴾ وقال ابن الأنبارى : من جعل جواب ﴿ **والكتاب** ﴾: ﴿ **حم** ﴾ كما تقول: نزل والله، وجب والله وقف على ﴿ **الكتاب المبين** ﴾ ، ومعنى ﴿ **جعلناه** ﴾ أى سميناه ووصفناه ، ولذلك تعدى إلى مفعولين . وقال السدى : المعنى: أنزلناه ﴿ **قرآنا**﴾ وقال مجاهد : قلناه . وقال سفيان الثورى : بيناه ﴿ **عربيا** ﴾ وكذا قال

الزجاج ، أى أنزل بلسان العرب ، لأن كل نبى أنزل كتابه بلسان قومه . وقال مقاتل : لأن لسان أهل الجنة عربى ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ أى جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه وتتعقلوا معانيه وتحيطوا بما فيه . قال ابن زيد : لعلكم تتفكرون . ﴿ **وإنه فى أم الكتاب** ﴾ أى وإن القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ **لدينا** ﴾ أى عندنا ﴿ **لعلى حكيم** ﴾ رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها . قال الزجاج :﴿ **أم الكتاب** ﴾ أصل الكتاب ،وأصل كل شىء أمه، والقرآن مثبت عند الله فى اللوح المحفوظ كما قال : ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ [البروج:٢١، ٢٢] وقال ابن جريج : المراد بقوله : ﴿ **وإنه** ﴾ أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . قال قتادة : أخبر عن منزلته وشرفه وفضله ، أى إن كذبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل .

﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحا** ﴾ يقال : ضربت عنه وأضربت عنه : إذا تركته وأمسكت عنه ، كذا قال الفراء والزجاج وغيرهما ، وانتصاب ﴿ **صفحا** ﴾ على المصدرية ، وقيل : على الحال ، على معنى : أفنضرب عنكم الذكر صافحين ، والصفح مصدر قولهم : صفحت عنه: إذا أعرضت عنه ،وذلك أنك توليه صفحة وجهك وعنقك ، والمراد بالذكر هنا: القرآن ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ . قال الكسائى : المعنى : أفنضرب عنكم الذكر طيا فلا توعظون ولا تؤمرون ؟ وقال مجاهد وأبو صالح والسدى : أفنضرب عنكم العذاب ولانعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؟ وقال قتادة : المعنى : أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم ؟ وروى عنه أنه قال: المعنى : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لاتؤمنون به ؟ وقيل : الذكر : التذكير، كأنه قال : أنترك تذكيركم ﴿ **أن كنتم قوما مسرفين** ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائى :« إن كنتم » بكسر « إن » على أنها الشرطية ، والجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه . وقرأ الباقون بفتحها على التعليل ، أى لأن كنتم قومًا منهمكين فى الإسراف مصرين عليه، واختار أبو عبيد قراءة الفتح . ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ فقال : ﴿ **وكم أرسلنا من نبى فى الأولين** ﴾ كم هى الخبرية التى معناها : التكثير ، والمعنى : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء فى الأمم السابقة ﴿ **وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿ **فأهلكنا أشد منهم بطشا** ﴾ أى أهلكنا قوما أشد قوة من هؤلاء القوم ، وانتصاب ﴿ **بطشا** ﴾ على التمييز أو الحال ، أى باطشين ﴿**ومضى مثل الأولين** ﴾ أى سلف فى القرآن ذكرهم غير مرة . وقال قتادة : عقوبتهم ، وقيل: صفتهم ، والمثل : الوصف والخبر . وفى هذا تهديد شديد ؛ لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل ، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم .

﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ أى لئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية أقروا بأن الله خالقهن ولم ينكروا، وذلك أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم ؛ لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكا

له ، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولايضر من المخلوقات وهى الأصنام فجعلوها شركاء لله . ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم نعمته على عباده وكمال قدرته فى مخلوقاته فقال : ﴿**الذى جعل لكم الأرض مهادا** ﴾ وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله: ولو كان متصلا بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا: الذى جعل لنا الأرض مهادا ، والمهاد : الفراش والبساط ، وقد تقدم بيانه ، قرأ الجمهور : ﴿ **مهادا** ﴾ وقرأ الكوفيون ﴿ **مهدا**﴾ ﴿**وجعل لكم فيها سبلا** ﴾ أى طرقا تسلكونها إلى حيث تريدون . وقيل : معايش تعيشون بها ﴿ **لعلكم تهتدون**﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم .

﴿ **والذى نزل من السماء ماء بقدر** ﴾ أى بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرائعكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق ، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة ، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته فى أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى ﴿ **فأنشرنا به بلدة ميتا** ﴾ أى أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات . قرأ الجمهور : ﴿**ميتا**﴾ بالتخفيف . وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد ﴿**كذلك تخرجون** ﴾ من قبوركم ، أى مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها تبعثون من قبوركم أحياء ، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك ، وقد مضى بيان هذا فى آل عمران والأعراف . قرأ الجمهور: ﴿ **تخرجون** ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر مبنيا للفاعل .

﴿ **والذى خلق الأزواج كلها** ﴾ المراد بالأزواج هنا : الأصناف ، قال سعيد بن جبير : الأصناف كلها ، وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والجنة والنار. وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى . وقيل : أزواج النبات ، كقوله : ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ [ق : ٧] و ﴿ من كل زوج كريم﴾ [الشعراء : ٧] . وقيل: ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر وإيمان وكفر ، والأول أولى ﴿ **وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون**﴾ فى البحر والبر ، أى ما تركبونه ﴿ **لتستووا على ظهوره** ﴾ الضمير راجع إلى ما قاله أبو عبيد . وقال الفراء : أضاف الظهور إلى واحد، لأن المراد به الجنس ، فصار الواحد فى معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر ، وجمع الظهر لأن المراد ظهور هذا الجنس ، والاستواء: الاستعلاء، أى لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ﴿ **ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه**﴾ أى هذه النعمة التى أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب فى البحر والبر . وقال مقاتل والكلبى : هو أن يقول الحمد لله الذى رزقنى هذا وحملنى عليه ﴿**وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا** ﴾ أى ذلل لنا هذا المركب ، وقرأ على بن أبى طالب : « سبحان من سخر لنا هذا » قال قتادة : قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم ، ومعنى ﴿ **وما كنا له مقرنين**﴾ :ما كنا له مطيقين ، يقال : أقرن هذا البعير: إذا أطاقه. وقال الأخفش وأبو عبيدة : ﴿**مقرنين**﴾ : ضابطين ، وقيل : مماثلين له فى القوة ، من قولهم : هو قرن فلان إذا كان مثله فى القوة ،

وأنشد قطرب قول عمرو بن معدى كرب :

لقد علم القبـائل ما عقيل   لنا فى النائبـات بمقرنينا

وقال آخر :

ركبتم صعبتى أشرًا وحيفا   ولستم للصعاب بمقرنينا

والمراد بالأنعام هنا : الإبل خاصة . وقيل : الإبل والبقر ، والأول أولى ﴿ **وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ أى راجعون إليه ، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة ، ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم ، فقال : ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءا** ﴾ قال قتادة : أى عدلا ، يعنى : ما عبد من دون الله . وقال الزجاج والمبرد : الجزء هنا : البنات ، والجزء عند أهل العربية : البنات ، يقال : قد أجزأت المرأة : إذا ولدت البنات، ومنه قول الشاعر :

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب   قد تجزئ الحرة المذكار أحيانا

وقد جعل صاحب الكشاف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير ، وصرح بأنه مكذوب على العرب . ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد ، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى فى معرفتها ، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتى من قوله : ﴿ **أم اتخذ مما يخلق بنات** ﴾ وقوله :﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن** ﴾ وقوله : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** ﴾ وقيل :المراد بالجزء هنا : الملائكة ؛ فإنهم جعلوهم أولادا لله سبحانه قاله مجاهد والحسن . قال الأزهرى : ومعنى الآية : أنهم جعلوا لله من عباده نصيبا على معنى أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان ﴿ **إن الإنسان لكفور مبين** ﴾ أى ظاهر الكفران مبالغ فيه . قيل : المراد بالإنسان هنا : الكافر ، فإنه الذى يجحد نعم الله عليه جحودا بينًا . ثم أنكر عليهم هذا فقال: ﴿ **أم اتخذ مما يخلق بنات** ﴾ وهذا استفهام تقريع وتوبيخ . وأم هى المنقطعة ، والمعنى: اتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿**وأصفاكم بالبنين** ﴾ فجعل لنفسه المفضول من الصنفين ولكم الفاضل منهما ، يقال أصفيته بكذا ، أى آثرته به، وأصفيته الود : أخلصته له ، ومثل هذه الآية قوله :﴿ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى﴾ [النجم: ٢١ ، ٢٢] وقوله: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ [الإسراء : ٤٠] وجملة : ﴿**وأصفاكم** ﴾ معطوفة على ﴿**اتخذ**﴾ داخلة معها تحت الإنكار .

ثم زاد فى تقريعهم وتوبيخهم فقال : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا** ﴾ أى بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات ، والمعنى : أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره ، وهو معنى قوله: ﴿ **ظل وجهه مسودا** ﴾ أى صار وجهه مسودّا بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكرا مكانها ﴿ **وهو كظيم** ﴾ أى شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه . قال قتادة : حزين . وقال عكرمة : مكروب . وقيل : ساكت، وجملة : ﴿ **وهو كظيم** ﴾ فى محل نصب على الحال . ثم زاد فى توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ **أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين** ﴾ معنى ﴿ **ينشأ** ﴾ : يربى ، والنشوء : التربية، والحلية : الزينة ، و « من » فى محل نصب بتقدير مقدر معطوف على ﴿ **جعلوا** ﴾ ، والمعنى : أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى فى الزينة وهو عاجز عن أن يقوم بأمور نفسه، وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته ودفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه ؟ قال المبرد : تقدير الآية : أو يجعلون له من ينشأ فى الحلية ، أى ينبت فى الزينة ؟ قرأ الجمهور : « ينشأ » بفتح الياء وإسكان النون ، وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وثاب وحفص وحمزة والكسائى وخلف بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين . واختار القراءة الأولى أبوحاتم، واختار الثانية أبو عبيد . قال الهروى : الفعل على القراءة الأولى لازم ، وعلى الثانية متعد . والمعنى : يربى ويكبر فى الحلية . قال قتادة : قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها . وقال ابن زيد والضحاك : الذى ينشأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب وفضة.

﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا** ﴾ الجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشىء كما تقول : جعلت زيدا أفضل الناس ، أى قلت بذلك وحكمت له به . قرأ الكوفيون : ﴿**عباد**﴾ بالجمع ، وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقون : ﴿ **عند الرحمن** ﴾ بنون ساكنة ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ؛ ولأن الله إنما كذبهم فى قولهم : إنهم بنات الله فأخبرهم أنهم عباده ، ويؤيد هذه القراءة قوله : ﴿ بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء : ٢٦] واختار أبو حاتم القراءة الثانية ، قال : وتصديق هذه القراءة قوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] . ثم وبخهم وقرعهم فقال : ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ أى أحضروا خلق الله إياهم فهو من الشهادة التى هى الحضور ، وفى هذا تهكم بهم وتجهيل لهم . قرأ الجمهور: ﴿**أشهدوا**﴾ على الاستفهام بدون واو . وقرأ نافع : « أو اشهدوا » . وقرأ الجمهور : ﴿ **ستكتب شهادتهم** ﴾ بضم التاء الفوقية وبناء الفعل للمفعول ورفع شهادتهم ، وقرأ السلمى وابن السميفع وهبيرة عن حفص بالنون وبناء الفعل للفاعل ونصب شهادتهم ، وقرأ أبو رجاء: « شهاداتهم » بالجمع ، والمعنى : سنكتب هذه الشهادة التى شهدوا بها فى ديوان أعمالهم لنجازيهم على ذلك ﴿ **ويسألون** ﴾ عنها يوم القيامة . ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم** ﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاؤوا به للاستهزاء والسخرية ، ومعناه : لو شاء الرحمن فى زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة ، وهذا كلام حق يراد به باطل ، وقد مضى بيانه فى الأنعام ، فبين سبحانه جهلهم بقوله : ﴿ **ما لهم بذلك من علم** ﴾ أى ما لهم بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم من علم ، بل تكلموا بذلك جهلا ، وأرادوا بما صورته صورة الحق باطلا ، وزعموا أنه إذا شاء فقد رضى . ثم بين انتفاء علمهم بقوله : ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى ماهم إلا يكذبون فيما قالوا ويتمحلون تمحلا باطلا . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** ﴾ قاله قتادة ومقاتل

والكلبي، وقال مجاهد وابن جريج : أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن أول ما خلق الله من شيء القلم ، وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة والكتاب عنده ، ثم قرأ : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ (١) . وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحا**﴾ قال : أحببتم أن يصفح عنكم ولم تفعلوا ما أمرتم به . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثا ثم قال : ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله :﴿ **وما كنا له مقرنين** ﴾قال : مطيقين. وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿ **أو من ينشأ في الحلية**﴾ قال :هو النساء فرق بين زيهن وزي الرجال ونقصهن من الميراث وبالشهادة وأمرهن بالقعدة وسماهن الخوالف . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: كنت أقرأ هذا الحرف ﴿ **الذين هم عند الرحمن إناثا** ﴾ فسألت ابن عباس فقال: عباد الرحمن؟ قلت : فإنها في مصحفي ﴿ **عند الرحمن** ﴾ قال : فامحها واكتبها ﴿ **عباد الرحمن** ﴾ .

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن

(١) ابن جرير ٢٥/ ٣٠.

(٢) مسلم في الحج (١٣٤٢/ ٤٢٥) وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩) والترمذي في الدعوات (٣٤٤٧) وقال : «حديث حسن غريب » والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٣٨٢) وصححه الحاكم ٢/ ٢٥٤ ووافقه الذهبي.

يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **أم آتيناهم كتابا من قبله**﴾ أم هى المنقطعة ،أى بل أأعطيناهم كتابا من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ؟ ﴿**فهم به مستمسكون** ﴾ يأخذون بما فيه ويحتجون به ويجعلونه لهم دليلا، ويحتمل أن تكون أم معادلة لقوله : ﴿**أشهدوا** ﴾ ، فتكون متصلة ، والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا . . . إلخ . وقيل : إن الضمير فى : ﴿**من قبله** ﴾ يعود إلى ادعائهم ، أى أم آتيناهم كتابا من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه ، والأول أولى . ثم بين سبحانه أنه لا حجة بأيديهم ولا شبهة ، ولكنهم اتبعوا آباءهم فى الضلالة فقال : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم ، ومعنى ﴿**على أمة**﴾ : على طريقة ومذهب . قال أبو عبيد : هى الطريقة والدين ، وبه قال قتادة وغيره. قال الجوهرى : والأمة : الطريقة والدين ، يقال : فلان لا أمة له ، أى لا دين له ولا نحلة ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

كـنا على أمة آبـائـنا ويقتدى الآخر بالأوّل

وقول الآخر :

وهل يستوى ذو أمة وكفور

وقال الفراء وقطرب : على قبلة . وقال الأخفش : على استقامة ، وأنشد قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

قرأ الجمهور : ﴿ **أمة** ﴾ بضم الهمزة ، وقرأ مجاهد وقتادة وعمر بن عبد العزيز بكسرها . قال الجوهرى : والإمة بالكسر : النعمة ، والإمة : أيضا لغة فى الأمة ، ومنه قول عدى بن زيد :

ثم بعد الفلاح والملك والإمـ ـة وارتـهم هناك القبور

ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى هذه المقالة وقال بها فقال : ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾. ﴿**مترفوها**﴾: أغنياؤها ورؤساؤها. قال قتادة : ﴿ **مقتدون** ﴾ : متبعون ، ومعنى الاهتداء والاقتداء متقارب ، وخصص المترفين تنبيها على أن التنعم هو سبب إهمال النظر . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يرد عليهم ، فقال : ﴿ **قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم** ﴾ أى أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ، قال

الزجاج: المعنى : قل لهم أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى منه . قرأ الجمهور: ﴿ **قل أو لو جئتكم**﴾ وقرابن عامر وحفص :﴿ **قال أو لو جئتكم** ﴾ وهو حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم ، أى قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته . وقيل : إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء وقومهم ، كأنه قال لكل نبى قل ، بدليل قوله : ﴿ **قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ .

وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه ، فإن هؤلاء المقلدة فى الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم ويتبعون آثارهم ويقتدون بهم . فإذا رام الداعى إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير ولا حجة واضحة ، بل بمجرد قال . وقيل : لشبهة داحضة وحجة زائفة ومقالة باطلة ، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، أو بما يلاقى معناه معنى ذلك ، فإن قال لهم الداعى إلى الحق : قد جمعتنا الملة الإسلامية وشملنا هذا الدين المحمدى ، ولم يتعبدنا الله ولا تعبدكم وتعبد آباءكم من قبلكم إلا بكتابه الذى أنزله على رسوله وبما صح عن رسوله ، فإنه المبين لكتاب الله الموضح لمعانيه ،الفارق بين محكمه ومتشابهه. فتعالوا نرد ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله كما أمرنا الله بذلك فى كتابه بقوله : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [النساء : ٥٩] فإن الرد إليهما أهدى لنا ولكم من الرد إلى ما قاله أسلافكم ودرج عليه آباؤكم ، نفروا نفور الوحوش ، ورموا الداعى لهم إلى ذلك بكل حجر ومدر ، كأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ [النور : ٥١] ولا قوله : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] فإن قال لهم القائل : هذا العالم الذى تقتدون به وتتبعون أقواله هو مثلكم فى كونه متعبدا بكتاب الله وسنة رسوله ، مطلوبا منه ما هو مطلوب منكم ، وإذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل ، فذلك رخصة له لا يحل أن يتبعه غيره عليها، ولا يجوز له العمل بها ، وقد وجدوا الدليل الذى لم يجده ، وها أنا أوجدكموه فى كتاب الله ، أوفيما صح من سنة رسوله ، وذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : لا نعمل بهذا ولا سمع لك ولا طاعة، ووجدوا فى صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب والسنة ، ولم يسلموا ذلك ولا أذعنوا له ، وقد وهب لهم الشيطان عصى يتوكؤون عليها عند أن يسمعوا من يدعوهم إلى الكتاب والسنة ، وهى أنهم يقولون : إن إمامنا الذى قلدناه واقتدينا به أعلم منك بكتاب الله وسنة رسوله ، وذلك لأن أذهانهم قد تصورت من يقتدون به تصورا عظيما بسبب تقدم العصر وكثرة الأتباع ، وما علموا أن هذا منقوض عليهم مدفوع به فى وجوههم ، فإنه لو قيل لهم : إن فى التابعين من هو أعظم قدرا ، وأقدم عصرا من صاحبكم، فإن كان لتقدم العصر وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء ، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصرا وأجل قدرا ، فإن أبيتم ذلك ، ففى الصحابة رضى الله عنهم من هو أعظم قدرا من

صاحبكم علما وفضلا وجلالة قدر ، فإن أبيتم ذلك ، فها أنا أدلكم على من هو أعظم قدرا وأجل خطرا وأكثر أتباعا وأقدم عصرا ، وهو محمد بن عبد الله نبينا ونبيكم ورسول الله إلينا وإليكم فتعالوا فهذه سنته موجودة فى دفاتر الإسلام ودواوينه التى تلقتها جميع هذه الأمة قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر ، وهذا كتاب ربنا خالق الكل ورازق الكل موجد الكل ،بين أظهرنا موجود فى كل بيت ، وبيد كل مسلم لم يلحقه تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص ولا تحريف ولا تصحيف ، ونحن وأنتم ممن يفهم ألفاظه ويتعقل معانيه ، فتعالوا لنأخذ الحق من معدنه ونشرب صفو الماء من منبعه ، فهو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : لا سمع ولا طاعة ، إما بلسان المقال أوبلسان الحال ، فتدبر هذا وتأمله إن بقى فيك بقية من إنصاف ، وشعبة من خير ومزعة من حياء وحصة من دين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقد أوضحت هذا غاية الإيضاح فى كتابى الذى سميته « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فارجع إليه إن رمت أن تنجلى عنك ظلمات التعصب وتتقشع لك سحائب التقليد . ﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم نوح وعاد وثمود ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ من تلك الأمم ، فإن آثارهم موجودة .

﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه** ﴾ أى واذكر لهم وقت قوله لأبيه وقومه الذين قلدوا آباءهم وعبدوا الأصنام ﴿ **إننى براء مما تعبدون** ﴾ البراء مصدر نعت به للمبالغة ، وهو يستعمل للواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث . قال الجوهرى : وتبرأت من كذا وأنا منه براء وخلاء ، لا يثنى ولا يجمع ؛ لأنه مصدر فى الأصل، ثم استثنى خالقه من البراءة فقال : ﴿ **إلا الذى فطرنى** ﴾ أى خلقنى ﴿ **فإنه سيهدين** ﴾ سيرشدنى لدينه ويثبتنى على الحق ، والاستثناء إما منقطع ، أى لكن الذى فطرنى ، أو متصل من عموم ما ، لأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام ، وإخباره بأنه سيهديه جزما لثقته بالله سبحانه وقوة يقينه ﴿**وجعلها كلمة باقية فى عقبه** ﴾ الضمير فى : ﴿ **جعلها** ﴾ عائد إلى قوله : ﴿**إلا الذى فطرنى** ﴾ وهى بمعنى التوحيد كأنه قال : وجعل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم وهم ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه، وفاعل جعلها : إبراهيم ، وذلك حيث وصاهم بالتوحيد وأمرهم بأن يدينوا به كما فى قوله : ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ الآية [البقرة : ١٣٢] ، وقيل : الفاعل هو الله عز وجل، أى وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم ، والعقب : من بعد . قال مجاهد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال عكرمة : هى الإسلام . قال ابن زيد: الكلمة هى قوله :﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة:١٣١] ، وجملة : ﴿**لعلهم يرجعون** ﴾ تعليل للجعل ، أى جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد. وقيل: الضمير فى :﴿ **لعلهم** ﴾ راجع إلى أهل مكة ، أى لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذى هو دين إبراهيم . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير : فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها ... إلخ . قال السدى : لعلهم يتوبون ، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله .

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال : ﴿ **بل متعت هؤلاء وآباءهم**﴾ أضرب عن الكلام الأول إلى ذكر ما متعهم به من الأنفس والأهل والأموال وأنواع النعم وما متع به آباءهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ، فاغتروا بالمهلة وأكبوا على الشهوات ﴿ **حتى جاءهم الحق** ﴾ يعنى : القرآن ﴿**ورسول مبين** ﴾ يعنى : محمدا ﷺ ، ومعنى ﴿ **مبين** ﴾ : ظاهر الرسالة واضحها ، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه . ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق فقال : ﴿ **ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ أى جاحدون ، فسموا القرآن سحرا وجحدوه . واستحقروا رسول الله ﷺ ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ المراد بالقريتين : مكة والطائف، وبالرجلين : الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف كذا قال قتادة وغيره . وقال مجاهد وغيره : عتبة بن ربيعة من مكة ، وعمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وقيل غير ذلك . وظاهر النظم أن المراد : رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسوّد فى قومه ، والمعنى : أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾ يعنى : النبوة أو ما هو أعم منها ، والاستفهام للإنكار .

ثم بين أنه سبحانه هو الذى قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** ﴾ ولم نفوض ذلك إليهم ، وليس لأحد من العباد أن يتحكم فى شيء بل الحكم لله وحده ، وإذا كان الله سبحانه هو الذى قسم بينهم أرزاقهم ورفع درجات بعضهم على بعض فكيف لا يقنعون بقسمته فى أمر النبوة وتفويضها إلى من يشاء من خلقه . قال مقاتل : يقول : أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ؟ قرأ الجمهور : ﴿ **معيشتهم** ﴾ بالإفراد ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن :« معايشهم » بالجمع ومعنى ﴿**رفعنا بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ أنه فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض فى الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم . ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال : ﴿ **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾ أى ليستخدم بعضهم بعضا ، فيستخدم الغنى الفقير، والرئيس المرؤوس ، والقوى الضعيف والحر العبد والعاقل من هو دونه فى العقل والعالم الجاهل ، وهذا فى غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين ، فجعل البعض محتاجا إلى البعض لتحصل المواساة بينهم فى متاع الدنيا ، ويحتاج هذا إلى هذا ، ويصنع هذا لهذا ، ويعطى هذا هذا . قال السدى وابن زيد: ﴿ **سخريا** ﴾ : خولا [1] وخدما ، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك : ليملك بعضهم بعضا . وقيل : هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء ، وهذا وإن كان مطابقا للمعنى اللغوى،

---

(١) فى المطبوعة : « سخرنا خولنا وخدما » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ولكنه بعيد من معنى القرآن ومناف لما هو مقصود السياق ﴿ **ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ يعنى بالرحمة : ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة . وقيل : هى النبوة لأنها المراد بالرحمة المتقدمة فى قوله : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولا أو بدلا ، ومعنى ﴿ **مما يجمعون** ﴾ : ما يجمعونه من الأموال وسائر متاع الدنيا .

ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده فقال : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** ﴾ أى لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلا إلى الدنيا وزخرفها ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة** ﴾ جمع الضمير فى بيوتهم وأفرده فى يكفر باعتبار معنى من ولفظها ، ولبيوتهم بدل اشتمال من الموصول . والسقف جمع سقف . قرأ الجمهور بضم السين والقاف كرَهْن ورُهُن . قال أبو عبيدة : ولا ثالث لهما . وقال الفراء : هو جمع سقيف نحو كثيب وكثب ورغيف ورغف . وقيل : هو جمع سقوف فيكون جمعا للجمع . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد ومعناه الجمع لكونه للجنس . قال الحسن : معنى الآية : لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله وقال بهذا أكثر المفسرين . وقال ابن زيد : لولا أن يكون الناس أمة واحدة فى طلب الدنيا واختيارهم لها على الآخرة . وقال الكسائى : المعنى : لولا أن يكون فى الكفار غنى وفقير ، وفى المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها ﴿ **ومعارج عليها يظهرون** ﴾ المعارج : الدرج جمع معراج ، والمعراج : السلم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحدة مَعْرَج ومِعْرَج مثل : مَرْقاة ومِرْقاة ، والمعنى : فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون ، أى على المعارج يرتقون ويصعدون ، يقال : ظهرت على البيت ، أى علوت سطحه ، ومنه قول النابغة :

بلغنا السماء مجدا وفخرا وسؤددا ۝ وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أى مصعدا ﴿ **ولبيوتهم أبوابا وسررا** ﴾ أى وجعلنا لبيوتهم أبوابا من فضة وسررا من فضة ﴿ **عليها يتكئون** ﴾ أى على السرر وهو جمع سرير . وقيل : جمع أسرة فيكون جمعا للجمع ، والاتكاء والتوكؤ : التحامل على الشىء ، ومنه : ﴿ **أتوكأ عليها** ﴾ [طه : ١٨] واتكأ على الشىء فهو متكئ ، والموضع متكأ ، والزخرف : الذهب . وقيل : الزينة أعم من أن تكون ذهبا أو غيره . قال ابن زيد : هو ما يتخذه الناس فى منازلهم من الأمتعة والأثاث . وقال الحسن : النقوش وأصله الزينة ، يقال : زخرفت الدار ، أى زينتها ، وانتصاب ﴿ **زخرفا** ﴾ بفعل مقدر ، أى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا ، أو بنزع الخافض ، أى أبوابا وسررا من فضة ومن ذهب، فلما حذف الخافض انتصب . ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به فى الدنيا فقال : ﴿ **وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا** ﴾ قرأ الجمهور : « لما » بالتخفيف وقرأ عاصم وحمزة وهاشم عن ابن عامر بالتشديد . فعلى القراءة الأولى تكون إن هى المخففة من

الثقيلة ، وعلى القراءة الثانية هى النافية . و«لما »بمعنى إلا ، أى ما كل ذلك إلا شىء يتمتع به فى الدنيا . وقرأ أبو رجاء بكسر اللام من « لما » على أن اللام للعلة وما موصولة والعائد محذوف ، أى للذى هو متاع ﴿ **والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ أى لمن اتقى الشرك والمعاصى وآمن بالله وحده وعمل بطاعته ، فإنها الباقية التى لا تفنى ونعيمها الدائم الذى لا يزول .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ قال : على دين . وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿**وجعلها كلمة باقية** ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ **فى عقبه** ﴾ قال : عقب إبراهيم ولده . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا أنه سئل عن قول الله : ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ ما القريتان ؟ قال : الطائف ومكة ، قيل : فمن الرجلان ؟ قال : عمير بن مسعود ، وخيار قريش . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والعظيم الوليد بن المغيرة القرشى وحبيب بن عمير الثقفى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : يعنون أشرف من محمد الوليد بن المغيرة من أهل مكة ومسعود بن عمرو الثقفى من أهل الطائف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لولا أن يكون الناس أمة واحدة** ﴾ الآية يقول : لولا أن أجعل [(١)] الناس كلهم كفارا لجعلت لبيوت الكفار سقفا من فضة ومعارج من فضة ، وهى درج عليها يصعدون إلى الغرف وسرر فضة ، وزخرفا : وهو الذهب . وأخرج الترمذى وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء » [(٢)] .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن** ﴾ يقال : عشوت إلى النار : قصدتها ، وعشوت عنها أعرضت عنها، كما تقول : عدلت إلى فلان وعدلت عنه ، وملت إليه وملت عنه ، كذا

---

(١) فى المطبوعة : « لولا أن نفعل » والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير ٢٥/ ٤١ .

(٢) الترمذى فى الزهد (٢٣٢٠) وقال : « حديث صحيح غريب من هذا الوجه » وابن ماجة فى الزهد (٤١١٠) وفى الزوائد : « فى إسناده زكريا بن منظور وهو ضعيف وفيه أن أصل المتن صحيح » .

قال الفراء والزجاج وأبو الهيثم والأزهرى . فالمعنى : ومن يعرض عن ذكر الرحمن . قال الزجاج : معنى الآية أن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله ويلازمه قرينا له ، فلا يهتدى مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين . وقال الخليل : العشو : النظر الضعيف ، ومنه :

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جديب

والظاهر أن معنى البيت : القصد إلى النار، لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل، فيكون دليلا على ماقدمنا من أنه يأتى بمعنى القصد وبمعنى الإعراض ، وهكذا ما أنشده الخليل مستشهدا به على ما قاله من قول الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فإن الظاهر أن معناه : تقصد إلى ضوء ناره ، لا تنظر إليها ببصر ضعيف . ويمكن أن يقال : إن المعنى فى البيتين : المبالغة فى ضوء النار وسطوعها ، بحيث لا ينظرها الناظر إلا كما ينظر من هو معشى البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من عظم وقودها . وقال أبو عبيدة والأخفش : إن معنى ﴿ **ومن يعش** ﴾ : ومن تظلم عينه ، وهو نحو قول الخليل، وهذا على قراءة الجمهور : ﴿ **ومن يعش** ﴾ بضم الشين من عشا يعشو . وقرأ ابن عباس وعكرمة : « ومن يعش » بفتح الشين ، يقال : عشى الرجل يعشى عشيا : إذا عمى ، ومنه قول الأعشى:

رأت رجلا غائب الوافديــ ـــن مختلف الخلق أعشى ضريرا

وقال الجوهرى : والعشا مقصور ،مصدر الأعشى : وهو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمرأة عشواء. وقرئ : «يعشو » بالواو على أن « من » موصولة غير متضمنة معنى الشرط . قرأ الجمهور: ﴿ **نقيض له شيطانا** ﴾ بالنون وقرأ السلمى وابن أبى إسحاق ويعقوب وعصمة عن عاصم والأعمش ، بالتحتية مبنيا للفاعل ، وقرأ ابن عباس بالتحتية مبنيا للمفعول ورفع شيطان على النيابة ﴿ **فهو له قرين** ﴾ أى ملازم له لا يفارقه أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه فى جميع أموره ويطيعه فى كل ما يوسوس به إليه ﴿**وإنهم ليصدونهم عن السبيل**﴾ أى وإن الشياطين الذين قيضهم الله لكل أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن كما هو معنى من ﴿**ليصدونهم**﴾ ، أى يحولون بينهم وبين سبيل الحق ويمنعونهم منه ، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق ما يوسوسون به ، وهو معنى قوله : ﴿ **ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ أى يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم ، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم فى أنفسهم مهتدون ﴿ **حتى إذا جاءنا** ﴾ قرأ الجمهور بالتثنية ، أى الكافر والشيطان المقارن له ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص بالإفراد ،أى الكافر أو جاء كل واحد منهما ﴿ **قال** ﴾ الكافر مخاطبا للشيطان :﴿ **يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين** ﴾ أى بعد ما

بين المشرق والمغرب ، فغلب المشرق على المغرب . قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم فى السنة من مشرق أقصر يوم فى السنة ، والأول أولى ، وبه قال الفراء **﴿فبئس القرين﴾** المخصوص بالذم محذوف ، أى أنت أيها الشيطان .

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة **﴿ إذ ظلمتم ﴾** أى لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا ، وقيل : إن « إذ » بدل من اليوم لأنه تبين فى ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسهم فى الدنيا . قرأ الجمهور : **﴿أنكم فى العذاب مشتركون ﴾** بفتح أن على أنها وما بعدها فى محل رفع على الفاعلية ، أى لن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب . قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شىء من العذاب لأن لكل أحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه. وقيل: إنها للتعليل لنفى النفع، أى لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا ، ويقوى هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن. ثم ذكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة والوعظ من سبقت له الشقاوة فقال: **﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ﴾** الهمزة لإنكار التعجب ، أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وإخبار له أنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، وقوله : **﴿ ومن كان فى ضلال مبين ﴾** عطف على العمى ، أى إنك لا تهدى من كان كذلك ، ومعنى الآية : أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصم الذين لا يعقلون ما جئت به ، وبمنزلة العمى الذين لا يبصرونه لإفراطهم فى الضلالة وتمكنهم من الجهالة **﴿ فإما نذهبن بك ﴾** بالموت قبل أن ينزل العذاب بهم **﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾** إما فى الدنيا أو فى الآخرة . وقيل : المعنى : نخرجنك من مكة **﴿ أو نرينك الذى وعدناهم ﴾** من العذاب قبل موتك **﴿فإنا عليهم مقتدرون﴾** متى شئنا عذبناهم . قال كثير من المفسرين : قد أراه الله ذلك يوم بدر . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبى ﷺ من الفتن ، وقد كان بعد النبى ﷺ فتنة شديدة، فأكرم الله نبيه ﷺ وذهب به فلم يره فى أمته شيئا من ذلك ، والأول أولى .

﴿ فاستمسك بالذى أوحى إليك ﴾ أى من القرآن وإن كذب به من كذب **﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾** أى طريق واضح ، والجملة تعليل لقوله : **﴿ فاستمسك ﴾ ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾** أى وإن القرآن لشرف لك ولقومك من قريش إذ نزل عليك وأنت منهم بلغتك ولغتهم ومثله قوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾ [الأنبياء : ١٠] وقيل : بيان لك ولأمتك فيما لكم إليه حاجة ، وقيل : تذكرة تذكرون بها أمر الدين وتعملون به **﴿ وسوف تسألون ﴾** عما جعله الله لكم من الشرف ، كذا قال الزجاج والكلبى وغيرهما . وقيل : يسألون عما يلزمهم من القيام بما فيه والعمل به **﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** قال الزهرى وسعيد بن جبير وابن زيد : إن جبريل قال ذلك للنبى ﷺ لما أسرى به . فالمراد :سؤال الأنبياء فى ذلك الوقت عند ملاقاته لهم ، وبه قال جماعة من السلف . وقال المبرد والزجاج وجماعة من العلماء : إن المعنى : واسأل أمم من قد أرسلنا .

وبه قال مجاهد والسدى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن : ومعنى الآية على القولين : سؤالهم هل أذن الله بعبادة الأوثان فى ملة من الملل وهل سوغ ذلك لأحد منهم ؟ والمقصود : تقريع مشركى قريش بأن ما هم عليه لم يأت فى شريعة من الشرائع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن عثمان المخزومى أن قريشا قالت : قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيضوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو فى القوم ، فقال أبو بكر : إلام تدعونى ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى . قال أبو بكر: وما اللات ؟ قال أولاد الله . قال : وما العزى . قال : بنات الله . قال أبو بكر : فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه ، فقال لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأنزل الله : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن**﴾ الآية . وثبت فى صحيح مسلم وغيره أن مع كل إنسان قرينا من الجن (١) . وأخرج ابن مردويه عن على فى قوله : ﴿ **فإما نذهبن بك** ﴾ قال : ذهب نبيه ﷺ وبقيت نقمته فى عدوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو نرينك الذى وعدناهم** ﴾ قال : يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عنه فى قوله : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك**﴾ قال : شرف لك ولقومك . وأخرج ابن عدى وابن مردويه عن على وابن عباس قالا : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور ، فإذا قالوا: لمن الملك بعدك ؟ أمسك فلم يجبهم بشىء لأنه لم يؤمر فى ذلك بشىء حتى نزلت : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ فكان بعد إذا سئل قال : لقريش فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك (٢) . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا** ﴾ قال: اسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)

---

(١) مسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٤/ ٦٩) والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣٠٦ .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٣/ ٤٣٦ .

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

لما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد ، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النقمة فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ وهى التسع التى تقدم بيانها ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ الملأ:الأشراف ﴿ **فقال إنى رسول رب العالمين** ﴾ أرسلنى إليكم ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون**﴾ استهزاء وسخرية ، وجواب لما هو إذا الفجائية ، لأن التقدير : فوجئوا وقت ضحكهم ﴿ **وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها** ﴾ أى كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها ، وأعظم قدرا ، مع كون التى قبلها عظيمة فى نفسها . وقيل : المعنى: إن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح ، ومعنى الأخوة بين الآيات : أنها متشاكلة متناسبة فى دلالتها على صحة نبوة موسى كما يقال : هذه صاحبة هذه ، أى هما قرينتان فى المعنى، وجملة : ﴿ **إلا هى أكبر من أختها** ﴾ فى محل جر صفة لآية ، وقيل : المعنى : أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات . ومثل هذا قول القائل :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها السارى

﴿ **وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون** ﴾ أى بسبب تكذيبهم بتلك الآيات ، والعذاب هو المذكور فى قوله:﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾ الآية [الأعراف: ١٣٠]، وبين سبحانه أن العلة فى أخذه لهم بالعذاب هو رجاء رجوعهم .ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات والدلالات الواضحات ،ظنوا أن ذلك من قبيل السحر.﴿ **وقالوا يا أيه الساحر** ﴾ وكانوا يسمون العلماء سحرة ويوقرون السحرة ويعظمونهم ولم يكن السحر صفة ذم عندهم . قال الزجاج : خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر﴿ **ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أى بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب. وقيل: المراد بالعهد : النبوة ، وقيل: استجابة الدعوة على العموم ﴿ **إننا لمهتدون** ﴾ أى إذا كشف عنا العذاب الذى نزل بنا فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان، ومؤمنون بما جئت به.﴿ **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾ فى الكلام حذف، والتقدير: فدعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب، فلما كشف عنهم العذاب فوجئوا وقت نكثهم للعهد الذى جعلوه على أنفسهم من الاهتداء، والنكث : النقض .

﴿ **ونادى فرعون فى قومه** ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى ، فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم أو أمر مناديا ينادى بقوله : ﴿ **يا قوم أليس لى ملك مصر** ﴾ لا ينازعنى فيه أحد ولا يخالفنى مخالف ﴿ **وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ أى من تحت قصرى، والمراد : أنهار النيل . وقال قتادة : المعنى : تجرى بين يدى . وقال الحسن : تجرى بأمرى ، أى تجرى تحت أمرى . وقال الضحاك : أراد بالأنهار: القواد والرؤساء والجبابرة وأنهم يسيرون

تحت لوائه . وقيل : أراد بالأنهار: الأموال ، والأول أولى . والواو فى : ﴿**وهذه**﴾ عاطفة على ملك مصر ، و﴿ **تجرى** ﴾ فى محل نصب على الحال أو هى واو الحال ، واسم الإشارة مبتدأ ، والأنهار صفة له ، وتجرى خبره ، والجملة فى محل نصب ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ ذلك وتستدلون به على قوة ملكى وعظيم قدرى وضعف موسى عن مقاومتى ﴿ **أم أنا خير من هذا الذى هو مهين** ﴾ أم :هى المنقطعة المقدرة ببل التى للإضراب دون الهمزة التى للإنكار ، أى بل أنا خير . قال أبو عبيدة : أم بمعنى بل، والمعنى : قال فرعون لقومه : بل أنا خير . وقال الفراء : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله . وقيل : هى زائدة، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة ، والمعنى : أنا خير من هذا . وقال الأخفش : فى الكلام حذف ، والمعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون ؟ ثم ابتدأ فقال : ﴿**أنا خير**﴾ وروى عن الخليل وسيبويه نحو قول الأخفش ، ويؤيد هذا أن عيسى الثقفى ويعقوب الحضرمى وقفا على « أم » على تقدير أم تبصرون ، فحذف لدلالة الأول عليه ، وعلى هذا فتكون أم متصلة لا منقطعة والأول أولى . ومثله قول الشاعر الذى أنشده الفراء :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى وصـورتهـا أم أنت فى العـين أمـلح ؟

أى بل أنت . وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ : « أما أنا خير » ؟ أى ألست خيرا من هذا الذى هو مهين ، أى ضعيف حقير ممتهن فى نفسه لا عز له ﴿ **ولا يكاد يبين** ﴾ الكلام لما فى لسانه من العقدة ، وقد تقدم بيانه فى سورة طه . ﴿ **فلولا ألقى عليه أساورة من ذهب** ﴾ أى فهلا حلى بأساورة الذهب إن كان عظيما ، وكان الرجل فيهم إذا سودوه سوروه بسوار من ذهب، وطوقوه بطوق من ذهب . قرأ الجمهور : ﴿ **أساورة** ﴾ جمع أسورة جمع سوار . وقال أبو عمرو بن العلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير أسوار ، وهى لغة فى سوار . وقرأ حفص : ﴿ **أسورة** ﴾ جمع سوار ، وقرأ أبى : «أساور » ، وابن مسعود : « أساوير » . قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلا سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسيادته. ﴿ **أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ معطوف على ألقى، والمعنى : هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقا يعينونه على أمره ويشهدون له بالنبوة، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الجبابرة ومحفوفين بالملائكة .

﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾ أى حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله وكيده وغروره ، فأطاعوه فيما أمرهم به ، وقبلوا قوله وكذبوا موسى ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . قال ابن الأعرابى : المعنى : فاستجهل قومه فأطاعوه بخفة أحلامهم وقلة عقولهم ، يقال : استخفه الفرح ، أى أزعجه ، واستخفه ، أى حمله ، ومنه : ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ [الروم : ٦٠] وقيل : استخف قومه ، أى وجدهم خفاف العقول وقد استخف بقومه وقهرهم حتى اتبعوه ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم** ﴾ قال المفسرون : أغضبونا، والأسف :الغضب . وقيل : أشد الغضب ، وقيل : السخط . وقيل : المعنى :

أغضبوا رسلنا. ثم بين العذاب الذى وقع به الانتقام فقال : ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ فى البحر ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ أى قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار فى استحقاق العذاب . قرأ الجمهور : ﴿ سلفا ﴾ بفتح السين واللام جمع سالف كخدم وخادم، ورصد وراصد ، وحرس وحارس ، يقال : سلف يسلف : إذا تقدم ومضى . قال الفراء والزجاج : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ، وقرأ حمزة والكسائى : « سلفا » بضم السين واللام . قال الفراء : هو جمع سليف، نحو سرر وسرير . وقال أبو حاتم : هو جمع سلف نحو خشب وخشب . وقرأ على وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنخعى وحميد بن قيس بضم السين وفتح اللام جمع سلفة وهى الفرقة المتقدمة نحو غرف وغرفة ، كذا قال النضر بن شميل ﴿ ومثلا للآخرين ﴾ أى عبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم ، أو قصة عجيبة تجرى مجرى الأمثال .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ قال : كانت بموسى لثغة فى لسانه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ فلما آسفونا ﴾ قال : أسخطونا . وأخرجا عنه أيضا : ﴿ آسفونا ﴾ قال : أغضبونا ، وفى قوله: ﴿ سلفا ﴾ قال : أهواء مختلفة. وأخرج أحمد والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب وابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له » ، وقرأ : ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة فقال : تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ، ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا

---

(١) أحمد ٤/ ١٤٥ والطبرانى ٧/ ٢٣٠ ، ٢٣١ (٩١٣٠) والبيهقى فى الشعب (٤٢٢٠) ورجاله كلهم ثقات .

الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾ .

لما قال سبحانه : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلها كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ، فأنزل الله: ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلا** ﴾ كذا قال قتادة ومجاهد . وقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى مجادلة ابن الزبعرى مع النبى ﷺ لما نزل قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقال ابن الزبعرى : خصمتك ورب الكعبة ، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة ؟ ففرح بذلك من قوله ، فأنزل الله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ونزلت هذه الآية المذكورة هنا ، وقد مضى هذا فى سورة الأنبياء . ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله وباطل برمته ، فإن الله سبحانه قال : ﴿إنكم وما تعبدون ﴾ ولم يقل : «ومن تعبدون » حتى يدخل فى ذلك العقلاء كالمسيح وعزير والملائكة ﴿ **إذا قومك منه يصدون** ﴾ أى إذا قومك يامحمد من ذلك المثل المضروب يصدون ، أى يضجون ويصيحون فرحا بذلك المثل المضروب ، والمراد بقومه هنا : كفار قريش. قرأ الجمهور : ﴿ **يصدون** ﴾ بكسر الصاد ، وقرأ نافع وابن عامر والكسائى بضمها . قال الكسائى والفراء والزجاج والأخفش : هما لغتان ومعناهما : يضجون قال : الجوهرى : صدّ يصدّ صديدا: أى ضجّ. وقيل: إنه بالضم: الإعراض، وبالكسر من الضجيج ، قاله قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق لقال: إذا قومك عنه يصدون. وقال الفراء: هما سواء منه وعنه. وقال أبو عبيدة : من ضم فمعناه: يعدلون، ومن كسر فمعناه : يضجون.

﴿ **وقالوا أ آلهتنا خير أم هو** ﴾ أى أ آلهتنا خير أم المسيح ؟ قال السدى وابن زيد : خاصموه وقالوا : إن كان كل من عبد غير الله فى النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة . وقال قتادة : يعنون محمدا ، أى أ آلهتنا خير أم محمد ؟ ويقوى هذا قراءة ابن مسعود : أآلهتنا خير أم هذا . قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين ، وقرأ الكوفيون ويعقوب بتحقيقها .﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلا** ﴾ أى ما ضربوا لك هذا المثل فى عيسى إلا ليجادلوك ، على أن جدلا منتصب على العلة ، أو مجادلين على أنه مصدر فى موضع الحال ، وقرأ ابن مقسم : « جدالا » ﴿ **بل هم قوم خصمون** ﴾ أى شديدو الخصومة كثيرو اللدد عظيمو الجدل . ثم بين سبحانه أن عيسى ليس برب وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته فقال : ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه** ﴾ بما أكرمناه به ﴿**وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل** ﴾ أى آية وعبرة لهم يعرفون به قدرة الله سبحانه ، فإنه كان من غير أب، وكان يحيى الموتى ، ويبرئ الأكمة والأبرص ،

وكل مريض ﴿ **ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون** ﴾ أى لو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، أى يخلفونكم فيها. قال الأزهرى : ومن قد تكون للبدل كقوله ﴿ **لجعلنا منكم** ﴾ يريد : بدلا منكم . وقيل : المعنى : لو نشاء لجعلنا من بنى آدم ملائكة . والأول أولى . ومقصود الآية : أنا لو نشاء لأسكنا الملائكة الأرض وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا . وقيل معنى ﴿ **يخلفون** ﴾ : يخلف بعضهم بعضا .

﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ قال مجاهد والضحاك والسدى وقتادة: إن المراد: المسيح، وإن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطا من أشراطها ؛ لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة .وقال الحسن وسعيد بن جبير: المراد: القرآن ؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، وبه يعلم وقتها وأهوالها وأحوالها .وقيل: المعنى: أن حدوث المسيح من غير أب وإحياءه للموتى دليل على صحة البعث . وقيل: الضمير لمحمد ﷺ ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ **لعلم** ﴾ بصيغة المصدر جعل المسيح علما مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو مالك الغفارى وقتادة ومالك بن دينار والضحاك وزيد بن على بفتح العين واللام ، أى خروجه علم من أعلامها ، وشرط من شروطها ،وقرأ أبو نضرة وعكرمة: « وإنه للعلم » بلامين مع فتح العين واللام،أى للعلامة التى يعرف بها قيام الساعة ﴿ **فلا تمترن بها** ﴾ أى فلا تشكن فى وقوعها ولا تكذبن بها ، فإنها كائنة لا محالة ﴿**واتبعون هذا صراط مستقيم** ﴾ أى اتبعونى فيما آمركم به من التوحيد وبطلان الشرك، وفرائض الله التى فرضها عليكم، وهذا الذى آمركم به وأدعوكم إليه طريق قيم موصل إلى الحق . قرأ الجمهور بحذف الياء من ﴿ **اتبعون** ﴾ وصلا ووقفا ، وكذلك قرؤوا بحذفها فى الحالين فى ﴿ **أطيعون** ﴾ وقرأ يعقوب بإثباتها وصلا ووقفا فيهما وقرأ أبو عمرو وهى رواية عن نافع بحذفها فى الوصل دون الوقف ﴿ **ولا يصدنكم الشيطان** ﴾ أى لا تغتروا بوساوسه وشبهه التى يوقعها فى قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعى ، فإن الذى دعوتكم إليه هو دين الله الذى اتفق عليه رسله وكتبه . ثم علل نهيهم عن أن يصدهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال: ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ أى مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتم به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بنى آدم إلا عباد الله المخلصين .

﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات** ﴾ أى جاء إلى بنى إسرائيل بالمعجزات الواضحة والشرائع . قال قتادة : البينات هنا : الإنجيل ﴿ **قال قد جئتكم بالحكمة** ﴾ أى النبوة . وقيل : الإنجيل . وقيل : ما يرغب فى الجميل ويكف عن القبيح ﴿ **ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه** ﴾ من أحكام التوراة . وقال قتادة : يعنى اختلاف الفرق الذين تحزبوا فى أمر عيسى . قال الزجاج : الذى جاء به عيسى فى الإنجيل إنما هو بعض الذى اختلفوا فيه ، فبين لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم . وقال أبو عبيدة : إن البعض هنا بمعنى الكل كما فى قوله: ﴿ **يصبكم بعض الذى يعدكم**﴾

[غافر : ٢٨] وقال مقاتل :هوكقوله :﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾ [آل‌عمران: ٥٠] يعنى : ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة كلحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت واللام فى: ﴿ **ولأبين لكم** ﴾ معطوفة على مقدر كأنه قال : قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم . ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال : ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أى اتقوا معاصيه ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والشرائع ﴿ **إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه** ﴾ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى عبادة الله وحده والعمل بشرائعه ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ قال مجاهد والسدى : الأحزاب هم : أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وقال الكلبى ومقاتل : هم فرق النصارى اختلفوا فى أمر عيسى . قال قتادة : ومعنى ﴿ **من بينهم** ﴾ : أنهم اختلفوا فيما بينهم . وقيل : اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى ، والأحزاب هى الفرق المتحزبة ﴿ **فويل للذين ظلموا** ﴾ من هؤلاء المختلفين ، وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه ﴿ **من عذاب يوم أليم** ﴾ أى أليم عذابه وهو يوم القيامة ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة** ﴾ أى هل يرتقب هؤلاء الأحزاب وينتظرون إلا الساعة ﴿ **أن تأتيهم بغتة** ﴾ أى فجأة ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ أى لا يفطنون بذلك ، وقيل : المراد بالأحزاب : الذين تحزبوا على النبى ﷺ وكذبوه ، وهم المرادون بقوله : ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة** ﴾ والأول أولى .

﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو** ﴾ أى الأخلاء فى الدنيا المتحابون فيها ،يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدو، أى يعادى بعضهم بعضا ؛ لأنها قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه ، ووجدوا تلك الأمور التى كانوا فيها أخلاء أسبابا للعذاب فصاروا أعداء . ثم استثنى المتقين فقال : ﴿ **إلا المتقين** ﴾ فإنهم أخلاء فى الدنيا والآخرة ؛ لأنهم وجدوا تلك الخلة التى كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلتهم على حالها . ﴿ **يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ أى يقال لهؤلاء المتقين المتحابين فى الله بهذه المقالة ، فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾ الموصول يجوز أن يكون نعتا لعبادى ، أو بدلا منه ، أو عطف بيان له ، أو مقطوعا عنه فى محل نصب على المدح ، أو فى محل رفع بالابتداء وخبره ﴿ **ادخلوا الجنة** ﴾ على تقدير : يقال لهم : ادخلوا الجنة . والأول أولى ، وبه قال الزجاج . قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد يا عبادى لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم ، فيقال : الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين . قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو : « يا عبادى » بإثبات الياء ساكنة وصلا ووقفا ، وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش بإثباتها وفتحها فى الحالين ، وقرأ الباقون بحذفها فى الحالين ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم** ﴾ المراد بالأزواج : نساؤهم المؤمنات . وقيل : قرناؤهم من المؤمنين . وقيل : زوجاتهم من الحور العين ﴿ **تحبرون** ﴾ : تكرمون. وقيل : تنعمون . وقيل: تفرحون. وقيل :

تسرون . وقيل : تعجبون ، وقيل : تلذذون بالسماع ، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب** ﴾ الصحاف جمع صحفة : وهى القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائى : أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ، وهى تشبع عشرة ، ثم الصحفة ، وهى تشبع خمسة ، ثم المكيلة وهى تشبع الرجلين والثلاثة ، والمعنى : أن لهم فى الجنة أطعمة يطاف عليهم بها فى صحاف الذهب ولهم فيها أشربة يطاف عليهم بها فى الأكواب وهى جمع كوب . قال الجوهرى : الكوب : كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى :

صريفية طيب طعمها لها زبد بين كوب ودنّ

وقال آخر :

متكئا تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

قال قتادة : الكوب : المدوّر القصير العنق القصير العروة ، والإبريق : المستطيل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش : الأكواب : الأباريق التى لا خراطيم لها . وقال قطرب : هى الأباريق التى ليست لها عرى . ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين** ﴾ قرأ الجمهور : «تشتهى » وقرأ نافع وابن عامر وحفص : ﴿ **تشتهيه** ﴾ بإثبات الضمير العائد على الموصول، والمعنى : ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائنا ما كان ، وتلذ الأعين من كل المستلذات التى تستلذ بها وتطلب مشاهدتها ، تقول: لذ الشىء يلذ لذاذا ولذاذة : إذا وجده لذيذا والتذ به ، وفى مصحف عبد الله بن مسعود : «تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين » ﴿ **وأنتم فيها خالدون** ﴾ لا تموتون ولا تخرجون منها ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أى يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة ، أى صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة ، واسم الإشارة مبتدأ ، والجنة صفته ، والتى أورثتموها صفة للجنة ، والخبر بما كنتم تعملون ، وقيل : الخبر الموصول مع صلته ، والأول أولى ﴿ **لكم فيها فاكهة كثيرة** ﴾ الفاكهة معروفة ، وهى الثمار كلها رطبها ويابسها ، أى لهم فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف ﴿**منها تأكلون** ﴾ « من » تبعيضية أو ابتدائية ، وقدم الجار لأجل الفاصلة .

وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال لقريش : «إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير » ، قالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا وقد عبدته النصارى ؟ فإن كنت صادقا فإنه كآلهتهم ، فأنزل الله : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون** ﴾ (١) قلت : وما يصدون ؟ قال :

---

(١) أحمد ٣١٧/١ ، ٣١٨ والطبرانى (١٢٧٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠٧/٧ : « فيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره ، وهو سيئ الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح » .

«يضجون» ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : « خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة » . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا ﴾ (١) . وقد ورد فى ذم الجدال بالباطل أحاديث كثيرة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن المشركين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : أرأيت ما نعبد من دون الله أين هم ؟ قال : « فى النار»، قالوا : والشمس والقمر ؟ قال:« والشمس والقمر » قالوا : فعيسى ابن مريم قال : « قال الله : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ » . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور ومسدد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى من طرق عنه فى قوله: ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : خروج عيسى قبل يوم القيامة . وأخرجه الحاكم وابن مردويه عنه مرفوعا(٢) . وأخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ :« إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام ، وقلت الأنساب ، وذهبت الأخوة إلا الأخوة فى الله ، وذلك قوله : ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وحميد بن زنجويه فى ترغيبه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ قال : خليلان مؤمنان وخليلان كافران توفى أحد المؤمنين فبشر بالجنة ، فذكر خليله وقال : اللهم إن خليلى فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر وينبئنى أنى ملاقيك ، اللهم لا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى وترضى عنه كما رضيت عنى ، فيقال له : اذهب ؛ فلو تعلم ماله عندى لضحكت كثيرا ولبكيت قليلا ، ثم يموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل ؛ وإذا مات أحد الكافرين بشر بالنار ، فيذكر خليله ، فيقول اللهم إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير وينبئنى أنى غير ملاقيك ، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى وتسخط عليه كما سخطت على ، فيموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الأكواب الجرار من الفضة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار ،

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥٦ والترمذى فى التفسير (٣٢٥٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (٤٨) وابن جرير ٢٥/ ٥٣ والطبرانى (٨٠٦٧) وصححه الحاكم ٢/ ٤٤٧ ، ٤٤٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٨٤٣٨) .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٤٨ ووافقه الذهبى .

فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة ، وذلك قوله : ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها ﴾ » .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **إن المجرمين** ﴾ أى أهل الإجرام الكفرية ، كما يدل عليه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره الله سبحانه قبل هذا ﴿ **فى عذاب جهنم خالدون** ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبدا ﴿ **لا يفتر عنهم** ﴾ أى لا يخفف عنهم ذلك العذاب ، والجملة فى محل نصب على الحال ﴿ **وهم فيه مبلسون** ﴾ أى آيسون من النجاة ، وقيل : ساكتون سكوت يأس، وقد مضى تحقيق معناه فى الأنعام ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ أى ما عذبناهم بغير ذنب ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿**ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب . قرأ الجمهور : ﴿ **الظالمين** ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، والضمير ضمير فصل. وقرأ أبو زيد النحوى: « الظالمون » بالرفع على أن الضمير مبتدأ وما بعده خبره ، والجملة خبر كان ﴿ **ونادوا يا مالك** ﴾ أى نادى المجرمون هذا النداء ، ومالك هو خازن النار . قرأ الجمهور : ﴿ **يا مالك** ﴾ بدون ترخيم . وقرأ على وابن مسعود ويحيى بن وثاب والأعمش : « يا مال » بالترخيم ﴿ **ليقض علينا ربك** ﴾ بالموت ، توسلوا بمالك إلى الله سبحانه ليسأله لهم أن يقضى عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب ﴿ **قال إنكم ماكثون** ﴾ أى مقيمون فى العذاب. قيل : سكت عن إجابتهم ثمانين سنة، ثم أجابهم بهذا الجواب. وقيل: سكت عنهم ألف عام. وقيل :مائة سنة. وقيل : أربعين سنة.

﴿ **لقد جئناكم بالحق** ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويحتمل أن يكون من كلام مالك ، والأول أظهر ؛ والمعنى : إنا أرسلنا إليكم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب فدعوكم

فلم تقبلوا ولم تصدقوا ، وهو معنى قوله: ﴿ **ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ لا يقبلونه ؛ والمراد بالحق : كل ما أمر الله به على ألسن رسله وأنزله فى كتبه . وقيل : هو خاص بالقرآن. قيل : ومعنى ﴿ **أكثركم** ﴾ : كلكم . وقيل : أراد الرؤساء والقادة ، ومن عداهم أتباع لهم ﴿ **أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون** ﴾ أم :هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة : أى بل أبرموا أمرا . وفى ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء ، والإبرام : الإتقان والإحكام ، يقال : أبرمت الشىء: أحكمته وأتقنته ، وأبرم الحبل: إذا أحكم فتله ، والمعنى : بل أحكموا كيدا للنبى ﷺ فإنا محكمون لهم كيدا ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ [الطور: ٤٢] وقيل : المعنى : أم قضوا أمرا فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب، قاله الكلبى . ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم** ﴾ أى بل أيحسبون أنا لا نسمع ما يسرون به فى أنفسهم ، أو ما يتحادثون به سرا فى مكان خال وما يتناجون به فيما بينهم ﴿ **بلى** ﴾ نسمع ذلك ونعلم به ﴿**ورسلنا لديهم يكتبون**﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو معطوفة على الجملة التى تدل عليها بلى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار قولا يلزمهم به الحجة ويقطع ما يوردونه من الشبهة فقال : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ أى إن كان له ولد فى قولكم وعلى زعمكم فأنا أول من عبد الله وحده ؛ لأن من عبد الله وحده فقد دفع أن يكون له ولد ، كذا قال ابن قتيبة . وقال الحسن والسدى : إن المعنى ما كان للرحمن ولد ، ويكون قوله : ﴿**فأنا أول العابدين** ﴾ ابتداء كلام . وقيل : المعنى : قل يا محمد : إن ثبت لله ولد ، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذى تزعمون ثبوته ، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد . وفيه نفى للولد على أبلغ وجه وأتم عبارة وأحسن أسلوب ، وهذا هو الظاهر من النظم القرآنى ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وإنا وإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ [سبأ : ٢٤] ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره : إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به، فتكون « إن » فى : ﴿ **إن كان** ﴾شرطية ، ورجح هذا ابن جرير وغيره . وقيل : معنى ﴿ **العابدين** ﴾ : الآنفين من العبادة ، وهو تكلف لا ملجئ إليه، ولكنه قرأ أبو عبد الرحمن اليمانى : «العبدين» بغير ألف ، يقال : عبد يعبد عبدا بالتحريك : إذا أنف وغضب فهو عبد ، والاسم العبدة مثل الأنفة ، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى: ﴿ **فأنا أول العابدين** ﴾ وليس بمستبعد ولا مستنكر . وقد حكى الجوهرى عن أبى عمرو فى قوله : ﴿ **فأنا أول العابدين**﴾ أنه من الأنف والغضب . وحكاه الماوردى عن الكسائى والقتيبى ، وبه قال الفراء . وكذا قال ابن الأعرابى : إن معنى ﴿ **العابدين** ﴾: الغضاب الآنفين . وقال أبو عبيدة : معناه : الجاحدين ، وحكى : عبدنى حقى ، أى جحدنى ، وقد أنشدوا على هذا المعنى الذى قالوه قول الفرزدق :

أولئك أجلاسى فجئنى بمثلهم ... وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

وقوله أيضا :

أولئك أناس لو هجونى هجوتهم ... وأعبد أن يهجى كليب بدارم

ولا شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف أو غضب ثابت فى لغة العرب وكفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة ، ولكن جعل ما فى القرآن من هـذا ، من التكلف الذى لا ملجئ إليه ومن التعسف الواضح . وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال : عبد يعبد فهو عبد ، وقل ما يقال: عابد ، والقرآن لا يأتى بالقليل من اللغة ولا الشاذ . قرأ الجمهور : ﴿ **ولد** ﴾ بالإفراد ، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما : « ولد » بضم الواو وسكون اللام ﴿ **سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ أى تنزيها له وتقديسا عما يقولون من الكذب بأن له ولدا ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه . وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه ، وإن كان من تمام كلام رسوله الذى أمره بأن يقوله؛ فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه وتقديسه ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا** ﴾ أى اترك الكفار حيث لم يهتدوا بما هديتهم به ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا فى أباطيلهم ويلهوا فى دنياهم ﴿ **حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ وهو يوم القيامة. وقيل: العذاب فى الدنيا. قيل: وهذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو غير منسوخ وإنما أخرج مخرج التهديد . قرأ الجمهور : ﴿ **يلاقوا** ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن وحميد وابن السميفع : « حتى يلقوا » بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو .

﴿ **وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله** ﴾ الجار والمجرور فى الموضعين متعلق بإله لأنه بمعنى معبود أومستحق للعبادة ، والمعنى : وهو الذى معبود فى السماء ومعبود فى الأرض ، أو مستحق للعبادة فى السماء والعبادة فى الأرض . قال أبو على الفارسى :﴿ **وإله** ﴾ فى الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى وهو الذى فى السماء هو إله وفى الأرض هو إله ، وحسن حذفه لطول الكلام ، قال : والمعنى على الإخبار بإلاهيته ، لا على الكون فيهما . قال قتادة : يعبد فى السماء والأرض ، وقيل : فى بمعنى على ، أى هو القادر على السماء والأرض كما فى قوله : ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ [طه : ٧١] وقرأ عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وابن مسعود : « وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله» على تضمين العلم معنى المشتق فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحيثية ﴿ **وهو الحكيم العليم** ﴾ أى البليغ الحكمة الكثير العلم ﴿ **وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ تبارك : تفاعل من البركة وهى كثرة الخيرات ، والمراد بما بينهما : الهواء وما فيه من الحيوانات ﴿ **وعنده علم الساعة** ﴾ أى علم الوقت الذى يكون قيامها فيه ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير وشر، وفيه وعيد شديد . قرأ الجمهور : ﴿ **ترجعون** ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن كثير وحمزة

والكسائى بالتحتية ﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة** ﴾ أى لا يملك من يدعونه من دون الله من الأصنام ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم . قرأ الجمهور ﴿**يدعون**﴾ بالتحتية ، وقرأ السلمى وابن وثاب بالفوقية ﴿ **إلا من شهد بالحق** ﴾ أى التوحيد ﴿**وهم يعلمون**﴾ أى هم على علم وبصيرة بما شهدوا به ، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلا ، والمعنى: إلا من شهد بالحق ، وهم المسيح وعزير والملائكة ، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها . وقيل : هو منقطع ، والمعنى : لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء . ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفا، أى لا يملكون الشفاعة فى أحد إلا فيمن شهد بالحق . قال سعيد ابن جبير وغيره : معنى الآية : أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة . وقال قتادة : لا يشفعون لعابديها ، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية . وقيل : مدار الاتصال فى هذا الاستثناء ، على جعل الذين يدعون عاما لكل ما يعبد من دون الله ، ومدار الانقطاع ،على جعله خاصا بالأصنام .

﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام : من خلقهم ؟ أقروا واعترفوا بأن خالقهم الله ولا يقدرون على الإنكار ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه ﴿ **فأنى يؤفكون** ﴾ أى فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان وعبده مع الله أو عبده وحده ؛ فقد عبد بعض مخلوقات الله ، وفى هذا من الجهل ما لا يقادر قدره . يقال : أفكه يأفكه إفكا : إذا قلبه وصرفه عن الشىء . وقيل: المعنى : ولئن سألت المسيح وعزيرا والملائكة من خلقهم ؟ ليقولن :الله ، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار فى اتخاذهم لها آلهة . وقيل : المعنى : ولئن سألت العابدين والمعبودين جميعا . قرأ الجمهور : « وقيله » بالنصب عطفا على محل الساعة ، كأنه قيل : إنه يعلم الساعة ويعلم قيله أو عطفا على سرهم ونجواهم ، أى يعلم سرهم ونجواهم ويعلم قيله ، أو عطفا على مفعول يكتبون المحذوف ، أى يكتبون ذلك ويكتبون قيله ، أو عطفا على مفعول يعلمون المحذوف ، أى يعلمون ذلك ويعلمون قيله، أو هو مصدر ، أى قال قيله ، أو منصوب بإضمار فعل ، أى الله يعلم قيل رسوله ، أو هو معطوف على محل بالحق ، أى شهد بالحق وبقيله ، أو منصوب على حذف حرف القسم . ومن المجوزين للوجه الأول المبرد وابن الأنبارى ، ومن المجوزين للثانى الفراء والأخفش ، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء والأخفش أيضا. وقرأ حمزة وعاصم : ﴿ **وقيله** ﴾ بالجر عطفا على لفظ الساعة ، أى وعنده علم الساعة وعلم قيله ، والقول والقال والقيل بمعنى واحد ، أو على أن الواو للقسم . وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج وابن هرمز ومسلم بن جندب : « وقيله » بالرفع عطفا على علم الساعة، أى وعنده علم الساعة وعنده قيله ، أو على الابتداء ، وخبره الجملة المذكورة بعده ، أو خبره محذوف تقديره وقيله كيت وكيت ، أو وقيله مسموع . قال أبو عبيد : يقال: قلت قولا

وقيلا وقالا ، والضمير فى : ﴿**وقيله**﴾ راجع إلى النبى ﷺ . قال قتادة : هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه ، وقيل : الضمير عائد إلى المسيح ، وعلى الوجهين فالمعنى : أنه قال مناديا لربه ﴿ **يارب إن هؤلاء** ﴾ الذين أرسلتنى إليهم ﴿ **قوم لا يؤمنون** ﴾ .

ثم لما نادى ربه بهذا أجابه بقوله : ﴿ **فاصفح عنهم** ﴾ أى أعرض عن دعوتهم ﴿ **وقل سلام** ﴾ أى : أمرى تسليم منكم ومتاركة لكم . قال عطاء : يريد مداراة حتى ينزل حكمى ، ومعناه : المتاركة كقوله : ﴿ سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ [القصص : ٥٥] وقال قتادة : أمره بالصفح عنهم ، ثم أمره بقتالهم فصار الصفح منسوخا بالسيف . وقيل : هى محكمة لم تنسخ ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ فيه تهديد شديد ، ووعيد عظيم من الله عز وجل . قرأ الجمهور : ﴿ **يعلمون** ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع وابن عامر بالفوقية . قال الفراء : إن « سلام » مرفوع بإضمار عليكم .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ونادوا يا مالك**﴾ قال : يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها : قرشيان وثقفى ، أو ثقفيان وقرشى ، فقال واحد منهم : ترون أن الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد منهم : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، فنزلت : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾ الآية (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن كان للرحمن ولد** ﴾ يقول : إن يكن للرحمن ولد ﴿ **فأنا أول العابدين** ﴾ قال : الشاهدين . وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **إن كان للرحمن ولد** ﴾ قال : هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط ، أى ما كان . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه .

---

(١) ابن جرير ٢٥/ ٦١ .

تفسير سورة الدخان

هى تسع وخمسون . وقيل : سبع وخمسون آية. قال القرطبى : هى مكية باتفاق إلا قوله: ﴿ إنا كاشفو العذاب﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير أن سورة الدخان نزلت بمكة. وأخرج الترمذى ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم الدّخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمرو بن أبى خثعم ضعيف . قال البخارى منكر الحديث[(١)]. وأخرج الترمذى ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم الدّخان فى ليلة جمعة أصبح مغفورا له » [(٢)]. قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وهشام بن المقدام يضعف ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد ، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وما أخرجه ابن الضريس عن الحسن مرفوعا بنحوه وهو مرسل ، وما أخرجه الدارمى ومحمد بن نصر عن أبى رافع قال : من قرأ الدّخان فى ليلة الجمعة ، أصبح مغفورا له وزوّج من الحور العين [(٣)] . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة حم الدّخان فى ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتا فى الجنة » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾ .

قوله : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ قد تقدّم فى السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام

---

(١) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٨) والبيهقى فى الشعب (٢٢٤٦) وإسناده ضعيف .

(٢) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٤٧) وإسناده ضعيف .

(٣) الدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٧ .

على هذا معنى وإعرابا، وقوله :﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ جواب القسم ، وإن جعلت الجواب ﴿ حم ﴾ كانت هذه الجملة مستأنفة ، وقد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جوابا للقسم ؛ لأنها صفة للمقسم به ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقسم، وقال الجواب : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ واختاره ابن عطية ، وقيل : إن قوله : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ جواب ثان ، أو جملة مستأنفة مقرّرة للإنزال ، وفى حكم العلة له، كأنه قال: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار ، والضمير فى : ﴿ أنزلناه ﴾ راجع إلى الكتاب المبين وهو القرآن . وقيل : المراد بالكتاب : سائر الكتب المنزلة ، والضمير فى ﴿أنزلناه﴾ راجع إلى القرآن على معنى : أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزّلة أنه أنزل القرآن ، والأوّل أولى . والليلة المباركة : ليلة القدر كما فى قوله:﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ [القدر : ١] ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصكّ، وليلة القدر. قال عكرمة: الليلة المباركة هنا : ليلة النصف من شعبان . وقال قتادة : أنزل القرآن كله فى ليلة القدر من أمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا ، ثم أنزله اللّه سبحانه على نبيه ﷺ فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة ، وقد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا فى البقرة عند قوله: ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : ١٨٥] وقال مقاتل : كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من الوحى على مقدار ما ينزل به جبريل فى السنة إلى مثلها من العام .

ووصف اللّه سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة لنزول القرآن فيها وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا ، ولكونها تتنزّل فيها الملائكة والروح كما سيأتى فى سورة القدر ، ومن جملة بركتها ما ذكره اللّه سبحانه ها هنا بقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ومعنى يفرق : يفصل ويبين من قولهم : فرقت الشيء أفرقه فرقا ، والأمر الحكيم : المحكم ، وذلك أن اللّه سبحانه يكتب فيها ما يكون فى السنة من حياة وموت وبسط وقبض وخير وشرّ وغير ذلك،كذا قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم .وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة ومابينهما اعتراض ، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها . قرأ الجمهور:﴿ يفرق ﴾ بضم الياء وفتح الراء مخففا ، وقرأ الحسن والأعمش والأعرج بفتح الياء وضم الراء ونصب كل أمر ورفع حكيم على أنه الفاعل . والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هى ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان لأن اللّه سبحانه أجملها هنا وبينها فى سورة البقرة بقوله : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ [البقرة : ١٨٥] وبقوله فى سورة القدر :﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ [القدر :١] فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف ولا ما يقتضى الاشتباه ﴿ أمرا من عندنا ﴾ قال الزجاج والفراء : انتصاب ﴿ أمرا ﴾ بـ﴿ يفرق ﴾ ، أى يفرق فرقا ؛ لأن أمراً بمعنى فرقا . والمعنى : إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك:يضرب ضربا . قال المبرد :﴿ أمرا ﴾ فى موضع المصدر ، والتقدير : أنزلناه إنزالا . وقال الأخفش : انتصابه على الحال ، أى آمرين . وقيل : هو منصوب على الاختصاص ، أى أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلا من عندنا ، وفيه تفخيم لشأن القرآن وتعظيم له . وقد ذكر بعض

أهل العلم فى انتصاب ﴿ أمرا ﴾ اثنى عشر وجها أظهرها ما ذكرناه . وقرأ زيد بن على: «أمر» بالرفع أى هو أمر ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أو جواب ثالث للقسم أو مستأنفة . قال الرازى : المعنى :إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين للأنبياء ﴿ رحمة من ربك ﴾ انتصاب ﴿ رحمة ﴾ على العلة ، أى أنزلناه للرحمة ، قاله الزجاج . وقال المبرد : إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين ، أى إنا كنا مرسلين رحمة . وقيل ، هى مصدر فى موضع الحال ، أى راحمين ، قاله الأخفش . وقرأ الحسن : « رحمة » بالرفع على تقدير هى رحمة ﴿ إنه هو السميع ﴾ لمن دعاه ﴿ العليم﴾ بكل شىء .

ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم قدرته الباهرة فقال : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ قرأ الجمهور : «ربُّ» بالرفع عطفا على السميع العليم ، أو على أنه مبتدأ وخبره ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو ربّ ، وقرأ الكوفيون :﴿ رب ﴾ بالجرّ على أنه بدل من ربك ، أو بيان له أو نعت ﴿ إن كنتم موقنين﴾ بأنه رب السموات والأرض وما بينهما ، وقد أقرّوا بذلك كما حكاه اللّه عنهم فى غير موضع ، وجملة : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها ، أو خبر رب السموات كما مرّ، وكذلك جملة : ﴿ يحيى ويميت ﴾ فإنها مستأنفة مقرّرة لما قبلها ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ ، أى هو ربكم، أو على أنه بدل من ربّ السموات ، أو بيان أو نعت له ، وقرأ الكسائى فى رواية الشيرازى عنه وابن محيصن وابن أبى إسحاق وأبو حيوة والحسن بالجرّ ، ووجه الجرّ ما ذكرناه فى قراءة من قرأ بالجرّ فى ﴿ رب السموات ﴾ ﴿ بل هم فى شك يلعبون ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم فى شكّ من التوحيد والبعث ، وفى إقرارهم بأن اللّه خالقهم وخالق سائر المخلوقات ، وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهزو ، ومحلّ ﴿ يلعبون ﴾ الرفع على أنه خبر ثان أو النصب على الحال .

﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، لأن كونهم فى شك ولعب يقتضى ذلك ، والمعنى : فانتظر لهم يا محمد يوم تأتى السماء بدخان مبين ، وقيل : المعنى : احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين ، وقد اختلف فى هذا الدخان المذكور فى الآية متى يأتى ؟ فقيل : إنه من أشراط الساعة، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوما . وقد ثبت فى الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التى تكون قبل قيام الساعة. وقيل : إنه أمر قد مضى ، وهو ما أصاب قريشا بدعاء النبىّ ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا ، وهذا ثابت فى الصحيحين وغيرهما : وذلك حين دعا عليهم النبىّ ﷺ بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، وكان الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . وقيل : إنه يوم فتح مكة، وسيأتى فى آخر البحث بيان ما يدلّ على هذه الأقوال . وقوله: ﴿ يغشى الناس ﴾ صفة ثانية لدخان ، أى يشملهم ويحيط بهم﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أى يقولون: هذا عذاب أليم، أو قائلين ذلك ، أو

يقول اللّه لهم ذلك ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أى يقولون ذلك ، وقد روى أنهم أتوا النبىّ ﷺ وقالوا : إن كشف اللّه عنا هذا العذاب ، أسلمنا ، والمراد بالعذاب: الجوع الذى كان بسببه ما يرونه من الدخان أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذى هو من آيات الساعة ، أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال . والراجح منها أنه الدخان ، الذى كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهد وشدّة الجوع ، ولا ينافى ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة ، فإن ذلك دخان آخر، ولاينافيه أيضا ما قيل إنه الذى كان يوم فتح مكة ، فإنه دخان آخر على تقدير صحة وقوعه .

﴿ **أنى لهم الذكرى** ﴾ أى كيف يتذكرون ويتعظون بما نزل بهم ، والحال أنه ﴿ **قد جاءهم رسول مبين** ﴾ يبين لهم كل شىء يحتاجون إليه من أمر الدين والدنيا ﴿ **ثم تولوا عنه** ﴾ أى أعرضوا عن ذلك الرسول الذى جاءهم ولم يكتفوا بمجرّد الإعراض عنه ، بل جاوزوه ﴿**وقالوا معلم مجنون** ﴾ أى قالوا : إنما يعلمه القرآن بشر ، وقالوا : إنه مجنون ، فكيف يتذكر هؤلاء وأنى لهم الذكرى ؟ ثم لما دعوا اللّه بأن يكشف عنهم العذاب وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب سبحانه عليهم بقوله:﴿ **إنا كاشفو العذاب قليلا** ﴾ أى إنا نكشفه عنهم كشفا قليلا أو زمانا قليلا. ثم أخبر اللّه سبحانه عنهم أنهم لاينزجرون عما كانوا عليه من الشرك ، ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان فقال :﴿ **إنكم عائدون** ﴾ أى إلى ما كنتم عليه من الشرك ، وقد كان الأمر هكذا ، فإن اللّه سبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد. وقيل : المعنى : إنكم عائدون إلينا بالبعث والنشور ، والأوّل أولى ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى** ﴾ الظرف منصوب بإضمار اذكر. وقيل : هو بدل من يوم تأتى السماء . وقيل: هو متعلق بـ ﴿ **منتقمون** ﴾ . وقيل : بما دلّ عليه منتقمون وهو ننتقم . والبطشة الكبرى : هى يوم بدر ، قاله الأكثر. والمعنى : أنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم اللّه منهم بوقعة بدر . وقال الحسن وعكرمة: المراد بها عذاب النار ، واختار هذا الزجاج ، والأوّل أولى. قرأ الجمهور :﴿ **نبطش** ﴾ بفتح النون وكسر الطاء : أى نبطش بهم ، وقرأ الحسن وأبو جعفر بضم الطاء وهى لغة ، وقرأ أبو رجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **فى ليلة مباركة** ﴾ قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر ونزل به جبريل على رسول اللّه ﷺ نجوماً لجواب الناس . وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ قال : يكتب من أمّ الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق وموت ،وحياة ومطر ، حتى يكتب الحاج : يحج فلان ، ويحج فلان . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ قال : أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة ، فإنه فى كتاب اللّه لا يبدّل ولا يغير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب قال : إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى ثم قرأ:﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ الآية ،

يعنى : ليلة القدر ، قال : ففى تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت، أوحياة أو رزق ، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها . وأخرج ابن زنجويه والديلمى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان ، حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى»(١). وأخرجه ابن أبى الدنيا وابن جرير عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس (٢). وهذا مرسل ولا تقوم به حجة ولا تعارض بمثله صرائح القرآن . وما روى فى هذا فهو إما مرسل أوغيرصحيح . وقد أورد ذلك صاحب الدرّ المنثور ، ورد ما ورد فى فضل ليلة النصف من شعبان ، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله : ﴿فى ليلة مباركة ﴾ .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود ؛ أن قريشا لما استعصت على رسول الله ﷺ وأبطؤوا عن الإسلام قال : « اللهمّ أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » . فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ الآية ، فأتى النبىّ ﷺ فقيل : يا رسول الله ، استسق الله لمضر ، فاستسقى لهم فسقوا ، فأنزل الله : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر، فقد مضى البطشة والدخان واللزام (٣). وقد روى عن ابن مسعود نحو هذا من غير وجه ، وروى نحوه عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن أبى مليكة قال : دخلت على ابن عباس فقال : لم أنم هذه الليلة ، فقلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب فخشيت أن يطرق الدخان . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح (٤) ، وكذا صححه السيوطى (٥) ، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية . وقد عرّفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة فى الدخان الذى كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدّخان من آيات الساعة وعلاماتها وأشراطها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك ، وليس فيها أنه سبب نزول الآية ، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها، والواجب التمسك بماثبت فى الصحيحين وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول ، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذى هو من أشراط الساعة كابن كثير فى تفسيره وغيره ، وهكذا يندفع قول من قال : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكا بما أخرجه ابن سعد عن أبى هريرة قال : كان يوم فتح مكة دخان وهو قول الله : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ فإن هذا لا يعارض ما فى الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضى الله عنه ظنّ من وقوع

---

(١) الديلمى (٤١٠) . (٢) ابن جرير ٢٥ / ٦٥ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٢٢) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨ / ٣٩ ، ٤٠) والنسائى فى التفسير (٥٠١).

(٤) ابن كثير ٤ / ٢٤٨ . (٥) الدر المنثور ٦ / ٢٩ .

ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، ولهذا لم يصرّح بأنه سبب نزولها .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول : هي يوم القيامة. قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح . وقال ابن كثير قبل هذا : فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدّخان بما تقدّم ، وروى أيضا عن ابن عباس من رواية العوفى عنه وعن أبىّ بن كعب وجماعة وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضا . انتهى . قلت : بل الظاهر أنه يوم بدر ، وإن كان يوم القيامة يوم بطشة أكبر من كل بطشة، فإن السياق مع قريش ، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم أولى من تفسيره بالبطشة التى تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجنّ .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ أى ابتليناهم ، ومعنى الفتنة هنا : أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله وأمروهم بما شرعه لهم فكذبوهم ، أو وسع عليهم الأرزاق فطغوا وبغوا . قال الزجاج : بلوناهم ، والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم ، وقرئ : «فتنا» بالتشديد ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أى كريم على الله كريم فى قومه. وقال مقاتل :حسن الخلق بالتجاوز والصفح . وقال الفراء :كريم على ربه إذ اختصه بالنبوّة . ﴿ أن أدوا إلى عباد الله﴾ «أن » هذه هى المفسرة لتقدّم ما هو بمعنى القول ، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، والمعنى : أن الشأن والحديث أدّوا إلىّ عباد الله ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن أدّوا ؛

والمعنى : أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بنى إسرائيل . قال مجاهد : المعنى : أرسلوا معى عباد اللّه وأطلقوهم من العذاب ، فـ ﴿ **عباد الله** ﴾ على هذا مفعول به . وقيل : المعنى : أدّوا إلىّ عباد اللّه ما وجب عليكم من حقوق اللّه ، فيكون منصوبا على أنه منادى مضاف . وقيل : أدّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم . ﴿ **إنى لكم رسول أمين** ﴾ هو تعليل لما تقدّم ، أى ﴿ **رسول** ﴾ من اللّه إليكم ﴿ **أمين** ﴾ على الرسالة غير متهم ﴿ **وأن لا تعلوا على الله** ﴾ أى لا تتجبروا وتتكبروا عليه بترفعكم عن طاعته ومتابعة رسله ، وقيل : لا تبغوا على اللّه ، وقيل : لا تفتروا عليه ، والأوّل أولى ، وبه قال ابن جريج ويحيى بن سلام ، وجملة : ﴿ **إنى آتيكم بسلطان مبين** ﴾ تعليل لما قبله من النهى ، أى بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. وقال قتادة : بعذر بين . والأوّل أولى، وبه قال يحيى بن سلام . قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿ **إنى** ﴾ وقرئ بالفتح بتقدير اللام ﴿ **وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون** ﴾ استعاذ باللّه سبحانه لما توعدوه بالقتل ، والمعنى : من أن ترجمون . قال قتادة : ترجمونى بالحجارة . وقيل : تشتمون . وقيل : تقتلون ﴿ **وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون** ﴾ أى إن لم تصدّقونى وتقرّوا بنبوّتى فاتركونى ولا تتعرّضوا لى بأذى . قال مقاتل: دعونى كفافا لا علىّ ولا لى ، وقيل : كونوا بمعزل عنى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم اللّه بيننا . وقيل: فخلوا سبيلى ، والمعنى متقارب .

ثم لما لم يصدّقوه ولم يجيبوا دعوته ، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى اللّه عنه بقوله : ﴿**فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ قرأ الجمهوربفتح الهمزة على إضمارحرف الجرّ، أى دعاه بأن هؤلاء ، وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر بكسرها على إضمارالقول ، وفى الكلام حذف ، أى فكفروا فدعا ربه ، والمجرمون : الكافرون ، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلامجرّد كونهم مجرمين ؛ لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم ﴿ **فاسر بعبادى ليلا** ﴾ أجاب اللّه سبحانه دعاءه، فأمره أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا، يقال : سرى وأسرى لغتان ، قرأ الجمهور :﴿ **فأسر**﴾ بالقطع، وقرأ أهل الحجاز بالوصل ، ووافقهم ابن كثير ، فالقراءة الأولى من أسرى ، والثانية من سرى ، والجملة بتقدير القول ، أى فقال اللّه لموسى : أسر بعبادى ﴿**إنكم متبعون** ﴾ أى يتبعكم فرعون وجنوده ، وقد تقدّم فى غير موضع خروج فرعون بعدهم ﴿ **واترك البحر رهوا** ﴾ أى ساكنا ، يقال : رها يرهو رهوا : إذا سكن لا يتحرّك . قال الجوهرى : يقال : افعل ذلك رهوا ، أى ساكنا على هيئتك ، وعيش راه ، أى ساكن ، ورها البحر سكن ، وكذا قال الهروى وغيره ، وهو المعروف فى اللغة، ومنه قول الشاعر :

والخيل تمرح رهوا فى أعنتها ... كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرد

أى والخيل تمرح فى أعنتها ساكنة ، والمعنى : اترك البحر ساكنا على صفته بعد أن ضربته بعصاك ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك وبعد بنى إسرائيل فينطبق عليهم فيغرقون . وقال أبو عبيدة : رها بين رجليه يرهو رهوا ، أى فتح . قال : ومنه قوله : ﴿**واترك البحر رهوا** ﴾ والمعنى : اتركه منفرجا كما كان بعد دخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد.

وبه قال مجاهد وغيره . قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف لفظاهما ؛ لأن البحر إذا سكن جريه انفرج . قال الهروى: ويجوز أن يكون ﴿ رهوا ﴾ نعتا لموسى ،أى سر ساكنا على هيئتك . وقال كعب والحسن:﴿رهوا﴾: طريقا . وقال الضحاك والربيع : سهلا. وقال عكرمة: يبسا، كقوله : ﴿ فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ﴾ [طه : ٧٧] وعلى كل تقدير ، فالمعنى : اتركه ذا رهو أو اتركه رهوا على المبالغة فى الوصف بالمصدر ﴿إنهم جند مغرقون ﴾ أى إن فرعون وقومه مغرقون . أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ويطمئن جأشه . قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك ، وقرئ بالفتح على تقدير: لأنهم .« كم » هى الخبرية المفيدة للتكثير ، وقد مضى الكلام فى معنى الآية فى سورة الشعراء. قرأ الجمهور : ﴿ ومقام ﴾ بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام ، وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السميفع ، وروى عن نافع بضمها اسم مكان الإقامة ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ النعمة بالفتح: التنعم،يقال :نعمه اللّه وناعمه فتنعم ، وبالكسر : المنة ، وما أنعم به عليك ، وفلان واسع النعمة، أى واسع المال ذكر معنى هذا الجوهرى. قرأ الجمهور:﴿ فاكهين ﴾ بالألف . وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة : « فكهين» بغير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى : متنعمين طيبة أنفسهم ، وعلى القراءة الثانية : أشرين بطرين . قال الجوهرى : فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا ، والفكه أيضا : الأشر البطر . قال : ﴿ وفاكهين ﴾ أى ناعمين . وقال الثعلبى : هما لغتان كالحاذر والحذر ، والفاره والفره . وقيل : إن الفاكه : هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة .

﴿ كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ الكاف فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف . قال الزجاج : أى الأمر كذلك ، ويجوز أن تكون فى محل نصب ، والإشارة إلى مصدر فعل يدلّ عليه ﴿ تركوا ﴾، أى مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وقيل : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها . وقيل : مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم . فعلى الوجه الأوّل يكون قوله : ﴿ وأورثناها ﴾ معطوفا على ﴿ تركوا ﴾ وعلى الوجوه الأخرة يكون معطوفا على الفعل المقدّر. والمراد بالقوم الآخرين : بنو إسرائيل ، فإن اللّه سبحانه ملكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ، أى أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث ، ومثل هذا قوله : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ هذا بيان لعدم الاكتراث بهلاكهم . قال المفسرون : أى إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم به ولم يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يبكى عليهم به ، والمعنى: أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء ولا من أهل الأرض ، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أى عمت مصيبته ، ومن ذلك قول جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

ومنه قول النابغة :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه خاشع متضائل

وقال الحسن : فى الكلام مضاف محذوف ، أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة والناس . وقال مجاهد : إن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحا . وقيل: إنه يبكى على المؤمن مواضع صلاته ومصاعد عمله﴿ **وما كانوا منظرين** ﴾ أى ممهلين إلى وقت آخر ، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدّة عنادهم﴿ **ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين** ﴾ أى خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد ، وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم للأعمال الشاقة ، وقوله : ﴿ **من فرعون** ﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف ، أى من عذاب فرعون ، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب فأبدل منه ، أو على أنه حال من العذاب تقديره : صادرا من فرعون ، وقرأ ابن عباس : « من فرعون » ؟بفتح الميم على الاستفهام التحقيرى كما يقال لمن افتخر بحسبه أو نسبه : من أنت ؟ . ثم بين سبحانه حاله فقال: ﴿ **إنه كان عاليا من المسرفين** ﴾ أى عاليا فى التكبر والتجبر من المسرفين فى الكفر باللّه وارتكاب معاصيه كما فى قوله : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ [القصص : ٤] . ولما بين سبحانه كيفية دفعه للضر عن بنى إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ أى اختارهم اللّه على عالمى زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، وليس المراد أنه اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله فى هذه الأمة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقيل: على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم، ومحل ﴿ **على علم** ﴾ النصب على الحال من فاعل ﴿ **اخترناهم** ﴾ ، أى حال كون اختيارنا لهم على علم منا ، و﴿ **على العالمين** ﴾ متعلق باخترناهم ﴿ **وآتيناهم من الآيات** ﴾ أى معجزات موسى ﴿ **ما فيه بلاء مبين** ﴾ أى اختبار ظاهر ، وامتحان واضح لننظر كيف يعملون . وقال قتادة: الآيات : إنجاؤهم من الغرق ، وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المنّ والسلوى لهم . وقال ابن زيد : الآيات هى الشرّ الذى كفهم عنه، والخير الذى أمرهم به. وقال الحسن وقتادة : البلاء المبين : النعمة الظاهرة كما فى قوله : ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ [الأنفال:١٧] ومنه قول زهير :

فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

والإشارة بقوله : ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ إلى كفار قريش ؛ لأن الكلام فيهم ، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم فى الإصرار على الكفر ﴿ **ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى** ﴾ أى ما هى إلا موتتنا الأولى التى نموتها فى الدنيا ولا حياة بعدها ولا بعث ، وهومعنى قوله : ﴿ **وما نحن بمنشرين** ﴾ أى بمبعوثين ، وليس فى الكلام قصد إلى إثبات موتة أخرى ، بل المراد : ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ، قال الرازى : المعنى : أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى ، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلا ، وهو

حجة داحضة ، فقالوا : ﴿ **فأتوا بآبائنا** ﴾ أى أرجعوهم بعد موتهم إلى الدنيا ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تقولونه وتختبرونا به من البعث . ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **أهم خير أم قوم تبع** ﴾ أى أهم خير فى القوّة والمنعة ، أم قوم تبع الحميرى الذى دار فى الدنيا بجيوشه وغلب أهلها وقهرهم ، وفيه وعيد شديد . وقيل : المراد بقوم تبع :جميع أتباعه لا واحد بعينه. وقال الفراء : الخطاب فى قوله : ﴿ **فأتوا بآبائنا** ﴾ لرسول اللّه ﷺ وحده كقوله: ﴿ رب ارجعون ﴾ [المؤمنون : ٩٩] والأولى أنه خطاب له ولأتباعه من المسلمين ، والمراد بـ﴿ **الذين من قبلهم** ﴾ عاد وثمود ونحوهم ، وقوله :﴿ **أهلكناهم** ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم وعاقبة أمرهم ، وجملة : ﴿ **إنهم كانوا مجرمين** ﴾ تعليل لإهلاكهم ، والمعنى : أن اللّه سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين ، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرما مع ضعفه وقصور قدرته بالأولى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد فتنا** ﴾ قال : ابتلينا ﴿ **قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم** ﴾ قال : هو موسى ﴿ **أن أدوا إلى عباد الله** ﴾ أرسلوا معى بنى إسرائيل ﴿ **وأن لا تعلوا على الله** ﴾ قال : لا تعتوا ﴿ **إنى آتيكم بسلطان مبين** ﴾ قال : بعذر مبين ﴿ **وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون** ﴾ قال : بالحجارة ﴿ **وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون** ﴾ أى خلوا سبيلى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **أن أدوا إلى عباد الله** ﴾ قال : يقول : اتبعونى إلى ما أدعوكم إليه من الحق ، وفى قوله : ﴿ **وأن لا تعلوا على الله** ﴾ قال : لا تفتروا وفى قوله :﴿ **أن ترجمون** ﴾ قال : تشتمون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **رهوا** ﴾ قال : سمتا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **رهوا** ﴾ قال : كهيئة وامضة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا أنه سأل كعبا عن قوله : ﴿ **واترك البحر رهوا** ﴾ قال: طريقا. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أيضا قال : الرّهو أن يترك كما كان . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله :﴿ **ومقام كريم**﴾ قال المنابر . وأخرج ابن مردويه عن جابر مثله .

وأخرج الترمذى وابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والخطيب عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من عبد إلا وله بابان : باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » ، وتلا هذه الآية : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ [1] وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام صالح فتفقدهم فتبكى عليهم. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب نحوه من قول ابن

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٥) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.» ، وموسى بن عبيدة ، ويزيد بن أبان الرقاشى يضعفانْ فى الحديث » وأبو يعلى (٤١٣٣) وإسناده ضعيف ، وأبو نعيم فى الحلية ٣ / ٥٣ .

عباس . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : يقال : الأرض تبكى على المؤمن أربعين صباحا . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمى مرسلا قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، ألا لا غربة على مؤمن ، مامات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء والأرض » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ ثم قال : « إنهما لا يبكيان على كافر » (١) . وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علىّ بن أبى طالب قال : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم تلا الآية . وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : إن الأرض لتبكى على ابن آدم أربعين صباحا ثم قرأ الآية . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه عن النبىّ ﷺ قال : «لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم » (٢) . وأخرجه أحمد والطبرانى وابن ماجة وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ فذكر مثله(٣) ، وروى نحو هذا عن غيرهما من الصحابة والتابعين .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾ .

قوله : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى بين جنسى السماء والأرض

(١) ابن جرير ٢٥ / ٧٥ .

(٢) الطبرانى (١١٧٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ٧٩ : « فيه أحمد بن أبى بزة المكى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) أحمد ٥/ ٣٤٠ والطبرانى (٦٠١٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ٧٩: « فيه عمرو بن جابر وهو كذاب ».

﴿لاعبين﴾ أى لغير غرض صحيح. قال مقاتل: لم نخلقهما عابثين لغير شيء. وقال الكلبي: لاهين، وقيل: غافلين. قرأ الجمهور: ﴿وما بينهما﴾ وقرأ عمرو بن عبيد: «وما بينهنّ» لأن السموات والأرض جمع، وانتصاب ﴿لاعبين﴾ على الحال ﴿ما خلقناهما﴾ أى وما بينهما ﴿إلا بالحق﴾ أى إلا بالأمر الحق، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال. وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أى الأمر كذلك وهم المشركون. ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ أى إن يوم القيامة الذى يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم، أى الوقت المجعول لتمييز المحسن من المسيء والمحق من المبطل، ﴿أجمعين﴾ لا يخرج عنهم أحد من ذلك. وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر «إن» واسمها ﴿يوم الفصل﴾. وأجاز الكسائى والفراء نصبه على أنه اسمها و «يوم الفصل» خبرها.

ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا﴾ ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل، أى يفصل بينهم يوم لا يغنى، ولا يجوز أن يكون معمولا للفصل؛ لأنه قد وقع الفصل بينهم بأجنبى، والمعنى: أنه لا ينفع فى ذلك اليوم قريب قريبا، ولا يدفع عنه شيئا، ويطلق المولى على الوليّ، وهو القريب والناصر ﴿ولا هم ينصرون﴾ الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى، لأنه نكرة فى سياق النفى وهى من صيغ العموم، أى ولا هم يمنعون من عذاب الله ﴿إلا من رحم الله﴾ قال الكسائى: الاستثناء منقطع، أى لكن من رحم الله، وكذا قال الفراء. وقيل: هو متصل، والمعنى: لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤذن لهم فى الشفاعة فيشفعون، ويجوز أن يكون مرفوعا على البدل من ﴿مولى﴾ الأوّل، أو من الضمير فى ﴿ينصرون﴾ ﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾ أى الغالب الذى لا ينصر من أراد عذابه، الرحيم لعباده المؤمنين.

ثم لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار، فقال: ﴿إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم﴾ شجرة الزقوم: هى الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم فى سورة الصافات. والأثيم: الكثير الإثم. قال فى الصحاح: أثم الرجل بالكسر إثما ومأثما: إذا وقع فى الإثم فهو آثم وأثيم وأثوم، فمعنى طعام الأثيم: ذى الإثم ﴿كالمهل﴾ وهو درديّ الزيت وعكر القطران. وقيل: هو النحاس المذاب. وقيل: كلّ مايذوب فى النار ﴿تغلى فى البطون. كغلى الحميم﴾ قرأ الجمهور: ﴿تغلى﴾ بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، والجملة خبر ثان أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف، أى تغلى غليا مثل غلى الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة. وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن وورش عن يعقوب: ﴿يغلى﴾ بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، وهو فى معنى الشجرة، ولا يصح أن يكون الضمير عائدا إلى المهل لأنه مشبه به، وإنما يغلى ما يشبه بالمهل، وقوله: ﴿كغلى الحميم﴾ صفة مصدر

محذوف : أى غليا كغلى الحميم . ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ أى يقال للملائكة الذين هم خزنة النار : خذوه ، أى الأثيم ، فاعتلوه ، العتل : القود بالعنف، يقال : عتله يعتله ، إذا جره وذهب به إلى مكروه . وقيل : العتل : أن يأخذ بتلابيب الرجل ومجامعه فيجره ، ومنه قول الشاعر يصف فرسا :

نفرعه فرعًا ولسنا نعتله

ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا :

حتى تردّ إلى عطية تعتل

قرأ الجمهور : ﴿ فاعتلوه ﴾ بكسر التاء . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بضمها ، وهما لغتان ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أى إلى وسطه، كقوله: ﴿ فرآه فى سواء الجحيم ﴾ [الصافات: ٥٥] ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ « من » هى التبعيضية ، أى صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع ، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان ، أى عذاب هو الحميم ، وهو الماء الشديد الحرارة كما تقدّم ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أى وقولوا له تهكما وتقريعا وتوبيخا : ذق العذاب إنك أنت العزيز الكريم . وقيل : إن أبا جهل كان يزعم أنه أعزّ أهل الوادى وأكرمهم ، فيقولون له : ذق العذاب أيها المتعزّز المتكرم فى زعمك وفيما كنت تقوله . قرأ الجمهور : ﴿ إنك ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ الكسائى ـ وروى ذلك عن علىّ ـ بفتحها أى لأنك . قال الفراء : أى بهذا القول الذى قلته فى الدنيا ، والإشارة بقوله : ﴿ إن هذا ﴾ إلى العذاب ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ أى تشكون فيه حين كنتم فى الدنيا ، والجمع باعتبار جنس الأثيم .

ثم ذكر سبحانه مستقرّ المتقين فقال : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين ﴾ أى الذين اتقوا الكفر والمعاصى . قرأ الجمهور : ﴿ مقام ﴾ بفتح الميم ، وقرأ نافع وابن عامر بضمها . فعلى القراءة الأولى هو موضع القيام ، وعلى القراءة الثانية هو موضع الإقامة قاله الكسائى وغيره . وقال الجوهرى : قد يكون كل واحد منهما بمعنى : موضع القيام . ثم وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف ﴿ فى جنات وعيون ﴾ بدل من ﴿ مقام أمين ﴾ ، أو بيان له ، أوخبر ثان ﴿ يلبسون من سندس وإستبرق ﴾ خبر ثان أو ثالث أوحال من الضمير المستكنّ فى الجار والمجرور ، والسندس : ما رقّ من الديباج ، والإستبرق : ما غلظ منه ، وقد تقدّم بيانه فى سورة الكهف ، وانتصاب ﴿ متقابلين ﴾ على الحال من فاعل ﴿ يلبسون ﴾ ، أى متقابلين فى مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض ، والكاف فى قوله : ﴿ كذلك ﴾ إما نعت مصدر محذوف ، أى نفعل بالمتقين فعلا كذلك . أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر كذلك ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أى أكرمناهم بأن زوّجناهم بحور عين ، والحور : جمع حوراء ، وهى البيضاء ، والعين : جمع عيناء ، وهى الواسعة العينين . وقال مجاهد : إنما سميت الحوراء حوراء ؛ لأنه يحار الطرف فى حسنها ، وقيل :هو من حور العين : وهو شدّة

بياض العين فى شدّة سـوادها كذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعى: ما أدرى ما الحور فى العين. قال أبو عمرو : الحور أن تسودّ العين كلها مثل أعين الظباء والبقر ، قال : وليس فى بنى آدم حور، وإنما قيل للنساء : حور ؛ لأنهنّ شبهن بالظباء والبقر . قيل : والمراد بقوله : ﴿زوجناهم﴾ قرناهم وليس من عقد التزويج ، لأنه لا يقال: زوّجته بامرأة . وقال أبو عبيدة : وجعلناهم أزواجا لهن كما يزوج البعل بالبعل ، أى جعلناهم اثنين اثنين ، وكذا قال الأخفش ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ أى يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم آمنين من التخثم والأسقام والآلام . قال قتادة : آمنين من الموت والوصب والشيطان . وقيل : من انقطاع ما هم فيه من النعيم .

﴿ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أى لا يموتون فيها أبدا إلا الموتة التى ذاقوها فى الدنيا ، والاستثناء منقطع ، أى لكن الموتة التى قد ذاقوها فى الدنيا ، كذا قال الزّجاج والفراء وغيرهما ، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] وقيل : إن « إلا » بمعنى : بعد ، كقولك : ما كلمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك ، أى بعد رجل عندك . وقيل : هى بمعنى : سوى ، أى سوى الموتة الأولى . وقال ابن قتيبة : إنما استثنى الموتة الأولى وهى فى الدنيا ؛ لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته إلى أسباب من الجنة يلقون الروح والريحان، ويرون منازلهم من الجنة ، وتفتح لهم أبوابها ، فإذا ماتوا فى الدنيا فكأنهم ماتوا فى الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها ، فيكون الاستثناء على هذا متصلا . واختار ابن جرير أن إلا بمعنى بعد ، واختار كونها بمعنى: سـوى ابن عطيـة . ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ قـرأ الجمهور :﴿ وقاهم ﴾ بالتخفيف ، وقرأ أبوحيوة بالتشديد على المبالغة ﴿ فـضلا من ربك ﴾ أى لأجل الفضل منه ، أو أعطاهم ذلك عطاء فضلا منه ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أى ذلك الذى تقدّم ذكره هو الفوز الذى لا فوز بعده، المتناهى فى العظم .

ثم لما بين سبحانه الدلائل وذكر الوعد والوعيد ، قال : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ أى إنما أنزلنا القرآن بلغتك كى يفهمه قومك ، فيتذكروا ويعتبروا ويعملوا بما فيه ، أو سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه لعلهم يتذكرون ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ أى فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم على يدك فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت أو غيره. وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم ، فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر ، والمعنى متقارب .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ يقول: لست بعزيز ولا كريم . وأخرج الأموى فى مغازيه عن عكرمة قال : لقى رسـول الله ﷺ أبا جهـل ، فقال : « إن الله أمـرنى أن أقـول لك: ﴿ أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى ﴾ » [القيامة : ٣٤ ، ٣٥] قال : فنزع يده من يده وقال : ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من

شيء ، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ **إن شجرت الزقوم. طعام الأثيم** ﴾ قال : المهل . وأخرج عنه أيضا : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ قال : هو أبو جهل بن هشام .

فهرس الموضوعات

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة الصافات

تفسير سورة ص

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة غافر

تفسير سورة فصلت

تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م
I.S.B.N:977-15-0122-4

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

تفسير سورة الجاثية

هى سبع وثلاثون آية . وقيل : ست وثلاثون . وهى مكية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا آية منها ، وهى قوله : ﴿للذين آمنوا﴾ إلى ﴿أيام الله﴾ فإنها نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب كما سيأتى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

قوله : ﴿ حم ﴾ قد تقدم الكلام فى هذه الفاتحة ، وفى إعرابها ، فى فاتحة سورة « غافر » وما بعدها ، فإن جعل اسماً للسورة فمحله الرفع ، على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ ، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، وقوله : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ على الوجه الأول خبر ثان ، وعلى الوجه الثانى خبر المبتدأ ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف ، أو

مبتدأ وخبره ﴿ **من الله العزيز الحكيم** ﴾ ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة فقال: ﴿ **إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾ أى فيها نفسها فإنها من فنون الآيات أو فى خلقها . قال الزجاج : ويدل على أن المعنى : فى خلق السموات والأرض قوله : ﴿ **وفى خلقكم** ﴾ أى فى خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة . قال مقاتل : من تراب ثم من نطفة إلى أن يصير إنسانا ﴿ **وما يبث من دابة آيات** ﴾ أى وفى خلق ما يبث من دابة ، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر ، وخبره الظرف قبله ، وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة والكسائى : « آيات » بالنصب عطفاً على اسم إن ، والخبر قوله : ﴿ **وفى خلقكم** ﴾ كأنه قيل : وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آيات ، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى ، وقرأ الجمهور أيضا : ﴿ **آيات لقوم يعقلون** ﴾ بالرفع ، وقرأ حمزة والكسائى بنصبها مع اتفاقهم على الجر فى « اختلاف » ،أما جر اختلاف فهو على تقدير حرف الجر ، أى فى ﴿ **اختلاف الليل والنهار** ﴾ آيات ، فمن رفع آيات فعلى أنها مبتدأ ، وخبرها : فى اختلاف ، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين . قال الفراء : الرفع على الاستئناف بعد إنّ ، تقول العرب : إن لى عليك مالاً وعلى أخيك مال ، ينصبون الثانى ويرفعونه ، وللنحاة فى هذا الموضع كلام طويل ، والبحث فى مسألة العطف على معمولى عاملين مختلفين ،وحجج المجوزين له،وجوابات المانعين له مقرر فى علم النحو مبسوط فى مطولاته ، ومعنى ﴿ **ما يبث من دابة** ﴾: ما يفرقه وينشره .

﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ تعاقبهما ، أو تفاوتهما فى الطول والقصر ، وقوله : ﴿ **وما أنزل الله من السماء من رزق** ﴾ معطوف على اختلاف ، والرزق : المطر ؛ لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ، وإحياء الأرض : إخراج نباتها ، و ﴿ **موتها** ﴾ : خلوها من النبات ، و معنى ﴿ **تصريف الرياح** ﴾ : أنها تهب تارة من جهة ، وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارة ، وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة ، وتارة ضارة . ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك** ﴾ أى هذه الآيات المذكورة هى حجج الله وبراهينه ، ومحل : ﴿ **نتلوها عليك** ﴾ النصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة ، وآيات الله بيان له أو بدل منه، وقوله : ﴿**بالحق** ﴾ حال من فاعل نتلو ، أو من مفعوله ، أى محقين ، أو ملتبسة بالحق ، ويجوز أن تكون الباء للسببية ، فتتعلق بنفس الفعل ﴿ **فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾ أى بعد حديث الله وبعد آياته . وقيل: إن المقصود : فبأى حديث بعد آيات الله ، وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات ، فيكون من باب : أعجبنى زيد وكرمه . وقيل: المراد: بعد حديث الله ، وهو القرآن كما فى قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ [الزمر : ٢٣] . وهو المراد بالآيات، والعطف لمجرد التغاير العنوانى . قرأ الجمهور : « **تؤمنون** » بالفوقية . وقرأ حمزة والكسائى بالتحتية ، والمعنى : يؤمنون بأى حديث ، وإنما قدم عليه ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أى لكل كذاب كثير الإثم ، مرتكب لما يوجبه ، والويل : واد فى جهنم ، ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى فقال : ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ وقيل : إن يسمع فى محل نصب على الحال. وقيل : استئناف ، والأول أولى، وقوله: ﴿ تتلى عليه﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ ثم يصرّ ﴾ على كفره ويقيم على ما كان عليه حال كونه ﴿مستكبراً﴾ أى يتمادى على كفره ، متعظماً فى نفسه عن الانقياد للحقّ، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة (١) وهو أن ينحنى عليها صارا أذنيه (٢) . قال مقاتل : إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتخذها هزوا ، وجملة : ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنفة، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ هذا من باب التهكم ، أى فبشره على إصراره واستكباره ، وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ علم ﴾ بفتح العين وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل . وقرأ قتادة ومطر الوراق على البناء للمفعول ، والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شىء من آيات الله ﴿ اتخذها ﴾ أى الآيات ﴿ هزوا ﴾ وقيل : الضمير فى اتخذها عائد إلى ﴿شيئا ﴾ ؛ لأنه عبارة عن الآيات ، والأول أولى ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى كل أفاك متصف بتلك الصفات ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ بسبب ما فعلوا من الإصرار والاستكبار عن سماع آيات الله واتخاذها هزوا ، والعذاب المهين : هو المشتمل على الإذلال والفضيحة ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحق جهنم ، فإنها من قدامهم ؛ لأنهم متوجهون إليها ، وعبر بالوراء عن القدّام ،كقوله: ﴿ من ورائه جهنم ﴾ [الرعد:١٦]، وقول الشاعر :

وليس ورائى إن تراخت منيتى

وقيل : جعلها باعتبار إعراضهم عنها كأنها خلفهم ﴿ ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ﴾ أى لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ معطوف على ما كسبوا ، أى ولا يغنى عنهم ما اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام ، و « ما » فى الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا فى الجملة الثانية للتأكيد ، ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ فى جهنم التى هى من ورائهم ﴿هذا هدى ﴾ جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر، يعنى هذا القرآن هدى للمهتدين به ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم ﴾ القرآنية ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ الرجز : أشدّ العذاب . قرأ الجمهور :« أليم » بالجر صفة للرّجز . وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب ﴿ الله الذى سخر لكم البحر ﴾ أى جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه ﴿لتجرى الفلك فيه بأمره﴾ أى بإذنه وإقداره لكم ﴿ولتبتغوا من فضله ﴾ بالتجارة تارة ،

(١) العانة : الأتانُ ، والقطيع من حُمُرِ الوَحْش . اللسان ١٣/ ٣٠٠ .
(٢) صار أذنه :سواها ونصبها للاستماع ، يقال : صرّ الفرس أُذنيه : ضمهما إلى رأسه . اللسان ٤/ ٤٥٢ .

والغوص للدر ، والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى لكى تشكروا النعم التى تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه**﴾ أى سخر لعباده جميع ما خلقه فى سماواته وأرضه مما تتعلق به مصالحهم وتقوم به معايشهم ، ومما سخره لهم من مخلوقات السموات : الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، وانتصاب ﴿ **جميعاً** ﴾ على الحال من ﴿ **ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ أو تأكيد له ، وقوله : ﴿ **منه** ﴾ يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لـ﴿**جميعا** ﴾ أى كائنة منه ، ويجوز أن يتعلق بسخر ، ويجوز أن يكون حالاً من ما فى السموات ، أو خبراً لمبتدأ محذوف ، والمعنى : أن كل ذلك رحمة منه لعباده ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور من التسخير ﴿**لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وخصّ المتفكرين ؛ لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد .

﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا** ﴾ أى قل لهم : اغفروا يغفروا ﴿ **للذين لا يرجون أيام الله** ﴾ وقيل : هو على حذف اللام ، والتقدير : قل لهم ليغفروا ، والمعنى : قل لهم : يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه ، أى لا يتوقعونها ، ومعنى الرجاء هنا : الخوف . وقيل : هو على معناه الحقيقى ، والمعنى : لا يرجون ثوابه فى الأوقات التى وقتها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى ، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدم فى تفسير قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : ٥] قال مقاتل : لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به فلا يخافون عقابه ، وقيل: المعنى: لا يأملون نصر الله لأوليائه ، وإيقاعه بأعدائه . وقيل : لا يخافون البعث . قيل : والآية منسوخة بآية السيف ﴿ **ليجزى قوما بما كانوا يكسبون** ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى : « لنجزى» بالنون ، أى لنجزى نحن ، وقرأ باقى السبعة بالتحتية مبنيا للفاعل ، أى ليجزى الله . وقرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم بالتحتية مبنيا للمفعول مع نصب قوماً ، فقيل : النائب عن الفاعل مصدر الفعل ، أى ليجزى الجزاء قوماً . وقيل : إن النائب الجار والمجرور ، كما قال الشاعر :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

وقد أجاز ذلك الأخفش والكوفيون ، ومنعه البصريون ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم : المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه . وقيل : المعنى : ليجزى الكفار بما عملوا من السيئات ، كأنه قال : لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحنْ ، والأول أولى . ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركين وأعمالهم فقال : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾ والمعنى : أن عمل كل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لا يتجاوزه إلى غيره وفيه ترغيب وتهديد ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ فيجازى كلا بعمله إن كان خيراً فخير، وإن كان شرّاً فشر .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ جميعاً منه ﴾ قال : منه النور والشمس والقمر . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : كل شيء هو من الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ممّ خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير، فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس فسأله ممّ خلق الخلق ؟ فقال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال : فممّ خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ فقال الرجل :أما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبيّ ﷺ (١) .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية :قال:كان نبي الله ﷺ يعرض عن المشركين إذا آذوه، وكانوا يستهزئون به ويكذبونه ، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة ، فكان هذا من المنسوخ (٢) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ
الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٢ ووافقه الذهبي وقال : « سمعه ابن راهويه منه » . (قلت) : « عمر هذا فتشت عنه فلم أعرفه والخبر منكر » والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٣٠ ، ١٣١ .
(٢) ابن جرير ٢٥/ ٨٦ ، ٨٧ .

النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، وبالحكم: الفهم والفقه الذى يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم ، وبالنبوّة : من بعثه الله من الأنبياء فيهم ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات التى أحلها الله لهم ، ومن ذلك المن والسلوى ﴿ **وفضلناهم على العالمين** ﴾ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر ونحوه ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة الدخان ﴿ **وآتيناهم بينات من الأمر** ﴾ أى شرائع واضحات فى الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات . وقيل : العلم بمبعث النبى ﷺ ، وشواهد نبوته ، وتعيين مهاجره : ﴿**فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم**﴾ أى فما وقع الاختلاف بينهم فى ذلك الأمر إلا بعد مجىء العلم إليهم ببيانه وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوته . وقيل : المراد بالعلم : يوشع بن نون ، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم . وقيل : نبوة محمد ﷺ(١) ، فاختلفوا فيها حسدا، وبغيا . وقيل : ﴿ **بغيا** ﴾ من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة ﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ من أمر الدين ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ الشريعة فى اللغة : المذهب ، والملة ، والمنهاج ، ويقال : لمشرعة الماء وهى مورد شاربيه : شريعة ، ومنه الشارع ؛ لأنه طريق إلى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا : ما شرعه الله لعباده من الدين ، والجمع شرائع ، أى جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق ﴿ **فاتبعها** ﴾ : فاعمل بأحكامها فى أمتك ﴿**ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ توحيد الله وشرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم ﴿**إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا** ﴾ أى لا يدفعون عنك شيئاً مما أراده الله بك إن اتبعت أهواءهم ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى أنصار ينصر بعضهم بعضا. قال ابن زيد : إن المنافقين أولياء اليهود ﴿**والله ولى المتقين** ﴾ أى ناصرهم ، والمراد بالمتقين : الذين اتقوا الشرك والمعاصى ، والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بصائر للناس** ﴾ أى براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين ، جعل ذلك بمنزلة البصائر فى القلوب ، وقرئ : « هذه بصائر » أى هذه الآيات ؛ لأن القرآن بمعناها، كما قال الشاعر :

سائل بنى أسد ما هذه الصوت

لأن الصوت بمعنى الصيحة ﴿ **وهدى** ﴾ أى رشد وطريق يؤدى إلى الجنة لمن عمل به ﴿ **ورحمة** ﴾ من الله فى الآخرة ﴿**لقوم يوقنون** ﴾ أى من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشُّبه . ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات** ﴾ أم هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة وما فيها من

---

(١) القرطبى ٩/ ٥٩٨٣.

معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى ، والهمزة لإنكار الحسبان ، والاجتراح : الاكتساب ومنه الجوارح ، وقد تقدم فى المائدة ، والجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين ، وهو معنى قوله : ﴿ **أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى نسوّى بينهم مع اجتراحهم السيئات ، وبين أهل الحسنات ﴿ **سواء محياهم ومماتهم** ﴾ فى دار الدنيا وفى الآخرة، كلا لا يستوون، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة . وقيل : المراد : إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة ، قرأ الجمهور : ﴿ **سواء** ﴾ بالرفع على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم ، والمعنى : إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص: ﴿ **سواء** ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور فى قوله : ﴿ **كالذين آمنوا** ﴾ أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيد ، وقال : معناه : نجعلهم سواء ، وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر : « مماتهم » بالنصب على معنى : سواء فى محياهم ومماتهم ، فلما سقط الخافض انتصب ، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى ساء حكمهم هذا الذى حكموا به .

﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحقّ** ﴾ أى بالحقّ المقتضى للعدل بين العباد ، ومحل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل ، أو من المفعول ، أو الباء للسببية ، وقوله : ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت** ﴾ يجوز أن يكون على الحق ؛ لأن كلا منهما سبب ، فعطف السبب على السبب ، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف ، والتقدير : خلق الله السموات والأرض ليدلّ بهما على قدرته ولتجزى ، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال الحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئا إلا ركبه . وقال عكرمة : يعبد ما يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً وهواه اتخذه إلهاً . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾ أى على علم قد علمه . وقيل : المعنى : أضله عن الثواب ، على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر. قال الزجاج: على سوء فى علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، ومحل ﴿ **على علم** ﴾ النصب على الحال من الفاعل أو المفعول ﴿**وختم على سمعه وقلبه** ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى ﴿**وجعل على بصره غشاوة** ﴾ أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . قرأ الجمهور : ﴿ **غشاوة** ﴾ بالألف مع كسر الغين ، وقرأ حمزة والكسائى : « غشوة » بغير ألف مع فتح الغين ، ومنه قول الشاعر :

لئن كنت ألبستنى غشوة ... لقد كنت أصفيتك الودّ حينا

وقرأ ابن مسعود والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهى لغة ربيعة ، وقرأ الحسن وعكرمة بضمها وهى لغة عكل ﴿**فمن يهديه من بعد الله** ﴾ أى من بعد إضلال الله له ﴿ **أفلا**

تذكرون ﴾ تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال ؟ ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال: ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أى ما الحياة إلا الحياة التى نحن فيها ﴿ **نموت ونحيا**﴾ أى يصيبنا الموت والحياة فيها ،وليس وراء ذلك حياة .وقيل : نموت نحن ويحيا فيها أولادنا . وقيل :نكون نطفاً ميتة ثم نصير أحياء . وقيل : فى الآية تقديم وتأخير ، أى نحيا ونموت ، وكذا قرأ ابن مسعود ، وعلى كل تقدير فمرادهم بهـذه المقالة : إنكـار البعث وتكذيب الآخرة ﴿ **وما يـهلكنا إلا الدهر** ﴾ أى إلا مرور الأيام والليالى . قال مجاهد : يعنى السنين والأيام ، وقال قتادة : إلا العمر ، والمعنى واحد . وقال قطرب : المعنى : وما يهلكنا إلا الموت . وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله ﴿ **وما لهم بذلك من علم**﴾ أى ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة ، ثم بين كون ذلك صادرا منهم لا عن علم فقال : ﴿ **إن هم إلا يظنون**﴾ أى ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن فما يتكلمون إلا به ، ولا يستندون إلا إليه .

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ أى إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى والدلالة على البعث ﴿ **ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾ أنا نبعث بعد الموت ! أى ما كان لهم حجة ولا متمسك إلا هذا القول الباطل الذى ليس من الحجة فى شىء ، وإنما سماه حجة تهكما بهم .

قرأ الجمهور بنصب ﴿ **حجتهم** ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ وقرأ زيد ابن علىّ وعمرو بن عبيد وعبيد بن عمرو برفع ﴿**حجتهم** ﴾ على أنها اسم كان . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال :﴿**قـل الله يحييكم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ **ثم يجمعكم إلى يوم القيامة** ﴾ بالبعث والنشور ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أى فى جمعكم ؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ بذلك فلهذا حصل معهم الشك فى البعث ، وجاؤوا فى دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ يقول: على هدى من أمر دينه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **سواء محياهم ومماتهم** ﴾ قال : المؤمن فى الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر فى الدنيا والآخرة كافر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان ﴿**وأضله الله على علم** ﴾ يقول : أضله فى سابق علمه (١) . وأخرج النسائى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر ، فإذا

(١) ابن جرير ٢٥/ ٩٠ والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٠٥ .

وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر ، فأنزل الله : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ (١) .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله فى كتابه : ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ قال الله : « يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عزّ وجلّ : يؤذينى ابن آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمرِ أقلب الليل والنهار » (٣) .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون ، وما أجاب به عليهم ، ذكر اختصاصه بالملك فقال: ﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ أى هو المتصرف فيهما وحده لا يشاركه أحد من عباده. ثم توعد أهل الباطل فقال : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون** ﴾ أى المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم ؛ لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل فى ﴿ **يوم** ﴾ هو ﴿ **يخسر** ﴾ و ﴿ **يومئذ** ﴾ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: ويوم تقوم الساعة، يوم تقوم الساعة ،

(١) النسائى فى التفسير (٥٠٥) وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ووافقه الذهبى ، وابن جرير ٢٥/ ٩١ عن سعيد بن جبير.
(٢) ابن جرير ٢٥/ ٩٢ ورفعه إلى النبى ﷺ ، وقال ابن كثير ٦/ ٢٦٩ : « وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا » .
(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٢٦) وفى الأدب (٦١٨١) وفى التوحيد (٧٤٩١) ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ١) وأبو داود فى الأدب (٥٢٧٤) والبيهقى ٣/ ٣٦٥ .

فيكون بدلاً توكيدياً ، والأولى أن يكون العامل فى يوم هو ملك ، أى ولله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولا لـ ﴿ يخسر ﴾ . ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ الخطاب لكل من يصلح له ، أو للنبى ﷺ ، والأمة : الملة ، ومعنى ﴿ جاثية ﴾ : مستوفزة ، والمستوفز : الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله، وذلك عند الحساب ، وقيل : معنى جاثية : مجتمعة ، قال الفراء : المعنى : وترى أهل كلّ ذى دين مجتمعين ، وقال عكرمة : متميزة عن غيرها ، وقال مؤرج : معناه بلغة قريش : خاضعة . وقال الحسن : باركة على الركب . والجثو: الجلوس على الركب. تقول : جثا يجثو ويجثى جثوا وجثيا : إذا جلس على ركبتيه ، والأول أولى ، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب ، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شىء فى لغة العرب ، ومنه قول طرفة يصف قبرين :

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل وغيرهم من أهل الشرك . وقال يحيى بن سلام : هو خاص بالكفار ، والأول أولى ويؤيده قوله : ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ ، ولقوله فيما سيأتى : ﴿فأما الذين آمنوا ﴾ . ومعنى ﴿ إلى كتابها ﴾ : إلى الكتاب المنزل عليها . وقيل: إلى صحيفة أعمالها . وقيل : إلى حسابها . وقيل : اللوح المحفوظ ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ كل أمة ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره :﴿ تدعى﴾ ، وقرأ يعقوب الحضرمى بالنصب على البدل من ﴿ كل أمة ﴾ . ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أى يقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير وشر . ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ هذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة . وقيل: هو من قول الله سبحانه،أى يشهد عليكم ، وهو استعارة . يقال : نطق الكتاب بكذا ، أى بين . وقيل : إنهم يقرؤونه فيذكرون ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لا زيادة فيه ولا نقصان ، ومحل ﴿ ينطق ﴾ النصب على الحال ، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة ، وجملة : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للنطق بالحق ، أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أى بكتبها وتثبيتها عليكم . قال الواحدى : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه قالوا : لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل : المعنى : نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون . وقيل : إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد ، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات وتركوا المباحات . وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ﴾ أى الجنة ، وهذا

تفصيل لحال الفريقين ، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ﴿ **ذلك** ﴾ أى الإدخال فى رحمته ﴿ **هو الفوز المبين** ﴾ أى الظاهر الواضح ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم** ﴾ أى فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ ؛ لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله ، فكذبوها ولم يعملوا بها ﴿ **فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين** ﴾ أى تكبرتم عن قبولها وعن الإيمان بها ، وكنتم من أهل الإجرام ، وهى الآثام ، والاجترام : الاكتساب . يقال : فلان جريمة أهله : إذا كان كاسبهم ، فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصى . ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق** ﴾ أى وعده بالبعث والحساب أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة واقع لا محالة ﴿ **والساعة** ﴾ أى القيامة ﴿ **لا ريب فيها** ﴾ أى فى وقوعها . قرأ الجمهور : ﴿ **والساعة** ﴾ بالرفع على الابتداء ، أو العطف على موضع اسم إن ، وقرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن ﴿ **قلتم ما ندرى ما الساعة** ﴾ أىْ أىّ شىء هى ؟ ﴿ **إن نظن إلا ظنا** ﴾ أى نحدس حدساً ونتوهم توهماً . قال المبرد: تقديره : إن نحن إلا نظنّ ظنا . وقيل : التقدير : إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا . وقيل : إن نظنّ مضمن معنى : نعتقد ، أى ما نعتقد إلا ظنا لا علما . وقيل : إن ظنا له صفة مقدرة ، أى إلا ظنا بينا . وقيل : إن الظن يكون بمعنى العلم والشك ، فكأنهم قالوا : ما لنا اعتقاد إلا الشك ﴿ **وما نحن بمستيقنين** ﴾ أى لم يكن لنا يقين بذلك ، ولم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية .

﴿ **وبدا لهم سيئات ما عملوا** ﴾ أى ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التى هى عليها ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار. ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعا ؛ لأنه أضاف إلى الشىء ما هو واقع فيه ﴿ **ومأواكم النار** ﴾ أى مسكنكم ومستقركم الذى تأوون إليه ﴿ **وما لكم من ناصرين** ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب . ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا** ﴾ أى ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا ولعبا ﴿ **وغرتكم الحياة الدنيا** ﴾ أى خدعتكم بزخارفها وأباطيلها ، فظننتم أنه لا دار غيرها ولا بعث ولا نشور ﴿ **فاليوم لا يخرجون منها** ﴾ أى من النار . قرأ الجمهور : ﴿ **يخرجون** ﴾ بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ أى لا يسترضون ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة . ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين** ﴾ لا يستحق الحمد سواه ، قرأ الجمهور : ﴿ **رب** ﴾ فى المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف ، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن بالرفع فى الثلاثة على تقدير مبتدأ، أى هو رب السموات إلخ ﴿ **وله الكبرياء فى السموات والأرض** ﴾ أى الجلال والعظمة والسلطان ، وخصّ السموات والأرض ؛ لظهور ذلك فيهما ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى العزيز فى سلطانه ، فلا

يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل أفعاله وأقواله وجميع أقضيته .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن باباه قال : قال رسول الله ﷺ : « كأنى أراكم بالكوم دون جهنم جاثين » ثم قرأ سفيان : ﴿وترى كل أمة جاثية ﴾ . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر فى قوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ قال : كل أمة مع نبيها حتى يجىء رسول الله ﷺ على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ قال : هو أم الكتاب فيه أعمال بنى آدم ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ قال : هم الملائكة يستنسخون أعمال بنى آدم (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه بمعناه مطولا ، فقام رجل فقال : يا ابن عباس ، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة فى كل يوم وليلة ، فقال ابن عباس : إنكم لستم قوماً عرباً ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ هل يستنسخ الشىء إلا من كتاب ؟ . وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا (٢) . وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : إن لله ملائكة ينزلون فى كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم (٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما روى عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب وأخرج نحوه الحاكم وصححه (٤) . وأخرج الطبرانى عنه أيضا فى الآية قال : إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقا لما فى كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ قال : نترككم . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار » (٦) .

---

(١) ابن جرير ٢٥/ ٩٤ ، ٩٥ .
(٢، ٣) ابن جرير ٢٥/ ٩٥ .
(٤) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٤ ووافقه الذهبى .
(٥) الطبرانى (١٠٥٩٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٩٣ : « وفيه الضحاك ضعفه جماعة ، ووثقه ابن حبان وقال : لم يسمع من ابن عباس ، وبقية رجاله وثقوا » .
(٦) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٦٣٠) ومسلم فى البر (٢٦٢٠ / ١٣٦) وأبو داود فى اللباس (٤٠٩٠) وابن ماجة فى الزهد (٤١٧٤) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٢٨ .

تفسير سورة الأحقاف

هى أربع وثلاثون آية . وقيل : خمس وثلاثون وهى مكية . قال القرطبى : فى قول جميعهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : نزلت سورة ﴿ حم ﴾ الأحقاف بمكة . وأخرج ابن الضريس ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : أقرأنى رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر فخالف قراءته ، فقلت : من أقرأكها ؟ قال : رسول الله ﷺ ، فقلت : والله لقد أقرأنى رسول الله ﷺ غير ذا ، فأتينا رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ، ألم تقرئنى كذا وكذا؟ قال : « بلى » ، وقال الآخر : ألم تقرئنى كذا وكذا ؟ قال : «بلى » فتمعر وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « ليقرأ كل واحد منكما ما سمع ، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف » [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ قد تقدم الكلام على هذا فى سورة غافر وما بعدها مستوفى، وذكرنا وجه الإعراب ، وبيان ما هو الحق من أن فواتح السور من المتشابه الذى يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله. ﴿ **ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما** ﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿ **إلا بالحق** ﴾ هو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذى تقتضيه المشيئة الإلهية ، وقوله : ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ معطوف على الحق ، أى إلا

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٢٣ ، ٢٢٤ ووافقه الذهبى .

بالحق ، وبأجل مسمى ، على تقدير مضاف محذوف ، أى وبتقدير أجل مسمى ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهى فيه السموات والأرض وما بينهما ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات . وقيل : المراد بالأجل المسمى : هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات ، والأول أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير شىء ، بل خلقه للثواب والعقاب ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ أى عما أنذروا وخوفوا به فى القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به ، و « ما » فى قوله : ﴿ **ما أنذروا** ﴾ يجوز أن تكون الموصولة ، ويجوز أن تكون المصدرية.

﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله** ﴾ أى أخبرونى ما تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿**أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ أى أىّ شىء خلقوا منها ، وقوله : ﴿ **أرونى** ﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله ﴿ **أرأيتم** ﴾ ، أى أخبرونى أرونى والمفعول الثانى لأرأيتم ﴿ **ماذا خلقوا** ﴾، ويحتمل ألا يكون تأكيداً ، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأن أرأيتم يطلب مفعولاً ثانيا ، وأرونى كذلك ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أم هذه هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، والمعنى: بل ألهم شركة مع الله فيها ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا** ﴾ هذا تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك ،والإشارة بقوله:﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن ، فإنه قد صرح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن الساعة حق لا ريب فيها ، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب ، أو حجة تنافى هــذه الحجة ؟ ﴿**أو أثارة من علم**﴾ قال فى الصحاح : ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ : بقية منه ، وكذا الأثرة بالتحريك . قال ابن قتيبة : أى بقية من علم الأولين ،وقال الفراء والمبرد :يعنى ما يؤثر عن كتب الأولين. قال الواحدى : وهو معنى قول المفسرين ، قال عطاء : أو شىء تأثرونه عن نبى كان قبل محمد ﷺ ؟ قال مقاتل : أو رواية من علم عن الأنبياء ، وقال الزجاج : ﴿ **أو أثارة** ﴾ أى علامة ، والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهى الرواية ، يقال: أثرت الحديث أثره أثرة وأثارة وأثرا : إذا ذكرته عن غيرك . قرأ الجمهور : ﴿**أثارة** ﴾ على المصدر كالسماحة والغواية ، وقرأ ابن عباس وزيد بن على وعكرمة والسلمى وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ، وقرأ الكسائى : « أثرة » بضم الهمزة وسكون الثاء ﴿**إن كنتم صادقين** ﴾ فى دعواكم التى تدعونها ، وهى قولكم : إن لله شريكاً ، ولم تأتوا بشىء من ذلك ، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى والنقلى على خلافه .

﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له** ﴾ أى لا أحد أضل منه ولا أجهل،فإنه دعا من لا يسمع ، فكيف يطمع فى الإجابة فضلا عن جلب نفع أو دفع ضر ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضل الضالين ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقوله : ﴿ **إلى يوم القيامة**﴾ غاية لعدم الاستجابة ﴿ **وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ الضمير الأول للأصنام،

والثانى لعابديها ، والمعنى : والأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع بين الضميرين باعتبار معنى « من » وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء ؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل. ﴿ **وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء** ﴾ أى إذا حشر الناس العابدون للأصنام كانت الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وقد قيل : إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم . وقيل : المراد : أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال . وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] ﴿ **وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين ، أى جاحدين مكذبين . وقيل : الضمير فى ﴿ **كانوا** ﴾ للعابدين كما فى قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] والأول أولى .

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى آيات القرآن حال كونها ﴿ **بينات** ﴾ واضحات المعانى ظاهرات الدلالات ﴿ **قال الذين كفروا للحق** ﴾ أى لأجله وفى شأنه ، وهو عبارة عن الآيات ﴿**لما جاءهم** ﴾ أى وقت أن جاءهم ﴿ **هذا سحر مبين**﴾ أى ظاهر السحرية .﴿ **أم يقولون افتراه**﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل أيقولون افتراه ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من صنيعهم ، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم : إن رسول الله افترى ما جاء به ، وفى ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا يخفى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا** ﴾ أى قل إن افتريته على سبيل الفرض والتقدير ، كما تدّعون ، فلا تقدرون على أن تردّوا عنى عقاب الله ، فكيف أفترى على الله لأجلكم ،وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عنى ؟ ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه** ﴾ أى تخوضون فيه من التكذيب ؛ والإفاضة فى الشىء: الخوض فيه والاندفاع فيه ، يقال: أفاضوا فى الحديث ، أى اندفعوا فيه ، وأفاض البعير: إذا دفع جرته من كرشه، والمعنى : الله أعلم بما تقولون فى القرآن وتخوضون فيه من التكذيب له ، والقول بأنه سحر وكهانة ﴿ **كفى به شهيدا بينى وبينكم** ﴾ فإنه يشهد لى بأن القرآن من عنده وأنى قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود ، وفى هذا وعيد شديد ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ لمن تاب وآمن وصدق بالقرآن وعمل بما فيه ، أى كثير المغفرة والرحمة بليغهما.

﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ البدع من كل شىء المبدأ ، أى ما أنا بأول رسول ، قد بعث الله قبلى كثيراً من الرسل ، قيل : البدع بمعنى : البديع ، كالخف والخفيف ، والبديع : ما لم ير له مثل ، من الابتداع وهو الاختراع، وشىء بدع بالكسر ، أى مبتدع ، وفلان بدع فى هذا الأمر ، أى بديع ،كذا قال الأخفش ، وأنشد قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعترى رجالا غدت من بعد بؤسى وأسعدا

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبى عبلة : « بدعا » بفتح الدال على تقدير حذف المضاف ،

أى ما كنت ذا بدع ، وقرأ مجاهد بفتح الباء وكسر الدال على الوصف ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ أى ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ وهذا إنما هو فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فقد علم أنه وأمته فى الجنة ، وأن الكافرين فى النار . وقيل : إن المعنى : ما أدرى ما يفعل بى ولابكم يوم القيامة، وأنها لما نزلت فرح المشركون وقالوا : كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا ، وإنه لا فضل له علينا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] والأول أولى ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**يوحى** ﴾ مبنيًا للمفعول ، أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع من عندى شيئا ، والمعنى : قصر أفعاله ﷺ على الوحى لا قصر اتباعه على الوحى ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين**﴾ أى أنذركم عقاب الله وأخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح .

وقد أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن ابن عباس: ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ قال : الخط . قال سفيان : لا أعلم إلا عن النبى ﷺ ، يعنى : أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كان نبى من الأنبياء يخط ، فمن صادف مثل خطه علم » (٢) . ومعنى هذا ثابت فى الصحيح ، ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة ، ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط ؟ وأين السند الصحيح إلى ذلك النبىّ ؟ أو إلى نبينا ﷺ أن هذا الخط هو على صورة كذا، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ قال : « حسن الخط » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس : ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ قال : خط كان يخطه العرب فى الأرض (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ يقول: بينة من الأمر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ يقول : لست بأول الرسل ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ فأنزل الله

---

(١) أحمد ١/ ٢٢٦ والطبرانى (١٠٧٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، إلا أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الخط فقال : « هو أثارة من علم » ورجال أحمد رجال الصحيح » ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٤ ووافقه الذهبى .

(٢) كشف الأستار فى العلم (١٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « رواه البزار عن شيخه أبى الصباح محمد بن الليث ، وأبو الصباح محمد بن الليث ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يخطئ ويخالف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ١٠٨/٧ : « رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس موقوفا ، قال : فى قوله عز وجل:﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال: «جودة الخط »، والحاكم فى التفسير ٢/ ٤٥٤ وسكت عنه ووافقه الذهبى .

بعد هذا : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح : ٢] ، وقوله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية [الفتح : ٥] ، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعا (١) . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ ليغفر لك الله﴾ . وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء قالت : لما مات عثمان بن مظعون قلت : رحمك الله أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ولا بكم»، قالت أمّ العلاء: فو الله لا أزكى بعده أحداً (٢).

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أى أخبرونى ﴿ **إن كان من عند الله** ﴾ يعنى : ما يوحى إليه من القرآن . وقيل : المراد: محمد ﷺ ، والمعنى : إن كان مرسلاً من عند الله (٣) ، وقوله : ﴿**وكفرتم به** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، وكذلك قوله : ﴿ **وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله** ﴾ ، والمعنى : أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل الله فى التوراة على مثله ، أى القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة ، المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث ، والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى وإن اختلفت الألفاظ ، وقال الجرجانى : مثل صلة ، والمعنى : وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدى ، ﴿**فآمن**﴾

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٥ .

(٢) البخارى فى الجنائز (١٢٤٣) وفى مناقب الأنصار (٣٩٢٩) وفى التعبير (٧٠٠٣) .

(٣) فى المخطوطة : « من عند غير الله » والصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله ، وهذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد الله بن سلام،كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ، وفى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع ، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد : رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة وصدقه ، واختار هذا ابن جرير ، وسيأتى فى آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام ، وأن هذه الآية مدنية لا مكية ، وروى عن مسروق أن المراد بالرجل : موسى عليه السلام ، وقوله : ﴿ واستكبرتم ﴾ معطوف على شهد ، أى آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان ، ومن فقد هداية الله له ضل. وقد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجاج : محذوف ، تقديره : أتؤمنون . وقيل : قوله : ﴿ فآمن واستكبرتم ﴾ وقيل : محذوف ، تقديره : فقد ظلمتم لدلالة ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ عليه . وقيل تقديره : فمن أضل منكم ، كما فى قوله:﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ﴾ الآية [فصلت : ٥٢] ، وقال أبو على الفارسى تقديره : أتأمنون عقوبة الله ؟ وقيل : التقدير : ألستم ظالمين ؟

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ أى لأجلهم ، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ أى لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إليه ؛ لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختصّ برحمته من يشاء ، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء ، ويصطفى لدينه من يشاء ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بمحمد ﷺ . وقيل: بالإيمان ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ فجاوزوا نفى خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم كما قالوا : أساطير الأوّلين ، والعامل فى « إذ » مقدّر ، أى ظهر عنادهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ فسيقولون ﴾ لتضاد الزمانين، أعنى : المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضا . وقيل : إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور ، أى لم يهتدوا به ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون ﴿ ومن قبله كتاب موسى﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من « من » على أنها حرف جرّ وهى مع مجرورها خبر مقدّم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو هى مستأنفة ، والكلام مسوق لردّ قولهم : ﴿هذا إفك قديم﴾ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى ، وهو التوراة ، وتوافقا فى أصول الشرائع يدل على أنه حقّ وأنه من عند الله ، ويقتضى بطلان قولهم ، وقرئ بفتح ميم « من » على أنها موصولة ونصب كتاب ، أى وآتينا من قبله كتاب موسى . ورويت هذه القراءة عن الكلبى ﴿ إماما ورحمة ﴾ أى يقتدى به فى الدين ورحمة من الله لمن آمن به ، وهما منتصبان على الحال ، قاله الزجاج وغيره ، وقال الأخفش : على القطع ، وقال أبو عبيدة : أى جعلناه إماما ورحمة ﴿ وهذا كتاب مصدق ﴾ يعنى : القرآن فإنه مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ، ولغيره من كتب الله . وقيل: مصدق للنبى ﷺ ، وانتصاب ﴿ لسانا عربيا ﴾ على الحال الموطئة وصاحبها الضمير فى مصدّق العائد إلى كتاب ، وجوّز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدّق ، والأول أولى . وقيل : هو على

حذف مضاف ، أى ذا لسان عربى ، وهو النبى ﷺ **﴿لينذر الذين ظلموا ﴾** قرأ الجمهور : **﴿لينذر﴾** بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب ، أى لينذر الكتاب الذين ظلموا. وقيل : الضمير راجع إلى الله . وقيل : إلى الرسول ، والأول أولى ، وقرأ نافع وابن عامر والبزى بالفوقية على أن فاعله النبى ﷺ ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ،وقوله : **﴿وبشرى للمحسنين ﴾** فى محل نصب عطفا على محل **﴿ لينذر ﴾** وقال الزجاج : الأجود أن يكون فى محل رفع ، أى وهو بشرى . وقيل : على المصدرية لفعل محذوف ، أى وتبشر بشرى ، وقوله : **﴿ للمحسنين ﴾** متعلق ببشرى .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أى جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة **﴿ فلا خوف عليهم ﴾** الفاء زائدة فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط **﴿ ولا هم يحزنون ﴾** المعنى : أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم ، ولا يحزنون من فوات محبوب ، وأن ذلك مستمر دائم . **﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾** أى أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم **﴿ خالدين فيها ﴾** ، وفى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نفى الخوف والحزن على الدوام ، والاستقرار فى الجنة على الأبد ، مما لا تطلب الأنفس سواه ، ولا تتشوف إلى ما عداه **﴿ جزاء بما كانوا يعملون﴾** أى يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات لله وترك معاصيه .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ قرأ الجمهور : **﴿ حسنا ﴾** بضم الحاء وسكون السين ، وقرأ علىّ والسلمى بفتحهما ، وقرأ ابن عباس والكوفيون : « إحسانا » ، وقد تقدّم فى سورة العنكبوت :﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ [العنكبوت : ٨] من غير اختلاف بين القراء ، وتقدّم فى سورة الأنعام ، وسورة بنى إسرائيل : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، [الإسراء : ٢٣] فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء فى هذه الآية ، وعلى جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية ، أى وصيناه أن يحسن إليهما حسنا ، أو إحسانا . وقيل : على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى: ألزمنا . وقيل : على أنه مفعول له **﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾** قرأ الجمهور : **﴿ كرهاً ﴾** فى الموضعين بضم الكاف ، وقرأ أبو عمرو وأهل الحجاز بفتحها . قال الكسائى : وهما لغتان بمعنى واحد . قال أبو حاتم : الكره بالفتح لا يحسن ؛ لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبو عبيدة قراءة الفتح قال : لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح إلا التى فى سورة البقرة : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ [البقرة : ٢١٦]، وقيل : إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره ، وإنما ذكر سبحانه حمل الأمّ ووضعها ؛ تأكيدا لوجوب الإحسان إليها الذى وصى به،والمعنى:أنها حملته ذات كره ووضعته ذات كره .ثم بين سبحانه مدّة حمله وفصاله فقال : **﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾** أى مدتهما هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع ، أى يفطم عنه .

وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ؛ لأن مدة الرضاع سنتان ، أى مدة

الرضاع الكامل كما فى قوله : ﴿ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة ﴾ [البقرة : ٢٣٣] فذكر سبحانه فى هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب ؛ لأنها حملته بمشقة ، ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ، ولم يشاركها الأب فى شىء من ذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ وفصاله ﴾ بالألف ، وقرأ الحسن ويعقوب وقتادة والجحدرى: « وفصله» بفتح الفاء وسكون الصاد بغير ألف ، والفصل والفصال بمعنى ، كالفطم والفطام والقطف والقطاف ﴿ حتى إذا بلغ أشدّه ﴾ أى بلغ استحكام قوّته وعقله ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ، ولابد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها، أى عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده ، قيل : بلغ ثمانى عشرة سنة . وقيل : الأشد : الحلم قاله الشعبى وابن زيد . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين ، والأول أولى لقوله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شىء وراء بلوغ الأشد . قال المفسرون : لم يبعث الله نبيا قط إلا بعد أربعين سنة ﴿ قال رب أوزعنى ﴾ أى ألهمنى . قال الجوهرى : استوزعت الله فأوزعنى ، أى استلهمته فألهمنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ﴾ أى ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية ، وعلى والدىّ من التحنن علىّ منهما حين ربيانى صغيراً . وقيل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية ، وعلى والدىّ بالغنى والثروة، والأولى عدم تقييد النعمة عليه وعلى أبويه بنعمة مخصوصة ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى وألهمنى أن أعمل عملا صالحا ترضاه منى ﴿وأصلح لى فى ذريتى ﴾ أى اجعل ذريتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكنين منه . وفى هذه الآية دليل على أنه ينبغى لمن بلغ أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ، وقد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث ﴿ إنى تبت إليك ﴾ من ذنوبى ﴿وإنى من المسلمين ﴾ أى المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الإنسان المذكور ، والجمع لأنه يراد به الجنس وهو مبتدأ، وخبره : ﴿ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ من أعمال الخير فى الدنيا ، والمراد بالأحسن : الحسن كقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ﴾ [الزمر : ٥٥] وقيل : إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به : ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن وليس بأحسن ﴿ ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ فلا نعاقبهم عليها . قرأ الجمهور : « يتقبل ويتجاوز » على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز : الغفران ،وأصله من جزت الشىء: إذا لم تقف عليه ، ومعنى ﴿ فى أصحاب الجنة ﴾:أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلكهم ، فالجارّ والمجرور فى محل النصب على الحال كقولك : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى كائناً فى جملتهم . وقيل: إن « فى » بمعنى « مع » ، أى مع أصحاب الجنة . وقيل : إنهما خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى أصحاب الجنة ﴿ وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ وعد الصدق مصدر مؤكد

لمضمون الجملة السابقة ؛ لأن قوله : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم ﴾ إلخ فى معنى الوعد بالتقبل والتجاوز، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف ، أى وعدهم الله وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا.

وقد أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبرانى ، والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعى قال : انطلق النبى ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «يامعشر اليهود ، أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يحطّ الله تعالى عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه » ، فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال : « أبيتم ، فوالله لأنا الحاشر،وأنا العاقب ،وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم » ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال:كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، قال : فإنى أشهد بالله أنه النبىّ الذى تجدونه مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، قالوا : كذبت ، ثم ردّوا عليه وقالوا شرا، فقال رسول الله ﷺ : « كذبتم لن يقبل منكم قولكم » ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام ، فأنزل الله : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾إلى قوله : ﴿ لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وصححه السيوطى (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : « إنه من أهل الجنة » إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت:﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ﴾ (٢) . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل ﴾ ، ونزل فىّ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : ٤٣] (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل ﴾ قال : عبد الله بن سلام (٤) . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية ، فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين نحن أعزّ ونحن ونحن ، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ (٥) . وأخرج ابن المنذر عن عون ابن أبى شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله : يقال لها : زنيرة ، وكان عمر

(١) ابن جرير ٢٦/ ٨ ، ٩ والطبرانى ١٨/ ٤٦ ، ٤٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨ ، ١٠٩ : « ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٣/ ٤١٥ ، ٤١٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) البخارى فى المناقب (٣٨١٢) ومسلم فى الفضائل (٢٤٨٣/ ١٤٧) والنسائى فى الكبرى فى المناقب (٨٢٥٢) .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٦) وفى المناقب (٣٨٠٣) وقال : « حديث غريب » وابن جرير ٢٦/ ٧ .
(٤) ابن جرير ٢٦/ ٨ . (٥) ابن جرير ٢٦/ ٩ .

يضربها على الإسلام ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة ، فأنزل الله فى شأنها : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ الآية . وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة ، يقولون : لو كان خيراً ما جعلهم الله أوّل الناس فيه»(١) .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل قوله : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ فى أبى بكر الصديق . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إنى لصاحب المرأة التى أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك ، فقلت لعمر : لم تظلم ؟ قال : كيف ؟ قلت اقرأ : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ [البقرة: ٢٣٣] كم الحول ؟ قال : سنة ، قلت : كم السنة ؟ قال : اثنا عشر شهراً ، قلت: فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملان ؛ويؤخر الله من الحمل ما شاء ، ويقدم ما شاء ، فاستراح عمر إلى قولى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان ، لأن الله يقول : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : أنزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رَبّ أوزعنى** ﴾ الآية ، فاستجاب الله له فأسلم والداه جميعا ، وإخوته ، وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضا ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ [الليل : ٥] إلى آخر السورة .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه ، ذكر من قال لهما قولا يدلّ على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان فقال : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما** ﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ، ولهذا أخبر عنه بالجمع ، و ﴿ **أف** ﴾ كلمة

(١) الطبرانى (٧٠٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤٩ : « رواه الطبرانى والبزار وفيه من لم أعرفهم » .

تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه . قرأ نافع وحفص : ﴿أفٍ﴾ بكسر الفاء مع التنوين ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بكسرمن غير تنوين وهى لغات ، وقد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة بنى إسرائيل . واللام في قوله :﴿ لكما ﴾ لبيان التأفيف ، أى التأفيف لكما كما فى قوله : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] ، قرأ الجمهور : ﴿أتعداننى﴾ بنونين مخففتين ، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة وأسكنها الباقون ، وقرأ أبوحيوة والمغيرة وهشام بإدغام إحدى النونين فى الأخرى ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبى عمرو بفتح النون الأولى كأنهم فروا من توالى مثلين مكسورين . وقرأ الجمهور : ﴿ أن أخرج ﴾ بضم الهمزة وفتح الراء مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء ،مبنيا للفاعل ، والمعنى : أتعداننى أن أبعث بعد الموت ، وجملة : ﴿ وقد خلت القرون من قبلى ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قد مضت القرون من قبلى فماتوا ولم يبعث منهم أحد ، وهكذا جملة : ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهما يستغيثان الله له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان ، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال : استغاث الله واستغاث به ، وقال الرازى : معناه : يستغيثان بالله من كفره ، فلما حذف الجار وصل الفعل . وقيل : الاستغاثة : الدعاء فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : يقال: أجاب الله دعاءه وغواثه، وقوله: ﴿ ويلك ﴾ هو بتقدير القول ،أى يقولان له: ويلك ، وليس المراد به: الدعاء عليه ، بل الحث له على الإيمان ، ولهذا قالا له : ﴿ آمن إن وعد الله حق ﴾ أى آمن بالبعث إن وعد الله حقّ لا خلف فيه ﴿ فيقول ﴾ عند ذلك مكذبا لما قالاه : ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى ما هذا الذى تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم التى سطروها (١) فى الكتب . قرأ الجمهور : ﴿ إن وعد الله ﴾ بكسر إن على الاستئناف أو التعليل ، وقرأ عمر بن فايد والأعرج بفتحها ، على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء ، أى آمن بأن وعد الله بالبعث حق ﴿أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ أى أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول ، أى وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[ص :٨٥] كما يفيده قوله:﴿ فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ ، وجملة : ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لما قبله ، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأنه الذى قال لوالديه ما قال ، فإنه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وسيأتى بيان سبب النزول فى آخر البحث إن شاء الله .

﴿ ولكلٍّ درجات مما عملوا ﴾ أى لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية

(١) فى المخطوطة : « سطرونها » والصحيح ما أثبتناه .

تذهب سفلا ، ودرجات أهل الجنة تذهب علوًا ﴿وليوفيهم أعمالهم﴾ أى جزاء أعمالهم . قرأ الجمهور : « لنوفيهم » بالنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار الثانية أبو حاتم ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى لا يزاد مسيء ولا ينقص محسن ، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير وشرّ ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها . ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار ويقربون منها . وقيل : معنى ﴿ يعرضون ﴾ : يعذبون ، من قولهم : عرضه على السيف . وقيل : فى الكلام قلب . والمعنى: تعرض النار عليهم ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ أى يقال لهم ذلك ، قيل: وهذا القدر هو الناصب للظرف ، والأوّل أولى. قرأ الجمهور: ﴿ أذهبتم ﴾ بهمزة واحدة ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهمزتين مخففتين ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ . قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بالاستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين . قال الكلبى : المراد بالطيبات : اللذات وما كانوا فيه من المعايش ﴿ واستمتعتم بها ﴾ أى بالطيبات ، والمعنى : أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التى فى معاصى الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيباً منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى العذاب الذى فيه ذلّ لكم وخزى عليكم . قال مجاهد وقتادة : الهون : الهوان بلغة قريش ﴿ بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ أى بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده ﴿ وبما كنتم تفسقون﴾ أى تخرجون عن طاعة الله وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب فى عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصى الله سبحانه وتعالى، وهذا شأن الكفرة فإنهم قد جمعوا بينهما .

وقد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية ابن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه . فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا ، فقال: خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أفّ لكما ﴾ فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عُذرى [(١)]. وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر، والحاكم وصححه ،وابن مردويه عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان: سنة أبى بكر وعمر، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه : ﴿والذى قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية . فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان والله ما هو بـه ، ولو شئت أنْ أسمى الذى نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان فى صلبه ، فمروان من لعنة الله [(٢)] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هذا ابن

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٢٧) .
(٢) النسائى فى التفسير (٥١١) وصححه الحاكم٤/ ٤٨١ على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى إلا أنه =

لأبى بكر [١] . وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدى ، ولا يصح هذا كما قدمنا .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **واذكر أخا عاد** ﴾ أى واذكر يا محمد لقومك أخا عاد ، وهو هود بن عبد الله ابن رباح ، كان أخاهم فى النسب ، لا فى الدين ، وقوله: ﴿ **إذ أنذر قومه** ﴾ بدل اشتمال منه ، أى وقت إنذاره إياهم ﴿**بالأحقاف** ﴾ وهى ديار عاد، جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره ، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم ، والمعنى : أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا ويخافوا . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصتهم مع هود ليقتدى به ويهون عليه تكذيب قومه . قال عطاء: الأحقاف :رمال بلاد الشحر ، وقال مقاتل : هى باليمن فى حضرموت ، وقال ابن زيد : هى رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ﴿ **وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أى وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده ،كذا قال الفراء وغيره ، وفى قراءة ابن مسعود : « من بين يديه ومن بعده » والجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود وبين قوله لقومه: ﴿ **إنى أخاف عليكم** ﴾ والأوّل أولى ، والمعنى : أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ، ثم رجع إلى كلام هود لقومه ، فقال حاكياً عنه :

= قال : « فيه انقطاع ، محمد لم يسمع من عائشة » ، وقال ابن كثير ٦/ ٢٨٤ : « وهذا عام فى كل من قال هذا ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه » ولفظ النسائى والحاكم « فمروانُ فَضَضٌ من لعنة الله » ، ومعنى فَضَضٌ :قطعة وطائفة منها . النهاية ٣/ ٤٥٤ .

(١) ابن جرير ٢٦/ ١٣ .

﴿إنّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وقيل : إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام وأوفق بالمعنى . ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أى لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل : لتزيلنا. وقيل : لتمنعنا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول عروة بن أذينة (١) :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفو   كا ففى آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك . ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى وعدك لنا به . ﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ أى إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندى ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، فأما العلم بوقت مجيء العذاب فما أوحاه إلى ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ حيث بقيتم مصرّين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ما ليس من وظائف الرسل . ﴿ فلما رأوه عارضا ﴾ الضمير يرجع إلى « ما » فى قوله : ﴿ بما تعدنا﴾ . وقال المبرد والزجاج : الضمير فى ﴿ رأوه ﴾ يعود إلى غير مذكور وبينه قوله : ﴿ عارضا ﴾ فالضمير يعود إلى السحاب ، أى فلما رأوا السحاب عارضا ، فـ﴿عارضا﴾ نصب على التكرير، يعنى : التفسير ، وسمى السحاب عارضا ؛ لأنه يبدو فى عرض السماء ، قال الجوهرى : العارض : السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله: ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ وانتصاب ﴿ عارضاً ﴾ على الحال أو التمييز ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أى متوجها نحو أوديتهم . قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم ، يقال له : المعتب ، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا ، و ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ أى غيم فيه مطر ، وقوله : ﴿مستقبل أوديتهم ﴾ صفة لعارض ؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية ، فصح وصف النكرة به ، وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود ، فقال : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ يعنى : من العذاب حيث قالوا : ﴿فأتنا بما تعدنا ﴾ ، وقوله : ﴿ ريح ﴾ بدل من ما ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وجملة : ﴿فيها عذاب أليم﴾ صفة لريح ، والريح التى عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه .

﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح ، أى تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير : الإهلاك ، وكذا الدمار. وقرئ : « يدمر » بالتحتية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ورفع كل على الفاعلية من دمر دمارا ، ومعنى ﴿ بأمر ربها ﴾ : أن ذلك بقضائه وقدره ﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ أى لا ترى أنت يامحمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم . قرأ الجمهور : ﴿ لا ترى ﴾ بالفوقية على الخطاب ، ونصب مساكنهم . وقرأ حمزة وعاصم بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع

(١) هو : عروة بن يحيى ـ ولقبه أُذَيْنَة ـ بن مالك بن الحارث الليثى ، شاعر غزل مقدم .من أهل المدينة وهو معدود من الفقهاء والمحدثين ، سمع ابن عمر، وروى عنه مالك فى الموطأ ، والشعر أغلب عليه ، وتوفى فى حدود الثلاثين ومائة . الأعلام ٤/ ٢٢٧ ، فوات الوفيات ٢/ ٤٥١ .

مساكنهم . قال سيبويه : معناه : لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية . قال الكسائي والزجاج : معناها : لا يرى شيء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى كما تقول : ما قام إلا هند ، والمعنى : ما قام أحد إلا هند ، وفى الكلام حذف، والتقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم **﴿كذلك نجزى القوم المجرمين﴾** أى مثل ذلك الجزاء نجزى هؤلاء ، وقد مرّ بيان هذه القصة فى سورة الأعراف . **﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾** قال المبرد : ما فى قوله : **﴿ فيما ﴾** بمنزلة « الذى » ، و« إن » بمنزلة « ما » ، يعنى النافية ، وتقديره : ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان. وقيل: « إن » زائدة ، وتقديره: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه ، وبه قال (١) القتيبى، ومثله قول الشاعر :

فما إن طبنا (٢) جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا (٣)

والأوّل أولى ؛ لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش وأمثالهم **﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾** أى إنهم أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التى بها تدرك الأدلة ، ولهذا قال : **﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ﴾** أى فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد ، وصحة الوعد والوعيد ، وقد قدمنا من الكلام على وجه إفراد السمع وجمع البصر ما يغنى عن الإعادة ، و« من » فى: **﴿ من شىء﴾** زائدة ، والتقدير : فما أغنى عنهم شيء من الإغناء ، ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع **﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾** الظرف متعلق بـ **﴿ أغنى ﴾** ، وفيها معنى التعليل ، أى لأنهم كانوا يجحدون **﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾** أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا : **﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾** **﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾** الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى: قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوهما مما كان مجاورا لبلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم **﴿ وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾** أى بينا الحجج ونوعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا .

ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال: **﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾** أى فهلا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : **﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾** [يونس : ١٨] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم. قال الكسائى : القربان : كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة ، والجمع قرابين كالرهبان

---

(١) فى المطبوعة : « وبه قال قال القتيبى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، ومن القرطبى ٩/ ٦٠٢٨ .

(٢) الطب هنا : الشأن والعادة ، والشهوة والإرادة . القاموس المحيط ١٣٩ .

(٣) البيت لفروة بن مُسَيْك بن الحارث بن سلمة الغطيفى المرادى ، قال البخارى :« له صحبة ، روى عنه أبو سبرة ، يعد فى الكوفيين ، وأصله من اليمن ، ووفد على النبى ﷺ سنة تسع واستعمله على مراد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد فكان معه فى بلاده حتى توفى النبى ﷺ وقاتل أهل الردة ، وكان منهم عمرو بن معدى كرب . الإصابة ٣/ ٢٠٥ والأعلام ٥/ ١٤٣ .

والرهابين ، وأحد مفعولى ﴿ **اتخذوا** ﴾ ضمير راجع إلى الموصول ، والثانى آلهة ،و﴿ **قربانا** ﴾ حال ، ولا يصح أن يكون ﴿ **قربانا** ﴾ مفعولا ثانيا ، و﴿ **آلهة** ﴾ بدلا منه لفساد المعنى،وقيل : يصح ذلك ولا يفسد المعنى ، ورجحه ابن عطية وأبو البقاء وأبو حيان ، وأنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى غابوا عن نصرهم ولم يحضروا عند الحاجة إليهم . وقيل : بل هلكوا . وقيل : الضمير فى ضلوا راجع إلى الكفار ، أى تركوا الأصنام وتبرؤوا منها ، والأول أولى . والإشارة بقوله : ﴿ **وذلك** ﴾ إلى ضلال آلهتهم ، والمعنى : وذلك الضلال والضياع أثر ﴿ **إفكهم** ﴾ الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقربهم إلى الله . قرأ الجمهور : ﴿ **إفكهم** ﴾ بكسر الهمزة وسكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكا ، أى كذبهم ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل ، أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد ، وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء ،أى صيرهم آفكين . قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ وكسر الفاء بمعنى : صارفهم ، ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ معطوف على ﴿ **إفكهم** ﴾ أى وأثر افترائهم أو أثر الذى كانوا يفترونه ، والمعنى : وذلك إفكهم، أى كذبهم الذى كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى يكذبون أنها آلهة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأحقاف : جبل بالشام . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته [(١)] ، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية . قال : « يا عائشة ، وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا : ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ » [(٢)] . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فسألته فقال : « لا أدرى ، لعله كما قال قوم عاد :﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ » [(٣)] . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم** ﴾ قالوا :غيم فيه مطر ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا

---

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ، والجمع: لهوات . القاموس المحيط ٨ / ١٧ . والنهاية ٤/ ٢٨٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٨٩٩/ ١٦) والبيهقى ٣/ ٣٦٠ .

(٣) مسلم فى صلاة الاستسقاء (٨٩٩/ ١٤ ، ١٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٧) وقال : « حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٥١٢) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٩١) .

من رجالهم ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما لهم أنين ،ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم فى البحر، فهو [1] قوله : ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ .وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمى هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه** ﴾ يقول : لم نمكنكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : عاد مكنوا فى الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأطول أعماراً .

﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)** ﴾ .

لما بين سبحانه أن فى الإنس من آمن ، وفيهم من كفر . بين أيضا فى الجن كذلك ، فقال : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن** ﴾ العامل فى الظرف مقدر ، أى واذكر إذ صرفنا ، أى وجهنا إليك نفرا من الجن ، وبعثناهم إليك ، وقوله : ﴿ **يستمعون القرآن** ﴾ فى محل نصب صفة ثانية لـ ﴿ **نفرا** ﴾ أو حال ؛ لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى ﴿ **فلما حضروه** ﴾ أى حضروا القرآن عند تلاوته . وقيل : حضروا النبىّ ﷺ ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأول أولى ﴿ **قالوا أنصتوا** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : اسكتوا ، أمروا بعضهم بعضا بذلك لأجل أن يسمعوا ﴿ **فلما قضى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **قضى** ﴾ مبنيا للمفعول، أى فرغ من تلاوته، وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير ولاحق بن حميد وأبو مجلز على البناء للفاعل ، أى فرغ النبى ﷺ من تلاوته ، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير فى

---

(١) فى المطبوعة : « فقهوا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ حضروه ﴾ للقرآن ، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبى ﷺ ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ أى انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ومحذرين لهم ، وانتصاب ﴿ منذرين ﴾ على الحال المقدّرة ، أى مقدّرين الإنذار ، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبى ﷺ ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ذلك . ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ﴾ يعنون القرآن ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فوصلوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا. قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ﴿مصدقا لما بين يديه ﴾ أى لما قبله من الكتب المنزلة ﴿ يهدى إلى الحق ﴾ أى إلى الدين الحق ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ أى إلى طريق الله القويم. قال مقاتل: لم يبعث الله نبيا إلى الجنّ والإنس قبل محمد ﷺ .

﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ﴾ يعنون : محمدا ﷺ أو القرآن ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى بعضها ،وهوماعدا حقّ العباد .وقيل : إن « من » هنا لابتداء الغاية ، والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهى إلى غفران ترك ماهو الأولى ، وقيل : هى زائدة ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ وهو عذاب النار ، وفى هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى ، وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة ، والأول أولى . وبه قال مالك والشافعى وابن أبى ليلى . وعلى القول الأوّل ، فقال القائلون به : إنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم : كونوا ترابا ، كما يقال للبهائم، والثانى أرجح.وقد قال الله سبحانه فى مخاطبة الجن والإنس:﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] فامتّن سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، ولاينافى هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازى محسنهم بالجنة وهو مقام فضل ؟ ومما يؤيد هذا أيضاً ما فى القرآن الكريم فى غير موضع أن جزاء المؤمن الجنة،وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال : لا إله إلا الله الجنة، وغير ذلك مما هو كثير فى الكتاب والسنة .

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم أم لا ؟ وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما فى قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ [يوسف : ١٠٩] وقال : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ [الفرقان : ٢٠] وقال سبحانه فى إبراهيم الخليل : ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : ٢٧] فكل نبىّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته ، وأما قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فقيل : المراد من مجموع الجنسين وصدق على أحدهما وهم الإنس كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : ٢٢] أى من أحدهما .

﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ، ولا

يقدر على الهرب منه ؛ لأنه وإن هرب كل مهرب فهو فى الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، وفى هذا ترهيب شديد ، ﴿ **وليس له من دونه أولياء** ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله ، بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه ، استحالة نجاته بواسطة غيره ، والإشارة بقوله : ﴿**أولئك**﴾ إلى من لا يجب داعى الله ، وأخبر أنهم ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى ظاهر واضح . ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث ، فقال : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض**﴾ الرؤية هنا هى القلبية التى بمعنى العلم ،والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدّر ، أى ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذى خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداء ﴿ **ولم يعى بخلقهن** ﴾ أى لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال : عىّ بالأمر وعيى : إذا لم يهتد لوجهه ، ومنه قول الشاعر :

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضها الحمامة (١)

قرأ الجمهور :﴿ **ولم يعى** ﴾ بسكون العين وفتح الياء مضارع عيى . وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء . ﴿**بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد ،كما فى قوله: ﴿ وكفى بالله شهيدا﴾ [النساء: ١٦٦] قال الكسائى والفراء والزجاج : العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام ، فتقول : ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور فى محل رفع على أنها خبر لأن ، وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر والأعرج والجحدرى وابن أبى إسحاق ويعقوب وزيد بن علىّ : « يقدر » على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال : لأن دخول الباء فى خبر أن قبيح ﴿ **بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء . ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار** ﴾ الظرف متعلق بقول مقدّر ، أى يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ وهذه الجملة هى المحكية بالقول، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفى الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم ؛ لأن المشاهدة هى حق اليقين الذى لا يمكن جحده ولا إنكاره ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ أى بسبب كفركم بهذا فى الدنيا وإنكاركم له ، وفى هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتهكم عظيم .

لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ والفاء جواب شرط محذوف ، أى إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجع فى الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم ، أى أرباب الثبات والحزم فإنك منهم . قال مجاهد : أولو العزم من الرسل خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد

---

(١) البيت للشاعر عبيد بن الأبرص .

ﷺ ، وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : هم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم . وقال السديّ : هم ستة : إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد ﷺ . وقيل : نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس . وقال الشعبى والكلبى : هم الذين أمروا بالقتال ، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة. وقيل: هم نجباء الرّسل المذكورون فى سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط . واختار هذا الحسين ابن الفضل لقوله بعد ذكرهم :﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠] . وقيل: إن الرسل كلهم أولو عزم ، وقيل : هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل . وقال الحسن : هم أربعة : إبراهيم وموسى وداود وعيسى ﴿ **ولا تستعجل لهم** ﴾ أى لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون**﴾ من العذاب ﴿**لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ أى كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم . قرأ الجمهور: ﴿ **بلاغ** ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى هذا الذى وعظتهم به بلاغ ، أو تلك الساعة بلاغ ، أو هذا القرآن بلاغ ، أو هو مبتدأ ، والخبر لهم الواقع بعد قوله : ﴿ **ولا تستعجل** ﴾ أى لهم بلاغ ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وزيد بن علىّ «بلاغاً » بالنصب على المصدر ، أى بلغ بلاغا ، وقرأ أبو مجلز :«بلغ » بصيغة الأمر ، وقرئ :« بلغ » بصيغة الماضى ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **فهل يهلك** ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل ، والمعنى : أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى الله . قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك . قيل : وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء . قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن منيع ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن مسعود قال : هبطوا ، يعنى : الجن ، على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، قالوا : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ضلال مبين** ﴾ (١) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن الزبير ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن** ﴾ . قال : بنخلة ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ [الجن : ١٧] (٢) . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه [عن ابن عباس] (٣) :﴿ **واذ**

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٦ ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الدلائل ص ٣٠٤ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٢٨ .
(٢) أحمد ١/ ١٦٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٢ : « ورجاله رجال الصحيح » وابن جرير ٢٦/ ٢٢ عن عكرمة عن ابن عباس .
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج ، والدر المنثور ٦/ ٤٤ .

صرفنا إليك نفرا من الجن ﴾ الآية . قال : كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم عنه نحوه وقال : أتوه ببطن نخلة (٢) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : صرفت الجنّ إلى رسول الله ﷺ مرّتين وكانوا أشراف الجن بنصيبين (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ قال: آذنته بهم شجرة (٤) . وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسولَ الله ﷺ منكم أحدٌ ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه منا أحد . ولكنا فقدناه ذات ليلة ، فقلنا: اغتيل ، استطير (٥) ما فعل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قبل حراء فأخبرناه فقال: « إنه أتانى داعى الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » (٦) . وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ ، وقد روى نحو هذا من طرق . والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه ﷺ مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود ، ولم يحضر فى الأخرى . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذوا عنه الشرائع .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : أولو العزم من الرسل : النبى ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وأخرج ابن مردويه عنه قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن عائشة قالت : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ، قال : « يا عائشة ، إن الدين لا ينبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال : ﴿ **اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله » (٧) .

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٢٠ والطبرانى (١١٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٠٩ : « فأما إسناد الطبرانى فى الكبير ففيه النضر أبو عمر ، وهو متروك » .

(٢) ابن جرير ٢٦/ ٢٠ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٣٠٨ .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٩ : « وأحد إسنادى الأوسط فيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، والإسناد الآخر فيه عفير بن معدان ، وهو متروك».

(٤) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم فى الصلاة (٤٥٠/ ١٥٣) .

(٥) اغتيل : قتل سرا ، والغيلة ، بالكسر : الخديعة والاغتيال ، وقتل فلان غيلة ، أى خدعة . اللسان ١١/ ٥١٢، ٥١٣ . استطير : طارت به الجن . اللسان ٤/ ٥١٢ ، ٥١٣ .

(٦) أحمد ١/ ٤٣٦ ومسلم فى الصلاة (٤٥٠/ ١٥٠) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٨) وقال:«حسن صحيح» .

(٧) الديلمى (٨٦٢٨) .

تفسير سورة محمد ﷺ

وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا . وهى تسع وثلاثون آية . وقيل : ثمان وثلاثون . وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع ، إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه . فنزل قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك** ﴾ . وقال الثعلبى : إنها مكية ، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير وهو غلط من القول ، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه قال : نزلت سورة محمد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، عن ابن عمر أن النبىّ ﷺ كان يقرأ بهم فى المغرب :﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

---

(١) الطبرانى (١٣٣٨٠) وفى الصغير ١/ ٤٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ : « رواه الطبرانى فى الثلاثة ، ورجاله رجال الصحيح » .

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ هم كفار قريش كفروا بالله وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ، كذا قال مجاهد والسدّى . وقال الضحاك :معنى ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ :عن بيت الله بمنع قاصديه . وقيل : هم أهل الكتاب ، والموصول مبتدأ وخبره ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أى أبطلها وجعلها ضائعة . قال الضحاك : معنى ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبى ﷺ ، وجعل الدائرة عليهم فى كفرهم . وقيل : أبطل ما عملوه فى الكفر مما يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام ، وفكّ الأسارى ، وقرى الأضياف ، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها ،لكن المعنى : أنه سبحانه حكم ببطلانها . ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين فقال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ ظاهر هذا العموم فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ولا يمنع من ذلك خصوص سببها ، فقد قيل : إنها نزلت فى الأنصار . وقيل : فى ناس من قريش . وقيل : فى مؤمنى أهل الكتاب ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله ؛ تنبيها على شرفه وعلوّ مكانه ، وجملة ﴿**وهو الحق من ربهم** ﴾ معترضة بين المبتدأ وهو قوله: ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ وبين خبره وهو قوله : ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ ومعنى كونه الحقّ : أنه الناسخ لما قبله ، وقوله : ﴿ **من ربهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ومعنى ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى السيئات التى عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ أى شأنهم وحالهم . قال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة : حالهم . وقيل : أمرهم ، والمعانى متقاربة . قال المبرد : البال : الحال هاهنا . قيل : والمعنى : أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم ، وأرشدهم إلى أعمال الخير ، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال ، ونحو ذلك ، وقال النقاش : إن المعنى : أصلح نياتهم ، ومنه قول الشاعر :

فإن تقبلى بالودّ أقبل بمثله وإن تدبرى أذهب، إلى حال باليا

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ووعد به المؤمنين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده . وقيل : إنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فالباطل : الشرك ، والحق : التوحيد والإيمان ، والمعنى : أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات ، ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم ، أى أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة .

قال الزجاج : ﴿ **كذلك يضرب** ﴾ :يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال الكافرين ، يعنى : أن من كان كافراً أضلّ الله عمله، ومن كان مؤمنا كفر الله سيئاته .

﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، والمراد بالذين كفروا : المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، وانتصاب ﴿ **ضرب** ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف . قال الزجاج : أى فاضربوا الرقاب ضرباً ، وخص الرقاب بالذكر ؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها . وقيل : هو منصوب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولهم : يا نفس صبراً . وقيل : التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب . وقيل : إنما خصّ ضرب الرقاب ؛ لأن فى التعبير عنه من الغلظة والشدة ما ليس فى نفس القتل ، وهى حزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن ، وعلوّه وأحسن أعضائه ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم** ﴾ أى بالغتم فى قتلهم وأكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل ، وهو مأخوذ من الشىء الثخين ، أى الغليظ ، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ الوثاق بالفتح ويجىء بالكسر : اسم الشىء الذى يوثق به كالرباط . قال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق ، أى شده . قال : والوثاق بكسر الواو لغة فيه . قرأ الجمهور : ﴿ **فشدوا** ﴾ بضم الشين ، وقرأ السلمى بكسرها ، وأنما أمرسبحانه بشدّ الوثاق لئلا ينفلتوا ، والمعنى : إذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم وأحيطوهم بالوثاق ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ أى فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا ، أو تفدوا فداء . والمنّ : الإطلاق بغير عوض ، والفداء : ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم . قرأ الجمهور: ﴿ **فداءً** ﴾ بالمد ، وقرأ ابن كثير : « فدى » بالقصر ، وإنما قدّم المنّ على الفداء ؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به ، كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أوزار الحرب التى لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز ، والمعنى : أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية هى ألا تكون حرب مع الكفار . قال مجاهد : المعنى: حتى لا يكون دين غير دين الإسلام وبه قال الحسن والكلبى ، قال الكسائى: حتى يسلم الخلق . قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقيل : المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . وروى عن الحسن وعطاء أنهما قالا : فى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثختنموهم فشدوا الوثاق .

وقد اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل : إنها منسوخة فى أهل الأوثان ، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم ، والناسخ لها قوله: ﴿ فاقتلوا المشركين

حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] وقوله : ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم ﴾ [الأنفال : ٥٧] وقوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] وبهذا قال قتادة والضحاك والسدّى وابن جريج وكثير من الكوفيين ، قالوا : والمائدة آخر ما نزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة . وقيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] روى ذلك عن عطاء وغيره ، وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة ، والإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المنّ والفداء ، وبه قال مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبو عبيد وغيرهم ، وهذا هو الراجح ؛ لأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك ، وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ [الأنفال: ٦٧] فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

﴿ **ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك . وقيل: فى محل نصب على المفعولية بتقدير فعل ، أى افعلوا ذلك ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف يدلّ عليه ما تقدّم ، أى ذلك حكم الكفار ، ومعنى ﴿ **لو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ ، أى قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ﴿ **ولكن** ﴾ أمركم بحربهم ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين فى سبيله ، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ، ويعذب الكفار بأيديهم .
﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **قاتلوا** ﴾ مبنيا للفاعل . وقرأ أبو عمرو وحفص : ﴿ **قتلوا** ﴾ مبنيا للمفعول،وقرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وأبو حيوة : « قتلوا » على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى والرابعة : أن المجاهدين فى سبيل الله ثوابهم غير ضائع ، وعلى القراءة الثانية والثالثة : أن المقتولين فى سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد . ثم ذكر سبحانه مالهم عنده من جزيل الثواب فقال : ﴿**سيهديهم** ﴾ أى سيهديهم الله سبحانه إلى الرشد فى الدنيا ويعطيهم الثواب فى الآخرة ﴿**ويصلح بالهم** ﴾ أى حالهم وشأنهم وأمرهم . قال أبو العالية : قد ترد الهداية ، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المفضية إليها ، وقال ابن زياد : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير ﴿**ويدخلهم الجنة عرّفها لهم**﴾ أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا تفرقوا إلى منازلهم . قال الواحدى: هذا قول عامة المفسرين، وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف، أى عرفوا طرقها ومساكنها وبيوتها . وقيل : هذا التعريف بدليل يدلهم عليها ، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله ، كذا قال مقاتل . وقيل : معنى ﴿ **عرفها لهم**﴾: طيبها بأنواع الملاذّ ، مأخوذ من العرف ، وهو الرائحة .

ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ويفتح لكم ، ومثله قوله : ﴿ ولينصرنّ الله من ينصره ﴾ [الحج : ٤٠] قال قطرب :إن تنصروا نبى الله ينصركم ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ أى عند القتال،وتثبيت الأقدام عبارة عن النصـر والمعونة فى مواطن الحـرب،وقيل : على الإسلام . وقيل : على الصراط ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم** ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف تقديره : فتعسوا بدليل ما بعده ، ودخلت الفاء تشبيهـا للمبتـدأ بالشـرط ، وانتصاب ﴿ **تعساً** ﴾ على المصدر للفعل المقدر خبراً، قال الفراء : مثل سقياً لهم ورعياً، وأصل التعس : الانحطاط والعثار ، قال ابن السكيت : التعس : أن يجر على وجهه ، والنكس : أن يجر على رأسه ، قال: والتعس أيضا : الهلاك ، قال الجوهرى:وأصله الكبّ وهو ضد الانتعاش ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستنى يا مجمع [(١)]

قال المبرّد : أى فمكروها لهم ، وقال ابن جريج : بعدا لهم. وقال السدّى: خزياً لهم ، وقال ابن زيد : شقاء لهم ، وقال الحسن : شتماً لهم ، وقال ثعلب : هلاكاً لهم ، وقال الضحاك : خيبةً لهم . وقيل : قبحاً لهم ، حكاه النقاش . وقال الضحاك : رغماً لهم ، وقال ثعلب أيضا : شرا لهم ، وقال أبو العالية : شقوة لهم ، واللام فى : ﴿**لهم** ﴾ للبيان كما فى قوله : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] وقوله : ﴿ **وأضـل أعمالهـم** ﴾ معطـوف على ما قبله داخل معه فى خبرية الموصول . والإشـارة بقـوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى ماتقدّم مما ذكـره الله من التعـس والإضـلال ، أى الأمـر ذلك ، أو ذلك الأمر ﴿ **بأنهم كرهوا ما أنزل الله** ﴾ على رسوله من القرآن ، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما فى القرآن من التوحيد والبعث ﴿ **فأحبط** ﴾ الله ﴿ **أعمالهم** ﴾ بذلك السبب ، والمراد بالأعمال : ما كانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة وإن كانت باطلة من الأصل ؛ لأن عمل الكافر لايقبل قبل إسلامه.

ثم خوّف الله سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ أى ألم يسيروا فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أى آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية . ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال : ﴿ **دمّر الله عليهم** ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والتدمير: الإهلاك ، أى أهلكهم واستأصلهم ، يقال : دمّره ودمر عليه بمعنى ، ثم توعد مشركى مكة فقال : ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ أى لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة . قال الزجاج وابن جرير : الضمير فى ﴿ **أمثالها** ﴾ يرجع إلى ﴿ **عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ وإنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدّد الأمم المعذبة .وقيل : أمثال العقوبة.

---

(١) الشاعر : مجمع بن هلال بن خالد ، من بنى تيم . شاعر فارسى جاهلى ، أغار على بعض بنى مجاشع ، فقتل وأسر وغنم وله فى ذلك شعر ، وهو من المعمرين . الأعلام ٥/ ٢٨٠ .

وقيل :الهلكة . وقيل : التدميرة ، والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿ **بأن الله مولى الذين آمنوا** ﴾ أى بسبب أن الله ناصرهم ، ﴿ **وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ أى لا ناصر يدفع عنهم . وقرأ ابن مسعود: « ذلك بأن الله ولىّ الذين آمنوا » قال قتادة : نزلت يوم أحد . ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قد تقدّم تفسير الآية فى غير موضع ، وتقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات ، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام** ﴾ أى يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عن العاقبة لاهون بما هم فيه ﴿ **والنار مثوى لهم** ﴾ أى مقام يقيمون به ، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه ، والجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله:﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله** ﴾ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ قال : أمرهم [(١)] . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **أضلّ أعمالهم** ﴾ قال : كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملا .

وأخرج النحاس عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ قال : فجعل الله النبى والمؤمنين بالخيار فى الأسار، إن شاؤوا قتلوهم ، وإن شاؤوا استعبدوهم ، وإن شاؤوا فادوهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً فى الآية قال : هذا منسوخ نسختها : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] [(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله ، فقال ابن عمر ، ليس بهذا أمرنا إنما قال الله : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن المنذر وابن مردويه عن ليث قال : قلت لمجاهد : بلغنى أن ابن عباس قال : لا يحلّ قتل الأسارى ؛ لأن الله قال : ﴿ **فإما منا بعدوإما فداء** ﴾ فقال مجاهد : لا تعبأ بهذا شيئا أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وكلهم ينكر هذا ، ويقول هذه منسوخة إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبى ﷺ وبين المشركين ، فأما اليوم فلا ، يقول الله : ﴿ فاقتلوا [(٣)] المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] ويقول : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ فإن كان من مشركى العرب لم يقبل شىء منهم إلا الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار ، إن شاؤوا

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٢٥ وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٧ ووافقه الذهبى .
(٢) ابن جرير ٢٦/ ٢٦ .
(٣) فى المخطوطة بدون الفاء .

قتلوهم، وإن شاؤوا استحيوهم ، وإن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا [١] ، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفانى [٢] . وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهدياً ،وحكما عدلاً ،فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » [٣]. وأخرج ابن سعد وأحمد والنسائى والبغوى والطبرانى وابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبى ﷺ من حديث قال: « لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج » [٤]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال: لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾ .

خوّف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشد منهم فقال : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم** ﴾ قد قدّمنا أن « كأين » مركبة من الكاف وأىّ ، وأنها بمعنى كم الخبرية ، أى وكم من قرية ، وأنشد الأخفش قول لبيد [٥] :

---

(١) عبد الرزاق فى الجهاد (٩٤٠٤) .

(٢) ورد فى معناه عن النبى ﷺ الحديث الذى رواه أبو داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانيا ، ولا طفلا ، ولاصغيرا ، ولا امرأة ، ولا تَغُلُّوا . . . » أبو داود فى الجهاد (٢٦١٤) .

(٣) الحديث رواه بألفاظ مختلفة : أحمد ٢/ ٢٤٠ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٤٨) وفى البيوع (٢٢٢٢) وفى المظالم (٢٤٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٥٥/ ٢٤٢) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٤) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٧٨) والبيهقى فى الغصب ٦/ ١٠١ .

(٤) ابن سعد ٧ / ٤٢٧ ، ٨٢٤ وأحمد ٤ / ١٠٤ والنسائى فى الكبرى فى السير كما فى تحفة الأشراف للمزى ٤/ ٥٤ والطبرانى (٦٣٦٠).

(٥) فى المطبوعة : « الوليد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وكأين رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للأسير المكبل

ومعنى الآية : وكم من قرية هى أشد قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها أهلكناهم ﴿فلا ناصر لهم﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم ، وهم قريش الذين هم أهل قرية النبى ﷺ وهى مكة ، فالكلام على حذف المضاف كما فى قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] قال مقاتل : أى أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر فقال : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وهو مبتدأ ،والخبر ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ وأفرد فى هذا باعتبار « لفظ » من ، وجمع فى قوله : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ باعتبار معناها ، والمعنى : أنه لا يستوى من كان على يقين من ربه، ولا يكون كمن زين له سوء عمله ، وهو عبادة الأوثان والإشراك بالله والعمل بمعاصى الله ، واتبعوا أهواءهم فى عبادتها ، وانهمكوا فى أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلا عن حجة نيرة ، ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال بين الفرق فى مرجعهما ومآلهما فقال: ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان ما فيها ، ومعنى ﴿ مثل الجنة ﴾ : وصفها العجيب الشأن ، وهو مبتدأ وخبره محذوف ، قال النضر بن شميل :تقديره :ما يسمعون . وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، قال : والمثل هو الوصف ومعناه : وصف الجنة ، وجملة :﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ إلخ مفسرة للمثل . وقيل : إن ﴿ مثل ﴾ زائدة . وقيل : إن ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ فيها أنهار ﴾ . وقيل :خبره ﴿كمن هو خالد ﴾ ، والآسن : المتغير، يقال : أسن الماء يأسن أسونا : إذا تغيرت رائحته ، ومثله الآجن ، ومنه قول زهير :

قد أترك القرن مصفراً أنامله يميد فى الرمح ميد المالح الأسن

قرأ الجمهور : ﴿ آسن ﴾ بالمدّ ،وقرأ حميد وابن كثير بالقصر،وهما لغتان كحاذر وحذر . وقال الأخفش : إن الممدود يراد به الاستقبال ، والمقصور يراد به الحال ، ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا ؛ لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أى لذيذة لهم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون ، يقال : شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى ، ومثـل هذه الآية قولـه: ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ [الصافات : ٤٦] قرأ الجمهور : ﴿ لذة ﴾ بالجر صفة لـ ﴿ خمر ﴾ ، وقرئ بالنصب على أنه مصدر ، أو مفعول له ، وقرئ بالرفع صفة لـ ﴿ أنهار ﴾ ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أى مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكدر ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ أى لأهل الجنة فى الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات،أى من كل صنف من أصنافها ،و« من» زائدة للتوكيد ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ لذنوبهم ، وتنكير مغفرة للتعظيم ، أى ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿ كمن هو خالد فى النار ﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: أم من هو فى نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمن هو خالد فى النار ، أو خبر لقوله: ﴿ مثل الجنة ﴾

كما تقدّم . ورجح الأول الفراء فقال : أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار؟ قال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء ، كم زين له سوء عمله وهو خالد فى النار ؟ فقوله : « كمن » بدل من قوله : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله** ﴾ وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة فى النعيم كمثل أهل النار فى العذاب الأليم ، وقوله : ﴿**وسقوا ماء حميما** ﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية ، لكنه راعى فى الأول لفظ « من »،وفى الثانية معناها . والحميم : الماء الحار الشديد الغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهى معنى قوله : ﴿ **فقطع أمعاءهم** ﴾ لفرط حرارته ، والأمعاء جمع معى، وهى : ما فى البطون من الحوايا .

﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ أى من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظ « من » ، وجمع فى قوله : ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك** ﴾ باعتبار معناها، والمعنى : أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ ومواطن خطبه التى يمليها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿ **قالوا للذين أوتوا العلم** ﴾ وهم علماء الصحابة . وقيل : عبد الله بن عباس . وقيل : عبد الله بن مسعود . وقيل: أبو الدرداء ، والأول أولى ، أى سألوا أهل العلم فقالوا لهم : ﴿ **ماذا قال آنفا** ﴾ أى ماذا قال النبى الساعة على طريقة الاستهزاء ، والمعنى : أنا لم نلتفت إلى قوله ، و﴿ **آنفا** ﴾ يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات ، ومنه : أمر آنف ، أى مستأنف، وروضة أنف ، أى لم يرعها أحد ، وانتصابه على الظرفية ، أى وقتا مؤتنفا ، أو حال من الضمير فى « قال » . قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء ، إذا ابتدأته ، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، مستعار من الجارحة ، ومنه قول الشاعر:

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ... ويأكل جارهم أنف القصاع [(١)]

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين من المنافقين ﴿ **الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾ فلم يؤمنوا ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ فى الكفر والعناد . ثم ذكر حال أضدادهم فقال ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أى والذين اهتدوا إلى طريق الخير ، فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق . وقيل : زادهم النبى ﷺ . وقيل : زادهم القرآن . وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى ، وعلى كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة فى الدين ، ﴿**وآتاهم تقواهم** ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم عليها . والتقوى قال الربيع: هى الخشية ، وقال السدّى : هى ثواب الآخرة ، وقال مقاتل : هى التوفيق للعمل الذى يرضاه. وقيل : العمل بالناسخ وترك المنسوخ . وقيل : ترك الرخص والأخذ بالعزائم ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة** ﴾ أى القيامة

(١) البيت للحطيئة .

﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أى فجأة ، وفى هذا وعيد للكفار شديد ، وقوله : ﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ بدل اشتمال ، وقرأ أبو جعفر الرواسى : « إن تأتهم » بإن الشرطية ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أى أماراتها وعلاماتها وكانوا قد قرؤوا فى كتبهم أن النبىّ ﷺ آخر الأنبياء ، فبعثته من أشراطها ، قاله الحسن والضحاك . والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها . وقيل : المراد بأشراطها هنا : أسبابها التى هى دون معظمها . وقيل : أراد بعلامات الساعة : انشقاق القمر والدخان ، كذا قال الحسن . وقال الكلبى : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ، ومنه قول أبى زيد الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا … فـقد جعلت أشـراط أولـه تـبدو

﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ ﴿ ذكراهم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ فأنى لهم ﴾ ، أى أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ [الفجر : ٢٣] و ﴿ إذا جاءتهم ﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر. ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ أى إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشرّ هو الشرك والعمل بمعاصى الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا ربّ سواه ، والمعنى : اثبت على ذلك واستمر عليه ؛ لأنه ﷺ قد كان عالما بأنه لا إله إلا الله قبل هذا . وقيل : ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. وقيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم ﴿ واستغفر لذنبك﴾ أى استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك ، أواستغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى . وقيل : الخطاب له، والمراد الأمة ، ويأبى هذا قوله : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فإن المراد به : استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم﴿والله يعلم متقلبكم﴾ فى أعمالكم ﴿ ومثواكم ﴾ فى الدار الآخرة . وقيل : متقلبكم فى أعمالكم نهاراً ، ومثواكم فى ليلكم نياما . وقيل : متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم فى الأرض ، أى مقامكم فيها ، قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا ، ومثواكم فى القبور .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنت أحبّ بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج ، فأعتى الأعداء من عتا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية » فأنزل الله: ﴿وكأين من قرية ﴾ الآية [1] .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس﴿ أنهار من ماء غير آسن ﴾ قال : متغير.
وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر

(١) أبو يعلى (٢٦٦٢) وابن جرير ٢٦/ ٣١ وأورده ابن كثير ٦/ ٣١٤ ولم يعلق عليه .

العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها» [١] .وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، والبيهقى عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل فى الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن فى الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر فى الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة [٢] .

وأخرج ابن جرير ،والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا** ﴾ قال :كنت فيمن يُسأل [٣]. وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال : أنا منهم . وفى هذا منقبة لابن عباس جليلة ؛ لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ ، فإن النبى ﷺ مات وهو فى سنّ البلوغ ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبى ﷺ ، ووصفُ الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم ، وهو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه ، ومزيد فقهه فى كتاب الله وسنة رسوله ، مع كون أترابه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس ، ماذا قال آنفا ؟ فيقول :كذا وكذا . وكان ابن عباس أصغر القوم ، فأنزل الله الآية ، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال : هو عبد الله بن مسعود [٤] . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : هو عبد الله بن مسعود . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ قال : لما أنزل القرآن آمنوا به ، فكان هدى ، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى .

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ قال : أوّل الساعات ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالوسطى والسبابة [٥] . ومثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد [٦] ، وفى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة وبيان ما قد وقع منها وما لم يكن قد وقع وهى تأتى فى مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والديلمى عن عبد الله ابن عمر [٧] عن النبى ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الاستغفار »

---

(١) أحمد ٥/ ٥ والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٧١) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الخطيب فى تاريخ بغداد ١/ ٥٥ وابن حجر فى المطالب العالية (٤٦٨٩) وقال البوصيرى : « رواه الحارث مرسلا ، ورواته ثقات » .

(٣) ابن جرير ٢٦/ ٣٢ و صححه الحاكم ٢/ ٤٥٧ ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبة (١٢٢٨٩) .

(٥) البخارى فى الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم فى الفتن (٢٩٥٠/ ١٣٢ ، ١٣٥) والترمذى فى الفتن (٢٢١٤) والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣١٣.

(٦) البخارى فى التفسير (٤٩٣٦) وفى الطلاق (٥٣٠١) وفى الرقاق (٦٥٠٣) .

(٧) فى المخطوطة : « عبد الله بن عمرو » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

ثم قرأ : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [(١)] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ قال رسول الله ﷺ: « إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » [(٢)]. وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت النبى ﷺ ، فأكلت معه من طعام ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، قال : « ولك » ، فقيل : أنستغفر لك يا رسول الله ﷺ ؟ قال : « نعم ولكم » ، وقرأ: ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [(٣)] . وقد وردت أحاديث فى استغفاره ﷺ لنفسه ولأمته وترغيبه فى الاستغفار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ والله يعلم متقلبكم ﴾ فى الدنيا ﴿ ومثواكم ﴾ فى الآخرة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ .

سأل المؤمنون ربهم عزّ وجل أن ينزل على رسوله ﷺ سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد ، ونيل ما أعدّ الله للمجاهدين من جزيل الثواب ، فحكى الله عنهم

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٨٧: « رواه الطبرانى ، وفيه الإفريقى وغيره من الضعفاء » ، والديلمى (١٤١٢) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٩) وقال : « حسن صحيح » والبيهقى فى الشعب (٦٢٩) .

(٣) أحمد ٥/ ٨٢ ومسلم فى الفضائل (٢٣٤٦/ ١١٢) وعزاه المزى إلى الترمذى فى الشمائل (٢ / ٨) ، والنسائى فى التفسير (٥١٦) وابن جرير ٢٧/ ٤ .

ذلك بقوله: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أى هلا نزلت ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أى غير منسوخة ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أى فرض الجهاد . قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشدّ القرآن على المنافقين ، وفى قراءة ابن مسعود : « فإذا أنزلت سورة محدثة » أى محدثة النزول . قرأ الجمهور: ﴿ فإذا أنزلت ﴾ و﴿ ذكر﴾ على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ زيد بن علىّ وابن عمير : « نزلت » و« ذكر» على بناء الفعلين للفاعل ونصب القتال ﴿ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى شك ، وهم المنافقون ﴿ ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت ﴾ أى ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال وميلهم إلى الكفار . قال ابن قتيبة والزجاج: يريد : أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم ، وينظرون إليك نظرا شديدا كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿ فأولى لهم ﴾ قال الجوهرى: وقولهم : « أولى » لك تهديد ووعيد ، وكذا قال مقاتل والكلبى وقتادة . قال الأصمعى: معنى قولهم فى التهديد : أولى لك ، أى وليك وقاربك ما تكره ، وأنشد قول الشاعر :

فعادى بين هاذيتين منها ... وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل فى أولى أحسن مما قاله الأصمعى ، وقال المبرد : يقال لمن همّ بالغضب ثم أفلت : أولى لك، أى قاربت الغضب ، وقال الجرجانى : هو مأخوذ من الويل ، أى فويل لهم ، وكذا قال فى الكشاف [1]. قال قتادة أيضا :كأنه قال : العقاب أولى لهم . وقوله : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلام مستأنف ، أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم . قال الخليل وسيبويه :إن التقدير: طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما . وقيل : إن ﴿ طاعة ﴾ خبر ﴿ أولى ﴾. وقيل :إن ﴿ طاعة ﴾ صفة لـ﴿ سورة ﴾ . وقيل : إن ﴿ لهم ﴾ خبر مقدّم و﴿ طاعة ﴾ مبتدأ مؤخر، والأول أولى ﴿فإذا عزم الأمر ﴾ عزم الأمر : جدّ الأمر ، أى جدّ القتال ووجب وفرض ، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا ، وجواب « إذا » قيل هو :﴿ فلو صدقوا الله ﴾ فى إظهار الإيمان والطاعة ﴿ لكان خيرا لهم﴾ من المعصية والمخالفة . ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ هذا خطاب للذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع . قال الكلبى : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم ، وقال كعب : ﴿ أن تفسدوا فى الأرض ﴾ أى يقتل بعضكم بعضا . وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء وتقطعوا أرحامكم . وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة . وقيل : أعرضتم عن القتال وفارقتم أحكامه . قرأ الجمهور : ﴿ توليتم ﴾ مبنيا للفاعل ،وقرأ على بن أبى طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيا للمفعول،

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٢٤ .

وبها قرأ ابن أبي إسحاق وورش عن يعقوب ، ومعناها : فهل عسيتم إن ولى عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم فى الفتنة وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغى والظلم والقتل ؟ وقرأ الجمهور : ﴿ **وتقطعوا** ﴾ بالتشديد على التكثير ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه وسلام وعيسى ويعقوب بالتخفيف من القطع ، يقال : عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهرى وغيره ، وخبر ﴿**عسيتم**﴾ هو ﴿ **أن تفسدوا** ﴾ والجملة الشرطية بينهما اعتراض .

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **الذين لعنهم الله** ﴾ ، أى أبعدهم من رحمته وطردهم عنها ﴿ **فأصمهم** ﴾ عن استماع الحق ﴿ **وأعمى أبصارهم** ﴾ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ للإنكار ، والمعنى : أفلا يتفهمونه فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التى تكفى من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل أعلى قلوب أقفالها؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون ؟ . قال مقاتل :يعنى : الطبع على القلوب والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال إلى القلوب ؛ للتنبيه على أن المراد بها : ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية : أنه لا يدخل فى قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك ؛ لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب : قلوب هؤلاء المخاطبين . قرأ الجمهور : ﴿ **أقفالها** ﴾ بالجمع ، وقرئ : «إقفالها » بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال . ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ أى رجعوا كفارا كما كانوا .قال قتادة :هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبى ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم ، وبه قال ابن جرير ، وقال الضحاك والسدّى : هم المنافقون قعدوا عن القتال ، وهذا أولى ؛ لأن السياق فى المنافقين : ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى** ﴾ بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة ﴿ **الشيطان سوّل لهم**﴾ أى زين لهم خطاياهم وسهل لهم الوقوع فيها ، وهذه الجملة خبر « إن » ، ومعنى ﴿ **وأملى لهم** ﴾ : أن الشيطان مد لهم فى الأمل ووعدهم طول العمر . وقيل : إن الذى أملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة . قرأ الجمهور : ﴿ **أملى** ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة على البناء للمفعول . قيل :وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان كالقراءة الأولى ، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفرّاء والمفضل ، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريبا .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من ارتدادهم ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله** ﴾ أى بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ، وهم المشركون ﴿ **سنطيعكم فى بعض الأمر** ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله ﷺ ومخالفة ما جاء به . وقيل : المعنى : إن المنافقين قالوا لليهود :

سنطيعكم فى بعض الأمر . وقيل : إن القائلين اليهود ، والذين كرهوا ما أنزل الله من المنافقين . وقيل : إن الإشـارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الإملاء . وقيل : إلى التسويل ، والأول أولى ، ويؤيد كون القائلين : المنافقين ، والكارهين : اليهود قـوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ [الحشر : ١١] . ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السر بينهم قال الله سبحانه : ﴿ **والله يعلم أسرارهم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الكوفيـون وحمـزة والكسـائى وحفـص عن عاصـم وابن وثـاب والأعمش بكسر الهـمزة على المصدر ، أى إخفاءهـم . ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدهـا على ما قبلها ، و﴿**كيف** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر مقدّم ، والتقدير : فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، أو فى محل نصب بفعل محذوف ، أى فكيف يصنعون ؟ أو خبر لكان مقدّرة ، أى فكيف يكونون ؟ ، والظرف معمول للمقدّر ، قرأ الجمهور : ﴿ **توفتهم** ﴾ وقرأ الأعمش: «توفاهم » ، وجملة : ﴿ **يـضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **توفتهم** ﴾ أو من مفعوله ، أى ضاربين وجوههم وأدبارهم ، وفى الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا ، وهو تصوير لتوفيهم على أقبح حال وأشنعه ، وقيل: ذلك عند القتال نصـرة من الملائكـة لرسـول الله ﷺ ، وقيل : ذلك يوم القيامة ، والأول أولى .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **بأنهم اتبعوا ما أسخط الله** ﴾ ، أى بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصى . وقيل : كتمانهم ما فى التوراة من نعت نبينا ﷺ ، والأول أولى لما فى الصيغة من العموم ﴿ **وكرهوا رضوانه** ﴾ أى كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿ **فأحبط** ﴾ الله ﴿ **أعمالهم** ﴾ بهذا السبب ، والمراد بأعمالهم : الأعمال التى صورتها صورة الطاعة ، وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة . ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ يعنى : المنافقين المذكورين سابقا، و« أم » هى المنقطعة ، أى بل أحسب المنافقون ﴿ **أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ الإخراج بمعنى : الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو :ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ، فقيل :هو الغشّ . وقيل : الحسد . وقيل : الحقد . قال الجوهرى : الضغن والضغينة: الحقـد ، وقال قطرب : هو فى الآية العـداوة ، و« أن » هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدّر . ﴿**ولو نشاء لأريناكهم** ﴾ أى لأعلمناكهم وعرفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية ، تقول العرب : سأريك ما أصنع ، أى سأعلمك ﴿ **فلتعرفنهم بسيماهم**﴾ أى بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها ، قال الزجاج : المعنى : لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة ، وهى السيما فلعرفتهم بتلك العلامة ، والفاء لترتيب المعرفة على

الإراءة ، وما بعدها معطوف على جواب « لو » وكررت فى المعطوف للتأكيد ، وأما اللام فى قوله : ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ فهى جواب قسم محذوف . قال المفسرون : لحن القول : فحواه ومقصده ومغزاه وما يعرّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه ، قال أبو زيد : لحنت له اللحن : إذا قلت له قولا يفقهه عنك ويخفى على غيره ، ومنه قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الكلام ما كان لحنا

أى أحسنه ما كان تعريضا يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه ،وأصل اللحن : إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيد شديد ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ أى لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاقة ما كلف به ، قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها ، ومعنى ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ : نظهرها ونكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ، ومن لم يمتثل ، وقرأ الجمهور: ﴿ **ونبلو** ﴾ بنصب الواو عطفا على قوله : ﴿ **حتى نعلم** ﴾ وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم بحقو الرحمن ، فقال : مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم، أترضى أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك » . ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ » (١) . والأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ قال: أعمالهم:خبثهم ، والحسد الذى فى قلوبهم، ثم دل الله تعالى النبى ﷺ بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ قال : ببغضهم علىّ بن أبى طالب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ

(١) أحمد ٢/ ٣٣٠ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٠) وفى الأدب (٥٩٨٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٤/ ١٦) والنسائى فى التفسير (٥١٧) .

لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ المراد بهؤلاء : هم المنافقون . وقيل : أهل الكتاب . وقيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، ومعنى صدهم عن سبيل الله : منعهم للناس عن الإسلام واتباع الرسول ﷺ . ومعنى ﴿**شاقوا الرسول** ﴾ : عادوه وخالفوه ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى** ﴾ أى علموا أنه ﷺ نبيّ من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة والحجج القاطعة ﴿ **لن يضروا الله شيئا** ﴾ بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر وما ضروا إلا أنفسهم ﴿ **وسيحبط أعمالهم** ﴾ أى يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال : ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير وإن كانت باطلة من الأصل ؛ لأن الكفر مانع . وقيل : المراد بالأعمال :المكائد التى نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التى كانوا يبغونها برسول الله ﷺ . ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب الله وسنة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرارعلى الكفر فقال : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال الحسن : أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى ، وقال الزهرى : بالكبائر ، وقال الكلبى وابن جريج : بالرياء والسمعة ، وقال مقاتل : بالمنّ، والظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال كائنا ماكان من غير تخصيص بنوع معين .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا ، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصا . ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف فقال : ﴿ **فلا تهنوا** ﴾ أى تضعفوا عن القتال ، والوهن : الضعف ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم ، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف . قال الزجاج : منع الله

المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى :« وتدعوا » بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا . قال قتادة: معنى الآية : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها . واختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ [الأنفال : ٦١] وقيل : منسوخة بهذه الآية ، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء ، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص ، وجملة : ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهى ، أى وأنتم الغالبون بالسيف والحجة . قال الكلبى : أى آخر الأمر لكم وإن غلبوكم فى بعض الأوقات ، وكذا جملة قوله : ﴿ **والله معكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى معكم بالنصر والمعونة عليهم﴿**ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أى لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم ، يقال : وتره يتره وترا : إذا نقصه حقه. وأصله من وترت الرجل : إذا قتلت له قريباً أو نهبت له مالا ، ويقال : فلان مأتور: إذا قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه . قال الجوهرى : أى لن ينقصكم فى أعمالكم ، كما تقول : دخلت البيت ، وأنت تريد فى البيت . قال الفراء : هو مشتق من الوتر وهو الدخل . وقيل : مشتق من الوتر وهو الفرد ، فكأن المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب .

﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ أى باطل وغرور لا أصل لشىء منها ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم** ﴾ أى إن تؤمنوا بالله وتتقوا الكفر والمعاصى يؤتكم جزاء ذلك فى الآخرة ، والأجر : الثواب على الطاعة ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ أى لا يأمركم بإخراجها جميعا فى الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها وهو الزكاة . وقيل : المعنى : لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها . وقيل : لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما فى قوله : ﴿ وما أسألكم [1] عليه من أجر﴾ [الشعراء :١٠٩] والأول أولى . ﴿ **إن يسألكموها** ﴾ أى أموالكم كلها ﴿ **فيحفكم** ﴾ قال المفسرون : يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها ، يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد ، والمحفى :المستقصى فى السؤال ، والإحفاء:الاستقصاء فى الكلام ، ومنه إحفاء الشارب ، أى استئصاله، وجواب الشرط قوله : ﴿ **تبخلوا** ﴾ أى إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها وتمتنعوا من الامتثال ﴿ **ويخرج أضغانكم** ﴾ معطوف على جواب الشرط ، ولهذا قرأ الجمهور : ﴿ **يخرج** ﴾ بالجزم ، وروى عن يعقوب الحضرمى أنه قرأ بالنون ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء، وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، أو إلى

---

(١) فى المطبوعة : « ما أسألكم » والصحيح ما أثبتناه .

البخل المدلول عليه بتبخلوا . والأضغان : الأحقاد ، والمعنى : أنها تظهر عند ذلك . قال قتادة: قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان .

﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله** ﴾ أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد وفى طريق الخير ﴿ **فمنكم من يبخل** ﴾ بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق فى سبيل الله ، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال ؟ ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال :﴿ **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** ﴾ أى يمنعها الأجر والثواب ببخله ، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى . وقيل : إن أصله أن يتعدى بعلى ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك ﴿ **والله الغنى** ﴾ المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم﴿ **وأنتم الفقراء** ﴾ إلى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة، وجملة : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم** ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدمة وهى : ﴿ **وإن تؤمنوا**﴾ والمعنى:وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم ، هم أطوع لله منكم ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فى التولى عن الإيمان والتقوى . قال عكرمة : هم فارس والروم . وقال الحسن : هم العجم . وقال شريح بن عبيد : هم أهل اليمن.وقيل : الأنصار . وقيل : الملائكة . وقيل : التابعون . وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس . قال ابن جرير:والمعنى: ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله .

وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت: ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى ﷺ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت :﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا : قد هلك ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء : ٤٨] فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئا رجوناه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يتركم** ﴾ قال : يظلمكم . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه [عن أبى هريرة] (١) قال : لما نزلت : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم**﴾ . قالوا : من هؤلاء ؟ وسلمان إلى جانب النبى

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ،وقد أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ٦٧ ومن ابن جرير .

ﷺ ، فقال : هم الفرس ، هذا وقومه . وفى إسناده مسلم بن خالد الزنجى وقد تفرّد به ، وفيه مقال معروف (١) . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم** ﴾ فقالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال : « هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس » (٢) . وفى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه .

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٤٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير فى روايتين : الأولى : (٣٢٦٠) وقال : « غريب فى إسناده مقال » والثانية : (٣٢٦١) وقال : « وعبد الله بن جعفر بن نجيح هو والد على بن المدينى » وابن جرير٢٦/ ٤٢ ، وابن كثير ٦/ ٣٢٥ وقال : « تفرد به مسلم بن خالد الزنجى ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم » . وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٦٧ : « رواه أحمد وفيه شهر ، وثقه أحمد وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وذكر روايتين : إحداهما : عن قيس بن سعد وقال عنها : « رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح »، والثانية : عن ابن مسعود ، وقال عنها : « رواه الطبرانى وفيه محمد بن الحجاج اللخمى ، وهو كذاب » والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٣٤ .

تفسير سورة الفتح

هى تسع وعشرون آية . وهى مدنية .قال القرطبى : بالإجماع . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الفتح بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن إسحاق ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها (١) ، وهذا لا ينافى الإجماع على كونها مدنية ؛ لأن المراد بالسور المدنية : النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها (٢) . وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب : هلكت أمّ عمرنزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك ، فقال عمر: فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بى . فقلت : لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقال : « لقد أنزلت على سورة لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ » (٣) . وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ الآية إلى ﴿ **فوزا عظيما** ﴾ مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة . وقد نحروا الهدى بالحديبية فقال : « لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعها » (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ

(١) ابن إسحاق ٣/ ٣٦٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) أحمد ٥/ ٥٤ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٥) وفى فضائل القرآن (٥٠٣٤) وفى التوحيد (٧٥٤٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٤/ ٢٣٧) والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٥٥) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٣٣) ، وفى المغازى (٤١٧٧) وفى فضائل القرآن (٥٠١٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٢) وليست هذه الرواية فى مسلم ولم يذكرها المزِّى فى التحفة ولا الدر المنثور للسيوطى فى سورة الفتح .

(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٦/ ٩٧) .

عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ اختلف فى تعيين هذا الفتح ، فقال الأكثر : هو صلح الحديبية ، والصلح قد يسمى فتحاً . قال الفراء : والفتح قد يكون صلحا ، ومعنى الفتح فى اللغة : فتح المنغلق ، والصلح الذى كان مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذراً حتى فتحه الله . قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام فى قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . قال الشعبى : لقد أصاب رسول الله ﷺ فى الحديبية مالم يصب فى غزوة ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرّضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وقال قوم : إنه فتح مكة ، وقال آخرون : إنه فتح خيبر ، والأول أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت فى شأن الحديبية . وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح . وقيل : هو ما فتح له من النبوة والدعوة إلى الإسلام. وقيل : فتح الروم. وقيل : المراد بالفتح فى هذه الآية كما فى قوله: ﴿ افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] فكأنه قال : إنا قضينا لك قضاء مبينا ، أى ظاهراً واضحا مكشوفا .

﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ اللام متعلقة بـ﴿ **فتحنا** ﴾ وهى لام العلة . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس ، يعنى: المبرد ، عن اللام فى قوله: ﴿ **ليغفر لك الله** ﴾ فقال : هى لام كى معناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح ، فلما انضمّ إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كى . وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة ، وقال صاحب الكشاف : إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ماعدّد من الأمور الأربعة وهى المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين ، وأعراض العاجل والآجل (١) . وهذا كلام غير جيد ، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح ، فكيف يصح أن تكون معللة ؟ وقال الرازى فى توجيه التعليل : إن المراد بقوله : ﴿ **ليغفر لك الله** ﴾ التعريف بالمغفرة تقديره : إنا فتحنا لك لتعرف أنك مغفور لك معصوم ، وقال ابن عطية : المراد : أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة ، وقال أبو حاتم : هى لام القسم وهو خطأ ، فإن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها .

(١) الكشاف ٤/ ٣٣٢ .

واختلف في معنى قوله : ﴿ **ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ فقيل : ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة ، وما تأخر بعدها . قاله مجاهد وسفيان الثورى وابن جرير والواحدى وغيرهم . وقال عطاء: ما تقدم من ذنبك ، يعنى: ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر من ذنوب أمتك ، وما أبعد هذا عن معنى القرآن . وقيل : ما تقدم من ذنب أبيك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده . وهذا كالذى قبله . وقيل : ما تقدم من ذنب يوم بدر ، وما تأخر من ذنب يوم حنين ، وهذا كالقولين الأولين فى البعد . وقيل : لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك. وقيل : غير ذلك مما لا وجه له ، والأول أولى ، ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة : ترك ماهو الأولى ، وسمى ذنباً فى حقه ؛ لجلالة قدره ، وإن لم يكن ذنباً فى حق غيره .

﴿ **ويتمّ نعمته عليك** ﴾ بإظهار دينك على الدين كله . وقيل : بالجنة . وقيل : بالنبوة والحكمة . وقيل : بفتح مكة والطائف وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى : ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الإسلام ، ومعنى ﴿ **يهديك** ﴾ : يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿ **وينصرك الله نصرا عزيزا** ﴾ أى غالباً منيعاً لا يتبعه ذلّ . ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ أى السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ أى ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضما إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل ، قال الكلبى : كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم. وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ يعنى : الملائكة والإنس والجن والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ، ويحوط بعضهم ببعض ﴿ **وكان الله عليما** ﴾ كثير العلم بليغه ﴿**حكيما** ﴾ فى أفعاله وأقواله . ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله ، تقديره : يبتلى بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله ، والشرّ ممن قضى له به ليدخل ويعذب. وقيل : متعلقة بقوله : ﴿ **إنا فتحنا** ﴾ كأنه قال : إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل ويعذب . وقيل : متعلقة بـ﴿**ينصرك** ﴾ ، أى نصرك الله بالمؤمنين ليدخل ويعذب . وقيل : متعلقة بـ﴿ **يزدادوا** ﴾ أى يزدادوا ليدخل ويعذب ، والأوّل أولى ﴿**ويكفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى يسترها ولا يظهرها ولا يعذبهم بها ، وقدم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس ؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ،والمقصد الأسنى ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزا عظيما** ﴾ أى وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله وفى حكمه فوزاً عظيما ، أى ظفراً بكل مطلوب ونجاة من كل غمّ وجلبا لكل نفع ودفعاً لكل ضرّ ، وقوله : ﴿ **عند الله** ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ **فوزا** ﴾ لأنه صفة فى الأصل ، فلما قدم صار حالاً ، أى كائنا عند الله ، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين والمشركين .

ثم لما فرغ مما وعد به صالحي عباده ذكر ما يستحقه غيرهم فقال : ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ وهو معطوف على يدخل ، أى يعذبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام ، وقهر المخالفين له ، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، وفى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً ،وأحق منهم بما وعدهم الله به. ثم وصف الفريقين ، فقال : ﴿ **الظانين بالله ظن السوء** ﴾ وهو ظنهم أن النبى ﷺ يغلب وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام . ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا**﴾ ، ﴿**عليهم دائرة السوء**﴾ أى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم، والمعنى : أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم . قال الخليل وسيبويه : السوء هنا: الفساد ، قرأ الجمهور : ﴿ **السوء** ﴾ بفتح السين . وقرأ ابن كثير وأبو عمر بضمها ﴿ **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾ . لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا ، بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم ﴿**ولله جنود السموات والأرض**﴾ من الملائكة والإنس والجن والشياطين ﴿ **وكان الله عليما حكيما** ﴾ كرّر هذه الآية لقصد التأكيد . وقيل : المراد بالجنود هنا : جنود العذاب ، كما يفيده التعبير بالعزة هنا ، مكان العلم هنالك .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن مجمع بن جارية (١) الأنصارى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم (٢) فاجتمع الناس، إذ الناس يوجفون (٣) الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحى إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ فقال رجل: إى رسول الله،أو فتح هو ؟ قال:« إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح » فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية. فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة ، منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو داود والنسائى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فبينا نحن

(١) فى المطبوعة : « ابن حارثة » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ومن الإصابة ٣/ ٣٦٦ ومن مراجع التخريج .
(٢) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . معجم البلدان ٤/ ٤٤٣ .
(٣) الإيجاف : سرعة السير ، وقد أوجف دابته يوجفها إيجافا : إذا حثها . النهاية ٥/ ١٥٧ .
(٤) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٦٩٢) وأحمد ٣/ ٤٢٠ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٣٦) وابن جرير ٢٦/ ٤٥ ، وصححه الحاكم ٢/ ١٣١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٢٣٩ .

نسير إذ أتاه الوحى ، وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فسرّى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ (١) . وأخرج البخاريّ وغيره عن أنس فى قوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ قال: الحديبية (٢) . وأخرج البخاريّ وغيره عن البراء قال : تعدوّن أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً. ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية (٣) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ قال :« فتح مكة» .

وأخرج البخاريّ ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : كان النبى ﷺ يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر . قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » (٤) . وفى الباب أحاديث(٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ قال : السكينة : هى الرحمة ، وفى قوله : ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ قال : إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة : ٣] فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله (٦) .وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود :﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ قال : تصديقاً مع تصديقهم . وأخرج البخارى ، ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما أنزل على النبى ﷺ : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ مرجعه من الحديبية. قال:«لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ مما على الأرض»،ثم قرأها عليهم. فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فوزا عظيما** ﴾ (٧) .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٧٠٩) وأحمد ١/ ٣٩١ والبخارى فى تاريخه ٥/ ٢٥١ والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٨٥٣) وابن جرير ٢٦/ ٤٣ والطبرانى (١٠٥٤٨) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٢٧٥ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤١٧٢) والتفسير (٤٨٣٤) والنسائى فى التفسير (٥١٨) .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٥٠) .

(٤) البخارى فى التهجد (١١٣٠) وفى التفسير (٤٨٣٦) وفى الرقاق (٦٤٧١) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٩ / ٧٩ ، ٨٠) والترمذى فى الصلاة (٤١٢)وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير(٥٢١) .

(٥) منها : حديث عائشة الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما : أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال:« أفلا أكون عبداً شكوراً . . . » البخارى فى التفسير(٤٨٣٧) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨٢٠/ ٨١) .

(٦) ابن جرير ٢٦/ ٤٥ والطبرانى (١٣٠٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « وفيه عبد الله بن صالح قيل فيه : ثقة مأمون وقد ضعف » والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٦٨ .

(٧) البخارى فى المغازى (٤١٧٢) وفى التفسير (٤٨٣٤) مختصراً ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٦/ ٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٣) وقال : « حسن صحيح » .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥﴾﴾ .

قوله : ﴿ **إنا أرسلناك شاهدا** ﴾ أى على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿ **ومبشرا** ﴾ بالجنة للمطيعين ﴿**ونذيرا**﴾ لأهل المعصية ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **لتؤمنوا**﴾ بالفوقية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية ، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته ، وعلى القراءة الثانية المراد : المبشرين والمنذرين ، وانتصاب ﴿ **شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ على الحال المقدّرة ﴿ **وتعزروه وتوقروه وتسبحوه** ﴾ الخلاف بين القراء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى : ﴿ **لتؤمنوا** ﴾ كما سلف ، ومعنى ﴿ **تعزروه** ﴾ : تعظموه وتفخموه . قاله الحسن والكلبى . والتعزير : التعظيم والتوقير ، وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . وقال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، ومعنى توقروه : تعظموه . وقال السدّى : تسوّدوه . قيل : والضميران فى الفعلين للنبى ﷺ وهنا وقف تام ، ثم يبتدئ : وتسبحوه ، أى تسبحوا الله عز وجل ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ أى غدوة وعشية . وقيل : الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة لله عز وجل . فيكون معنى ﴿ **تعزروه وتوقروه** ﴾ : تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء . وقيل : تنصروا دينه ، وتجاهدوا مع رسوله ، وفى التسبيح وجهان: أحدهما: التنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثانى : الصلاة .

﴿ **إن الذين يبايعونك** ﴾ يعنى : بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش ﴿ **إنما يبايعون الله** ﴾ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله ﷺ هى بيعة له كما قال :

﴿ من يطع [1] الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، وجملة :﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل ، فى محل نصب على الحال ، والمعنى : أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت، وقال الكلبى : المعنى : أن نعمة الله عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة . وقيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، وقال ابن كيسان : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ أى فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه ؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره ﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله** ﴾ أى ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه فى البيعة لرسوله .قرأ الجمهور : ﴿ **عليه** ﴾ بكسر الهاء،وقرأ حفص والزهرى بضمها ﴿ **فسيؤتيه أجرا عظيما** ﴾ وهو الجنة.قرأ الجمهور : ﴿ **فسيؤتيه** ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالنون ، واختار القراءة الأولى أبوعبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء .

﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب** ﴾ هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية . قال مجاهد وغيره : يعنى أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقيل : تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، والمخلف : المتروك ﴿**شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ أى منعنا عن الخروج معك مالنا من الأموال والنساء والذرارى ، وليس لنا من يقوم بهم ، ويخلفنا عليهم ﴿ **فاستغفر لنا** ﴾ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب. ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ وهذا هو صنيع المنافقين ، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم ، ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال :﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئا** ﴾ أى فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشر ، ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ **إن أراد بكم ضرا** ﴾ أى إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل . قرأ الجمهور : ﴿**ضرا**﴾ بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضرا ، وقرأ حمزة والكسائى بضمها وهو اسم ما يضرّ . وقيل: هما لغتان ﴿ **أو أراد بكم نفعا** ﴾ أى نصراً وغنيمة ، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنه الضرّ ويجلب لهم النفع .

ثم أضرب سبحانه عن ذلك وقال :﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيرا** ﴾ أى إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق ، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى**

(١) فى المخطوطة : « ومن يطع » .

أهليهم أبدا ﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيرا**﴾ لما فيها من الإبهام ، أى بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ﴿ **وزين ذلك فى قلوبكم** ﴾ أى وزين الشيطان ذلك الظن فى قلوبكم فقبلتموه ، قرأ الجمهور : ﴿ **وزين** ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرئ مبنيا للفاعل ﴿ **وظننتم ظن السوء** ﴾ أن الله لا ينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظنّ الأوّل ، والتكرير للتأكيد والتوبيخ ، والمراد به : ما هو أعمّ من الأول ، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولا أوّليا ﴿ **وكنتم قوما بورا** ﴾ أى هلكى . قال الزجاج : هالكين عند الله ، وكذا قال مجاهد : قال الجوهرى : البور: الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه. قال أبو عبيد: ﴿ **قوما بورا** ﴾: هلكى ، وهو جمع بائر مثل حائل وحول ، وقد بار فلان ، أى هلك ، وأباره الله : أهلكه . ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا** ﴾ هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله ، أى ومن لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير .

﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن ويعاقب من أساء ، ولهذا قال :﴿ **يغفر لمن يشاء** ﴾ أن يغفر له ﴿ **ويعذب من يشاء** ﴾ أن يعذبه ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة، بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده . ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها** ﴾ المخلفون هؤلاء المذكورون سابقاً ، والظرف متعلق بقوله : ﴿ **سيقول** ﴾ والمعنى : سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون ﴿ **إلى مغانم** ﴾ يعنى : مغانم خيبر ﴿**لتأخذوها** ﴾ لتحوزوها ﴿ **ذرونا نتبعكم** ﴾ أى اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر ، وأصل القصة أنه لما انصرف النبى ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر ، وخص بغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال الله سبحانه :﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ أى يغيروا كلام الله ، والمراد بهذا الكلام الذى أرادوا أن يبدلوه : هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر ، وقال مقاتل : يعنى : أمر الله لرسوله ألا يسير معه أحد منهم ، وقال ابن زيد : هو قوله تعالى : ﴿ فإذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوّا ﴾ [التوبة : ٨٤] واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة ، والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة ، ورجحه ابن جرير وغيره . قرأ الجمهور : ﴿**كلام الله** ﴾ وقرأ حمزة والكسائى : « كلم الله» قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات ؛ لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمنعهم من الخروج معه فقال: ﴿ **قل لن تتبعونا** ﴾ هذا النفى هو فى معنى النهى ، والمعنى: لا تتبعونا ﴿ **كذلكم قال الله من قبل** ﴾ أى من قبل

رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿**فسيقولون**﴾ يعنى : المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله : ﴿ **لن تتبعونا** ﴾ بل ﴿**تحسدوننا**﴾ أى بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة ، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون .ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا** ﴾ أى لا يعلمون إلا علماً قليلا ، وهو علمهم بأمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتعزروه** ﴾ يعنى : الإجلال ﴿**وتوقروه**﴾ يعنى : التعظيم ، يعنى : محمداً ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه فى قوله : ﴿ **وتعزروه** ﴾ قال : تضربوا بين يديه بالسيف . وأخرج ابن عدى وابن مردويه والخطيب ، وابن عساكر فى تاريخه عن جابر ابن عبد الله قال: لما أنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **وتعزروه**﴾ قال لأصحابه: «ما ذاك»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « لتنصروه » (١) . وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فمن وَفّى وَفّى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه (٢) . وفى الصحيحين من حديث جابر : أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة . وفيهما عنه أنهم كانوا أربع عشرة مائة (٣) ، وفى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب : أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، فقال له: إن جابراً قال: كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله: وهم ، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٤) .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا

---

(١) ابن عدى ١/ ٩٩ .

(٢) أحمد ٥/ ٣٢٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ : « رواه أحمد بطوله ، ولم يقل عن إسماعيل عن أبيه ، ورواه عبد الله فزاد عن أبيه ، وكذلك الطبرانى ، ورجالهما ثقات إلا أن إسماعيل بن عياش رواه عن الحجازيين وروايته عنهم ضعيفة » .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٥٢) ومسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٦٩ ، ٧٣) .

(٤) البخارى فى المغازى (٤١٥٣) .

قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب** ﴾ هم المذكورون سابقاً ﴿ **ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد** ﴾ قال عطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى: هم فارس . وقال كعب والحسن : هم الروم ، وروى عن الحسن أيضاً أنه قال: هم فارس والروم . وقال سعيد بن جبير : هم هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . وحكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين ﴿ **تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية ، قال الزجاج : التقدير : أو هم يسلمون ، وفى قراءة أبى :« أو يسلموا » أى حتى يسلموا ﴿**فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرًا حسنا** ﴾ وهو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ﴿ **وإن تتولوا** ﴾ أى تعرضوا ﴿**كما توليتم من قبل** ﴾ وذلك عام الحديبية ﴿ **يعذبكم عذابا أليما** ﴾ بالقتل والأسر والقهر فى الدنيا . وبعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم . ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ أى ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم . قال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية. والحرج : الإثم ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ فيما أمره به ونهاه عنه ﴿**يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يدخله** ﴾ بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون:﴿**ومن يتول يعذبه عذابا أليما** ﴾ أى من يعرض عن الطاعة ؛ يعذبه الله عذاباً شديد الألم .

ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم وشهدوا بيعة الرضوان ، فقال : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ أى رضى الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهى بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، والعامل فى ﴿ **تحت** ﴾ إما يبايعونك ، أو محذوف على أنه حال من المفعول ، وهذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت بالحديبية . وقيل : سدرة ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفرّوا . وروى أنه بايعهم على الموت ، وقد تقدم ذكر عدد أهل

هذه البيعة قريبا . والقصة مبسوطة فى كتب الحديث والسير . ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم** ﴾ معطوف على يبايعونك . قال الفراء : أى علم ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء ، وقال قتادة وابن جريج :من الرضى بأمر البيعة على ألا يفرّوا .وقال مقاتل:من كراهة البيعة على الموت ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ معطوف على رضى ، والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس كما تقدّم. وقيل : الصبر ﴿ **وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية . قاله قتادة وابن أبى ليلى وغيرهما . وقيل : فتح مكة ، والأول أولى . ﴿**ومغانم كثيرة يأخذونها** ﴾ أى وأثابكم مغانم كثيرة ، أو وآتاكم ، وهى غنائم خيبر ، والالتفات لتشريفهم بالخطاب ﴿ **وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ أى غالبا مصدرا أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة .

﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدّر وقوعها فيها ﴿**فعجل لكم هذه**﴾ أى غنائم خيبر ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : صلح الحديبية ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ أى وكفّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح . وقيل : كفّ أيدى أهل خيبر وأنصارهم عن قتالكم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبى ﷺ إلى الحديبية وخيبر ، ورجح هذا ابن جرير . قال : لأن كفّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم** ﴾ . وقيل : كفّ أيدى الناس عنكم ، يعنى: عيينة بن حصن الفزارى ،وعوف بن مالك النضرى ، ومن كان معهما ، إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبى ﷺ لهم ، ﴿ **ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدّر بعده ، أى فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون آية ، أو على علة محذوفة تقديرها : وعد فعجل وكف لتنتفعوا بذلك ولتكون آية . وقيل : إن الواو مزيدة واللام لتعليل ما قبله ، أى وكف لتكون ، والمعنى : ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول الله ﷺ فى جميع ما يعدكم به ، ويهديكم صراطاً مستقيماً ، أى يزيدكم بتلك الآية هدى ، أويثبتكم على الهداية إلى طريق الحق . ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ معطوف على هذه ، أى فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى لم تقدروا عليها، وهى الفتوح التى فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوهما ، كذا قال الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وقال الضحاك وابن زيد وابن أبى إسحاق : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة : فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ، والأول أولى. ﴿ **قد أحاط الله بها** ﴾ صفة ثانية لأخرى. قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى : أنه أعدّها لهم وجعلها كالشىء الذى قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت منه شىء، فهم وإن لم يقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم. وقيل: معنى ﴿**أحاط**﴾: علم أنها ستكون لهم ﴿ **وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ لايعجزه شىء ولا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض .

﴿ **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار** ﴾ قال قتادة : يعنى :كفار قريش بالحديبية . وقيل : أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ، والأول أولى . ﴿ **ثم لا يجدون وليا** ﴾ يواليهم على قتالكم ﴿ **ولا نصيرا** ﴾ ينصرهم عليكم . ﴿**سنة الله التى قد خلت من قبل** ﴾ أى طريقته وعادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه ، وانتصاب ﴿**سنة** ﴾ على المصدرية بفعل محذوف ، أى بيّن الله سنة الله ، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ أى لن تجد لها تغييراً ، بل هى مستمرة ثابتة ﴿ **وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ أى كفّ أيدى المشركين عن المسلمين وأيدى المسلمين عن المشركين لما جاؤوا يصدون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهى المراد ببطن مكة . وقيل : إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبى ﷺ من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبى ﷺ فأخذهم المسلمون ثم تركوهم ، وفى الرواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء الله ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولى بأس شديد**﴾ يقول: فارس.وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنهم الأكراد . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : فارس والروم . وأخرج الفريابى وابن مردويه عنه قال : هوازن وبنى حنيفة . وأخرج الطبرانى ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، وإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : كيف لى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾ الآية (١) . قال : هذا فى الجهاد ، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس: هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ها هنا . فقال رسول الله ﷺ : « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التى بويع تحتها فأمر بها فقطعت . وأخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء كنتم تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت (٣) . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : بايعناه على ألا نفرّ ولم نبايعه على الموت (٤) . وأخرج أحمد وأبو داود

---

(١) الطبرانى (٤٩٢٦) . (٢) ابن جرير ٢٦/ ٥٤ .
(٣) البخارى فى المغازى (٤١٦٩) .
(٤) مسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٦٧ ، ٦٨)والنسائى فى الكبرى فى البيعة (٢٧٧٩) والدارمى فى السير ٢/ ٢٢٠ .

والترمذى عن جابر عن النبى ﷺ قال: « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »[١]، وأخرج مسلم من حديثه مثله [٢] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى : الفتح . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى : خيبر ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ يعنى: أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ويستحل بكم وأنتم حرم ﴿**ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ قال : سنة لمن بعدكم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ قال : هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها**﴾ قال: هى خيبر. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرة رسول الله ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ [٣] . وفى صحيح مسلم وغيره : أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية [٤] . وأخرج أحمد والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل فى سبب نزول الآية : أن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين فى السلاح فثاروا فى وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم : بأبصارهم ـ فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «هل جئتم فى عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، فنزلت هذه الآية[٥] .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ

---

(١) أحمد ٣/ ٣٥ وأبو داود فى السنة (٤٦٥٣) والترمذى فى المناقب (٣٨٦٠) وقال : « حسن صحيح » .
(٢) مسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٧١) .
(٣) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٧٦٢) وأحمد ٣/ ١٢٢ ومسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٨/ ١٣٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٨٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٣٠) وابن جرير ٢٦/ ٥٩ والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٤١.
(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٧/ ١٣٢) ، وهو جزء من حديث طويل .
(٥) أحمد ٤/ ٨٦ ، ٨٧ والنسائى فى التفسير (٥٣١) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، كلهم عن عبد الله بن مغفل .

كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام** ﴾ يعنى : كفار مكة ، ومعنى صدهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم ﴿ **والهدى معكوفا** ﴾ قرأ الجمهور بنصب : ﴿ **الهدى** ﴾ عطفا على الضمير المنصوب فى ﴿ **صدُّوكم** ﴾ . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على المسجد ، ولابدّ من تقدير مضاف ، أى عن نحر الهدى ، وقرئ بالرفع على تقدير : وصدّ الهدى . وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال ، وروى عن أبى عمرو وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء ، وانتصاب ﴿ **معكوفاً** ﴾ على الحال من الهدى ، أى محبوساً . قال الجوهرى: عكفه، أى حبسه ووقفه ، ومنه : ﴿ **والهدى معكوفا** ﴾ ومنه : الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . وقال أبو عمرو بن العلاء : معكوفاً : مجموعا ، وقوله : ﴿ **أن يبلغ محله**﴾ أى عن أن يبلغ محله ، أو هو مفعول لأجله ، والمعنى : صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله ، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال ، ومحله: منحره ، وهو حيث يحل نحره من الحرم، وكان الهدى سبعين بدنة ، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذى وصلوا إليه وهو الحديبية محلا للنحر . وللعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم** ﴾ يعنى : المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ومعنى ﴿ **لم تعلموهم** ﴾ : لم تعرفوهم . وقيل : لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿ **أن تطؤوهم** ﴾ يجوز أن يكون بدلا من رجال ونساء ولكنه غلب الذكور ، وأن يكون بدلا من مفعول ﴿**تعلموهم** ﴾ ، والمعنى : أن تطؤوهم بالقتل والإيقاع بهم ، يقال : وطئت القوم ، أى أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كسبوا مكة وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم

فيها من الكفار ، وعند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله : ﴿ **فتصيبكم منهم** ﴾ أى من جهتهم ، و ﴿ **معرّة** ﴾ أى مشقة بما يلزمهم فى قتلهم من كفارة وعيب . وأصل المعرّة : العيب ، مأخوذة من العرّ ، وهو الجرب ، وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم . قال الزجاج : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرّة ، أى إثم ، وكذا قال الجوهرى وبه قال ابن زيد. وقال الكلبى ومقاتل وغيرهما : المعرّة :كفارة قتل الخطأ ، كما فى قوله : ﴿ فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : ٩٢] . وقال ابن إسحاق : المعرّة : غرم الدية .وقال قطرب: المعرّة: الشدة .وقيل : الغمّ ، و ﴿ **بغير علم** ﴾ متعلق بأن تطؤوهم ، أى غير عالمين ، وجواب «لولا» محذوف ، والتقدير: لأذن الله لكم أو لما كفّ أيديكم عنهم . واللام فى : ﴿ **ليدخل الله فى رحمته من يشاء** ﴾ متعلقة بما يدلّ عليه الجواب المقدّر ، أى ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا فى فتح مكة ، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار ويفكّ أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب . وقيل : اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر ، وتقديره: لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ،والأوّل أولى.وقيل: إن ﴿ **من يشاء**﴾ : عباده ممن رغب فى الإسلام من المشركين ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما**﴾ التزيل : التميز ، أى لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا . وقيل : التزيل : التفرق ، أى لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهرهم ، والمعانى متقاربة ، والعذاب الأليم : هو القتل والأسر والقهر ، والظرف فى قوله :﴿ **إذ جعل الذين كفروا** ﴾ منصوب بفعل مقدّر ، أى اذكر وقت جعل الذين كفروا ﴿ **فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ . وقيل : متعلق بعذبنا . والحمية : الأنفة ، يقال : فلان ذو حمية ، أى ذو أنفة وغضب ، أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ، وحمية الجاهلية بدل من الحمية . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا فى منازلنا ، فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزّى لا يدخلونها علينا ، فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم ، وقال الزهرى : حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة . قرأ الجمهور : ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ ، وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة وابن عون : « لو تزايلوا » . والتزايل : التباين ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أى أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ وهى : « لا إله إلا الله » كذا قال الجمهور ، وزاد بعضهم : « محمد رسول الله » وزاد بعضهم:« وحده لا شريك له ».وقال الزهرى هى: « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها ، وامتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الذى كان بينهم وبين

رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك فى كتب الحديث والسير (١) ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها ، والأول أولى ؛ لأن كلمة التوحيد هى التى تبقى بها الشرك بالله . وقيل : كلمة التقوى : هى الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ أى وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم ؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه ، وصحبة رسوله ﷺ .

﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن الرؤيا كانت بالحديبية ، وقوله : ﴿ **بالحق** ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى صدقا متلبسا بالحقّ ، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله : ﴿**لتدخلنّ المسجد الحرام** ﴾ أى فى العام القابل ، وقوله : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله : ﴿ ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غداً . إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، وقيل : كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديبية ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى . قاله الحسن بن الفضل . وقيل : معنى ﴿ **إن شاء الله** ﴾ :كما شاء الله ، وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ ، يعنى : إذ شاء الله حتى أرى رسوله ذلك ، وانتصاب ﴿**آمنين** ﴾ على الحال من فاعل لتدخلن . وكذا ﴿ **محلقين رؤوسكم ومقصرين** ﴾ أى آمنين من العدوّ ، ومحلقا بعضكم ومقصرا بعضكم ، والحلق والتقصير خاصّ بالرجال ، والحلق أفضل من التقصير كما يدل على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره ﷺ للمحلقين فى المرة الأولى والثانية ، والقائل يقول له: وللمقصرين . فقال فى الثالثة وللمقصرين ، وقوله : ﴿ **لا تخافون** ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فُهم من قوله : ﴿**آمنين** ﴾ ، ﴿ **فعلم ما لم تعلموا** ﴾ أى ما لم تعلموا من المصلحة فى الصلح لما فى دخولكم فى عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين ، وهو معطوف على صدق ، أى صدق رسوله الرؤيا ، فعلم ما لم تعلموا به ﴿ **فجعل من دون ذلك فتحا قريبا** ﴾ أى فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله فتحا قريبا، قال أكثر المفسرين : هو صلح الحديبية ، وقال ابن زيد والضحاك: فتح خيبر،وقال الزهرى: لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر،فإن المسلمين كانوا فى سنة ستّ ، وهى سنة الحديبية ألفا وأربعمائة وكانوا فى سنة ثمان عشرة آلاف.

(١) من ذلك ما رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أى إرسالا متلبسا بالهدى ﴿ **ودين الحق** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ أى يعليه على كل الأديان كما يفيده تأكيد الجنس. وقيل : ليظهر رسوله ، والأوّل أولى . وقد كان ذلك بحمد الله . فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان ، وانقهر له كل أهل الملل ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ الباء زائدة كما تقدّم فى غير موضع ، أى كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذى وعد المسلمين به وعلى صحة نبوّة نبيه ﷺ. ﴿**محمد رسول الله** ﴾ محمد مبتدأ ورسول الله خبره ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ورسول الله بدل منه . وقيل : محمد مبتدأ ورسول الله نعت له ﴿ **والذين معه** ﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر ، والأول أولى . والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به ﴿ **والذين معه** ﴾ قيل : هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم ﴿ **أشداء على الكفار** ﴾ أى غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ أى متوادّون متعاطفون ، وهو جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولمن وافقه الرحمة والرأفة . قرأ الجمهور برفع :﴿ **أشداء** ﴾ و﴿ **رحماء** ﴾ على أنه خبر للموصول ، أو خبر لمحمد وما عطف عليه كما تقدم ، وقرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿ **تراهم ركعا سجداً** ﴾ أى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين ، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف : أعنى قوله : ﴿ **تراهم** ﴾ .

﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ أى يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور أو فى محل نصب على الحال من ضمير تراهم،وهكذا ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود**﴾ السيما : العلامة ، وفيها لغتان المدّ والقصر ، أى تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة وكثرة التعبد بالليل والنهار ، وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفرا ، فجعل هذا هو السيما ، وقال الزهرى: مواضع السجود أشد وجوههم بياضا يوم القيامة ، وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، وبالأوّل ــ أعنى : كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود ــ قاله سعيد بن جبير ومالك ، وقال ابن جريج (١) : هو الوقار ، وقال الحسن : إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل: هو البهاء فى الوجه وظهور الأنوار عليه ، وبه قال سفيان الثورى : والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة،وهو مبتدأ وخبره قوله: ﴿ **مثلهم فى التوراة** ﴾ أى وصفهم الذى وصفوا به فى التوراة ، ووصفهم الذى وصفوا به ﴿ **فى الإنجيل** ﴾ وتكرير ذكر المثل ؛ لزيادة تقديره وللتنبيه على غرابته ، وأنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة ﴿ **كزرع أخرج شطأه**﴾ إلخ ،كلام مستأنف ، أى هم كزرع إلخ.وقيل : هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف .

---

(١) فى المطبوعة : « ابن جرير » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وقيل : هو خبر لقوله : ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ أى ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قال الفراء: فيه وجهان : إن شئت قلت : ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، يعنى : كمثلهم فى القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ، وإن شئت قلت : ذلك مثلهم فى التوراة ، ثم تبتدأ : ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قرأ الجمهور : ﴿**شطأه**﴾ بسكون الطاء ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتحها ، وقرأ أنس ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب : «شطاه » كعصاه . وقرأه الجحدرى وابن أبى إسحاق : « شطه » بغير همزة ، وكلها لغات ، قال الأخفش والكسائى : ﴿ **شطأه** ﴾ أى طرفه . قال الفراء : شطأ الزرع فهو مشطئ : إذا خرج . قال الزجاج : ﴿**أخرج شطأه**﴾ أى نباته ، وقال قطرب : الشطأ : ســوى السنبل ، وروى عن الفراء أيضا أنه قال : هو السنبل ، وقال الجوهرى : شطأ الزرع والنبات والجمـع أشطاء. وقـد أشطأ الزرع : خـرج شطـؤه ﴿ **فآزره** ﴾ أى قواه وأعانه وشده . قيل : المعنى : إن الشطأ قوى الزرع . وقيل : إن الزرع قوّى الشطأ ، ومما يدلّ على أن الشطأ خروج النبات . قول الشاعر :

أخرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

قرأ الجمهور: ﴿ **فآزره** ﴾ بالمد ، وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس بالقصر ، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

بمحنية قد آزر الضالّ نبتها مجرّ جيوش غانمين وخيب

قال الفراء : آزرت فلانا آزره أزرًا : إذا قوّيته ﴿ **فاستغلظ** ﴾ أى صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا ﴿**فاستوى على سوقه** ﴾ أى فاستقام على أعواده ، والسوق جمع ساق ، وقرأ قنبل : « سؤقه » بالهمزة الساكنة ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ أى يعجب هذا الزرع زارعه لقوّته وحسن منظره ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبى ﷺ وأنهم يكونون فى الابتداء قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع ، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا ، ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه ، قال قتادة : مثل أصحاب محمد ﷺ فى الإنجيل ، أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ وتقويته لهم فقال: ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ أى كثرهم وقواهم ليكونوا غيظا للكافرين ، واللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليغيظ ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ أى وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التى هى أكبر نعمة ، وأعظم منة .

وقد أخرج أحمد ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة، فلما صدّت عن البيت؛ حنت كما تحنّ إلى أولادها . وأخرج الحسن بن سفيان وأبو

يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن قانع والباوردى والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند جيد ، عن أبى جمعة حنيذ بن سبع [(١)] قال: قاتلت[(٢)] رسول الله ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ ، وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان ، وفى رواية عند ابن أبى حاتم : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة [(٣)] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم** ﴾ قال حين ردّوا النبى ﷺ ﴿ **أن تطؤوهم** ﴾ بقتلكم إياهم ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلكم إياهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال : يوم صفين اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية : يعنى الصلح الذى كان بين النبى ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : « بلى » . قال : ففيم نعطى الدنية [(٤)] فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : « يابن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً » ، فرجع متغيظا ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال: يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا ، فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يا رسول الله أفتح هو ؟ قال : « نعم »[(٥)].

وأخرج الترمذى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : « لا إله إلا الله » وفى إسناده الحسن بن قزعة ، قال الترمذى بعد إخراجه : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وكذا قال أبو زرعة [(٦)] . وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن

(١) اختلف فى اسمه ، فقيل : حبيب بن سباع ، وقيل : جنيد ، وقيل : حبيب بن وهب ، ويعد فى الشاميين ، أدرك النبى ﷺ عام الأحزاب ،وذكر ابن الأثير أن الأول أصح ، وأورد حديثه . أسد الغابة ١ / ٣٧٠ ، ٣٧١، ٥ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، وقال ابن كثير ٦ / ٣٤٦ : « والصواب أبو جعفر بن سباع » .

(٢) فى المطبوعة : « قابلت » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج وابن كثير .

(٣) أبو يعلى (١٥٦٠) والطبرانى (٢٢٠٤ ، ٣٥٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « رواه الطبرانى بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات » .

(٤) الدنية : النقيصة والحالة الناقصة .

(٥) أحمد ٤/ ٣٣٠ والبخارى فى الجزية والموادعة (٣١٨٢) وفى التفسير (٤٨٤٤) وفى الاعتصام (٧٣٠٨) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٥/ ٩٤ ـ ٩٦) والنسائى فى التفسير (٥٢٤) .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ١٨١ .

عليّ بن أبى طالب مثله من قوله . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد عن المسور بن مخرمة ومروان نحوه ، وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ قال : هو دخول محمد البيت والمؤمنين محلقين ومقصرين . وقد ورد فى الدعاء للمحلقين والمقصرين فى الصحيحين وغيرهما أحاديث منها ماقدمنا الإشارة إليه ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عمر [١] وفيهما من حديث أبى هريرة أيضا [٢] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم** ﴾ قال : أما إنه ليس الذى يرونه ، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه . وأخرج محمد بن نصر فى كتاب الصلاة ،وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هو السمت الحسن . وأخرج الطبرانى فى الأوسط [٣] ، والصغير[٤] وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند حسن ،عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال : «النور يوم القيامة » . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن نصر عن ابن عباس فى الآية قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ يعنى : نعتهم مكتوب فى التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض [٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس: ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ قال : نباته: فروخه .

---

(١) البخارى فى الحج (١٧٢٧) ومسلم فى الحج (١٣٠١/ ٣١٦ ـ ٣١٩) .
(٢) البخارى فى الحج (١٧٢٨) ومسلم فى الحج (١٣٠٢/ ٣٢٠) .
(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه رواد بن الجراح ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه الدارقطنى وغيره» .
(٤) الطبرانى فى الصغير ١/ ٢٢٢ ، وقال : « لا يروى عن أبى إلا بهذا الإسناد تفرد به أبو جعفر الرازى » .
(٥) ابن جرير ٢٦/ ٧١ .

تفسير سورة الحجرات

هي ثماني عشرة آية . وهي مدنية . قال القرطبي : بالإجماع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير ؛ أنها نزلت بالمدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **تقدّموا** ﴾ بضم المثناة الفوقية ، وتشديد الدال مكسورة ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه متعدّ ، وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل ، كقولهم : هو يعطى ويمنع ، والثانى : أنه لازم ، نحو : وجه وتوجه ، ويعضده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب : «تقدموا » بفتح التاء والقاف والدال . قال الواحدى : قدم هاهنا بمعنى تقدم ، وهو لازم . قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدّم بين يدى الإمام وبين يدى الأب ، أى لا تعجل بالأمر دونه والنهى ؛ لأن المعنى : لا تقدّموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدى الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدى الإنسان ، ومعنى الآية: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ولا تعجلوا به . وقيل : المراد معنى بين يدى فلان : بحضرته ؛ لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى كل أموركم ، ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدى الله ورسوله دخولا أوّليا . ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله : ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لكل مسموع ﴿ **عليم** ﴾ بكل معلوم .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع

الصوت ؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير ، ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط ، والأول أولى ، والمعنى : لا ترفعوا أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبى ﷺ . قال المفسرون : المراد من الآية : تعظيم النبى ﷺ وتوقيره وألا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا **﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾** أى لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا ، قال الزجاج : أمرهم الله بتجليل نبيه ، وأن يغضوا أصواتهم ويخاطبوه بالسكينة والوقار . وقيل : المراد بقوله : **﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾** لا تقولوا: يا محمد ويا أحمد ، ولكن يا نبى الله ، ويا رسول الله ، توقيراً له ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف ، أى جهراً مثل جهر بعضكم لبعض ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر فى القول : هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فإن ذلك كفر ، وإنما المراد: أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع فى مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره ، والحاصل أن النهى هنا وقع عن أمور : الأول : عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام ، والثانى : عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره ، والثالث : ترك الجفاء فى مخاطبته ولزوم الأدب فى مجاورته ؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره. ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله : **﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾** قال الزجاج : أن تحبط أعمالكم ، التقدير : لأن تحبط أعمالكم ، أى فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال ، وهذه العلة يصح أن تكون للنهى ، أى نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط ، أو كراهة أن تحبط ، أو علة للمنهى، أى لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدى إلى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأول، وجملة: **﴿وأنتم لا تشعرون﴾** فى محل نصب على الحال، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم، قال الزجاج: وليس المراد: وأنتم لا تشعرون يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

ثم رغب سبحانه فى امتثال ما أمر به فقال : **﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾** أصل الغض: النقص من كل شيء ، ومنه نقص الصوت **﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾** قال الفراء : أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده عن رديئه ويسقط خبيثه . وبه قال مقاتل ومجاهد وقتادة، وقال الأخفش : اختصها للتقوى . وقيل : طهرها من كل قبيح . وقيل : وسعها وسرّحها ، من محنت الأديم : إذا وسعته ، وقال أبو عمرو : كل شيء جهدته فقد محنته ، واللام فى **﴿ للتقوى ﴾** متعلقة بمحذوف ، أى صالحة للتقوى، كقولك : أنت صالح لكذا ، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب ، كقولك: جئتك لأداء الواجب ، أى ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب **﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم﴾** أى أولئك لهم ، فهو خبر آخر لاسم الإشارة ، ويجوز أن يكون مستأنفا لبيان ما أعدّ

الله لهم فى الآخرة . ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ هم جفاة بنى تميم كما سيأتى بيانه ، و ﴿ **وراء الحجرات** ﴾ :خارجها وخلفها ، والحجرات جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة . وقيل : الحجرات :جمع حجر، والحجر جمع حجرة ، فهو جمع الجمع ، والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . قرأ الجمهور : ﴿ **الحجرات** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة بفتحها تخفيفا ، وقرأ ابن أبى عبلة بإسكانها ، وهى لغات و « من » فى : ﴿**من وراء** ﴾ لابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى ﴿ **أكثرهم لا يعقلون** ﴾ لغلبة الجهل عليهم ، وكثرة الجفاء فى طباعهم .

﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم** ﴾ أى لو انتظروا خروجك ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، لما فى ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ، ورعاية جانبه الشريف ، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل . وقيل : إنهم جاؤوا شفعاء فى أسارى ، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ذكر معناه مقاتل ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ كثير المغفرة والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب . ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **فتبينوا** ﴾ من التبين ، وقرأ حمزة والكسائى :« فتثبتوا » من التثبت ، والمراد من التبين : التعرف والتفحص ، ومن التثبت : الأناة وعدم العجلة ، والتبصر فى الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر . قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، وقوله:﴿ **أن تصيبوا قوما بجهالة** ﴾ مفعول له، أى كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا ؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ؛ لأنه لم يصدر عن علم ، والمعنى : ملتبسين بجهالة بحالهم ﴿ **فتصبحوا على ما فعلتم**﴾ بهم من إصابتهم بالخطأ ﴿ **نادمين** ﴾ على ذلك مغتمين له مهتمين به .

ثم وعظهم الله سبحانه فقال : ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ فلا تقولوا قولا باطلا ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين ، و« أن » وما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى اعلموا ، وجملة : ﴿ **لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير « فيكم » أو مستأنفة ، والمعنى : لو يطيعكم فى كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التى ليست بصواب لوقعتم فى العنت وهو التعب والجهد ، والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم فى غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان**﴾ أى جعله أحبّ الأشياء إليكم ، أو محبوبا لديكم فلا يقع منكم إلا ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار وعدم التثبت فيها . قيل : والمراد بهؤلاء : من عدا الأوّلين لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان وتوجبه محبته التى جعلها الله فى قلوبهم ﴿ **وزينه**

في قلوبكم ﴾ أي حسنه بتوفيقه ، حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال ﴿ **وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾ أي جعل كل ما هو من جنس الفسوق ، ومن جنس العصيان مكروهاً عندكم ، وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة ، والعصيان : جنس ما يعصى الله به . وقيل : أراد بذلك الكذب خاصة ، والأول أولى ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ أي الموصوفون بما ذكرهم الراشدون ، والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب من الرشادة ، وهي الصخرة ﴿ **فضلا من الله ونعمة** ﴾ أي لأجل فضله وإنعامه ، والمعنى : أنه حبب إليكم ما حبّب وكرّه ماكرّه لأجل فضله وإنعامه ، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك . وقيل : النصب بتقدير فعل ، أي تبتغون فضلا نعمة ﴿ **والله عليم** ﴾ بكل معلوم ﴿ **حكيم** ﴾ في كل ما يقضي به بين عباده ويقدرّه لهم .

وقد أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن الزبير قال :قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية(١) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ قال : نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية: قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت : كان أناس يتقدمون بين يدى رمضان بصيام يعني : يوماً أو يومين. فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنها أيضاً أن ناسا كانوا يتقدّمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ **الآية** .

وأخرج البزار وابن عدى والحاكم وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال : أنزلت هذه الآية :﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار ، وفي إسناده حصين بن عمر وهو ضعيف ، ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : لما نزلت: ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله** ﴾ قال أبو بكر: والذى أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأُخي السرار حتى ألقى الله (٢) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال:لما نزلت: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وأنتم لا تشعرون** ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، حبط عملي، أنا من أهل النار وجلس في بيته حزينا، ففقده رسول الله ﷺ ،فانطلق بعض القوم إليه فقالوا: فقدك رسول الله ﷺ ،مالك ؟قال : أنا الذى أرفع

(١) البخاري في المغازي (٤٣٦٧) وفي التفسير (٤٨٤٥ ، ٤٨٤٧) والنسائي في التفسير (٥٣٤) .
(٢) ابن عدى في الكامل ٢/ ٣٩٦ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

صوتى فوق صوت النبىّ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بذلك ، فقال : « لا ، بل هو من أهل الجنة » ، فلما كان يوم اليمامة قتل. وفى الباب أحاديث بمعناه [١] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله : ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾قال :قال رسول الله ﷺ «منهم ثابت بن قيس بن شماس».

وأخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوى والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند صحيح ، من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس ؛ أنه أتى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، اخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد ، إن حمدى زين، وإن ذمى شين ، فقال :« ذاك الله » ، فأنزل الله :﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ [٢] قال ابن منيع : لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا . وأخرج الترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ قال : جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدى زين وإن ذمى شين ، فقال النبى ﷺ: « ذاك الله » [٣] . وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بإسناد حسن ، عن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبىّ ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد فأنزل الله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى وجعل يقول : « لقد صدّق الله قولك يا زيد، لقد صدّق الله قولك يا زيد » [٤] . وفى الباب أحاديث .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند جيد ، عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله ، أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب إلى جمعت زكاته وترسل إلىّ يارسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت ، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٤٦) ومسلم فى الإيمان (١٨٧/ ١١٩) والنسائى فى التفسير (٥٣٣) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٨٨ ، ٦/ ٣٩٣ وابن جرير ٢٦/ ٧٧ والطبرانى (٨٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨ : «وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع وإلا فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر » .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢٦/ ٧٧ .

(٤) ابن جرير ٢٦/ ٧٧ والطبرانى ٢٣/ ٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١١ : « فيه داود بن راشد الطفاوى ، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين ، وبقية رجاله ثقات » .

كان وقت لى وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأتى رسول الله ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ (١) فرجع ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله ، قال : لا والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ » قال : لا والذى بعثك بالحقّ ما رأيته ولا رآنى . وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل :﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ إلى قوله:﴿ **حكيم** ﴾ قال ابن كثير : هذا من أحسن ما روى فى سبب نزول الآية. وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص (٢) .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ .

قوله :﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **اقتتلوا** ﴾ باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله : ﴿ **هذان خصمان اختصموا** ﴾ [الحج : ١٩] والضمير فى قوله : ﴿**بينهما** ﴾ عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ ، وقرأ ابن أبى عبلة : « اقتتلتا » اعتبارا بلفظ طائفتان ، وقرأ زيد بن علىّ وعبيد بن عمير : « اقتتلا » وتذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار

(١) فرق : خاف .
(٢) أحمد ٤/ ٢٧٩ والطبرانى (٣٣٩٥) وابن كثير ٦/ ٣٧٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٢ : « ورجال أحمد ثقات » .

الفريقين أو الرهطين . والبغى : التعدّى بغير حق والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والفىء : الرجوع . والمعنى : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ، ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدّى ما يجب عليها للأخرى ، ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال : ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى واعدلوا إن الله يحب العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء ، قال الحسن وقتادة والسدّى : ﴿**فأصلحوا بينهما** ﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما ﴿ **فإن بغت إحداهما** ﴾ وطلبت ما ليس لها ولم ترجع إلى الصلح ﴿ **فقاتلوا التى تبغى** ﴾ حتى ترجع إلى طاعة الله والصلح الذى أمر الله به .

وجملة : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم راجعون إلى أصل واحد وهو الإيمان . قال الزجاج : الدين يجمعهم ، فهم إخوة إذا كانوا متفقين فى دينهم فرجعوا بالاتفاق فى الدين إلى أصل النسب لأنهم لآدم وحواء ﴿**فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ يعنى : كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى . قرأ الجمهور : ﴿ **بين أخويكم** ﴾ على التثنية ، وقرأ زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود والحسن وحماد بن سلمة وابن سيرين : «إخوانكم » بالجمع . وروى عن أبى عمرو ونصر بن عاصم وأبى العالية والجحدرى ويعقوب أنهم قرؤوا : « بين إخوتكم » بالفوقية على الجمع أيضا . قال أبو علىّ الفارسى فى توجيه قراءة الجمهور : أراد بالأخوين : الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى كل أموركم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ بسبب التقوى ، والترجى باعتبار المخاطبين ، أى راجين أن ترحموا ، وفى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلا بقوله ﷺ : « قتال المسلم كفر » [(١)] فإن المراد بهذا الحديث وما ورد فى معناه قتال المسلم الذى لم يبغ . قال ابن جرير : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حقّ، ولا أبطل باطل ولوجدَ أهل النفاق والفجور سببا إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم

---

(١) البخارى فى الإيمان (٤٨) وفى الأدب (٦٠٤٤) وفى الفتن (٧٠٧٦) ومسلم فى الإيمان (٦٤/ ١١٦) والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » عن عبد الله بن مسعود .

وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله ﷺ: « خذوا على أيدى سفهائكم » (١) . قال ابن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، وعمدة فى حرب المتأوّلين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله: « تقتل عماراً الفئة الباغية » (٢) وقوله ﷺ فى شأن الخوارج : « يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ » .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ السخرية : الاستهزاء . وحكى أبو زيد : سخرت به وضحكت به وهزأت به ، وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه ، وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، كل ذلك يقال ، والاسم السخرية والسخرى ،وقرئ بهما فى:﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [الزخرف: ٣٢] ومعنى الآية : النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض ، وعلل هذا النهى بقوله : ﴿ **عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ أى أن يكون المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم ، ولما كان لفظ قوم مختصا بالرجال ؛ لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال : ﴿ **ولا نساء من نساء** ﴾ أى ولا يسخر نساء من نساء ﴿ **عسى أن يكنّ**﴾ المسخور بهن ﴿ **خيرا منهن** ﴾ يعنى: خيراً من الساخرات منهنّ .وقيل: أفرد النساء بالذكر ؛لأن السخرية منهنّ أكثر ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ اللمز : العيب ، وقد مضى تحقيقه فى سورة براءة عند قوله :﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ [التوبة : ٥٨] قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان . ومعنى ﴿ **لا تلمزوا أنفسكم** ﴾ : لا يلمز بعضكم بعضا كما فى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : ٢٩] وقوله : ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : ٦١] قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : لا يطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضا ﴿**ولاتنابزوا بالألقاب** ﴾ التنابز : التفاعل من النبز بالتسكين وهو المصدر ، والنبز بالتحريك اللقب ، والجمع أنباز ، والألقاب جمع لقب ، وهو اسم غير الذى سمى به الإنسان ، والمراد هنا: لقب السوء ، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضا، قال الواحدى : قال المفسرون :هو أن يقول لأخيه المسلم :يا فاسق يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ، يا نصرانى ، قال عطاء : هو كل شىء أخرجت به أخاك من الإسلام ، كقولك : يا كلب ، يا حمار ، يا خنزير . قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بكفره ، فيقال له : يا يهودى ، يا نصرانى ، فنزلت ، وبه قال قتادة وأبو العالية وعكرمة ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أى بئس الاسم الذى يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان ، والاسم هنا بمعنى الذكر ، قال ابن زيد : أى بئس أن يسمى الرجل كافراً أوزانياً بعد إسلامه وتوبته . وقيل : المعنى : أن من

---

(١) البيهقى فى الشعب (٧٥٧٧) عن النعمان بن بشير. ط : دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ١٦٤ عن عبد الله بن عمر، ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٦/ ٧٢) عن أبى هريرة والترمذى فى المناقب(٣٨٠٠) عن أبى هريرة وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، قال القرطبى : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوزته الأئمة ، واتفق على قوله أهل اللغة ا. هـ **﴿ومن لم يتب﴾** عما نهى الله عنه **﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾** لارتكابهم ما نهى الله عنه وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم .

﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ ﴾ الظنّ هنا : هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتهم غيره بشىء من الفواحش ، ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه ؛ لأن من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ ، كالقياس، وخبر الواحد ، ودلالة العموم ، ولكن هذا الظنّ الذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به ، فارتفع عن الشك والتهمة ، قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءًا ، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذى ظهر منهم . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءًا ، ولا بأس به مالم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم ، وحكى القرطبى عن أكثر العلماء : أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح. وجملة: **﴿ إن بعض الظنّ إثم ﴾** تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير ، والإثم هو : ما يستحقه الظانّ من العقوبة ، ومما يدل على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: ﴿ وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوما بورا ﴾ [الفتح : ١٢] فلا يدخل فى الظن المأمور باجتنابه شىء من الظنّ المأمور باتباعه فى مسائل الدين، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كيادًا للدين وشذوذا عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظن فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها .

ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال : **﴿ ولا تجسسوا ﴾** التجسس : البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معايب الناس ومثالبهم . قرأ الجمهور: **﴿ تجسسوا ﴾** بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا . وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء . قال الأخفش : ليس يبعد أحدهما من الآخر ؛ لأن التجسس بالجيم : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس بالحاء : طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل : رجل جاسوس : إذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء : ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقيل : إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ،قاله ثعلب **﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾** أى لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوؤه ، والغيبة : أن تذكر الرجل بما يكرهه ، كما جاء فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة؟»

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » فقيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»(١) . ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا**﴾ مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحىّ لا يعلم بغيبة من اغتابه ، ذكر معناه الزجاج . وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة فى عرضه ، وفى هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية ، فضلا عن كونه محرّما شرعا ﴿ **فكرهتموه** ﴾ قال الفراء : تقديره : فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا ، قال الرّازى : الفاء فى تقدير جواب كلام . كأنه قال : لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذن . وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره: عرض عليكم ذلك فكرهتموه ﴿ **واتقوا الله** ﴾ بترك ما أمركم باجتنابه ﴿ **إن الله تواب رحيم** ﴾ لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل للنبىّ ﷺ : لو أتيت عبد الله ابن أبى ، فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما انطلق إليه قال : إليك عنى ، فو الله لقد آذانى ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدى والنعال ، فنزلت فيهم : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية (٢) . وقد روى نحو هذا من وجوه أخر . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن عمر ، قال : ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله أمر النبىّ ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيؤوا إلى أمر الله ويقرّوا بحكم الله . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية. قال: كان قتال بالنعال والعصىّ فأمرهم أن يصلحوا بينهما . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم** ﴾

---

(١) أحمد ٢/ ٣٨٤ ، ٣٨٦ وأبو داود فى الأدب (٤٨٧٤) والترمذى فى البر والصلة (١٩٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والدارمى ٢/ ٢٩٩ .

(٢) أحمد ٣/ ١٥٧ ، ٢١٩ والبخارى فى الصلح (٢٦٩١) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٩/ ١١٧) .

قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزؤوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة . وأخرج عبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ،وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة ، وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ قال : لا يطعن بعضكم على بعض . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ، وأهل السنن الأربع وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان ، والشيرازي في الألقاب ، والطبراني ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدًا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يكرهه ، فنزلت : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ (١). وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب : أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في الآية قال : إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول : يا يهوديّ ، يا نصرانيّ ، يا مجوسيّ ، ويقول للرجل المسلم : يا فاسق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن** ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءًا . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه . وقد وردت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عن عيوبهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ الآية . قال :

---

(١) أحمد ٤/ ٦٩ ، ٢٦٠ وأبو داود في الأدب (٤٩٦٢) والترمذي في التفسير (٣٢٦٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائي في التفسير (٥٣٦) وابن ماجة في الأدب (٣٧٤١) وأبو يعلى (٦٨٥٣) وابن جرير ٢٦ / ٨٤ وابن حبان في الموارد (١٧٦١) والطبراني (٩٦٨) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٣ وقال : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٦٧٤٦) . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٣١٢ ، ٤٦٥ والبخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣/ ٢٨) والترمذي في البر (١٩٨٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرّم الميتة ، والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جدًا معروفة في كتب الحديث .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ هما آدم وحواء ، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد وكونه يجمعهم أب واحد وأمّ واحدة ، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب . وقيل : المعنى : إن كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء ﴿ **وجعلناكم شعوبا وقبائل** ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين ، وهى الحىّ العظيم ، مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة ، وبنى تميم من مضر . قال الواحدى : هذا قول جماعة من المفسرين ، سموا شعباً ؛ لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة ، والشعب من أسماء الأضداد. يقال : شعبته : إذا جمعته ، وشعبته : إذا فرقته ، ومنه سميت المنية شعوباً ؛ لأنها مفرقة ، فأما الشعب بالكسر: فهو الطريق فى الجبل ، قال الجوهرى : الشعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب ، وقال مجاهد : الشعوب : البعيد من النسب ، والقبائل دون ذلك . وقال قتادة : الشعوب : النسب الأقرب . وقيل : إن الشعوب : عرب اليمن من قحطان ، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : الشعوب : بطون العجم والقبائل : بطون العرب .وحكى أبو عبيد أن الشعب : أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ومما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم　　　كريم قد يعد ولا نجيب

قرأ الجمهور :﴿ **لتعارفوا** ﴾ بتخفيف التاء ، وأصله : لتتعارفوا فحذفت إحدى التاءين . وقرأ البزّى بتشديدها على الإدغام ، وقرأ الأعمش بتاءين واللام متعلقة بخلقناكم ، أى خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا ، وقرأ ابن عباس : « لتعرفوا » مضارع عرف .

والفائدة فى التعارف : أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره . والمقصود من هذا : أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب ، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة ، وهذا البطن أشرف من هذا البطن، ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ أى إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل ، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب ، فإن ذلك لا يوجب كرما ، ولا يثبت شرفا ، ولا يقتضى فضلا ، قرأ الجمهور : ﴿ **إن أكرمكم** ﴾ بكسر إن . وقرأ ابن عباس بفتحها ، أى لأن أكرمكم ﴿ **إن الله عليم** ﴾ بكل معلوم ، ومن ذلك أعمالكم ﴿ **خبير** ﴾ بما تسرون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال : ﴿ **قالت الأعراب آمنا**﴾ وهم بنو أسد أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم فقال : ﴿ **قل لم تؤمنوا** ﴾ أى لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ أى استسلمنا خوف القتل والسبى أو للطمع فى الصدقة ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ أى لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة ، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها ، أو فى محل نصب على الحال . وفى « لما » معنى التوقع . قال الزجاج : الإسلام : إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبىّ ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن ، وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله : ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ أى لم تصدّقوا وإنما أسلمتم تعوذًا من القتل، ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله** ﴾ طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿ **لا يلتكم من أعمالكم شيئا**﴾ يقال :لات يلت : إذا نقص ، ولاته يليته ويلوته : إذا نقصه ، والمعنى: لا ينقصكم من أعمالكم شيئا . قرأ الجمهور: ﴿ **يلتكم** ﴾ من لاته يليته كباع يبيعه ، وقرأ أبو عمرو : « لا يألتكم » بالهمز من يألته بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع ، واختار قراءة أبى عمرو أبوحاتم لقوله : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ [الطور : ٢١] وعليها قول الشاعر :

أبلغ بنى أسد عنى مغلغلة   جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور ، وعليها قول رؤبة بن العجاج :

وليلة ذات ندى سريت   ولم يلتنى عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان ﴿ **إن الله غفور** ﴾ أى بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب ﴿ **رحيم** ﴾ بليغ الرحمة لهم ، ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ولا دخل الإيمان فى قلوبهم ، بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله** ﴾ يعنى : إيمانا صحيحا خالصا عن مواطأة القلب واللسان ﴿ **ثم لم يرتابوا** ﴾ أى لم يدخل قلوبهم شىء من الريب ولا خالطهم شكّ من الشكوك ﴿**وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ أى فى طاعته وابتغاء مرضاته ، ويدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤدّيه كما أمر الله سبحانه ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ **هم الصادقون** ﴾ أى الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان والدخول فى عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه،وادعى أنه مؤمن ،ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، ولا وصل إليه معناه ، ولا عمل بأعمال أهله ، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم وسائر أهل النفاق . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما ادعوا أنهم مؤمنون فقال : ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم** ﴾ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام ، ولهذا دخلت الباء فى بدينكم ، أى أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا ﴿ **والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعونه من الإيمان ، والجملة فى محل النصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، وقد علم ما تبطنونه من الكفر وتظهرونه من الإسلام لخوف الضراء ورجاء النفع .

ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المن عليه منهم بما يدعونه من الإسلام فقال: ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ أى يعدّون إسلامهم منة عليك حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿ **قل لا تمنوا على إسلامكم** ﴾ أى لا تعدوّه منة على ، فإن الإسلام هو المنة التى لا يطلب موليها ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ولهذا قال : ﴿ **بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾ أى أرشدكم إليه وأراكم طريقه سواء وصلتم إلى المطلوب أو لم تصلوا إليه ، وانتصاب ﴿ **إسلامكم** ﴾ إما على أنه مفعول به على تضمين يمنون معنى يعدّون ، أو بنزع الخافض ، أى لأن أسلموا ، وهكذا قوله : ﴿ **أن هداكم للإيمان** ﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تدعونه ، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله ، أى إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم، قرأ الجمهور : ﴿ **أن هداكم** ﴾ بفتح « أن » ، وقرأ عاصم بكسرها . ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض** ﴾ أى ما غاب فيهما ﴿ **والله بصير بما تعملون**﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء ، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شرا . قرأ الجمهور: ﴿ **تعملون** ﴾ على الخطاب ، وقرأ ابن كثير على الغيبة .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن أبى مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على

ظهر الكعبة ، وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره فنزلت : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو داود فى مراسيله ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن الزهرى قال : أمر رسول الله ﷺ بنى بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم . فقالوا : يا رسول الله، أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت هذه الآية [(١)] . وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ هى مكية ، وهى للعرب خاصة الموالى ، أى قبيلة لهم ، وأى شعاب ، وقوله : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فقال : أتقاكم للشرك . وأخرج البخارى وابن جرير عن ابن عباس قال : الشعوب : القبائل العظام ، والقبائل : البطون . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : القبائل : الأفخاذ ، والشعوب : الجمهور مثل مضر . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم ؟ قال: « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال :« فعن معادن العرب تسألونى » ؟ قالوا : نعم . قال : « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [(٢)]. وقد وردت أحاديث فى الصحيح وغيره أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قالت الأعراب آمنا**﴾ قال : أعراب بنى أسد وخزيمة ، وفى قوله : ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ مخافة القتل والسبى . وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت فى بنى أسد . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن عبد الله بن أبى أوفى : أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله ، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأنزل الله : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ [(٣)] . وأخرج النسائى والبزار وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد[(٤)] .

---

(١) أبو داود فى المراسيل ص ١٩٥ (٢٣٠) والبيهقى فى النكاح ٧/ ١٣٦ .
(٢) أحمد ٢/ ٤٣١ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٥٤ ، ٣٣٧٤) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٨/ ١٦٨) .
(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٥ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه الحجاج بن أرطأة وهو ثقة ولكنه مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٤) النسائى فى التفسير (٥٣٩) .

تفسير سورة « ق »

هى خمس وأربعون آية . وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا آية ، وهى قوله : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ وهى أول المفصل على الصحيح . وقيل : من الحجرات . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة ق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد أخرج مسلم وغيره عن قطبة بن مالك قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر فى الركعة الأولى ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ (١) . وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد بقاف واقتربت (٢). وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجة والبيهقى عن أم هشام ابنة حارثة قالت : ما أخذت ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ إلا من فىّ رسول الله ﷺ كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس ، وهو فى صحيح مسلم (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ⑤ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ⑪ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ⑫ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ⑬ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ⑭ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮ ﴾ .

---

(١) مسلم فى الصلاة (٤٥٧/١٦٣) وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨١٦) .

(٢) أحمد ٥/ ٢١٨ ومسلم فى صلاة العيدين (٨٩١/ ١٤) والترمذى فى أبواب الصلاة (٥٣٣) والنسائى فى التفسير (٥٧٠) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٢٨٢) .

(٣) ابن أبى شيبة (٢ / ١١٥) ومسلم فى الجمعة (٨٧٣ / ٥١) وأبو داود فى الصلاة (١١٠٠) والنسائى فى التفسير (٥٤٠) والبيهقى ٣ / ٢١١ .

قوله : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ الكلام فى إعراب هذا كالكلام الذى قدمنا فى قوله : ﴿ص والقرآن ذى الذكر ﴾ [ص : ١] وفى قوله: ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ [الدخان : ١ ، ٢] واختلف فى معنى ﴿ ق ﴾ فقال الواحدى : قال المفسرون : هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد والسماء مقببة عليه . وهو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة . قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى ﴿ ق ﴾ لأنه اسم ، وليس بهجاء. قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل :

قلت لها قفى فقالت قاف

أى أنا واقفة ، وحكى الفراء والزجاج : أن قوما قالوا : معنى ﴿ ق ﴾ : قفى الأمر وقفى ما هو كائن ، كما قيل فى ﴿ حم ﴾ :حم الأمر . وقيل : هو اسم من أسماء الله أقسم به ، وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن ، وقال الشعبى : فاتحة السورة ، وقال أبو بكر الوراق : معناه : قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما . وقيل : غير ذلك مما هو أضعف منه . والحق أنه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه كما حققنا ذلك فى فاتحة سورة البقرة ، ومعنى ﴿المجيد ﴾ : أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة ، وقال الحسن : الكريم . وقيل : الرفيع القدر . وقيل : الكبير القدر ، وجواب القسم قال الكوفيون : هو قوله : ﴿ بل عجبوا ﴾ وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : ق والقرآن المجيد لتبعثن ، يدل عليه : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا ﴾ وقال ابن كيسان :جوابه ﴿ ما يلفظ من قول ﴾. وقيل : هو ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ بتقدير اللام ، أى لقد علمنا . وقيل : هو محذوف ، وتقديره : أنزلنا إليك لتنذر ،كأنه قيل: ق والقرآن المجيد، أنزلناه إليك لتنذر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم بكسر الفاء . وقرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء ، وقرأ هارون ومحمد بن السميفع بالضم . ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ «بل » للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال . « وأن » فى موضع نصب على تقدير : لأن جاءهم ، والمعنى : بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم وهو محمد ﷺ ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة ﴿ ص ﴾ . ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله : ﴿ فقال الكافرون هذا شىء عجيب ﴾ وفيه زيادة تصريح وإيضاح . قال قتادة : عجبهم أن دعوا إلى إله واحد ، وقيل : تعجبهم من البعث ، فيكون لفظ ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله :﴿ أئذا متنا ﴾ إلخ . والأول أولى . قال الرازى: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجىء المنذر .

ثم قالوا : ﴿ أئذا متنا ﴾ وأيضا قد وُجد هاهنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدى معنى التعجب ، وهو قولهم : ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ فإنه استبعاد وهو كالتعجب ، فلو كان التعجب بقولهم : ﴿ هذا شىء عجيب ﴾ عائدا إلى قولهم : ﴿ أئذا ﴾ ؛ لكان كالتكرار . فإن قيل :

التكرار الصريح يلزم من قولك : هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيء المنذر ، فإن تعجبهم منه علم من قولهم : وعجبوا أن جاءهم فقوله : ﴿ **هذا شيء عجيب** ﴾ يكون تكرارا ، فنقول : ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير لأنه لما قال : ﴿ **بل عجبوا** ﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجبا كقوله : ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ [هود : ٧٣] ويقال في العرف :لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب ، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم : لا معنى لتعجبكم، فقالوا : ﴿ **هذا شيء عجيب** ﴾ فكيف لا نعجب منه ، ويدل على ذلك قوله ها هنا: ﴿ **فقال الكافرون** ﴾ بالفاء ، فإنها تدل على أنه مترتب على ما تقدم، قرأ الجمهور : ﴿ **أئذا متنا** ﴾ بالاستفهام ، وقرأ ابن عامر في رواية عنه وأبو جعفر والأعمش والأعرج بهمزة واحدة ، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور وهمزة الاستفهام مقدرة ، ويحتمل أن معناه الإخبار ، والعامل في الظرف مقدر ، أي أيبعثنا ، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فجواب « إذا » محذوف ، أي رجعنا . وقيل : ذلك رجع ، والمعنى : استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم ترابا ،ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا: ﴿ **ذلك** ﴾ أي البعث ﴿ **رجع بعيد** ﴾ أي بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان ، يقال : رجعته أرجعه رجعا، ورجع هو يرجع رجوعا .

ثم رد سبحانه ما قالوه فقال : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء من ذلك ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث ولا يستبعد منه ، وقال السدى : النقص هنا الموت ، يقول : قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى ؛ لأن من مات دفن ، فكأن الأرض تنقص من الأموات . وقيل : المعنى : من يدخل في الإسلام من المشركين . والأول أولى .﴿ **وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ أي حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء ، وهو اللوح المحفوظ . وقيل: المراد بالكتاب هنا العلم والإحصاء ، والأول أولى . وقيل : ﴿**حفيظ**﴾ بمعنى : محفوظ ، أي محفوظ من الشياطين أو : محفوظ فيه كل شيء . ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال : ﴿**بل كذبوا بالحق** ﴾ فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدم عنهم من الاستبعاد ، والمراد بالحق هنا : القرآن ، قال الماوردى : في قول الجميع . وقيل : هو الإسلام . وقيل : محمد . وقيل : النبوة الثابتة بالمعجزات ﴿ **لما جاءهم**﴾ أي وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ، قرأ الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم ، وقرأ الجحدرى بكسر اللام وتخفيف الميم . ﴿ **فهم في أمر مريج** ﴾ أي مختلط مضطرب، يقولون مرة :ساحر ، ومرة :شاعر ، ومرة :كاهن ، قاله الزجاج وغيره . وقال قتادة : مختلف . وقال الحسن : ملتبس ، والمعنى متقارب . وقيل : فاسد والمعاني متقاربة ، ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، أي فسدت ، ومرج الدين والأمر : اختلط .

﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أي كيف غفلوا

عن النظر إلى السماء فوقهم ﴿ **كيف بنيناها** ﴾ وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه ﴿ **وزيناها** ﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح ﴿ **ومالها من فروج** ﴾ أى فتوق وشقوق وصدوع ، وهو جمع فرج ، ومنه قول امرئ القيس :

ويسد به فرجا من دبر

قال الكسائى : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق ﴿**والأرض مددناها** ﴾ أى بسطناها ﴿**وألقينا فيها رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة الرعد . ﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾ أى من كل صنف حسن وقد تقدم تفسير هذا فى سورة الحج . ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ هما علتان لما تقدم منتصبتان بالفعل الأخير منها ، أو بمقدر ، أى فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير قاله الزجاج ، وقال أبو حاتم : انتصبا على المصدرية ، أى جعلنا ذلك تبصرة وذكرى ، والمنيب : الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر فى بديع صنعه وعجائب مخلوقاته ، وفى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة ، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه ، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه ، وهكذا قوله: ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركا** ﴾ أى نزلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم ﴿ **فأنبتنا به جنات** ﴾ أى أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة ﴿ **وحب الحصيد** ﴾ أى ما يقتات ويحصد من الحبوب ؛والمعنى : وحب الزرع الحصيد ، وخص الحب لأنه المقصود ، كذا قال البصريون . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشىء إلى نفسه، كمسجد الجامع ، حكاه الفراء ، قال الضحاك : ﴿ **حب الحصيد** ﴾ : البر والشعير . وقيل : كل حب يحصد ويدخر ويقتات . ﴿ **والنخل باسقات لها طلع نضيد** ﴾ هو معطوف على ﴿ **جنات** ﴾ ، أى وأنبتنا به النخل ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها فى الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار ، وانتصاب ﴿ **باسقات** ﴾ على الحال ، وهى حال مقدرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة ، قال مجاهد وعكرمة وقتادة : الباسقات : الطوال ، وقال سعيد بن جبير : مستويات، وقال الحسن وعكرمة والفراء : مواقير حوامل ، يقال : للشاة إذا بسقت : ولدت ، والأشهر فى لغة العرب الأول ، يقال : بسقت النخلة بسوقا : إذا طالت ، ومنه قول الشاعر :

لنا خمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام فى السماء ذهبن طولا وفات ثمارها أيدى الجناة

وجملة : ﴿ **لها طلع نضيد**﴾ فى محل نصب على الحال من ﴿ **النخل** ﴾ ، الطلع : هو أول ما يخرج من ثمر النخل،يقال : طلع الطلع طلوعا ، والنضيد : المتراكب الذى نضد بعضه على بعض،وذلك قبل أن ينفتح فهو نضيد فى أكمامه فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿**رزقا للعباد** ﴾ انتصابه على المصدرية ، أى رزقناهم رزقا ، أو على العلة ، أى أنبتنا هذه الأشياء للرزق ﴿ **وأحيينا به بلدة ميتا** ﴾ أى أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع ،وجملة:

﴿ كذلك الخروج ﴾ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذى أحيا الله به الأرض الميتة ، قرأ الجمهور : ﴿ ميتا ﴾ على التخفيف ، وقرأ أبو جعفر وخالد بالتثقيل .

ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس ﴾ هم قوم شعيب كما تقدم بيانه . وقيل : هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى ، وهم من قوم عيسى . وقيل هم أصحاب الأخدود ، والرس : إما موضع نسبوا إليه ، أو فعل ، وهو حفر البئر ، يقال : رس : إذا حفر بئرا ﴿ وثمود . وعاد وفرعون ﴾ أى فرعون وقومه ﴿ وإخوان لوط ﴾ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره . وقيل : هم من قوم إبراهيم وكانوا من معارف لوط ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ تقدم الكلام على الأيكة واختلاف القراء فيها فى سورة الشعراء مستوفى ، ونبيهم الذى بعثه الله إليهم شعيب ﴿ وقوم تبع ﴾ هو تبع الحميرى الذى تقدم ذكره فى قوله:﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾[الدخان : ٣٧] واسمه سعد أبو كرب . وقيل : أسعد . قال قتادة : ذم الله قوم تبع ، ولم يذمه ﴿ كل كذب الرسل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه ، أى كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذى أرسله الله إليه، وكذب ما جاء به من الشرع . واللام فى ﴿ الرسل ﴾ تكون للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ، أى كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل ، وإفراد الضمير فى ﴿ كذب ﴾ باعتبار لفظ ﴿ كل ﴾، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ كأنه قيل له: لا تحزن ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء ، فإن قومهم كذبوهم ولم يصدقهم إلا القليل منهم ﴿ فحق وعيد ﴾ أى وجب عليهم وعيدى وحقت عليهم كلمة العذاب ، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف والمسخ والإهلاك بالأنواع التى أنزلها الله بهم من عذابه .

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذى أنكرته الأمم، أى أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولا ولم يكونوا شيئا ، فكيف نعجز عن بعثهم ؟ يقال : عييت بالأمر : إذا عجزت عنه ولم أعرف وجهه . قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة ، وقرأ ابن أبى عبلة بتشديد الياء من غير إشباع ، ثم ذكر أنهم فى شك من البعث ، فقال : ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ أى فى شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف ، وهو بعث الأموات ، ومعنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله :﴿ ق ﴾ قال : هو اسم من أسماء الله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال :خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا ، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له: قاف السماء الدنيا مرفوعة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها ، ثم خلق وراء

ذلك جبلا يقال له : قاف، السماء الثانية مرفوعة عليه ،حتى عد سبع أرضين ، وسبعة أبحر ، وسبعة أجبل ، وسبع سموات ، قال : وذلك قوله : ﴿ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ﴾ [لقمان : ٢٧] . قال ابن كثير : لا يصح سنده عن ابن عباس وقال أيضا : وفيه انقطاع (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضا قال : هو جبل وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك ذلك العرق الذى يلى تلك القرية فيزلزلها ويحركها ، فمن ثم يحرك القرية دون القرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **والقرآن المجيد** ﴾ قال : الكريم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : القرآن المجيد ليس شىء أحسن منه ولا أفضل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا :﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ قال : أجسادهم وما يذهب منها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : ما تأكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا . قال: المريج : الشىء المتغير . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن قطبة قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى الصبح : ﴿ **ق** ﴾ ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **والنخل باسقات** ﴾ فجعلت أقول :ما بسوقها ؟ قال : « طولها » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والنخل باسقات** ﴾ قال : الطول . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لها طلع نضيد** ﴾ قال : متراكم بعضه على بعض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ يقول : لم يعينا الخلق الأول . وفى قوله : ﴿ **بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ فى شك من البعث .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ

---

(١) ابن كثير ٦/٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٦٤ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ .

قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية ، والمراد بالإنسان الجنس . وقيل : آدم . والوسوسة هى فى الأصل الصوت الخفى ، والمراد بها هنا : ما يختلج فى سره وقلبه وضميره ، أى نعلم ما يخفى ويكن فى نفسه ، ومن استعمال الوسوسة فى الصوت الخفى قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت

فاستعمل لما خفى من حديث النفس ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ هو حبل العاتق ،وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان من عن يمين وشمال. وقال الحسن : الوريد : الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب ، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان ، أى نحن أقرب إليه من حبل وريده ، والإضافة بيانية، أى حبل هو الوريد . وقيل : الحبل هو نفس الوريد ، فهو من باب مسجد الجامع . ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ الظرف منتصب بما فى ﴿ أقرب ﴾ من معنى الفعل ، ويجوز أن يكون منصوبا بمقدر هو اذكر ، والمعنى : أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى ﴿ المتلقيان ﴾ ، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به وما يعمل به ، أى يأخذان ذلك ويثبتانه ، والتلقى : الأخذ ، أى نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكلين به ، وإنما جعلنا ذلك إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر، قال الحسن وقتادة ومجاهد : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك ، وقال مجاهد أيضا : وكل الله بالإنسان ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ إنما قال : ﴿ قعيد ﴾ ولم يقل : قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كذا قال سيبويه كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقال الفرزدق :

وأنى وكان وكنت غير عذور

أى وكان غير عذور وكنت غير عذور . وقال الأخفش والفراء : إن لفظ ﴿ قعيد ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير فى الأول . قال الجوهرى وغيره من أئمة اللغة

والنحو: فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع . والقعيد : المقاعد كالجليس بمعنى المجالس . ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ أى ما يتكلم من كلام ، فيلفظه ويرميه من فيه إلا لديه ، أى لدى ذلك اللافظ رقيب ، أى ملك يرقب قوله ويكتبه . والرقيب : الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذى يكتب ما يقوله من خير وشر. فكاتب الخير هو ملك اليمين ، وكاتب الشر ملك الشمال ، والعتيد : الحاضر المهيأ . قال الجوهرى : العتيد الحاضر المهيأ ، يقال : عتده تعتيدا وأعتده اعتدادا ، أى أعده ، ومنه: ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ [يوسف: ٣١] والمراد هنا : أنه معد للكتابة مهيأ لها . ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾ لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت ، والمراد بسكرة الموت شدته وغمرته التى تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، ومعنى ﴿ **بالحق** ﴾ : أنه عند الموت يتضح له الحق ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد. وقيل : الحق هو الموت . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذا قرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود ، والسكرة : هى الحق ، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : الباء للملابسة كالتى فى قوله: ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : ٢٠] أى متلبسة بالحق ، أى بحقيقة الحال . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الموت ، والحيد : الميل ، أى ذلك الموت الذى كنت تميل عنه وتفر منه . يقال : حاد عن الشيء يحيد حيودا وحيدة وحيدودة : مال عنه وعدل ، ومنه قول طرفة :

أبو منذر رمت الوفاء فهبته　　　وحدت كما حاد البعير عن الدحض

وقال الحسن : تحيد : تهرب ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ، وهذه هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ **ذلك يوم الوعيد** ﴾ أى ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ فى الصور يوم الوعيد الذى أوعد الله به الكفار قال مقاتل : يعنى بالوعيد : العذاب فى الآخرة ، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعا لتهويله . ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ أى جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها ومن يشهد لها أو عليها. واختلف فى السائق والشهيد . فقال الضحاك : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم ، يعنى : الأيدى والأرجل ، وقال الحسن وقتادة : سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم : السائق : قرينها من الشياطين . سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وقيل : السائق : الملك والشهيد : العمل . وقيل : السائق : كاتب السيئات ، والشهيد : كاتب الحسنات ، ومحل الجملة النصب على الحال . ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا** ﴾ أى يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا ، والجملة فى محل نصب على الحال من ﴿ **نفس** ﴾ أو مستأنفة كأنه قيل : ما يقال له . قال الضحاك : المراد بها : المشركون ؛ لأنهم كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم . وقال ابن زيد : الخطاب للنبى ﷺ ، أى لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة ، وقال أكثر المفسرين : المراد به جميع الخلق برهم

وفاجرهم ، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من ﴿ **كنت** ﴾ وفتح الكاف فى ﴿**غطاءك** ﴾ و ﴿ **بصرك** ﴾ حملا على ما فى لفظ ﴿ **كل** ﴾ من التذكير . وقرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف بالكسر فى الجميع على أن المراد النفس ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك** ﴾ الذى كان فى الدنيا ، يعنى : رفعنا الحجاب الذى كان بينك وبين أمور الآخرة ، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿ **فبصرك اليوم حديد**﴾ أى نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك فى الدنيا . قال السدى : المراد بالغطاء : أنه كان فى بطن أمه فولد . وقيل : إنه كان فى القبر فنشر ، والأول أولى ، والبصر ، قيل : هو بصر القلب ، وقيل : بصر العين . وقال مجاهد : بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك ، وبه قال الضحاك .

﴿ **وقال قرينه هذا ما لدى عتيد** ﴾ أى قال الملك الموكل به : هذا ما عندى من كتاب عملك ﴿ **عتيد** ﴾ حاضر قد هيأته ، كذا قال الحسن وقتادة والضحاك ، وقال مجاهد : إن الملك يقول للرب سبحانه : هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، وروى عنه أنه قال : إن قرينه من الشياطين ، يقول ذلك : أى هذا ما قد هيأته لك بإغوائى وإضلالى . وقال ابن زيد : إن المراد هنا قرينه من الإنس ، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة ، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف . ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد** ﴾ هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد . قال الزجاج : هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق والشهيد :كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان ﴿ **مناع للخير**﴾ لا يبذل خيرا ﴿ **معتد** ﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿ **مريب** ﴾ شاك فى الحق ، من قولهم : أراب الرجل : اذا صار ذا ريب وقيل : هو خطاب للملكين من خزنة النار . وقيل : هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره ، قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون : ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد ، قال الفراء : العرب تقول : للواحد قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر خليلى كما قال امرؤ القيس :

خليلــى مــرا بى علــى أم جنـدب ... نقـض لبانـات الفـؤاد المعــذب

وقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومــنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول الآخر :

فإن تزجرانى يابـن عفـان أنزجـر ... وإن تــدعوانى أحم عرضا ممنـعا

قال المازنى : قوله : ﴿ **ألقيا** ﴾ يدل على ألق ألق . قال المبرد : هى تثنية على التوكيد فناب ألقيا مناب ألق ألق . قال مجاهد وعكرمة : العنيد : المعاند للحق . وقيل : المعرض عن

الحق . يقال : عند يعند بالكسر عنودا : إذا خالف الحق . ﴿ **الذى جعل مع الله إلها آخر** ﴾ يجوز أن يكون بدلا من ﴿ **كل** ﴾ أو منصوبا على الذم ، أو بدلا من ﴿ **كفار** ﴾ أو مرفوعا بالابتداء أو الخبر ﴿ **فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ تأكيد للأمر الأول أو بدل منه ﴿ **قال قرينه ربنا ما أطغيته** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين ، والمراد بالقرين هنا : الشيطان الذى قيض لهذا الكافر ، أنكر أن يكون أطغاه ، ثم قال : ﴿ **ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ أى عن الحق فدعوته فاستجاب لى ، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه . وقيل : إن قرينه الملك الذى كان يكتب سيئاته وإن الكافر يقول : رب إنه أعجلنى فيجيبه بهذا ، كذا قال مقاتل وسعيد بن جبير . والأول أولى . وبه قال الجمهور .

﴿ **قال لا تختصموا لدى** ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ، فماذا قال الله ؟ فقيل : ﴿ **قال لا تختصموا لدى** ﴾ يعنى : الكافرين وقرناءهم ، نهاهم سبحانه عن الاختصام فى موقف الحساب ، وجملة : ﴿ **وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قد قدمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، والباء فى ﴿**بالوعيد** ﴾ مزيدة للتأكيد أو على تضمين قدم معنى تقدم ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ أى لا خلف لوعدى ، بل هو كائن لا محالة ، وقد قضيت عليكم بالعذاب فلا تبديل له . وقيل : هذا القول هو قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] وقيل : هو قوله : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة : ١٣] وقال الفراء وابن قتيبة : معنى الآية : أنه ما يكذب عندى بزيادة فى القول ولا بنقص منه لعلمى بالغيب ، وهو قول الكلبى ، واختاره الواحدى لأنه قال : ﴿ **لدى** ﴾ ولم يقل : وما يبدل قولى ، والأول أولى . وقيل: إن مفعول ﴿ **قدمت إليكم** ﴾ هو ﴿ **ما يبدل** ﴾ ، أى وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد ، وهذا بعيد جدا ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ أى لا أعذبهم ظلما بغير جرم اجترموه ولا ذنب أذنبوه ، ولما كان نفى الظلام لا يستلزم نفى مجرد الظلم قيل : إنه هنا بمعنى : الظالم ، كالتمار بمعنى : التامر . وقيل : إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم .وقيل : صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم: فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده . وقيل غير ذلك ، وقد تقدم الكلام على هذا فى سورة آل عمران وفى سورة الحج .

﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نقول** ﴾ بالنون . وقرأ نافع وأبو بكر بالياء ، وقرأ الحسن : « أقول » وقرأ الأعمش: « يقال » والعامل فى الظرف ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ أو محذوف أى أذكر أو أنذرهم ، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل ، والأولى أنه على طريقة التحقيق ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع : قال الواحدى . قال المفسرون : أراها الله تصديق قوله :﴿لأملأن

جهنم ﴾ [ص : ٨٥] فلما امتلأت قال لها : ﴿ **هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ أى قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلئ ، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان . وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة ، أى إنها تطلب الزيادة على من صار فيها . وقيل : إن المعنى : أنها طلبت أن يزاد فى سعتها لتضايقها بأهلها ، والمزيد إما مصدر كالمحيد أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى : هل من زيادة ؟ والثانى بمعنى : هل من شىء تزيدونيه ؟

ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع فى بيان حال المؤمنين فقال : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ أى قربت للمتقين تقريبا غير بعيد، أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها فى الموقف ، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويجوز أن يكون انتصاب ﴿ **غير بعيد** ﴾ على الحال . وقيل : المعنى : أنها زينت قلوبهم فى الدنيا بالترغيب والترهيب ، فصارت قريبة من قلوبهم ، والأول أولى . والإشارة بقوله : ﴿ **هذا ما توعدون** ﴾ إلى الجنة التى أزلفت لهم على معنى : هذا الذى ترونه من فنون نعيمها ما توعدون ، والجملة بتقدير القول ، أى ويقال لهم : هذا ما توعدون ، قرأ الجمهور: ﴿ **توعدون** ﴾ بالفوقية ،وقرأ ابن كثير بالتحتية ﴿ **لكل أواب حفيظ** ﴾ هو بدل من ﴿**للمتقين** ﴾ بإعادة الخافض أو متعلق بقول محذوف هو حال ، أى مقولا لهم لكل أواب ، والأواب : الرجاع إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية . وقيل : هو المسبح . وقيل : هو الذاكر لله فى الخلوة .قال الشعبى ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها، وقال عبيد بن عمير:هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله فيه ، والحفيظ : هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها . وقال قتادة : هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، قاله مجاهد . وقيل : هو الحافظ لأمر الله ، وقال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله له بالقبول .

﴿ **من خشى الرحمن بالغيب** ﴾ الموصول فى محل جر بدلا أو بيانا ﴿ **لكل أواب** ﴾ قيل : يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين ، وفيه نظر لأنه لا يتكرر البدل والمبدل منه واحد ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على الاستئناف والخبر ﴿ **ادخلوها** ﴾ بتقدير : يقال لهم : ادخلوها ، والخشية بالغيب : أن يخاف الله ولم يكن رآه ، وقال الضحاك والسدى : يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد ، قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب ، و﴿ **بالغيب** ﴾ متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر ﴿ **خشى** ﴾ ﴿ **وجاء بقلب منيب** ﴾ أى راجع إلى الله مخلص لطاعته . وقيل : المنيب : المقبل على الطاعة. وقيل : السليم ﴿ **ادخلوها** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقال لهم : ادخلوها ، والجمع باعتبار معنى « من » ، أى ادخلوا الجنة ﴿ **بسلام** ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته . وقيل : بسلامة من زوال النعم ، وهو متعلق بمحذوف هو حال ، أى ملتبسين بسلام ، والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء ،وخبره ﴿ **يوم الخلود** ﴾ وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له ، بل هو دائم أبدا ﴿ **لهم ما يشاؤون فيها** ﴾ أى فى الجنة ما تشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ من النعم التى لم تخطر لهم على بال ولا مرت لهم فى خيال.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « نزل الله من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد ،وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا» . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **من حبل الوريد** ﴾ قال : عروق العنق . وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، وشربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان من خيرأوشر وألقى سائره فذلك قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ [الرعد : ٣٩] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : إنما يكتب الخير والشر ، لا يكتب يا غلام أسرج الفرس . يا غلام اسقني الماء ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم » [(١)] . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي وأبو نعيم والبيهقي في الشعب عن عمرو بن ذر قال:قال رسول الله ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله عبد ولينظر ما يقول »[(٢)]. وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعا مثله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث وابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد**﴾ قال : سائق يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال : السائق الملك ، والشهيد : العمل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا** ﴾ قال:هو الكافر ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك** ﴾ قال: الحياة بعد الموت . وأخرج ابن جرير عنه أيضا: ﴿ **وقال قرينه** ﴾ قال : شيطانه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ **لا تختصموا لدي** ﴾ قال : إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله حجتهم ورد عليهم قولهم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا . في قوله : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا ، في قوله: ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قال: وهل فيّ من مكان يزاد فيّ ؟. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى

(١) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤) والطلاق (٦٩٥٢) ومسلم في الإيمان (١٢٧/ ٢٠١) وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٩) والترمذي في الطلاق (١١٨٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والعمل على هذا عند أهل العلم :« أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيء حتى يتكلم به » .

(٢) ابن أبي شيبة في الزهد (١٦٢٠١) وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٥٢ والبيهقي في الشعب (٤٦٧٨) .

فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وعزتك وكرمك ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة »[(١)]. وأخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه[(٢)]. وفى الباب أحاديث .

وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لكل أواب حفيظ** ﴾ قال : حفظ ذنوبه حتى رجع عنها . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور عن أنس ، فى قوله : ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ قال : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى فى كل جمعة . وأخرج البيهقى فى الرؤية والديلمى عن على فى الآية قال : يتجلى لهم الرب عز وجل ، وفى الباب أحاديث .

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)** ﴾ .

خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية ﴿ **قبلهم** ﴾ أى قبل قريش ومن وافقهم ﴿ **من قرن** ﴾ أى من أمة ﴿ **هم أشد منهم بطشا** ﴾ أى قوة كعاد وثمود وغيرهما ﴿ **فنقبوا فى البلاد** ﴾ أى ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها وأصله من النقب ، وهو الطريق . قال مجاهد : ضربوا وطافوا ، وقال النضر بن شميل : دوروا . وقال المؤرج : تباعدوا ، والأول أولى . ومنه قول امرئ القيس :

وقـد نقبت فى الآفـاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

ومثله قول الحارث بن حلزة :

نقبوا فى البلاد من حذر المـو ... ت وجالوا فى الأرض كل مجال

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو العالية وأبو عمرو فى رواية : « نقبوا » بفتح القاف مخففة ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٤٨) ومسلم فى الجنة ونعيمها (٢٨٤٨/ ٣٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٤٩) ومسلم فى الجنة ونعيمها (٢٨٤٦ / ٣٥ ، ٣٦) والنسائى فى التفسير (٤٥٢) .

والنقب هو : الخرق والطريق فى الجبل ، وكذا المنقب والمنقبة ، كذا قال ابن السكيت ، وجمع النقب : نقوب ، وقرأ السلمى ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد ، أى طوِّفوا فيها وساروا فى جوانبها ، وقرأ الباقون بفتح القاف مشددة على الماضى **﴿ هل من محيص﴾** أى هل لهم من مهرب يهربون إليه ، أو مخلص يتخلصون به من العذاب ؟ قال الزجاج : لم يروا محيصا من الموت ، والمحيص : مصدر حاص عنه يحيص حيصا وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا ، أى عدل وحاد ، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم ، وفى هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت والعذاب مفرا **﴿ إن فى ذلك لذكرى ﴾** أى فيما ذكر من قصتهم تذكرة وموعظة **﴿ لمن كان له قلب ﴾** أى عقل . قال الفراء : وهذا جائز فى العربية، تقول : مالك قلب وما قلبك معك ، أى مالك عقل ، وما عقلك معك . وقيل : المراد : القلب نفسه ؛ لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغى . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة ؛ فعبر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها ، ومنه قول امرئ القيس :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى النفس تفعل

﴿ أو ألقى السمع ﴾ أى استمع ما يقال له ، يقال : ألق سمعك إلى أى استمع منى ، والمعنى : أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحى الحاكى لما جرى على تلك الأمم ، قرأ الجمهور: **﴿ ألقى ﴾** مبنيا للفاعل وقرأ السلمى وطلحة والسدى على البناء للمفعول ورفع «السمع» **﴿ وهو شهيد ﴾** أى حاضر الفهم أو حاضر القلب لأن من لا يفهم فى حكم الغائب ، وإن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه . قال الزجاج : أى وقلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان : أى لا يكون حاضرا وقلبه غائب، قال مجاهد وقتادة :هذه الآية فى أهل الكتاب وكذا قال الحسن، وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها فى أهل القرآن خاصة. **﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾** قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف وغيرها . **﴿ وما مسنا من لغوب ﴾** اللغوب : التعب والإعياء ، تقول : لغب يلغب بالضم لغوبا ، قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : إن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى بقوله: **﴿ وما مسنا من لغوب ﴾** . **﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾** هذه تسلية للنبى ﷺ وأمر له بالصبر على ما يقوله المشركون ، أى هون عليك ولا تحزن لقولهم وتلق ما يرد عليك منه بالصبر **﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾** أى نزه الله عما لا يليق بجنابه العالى متلبسا بحمده وقت الفجر ووقت العصر. وقيل: المراد: صلاة الفجر وصلاة العصر. وقيل : الصلوات الخمس . وقيل : صل ركعتين . قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها . والأول أولى.

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ « من » للتبعيض ، أى سبحه بعض الليل . وقيل : هذه صلاة الليل . وقيل : ركعتا الفجر . وقيل : صلاة العشاء ، والأول أولى **﴿ وإدبار السجود ﴾** أى

وسبحه أعقاب الصلوات . قرأ الجمهور : ﴿ أدبار ﴾ بفتح الهمزة جمع دبر . وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسرها على المصدر ، من أدبر الشيء إدبارا : إذا ولى . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود : الركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الفجر ، وقد اتفق القراء السبعة في ﴿ إدبار النجوم ﴾ [الطور : ٤٩] أنه بكسر الهمزة كما سيأتى . ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ أى استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة يوم ينادى المناد ، وهو إسرافيل أو جبريل . وقيل: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، وهى صيحة القيامة ، أعنى :النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل . وقيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى أهل المحشر ، ويقول : هلموا للحساب ، فالنداء على هذا فى المحشر ، قال مقاتل : هو إسرافيل ينادى بالحشر فيقول : يأيها الناس هلموا للحساب ﴿ من مكان قريب﴾ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر . قال قتادة : كنا نحدث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس ، قال الكلبى : وهى أقرب الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا. ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ هو بدل من ﴿ يوم يناد ﴾ يعنى: صيحة البعث ، و﴿ بالحق ﴾ متعلق بالصيحة ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أى يوم الخروج من القبور ، قال الكلبى : معنى ﴿ بالحق ﴾ :بالبعث ، وقال مقاتل يعنى: أنها كائنة حقا .

﴿ إنا نحن نحيي ونميت ﴾ أى نحيى فى الآخرة ونميت فى الدنيا لا يشاركنا فى ذلك مشارك ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث ﴿ وإلينا المصير ﴾ فنجازى كل عامل بعمله ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم ﴾ قرأ الجمهور بإدغام التاء فى الشين ، وقرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ زيد بن على :« تتشقق » بإثبات التاءين على الأصل ، وقرئ على البناء للمفعول ، وانتصاب :﴿ سراعا ﴾ على أنه حال من الضمير فى عنهم، والعامل فى الحال ﴿ تشقق ﴾ . وقيل :العامل فى الحال هو العامل فى ﴿ يوم ﴾ ، أى مسرعين إلى المنادى الذى ناداهم ﴿ ذلك حشر ﴾ أى بعث وجمع ﴿ علينا يسير ﴾ هين . ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ فقال : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ يعنى : من تكذيبك فيما جئت به ومن إنكار البعث والتوحيد ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان ، والآية منسوخة بآية السيف ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أى من يخاف وعيدى لعصاتى بالعذاب، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم، ثم أمره سبحانه بعد ذلك بالقتال .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ ومامسنا من لغوب ﴾ قال : من نصب . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾ :« صلاة الصبح » ﴿ وقبل الغروب ﴾ : « صلاة العصر » [١]. وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه داود بن الزبرقان وهو متروك » .

ابن عباس ، قال :بت عند رسول الله ﷺ ، فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال : « يا ابن عباس ، ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود » [(١)] . وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : سألت رسول الله ﷺ عن إدبار النجوم وإدبار السجود . فقال : « إدبار السجود : ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الغداة » . وأخرج محمد بن نصر في الصلاة، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : إدبار السجود : ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم :ركعتان قبل الفجر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة مثله . وأخرج البخاري وغيره عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿**واستمع يوم يناد المناد**﴾ قال : هي الصيحة . وأخرج الواسطي عنه أيضا ﴿ **من مكان قريب**﴾ قال : من صخرة بيت المقدس . وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾ قال : يوم يخرجون إلى البعث من القبور . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : قالوا: يا رسول الله ، لو خوفتنا فنزلت : ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ [(٢)] .

---

(١) الترمذي في التفسير (٣٢٧٥) وقال : « غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رشدين بن كريب » ، وابن جرير ٢٦/ ١١٣ ، وصححه الحاكم ١/ ٣٢٠ وقال الذهبي : « رشدين ضعفه أبو زرعة والدارقطني » .

(٢) ابن جرير ٢٦/ ١١٥ .

تفسير سـورة الذاريـات

هى ستون آية ، وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الذاريات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣ ﴾ .

قوله : ﴿ **والذاريات ذروا** ﴾ يقال : ذرت الريح التراب تذروه ذروا ، وأذرته تذريه ذريا ، أقسم سبحانه بالرياح التى تذرى التراب ، وانتصاب ﴿ **ذروا** ﴾ على المصدرية ، والعامل فيها اسم الفاعل والمفعول محذوف ، قرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام تاء الذاريات فى ذال ذروا ، وقرأ الباقون بدون إدغام . وقيل : المقسم به مقدر وهو رب الذاريات وما بعدها ، والأول أولى ﴿**فالحاملات وقرا** ﴾ هى السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ، وانتصاب ﴿ **وقرا** ﴾ على أنه مفعول به كما يقال : حمل فلان عدلا ثقيلا . قرأ الجمهور : ﴿ **وقرا** ﴾ بكسر الواو اسم ما يوقر ، أى يحمل ، وقرئ بفتحها على أنه مصدر والعامل فيه اسم الفاعل أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة ﴿ **فالجاريات يسرا** ﴾ هى السفن الجارية فى البحر بالرياح جريا سهلا ، وانتصاب ﴿ **يسرا** ﴾ على المصدرية ، أو صفة لمصدر محذوف ، أو على الحال ، أى جريا ذا يسر . وقيل : هى الرياح . وقيل : السحاب ، والأول أولى، واليسر: السهل فى كل شىء . ﴿ **فالمقسمات أمرا** ﴾ هى الملائكة التى تقسم الأمور ، قال الفراء: تأتى بأمر مختلف : جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتى بالموت . وقيل : تأتى بأمر

مختلف من الجدب والخصب والمطر والموت والحوادث . وقيل : هى السحب التى يقسم الله بها أمر العباد . وقيل : إن المراد بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات : الرياح ، فإنها توصف بجميع ذلك ؛ لأنها تذرو التراب . وتحمل السحاب . وتجرى فى الهواء وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جدا ، وانتصاب ﴿ أمرا ﴾ على المفعول به . وقيل : على الحال ، أى مأمورة ، والأول أولى ﴿إنما توعدون لصادق ﴾ هذا جواب القسم ، أى إنما توعدون من الثواب والعقاب لكائن لا محالة . و« ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية . ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها ؛ كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به .

﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الحبك ﴾ بضم الحاء والباء ، وقرئ بضم الحاء وسكون الباء وبكسر الحاء وفتح الباء ، وبكسر الحاء وضم الباء. قال ابن عطية : هى لغات ، والمراد بالسماء هنا : هى المعروفة. وقيل : المراد بها: السحاب ، والأول أولى . واختلف المفسرون فى تفسير ﴿ الحبك ﴾ ، فقال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم : المعنى ذات الخلق المستوى الحسن . قال ابن الأعرابى : كل شىء أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته واحتبكته ، وقال الحسن وسعيد بن جبير : ذات الزينة ، وروى عن الحسن أيضا أنه قال : ذات النجوم ، وقال الضحاك : ذات الطرائق ،وبه قال الفراء،يقال لما تراه من الماء والرمل إذا أصابته الريح : حبك ، قال الفراء : الحبك بكسر: كل شىء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة والماء إذا مرت به الريح ، ويقال لدرع الحديد : حبك ، ومنه قول الشاعر :

كأنما جـلـلها الحـواك ... طنفسـة فى وشيها حباك

أى طرق . وقيل الحبك : الشدة ، والمعنى : والسماء ذات الشدة ، والمحبوك: الشديد الخلق من فرس أو غيره ، ومنه قول الشاعر :

قد غدا يحملنى فى أنفـه ... لاحق الأطلين محبوك ممرّ

وقال الآخر :

مـرج الديـن فأعددت له ... مشرف الحارك محبوك الكتد

قال الواحدى بعد حكاية القول الأول : هذا قول الأكثرين ﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك ، أى إنكم يا أهل مكة لفى قول مختلف متناقض فى محمد ﷺ . بعضكم يقول :إنه شاعر، وبعضكم يقول : إنه ساحر ، وبعضكم يقول: إنه مجنون . ووجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة ، تشبيه أقوالهم فى اختلافها باختلاف طرائق السماء ، واستعمال الحبك فى الطرائق هو الذى عليه أهل اللغة وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه ، على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال فى تفسير الحبك إلى هذا ، وذلك بأن يقال : إن ما فى السماء من الطرائق يصح أن يكون سببا لمزيد حسنها واستواء خلقها

وحصول الزينة فيها ومزيد القوة لها. وقيل : إن المراد بكونهم فى قول مختلف : أن بعضهم ينفى الحشر وبعضهم يشك فيه . وقيل : كونهم يقرون أن الله خالقهم ويعبدون الأصنام ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أى يصرف عن الإيمان برسول الله ﷺ وبما جاء به، أو عن الحق ، وهو البعث والتوحيد من صرف. وقيل : يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق ، يقال : أفكه يأفكه إفكا ، أى قلبه عن الشىء وصرفه عنه ، ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا ﴾ [الأحقاف : ٢٢] وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، والأفن : فساد العقل . وقيل : يحرمه من حرم ، وقال قطرب : يجدع عنه من جدع. وقال اليزيدى : يدفع عنه من دفع .

﴿ قتل الخراصون ﴾ هذا دعاء عليهم ، وحكى الواحدى عن المفسرين جميعا أن المعنى : لعن الكذابون ، قال ابن الأنبارى : والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن ؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك ، قال الفراء : معنى ﴿ قتل ﴾ : لعن ، والخراصون : الكذابون الذين يتخرصون فيما لا يعلمون فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب شاعر ساحر . قال الزجاج : الخراصون : هم الكذابون ، والخرص : حزر ما على النخل من الرطب تمرا ، والخراص : الذى يخرصها ، وليس هو المراد هنا ثم قال : ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ أى فى غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة ، ومعنى ﴿ ساهون ﴾ : لاهون غافلون ، والسهو : الغفلة عن الشىء وذهابه عن القلب ، وأصل الغمرة : ما ستر الشىء وغطاه ، ومنها غمرات الموت ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ أى يقولون متى يوم الجزاء تكذيبا منهم واستهزاء . ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أى يحرقون ويعذبون ، يقال : فتنت الذهب : إذا أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة : الاختبار ، قال عكرمة : ألم ترأن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن ، وانتصاب ﴿ يوم ﴾ بمضمر ، أى الجزاء يوم هم على النار ، ويجوز أن يكون بدلا من ﴿ يوم الدين ﴾ والفتح للبناء لكونه مضافا إلى الجملة . وقيل : هو منصوب بتقدير: أعنى ، وقرأ ابن أبى عبلة برفع : ﴿ يوم ﴾ على البدل من يوم الدين ، وجملة : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ هى بتقدير القول ، أى يقال لهم : ذوقوا عذابكم قاله ابن زيد . وقال مجاهد : حريقكم ، ورجح الأول الفراء ، وجملة : ﴿ هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ من جملة ما هو محكى بالقول ، أى هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم . وقيل : هى بدل من فتنتكم.

﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة ، أى هم فى بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون . ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة ، وجملة : ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ تعليل لما قبلها ، أى لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين فى أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به وترك ما نهوا عنه . ثم بين إحسانهم الذى وصفهم به فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾

الهجوع : النوم بالليل دون النهار ، والمعنى: كانوا قليلا ما ينامون من الليل ، و« ما » زائدة ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة ، أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ، ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

والتهجاع : القليل من النوم ، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب :

أمن ريحانة الداعى السميع يهيجنى وأصحابى هجوع

وقيل :« ما » نافية ، أى كانوا ينامون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير منه ، وهذا ضعيف جدا ، وهذا قول من قال : إن المعنى : كان عددهم قليلا ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ **ما يهجعون** ﴾ وبه قال ابن الأنبارى وهو أضعف مما قبله، وقال قتادة فى تفسير هذه الآية : كانوا يصلون بين العشاءين ، وبه قال أبو العالية وابن وهب . ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ أى يطلبون فى أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم . قال الحسن : مدوا الصلاة إلى الأسحار ، ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. وقال الكلبى ومقاتل ومجاهد :هم بالأسحار يصلون ، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة . وقال الضحاك : هى صلاة الفجر . ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ أى يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل والمحروم تقربا إلى الله عز وجل.وقال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا : الزكاة المفروضة ، والأول أولى . فيحمل على صدقة النفل وصلة الرحم وقرى الضيف ؛ لأن السورة مكية ، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة ، وسيأتى فى سورة ﴿ سأل سائل﴾:﴿والذين فى[(١)] أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾ [المعارج :٢٤ ، ٢٥] بزيادة معلوم ، والسائل هو : الذى يسأل الناس لفاقته . واختلف فى تفسير المحروم ، فقيل : هو الذى يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا، فلا يتصدقون عليه ، وبه قال قتادة والزهرى . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : هو الذى لا سهم له فى الغنيمة ، ولا يجرى عليه من الفىء شىء ، وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته ، قال القرطبى : هو الذى أصابته الجائحة . وقيل : الذى لا يكتسب . وقيل : هو الذى لا يجد غنى يغنيه . وقيل : هو الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه . وقيل : هو المملوك . وقيل : الكلب . وقيل غير ذلك . قال الشعبى : لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم ، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ ، والذى ينبغى التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوى ، والمحروم فى اللغة : الممنوع من الحرمان وهو المنع ، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل ، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته ، ومن حرم العطاء ، ومن حرم الصدقة لتعففه .

ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده وصدق وعده ووعيده فقال :

---

(١) فى المخطوطة : « وفى أموالهم » .

﴿وفى الأرض آيات للموقنين﴾ أى دلائل واضحة وعلامات ظاهرة من الجبال والبر والبحر والأشجار والأنهار والثمار ، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة ، المكذبة لما جاءت به رسل الله ، ودعتهم إليه ، وخص الموقنين بالله ؛ لأنهم الذين يعترفون بذلك ، ويتدبرون فيه ، فينتفعون به . **﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾** أى وفى أنفسكم آيات تدل على توحيد الله ، وصدق ما جاءت به الرسل ، فإنه خلقهم نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما إلى أن ينفخ فيه الروح ثم تختلف بعد ذلك صورهم ، وألوانهم، وطبائعهم ، وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس ، ومعنى **﴿ أفلا تبصرون ﴾**: أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأن وعده الحق ، وقوله الحق ، وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة تعتريه . وقيل :المراد بالأنفس : الأرواح ، أى وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات **﴿ وفى السماء رزقكم ﴾** أى سبب رزقكم ، وهو المطر فإنه سبب الأرزاق . قال سعيد بن جبير والضحاك: الرزق هنا: ما ينزل من السماء من مطر وثلج . وقيل : المراد بالسماء السحاب ، أى وفى السحاب رزقكم. وقيل : المراد بالسماء : المطر ، وسماه سماء ؛ لأنه ينزل من جهتها ، ومنه قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعنى : وعلى رب السمـاء رزقكم . قال :ونظيره :﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [هود : ٦] وهو بعيد . وقال سفيان الثورى : أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل : المعنى : وفى السماء تقدير رزقكم . قرأ الجمهور : **﴿ رزقكم ﴾** بالإفراد ، وقرأ يعقوب وابن محيصن ومجاهد : «أرزاقكم» بالجمع **﴿ وما توعدون ﴾** من الجنة والنار ، قاله مجاهد ، قال عطاء : من الثواب والعقاب ، وقال الكلبى : من الخير والشر ، قال ابن سيرين : ما توعدون من أمر الساعة ، وبه قال الربيع ، والأولى الحمل على ما هو أعم من هذه الأقوال ، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء ، والقضاء والقدر ينزل منها ، والجنة والنار فيها . ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال : **﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾** أى ما أخبركم به فى هذه الآيات . قال الزجاج : هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات . قال الكلبى : يعنى ما قص فى الكتاب ، وقال مقاتل :يعنى من أمر الساعة . وقيل : إن «ما » فى قوله : **﴿ما توعدون ﴾** مبتدأ وخبره : **﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾** فيكون الضمير لما، ثم قال سبحانه: **﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾** قرأ الجمهور بنصب **﴿ مثل ﴾** على تقدير :كمثل نطقكم . و« ما » زائدة . كذا قال بعض الكوفيين : إنه منصوب بنزع الخافض ، وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ،أى لحق حقا مثل نطقكم ،وقال المازنى: إن « مثل » مع « ما » بمنزلة شىء واحد فبنى على الفتح ، وقال سيبويه : هو مبنى لإضافته إلى غير متمكن ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم ، وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر والأعمش : « مثل » بالرفع

على أنه صفة لحق ؛ لأن مثل نكرة وإن أضيفت فهى لا تتعرف بالإضافة كغير . ورجح قول المازنى أبو على الفارسى ، قال : ومثله قول حميد :

ووبحا لمن لم يدر ما هن ويحما

فبنى ويح مع ما ولم يلحقه التنوين . ومعنى الآية : تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمى ووجوده ، وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك هاهنا ، وإنه لحق كما أنك تتكلم ، والمعنى : أنه فى صدقه ووجوده كالذى تعرفه ضرورة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى ، والدارقطنى فى الأفراد، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿والذاريات ذروا ﴾ قال : الرياح ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ قال : السحاب ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ قال : السفن ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ قال : الملائكة . وأخرج البزار ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه وابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله ورفعه إلى رسول الله ﷺ . وفى إسناده أبو بكر بن سبرة وهو لين الحديث ، وسعيد بن سلام وليس من أصحاب الحديث ، كذا قال البزار ، قال ابن كثير [1] :فـهذا الحديث ضعيف رفعه ، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر . وأخرج الفريابى وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول على . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قال :حسنها واستواؤها. وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه فى الآية قال : ذات البهاء والجمال وإن بنيانها كالبرد المسلسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ذات الخلق الحسن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن منيع عن على قال :هى السماء السابعة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ قال : يضل عنه من ضل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا :﴿ قتل الخراصون ﴾ قال : لعن المرتابون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هم الكهنة ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ قال : فى غفلة لاهون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الغمرة : الكفر والشك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال: فى ضلالتهم يتمادون . وفى قوله : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ قال : يعذبون .

وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ قال : الفرائض ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ قال : قبل أن تنزل الفرائض يعملون . وأخرج هؤلاء أيضا ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا ﴿ كانوا قليلا من

---

(١) ابن كثير ٦/٤١٤ .

الليل ما يهجعون ﴾ قال : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا ألا يصلوا فيها . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى الآية يقول : قليلا ما كانوا ينامون. وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أنس فى الآية قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر﴿**وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ قال: يصلون. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **فى أموالهم حق** ﴾ قال: سوى الزكاة يصل بها رحما أو يقرى بها ضيفا أو يعين بها محروما . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : السائل الذى يسأل الناس ، والمحروم الذى ليس له سهم من فىء المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: المحروم هو المحارف الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس ، فأمر الله المؤمنين برفده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية : قالت :هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه . وأخرج الترمذى ، والبيهقى فى سننه عن فاطمة بنت قيس ؛ أنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : « إن فى المال حقا سوى الزكاة » ، وتلا هذه الآية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى قوله : ﴿وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ [البقرة : ١٧٧] (١) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ قال : سبيل الغائط والبول .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك . وفى الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله ﷺ ، وأنه إنما علمه بطريق الوحى. وقيل : إن « هل » بمعنى « قد » كما فى قوله

---

(١) الترمذى فى الزكاة (٦٥٩ ، ٦٦٠) وقال : « هذا حديث إسناده ليس بذاك ، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف» والبيهقى ٤/ ٨٤.

تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ [الإنسان : ١] والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة . وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم فى سورة هود وسورة الحجر ، والمراد بكونهم مكرمين : أنهم مكرمون عند الله سبحانه ؛ لأنهم ملائكة جاؤوا إليه فى صورة بنى آدم ، كما قال تعالى فى وصفهم فى آية أخرى: ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء: ٢٦] . وقيل : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مقاتل ومجاهد : أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم ، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف ، وأمر امرأته أن تخدمهم. وقال الكلبى : أكرمهم بالعجل ﴿ إذ دخلوا عليه﴾ العامل فى الظرف : ﴿ حديث ﴾ أى هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عايه ، أو العامل فيه : ﴿ ضيف ﴾ لأنه مصدر ، أو العامل فيه : ﴿ المكرمين ﴾ أو العامل فيه : فعل مضمر ، أى اذكر﴿ فقالوا سلاما ﴾ أى نسلم عليك سلاما ﴿ قال سلام ﴾ أى قال إبراهيم: سلام : قرأ الجمهور بنصب ﴿سلاما﴾ الأول ورفع الثانى ، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا ، والمراد به : التحية، ويحتمل أن يكون المعنى : فقالوا كلاما حسنا ؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ، فيكون على هذا مفعولا به ، وأما الثانى فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أى عليكم سلام ، وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الإسمية للدوام والثبات ، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدوث ، ولهذا قال أهل المعانى : إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة ، وقرئ بالرفع فى الموضعين ، وقرئ بالنصب فيهما . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر السين ، وقرئ : «سلم » فيهما . ﴿ قوم منكرون ﴾ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا فى نفسه ولم يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم لكونهم ابتدؤوا بالسلام ولم يكن ذلك معهودا عند قومه. وقيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم . وقيل غير ذلك .

﴿ فراغ إلى أهله ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقيل : ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه ، والمعنى متقارب ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الصافات . يقال : راغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا يريغ ، أى يريد ويطلب ، وأراغ إلى كذا : مال إليه سرا وحاد ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أى فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى سورة هود: ﴿ بعجل حنيذ ﴾ [هود :٦٩] وفى الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة ، أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به ﴿ فقربه إليهم ﴾ أى قرب العجل إليهم ووضعه بين أيديهم فقال : ﴿ ألا تأكلون ﴾ الاستفهام للإنكار ، وذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه . قال فى الصحاح : العجل : ولد البقر، والعجول مثله والجمع العجاجيل ، والأنثى عجلة . وقيل : العجل فى بعض اللغات الشاة ﴿فأوجس منهم خيفة ﴾ أى أحس فى نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا مما قربه إليهم. وقيل : معنى ﴿ أوجس ﴾: أضمر ، وإنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه ، ومن أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمنا منه ، فظن إبراهيم أنهم جاؤوا للشر ولم يأتوا للخير . وقيل : إنه وقع فى قلبه أنهم

ملائكة . فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف قالوا . ﴿ لا تخف ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أى بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال. والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق. وقال مجاهد وحده :إنه إسماعيل، وهو مردود بقوله:﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ [الصافات : ١١٢] وقد قدمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ فأقبلت امرأته فى صرة ﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان ، وإنما هوكقولك : أقبل يشتمنى ، أى أخذ فى شتمى ، كذا قال الفراء وغيره ، والصرة : الصيحة والضجة . وقيل : الجماعة من الناس ، قال الجوهرى : الصرة : الضجة والصيحة ، والصرة : الجماعة، والصرة : الشدة من كرب أو غيره ، والمعنى: أنها أقبلت فى صيحة ، أو فى ضجة ، أو فى جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة ، ومن هذا قول امرئ القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه جراجرها فى صرة لم تزيل

وقوله : ﴿ فى صرة ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ فصكت وجهها ﴾ أى ضربت بيدها على وجهها كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب . قال مقاتل والكلبى : جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجبا ، ومعنى الصك : ضرب الشىء بالشىء العريض ، يقال : صكه ، أى ضربه ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أى كيف ألد وأنا عجوز عقيم ؟ استبعدت ذلك لكبر سنها ولكونها عقيما لا تلد ﴿ قالوا كذلك قال ربك ﴾ أى كما قلنا لك وأخبرناك قال ربك فلا تشكى فى ذلك ولا تعجبى منه ، فإن ما أراده الله كائن لا محالة ، ولم نقل ذلك من جهة أنفسنا ، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة ، وقد سبق بيان هذا مستوفى . وجملة : ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ تعليل لما قبلها ، أى حكيم فى أفعاله وأقواله ، عليم بكل شىء .

وجملة : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ مستأنفة جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة ؟ والخطب : الشأن والقصة . والمعنى : فما شأنكم وما قصتكم أيها المرسلون من جهة الله ، وما ذاك الأمر الذى لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة . ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يريدون : قوم لوط . ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ أى لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ،وانتصاب ﴿ مسومة ﴾ على الصفة لحجارة ، أو على الحال فى الضمير المستكن فى الجار والمجرور ، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار والمجرور ، ومعنى ﴿ مسومة ﴾ : معلمة بعلامات تعرف بها . قيل : كانت مخططة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحمرة .وقيل : معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: مكتوب على كل حجر من يهلك بها ، وقوله : ﴿ عند ربك ﴾ ظرف لمسومة ، أى معلمة عنده ﴿ للمسرفين ﴾ المتمادين فى الضلالة المجاوزين الحد فى الفجور ، وقال مقاتل : للمشركين ، والشرك أسرف

الذنوب وأعظمها .

﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين** ﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه ، أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به ﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ أى غير أهل بيت ، يقال : بيت شريف ويراد به أهله . قيل : وهم أهل بيت لوط .والإسلام : الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات : ١٤] وقد أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام والإيمان فى الحديث فى الصحيحين وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان » وسئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ،والقدر خيره وشره » (١) فالمرجع فى الفرق بينهما هو هذا الذى قاله الصادق المصدوق، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم فى رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلة متناقضة . وأما ما فى الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعانى اللغوية والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية ، والحقيقة الشرعية هى هذه التى أخبرنا بها رسول الله ﷺ ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها . ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ أى وتركنا فى تلك القرى علامة ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب كل من يخاف عذاب الله ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم ،وهذه الآية هى آثار العذاب فى تلك القرى ، فإنها ظاهرة بينة.وقيل:هى الحجارة التى رجموا بها،وإنما خص الذين يخافون العذاب الأليم؛لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ ويتفكرون فى الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث والوعد والوعيد .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فى صرة** ﴾ قال : فى صيحة ﴿**فصكت وجهها** ﴾ قال :لطمت. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ قال : لوط وابنتيه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر .

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن

---

(١) البخارى فى الإيمان (٥٠) ومسلم فى الإيمان (٨/١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح قد روى من غير وجه نحو هذا عن عمر » والنسائى فى الإيمان ٩٦/٨، ١٠١ .

قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾.

قوله : ﴿ وفى موسى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فيها ﴾ بإعادة الخافض ، والتقدير : وتركنا فى قصة موسى آية أو معطوف على ﴿ وفى الأرض ﴾ والتقدير : وفى الأرض وفى موسى آيات ، قاله الفراء وابن عطية والزمخشرى . قال أبو حيان : وهو بعيد جدا ينزه القرآن عن مثله ، ويجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدرا لدلالة وتركنا عليه . قيل : ويجوز أن يعطف على وتركنا على طريقة قول القائل :

علفتها تبنا وماء باردا

والتقدير : وتركنا فيها آية ، وجعلنا فى موسى آية . قال أبو حيان : ولا حاجة إلى إضمار ، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل فى المجرور وتركنا .والوجه الأول هو الأولى ، وما عداه متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة ولا دعت إليه ضرورة ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية،أى كائنة وقت أرسلناه ،أو بآية نفسها ، والأول أولى . والسلطان المبين : الحجة الظاهرة الواضحة ، وهى العصى وما معها من الآيات ﴿ فتولى بركنه ﴾ التولى : الإعراض ، والركن : الجانب ، قاله الأخفش ، والمعنى : أعرض بجانبه كما فى قوله :﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : ٨٣].قال الجوهرى : ركن الشىء :جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد ، أى عز ومنعة، وقال ابن زيد ومجاهد وغيرهما : الركن :جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ [هود : ٨٠] أى عشيرة ومنعة . وقيل : الركن : نفس القوة ، وبه قال قتادة وغيره ، ومنه قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركنى ولكن ما تقادم من زمانى

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أى قال فرعون فى حق موسى : هو ساحر أو مجنون فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا ، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه ، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر ولا يفعله من به جنون . وقيل : إن « أو » بمعنى الواو؛ لأنه قد قال ذلك جميعا ولم يتردد ، قاله المؤرج والفراء كقوله : ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ [الإنسان : ٢٤] . ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ﴾ أى طرحناهم فى البحر ، وجملة : ﴿ وهو مليم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى آت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية وكفر بالله وطغى فى عصيانه ﴿ وفى عاد ﴾ أى وتركنا فى قصة عاد آية ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وهى التى لا خير فيها ولا بركة ، لا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا ، إنما هى ريح الإهلاك والعذاب . ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال : ﴿ ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى ما تذر من شىء مرت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا جعلته كالشىء الهالك البالى . قال الشاعر :

تركتنى حين كف الدهر من بصرى ... وإذ بقيت كعظم الرمة البالى

وقال قتادة : إنه الذى ديس من يابس النبات ، وقال السدى وأبو العالية : إنه التراب المدقوق ، وقال قطرب : إنه الرماد ، وأصل الكلمة من رم العظم: إذا بلى فهو رميم. والرمة : العظام البالية . ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ أى وتركنا فى قصة ثمود آية وقت قلنا لهم : عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك ، وهو ثلاثة أيام كما فى قوله : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ [هود : ٦٥] . ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ أى تكبروا عن امتثال أمر الله ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ وهى كل عذاب مهلك . قرأ الجمهور : ﴿ الصاعقة ﴾ . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن محيصن ومجاهد والكسائى: « الصعقة » وقد مر الكلام على الصاعقة فى البقرة ، وفى مواضع . ﴿ وهم ينظرون ﴾ أى يرونها عيانا ، والجملة فى محل نصب على الحال . وقيل : إن المعنى: ينتظرون ما وعدوه من العذاب ، والأول أولى . ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أى لم يقدروا على القيام . قال قتادة : من نهوض ، يعنى: لم ينهضوا من تلك الصرعة ، والمعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب ،ومثله قوله: ﴿فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : ٧٨] ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أى ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ، فإن زمانهم متقدم على زمن فرعون وعاد وثمود ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو بخفض « قوم » أى وفى قوم نوح آية، وقرأ الباقون بالنصب ، أى وأهلكنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة ، أو على مفعول نبذناهم ، أى نبذناهم ونبذنا قوم نوح ، أو يكون العامل فيه اذكر .

﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ أى بقوة وقدرة . قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال ، والتقدير : وبنينا السماء بنيناها . وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها على الابتداء ﴿ وإنا

لموسعون ﴾ الموسع : ذو الوسع والسعة ، والمعنى : إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك . وقيل : لقادرون ، من الوسع بمعنى : الطاقة والقدرة . وقيل : إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهرى : وأوسع الرجل :صار ذا سعة وغنى ﴿ والأرض فرشناها ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ الأرض ﴾ على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها كما تقدم فى قوله : ﴿والسماء بنيناها ﴾ ومعنى ﴿ فرشناها ﴾: بسطناها كالفراش ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أى نحن ، يقال: مهدت الفراش: بسطته ووطأته، وتمهيد الأمور:تسويتها وإصلاحها ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾ أى صنفين ونوعين من ذكر وأنثى وبر وبحر وشمس وقمر وحلو ومر وسماء وأرض وليل ونهار ونور وظلمة وجن وإنس وخير وشر ﴿لعلكم تذكرون ﴾ أى خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شىء وتستدلوا بذلك على توحيده وصدق وعده ووعيده .

﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾ أى قل لهم يا محمد : ففروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصى ، وجملة :﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للأمر بالفرار . وقيل : معنى ﴿ ففروا إلى الله ﴾: اخرجوا من مكة . وقال الحسن بن الفضل : احترزوا من كل شىء غير الله ، من فر إلى غيره لم يمتنع منه . وقيل : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقيل : فروا من الجهل إلى العلم ، ومعنى ﴿ إنى لكم منه ﴾ :أى من جهته منذر بين الإنذار . ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر﴾ نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله. وجملة :﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للنهى . ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ فى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة ، وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم ، و﴿ كذلك ﴾ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمركذلك . ثم فسر ما أجمله بقوله : ﴿ ما أتى﴾ إلخ .أو فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف ، أى أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدمنى من الرسل الذين أنذروا قومهم ، والأول أولى ﴿ أتواصوا به ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم ، أى هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤوا عليه ؟﴿ بل هل قوم طاغون ﴾ إضراب عن التواصى إلى ما جمعهم من الطغيان ، أى لم يتواصوا بذلك ، بل جمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحد فى الكفر .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالإعراض عنهم فقال : ﴿ فتول عنهم ﴾ أى أعرض عنهم وكف عن جدالهم ودعائهم إلى الحق ، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته ﴿ فما أنت بملوم ﴾ عند الله بعد هذا ؛ لأنك قد أديت ما عليك . وهذا منسوخ بآية السيف . ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتى هى أحسن فقال :﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ قال الكلبى : المعنى : عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم ، وقال مقاتل : عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان فى علم الله أنه يؤمن. وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله ، وخص المؤمنين بالتذكير ؛ لأنهم المنتفعون به .

وجملة : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة . قيل :هذا خاص فى من سبق فى علم الله سبحانه أنه يعبده ، فهو عموم مراد به الخصوص . قال الواحدى : قال المفسرون : هذا خاص لأهل طاعته ، يعنى من أهل من الفريقين . قال : وهذا قول الكلبى والضحاك واختيار الفراء وابن قتيبة . قال القشيرى : والآية دخلها التخصيص بالقطع ؛ لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة ولا أرادها منهم ، وقد قال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب : « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون » وقال مجاهد : إن المعنى : إلا ليعرفونى . قال الثعلبى : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده ، وروى عن مجاهد أنه قال : المعنى : إلا لآمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ [التوبة : ٣١] واختار هذا الزجاج ، وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ، فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء للمعصية. وقال الكلبى :المعنى : إلا ليوحدون . أما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدة دون النعمة كما فى قوله :﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [لقمان : ٣٢] وقال جماعة : إلا ليخضعوا لى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة : الذل والخضوع والانقياد ، وكل مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته منقاد لما قدره عليه ، خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا ، ووجه تقديم الجن على الإنس هاهنا تقدم وجودهم .

﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده ، وأنه لا يريد منهم منفعة كما تريده السادة من عبيدهم ، بل هو الغنى المطلق الرازق المعطى . وقيل : المعنى : ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقى ولا أن يرزقوا أنفسهم ، ولا يطعموا أحدا من خلقى ولا يطعموا أنفسهم ، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه ؛ لأن الخلق عيال الله ، فمن أطعم عيال الله فهو كمن أطعمه ، وهذا كما ورد فى قوله ﷺ : « يقول الله عبدى استطعمتك فلم تطعمنى » (١) أى لم تطعم عبادى ، و« من » فى قوله : ﴿ من رزق﴾ زائدة لتأكيد العموم . ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره ، فقال : ﴿ إن الله هو الرزاق ﴾ لا رزاق سواه ولا معطى غيره ، فهو الذى يرزق مخلوقاته ويقوم بما يصلحهم فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة . ﴿ ذو القوة المتين ﴾ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق ، أو لذو ، أو خبر مبتدأ محذوف ،أو خبر بعد خبر، قرأ الجمهور:﴿ الرزاق ﴾ وقرأ ابن محيصن:«الرازق» وقرأ الجمهور:﴿ المتين ﴾ بالرفع ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش بالجر صفة للقوة ، والتذكير

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٦٩/ ٤٣) .

لكون تأنيثها غير حقيقى . قال الفراء : كان حقه المتينة ، فذكرها ؛ لأنه ذهب بها إلى الشىء المبرم المحكم الفتل ، يقال : حبل متين ، أى محكم الفتل ، ومعنى ﴿ المتين ﴾ : الشديد القوة هنا ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، فإن لهم ذنوبا ، أى نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة . قال ابن الأعرابى : يقال : يوم ذنوب ، أى طويل الشر لا ينقضى ، وأصل الذنوب فى اللغة : الدلو العظيمة ، ومن استعمال الذنوب فى النصيب من الشىء قول الشاعر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها ذنوب

وما فى الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير ، فهى تمثيل ، جعل الذنوب مكان الحظ والنصيب ، قاله ابن قتيبة ﴿ فلا يستعجلون ﴾ أى لا تطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب كما فى قولهم :﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ [الأعراف: ٧٠] ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ﴾ قيل : هو يوم القيامة . وقيل : يوم بدر ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر فى قوله : ﴿ فتولى بركنه ﴾ عن ابن عباس قال : بقومه. وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله: ﴿الريح العقيم ﴾ قال : الشديدة التى لا تلقح شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب ، وفى قوله : ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ قال : كالشىء الهالك . وأخرج الفريابى وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : الريح العقيم : النكباء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿والسماء بنيناها بأيد ﴾ قال : بقوة . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم ، وعذر محمدا ﷺ ، ثم قال : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فنسختها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله :﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قال: ليقروا بالعبودية طوعا أو كرها . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : على ما خلقتهم عليه من طاعتى ومعصيتى وشقوتى وسعادتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا فى قوله : ﴿ المتين ﴾ يقول : الشديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ذنوبا ﴾ : دلوا .

تفسير سورة الطور

هى تسع وأربعون آية . وقيل : ثمان وأربعون . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت الطور بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور [(١)] . وأخرج البخارى وغيره عن أم سلمة ؛ أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت بـ ﴿ **الطور . وكتاب مسطور** ﴾ [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **والطور** ﴾ قال الجوهرى : هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى. قال مجاهد والسدى : الطور بالسريانية الجبل والمراد به : طور سيناء ، قال مقاتل بن حيان: هما طوران : يقال لأحدهما : طور سيناء ، وللآخر: طور زيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل مدين . وقيل : إن الطور كل جبل ينبت ، وما لا ينبت فليس بطور ، أقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفا له وتكريما .﴿ **وكتاب مسطور** ﴾ المسطور : المكتوب ، والمراد بالكتاب: القرآن . وقيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : جميع الكتب المنزلة . وقيل : ألواح موسى.

---

(١) البخارى فى الأذان (٧٦٥) ومسلم فى الصلاة (٤٦٣/ ١٧٤) والترمذى فى الصلاة (٣٠٨) وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٣٢) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٥٣) وفى الحج (١٦١٩) ومسلم فى الحج (١٢٧٦/ ٢٥٨) وأبو داود فى الحج (١٨٨٢) والنسائى فى التفسير (٥٤٨).

وقيل : ما تكتبه الحفظة ، قاله الفراء وغيره ، ومثله: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ [الإسراء : ١٣] وقوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ [التكوير : ١٠] **﴿فى رق منشور ﴾** متعلق بمسطور ، أى مكتوب فى رق . قرأ الجمهور : **﴿ فى رق ﴾** بفتح الراء ، وقرأ أبوالسماك بكسرها . قال الجوهرى : الرق بالفتح ما يكتب فيه ، وهو جلد رقيق ، ومنه قوله تعالى: **﴿ فى رق منشور ﴾** قال المبرد: الرق ما رق من الجلد ليكتب فيه ، والمنشور: المبسوط . قال أبو عبيدة : وجمعه رقوق ، ومن هذا قول المتلمس :

فكأنما هى من تقادم عهدها رق أتيح كتابها مسطور

وأما الرق بالكسر فهو المملوك ، يقال : عبد رق وعبد مرقوق . **﴿ والبيت المعمور ﴾** فى السماء السابعة . وقيل : فى سماء الدنيا . وقيل : هو الكعبة ، فعلى القولين الأولين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة ويعبد الله فيه ، وعلى القول الثالث ، يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازا باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بنى آدم **﴿ والسقف المرفوع ﴾** يعني : السماء ، سماها سقفا ؛ لكونها كالسقف للأرض . ومنه قوله : ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ [الأنبياء : ٣٢] وقيل : هو العرش **﴿والبحر المسجور ﴾** أى الموقد ، من السجر ، وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ [التكوير : ٦] وقد روى أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا . وقيل: المسجور: المملوء . قيل: إنه من أسماء الأضداد يقال: بحر مسجور ، أى مملوء ، وبحر مسجور ، أى فارغ . وقيل : المسجور: الممسوك ،ومنه ساجور الكلب؛ لأنه يمسكه . وقال أبو العالية: المسجور : الذى ذهب ماؤه . وقيل: المسجور: المفجور ، ومنه: ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ [الانفطار: ٣] وقال الربيع بن أنس: هو الذى يختلط فيه العذب بالمالح . والأول أولى . وبه قال مجاهد والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش وغيرهم .

﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ هذا جواب القسم ، أى كائن لا محالة لمن يستحقه . **﴿ ما له من دافع ﴾** يدفعه ويرده عن أهل النار ، وهذه الجملة خبر ثان لإن ، أو صفة لواقع ، و« من » مزيدة للتأكيد ، ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها ، أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية . **﴿ يوم تمور السماء مورا ﴾** العامل فى الظرف **﴿لواقع ﴾** أى إنه لواقع فى هذا اليوم ، ويجوز أن يكون العامل فيه **﴿ دافع ﴾** والمور : الاضطراب والحركة . قال أهل اللغة : مار الشىء يمور مورا: إذا تحرك وجاء وذهب ، قاله الأخفش وأبو عبيدة ، وأنشدا بيت الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مشى السحابة لا ريث ولا عجل

وليس فى البيت ما يدل على ما قالاه إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة فى البيت يطلق المور عليها لغة ، وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض ، وقال مجاهد : تدور دورا . وقيل : تجرى جريا ، ومنه قول الشاعر :

وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ويطلق المور على الموج ، ومنه : ناقة موارة اليد ، أى سريعة تموج فى مشيها موجا ، ومعنى الآية : أن العذاب يقع بالعصاة ولا يدفعه عنهم دافع فى هذا اليوم الذى تكون فيه السماء هكذا ، وهو يوم القيامة .وقيل : إن السماء هاهنا : الفلك، وموره : اضطراب نظمه واختلاف سيره .﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ أى تزول عن أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب وتكون هباء منبثا ، قيل : ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود ، وقد تقدم تفسير مثل هذا فى سورة الكهف . ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ ويل : كلمة تقال للهالك ، واسم واد فى جهنم ، وإنما دخلت الفاء ؛ لأن فى الكلام معنى المجازاة ، أى إذا وقع ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فويل لهم . ثم وصف المكذبين بقوله :﴿ الذين هم فى خوض يلعبون ﴾ أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه، يلهون لا يذكرون حسابا ولا يخافون عقابا. والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء ، وقيل : يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة .

﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ الدع : الدفع بعنف وجفوة ، يقال: دععته أدعه دعا ، أى دفعته ، والمعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا . قال مقاتل: تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم . قرأ الجمهور بفتح الدال وتشديد العين . وقرأ على والسلمى وأبو رجاء وزيد بن على وابن السميفع بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة ، أى يدعون إلى النار من الدعاء ، ويوم إما بدل من ﴿يوم تمور﴾ ، أو متعلق بالقول المقدر فى الجملة التى بعد هذه ، وهى ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أى يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، أى هذه النار التى تشاهدونها هى النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار . ثم وبخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم ، فقال : ﴿ أفسحر هذا ﴾ الذى ترون وتشاهدون ، كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ولكتبه المنزلة ، وقدم الخبر هنا على المبتدأ ؛لأنه الذى وقع الاستفهام عنه وتوجه التوبيخ إليه ﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ أى أم أنتم عمى عن هذا كما كنتم عميا عن الحق فى الدنيا ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ أى إذا لم يمكنكم إنكارها وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ولم يكن فى أبصاركم خلل ، فالآن ادخلوها وقاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا وافعلوا ما شئتم .فالأمران ﴿ سواء عليكم ﴾ فى عدم النفع، قيل أيضا : تقول لهم الملائكة هذا القول، وسواء خبر مبتدأ محذوف، أى الأمران سواء ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، أى سواء عليكم الصبر وعدمه ، وجملة:﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ تعليل للاستواء ، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء.

﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ، ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة فى غمهم وحسرتهم ، والتنوين فى ﴿ جنات ونعيم ﴾ للتفخيم ﴿ فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ يقال : رجل

فاكه ، أى ذو فاكهة ، كما قيل : لابن وتامر. والمعنى : أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة . وقيل : ذوو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد تقدم بيان معنى هذا . قرأ الجمهور : ﴿ فاكهين ﴾ بالألف والنصب على الحال .وقرأ خالد : «فاكهون» بالرفع على أنه خبر بعد خبر ، وقرأ ابن عباس : « فكهين » بغير ألف ، والفكه : طيب النفس ، كما تقدم فى الدخان ، ويقال للأشر والبطر ، ولا يناسب التفسير به هنا ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ معطوف على آتاهم ، أو على خبر إن ، أو الجملة فى محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ كلوا واشربوا هنيئا ﴾ أى يقال لهم ذلك ، والهنيء : ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه هناء ، والمعنى: كلوا طعاما هنيئا ، واشربوا شرابا هنيئا ، وقد تقدم تفسير هنيئا فى سورة النساء ، وقيل: معنى ﴿ هنيئا ﴾: أنكم لا تموتون. ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ انتصابه على الحال من فاعل كلوا ، أو من مفعول آتاهم ،أو من مفعول وقاهم ، أو من الضمير المستكن فى الظرف ، أو من الضمير فى ﴿فاكهين ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿على سرر ﴾ بضم الراء الأولى ، وقرأ أبو السماك بفتحها ، والسرر جمع سرير ، والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفا ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أى قرناهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجته امرأة ، وتزوجت بامرأة ، وليس من كلام العرب زوجته بامرأة . قال: وقول الله تعالى:﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أى قرناهم بهن.وقال الفراء: زوجته بامرأة ، لغة أزد شنوءة ،وقد تقدم تفسير الحور العين فى سورة الدخان.قرأ الجمهور : ﴿ بحور عين ﴾ من غير إضافة. وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ والطور ﴾ قال :جبل . وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « الطور جبل من جبال الجنة » وكثير ضعيف جدا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس:﴿ فى رق منشور ﴾ قال: فى الكتاب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت المعمور فى السماء السابعة ،يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ،لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة » [١].وفى الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : «ثم رفع إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » [٢]. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل عليا عن البيت المعمور فقال : ذلك الضراح ، بيت فوق سبع

(١) ابن جرير ٢٧/ ١١ وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٧٠٥) وإسناده ضعيف لأجل القاضى عبد الرحمن .
(٢) أحمد ٣/ ١٥٣ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٤/ ٢٦٤) .

ستموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو رفعه قال: إن البيت المعمور، لبحيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها . يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا ،ثم لا يعودون إليه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وضعف إسناده السيوطى .

وأخرج ابن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **والسقف المرفوع**﴾ قال : السماء . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ قال : بحر فى السماء تحت العرش . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المسجور : المحبوس . وأخرج ابن المنذر عنه قال : المسجور : المرسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **يوم تمور السماء مورا** ﴾ قال : تحرك ، وفى قوله : ﴿ **يوم يدعون** ﴾ قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعا** ﴾ قال : يدفع فى أعناقهم حتى يردوا النار . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا** ﴾ أى لا تموتون فيها . فعندها قالوا : ﴿ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : ٥٨ ، ٥٩] .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص فقال: ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم** ﴾ والموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿**ألحقنا بهم** ﴾ ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدر ، أى وأكرمنا الذين آمنوا ، ويكون ألحقنا مفسرا لهذا الفعل المقدر . قرأ الجمهور : ﴿**واتبعتهم**﴾ بإسناد الفعل إلى الذرية ، وقرأ أبو عمرو :

«أتبعناهم» بإسناد الفعل إلى المتكلم . كقوله : ﴿ألحقنا﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ ذريتهم ﴾ بالإفراد ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بالجمع ، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ : « وأتبعناهم » ، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع ، والمشهور عنه كقراءة الجمهور ، وقرأ الجمهور : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ بالإفراد ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب على الجمع . وجملة : ﴿ واتبعتهم ذريتهم ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ أو معترضة ، و﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع ، ومعنى هذه الآية : أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه وإن كانوا دونه فى العمل لتقر عينه وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين ، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار ، فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم فبدليل آخر غير هذه الآية . وقيل : إن الذرية تطلق على الكبار والصغار كما هو المعنى اللغوى ، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذريتهم وكبارهم ، ويكون قوله : ﴿ بإيمان ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى بإيمان من الآباء . وقيل : إن الضمير فى ﴿ بهم ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولا ، أى ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم . وقيل : المراد بالذين آمنوا : المهاجرون والأنصار فقط ، وظاهر الآية العموم ، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار، كونهم السبب فى نزولها إن صح ذلك ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام من : ﴿ ألتنا ﴾ وقرأ ابن كثير بكسرها ، أى وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئا ، فضمير المفعول عائد الى الذين آمنوا. وقيل : المعنى : وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئا لقصر أعمارهم ، والأول أولى . وقد قدمنا تحقيق معنى لاته وألاته فى سورة الحجرات . وقرأ ابن هرمز : «آلتناهم» بالمد ، وهو لغة. قال فى الصحاح : يقال : ما آلته من عمله شيئا ، أى ما نقصه شيئا ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ رهين بمعنى : مرهون ، والظاهر أنه عام ، وأن كل إنسان مرتهن بعمله ، فإن قام به على الوجه الذى أمره الله به فكه وإلا أهلكه . وقيل : هو بمعنى راهن ، والمعنى : كل امرئ بما كسب دائم ثابت . وقيل : هذا خاص بالكفار لقوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين ﴾ [المدثر : ٣٨ ، ٣٩] .

ثم ذكر سبحانه ما أمدهم به من الخير فقال : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ أى زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوعة ، ولحم من أنواع اللحمان مما تشتهيه أنفسهم ويستطيبونه ﴿ يتنازعون فيها كأسا ﴾ أى يتعاطون ويتناولون كأسا . والكأس : إناء الخمر ، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر أو غيره ، فإذا فرغ لم يسم كأسا ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ قال الزجاج : لا يجرى بينهم ما يلغى ولا ما فيه إثم كما يجرى بين من يشرب الخمر فى الدنيا ، والتأثيم تفعيل من الإثم ، والضمير فى : ﴿ فيها ﴾ راجع إلى الكأس . وقيل : لا لغو فيها ، أى فى الجنة ولا يجرى فيها ما فيه إثم، والأول أولى . قال ابن قتيبة : لا تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا ، ولا يكون منهم ما يؤثمهم . وقال الضحاك : لا

تأثيم : أى لا كذب . قرأ الجمهور : ﴿**لالغو فيها ولا تأثيم**﴾ بالرفع والتنوين فيهما ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين . قال قتادة : اللغو : الباطل ، وقال مقاتل بن حيان : لا فضول فيها . وقال سعيد بن المسيب : لارفث فيها . وقال ابن زيد : لا سباب ولا تخاصم فيها . والجملة فى محل نصب على الحال صفة لـ ﴿**كأسا**﴾ ﴿ **ويطوف عليهم غلمان لهم**﴾ أى يطوف عليهم بالكأس والفواكه والطعام وغير ذلك مماليك لهم . وقيل : أولادهم ﴿**كأنهم** ﴾ فى الحسن والبهاء ﴿ **لؤلؤ مكنون** ﴾ أى مستور مصون فى الصدف لم تمسه الأيدى . قال الكسائى : كننت الشيء : سترته وصنته من الشمس ، وأكننته : جعلته فى الكن ، ومنه كننت الجارية ، وأكننتها فهى مكنونة .

﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ أى يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله ، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، فيحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن والخوف والهم ، وما كانوا فيه من الكد والنكد بطلب المعاش وتحصيل ما لابد منه من الرزق . وقيل : يقول بعضهم لبعض : بم صرتم فى هذه المنزلة الرفيعة ؟ وقيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور ، والأول أولى لدلالة السياق على أنهم صاروا فى الجنة ، وجملة : ﴿ **قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل ؟ فقيل : قالوا : إنا كنا قبل ، أى قبل الآخرة ، وذلك فى الدنيا فى أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله ، أو كنا خائفين من عصيان الله . ﴿ **فمن الله علينا**﴾ بالمغفرة والرحمة أو بالتوفيق لطاعته ﴿ **ووقانا عذاب السموم**﴾ يعنى : عذاب جهنم ، والسموم من أسماء جهنم كذا قال الحسن ومقاتل ، وقال الكلبى وأبو عبيدة : هو عذاب النار . وقال الزجاج : سموم جهنم : ما يوجد من حرها . قال أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم فى لفح البرد ، وفى لفح الشمس والحر أكثر . ومنه قول الشاعر :

اليوم يوم بارد سمومه ... من جزع اليوم فلا ألومه

وقيل : سميت الريح سموما ؛ لأنها تدخل المسام ﴿ **إنا كنا من قبل ندعوه** ﴾ أى نوحد الله ونعبده ، أو نسأله أن يمن علينا بالمغفرة والرحمة ﴿ **إنه هو البر الرحيم** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ نافع والكسائى بفتحها ، أى لأنه . والبر : كثير الإحسان . وقيل : اللطيف ، والرحيم : كثير الرحمة لعباده ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ أى اثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير والباء متعلقة بمحذوف هو حال ، أى ما أنت ــ متلبسا بنعمة ربك التى أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوة ــ بكاهن ولا مجنون. وقيل: متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى ما أنت فى حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . وقيل : الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية ، والمعنى : انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله . وقيل : الباء للقسم

متوسطة بين اسم «ما» وخبرها والتقدير : ما أنت ـ ونعمة الله ـ بكاهن ولا مجنون ، والكاهن : هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي ، أي ليس ما تقوله كهانة ، فإنك إنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه ، والمقصود من الآية رد ما كان يقوله المشركون : إنه كاهن أو مجنون . ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ « أم » هي المنقطعة ، وقد تقدم الخلاف هل هي مقدرة ببل والهمزة ، أو ببل وحدها ؟ قال الخليل : هي هنا للاستفهام . قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى في كلامهم . قال النحاس : يريد سيبويه أن « أم » في كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث ، ونتربص في محل رفع صفة لشاعر ، وريب المنون : صروف الدهر ، والمعنى : ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره أو يهلك كما هلك من قبله ، والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى المنية . قال الأخفش : المعنى : نتربص إلى ريب المنون ، فحذف حرف الجر كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد ، ومن هذا قول الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها ... تطلق يوما أو يموت خليلها

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعي : المنون واحد لا جمع له . قال الفراء : يكون واحدا وجمعا . وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له ، ثم أمره سبحانه أن يجيب عنهم . فقال : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ أي انتظروا موتي أو هلاكي . فإني معكم من المتربصين لموتكم أو هلاككم . قرأ الجمهور : ﴿ نتربص ﴾ بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين . وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول . ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ أي بل أتأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض ؟ فإن الكاهن : هو المفرط في الفطنة والذكاء ، والمجنون : هو ذاهب العقل فضلا عن أن يكون له فطنة وذكاء . قال الواحدي : قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول فأزرأ الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ أي بل أطغوا وجاوزوا الحد في العناد ، فقالوا ما قالوا ؟ وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام كما هو مدلول « أم » المنقطعة ، تدل على أن ما تعقبها أشنع مما تقدمها ، وأكثر جرأة وعنادا . ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ أي اختلق القرآن من جهة نفسه وافتعله ، والتقول لا يستعمل إلا في الكذب في الغالب ، وإن كان أصله تكلف القول ، ومنه اقتال عليه ، ويقال : اقتال عليه : بمعنى تحكم عليه ، ومنه قول الشاعر :

ومنزلة في دار صدق وغبطة ... وما اقتال في حكم علي طبيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم ﴿ تقوله ﴾ وانتقل إلى ما هو أشد شناعة عليهم فقال : ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي بسبب صدور هذه الأقوال المتناقضة عنهم كونهم كفارا لا يؤمنون بالله ولا

يصدقون ما جاء به رسوله ﷺ . ثم تحداهم سبحانه وألزمهم الحجة فقال : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله** ﴾ أى مثل القرآن فى نظمه وحسن بيانه وبديع أسلوبه ﴿ **إن كانوا صادقين** ﴾ فيما زعموا من قولهم : إن محمدا ﷺ تقوله وجاء به من جهة نفسه، مع أنه كلام عربى ، وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر .

وقد أخرج سعيد بن منصور وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقر به عينه . ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم** ﴾ الآية [(١)] . وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضا : أن النبى ﷺ قال: « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول : يا رب قد عملت لى ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به » ، وقرأ ابن عباس : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم** ﴾ الآية[(٢)] . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ: « إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة وإن المشركين وأولادهم فى النار » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ الآية ، وإسناده هكذا : قال عبد الله بن أحمد : حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا محمد بن فضيل ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان ، عن على بن أبى طالب قال : سألت خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « هما فى النار » فلما رأى الكراهة فى وجهها قال : «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : يا رسول الله ، فولدى منك . قال : « فى الجنة » ، قال : ثم قال رسول الله ﷺ : «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة ، وإن المشركين وأولادهم فى النار » ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ الآية [(٣)] . وقال الإمام أحمد فى المسند : حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النجود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة . فيقول : يا رب من أين لى هذا ، فيقول: باستغفار ولدك لك » وإسناده صحيح [(٤)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس : ﴿ **وما ألتناهم** ﴾ قال : ما نقصناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **لا لغو فيها** ﴾ يقول : باطل ﴿ **ولا تأثيم** ﴾ يقول : كذب . وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا ، فيتحدثان فيتكئ ذا ويتكئ ذا

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٥ وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٨ وسكت عنه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٧ : « رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثورى ، وفيه ضعف ».

(٢) الطبرانى (١٢٢٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٧ :«فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢٠ : « رواه عبد الله بن أحمد وفيه محمد بن عثمان ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) أحمد ٢/ ٥٠٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢١٣ : « رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وقد وثق » .

فيتحدثان بما كانوا فى الدنيا ، فيقول أحدهما : يا فلان ، تدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا ، فدعونا الله فغفر لنا » (١) . وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنه هو البر ﴾ قال : اللطيف . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عنه أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار الندوة فى أمر النبى ﷺ قال قائل منهم :احبسوه فى وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ ريب المنون﴾ قال : الموت .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾ .

قوله : ﴿ أم خلقوا من غير شىء ﴾ « أم » هذه هى المنقطعة كما تقدم فيما قبلها . وكما سيأتى فيما بعدها ، أى بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة ، والصنعة العجيبة من غير خالق لهم ؟ قال الزجاج : أى أخلقوا باطلا لغير شىء لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ؟ وجعل « من » بمعنى اللام . قال ابن كيسان : أم خلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون ؟ وقيل : المعنى : أم خلقوا من غير أب ولا أم ، فهم كالجماد لا يفهمون ولا تقوم عليهم حجة؟ ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أى بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم

(١) قال ابن كثير ٦/ ٤٣٥ : « رواه البزار وقال : لا نعرفه يروى إلا بهذا الإسناد قلت : وسعيد بن دينار الدمشقى قال أبو حاتم : هو مجهول وشيخه الربيع بن صبيح ، وقد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه ، وهو رجل صالح ثقة فى نفسه » .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٢٥ وابن جرير ٢٧/ ١٩ .

يقرون أن الله خالقهم ؟ وإذا أقروا لزمتهم الحجة ﴿ **أم خلقوا السموات والأرض** ﴾ وهم لا يدعون ذلك فلزمتهم الحجة ، ولهذا أضرب عن هذا وقال : ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ أى ليسوا على يقين من الأمر ، بل يخبطون فى ظلمات الشك فى وعد الله ووعيده ﴿ **أم عندهم خزائن ربك**﴾ أى خزائن أرزاق العباد ، وقيل : مفاتيح الرحمة . قال مقاتل : يقول : أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ؟ وكذا قال عكرمة ، وقال الكلبى : خزائن المطر والرزق ﴿ **أم هم المصيطرون** ﴾ أى المسلطون الجبارون . قال فى الصحاح: المسيطر : المسلط على الشىء ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله ، وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر ، وقال أبو عبيدة : سطرت على : اتخذتنى خولا لك . قرأ الجمهور : ﴿ **المصيطرون** ﴾ بالصاد الخالصة ، وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد وقنبل وهشام بالسين الخالصة ، ورويت هذه القراءة عن حفص ، وقرأ خلاد بصاد مشمة زايًا .

﴿ **أم لهم سلم يستمعون فيه** ﴾ أى بل أيقولون : إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به ويستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم ويصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحى . وقوله : ﴿ **فيه** ﴾ صفة لسلم ، وهى للظرفية على بابها . وقيل : هى بمعنى على ، أى يستمعون عليه كقوله : ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ [طه: ٧١] قاله الأخفش ، وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : المعنى : أنهم كجبريل الذى يأتى النبى ﷺ بالوحى ، وقيل : هى فى محل نصب على الحال ، أى صاعدين فيه ﴿**فليأت مستمعهم** ﴾ إن ادعى ذلك ﴿ **بسلطان مبين**﴾ أى بحجة واضحة ظاهرة ﴿ **أم له البنات ولكم البنون**﴾ أى بل أتقولون لله البنات ولكم البنون ؟ سفه سبحانه أحلامهم ، وضلل عقولهم ووبخهم ، أى أيضيفون إلى الله البنات وهى أضعف الصنفين ؟ ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما ، وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحل سافل فى الفهم والعقل ، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله ﷺ فقال : ﴿ **أم تسألهم أجرا** ﴾ أى بل أتسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة ﴿ **فهم من مغرم مثقلون** ﴾ أى من التزام غرامة تطلبها فهم مثقلون ، أى مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل . قال قتادة : يقول : هل سألت هؤلاء القوم أجرا فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام ؟ ﴿ **أم عندهم الغيب فهم يكتبون** ﴾ أى بل أيدعون أن عندهم علم الغيب ، وهو ما فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب؟. قال قتادة : هذا جواب لقولهم : ﴿ **نتربص به ريب المنون** ﴾ يقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا يموت قبلهم فهم يكتبون؟ قال ابن قتيبة : معنى ﴿ **يكتبون** ﴾ : يحكمون بما يقولون ﴿ **أم يريدون كيدا** ﴾ أى مكرا برسول الله ﷺ فيهلكونه بذلك المكر ﴿**فالذين كفروا هم المكيدون** ﴾ أى المكور بهم المجزيون بكيدهم ، فضرر كيدهم يعود عليهم ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلابأهله ﴾ [فاطر : ٤٣] وقد قتلهم الله فى يوم بدر وأذلهم فى غير

موطن ، ومكر سبحانه بهم ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران : ٥٤] **﴿أم لهم إله غير الله ﴾** أى بل أيدعون أن لهم إلها غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم ؟ ! ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال : **﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾** أى عن شركهم به ، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له .

ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم فقال : **﴿ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ﴾** الكسف جمع كسفة : وهى القطعة من الشىء ، وانتصاب **﴿ ساقطا ﴾** على الحال ، أو على أنه المفعول الثانى ، والمركوم : المجعول بعضه على بعض . والمعنى : أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون : هو سحاب متراكم بعضه على بعض ، وقد تقدم اختلاف القراء فى **﴿ كسفا ﴾** . قال الأخفش : من قرأ : **﴿ كسفا ﴾** يعنى : بكسر الكاف وسكون السين جعله واحدا ، ومن قرأ : « كسفا » يعنى بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعا . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتركهم ، فقال : **﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾** أى اتركهم وخل عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم ببدر ، أو يوم القيامة . قرأ الجمهور : **﴿ يلاقوا ﴾** وقرأ أبو حيوة : «يلقوا » وقرأ الجمهور: « يصعقون » على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عامر وعاصم على البناء للمفعول ، والصعقة : الهلاك على ما تقدم بيانه . **﴿يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ﴾** هو بدل من يومهم ، أى لا ينفعهم فى ذلك اليوم كيدهم الذى كادوا به رسول الله ﷺ فى الدنيا **﴿ولاهم ينصرون ﴾** أى ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع ، بل هو واقع بهم لا محالة **﴿وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ﴾** أى لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذابا فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة، أى قبله ، وهو قتلهم يوم بدر ، وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا ، وذهاب الأموال والأولاد، وقال مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين . وقيل : عذاب القبر ، وقيل : المراد بالعذاب هو القحط ، وبالعذاب الذى يأتى بعده هو قتلهم يوم بدر **﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾** ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذى وعدناهم به **﴿ فإنك بأعيننا ﴾** أى بمرأى ومنظر منا ، وفى حفظنا وحمايتنا فلا تبال بهم . قال الزجاج : إنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك فلا يصلون إليك **﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾** أى نزه ربك عما لا يليق به متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك . قال عطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ، عند قيامه من كل مجلس يجلسه ، وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع بن أنس : حين تقوم إلى الصلاة ، قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وفيه نظر ؛ لأن التكبير يكون بعد القيام لا

حيال القيام ، ويكون التسبيح بعد التكبير ، وهذا غير معنى الآية ، فالأول أولى . وقيل : المعنى : صل لله حين تقوم من منامك ، وبه قال أبو الجوزاء وحسان بن عطية . وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وهي صلاة الفجر . ﴿ **ومن الليل فسبحه** ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبحه في بعض الليل ، قال مقاتل : أي صل المغرب والعشاء . وقيل : ركعتي الفجر ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل . وقيل : صلاة الفجر ، واختاره ابن جرير . وقيل : هو التسبيح في إدبار الصلوات . قرأ الجمهور : ﴿**إدبار** ﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر ، وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السميفع ويعقوب والمنهال بن عمرو بفتحها على الجمع ، أي أعقاب النجوم وأدبارها : إذا غربت ، ودبر الأمر: آخره ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة « ق » .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **أم هم المصيطرون** ﴾ قال : المسلطون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أم هم المنزلون . وأخرجا عنه أيضا : ﴿ **عذابا دون ذلك** ﴾ قال : عذاب القبر قبل يوم القيامة . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ بآخرة إذا قام من المجلس يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » ، فقال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ، قال: « كفارة لما يكون في المجلس » [١] . وأخرجه النسائي والحاكم من حديث الربيع ابن أنس عن أبي العالية عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ[٢] . وأخرج الترمذي وابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » قال الترمذي : حسن صحيح . وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة [٣] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿**وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ قال : تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ **ومن الليل فسبحه** ﴾ قال : « الركعتان قبل صلاة الصبح » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإدبار النجوم**﴾ قال : ركعتي الفجر .

(١) ابن أبي شيبة في الدعاء (٩٣٧٤) وأبوداود في الأدب (٤٨٥٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢٥٩) والحاكم ٢/ ٥٣٧ وسكت عنه الحاكم وكذا الذهبي .
(٢) النسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢٦٠) و الحاكم ١/ ٥٣٧ وسكت عنه وقال الذهبي : « رواه رافع بن حديج مرفوعا نحوه » .
(٣) الترمذي في الدعوات (٣٤٣٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢٣٠) .

تفسير سورة النجم

هي إحدى وستون آية . وقيل : ثنتان وستون آية . وهي مكية جميعها في قول الجمهور، وروى عن ابن عباس وعكرمة ، أنها مكية إلا آية منها وهي قوله : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة النجم بمكة . وأخرج أيضا عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما ، عن ابن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ **والنجم** ﴾. فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم، إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف(١). وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة استعلن بها النبيّ ﷺ يقرؤها: ﴿ **والنجم**﴾. وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ : النجم فسجد بنا فأطال السجود (٢). وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ النجم فلما بلغ السجدة سجد فيها. وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والطبراني وابن مردويه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قرأت النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها (٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يسجد في النجم ، فلما هاجر إلى المدينة تركها . وأخرج أيضا عنه أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ

---

(١) البخاري في التفسير (٤٨٦٣) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٦/ ١٠٥) وأبو داود في الصلاة (١٤٠٦) .

(٢) البيهقي ٢/ ٣١٤ .

(٣) ابن أبي شيبة في الصلوات ٢/ ٦ وأحمد ٥/ ١٨٣ والبخاري في سجود القرآن (١٠٧٢) ومسلم في المساجد (٥٧٧/ ١٠٦) وأبو داود في الصلاة (١٤٠٤) ، الترمذي في الصلاة (٥٧٦) والنسائي في الافتتاح ٢/ ١٦٠ والطبراني (٤٨٢٩) .

(٤) أبو داود في الصلاة (١٤٠٣) .

﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ التعريف للجنس ، والمراد به جنس النجوم ، وبه قال جماعة من المفسرين . ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

أحسن النجم فى السماء الثريا   والثريا فى الأرض زين النساء

وقيل : المراد به: الثريا ، وهو اسم غلب فيها ، تقول العرب : النجم ، وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد وغيره، وقال السدّى : النجم هنا :هو الزهرة ؛ لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : النجم هنا : النبت الذى لا ساق له ، كما فى قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : ٦] قاله الأخفش . وقيل : النجم محمد ﷺ . وقيل : النجم القرآن؛ وسمى نجما لكونه نزل منجما مفرّقا ، والعرب تسمى التفريق تنجيما ، والمفرّق : المنجم ، وبه قال مجاهد والفراء وغيرهما . والأول أولى . قال الحسن : المراد بالنجم : النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقيل : المراد بها : النجوم التى ترجم بها الشياطين ، ومعنى هويه : سقوطه من علو ، يقال : هوى النجم يهوى هويا : إذا سقط من علو إلى سفل ، وقيل : غروبه ، وقيل: طلوعه . والأول أولى . وبه قال الأصمعى وغيره ، ومنه قول زهير :

تسيح بها الأباعر وهى تهوى   هوِىّ الدَّلْوِ أَسْلَمهَا الرشَاءُ (١)

ويقال : هوى فى السير : إذا مضى ، ومنه قول الشاعر :

بَيْنَما نَحْــــنُ بالبِلاكــــثِ فـالقَـــاعِ سِراعاً والعِيسُ تَهْوِى هُوِيا
خَطَرتْ خَطْرة على القلْب مِن ذِكْـــــراكِ وَهناً فما استعطت مُضيا

ومعنى الهوىّ على قول من فسّر النجم بالقرآن : أنه نزل من أعلى إلى أسفل ، وأما على قول من قال : إنه الشجر الذى لا ساق له ، أو أنه محمد ﷺ فلا يظهر للهوىّ معنى صحيح، والعامل فى الظرف فعل القسم المقدّر، وجواب القسم قوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ أى ما ضل محمد ﷺ عن الحق والهدى ولا عدل عنه ، والغيّ : ضد الرشد ، أى ما صار غاويا ، ولا تكلم بالباطل . وقيل : ما خاب فيما طلب ،والغيّ : الخيبة ، ومنه قول الشاعر:

(١) الرشاء : الحبل ، وجمعه : أرشية .

فمن يلْقَ خيراً يحْمِد النَّاسُ أَمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يعدم على الغَيِّ لائما

وفي قوله : ﴿ صاحبكم ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله ، والخطاب لقريش ﴿وما ينطق عن الهوى ﴾ أي ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره ، فعن على بابها. وقال أبو عبيدة : إنّ عن بمعنى الباء ، أي بالهوى . قال قتادة : أي ما ينطق بالقراءة عن هواه ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ أي ما هو الذي ينطق به إلا وحي من الله يوحيه إليه ، وقوله : ﴿يوحى ﴾ صفة لوحي تفيد الاستمرار التجددي ، وتفيد نفي المجاز : أي هو وحي حقيقية لا لمجرد التسمية ﴿ علمه شديد القوى ﴾ القوى جمع قوة ، والمعنى : أنه علمه جبريل الذي هو شديد قواه ، هكذا قال أكثر المفسرين : إن المراد : جبريل . وقال الحسن : هو الله عزّ وجلّ . والأول أولى . وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ ذو مرة فاستوى ﴾ المرّة : القوّة والشدة في الخلق. وقيل : ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ،ومنه قول النبي ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرّة سوى »[(١)] . وقيل : ذو حصافة عقل ومتانة رأي . قال قطرب: العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأي ، حصيف العقل : ذو مرّة ، ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبلَ لِقائكُمُ ذا مِرّةٍ عندي لِكل مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

والتفسير للمرّة بهذا أولى ؛ لأن القوة والشدة قد أفادها قوله : ﴿ شديد القوى ﴾ قال الجوهري : المرّة إحدى الطبائع الأربع ، والمرّة : القوة وشدة العقل ، والفاء في قوله : ﴿فاستوى ﴾ للعطف على علّمه يعني جبريل ، أي ارتفع وعاد إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمداً ﷺ ، قاله سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير. وقيل : معنى استوى قام في صورته التي خلقه الله عليها لأنه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين . وقيل : المعنى : فاستوى القرآن في صدره ﷺ . وقال الحسن : ـ فاستوى يعني الله عزّ وجلّ ـ على العرش ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال ، أي فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى . والمراد بالأفق الأعلى : جانب المشرق ، وهو فوق جانب المغرب . وقيل : المعنى : فاستوى عالياً . والأفق : ناحية السماء ، وجمعه آفاق. قال قتادة ومجاهد : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس . وقيل : هو يعني جبريل والنبي ﷺ بالأفق الأعلى ليلة المعراج ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة .

﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أي دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى ، أي قرب من الأرض ، فتدلى فنزل على النبي ﷺ بالوحي . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ثم تدلى فدنى . قاله ابن الأنباري وغيره ، قال الزجاج: معنى دنا فتدلى واحد ، أي قرب وزاد في القرب كما تقول : فدنا مني فلان وقرب ، ولو قلت : قرب مني ودنا جاز. قال الفراء : الفاء في فتدلى بمعنى الواو ، والتقدير : ثم تدلى جبريل ودنا ، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٣٤) والترمذي في الزكاة (٦٥٢) وقال : « حديث حسن » .

واحدا أن تقدم أيهما شئت. قال الجمهور : والذى دنا فتدلى هو جبريل . وقيل : هو النبى ﷺ . والمعنى : دنا منه أمره وحكمه . والأول أولى. قيل: ومن قال : إن الذى استوى هو جبريل ومحمد ، فالمعنى عنده: ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلى ، أى هوى للسجود ، وبه قال الضحاك ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أى فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين ، أى قدر قوسين عربيين، والقاب والقيب ، والقاد والقيد : المقدار ، ذكر معناه فى الصحاح ، قال الزجاج : أى فيما تقدّرون أنتم ، واللّه سبحانه عالم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا . وقيل : « أو» بمعنى الواو ، أى وأدنى . وقيل : بمعنى بل ، أى بل أدنى ، وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهمدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة ﴿ فكان قاب قوسين ﴾: قدر ذراعين ، والقوس : الذّراع يقاس بها كل شىء ، وهى لغة بعض الحجازيين ،وقيل : هى لغة أزد شنوءة ، وقال الكسائى : فكان قاب قوسين أراد قوسا واحدة .

﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ أى فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى ، وفيه تفخيم للوحى الذى أوحى إليه، والوحى : إلقاء الشىء بسرعة ، ومنه الوحا وهو السرعة ، والضمير فى : ﴿ عبده ﴾ يرجع إلى اللّه كما فى قوله: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ [فاطر : ٤٥] وقيل : المعنى : فأوحى اللّه إلى عبده جبريل ما أوحى ، وبالأوّل قال الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . وقيل : فأوحى اللّه إلى عبده محمد . قيل : وقد أبهم اللّه سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد ، أوما أوحاه اللّه إلى عبده جبريل أو إلى محمد ولم يبينه لنا ، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره ، وقال سعيد بن جبير : الذى أوحى إليه هو : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : ١] إلخ ،و﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾[الضحى : ٦] إلخ .وقيل : أوحى اللّه إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها ،وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.وقيل:إن «ما »للعموم لا للإبهام ، والمراد : كل ما أوحى به إليه ، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم .

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره ليلة المعراج ، يقال: كذبه : إذا قال له الكذب ولم يصدقه ، قال المبرد : معنى الآية : أنه رأى شيئا فصدق فيه . قرأ الجمهور : ﴿ ما كذب ﴾ مخففا ، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد ، و « ما » فى : ﴿ ما رأى ﴾ موصولة أو مصدرية فى محل نصب بكذب مخففا ومشددا ﴿أفتمارونه على ما يرى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ أفتمارونه ﴾ بالألف من المماراة وهى المجادلة والملاحاة ، وقرأ حمزة والكسائى: « أفتمرونه » بفتح التاء وسكون الميم ، أى أفتجدونه ، واختار أبو عبيد القرأة الثانية . قال : لأنهم لم يماروه وإنما جحدوه ، يقال : مراه حقه ، أى جحده ، ومريته أنا : جحدته ، قال : ومنه قول الشاعر :

لأن هَجَوْتَ أخَا صِدْقٍ ومكْرُمَةٍ ... لَقَدْ مَرَيْتَ أخا ما كان يَمْرِيكا

أى جحدته ، قال المبرد : يقال : أمرأه عن حقه وعلى حقه : إذا منعه منه ودفعه . وقيل: على بمعنى عن ، وقرأ ابن مسعود والشعبى ومجاهد والأعرج : « أفتمرونه » بضم التاء من أمريت ، أى أتريبونه وتشكون فيه ، قال جماعة من المفسرين : المعنى على قراءة الجمهور: أفتجادلونه ؛ وذلك أنهم جادلوه حين أسرى به فقالوا : صف لنا مسجد بيت المقدس، أى فتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه ، واللام فى قوله : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لقد رآه نزلة أخرى ، والنزلة : المرة من النزول ، فانتصابها على الظرفية أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال ، أى رأى جبريل نازلا نزلة أخرى ، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف ، أى رآه رؤية أخرى . قال جمهور المفسرين : المعنى : أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى . وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده ﴿ **عند سدرة المنتهى** ﴾ الظرف منتصب بـ﴿ **رآه** ﴾ ، والسدر : هو شجرة النبق ، وهذه السدرة هى فى السماء السادسة كما فى الصحيح ، وروى أنها فى السماء السابعة ، والمنتهى : مكان الانتهاء ، أو هو مصدر ميمى ، والمراد به: الانتهاء نفسه ، قيل : إليها ينتهى علم الخلائق ولا يعلم أحد منهم ما وراءها . وقيل : ينتهى إليها ما يعرج به من الأرض . وقيل : تنتهى إليها أرواح الشهداء . وقيل : غير ذلك ، وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشىء إلى مكانه ﴿**عندها جنة المأوى**﴾ أى عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى ، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم . وقيل : إن أرواح المؤمنين تأوى إليها . قرأ الجمهور : ﴿**جنة** ﴾ برفع جنة على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدم . وقرأ علىّ وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس، وزر بن حبيش ، ومحمد بن كعب ومجاهد وأبو سبرة الجهنى : « جنه» فعلا ماضيا من جنّ يجنّ ، أى ضمه المبيت، أو ستره إيواء الله له . قال الأخفش : أدركه كما تقول: جنه الليل ، أى ستره وأدركه ، والجملة فى محل نصب على الحال .

﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ العامل فى الظرف ﴿ **رآه** ﴾ أيضا وهو ظرف زمان ، والذى قبله ظرف مكان ، والغشيان بمعنى : التغطية والستر ، وبمعنى الإتيان ، يقال : فلان يغشانى كل حين ، أى يأتينى ، وفى الإبهام فى قوله : ﴿ **ما يغشى** ﴾ من التفخيم ما لا يخفى . وقيل: يغشاها جراد من ذهب . وقيل : طوائف من الملائكة ، وقال مجاهد : رفرف أخضر . وقيل : رفرف من طيور خضر . وقيل : غشيها أمر الله ، والمجىء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً للصورة البديعة ، و للدلالة على الاستمرار التجددى .﴿ **ما زاغ البصر** ﴾ أى ما مال بصر النبى ﷺ عما رآه ﴿ **وما طغى**﴾ أى ما جاوز ما رأى . وفى هذا وصف أدب النبى ﷺ فى ذلك المقام حيث لم يلتفت ولم يمل بصره ، ولم يمده إلى غير ما رأى . وقيل : ما جاوز ما أمر به . ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ أى والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف ، قيل : رأى رفرفا سدّ الأفق . وقيل : رأى جبريل فى حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح ، كذا فى صحيح مسلم وغيره ،

وقال الضحاك : رأى سدرة المنتهى . وقيل : هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه وعوده ، و«من» للتبعيض ومفعول رأى : الكبرى ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا ، أى رأى شيئا عظيما من آيات ربه ، ويجوز أن تكون « من » زائدة .

﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما قصّ اللّه سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين ، موبخا لهم ومقرّعا : ﴿ أفرأيتم ﴾ أى أخبرونى عن الآلهة التى تعبدونها من دون اللّه هل لها قدرة توصف بها ؟ وهل أوحت إليكم شيئا كما أوحى اللّه إلى محمد ؟ أم هى جمادات لا تعقل ولا تنفع ؟ ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب وعظم اعتقادهم فيها ، قال الواحدى وغيره : وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء اللّه تعالى ، فقالوا: من اللّه اللات ، ومن العزيز العزّى وهى تأنيث الأعز بمعنى : العزيزة ، ومناة من منى اللّه الشيء : إذا قدّره . قرأ الجمهور : ﴿ اللات ﴾ بتخفيف التاء ، فقيل : هو مأخوذ من اسم اللّه سبحانه كما تقدّم . وقيل : أصله : لات يليت ، فالتاء أصلية . وقيل : هى زائدة وأصله: لوى يلوى ، لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها أو يلتون عليها ويطوفون بها . واختلف القراء هل يوقف بالتاء أو بالهاء ؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء ، ووقف عليها الكسائى بالهاء واختار الزجاج والفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف ، فإنها تكتب بالتاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو الجوزاء وأبو صالح وحميد : «اللات » بتشديد التاء ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، فقيل : هو اسم رجل كان يلتّ السويق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، فهو اسم فاعل فى الأصل غلب على هذا الرجل ، قال مجاهد: كان رجلا فى رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيسا ويطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه . وقال الكلبى : كان رجلا من ثقيف له صرمة غنم . وقيل : إنه عامر بن الظرب العدوانى ، وكان هذا الصنم لثقيف ، وفيه يقول الشاعر :

لا تنصُروا اللاتَ إنَّ اللّه مُهْلِكُها ‏ ‏ ‏ ‏ وكَيْفَ يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليسَ يَنْتَصِرُ

قال فى الصحاح : و﴿ اللات ﴾ اسم صنم لثقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ﴿ والعزّى ﴾ : صنم قريش وبنى كنانة ، قال مجاهد : هى شجرة كانت بغطفان ، وكانوا يعبدونها ، فبعث إليها النبى ﷺ خالد بن الوليد فقطعها ، وقيل : كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة، وقال سعيد بن جبير: العزى : حجر أبيض كانوا يعبدونه ، وقال قتادة : هى بيت كان ببطن نخلة ، ﴿ ومناة ﴾ : صنم بنى هلال، وقال ابن هشام : صنم هذيل وخزاعة ، وقال قتادة : كانت للأنصار . قرأ الجمهور : ﴿ مناة﴾ بألف من دون همزة ،وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد والسلمى بالمد والهمزة، فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى يمنى ، أى صب ؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها

يتقرّبون بذلك إليها ، وأما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء ، وهو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء. وقيل : هما لغتان للعرب ، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعد يا بن تيم تأمل أين تاه بك الوعيد

ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثى :

أَلا هَلْ أتى التَّيم بن عبد مناءة على السر فيما بيننا ابُن تَميمِ

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف ، ووقف ابن كثير وابن محيصن عليها بالهاء . قال في الصحاح : ومناة : اسم صنم كان بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكن عليها بالتاء ، وهى لغة . قوله : ﴿ **الثالثة الأخرى** ﴾ هذا وصف لمناة ، وصفها بأنها ثالثة وبأنها أخرى ، والثالثة لا تكون إلا أخرى .

قال أبو البقاء : فالوصف بالأخرى للتأكيد ، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى ، والعرب إنما تصف به الثانية . فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآى كقوله : ﴿مآرب أخرى ﴾ [طه : ١٨] وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أفرأيتم اللات والعزّى الأخرى ومناة الثالثة ، وقيل : إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة ، وقيل : إن ذلك للتحقير والذم ، وإن المراد المتأخرة الوضيعة كما فى قوله : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ [الأعراف : ٣٨] أى وضعاؤهم لرؤسائهم ، ثم كرر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى** ﴾ أى كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور ، قيل وذلك قولهم: إن الملائكة بنات الله . وقيل : المراد : كيف تجعلون اللات ، والعزّى ، ومناة ، وهى إناث فى زعمكم ، شركاء لله ، ومن شأنهم أن يحتقروا الإناث . ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية والقسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة فقال : ﴿ **تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ضيزى ﴾ بياء ساكنة بغير همزة ، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة ، والمعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق ، قال الأخفش ، يقال :ضاز فى الحكم ، أى جار ، وضازه حقه يضيزه ضيزا ، أى نقصه وبخسه ، قال : وقد يهمز . وأنشد :

فإن تَنْأ عنَّا نَنْتقصكَ وإنَ تَغبْ فحقك مضؤوز وأَنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائى : ضاز يضيز ضيزا ، وضاز يضوز ضوزا : إذا تعدى وظلم وبخس وانتقص . ومنه قول الشاعر :

ضَازَتْ بنو أسدٍ بِحكمِهِم إِذْ يَجْعَلُون الراسَ كالذَّنَبِ

قال الفراء : وبعض العرب يقول : « ضئزى » بالهمز ، وحكى أبو حاتم عن أبى زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزى . قال البغوى : ليس فى كلام العرب فعلى بكسر الفاء فى

النعوت إنما تكون فى الأسماء مثل ذكرى . قال المؤرج : كرهوا ضم الضاد فى ضيزى . وخافوا انقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة كما قالوا فى جمع أبيض : بيض، وكذا قال الزجاج . وقيل : هى مصدر كذكرى ، فيكون المعنى : قسمة ذات جور وظلم .

ثم رد سبحانه عليهم بقوله : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أى ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة ، ليس فيها شىء من معنى الألوهية التى تدعونها ؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل ولا تفهم ولا تضر ولا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلد الآخر فيها الأول . وتبع فى ذلك الأبناء الآباء ، وفى هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى ، كما تقول فى تحقير رجل : ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ [يوسف: ٤٠] يقال : سميته زيداً وسميته بزيد ، فقوله : ﴿ سميتموها ﴾ صفة لأصنام ، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام ، أى جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء . وقيل : إن قوله : ﴿هى﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة . والأول أولى ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى ما أنزل بها من حجة ولا برهان ، قال مقاتل : لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون: إنها آلهة ، ثم أخبر عنهم بقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظنّ ﴾ أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إلا الظنّ الذى لا يغنى من الحق شيئا ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم وتحقيراً لشأنهم فقال : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أى تميل إليه وتشتهيه من غير التفات إلى ما هو الحق الذى يجب الاتباع له . قرأ الجمهور : ﴿يتبعون ﴾ بالتحتية على الغيبة . وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السميفع بالفوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود وابن عباس وطلحة وابن وثاب ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أى البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة . والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يتبعون ، ويجوز أن يكون اعتراضاً ، والأول أولى . والمعنى : كيف يتبعون ذلك والحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذى بعثه الله بين ظهرانيهم وجعله من أنفسهم .

﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ «أم » هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة التى للإنكار ، فأضرب عن اتباعهم الظن الذى هو مجرّد التوهم ، ومن اتباعهم هوى الأنفس وما تميل إليه ، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم ، ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أى أن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله ـ عزّ وجلّ ـ فليس لهم معه أمر من الأمور ، ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة وأطماعهم الفارغة . ثم أكد ذلك وزاد فى إبطال ما يتمنونه فقال : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا ﴾ وكم هنا هى الخبرية المفيدة للتكثير ، ومحلها الرفع على الابتداء ، والجملة بعدها

خبرها، ولما فى ﴿ كم ﴾ من معنى التكثير ، جمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك ، والمعنى التوبيخ لهم بما يتمنون ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على اللّه لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم وهو معنى قوله : ﴿ إلا من بعد أن يأذن اللّه ﴾ لهم بالشفاعة ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يشفعوا له ﴿ويرضى ﴾ بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد ، وليس للمشركين فى ذلك حظّ ولا يأذن اللّه بالشفاعة لهم ولا يرضاها لكونهم ليسوا من المستحقين لها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : إذا انصبّ . وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو الثريا إذا تدلت . وأخرج عنه أيضا قال : أقسم اللّه أن ما ضلّ محمد ولا غوى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ ذو مرة ﴾ قال: ذو خلق حسن . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود ؛ أن رسول اللّه ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما واحدة: فإنه سأله أن يراه فى صورته فأراه صورته فسدّ الأفق ، وأما الثانية : فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله : ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ . ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : خلق جبريل [١] . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أن النبىّ ﷺ قال : « رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح »وأخرجه أحمد عنه أيضا [٢]. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ قال: مطلع الشمس . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال: رأى النبى ﷺ جبريل له ستمائة جناح[٣] . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عنه فى قوله: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال : رأى رسول اللّه ﷺ جبريل عليه حلة رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض [٤]. وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ قال : هو محمد ﷺ دنا فتدلى إلى ربه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : دنا ربه فتدلى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله :﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين . وأخرج الطبرانى ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : القاب: القيد ، والقوسين: الذراعين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أسرى بالنبىّ

---

(١) أحمد ٤٠٧/١ والطبرانى (١٠٥٤٧). (٢) أحمد ٣٩٨/١ وابن جرير ٢٧/٢٧.

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٥٦، ٤٨٥٧) وفى بدء الخلق (٣٢٣٢) ومسلم فى الإيمان (١٧٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٧) والنسائى فى التفسير (٥٥٤).

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٢٨٣) وقال : « حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٥١) وابن جرير ٢٧/ ٣٠ والطبرانى (٩٠٥٠) وصححه الحاكم ٤٦٨/٢ ، ٤٦٩ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

ﷺ اقترب من ربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر.

وأخرج النسائى وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ قال : عبده محمد ﷺ. وأخرج مسلم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عنه فى قوله : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ . ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى محمد ربه بقلبه مرتين (١).وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه (٢). وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : رأى محمد ربه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ رأى ربه بعينه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه قال : رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره ومرّة بفؤاده. وأخرج الترمذى وحسنه ، والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عنه أيضا قال: لقد رأى النبى ﷺ ربه ـ عزّ وجلّ (٣). وأخرج النسائى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضا قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ،والرؤية لمحمد ؟ وقد روى نحو هذا عنه من طرق (٤).

وأخرج مسلم والترمذى وابن مردويه عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال: « نور أنى أراه ؟» (٥) . وأخرج مسلم وابن مردويه عنه أنه سأل رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « رأيت نوراً » (٦) . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره(٧) .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : جبريل (٨). وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة ينتهى ما يعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها وينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب (٩) . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال : الجنة فى السماء السابعة العليا ، والنار فى الأرض السابعة السفلى . وأخرج البخارى

---

(١) مسلم فى الإيمان (١٧٦/ ٢٨٥، ٢٨٦) والطبرانى (١٢٩٤١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١٨٣ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٧٨) وقال: « هذا حديث حسن » وابن جرير ٢٧/ ٣١ والطبرانى (١٢٩٤١) .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٨٠) وقال : «هذا حديث حسن » والطبرانى (١٢٤٠٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١٨٩/٢ .

(٤) النسائى فى التفسير (٥٥٩) وإسناده حسن وصححه الحاكم ١/ ٦٥ ، ٢/ ٤٦٩ على شرط البخارى ، ووافقه الذهبى.

(٥) مسلم فى الإيمان (١٧٨/ ٢٩١) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٢) وقال : «حديث حسن » .

(٦) مسلم فى الإيمان (١٧٨/ ٢٩٢) .

(٧) النسائى فى التفسير (٥٥٦) . (٨) مسلم فى الإيمان (١٧٥/ ٢٨٣) .

(٩) مسلم فى الإيمان (١٧٣/ ٢٧٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٦) والنسائى ١/ ٢٢٤ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٤٧٤.

وغيره عن ابن عباس قال : كان اللات رجلا يلفّ السويق للحاج . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه ، أن العزى كانت ببطن نخلة ، وأن اللات كانت بالطائف ، وأن مناة كانت بقديد. وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ ضيزى ﴾ قال : جائرة لا حقّ لها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ أى أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من الدار الآخرة وهم الكفار يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء ، وهى أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى . وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله فجعلوهم إناثا وسموهم بنات ﴿وما لهم به من علم ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى يسمونهم هذه التسمية والحال أنهم غير عالمين بما يقولون ، فإنهم لم يعرفوهم ، ولا شاهدوهم ، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التى يخبر المخبرون عنها. بل قالوا ذلك جهلاً وضلالة وجرأة ، وقرئ : « ما لهم بها » أى بالملائكة أو التسمية ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أى ما يتبعون فى هذه المقالة إلا مجرّد الظن والتوهم . ثم أخبر سبحانه عن الظنّ وحكمه فقال : ﴿ وإن الظنّ لا يغنى من الحق شيئا ﴾ أى إن جنس الظن لا يغنى من الحق شيئا من الإغناء ، والحقّ هنا : العلم ، وفيه دليل على أن مجردّ الظن لا يقوم مقام العلم وأن الظانّ غير عالم ،وهذا فى الأمور التى يحتاج فيها إلى العلم وهى المسائل العلمية لا فيما يكتفى فيه بالظنّ . وهى المسائل العملية ، وقد قدمنا تحقيق هذا ، ولا بدّ من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم ، والقياس، وخبر الواحد ، ونحو ذلك ظنية ، فالعمل بها عمل بالظن . وقد وجب علينا العمل به فى مثل هذه الأمور ، فكانت أدلة وجوبه العمل به فيها

مخصصة لهذا العموم ، وما ورد فى معناه من الذمّ لمن عمل بالظنّ والنهى عن اتباعه .

﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ أى أعرض عمّن أعرض عن ذكرنا ، والمراد بالذكر هنا : القرآن ، أو ذكر الآخرة، أو ذكر اللّه على العموم ، وقيل : المراد بالذكر هنا : الإيمان ، والمعنى : اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به ، وليس عليك إلا البلاغ ، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ التى لم يرد سواها ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها ، فإنه غير متأهل للخير ، ولا مستحق للاعتناء بشأنه .ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم فقال : ﴿ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أى إن ذلك التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ، ليس لهم غيره ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين . قال الفرّاء : أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ ذلك﴾ إلى جعلهم للملائكة بنات اللّه وتسميتهم لهم تسمية الأنثى ، والأول أولى . والمراد بالعلم هنا: مطلق الإدراك الذى يندرج تحته الظنّ الفاسد ، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم واتباعهم مجرد الظن. وقيل : معترضة بين المعلل والعلة وهى قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق وأعرض عنه ولم يهتد إليه ، وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق وأقبل إليه وعمل به ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشرّ . وفيه تسلية لرسول اللّه ﷺ وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه فى دعوة من أصرّ على الضلالة وسبقت له الشقاوة ، فإن اللّه قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد .

ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته وعظيم ملكه فقال : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى هو المالك لذلك ، والمتصرف فيه لا يشاركه فيه أحد ، واللام فى ﴿ ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ﴾ متعلقة بما دلّ عليه الكلام ، كأنه قال هو مالك ذلك يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء ليجزى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه . وقيل : إن قوله : ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ معترضة ، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى . وقيل : هى لام العاقبة ، أى وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسىء أن يجزى اللّه كلا منهما بعمله ، وقال مكى : إن اللام متعلقة بقوله : ﴿ لا تغنى شفاعتهم ﴾ وهو بعيد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى . قرأ الجمهور : ﴿ ليجزى ﴾ بالتحتية ، وقرأ زيد بن على بالنون ، ومعنى ﴿ بالحسنى ﴾ أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ، أو بسبب أعمالهم الحسنى .

ثم وصف هؤلاء المحسنين فقال : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ فهذا الموصول فى محل نصب على أنه نعت للموصول الأوّل فى قوله : ﴿ الذين أحسنوا ﴾ وقيل: بدل منه . وقيل : بيان له . وقيل : منصوب على المدح بإضمار أعنى ، أو فى محل رفع على أنه خبر

مبتدأ محذوف ، أى هم الذين يجتنبون كبائر الإثم . قرأ الجمهور : ﴿كبائر﴾ على الجمع ، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب: « كبير » على الإفراد ، والكبائر : كل ذنب توعد اللّه عليه بالنار ، أو ذمّ فاعله ذما شديدا . ولأهل العلم فى تحقيق الكبائر كلام طويل ، وكما اختلفوا فى تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا فى عددها . والفواحش جمع فاحشة : وهى ما فحش من كبائر الذنوب كالزنا ونحوه ، وقال مقاتل : كبائر الإثم : كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش : كل ذنب فيه الحد . وقيل : الكبائر : الشرك ، والفواحش : الزنا ، وقد قدمنا فى سورة النساء ما هو أبسط من هذا وأكثر فائدة ، والاستثناء بقوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ منقطع ، وأصل اللمم فى اللغة: ما قلّ وصغر ، ومنه ألمّ بالمكان : قلّ لبثه فيه ، وألمّ بالطعام : قل أكله منه ، قال المبرد : أصل اللمم أن تلمّ بالشىء من غير أن تركبه . يقال : ألم بكذا : إذا قاربه ولم يخالطه ، قال الأزهرى : العرب تستعمل الإلمام فى معنى الدنو والقرب ، ومنه قول جرير :

بنفسى من تجنبه عزيز ... علىّ ومن زيارته لمام

وقول الآخر :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا ... تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

قال الزجاج : أصل اللمم والإلمام : ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ، يقال : ألممت به : إذا زرته وانصرفت عنه ، ويقال : ما فعلته إلا لماما وإلماما ، أى الحين بعد الحين ، ومنه إلمام الخيال . قال الأعشى:

ألمّ خيال من قبيلة بعدما ... وهى حبلها من حبلنا فتصرما

قال فى الصحاح : ألمّ الرجل من اللَّمم وهو صغار الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة وأنشد غيره :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب ... وقلّ أن تملينا فما ملك القلب

وقد اختلفت أقوال أهل العلم فى تفسير هذا اللَّمم المذكور فى الآية . فالجمهور على أنه صغائر الذنوب . وقيل : هو ما كان دون الزنا من القبلة والغمزة والنظرة ، وبه قال مجاهد والحسن والزهرى وغيرهم ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا ... وأىّ عبد لك لا ألما

اختار هذا القول الزجاج والنحاس . وقيل : هو ذنوب الجاهلية ، فإن اللّه لا يؤاخذ بها فى الإسلام ، وقال نفطويه : هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة ، قال :والعرب تقول : ما تأتنا إلا إلماما ، أى فى الحين بعد الحين ، قال : ولا يكون أن يلم ولا يفعل ؛ لأن العرب لا

تقول : ألمّ بنا ، إلا إذا فعل ، لا إذا همّ ولم يفعل ، والراجح الأول . وجملة : ﴿ **إن ربك واسع المغفرة** ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء ، أى إن ذلك وإن خرج عن حكم المؤاخذة فليس يخلو من كونه ذنبا يفتقر إلى مغفرة الله ، ويحتاج إلى رحمته . وقيل : إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه . ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض** ﴾ أى خلقكم منها فى ضمن خلق أبيكم آدم .وقيل : المراد آدم فإنه خلقه من طين ﴿ **وإذ أنتم أجنة** ﴾ أى هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنة ، والأجنة جمع جنين وهو الولد ما دام فى البطن سمى بذلك لاجتنانه ، أى استتاره ولهذا قال : ﴿ **فى بطون أمهاتكم** ﴾ فلا يسمى من خرج عن البطن جنينا ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ أى لا تمدحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها ، فإن ترك تزكية النفس أبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الخشوع ، وجملة : ﴿ **هو أعلم بمن اتقى** ﴾ مستأنفة مقررة للنهى ، أى هو أعلم بمن اتقى عقوبة الله وأخلص العمل له . قال الحسن : وقد علم سبحانه من كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة .

ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على العموم خصّ بالذمّ بعضهم فقال : ﴿ **أفرأيت الذى تولى** ﴾ أى تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق ﴿ **وأعطى قليلا وأكدى** ﴾ أى أعطى عطاء قليلا ، وأعطى شيئا قليلا وقطع ذلك وأمسك عنه، وأصل أكدى من الكدية وهى الصلابة ، يقال لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر: قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتمّ ، ولمن طلب شيئا فلم يبلغ آخره ، ومنه قول الحطيئة :

فأعْطى قليلاً ثم أكْدَى عطاؤه ... ومن يَبْذُلِ المعروفَ فى الناس يحمد

قال الكسائى وأبو زيد : ويقال : كديت أصابعه : إذا محلت من الحفر ، وكدت يده : إذا كلت فلم تعمل شيئا ، وكدت الأرض : إذا قل نباتها ، وأكديت الرجل عن الشىء رددته ، وأكدى الرجل : إذا قلّ خيره . قال الفراء : معنى الآية : أمسك من العطية وقطع . وقال المبرد : منع منعا شديدا ، قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه ، فعيره بعض المشركين فترك ورجع إلى شركه ، قال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ، ثم أمسك عنه فأعطى قليلا من لسانه من الخير ثم قطعه . وقال الضحاك : نزلت فى النضر بن الحارث . وقال محمد بن كعب القرظى : نزلت فى أبى جهل (١) . ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أعند هذا المكدى علم ما غاب عنه من أمر العذاب ، فهو يعلم ذلك . ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى.وإبراهيم الذى وفىّ** ﴾ أى لم يخبر ولم يحدث بما فى صحف موسى ، يعنى : أسفاره، وهى التوراة ، وبما فى صحف إبراهيم الذى وفى ، أى تمم وأكمل ما أمر به .قال المفسرون : أى بلغ قومه ما أمر به وأداه إليهم . وقيل : بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه.

---
(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٧.

ثم بين سبحانه ما فى صحفهما فقال : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى ، ومعناه : لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، وأن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدّر ، وخبرها الجملة بعدها ومحل الجملة الجرّ على أنها بدل من صحف موسى وصحف إبراهيم ، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وقد مضى تفسير هذه الآية فى سورة الأنعام ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ عطف على قوله : ﴿ ألا تزر ﴾ وهذا أيضا مما فى صحف موسى ، والمعنى : ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ولا ينفع أحدا عمل أحد، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ [الطور : ٢١] وبمثل ما ورد فى شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ونحو ذلك ، ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام ، بل يخصصه ، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم : ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة . ﴿ثم يجزاه ﴾ أى يجزى الإنسان سعيه ، يقال : جزاه اللّه بعمله وجزاه على عمله ، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان ، والمنصوب إلى سعيه . وقيل : إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ فيكون الضمير راجعا إلى متأخر عنه هو مفسر له، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعا إلى الجزاء الذى هو مصدر يجزاه ، ويجعل الجزاء الأوفى تفسيرا للجزاء المدلول عليه بالفعل كما فى قوله : ﴿ اعدلوا هو أقرب ﴾ [المائدة : ٨] قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما . ﴿وأنّ إلى ربك المنتهى ﴾ أى المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره فيجازيهم بأعمالهم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ قال : الكبائر : ما سمى اللّه فيه النار ، والفواحش : ما كان فيه حدّ الدنيا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن اللّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق ،والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ،والبيهقى فى الشعب ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : زنا العينين : النظر ،وزنا الشفتين: التقبيل ، وزنا اليدين : البطش ، وزنا الرجلين: المشى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللمم . وأخرج مسدد وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه سئل عن قوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ قال: هى النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وأخرج سعيد بن منصور والترمذى وصححه ،

---

(١) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٣) وفى القدر (٦٦١٢) معلقا ومسلم فى القدر (٢٦٥٧/ ٢٠) وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢) والنسائى فى التفسير (٥٦٤).

والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،والبيهقى فى الشعب ، عن ابن عباس قال فى قوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها قال : وقال رسول الله ﷺ :

« إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما » (١)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ يقول : إلا ما قد سلف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ إلا اللمم﴾ قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، فذلك الإلمام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ، قال: اللمم كل شيء بين الحدّين حدّ الدنيا وحدّ الآخرة يكفره الصلاة ، وهو دون كل موجب، فأما حدّ الدنيا فكل حدّ فرض الله عقوبته فى الدنيا ،وأما حدّ الآخرة فكلّ شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصارى قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا : هو صدّيق. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: « كذبت يهود ما من نسمة يخلقها فى بطن أمها إلا أنه شقى وسعيد » ، فأنزل الله عند ذلك ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ الآية كلها (٢) .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برّة فقال رسول الله ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البرّ منكم ، سموها زينب » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأعطى قليلا وأكدى ﴾ قال : قطع. نزلت فى العاص بن وائل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : أطاع قليلا ثم انقطع .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والشيرازى فى الألقاب ، والديلمى قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : « أتدرون ما قوله : ﴿وإبراهيم الذى وفى ﴾ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « وفّى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهنّ وزعم أنها صلاة الضحى » وفى إسناده جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف (٤) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : سهام

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٨٤) وقال:« هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق» وابن جرير ٢٧/٣٩ وصححه الحاكم ٢/٤٦٩ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٠٥٥، ٧٠٥٦) .ط . دار الكتب العلمية .

وقد نسب هذا البيت لأمية بن أبى الصلت فى اللسان ، وفى القرطبى : قاله عند احتضاره وقيل : القائل هو أبو خراش الهذلى ، قاله وهو يطوف بالبيت ، والواضح أن رسول الله ﷺ قد تمثل به .

(٢) الطبرانى (١٣٦٨).

(٣) مسلم فى الآداب (٢١٤٢/١٩) وأبو داود فى الأدب (٤٩٥٣).

(٤) ابن جرير ٢٧/٤٣ والديلمى فى الفردوس (٧١٦٩) .

الإسلام ثلاثون سهما لم يتممها أحد قبل إبراهيم عليه السلام ، قال الله : ﴿وإبراهيم الذى وفى ﴾ (١). وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : يقول إبراهيم الذى استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا ،والذى فى صحف موسى: ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى آخر الآية(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ » إلى آخر الآية [الروم : ١٧]. وفى إسناده ابن لهيعة (٣) . وأخرج عبد بن حميد ،والحاكم وصححه ،وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ والنجم ﴾ فبلغ : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ قال : وفّى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى قوله : ﴿ من النذر الأولى ﴾ (٤) .

وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فانزل الله بعد ذلك:﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [الطور:٢١] فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء (٥).وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع واستكان. وأخرج الدارقطنى فى الأفراد ، والبغوى فى تفسيره عن أبيّ بن كعب عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ قال : « لا فكرة فى الرب»(٦).

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أى هو الخالق لذلك والقاضى بسببه . قال الحسن

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٠ ووافقه الذهبى . (٢) ابن جرير ٢٧/ ٤٣.
(٣) الرواية فى ابن جرير ٢٧/ ٤٣ والديلمى فى الفردوس (٧١٧٠).
(٤) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٠ ووافقه الذهبى . (٥) الأثر عن ابن جرير ٢٧/ ٤٤.
(٦) البغوى فى التفسير ٤/ ٢٥٥.

والكلبى : أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار . وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر . وقيل : أضحك من شاء بأن سره ، وأبكى من شاء بأن غمه. وقال سهل بن عبد الله :أضحك المطيعين بالرحمة ، وأبكى العاصين بالسخط ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره . وقيل :خلق نفس الموت والحياة كما فى قوله : ﴿ خلق الموت والحياة ﴾ [الملك : ٢] وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . وقيل : المراد بهما : النوم واليقظة . وقال عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقيل : أمات الكافر وأحيا المؤمن كما فى قوله : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ [الأنعام : ٢٢] .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى ﴾ المراد بالزوجين : الذكر والأنثى من كل حيوان ، ولا يدخل فى ذلك آدم وحواء فإنهما لم يخلقا من النطفة ، والنطفة : الماء القليل ، ومعنى ﴿ إذا تمنى ﴾ : إذ تصبّ فى الرحم وتدفق فيه كذا قال الكلبى والضحاك وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ، يقال : منى الرجل وأمنى ، أى صب المنى . وقال أبو عبيدة : ﴿ إذا تمنى ﴾ : إذا تقدرّ : يقال : منيت الشيء : إذا قدرته، ومنى له ، أى قدر له ،ومنه قول الشاعر :

حتّى تلاقى ما يمْنى لَكَ المانى

والمعنى : أنه يقدّر منها للولد . ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أى إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده . قرأ الجمهور : ﴿ النشأة ﴾ بالقصر بوزن الضربة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة ، وهما على القراءتين مصدران . ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ومثله قوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الرعد : ٢٦] ،وقوله :﴿ يقبض ويبسط ﴾ [البقرة : ٢٤٥] قاله ابن زيد ، واختاره ابن جرير ، وقال مجاهد وقتاده والحسن : أغنى : موّل ، وأقنى : أخدم . وقيل : معنى أقنى : أعطى القنية ، وهى ما يتأثل من الأموال . وقيل : معنى أقنى: أرضى بما أعطى ، أى أغناه ، ثم رضاه بما أعطاه . قال الجوهرى : قنى الرجل قنى ، مثل غنى غنى ، أى أعطاه ما يقتنى، وأقناه : أرضاه ، والقنى : الرضى . قال أبو زيد : تقول العرب : من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى ، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى ، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى . قال الأخفش وابن كيسان : أقنى : أفقر. وهو يؤيد القول الأوّل .﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها ،والمراد بها:الشعرى التى يقال لها : العبور ، وهى أشد ضياء من الشعرى التى يقال لها :الغميصاء . وإنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعرى مع كونه ربّا لكل الأشياء للردّ على من كان يعبدها ، وأول من عبدها أبو كبشة ، وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ : ابن أبى كبشة ، تشبيها له

به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، ومن ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح : لقد أمر أمْر ابن أبى كبشة .

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وصف عادا بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود . قال ابن زيد : قيل لها : عادا الأولى ، لأنهم أول أمة أهلكت بعد نوح . وقال ابن إسحاق : هما عادان ، فالأولى أهلكت بالصرصر ، والأخرى أهلكت بالصيحة. وقيل : عاد الأولى : قوم هود وعاد الأخرى :إرم . قرأ الجمهور : ﴿ عادا الأولى ﴾ بالتنوين والهمز، وقرأ نافع وابن كثير وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام وإدغام التنوين فيها . ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ أى وأهلك ثمود كما أهلك عادا فما أبقى أحدا من الفريقين ، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة ، وقد تقدّم الكلام على عاد وثمود فى غير موضع . ﴿وقوم نوح من قبل ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أى أظلم من عاد وثمود وأطغى منهم ، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية ، أو أظلم وأطغى من مشركى العرب، وإنما كانوا كذلك ؛ لأنهم عتوا على الله بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم ، كما فى قوله : ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ [العنكبوت :١٤] ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ الائتفاك : الانقلاب ، والمؤتفكة : مدائن قوم لوط ، وسميت المؤتفكة؛ لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها ، تقول: أفكته : إذا قلبته ، ومعنى ﴿ أهوى ﴾:أسقط ، أى أهواها جبريل بعد أن رفعها . قال المبرد : جعلها تهوى . ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها ، كما فى قوله :﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ [الحجر : ٧٤] وفى هذه العبارة تهويل للأمر الذى غشاها به وتعظيم له . وقيل : إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة ، أى فغشاها من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه .

﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ هذا خطاب للإنسان المكذب ، أى فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمترى . وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره . وقيل : لكلّ من يصلح له ، وإسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء ، أى نعما مع كون بعضها نقما لا نعما ؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ ، ولكون فيها انتقام من العصاة ،وفى ذلك نصرة للأنبياء والصالحين ، قرأ الجمهور : ﴿ تتمارى ﴾ من غير إدغام ،وقرأ يعقوب وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى. ﴿هذا نذير من النذر الأولى ﴾ أى هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدمين قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم . كذا قال ابن جريج ومحمد بن كعب وغيرهما ،وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى . وقيل : هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك ، كما قال أبو مالك .وقال أبو صالح : إن الإشارة

بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى ما فى صحف موسى وإبراهيم ، والأوّل أولى . ﴿ **أزفت الآزفة** ﴾ أى قربت الساعة ودنت ، سماها آزفة لقرب قيامها ، وقيل : لدنوّها من الناس كما فى قوله : ﴿اقتربت الساعة ﴾ [القمر : ١] أخبرهم بذلك ليستعدوا لها. قال فى الصحاح: أزفت الآزفة، يعنى : القيامة وأزف الرجل عجل ، ومنه قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

﴿ **ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾ أى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه .وقيل :كاشفة بمعنى انكشاف ، والهاء فيها كالهاء فى العاقبة والداهية . وقيل :كاشفة بمعنى كاشف ، والهاء للمبالغة كراوية ، والأول أولى ، وكاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا ، والمعنى : أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير الله . كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . ثم وبخهم سبحانه فقال : ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون** ﴾ المراد بالحديث : القرآن ، أى كيف تعجبون منه تكذيبا ﴿ **وتضحكون**﴾ منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب ولا موضع للاستهزاء ﴿ **ولا تبكون** ﴾ خوفا وانزجارا لما فيه من الوعيد الشديد ، وجملة : ﴿**وأنتم سامدون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها ، والسمود : الغفلة والسهو عن الشىء ، وقال فى الصحاح : سمد سموداً : رفع رأسه تكبرا ، فهو سامد . قال الشاعر :

سوامد الليل خفاف الأزواد (١)

وقال ابن الأعرابى : السمود : اللهو ، والسامد : اللاهى ، يقال للقينة : أسمدينا ، أى ألهينا بالغناء ، وقال المبرد : سامدون : خامدون ، قال الشاعر :

رمى الحدثان نسوة آل عمرو بمقدار سمدن له سمــودا

فرد شعورهنّ السود بيضا وردّ وجوههنّ البيض سودا

﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية به وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره أمر عباده المؤمنين بالسجود لله والعبادة له ، والفاء جواب شرط محذوف ، أى إذا كان الأمر من الكفار كذلك ، فاسجدوا لله واعبدوا ، فإنه المستحق لذلك منكم ، وقد تقدم فى فاتحة السورة أن النبى ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه الكفار ، فيكون المراد بها : سجود التلاوة ، وقيل : سجود الفرض .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾ قال : أعطى وأرضى . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **وأنه هو ربّ الشعرى** ﴾ قال : هو الكوكب

(١) خفاف الأزواد : أى ليس فى بطونها علف ، وقيل : ليس على ظهورها زاد للراكب .

الذى يدعى الشعرى . وأخرج الفاكهى عنه أيضا قال : نزلت هذه الآية فى خزاعة ، وكانوا يعبدون الشعرى ، وهو الكوكب الذى يتبع الجوزاء . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى** ﴾ قال : محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الآزفة من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن صالح أبى الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون** ﴾ فما ضحك النبى ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم. ولفظ عبد بن حميد : فما رأى النبىّ ﷺ ضاحكا ولا متبسما حتى ذهب من الدنيا (١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سامدون** ﴾ قال : لاهون معرضون عنه . وأخرج الفريابى ، وأبو عبيد فى فضائله، وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه: ﴿ **وأنتم سامدون** ﴾ قال: الغناء باليمانية ، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا . وأخرج الفريابى ، وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **سامدون** ﴾ قال : كانوا يمرون على النبىّ ﷺ شامخين ، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخا (٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أبى خالد الوالبى قال: خرج على بن أبى طالب علينا وقد أقيمت الصلاة ونحن قيام ننتظره ليتقدّم فقال : ما لكم سامدون ، لا أنتم فى صلاة ولا أنتم فى جلوس تنتظرون ؟

---

(١) ابن أبى شيبة (١٦٢٠٣).

(٢) أبو يعلى (٢٦٨٥) وابن جرير ٤٩/٢٧ وقال الهيثمى فى المجمع ١١٩/٧: « فيه الضحاك بن مزاحم ، وقد وثق، وفيه ضعف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٥٨) وسكت عنه البوصيرى .

تفسير سورة القمر

ويقال : سورة اقتربت ، وهى خمس وخمسون آية . وهى مكية كلها فى قول الجمهور . وقال مقاتل: هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ إلى قوله : ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ قال القرطبى: ولا يصح[1]. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: اقتربت تدعى فى التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه . قال البيهقى: منكر[2]. وأخرج ابن الضريس عن إسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة رفعه: « من قرأ اقتربت الساعة فى كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ». وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، وقد تقدم أن النبى ﷺ كان يقرأ بـ﴿ ق ﴾ و﴿ اقتربت الساعة ﴾ فى الأضحى والفطر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧ ﴾ .

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ أى قربت ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقى بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة . ويمكن أن يقال : إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل آت قريب ﴿ وانشق القمر﴾ أى وقد انشق القمر وكذا قرأ حذيفة بزيادة« قد »، والمراد : الانشقاق الواقع فى أيام النبوّة معجزة لرسول الله ﷺ ،

---

(١) القرطبى ٩ / ٦٢٩٥ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٦٦) تفرد به محمد بن عبد الرحمن عن سليمان وهو منكر ، وإسناده ضعيف .

وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف . قال الواحدى : وجماعة المفسرين على هذا ، إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال : المعنى: سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه ، قال : وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر ؛لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة ، قال ابن كيسان : فى الكلام تقديم وتأخير، أى انشق القمر واقتربت الساعة ، وحكى القرطبى عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة . وقيل : معنى ﴿ انشق القمر ﴾ : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح . وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه وطلوعه فى أثنائها كما يسمى الصبح فلقا لانفلاق الظلمة عنه . قال ابن كثير : قد كان الانشقاق فى زمان رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات [١]. قال الزجاج: زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة. والأمر بين فى اللفظ وإجماع أهل العلم ؛لأن قول : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ ﴾ يدلّ على أن هذا كان فى الدنيا لا فى القيامة . انتهى . ولم يأت من خالف الجمهور وقال: إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد ، فقال : لأنه لو انشق فى زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس فى الآيات سواء ، ويجاب بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلا ولا شرعا ولا عادة ، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر ، وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ، ويضرب به وجه قائله .

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشقّ ،ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت فى الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذّ واستبعاد من استبعد ، وسيأتى ذكر بعض ما ورد فى ذلك إن شاء الله.

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : لما انشق القمر قال المشركون سحرنا محمد ، فقال الله : ﴿ وإن يروا آية ﴾ يعنى انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها ، ويقولوا: سحر قوىّ شديد يعلو كل سحر ، من قولهم : استمرّ الشىء إذا قوى واستحكم ، وقد قال بأن معنى ﴿ مستمرّ ﴾ : قوى شديد جماعة من أهل العلم . قال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل ، وهو شدة فتله ، وبه قال أبو العالية والضحاك ، واختاره النحاس ، ومنه قول لقيط :

حتَّى استمرّت على شَر لا يزنه صِدْقُ العزيمة لا رثا ولا ضَرَعا

وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : ﴿ سحر مستمرّ ﴾ أى ذاهب ، من قولهم : مرّ الشىء واستمرّ إذا ذهب،وبه قال قتادة ومجاهد وغيرهما ،واختاره النحاس ،وقيل: معنى ﴿مستمرّ﴾: دائم مطرد ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) ابن كثير ٦/٤٦٩ .

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر وليس على شيء قديم بمستمر

أى بدائم باق . وقيل : ﴿ مستمرّ ﴾ : باطل ، روى هذا عن أبى عبيدة أيضًا . وقيل: يشبه بعضه بعضا . وقيل : قد مرّ من الأرض إلى السماء . وقيل : هو من المرارة ، يقال : مرّ الشيء صار مرًا ، أى مستبشع عندهم . وفى هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان كما قررناه سابقا . ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال : ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أى وكذبوا رسول الله ، وما عاينوا من قدرة الله ، واتبعوا أهواءهم وما زينه لهم الشيطان الرجيم،وجملة : ﴿ وكل أمر مستقرّ﴾ مستأنفة لتقدير بطلان ما قالوه من التكذيب واتباع الأهواء ، أى وكل أمر من الأمور منته إلى غاية ، فالخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر ، قال الفراء : يقول : يستقر قرار تكذيبهم ، وقرار قول المصدّقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب . قال الكلبى : المعنى : لكل أمر حقيقة ما كان منه فى الدنيا فسيظهر، وما كان منه فى الآخرة فسيعرف ، قرأ الجمهور: ﴿ مستقرّ ﴾ بكسر القاف،وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ وهو« كلّ »، وقرأ أبو جعفر وزيد بن على بجر «مستقر » على أنه صفة لـ﴿ أمر﴾ ، وقرأ شيبة بفتح القاف ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، قال أبو حاتم : ولا وجه لها . وقيل : لها وجه بتقدير مضاف محذوف ، أى وكل أمر ذو استقرار ، أو زمان استقرار ، أو مكان استقرار ، على أنه مصدر أوظرف زمان ، أو ظرف مكان .

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أى ولقد جاء كفار مكة ، أو الكفار على العموم من الأنباء ، ومن أخبار الأمم المكذبة المقصوصة علينا فى القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أى ازدجار على أنه مصدر ميمىّ ، يقال : زجرته : إذا نهيته عن السوء ووعظته ، ويجوز أن يكون اسم مكان ، والمعنى : جاءهم ما فيه موضع ازدجار ، أى أنه فى نفسه موضع لذلك ، وأصله: مزتجر ، « وتاء » الافتعال تقلب دالا مع الزاى والدال والذال كما تقرّر فى موضعه ، وقرأ زيد بن علىّ : « مزّجر » بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاى فى الزاى ، و « من » فى قوله : ﴿ من الأنباء ﴾ للتبعيض ، وهى وما دخلت عليه فى محل نصب على الحال ، وارتفاع ﴿ حكمة بالغة ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف أو بدل من « ما » بدل كل من كل ، أوبدل اشتمال، والمعنى :أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل ، وقرئ بالنصب على أنها حال من «ما» ، أى حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة ﴿ فما تغن النذر ﴾ « ما » يجوز أن تكون استفهامية ، وأن تكون نافية ، أى أىّ شيء تغنى النذر أو لم تغن النذر شيئا ، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة ، والنذر جمع نذير بمعنى : النذر ، أو معنى : الإنذار على أنه مصدر .

ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم فقال : ﴿ فتولّ عنهم ﴾ أى أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار ، وهى منسوخة بآية السيف . ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر ، أى اذكر ، وإما بـ ﴿يخرجون ﴾ المذكور بعده ، وإما

بقوله : ﴿ **فما تغن** ﴾ ، ويكون قوله :﴿ **فتولّ عنهم** ﴾ اعتراض ، أو بقوله :﴿ **يقول الكافرون**﴾ أو بقوله : ﴿ **خشعا** ﴾ وسقطت الواو من ﴿ **يدع** ﴾ اتباعا للفظ ، وقد وقعت فى الرسم هكذا وحذفت الياء من الداع للتخفيف واكتفاء بالكسرة ، والداع : هو إسرافيل ، والشيء النكر : الأمر الفظيع الذى ينكرونه استعظاما له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله . قرأ الجمهور بضم الكاف ، وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفا . وقرأ مجاهد وقتادة بكسر الكاف وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول . ﴿ **خشعا أبصارهم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **خشعا** ﴾ جمع خاشع ، وقرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو : « خاشعًا » على الإفراد ، ومنه قول الشاعر :

وَشَبَّاب حَسَن أَوْجُهُهُمْ من ... إِيَاد بن نِزارِ بن مَعَد

وقرأ ابن مسعود : « خاشعة » قال الفراء : الصفة إذا تقدمت على الجماعة جاز فيها التذكير والتأنيث والجمع ، يعنى : جمع التكسير لا جمع السلامة ، لأنه يكون من الجمع بين فاعلين ، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وانتصاب ﴿ **خشعا** ﴾ على الحال من فاعل يخرجون ، أو من الضمير فى﴿ **عنهم** ﴾ . والخشوع فى البصر : الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العزّ والذل يتبين فيها ﴿ **يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾ أى يخرجون من القبور ، وواحد الأجداث : جدث وهو القبر ، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر . أى منبث فى الأقطار مختلط بعضه ببعض . ﴿ **مهطعين إلى الداع** ﴾ الإهطاع : الإسراع ، أى قال كونهم مسرعين إلى الداع ، وهو إسرافيل ، ومنه قول الشاعر :

بِدجْلَةَ دَارهُم وَلَقد أرَاهُمْ ... بِدجْلَةَ مُهْطِعين إلى السَّمَاعِ

أى مسرعين إليه ، وقال الضحاك : مقبلين ، وقال قتادة : عامدين ، وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة وغيره ، وجملة : ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ﴿ **مهطعين** ﴾ ، والرابط مقدر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا يكون حينئذ ، والعسر: الصعب الشديد ، وفى إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين . ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدّم من الأنباء المجملة فقال : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح** ﴾ أى كذبوا نبيهم ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وقوله:﴿**فكذبوا عبدنا** ﴾ تفسير لما قبله من التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتأكيد ، أى فكذبوا عبدنا نوحا . وقيل : المعنى : كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل فإنه منهم . ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرّد التكذيب فقال : ﴿ **وقالوا مجنون** ﴾ أى نسبوا نوحا إلى الجنون وقوله : ﴿ **وازدجر** ﴾ معطوف على قالوا ، أى وزجر عن دعوى النبوة وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، والدال بدل من

تاء الافتعال كما تقدّم قريبا . وقيل : إنه معطوف على ﴿مجنون﴾ أى وقالوا : إنه ازدجر. أى ازدجرته الجن وذهبت بلبه، والأول أولى .قال مجاهد:هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهز وزجر بالسب وأنواع الأذى . قال الرازى: وهذا أصح ، لأن المقصود: تقوية قلب النبىّ ﷺ بذكر من تقدّمه .

﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ أى دعا نوح ربه على قومه بأنى مغلوب من جهة قومى لتمردهم على الطاعة وزجرهم لى عن تبليغ الرسالة ، فانتصر لى ، أى انتقم لى منهم ، طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما أيس من إجابتهم وعلم تمرّدهم وعتوّهم وإصرارهم على ضلالتهم ، قرأ الجمهور: ﴿ أنى ﴾ بفتح الهمزة . أى بأنى . وقرأ ابن أبى إسحاق والأعمش بكسر الهمزة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول ، أى فقال . ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال . ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ أى منصبّ انصبابا شديدا ، والهمر الصبّ بكثرة ، يقال : همر الماء والدمع يهمر همرا وهمورا : إذا كثر ، ومنه قول الشاعر :

أعينىّ جُودا بالدُّموعِ الهَوَامِرِ ... على خيرِ بَادٍ من مَعَدٍّ وحَاضِرِ

ومنه قول امرئ القيس يصف عينا :

رَاحَ تَمرِ به الصَّبَا ثم انْتَحَى ... فيه بشُؤْبُوب (١) جَنُوبٍ مُنْهَمِرِ

قرأ الجمهور : ﴿ ففتحنا ﴾ مخففا ، وقرأ عامر ويعقوب بالتشديد . ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ أى جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة ، والأصل: فجرنا عيون الأرض ، قرأ الجمهور : ﴿ فجرنا ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف ، قال عبيد ابن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون . ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ أى التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم ، أى كائنًا على حال قدّرها الله وقضى بها ، وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء . قال قتادة : قدّر لهم إذ كفروا أن يغرقوا ، وقرأ الجحدرى : « فالتقى الماءان » وقرأ الحسن : « فالتقى الماوان » ورويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب ومحمد بن كعب: ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أى وحملنا نوحا على سفينة ذات ألواح ، وهى الأخشاب العريضة ﴿ ودسر ﴾ قال الزجاج : هى المسامير التى تشدّ بها الألواح واحدها: دسار ،وكل شىء أدخل فى شىء يشدّه فهو الدسر ، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب وابن زيد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : الدسر : ظهر السفينة التى يضربها الموج ، سميت بذلك لأنها تدسر الماء ، أى تدفعه ، والدسر: الدفع . وقال الليث : الدسار : خيط تشدّ به ألواح السفينة . قال فى

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

الصحاح : الدسار : واحد الدسر وهى خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال : هى المسامير . ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى بمنظر ومرأى منا وحفظ لها كما فى قوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ [هود: ٣٧] وقيل : بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بالأعين النابعة من الأرض . وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ قال الفراء : فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثوابا لمن كفر به وجحد أمره وهو نوح عليه السلام ، فإنه كان لهم نعمة كفروها فانتصاب ﴿ جزاء ﴾ على العلة ، وقيل: على المصدرية بفعل مقدّر ، أى جازيناهم جزاء . قرأ الجمهور : ﴿كفر﴾ مبنيا للمفعول ، والمراد به : نوح . وقيل : هو الله سبحانه ، فإنهم كفروا به وجحدوا نعمته ، وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد وعيسى : « كفر » بفتح الكاف والفاء مبنيا للفاعل ، أى جزاء وعقابا لمن كفر بالله .

﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أى السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين . وقيل : المعنى : ولقد تركنا هذه الفعلة التى فعلناها بهم عبرة وموعظة . ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أصله : مذتكر ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما وأدغمت الدال فى الذال والمعنى : هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها . ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ أى إنذارى. قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران ، والاستفهام للتهويل والتعجيب ، أى كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف . وقيل : نذر جمع نذير ، ونذير بمعنى الإنذار ، كنكير : بمعنى الإنكار . ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ أى سهلناه للحفظ . وأعنا عليه من أراد حفظه . وقيل : هيأناه للتذكر والاتعاظ ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أى متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره ، وفى الآية الحث على درس القرآن والاستكثار من تلاوته والمسارعة فى تعلمه ، ومدكر أصله : مذتكر كما تقدّم قريبا .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما . وروى عنه من طريق أخرى عند مسلم والترمذى وغيرهم وقال : فنزلت : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » (٢) .

وأخرج عبد بن حميد ،والحاكم وصححه ،وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه قال : رأيت القمر منشقا شقتين مرّتين : مرة بمكة قبل أن يخرج النبىّ ﷺ :شقة على أبى قبيس ،

---

(١) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٦٨) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٢ / ٤٦) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٦) والنسائى فى التفسير (٥٧٤) .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٦٣٦) وفى مناقب الأنصار (٣٨٦٩ ، ٣٨٧١) وفى التفسير (٤٨٦٤ ، ٤٨٦٥) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٠ / ٤٣ ـ ٤٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٥ ، ٣٢٨٧) والنسائى فى التفسير (٥٧٢ ، ٥٧٣) .

وشقة على السويداء ، وذكر أن هذا سبب نزول الآية [١]. وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم عنه أيضا قال : رأيت القمر وقد انشق ، وأبصرت الجبل بين فرجتى القمر ، وله طرق عنه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : انشق القمر فى زمن النبىّ ﷺ وله طرق عنه . وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ قال : كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين : فرقة من دون الجبل ، وفرقة خلفه، فقال النبىّ ﷺ :« اللهم اشهد » [٢] . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم عن أبيه فى قوله : ﴿ **وانشق القمر** ﴾ قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل . فقال الناس : سحرنا محمد فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم[٣] .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن مردويه وأبونعيم عن عبد الرحمن السلمى قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ ،ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، اليوم المضمار ، وغدا السباق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **مهطعين** ﴾ قال : ناظرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر** ﴾ قال : كثير : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماءان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا: ﴿ **على ذات ألواح ودسر** ﴾ قال : الألواح: ألواح السفينة ، والدسر : معاريضها التى تشد بها السفينة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ودسر** ﴾ قال : المسامير . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : الدسر كلكل السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر** ﴾ قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله. وأخرج الديلمى عن أنس مرفوعًا مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **فهل من مدّكر** ﴾ قال: هل من متذكر.

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٧١ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى وقال : « أصله فى الكتابين » والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٦٥ .

(٢) مسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠١ / ٤٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٨) وابن جرير ٢٧ / ٥٠ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٢٣٤ .

(٣) أحمد ٤ / ٨٢ والترمذى فى التفسير (٣٢٨٩) وابن جرير ٢٧ / ٥١ وصححه الحاكم ٢ / ٤٧٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « كلها صحاح » ، والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٦٨ .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

قوله : ﴿ **كذبت عاد** ﴾ هم قوم عاد ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ أى فاسمعوا كيف كان عذابى لهم وإنذارى إياهم ، ونذر مصدر بمعنى إنذار كما تقدم تحقيقه ، والاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا** ﴾ هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقا من العذاب . والصرصر : شدة البرد ، أى ريح شديدة البرد . وقيل : الصرصر : شدة الصوت ، وقد تقدم بيانه فى سورة حم السجدة ﴿ **فى يوم نحس مستمر** ﴾ أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم ، قال الزجاج : قيل : فى يوم الأربعاء فى آخر الشهر . قرأ الجمهور : ﴿ **فى يوم نحس** ﴾ بإضافة ﴿**يوم**﴾ إلى ﴿**نحس**﴾ مع سكون الحاء وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو على تقدير مضاف ، أى فى يوم عذاب نحس . وقرأ الحسن بتنوين «يوم » على أن ﴿**نحس**﴾ صفة له ، وقرأ هارون بكسر الحاء ، قال الضحاك : كان ذلك اليوم مرا عليهم، وكذا حكى الكسائى عن قوم أنهم قالوا : هو من المرارة ، وقيل : هو من المرّة بمعنى : القوة ؛ أى فى يوم قوىّ الشؤم مستحكمه ، كالشىء المحكم الفتل الذى لا يطاق نقضه، والظاهر أنه من الاستمرار لا من المرارة ولا من المرّة، أى دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم ، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم .

وجملة : ﴿ **تنزع الناس** ﴾ فى محل نصب على أنها صفة لـ ﴿ **ريحا** ﴾ أو حال منها ، ويجوز أن تكون استئنافا ، أى تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها . قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض فترمى بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم وتبين رؤوسهم من أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقيل : من قبورهم لأنهم حفروا حفائر ودخلوها ﴿ **كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ الأعجاز :جمع عجز ، وهو مؤخر الشىء ، والمنقعر : المنقطع المنقلع من أصله ، يقال : قعرت النخلة : إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط ، شبههم فى طول قاماتهم حين صرعتهم الريح ، وطرحتهم على وجوههم ، بالنخل الساقط على الأرض التى ليست لها رؤوس ، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولا ثم كبتهم (١) على وجوههم وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهى مؤنثة اعتبارا باللفظ ويجوز تأنيثه اعتبارًا بالمعنى ، كما قال : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : ٧] قال المبرد : كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا . وقيل : إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ قد تقدم تفسيره قريبا ، وكذلك قوله: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ .

ثم لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود ، فقال : ﴿ **كذبت ثمود بالنذر** ﴾ يجوز أن يكون جمع نذير ، أى كذبت بالرسل المرسلين إليهم ، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار ، أى كذبت بالإنذار الذى أنذروا به ، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيبا للرسل ، لأن من كذب واحدًا من الأنبياء فقد كذب سائرهم ، لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع ﴿ **فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه ؟ قرأ الجمهور : بنصب ﴿ **بشرًا** ﴾ على الاشتغال ، أى أنتبع بشرا واحدا . وقرأ أبو السماك والدانى وأبو الأشهب وابن السميفع بالرفع على الابتداء ، و ﴿ **واحدًا** ﴾ صفته، و ﴿**نتبعه**﴾ خبره ، وروى عن أبى السماك أنه قرأ برفع ﴿ **بشرًا** ﴾ ونصب ﴿ **واحدًا** ﴾ على الحال ﴿ **إنا إذا لفى ضلال** ﴾ أى إنا إذا اتبعناه لفى خطأ وذهاب عن الحق ﴿**وسعر**﴾ أى عذاب وعناء وشدة كذا قال الفراء وغيره ، وقال أبو عبيدة : هو جمع سعير ، وهو لهب النار ، والسعر : الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدّة . وقال مجاهد:﴿ **وسعر**﴾ وبُعد عن الحقّ. وقال السدىّ : فى احتراق . وقيل : المراد به هنا : الجنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ومنه قول الشاعر يصف ناقة :

تَخَالُ بها سُعْرًا إِذَا السَّعْرُ هَزَّهَا ... ذَمِيلٌ (٢) وإيقاعٌ من السَّيْر مُتْعِبُ

ثم كرروا الإنكار والاستبعاد فقالوا : ﴿ **أألقى الذكر عليه من بيننا** ﴾ أى كيف خصّ من

(١) فى المطبوعة : « كتبتهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) الذميل : ضرب من سير الإبل السريع .

بيننا بالوحي والنبوّة وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟ ثم أضربوا عن الاستنكار وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا ، فقالوا : ﴿ **بل هو كذاب أشر** ﴾ . والأشر : المرح والنشاط ، أو البطر والتكبر ، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، ومنه قول الشاعر :

أشِرتُمْ بِلبْس الخَزِّ لما لَبِسْتُمُ ومن قبلُ لا تدْرون مَنْ فَتَحَ القُرى

قرأ الجمهور : ﴿ **أشر** ﴾ كفرح ، وقرأ أبو قلابة وأبو جعفر بفتح الشين وتشديد الراء على أنه أفعل تفضيل . ونقل الكسائي عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة . ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **سيعلمون غدا من الكذاب الأشر** ﴾ والمراد بقوله: ﴿ **غدا** ﴾ : وقت نزول العذاب بهم في الدنيا ، أو في يوم القيامة جريًا على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد ، كما في قولهم : إن مع اليوم غدا ، وكما في قول الحطيئة :

للموت فيها سِهامٌ غَيْر مُخْطِئَةٍ مَنْ لم يكن مَيِّتاً في اليوم ماتَ غَدَا

ومنه قول أبي الطماح :

ألا عَلّلانِي قَبْـل نَـوْحِ النَّوائِـحِ وَقَبْـلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَين الجَوانِحِ

وقبلَ غَدٍ يالَهْفَ نَفْسِي على غَدٍ إذَا رَاحَ أصْحَـابِي ولسـتُ برائـح

قرأ الجمهور : ﴿ **سيعلمون** ﴾ بالتحتية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة ، وقرأ أبوعمرو وابن عامر وحمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه. وجملة : ﴿ **إنا مرسلو الناقة** ﴾ مستأنفة لبيان ما تقدّم إجماله من الوعيد ، أي إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ﴿ **فتنة لهم** ﴾ أي ابتلاء وامتحانا ، وانتصاب ﴿**فتنة**﴾ على العلة ﴿**فارتقبهم**﴾ أي انتظر ما يصنعون ﴿ **واصطبر**﴾ على ما يصيبك من الأذى منهم .﴿**ونبئهم أن الماء قسمة بينهم** ﴾ أي بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله: ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ [الشعراء : ١٥٥] وقال : ﴿ **نبئهم** ﴾ بضمير العقلاء تغليبا . ﴿ **كل شرب محتضر** ﴾ الشرب بكسر الشين : الحظ من الماء ، ومعنى ﴿**محتضر**﴾ : أنه يحضره من هوله ، فالناقة تحضره يومًا وهم يحضرونه يوما ، قال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم ، فيشربون ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون . قرأ الجمهور:﴿**قسمة** ﴾ بكسر القاف بمعنى: مقسوم ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها ، ﴿ **فنادوا صاحبهم** ﴾ أي نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها ﴿**فتعاطى فعقر** ﴾ أي تناول الناقة بالعقر فعقرها ، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر . قال محمد بن إسحاق: كمن لها في أصل شجرة على طريقها ، فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها ، والتعاطي : تناول الشيء

بتكلف ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة . ثم بين ما أجمله من العذاب فقال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة** ﴾ قال عطاء : يريد صيحة جبريل ، وقد مضى بيان هذا فى سورة هود وفى الأعراف ﴿ **فكانوا كهشيم المحتظر**﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم : حطام الشجر ويابسه ، والمحتظر: صاحب الحظيرة ، وهو الذى يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال : احتظر على غنمه : إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض . قال فى الصحاح : والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة ، وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية بفتح الظاء ، أى كهشيم الحظيرة ، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار ، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة ، ومعنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يبس فى الحظيرة وداسته الغنم بعد سقوطه ، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجاجة كدخان نار　　　تشب بغرقد بال هشيم

وقال قتادة : هو العظام النخرة المحترقة ، وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح ، وقال سفيان الثورى : هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى ، قال ابن زيد : العرب تسمى كلّ شيء كان رطبا فيبس هشيما ، ومنه قول الشاعر :

ترى جيف المطىّ بجانبيه　　　كأن عظامها خشب الهشيم

﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة . ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله كما كذبهم غيرهم ، فقال : ﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾ وقد تقدّم تفسير النذر قريبًا . ثم بين سبحانه ما عذبهم به فقال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصبًا** ﴾ أى ريحا ترميهم بالحصباء ، وهى الحصى. قال أبو عبيدة والنضر بن شميل : الحاصب : الحجارة فى الريح . قال فى الصحاح : الحاصب : الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربها　　　بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ **إلا آل لوط نجيناهم بسحر** ﴾ يعنى : لوطا ومن تبعه ، والسحر : آخر الليل . وقيل : هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار ، وانصرف ﴿**سحر**﴾ لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة ، ولو قصد معينا لامتنع ، كذا قال الزجاج والأخفش وغيرهما ، وانتصاب ﴿ **نعمة من عندنا** ﴾ على العلة ، أو على المصدرية ، أى إنعاما منا على لوط ومن تبعه. ﴿ **كذلك نجزى من شكر** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزى من شكر نعمتنا ولم يكفرها . ﴿**ولقد أنذرهم بطشتنا**﴾ أى أنذر لوط قومه بطشة الله بهم ، وهى عذابه الشديد وعقوبته البالغة ، ﴿ **فتماروا بالنذر** ﴾ أى شكوا فى الإنذار ولم يصدّقوه ، وهو تفاعلوا من المرية وهى الشك . ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه** ﴾ أى أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم ، يقال : راودته عن كذا مراودة ورِوادا ، أى أردته ، وراد الكلام يروده رودا ،

أى : طلبه ، وقد تقدم تفسير المراودة ، مستوفى فى سورة يوسف ﴿ **فطمسنا أعينهم** ﴾ أى صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب، وقيل :أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا ﴿ **فذوقوا عذابى ونذر** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة . ﴿**ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقرّ** ﴾ أى أتاهم صباحا عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم . قال مُقاتل : استقر بهم العذاب بكرة ، وانصراف ﴿ **بكرة** ﴾ لكونه لم يرد بها وقتا بعينه كما سبق فى ﴿ **بسحر** ﴾. ﴿ **فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة ، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغى لأحد أن يغفل عن شكرها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا** ﴾ قال: باردة ﴿ **فى يوم نحس** ﴾ قال : أيام شداد . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » (١) . وأخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . وأخرجه ابن مردويه عن علىّ مرفوعا (٢) . وأخرج ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا ، وفيه قيل : وكيف ذاك يارسول الله ؟ قال : « أغرق الله فيه فرعون وقومه ، وأهلك فيه عادًا وثمود » (٣) . وأخرج ابن مردويه والخطيب بسند ، قال السيوطى : ضعيف ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمرّ»(٤) .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **كأنهم أعجاز نخل** ﴾ قال : أصول النخل ﴿ **منقعر** ﴾ قال : منقلع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : أعجاز سواد النخل . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **وسعر** ﴾ قال : شقاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : ﴿**كهشيم المحتظر** ﴾ قال : كحظائر من الشجر محترقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : كالعظام المحترقة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : كالحشيش تأكله الغنم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى ٢ / ٧٤ وفيه : «فلم يروه إلا إبراهيم بن أبى حية . قال الدارقطنى : وهو متروك » . وقال الشوكانى فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٤٣٨ : « موضوع » .

(٢) كشف الخفاء للعجلونى (٣٢٥٥) وقال : « أخرجه ابن مردويه فى التفسير بأسانيد واهية عن على وأنس » .

(٣) انظر سابقه .

(٤) الموضوعات لابن الجوزى ٢ / ٧٣ « وفى سنده مسلمة بن الصلت . قال أبو حاتم الرازى : هو متروك الحديث » .

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ **النذر** ﴾ يجوز أن يكون جمع نذير ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى : الإنذاركما تقدم. وهى الآيات التى أنذرهم بها موسى ، وهذا أولى لقوله : ﴿ **كذبوا بآياتنا كلها** ﴾ فإنه بيان لذلك ، والمراد بها: الآيات التسع التى تقدّم ذكرها ﴿**فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ أى أخذناهم بالعذاب أخذ غالب فى انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه شىء . ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال : ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم** ﴾ والاستفهام للإنكار ، والمعنى النفى ، أى ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب خير من كفار من تقدّمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم . فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب وأنتم شر منهم . ثم أضرب سبحانه عن ذلك وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيت بالوجه الأوّل فقال: ﴿ **أم لكم براءة فى الزبر** ﴾ والزبر هى الكتب المنزلة على الأنبياء . والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله فى شىء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبكيت وانتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر فقال : ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر**﴾ أى جماعة لا تطاق لكثرة عددنا وقوتنا ، أو أمرنا مجتمع لا نغلب . وأفرد منتصرا اعتبارا بلفظ جميع . قال الكلبى : المعنى : نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **سيهزم الجمع** ﴾ أى جمع كفار مكة ، أو كفار العرب على العموم ، قرأ الجمهور : ﴿ **سيهزم** ﴾ بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ ورش عن يعقوب : « سنهزم» بالنون وكسر الزاى ونصب الجمع ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالتحتية مبنيا للفاعل ، وقرئ بالفوقية مبنيا للفاعل ﴿**ويولون الدبر** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **يولون** ﴾ بالتحتية ، وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب ، والمراد بالدبر : الجنس ، وهو فى معنى الإدبار ، وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار ، وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر ، فلله الحمد .

﴿ **بل الساعة موعدهم** ﴾ أى موعد عذابهم الأخروى ، وليس هذا العذاب الكائن فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب ، وإنما هو مقدّمة من مقدّماته وطليعة من طلائعه ، ولهذا قال : ﴿ **والساعة أدهى وأمرّ** ﴾ أى وعذاب الساعة أعظم فى الضر وأفظع ، مأخوذ من الدهاء ، وهو النكر والفظاعة ، ومعنى أمرّ : أشد مرارة من عذاب الدنيا ، يقال: دهاه أمر كذا ،أى أصابه دهواً ودهيا . ﴿ **إن المجرمين فى ضلال وسعر** ﴾ أى فى ذهاب عن

الحق وبعد عنه ، وقد تقدّم في هذه السورة تفسير ﴿وسعر﴾ فلا نعيده . ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ والظرف منتصب بما قبله ، أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يسحبون ، أو بقول مقدّر بعده ، أى يوم يسحبون يقال لهم :﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أى قاسوا حرّها وشدة عذابها ، وسقر علم لجهنم ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه إدغام سين ﴿ مس ﴾ فى سين ﴿سقر﴾ ﴿ إنا كلَّ شىء خلقناه بقدر ﴾ قرأ الجمهور بنصب « كل » على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع ، والمعنى : أن كل شىء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبسا بقدر قدره وقضاء قضاه سبق فى علمه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه . والقدر: التقدير، وقد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى . ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أى إلا مرة واحدة أو كلمة واحدة كلمح بالبصر فى سرعته ، واللمح : النظر على العجلة والسرعة . وفى الصحاح : لمحه وألمحه : إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة . قال الكلبى : وما أمرنا بمجىء الساعة فى السرعة إلا كطرف البصر .

﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ أى أشباهكم ونظراءكم فى الكفر من الأمم . وقيل : أتباعكم وأعوانكم ﴿ فهل من مدكر﴾ يتذكر ويتعظ بالمواعظ ويعلم أن ذلك حق ، فيخاف العقوبة وأن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة ﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ أى كل شىء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور فى اللوح المحفوظ صغيره وكبيره وجليله وحقيره، يقال : سطر يسطر سطرا كتب ، وأسطر مثله . ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال : ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ﴾ أى فى بساتين مختلفة وجنان متنوعة وأنهار متدفقة . قرأ الجمهور: ﴿ ونهر ﴾ بفتح الهاء على الإفراد ، وهو جنس يشمل أنهار الجنة . وقرأ مجاهد والأعرج وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان ، وقرأ أبو مجلز وأبو نهشل والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة : « نهر » بضم النون والهاء على الجمع ﴿ فى مقعد صدق ﴾ أى فى مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أى قادر على ما يشاء لا يعجزه شىء ، و﴿عند﴾ هاهنا، كناية عن الكرامة وشرف المنزلة ، وقرأ عثمان البستى : « فى مقاعد صدق » .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ يقول : ليس كفاركم خير من قوم نوح وقوم لوط . وأخرج ابن أبى شيبة وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال : كان ذلك يوم بدر قالوا : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ فنزلت هذه الآية [١] . وفى البخارى وغيره عنه أيضا أن النبى ﷺ قال

(١) ابن أبى شيبة (١٨٥٠٩) وابن جرير ٢٧ / ٦٤ وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٦١) ونسبه لابن منيع، وفيه على بن عاصم وهو ضعيف ، قاله البوصيرى .

وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا » ، فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألحت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع ويقول : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ** ﴾ (١) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن ماجة وغيرهم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر . فنزلت : ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم** ﴾ (٢) ، وأخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » (٣) . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **وكل صغير وكبير مستطر** ﴾ قال : مسطور فى الكتاب .

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩١٥) وفى المغازى (٣٩٥٣) وفى التفسير (٤٨٧٥ـ ٤٨٧٧) والنسائى فى التفسير (٥٧٧) . والدرع : هو قميص من حلقات من الحديد متشابكة يلبس فى الحروب .

(٢) أحمد ٢ / ٤٤٤ ، ٤٧٦ ومسلم فى القدر (٢٦٥٦ / ١٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٠) وابن ماجة فى المقدمة (٨٣) .

(٣) مسلم فى القدر (٢٦٥٥ / ١٨) .

تفسير سورة الرحمن

هى ست وسبعون آية . وهى مكية . قال القرطبى : كلها ، فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وجابر، قال : قال ابن عباس : إلا آية منها . وهى قوله : ﴿ **يسأله من فى السموات والأرض** ﴾ الآية . وقال ابن مسعود ومقاتل :هى مدنية كلها والأول أصح ، ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بمكة .وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبيرقال : أنزل بمكة سورة الرحمن . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة الرحمن . علم القرآن بمكة.وأخرج أحمد وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن أسماء بنت أبى بكرقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون:﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾[(١)]. ويؤيد القول الثانى ما أخرجه ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بالمدينة ، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة .

وأخرج الترمذى وابن المنذر، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوّلها إلى آخرها فسكتوا ، فقال: « مالى أراكم سكوتا لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ ، فكانوا أحسن مردودا منكم ،كلما أتيت على قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قالوا : لا شيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . وحكى عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير . وقال البزار : لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه[(٢)] . وأخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه من حديث ابن عمر ، وصحح السيوطى إسناده ، وقال البزار : لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد[(٣)] ، وأخرج البيهقى فى الشعب عن علىّ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن الرحمن »[(٤)] .

---

(١) أحمد ٦ / ٣٤٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ : « وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٩١) وصححه الحاكم ٢ / ٢٧٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٣٢ وفى الشعب (٢٢٦٤) ورجاله ثقات .

(٣) ابن جرير ٢٧ / ٧٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ : « رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبى وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » والخطيب فى تاريخه ٤ / ٣٠١ .

(٤) البيهقى فى الشعب (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف لضعف على بن الحسين بن جعفر ، وأحمد بن الحسن بن على ابن الحسين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ ﴾ .

قوله: ﴿ **الرحمن . علم القرآن** ﴾ ارتفاع الرحمن على أنه مبتدأ وما بعده من الأفعال أخبار له ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى الله الرحمن . قال الزجاج : معنى ﴿ **علم القرآن** ﴾ يسره . قال الكلبى : علم القرآن محمدًا وعلمه محمد أمته . وقيل : جعله علامة لما يعبد الناس به ، قيل : نزلت هذه الآية جوابًا لأهل مكة حين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : ١٠٣] . وقيل : جوابا لقولهم : وما الرحمن ؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التى أنعم بها على عباده قدم النعمة التى هى أجلها قدرا ، وأكثرها نفعا ، وأتمها فائدة ، وأعظمها عائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن ؛ فإنها مدار سعادة الدارين ، وقطب رحى الخيرين ، وعماد الأمرين . ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال : ﴿ **خلق الإنسان** ﴾ ثم امتنّ ثالثا بتعليمه البيان الذى يكون به التفاهم ويدور عليه التخاطب ، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد ، لأنه لا يمكن إبراز ما فى الضمائر ولا إظهار ما يدور فى الخلد إلا به . قال قتادة والحسن : المراد بالإنسان آدم ، والمراد بالبيان : أسماء كلّ شىء . وقيل المراد به : اللغات . وقال ابن كيسان : المراد بالإنسان ها هنا : محمد ﷺ ، وبالبيان : بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال ، وهو بعيد . وقال الضحاك : البيان: الخير والشرّ . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره . وقيل البيان : الكتابة بالقلم . والأولى حمل الإنسان على الجنس ، وحمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم الذى يتكلمون به . ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ أى يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها ، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين . قال قتادة وأبو مالك : يجريان بحسبان فى منازل لا يعدوانها

ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب ، لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا . وقال الضحاك : معنى ﴿ **بحسبان** ﴾ : بقدر ، وقال مجاهد : بحسبان كحسبان الرحى ، يعنى : قطبهما الذى يدوران عليه . قال الأخفش : الحسبان جماعة الحساب، مثل شهب وشهبان ، وأما الحسبان بالضمّ فهو العذاب كما مضى فى سورة الكهف . ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾ النجم: ما لا ساق له من النبات ، والشجر ماله ساق ، قال الشاعر :

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه وتمّ بـه حيـا تميـم ووائـل

وقال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحى ما به حبك

والمراد بسجودهما : انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حين ينكسر الفىء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما فى قوله: ﴿يتفيؤ ظلاله ﴾ [النحل: ٤٨] وقال الحسن ومجاهد : المراد بالنجم : نجم السماء ، وسجوده : طلوعه ، ورجح هذا ابن جرير . وقيل : سجوده : أفوله ، وسجود الشجر : تمكينها من الاجتناء لثمارها . قال النحاس : أصل السجود الاستسلام والانقياد لله ، وهذه الجملة والتى قبلها خبران آخران للرحمن ، وترك الرابط فيهما لظهوره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له . ﴿**والسماء رفعها** ﴾ قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء ، والمعنى : أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض ﴿ **ووضع الميزان** ﴾ المراد بالميزان : العدل ، أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به ، كذا قال مجاهد وقتادة والسدّى وغيرهم . قال الزجاج : المعنى: أنه أمرنا بالعدل ويدل عليه قوله: ﴿ **ألا تطغوا فى الميزان** ﴾ أى لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن والضحاك: المراد به: آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف. وقيل: الميزان : القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وبه قال الحسين بن الفضل ، والأوّل أولى .

ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم فقال : ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط** ﴾ أى قوّموا وزنكم بالعدل . وقيل : المعنى : أقيموا لسان الميزان بالعدل . وقيل : المعنى : أنه وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال . و « أن » فى قوله : ﴿ **ألا تطغوا** ﴾ مصدرية ، أى لئلا تطغوا ، و « لا » نافية ، أى وضع الميزان لئلا تطغوا ، وقيل : هى مفسرة؛ لأن فى الوضع معنى القول ، والطغيان : مجاوزة الحد ، فمن قال : الميزان : العدل ، قال : طغيانه الجور ، ومن قال : الميزان : الآلة التى يوزن بها ، قال : طغيانه: البخس ﴿ **ولا تخسروا الميزان** ﴾ أى لا تنقصوه ، أمر سبحانه أوّلا بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو المجاوزة للحد بالزيادة ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس . قرأ الجمهور :

﴿**تخسروا**﴾ بضم التاء وكسر السين من أخسر ، وقرأ بلال بن أبى برزة وأبان بن عثمان وزيد ابن على بفتح التاء والسين من خسر ، وهما لغتان : يقال : أخسرت الميزان وخسرته .

ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال : ﴿ **والأرض وضعها للأنام**﴾ أى بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة ، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ. قرأ الجمهور بنصب ﴿**الأرض**﴾ على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة : ﴿ **فيها فاكهة** ﴾ فى محل نصب على أنها حال من الأرض مقدّرة . وقيل : مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التى قبلها ، والمراد بها كل ما يتفكه به من أنواع الثمار . ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال : ﴿ **والنخل ذات الأكمام** ﴾ الأكمام جمع كم بالكسر ، وهو وعاء التمر . قال الجوهرى : والكم بالكسر ، والكمامة : وعاء الطلع وغطاء التنور ، والجمع كمام وأكمة وأكمام. قال الحسن :﴿ **ذات الأكمام** ﴾: أى ذات الليف ، فإن النخلة تكم بالليف وكمامها ليفها ،وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق ، وقال عكرمة : ذات الأحمال . ﴿ **والحبّ ذو العصف والريحان** ﴾ الحبّ : هو جميع مايقتات من الحبوب والعصف . قال السدّى والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أوّل ما ينبت به. قال ابن كيسان : يبدو أولاً ورقا ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكماما ، ثم يحدث فى الأكمام الحب . قال الفراء : والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال فى الصحاح . وقال الحسن : العَصْفُ : التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع . وقيل : هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله : ﴿ **كعصف مأكول**﴾ [الفيل : ٥] وقيل : هو الزرع الكثير ، يقال : قد أعصف الزرع ومكان معصف ، أى كثير الزرع ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

إذا جمادى منعت قطرها زان جنابى عطن معصف

والريحان : الورق فى قول الأكثر . وقال الحسن وقتادة والضحاك وابن زيد : إنه الريحان الذى يشم ، وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق ، وقال الكلبى : إن العصف : هو الورق الذى لا يؤكل ، والريحان : هو الحب المأكول ، وقال الفراء أيضا : العصف : المأكول من الزرع ، والريحان : ما لا يؤكل ، وقيل : الريحان : كل بقلة طيبة الريح . قال ابن الأعرابى ؛ يقال: شىء ريحانى وروحانى ، أى له روح : وقال فى الصحاح : الريحان : نبت معروف ، والريحان : الرزق، تقول : خرجت أبتغى ريحان الله . قال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

وقيل العصف : رزق البهائم ، والريحان : رزق الناس ، قرأ الجمهور : ﴿ **والحبّ ذو العصف والريحان** ﴾ برفع الثلاثة عطفا على فاكهة . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة بنصبهما عطفا على إضمار الأرض أو على فعل ، أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان وقرأ حمزة

والكسائى والريحان بالجرّ عطفا على العصف . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ الخطاب للجنّ والإنس ؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما ، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل ، وبهذا قال الجمهور من المفسرين : ويدلّ عليه قوله فيما سيأتى ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ ويدلّ على هذا ما قدّمنا فى فاتحة هذه السورة أن النبى ﷺ قرأها على الجنّ والإنس . وقيل : الخطاب للإنس ، وثناه على قاعدة العرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدّمنا فى قوله : ﴿ ألقيا فى جهنم ﴾ [ق : ٢٤] والآلاء : النعم. قال القرطبى : وهو قول جميع المفسرين، واحدها « إلى » مثل معى وعصى ، وقال ابن زيد : إنها القدرة ، أى فبأى قدرة ربكما تكذبان ، وبه قال الكلبى ، وكررّ سبحانه هذه الآية فى هذه السورة تقريرًا للنعمة وتأكيدًا للتذكير بها على عادة العرب فى الاتساع . قال القتيبى : إن الله عدّد فى هذه السورة نعماءه ،وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررّهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك ، وهو يكفره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلا فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن فى مثل هذا ، ومنه قول الشاعر :

لا تقتلى رجلا إن كنت مسلمة ⠀⠀⠀ إيـاك من دمه إيـاك إياك

قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار** ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير ، وهو السماء والأرض وما فيهما ، ذكر خلق العالم الصغير ، والمراد بالإنسان هنا : آدم . قال القرطبى : باتفاق من أهل التأويل ، ولا يبعد أن يراد الجنس لأن بنى آدم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم ، والصلصال : الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة . وقيل : هو طين خلط برمل . وقيل : هو الطين المنتن ، يقال: صلّ اللحم وأصلّ إذا أنتن ، وقد تقدم بيانه فى سورة الحجر، والفخار : الخزف الذى طبخ بالنار ، والمعنى : أنه خلق الإنسان من طين يشبه فى يبسه الخزف .﴿ **وخلق الجانّ من مارج من نار** ﴾ يعنى :خلق أبا الجنّ أو جنس الجنّ من مارج من نار ، والمارج : اللهب الصافى من النار . وقيل : الخالص منها . وقيل: لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت ، وقال الليث : المارج : الشعلة الصادعة ذات اللهب الشديد . قال المبرد : المارج : النار المرسلة التى لا تمنع ، وقال أبو عبيدة : المارج : خلط النار ، من مرج إذا اختلط واضطرب . قال الجوهرى : مارج من نار: نار لا دخان لها خلق منها الجانّ ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنه أنعم عليكما فى تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى .

﴿ **رب المشرقين وربّ المغربين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ ربّ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو ربّ المشرقين والمغربين . وقيل : مبتدأ وخبره : ﴿ **مرج البحرين** ﴾ وما بينهما اعتراض ، والأول أولى ، والمراد بالمشرقين: مشرقا الشتاء والصيف ، وبالمغربين مغرباهما . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن فى ذلك من النعم ما لا يحصى ولا يتيسر لمن

أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده . ﴿ **مرج البحرين يلتقيان** ﴾ المرج : التخلية والإرسال، يقال : مرجت الدابة : إذا أرسلتها ، وأصله الإهمال كما تمرج الدابة فى المرعى ، والمعنى: أنه أرسل كل واحد منهما ﴿ **يلتقيان** ﴾ أى يتجاوران لا فصل بينهما فى مرأى العين ، ومع ذلك فلم يختلطا ، ولهذا قال : ﴿**بينهما برزخ** ﴾ أى حاجز يحجز بينهما ﴿ **لا يبغيان** ﴾ أى لا يبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به . قال الحسن وقتادة : هما بحر فارس والروم ، وقال ابن جريج : هما البحر المالح والأنهار العذبة ، وقيل : بحر المشرق والمغرب . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . وقيل : بحر السماء وبحر الأرض . قال سعيد بن جبير : يلتقيان فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما ، وقوله : ﴿ **يلتقيان** ﴾ فى محلّ نصب على الحال من البحرين ، وجملة : ﴿ **بينهما برزخ** ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة ، وأن تكون حالا. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ قرأ الجمهور:﴿ **يخرج** ﴾ بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل ، وقرأ نافع وأبو عمرو بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، واللؤلؤ: الدّر ، والمرجان : الخرز الأحمر المعروف . وقال الفراء : اللؤلؤ العظام ، والمرجان : ما صغر . قال الواحدى : وهو قول جميع أهل اللغة . وقال مقاتل والسدّى ومجاهد : اللؤلؤ: صغاره ، والمرجان :كباره ، وقال : ﴿ **يخرج منهما** ﴾ وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب ؛ لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، كذا قال الزجاج وغيره ، وقال أبو على الفارسى : هو من باب حذف المضاف ، أى من أحدهما لقوله : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] وقال الأخفش : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب ، وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان. وقيل : هما بحر السماء وبحر الأرض ، فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما . ﴿**فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ فإن فى ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه ولا يقدر على إنكاره .

﴿ **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام** ﴾ المراد بالجوار : السفن الجارية فى البحر ، والمنشآت : المرفوعات التى رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت وطالت حتى صارت فى البحر كالأعلام وهى الجبال ، والعلم: الجبل الطويل. وقال قتادة: المنشآت: المخلوقات للجرى ،وقال الأخفش: المنشآت: المجريات ،وقد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة الشورى. قرأ الجمهور : ﴿ **الجوار** ﴾ بكسر الراء وحذف الياء ، لالتقاء الساكنين ، وقرأ ابن مسعود والحسن وأبو عمرو فى رواية عنه برفع الراء تناسيا للحذف ، وقرأ يعقوب بإثبات الياء ، وقرأ الجمهور: ﴿ **المنشآت** ﴾ بفتح الشين ، وقرأ حمزة وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الشين .﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ولا إنكاره .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله :﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ قال : بحساب ومنازل يرسلان . وأخرج

الفريابى وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **والأرض وضعها للأنام** ﴾ قال : للناس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : للخلق . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كل شيء فيه روح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿**والنخل ذات الأكمام** ﴾ قال: أوعية الطلع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **والحب ذو العصف** ﴾ قال : التبن ﴿ **والريحان** ﴾ قال : خضرة الزرع . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: ﴿ **العصف** ﴾ ورق الزرع إذا يبس ﴿ **والريحان** ﴾ ما أنبتت الأرض من الريحان الذى يشمّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ﴿ **العصف** ﴾ الزرع أوّل ما يخرج بقلا ﴿**والرّيحان** ﴾ حين يستوى على سوقه ولم يسنبل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كلّ ريحان فى القرآن فهو رزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قال : يعنى : بأىّ نعمة الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : يعنى : الجنّ والإنس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **من مارج من نار** ﴾ قال : من لهب النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : خالص النار .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **ربّ المشرقين وربّ المغربين** ﴾ قال:للشمس مطلع فى الشتاء ،ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف ، ومغرب فى الصيف ، غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : مشرق الفجر ومشرق الشفق . ومغرب الشمس ومغرب الشفق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ قال : أرسل البحرين ﴿ **بينهما برزخ** ﴾ قال حاجز ﴿ **لا يبغيان** ﴾ لا يختلطان . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: بحر السماء وبحر الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿**بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ قال : بينهما من البعد مالا يبغى كل واحد منهما على صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ قال : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فى البحر أفواهها فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال : المرجان : عظيم اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ : ما عظم منه ، والمرجان : اللؤلؤ الصغار . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود قال : المرجان : الخرز الأحمر .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ

وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ أى كل من على الأرض من الحيوانات هالك ، وغلب العقلاء على غيرهم فعبر عن الجميع بلفظ من. وقيل : أراد من عليها من الجنّ والإنس ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقد تقدّم فى سورة البقرة بيان معنى هذا . وقيل : معنى ﴿ **يبقى وجه ربك** ﴾ تبقى حجته التى يتقرّب بها إليه ، والجلال : العظمة والكبرياء ، واستحقاق صفات المدح . يقال : جلّ الشأن ، أى عظم، وأجللته ، أى أعظمته ، وهو اسم من جلّ . ومعنى : ذو الإكرام : أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به . وقيل : إنه ذو الإكرام لأوليائه ، والخطاب فى قوله : ﴿ **ربك** ﴾ للنبى ﷺ، أو لكل من يصلح له . قرأ الجمهور : ﴿ **ذو الجلال** ﴾ على أنه صفة لوجه ، وقرأ أبى وابن مسعود : « ذى الجلال » على أنه صفة لربّ . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ وجه النعمة فى فناء الخلق، أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب . وقال مقاتل: وجه النعمة فى فناء الخلق ، التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام .

﴿ **يسأله من فى السموات والأرض** ﴾ أى يسألونه جميعًا ، لأنهم محتاجون إليه لا يستغنى عنه أحد منهم. قال أبوصالح : يسأله أهل السموات المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعًا ، وقال مقاتل : يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة ، وتسأل لهم الملائكة أيضا الرزق والمغفرة ، وكذا قال ابن جريج . وقيل : يسألونه الرحمة . قال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السماء ولا أهل الأرض ، والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال ، أو لسان الحال ، ما يطلبونه من خيرى الدارين ، أو من خيرى إحداهما ﴿ **كل يوم هو فى شأن** ﴾ انتصاب كل بالاستقرار الذى تضمنه الخبر ، والتقدير : استقر سبحانه فى شأن كل وقت من الأوقات، واليوم عبارة عن الوقت ، والشأن هو الأمر ، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم وتباين أغراضهم ، قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى ويميت ، ويرزق ويفقر ، ويعز ويذلّ ، ويمرض ويشفى ،

ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى ، وقيل : المراد باليوم المذكور : هو يوم الدنيا ويوم الآخرة ، قال ابن بحر: الدّهر كله يومان: أحدهما: مدّة أيام الدنيا ، والآخر : يوم القيامة . وقيل : المراد : كل يوم من أيام الدنيا ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها ، ولا يتيسر لمكذّب تكذيبها .﴿ **سنفرغ لكم أيه الثقلان**﴾ هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجنّ والإنس . قال الزجاج والكسائى وابن الأعرابى وأبو على الفارسى: إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل ،ولكن تأويله القصد ، أى سنقصد لحسابكم . قال الواحدى حاكيا عن المفسرين : إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده ، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده : إذن أتفرغ لك ، أى أقصد قصدك ، وفرغ يجىء بمعنى قصد ، وأنشد ابن الأنبارى قول الشاعر (١) :

الان وَقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيرٍ فهذا حينَ كُنْتُ له عَذَابا

يريد : وقد قصدت . وأنشد النحاس قول الشاعر (٢) :

فرغت إلى العبد المقيد فى الحجل

أى قصدت . وقيل : إن الله سبحانه وعد على التقوى وأوعد على المعصية ، ثم قال : سنفرغ لكم مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه ، وبه قال الحسن ومقاتل وابن زيد ، ويكون الكلام على طريق التمثيل . قرأ الجمهور : ﴿**سنفرغ** ﴾ بالنون وضم الراء ، وقرأ حمزة والكسائى بالتحتية مفتوحة مع ضم الرّاء ، أى سيفرغ الله. وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء . قال الكسائى : هى لغة تميم ، وقرأ عيسى الثقفى بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ الأعمش وإبراهيم بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول ، وسمى الجن والإنس ثقلين ، لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض . وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا كما فى قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وجمع فى قوله: ﴿ **لكم** ﴾ ثم قال : ﴿**أيه الثقلان** ﴾ لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع ،قرأ الجمهور: ﴿ **أيه الثقلان** ﴾ بفتح الهاء . وقرأ أهل الشام بضمها . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد من النعم ، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته ، ويزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الذى هو النعيم فى الحقيقة .

﴿ **يا معشر الجنّ والإنس** ﴾ قدّم الجن هنا لكون خلق أبيهم متقدما على خلق آدم ، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس ﴿ **إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض** ﴾ أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض ونواحيها هربا من قضاء الله وقدره ﴿ **فانفذوا**﴾

(١ ، ٢) الشاعر : هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى .

منها وخلصوا أنفسكم ، يقال : نفذ الشيء من الشيء : إذا خلص منه كما يخلص السهم ﴿ **لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ أى لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ، ولا قوّة لكم على ذلك ولا قدرة، والسلطان : القوّة التى يتسلط بها صاحبها على الأمر . والأمر بالنفوذ : أمر تعجيز . قال الضحاك : بينما الناس فى أسواقهم إذا انفتحت السماء ونزلت الملائكة فهرب الجنّ والإنس فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله : ﴿ **لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ قال ابن المبارك : إن ذلك يكون فى الآخرة ، وقال الضحاك أيضا : معنى الآية : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا . وقيل : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، أى ببينة من الله، وقال قتادة: معناها لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : « الباء » بمعنى « إلى » ، أى لا تنفذون إلا إلى سلطان. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسيء عن إساءته ، مع أن من حذّركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة . ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يرسل** ﴾ بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ زيد بن علىّ بالنون ونصب « شواظ » والشواظ : اللهب الذى لا دخان معه ، وقال مجاهد : الشواظ : اللهب الأخضر المتقطع من النار . وقال الضحاك : هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب ، وقال الأخفش وأبو عمرو : هو النار والدخان جميعا . قرأ الجمهور : ﴿ **شواظ** ﴾ بضم الشين ، وقرأ ابن كثير بكسرها وهما لغتان ، وقرأ الجمهور: ﴿ **ونحاس** ﴾ بالرفع عطفا على شواظ ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو بخفضه عطفا على نار ، وقرأ الجمهور :﴿ **نحاس** ﴾ بضم النون ، وقرأ مجاهد وعكرمة وحميد وأبو العالية بكسرها ، وقرأ مسلم بن جندب والحسن: « ونحس » والنحاس: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ، وقال سعيد بن جبير: هو الدخان الذى لا لهب له ،وبه قال الخليل ، وقال الضحاك: هو دردىّ الزيت المغلى، وقال الكسائى:هو النار التى لها ريح شديدة . وقيل: هو المهل ﴿ **فلا تنتصران** ﴾ أى لا تقدران على الامتناع من عذاب الله ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الذى يكون به الانزجار عن الشر والرغوب فى الخير .

﴿ **فإذا انشقت السماء** ﴾ أى انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة ﴿ **فكانت وردة كالدهان**﴾ أى كوردة حمراء . قال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى : فكانت حمراء . وقيل : فكانت كلون الفرس الورد ، وهو الأبيض الذى يضرب إلى الحمرة أو الصفرة ، قال الفراء وأبو عبيدة : تصير السماء كالأديم لشدّة حرّ النار ، وقال الفراء أيضا : شبه تلوّن السماء بتلون الورد من الخيل ، وشبه الورد فى ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، والدهان جمع دهن ، وقيل : المعنى : تصير السماء فى حمرة الورد ، وجريان الدهن ، أى تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدهن لذوبانها ، وقيل : الدهان الجلد الأحمر ، وقال

الحسن : ﴿**كالدهان**﴾ أى كصبيب الدهن . فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا . وقال زيد بن أسلم : إنها تصير كعصير الزيت . قال الزجاج : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردى : وزعم المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر. ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ أى يوم تشقق السماء ، لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه ، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم ، والجمع بين هذه الآية وبين مثل قوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ [الحجر : ٩٢] أن ما هنا يكون فى موقف والسؤال فى موقف آخر من موقف القيامة وقيل : إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم ، لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد ، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع، ومثله هذه الآية قوله :﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : ٧٨] قال أبو العالية: المعنى : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ، وقيل : إن عدم السؤال هو عند البعث ، والسؤال هو فى موقف الحساب ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد .

﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيما: العلامة . قال الحسن: سيماهم سواد الوجوه وزرقة الأعين ، كما فى قوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ [طه : ١٠٢] وقال : ﴿ يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقيل : سيماهم ما يعلوهم من الحزن والكآبة ﴿ **فيؤخذ بالنواصى والأقدام** ﴾ الجار والمجرور فى محل رفع على أنه النائب ، والنواصى : شعور مقدم الرؤوس. والمعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصى ، وتلقيهم الملائكة فى النار . قال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه فى سلسلة من وراء ظهره . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بنواصيهم وتجرّهم على وجوههم ، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرّهم على رؤوسهم . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد والوعيد البالغ الذى ترجف له القلوب وتضطرب لهوله الأحشاء .﴿**هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون** ﴾ أى يقال لهم عند ذلك: هذه جهنم التى تشاهدونها وتنظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون: إنها لا تكون ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصى والأقدام ؟ فقيل : يقال لهم : هذه جهنم ، تقريعًا لهم وتوبيخًا . ﴿ **يطوفون بينها** ﴾ أى بين جهنم فتحرقهم ﴿ **وبين حميم آن**﴾ فتصبّ على وجوههم ، والحميم :الماء الحار ، والآن : الذى قد انتهى حرّه وبلغ غايته ، كذا قال الفراء . قال الزجاج : أنى يأنى أنى فهو آن : إذا انتهى فى النضج والحرارة . ومنه قول النابغة الذبيانى :

وتخضب لحية غدرت وخانت ... بأحمر من نجيع الجوف آن

وقيل : هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار ، فيغمسون فيه . قال قتادة : يطوفون مرّة فى الحميم ، ومرّة بين الجحيم . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف وما يحصل به من الترغيب فى الخير والترهيب عن الشرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذو الجلال والإكرام** ﴾ قال : ذو الكبرياء والعظمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿**يسأله من فى السموات**﴾ قال : مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو فى ذلك . وأخرج الحسن بن سفيان فى مسنده ، والبزار وابن جرير والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم وابن عساكر عن عبد الله بن منيب قال : تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **كل يوم هو فى شأن** ﴾ فقلنا : يا رسول الله ، وماذلك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين » (١) . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن ماجة وابن أبى عاصم والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر ، والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى الآية قال : « من شأنه أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين » زاد البزار : « ويجيب داعيًا » وقد رواه البخارى تعليقا ، وجعله من كلام أبى الدرداء (٢) . وأخرج البزار عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى الآية قال : « يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿**سنفرغ لكم أيه الثقلان** ﴾ قال : هذا وعيد من الله لعباده ، وليس بالله شغل ، وفى قوله :﴿ **لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ يقول : لا تخرجون من سلطانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار**﴾ قال : لهب النار ﴿ **ونحاس** ﴾ قال : دخان النار . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ونحاس : قال الصفر يعذبون به. وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **فكانت وردة** ﴾ يقول حمراء ﴿ **كالدهان** ﴾ قال : هو الأديم الأحمر . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿**فكانت وردة كالدهان** ﴾ قال : مثل لون الفرس الورد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ قال : لا يسألهم :هل عملتم كذا وكذا ؟ ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم : لم عملتم كذا وكذا ؟ . وأخرج

(١) ابن جرير ٢٧ / ٧٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبزار ، وفيه من لم أعرفهم » .

(٢) البخارى تعليقا وموقوفا ٨ / ٦٢٠ وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٢) وفى الزوائد : « إسناده حسن » وابن جرير ٢٧ / ٧٩ وابن حبان (٦٨٨) والبيهقى فى الشعب (١٠٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ ، ١٢١ : « روى ابن ماجة إلى قوله ، ويجيب داعيا ، وفيه الوزير بن صبيح ولم أعرفه » .

ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور عنه أيضًا فى قوله : ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ قال : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال هو الذى انتهى حرّه .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التى أنعم بها عليهم . فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ مقامه سبحانه هو الموقف الذى يقف فيه العباد للحساب ، كما فى قوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [المطففين : ٦] فالمقام مصدر بمعنى القيام . وقيل : المعنى خاف قيام ربه عليه ، وهو إشرافه على أحواله واطلاعه على أفعاله وأقواله كما فى قوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد: ٣٣] قال مجاهد والنخعى : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

واختلف فى الجنتين ، فقال مقاتل : يعنى : جنة عدن ، وجنة النعيم . وقيل : إحداهما التى خلقت له والأخرى ورثها. وقيل : إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه . وقيل : إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقيل :جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى. وقيل : جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية . وقيل : جنة للعقيدة التى يعتقدها ،

والأخرى للعمل الذى يعمله . وقيل : جنة بالعمل وجنة بالتفضل . وقيل : جنة روحانية وجنة جسمانية . وقيل : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته ، وقال الفرّاء : إنما هى جنة واحدة ، والتثنية لأجل موافقة الآى . قال النحاس : وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله . فإن الله يقول : ﴿ جنتان ﴾ ويصفهما بقوله : ﴿ فيهما ﴾ إلخ . ﴿**فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة ، وهى إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ هذه صفة للجنتين ، وما بينهما اعتراض ، والأفنان: الأغصان ، واحدها: فنن وهو الغصن المستقيم طولا ، وبهذا قال مجاهد وعكرمة وعطية وغيرهم ، وقال الزجاج : الأفنان : الألوان ، واحدها : فنّ ، وهو الضرب من كل شىء ، وبه قال عطاء وسعيد بن جبير ، وجمع عطاء بين القولين ، فقال : فى كل غصن فنون من الفاكهة ، ومن إطلاق الفنن على الغصون قول النابغة :

دعاء حمامةٍ تَدْعو هَدِيلاً   مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغَنى

وقول الآخر :

ما هاجَ شُوْقُكَ مِن هَديل حَمامةٍ   تَدْعو عَلَى فَنَنِ الغُصون حمَامَا

وقيل : معنى ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ ، ذواتا فضل وسعة على ما سواهما ، قاله قتادة . وقيل : الأفنان : ظلّ الأغصان على الحيطان ، روى هذا عن مجاهد وعكرمة . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن كل منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار. ﴿ **فيهما عينان تجريان** ﴾ هذا أيضا صفة أخرى لـ ﴿ **جنتان** ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال الحسن : إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : كل واحدة منهما مثل الدنيا أضعافا مضاعفة .﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة فى الجنة لأهل السعادة . ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ هذا صفة ثالثة لجنتان ، والزوجان : الصنفان والنوعان ، والمعنى : إن فى الجنتين من كلّ نوع يتفكه به ضربين ،يستلذ بكل نوع من أنواعه . قيل : أحد الصنفين رطب والآخر يابس لا يقصر أحدهما عن الآخر فى الفضل والطيب ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ **فإن فى مجرد تعداد** هذه النعم ووصفها فى هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير ، والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم ، وتلك نعمة عظمى ومنة كبرى ، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه ؟! ﴿ **متكئين على فرش بطائنها من إستبرق** ﴾ انتصاب ﴿ **متكئين** ﴾ على الحال من فاعل قوله : ﴿ **ولمن خاف** ﴾ وإنما جمع ؛حملا على معنى من. وقيل : عاملها محذوف، والتقدير : يتنعمون متكئين .وقيل : منصوب على المدح ، والفرش جمع فرش ، والبطائن : هى التى تحت الظهائر ، وهى جمع بطانة ، قال الزجاج : هى ما يلى الأرض ، والإستبرق :

ما غلظ من الديباج ، وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر ؟ قيل : لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا بما قال الله فيه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ [السجدة : ١٧] قيل : إنما اقتصر على ذكر البطائن ، لأنه لم يكن أحد فى الأرض يعرف ما فى الظهائر . وقال الحسن : بطائنها من إستبرق وظهائرها من نور جامد ، وقال الحسن : البطائن هى الظهائر ، وبه قال الفراء : وقال : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة ؛ لأنّ كل واحد منهما يكون وجها ، والعرب تقول : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء لظاهرها الذى نراه ، وأنكر ابن قتيبة هذا ، وقال : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ مبتدأ وخبر ، والجنى : ما يجتنى من الثمار ، قيل : إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها . ومنه قول الشاعر :

هذا جَنَاى وخيَاره فيه إذْ كلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فِيه

قرأ الجمهور ﴿ فرش ﴾ بضمتين ، وقرأ أبوحيوة بضمة وسكون ، وقرأ الجمهور : ﴿جنى﴾ بفتح الجيم ، وقرأ عيسى بن عمر بكسرها ، وقرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة. ﴿ فبأىّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكذب بشىء منها لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة والآجلة . ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ أى فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال : ﴿ فيهنّ ﴾ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل : ﴿فيهنّ ﴾ أى فى الفرش التى بطائنها من إستبرق ، ومعنى ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أنهن يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة الصافات . ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ قال الفراء : الطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتَّدمية ، يقال : طمث الجارية : إذا افتضها . قال الواحدى : قال المفسرون : لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن قبلهم أحد . قال مقاتل : لأنهن خلقن فى الجنة ، والضمير فى ﴿ قبلهم ﴾ يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف . وقيل : يعود إلى متكئين ، والجملة فى محل رفع صفة لقاصرات ؛ لأن إضافتها لفظية . وقيل : الطمث: المسّ ، أى لم يمسسهنّ . قاله أبو عمرو . وقال المبرد : أى لم يذللهنّ ، والطمث التذليل ، ومن استعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق :

دفعن إلىَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِى وهنّ أصَح مِنْ بيض النَّعام

قرأ الجمهور : ﴿ يطمثهن ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الكسائى بضمها ، وقرأ الجحدرى وطلحة ابن مصرف بفتحها . وفى هذه الآية بل فى كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه وعملوا بفرائضه ، وانتهوا عن مناهيه . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن فى مجرّد هذا الترغيب فى هذه النعم نعمة جليلة ومنة عظيمة لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة والفرار من الأعمال الطالحة ، فكيف بالوصول إلى هذه النعم والتنعم بها فى

جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال . ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ هذه صفة لقاصرات ، أو حال منهنّ ، شبههنّ سبحانه فى صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان ، والياقوت :هو الحجر المعروف ، والمرجان قد قدمنا الكلام فيه فى هذه السورة على الخلاف فى كونه صغار الدر، أو الأحمر المعروف . قال الحسن :هنّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ ، لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شىء منها كائنة ما كانت ، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة ؟. ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى ما جزاء من أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليه فى الآخرة ، كذا قال ابن زيد وغيره ، قال عكرمة : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ؟. وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت إليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد ؟ قال الرازى : فى هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل : إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول : إحداها : قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] وثانيها:﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ [الإسراء: ٨] وثالثها : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال محمد بن الحنفية : هى للبرّ والفاجر ، البرّ فى الآخرة، والفاجر فى الدنيا . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم فى الدنيا والآخرة بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح ، والزجر عن العمل الذى لا يرضاه .

﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ أى ومن دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة . ومعنى ﴿ **من دونهما** ﴾ أى من أمامهما ومن قبلهما ، أى هما أقرب منهما وأدنى إلى العرش. وقيل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى . قال ابن جريج: هى أربع جنات : جنتان منهما للسابقين المقرّبين ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ و﴿ **عينان تجريان** ﴾ وجنتان لأصحاب اليمين ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ و﴿ **فيهما عينان نضاختان** ﴾ : قال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقربين ، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها كلها حق ونعم لا يمكن جحدها . ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال : ﴿ **مدهامتان** ﴾ وما بينهما اعتراض . قال أبو عبيدة والزجاج : من خضرتهما قد اسودتا من الرى ، وكل ما علاه السواد ريا فهو مدهم . قال مجاهد : مسودّتان ، والدهمة فى اللغة : السواد ، يقال : فرس أدهم وبعير أدهم : إذا اشتدت ورقته حتى ذهب البياض الذى فيه . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر . ﴿**فيهما عينان نضاختان** ﴾ النضخ : فوران الماء من العين ، والمعنى : أن فى الجنتين المذكورتين عينين فوارتين. قال أهل اللغة : والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة . قال الحسن ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضخ رش

المطر . وقال سعيد بن جبير : إنها تنضخ بأنواع الفاكهة والماء. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب ولا بمكان للجحد .

﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا ، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه كما حكاه الزجاج والأزهرى وغيرهما . وقيل: إنما خصهما لكثرتهما فى أرض العرب. وقيل : خصهما لأن النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم ، ولم يخالف فى ذلك إلا أبو حنيفة ، وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذه النعم التى هى جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها أثر فى نفوس السامعين وتجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **خيرات** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ قتادة وابن السميفع وأبو رجاء العطاردى وبكر بن حبيب السهمى وابن مقسم والنهدى بالتشديد ، فعلى القراءة الأولى هى جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين ، يقال : امرأة خيرة وأخرى شرّة ، أو جمع خيرة مخفف خيرة . وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد ، قال الواحدى : قال المفسرون : الخيرات : النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، قيل : وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع ، ولا وجه لهذا فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن قاصرات الطرف .﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ وبين الصفتين بون بعيد . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن شيئا منها كائنا ما كان لا يقبل التكذيب.

﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾ أى محبوسات ، ومنه القصر ، لأنه يحبس من فيه ، والحور: جمع حوراء وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها . وقد تقدم بيان معنى الحوراء والخلاف فيه . وقيل : معنى ﴿**مقصورات**﴾: أنهنّ قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، وحكاه الواحدى عن المفسرين ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة ومقاتل وغيرهما ، قال فى الصحاح : قصرت الشيء أقصره قصرا حبسته ، والمعنى : أنهن خدّرن فى الخيام ، والخيام: جمع خيمة . وقيل : جمع خيم ، والخيم : جمع خيمة ، وهى أعواد تنصب وتظلل بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية . قيل: الخيمة من خيام الجنة درّة مجّوفة ، فرسخ فى فرسخ ، وارتفاع ﴿ **حور** ﴾ على البدلية من خيرات ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان**﴾ قد تقدّم تفسيره فى صفة الجنتين الأوليين ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر ومنن لا تجحد .

﴿ **متكئين على رفرف خضر** ﴾ انتصاب ﴿ **متكئين** ﴾ على الحال أو المدح كما سبق ، قال أبو عبيدة : الرفارف : البسط ، وبه قال الحسن ومقاتل والضحاك وغيرهم ، وقال ابن عيينة : هى الزرابى . وقال ابن كيسان: هى المرافق . وروى عن أبى عبيدة أنه قال : هى حاشية

الثوب، وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر ، وقيل : الفرش المرتفعة . وقيل: كل ثوب عريض . قال فى الصحاح : والرفرف : ثياب خضر يتخذ منها المحابس، والواحدة رفرفة . وقال الزجاج : قالوا الرفرف هنا رياض الجنة ، وقالوا : الرّفرف: الوسائد ، وقالوا : الرفرف: المحابس. ا .هـ . ومن القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير ، واشتقاق الرفرف من رفّ يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر، وهى تحريك جناحيه فى الهواء .قرأ الجمهور: ﴿**رفرف**﴾ على الإفراد ، وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدرى : « رفارف » على الجمع ﴿ **وعبقرى حسان** ﴾ العبقرىّ : الزرابى ، والطنافس الموشية . قال أبو عبيدة: كل وشى من البسط : عبقرىّ ، وهو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى . قال الفرّاء : العبقرى : الطنافس الثمان، وقيل : الزرابى . وقيل : البسط . وقيل : الديباج ، قال ابن الأنبارى : الأصل فيه أن عبقر: قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق ، قال الخليل : العبقرىّ عند العرب : كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء ، ومنه قول زهير :

بَخَيْل عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَديرون يومًا أنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا

قال الجوهرىّ : العبقر موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن . قال لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر

ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا : عبقرىّ ، وهو واحد وجمع ، قرأ الجمهور : ﴿ **عبقرىّ** ﴾ وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدرى : «عباقرىّ » وقرئ : « عباقر » وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد . وقال قطرب : ليس بمنسوب ، وهو مثل كرسىّ وكراسى وبختى وبخاتى . قرأ الجمهور : ﴿ **خضر** ﴾ بضم الخاء وسكون الضاد ، وقرئ بضمهما وهى لغة قليلة . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرق إليه التكذيب ، وأعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر ، وقد قدمنا فى أول هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده . ﴿ **تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾ تبارك : تفاعل من البركة . قال الرازى : وأصل التبارك من التبرّك ، وهو الدوام والثبات ، ومنه برك البعير ، وبركة الماء فإن الماء يكون دائما ، والمعنى : دام اسمه وثبت ، أو دام الخير عنده ، لأن البركة وإن كانت من الثياب لكنها تستعمل فى الخير ، أو أن يكون معناه : علا وارتفع شأنه . وقيل : معناه : تنزيه الله سبحانه وتقديسه ، وإذا كان هذا التبارك منسوبا إلى اسمه عزّ وجلّ ، فما ظنك بذاته سبحانه ؟ وقيل : الاسم بمعنى الصفة. وقيل : هو مقحم كما فى قول الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقد تقدم تفسير ﴿ **ذى الجلال والإكرام** ﴾ فى هذه السورة . قرأ الجمهور : ﴿ **ذى الجلال**﴾ على أنه صفة للرب سبحانه ، وقرأ ابن عامر « ذو الجلال » على أنه صفة لاسم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف : من ركب طاعة الله وترك معصيته . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن عطاء أنها نزلت فى أبى بكر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب مثله . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى الآية قال : لمن خافه فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم فى نوادر الأصول ، والنسائى [(١)] والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء ؛ أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية :﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ الثانية : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق؟ فقال الثالثة : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « نعم وإن رغم أنف أبى الدّرداء » [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقال أبو الدرداء : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبى الدّرداء » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبى الدّرداء فى قوله : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال : قيل لأبى الدرداء : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق . وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبد الملك فقال : قال أبوهريرة : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال أبو هريرة : وإن زنى وإن سرق ؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « جنان الفردوس أربع جنات : جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة حليتهما وأبنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » [(٣)] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى موسى عن النبىّ ﷺ فى قوله :

---

(١) فى المخطوطة « والحاكم والترمذى والنسائى » والصحيح ما أثبتناه من الدرالمنثور ٦ / ١٤٦ كما لم يذكر المزى (١٠٩٥٤) راويا للحديث إلا النسائى .

(٢) أحمد ٢ / ٣٥٧ والنسائى فى التفسير (٥٨٠) وابن جرير ٢٧ / ٨٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢١ : «رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية ٣ / ٣٨٢ وقال البوصيرى : « رواته ثقات » .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٧٨) وفى التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم فى الإيمان (١٨٠ / ٢٩٦) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٨) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٦) .

﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ وفى قوله : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ قال : « جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين » [١] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى موسى فى قوله : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ قال : ذواتا ألوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : فنّ غصونها يمس بعضها بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : الفنّ الغصن ، وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم ،والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **متكئين على فرش بطائنها من إستبرق** ﴾ قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف بالظهائر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه قيل له : بطائنها من إستبرق ، فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله :﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : ١٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه فى قوله : ﴿ **وجنى الجنتين دان** ﴾ قال : جناها ثمرها ، والدانى : القريب منك يناله القائم والقاعد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فيهنّ قاصرات الطرف** ﴾ يقول : عن غير أزواجهنّ ﴿ **لم يطمثهنّ** ﴾ يقول : لم يدن منهنّ أو لم يدمهنّ . وأخرج أحمد وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبى ﷺ : فى قوله : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ قال : «تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب ، وأنه يكون عليها سبعون ثوبا وينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك » [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد بن السرىّ والترمذى ، وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال: « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها ، وذلك أن الله يقول : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ **فأما الياقوت فإنه حجر لو** أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه» [٣] وقد رواه الترمذى موقوفا وقال: هو أصحّ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وضعفه عن ابن عمر قال :

---

(١) ابن جرير ٢٧ / ٨٥ .

(٢) أحمد ٣ / ٧٥ وابن حبان (٧٣٥٤) وصححه الحاكم ٢ / ٤٧٥ ، وقال الذهبى : «قلت دراج صاحب عجائب » .

(٣) الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٣) وابن جرير ٢٧ / ٨٨ وابن حبان (٧٣٥٣) .

قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال : « ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » [(١)] . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبغوىّ فى تفسيره ، والديلمى فى مسند الفردوس ، وابن النجار فى تاريخه عن أنس مرفوعا مثله [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا فى الآية قال : « هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة . وأخرج ابن عدىّ وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى ، والبيهقى فى الشعب وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «أنزل الله علىّ هذه الآية فى سورة الرحمن للكافر والمسلم : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ »[(٣)]. وأخرجه ابن مردويه موقوفا على ابن عباس .

وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مدهامتان** ﴾ قال : هما خضراوان . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : قد اسودّتا من الخضرة من الرّىّ من الماء . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه .وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: سألت النبىّ ﷺ عن قوله : ﴿ **مدهامتان** ﴾ قال : « خضراوان » [(٤)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **نضاختان** ﴾ قال : فائضتان . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ينضخان بالماء .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **خيرات حسان** ﴾ قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لامراحات ولا طماحات ولا بخرات ولا دفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حور** ﴾ قال : بيض ﴿ **مقصورات** ﴾ قال :

(١) البيهقى فى الشعب (٤٢٥) قال البيهقى : « تفرد به إبراهيم بن محمد الكوفى وهو منكر » .

(٢) البغوى فى التفسير ٤ / ٢٧٦ .

(٣) ابن عدى ٧ / ١٠٤ والبيهقى فى الشعب (١٩٥٤) قال النسائى : « فى السند الهيثم بن عدى الكوفى وهو متروك الحديث» ، وقال أبو داود: « كذاب » وقال الإمام أحمد : « كان صاحب أخبار وتدليس » ، وقال البخارى : « ليس بثقة وكان يكذب » لسان الميزان ٦ / ٢٥٢ .

(٤) الطبرانى (٤٠٧٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢١ :« رواه الطبرانى وفيه واصل بن السائب وهو متروك » .

محبوسات ﴿ فى الخيام ﴾ قال : فى بيوت اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم قال : الحور: سود الحدق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال : « الخيام در مجوف » (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ ﷺ : « الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ، فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن » (٢) . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ متكئين على رفرف ﴾ قال : فضول المحابس والفرش والبسط . وأخرج عبد بن حميد عن علىّ بن أبى طالب قال : هى فضول المحابس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث من طرق عن ابن عباس : ﴿ رفرف خضر ﴾ قال : المحابس ﴿ وعبقرىّ حسان﴾ قال : الزرابى . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال : الرّفرف : الرياض ، والعبقرىّ : الزرابى .

---

(١) ابن جرير ٢٧ / ٩٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٧٩) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨ / ٢٣) .

تفســير سورة الواقعة

هى سبع وتسعون ، أوست وتسعون آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء ، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ وقال الكلبى : إنها مكية إلا أربع آيات منها ، وهى : ﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون** ﴾ وقوله : ﴿ **ثلة من الأوّلين . وقليل من الآخرين** ﴾ . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس: قال : نزلت سورة الواقعة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن الضريس والحارث بن أبى أسامة وأبو يعلى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا » (١) . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال :« سورة الواقعة سورة الغنى فاقرؤوها وعلموها أولادكم » . وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى» (٢). وقد تقدم قوله ﷺ : «شيبتنى هود والواقعة » (٣) . ا .هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ۝٢٦ ﴾ .

قوله : ﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ الواقعة : اسم للقيامة كالآزفة وغيرها ، وسميت واقعة لأنها

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢٢٦٧ ـ ٢٢٦٩) وإسناده ضعيف .
(٢) الديلمى (٤٠٠٥) . (٣) سبق تخريجه.

كائنة لا محالة ، أو لقرب وقوعها ، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد وانتصاب إذا بمضمر، أى اذكر وقت وقوع الواقعة ، أو بالنفى المفهوم من قوله : ﴿ **ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ أى لا يكون عند وقوعها تكذيب ، والكاذبة مصدر كالعاقبة ، أى ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً. وقيل : إذا شرطية وجوابها مقدّر ، أى إذا وقعت كان كيت وكيت ، والجواب هذا هو العامل فيها. وقيل : إنها شرطية والعامل فيها الفعل الذى بعدها ، واختار هذا أبو حيان ، وقد سبقه إلى هذا مكّى فقال: والعامل وقعت . قال المفسرون : والواقعة هنا : هى النفخة الآخرة ومعنى الآية : أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا ، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة . قال الزجاج : ليس لوقعتها كاذبة، أى لا يردّها شىء ، وبه قال الحسن وقتادة . وقال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائى : ليس لها تكذيب ، أى لا ينبغى أن يكذب بها أحد . ﴿**خافضة رافعة**﴾ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ ، أى هى خافضة رافعة. وقرأ الحسن وعيسى الثقفى بنصبهما على الحال ، قال عكرمة والسدىّ ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا، ورفعت الصوت فأسمعت من نأى : أى أسمعت القريب والبعيد ، وقال قتادة : خفضت أقواما فى عذاب الله ، ورفعت أقواما إلى طاعة الله ، وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع فى المكان والمكانة والعزّ والإهانة ، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز ، والخافض والرّافع فى الحقيقة هو الله سبحانه .

﴿**إذا رُجَّت الأرض رجا**﴾ أى إذا حرّكت حركة شديدة ، يقال: رجه يرجه رجا إذا حركه، والرجة : الاضطراب، وارتج البحر اضطرب ، قال المفسرون : يرتجّ كما يرتجّ الصبىّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شىء من الجبال وغيرها ، قال قتادة ومقاتل ومجاهد : معنى ﴿ **رجت** ﴾: زلزلت ، والظرف متعلق بقوله : ﴿**خافضة رافعة** ﴾ **أى تخفض وترفع** وقت رجّ الأرض وبس الجبال ؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض وينخفض ما هو مرتفع . وقيل: إنه بدل من الظرف الأوّل ذكره الزجاج ، فيكون معنى وقوع الواقعة : هو رج الأرض ، وبس الجبال . ﴿ **وبست الجبال بسا** ﴾ البس : الفت ، يقال : بس الشىء إذا فته حتى يصير فتاتا ، ويقال : بس السويق : إذا لته بالسمن أو بالزيت ، قال مجاهد ومقاتل : المعنى : أن الجبال فتتت فتا . وقال السدّى : كسرت كسرًا . وقال الحسن: قلعت من أصلها ،وقال مجاهد أيضًا: بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت ، والمعنى : أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت ، وقال أبو زيد : البسّ : السوق، والمعنى على هذا : سيقت الجبال سوقا . قال أبو عبيد : بسّ الإبل وأبسها لغتان : إذا زجرها ، وقال عكرمة : المعنى: هدّت هدًا ﴿**فكانت هباء منبثا** ﴾ أى غبارا متفرّقا منتشرا . قال مجاهد : الهباء : الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار ، وقيل: هو الرّهج الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب . وقيل : ما تطاير من النار

إذا اضطرمت على صورة الشرر فإذا وقع لم يكن شيئا ، وقد تقدّم بيانه فى الفرقان عند تفسير قوله :﴿فجعلناه هباء منثورا ﴾ [الفرقان : ١٣] قرأ الجمهور :﴿ منبثا ﴾ بالمثلثة ، وقرأ مسروق والنخعى وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق ، أى منقطعا ، من قولهم : بته الله، أى قطعه .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال : ﴿ **وكنتم أزواجا ثلاثة** ﴾ والخطاب لجميع الناس أو للأمة الحاضرة ، والأزواج : الأصناف ، والمعنى: وكنتم فى ذلك اليوم أصنافا ثلاثة. ثم فسر سبحانه هذه الأصناف فقال : ﴿**فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة** ﴾ أى أصحاب اليمين ، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، و﴿**أصحاب الميمنة** ﴾ مبتدأ وخبره : ﴿ **ما أصحاب الميمنة** ﴾أى أىّ شىء هم فى حالهم وصفتهم. والاستفهام للتعظيم والتفخيم ، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغنى عن الضمير الرّابط ، كما فى قوله : ﴿ الحاقة . ما الحاقة﴾ [الحاقة : ١، ٢] و﴿ القارعة . ما القارعة ﴾ [القارعة: ١ ، ٢] ولا يجوز مثل هذا إلا فى مواضع التفخيم والتعظيم والكلام فى ﴿**أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة** ﴾ كالكلام فى ﴿ **أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة** ﴾ والمراد : الذى يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم ، والمراد : تعجيب السامع من حال الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل : فأصحاب الميمنة فى نهاية السعادة وحسن الحال، وأصحاب المشأمة فى نهاية الشقاوة وسوء الحال . وقال السدّى : أصحاب الميمنة : هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه ، وأصحاب المشأمة : هم الذين كانوا عن شماله ، وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة : هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة : هم الذين أخذوا من شقه الأيسر . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة : هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة : هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة: هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة : هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة . وقال المبرد : أصحاب الميمنة : أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة: أصحاب التأخر ، والعرب تقول : اجعلنى فى يمينك ، ولا تجعلنى فى شمالك ، أى اجعلنى من المتقدّمين ولا تجعلنى من المتأخرين ، ومنه قول ابن الدمينة :

أبنيتى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم كما مرّ فى القسمين الأوّلين ، كما تقول : أنت أنت وزيد زيد ، والسابقون مبتدأ ، وخبره السابقون ، وفيه تأويلان : أحدهما: أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك ، والثانى : أن متعلق السابقين مختلف ، والتقدير : والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة ، والأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم . قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كلامه . وقال محمد بن كعب : إنهم الأنبياء ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقال مجاهد : هم الذين سبقوا إلى الجهاد ، وبه قال الضحاك،

وقال سعيد بن جبير : هم السابقون إلى التوبة وأعمال البرّ . وقال الزجاج : المعنى : والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله . قيل : ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوّلين هو أن يقترن به ما بعده ، وهو قوله : ﴿ **أولئك المقربون . في جنات النعيم** ﴾ فالإشارة هى إليهم ، أى المقرّبون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته ، أوالذين قربت درجاتهم وأعليت مراتبهم عند الله ، وقوله : ﴿ **فى جنات النعيم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **المقربون** ﴾ أى مقرّبون عند الله فى جنات النعيم ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لأولئك ، وأن يكون حالا من الضمير فى ﴿**المقربون** ﴾ أى كائنين فيها . قرأ الجمهور :﴿ **فى جنات** ﴾ بالجمع ، وقرأ طلحة بن مصرف : « فى جنة » بالإفراد ، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال : دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل .

وارتفاع ﴿ **ثلة من الأوّلين** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم ثلة ، والثلة : الجماعة التى لا يحصر عددها، قال الزجاج : معنى ثلة معنى فرقة ، من ثللت الشىء : إذا قطعته . والمراد بالأوّلين : هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿ **وقليل من الآخرين** ﴾ أى من هذه الأمة ، وسموا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا . قال الزجاج : الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدّقوا بهم أكثر ممن عاين النبىّ ﷺ ، ولا يخالف هذا ما ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » ، ثم قال : « ثلث أهل الجنة » ، ثم قال: « نصف أهل الجنة » [(١)] ؛ لأن قوله : ﴿ **ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين** ﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى فى ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم ، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة ، والمقابلة بين الثلثين فى أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة كما يقال : هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة ، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة ، وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور .

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال : ﴿ **على سرر موضونة** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **سرر**﴾ بضم السين والراء الأولى ، وقرأ أبو السماك وزيد بن علىّ بفتح الراء ، وهى لغة كما تقدّم والموضونة : المنسوجة ، والوضن : النسيج المضاعف . قال الواحدى : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب . وقيل : مشبكة بالدّر والياقوت والزبرجد . وقيل : إن الموضونة المصفوفة ، وقال مجاهد : الموضونة : المرمولة بالذهب . وانتصاب ﴿ **متكئين عليها**﴾ على الحال ، وكذا انتصاب ﴿ **متقابلين** ﴾ والمعنى : مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٨) وهو جزء من حديث عن أبى سعيد الخدرى .

من المقربين ، أومستأنفة لبيان بعض ما أعدّ الله لهم من النعيم ، والمعنى : يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ولا يتغيرون ، بل شكلهم شكل الولدان دائما ، قال مجاهد : المعنى لا يموتون . وقال الحسن والكلبى : لا يهرمون ولا يتغيرون . قال الفراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط : إنه لمخلد . وقال سعيد بن جبير : مخلدون : مقرطون . قال الفراء : ويقال : مخلدون: مقرطون ، يقال : خلد جاريته: إذا حلاها بالخلدة ،وهى القرطة . وقال عكرمة : مخلدون : منعمون ، ومنه قول امرئ القيس :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل : مستورون بالحلية ، وروى نحوه عن الفراء . ومنه قول الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهنّ أقاوز الكثبان

وقيل : مخلدون : ممنطقون . قيل : هم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقيل : هم أطفال المشركين ، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين فى الجنة للقيام بهذه الخدمة . والأكواب : هى الأقداح المستديرة الأفواه التى لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها فى سورة الزخرف ، والأباريق : هى ذات العرى والخراطيم ، واحدها إبريق ، وهو الذى يبرق لونه من صفائه ، ﴿ **وكأس من معين** ﴾ أى من خمر جارية أو من ماء جار ، والمراد به هاهنا الخمر الجارية من العيون ، وقد تقدّم بيان معنى الكأس فى سورة الصافات . ﴿ **لا يصدّعون عنها** ﴾ أى لا تتصدع رؤوسهم من شرابها كما تتصدع من شرب خمر الدنيا ، والصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الإنسان فى رأسه . وقيل : معنى : ﴿ **لا يصدعون** ﴾ لا يتفرقون كما يتفرق الشراب ، ويقوى هذا المعنى قراءة مجاهد : « يصدعون » بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصل يتصدعون ، أى يتفرقون ، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو فى محل نصب على الحال ، وجملة: ﴿ **ولا ينزفون** ﴾ معطوف على الجملة التى قبلها ، وقد تقدم اختلاف القراء فى هذا الحرف فى سورة الصافات ، وكذلك تقدم تفسيره ، أى لا يسكرون فتذهب عقولهم ، من أنزف الشارب : إذا نفذ عقله أو شرابه . ومنه قول الشاعر :

لعَمْرى لئن أَنزفتم أو صَحَوتُمُ لبئس الندامى كنتم آل أبْجَرَا

﴿ **وفاكهة مما يتخيرون** ﴾ أى يختارونه ، يقال : تخيرت الشىء : إذا أخذت خيره ، قرأ الجمهور : ﴿**وفاكهة** ﴾ بالجر وكذا ﴿ **لحم** ﴾ عطفا على ﴿ **أكواب** ﴾ أى يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمفكه به ، وقرأ زيد بن علىّ وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقدّر ، أى ولهم فاكهة ولحم ، ومعنى ﴿ **مما يشتهون** ﴾ : مما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم . ﴿ **وحور عين .كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **حور عين** ﴾ برفعهما عطفا على ولدان أوعلى تقدير مبتدأ ، أى نساؤهم حور عين ، أو على تقدير خبر ، أى ولهم حور عين . وقرأ حمزة والكسائى بجرهما عطفا على أكواب قال الزجاج : وجائز أن يكون عطفا

على جنات ، أى هم فى جنات وفى حور ، على تقدير مضاف محذوف ، أى وفى معاشرة حور . قال الفراء فى توجيه العطف على أكواب : إنه يجوز الجرّ على الاتباع فى اللفظ وإن اختلفا فى المعنى . لأن الحور لا يطاف بهن، كما فى قول الشاعر :

إذا مَا الغانياتُ بَرزنَ يَوْمًا وَزَجَّجن الحوَاجبَ والعيُونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل ، ومن هذا قول الشاعر :

علفتها تبنا وماء باردا

وقول الآخر :

متقلدا سيفا ورمحا

قال قطرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور : ويكون لهم فى ذلك لذة ، وقرأ الأشهب العقيلى والنخعى وعيسى بن عمر بنصبها على تقدير إضمار فعل ،كأنه قيل : ويزوّجون حورا عينا ، أو ويعطون، ورجح أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور ، ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذى لم تمسه الأيدى ولا وقع عليه الغبار ، فهو أشد ما يكون صفاء ، وانتصاب ﴿ **جزاء** ﴾ فى قوله : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ على أنه مفعول له ، أى يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم ، ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لفعل محذوف ، أى يجزون جزاء ، وقد تقدّم تفسير الحور العين فى سورة الطور وغيرها . ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما** ﴾ اللغو : الباطل من الكلام ، والتأثيم : النسبة إلى الإثم ، قال محمد بن كعب : لا يؤثم بعضهم بعضا ، وقال مجاهد : لا يسمعون شتما ولا مأثما ، والمعنى : أنه لا يقول بعضهم لبعض : أثمت ،لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم . ﴿ **إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾ القيل : القول ، والاستثناء منقطع ، أى لكن يقولون قيلا ، أو يسمعون قيلا ، وانتصاب ﴿**سلاما سلاما** ﴾ على أنه بدل من ﴿ **قيلا** ﴾ أو صفة له ، أو هو مفعول به ﴿ **قيلا** ﴾ أى إلا أن يقولوا : سلاما ، واختار هذا الزجاج ، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بـ﴿**قيلا** ﴾ أى إلا قيلا سلموا سلاما سلاما ، والمعنى فى الآية : أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض قال عطاء : يحيى بعضهم بعضا بالسلام . وقيل: إن الاستثناء متصل وهو بعيد ، لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأثيم ، قرئ: « سلام سلام » بالرفع . قال مكى : ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم ، مبتدأ وخبر.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿**إذا وقعت الواقعة** ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ **ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ قال : ليس لها مردّ يردّ ﴿ **خافـضة رافعة** ﴾ قال: تخفض ناسا وترفع آخرين . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه ﴿ **خافـضة رافعة** ﴾ قال : أسمعت القريب والبعيد. وأخرج ابن أبى حاتم عن عمر ابن الخطاب : ﴿ **خافـضة رافعة** ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء

الله إلى الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا رجت الأرض رجا** ﴾ قال : زلزلت ﴿ **وبست الجبال بسا** ﴾ قال : فتتت ﴿ **فكانت هباء منبثا** ﴾ قال : شعاع الشمس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **فكانت هباء منبثا** ﴾ قال : الهباء الذى يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر فإذا وقع لم يكن شيئًا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : الهباء ما يثور مع شعاع الشمس ، وانبثاثه : تفرقه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : الهباء : المنبث : رهج الدواب (١) . والهباء المنثور : غبار الشمس الذى تراه فى شعاع الكوّة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وكنتم أزواجا** ﴾ قال : أصنافا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وكنتم أزواجا ثلاثة** ﴾ قال : هى التى فى سورة الملائكة: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : ٣٢] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا في قوله : ﴿**والسابقون السابقون** ﴾ . قال يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى . وعلى بن أبى طالب سبق إلى رسول الله ﷺ . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذى ذكر فى يس ، وعلىّ بن أبى طالب ، وكل رجل منهم سابق أمته ، وعلىّ أفضلهم سبقا . وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **وأصحاب اليمين . . . وأصحاب الشمال** ﴾ فقبض بيديه قبضتين فقال : « هذه فى الجنة ولا أبالى ، وهذه فى النار ولا أبالى » (٢) . وأخرج أحمد أيضا عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : « الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوا ، وحكموا للناس حكمهم لأنفسهم» (٣) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت ﴿ **ثلة من الأوّلين . وقليل من الآخرين** ﴾ شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ . فنزلت : ﴿ **ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين** ﴾ فقال النبىّ ﷺ : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث الجنة . بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسموهم النصف الثانى » (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس : ﴿**على سرر موضونة** ﴾ قال : مصفوفة .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه . قال: مرمولة بالذهب . وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، والبزار وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ: « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويا » . وأخرج أحمد والترمذى والضياء عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى

---

(١) رهج الدواب : أى الغبار التى تثيره عند المشى . (٢) أحمد ٥/ ٢٣٩ .
(٣) أحمد ٦/ ٦٧ . (٤) أحمد ٢/ ٣٩١ .

شجر الجنة » فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن هذه الطير لناعمة ، قال : « آكلها أنعم منها ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها »(١) . وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ فقال : الذى فى الصرف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا** ﴾ قال : باطلا ﴿ **ولا تأثيما** ﴾ قال : كذبا .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين وما أعده لهم من النعيم المقيم ، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال : ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام، وما فى هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم والتعظيم ، وهى خبر المبتدأ ، وهو أصحاب اليمين ، وقوله : ﴿ **فى سدر مخضود** ﴾ خبرثان أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى سدر مخضود، والسدر : نوع من الشجر ، والمخضود : الذى خضد شوكه ، أى قطع فلا شوك فيه ، قال أمية بن أبى الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق فى الجنان ظليلة   فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود : الموقر حملا . ﴿ **وطلح منضود** ﴾ قال أكثر المفسرين: إن الطلح فى الآية هو شجر الموز . وقال جماعة : ليس هو شجر الموز ، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب . قال الفراء وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك . قال الزجاج: الطلح هو أمّ غيلان ، ولها نور طيب ، فخوطبوا ووعدوا

---

(١) أحمد ٣/ ٢٢١ والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٤٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

ما يحبون ، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا . قال: ويجوز أن يكون فى الجنة وقد أزيل شوكه . قال السدى : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا ، لكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود : المتراكب الذى قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة . قال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنائها نضيد ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها ﴿ **وظل ممدود** ﴾ أى دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس . قال أبو عبيدة : والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع : ممدود ، ومنه قوله : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل** ﴾ [الفرقان : ٤٥] والجنة كلها ظل لا شمس معه ، قال الربيع بن أنس : يعنى : ظل العرش، ومن استعمال العرب للممدود فى الدائم الذى لا ينقطع قول لبيد :

غلب العزاء وكان غير مغلب ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ دهـر طويل دائـم ممـدود

﴿ **وماء مسكوب** ﴾ أى منصبّ يجرى بالليل والنهار أينما شاؤوا لا ينقطع عنهم ، فهو مسكوب يسكبه الله فى مجاريه ، وأصل السكب : الصبّ ، يقال: سكبه سكبا أى صبه . ﴿**وفاكهة كثيرة** ﴾ أى ألوان متنوعة متكثرة . ﴿ **لا مقطوعة** ﴾ فى وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا فى بعض الأوقات . ﴿ **ولا ممنوعة** ﴾ أى لا تمتنع على من أرادها فى أى وقت على أىّ صفة ، بل هى معدّة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل ، قال ابن قتيبة : يعنى : أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا . ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ أى مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرة . وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ، وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن والكمال . ﴿ **إنا أنشأناهنّ إنشاء** ﴾ أى خلقناهن خلقا جديدا من غير توالد . وقيل : المراد : نساء بنى آدم ، والمعنى : أن الله سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب ، والنساء وإن لم يتقدم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة عين النساء فمرجع الضمير ظاهر . ﴿ **فجعلناهنّ أبكارا** ﴾ ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان ﴾ [الرحمن : ٥٦] ﴿**عربا أترابا** ﴾ العرب جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها . قال المبرد : هى العاشقة لزوجها ، ومنه قول لبيد:

وفى الخباء عروب غير فاحشة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ريا الروادف يعشى ضوؤها البصرا

وقال زيد بن أسلم : هى الحسنة الكلام . قرأ الجمهور بضم العين والراء ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء وهما لغتان فى جمع فعول ، والأتراب : هنّ اللواتى على ميلاد واحد وسنّ واحد ، وقال مجاهد : أترابا أمثالا و أشكالا . وقال السدىّ : أترابا فى الأخلاق لاتباغض بينهن ولا تحاسد . قوله : ﴿ **لأصحاب اليمين**﴾ متعلق بـ﴿**أنشأناهنّ**﴾ أو بجعلنا أو بـ ﴿ **أترابا** ﴾ والمعنى : أن الله أنشأهنّ لأجلهم أو خلقهنّ لأجلهم أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين فى السنّ ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هنّ لأصحاب اليمين ﴿ **ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين**﴾ هذا راجع إلى قوله : ﴿**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ أى هم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين، والمعنى : أنهم

جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأولين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ، وجماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين وهم أمة محمد ﷺ . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ يعنى : من سابقى هذه الأمة ﴿ **وثلة من الآخرين** ﴾ من هذه الأمة من آخرها .

ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب الشمال وما أعدّه لهم فقال : ﴿**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال** ﴾ الكلام فى إعراب هذا وما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين وقوله : ﴿ **فى سموم وحميم** ﴾ إما خبرثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف ، والسموم : حرّ النار، والحميم : الماء الحار الشديد الحرارة ، وقد سبق بيان معناه . وقيل : السموم : الريح الحارة التى تدخل فى مسامّ البدن . ﴿ **وظلّ من يحموم** ﴾ اليحموم يفعول من الأحم وهو الأسود . والعرب تقول : أسود يحموم : إذا كان شديد السواد، والمعنى : أنهم يفزعون إلى الظلّ فيجدونه ظلا من دخان جهنم شديد السواد . وقيل : وهو مأخوذ من الحم وهو الشحم المسودّ باحتراق النار . وقيل : مأخوذ من الحمم وهو الفحم . قال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود . ثم وصف هذا الظلّ بقوله: ﴿ **لا بارد ولا كريم** ﴾ أى ليس كغيره من الظلال التى تكون باردة ، بل هو حار لأنه دخان نار جهنم ، قال سعيد بن المسيب: ﴿ **ولا كريم** ﴾ أى ليس فيه حسن منظر وكلّ ما لا خير فيه فليس بكريم. وقال الضحاك : ﴿ **ولا كريم** ﴾ : ولا عذب . قال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعا لكلّ شىء ونفت عنه وصفا تنوى به الذم . تقول ما هو بسمين ولا بكريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة . ثم ذكر سبحانه أعمالهم التى استحقوا بها هذا العذاب فقال : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين** ﴾ وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين فى الدنيا أى منعمين بما لا يحل لهم ، والمترف: المتنعم . وقال السدى : مشركين . وقيل : متكبرين ، والأوّل أولى . ﴿ **وكانوا يصرّون على الحنث العظيم**﴾ الحنث : الذنب، أى يصرون على الذنب العظيم . قال الواحدى : قال أهل التفسير : عنى به الشرك ، أى كانوا لا يتوبون عن الشرك ، وبه قال الحسن والضحاك وابن زيد، وقال قتادة ومجاهد: هو الذنب العظيم الذى لا يتوبون عنه. وقال الشعبى : اليمين الغموس . ﴿ **وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾ الهمزة فى الموضعين للإنكار والاستبعاد وقد تقدّم الكلام على هذا فى الصافات ،وفى سورة الرعد ، والمعنى: أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت ، وقد صاروا عظاما وترابا ، والمراد أنه صار لحمهم وجلودهم ترابا وصارت عظامهم نخرة بالية ، والعامل فى الظرف ما يدل عليه مبعوثون ؛ لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله ، أى أنبعث إذا متنا ؟ إلخ . ﴿ **أو آباؤنا الأوّلون** ﴾ معطوف على الضمير فى ﴿ **لمبعوثون** ﴾ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة ، والمعنى: أن بعث آبائهم الأوّلين أبعد لتقدّم موتهم، وقرئ «وآباؤنا» .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويردّ استبعادهم فقال : ﴿ **قل إنّ الأوّلين**

والآخرين . لمجموعون﴾ أى قل لهم يا محمد : إن الأوّلين من الأمم والآخرين منهم الذى أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث ﴿ **إلى ميقات يوم معلوم** ﴾ وهو يوم القيامة . ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون** ﴾ هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول ، وهو معطوف على ﴿ **إن الأولين** ﴾ ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين ، وهما الضلال عن الحق والتكذيب له ﴿**لآكلون من شجر من زقوم** ﴾ أى لآكلون فى الآخرة من شجر كريه المنظر كريه الطعم ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الصافات « ومن » الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بيانية ، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة ، والثانية بيانية ، وأن تكون الثانية مزيدة ، والأولى للابتداء . ﴿ **فمالئون منها البطون** ﴾ أى مالئون من شجر الزقوم بطونكم لما يلحقكم من شدة الجوع . ﴿ **فشاربون عليه من الحميم**﴾ الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ عائد إلى الزقوم ، والحميم : الماء الذى قد بلغ حرّه إلى الغاية، والمعنى : فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ ، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكر ويؤنث ، ويجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله : ﴿**لآكلون** ﴾ . وقرئ: « من شجرة » بالإفراد . ﴿ **فشاربون شرب الهيم** ﴾ قرأ الجمهور: « شرب الهيم » بفتح الشين . وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضمها ، وقرأ مجاهد وأبو عثمان النهدى بكسرها ، وهى لغات . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها . قال المبرد : الفتح على أصل المصدر والضم اسم المصدر . والهيم : الإبل العطاش التى لا تروى لداء يصيبها ، وهذه الجملة بيان لما قبلها ، أى لا يكون شربكم شربا معتادا ، بل يكون مثل شرب الهيم التى تعطش ولا تروى بشرب الماء ، ومفرد الهيم أهيم ، والأنثى هيماء ، قال قيس بن الملوّح :

يقـــال بـــه داء الهُيَامِ أصـابه وقد علمت نفسى مكان شفائيا

وقال الضحاك وابن عيينة والأخفش وابن كيسان : الهيم : الأرض السهلة ذات الرمل ، والمعنى : أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ولا يظهر له فيها أثره ، قال فى الصحاح: الهيام بالضم : أشد العطش ، والهيام كالجنون من العشق، والهيام : داء يأخذ الإبل تهيم فى الأرض لا ترعى ، يقال : ناقة هيماء ، والهيماء أيضا : المفازة لاماء بها ، والهيام بالفتح : الرمل الذى لا يتماسك فى اليد للينه ، والجمع هيم مثل قذال وقذل ، والهيام بالكسر الإبل العطاش . ﴿ **هذا نزلهم يوم الدين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نزلهم** ﴾ بضمتين ، وروى عن أبى عمرو وابن محيصن بضمة وسكون ، وقد تقدّم أن النزل ما يعدّ للضيف ويكون أوّل ما يأكله ، ويوم الدين : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، والمعنى : أن ما ذكر من شجر الزقوم ، وشراب الحميم ، وهو الذى يعدّ لهم ويأكلونه يوم القيامة ، وفى هذا تهكم بهم ، لأن النزل هو ما يعدّ للأضياف تكرمة لهم . ومثل هذا قوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : ٢٤] .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى أمامة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابى يوما فقال : يارسول الله ، ذكر فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها : قال : « وما هى ؟ »

قال: السدر فإن لها شوكا ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ فى سدر مخضود﴾؟ يخضد الله شوكه ، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر » [(١)] . وأخرج ابن أبى داود والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه عن عتبة بن عبد السلمى قال [(٢)] : كنت جالسا مع النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يارسول الله : أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها : يعنى الطلح ، فقال رسول الله ﷺ: « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود ـ يعنى : الخصىّ منها ـ فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون آخر» [(٣)] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سدر مخضود ﴾ قال : خضده وقره من الحمل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه قال : المخضود الذى لا شوك فيه . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : المخضود الموقر الذى لا شوك فيه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: ﴿ وطلح منضود ﴾ قال : هو الموز . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ: « وطلع منضود » . وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف عن قيس بن عباد قال: قرأت على علىّ بن أبى طالب : ﴿ وطلح منضود ﴾ فقال علىّ : ما بال الطلح . أما نقرأ وطلع ؟ ثم قال : ﴿ وطلع نضيد﴾ [ق : ١٠] ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أنحكها فى المصحف ؟ قال : لا يهاج القرآن اليوم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿منضود﴾ قال : بعضه على بعض .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وظلّ ممدود﴾»[(٤)] وأخرج البخارى وغيره نحوه من حديث أنس [(٥)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما نحوه من حديث أبى سعيد[(٦)] . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٦ ووافقه الذهبى .

(٢) فى المطبوعة: « عيينة بن عبد السلمى » وفى المخطوطة « عتبة » وهو ما أثبتناه وفى مجمع الزوائد ١٠ / ٤١٧: (عتبة) وفى الدر المنثور ٦/ ١٥٦: «عقبة » وفى الإصابة ٢/ ٤٩٠ بهما .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ١/ ٤١٧ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٨٨١) ومسلم فى الجنة (٦/٢٨٢٦) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٢) . وهو جزء من حديث .

(٥) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥١) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٣) وقال : «حديث حسن صحيح » .

(٦) البخارى فى الرقاق (٦٥٥٣) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٨ / ٨) .

الخدرى عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ قال : « ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام » (١) . قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى ، ورشدين ضعيف .

وأخرج الفريابى وهناد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ قال : « إن المنشئات التى كنّ فى الدنيا عجائز عمشا رمصا » . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب ، وموسى ويزيد ضعيفان (٢) . وأخرج الطيالسى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وابن قانع ، والبيهقى فى البعث عن سلمة بن يزيد الجعفى سمعت النبى ﷺ يقول فى قوله : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ قال « الثيب والأبكار اللاتى كنّ فى الدنيا» (٣) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : خلقهنّ غير خلقهنّ الأوّل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **أبكارا** ﴾ قال : عذارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عربا** ﴾ قال : عواشق ﴿ **أترابا** ﴾ يقول : مستويات . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **عربا** ﴾ قال : عواشق لأزواجهنّ ، وأزواجهن لهنّ عاشقون ﴿ **أترابا** ﴾ قال : فى سنّ واحد ثلاثا وثلاثين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : العروب : المَلِقَة لزوجها (٤) . وأخرج مسدد فى مسنده ، وابن المنذر والطبرانى، وابن مردويه بسند حسن عن أبى بكرة عن النبىّ ﷺ فى قوله: ﴿ **ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين**﴾ قال : «جميعهما من هذه الأمة » (٥) .

وأخرج أبو داود والطيالسى ومسدّد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى بكرة فى قوله : ﴿ **ثلة من الأوّلين . وثلة من الآخرين** ﴾ قال : هما جميعا من هذه الأمة (٦) . وأخرج الفريابى ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند ضعيف ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **ثلة من الأوّلين . وثلة من الآخرين** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « هما جميعا من أمتى »(٧) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الثلتان جميعا من هذه الأمة .

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٩٤) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٩٦) وابن جرير ٢٧ / ١٠٧. والعمش : ضعف البصر ، والرمص : وسخ يكون فوق العين .

(٣) الطيالسى (١٣٠٦) وابن جرير ٢٧/١٠٦ ، ١٠٧ والطبرانى (٦٣٢١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٢٢ : «فيه جابر الجعفى وهو ضعيف» .

(٤) المَلَق : الود واللطف الشديد . لسان العرب ١٠/ ٣٤٧ .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٢٠ ، ١٢١ : « رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير على ابن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ » .

(٦) الطيالسى (٨٨١) .

(٧) ابن جرير ٢٧/ ١١٠ .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وظلّ من يحموم ﴾ قال : من دخان أسود ، وفى لفظ : من دخان جهنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ شرب الهيم ﴾ قال : الإبل العطاش .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ .

قوله : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتا لهم وإلزاما للحجة ، أى فهلا تصدقون بالبعث أو بالخلق . قال مقاتل : خلقناكم ولم تكونوا شيئا وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث؟ ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ أى ما تقذفون وتصبون فى أرحام النساء من النطف . ومعنى ﴿ أفرأيتم ﴾ : أخبرونى . ومفعولها الأوّل : ﴿ ما تمنون ﴾ والثانى الجملة الاستفهامية ، وهى ﴿ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ أى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا أم نحن المقدرون المصورون له ، و« أم » هى المتصلة . وقيل : هى المنقطعة ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور :﴿ تمنون ﴾ بضم الفوقية من أمنى . وقرأ ابن عباس وأبو السماك ومحمد بن السميفع والأشهب العقيلى بفتحها من منى يمنى ، وهما لغتان . وقيل : معناهما مختلف ، يقال : أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومنى إذا أنزل عن احتلام ، وسمّى المنىّ منيا لأنه يمنى ، أى يراق . ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾ قرأ الجمهور﴿ قدّرنا ﴾ بالتشديد ، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال : قدرت الشيء وقدّرته ، أى قسمناه عليكم ووقتناه لكل فرد من أفرادكم . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب . قال مقاتل : فمنكم من يموت كبيرا ومنكم من يموت صغيرا، وقال الضحاك : معناه : أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ بمغلوبين ، بل قادرين .

﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أى نأتى بخلق مثلكم . قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقا

غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا . قال ابن جرير : المعنى : نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم وما نحن بمسبوقين فى آجالكم ، أى لا يتقدّم متأخر ، ولا يتأخر متقدّم ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير ، كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى : ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، وقال سعيد بن المسيب : ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ يعنى فى البعث : فى حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف ، وبرهوت واد باليمن ، وقال مجاهد : ﴿فيما لا تعلمون ﴾ يعنى : فى أى خلق شئنا ومن كان قادرا على هذا فهو قادر على البعث ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ وهى ابتداء الخلق من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ولم تكونوا قبل ذلك شيئا ، وقال قتادة والضحاك : يعنى : خلق آدم من تراب ﴿ فلولا تذكرون ﴾ أى فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى، قرأ الجمهور :﴿ النشأة ﴾ بالقصر ، وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمر بالمدّ ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة العنكبوت .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ أى أخبرونى ما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيه البذر ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أى تنبتونه وتجعلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب ﴿ أم نحن الزارعون﴾ أى المنبتون له الجاعلون له زرعا لا أنتم . قال المبرد : يقال زرعه الله ، أى أنماه ، فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث .﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ أى لو نشاء لجعلنا ما تحرثون حطاما : أى متحطما متكسرا ، والحطام : الهشم الذى لا ينتفع به ولا يحصل منه حبّ ولا شىء مما يطلب من الحرث ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ أى صرتم تعجبون . قال الفراء : تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم فى زرعكم . قال فى الصحاح : وتفكه : تعجب ، ويقال : تندّم ، قال الحسن وقتادة وغيرهما : معنى الآية : تعجبون من ذهابها وتندمون مما حلّ بكم ، وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله ، وقال أبو عمرو والكسائى : هو التلهف على ما فات . قرأ الجمهور : ﴿ فظلتم ﴾ بفتح الظاء مع لام واحدة . وقرأ أبوحيوة وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الظاء . وقرأ ابن عباس والجحدرى : « فظللتم » بلامين ، أولاهما مكسورة على الأصل . وروى عن الجحدرى فتحها . وهى لغة . وقرأ الجمهور:﴿ تفكهون ﴾ وقرأ أبو حازم العكلى «تفكنون» بالنون مكان الهاء ، أى تندمون . قال ابن خالويه : تفكه: تعجب، وتفكن: تندم . وفى الصحاح التفكن : التندم . ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ أبو بكر والمفضل وزرّ بن حبيش بهمزتين على الاستفهام ، والجملة بتقدير القول ، أى تقولون : إنا لمغرمون ، أى ملزمون غرما بما هلك من زرعنا ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض ، قاله الضحاك وابن كيسان . وقيل : المعنى : إنا لمعذبون ، قاله قتادة وغيره، وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ، ومنه قول النمر بن تولب :

سَلاَ عــن تَذكُّرِه تكتمـا وكان رَهينًا بـها مُغْـرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلان ، أى أولع . وقال مقاتل : مهلكون . قال النحاس : مأخوذ . من الغرام ، وهو الهلاك ومنه قول الشاعر :

ويوم النِّسارِ ويومُ الجبار كان عليكم عذابا مقيما

والظاهر من السياق المعنى الأول ، أى إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه ومصيره حطاما . ثم أضربوا عن قولهم هذا وانتقلوا فقالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أى حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا ، والمحروم الممنوع من الرزق الذى لاحظ له فيه ، وهو المحارف . ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون** ﴾ فتسكنون به ما يلحقكم من العطش وتدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ ، واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده وأجلّ منافعه ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن** ﴾ أى السحاب . قال فى الصحاح : قال أبو زيد : المزنة : السحابة البيضاء ، والجمع مزن والمزنة : المطر ، قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أن اللــه أنْزَلَ مُــــــزْنَــةً وعُفْرُ الظِّبَاءِ فى الكِنَاس تَقَمَّـعُ

ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر :

فنحنُ كمـاءِ المزْنِ مـا فى نصـابنـا كَهَام ولا فينـا يـُعَـد بَخِــيلُ

وقول الآخر :

فــلا مــزنــة ودقــت ودقـهــا ولا أرض أبــقل إبـقـالـهــا

﴿ **أم نحن المنزلون** ﴾ له بقدرتنا دون غيرنا ، فإذا عرفتم ذلك ، فكيف لا تقرّون بالتوحيد وتصدقون بالبعث . ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال : ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجا** ﴾ . الأجاج: الماء الشديد الملوحة الذى لا يمكن شربه ، وقال الحسن : هو الماء المرّ الذى لا ينتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما ﴿ **فلولا تشكرون** ﴾ أى فهلا تشكرون نعمة الله الذى خلق لكم ماء عذبًا تشربون منه وتنتفعون به . ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون** ﴾ أى أخبرونى عنها ، ومعنى ﴿ **تورون** ﴾: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : أوريت النار إذا قدحتها .﴿ **أأنتم أنشأتم شجرتها**﴾ التى يكون منها الزنود ، وهى : المرخ والعفار (١)، تقول العرب : فى كل شجر نار واستمجد (٢) المرخ والعفار ﴿ **أم نحن المنشئون** ﴾ لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء : الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة . ﴿ **نحن جعلناها تذكرة** ﴾ أى جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى ، قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس فى الظلام ، وقال عطاء : وموعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿ **ومتاعا للمقوين** ﴾ أى منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهى الأرض القفر كالمسافرين

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر . لسان العرب ٤/ ٥٨٩ .
(٢) استمجد : استكثر . لسان العرب ٤/ ٥٨٩ .

وأهل البوادى النازلين فى الأراضى المقفرة ، يقال : أرض قواء بالمد والقصر ، أى مقفرة ، ومنه قول النابغة :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

وقول الآخر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

ويقال: أقوى إذا سافر : أى نزل القوى . وقال مجاهد : المقوين :المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم يقال : أقويت منذ كذا وكذا أى ما أكلت شيئا وبات فلان للقوى، أى بات جائعا ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لأختار القوى طاوى الحشا محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب : المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ، يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه ، وكثر ماله ، وحكى الثعلبى عن أكثر المفسرين القول الأول ، وهو الظاهر . ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه ، وتنزيهه على ما قبلها مما عدّده من النعم التى أنعم بها على عباده وجحود المشركين لها وتكذيبهم بها .

وقد أخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب وضعفه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقولنّ أحدكم زرعت ، ولكن يقول حرثت » قال أبو هريرة : ألم تسمعوا الله يقول :﴿ **أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ﴾ [(١)] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **تفكهون** ﴾ قال : تعجبون .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **المزن** ﴾ : السحاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﴿ **نحن جعلناها تذكرة**﴾ قال : تذكرة للنار الكبرى ﴿ **ومتاعا للمقوين** ﴾ قال : للمسافرين .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾

(١) ابن جرير ٢٧/ ١١٤ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٦٧ والبيهقى فى الشعب (٤٨٥١) ورجاله ثقات .

وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **فلا أقسم** ﴾ ذهب جمهور المفسرين إلى أن « لا» مزيدة للتوكيد . والمعنى : فأقسم ويؤيد هذا قوله بعد : ﴿**وإنه لقسم** ﴾ وقال جماعة من المفسرين : إنها للنفى ، وإن المنفى بها محذوف ، وهو كلام الكفار الجاحدين ، قال الفراء: هى نفى ، والمعنى : ليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف فقال : أقسم ، وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز كما قال أبو حيان وغيره . وقيل : إنها لام الابتداء ، والأصل فلا أقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقول الشاعر :

أعوذ بالله من العقراب

وقد قرأ هكذا : « فلأقسم » بدون ألف الحسن وحميد وعيسى بن عمر ، وعلى هذا القول وهذه القراءة يقدّر مبتدأ محذوف ، والتقدير : فلأنا أقسم بذلك . وقيل : إن لا هنا بمعنى ألا التى للتنبيه ، وهو بعيد ، وقيل : لا هنا ظاهرها ، وإنها لنفى القسم ، أى فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك ، وهذا مدفوع بقوله : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ مع تعيين المقسم به والمقسم عليه ، ومعنى قوله : ﴿ **بمواقع النجوم** ﴾ مساقطها ، وهى مغاربها كذا قال قتادة وغيره . وقال عطاء بن أبى رباح : منازلها ، وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة، وقال الضحاك : هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون : مطرنا بنوء كذا ، وقيل : المراد بمواقع النجوم : نزول القرآن نجوما من اللوح المحفوظ ، وبه قال السدّى وغيره ، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور : ﴿ **مواقع** ﴾ على الجمع، وقرأ ابن مسعود والنخعى وحمزة والكسائى وابن محيصن وورش عن يعقوب « بموقع » على الإفراد . قال المبرد : موقع هاهنا مصدر ، فهو يصلح للواحد والجمع . ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتفخيمه فقال : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ هذه الجملة معترضة بين المقسم به والمقسم عليه ، وقوله :﴿ **لو تعلمون** ﴾ جملة معترضة بين جزأى الجملة المعترضة ، فهو اعتراض فى اعتراض ، قال الفراء والزجاج : هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن ، والضمير فى ﴿ **إنه** ﴾ على القسم الذى يدل عليه أقسم ، والمعنى : أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال : ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ أى كرمه الله وأعزّه ورفع قدره

على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحرا أو كهانة أو كذبا . وقيل : إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالى الأمور . وقيل : لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه ، وحكى الواحدى عن أهل المعانى : أن وصف القرآن بالكريم ؛ لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التى تؤدّى إلى الحق فى الدين . قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . ﴿ **فى كتاب مكنون** ﴾ أى مستور مصون . وقيل : محفوظ عن الباطل ، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة . وقيل: هو كتاب . وقال عكرمة : هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن، ومن ينزل عليه ، وقال السدّى : هو الزبور . وقال مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون ، أى لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون ، وهم الملائكة . وقيل : هم الملائكة والرسل من بنى آدم . ومعنى ﴿ **لا يمسه** ﴾: المسّ الحقيقى. وقيل : معناه : لا ينزل به إلا المطهرون . وقيل : معناه : لا يقرؤه ، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن فقيل : ﴿**لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ من الأحداث والأنجاس ، كذا قال قتادة وغيره . وقال الكلبى : المطهرون من الشرك ، وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا ، وقال محمد بن الفضل وغيره : معنى ﴿ **لا يمسه** ﴾ : لا يقرؤه إلا المطهرون ، أى إلا الموحدون ، وقال الفراء: لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون ، أى المؤمنون . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق . وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف ، وبه قال علىّ وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهرى والنخعى والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى ، وروى عن ابن عباس والشعبى وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمحدث مسه ، وقد أوضحنا ما هو الحق فى هذا فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه . قرأ الجمهور : ﴿ **المطهرون** ﴾ بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول ، وقرأ سلمان الفارسى بكسر الهاء على أنه اسم فاعل ، أى المطهرون أنفسهم . وقرأ نافع وأبو عمرو فى رواية عنهما، وعيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أطهر ، وقرأ الحسن وزيد بن علىّ وعبد الله بن عون بتشديد الطاء وكسر الهاء ، وأصله المتطهرون . ﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع، وقرئ بالنصب ، فالرفع على أنه صفة أخرى لقرآن ، أوخبر مبتدأ محذوف ، والنصب على الحال .

﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون** ﴾ . الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة . والمدهن والمداهن : المنافق ، كذا قال الزجاج وغيره ، وقال عطاء وغيره : هو الكذاب ، وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مدهنون: كافرون ، كما فى قوله : ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : ٩] وقال الضحاك : مدهنون :معرضون ، وقال مجاهد : ممالئون للكفار على الكفر، وقال أبو كيسان : المدهن : الذى لا يعقل حق الله عليه ويدفعه بالعلل ؛ والأول أولى لأن

أصل المدهن الذى ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن فى سهولته . قال المؤرج : المدهن : المنافق الذى يلين جانبه ليخفى كفره ، والإدهان والمداهنة : التكذيب والكفر والنفاق . وأصله اللين ، وأن يسرّ خلاف ما يظهر ، وقال فى الكشاف : مدهنون : أى متهاونون به كمن يدهن فى الأمر ، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به . انتهى . قال الراغب : والإدهان فى الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجدّ : كما جعل التقريد : وهو نزع القراد عبارة عن ذلك ، ويؤيد ما ذكره قول أبى قيس بن الأسلت :

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ مِنَ الـ ... إدهان والفَهَّة[1] والهَاعِ [2]

﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ فى الكلام مضاف محذوف ، كما حكاه الواحدى عن المفسرين ، أى تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله فتضعون التكذيب موضع الشكر . وقال الهيثم : إن أزد شنوءة يقولون : ما رزق فلان، أى ما شكر ، وعلى هذه اللغة لا يكون فى الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر ، ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيرا بالسبب عن المسبب ، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله ، وأنزل عليهم المطر : سقينا بنوء كذا ، ومطرنا بنوء كذا . قال الأزهرى : معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذى رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرزاق ، وقرأ علىّ وابن عباس : « وتجعلون شكركم » وقرأ الجمهور:﴿أنكم تكذبون﴾ بالتشديد من التكذيب ، وقرأ علىّ وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف من الكذب . ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أى فهلا إذا بلغت الروح أو النفس الحلقوم عند الموت ، ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاؤوا بمثل هذه العبارة ، ومنه قول حاتم طىء :

أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ إلى ما هو فيه ذلك الذى بلغت نفسه أو روحه الحلقوم . قال الزجاج : وأنتم يا أهل الميت فى تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، والمعنى: أنهم فى تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه ، ولا يستطيعون شيئا ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه . ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى بالعلم والقدرة والرؤية . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أى لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه . ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها ﴾ يقال : دان السلطان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم. قال الفراء : دنته ملكته ، وأنشد للحطيئة :

لقد دنت أمر بنيك حتى ... تركتهم أدق من الطحين

---

(١) الفهة : العى والتعثر فى الكلام .

(٢) الهاع : سوء الحرص مع ضعف الشخصية .

أى ملكت ، ويقال : دانه ، إذا أذله واستعبده ، وقيل : معنى ﴿ **مدينين** ﴾ : محاسبين ، وقيل : مجزيين ، ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

والمعنى الأول ألصق بمعنى الآية ، أى فهلا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين ترجعونها ، أى النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مقرّها الذى كانت فيه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ ولن ترجعوها ، فبطل زعمكم أنكم غير مربوبين ولا مملوكين ، والعامل فى قوله : ﴿ **إذا بلغت** ﴾ هو قوله : ﴿ **ترجعونها** ﴾ و« لولا» الثانية تأكيد للأولى قال الفراء : وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد . ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال : ﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ أى السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدّم تفصيل أحوالهم ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **روح** ﴾ بفتح الراء ، ومعناه : الراحة من الدنيا والاستراحة من أحوالها ، وقال الحسن : الروح : الرحمة. وقال مجاهد : الروح : الفرح ، وقرأ ابن عباس وعائشة والحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدرى : « فروح » بضم الراء ورويت هذه القراءة عن يعقوب ، قيل : ومعنى هذه القراءة : الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، والريحان : الرزق فى الجنة ، قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل . قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير : يقال : خرجت أطلب ريحان الله ، أى رزقه ، ومنه قول النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

وقال قتادة : إنه الجنة ، وقال الضحاك : هو الرحمة ، وقال الحسن : هو الريحان المعروف الذى يشم . قال قتادة والربيع بن خثيم : هذا عند الموت ، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث ، وكذا قال أبو الجوزاء وأبو العالية . ومعنى ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ : أنها ذات تنعم ، وارتفاع روح وما بعده على الابتداء ، والخبر محذوف ، أى فله روح. ﴿ **وأما إن كان** ﴾ ذلك المتوفى ﴿ **من أصحاب اليمين** ﴾ وقد تقدّم ذكرهم وتفصيل أحوالهم وما أعدّه الله لهم من الجزاء. ﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ أى لست ترى فيهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم بهم فإنهم يسلمون من عذاب الله ، وقيل : المعنى : سلام لك منهم ، أى أنت سالم من الاغتمام بهم ، وقيل : المعنى : إنهم يدعون لك ويسلمون عليك . وقيل : إنه ﷺ يحيى بالسلام إكراما . وقيل : هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض. وقيل: المعنى : سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين .

﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين** ﴾ أى المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى ، وهم أصحاب الشمال المتقدّم ذكرهم ، وتفصيل أحوالهم . ﴿ **فنزل من حميم** ﴾ أى فله نزل يعدّ لنزوله من حميم ، وهو الماء الذى قد تناهت حرارته ، وذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه . ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ يقال : أصلاه النار وصلاه، أى إذا جعله فِى النار ، وهو من

إضافة المصدر إلى المفعول أو إلى المكان . قال المبرد : وجواب الشرط فى هذه الثلاثة المواضع محذوف ، والتقدير : مهما يكن من شىء فروح . . . إلخ . وقال الأخفش : إن الفاء فى المواضع الثلاثة هى جواب «أما» وجواب حرف الشرط . قرأ الجمهور : ﴿ **وتصلية**﴾ بالرفع عطفا على ﴿**فنزل** ﴾ وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على ﴿ **حميم** ﴾ أى فنزل من حميم ومن تصلية جحيم . ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين** ﴾ الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرّقين لهو حق اليقين ، أى محض اليقين وخالصه ، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشىء إلى نفسه . قال المبرد : هو كقولك: عين اليقين ومحض اليقين ، هذا عند الكوفيين وجوّزوا ذلك لاختلاف اللفظ ، وأما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفا والتقدير : حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين ، والفاء فى: ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى نزهه عما لا يليق بشأنه ، والباء متعلقة بمحذوف ، أى فسبح ملتبسا باسم ربك للتبرك به . وقيل : المعنى : فصلّ بذكر ربك ، وقيل :الباء زائدة ، والاسم بمعنى: الذات . وقيل : هى للتعدية لأن سبح يتعدّى بنفسه تارة ويتعدّى بالحرف أخرى . والأوّل أولى .

وقد أخرج النسائى وابن جرير ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرّق فى السنين ، وفى لفظ : ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما ، ثم قرأ : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ومحمد ابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ قال : القرآن ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نجوم القرآن حين نزل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضا ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال : الكتاب المنزل فى السماء لا يمسه إلا الملائكة. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أنس﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال الملائكة . وأخرج عبد الرزّاق وابن المنذر عن علقمة قال : أتينا سلمان الفارسى فخرج علينا من كنيف، فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا ، قال : إنما قال الله : ﴿ **فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ وهو الذى فى السماء لا يمسه إلا الملائكة . ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا (٢) . وأخرج عبد الرزّاق وابن أبى داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرو بن حزم عن أبيه قال فى كتاب النبىّ ﷺ لعمرو بن حزم : لا تمس القرآن إلا على طهر(٣). وأخرجه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر (٤) . وأخرجه أبو داود فى المراسيل،

(١) النسائى فى التفسير (٥٨٥) وابن جرير ٢٧/ ١١٧ ، وصححه الحاكم (٢/ ٤٧٧) على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٣٨٦) ورجاله ثقات .
(٢) عبد الرزاق (١٣٢٥) . (٣) المرجع السابق (١٣٢٨) . (٤) الموطأ ١/ ١٩٩ (١) .

من حديث الزهرى قال : قرأت فى صحيفة عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال : « لا يمس القرآن إلا طاهر»(١) . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبى العاص ، وفى أسانيدها نظر (٢). وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئا . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر ،والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال:كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة ، فتوارى عنا ثم خرج إلينا فقلنا : لوتوضأت فسألناك عن أشياء من القرآن . فقال: سلونى ، فإن لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون**﴾ (٣) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمس القرآن إلا طاهر»(٤) وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن كتب له فى عهده : «أن لا يمس القرآن إلا طاهر » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أنتم مدهنون** ﴾ قال : مكذبون . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال النبى ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر» ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ (٥) . وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت فى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهنى(٦)، ومن حديث أبى سعيد الخدرى ، وفى الباب أحاديث . وأخرج أحمد وابن منيع وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن علىّ عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ قال : شكركم ، تقولون: « مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا » (٧) . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن عائشة قالت : ما فسر رسول الله ﷺ إلا آيات يسيرة . قوله : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ قال : «شكركم ». وأخرج ابن مردويه عن علىّ أن رسول الله ﷺ قرأ :« وتجعلون شكركم » . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن

(١) أبو داود فى المراسيل (٩٢، ٩٣) ورجال الحديث رجال الشيخين .
(٢) الدارقطنى ١/ ١٢١ .
(٣) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٤) الطبرانى (١٣٢١٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٨١ : « رجاله موثقون » .
(٥) مسلم فى الإيمان (٧٣/ ١٢٧) .
(٦) البخارى فى التوحيد (٧٥٠٣) ومسلم فى الإيمان (٧١/ ١٢٥) .
(٧) أحمد ١/ ٨٩ والترمذى فى التفسير (٣٢٩٥) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث إسرائيل »وابن جرير ٢٧/ ١١٩ .

المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ: «وتجعلون شكركم » قال: يعنى: الأنواء وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرا،كانوا يقولون:مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله: ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أبى عبد الرحمن السلمى عن علىّ أنه قرأ : « وتجعلون شكركم » وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **غير مدينين** ﴾ قال : غير محاسبين . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع ابن خثيم ﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ الآية. قال : هذا له عند الموت ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم** ﴾ قال : هذا عند الموت ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ قال : تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فروح** ﴾ قال : رائحة ﴿ **وريحان** ﴾ قال : استراحة . وأخرج ابن جرير عنه قال : يعنى بالريحان : المستريح من الدنيا ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ يقول : مغفرة ورحمة . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا قال : الريحان : الرزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا فى قوله :﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين** ﴾ قال : ما قصصنا عليك فى هذه السورة. وأخرج عنه أيضا : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال : فصلّ لربك . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ، فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى : ١] قال : « اجعلوها فى سجودكم » (١) .

---

(١) أحمد ٤/ ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن حبان (١٨٩٥) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٧ ، ٤٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ،والبيهقى ٢/ ٨٦ .

تفسير سورة الحديد

وهى تسع وعشرون آية . وهى مدنية . قال القرطبى: فى قول الجميع .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحديد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء ، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء » ، ونهى رسول الله ﷺ عن الحجامة يوم الثلاثاء [١] . وأخرج الديلمى عن جابر مرفوعًا : « لا تحتجموا يوم الثلاثاء فإن سورة الحديد أنزلت يوم الثلاثاء»[٢] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن العرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وفى إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال معروف [٣]. وقد أخرجه النسائى ، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله ﷺ ولم يذكر العرباض بن سارية ، فهو مرسل [٤] . وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبى كثير قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات ، وكان يقول : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » قال يحيى: فنراها الآية التى فى آخر الحشر. وقال ابن كثير فى تفسيره: والآية المشار إليها والله أعلم هو قوله: ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ [٥] الآية . والمسبحات المذكورة : هى الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥ ﴾ .

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١٢٣/٧ : « رواه الطبرانى وفيه مسلمة بن على وهو ضعيف » .
(٢) الديلمى (٧٣٩٥) عن أنس، وقد ذكر المحقق أن هذا الحديث عن جابر مرفوعا فى زهر الفردوس ١٨١/٤ .
(٣) أحمد ١٢٨/٤ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤) .
(٤) النسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٥١) . (٥) ابن كثير ٥٤٣/٦ .

قوله : ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض ﴾ أى نزهه ومجده . قال المقاتلان : يعنى : كل شىء من ذى روح وغيره ، وقد تقدّم الكلام فى تسبيح الجمادات عند تفسير قوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾ [الإسراء : ٤٤] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما فى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات هو ما يعمّ التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإذا كل موجود يدل على الصانع . وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة . فلم قال : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة ، وفعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارة ، كما فى قوله : ﴿وسبحوه ﴾ [الأحزاب : ٤٢] وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعديا بنفسه ، لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام ، فهى إما مزيدة للتأكيد كما فى شكرته وشكرت له ، أو هى للتعليل ، أى افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصًا له ، وجاء هذا الفعل فى بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة ، وفى بعضها مضارعا ، وفى بعضها أمر للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة فى كل الأوقات لا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت ، بل هى مسبحة أبدا فى الماضى ، وستكون مسبحة أبدا فى المستقبل ، ﴿ وهو العزيز﴾ أى القادر الغالب الذى لا ينازعه أحد ، ولا يمانعه ممانع ، كائنا ما كان ، ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل أفعال الحكمة والصواب .

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ يتصرّف فيه وحده ولا ينفذ غير تصرّفه وأمره ، وقيل أراد خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق ﴿ يحيى ويميت ﴾ الفعلان فى محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على الحال من ضمير له ، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك ، والمعنى : إنه يحيى فى الدنيا ، ويميت الأحياء . وقيل : يحيى النطف وهى موات ، ويميت الأحياء . وقيل : يحيى الأموات للبعث ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ لا يعجزه شىء كائنا ما كان . ﴿ هو الأوّل ﴾ قبل كل شىء ﴿ والآخر﴾ بعد كل شىء ، أى الباقى بعد فناء خلقه ﴿ والظاهر ﴾ العالى الغالب على كل شىء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة ﴿ والباطن﴾ أى العالم بما بطن ، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان ، أى يعلم داخلة أمره ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار والعقول، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ كما سيأتى ، فيتعين المصير إلى ذلك ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ لا يعزب عن علمه شىء من المعلومات . ﴿ هوالذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ هذا بيان لبعض ملكه السموات والأرض . وقد تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وفى غيرها مستوفى ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وغيره ﴿ وما ينزل من السماء﴾ من مطر وغيره ﴿وما يعرج فيها﴾ أى يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد،

وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة سبأ ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ أى بقدرته وسلطانه وعلمه وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فى الأرض من برّ وبحر ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شىء ﴿ **له ملك السموات والأرض**﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ لا إلى غيره . قرأ الجمهور : ﴿ **ترجع** ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر على البناء للفاعل . ﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة آل عمران ، وفى مواضع ﴿ **وهو عليم بذات الصدور** ﴾ أى بضمائر الصدور ومكنوناتها ، لا يخفى عليه من ذلك خافية .

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال : جاءت فاطمة إلى الرسول ﷺ تسأله خادما، فقال قولى : « اللهمّ ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم ، وربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء خفف عنا الدين ، واغننا من الفقر »[(١)] . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فى الأربعة الأسماء المذكورة وتفسيرها[(٢)] . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر وأبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شىء فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأوّل قبل كل شىء . والآخر فليس بعده شىء . وهو الظاهر فوق كل شىء ، وهو الباطن دون كل شىء ، وهو بكل شىء عليم » وأخرج أبو داود عن أبى زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى ، قال : ما هو ؟ قلت: والله لا أتكلم به ،قال: فقال لى : أشىء من شك ؟ قال وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ الآية [يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئا فقل: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ قال : عالم بكم أينما كنتم .

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٣٩٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٣ / ٦١ ، ٦٣) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أحمد ٢/ ٤٠٤ ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٣/ ٦١) وأبو داود فى الأدب (٥٠٥١) .

وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله** ﴾ أى صدّقوا بالتوحيد وبصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب ، ويجوز أن تكون خطابا للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان فى حق المسلمين الاستمرار عليه ، أو الازدياد منه . ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله ، والعباد خلفاء الله فى أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه . وقيل : جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم فلا تبخلوا به ، كذا قال الحسن وغيره ، وفيه الترغيب إلى الإنفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم إلى غيرهم .والظاهر أن معنى الآية : الترغيب فى الإنفاق فى الخير ،وما يرضاه الله على العموم . وقيل : هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص . ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل الله فقال: ﴿ **فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ أى الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإنفاق فى سبيل الله لهم أجر كبير ، وهو الجنة .

﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أىْ أىّ عذرلكم ، وأىّ مانع من الإيمان ، وقد أزيحت عنكم العلل ، و﴿ **ما** ﴾ مبتدأ و﴿ **لكم** ﴾ خبره و﴿ **لاتؤمنون**﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ **لكم** ﴾ والعامل ما فيه من معنى الاستقرار. وقيل : المعنى : أى شيء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا ؟ وجملة: ﴿**والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل ، ولتؤمنوا متعلق بيدعوكم، أى يدعوكم للإيمان ، والمعنى:أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ؟ وجملة : ﴿ **وقد أخذ ميثاقكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا، أى والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان .قرأ الجمهور :﴿ **وقد أخذ**﴾ مبنيا للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدّم ذكره ، وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول :﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ ما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته .

﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات** ﴾ أى واضحات ظاهرات ، وهى الآيات القرآنية . وقيل : المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ أى ليخرجكم الله

بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات أو بالدعوة ﴿ **وإن الله بكم لرؤوف رحيم** ﴾ أى لكثير الرأفة والرحمة بليغهما حيث أنزل كتبه وبعث رسله لهداية عباده فلا رأفة ولارحمة أبلغ من هذه . والاستفهام فى قوله : ﴿ **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله** ﴾ للتقريع والتوبيخ. والكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله:﴿**وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ . وفى هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله : ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ هو الإنفاق فى سبيل الله كما بينا ذلك ، والمعنى: أى عذر لكم وأى شيء يمنعكم من ذلك ،والأصل فى ألا تنفقوا. وقيل: إن « أن » زائدة ، وجملة: ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **ألا تنفقوا** ﴾ أو من مفعوله، والمعنى : أى شيء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه، والحال أن كل ما فى السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لهم منه شيء ، وهذا أدخل فى التوبيخ وأكمل فى التقريع فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها وتصير لله سبحانه ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله فى الحقيقة، وهم خلفاؤه فى التصرف فيها .

ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح** ﴾ قيل : المراد بالفتح : فتح مكة . وبه قال أكثر المفسرين . وقال الشعبى والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة : كان قتالان ، أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك ، وكذا قال مقاتل وغيره ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : لا يستوى من أنفق من قبل الفتح ﴿ **وقاتل** ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره ولدلالة ما سيأتى عليه ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح ، لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقلّ وأضعف ، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجدون ما يجودون به من الأموال .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والإشارة بقوله :﴿ **أولئك** ﴾ إلى ﴿ **من** ﴾ باعتبار معناها وهو مبتدأ وخبره :﴿ **أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** ﴾ أى أرفع منزلة وأعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله من بعد الفتح وقاتلوا مع رسول الله ﷺ . قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها . قال الزجاج : لأن المتقدّمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ. وقد أرشد ﷺ إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه:« لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه »[(١)] وهذا خطاب منه ﷺ للمتأخرين

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٠ / ٢٢١) عن أبى سعيد .

وصحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الذى ورد فيه هذا الحديث ﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ أى وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى ، وهى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها ، قرأ الجمهور : ﴿ **وكلاً** ﴾ بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر ، وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء ، والجملة بعده خبره ، والعائد محذوف ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أمّ الخيار تدعى ... علىَّ ذنبا كله لم أصنع

﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء . ثم رغب سبحانه فى الصدقة فقال : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا** ﴾ أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله ، فإنه كمن يقرضه ، والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا : قد أقرض ، ومنه قول الشاعر :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه ... إنما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الكلبى : ﴿ **قرضا** ﴾ أى صدقة ﴿ **حسنا** ﴾ أى محتسبا من قلبه بلا منّ ولا أذى . قال مقاتل :حسنا : طيبة به نفسه ، وقد تقدم تفسير الآية فى سورة البقرة ﴿ **فيضاعفه له** ﴾ قرأ ابن عامر وابن كثير:« فيضعفه » بإسقاط الألف إلا أن ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء ، وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة ﴿ **فيضاعفه** ﴾ بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء ورفع الباقون ، قال ابن عطية : الرّفع على العطف على ﴿ **يقرض** ﴾ ، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء فى جواب الاستفهام ، وضعف النصب أبو علىّ الفارسى قال : لأن السؤال لم يقع عن القرض، إنما وقع عن فاعل القرض ، إنما تنصب الفاء فعلاً مردودا على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله:﴿ **من ذا الذى يقرض الله** ﴾ بمنزلة قوله : أيقرض الله أحد ﴿ **وله أجر كريم** ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هى كون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل من طريق زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ:«يوشك أن يأتى قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم » قلنا : من هم يارسول الله ؟ أقريش ؟ قال : « لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبا » فقلنا : أهم خير منا يارسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه ، إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ الآية » وهذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد . وقد رواه ابن جرير ولم يذكر فيه الحديبية [1] . وأخرج أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن

(١) ابن جرير ١٢٧/٢٧ .

الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ النبيّ ﷺ . فقال : « دعوا لى أصحابى ، فو الذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ بلفظ: « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » [(١)] وفى لفظ : «ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » أخرج هذا الحديث البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى[(٢)] . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره [(٣)] .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ .

قوله : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ العامل فى الظرف مضمر وهو اذكر ، أو كريم ، أو فيضاعفه ، أو العامل فى لهم وهو الاستقرار ، والخطاب لكل من يصلح له ، وقوله: ﴿ يسعى نورهم ﴾ فى محل نصب على الحال من مفعول ترى. والنور هو الضياء الذى يرى ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة ، وهو دليلهم إلى الجنة ، قال قتادة : إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، حتى إن من المؤمنين من لايضيء له نوره إلا موضع قدميه ، وقال الضحاك ومقاتل : وبأيمانهم : كتبهم التى أعطوها ، فكتبهم بأيمانهم ، ونورهم بين أيديهم . قال الفراء : الباء بمعنى « فى » أى فى أيمانهم ، أو بمعنى « عن » . قال الضحاك أيضا :نورهم: هداهم ،وبأيمانهم:كتبهم ، واختار هذا ابن جرير الطبرى ، أى يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم ، قرأ الجمهور : ﴿ بأيمانهم ﴾ جمع يمين . وقرأ سهل بن سعد الساعدّى وأبو حيوة :« بإيمانهم » بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر . وقيل : هو القرآن ، والجار والمجرور فى الموضعين فى محل نصب على

---

(١) أحمد ٣/٢٦٦ .

(٢) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤١/٢٢٢) وأبو داود فى السنة (٤٦٥٨) .

(٣) ابن أبى شيبة (١٢٤٦٣/٢) .

الحال من نورهم ، أى كائنا بين أيديهم وبأيمانهم ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ بشراكم مبتدأ ، وخبره جنات على تقدير مضاف ، أى دخول جنات ، والجملة مقول قول مقدرَ ، أى يقال لهم هذا ، والقائل لهم هم الملائكة قال مكىّ : وأجاز الفراء نصب جنات على الحال ،ويكون اليوم خبر بشراكم ، وهذا بعيد جدًا ﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال مقدرة ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى النور والبشرى ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ أى لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه .

﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات** ﴾ ﴿ **يوم** ﴾ بدل من ﴿ **يوم** ﴾ الأوّل ويجوز أن يكون العامل فيه: ﴿ **الفوز العظيم** ﴾ ، ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر ، أى اذكر ﴿ **للذين آمنوا**﴾ اللام للتبليغ كنظائرها . قرأ الجمهور : ﴿ **انظرونا** ﴾ أمراً بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار ، أى انتظرونا ، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة ، وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار، أى أمهلونا وأخرونا ، يقال : أنظرته واستنظرته ، أى أمهلته واستمهلته ، قال الفراء : تقول العرب :أنظرنى ، أى انتظرنى ، وأنشد قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقيل : معنى ﴿ **انظرونا** ﴾ : انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم ﴿ **نقتبس من نوركم** ﴾ أى نستضىء منه ، والقبس : الشعلة من النار والسراج ، فلما قالوا ذلك :﴿ **قيل ارجعوا وراءكم** ﴾ أى قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجرًا لهم وتهكمًا بهم أى ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذى أخذنا منه النور ﴿ **فالتمسوا نورا** ﴾ أى اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم ، فإنه من هنالك يقتبس ، وقيل : المعنى : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة ، وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكما بهم : ﴿ **فضرب بينهم بسور** ﴾ السور : هو الحاجز بين الشيئين والمراد به هنا : الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار قال الكسائى : والباء فى بسور زائدة ، ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال : ﴿ **له باب باطنه فيه الرحمة**﴾ أى باطن ذلك السور وهو الجانب الذى يلى أهل الجنة فيه الرحمة وهى الجنة وظاهره وهو الجانب الذى يلى أهل النار ﴿**من قبله العذاب** ﴾ أى من جهته عذاب جهنم ،وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون فى العذاب وبينهم السور .وقيل : إن الرحمة التى فى باطنه: نور المؤمنين، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك فقال : ﴿**ينادونهم ألم نكن معكم**﴾ أى موافقين لكم فى الظاهر نصلى بصلاتكم فى مساجدكم ، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قال المنافقون بعد ضرب

السور بينهم وبين المؤمنين ؟ فقال : ﴿ ينادونهم ﴾ . ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال : ﴿ قالوا بلى ﴾ أى كنتم معنا فى الظاهر ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر . قال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق ، وقيل : بالشهوات واللذات ﴿ وتربصتم ﴾ بمحمد ﷺ وبمن معه من المؤمنين حوادث الدّهر . وقيل : تربصتم بالتوبة ، والأوّل أولى ﴿ وارتبتم ﴾ أى شككتم فى أمر الدين ولم تصدّقوا ما نزل من القرآن ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿ وغَرتكم الأمانى ﴾ الباطلة التى من جملتها ما كنتم فيه من التربص . وقيل : هو طول الأمل . وقيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين . وقال قتادة : الأمانى هنا : غرور الشيطان. وقيل: الدنيا. وقيل: هو طمعهم فى المغفرة ، وكل هذه الأشياء تدخل فى مسمى الأمانىّ ﴿حتى جاء أمر الله﴾ وهو الموت . وقيل : نصره سبحانه لنبيه ﷺ . وقال قتادة : هو إلقاؤهم فى النار ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين ، وهو صفة على فعول ، والمراد به : الشيطان ، أى خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان ، وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميفع وسماك ابن حرب بضمهما وهو مصدر .

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ بالله ظاهرًا وباطنا ﴿ مأواكم النار ﴾ أى منزلكم الذى تأوون إليه النار ﴿هى مولاكم﴾ أى هى أولى بكم ، والمولى فى الأصل من يتولى مصالح الإنسان ثم استعمل فيمن يلازمه . وقيل : معنى ﴿ مولاكم ﴾ : مكانكم عن قرب من الولى : وهو القرب. وقيل : إن الله يركب فى النار الحياة والعقل ، فهى تتميز غيظا على الكفار ، وقيل : المعنى: هى ناصركم على طريقة قول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿ وبئس المصير ﴾ الذى تصيرون إليه وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرّة ويوقد أخرى (١). وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال: بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم فى الدنيا، قال المؤمنون : ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿ فالتمسوا ﴾ هنالك

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٢٨وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

النور [١] .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعوالناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نورا وكل منافق نورا فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ،فقال المنافقون: ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ [التحريم: ٨] فلا يذكر عند ذلك أحد أحدًا » [٢] وفى الباب أحاديث وآثار. وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس فبكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذى ذكره الله فى القرآن ﴿**فضرب بينهم بسور** ﴾ هو السور الذى ببيت المقدس الشرقى ﴿ **باطنه فيه الرحمة** ﴾ المسجد ﴿**وظاهره من قبله العذاب** ﴾ يعنى وادى جهنم وما يليه [٣] .

ولا يخفاك أن تفسير السور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال مالا يدفعه مقال ، ولا سيما بعد زيادة قوله : ﴿ **باطنه فيه الرّحمة** ﴾ المسجد ، فإن هذا غير ما سيقت له الآية وغير ما دلت عليه، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين والمنافقين ، وأىّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا ، فإن كان المراد: أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس ، ويجعله فى الدار الآخرة سورًا مضروبا بين المؤمنين والمنافقين ، فما معنى تفسير باطن السور وما فيه من الرّحمة بالمسجد ،وإن كان المراد: أن الله يسوق فريقى المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد، ويجعل المنافقين خارجه ، فهم إذ ذاك على الصراط وفى طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس ، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتا عن رسول الله ﷺ قبلناه وآمنا به ، وإلا فلا كرامة ولا قبول . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم** ﴾ قال: بالشهوات واللذات ﴿ **وتربصتم** ﴾ قال : بالتوبة . ﴿ **وغرتكم الأمانىّ حتى جاء أمر الله** ﴾ قال : الموت ﴿ **وغركم بالله الغرور** ﴾ قال : الشيطان .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ

(١) ابن جرير ٢٧/١٢٩ .
(٢) الطبرانى (١١٢٤٢) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/٣٦٢: «فيه إسحاق بن بشر ــ أبو حذيفة ــ وهو متروك » .
(٣) ابن جرير ٢٧/ ١٣٠ وصححه الحاكم ٤/ ٦٠١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ يقال: أنى لك يأنى أنى: إذا حان. قرأ الجمهور: ﴿**ألم يأن** ﴾ وقرأ الحسن وأبو السماك : « ألما يأن » وأنشد ابن السكيت :

ألما يأن لى أن تجلى عمايتى　　　وأقصر عن ليلى ؟ بلى قد أنى ليا

و﴿ **أن تخشع قلوبهم** ﴾ فاعل يأن ، أى لم يحضر خشوع قلوبهم ويجئ وقته . ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لى يا قلب أن أترك الجهلا　　　وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا ؟

هذه الآية نزلت فى المؤمنين .قال الحسن : يستبطئهم وهم أحبّ خلقه إليه . وقيل : إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد . قال الزجاج : نزلت فى طائفة من المؤمنين ،حثوا على الرقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرّقة والخشوع فطبقة فوق هؤلاء . وقال السدّى وغيره : المعنى : ألم يأن للذين آمنوا فى الظاهر وأسروا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿ **لذكر الله**﴾ وسيأتى فى آخر البحث ما يقوّى قول من قال: إنها نزلت فى المسلمين . والخشوع لين القلب ورقته . والمعنى : أنه ينبغى أن يورثهم الذكر خشوعا ورقة ، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخضع له ﴿ **وما نزل من الحق**﴾ معطوف على ذكر الله ، والمراد بما نزل من الحقّ : القرآن ، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان ، أو خطور بالقلب ، وقيل : المراد بالذكر هو القرآن ، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير ، أو باعتبار تغاير المفهومين . قرأ الجمهور : « نزل » مشددًا مبنيا للفاعل، وقرأ نافع وحفص بالتخفيف مبنيا للفاعل . وقرأ الجحدرى وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو فى رواية عنه مشدّدا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود : « أنزل » مبنيًا للفاعل ﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل** ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جريا على ما تقدّم ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالفوقية على الخطاب التفاتا ، وقرأ بها عيسى وابن إسحاق ، والجملة معطوفة على تخشع ، أى ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا ؟ والمعنى: النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿ **فطال عليهم الأمد**﴾ أى طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم . قرأ الجمهور :﴿**الأمد** ﴾ بتخفيف الدال وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بتشديدها ، أى الزّمن الطويل ، وقيل : المراد بالأمد على القراءة الأولى : الأجل

والغاية، يقال : أمد فلان كذا ، أي غايته ﴿فقست قلوبهم﴾ بذلك السبب فلذلك حرفوا وبدلوا ، فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرّفوا وبدلوا ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ . وقيل : هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ وقيل : هم الذين ابتدعوا الرهبانية ، وهم أصحاب الصوامع . ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ وتعملوا بموجب ذلك .

﴿إن المصدّقين والمصدّقات ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد في الموضعين من الصدقة ، وأصله المتصَدقين والمتصدّقات ، فأدغمت التاء في الصاد ، وقرأ أبيّ : « المتصدّقين والمتصدّقات » بإثبات التاء على الأصل . وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أي صدّقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ معطوف على اسم الفاعل في المصدّقين لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حلّ محلّ الفعل فكأنه قال : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا ، كذا قال أبو علي الفارسي وغيره . وقيل : جملة : ﴿ وأقرضوا ﴾ معترضة بين اسم إن وخبرها ، وهو ﴿ يضاعف ﴾ وقيل : هي صلة لموصول محذوف، أي والذين أقرضوا ، والقرض الحسن ، عبارة عن التصدق والإنفاق في سبيل الله مع خلوص نية وصحة قصد واحتساب أجر . قرأ الجمهور :﴿ يضاعف لهم ﴾ بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف ، أي ثوابهم . وقرأ الأعمش : « يضاعفه » بكسر العين وزيادة الهاء ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب : « يضعف » بتشديد العين وفتحها ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ جميعا ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول ، وخبره قوله : ﴿ هم الصدّيقون والشهداء ﴾ الجملة خبر الموصول . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صدّيق . قال المقاتلان: هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم ولم يكذّبوهم ، وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة ، وهم الأنبياء ، الذين يشهدون للأمم وعليهم ، واختار هذا الفراء والزجاج . وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا في سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير . وقيل : هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ ، والظاهر أن معنى الآية : إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعا بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند الله . وقيل : إن الصدّيقين هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا بالله وصدّقوا جميع رسله ، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد . ثم بين سبحانه حالهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ والضمير الأوّل

راجع إلى الموصول ، والضميران الأخيران راجعان إلى الصدّيقين والشهداء ، أى لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال : إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء ، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد ، والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ذكر حال الكافرين وعقابهم فقال : **﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾** أى جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات ، والإشارة بقوله : **﴿ أولئك ﴾** إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب ،وهذا مبتدأ وخبره :**﴿ أصحاب الجحيم ﴾** يعذبون بها ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبى ﷺ قال : « استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله : **﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾** . . . الآية ». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه فى المسجد وهم يضحكون ، فسحب رداءه محمرا وجهه فقال : « أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ولقد أنزل علىّ فى ضحككم آيـة :**﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾** » قالوا: يارسول الله ، فما كفارة ذلك ؟ قال « تبكون بقدر ما ضحكتم ». وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : **﴿ألم يأن للذين آمنوا ﴾** إلا أربع سنين [(١)] . وأخرج نحوه عنه ابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق أخرى . وأخرج أبويعلى وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض : أى شيء أحدثنا :أىّ شيء صنعنا ؟ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن : **﴿ ألم يأن للذين آمنوا﴾** . . . الآية . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن عبد العزيز بن أبى رواد أن أصحاب النبىّ ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك ، فنزلت هذه الآية : **﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾**[(٢)] .

وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس : **﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ﴾** قال: يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها . وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مؤمنو أمتى شهداء» ثم تلا النبىّ ﷺ : **﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم ﴾** [(٣)] . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : كل مؤمن صديق وشهيد .وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ثم تلا هذه الآية .وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه .

---

(١) مسلم فى التفسير (٣٠٢٧ / ٢٤) والنسائى فى التفسير (٥٨٨) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٢) عن عبد الله بن الزبير وليس ابن مسعود كما عند مسلم والنسائى .

(٢) ابن أبى شيبة (١٧٥٦٤) .

(٣) ابن جرير ٢٧/ ١٣٣ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون ﴾ قال: هذه مفصولة ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ . وأخرج ابن حبان عن عمرو ابن مرة الجهنى : قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان ، وقمته فممن أنا ؟ قال : « من الصدّيقين والشهداء » (١) .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾ .

قوله : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثانى وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها بين لهم حقارتها ، وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة ، واللعب :هو الباطل ، واللهو :كل شىء يتلهى به ثم يذهب ، قال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . قال مجاهد : كلّ لعب لهو . وقيل : اللعب : ما رغب فى الدنيا ، واللهو: ما ألهى عن الآخرة وشغل عنها . وقيل : اللعب : الاقتناء ، واللهو : النساء ، وقد تقدّم تحقيق هذا فى سورة الأنعام ، والزينة : التزين بمتاع الدنيا دون عمل للآخرة ﴿ وتفاخر بينكم ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ تفاخر ﴾ والظرف صفة له ، أو معمول له ، وقرأ السلمى بالإضافة ، أى يفتخر به بعضكم على بعض ، وقيل : يتفاخرون بالخلقة والقوّة . وقيل : بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب ﴿وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ أى يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتطاولون بذلك على الفقراء . ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبها وضرب لها مثلا فقال : ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ أى كمثل مطر أعجب الزراع نباته ، والمراد بالكفار هنا : الزراع لأنهم يكفرون البذر ، أى يغطونه بالتراب ، ومعنى نباته : النبات الحاصل به ﴿ ثم يهيج ﴾ أى يجفّ بعد خضرته وييبس ﴿فتراه

(١) ابن حبان فى الموارد فى الإيمان (١٩) .

مصفرا ﴾ أى متغيرا عما كان عليه من الخضرة . والروّنق إلى لون الصفرة والذبول ﴿ **ثم يكون حطاما** ﴾ أى فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه ، وقد تقدّم تفسير هذا المثل فى سورة يونس والكهف ، والمعنى : أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن . وقرئ : « مصفارا » والكاف فى محل نصب على الحال، أو محل رفع على أنها خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، ذكر ما أعدّه للعصاة فى الدار الآخرة فقال :﴿ **وفى الآخرة عذاب شديد**﴾ وأتبعه بما أعدّ لأهل الطاعة فقال : ﴿ **ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ والتنكير فيهما للتعظيم . قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته ، قال الفراء : التقرير فى الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد، ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال :﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ لمن اغتر بها ولا يعمل لآخرته . قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه ، وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدّم ومؤكدة له .

ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة فقال : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ أى سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم وتوبوا مما وقع منكم من المعاصى ، وقيل: المراد بالآية : التكبيرة الأولى مع الإمام ، قاله مكحول . وقيل: المراد : الصفّ الأوّل ، ولا وجه لتخصيص ما فى الآية بمثل هذا ،بل هو من جملة ما تصدّق عليه صدقا شموليا أو بدليا ﴿**وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ أى كعرضهما،وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها. قال الحسن: يعنى:جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها ،وقيل: المراد بالجنة التى عرضها هذا العرض هى جنة كل واحد من أهل الجنة ، وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشىء بعرضه دون طوله . ومن ذلك قول الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران . ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال : ﴿ **أعدت للذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة ، وفى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان بالله ورسله ، ولكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه واجتنب ما نهاه الله عنه ، وهى أدلة كثيرة فى الكتاب والسنة ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أى يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضلا وإحسانا ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق والجواد الذى لا يبخل . ثم بيّن

سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره وثبت فى أمّ الكتاب فقال : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض** ﴾ من قحط مطر وضعف نبات ونقص ثمار ، قال مقاتل : القحط هو قلة النبات والثمار . وقيل: الجوائح فى الزرع ﴿ **ولا فى أنفسكم** ﴾ قال قتادة : بالأوصاب والأسقام . وقال مقاتل : إقامة الحدود : وقال ابن جريج : ضيق المعاش ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ فى محل نصب على الحال من مصيبة أى إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وجملة : ﴿ **من قبل أن نبرأها** ﴾ فى محل جر صفة لكتاب ، والضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس،أو إلى الأرض،أو إلى جميع ذلك.ومعنى ﴿**نبرأها**﴾ : نخلقها ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أى أن إثباتها فى الكتاب على كثرته على الله يسير غير عسير .

﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ أى اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ﴿ **ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ منها أى أعطاكم منها ، فإن ذلك يزول عن قريب ، وكلّ زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره ، فلن يعدو امرأ ما كتب له ، وما كان حصوله كائنا لا محالة ؛ فليس بمستحق للفرح بحصوله ولا الحزن على فوته ، قيل : والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز ، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، قرأ الجمهور:﴿ **بما آتاكم** ﴾ بالمدّ أعطاكم ، وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو بالقصر ، أى جاءكم ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد ﴿ **والله لا يحب كل مختال فخور**﴾ أى لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين ، وهما الاختيال والافتخار قيل : هو ذمّ للفرح الذى يختال فيه صاحبه ويبطر . وقيل : إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت فى نفسه اختال وافتخر بها . وقيل : المختال : الذى ينظر إلى نفسه، والفخور : الذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار ، والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى ، فمن حصلتا فيه فهو الذى لا يحبه الله .

﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ الموصول فى محل رفع بالابتداء ، وهو كلام مستأنف لاتعلق له بما قبله والخبر مقدر ، أى الذين يبخلون فالله غنىّ عنهم ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **ومن يتولّ فإن الله هو الغنىّ الحميد** ﴾ . وقيل : الموصول فى محل جرّ بدل من مختال ، وهو بعيد، فإن هذا البخل بما فى اليد وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور ، لا لغة ، ولا شرعا . وقيل : هو فى محل جرّ نعت له ، وهو أيضا بعيد ، قال سعيد بن جبير : الذين يبخلون بالعلم، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس شيئا ، وقال زيد بن أسلم: أنه البخل بأداء حق الله . وقيل : إنه البخل بالصدقة ، وقال طاووس : إنه البخل بما فى يديه ، وقيل : أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم ، قاله السدّى والكلبى . قرأ الجمهور :﴿ **بالبخل** ﴾ بضم الباء وسكون الخاء ، وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن

وحمزة والكسائى بفتحتين وهى لغة الأنصار وقرأ أبو العالية وابن السميفع بفتح الباء وسكون الخاء ، وقرأ نصر بن عاصم بضمهما ، وكلها لغات ﴿ **ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ أى ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنىّ عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ هو الغنى ﴾ بإثبات ضمير الفصل، وقرأ نافع وابن عامر : « فإن الله الغنى الحميد» بحذف الضمير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم** ﴾ يقول : فى الدين والدنيا ﴿ **إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾ قال : نخلقها ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ من الدنيا ﴿**ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ منها. وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو شىء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ الآية قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا ، ومن أصابه خير جعله شكرًا (١) . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، إنه قال: ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ وليس هذا من مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ، ويفرحوا بالحسنة .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات والشرائع الظاهرة ﴿ **وأنزلنا معهم**

(١) ابن جرير ٢٧/١٣٦ وصححه الحاكم ٢/٤٧٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٩٧٧١) .ط . دار الكتب .

الكتاب ﴾ المراد الجنس ، فيدخل فيه كتاب كلّ رسول ﴿ **والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان : العدل : أمرناهم بالعدل كما فى قوله :﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ [الرحمن: ٧] وقوله:﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : ١٧] وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به ، ومعنى ﴿ **ليقوم الناس بالقسط**﴾: ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط : العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه وموجباته ، وعلى القول بأن المراد به: الآلة التى يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى : إرشاد الناس إليه وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب :

علفتها تبنًا وماء باردا

﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أى خلقناه كما فى قوله:﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر : ٦] والمعنى : أنه خلقه من المعادن وعلم الناس صنعته .وقيل: إنه نزل مع آدم ﴿ **فيه بأس شديد** ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب، قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب ،قال مجاهد:فيه جنة وسلاح ،ومعنى ﴿ **ومنافع للناس** ﴾: أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين والفأس ، والإبرة وآلات الزراعة والتجارة والعمارة ، ﴿ **وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **ليقوم الناس** ﴾ أى لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم . وقيل : معطوف على علة مقدرة، كأنه قيل: ليستعملوه وليعلم الله ، والأول أولى، والمعنى: أن الله أمر فى الكتاب الذى أنزل بنصرة دينه ورسله فمن نصر دينه ورسله علمه ناصرا ، ومن عصى علمه بخلاف ذلك و﴿**بالغيب** ﴾ فى محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله، أى غائبا عنهم أو غائبين عنه ﴿ **إن الله قوىٌّ عزيز** ﴾ أى قادر على كل شىء غالب لكل شىء ، وليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين .

﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم** ﴾ لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل فذكر رسالته لنوح وإبراهيم ،وكرّر القسم للتوكيد ﴿**وجعلنا فى ذريتهما النبوّة والكتاب**﴾ أى جعلنا فيهم النبوّة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل : جعل بعضهم أنبياء وبعضهم يتلون الكتاب ﴿ **فمنهم مهتد** ﴾ أى فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح وإبراهيم.وقيل: المعنى : فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾: خارجون عن الطاعة .

﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا** ﴾ أى أتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم ﴿ **وقفينا بعيسى ابن مريم** ﴾ أى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم وهو من ذرية إبراهيم من

جهة أمه ﴿ **وآتيناه الإنجيل** ﴾ وهو الكتاب الذى أنزله الله عليه، وقد تقدّم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران . قرأ الجمهور : ﴿ **الإنجيل** ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بفتحها ﴿**وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة** ﴾ الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله فى قلوبهم مودّة لبعضهم البعض ، ورحمة يتراحمون بها ، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك ،وأصل الرأفة : اللين ، والرحمة :الشفقة ، وقيل: الرأفة : أشد الرحمة ، ﴿ **ورهبانية ابتدعوها** ﴾ انتصاب ﴿ **رهبانية** ﴾ على الاشتغال ، أى وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، وليس بمعطوفة على ما قبلها . وقيل : معطوفة على ما قبلها ، أى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم ، والأوّل أولى ، ورجحه أبو على الفارسى وغيره ، وجملة : ﴿ **ما كتبناها عليهم** ﴾ صفة ثانية لرهبانية ، أو مستأنفة مقررّة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم ، والمعنى : ما فرضناها عليهم ، والرهبانية بفتح الراء وضمها ، وقد قرئ بهما ، وهى بالفتح : الخوف من الرهب ، وبالضم منسوبة إلى الرهبان ، وذلك لأنهم غلوا فى العبادة وحملوا على المشقات فى الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع ؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقى منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا ، ذكر معناه الضحاك وقتادة وغيرهما ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله** ﴾ الاستثناء منقطع ، أى ما كتبناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، وقال الزجاج : ما كتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئا ألبتة ، قال : ويكون ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله**﴾ بدلا من الهاء والألف فى كتبناها ، والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴿ **فما رعوها حقّ رعايتها** ﴾ أى لم يرعوا هذه الرهبانية التى ابتدعوها من جهة أنفسهم ، بل صنعوها ، وكفروا بدين عيسى ، ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا وبدّلوا وتركوا الترهب ، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم ، وهم المرادون بقوله : ﴿ **فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**﴾ الذى يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله ﴿ **وكثير منهم فاسقون**﴾: خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذّم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه دينا ، وأما على القول بأن الاستثناء متصل ، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدّمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ . فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ بترك ما نهاكم عنه ﴿ **وآمنوا برسوله** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ أى نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، وأصل الكفل : الحظ والنصيب ، وقد تقدّم الكلام على تفسيره فى سورة النساء. ﴿**ويجعل لكم نورا تمشون به** ﴾ يعنى: على الصراط كما قال : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾[التحريم : ٨] وقيل : المعنى : ويجعل لكم سبيلا واضحا فى الدين تهتدون به ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ما سلف

من ذنوبكم ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة . ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان والتقوى ، والتقدير : اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿ **أن لا يقدرون على شىء من فضل الله** ﴾ و« **لا** » فى قوله : ﴿ **لئلا** ﴾ زائدة للتوكيد ، قاله الفراء والأخفش وغيرهما ، و « **أن** » فى قوله: ﴿ **أن لا يقدرون** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف وخبرها ما بعدها ، والجملة فى محل نصب على أنها مفعول يعلم ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئا من فضل الله الذى تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذى تفضل الله به على المستحقين له ، وجملة : ﴿ **وأن الفضل بيد الله** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، أى ليعلموا أنهم لا يقدرون وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه ، وقوله : ﴿ **يؤتيه من يشاء** ﴾ خبرثان لأن ، أو هو الخبر ، والجارّ والمجرور فى محل نصب على الحال ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . والمراد بالفضل هنا : ما تفضل به على الذين اتقوا ، وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف. وقال الكلبى: هو رزق الله. وقيل: نعم الله التى لا تحصى، وقيل : هو الإسلام ، وقد قيل : إن « **لا** » فى ﴿ **لئلا** ﴾ غير مزيدة، وضمير ﴿ **لا يقدرون** ﴾ للنبىّ ﷺ وأصحابه ، والمعنى : لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبىّ والمؤمنون على شىء من فضل الله الذى هو عبارة عما أوتوه، والأوّل أولى ، وقرأ ابن مسعود : « **لكيلا يعلم** » وقرأ خطاب بن عبد الله : « **لأن يعلم** » وقرأ عكرمة :« **ليعلم** » وقرئ : «ليلا» بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بفتح اللام .

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق [عَن][(١)] ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ: « **يا عبد الله** » قلت : لبيك يارسول الله ، ثلاث مرات ، قال : « **هل تدرى أى عرى الإسلام أوثق ؟** » قلت: الله ورسوله أعلم ، قال:« **أوثق عرى الإيمان الولاية فى الله بالحب فيه والبغض فيه** » قال : « **هل تدرى أى الناس أفضل؟** » قلت : [الله ورسوله أعلم] [(٢)] قال : « **أفضل الناس أفضلهم عملا ، إذا فقهوا فى دينهم ، يا عبد الله هل تدرى أىّ الناس أعلم ؟** » قلت الله ورسوله أعلم ، قال : « **فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصرا بالعمل وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها : فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلهم الملوك ونشرتهم بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولابالمقام معهم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال**

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ١٧٧ ومن المخطوطة .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة وقد أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ١٧٧ ومن البيهقى فى الشعب .

الله: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ هم الذين آمنوا بى وصدقونى ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ الذين جحدونى وكفروا بى »[١] .

وأخرج النسائى ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل . فقيل لملوكهم: ما نجد شيئا أشدّ من شتم يشتمناه هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤]﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥] ﴿فأولئك هم الفاسقون ﴾ [المائدة : ٤٧] مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم، فادعوهم فليقرؤوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا ، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل ، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منهما ، فقالوا :ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة: دعونا نسيح فى الأرض، ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك ، فأنزل الله: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك وفنى من فنى منهم قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبىّ ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته، وجاء السياح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه فقال الله: ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين: بإيمانهم بعيسى وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم به ﴿ ويجعل لكم نورا تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبىّ ﷺ[٢] .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى ، والبيهقى فى الشعب عن أنس أن النبى ﷺ قال: « إن لكل أمة رهبانية ،ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله »[٣].وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى فى قوله: ﴿كفلين ﴾ قال : ضعفين وهى بلسان الحبشة . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال : الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءا من رحمة الله .

---

(١) ابن جرير ٢٧/١٣٨ والبيهقى فى الشعب (٩٥١٠) . ط . دار الكتب .

(٢) النسائى فى التفسير (٥٨٧) وابن جرير ٢٧/١٣٨ وقال ابن كثير ٦/٥٦٨ ، ٥٦٩ : «هذا السياق فيه غرابة » .

(٣) أحمد ٣/٢٦٦وأبو يعلى (٤٢٠٤) والبيهقى فى الشعب (٣٩٢٣) وإسناد الحديث ضعيف لضعف زيد العمى .

تفسير سورة المجادلة

هى ثنتان وعشرون آية ، وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدنى، وباقيها مكى (١) . وقال الكلبى : نزلت جميعها بالمدينة غير قوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ نزلت بمكة . وأخرج ابن الضريس والنحاس وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المجادلة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ .

قوله : ﴿ قد سمع الله ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بإدغام الدال فى السين ، وقرأ الباقون بالإظهار . قال الكسائى : من بين الدال عند السين فلسانه أعجمى وليس بعربى ﴿ قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ أى تراجعك الكلام فى شأنه ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ معطوف على تجادلك ، والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها : « قد حرمت عليه»، قالت :والله ما ذكر طلاقاً ثم تقول : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك فهذا معنى قوله : ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت وكان به لمم (٢) فاشتد به لمه ذات يوم فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقا فى الجاهلية . وقيل : هى خولة بنت حكيم ، وقيل : اسمها جميلة ، والأول أصح . وقيل : هى بنت خويلد ، وقال الماوردى: إنها نسبت تارة إلى أبيها ، وتارة إلى جدها وأحدهما أبوها ، والآخر جدها ، فهى

(١) القرطبى ٩/ ٦٤٣٩ .

(٢) اللمم : طرف من جنون يلم الإنسان .

خولة بنت ثعلبة بن خويلد ، وجملة : ﴿ **والله يسمع تحاوركما** ﴾ فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها ، أى والله يعلم تراجعكما فى الكلام ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾ يسمع كل مسموع ، ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة .

ثم بين سبحانه شأن الظهار فى نفسه وذكر حكمه فقال : ﴿ **الذين يظهرون منكم من نسائهم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**يظهرون** ﴾ بالتشديد مع فتح حرف المضارعة ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى : « يظاهرون » بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقرأ أبو العالية وعاصم و زر بن حبيش : « يتظاهرون » بفك الإدغام ، ومعنى الظهار : أن يقول لامرأته : أنت على كظهر أمى ، ولا خلاف فى كون هذا ظهارا .

واختلفوا إذا قال : أنت على كظهر ابنتى أو أختى أو غير ذلك من ذوات الأرحام ، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار ، وبه قال الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى . وقال جماعة منهم قتادة والشعبى : إنه لا يكون ظهارا ، بل يختص الظهار بالأم وحدها . واختلفت الرواية عن الشافعى ، فروى عنه كالقول الأول ، وروى عنه كالقول الثانى. وأصل الظهار مشتق من الظهر. واختلفوا إذا قال لامرأته :أنت على كرأس أمى أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك ،هل يكون ظهارا أم لا ؟ وهكذا إذا قال : أنت على كأمى ولم يذكر الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهارا . وروى عن أبى حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهارا . وروى عن الشافعى أنه لا يكون الظهار إلا فى الظهر وحده واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية ، فقيل : يكون ظهارا . وقيل : لا، والكلام فى هذا مبسوط فى كتب الفروع .

وجملة :﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر الموصول ، أى ما نساؤهم بأمهاتهم ، فذلك كذب منهم . وفى هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم ، قرأ الجمهور : «أمهاتهم » على اللغة الحجازية فى إعمال « ما » عمل ليس . وقرأ أبو عمرو والسلمى بالرفع على عدم الإعمال ، وهى لغة نجد وبنى أسد ، ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال : ﴿**إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ أى ما أمهاتهم إلا النساء اللائى ولدنهم ثم زاد سبحانه فى توبيخهم وتقريعهم فقال:﴿ **وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا** ﴾ أى وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرا من القول ، أى فظيعا من القول ينكره الشرع ، والزور : الكذب ، وانتصاب ﴿**منكرا**﴾ و﴿ **زورا** ﴾ على أنهما صفة لمصدر محذوف ، أى قولا منكرا وزورا ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ أى بليغ العفو والمغفرة، إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا القول المنكر .

﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** ﴾ لما ذكر سبحانه الظهار إجمالا ووبخ فاعليه شرع فى تفصيل أحكامه ، والمعنى : والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور ، ثم يعودون لما قالوا ، أى إلى ما قالوا بالتدارك والتلافى كما فى قوله : ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾

[النور: ١٧] قال الأخفش : ﴿ لما قالوا ﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان. قال : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] وقال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصافات : ٢٣] ، ﴿ بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة : ٥] ،وقال :﴿ وأوحى إلى نوح ﴾ [هود : ٣٦] وقال الفراء : اللام بمعنى عن ، والمعنى : ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء . وقال الزجاج : المعنى : ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . قال الأخفش أيضا : الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى : والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع ﴿فتحرير رقبة﴾ لما قالوا ، أى فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا ، فالجار فى قوله : ﴿ لما قالوا ﴾ متعلق بالمحذوف الذى هو خبر المبتدأ وهو فعليهم .

واختلف أهل العلم فى تفسير العود المذكور على أقوال : الأول : أنه العزم على الوطء وبه قال العراقيون أبوحنيفة وأصحابه ، وروى عن مالك . وقيل : هو الوطء نفسه وبه قال الحسن ، وروى أيضا عن مالك . وقيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق وبه قال الشافعى . وقيل : هو الكفارة ، والمعنى : أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد ، وروى عن أبى حنيفة . وقيل : هو تكرير الظهار بلفظه ، وبه قال أهل الظاهر ، وروى عن بكير بن الأشج وأبى العالية والفراء ، والمعنى : ثم يعودون إلى قول ما قالوا .

والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ على تقدير فعليهم تحرير رقبة كما تقدم ، أو فالواجب عليهم إعتاق رقبة ، يقال : حررته ، أى جعلته حرا ، والظاهر أنها تجزئ أى رقبة كانت . وقيل : يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة فى كفارة القتل ، وبالأول : قال أبو حنيفة وأصحابه ، وبالثانى : قال مالك والشافعى ، واشترطا أيضا سلامتها من كل عيب ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ المراد بالتماس هنا : الجماع ، وبه قال الجمهور، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر. وقيل : إن المراد به : الاستمتاع بالجماع ، أو اللمس ، أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك، وهو أحد قولى الشافعى ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى الحكم المذكور ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ توعظون به ﴾ أى تؤمرون به ، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة . قال الزجاج : معنى الآية : ذلكم التغليظ فى الكفارة توعظون به ، أى إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم فهو مجازيكم عليها .

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ أى فمن لم يجد الرقبة فى ملكه ولا تمكن من قيمتها فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض قال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى

والشافعي ومالك : إنه يبنى ولا يستأنف ، وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعي ومعنى ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ : هو ما تقدم قريبا ، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك ، وقال الشافعي : لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم ، والأول أولى ﴿ فمن لم يستطع ﴾ يعنى : صيام شهرين متتابعين ﴿فإطعام ستين مسكينا ﴾ أى فعليه أن يطعم ستين مسكينا ، لكل مسكين مدان ، وهما نصف صاع ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقال الشافعي وغيره : لكل مسكين مد واحد ، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة ، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة ، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم ، وبعضهم فى يوم آخر ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الأحكام وهو مبتدأ وخبره مقدر ، أى ذلك واقع ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ ويجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب ، والتقدير : فعلنا ذلك لتؤمنوا ، أى لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه ، أو لتطيعوا الله ورسوله فى الأوامر والنواهى ، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها ولا تعودوا إلى الظهار الذى هو منكر من القول وزور ، والإشارة بقوله : ﴿ وتلك ﴾ إلى الأحكام المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره: ﴿ حدود الله ﴾ فلا تجاوزوا حدوده التى حدها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله ولا يعملون بما حده الله لعباده ﴿عذاب أليم﴾ وهو عذاب جهنم ، وسماه كفرا تغليظا وتشديدا .

وقد أخرج ابن ماجة وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شيء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ وهو أوس بن الصامت (١) . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : كان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها : خولة بنت خويلد ، فظاهر منها فأسقط فى يده وقال : ما أراك إلا قد حرمت على ، فانطلقى إلى النبى ﷺ فاسأليه ، فأتت النبى ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته ، فقال : « يا خولة ، ما أمرنا فى أمرك بشىء » ، فأنزل الله على النبى ﷺ فقال : « يا خولة أبشرى » قالت : خيرا . قال : «خيرا »، فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ الآيات (٢) . وأخرج أحمد وأبو داود وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال : حدثتنى خولة بنت ثعلبة قالت : فى والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر

---

(١) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٣) وصححه الحاكم ٢/ ٤٨١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٣٨٢ .
(٢) البيهقى ٧/ ٣٨٣ وقال ابن كثير ٦/ ٥٧٦ : « هذا إسناد جيد قوى ، وسياقه غريب » .

سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب فقال :أنت علي كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل على فإذا هو يريدني عن نفسي، قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه، فقال لي :« يا خولة ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك » ، ثم قرأ علي : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب أليم﴾ فقال رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » ، قلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين» ، قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : « فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر » ، قلت : والله ما ذاك عنده ، قال رسول الله ﷺ : « فأنا سأعينه بعرق من تمر » ، فقلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، فقال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا » ، قالت : ففعلت (١). وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال : هو الرجل يقول لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر بعتق رقبة ﴿ فمن ﴾ فإن ﴿ لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾ والمس : النكاح ﴿ فمن ﴾ فإن ﴿ لم يستطع فإطعام ستين مسكينا﴾ وإن هو قال لها : أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث ، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفر ، ولا يقع في الظهار طلاق . وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: ثلاث فيه مد : كفارة اليمين ، وكفارة الظهارة ، وكفارة الصيام . وأخرج البزار والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : أتى رجل النبي ﷺ فقال : إني ظاهرت من امرأتي، فرأيت خلخالها في ضوء القمر ، فوقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال النبي ﷺ : «ألم يقل الله : ﴿من قبل أن يتماسا ﴾ » قال : قد فعلت يا رسول الله . قال : « أمسك عنها حتى تكفر » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي عن ابن عباس ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها من قبل أن أكفر ، فقال : « وما حملك على ذلك ؟ » قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله » (٣) .

---

(١) أحمد ٦/ ٤١٠ ، ٤١١ وأبو داود في الطلاق (٢٢١٤) والطبراني (٦١٦) والبيهقي ٧/ ٣٨٩ .

(٢) الطبراني (١٠٨٨٧) وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٤ وقال : « حديث إسماعيل عن عمرو بن دينار ، ولم يحتج الشيخان بإسماعيل ولا بالحكم بن أبان إلا أن الحكم بن أبان صدوق » وقال الذهبي : « العوفي غير ثقة » والبيهقي ٧/ ٣٨٦ .

(٣) عبد الرزاق (١١٥٢٥) وأبو داود في الطلاق (٢٢٢٥) والترمذي في الطلاق (١١٩٩) وقال : « حديث حسن غريب صحيح » والنسائي في الظهار٦/ ١٦٧وابن ماجة في الطلاق (٢٠٦٥) والحاكم ٢/ ٢٠٤ والبيهقي٧/٣٨٦ .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجة والطبرانى ، والبغوى فى معجمه ، والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصارى قال : كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتابع فى ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركنى الصبح ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشف لى منها شىء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى ، فقلت : انطلقوا معى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بأمرى ، فقالوا : والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن ، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجت فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبرى ، فقال : « أنت بذاك ؟ » قلت : أنا بذاك ، قال : « أنت بذاك ؟ » قلت :أنا بذاك ، قال : « أنت بذاك ؟ » قلت : أنا بذاك وها أنا ذا فأمض فى حكم الله فإنى صابر لذلك . قال : « اعتق رقبة » ، فضربت عنقى بيدى ، فقلت : لا والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : « فصم شهرين متتابعين » ، فقلت : هل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ؟ قال : « فأطعم ستين مسكينا » ، فقلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشا ما لنا عشاء ، قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق ، فقل له ، فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا ، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك » ، فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة ، أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلى ، فدفعوها إليه (1) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا

(1) عبد الرزاق (١١٥٢٨) وأحمد ٤/ ٣٧ وأبو داود فى الطلاق (٢٢١٣) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٩) وقال : «هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٢) والطبرانى (٢٨٦٣) وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله** ﴾ لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين ، والمحادة : المشاقة والمعاداة والمخالفة ، ومثله قوله :﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ [المجادلة : ٢٠] . قال الزجاج : المحادة أن تكون فى حد يخالف صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب ﴿ **كبتوا كما كبت الذين من قبلهم** ﴾ أى أذلوا وأخزوا ، يقال : كبت الله فلانا : إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت . قال المقاتلان: أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة ، وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا ، وقال ابن زيد : عذبوا ، وقال السدى : لعنوا . وقال الفراء : أغيظوا ، والمراد بمن قبلهم : كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه . وقيل : المعنى : على المضى، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر ، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر ، وجملة : ﴿ **وقد** (١) **أنزلنا آيات بينات** ﴾ فى محل نصب على الحال من الواو فى كبتوا ، أى والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسله من الأمم المتقدمة . وقيل : المراد : الفرائض التى أنزلها الله سبحانه . وقيل : هى المعجزات ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ أى للكافرين بكل ما يجب الإيمان به ، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوليا ، والعذاب المهين : الذى يهين صاحبه ويذله ، ويذهب بعزه ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعا** ﴾ الظرف منتصب بإضمار اذكر ، أو بمهين ، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار أو بأحصاه المذكور بعده ، وانتصاب ﴿ **جميعا** ﴾ على الحال ، أى مجتمعين فى حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ﴿ **فينبئهم بما عملوا** ﴾ أى يخبرهم بما عملوه فى الدنيا من الأعمال القبيحة ، توبيخا لهم وتبكيتا ولتكميل الحجة عليهم ، وجملة : ﴿**أحصاه الله ونسوه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف ينبئهم بذلك على كثرته واختلاف أنواعه ، فقيل : أحصاه الله جميعا ولم يفته منه شىء ، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه ، بل وجدوه حاضرا مكتوبا فى صحائفهم ﴿ **والله على كل شىء شهيد** ﴾ لا يخفى عليه شىء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر .

ثم أكد سبحانه بيان كونه عالما بكل شىء فقال : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ أى ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شىء مما فيهما ، وجملة : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة** ﴾ إلخ مستأنفة لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات

---

(١) فى المطبوعة : « ولقد » .

قرأ الجمهور : ﴿ **يكون** ﴾ بالتحتية . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، و« من » مزيدة للتأكيد ، ونجوى فاعل كان ، والنجوى : السرار ، يقال : قوم نجوى ، أى ذو نجوى وهى مصدر . والمعنى : ما يوجد من تناجى ثلاثة أو من ذوى نجوى ، ويجوز أن تطلق على الأشخاص المتناجين ، فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أو الصفة لها. قال الفراء : ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهى قراءة ابن أبى عبلة ، ويجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى ﴿ **إلا هو رابعهم** ﴾ هذه الجملة فى موضع نصب على الحال، وكذا قوله : ﴿ **إلا هو سادسهم** [(١)] ﴾ ﴿ **إلا هو معهم** ﴾ أى ما يوجد شىء من هذه الأشياء إلا فى حال من هذه الأحوال ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، ومعنى رابعهم : جاعلهم أربعة ، وكذا سادسهم: جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى ﴿ **ولا خمسة** ﴾ أى ولا نجوى خمسة ، وتخصيص العددين بالذكر ؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة ، أو كانت الواقعة التى هى سبب النزول فى متناجين كانوا ثلاثة فى موضع وخمسة فى موضع . قال الفراء : العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر والجهر لا تخفى عليه خافية ﴿ **ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم** ﴾ أى ولا أقل من العدد المذكور كالواحد والاثنين ، ولا أكثر منه ، كالستة والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شىء . قرأ الجمهور : ﴿ **ولا أكثر** ﴾ بالجر بالفتحة عطفا على لفظ نجوى. وقرأ الحسن والأعمش وابن أبى إسحاق وأبو حيوة ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بن عمر وسلام بالرفع عطفا على محل نجوى . وقرأ الجمهور : ﴿ **ولا أكثر** ﴾ بالمثلثة . وقرأ الزهرى وعكرمة بالموحدة . قال الواحدى : قال المفسرون : إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم ، فيحزنون لذلك ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم ألاّ يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله هذه الآيات ، ومعنى ﴿ **أينما كانوا** ﴾ إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم فى أى مكان من الأمكنة ﴿ **ثم ينبئهم** ﴾ أى يخبرهم ﴿ **بما عملوا يوم القيامة** ﴾ توبيخا لهم وتبكيتا وإلزاما للحجة ﴿**إن الله بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان .

﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ هؤلاء الذين نهوا ، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدم ذكره من المنافقين واليهود . قال مقاتل : كان بين النبى ﷺ وبين اليهود مواعدة ، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا ، فنهاهم الله فلم ينتهوا ، فنزلت . وقال ابن زيد : كان الرجل يأتى النبى ﷺ فيسأله الحاجة

---

(١) فى المطبوعة : « خامسهم » .

ويناجيه ، والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك ﴿ **ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يتناجون** ﴾ بوزن يتفاعلون ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله فيما بعد : ﴿ **إذا تناجيتم فلا تتناجوا**﴾ وقرأ حمزة وخلف وورش عن يعقوب : « وينتجون » بوزن يفتعلون، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم : ما هو إثم فى نفسه كالكذب والظلم، والعدوان : ما فيه عدوان على المؤمنين ، ومعصية الرسول : مخالفته ، قرأ الجمهور : ﴿ **ومعصية** ﴾ بالإفراد ، وقرأ الضحاك وحميد ومجاهد : « ومعصيات » بالجمع ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال القرطبى : إن المراد بها اليهود كانوا يأتون النبى ﷺ فيقولون : السام عليك يريدون بذلك: السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا ، فيقول النبى ﷺ :« عليكم » . وفى رواية أخرى : « وعليكم »(١). ﴿**ويقولون فى أنفسهم**﴾ أى فيما بينهم: ﴿ **لولا يعذبنا الله بما نقول** ﴾ أى هلا يعذبنا ذلك ، ولو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به . وقيل : المعنى: لو كان نبيا لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم ووقع علينا الموت عند ذلك ﴿**حسبهم جهنم** ﴾ عذابا ﴿ **يصلونها** ﴾ يدخلونها ﴿ **فبئس المصير** ﴾ أى المرجع ، وهو جهنم .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ لما فرغ سبحانه عن نهى اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم ألاّ يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله كما يفعله اليهود والمنافقون ، ثم بين لهم ما يتناجون به فى أنديتهم وخلواتهم فقال : ﴿ **وتناجوا بالبر والتقوى** ﴾ أى بالطاعة وترك المعصية . وقيل : الخطاب للمنافقين ، والمعنى : يأيها الذين آمنوا ظاهرا أو بزعمهم ، واختار هذا الزجاج . وقيل: الخطاب لليهود ، والمعنى : يأيها الذين آمنوا بموسى ، والأول أولى ، ثم خوفهم سبحانه فقال : ﴿ **واتقوا الله الذى إليه تحشرون** ﴾ فيجزيكم بأعمالكم .ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجى هو من جهة الشيطان . فقال : ﴿ **إنما النجوى** ﴾ يعنى : بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿ **من الشيطان** ﴾ لا من غيره ، أى من تزيينه وتسويله ﴿**ليحزن الذين آمنوا** ﴾ أى لأجل أن يوقعهم فى الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها فى مكيدة يكادون بها ﴿ **وليس بضارهم شيئا** ﴾ أو وليس الشيطان أو التناجى الذى يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أى بمشيئته . وقيل : بعلمه ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ويفوضونه فى جميع شؤونهم ، ويستعيذون بالله من الشيطان، ولا يبالون بما يزينه من النجوى .

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى

---

(١) القرطبى ٩/ ٦٤٦٢ .

الشعب ، قال السيوطي: بسند جيد ، عن ابن عمر : إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: السام عليك ، يريدون بذلك شتمه ، ثم يقولون في أنفسهم : ﴿ **لولا يعذبنا الله بما نقول**﴾ فنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ [(١)] . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ، والترمذي وصححه عن أنس أن يهوديا أتى النبي ﷺ وأصحابه فقال: السام عليكم ، فرد عليه القوم ، فقال النبي ﷺ: « هل تدرون ما قال هذا ؟ » . قالوا : الله أعلم ، سلم يا نبي الله ، قال : « لا ، ولكنه قال كذا وكذا ، ردوه على » فردوه ، قال : « قلت : السام عليكم؟ » قال : نعم ، قال النبي ﷺ عند ذلك : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك [(٢)] ، ما قلت ». قال:﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾[(٣)]. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال :« يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا المتفحش » ، قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أو ما سمعتني أقول : وعليكم » ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾[(٤)] . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه : سام عليك فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبي ﷺ إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رؤوسهم إلى المسلمين ويقولون : قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله ﷺ تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبي ﷺ ومن المسلمين ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ الآية. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :« إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » [(٥)] . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ يطرقه أمر ، أو يأمر بشيء ، فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا أنداء [(٦)]

---

(١) أحمد ٢/ ٩ ومسلم في السلام (٢١٦٤/ ٨ ، ٩) والبيهقي في الشعب (٩١٠٠) وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٢٤ ، ١٢٥ : « رواه أحمد والبزار والطبراني وإسناده جيد ؛لأن حمادا سمع من عطاء بن السائب في حالة الصحة » .

(٢) في المخطوطة:« فقولوا : عليك . قال : عليك » وفي الدر المنثور ٦/ ١٨٤ بحذف:«قال:عليك » وهو ما أثبتناه.

(٣) أحمد ٣/ ١٤٠ والبخاري في الاستئذان (٦٢٥٨) وفي استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم (٦٩٢٦) والترمذي في التفسير (٣٣٠١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٤ : « قلت : لأنس حديث في الصحيح غير هذا ، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البخاري في الاستئذان (٦٢٥٦) ومسلم في الاستئذان (٢١٦٥/ ١٠ ، ١١) والنسائي في التفسير (٥٩١) وابن ماجة في الأدب (٣٦٩٨).

(٥) البخاري في الاستئذان (٦٢٩٠) ومسلم في السلام (٢١٨٤/ ٣٧) والترمذي في الأدب (٢٨٢٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة في الأدب (٣٧٧٥) .

(٦) جمع النادي وهم القوم المجتمعون . لسان العرب ٥ /٣١٧ .

نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال : « ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ » قلنا : يا رسول الله ، إنا كنا فى ذكر المسيح فرقا منه ، فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى منه ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله ، قال :« الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس ﴾ يقال : فسح له يفسح فسحا، أى وسع له، ومنه قولهم : بلد فسيح ، أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة فى المجلس ، وعدم التضايق فيه . قال قتادة ومجاهد والضحاك : كانوا يتنافسون فى مجلس النبى ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقال الحسن ويزيد بن أبى حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ، رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ أى فوسعوا يوسع الله لكم فى الجنة ، أو فى كل ما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما . قرأ الجمهور : ﴿ تفسحوا فى المجلس ﴾ وقرأ السلمى وزر بن حبيش وعاصم : ﴿ فى المجالس﴾ على الجمع ؛ لأن لكل واحد منهم مجلسا ، وقرأ قتادة والحسن وداود بن أبى هند وعيسى بن عمر : « تفاسحوا » قال الواحدى : والوجه التوحيد فى المجلس ؛ لأنه يعنى به مجلس النبى ﷺ . وقال القرطبى : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو يوم الجمعة ، وأن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه ، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه (٢) ، ويؤيد هذا حديث ابن عمر عند البخارى ومسلم وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا»(٣) .

---

(١) ابن كثير ٦/٥٨١ .   (٢) القرطبى ٩/٦٤٦٧ .

(٣) أحمد ٢/١٧ والبخارى فى الاستئذان (٦٢٧٠) ومسلم فى السلام (٢١٧٧/٢٧، ٢٨) والترمذى فى الأدب (٢٧٤٩) وقال : « حديث حسن صحيح » .

﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيها ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمها فيهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، يقال : نشز ، أى ارتفع ينشز وينشز كعكف يعكف ، والمعنى : إذا قيل لكم : انهضوا فانهضوا . قال جمهور المفسرين : أى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، وقال مجاهد والضحاك وعكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة ، فقيل لهم : إذا نودى للصلاة فانهضوا . وقال الحسن : انهضوا إلى الحرب ، وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبى ﷺ كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى ﷺ ، فقال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ عن النبى ﷺ ﴿ فانشزوا ﴾ فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى : أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف ، والظاهر حمل الآية على العموم ، والمعنى : إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا ، ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجا أوليا ، وهكذا يندرج ما فيه السياق وهو التفسيح فى المجلس اندراجًا أوليا ، وقد قدمنا أن معنى نشز :ارتفع ، وهكذا يقال : نشز ينشز: إذا تنحى عن موضعه ومنه امرأة ناشز ، أى متنحية عن زوجها ، وأصله مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى، ذكر معناه النحاس ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ فى الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ أى ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا والثواب فى الآخرة، ومعنى الآية : أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ، ثم رفعه بعلمه درجات، وقيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة ، وكذلك الذين أوتوا العلم . وقيل : المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن ، والأولى حمل الآية على العموم فى كل مؤمن وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، وفى هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله ، وقد دل على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم من خير وشر ، فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا .

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فـقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ المناجاة : المساررة، والمعنى : إذا أردتم مساررة الرسول فى أمر من أموركم فقدموا بين يدى مساررتكم له صدقة . قال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبى ﷺ يناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى ، فشق عليهم ذلك، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبى ﷺ ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدا من مناجاته ، وكان ذلك يشق على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم ناجوه

بأن جموعا اجتمعت لقتاله ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بالآية التى بعد هذه ، والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من تقديم الصدقة بين يدى النجوى ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **خير لكم وأطهر** ﴾ لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امتثاله خيرا لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ يعنى من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدى النجوى ، فلا حرج عليه فى النجوى بدون صدقة .

﴿**أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ﴾ أى أخفتم الفقر والعيلة لأن تقدموا ذلك، والإشفاق : الخوف من المكروه ، والاستفهام للتقرير . وقيل : المعنى : أبخلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقال الكلبى : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة ، وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من النهار ﴿ **فإذ لم تفعلوا** ﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدى النجوى ، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ولم يفعل ، وأما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله : ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ ﴿ **وتاب الله عليكم** ﴾ بأن رخص لكم فى الترك . و« إذ » على بابها فى الدلالة على المضى . وقيل : هى بمعنى إذا . وقيل : بمعنى إن ، وتاب معطوف على لم تفعلوا، أى وإذا لم تفعلوا وإذ تاب عليكم ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ والمعنى : إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدى النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿**والله خبير بما تعملون** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء فهو مجازيكم ، وليس فى الآية ما يدل على تقصير المؤمنين فى امتثال هذا الأمر ، أما الفقراء منهم فالأمر واضح ، وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة، بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة ، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصرا فى امتثال الأمر بالصدقة ، على أن فى الآية ما يدل على أن الأمر للندب كما قدمنا ، وقد استدل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل ،وليس هذا الاستدلال بصحيح ، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل ، وأيضا قد فعل ذلك البعض ، فتصدق بين يدى نجواه كما سيأتى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية : ﴿ **إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس** ﴾ يوم جمعة ورسول الله ﷺ يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع

لهم ، فعرف النبى ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : « قم يا فلان وأنت يا فلان » ، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : ذلك فى مجلس القتال ﴿ **وإذا قيل انشزوا** ﴾ قال : إلى الخير والصلاة . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه ، والبيهقى فى المدخل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ قال: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية قال : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات . وأخرج ابن المنذر عنه قال : ما خص الله العلماء فى شىء من القرآن ما خصهم فى هذه الآية ، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا ناجيتم الرسول** ﴾ الآية ، قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما قال ذلك امتنع (٢) كثير من الناس وكفوا عن المسألة . فأنزل الله بعد هذا : ﴿ **أأشفقتم** ﴾ الآية ، فوسع الله عليهم ولم يضيق . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والنحاس وابن مردويه عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت :﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ قال لى النبى ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قلت : لا يطيقونه . قال : « فنصف دينار؟» قلت : لا يطيقونه ، قال : « فكم ؟ » قلت : شعيرة ، قال : « إنك لزهيد » ، قال: فنزلت: ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ﴾ الآية ، فبى خفف الله عن هذه الأمة، والمراد بالشعيرة هنا : وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد : واحدة من حب الشعير(٣). وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت ، وما كانت إلا ساعة ، يعنى: آية النجوى . وأخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أيضا قال : إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة**﴾ كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله ﷺ قدمت بين

(١) القرطبى ٩ / ٦٤٦٦ .
(٢) فى المخطوطة : « ظن » والصحيح : امتنع كما فى الدر المنثور ٦ / ١٨٥ ليستقيم المعنى .
(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٧٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه » وأبو يعلى (٤٠٠) وابن جرير ٢٨ / ١٥ .

يدى نجواى درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴾ الآية (١) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن سعد بن أبى وقاص قال : نزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك لزهيد » ، فنزلت الآية الأخرى : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات﴾(٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ .

قوله :﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوما ﴾ أى والوهم . قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود. وقال السدى ومقاتل : هم اليهود تولوا المنافقين ، ويدل على الأول قوله : ﴿ غضب الله عليهم ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود ، ويدل على الثانى قوله : ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ فإن هذه صفة المنافقين ، كما قال الله فيهم : ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ [النساء : ١٤٣] وجملة : ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو هى مستأنفة ﴿ويحلفون على الكذب ﴾ أى يحلفون أنهم مسلمون ، أو يحلفون أنهم ما

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٧٤) وصححه الحاكم ٢/ ٤٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٥ : « رواه الطبرانى فى حديث طويل وفيه مسلمة بن الفضل الأبرش ووثقه ابن معين وغيره وضعفه البخارى وغيره » .
(٢) الطبرانى ١ / ١٤٧ .

نقلوا الأخبار إلى اليهود ، والجملة عطف على تولوا داخلة فى حكم التعجيب من فعلهم ، وجملة : ﴿**وهم يعلمون**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه ، وأنه كذب لا حقيقة له . ﴿ **أعد الله لهم عذابا شديدا** ﴾ بسبب هذا التولى والحلف على الباطل ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**أيمانهم** ﴾ بفتح الهمزة جمع يمين ، وهى ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل ، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم . وقرأ الحسن وأبو العالية: « إيمانهم» بكسر الهمزة ، أى جعلوها تصديقهم جنة من القتل ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم ﴿**فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أى منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط وتهوين أمر المسلمين وتضعيف شوكتهم . وقيل : المعنى : فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾ أى يهينهم ويخزيهم ، قيل : هو تكرير لقوله: ﴿ **أعد الله لهم عذابا شديدا** ﴾ للتأكيد ، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة ،ولا وجه للقول بالتكرر ، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة.

﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا** ﴾ أى لن تغنى عنهم من عذابه شيئا من الإغناء . قال مقاتل : قال المنافقون : إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذن، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة فنزلت الآية ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ **أصحاب النار** ﴾ لا يفارقونها ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ لا يخرجون منها ﴿**يوم يبعثهم الله جميعا** ﴾ الظرف منصوب بقوله : ﴿ **مهين** ﴾ أو بمقدر ، أى اذكر ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾ أى يحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم فى الدنيا ، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة ، فكيف يجترئون على أن يكذبوا فى ذلك الموقف ويحلفون على الكذب ﴿**ويحسبون أنهم على شىء** ﴾ أى يحسبون فى الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شىء مما يجلب نفعا ، أو يدفع ضررا كما كانوا يحسبون ذلك فى الدنيا ﴿ **ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ أى الكاملون فى الكذب المتهالكون عليه البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة فى موقف القيامة بين يدى الرحمن.

﴿ **استحوذ عليهم الشيطان** ﴾ أى غلب عليهم واستعلى واستولى ، قال المبرد : استحوذ على الشىء :حواه وأحاط به . وقيل : قوى عليهم . وقيل : جمعهم ، يقال : أحوذ الشىء، أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، والمعانى متقاربة ؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوى عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم ﴿ **فأنساهم ذكر الله** ﴾ أى أوامره والعمل بطاعته فلم يذكروا شيئا من ذلك . وقيل : زواجره فى النهى عن معاصيه . وقيل : لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ، وهو

مبتدأ وخبره ﴿ **حزب الشيطان** ﴾ أى جنوده وأتباعه ورهطه ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون فى الخسران حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران ؛ لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة فى الدنيا والآخرة ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله**﴾ تقدم معنى المحادة لله ولرسوله فى أول هذه السورة ، والجملة تعليل لما قبلها ﴿**أولئك فى الأذلين** ﴾ أى أولئك المحادون لله ورسوله المتصفون بتلك الصفات المتقدمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة ؛ لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان ، قال عطاء : يريد الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة .

﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم فى الأذلين ، أى كتب فى اللوح المحفوظ، وقضى فى سابق علمه : لأغلبن أنا ورسلى بالحجة والسيف . قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب فهو غالب فى الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة ، قال الفراء : كتب بمعنى قال ، وقوله : ﴿ **أنا** ﴾ توكيد ، ثم ذكر مثل قول الزجاج .﴿ **إن الله قوى عزيز** ﴾ فهو قوى على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد . ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، أى يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، وجملة : ﴿ **يوادون** ﴾ فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لتجد إن كان متعديا إلى مفعولين ، أو فى محل نصب على الحال إن كان متعديا إلى مفعول واحد ، أو صفة أخرى لـ﴿**قوما**﴾ أى جامعون بين الإيمان والموادة لمن حاد الله ورسوله ﴿ **ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ أى ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين إلخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة ﴿**أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾ يعنى الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ، ومعنى ﴿**كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾ : خلقه . وقيل : أثبته . وقيل : جعله . وقيل : جمعه ، والمعانى متقاربة ﴿**وأيدهم بروح منه**﴾ أى قواهم بنصر منه على عدوهم فى الدنيا ، وسمى نصره لهم روحا ؛ لأن به يحيا أمرهم . وقيل : هو نور القلب . وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة. وقيل : بجبريل . وقيل :بالإيمان . وقيل :برحمة . قرأ الجمهور:﴿**كتب** ﴾ مبنيا للفاعل ، ونصب الإيمان على المفعولية ، وقرأ زر بن حبيش والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول ورفع الإيمان على النيابة ، وقرأ زر بن حبيش : « عشيراتهم » بالجمع ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ﴿**ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ على الأبد ﴿ **رضى الله عنهم** ﴾ أى قبل أعمالهم وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة ﴿**ورضوا عنه** ﴾ أى فرحوا بما أعطاهم عاجلا وآجلا ﴿ **أولئك حزب الله** ﴾ أى جنده الذين يمتثلون أوامره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه ، وفى إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم ﴿**ألا**

إن حزب الله هم المفلحون ﴾ أى الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون فى الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح .

وقد أخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين ، فقال : « إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان ، فإن جاءكم فلا تكلموه » ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فقال : ذرنى آتيك بهم ، فحلفوا واعتذروا فأنزل الله : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾ الآية والتى بعدها (١) . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة بن الجراح يتقصد لأبى عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله ، فنزلت : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله** ﴾ الآية (٢) .

---

(١) أحمد ١ / ٣٥٠ وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى والبيهقى فى الدلائل ٥ / ٢٨٢ .
(٢) الحاكم ٣ / ٢٦٤ وأبو نعيم فى الحلية ١ / ١٠١ والبيهقى فى السير ٩ / ٢٧ .

تفسير سورة الحشر

هى أربع وعشرون آية ، وهى مدنية ــ قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحشر بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة النضير : يعنى : أنها نزلت فى بنى النضير كما صرح بذلك فى بعض الروايات [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحديد . ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** ﴾ هم بنو النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون ، نزلوا المدينة فى بنى إسرائيل انتظارا منهم لمحمد ﷺ ، فغدروا بالنبى ﷺ بعد أن عاهدوه وصاروا عليه مع المشركين ،

---

(١) القرطبى ٩ / ٦٤٨٠ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٣) ومسلم فى التفسير (٣٠٣١ / ٣١).

فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء ، قال الكلبى : كانوا أوّل من أجلى من أهل الذِّمة من جزيرة العرب ، ثم أجلى آخرهم فى زمن عمر بن الخطاب ، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة ،وآخر حشر إجلاء عمر لهم .وقيل : إن أوّل الحشر: إخراجهم من حصونهم إلى خيبر ،وآخر الحشر : إخراجهم من خيبر إلى الشام . وقيل : آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر ، وهى الشام . قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة فى الشام فليقرأ هذه الآية ،وأن النبى ﷺ قال لهم : « اخرجوا » ، قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » . قال ابن العربى: الحشر أول وأوسط وآخر ، فالأوّل : إجلاء بنى النضير ، والأوسط : إجلاء أهل خيبر ، والآخر : يوم القيامة .

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين فى الآية هم بنو النضير ،ولم يخالف فى ذلك إلا الحسن البصرى.فقال: هم بنو قريظة ، وهو غلط ، فإن بنى قريظة ما حشروا ،بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه ، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم،وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم،فقال رسول الله ﷺ لسعد:« لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»(١) .

واللام فى ﴿ **لأوّل الحشر** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **أخرج** ﴾ ،وهى لام التوقيت كقوله: ﴿ لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : ٧٨] ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ هذا خطاب للمسلمين ، أى ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدّة ﴿ **وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله** ﴾ أى وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، وقوله : ﴿ **مانعتهم** ﴾ خبر مقدّم ، و﴿ **حصونهم** ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿ **أنهم** ﴾،ويجوز أن يكون ﴿ **مانعتهم** ﴾ خبر ﴿ **أنهم** ﴾ و ﴿ **حصونهم** ﴾ فاعل ﴿ **مانعتهم** ﴾ ، ورجح الثانى أبو حيان ، والأول أولى ﴿ **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أى أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك . وقيل : هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف . قاله ابن جرير والسدى وأبو صالح ، فإنّ قتله أضعف شوكتهم . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **أتاهم** ﴾ و ﴿ **لم يحتسبوا** ﴾ للمؤمنين ، أى فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا ، والأوّل أولى لقوله:﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب**﴾ فإن قذف الرعب كان فى قلوب بنى النضير ،لا قلوب المسلمين . قال أهل اللغة : الرعب : الخوف الذى يرعب الصدر ، أى يملؤه ، وقذفه : إثباته فيه . وقيل : كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب

(١) أحمد ٢ / ٢٢ والبخارى فى المغازى (٤١٢١) فى مناقب الأنصار (٣٨٠٤) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٦٨ / ٦٤) عن أبى سعيد الخدرى .

الذى قذفه الله فى قلوبهم هو الذى ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (١) .

﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين** ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم . قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدى المؤمنين : أنهم عرضوها لذلك .قرأ الجمهور: ﴿ **يخربون**﴾ بالتخفيف . وقرأ الحسن والسلمى ونصر بن عاصم وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد . قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد ؛ لأن الإخراب ترك الشىء خرابا ، وإنما خربوها بالهدم . وليس ما قاله بمسلّم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد . قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان ، نحو: أخربته وخربته وأفرحته وفرحته . واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم . قال الزهرى وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبى ﷺ على أن لهم ما أقلت الإبل ، كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود فيهدمون بيوتهم ، ويحملون ذلك على إبلهم ، ويخرب المؤمنون باقياها . وقال الزهرى أيضا : ﴿ **يخربون بيوتهم** ﴾ بنقض المعاهدة و﴿ **أيدى المؤمنين** ﴾ بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم فى تركهم لها وبـ ﴿ **أيدى المؤمنين** ﴾ فى إجلائهم عنها ، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه ، أو فى محل نصب على الحال ﴿**فاعتبروا يا أولى الأبصار**﴾ أى اتعظوا وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. قال الواحدى: ومعنى الاعتبار : النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها .

﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا** ﴾ أى لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبى فى الدنيا كما فعل ببنى قريظة ، والجلاء : مفارقة الوطن ، قال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء، والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحد من جهتين : إحداهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد. والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . الثانى : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لجماعة ولواحد ، كذا قال الماوردى . ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب النار** ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب « لولا » متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب وإن نجوا من عذاب الدنيا .والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الجلاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ أى بسبب المشاقة منهم

(١) أحمد ١ / ٣٠١ ، ٢ / ٢٢٢ ، ٢٦٤، ٢٦٨ والبخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٣٨) وفى الجهاد (٢٩٧٧) وفى التعبير (٦٩٩٨) وفى الاعتصام (٧٢٧٣) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣ / ٥) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى الغسل ١ / ٢١٠ .

للّه ولرسوله بعدم الطاعة والميل مع الكفار ونقض العهد ﴿ **ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة الله ؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله . قرأ الجمهور: ﴿ **يشاق** ﴾ بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميفع : « يشاقق » بالفك .

﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** ﴾ قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا على قطع النخل فنهاهم بعضهم ، وقالوا : إنما هى مغانم للمسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدوّ ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم ، فقال : ﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، فقال بنو النضير وهم أهل الكتاب : يا محمد ، ألست تزعم أنك نبى تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على رسول الله ﷺ ووجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية ، ومعنى الآية : أىُّ شىء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير فى ﴿ **تركتموها** ﴾ عائد إلى « **ما** » لتفسيرها باللينة ، وكذا فى قوله: ﴿ **قائمة على أصولها** ﴾ ومعنى ﴿ **على أصولها** ﴾: أنها باقية على ما هى عليه .

واختلف المفسرون فى تفسير اللينة ، فقال الزهرى ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله إلا العجوة . وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها . وقال الثورى : هى كرام النخل. وقال أبو عبيدة : إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرنى (١). وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة . وقيل : هى ضرب من النخل ، يقال لتمره : اللون ، تمره أجود التمر ، وقال الأصمعى : هى الدقل (٢) .

وأصل اللينة : لونة ، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة: لين. وقيل : ليان، وقرأ ابن مسعود : « ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوما على أصولها » أى قائمة على سوقها ، وقرئ : « على أصلها » وقرئ : « قائما على أصوله » ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ أى ليزل الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ، ويغيظهم فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف شاؤوا من القطع والترك ازدادوا غيظا . قال الزجاج : ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير : وليخزى الفاسقين أذن فى ذلك ، يدل على المحذوف قوله : ﴿ **فبإذن الله** ﴾، وقد استدلّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى فى كتب الأصول .

﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ أى ما ردّه عليه من أموال الكفار ، يقال : فاء يفىء ،

(١) البرنى بفتح الباء ، وسكون الراء بعدها نون مكسورة وهو تمر ، معرَّب ، أصله : برينك ، أى الحملُ الجيد .
(٢) الدقَل : التمر الردىء .

إذا رجع، والضمير فى ﴿ منهم ﴾ عائد إلى بنى النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب**﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفا ، وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه : إذا حمله على السير السريع ، ومنه قول تميم بن مقبل :

مذ أوبد بالبيض الحديد صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

وقال نصيب :

ألا رُبَّ ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولـولا أنت لم يوجف الركب

و« ما » فى ﴿ **فما أوجفتم** ﴾ نافية . والفاء جواب الشرط إن كانت « ما » فى قوله: ﴿ **ما أفاء الله** ﴾ شرطية ، وإن كانت موصولة فالفاء زائدة ، و« من » فى قوله : ﴿ **من خيل** ﴾ زائدة للتأكيد ، والركاب : ما يركب من الإبل خاصة ، والمعنى : أن ما ردّ الله على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلا ولا إبلا ، ولا تجشمتم لها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعل اللّه سبحانه أموال بنى النضير لرسوله ﷺ خاصة لهذا السبب ، فإنه افتتحها صلحا وأخذ أموالها ، وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية : ﴿ **ولكنَّ اللّه يسلط رسله على من يشاء** ﴾ من أعدائه ، وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول اللّه ﷺ دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا إليها مشيا ، ولم يقاسوا فيها شيئا من شدائد الحروب ، ﴿ **واللّه على كل شىء قدير** ﴾ يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ هذا بيان لمصارف الفىء بعد بيان أنه لرسول اللّه ﷺ خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع ﴿ **أهل القرى** ﴾ موضع قوله: ﴿ **منهم** ﴾ أى من بنى النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببنى النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول اللّه ﷺ صلحا ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . قيل : والمراد بالقرى : بنو النضير ، وقريظة ، وفدك ، وخيبر ، وقد تكلم أهل العلم فى هذه الآية والتى قبلها ، هل معناهما متفق أو مختلف ؟ فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا . وقيل : مختلف ، وفى ذلك كلام لأهل العلم طويل .

قال ابن العربى : لا إشكال أنها ثلاثة معان فى ثلاث آيات . أما الآية الأولى وهى قوله: ﴿ **وما أفاء اللّه على رسوله منهم** ﴾ فهى خاصة برسول اللّه ﷺ خالصة له ، وهى أموال بنى النضير وما كان مثلها ، وأما الآية الثانية وهى قوله : ﴿ **وما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى** ﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأوّل بمستحق غير الأول ، وإن اشتركت هى والأولى فى أن كل واحدة منهما تضمنت شيئا أفاءه اللّه على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال وهى الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية ، وهى قوله :

﴿ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى﴾ عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من هاهنا ، فطائفة قالت : هى ملحقة بالأولى وهى مال الصلح ، وطائفة قالت : هى ملحقة بالثالثة وهى آية الأنفال ، والذين قالوا : إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ، هل هى منسوخة أو محكمة ؟ هذا معنى حاصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول اللّه ﷺ ، والآية الثانية هى فى بنى قريظة ، ويعنى : أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ومذهب الشافعى أن سبيل خمس الفىء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبى ﷺ وهى بعده لمصالح المسلمين ﴿فلله وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ المراد بقوله : ﴿ للّه ﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء ﴿ وللرسول ﴾ يكون ملكًا له ﴿ولذى القربى﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ لأنهم قد منعوا من الصدقة فجعل لهم حقا فى الفىء . قيل : تكون القسمة فى هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول اللّه ﷺ ، وخمسه يقسم أخماسا ، للرسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس . وقيل : يقسم أسداسا ، والسادس : سهم اللّه سبحانه ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك ﴿ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ أى كيلا يكون الفىء دولة بين الأغنياء دون الفقراء ، والدولة : اسم للشىء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرّة ولهذا مرّة . قال مقاتل : المعنى : أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم ، قرأ الجمهور : ﴿ يكون ﴾ بالتحتية ﴿دولة﴾ بالنصب ، أى كيلا يكون الفىء دولة . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام وأبو حيان: «تكون » بالفوقية « دولة » بالرفع ، أى كيلا تقع أو توجد دولة ،وكان تامة ،وقرأ الجمهور:﴿دولة﴾ بضم الدال. وقرأ أبوحيوة والسلمى بفتحها ، قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى: هما لغتان بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الدولة بالفتح الذى يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل ، وكذا قال أبو عبيدة .

ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله ﷺ فقال : ﴿ وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أى ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تأخذوه . قال الحسن والسدّى : وما أعطاكم من مال الفىء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه ، وقال ابن جريج : ما آتاكم من طاعتى فافعلوا ، وما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه . والحق أن هذه الآية عامة فى كل شىء يأتى به رسول اللّه ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وكل شىء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا . وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه ، أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته ، فقال: ﴿ واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب ﴾ فهو معاقب من لم يأخذ ما آتاه الرسول ،

ولم يترك ما نهاه عنه .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن عائشة قالت : كانت غزوة بنى النضير ـ وهم طائفة من اليهود ـ على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم فى ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول اللّه ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة ، يعنى : السلاح ، فأنزل الله فيهم : ﴿**سبح للّه ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ إلى قوله : ﴿ **لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ فقاتلهم النبى ﷺ حتى صالحهم على الإجلاء وجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان اللّه قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى، وأما قوله: ﴿ **لأول الحشر** ﴾ فكان إجلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام (١). وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عباس قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** ﴾ قال لهم رسول اللّه ﷺ يومئذ : « اخرجوا » ، قالوا : إلى أين ؟ قال: « إلى أرض المحشر » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر، عن ابن عباس قال : كان النبىّ ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منه، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء (٢) . وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ، أن رسول اللّه ﷺ حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة ، ولها يقول حسان :

لهان على سراة بنى لؤىّ ... حريق بالبويرة (٣) مستطير

فأنزل اللّه : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه وليخزى الفاسقين** ﴾ (٤) . وأخرج الترمذى وحسنه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : اللينة : النخلة ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحكّ فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ، فلنسألنّ رسول اللّه ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل اللّه:

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣ / ١٧٨ .

(٢) ابن جرير ٢٨ / ٢٢ .

(٣) البويرة : الحفرة الصغيرة وهى اسم لموضع نخل بنى النضير .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٠٣١) وفى التفسير (٤٨٨٤) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٦ / ٢٩) وأبو داود فى الجهاد (٢٦١٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٢) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٤٤) والنسائى فى التفسير (٥٩٣) .

﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية (١) . وفى الباب أحاديث ، والكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء اللّه على رسوله ومما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول اللّه ﷺ خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدّة فى سبيل اللّه (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ فجعل ما أصاب رسول اللّه ﷺ يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها. قال : والإيجاف أن يوضعوا السير ، وهى لرسول اللّه ﷺ ، فكان من ذلك خيبر وفدك وقرى عرينة . وأمر رسول اللّه ﷺ أن يعمد لينبع ، فأتاها رسول اللّه ﷺ فاحتواها كلها ، فقال ناس : هلا قسمها اللّه ؟ فأنزل اللّه عذره فقال : ﴿ ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف للّه ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين فكان الذى للّه ورسوله من ذلك الكثيبة والوطيح وسلالم ووحدوه ، وكان الذى للمسلمين الشقّ : ثلاثة عشر سهما ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول اللّه ﷺ من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول اللّه ﷺ لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصارى .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول اللّه ﷺ صفايا فى النضير وخيبر وفدك ، فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه ، وأما فدك فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء : قسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءًا لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين (٣) . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبى شيبة ، وابن زنجويه فى الأموال وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ما على وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا الفىء حق إلا ما ملكت أيمانكم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لعن اللّه الواشمات والمستوشمات (٤) ، والمتنمصات (٥)

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٠٣) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٥٩٤) وإسناده صحيح على شرط البخارى .

(٢) البخارى فى فرض الخمس (٣٠٩٤) وفى المغازى (٤٠٣٣) وفى النفقات (٥٣٥٨) وفى الفرائض (٦٧٢٨) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٣٧٠٥) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٥٧ / ٤٨) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٦٣) .

(٣) أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٦٧) .

(٤) الوشم : غرز الإبرة فى البدن ، والمستوشمات : التى سألتها ذلك .

(٥) النامصة : هى التى تزيل الشعر من الوجه ، والمتنمصة : هى التى تطلب فعل ذلك منها .

والمتفلجات [١] للحسن، المغيرات لخلق اللّه»، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها: أمّ يعقوب، فجاءت ابن مسعود ، فقالت : بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، قال : وما لى لا ألعن من لعن رسول اللّه ﷺ وهو فى كتاب اللّه ؟ قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه [٢] .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾ قيل : هو بدل من ﴿ **لذى القربى** ﴾ وما عطف عليه ، ولا يصح أن يكون بدلا من الرسول وما بعده لئلا يستلزم وصف رسول اللّه ﷺ بالفقر . وقيل : التقدير : كى لا يكون دولة ، ولكن يكون للفقراء . وقيل : التقدير : اعجبوا للفقراء . وقيل : التقدير: واللّه شديد العقاب للفقراء ، أى شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء. وقيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو كما تقول : المال لزيد لعمرو لبكر ، والمراد بـ ﴿ **المهاجرين** ﴾ : الذين هاجروا إلى رسول اللّه ﷺ رغبة فى الدين ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين ، ومعنى ﴿ **أخرجوا من ديارهم** ﴾ : أن كفار مكة أخرجوهم منها واضطروهم إلى الخروج ، وكانوا مائة رجل ﴿ **يبتغون فضلا من اللّه ورضوانا** ﴾ أى يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق فى الدنيا ، وبالرضوان فى الآخرة ﴿ **وينصرون اللّه ورسوله** ﴾ بالجهاد للكفار ، وهذه الجملة معطوفة على﴿ **يبتغون**﴾ ،ومحل الجملتين النصب على الحال ، الأولى: مقارنة، والثانية : مقدّرة ، أى ناوين لذلك ، ويجوز أن تكون حالا مقارنة ، لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **هم الصادقون** ﴾ أى الكاملون فى

(١) المتفلجات للحسن : المراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها ، الثنايا والرباعيات ، وهو من الفلج ، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها فى السن إظهارا للصغر ، وحسن الأسنان .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٦) ومسلم فى اللباس والزينة (٢١٢٥ / ١٢٠) والترمذى فى الأدب (٢٧٨٢) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الزينة ٨ / ١٤٦ .

الصدق الراسخون فيه .

ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم**﴾ المراد بالدار : المدينة ، وهى دار الهجرة ، ومعنى تبوّئهم الدار والإيمان : أنهم اتخذوها مباءة أى تمكنوا منهما تمكنا شديدا ،والتبوّؤ فى الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل . وقيل : إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور ، والتقدير : واعتقدوا الإيمان أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو على الفارسى . ويجوز أن يكون على حذف مضاف ، أى تبوؤوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون ﴿**تبوؤوا**﴾ متضمنا لمعنى لزموا . والتقدير : لزموا الدار والإيمان ، ومعنى ﴿ **من قبلهم** ﴾ : من قبل هجرة المهاجرين فلابدّ من تقدير مضاف ؛ لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم فى أموالهم ومساكنهم ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة** ﴾ أى لا يجد الأنصار فى صدورهم حسدا وغيظا وحزازة ﴿ **مما أوتوا** ﴾ أى مما أوتى المهاجرون دونهم من الفىء ، بل طابت أنفسهم بذلك ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى لا يجدون فى صدورهم مسّ حاجة أو أثر حاجة ، وكل ما يجده الإنسان فى صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة ، وكان المهاجرون فى دور الأنصار ، فلما غنم النبىّ ﷺ بنى النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم ، وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال : « إن أحببتم قسمت ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ــ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم والمشاركة لكم فى أموالكم ــ وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من ديارهم » ، فرضوا بقسمة ذلك فى المهاجرين وطابت أنفسهم ، ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ الإيثار : تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة ، يقال : آثرته بكذا ، أى خصصته به ، والمعنى : ويقدّمون المهاجرين على أنفسهم فى حظوظ الدنيا ﴿**ولو كان بهم خصاصة** ﴾ أى حاجة وفقر ، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت وهى الفرج التى تكون فيه ، وجملة : ﴿ **ولو كان بهم خصاصة** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص ، وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الانفراد بالحاجة ، ومنه قول الشاعر :

إن الربيع إذا يكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر

﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يوق** ﴾ بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة بفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأ الجمهور : ﴿ **شحّ نفسه** ﴾ بضم الشين ، وقرأ ابن عمر وابن أبى عبلة بكسرها ، والشحّ :

البخل مع حرص ، كذا في الصحاح . وقيل : الشحّ أشد من البخل . قال مقاتل : شح نفسه: حرص نفسه . قال سعيد بن جبير : شحّ النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة . قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئا نهاه اللّه عنه ولم يمنع شيئا أمره اللّه بأدائه فقد وقى شحّ نفسه . قال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشحّ أن يشح بما في أيدى الناس ، يحب أن يكون له ما بأيديهم بالحلال والحرام لا يقنع ، وقال ابن عيينة : الشحّ الظلم . وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشيء من الأشياء التى يقبح الشحّ إلى النفس ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى « من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة . وقيل : هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة ؛ لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاؤوا بعد الأوّلين والأنصار ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ ويجوز أن يكون الموصول معطوفا على قوله : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان** ﴾ فيكون ﴿ **يقولون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنف لا محل له ، والمراد بالأخوّة هنا : أخوة الدّين ، أمرهم اللّه أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدّمهم من المهاجرين والأنصار ﴿ **ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا**﴾ أى غشا وبغضا وحسدا .

أمرهم اللّه سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من اللّه سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل فى ذلك الصحابة دخولا أوليا ؛ لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان اللّه لهم فقد خالف ما أمره اللّه به فى هذه الآية . فإن وجد فى قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان وحلّ به نصيب وافر من عصيان اللّه بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه ﷺ ،وانفتح له باب من الخذلان يعذبه على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى اللّه سبحانه والاستغاثة به ، بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغلّ لخير القرون وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم ، فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع فى غضب اللّه وسخطه ، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المفتراة والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب اللّه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسول اللّه ﷺ المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر فى كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر ، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة

إلى منزلة ، ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب اللّه وسنة رسوله وخير أمته وصالحى عباده وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض اللّه وهجروا شعائر الدين ، وسعوا فى كيد الإسلام وأهله كل السعى ، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، واللّه من ورائهم محيط . ﴿ **ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ أى كثير الرأفة والرحمة بلغهما لمن يستحق ذلك من عبادك .

وقد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد؛ فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ،فقال: « ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه اللّه »، فقال رجل من الأنصار ، وفى رواية : فقال أبو طلحة الأنصارى: أنا يا رسول اللّه ،فذهب به أهله، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول اللّه ﷺ لا تدخريه شيئا ، قالت : واللّه ما عندى إلا قوت الصبية، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول اللّه ﷺ ففعلت ، ثم غدا الضيف على النبىّ ﷺ فقال : « لقد عجب اللّه الليلة من فلان وفلانة .وأنزل فيهما : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ » (٢). وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول ، فنزلت فيهم : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ (٣) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن رجلا قال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إنى سمعت الله يقول : ﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشحّ ولكنه البخل ولا خير فى البخل وإن الشحّ الذى ذكره الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما. وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشرّ ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له . وأخرج ابن المنذر عن على بن أبى طالب قال :

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٨٨) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٩) ومسلم فى الأشربة (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٤) وقال : « حسن صحيح » . وقال الذهبى : « عبيد اللّه ضعفوه » .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٤٨٤ والبيهقى فى الشعب (٣٢٠٤) .

من أدى زكاة ماله فقد وقى شحّ نفسه . وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ما محق الإسلام محق الشحّ شيء قط » (١). وأخرج أحمد، والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر بن عبد اللّه ؛ أن رسول اللّه قال: « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ،فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٢) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذم الشح .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت ، ثم قرأ: ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبىّ ﷺ فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه : ﴿ **للفقراء المهاجرين** ﴾ الآية. ثم قال: هؤلاء المهاجرون ، أفمنهم أنت ؟ قال:لا ،ثم قرأ عليه: ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان** ﴾ الآية . ثم قال : هؤلاء الأنصار ، أفأنت منهم ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجوا ، قال: ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

---

(١) أبو يعلى (٣٤٨٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ١٠٧ : « فيه على بن أبى سارة وهو ضعيف » .
(٢) أحمد ٣ / ٣٢٣ ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨ / ٥٦) والبيهقى فى الشعب (١٠٨٣٢) . ط . دار الكتب .

بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم ، فقال : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا** ﴾ والخطاب لرسول اللّه ، أو لكل من يصلح له ، والذين نافقوا هم عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه ، وجملة : ﴿ **يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع ؛ لاستحضار الصورة ، أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان فى الكفر ، واللام فى ﴿ **لإخوانهم** ﴾ هى لام التبليغ ،وقيل: هو من قول بنى النضير لبنى قريظة ،والأوّل أولى؛ لأن بنى النضير وبنى قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم ، واللام فى قوله: ﴿ **لئن أخرجتم** ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى واللّه لئن أخرجتم من دياركم ﴿ **لنخرجن معكم** ﴾ هذا جواب القسم ، أى لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم ﴿ **ولا نطيع فيكم** ﴾ أى فى شأنكم ، ومن أجلكم ﴿ **أحدا** ﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله: ﴿ **أبدا** ﴾.ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدهم بالنصرة لهم ، فقالوا : ﴿ **وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ على عدوّكم ، ثم كذبهم سبحانه فقال : ﴿ **واللّه يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم .

ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصّل ما كذبوا فيه فقال : ﴿ **لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومن معهم ، ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة، وأهل خيبر ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ أى لو قدّر وجود نصرهم إياهم ؛ لأن ما نفاه اللّه لا يجوز وجوده . قال الزجاج : معناه : لو قصدوا نصر اليهود ﴿ **ليولنّ الأدبار** ﴾ منهزمين ﴿ **ثم لا ينصرون** ﴾ يعنى : اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم ، وهم المنافقون . وقيل: يعنى : لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم اللّه ولا ينفعهم نفاقهم . وقيل : معنى الآية : لا ينصرونهم طائعين ولئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار ، وقيل : معنى ﴿ **لا ينصرونهم** ﴾ : لا يدومون على نصرهم ، والأوّل أولى ، ويكون من باب قوله : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] .﴿ **لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من اللّه** ﴾ أى لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفا وخشية فى صدور المنافقين ، أو صدور اليهود ، أو صدور الجميع من اللّه ، أى من رهبة اللّه . والرهبة هنا بمعنى: المرهوبية ؛ لأنها مصدر من المبنى للمفعول ، وانتصابها على التميز ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أى ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشىء من الأشياء ولو كان لهم فقه لعلموا أن اللّه سبحانه هو الذى سلطكم عليهم،

فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم .

ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فقال : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعا** ﴾ يعنى: لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرون على ذلك ﴿ **إلا فى قرى محصنة** ﴾ بالدروب والدور ﴿ **أو من وراء جدر** ﴾ أى من خلف الحيطان التى يستترون بها لجبنهم ورهبتهم. قرأ الجمهور : ﴿ **جدر** ﴾ بالجمع ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وابن كثير وأبو عمرو :« جدار » بالإفراد ،واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم لأنها موافقة لقوله : ﴿ **قرى محصنة** ﴾ ،وقرأ بعض المكيين: « جدر » بفتح الجيم وإسكان الدال ، وهى لغة فى الجدار ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أى بعضهم غليظ فظ على بعض ، وقلوبهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، قال السدّى : المراد: اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد . وقال مجاهد : ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ بالكلام والوعيد ليفعلن كذا ، والمعنى : أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس ، وإذا لاقوا عدوّا ذلوا وخضعوا وانهزموا . وقيل : المعنى : أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله فى قلوبهم من الرعب ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى** ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو فى الظاهر مع تخالف قلوبهم فى الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذى بينهم الموصوف بالشدة ، ومعنى﴿ **شتى** ﴾ :متفرقة ، قال مجاهد: يعنى: اليهود والمنافقين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وروى عنه أيضا أنه قال: المراد : المنافقون. وقال الثورى: هم المشركون وأهل الكتاب. قال قتادة: ﴿ **تحسبهم جميعا** ﴾، أى مجتمعين على أمر ورأى، ﴿ **وقلوبهم شتى** ﴾ متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق. وقرأ ابن مسعود : « وقلوبهم أشت » أى أشد اختلافا ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ أى ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئا ولو عقلوا لعرفوا الحقّ واتبعوه .

﴿ **كمثل الذين من قبلهم** ﴾ أى مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، والمعنى : أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿ **قريبا** ﴾ يعنى: فى زمان قريب ، وانتصاب ﴿ **قريبا** ﴾ على الظرفية ، أى يشبهونهم فى زمن قريب . وقيل : العامل فيه ﴿ **ذاقوا** ﴾ ، أى ذاقوا فى زمن قريب ، ومعنى ﴿ **ذاقوا وبال أمرهم** ﴾ : أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا بقتلهم يوم بدر ، وكان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره . قيل : المراد : بنو النضير حيث أمكن الله منهم ، قاله قتادة . وقيل : قتل بنى قريظة ،قاله الضحاك. وقيل : هو عام فى كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأول أولى ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى فى الآخرة .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر فقال : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر**﴾ أى مثلهم فى تخاذلهم وعدم تناصرهم ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر آخر للمبتدأ المقدر قبل قوله: ﴿ **كمثل الذين من قبلهم** ﴾ على تقدير حذف حرف العطف كما تقول: أنت عاقل ، أنت عالم ، أنت كريم . وقيل : المثل الأوّل : خاص باليهود ، والثانى : خاص بالمنافقين . وقيل : المثل الثانى بيان للمثل الأوّل . ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال : ﴿ **إذ قال للإنسان اكفر** ﴾ أى أغراه بالكفر وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالإنسان هنا : جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان. وقيل: هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه ﴿ **فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ أى فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان ،وقبولا لتزيينه قال الشيطان: إنى برىء منك ، وهذا يكون منه يوم القيامة ، وجملة : ﴿ **إنى أخاف الله رب العالمين**﴾ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره . وقيل : المراد بالإنسان هنا : أبو جهل ، والأوّل أولى . قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا : جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم . قيل : وليس قول الشيطان : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ على حقيقته ، وإنما هو على وجه التبرّى من الإنسان فهو تأكيد لقوله : ﴿ **إنى برىء منك** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **إنى** ﴾ بإسكان الياء وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها ﴿ **فكان عاقبتهما أنهما فى النار** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **عاقبتهما** ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ،واسمها ﴿ **أنهما فى النار** ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده ، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذى كفر صائران إلى النار ﴿**خالدين فيها** ﴾ قرأ الجمهور :﴿**خالدين**﴾ بالنصب على الحال ،وقرأ ابن مسعود والأعمش وزيد بن علىّ وابن أبى عبلة: « خالدان » على أنه خبر « أن » والظرف متعلق به ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أى الخلود فى النار جزاء الظالمين ، ويدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ أى اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ أى لتنظر أى شىء قدمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد . وقيل : ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة ﴿ **واتقوا الله** ﴾ كررّ الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ ، ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله** ﴾ أى تركوا أمره . أو ما قدروه حق قدره ، أو لم يخافوه ،أو جميع ذلك ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ أى جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصى التى توقعهم فيه ، ففى الكلام مضاف محذوف ، أى أنساهم حظوظ أنفسهم . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم. وقيل: نسوا الله فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد ﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أى الكاملون فى الخروج عن طاعة الله . ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة** ﴾ فى

الفضل والرتبة ، والمراد : الفريقان على العموم ، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى الله منهم دخولا أوّليا ، ويدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوّليا ؛ لأن السياق فيهم ، وقد تقدّم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة ، وفى سورة السجدة ، وفى سورة ص ، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفى التساوى بينهم وبين أهل النار فقال: ﴿**أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ أى الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا** ﴾ قال:عبد الله ابن أبى بن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وعبد الله بن نبتل ، وأوس بن قيظى ، وإخوانهم بنى النضير . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه ؛ أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لانسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ؛ فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ،على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، ففعل، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى** ﴾ قال : هم المشركون .

وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، عن علىّ بن أبى طالب ؛ أن رجلا كان يتعبد فى صومعة وأن امرأة كان لها إخوة ، فعرض لها شىء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها ، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إنى أنا الذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك ، فسجد له . فذلك قوله : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر** ﴾ الآية (١). قلت : وهذا لا يدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدل على أنه من جملة من تصدق عليه . وقد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا وليس فيه ما يدلّ على أنه المقصود بالآية . وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **كمثل الشيطان** ﴾ قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبى ﷺ ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ٣٣ وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٠٦٧)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم استوائهم فى شىء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم ، وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة ، فقال ، **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾** أى من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيته مع كونه فى غاية القسوة وشدّة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعا ، أى متشققا من خشية الله سبحانه ، حذرا من عقابه وخوفا من ألا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخييل يقتضى علوّ شأن القرآن وقوة تأثيره فى القلوب ، ويدلّ على ذلك قوله : **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾** فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ ، وينزجروا بالزواجر ، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ،والخاشع: الذليل المتواضع.وقيل : الخطاب للنبىّ ﷺ ، أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل ثابت لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبىّ ﷺ ؛ لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسى .

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال : **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾** وفى هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك **﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾** أى عالم ما غاب من الإحساس وما حضر ، وقيل : عالم السرّ والعلانية . وقيل : ما كان وما يكون . وقيل : الآخرة والدنيا ، وقدّم الغيب على الشهادة ؛ لكونه متقدمّا وجودا **﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾** قد تقدم تفسير هذين الاسمين **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾** كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك **﴿الملك القدوس ﴾** أى الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص ، والقدس بالتحريك فى لغة أهل الحجاز : السطل ؛ لأنه يتطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء ، قرأ الجمهور : **﴿ القدوس ﴾** بضم القاف ، وقرأ أبو ذرّ وأبو السماك بفتحها ، وكان سيبويه يقول: سبوح قدوس بفتح أولّهما ، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يقرأ : « القدوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل

إلا السبوح والقدوس ، فإن الضم فيهما أكثر ، وقد يفتحان ﴿ **السلام** ﴾ أى الذى سلم من كل نقص وعيب . وقيل : المسلم على عباده فى الجنة ، كما قال : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ [يس : ٥٨] . وقيل : الذى سلم الخلق من ظلمه وبه قال الأكثر . وقيل : المسلم لعبادة ، وهو مصدر وصف به للمبالغة ﴿ **المؤمن** ﴾ أى الذى وهب لعباده الأمن من عذابه . قيل : المصدق رسله بإظهار المعجزات . وقيل : المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدر للكافرين بما أوعدهم به من العذاب ، يقال : أمنه من الأمن وهو ضد الخوف ، ومنه قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسند (١)

وقال مجاهد: المؤمن الذى وحد نفسه بقوله: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران: ١٨] . قرأ الجمهور : ﴿ المؤمن ﴾ بكسر الميم ، اسم فاعل من آمن بمعنى : أمن ، وقرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى : المؤمن به على الحذف كقوله : ﴿واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . وقال أبو حاتم : لا تجوز هذه القراءة ؛ لأن معناه : أنه كان خائفا فأمنه غيره ﴿ **المهيمن** ﴾ أى الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم ، كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ، ويقال : هيمن يهيمن فهو مهيمن : إذا كان رقيبا على الشيء . قال الواحدى: ذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، والأوّل أولى، وقد قدمنا الكلام على المهيمن فى سورة المائدة ﴿ **العزيز** ﴾ الذى لا يوجد له نظير . وقيل : القاهر . وقيل : الغالب. وقيل : القوى ﴿ **الجبار** ﴾ جبروت الله : عظمته ، والعرب تسمى الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر : إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير ، ويجوز أن يكون من جبره على كذا : إذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذى جبر خلقه على ما أراد منهم ، وبه قال السدى ، ومقاتل ، واختاره الزجاج والفراء ، قال: هو من أجبره على الأمر ،أى قهره، قال :ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا فى جبار من أجبر، ودراك من أدرك. وقيل : الجبار: الذى لا تطاق سطوته ﴿ **المتكبر** ﴾ أى الذى تكبر عن كل نقص وتعظيم عما لا يليق به ، وأصل التكبر : الامتناع وعدم الانقياد ، ومنه قول حميد بن ثور :

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت ... بها كبرياء الصعب وهى ذلول

والكبر فى صفات الله مدح ، وفى صفات المخلوقين ذمّ . قال قتادة : هو الذى تكبر عن كل سوء . قال ابن الأنبارى : المتكبر ذو الكبرياء ، وهو الملك ، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين ، فقال : ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ أى عما يشركونه أو عن إشراكهم به.

(١) العائذات : ما عاذ بالبيت من الطير ، والغيل : الكثير الملتف من الشجر ، والسند : ما قابلك من الجبل ، وعلا من السفح .

﴿ **هو الله الخالق** ﴾ أى المقدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته ﴿ **البارئ** ﴾ أى المنشئ المخترع للأشياء الموجد لها ، وقيل : المميز لبعضها من بعض ﴿ **المصوّر** ﴾ أى الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التصوير : التخطيط والتشكيل . قال النابغة :

الخالق البارئ المصور فى الـ   أرحام ماء حتى يصير دما

وقرأ حاطب بن أبى بلتعة الصحابى: « **المصوَّر** » بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ ، أى الذى برأ المصوَّر ، أى ميزه ﴿ **له الأسماء الحسنى** ﴾ قد تقدم بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله :﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . ﴿ **يسبح له ما فى السموات والأرض** ﴾ أى ينطق بتنزيهه بلسان الحال،أو المقال كل ما فيهما ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب لغيره الذى لا يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل الأمور التى يقضى بها .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل** ﴾ قال : يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود وعلى مرفوعا فى قوله : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل** ﴾ إلى آخر السورة قال : هى رقية الصداع رواه الديلمى بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما . وأخرج الخطيب فى تاريخه بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإنى قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإنى قرأت على الأعمش ، ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلى ابن مسعود فقال : فإنى قرأت على النبى ﷺ فلما بلغت هذه الآية قال لى : « ضع يدك على رأسك ، فإن جبريل لما نزل بها قال لى:ضع يدك على رأسك ، فإنها شفاء من كل داء إلا السام » والسام: الموت . قال الذهبى: هو باطل (١) .وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر رجلا إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال : « إن متّ متّ شهيدا » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ :« من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس والجنّ إن كان ليلا حتى يصبح ، وإن كان نهارا حتى يمسى ».وأخرج أحمد والدارمى ،

---

(١) الخطيب فى تاريخه ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

والترمذى وحسنه والطبرانى وابن الضريس ، والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة ». قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١) . وأخرج ابن عدىّ وابن مردويه والخطيب ، والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة قال رسول الله ﷺ : « من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ قال : السرّ والعلانية .وفى قوله: ﴿ **المؤمن** ﴾ قال : المؤمّن خلقه من أن يظلمهم ، وفى قوله : ﴿ **المهيمن** ﴾ قال : الشاهد .

---

(١) أحمد ٥ / ٢٦ والدارمى ٢ / ٤٥٨ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٢) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٢٠ / ٢٢٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٢) وإسناده ضعيف .

(٢) ابن عدى فى الضعفاء ٣ / ٣١٨ والخطيب فى تاريخه ١٢ / ٤٤ والبيهقى فى الشعب (٢٢٧) وإسناده ضعيف .

تفسير سورة الممتحنة

هى ثلاث عشرة آية . وهى مدنية ، قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . والممتحنة ، بكسر الحاء ، اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازا ، كما سميت سورة براءة : الفاضحة ؛ لكشفها عن عيوب المنافقين .وقيل : الممتحنة ، بفتح الحاء ، اسم مفعول إضافة إلى المرأة التى نزلت فيها ، وهى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط لقوله سبحانه: ﴿ **فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ** ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾ .

قال المفسرون : نزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء** ﴾ فى حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى مشركى قريش يخبرهم بمسير النبىّ ﷺ إليهم ، وسيأتى ذكر القصة آخر البحث ، إن شاء الله ، وقوله : ﴿**عدوّى**﴾ هو المفعول الأول ﴿ **وعدوّكم**﴾ معطوف عليه ، والمفعول الثانى أولياء ، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيمًا لجرمهم ، والعدوُّ مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، والآية تدلّ على النهى عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ﴿ **تلقون إليهم بالمودّة** ﴾ أى توصلون إليهم المودّة على أن الباء زائدة أو هى سببية ، والمعنى : تلقون إليهم أخبار النبىّ ﷺ بسبب المودّة التى بينكم وبينهم . قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبىّ ﷺ وسرّه بالمودّة التى بينكم وبينهم والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب صفة لأولياء ، وجملة : ﴿ **وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار . قرأ الجمهور : ﴿ **بما جاءكم** ﴾ بالباء الموحدة . وقرأ الجحدرى وعاصم فى رواية عنه : « لما جاءكم » باللام ، أى لأجل ما جاءكم من الحق

على حذف المكفور به ، أى كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سببا للكفر توبيخا لهم ﴿ **يخرجون الرسول وإياكم** ﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى محل نصب على الحال وقوله : ﴿ **أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ تعليل للإخراج ، أى يخرجونكم لأجل إيمانكم ، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿ **إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى** ﴾ جواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودّة ، أو إن كنتم كذلك فلا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء ، وانتصاب ﴿ **جهادا** ﴾ و﴿ **ابتغاء** ﴾ على العلة ، أى إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد فى سبيلى ولأجل ابتغاء مرضاتى ، وجملة : ﴿ **تسرّون إليهم بالمودّة** ﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ ، أى تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودة . وقيل : هى بدل من قوله: ﴿ **تلقون** ﴾ . ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شىء ، فقال : ﴿**وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم** ﴾ والجملة فى محل نصب على الحال ، أى بما أضمرتم وما أظهرتم، والباء فى ﴿ **بما** ﴾ زائدة : يقال : علمت كذا وعلمت بكذا ، هذا على أن أعلم مضارع. وقيل: هو أفعل تفضيل ، أى أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل**﴾ أى من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوّى وعدوّكم أولياء ويلقى إليهم بالمودّة ؛ فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضلّ عن قصد السبيل .

﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء** ﴾ أى إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما فى قلوبهم من العداوة ، ومنه المثاقفة ، وهى طلب مصادفة الغرة فى المسابقة . وقيل : المعنى إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان ﴿**ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء** ﴾ أى يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه ، وألسنتهم بالشتم ونحوه ﴿**وودّوا لو تكفرون** ﴾ هذا معطوف على جواب الشرط ، أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجح هذا أبو حيان ، والمعنى : أنهم تمنوا ارتدادهم وودّوا رجوعهم إلى الكفر . ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم** ﴾ أى لا تنفعكم القرابات على عمومها ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم فى الأرحام؛لمزيد المحبة لهم والحنوّ عليهم ، والمعنى :أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم ، كما وقع فى قصة حاطب بن أبى بلتعة ، بل الذى ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم ، وجملة :﴿ **يوم القيامة يفصل بينكم** ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك اليوم ، ومعنى ﴿**يفصل بينكم** ﴾ : يفرّق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار . وقيل: المراد بالفصل بينهم: أنه يفر كلّ منهم من الآخر من شدة الهول كما فى قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ الآية [عبس : ٣٤] ، قيل : ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله ، أى لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه، ويبتدأ بقوله : ﴿**يفصل بينكم**﴾ والأولى أن يتعلق بما بعده كما ذكرنا ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك. قرأ الجمهور : ﴿ **يفصل** ﴾ بضم الياء وتخفيف الفاء وفتح الصاد مبنيا للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرأ عاصم

بفتح الياء وكسر الصاد مبنيا للفاعل ، وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة، وقرأ علقمة بالنون ، وقرأ قتادة وأبو حيوة بضم الياء وكسر الصاد مخففة .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن علىّ بن أبى طالب قال : بعثنى رسول اللّه ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول اللّه ﷺ : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ [1] فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتونى به » فخرجنا حتى أتينا الرَوضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى من كتاب ، فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينَ الثياب ، فأخرجته من عقاصها [2] ، فأتينا به النبىّ ﷺ ، فإذا بـه مـن حاطب بن أبى بلتعة إلى نـاس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى ﷺ ، فقال النبىّ ﷺ : « ما هذا يا حاطب ؟ » قال : لا تعجل علىّ يا رسول اللّه ، إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى فقال النبىّ ﷺ : « صدق » فقال عمر : دعنى أضرب عنقه ، فقال : « إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعلّ اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[3]. ونزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة**﴾. وفى الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة، وأن هذه الآيات إلى قوله : ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم** ﴾ نازلة فى ذلك .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ

---

(١) روضة خاخ : اسم مكان بين مكة والمدينة . (٢) العقاص : المضفور من شعر الرأس .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤ / ١٦١) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٥٠) .

وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من النهى عن موالاة المشركين والذّم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلا حين تبرأ من قومه، فقال : ﴿ **قد كانت لكم إسوة حسنة** ﴾ أى خصلة حميدة تقتدون بها، يقال : لى به أسوة فى هذا الأمر ، أى اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به فى ذلك إلا فى استغفاره لأبيه . قرأ الجمهور :﴿ **إسوة** ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر :القدوة ، ويقال : هو أسوتك ، أى مثلك وأنت مثله ، وقوله: ﴿**فى إبراهيم والذين معه** ﴾ متعلق بأسوة ، أو بحسنة ، أو هو نعت لأسوة أو حال من الضمير المستتر فى حسنة . أو خبر «كان » ، و« لكم » للبيان ، و﴿ **الذين معه** ﴾ هم أصحابه المؤمنون ، وقال ابن زيد : هم الأنبياء ، قال الفراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ، والظرف فى قوله : ﴿ **إذ قالوا لقومهم** ﴾ هو خبر كان، أو متعلق به ،أى وقت قولهم لقومهم الكفار :﴿ **إنا برآء منكم** ﴾ جمع برىء ،مثل شركاء وشريك، وظرفاء وظريف . قرأ الجمهور : ﴿ **برآء** ﴾ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ، ككرماء فى كريم . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف ، ككرام فى جمع كريم ، وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف ﴿ **ومما تعبدون من دون الله**﴾ وهى الأصنام ﴿ **كفرنا بكم**﴾ أى بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم.

﴿ **وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا** ﴾ أى هذا دأبنا معكم مادمتم على كفركم ﴿**حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة والبغضاء محبة ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك** ﴾ هو استثناء متصل من قوله : ﴿ **فى إبراهيم** ﴾ بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء ، أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه ،أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه ، أو من التبرى والقطيعة التى ذكرت ، أى لم يواصله إلا قوله ، ذكر هذا ابن عطية ، أو هو منقطع، أى لكن قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، فلا تأتسوا به ، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه ﴾ [التوبة :١١٤] وقد تقدم تحقيق هذا فى سورة براءة ﴿ **وما أملك لك من الله من شىء** ﴾ هذا من تمام القول المستثنى ، يعنى ما أغنى عنك وما أدفع عنك من عذاب الله شيئا ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرنّ ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد ، فإنه إظهار للعجز وتفويض للأمر إلى الله ، وذلك من خصال الخير ﴿ **ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير** ﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها. وقيل : هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول ، والتوكل : هو تفويض الأمور إلى الله ، والإنابة: الرجوع ، والمصير: المرجع ، وتقديم الجارّ والمجرور لقصر

التوكل والإنابة والمصير على اللّه . ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا** ﴾ قال الزجاج : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك ، وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ﴿ **واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز** ﴾ أى الغالب الذى لا يغالب ﴿ **الحكيم** ﴾ ذو الحكمة البالغة .

﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة** ﴾ أى لقد كان لكم فى إبراهيم والذين معه قدوة حسنة، وكررّ هذا للمبالغة والتأكيد . وقيل : إن هذا نزل بعد الأول بمدّة ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ بدل من قوله: ﴿ **لكم** ﴾بدل بعض من كلّ ، والمعنى : أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع فى الخير فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ **ومن يتول فإن اللّه هو الغنىّ الحميد** ﴾ أى يعرض عن ذلك ، فإن الله هو الغنىّ عن خلقه الحميد إلى أوليائه. ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة ، وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم فى الإسلام مودّة وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى اللّه وقيل : المراد بالمودّة هنا : تزويج النبىّ ﷺ بأمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، ولا وجه لهذا التخصيص وإن كان من جملة ما صار سببا إلى المودّة ، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول اللّه ﷺ ؛ ولكنها لم تحصل المودّة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده ﴿ **واللّه قدير** ﴾ أى بليغ القدرة كثيرها ﴿**واللّه غفور رحيم** ﴾ أى بليغهما كثيرهما .

ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغى للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موادّتهم ؛ فصل القول فيمن يجوز بره منهم ومن لا يجوز فقال : ﴿ **لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم** ﴾ أى لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿ **أن تبروّهم** ﴾ هذا بدل من الموصول بدل اشتمال ، وكذا قوله : ﴿ **وتقسطوا إليهم** ﴾ يقال : أقسطت إلى الرّجل : إذا عاملته بالعدل . قال الزجاج : المعنى : وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ﴿**إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى العادلين، ومعنى الآية : أن اللّه سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى ألا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل ، قال ابن زيد :كان هذا فى أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ ، قال قتادة : نسختها : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] . وقيل : هذا الحكم كان ثابتا فى الصلح بين النبىّ ﷺ وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم . وقيل : هى خاصة فى حلفاء النبىّ ﷺ ومن بينه وبينه عهد قاله الحسن ، وقال الكلبى : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف . وقال مجاهد : هى خاصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا . وقيل : هى خاصة بالنساء والصبيان ، وحكى القرطبى عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة ، ثم بين سبحانه من لا يحلّ بره ولا العدل فى معاملته فقال : ﴿ **إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم** ﴾ وهم صناديد الكفر من قريش ﴿ **وظاهروا على إخراجكم** ﴾

أى عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم فى عهدهم وقوله : **﴿أن تولوهم ﴾** بدل اشتمال من الموصول كما سلف **﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾** أى الكاملون فى الظلم لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوّا لله ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياء لهم.

وقد أخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس : **﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه ﴾** قال : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، وقوله : **﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾** لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه : **﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾** قال : فى صنيع إبراهيم كله إلا فى الاستغفار لأبيه ، وهو مشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : **﴿ لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾** قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وأخرج ابن مردويه عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال: أول من قاتل أهل الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب وفيه نزلت هذه الآية :**﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة﴾** . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى أن رسول اللّه ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول اللّه ﷺ أقبل فلقى « ذا الخمار» مرتدّا ، فكان أوّل من قاتل فى الردّة وجاهد عن الدّين ، قال : وهو فيمن قال اللّه فيه : **﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾** . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عدىّ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية قال : كانت المودّة التى جعل بينهم تزويج النبىّ ﷺ أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، فصارت أمّ المؤمنين ، فصار معاوية خال المؤمنين ، وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول اللّه ثلاث أعطينهنّ ، قال « نعم » ، قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال: « نعم » ، قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : « نعم » ، قال : وعندى أحسن العرب وأجمله أمّ حبيبة بنت أبى سفيان أزوّجكها الحديث (١) .

وأخرج الطيالسى وأحمد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا : ضباب وأقط وسمن وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلى عن هذا

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٠١ / ١٦٨) .

رسول الله ﷺ فسألته ، فأنزل الله : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدّين** ﴾ الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها [١] ، وزاد ابن أبى حاتم فى المدّة التى كانت بين قريش ورسول الله ﷺ . وفى البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر قالت : أتتنى أمى راغبة وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ، فسألت النبىّ ﷺ : أأصلها؟ فأنزل الله : ﴿ **لا ينهاكم الله** ﴾ الآية ، فقال : « نعم صلى أمك » [٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾ .

لما ذكر سبحانه حكم فريقى الكافرين فى جواز البرّ والإقساط للفريق الأوّل دون الفريق الثانى ذكر حكم من يظهر الإيمان ، فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ من بين الكفار وذلك أن النبى ﷺ لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهنّ ، فقال : ﴿ **فامتحنوهنّ** ﴾ أى فاختبروهنّ .

وقد اختلف فيما كان يمتحنّ به ، فقيل : كنّ يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا بل حبا لله ولرسوله ورغبة فى دينه ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبىّ ﷺ زوجها مهرها ، وما أنفق عليها ولم يردّها إليه . وقيل : الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ﷺ الآية ، وهى : ﴿ **يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات** ﴾ إلى آخرها .

---

(١) أحمد ٤ / ٤ وابن جرير ٢٨ / ٤٢ وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٥ ، ٤٨٦ ووافقه الذهبى .
(٢) البخارى فى الهبة (٢٦٢٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٣ / ٤٩ ، ٥٠) وأبو داود فى الزكاة (١٦٦٨) .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عهد الهدنة أم لا ؟ على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص .

﴿ **اللّه أعلم بإيمانهنّ** ﴾ هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهنّ لا يعلمها إلا اللّه سبحانه ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم ما يدلّ على صدق دعواهنّ فى الرغوب فى الإسلام ﴿ **فإن علمتموهنّ مؤمنات** ﴾ أى علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذى أمرتم بـه ﴿ **فلا ترجعوهنّ إلى الكفار** ﴾ أى إلى أزواجهنّ الكافرين ، وجملة : ﴿**لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهنّ**﴾ تعليل للنهى عن إرجاعهنّ . وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحلّ لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرّد هجرتها ، والتكرير لتأكيد الحرمة ، أو الأوّل لبيان زوال النكاح ، والثانى لامتناع النكاح الجديد ﴿ **وآتوهم ما أنفقوا** ﴾ أى وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتى هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهنّ من المهور . قال الشافعى : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض .

﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ** ﴾ لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم ﴿ **إذا آتيتموهنّ أجورهنّ** ﴾ أى مهورهنّ ، وذلك بعد انقضاء عدّتهنّ ، كما تدل عليه أدلة وجوب العدة ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**تمسكوا** ﴾ بالتخفيف من الإمساك ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة لقوله : ﴿ فأمسكوهنّ بمعروف ﴾ [البقرة: ٢٣١] ،وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد من التمسك ، والعصم جمع عصمة ، وهى ما يعتصم به ، والمراد هنا : عصمة عقد النكاح ، والمعنى : أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين . قال النخعى : هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوّجون المسلمين والمسلمون يتزوّجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب . وقيل : عامة فى جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها . وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثنّى أو كتابّى لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدّة . وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرّد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم فى انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها ﴿ **واسألوا ما أنفقتم** ﴾ أى اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ﴿ **وليسألوا ما أنفقوا** ﴾ قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين : إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت ردّوا مهرها على زوجها الكافر ﴿ **ذلكم حكم اللّه** ﴾ أى ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم اللّه ، وقوله : ﴿ **يحكم بينكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ﴿ **واللّه عليم حكيم** ﴾ أى بليغ العلم لا تخفى عليه خافية ، بليغ

الحكمة فى أقواله وأفعاله . قال القرطبى : وكان هذا مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين .

﴿ **وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار** ﴾ لما نزلت الآية المتقدّمة قال المسلمون : رضينا بحكم اللّه وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا ، فنزل قوله : ﴿ **وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار** ﴾ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات، وقيل: المعنى : وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة ﴿ **فعاقبتم** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : ﴿**فعاقبتم**﴾ فغنمتم . قال الزجاج : تأويله : وكانت العقبى لكم ، أى كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم ﴿**فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا** ﴾ من مهر المهاجرة التى تزوّجوها ودفعوه إلى الكفار ، ولا تؤتوه زوجها الكافر، قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفىء والغنيمة ، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح ، وحاصل معناها : أن ﴿ **من أزواجكم** ﴾ يجوز أن يتعلق بفاتكم أى من جهة أزواجكم، ويراد بالشىء : المهر الذى غرمه الزوج ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشىء ، ثم يجوز فى شىء أن يراد به المهر ، ولكن لا بدّ على هذا من مضاف محذوف، أى من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف وصفته ، ويجوز أن يراد بشىء: النساء ، أى نوع وصنف منهنّ ، وهو ظاهر قوله : ﴿ **من أزواجكم** ﴾ ، وقوله :﴿ **فآتوا الذين ذهبت أزواجهم**﴾ والمعنى: أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ولم يردّ عليه المشركون مهرها ، كما حكم اللّه مثل ذلك المهر الذى أنفقه عليها من الغنيمة ﴿ **واتقوا اللّه الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ أى احذروا أن تتعرضوا لشىء مما يوجب العقوبة عليكم ، فإن الإيمان الذى أنتم متصفون به ، يوجب على صاحبه ذلك.

﴿ **يأيها النبىّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ أى قاصدات لمبايعتك على الإسلام ، و﴿ **على أن لا يشركن بالله شيئا** ﴾ من الأشياء كائنا ما كان ، هذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول اللّه ﷺ يبايعنه ، فأمره الله أن يأخذ عليهنّ : ألا يشركن ﴿ **ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ** ﴾ وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات ﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ** ﴾ أى لا يلحقن بأزواجهنّ ولدا ليس منهم . قال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدى منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهنّ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ؛ لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا ﴿ **ولا يعصينك فى معروف** ﴾ أى فى كل أمر هو طاعة لله . قال عطاء : فى كل برّ وتقوى ، وقال المقاتلان: عنى بالمعروف : النهى عن النوح ، وتمزيق الثياب ، وجزّ الشعر ، وشق الجيب ، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد

ابن أسلم، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه ، قيل : ووجه التقييد بالمعروف، مع كونه ﷺ لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق﴿ **فبايعهنّ** ﴾ هذا جواب إذا والمعنى : إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهنّ ، ولم يذكر فى بيعتهنّ الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ، وإنما خصّ الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء ﴿ **واستغفر لهنّ الله** ﴾ أى اطلب من اللّه المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك ﴿ **إن الله غفور رحيم**﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة لعباده .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم** ﴾ هم جميع طوائف الكفر . وقيل : اليهود خاصة . وقيل : المنافقون خاصة ، وقال الحسن : اليهود والنصارى ، والأول أولى ؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها ﴿ **قد يئسوا من الآخرة** ﴾ « من » لابتداء الغاية ، أى أنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم ﴿ **كما يئس الكفار من أصحاب القبور** ﴾ أى كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث ، وقيل : كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة ؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة وعلموا أنه لا نصيب لهم فى الآخرة ، فتكون « من » على الوجه الأول ابتدائية ، وعلى الثانى بيانية ، والأول أولى .

وقد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ؛ أن رسول اللّه ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ حتى بلغ ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك [١]. وأخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا، وفيه وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول اللّه ﷺ ، وهى عانق ، فجاء أهلها يسألون رسول اللّه ﷺ يرجعها إليهم حتى أنزل الله فى المؤمنات ما أنزل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فامتحنوهنّ** ﴾ قال : كان امتحانهنّ: أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا علموا أن ذلك حقا منهنّ لم يرجعن إلى الكفار وأعطى بعلها فى الكفار الذين عقد لهم رسول اللّه صداقها الذى أصدقها وأحلهنّ للمؤمنين إذا آتوهن أجورهنّ . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، فكان من أسلم من نسائهم ، فسئلت: ما أخرجك ؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها ورغبة عنه ردّت ، وإن كانت خرجت رغبة فى الإسلام أمسكت وردّ على زوجها مثل ما أنفق . وأخرج ابن أبى أسامة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير وابن مردويه ، بسند حسن كما قال السيوطى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ**﴾ قال : كان إذا جاءت المرأة النبىّ ﷺ حلفها عمر بن الخطاب باللّه ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وباللّه ما خرجت من بغض زوج ، وباللّه ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت

(١) البخارى فى الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

إلا حبا لله ورسوله(١) .

وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ **يأيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **غفور رحيم** ﴾ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك كلاما » ، والله ما مست يده يد امرأة قط من المبايعات ، ما بايعهنّ إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك »(٢) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت النبيّ ﷺ في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئا حتى بلغ : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ فقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة » وفي الباب أحاديث (٣) .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبيّ ﷺ فقال : «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، وقرأ آية النساء ، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» (٤) . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه** ﴾ قال : كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية . قال : لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء . وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت : قالت امرأة من النسوة : ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ قال : « لا تنحن » قلت : يا رسول الله ، إن بني فلان أسعدوني على عمي ، لا بدّ لي من قضائهن ، فأبى عليّ فعاودته مرارا ، فأذن لي في قضائهنّ ، فلم أنح بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري (٥) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أمّ عطية

(١) ابن جرير ٢٨ / ٤٤ وقال الهيثمي في المجمع ٧/١٢٦ : « رواه البزار وفيه قيس بن الربيع » .
(٢) البخاري في التفسير (٤٨٩١) والترمذي في التفسير (٣٣٠٦) وقال : « حسن صحيح » .
(٣) أحمد ٦/ ٣٥٧ والترمذي في السير (١٥٩٧) والنسائي في البيعة ٧ / ١٥٢ وابن ماجة في الجهاد (٢٨٧٤) وابن جرير ٢٨ / ٥٢ .
(٤) البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (١٧٠٩ / ٤١) والترمذي في الحدود (١٤٣٩) .
(٥) ابن أبي شيبة في الجنائز ٣/ ٣٨٩ والترمذي في التفسير (٣٣٠٧) وابن ماجة في الجنائز (١٥٨٠) وابن جرير ٢٨ / ٥٢ .

قالت : بايعنا رسول اللّه ﷺ فقرأ علينا ألا نشرك باللّه شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : يا رسول اللّه ، إن فلانة أسعدتنى وأنا أريد أن أجزيها فلم يقل لها شيئا ، فذهبت ثم رجعت فقالت: ما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأمّ العلاء وبنت أبى سبرة امرأة معاذ أو بنت أبى سبرة وامرأة معاذ (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن النوح .

وأخرج أبو إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس قال : كان عبد اللّه بن عمرو وزيد بن الحارث يودّان رجلا من اليهود، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم** ﴾ الآية . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **قد يئسوا من الآخرة** ﴾ قال : فلا يؤمنون بها ولا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم اللّه .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٢) ومسلم فى الجنائز (٩٣٦ / ٣١) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٠٧) .

تفسير سورة الصف

هى أربع عشرة آية . وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بمكة ، ولعل هذا لا يصح عنه ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلا فجمعنا ،فقرأ علينا هذه السورة ـ يعنى سورة الصف كلها (١) . وأخرجه ابن أبى حاتم ، وقال فى آخره : فنزلت فيهم هذه السورة . وأخرجه أيضا الترمذى وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين والبيهقى فى الشعب والسنن (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾ .

قوله : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ قد تقدم الكلام على هذا ووجه التعبير فى بعض السور بلفظ الماضى كهذه السورة ، وفى بعضها بلفظ المضارع ، وفى بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح فى كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد

(١) أحمد ٥/ ٤٥٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٠٩) وابن حبان (١٥٨٩) وصححه الحاكم ٢/ ٤٨٧ على شرط الشيخين والبيهقى فى الشعب (٣٩٠٧) وإسناده موثقون ، وفى السنن ٩/ ١٥٩ .

قدمنا نحو هذا فى أول سورة الحديد ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب الذى لا يغالب ، الحكيم فى أفعاله وأقواله . ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه ، و « لم » مركبة من اللام الجارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالها كما فى نظائرها . ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال: ﴿**كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾ أى عظم ذلك فى المقت ، وهو البغض والمقت والمقاتة مصدران ، يقال: رجل مقيت وممقوت: إذا لم يحبه الناس. قال الكسائى: ﴿ **أن تقولوا** ﴾ فى موضع رفع ، لأن ﴿ **كبر** ﴾ فعل بمعنى: بئس ، و﴿ **مقتا** ﴾ منتصب على التمييز، وعلى هذا فيكون فى ﴿ **كبر** ﴾ ضمير مبهم مفسر بالنكرة ، وأن ﴿ **تقولوا** ﴾ هو المخصوص بالذم ، ويجىء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء ،وخبره الجملة المتقدمة عليه ، أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف . وقيل : إنه قصد بقوله: ﴿ **كبر** ﴾ التعجب ، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب . وقيل : إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب ، بل هو مسند إلى ﴿ **أن تقولوا** ﴾، و﴿ **مقتا** ﴾ تمييز محول عن الفاعل .

﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا** ﴾ قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا . فأنزل الله: ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون** ﴾ الآية ، وانتصاب ﴿**صفا** ﴾ على المصدرية ، والمفعول محذوف ، أى يصفون أنفسهم صفا . وقيل : هو مصدر فى موضع الحال ، أى صافين أو مصفوفين . قرأ الجمهور: ﴿ **يقاتلون** ﴾ على البناء للفاعل . وقرأ زيد بن على على البناء للمفعول وقرئ : «يقتلون » بالتشديد ، وجملة : ﴿ **كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **يقاتلون** ﴾ ، أو من الضمير فى ﴿**صفا**﴾ على تقدير أنه مؤول بصافين أو مصفوفين ، ومعنى ﴿**مرصوص**﴾: ملتزق بعضه ببعض ، يقال : رصصت البناء أرصه رصا : إذا ضممت بعضه إلى بعض . قال الفراء : مرصوص بالرصاص . قال المبرد : هو مأخوذ من رصصت البناء : إذا لا يمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة . وقيل : هو من الرصيص ، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص : التلاصق .

﴿ **وإذ قال موسى لقومه** ﴾ لما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين فى سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد ، وجاهدا فى سبيل الله ، وحل العقاب بمن خالفهما ، والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر ، أى اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى ، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين فى سبيل الله التحذير لأمة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿ **يا قوم لم تؤذوننى**﴾ هذا مقول القول ، أى لم تؤذوننى بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التى افترضها الله عليكم ، أو لم تؤذوننى بالشتم والانتقاص ، ومن ذلك رميه بالأدرة [(١)] ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة الأحزاب ، وجملة :

(١) الأدرة : بالضم : نفخة فى الخصية .

﴿وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم﴾ فى محل نصب على الحال ، و« قد » لتحقق العلم أو لتأكيده ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، والمعنى : كيف تؤذوننى مع علمكم بأنى رسول الله ، والرسول يحترم ويعظم ، ولم يبق معكم شك فى الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التى توجب عليكم الاعتراف برسالتى ، وتفيدكم العلم بها علما يقينيا **﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾** أى لما أصروا على الزيغ واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وصرفها عن قبول الحق . وقيل : فلما زاغوا عن الإيمان ، أزاغ الله قلوبهم عن الثواب . قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق ، أمال الله قلوبهم عنه ، يعنى: أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم ، أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا **﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾** هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . قال الزجاج: لا يهدى من سبق فى علمه أنه فاسق ، والمعنى : أنه لا يهدى كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم .

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم ﴾ معطوف على **﴿ وإذ قال موسى ﴾** معمول لعامله ، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول **﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾** أى إنى رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقا لما بين يدى من التوراة لأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على التبشير بى ، فكيف تنفرون عنى وتخالفوننى ، وانتصاب **﴿ مصدقا ﴾** على الحال ، وكذا **﴿ مبشرا ﴾** والعامل فيهما ما فى الرسول من معنى الإرسال ، والمعنى : أنى أرسلت إليكم حال كونى مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا بمن يأتى بعدى ، وإذا كنت كذلك فى التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبى ، وأحمد اسم نبينا ﷺ وهو علم منقول من الصفة، وهى تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه أكثر حمدا لله من غيره ، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمى وزر بن حبيش وأبو بكر عن عاصم : « من بعدى » بفتح الياء ، وقرأ الباقون بإسكانها **﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾** أى لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا : هذا الذى جاءنا به سحر واضح ظاهر . وقيل : المراد : محمد ﷺ ، أى لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة ، والأول أولى. قرأ الجمهور : **﴿سحر ﴾** وقرأ حمزة والكسائى : « ساحر » .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أى لا أحد أكثر ظلما منه حيث يفترى على الله الكذب ، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذى هو خير الأديان وأشرفها ؛ لأن من كان كذلك فحقه ألا يفترى على غيره الكذب ، فكيف يفتريه على ربه ، قرأ الجمهور : **﴿ وهو يدعى ﴾** من الدعاء مبنيا للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرف: «يدعى» بفتح الياء وتشديد الدال من الادعاء مبنيا للفاعل ، وإنما عدى بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب **﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾** هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى: لا يهدى من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم **﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾**

الإطفاء: الإخماد، وأصله فى النار ، واستعير لما يجرى مجراها من الظهور ، والمراد بنور الله : القرآن ، أى يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، أو الإسلام ، أو محمد ﷺ ، أو الحجج والدلائل ، أو جميع ما ذكر ، ومعنى ﴿ **بأفواههم** ﴾ : بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن ﴿ **والله متم نوره** ﴾ بإظهاره فى الآفاق وإعلائه على غيره ، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم: ﴿ **متم نوره** ﴾ بالإضافة والباقون بتنوين «متم » ﴿ **ولو كره الكافرون**﴾ ذلك فإنه كائن لا محالة ، والجملة فى محل نصب على الحال ، قال ابن عطية : واللام فى ﴿**ليطفئوا** ﴾لام مؤكدة دخلت على المفعول ؛ لأن التقدير : يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، كقولك: لزيد ضربت ، ولرؤيتك قصدت .وقيل : هى لام العلة ، والمفعول محذوف ، أى يريدون إبطال القرآن ، أو دفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا . وقيل : إنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة بنفسها . قال الفراء : العرب تجعل لام كى فى موضع أن فى أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائى ، ومثل هذا قوله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء : ٢٦] وجملة : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها ، والهدى: القرآن أو المعجزات ، ومعنى ﴿ **دين الحق** ﴾ : الملة الحقة ، وهى ملة الإسلام ، ومعنى ﴿ **ليظهره** ﴾ : ليجعله ظاهرا على جميع الأديان عاليا عليها غالبا لها ولو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة . قال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام ، والدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة ، وجواب « لو » فى الموضعين محذوف ، والتقدير : أتمه وأظهره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ قال : هذه الآية فى القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبى ﷺ فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفى ولم يفعلوا ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عنه أيضا قال : قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه ؛ فأخبرهم الله فقال : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ فكرهوا ذلك ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون .كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ قال : مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى أسماء: أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر، الذى يحشر الله الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا

العاقب ، والعاقب الذى ليس بعده نبى » (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار . قرأ الجمهور: ﴿ **تنجيكم** ﴾ بالتخفيف من الإنجاء .وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة بالتشديد من التنجية . ثم بين سبحانه هذه التجارة التى دل عليها فقال : ﴿**تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ وهو خبر فى معنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ، وقدم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هى التى يبدأ بها فى الإنفاق والتجهز إلى الجهاد ، قرأ الجمهور : ﴿ **تؤمنون** ﴾ وقرأ ابن مسعود : « آمنوا وجاهدوا » على الأمر . قال الأخفش : ﴿ **تؤمنون** ﴾ عطف بيان لـ ﴿ **تجارة** ﴾، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **خير لكم** ﴾ أى هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ أى إن كنتم ممن يعلم فإنكم تعلمون أنه خير لكم ، لا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك .

﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، ولهذا جزم . قال الزجاج والمبرد : قوله: ﴿ **تؤمنون** ﴾ فى معنى آمنوا ، ولذلك جاء ﴿ **يغفر لكم** ﴾ مجزوما . وقال الفرّاء : ﴿ **يغفر لكم** ﴾ جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام ، وقد غلطه بعض أهل العلم . قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال الرازى فى توجيه قول الفراء : إن ﴿ **هل أدلكم** ﴾ فى معنى الأمر عنده يقال : هل أنت ساكت ، أى اسكت ، وبيانه : أن « هل » بمعنى الاستفهام ، ثم يتدرج

---

(١) أحمد ٤/ ٨٤ والبخارى فى المناقب (٣٥٣٢) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤/ ١٢٤، ١٢٥) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

إلى أن يصير عرضا وحثا ، والحث كالإغراء والإغراء أمر ، وقرأ زيد بن على: « تؤمنوا ، وتجاهدوا » على إضمار لام الأمر . وقيل : إن ﴿ **يغفر لكم** ﴾ مجزوم بشرط مقدر، أى إن تؤمنوا يغفر لكم ، وقرأ بعضهم بالإدغام فى يغفر لكم ، والأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه فى اللام ﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قد تقدم بيان كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات ﴿ **ومساكن طيبة فى جنات عدن** ﴾ أى فى جنات إقامة ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾ أى ذلك المذكور من المغفرة ، وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذى لا فوز بعده ، والظفر الذى لا ظفر يماثله .

﴿ **وأخرى تحبونها** ﴾ قال الأخفش والفرّاء : ﴿ **أخرى** ﴾ معطوفة على ﴿ **تجارة** ﴾ فهى فى محل خفض ، أى وهل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها فى العاجل مع ثواب الآخرة. وقيل : هى فى محل رفع ، أى ولكم خصلة أخرى . وقيل : فى محل نصب ، أى ويعطيكم خصلة أخرى ، ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال : ﴿ **نصر من الله وفتح قريب** ﴾ أى هى نصر من الله لكم ، وفتح قريب يفتحه عليكم . وقيل : ﴿ **نصر** ﴾ بدل من ﴿ **أخرى** ﴾ على تقدير كونها فى محل رفع . وقيل : التقدير : ولكم نصر وفتح قريب . قال الكلبى : يعنى : النصر على قريش وفتح مكة . وقال عطاء : يريد فتح فارس والروم ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ معطوف على محذوف ، أى قل يأيها الذين آمنوا وبشر ، أو على ﴿ **تؤمنون** ﴾ لأنه فى معنى الأمر ، والمعنى : وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح ، أو وبشرهم بالنصر فى الدنيا والفتح ، وبالجنة فى الآخرة ، أو وبشرهم بالجنة فى الآخرة .

ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله** ﴾ أى دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع : « أنصاراً لله » بالتنوين وترك الإضافة ، وقرأ الباقون بالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معا ، واختار أبو عبيد قراءة الإضافة لقوله : ﴿ **نحن أنصار الله** ﴾ بالإضافة ﴿ **كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله** ﴾ أى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى : ﴿ **من أنصارى إلى الله** ﴾ فقالوا : ﴿ **نحن أنصار الله** ﴾ والكاف فى ﴿ **كما قال**﴾ نعت مصدر محذوف ، تقديره : كونوا كونا كما قال . وقيل : الكاف فى محل نصب على إضمار الفعل ، وقيل : هو كلام محمول على معناه دون لفظه ، والمعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم :من أنصارى إلى الله . وقوله : ﴿ **إلى الله** ﴾ قيل : إلى بمعنى : مع ، أى من أنصارى مع الله . وقيل : التقدير : من أنصارى فيما يقرب إلى الله . وقيل : التقدير : من أنصارى متوجها إلى نصرة الله ، وقد تقدم الكلام على هذا فى سورة آل عمران . والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه ، وأول من آمن به ، وقد تقدم بيانهم ﴿**فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة** ﴾ أى آمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة ، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم** ﴾ أى قوينا المحقين منهم

على المبطلين **﴿فأصبحوا ظاهرين﴾** أى عالين غالبين ، وقيل المعنى : فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعا.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قالوا : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فنزلت : **﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾** فكرهوا ، فنزلت : **﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾** إلى قوله : **﴿ بنيان مرصوص ﴾** . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : **﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾** قال : قد كان ذلك بحمد الله ، جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه . وأخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة : « أخرجوا إلى اثنى عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم ، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم»[(١)] . وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله ﷺ للنقباء : « إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل قومى »، قالوا :نعم [(٢)] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : **﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾** قال : فقوينا الذين آمنوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : فأيدنا الذين آمنوا بمحمد ﷺ وأمته على عدوهم فأصبحوا اليوم ظاهرين.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٢ وابن سعد ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ابن سعد ١/ ٢٢٢، ٢٢٣.

تفسير سورة الجمعة

هى إحدى عشرة آية . وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج مسلم وأهل السنن عن أبى هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة سورة الجمعة و﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ [المنافقون] [٢] . وأخرج مسلم وأهل السنن عن ابن عباس نحوه [٣] . وأخرج ابن حبان ، والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال :كان رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ [الكافرون] و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص] وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون [٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى أول سورة

---

(١) القرطبى ٩/ ٦٥٧٠ .

(٢) مسلم فى الجمعة (٨٧٧/ ٦١) وأبو داود فى الصلاة (١٠٧٤) والترمذى فى الصلاة (٥١٩) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١١١٨) .

(٣) مسلم فى الجمعة (٨٧٩/ ٦٤) وأبو داود فى الصلاة (١٠٧٥) والترمذى فى الصلاة (٥١٩) وقال : « حديث حسن صحيح » والنسائى ٣/ ١١١ والبيهقى ٣/ ٢٠٠ .

(٤) ابن حبان فى الصلاة (١٨٣٨) والبيهقى ٣/ ٢٠١ .

الحديد . وما بعدها من المسبحات ﴿ **الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾ قرأ الجمهور بالجر فى هذه الصفات الأربع على أنها نعت لـ ﴿ **لله** ﴾ ، وقيل : على البدل ، والأول أولى . وقرأ أبو وائل بن محارب وأبو العالية ونصر بن عاصم ورؤبة بالرفع على إضمار مبتدأ ، وقرأ الجمهور : ﴿ **القدوس** ﴾ بضم القاف ، وقرأ زيد بن على بفتحها ،وقد تقدم تفسيره . ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم** ﴾ المراد بالأميين : العرب ، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، والأمى فى الأصل : الذى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب كذلك ، وقد مضى بيان معنى الأمى فى سورة البقرة ، ومعنى ﴿ **منهم** ﴾ : من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم وما كان حى من أحياء العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة ، ووجــه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه ﴿ **يتلوعليهم آياته** ﴾ يعنى: القرآن ، مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك من أحد ، والجملة صفة لـ ﴿ **رسولا** ﴾ وكذا قوله : ﴿ **ويزكيهم** ﴾ قال ابن جريج ومقاتل : أى يطهرهم من دنس الكفر والذنوب. وقال السدى :يأخذ زكاة أموالهم . وقيل : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ هذه صفة ثالثة لـ ﴿ **رسولا** ﴾ ، والمراد بالكتاب : القرآن، وبالحكمة : السنة ، كذا قال الحسن . وقيل : الكتاب : الخط بالقلم ، والحكمة : الفقه فى الدين ، كذا قال مالك بن أنس ﴿ **وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ أى وإن كانوا من قبل بعثته فيهم فى شرك وذهاب عن الحق .

﴿ **وآخرين منهم** ﴾ معطوف على الأميين ، أى بعث فى الأميين ، وبعث فى آخرين منهم ﴿ **لما يلحقوا بهم** ﴾ ذلك الوقت ، وسيلحقون بهم من بعد ، أو هو معطوف على المفعول الأول فى ﴿ **يعلمهم** ﴾ أى ويعلم آخرين ، أو على مفعول ﴿**يزكيهم** ﴾ ، أى يزكيهم ويزكى آخرين منهم . والمراد بالآخرين : من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بهم : من أسلم من غير العرب ، وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : هم الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدى . وجملة : ﴿ **لما يلحقوا بهم** ﴾ صفة لـ ﴿ **آخرين** ﴾ ، والضمير فى « منهم » و« لهم » راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين : هم من يأتى بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو ﷺ وإن كان مرسلا إلى جميع الثقلين ، فتخصيص العرب هاهنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لا ينافى عموم الرسالة، ويجوز أن يراد بالآخرين : العجم ؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب ، فقد صاروا بالإسلام منهم والمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم ﴿ **وهو العزيـز الحكيم** ﴾ أى بليغ العـزة والحكمة . والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره ، وقال الكلبى: يعنى:الإسلام. وقال قتادة: يعنى: الوحى والنبوة . وقيل : إلحاق العجم بالعـرب ، وهـو مبتدأ وخـبره ﴿ **فـضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أى يعطيه من يشاء من عباده ﴿ **والله ذو الفـضل العظيم**﴾ الذى لا يساويه فضل ولا يدانيه .

﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها** ﴾ ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلا فقال: ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة**﴾ أى كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ﴿**ثم لم يحملوها**﴾ أى لم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها﴿**كمثل الحمار يحمل أسفارا**﴾ هى جمع سفر وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ .قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبل ، فهكذا اليهود. وقال الجرجاني: هو يعنى حملوا من الحمالة يعنى الكفالة، أى ضمنوا أحكام التوراة ، وقوله: ﴿ **يحمل** ﴾ فى محل نصب على الحال، أو صفة للحمار ، إذ ليس المراد به حمارا معينا ،فهو فى حكم النكرة كما فى قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثم وقلت لا يعنينى

﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله** ﴾ أى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، على أن التميز محذوف ، والفاعل المفسر به مضمر ، و﴿ **مثل القوم** ﴾ هو المخصوص بالذم ، أو ﴿ **مثل القوم** ﴾ فاعل ﴿ **بئس** ﴾ ، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف مضاف، أى مثل الذين كذبوا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون فى محل جر ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء ﴿**والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ يعنى على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوليا .

﴿ **قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس** ﴾ المراد بالذين هادوا : الذين تهودوا ، وذلك أن اليهود ادعوا الفضيلة على الناس، وأنهم أولياء الله من دون الناس ، كما فى قولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] ،وقولهم: ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادعوا هذه الدعوة الباطلة : ﴿**فتمنوا الموت**﴾ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة فى زعمكم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى هذا الزعم ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار . قرأ الجمهور : ﴿ **فتمنوا** ﴾ بضم الواو ،وقرأ ابن السميفع بفتحها تخفيفا ،وحكى الكسائى إبدال الواو همزة .ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم فقال: ﴿ **ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم** ﴾ أى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصى والتحريف والتبديل ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ يعنى : على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوليا .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم وأنه نازل بهم فقال : ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم** ﴾ لا محالة ونازل بكم بلا شك ، والفاء فى قوله: « فإنه » داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج: لا يقال: إن زيدا فمنطلق ، وهاهنا قال : فإنه ملاقيكم لما فى معنى الذى من الشرط والجزاء ، أى إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه . وقيل : إنها مزيدة. وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ **تفرون منه** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ من الأعمال

القبيحة ويجازيكم عليها .

وقد أخرج ابن المنذر والحاكم والبيهقى فى الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾ أول سورة الجمعة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » (١) . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ حين نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ قال له رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسى وقال : « والذى نفسى بيده ، لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء» (٢) . وأخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ : « لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس ــ أو قال ــ : من أبناء فارس » (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » . ثم قرأ : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ قال : الدين . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها** ﴾ قال : اليهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أسفارا** ﴾ قال : كتبا .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة** ﴾ أى وقع النداء لها ، والمراد به : الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواه ، وقوله: ﴿ **من يوم الجمعة** ﴾ بيان لإذا وتفسير لها . وقال أبو البقاء : إن « من » بمعنى فى كما فى

---

(١) أحمد ٢/ ٤٣ ، ٥٢ ، ١٢٢ ، ١٢٩ والبخارى فى الصوم (١٩١٣) ومسلم فى الصوم (١٠٨٠ / ١٥) وأبو داود فى الصوم (٢٣١٩) والنسائى ٤/ ١٣٩ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٣١٠) وقال : « حديث غريب » .

(٣) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٦/ ٢٣٠ ، ٢٣١) عن أبى هريرة .

قوله: ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [فاطر: ٤٠] أى فى الأرض . قرأ الجمهور : ﴿الجمعة ﴾ بضم الميم ، وقرأ عبد الله بن الزبير والأعمش بإسكانها تخفيفا ، وهما لغتان وجمعها جمع وجمعات . قال الفراء : يقال : الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها ، وهى صفة لليوم ، أى يوم يجمع الناس . قال الفراء أيضا وأبو عبيد : والتخفيف أخف وأقيس ، نحو : غرفة وغرف ، وطرفة وطرف ، وحجرة وحجر ، وفتح الميم لغة عقيل . وقيل : إنها سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم . وقيل : لأن الله فرغ فيها من خلق كل شىء فاجتمعت فيها جميع المخلوقات . وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال عطاء : يعنى : الذهاب والمشى إلى الصلاة، وقال الفراء : المضى والسعى والذهاب فى معنى واحد ، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود . « فامضوا إلى ذكر الله » . وقيل : القصد . قال الحسن : والله ما هو سعى على الأقدام ، ولكنه قصد بالقلوب والنيات . وقيل : هو العمل كقوله :﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ [الإسراء : ١٩] وقوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ [الليل: ٤] وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم : ٣٩] قال القرطبى : وهذا قول الجمهور (١) ، ومنه قول زهير :

سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم

وقال أيضا :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما   تنزل ما بين العشيرة بالدم

أى فاعملوا على المضى إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، ويؤيد هذا القول ، قول الشاعر :

أسعى على جل بنى مالك   كل امرئ فى شأنه ساعى

﴿ وذروا البيع ﴾ أى اتركوا المعاملة به ، ويلحق به سائر المعاملات . قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع . والإشارة بقوله :﴿ ذلكم ﴾ إلى السعى إلى ذكر الله وترك البيع ، وهو مبتدأ وخبره ﴿خير لكم ﴾ أى خير لكم من فعل البيع ، وترك السعى لما فى الامتثال من الأجر والجزاء ، وفى عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم ، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم . ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أى إذا فعلتم الصلاة وأديتموها وفرغتم منها ﴿ فانتشروا فى الأرض ﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ أى من رزقه الذى يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح فى المعاملات والمكاسب . وقيل : المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات واجتناب ما لا يحل ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ أى ذكرا كثيرا بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروى والدنيوى ، وكذا اذكروه بما

(١) القرطبى ٩ / ٦٥٨٠ .

يقربكم إليه من الأذكار، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى كى تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به .

﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما** ﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة، فأقبلت عير من الشام والنبى ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد [(١)]، ومعنى ﴿ **انفضوا إليها** ﴾ : تفرقوا خارجين إليها . وقال المبرد : مالوا إليها ، والضمير للتجارة، وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهم عندهم . وقيل : التقدير : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

وقيل : إنه اقتصر على ضمير التجارة ؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموما مع الحاجة إليها فكيف بالانفضاض إلى اللهو . وقيل غير ذلك ﴿ **وتركوك قائما** ﴾ أى على المنبر ، ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا فقال : ﴿ **قل ما عند الله** ﴾ يعنى: من الجزاء العظيم وهو الجنة ﴿ **خير من اللهو ومن التجارة** ﴾ اللذين ذهبتم إليهما وتركتم البقاء فى المسجد ، وسماع خطبة النبى ﷺ لأجلها ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾ فمنه اطلبوا الرزق وإليه توسلوا بعمل الطاعة ، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قلت : يا رسول الله ، لأى شىء سمى يوم الجمعة ؟ قال: « لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفى آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له » . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن سلمان قال : قال لى رسول الله ﷺ : « أتدرى ما يوم الجمعة ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاث مرات ثم قال فى الثالثة : « هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم ، أفلا أحدثكم عن يوم الجمعة ؟» الحديث[(٢)] . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة» [(٣)]. وفى الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٩) ومسلم فى الجمعة (٨٦٣/٣٦ ــ ٣٨) كلاهما عن جابر بن عبد الله .

(٢) أحمد ٥/ ٤٣٩ والنسائى ٣/ ١١٤ وصححه الحاكم ١/ ٢٧٧ ووافقه الذهبى والطبرانى (٦٠٨٩ ــ ٦٠٩٢) وإسناده حسن وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٧٧ : « رجاله ثقات » .

(٣) أحمد ٢/ ٤٠١ ، ٤٨٦ ، ٥٠٤ ، ٥٤٠ ومسلم فى الجمعة (٨٥٤/ ١٨ ، ١٩) والترمذى فى الصلاة (٤٨٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وورد فى فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك فى فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفى الساعة التى فيها ، وأنه يستجاب الدعاء فيها ، وقد أوضحت ذلك فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره [١] .

وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف عن خرشة بن الحر قال : رأى معى عمر بن الخطاب لوحا مكتوبا فيه : ﴿ **إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت : أبى ابن كعب ، قال : إن أبيا أقرأنا للمنسوخ ، اقرأها : «فامضوا إلى ذكر الله » [٢] . وروى هؤلاء ماعدا أبا عبيد عن ابن عمر قال : لقد توفى رسول الله ﷺ وما نقرأ هذه الآية التى فى سورة الجمعة إلا : « فامضوا إلى ذكر الله » . وأخرجه عنه أيضا الشافعى فى الأم ، وعبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم [٣]. وأخرجوا كلهم أيضا عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « فامضوا إلى ذكر الله » قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى[٤] . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ قال : فامضوا . وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعى : العمل . وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب : أن رجلين من أصحاب النبى ﷺ كانا يختلفان فى تجارتهما إلى الشام فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فيدعونه ويقومون، فنزلت الآية : ﴿ **وذروا البيع** ﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ قال : « ليس لطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ فى الله » [٥]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : لم تؤمروا بشىء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها** ﴾ إلى آخر السورة [٦] . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال : جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام ، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشترى ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية ، وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر ، وبقى فى المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة ، فقال رسول الله ﷺ : « لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا » . وفى الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم .

---

(١) نيل الأوطار ٣/ ٢٦٩ وما بعدها .
(٢) ابن أبى شيبة ٢/ ١٥٧ .
(٣) الشافعى فى الأم ١/ ١٩٦ وابن جرير ٢٨/ ٦٥ .
(٤) ابن جرير ٢٨/ ٦٥ .
(٥) ابن جرير ٢٨/ ٦٧ .
(٦) البخارى فى التفسير (٤٨٩٩) ومسلم فى الجمعة (٨٦٣/ ٣٦ ــ ٣٨) والترمذى فى التفسير (٣٣١١) وقال : « حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦١٣) .

تفسير سورة « المنافقون »

هى إحدى عشرة آية . وهى مدنية ، قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المنافقين بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج سعيد بن منصور ، والطبرانى فى الأوسط ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن أبى هريرة قال : كان رسول اللّه ﷺ يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرّض بها على المؤمنين . وفى الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين [٢] . وأخرج البزار والطبرانى عن أبى عنبة الخولانى مرفوعا نحوه [٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ إذا جاءك المنافقون﴾ أى إذا وصلوا إليك وحضروا مجلسك ، وجواب الشرط : ﴿قالوا ﴾ وقيل : محذوف ، و﴿ قالوا ﴾ حال ، والتقدير: جاؤوك قائلين :كيت وكيت فلا تقبل منهم ، وقيل : الجواب ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ وهو بعيد ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول اللّه ﴾

(١) القرطبى ٩ / ٦٥٩٩ .

(٢) السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٢٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١٩٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن ، ومحمد بن عمار هو الوازعى وهو وشيخه عبد الصمد من أهل الرأى وثقهما ابن حبان » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١٩٤ : « رواه البزار والطبرانى فى الكبير وفيه زيادة ، وفيه أبو مهدى سعيد بن سنان وهو ضعيف » .

أكدوا شهادتهم بإنّ واللام ؛ للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم ، والمراد بالمنافقين : عبد اللّه بن أبى وأصحابه ، ومعنى ﴿ نشهد﴾ : نحلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، ومن هذا قول قيس بن ذَريح :

وأشهد عند الله أنى أحبها فهذا لها عندى فما عندها ليا

ومثل نشهد نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم ، كما فى قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتينّ منيتى إن المنايا لا تطيش سهامها

وجمْلة : ﴿ **والله يعلم إنك لرسوله** ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة ، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد ، لا إلى منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حقّ ، والمعنى : والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد، وطمأنينة قلب ، وموافقة باطن لظاهر. ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة** ﴾ أى جعلوا حلفهم الذى حلفوا لكم به إنهم لمنكم وإن محمداً لرسول اللّه وقاية تقيهم منكم وسترة يستترون بها من القتل والأسر ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، وقد تقدّم قول من قال : إنها جواب الشرط ، قرأ الجمهور:﴿ **أيمانهم** ﴾ بفتح الهمزة ، وقرأ الحسن بكسرها ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة المجادلة ، ﴿**فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح فى النبوة ، هذا معنى الصدّ الذى بمعنى الصرف ، ويجوز أن يكون من الصدود، أى أعرضوا عن الدخول فى سبيل اللّه وإقامة أحكامه ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ من النفاق والصدّ ، وفى ساء معنى التعجب . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الكذب والصد وقبح الأعمال ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **بأنهم آمنوا** ﴾ أى بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقا ﴿ **ثم كفروا** ﴾ فى الباطن ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين ، وهذا صريح فى كفر المنافقين . وقيل : نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدوا ، والأول أولى كما يفيده السياق . ﴿**فطبع على قلوبهم** ﴾ أى ختم عليها بسبب كفرهم ، قرأ الجمهور: ﴿ **فطبع** ﴾ على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده ، وقرأ زيد ابن علىّ على البناء للفاعل ، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، ويدل على هذا قراءة الأعمش : « فطبع الله على قلوبهم » . ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ ما فيه من صلاحهم ورشادهم وهو الإيمان .﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ أى هيئاتهم ومناظرهم ، يعنى : أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ﴿ **وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وقد كان عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين فصيحًا جسيمًا جميلاً ،وكان يحضر مجلس النبى ﷺ ، فإذا قال سمع النبىّ ﷺ مقالته ، قال الكلبى: المراد: عبد الله بن أبىّ ، وجدّ بن قيس ، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة ،

والخطاب للنبى ﷺ . وقيل : لكلّ من يصلح له ، ويدلّ عليه قراءة من قرأ : « يسمع » على البناء للمفعول ، وجملة : ﴿ **كأنهم خشب مسندة** ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائى وتروق الناظر ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لا تفهم ولا تعلم ، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع والعلم الذى ينتفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم فى ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب .قرأ الجمهور :﴿ **خشب** ﴾ بضمتين ،وقرأ أبو عمرو والكسائى وقنبل بإسكان الشين ، وبها قرأ البراء بن عازب ، واختارها أبو عبيد ؛ لأن واحدتها خشبة ،كبدنة وبدن ، واختار القراءة الأولى أبوحاتم ، وقرأ سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب بفتحتين،ومعنى ﴿ **مسندة** ﴾ : أنها أسندت إلى غيرها ، من قولهم : أسندت كذا إلى كذا ، والتشديد للتكثير . ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال : ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم** ﴾ أى يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفى المفعول الثانى للحسبان وجهان : أحدهما : أنه عليهم ، ويكون قوله : ﴿ **هم العدو** ﴾:جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون ، والوجه الثانى: أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله: ﴿ **هم العدوّ** ﴾ ويكون قوله: ﴿ **عليهم** ﴾ متعلقا بـ ﴿ **صيحة** ﴾ ، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدو ، والوجه الأول أولى ، قال مقاتل والسدىّ : أى إذا نادى مناد فى العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون لما فى قلوبهم من الرعب ، ومن هذا قول الشاعر :

مازلت تحسب كلّ شىء بعدهم ... خيلا تكر عليهم ورجالا

وقيل : كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم .ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال:﴿**فاحذرهم**﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك أو يطلعوا على شىء من أسرارك؛لأنهم عيون لأعدائك من الكفار.ثم دعا عليهم بقوله:﴿ **قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ أى لعنهم الله،وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا . بل المراد : ذمهم وتوبيخهم،وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته ــ عزّ وجلّ ــ أن يلعنهم ويخزيهم ،أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك ، ومعنى ﴿**أنى يؤفكون** ﴾:كيف يصرفون عن الحق ويميلون عنه إلى الكفر، قال قتادة : معناه : يعدلون عن الحق ، وقال الحسن :معناه: يصرفون عن الرشد.

﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله** ﴾ أى إذا قال لهم القائل من المؤمنين : قد نزل فيكم ما نزل من القرآن فتوبوا إلى الله ورسوله وتعالوا يستغفر لكم رسول الله﴿ **لوّوا رؤوسهم** ﴾ أى حركوها استهزاء بذلك، قال مقاتل:عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار، قرأ الجمهور:﴿ **لوّوا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ نافع بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ﴿**ورأيتهم**

يصدّون ﴾ أى يعرضون عن قول من قال لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه ، أو يعرضون عن رسول اللّه ﷺ ، وجملة :﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى ، وهم يصدّون ؛ لأن الرؤية بصرية فـ ﴿ **يصدون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى: ورأيتهم صادّين مستكبرين ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم** ﴾ أى الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر، قرأ الجمهور : ﴿**أستغفرت** ﴾ بهمزة مفتوحة من غير مدّ ، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة « أم » عليها ،وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف ﴿ **لن يغفر الله لهم** ﴾أى ما داموا على النفاق ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى الكاملين فى الخروج عن الطاعة والانهماك فى معاصى اللّه ، ويدخل فيهم المنافقون دخولا أوّليا .ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال :﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا** ﴾ أى حتى يتفرّقوا عنه : يعنون بذلك فقراء المهاجرين ، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم ، أو لعدم مغفرة الله لهم . قرأ الجمهور:﴿ **ينفضوا** ﴾ من الانفضاض ،وهوالتفرق،وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشى:« ينفضوا » من أنفض القوم : إذا فنيت أزوادهم ، يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ . ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال : ﴿ **ولله خزائن السموات والأرض** ﴾ أى إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ما شاء ويمنع من شاء ما شاء ﴿ **ولكنّ المنافقين لا يفقهون** ﴾ ذلك ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد اللّه ـ عزّ وجلّ ـ وأنه الباسط القابض المعطى المانع .

ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل** ﴾ القائل لهذه المقالة : هو عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، وعنى بالأعز : نفسه ومن معه ، وبالأذلّ : رسول اللّه ﷺ ومن معه ، ومراده بالرجوع :رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم ،وهو عبد اللّه بن أبىّ ؛ لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله ، سامعون له مطيعون . ثم ردّ الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ أى القوّة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لا لغيرهم . اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزّة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين ﴿**ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضرّ فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم والطبع على قلوبهم .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن زيد بن أرقم قال :خرجنا مع رسول اللّه ﷺ فى سفر فأصاب الناس شدّة، فقال عبد اللّه بن أبىّ لأصحابه : ﴿ **لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا** ﴾ من حوله ، وقال :﴿ **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ**﴾ فأتيت النبىّ ﷺ فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد اللّه بن أبىّ فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا :

كذب زيد رسول اللّه ، فوقع فى نفسى مما قالوا شدّة حتى أنزل الله تصديقى فى ﴿ **إذا جاءك المنافقون**﴾ فدعاهم النبىّ ﷺ ليستغفر لهم فلوّوا رؤوسهم ، وهو قوله : ﴿ **كأنهم خشب مسندة**﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شىء [(١)] . وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه، وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما سماهم الله منافقين ؛ لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان .وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة** ﴾ قال : حلفهم باللّه إنهم لمنكم اجتنبوا بأيمانهم من القتل والحرب .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**كأنهم خشب مسندة** ﴾ قال :نخل قيام.وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عنه أيضا ، قال:نزلت هذه الآية:﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا** ﴾ فى عسيف لعمر بن الخطاب.وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم وابن مسعود أنهما قرآ:« لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا من حوله».

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبىّ ﷺ فى غزاة . قال سفيان : يرون أنها غزوة بنى المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال المهاجرىّ : يا للمهاجرين ، وقال الأنصارىّ:ياللأنصار، فسمع ذلك النبىّ ﷺ فقال : « ما بال دعوة الجاهلية ؟ » قالوا : رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار ، فقال النبىّ ﷺ : « دعوها فإنها منتنة » فسمع ذلك عبد اللّه بن أبىّ ، فقال : أو قد فعلوها ، واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منه الأذلّ ، فبلغ ذلك النبىّ ﷺ ، فقام عمر فقال : يا رسول اللّه ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبىّ ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » زاد الترمذى : فقال له ابنه عبد اللّه : واللّه لا تنفلت حتى تقرّ أنك الذليل ، ورسول الله العزيز ، ففعل [(٣)] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٠٠ ــ ٤٩٠٤) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٢ / ١) والنسائى فى التفسير (٦١٨) .

(٢) ابن سعد فى الطبقات ٢ / ٦٥ والترمذى فى التفسير (٣٣١٢) وقال : « حسن صحيح » والطبرانى (٥٠٥٠) ، وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ وقال : « قد اتفق الشيخان على إخراج أحرف يسيرة من هذا الحديث من حديث أبى إسحاق السبيعى عن زيد بن أرقم » ووافقه الذهبى وقال : « وأخرجاه منه » والبيهقى ٨ / ١٩٨ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٠٥ ، ٤٩٠٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٤ / ٦٣) والترمذى فى التفسير (٣٣١٥) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٨١٣) وفى التفسير (٦١٩) .

رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغبا لهم فى ذكره فقال : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله**﴾ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ،ومعنى ﴿ **لا تلهكم** ﴾:لا تشغلكم ، والمراد بالذكر: فرائض الإسلام ، قاله الحسن ، وقال الضحاك : الصلوات الخمس . وقيل : قراءة القرآن . وقيل : هو خطاب للمنافقين ، ووصفهم بالإيمان ؛ لكونهم آمنوا ظاهرا ، والأول أولى . ﴿**ومن يفعل ذلك** ﴾ أى يلتهى بالدنيا عن الدين ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون فى الخسران. ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق فى الخير على عمومه ، و« من » للتبعيض ، أى أنفقوا بعض ما رزقناكم فى سبيل الخير . وقيل : المراد: الزكاة المفروضة ﴿ **من قبل أن يأتى أحدكم الموت** ﴾ بأن تنزل به أسبابه ويشاهد حضور علاماته ، وقدم المفعول على الفاعل للاهتمام ﴿ **فيقول ربّ لولا أخرتنى إلى أجل قريب** ﴾ أى يقول عند نزول ما نزل به منـاديا لربه : هلا أمهلتنـى وأخرت موتى إلى أجل قريب ، أى أمد قصير ﴿ **فأصّدق** ﴾ أى فأتصدّق بمالى ﴿ **وأكن من الصالحين** ﴾ قرأ الجمهور:﴿**فأصّدق**﴾ بإدغام التاء فى الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمنى . وقيل : إن « لا » فى ﴿ **لولا** ﴾ زائدة ، والأصل : لو أخرتنى . وقرأ أبىّ وابن مسعود وسعيد بن جبير: « فأتصدّق » بدون إدغام على الأصل ، وقرأ الجمهور : ﴿**وأكن**﴾ بالجزم على محل ﴿ **فأصدّق** ﴾، كأنه قيل : إن أخرتنى أتصدّق وأكن . قال الزجاج : معناه : هلا أخرتنى ؟ وجزم ﴿ **أكن** ﴾ على موضع ﴿ **فأصدق** ﴾؛ لأنه على معنى : إن أخرتنى ﴿ **فأصدّق** ﴾ وأكن ، وكذا قال أبو علىّ الفارسى وابن عطية وغيرهم ، وقال سيبويه حاكيا عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الذى يدّل عليه التمنى ، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ... ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

فخفض ولا سابق عطفا على مدرك الذى هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن ومجاهد : « وأكون » بالنصب عطفا على ﴿ **فأصدّق** ﴾ ، ووجهها واضح ، ولكن قال أبو عبيد : رأيت فى مصحف عثمان : ﴿**وأكن**﴾ بغير واو ، وقرأ عبيد ابن عمير: « وأكون » بالرفع على الاستئناف ، أى وأنا أكون . قال الضحاك : لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤدّ زكاة إلا سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية. ثم أجاب الله سبحانه عن هذا المتمنى فقال : ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلهـا** ﴾ أى إذا جاء أجلهـا وانقضـى عمرها ﴿**والله خبير بما تعملون** ﴾ لا يخفى عليه شىء فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور : ﴿**تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ أبو بكر عن عاصم والسلمى بالتحتية على الخبر .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم** ﴾ الآية قال : « هم عباد من أمتى الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وعن الصلوات الخمس المفروضة » . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من كان له مال يبلغه حج بيت الله ، أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت » ، فقال رجل :يا بن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكافر ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا: ﴿**يأيها الذين آمنوا**﴾ إلى آخر السورة [١] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **فأصدّق وأكن من الصالحين** ﴾ قال: أحج .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣١٦) وابن جرير ٢٨ / ٧٧ ولكنه من قول ابن عباس وليس من قول الرسول ﷺ ، والطبرانى (١٢٦٣٥ ، ١٢٦٣٦) وقال ابن كثير ٧ / ٢٤ : « رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع » .

تفسير سورة التغابن

هي ثمان عشرة آية . وهي مدنية في قول الأكثر ، وقال الضحاك : هي مكية . وقال الكلبي : هي مدنية ومكية . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي ، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده فأنزل الله : ﴿**يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم**﴾ إلى آخر السورة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه [١] . وأخرج ابن حبان في الضعفاء، والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عمر قال : قال النبيّ ﷺ: « ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » قال ابن كثير : وهو غريب جدا بل منكر [٢] . وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أوّل سورة التغابن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ② خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ④ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑤ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑥ ﴾ .

قوله : ﴿ **يسبح لله ما في السموات و ما في الأرض** ﴾ أي ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شيء ، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ لا يعجزه شيء ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ أي فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن. قال الضحاك : فمنكم كافر في السرّ مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في السرّ كافر في العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر . وقال عطاء : فمنكم كافر بالله مؤمن

---

(١) ابن جرير ٢٨/ ٨١.

(٢) ابن كثير ٧/ ٢٦ وقال : « هو غريب جداً بل منكر ، وقال : أورده ابن عساكر في ترجمة الوليد بن صالح » .

بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب . قال الزجاج : إن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدّر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبى: وهذا أحسن الأقوال وهو الذى عليه جمهور الأمة ، وقدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم .

ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى بالحكمة البالغة ، وقيل : خلق ذلك خلقا يقينا لا ريب فيه . وقيل : الباء بمعنى اللام ، أى خلق ذلك لإظهار الحق ، وهو أن يجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ قيل المراد : آدم خلقه بيده كرامة له ، كذا قال مقاتل . وقيل : المراد: جميع الخلائق وهو الظاهر ، أى أنه سبحانه خلقهم فى أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل ، والتصوير : التخطيط والتشكيل . قرأ الجمهور : ﴿ **فأحسن صوركم** ﴾ بضمّ الصاد ، وقرأ زيد بن علىّ والأعمش وأبو زيد بكسرها ﴿ **وإليه المصير** ﴾ فى الدار الآخرة ، لا إلى غيره ﴿ **يعلم ما فى السموات والأرض** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿ **ويعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ أى ما تخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد ﴿ **والله عليم بذات الصدور** ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ، وهى تذييلية .

﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل** ﴾ وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ، والخطاب لكفار العرب ﴿ **فذاقوا وبال أمرهم** ﴾ بسبب كفرهم، والوبال :الثقل والشدّة ، والمراد بأمرهم هنا :ما وقع منهم من الكفر والمعاصى، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ وذلك فى الآخرة ، وهو عذاب النار . والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك**﴾ إلى ما ذكر من العذاب فى الدارين ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة ﴿ **فقالوا أبشر يهدوننا** ﴾ أى قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك. وأراد بالبشر الجنس ، ولهذا قال :﴿ **يهدوننا** ﴾. ﴿ **فكفروا وتولوا** ﴾ أى كفروا بالرسل وبما جاؤوا به وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاؤوا به. وقيل: كفروا بهذا القول الذى قالوه للرسل ﴿ **واستغنى الله** ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم . وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات ، وقيل : استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ﴿ **والله غنى حميد** ﴾ أى غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا مكث المنىّ فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به

إلى الــربّ فيقـول ، يــاربّ ، أذكر أم أنثى؟ فيقضى اللّه ما هو قاض ، فيقول : أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق ». وقرأ أبو ذرّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير**﴾ (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : «العبد يولد مؤمنا ، ويعيش مؤمنا ، ويموت مؤمنا ، والعبد يولد كافرا ، ويعيش كافرا ويموت كافرا ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيا ، وإن العبد يعمـل برهــة من دهــره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا » .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا** ﴾ الزعم: هو القول بالظنّ ويطلق على الكذب . قال شريح : لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا ، و﴿ **أن لن يبعثوا** ﴾ قائم مقام مفعول زعم ، و « أن » هى المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب ، والمراد بالكفار : كفار العرب ، والمعنى : زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبداً . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بأن يردّ عليهم ويبطل زعمهم فقال : ﴿**قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن** ﴾ بل هى التى لإيجاب النفى، فالمعنى : بلى تبعثون . ثم أقسم على ذلك ، وجواب القسم : ﴿ **لتبعثنّ** ﴾ أى لتخرجنّ من قبوركم ﴿ **لتنبؤن بما عملتم**﴾ أى لتخبرنّ بذلك إقامة للحجة عليكم ثم تجزون به ﴿ **ذلك** ﴾ البعث والجزاء ﴿ **على اللّه يسير**﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء ﴿**فآمنوا باللّه ورسوله**﴾ الفاء هى الفصيحة الدالة على شرط مقدرّ ، أى إذا كان الأمر هكذا فصدقوا باللّه ورسوله محمـد ﷺ ﴿ **والنـور الذى أنزلنـا** ﴾ وهو القرآن ،لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿**واللّه بما تعملون خبير** ﴾ لا يخفى عليه شىء مــن أقوالكـم وأفعالكـم فهـو مجازيكـم على ذلك . ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع** ﴾ العامـل فى الظـرف: ﴿ **لتنبؤن** ﴾ قاله النحاس . وقال غيره : العامل فيه خبير . وقيل : العامل فيه محذوف هو اذكر ، وقال أبو البقاء : العامل فيه ما دلّ

---

(١) ابن جرير ٢٨/٧٨ .

عليه الكلام : أى تتفاوتون يوم يجمعكم . قرأ الجمهور : ﴿يجمعكم﴾ بفتح الياء وضم العين، وروى عن أبى عمرو إسكانها ، ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعا له كما قرئ في: ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام : ١٠٩] بسكون الراء ، وكقول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه ولا واغل

بإسكان باء أشرب ، وقرأ زيد بن عليّ والشعبى ويعقوب ونصر وابن أبى إسحاق والجحدرى : « نجمعكم » بالنون، ومعنى ﴿ ليوم الجمع ﴾ : ليوم القيامة فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء ، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله ، وبين كل نبيّ وأمته ، وبين كل مظلوم وظالمه ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ يعنى أن يوم القيامة هو يوم التغابن ، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضا ، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر ، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولاغبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فنزلوا منازلهم التى كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ والجيد بالردىء والنعيم بالعذاب ،وأهل الجنة على العكس من ذلك، يقال : غبنت فلانا : إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون : من غبن أهله ومنازله فى الجنة ﴿ ومن يؤمن باللّه ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته ﴾ أى من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته ، قرأ الجمهور : « يكفر » و« يدخله » بالتحتية ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما ، وانتصاب ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ على أنها حالة مقدّمة ، والإشارة بقوله :﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من التكفير والإدخال ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ الفوز العظيم ﴾ أى الظفر الذى لا يساويه ظفر .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ المراد بالآيات : إما التنزيلية أو ما هو أعم منها ، ذكر سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء ها هنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه سيكون بسبب التكفير وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وبسبب إدخال الطائفة الثانية النار وخلودهم فيها . ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن اللّه ﴾ أى ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن اللّه ،أى بقضائه وقدره ، قال الفراء: إلا بإذن اللّه ، أى بأمر اللّه ، وقيل : إلا بعلم اللّه . وقيل : وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم اللّه عن المصائب فى الدنيا ﴿ ومن يؤمن باللّه يهد قلبه ﴾ أى من يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدّره اللّه عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء ، قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة فيقول : ﴿ إنا للّه وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : ١٥٦] وقال الكلبى: هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . قرأ الجمهور : ﴿ يهد ﴾ بفتح الياء وكسر الدال ، أى يهده اللّه ، وقرأ قتادة والسلمى والضحاك وأبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرّف والأعرج وسعيد بن جبير وابن

هرمز والأزرق : « نهد » بالنون ، وقرأ مالك بن دينار وعمرو بن دينار وعكرمة : «يهدأ» بهمزة ساكنة ورفع قلبه ، أى يطمئن ويسكن ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ أى بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ أى هونّوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﴿ **فإن توليتم** ﴾ أى أعرضتم عن الطاعة ﴿ **فإنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ ليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : فلا بأس على الرسول ، وجملة: ﴿ **فإنما على رسولنا** ﴾ تعليل للجواب المحذوف. ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال: ﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ أى هو المستحق للعبودية دون غيره فوحدوه ولا تشركوا به ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى يفوضوا أمورهم إليه ويعتمدوا عليه ، لا على غيره .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبيهقى وابن مردويه عن ابن مسعود ؛أنه قيل له: ما سمعت النبى ﷺ يقول فى زعموا ؟ قال : سمعته يقول : « بئس مطية الرجل » [(١)]. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه كره زعموا [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :يوم التغابن من أسماء يوم القيامة [(٣)] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ قال : غبن أهل الجنة أهل النار. وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود فى قوله :﴿ **ما أصاب من مصيبة** ﴾ قال : هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يهد قلبه** ﴾ قال : يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ يعنى: أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير، ويدخل فى ذلك سبب النزول دخولا أوّليا ، وهو أن رجالا من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم فى شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله، والضمير فى: ﴿ **فاحذروهم** ﴾

(١) ابن أبى شيبة (٥٨٤٢) وأحمد ٤/١١٩.
(٢) ابن أبى شيبة (٥٨٤٣) .
(٣) ابن جرير ٢٨/٧٩.

يعود إلى العدوّ ، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم ، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم ، وإنما جاز جمع الضمير على الوجة الأوّل ؛ لأن العدوّ يطلق على الواحد والاثنين والجماعة . ثم أرشدهم اللّه إلى التجاوز فقال : ﴿**وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا**﴾ أى تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها وتتركوا التثريب عليها وتستروها ﴿ **فإن اللّه غفور رحيم**﴾ بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم ، قيل : كان الرجل الذى ثبطه أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها وفقهوا فى الدين همّ أن يعاقب أزواجه وأولاده ، فأنزل اللّه: ﴿ **وإن تعفوا** ﴾ الآية . والآية تعمّ وإن كان السبب خاصا كما عرفناك غير مـرة . قـال مجاهد : واللّه ما عادوهم فى الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه .

ثم أخبر اللّه سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أى بلاء واختبار ومحنة يحملونكم علـى كسـب الحـرام ومنع حق اللّه فلا تطيعوهم فى معصية اللّه ﴿ **واللّه عنده أجر عظيم** ﴾ لمن آثر طاعة اللّه وترك معصيته فى محبة ماله وولده ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال : ﴿ **فاتقوا اللّه ما استطعتم** ﴾ أى ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحـانه : ﴿ اتقـوا اللّه حـق تقـاته ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ومنهم قتادة والربيع بن أنس والسدىّ وابن زيد ، وقد أوضحنا الكلام فى قوله : ﴿اتقوا اللّه حق تقاته﴾ ومعنى ﴿ **واسمعوا وأطيعوا** ﴾ أى اسمعوا ما تؤمرون به وأطيعوا الأوامر . قال مقاتل : ﴿ **اسمعوا**﴾ : أى اصغوا إلى ما ينزل عليكم وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم . وقيل : معنى ﴿ **اسمعوا** ﴾ : اقبلوا ما تسمعون لأنه لا فائدة فى مجرد السماع ﴿ **وأنفقوا خيرا لأنفسكم** ﴾ أى أنفقوا من أموالكم التى رزقكم اللّه إياها فى وجوه الخير ولا تبخلوا بها ، وقوله: ﴿ **خيرا لأنفسكم** ﴾ منتصب بفعل مضمر دلّ عليه أنفقوا ، كأنه قال: ائتوا فى الإنفاق خيرا لأنفسكم ، أو قدموا خيرا لها ، كذا قال سيبويه ،وقال الكسائى والفراء : هو نعت لمصدر محذوف ، أى إنفاقا خيرا ، وقال أبوعبيدة : هو خبر لكان المقدرة ، أى يكن الإنفاق خيرا لكم ، وقال الكوفيون : هو منتصب على الحال. وقيل: هو مفعول به لأنفقوا ، أى فأنفقوا خيرا ، والظاهر: فى الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة. وقيل : المراد : زكاة الفريضة. وقيل : النافلة . وقيل: النفقة فى الجهاد ﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى ومن يوق شحّ نفسه فيفعل ما أمر به من الإنفاق ولا يمنعه ذلك منه فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب، وقد تقدم تفسير هذه الآية .

﴿ **إن تقرضوا اللّه قرضا حسنا** ﴾ فتصرفون أموالكم فى وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿ **يـضاعفه لكم**﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية واختلاف القراءة فى قراءتها فى سورة البقرة وسورة الحديد ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أى يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿ **واللّه شكور حليم** ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة . ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى ما غاب وما حضر لا تخفى عليه

منه خافية ،وهو ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة ، وقال ابن الأنبارى : الحكيم : هو المحكم لخلق الأشياء .

وقد أخرج الفريابى ، وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال :نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم** ﴾ فى قوم أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبىّ ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول اللّه ﷺ فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم ، فنزلت إلى قوله: ﴿ **فإن اللّه غفور رحيم** ﴾[(١)].
وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبى ﷺ يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول اللّه ﷺ من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشقّ وواحدا من ذا الشقّ ، ثم صعد المنبر فقال : « صدق اللّه : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامى ونزلت إليهما » [(٢)] .
وأخرج [(٣)] الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « يقول اللّه :استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، وشتمنى عبدى وهو لا يدرى ، يقول : وادهراه وادهراه وأنا الدهر » ثم تلا أبو هريرة : ﴿ **إن تقرضوا اللّه قرضا حسناً يضاعفه لكم** ﴾ [(٤)] .

---

(١) الترمذى فى التفسير(٣٣١٧) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٢٨/ ٨٠ والطبرانى (١١٧٢٠) وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٠ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن أبى شيبة (١٢٢٣٧) وأحمد ٥/ ٣٥٤ والترمذى فى المناقب (٣٧٧٤) وقال : « حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد » والنسائى ٣/ ١٠٨ ، وابن ماجة فى اللباس (٣٦٠٠).

(٣) فى المخطوطة : « وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه » والصحيح ما أثبتناه من حذف ابن جرير كما بالدر المنثور ٦/ ٢٢٩ كما لم أعثر عليه فى مظانه بالطبرى.

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٤٩١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

تفسير سورة الطلاق

هى إحدى عشرة آية . وقيل : اثنتا عشرة . وهى مدنية ، قال القرطبى : فى قول الجميع[١] . وأخرج ابن الضريس وابن النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الطلاق بالمدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها النبىّ إذا طلقتم النساء** ﴾ نادى النبى ﷺ أوّلا تشريفا له ، ثم خاطبه مع أمته ، أو الخطاب له خاصة ، والجمع للتعظيم ، وأمته أسوته فى ذلك ، والمعنى : إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه ﴿ **فطلقوهنّ لعدَّتهنَّ** ﴾ أى مستقبلات لعدتهنّ أو فى قبل عدتهن ، أو لقبل عدتهن ، وقال الجرجانى : إن اللام فى: ﴿ **لعدتهنّ** ﴾ بمعنى فى ، أى فى عدتهن ، وقال أبو حيان : هو على حذف مضاف ، أى لاستقبال عدتهنّ ، واللام للتوقيت نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد : أن يطلقوهنّ فى طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضى عدتهن ، فإذا طلقوهن هكذا فقد طلقوهن لعدتهن ، وسيأتى بيان هذا من السنة فى آخر البحث إن شاء اللّه ، ﴿**وأحصوا العدة** ﴾ أى احفظوها واحفظوا الوقت الذى وقع فيه الطلاق ثم تتم العدة : وهى ثلاثة قروء ، والخطاب للأزواج . وقيل : للزوجات . وقيل : للمسلمين على العموم ، والأول أولى ؛ لأن الضمائر كلها لهم ﴿ **واتقوا اللّه ربكم** ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم

(١) القرطبى ١٠/٦٦٢٦ .

ولا تضاروهنّ ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن** ﴾ أى التى كن فيها عند الطلاق ما دمن فى العدّة ، وأضاف البيوت إليهن ، وهى لأزواجهن لتأكيد النهى ، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى فى مدّة العدّة ، ومثله قوله : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكنّ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] ،وقوله : ﴿وقرن فى بيوتكن ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهنّ من البيوت التى وقع الطلاق وهنّ فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضا فقال : ﴿ **ولا يخرجن** ﴾ أى لا يخرجن من تلك البيوت ما دمنّ فى العدة إلا لأمر ضرورى كما سيأتى بيان ذلك . وقيل : المراد : لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس ، والأوّل أولى ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى،أى لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ،لا من الجملة الثانية. قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا: الزنا ،وذلك أن تزنى فتخرج لإقامة الحد عليها ،وقال الشافعى وغيره :هى البذاء فى اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها فى ذلك البيت ،ويؤيد هذا ما قال عكرمة:إن فى مصحف أبىّ :« إلا أن يفحشن عليكم » وقيل: المعنى : إلا أن يخرجن تعدّيا ، فإن خروجهنّ على هذا الوجه فاحشة ، وهو بعيد .

والإشارة بقوله : ﴿ **وتلك** ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **حدود اللّه** ﴾ والمعنى : أن هذه الأحكام التى بينها لعبادهٍ هى حدوده التى حدّها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها ﴿ **ومن يتعد حدود اللّه** ﴾ أى يتجاوزها إلى غيرها أو يخلّ بشىء منها ﴿**فقد ظلم نفسه** ﴾ بإيرادها مورد الهلاك وأوقعها فى مواقع الضرر بعقوبة اللّه له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وجملة : ﴿ **لا تدرى لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا**﴾ مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليله . قال القرطبى : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا : الرغبة فى الرجعة ، والمعنى : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثا أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلا (١) .وقال مقاتل : ﴿ **بعد ذلك** ﴾ أى بعد طلقة أو طلقتين ﴿ **أمرا** ﴾ بالمراجعة . قال الواحدى : الأمر الذى يحدث أن يوقع فى قلب الرجل : المحبة لرجعتها بعد الطلقة أو الطلقتين . قال الزجاج : وإذا طلقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى لقوله :﴿ **لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرا** ﴾ .

﴿ **فإذا بلغن أجلهنّ** ﴾ أى قاربن انقضاء أجل العدة وشارفن آخرها ﴿ **فأمسكوهن بمعروف**﴾ أى راجعوهنّ بحسن معاشرة ورغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارة لهنّ ﴿ **أو فارقوهن بمعروف**﴾ أى اتركوهنّ حتى تنقضى عدتهنّ فيملكن نفوسهن مع إيفائهن بما هو لهنّ عليكم من الحقوق وترك المضارة لهن ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ على الرجعة. وقيل :على الطلاق . وقيل :عليهما، قطعا للتنازع وحسما لمادة الخصومة، والأمر للندب كما فى قوله:﴿وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وقيل : إنه للوجوب ، وإليه ذهب الشافعى قال : الإشهاد واجب فى الرجعة ، مندوب إليه فى الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل . وفى

(١) القرطبى ١٠/ ٦٦٣٥.

قول للشافعى : إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وروى نحو هذا عن أبى حنيفة وأحمد ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقربا إلى الله ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة البقرة . وقيل : الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة ، أى الشهود عند الرجعة فيكون قوله : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ أمرا بنفس الإشهاد ، ويكون قوله : ﴿ **وأقيموا الشهادة** ﴾ أمرا بأن تكون خالصة لله ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ وخص المؤمن بالله واليوم الآخر؛لأنه المنتفع بذلك دون غيره ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا**﴾ أى من يتق عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والوقوف على حدوده التى حدّها لعباده وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد والمحن .

﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ أى من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون فى حسابه ، قال الشعبى والضحاك : هذا فى الطلاق خاصة ، أى من طلق كما أمره الله يكن له مخرج فى الرجعة فى العدّة وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدّة، وقال الكلبى : ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة ، وقال الحسن : مخرجا مما نهى الله عنه ، وقال أبو العالية : مخرجا من كل شىء ضاق على الناس ، وقال الحسين بن الفضل : ومن يتق الله فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب ، أى يبارك له فيما آتاه ، وقال سهل بن عبد الله : ومن يتق الله فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة أهل البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب . وقيل غير ذلك ، وظاهر الآية العموم ، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص ويدخل ما فيه السياق دخولا أوليّا ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ أى ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين بالغ ونصب أمره، وقرأ حفص بالإضافة وقرأ ابن أبى عبلة وداود بن أبى هند وأبو عمرو فى رواية عنه بتنوين بالغ ورفع أمره على أنه فاعل بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر ، وبالغ خبر مقدم. قال الفراء فى توجيه هذه القراءة: أى أمره بالغ ،والمعنى على القراءة الأولى والثانية : أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شىء ولا يعجزه مطلوب ، وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يرده شىء. وقرأ المفضل : « بالغاء » بالنصب على الحال ويكون خبر إن قوله : ﴿ **قد جعل الله لكل شىء قدرا** ﴾ أى تقديرا وتوقيتا أو مقدارا، فقد جعل سبحانه للشدة أجلا تنتهى إليه ، وللرخاء أجلا ينتهى إليه، وقال السدى : هو قدر الحيض والعدة .

﴿ **واللائى يئسن من المحيض من نسائكم** ﴾ وهن الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن أيسن منه ﴿ **إن ارتبتم**﴾ أى شككتم وجهلتم كيف عدتهن ﴿ **فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن** ﴾ لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن المحيض ، أى فعدتهن ثلاثة أشهر ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ أى انتهاء عدتهن وضع الحمل ، وظاهر الآية : أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن . وقد تقدم الكلام فى هذا

فى سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث فى هذه الآية وفى الآية الأخرى ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا ﴾ [البقرة : ٢٣٤] وقيل : معنى ﴿ إن ارتبتم ﴾ : إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك وهو الظاهر. قال الزجاج :إن ارتبتم فى حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها . وقال مجاهد : ﴿ إن ارتبتم ﴾ يعنى : لم تعلموا عدّة الآيسة والتى لم تحض فالعدة هذه . وقيل : المعنى : إن ارتبتم فى الدم الذى يظهر منها هل هو حيض أم لا ؟ بل استحاضة فالعدّة ثلاثة أشهر ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ أى من يتقه فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره فى الدنيا والآخرة . وقال الضحاك:من يتق الله فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسرا فى الرجعة . وقال مقاتل : من يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه للطاعة ، والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام ، أى ذلك المذكور من الأحكام ﴿ أمر الله أنزله إليكم ﴾ أى حكمه الذى حكم به بين عباده وشرعه الذى شرعه لهم ومعنى ﴿أنزله إليكم﴾ : أنزله فى كتابه على رسوله وبينه لكم وفصل أحكامه وأوضح حلاله وحرامه ﴿ ومن يتق الله ﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿ يكفر عنه سيئاته﴾ التى اقترفها ؛ لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ ويعظم له أجرا ﴾ أى يعطيه من الأجر فى الآخرة أجراً عظيما وهو الجنة.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها ، فأنزل الله : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدتهنّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة وهى من أزواجك فى الجنة (١) . وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلا (٢) . وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد أبو ركانة أمّ ركانة ، ثم نكح امرأة من مزينة ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ما يغنى عنى إلا ما تغنى عنى هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ، فأخذت رسول الله ﷺ حمية عند ذلك ، فدعا رسول الله ﷺ ركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه : أترون كذا من كذا ، فقال رسول الله ﷺ لعبد يزيد :« طلقها » ففعل ، فقال لأبى ركانة :« ارتجعها »فقال :يا رسول الله ، إنى طلقتها ، قال : « قد علمت ذلك فارتجعها » ، فنزلت : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدتهنّ ﴾ قال الذهبى : إسناده واه ، والخبر خطأ ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدّة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ».

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٣٣٦: « رواه البزار وأبو يعلى ورجال أبى يعلى رجال الصحيح » .
(٢) ابن جرير ٢٨/ ٨٥ .
(٣) الحاكم ٢/ ٤٩١ وقال : «صحيح » وخالفه الذهبى فى ذلك .

وقرأ النبى ﷺ : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ فى قبل عدتهنّ » (١) .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ : «فطلقوهنّ فى قبل عدتهنّ » (٢) . وأخرج بن الأنبارى عن ابن عمر أنه قرأ : « فطلقوهن لقبل عدتهنّ » . وأخرج ابن الأنبارى وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله ، فليطلقها طاهرا فى غير جماع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿فطلقوهنّ لعدتهنّ ﴾ قال : طاهرا من غير جماع، وفى الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود : ﴿ وأحصوا العدّة ﴾ قال : الطلاق طاهراً فى غير جماع .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هى الفاحشة المبينة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : الفاحشة المبينة : أن تبدو المرأة على أهل الرجل ، فإن بدت عليهم بلسانها فقد حلّ لهم إخراجها . وأخرج ابن أبى حاتم عن فاطمة بنت قيس فى قوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ قالت : هى الرجعة . وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين ، أن رجلا سأل عمران بن حصين أن رجلا طلق ولم يشهد ، قال: بئس ما صنع ، طلق فى بدعة ،وارتجع فى غير سنة ، فيشهد على طلاقه وعلى مراجعته ويستغفر الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ قال : مخرجه : أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذى يعطيه وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه ، وفى قوله : ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : من حيث لا يدرى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ قال : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة . وأخرج الحاكم وصححه ، وضعفه الذهبى من طريق سالم بن أبى الجعد عن جابر قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ فى رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال،فأتى رسول الله ﷺ ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٠٨) ومسلم فى الطلاق (١٤٧١/ ١٤) وأبو داود فى الطلاق (٢١٨٥) والنسائى فى التفسير (٦٢١) .

(٢) عبد الرزاق فى المصنف (١٠٩٣١) والحاكم ٢/ ٢٥٠ وقد أخرجه مسلم بأطول من هذا ووافقه الذهبى .

فقال : « اتق اللّه واصبر » فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدوّ أصابوه ، فأتى رسول اللّه ﷺ ، فسأله عنها وأخبره خبرها ، فقال : كلها ، فنزلت : ﴿ ومن يتق اللّه﴾ الآية (١). وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه ، إن ابنى أسره العدو وجزعت أمه ، فما تأمرنى ؟ قال : « آمرك وإياها أن تستكثر من قول : لا حول ولا قوّة إلا باللّه » ، فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلا يكثران منها ، فتغفل عنه العدوّ ، فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فنزلت: ﴿ ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ﴾ الآية. وفى الباب روايات تشهد لهذا. وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية قال: يكفيه همّ الدنيا وغمها. وأخرج أحمد وصححه ، وابن مردويه، وأبو نعيم فى المعرفة ، والبيهقى عن أبى ذرّ قال: جعل رسول اللّه ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ فجعل يرددّها حتى نعست، ثم قال: « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » وفى الباب أحاديث (٢).

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه ﴾ قال: ليس المتوكل الذى يقول: تقضى حاجتى . وليس كل من يتوكل على اللّه كفاه ما أهمه ودفع عنه ما يكره وقضى حاجته ، ولكن اللّه جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، وفى قوله : ﴿ إن اللّه بالغ أمره ﴾ قال : يقول: قاضى أمره على من توكل وعلى من لم يتوكل ، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا . وفى قوله : ﴿قد جعل اللّه لكلّ شىء قدرا ﴾ قال : يعنى : أجلا ومنتهى ينتهى إليه . وأخرج ابن المبارك والطيالسى وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى ، والنسائى وابن ماجة وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لو أنكم توكلتم على اللّه حقّ توكله لرزقكم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » (٣) .

وأخرج إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبىّ بن كعب ؛ أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية فى البقرة فى عدة النساء قالوا : لقد بقى من عدة النساء عدد لم يذكر فى القرآن الصغار والكبار اللاتى قد انقطع حيضهنّ وذوات الحمل ، فأنزل اللّه: ﴿ واللائى يئسن من المحيض ﴾ الآية (٤) . وأخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند ، وأبو يعلى ، والضياء فى المختارة ،

---

(١) صححه الحاكم ٢/٤٩٣ وقال الذهبى : « بل منكر وعباد رافضى جبل ، وعبيد متروك قاله الأزدى » .

(٢) أحمد ٥/١٧٨ والنسائى فى التفسير (٦٢٣) وهو ضعيف وابن ماجة فى الزهد (٤٢٢٠) وفى الزوائد : «هذا حديث رجاله ثقات غير أنه منقطع وأبو السليل لم يدرك أبا ذر قاله فى التهذيب » .

(٣) ابن المبارك فى الزهد (٥٥٩) والطيالسى (٥٢) وأحمد ١/ ٣٠ والترمذى فى الزهد (٢٣٤٤) وقال : « حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو تميم الجيشانى اسمه عبد اللّه بن مالك » وابن ماجة فى الزهد (٤١٦٤) وأبو يعلى ١/٢١٢ وصححه الحاكم ٢/٤١٨ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١١٣٩) .

(٤) ابن جرير ٢٨/٩١ وصححه الحاكم ٢/٤٩٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٤١٤ .

وابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : قلت للنبىّ ﷺ: ﴿ **وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ** ﴾ أهى المطلقة ثلاثا، أو المتوفى عنها ؟ قال : « هى المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » (١) . وأخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والدارقطنى من وجه آخر (٢). وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود ؛ أنه بلغه أن عليا قال : تعتدّ آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته إن الآية التى فى سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة البقرة : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهنّ** ﴾ بكذا وكذا أشهرا ، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها ، وروى نحو هذا عنه من طرق وبعضها فى صحيح البخارى . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أم سلمة : أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول اللّه ﷺ (٣) . وفى الباب أحاديث .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **أسكنوهنّ من حيث سكنتم** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى ، و« من » للتبعيض ، أى بعض مكان سكناكم . وقيل : زائدة ﴿ **من وجدكم** ﴾ أى من سعتكم وطاقتكم ، والوجد : القدرة . قال الفراء : يقول : على ما يجد ، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإن كان فقيرا فعلى قدر ذلك . قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه .

وقد اختلف أهل العلم فى المطلقة ثلاثا ، هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟ فذهب مالك والشافعى : أن لها السكنى ولا نفقة لها . وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة ، وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور: أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق ، وقد قررته فى شرحى المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره (٤) .

---

(١) قال ابن كثير ٧/ ٤٢ : « أخرج عبد اللّه بن أحمد وذكر الرواية » ثم قال : « هذا حديث غريب جداً بل منكر لأن فى إسناده المثنى بن الصباح وهو متروك الحديث » .

(٢) ابن جرير ٢٨/ ٩١ والدارقطنى فى الطلاق ٣/ ٣٩ (١١١) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٠٩) وفى الطلاق (٥٣١٨) ومسلم فى الطلاق (١٤٨٥/ ٥٧) والترمذى فى الطلاق (١١٩٤) وقال : « حسن صحيح» والنسائى ٦/ ١٩٢ وفى التفسير أيضاً (٦٢٦) .

(٤) نيل الأوطار ٦ / ٣٠٥ .

﴿ ولا تـضارّوهن لتـضيقوا عليهنّ ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهنّ بالتضييق عليهنّ فى المسكن والنفقة . وقال مجاهد: فى المسكن . وقال مقاتل : فى النفقة ، وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها ، فإذا بقى يومان من عدتها راجعها ، ثم طلقها **﴿ وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يـضعن حملهنّ ﴾** أى إلى غاية هى وضعهنّ للحمل ، ولا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة ، والسكنى للحامل المطلقة ، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال علىّ وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعى والشعبى وحماد وابن أبى ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع . وقال ابن عباس ، وابن الزبير ، وجابر بن عبد اللّه ، ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه : لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وهذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة **﴿ فإن أرضعن لكم ﴾** أولادكم بعد ذلك **﴿ فآتوهن أجورهنّ ﴾** أى أجور إرضاعهنّ ، والمعنى : أن المطلـقات إذا أرضـعن أولاد الأزواج المطلـقين لهـنّ منـهنّ فلـهنّ أجـورهنّ عـلى ذلك **﴿وأتمروا بينكم بمعروف ﴾** هو خطاب للأزواج والزوجات ، أى تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل ، وأصل معناه : ليأمر بعضكم بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم . قال مقاتل : المعنى: ليتراض الأب والأم على أجر مسمى. قيل: والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها : ألاّ تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر**﴿ وإن تعاسرتم ﴾** أى فى أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطى الأمّ الأجر وأبت الأمّ أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر **﴿فسترضع له أخرى ﴾** أى يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة ،ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك : إن أبت الأمّ أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر .

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم **﴿ومن قدر عليه رزقه ﴾** أى كان رزقه بمقدار القوت ، أو مضيق ليس بموسع **﴿فلينفـق مما آتاه اللّه ﴾** أى مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك **﴿ لا يكلف اللّه نفسا إلا ما آتاها ﴾** أى ما أعطاها من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس فى وسعه ، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه اللّه من الرزق **﴿ سيجعل اللّه بعد عسر يسرا ﴾** أى بعد ضيق وشدّة سعة وغنى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : **﴿ من وجدكم ﴾** قال : من سعتكم **﴿ ولا تـضارّوهنّ لتـضيقوا عليهنّ﴾** قال : فى المسكن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : **﴿ وإن كن أولات حمل ﴾** الآية ، قال : فهذه فى المرأة يطلقها زوجها وهى حامل ، فأمره اللّه أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع وإن أرضعت حتى تفطم ، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضى عدّتها ولا نفقة لها . وأخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال : سأل

عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها . فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية : ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ .

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام ، حذر من مخالفتها ، وذكر عتوّ قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه فقال : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله** ﴾يعنى: عصت ، والمراد : أهلها ، والمعنى : وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله ، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين ﴿ **عتت** ﴾ معنى أعرضت ، وقد قدمنا الكلام فى ﴿ **كأين** ﴾ فى سورة آل عمران وغيرها ﴿ **فحاسبناها حسابا شديدا** ﴾ أى شددنا على أهلها فى الحساب بما عملوا. قال مقاتل : حاسبها الله بعملها فى الدنيا فجازاها بالعذاب وهو معنى قوله :﴿ **وعذبناها عذابا نكرا**﴾ أى عذبنا أهلها عذابا عظيما منكرا فى الآخرة. وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى عذبنا أهلها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ ، وحاسبناهم فى الآخرة حسابا شديدا ، والنكر : المنكر .﴿ **فذاقت وبال أمرها** ﴾ أى عاقبة كفرها ﴿ **وكان عاقبة أمرها خسرا** ﴾ أى هلاكا فى الدنيا وعذابا فى الآخرة .

﴿ **أعدّ الله لهم عذابا شديدا** ﴾ فى الآخرة ، وهو عذاب النار ، والتكرير للتأكيد ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب**﴾ أى يا أولى العقول الراجحة ، وقوله : ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ فى محل نصب بتقدير ، أعنى : بيانا للمنادى بقوله : ﴿ **يا أولى الألباب** ﴾ أو عطف بيان له ، أو نعت ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا** ﴾ قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل ، أى أنزل إليكم قرآنا وأرسل إليكم رسولا ، وقال أبو علىّ الفارسى : إن رسولا منصوب بالمصدر، وهو ذكرا ؛ لأن المصدر المنوّن يعمل . والمعنى: أنزل إليكم ذكر الرسول . وقيل : إن ﴿**رسولا** ﴾ بدل من ﴿**ذكرا**﴾ وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة . وقيل : إنه بدل منه على حذف

مضاف من الأوّل تقديره : أنزل ذا ذكر رسولا ، أو صاحب ذكر رسولا . وقيل : إن رسولا نعت على حذف مضاف ، أى ذكرا ذا رسول ، فذا رسول نعت للذكر . وقيل: إن رسولا بمعنى رسالة ، فيكون رسولا بدلا صريحا من غير تأويل، أو بيانا. وقيل : إن ﴿**رسولا**﴾ منتصب على الإغراء، كأنه قال :الزموا رسولا . وقيل : إن الذكر ها هنا بمعنى الشرف كقوله: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء: ١٠] وقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف : ٤٤] ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿**رسولا**﴾ وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا: محمد ﷺ ، وقال الكلبى: هو جبريل ، والمراد بالذكر: القرآن، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لا يخفى ، ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله : ﴿**يتلو عليكم آيات اللّه مبينات** ﴾ أى حال كونها مبينات ، قرأ الجمهور : ﴿ **مبينات** ﴾ على صيغة اسم المفعول ، أى بينها اللّه وأوضحها . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى على صيغة اسم الفاعل ، أى الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام ، ورجح القراءة الأولى أبوحاتم وأبو عبيد لقوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ [آل عمران : ١١٨] ﴿ **ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور** ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿ **يتلو** ﴾ أى ليخرج الرسول الذى يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ويجوز أن تتعلق اللام بأنزل ، فيكون المخرج هو اللّه سبحانه ﴿ **ومن يؤمن باللّه ويعمل صالحا** ﴾ أى يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه اللّه عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿**ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يدخله** ﴾ بالتحتية، وقرأ نافع وابن عامر بالنون . وجمع الضمير فى : ﴿ **خالدين فيها أبدا** ﴾ باعتبار معنى من، ووحده فى﴿ **يدخله** ﴾ باعتبار لفظها، وجملة: ﴿ **قد أحسن اللّه له رزقا** ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى خالدين على التداخل ، أو من مفعول يدخله على الترادف ، ومعنى : ﴿ **قد أحسن اللّه له رزقا** ﴾ أى وسع له رزقه فى الجنة .

﴿ **اللّه الذى خلق سبع سموات** ﴾ الاسم الشريف مبتدأ وخبره الموصول مع صلته ﴿ **ومن الأرض مثلهنّ** ﴾ أى وخلق من الأرض مثلهنّ يعنى : سبعا .

واختلف فى كيفية طبقات الأرض . قال القرطبى فى تفسيره : واختلف فيهنّ على قولين : أحدهما وهو قول الجمهور : إنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق اللّه. وقال الضحاك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات ، والأوّل أصح ؛ لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذى والنسائى وغيرهما ، وقد مضى ذلك مبينا فى البقرة [(١)] ، قال : وفى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال :سمعت النبىّ ﷺ يقول :« من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين » إلى آخر كلامه [(٢)] ، وسيأتى فى آخر البحث ما يقوّى

(١) القرطبى ١٠/ ٦٦٥٤.

(٢) مسلم فى المساقاة (١٦١٠/ ١٣٧) .

قول الجمهور .

قرأ الجمهور : ﴿ مثلهنّ ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ سبع سموات ﴾ أو على تقدير فعل ، أى وخلق من الأرض مثلهنّ. وقرأ عاصم فى رواية عنه بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره ﴿ يتنزل الأمر بينهنّ ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها ، والأمر: الوحى . قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين . وقال الحسن : بين كل سماء وبين الأرض . وقال قتادة : فى كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه . وقيل : بينهنّ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أدناها ،وبين السماء السابعة التى هى أعلاها . وقيل:هو ما يدبر فيهنّ من عجيب تدبيره ، فينزل المطر ويخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال . قال ابن كيسان : وهذا هو مجال اللغة واتساعها كما يقال للموت : أمر اللّه وللريح والسحاب ونحوها . قرأ الجمهور : ﴿يتنزل الأمر﴾ من التنزل ورفع الأمر على الفاعلية، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه : «ينزل » من الإنزال ، ونصب الأمر على المفعولية والفاعل اللّه سبحانه ، واللام فى : ﴿ لتعلموا أن اللّه على كلّ شىء قدير ﴾ متعلق بـ﴿خلق ﴾ أو بـ﴿ يتنزل ﴾ أو بمقدّر ، أى فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته وإحاطته بالأشياء ، وهو معنى ﴿ وأن اللّه قد أحاط بكلّ شىء علما ﴾ فلا يخرج عن علمه شىء منها كائنا ما كان ، وانتصاب ﴿ علما ﴾ على المصدرية ، لأن ﴿ أحاط ﴾ بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف ، أى أحاط إحاطة علما ، ويجوز أن يكون تمييزاً .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فحاسبناها حسابا شديدا ﴾ يقول : لم ترحم ﴿وعذبناها عذابا نكرا ﴾ يقول : عظيما منكرا . وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ قد أنزل اللّه إليكم ذكرا . رسولا﴾ قال : محمدا ﷺ . وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل : ﴿ اللّه الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر ؟ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم و الحاكم وصححه و البيهقى فى الشعب من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ومن الأرض مثلهنّ ﴾ قال : سبع أرضين فى كلّ أرض نبىّ كنبيكم ،وآدم كآدم و نوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى. قال البيهقى: هذا إسناده صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا (١) . وأخرج ابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول اللّه : « إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء،والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك ، والثانية مسجن الريح، فإذا أراد اللّه أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا ،فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ؟ فقال

(١) ابن جرير ٢٨/ ٩٩ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٣ ووافقه الذهبى .

له الجبار : إذن تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهى التى قال اللّه فى كتابه : ﴿ ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ [الذاريات : ٤٢] والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم » ، فقالوا :يا رسول اللّه، للنار كبريت ؟ قال : « نعم، والذى نفسى بيده ، إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت » إلى آخر الحديث . قال الذهبى متعقبا للحاكم : هو حديث منكر (١) . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التى فيها العرش ، وسيد الأرضين الأرض التى نحن فيها .

(١) صححه الحاكم ٤/ ٥٩٤ وقال : « تفرد به أبو السمح عن عيسى بن هلال وقد ذكرت فيما تقدم عدالته بنص الإمام يحيى بن معين رضى اللّه عنه» وقال الذهبى : « بل منكر، وعبد اللّه بن عباس القتبانى ضعفه أبو داود ، وعند مسلم أنه ثقة ، ودراج كثير المناكير » .

تفسير سورة التحريم

هى اثنتا عشرة آية. وهى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع، وتسمى سورة النبىّ [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه:عن ابن عباس قال : نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولفظ ابن مردويه : سورة المحرّم . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت بالمدينة سورة النساء : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرمّ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحلّ الله لك ﴾ اختلف فى سبب نزول الآية على أقوال : الأوّل : قول أكثر المفسرين. قال الواحدى : قال المفسرون : كان النبىّ ﷺ فى بيت حفصة فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية فى بيتها مع النبىّ ﷺ ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، فلما رأى النبى ﷺ فى وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: «لا تخبرى عائشة ولك علىّ ألاّ أقربها أبدا ، فأخبرت حفصة عائشة وكانتا متصافيتين ، فغضبت عائشة ولم تزل بالنبىّ ﷺ حتى حلف ألا يقرب مارية ، فأنزل الله هذه السورة [٢] .قال القرطبى:أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة، وذكر القصة [٣] . وقيل : السبب : أنه كان ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغافير [٤] . وقيل : السبب : المرأة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ، وسيأتى دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله وستعرف كيفية الجمع بينهما ، وجملة : ﴿ تبتغى مرضات أزواجك ﴾ مستأنفة ،أو مفسرة لقوله:﴿ تحرّم ﴾ أو فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ تحرّم ﴾، أى

(١) القرطبى ١٠ / ٦٦٥٦ . (٢) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٤٧ .
(٣) القرطبى ١٠ / ٦٦٥٦، ٦٦٥٧ .
(٤) المغافير : جمع مغفور هى بقلة أو صحفة متغيرة الرائحة فيها حلاوة ، أو هو صمغ له ريح كريهة منكرة .

مبتغيا به مرضاة أزواجك . و﴿**مرضاة**﴾ اسم مصدر، وهو الرضى ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف إلى المفعول ، أى أن ترضى أزواجك ، أو إلى الفاعل ، أى أن يرضين هنّ ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك . وقيل : وكان لك ذنبا من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل : إنها معاتبة على ترك الأولى .

﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ أى شرع لكم تحليل أيمانكم وبين لكم ذلك ، وتحلة أصلها : تحللة ، فأدغمت ، وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد ، والكفارة حلّ ؛ لأنها تحلّ للحالف ما حرّمه على نفسه ، قال مقاتل : المعنى : قد بين الله كفارة أيمانكم فى سورة المائدة . أمر الله نبيه ﷺ أن يكفر يمينه ويراجع وليدته فأعتق رقبة. قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله .

قلت: وهذا هو الحق أن تحريم ما أحلّ الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه ، فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره ، ومعاتبته لنبيه ﷺ فى هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل والمذاهب فيه كثيرة والمقالات فيه طويلة ، وقد حققناه فى مؤلفاتنا بما يشفى .

واختلف العلماء هل مجرّد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا ؟ وفى ذلك خلاف ، وليس فى الآية ما يدل على أنه يمين، لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ وقد ورد فى القصة التى ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هى سبب نزول الآية أنه حرّم أوّلا ثم حلف ثانيا كما قدّمنا ﴿**والله مولاكم** ﴾ أى وليكم وناصركم والمتولى لأموركم ﴿ **وهو العليم** ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أفعاله وأقواله. ﴿ **وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ قال أكثر المفسرين : هى حفصة كما سبق ، والحديث: هو تحريم مارية ، أو العسل ، أو تحريم التى وهبت نفسها له ،والعامل فى الظرف فعل مقدّر ، أى واذكر إذ أسرّ . وقال الكلبى: أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتى على أمتى من بعدى ﴿ **فلما نبأت به** ﴾ أى أخبرت به غيرها ﴿ **وأظهره الله عليه** ﴾ أى أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها ﴿**عرّف بعضه** ﴾ أى عرّف حفصة بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور: ﴿ **عرّف** ﴾ مشدّدا من التعريف .وقرأ علىّ وطلحة بن مصرف وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة والكسائى بالتخفيف ،واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿ **وأعرض عن بعض** ﴾ أى لم يعرّفها إياه ، ولو كان مخففا لقال فى ضدّه : وأنكر بعضا ﴿ **وأعرض عن بعض** ﴾ أى وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر فى الناس ،وقيل :الذى أعرض عنه هو حديث مارية،وللمفسرين ها هنا خبط وخلط،وكل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد فى سبب النزول ،وسنوضح لك ذلك إن شاء الله ﴿ **فلما نبأها به** ﴾ أى أخبرها بما أفشت من الحديث ﴿**قالت من أنبأك هذا**﴾ أى من أخبرك به ﴿ **قال نبأنى العليم الخبير**﴾ أى أخبرنى الذى لا تخفى عليه خافية .

﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ الخطاب لعائشة وحفصة ، أى إن تتوبا إلى الله فقد وجب منكما ما يوجب التوبة ، ومعنى ﴿ **صغت** ﴾ : عدلت ومالت عن الحقّ ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ ، وهو إفشاء الحديث . وقيل : المعنى : إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما إلى التوبة ، وقال : ﴿ **قلوبكما** ﴾ ولم يقل : « قلباكما » لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين فى لفظ واحد ﴿ **وإن تظاهرا عليه** ﴾ أى تتظاهرا . قرأ الجمهور : ﴿ **تظاهرا** ﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ عكرمة : « تتظاهرا » على الأصل . وقرأ الحسن وأبو رجاء ونافع وعاصم فى رواية عنهما : «تظهر » بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، والمراد بالتظاهر: التعاضد والتعاون ، والمعنى : وإن تعاضدا وتعاونا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه ﴿ **فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين** ﴾ أى فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل ومن صلح من عباده المؤمنين فلن يعدم ناصرا ينصره ﴿**والملائكة بعد ذلك** ﴾ أى بعد نصر الله له ونصر جبريل وصالح المؤمنين ﴿**ظهير**﴾ أى أعوان يظاهرونه ، والملائكة مبتدأ وخبره ظهير ، قال أبو علىّ الفارسى: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله:﴿ولا يسأل حميم حميما﴾ [المعارج : ١٠] قال الواحدى : وهذا من الواحد الذى يؤدّى عن الجمع ،كقوله:﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾ [النساء : ٦٩] وقد تقررّ فى علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع ، وقيل : كان التظاهر بين عائشة وحفصة فى التحكم على النبىّ ﷺ فى النفقة .

﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن** ﴾ أى يعطيه بدلكنّ أزواجا أفضل منكنّ ، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهنّ ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرا منهن تخويفا لهنّ ، وهو كقوله : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ﴾ [محمد : ٣٨] فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم . ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: ﴿**مسلمات مؤمنات** ﴾ أى قائمات بفرائض الإسلام مصدّقات بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرّه . وقال سعيد بن جبير : مسلمات ، أى مخلصات . وقيل : معناه : مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿ **قانتات** ﴾ مطيعات لله . والقنوت : الطاعة . وقيل : مصليات ﴿**تائبات**﴾ يعنى : من الذنوب ﴿ **عابدات** ﴾ لله متذللات له ، قال الحسن وسعيد بن جبير: كثيرات العبادة ﴿ **سائحات** ﴾ أى صائمات . وقال زيد بن أسلم : مهاجرات ، وليس فى أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة ، قال ابن قتيبة والفراء وغيرهما : وسمى الصيام سياحة ؛ لأن السائح لا زاد معه . وقيل : المعنى : ذاهبات فى طاعة الله ، من ساح الماء : إذا ذهب ، وأصل السياحة : الجولان فى الأرض ، وقد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة ﴿ **ثيبات وأبكارا** ﴾ وسط بينهما العاطف لتنافيهما ، والثيبات : جمع ثيب ، وهى المرأة التى تزوجّت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج ، والأبكار : جمع بكر ، وهى العذراء ، سميت بذلك ؛ لأنها على أوّل حالها التى خلقت عليه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها لبنا أو عسلا ، فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبىّ ﷺ فلتقل: إنى أجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال :« لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود » فنزلت : ﴿يأيها النبى لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ إلى قوله: ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا ﴾ لقوله :« بل شربت عسلا » [(١)] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند صحيح ،عن ابن عباس قال:كان رسول الله ﷺ شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحا ، فدخل على حفصة فقالت : إنى أجد منك ريحا ، فقال : « أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه أبدا » ، فأنزل الله : ﴿يأيها النبىّ لم تحرمّ ﴾ الآية [(٢)]. وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ﴾ قالت:كانت عندى عكة من عسل أبيض ، فكان النبىّ ﷺ يلعق منها وكان يحبه ، فقالت له عائشة: نحلها تجرس عرفطا فحرمها ، فنزلت الآية.

وأخرج النسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس ، أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ﴾ [(٣)] .وأخرج البزار والطبرانى ، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدو الحديث فى شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبىّ ﷺ فى بيت حفصة فى يومها ، فوجدت حفصة فقالت : يا رسول الله ، لقد جئت إلىّ بشىء ما جئته إلى أحد من أزواجك فى يومى وفى دورى على فراشى ، قال : « ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها أبدا ؟ » قالت : بلى ، فحرّمها وقال :« لا تذكرى ذلك لأحد » ، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب مارية . وأخرجه ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا . وأخرجه ابن مردويه أيضا من وجه آخر عنه بأخصر منه . وأخرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه مختصرا بلفظ قال : حرّم سريته وجعل ذلك سبب النزول فى جميع ما روى عنه من هذه الطرق [(٤)]. وأخرج الهيثم بن كليب فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة ، من طريق نافع

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩١٢) وفى الطلاق (٥٢٦٧) وفى الأيمان والنذور (٦٦٩١) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٤ / ٢٠) وأبو داود فى الأشربة (٣٧١٤) والنسائى فى التفسير (٦٢٨) .

(٢) الطبرانى (١١٢٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٠: « ورجاله رجال الصحيح » والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٣٩ .

(٣) النسائى فى التفسير (٦٢٧) وإسناده صحيح ورجاله ثقات ، وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٤) الطبرانى (١١١٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٩ : « رواه البزار بإسنادين والطبرانى ورجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم الأصغر وهو ثقة » .

عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ لحفصة : « لا تحدثى أحدا ، وأن أمّ إبراهيم علىّ حرام » ، فقالت : أتحرم ما أحلّ الله لك ؟ قال : «فو الله لا أقربها »، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ (١) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن أبى هريرة ؛ أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف . وسنده ضعيف (٢) .

فهذان سببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القصتين : قصة العسل ، وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعا . وفى كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه، وأما ما قيل من أن السبب هو: تحريم المرأة التى وهبت نفسها ، فليس فى ذلك إلا ما روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها النبى لم تحرّم ما أحلّ الله لك** ﴾ فى المرأة التى وهبت نفسها للنبىّ ﷺ . قال السيوطى : وسنده ضعيف (٣)، ويردّ هذا أيضا أن النبىّ ﷺ لم يقبل تلك الواهبة لنفسها ، فكيف يصحّ أن يقال : إنه نزل فى شأنها : ﴿ **يأيها النبىّ لم تحرّم ما أحل الله لك** ﴾ ؟فإن معه ردّ ما وهب له لم يصحّ أن يقال : إنه حرّمه على نفسه ، وأيضا لا ينطبق على هذا بسبب قوله : ﴿ **وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ إلى آخر ما حكاه الله ، وأما ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة ، ثم ذكر قصة الإيلاء كما فى الحديث الطويل ، فليس فى هذا نفى لكون السبب هو ما قدّمنا من قصة العسل وقصة السرية ؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبىّ ﷺ يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول : ﴿ **يأيها النبىّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك** ﴾ ويؤيد هذا ما قدمناه عن ابن عباس أنه قال لعمر : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة ، وبين له أن السبب قصة مارية ، هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية ودفع الاختلاف فى شأنه فاشدد عليه يديك لتنجو به من الخبط والخلط الذى وقع للمفسرين .

وأخرج عبد الرزاق والبخارى وابن مردويه عن ابن عباس قال : فى الحرام يكفر ، وقال : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ (٤) [الأحزاب : ٢١]. وأخرج ابن المنذر والطبرانى والحاكم وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل فقال : إنى جعلت امرأتى علىّ حراما . فقال : كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا : ﴿ **لم تحرّم ما أحل الله لك** ﴾ قال : عليك أغلظ

---

(١) قال ابن كثير ٧ / ٥١ : « وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٩ ، ١٣٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط من طريق موسى بن جعفر بن أبى كثير عن عمه قال الذهبى : مجهول وخبره ساقط » .

(٣) الدر المنثور ٦ / ٢٤١ وقال ابن كثير ٧ / ٥١ : « هذا قول غريب ، والصحيح أنها نزلت فى تحريمه العسل كما هو فى البخارى » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٩١١) وفى الطلاق (٥٢٦٦) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٣ / ١٨ ، ١٩) وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٧٢ ، ٢٠٧٣) .

الكفارات عتق رقبة (١) . وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن عائشة قالت: لما حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح فأنزل الله : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ فأحلّ يمينه وأنفق عليه . وأخرج ابن عدىّ وابن عساكر عن عائشة فى قوله : ﴿ **وإذ أسر النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ قالت : أسرّ إليها أن أبا بكر خليفتى من بعدى. وأخرج ابن عدّى ، وأبو نعيم فى الصحابة ، والعشارى فى فضائل الصدّيق ، وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن علىّ وابن عباس قال: والله إن إمارة أبى بكر وعمر لفى الكتاب :﴿ **وإذ أسّر النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ قال لحفصة : أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدى ، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا . قلت : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله : ﴿ **يأيها النبىّ لم تحرّم ما أحل الله لك** ﴾ بل فيه أن الحديث الذى أسرّه ﷺ هو هذا فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة وهى مقدّمة عليه ومرجحة بالنسبة إليه .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾ قال: زاغت وأثمت . وأخرج ابن المنذر عنه قال : مالت . وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه فى قوله : ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾ قال : أبو بكر وعمر . وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله . وأخرج لابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس مثله . وأخرج الحاكم عن أبى أمامة مرفوعا مثله (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم ، قال السيوطى : بسند ضعيف (٣) ، عن علىّ مرفوعا قال : هو علىّ بن أبى طالب . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿**وصالح المؤمنين** ﴾ : علىّ بن أبى طالب » . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾ قال : هو علىّ بن أبى طالب . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن بريدة فى قوله : ﴿ **ثيبات وأبكارا**﴾ قال :وعد الله نبيه ﷺ فى هذه أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون، وبالبكر مريم بنت عمران .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)** ﴾ .

(١) صحيحه الحاكم ٢ / ٥٩٣ ، ٥٩٤ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .
(٢) صحيحه الحاكم ٣ / ٦٩ وقال الذهبى : « قلت : موسى واه » .
(٣) السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٤ وقال ابن كثير ٧ / ٥٦ : « إسناده ضعيف وهو منكر جدا » .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم** ﴾ بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿**وأهليكم** ﴾ بأمرهم بطاعة الله ونهيهم عن معاصيه ﴿ **نارًا وقودها الناس والحجارة** ﴾ أى نارًا عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، وقد تقدّم بيان هذا فى سورة البقرة . قال مقاتل بن سليمان : المعنى : قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار فى الآخرة، وقال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم . قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [طه : ١٣٢] ، وقوله : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢٢٤] . ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد** ﴾ أى على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحموهم ؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه وحبب إليهم تعذيب خلقه . وقيل : المراد : غلاظ القلوب شداد الأبدان . وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال . وقيل : الغلاظ : ضخام الأجسام ، والشداد : الأقوياء ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم** ﴾ أى لا يخافونه فى أمره ، و « ما » فى : ﴿ **ما أمرهم** ﴾ يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أى لا يعصون الله الذى أمرهم به ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف ، أو على تقدير نزع الخافض ، أى لا يعصون الله فى أمره ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى يؤدّونه فى وقته من غير تراخ لا يؤخرونه عنه ولا يقدّمونه . ﴿ **يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم** ﴾ أى يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييسًا لهم وقطعا لأطماعهم ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ من الأعمال فى الدنيا ، ومثل هذا قوله : ﴿ فيومئذ [1] لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ [الروم : ٥٧] .

﴿ **يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ أى تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازى ، وهو فى الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب وترك المعاودة له . والتوبة فرض على الأعيان . قال قتادة : التوبة النصوح الصادقة . وقيل : الخالصة . وقال الحسن : التوبة النصوح : أن يبغض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره ، وقال الكلبى: التوبة النصوح: الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على ألاّ يعود ، وقال سعيد بن جبير : هى التوبة المقبولة . قرأ الجمهور : ﴿ **نصوحا** ﴾ بفتح النون على الوصف للتوبة ، أى توبة بالغة فى النصح . وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بضمها ، أى توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح ، وأن يكون مصدرا .يقال: نصح نصاحة ونصوحا . قال المبّرد : أراد توبة ذات نصح . ﴿ **عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ بسبب تلك التوبة ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع فهى من الله واجبة ؛لأن التائب

(١) فى المطبوعة : « فاليوم » والصحيح ما أثبتناه .

من الذنب كمن لا ذنب له ، ويدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه وبالنصب قرأ الجمهور. وقرئ بالجزم عطفا على محل عسى ،كأنه قال : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم ﴿ يوم لا يخزى الله النبى ﴾ الظرف متعلق بـ﴿يدخلكم﴾، أى يدخلكم يوم لا يخزى الله النبى ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ والموصول معطوف على النبى. وقيل: الموصول مبتدأ، وخبره : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ والأوّل أولى ، وتكون جملة : ﴿ نورهم يسعى ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم ، وقد تقدّم فى سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط ، وجملة : ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ فى محل نصب على الحال أيضا ، وعلى الوجه الآخر تكون خبرا آخر ، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين كما تقدم بيانه وتفصيله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله:﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، وأمروا أهلكم بالذكر ينجكم الله من النار . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال :أدبوا أهليكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، عن أبى عمران الجونى قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ليس فى قلوبهم رحمة وإنما خلقوا للعذاب ، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير ؛ أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح ، قال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدا (١) . وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود إليه أبدا » (٢)، وفى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى ، وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف ، كما أخرجه موقوفا عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كلّ سيئة ، وهو فى القرآن ، ثم قرأ هذه الآية (٣). وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم لا يخزى الله

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ١٠٧ وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٠٣٤) ط. الكتب العلمية ، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٨٥) وعزاه لأحمد بن منيع وقال : « إسناده صحيح موقوف ، وتابعه البوصيرى » .

(٢) أحمد ١ / ٤٤٦ والبيهقى فى الشعب (٧٠٣٦) ط. الكتب العلمية ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/٢٠٢ ، ٢٠٣ : « رواه أحمد وإسناده ضعيف » .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٤٩٥ على شرط الشيخين ، وقال الذهبى : «عباية لا ذكر له فى الكتب الستة » .

النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى ﴾ الآية ، قال : ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نورا يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ [1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑨ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ⑩ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ⑫ ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾ أى بالسيف والحجة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية فى سورة براءة ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أى شدد عليهم فى الدعوة واستعمل الخشونة فى أمرهم بالشرائع . قال الحسن : أى جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ أى مصيرهم إليها ، يعنى : الكفار والمنافقين ﴿ وبئس المصير ﴾ أى المرجع الذى يرجعون إليه . ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا ﴾ قد تقدّم غير مرّة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها فى الغرابة ، أى جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة ، وأنه لا يغنى أحد عن أحد ﴿ امرأت نوح وامرأت لوط ﴾ هذا هو المفعول الأول ، و﴿ مثلا ﴾ المفعول الثانى حسبما قدّمنا تحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له وإيضاح لمعناه ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ وهما نوح ولوط ، أى كانتا فى عصمة نكاحهما ﴿ فخانتاهما ﴾ أى فوقعت منهما الخيانة لهما . قال عكرمة والضحاك : بالكفر . وقيل : كانت امرأة نوح تقول للناس : إنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه ، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبى قطّ . وقيل : كانت خيانتهما النفاق. وقيل : خانتاهما بالنميمة ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ﴾ أى فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئا من الدفع ﴿ وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ أى وقيل لهما فى الآخرة ، أو عند موتهما : ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر والمعاصى . وقال يحيى بن سلام : ضرب الله مثلا للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه ، وما أحسن من قال : فإن ذكر امرأتى النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول ﷺ يرشد

---

(١) صحيحه الحاكم ٢ / ٤٩٨ ، ٤٩٩ وقال الذهبى : « عتبة بن يقظان واه » .

أتمّ إرشاد ويلوحّ أبلغ تلويح إلى أن المراد : تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمته خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لا يغنى عنهما من الله شيئا ، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة .

﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون** ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى المثل الذى قبله ، أى جعل الله حال امرأة فرعون مثلا لحال المؤمنين ترغيبا لهم فى الثبات على الطاعة والتمسك بالدين والصبر فى الشدة ، وأن صولة الكفر لا تضرّهم كما لم تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين وصارت بإيمانها بالله فى جنات النعيم ﴿ **إذ قالت ربّ ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ الظرف متعلق بضرب أو بمثلا ،أى ابن لى بيتا قريبا من رحمتك ، أو فى أعلى درجات المقربين منك ، أو فى مكان لا يتصرّف فيه إلا بإذنك وهو الجنة ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾ أى من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشرّ ﴿ **ونجنى من القوم الظالمين** ﴾ قال الكلبى: هم أهل مصر ، وقال مقاتل : هم القبط . قال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب .

﴿ **ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها** ﴾ معطوف على امرأة فرعون ، أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران ، أى حالها وصفتها . وقيل : إن الناصب لمريم فعل مقدّر ، أى واذكر مريم ، والمقصود من ذكرها: أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة ، واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿ **التى أحصنت فرجها** ﴾ أى عن الفواحش ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة النساء . قال المفسرون : المراد بالفرج هنا : الجيب لقوله : ﴿**فنفخنا فيه من روحنا** ﴾ وذلك أن جبريل نفخ فى جيب درعها فحبلت بعيسى ﴿ **وصدّقت بكلمات ربها** ﴾ يعنى: شرائعه التى شرعها لعباده ، وقيل: المراد بالكلمات هنا : هو قول جبريل لها : ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ الآية [مريم : ١٩] وقال مقاتل : يعنى بالكلمات : عيسى . قرأ الجمهور : ﴿ **وصدّقت** ﴾ بالتشديد . وقرأ حمزة الأموى ويعقوب وقتادة وأبو مجلز وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف . وقرأ الجمهور: ﴿ **بكلمات** ﴾ بالجمع . وقرأ الحسن ومجاهد والجحدرى : «بكلمة» بالإفراد . وقرأ الجمهور: « وكتابه » بالإفراد . وقرأ أهل البصرة وحفص : ﴿ **كتبه** ﴾ بالجمع ، والمراد على قراءة الجمهور: الجنس فيكون فى معنى الجمع ، وهى الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿ **وكانت من القانتين** ﴾ قال قتادة : من القوم المطيعين لربهم .وقال عطاء : من المصلين ، كانت تصلى بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين : رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ،وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، وقال : ﴿ **من القانتين** ﴾ ولم يقل : « من القانتات » ؛لتغليب الذكور على الإناث .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن

جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فخانتاهما** ﴾ قال : ما زنتا : أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط: فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتهما (١) . وأخرج ابن المنذر عنه : قال : ما بغت امرأة نبىّ قط . وقد رواه ابن عساكر مرفوعا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة (٢) . وأخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة : أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها (٣) وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس ، فرفعت رأسها إلى السماء ، فقالت : ﴿ **ربّ ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من الظالمين** ﴾ ففرج الله لها عن بيتها فى الجنة فرأته .

وأخرج أحمد والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها فى القرآن قالت : ﴿ **ربّ ابن لى عندك بيتا** ﴾ » الآية (٤) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (٥) . وأخرج وكيع فى الغرر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾ قال: من جماعته .

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ١٠٩ وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٦ ووافقه الذهبى .
(٢) ابن أبى شيبة (١٦٥٠٥) وابن جرير ٢٨ / ١١٠ وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٥٢٠) .
(٣) فى المخطوطة : « صدرها » والصحيح ما أثبتناه بدليل ما بعده .
(٤) أحمد ١ / ٣١٦ والطبرانى (١١٩٢٨) وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٧ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٢٦ : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح » .
(٥) البخارى فى الأطعمة (٥٤١٨) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣١ / ٧٠) والترمذى فى الأطعمة (١٨٣٤) وقال : « حسن صحيح » .

تفسير سورة الملك

وتسمى سورة تبارك ، والواقية ، والمنجية ، والمانعة . وهى ثلاثون آية . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع[١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت بمكة سورة تبارك الملك . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن الضريس ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ » قال الترمذى : هذا حديث حسن [٢] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول ﷺ : « سورة فى القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾»[٣] . وأخرج الترمذى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن نصر، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبىّ ﷺ خباءً على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبىّ ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » . قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه [٤] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تبارك هى المانعة من عذاب القبر » وأخرجه أيضا النسائى وصححه ، والحاكم [٥] . وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبى هريرة أنهما سمعا رسول اللّه ﷺ يقول : «أنزلت علىّ سورة تبارك ، وهى ثلاثون آية جملة واحدة ، وهى المانعة فى القبور » . وأخرج عبد بن حميد فى مسنده والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى، قال : اقرأ : ﴿تبارك الذى بيده الملك ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه الله من عذاب النـار، وينجو بها صاحبها مـن عـذاب القبر . قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها

---

(١) القرطبى ١٠ / ٦٦٨٤ .

(٢) أحمد ٢ / ٢٩٩ ، ٣٢١ وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٠) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩١) وقال : «هذا حديث حسن » والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٦) وفى التفسير (٦٣٢) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٦) وصححه الحاكم ١ / ٥٦٥ ، ٢ / ٤٩٨ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٦) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٠ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٠) والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٤١ تفرد به يحيى بن عمرو النكدى ، وهو ضعيف ؛ إلا أن لمعناه شاهدًا عن عبد الله بن مسعود .

(٥) النسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٧) وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٨ ووافقه الذهبى .

فى قلب كل إنسان من أمتى »[(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ .

قوله : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك** ﴾ تبارك تفاعل من البركة ، والبركة : النماء والزيادة . وقيل : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين . وقيل : دام فهو الدائم الذى لا أوّل لوجوده ولا آخر لدوامه ، وقال الحسن : تبارك : تقدس ، وصيغة التفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء . والملك : هو ملك السموات والأرض فى الدنيا والآخرة ، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء . وقيل : المراد بالملك : ملك النبوة ، والأوّل أولى ؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحا وأبلغ ثناء ، ولا وجه للتخصيص ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى بليغ القدرة لا يعجزه شىء من الأشياء يتصرف فى ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع .

﴿ **الذى خلق الموت والحياة** ﴾ الموت : انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له ، والحياة : تعلق الروح بالبدن واتصاله به . وقيل : هى ما يصح بوجوده الإحساس . وقيل : ما يوجب كون الشىء حيا . وقيل : المراد : الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة ، وقدم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة ، والحياة عارضة لها . وقيل : لأن الموت أقرب إلى القهر . وقال

(١) ورد هذا الحديث مقتصراً على المرفوع فى الطبرانى (١١٦١٦) وصححه الحاكم ١ / ٥٦٥ وقال : « هذا إسناد عند اليمانيين صحيح » قال الذهبى : « قلت : حفص واه » وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٠ : « فيه إبراهيم بن الحاكم بن أبان وهو ضعيف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٨٧) ونسبه لعبد بن حميد وجاء بالرواية بأكملها ، وقال البوصيرى : « رواه البزار والترمذى مختصراً ولم يزد على هذا » .

مقاتل : خلق الموت : يعنى النطفة والمضغة والعلقة ، والحياة يعنى :خلقه إنسانا وخلق الروح فيه . وقيل : خلق الموت على صورة كبش لا يمرّ على شىء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمرّ بشىء إلا حيى ، قاله مقاتل والكلبى . وقد ورد فى التنزيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ [السجدة : ١١] ، وقوله : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وقوله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ [الأنعام : ٦١] ، وقوله : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [الزمر : ٤٢] وغير ذلك من الآيات ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ اللام متعلقة بخلق ، أى خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا فيجازيكم على ذلك . وقيل : المعنى : ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا وأشدّ منه خوفا . وقيل : أيكم أسرع إلى طاعة الله ، وأوزع عن محارم الله ، وقال الزجاج : اللام متعلق بخلق الحياة ، لا بخلق الموت ، وقال الزجاج أيضا والفراء : إن قوله : ﴿ **ليبلوكم** ﴾ لم يقع على أىّ ؛ لأن فيما بين البلوى وأىّ إضمار فعل كما تقول : بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ، ومثله قوله : ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾[القلم : ٤٠] أى سلهم ثم انظر أيهم ، فأيكم فى الآية مبتدأ وخبره أحسن ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، ويراد : صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط ؛ للإيذان بأن المراد بالذات ، والمقصد الأصلى من الابتلاء : هو ظهور كمال إحسان المحسنين ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أى الغالب الذى لا يغالب ﴿**الغفور** ﴾ لمن تاب وأناب .

﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقا** ﴾ الموصول يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتًا أو بيانا أو بدلا ، وأن يكون منقطعًا عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح ، و﴿ **طباقا** ﴾ صفة لسبع سموات ، أى بعضها فوق بعض ، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب ، أو مصدر طابق ، يقال : طابق مطابقة وطباقا ، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف ، أى ذات طباق ، ويجوز أن يكون منتصبا على المصدرية بفعل محذوف ، أى طوبقت طباقا ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات ، أو مستأنفة لتقدير ما قبلها ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، و« من » مزيدة لتأكيد النفى . قرأ الجمهور : ﴿ **من تفاوت**﴾ . وقرأ ابن مسعود وأصحابه وحمزة والكسائى : « تفوّت » مشدّدا بدون ألف وهما لغتان : كالتعاهد والتعهد ، والتحامل والتحمل ، والمعنى على القراءتين : ما ترى فى خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هى مستوية مستقيمة دالة على خالقها ، وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾ الفطور : الشقوق والصدوع والخروق ، أى اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة. أخبر أولا بأنه لا تفاوت فى خلقه ، ثم أمر ثانيا بترديد البصر فى ذلك ؛ لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة . قال مجاهد والضحاك : الفطور : الشقوق جمع فطر وهو الشق .

وقال قتادة : هل ترى من خلل ؟ وقال السدّى : هل ترى من خروق ؟ وأصله من التفطر والانفطار ، وهو التشقق والانشقاق ، ومنه قول الشاعر :

بنى لكـم بـلا عمـد سمـاء وزينها فما فيها فطـور

وقال الآخر :

شققت القلب ثم رددت فيه هواك فليم فالتام الفطور

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أى رجعتين مرّة بعد مرّة ، وانتصابه على المصدر ، والمراد بالتثنية : التكثير، كما فى : لبيك وسعديك ، أى رجعة بعد رجعة وإن كثرت ، ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب فى النظرة الأولى ولا فى الثانية، ولهـذا قـال أوّلا : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم قال ثانيا : ﴿فارجع البصر ﴾ ثم قال ثالثا : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ فيكون ذلك أبلغ فى إقامة الحجة وأقطع للمعذرة ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا ﴾ أى يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا عن أن يرى شيئا من ذلك . وقيل : معنى ﴿ خاسئا ﴾ : مبعدا مطرودا عن أن يبصر ما التمسه من العيب ، يقال : خسأت الكلب ، أى أبعدته وطردته . قرأ الجمهور : ﴿ ينقلب ﴾ بالجـزم جوابا للأمـر. وقـرأ الكسائى فى رواية بالرفع على الاستئناف ﴿ وهو حسير ﴾ أى كليل منقطع . قـال الزجـاج : أى وقد أعيا من قبل أن يرى فى السماء خللا ، وهـو فعيل بمعنى فاعـل من الحسور، وهو الإعياء ، يقال: حسر بصره يحسر حسورا ، أى كلّ وانقطع ، ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلىّ الطرف وهو حسير

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ بين سبحانه بعد خلق السموات وخلوّها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة ، فصارت فى أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجىء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح وهو السراج ،وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضىء كإضاءة السراج ، وبعض الكواكب وإن كان فى غير سماء الدنيا من السموات التى فوقها ، فهى تتراءى كأنها كلها فى سماء الدنيا ؛ لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونهـا أجرامـا صقيلـة شفـافـة ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ أى وجعلنا المصابيح رجوما يرجم بها الشياطين . وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهى كونها زينة للسماء الدنيا ، والمعنى : أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم : جمع رجم بالفتح ، وهو فى الأصل مصدر أطلق على المرجوم به ،كما فى قولهم : الدرهم ضرب الأمير ، أى مضروبه ، ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف محذوف ، أى ذات رجم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه . وقيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ وجعلناها ﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف ، أى شهبها ، وهى نارها المقتبسة منها ، لا هى أنفسها لقوله : ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات : ١٠] ووجه هذا : أن المصابيح التى

زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها ، كذا قال أبو علىّ الفارسى جوابا لمن سأله : كيف تكون المصابيح زينة وهى رجوم ؟ قال القشيرى : وأمثل من قوله هذا أن تقول : هى زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها فى البرّ والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدّى وظلم ، وقيل : معنى الآية : وجعلناها ظنونا لشياطين الإنس ، وهم المنجمون **﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾** أى وأعتدنا للشياطين فى الآخرة بعد الاحتراق فى الدنيا بالشهب عذاب السعير، أى عذاب النار ، والسعير : أشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهى مسعورة .

﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ من كفار بنى آدم ، أو من كفار الفريقين : **﴿ عذاب جهنم ﴾** قرأ الجمهور برفع : **﴿عذاب﴾** على أنه مبتدأ ، وخبره : **﴿ للذين كفروا ﴾** وقرأ الحسن والضحاك والأعرج بنصبه عطفا على **﴿عذاب السعير ﴾** ، **﴿ وبئس المصير ﴾** ما يصيرون إليه ، وهو جهنم . **﴿ إذا ألقوا فيها ﴾** أى طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار **﴿ سمعوا لها شهيقا ﴾** أى صوتا كصوت الحمير عند أوّل نهيقها ، وهو أقبح الأصوات ، وقوله : **﴿لها﴾** فى محل نصب على الحال ، أى كائنا لها ؛ لأنه فى الأصل صفة ، فلما قدّمت صارت حالا ، وقال عطاء : الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم فى النار . وجملة : **﴿ وهى تفور ﴾** فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنها تغلى بهم غليان المرجل ، ومنه قول حسان :

تركتم قدركم لا شىء فيه وقدر الغير حامية تفور

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أى تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيظها عليهم . قال ابن قتيبة : تكاد تنشق غيظا على الكفار . قرأ الجمهور : **﴿ تميز ﴾** بتاء واحدة مخففة ، والأصل : تتميز بتاءين ، وقرأ طلحة بتاءين على الأصل . وقرأ البزى عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى . وقرأ الضحاك : « تمايز » بالألف وتاء واحدة ، والأصل تتمايز ، وقرأ زيد بن علىّ : « تميز » من ماز يميز ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ ، وجملة : **﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ﴾** مستأنفة لبيان حال أهلها ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل **﴿تميز ﴾**، والفوج : الجماعة من الناس ، أى كلما ألقى فى جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع : **﴿ ألم يأتكم ﴾** فى الدنيا **﴿نذير﴾** ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه . وجملة : **﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير ﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا السؤال ؟ فقال : **﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾** فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم **﴿ فكذبنا ﴾** ذلك النذير **﴿ وقلنا ما نزّل الله من شىء﴾** من الأشياء على ألسنتكم **﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾** أى فى ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ؛ والمعنى : أنه قال : كلّ فوج من تلك الأفواج حاكيا لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه : ما أنتم أيها الرسل فيم تدّعون أن الله نزل عليكم آيات تنذروننا بها إلا فى ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره .

ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ أى لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل ، أو نعقل شيئا من ذلك ما كنا في عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير وهم الشياطين كما سلف . قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعى ، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه: ﴿ **فاعترفوا بذنبهم** ﴾ الذى استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾ أى فبعدًا لهم من اللهِ ومن رحمته . وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد فى جهنم يقال له : السحق . قرأ الجمهور : ﴿ **فسحقا** ﴾ بإسكان الحاء . وقرأ الكسائى وأبو جعفر بضمها ، وهما لغتان مثل السحت والرعب . قال الزجاج وأبو علىّ الفارسى :﴿ **فسحقا** ﴾ منصوب على المصدر ، أى أسحقهم الله سحقا ، قال أبو علىّ الفارسى : وكان القياس « إسحاقا » فجاء المصدر على الحذف ، واللام فى : ﴿**لأصحاب السعير** ﴾ للبيان ،كما فى : ﴿ هيت لك﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سبع سموات طباقا** ﴾ قال : بعضها فوق بعض . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ قال : ما تفوت بعضه بعضا تفاوتا مفرقا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **من تفاوت** ﴾ قال : من تشقق ، وفى قوله : ﴿ **هل ترى من فطور** ﴾ قال : شقوق ، وفى قوله : ﴿ **خاسئا** ﴾ قال : ذليلا ﴿ **وهو حسير** ﴾ : كليل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، قال : الفطور : الوهى . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **من فطور** ﴾ قال : من تشقق أو خلل ، وفى قوله : ﴿**ينقلب إليك البصر** ﴾ قال : يرجع إليك ﴿**خاسئا** ﴾ قال : صاغرًا ﴿ **وهو حسير** ﴾ قال : معيىٌ ولا يرى شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **خاسئا** ﴾ قال : ذليلا ﴿ **وهو حسير** ﴾ قال : عيى مرتجع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**تكاد تميز** ﴾ قال : تتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **تكاد تميز** ﴾ قال :يفارق بعضها بعضا .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى جاتم عنه أيضا :﴿ **فسحقا**﴾ قال :بعدا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ

هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة ، و﴿**بالغيب**﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أى غائبين عنه ، أو غائبا عنهم ، والمعنى : أنهم يخشون عذابه ولم يروه فيؤمنون به خوفا من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى : يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس وذلك فى خلواتهم ، أو المراد بالغيب :كون العذاب غائبا عنهم لأنهم فى الدنيا ، وهو إنما يكون يوم القيامة ، فتكون الباء على هذا سببية ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿ **وأجر كبير** ﴾ وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ [ق : ٣٣] ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال : ﴿**وأسروا قولكم أو اجهروا به** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوى الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه ، والمعنى : إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به فى أمر رسول الله ﷺ ، فكلّ ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية ، وجملة : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ تعليل للاستواء المذكور، وذات الصدور: هى مضمرات القلوب . والاستفهام فى قوله : ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ للإنكار، والمعنى : ألا يعلم السرّ ومضمرات القلوب من خلق ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفى يعلم ضمير يعود إلى الله ، أى ألا يعلم الله المخلوق الذى هو من جملة خلقه ، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه ، وجملة : ﴿ **وهو اللطيف الخبير** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يعلم ، أى الذى لطف علمه بما فى القلوب، الخبير بما تسرّه وتضمره من الأمور ، لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ثم امتنّ سبحانه على عباده فقال : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا** ﴾ أى سهلة لينة تستقرون عليها ، ولم يجعلها بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشى عليها ، والذلول فى الأصل : هو المنقاد الذى يذلّ لك ولا يستصعب عليك ، والمصدر : الذلّ ، والفاء فى قوله : ﴿ **فامشوا فى مناكبها** ﴾ لترتيب الأمر بالمشى على الجعل المذكور ، والأمر للإباحة . قال مجاهد والكلبى ومقاتل : مناكبها : طرقها وأطرافها وجوانبها . وقال قتادة وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها ، وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، ومنه الريح النكباء ؛ لأنها تأتى من جانب دون جانب ﴿ **وكلوا من رزقه** ﴾ أى مما رزقكم وخلقه لكم فى الأرض ﴿**وإليه النشور** ﴾ أى وإليه البعث من قبوركم ، لا إلى غيره ، وفى هذا وعيد شديد .

ثم خوّف سبحانه الكفار فقال : ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى : عقوبة من فى السماء . وقيل : من فى السماء : قدرته وسلطانه وعرشه وملائكته ، وقيل : من فى السماء من الملائكة. وقيل : المراد : جبريل ،

ومعنى : ﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ يقلعها ملتبسة بكم كما فعل بقارون بعدما جعلها لكم ذلولا وتمشون فى مناكبها ، وقوله : ﴿ أن يخسف ﴾ بدل اشتمال من الموصول ، أى أأمنتم خسفه ، أو على حذف من، أى من أن يخسف ﴿ فإذا هى تمور ﴾ أى تضطرب وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون . قرأ الجمهور: ﴿أأمنتم ﴾ بهمزتين . وقرأ البصريون والكوفيون بالتخفيف . وقرأ ابن كثير بقلب الأولى واوا ، ثم كرر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال : ﴿ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل . وقيل : سحاب فيها حجارة . وقيل : ريح فيها حجارة ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ أى إنذارى إذا عاينتم العذاب ولا ينفعكم هذا العلم . وقيل : النذير هنا : محمد ﷺ ، قاله عطاء والضحاك ، والمعنى : ستعلمون رسولى وصدقه ، والأوّل أولى. والكلام فى : ﴿ أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ كالكلام فى : ﴿ أن يخسف بكم الأرض﴾ فهو إما بدل اشتمال، أو بتقدير من﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أى الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسّ وقوم فرعون ﴿ فكيف كان نكير﴾ أى فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع.

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف على مقدّر ، أى أغفلوا ولم ينظروا، ومعنى: ﴿صافات ﴾ أنها صافة لأجنحتها فى الهواء وتبسيطها عند طيرانها ﴿ ويقبـضن ﴾ أى يضممن أجنحتهنّ . قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه :صافّ ، وإذا ضمها : قابض ، كأنه يقبضه ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح وقبضه بعض البسط ، ومنه قول أبى خراش :

يبادر جنح الليل فهو مزايل تحت الجناح بالتبسط والقبض

وإنما قال : ﴿ ويقبـضن ﴾ ولم يقل : « قابضات » كما قال : ﴿ صافات ﴾ ؛ لأن القبض يتجدد تارة فتارة ، وأما البسط فهو الأصل ، كذا قيل . وقيل : إن معنى ﴿ويقبـضن﴾: قبضهنّ لأجنحتهنّ عند الوقوف من الطيران، لا قبضها فى حال الطيران ، وجملة : ﴿ ما يمسكهنّ إلا الرحمن ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه . والمعنى : إنه ما يمسكهّن فى الهواء عند الطيران إلا الرحمن القادر على كل شىء ﴿ إنه بكل شىء بصير﴾ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان .

﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ . والمعنى : أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند : الحزب والمنعة . قرأ الجمهور : ﴿أمّن ﴾ هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من ، وأم بمعنى بل ، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة ؛ لأن بعدها هنا « من » الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير ، و « من » الاستفهامية مبتدأ ، واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الإشارة ، وينصركم صفة لجند ، ومن دون الرحمن فى محل

نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى : بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوز نصر الرحمن . وقرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى وتثقيل الثانية ، وجملة: ﴿ **إن الكافرون إلا فى غرور** ﴾ معترضة مقرّرة لما قبلها ناعية عليهم ماهم فيه من الضلال ، والمعنى : ما الكافرون إلا فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرّهم به . ﴿ **أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه** ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى الذى قبله قراءة وإعرابا ، أى من الذى يدرّ عليكم الأرزاق من المطر وغيره إن أمسك الله ذلك عنكم ومنعه عليكم ﴿ **بل لجوا فى عتوّ ونفور** ﴾ أى لم يتأثروا لذلك ، بل تمادوا فى عناد واستكبار عن الحقّ ونفور عنه ولم يعتبروا ولا تفكروا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره ، والعتوّ : العناد والطغيان ، والنفور: الشرود . وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ قال : أبو بكر وعمر وعليّ وأبو عبيدة بن الجراح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فى مناكبها** ﴾ قال : جبالها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، قال : أطرافها . وأخرج الطبرانى وابن عدّى ، والبيهقى فى الشعب ، والحكيم الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحبّ العبد المؤمن المحترف »[1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**بل لجوّا فى عتو ونفور** ﴾ قال: فى ضلال .

﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)** ﴾ .

ضرب سبحانه مثلا للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما ، فقال : ﴿ **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى**﴾ والمكبّ والمنكب : الساقط على وجهه ، يقال : كببته فأكبّ وانكبّ . وقيل : هو الذى يكب رأسه فلا ينظر يمينا ولا شمالا ولا أماما فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه . وقيل : أراد به الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه . قال قتادة : هو الكافر يكبّ على معاصى الله فى الدنيا فيحشره الله يوم

---

(١) الطبرانى (١٣٢٠٠) وابن عدى ١ / ٣٧٨ والبيهقى فى الشعب (١١٨١) وإسناده ضعيف . قال الهيثمى فى المجمع ٤ / ٦٥ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف » .

القيامة على وجهه ، والهمزة للاستفهام الإنكارى ، أى هل هذا الذى يمشى على وجهه أهدى إلى المقصد الذى يريده ؟ ﴿ أمّن يمشى سويا ﴾ معتدلا ناظرا إلى ما بين يديه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى على طريق مستوى لا اعوجاج به ولا انحراف فيه ، وخبر من محذوف لدلالة خبر« من » الأولى وهو أهدى عليه ، وقيل : لا حاجة إلى ذلك ؛ لأن « من » الثانية معطوفة على من الأولى عطف المفرد على المفرد ، كقولك: أزيد قائم أم عمرو ؟ وقيل : أراد بمن يمشى مكبا على وجهه : من يحشر على وجهه إلى النار ، ومن يمشى سويا : من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذى ذكرناه ، ومثله قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ [الإسراء : ٩٧]. ﴿قل هو الذى أنشأكم ﴾ أمر سبحانه رسول الله ﷺ أن يخبرهم بأن الله هو الذى أنشأهم النشأة الأولى ﴿ وجعل ﴾ لهم ﴿السمع ﴾ ليسمعوا به ﴿والأبصار ﴾ ليبصروا بها، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، وقد قدّمنا بيان هذا فى مواضع مع زيادة فى البيان ﴿ والأفئدة ﴾ القلوب الّتى يتفكرون بها فى مخلوقات الله ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحا للحجة وقطعا للمعذرة وذما لهم على عدم شكر نعم الله ، ولهذا قال : ﴿ قليلا ما تشكرون﴾ وانتصاب ﴿ قليلا ﴾ على أنه نعت مصدر محذوف ، و «ما» مزيدة للتأكيد، أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا . وقيل : أراد بقلة الشكر :عدم وجوده منهم. قال مقاتل : يعنى : أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه . ﴿ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ أمر الله رسوله ﷺ بأن يخبرهم أن الله هو الذى خلقهم فى الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره .

ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أى متى هذا الوعد الذى تذكرونه لنا من الحشر والقيامة والنار والعذاب إن كنتم صادقين فى ذلك ؟ والخطاب منهم للنبىّ ﷺ ولمن معه من المؤمنين ، وجواب الشرط محذوف، والتقدير : إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوه لنا ، وهذا منهم استهزاء وسخرية ، ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عليهم فقال : ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ أى إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره ، ومثله قوله : ﴿ قل إنما علمها عند ربى﴾ [الأعراف : ١٨٧]. ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال : ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أنذركم وأُخوّفكم عاقبة كفركم وأبين لكم ما أمرنى الله ببيانه .

ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال : ﴿ فلما رأوه زلفة ﴾ يعنى : رأوا العذاب قريبا ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل ، أى مزدلفا أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف، أى ذا زلفة وقرب أو ظرف ، أى رأوه فى مكان ذى زلفة، قال مجاهد : أى قريبا . وقال الحسن : عيانا . قال أكثر المفسرين : المراد :عذاب يوم القيامة . وقال مجاهد : المراد : عذاب

بدر . وقيل : رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبا منهم كما يدلّ عليه قوله : ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ وقيل : لما رأوا عملهم السيئ قريبا ﴿ **سيئت وجوه الذين كفروا** ﴾ أى اسودت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة ، يقال : ساء الشيء يسوء فهو سيئ : إذا قبح . قال الزجاج : تبين فيها السوء ، أى ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه فى وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسوّد وجوه ﴾ [آل عمران : ١٠٦] . قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام ، وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وابن محيصن بالإشمام ﴿ **وقيل هذا الذى كنتم به تدّعون** ﴾ أى قيل لهم توبيخا وتقريعا : هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الذى كنتم به تدّعون فى الدنيا ، أى تطلبونه وتستعجلون به استهزاء على أن معنى ﴿**تدّعون** ﴾ الدعاء ، قال الفراء : تدعون تفتعلون من الدعاء ، أى تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين . وقال الزجاج : هذا الذى كنتم به تدّعون الأباطيل والأحاديث ، وقيل : معنى ﴿ **تدّعون** ﴾ : تكذبون ، وهذا على قراءة الجمهور :﴿ **تدّعون** ﴾ بالتشديد ، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر ، أو من الدعوى ،كما قال الزجاج ومن وافقه ، والمعنى: أنهم كانوا يدّعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار . وقرأ قتادة وابن أبى إسحاق ويعقوب والضحاك : « تدعون » مخففة ومعناها ظاهر . قال قتادة : هو قولهم : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ [ص : ١٦] . وقال الضحاك : هو قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] . قال النحاس : تدّعون وتدعون بمعنى واحد ،كما تقول : قدر واقتدر ، وغدا واغتدى ، إلا أنّ أفعل معناه : مضى شيئا بعد شيء ، وفعل يقع على القليل والكثير .

﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى** ﴾أى أخبرونى إن أهلكنى الله بموت أو قتل ، ومن معى من المؤمنين ﴿**أو رحمنا** ﴾ بتأخير ذلك إلى أجل . وقيل : المعنى :إن أهلكنى الله ومن معى بالعذاب ، أو رحمنا فلم يعذبنا ﴿ **فمن يجير الكافرين من عذاب أليم** ﴾ أى فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب . والمعنى : أنه لا ينجيهم من ذلك أحدٌ سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه ، أو أمهلهم . وقيل : المعنى : إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر ، وبيان أنه السبب فى عدم نجاتهم . ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به** ﴾ وحده ، لا نشرك به شيئا ﴿**وعليه توكلنا** ﴾ لا على غيره ، والتوكل : تفويض الأمور إليه ـ عزّ وجلّ ـ ﴿**فستعلمون من هو فى ضلال مبين** ﴾ منا ومنكم ، وفى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف . قرأ الجمهور : ﴿ **ستعلمون** ﴾ بالفوقية على الخطاب . وقرأ الكسائى بالتحتية على الخبر .

ثم احتجّ سبحانه عليهم ببعض نعمه ، وخوّفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال : ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا**﴾ أى أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا فى الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلا ، أو صار ذاهبا فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء . يقال : غار

الماء غورا ، أى نضب ، والغور: الغائر ، وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال: رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة الكهف ﴿ **فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ أى ظاهر تراه العيون ، وتناله الدلاء . وقيل : هو من معن الماء ، أى كثر . وقال قتادة والضحاك : أى جار ، وقد تقدّم معنى المعين فى سورة المؤمنون [١] . وقرأ ابن عباس: « فمن يأتيكم بماء عذب » .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أفمن يمشى مكبا** ﴾ قال : فى الضلالة ﴿**أمّن يمشى سويا** ﴾ قال : مهتديا . وأخرج الخطيب فى تاريخه ، وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هذه الآية : ﴿**هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾ » [٢] . وأخرج الدارقطنى فى الإفراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات : ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع ﴾ إلى ﴿ يفقهون ﴾ [الأنعام : ٩٨] و ﴿ **هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾ فإنه يبرأ بإذن الله » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن أصبح ماؤكم غورا** ﴾ قال : داخلا فى الأرض ﴿ **فمن يأتيكم بماء معين**﴾ قال : الجارى . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **إن أصبح ماؤكم غورا** ﴾ قال : يرجع فى الأرض . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا :﴿ **بماء معين** ﴾ قال : ظاهر . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا : ﴿ **بماء معين** ﴾ قال : عذب .

---

(١) فى المخطوطة : « المؤمن » والصحيح ما أثبتناه . (٢) الخطيب ٩ / ٥٤ .

تفسير سورة القلم

هي اثنتان وخمسون آية . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أن من أوّلها إلى قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ مكيّ ، ومن بعد ذلك إلى قوله : ﴿ من الصالحين ﴾ مدنيّ ، وباقيها مكى كذا قال الماوردى . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء . وكان أوّل ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : ١] ثم نون . ثم المزمل ، ثم المدثر. وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عنه قال : نزلت سورة ن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ ن ﴾ قرأ أبو بكر وورش وابن عامر والكسائى وابن محيصن وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها فى الواو ، وقرأ الباقون بالإظهار ، وقرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل ، وقرأ ابن عامر ونصر وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميقع وهارون بضمها على البناء ، قال مجاهد ومقاتل والسدّى : هو الحوت الذى يحمل الأرض ، وبه قال مرّة الهمذانى وعطاء الخراسانى والكلبى . وقيل : إن نون آخر حرف من حروف الرحمن . وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به . وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة . وقال عطاء وأبو العالية : هى النون من نصر وناصر . قال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين . وقيل : هو حرف من حروف الهجاء ، كالفواتح الواقعة فى أوائل السور المفتتحة بذلك، وقد عرّفناك ما هو الحق فى مثل هذه الفواتح فى أوّل سورة البقرة ، والواو فى قوله : ﴿ والقلم ﴾ واو القسم ، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به ، وقال جماعة من المفسرين : المراد به : القلم الذى كتب به اللوح المحفوظ ، أقسم الله به تعظيماً له . قال قتادة : القلم من نعمة الله على عباده

﴿وما يسطرون﴾ «ما» موصولة، أي والذى يسطرون ، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره ، لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب . والمعنى : والذى يسطرون ، أى يكتبون كل ما يكتب ، أو الحفظة على ما تقدّم ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، أى وسطرهم . وقيل : الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وجواب القسم قوله :﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ « ما » نافية ، وأنت اسمها ، وبمجنون خبرها . قال الزجاج : أنت هو اسم ما ، وبمجنون خبرها ، وقوله: ﴿بنعمة ربك﴾ كلام وقع فى الوسط ، أى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل . قيل : الباء متعلقة بمضمر هو حال ، كأنه قيل : أنت برىء من الجنون ملتبسا بنعمة الله التى هى النبوة والرياسة العامة . وقيل : الباء للقسم ، أى وما أنت ونعمة ربك بمجنون . وقيل : النعمة هنا : الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿ يأيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر : ٦] .

﴿ وإن لك لأجرا ﴾ أى ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوة ، وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿ غير ممنون ﴾ أى غير مقطوع ، يقال :مننت الحبل إذا قطعته ، وقال مجاهد : غير ممنون : غير محسوب ، وقال الحسن : غير ممنون: غير مكدر بالمنّ . وقال الضحاك : أجرا بغير عمل. وقيل : غير مقدّر . وقيل : غير ممنون به عليك من جهة الناس . ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قيل : هو الإسلام والدين ، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين . وقيل : هو القرآن ، روى هذا عن الحسن والعوفى . وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهى عنه من نهى الله . قال الزجاج : المعنى : إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن . وقيل : هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم . وقيل : المعنى : إنك على طبع كريم . قال الماوردى : وهذا هو الظاهر ، وحقيقة الخلق فى اللغة : ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب ، وقد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبىّ ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن (١)، وهذه الجملة والتى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ أى ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحقّ وانكشف الغطاء وذلك يوم القيامة ﴿ بأيكم المفتون ﴾ الباء زائدة للتأكيد ، أى أيكم المفتون بالجنون ، كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما ، ومثله قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب العلج (٢) نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل :ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول ،كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيكم المفتون أو الفتنة ، ومنه قول الشاعر الراعى :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٢) مدينة بأرض اليمامة لبنى جعدة .

أى عقلا . وقال الفراء : إن الباء بمعنى فى ، أى فى أيكم المفتون ، أفى الفريق الذى أنت فيه ، أم فى الفريق الآخر ؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبى عبلة فى أيكم المفتون . وقيل : الكلام على حذف مضاف ، أى بأيكم فتن المفتون ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وروى هذا عن الأخفش أيضاً . وقيل : المفتون : هو الشيطان ، لأنه مفتون فى دينه ، والمعنى: بأيكم الشيطان ، وقال قتادة : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى : سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون ، وجملة : **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾** تعليل للجملة التى قبلها ، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، والمعنى : هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين **﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾** إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة ، فهو مجازٍ كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين ، وهم رؤساء كفار مكة ، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة :مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير ، فنهاه الله عن ذلك كما يدل عليه قوله : **﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾** فإن الإدهان :هو الملاينة والمسامحة والمداراة . قال الفرّاء : المعنى : لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبى ، وقال الضحاك والسدّى : ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر ، وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون . وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك . وقال الحسن : ودوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك . وقال مجاهد : ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك . قال ابن قتيبة :كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة ، ويعبدوا الله مدّة ، وقوله : **﴿فيدهنون﴾** عطف على تدهن داخل فى حيز لو ، أو هوخبر مبتدأ محذوف ، أى فهم يدهنون . قال سيبويه: وزعم قالون أنها فى بعض المصاحف «ودّوا لو تدهن فيدهنوا » بدون نون ، والنصب على جواب التمنى المفهوم من ودّوا ، والظاهر من اللغة فى معنى الإدهان هو ما ذكرناه أوّلا .

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ أى كثير الحلف بالباطل **﴿ مهين ﴾** فعيل من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز. وقال مجاهد : هو الكذاب . وقال قتادة : المكثار فى الشر ، وكذا قال الحسن . وقيل : هو الفاجر العاجز. وقيل : هو الحقير عند الله . وقيل : هو الذليل . وقيل: هو الوضيع **﴿ هماز مشاء بنميم ﴾** الهماز : المغتاب للناس . قال ابن زيد : هو الذى تهمز بأخيه . وقيل : الهماز :الذى يذكر الناس فى وجوههم ، واللماز الذى يذكرهم فى مغيبهم ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبى رباح ، وقال مقاتل عكس هذا . والمشاء بنميم : الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال: نمّ ينم : إذا سعى بالفساد بين الناس ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده ... لمولاه إلا سعيه بنميم

وقيل : النميم : جمع نميمة ﴿ **مناع للخير** ﴾ أى بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه . وقيل: هو الذى يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام ، قال الحسن يقول لهم : من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا ﴿ **معتد أثيم** ﴾ أى متجاوز الحدّ فى الظلم كثير الإثم ﴿ **عتل** ﴾ قال الواحدى : المفسرون يقولون هو : الشديد الخلق الفاحش الخلق. وقال الفراء: هو الشديد الخصومة فى الباطل . وقال الزجاج : هو الغليظ الجافى ، وقال الليث : هو الأكول المنوع ، يقال : عتلت الرجل أعتله : إذا جذبته جذبا عنيفا ، ومنه قول الشاعر :

نقرعه قرعا ولسنا نعتله

﴿ **بعد ذلك زنيم** ﴾ أى هو بعد ما عدّ من معايبه زنيم ، والزنيم : هو الدعىّ الملصق بالقوم وليس هو منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلية فى حلق الشاة أو الماعز ، ومنه قول حسان :

زنيم تداعاه الرجال زيادة   كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وقال سعيد بن جبير : الزنيم :المعروف بالشرّ . وقيل : هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة . وقيل : هو الظلوم . ﴿ **أن كان ذا مال وبنين** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **لا تطع** ﴾ أى لا تطع مَنْ هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنين. قال الفراء والزجاج : أى لأن كان ، والمعنى : لا تطعه لماله وبنيه . قرأ ابن عامر وأبو جعفر والمغيرة وأبو حيوة : ﴿ **أن كان**﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام ، وقرأ حمزة وأبو بكر والمفضل : « أأن كان » بهمزتين مخففتين ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به: التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التى خوّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله ، وقرأ نافع فى رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط ، وجملة : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين** ﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى ، وقد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فى غير موضع ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ أى سنسمه بالكىّ على خرطومه . قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم : الأنف. قال مقاتل : سنسمه بالسواد على الأنف ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار . قال الفراء : والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة فإنه فى مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدى عن بعض . قال الزجاج : سيجعل له فى الآخرة العلم الذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم . وقال قتادة :سنلحق به شيئا لا يفارقه ،واختار هذا ابن قتيبة . قال: والعرب تقول: قد وسمه ميسم سوء يريدون ألصق به عارا لا يفارقه ، فالمعنى : أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم .وقيل : معنى ﴿**سنسمه** ﴾:سنحطمه بالسيف.وقال النضر بن شميل: المعنى: سنحدّه على شرب الخمر ، وقد يسمى الخمر بالخرطوم، ومنه قول الشاعر:

تظل يومك فى لهو وفى طرب   وأنت بالليل شراب الخراطيم

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى

الأسماء والصفات ، والخطيب في تاريخه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : إن أوّل شيء خلقه الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : ياربّ، وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم ، وكان عرشه على الماء ، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السموات ، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ **نون . والقلم وما يسطرون** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أوّل ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد » (٢) . وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ، وهى الدواة وخلق القلم ، فقال : اكتب ؟ ، قال : وما أكتب ؟، قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وأخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ **ن** ﴾ : الدواة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « النون : السمكة التى عليها قرار الأرضين ، والقلم الذى خطّ به ربنا عزّ وجل القدر خيره وشرّه وضرّه ونفعه ». ﴿ **وما يسطرون** ﴾ قال : « الكرام الكاتبون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وما يسطرون**﴾ قال : وما يعلمون .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أخبرينى بخلق رسول الله ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (٣) . وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى الدلائل ، والواحدى عنها قالت : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : لبيك ، فلذلك أنزل الله: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (٤) . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى الدرداء قال: سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه (٥) . وأخرج ابن أبى شيبة ، والترمذى وصححه ، وابن مردويه عن أبى عبد الله الجدلى قال : قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : لم يكن فاحشا

---

(١) ابن جرير ٢٩/ ١٠ وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٨ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١١٩ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣١٩) وفى القدر (٢١٥٥) وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » .

(٣) أحمد ٦/ ٩١ ، ١٦٣ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) أبو نعيم فى الدلائل ص ١٣٩ .

(٥) البيهقى فى الدلائل ١/ ٣٠٩ ، ٣١٠ .

ولا متفاحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح [(١)].

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿بأيكم المفتون﴾ قال : الشيطان ، كانوا يقولون : إنه شيطان وإنه مجنون . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: بأيكم المجنون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ يقول : لو ترخص لهم فيرخصون . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ الآية قال : يعنى : الأسود بن عبد يغوث . وأخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدى قال : قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبى بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: إنها ليست بسنة أبى بكر وعمر ولكنها سنة هرقل، فقال مروان : هذا الذى أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أفٍّ لكما ﴾ الآية [الأحقاف : ١٧]. فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل فى عبد الرحمن ، ولكن نزل فى أبيك : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم ﴾ [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزل على النبى ﷺ : ﴿ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم ﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه ﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : العتل : هو الدعىّ ، والزنيم :هو المريب الذى يعرف بالشرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن عساكر عنه قال : الزنيم : هو الدعىّ . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه أيضا قال : الزنيم الذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون : رجل سوء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿زنيم﴾ قال: ظلوم ، وقد قيل : إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق . وقيل : فى الوليد بن المغيرة.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ

(١) ابن أبى شيبة (٥٣٨٢) والترمذى فى البر والصلة (٢٠١٦) وقال : «حسن صحيح وأبو عبد الله الجدلى اسمه عبد بن عبد ويقال: عبد الرحمن بن عبد » .

(٢) سبق تخريجه .

كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ .

قوله : ﴿ **إنا بلوناهم** ﴾ يعنى : كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ عليهم . والابتلاء : الاختبار ، والمعنى : أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط ﴿**كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدى حق الله منها ، فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحقّ الله فيها ، قال الواحدى : هم قوم من ثقيف كانوا مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظا للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه : المال قليل ، والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين ، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله فى كتابه . قال الكلبى : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم . وقيل : هى جنة كانت بصوران ، وصوران على فراسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير ﴿ **إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ أى حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح ، والصرم :القطع للثمر والزرع . وانتصاب ﴿**مصبحين**﴾ على الحال من فاعل ليصرمنها ، والكاف فى : ﴿ **كما بلونا** ﴾ نعت مصدر محذوف، أى بلوناهم ابتلاء كما بلونا ، وما مصدرية ، أو بمعنى الذى ، وإذ ظرف لبلونا منتصب به ، وليصرمنها جواب القسم ﴿**ولا يستثنون**﴾ يعنى : ولا يقولون : إن شاء الله ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم ، أو حال . وقيل : المعنى : ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه أبوهم إليهم ، قاله عكرمة .

﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ أى طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه ، والطائف قيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل . وقيل : الطائف : جبريل اقتلعها ، وجملة: ﴿ **وهم نائمون**﴾ فى محل نصب على الحال . ﴿**فأصبحت كالصريم** ﴾ أى كالشىء الذى صرمت ثماره ، أى قطعت ، فعيل بمعنى مفعول، وقال الفراء : كالصريم : كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم   فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى : أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم : الرماد الأسود بلغة خزيمة، وقال الأخفش : أى كالصبح انصرم من الليل ، يعنى : أنها يبست وابيضت ، وقال المبرد : الصريم : الليل ، والصريم : النهار ، أى ينصرم هذا عن هذا ، وذاك عن هذا . وقيل: سمى الليل :صريما ؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف ، وقال المؤرج : الصريم : الرملة؛ لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به ، وقال الحسن : صرم منها الخير أى قطع ﴿ **فتنادوا مصبحين** ﴾ أى نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم

لبعض : ﴿ أن اغدوا على حرثكم ﴾ و « أن » فى قوله : ﴿أن اغدوا ﴾ هى المفسرة لأن فى التنادى معنى القول ، أو هى المصدرية ، أى بأن اغدوا ، والمراد : اخرجوا غدوة ، والمراد بالحرث : الثمار والزرع ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أى قاصدين للصرم ، والغدوّ يتعدى بإلى وعلى، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، وجواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم صارمين فاغدوا . وقيل : معنى ﴿ صارمين ﴾ : ماضين فى العزم ، من قولك : سيف صارم ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال : خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس ، ومنه قول دريد بن الصمة :

وإنى لم أهلك ملالا ولم أمت ... خفاتا وكلا ظنه بى عويمر

وقيل : المعنى : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم ، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ فإن « أن » هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. والمعنى : يسر بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين ، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم . ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والقصد . قال قتادة ومقاتل والكلبى والحسن ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد ؛ لأن القاصد إلى الشىء حارد، يقال : حرد يحرد : إذا قصد ، تقول : حردت حردك ، أى قصدت قصدك ومنه قول الراجز :

أقبل سيل جاء من عند الله ... يحرد حرد الجنة المغلة (١)

وقال أبو عبيدة والمبرد والقتيبى : على حرد : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا: إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هى القليلة اللبن ، وقال السدّى وسفيان والشعبى : ﴿على حرد ﴾ :على غضب ، ومنه قول الشاعر :

إذا جياد الخيل جاءت تردى ... مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر :

تساقوا على حرد دماء الأساود (٢)

ومنه قيل : أسد حارد ، وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أنهما قالا : ﴿ على حرد ﴾ : أى على حسد ، وقال الحسن أيضا : على حاجة وفاقة . وقيل : ﴿ على حرد ﴾ : على انفراد ، يقال : حرد يحرد حردا أو حرودا : إذا تنحى عن قومه ونزل منفردا عنهم ولم يخالطهم ، وبه

(١) فى المطبوعة : « المحلة » وهو تحريف ، وفى القرطبى : « المغلة » بمعنى ذات الغلة أو التى يجرى الماء فى غللها، أى فى أصولها .
(٢) الأساود : جمع أسود ، وهو اسم للحية .

قال الأصمعى وغيره . وقال الأزهرى : حرد :اسم قريتهم ، وقال السدّى : اسم جنتهم ، قرأ الجمهور :﴿ **حرد** ﴾ بسكون الراء ، وقرأ أبو العالية وابن السميفع بفتحها ، وانتصاب ﴿**قادرين**﴾ على الحال. قال الفراء : ومعنى ﴿ **قادرين** ﴾ : قد قدروا أمرهم وبنوا عليه ، وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم . وقال الشعبى : يعنى : قادرين على المساكين . ﴿**فلما رأوها** ﴾ أى لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت ما فيها ﴿ **قالوا إنا لضالون** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه . ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أى حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول . وقيل : معنى قولهم : ﴿**إنا لضالون** ﴾ : أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم .

﴿ **قال أوسطهم** ﴾ أى أمثلهم وأعقلهم وخيرهم ﴿ **ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾ أى هلا تسبحون ، يعنى: تستثنون . وسمى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدلّ على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحا . قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عزّ وجل، فجعل التسبيح فى موضع إن شاء الله . وقيل : المعنى : هلا تستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التى عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالوا : ﴿**سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذى فعلناه . وقيل: معنى تسبيحهم : الاستغفار ، أى نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا فى منعنا للمساكين .

﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى يلوم بعضهم بعضا فى منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالوا : ﴿ **يا ويلنا إنا كنا طاغين** ﴾ أى عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان : أى طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا : ﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها** ﴾ لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عزّ وجل أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم . قيل : إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا : إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعنّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها . قرأ الجمهور : ﴿ **يبدلنا** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل :تغيير ذات الشىء ، أو تغيير صفته ، والإبدال : رفع الشىء جملة ووضع آخر مكانه، كما مضى فى سورة سبأ ﴿ **إنا إلى ربنا راغبون** ﴾ أى طالبون فيه الخير راجون لعفوه راجعون إليه ، وعدى بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو فى ؛ لتضمينه معنى الرجوع . ﴿ **كذلك**

العذاب ﴾ أى مثل ذلك العذاب الذى بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ، والعذاب مبتدأ مؤخر و ﴿ **كذلك** ﴾ خبره ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ أى أشد وأعظم لوكان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ قال : هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين ، فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين فـ ﴿ **أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ وألا يطعموا مسكينا . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **فطاف عليها طائف** ﴾ قال : أمر من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له »، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم** ﴾ « قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **كالصريم** ﴾ قال : مثل الليل الأسود . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **وهم يتخافتون** ﴾ قال : الإسرار والكلام الخفىّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **على حرد قادرين**﴾ يقول : ذو قدرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **إنا لضالون** ﴾ قال: أضللنا مكان جنتنا . وأخرجا عنه أيضا ﴿**قال أوسطهم** ﴾ قال : أعدلهم .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

(٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار ، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ، ذكر حال المتقين وما أعدّه لهم من الخير ، فقال : ﴿ **إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم** ﴾ أى المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصى عنده عزّ وجل فى الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذى لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**﴾ الاستفهام للإنكار ، وكان صناديد كفار قريش يرون وفورحظهم فى الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فلما سمعوا بذكر الآخرة ، وما يعطى الله المسلمين فيها قالوا : إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا، فقال الله مكذبا لهم رادّا عليهم : ﴿ **أفنجعل المسلمين**﴾ الآية ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، ثم وبخهم الله، فقال : ﴿**ما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿ **أم لكم كتاب فيه تدرسون**﴾ أى تقرؤون فيه فتجدون المطيع كالعاصى ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم ﴾ [الصافات : ٥٦ ، ٥٧] ، ثم قال سبحانه : ﴿ **إنّ لكم فيه لما تخيرون** ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون، أى تدرسون فى الكتاب ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون** ﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله : علمت إنك لعاقل بالكسر ، أو على الحكاية للمدروس ، كما فى قوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ﴾ [الصافات : ٧٨ ، ٧٩] وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **تدرسون** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون** ﴾ أى لكم ذلك ، وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك : «**أن لكم** » بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التوكيد، ومعنى ﴿**تخيرون** ﴾ : تختارون وتشتهون .

ثم زاد سبحانه فى التوبيخ فقال : ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة** ﴾ أى عهود مؤكدة موثقة متناهية ، والمعنى : أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها فى أن يدخلكم الجنة ، وقوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ متعلق بالمقدر فى ﴿**لكم**﴾ أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، وجواب القسم قوله : ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ لأن معنى ﴿**أم لكم أيمان** ﴾ أى أم أقسمنا لكم . قال الرازى : والمعنى : أم ضمنا لكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ أى ليس الأمر كذلك . قرأ الجمهور : ﴿ **بالغة** ﴾ بالرفع على النعت لأيمان ، وقرأ الحسن وزيد بن علىّ بنصبها على الحال من أيمان ؛ لأنها قد تخصصت بالوصف ، أو من الضمير فى لكم أو من الضمير فى علينا . ﴿ **سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ أى سل يا محمد الكفار موبخا لهم ومقرّعا أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم فى الآخرة

ما للمسلمين فيها . وقال ابن كيسان : الزعيم هنا : القائم بالحجة والدعوى . وقال الحسن : الزعيم :الرسول .

﴿ أم لهم شركاء ﴾ يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم فيه **﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾** فيما يقولون وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف . وقيل : المعنى : أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة. **﴿يوم يكشف عن ساق ﴾** يوم ظرف لقوله : **﴿فليأتوا ﴾** أى فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ، ويجوز أنّ يكون ظرفا لفعلٍ مقدّر ، أى اذكر يوم يكشف . قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله : **﴿ عن ساق ﴾** عن شدّة من الأمر . قال ابن قتيبة : أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمر عن ساقه ، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدة . وأنشد لدريد بن الصمة :

كميش [1] الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد

وقال : وتأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق ، قال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل : كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه من وقع فى شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدّة ، وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب فى أشعارها، ومن ذلك قول الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول آخر :

والخيل تعدو عند وقت الإشراق وقامت الحرب بنا على ساق

وقول آخر أيضا :

قد كشفت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

وقول آخر أيضا فى سنة :

قد كشفت عن ساقها حمرا ء تبرى اللحم عن عراقها

وقيل : ساق الشيء : أصله وقوامه كساق الشجرة وساق الإنسان ، أى يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه . وقيل : يكشف عن ساق جهنم . وقيل : عن ساق العرش . وقيل: هو عبارة عن القرب . وقيل : يكشف الرب سبحانه عن نوره ، وسيأتى فى آخر البحث ما هو الحق ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، قرأ الجمهور : **﴿يكشف ﴾** بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن أبى عبلة : « تكشف » بالفوقية مبنيا للفاعل، أى الشدّة أو الساعة ، وقرئ بالفوقية مبنيا للمفعول ، وقرئ بالنون ، وقرئ بالفوقية المضمومة

---

(١) الكميش : الماضى العزوم السريع فى أموره .

وكسر الشين من أكشف الأمر ، أى دخل فى الكشف ﴿**ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون**﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ؛ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود ، قال الربيع بن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله فى الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله فى الدنيا ، وانتصاب ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ على الحال من ضمير يدعون ، وأبصارهم مرتفع به على الفاعلية ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار ، وهو الخضوع والذلة ؛ لظهور أثره فيها ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أى تغشاهم ذلة شديدة وحسرة وندامة ﴿ **وقد كانوا يدعون إلى السجود** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **وهم سالمون** ﴾ أى معافون عن العلل متمكنون من الفعل ، قال إبراهيم التيمى : يدعون بالأذان والإقامة فيأبون . وقال سعيد بن جبير : يسمعون حىّ على الفلاح فلا يجيبون . قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات . وقيل : يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون ، وجملة : ﴿ **وهم سالمون** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون .

﴿ **فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث** ﴾ أى خل بينى وبينه وكل أمره إلى فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه: لا يشتغل به قلبك ، كله إلى فأنا أكفيك أمره ، والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها ، و « من » منصوب بالعطف على ضمير المتكلم ، أو على أنه مفعول معه، والمراد بهذا الحديث :القرآن ، قاله السدّى ، وقيل : يوم القيامة ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وجملة : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله : ﴿ **ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث** ﴾ ، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها، والمعنى : سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج ؛ لأنهم يظنونه إنعاما ولا يفكرون فى عاقبته ، وما سيلقون فى نهايته . قال سفيان الثورى : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر ، وقال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، والاستدراج : ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال : استدرج فلان فلانا ، أى استخرج ما عنده قليلا قليلا ، ويقال : درّجه إلى كذا واستدرجه يعنى : أدناه إلى التدريج فتدرج هو.

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال : ﴿ **وأملى لهم** ﴾ أى أمهلهم ليزدادوا إثما ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف والطور. وأصل الملاوة : المدّة من الدهر ، يقال : أملى الله له ، أى أطال له المدّة ، والملا : مقصور الأرض الواسعة ، سميت به ، لامتدادها ﴿ **إن كيدى متين** ﴾ أى قوىّ شديد فلا يفوتنى شىء ، وسمى سبحانه إحسانه كيدا كما سماه استدراجا ، لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته ، ووصفه بالمتانة لقوّة أثره فى التسبب للهلاك ﴿ **أم تسألهم أجرا**﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله : ﴿ **أم لهم شركاء** ﴾ أى أم

تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ المغرم : الغرامة ، أى فهم من غرامة ذلك الأجر ، ومثقلون ، أى يثقل عليهم حمله لِشُحِهِمْ ببذل المال ، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم ، والمعنى : أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أى اللوح المحفوظ ، أو كل ما غاب عنهم ، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله .

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أى لقضائه الذى قد قضاه فى سابق علمه ، قيل : والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله ﷺ عليهم . وقيل : هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة . وقيل : وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعنى : يونس عليه السلام ، أى لا تكن مثله فى الغضب والضجر والعجلة والظرف فى قوله : ﴿ إذ نادى ﴾ منصوب بمضاف محذوف ، أى لا تكن حالك كحاله وقت ندائه ، وجملة : ﴿ وهو مكظوم ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل نادى ، والمكظوم : المملوء غيظا وكربا . قال قتادة : إن الله يعزّى نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] وقيل : إن المكظوم : المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ، قاله المبرّد . وقيل : هو المحبوس ، والأول أولى ، ومنه قول ذى الرّمة :

وأنت من حبّ ميّ مضمر حزنا عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ أى لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله وهى توفيقه للتوبة فتاب الله عليه ﴿ لنبذ بالعراء ﴾ أى لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات ﴿ وهو مذموم ﴾ أى يذم ويلام بالذنب الذى أذنبه ويطرد من الرحمة ، والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبذ . قال الضحاك : النعمة هنا : النبوّة . وقال سعيد بن جبير : عبادته التى سلفت ، وقال ابن زيد : هى نداؤه بقوله : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . وقيل : مذموم : مبعد . وقيل : مذنب. قرأ الجمهور : ﴿تداركه ﴾ على صيغة الماضى ، وقرأ الحسن وابن هرمز والأعمش بتشديد الدال ، والأصل : تتداركه بتاءين مضارعا فأدغم ، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية ، وقرأ أبى وابن مسعود وابن عباس : «تداركته » بتاء التأنيث . ﴿ فاجتباه ربه ﴾ أى استخلصه واصطفاه واختاره للنبوة ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أى الكاملين فى الصلاح وعصمه من الذنب . وقيل : ردّ إليه النبوة وشفعه فى نفسه وفى قومه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم .

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، قرأ الجمهور :﴿ليزلقونك﴾ بضم الياء من أزلقه، أى أزل رجله ، يقال : أزلقه عن موضعه: إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه : إذا تنحى . قال الهروى : أى فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ومجاهد وأبو وائل : « ليرهقونك » أى يهلكونك . وقال الكلبى : ﴿يزلقونك ﴾ أى يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، وكذا قال السدّى وسعيد بن جبير ، وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك . وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك. قال الزجاج : فى الآية مذهب أهل اللغة ، والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك ، وهذا مستعمل فى الكلام ، يقول القائل : نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى ، ونظرا يكاد يأكلنى . قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، كما قال الشاعر:

يتعارضون إذا التقوا فى مجلس   نظرا يزيل مواطن الأقدام

﴿ لما سمعوا الذكر﴾ أى وقت سماعهم للقرآن ؛ لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة، ولما ظرفية منصوبة بـ﴿يزلقونك ﴾ . وقيل : هى حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿ويقولون إنه لمجنون ﴾ أى ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون ، أى والحال أنه تذكير وبيان لجميع مايحتاجون إليه ، أو شرف لهم كما قال سبحانه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] . وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ وأنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين وغيرهما، وله ألفاظ فى بعضها طول ، وهو حديث مشهور معروف [١] . وأخرج ابن منده عن أبى هريرة فى الآية قال : يكشف الله عزّ وجل عن ساقه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منده عن ابن مسعود فى الآية قال : يكشف عن ساقه تبارك وتعالى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات وضعفه ، وابن عساكر عن أبى موسى عن النبىّ ﷺ فى الآية قال : « عن نور عظيم فيخرّون له سجدا»[٢] . وأخرج

(١) أحمد ٣/ ١٦ ، ١٧ والبخارى فى التفسير (٤٩١٩) ومسلم فى الإيمان (١٨٣ / ٣٠٢) والدارمى ٢/ ٣٢٦ .
(٢) أبو يعلى (٧٢٨٣) وابن جرير ٢٩/ ٢٧ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٨٣ وإسناده ضعيف ، وقال ابن كثير ٧/ ٩١ : « فيه رجل مبهم».

الفريابى وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقى عن إبراهيم النخعى عن ابن عباس فى الآية قال: يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت على ساق . قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ، ويقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ قال : إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس : هذا يوم كرب شديد . روى عنه نحو هذا من طرق أخرى . وقد أغنانا الله سبحانه فى تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت ، وذلك لا يستلزم تجسيما ولا تشبيها فليس كمثله شىء.

دعوا كل قول عند قول محمد   فمـا آمن فى دينه كمـــخاطر

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون**﴾ قال : هم الكفار يدعون فى الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿**ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ قال : ينفذونك بأبصارهم .

تفسير سورة الحاقة

هى إحدى وخمسون آية . وقيل : اثنتان وخمسون . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع [(١)] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحاقة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبرانى عن أبى برزة أن النبىّ ﷺ كان يقرأ فى الفجر بالحاقة ونحوها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ⑧ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ⑫ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ⑬ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ⑭ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ⑮ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ⑯ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ⑰ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ⑱ ﴾ .

قوله : ﴿ الحاقة ﴾ هى القيامة ؛ لأن الأمر يحق فيها ، وهى تحق فى نفسها من غير شك. قال الأزهرى : يقال : حاققته فحققته أحقه : غالبته فغلبته أغلبه ، فالقيامة حاقة ؛ لأنها تحاق كل محاق فى دين اللّه بالباطل وتخصم كل مخاصم. وقال فى الصحاح : حاقه ، أى خاصمه فى صغار الأشياء ، ويقال : ما له فيها حقّ ولا حقائق ولا خصومة ، والتحاق : التخاصم ، والحاقة والحقة والحقّ ثلاث لغات بمعنى ، قال الواحدى : هى القيامة فى قول كل المفسرين ، وسميت بذلك ؛ لأنها ذات الحواقّ من الأمور ، وهى الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود . قال الكسائى والمؤرج : الحاقة : يوم الحق. وقيل : سميت بذلك ؛ لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل : سميت بذلك ؛ لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وهى مبتدأ وخبرها قوله : ﴿ ما الحاقة ﴾ على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمعنى: أىّ

---

(١) القرطبى ١٠/ ٦٧٣٥ .

شيء هي في حالها أو صفاتها . وقيل : إن ما الاستفهامية خبر لما بعدها ، وهذه الجملة وإن كان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم والتفخيم لشأنها كما تقول : زيد ما زيد ، وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة .

ثم زاد سبحانه في تفخيم أمرها وتفظيع شأنها وتهويل حالها فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة﴾ أي أيّ شيء أعلمك ما هي ؟ أي كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين . قال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن وما أدراك ، فقد أدراه إياه وعلمه ، وكلّ شيء قال فيه: وما يدريك ، فإنه ما أخبره به ، وما مبتدأ ، وخبره أدراك ، و ﴿ ما الحاقة ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض ؛ لأن أدرى يتعدّى إلى المفعول الثاني بالباء كما في قوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ [يونس: ١٦] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثاني ، وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا ، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين ، وجملة : ﴿ وما أدراك ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ ما الحاقة ﴾ . ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ أي بالقيامة ، وسميت بذلك ؛ لأنها تقرع الناس بأهوالها ، وقال المبرّد : عنى بالقارعة : القرآن الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوفونهم بذلك فيكذبونهم. وقيل: القارعة: مأخوذة من القرعة ؛ لأنها ترفع أقواما وتحط آخرين ، والأوّل أولى . ويكون وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة حالها ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة .

﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ ثمود : هم قوم صالح ، وقد تقدّم بيان هذا في غير موضع وبيان منازلهم وأين كانت ، والطاغية : الصيحة التي جاوزت الحدّ ، وقيل : بطغيانهم وكفرهم ، وأصل الطغيان : مجاوزة الحدّ . ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ عاد : هم قوم هود ، وقد تقدّم بيان هذا ، وذكر منازلهم ، وأين كانت في غير موضع ، والريح الصرصر : هي الشديدة البرد ، مأخوذ من الصرّ وهو البرد . وقيل : هي الشديدة الصوت ، وقال مجاهد: الشديدة السموم ، والعاتية :التي عتت عن الطاعة ، فكأنها عتت على خزانها ، فلم تطعهم ولم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها ، أو عتت على عـاد ، فلـم يقـدروا على ردّها ، بل أهلكتهم . ﴿ سخرها عليهم سبع ليال ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ومعنى ﴿سخرها ﴾ : سلطها ، كذا قال مقاتل . وقيل : أرسلها . وقال الزجاج : أقامها عليهم كما شاء ، والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار ، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح ، وأن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة ، أو من الضمير في عاتية ﴿ وثمانية أيام ﴾ معطوف على ﴿سبع ليال ﴾ وانتصاب ﴿ حسوما ﴾ على الحال ، أي ذات حسوم ، أو على المصدر بفعل مقدّر، أي تحسمهم حسوما ، أو على أنه مفعول به ، والحسوم : التتابع ، فإذا تتابع الشيء ولم ينقطع أوله عن آخره قيل له : الحسوم . قال الزجاج : الذي توجبه اللغة في معنى قوله :

﴿**حسوما**﴾ أى تحسمهم حسوما تفنيهم وتذهبهم . قال النضر بن شميل : حسمتهم : قطعتهم وأهلكتهم ، وقال الفراء : الحسوم : الأتباع، من حسم الداء وهو الكيّ؛ لأن صاحبه يكوى بالمكواة ، ثم يتابع ذلك عليه ، ومنه قول أبى دؤاد :

يفــرق بينهم زمن طويــل تتابــع فيــه أعــوام حسوم

وقال المبرد : هو من قولك حسمت الشيء : إذا قطعته وفصلته عن غيره . وقيل : الحسم: الاستئصال ، ويقال للسيف: حسام ؛ لأنه يحسم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته ، والمعنى : أنها حسمتهم ، أى قطعتهم وأذهبتهم ومنه قول الشاعر :

فأرسلت ريحا دبورا عقيــمــا فدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد : أى حسمتهم فلم تبق منهم أحدا ، وروى عنه أنه قال : حسمت الأيام والليالى حتى استوفتها؛ لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوّل يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم . وقال الليث : الحسوم : هى الشؤم، أى تحسم الخير عن أهلها ، كقوله : ﴿ فى أيام نحسات ﴾ [فصلت : ١٦] . واختلف فى أولها. فقيل : غداة الأحد . وقيل : غداة الجمعة. وقيل :غداة الأربعاء . قال وهب : وهذه الأيام هى التى تسميها العرب أيام العجوز، كان فيها برد شديد وريح شديــدة ، وكان أوّلهــا يــوم الأربعاء ، وآخرها يوم الأربعاء ﴿ **فترى القوم فيها صرعى** ﴾ الخطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك ، والضمير فى : ﴿ **فيها** ﴾ يعود إلى الليالى والأيام . وقيل : إلى مهاب الريح ، والأوّل أولى . وصرعى : جمع صريع ، يعنى : موتى ﴿ **كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ أى أصول نخل ساقطة أو بالية . وقيل : خالية لا جوف فيها ، والنخل يذكر ويؤنث ، ومثله قوله : ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] وقد تقدّم تفسيره وهو إخبار عن عظم أجسامهم، قال يحيى بن سلام : إنما قال خاوية؛ لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ﴿**فهل ترى لهم من باقية**﴾ أى من فرقة باقية ، أو من نفس باقية ، أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية ، قال ابن جريج : أقاموا سبع ليالى وثمانية أيام أحياء فى عذاب الريح فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر .

﴿ **وجاء فرعون ومن قبله** ﴾ أى من الأمم الكافرة . قرأ الجمهور: ﴿ **قبله** ﴾ بفتح القاف وسكون الباء ، أى ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية ، وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر القاف وفتح الباء ، أى ومن هو فى جهته من أتباعه واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود وأبيّ ومن معه ، ولقراءة أبى موسى ومن يلقاه : ﴿**والمؤتفكات**﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **المؤتفكات** ﴾ بالجمع وهى قرى قوم لوط ، وقرأ الحسن والجحدرى : «المؤتفكة» بالإفراد ، واللام للجنس، فهى فى معنى الجمع ، والمعنى : وجاءت المؤتفكات ﴿ **بالخاطئة** ﴾ أى بالفعلة الخاطئة ، أو الخطأ على أنها مصدر ، والمراد: أنها جاءت بالشرك والمعاصى. قال

مجاهد : بالخطايا ، وقال الجرجاني : بالخطأ العظيم . ﴿ **فعصوا رسول ربهم** ﴾ أي فعصت كلّ أمة رسولها المرسل إليها . قال الكلبي : هو موسى . وقيل : لوط لأنه أقرب . قيل : ورسول هنا بمعنى ، رسالة ومنه قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة ﴿ **فأخذهم أخذة رابية** ﴾ أي أخذهم اللّه أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم ، والمعنى : أنها بالغة في الشدة إلى الغاية ، يقال : ربى الشيء يربو : إذا زاد وتضاعف . قال الزجاج : تزيد على الأخذات ، قال مجاهد : شديدة . ﴿ **إنا لما طغى الماء** ﴾ أي تجاوز حدّه في الارتفاع والعلوّ ، وذلك في زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر وكذبوه . وقيل : طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه . قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعا ﴿**حملناكم في الجارية** ﴾ أي في أصلاب آبائكم ، أو حملناهم وحملناكم في أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين ، والجارية: سفينة نوح ، وسميت جارية؛ لأنها تجرى في الماء ، ومحل ﴿**في الجارية** ﴾ النصب على الحال ، أي رفعناكم فوق الماء حال كونكم في السفينة ، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم وذكر ما حلّ بهم من العذاب زجر هذه الأمة من الاقتداء بهم في معصية الرسول قال : ﴿**لنجعلها لكم تذكرة** ﴾ أي لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة اللّه وبديع صنعه ،أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة ﴿ **وتعيها أذن واعية** ﴾ أي تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت . قال الزجاج : يقال : أوعيت كذا ، أي حفظته في نفسي أعيه وعيا ، ووعيت العلم ووعيت ما قلته كله بمعنى . وأوعيت المتاع في الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسك :أوعيته بالألف ، ولما حفظته في نفسك وعيته بغير ألف . قال قتادة في تفسير الآية : أذن سمعت وعقلت ما سمعت . قال الفراء : المعنى : لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتي بعد ، قرأ الجمهور : ﴿ **تعيها** ﴾ بكسر العين ، وقرأ طلحة بن مصرّف وحميد الأعرج وأبو عمرو في رواية عنه بإسكان العين تشبيها لهذه الكلمة برحم وشهد، وإن لم تكن من ذلك . قال الرازي : وروى عن ابن كثير إسكان العين ، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة فخفف وأسكن لما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف . انتهى . والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف كما في قراءة من قرأ : ﴿ وما يشعركم ﴾ [الأنعام : ١٠٩] بسكون الراء . قال القرطبي : واختلفت القراءة فيها عن عاصم وابن كثير : يعني : تعيها [١] .

﴿ **فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة** ﴾ هذا شروع في بيان الحاقة وكيف وقوعها بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين . قال عطاء : يريد : النفخة الأولى . وقال الكلبي ومقاتل : يريد :

---

(١) القرطبي : ١٠/ ٧٦٤٢ .

النفخة الأخيرة . قرأ الجمهور : ﴿ نفخة واحدة﴾ بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة ، و﴿ واحدة ﴾ تأكيد لها ، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل، وقرأ أبو السماك بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور . قال الزجاج : قوله : ﴿ في الصور ﴾ يقوم مقام ما لم يسم فاعله ﴿ وحملت الأرض والجبال﴾ أى رفعت من أماكنها وقلعت عن مقارّها بالقدرة الإلهية ، قرأ الجمهور : ﴿حملت﴾ بتخفيف الميم ، وقرأ الأعمش وابن أبى عبلة وابن مقسم وابن عامر فى رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أى فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها ، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيبا مهيلا وهباء منبثا ، قال الفراء : ولم يقل : فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ، ومثله قوله تعالى :﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ [الأنبياء : ٣٠] وقيل : دكتا :بسطتا بسطة واحدة ، ومنه : اندك سنام البعير : إذا انفرش على ظهره . ﴿فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أى قامت القيامة . ﴿وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ أى انشقت بنزول ما فيها من الملائكة فهى فى ذلك اليوم ضعيفة مسترخية . قال الزجاج : يقال لكل ما ضعف جداً : قد وهى فهو واه ، وقال الفراء : وهيها : تشققها .

﴿ والملك على أرجائها ﴾ أى جنس الملك على أطرافها وجوانبها ، وهى جمع رجى مقصور وتثنيته رجوان مثل قفا وقفوان ، والمعنى : أنها لما تشققت السماء ، وهى مساكنهم لجؤوا إلى أطرافها ، قال الضحاك : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ فينزلون إلى الأرض ويحيطون بالأرض ومن عليها . وقال سعيد بن جبير : المعنى : والملك على حافات الدنيا ، أى ينزلون إلى الأرض . وقيل : إذا صارت السماء قطعا يقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشققة فى أنفسها ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ أى يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك . وقيل : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عزّ وجل . وقيل : ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة ، قاله الكلبى وغيره . ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ أى تعرض العباد على الله لحسابهم ، ومثله : ﴿ وعرضوا على ربك صفا﴾ [الكهف : ٤٨] وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به ، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال ، وجملة : ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير تعرضون ، أى تعرضون حال كونه لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم خافية كائنة ما كانت ، والتقدير أىّ نفس خافية أو فعلة خافية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ الحاقة ﴾ من أسماء القيامة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عنه قال : ما أرسل الله شيئا من ريح إلا بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد ، فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم

يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ : ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ، ثم قرأ : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ . وأخرج ابن جرير عن علىّ ابن أبى طالب نحوه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال : «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر مرفوعا : قال : « ما أمر الخزّان على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح ، فعتت على الخزّان فخرجت من نواحى الأبواب » فذلك قوله : ﴿بريح صرصر عاتية ﴾ قال : « عتوها عتت على الخزّان». وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال: الغالبة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ حسوما ﴾ قال : متتابعات . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿حسوما ﴾ قال : تباعا ، وفى لفظ متتابعات . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ قال: هى أصولها ، وفى قوله : ﴿ خاوية ﴾ قال : خربة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أيضا فى قوله: ﴿إنا لما طغى الماء ﴾ قال : طغى على خزانه فنزل ، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية من طريق مكحول عن علىّ ابن أبى طالب فى قوله : ﴿وتعيها أذن واعية ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت الله أن يجعلها أذنك يا علىّ » ، فقال على : ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئا فنسيته . قال ابن كثير : وهو حديث مرسل (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والواحدى وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ لعلىّ : « إن الله أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ، وأن تعى ، وحقّ لك أن تعى »، فنزلت هذه الآية : ﴿وتعيها أذن واعية ﴾ « فأنت أذن واعية ، ياعلى » (٣) . قال ابن كثير: ولا يصح (٤). وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله : ﴿ أذن واعية﴾ قال : أذن عقلت عن الله .

وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى البعث عن أبىّ بن كعب فى قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ قال : تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين ، وذلك قوله : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة ﴾ [عبس : ٤٠ ، ٤١] . وأخرج

(١) أحمد ٢٢٨/١، ٣٢٤ والبخارى فى الاستسقاء (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى الأنبياء (٣٣٤٣) ومسلم فى الاستسقاء (١٧/٩٠٠).

(٢) ابن كثير ١٠٢/٧.

(٣) فى المخطوطة : «لعلى » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٤) ابن جرير ٣٦/٢٩ .

ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فهى يومئذ واهية** ﴾ قال: متخرقة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **والملك على أرجائها** ﴾ قال : على حافاتها على ما لم يه منها . وأخرج عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمى فى الردّ على الجهمية ، وأبو يعلى وابن المنذر وابن خزيمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب فى تالى التلخيص عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ قال : ثمانية أملاك على صورة الأوعال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا من طرق فى الآية قال : يقال : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، ويقال : ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش فى السماء السابعة وأقدامهم فى الأرض السفلى ، ولهم قرون كقرون الوعلة ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » [1] . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود نحوه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ .

---

(١) أحمد ٤/ ٤١٤ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٥) وقال : « ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى موسى » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٧٧) وفى الزوائد :« رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع » .

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه ، فقال : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾ أى أعطى كتابه الذى كتبته الحفظة عليه من أعماله ﴿ **فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه** ﴾ يقول ذلك سرورا وابتهاجا . قال ابن السكيت والكسائى : العرب تقول : ها يا رجل ، وللاثنين هاؤما يا رجلان، وللجمع هاؤم يا رجال ، قيل : والأصل هاؤكم ، فأبدلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد : ومعنى ﴿ **هاؤم** ﴾ : تعالوا . وقال مقاتل : هلم . وقيل : خذوا ، والذى صرح به النحاة : أنها بمعنى خذ ، يقول ها بمعنى خذ ، وهاؤما بمعنى خذا ، وهاؤم بمعنى خذوا ، فهى اسم فعل ، وقد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم الإعراب ، وقوله : ﴿ **كتابيه** ﴾ معمول لقوله : ﴿**اقرؤوا** ﴾ لأنه أقرب الفعلين ، ومعمول ﴿ **هاؤم**﴾ محذوف يدل عليه معمول ﴿ **اقرؤوا** ﴾ والتقدير : هاؤم كتابيه اقرؤوا كتابيه ، والهاء فى كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه هى هاء السكت ، قرأ الجمهور فى هذه بإثبات الهاء وقفا ووصلا مطابقة لرسم المصحف ، ولولا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت ويوافق الخط ، يعنى خط المصحف . وقرأ ابن محيصن وابن أبى إسحاق وحميد ومجاهد والأعمش ويعقوب بحذفها وصلا وإثباتها وقفا فى جميع هذه الألفاظ ، ورويت هذه القراءة عن حمزة ، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعا للغة ، وروى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا ووقفا .

﴿ **إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾ أى علمت وأيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة . وقيل : المعنى : إنى ظننت أن يأخذنى الله بسيئاتى فقد تفضل علىّ بعفوه ولم يؤاخذنى . قال الضحاك : كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك ، قال مجاهد : ظنّ الآخرة يقين ، وظنّ الدنيا شك ، قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظنّ بربه ، فأحسن العمل للآخرة ، وإن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل ، قيل : والتعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدح فى الاعتقاد ما يهجس فى النفس من الخطرات التى لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبا ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾ أى فى عيشة مرضية لا مكروهة ، أو ذات رضى ، أى يرضى بها صاحبها . قال أبو عبيدة والفرّاء : راضية ، أى مرضية كقوله : ﴿**ماء دافق** ﴾ [الطارق : ٦] أى مدفوق فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها ، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد ﴿ **فى جنة عالية** ﴾ أى مرتفعة المكان لأنها فى السماء أو مرتفعة المنازل ، أو عظيمة فى النفوس . ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ القطوف : جمع قطف بكسر القاف ما يقطف من الثمار ، والقطف بالفتح المصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى : أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع . ﴿**كلوا واشربوا** ﴾ أى يقال لهم : كلوا واشربوا فى الجنة ﴿**هنيئا**﴾ أى أكلا وشربا هنيئا لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ **بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ أى بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا . وقال مجاهد : هى أيام الصيام .

﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول** ﴾ حزنا وكرباً لما رأى فيه من سيئاته ﴿ **ياليتنى لم أوت كتابيه** ﴾ أى لم أعط كتابيه ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾ أى لم أدر أىّ شىء حسابى : لأن كله عليه . ﴿ **ياليتها كانت القاضية**﴾ أى ليت الموتة التى متها كانت القاضية ، ولم أحى بعدها، ومعنى : القاضية : القاطعة للحياة ، والمعنى : أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله ، وما يصير إليه من العذاب ، فالضمير فى ليتها يعود إلى الموتة التى قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة لأنها لظهورها كانت كالمذكورة . قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا شىء عنده أكره منه ، وشرّ من الموت ما يطلب منه الموت . وقيل : الضمير يعود إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت علىّ . ﴿ **ما أغنى عنى ماليه** ﴾ أى لم يدفع عنى من عذاب اللّه شيئا على أن « ما » نافية أو استفهامية ، والمعنى : أىّ شىء أغنى عنى مالى . ﴿ **هلك عنى سلطانيه** ﴾ أى هلكت عنى حجتى ، وضلت عنى ، كذا قال مجاهد وعكرمة والسدّى والضحاك ، وقال ابن زيد : يعنى : سلطانى الذى فى الدنيا ، وهو الملك . وقيل : تسلطى على جوارحى ، قال مقاتل : يعنى : حين شهدت عليه الجوارح بالشرك ، وحينئذ يقول اللّه عزّ وجلّ : ﴿**خذوه فغلوه** ﴾ أى اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال . ﴿ **ثم الجحيم صلوه** ﴾ أى أدخلوه الجحيم ، والمعنى : لا تصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظيمة ﴿ **ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه** ﴾ السلسلة :حلق منتظمة ، وذرعها : طولها . قال الحسن : اللّه أعلم بأىّ ذراع هو . قال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان نوف فى رحبة الكوفة. قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿**فاسلكوه**﴾: فاجعلوه فيها ، يقال : سلكته الطريق : إذا أدخلته فيه ، قال سفيان : بلغنا أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فيه ، قال الكلبى : تسلك سلك الخيط فى اللؤلؤ ، وقال سويد ابن أبى نجيح : بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة ، وتقديم السلسلة؛ للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم ، وجملة : ﴿ **إنه كان لا يؤمن باللّه العظيم** ﴾ تعليل لما قبلها . ﴿**ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ أى لا يحث على إطعام المسكين من ماله ، أو لا يحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء ، كما قال الشاعر :

أكفرا بعد ردّ الموت عنى ... وبعد عطائك المال الرعايا

أى بعد إعطائك ، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر ، والمعنى : أنه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين ، وفى جعل هذا قرينا ؛ لترك الإيمان باللّه من الترغيب فى التصدّق على المساكين وسدّ فاقتهم ، وحث النفس والناس على ذلك ما يدلّ أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشدّ المآثم . ﴿ **فليس له اليوم ها هنا حميم** ﴾ أى ليس له يوم القيامة فى الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له ؛

لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه . ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ أى وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار ، وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد ، وغسلين فعلين من الغسل . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار ، وقال قتادة : هو شر الطعام ، وقال ابن زيد : لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا اللّه تعالى، وقال سبحانه فى موضع آخر: ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية : ٦] فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فليس له اليوم ها هنا حميم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار . ﴿**ولا طعام** ﴾ أى ليس لهم طعام يأكلونه، ولا ملجئ لهذا التقديم والتأخير ، وجملة : ﴿ **لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾ صفة لغسلين ، والمراد : أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب . قال الكلبى : المراد : الشرك . قرأ الجمهور : ﴿**الخاطئون**﴾ مهموزا ، وهو اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمداً ، والمخطئ : من يفعله غير متعمد ، وقرأ الزهرى وطلحة بن مصرف والحسن : « الخاطيون » بياء مضمومة بدل الهمزة ، وقرأ نافع فى رواية عنه بضم الطاء بدون همزة .

﴿ **فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون** ﴾ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون و« لا» زائدة، والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه . قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، فيدخل فى هذا جميع المخلوقات . وقيل : إن « لا» ليست زائدة ، بل هى لنفى القسم ، أى لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ فى ذلك . والأوّل أولى . ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ أى إن القرآن لتلاوة رسول كريم ، على أن المراد بالرسول: محمد ﷺ ، أى إنه لقول يبلغه رسول كريم . قال الحسن والكلبى ومقاتل : يريد به جبريل ، دليله قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم. ذى قوّة عند ذى العرش مكين ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] وعلى كل حال فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ ، ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو قول اللّه، فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ . ﴿ **وما هو بقول شاعر** ﴾ كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها ﴿ **قليلا ما تؤمنون** ﴾ أى إيمانا قليلا تؤمنون وتصديقا يسيراً تصدقون ، و « ما » زائدة ﴿**ولا بقول كاهن** ﴾ كما تزعمون ، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿**قليلا ما تذكرون** ﴾ أى تذكرا قليلا ، أو زمانا قليلا تتذكرون ، و « ما » زائدة ، والقلة فى الموضعين بمعنى النفى، أى لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلا ﴿ **تنزيل من ربّ العالمين** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو تنزيل . وقرأ أبو السماك بالنصب على المصدرية بإضمار فعل ، أى نزل تنزيلا ، والمعنى : إنه لقول رسول كريم ، وهو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه .

﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل** ﴾ أى ولو تقوّل ذلك الرسول ، وهو محمد ، أو جبريل على ما تقدّم ، والتقوّل : تكلف القول ، والمعنى : لو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه ،

وسمى الافتراء تقوّلا لأنه قول متكلف ، وكل كاذب يتكلف ما يكذب به ، قرأ الجمهور : ﴿تقوّل﴾ مبنيا للفاعل . وقرئ مبنيا للمفعول مع رفع بعض . وقرأ ابن ذكوان : «ولو يقول» على صيغة المضارع ، والأقاويل جمع أقوال ، والأقوال جمع قول . ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أى بيده اليمنى، قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فى الأخذ بيد من يعاقب . قال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أى بالقوّة والقدرة . قال ابن قتيبة : وإنما أقام اليمين مقام القوّة ، لأن قوة كل شيء فى ميامنه ، ومن هذا قول الشاعر :

إذا مـا رايـة نـصبت لمجـد ... تلقاها عـرابة باليـمين

وقول الآخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها ... تناولت منها حاجتى بيمينى

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ الوتين : عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب ، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه . قال الواحدى : والمفسرون يقولون : إنه نياط القلب .انتهى . ومن هذا قول الشاعر :

إذا بلغتـنى وحملـت رحـلى ... عرابة فاشرقى بدم الوتين

﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أى ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه ، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ، ولا تقدرون على الدفع منه ، والحجز : المنع ﴿وحاجزين﴾ صفة لأحد ، أو خبر لما الحجازية . ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ أى إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهـم المنتفعون به . ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أى أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك ، وفى هذا وعيد شديد. ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ أى وإن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين . وقيل : هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ أى وإن القرآن لكونه من عند الله حقّ فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّق إليه شك . ﴿فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أى نزهه عما لا يليق به . وقيل : فصل لربك ، والأوّل أولى

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنى ظننت ﴾ قال : أيقنت . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن البراء بن عازب ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال : قريبة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن البراء فى الآية قال : يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فاسلكوه ﴾ قال : السلسلة تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ،

ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود ثم يشوى . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبى الدرداء قال : إن لله سلسلة لم تزل تغلى منها مراجل النار منذ خلق اللّه جهنم إلى يوم تلقى فى أعناق الناس ، وقد نجانا اللّه من نصفها بإيماننا باللّه العظيم، فحضى على طعام المسكين يا أمّ الدرداء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الغسلين :الدّم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم . وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبىّ ﷺ قال: « لو أن دلواً من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا »[(١)] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين : اسم طعام من أطعمة أهل النار . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون** ﴾ يقول : بما ترون وما لا ترون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾ قال: بقدرة .وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : ﴿ **الوتين** ﴾ عرق القلب . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عنه أيضا قال :﴿ **الوتين** ﴾ :نياط القلب . وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه أيضا قال : هو حبل القلب الذى فى الظهر .

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥٠١ ووافقه الذهبى .

تفسير سورة سأل سائل

ويقال : سورة المعارج .وهي أربع وأربعون آية . وهي مكية . قال القرطبي : باتفاق [(١)] .
وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة سأل بمكة .
وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قرأ الجمهور : ﴿ سأل ﴾ بالهمزة . وقرأ نافع وابن عامر بغير همزة ، فمن همز فهو من السؤال وهي اللغة الفاشية ،وهو إما مضمن معنى الدعاء ، فلذلك عدّى بالباء ،كما تقول : دعوت لكذا ، والمعنى : دعا داع على نفسه بعذاب واقع ، ويجوز أن يكون على أصله والباء بمعنى عن ،كقوله : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ [الفرقان : ٥٩] ومن لم يهمز ، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفا ، فيكون معناها معنى قراءة من همز ، أو يكون من السيلان ، والمعنى : سال واد في جهنم يقال له : سائل ،كما قال زيد بن ثابت ، ويؤيده قراءة ابن عباس : « سال سيل ». وقيل : إن سال بمعنى : التمس ، والمعنى: التمس ملتمس عذابا للكفار ، فتكون الباء زائدة كقوله : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : ٢٠] والوجه الأول هو الظاهر ، وقال الأخفش : يقال : خرجنا نسأل عن فلان وبفلان . قال أبو عليّ الفارسي: وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر ، وهذا السائل : هو النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال : ٣٢] وهو ممن قتل يوم بدر صبرا . وقيل : هو أبو جهل . وقيل : هو الحارث بن النعمان الفهري ، والأوّل أولى لما سيأتي . وقرأ أبيّ وابن مسعود : « سال سال » مثل : مال مال

(١) القرطبي ١٠/٦٧٥٧ .

على أن الأصل سائل ، فحذفت العين تخفيفا ، كما قيل : شاك فى شائك السلاح . وقيل : السائل هو نوح عليّه السلام ، سأل العذاب للكافرين ، وقيل : هو رسول الله ﷺ دعا بالعقاب عليهم ، وقوله : ﴿ بعذاب واقع ﴾ يعنى إما فى الدنيا كيوم بدر أو فى الآخرة .

وقوله : ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب ، أى كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع ، واللام للعلة ، أو يسأل على تضمينه معنى دعا ، أو فى محل رفع على تقدير : هو للكافرين ، أو تكون اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبىّ : « بعذاب واقع على الكافرين » . قال الفرّاء : التقدير : بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة : ﴿ ليس له دافع﴾ صفة أخرى لعذاب ، أو حال منه ، أو مستأنفة ، والمعنى : أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد ، وقوله : ﴿ من الله ﴾ متعلق بواقع ، أى واقع من جهته سبحانه ، أو بدافع ، أى ليس له دافع من جهته تعالى ﴿ ذى المعارج ﴾ أى ذى الدرجات التى تصعد فيها الملائكة ، وقال الكلبى : هى السموات ، وسماها معارج ؛ لأن الملائكة تعرج فيها . وقيل : المعارج : مراتب نعم الله سبحانه على الخلق . وقيل : المعارج : العظمة . وقيل : هى الغرف . وقرأ ابن مسعود : « ذى المعاريج » بزيادة الياء ، يقال : معارج ومعاريج مثل مفاتح ومفاتيح .

﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ أى تصعد فى تلك المعارج التى جعلها الله لهم ، وقرأ الجمهور : ﴿ تعرج ﴾ بالفوقية . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائى والسلمى بالتحتية ، والروح: جبريل ،أفرد بالذكر بعد الملائكة ؛ لشرفه ، ويؤيد هذا قوله:﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء : ١٩٣] وقيل : الروح هنا : ملك آخر عظيم غير جبريل . وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس وليسوا من الناس .وقال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ إليه ﴾ :أى إلى المكان الذى ينتهون إليه .وقيل : إلى عرشه . وقيل : هو كقول إبراهيم : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى ﴾ [الصافات : ٩٩] أى إلى حيث أمرنى ربى ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال ابن إسحاق والكلبى ووهب بن منبه : أى عرج الملائكة إلى المكان الذى هو محلها فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد ، وقال عكرمة : وروى عن مجاهد أن عمر الدنيا هذا المقدار لا يدرى أحدكم كم مضى ولا كم بقى ، ولا يعلم ذلك إلا الله ، وقال قتادة والكلبى ومحمد بن كعب : إن المراد :يوم القيامة ، يعنى : أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه فى ساعته . وقيل : إن مدّة موقف العباد للحساب هى هذا المقدار، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . وقيل : إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة ، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر . وقيل : ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها ، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره كما تصف العرب أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، ويشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة ، والطويل بظل الرمح ، ومنه قول الشاعر :

ويومٍ كظلِّ الرُّمْح قَصَّر طولَه   دَمُ الزّق عنّا واصطفاف المزَاهِر(١)

وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى ليس له دافع من الله ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه ، وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله فى سورة السجدة : ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ [السجدة : ٥] فارجع إليه . وقد قيل فى الجمع : إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة ؛ لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام ، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة ، وإن عرجوا من هذه الأرض التى نحن فيها إلى باطن هذه السماء التى هى سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة ،وسيأتى فى آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال : ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ أى اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرًا جميلا لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله ، وهذا معنى الصبر الجميل . وقيل : هو أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى بأنه مصاب ، قال ابن زيد وغيره : هى منسوخة بآية السيف ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ أى يرون العذاب الواقع بهم،أو يرون يوم القيامة بعيدًا ،أى غير كائن؛ لأنهم لا يؤمنون به،فمعنى ﴿بعيدًا﴾: أى مستبعدا محالا ، وليس المراد : أنهم يرونه بعيدًا غير قريب . قال الأعمش: يرون البعث بعيدا ؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة ،كما تقول لمن تناظره : هذا بعيد ، أى لا يكون . ﴿ونراه قريبا ﴾ أى نعلمه كائنا قريبا ؛ لأن ما هو آت قريب . وقيل : المعنى : ونراه هينا فى قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر .

ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ والظرف متعلق بمضمر دلّ عليه واقع ، أو بدل من قوله : ﴿ فى يوم ﴾ على تقدير تعلقه بواقع ، أو متعلق بقريبا ، أو مقدر بعده ، أى يوم تكون إلخ كان كيت وكيت، أو بدل من الضمير فى نراه ، والأوّل أولى . والتقدير يقع بهم العذاب ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ والمهل : ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة . وقال مجاهد : هو القيح من الصديد والدم . وقال عكرمة وغيره : هو درديّ الزيت ، وقد تقدّم تفسيره فى سورة الكهف والدخان . ﴿ وتكون الجبال كالعهن﴾ أى كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن ؛ إلا إذا كان مصبوغا . قال الحسن : تكون الجبال كالعهن ، وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف . وقيل : العهن: الصوف ذو الألوان ، فشبه الجبال به فى تكوّنها ألوانا ، كما فى قوله : ﴿ جدد بيض وحمر . . . وغرابيب سود ﴾ [فاطر : ٢٧] فإذا بست وطيرت فى الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

(١) الزق : وعاء من جلد، ويريد بدم الزق: الخمر، والمزاهر:العيدان، واصطفت المزاهر:جاوب بعضها بعضا .

﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ أى لا يسأل قريب قريبه عن شأنه فى ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التى أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله ، كما قال سبحانه : ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [عبس : ٣٧] . وقيل : المعنى: لا يسأل حميم عن حميم ، فحذف الحرف ووصل الفعل . قرأ الجمهور: ﴿ لا يسأل ﴾ مبنيا للفاعل . قيل : والمفعول الثانى محذوف والتقدير : لا يسأله نصره ولا شفاعته . وقرأ أبوجعفر وأبو حيوة وشيبة وابن كثير فى رواية عنه على البناء للمفعول ، وروى هذه القراءة البزىّ عن عاصم ، والمعنى : لا يسأل حميم إحضار حميمه . وقيل : هذه القراءة على إسقاط حرف الجرّ ، أى لا يسأل حميم عن حميم ، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وجملة : ﴿يبصرونهم﴾ مستأنفة ، أو صفة لقوله : ﴿حميما﴾ أى يبصر كلّ حميم حميمه ، لا يخفى منهم أحد عن أحد ، وليس فى القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه ، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضا ؛ لاشتغال كل أحد منهم بنفسه . وقال ابن زيد : يبصر الله الكفار فى النار الذين أضلوهم فى الدنيا وهم الرؤساء المتبوعون . وقيل : إن قوله : ﴿يبصرونهم﴾ يرجع إلى الملائكة ، أى يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم ، وإنما جمع الضمير فى يبصرونهم ، وهما للحميمين حملا على معنى العموم ؛ لأنهما نكرتان فى سياق النفى . قرأ الجمهور : ﴿يبصرونهم ﴾ بالتشديد ، وقرأ قتادة بالتخفيف .

ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال : ﴿ يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ﴾ المراد بالمجرم : الكافر ، أو كل مذنب ذنبا يستحق به النار ، لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الذى نزل به ﴿ببنيه . وصاحبته وأخيه ﴾ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يودّ الافتداء من العذاب بمن ذكر . قرأ الجمهور : ﴿ من عذاب يومئذ﴾بإضافة عذاب إلى يومئذ . وقرأ أبوحيوة بتنوين: « عذاب » وقطع الإضافة . وقرأ الجمهور : « يومئذ» بكسر الميم . وقرأ نافع والكسائى والأعرج وأبو حيوة بفتحها ﴿ وفصيلته التى تؤويه﴾ أى عشيرته الأقربين الذين يضمونه فى النسب ، أو عند الشدائد ، ويأوى إليهم . قال أبو عبيد : الفصيلة : دون القبيلة . وقال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون . قال المبرّد : الفصيلة : القطعة من أعضاء الجسد وسميت عشيرة الرجل فصيلة ؛ تشبيهاً لها بالبعض منه، وقال مالك: إن الفصيلة هى التى تربيه ﴿ ومن فى الأرض جميعا ﴾ أى ويودّ المجرم لو افتدى بمن فى الأرض جميعا من الثقلين وغيرهما من الخلائق. وقوله: ﴿ ثم ينجيه ﴾ معطوف على يفتدى ، أى يودّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء، وكان العطف بثم؛لدلالته على استبعاد النجاة .وقيل: إن يود تقتضى جوابا،كما فى قوله: ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم: ٩] والجواب: ﴿ثم ينجيه ﴾ والأوّل أولى.

وقوله: ﴿ كلا ﴾ ردع للمجرم عن تلك الودادة ،وبيان امتناع ما ودّه من الافتداء ،و« كلا » يأتى بمعنى حقا ، وبمعنى لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، والضمير فى قوله : ﴿ إنها

لظى ﴾ عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب ، أوهو ضمير مبهم يفسره ما بعده ، ولظى علم لجهنم ، واشتقاقها من التلظى فى النار وهو التلهب . وقيل : أصله لظظ بمعنى دوام العذاب ، فقلبت إحدى الظائين ألفا . وقيل : لظى : هى الدركة الثانية من طباق جهنم .

﴿**نزاعة للشوى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نزاعة** ﴾ بالرفع على أنه خبر ثان لإنّ ، أوخبر مبتدأ محذوف ، أوتكون لظى بدلا من الضمير المنصوب ، ونزاعة خبر إنّ ، أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علما ، أو يكون الضمير فى إنها للقصة ، ويكون لظى مبتدأ ونزاعة خبره ، والجملة خبر إنّ ، وقرأ حفص عن عاصم وأبو عمرو فى رواية عنه وأبو حيوة والزعفرانى والترمذى وابن مقسم : « نزاعة» بالنصب على الحال . وقال أبو على الفارسى: حمله على الحال بعيد ؛ لأنه ليس فى الكلام ما يعمل فى الحال .وقيل : العامل فيها ما دلّ عليه الكلام من معنى التلظى ، أو النصب على الاختصاص ، والشوى : الأطراف ، أوجمع شواة ، وهى جلدة الرأس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ماله ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ قد جُلِّلَتْ شيبا شَوَاتُه

وقال الحسن وثابت البنانى : ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ : أى لمكارم الوجه وحسنه ، وكذا قال أبو العالية وقتادة . وقال قتادة : تبرى اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئا . وقال الكسائى : هى المفاصل . وقال أبو صالح : هى أطراف اليدين والرجلين ﴿ **تدعومن أدبر** ﴾ أى تدعو لظى من أدبر عن الحقّ فى الدنيا ﴿**وتولى**﴾ أى أعرض عنه . ﴿ **وجمع فأوعى**﴾ أى جمع المال فجعله فى وعائه . قيل : إنها تقول: إلىّ يا مشرك ، إلىَّ يا منافق . وقيل : معنى ﴿ **تدعو** ﴾ : تهلك، تقول العرب : دعاك الله ، أى أهلكك . وقيل : ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من عذابهم . وقيل : المراد: أن خزنة جهنم تدعوا الكافرين والمنافقين فأسند الدعاء إلى النار ، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحلّ . وقيل: هو تمثيل وتخييل ، ولا دعاء فى الحقيقة ، والمعنى : أن مصيرهم إليها ، كما قال الشاعر :

ولقد هبطنا الواد بين قوادنا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ندعو الأنيس به الغصيص الأبكم

والغصيص الأبكم : الذباب ، وهى لا تدعو ، وفى هذا ذمّ لمن جمع المال فأوعاه ، وكنزه ولم ينفقه فى سبل الخير ، أو لم يؤد زكاته .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد والنسائى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿**سأل سائل** ﴾ قال : هو النضر بن الحارث قال : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال : ٣٢] (١). وفى قوله : ﴿ **بعذاب واقع** ﴾ قال : كائن ﴿ **للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج**﴾

---

(١) النسائى فى التفسير (٦٤٠) وإسناده حسن موقوف ، وصححه الحاكم ٥٠٢/٢ على شرط الشيخين ، والذهبى على شرط البخارى .

قال: ذى الدرجات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **سأل سائل** ﴾ قال: سال : واد فى جهنم. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ذى المعارج** ﴾ قال : ذى العلوّ والفواضل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة ، ويوم كان مقداره ألف سنة قال : يعنى بذلك : ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد . فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ،وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام . فذلك أربعة عشر ألف عام . وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله :﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله :﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾ [السجدة : ٥] قال : هذا فى الدنيا تعرج الملائكة فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ، وفى قوله:﴿**فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : لو قدّرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم . قال: يعنى : يوم القيامة. وقد قدّمنا عن ابن عباس الوقف فى الجمع بين الآيتين فى سورة السجدة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى قال : قيل: يا رسول الله ﷺ ، يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » (١) . وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ، وهما ضعيفان . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة مرفوعا قال : ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله :﴿ **فاصبر صبرا جميلا** ﴾ قال : لا تشكو إلى أحد غيرى . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد وابن المنذر، والخطيب فى المتفق والمفترق ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله :﴿ **يوم تكون السماء كالمهل** ﴾ قال: كدردىّ الزيت . وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿**يبصرونهم** ﴾ يعرف بعضهم بعضا ويتعارفون ثم يفرّ بعضهم من بعض . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ قال : تنزع أمّ الرأس .

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

---

(١) أحمد ٣/٧٥ وأبو يعلى (١٣٩٠) وابن جرير ٢٩/٤٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/٣٣٩ : « رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ما فيه من ضعف » .

إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ .

قوله : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا** ﴾ قال فى الصحاح : الهلع فى اللغة : أشدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه . يقال : هلع بالكسر فهو هلع وهلوع على التكثير ، وقال عكرمة : هو الضجور . قال الواحدى : والمفسرون يقولون : تفسير الهلع ما بعده يعنى : قوله : ﴿ **إذا مسه الشرّ جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا** ﴾ أى إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو جزوع ، أى كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك . وقال أبو عبيدة : الهلوع : هو الذى إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشرّ لم يصبر . قال ثعلب : قد فسر الله الهلوع : هو الذى إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع ، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس ، والعرب تقول : ناقة هلوع وهلواع : إذا كانت سريعة السير خفيفته ، ومنه قول الشاعر :

شكاء ذعلبة إذا استدبرتها جرح إذا استقبلتها هلواع

والذعلبة : الناقة السريعة ، وانتصاب هلوعا وجزوعا ومنوعا على أنها أحوال مقدّرة ، أو محققة ؛لكونها طبائع جبل الإنسان عليها ، والظرفان معمولان لجزوعا ومنوعا.﴿ **إلا المصلين** ﴾ أى المقيمين للصلاة . وقيل : المراد بهم: أهل التوحيد ، يعنى: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع ، والجذع ، والمنع ، وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية ؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير .

ثم بينهم سبحانه فقال:﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ أى لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يصرفهم عنها صارف ، وليس المراد بالدوام : أنهم يصلون أبدا . قال الزجاج : هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة، وقال الحسن وابن جريج : هو التطوع منها . قال النخعى: المراد بالمصلين : الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة . وقيل : الذين يصلونها لوقتها ،

والمراد بالآية : جميع المؤمنين . وقيل : الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين . ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم** ﴾ قال قتادة ومحمد بن سيرين : المراد: الزكاة المفروضة . وقال مجاهد: سوى الزكاة . وقيل : صلة الرحم ، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوما وجعله قرينا للصلاة ، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم فى سورة الذاريات مستوفى . ﴿ **والذين يصدقون بيوم الدين** ﴾ أى بيوم الجزاء ، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحدونه . وقيل : يصدقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم فى الطاعات. ﴿**والذين هم من عذاب ربهم مشفقون** ﴾ أى خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاراً لأعمالهم ، واعترافا بما يجب لله سبحانه عليهم . وجملة : ﴿ **إن عذاب ربهم غير مأمون** ﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغى أن يأمنه أحد ، وأن حقّ كل أحد أن يخافه. ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى سورة المؤمنين مستوفى .

﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ أى لا يخلون بشىء من الأمانات التى يؤتمنون عليها ولا ينقضون شيئا من العهود التى يعقدونها على أنفسهم . قرأ الجمهور : ﴿ **لأماناتهم** ﴾ بالجمع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن : « لأمانتهم » بالإفراد ، والمراد : الجنس . ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ أى يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد أو رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، وقد تقدّم القول فى الشهادة فى سورة البقرة . قرأ الجمهور : «بشهادتهم » بالإفراد . وقرأ حفص ويعقوب وهى رواية عن ابن كثير بالجمع . قال الواحدى : والإفراد أولى ؛ لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات .قال الفرّاء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ [الطلاق : ٢] . ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ أى على أذكارها وأركانها وشرائطها لا يخلون بشىء من ذلك . قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها ، وقال ابن جريج : المراد : التطوع ، وكرر ذكر الصلاة ؛ لاختلاف ما وصفهم به أوّلا ، وما وصفهم به ثانيا ، فإن معنى الدوام : هو ألا يشتغل عنها بشىء من الشواغل كما سلف ، ومعنى المحافظة : أن يراعى الأمور التى لا تكون صلاة بدونها . وقيل : المراد :يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرر الموصولات ؛ للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحقّ أن يستقلّ بموصوف منفرد ،والإشارة بقوله:﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿ **فى جنات مكرمون** ﴾ أى مستقرّون فيها مكرمون بأنواع الكرامات ، وخبر المبتدأ قوله:﴿ **فى جنات**﴾ وقوله :﴿ **مكرمون** ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون وفى جنات متعلق به. ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين** ﴾ أى أىّ شىء لهم حواليك مسرعين ، قال الأخفش : مهطعين : مسرعين ، ومنه قول الشاعر :

بمكة أهلها ولقد أراهم إليهم مهطعين إلى السماع

وقيل: المعنى : ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك ولايعملون بما تأمرهم ؟ وقيل : ما بالهم مسرعين إلى التكذيب ؟ وقيل : ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك ويستهزئون بك ؟وقال الكلبى: إن معنى ﴿ **مهطعين** ﴾:ناظرين إليك.وقال قتادة : عامدين. وقيل : مسرعين إليك مادّى أعناقهم مديمى النظر إليك .﴿ **عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾ أى عن يمين النبىّ ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة ،وعزين جمع عزة ، وهى العصبّة من الناس ، ومنه قول الشاعر :

ترانـــا عنـــده والليـــل داج ... على أبوابـــه حلقـــا عـزينـا

وقال الراعى :

أخليفةَ الرحـمنِ إن عـشيرتى ... أمسـى سَرَاتُـهُم إليـــك عــزيـنا

وقال عنترة :

وقرن قد تركـت لـــدى ولـى ... عليه الطير كالعصب العزينا

وقيل : أصلها عزوة من العزو ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى . قال فى الصحاح :والعزة : الفرقة من الناس ، والهاء عوض عن التاء ، والجمع عزى وعزون . وقوله:﴿ **عن اليمين وعن الشمال** ﴾ متعلق بعزين ، أو بمهطعين . ﴿ **أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم** ﴾ قال المفسرون : كان المشركون يقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّ قبلهم ، فنزلت الآية . قرأ الجمهور :﴿ **أن يدخل** ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن وزيد بن على وطلحة بن مصرف والأعرج ويحيى بن يعمر وأبو رجاء وعاصم فى رواية عنه على البناء للفاعل، ثم ردّ الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ أى من القذر الذين يعلمون به فلا ينبغى لهم هذا التكبر . وقيل : المعنى : إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهـو امتثال الأمر والنهـى وتـعريضهم للثواب والعـقـاب ، كـما فـى قـولـه : ﴿ وما خلقـت الجـن والإنس إلا ليعبـدون ﴾ [الذاريات : ٥٩] ، ومنه قول الأعشى :

وأزمعت من آل ليلى ابتكارا ... وشطت على ذى هوى أن يزارا

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن الهلوع فقال: هو كما قال الله :﴿ **إذا مسّه الشرّ جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا**﴾. وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **هلوعا** ﴾ قال : الشره . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال : على مواقيتها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عمران بن حصين : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال : الذى لا يلتفت فى صلاته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عقبة ابن عامر : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا .

وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين** ﴾ قال : ينظرون ﴿ **عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾ قال : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول اللّه ﷺ المسجد ونحن حلق متفرقون فقال ﷺ :« مالى أراكم عزين » (١) . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن سعد وابن أبى عاصم والباوردى وابن قانع والحاكم والبيهقى فى الشعب ، والضياء عن بشر بن جحاش قال :قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين** ﴾ إلى قوله :﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ ثم بزق رسول اللّه ﷺ على كفه ووضع عليها أصبعه وقال : « يقول الله: ابن آدم ، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت: أو أتى أوان الصدقة » (٢) .

﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)** ﴾ .

قوله :﴿ **فلا أقسم** ﴾ « لا » زائدة كما تقدّم قريبا ، والمعنى : فأقسم ﴿ **بربّ المشارق والمغارب** ﴾ يعنى: مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه. قرأ الجمهور:﴿ **المشارق والمغارب** ﴾ بالجمع. وقرأ أبو حيوة وابن محيصن وحميد بالإفراد. ﴿ **إنا لقادرون . على أن نبدّل خيرا منهم**﴾ أى على أن نخلق أمثل منهم ، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء . ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ أى بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر ، ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر. ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا**﴾ أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ، واشتغل بما أمرت به ولا يعظّمن عليك ما هم فيه ، فليس عليك إلا البلاغ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف . قرأ الجمهور : ﴿ **يلاقوا** ﴾ . وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وحميد ومجاهد : « حتى يلقوا ». ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعا** ﴾ يوم بدل من يومهم ، وسراعا منتصب على الحال من ضمير يخرجون .قرأ الجمهور:﴿**يخرجون** ﴾ على البناء للفاعل ، وقرأ السلمى والأعمش والمغيرة وعاصم فى رواية على البناء للمفعول ، والأجداث جمع جدث ، وهو القبر ﴿ **كأنهم إلى نصب يوفضون** ﴾ قرأ الجمهور:« نصب » بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ

(١) مسلم فى الصلاة (١١٩/٤٣٠) وأبو داود فى الأدب (٤٨٢٣) والنسائى فى التفسير (٦٤٢) .

(٢) أحمد ٤/ ٢١٠ وابن ماجة فى الوصايا (٢٧٠٧) وصححه الحاكم ٢/ ٥٠٢ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » والبيهقى فى الشعب (٣١٩٨) وإسناده حسن .

ابن عامر وحفص بضم النون والصاد. وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد . قال فى الصحاح : والنصب ما نصب فعبد من دون اللّه ، وكذا النصب : بالضم ، وقد يحرك . قال الأعشى :

وذا النصب المنصوب لا تعبدنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

والجمع الأنصاب . وقال الأخفش والفراء : النصب جمع النصب ، مثل رهن ورهن ، والأنصاب جمع النصب فهو جمع الجمع . وقيل :النصب جمع نصاب ، وهوحجر أوصنم يذبح عليه ، ومنه قوله :﴿ وما ذبح على النصب ﴾ [المائدة : ٣] .وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد . وقيل : معنى ﴿**إلى نصب**﴾: إلى غاية ، وهى التى تنصب إليها بصرك. وقال الكلبى : إلى شىء منصوب علم أو راية ، أى كأنهم إلى علم يدعون إليه ، أو راية تنصب لهم يوفضون . قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون اللّه لا يلوى أوّلهم على آخرهم . وقال أبو عمرو : النصب : شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته ، ومعنى ﴿ **يوفضون** ﴾ : يسرعون ، والإيفاض : الإسراع ، يقال: أوفض إيفاضا ، أى أسرع إسراعا ، ومنه قول الشاعر :

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجنّ يوفض من عبقر

وعبقر : قرية من قرى الجن كما تزعم العرب ، ومنه قول لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر

وانتصاب ﴿ **خاشعة أبصارهم** ﴾ على الحال من ضمير يوفضون ،وأبصارهم مرتفعة به ، والخشوع :الذلة والخضوع ، أى لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أى تغشاهم ذلة شديدة . قال قتادة : هى سواد الوجوه ، ومنه غلام مراهق : إذا غشيه الاحتلام ، يقال : رهقه بالكسر يرهقه رهقا ، أى غشيه ، ومثل هذا قوله : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ [يونس : ٢٦] والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره . وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾ أى الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به ، وإن كان مستقبلا ، فهو فى حكم الذى قد وقع لتحقق وقوعه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب** ﴾ قال : للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه ، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس وغير مغربها بالأمس. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿ **إلى نصب يوفضون** ﴾ قال : إلى علم يستبقون .

تفسير سورة نوح

هى تسع وعشرون آية ، أو ثمان وعشرون آية . وهى مكية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت سورة ﴿ **إنا أرسلنا نوحا** ﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي
لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا
(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ
اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم
مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا
(١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **إنا أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾ قد تقدّم أن نوحا أوّل رسول أرسله الله، وهو نوح ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم، وقد تقدّم مدة لبثه فى قومه ، وبيان جميع عمره ، وبيان السنّ التى أرسل وهو فيها فى سورة العنكبوت. ﴿**أن أنذر قومك**﴾ أى بأن أنذر على أنها مصدرية، ويجوز أن تكون هى المفسرة ، لأن فى الإرسال معنى القول . وقرأ ابن مسعود ﴿**أنذر**﴾ بدون أن ، وذلك على تقدير القول ، أى فقلنا له: أنذر ﴿ **من قبل أن يأتيهم عذاب أليم** ﴾ أى عذاب شديد الألم ، وهو عذاب النار . وقال الكلبى : هو ما نزل بهم من الطوفان . وجملة : ﴿ **قال يا قوم إنى لكم نذير مبين** ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيا على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال نوح ؟: فقال : قال لهم إلخ . والمعنى : إنى لكم منذر من عقاب الله ومخوّف لكم ومبين لما فيه نجاتكم . ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ « أن » هى التفسيرية لنذير ، أو هى المصدرية ، أى بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره ﴿ **واتقوه** ﴾ أى

اجتنبوا ما يوقعكم فى عذابه ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما آمركم به فإنى رسول إليكم من عند الله .

﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ هذا جواب الأمر ، و« من » للتبعيض ، أى بعض ذنوبكم وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته . وقال السدّى: المعنى: يغفر لكم ذنوبكم ، فتكون « من » على هذا زائدة . وقيل : المراد بالبعض : ما لا يتعلق بحقوق العباد . وقيل : هى لبيان الجنس ، وقيل : يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذى قدره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم ، على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان . وقيل : التأخير بمعنى البركة فى أعمارهم إن آمنوا ، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا . قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم. وقال الزجاج : أى يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب . وقال الفراء : المعنى: لا يميتكم غرقًا ولا حرقًا ولا قتلا ﴿ **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر** ﴾ أى ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء وأنتم باقون على الكفر لا يؤخر بل يقع لا محالة فبادروا إلى الإيمان والطاعة. وقيل: المعنى: إن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان. وقيل: المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب ﴿**لو كنتم تعلمون**﴾ أى شيئًا من العلم، لسارعتم إلى ما أمرتكم به ، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

﴿ **قال ربّ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا** ﴾ أى قال نوح مناديا لربه وحاكيا له ما جرى بينه وبين قومه ، وهو أعلم به منه: إنى دعوت قومى إلى ما أمرتنى بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائما فى الليل والنهار من غير تقصير . ﴿ **فلم يزدهم دعائى إلا فرارا** ﴾ عما دعوتهم إليه وبعدا عنه . قال مقاتل : يعنى : تباعدًا من الإيمان ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء ؛ لكونه سببها كما فى قوله: ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ [الأنفال : ٢] قرأ الجمهور : « **دعائى** » بفتح الياء ، وقرأ الكوفيون ويعقوب والدورى عن أبى عمرو بإسكانها، والاستثناء مفرغ . ﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم** ﴾ أى كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة ، وهو الإيمان بك ، والطاعة لك ﴿**جعلوا أصابعهم فى آذانهم** ﴾ لئلا يسمعوا صوتى ﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾ أى غطوا بها وجوههم لئلا يرونى . وقيل : جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامى ، فيكون استغشاء الثياب على هذا ، زيادة فى سدّ الآذان . وقيل : هو كناية عن العداوة ، يقال : لبس فلان ثياب العداوة. وقيل : استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ **وأصروا** ﴾ أى استمروا على الكفر، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ﴿ **واستكبروا** ﴾ عن قبول الحق ، وعن امتثال ما أمرهم به ﴿ **استكبارا** ﴾ شديدًا .

﴿ **ثم إنى دعوتهم جهارا** ﴾ أى مظهرا لهم الدعوة مجاهرا لهم بها. ﴿ **ثم إنى أعلنت لهم**﴾ أى دعوتهم معلنا لهم بالدعاء ﴿ **وأسررت لهم إسرارا** ﴾ أى وأسررت لهم الدعوة إسرارا كثيرًا. قيل : المعنى : أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سرا فيما بينه وبينه ، والمقصود : أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجع ذلك فيهم . قال مجاهد : معنى

﴿ أعلنت ﴾ : صحت ، وقيل : معنى ﴿ أسررت ﴾ : أتيتهم فى منازلهم فدعوتهم فيها . وانتصاب ﴿جهارا ﴾ على المصدرية ؛ لأن الدعاء يكون جهارا ويكون غير جهار ، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم : قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، أى دعاء جهارا، وأن يكون مصدرا فى موضع الحال ، أى مجاهرا ، ومعنى: « ثم »: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما .قرأ الجمهور: ﴿ إنى ﴾ بسكون الياء ، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها . ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ أى سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿ إنه كان غفارا ﴾ أى كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل : معنى﴿ استغفروا ﴾ : توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين .﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أى يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار . وقيل : المراد بالسماء : المطر كما فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمدرار : الدرور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ، ولم يؤنث لأن مفعالا لايؤنث، تقول : امرأة مئناث ومذكار ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى إرسالا مدرارا ، وقد تقدّم الكلام عليه فى سورة الأنعام ، وجزم يرسل ؛ لكونه جواب الأمر . وفى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق ، ولهذا قال : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ﴾ يعنى : بساتين ﴿ويجعل لكم أنهارا ﴾ جارية . قال عطاء : المعنى : يكثر أموالكم وأولادكم . أعلمهم عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر فى الآخرة ، الخصب والغنى فى الدنيا . ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾ أى أىّ عذرلكم فى ترك الرجاء ، والرجاء هنا بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون الله ، والوقار : العظمة من التوقير وهو التعظيم ، والمعنى : لا تخافون حقّ عظمته فتوحدونه وتطيعونه ، و﴿ لا ترجون ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين ، والعامل فيه معنى الاستقرار فى لكم ، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلى :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبى رباح : ما لكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون منه عقابا ، وقال مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة . قال قطرب : هذه لغة حجازية ، وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج: لم أبل . وقال قتادة : ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان ، وقال ابن كيسان : ما لكم لا ترجون فى عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا . وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدون لله طاعة . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون له نعمة ، وجملة : ﴿ وقد خلقكم أطوارا ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة : نطفة ، ثم مضغة ، ثم

علقة إلى تمام الخلق كما تقدّم بيانه فى سورة المؤمنين ، والطورُ فى اللغة : المرّة ، وقال ابن الأنبارى : الطور الحال وجمعه أطوار : وقيل : أطوارا : صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا . وقيل : الأطوار : اختلافهم فى الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى: كيف تقصرون فى توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ؟ .

﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا** ﴾ الخطاب لمن يصلح له والمراد : الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة . والطباق : المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب : قال الحسن : خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر ، وقد تقدّم تحقيق هذا فى قوله : ﴿ ومن الأرض مثلهنّ ﴾ [الطلاق : ١٢] وانتصاب ﴿ **طباقا** ﴾ على المصدرية ، تقول : طابقه مطابقة ، وطباقاً ، أو حال بمعنى ذات طباق ، فحذف ذات وأقام طباقا مقامه ، وأجاز الفراء فى غير القرآن جرّ ﴿ **طباقا** ﴾ على النعت ﴿ **وجعل القمر فيهنّ نورا**﴾ أى منوّرا لوجه الأرض ، وجعل القمر فى السموات مع كونها فى سماء الدنيا ؛ لأنها إذا كانت فى إحداهنّ ، فهى فيهنّ ، كذا قال ابن كيسان . قال الأخفش : كما تقول : أتانى بنو تميم ، والمراد بعضهم. وقال قطرب : فيهنّ بمعنى معهنّ ، أى خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض ، كما فى قول امرئ القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

أى مع ثلاثة أحوال ﴿ **وجعل الشمس سراجا** ﴾ أى كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك إلى التصرّف فيما يحتاجون إليه من المعاش . ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا** ﴾ يعنى : آدم خلقه الله من أديم الأرض ، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء ؛ لكونه أدل على الحدوث والتكوين ، و﴿ **نباتا** ﴾ إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد ، أو مصدر لفعل محذوف، أى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا . وقال الخليل والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى ، لأن معنى ﴿ **أنبتكم** ﴾ : جعلكم تنبتون نباتا .وقيل : المعنى:والله أنبت لكم من الأرض النبات ، فنباتا على هذا مفعول به ، قال ابن بحر: أنبتهم فى الأرض بكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر.﴿ **ثم يعيدكم فيها** ﴾ أى فى الأرض ﴿ **ويخرجكم إخراجا** ﴾ يعنى: يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة.﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا** ﴾ أى فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم . ﴿**لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾ أى طرقا واسعة ، والفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء وغيره، وقيل : الفج: المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة الأنبياء وفى سورة الحج مستوفى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعلوا**(١) **أصابعهم فى آذانهم** ﴾ قال :

---

(١) فى المخطوطة : « وجعلوا » ، والصحيح ما أثبتناه .

لئلا يسمعوا ما يقول ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ قال : ليتنكروا فلا يعرفهم ﴿ **واستكبروا استكبارا**﴾ قال : تركوا التوبة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحا ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا** ﴾ قال : لا تعلمون لله عظمة . وأخرج ابن جرير والبيهقى عنه أيضا : ﴿ **وقاراً** ﴾ قال : عظمة . وفى قوله: ﴿**وقد خلقكم أطوارا** ﴾ قال : نطفة ثم علقة ثم مضغة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: لا تخافون لله عظمة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لا تخشون له عقابا ولا ترجون له ثوابا .وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن على بن أبى طالب ، أن النبى ﷺ رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر ، فوقف فنادى بأعلى صوته : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا** ﴾[١] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمرو قال : الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك عليكم أنه من كتاب الله: ﴿ **وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضىء لأهل السموات كما تضىء لأهل الأرض .وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله ابن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب فتعاتبا فذهب ذلك . فقال عبد الله بن عمرو لكعب : سلنى عما شئت فلا تسألنى عن شىء إلا أخبرتك بتصديق قولى من القرآن ، فقال له: أرأيت ضوء الشمس والقمر أهو فى السموات السبع كما هو فى الأرض ؟ قال : نعم ، ألم تروا إلى قول الله:﴿ **خلق سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **وجعل القمر فيهنّ نورا** ﴾ قال : وجهه فى السماء إلى العرش وقفاه إلى الأرض . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه : ﴿ **وجعل القمر فيهنّ نورا** ﴾ قال : خلق فيهنّ حين خلقهنّ ضياء لأهل الأرض ، وليس فى السماء من ضوئه شىء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **سبلا فجاجا** ﴾ قال : طرقا مختلفة .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا

---

(١) عبد الرزاق (١١٠٢) .

(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **قال نوح ربّ إنهم عصونى** ﴾ أى استمرّوا على عصيانى ولم يجيبوا دعوتى ، شكاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه وهو أعلم بذلك ﴿ **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾ أى اتبع الأصاغر رؤساءهم ، وأهل الثروة منهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالا فى الدنيا وعقوبة فى الآخرة ، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم وولده بفتح الواو واللام . وقرأ الباقون بسكون اللام ، وهى لغة فى الولد ، ويجوز أن يكون جمعا ، وقد تقدّم تحقيقه ، ومعنى ﴿**واتبعوا** ﴾ : أنهم استمروا على اتباعهم ، لا أنهم أحدثوا الاتباع ﴿**ومكروا مكرا كبارا** ﴾ أى مكرا كبيرا عظيما ، يقال : كبير وكبار وكبار مثل عجيب وعجاب وعجاب ، وجميل وجمال وجمال . قال المبرد : كبارا بالتشديد للمبالغة ، ومثل ﴿**كبارًا**﴾ قراء لكثير القراءة ، وأنشد ابن السكيت :

بيضاء تصطاد القلوب وتستبى ... بالحسن قلب المسلم القراء

قرأ الجمهور : ﴿ **كبارا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد بالتخفيف . قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكرا مكان ذنوب أو أفاعيل ، فلذلك وصفه بالجمع . وقال عيسى بن عمر: هى لغة يمانية . واختلف فى مكرهم هذا ما هو ؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح . وقيل : هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة : لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم . وقال الكلبى : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد . وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم : لا تذرنّ آلهتكم . وقيل : مكرهم : كفرهم . ﴿ **وقالوا لا تذرنّ آلهتكم** ﴾ أى لا تتركوا عبادة آلهتكم ، وهى الأصنام والصور التى كانت لهم ، ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور . ﴿ **ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ أى لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء ؛ لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم . وقال عروة بن الزبير وغيره : إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم ، وكان ودّ أكبرهم ، قال الماوردى : فأما ودّ فهو أوّل صنم معبود ، سمى ودّا ؛ لودّهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ودّ فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ

فى قول قتادة ، وقال المهدوى : لمراد ثم لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان فى قول قتادة وعكرمة وعطاء ، وقال الثعلبى :كان لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار فى همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمدانى :

يَريش الله فى الدنيا ويَبْرى (١)   ولا يَبْرى يعوقُ ولا يريش

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير فى قول قتادة ومقاتل ، قرأ الجمهور : ﴿ ودًّا ﴾ بفتح الواو ، وقرأ نافع بضمها. قال الليث :« ودّ » بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح ، وبه سمى عمرو بن ودّ . قال فى الصحاح . والودّ بالفتح: الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها فى الدال . وقرأ الجمهور : ﴿ ولا يغوث ويعوق ﴾ بغير تنوين . فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين فالعجمة والعلمية . وقرأ الأعمش : « ولا يغوثا ويعوقا » بالصرف . قال ابن عطية : وذلك وهم . ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة ؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها ﴿ وقد أضلوا كثيرا ﴾ أى أضلّ كبراؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الناس . وقيل :الضمير راجع إلى الأصنام ، أى ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم : ﴿ ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ [إبراهيم : ٣٦] وأجرى عليهم ضمير من يعقل ؛ لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل. ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ معطوف على ﴿ ربّ إنهم عصونى ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم ،وقال أبو حيان: إنه معطوف على ﴿ قد أضلوا﴾ ، ومعنى ﴿ إلا ضلالا﴾ : إلا عذابا ، كذا قال ابن بحر ، واستدلّ على ذلك بقوله : ﴿ إنّ المجرمين فى ضلال وسعر ﴾ [القمر : ٤٧] وقيل : إلا خسرانا . وقيل : إلا فتنة بالمال والولد . وقيل : الضياع . وقيل : ضلالا فى مكرهم .

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ « ما » مزيدة للتأكيد ، والمعنى : من خطيئاتهم ، أى من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان ﴿ فأدخلوا نارا ﴾ عقب ذلك وهى نار الآخرة . وقيل : عذاب القبر ، قرأ الجمهور : ﴿ خطيئاتهم ﴾ على جمع السلامة ، وقرأ أبو عمرو : « خطاياهم » على جمع التكسير ، وقرأ الجحدرى وعمرو بن عبيد والأعمش وأبو حيوة وأشهب العقيلى :« خطيئتهم » على الإفراد . قال الضحاك : عذبوا بالنار فى الدنيا مع الغرق فى حالة واحدة ،كانوا يغرقون فى جانب ويحترقون فى جانب . قرأ الجمهور : ﴿ أغرقوا ﴾ من أغرق ، وقرأ زيد بن علىّ : « غرقوا » بالتشديد . ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ أى لم يجدوا أحدا يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم .

﴿ وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ معطوف على ﴿ قال نوح ربّ إنهم عصونى﴾ لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك ، قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى إليه:﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : ٣٦] فأجاب الله دعوته وأغرقهم . وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد

(١) يريش : يرفع ، ويبرى : يخفض .

وعطية : إنما قال هذا حين أخرج الله كلّ مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة، وقيل : بأربعين . قال قتادة : لم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب . وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلا فيهم . ولكن أهلك ذرّيتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب و معنى ﴿ **ديارا** ﴾ : من يسكن الديار ، وأصله ديوار على فيعال ، من دار يدور ، فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما فى الأخرى ، مثل القيام أصله قيوام . وقال القتيبى : أصله من الدار ، أى نازل بالدار ، يقال : ما بالدار ديار ، أى أحد ، وقيل : الديار : صاحب الديار ، والمعنى : لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته ﴿ **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك** ﴾ أى إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحقّ ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ أى إلا فاجرا يترك طاعتك كفارا لنعمتك ، أى كثير الكفران لها ، والمعنى : إلا من سيفجر ويكفر .

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين ، فقال : ﴿ **ربّ اغفر لى ولوالدى** ﴾ وكانا مؤمنين . وأبوه: لامك بن متوشلخ كما تقدّم ، وأمه : سمحاء بنت أنوش . وقيل : أراد : آدم وحواء . وقال سعيد بن جبير : أراد بوالديه : أباه وجدّه. وقرأ سعيد بن جبير : « ولوالدى » بكسر الدال على الإفراد ﴿ **ولمن دخل بيتى** ﴾ قال الضحاك والكلبى : يعنى مسجده . وقيل : منزله الذى هو ساكن فيه . وقيل : سفينته . وقيل : لمن دخل فى دينه ، وانتصاب ﴿ **مؤمنا** ﴾ على الحال ، أى لمن دخل بيتى متصفًا بصفة الإيمان ، فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذى قال : ﴿ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء﴾ [هود: ٤٣] ثم عمم الدعوة فقال: ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ أى واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث . ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين . فقال : ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا تبارا** ﴾ أى لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكا وخسرانا ودمارا ، وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة ، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ قال : هذه الأصنام كانت تعبد فى زمن نوح . وأخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : صارت الأوثان التى كانت تعبد فى قوم نوح فى العرب : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذى كانوا يجلسون فيه أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت (١) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٠) .

تفسير سورة الجن

هى ثمان وعشرون آية . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أوحى إلىّ** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **أوحى** ﴾ رباعيًا . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو إياس والعتكى عن أبى عمرو : « وحى » ثلاثيا ، وهما لغتان . واختلف هل رآهم النبىّ ﷺ أم لم يرهم ؟ فظاهر القرآن لم يرهم ، لأن المعنى : قل يا محمد لأمتك : أوحى إلىّ على لسان جبريل ﴿ **أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ ومثله قوله : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ [الأحقاف : ٢٩] ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم . قال عكرمة : والسورة التى كان يقرؤها رسول الله ﷺ هى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [العلق : ١] وقد تقدّم فى سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة فى هذا ، قوله : ﴿ **أنه استمع نفر من الجن** ﴾ هذا هو القائم مقام الفاعل ، ولهذا فتحت أنّ ، والضمير للشأن ، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجار والمجرور ، والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة . قال الضحاك : والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين . وقال الحسن : إنهم ولد إبليس ، قيل : هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم

النارية والهوائية . وقيل : نوع من الأرواح المجرّدة . وقيل : هى النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول مؤمنى الجنّ الجنة كما يدخل عصاتهم النار لقوله فى سورة تبارك : ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [الملك : ٥] وقول الجنّ فيما سيأتى فى هذه السورة : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن: يدخلون الجنة ، وقال مجاهد : لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار ، والأوّل أولى لقوله فى سورة الرحمن : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ ﴾ [الرحمن:٥٦] وفى سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلا منهم ، بل الرسل جميعا من الإنس وإن أشعر قوله : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [الزمر : ٧١] بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة فى الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بنى آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة .

﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ أى قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم أى سمعنا كلاما مقروءا عجبا فى فصاحته وبلاغته. وقيل :عجبا فى مواعظه . وقيل : فى بركته ، وعجبا مصدر وصف به للمبالغة ،أو على حذف المضاف ،أى ذا عجب ، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أى معجبا ﴿ يهدى إلى الرشد ﴾ أى إلى مراشد الأمور ، وهى الحقّ والصواب . وقيل : إلى معرفة الله ، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿ فآمنا به ﴾ أى صدّقنا به بأنه من عند الله ﴿ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ من خلقه ولا نتخذ معه إلها آخر ؛ لأنه المتفرد بالربوبية ، وفى هذا توبيخ للكفار من بنى آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ولم ينتفع كفار الإنس لا سيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرات متعدّدة وتلاوته عليهم فى أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم لا جرم صرعهم الله أذّل مصرع وقتلهم أقبح مقتل ، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون .

﴿ وأنه تعالى جدّ ربنا ﴾ قرأه حمزة ، والكسائى وابن عامر وحفص وعلقمة ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف والسلمى : ﴿ وأنه تعالى ﴾ بفتح أنّ ، وكذا قرؤوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها ،وذلك أحد عشر موضعا إلى قوله:﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ [الجن:١٩]، وقرأ الباقون بالكسر فى هذه المواضع كلها إلا فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله ﴾[الجن: ١٨]، فإنهم اتفقوا على الفتح ، أما من قرأ بالفتح فى هذه المواضع ، فعلى العطف على محل الجار والمجرور فى ﴿ فآمنا به ﴾ كأنه قيل : فصدّقناه وصدقنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ . وأما من قرأ بالكسر فى هذه المواضع فعلى العطف على ﴿ إنا سمعنا ﴾ أى فقالوا :إنا سمعنا قرآنا ، وقالوا: إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره. واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة الكسر لأنه كله من كلام الجنّ ومما هو محكيّ عنهم بقوله : ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ وقرأ أبو جعفر وشعبة بالفتح فى ثلاثة

مواضع ، وهى : ﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس** ﴾ قالا : لأنه من الوحى ، وكسرا ما بقى لأنه من كلام الجنّ . وقرأ الجمهور ﴿ **وأنه لما قام عبد الله** ﴾ [الجن : ١٩]، بالفتح لأنه معطوف على قوله: ﴿ **أنه استمع** ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وشيبة وزرّ بن حبيش وأبو بكر والمفضل عن عاصم بالكسر فى هذا الموضع عطفا على فآمنا به بذلك التقدير السابق واتفقوا على الفتح فى ﴿ **أنه استمع** ﴾ كما اتفقوا على الفتح فى ﴿ أنّ المساجد﴾ [الجن : ١٨]، وفى : ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ [الجن : ١٦]، واتفقوا على الكسر فى: ﴿ **فقالوا إنا سمعنا** ﴾ و﴿قل إنما أدعو ربى ﴾ [الجن : ٢٠] و : ﴿قل إن أدرى ﴾ [الجن : ٢٥] و : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ﴾ ﴿ الجن: ٢١] .

والجدّ عند أهل اللغة : العظمة والجلال ، يقال : جدّ فى عينى ، أى عظم ، فالمعنى : ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه قال عكرمة ومجاهد . وقال الحسن : المراد : تعالى غناه ، ومنه قيل للحظ : جدّ ، ورجل مجدود ، أى محظوظ وفى الحديث : « ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » (١) قال أبو عبيد والخليل : أى لا ينفع ذا الغنى منك الغنى أى إنما تنفعه الطاعة ، وقال القرطبى والضحاك : جدّه آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدّى : أمره . وقال سعيد بن جبير : ﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ أى تعالى ربنا . وقيل : جدّه : قدرته . وقال محمد بن علىّ بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع بن أنس : ليس لله جدّ ، وإنما قالته الجنّ للجهالة . قرأ الجمهور ﴿ **جدّ** ﴾ بفتح الجيم ، وقرأ عكرمة وأبو حيوة ومحمد بن السميفع بكسر الجيم ، وهو ضدّ الهزل ، وقرأ أبو الأشهب : «جدى ربنا » أى : جدواه ومنفعته ، وروى عن عكرمة أيضا أنه قرأ بتنوين : « جدّ » ورفع « **ربنا** » على أنه بدل من جدّ ﴿ **ما اتخذ صاحبة ولا ولدا** ﴾ هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه . قال الزجاج : تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا ، وكأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذى يتسبون إلى الله الصاحبة والولد ، ونزّهوا الله سبحانه عنهما .

﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا** ﴾ الضمير فى ﴿ **أنه** ﴾ للحديث أو الأمر ، ﴿**وسفيهنا** ﴾ يجوز أن يكون اسم كان ، و ﴿ **يقول** ﴾ الخبر ،ويجوز أن يكون سفيهنا فاعل يقول، والجملة خبر كان ، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر ، ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيههم : عصاتهم ومشركوهم . وقال مجاهد وابن جريج وقتادة : أرادوا به إبليس . والشطط : الغلوّ فى الكفر ، وقال أبو مالك : الجور . وقال الكلبى : الكذب . وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحدّ . ومنه قول الشاعر :

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حيث يممك الوخط (٢)

---

(١) مسلم فى الصلاة (٤٧٧ / ٢٠٥) عن أبى سعيد .
(٢) الوخط : قيل : هو استواء البياض والسواد ، وقيل : هو فشو الشيب فى الرأس ، وقيل غيره .

﴿ **وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذبا** ﴾ أى إنا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكا وصاحبة وولدا ، فلذلك صدّقناهم فى ذلك حتى سمعنا القرآن ، فعلمنا بطلان قولهم وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذبا . على أنه مصدر مؤكد ليقول ، لأن الكذب نوع من القول ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى قولا كذبا . وقرأ يعقوب والجحدرى وابن أبى إسحاق : « أن لـن تقـوّل » من التقوّل ، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعول به ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ** ﴾ قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه فيبيت فى جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية . قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم ﴿ **فزادوهم رهقا** ﴾ أى زاد رجال الجنّ من تعوّذ بهم من رجال الإنس رهقا ، أى سفها وطغيانا ، أو تكبرا وعتّوا ، أو زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقا ؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون سدنا الجنّ والإنس ، وبالأوّل قال مجاهد وقتادة ، بالثانى قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد . والرهق فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق : إذا كان كذلك ، ومنه قولـه:﴿ ترهقهـم ذلـة﴾ [المعارج : ٤٤] أى تغشاهم ، ومنه قول الأعشى :

لا شىء ينفعنى من دون رؤيتها هل يشتفى عاشق ما لم يصب رهقا

يعنى : إثما . وقيل الرهق : الخوف ، أى أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعَوذ بهم خوفا منهم . وقيل : كان الرجل من الإنس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادى ، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجنّ ، فيكون قوله : ﴿ **برجال** ﴾ وصفا لمن يستعيذون به من رجال الإنس ، أى يعوذون بهم من شر الجنّ ، وهذا فيه بعد . وإطلاق لفظ رجال على الجنّ على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاركة . ﴿ **وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا** ﴾ هذا من قول الجنّ للإنس ، أى وإن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث . وقيل : المعنى : وإن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجنّ ، والمعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون. ﴿ **وأنا لمسنا السماء**﴾ هذا من قول الجنّ أيضا ، أى طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا ﴿ **فوجدناها ملئت حرسا** ﴾ من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ، والحرس جمع حارس ،و﴿ **شديدا** ﴾ صفة لـ ﴿**حرسا**﴾ أى قويا ﴿ **وشهبا** ﴾ جمع شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب كما تقدّم بيانه فى تفسير قوله:﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ [الملك: ٥] ومحـل قولـه:﴿ **ملئت حرسًا شديدًا**﴾ النصب على أنه ثانى مفعولى وجدنا ، لأنه يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز أن يكون متعدّيا إلى مفعول واحد ، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد،وحرسا منصوب على التمييز ، ووصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ ، كما يقال : السلف الصالح ، أى الصالحين .

﴿ **وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع** ﴾ أى وأنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع ، أى مواضع نقعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء ، وللسمع متعلق بـ ﴿**نقعد**﴾ أى لأجل السمع ، أو بمضمر هو صفة لمقاعد ، أى مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان ، وذلك أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة ، وهو معنى قوله : ﴿ **فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾ أى أرصد له ليرمى به ، أو لأجله لمنعه من السماع ، وقوله :﴿ **الآن** ﴾ هو ظرف للحال واستعير للاستقبال ، وانتصاب ﴿**رصدا**﴾ على أنه صفة لـ ﴿ **شهابا** ﴾ أو مفعول له ، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم : لم يكن ذلك ، وحكى الواحدى عن معمر قال : قلت للزهرى : أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية ؟ قال: نعم ، قلت : أفرأيت قوله : ﴿ **وأنا كنا نقعد منها** ﴾ الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ . قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ، ولكنه لم يكن مثله فى شدة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون فى بعض الأحوال ،فلما بعث منعوا من ذلك أصلا، وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد ، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ، ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنوّ إلى السماء ، وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين فى الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب ، وقد تقدّم البحث عن هذا .

﴿ **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ لا ندرى أشرّ أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء ، أو أراد بهم ربهم رشدا ؟ أى خيرا . قال ابن زيد : قال إبليس: لا ندرى أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا؟ وارتفاع ﴿ **أشرٌ** ﴾ على الاشتغال ،أو على الابتداء ، وخبره ما بعده ، والأول أولى ، والجملة سادّة مسدّ مفعولى ندرى والأولى أن هذا من قول الجنّ فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد . ﴿ **وأنا منا الصالحون** ﴾ أى قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ : وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح ﴿ **ومنا دون ذلك** ﴾ أى قوم دون ذلك ، أى دون الموصوفين بالصلاح . وقيل : أراد بـ ﴿ **الصالحون** ﴾ المؤمنين ، وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأوّل أولى ، ومعنى ﴿ **كنا طرائق قددا** ﴾ أى جماعات متفرقة وأصنافا مختلفة ، والقدة: القطعة من الشىء ، وصار القوم قددا :إذا تفرقت أحوالهم ، ومنه قول الشاعر :

القابض الباسط الهادى لطاعته ... فى فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى : كنا ذوى طرائق قددا ، أو كانت طرائقنا طرائق قددا ، أوكنا مثل طرائق قددا،

ومـن هـذا قول لبيد :

لـم تبلـغ العـين كـــل نهمتهـا   يـــوم تمشى الجيـاد بالقـــدد

وقوله أيضا :

ولقـــد قـــلت وزيـــد حــاســر   يـوم ولت خيل عمـــرو قـــددا

قال السدّى والضحاك : أديانا مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة ، وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس . وكذا قال مجاهد . قال الحسن : الجنّ أمثالكم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة ، وكذا قال السدّى . ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض** ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين ، أى وإنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله فى الأرض أينما كنا فيها ، ولن نفوته إن أراد بنا أمرا ﴿ **ولن نعجزه هربا** ﴾ أى هاربين منها ، فهو مصدر فى موضع الحال . ﴿ **وأنا لما سمعنا الهدى** ﴾ يعنون : القرآن ﴿ **آمنا به** ﴾ وصدّقنا أنه من عند الله ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس ﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا** ﴾ أى لا يخاف نقصا فى عمله وثوابه ، ولا ظلما ومكروها يغشاه ، والبخس: النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى : لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد فى سيئاته ، وقد تقدم تحقيق الرهق قريبا . قرأ الجمهـور : ﴿ **بخسا** ﴾ بسكـون الخـاء . وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : « فلا يخف » جزما عـلى جـواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء ، والتقدير : فهو لا يخاف والأمر ظاهر .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : انطلق النبىّ ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ (١) ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا بشيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبىّ ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ **فقالوا** ﴾ يا قومنا ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ فأنـزل اللـه عـلى نبيه ﷺ : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن (٢) .

---

(١) هو موضع بقرب مكة ، كانت تقام به فى الجاهلية سوق يقيمون فيه أياما .

(٢) أحمد ١ / ٢٥٢ والبخارى فى الأذان (٧٣٧) ومسلم فى الصلاة (٤٤٩ / ١٤٩) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٣) والنسائى فى التفسير (٦٤٤) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ قال : كانوا من جن نصيبين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ قال : آلاؤه وعظمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أمره وقدرته . وأخرج ابن مردويه والديلمى ، قال السيوطى : بسند واه ،عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا فى قوله: ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ قال : إبليس .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والعقيلى فى الضعفاء ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر عن عكرمة بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة ، وذلك أوّل ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، أنا جارك ، فنادى مناد يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ** ﴾ (١) الآية. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فزادوهم رهقا** ﴾ قال : إثما . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان القوم فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه ، فلا يكون بشىء أشدّ ولعا منهم بهم فذلك قوله : ﴿ **فزادوهم رهقا** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير والطبرانى ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : كانت الشياطين لهم مقاعد فى السماء يسمعون فيها الوحى ، فإذا سمعوا الكلمة زداوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقا ، وأما ما زادوا ، فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم : ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلى بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك** ﴾ يقول : منا المسلم ، ومنا المشرك ، و ﴿ **كنا طرائق قددا** ﴾ أهواء شتى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **فلا يخاف بخسًا ولا رهقا** ﴾ قال: لا يخاف نقصا من حسناته ولا زيادة فى سيئاته.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦)

(١) العقيلى فى الضعفاء ١ / ١٠١ والطبرانى (٤٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٢ : « فيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفى وهو ضعيف » .

(٢) أحمد ١ / ٣٢٣ والترمذى فى التفسير (٣٣٢٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٤٦) وابن جرير ٢٦ / ٢٠ والطبرانى (١٢٤٣١) والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٣٩ .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **وأنا منا المسلمون** ﴾ هم الذين آمنوا بالنبيّ ﷺ . ﴿ **ومنا القاسطون** ﴾ أى الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ، ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال : قسط : إذا جار ، وأقسط : إذا عدل ﴿ **فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا** ﴾ أى قصروا طريق الحق . قال الفراء : أمّوا الهدى . ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ أى وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس . ﴿ **وألوا استقاموا على الطريقة** ﴾ هذا ليس من قول الجنّ بل هو معطوف على : ﴿ **أنه استمع نفر من الجن** ﴾ والمعنى :وأوحى إلىّ أن الشأن لو استقام الجنّ أو الإنس أو كلاهما على الطريقة ، وهى طريقة الإسلام،وقد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح «أن» ههنا . قال ابن الأنبارى : والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها . والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل ، يقال فى الكلام : والله لو قمت لقمت كما فى قول الشاعر :

أما والله أن لو كنت حراً ولا بالحرّ أنت ولا العتيق

قال : أو على ﴿ **أوحى إلىّ أنه استمع** ﴾ ، ﴿ **وأن لو استقاموا** ﴾ أو على ﴿ **آمنا به** ﴾ أى آمنا به ،وبأن لو استقاموا . قرأ الجمهور بكسر الواو من « لو » لا لتقاء الساكنين وقرأ ابن وثاب والأعمش بضمها ﴿ **لأسقيناهم ماء غدقا** ﴾ أى كثيرا واسعا . قال مقاتل: ماء كثيرا من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين . وقال ابن قتيبة : المعنى: لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم فى الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلا لأن الخير كله والرزق بالمطر ، وهذا كقوله: ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾ الآية [المائدة : ٦٥] وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] وقوله : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ﴾ الآية [نوح: ١٠ـ ١٢]. وقيل : المعنى : وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، واختار هذا الزجاج . والماء الغدق : هو الكثير فى لغة العرب .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أى لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم ، وقال الكلبى : المعنى : وأن لو استقاموا على الطريقة التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا ؛ لأوسعنا أرزاقهم مكرا بهم واستدراجا حتى يفتنوا بها فنعذبهم فى الدنيا والآخرة ، وبه قال الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والثمالى ويمان بن زيان وابن كيسان وأبو مجلز ، واستدلوا بقوله : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقوله : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ﴾ الآية [الزخرف : ٣٣] والأوّل أولى ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ أى ومن يعرض عن القرآن ، أو عن العبادة ، أو عن الموعظة ، أو عن جميع ذلك يسلكه ، أى يدخله عذابا صعدا ، أى شاقا صعبا . قرأ الجمهور : « نسلكه » بالنون مفتوحة . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو فى رواية عنه بالياء التحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿ عن ذكر ربه ﴾ ولم يقل : « عن ذكرنا » . وقرأ مسلم بن جندب وطلحة بن مصرف والأعرج بضم النون وكسر اللام ، من أسلكه . وقراءة الجمهور من سلكه ، والصعد فى اللغة المشقة ، تقول : تصعد بى الأمر : إذا شقّ عليك ، وهو مصدر صعد ، يقال : صعد صعدا وصعودا ، فوصف به العذاب مبالغة ، لأنه يتصعد المعذب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ، قال أبو عبيد : الصعد : مصدر أى عذابا ذا صعد ، وقال عكرمة : الصعد: هو صخرة ملساء فى جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما فى قوله : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ [المدثر : ١٧] والصعود : العقبة الكؤود .

﴿ وأن المساجد لله ﴾ قد قدّمنا اتفاق القراء هنا على الفتح فهو معطوف على أنه استمع ، أى وأوحى إلىّ أن المساجد مختصة بالله . وقال الخليل : التقدير : ولأن المساجد ،والمساجد : المواضع التى بنيت للصلاة فيها . قال سعيد بن جبير : قالت الجنّ : كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت .وقال الحسن:أراد بها كل البقاع ؛لأن الأرض كلها مسجد ، وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد ، وهى: القدمان والركبتان واليدان والجبهة ، يقول : هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء . وقيل : المساجد هى الصلاة لأن السجود من جملة أركانها ، قاله الحسن ﴿ فلا تدعو مع الله أحدا ﴾ من خلقه كائنا ما كان .

﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ قد قدّمنا أن الجمهور قرؤوا هنا بفتح أن عطفا على أنه استمع، أى وأوحى إلىّ أنّ الشأن لما قام عبد الله ، وهو النبىّ ﷺ ﴿ يدعوه ﴾ أى يدعوا الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة كما تقدّم حين قام رسول الله ﷺ يصلى ويتلو القرآن ، وقد قدّمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر إن هنا ، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد ﴿ كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ أى كاد الجنّ يكونون على رسول الله لبدا ، أى متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج . ومعنى ﴿ لبدا ﴾ : يركب بعضهم بعضا ، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التى

تفرش . قرأ الجمهور : ﴿ لبدا ﴾ بكسر اللام وفتح الباء ، وقرأ مجاهد وابن محيصن وهشام بضم اللام وفتح الباء ، وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميفع والعقيلي والجحدرى بضم الباء واللام ، وقرأ الحسن وأبو العالية والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة ، فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه ، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى: كثيرا كما فى قوله : ﴿ أهلكت مالا لبدا ﴾ [البلد : ٦] وقيل : المعنى : كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حردا على النبىّ ﷺ . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره، ويتم نوره ، واختار هذا ابن جرير قال مجاهد : ﴿ لبدا ﴾ أى جماعات ، وهو من تلبد الشىء على الشىء ،أى اجتمع ومنه : اللبد الذى يفرش لتراكم صوفه ، وكل شىء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته ،ويقال : للشعر الذى على ظهر الأسد لبدة ، وجمعها لبد ، ويقال:للجراد الكثير لبد ، ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشىء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان: لبد لطول بقائه ، وهو المقصود بقول النابغة:

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

﴿ **قال إنما أدعو ربى** ﴾ أى قال عبد الله : إنما أدعو ربى وأعبده ﴿ **ولا أشرك به أحدا** ﴾ من خلقه . قرأ الجمهور : ﴿ **قال** ﴾ وقرأ عاصم وحمزة : « قل » على الأمر ، وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نخبرك . ﴿ **قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا** ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّا ولا أسوق إليكم خيرا . وقيل : الضرّ الكفر ، والرشد الهدى ، والأوّل أولى لوقوع النكرتين فى سياق النفى ، فهما يعمان كل ضرر ، وكل رشد فى الدنيا والدين . ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد** ﴾ أى لا يدفع عنى أحد عذابه إن أنزله بى ﴿ **ولن أجد من دونه ملتحدا** ﴾ أى ملجأ ومعدلا وحرزا .والملتحد: معناه فى اللغة : المحال ، أى موضعا أميل إليه ، قال قتادة : مولى . وقال السدىّ : حرزا ، وقال الكلبى : مدخلا فى الأرض مثل السرب . وقيل : مذهبا ومسلكا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول الشاعر :

يالهف نفسى ولهفا غير مجدية   عنى وما من قضاء الله ملتحد

والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا بلاغا من الله** ﴾ هو من قوله : ﴿ **لا أملك** ﴾ أى لا أملك ضرّا ولا رشدا إلا التبليغ من الله ، فإن فيه أعظم الرشد ، أو من ملتحدا ، أى لن أجد من دونه ملجأ إلا التبليغ . قال مقاتل : ذلك الذى يجيرنى من عذابه ، وقال قتادة : إلا بلاغا من الله ، فذلك الذى أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . قال الفراء : لكن أبلغكم ما أرسلت به ، ، فهو على هذا منقطع . وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : ﴿ **ملتحدا** ﴾ أى ولن أجد من دونه ملتحدا إلا أن أبلغ ما يأتى من الله ، وقوله : ﴿**ورسالاته** ﴾ معطوفا على ﴿ **بلاغا** ﴾ أى إلا بلاغا من الله وإلا رسالاته التى أرسلنى بها

إليكم ، أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته ، فآخذ نفسى بما آمر به غيرى . وقيل : الرسالات معطوفة على الاسم الشريف ، أى إلا بلاغا من الله وعن رسالاته ،كذا قال أبو حيان ورجحه ﴿ **ومن يعص الله ورسوله** ﴾ فى الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه ﴿ **فإن له نار جهنم** ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها جملة مستأنفة ، وقرئ بفتح الهمزة ، لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، والتقدير : فجزاؤه أن له نار جهنم ، أو فحكمة أن له نار جهنم . وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، أى فى النار أو فى جهنم ، والجمع باعتبار معنى مَنْ ، كما أن التوحيد فى قوله: ﴿ **فإن له** ﴾ باعتبار لفظها ، وقوله:﴿ **أبدا** ﴾ تأكيد لمعنى الخلود ،أى خالدين فيها بلا نهاية ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون** ﴾ يعنى: من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة، والمعنى: لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبى ﷺ والمؤمنين حتى إذا رأوا الذى يوعدون به ﴿ **فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقلّ عددا** ﴾ أى من هو أضعف جندا ينتصر به وأقلّ عددا أهم أم المؤمنون ؟

﴿ **قل إن أدرى أقريب ما توعدون** ﴾ أى ما أدرى أقريب حصول ما توعدون من العذاب ﴿ **أم يجعل له ربى أمدا** ﴾ أى غاية ومدة . أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الذى توعدنا به ؟ قال عطاء : يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده ، والمعنى : أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله . قرأ الجمهور ﴿ **ربى** ﴾ بإسكان الياء ، وقرأ الحرميان وأبو عمرو بفتحها ، « ومن » فى : ﴿ **من أضعف** ﴾ موصولة ، وأضعف خبر مبتدأ محذوف ، أى هو أضعف ، والجملة صلة الموصول ، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء وأضعف خبرها ، والجملة فى محل نصب سادة مسدّ مفعولى أدرى ، وقوله ﴿ **أقريب** ﴾ خبر مقدّم ﴿ **وما توعدون** ﴾ مبتدأ مؤخر .

﴿ **عالم الغيب** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربى ، أو بيان له أو خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررّة لما قبلها من عدم الدراية ، وقرئ بالنصب على المدح . وقرأ السدّى علم الغيب بصيغة الفعل ونصب الغيب ، والفاء فى : ﴿ **فلا يظهر على غيبه أحدا** ﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفردّه بعلم الغيب ، أى لا يطلع على الغيب الذى يعلمه ، وهو ما غاب عن العباد أحدا منهم . ثم استثنى فقال : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول** ﴾ أى إلا من اصطفاه من الرسل أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ليكون ذلك دالا على نبوته . قال القرطبى (١) : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكف ويزجر بالطين ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما

---

(١) القرطبى ١٠ / ٦٨١٩ .

يشاء من غيبه ، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه ، وقال سعيد بن جبير : إلا من ارتضى من رسول هو جبريل ، وفيه بعد . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول** ﴾ فإنه يطلعه على بعض غيبه ، وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة ، لا ما لا يتعلق برسالته من الغيوب ، كوقت قيام الساعة ونحوه . قال الواحدى : وفى هذا دليل على أن من ادّعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما فى القرآن . قال فى الكشاف [١] : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال للكهانة والتنجيم ، لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط .

قال الرازى : وعندى لا دلالة فى الآية على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم فى غيبه ، فتحمل على غيب واحد وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله : ﴿ **أقريب ما توعدون** ﴾ الآية ، فإن قيل : فما معنى الاستثناء حينئذ ؟ قلنا : لعله إذا قربت القيامة يظهره ، وكيف لا وقد قال: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة ، أو هو استثناء منقطع ، أى من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شرّ مردة الجنّ والإنس ، ويدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقا وسطيحا كانا كاهنين وقد عرّفا بحديث النبىّ ﷺ قبل ظهوره وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى . فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات ، وأيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة ويكون صادقا فيها ، وأيضا قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان وسألها عن أمور مستقبلة فأخبرته بها ، فوقعت على وفق كلامها ، قال : وأخبرنى ناس محققون فى علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل ، فكانت على وفق خبرها ، وبالغ أبو البركات فى كتاب التعبير فى شرح حالها وقال : فحصت عن حالها ثلاثين سنة ، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقا ، وأيضا فإنا نشاهد ذلك فى أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك فى السحرة أيضا ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف ، ولو قلنا : إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرّق الطعن إلى القرآن ، فيكون التأويل ما ذكرنا ، انتهى كلامه .

قلت : أما قوله إذ لا صيغة عموم فى غيبه فباطل ، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم كما صرّح به أئمة الأصول وغيرهم ، وأما قوله : أو هو استثناء منقطع فمجرّد

---

(١) الكشاف ٤ / ٦٣٢ .

دعوى يأباه النظم القرآنى ، وأما قوله : إن شقا وسطيحا إلخ ، فقد كانا فى زمن تسترق فيه الشياطين السمع ويلقون ما يسمعونه إلى الكهان فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت فى الحديث الصحيح (١) ، وفى قوله : ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ [الصافات : ١٠] ونحوها من الآيات ، فباب الكهانة قد ورد بيانه فى هذه الشريعة ، وأنه كان طريقا لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية . وقالوا : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾ فباب الكهانة فى الوقت الذى كانت فيه مخصوص بأدلته ، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية ، وأما حديث المرأة الذى أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شىء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد فى الحديث :« إن فى هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » (٢) فيكون كالتخصيص لعموم هذه الاية لا انقضاء لها ، وأما ما أجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله فى آخر كلامه فلو قلنا : إن القرآن يدلّ على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن فيقال له : ما هذه بأوّل زلة من زلاتك ، وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذى صار يتخبطك فى مباحث تفسيرك ياعجبا لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجبا لتطرّق الطعن إلى القرآن ! وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا :

وإذا رامت الذبابة للشمـــ ـــس غطاء مدّت عليها جناحا

وقلت من أبيات :

مهب رياح سده بجناح وقـابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآنى أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه ، فهل للرسول الذى أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته ؟ قلت : نعم ولا مانع من ذلك . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فمن ذلك ما صحّ أنه قام مقاما أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة ، وما ترك شيئا مما يتعلق بالفتن ونحوها . حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه . وكذلك ما ثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتن بعده (٣) ، حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه ، وثبت فى الصحيح وغيره أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التى تموج كموج البحر ، فقال : إن بينك وبينها بابا ، فقال عمر : هل يفتح أو يكسر؟ فقال : بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب ، وأن كسره قتله ، كما فى الحديث الصحيح المعروف

(١) سبق تخريجه فى أول السورة .
(٢) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٩٨ / ٢٣) عن عائشة .
(٣) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩١ / ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) .

أنه قيل لحذيفة : هل كان عمر يعلم ذلك ؟ فقال : نعم كان يعلم أن دون غد الليلة[١] ، وكذلك ما ثبت من إخباره لأبى ذرّ بما يحدث له [٢] ، وإخباره لعلىّ بن أبى طالب بخير ذى الثدية [٣] ، ونحو هذا مما يكثر تعدده ، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقلّ ، وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختصّ بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التى أظهرها الله لرسوله ، وأظهرها رسوله لبعض أمته ، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الربّانى بواسطة الجناب النبوى .

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذى يطلع عليه الرسول فقال : ﴿ **فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء ، والمعنى : أنه يجعل سبحانه بين يدى الرسول ومن خلفه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدى الوحى وخلفه حرسا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين ، فتلقيه إلى الكهنة ، والمراد من جميع الجوانب ، قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا : هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا : هذا رسول ربك ، قال ابن زيد : ﴿ **رصدا** ﴾ أى حفظة يحفظون النبىّ ﷺ من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين ، قال قتادة وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة ، وقال الفراء : المراد جبريل . قال فى الصحاح : الرصد : القوم يرصدون كالحرس يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث ، والرصد للشيء : الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصْدا ورصدا ، والترصد : الترقب ، والمرصد : موضع الرصد .

﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ اللام متعلق بـ ﴿ **يسلك** ﴾ والمراد به : العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذى أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير ﴿ **أبلغوا** ﴾ يعود إلى الرصد ، وقال قتادة ومقاتل : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وفيه حذف تتعلق به اللام ، أى أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ . وقيل : ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط . وقال ابن قتيبة : أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم ، وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ،

---

(١) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩٣ / ٢٦) .
(٢) أحمد ٥ / ١٥٥ وابن حبان (٦٦٣٥) والحاكم ٣ / ٣٤٥ وسكت عنه ، ووافقه الذهبى .
(٣) أحمد ٣ / ٥٦ ومسلم فى الزكاة (١٤٧ / ١٤٨) والنسائى فى الكبرى (٨٥٦٨ / ١) والبيهقى ٨/ ١٧١ وفى دلائله ٦ / ٤٠١ ، ٤٠٢ .

قرأ الجمهور : ﴿ ليعلم ﴾ بفتح التحتية على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب وزيد بن عليّ بضمها على البناء للمفعول ، أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا ، وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته ، أى ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيبا ، وقرأ ابن أبى عبلة والزهرى بضم الياء وكسر اللام ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أى بما عنده الرصد من الملائكة ، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يسلك ﴾ بإضمار قد ، أى والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال : قال سعيد بن جبير : ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته ، ﴿ وأحصى كلّ شىء عددا ﴾ من جميع الأشياء التى كانت والتى ستكون وهو معطوف على أحاط ، وعددا يجوز أن يكون منتصبا على التمييز محوّلا من المفعول به ، أى وأحصى عدد كل شىء كما فى قوله : ﴿وفجرنا الأرض عيونا ﴾ [القمر : ١٢] ويجوز أن يكون منصوبا على المصدرية ، أو فى موضع الحال : معدودًا ، والمعنى : أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال ، بل على وجه التفصيل : أى أحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ القاسطون ﴾ العادلون عن الحقّ . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ وألوا ستقاموا على الطريقة ﴾ قال : أقاموا ما أمروا به ﴿لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ قال : معينا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدّى قال : قال عمر : ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ﴾ قال : حيثما كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿لنفتنهم فيه﴾ قال : لنبتليهم به ، وفى قوله : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابًا صعدا ﴾ قال: شقة من العذاب يصعد فيها . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ يسلكه عذابا صعدا ﴾ قال : حبلا فى جهنم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ﴿ عذابا صعدا ﴾ قال : لا راحة فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيلياء ببيت المقدس .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، عن ابن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى نواحى مكة فخط لى خطا ، وقال : « لا تحدثن شيئا حتى آتيك » ، ثم قال : « لا يهولنك شيئا تراه ، فتقدم شيئا » ، ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزطّ ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : لما سمعوا النبى ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول ،

(١) البيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٢٧ .

فجعل يقرئه : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ [(١)] . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضًا فى الآية قال : لما أتى الجنّ إلى رسول الله ﷺ وهو يصلى بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، فعجبوا من طواعية أصحابه ، فقالوا لقومهم لما قام عبد الله يدعوه : ﴿**كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ [(٢)] . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **لما قام عبد الله يدعوه** ﴾ أى يدعو الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ قال : أعوانا .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول** ﴾ قال : أعلم الله الرسول من الغيب : الوحى وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضًا : ﴿**رصدا** ﴾ قال : هى معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذى أرسل إليهم به، وذلك حتى : يقول أهل الشرك : قد أبلغوا رسالات ربهم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها ، حتى يؤدوها إلى رسول الله ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ يعنى : الملائكة الأربعة ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٢٩ / ٧٤ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٢٣) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٢٩ / ٧٤ وصححه الحاكم ٢ / ٥٠٤ ، ووافقه الذهبى .

تفسير سورة المزمل

هى تسع عشرة آية . وقيل : عشرون آية . وهى مكية . قال الماوردى : كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر ، قال : وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها : ﴿ **واصبر على ما يقولون** ﴾ والتى تليها . وقال الثعلبى : إلا قوله : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم** ﴾ إلى آخر السورة فإنه نزل بالمدينة . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة المزّمل بمكة إلا آيتين : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ...** ﴾ . وأخرج البزار ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة ، فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تصدّون الناس عنه : فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، فتفرّق المشركون على ذلك ، فبلغ النبى ﷺ فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها ، فاتاه جبريل ، فقال : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ ﴿ يأيها المدثر ﴾ [المدثر :١] [(١)] . قال البزار بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرحمن : إن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه ؛ لكنه إذا تفرّد بالأحاديث لا يتابع عليها . وأخرج أبو داود ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : بتُّ عند خالتى ميمونة ، فقام النبى ﷺ يصلى من الليل ، فصلى ثلاث عشرة ركعة ، منها ركعتا الفجر ، فحزرت قيامه فى كل ركعة بقدر ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝٩ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ۝١٤ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٣ : « فيه معلى بن عبد الرحمن الواسطى ، وهو كذاب » .
(٢) أبو داود فى الصلاة (١٣٦٥) والبيهقى فى الصلاة ٣ / ٨ .

السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨)﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها المزّمل** ﴾ أصله المتزمّل فأدغمت التاء فى الزاى ، والتزمل : التلفف فى الثوب . قرأ الجمهور : ﴿**المزمل**﴾ بالإدغام . وقرأ أبى :« المتزمل » على الأصل . وقرأ عكرمة بتخفيف الزاى ، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى أفانين وبله … كبير أناس فى لحاد مزمل

وهذا الخطاب للنبىّ ﷺ ، وقد اختلف فى معناه ، فقال جماعة : إنه كان يتزمل ﷺ بثيابه فى أوّل ما جاءه جبريل بالوحى فرقا منه حتى أنس به . وقيل: المعنى : يأيها المزمل بالنبوة والملتزم بالرسالة ، وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ : « يأيها المزمل » بتخفيف الزاى وفتح الميم مشددّة اسم مفعول . وقيل : المعنى : يأيها المزمل بالقرآن ، وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه . وقيل : بلغه من المشركين سوء قول ، فتزمل فى ثيابه وتدثر ، فنزلت : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ و ﴿ يأيها المدثر ﴾ [المدثر : ١] . وقد ثبت أن النبىّ ﷺ لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة ، فأتى أهله وقال : « زملونى دثرونى » (١) وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب فى أول نزول الوحى .

ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة : ﴿ **قم الليل إلا قليلا** ﴾ أى قم للصلاة فى الليل. قرأ الجمهور : ﴿ **قم** ﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين ، وقرأ أبو السماك بضمها اتباعا لضمة القاف . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأىّ حركة تحرك فقد وقع الغرض ، وانتصاب الليل على الظرفية . وقيل : إن معنى ﴿ **قم** ﴾ : صلّ ، عبر به عنه واستعير له . واختلف هل كان هذا القيام الذى أمر به فرضا عليه أو نفلا ؟ وسيأتى إن شاء الله ما روى فى ذلك . وقوله : ﴿ **إلا قليلا** ﴾ استثناء من الليل ، أى صلّ الليل كله إلا يسيرا منه ، والقليل من الشىء : هو ما دون النصف . وقيل : ما دون السدس، وقيل : ما دون العشر . وقال مقاتل والكلبى : المراد بالقليل هنا: الثلث ، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله: ﴿ **نصفه** ﴾ إلخ، وانتصاب ﴿ **نصفه** ﴾ على أنه بدل من الليل . قال الزجاج : نصفه :بدل من الليل، وإلا قليلا استثناء من النصف ، والضمير فى منه وعليه عائد إلى النصف . والمعنى : قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ، فكأنه قال : قم ثلثى الليل ، أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن نصفه بدل من قوله : ﴿ **قليلا** ﴾ فيكون المعنى : قم الليل إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه . قال الأخفش : نصفه، أى أو نصفه كما يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة ، يريد أو درهمين أو ثلاثة . قال الواحدى : قال المفسرون : أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين ، جعل له سعة فى مدة قيامه فى الليل وخيره فى هذه الساعات

(١) البخارى فى بدء الوحى (٤) ومسلم فى الإيمان (١٦١ / ٢٥٥ ـ ٢٥٨) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٥) عن جابر .

للقيام ، فكان النبىّ ﷺ وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشقّ ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدرى كم صلى أوكم بقى من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم . وقيل : الضميران فى منه وعليه راجعان للأقل من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقلّ ، أو أزيد منه قليلا ، وهو بعيد جدّا . والظاهر أن نصفه بدل من﴿قليلا﴾ والضميران راجعان إلى النصف المبدل من ﴿ قليلا﴾ . واختلف فى الناسخ لهذا الأمر ، فقيل : هو قوله : ﴿إنّ ربّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ﴾ إلى آخر السورة . وقيل : هو قوله : ﴿ علم أن لن تحصوه﴾ وقيل : هو قوله : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وبهذا قال مقاتل والشافعى وابن كيسان . وقيل : هو قوله : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ وذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ، ولو قدر حلب شاة ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى اقرأه على مهل مع تدبر . قال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . قال الزجاج : هو أن يبين جميع الحروف ، ويوفى حقها من الإشباع . وأصل الترتيل : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، وتأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة .

﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ أى سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده ، قال مجاهد : حلاله وحرامه . قال الحسن : العمل به . قال أبو العالية: ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام،وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسبّ آلهتهم، وقال السدىّ :ثقيل: بمعنى كريم، من قولهم : فلان ثقيل علىّ ، أى يكرم علىّ . قال الفراء : ثقيلا: رزينا ليس بالخفيف السفساف ؛ لأنه كلام ربنا ، وقال الحسن بن الفضل : ثقيلا: لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد .وقيل :وصفه بكونه ثقيلا حقيقة ، لما ثبت أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرّى عنه (١) .

﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أى ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أوّلا ، يقال :نشأ الشىء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شىء فهو ناشئ ، وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحاب : إذا بدأت، فناشئة فاعلة من نشأ ينشأ فهى ناشئة . قال الزجاج . ناشئة الليل : كل ما نشأ منه ، أى حدث ، فهو ناشئة . قال الواحدى : قال المفسرون : الليل كله ناشئة ، والمراد : أن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف . وقيل : إن ناشئة الليل هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة ، أى تنهض ، من نشأ من مكانه إذا نهض . وقيل : الناشئة بالحبشية: قيام الليل . وقيل : إنما يقال لقيام الليل : ناشئة ، إذا كان بعد نوم قال ابن الأعرابى إذا نمت من أوّل الليل فقمت فتلك المنشأة والنشأة ، ومنه : ناشئة الليل . قيل :

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥٠٥ ووافقه الذهبى ، وهو عن عائشة .

وناشئة الليل هى : ما بين المغرب والعشاء ؛ لأن معنى نشأ : ابتدأ ، ومنه قول نصيب :

ولولا أن يقال صبا نصيب　　　لقلت بنفسى النشأ الصغار

قال عكرمة وعطاء : إن ناشئة الليل :بدوّ الليل ، وقال مجاهد وغيره : هى فى الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار . واختار هذا مالك . وقال ابن كيسان : هى القيام من آخر الليل . قال فى الصحاح : ناشئة الليل : أوّل ساعاته . وقال الحسن : هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح ﴿ هى أشدّ وطأ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وطأ ﴾ بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ أبو العالية وابن أبى إسحاق ومجاهد وأبو عمرو وابن عامر وحميد وابن محيصن والمغيرة وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، فالمعنى على القراءة الأولى : أن الصلاة فى ناشئة الليل أثقل على المصلى من صلاة النهار ؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة : المعنى : أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار ، ومن قول العرب : اشتدت على القوم وطأة السلطان : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، ومنه قوله ﷺ : «اللهمّ اشدد وطأتك على مضر » (١) ، والمعنى على القراءة الثانية : أنها أشدّ مواطأة ، أى موافقة ، من قولهم : واطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء : إذا وافقته عليه . قال مجاهد وابن أبى مليكة : أى أشد موافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه : ﴿ ليواطئوا عدة ما حرّم الله ﴾ [التوبة : ٣٧] أى ليوافقوا . وقال الأخفش: أشد قياما . وقال الفراء : أى أثبت للعمل ، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبى : أشد نشاطا ﴿وأقوم قيلا ﴾ أى وأشدّ مقالا وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهدوء الأصوات ، وأشد استقامة واستمرارا على الصواب ؛ لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلى ما يقرأه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم . قال أبو على الفارسى : أقوم قيلا ، أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل . قال الكلبى : أى أبين قولا بالقرآن . وقال عكرمة : أى أتمّ نشاطا وإخلاصا وأكثر بركة . وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه فى القرآن . وقيل : أعجل إجابة للدعاء .

﴿ إن لك فى النها سبحا طويلا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ سبحا ﴾ بالحاء المهملة ، أى تصرفا فى حوائجك وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا ، والسبح : الجرى والدوران ، ومنه السباحة فى الماء لتقلبه ببدنه ورجليه ، وفرس سابح ، أى شديد الجرى . وقيل : السبح: الفراغ ، أى إن لك فراغا بالنهار للحاجات ، فصلّ بالليل . قال ابن قتيبة : أى تصرّفا وإقبالا وإدبارا فى حوائجك وأشغالك . وقال الخليل : إن لك فى النهار سبحا . أى نوما ، والتسبح : التمدّد . قال الزجاج : المعنى: إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ للاستدراك ، وقرأ يحيى بن

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٨٦) ومسلم فى المساجد (٦٧٥ / ٢٩٤) وأبو داود فى الصلاة (١٤٤٢) عن أبى هريرة .

يعمر وأبو وائل وابن أبى عبلة : « سبخا » بالخاء المعجمة . قيل : ومعنى هذه القراءة: الخفة والسعة والاستراحة . قال الأصمعى : يقال : سبخ الله عنك الحمّى ، أى خففها ، وسبخ الحر: فتر وخف ، ومنه قول الشاعر :

فسبخ عليك الهمّ واعلم بأنــه   إذا قدّر الرحمن شيئا فكـائـن

أى خفف عنك الهمّ ، والتسبيخ من القطن: ما ينسج بعد الندف ، ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما   تذرى سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب :السبخ بالخاء المعجمة : التردد والاضطراب ، والسبح : السكون ، وقال أبو عمرو : السبخ : النوم والفراغ. ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أى ادعه بأسمائه الحسنى . وقيل : اقرأ باسم ربك فى ابتداء صلاتك . وقيل : اذكر اسم ربك فى وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته . وقيل : المعنى : دم على ذكر ربك ليلا ونهارا واستكثر من ذلك . وقال الكلبى : المعنى : صلّ لربك ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ أى انقطع إليه انقطاعا بالاشتغال بعبادته ، والتبتل:الانقطاع ، يقال: بتلت الشيء ، أى قطعته وميزته من غيره ، وصدقة بتلة ، أى منقطعة من مال صاحبها، ويقال : للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، ومنه قول الشاعر :

تضيء الظلام بالعشاء كأنهــا   منـارة ممسـى راهـب متبتــل

ووضع ﴿ تبتيلا ﴾ مكان تبتلا لرعاية الفواصل . قال الواحدى : التبتل : رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله . ﴿ ربّ المشرق والمغرب ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر وابن عامر بجرّ ربّ على النعت لربك أو البدل منه أو البيان له. وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ ، وخبره :﴿ لا إله إلا هو ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى هو ربّ المشرق . وقرأ زيد بن علىّ بنصبه على المدح . وقرأ الجمهور : ﴿ المشرق والمغرب ﴾ مفردين . وقرأ ابن مسعود وابن عباس : « المشارق والمغارب » على الجمع . وقد قدّمنا تفسير المشرق والمغرب ، والمشرقين والمغربين ، والمشارق والمغارب ﴿ فاتخذه وكيلا ﴾ أى إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلا ، أى قائما بأمورك ، وعوّل عليه فى جميعها . وقيل : كفيلا بما وعدك من الجزاء والنصر .﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ من الأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك ﴿واهجرهم هجرا جميلا﴾ أى لا تتعرّض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم . وقيل : الهجر الجميل: الذى لا جزع فيه . وهذا كان قبل الأمر بالقتال .

﴿ وذرني والمكذبين ﴾ أى دعنى وإياهم ولا تهتم بهم فإنى أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم . قيل : نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة وقد تقدم ذكرهم . وقال يحيى بن سلام : هم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم اثنا عشر ﴿ أولى النعمة ﴾ أى أرباب الغنى والسعة والترفه واللذة فى الدنيا ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ أى تمهيلا قليلا على أنه نعت

لمصدر محذوف ، أو زمانا قليلا على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى : أمهلهم إلى انقضاء آجالهم . وقيل : إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، والأول أولى لقوله : ﴿ **إنّ لدينا أنكالا** ﴾ وما بعده فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل وهو القيد ، كذا قال الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال ، والأوّل أعرف في اللغة ، ومنه قول الخنساء :

أتوك فقطعت أنكالهم وقد كنّ قبلك لا تقطع

وقال مقاتل : هي أنواع العذاب الشديد ، وقال أبو عمران الجوني : هي قيود لا تحلّ ﴿**وجحيما** ﴾ أي نارا مؤججة ﴿ **وطعاما ذا غصة** ﴾ أي لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه ، فلا ينزل ولا يخرج . قال مجاهد : هو الزقوم . وقال الزجاج : هو الضريع ،كما قال : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية : ٦] قال : وهو شوك العوسج . قال عكرمة: هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج ، والغصة : الشجا في الحلق ، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره ، وجمعها غصص ﴿ **وعذابا أليما** ﴾ أي ونوعا آخر من العذاب غير ما ذكر . ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال** ﴾ انتصاب الظرف إما بذرني ، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا ، أو هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف ، أي عذابا واقعا يوم ترجف ، أو متعلق بـ﴿ **أليما** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **ترجف** ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مبنيا للفاعل . وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول ، مأخوذ من أرجفها ، والمعنى : تتحرك وتضطرب بمن عليها ، والرجفة : الزلزلة والرعدة الشديدة ﴿ **وكانت الجبال كثيبا مهيلا** ﴾ أي وتكون الجبال ، وإنما عبر عنه بالماضي ؛ لتحقق وقوعه ، والكثيب : الرمل المجتمع ، والمهيل : الذي يمرّ تحت الأرجل . قال الواحدي: أي رملا سائلا . يقال لكل شيء أرسلته إرسالا من تراب أو طعام: أهلته هيلا . قال الضحاك والكلبي : المهيل : الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال، ومنه قول حسان :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي في الورق القشيب

﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم** ﴾ الخطاب لأهل مكة أو للكفار العرب أو لجميع الكفار . والرسول محمد ﷺ ، والمعنى : يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم ﴿ **كما أرسلنا إلى فرعون رسولا** ﴾ يعني : موسى . ﴿**فعصى فرعون الرسول** ﴾ الذي أرسلناه إليه وكذبه ولم يؤمن بما جاء به ، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه ﴿**فأخذناه أخذا وبيلا** ﴾ أي شديدا ثقيلا غليظا ، والمعنى : عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق ، وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به وإن اختلف نوع العقوبة . قال الزجاج : أي ثقيلا غليظا، ومنه قيل للمطر : وابل .وقال الأخفش : شديدا ،والمعنى متقارب ،ومنه طعام وبيل :

إذا كان لا يستمرأ، ومنه قول الخنساء :

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فوارس مالك أكلا وبيلا

﴿ **فكيف تتقون** ﴾ أى كيف تقون أنفسكم ﴿ **إن كفرتم** ﴾ أى إن بقيتم على كفركم ﴿**يوما**﴾ أى عذاب يوم ﴿**يجعل الولدان شيبا** ﴾ لشدّة هوله ، أى يصير الولدان شيوخا ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة ، وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلا ؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ فى الضعف وسقوط القوّة ، وفى هذا تقريع لهم شديد وتوبيخ عظيم . قال الحسن : أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم ؟ وكذا قرأ ابن مسعود وعطية ، ويوما مفعول به لتتقون . قال ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم بـ﴿كفرتم﴾، وهذا قبيح ، والولدان : الصبيان ، ثم زاد فى وصف ذلك اليوم بالشدّة فقال : ﴿ **السماء منفطر به** ﴾ أى متشققة به لشدّته وعظيم هوله ، والجملة صفة أخرى ليوم ، والباء سببية. وقيل : هى بمعنى فى ، أى منفطر فيه . وقيل : بمعنى اللام ، أى منفطر له ، وإنما قال : ﴿ **منفطر** ﴾ ولم يقل: « منفطرة »؛ لتنزيل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت ، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل : « منفطرة »؛ لأن مجازها السقف ، كما قال الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوما لحقنا بالسماء وبالسحاب

فيكون هذا كما فى قوله : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ [الأنبياء : ٣٢] . وقال الفراء : السماء تذكر وتؤنث، وقال أبو علىّ الفارسى : هو من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر ، و ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر: ٢٠] قال أيضا: أى السماء ذات انفطار كقولهم: امرأة مرضع ، أى ذات إرضاع على طريق النسب ، وانفطارها؛ لنزول الملائكة، كما قال: ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : ١] ، وقوله : ﴿ السموات يتفطرن من فوقهنّ ﴾ [الشورى : ٥]. وقيل : منفطر به ، أى بالله والمراد : بأمره ، والأوّل أولى ﴿ **كان وعده مفعولا** ﴾ أى وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائنا لا محالة ، والمصدر مضاف إلى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولا ، فالمصدر مضاف إلى مفعوله ، وقال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، والبيهقى فى سننه عن سعد بن هشام قال . قلت لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ ؟ قلت : بلى، قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ،

وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهراً ، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضه . وقد روى هذا الحديث عنها من طرق (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ومحمد بن نصر والطبرانى ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت أوّل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : لما نزلت : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾ فاستراح الناس .

وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن نصر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : فى المزمل : ﴿ **قم الليل إلا قليلا .نصفه** ﴾ نسختها الآية التى فيها: ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمل : ٢٠] وناشئة الليل: أوّله ، كان صلاتهم أوّل الليل ، يقول : هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ ، وقوله : ﴿ **أقوم قيلا** ﴾ هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن ، وقوله : ﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلا** ﴾ يقول : فراغا طويلا . وأخرج الحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **يأيها المزمل**﴾ قال : زملت هذا الأمر فقم به . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية أيضا قال : يتزمل بالثياب . وأخرج الفريابى عن أبى صالح عنه أيضا : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ قال : تقرأ آيتين ثلاثا ثم تقطع لا تهدر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن منيع فى مسنده ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ومحمد بن نصر عنه أيضا : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ قال : بينه تبيينا . وأخرج العسكرى فى المواعظ عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا نحوه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر ، والحاكم وصححه عن عائشة : أن النبىّ ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسرّى عنه ، وتلت : ﴿ **إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا** ﴾ (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**إنّ ناشئة الليل** ﴾ قال : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا : نشأ . وأخرج البيهقى عنه قال : ﴿ **ناشئة الليل** ﴾ أوّله . وأخرج ابن المنذر وابن نصر عنه أيضا قال : الليل كله ناشئة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ﴿ **ناشئة الليل**﴾ بالحبشة : قيام الليل . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن نصر ، والبيهقى فى

(١) أحمد ٦ / ٥٤ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦ / ١٣٩) وأبو داود فى الصلاة (١٣٤٢) والنسائى فى التفسير (٦٤٧) والبيهقى فى السنن ٣ / ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) ابن أبى شيبة (١٧٧٩١) وابن جرير ٢٩/ ٧٨وصححه الحاكم ٢/ ٥٠٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢/ ٥٠٠ .
(٣) أحمد ٦ / ١١٨ وابن جرير ٢٩ / ٨٠ وصححه الحاكم ٢ / ٥٠٥ ووافقه الذهبى .

سننه عن أنس بن مالك قال : ﴿ ناشئة الليل ﴾ ما بين المغرب والعشاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنّ لك في النهار سبحا طويلا ﴾ قال : السبح: الفراغ للحاجة والنوم . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ﴾ لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر [١]. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود : ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ قال : قيودا. وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عباس : ﴿ وطعاما ذا غصة ﴾ قال : شجرة الزقوم . وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ كثيبا مهيلا ﴾ قال : المهيل: الذي إذا أخذت منه شيئا تبعك آخره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا: ﴿ كثيبا مهيلا ﴾ قال : الرمل السائل ، وفي قوله: ﴿ أخذا وبيلا ﴾ قال : شديدا .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ يجعل الولدان شيبا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار ، قال : من كم يارب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين وينجو واحد » ، فاشتدّ ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم : « إن بني آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم » [٢] . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : ممتلئة بلسان الحبشة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : مثقلة موقرة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضًا في الآية قال : يعني : تشقق السماء .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾ .

---

(١) أبو يعلى (٤٥٧٨) وابن جرير ٢٩ / ٨٤ وصححه الحاكم ٤ / ٥٩٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) الطبراني (١٢٠٣٤) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ١٣٣ : « فيه عثمان بن عطاء الخراساني ، وهو ضعيف » وقال ابن كثير ٧ / ١٤٩ : « هذا حديث غريب » .

الإشارة بقوله : ﴿ **إن هذه** ﴾ إلى ما تقدّم من الآيات ، والتذكرة: الموعظة ، والإشارة إلى جميع آيات القرآن لا إلى ما فى هذه السورة فقط ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ أى اتخذ بالطاعة التى أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقا توصله إلى الجنة . ﴿ **إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل** ﴾ معنى ﴿ **أدنى** ﴾ : أقلّ ، استعير له الأدنى ؛ لأن المسافة بين السنين إذا دنت قلّ ما بينهما ﴿ **ونصفه** ﴾ معطوف على أدنى ﴿ **وثلثه** ﴾ معطوف على نصفه ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقلّ من ثلثى الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه ، وبالنصب قرأ ابن كثير والكوفيون ، وقرأ الجمهور : « ونصفه وثلثه » بالجرّ عطفا على ثلثى الليل ، والمعنى: أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقلّ من ثلثى الليل وأقلّ من نصفه وأقلّ من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه ؟ وقال الفرّاء : القراءة الأولى أشبه بالصواب ؛ لأنه قال : أقل من ثلثى الليل، ثم فسر نفس القلة ﴿ **وطائفة من الذين معك** ﴾ معطوف على الضمير فى تقوم ، أى وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك .

﴿ **والله يقدّر الليل والنهار** ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ويختص بذلك دون غيره وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة . قال عطاء : يريد لا يفوته علم ما تفعلون ، أى أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم قدر الذى تقومون من الليل ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ أن لن تطيقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة ، وفى أن ضمير شأن محذوف ، وقيل : المعنى : لن تطيقوا قيام الليل . قال القرطبى : والأوّل أصحّ ، فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل وغيره : لما نزل : ﴿ **قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه** ﴾ شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم فرحمهم الله وخفف عنهم فقال : ﴿**علم أن لن تحصوه** ﴾ أى علم أن لن تحصوه لأنكم إن زدتم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضا،وإن نقصتم شق ذلك عليكم . ﴿ **فتاب عليكم** ﴾ أى فعاد عليكم بالعفو ، ورخص لكم فى ترك القيام . وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة: الرجوع كما تقدّم ،فالمعنى : رجع لكم من التثقيل إلى التخفيف [١] ، ومن العسر إلى اليسر.

﴿ **فاقرؤوا ما تيسر من القرآن** ﴾ أى فاقرؤوا فى الصلاة بالليل ماخف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتا. قال الحسن : هو ما نقرأ فى صلاة المغرب والعشاء . قال السدى : ما تيسر منه هو مائة آية . قال الحسن أيضا : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن . وقال كعب : من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية . وقيل : معنى ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه** ﴾ : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرآنا ،كقوله: ﴿ وقرآن الفجر ﴾ [الإسراء : ٧٨] . قيل : إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه ،

---

(١) فى المطبوعة : « التخويف » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

والنقصان من النصف ، والزيادة عليه ، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضا ثابتا ، ويحتمل أن يكون منسوخا لقوله : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . قال الشافعي : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدلّ على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس . وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ فى حقه ﷺ وفى حق أمته . وقيل : نسخ التقدير بمقدار ، وبقى أصل الوجوب . وقيل : إنه نسخ فى الأمة ، وبقى فرضا فى حقه ﷺ ، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم فى حقه ﷺ وفى حق أمته ، وليس فى قوله : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه** ﴾ ما يدل على بقاء شىء من الوجوب لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن : فقد وجدت فى صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل: فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوّع . وأيضا الأحاديث الصحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول الله ﷺ : هل علىّ غيرها ؟ يعنى : الصلوات الخمس. فقال : « لا ، إلا أن تطوّع » [(١)] تدل على عدم وجوب غيرها ، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة كما ارتفع وجوب ذلك على النبىّ ﷺ بقوله : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ [الإسراء : ٧٩] قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾ كان هذا فى صدر الإسلام ، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين ، وثبت على النبىّ ﷺ خاصة، وذلك قوله : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال : ﴿ **علم أن سيكون منكم مرضى** ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ﴿ **وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله** ﴾ أى يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه فى معاشهم فلا يطيقون قيام الليل ﴿ **وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** ﴾ يعنى : المجاهدين ، فلا يطيقون قيام الليل ، ذكر سبحانه ها هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ، ورفع وجوب قيام الليل ، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التى تنوب بعضهم . ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه** ﴾ وقد سبق تفسيره قريبا ، والتكرير للتأكيد ﴿**وأقيموا الصلاة** ﴾ يعنى :المفروضة وهى الخمس لوقتها ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ يعنى : الواجبة فى الأموال ، وقال الحارث العكلى : هى صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوّع . وقيل : كل أفعال الخير ﴿**وأقرضوا الله قرضا حسنا** ﴾ أى أنفقوا فى سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا ، وقد مضى تفسيره فى سورة الحديد . قال زيد بن أسلم : القرض الحسن : النفقة على الأهل . وقيل : النفقة فى الجهاد . وقيل : هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن ، فيكون تفسيرا لقوله : ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ والأول أولى لقوله : ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله** ﴾ فإن ظاهره

---

(١) البخارى فى الإيمان (٤٦) ومسلم فى الإيمان (١١ / ٨ ، ٩) وأبو داود فى الصلاة (٣٩١) والنسائى ١/ ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

العموم ، أى أىّ خير كان مما ذكر ومما لم يذكر ﴿ هو خيرا وأعظم أجرا ﴾ مما تؤخرونه إلى عند الموت أو توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب ﴿خير﴾ على أنه ثانى مفعولى تجدوه ، وضمير هو ضمير فصل ، وبالنصب قرأ الجمهور وقرأ أبو السماك وابن السميفع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ وخير خبره ، والجملة فى محل نصب على أنها ثانى مفعولى تجدوه ، قال أبو زيد : وهى لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وأنشد سيبويه :

تحنّ إلى ليلى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملاء أنت أقدر

وقرأ الجمهور أيضا :﴿ وأعظم ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ خيرا ﴾ . وقرأ أبو السماك بالرفع كما قرأ برفع « خير» وانتصاب ﴿ أجرا ﴾ على التمييز ﴿ واستغفروا الله ﴾ أى اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم فإنكم لاتخلون من ذنوب تقترفونها ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى كثير المغفرة لمن استغفره ،كثير الرحمة لمن استرحمه.

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس عن النبى ﷺ ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ قال : «مائة آية » [١] .[قال ابن كثير : هذا حديث غريب جدا لم أره إلا فى معجم الطبرانى] [٢] . وأخرج الدارقطنى والبيهقى فى سننه وحسناه عن قيس بن أبى حازم قال: صليت خلف ابن عباس . فقرأ فى أول ركعة بالحمد لله ربّ العالمين ، وأول آية من البقرة ثم ركع ، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إن الله يقول: ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾[٣]. وأخرج أحمد ، والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر [٤] . وقد قدّمنا فى البحث الأوّل من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هى الناسخة لوجوب قيام الليل ، فارجع إليه .

---

(١) الطبرانى (١٠٩٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣٣ : « فيه عبد الرحمن بن طاووس ولم أعرفه ، وبقية رجاله وثقوا » وقال ابن كثير ٧ / ١٥١ : « هذا حديث غريب جدا لم أره إلا فى معجم الطبرانى » .

(٢) ما بين المعقوفتين ورد فى المخطوطة بعد حديث قيس بن أبى حازم ، والصحيح ما أثبتناه كما فى ابن كثير ١٥١/٧ .

(٣) الدارقطنى ١ / ٣٣٨ وقال : « هذا إسناد حسن » والبيهقى ٢ / ٤٠ .

(٤) أحمد ٣ / ٣ ، ٤٥ ، ٩٧ والبيهقى ٢ / ٦٠ .

تفسير سورة المدثر

هى ست وخمسون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المدثر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وسيأتى أن أول هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ⑧ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ⑯ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ⑰ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ㉕ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ㉖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ㉗ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ㉘ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ㉙ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ㉚ ﴾ .

قال الواحدى : قال المفسرون : لما بدئ رسول الله ﷺ بالوحى أتاه جبريل ، فرآه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ ، ففزع ووقع مغشيًا عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه ، وقال : «دثرونى دثرونى » ، فدثروه بقطيفة، فقال : ﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر ﴾ ومعنى ﴿يأيها المدثر ﴾ : يأيها الذى قد تدثر بثيابه ، أى تغشى بها ، وأصله المتدثر ، فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما . وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبى «المتدثر» على الأصل ، والدثار : هو ما يلبس فوق الشعار ، والشعار : هو الذى يلى الجسد ، وقال عكرمة : المعنى يأيها المدثر بالنبوّة وأثقالها . قال ابن العربى : وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبيا إذ ذاك ﴿ قم فأنذر ﴾ أى انهض فخوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم . وقيل : الإنذار هنا: هو إعلامهم بنبوّته . وقيل : إعلامهم بالتوحيد ، وقال الفراء : المعنى : قم فصلّ وأمر بالصلاة . ﴿وربك فكبر ﴾ أى واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار وأعظم من أن يكون له صاحبة ، أو ولد . قال ابن العربى : المراد به : تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد

والأصنام ولا يتخذ وليا غيره ولايعبد سواه ، ولا يرى لغيره فعلا إلا له ، ولا نعمة إلا منه . قال الزجاج : إن الفاء فى: ﴿ فكبر ﴾ دخلت على معنى الجزاء كما دخلت فى: ﴿ فأنذر ﴾ . وقال ابن جنى : هو كقولك : زيدا فاضرب ،أى زيدا اضرب فالفاء زائدة . ﴿ وثيابك فطهر﴾ المراد بها : الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوى ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها من النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها . وقيل : المراد بالثياب : العمل . وقيل : القلب. وقيل : النفس . وقيل : الجسم . وقيل : الأهل . وقيل : الدين . وقيل : الأخلاق . قال مجاهد وابن زيد وأبو رزين : أى عملك فأصلح . وقال قتادة : نفسك فطهر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس . وقال سعيد بن جبير : قلبك فطهر ، ومن هذا قول امرئ القيس :

فسلى ثيـابى من ثيابك تنسل

وقال عكرمة: المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة . وقال : أما سمعت قول الشاعر :

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجـر   لبست ولا من غـدرة أتقنـع

والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفى ، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنترة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحـرّم

وقول الآخر :

ثياب بنى عوف طهارى نقية

وقال الحسن والقرظى : إن المعنى : وأخلاقك فطهر ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه ، ومنه قول الشاعر :

ويحيـى لا يـلام بسـوء خـلق   ويحيى طـاهر الأثـواب حـر

وقال الزَجاج : المعنى : وثيابك فقصر ، لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض ، وبه قال طاوس، والأوّل أولى لأنه المعنى الحقيقى ، وليس فى استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدلّ على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس فى مثل هذا الأصل ، أعنى : الحمل على الحقيقة عند الإطلاق ، خلاف . وفى الآية دليل على وجوب طهارة الثياب فى الصلاة . ﴿ والرجز فاهجر ﴾ الرجز: معناه فى اللغة : العذاب ، وفيه لغتان: كسر الراء وضمها ، وسمى الشرك وعبادة الأصنام رجزًا؛ لأنها سبب الرجز . قرأ الجمهور : ﴿ الرجز ﴾ بكسر الراء ، وقرأ الحسن ومجاهد وعكرمة وحفص وابن محيصن بضمها ، وقال مجاهد وعكرمة : الرجز : الأوثان كما فى قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : ٣٠] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعى : الرجز : المأثم ، والهجر : الترك . وقال قتادة: الرجز : إساف ونائلة وهما صنمان كانا عند البيت ، وقال أبوالعالية والربيع والكسائى:

الرجز بالضم : الوثن ، وبالكسر : العذاب، وقال السدّى : الرجز بضم الراء : الوعيد ، والأول أولى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ ولا تمنن ﴾ بفك الإدغام ، وقرأ الحسن وأبو اليمان والأشهب العقيلى بالإدغام، وقرأ الجمهور : ﴿ تستكثر ﴾ بالرفع على أنه حال ، أى ولا تمنن حال كونك مستكثرا . وقيل : على حذف أن ، والأصل : ولا تمنن أن تستكثر فلما حذفت رفع ، وقال الكسائى : فإذا حذف أن رفع الفعل ،وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : « تستكثر » بالنصب على تقدير أن وبقاء عملها . ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود : « ولا تمنن أن تستكثر » بزيادة أن ، وقرأ الحسن أيضا وابن أبى عبلة : « تستكثر » بالجزم على أنه بدل من تمنن كما فى قوله : ﴿ يلق أثاما . يضاعف له ﴾ [الفرقان : ٦٨ ، ٦٩] وقول الشاعر :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديـارنـا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف ، كما فى قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

بتسكين أشرب . وقد اعترض على هذه القراءة ؛ لأن قوله : ﴿ تستكثر ﴾ لايصح أن يكون بدلا من تمنن ، لأن المنّ غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جوابا للنهى .

واختلف السلف فى معنى الآية، فقيل : المعنى : لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير . وقيل : لا تعط عطية تلتمس فيها أفضل منها قاله عكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرّمه الله على رسوله ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجلّ الأخلاق ، وأباحه لأمته. وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، من قولك : حبل متين : إذا كان ضعيفا . وقال الربيع بن أنس : لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير ، وقال ابن كيسان : لا تستكثر عملا فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته . وقيل : لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثره ،وقال محمد بن كعب : لا تعط مالك مصانعة ، وقال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك .

﴿ ولربك فاصبر ﴾ أى لوجه ربك فاصبر على طاعته وفرائضه ، والمعنى : لأجل ربك وثوابه ، وقال مقاتل ومجاهد : اصبر على الأذى والتكذيب . وقال ابن زيد : حملت أمرا عظيما فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله . وقيل : اصبر تحت موارد القضاء لله . وقيل: فاصبر على البلوى . وقيل : على الأوامر والنواهى . ﴿ فإذا نـقر فى الناقور﴾ الناقور: فاعول من النقر، كأنه من شأنه أن ينـقر فيه للتصويت ، والنقر فى كلام العرب : الصوت ، ومنه قول امرئ القيس :

أخفضه بالنقر لما علوته

ويقولون : نقر باسم الرجل : إذا دعاه ، والمراد هنا : النفخ فى الصور ، والمراد : النفخة الثانية . وقيل : الأولى ، وقد تقدّم الكلام فى هذا فى سورة الأنعام وسورة النحل والفاء للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم ، والعامل فى إذا ما دلّ عليه قوله : ﴿ **فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين** ﴾ فإن معناه : عسر الأمر عليهم . وقيل : العامل فيه ما دلّ عليه ﴿ **فذلك** ﴾ لأنه إشارة إلى النقر ، ويومئذ بدل من إذا أو مبتدأ وخبره يوم عسير، والجملة خبر ﴿ **فذلك** ﴾ . وقيل : هو ظرف للخبر ، لأن التقدير وقوع يوم عسير ، وقوله : ﴿ **غير يسير** ﴾ تأكيد لعسره عليهم ؛ لأن كونه غير يسير؛ قد فهم من قوله : ﴿ **يوم عسير** ﴾ . ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ أى دعنى ، وهى كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى : دعني والذى خلقته حال كونه وحيدا فى بطن أمه لا مال له ولا ولد ، هذا على أن وحيدا منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد إليه المحذوف ، ويجوز أن يكون حالا من الياء فى ذرنى ، أى دعنى وحدى معه ، فإنى أكفيك فى الانتقام منه، والأوّل أولى ، قال المفسرون : وهو الوليد بن المغيرة . قال مقاتل : يقول : خلّ بينى وبينه فأنا أنفرد بهلكته ، وإنما خُص بالذكر؛ لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه . وقيل: أراد بالوحيد : الذى لا يعرف أبوه، وكان يقال فى الوليد المغيرة : إنه دعىّ .

﴿ **وجعلت له مالا ممدودا** ﴾ أى كثيرا ، أو يمد بالزيادة والنماء شيئا بعد شىء . قال الزجاج : مالا غير منقطع عنه ، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهورا بكثرة المال على اختلاف أنواعه . قيل : كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار . وقيل : أربعة آلاف دينار . وقيل : ألف دينار . ﴿ **وبنين شهودا** ﴾ أى وجعلت له بنين حضورا بمكة معه لا يسافرون ولا يحتاجون إلى التفرق فى طلب الرزق لكثرة مال أبيهم ، قال الضحاك : كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولدا ، وقال مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل : معنى ﴿ **شهودا** ﴾ : أنه إذا ذكر ذكروا معه . وقيل : كانوا يشهدون معه ما كان يشهده ويقومون بما كان يباشره ﴿ **ومهدت له تمهيدا** ﴾ أى بسطت له فى العيش وطول العمر والرياسة فى قريش ، والتمهيد عند العرب : التوطئة ، ومنه مهد الصبىّ ، وقال مجاهد : إنه المال بعضه فوق بعض ، كما يمهد الفراش . ﴿ **ثم يطمع أن أزيد** ﴾ أى يطمع بعد هذا كله فى الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم وإشراكه بالله . قال الحسن : لم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان يقول : إذا كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى ، ثم ردعه الله سبحانه وزجره فقال : ﴿ **كلا** ﴾ أى لست أزيده ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿**إنه كان لآياتنا عنيدا** ﴾ أى معاندا لها كافرا بما أنزلناه منها على رسولنا ، يقال : عند يعند بالكسر : إذا خالف الحق وردّه وهو يعرفه.فهو عنيد وعاند ، والعاند: الذى يجوز عن الطريق ويعدل عن القصد ، ومنه قول الحارثى :

إذا ركبت فاجعلانى وسطا ... إنى كبير لا أطيق العندا

قال أبو صالح : عنيدا معناه : مباعدا . وقال قتادة : جاحدا . وقال مقاتل : معرضا ﴿**سأرهقه صعودا**﴾ أى سأكلفه مشقة من العذاب وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذى لا يطاق . وقيل : المعنى : إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار ، والإرهاق فى كلام العرب : أن يحمل الإنسان الشىء الثقيل ، وجملة : ﴿ **إنه فكر وقدّر** ﴾ تعليل لما تقدّم من الوعيد ، أى إنه فكر فى شأن النبىّ ﷺ ، وما أنزل عليه من القرآن وقدّر فى نفسه ، أى هيأ الكلام فى نفسه ، والعرب تقول : هيأت الشىء: إذا قدرته ، وقدرت الشىء : إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه وقدّر فى نفسه ما يقول، فذمه الله وقال : ﴿ **فقتل كيف قدّر**﴾ أى لعن وعذب كيف قدر ، أى على أىّ حال قدر ما قدر من الكلام ، كما يقال فى الكلام : لأضربنه كيف صنع ، أى على أىّ حال كانت منه . وقيل : المعنى : قهر وغلب كيف قدر ، ومنه قول الشاعر :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال الزهرى : عذب ، وهو من باب الدعاء عليه ، والتكرير فى قوله : ﴿ **ثم قتل كيف قدر** ﴾ للمبالغة والتأكيد . ﴿**ثم نظر** ﴾ أى بأىّ شىء يدفع القرآن ويقدح فيه ، أو فكر فى القرآن وتدبر ما هو . ﴿ **ثم عبس** ﴾ أى قطب وجهه لما لم يجد مطعنا يطعن به فى القرآن ، والعبس مصدر عبس مخففا يعبس عبسا وعبوسا : إذا قطب . وقيل : عبس فى وجوه المؤمنين. وقيل :عبس فى وجه النبىّ ﷺ ﴿ **وبسر** ﴾ أى كلح وجهه وتغير ،ومنه قول الشاعر:

صبحنا تميما غداة الحفار ... بشهباء ملموسة باسره

وقول الآخر :

وقد رابنى منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتى وبسورها

وقيل : إن ظهور العبوس فى الوجه يكون بعد المحاورة ، وظهور البسور فى الوجه قبلها ، والعرب تقول : وجه باسر: إذا تغير واسوّد ، وقال الراغب : البسر : استعجال الشرّ قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته ، أى طلبها فى غير أوانها . قال: ومنه قوله : ﴿ **عبس وبسر** ﴾ أى أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر ، أى وقف لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا ، أى صرنا إلى البسور . ﴿ **ثم أدبر واستكبر** ﴾ أى أعرض عن الحقّ ، وذهب إلى أهله ، وتعظم عن أن يؤمن ﴿ **فقال إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ أى يأثره عن غيره ويرويه عنه ، والسحر : إظهار الباطل فى صورة الحقّ ، أو الخديعة على ما تقدّم بيانه فى سورة البقرة ، يقال : أثرت الحديث بأثره إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قول الأعشى :

إن الذى فيه تماريتما ... بين للسامع والآثر

﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ يعنى : أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله ، وسيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة إلى آخر كلامه . ولما قال هذا القول الذى حكاه الله عنه قال الله عزّ وجلّ : ﴿سأصليه سقر ﴾ أى سأدخله النار . وسقر من أسماء النار ، ومن دركات جهنم . وقيل : إن هذه الجملة بدل من قوله : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ ثم بالغ سبحانه فى وصف النار وشدة أمرها فقال : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ أى وما أعلمك أىّ شىء هى ، والعرب تقول : وماأدراك ما كذا: إذا أرادوا المبالغة فى أمره وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ، و « ما » الأولى مبتدأ ، وجملة: ﴿ماسقر ﴾ خبر المبتدأ . ثم فسر حالها فقال : ﴿ لا تبقى ولا تذر ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر ، والكشف عن وصفها . وقيل : هى فى محل نصب على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيم ؛ لأن قوله : ﴿وماأدراك ما سقر ﴾ يدل على التعظيم ، فكأنه قال : استعظموا سقر فى هذه الحال ، والأوّل أولى ومفعول الفعلين محذوف ، قال السدّى : لا تبقى لهم لحما ولا تذر لهم عظما ، وقال عطاء : لا تبقى من فيها حيا ولا تذره ميتا . وقيل : هما لفظان بمعنى واحد ، كررا للتأكيد كقولك : صدّ عنى ، وأعرض عنى ﴿ لوّاحة للبشر ﴾ قرأ الجمهور: ﴿لوّاحة ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقيل : على أنه نعت لسقر ، والأوّل أولى ، وقرأ الحسن وعطية العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر وابن أبى عبلة وزيد بن علىّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل ، يقال: لاح يلوح ، أى ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للبشر ، قال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا كقوله : ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : ٣٦] وقيل : معنى ﴿ لوّاحة للبشر ﴾ أى مغيرة لهم ومسودة . قال مجاهد : والعرب تقول : لاحه الحر والبرد والسقم والحزن : إذا غيره ، وهذا أرجح من الأوّل، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

وتعجب هند أن رأتنى شاحبا ... تقول لشىء لوحته السمائم

أى غيرته ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

لوحَ منه بعد بدن وشبق ... تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقال الأخفش : المعنى : أنها معطشة للبشر ، وأنشد :

سقتنى على لوح من الماء شربة ... سقاها به الله الرهام الغواديا

والمراد بالبشر : إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر ، أو المراد به : أهل النار من الإنس ، كما قال الأخفش . ﴿عليها تسعة عشر ﴾ قال المفسرون : يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها . وقيل : تسعة عشر صنفا من أصناف الملائكة . وقيل : تسعة عشر صفا من صفوفهم . وقيل : تسعة عشر نقيبا مع كل نقيب جماعة من الملائكة . والأوّل أولى.

قال الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق ، قرأ الجمهور : ﴿ تسعة عشر ﴾ بفتح الشين من عشر ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان بإسكانها .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله ، أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال : إن أول مانزل من القرآن : ﴿ يأيها المدثر ﴾ فقال له يحيى بن أبى كثير : يقولون : إن أوّل ما نزل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [العلق: ١] فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لاأحدّثك إلا ما حدّثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه رعبا ، فرجعت فقلت: دثرونى فدثرونى ، فنزلت : ﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر ﴾ إلى قوله : ﴿والرجز فاهجر﴾ » وسيأتى فى سورة اقرأ ما يدل على أنها أوّل سورة أنزلت ، والجمع ممكن [(١)] .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ يأيها المدثر ﴾ فقال : دثر هذا الأمر ، فقم به[(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ يأيها المدثر ﴾ قال: النائم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لاتكن ثيابك التى تلبس من مكسب باطل ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال : الأصنام ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط تلتمس بها أفضل منها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿وثيابك فطهر ﴾ قال : من الإثم . قال : وهى من كلام العرب نقيّ الثياب . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : من الغدر ، لاتكن غدّارا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لا تلبسها على غدرة ، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وأخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه عنه أيضا : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضًا: ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ قال : الصور ﴿ يوم عسير ﴾ قال : شديد . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ قال : الوليد بن المغيرة . وأخرج الحاكم وصححه ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٢) ومسلم فى الإيمان (١٦١ / ٢٥٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٥) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٥١) .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ٥٠٦ ووافقه الذهبى .

والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبىّ ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : ياعمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولابقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ (١) . وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا ، وكذا أخرجه ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وغير واحد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عمر بن الخطاب ؛ أنه سئل عن قوله: ﴿ **وجعلت له مالا ممدودا** ﴾ قال : غلة شهر بشهر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿**وجعلت له مالا ممدودا** ﴾ قال : ألف دينار . وأخرج هناد عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **سأرهقه صعودا** ﴾ قال : هو جبل فى النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، فإذا رفعوها عادت كما كانت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿**عنيدا** ﴾ قال : جحودا . وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : «الصعود جبل فى النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ، ثم يهوى وهو كذلك فيه أبدا » قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن درّاج . قال ابن كثير : وفيه غرابة ونكارة انتهى(٢) . وقد أخرجه جماعة من قول أبى سعيد .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **صعودا** ﴾ : صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وأخرج ابن المنذر عنه قال : جبل فى النار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا تبقى ولا تذر** ﴾ قال : لا تبقى منهم شيئا ، وإذا بدّلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأوّل . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا : ﴿ **لوّاحة للبشر** ﴾ قال : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه ، فيصير أسود من الليل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**لوّاحة** ﴾ قال : محرقة . وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن البراء ؛ أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبىّ ﷺ عن خزنة جهنم : فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل ، فأخبر النبى ﷺ ، فنزلت عليه ساعتئذ ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ .

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥٠٧ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٣ / ٧٥ والترمذى فى التفسير (٣٣٢٦) وابن جرير ٢٩ / ٩٧ وابن كثير ٧ / ١٥٧ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾ .

لما نزل قوله سبحانه : ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ قال أبو جهل : أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوّفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبسطوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار ؟ فقال أبو الأشدّ ، وهو رجل من بنى جمح :يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة ، فأنا أمشى بين أيديكم ، فأدفع عشرة بمنكبى الأيمن وتسعة بمنكبى الأيسر ونمضى ندخل الجنة ، فأنزل الله : ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ يعنى : ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم ؟ وقيل : جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجنّ والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرأفة . وقيل : لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له ، وأشدهم بأسا وأقواهم بطشا ﴿ **وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة** ﴾ أى ضلالة للذين استقلوا عددهم ومحنة لهم ، والمعنى : ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور فى القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم ، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم،وقيل: معنى ﴿**إلا فتنة**﴾: إلا عذابا كما فى قوله:﴿**يوم هم على النار يفتنون**﴾[الذاريات: ١٣] أى يعذبون ، واللام فى قوله : ﴿ **ليستيقن الذين أوتوا الكتاب** ﴾ متعلق بـ ﴿ **جعلنا**﴾ والمراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم . قاله قتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم ، والمعنى : أن الله جعل عدّة الخزنة هذه العدّة ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما فى القرآن لما فى كتبهم .

﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيمانا** ﴾ وقيل : المراد : الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . وقيل : أراد الذين آمنوا: المؤمنين من أمة محمد ﷺ ، والمعنى : ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم ، وجملة : ﴿ **ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون** ﴾ مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى: نفى الارتياب عنهم فى الدّين أو فى أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب فى الحقيقة من المؤمنين ، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن فى قلبه شك ﴿ **وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ المراد بالذين فى قلوبهم مرض : هم المنافقون ، والسورة وإن كانت مكية ولم

يكن إذ ذاك نفاق ، فهو إخبار بما سيكون فى المدينة ، أو المراد بالمرض : مجرد حصول الشكّ والريب ، وهو كائن فى الكفار . قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض فى هذه الآية : الخلاف ، والمراد بقوله : ﴿والكافرون﴾ كفار العرب من أهل مكة وغيرهم ، ومعنى ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ أىّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، قال الليث : المثل : الحديث ، ومنه قوله : ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون﴾ [الرعد : ٣٥] أى حديثها والخبر عنها ﴿كذلك يضلّ الله من يشاء﴾ أى مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره، وهو قوله : ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يضل الله من يشاء من عباده ، والكاف نعت مصدر محذوف ﴿ويهدى من يشاء﴾ من عباده ، والمعنى : مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء إضلاله ويهدى من يشاء هدايته ، وقيل: المعنى : كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء ويهدى إليها من يشاء.

﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ أى ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد ، وقال عطاء : يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدّتهم إلا الله، والمعنى : أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال : ﴿وما هى إلا ذكرى للبشر﴾ أى وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم . وقيل : ﴿وما هى﴾ إلا الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر ، وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة ، وهو بعيد . وقيل : ما هى أى عدّة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله، أنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار . وقيل : الضمير فى ﴿وما هى﴾ يرجع إلى الجنود .

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال : ﴿كلا والقمر﴾ قال الفراء : ﴿كلا﴾ صلة للقسم ، التقدير : أى والقمر. وقيل : المعنى : حقا والقمر . قال ابن جرير : المعنى : ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم ، أى ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده ، وهذا هو الظاهر من معنى الآية . ﴿والليل إذ أدبر﴾ أى ولى . قرأ الجمهور: «إذا» بزيادة الألف . دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان . وقرأ نافع وحفص وحمزة : ﴿إذ﴾ بدون ألف ، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان . ودبر وأدبر لغتان، كما يقال : أقبل الزمان وقبل الزمان ، يقال : دبر الليل وأدبر إذا تولى ذاهبا . ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أى أضاء وتبين . ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ هذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر، أى إن سقر لإحدى الدواهى أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى ، وقال مقاتل : إن الكبر اسم من أسماء النار . وقيل : إنها : أى تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر . وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، ومنه قول الشاعر :

يابن المعلى نزلت إحدى الكبر ... داهية الدهر وصماء الغير

قرأ الجمهور : ﴿ لإحدى ﴾ بالهمزة ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن وابن كثير فى رواية عنه : « إنها لحدى » بدون همزة. وقال الكلبى: أراد بالكبر درجات جهنم وأبوابها . ﴿ نذيراً للبشر ﴾ انتصاب ﴿ نذيرا ﴾ على الحال من الضمير فى ﴿ إنها ﴾ قاله الزجاج ، وروى عنه وعن الكسائى وأبى على الفارسى أنه حال من قوله : ﴿ قم فأنذر﴾ أى قم يامحمد فأنذر حال كونك نذيرا للبشر ، وقال الفراء : هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدّر . وقيل: إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التعظيم ، كأنه قيل : أعظم الكبر إنذارا . وقيل : إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور فى أوّل السورة وقيل : منصوب بإضمار أعنى، وقيل : منصوب بتقدير : ادع . وقيل : منصوب بتقدير : ناد أو بلغ . وقيل: إنه مفعول لأجله ، والتقدير : وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر . قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبىّ بن كعب وابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى نذير . أو هو نذير . وقد اختلف فى النذير ، فقال الحسن: هى النار . وقيل : محمد ﷺ وقال أبو رزين : المعنى : أنا نذير لكم منها . وقيل : القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد . ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ هو بدل من قوله : ﴿ للبشر ﴾ أى نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر عنها ، والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر . وقيل : فاعل المشيئة هو الله سبحانه ، أى لمن شاء الله أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر ، والأوّل أولى ، وقال السدىّ : لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر إلى الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما سمع أبو جهل : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدّهم (١) ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم (٢) ؟ وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ قال : قال أبو الأشدّ : خلوا بينى وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤنتهم ، قال : وحدّثت أن النبىّ ﷺ وصف خزان جهنم فقال : « كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصى يجرّون أشعارهم ، لهم مثل قوة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل حتى يرمى بهم فى النار فيرمى بالجبل عليهم» . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ عن أبى سعيد الخدرى، أنّ رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : « فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا فإذا أنا بملك يقال له : إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف » وتلا هذه الآية : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . وأخرج أحمد عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : « أطت السماء (٣) وحق لها أن تئط ما فيها

(١) الدهم : السواد الكثير . (٢) ابن جرير ٢٩ / ١٠٠ . (٣) أى أثقلتها كثرة الملائكة .

موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد » وأخرجه الترمذى وابن ماجة . قال الترمذى : حسن غريب ، ويروى عن أبى ذرّ موقوفا [(١)] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إذ أدبر ﴾ قال : دبور ظلامه . وأخرج ابن مسدّد فى مسنده ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ فسكت عنى حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان نادانى : يامجاهد ، هذا حين دبر الليل . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر ﴾ قال : من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ .

قوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أى مأخوذة بعملها ومرتهنة به ، إما خلصها وإما أوبقها ، والرهينة اسم بمعنى الرهن ، كالشيمة بمعنى الشيم ، وليست صفة ، ولو كانت صفة لقيل : رهين ، لأن فعيلا يستوى فيه المذكر والمؤنث والمعنى : كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة . ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم . واختلف فى تعيينهم ، فقيل : هم الملائكة . وقيل : المؤمنون . وقيل : أولاد المسلمين ، وقيل : الذين كانوا عن يمين آدم . وقيل : أصحاب الحقّ . وقيل : هم المعتمدون على الفضل دون العمل . وقيل : هم الذين اختارهم الله لخدمته ﴿ فى جنات ﴾ هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله، ويجوز أن يكون ﴿ فى جنات ﴾ حالا من ﴿أصحاب اليمين ﴾ ، وقد يكون حالا من فاعل ﴿يتساءلون﴾، أو يكون ظرفا لـ ﴿ يتساءلون ﴾ ، وقوله : ﴿ يتساءلون ﴾ يجوز أن يكون على بابه ، أى يسأل بعضهم بعضا ، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون ، أى يسألون غيرهم ، نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأوّل يكون ﴿ عن المجرمين ﴾ متعلقا بـ﴿يتساءلون ﴾ ، أى يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين ، وعلى الوجه الثانى تكون « عن » زائدة ، أى

(١) أحمد ٥ / ١٧٣ والترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) .

يسألون المجرمين .

وقوله : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ هو على تقدير القول ، أى يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم : ما سلككم فى سقر ؟ أو يسألونهم قائلين لهم : ما سلككم فى سقر ؟ والجملة على كلا التقديرين فى محل نصب على الحال ، والمعنى : ما أدخلكم فى سقر ؟ تقول : سلكت الخيط فى كذا : إذا دخلته فيه . قال الكلبى : يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يافلان ، ما سلكك فى النار ؟ وقيل : إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم ، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم : ما سلككم فى سقر ؟ قال الفراء: فى هذا ما يقوىّ أن أصحاب اليمين هم الولدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب . ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال : ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ أى من المؤمنين الذين يصلون لله فى الدنيا . ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى لم نتصدق على المساكين . قيل: وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة ؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات . ﴿وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نخالط أهل الباطل فى باطلهم . قال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . وقال السدّى : كنا نكذب مع المكذبين . وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد ﷺ وهو قولهم : كاذب مجنون ساحر شاعر . ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أى بيوم الجزاء والحساب . ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو الموت ، كما فى قوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر:٩٩] .

﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أى شفاعة الملائكة والنبيين كما تنفع الصالحين . ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ التذكرة : التذكير بمواعظ القرآن ، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها . وانتصاب ﴿ معرضين ﴾ على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور ، أى أىّ شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى . ثم شبههم فى نفورهم عن القرآن بالحمر فقال: ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ والجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل ، ومعنى مستنفرة نافرة ، يقال : نفر واستنفر ، مثل عجب واستعجب ، والمراد : الحمر الوحشية. قرأ الجمهور : ﴿مستنفرة ﴾ بكسر الفاء ، أى نافرة ، وقرأ نافع وابن عامر بفتحها، أى منفرة مذعورة ، واختار القراءة الثانية أبو حاتم وأبو عبيد ، قال فى الكشاف : المستنفرة : الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له ، وحملها عليه . ﴿فرّت من قسورة ﴾ أى من رماة يرمونها . والقسور : الرامى ، وجمعه قسورة قاله سعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن كيسان . وقيل : هو الأسد قاله عطاء والكلبى . قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر ، لأنه يقهر السباع . وقيل : القسورة: أصوات الناس . وقيل : القسورة بلسان العرب : الأسد ، وبلسان الحبشة : الرماة ، وقال ابن الأعرابى : القسورة : أوّل الليل ، أى فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأوّل أولى ، وكلّ شديد عند العرب

فهو قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يابنت كونى خيرة لخيره　　　أخوالها الحىّ وأهل القسورة

ومنه قول لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة فى ندينا　　　أتانا الرجال العابدون القساور

ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال　　　كأنه القسور الرهال

﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد . قال المفسرون : إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ : ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله . والصحف : الكتب ، واحدتها صحيفة ، والمنشرة : المنشورة المفتوحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ [الإسراء : ٩٣] قرأ الجمهور : ﴿ منشرة ﴾ بالتشديد. وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف ، وقرأ الجمهور أيضا بضم الحاء من صحف ، وقرأ سعيد بن جبير بإسكانها. ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال : ﴿ كلا بل لايخافون الآخرة ﴾ يعنى : عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات . وقيل : كلا بمعنى حقا ، ثم كرر الردع والزجر لهم فقال : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ يعنى : القرآن . أو حقا إنه تذكرة ، والمعنى : أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه . ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أى فمن شاء أن يتعظ به اتعظ . ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال : ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ قرأ الجمهور : ﴿يذكرون ﴾ بالياء التحتية . وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية ، واتفقوا على التخفيف . وقوله: ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال . قال مقاتل : إلا أن يشاء الله لهم الهدى ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أى هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أى هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ قال : مأخوذة بعملها . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم المسلمون. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم أطفال المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى موسى الأشعرى فى قوله : ﴿ فرّت من قسورة ﴾ قال : هم الرماة

رجال القسيّ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : القسورة : الرجال الرماة القنص . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال : قلت لابن عباس : القسورة : الأسد ، فقال : ما أعلمه بلغة أحد من العرب : الأسد ، هم عصبة الرجال . وأخرج سفيان بن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **من قسورة** ﴾ قال : هو ركز الناس : يعنى أصواتهم . وأخرج أحمد والدارمى والترمذى وحسنه، والنسائى وابن ماجة والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدىّ وصححه ، وابن مردويه عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ فقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له » (١) . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعًا نحوه .

---

(١) أحمد ٣ / ٢٤٣ والدارمى فى الرقاق ٢ / ٣٠٣ والترمذى فى التفسير (٣٣٢٨) وقال : « هذا حديث غريب، وسهيل ليس بالقوى فى الحديث ، قد تفرد » والنسائى فى التفسير (٦٥٠) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٩٩) وأبو يعلى (٣٣١٧) وابن عدى ٣ / ٤٥٠ .

تفسير سورة القيامة

هي تسع وثلاثون آية . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة القيامة ـ وفي لفظ سورة لا أقسم ـ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت سورة لا أقسم بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

قوله : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين : إنّ « لا » زائدة ، والتقدير : أقسم . قال السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى ﴿ لا أقسم ﴾ : أقسم ، واختلفوا في تفسير « لا » ، فقال بعضهم : هي زائدة ، وزيادتها جارية في كلام العرب كما في قوله : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] يعني : أن تسجد ، و﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : ٢٩] ومن هذا قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة ... وكاد صميم القلب لا يتقطع

وقال بعضهم : هي ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين ، كقول القائل : لا والله ، فلا ردّ لكلام قد تقدّمها ، ومنه قول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامري ... لا يدعي القوم أني أفر

وقيل : هي للنفي ، لكن لا لنفي الإقسام ، بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه ، كأن معنى لا أقسم بكذا : لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك . وقيل : إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر ، وقد تقدّم الكلام على هذا في تفسير قوله :

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة : ٧٥] . وقرأ الحسن وابن كثير فى رواية عنه ، والزهرى ، وابن هرمز : « لأقسم » بدون ألف على أن اللام لام الابتداء ، والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال . وقد اعترض عليه الرازى بما لا يقدح فى قوته ولا يفت فى عضد رجحانه، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة ؛ لتعظيمه وتفخيمه ، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة كما أقسم بيوم القيامة ، فيكون الكلام فى « لا » هذه كالكلام فى الأولى ، وهذا قول الجمهور . وقال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة. قال الثعلبى : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا ، ومعنى النفس اللوّامة : النفس التى تلوم صاحبها على تقصيره ، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا ، والفاجر لا يعاتب نفسه . قال مجاهد : هى التى تلوم على مافات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لمَ تعمله ؟ وعلى الخير لمَ لمْ تستكثر منه ؟ قال الفراء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت : هلا ازددت وإن كانت عملت سوءا قالت : ليتنى لم أفعل ، وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس ، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا . وقيل : اللوامة : هى الملومة المذمومة ، فهى صفة ذمّ ، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسما ، إذ ليس لنفس العاصى خطر يقسم به ، قال مقاتل: هى نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر فى الآخرة على ما فرط فى جنب الله ، والأول أولى .

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ المراد بالإنسان : الجنس . وقيل : الإنسان الكافر ، والهمزة للإنكار ، و«أن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، والمعنى : أيحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتا ، فنعيدها خلقا جديدا ، وذلك حسبان باطل ، فإنا نجمعها ، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم . قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ليجمعن العظام للبعث ، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف ، أى ليبعثنّ ، والمعنى : أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خص العظام؛ لأنها قالب الخلق . ﴿ بلى قادرين على أن نسوّى بنانه ﴾ بلى إيجاب لما بعد النفى المنسحب إليه الاستفهام ، والوقف على هذا وقف حسن ، ثم يبتدئ الكلام بقوله : ﴿ قادرين ﴾ وانتصاب ﴿قادرين ﴾ على الحال ، أى بلى نجمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدّر . وقيل : المعنى : بل نجمعها نقدر قادرين . قال الفراء : أى نقدر ، ونقوى قادرين على أكثر من ذلك . وقال أيضا : إنه يصلح نصبه على التكرير ، أى بلى فليحسبنا قادرين . وقيل : التقدير : بلى كنا قادرين . وقرأ ابن أبى عبلة وابن السميفع : « بلى قادرون » على تقدير مبتدأ ، أى بلى نحن قادرون ، ومعنى ﴿ على أن نسوّى بنانه ﴾ : على أن نجمع بعضها إلى بعض ، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها ، فكيف بكبار الأعضاء فنبه سبحانه بالبنان ، وهى الأصابع، على بقية الأعضاء ، وأن الاقتدار على بعثها

وإرجاعها كما كانت أولى فى القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق ، فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة ، وقال جمهور المفسرين : إن معنى الآية : أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا ، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها ، فلا يقدر على أن ينتفع بها فى الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما ، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها . وقيل : المعنى : بل نقدر على أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم ، فكيف فى صورته التى كان عليها ، والأوّل أولى ، ومنه قول عنترة :

وإن الموت طوع يدى إذا ما　　　وصلت بنانها بالهندوان

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء . ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ هو عطف على ﴿ أيحسب ﴾، إما على أنه استفهام مثله وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام . والمعنى : بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة . قال ابن الأنبارى: يريد أن يفجر ما امتدّ عمره ، وليس فى نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه . قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدىّ وسعيد بن جبير : يقول : سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت ، وهو على أشرّ أحواله . قال الضحاك : هو الأمل ، يقول : سوف أعيش وأصيب من الدنيا ، ولا يذكر الموت ، والفجور أصله : الميل عن الحقّ ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل ، ومنه قول الشاعر :

أقسم بالله أبو حفص عمر
ما مسها من نقب ولا دبر
اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ مستأنفة لبيان معنى يفجر ، والمعنى : يسأل : متى يوم القيامة ؟ سؤال استبعاد واستهزاء : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أى فزع وتحير، من برق الرجل : إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . قرأ الجمهور : ﴿برق﴾ بكسر الراء . قال أبو عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما : المعنى : تحير فلم يطرف ، ومنه قول ذى الرّمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت　　　لعينيه مى سافرا (١) كاد يبرق

وقال الخليل والفراء :﴿ برق ﴾ بالكسر فزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت : قد برق فهو برق ، وأنشد الفرّاء :

(١) فى المطبوعة : « يسافرا » والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ١٠ / ٦٨٧ ومن المخطوطة .

ونفسك فانع ولا تنعني وداو الكلوم ولا تبرق

أى لا تفزع من كثرة الكلوم التى بك ، وقرأ نافع وأبان عن عاصم : « برق » بفتح الراء ، أى لمع بصره من شدة شخوصه للموت ، قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل : برق يبرق شق عينيه وفتحهما . وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى ﴿ **وخسف القمر** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **خسف** ﴾ بفتح الخاء والسين مبنيا للفاعل . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى والأعرج وابن أبى عبلة وابن حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنيا للمفعول ، ومعنى ﴿**خسف القمر**﴾: ذهب ضوؤه ولا يعود كما يعود إذا خسف فى الدنيا ، ويقال : خسف: إذا ذهب جميع ضوئه ، وكسف : إذا ذهب بعض ضوئه . ﴿ **وجمع الشمس والقمر** ﴾ أى ذهب ضوؤهما جميعا ، ولم يقل: « جمعت » لأن التأنيث مجازىّ ، قاله المبرد . وقال أبو عبيدة : هو لتغليب المذكر على المؤنث . وقال الكسائى : حمل على معنى جمع النيران ، وقال الزجاج والفراء : ولم يقل : « جمعت » لأن المعنى جمع بينهما فى ذهاب نورهما . وقيل : جمع بينهما فى طلوعهما من الغرب أسودين مكورين مظلمين . قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى . وقيل : تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار ، وقرأ ابن مسعود : « وجمع بين الشمس والقمر » . ﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ** ﴾ أى يقول عند وقوع هذه الأمور: أين المفرّ ، أين الفرار ؟ والمفرّ مصدر بمعنى الفرار . قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار ، ومنه قول الشاعر :

أين المفر والكباش تنتطح وكل كبش فر منها يفتضح

قال الماوردى : يحتمل وجهين : أحدهما : أين المفرّ من الله سبحانه استحياء منه ، والثانى :أين المفرّ من جهنم حذرا منها . قرأ الجمهور : ﴿ **أين المفر** ﴾ بفتح الميم والفاء مصدرا كما تقدّم ، وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان ، أى أين مكان الفرار ، وقال الكسائى : هما لغتان مثل مدَب ومدِب ومصَح ومصِح ، وقرأ الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به: الإنسان الجيد الفرار ، ومنه قول امرئ القيس :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

أى جيد الفرّ والكر . ﴿ **كلا لا وزر** ﴾ أى لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله . وقال ابن جبير : لا محيص ولا منعة ، والوزر فى اللغة : ما يلجأ إليه الإنسان من حصن ، أو جبل أو غيرهما ، ومنه قول طرفة :

ولقد تعلم بكر أننا فاضلو الرأى وفى الروع وزر

وقال آخر :

لعمرى ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

قال السدّى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال لهم الله : لا وزر يعصمكم منى يومئذ ، وكلا للردع ، أو لنفى ما قبلها ، أو بمعنى حقا ﴿ **إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ أى المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره . وقيل : إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره . وقيل : المستقر : الاستقرار حيث يقرّه الله ﴿ **ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾ أى يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشرّ . وقال قتادة :بما عمل من طاعة ، وما أخر من طاعة فلم يعمل بها . وقال زيد بن أسلم : بما قدّم من أمواله وما خلف للورثة . وقال مجاهد : بأول عمله وآخره . وقال الضحاك: بما قدّم من فرض وأخر من فرض . قال القشيرى : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت . قال القرطبى : والأوّل أظهر. ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة** ﴾ ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان ، على نفسه متعلق ببصيرة ، قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل : أنت حجة على نفسك . وقيل : المعنى : إن جوارحه تشهد عليه بما عمل كما فى قوله : ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : ٢٤] وأنشد الفرّاء :

كأن على ذى العقل عينا بصيـ ـرة بمقـعـده أو منـظر هــو ناظر

فيكون المعنى : بل جوارح الإنسان عليه شاهدة . قال أبو عبيدة والقتيبى : إن هذه الهاء فى بصيرة هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كما فى قولهم : علامة . وقيل : المراد بالبصيرة: الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشرّ، والتاء على هذا للتأنيث . وقال الحسن : أى بصير بعيوب نفسه .﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾ أى ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك . يقال : معذرة ومعاذير . قال الفرّاء : أى وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره . وقال الزجاج : المعاذير : الستور ، والواحد معذار ، أى وإن أرخى الستور يريد أن يخفى نفسه فنفسه شاهدة عليه ، كذا قال الضحاك والسدّى . والستر بلغة اليمن يقال له : معذار ، كما قال المبرد ، ومنه قول الشاعر :

ولكنها ضــنت بمنزل ســاعة علينا وأطت يومهــا بالمعاذر

والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وأبو العالية ومقاتل ، ومثله قوله : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ [غافر : ٥٢] . وقوله :﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[المرسلات : ٣٦] . وقول الشاعر :

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به** ﴾كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصا على أن يحفظه ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، أى لا

تحرّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك، ومثل هذا قوله: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ الآية [طه : ١١٤] ، ﴿ **إن علينا جمعه** ﴾ فى صدرك حتى لا يذهب عليك منه شىء ﴿ **وقرآنه** ﴾ أى إثبات قراءته فى لسانك ، قال الفرّاء : القراءة والقرآن مصدران . وقال قتادة : فاتبع قرآنه ، أى شرائعه وأحكامه . ﴿**فإذا قرأناه** ﴾ أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل ﴿ **فاتبع قرآنه** ﴾ أى قراءته . ﴿ **ثم إن علينا بيانه**﴾ أى تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل منه ، قال الزجاج : المعنى : علينا أن ننزله عليك قرآنا عربيا فيه بيان للناس . وقيل : المعنى : إن علينا أن نبينه بلسانك .

﴿ **كلا بل تحبون العاجلة** ﴾ كلا للردع عن العجلة والترغيب فى الأناة . وقيل : هى ردع لمن لا يؤمن بالقرآن وبكونه بينا من الكفار . قال عطاء : أى لا يؤمن أبوجهل بالقرآن وبيانه . قرأ أهـل المديـنة والكوفيون : ﴿ **بل تحبون** ﴾ ﴿**وتذرون**﴾ بالفوقية فى الفعلين جميعا . وقرأ الباقون بالتحتية فيهما ، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريعا وتوبيخا ، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائدا إلى الإنسان؛ لأنه بمعنى الناس ، والمعنى : تحبون الدنيا وتتركون ﴿**الآخرة**﴾ فلا تعملون لها . ﴿**وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ أى ناعمة غضة حسنة ، يقال : شجر ناضر وروض ناضر ، أى حسن ناعم ، ونضارة العيش حسنه وبهجته . قال الواحدى والمفسرون : يقولون : مضيئة مسفرة مشرقة ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ هذا من النظر ، أى إلى خالقها ومالك أمرها ،ناظرة ، أى تنظر إليه ، هكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به : ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر ، قال ابن كثير : وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام . وقال مجاهد : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروى نحوه عن عكرمة . وقيل : لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده ، قال الأزهرى : وقول مجاهد خطأ؛ لأنه لا يقال : نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، إذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرته كما فى قول الشاعر :

فإنكما إن تنظرانى ساعة   من الدهر تنفعنى لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه ، كما قال الشاعر :

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تشب لفعال

وقال الآخر :

إنى إليك لما وعدت لناظر   نظر الفقير إلى الغنى الموسر

أى أنظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغنىّ ، وأشعار العرب وكلماتهم فى هذا

كثيرة جدا ، و﴿**وجوه**﴾ مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة لأن المقام مقام تفصيل ، وناضرة صفة لوجوه ، ويومئذ ظرف لناضرة ، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله : ﴿ **ناضرة** ﴾ مسوّغا للابتداء بها ، ولكن مقام التفصيل بمجرّده مسوّغ للابتداء بالنكرة . ﴿ **ووجوه يومئذ باسرة** ﴾ أى كالحة عابسة كئيبة . قال فى الصحاح: بسر الرجل وجهه بسورا ، أى كلح . قال السدّى: باسرة ، أى متغيرة . وقيل : مصفرة ، والمراد بالوجوه هنا : وجوه الكفار . ﴿ **تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾ الفاقرة : الداهية العظيمة ، يقال : فقرته الفاقرة ، أى كسرت فقار ظهره . وقال قتادة : الفاقرة : الشرّ ، وقال السدّى : الهلاك ، وقال ابن زيد : دخول النار ، وأصل الفاقرة : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى تخلص إلى العظم ، كذا قال الأصمعى، ومن هذا قولهم : قد عمل به الفاقرة ، قال النابغة :

أبا لى قبر لا يزال مقابلى وضربة فأس فوق رأسى فاقره

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه ، قلت : ﴿**ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ قال : النفس اللؤوم . قلت : ﴿ **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوّى بنانه** ﴾ قال : لو شاء لجعله خفا أو حافرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **اللوّامة** ﴾ قال : المذمومة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : التى تلوم على الخير والشرّ تقول :لو فعلت كذا وكذا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : تندم على ما فات وتلوم عليه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ﴾ قال : يمضى قدما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو الكافر الذى يكذب بالحساب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : يعنى : الأمل ، يقول : أعمل ثم أتوب . وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الأمل ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى الآية قال : يقدّم الذنب ويؤخر التوبة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب ، عنه أيضا : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ﴾ يقول : سوف أتوب ﴿ **يسأل أيان يوم القيامة** ﴾ قال : يقول : متى يوم القيامة؟ قال : فبين له﴿ **إذا برق البصر**﴾ . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ﴿**إذا برق البصر**﴾ يعنى: الموت.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **لا وزر** ﴾ قال : لا حصن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله :﴿ **لا وزر** ﴾ قال : لا حصن ولا ملجأ ، وفى لفظ : لا حرز ، وفى لفظ : لا جبل .وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله :﴿ **ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر**﴾ قال : بما قدّم من عمل ، وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شرّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بما قدّم من المعصية وأخر من الطاعة فينبؤ بذلك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه فى قوله : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة** ﴾ قال : شهد على نفسه وحده ﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾ قال : ولو اعتذر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾ قال : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه ﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾ قال : ولو تجرّد من ثيابه .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به . إنّ علينا جمعه وقرآنه**﴾ قال : يقول : إنّ علينا أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه ﴿ **فإذا قرأناه** ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك ﴿**فاتبع قرآنه** ﴾ فاستمع إليه وأنصت ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾ أن نبينه بلسانك ، وفى لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق . وفى لفظ : استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿**فإذا قرأناه** ﴾ قال : بيناه ﴿ **فاتبع قرآنه**﴾ يقول : اعمل به . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **كلا بل تحبون العاجلة** ﴾ قال : عجلت لهم الدنيا شرها وخيرها وغيبت الآخرة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ قال : ناعمة . وأخرج ابن المنذر والآجرى فى الشريعة ، واللالكائى فى السنة ، والبيهقى فى الرؤية عنه : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ قال : يعنى حسنها ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ قال : نظرت إلى الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال تنظر إلى وجه ربها . وأخرج ابن مردويه عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة .إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدّ محدود ولا صفة معلومة» . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال الناس : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال : « فهل تضارّون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » [(٢)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة نحوه . وقد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها ، وهى تأتى فى مصنف مستقل ، ولم يتمسك من نفاها واستبعدها بشىء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٧) ومسلم فى الصلاة (٤٤٨/ ١٤٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٥٤) .

(٢) أحمد ٢/ ٢٧٥ والبخارى فى التوحيد (٧٤٣٧) وفى الرقائق (٦٥٧٣) ومسلم فى الإيمان (١٨٢ / ٣٩٩) والنسائى فى التفسير (٥٠٨).

والدارقطنى والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ (١) . وأخرجه أحمد فى المسند من حديثه بلفظ : «إن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرّتين » (٢) . وأخرج النسائى والدارقطنى وصححه ، وأبو نعيم عن أبى هريرة قال : قلنا : يارسول الله ، هل نرى ربنا ؟ قال : « هل ترون الشمس فى يوم لا غيم فيه ، وترون القمر فى ليلة لا غيم فيها ؟ » قلنا : نعم . قال : « فإنكم سترون ربكم عزّ وجلّ ، حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة ، فيقول : عبدى هل تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : ألم تغفر لى ؟ فيقول : بمغفرتى صرت إلى هذا » (٣) .

﴿ **كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾** ﴾ .

قوله : ﴿ **كلا** ﴾ ردع وزجر ، أى بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ، ثم استأنف ، فقال: ﴿ **إذا بلغت التراقى** ﴾ أى بلغت النفس أو الروح التراقى ، وهى جمع ترقوة ، وهى عظم بين ثغرة النحر والعاتق ، ويكنى ببلوغ النفس التراقى عن الإشفاء على الموت ، ومثله قوله: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ [الواقعة : ٨٣] وقيل: معنى ﴿ **كلا** ﴾ : حقا ، أى حقا أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقى ، والمقصود : تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت ، قال دريد بن الصمة :

ورب كـريهة دافـعـت عـنهـا ... وقد بلغت نفـوسهـم التـراقى

﴿ **وقيل من راق** ﴾ أى قال من حضر صاحبها : من يرقيه ويشتفى برقيته ؟ قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا ، وبه قال أبو قلابة ، ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقى ... أم هل له من حمام الموت من راقى

وقال أبو الجوزاء : هو من رقى يرقى : إذا صعد ، والمعنى : من يرقى بروحه إلى السماء

---

(١) ابن أبى شيبة فى الجنة (١٥٨٤٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٣٠) وقال : « غريب ، قد رواه غير واحد عن إسرائيل مرفوعا ، وروى عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله ولم يرفعه » وابن جرير ٢٩/ ١٢٠ والحاكم ٢/ ٥٠٩ ، ٥١٠ وقال : « ثوير لم ينقم عليه إلا التشيع » وقال الذهبى : « بل هو واهى الحديث ».

(٢) أحمد ٢/ ٦٤ .

(٣) النسائى فى التفسير (٦٥٧) .

أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل : إنه يقول ذلك ملك الموت ، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ﴿ وظنّ أنه الفراق ﴾ أى وأيقن الذى بلغت روحه التراقى أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد . ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أى التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به ، وقال جمهور المفسرين : المعنى : تتابعت عليه الشدائد . وقال الحسن : هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن ، وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت ، وقيل : ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه ، وقد كان جوّالا عليهما . وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه ، وبه قال ابن زيد ، والعرب لا تذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار والمحن العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق . وقيل : الساق الأوّل : تعذيب روحه عند خروج نفسه ، والساق الآخر : شدّة البعث وما بعده. ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أى إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه . ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ أى لم يصدّق بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور فى أول هذه السورة . قال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلى لله ، وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى : « لا » بمعنى «لم»، وكذا قال الأخفش : والعرب تقول : لا ذهب أى ، لم يذهب ، وهذا مستفيض فى كلام العرب ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أى كذّب بالرسول وما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان . ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أى يتبختر ويختال فى مشيته افتخارا بذلك . وقيل : هو مأخوذ من المطى وهو الظهر . والمعنى : يلوى مطاه . وقيل : أصله يتمطط ، وهو التمدّد والتثاقل ، أى يتثاقل ويتكاسل عن الداعى إلى الحق ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ أى وليك الويل ، وأصله : أولاك الله ما تكرهه ، واللام مزيدة كما فى : ﴿ ردف لكم ﴾[النمل : ٧٢] . وهذا تهديد شديد ، والتكرير للتأكيد ، أى يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة ، قال الواحدى : قال المفسرون : أخذ رسول الله ﷺ بيد أبى جهل ، ثم قال : ﴿ أولى لك فأولى﴾ فقال أبو جهل : بأى شىء تهدّدنى لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، وإنى لأعز هذا الوادى ، فنزلت هذه الآية . وقيل : معناه : الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هممت بنفسى بعض الهمو م فأولى لنفسى أولى لها

وعلى القول بأنه الويل ، قيل : هو من المقلوب كأنه قيل : أويل لك ، ثم أخر الحرف المعتل . قيل : ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات : والويل لك حيا ، والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار . وقيل : المعنى : إن الذمّ لك أولى لك من تركه . وقيل : المعنى : أنت أولى وأجدر بهذا العذاب قاله ثعلب. وقال الأصمعى :

أولى فى كلام العرب معناه : مقاربة الهلاك . قال المبردّ : كأنه يقول : قد وليت الهلاك وقد دانيته ، وأصله من الولى ، وهو القرب . وأنشد الفرّاء :

فأولى أن يكـــون لك الولاء

أى قارب أن يكون لك ، وأنشد أيضا :

أولى لمن هاجت له أن يكمدا

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ أى هملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب. وقال السدى : معناه : المهمل ، ومنه إبل سدى ، أى ترعى بلا راع . وقيل : المعنى : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يبعث ، وجملة : ﴿**ألم يك نطفة من منىّ يمنى** ﴾ مستأنفة، أى ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منىّ يراق فى الرحم ؟! وسمى المنىّ منيا لإراقته، والنطفة الماء القليل ، يقال : نطف الماء : إذا قطر . قرأ الجمهور :﴿ **ألم يك** ﴾ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الإنسان ، وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخا له. وقرأ الجمهور أيضا: ﴿ **تمنى** ﴾ بالفوقية على أن الضمير للنطفة. وقرأ حفص وابن محيصن ومجاهد ويعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، واختارها أبو حاتم . ﴿**ثم كان علقة** ﴾ أى كان بعد النطفة علقة ، أى دما ﴿ **فخلق** ﴾ أى فقدّر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿**فسوّى**﴾ أى فعدله وكمل نشأته ونفخ فيه الروح . ﴿**فجعل منه** ﴾ أى حصل من الإنسان . وقيل : من المنىّ ﴿**الزوجين**﴾ أى الصنفين من نوع الإنسان . ثم بين ذلك فقال : ﴿**الذكر والأنثى** ﴾ أى الرجل والمرأة . ﴿ **أليس ذلك** ﴾ أى ليس ذلك الذى أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿ **بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ أى يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا، فإن الإعادة أهون من الابتداء ، وأيسر مؤونة منه . قرأ الجمهور : ﴿ **بقادر** ﴾ وقرأ زيد ابن علىّ : « يقدر » فعلا مضارعا ، وقرأ الجمهور : ﴿ **يحيى** ﴾ بنصبه بأن . وقرأ طلحة بن سليمان والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفا ، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مرّ فى مواضع .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقيل من راق** ﴾ قال : تنتزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقيه ، قيل : من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ قال التفت عليه الدنيا والآخرة وملائكة العذاب أيهم يرقى به .وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿**وقيل من راق** ﴾ قل : من راق يرقى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة ، فتلقى الشدّة بالشدة إلا من رحم الله.وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿**يتمطى**﴾ قال : يختال . وأخرج سعيد بن منصور وعبد

ابن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **أولى لك فأولى** ﴾ : أشىء قاله رسول الله ﷺ لأبى جهل من قبل نفسه ، أم أمره الله به ؟ قـال : بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله [١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أن يترك سدى** ﴾ قال : هملا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عن صالح أبى الخليل قال : كان النبىّ ﷺ إذا قرأ هذه الآية : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال : « سبحانك اللهم وبلى » . وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « سبحانك ربى وبلى » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن أبى أمامة ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند قراءته لهذه الآية : « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . وأخرج أحمد وأبوداود والترمذى وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم : ﴿ والتين والزيتون ﴾[التين : ١] فانتهى إلى آخرها : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ٨] فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾[القيامة : ١] فانتهى إلى قوله : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ فليقل: بلى . ومن قرأ : ﴿والمرسلات عرفا ﴾[المرسلات : ١] فبلغ : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ [المرسلات: ٥٠] فليقل : آمنا بالله » . وفى إسناده رجل مجهول . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأت : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فبلغت: ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ فقل : بلى » .

(١) النسائى فى التفسير (٦٥٨) وابن جرير ٢٩/ ١٢٤ والطبرانى (١٢٢٩٨) وصححه الحاكم ٢/ ٥١٠ على شرط الشيخين ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٥ : « رجاله ثقات » .

تفسير سورة الإنسان

قال الجمهور : هى مدنية ، وقال مقاتل والكلبى : هى مكية . وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقيل : فيها مكى ، من قوله: ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا**﴾ إلى آخر السورة ، وما قبله مدنىّ . وأخرج الطبرانى ، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « سل واستفهم » ، فقال : يارسول الله ، فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوّة ، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به ، أنى كائن معك فى الجنة ، قال: « نعم ، والذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » ، ثم قال : «من قال : لا إله إلا الله كان له عند الله عهد . ومن قال : سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة » ، ونزلت هذه السورة : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وملكا كبيرا** ﴾ فقال الحبشىّ : وإن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة ، قال : «نعم »، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه فى حفرته بيده [١] . وأخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال : حدثنى الثقة أن رجلا أسود كان يسأل رسول الله ﷺ عن التسبيح والتهليل ، فقال له عمر بن الخطاب : أكثرت على رسول الله ، فقال : « مه ياعمر » ، وأنزلت على النبى ﷺ : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾ حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه ، فقال النبى ﷺ : « مات شوقا إلى الجنة ». وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعا مرسلا .

وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن منيع ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والضياء عن أبى ذرّ قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **هل أتى على الإنسان**﴾ حتى ختمها ، ثم قال : « إنى أرى ما لا ترون وأسمع مالا تسمعون ، أطت السماء وحقّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عزّ وجل »[٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا

(١) الطبرانى (١٣٥٩٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/٤٢٣ : « فيه أيوب بن عتبة وهو ضعيف » .
(٢) أحمد ٥/١٧٣ والترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) وصححه الحاكم ٤/٥٤٤ ووافقه الذهبى .

كَافُوراً (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) ﴾ .

حكى الواحدى عن المفسرين وأهل المعانى أن ﴿ **هل** ﴾ هنا بمعنى قد ، وليس باستفهام ، وقد قال بهذا سيبويه والكسائى ، والفراء وأبو عبيدة . قال الفرّاء : هل تكون جحدا وتكون خبرا فهذا من الخبر لأنك تقول : هل أعطيتك ، تقرره بأنك أعطيته ، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا . وقيل : هى وإن كانت بمعنى قد ؛ ففيها معنى الاستفهام ، والأصل: أهل أتى ، فالمعنى : أقد أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب ، والمراد بالإنسان هنا: هو آدم ، قاله قتادة والثورى وعكرمة والسدّى وغيرهم ﴿ **حين من الدهر** ﴾ قيل : أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح . وقيل : إنه خلق من طين أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وقيل: الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره . وقيل : المراد بالإنسان: بنو آدم ، والحين : مدّة الحمل ، وجملة : ﴿ **لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ فى محل نصب على الحال من الإنسان ، أو فى محل رفع صفة لحين ، قال الفرّاء وقطرب وثعلب : المعنى: أنه كان جسدا مصوّرا ترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا . وقيل : ليس المراد بالذكر هنا : الإخبار ، فإن إخبار الرّب عن الكائنات قديم ، بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف ، كما فى قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] قال القشيرى : ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله سبحانه . قال الفراء : كان شيئا ولم يكن مذكورا . فجعل النفى متوجها إلى القيد . وقيل : المعنى : قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليقة . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوان .

﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة** ﴾ المراد بالإنسان هنا : ابن آدم . قال القرطبى . من غير خلاف ، والنطفة : الماء الذى يقطر ، وهو المنىّ وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة ، وجمعها نطف ، و ﴿ **أمشاج** ﴾ صفة لنطفة ، وهى جمع مشج ، أومشيج ، وهى الأخلاط ، والمراد : نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما . يقال : مشج هذا بهذا فهو ممشوج ، أى خلط هذا بهذا فهو مخلوط . قال المبرد : مشج يمشج : إذا اختلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم ، قال رؤبة ابن العجاج :

يطرحن كل معجل مشاج لم يكس جلدا من دم أمشاج

قال الفراء : أمشاج : اختلاط ماء الرجل وماء المرأة ، والدم والعلقة ، ويقال : مشج هذا: إذا خلط . وقيل : الأمشاج: الحمرة فى البياض ، والبياض فى الحمرة ، قال القرطبى : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة . قال الهذلى :

كأن الريش والفوقين منه حلاف النصل نيط به مشيج

وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، قال ابن السكيت :الأمشاج : الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة . وقيل : الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة ، وجملة : ﴿ **نبتليه** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل خلقنا ، أى مريدين ابتلاءه ، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان ، والمعنى : نبتليه بالخير والشر والتكاليف . قال الفراء : معناه والله أعلم : جعلناه سميعا بصيرا نبتليه وهى مقدّمة معناها التأخير ، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا تكون هذه الحال مقدّرة . وقيل : مقارنة . وقيل : معنى الابتلاء : نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة ، والأوّل أولى .

ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء فقال : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ أى بيّنا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر كما فى قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠] قال مجاهد : أى بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك والسدّى وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل : منافعه ومضارّه التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب ﴿ **شاكرا** ﴾ و ﴿ **كفورا** ﴾ على الحال من مفعول ﴿**هديناه** ﴾، أى مكناه من سلوك الطريق فى حالتيه جميعا . وقيل : على الحال من سبيل على المجاز ، أى عرّفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا . وحكى مكىّ عن الكوفيين أن قوله : ﴿ **إما**﴾ هى إن شرطية زيدت بعدها ما ، أى بينا له الطريق إن شكر وإن كفر . واختار هذا الفراء ، ولا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع ﴿**شاكرا**﴾ و﴿**كفورا**﴾ ، ويمكن أن يضمر فعل ينصب شاكرا وكفورا ، وتقديره : إن خلقناه شاكرا فشكور وإن خلقناه كافرا فكفور ، وهذا على قراءة الجمهور : ﴿ **إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ بكسر همزة إما .وقرأ أبو السماك وأبو العجاج بفتحها ، وهى على الفتح إما العاطفة فى لغة بعض العرب، أو هى التفصيلية وجوابها مقدّر . وقيل: انتصب﴿ **شاكرا** ﴾و ﴿ **كفورا** ﴾بإضمار كان، والتقدير:سواء كان شاكرا أو كان كفورا.

ثم بين سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال :﴿ **إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا** ﴾ قرأ نافع والكسائى وأبوبكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر : « سلاسل » بالتنوين ، ووقف قنبل عن ابن كثير وحمزة بغير ألف ، والباقون وقفوا بالألف . ووجه من قرأ بالتنوين فى سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله وهو : ﴿**إما**

شاكرا وإما كفورا ﴾ وما بعده وهو : ﴿ **أغلالا وسعيرا** ﴾ منوّن، أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاه الكسائى وغيره من الكوفيين عن بعض العرب . قال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف ، لأن الأصل فى الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها . قال الفراء : هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم : هو أظرف منك فإنهم لا يجرّونه ، وأنشد ابن الأنبارى فى ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبينا

ومن ذلك قول الشاعر :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

بكسر السين من نواكس ، وقول لبيد :

وحسور أستار دعونى لحتفها بمعالق متشابه أعلاقها

وقوله أيضا :

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح لشوب رغائب غنامها

وقيل : إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالألف . وقيل: إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف ، والسلاسل قد تقدّم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هى القيود أو ما يجعل فى الأعناق كما فى قول الشاعر :

. . . . ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال

جمع غلّ تغلّ به الأيدى إلى الأعناق . والسعير : الوقود الشديد ، وقد تقدّم تفسير السعير . ثم ذكر سبحانه ما أعده للشاكرين فقال : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس** ﴾ الأبرار : أهل الطاعة والإخلاص ، والصدق جمع برّ أو بارّ . قال فى الصحاح : جمع البرّ الأبرار ، وجمع البارّ البررة ، وفلان يبرّ خالقه ويبرره ، أى يطيعه ، وقال الحسن : البر : الذى لا يؤذى الذر . وقال قتادة : الأبرار : الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر ، والكأس فى اللغة : هو الإناء الذى فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأسا ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة ، بل يكون من الزجاج . ومن الذهب والفضة والصينى وغير ذلك ، وقد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر. كما فى قول الشاعر:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

﴿ **كان مزاجها كافورا** ﴾ أى يخالطها وتمزج به ، يقال : مزجه يمزجه مزجا ، أى خلطه يخلطه خلطا ، ومنه قول الشاعر :

كأن سبية من بيت رأس ... كأن مزاجها عسل وماء

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

معتقة كأن الحص فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا

ومنه مزاج البدن ، وهو ما يمازجه من الأخلاط ، والكافور قيل : هو اسم عين فى الجنة يقال لها : الكافورى تمزج خمر الجنة بماء هذه العين ، وقال قتادة ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك ، وقال عكرمة : مزاجها : طعمها. وقيل : إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها . وقيل : إنما أراد الكافور فى بياضه وطيب رائحته وبرده ؛ لأن الكافور لا لايشرب كما فى قوله : ﴿ حتى إذا جعله نارا ﴾ [الكهف : ٩٦] أى كنار . وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل ، وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا ، وإنما سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب ، والجملة فى محل جرّ صفة لكأس . وقيل : إن كان هنا زائدة، أى من كأس مزاجها كافورا .

﴿ **عينا يشرب بها عباد الله** ﴾ انتصاب ﴿ **عينا**﴾ على أنها بدل من ﴿ **كافورا**﴾ : لأن ماءها فى بياض الكافور ، وقال مكى : إنها بدل من محل ﴿ **من كأس** ﴾ على حذف مضاف كأنه قيل : يشربون خمرا خمر عين . وقيل : إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون ، أى عينا من كأس . وقيل : هى منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش . وقيل: منتصبة بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أى يشربون عينا يشرب بها عباد الله ، والأوّل أولى ، وتكون جملة: ﴿**يشرب بها عباد الله** ﴾ صفة لـ﴿**عينا**﴾. وقيل : إن الباء فى ﴿ **يشرب بها** ﴾ زائدة . وقيل : بمعنى من ، قاله الزجاج . ويعضده قراءة ابن أبى عبلة :« يشربها عباد الله» . وقيل : إن يشرب مضمن معنى يلتذّ . وقيل : هى متعلقة بـ﴿**يشرب** ﴾ ، والضمير يعود إلى الكأس ، وقال الفراء : يشربها ويشرب بها سواء فى المعنى ، وكأنّ يشرب بها يروى بها وينتفع بها ، وأنشد قول الهذلى :

شربن بماء البحر ثم ترفعت

قال : ومثله تكلم بكلام حسن ، وتكلم كلاما حسنا ﴿ **يفجرونها تفجيرا** ﴾ أى يجرونها إلى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاؤون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقا كما يشقّ النهر ويفجر إلى هنا وهنا . قال مجاهد : يقودونها حيث شاؤوا وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم . والجملة صفة أخرى لـ ﴿ **عينا** ﴾ ، وجملة : ﴿**يوفون بالنذر** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر ، وكذا ما عطف عليها . ومعنى النذر فى اللغة : الإيجاب ، والمعنى : يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات ، قال قتادة ومجاهد : يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما . وقال عكرمة : يوفون إذا نذروا فى حق الله سبحانه ، والنذر فى الشرع : ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه

على أنفسهم . قال الفراء : في الكلام إضمار ، أى كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا ، وقال الكلبى : يوفون بالعهد ، أى يتممون العهد ، والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص ﴿ **ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا** ﴾ المراد : يوم القيامة ، ومعنى استطارة شرّه : فشوّه وانتشاره ، يقال : استطار يستطير استطارة فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، ومنه قول الأعشى :

فبانت وقد أسأرت فى الفؤا … د صدعا على نأيها مستطيرا

والعرب تقول : استطار الصدع فى القارورة والزجاجة : إذا امتدّ ، ويقال : استطار الحريق : إذا انتشر ، قال الفرّاء : المستطير : المستطيل ، قال قتادة : استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . قال مقاتل : كان شره فاشيا فى السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نسفت الجبال وغارت المياه. ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** ﴾ أى يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم وقلته عندهم . قال مجاهد: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له ، فقوله : ﴿ **على حبه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كائنين على حبه ، ومثله قوله: ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران : ٩٢] وقيل : على حب الإطعام برغبتهم فى الخير ، قال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام . وقيل : الضمير فى حبه يرجع إلى الله ، أى يطعمون الطعام على حبّ الله ، أى يطعمون إطعاما كائنا على حب الله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** ﴾ والمسكين : ذو المسكنة ، وهو الفقير ، أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم : يتامى المسلمين ، والأسير الذى يؤسر فيحبس . قال قتادة ومجاهد : الأسير : المحبوس . وقال عكرمة : الأسير : العبد . وقال أبو حمزة الثمالى : الأسير : المرأة . قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف فى حق الأسير الكافر، وقال غيره : بل هى محكمة، وإطعام المسكين واليتيم على التطوّع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام.

وجملة : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى يقولون : إنما نطعمكم، أو قائلين إنما نطعمكم ، يعنى : أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك ، قال الواحدى : قال المفسرون : لم يتكلموا بهذا ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه ﴿ **لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾ أى لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ، لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه . ﴿ **إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرا** ﴾ أى نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ، ومعنى ﴿ **عبوسا** ﴾ : أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى : أنه ذو عبوس . قال الفراء وأبو عبيدة والمبرد : يوم قمطرير وقماطر إذا كان

صعبا شديدا ، وأنشد الفراء :

بـنى عمنا هل تذكرون بــلاءنا   عليكم إذا ما كان يوم قماطر

قال الأخفش : القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ، ومنه قول الشاعر :

فـفروا إذا مـا الحـــرب ثار غبارها   ولـج بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائى : اقمطر اليوم، وازمهر: إذا كان صعبا شديدا ، ومنه قول الشاعر :

بنـو الحرب أوصينا لهـم بقمطرة   ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

وقال مجاهد : إن العبوس بالشفتين ، والقمطير بالجبهة والحاجبين ، فجعلهما من صفات المتغير فى ذلك اليوم لما يراه من الشدائد ، وأنشد ابن الأعرابى :

يقــدر عــلى الصيد بعود منكسر   ويقمطر سـاعـة ويـكـفهـر

قال أبو عبيدة : يقال : قمطرير ، أى منقبض ما بين العينين والحاجبين ، قال الزجاج : يقال : اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطربها ، ورمت بأنفها ما يسبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة . ﴿ **فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم** ﴾ أى دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه ﴿ **ولقاهم نـضرة وسرورا** ﴾ أى أعطاهم بدل العبوس فى الكفار نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب . قال الضحاك : والنضرة : البياض والنقاء فى وجوههم . وقال سعيد بن جبير : الحسن والبهاء . وقيـل : النـضرة : أثر النعـمة . ﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾ أى بسبب صبرهم على التكاليف . وقيل : على الفقر . وقيل : على الجوع . وقيل : على الصوم ، والأولى حمل الآية على الصبر على كل شىء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ، «وما » مصدرية ، والتقدير : بصبرهم ﴿ **جنة وحريرا** ﴾ أى أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضا عن تركه فى الدنيا امتثالا لما ورد فى الشرع من تحريمه ، وظاهر هذه الآيات العموم فى كلّ من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصا كما سيأتى فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولا أوليا .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ قال : كل إنسان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **أمشاج** ﴾ قال : أمشاجها عروقها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم : ﴿**أمشاج** ﴾ قال : العـروق . وأخرج عبد بـن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **من نطفة أمشاج** ﴾ قال : ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **أمشاج** ﴾ ألوان : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وحمراء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الأمشاج : الذى يخرج على أثر البـول كـقطع الأوتار ومـنه يـكون الولد . وأخـرج ابن المنذر

وابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **كان شرّه مستطيرا** ﴾ قال : فاشيا . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وأسيرا** ﴾ قال : هو المشرك .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿**مسكينا** ﴾ قال : «فقيرا» ﴿**ويتيما** ﴾ قال : « لا أب له » ﴿ **وأسيرا** ﴾ قال : « المملوك والمسجون » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ويطعمون الطعام** ﴾ الآية قال: نزلت هذه الآية فى علىّ بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يوما عبوسا** ﴾ قال : ضيقا ﴿ **قمطريرا** ﴾ قال : طويلا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **يوما عبوسا قمطريرا** ﴾ قال: «يقبض ما بين الأبصار » . ما بين عينيه ووجهه . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **ولقاهم نضرة وسرورا** ﴾ قال : نضرة فى وجوههم وسرورا فى صدورهم .

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزى ، ولا يعمل فيها صبروا ، لأن الصبر إنما كان فى الدنيا ، وجوّز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة . قال الفراء : وإن شئت جعلت ﴿**متكئين**﴾ تابعا، كأنه قال : جزاهم جنة متكئين فيها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون منصوبا على المدح والضمير من ﴿ **فيها** ﴾ يعود إلى الجنة ، والأرائك : السرر فى الحجال ، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الكهف ﴿**لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير فى متكئين ، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخرى لجنة ، والزمهرير: أشدّ البرد ، والمعنى : أنهم لا يرون فى الجنة حرّ الشمس ولا برد الزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمسا ولا زمهريرا

وقال ثعلب : الزمهرير : القمر بلغة طيئ ، وأنشد لشاعرهم :

---

(١) أبو نعيم ٥/ ١٠٥ وقال : « غريب من حديث عمرو تفرد به عباد عن عمه » .

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتـــها والزمهرير ما زهر

ويروى : ماظهر ، أى لم يطلع القمر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة مريم . ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **دانية** ﴾ بالنصب عطفا على محل لا يرون ، أو على متكئين، أو صفة لمحذوف ، أى وجنة دانية ، كأنه قال : وجزاهم جنة دانية . وقال الزجاج : هو صفة لجنة المتقدم ذكرها . وقال الفراء : هو منصوب على المدح ، وقرأ أبو حيوة : « ودانية» بالرفع على أنه خبر مقدم وظلالها مبتدأ مؤخر والجملة فى موضع النصب على الحال ، والمعنى : أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظللة عليهم زيادة فى نعيمهم وإن كان لا شمس هنالك ، قال مقاتل: يعنى : شجرها قريب منهم ، وقرأ ابن مسعود: « ودانيا عليهم » . ﴿ **وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ معطوف على دانية كأنه قال : ومذللة ، ويجوز أن تكون الجملة فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ **عليهم** ﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار ، والمعنى : أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيرا كثيرا بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك ، قال النحاس : المذلل القريب والمتناول ، ومنه قولهم : حائط ذليل ، أى قصير . قال ابن قتيبة :ذللت : أدنيت ، من قولهم : حائط ذليل ، أى كان قصير السمك ، وقيل : ذللت ، أى جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا . ﴿ **ويطاف عليهم بآنية من فـضة وأكواب** ﴾ أى تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشرب بآنية الفضة ، والأكواب جمع كوب ، وهو الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة ، ومنه قول عدىّ :

متكئ تقرع أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره فى سورة الزخرف ﴿ **كانت قواريراً . قواريراً من فـضة** ﴾ أى فى وصف القوارير فى الصفاء وفى بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ، ولونها لون الفضة ، قرأ نافع والكسائى وأبو بكر : ﴿**قوارير . قوارير**﴾ بالتنوين فيهما مع الوصل ، وبالوقف عليهما بالألف ، وقد تقدّم وجه هذه القراءة فى تفسير قوله : ﴿ **سلاسل** ﴾ من هذه السورة ، وبينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه ، وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع ، وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف ، وقرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثانى والوقف على الأوّل بالألف دون الثانى ، وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما، والوقف على الأوّل بالألف دون الثانى ، والجملة فى محل جرّ صفة لأكواب . قال أبو البقاء : وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها . قال الواحدى : قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة ، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير . قال الزجاج : القوارير التى فى الدنيا من الرمل ، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما فى داخلها ، وجملة : ﴿ **قدّروها تقديرا** ﴾ صفة لقوارير . قرأ الجمهور : ﴿**قدّروها**﴾ بفتح القاف على البناء للفاعل ، أى قدّرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم

على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان ، قال مجاهد وغيره : أتوا بها على قدر ريهم بغير زيادة ولا نقصان . قال الكلبى : وذلك ألذّ وأشهى . وقيل : قدرّها الملائكة . وقيل : قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد ولا تنقص ، وقرأ على وابن عباس والسلمى والشعبى وزيد بن علىّ وعبيد بن عمير وأبو عمرو فى رواية عنه : « قدروها » بضم القاف وكسر الدال مبنيا للمفعول، أى جعلت لهم على قدر إرادتهم، قال أبو على الفارسى هو من باب القلب ، قال : لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم لا قدّروها ، لأنه فى معنى : قدروا عليها . وقال أبو حاتم : التقدير : قدرت الأوانى على قدر ريهم ، فمفعول ما لم يسمّ فاعله محذوف . قال أبو حيان : والأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال : قدّر ريهم منها تقديرا ، فحذف المضاف فصار قدروها ، وقال المهدوى : إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى ، وكأن الأصل قدروا عليها فحذف حرف الجرّ كما أنشد سيبويه :

آليت حبّ العراق الدهر آكله ... والحب يأكله فى القرية السوس

أى آليت على حبّ العراق . ﴿ **ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا** ﴾ قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر ، وإذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس ، والمعنى : أن أهل الجنة يسقون فى الجنة كأسا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل ، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته ، وقال مجاهد وقتادة : الزنجبيل: اسم للعين التى يشرب بها المقربون. وقال مقاتل : هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا . ﴿ **عينا فيها تسمى سلسبيلا** ﴾ انتصاب ﴿**عينا**﴾ على أنها بدل من ﴿**كأسًا** ﴾، ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدر ، أى يسقون عينا، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض ، أى من عين ، والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب : هذا شراب سلس وسلسال وسلسبيل، أى طيب لذيذ . قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة : اسم لماء فى غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ فى حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم ... كأسا يصفق بالرحيق السلسل

﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون** ﴾ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ، ووصف آنيتهم، ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب ، ومعنى ﴿ **مخلدون** ﴾ : باقون على ماهم عليه من الشباب والطراوة والنضارة ، لا يهرمون ولا يتغيرون . وقيل : معنى ﴿**مخلدون**﴾ : لا يموتون . وقيل : التخليد : التحلية ، أى محلون . ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** ﴾: إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤا مفرّقا . قال عطاء : يريد فى بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما . قال أهل المعانى : إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم فى الخدمة ، ولو كانوا

صفا لشبهوا بالمنظوم . وقيل : إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين فإنه شبههنّ باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهنّ بالخدمة . ﴿ **وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا** ﴾ أى وإذا رميت ببصرك هناك ، يعنى : فى الجنة رأيت نعيما لا يوصف ، وملكا كبيرا لا يقادر قدره . و« ثم » ظرف مكان ، والعامل فيها رأيت . قال الفراء : فى الكلام « ما » مضمرة ، أى وإذا رأيت ما ثمَّ ، كقوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] أى ما بينكم ، قال الزجاج معترضا على الفراء : إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن رأيت يتعدّى فى المعنى إلى ثم . والمعنى : إذا رأيت ببصرك ثم ، ويعنى بثمّ : الجنة . قال السدّى : النعيم : ما يتنعم به ، والملك الكبير : استئذان الملائكة عليهم ، وكذا قال مقاتل والكلبى . وقيل : إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدّر ، ولا منوىّ ، بل معناه : أن بصرك أينما وقع فى الجنة رأيت نعيما وملكا كبيرا .

﴿ **عاليهم ثياب سندس** ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن : « عاليهم » بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، أو على أن عاليهم مبتدأ ، وثياب مرتفع بالفاعلية وإن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش . وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء ، وخبره : ثياب سندس ، واسم الفاعل مراد به الجمع ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف فى محلّ رفع على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل : فوقهم ثياب ، قال الفرّاء : إن عاليهم بمعنى : فوقهم ، وكذا قال ابن عطية . قال أبو حيان : عال وعالية اسم فاعل، فيحتاج فى كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب ، وقد تقدمه إلى هذا الزجاج وقال : هذا مما لا نعرفه فى الظروف ولو كان ظرفًا لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما : الهاء والميم فى قوله : ﴿ **يطوف عليهم** ﴾ أى على الأبرار ﴿ **ولدان** ﴾ عاليا الأبرار ﴿ **ثياب سندس** ﴾ أى يطوف عليهم فى هذه الحال . والثانى : أن يكون حالا من الولدان ، أى إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا فى حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علىّ الفارسى : العامل فى الحال إما لقاهم نضرة وسرورا ، وإما جزاهم بما صبروا . قال : ويجوز أن يكون ظرفا ، وقرأ ابن سيرين ومجاهد وأبو حيوة وابن أبى عبلة :« عليهم»، وهى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود : «عاليتهم » ، وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بتنوين ثياب وقطعها عن الإضافة ورفع سندس و خضر وإستبرق على أن السندس نعت للثياب ، لأن السندس نوع من الثياب ، وعلى أن ﴿ **خضر** ﴾ نعت لسندس ، لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس ، أى وثياب إستبرق ، والجمهور من القراء اختلفوا فى خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه ، فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس ورفع إستبرق عطفا على ثياب ، أى عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق . وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتا لثياب ، وجرّ

إستبرق نعتا لسندس ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، والإستبرق من جنس السندس ، وقرأ نافع وحفص برفع : ﴿**خضر وإستبرق**﴾ لأن ﴿ **خضر** ﴾ نعت للثياب ، وإستبرق عطف على الثياب ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بجرّ خضر وإستبرق على أن ﴿ **خضر** ﴾ نعت للسندس ، وإستبرق معطوف على سندس ، وقرؤوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه ، قال : لأنه أعجمى ، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب ، والسندس : ما رق من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه ، وقد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف .

﴿ **وحلوا أساور من فضة** ﴾ عطف على ﴿**يطوف عليهم**﴾ . ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة وفى سورة فاطر : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ [فاطر : ٢٣] وفى سورة الحج : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا﴾ [الحج : ٢٣] ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد ﴿ **وسقاهم ربهم شرابا طهورا** ﴾ هذا نوع آخر من الشراب الذى يمنّ الله عليهم به ، قال الفراء : يقول : هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفا بالنجاسة ، والمعنى : أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا . قال مقاتل : هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غشّ وغلّ وحسد ، قال أبو قلابة وإبراهيم النخعى : يؤتون بالطعام ، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك . ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء** ﴾ أى يقال لهم : إن هذا الذى ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم ، أى ثوابا لها ﴿ **وكان سعيكم مشكورا** ﴾ أى كان عملكم فى الدنيا بطاعة الله مرضيا مقبولا ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبول لطاعته .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : الزمهرير : هو البرد الشديد . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «اشتكت النار إلى ربها فقالت : رب ، أكل بعضى بعضا ، فجعل لها نفسين : نفسا فى الصيف ، ونفسا فى الشتاء ، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدة ما تجدون فى الصيف من الحر من سمومها » (١) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد ابن السرىّ وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٦٠) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦١٧/ ١٨٥) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩٢) وقال : « هذا حديث صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٣١٩) بمعناه .

قوله : ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ قال : قريبة ﴿ **وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما وقعودا ومضطجعين وعلى أىّ حال شاؤوا . وفى لفظ قال : ذللت فيتناولون منها كيف شاؤوا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : ﴿ **آنية من فضة**﴾وصفاؤها كصفاء القوارير ﴿ **قدروها تقديرا** ﴾ قال : قدرت للكف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقى عنه قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة فى صفاء القوارير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : ليس فى الجنة شىء إلا وقد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وأخرج الفريابى عنه أيضا فى قوله : ﴿ **قدروها تقديرا** ﴾ قال : أتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئا ولا يشتهون بعدها شيئا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **قدّروها تقديرا** ﴾ قال : قدّرتها السقاة . وأخرج ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عمرو قال : إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وتلا هذه الآية : ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ .

قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا** ﴾ أى فرّقناه فى الإنزال ولم ننزله جملة واحدة. وقيل : المعنى: نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون . ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ أى لقضائه ، ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته ، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ **ولا تطع منهم** (١) **آثما أو كفورا**﴾ أى لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال فى كفر ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك . قال الزجاج إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص ، لأنه أمره ألا يطيع الاثنين ، فإذا قال : لا تطع منهم آثما أو كفورا ، دلّ ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، فقد قلت: إنهما أهل أن

(١) فى المطبوعة : « منها » وهو خطأ .

يتبعا ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع ، وقال الفراء : « أو » هنا بمنزلة لا ، كأنه قال : ولا كفورا . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **آثما** ﴾ عتبة بن ربيعة ، وبقوله: ﴿**أو كفورا** ﴾ الوليد بن المغيرة ، لأنهما قالا للنبىّ ﷺ : ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج . ﴿**واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا** ﴾ أى دم على ذكره فى جميع الأوقات . وقيل : المعنى : صلّ لربك أول النهار وآخره ، فأوّل النهارصلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر . ﴿ **ومن الليل فاسجد له** ﴾ أى صلّ المغرب والعشاء . وقيل : المراد الصلاة فى بعضه من غير تعيين ، و « من » للتبعيض على كل تقدير ﴿ **وسبحه ليلا طويلا** ﴾ أى نزهه عما لا يليق به ، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها . وقيل : المراد التطوّع فى الليل ، قال ابن زيد وغيره :إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس . وقيل : الأمر الندب . وقيل : هو مخصوص بالنبىّ ﷺ .

﴿ **إنّ هؤلاء يحبون العاجلة** ﴾ يعنى : كفار مكة ومن هو موافق لهم ، والمعنى : أنهم يحبون الدار العاجلة ، وهى دار الدنيا ، ﴿ **ويذرون وراءهم يوما ثقيلا** ﴾ أى يتركون ويدعون وراءهم ، أى خلفهم أو بين أيديهم وأمامهم يوما شديدا عسيرا ، وهو يوم القيامة ، وسمى ثقيلا لما فيه من الشدائد والأهوال ومعنى كونه يذرونه وراءهم : أنهم لا يستعدّون له ، ولا يعبؤون به ، فهم كمن ينبذ الشىء وراء ظهره تهاونا به واستخفافا بشأنه ، وإن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم . ﴿ **نحن خلقناهم** ﴾ أى ابتدأنا خلقهم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا فى ذلك عمل ولا سعى لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ **وشددنا أسرهم** ﴾ الأسر : شدّة الخلق ، يقال : شدّ الله أسر فلان ، أى قوى خلقه ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم : شددنا خلقهم . قال الحسن : شددنا أوصالهم بعضا إلى بعض بالعروق والعصب . قال أبو عبيد : يقال : فرس شديد الأسر ، أى الخلق . قال لبيد :

ساهم الوجه شديد أسره   مشرف الحارك محبوك القتد

وقال الأخطل :

من كل مجتنب شديد أسره   سلس القياد تخاله مختالا

وقال ابن زيد : الأسر : القوة ، واشتقاقه من الإسار ، وهو القدّ الذى تشد به الأقتاب ، ومنه قول ابن أحمر يصف فرسا :

يمشى بأوطفة شداد أسرها   شمّ السنابك لا تفى بالجدجد

﴿ **وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا** ﴾ أى لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وقيل: المعنى: مسخناهم إلى أسمج صورة ، وأقبح خلقة . ﴿ **إنّ هذه تذكرة** ﴾ يعنى : أن هذه

السورة تذكير وموعظة ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ أى طريقا يتوسل به إليه ، وذلك بالإيمان والطاعة ، والمراد إلى ثوابه أو إلى جنته . ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله**﴾ أى وما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلا إلا أن يشاء الله ، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، والخير والشرّ بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فمشيئة العبد مجردة لا تأتى بخير ، ولا تدفع شرّا ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير كما فى حديث : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى » [(١)] قال الزجاج : أى لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ فى أمره ونهيه ، أى بليغ العلم والحكمة . ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته** ﴾ أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، أو يدخل فى جنته من يشاء من عباده . قال عطاء : من صدقت نيته أدخله جنته ﴿ **والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما**﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ما قبله ، أى يعذب الظالمين ، نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب أى : يدخل من يشاء فى رحمته ، ويعذب الظالمين ، أى المشركين ، ويكون أعدّ لهم تفسيرا لهذا المضمر، والاختيار النصب وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **وشددنا أسرهم** ﴾ قال : خلقهم . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة: ﴿**وشددنا أسرهم** ﴾ قال : هى المفاصل .

---

(١) البخارى فى بدء الوحى (١) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧ / ١٥٥) .

تفسير سورة المرسلات

هى خمسون آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال قتادة : إلا آية منها وهى قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ فإنها مدنية ، وروى هذا عن ابن عباس . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المرسلات بمكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبى ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت سورة ﴿ المرسلات عرفا ﴾ فإنه ليتلوها، وإنى لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبىّ ﷺ : « اقتلوها » ، فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ:« وقيت شركم كما وقيتم شرها » [(١)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ؛ أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ :﴿والمرسلات عرفا﴾ فقالت : يا نبى ، لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة ، أنها آخر ما سمعت رسول اللّه ﷺ يقرأ بها فى المغرب [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ والمرسلات عرفا ﴾ قال جمهور المفسرين : هى الرياح . وقيل : هى الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبى . وقيل : هم الأنبياء ، فعلى الأول : أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما فى قوله : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ [الحجر : ٢٣] وقوله : ﴿يرسل[(٣)] الرياح ﴾ [الروم : ٤٨] وغير ذلك ، وعلى الثانى : أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهيه ، وعلى الثالث : أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وانتصاب ﴿عرفا﴾ إما على أنه مفعول لأجله ، أى المرسلات لأجل العرف وهو ضد

(١) أحمد ١/ ٣٧٧ والبخارى فى بدء الخلق (٣٣١٧) ومسلم فى السلام (٢٢٣٤ / ١٣٧) .
(٢) الموطأ فى الصلاة ١/ ٧٨ والبخارى فى الأذان (٧٦٣) ومسلم فى الصلاة (٤٦٢ / ١٧٣) .
(٣) فى المخطوطة : « ويرسل » بالواو ، وهو خطأ .

النكر ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس ، تقول العرب : سار الناس إلى فلان عرفا واحدا : إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه. أو على أنه مصدر كأنه قال : والمرسلات إرسالا ، أى متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض ، أى والمرسلات بالعرف . قرأ الجمهور : ﴿ **عرفا** ﴾ بسكون الراء . وقرأ عيسى بن عمر بضمها . وقيل : المراد بالمرسلات : السحاب لما فيها من نعمة ونقمة :﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ وهى الرياح الشديدة الهبوب ، قال القرطبى : بغير اختلاف ، يقال : عصف بالشيء: إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف ، أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة، ويقال : عصفت الحرب بالقوم : إذا ذهبت بهم : وقيل : هى الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : يعصفون بروح الكافر . وقيل : هى الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها . ﴿**والناشرات نشرا**﴾ يعنى : الرياح تأتى بالمطر وهى تنشر السحاب نشرا ، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم فى الجوّ عند النزول بالوحىّ ، أو هى الأمطار لأنها تنشر النبات ، وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بنى آدم ، قال الربيع : إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح ، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر : ﴿**فالفارقات فرقا**﴾ يعنى : الملائكة تأتى بما يفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وقال مجاهد : هى الريح تفرّق بين السحاب فتبدّده، وروى عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل . وقيل : هى الرسل ، فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه . وبه قال الحسن : ﴿ **فالملقيات ذكرا** ﴾ هى الملائكة . قال القرطبى بإجماع : أى تلقى الوحى إلى الأنبياء، وقيل : هو جبريل ، وسمى باسم الجمع تعظيما له . وقيل : هى الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب. قرأ الجمهور : ﴿ **فالملقيات** ﴾ بسكون اللام وتخفيف القاف اسم فاعل ، وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهى إيصال الكلام إلى المخاطب ، والراجح أن الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة وهو الذى اختاره الزجاج والقاضى وغيرهما .

﴿ **عذرا أو نذرا** ﴾ انتصابهما على البدل من ﴿ **ذكرا** ﴾ أو على المفعولية ، والعامل فيهما المصدر المنون كما فى قوله : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة .يتيما ﴾ [البلد : ١٤، ١٥] أو على المفعول لأجله ، أى للإعذار والإنذار ، أوعلى الحال بالتأويل المعروف ، أى معذرين أو منذرين . قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما . وقرأ زيد بن ثابت وابنه خارجة بن زيد وطلحة بضمها . وقرأ الحرميان وابن عامر وأبو بكر بسكونها فى ﴿ **عذرا** ﴾ وضمها فى «نذرا » . وقرأ الجمهور : ﴿ **عذرا أو نذرا** ﴾ على العطف بـ « أو » وقرأ إبراهيم التيمى وقتادة على العطف بالواو بدون ألف ، والمعنى : أن الملائكة تلقى الوحى إعذارا من الله إلى خلقه وإنذارا من عذابه ،كذا قال الفراء .وقيل : عذرا للمحقين، ونذرا للمبطلين . قال أبو علىّ الفارسى:

يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر وناذر كقوله : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى﴾ [النجم : ٥٦] فيكون نصبا على الحال من الإلقاء ، أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار ، أو مفعولان لذكرا ، أى تذكر عذرا أو نذرا . قال المبرد : هما بالتثقيل جمع ، والواحد عذير ونذير .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ **إنما توعدون لواقع** ﴾ أى أن الذى توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة . ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال : ﴿ **فإذا النجوم طمست** ﴾ أى محى نورها وذهب ضوؤها ، يقال: طمس الشيء : إذا درس وذهب أثره ﴿ **وإذا السماء فرجت** ﴾ أى فتحت وشقت ، ومثله قوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ [النبأ : ١٩] ﴿ **وإذا الجبال نسفت** ﴾ أى قلعت من مكانها بسرعة ، يقال : نسفت الشيء وأنسفته : إذا أخذته بسرعة . وقال الكلبى : سويت بالأرض ، والعرب تقول : نسفت الناقة الكلأ : إذا رعته .وقيل :جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف،ومنه قوله:﴿ وبست الجبال بسا ﴾ [الواقعة: ٥] والأول أولى . قال المبرد : نسفت : قلعت من مواضعها . ﴿ **وإذا الرسل أقتت**﴾ الهمزة فى ﴿ **أقتت** ﴾ بدل من الواو المضمومة ، وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة . وقد قرأ بالواو أبو عمرو وشيبة والأعرج وقرأ الباقون بالهمزة ، والوقت : الأجل الذى يكون عنده الشيء المؤخر إليه ، والمعنى : جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما فى قوله سبحانه : ﴿يوم يجمع اللّه الرسل ﴾ [المائدة : ١٠٩] وقيل : هذا فى الدنيا ، أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبها.والأول أولى . قال أبو على الفارسى : أى جعل يوم الدين والفصل لها وقتا . وقيل : ﴿ **أقتت** ﴾ : أرسلت لأوقات معلومة على ما علم اللّه به ﴿ **لأى يوم أجلت** ﴾ هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب ، أى لأى يوم عظيم يعجب العباد منه لشدته ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لـ « إذا » ، أو فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿**أقتت**﴾. قال الزجاج : المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم .

ثم بين هذا اليوم فقال : ﴿ **ليوم الفصل** ﴾ قال قتادة : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم عظم ذلك اليوم فقال : ﴿ **وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ أى وما أعلمك بيوم الفصل ، يعنى : أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره ، و« ما » مبتدأ وأدراك خبره ، أو العكس كما اختاره سيبويه . ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى ويل لهم فى ذلك اليوم الهائل ، وويل أصل مصدر سادّ مسد فعله ، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات. والويل : الهلاك ، أو هو اسم واد فى جهنم ، وكررّ هذه الآية فى هذه السورة لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر ، ورب شيء كذب به هو أعظم جرما من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب .

ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال : ﴿ **ألم نهلك الأولين** ﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد ﷺ . قال مقاتل : يعنى : بالعذاب فى الدنيا حين كذبوا رسلهم . ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين**﴾ يعنى : كفار مكة ، ومن وافقهم حين كذبوا محمداً ﷺ . قرأ الجمهور : ﴿ **نتبعهم** ﴾ بالرفع على الاستئناف، أى ثم نحن نتبعهم . قال أبو البقاء : ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى : أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين فى الإهلاك، وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد ، ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود : « ثم سنتبعهم الآخرين » . وقرأ الأعرج والعباس عن أبى عمرو : « نتبعهم » بالجزم عطفا على ﴿ **نهلك** ﴾ . قال شهاب الدين : على جعل الفعل معطوفا على مجموع الجملة من قوله : ﴿ **ألم نهلك** ﴾ . ﴿ **كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف ، أى مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما فى الدنيا أو فى الآخرة : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله . قيل : الويل الأول لعذاب الآخرة ، وهذا لعذاب الدنيا .

﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ أى ضعيف حقير ،وهو النطفة ﴿ **فجعلناه فى قرار مكين** ﴾ أى مكان حريز ، وهو الرحم : ﴿ **إلى قدر معلوم** ﴾ أى إلى مقدار معلوم ، وهو مدّة الحمل ، وقيل : إلى أن يصور ﴿**فقدرنا**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**فقدرنا** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ نافع والكسائى بالتشديد من التقدير ، قال الكسائى والفراء: وهما لغتان بمعنى، تقول : قدرت كذا ، وقدرته ﴿ **فنعم القادرون** ﴾ أى نعم المقدرون نحن ، قيل : المعنى: قدرناه قصيرا أو طويلا. وقيل : معنى ﴿**قدرنا**﴾: ملكنا ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بقدرتنا على ذلك .

ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا** ﴾ معنى الكفت فى اللغة : الضم والجمع ، يقال : كفت الشىء : إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر : كفت ، والمعنى : ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها والأموات فى باطنها تضمهم وتجمعهم . قال الفراء : يريد تكفتهم أحياء على ظهرها فى دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتا فى بطنها ، أى تحوزهم وهو معنى قوله : ﴿ **أحياء وأمواتا** ﴾ وأنشد سيبويه :

كرام حين تنكفت الأفــاعى ... إلى أجحــارهن مــن الصـقيع

قال أبو عبيدة كفاتا : أوعية ، ومنه قول الشاعر :

فأنت اليوم فوق الأرض حىّ ... وأنت غدا تضمن فى كفــات

أى فى قبر ، وقيل : معنى جعلها كفاتا : أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات . وقال الأخفش وأبوعبيدة: الأحياء والأموات وصفان للأرض ، أى الأرض مقسمة إلى حىّ وهو الذى ينبت ، وإلى ميت وهو الذى لا ينبت . قال الفراء : انتصاب أحياء

وأمواتا بوقوع الكفات عليه ، أى ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نون نصب ما بعده . وقيل : نصبا على الحال من الأرض ، أى منها كذا ومنها كذا . وقيل : هو مصدر نعت به للمبالغة . وقال الأخفش: كفاتا جمع كافتة ،والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع ، وقال الخليل : التكفت : تقليب الشىء ظهرًا لبطن أو بطنًا لظهر، ويقال : انكفت القوم إلى منازلهم ، أى ذهبوا . ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات** ﴾ أى جبالا طوالا ، والرواسى : الثوابت ، والشامخات : الطوال ، وكل عال فهو شامخ ﴿**وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾ أى عذبا ، والفرات : الماء العذب يشرب منه ويسقى به . قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث.﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التى هذه من جملتها .

١ وقد أخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، عن أبى هريرة : ﴿ **والمرسلات عرفا** ﴾ قال : هى الملائكة أرسلت بالعرف . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ **والمرسلات عرفا** ﴾ قال : الريح ﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ قال : الريح ﴿ **والناشرات نشرا** ﴾ قال :الريح . وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب ، أنه جاء رجل إلى علىّ بن أبى طالب ، فقال : ما العاصفات عصفا ، قال : الرياح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿**والمرسلات عرفا** ﴾ قال: الريح ﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ قال : الريح ﴿ **فالفارقات فرقا** ﴾ قال : الملائكة ﴿ **فالملقيات ذكرا** ﴾ قال:الملائكة .وأخرج ابن المنذر عنه ﴿**والمرسلات عرفا**﴾ قال : الملائكة ﴿ **فالفارقات فرقا** ﴾ قال : الملائكة ، فرقت بين الحق والباطل ﴿**فالملقيات ذكرا** ﴾ قال : بالتنزيل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود قال : ويل : واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فجعل للمكذبين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **من ماء مهين** ﴾ قال : ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **كفاتا** ﴾ قال : كنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**رواسى شامخات** ﴾ قال : جبالا مشرفات ، وفى قوله : ﴿ **فراتا** ﴾: عذبا .

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقال لهم توبيخا وتقريعا : ﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون** ﴾ فى الدنيا ، تقول لهم ذلك خزنة جهنم : أى سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب ، وهو عذاب النار ﴿ **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب** ﴾ أى إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب . وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعبا . قرأ الجمهور : ﴿ **انطلقوا** ﴾ فى الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد ، وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضى فى الثانى ، أى لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا . وقيل: المراد بالظل هنا : هو السرادق ، وهو لسان من النار يحيط بهم ، ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم ، ثم يصيرون إلى النار. وقيل: هو الظل من يحموم كما فى قوله : ﴿ فى سموم وحميم . وظلّ من يحموم ﴾ [الواقعة : ٤٢ ، ٤٣] على ما تقدم ، ثم وصف سبحانه هذا الظلّ تهكما بهم فقال : ﴿ **لا ظليل ولا يغنى من اللهب** ﴾ أى لا يظل من الحرّ ولا يغنى من اللهب . قال الكلبى : لا يردّ حرّ جهنم عنكم .

ثم وصف سبحانه النار فقال : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾ أى كل شررة من شررها التى ترمى بها كالقصر من القصور فى عظمها ، والشرر: ما تطاير من النار متفرقا ، والقصر : البناء العظيم ، وقيل : القصر : جمع قصرة ساكنة الصاد مثل : حمر وحمرة ، وتمر وتمرة ، وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ . قال سعيد بن جبير والضحاك : وهى أصول الشجر العظام . وقيل : أعناقه . قرأ الجمهور : ﴿ **كالقصر** ﴾ بإسكان الصاد، وهو واحد القصور كما تقدم، وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمى بفتح الصاد ، أى أعناق النخل . والقصرة : العنق ، جمعه قصر وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل ، وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد وهى أيضا جمع قصرة، مثل : بدر وبدرة ، وقصع وقصعة ، وقرأ الجمهور : ﴿ **بشرر** ﴾ بفتح الشين ، وقرأ ابن عباس وابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراءين ، وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين ، وهى لغات . ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال : ﴿ **كأنه جمالات صفر** ﴾ وهى جمع جمال ، وهى الإبل أو جمع جمالة . قرأ الجمهور : « جمالات » بكسر الجيم ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص : ﴿ **جمالة** ﴾ جمع جمل . وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وأبو رجاء : « جمالات » بضم الجيم ، وهى حبال السفن ، قال الواحدى : والصفر معناها : السود فى قول المفسرين، قال الفراء : الصفر : سواد الإبل ، لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة ، لذلك سمت العرب سود الإبل صفرا . قيل:

والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود ، ومنه قول الشاعر (١) :

تلك خيلي وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

أي هنّ سود ، قيل : وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قال بهذا ، وقد قال تعالى : ﴿ جمالات صفر ﴾ . وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهي مضيئة، فلما خلق الله جهنم ، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار ، وبعث إليها سلطانه وغضبه فاسودت من سلطانه وازدادت سوادا وصارت أشدّ سوادا من كل شيء ، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت : وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل ، لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء ، فلو كان الأمركما ذكره المجيب من اسوداد النار، واسوداد شررها . لقال الله : كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمي الأسود أصفر لم يبق إشكال لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ، فكان ما في القرآن هنا واردا على هذا الاستعمال العربي .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لرسل الله وآياته ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون . قال الواحدي : قال المفسرون: في يوم القيامة مواقف ، ففي بعضها يتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدّمنا الجمع بهذا في غير موضع . وقيل : إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون ، لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت . وقال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . قرأ الجمهور : برفع ﴿ يوم ﴾ على أنه خبر لاسم الإشارة . وقرأ زيد بن علي والأعرج والأعمش وأبو حيوة وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ، ومحله الرفع على الخبرية ، وقيل : هو منصوب على الظرفية ، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد كأنه قيل : هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يؤذن ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن علي : « ولا يأذن » على البناء للفاعل ، أي لا يأذن الله لهم ، أي لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن كما لو نصب . قال الفراء: الفاء في ﴿ فيعتذرون ﴾ نسق على ﴿ يؤذن ﴾ وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ، ولو قال : فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ [فاطر : ٣١] بالنصب ، والكل صواب . ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته.

(١) الشاعر هو الأعشى .

﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين** ﴾ أى ويقال لهم : هذا يوم الفصل الذى يفصل فيه بين الخلائق ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب فى : ﴿ **جمعناكم** ﴾ للكفار فى زمن نبينا محمد ﷺ ، والمراد بالأوّلين : كفار الأمم الماضية. ﴿ **فإن كان لكم كيد** ﴾ أى إن قدرتم على كيد الآن ﴿ **فكيدون** ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم . قال مقاتل : يقول : إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم . وقيل : المعنى : فإن قدرتم على حرب فحاربون . وقيل : إن هذا من قول النبى ﷺ ، فيكون كقول هود : ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ [هود : ٥٥] .﴿**ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه فى الدنيا .

ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال:﴿ **إن المتقين فى ظلال وعيون** ﴾ أى فى ظلال الأشجار وظلال القصور ،لا كالظلّ الذى للكفار من الدخان أو من النار كما تقدّم ، قال مقاتل والكلبى: المراد بالمتقين : الذين يتقون الشرك بالله ، لأن السورة من أولها إلى آخرها فى تقريع الكفار على كفرهم ، قال الرازى : فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة فى نظمها وترتيبها وإنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم ، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال ، والمراد بالعيون : الأنهار ، وبالفواكه : ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم .﴿ **كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون** ﴾ أى يقال لهم ذلك. فالجملة مقدرة بالقول ، وهى فى محل نصب على الحال من ضمير المتقين ، والباء للسببية ، أى بسبب ما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة . ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى المحسنين فى أعمالهم ، قرأ الجمهور : ﴿ **فى ظلال** ﴾ . وقرأ الأعمش والزهرى وطلحه والأعرج : «فى ظلل » جمع ظلة . ﴿**ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ حيث صاروا فى شقاء عظيم ، وصار المؤمنون فى نعيم مقيم .

﴿ **كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون** ﴾ الجملة بتقدير القول فى محل نصب على الحال من المكذبين ، أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم فى الدنيا ، أو يقال لهم هذا فى الدنيا ، والمجرمون : المشركون بالله ، وهذا وإن كان فى اللفظ أمرا ، فهو فى المعنى تهديد وزجر عظيم . ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ كرّره لزيادة التوبيخ والتقريع . ﴿**وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** ﴾ أى وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون . قال مقاتل: نزلت فى ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبىّ ﷺ بها فقالوا : لا ننحنى فإنها مسبة علينا ، فقال النبى ﷺ : « لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود » (١) ، وقيل : إنما يقال لهم ذلك فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، وقيل: المعنى بالركوع : الطاعة والخشوع . ﴿**ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه ﴿ **فبأى حديث بعده يؤمنون** ﴾ أى فبأى حديث بعد القرآن يصدقون إذا لم يؤمنوا به . قرأ الجمهور : ﴿ **يؤمنون** ﴾ بالتحتية على الغيبة. وقرأ ابن عامر فى رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب .٠

(١) أحمد ٤/٢١٨ وأبو داود فى الإمارة (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبى العاص .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بشرر كالقصر** ﴾ قال : كالقصر العظيم ، وقوله : ﴿ **جمالات صفر** ﴾ قال : قطع النحاس . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه ، من طريق عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس يسأل عن قوله : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾ قال : كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل ، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ، قال : وسمعته يسأل عن قوله : « جمالات صفر » قال : حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال ، ولفظ البخارى : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر . « كأنه جمالات صفر » حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أنه قرأ : «كالقصر » بفتح القاف والصاد ، وقال قصر النخل : يعنى الأعناق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كانت العرب فى الجاهلية تقول : أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر الذراع والذراعين. وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**ترمى بشرر كالقصر** ﴾ قال : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كالقصر** ﴾ قال: هو القصر . وفى قوله : ﴿**جمالات صفر** ﴾ قال : الإبل.

وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون**﴾ ، و﴿ لا تسمع إلا همسًا ﴾ [طه : ١٠٨] ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور : ٢٥] ﴿ وهاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ [الحاقة : ١٩] فقال له : ويحك هل سألت عن هذا أحدا قبلى ؟ قال : لا ، قال : أما أنك لو كنت سألت هلكت ، أليس قال الله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : ٤٧] قال : بلى ، قال : فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**﴾ يقول : يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله فى الدنيا .

تفسير سورة عم

وتسمى سورة النبأ . وهى أربعون آية . وقيل : إحدى وأربعون آية . وهى مكية عند الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿عم يتساءلون﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ⑤ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ⑥ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⑨ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑫ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ⑯ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ⑰ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ⑱ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ⑲ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ⑳ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ㉑ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ㉒ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ㉓ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ㉔ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ㉕ جَزَاءً وِفَاقًا ㉖ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا ㉗ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ㉘ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ㉙ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ㉚﴾ .

قوله : ﴿عم يتساءلون﴾ أصله : عن ما ، فأدغمت النون فى الميم ، لأن الميم تشاركها فى الغنّة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وممّ ونحو ذلك ، والمعنى : عن أى شيء يسأل بعضهم بعضا . قرأ الجمهور : ﴿عم﴾ بحذف الألف لما ذكرنا ، وقرأ أبى وابن مسعود وعكرمة وعيسى بإثباتها ومنه قول الشاعر :

علاما قام يشتمنى لئيم　　　كخنزير تمرغ فى دمان

ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة ، وقرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف وروى ذلك عن ابن كثير . قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام ، والمعنى : تفخيم القصة كما تقول : أى شيء تريد : إذا عظمت شأنه . قال الواحدى : قال المفسرون : لما بعث رسول اللّه ﷺ وأخبرهم بتوحيد اللّه والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن ، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون : ماذا جاء به محمد وما الذى أتى به ؟ فأنزل اللّه : ﴿عم يتساءلون﴾ قال الفرّاء : التساؤل :

هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل ، وقد يستعمل أيضا فى أن يتحدثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال قال اللّه تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور : ٢٥]. ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ﴾ الآية [الصافات : ٥١] وهذا يدل على أنه التحدث، ولفظ « ما » موضوع لطلب حقائق الأشياء وذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا فجعل الشىء العظيم الذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول ، ولهذا جاء سبحانه بلفظ « ما » .

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا ، وبينه فقال : ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ فأورده سبحانه أوّلا على طريقة الاستفهام مبهما لتتوجه إليه أذهانهم وتلتفت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب : ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ على منهاج قوله : ﴿ لمن الملك اليوم للّه الواحد القهار ﴾ [غافر: ١٦] فالجار والمجرور متعلق بالفعل الذى قبله ، أو بما يدّل عليه . قال ابن عطية : قال أكثر النحاة : عن النبأ العظيم متعلق بـ ﴿ **يتساءلون** ﴾ الظاهر ، كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ وقيل : ليس بمتعلق بالفعل المذكور ، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير أعن النبأ العظيم ؟ فلزم أن يتعلق بـ ﴿ **يتساءلون** ﴾ آخر مقدّر وإنما كان ذلك النبأ ، أى القرآن عظيما ؛ لأنه ينبئ عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور. قال الضحاك: يعنى : نبأ يوم القيامة ، وكذا قال قتادة .

وقد استدل على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله : ﴿ **الذى هم فيه مختلفون** ﴾ فإنهم اختلفوا فى القرآن فجعله بعضهم سحرًا وبعضهم شعرا وبعضهم كهانة وبعضهم قال : هو أساطير الأولين ، وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره ، ويمكن أن يقال : إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة ، فصدق به المؤمنون وكذب به الكافرون ، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية ، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ، ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون﴾ [ص : ٦٧، ٦٨] ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة ، وأيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث، فأثبت النصارى المعاد الروحانى ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسمانى ، وفى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ « جنعيذا» بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف . وفى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين والعذاب للعاصين وقد كانت بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد، كما حكى اللّه عنهم بقوله : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون : ٣٧] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه ، بل شاكة فيه . كما حكى اللّه عنهم بقوله : ﴿ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : ٣٢] وما حكاه عنهم بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ﴾ [فصلت : ٥٠] فقد حصل الاختلاف بين

طوائف الكفر على هذه الصفة ، قد قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ **يتساءلون** ﴾ يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه ، فأما المسلم فيزداد يقينا واستعدادا وبصيرة فى دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية . قال الرازى : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون: ما هذا الذى يعدنا به من أمر الآخرة ، والموصول فى محل جرّ صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيما فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل : إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل: كلا بمعنى: حقا ، ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿ **ثم كلا سيعلمون**﴾ للمبالغة فى التأكيد والتشديد فى الوعيد . قرأ الجمهور بالياء التحتية فى الفعلين على الغيبة . وقرأ الحسن وأبو العالية وابن دينار وابن عامر فى رواية عنه بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الضحاك الأوّل بالفوقية والثانى بالتحتية. قال الضحاك أيضا : ﴿**كلا سيعلمون** ﴾ يعنى : الكافرين عاقبة تكذيبهم . ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ يعنى : المؤمنين عاقبة تصديقهم . وقيل: بالعكس .وقيل : هو وعيد بعده وعيد . وقيل : المعنى: ﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ عند النزع ، ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ عند البعث .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه ، وعظيم قدرته ليعرفوا توحيده ، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا** ﴾ أى قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ،والمهاد:الوطاء والفراش كما فى قوله:﴿ **الذى جعل لكم الأرض فراشا** ﴾ [البقرة : ٢٢] قرأ الجمهور : ﴿**مهادا**﴾ وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين: «مهدا» والمعنى : أنها كالمهد للصبىّ وهو ما يمهد له فينوم عليه ، والأوتاد جمع وتد ، أى جعلنا الجبال أوتادًا للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى الخيام بالأوتاد ، وفى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن ، ولا عن نبوة محمد ﷺ كما قيل ؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ، ﴿ **وخلقناكم أزواجا** ﴾ معطوف على المضارع المنفى داخل فى حكمه ، فهو فى قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا : الأصناف ، أى الذكور والإناث .وقيل : المراد بالأزواج : الألوان . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير .﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ أى راحة لأبدانكم . قال الزجاج: السبات: أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه ،أى جعلنا نومكم راحة لكم. قال ابن الأنبارى :جعلنا نومكم قطعا لأعمالكم ،لأن أصل السبت القطع.وقيل:أصله: التمدد ، يقال: سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق ، أى ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدّد ، فسمى النوم سباتا ، وقيل : المعنى : وجعلنا نومكم موتا ، والنوم أحد الموتتين ، فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم تفارقه الروح ، ومنه قول الشاعر :

ومطوية الأقراب أما نهارها فسبت وأما ليلها فذميل

ومن هذا قوله: ﴿ اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ الآية [الزمر: ٤٢] وقوله : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : ٦٠] ﴿ **وجعلنا الليل لباسا** ﴾ أى نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس . وقال سعيد بن جبير والسدّى : أى سكنا لكم . وقيل : المراد به : ما يستره عند النوم من اللحاف ونحوه ، وهو بعيد ؛ لأن الحبل وقع على الليل ، لا على ما يستتر به النائم عند نومه ﴿ **وجعلنا النهار معاشا** ﴾ أى وقت معاش ، والمعاش : العيش ، وكل شىء يعاش به فهو معاش ، والمعنى: أن اللّه جعل لهم النهار مضيئًا ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه اللّه لهم من الرزق . ﴿ **وبنينا فوقكم سبعا شدادا**﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كلٍّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام ، كما ورد ذلك . ﴿ **وجعلنا سراجًا وهاجا** ﴾ المراد به : الشمس ، وجعل هنا بمعنى: خلق ، وهكذا قوله :﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ وما بعده ، لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين فلابدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق أو التصيير ونحو ذلك . وقيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع فى جميع المواضع ، والمراد به: الإنشاء التكوينى الذى بمعنى التقدير والتسوية . قال الزجاج : الوهاج : الوقاد وهوالذى وهج ، يقال: وهجت النار تهيج وهجا ووهاجا . قال مقاتل :جعل فيه نورا وحرّا ، والوهج يجمع النور والحرارة .

﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا** ﴾ المعصرات : هى السحاب التى تنعصر بالماء ولم تمطر بعد ، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك. وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبى: هى الرياح ، والرياح تسمى معصرات ، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا : إذا أثارت العجاج . قال الأزهرى : هى الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدر المطر . وقال الفراء : المعصرات : السحاب التى يتحلب منها المطر . قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح : يقال للريح التى تأتى بالمطر : معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر ، ويجوز أن تكون هذه الأقوال قول واحد ، ويكون المعنى : وأنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجاجا . قال فى الصحاح : والمعصرات : السحاب تعتصر بالمطر وعصر القوم أى مطروا . قال المبرد : يقال : سحاب معصر ، أى ممسك للماء يعتصر منه شىء بعد شىء . وقال أبىّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات: السموات . والثجاج : المنصب بكثرة على جهة التتابع ، يقال : ثج الماء ، أى سال بكثرة ، وثجه أى أساله . قال الزجاج : الثجاج : الصباب . قال ابن زيد : ثجاجا : كثيرا : ﴿ **لنخرج به حبا ونباتا** ﴾ أى لنخرج بذلك الماء حبا يقتات ، كالحنطة والشعير ونحوهما ، والنبات : ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النبات ،﴿ **وجنات ألفافا** ﴾أى بساتين ملتف بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخياف . وقيل : واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائى ، وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف ، وروى عن الكسائى أنها جمع الجمع ، يقال: جنة لفاء ونبت لف، والجمع لف بضم

اللام مثل حمر ، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف . وقيل : هو جمع ملتفة بحذف الزوائد . قال الفرّاء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا** ﴾ أى وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسمى يوم الفصل ؛ لأن اللّه يفصل فيه بين خلقه ، وهذا شروع فى بيان ما يتساءلون عنه من البعث ، وقيل : معنى ﴿ **ميقاتا** ﴾ أنه حدّ توقت به الدنيا وتنتهى عنده . وقيل : حد للخلائق ينتهون إليه . ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا** ﴾ أى يوم ينفخ فى الصور ، وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا : النفخة الثانية التى تكون للبعث ﴿**فتأتون** ﴾ أى إلى موضع العرض ﴿ **أفواجا** ﴾ أى زمرا زمرا وجماعات جماعات وهى جمع فوج ، وانتصاب ﴿ **يوم ينفخ** ﴾ على أنه بدل من يوم الفصل ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخرا عن النفخ ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ، وانتصاب ﴿ **أفواجا** ﴾ على الحال من فاعل تأتون . والفاء فى : ﴿**فتأتون** ﴾ فصيحة تدلّ على محذوف ، أى فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا .

﴿ **وفتحت السماء فكانت أبوابا** ﴾ معطوف على ينفخ ، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ، أى فتحت لنزول الملائكة ﴿ **فكانت أبوابا** ﴾ كما فى قوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقيل : معنى ﴿**فتحت** ﴾ : قطعت فصارت قطعا كالأبواب . وقيل : أبوابها : طرقها . وقيل : تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب . وقيل : إن لكل عبد بابين فى السماء : باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب ، وظاهر قوله : ﴿ **فكانت أبوابا** ﴾ أنها صارت كلها أبوابا ، وليس المراد ذلك ؛ بل المراد : أنها صارت ذات أبواب كثيرة، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى : ﴿ **فتحت** ﴾ مخففا ، وقرأ الباقون بالتشديد . ﴿**وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾ أى سيرت عن أماكنها فى الهواء ، وقلعت عن مقارّها فكانت هباء منبثا يظن الناظر أنها سراب . والمعنى : أن الجبال صارت كلا شىء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء ، وليس بماء . وقيل : معنى : ﴿ **سيرت** ﴾ أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] .

وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول: أول أحوالها : الاندكاك ، وهو قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : ١٤] وثانى أحوالها :أن تصير كالعهن المنفوش كما فى قوله:﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [القارعة: ٥] وثالث أحوالها : أن تصير كالهباء وهو قوله : ﴿ وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثّا﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦] ورابع أحوالها : أن تنسف وتحملها الرياح كما فى قوله : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] وخامس أحوالها : أن تصير سرابا ، أى لا شىء كما فى هذه الآية .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا** ﴾ قال الأزهرى : المرصاد المكان الذى يرصد الراصد فيه العدو . قال المبرد : مرصادا يرصدون به ، أى هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار . قال الحسن : إن على الباب رصدًا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجئ بجواز حبس . وقال مقاتل: محبسا ، وقيل : طريقا وممرّا . قال فى الصحاح : الراصد للشىء الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصدا ، والرصد: الترقب ، والمرصد : موضع الرصد ، قال الأصمعى : رصدته أرصده ترقبته ، ومعنى الآية : أن جهنم كانت فى حكم اللّه وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به ويأتى إليهم . والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هى مرصد لـه فقال : ﴿ **للطاغين مآبا** ﴾ أى مرجعا يرجعون إليه ، والمآب : المرجع ، يقال : آب يؤوب : إذا رجع ، والطاغى هـو من طغى بالكفر و﴿ **للطاغين** ﴾ نعت لـ ﴿**مرصادا** ﴾ متعلق بمحذوف ، و ﴿ **مآبا** ﴾ بدل من ﴿ **مرصادا** ﴾ ويجوز أن يكون للطاغين فى محل نصب على الحال من ﴿ **مآبا** ﴾ قدمت عليه لكونه نكرة ، وانتصاب ﴿ **لابثين فيها** ﴾ على الحال المقدرة من الضمير المستكن فى الطاغين . قرأ الجمهور : ﴿ **لابثين** ﴾ بالألف وقرأ حمزة والكسائى : « لبثين » بدون ألف ، وانتصاب ﴿ **أحقابا** ﴾ على الظرفية ، أى ماكثين فى النار ما دامت الأحقاب ، وهى لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهى جمع حقب بضمتين ، وهو الدهر ، والأحقاب : الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف ، قيل : هو ثمانون سنة ،وحكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوما، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : الأحقاب: وقت لشربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب. وقال السدّى: الحقب: سبعون سنة ، وقال بشير بن كعب : ثلثمائة سنة. وقال ابن عمر: أربعون سنة. وقيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن : الأحقاب لا يدرى أحد كم هى ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة . وقيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، والأولى ما ذكرناه أولا من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد . وحكى الواحدى: عن الحسن أنه قال : واللّه ما هى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ، ثم آخر ، ثم كذلك إلى الأبد .

وجملة : ﴿ **لا يذوقـون فيها بـردًا ولا شـرابا . إلا حميما وغساقا** ﴾ مستأنـفة لبيـان ما اشتملت عليه من أنهم لا يـذوقون فى جهنم أو فى الأحـقاب بـردا ينـفعهم من حـرّها ولا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميما ، وهو المـاء الحارّ ، وغساقا وهو صديد أهل النار ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين ، أو صفة للأحقاب ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، ويجوز أن يكون متصلا من قوله : ﴿ **شرابا** ﴾ وقال مجاهد

والسدى وأبو عبيدة والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى : البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم ، ومنه قول الكندى :

بردت مراشفها علىّ فصدّنى عنها وعن تقبيلها البرد

أى النوم . قال الزجاج : أى لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور ، وقال الحسن وعطاء وابن زيد : بردا أى روحا وراحة قرأ الجمهور : « غساقا » بالتخفيف . وقرأ حمزة والكسائى بتشديد السين ، وقد تقدّم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما فى سورة « ص » . ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾ أى موافقا لأعمالهم ، وجزاء منتصب على المصدر ، ووفاقا نعت له . قال الفراء والأخفش: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم . قال الزجاج: جوزوا جزاء وافق أعمالهم . قال الفرّاء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد . قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأتاهم الله بما يسوؤهم : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا** ﴾ أى لا يرجون ثواب حساب . قال الزجاج : كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم ، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ أى كذبوا بالآيات القرآنية ، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيبا شديدًا . وفعال من مصادر التفعل ، قال الفراء: هى لغة فصيحة يمانية ، تقول: كذبت كذابا وخرقت القميص خراقا. قال فى الصحاح: وكذبوا بآياتنا كذابا هو أحد مصادر المشدّد ؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل : ﴿ ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبأ : ١٩] قرأ الجمهور ﴿ **كذابا** ﴾ بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب بالتخفيف ، وقال أبو علي الفارسى : التخفيف والتشديد جميعا مصدر المكاذبة ، وقرأ ابن عمر : « كذابا » ، بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب . قال أبو حاتم : ونصبه على الحال . قال الزمخشرى : وقد يكون يعنى على هذه القراءة ، بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، تقول : رجل كذاب كقولك : حسان وبخال .

﴿ **وكل شىء أحصيناه كتابا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **وكل** ﴾ بالنصب على الاشتغال ، أى وأحصينا كل شىء أحصيناه . وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء ، وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وانتصاب ﴿ **كتابا** ﴾ على المصدرية لأحصيناه ؛ لأن أحصيناه فى معنى: كتبناه ، وقيل: هو منتصب على الحال ، أى مكتوبا ، قيل : المراد : كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، وقيل : أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، وقيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأول أولى . ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين﴾ [يس : ١٢] ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات . قال الرّازى : هذه الفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل

بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم ، ومن الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها ، وكلما خبت النار زادهم اللّه سعيرا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ قال : القرآن ، وهذا مروى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وجعلنا سراجا وهاجا** ﴾ قال : مضيئًا ﴿**وأنزلنا من المعصرات** ﴾ قال: السحاب ﴿ **ماء ثجاجا** ﴾ قال: منصبا . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **ثجاجا**﴾ قال : منصبا . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا** ﴾ قال : يبعث اللّه الريح ، فتحمل الماء فيمرّ به السحاب ، فتدر كما تدّر اللقحة، والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالى(١) فتصرفه الرياح فينزل متفرقا . وأخرج ابن جرير ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن قتادة قال : فى قراءة ابن عباس ﴿**وأنزلنا من المعصرات** ﴾ بالرياح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه فى قوله : ﴿ **وجنات ألفافا** ﴾ قال : ملتفة .وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال:يقول: التف بعضها ببعض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾ قال : سراب الشمس الآل .وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **لابثين فيها أحقابا** ﴾ قال: سنين.

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال : سأل علىّ بن أبى طالب هلال الهجرى : ما تجدون الحقب فى كتاب اللّه ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة منها اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة . وأخرج سعيد بن منصور ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال : الحقب ثمانون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم كألف سنة مما تعدون . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : الحقب ثمانون عاما ، اليوم منها كسدس السنة . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أبى أمامة عن النبى ﷺ ﴿ **لابثين فيها أحقابا** ﴾ قال: «الحقب ألف شهر ، والشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف سنة » (٢) . وأخرج البزار وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « واللّه لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا، والحقب بضع وثمانون سنة ،كل سنة ثلثمائة وستون يوما، واليوم ألف سنة مما تعدون » (٣). قال ابن عمر : فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد اللّه بن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله .

---

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية . لسان العرب ١١/ ٤٤٣ .
(٢) الطبرانى (٧٩٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٦ : « وفيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف » .
(٣) الديلمى (٧٠٢٩) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٩٨ : «وفيه سليمان بن مسلم الخشاب وهو ضعيف جدًا » .

وأخرج ابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : « الحقب أربعون سنة» وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله: ﴿ **لابثين فيها أحقابا** ﴾ وقوله: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : ١٠٨] إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب ، لأن الله يقول : ﴿ **لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابا** ﴾ .وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ **لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما** ﴾ قال : « قد انتهى حرّه » ﴿ **وغساقا** ﴾ : « قد انتهى حرّه » . « وإن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه ، حتى يبقى عظاما تقعقع » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿ **جزاء وفاقا**﴾ قال : وافق أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها : ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبدًا .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين ، وما أعدّ الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعدّ الله لهم من الشرّ ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالنعمة والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة : مفازة ، تفاؤلا بالخلاص منها . ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال: ﴿ **حدائق وأعنابا** ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل من مفازا بدل اشتمال ، أو بدل كلّ من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني ، وإذا كان ﴿ **مفازا** ﴾ بمعنى الفوز ، فيقدر مضاف محذوف ، أي الفوز حدائق ، وهي جمع حديقة: وهي البستان المحوّط عليه، والأعناب جمع عنب، أي كروم أعناب: ﴿ **وكواعب أترابا** ﴾ الكواعب جمع كاعبة : وهي الناهدة ، يقال : كعبت الجارية تكعب تكعيبا وكعوبا ، ونهدت تنهد نهودا ، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت : أي صارت ثديهن كالكعب في صدورهن . قال الضحاك : الكواعب : العذارى . قال قيس بن عاصم :

وكم من حصان قد حوينا كريمة ‏ ‏ ‏ ‏ وكم كاعب لم تدرما البؤس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعة :

وكان مجني دون ما كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبات ومعصر

والأتراب : الأقران في السن ، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة . ﴿ **وكأسا دهاقا** ﴾ أي ممتلئة . قال الحسن وقتادة وابن زيد: هي مترعة مملوءة يقال : أدهقت الكأس ، أي ملأتها . ومنه قول الشاعر :

ألا أسقني صرفا سقاك الساقي من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد : ﴿ **دهاقا** ﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضا . وقال زيد ابن أسلم : ﴿ **دهاقا** ﴾ صافية .والمراد بالكأس : الإناء المعروف ، ولا يقال له : الكأس إلا إذا كان فيه الشراب : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا** ﴾ أي لا يسمعون في الجنة لغوا ، وهو الباطل من الكلام ، ولا كذابا ، أي ولا يكذب بعضهم بعضا . قرأ الجمهور : ﴿**كذابا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف ، ووافق الجماعة على التشديد في قوله : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك ، وقد قدمنا الخلاف في﴿ **كذابا** ﴾ هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة ؟ ﴿ **جزاء من ربك** ﴾ أي جازاهم بما تقدم ذكره جزاء . قال الزجاج : المعنى : جزاهم جزاء ، وكذا : ﴿ **عطاء** ﴾ أي وأعطاهم عطاء ﴿**حسابا** ﴾ قال أبو عبيدة : كافيا . وقال ابن قتيبة : كثيرا ، يقال : أحسبت فلانا ، أي أكثرت له العطاء ، ومنه قول الشاعر :

ونعطي وليد الحي إن كان جائعا ونحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة : أي نعطيه حتى يقول : حسبي . قال الزجاج : حسابا، أي ما يكفيهم . قال الأخفش : يقال : أحسبني كذا ، أي كفاني . قال الكلبي : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . وقال مجاهد : حسابا لما عملوه ، فالحساب بمعنى : القدر ، أي يقدر ما وجب له في وعد الرب سبحانه ؛ فإنه وعد للحسنة عشراً ، ووعد لقوم سبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : ١٠] وقرأ أبو هاشم : « حسابا » بفتح الحاء وتشديد السين، أي كفافا . قال الأصمعي : تقول العرب : حسبت الرجل : بالتشديد إذا أكرمته ، ومنه قول الشاعر :

إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس : « حسانا » بالنون : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن** ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير ، وزيد عن يعقوب ، والمفضل ، عن عاصم ، برفع « رب » و «الرحمن » على أن ربّ مبتدأ والرحمن خبره أو على أن ربّ خبر مبتدأ مقدّر : أي هو ربّ ، والرحمن صفته ، و ﴿ **لا يملكون** ﴾ خبر ربّ ، أو على أن ربّ مبتدأ ، والرحمن مبتدأ ثان ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، وقرأ يعقوب في رواية عنه وابن عامر وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن ربّ بدل من ربك ، والرحمن

صفة له ، وقرأ ابن عباس وحمزة والكسائى بخفض الأوّل على البدل ، ورفع الثانى على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال: هذه القراءة أعدلها، فخفض ربّ لقربه من ربك ، فيكون نعتا له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره : ﴿ **لا يملكون منه خطابا** ﴾ أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ، وقال الكسائى : لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه . وقيل : الخطاب : الكلام ، أى لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه ، دليله : ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ [هود : ١٠٥] وقيل : أراد : الكفار ، وأما المؤمنون فيشفعون ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررّة لما تفيده الربوبية من العظمة والكبرياء .

﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** ﴾ الظرف منتصب بلا يتكلمون ، أو بلا يملكون ، وصفا منتصب على الحال ، أى مصطفين ، أو على المصدرية ، أى يصفون صفا ، وقوله : ﴿ **لا يتكلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لتقرير ما قبله.

واختلف فى الروح ، فقيل : إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال . وقيل : هو جبريل قاله الشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل : الروح جند من جنود اللّه ليسوا ملائكة قاله أبو صالح ومجاهد. وقيل : هم أشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان . وقيل : هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبى نجيح . وقيل : بنو آدم قاله الحسن وقتادة . وقيل : هم أرواح بنى آدم تقوم صفا وتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفى . وقيل : إنه القرآن ، قاله زيد بن أسلم .

وقوله : ﴿ **إلا من أذن له الرحمن** ﴾ يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون ، وأن يكون منصوبا على أصل الاستثناء ، والمعنى : لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة ، أو لا يتكلمون إلا فى حقّ من أذن له الرحمن وكان ذلك الشخص ممن ﴿ **قال** (١) **صوابا** ﴾ قال الضحاك ومجاهد : ﴿ **صوابا** ﴾ يعنى : حقا . وقال أبو صالح : لا إله إلا اللّه. وأصل الصواب : السداد من القول والفعل . قيل : ﴿ **لا يتكلمون** ﴾ يعنى : الملائكة والروح الذين قاموا صفا هيبة وإجلالا إلا من أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة ، وهم قد قالوا صوابا . قال الحسن : إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل ، قال الواحدى : فهم لا يتكلمون ، يعنى : الخلق كلهم ، إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال فى الدنيا صوابا ، أى شهد بالتوحيد ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **اليوم الحقّ** ﴾ أى الكائن الواقع المتحقق ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا** ﴾أى مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح ، لأنه إذا عمل خيرا

---

(١) فى المطبوعة : « قالوا » .

قربه إلى اللّه، وإذا عمل شرًا باعده منه ، ومعنى ﴿ **إلى ربه** ﴾ : إلى ثواب ربه . قال قتادة : ﴿ **مآبا** ﴾ : سبيلا .

ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال : ﴿ **إنا أنذرناكم عذابا قريبا** ﴾ يعنى :العذاب فى الآخرة ، وكلّ ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٦] كذا قال الكلبى وغيره ، وقال قتادة: هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين . قال مقاتل : هو قتل قريش ببدر ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه** ﴾ فإن الظرف إما بدل من عذاب أو ظرف لمضمر هو صفة له ، أى عذابا كائنا ﴿ **يوم ينظر المرء** ﴾ أى يشاهد ما قدّمه من خير أو شر ، و« ما » موصولة أو استفهامية . قال الحسن : والمرء هنا هو : المؤمن ، أى يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا . وقيل : المراد به : الكافر على العموم ، وقيل : أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، والأول أولى لقوله : ﴿ **ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا** ﴾ فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعده اللّه له من أنواع العذاب ، والمعنى : أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق، أو ترابا يوم القيامة . وقيل : المراد بالكافر : أبو جهل . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وقيل : إبليس ، والأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرّة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ قال : منتزها ﴿**وكواعب** ﴾ قال : نواهد ﴿ **أترابا** ﴾ قال :مستويات : ﴿ **وكأسا دهاقا** ﴾ قال : ممتلئا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وكأسا دهاقا** ﴾ قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : يا غلام ، اسقنا وادهق لنا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ **دهاقا** ﴾ قال : دراكا . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : إذا كان فيها خمر فهى كأس . وإذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عنه أيضا ؛ أن النبىّ ﷺ قال : « الروح جند من جنود اللّه ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل » ثم قرأ : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** ﴾ قال هؤلاء جند وهؤلاء جند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس: ﴿**يوم يقوم الروح**﴾ قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا [١]. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : الروح فى السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٥ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١٠٤ .

تسبيحة يخلق اللّه من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجىء يوم القيامة صفا واحدا (١) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار ترعد فرائصه فرقا من عذاب اللّه يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك ، ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول اللّه : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** ﴾ . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله : ﴿ **يوم يقوم الروح** ﴾ قال : يعنى : حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿**وقال صوابا** ﴾ قال : لا إله إلا اللّه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث والنشور عن أبى هريرة قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدّواب والطير وكلّ شىء فيبلغ من عذاب اللّه أن يؤخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر: ﴿**يا ليتنى كنت ترابا** ﴾ (٢) .

---

(١) ابن جرير ٣٠/١٥ .
(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٧ .

تفسير سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة . هى خمس وأربعون آية . وقيل : ست وأربعون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة النازعات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها ، وهى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع فى القوس ، فيبلغ بها غاية المدّ ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات : يعنى : الملائكة ، والعطف مع اتحاد الكلّ ؛ لتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال السدّى : ﴿ **النازعات** ﴾ : هى النفوس حين تغرق فى الصدور . وقال مجاهد : هى الموت ينزع النفس . وقال قتادة : هى النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم : نزع إليه : إذا ذهب. أو من قولهم: نزعت بالحب، أى أنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر ،وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان. وقال عطاء وعكرمة : النازعات : القسى تنزع بالسهام . وإغراق النازع فى القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهى به إلى النصل . وقال يحيى بن سلام : تنزع بين الكلأ وتنفر . وقيل : أراد

بالنازعات : الغزاة الرماة ، وانتصاب ﴿ **غرقا** ﴾ على أنه مصدر بحذف الزوائد ، أى إغراقا ، والناصب له ما قبله لملاقاته له فى المعنى،أى إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد، أو على الحال، أى ذوات إغراق ، يقال: أغرق فى الشىء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته.

ومعنى ﴿ **الناشطات** ﴾ : أنها تنشط النفوس ، أى تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير ، إذا حلّ عنه، ونشط الرجل الدلو من البئر : إذا أخرجها ، والنشاط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة للعقدة التى يسهل حلها . قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطا: عقدته ، وأنشطته ، أى حللته ، وأنشطت الحبل ، أى مددته. قال الفراء : أنشط العقال، أى حلّ ونشط ، أى ربط الحبل فى يديه . قال الأصمعى : بئر أنشاط ، أى قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط ، وهى التى لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان . وقال السدّى : هى النفوس حين تنشط من القدمين . وقال عكرمة وعطاء : هى الأوهاق التى تنشط السهام.وقال قتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، أى تذهب . قال فى الصحاح : ﴿ **والناشطات نشطا** ﴾ : يعنى النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد ، والهموم تنشط بصاحبها . وقال أبو عبيدة وقتادة : هى الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد . وقيل : الناشطات لأرواح المؤمنين ، والنازعات لأرواح الكافرين ؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق وتجذب روح الكافر بعنف ، وقوله : ﴿ **نشطا** ﴾ مصدر ، وكذا سبحا وسبقا ﴿ **والسابحات** ﴾ : الملائكة تسبح فى الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغوّاص فى البحر لإخراج شىء منه.وقال مجاهد وأبو صالح: هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد : سابح : إذا أسرع فى جريه . وقال مجاهد أيضا : السابحات : الموت يسبح فى نفوس بنى آدم . وقيل : هى الخيل السابحة فى الغزو ، ومنه قول عنترة :

والخيل تعلم حين تسـ ـــبح فى حياض الموت سبحا

وقال قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها ، كما فى قوله : ﴿ كلٌّ فى فلك يسبحون ﴾ [يس : ٤٠] .وقال عطاء : هى السفن تسبح فى الماء . وقيل : هى أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى الله ﴿ **فالسابقات سبقا**﴾ :هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف . قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحى إلى الأنبياء . وقال أبو روق : هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، وروى نحوه عن مجاهد . وقال مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . وقال الربيع : هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى الله . وقال مجاهد أيضا :هو الموت يسبق الإنسان. وقال قتادة والحسن ومعمر : هى النجوم يسبق بعضها فى السير بعضا . وقال عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد . وقيل: هى

الأرواح التى تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار . قال الجرجانى : عطف السابقات بالفاء ؛ لأنها مسببة من التى قبلها ، أى واللاتى يسبحن فيسبقن . تقول : قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب . قال الواحدى : وهذا غير مطرد فى قوله : ﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾ ؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبر . قال الرازى: ويمكن الجواب عما قاله الواحدى : بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض ،كقوله : قام زيد فذهب ولما سبقوا فى الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوّض إليهم التدبير ، ويجاب عنه :بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب ، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية ، والأولى أن يقال : العطف بالفاء فى المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ، ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله ؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته.

﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾ قال القشيرى: أجمعوا على أن المراد هنا : الملائكة. وقال الماوردى : فيه قولان : أحدهما : الملائكة وهو قول الجمهور . والثانى : أنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما : تدبر طلوعها وأفولها . الثانى : تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال ، ومعنى تدبير الملائكة للأمر : نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما ، والفاعل للتدبير فى الحقيقة ، وإن كان هو الله عز وجلّ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به . وقيل : إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها : مدبرات . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة :جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وجواب القسم بهذه الأمور التى أقسم الله بها محذوف ، أى والنازعات ، وكذا وكذا لتبعثنّ . قال الفرّاء : وحذف لمعرفة السامعين به ، ويدل عليه قوله : ﴿ **أإذا كنا عظاما نخرة** ﴾ . وقيل : إن جواب القسم قوله : ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ أى إن فى يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال بينهما . وقيل : جواب القسم ﴿ **هل أتاك حديث موسى** ﴾ ؛ لأن المعنى : قد آتاك ، وهذا ضعيف جدا . وقيل : الجواب : ﴿ **يوم ترجف الراجفة**﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . وقال السجستانى : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لايفتتح بها الكلام ، والأوّل أولى .

﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم ، أو بإضمار اذكر ،

والراجفة : المضطربة . يقال : رجف يرجف : إذا اضطرب ، والمراد هنا : الصيحة العظيمة التى فيها تردّد واضطراب كالرعد، وهى النفخة الأولى التى يموت بها جميع الخلائق، والرادفة : النفخة الثانية التى تكون عند البعث ، وسميت رادفة ؛لأنها ردفت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين . وقال ابن زيد : الراجفة : الأرض ، والرادفة : الساعة . وقال مجاهد : الرادفة: الزلزلة ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ : الصيحة. وقيل: الراجفة : اضطراب الأرض ، والرادفة : الزلزلة ، وأصل الرجفة : الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط ،بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا : إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف؛ لاضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها، ومنه قول الشاعر :

أبا الأراجيف يا ابن اللؤم توعدنى   وفى الأراجيف خلت اللوم والخورا

ومحل ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ : النصب على الحال من الراجفة ، والمعنى : لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها . ﴿ **قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قلوب مبتدأ ، ويومئذ منصوب بواجفة ، وواجفة صفة قلوب. وجملة ﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾ خبر قلوب ، والراجفة : المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة . قال جمهور المفسرين : أى خائفة وجلة . وقال السدّى: زائلة عن أماكنها ، نظيره: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ [غافر: ١٨]. وقال المؤرج : قلقة مستوفزة . وقال المبرد : مضطربة . يقال : وجف القلب يجف وجيفا : إذا خفق ،كما يقال : وجب يجب وجيبا ، والإيجاف : السير السريع ، فأصل الوجيف : اضطراب القلب ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بنى جحجبى وقومهم   أكبادنا من ورائهم تجف

﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾ أى أبصار أصحابها . فحذف المضاف ، والخاشعة : الذليلة ، والمراد : أنها تظهر عليهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ،كقوله : ﴿ خاشعين من الذلّ ﴾ [الشورى : ٤٥] . قال عطاء : يريد أبصار من مات على غير الإسلام ، ويدلّ على هذا أن السياق فى منكرى البعث . ﴿ **يقولون أإنا لمردودون فى الحافرة** ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم : إنكم تبعثون ، أى أنردّ إلى أوّل حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ؟ يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى رجع من حيث جاء ، والحافرة عند العرب : اسم لأوّل الشىء وابتداء الأمر . ومنه قولهم : رجع فلان على حافرته ، أى على الطريق الذى جاء منه . ويقال : اقتتل القوم عند الحافرة ، أى عند أوّل ما التقوا ، وسميت الطريق التى جاء منها حافرة ؛ لتأثيره فيها بمشيه فيها فهى حافرة بمعنى محفورة ، ومن هذا قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب   معاذ الله من سفه وعار

أى أأرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغزل بعد الشيب والصلع ؟! وقيل: الحافرة :

العاجلة ، والمعنى: إنا لمردودون إلى الدنيا . وقيل: الحافرة : الأرض التى تحفر فيها قبورهم ، ومنه قول الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا حتى يردّ الناس فى الحافرة

والمعنى : إنا لمردودون فى قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء ، وبه قال مجاهد . وقال ابن زيد : الحافرة : النار ، واستدلّ بقوله : ﴿ **تلك إذًا كرة خاسرة** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿**فى الحافرة** ﴾ . وقرأ أبوحيوة : « فى الحفرة». ﴿ **أإذا كنا عظاما نخرة** ﴾ أى بالية متفتتة . يقال : نخر العظم بالكسر : إذا بلى ، وهذا تأكيد لإنكار البعث ، أى كيف نردّ أحياء ونبعث إذا كنا عظاما نخرة ؟ والعامل فى إذا مضمر يدلّ عليه مردودون ، أى أئذا كنا عظاما بالية نردّ ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة ؟ قرأ الجمهور : ﴿ **نخرة** ﴾ . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر: « ناخرة » واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوى . قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة : التى لم تنخر بعد، أى لم تبل ولابدّ أن تنخر . وقيل : هما بمعنى . تقول العرب : نخر الشيء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك . قال الأخفش : هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن . قال الشاعر :

يظلّ بها الشيخ الذى كان بادنا يدبّ على عوج له نخرات

يعنى : على قوائم عوج . وقيل : الناخرة : التى أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة : التى فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة : أى مرفوتة ، كما فى قوله : ﴿ **رفاتا** ﴾ [الإسراء : ٤٩] . وقد قرئ : « إذا كنا » و﴿ **أئذا كنا** ﴾ بالاستفهام وبعدمه . ثم ذكر سبحانه عنهم قولا آخر قالوه فقال : ﴿ **قالوا تلك إذا كرّة خاسرة** ﴾ أى رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى : أنهم قالوا : إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد . وقيل : معنى ﴿ **خاسرة** ﴾ كاذبة ، أى ليست بكائنة .كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا ؛ لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرة : الرجعة ، والجمع كرّات . وقوله : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة** ﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى : لاتستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة ، وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة : الصيحة ، وهى النفخة الثانية التى يكون البعث بها. وقيل : إن الضمير فى قوله:﴿ **إنما هى** ﴾ راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها .﴿ **فإذا هم بالساهرة**﴾ أى فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض . قال الواحدى :المراد بالساهرة : وجه الأرض وظاهرها فى قول الجميع . قال الفرّاء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم . وقيل: لأنه يسهر فى فلاتها خوفا منها ،

فسميت بذلك ، ومنه قول أبى كثير الهذلى :

يردون ساهرة كأنّ حميمها   وغميمها أسداف ليل مظلم

وقول أمية بن أبى الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر   وما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة . قال فى الصحاح : الساهرة : وجه الأرض ، ومنه قوله : ﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ . وقال : الساهرة : أرض بيضاء . وقيل : أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها . وقيل الساهرة : الأرض السابعة ، يأتى بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق . وقال سفيان الثورى : الساهرة : أرض الشام . وقال قتادة : هى جهنم ، أى فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم ،وإنما قيل لها ساهرة ؛لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم. وجملة: ﴿ **هل آتاك حديث موسى**﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ،ومعنى ﴿ **هل أتاك** ﴾:قد جاءك وبلغك، هذا على تقدير أنه قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أوّل ما نزل عليه فى شأنهما فيكون المعنى على الاستفهام ، أى هل أتاك حديثه أنا أخبرك به.

﴿ **إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى** ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ **حديث** ﴾ لا بـ ﴿ **أتاك** ﴾ لاختلاف وقتيهما وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع ما فيه كفاية ، وقد تقدم الاختلاف بين القرّاء فى ﴿ **طوى** ﴾ فى سورة طه، والواد المقدس : المبارك المطهر . قال الفراء ﴿**طوى** ﴾ : واد بين المدينة ومصر ، قال : وهو معدول من طاو ، كما عدل عمر من عامر. قال : والصرف أحبّ إلىّ إذ لم أجد فى المعدول نظيرا له . وقيل : طوى معناه : يارجل بالعبرانية ، فكأنه قيل : يارجل اذهب . وقيل : المعنى : إن الوادى المقدّس بورك فيه مرتين ، والأوّل أولى ، وقد مضى تحقيق القول فيه . ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ قيل : هو على تقدير القول . وقيل : هو تفسير للنداء ، أى ناداه نداء هو قوله : اذهب . وقيل : هو على حذف أن المفسرة ، ويؤيده قراءة ابن مسعود« أن ذهب »؛ لأن فى النداء معنى القول ، وجملة : ﴿ **إنه طغى** ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال ، أى جاوز الحدّ فى العصيان والتكبر والكفر بالله ﴿ **فقل** ﴾ له ﴿ **هل لك إلى أن تزكى** ﴾ أى قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكى وهو التطهر من الشرك . وأصله : تتزكى ، فحذفت إحدى التاءين . قرأ الجمهور: ﴿**تزكى** ﴾ بالتخفيف . وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى . قال أبو عمرو بن العلاء : معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا ، ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفى الكلام مبتدأ مقدّر يتعلق به إليه ، والتقدير : هل لك رغبة أو هل لك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى ؟ ومثل هذا قولهم : هل لك فى الخير ؟ يريدون : هل لك رغبة فى الخير ؟ ومن هذا قول الشاعر :

فهل لكم فيها إلىّ فإننى بصير بما أعيا النطاسى جذيما

﴿ **وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ أى أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الخشية على الهداية، لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ﴿ **فأراه الآية الكبرى** ﴾ هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعنى : فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله فى غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال : ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها ﴾ [الأعراف : ١٠٦] فعند ذلك أراه الآية الكبرى . واختلف فى الآية الكبرى ما هى ؟ فقيل : العصا. وقيل : يده . وقيل : فلق البحر . وقيل : هى جميع ما جاء به من الآيات التسع ﴿**فكذّب وعـصى** ﴾ أى فلما أراه الآية الكبرى كذّب بموسى وبما جاء به وعصى الله عزّ وجل فلم يطعه . ﴿ **ثم أدبر**﴾ أى تولى وأعرض عن الإيمان ﴿ **يسعى** ﴾ أى يعمل بالفساد فى الأرض ويجتهد فى معارضة ما جاء به موسى . وقيل : أدبر هاربا من الحية يسعى خوفا منها . وقال الرازى : معنى ﴿ **أدبر يسعى** ﴾ : أقبل يسعى ، كما يقال : أقبل يفعل كذا ، أى أنشأ يفعل كذا ، فوضع أدبر موضع أقبل ؛ لئلا يوصف بالإقبال .﴿ **فحشر** ﴾ أى فجمع جنوده للقتال والمحاربة ، أو جمع السحرة للمعارضة ، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع ، أوجمعهم ليمنعوه من الحية ﴿ **فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ أى قال لهم بصوت عال ، أو أمر من ينادى بهذا القول ، ومعنى ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ : أنه لا رب فوقى . قال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربّ أصنامكم . وقيل : أراد بكونه ربهم : أنه قائدهم وسائدهم ، والأوّل أولى لقوله فى آية أخرى: ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] .

﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** ﴾ النكال نعت مصدر محذوف ، أى أخذه أخذ نكال ، أو هو مصدر لفعل محذوف ، أى أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى . أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة . والمراد بنكال الآخرة : عذاب النار ، ونكال الأولى : عذاب الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب أوّل عمره وآخره . وقال قتادة : الآخرة . قوله : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ والأولى : تكذيبه لموسى . وقيل : الآخرة . قوله : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ والأولى : قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[القصص : ٣٨] وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له ، أى أخذه الله لأجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض ، أى بنكال . ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال : لأن معنى أخذه الله : نكل الله به ، فأخرج من معناه لا من لفظه . وقال الفرّاء : أى أخذه الله أخذا نكالا ، أى للنكال ، والنكال : اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له ، يقال : نكل فلان بفلان : إذا عاقبه ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل : القيد . ﴿ **إنّ فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ، ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن عليّ بن أبى طالب فى قوله :﴿ **والنازعات غرقا** ﴾ قال : هى الملائكة تنزع روح الكفار ﴿ **والناشطات نشطا** ﴾ قال : هى الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿ **والسابحات سبحا** ﴾ هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿ **فالسابقات سبقا** ﴾ هى الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾ هى الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **والنازعات غرقا** ﴾ قال : هى أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق فى النار . وأخرج الحاكم وصححه عنه :﴿ **والنازعات غرقا . والناشطات نشطا** ﴾ قال : الموت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ **والنازعات غرقا** ﴾ قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله : ﴿ **والسابحات سبحا** ﴾ قال : الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : قال لى رسول الله ﷺ : « لا تمزّق الناس فتمزقك كلاب النار . قال الله :﴿ **والناشطات نشطا** ﴾ أتدرى ما هو ؟ » قلت : يانبى الله ، ما هو ؟ قال : « كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عليّ بن أبى طالب أن ابن الكوّاء سأله عن :﴿ **المدبرات أمرا** ﴾ قال : هى الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره . وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت عن ابن عباس قال : ﴿ **المدبرات أمرا**﴾: ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدّعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه ويدلى فى حفرته. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ قال : النفخة الأولى ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ قال : النفخة الثانية ﴿**قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قال :خائفة ﴿ **أإنا لمردودون فى الحافرة** ﴾ قال : الحياة . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد والترمذى وحسنه وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبىّ بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال : « أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (١) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى ، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها وهى التى يقول الله ﴿ **يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة**﴾» يقول : «مثل السفينة فى البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه » .وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿ **قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قال: وجلة متحركة .وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿ **أإنا لمردودون فى الحافرة**﴾ قال: خلقا جديدا . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء، وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم أيضا ؛ أنه سئل عن قوله :﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ فقال: الساهرة : وجه الأرض ، وفى لفظ قال : الأرض كلها ساهرة ، ألاترى قول الشاعر :

---

(١) أحمد ٥/١٣٦ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٧) والحاكم ٢/ ٥١٣ والبيهقى فى الشعب (١٤١٨) وإسناده حسن ، ورواية الترمذى : «كان إذا جاء ثلثا الليل » .

صيد بحر وصيد ساهرة

وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى** ﴾ قال : هل لك أن تقول: لا إله إلا الله ؟. وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة**﴾ قال : قوله: ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾ ﴿ **والأولى** ﴾ قال: قوله:﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **أأنتم أشد خلقًا أم السماء** ﴾ أى أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشدّ عندكم وفى تقديركم أم خلق السماء ؟ والخطاب لكفار مكة ، والمقصود به : التوبيخ لهم والتبكيت ؛ لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة ؟ ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [غافر : ٥٧] ، وقوله: ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس : ٨١] . ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال : ﴿ **بناها . رفع سمكها فسوّاها** ﴾ أى جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ، ورفع سمكها ، أى أعلاه فى الهواء ، فقوله : ﴿**رفع سمكها** ﴾ بيان للبناء ، يقال : سمكت الشيء ، أى رفعته فى الهواء ، وسمك الشيء سموكا : ارتفع . قال الفرّاء : كل شيء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسنام سامك ، أى عال ، والسموكات : السموات : ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعـــائمه أعزّ وأطـــول

قال البغوى : رفع سمكها ، أى سقفها . قال الكسائى والفراء والزجاج : تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **أم السماء بناها** ﴾ لأنه من صلة السماء ، والتقدير : أم السماء التى بناها ،

فحذف التى ، ومثل هذا الحذف جائز . ومعنى ﴿ فسوّاها ﴾ : فجعلها مستوية الخلق معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ولا شقوق . ﴿**وأغطش ليلها**﴾ الغطش : الظلمة، أى جعله مظلما. يقال: غطش الليل وأغطشه الله، كما يقال : أظلم الليل وأظلمه الله، ورجل أغطش وامرأة غطشى: لا يهتديان . قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذى فى عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى : لا يهتدى فيها ، والتغاطش : التعامى . قال الأعشى :

ودهماء بالليل غطشى الفلا ... ة يؤنسنى صوت قيادها

وقوله :

وغامرهم مدلهم غطش

يعنى : غمرهم سواد الليل ، وأضاف الليل إلى السماء ؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس و الشمس مضافة إلى السماء.﴿ **وأخرج ضحاها** ﴾ أى أبرز نهارها المضىء بإضاءة الشمس ، وعبر عن النهار بالضحى ؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء ؛ لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهى منسوبة إلى السماء .

﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾ أى بعد خلق السماء ، ومعنى ﴿ **دحاها** ﴾ : بسطها ، وهذا يدّل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدّم فى سورة فصلت من قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت : ١١] بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أوّلا غير مدحوّة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض . وقد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدّمنا أيضا بحثا فى هذا فى أول سورة البقرة عند قوله : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ [البقرة : ٢٩] وذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع ، كما فى قوله : ﴿ عتلّ بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : ١٣]. وقيل بعد بمعنى قبل ، كقوله : ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] أى من قبل : الذكر ، والجمع الذى ذكرناه أولى ، وهو قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير ، يقال : دحوت الشىء أدحوه : إذا بسطته ، ويقال : لعشّ النعامة : أدحى ؛ لأنه مبسوط على الأرض .

وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبى الصلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها ... فهم قطانها حتى التنادى

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدّها ... بأيد وأرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وابن أبى عبلة وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء . ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ أى فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون . وأخرج منها مرعاها ، أى النبات الذى يرعى ، ومرعاها مصدر ميمىّ ، أى رعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى ، والجملة إما بيان وتفسير لدحاها ؛ لأن السكنى لا تتأتى بمجرّد البسط بل لابد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب ، وإما فى محل نصب على الحال .

﴿ **والجبال أرساها** ﴾ أى أثبتها فى الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لاتميد بأهلها . قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء . قيل : ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل والمشرب ﴿ **متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ أى منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والإبل والغنم ، وانتصاب ﴿ **متاعا** ﴾ على المصدرية ، أى متعكم بذلك متاعا ، أو هو مصدر من غير لفظه ؛ لأن قوله : ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ بمعنى متع بذلك ، أو على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك لأجل التمتيع ، وإنما قال : ﴿ **لكم ولأنعامكم** ﴾ لأن فائدة ما ذكر من الدحوّ وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى: يعمّ ما يأكله الناس والدواب .

﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى** ﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات . قال الحسن وغيره : وهى النفخة الثانية . وقال الضحاك وغيره : هى القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تطمّ على كل شىء لعظم هولها . قال المبرد : الطامة عند العرب : الداهية التى لاتستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طمّ الفرس طميما : إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطمّ الماء : إذا ملأ النهر كله . وقال غيره : هو من طمّ السيل الركية ، أى دفنها ، والطمّ : الدفن .قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى : هى التى تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، وجواب إذا قيل هو قوله : ﴿ **فأما من طغى** ﴾. وقيل : محذوف ، أى فإن الأمر كذلك ، أو عاينوا ، أو علموا أو أدخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها ، وهو معنى ﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان** ﴾ فإنه منصوب بفعل مضمر، أى أعنى يوم يتذكر يكون كيت وكيت . وقيل : إن الظرف بدل من إذا . وقيل : هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الإنسان ما سعى :

أنه يتذكر ما عمله من خيرٍ أو شرٍّ ؛ لأنه يشاهده مدوّنا فى صحائف عمله ، و« ما » مصدرية ، أو موصوله . ﴿ **وبرزت الجحيم لمن يرى** ﴾ معطوف على جاءت ، ومعنى برّزت : أظهرت إظهارًا لا يخفى على أحد . قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ، وقيل : ﴿**لمن يرى**﴾ من الكفار ، لا من المؤمنين ، والظاهر أن تبرز لكل راء ، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غما إلى غمه وحسرة إلى حسرته . قرأ الجمهور : ﴿ **لمن يرى**﴾ بالتحتية . وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن علىّ بالفوقية ، أى لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يامحمد . وقرأ ابن مسعود : « لمن رأى » على صيغة الفعل الماضى .

﴿ **فأما من طغى** ﴾ أى جاوز الحد فى الكفر والمعاصى . ﴿ **وآثر الحياة الدنيا** ﴾ أى قدّمها عن الآخرة ولم يستعدّ لها ولا عمل عملها . ﴿ **فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ أى مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : أنها منزله الذى ينزله ومأواه الذى يأوى إليه لاغيرها. ثم ذكر القسم الثانى من القسمين فقال : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه** ﴾ أى حذر مقامه بين يدى ربه يوم القيامة . قال الربيع : مقامه يوم الحساب . قال قتادة : يقول : إن للّه عزّ وجلّ مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] والأوّل أولى . ﴿**ونهى النفس عن الهوى** ﴾ أى زجرها عن الميل إلى المعاصى والمحارم التى تشتهيها . قال مقاتل : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ﴿ **فإن الجنة هى المأوى** ﴾ أى المنزل الذى ينزله والمكان الذى يأوى إليه لاغيرها .

﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾ أى متى وقوعها وقيامها . قال الفراء : أى منتهى قيامها كرسوّ السفينة . قال أبو عبيدة : ومرسى السفينة حين تنتهى ، والمعنى : يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا فى سورة الأعراف . ﴿ **فيم أنت من ذكراها** ﴾ أى فى أىّ شىء أنت يامحمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ، والمعنى : لست فى شىء من علمها وذكراها إنما يعلمها الله سبحانه ، وهو إنكار وردّ لسؤال المشركين عنها ، أى فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه ؟ ﴿ **إلى ربك منتهاها** ﴾ أى منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره ، وهذا كقوله : ﴿ قل إنما علمها عند ربى ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقوله : ﴿إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان : ٣٤] فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها ؟ ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ أى مخوّف لمن يخشى قيام الساعة ، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه ، وخصّ الإنذار بمن يخشى ؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار وإن كان منذرا لكلّ مكلف من مسلم وكافر . قرأ الجمهور بإضافة :﴿ **منذر** ﴾ إلى ما بعده . وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وطلحة وابن محيصن وشيبة والأعرج وحميد بالتنوين ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو . قال الفراء : والتنوين

وتركه فى منذر صواب كقوله : ﴿ بالغ أمره ﴾ [الطلاق : ٣] ﴿ موهن كيد الكافرين ﴾ [الأنفال : ١٨]. قال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن تكون الإضافة للماضى ، نحو ضارب زيد أمس . ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ أى إلا قدر آخر نهار أو أوّله ، أوقدر الضحى الذى يلى تلك العشية ، والمراد : تقليل مدّة الدنيا ، كما قال : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقيل : لم يلبثوا فى قبورهم إلا عشية أو ضحاها . قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية : إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أوّل النهار ، ومنه قول الشاعر :

نحن صبحنا عامرا فى دارها
جردًا تعـــادى طرفى نهارهـا
عشية الهـــلال أو سرارهــــا

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجىء المنذر به .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رفع سمكها** ﴾ قال : بناها ﴿ **وأغطش ليلها**﴾ قال : أظلم ليلها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وأغطش ليلها** ﴾ قال : وأظلم ليلها ﴿ **وأخرج ضحاها** ﴾ قال : أخرج نهارها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ قال : مع ذلك . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا ؛ أن رجلا قال له : آيتان فى كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال : إنما أتيت من قبل رأيك ، قال : اقرأ : ﴿ قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ حتى بلغ ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت :٩ ــ ١١] ، وقوله : ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ، ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء ، وإنما قوله : ﴿ **دحاها** ﴾ بسطها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ﴿ **دحاها** ﴾ : أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما فى يومين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الطامة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبى طالب ، كان النبيّ ﷺ يسأل عن الساعة فنزلت : ﴿**فيم أنت من ذكراها** ﴾ . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله : ﴿ **فيم أنت من ذكراها .إلى ربك منتهاها** ﴾ فانتهى فلم يسأل عنها [١] . وأخرج عبد بن حميد والنسائى

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥١٣ ، ٥١٤ ووافقه الذهبى .

وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ **فيم أنت من ذاكرها. إلى ربك منتهاها** ﴾ فكفّ عنها [1] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس، قال السيوطى : بسند ضعيف ، أن مشركى مكة سألوا النبىّ ﷺ فقالوا : متى الساعة استهزاء منهم ؟ فأنزل الله : ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها**﴾ يعنى مجيئها ﴿**فيم أنت من ذكراها** ﴾ يعنى : ما أنت من علمها يا محمد ﴿ **إلى ربك منتهاها** ﴾ يعنى : منتهى علمها . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على النبى ﷺ سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم » .

(١) النسائى فى التفسير (٦٦٥) وإسناده حسن ، والطبرانى (٨٢١٠) .

تفسير سورة عبس

وتسمى سورة السفرة ، وهى إحدى وأربعون أو اثنان وأربعون آية . وهى مكية فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة عبس بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **عبس وتولى** ﴾ أى كلح بوجهه وأعرض . وقرئ « عبس » بالتشديد . ﴿ **أن جاءه الأعمى** ﴾ مفعول لأجله ، أى لأن جاءه الأعمى ، والعامل فيه إما ﴿**عبس**﴾أو ﴿**تولى**﴾ على الاختلاف بين البصريين والكوفيين فى التنازع هل المختار إعمال الأوّل أو الثانى ؟ وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية : أن قومًا من أشراف قريش كانوا عند النبىّ ﷺ ، وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم ، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أمّ مكتوم كلامه، فأعرض عنه فنزلت [(١)] ، وسيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء الله .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٣١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وصححه الحاكم ٢/ ٥١٤ ، ووافقه الذهبى ، وهو عن عائشة .

﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ ؛ لأن المشافهة أدخل فى العتاب ، أى أى شيء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة : ﴿ لعله يزكى ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافى الإعراض عنه ، أى لعله يتطهر من الذنوب [١] بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك ، فالضمير فى ﴿ لعله ﴾ راجع إلى﴿ الأعمى ﴾ ، وقيل : هو راجع إلى الكافر ، أى وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأوّل أولى . وكلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ التزكى مما لا يجوز . قرأ الجمهور: ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ على الخبر بدون استفهام ، ووجهه ما تقدّم ، وقرأ الحسن : « آن جاءه » بالمدّ على الاستفهام ، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه ﴿عبس﴾ و﴿ تولى﴾ ، والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض ، ومثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ ﴾ [الآية : ٥٢] وكذلك قوله فى سورة الكهف : ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [الآية : ٢٨] .

وقوله : ﴿ أو يذكر ﴾ عطف على ﴿ يزكى﴾ داخل معه فى حكم الترجى أى أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿فتنفعه الذكرى ﴾أى الموعظة . قرأ الجمهور :﴿ فتنفعه ﴾ بالرفع، وقرأ عاصم وابن أبى إسحاق [٢]وعيسى والسلمى وزرّ بن حبيش بالنصب على جواب الترجى. ﴿ أما من استغنى ﴾ أى كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الإيمان وعما عندك من العلم ﴿فأنت له تصدى ﴾ أى تصغى لكلامه ، والتصدّى :الإصغاء . قرأ الجمهور: ﴿ تصدى ﴾ بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام ، وفى هذا مزيد تنفير له ﷺ عن الإقبال عليهم والإصغاء إلى كلامهم .﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى أىّ شيء عليك فى أن لا يسلم ولا يهتدى ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ويجوز أن تكون « ما » نافية ، أى ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى من تصدّيت له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدّى .

ثم زاد سبحانه فى معاتبة رسوله ﷺ فقال : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أى وصل إليك حال كونه مسرعا فى المجيء إليك طالبا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله ، وجملة: ﴿ وهو يخشى ﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف . ﴿فأنت عنه تلهى ﴾ أى تتشاغل عنه وتعرض عن الإقبال عليه، والتلهى : التشاغل والتغافل ، يقال : لهيت عن الأمر ألهى ، أى تشاغلت عنه ، وكذا تلهيت وقوله : ﴿كلا﴾ ردع له ﷺ عما عوتب عليه ، أى لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير ، والتصدّى للغنى والتشاغل به ، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى والقبول

(١) فى المطبوعة : « بالذنوب » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) فى المطبوعة : « عاصم بن أبى إسحاق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى ١٠/٧٠٠٥ .

للموعظة ، وهذا الواقع من النبى ﷺ هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿ **إنها تذكرة** ﴾ أى أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك . ﴿ **فمن شاء ذكره**﴾ أى فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره ، وقيل : الضميران فى «إنها» ، وفى ﴿**ذكره**﴾ للقرآن ، وتأنيث الأول لتأنيث خبره ، وقيل : الأوّل للسورة ، أو للآيات السابقة ، والثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر. وقيل : إن معنى ﴿**فمن شاء ذكره** ﴾: فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به، والأوّل أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال : ﴿ **فى صحف** ﴾ أى إنها تذكرة كائنة فى صحف، فالجار والمجرور صفة لـ﴿**تذكرة**﴾ ، وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة ، ومعنى ﴿ **مكرمة** ﴾ : أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : المراد بالصحف : كتب الأنبياء ، كما فى قوله : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : ١٨ ، ١٩] ومعنى ﴿ **مرفوعة** ﴾ أنها رفيعة القدر عند الله . وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة ، قال الواحدى : قال المفسرون: ﴿**مكرمة** ﴾ يعنى : اللوح المحفوظ ﴿ **مرفوعة** ﴾ يعنى: فى السماء السابعة . قال ابن جرير : مرفوعة القدر والذكر. وقيل : مرفوعة عن الشبه والتناقض ﴿ **مطهرة** ﴾ أى منزهة لا يمسها إلا المطهرون . قال الحسن : مطهرة من كل دنس ، قال السدّى : مصانة عن الكفّار لا ينالونها . ﴿ **بأيدى سفرة** ﴾ السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب ، والمعنى : أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، قال الفراء: السفرة هنا : الملائكة : الذين يسفرون بالوحى بين الله ورسوله من السفارة وهو السعى بين القوم ، وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومى ولا أمشى بغير أب نسيب

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر؛ لأن معناه : أنه بين، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، وأسفرت المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة ، أى أصلحت بينهم . قال مجاهد : هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد ، وقال قتادة : السفرة هنا هم : القراء ؛ لأنهم يقرؤون الأسفار . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب النبى ﷺ . ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿**كرام بررة** ﴾ أى كرام على ربهم ، كذا قال الكلبى ، وقال الحسن : كرام عن المعاصى ، فهم يرفعون أنفسهم عنها . وقيل : يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو قضى حاجته . وقيل : يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم . وقيل : يتكرّمون على المؤمنين بالاستغفار لهم ، والبررة: جمع بارّ، مثل : كفرة وكافر ، أى أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم ، وقد تقدّم تفسيره .

﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ أى لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره . وقيل : عذب . قيل : والمراد به : عتبة بن أبى لهب ، ومعنى ﴿ **ما أكفره** ﴾ : التعجب من إفراط كفره ، قال الزجاج : معناه : اعجبوا أنتم من كفره . وقيل : المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله : ﴿**أما من استغنى** ﴾ وقيل : المراد به الجنس ، وهذا هو الأولى ، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سببًا لنزول الآية دخولا أوّليا . ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغى لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكفّ عن طغيانه فقال :﴿ **من أىّ شىء خلقه** ﴾ أى من أىّ شىء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير ، ثم فسر ذلك فقال :﴿ **من نطفة خلقه**﴾ أىْ من ماء مهين ، وهذا تحقير له ، قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتّين ، ومعنى ﴿ **فقدّره** ﴾ أى فسوّاه وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواسّ . وقيل : قدّره أطوارا من حال إلى حال، نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . ﴿ **ثم السبيل يسره** ﴾ أى يسرّ له الطريق إلى الخير والشرّ ، وقال السدّى ومقاتل وعطاء وقتادة : يسره للخروج من بطن أمه ، والأوّل أولى . ومثله قوله : ﴿ وهديناه النجدين﴾ [البلد : ١٠] وانتصاب ﴿ **السبيل**﴾ بمضمر يدل عليه الفعل المذكور ، أى يسر السبيل يسره . ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾ أى جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفراء : وقال أبو عبيدة :جعل له قبرا وأمر أن يقبر فيه ، وقال : ﴿ **أقبره** ﴾ ولم يقل : قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، ومنه قول الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر

﴿ **ثم إذا شاء أنشره** ﴾ أى ثم إذا شاء إنشاره أنشره ، أى أحياه بعد موته ، وعلق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين ، بل هو تابع للمشيئة . قرأ الجمهور : ﴿ **أنشره** ﴾ بالألف ، وروى أبوحيوة عن نافع وشعيب بن أبى حمزة « نشرة » بغير ألف ، وهما لغتان فصيحتان : ﴿ **كلا لما يقض ما أمره** ﴾ كلا ردع وزجر للإنسان الكافر ، أى ليس الأمر كما يقول . ومعنى ﴿ **لما يقض ما أمره** ﴾ : لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل : المراد: الإنسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدّة لأنه لا يخلو من تقصير . قال الحسن : أى حقًا لم يعمل ما أمر به . وقال ابن فورك : أى كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره بما لم يقض له . قال ابن الأنبارى : الوقف على «كلا » قبيح والوقف على ﴿ **أمره** ﴾ جيد ، و« كلا» على هذا بمعنى :حقا ، وقيل: المعنى : لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره ، بل أخلّ به : بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله إلا القليل .

ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها ، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ﴾ أى ينظر كيف خلق الله طعامه

الذى جعله سببا لحياته ؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية ؟ قال مجاهد: معناه : فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أى إلى مدخله ومخرجه ، والأوّل أولى . ثم بين ذلك سبحانه فقال : ﴿ **أنا صببنا الماء صبا** ﴾ قرأ الجمهور : « إنا » بالكسر على الاستئناف، وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من ﴿**طعامه**﴾ بدل اشتمال لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام ، فهو كالمشتمل عليه، أوبتقدير لام العلة ، قال الزجاج: الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام . المعنى : فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبا ، وأراد بصب الماء : المطر . وقرأ الحسن بن علىّ بالفتح والإمالة . ﴿**ثم شققنا الأرض شقا** ﴾ أى شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر والكبر والشكل والهيئة .

ثم بين سبب هذا الشقّ وما وقع لأجله فقال : ﴿ **فأنبتنا فيها حبا** ﴾ يعنى : الحبوب الذى يتغذى بها ، والمعنى : أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حبا ، وقوله : ﴿ **وعنبا**﴾ معطوف على ﴿ **حبا** ﴾ ، أى وأنبتنا فيها عنبا . قيل : وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير فى خلوّ إنبات العنب عن شقّ الأرض ، والقضب : هو القتّ الرطب الذى يقضب مرة بعد أخرى تعلف به الدواب ، ولهذا سمى قضبا على مصدر قضبه ، أى قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع . قال الخليل : القضب : الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهى القتّ . قال فى الصحاح : والقضبة والقضب : الرطبة ، قال : والموضع الذى ينبت فيه مقضبة . قال القتيبى وثعلب : وأهل مكة يسمون العنب : القضب ، والزيتون هو ما يعصر منه الزيت ، وهو شجرة الزيتون المعروفة ، والنخل هو جمع نخلة ﴿ **وحدائق غلبا** ﴾ جمع حديقة ، وهى البستان ، والغلب : العظام الغلاظ الرقاب ، وقال مجاهد ومقاتل : الغلب : الملتف بعضها ببعض ، يقال : رجل أغلب : إذا كان عظيم الرقبة، ويقال للأسد : أغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعا . قال العجاج :

مازلت يوم البين ألوى صلبى والرأس حتى صرت مثل الأغلب

وجمع أغلب وغلباء: غلب ، كما جمع أحمر وحمراء على حمر ، وقال قتادة وابن زيد : الغلب : النخل الكرام، وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : هى غلاظ الأوساط والجذوع . والفاكهة: ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوها ، والأب: كل ما أنبتت الأرض مما لايأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ وسائر أنواع المرعى ، ومنه قول الشاعر :

جـدنـا قيس ونجد دارنـا ولنـا الأبّ بهـا والمكـرع

قال الضحاك : الأبّ كل شىء ينبت على وجه الأرض ، وقال ابن أبى طلحة : هو الثمار الرطبة ، وروى عن الضحاك أيضا أنه قال : هو التين خاصة ، والأوّل أولى . ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ﴾ يعنى : صيحة يوم القيامة ،

وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الآذان ، أى تصمها فلا تسمع . وقيل : سميت صاخة لأنها يصيخ لها الأسماع ، من قولك : أصخ إلى كذا أى استمع إليه ، والأوّل أصح. قال الخليل : الصاخة : صيحة تصخ الآذان حتى تصمها بشدّة وقعها ، وأصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصكّ الشديد ، يقال : صخه بالحجر : إذا صكه بها ، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله : ﴿ **لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ أى فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه ، والظرف فى قوله : ﴿ **يوم يفرّ المرء من أخيه. وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه** ﴾ إما بدل من﴿ **إذا جاءت** ﴾، أو منصوب بمقدّر ، أى أعنى ، ويكون تفسيرا للصاخة ، أو بدلا منها مبنىّ على الفتح ، وخصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أخصّ القرابة ، وأولاهم بالحنوّ والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع . ﴿ **لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ أى لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم . وقيل : إنما يفرّ عنهم حذرا من مطالبتهم إياه بما بينهم . وقيل : يفرّ عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدّة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا كما قال تعالى : ﴿ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ﴾ [الدخان : ٤١] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار . قال ابن قتيبة : ﴿ **يغنيه**﴾ أى يصرفه عن قرابته ،ومنه يقال: أغن عنى وجهك، أى اصرفه. قرأ الجمهور : ﴿ **يغنيه** ﴾ بالغين المعجمة ، وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء ، أى يهمه ، من عناه الأمر إذا أهمه .

﴿ **وجوه يومئذ مسفرة** ﴾ ﴿ **وجوه** ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة ؛ لأنه فى مقام التفصيل ، وهو من مسوّغات الابتداء بالنكرة ، ويومئذ متعلق به ، ومسفرة خبره ، ومعنى ﴿ **مسفرة** ﴾ : مشرقة مضيئة ، وهى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك مالهم من النعيم والكرامة ، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء . وقيل : من قيام الليل . ﴿**ضاحكة مستبشرة** ﴾ أى فرحة بما نالته من الثواب الجزيل . ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال : ﴿**ووجوه يومئذ عليها غبرة** ﴾ أى غبار وكدورة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب . ﴿ **ترهقها قترة** ﴾ أى يغشاها ويعلوها سواد وكسوف . وقيل : ذلة . وقيل : شدة . والقتر فى كلام العرب :الغبار ،كذا قال أبو عبيدة ، وأنشد قول الفرزدق :

متوّج برداء الملك يتبعه   فوج ترى فوقه الرايات والقترا

ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار ، وقال زيد بن أسلم : القترة: ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة : ما انحطت إلى الأرض ﴿ **أولئك** ﴾ يعنى : أصحاب الوجوه ﴿ **هم الكفرة الفجرة** ﴾ أى الجامعون بين الكفر بالله والفجور . يقال : فجر ، أى فسق ، وفجر ، أى كذب ، وأصله الميل ، والفاجر: المائل عن الحق .

وقد أخرج الترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ **عبس وتولى** ﴾ فى ابن أمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ

فجعل يقول : يارسول الله ، أرشدني . وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول: لا . ففى هذا أنزلت[١] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال: جاء ابن أمّ مكتوم ، وهو يكلم أبيّ بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله :﴿ **عبس وتولى . أن جاءه الأعمى**﴾ فكان النبيّ ﷺ بعد ذلك يكرمه [٢]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام وكان يتصدّى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل عليه رجل أعمى يقال له : عبد الله بن أمّ مكتوم يمشى ، وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبيّ ﷺ آية من القرآن قال : يارسول الله ، علمنى مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله: ﴿ **عبس وتولى** ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبيّ الله ﷺ وكلمه وقال له : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال : « هل لك حاجة فى شيء ؟ » قال ابن كثير : فيه غرابة ، وقد تكلم فى إسناده[٣].

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **بأيدى سفرة** ﴾ قال : كتبة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بأيدى سفرة** ﴾ قال : هم بالنبطية القرّاء . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **كرام بررة** ﴾ قال : الملائكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأه وهو عليه شاق له أجران »[٤]. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **ثم السبيل يسره** ﴾ قال :يعنى بذلك خروجه من بطن أمه يسره له .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير فى قوله :﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ﴾ قال:إلى مدخله ومخرجه. وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه**﴾ قال : إلى خرئه . وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿ **أنا صببنا الماء صبا** ﴾ قال : المطر ﴿ **ثم شققنا الأرض شقا** ﴾ قال : عن النبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وقضبا** ﴾ قال : الفصْفصَة ، يعنى : القتّ ﴿ **وحدائق غلبا** ﴾ قال : طوالا ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ قال : الثمار الطيبة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحدائق : كل ملتفّ ، والغلب : ماغلظ ، والأبّ : ما أنبتت الأرض مما تأكله

(١) سبق تخريجه .
(٢) أبو يعلى (٣١٢٣) . (٣) ابن جرير ٣٠/ ٣٣ وقال ابن كثير ٧/ ٢١٣ : « وفيه غرابة ونكارة » .
(٤) البخارى فى التفسير (٤٩٣٧) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٨/ ٢٤٤) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدواب ولا يأكله الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ وحدائق غلبا ﴾ قال: شجر فى الجنة يستظل به لا يحمل شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الأبّ : الكلأ والمرعى . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمى قال : سئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ماهو ؟ . فقال : أىّ سماء تظلنى وأىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ؟ . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد : أن رجلا سأل عمر عن قوله : ﴿ وأبا ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدّرة . وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب عن أنس ؛ أن عمر قرأ على المنبر : ﴿ فأنبتنا فيها حبا . وعنبا ﴾ إلى قوله : ﴿وأبا﴾ قال: كل هذا قد عرفناه ، فما الأبّ ؟ ثم نقض عصى كانت فى يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لا تدرى ما الأبّ ، اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه(١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الصاخة من أسماء يوم القيامة وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مسفرة ﴾ قال : مشرقة ، وفى قوله : ﴿ترهقها قترة ﴾ قال : تغشاها شدة وذلة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ قترة ﴾ قال : سواد الوجه .

(١) ابن جرير ٣٠/٣٨ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٤ ، ووافقه الذهبى .

تفسير سورة التكوير

وهى تسع وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر والطبرانى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و﴿إذا السماء انفطرت ﴾، و ﴿ إذا السماء انشقت﴾ » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين . وأما عند الكوفيين والأخفش فهو مرتفع على الابتداء ، والتكوير الجمع ، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها . قال الزجاج : لفت كما تلف العمامة ، يقال : كورت العمامة على رأسى أكورها كورا ، وكورتها تكويرا : إذا لففتها . قال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع . قال الربيع بن خثيم : ﴿كورت ﴾ أى رمى بها ، ومنه كورته فتكوّر، أى سقط ، وقال مقاتل وقتادة والكلبى : ذهب ضوؤها .

(١) أحمد ٢/ ٢٧ والترمذى فى التفسير (٣٣٣٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وصححه الحاكم ٢/ ٥١٥ ، ووافقه الذهبى .

وقال مجاهد : اضمحلت . قال الواحدى : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لفّ جرمها ، أو لف ضوئها . أو الرمى بها. ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ أى تهافتت وانقضت وتناكرت ، يقال : انكدر الطائر من الهواء : إذا انقضّ ، والأصل فى الانكدار الانصباب قال الخليل : يقال : انكدر عليهم القوم : إذا جاؤوا أرسالا فانصبوا عليهم . قال أبو عبيدة : انصبت كما ينصب العقاب . قال الكلبى وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوما ، فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع على الأرض ، وقيل : انكدارها : طمس نورها : ﴿ **وإذا الجبال سيّرت** ﴾ أى قلعت عن الأرض ، وسيرت فى الهواء، ومنه قوله : ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ [الكهف : ٤٧] .

﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ العشار : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها الواحدة عشراء، وهى التى قد أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وخصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب ، وأعزّه عندهم ، ومعنى ﴿ **عطلت** ﴾ : تركت هملا بلا راع ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم . قيل : وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء ، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء فى ذلك اليوم ، أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة وسيأتى آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا فى الدنيا . وقيل : العشار : السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله: ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ [الذاريات : ٢] وتعطيلها عدم إمطارها قرأ الجمهور : ﴿**عطلت**﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف . وقيل : المراد أن الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التى تعشر زرعها تعطل فلا تزرع .

﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ الوحوش : ما توحش من دوابّ البرّ ، ومعنى ﴿ **حشرت** ﴾: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتصّ للجماء من القرناء . وقيل : حشرها موتها . وقيل : إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبدّدها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم . قرأ الجمهور : ﴿ **حشرت** ﴾ بالتخفيف . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون بالتشديد : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ أى أوقدت فصارت نارا تضطرم . وقال الفرّاء : ملئت بأن صارت بحرا واحدا وكثر ماؤها ، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبى ومقاتل والحسن والضحاك . وقيل : أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى امتلأت ، [يقال :سجرت الحوض أسجره سجرا: إذا ملأته] (١) . وقيل : فجرت فصارت بحرا واحدا ، وروى عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية : يبست ولا يبقى فيها قطرة ، وقال القشيرى : هو من سجرت التنور أسجره سجرا : إذا

---

(١) ما بين المعقوفتين نقل إلى هذا الموضع ليستقيم المعنى ، وكان بالمخطوطة والمطبوعة بعد قول قتادة وابن حبان وهو غير مناسب .

أحميته. قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم : أوقدت فصارت نارا . وقيل : معنى سجرت : أنها صارت حمراء كالدم ، من قولهم عين سجراء ، أى حمراء . قرأ الجمهور : ﴿**سجرت**﴾ بتشديد الجيم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها .

﴿ **وإذا النفوس زوّجت** ﴾ أى قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة . وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء فى النار ، وقال عطاء : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين . وقيل: قرن كل شكل إلى شكله فى العمل ، وهو راجع إلى القول الأوّل . وقيل : قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما فى قوله: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] وقال عكرمة : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ يعنى : قرنت الأرواح بالأجسام . وقال الحسن : ألحق كل امرئ بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها . ﴿ **وإذا الموؤودة سئلت** ﴾ أى المدفونة حية ، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة ، يقال : وأد يئد [1] وأدا فهو وائد، والمفعول به موؤود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن ، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت ، ومنه : ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة : ٢٥٥] أى لا يثقله ، ومنه قول متمم بن نويرة :

وموؤودة مقبورة فى مغارة

ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت   والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور : ﴿ **الموؤودة** ﴾ بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة ، وقرأ البزى فى رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ الأعمش : « المودة » بزنة الموزة . وقرأ الجمهور : ﴿**سئلت**﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل . وقرأ الجمهور : ﴿**قتلت**﴾ بالتخفيف مبنيا للمفعول . وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير ، وقرأ علىّ وابن مسعود وابن عباس سألت مبنيا للفاعل :« قتلت » بضم التاء الأخيرة ، ومعنى ﴿ **سئلت**﴾ على قراءة الجمهور : أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد . قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وفى مصحف أبىّ : « وإذا الموؤودة سألت بأى ذنب

(١) فى المطبوعة : « يائد » ، والصحيح ما أثبتناه .

قتلتنى» . ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ يعنى : صحائف الأعمال نشرت للحساب ، لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها ، فيقول : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ [الكهف : ٤٧]. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو : ﴿ نشرت ﴾ بالتخفيف . وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير . ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ الكشط : قلع عن شدة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش، والقشط بالقاف لغة فى الكشط ، وهى قراءة ابن مسعود . قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف . وقال الفراء : نزعت فطويت . وقال مقاتل : كشفت عما فيها . قال الواحدى: ومعنى الكشط : رفعك شيئا عن شىء قد غطاه .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أوقدت لأعداء الله إيقادا شديدا . قرأ الجمهور : « سعرت » بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وحفص بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة . قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أى قرّبت إلى المتقين وأدنيت منهم. قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. وقال ابن زيد : معنى ﴿أزلفت ﴾ : تزينت . والأوّل أولى لأن الزلفى فى كلام العرب القرب . قيل : هذه الأمور الاثنا عشر : ستّ منها فى الدنيا . وهى : من أول السورة إلى قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت﴾ وستّ فى الآخرة وهى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ إلى هنا . وجواب الجميع قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت﴾ على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة ، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف : يعنى : ما عملت من خير أو شرّ . ومعنى ﴿ ما أحضرت ﴾ : ما أحضرت من أعمالها ، والمراد : حضور صحائف الأعمال ، أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ويدلّ على هذا قوله : ﴿ يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ [آل عمران : ٣٠] وقيل : يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت ، فكيف وكلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه : لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله .

﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ « لا » زائدة كما تقدّم تحقيقه وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة ، أى فأقسم بالخنس ، وهى الكواكب ، وسميت بالخنس ، من خنس : إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى ، وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره

أهل التفسير ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم إنها تستقبل الشمس وتقطع المجرّة ، وقال فى الصحاح : الخنس : الكواكب كلها ، لأنها تخنس فى المغيب، أو لأنها تخفى نهارا، أو يقال : هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . قال الفراء : إنها الكواكب الخمسة المذكورة ، لأنها تخنس فى مجراها وتكنس : أى تستتر كما تكنس الظباء فى المغار ، ويقال : سميت خنسا لتأخرها ، لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم ، يقال خنس عنه يخنس خنوسا : إذا تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلفه ومضى عنه ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة . ومعنى ﴿ **الجوار** ﴾ أنها تجرى مع الشمس والقمر ، ومعنى :﴿ **الكنس** ﴾ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفائها تحت ضوئها . وقيل : خنوسها ، خفاؤها بالنهار ، وكنوسها : غروبها . قال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب ؛ لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لخفائها فلا ترى وتظهر بالليل وتكنس في وقت غروبها . وقيل : المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس . وقال عكرمة : الخنس : البقر ، والكنس : الظباء ، فهى تخنس : إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها . وقيل : هى الملائكة ، والأوّل أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا ، والكنس مأخوذ من الكناس الذى يختفى فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة .

﴿ **والليل إذا عسعس** ﴾ قال أهل اللغة : هو من الأضداد ، يقال : عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس : إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس : أدبر ، كذا حكاه عنه الجوهرى ، وقال الحسن: أقبل بظلامه . قال الفراء : العرب تقول : عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس الليل: إذا أدبر ، وهذا لا ينافى ما تقدّم عنه ، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على أدبر ، وإن كان فى الأصل مشتركا بين الإقبال والإدبار . قال المبرد : هو من الأضداد . قال: والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو ابتداء الظلام فى أوّله وإدباره فى آخره . قال رؤبة بن العجاج :

ياهند مـا أسرع ما تعسعسا   من بعد ما كان فتى ترعرعا

وقال امرؤ القيس :

عسعس حتى لونشاء إذ دنا   كـان لنا من ناره مقتبس

وقوله :

والماء على الربع القديم تعسعسا

﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ : التنفس فى الأصل : خروج النسيم من الجوف وتنفس الصبح إقباله ، لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفسا له مجازا . قال الواحدى : ﴿ **تنفس** ﴾ أى امتد ضوؤه حتى يصير نهارا ، ومنه يقال للنهار إذا زاد : تنفس ، وقيل : ﴿ **إذا تنفس** ﴾ : إذا انشق وانفلق ، ومنه : تنفست القوس ، أى تصدّعت . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ يعنى : جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلا به . وقيل : المراد بالرسول فى الآية : محمد ﷺ، والأول أولى . ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال : ﴿ **ذى قوّة عند ذى العرش مكين** ﴾ أى ذى قوّة شديدة فى القيام بما كلف به ، كما فى قوله : ﴿ شديد القوى ﴾ [النجم : ٥] ومعنى ﴿ **عند ذى العرش مكين** ﴾ : أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكينة عند الله سبحانه ، وهو فى محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف ، فلما قدّم صار حالاً ويجوز ، أن يكون نعتا لرسول ، يقال : مكن فلان عند فلان مكانه ، أى صار ذا منزلة عنده ومكانة . قال أبو صالح : من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين سرادقا بغير إذن ، ومعنى ﴿ **مطاع** ﴾ : أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه ﴿ **ثمّ أمين** ﴾ قرأ الجمهور بفتح :﴿ **ثمّ** ﴾ على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع فى السموات أو أمين فيها ، أى مؤتمن على الوحى وغيره ، وقرأ هشيم وأبو جعفر وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة ، وكان العطف بها للتراخى فى الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ، ومن قال : إن المراد بالرسول : محمد ﷺ فالمعنى : أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع يطيعه ، من أطاع الله أمين على الوحى .

﴿ **وما صاحبكم بمجنون** ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم : رسول الله ﷺ ، والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره فى شىء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم ، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدًا ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه: ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، أى وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين : أى بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ، ومنه قول الشاعر:

أخذنا بأقطار السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه : ﴿ **ولقد رآه بالآفق المبين** ﴾ مع أنه قد رآه غير مرّة ، لأنه رآه هذه المرّة

فى صورته ، له ستمائة جناح ، قال سفيان : إنه رآه فى أفق السماء الشرقى ، وقال ابن بحر : فى أفق السماء الغربى . وقال مجاهد: رآه نحو أجياد (١) وهو مشرق مكة . و﴿ **المبين** ﴾ صفة للأفق قاله الربيع . وقيل : صفة لمن رآه قاله مجاهد . وقيل : معنى الآية : ولقد رأى محمد ربه عزّ وجلّ ، وقد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم . ﴿ **وما هو** ﴾ أى محمد ﷺ ﴿ **على الغيب** ﴾ يعنى: خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا علمه عن أهل مكة ﴿ **بضنين** ﴾ بمتهم، أى هو ثقة فيما يؤدى عن الله سبحانه . وقيل : ﴿ **بضنين** ﴾ ببخيل ، أى لا يبخل بالوحى، ولا يقصر فى التبليغ ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء ، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « بظنين » بالظاء المشالة، أى بمتهم ، والظنة التهمة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأنهم لم يبخلوا ولكن كذبوه . وقرأ الباقون: ﴿ **بضنين** ﴾بالضاد ، أى ببخيل ، من ضننت بالشيء أضنن ضنا : إذا بخلت ، قال مجاهد : أى لا يظنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقيل : المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين ، والأوّل أولى.

﴿ **وما هو بقول شيطان رجيم** ﴾ أى وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبى : يقول : إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان : الشيطان الأبيض الذى كان يأتى النبىّ ﷺ فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . ثم بكتهم سبحانه ووبخهم فقال : ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ أى أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قال قتادة . وقال الزجاج : معناه : أى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم ، يقال : أين تذهب ، وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام ، وخرجت العراق ، وانطلقت السوق ، أى إليها . قال سمعناه فى هذه الأحرف ، وأنشد لبعض بنى عقيل :

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا وأىّ الأرض تذهب بالصياح

تريد إلى أىّ الأرض تذهب ، فحذف إلى . ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ أى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم . وقوله . ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار ومفعول المشيئة : ﴿ **أن يستقيم** ﴾ أى لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة . ﴿ **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ أى وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة فى التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ [يونس : ١٠٠] وقوله : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل

(١) فى المطبوعة : « رآه نحوا جباب نحو أجياد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى ١٠/ ٧٠٣٢ .

شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام : ١١١] وقوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ [القصص : ٥٦] والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ قال : أظلمت ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ قال : تغيرت . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن أبى مريم أن النبى ﷺ . قال فى قوله : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ [(١)] قال : كورت فى جهنم ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ قال : انكدرت فى جهنم . فكلّ من عبد من دون الله فهو فى جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى العالية قال : ست آيات من هذه السورة فى الدنيا ، والناس ينظرون إليها ، وست فى الآخرة ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ إلى ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ هذه فى الدنيا والناس ينظرون إليها ﴿ **وإذا النفوس زوّجت** ﴾ إلى ﴿ **وإذا الجنة أزلفت** ﴾ هذه فى الآخرة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الأهوال ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ واختلطت الدوابّ والطير والوحش فماجوا بعضهم فى بعض ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : اختلطت ﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿**وإذا البحار سجرت** ﴾ قال : قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم [(٢)].

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كلّ شيء الموت غير الجنّ والإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة [(٣)] .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والخطيب فى المتفق والمفترق عنه فى قوله : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : يحشر كلّ شيء يوم القيامة حتى إن الدوابّ لتحشر . وأخرج البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ قال : تسجر حتى تصير نارا . وأخرج الطبرانى عنه : ﴿**سجرت** ﴾ قال : اختلط ماؤها بماء الأرض . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن

---

(١) فى المطبوعة : « إذا السماء كورت » وهو خطأ . (٢) ابن جرير ٣٠/٤٣ .

(٣) صححه الحاكم ٢/٥١٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

الخطاب فى قوله : ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، كذلك تزويج الأنفس : وفى رواية : ثم قرأ : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] . وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعا . وأخرج البزار والحاكم فى الكنى ، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال : جاء قيس بن عاصم التميمى إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية ، فقال له رسول الله ﷺ: « أعتق عن كل واحدة رقبة »، قال : إنى صاحب إبل . قال :« فأهد عن كل واحدة بدنة » (١) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ قال : قربت. وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن على ابن أبى طالب فى قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ قال : هى الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ لا أقسم بالخنس ﴾ قال : خمسة أنجم : زحل وعطارد والمشترى وبهرام والزهرة ، ليس شىء يقطع المجرة غيرها . وأخرج ابن مردويه ، والخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى الآية قال : هى النجوم السبعة : زحل وبهرام وعطارد والمشترى والزهرة والشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ بالخنس . الجوارى الكنس ﴾ قال : هى بقر الوحش . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هى البقر تكنس إلى الظلّ . وأخرج ابن المنذر عنه قال : تكنس لأنفسها فى أصول الشجر تتوارى فيه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : هى الظباء . وأخرج ابن راهويه وعبد ابن حميد ، والبيهقىّ فى الشعب عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ الجوار الكنس ﴾ قال : هى الكواكب . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ الخنس ﴾ البقر ﴿ والجوار الكنس﴾: الظباء ، ألم ترها إذا كانت فى الظلّ كيف تكنس بأعناقها ومدّت نظرها . وأخرج أبو أحمد الحاكم فى الكنى عن أبى العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ﴿ الجوار الكنس ﴾ ؟ فطعن عمر بمخصرة معه فى عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أحرورىّ ؟ والذى نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقا لأنحيت القمل عن رأسك، وهذا منكر، فالحرورية لم يكونوا فى زمن عمر ولا كان لهم فى ذلك الوقت ذكر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والليل إذا عسعس﴾ قال : إذا أدبر ﴿والصبح إذا تنفس ﴾ قال : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

(١) البيهقى ٨/١١٦ .

وأخرج الطبراني عنه : ﴿ **إذا عسعس** ﴾ قال : إقبال سواده . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿**إنه لقول رسول كريم** ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود : ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾ قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إنما عنى جبريل أن محمدا رآه فى صورته عند سدرة المنتهى . وأخرج ابن مردويه عنه ﴿ **بالأفق المبين** ﴾ قال : السماء السابعة. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿ **بضنين** ﴾ بالضاد ، وقال : ببخيل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ : « وما هو على الغيب بظنين » بالظاء قال : ليس بمتهم . وأخرج الدارقطني فى الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه عن عائشة ؛ أن النبيّ ﷺ كان يقرؤه : « بظنين » بالظاء [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله ﷺ فقال : كذبوا يامحمد ﴿ **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين** ﴾ .

---

(١) صححه الحاكم ٢/٢٥٢ وقال الذهبى : « إسحاق متروك » .

تفسير سورة الانفطار

هى تسع عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النسائى عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء فطوّل ، فقال النبى ﷺ : « أفتان أنت يامعاذ ، أين أنت عن ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿والضحى﴾ و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ » وأصل الحديث فى الصحيحين [(١)] ولكن بدون ذكر ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ وقد تفرّد بها النسائى ، وقد تقدّم فى سورة التكوير حديث : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ: ﴿ إذا الشمس كورت﴾ و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ »[(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : انفطارها انشقاقها كقوله: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] . والفطر : الشق ، يقال :فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير : إذا طلع ، قيل: والمراد : أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها . وقيل : انفطرت لهيبة الله. ﴿ **وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ أى تساقطت متفرقة ، يقال : نثرت الشيء أنثره نثرا . ﴿ **وإذا البحار فجرت** ﴾ أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحرًا واحدا ، واختلط العذب منها بالمالح ، وقال الحسن : معنى ﴿ **فجرت** ﴾ : ذهب ماؤها ويبست ، وهذه الأشياء بين يدى الساعة كما تقدم فى السورة التى قبل هذه ﴿ **وإذا القبور**

(١) البخارى فى الأذان (٧٠٥) ومسلم فى الصلاة (٤٦٥ / ١٧٩) والنسائى فى التفسير (٦٧٢) .
(٢) سبق تخريجه .

بعثرت ﴾ أى قلب ترابها وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال : بعثر يبعثر بعثرة : إذا قلب التراب ، ويقال : بعثر المتاع : قلبه ظهرا لبطن ، وبعثرت الحوض وبحثرته : إذا هدمته وجعلت أعلاه أسفله . قال الفراء : ﴿ **بعثرت** ﴾ أُخرِج ما فى بطنها من الذهب والفضة ، ذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها .

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخرت** ﴾ والمعنى : أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والكلام فى إفراد نفس هنا كما تقدم فى السورة الأولى فى قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير: ١٤] ومعنى ﴿ **ما قدمت وأخرت** ﴾ : ما قدمت من عمل خير أوشرّ ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها، وقال قتادة : ما قدّمت من معصية وأخرت من طاعة، وقيل : ما قدّم من فرض وأخر من فرض. وقيل : أوّل عمله وآخره . وقيل : إن النفس تعلم عند البعث بما قدّمت وأخرت علما إجماليا لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلى فإنما يحصل عند نشر الصحف .

﴿ **يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم** ﴾ هذا خطاب للكفار ، أى ما الذى غرّك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذى تفضل عليك فى الدنيا بإكمال خلقك وحواسك ، وجعلك عاقلا فاهما ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التى لا تقدر على جحد شيء منها . قال قتادة : غرّه شيطانه المسلط عليه ، وقال الحسن : غرّه شيطانه الخبيث . وقيل : حمقه وجهله . وقيل : غرّه عفو الله إذا لم يعاجله بعقوبة أوّل مرّة ، كذا قال مقاتل . ﴿**الذى خلقك فسوّاك فعدّلك**﴾ أى خلقك من نطفة ولم تك شيئا ، فسوّاك رجلا تسمع وتبصر وتعقل ، ﴿**فعدّلك** ﴾ : جعلك معتدلا ، قال عطاء : جعلك قائما معتدلا حسن الصورة . وقال مقاتل : عدّل خلقك فى العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء . قرأ الجمهور: ﴿ **فعدّلك** ﴾ مشدّدا ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى ، قال الفراء وأبو عبيد : يدلّ عليها قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ [التين : ٤]، ومعنى القراءة الأولى : أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى القراءة الثانية : أنه صرفه وأماله إلى أىّ صورة شاء ، إما حسنا وإما قبيحا، وإما طويلا وإما قصيرا .

﴿ **فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ فى أى صورة متعلق بركبك ، و« ما » مزيدة ، و ﴿**شاء**﴾ صفة لصورة ، أى ركبك فى أىّ صورة شاءها من الصور المختلفة ، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله : ﴿ **فعدّلك** ﴾ والتقدير : فعدّلك : ركبك فى أىّ صورة شاءها ، ويجوز أن

يتعلق بمحذوف على أنه حال ، أى ركبك حاصلا فى أىّ صورة ، ونقل أبوحيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدّلك ، واعترض عليه بأن «أىّ» لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها ، قال مقاتل والكلبى ومجاهد : فى أىّ شبه من أب أو أمّ أو خال أو عمّ ، وقال مكحول: إن شاء ذكر وإن شاء أنثى . وقوله : ﴿كلا﴾ للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به والمعاصى له ، ويجوز أن يكون بمعنى :حقا . وقوله : ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ إضراب عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل : بعد الردع وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء ، أو بدين الإسلام . قال ابن الأنبارى : الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى ﴿ كلا ﴾ قبيح ، والمعنى : بل تكذبون يا أهل مكة بالدين ، أى بالحساب، وبل لنفى شىء تقدّم وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوما عندهم وإن لم يجر له ذكر . قال الفراء : كلا ليس الأمر كما غررت به، قرأ الجمهور : ﴿ تكذبون ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحتية على الغيبة .

وجملة : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تكذبون ، أى تكذبون والحال أن عليكم من يرفع تكذيبكم ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم ، والحافظين: الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها فى الصحف ، ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ، وجملة ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير كاتبين ، أو على النعت ، أو مستأنفة . قال الرازى : والمعنى : التعجيب من حالهم كأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق: ١٧ ، ١٨] .

ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم ﴾ والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذى سيقت له ، وهى كقوله سبحانه : ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ [الشورى : ٧] . وقوله : ﴿يصلونها يوم الدين ﴾ صفة لـ﴿جحيم﴾ ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ما حالهم ؟ فقيل : ﴿ يصلونها يوم الدين ﴾ أى يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به، ومعنى ﴿ يصلونها ﴾ : أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرّها يومئذ . قرأ الجمهور: ﴿ يصلونها ﴾ مخففا مبنيا للفاعل، وقرئ بالتشديد مبنيا للمفعول . ﴿ وماهم عنها بغائبين ﴾ أى لا يفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها ، بل هم فيها. وقيل: المعنى: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها فى قبورهم . ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال :﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ أى يوم الجزاء والحساب ، وكرره تعظيما لقدره وتفخيما لشأنه وتهويلا لأمره كما فى قوله :﴿القارعة. ما القارعة . وما

أدراك ما القارعة﴾[القارعة : ١ـ٣]و﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة : ١ـ٣] والمعنى: أى شىء جعلك داريا ما يوم الدين . قال الكلبى: الخطاب للإنسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال : ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع « يوم » على أنه بدل من ﴿**يوم الدين**﴾، أو خبر مبتدأ محذوف . وقرأ أبو عمرو فى رواية : « يوم » بالتنوين ، والقطع عن الإضافة . وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير: أعنى أو اذكر ، فيكون مفعولا به ، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين ، وهو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه بدل من ﴿**يوم الدين**﴾، قال الزجاج : يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله : ﴿ **لا تملك** ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح ، وإن كان فى موضع رفع ، وهذا الذى ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضى ، وأما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسى والفرّاء وغيرهما ، والمعنى : أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرّ . ﴿ **والأمر يومئذ لله**﴾ وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنًا ما كان . قال مقاتل : يعنى لنفس كافرة شيئا من المنفعة . قال قتادة : ليس ثم أحد يقضى شيئا أو يصنع شيئا إلا الله ربّ العالمين ، والمعنى : أن الله لا يملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا، ومثل هذا قوله : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : ١٦] .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا البحار فجرت**﴾ قال : بعضها فى بعض ، وفى قوله : ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾ قال : بحثت . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخرت** ﴾ قال : ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، أو سنة سيئة تعمل بعده ، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبىّ ﷺ : « من استنّ خيرا فاستنّ به ، فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استنّ شرا، فاستنّ به ، فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم » ، وتلا حذيفة : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخرت**﴾(١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية : ﴿ **ما غرّك بربك الكريم** ﴾ قال : غرّه والله جهله . وأخرج ابن جريرعن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين فى الليل وحافظين فى النهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره .

(١) صححه الحاكم ٢/ ٥١٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

تفسير سورة المطففين

هى ست وثلاثون آية . قال القرطبى : وهى مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل، ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ، وقال مقاتل أيضا : هى أوّل سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة : هى مدنية إلا ثمان آيات من قوله : ﴿إن الذين أجرموا﴾ إلى آخرها . وقال الكلبى وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة [(١)] . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المطففين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ويل للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك[(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾ .

قوله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ ويل مبتدأ ، وسوّغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز ، قال مكى : والمختار فى ويل وشبهه : إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب نحو قوله: ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ [طه : ٦١] و﴿للمطففين﴾ خبره . والمطفف : المنقص ، وحقيقته الأخذ فى الكيل أو الوزن شيئا طفيفا ، أى نزرا حقيرا . قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو القليل ، فالمطفف :هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للذى ينقص المكيال والميزان : مطفف ؛ لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان إلا الشىء اليسير الطفيف ،

(١) القرطبى ١٠/ ٧٠٤١ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٤٩٠٣) وإسناده ضعيف .

قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف : الذى يبخس فى الكيل والوزن . والمراد بالويل هنا : شدّة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشر الشديد ، أو هو واد فى جهنم ، قال الكلبى : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يسيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فنزلت هذه الآية ، وقال السدّى : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان بها رجل يقال له : أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية . قال الفرّاء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا .

ثم بين سبحانه المطففين من هم ؟ فقال : ﴿ **الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون** ﴾ أى يستوفون الاكتيال والأخذ بالكيل . قال الفرّاء : يريد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن فى هذا الموضع يعتقبان ، يقال : اكتلت منك ، أى استوفيت منك ، وتقول : اكتلت عليك ، أى أخذت ما عليك . قال الزجاج : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اتزنوا؛ لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر . قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى : الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا فى الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله : ﴿ **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدّى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال، ومثله : نصحتك ونصحت لك ، كذا قال الأخفش والكسائى والفرّاء . قال الفرّاء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدّ والمدّين إلى الموسم المقبل . قال : وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيدا ، أى توكيدا للضمير المستكنّ فى الفعل ، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا . قال أبو عبيد وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول : هم يخسرون . قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما : الخط ، ولذلك كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف ، والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى : كلت لك ووزنت لك هو كلام عربىّ ، كما يقال : صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك . وقيل : هو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون ، أى وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم ، ومعنى ﴿ **يخسرون** ﴾ : ينقصون كقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان﴾ [الرحمن : ٩] والعرب تقول : خسرت الميزان وأخسرته.

ثم خوّفهم سبحانه فقال : ﴿ **ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون** ﴾ والجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف وتفظيعه وللتعجيب من حالهم فى الاجتراء عليه ، والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المطففين ، والمعنى: أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون ، قيل : والظن هنا بمعنى اليقين ، أى لا يوقن أولئك، ولو أيقنوا مانقصوا الكيل

والوزن . وقيل : الظن على بابه ، والمعنى : إن كانوا لا يستيقنون البعث ، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ويتركوا ما يخشون من عاقبته ؟ واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم ؛ لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ، ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم أخبر عن ذلك اليوم ، فقال : ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ انتصاب الظرف بـ ﴿ **مبعوثون** ﴾ المذكور قبله ، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون ، أى يبعثون يوم يقوم الناس ، أو على البدل من محل ليوم ، أو بإضمار أعنى ، أو هو فى محلّ رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى محلّ جرّ على البدل من لفظ ليوم ، وإنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل . قال الزجاج :﴿ **يوم** ﴾ منصوب بقوله : ﴿**مبعوثون**﴾ ، المعنى : ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ؟ ومعنى ﴿ **يوم يقوم الناس** ﴾ : يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين ، أو لجزائه ، أو لحسابه أو لحكمه وقضائه ، وفى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ، ومزيد إثمه وفظاعة عقابه . وقيل: المراد بقوله : ﴿ **يوم يقوم الناس**﴾ قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم . وقيل : المراد : قيامهم بما عليهم من حقوق للعباد وقيل : المراد : قيام الرسل بين يدى الله للقضاء ، والأوّل أولى . قوله : ﴿ **كلا** ﴾ هى للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده ، ثم استأنف فقال : ﴿ **إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾ وعند أبى حاتم أن ﴿**كلا**﴾ بمعنى : حقا متصلة بما بعدها على معنى : حقا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وسجين هو ما فسره به سبحانه من قوله : ﴿ **وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم** ﴾ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم، أى مسطور . قيل : هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم له ، وقال قتادة وسعيد ابن جبير ومقاتل وكعب : إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وبه قال مجاهد ، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير : محل كتاب مرقوم . وقال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : ﴿ **لفى سجين**﴾: لفى حبس وضيق شديد، والمعنى : كأنهم فى حبس ، جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم وهوانها . وقال الواحدى : ذكر قوم أن قوله : ﴿ **كتاب مرقوم** ﴾ تفسير لسجين وهو بعيد ؛ لأنه ليس السجينَ من كتاب فى شىء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله : ﴿ **إن كتاب الفجار** ﴾ على تقدير : هو كتاب مرقوم ، أى مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون ، أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه ، فقال : ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ ثم بينه بقوله :

﴿ كتاب مرقوم﴾ قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك . قال قتادة : ومعنى ﴿مرقوم﴾: رقم لهم بشرّ كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر . وكذا قال مقاتل ، وقدا اختلفوا فى نون سجين ، فقيل: هى أصلية واشتقاقه من السجن ، وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق ، من الخمر والسكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج . قال الواحدى : وهذا ضعيف ؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجينا ، ويجاب عنه :بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة ، وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وقيل : النون بدل من اللام ، والأصل : سجيل ، مشتقا من السجل ، وهو الكتاب . قال ابن عطية : من قال : إن سجينا موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن ، والظرف وهو قوله : ﴿ لفى سجين ﴾ ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسر السجين ما هو ؟ كذا قال . قال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حميرَ وأصل الرقم الكتابة. قال الشاعر :

سأرقم بالمـــاء القراح إليـــكم على بعدكم إن كان للماء راقم

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ يوم يقوم الناس لربّ العالمين ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل، ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال : ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ والموصول صفه للمكذبين ، أو بدل منه . ﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أى فاجر جائر متجاوز فى الإثم منهمك فى أسبابه . ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ المنزلة على محمد ﷺ ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ أى أحاديثهم وأباطيلهم التى زخرفوها . قرأ الجمهور : ﴿ إذا تتلى ﴾ بفوقيتين ، وقرأ أبو حيوة وأبو السماك والأشهب العقيلى والسلمى بالتحتية،وقوله:﴿ كلا ﴾ للردع والزجر للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له ، وقوله : ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان للسبب الذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأوّلين . قال أبو عبيدة : ران على قلوبهم : غلب عليها رينا وريونا ، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك . قال الفرّاء : هو أنها كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، قال مجاهد : القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه ، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ هذه الآية. قال أبو زيد : يقال : قد رين بالرجل رينـا : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به. وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب

وهو أشدّ من الرين ، والإقفال أشد من الطبع . قال الزجاج: الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين .

ثم كررّ سبحانه الردع والزجر فقال : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ وقيل : كلا بمعنى :حقا ، أى حقا إنهم ، يعنى الكفار ، عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبدا . قال مقاتل : يعنى أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم . قال الحسين ابن الفضل : كما حجبهم فى الدنيا عن توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . قال الزجاج: فى هذه الآية دليل على أن الله عزّ وجلّ يرى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة . وقال جلّ ثناؤه :﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه : وقيل : هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك . وقال قتادة وابن أبى مليكة : هو أن لا ينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم . وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان. ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم** ﴾ أى داخلو النار وملازموها غير خارجين منها، وثم لتراخى الرتبة ؛ لأن صلى الجحيم أشدّ من الإهانة وحرمان الكرامة . ﴿ **ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون** ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم تبكيتا وتوبيخا : هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا فانظروه وذوقوه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ أن النبىّ ﷺ قال : «﴿ **يوم يقوم الناس لربّ العالمين**﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » (١) . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ فى هذه الآية : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال :« فكيف إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ؟ » (٢) . وأخرج أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : «﴿ **يوم يقوم الناس لرّب العالمين** ﴾ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب » (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا . وأخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال : يارسول الله ، كم مقام الناس بين يدى ربّ العالمين يوم القيامة ؟ قال : « ألف سنة لا يؤذن لهم » .

وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية ؛ أن

---

(١) أحمد ٢/ ١٣ والبخارى فى التفسير (٤٩٣٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٢ / ٦٠) .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٣ ووافقه الذهبى .
(٣) أبو يعلى (٦٠٢٥) وابن حبان (٧٢٨٩) .

ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم ويوضع تحت خد إبليس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :﴿ سجين﴾ : أسفل الأرضين . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : «الفلق جب فى جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح »[(١)]. قال ابن كثير : هو حديث غريب منكر لا يصحّ [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبىّ ﷺ قال : ﴿ سجين ﴾ الأرض السابعة السفلى . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن ماجة والطبرانى والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابنى فأقرئه منى السلام ، فقال : غفر الله لك يا أمّ بشر نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وأن نسمة الكافر فى سجين ؟ » قال : بلى ، قالت : فهو ذلك. وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾» [(٣)] .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا

---

(١) ابن جرير ٣٠ / ٦١ . (٢) ابن كثير ٧/ ٢٣٩ .

(٣) أحمد ٢/ ٢٩٧ والترمذى (٣٣٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٧٨) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٤٤) وابن جرير ١/ ٨٧ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٢٠٣) . ط ـ : دار الكتب .

كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **كلا** ﴾ للردع والزجر عما كانوا عليه ، والتكرير للتأكيد ، وجملة : ﴿ **إن كتاب الأبرار لفى عليين**﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن يكون كلا بمعنى :حقا ، والأبرار: هم المطيعون ، وكتابهم صحائف حسناتهم . قال الفراء : عليين : ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له ، ووجه هذا أنه منقول من جمع عليّ من العلوّ . قال الزجاج : هو إعلاء الأمكنة . قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع ؛ لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو:ثلاثين وعشرين وقنسرين . قيل : هو علم لديوان الخير الذى دوّن فيه ما عمله الصالحون، وحكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة ، قال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى : السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وقال الضحاك : هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شىء من أمر الله لا يعدوها . وقيل : هو الجنة . وقال قتادة أيضا : هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى وقيل: إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى كما يقال : فلان فى بنى فلان ، أى فى جملتهم . ﴿ **وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم** ﴾ أى وما أعلمك يا محمد أىّ شىء عليون على جهة التفخيم والتعظيم لعليين ، ثم فسره فقال : ﴿**كتاب مرقوم** ﴾ أى مسطور ، والكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله : ﴿ **وَما أدراك ما سجين .كتاب مرقوم** ﴾ وجملة : ﴿ **يشهده المقربون** ﴾ صفة أخرى لكتاب ، والمعنى : أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم . وقيل : يشهدون بما فيه يوم القيامة ، قال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا : إسرافيل ، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلألأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها .

ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال : ﴿ **إنّ الأبرار لفى نعيم** ﴾ أى إن أهل الطاعة لفى تنعم عظيم لا يقادر قدره ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ الأرائك : الأسرة التى فى الحجال ، وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة . قال الحسن : ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن ، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير . ومعنى ﴿ **ينظرون** ﴾ : أنهم ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ، كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار . وقيل : ينظرون إلى وجهه وجلاله . ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم**﴾ أى إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والرونق ، والخطاب لكلّ راء يصلح لذلك ، يقال : أنضر النبات : إذا أزهر ونوّر . قال عطاء : وذلك أن الله زاد فى جمالهم وفى ألوانهم مالا يصفه واصف . قرأ الجمهور : ﴿ **تعرف** ﴾ بفتح الفوقية وكسر الراء، ونصب نضرة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وطلحة وابن أبى إسحاق بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ، ورفع نضرة بالنيابة . ﴿**يسقون من رحيق مختوم** ﴾ قال

أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : الرحيق من الخمر ما لاغشّ فيه ولا شيء يفسده ، والمختوم : الذى له ختام ، وقال الخليل : الرحيق: أجود الخمر ، وفى الصحاح : الرحيق : صفرة الخمر . وقال مجاهد : هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهد : ﴿ **مختوم** ﴾ : مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى : أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار . وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى : ختامه آخر طعمه ، وهو معنى قوله : ﴿**ختامه مسك** ﴾ أى آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك . وقيل : مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره ، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه . قرأ الجمهور : ﴿ **ختامه** ﴾ وقرأ علىّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائى : « خاتمه » بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمه مسكا ، أى آخره ، والخاتم والختام يتقاربان فى المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء . قال فى الصحاح : والختام الطين الذى يختم به، وكذا قال ابن زيد . قال الفرزدق :

وبتن بجانبى مصرَعات وبت أفضّ أغلاق الختام

﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ أى فليرغب الراغبون . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة . وقيل : إن فى بمعنى إلى ، أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل كما فى قوله : ﴿**لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ [الصافات : ٦١] وأصل التنافس : التشاجر على الشيء والتنازع فيه ، بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، يقال : نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة ، أى ظننت به ولم أحبّ أن يصير إليه . قال البغوى: أصله من الشيء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه ، وينفس به على غيره ، أى يضن به . قال عطاء : المعنى : فليستبق المستبقون . وقال مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون . وقوله : ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾ معطوف على ﴿ **ختامه مسك**﴾ صفة أخرى لرحيق ، أى ولزاج ذلك الرحيق من تسنيم ، وهو شراب ينصّب عليهم من علوّ ، وهو أشرف شراب الجنة وأصل التسنيم فى اللغة : الارتفاع ، فهى عين ماء تجرى من علوّ إلى أسفل ، ومنه : سنام البعير لعلوّه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور . ثم بيّن ذلك فقال :﴿ **عينا يشرب بها المقربون** ﴾ وانتصاب ﴿ **عينا** ﴾ على المدح . وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن تكون ﴿ **عينا** ﴾ حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله : ﴿ **يشرب بها** ﴾ وقال الأخفش: إنها منصوبة بـ﴿**يسقون** ﴾ أى يسقون عينا ، أو من عين . وقال الفرّاء : إنها منصوبة بـ

﴿تسنيم ﴾ على أنه مصدر مشتق من السنام ، كما في قوله : ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيما ﴾[البلد : ١٤، ١٥] والأول أولى ، وبه قال المبرّد . قيل : والباء في « بها » زائدة ، أي يشربها ، أو بمعنى : من ، أو يشرب منها . قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش. قيل : يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ وهم كفار قريش ومن وافقهم على الكفر ﴿كانوا من الذين آمنوا يـضحكون ﴾ أى كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، ويسخرون منهم . ﴿ وإذا مروا بهم ﴾ أى وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم فى مجالسهم ﴿يتغامزون ﴾ من الغمز ، وهو الإشارة بالجفون والحواجب ، أى يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم . وقيل : يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ﴿وإذا انقلبوا ﴾ أى الكفار ﴿إلى أهلهم﴾ من مجالسهم ﴿ انقلبوا فاكهين ﴾ أى معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، والانقلاب : الانصراف. قرأ الجمهور: « فاكهين » وقرأ حفص وابن القعقاع والأعرج والسلمى : ﴿فكهين﴾ بغير ألف . قال الفَراء : هما لغتان ، مثل : طمع وطامع ، وحذر وحاذر ، وقد تقدّم بيانه فى سورة الدخان أن الفكه : الأشر البطر ، والفاكه : الناعم المتنعم . ﴿وإذا رأوهم ﴾ أى إذا رأو الكفار المسلمين فى أى مكان ﴿قالوا إن هؤلاء لـضالون ﴾ فى اتباعهم محمداً ، وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر ، ويجوز أن يكون المعنى : وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول والأوّل أولى ، وجملة : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ قالوا ﴾ أى قالوا ذلك إنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم.

﴿ فاليوم الذين آمنوا ﴾ المراد باليوم : اليوم الآخر ﴿ من الكفار يـضحكون ﴾ والمعنى : أن المؤمنين فى ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا ، وجملة : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يـضحكون ﴾ أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ماهم فيه من الحال الفظيع . وقد تقدّم تفسير الأرائك قريبا . قال الواحدى : قال المفسرون : إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله وهم يعذبون فى النار ، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فى الدنيا ، وقال أبو صالح : يقال لأهل النار : اخرجوا ويفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يـضحكون ﴾.
﴿ هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم فى الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوّب بمعنى : أثيب ، والمعنى : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ وقيل : الجملة فى محل نصب

بـ ﴿ ينظرون ﴾ . وقيل : هى على إضمار القول ، أى يقول بعض المؤمنين لبعض : هل ثوّب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله ويطلق على الخير والشرّ .

وقد أخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية ؛ أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾ قال : أرواح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء ، فتفتح لها أبواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش وتعرّج الملائكة ، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ لفى عليين ﴾ قال الجنة ، وفى قوله : ﴿ يشهده المقرّبون ﴾ قال : أهل السماء. وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين » (١) . وأخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ نـضرة النعيم ﴾ قال : عين فى الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم .

وأخرج عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال : الرحيق : الخمر ، والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿مختوم ﴾ قال : ممزوج ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : طعمه وريحه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من رحيق﴾ قال : خمر ، وقوله : ﴿ مختوم﴾ قال : ختم بالمسك . وأخرج الفريابى والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ قال: ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك ، ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول خلطه من الطيب كذا وكذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن أبى الدرداء ﴿ختامه مسك ﴾ قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿تسنيم﴾ أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمتقين ويمزج لأصحاب اليمين. وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود ﴿ مزاجه من تسنيم ﴾ قال: عين فى الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقرّبون صرفا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : هذا مما قال الله : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : ١٧] .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد ٥/٢٦٨ وأبو داود فى الصلاة (٥٥٨) والطبرانى (٧٧٣٤) .

تفسير سورة الانشقاق

هى ثلاث وعشرون آية . وقيل : خمس وعشرون آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقىّ عن ابن عباس قال : نزلت سورة الانشقاق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد . فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجد حتى ألقاه [(١)] . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [(٢)] . وأخرج ابن خزيمة، والروياني فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة ؛ أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الظهر : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ونحوها[(٣)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ هو كقوله : ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ [التكوير : ١] فى إضمار الفعل وعدمه . قال الواحدى : قال المفسرون : انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها : انفطارها بالغمام الأبيض كما فى قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقيل : تنشقّ من المجرة ، والمجرة باب السماء . واختلف فى جواب إذا ، فقال الفرّاء :

(١) البخارى فى الأذان (٧٦٦ ، ٧٦٨) مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائى فى الصلاة (٢/ ١٦١) وفى التفسير (٦٨٠) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) ابن خزيمة فى الصلاة (٥١٢) .

إنه أذنت ، والواو زائدة ، وكذلك ألقت . قال ابن الأنبارى : هذا غلط ، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله : ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧١] ومع لما كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] ولا تقحم مع غير هذين . وقيل : إن الجواب قوله : ﴿**فملاقيه** ﴾ أى فأنت ملاقيه ، وبه قال الأخفش. وقال المبرد : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا ، أى يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت . وقال المبرد أيضا : إن الجواب قوله : ﴿**فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾ وبه قال الكسائى ، والتقدير : إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا. وقيل : هو ﴿ **يأيها الإنسان** ﴾ على إضمار الفاء ، وقيل : إنه ﴿ **يأيها الإنسان** ﴾ على إضمار القول ، أى يقال له : يأيها الإنسان . وقيل : الجواب محذوف ، تقديره : بعثتم ، أو لاقى كل إنسان عمله . وقيل : هو ما صرّح به فى سورة التكوير ، أى علمت نفس هذا ، على تقدير أن إذا شرطية ، وقيل : ليست بشرطية وهى منصوبة بفعل محذوف ، أى اذكر ، أو هى مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة ، وتقديره : وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض، ومعنى ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ : أنها أطاعته فى الانشقاق من الإذن ، وهو الاستماع للشىء والإصغاء إليه ﴿ **وحقت** ﴾ أى وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع ، ومن استعمال الإذن فى الاستماع قول الشاعر :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر :

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا ... منى وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل : المعنى : وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق ، أى جعلها حقيقة بذلك . قال الضحاك : ﴿**حقت** ﴾: أطاعت ، وحقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال : فلان محقوق بكذا ، ومعنى طاعتها : أنها لا تمتنع مما أراده الله بها ، قال قتادة : حق لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقت لها العتبى لدينا وقلت

﴿ **وإذا الأرض مدّت** ﴾ أى بسطت كما تبسط الأدم ، ودكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . قال مقاتل : سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها . وقيل : مدّت زيد فى سعتها ، من المدد ، وهو الزيادة . ﴿ **وألقت ما فيها**﴾ أى أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها ﴿ **وتخلت** ﴾ من ذلك. قال سعيد بن جبير : ألقت ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء ، ومثل هذا قوله : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] . ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ أى سمعت

وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلى ﴿**وحقت**﴾ أى وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له. وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ﴿ **يأيها الإنسان** ﴾ المراد : جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر . وقيل : هو الإنسان الكافر . والأوّل أولى لما سيأتى من التفصيل ﴿**إنك كادح إلى ربك كدحا**﴾ الكدح فى كلام العرب: السعى فى الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيرا أو شرا ، والمعنى : أنك ساع إلى ربك فى عملك ، أو إلى لقاء ربك . مأخوذ من كدح جلده : إذا خدشه ، قال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة والضحاك والكلبى : عامل لربك عملا ﴿ **فملاقيه** ﴾ أى فملاق عملك ، والمعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب . قال القتيبى : معنى الآية : ﴿ **إنك كادح** ﴾ أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك والملاقاة بمعنى اللقاء، أى تلقى ربك بعملك ، وقيل : فملاق كتاب عملك ، لأن العمل قد انقضى ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾ وهم المؤمنون . ﴿ **فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ لامناقشة فيه . قال مقاتل : لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب بها . وقال المفسرون : هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله ، فهو الحساب اليسير . ﴿ **وينقلب إلى أهله مسرورا** ﴾ أى وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من عشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة ، أو إلى من أعدّه الله له فى الجنة من الحور العين والولدان المخلدين . أو إلى جميع هؤلاء مسرورًا مبتهجا بما أوتى من الخير والكرامة .

﴿ **وأما من أوتى كتابه وراء ظهره** ﴾ قال الكلبى : لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلفه . وقال قتادة ومقاتل : تفك ألواح صدره وعظامه ، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿ **فسوف يدعو ثبورًا**﴾ أى إذا قرأ كتابه قال : ياويلاه ياثبوراه ، والثبور: الهلاك . ﴿ **ويصلى سعيرا** ﴾ أى يدخلها ويقاسى حرّ نارها وشدتها . قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها ، وروى إسماعيل المكى عن ابن كثير وكذلك خارجة عن نافع وكذلك روى إسماعيل المكى عن ابن كثير أنهم قرؤوا بضم الياء وإسكان الصاد من أصلى يصلى . ﴿ **إنه كان فى أهله مسرورا** ﴾ أى كان بين أهله فى الدنيا مسرورا باتباع هواه وركوب شهوته بطرا أشرا لعدم خطور الآخرة بباله ، والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة : ﴿ **إنه ظن أن لن يحور** ﴾ تعليل لكونه كان فى الدنيا فى أهله مسرورا ، والمعنى : أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة ، و« أن » فى قوله : ﴿ **أن لن يحور** ﴾ هى المخففة من الثقيلة سادة مع ما فى حيزها مسدّ مفعولى ظنّ ، والحور فى اللغة : الرجوع ، يقال : حار يحور : إذا رجع . وقال الراغب : الحور: التردّد فى

الأمر ، ومنه : نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، أى من التردّد فى الأمر بعد المضىّ فيه ، ومحاورة الكلام : مراجعته ، والمحار المرجع والمصير . قال عكرمة وداود بن أبى هند : يحور كلمة بالحبشية ومعناها : يرجع . قال القرطبى [(١)] : الحور فى كلام العرب : الرجوع ، ومنه : قوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من الحور بعد الكور » [(٢)] يعنى : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفى المثل : حور فى محار ، أى نقصان فى نقصان ، ومنه قول الشاعر :

والذم يبقى وزادُ القوم فى حُورِ

والحور أيضا : الهلكة ، ومنه قول الراجز :

فى بئر لا حُور سرى وما شعر

قال أبو عبيدة : أى فى بئر حور ، ولا زائدة . ﴿ **بلى إن ربه كان به بصيرا** ﴾ بلى إيجاب للمنفىّ بلن ، أى بلى ليحورنّ وليبعثن . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنّ ربه كان به بصيرا** ﴾ أى كان به وبأعماله عالمًا لا يخفى عليه منها خافية . قال الزجاج : كان به بصيرا قبل أن يخلقه عالمًا بأن مرجعه إليه . ﴿ **فلا أقسم بالشفق** ﴾« لا » زائدة كما تقدّم فى أمثال هذه العبارة ، وقد قدّمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه . والشفق : الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة . قال الواحدى : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعا. قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر ، وحكاه القرطبى عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء ، وقال أسد بن عمر وأبو حنيفة : فى إحدى الروايتين عنه إنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع. قال الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، قال فى الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أوّل الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا ، ومنه قول الشاعر :

قم ياغلام أعنى غـير مرتبك ... على الزمان بكأس حشوها شفق

وقال آخر :

أحمر اللون كحمرة الشفق

وقال مجاهد : الشفق : النهار كله ألا تراه قال :﴿ **والليل وما وسق** ﴾ وقال عكرمة : هو ما بقى من النهار. وإنما قال هذا لقوله بعده : ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا ، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال : الشفق : الذى يكون بين المغرب والعشاء ، وروى عن أسد بن عمر : الرجوع . ﴿**والليل وما وسق** ﴾ الوسق عند أهل

---

(١) القرطبى ١٠/ ٧٠٦٤ .
(٢) مسلم فى الحج (١٣٤٣/ ٤٢٦) .

اللغة : ضم الشيء بعضه إلى بعض ، يقال : استوسقت الإبل : إذا اجتمعت وانضمت، والراعي يسقها ، أى يجمعها . قال الواحدى : المفسرون يقولون : وما جمع وضم وحوى ولف ، والمعنى : أنه جمع وضمّ ما كان منتشرا بالنهار في تصرّفه ، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه ، ومنه قول ضابئ بن الحرث البرجُمِي :

فإنى وإياكم وسوقا إليكم كقابض شيئا لم تنله أنامله

وقال عكرمة : ﴿ وما وسق ﴾ أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوى ، فجعله من السوق لا من الجمع ﴿وما وسق﴾ أى وما جُنَّ وستر . وقيل: ﴿ وما وسق ﴾ أى وما حمل ، وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول : لا أحمله ما وسقت عينى الماء ، أى حملته ، ووسقت الناقة تسق وسقا ، أى حملت . قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : ﴿ وما وسق ﴾ : وما حمل من الظلمة ، أو حمل من الكواكب . قال القشيرى : ومعنى حمل: ضمّ وجمع ، والليل يحمل بظلمته كل شيء . وقال سعيد بن جبير: ﴿ وما وسق ﴾ أى وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار ، والأوّل أولى. ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أى اجتمع وتكامل. قال الفراء: اتساقه: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلى ست عشرة ، وقد افتعل من الوسق الذى هو الجمع . قال الحسن: اتسق: امتلأ واجتمع . وقال قتادة : استدار، يقال : وسقته فاتسق ، كما يقال : وصلته فاتصل ، ويقال : أمر فلان متسق ، أى مجتمع منتظم ، ويقال : اتسق الشيء : إذا تتابع .

﴿ لتركبَن طبقا عن طبق ﴾ هذا جواب القسم . قرأ حمزة والكسائى وابن كثير وأبو عمرو: « لتركبَن » : بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، وهو النبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى العالية ومسروق وأبى وائل ومجاهد والنخعى والشعبى وسعيد بن جبير ، وقرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع وهم الناس . قال الشعبى و مجاهد : لتركبنّ يامحمد سماء بعد سماء . قال الكلبى : يعنى : تصعد فيها ، وهذا على القراءة الأولى . وقيل : درجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القرب من الله ورفعة المنزلة . وقيل : المعنى : لتركبنّ حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها فى الشدّة . وقيل: المعنى : لتركبنّ أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا ، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : ﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا﴾ واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية قالا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبىّ ﷺ. وقرأ عمر : « ليركبنّ » بالتحتية وضم الموحدة على الإخبار ، وروى عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة ، أى ليركبن الإنسان، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهى لغة ، وقرئ بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس . وقيل : إن معنى الآية : ليركبنّ القمر أحوالا من سرار واستهلال ، وهو بعيد ، قال مقاتل : ﴿ طبقا عن طبق ﴾ يعنى : الموت والحياة . وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام

ثم شاب ثم شيخ ومحل ﴿ **عن طبق** ﴾ النصب على أنه صفة لـ﴿**طبقا** ﴾ أى طبقا مجاوزا لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن ، أى مجاوزين ، أو مجاوزا .

﴿ **فما لهم لا يؤمنون** ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى : أىّ شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك.

﴿ **وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون** ﴾ هذه الجملة الشرطية وجوابها فى محل نصب على الحال ، أى أىّ مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن . قال الحسن وعطاء والكلبى ومقاتل : مالهم لا يصلون . وقال أبو مسلم : المراد : الخضوع والاستكانة . وقيل : المراد : نفس السجود المعروف بسجود التلاوة ، وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا ؟ وقد تقدم فى فاتحة هذه السورة الدليل على السجود : ﴿ **بل الذين كفروا يكذبون** ﴾ أى يكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب : ﴿**والله أعلم بما يوعون** ﴾ أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب . وقال مقاتل : يكتمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

ويقال : وعاه: حفظه ، ووعيت الحديث أعيه وعيا ، ومنه : ﴿ أذن واعية ﴾ [الحاقة : ١٢] .﴿ **فبشرهم بعذاب أليم**﴾ أى اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم ، لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم : المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم . ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ هذا الاستثناء منقطع ، أى لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون ، أى غير مقطوع ، يقال : مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الشاعر :

فترى خلفهنّ من سرعة الرجـ ـع منـيـنا كـأنـه أهـبـاء

قال المبرد : المنين : الغبار ، لأنه تقطعه وراءها ، وكل ضعيف منين وممنون . وقيل : معنى ﴿ **غير ممنون** ﴾ : أنه لا يمنّ عليهم به ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ قال: تنشق السماء من المجرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ قال : سمعت حين كلمها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿**وأذنت لربها وحقت** ﴾ قال : أطاعت وحقت بالطاعة . وأخرج الحاكم عنه وصححه قال : سمعت وأطاعت ﴿ **وإذا الأرض مدّت** ﴾

قال :يوم القيامة ﴿ **وألقت مافيها** ﴾ قال : أخرجت ما فيها من الموتى ﴿**وتخلت** ﴾ عنهم . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **وألقت ما فيها** ﴾ قال : سوارى الذهب . وأخرج الحاكم، قال السيوطى : بسند جيد ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « تمَدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **إنك كادح إلى ربك كدحا** ﴾ قال : عامل عملا . ﴿ **فملاقيه** ﴾ قال : فملاق عملك .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسب إلا هلك»، فقلت : أليس يقول الله : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ ؟ قال : «ليس ذلك بالحساب. ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك» (٢) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » ، فلما انصرف قلت : يارسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال: « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك » (٣) وفى بعض ألفاظ الحديث الأوّل وهذا الحديث الآخر : « من نوقش الحساب عذّب » . وأخرج البزار ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كنّ فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا ويدخله الجنة برحمته : تعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » (٤) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يدعو ثبوراً** ﴾ قال : الويل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **إنه ظنّ أن لن يحور** ﴾ قال : يبعث . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **أن لن يحور**﴾ قال : أن لن يرجع. وأخرج سمويه فى فوائده عن عمر ابن الخطاب قال : ﴿ **الشفق** ﴾ : الحمرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : ﴿ **الشفق** ﴾ : النهار كله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ قال : وما دخل فيه . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ **وما وسق** ﴾ قال: وما جمع . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**والقمر إذا اتسق** ﴾ قال : إذا استوى . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ قال : وما جمع ، أما سمعت قوله :

---

(١) هذا جزء من حديث طويل صححه الحاكم ٤/ ٥٧٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) أحمد ٦/٤٧ ، ٩١ والبخارى فى التفسير (٤٩٣٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٦ / ٧٩ ، ٨٠) .
(٣) أحمد ٦/٤٨ وابن جرير ٣٠/ ٧٤ وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٤) قال الهيثمى فى المجمع ٨/١٥٧ : « رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه سليمان بن داود اليمامى وهو متروك » وصححه الحاكم ٢/٥١٨ وقال الذهبى : « سليمان ضعيف » .

إن لنــا قلائــصا نقــانــقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ **والقمر إذا اتسق** ﴾ قال : ليلة ثلاثة عشر . وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب ﴿ **لتركبنّ طبقا عن طبق** ﴾ قال : حالا بعد حال . وأخرج البخارى عن ابن عباس ﴿ **لتركبنّ طبقا عن طبق**﴾ حالا بعد حال ، قال : هذا نبيكم ﷺ . وأخرج أبو عبيد فى القراءات ، وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « لتركبَنّ طبقا عن طبق » يعنى : بفتح الباء من ﴿**تركبن**﴾ . وقال : يعنى : نبيكم ﷺ حالا بعد حال . وأخرج الطيالسى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى عنه قال : ﴿**لتركبَنّ**﴾ يا محمد السماء ﴿ **طبقا عن طبق** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم فى الكنى ، والطبرانى وابن منده وابن مردويه عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ : « لتركبَنّ » : يعنى : بفتح الباء . وقال : لتركبَنّ يامحمد سماء بعد سماء . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عنه : ﴿ **لتركبنّ طبقا عن طبق** ﴾ يعنى : السماء تنفطر ، ثم تنشق ، ثم تحمرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عنه أيضا فى الآية قال : السماء تكون كالمهل ، وتكون وردة كالدّهان، وتكون واهية، وتشقق فتكون حالا بعد حال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**والله أعلم بما يوعون** ﴾ قال : يسرّون .

تفسير سورة البروج

هى اثنتان وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت :﴿ والسماء ذات البروج ﴾ بمكة . وأخرج أحمد قال : حدّثنا عبد الصمد حدثنا زريق بن أبى سلمى حدّثنا أبو المهزم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بـ ﴿ السماء ذات البروج ﴾ ، و﴿ السماء والطارق ﴾ (١) .

وأخرج الطيالسى وابن أبى شيبة فى المصنف ، وأحمد والدارمى وأبو داود ، والترمذى وحسنه، والنسائى وابن حبان والطبرانى ، والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة؛ أن النبىّ ﷺ كان يقرأ فى الظهر والعصر بـ ﴿ السماء والطارق ﴾ و﴿ السماء ذات البروج﴾ (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ .

قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ قد تقدّم الكلام فى البروج عند تفسير قوله : ﴿جعل فى السماء بروجا ﴾ [الفرقان : ٦١] قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: هى النجوم، والمعنى : والسماء ذات النجوم ، وقال عكرمة ومجاهد أيضا : هى قصور فى السماء . وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن .وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هى المنازل للكواكب ، وهى اثنا عشر برجا لاثنى عشر كوكبا ، وهى الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ،

(١) أحمد ٢ / ٣٢٧ .

(٢) ابن أبى شيبة ١ / ٣٥٦ وأحمد ٥ / ١٠٦ والدارمى ١ / ٢٩٥ وأبو داود فى الصلاة (٨٠٥) والترمذى فى الصلاة (٣٠٧) والنسائى فى الصلاة ٢ / ١٦٦ وابن حبان (١٨٢٤) والطبرانى (١٩٦٦) والبيهقى٢ / ٣٩١ .

والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . والبروج فى كلام العرب : القصور ، ومنه قوله : ﴿ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها . وقيل : هى أبواب السماء . وقيل : هى منازل القمر . وأصل البرج : الظهور ، سميت بذلك لظهورها . ﴿ **واليوم الموعود** ﴾ أى الموعود به ، وهو يوم القيامة . قال الواحدى : فى قول جميع المفسرين .

﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ المراد بالشاهد : من يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق ، أى يحضر فيه، والمراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من العجائب وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد : يوم الجمعة ، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود : يوم عرفة ، لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج ، وتحضره الملائكة ، قال الواحدى : وهذا قول الأكثر ، وحكى القشيرى عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد : يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد : يوم التروية ، والمشهود : يوم عرفة ، وقال النخعى : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود : يوم النحر . وقيل : الشاهد : هو الله سبحانه ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، لقوله : ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ [النساء : ١٦٦] وقوله : ﴿ قل أىّ شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقيل : الشاهد : محمد ﷺ لقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] وقوله : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقيل : الشاهد : جميع الأنبياء لقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : ٤١] . وقيل : هو عيسى ابن مريم لقوله : ﴿وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ﴾ [المائدة : ١١٧] والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة : إما أمة محمد ، أو أمم الأنبياء ، أو أمة عيسى . وقيل : الشاهد : آدم ، والمشهود : ذريته ، وقال محمد بن كعب : الشاهد : الإنسان لقوله : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٤] وقال مقاتل : أعضاؤه لقوله:﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : ٢٤] وقال الحسين بن الفضل : الشاهد : هذه الأمة ، والمشهود : سائر الأمم لقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقيل : الشاهد : الحفظة والمشهود : بنو آدم . وقيل : الأيام والليالى . وقيل : الشاهد : الخلق ، يشهدون لله عزّ وجلّ بالوحدانية ، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه ، وسيأتى بيان ما ورد فى تفسير الشاهد والمشهود ــ وبيان ما هو الحقّ إن شاء الله .

﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ هذا جواب القسم ، واللام فيه مضمرة ، وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره . وقيل : تقديره : لقد قتل ، فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية ، والظاهر أنها دعائية ، لأن معنى ﴿ **قتل** ﴾ : لعن. قال الواحدى: فى قول الجميع ،

والدعائية لا تكون جوابا للقسم ، فقيل : الجواب قوله : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين** ﴾ . وقيل : قوله : ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ وبه قال المبرد : واعترض عليه بطول الفصل . وقيل : هو مقدّر يدل عليه قوله : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود . وقيل : تقدير الجواب: لتبعثنّ ، واختاره ابن الأنبارى ، وقال أبو حاتم السجستانى وابن الأنبارى أيضا : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج ، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال : والله قام زيد . والأخدود : الشقّ العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق ـ وجمعه أخاديد ، ومنه الخدّ لمجارى الدموع ، والمخدة لأن الخد يوضع عليها . ويقال : تخدد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من خراج ، ومنه قول طرفة :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها … عليه نقيّ اللون لم يتخدّد

وسيأتى بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله . قرأ الجمهور : ﴿ **النار ذات الوقود** ﴾ بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها ، ﴿ **وذات الوقود**﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة . والوقود : الحطب الذى توقد به . وقيل : هو بدل كل من كل ، لا بدل اشتمال . وقيل : إن النار مخفوضة على الجوار ، كذا حكى مكى عن الكوفيين . وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم بضمها ، وقرأ أشهب العقيلى وأبو حيوة وأبو السماك العدوى وابن السميفع وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هى النار ، أو على أنها فاعل فعل محذوف ، أى أحرقتهم النار . ﴿ **إذ هم عليها قعود** ﴾ العامل فى الظرف قتل ، أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ، ويقرب إليها . قال مقاتل : يعنى: عند النار قعود يعرضونهم على الكفر ، وقال مجاهد : كانوا قعودا على الكراسى عند الأخدود . ﴿ **وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾ أى الذين خدّوا الأخدود ، وهم الملك وأصحابه ، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود ، أى حضور ، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به . وقيل : يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .وقيل :«على» بمعنى مع ، والتقدير : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود . قال الزجاج : أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى الله . ﴿ **وما نقموا منهم** ﴾ أى ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ **إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ أى إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود فى كل حال . قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنبًا إلا إيمانهم ، وهذا كقوله : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة : ٥٩] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قوله :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم … يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر :

ولا عيب فيهم غير شكلة عينهـا كذاك عتاق الطير شكلا عيونهـا

قرأ الجمهور : ﴿ نـقموا ﴾ بفتح النون ، وقرأ أبو حيوة بكسرها ، والفصيح الفتح . ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم والفخامة فقال: ﴿ **الذى له ملك السموات والأرض** ﴾ ومن كان هذا شأنه ، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد. ﴿ **والله على كل شيء شهيد** ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منه خافية ، وفى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين . ثم بين سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ أى حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فـتـنت الشيء ، أى أحرقته ، وفتنت الدرهم والدينار : إذا أدخلته النار لتنظر جودته . ويقال : دينار مفتون ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله : ﴿ **يوم هم على النار يفتنون** ﴾ [الذاريات : ١٣] أى يحرقون . وقيل : معنى ﴿ **فتنوا المؤمنين** ﴾ : محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه ﴿ **ثم لم يتوبوا** ﴾ من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ، ﴿ **فلهم عذاب جهنم** ﴾ أى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ، والجملة فى محل رفع على أنها خبر إن ، أو الخبر لهم ، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، ولا يضرّ نسخه بأنّ خلافا للأخفش ، ولهم عذاب الحريق ، أى ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذى وقع منهم للمؤمنين. وقيل : إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير . وقيل : إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق ، فالأوّل عذاب ببردها . والثانى عذاب بحرّها . وقال الربيع بن أنس : إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبى .

ثم ذكر سبحانه ما أعد للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ وظاهر الآية العموم ، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوّليا ،والمعنى: أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ **لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة . وقد تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه الله لهم ، أى ذلك المذكور ﴿ **الفوز الكبير** ﴾ الذى لا يعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز: الظفر بالمطلوب . وجملة: ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ مستأنفة لخطاب النبىّ ﷺ مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه ، أى أخذه للجبابرة والظلمة شديد .

والبطش : الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم ، ومثل هذا قوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود : ١٠٢] ﴿ **إنه هو يبدئ ويعيد** ﴾ أى يخلق الخلق أولاً فى الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت . كذا قال الجمهور. وقيل : يبدئ للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة ، واختار هذا ابن جرير ، والأوّل أولى. ﴿ **وهو الغفور الودود** ﴾ أى بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه . قال مجاهد : الوادّ لأوليائه ، فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : معنى الودود الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له وأنشد :

وأركب فى الروع عريانة ذلول الجناح لقاحًا ودودًا

أى لا ولد لها تحنّ إليه . وقيل : الودود بمعنى المودود ، أى يودّه عباده الصالحون ويحبونه ، كذا قال الأزهرى . قال: ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل ، أى يكون محبا لهم. قال : وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه . قرأ الجمهور : ﴿ **ذو العرش المجيد** ﴾ برفع المجيد على أنه نعت لـ ﴿ **ذو** ﴾ ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم قالا : لأن المجد هو النهاية فى الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك ، وقرأ الكوفيون إلا عاصمًا بالجر على أنه نعت للعرش . وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون . وقيل : هو نعت لربك ، ولا يضرّ الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه ، وقال مكى : هو خبر بعد خبر ، والأول أولى ، ومعنى ﴿ **ذو العرش** ﴾: ذو الملك والسلطان كما يقال : فلان على سرير ملكه ، ومنه قول الشاعر :

رأوا عرشى تثلم جانباه فلما أن تثلم أفردونى

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل : المراد : خالق العرش . ﴿ **فعال لما يريد** ﴾ أى من الإبداء والإعادة . قال عطاء : لا يعجز عن شىء يريده ولا يمتنع منه شىء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ، لأنه نكرة محضة. قال ابن جرير: رفع فعال ، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور الودود ، وإنما قال : ﴿**فعال**﴾ لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة . ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال : ﴿ **هل أتاك حديث الجنود** ﴾ والجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم من شدّة بطشه سبحانه وكونه فعالا لما يريده ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ ، أى هل أتاك يامحمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها . ثم بينهم فقال : ﴿ **فرعون وثمود** ﴾ وهو بدل من الجنود ، والمراد بفرعون : هو وقومه ، والمراد بثمود :

القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم: ما وقع منهم من الكفر والعناد وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكرّر فى الكتاب العزيز ذكرها فى غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب وعند مشركى العرب ودلّ بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين فى عصره ﷺ لمن تقدّم ذكره وبين أنهم أشد منهم فى الكفر والتكذيب فقال : ﴿ **بل الذين كفروا فى تكذيب** ﴾ أى بل هؤلاء المشركون من العرب فى تكذيب شديد لك ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار ﴿ **والله من ورائهم محيط** ﴾ أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك ، والإحاطة بالشىء : الحصر له من جميع جوانبه ، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط . ثم ردّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال : ﴿ **بل هو قرآن مجيد** ﴾ أى متناه فى الشرف والكرم والبركة لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا ، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر ﴿**فى لوح محفوظ** ﴾ أى مكتوب فى لوح ، وهو أمّ الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه . قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح ،وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن ، أى بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح ، واتفق القراء على فتح اللام من ﴿ **لوح** ﴾ إلا يحيى بن يعمر وابن السميفع فإنهما قرآ بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش . قيل : والمراد باللوح بضم اللام : الهواء الذى فوق السماء السابعة . قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام : الهواء ، وكذا قال ابن خالويه . قال فى الصحاح : اللوح بالضم : الهواء بين السماء والأرض .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ **البروج** ﴾ : قصور فى السماء [(١)] . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبىّ ﷺ سئل عن ﴿ **السماء ذات البروج** ﴾ فقال: «الكواكب » ، وسئل عن قوله : ﴿ الذى جعل فى السماء بروجا ﴾ [الفرقان : ٦١] قال : «الكواكب » ، وعن قوله : ﴿ فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] قال : «القصور » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **واليوم الموعود . وشاهد ومشهود** ﴾ قال: اليوم الموعود : يوم القيامة ، والشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيدا لمحمد وأمته وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله ، وأحب الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه. وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة ، واليوم المشهود : يوم عرفة ، والشاهد : يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ

(١) ابن جرير ٣٠ / ٨١ .

من شيء إلا أعاذه منه » (١) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة رفعه : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : « الشاهد : يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود : هو الموعود يوم القيامة » (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : اليوم الموعود : يوم القيامة ، والمشهود : يوم النحر ، والشاهد: يوم الجمعة .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ: « اليوم الموعود : يوم القيامة ، والشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » (٣) . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية « الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبى هريرة مثله موقوفا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب (٤) . وأخرج ابن ماجة والطبرانى وابن جرير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود ، تشهده الملائكة » (٥) .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية قال : الشاهد : يوم الجمعة والمشهود : يوم عرفة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علىّ أن رجلا سأله عن قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : هل سألت أحدا قبلى ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . قال : لا ولكن الشاهد : محمد ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] والمشهود : يوم القيامة ثم قرأ : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : ١٠٣]. وأخرج عبد بن حميد ، والطبرانى فى الأوسط والصغير ، وابن مردويه عن الحسن ابن علىّ فى الآية قال : الشاهد : جدّى رسول الله ﷺ .والمشهود :يوم القيامة ، ثم تلا : ﴿إنا أرسلناك شاهدا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى الدنيا والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : اليوم الموعود : يوم القيامة والشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم القيامة ،

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٣٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٣ / ٨٣ والبيهقى فى الجمعة ٣ / ١٧٠ .

(٢) صحيح الحاكم ٢ / ٥١٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الجمعة ٣ / ١٧٠ .

(٣) ابن جرير ٣٠ / ٨٣ والطبرانى (٣٤٥٨) .

(٤) ابن جرير ٣٠ / ٨٣ .

(٥) ابن ماجة فى الجنائز (١٦٣٧) وفى الزوائد:«هذا الحديث صحيح إلا أنه منقطع فى موضعين ، لأن عبادة روايته عن أبى الدرداء مرسلة قاله العلاء ، وزيد بن أيمن عن عبادة مرسلة ، قاله البخارى » وابن جرير ٣٠ / ٨٤ .

ثم تلا : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ . وأخرج ابن جرير عنه قال : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة .وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الشاهد : الله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الشاهد: الله ، والمشهود : يوم القيامة .

قلت : وهذه التفاسير عن الصحابة رضى الله عنهم قد اختلفت كما ترى ، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم واستدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد والمشهود فى هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين فى هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذى ذكر فى آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل بذلك . فإن قلت : هل فى المرفوع الذى ذكرته من حديثى أبى هريرة ، وحديث أبى مالك ، وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود ؟ قلت:أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها ، بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم الجمعة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة ، وفى حديث جبير أنه يوم الجمعة ، وفى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة ، فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضرّ زيادة يوم عرفة عليه فى حديث أبى هريرة الثانى ، وأما المشهود ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم عرفة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم القيامة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم عرفة، وفى حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة ، وكذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهى أرجح من تلك الرواية التى صرح فيها بأنه يوم القيامة . فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدّمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى والطبرانى [(١)] عن صهيب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم كان لذلك الملك كاهن يكهن له ، فقال له ذلك الكاهن : انظروا لى غلاما فهما ـ أو قال : فطنا لقنا فأعلمه علمى ، فإنى أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه ـ قال ـ : فنظروا له على ما وصف ، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة ، فجعل الغلام يسأل

---

(١) عبد الرزاق (٩٧٥١) وأحمد ٦ / ١٥ ومسلم فى الزهد والرقائق (٣٠٠٥ / ٧٣) والترمذى فى التفسير (٣٣٤٠) والنسائى فى التفسير (٦٨١) والطبرانى (٧٣١٩) .

ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ويبطئ على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب: إذا قال لك : أين كنت ؟ فقل : عند أهلى ، وإذا قال لك أهلك : أين كنت ؟ فأخبرهم أنى كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة ــ يقال : إنها كانت أسدا ــ فأخذ الغلام حجرا فقال : اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتل هذه الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها ثم رمى فقتل الدابة ، فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا : الغلام ، ففزع الناس وقالوا : قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له : إن أنت رددت علىّ بصرى فلك كذا وكذا ، فقال الغلام : لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذى ردّه عليك ؟ قال : نعم ، فدعا الله فردّ عليه بصره فآمن الأعمى ، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذى كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله ، وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه ، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذى أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردّون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك : إنك لن تقتلنى حتى تصلبنى وترمينى وتقول إذا رميتنى : بسم الله ربّ الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال: بسم الله ربّ الغلام ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد ، فإنا نؤمن بربّ هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال : فخد أخدودا ثم ألقى فيه الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه فى هذه النار ، فجعل يلقيهم فى تلك الأخدود ــ فقال : يقول الله : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود** ﴾ ــ حتى بلغ ــ ﴿ **العزيز الحميد** ﴾ . فأما الغلام فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل » .

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف ، وقد رواها مسلم فى أواخر الصحيح عن هدبة ابن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب . وأخرج أحمد من طريق عفان عن حماد به . وأخرجها النسائى عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذى عن محمود بن غيلان ، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به.

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: ﴿ **أصحاب الأخدود** ﴾ قال : هم الحبشة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدودا فى الأرض أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعرضوا عليها. وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ قال : هذا قسم على ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ إلى آخرها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنه هو يبدئ ويعيد** ﴾ قال : يبدئ العذاب ويعيده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الودود** ﴾ قال : الحبيب ، وفى قوله : ﴿ **ذو العرش المجيد** ﴾ قال : الكريم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فى لوح محفوظ** ﴾ قال : أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر ، وإن ذلك اللوح من نور ، وإنه مسيرة ثلاثمائة سنة . وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله فى قوله : ﴿ **بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ** ﴾ فى جبهة إسرافيل . وأخرج أبو الشيخ ، قال السيوطى: بسند جيد ، عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق : اكتب علمى فى خلقى ، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة .

تفسير سورة الطارق

هى سبع عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والسماء والطارق ﴾ بمكة .وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والطبرانى وابن مردويه عن خالد العدوانى ؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ فى سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصى حين أتاهم يبتغى النصر عندهم ، فسمعه يقرأ: ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها ، قال : فوعيتها فى الجاهلية ، ثم قرأتها فى الإسلام ، قال : فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ، فقرأتها ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، وهو النجم الثاقب كما صرّح به التنزيل. قال الواحدى : قال المفسرون : أقسم الله بالسماء والطارق ، يعنى : الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار ، قال الفرّاء : الطارق : النجم ؛ لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلا فهو طارق . وكذا قال الزجاج والمبرد ، ومنه قول امرئ القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائم محــول

وقوله أيضا :

ألم تريانى كلما جــئت طارقــا ... وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ؟ فقيل : هو زحل . وقيل :

(١) أحمد ٤ / ٣٣٥ والطبرانى (٤١٢٦ ، ٤١٢٧) .

الثريا. وقيل : هو الذى ترمى به الشياطين . وقيل : هو جنس النجم . قال فى الصحاح: ﴿ والطارق﴾ : النجم الذى يقال له . كوكب الصبح ، ومنه قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء ، وأصل الطروق : الدقّ ، فسمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق. وقال قوم: إن الطروق قد يكون نهارا ، والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين ، أى مرتين ، ومنه قوله ﷺ: « أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير » (١) ثم يبن سبحانه ما هو الطارق ، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال : ﴿ **وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب** ﴾ الثاقب : المضىء ، ومنه يقال : ثقب النجم ثقوبا وثقابة : إذا أضاء ، وثقابه ضوؤه ، ومنه قول الشاعر :

أذاع به فى الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى : الطارق يقع على كل ما طرق ليلا ، ولم يكن النبى ﷺ يدرى ما المراد به لو لم يبينه بقوله : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ قال مجاهد : الثاقب : المتوهج . قال سفيان : كل ما فى القرآن ﴿ **وما أدراك** ﴾ فقد أخبره ، وكل شىء قال :﴿ وما يدريك ﴾ لم يخبره به ، وارتفاع قوله : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله كأنه قيل : ماهو ؟ فقيل : هو النجم الثاقب . ﴿ **إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض ، وقد تقدّم فى سورة هود اختلاف القراء فى «لما » فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة ، وما مزيدة ، أى إن الشأن كل نفس لعليها حافظ ، ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا ، أى ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر ، وعاصم وحمزة وقرأ الباقون بالتخفيف . قيل : والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ . وقيل : الحافظ : هو الله عزّ وجلّ . وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح ، ويكفهم عن المفاسد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] وقوله: ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ [الأنعام : ٦١] وقوله : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ [الرعد : ١١] والحافظ على الحقيقة هو الله عزّ وجلّ كما فى قوله : ﴿ فالله خير حافظا ﴾ [يوسف : ٦٥] وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره .

﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق** ﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على

(١) أحمد ٣ / ٤١٩ . وهو جزء من حديث طويل عن عبد الرحمن بن خنبش .

الإنسان أن يتفكر فى مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل : يعنى : المكذب بالبعث ﴿ممّ خلق﴾ من أى شىء خلقه الله ، والمعنى : فلينظر نظر التفكر والاستدلال حتى يعرف أن الذى ابتدأه من نطفة قادر على إعادته . ثم بين سبحانه ذلك فقال : ﴿خلق من ماء دافق﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والماء : هو المنىّ ، والدفق : الصبّ . يقال : دفقت الماء ، أى صببته ، يقال : ماء دافق ، أى مدفوق ، مثل ﴿عيشة راضية﴾ [القارعة : ٧] أى مرضية . قال الفرّاء والأخفش : ﴿ماء دافق﴾ أى مصبوب فى الرحم . قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم كقولهم : سرّ كاتم أى مكتوم ، وهمّ ناصب أى منصوب ، وليل نائم ونحو ذلك . قال الزجاج : من ماء ذى اندفاق ، يقال : دارع وقايس ونابل ، أى ذو درع وقوس ونبل ، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما .

ثم وصف هذا الماء فقال : ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أى صلب الرجل ، وترائب المرأة ، والترائب جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من الماءين. قرأ الجمهور: ﴿يخرج﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ بن أبى عبلة وابن مقسم مبنيا للمفعول ، وفى الصلب ، وهو الظهر ، لغات : قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام . وقرأ اليمانى بفتحهما . ويقال : صالب على وزن قالب ، ومنه قول العباس بن عبد المطلب :

تنقل من صلب إلى رحم

فى أبياته المشهورة فى مدح النبى ﷺ ، وقد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله : ﴿الذين من أصلابكم﴾ [النساء : ٢٣] وقيل : الترائب : ما بين الثديين . وقال الضحاك: ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين . وقال سعيد بن جبير : هى الجيد . وقال مجاهد : ما بين المنكبين والصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى الصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى التراقى ، وحكى الزجاج : أن الترائب عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور فى اللغة أنها عظام الصدر والنحر ، ومنه قول دريد بن الصمة :

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم فى الترائب

قال عكرمة : الترائب الصدر ، وأنشد :

نظـــامُ درّ علـى ترائبهـــا

قال فى الصحاح : التريبة واحدة الترائب . وهى عظام الصدر ــ قال أبو عبيدة : جمع التريبة تريب ، ومنه قول المثقب العبدى :

ومن ذهب يبـين عـلى تـــريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقول امرئ القيس :

ترائبها مصقولة كالسجنجل (١)

وحكى الزجاج: أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر، قال قتادة والحسن : المعنى : ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفرّاء أن مثل هذا يأتى عن العرب يكون معنى ﴿ **من بين الصلب** ﴾ : من الصلب . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ولا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من الصلب والترائب. وقيل : إن المعنى : يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما فى الآية ، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها . ﴿ **إنه على رجعه لقادر**﴾ الضمير فى ﴿ **إنه** ﴾ يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله : ﴿ **خلق** ﴾ عليه ، فإن الذى خلقه هو الله سبحانه ، والضمير فى ﴿ **رجعه** ﴾ عائد إلى الإنسان . والمعنى : أن الله سبحانه على رجع الإنسان ، أى إعادته بالبعث بعد الموت ﴿ **لقادر** ﴾ هكذا قال جماعة من المفسرين : وقال مجاهد : على أن يردّ الماء فى الإحليل . وقال عكرمة والضحاك : على أن يرّد الماء فى الصلب . وقال مقاتل بن حيان: يقول : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر . والأوّل أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبى والقرطبى . ﴿ **يوم تبلى السرائر** ﴾ العامل فى الظرف على التفسير الأوّل هو ﴿ **رجعه** ﴾ . وقيل: ﴿ **لقادر**﴾ . واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم . وقيل : العامل فيه مقدّر ، أى يرجعه يوم تبلى السرائر. وقيل : العامل فيه مقدّر ، وهو اذكر ، فيكون مفعولا به ، وأما على قول من قال : إن المراد رجع الماء ، فالعامل فى الظرف مقدّر ، وهو اذكر ، ومعنى ﴿ **تبلى السرائر** ﴾ : تختبر وتعرف ، ومنه قول الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدرينى فـاليوم أبـلـوك وتبتلـينى

أى أختبرك وتختبرنى ، وأمتحنك وتمتحننى ، والسرائر : ما يسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، والمراد هنا : عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغثّ من السمين ﴿ **فماله من قوة ولا ناصر** ﴾ أى فما للإنسان من قوّة فى نفسه يمتنع بها من عذاب الله ، ولا ناصر ينصره مما نزل به ، وقال عكرمة : هؤلاء الملوك مالهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر . قال سفيان : القوة: العشيرة ، والناصر : الحليف ، والأوّل أولى . ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ الرجع : المطر . قال الزجاج : الرجع : المطر ؛ لأنه يجىء ويرجع ويتكرر ، قال الخليل : الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع . قال أهل اللغة :

---

(١) السجنجل : المرآة أو سبيكة الفضة أو ماء الذهب .

الرجع : المطر ، قال المتنخِّل يصف سيفًا له :

أبيض كالرجع رسوب إذا ... ماباح فى محتفل يختلى

قال الواحدى : الرجع : المطر فى قول جميع المفسرين ، وفى هذا الذى حكاه عن جميع المفسرين نظر ، فإن ابن زيد قال : الرجع : الشمس والقمر والنجوم يرجعن فى السماء تطلع من ناحية وتغيب فى أخرى . وقال بعض المفسرين : ﴿ ذات الرجع ﴾ : ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وقال بعضهم : معنى ﴿ ذات الرجع ﴾ : ذات النفع ، ووجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته ، وكذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمى رجعا . وقيل : إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض . وقيل : سمته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم . وقيل : لأن الله يرجعه وقتا بعد وقت . ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر. والصدع : الشقّ لأنه يصدع الأرض فتنصدع له . قال أبو عبيدة والفرّاء : تتصدّع بالنبات . قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التى تصدعها المياه . وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها . وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث . والحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال : والأرض ذات النبات ، وإن كان المراد به الشق فكأنه قال : والأرض ذات الشق الذى يخرج منه النبات ونحوه ، وجواب القسم قوله : ﴿إنه لقول فصل ﴾ أى إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿وما هو بالهزل ﴾ أى لم ينزل باللعب ، فهو جدّ ليس بالهزل ، والهزل ضدّ الجدّ . قال الكميت :

تجدّبنا فى كل يوم وتهزل

﴿ إنهم يكيدون كيدا ﴾ أى يمكرون فى إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من العرين الحق. قال الزجاج : يخاتلون النبى ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه . ﴿ وأكيد كيدا ﴾ أى أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم .قيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أى أخرهم ،ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وارض بما يدبره لك فى أمورهم ، وقوله : ﴿ أمهلهم ﴾ بدل من مهل ، ومهل وأمهل بمعنى ، مثل نزل وأنزل ، والإمهال : الإنظار ، وتمهل فى الأمر : اتأد ، وانتصاب ﴿ رويدا ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور ، أو نعت لمصدر محذوف ، أى أمهلهم إمهالا رويدا ، أى قريبا أو قليلا . قال أبو عبيدة : والرويد فى كلام العرب تصغير الرود ، وأنشد :

كأنها [ثملٌ] (١) تمشى على رود

أى مهل (٢) . وقيل : تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم ، ويأتى اسم فعل نحو رويد زيدا ، أى أمهله ، ويأتى حالا نحو سار القوم رويدا ، أى متمهلين ، ذكر معنى هذا الجوهرىّ ، والبحث مستوفى فى علم النحو .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ قال : أقسم ربك بالطارق : وكل شىء طرقك بالليل فهو طارق . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ قال : النجم المضىء ﴿ **إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ قال : إلا عليها حافظ.وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ قال: ما بين الجلد والنحر. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : تريبة المرأة وهى موضع القلادة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الترائب بين ثديى المرأة . وأخرج الحاكم وصححه أيضا قال : الترائب أربعة أضلاع من كلّ جانب من أسفل الأضلاع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **إنه على رجعه لقادر** ﴾ قال : على أن يجعل الشيخ شابا والشابّ شيخا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ قال : المطر بعد المطر ﴿**والأرض ذات الصدع** ﴾ قال : صدعها عن النبات . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾ تصدّع الأودية . وأخرج ابن منده والديلمى عن معاذ بن أنس مرفوعا : ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾ قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنه لقول فصل** ﴾ قال :حقّ ،﴿ **وما هو بالهزل** ﴾ قال : بالباطل ، وفى قوله : ﴿ **أمهلهم رويدا** ﴾ قال : قريبا .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والمخطوطة وقد أثبتناه من القرطبى ١٠ / ٧١٠٢ .
(٢) فى المطبوعة : « على مهل » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تفسير سورة الأعلى

ويقال : سورة سبح . هى تسع عشرة آية . وهى مكية فى قول الجمهور .وقال الضحاك : هى مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج البخارى وغيره عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرآننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، ثم جاء النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت: ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فى سور مثلها (١) . وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن على قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾(٢) . أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن ثوير بن أبى فاختة عن أبيه عن على .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأهل السنن عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ ، وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعًا . وفى لفظ : وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما . وفى الباب أحاديث (٣) . وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الظهر بسبح اسم ربك الأعلى (٤) . وأخرج أبو داود والنسائى وابن ماجة والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و﴿ قل هو الله أحد ﴾ (٥) . وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يقرأ فى الوتر فى الركعة الأولى بـ ﴿ **سبح** ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ وفى الثالثة :﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين (٦) . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ ، ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ » (٧) .

---

(١) أحمد ٤ / ٢٨٤ والبخارى فى التفسير (٤٩٤١) . (٢) أحمد ١ / ٩٦ .

(٣) أحمد ٤ / ٢٧١ ومسلم فى الجمعة (٨٧٨ / ٦٢) . (٤) مسلم فى الصلاة (٤٦٠ / ١٧١) .

(٥) أبو داود فى الصلاة (١٤٢٣) والنسائى فى الصلاة ٣ / ٢٤٤ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١١٧١) والدارقطنى ٢ / ٣١ وصححه الحاكم ٢ / ٢٥٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصلاة ٣ / ٣٨ .

(٦) أبو داود فى الصلاة (١٤٢٤) والترمذى فى الصلاة (٤٦٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١١٧٣) وصححه الحاكم ٢ / ٥٢٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصلاة ٣ / ٣٧ .

(٧) البخارى فى الأدب (٦١٠٦) ومسلم فى الصلاة (٤٦٥ / ١٧٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ أى نزهه عن كل مالا يليق به: قال السدى : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ أى عظمه ، قيل : والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، كما فى قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

والمعنى : سبح ربك الأعلى . قال ابن جرير : المعنى : نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون على هذا مقحمة . وقيل : المعنى : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم . وقال الحسن : معنى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ : صل له . وقيل: المعنى: صل بأسماء الله ، لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية . وقيل: المعنى : ارفع صوتك بذكر ربك . ومنه قول جرير :

قبح الإلـه وجوه تغلب كلما ... سبح الحجيج وكبروا تكبيـرا

والأعلى صفه للرب . وقيل : للاسم . والأول أولى . وقوله : ﴿ **الذى خلق فسوى** ﴾ صفة أخرى للرب . قال الزجاج : خلق الإنسان مستويًا . ومعنى سوى : عدل قامته . قال الضحاك : خلقه فسوى خلقه. وقيل : خلق الأجساد فسوى الأفهام . وقيل : خلق الإنسان وهيأه للتكليف . ﴿ **والذى قدر فهدى** ﴾ صفة أخرى للرب ، أو معطوف على الموصول الذى قبله . قرأ على بن أبى طالب ، والكسائى والسلمى: « قدر » مخففًا . وقرأ الباقون بالتشديد . قال الواحدى : قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب ، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها . وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر ، والسعادة والشقاوة . وروى عنه أيضًا أنه قال فى معنى الآية : قدر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيل : قدر أرزاقهم وأقواتهم ، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا ، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : خلق المنافع فى

الأشياء ، وهدى الإنسان أوجه استخراجها منها . وقال السدى : قدر مدة الجنين فى الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم . قال الفراء : أى قدر فهدى ، وأضل، فاكتفى بأحدهما . وفى تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا . والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى ، إلا بدليل يدل عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين ،إما على البدل أو على الشمول .والمعنى: قدر أجناس الأشياء ، وأنواعها ، وصفاتها، وأفعالها ، وأقوالها ، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له ، ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه . ﴿ **والذى أخرج المرعى** ﴾ صفة أخرى للرب، أى: أنبت العشب وما ترعاه النعم من النبات الأخضر . ﴿ **فجعله غثاء أحوى** ﴾ أى فجعله بعد أن كان أخضر غثاء ، أى : هشيمًا جافًا كالغثاء الذى يكون فوق السيل .﴿**أحوى**﴾ أى أسود بعد اخضراره . وذلك أن الكلأ إذا يبس اسود قال قتادة : الغثاء : الشىء اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس : غثاء وهشيم ، قال امرؤ القيس :

كأن ذرى رأس المجيمر وغدوه من السَّيل والأغثاءِ فلْكَة مَغزلِ

وانتصاب ﴿ **غثاء** ﴾ على أنه المفعول الثانى ، أو على الحال ، و ﴿ **أحوى** ﴾ صفة له . وقال الكسائى : هو حال من المرعى ، أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى .﴿ **فجعله غثاء**﴾ بعد ذلك . والأحوى مأخوذ من الحوة ، وهى سواد يضرب إلى الخضرة . قال فى الصحاح : والحوة سمرة الشفة ، ومنه قول ذى الرمة :

لميـاء فى شفتيهــا حـوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ أى سنجعلك قارئًا بأن نلهمك القراءة . فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته ﷺ الخاصة به بعد بيان الهداية العامة . وهى هدايته ﷺ لحفظ القرآن . قال مجاهد والكلبى : كان النبى ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبى ﷺ بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت : ﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ . وقوله : ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى لا تنسى مما تقرؤه شيئًا من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه . قال الفراء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ شيئًا كقوله : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : ٧] . وقيل : إلا ما شاء الله أن تنسى ، ثم تذكر بعد ذلك ، فإذن قد نسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئًا نسيانًا كليًا . وقيل : بمعنى النسخ ، أى إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته . وقيل : معنى ﴿ **فلا تنسى** ﴾ : فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه . وقيل : المعنى : إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل : « لا » فى قوله : ﴿ **فلا تنسى** ﴾ للنهى . والألف مزيدة لرعاية الفاصلة كما فى قوله : ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ [الأحزاب : ٦٧] يعنى

فلا تغفل قراءته وتذكره . ﴿ **إنه يعلم الجهر وما يخفى** ﴾ الجملة تعليل لما قلبها ، أى يعلم ما ظهر وما بطن ، والإعلان والإسرار . وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل : إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن . وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضًا ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة ، وما يخفى هو إخفاؤها ، ويدخل تحته أيضًا ما قيل : إن الجهر جهره ﷺ بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما فى نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

﴿ **ونيسرك لليسرى** ﴾ معطوف على ﴿ **سنقرئك** ﴾ ، وما بينهما اعتراض . قال مقاتل : أى نهون عليك عمل الجنة . وقيل : نوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل . وقيل : للشريعة اليسرى . وهى الحنيفية السهلة . وقيل : نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعمل به . والأولى حمل الآية على العموم ، أى نوفقك للطريقة اليسرى فى الدين والدنيا ، فى كل أمر من أمورها التى تتوجه إليك . ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى** ﴾ أى عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير ، واهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر . قال الواحدى : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبى ﷺ بعث مبلغًا للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله : ﴿سرابيل تقيكم الحر ﴾ الآية [النحل : ٨١] . قال الجرجانى: التذكير واجب وإن لم ينفع . فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع . وقيل : إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم . وقيل : «إن » بمعنى « ما » ، أى فذكر ما نفعت الذكرى . لأن الذكرى نافعة بكل حال . وقيل : إنها بمعنى « قد » . وقيل : إنها بمعنى « إذ » . وما قال الواحدى والجرجانى أولى . وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس . قال الرازى : إن قوله : ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ للتنبيه على أشرف الحالين ، وهو وجود النفع الذى لأجله شرعت الذكرى ، والمعلق بإن على شىء لا يلزم أن يكون عدمًا عند عدم ذلك الشىء . ويدل عليه آيات منها الآية . ومنها قوله تعالى : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [البقرة : ١٧٢] . ومنها قوله : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ﴾ [النساء : ١٠١] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه . ومنها قوله : ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ [البقرة : ٢٣٠] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن . فهذا الشرط فيه فوائد . منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الرجل لمن يرشده : قد أوضحت لك إن كنت تعقل . وهو تنبيه للنبى ﷺ على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا فى تكرير الدعوة . فأما الدعاء الأول فعام . انتهى .

ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال : ﴿ **سيذكر من يخشى** ﴾

أى سيتعظ بوعظك من يخشى الله ، فيزداد بالتذكير خشية وصلاحًا . ﴿ **ويتجنبها الأشقى** ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه فى معاصيه . ثم وصف الأشقى فقال : ﴿ **الذى يصلى النار الكبرى** ﴾ أى العظيمة الفظيعة ، لأنها أشد حرًا من غيرها . قال الحسن : ﴿ **النار الكبرى** ﴾ : نار جهنم . والنار الصغرى : نار الدنيا . وقال الزجاج : هى السفلى من أطباق النار . ﴿ **ثم لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾ أى لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم

و « ثم » للتراخى فى مراتب الشدة ، لأن التردد بين الموت والحياة أفظع من صلى النار الكبرى . ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ أى من تطهر من الشرك فآمن بالله ووحده وعمل بشرائعه . قال عطاء ، والربيع : من كان عمله ذاكيًا ناميًا . وقال قتادة : تزكى بعمل صالح . قال قتادة وعطاء وأبو العالية : نزلت فى صدقة الفطر . قال عكرمة : كان الرجل يقول : أقدم زكاتى بين يدى صلاتى . وأصل الزكاة فى اللغة : النماء. وقيل : المراد بالآية : زكاة الأموال كلها . وقيل : المراد بها زكاة الأعمال ، لا زكاة الأموال ، لأن الأكثر أن يقال فى الأموال : زكى لا تزكى . ﴿ **وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ قيل : المعنى : ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له . وقيل : ذكر اسم ربه بلسانه فصلى ، أى فأقام الصلوات الخمس . وقيل : ذكر موقفه ومعاده فعبده . وهو كالقول الأول . وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير فى أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ، وهو قوله : الله أكبر . وقيل : ذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى . وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة . وقيل : المراد بالصلاة هنا : صلاة العيد . كما أن المراد بالتزكى فى الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بُعد هذا القول لأن السورة مكية ، ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة .

﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق ، أى لا تفعلون ذلك ، بل تؤثرون اللذات الفانية فى الدنيا . قرأ الجمهور: ﴿ **تؤثرون** ﴾ بالفوقية على الخطاب. ويؤيدها قراءة أبىّ : « بل أنتم تؤثرون » . وقرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة . وقيل : المراد بالآية : الكفرة . والمراد بإيثار الحياة الدنيا : هو الرضا بها والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخرة بالكلية . وقيل : المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر . والمراد بإيثارها : ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتمامًا زائدًا على اهتمامه بالطاعات . وجملة : ﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون، أى والحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل وأدوم من الدنيا . قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف

يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى ؟

والإشارة بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده . وقيل : إنه إشارة إلى جميع السورة . ومعنى ﴿ **لفى الصحف الأولى** ﴾ أى ثابت فيها . وقوله: ﴿ **صحف إبراهيم وموسى** ﴾ بدل من الصحف الأولى . قال قتادة وابن زيد : يريد بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ والآخرة خير وأبقى . وقالا : تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لفى الصحف الأولى ، وهو قوله : ﴿ **قد أفلح** ﴾ إلى آخر السورة قرأ الجمهور : ﴿ **لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم** ﴾ بضم الحاء فى الموضعين . وقرأ الأعمش ، وهارون ، وأبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما . وقرأ الجمهور ﴿ **إبراهيم** ﴾ بالألف بعد الراء ، وبالياء بعد الهاء . وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء . وقرأ أبو موسى وابن الزبير : « إبراهام » بألفين .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : ٧٤] ، قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ ، قال : « اجعلوها فى سجودكم » . ولا مطعن فى إسناده (١) . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال : « سبحان ربى الأعلى » (٢) . قال أبو داود : خولف فيه وكيع ، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفًا . وأخرجه موقوفًا أيضًا عبد الرزاق وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا قرأ :﴿ **سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: «سبحان ربى الأعلى». وفى لفظ لعبد بن حميد عنه قال: إذا قرأت: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ فقل : سبحان ربى الأعلى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن على بن أبى طالب أنه قرأ : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى ، وهو فى الصلاة ، فقيل له: أتزيد فى القرآن ؟ قال: لا ، إنما أمرنا بشىء فقلته. وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبى موسى الأشعرى ؛ أنه قرأ في الجمعة بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن

---

(١) أحمد ٤ / ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٧) .

(٢) أحمد ١ / ٢٣٢ وأبو داود فى الصلاة (٨٨٣) والطبرانى (١٢٣٣٥) والبيهقى ٢ / ٣١٠ .

سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى . وكذلك هى فى قراءة أبى بن كعب . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر أنه قال : إذا قرأ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال : سبحان ربى الأعلى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير ؛ أنه قرأ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال: سبحان ربى الأعلى ، وهو فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فجعله غثاء** ﴾ قال : هشيمًا ﴿ **أحوى** ﴾ ، قال : متغيرًا . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبى ﷺ يستذكر القرآن مخافة أن ينسى ، فقيل له : قد كفيناك ذلك ، ونزلت: ﴿ **سنقرئك فلا تنسى**﴾. وأخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ يقول : إلا ما شئت أنا فأنسيك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **ونيسرك لليسرى** ﴾ قال : للخير. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ **ونيسرك لليسرى** ﴾ قال: الجنة . وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ قال : «من شهد أن لا إله إلا الله ، وقطع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله» . ﴿**وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ قال:« هى الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها ». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ قال : من الشرك ﴿ **وذكر اسم ربه** ﴾ قال : وحد الله ﴿ **فصلى** ﴾ قال : الصلوات الخمس . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ قال : من قال : لا إله إلا الله . وأخرج البزار ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن كثير بن عبد الله ابن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ ؛ أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد ، ويتلو هذه الآية : ﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ (١) . وفى لفظ قال : سئل النبى ﷺ عن زكاة الفطر فقال : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ قال : « هى زكاة الفطر » . وكثير بن عبد الله ضعيف جدًا . قال فيه أبو داود : هو ركن من أركان الكذب . وقد صحح الترمذى حديثًا من طريقه ، وخطئ فى ذلك ، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر » . وليس فى هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول ، بل فيهما أنه ﷺ تلا الآية ، وقوله : «هى زكاة الفطر » يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكى ، وقد قدمنا أن السورة مكية ، ولم تكن فى مكة صلاة عيد ولا فطر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى سعيد الخدرى :

(١) البزار (٩٠٥) والبيهقى فى الزكاة ٤ / ١٥٩ .

﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ ، قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد . ﴿ **وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ قال : خرج إلى العيد وصلى . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عمر قال : إنما أنزلت هذه الآية فى إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد (١) : ﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : قلت لابن عباس : أرأيت قوله : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ للفطر ؟ قال : لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها . ثم عاودته فقال لى : والصدقات كلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عرفجة الثقفى قال: استقرأت ابن مسعود : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فلما بلغ: ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنَّا رأينا زينتها ، ونساءها ، وطعامها ، وشرابها ،وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل ، وتركنا الآجل.وقال : « بل يؤثرون الحياة الدنيا » بالياء . وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هى كلها فى صحف إبراهيم وموسى » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية ، قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى . وفى لفظ : هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم أنزل الله من كتاب ؟ قال :« مائة كتاب وأربعة كتب . . . » الحديث.

(١) البيهقى فى الزكاة ٤ / ١٥٩ .

تفسير سورة الغاشية

هى ست وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ قال جماعة من المفسرين : هل هنا بمعنى قد . وبه قال قطرب ، أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، وهى القيامة ؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها . وقيل : إن بقاء « هل » هنا على معناها الاستفهامى المتضمن للتعجيب بما فى خبره، والتشويق إلى استماعه أولى . وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا : القيامة أكثرُ المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : الغاشية : النار . تغشى وجوه الكفار كما فى قوله : ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم : ٥٠] وقيل : الغاشية : أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها . والأول أولى . قال الكلبى : المعنى : إن لم يكن أتاك حديث الغاشية ، فقد أتاك . ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل: ما هو ؟ أو مستأنفة استئنافًا نحويًا لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة. ووجوه مرتفع على الابتداء ، وإن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل . وقد تقدم

(١) سبق تخريجه .

مثل هذا فى سورة القيامة ، وفى سورة النازعات . والتنوين فى ﴿يومئذ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أى يوم غشيان الغاشية . والخاشعة : الذليلة الخاضعة . وكل متضائل ساكن يقال له:خاشع . يقال : خشع الصوت : إذا خفى ، وخشع فى صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه ، والمراد بالوجوه هنا : أصحابها . قال مقاتل : يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله . قال قتادة وابن زيد : خاشعة فى النار . وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص . والأول أولى .

قوله : ﴿عاملة ناصبة ﴾ : معنى ﴿عاملة ﴾ : أنها تعمل عملاً شاقًا . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : عمل يعمل عملاً . ويقال للسحاب إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملاً . قيل : وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار . ﴿ ناصبة ﴾أى تعبة . يقال : نصب بالكسر ينصب نصبًا إذا تعب . والمعنى : أنها فى الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله . وقيل : إن قوله: ﴿عاملة ﴾ فى الدنيا ، إذ لا عمل فى الآخرة ، أى تعمل فى الدنيا بالكفر والمعاصى وتنصب فى ذلك . وقيل : إنها عاملة فى الدنيا ، ناصبة فى الآخرة. والأول أولى . قال قتادة : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ : تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله ، وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة فى العرصات ﴿فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : ٤] قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب ، فأعملها وأنصبها فى جهنم . قال الكلبى : يجرون على وجوههم فى النار . وقال أيضًا : يكلفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل. قرأ الجمهور : ﴿ عاملة ناصبة﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ ، أو على تقدير مبتدأ ، وهما خبران له . وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد وابن كثير فى رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم . وقوله : ﴿تصلى نارا حامية﴾ خبر آخر للمبتدأ ، أى تدخل نارًا متناهية فى الحر . يقال : حمى النهار ، وحمى التنور ، أى اشتد حرهما . قال الكسائى : يقال : اشتد حمى النهار وحموه بمعنى . قرأ الجمهور : « تصلى » بفتح التاء مبنيًا للفاعل . وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمها مبنيًا للمفعول . وقرأ أبو رجاء بضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام . والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات . والمراد أصحابها كما تقدم . وهكذا الضمير ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ والمراد بالعين الآنية : المتناهية فى الحر . والآنى الذى قد انتهى حره ، من الإيناء بمعنى التأخر يقال: آناه يؤنيه إيناء ، أى أخره وحبسه كما فى قوله: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن : ٤٤] قال الواحدى : قال المفسرون : لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا ، لذابت .

ولما ذكر سبحانه شرابهم ، عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾،

هو نوع من الشوك يقال له: الشبرق فى لسان قريش إذا كان رطبًا ، فإذا يبس ، فهو الضريع كذا قال مجاهد وقتادة، وغيرهما من المفسرين . قيل : وهو سم قاتل . وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه . وقيل : هو شيء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس ، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع وهلكت هزالاً . قال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح ، يرمى به البحر ، وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول . ومنه قول أبى ذؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعًا بان عنه التحايص

وقال الهذلى ، يذكر إبلاً وسوء مرعاها :

وحبسن فى هَزْم الضريع وكلها قرناء دامية اليدين جرود

وقال سعيد بن جبير : الضريع : الحجارة . وقيل : هو شجرة فى نار جهنم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمى بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله فى أن يعض عنه لكراهته وخشونته . قال النحاس : قد يكون مشتقًا من الضارع وهو الذليل ، أى من شربه يلحقه ضراعة وذلة . وقال الحسن أيضًا : هو الزقوم . وقيل : هو واد فى جهنم . وقد تقدم فى سورة الحاقة : ﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين ﴾ [الحاقة : ٣٥، ٣٦] : والغسلين غير الضريع كما تقدم . وجمع بين الآيتين بأن النار دركات . فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين . ثم وصف سبحانه الضريع فقال: ﴿ **لا يسمن ولا يغنى من جوع** ﴾ أى لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع . قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية ، قال المشركون: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت : ﴿ **لا يسمن ولا يغنى من جوع** ﴾ وكذبوا فى قولهم هذا ، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع .

ثم شرع سبحانه فى بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار ، فقال : ﴿**وجوه يومئذ ناعمة**﴾ أى ذات نعمة وبهجة . وهى وجوه المؤمنين : صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم ، وما أعده الله لهم من الخير الذى يفوق الوصف . ومثله قوله : ﴿تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين : ٢٤] ثم قال : ﴿**لسعيها راضية**﴾ أى لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها . والمراد بالوجوه هنا : أصحابها ، كما تقدم . ﴿**فى جنة عالية**﴾ أى عالية المكان ، مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، أو عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . ﴿**لا تسمع فيها لاغية**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**لا تسمع**﴾ بفتح الفوقية ونصب ﴿**لاغية**﴾ أى لا تسمع أنت أيها المخاطب ، أو لا تسمع تلك الوجوه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية مضمومة مبنيًا للمفعول ورفع ﴿**لاغية**﴾ وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنيًا للمفعول ، ورفع ﴿**لاغية**﴾ ، وقرأ الفضل والجحدرى

بفتح التحتية مبنيًا للفاعل ، ونصب ﴿لاغية﴾. واللغو: الكلام الساقط . قال الفراء والأخفش: أى لا تسمع فيها كلمة لغو . قيل : المراد بذلك : الكذب ، والبهتان ، والكفر . قاله قتادة . وقال مجاهد : أى الشتم . وقال الفراء : لا تسمع فيها حالفًا يحلف بكذب . وقال الكلبى : لا تسمع فى الجنة حالفًا بيمين برة ولا فاجرة . وقال الفراء أيضًا : لا تسمع فى كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم . وهذا أرجح الأقوال ؛ لأن النكرة فى سياق النفى من صيغ العموم . ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص . و﴿ لاغية ﴾ إما صفة موصوف محذوف، أى كلمة لاغية أو نفس لاغية ، أو مصدر ، أى لا تسمع فيها لغوًا .

﴿ فيها عين جارية ﴾ قد تقدم فى سورة الإنسان أن فيها عيونًا . والعين هنا بمعنى العيون كما فى قوله ﴿علمت نفس﴾ [التكوير : ١٨] ومعنى ﴿ جارية ﴾ أنها تجرى مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة . قال الكلبى : لا أدرى بماء أو بغيره . ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أى عالية مرتفعة السمك ، أو عالية القدر . ﴿وأكواب موضوعة﴾ قد تقدم أن الأكواب جمع كوب وأنه القدح الذى لا عروة له . ومعنى ﴿موضوعة﴾ : أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها . ﴿ونمارق مصفوفة ﴾ النمارق : الوسائد . قال الواحدى : فى قول الجميع: واحدتها نُمرقة بضم النون . وزاد الفراء سماعًا عن العرب : نِمرقة بكسرها. قال الكلبى : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض ، ومنه قول الشاعر :

وإنا لنجرى الكأس بين شروبنا وبين أبى قابوس فوق النمارق

وقال الآخر :

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

قال فى الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة ، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب . ﴿ وزرابى مبثوثة ﴾ يعنى : البسط . واحدها زربى وزربية . قال أبو عبيدة والفراء: الزرابى : الطنافس التى لها خمل رقيق . واحدها زربية . والمبثوثة : المبسوطة ، قاله قتادة. وقال عكرمة : بعضها فوق بعض . قال الواحدى : ويجوز أن يكون المعنى : أنها مفرقة فى المجالس . وبه قال القتيبى . وقال الفراء : معنى ﴿ مبثوثة ﴾ : كثيرة . والظاهر أن معنى البث : التفرق مع كثرة . ومنه : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كما فى نظائره مما مر غير مرة . والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه. وكذا ما بعدها . و ﴿ كيف ﴾ منصوبة بما بعدها ، والجملة فى محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل . والمعنى : أينكرون أمر البعث ، ويستبعدون وقوعه ؟! أفلا ينظرون إلى الإبل التى هى غالب مواشيهم، وأكثر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ كيف خلقت ﴾ على ما هى عليه من

الخلق البديع ، من عظم جثتها ، ومزيد قوتها ، وبديع أوصافها ؟ قال أبو عمرو بن العلاء : إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع ، تبرك فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم . قال الزجاج : نبههم على عظيم من خلقه ، قد ذلله للصغير يقوده ، وينيخه ، وينهضه ، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك فى شىء من الحوامل غيره. فأراهم عظيمًا من خلقه ليدل بذلك على توحيده . وسئل الحسن عن هذه الآية ، وقيل له : الفيل أعظم فى الأعجوبة؟ فقال : أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به . ثم هو خنزير لا يركب ظهره ، ولا يؤكل لحمه ، ولا يحلب دره . والإبل من أعز مال العرب وأنفسه ، تأكل النوى ، والقت، وتخرج اللبن . ويأخذ الصبى بزمامها ، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها. وقال المبرد : الإبل هنا : هى القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة . وروى عن الأصمعى أنه قال : من قرأ **﴿خلقت﴾** بالتخفيف ، عنى به البعير . ومن قرأ بالتشديد ، عنى به السحاب . **﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾** أى رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل . وقيل: رفعت فلا ينالها شىء . **﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾** على الأرض مرساة راسخة لا تميد، ولا تميل ، ولا تزول . **﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾** أى بسطت . والسطح : بسط الشىء. يقال لظهر البيت إذا كان مستويًا : سطح . قرأ الجمهور : **﴿ سطحت ﴾** مبنيًا للمفعول مخففًا . وقرأ الحسن بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب وابن السميفع ، وأبو العالية: «خلقت» و« رفعت » و« نصبت » و« سطحت » على البناء للفاعل ، وضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالتذكير فقال : **﴿ فذكر ﴾** . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى فعظهم يا محمد وخوفهم . ثم علل الأمر بالتذكير فقال : **﴿ إنما أنت مذكر﴾** أى ليس عليك إلا ذلك . و**﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾** المصيطر والمسيطر بالسين والصاد : المسلط على الشىء ليشرف عليه ويتعهد أحواله . كذا فى الصحاح ، أى لست عليهم بمصيطر حتى تكرههم على الإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . قرأ الجمهور: **﴿بمصيطر﴾** بالصاد . وقرأ هشام وقنبل فى رواية بالسين . وقرأ خلف بإشمام الصاد زايًا . وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول . **﴿ إلا من تولى وكفرّ﴾** هذا استثناء منقطع، أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . **﴿فيعذبه الله العذاب الأكبرّ ﴾** وهو عذاب جهنم الدائم. وقيل: هو استثناء متصل من قوله : **﴿فذكر﴾** أى فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه ، وتولى فاستحق العذاب الأكبر . والأول أولى . وإنما قال : **﴿ الأكبر﴾** لأنهم قد عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر . وقرأ ابن مسعود:« فإنه يعذبه الله » . وقرأ ابن عباس وقتادة : **﴿إلا من تولى وكفر﴾** على أنها « إلا » التى للتنبيه والاستفتاح . **﴿ إن إلينا إيابهم ﴾** أى رجوعهم بعد الموت . يقال : آب يؤوب: إذا رجع ، ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور : ﴿ **إيابهم** ﴾ بالتخفيف . وقرأ جعفر وشيبة بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . قال الواحدى: وأما « إيابهم » بتشديد الياء ، فإنه شاذ ، لم يجزه أحد غير الزجاج . ﴿ **ثم إن علينا حسابهم** ﴾ يعنى: جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث . و« ثم » للتراخى فى الرتبة لبعد منزلة الحساب فى الشدة عن منزلة الإياب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الغاشية من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ قال :الساعة . ﴿**وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة** ﴾ قال : تعمل وتنصب فى النار ﴿ **تسقى من عين آنية** ﴾ قال: هى التى قد طال أنيها . ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ قال : الشبرق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة** ﴾ قال : يعنى : اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها . ﴿ **تسقى من عين آنية** ﴾ قال: قد أنى غليانها . وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **تصلى نارا حامية** ﴾ قال : حارة . ﴿**تسقى من عين آنية** ﴾ قال: انتهى حرها ، ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ يقول : من شجر من نار. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضًا : ﴿ **إلا من ضريع** ﴾ قال: الشبرق اليابس .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ **لا تسمع فيها لاغية** ﴾ يقول: لا تسمع أذى ولا باطل. وفى قوله : ﴿**فيها سرر مرفوعة** ﴾ قال : بعضها فوق بعض . ﴿ **ونمارق** ﴾ قال : مجالس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **ونمارق** ﴾ قال: المرافق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **لست عليهم بمصيطر**﴾ قال : جبار . ﴿**إلا من تولى وكفر**﴾ قال : حسابه على الله . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضًا : ﴿**لست عليهم بمصيطر**﴾ ثم نسخ ذلك فقال : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة: ٥] وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **إن علينا إيابهم** ﴾ قال: مرجعهم .

تفسير سورة الفجر

هى ثلاثون آية . وقيل : تسع وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس ، والنحاس فى ناسخه ، وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والفجر﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج النسائى عن جابر قال: صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطول ، فصلى فى ناحية المسجد ، ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذ ، فقال : منافق. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى فطول علىّ ، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى ، فقال رسول اللّه ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ والفجر ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾» (١) .

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⑧ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭ ﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء ، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته . واختلف فى الفجر الذى أقسم الله به هنا ، فقيل : هو الوقت المعروف . وسمى فجرًا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم . وقال قتادة : إنه فجر أول يوم من شهر محرم ؛ لأن منه تتفجر السنة . وقال مجاهد : يريد يوم النحر . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة، لأن الله قرن الأيام به فقال: ﴿ **وليال عشر** ﴾ أى ليالى عشر من ذى الحجة . وبه قال السدى والكلبى. وقيل : المعنى : وصلاة الفجر ، أو رب الفجر . والأول أولى، وجواب هذا القسم وما بعده وهو قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ كذا قال ابن الأنبارى . وقيل : محذوف لدلالة السياق عليه ، أى ليجازين كل أحد بما عمل ، أو ليعذبن . وقدره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التى قبله ، أى ﴿ **والفجر** ... ﴾ إلخ لإيابهم علينا وحسابهم علينا . وهذا ضعيف جدًا . وأضعف منه قول من قال : إن الجواب قوله : ﴿ **هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ . وأن هل بمعنى قد ؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسمًا عليه أبدًا . ﴿ **وليال عشر** ﴾ هى عشر ذى الحجة فى قول جمهور

(١) النسائى فى التفسير (٦٩٣) .

المفسرين . وقال الضحاك : إنها الأواخر من رمضان . وقيل : العشر الأول من محرم إلى عاشرها يوم عاشوراء . قرأ الجمهور : ﴿ **ليال** ﴾ بالتنوين و ﴿**عشر**﴾ صفة لها . وقرأ ابن عباس : « وليالى عشر » بالإضافة . قيل : والمراد : ليالى أيام عشر . وكان حقه على هذا أن يقال : عشرة لأن المعدود مذكر . وأجيب عنه : بأنه إذا حذف المعدود ، جاز الوجهان .

﴿ **والشفع والوتر**﴾ الشفع والوتر يعمان كل الأشياء شفعها ووترها . وقيل : شفع الليالى ووترها . وقال قتادة : الشفع والوتر : شفع الصلاة ووترها ؛ منها شفع ومنها وتر . وقيل : الشفع يوم عرفة ، ويوم النحر ، والوتر: ليلة يوم النحر. وقال مجاهد وعطية العوفى : الشفع: الخلق ، والوتر : الله الواحد الصمد . وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هى صلاة المغرب فيها ركعتان، والوتر الركعة. وقال الضحاك: الشفع عشر ذى الحجة ، والوتر: أيام منى الثلاثة. وبه قال عطاء . وقيل : هما آدم وحواء لأن آدم كان وتراً ، فشفع بحواء . وقيل : الشفع : درجات الجنة ، وهى ثمان ، والوتر : دركات النار ، وهى سبع . وبه قال الحسين بن الفضل. وقيل: الشفع : الصفا والمروة ، والوتر : الكعبة . وقال مقاتل : الشفع : الأيام والليالى ، والوتر: اليوم الذى لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضًا لقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . . ﴾ الآية [المجادلة : ٧] ، وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر: العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما . وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر : مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع حجج القرآن ، والوتر الإفراد . وقيل : الشفع : الحيوان لأنه ذكر وأنثى ، والوتر : الجماد . وقيل : الشفع : ما سمى ، والوتر : ما لا يسمى .

ولا يخفاك ما فى غالب هذه الأقوال من السقوط البين والضعف الظاهر ، والاتكال فى التعيين على مجرد الرأى الزائف ، والخاطر الخطأ . والذى ينبغى التعويل عليه ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر فى كلام العرب ، وهما معروفان واضحان . فالشفع عند العرب : الزوج ، والوتر: الفرد . فالمراد بالآية إما نفس العدد ، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. وإذا قام دليل على تعيين شىء من المعدودات فى تفسير هذه الآية ، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره ، فذاك . وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية ، لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره . قرأ الجمهور : ﴿ **والوتر** ﴾ بفتح الواو . وقرأ حمزة ، والكسائى ، وخلف بكسرها . وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وهما لغتان . والفتح لغة قريش وأهل الحجاز . والكسر لغة تميم . قال الأصمعى : كل فرد وتر. وأهل الحجاز يفتحون فيقولون : وتر فى الفرد . وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء . فيحتمل أن تكون لغة ثالثة . ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل

مجرى الوقف .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يسر ﴾ بحذف الياء وصلاً وواقفا اتباعاً لرسم المصحف . وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها فى الوقف ، وإثباتها فى الوصل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها فى الوصل والوقف .

قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآى . قال الزجاج : والحذف أحب إلىَّ لأنها فاصلة ، والفواصل تحذف منها الياءات . قال الفراء : قد تحذف العرب الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كفاك كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَمًا جُودًا وأخرى تعط بالسَّيف دما

ما تليق : أى ما تمسك . قال المؤرج : سألت الأخفش عن العلة فى إسقاط الياء من ﴿ يسر ﴾ ، فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة . فبت على باب داره سنة ، فقال: الليل لا يسرى . وإنما يسرى فيه، فهو مصروف عن جهته ، وكل ما صرفته عن جهته ، بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ [مريم : ٢٨] ولم يقل : بغية ؛ لأنه صرفها من باغية . وفى كلام الأخفش هذا نظر . فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه . ولو صح ذلك للزم فى كل المجازات العقلية واللفظية ؛ واللازم باطل ، فالملزوم مثله . والأصل ههنا إثبات الياء ؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآى ، إجراء للفواصل مجرى القوافى . ومعنى﴿ والليل إذا يسر ﴾ : إذا يمضى ، كقوله : ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ [المدثر : ٣٣] ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ [التكوير : ١٧] وقيل : معنى ﴿ يسر ﴾ : يسار فيه . كما يقال : ليل نائم ، ونهار صائم ،كما فى قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم

وبهذا قال الأخفش والقتيبى وغيرهما من أهل المعانى . وبالأول قال جمهور المفسرين . وقال قتادة وأبو العالية: ﴿ والليل إذا يسر ﴾ أى : جاء وأقبل . وقال النخعى : أى استوى . قال عكرمة وقتادة والكلبى ومحمد بن كعب : هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه . وقيل : ليلة القدر لسراية الرحمة فيها . والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون الأخرى . ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ ؟ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة . والإشارة بقوله :﴿ ذلك ﴾ إلى تلك الأمور ، والتذكير بتأويل المذكور ، أى هل فى ذلك المذكور من الأمور التى أقسمنا بها قسم ، أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار . ﴿ لذى حجر ﴾ أى عقل ولب . فمن كان ذا

عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به . ومثل هذا قوله: ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة : ٧٦] . قال الحسن : ﴿ **لذى حجر** ﴾ أى لذى حلم . وقال أبو مالك : لذى ستر من الناس . وقال الجمهور : الحجر : العقل . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد لذى عقل ، ولذى حلم ، ولذى ستر . والكل بمعنى العقل . وأصل الحجر : المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حجر . ومنه سمى الحجر لامتناعة بصلابته . ومنه : حجر الحاكم على فلان ، أى منعه . قال : والعرب تقول : « إنه لذو حجر » إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها .

ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل ، تحذيرا للكفار فى عصر نبينا ﷺ . وتخويفًا لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **عاد** ﴾ على أن يكون ﴿ **إرم** ﴾ عطف بيان لعاد . والمراد بعاد : اسم أبيهم . وإرم اسم القبيلة أو بدلاً منه. وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث .وقيل: المراد بعاد: أولاد عاد، وهم عاد الأولى . ويقال لمن بعدهم : عاد الأخرى . فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أوالبدل للدلالة على أنهم عاد الأولى ، لا عاد الأخرى . ولابد من تقدير مضاف على كلا القولين ، أى أهل إرم ، أوسبط إرم . فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح . وقرأ الحسن وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم . وقرأ الجمهور ﴿ **إرم** ﴾ بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ، وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : «أَرَم » بفتح الهمزة والراء . وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفًا . وقرأ بإضافة « إرم » إلى « ذات العماد » . قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة ، شبههم بالإرم التى هى الأعلام . وإحداها إرم . وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى والفجر ، وكذا وكذا ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ . ﴿ **ألم تر** ﴾ أى ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد . وهذه الرؤيا رؤية القلب . والخطاب للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له . وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون . وقال مجاهد أيضًا : إرم أمة من الأمم . وقال قتادة : هى قبيلة من عاد . وقيل : هما عادان . فالأولى هى إرم . ومنه قول قيس بن الرقيات :

مجدًا تليدًا بناه أولهم ⠀⠀⠀ أدرك عادا وقبله إرم

قال معمر : إرم إليه مجتمع عاد وثمود . وكان يقال : عاد إرم وعاد ثمود . وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم. قال أبو عبيدة : هما عادان . فالأولى إرم. ومعنى ﴿ **ذات العماد** ﴾ : ذات القوة والشدة ، مأخوذة من قوة الأعمدة ، كما قال الضحاك . وقال قتادة ومجاهد : إنهم كانوا أهل عمد سيارة فى الربيع . فإذا هاج النبت ، رجعوا إلى منازلهم . وقال مقاتل : ذات

العماد : يعنى طولهم .كان طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعًا . ويقال : رجل طويل العماد ، أى القامة .

قال أبو عبيدة : ذات العماد : ذات الطول . يقال : رجل معمد : إذا كان طويلاً . وقال مجاهد وقتادة أيضًا : كان عمادًا لقومهم . يقال : فلان عميد القوم وعمودهم ، أى سيدهم . وقال ابن زيد : ذات العماد : يعنى إحكام البنيان بالعمد . قال فى الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث ، قال عمرو بن كلثوم :

ونحنُ إِذَا عِمَادُ الحىِّ خَرَّت　　　على الأحْفاض نمنعُ مَنْ يَلِينا

وقال عكرمة وسعيد المقبرى : هى دمشق . ورواه ابن وهب ، وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب : هى الإسكندرية . ﴿ **التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ هذه صفة لعاد ، أى لم يخلق مثل تلك القبيلة فى الطول والشدة والقوة ، وهم الذين قالوا : ﴿ **من أشد منا قوة** ﴾ [فصلت : ١٥] أو صفة للقرية على قول من قال : إن إرم اسم لقريتهم ، أو للأرض التى كانوا فيها ، والأول أولى ، ويدل عليه قراءة أبىّ : ﴿ **التى لم يخلق مثلهم فى البلاد** ﴾ .وقيل : الإرم : الهلاك . قال الضحاك :﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ أى أهلكهم فجعلهم رميمًا . وبه قال شهر بن حوشب . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة ، قصورها ، ودورها، وبساتينها ، وأن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ، ولا فيها ساكن من بنى آدم ، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع ، فتارة تكون باليمن ، وتارة تكون بالشام ، وتارة تكون بالعراق ، وتارة تكون بسائر البلاد . وهذا كذب بحت لا يتفق على من له أدنى تميز . وزاد الثعلبى فى تفسيره فقال : إن عبد اللّه بن قلابة فى زمان معاوية دخل هذه المدينة . وهذا كذب على كذب ، وافتراء على افتراء . وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء ، وفاقرة عظمى ، ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذى يجترئون على الكذب ، تارة على بنى إسرائيل ، وتارة على الأنبياء ، وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين . وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز ، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة فى تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا . ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الذى سميته « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » .

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة ، وهى ثمود على قبيلة عاد فقال : ﴿ **وثمود الذين جابوا**

الصخر بالواد ﴾ وهم قوم صالح ، سموا باسم جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . ومعنى **﴿ جابوا الصخر ﴾** : قطعوه. والجواب القطع . ومنه جاب البلاد : إذا قطعها . ومنه سمى جيب القميص لأنه جيبَ ، أى قطع . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور ثمود ، فبنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . ومنه قوله سبحانه: ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين (١)﴾ [الشعراء : ١٤٩] ،وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ، ويجعلون تلك الأنقاب بيوتًا يسكنون فيها . وقوله : **﴿ بالواد ﴾** متعلق بـ **﴿ جابوا ﴾** ، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادى القرى . قرأ الجمهور: **﴿ ثمود ﴾** بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ، ففيه التأنيث والتعريف . وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها . وقرأ الجمهور أيضًا بالواد بحذف الياء وصلاً ووقفًا اتباعًا لرسم المصحف . وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما . وقرأ قنبل فى رواية بإثباتها فى الوصل دون الوقف .

﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ أى ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد . أو جعل الجنود أنفسهم أوتادًا لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام . وقيل : كان له أوتاد يعذب الناس بها ، ويشدهم إليها . وقد تقدم بيان هذا فى سورة ص . **﴿ الذين طغوا فى البلاد ﴾** الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون، أى طغت كل طائفة منهم فى بلادهم وتمردت وعتت . والطغيان : مجاوزة الحد . **﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾** بالكفر ومعاصى الله والجور على عباده . ويجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين طغوا ، أو فى محل نصب على الذم . **﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾** أى أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب ، وهو ما عذبهم به . قال الزجاج : جعل سوطه الذى ضربهم به العذاب . يقال : صب على فلان خلعة ، أى ألقاها عليه . ومنه قول النابغة :

فصب الله عليه أحسن صبغة ... وكان له بين البرية ناصر (٢)

ومنه قول الآخر :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصب على الكفار سوط عذاب

ومعنى **﴿ سوط عذاب ﴾**: نصيب عذاب . وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم فى الآخرة كالسوط ، إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وقيل : ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم، وكان السوط عندهم هو نهاية

(١) فى المخطوطة : « آمنين » وهو خطأ .

(٢) هكذا فى الأصل ، وصحتها : « ناصراً » ، والبيت من قصيدة للنابغة مطلعها :

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً ... وهمين .. هما مستكنا وظاهرا

ما يعذب به . قال الفراء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم من قولهم : ساطه يسوطه سوطًا ، أى خلطه . فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض . ومنه قول كعب بن زهير :

لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

وقال الآخر :

أحارث إنا لو تساط دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمس دم دما

وقال آخر :

فسطها ذميم الرأى غير موفق ... فلست على تسويطها بمعان

﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ قد قدمنا قول من قال : إن هذا جواب القسم . والأولى أن الجواب محذوف ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها . وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه ﷺ سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار . ومعنى ﴿ **بالمرصاد** ﴾ : أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيرًا وبالشر شرًا . قال الحسن وعكرمة : أى عليه طريق العباد لا يفوته أحد . والرصد والمرصاد : الطريق . وقد تقدم بيانه فى سورة براءة ، وتقدم أيضًا عند قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصادًا ﴾ [النبأ : ٢١] .

وقد أخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والفجر** ﴾ قال : فجر النهار . وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقى فى الشعب ، وابن عساكر عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **والفجر** ﴾ قال : هو المحرم فجر السنة . وقد ورد فى فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، لا مطابقة ولا تضامنًا ولا التزامًا . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن جابر؛ أن النبى ﷺ قال : ﴿ **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر** ﴾ قال: « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » . وفى لفظ : « هى ليالى من ذى الحجة » (١) . وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله ؛ أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، فدعاهم ابن عمر إلى العشاء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالى العشر التى ذكرها الله فى القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك . قال : بلى فاشكك . وقد ورد فى فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما فى القرآن هنا بوجه من

---

(١) أحمد ٣ / ٣٢٧ والنسائى فى التفسير (٦٩١ ، ٦٩٢) وابن جرير ٣٠/١٠٨ وصححه الحاكم ٤/ ٢٢٠ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٤٦٨) ورجاله موثقون .

الوجوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وليال عشر** ﴾ قال : هى العشر الأواخر من رمضان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وصححه ، وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن النبىّ ﷺ سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هى الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » (١) . وفى إسناده رجل مجهول . وهو الراوى له عن عمران بن حصين . وقد روى عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول . وقال الترمذى بعد إخراجه بالإسناد الذى فيه الرجل المجهول : هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة . قال ابن كثير : وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه . والله أعلم. قال: ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر . وقد روى هذا الحديث موقوفًا على عمران بن حصين عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . فهذا يقوى ما قاله ابن كثير .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ فقال : كل شىء شفع ، فهو اثنان . والوتر واحد . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ـ قال السيوطى : بسند ضعيف ـ عن أبى أيوب عن النبى ﷺ ؛ أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : « يومان وليلة ، يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » . وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع : اليومان ، والوتر : اليوم الثالث » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد ابن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الزبير ؛ أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع : قول الله : ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ﴾ [البقرة : ٢٠٣] والوتر : اليوم الثالث. وفى لفظ : الوتر أوسط أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : الشفع : يوم النحر ، والوتر: يوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ ، قال: إذا ذهب. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿ **والفجر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إذا يسر** ﴾ ، قال : هذا قسم على ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قسم لذى حجر**﴾ قال : لذى حجى وعقل ونهى . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **بعاد . إرم** ﴾ ، يعنى بالإرم : الهالك . ألا ترى أنك تقول : أرم بنو فلان . ﴿ **ذات العماد** ﴾ يعنى: طولهم مثل العماد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معدى كرب عن النبىّ ﷺ ؛أنه ذكر ﴿ **إرم**

(١) أحمد ٤/ ٤٣٨ والترمذى فى التفسير (٣٣٤٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٣٠/ ١٠٩ .
(٢) ابن جرير ٣٠/ ١٠٨ .

ذات العماد ﴾ فقال : « كان الرجل منهم يأتى إلى الصخرة فيحملها على كاهله ، فيلقيها على أى حى أراد فيهلكهم ». وفى إسناده رجل مجهول ؛ لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدثه عن المقدام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جابوا الصخر بالواد**﴾ قال: خرقوها. وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا . ﴿ **وفرعون ذى الأوتاد** ﴾ قال : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ذى الأوتاد** ﴾ قال : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد**﴾ قال : يسمع ويرى . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ قال : من وراء الصراط جسور ، جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرحم ، وجسر عليه الرب عز وجل .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ، ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وأن مطمع أنظارهم ، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه** ﴾ أى امتحنه واختبره بالنعم ﴿ **فأكرمه ونعمه** ﴾ أى أكرمه بالمال ، ووسع عليه رزقه ﴿ **فيقول ربى أكرمن** ﴾ فرحًا بما نال ، وسرورًا بما أعطى غير شاكر لله على ذلك ، ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله ، وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها . و « ما » فى قوله : ﴿ **إذا ما** ﴾ زائدة . وقوله : ﴿ **فأكرمه ونعمه** ﴾ تفسير للابتلاء . ومعنى ﴿ **أكرمن** ﴾ أى فضلنى بما أعطانى من المال ، وأسبغه علىَّ من النعم لمزيد استحقاقى لذلك ، وكونى موضعًا له ، والإنسان مبتدأ ،وخبره :﴿ **فيقول ربى أكرمن** ﴾. ودخلت الفاء فيه لتضمن إما معنى الشرط . والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر ، وإن تقدم

لفظًا ، فهو مؤخر فى المعنى. أى فأما الإنسان فيقول: ربى أكرمنى وقت ،ابتلائه بالإنعام. قال الكلبى : الإنسان هو الكافر أُبى بن خلف . وقال مقاتل : نزلت فى أمية بن خلف . وقيل : نزلت فى عتبة بن ربيعة وأبى حذيفة بن المغيرة .

﴿ **وأما إذا ما ابتلاه** ﴾ أى اختبره وعامله معاملة من يختبره ﴿ **فقدر عليه رزقه** ﴾ أى ضيقه ولم يوسعه له، ولا بسط له فيه . ﴿ **فيقول ربى أهانن** ﴾ أى أولانى هوانًا . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا ، والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة ، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير ، وما أصيب به من الشر فى الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء . قرأ نافع بإثبات الياء فى ﴿ **أكرمن** ﴾ و ﴿ **أهانن** ﴾ وصلاً ، وحذفهما وقفًا . وقرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه ، وابن محيصن ، ويعقوب بإثباتهما وصلاً ووقفًا . وقرأ الباقون بحذفهما فى الوصل والوقف اتباعًا لرسم المصحف ، ولموافقة رؤوس الآى . والأصل إثباتها ، لأنها اسم . ومن الحذف قول الشاعر :

ومن كاشح ظاهر غمره   إذا ما انتصبت له أنكرن

أى : أنكرنى . وقرأ الجمهور : ﴿ **فقدر** ﴾ بالتخفيف . وقرأ ابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان . وقرأ الحرميان، وأبو عمرو : « ربى » بفتح الياء فى الموضعين ، وأسكنها الباقون . وقوله : ﴿ **كلا** ﴾ ردع للإنسان القائل فى الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويبسط النعم للإنسان ، لا لكرامته ، ويضيقه عليه ، لا لإهانته ، بل للاختبار والامتحان كما تقدم . قال الفراء : كلا فى هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال : ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ ، والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحتية على الخبر . وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور ﴿ **تحاضون** ﴾ ، و ﴿ **تأكلون** ﴾ و ﴿ **تحبون** ﴾ بالفوقية على الخطاب فيها . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحتية فيها .والجمع فى هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان لأن المراد به الجنس، أى بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر ، وهى أنكم تتركون إكرام اليتيم ، فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم . قال مقاتل : نزلت فى قدامة بن مظعون ، وكان يتيمًا فى حجر أمية بن

خلف . ﴿ **ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ قرأ الجمهور « تحضون » من حضه على كذا ، أى أغراه به ، ومفعوله محذوف ، أى لا تحضون أنفسكم. أولا يحض بعضكم بعضًا على ذلك ، ولا يأمر به ، ولا يرشد إليه . وقرأ الكوفيون ﴿**تحاضون**﴾ بفتح التاء والحاء بعدها ألف ، وأصله تتحاضون ، فحذف إحدى التاءين . أى لا يحض بعضكم بعضًا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه ، والسلمى : « تحاضون » بضم التاء من الحض ، وهو الحث . وقوله : ﴿ **على طعام المسكين** ﴾ متعلق بـ ﴿ **تحاضون** ﴾ . وهو إما اسم مصدر ، أى على إطعام المسكين ، أو اسم للمطعوم ، ويكون على حذف مضاف ، أى على بذل طعام المسكين ، أو على إعطاء طعام المسكين ، ﴿ **وتأكلون التراث** ﴾ أصله الوراث ، فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما فى تجاه ووجاه . والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم . وكذلك أموال النساء . وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أموالهم أكلاً لما ، أى أكلاً شديدًا . وقيل : معنى ﴿ **لما** ﴾ جمعًا من قولهم: لمت الطعام: إذا أكلته جميعًا. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم . وكذا قال أبو عبيدة . وأصل اللم فى كلام العرب: الجمع. يقال لمت الشىء أَلُمه لما جمعته . ومنه قولهم: لمَّ الله شعثه ، أى جمع ما تفرق من أموره .ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخًا لا تلمه　　　　على شعث أى الرجال المهذب

قال الليث : اللم : الجمع الشديد . ومنه حجر ملموم ، وكتيبة ملومة . وللآكل يلم الثريد ، فيجمعه ثم يأكله . وقال مجاهد : يسفه سفًا . وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ، ألمّ بمال غيره فأكله ، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب . ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾ أى حبًا كثيرًا . والجم : الكثير ، يقال : جم الماء فى الحوض إذا كثر واجتمع . والجمة : المكان الذى يجتمع فيه الماء .

ثم كرر سبحانه الردع لهم ،والزجر فقال:﴿ **كلا** ﴾ أى ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم . ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿ **إذا دكت الأرض دكا دكا** ﴾، وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر . والدك: الكسر والدق . والمعنى هنا : إنها زلزلت وحركت تحريكًا بعد تحريك . قال ابن قتيبة: دكت جبالها حتى استوت. قال الزجاج : أى تزلزلت ، فدك بعضها بعضًا . قال المبرد: أى بسطت وذهب ارتفاعها . قال : والدك : حط المرتفع بالبسط . وقد تقدم الكلام على الدك فى سورة الأعراف ، وفى سورة الحاقة ، والمعنى : أنها دكت مرة بعد أخرى . وانتصاب ﴿**دكا**﴾ الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل . و﴿ **دكا** ﴾ الثانى تأكيد للأول . كذا قال ابن عصفور ، ويجوز أن يكون النصب على الحال ، أى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة كما يقال: علمته الحساب بابًا بابا ، وعلمته الخط حرفًا حرفا . والمعنى : أنه كرر الدك عليها حتى صارت هباء منبثًا .

﴿ **وجاء ربك** ﴾ أى جاء أمره وقضاؤه ، وظهرت آياته . وقيل : المعنى : أنها زالت الشُبَهُ فى ذلك اليوم ، وظهرت المعارف ، وصارت ضرورية ، كما يزول الشك عند مجىء الشىء الذى كان يشك فيه . وقيل : جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئًا من ذلك . ﴿ **والملك صفا صفا** ﴾ انتصاب ﴿ **صفًا صفا** ﴾ على الحال ، أى مصطفين ، أو ذوى صفوف . قال عطاء : يريد صفوف الملائكة . وأهل كل سماء صف على حدة . قال الضحاك : أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض ومن فيها ، فيكونون سبعة صفوف . ﴿ **وجىء يومئذ بجهنم** ﴾ ﴿ **يومئذ** ﴾ منصوب بـ ﴿**جىء**﴾ والقائم مقام الفاعل ﴿ **بجهنم** ﴾.وجوز مكى أن يكون ﴿**يومئذ**﴾ هو القائم مقام الفاعل ، وليس بذاك . قال الواحدى : قال جماعة من المفسرين : جىء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا لركبتيه ، يقول : يارب ، نفسى نفسى . وسيأتى الذى هذا نَقْلُه عن جماعة المفسرين مرفوعًا إلى رسول الله إن شاء الله .

﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان** ﴾ : ﴿ **يومئذ** ﴾ هذا بدل من ﴿ **يومئذ** ﴾ الذى قبله، أى : يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان، أى: يتعظ . ويذكر ما فرط منه ، ويندم على ما قدمه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . وقيل : إن قوله يومئذ الثانى بدل من قوله : ﴿ **إذا دكت** ﴾ ، والعامل فيهما هو قوله : ﴿ **يتذكر الإنسان** ﴾ . ﴿ **وأنى له الذكرى** ﴾ أى ومن أين له التذكر والاتعاظ. وقيل : هو على حذف مضاف أى ومن أين له منفعة الذكرى . قال الزجاج : يظهر التوبة ، ومن أين له التوبة . ﴿ **يقول ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا يقول الإنسان ؟ ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله : ﴿ **يتذكر** ﴾ . والمعنى: يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح . واللام فى ﴿**لحياتى** ﴾ بمعنى : لأجل حياتى . والمراد : حياة الآخرة ، فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة . وقيل : إن اللام بمعنى « فى» . والمراد حياة الدنيا ، أى يا ليتنى قدمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا ،أنتفع بها هذا اليوم . والأول أولى . قال الحسن : علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد** ﴾ أى يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ، ﴿**ولا يوثق** ﴾ كـ ﴿ **وثاقه أحد** ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه ، إذ الأمر كله له . والضميران على التقديرين فى عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور ﴿ **يعذب** ﴾ و ﴿ **يوثق** ﴾ مبنيين للفاعل . وقرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما ، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أى لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد . والمراد بالإنسان الكافر ، أى لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر . وقيل : إبليس . وقيل : المراد به أبى بن خلف . قال الفراء : المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر

المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ، لتناهيه فى الكفر والعناد . وقيل : المعنى : أنه لا يعذب مكانه أحد ، ولا يوثق مكانه أحد ، فلا تؤخذ منه فدية . وهو كقوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ،والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى التوثيق . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسائى . قال : وتكون الهاء فى الموضعين ضمير الكافر ، لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . قال أبو على الفارسى : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ، أى لا يعذب أحد أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ، ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة** ﴾ المطمئنة هى : الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله ، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك ولا يعتريها ريب . قال الحسن هى المؤمنة الموقنة . وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله ، التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : هى الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان : المطمئنة بذكر الله . وقيل : المخلصة . قال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث . ﴿ **ارجعى إلى ربك**﴾ أى ارجعى إلى الله ﴿ **راضية** ﴾ بالثواب الذى أعطاك . ﴿ **مرضية** ﴾ عنده . وقيل : ارجعى إلى موعده ، وقيل : إلى أمره . وقال عكرمة وعطاء : معنى ﴿ **ارجعى إلى ربك** ﴾ : إلى جسدك الذى كنت فيه ، واختاره ابن جرير . ويدل على هذا قراءة ابن عباس : « فادخلى فى عبدى » بالإفراد . والأول أولى . ﴿ **فادخلى فى عبادى** ﴾ أى فى زمرة عبادى الصالحين ، وكونى من جملتهم ، وانتظمى فى سلكهم .﴿ **وادخلى جنتى** ﴾ معهم . قيل : إنه يقال لها : ارجعى إلى ربك عند خروجها من الدنيا . ويقال لها : ادخلى فى عبادى وادخلى جنتى يوم القيامة . والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم ، ولا ينافى ذلك نزولها فى نفس معينة . فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أكلاً لما** ﴾ قال : سفا . وفى قوله : ﴿ **حبا جما** ﴾ قال : شديدًا . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿**أكلا لما** ﴾ قال: شديدًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **إذا دكت الأرض دكا دكا** ﴾ ، قال : تحريكها . وأخرج مسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وأنى له الذكرى** ﴾ يقول : وكيف له . وأخرج ابن أبى حاتم فى

(١) مسلم فى الجنة (٢٨٤٢/٢٩) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٧٣) وابن جرير ٣٠/ ١٢٠ .

قوله :﴿فيومئذ لا يعذب ... ﴾ الآية قال : لا يعذب بعذاب الله أحد ، ولا يوثق بوثاقه الله أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضًا فى قوله : ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : المؤمنة ﴿ ارجعى إلى ربك ﴾ يقول : إلى جسدك . قال : نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا ، فقال :« أما أنه سيقال لك هذا » (١) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول نحوه عن أبى بكر الصديق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : هو النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : النفس المطمئنة : المصدقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا فى الآية قال : ترد الأرواح يوم القيامة فى الأجساد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ ارجعى إلى ربك راضية ﴾ قال: بما أعطيت من الثواب ﴿ مرضية ﴾ عنها بعملها . ﴿ فادخلى فى عبادى ﴾ المؤمنين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه . فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندرى من تلاها : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى ﴾ . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عكرمة مثله .

---

(١) قال ابن كثير ٧/ ٢٩٠ : « حديث مرسل حسن » .

تفسير سورة البلد

ويقال :سورة ﴿ **لا أقسم** ﴾ . هى عشرون آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

قوله : ﴿ **لا أقسم** ﴾ « لا » زائدة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد . وقد تقدم الكلام على هذا فى تفسير ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة : ١] ، ومن زيادة « لا » فى الكلام فى غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لا يتصدع

أى يتصدع . ومن ذلك قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] أى أن تسجد . قال الواحدى: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام ، وهو مكة . قرأ الجمهور : ﴿ **لا أقسم** ﴾ ، وقرأ الحسن والأعمش: « لأقسم » من غير ألف . وقيل : هو نفى للقسم . والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . وقال مجاهد : إن «لا » رد على من أنكر البعث ، ثم ابتدأ فقال : أقسم . والمعنى : ليس الأمر كما تحسبون . والأول أولى . والمعنى : أقسم بالبلد الحرام الذى أنت حل فيه . وقال الواسطى : إن المراد بالبلد : المدينة . وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية . وجملة قوله : ﴿ **وأنت حل بهذا البلد** ﴾ معترضة . والمعنى : أقسم بهذا البلد ﴿**ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ واعترض بينهما بهذه الجملة . والمعنى : ومن المكابد أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم .

وقال الواحدى : الحل والحلال والمحل واحد . وهو ضد المحرم . أحل الله لنبيه ﷺ مكة

يوم الفتح حتى قاتل . وقد قال ﷺ : « لم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » (١) . قال : والمعنى أن اللّه لما ذكر القسم بمكة ، دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً ، وعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها، ويفتحها على يده ، فهذا وعد من اللّه تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً . انتهى . فالمعنى : وأنت حل بهذا البلد فى المستقبل ، كما فى قوله:﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . قال مجاهد : المعنى : ما صنعت فيه من شىء فأنت حل . قال قتادة : أنت حل به لست بآثم ، يعنى : أنك غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصى . وقيل : المعنى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حال به ، ومقيم فيه وهو محلك . فعلى القول بأن « لا » نافية غير زائدة يكون المعنى : لا أقسم به وأنت حال به. فأنت أحق بالإقسام بك . وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الذى أنت مقيم به تشريفا لك وتعظيماً لقدرك ، لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم . ولكن هذا إذا تقرر فى لغة العرب أن لفظ « حل » يجىء بمعنى حال ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال .

﴿ **ووالد وما ولد** ﴾ عطف على البلد . قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح : ﴿ **ووالد** ﴾ أى آدم ﴿**وما ولد** ﴾ أى وما تناسل من ولده ، أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق اللّه على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون . وقال أبو عمران الجونى : الوالد : إبراهيم . وما ولد : ذريته . قال الفراء : إن « ما » عبارة عن الناس ، كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ [النساء : ٣] . وقيل : الوالد : إبراهيم ، والولد: إسماعيل ومحمد ﷺ . وقال عكرمة وسعيد بن جبير : ﴿ **ووالد** ﴾ يعنى : الذى يولد له ﴿**وما ولد** ﴾ يعنى : العاقر الذى لا يولد له . وكأنهما جعلا « ما » نافية . وهو بعيد . ولا يصح ذلك إلا بإضمار موصول ، أى ووالد والذى ما ولد . ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين. وقال عطية العوفى : هو عام فى كل والد ومولود من جميع الحيوانات . واختار هذا ابن جرير . ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ هذا جواب القسم . والإنسان هو هذا النوع الإنسانى. والكبد : الشدة والمشقة . يقال : كابدت الأمر : قاسيت شدته . والإنسان لا يزال فى مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت . وأصل الكبد : الشدة . ومنه تكبد اللبن : إذا غلظ واشتد . يقال : كبد الرجل : إذا وجعت كبده . ثم استعمل فى كل شدة ومشقة ، ومنه قول أبى الأصبغ :

لى ابن عم لو أن الناس فى كبد ... لظل محتجرا بالنبل يرمينى

قال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة ،وقال أيضا :يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء . لا يخلو عن أحدهما . قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح ، يقال له : أبوالأشدين . وكان يأخذ الأديم العكاظى ، ويجعله تحت رجليه

(١) البخارى فى المغازى (٤٣١٣) عن مجاهد .

ويقول : من أزالنى عنه فله كذا . فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبى ﷺ . وفيه نزل : ﴿ **أيحسب أن لن يقدر عليه أحد** ﴾ يعنى : لقوته . ويكون معنى ﴿**فى كبد** ﴾ على هذا فى شدة خلق . وقيل : معنى ﴿ **فى كبد** ﴾ : أنه جرىء القلب ، غليظ الكبد . ﴿ **أيحسب أن لن يقدر عليه أحد** ﴾ أى يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد ، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ **يقول أهلكت مالاً لبداً** ﴾ أى كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض . قال الليث : مال لبد : لا يخاف فناؤه من كثرته. قال الكلبى ومقاتل : يقول : أهلكت فى عداوة محمد مالاً كثيراً . وقال مقاتل: نزلت فى الحارث بن عامر ابن نوفل ، أذنب فاستفتى النبى ﷺ فأمره أن يكفِّر فقال : لقد ذهب مالى فى الكفارات والنفقات منذ دخلت فى دين محمد . قرأ الجمهور : ﴿ **لبدا** ﴾ بضم اللام وفتح الباء مخففا . وقرأ مجاهد وحميد بضم اللام والباء مخففا . وقرأ أبو جعفر بضم اللام وفتح الباء مشددا . قال أبو عبيدة: لبد فعل من التلبيد ، وهو المال الكثير بعضه على بعض . قال الزجاج : فعل للكثرة . يقال : رجل حطم : إذا كان كثير الحطم . قال الفراء : واحدته لبدة ، والجمع لبد . وقد تقدم بيان هذا فى سورة الجن . ﴿ **أيحسب أن لم يره أحد** ﴾ أى أيظن أنه لم يعاينه أحد . قال قتادة : أيظن أن اللّه سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟ وقال الكلبى : كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال اللّه : أيظن أن اللّه لم ير ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال : ﴿ **ألم نجعل له عينين** ﴾ يبصر بهما ﴿**ولسانا** ﴾ ينطق به ﴿**وشفتين**﴾ يستر بهما ثغره . قال الزجاج : المعنى : ألم نفعل به ما يدل على أن اللّه قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام ، وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة . ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ النجد : الطريق فى ارتفاع . قال المفسرون : بينا له طريق الخير ، وطريق الشر . قال الزجاج : المعنى : ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبين الطريقين العاليتين . وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك : النجدان : الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه . والأول أولى . وأصل النجد : المكان المرتفع ، وجمعه نجود . ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة . فالنجدان : الطريقان العاليان . ومنه قول امرئ القيس :

فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾ الاقتحام :الرمى بالنفس فى شىء من غير روية ، يقال منه :قحم فى الأرض قحوما ، أى رمى بنفسه فيه من غير روية . وتقحيم النفس فى الشىء : إدخالها فيه من غير روية . والقحمة بالضم : المهلكة . والعقبة فى الأصل الطريق التى فى الجبل ، سميت

بذلك لصعوبة سلوكها . وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر ، فجعله كالذى يتكلف صعود العقبة . قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا « لا » مرة واحدة . والعرب لا تكاد تفرد « لا » مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدوها فى كلام آخر كقوله : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : ٣١] وإنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله : ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا** ﴾ قائماً مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن . قال المبرد وأبو على الفارسى : إن « لا » هنا بمعنى لم ، أى فلم يقتحم العقبة . وروى نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، ومنه قول زهير :

وكان طوى كشحاً على مستكنة   فلا هو أبداها ولم يتقدم

أى فلم يبدها ولم يتقدم . وقيل: هوجارى مجرى الدعاء كقولهم : لا نجاء . قال أبو زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذى بمعنى الإنكار . تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة . ثم بين سبحانه العقبة فقال : ﴿ **وما أدراك ما العقبة** ﴾ أى أىّ شىء أعلمك ما اقتحامها . ﴿ **فك رقبة** ﴾ أى هى إعتاق رقبة وتخليصها من أسار الرق. وكل شىء أطلقته ، فقد فككته . ومنه فك الرهن ، وفك الكتاب . فقد بين سبحانه أن العقبة هى هذه القرب المذكورة التى تكون بها النجاة من النار . قال الحسن وقتادة : هى عقبة شديدة فى النار ، دون الجسر ، فاقتحموها بطاعة اللّه .وقال مجاهد والضحاك والكلبى : هى الصراط الذى يضرب على جهنم كحد السيف . وقال كعب : هى نار دون الجسر . قيل : وفى الكلام حذف ، أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائى : « فكَّ رقبةً » على أنه فعل ماضى ، ونصب رقبة على المفعولية. وهكذا قرآ : « أو أطعم » على أنه فعل ماضى . وقرأ الباقون : « فك أو إطعام » على أنهما مصدران ، وجر رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل : فلا فك ولا أطعم . والفك فى الأصل : حل القيد ، سمى العتق فكاً لأن الرق كالقيد . وسمى المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته . ﴿ **أو إطعام فى يوم ذى مسغبة** ﴾ والمسغبة : المجاعة، والسغب : الجوع . والساغب : الجائع. قال الراغب : يقال منه : سغب الرجل سغباً وسغوباً ، فهو ساغب وسغبان . والمسغبة : مفعلة منه . وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت حراً يابن قيس بن عاصم   لما بت شبعاناً وجارك ساغباً

قال النخعى : ﴿ **فى يوم ذى مسغبة** ﴾ : أى عزيز فيه الطعام . ﴿ **يتيماً ذا مقربة** ﴾ أى قرابة. يقال : فلان ذو قرابتى وذو مقربتى . واليتيم فى الأصل : الضعيف . يقال : يتم الرجل : إذا ضعف . واليتيم عند أهل اللغة : من لا أب له. وقيل : هو من لا أب له ولا أم. ومنه قول قيس بن الملوح :

إلى اللّه أشكو فقد ليلى كما شكا   إلى اللّه فقد الوالدين يتيم

﴿ أو مسكيناً ذا متربة﴾أى لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره وليس له مأوى إلا التراب، يقال : ترب الرجل يترب ترباً ومتربة : إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضراً . قال مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة: هو ذو العيال . وقال عكرمة : هو المديون . وقال أبو سنان : هو ذو الزمانة . وقال ابن جبير: هو الذى ليس له أحد . وقال عكرمة : هو البعيد التربة ، الغريب عن وطنه . والأول أولى ، ومنه قول الهذلى:

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قرأ الجمهور : ﴿ ذى مسغبة ﴾ على أنه صفة ليوم . و « يتيماً » هو مفعول إطعام . وقرأ الحسن : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول إطعام ، أى يطعمون ذا مسغبة ويتيماً بدل منه. ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ عطف على المنفى بلا . وجاء بثم للدلالة على تراضى رتبة الإيمان، ورفعة محله . وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان . وقيل : المعنى : ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم . وقيل : المعنى : أنه أتى بهذه القرب لوجه الله . ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ أى أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أى بالرحمة على عباد الله ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها . والإشارة بقوله :﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة ﴿هم أصحاب الميمنة ﴾ أى أصحاب جهة اليمين ، أو أصحاب اليُمن . أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم . وقيل غير ذلك مما قد قدمنا ذكره فى سورة الواقعة . ﴿والذين كفروا بآياتنا ﴾ أى بالقرآن أو بما هو أعم منه ، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التى تدل على الصانع سبحانه ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أى أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم . أوالذين يعطون كتبهم بشمالهم ، أو غير ذلك مما تقدم . ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى مطبقة مغلقة ، يقال : أصدت الباب وأوصدته : إذا أغلقته وأطبقته ، ومنه قول الشاعر :

تحـن إلى أجبـال مكـة ناقـتى ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

قرأ الجمهور : « موصدة » بالواو . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وحفص بالهمزة مكان الواو. وهما لغتان . والمعنى واحد.

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال: مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ يعنى بذلك : النبى ﷺ : أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيى من شاء . فقتل له يومئذ ابن خَطَل صَبْراً ، وهو آخذ بأستار الكعبة ، فلم يحل لأحد من الناس بعد النبى ﷺ أن يفعل فيها حراماً حرمه الله ، فأحل الله له ما صنع بأهل مكة (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿لا أقسم بهذا

(١) ابن جرير ٣٠ / ١٢٤ .

البلد ﴾ قال : مكة . ﴿ **وأنت حل بهذا البلد** ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه . وأما غيرك فلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد** ﴾ فىَّ ، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل وهو معلق بأستار الكعبة ، فضربت عنقه بين الركن والمقام .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ ، قال : أحل له أن يصنع فيه ما شاء . ﴿**ووالد وما ولد** ﴾ ، قال : يعنى بالوالد : آدم . وما ولد : ولده . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : الوالد : الذى يلد ، ﴿ **وما ولد** ﴾ : العاقر لا يلد من الرجال والنساء . وأخرج ابن جرير والطبرانى عنه أيضاً : ﴿ **ووالد** ﴾ : قال : آدم . ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : فى اعتدال وانتصاب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ ، قال : فى نصب . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : فى شدة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : فى شدة خلق ولادته ، ونبت أسنانه ، ومعيشته ، وختانه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد**﴾ قال : خلق الله كل شيء يمشى على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : منتصباً فى بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لغرق فى الدم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: ﴿**مالا لبدا** ﴾ قال : كثيرا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ قال : سبيل الخير والشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ قال : الهدى والضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : سبيل الخير والشر. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال : قال النبى ﷺ : « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» . تفرد به سنان بن سعد . ويقال : سعد بن سنان . وقد وثقه يحيى بن معين . وقال الإمام أحمد والنسائى والجوزجانى: منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه، قد روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث الحسن البصرى ، لا يشبه حديث أنس. وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ كان يقول . . . . .فذكره [(١)] . وهذا مرسل . وكذا رواه قتادة مرسلاً . أخرجه عنه ابن جرير ، ويشهد له ما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة ؛ أن النبى ﷺ قال :

---

(١) ابن جرير ٣٠/١٢٨ .

«يأيها الناس ، إنهما نجدان : نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » [(١)] . ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إنما هما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ قال : الثديين .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **فلا اقتحم العقبة**﴾ قال : جبل زلال فى جهنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : العقبة : النار . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : عقبة بين الجنة والنار. وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما نزل ﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾ قيل : يارسول الله ، ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه ، فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لأن أمتع بسوط فى سبيل الله أحب إلىَّ من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد » [(٢)] . وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ : « لعلاقة سوط فى سبيل اللّه أعظم أجراً من هذا ». وقد ثبت الترغيب فى عتق الرقاب بأحاديث كثيرة ، منها فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق اللّه بكل عضو منها عضواً منه من النار ، حتى الفرج بالفرج » [(٣)] .

وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فى يوم ذى مسغبة** ﴾ قال: مجاعة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **فى يوم ذى مسغبة**﴾ قال :جوع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **يتيماً ذا مقربة** ﴾ قال : ذا قرابة . وفى قوله : ﴿ **ذا متربة** ﴾ قال : بعيد التربة ، أى غريباً عن وطنه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضاً : ﴿ **أو مسكيناً ذا متربة** ﴾ قال : هو المطروح الذى ليس له بيت . وفى لفظ للحاكم : هو الذى لا يقيه من التراب شيء . وفى لفظ : هو اللازق بالتراب من شدة الفقر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبى ﷺ : ﴿ **مسكيناً ذا متربة** ﴾ قال : « الذى مأواه المزابل » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **وتواصوا بالمرحمة** ﴾ يعنى بذلك: رحمة الناس كلهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **مؤصدة**﴾ قال : مغلقة الأبواب . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة ﴿ **مؤصدة** ﴾ قال : مطبقة .

---

(١) الطبرانى (٨٠٢٠) وهو جزء من حديث طويل .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٢١٥ على شرط مسلم ، وقال الذهبى : « وسلمة لم يحتج به وقد وثق وضعفه ابن راهويه » والبيهقى ١٠/ ٥٨ .
(٣) البخارى فى العتق (٢٥١٧) ومسلم فى العتق (١٥٠٩/ ٢٢ ، ٢٣) والبيهقى ١٠/ ٢٧٢ .

تفسير سورة الشمس

هى خمس عشرة آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ والشمس وضحاها ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى عن بريدة ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ فى صلاة العشاء : ﴿ والشمس وضحاها﴾ وأشباهها من السور[١] . وقد تقدم حديث جابر فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿والشمس وضحاها ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ »[٢] . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن النبى ﷺ أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بـ ﴿ الليل إذا يغشى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها﴾[٣] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : أمرنا رسول اللّه ﷺ أن نصلى ركعتى الضحى بسورتيهما بـ ﴿ الشمس وضحاها ﴾ و ﴿ الضحى ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . وقال قوم : إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتى هو على حذف مضاف ، أى ورب الشمس ورب القمر، وهكذا سائرها ، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له . وقوله : ﴿ وضحاها ﴾ هو قسم ثان . قال مجاهد : ﴿ وضحاها ﴾ أى ضوئها وإشراقها . وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبى . وقال قتادة : ﴿ ضحاها ﴾ : نهارها كله . قال الفراء: الضحى هو النهار. وقال المبرد : أصل الضحى : الصبح ، وهو نور الشمس . قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل . وهو نور الشمس على وجه الأرض . وأصله الضحى . فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً . قيل : والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد . قال المبرد : الضحى والضحوة مشتقان من الضح ،

(١) أحمد ٥/ ٣٥٤ والترمذى فى الصلاة (٣٠٩) والنسائى فى الصلاة ٢/ ١٧٣ .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) الطبرانى (١١٢٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢٢ : « فيه ابن لهيعة وفيه كلام » .

وهو النور ، فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف في جواب القسم ماذا هو ؟ فقيل : هو قوله : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ . قاله الزجاج وغيره . قال الزجاج : وحذفت اللام لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها . وقيل : الجواب محذوف ، أى والشمس وكذا لتبعثن . وقيل : تقديره : ليدمدمن اللّه على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه ﷺ كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً . وأما ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شيء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها والشمس وضحاها . والأول أولى .

﴿ **والقمر إذا تلاها** ﴾ أى تبعها ، وذلك بأن طلع بعد غروبها . يقال : تلا يتلو تلوا : إذا تبع . قال المفسرون : وذلك فى النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس ، تلاها القمر فى الإضاءة ، وخلفها فى النور . قال الزجاج : تلاها حين استدار ، فكان يتلو الشمس فى الضياء والنور . يعنى : إذا كمل ضوؤه ، فصار تابعاً للشمس فى الإنارة ، يعنى : كان مثلها فى الإضاءة ، وذلك فى الليالى البيض . وقيل : إذا تلا طلوعه طلوعها . قال قتادة : إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت ، رؤى الهلال . قال ابن زيد : إذا غربت الشمس فى النصف الأول من الشهر ، تلاها القمر بالطلوع . وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب . وقال الفراء : تلاها : أخذ منها . يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس. ﴿ **والنهار إذا جلاها** ﴾ أى جلى الشمس . وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلى تمام الانجلاء ، فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه . وقيل : الضمير عائد إلى الظلمة ، أى جلى الظلمة ، وإن لم يجر للظلمة ذكر ، لأن المعنى معروف . قال الفراء : كما تقول : أصبحت باردة ، أى أصبحت غداتنا باردة . والأول أولى، ومنه قول قيس بن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل : المعنى : جلى ما فى الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة فى الليل. وقيل : جلى الدنيا . وقيل: جلى الأرض . ﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾ أى يغشى الشمس ، فيذهب بضوئها ، فتغيب وتظلم الآفاق . وقيل : يغشى الآفاق. وقيل : الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر ، لأن ذلك معروف . والأول أولى . ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية أى والسماء وبنيانها ويجوز أن تكون موصولة ، أى والذى بناها . وإيثار « ما » على « من » لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذى بناها . ورجح الأول الفراء والزجاج . ولا وجه لقول من قال : إن جعلها مصدرية مخل بالنظم . ورجح الثانى ابن جرير . ﴿ **والأرض وما طحاها** ﴾ الكلام فى « ما » هذه كالكلام فى التى قبلها. ومعنى ﴿ **طحاها** ﴾ بسطها . كذا قال عامة المفسرين ، كما فى قوله : ﴿ **دحاها** ﴾ قالوا : طحاها ودحاها واحد ، أى بسطها من كل جانب . والطحو : البسط . وقيل : معنى

﴿طحاها﴾ : قسمها . وقيل : خلقها ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

والأول أولى . والطحو أيضا الذهاب . قال أبوعمرو بن العلاء : طحا الرجل إذا ذهب فى الأرض . يقال : ما أدرى أين طحا ؟ ويقال : طحا به قلبه : إذا ذهب به ، ومنه قول الشاعر :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

﴿ ونفس وما سواها ﴾ ، والكلام فى « ما » هذه كما تقدم . ومعنى ﴿ سواها ﴾ : خلقها وأنشأها ، وسوى أعضاءها . قال عطاء : يرد جميع ما خلق من الجن والإنس . والتنكير للتفخيم . وقيل : المراد : نفس آدم . ﴿فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أى عرفها وأفهمها حالهما، وما فيهما من الحسن والقبح . قال مجاهد : عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية . قال الفراء : فألهمها : عرفها طريق الخير ، وطريق الشر ، كما قال : ﴿وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠]. قال محمد بن كعب : إذا أراد اللّه بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به . وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به . قال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور . واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان. قال الواحدى : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام . فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع فى قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله فى قلب عبده شيئاً ، ألزمه ذلك الشىء. قال : وهذا صريح فى أن الله خلق فى المؤمن تقواه، وفى الكافر فجوره .

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أى قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب ، وظفر بكل محبوب . وقد قدمنا أن هذا جواب القسم على الراجح . وأصل الزكاة النمو والزيادة، ومنه : زكا الزرع إذا كثر . ﴿وقد خاب من دساها﴾ أى خسر من أضلها وأغواها . قال أهل اللغة : دساها أصله دسسها من التدسيس وهو إخفاء الشىء فى الشىء . فمعنى ﴿دساها ﴾ فى الآية : أخفاها وأخملها ، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح . وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها ، فيقصدها الضيوف . وكانت لئام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفض مكانها عن الوافدين . وقيل : معنى ﴿ دساها ﴾ : أغواها، ومنه قول الشاعر:

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيعا

وقال ابن الأعرابى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم . ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ الطغوى : اسم من الطغيان ، كالدعوى من الدعاء . قال الواحدى : قال المفسرون : كذبت ثمود بطغيانها ، أى الطغيان حملتهم على التكذيب .

والطغيان : مجاوزة الحد فى المعاصى ، والباء للسببية . وقيل : ﴿**كذبت ثمود بطغواها**﴾ أى بعذابها الذى وعدت به . وسمى العذاب طغوى لأنه طغى عليهم ، فتكون الباء على هذا للتعدية . وقال محمد بن كعب: ﴿ **بطغواها** ﴾ أى بأجمعها . قرأ الجمهور: ﴿ **بطغواها** ﴾ بفتح الطاء . وقرأ الحسن والجحدرى ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء . فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان . وإنما قلبت الياء والواو للفرق بين الاسم والصفة؛ لأنهم يقلبون الياء فى الأسماء كثيراً ، نحو تقوى وسروى . وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ، ونحوهما . وقيل : هما لغتان . ﴿ **إذ انبعث أشقاها** ﴾ ، العامل فى الظرف ﴿ **كذبت** ﴾ ، أو ﴿ **بطغواها** ﴾ ، أى حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف ، فعقر الناقة . ومعنى ﴿**انبعث** ﴾ : انتدب لذلك وقام به . يقال : بعثته على الأمر فانبعث له . وقد تقدم بيان هذا فى الأعراف .

﴿ **فقال لهم رسول الله** ﴾ يعنى : صالحاً ﴿ **ناقة الله** ﴾ . قال الزجاج : ﴿ **ناقة الله** ﴾ منصوبة على معنى : ذروا ناقة الله . قال الفراء : حذرهم إياها . وكل تحذير فهو نصب . ﴿**وسقياها** ﴾ معطوف على ناقة ، وهو شربها من الماء . قال الكلبى ومقاتل : قال لهم صالح: ذروا ناقة الله ، فلا تعقروها ، وذروا سقياها ، وهو شربها من النهر فلا تعرضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم . ﴿ **فعقروها** ﴾ أى عقرها الأشقى . وإنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله . قال قتادة : إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . قال الفراء : عقرها اثنان . والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس. فلهذا لم يقل أشقياها .

﴿ **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها** ﴾ أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب . وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده . يقال : دمدمت على الشيء ، أى أطبقت عليه . ودمدم عليه القبر ، أى أطبقه . وناقة مدمومة : إذا لبسها الشحم ، والدمدمة : إهلاك باستئصال . كذا قال المؤرج . قاله فى الصحاح : دمدمت الشيء : إذا ألزقته بالأرض وطحطحته . ودمدم الله عليهم ، أى أهلكهم . وقال ابن الأعرابى : دمدم إذا عذب عذاباً تاماً . والضمير فى ﴿**فسواها** ﴾ يعود إلى الدمدمة ، أى فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت على صغيرهم وكبيرهم . وقيل : يعود إلى الأرض ، أى فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب . وقيل: يعود إلى الأمة ،أى ثمود . قال الفراء : سوى الأمة : أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها ، بمعنى سوى بينهم .قرأ الجمهور : فدمدم بميم بين الدالين . وقرأ ابن الزبير: فدهدم بهاء بين الدالين. قال القرطبى: وهما لغتان كما يقال : امتقع لونه ، واهتقع لونه. ﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾ أى فعل الله ذلك بهم غيرخائف من عاقبة ولا تبعة . والضمير فى ﴿ **عقباها** ﴾ يرجع إلى الفعلة أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم . وقال السدى والضحاك والكلبى : إن الكلام يرجع إلى العاقر ، لا إلى الله سبحانه ، أى لم يخف الذى عقرها عقبى ما صنع . وقيل : لا يخاف

رسول الله ﷺ عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم . والأول أولى .قرأ الجمهور : ﴿ **ولا يخاف** ﴾ بالواو . وقرأ نافع وابن عامر بالفاء .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **وضحاها** ﴾ قال : ضوؤها . ﴿ **والقمر إذا تلاها** ﴾ قال : تبعها . ﴿**والنهار إذا جلاها** ﴾ قال : أضاءها . ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ قال : الله بنى السماء . ﴿ **والأرض وما طحاها** ﴾ قال : دحاها . ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال: علمها الطاعة والمعصية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿**والأرض وماطحاها** ﴾ يقول : قسمها . ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال : من الخير والشر . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿ **فألهمها** ﴾ قال : ألزمها فجورها وتقواها . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، شيء قد قضى عليهم ، ومضى فى قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم ، واتخذت عليهم به الحجة ، قال : « بل شيء قد قضى عليهم » . قال : فلم يعملون إذن ؟ قال : « من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ » (١) . وسيأتى فى السورة التى بعد هذه نحو هذا الحديث. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والنسائى عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » (٢) . وأخرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه من حديث ابن عباس. وزاد : كان إذا تلا هذه الآية : ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال : فذكره . وزاد أيضاً وهو فى الصلاة (٣) . وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا (٤) . وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة(٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ : يقول : قد أفلح من زكى الله نفسه . ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ يقول : قد خاب من دس الله نفسه فأضله . ﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾ قال : لا يخاف من أحد تبعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ يعنى : مكر بها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله : ﴿**قد أفلح من زكاها** ... ﴾ الآية : « أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير » . وجويبر ضعيف(٦) . وأخرج ابن جرير عنه أيضا

(١) أحمد ٤/ ٤٣٨ ومسلم فى القدر (٢٦٥٠/ ١٠) وابن جرير ٣٠/ ١٣٥ .
(٢) ابن أبى شيبة (٩١٧٣) وأحمد ٤/ ٣٧١ والنسائى فى الاستعاذة ٨/ ٢٦٠ .
(٣) الطبرانى (١١١٩١) .
(٤) مسلم فى الذكر (٢٧٢٢ / ٧٣) . (٥) أحمد ٦/ ٢٠٩ .
(٦) قال ابن كثير ٧/ ٣٠١ : « جويبرمتروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس ».

﴿بطغواها﴾ قال : اسم العذاب الذى جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعذابها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة ، قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ قال : « انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة » (١) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والبغوى والطبرانى وابن مردويه والحاكم ، وأبو نعيم فى الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟» قال : بلى . قال : « رجلان : أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك على هذا ـ يعنى » قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ـ يعنى : لحيته » (٢) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٤٢) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٥/٤٩) والنسائى فى التفسير (٦٩٥) .
(٢) أحمد ٤ / ٢٦٣ ، وصححه الحاكم ٣ / ١٤٠ ، ١٤١ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩ / ١٣٩ : « رواه أحمد والطبرانى والبزار باختصار ورجال الجميع موثقون ، إلا أن التابعى لم يسمع من عمار » .

تفسير سورة الليل

هى إحدى وعشرون آية . وهى مكية عند الجمهور . وقيل : مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر :﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ ونحوها [(١)] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، ﴿**والليل إذا يغشى**﴾ فقال له أبى بن كعب : يا رسول الله أمرت فى هذه الصلاة بشيء ؟ قال :« لا ، ولكن أردت أن أوقت لكم » [(٢)] . وقد تقدم حديث : « فهلا صليت بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ ؟» . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنى لأقول : إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل : ﴿**والليل إذا يغشى** ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا تردى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣) فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١) ﴾ .

قوله : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ أى يغطى بظلمته ما كان مضيئًا . قال الزجاج : يغشى الليل الأفق ، وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار ، وقيل: يغشى النهار. وقيل : يغشى الأرض . والأول أولى. ﴿ **والنهار إذا تجلى**﴾ أى ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل، وذلك بطلوع الشمس .﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ « ما » هنا هى الموصولة ، أى والذى خلق الذكر والأنثى ، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخيم ، أى والقادر العظيم الذى خلق صنفى الذكر والأنثى . قال الحسن والكلبى :

(١) البيهقى ٢ / ٣٩١ .
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١١٩ : « وفيه أبو الرجال الأنصارى البصرى وهو منكر الحديث » .

معناه : والذى خلق الذكر والأنثى ، فيكون قد أقسم بنفسه . قال أبو عبيدة : ﴿ **وما خلق** ﴾ أى ومن خلق . وقال مقاتل : يعنى: وخلق الذكر والأنثى ، فتكون « ما» على هذا مصدرية . قال الكلبى ومقاتل : يعنى : آدم وحواء ، والظاهر العموم . قرأ الجمهور : ﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ . وقرأ ابن مسعود : « والذكر والأنثى » بدون « ما خلق » . ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ هذا جواب القسم ، أى إن عملكم لمختلف ، فمنه عمل للجنة ، ومنه عمل النار . قال جمهور المفسرين : السعى : العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها . و﴿ **شتى** ﴾ جمع شتيت ، كمرض ومريض . وقيل للمختلف : شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض .

﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ أى بذل ماله فى وجوه الخير ،واتقى محارم الله التى نهى عنها. ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ أى بالخلف من الله . قال المفسرون : فأما من أعطى المعسرين . وقال قتادة : أعطى حق الله الذى عليه. وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه. ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ أى بلا إله إلا الله . وبه قال الضحاك والسلمى . وقال مجاهد : بالحسنى : بالجنة. وقال زيد ابن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم . والأول أولى . قال قتادة : ﴿ **بالحسنى** ﴾ أى بموعود الله الذى وعده أن يثيبه . قال الحسن : بالخلف من عطائه . واختار هذا ابن جرير . ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ أى فسنهيئه للخصلة الحسنى ، وهى عمل الخير . والمعنى : فسنيسر له الإنفاق فى سبيل الخير ، والعمل بالطاعة لله . قال الواحدى : قال المفسرون: نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفرمن المؤمنين كانوا فى أيدى أهل مكة يعذبونهم فى الله(١).

﴿ **وأما من بخل واستغنى** ﴾ أى بخل بماله فلم يبذله فى سبل الخير ﴿ **واستغنى** ﴾ أى زهد فى الأجر والثواب ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة . ﴿ **وكذب بالحسنى** ﴾ أى بالخلف من الله عز وجل . وقال مجاهد : بالجنة ، وروى عنه أيضًا أنه قال: بلا إله إلا الله . ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ أى فسنهيئه للخصلة العسرى ونسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ، ويضعف عن فعلها ، فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيرا . قيل : العسرى : الشر . وذلك أن الشر يؤدى إلى العذاب . والعسرة فى العذاب . والمعنى : سنهيئة للشر بأن نجريه على يديه .وقال الفراء : سنيسره : سنهيئه. والعرب تقول : قد يسرت الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال الشاعر :

هما سيِّدانا يزعمان وإنَّما   يَسُودانِنا إن يَسَّرت غَنَماهُمَا

﴿ **وما يغنى عنه ماله إذا تردى** ﴾ أى لايغنى عنه شيئًا ماله الذى بخل به، أو أى شىء يغنى عنه إذا تردى ، أى هلك. يقال : ردى الرجل يردى ردى . وتردى يتردى : إذا هلك .

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٥٥ .

وقال قتادة وأبو صالح وزيد بن أسلم : ﴿ **إذا تردى** ﴾ إذا سقط في جهنم . يقال : ردى في البئر وتردى : إذا سقط فيها . ويقال : ما أدرى أين ردى ، أى أين ذهب ؟ ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، أى إن علينا البيان . قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان ، بيان حرامه وطاعته ومعصيته . قال الفراء: من سلك الهدى ، فعلى الله سبيله لقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل : ٩] يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال الفراء أيضًا : المعنى : إن علينا للهدى والإضلال ، فحذف الإضلال كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل ٨١] وقيل : المعنى : إن علينا ثواب هداه الذى هديناه . ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ أى لنا كل ما فى الآخرة ، وكل ما فى الدنيا نتصرف به كيف نشاء . فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منا . وقيل : المعنى : إن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا .

﴿ **فأنذرتكم نارًا تلظى** ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم نارًا تتوقد وتتوهج . وأصله : تتلظى ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا .وقرأ على الأصل عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف. ﴿ **لا يصلاها إلا الأشقى** ﴾ أى يصلاها صليًا لازمًا على جهة الخلود إلا الأشقى ، وإن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه . والمراد بقوله :﴿ **يصلاها** ﴾ : يدخلها أو يجد صلاها ، وهو حرها . ثم وصف الأشقى فقال :﴿ **الذى كذب وتولى** ﴾ أى كذب بالحق الذى جاءت به الرسل ، وأعرض عن الطاعة والإيمان . قال الفراء : ﴿ **إلا الأشقى** ﴾ : إلا من كان شقيًا فى علم الله جل ثناؤه . قال أيضًا : لم يكن كذب برد ظاهر ، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة ؛ فجعل تكذيبًا كما تقول : لقى فلان العدو فكذب : إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال الزجاج : هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء . فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر. ولأهل النار منازل . فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به . وقد قال : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب ، لم يكن فى قوله : ﴿ ويغفرما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فائدة . وقال فى الكشاف : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين ، وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين، فقيل : الأشقى ، وجعل مختصا بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له . وقيل : الأتقى ، وجعل مختصا بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل : المراد بالأشقى : أبو جهل ، أو أمية بن خلف ، وبالأتقى : أبو بكر الصديق . ومعنى ﴿ **سيجنبها الأتقى** ﴾: سيباعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا . قال الواحدى : الأتقى : أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين (١) . انتهى . والأولى حمل الأشقى والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين . ويكون المعنى : أنه لا يصلاها صليا تاما لازمًا إلا الكامل

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٥٥ .

فى الشقاء وهو الكافر . ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيدًا كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى . فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدًا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله : ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ زاعما أن الأشقى الكافر ، لأنه الذى كذب وتولى . ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين . فيقال له : فما تقول فى قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل فى التقوى . فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين ، لم يكن ممن يجنب النار . فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل ، لزمك مثله فى الأشقى ، فخذ إليك هذه مع تلك ، وكن كما قال الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى ... وأخرج منه لا علىَّ ولا ليه

وقيل : أراد بالأشقى والأتقى : الشقى والتقى ، كما قال طرفة بن العبد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد . ولا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأشقى بالتكذيب . فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر . فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين . ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال : ﴿ الذى يؤتى ماله ﴾ أى يعطيه ويصرفه فى وجوه الخير . وقوله : ﴿ يتزكى ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى ، أى حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة . ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتى داخلاً معه فى حكم الصلة . قرأ الجمهور: ﴿ يتزكى ﴾ مضارع « تزكى ».وقرأ على بن الحسين بن على: «تزكى» بإدغام التاء فى الزاى . ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ الجملة مستأنفة ، لتقرير ما قبلها من كون التزكى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص ، أى ليس ممن يتصدق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها . وإنما يبتغى بصدقته وجه الله تعالى . ومعنى الآية : أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتى من ماله مجازاتها . وإنما قال : ﴿ تجزى ﴾ مضارعًا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل . والأصل يجزيها إياه ، أو يجزيه إياها .

﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ إلا ابتغاء ﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة ، أى لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى . ويجوز أن يكون منصوبًا على أنه مفعول له على المعنى ، أى لا يؤتى إلا لابتغاء وجه ربه ، لا لمكافأة نعمة . قال الفراء : هو منصوب على التأويل ، أى ما أعطيتك ابتغاء جزائك ، بل ابتغاء وجه الله . وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة ؛ لأن محلها الرفع ، إما على الفاعلية ، وإما على الابتداء . و« من» مزيدة ، والرفع لغة تميم ، لأنهم يجوزون البدل فى المنقطع ،

ويجرونه مجرى المتصل . قال مكى : وأجاز الفراء الرفع فى «ابتغاء» على البدل من موضع نعمة ، وهو بعيد . قال شهاب الدين : كأنه لم يطلع عليها قراءة واستبعاده هو البعيد ، فإنها لغة فاشية . وقرأ الجمهور أيضًا : ﴿ ابتغاء ﴾ بالمد . وقرأ ابن أبى عبلة بالقصر ، و﴿الأعلى﴾ نعت للرب . ﴿ ولسوف يرضى ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، أى وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم . قرأ الجمهور : ﴿ يرضى﴾ مبنيًا للفاعل . وقرئ مبنيًا للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال : إذا أظلم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبى بن خلف ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله . فأنزل الله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ سعى أبى بكر ، وأمية ، وأبى ، إلى قوله : ﴿وكذب بالحسنى ﴾ قال : لا إله إلا الله ، إلى قوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال : النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله :﴿ فأما من أعطى ﴾ من الفضل : ﴿ واتقى ﴾ قال : اتقى ربه . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : صدق بالخلف من اللّه . ﴿فسنيسره لليسرى ﴾ قال : للخير من الله .﴿ وأما من بخل واستغنى﴾ قال : بخل بماله واستغنى عن ربه . ﴿وكذب بالحسنى﴾، قال بالخلف من الله . ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال : للشر من الله . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : أيقن بالخلف . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا ﴿وصدق بالحسنى ﴾ يقول : صدق بلا إله إلا الله . ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ يقول: من أغناه الله فبخل بالزكاة .

وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناسا ضعافًا ، فلو أنك تعتق رجالاً جلدًا يقومون معك ، ويمنعونك ويدفعون عنك . قال: أى أبت ، إنما أريد ما عند الله . قال: فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية نزلت فيه : ﴿فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى ﴾ (١).وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله :﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى ﴾ قال: أبو بكر الصديق .﴿ وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى ﴾ قال : أبو سفيان بن حرب . وأخرج البخارى ، ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن على بن أبى طالب قال : كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ قال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة .وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ». ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى ﴾ إلى قوله: ﴿للعسرى ﴾ (٢). وأخرج أحمد

---

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٤٢ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٤٥) ومسلم فى القدر (٢٦٤٧ / ٧) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٤) والترمذى فى القدر (٢١٣٦) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٩٨) وابن ماجة فى المقدمة (٧٨) وابن جرير ٣٠ / ١٤٣ .

ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن سراقة بن مالك قال : يا رسول الله فى أى شيء نعمل ؟ أفى شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام أم فى شيء يستقبل فيه العمل ؟ قال: «بل فى شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت فيه الأقلام » . قال سراقة : ففيم العمل إذن يا رسول الله ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وقرأ رسول ﷺ هذه الآية : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ (١) . وقد تقدم حديث عمران بن حصين فى السورة التى قبل هذه . وفى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : لتدخلن الجنة إلا من يأبى . قالوا : ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ فقرأ : ﴿ **الذى كذب وتولى** ﴾ (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة قال : لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة ، إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله . فمن لم يصدقنى ، فإن الله يقول : ﴿**لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى** ﴾ كذب بما جاء به محمد ﷺ وتولى عنه . وأخرج أحمد والحاكم والضياء عن أبى أمامة الباهلى ؛ أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول اللّه ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » (٣) . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ :« لا يدخل النار إلا شقى» . قيل:ومن الشقى؟ قال: « الذى لا يعمل لله بطاعة ، ولا يترك لله معصية » (٤) .

وأخرج أحمد والبخارى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » (٥) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله: بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وأم عيسى وأمة بنى المؤمل.وفيه نزلت: ﴿**وسيجنبها الأتقى** ﴾ إلى آخر السورة . وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدمنا عنه ، وزاد فيه : فنزلت فيه هذه الآية : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى** ﴾. وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وسيجنبها الأتقى** ﴾ قال : هو أبو بكر الصديق .

---

(١) أحمد ٣ / ٣٠٤ ومسلم فى القدر (٢٦٤٨ / ٨) وابن ماجة فى المقدمة (٩١) .
(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٤٥ .
(٣) أحمد ٥ / ٢٥٨ وصححه الحاكم ١ / ٥٥ ووافقه الذهبى .
(٤) أحمد ٢ / ٣٤٩ وابن ماجة فى الزهد (٤٢٩٨) وفى الزوائد : « فى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف » .
(٥) أحمد ٢ / ٣٩١ والبخارى فى الاعتصام (٧٢٨٠) .

تفسير سورة الضحى

هى إحدى عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس : نزلت ﴿ والضحى ﴾ بمكة. وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طريق أبى الحسن المقرى قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن قسطيطين ، فلما بلغت : ﴿ والضحى ﴾ قالَ : كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك . وأخبره ابن عباس أن أبى بن كعب أمره بذلك . وأخبره أبى أن رسول الله ﷺ أمره بذلك ، وأبو الحسن المقرى المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزة المقرى . قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى من ولد القاسم بن أبى بزة ، وكان إمامًا فى القراءات ، وأما فى الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أخذت عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلى، قال:هو منكر الحديث . قال ابن كثير : ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر الليل إذا يغشى . وقال آخرون : من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر . ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر .

وذكروا فى مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحى عن رسول الله ﷺ ، وفتر تلك المدة ، ثم جاء الملك، فأوحى إليه ﴿ والضحى . والليل إذا سجى ﴾ السورة ، كبَّر فرحًا وسرورًا، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جندب البجلى، قال: اشتكى النبى ﷺ ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا ، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ،لم يقربك ليلتين أو ثلاثًا ، فأنزل الله: ﴿والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ﴾ (١).وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن جندب قال:أبطأ جبريل عن النبى ﷺ ،فقال المشركون:قد ودع محمد. فنزلت:﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ (٢).وأخرج الطبرانى عن جندب قال: احتبس جبريل عن النبى ﷺ ، فقالت بعض بنات عمه:ما أرى صاحبك إلا قد قلاك.فنزلت :﴿ والضحى ﴾ (٣).وأخرجه الترمذى وصححه،وابن أبى حاتم عن جندب وفيه: فقالت امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت:﴿والضحى﴾ (٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحَىٰ ⦗١⦘ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ⦗٢⦘ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ⦗٣⦘ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ

(١) أحمد ٤ / ٣١٢ والبخارى فى التفسير (٤٩٥٠) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٧ / ١١٤ ، ١١٥) .
(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٤٨ والطبرانى (١٧١٢) . (٣) الطبرانى (١٧١٠) .
(٤) الترمذى فى التفسير (٣٣٤٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ .

والمراد بالضحى هنا : النهار كله ؛ لقوله : ﴿ **والليل إذا سجى** ﴾ . فلما قابل الضحى بالليل ، دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه . وهو فى الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم فى قوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : ١] . والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين . وقال قتادة ومقاتل ،وجعفر الصادق : إن المراد به الضحى الذى كلم الله فيه موسى . والمراد بقوله : ﴿ **والليل إذا سجى** ﴾ ليلة المعراج .وقيل: المراد بالضحى: هو الساعة التى خر فيها السحرة سجدًا ، كما فى قوله : ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : ٥٩] . وقيل : المقسم به مضاف مقدر كما تقدم فى نظائره، أى ورب الضحى . وقيل : تقديره : وضحاوة الضحى . ولا وجه لهذا ، فلله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه .وقيل: الضحى : نور الجنة . والليل : ظلمة النار . وقيل : الضحى : نور قلوب العارفين . والليل : سواد قلوب الكافرين . ﴿**والليل إذا سجى** ﴾ أى سكن . كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم . يقال : ليلة ساجية ، أى ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية. يقال: سجا الشيء يسجو سجوًا : إذا سكن . قال عطاء : سجا : إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى : سجا : امتد ظلامه . وقال الأصمعى : سجو الليل : تغطيته النهار ، مثل ما يسجى الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظلامه . وقال سعيد بن جبير : أقبل . وقال مجاهد أيضا : استوى . والأول أولى. وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة . ومعنى سكونه : استقرار ظلامه واستواؤه ، فلا يزاد بعد ذلك . ﴿ **ما ودعك ربك** ﴾ هذا جواب القسم ، أى ما قطعك قطع المودع .قرأ الجمهور: ﴿ **ما ودعك** ﴾ بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق . وقرأ ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هاشم وابن أبى عبلة وأبوحيوة بتخفيفها من قولهم : ودعه أى تركه . ومنه قول الشاعر :

سل أميرى ما الذى غيره ... عن وصالى اليوم حتى ودعه ؟

والتوديع أبلغ فى الودع ؛ لأن من ودعك مفارقًا فقد بالغ فى تركك .قال المبرد: لا يكادون يقولون : ودع ولا وذر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك . قال أبو عبيدة : ودعك من التوديع كما يودع المفارق . وقال الزجاج: لم يقطع الوحى. وقد قدمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة . ﴿ **وما قلى** ﴾ القلى : البغض . يقال : قلاه يقليه قلاء قال الزجاج : وما أبغضك . وقال : ﴿ **وما قلى** ﴾ ولم يقل : وما قلاك ؛ لموافقة رؤوس الآى . والمعنى : وما أبغضك ومنه قول امرئ القيس :

ولست بمقلى الخلال ولا قالى

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ اللام جواب قسم محذوف، أى الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه ﷺ قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ، ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة فى الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار ، منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم ، أو كظل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئًا . ولما كانت طريقًا إلى الآخرة ، وسببًا لنيل ما أعده الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة ، كان فيها خير فى الجملة من هذه الحيثية . ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ هذه اللام قيل : هى لام الابتداء ، دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك . . . إلخ، وليست للقسم ؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة . وقيل: هى للقسم . قال أبو على الفارسى : ليست هذه اللام هى التى فى قولك : إن زيدًا لقائم . بل هى التى فى قولك : لأقومن ، ونابَت« سوف » عن إحدى نونى التأكيد ، فكأنه قال : وليعطينك . قيل : المعنى : ولسوف يعطيك ربك الفتح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة . وقيل : ألف قصر من لؤلؤ أبيض ، ترابه المسك . وقيل : غير ذلك . والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا والآخرة . ومن أهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته .

﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ هذا شروع فى تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم ، أى وجدك يتيمًا لا أب لك ﴿ فآوى ﴾ أى جعل لك مأوى تأوى إليه. قرأ الجمهور: ﴿ فآوى ﴾ بألف بعد الهمزة رباعيًا من آواه يؤويه . وقرأ أبو الأشهب : « فأوى » ثلاثيًا . وهى إما بمعنى الرباعى ، أو هو من أوى له إذا رحمه . وعن مجاهد معنى الآية : ألم يجدك واحدًا فى شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ، ويحوطونك ، فجعل يتيمًا من قولهم : درة يتيمة . وهو بعيد جدا . والهمزة لإنكار النفى ، وتقرير المنفى على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيمًا فآوى . والوجود بمعنى العلم. و﴿يتيمًا ﴾ مفعوله الثانى . وقيل : بمعنى المصادفة . و ﴿ يتيمًا ﴾ حال من مفعوله ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ معطوف على المضارع المنفى. وقيل : هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذى قبله كما ذكرنا ، أى قد وجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالا فهدى . والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كما فى قوله : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ [طه:٥٢] ،وكما فى قوله : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف : ٣] . والمعنى: أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة . واختار هذا الزجاج . وقيل: معنى ضالا : لم تكن تدرى القرآن ، ولا الشرائع ، فهداك لذلك . وقال الكلبى والسدى والفراء : وجدك فى قوم ضلال ، فهداهم الله لك . وقيل : وجدك طالبًا للقبلة، فهداك إليها كما فى قوله: ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ [البقرة : ١٤٤] . ويكون الضلال بمعنى: الطلب. وقيل : وجدك ضائعًا فى قومك فهداك إليه . ويكون الضلال بمعنى :

الضياع. وقيل: وجدك محبًا للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى: المحبة، ومنه قول الشاعر:

عجبًا لعزة فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل: وجدك ضالاً فى شعاب مكة فهداك. أى: ردك إلى جدك عبد المطلب. ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أى وجدك فقيرًا لا مال لك فأغناك. يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر. ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

أى يفتقر. قال الكلبى: ﴿فأغنى﴾ أى رضاك بما أعطاك من الرزق. واختار هذا الفراء. قال: لأنه لم يكن غنيًا من كثرة، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه. وذلك حقيقة الغنى. وقال الأخفش: ﴿عائلاً﴾: ذا عيال، ومنه قول جرير:

الله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقيل: فأغنى بما فتح لك من الفتوح. وفيه نظر؛ لأن السورة مكية. وقيل: بمال خديجة بنت خويلد، وقيل: وجدك فقيرًا من الحجج والبراهين فأغناك بها. قرأ الجمهور: ﴿عائلاً﴾. وقرأ محمد بن السميفع واليمانى: «عيلاً» بكسر الياء المشددة كسيد. ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أى لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيمًا. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك. قال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه. وكذا كانت العرب تفعل فى حق اليتامى تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم. وكان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم ويبره، ويوصى باليتامى قرأ الجمهور: ﴿فلا تقهر﴾ بالقاف. وقرأ ابن مسعود، والنخعى والشعبى والأشهب العقيلى: «تكهر» بالكاف، والعرب تعاقب بين القاف والكاف. قال النحاس: إنما يقال: كهره: إذا اشتد عليه وغلظ. وقيل: القهر: الغلبة. والكهر: الزجر. قال أبو حيان: هى لغة. يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور. و﴿اليتيم﴾ منصوب بـ﴿تقهر﴾. ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره. فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يرده بالجميل. قال الواحدى: قال المفسرون: يريد السائل على الباب. يقول: لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيرًا. فإما أن تطعمه، وإما أن ترده ردًا لينًا. قال قتادة: معناه: رد السائل برحمة ولين. وقيل: المراد بالسائل: الذى يسأل عن الدين. فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين. كذا قال سفيان. و﴿السائل﴾ منصوب بـ ﴿تنهر﴾. والتقدير: مهما يكن من شىء، فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل.

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس ، وإشهارها بينهم . والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها ، أو نوع من أنواعها . وقال مجاهد والكلبي : المراد بالنعمة هنا : القرآن. قال الكلبي : وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرأه . قال الفراء : وكان يقرؤه ويحدث به. وقال مجاهد أيضًا : المراد بالنعمة : النبوة التي أعطاه الله. واختار هذا الزجاج ، فقال : أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله ، وهي أجل النعم . وقال مقاتل : يعني : اشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة ، وجبر اليتيم ، والإغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم ، والتحدث بنعمة الله شكر . والجار والمجرور متعلق بحدث . والفاء غير مانعة من تعلقه به . وهذه النواهي لرسول الله ﷺ هي نواه له ولأمته ، لأنهم أسوته . فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهي بكل فرد من أفراد هذه النواهي .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والليل إذا سجى ﴾ قال : إذا أقبل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ إذا سجى ﴾ ، قال : إذا ذهب . ﴿ما ودعك ربك ﴾ قال :ما تركك ﴿ وما قلى ﴾ ، قال : ما أبغضك . وأخرج الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الدلائل عنه أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « عرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي. فأنزل الله: ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ » (١). وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم عنه أيضًا ، قالا : عرض على رسول الله ﷺ ماهو مفتوح على أمته من بعده ، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ، ترابه المسك ، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم (٢). وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضًا في الآية ، قال : من رضا محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه أيضًا في الآية ، قال: لا يرضى محمد وأحد من أمته في النار . ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو؛ أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ،وقول عيسى: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي ، وبكى » . فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك (٣) .

(١) قال الهيثمي في المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه معاوية بن العباس ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات ، وإسناد الكبير حسن » والبيهقي في الدلائل ٧ / ٦١ .

(٢) ابن أبي شيبة (١٥٨٢٧) وابن جرير ٣٠ / ١٤٩ والطبراني (١٠٦٥٠) وصححه الحاكم (٢ / ٥٢٦) وقال الذهبي : « تفرد به عصام بن رواد عن أبيه وقد ضعف » وأبو نعيم ٣ / ٢١٢ وقال : « هذا حديث غريب من حديث علي بن عبد الله بن العباس ، لم يروه عنه إلا إسماعيل ، ورواه سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل مثله » .

(٣) مسلم في الإيمان (٢٠٢ / ٣٤٦) .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، وأبونعيم فى الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها أهل العراق أحق هى ؟ قال : إى والله ، حدثنى محمد بن الحنفية عن على؛ أن رسول الله ﷺ قال: « أشفع لأمتى حتى يناديني ربى : أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت » . ثم أقبل علىّ فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق : إن أرجى آية فى كتاب الله : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] . قلت: إنا لنقول ذلك. قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية فى كتاب الله: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ ، وهى الشفاعة .(١) . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ »(٢) . وأخرج العسكرى فى المواعظ ، وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من جلد الإبل . فلما نظر إليها ، قال : « يا فاطمة ، **تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة** » ، فأنزل الله : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ قال : « سألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته . قلت: قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى، فقال تعالى: يا محمد ، ألم أجدك يتيمًا فآويتك ؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى: يا رب »(٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ **والضحى** ﴾ على رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ . « يمن علىَّ ربى وأهل أن يمن ربى » . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ قال: وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم. وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن على فى قوله : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ قال : ما علمت من الخير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : إذا أصبت خيرًا فحدث إخوانك .

وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب فى المتفق ، قال السيوطى: بسند ضعيف ، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة »(٤). وأخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، وأبو يعلى

---

(١) أبو نعيم ٣ / ١٧٩ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من حديث حرب بن شريح ، ولا رواه عنه إلا عمرو بن عاصم وهو بصرى ثقة » .

(٢) ابن أبى شيبة (١٥٥٧٣) .

(٣) الطبرانى (١٢٢٨٩) وصححه الحاكم ٢ / ٥٢٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٦٣ .

(٤) البيهقى فى الشعب (٩١١٩) .

وابن حبان والبيهقى والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال: « من أبلى بلاء فذكره، فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » [(١)] .وأخرج البخارى فى الأدب ، وأبو داود والضياء عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط ، فإنه كلابس ثوبى زور» [(٢)]. وأخرج أحمد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «من أولى معروفًا فليكافئ به ، فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره»[(٣)] .

---

(١) أبو داود فى الأدب (٤٨١٤) والترمذى فى البر والصلة (٢٠٣٤) وقال : « حديث حسن غريب » وأبو يعلى (٢١٣٧) وقال : « إسناده ضعيف وفيه جهالة » ووصله البخارى فى الأدب المفرد (٢١٥) من طريق يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصار عن جابر ، وابن حبان فى صدقة التطوع (٣٤٠٦) والبيهقى ٦ / ١٨٢ .

(٢) أبو داود فى الأدب (٤٨١٣) .

(٣) أحمد ٦ / ٩٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ١٨٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه صالح بن أبى الأخضر ، وقد وثق على ضعفه ، وبقية رجال أحمد ثقات » .

تفسير سورة ألم نشرح

هى ثمان آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ ألم نشرح ﴾ بمكة . وزاد بعضهم بعد الضحى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾ .

معنى شرح الصدر : فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك . والاستفهام إذا دخل على النفى قرره ، فصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك . وإنما خص الصدر ؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات . والمراد: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة ، وحفظ الوحى. وقد مضى القول فى هذا عند تفسير قوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ [الزمر : ٢٢]. ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ معطوف على معنى ما تقدم ، لا على لفظه ، أى قد شرحنا لك صدرك ، ووضعنا . . . إلخ . ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أى أنتم خير من ركب المطايا ، وأندى . . . إلخ . قرأ الجمهور : ﴿ نشرح ﴾ بسكون الحاء بالجزم . وقرأ أبو جعفر المنصور العباسى بفتحها . قال الزمخشرى : قالوا : لعله بين الحاء وأشبعها فى مخرجها ، فظن السامع أنه فتحها . وقال ابن عطية : إن الأصل : « ألم نشرحن » ، بالنون الخفيفة ، ثم إبدالها ألفًا . ثم حذفها تخفيفًا ، كما أنشد أبو زيد :

من أى يومىَّ من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

بفتح الراء من « لم يقدر » . ومثله قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب . وهذا مبنى على جواز توكيد المجزوم بـ « لم » وهو قليل جدًا كقوله :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخًا على كرسيه معمما

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول ، كلها ضعيفة . الأول: توكيد المجزوم بـ « لم »، وهو ضعيف . الثانى : إبدالها ألفًا ، وهو خاص بالوقف ، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف . والثالث : حذف الألف، وهو ضعيف أيضًا ؛ لأنه خلاف الأصل. وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بـ « لم » ويجزمون بـ « لن » . ومنه قول الشاعر :

في كل ما هم أمضى رأيه قدمًا ولم يشاورَ فى إقدامه أحدا

بنصب الراء من « يشاور » . وهذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح . وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة ، فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها . وعلى كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره ، ومزيد ظلمه ، وكثرة جبروته، وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها . والوزر : الذنب ، أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية . قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل : المعنى : حططنا عنك الذى سلف منك فى الجاهلية ، وهذا كقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] ثم وصف هذا الوزر فقال : ﴿**الذى أنقض ظهرك** ﴾ . قال المفسرون : أى أثقل ظهرك . قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض ، أى صوت . وهذا مثل معناه : أنه لو كان حملاً يحمل ، لسمع نقيض ظهره . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمع له صرير . ومنه قول جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت ثوانى زوره أن تحطما

وقول العباس بن مرداس :

وأنقض ظهرى ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقًا متحننًا

قال قتادة : كان للنبى ﷺ ذنوب قد أثقلته ، فغفرها الله له . وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها ، سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له . وكذا قال أبو عبيدة ، وغيره . وقرأ ابن مسعود :« وحللنا عنك وقرك » . ثم ذكرسبحانه منته عليه وكرامته فقال: ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ قال الحسن : وذلك أن الله لا يذكر فى موضع إلا ذكر معه ﷺ . قال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينادى فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . قال مجاهد : ورفعنا لك ذكرك ، يعنى : بالتأذين . وقيل : المعنى : ذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، وأمرناهم بالبشارة به . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء وعند المؤمنين فى الأرض . والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذى امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور . فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر . وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه وإخباره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً . وأمر الله بطاعته كقوله : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] ، وقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى

يحببكم الله ﴾ [آل عمران: ٣١] وغير ذلك. وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن ، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : ٢١] اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان فى كل زمان . وما أحسن قول حسان:

أغـر عليـه للنبـوة خـاتم ... مـن الله مشهـود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبى إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن أشهـد

وشـق لـه مـن اسـمه ليجلـه ... فـذو العرش محمود وهذا محمد

﴿ فإن مع العسر يسرا ﴾ أى إن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ، ومع الكرب فرج . وفى هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين . ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريرًا وتأكيدًا فقال مكررًا له بلفظ: ﴿ إن مع العسر يسرا ﴾ أى إن مع ذلك العسر المذكور سابقًا يسرًا آخر لما تقرر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثانى عين الأول ، سواء كان المراد به الجنس أو العهد ، بخلاف المنكر إذا أعيد ، فإنه يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول فى الغالب. ولهذا قال النبى ﷺ فى معنى هذه الآية : « لن يغلب عسر يسرين». قال الواحدى :وهذا قول النبى ﷺ والصحابة والمفسرين ، على أن العسر واحد ، واليسر اثنان. قال الزجاج: ذكر العسر مع الألف واللام ، ثم ثنى ذكره ، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين. قيل : والتنكير فى اليسر للتفخيم والتعظيم ، وهو فى مصحف ابن مسعود غير مكرر. قرأ الجمهور بسكون السين فى العسر واليسر فى الموضعين . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمها فى الجميع .

﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أى إذا فرغت من صلاتك أو من التبليغ، أو من الغزو فانصب، أى فاجتهد فى الدعاء ، واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب فى العبادة .والنصب : التعب. يقال : نصب ينصب نصبًا ، أى تعب . قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبى : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك فى الدعاء ، وارغب إليه فى المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد . قال الشعبى : إذا فرغت من التشهد ، فادعو لدنياك وآخرتك. وكذا قال الزهرى. وقال الكلبى أيضًا : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب ، أى استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك . وقال مجاهد أيضًا: إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك ، ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الزجاج: أى اجعل رغبتك إلى الله وحده . قال عطاء : يريد أنه يضرع إليه راهبًا من النار ، راغبًا فى الجنة .والمعنى:أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائنًا من كان ، فلا يطلب حاجاته إلا منه، ولا يعول فى جميع أموره إلا عليه قرأ الجمهور:﴿ فارغب ﴾ وقرأ زيد بن على وابن أبى عبلة: « فرغب » بتشديد الغين ، أى فرغب الناس إلى الله ، وشوقهم إلى ماعنده من الخير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ ، قال : شرح الله صدره للإسلام . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « أتانى جبريل فقال : إن ربك يقول : تدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معى » . وإسناد ابن جرير هكذا : حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد ، وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**ورفعنا لك ذكرك** ﴾ الآية ، قال : لا يذكر الله إلا ذكر معه .

وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أنس ، قال : كان النبى ﷺ جالسًا وحياله جحر، فقال :« لو دخل العسر هذا الجحر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » . فأنزل الله : ﴿ **فإن** [١] **مع العسر يسرا** ﴾ ﴿**إن مع العسر يسرا** ﴾ [٢] .ولفظ الطبرانى : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فإن مع العسر يسرًا . إن مع العسر يسرا** ﴾ . وأخرج ابن النجار عنه مرفوعًا نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضًا مرفوعًا نحوه ، قال السيوطى : وسنده ضعيف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى الصبر ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود مرفوعًا : « لو كان العسر فى جحر ، لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين ، إن الله يقول: ﴿ **فإن** [٣] **مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا** ﴾ » [٤] قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح . قال فيه أبو حاتم الرازى : فى حديثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل . عن عبد الله بن مسعود . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقى عن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ يومًا فرحًا مسرورًا ، وهو يضحك ويقول :« لن يغلب عسر يسرين ،﴿ **فإن** [٥] **مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا**﴾ » [٦]. وهذا مرسل . وروى نحوه مرفوعًا مرسلا عن قتادة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن

---

(١) فى المخطوطة : « إن ».

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار بنحوه ، وفيه عائذ بن شريح وهو ضعيف » والحاكم ٢ / ٢٥٥ وقال : «هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح » وقال الذهبى : «انفرد به حميد بن حماد عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ » والبيهقى فى الشعب (١٠٠١٢) ط . دار الكتب العلمية .

(٣) فى المطبوعة : « إن» . (٤) البيهقى فى الشعب (١٠٠١١) ط . دار الكتب العلمية .

(٥) فى المطبوعة : « إن » . (٦) ابن جرير ٣٠ / ١٥١ وسكت عنه الحاكم ٢ / ٥٢٨ وقال الذهبى : « مرسل » .

ابن عباس فى قوله: ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ الآية ، قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، واسأل الله وارغب إليه . وأخرج ابن مردويه عنه قال :قال الله لرسوله:« إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك » . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن ابن مسعود : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ إلى الدعاء . ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ فى المسألة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ قال : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل .

تفسير سورة التين

هى ثمان آيات . وهى مكية فى قول الجمهور . وروى القرطبى عن ابن عباس أنها مدنية . ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : أنزلت سورة التين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن ، وغيرهم عن البراء بن عازب ، قال:كان النبى ﷺ فى سفر ، فصلى العشاء ، فقرأ فى إحدى الركعتين : بـ ﴿ التين والزيتون ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً ولا قراءة منه [١] . وأخرج الخطيب عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ المغرب ، فقرأ: بـ ﴿ التين والزيتون ﴾. وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وعبد بن حميد فى مسنده، والطبرانى عن عبد الله بن يزيد ؛ أن النبى ﷺ قرأ فى المغرب : ﴿ والتين والزيتون﴾ [٢] . وأخرج ابن قانع وابن السكن ،والشيرازى فى الألقاب عن زرعة بن خليفة قال: أتيت النبى ﷺ من اليمامة ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، فلما صلينا الغداة ، قرأ بـ ﴿ التين والزيتون ﴾ و﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾. [القدر : ١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾ .

قال أكثر المفسرين : هو التين الذى يأكله الناس ، والزيتون الذى يعصرون منه الزيت . وإنما أقسم بالتين ؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك ، وجعلها على مقدار اللقمة . قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن ، وأكثرها غذاء . وذكروا له فوائد كما فى كتب المفردات والمركبات . وأما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الذى هو إدام غالب البلدان ودهنهم ، ويدخل فى كثير من الأدوية. وقال الضحاك : التين : المسجد الحرام . والزيتون :المسجد الأقصى . وقال ابن زيد : التين : مسجد دمشق. والزيتون : مسجد بيت المقدس.وقال قتادة : التين: الجبل الذى عليه دمشق. والزيتون: الجبل الذى عليه بيت المقدس . وقال عكرمة وكعب الأحبار : التين : دمشق . والزيتون :

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٥٢) ومسلم فى الصلاة (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود فى الصلاة (١٢٢١) والترمذى فى الصلاة (٣١٠) والنسائى فى التفسير (٧٠٢) وابن ماجة فى الصلاة (٨٣٤ ، ٨٣٥) .
(٢) ابن أبى شيبة ١/ ٣٥٨ .

بيت المقدس .

وليت شعرى ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقى فى اللغة العربية ، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه فى علم الرواية والدراية . قال الفراء : سمعت رجلاً يقول : التين : جبال حلوان إلى همدان . والزيتون : جبال الشام. قلت : هب أنك سمعت هذا الرجل فكان ماذا ؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع . وقال محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف . والزيتون : مسجد إيلياء .وقيل : إنه على حذف مضاف ، أى ومنابت التين والزيتون . قال النحاس : لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه.

﴿ **وطور سينين** ﴾: هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، اسمه الطور. ومعنى ﴿**سينين**﴾: المبارك الحسن بلغة الحبشة ، قاله قتادة .وقال مجاهد : هو المبارك بالسريانية ، وقال مجاهد والكلبى : ﴿ **سينين** ﴾ : كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين ، وسيناء بلغة النبط . قال الأخفش : طور : جبل ، وسينين : شجر ، واحدته سينة . قال أبو على الفارسى : سينين : فعليل ، فكررت اللام التى هى نون فيه ، ولم ينصرف سنين ، كما لم ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً للبقعة . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام ، وهى الأرض المقدسة كما فى قوله : ﴿إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ [الإسراء: ١] . وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه . قرأ الجمهور: ﴿ **سينين** ﴾ بكسر السين. وقرأ ابن إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتحها ، وهى لغة بكر وتميم . وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة : « سيناء » بالكسر والمد . ﴿ **وهذا البلد الأمين** ﴾ يعنى : مكة . سماه أميناً لأنه آمن، كما قال : ﴿ أنَّا جعلنا حرماً آمناً ﴾ [العنكبوت: ٦٧] . يقال : أمن الرجل أمانة فهو أمين . قال الفراء وغيره : الأمين بمعنى الآمن . ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه ؛ لأنه مأمون الغوائل .

﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ هذا جواب القسم ، أى خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم وتعديل. قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله خلق كل ذى روح مكباً على وجهه إلا الإنسان ، خلقه مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده . ومعنى التقويم : التعديل . يقال : قومته فاستقام . قال القرطبى : هو اعتداله واستواء شأنه . كذا قال عامة المفسرين . قال ابن العربى : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيا ، عالما ، قادرا ، مريدا ، متكلما ، سميعا ، بصيرا ، مدبرا ، حكيما . وهذه صفات الرب سبحانه . وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته » (١) يعنى على صفاته التى

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٦١٢/ ١١٥) .

تقدم ذكـرها . قلت: وينبغي أن يضـم إلى كلامـه هـذا قوله سبحانه: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] وقوله : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ [طه : ١١٠] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع ، فلينظر فى كتاب : « العبر والاعتبار » للجاحظ . وفى الكتاب الذى عقده النيسابورى على قوله : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ٢١] وهو في مجلدين ضخمين .

﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ أى رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم والضعف ، بعد الشباب والقوة ، حتى يصير كالصبى ، فيخرف وينقص عقله . كذا قال جماعة من المفسرين . قال الواحدى : والسافلون : هم الضعفاء ، والزمناء ، والأطفال . والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً . وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى : ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات ، بعضها أسفل من بعض . فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة . ولا ينافى هذا قوله تعالى : ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء : ٤٥] فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسفل . وقوله : ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ إما حال من المفعول ، أى رددناه حال كونه أسفل سافلين ، أو صفة لمقدر محذوف ، أى مكانا أسفل سافلين . ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، أى لكن الذين آمنوا . . . إلخ . ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر ، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى . وعلى القول الثانى يكون الاستثناء متصلا من ضمير ﴿ **رددناه** ﴾ ، فإنه فى معنى الجمع ، أى رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾ أى غير مقطوع ، أى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم . فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى القول الثانى مقررة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد . وقال: ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ على الجمع ؛ لأن الإنسان فى معنى الجمع . ولو قال : أسفل سافل لجاز ؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد . وقيل : معنى ﴿ **رددناه أسفل سافلين** ﴾ : رددناه إلى الضلال ، كما قال : ﴿ إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [العصر: ٢ ، ٣] أى إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك .

﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ الخطاب للإنسان الكافر . والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة ، أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك فى أحسن تقويم ، وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ؟ وقيل : الخطاب للنبى ﷺ ، أى أىّ شىء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة ، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين . قال الفراء والأخفش : المعنى : فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين . كأنه قال : من يقدر على ذلك ؟ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر . واختار هذا ابن جرير . والدين : الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

دنا تميماً كما كانت أوائلنا   دانت أوائلهم من سالف الزمن

وقال الآخر :

ولما صرح الشر   فأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا   ن دنّاهم كما دانوا

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أى أليس الذى فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ؟ حتى تتوهم عدم الإعادة والجزاء . وفيه وعيد شديد للكفار . ومعنى ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ : أتقن الحاكمين فى كل ما يخلق . وقيل: أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً . والاستفهام إذا دخل على النفى صار الكلام إيجاباً كما تقدم تفسير قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : ١] .

وقد أخرج الخطيب وابن عساكر ، قال السيوطى : بسند فيه مجهول ، عن الزهرى عن أنس قال : لما أنزلت سورة ﴿التين والزيتون ﴾ على رسول الله ﷺ ، فرح فرحا شديدا ، حتى تبين لنا شدة فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها، فقال : التين : بلاد الشام . والزيتون : بلاد فلسطين . وطور سيناء : الذى كلم الله عليه موسى . ﴿وهذا البلد الأمين ﴾ : مكة ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ : محمدا ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين﴾: عبدة اللات والعزى . ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ﴿فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ إذ بعثك فيهم نبياً ، وجمعك على التقوى يا محمد . ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون فى إسناده ذلك المجهول .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال : مسجد نوح الذى بنى على الجودى ﴿ والزيتون ﴾ قال : بيت المقدس ﴿وطور سينين ﴾ قال : مسجد الطور . ﴿وهذا البلد الأمين ﴾ قال: مكة ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : يرد إلى أرذل العمر ، كبر حتى ذهب عقله . هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فسئل رسول الله ﷺ حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذى عملوا قبل أن تذهب عقولهم . ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ يقول : بحكم الله . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال : الفاكهة التى يأكلها الناس ﴿وطور سينين ﴾ قال : الطور : الجبل . السينين : المبارك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ﴿ سينين ﴾ : هو الحسن . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ قال : فى أعدل خلق ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : إلى أرذل العمر ﴿ إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ يعنى : غير منقوص . يقول : فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل فى شبابه عملاً صالحاً ، كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته وشبابه ، ولم يضره ما عمل فى كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التى يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن ، لم يرد إلى أرذل العمر ، وذلك قوله : ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال : لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿**ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ يقول : إلى الكبر وضعفه . فإذا كبر وضعف عن العمل ، كتب له مثل أجر ما كان يعمل فى شبيبته . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيماً»[1] . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا : « من قرأ : ﴿ **التين والزيتون** ﴾ فقرأ : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » [2] . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا : « إذا قرأت: ﴿ **التين والزيتون** ﴾ فقرأت : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ فقل : بلى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا قرأ: ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ قال : سبحانك اللهم فبلى . ا . هـ .

---

(١) أحمد ٤/ ٤١٠ والبخارى فى الجهاد (٢٩٩٦) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٤٧) .

تفسير سورة اقرأ

ويقال : سورة العلق . وهى تسع عشرة آية . وقيل : عشرون آية . وهى مكية بلا خلاف. وهى أول ما نزل من القرآن. وأخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس ، قال : أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة ،وابن الضريس وابن الأنبارى والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن أبى موسى الأشعرى قال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أول سورة أنزلت على محمد(١). وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى وصححه عن عائشة قالت : إن أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾(٢) ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل ، الحديث الطويل الثابت فى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه : «فجاءه الحق وهو فى غار حراء فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ . . . » الحديث (٣) . وفى الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ اقرأ ﴾ بسكون الهمزة أمرًا من القراءة ، وقرأ عاصم فى رواية عنه بفتح الراء ، وكأنه قلب الهمزة ألفا ، ثم حذفها للأمر . والأمر بالقراءة يقتضى مقروءًا فالتقدير : اقرأ ما يوحى إليك ، أوما نزل عليك ، أو ما أمرت بقراءته وقوله : ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أى اقرأ ملتبسًا باسم ربك ، أو مبتدئًا باسم ربك ، أو مفتتحًا . ويجوز أن تكون الباء زائدة ، والتقدير : اقرأ اسم ربك ، كقول الشاعر :

سود المحاجر لا يَقْرأن بالسور

---

(١) ابن أبي شيبة (١٠٢٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٢ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٥٦ .

(٢) ابن جرير ٣٠/ ١٦١ وصححه الحاكم ٢/ ٥٢٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩/ ٦.

(٣) البخارى فى بدء الوحى (٣) ومسلم فى الإيمان (١٦٠/ ٢٥٢).

قاله أبو عبيدة . وقال أيضا : الاسم صلة ، أى اذكر ربك وقيل : الباء بمعنى على ، أى اقرأ على اسم ربك ، يقال: افعل كذا باسم اللّه ، وعلى اسم اللّه . قاله الأخفش . وقيل : الباء للاستعانة ، أى مستعينًا باسم ربك . ووصف الرب بقوله: ﴿ **الذى خلق** ﴾ لتذكير النعمة؛ لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه يترتب سائر النعم . قال الكلبى : يعنى الخلائق. ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ يعنى : بنى آدم . والعلقة : الدم الجامد . وإذا جرى فهو المسفوح. وقال : ﴿ **من علق** ﴾ بجمع علق ؛ لأن المراد بالإنسان الجنس . والمعنى : خلق جنس الإنسان؛ من جنس العلق . وإذا كان المراد بقوله : ﴿**الذى خلق** ﴾ كل المخلوقات ، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفًا له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع . وإذا كان المراد بالذى خلق : الذى خلق الإنسان ، فيكون الثانى تفسيرًا للأول . والنكتة ما فى الإبهام ثم التفسير ، من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولا ، ثم فسر ثانيًا . ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم**﴾ أى افعل ما أمرت بـه من القـراءة وجملـة : ﴿ **وربك الأكـرم** ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله : « ما أنا بقارئ » يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ، وهو أمى . فقيل له: اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم . قال الكلبى: يعنى الحليم عن جهل العباد ، فلم يعجل بعقوبتهم . وقيل : إنه أمره بالقراءة أولا لنفسه ، ثم أمره بالقراءة ثانيًا للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد . والأول أولى.

﴿ **الذى علم بالقلم** ﴾ أى علم الإنسان الخط بالقلم . فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب . قال الزجاج : علم الإنسان الكتابة بالقلم . قال قتادة : القلم نعمة من اللّه عز وجل عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلح عيش . فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ونبه على فضل علم الكتاب لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة ، إلا بالكتابة . ولولا هى ما استقامت أمور الدين ، ولا أمور الدنيا . وسمى قلمًا؛ لأنه يقلم ، أى يقطع .﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ هذه الجملة بدل اشتمال من التى قبلها ، أى علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها . قيل : المراد بالإنسان هنا : آدم كما فى قوله : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة: ٣١] . وقيل : الإنسان هنا :رسول الله ﷺ . والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى : أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم ، فقد علمه ما لم يعلم.

وقوله : ﴿ **كلا** ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه . وإن لم يتقدم له ذكر. ومعنى ﴿ **إن الإنسان ليطغى** ﴾ : أنه يجاوز الحد ، ويستكبر على ربه . وقيل : المراد بالإنسان هنا : أبو جهل . وهو المراد بهذا وما بعده . . . إلى آخر السورة . وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة فى أول هذه السورة . وقيل :﴿ **كلا** ﴾ هنا بمعنى حقًا. قاله الجرجانى .وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شىء يكون «كلا» ردا له . وقوله :

﴿ **أن رآه استغنى** ﴾ علة ليطغى ، أى ليطغى أن رأى نفسه مستغنيًا ، أو لأن رأى نفسه مستغنيًا. والرؤية هنا بمعنى العلم . ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين فى فعلها لشيء واحد ؛ لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه . قال الفراء : لم يقل رأى نفسه، كما قيل : قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد اسمًا وخبرًا نحو الظن والحسبان . فلا يقتصر فيه على مفعول واحد والعرب تطرح النفس من هذا الجنس ، تقول : رأيتنى وحسبتنى، ومتى تراك خارجًا ، ومتى تظنك خارجًا . قيل :والمراد هنا : أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال. قرأ الجمهور :﴿ **أن رآه** ﴾ بمد الهمزة . وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها . قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا ، زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه . وكذا قال الكلبى .

ثم هدد سبحانه وخوف ، فقال : ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ ، أى المرجع . والرجعى والمرجع والرجوع مصادر . يقال : رجع إليه مرجعًا ورجوعًا ورجعى . وتقدم الجار والمجرور للقصر ، أى الرجعى إليه سبحانه ، لا إلى غيره . ﴿**أرأيت الذى ينهى . عبدًا إذا صلى** ﴾ قال المفسرون : الذى ينهى : أبو جهل . والمراد بالعبد : محمد ﷺ . وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله ، حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية . ﴿ **أرأيت إن كان على الهدى** ﴾ يعنى: العبد المنهى إذا صلى ، وهو محمد ﷺ . ﴿ **أو أمر بالتقوى** ﴾ أى بالإخلاص والتوحيد، والعمل الصالح الذى تتقى به النار . ﴿ **أرأيت إن كذب وتولى** ﴾ يعنى أبا جهل . كذب بما جاء به رسول الله ﷺ ، وتولى عن الإيمان .

وقوله : ﴿ **أرأيت** ﴾ فى الثلاثة المواضع بمعنى أخبرنى ؛ لأن الرؤية كما كانت سببا للإخبار عن المرئى ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها . والخطاب لكل من يصلح له . وقد ذكر هنا :﴿ **أرأيت** ﴾ ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها . بجملة استفهامية ، فتكون فى موضع المفعول الثانى لها . ومفعولها الأول محذوف ، وهو ضمير يعود على﴿ **الذى ينهى** ﴾ الواقع مفعولا أول لـ﴿ **أرأيت** ﴾ الأولى ، ومفعول ﴿ **أرأيت**﴾ الأولى الثانى محذوف . وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد ﴿ **أرأيت** ﴾ الثانية . وأما ﴿**أرأيت**﴾ الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثانى ، حذف الأول لدلالة مفعول ﴿ **أرأيت** ﴾ الثالثة عليه ، فقد حذف الثانى من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية. وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع ؛ لأنه يستدعى إضمارًا ، والجمل لا تضمر ، إنما تضمر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة . وأما جواب الشرط المذكور مع ﴿**أرأيت** ﴾ فى الموضعين الآخرين فهو محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ ، وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى . ومعنى ﴿ **ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ أى يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟

والاستفهام للتقريع والتوبيخ . وقيل : ﴿ أرأيت ﴾ الأولى مفعولها الأول الموصول ، ومفعولها الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور . و﴿ أرأيت ﴾ فى الموضعين تكرير للتأكيد . وقيل :كل واحدة من ﴿ أرأيت ﴾ بدل من الأولى . و ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ الخبر .

قوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للناهى . واللام فى قوله : ﴿ لئن لم ينته ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ السفع : الجذب الشديد . والمعنى : لنأخذن بناصيته ، ولنجرنه إلى النار . وهذا قوله: ﴿ فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ [الرحمن : ٤١] ويقال : سفعت الشىء : إذا قبضته وجذبته. . ويقال :سفع بناصية فرسه. قال الراغب : السفع : الأخذ بسفعة الفرس ، أى بسواد ناصيته . وباعتبار السواد . وقيل : به سفعة غضب. اعتباراً بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتد به الغضب . . وقيل للصقر : أسفع . لما فيه من لمع السواد . وامرأة سفعاء اللون . انتهى . وقيل : هو مأخوذ من سفع النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى سواد ، ومنه قول الشاعر :

أثافى سفعًا فى معرس مرجل

وقوله : ﴿ ناصية ﴾ بدل من الناصية . وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله : ﴿كاذبة خاطئة ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين ، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة ، إلا بشرط وصفها ، وأما على مذهب البصريين فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط ، وأنشدوا:

فلا وأبيك خير منك إنى ليؤذينى التحمحم والصهيل

قرأ الجمهور بجر :﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ والوجه ما ذكرنا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ، أى هى ناصية . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة وزيد بن على بنصبها على الذم . قال مقاتل : أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ ، فقال : ناصية كاذبة خاطئة . تأويلها : صاحبها كاذب خاطئ . ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى أهل ناديه . والنادى : المجلس الذى يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة . والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، ومنه قول الشاعر :

واستب بعدك يا كليب المجلس

أى أهله . قيل : إنا أبا جهل قال لرسول الله ﷺ :أتهددنى وأنا أكثر الوادى ناديًا ؟ فنزلت : ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ أى الملائكة الغلاظ الشداد كذا قال الزجاج . قال الكسائى والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم : زابن. وقال أبو عبيدة : زبنية . وقيل : زبانى . وقيل : هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابيل . وقال قتادة: هم الشرط فى كلام العرب . وأصل الزبن : الدفع ، ومنه قول الشاعر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ... ولو زبنته الحرب لم يترمرم

والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه ، ومنه قول الشاعر :

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى ... زبانية غلب عظام حلومها

قرأ الجمهور: ﴿ سندع ﴾ بالنون ، ولم ترسم الواو كما فى قوله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ [القمر : ٦] . وقرأ ابن أبى عبلة: « سيدعى » على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة. ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿كلا لا تطعه ﴾ أى لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ أى صل لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه ﴿ واقترب ﴾ أى تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى : إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء . وقال زيد ابن أسلم : واسجد أنت يا محمد ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار . والأولى أولى . والسجود هذا ، الظاهر أن المراد به : الصلاة . وقيل : سجود التلاوة . ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية كما سيأتى إن شاء الله .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، وأبو نعيم فى الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : أتى جبريل محمداً ﷺ فقال : يا محمد ، اقرأ . فقال : « وما أقرأ ؟ » فضمه ثم قال : يا محمد ، اقرأ قال : « وما أقرأ ؟ » قال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ [(١)] . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة : فجاءه الملك فقال : اقرأ فقال: « قلت :ما أنا بقارئ » قال : « فأخذنى فغطنى، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى» فقال :اقرأ. فقلت: « ما أنا بقارئ ، فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى » ، فقال : اقرأ . فقلت : « ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد» ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ﴾ الآية.[(٢)]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه . فبلغ النبى ﷺ فقال : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا » [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد والترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : كان النبى ﷺ يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر ناديًا منى . فأنزل الله: ﴿فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ فجاء النبى ﷺ يصلى ، فقيل : ما يمنعك؟ فقال : قد اسود ما بينى وبينه[(٤)]. قال ابن عباس :

(١) ابن أبى شيبة (١٨٤٠٢) وابن جرير ٣٠/١٦٢ .
(٢) البخارى فى بدء الوحى (٣) ومسلم فى الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) .
(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٥٨) وابن جرير ٣٠ / ١٦٣ .
(٤) ابن أبى شيبة (١٨٤١١) وأحمد ١ / ٢٥٦ والترمذى فى التفسير (٣٣٤٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » وابن جرير ٣٠ / ١٣٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه موسى بن سهل وهو ضعيف » .

والله لو تحرك ، لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : واللات والعزى ، لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه فى التراب . فأتى رسول الله ﷺ ، وهو يصلى ليطأ على رقبته . قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيده . فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقًا من نار وهولا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله : ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى**﴾ إلى آخر السورة . يعنى أبا جهل [١] . ﴿**فليدع ناديه**﴾ يعنى : قومه . ﴿ **سندع الزبانية** ﴾ يعنى : الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أرأيت الذى ينهى .عبداً إذا صلى** ﴾ قال : أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله ﷺ بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله: ﴿**لنسفعًا**﴾ قال : لنأخذن . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا : ﴿ **فليدع ناديه** ﴾ قال : ناصره . وقد قدمنا أن النبى ﷺ كان يسجد فى :﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفى ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ .

(١) أحمد ٢ / ٣٧٠ ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٧ / ٣٨) والنسائى فى التفسير (٧٠٣) وابن جرير ٣٠ / ١٦٥ .

تفسير سورة القدر

هى خمس آيات . وهى مكية عند أكثر المفسرين : كذا قال الماوردى . وقال الثعلبى : هى مدنية فى قول أكثر المفسرين . وذكر الواقدى أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة ؛ أنها نزلت بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ .

الضمير فى : ﴿ **أنزلناه** ﴾ للقرآن ، وإن لم يتقدم له ذكر . أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبى ﷺ نجومًا على حسب الحاجة. وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون سنة . وفى آية أخرى: ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ [الدخان : ٣] وهى ليلة القدر ، وفى آية أخرى : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : ١٨٥] وليلة القدر فى شهر رمضان . قال مجاهد: ﴿ **فى ليلة القدر** ﴾ ليلة الحكم . ﴿ **وما أدراك ما ليلة القدر** ﴾ : ليلة الحكم . قيل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة . وقيل : إنها سميت بذلك ؛ لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم: لفلان قدر ، أى شرف ومنزلة ، كذا قال الزهرى . وقيل : سميت بذلك ؛ لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا ، وثوابا جزيلا . وقال الخليل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه﴾ [الطلاق : ٧] أى ضيق . وقد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولا قد ذكرناها بأدلتها ، وبينا الراجح منها فى شرحنا للمنتقى .

﴿ **وما أدراك ما ليلة القدر** ﴾ هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق ، لا يدريها إلا الله سبحانه . قال سفيان : كل مافى القرآن من قوله : ﴿ **وما أدراك** ﴾ فقد أدراه . وكل ما فيه ﴿ وما يدريك ﴾ [عبس : ٣] فلم يدره وكذا قال الفراء . والمعنى : أى شيء تجعله داريا بها ؟ وقد قدمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة: ٣] ثم قال : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ ، قال كثير من المفسرين : أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . واختار هذا الفراء والزجاج ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع . فلما جعل الله الخير الكثير فى ليلة كانت خيرا من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما فى هذه الليلة . وقيل : أراد بقوله : ألف شهر : جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف فى كثير من

الأشياء على طريق المبالغة. وقيل : وجه ذكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر . وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها . وقيل : إن النبى ﷺ رأى أعمار أمته قصيرة ، فخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر . فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم . وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

وجملة : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾ مستأنفة مبينة لوجه فضلها ، موضحة للعلة التى صارت بها خيرا من ألف شهر .

وقوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ يتعلق بـ ﴿ تنزل ﴾ أو بمحذوف هو حال ، أى ملتبسين بإذن ربهم . والإذن : الأمر . ومعنى ﴿ تنزل ﴾ تهبط من السموات إلى الأرض . والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين ، أى : تنزل الملائكة ومعهم جبريل . ووجه ذكره بعد دخوله فى الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه . وقيل : الروح : صنف من الملائكة هم أشرافهم. وقيل: هم جند من جنود الله من غير الملائكة . وقيل : الروح : الرحمة . وقد تقدم الخلاف فى الروح عند قوله: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ [النبأ : ٣٨] . قرأ الجمهور : ﴿تنزل ﴾ بفتح التاء . وقرأ طلحة بن مصرف، وابن السميفع بضمها على البناء للمفعول . وقوله : ﴿ من كل أمر ﴾ أى من أجل كل أمر من الأمور التى قضى الله بها فى تلك السنة . وقيل : إن ﴿ من ﴾ بمعنى اللام ، أى لكل أمر . وقيل :هى بمعنى الباء ، أى بكل أمر . قرأ الجمهور: ﴿أمر﴾ وهو واحد الأمور . وقرأ على وابن عباس وعكرمة والكلبى ، « امرئ » مذكر امرأة ، أى من أجل كل إنسان . وتأولها الكلبى على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان فمن على هذا بمعنى على ، والأول أولى.

وقد تم الكلام عند قوله : ﴿ من كل أمر ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ سلام هى ﴾ أى ما هى إلا سلامة ، وخير كلها لا شر فيها . وقيل : هى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن أو مؤمنة . قال مجاهد : هى ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى . وقال الشعبى : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، يمرون على كل مؤمن ، ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقيل : يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض . قال عطاء : يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته ﴿حتى مطلع الفجر ﴾ أى حتى وقت طلوعه . قرأ الجمهور : ﴿ مطلع ﴾ بفتح اللام . وقرأ الكسائى وابن محيصن بكسرها . فقيل : هما لغتان فى المصدر ، والفتح أكثر نحو : المخرج والمقتل . وقيل : بالفتح اسم مكان ، وبالكسر المصدر . وقيل العكس . و « حتى » متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل، أى لمكثهم فى محل تنزلهم بألا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر . وقيل : متعلقة بـ ﴿ سلام ﴾ بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله

بالمبتدأ مغتفر .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم . وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل فى ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر . وأخرج الترمذى وضعفه وابن جرير والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ أن النبى ﷺ أرى بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك (١) . فنزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر: ١] يا محمد . يعنى : نهرا فى الجنة . ونزلت : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر .ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ يملكها بعدك بنو أمية (٢) .

قال القاسم : فعددنا فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما . والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور فى إسناده . قال الترمذى :إن يوسف هذا مجهول ، يعنى يوسف بن سعد الذى رواه عن الحسن بن على . قال ابن كثير : فيه نظر ، فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ، ويونس بن عبيد، وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور . وفى رواية عن ابن معين قال : هو ثقة . ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن . قال ابن كثير : ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جدًا . قال المزى : هو حديث منكر . وقول القاسم بن الفضل : إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد ولا تنقص ، ليس بصحيح ، فإن جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية ، وهى سنة أربعين ، إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهى سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة .

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن على وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسلا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سلام** ﴾ قال : فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن ، وتفتح فيها أبواب السماء كلها ، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب . فلذا قال : ﴿**سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾ . قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر . والأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، وكذلك الأحاديث فى تعيينها ، والاختلاف فى ذلك .

---

(١) ابن جرير ٣٠/١٦٦ وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣١ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٥٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل » وابن جرير ٣٠/١٦٧ والطبرانى (٢٥٧٤) وصححه الحاكم ٣/ ١٧٠ ، ١٧١ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٥٠٩ ، ٥١٠.

تفسير سورة لـم يكـن

هى ثمان آيات . وهى مدنية فى قول الجمهور . وقيل : مكية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ لم يكن ﴾ بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة « لم يكن» بمكة . وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل بن أبى حكيم المزنى، حدثنى فضل ، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «إن اللّه يستمع قراءة :﴿ لم يكن الذين كفروا﴾ فيقول : أبشر عبدى ، وعزتى وجلالى لأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » قال ابن كثير : حديث غريب جدا . وأخرجه أبو موسى المدينى عن مطر المزنى ، أو المدنى بنحوه [(١)] .

وأخـرج البخـارى ومسلم وغيرهما عن أنس ، قـال : قال رسول اللّه ﷺ لأبى بن كـعب : « إن اللّه أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ » قال : وسمانى لك ؟ قال : « نعم » . فبكى [(٢)] . وأخرج أحمد وابن قانع فى معجم الصحابة والطبرانى وابن مردويه عن أبى حية البدرى قال : لما نزلت : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب. . .﴾ إلى آخرها قال جبريل : يا رسول اللّه ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا . فقال النبى ﷺ لأبى: « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة » فقال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول اللّه ؟ قال : « نعم » . فبكى [(٣)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾ .

المراد بـ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ : اليهود والنصارى . والمراد بـ ﴿ المشركين﴾: مشركو العرب، وهم عبدة الأوثان . و ﴿ منفكين ﴾ خبر كان . يقال فككت الشىء فانفك ،

---

(١) ابن كثير ٧/ ٣٤٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٥٩) ومسلم فى فضائل الصحابة (٧٩٩/ ١٢١ ، ١٢٢) والترمذى فى المناقب (٣٧٩٢) .

(٣) أحمد ٣/ ٤٨٩ والطبرانى ٢٢/ ٣٢٧ .

أى انفصل . والمعنى : أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عنه . ﴿ **حتى تأتيهم البينة**﴾ وقيل : الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية، أى لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة . وقيل : منفكين : زائلين ، أى لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة . يقال : ما انفك فلان قائما ، أى ما زال قائما . وأصل الفك : الفتح . ومنه فك الخلخال . وقيل : منفكين : بارحين . أى لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : المعنى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ حتى بعث . فلما بعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : ٨٩] وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ **والمشركين** ﴾ أنهم ما كانوا يسيؤون القول فى محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه «الأمين» فلما بعث ، عادوه ، وأساؤوا القول فيه . وقيل: منفكين : هالكين . من قولهم : انفك صلبه ، أى انفصل . فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم . وقيل : إن المشركين هم أهل الكتاب ، فيكون وصفا لهم ؛ لأنهم قالوا : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله .

قال الواحدى : ومعنى الآية : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان . وهذا بيان عن النعمة والإنقاذ به من الجهل والضلالة . والآية فيمن آمن من الفريقين. قال : وهذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما وتفسيرا ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، وسلكوا فى تفسيرها طرقا لا تفضى بهم إلى الصواب . والوجه ما أخبرتك ، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال . قال : ويدل على أن البينة محمد ﷺ أنه فسرها وأبدل منها ، فقال : ﴿ **رسول من الله يتلو صحفا مطهرة** ﴾ يعنى ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن . ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب انتهى كلامه . وقيل : إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون : أنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبى الموعود به. فلما بعث ، تفرقوا كما حكاه الله عنهم فى هذه السورة . والبينة على ما قاله الجمهور هو محمد ﷺ لأنه فى نفسه بينة وحجة . ولذلك سماه سراجا منيرا . وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله : ﴿ **رسول من الله**﴾ فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة . وقال قتادة وابن زيد : البينة هى القرآن كقوله : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ [طه : ١٣٣] وقال أبو مسلم : المراد بالبينة : مطلق الرسل ، والمعنى : حتى تأتيهم رسل من الله ، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة . والأولى أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين** ﴾ وقرأ ابن مسعود : «لم يكن المشركون وأهل الكتاب » . قال ابن العربى: وهى قراءة فى معرض البيان ، لا فى معرض التلاوة . وقرأ الأعمش، والنخعى :« والمشركون » بالرفع عطفا على الموصول . وقرأ أُبى : « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون » . قرأ الجمهور : ﴿ **رسول من**

الله﴾ برفع ﴿ **رسول** ﴾ على أنه بدل كل من كل مبالغة ، أو بدل اشتمال . قال الزجاج: رسول رفع على البدل من البينة . وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ،أى هى رسول، أو هو رسول . وقرأ أبى وابن مسعود : « رسولا » بالنصب على القطع وقوله : ﴿ **من الله**﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول ، أى كائن من الله ، ويجوز تعلقه بنفس رسول . وجوز أبو البقاء أن يكون حالا من « صحف » . والتقدير : يتلو صحفًا مطهرة منزلة من الله . وقوله : ﴿ **يتلو صحفا مطهرة** ﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول ، أو:حالا من متعلق الجار والمجرور قبله . ومعنى ﴿ **يتلو** ﴾ : يقرأ . يقال : تلا يتلو تلاوة . والصحف :جمع صحيفة. وهى ظرف المكتوب .ومعنى ﴿ **مطهرة** ﴾ أنها منزهة من الزور والضلال. قال قتادة من الباطل. وقيل : مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد . والمعنى : أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، لأنه كان ﷺ يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب كما تقدم.

وقوله :﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ صفة لـ﴿ **صحفا** ﴾، أو حال من ضميرها . والمراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة ، من قول العرب : قام الشىء : إذا استوى وصح . وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله :﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١] أى حكم . وقوله ﷺ فى قصة العسيف : « لأقضين بينكما بكتاب الله » . ثم قضى بالرجم ، وليس الرجم فى كتاب الله . فالمعنى : لأقضين بينكما بحكم الله. وبهذا يندفع ما قيل إن الصحف هى الكتب ، فكيف قال : ﴿ **صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة** ﴾ ؟ وقال الحسن : يعنى بالصحف المطهرة التى فى السماء ، يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قـوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لـوح محفوظ ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢] .

﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمدًا . فلما بعث، تفرقوا فى أمره ، واختلفوا ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون . وخص أهل الكتاب وإن كان غيرهم مثلهم فى التفرق بعد مجىء البينة، لأنهم كانوا أهل علم. فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف . والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾ مفرغ من أعم الأوقات، أى وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة ، وهى بعثه رسول الله ﷺ بالشريعة الغراء والمحجة البيضاء . وقيل: البينة : البيان الذى فى كتبهم أنه نبى مرسل كقوله : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ [آل عمران : ١٩] قال القرطبى : قال العلماء : من أول السورة قوله : ﴿**كتب قيمة** ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : ﴿ **وما تفرق . .** ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وجملة : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة ، أى والحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحدوه حال كونهم ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أى جاعلين دينهم خالصا له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين . وقيل : إن اللام فى :﴿ ليعبدوا﴾ بمعنى « أن » أى ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء : ٢٦] أى أن يبين و ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ [الصف : ٨] أى أن يطفئوا . قرأ الجمهور : ﴿مخلصين﴾ بكسر اللام . وقرأ الحسن بفتحها . وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات ، لأن الإخلاص من عمل القلب . وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال من ضمير ﴿ مخلصين ﴾ ، فتكون من باب التداخل . ويجوز أن تكون من فاعل « يعبدوا » . والمعنى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال أهل اللغة : أصله أن يحنف إلى دين الإسلام، أى يميل إليه . ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أى يفعلوا الصلوات فى أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند محلها . وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين . قيل : إن أريد بالصلاة والزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر . وإن أريد ما فى شريعتنا ، فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين : أمرهم باتباع شريعتنا . وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها . ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أى وذلك المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقام الصلاة والزكاة ﴿ دين القيمة ﴾ أى دين الملة المستقيمة . قال الزجاج : أى ذلك دين الملة المستقيمة . فالقيمة صفة لموصوف محذوف . قال الخليل : القيمة جمع القيم ، والقيم :القائم . قال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة . وهو نعته ، لاختلاف اللفظين . وقال أيضا : هو من إضافة الشيء إلى نفسه . ودخلت الهاء للمدح والمبالغة .

ثم بين سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا ، فقال : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم ﴾ . الموصول اسم « إن » و ﴿ المشركين ﴾ معطوف عليه . وخبرها ﴿ فى نار جهنم ﴾ و﴿خالدين فيها ﴾ حال من المستكن فى الخبر . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ والمشركين ﴾ مجروراً عطفا على أهل الكتاب. ومعنى كونهم فى نار جهنم : أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . والإشارة بقوله : ﴿أولئك ﴾ إلى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون فى نار جهنم والخلود فيها ﴿ هم شر البرية ﴾ أى الخليقة . يقال : برأ ، أى خلق . والبارئ : الخالق . والبرية : الخليقة . قرأ الجمهور : ﴿البرية ﴾ بغير همز فى الموضعين . وقرأ نافع وابن ذكوان فيهما بالهمز. قال الفراء : إن أخذت البرية من : البراء ، وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ . وإن أخذتها من : بريت القلم ، أى قدرته ، دخلت . وقيل : إن الهمز هو الأصل ، لأنه يقال : برأ الله الخلق بالهمز ، أى ابتدعه واخترعه . ومنه قوله : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد : ٢٢] ولكن خففت الهمزة ، والتزم تخفيفها عند عامة العرب .

ثم بين حال الفريق الآخر فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿**أولئك** ﴾ المنعوتون بهذا ﴿ **هم خير البرية** ﴾ قال : والمراد : أن أولئك شر البرية فى عصره ﷺ . ولا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم . ﴿**جزاؤهم عند ربهم** ﴾ أى ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . والمراد بجنات عدن : هى أوسط الجنات وأفضلها . يقال : عدن بالمكان يعدن عدنًا ، أى أقام . ومعدن الشيء :مركزه ومستقره . ومنه قول الأعشى :

وإن يستضافوا إلى علمه يضافوا إلى راجح قد عدن

وقد قدمنا فى غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر . وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر ، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر . ﴿ **خالدين فيها أبدا**﴾ لا يخرجون منها ، ولا يظعنون عنها ، بل هم دائمون فى نعيمها ، مستمرون فى لذاتها ، ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل اللّه به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء . وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره ، وقبلوا شرائعه. ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ويجوز أن تكون الجملة خبرًا ثانيًا ، وأن تكون فى محل نصب على الحال بإضمار قد. ﴿**ذلك لمن خشى ربه** ﴾ أى ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية للّه سبحانه فى الدنيا ، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التى وقعت له ، لا مجرد الخشية مع الانهماك فى معاصى اللّه سبحانه ، فإنها ليست بخشية على الحقيقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **منفكين** ﴾ قال : برحين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: أتعجبون من منزلة الملائكة من اللّه ؟ والذى نفسى بيده ، لمنزلة العبد المؤمن عند اللّه يوم القيامة أعظم من منزلة ملك . واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريـة** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت : يا رسول اللّه ، من أكرم الخلق على الله؟ قال : « ياعائشة ، أما تقرئين : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** ﴾ » . وأخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه ، قال: كنا عند النبى ﷺ فأقبل علىّ ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » ونزلت: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾، فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل قالوا : قد جاء خير البرية . وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعا : « على خير البرية » [(١)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾

---

(١) ابن عدى ١/ ١٧٠ .

قال رسول اللّه ﷺ لعلى : « هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » . وأخرج ابن مردويه عن على مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل اللّه، كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بشر البرية ؟» قالوا : بلى . قال : « الذى يسأل باللّه ولا يعطى به » [1] . قال أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة ، قال : قال رسول اللّه ﷺ . . فذكره .

(١) أحمد ٢/٣٩٦ .

تفسير سورة الزلزلة

هي ثمان آيات . وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ بالمدينة . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عَمْرو قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال :أقرئني يا رسول الله . قال : « اقرأ ثلاثًا من ذوات الراء » . فقال الرجل : كبر سني ، واشتد قلبي ، وغلظ لساني . قال : « اقرأ ثلاثًا من ذوات حم » . فقال مثل مقالته الأولى . فقال : « اقرأ ثلاثًا من المسبحات » . فقال مثل مقالته الأولى، وقال : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ حتى فرغ منها. قال الرجل : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » [(١)] . وأخرج الترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله : « من قرأ: ﴿ **إذا زلزلت الأرض** ﴾ عدلت له بنصف القرآن ، ومن قـرأ : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ عدلت له بثلث القرآن، ومن قرأ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عدلت له بربع القرآن » [(٢)] .

وأخرج الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ تعدل نصف القرآن ، و﴿ **قل هو الله أحد**﴾ تعدل ثلث القرآن . و﴿ **قل يأيها الكافرون**﴾ تعدل ربع القرآن » [(٣)] . قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجت يا فلان ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندي ما أتزوج به . قال : « أليس معك ﴿قل هو الله أحد ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : «ثلث القرآن ». قال: « أليس معك ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ **إذا زلزلت الأرضَ** ﴾ ؟ » قال : بلـى . قـال : « ربع القرآن . تزوج » . قال الترمذي : هذا حديث حسن [(٤)] . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ في

---

(١) أحمد ٢/ ١٦٩ وأبو داود في الصلاة (١٣٩٩) والنسائي في الكبرى في فضائل القرآن (٨٠٢٧) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٢٢٨٢) .

(٢) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٣) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سَلْم » والبيهقي في الشعب (٢٢٨٦) .

(٣) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٤) وصححه الحاكم ١/ ٥٦٦ وقال الذهبي : « بل يمان ضعفوه » والبيهقي في الشعب (٢٢٨٤) وإسناده ضعيف .

(٤) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٥) .

ليلة : ﴿ إذا زلزلت ﴾ كان له عدل نصف القرآن » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ⑧﴾ .

قوله : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أى إذا حركت حركة شديدة . وجواب الشرط : ﴿ تحدث ﴾ . والمراد : تحركها عند قيام الساعة ، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها قال مجاهد : وهى النفخة الأولى لقوله تعالى : ﴿يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات : ٦، ٧] وذكر المصدر للتأكيد ، ثم أضافه إلى الأرض ، فهو مصدر مضاف إلى فاعله ، والمعنى : زلزالها المخصوص الذى يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها . قرأ الجمهور : ﴿زلزالها ﴾ بكسر الزاى . وقرأ الجحدرى وعيسى بفتحها . وهما مصدران بمعنى . وقيل : المكسور مصدر ، والمفتوح اسم . قال القرطبى : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال . ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها﴾ أى ما فى جوفها من الأموات والدفائن . والأثقال: جمع ثقل . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها . وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها . قال مجاهد : أثقالها : موتاها تخرجهم فى النفخة الثانية . وقد قيل للإنسان والجن : الثقلان . وإظهار الأرض فى موضع الإضمار لزيادة التقرير .

﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ أى قال كل فرد من أفراد الإنسان : ما لها زلزلت ؟ لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها . وقيل : المراد بالإنسان : الكافر . وقوله : ﴿ مالها ﴾ مبتدأ وخبر . وفيه معنى التعجيب ، أىْ أىّ شيء لها؟ أو لأى شيء زلزلت وأخرجت أثقالها ؟ وقوله : ﴿ يومئذ ﴾ بدل من « إذا » . والعامل فيهما قوله : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ ويجوز أن يكون العامل فى « إذا » محذوفًا ، والعامل فى ﴿ يومئذ ﴾ تحدث . والمعنى : يوم إذا زلزلت وأخرجت ؛ تخبر بأخبارها ، وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر . وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة . أو بلسان المقال بأن ينطقها اللّه سبحانه . وقيل : هذا متصل بقوله : ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ أى قال : مالها تحدث أخبارها ؟ متعجبًا من ذلك. وقال يحيى بن سلام : تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها . وقيل : تحدث بقيام الساعة ، وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت . قال ابن جرير : تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة ، وإخراج الموتى . ومفعول تحدث الأول محذوف ، والثانى هو أخبارها . أى تحدث الخلق أخبارها . ﴿بأن ربك أوحى لها ﴾ متعلق بـ﴿تحدث ﴾ ، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها . وقيل : الباء زائدة . و« أن » وما فى حيزها بدل من ﴿ أخبارها ﴾ . وقيل : الباء سببية ، أى

بسبب إيحاء الله إليها . قال الفراء : تحدث أخبارها بوحى الله وإذنه لها . واللام فى ﴿ **أوحى لها** ﴾ بمعنى إلى . وإنما أثرت على « إلى » لموافقة الفواصل . والعرب تضع لام الصفة موضع إلى . كذا قال أبو عبيدة . وقيل : إن ﴿ **أوحى** ﴾ يتعدى باللام تارة ، وبـ« إلى » أخرى . وقيل : إن اللام على بابها من كونها للعلة . والموحى إليه محذوف ، وهو الملائكة. والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض ، أى لأجل ما يفعلون فيها . والأول أولى .

﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتًا** ﴾ الظرف إما بدل من ﴿ **يومئذ** ﴾ الذى قبله ، وإما منصوب بمقدر هو «اذكر» وإما منصوب بما بعده ، والمعنى : يومئذ يقع ما ذكر ، يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتًا ، أى متفرقين . والصدر : الرجوع . وهو ضد الورود . وقيل : يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار . وانتصاب ﴿ **أشتاتا** ﴾ على الحال . والمعنى : أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة ، وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد . وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين ، وبعضهم إلى جهة الشمال مع تفرقهم فى الأديان واختلافهم فى الأعمال . ﴿**ليروا أعمالهم** ﴾ متعلق بـ﴿**يصدر**﴾. وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم، ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتًا** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **ليروا** ﴾ مبنيًا للمفعول . وهو من رؤية البصر ، أى ليريهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن ، والأعرج ، وقتادة وحماد بن سلمة ونصر بن عاصم وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل. ورويت هذه القراءة عن نافع ، والمعنى : ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره** ﴾ أى وزن نملة . وهى أصغر ما يكون من النمل . قال مقاتل : فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرة خيرا ، يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به . وكذلك من يعمل فى الدنيا ﴿ **مثقال ذرة شرا يره** ﴾ يوم القيامة فيسوؤه . ومثل هذه الآية قوله : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [النساء : ٤٠] . وقال بعض أهل اللغة : إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب ، فهو الذرة . وقيل : الذر ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء . والأول أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فـوق الإتب منها لأثـرا

و « من » الأولى عبارة عن السعداء . و« من » الثانية عبارة عن الأشقياء . وقال محمد بن كعب : فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ، يرى ثوابه فى الدنيا ، وفى نفسه ، وماله ، وأهله ، وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن ، يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله ، ونفسه ، وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر . والأول أولى . قال مقاتل : نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول : إنما أوعد الله

النار على الكافرين . قرأ الجمهور : ﴿ يرهُ ﴾ فى الموضعين بضم الهاء وصلا ، وسكونها وقفًا. وقرأ هشام بسكونها وصلا ووقفًا . ونقل أبو حيان عن هشام وأبى بكر سكونها . وعن أبى عمرو ضمها مشبعة . وباقى السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية . وفى هذا النقل نظر . والصواب ما ذكرنا . وقرأ الجمهور : ﴿ يره ﴾ مبنيًا للفاعل فى الموضعين . وقرأ ابن عباس وابن عمر والحسن والحسين ابنا على وزيد بن على وأبو حيوة وعاصم والكسائى ، فى رواية عنهما ، والجحدرى والسلمى وعيسى على البناء للمفعول فيهما ، أى يريه اللّه إياه . وقرأ عكرمة : يراه على توهم أن « من » موصولة ، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة فى الفعل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ قال : تحركت من أسفلها . ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال : الموتى . ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ قال : الكافر يقول : مالها . ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : قال لها ربك : قولى . ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال : أوحى لها : ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ﴾ ، قال : من كل من هاهنا وهاهنا . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال : الكنوز والموتى . وأخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت . ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رحمى، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدى . ثم يدعونه ، فلا يأخذون منه شيئًا » (١) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قرأ رسول اللّه : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : «أتدرون ما أخبارها؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها . تقول : عمل كذا وكذا . فهذا أخبارها » (٢) .

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أنس أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها » . وقرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى بلغ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها﴾ (٣) .

وأخرج الطبرانى عن ربيعة الجرشى أن رسول اللّه قال : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أوشرا إلا وهى مخبرة » (٤) .

---

(١) مسلم فى الزكاة (١٠١٣/ ٦٢) والترمذى فى الفتن (٢٢٠٨) .

(٢) أحمد ٢/ ٣٧٤ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٧١٣) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٢ وقال الذهبى : « يحيى هذا منكر الحديث ، قاله البخارى » والبيهقى فى الشعب (٧٢٩٨) ط . الكتب العلمية .

(٣) البيهقى فى الشعب (٧٢٩٦) .

(٤) الطبرانى (٤٥٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٤٦ : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف ، وربيعة الجرشى مختلف فى صحبته » وقال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب ١/ ٢٤٧ : « وثقه الدارقطنى وغيره » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم فى تاريخه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى ﷺ ، إذ نزلت عليه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره**﴾. فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله إنى لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر . فقال: « يا أبا بكر ، أرأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك مثاقيل ذر الخيرحتى توفاه يوم القيامة ».(١) وأخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أبى أسماء قال : بينا أبو بكر يتغدى مع رسول الله ، إذ نزلت هذه الآية : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ فأمسك أبو بكر وقال : يا رسول الله ، ما عملنا من شيء رأيناه . فقال : « ما ترون مما تكرهون ، فذاك مما تجزون ، ويؤخر الخير لأهله فى الآخرة » (٢) . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أنزلت : ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ وأبو بكر الصديق قاعد ، فبكى . فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال : يبكينى هذه السورة . فقال : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم ، لخلق الله قومًا يخطئون ويذنبون ، فيغفر لهم » (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر. . .» الحديث . وقال : وسئل عن الحمر فقال : « ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة، الفاذة : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ » (٤).

---

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٧٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٤ ، ١٤٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه موسى ابن سهل ، والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف » وقال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب ٢/ ٢٨٤ : « هو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (٩٨٠٨) .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٣٣ وقال الذهبى : « مرسل » .

(٣) ابن جرير ٣٠/ ١٧٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٤ : « رواه الطبرانى وفيه حيى بن عبد الله المعافرى ، وثقه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » والبيهقى فى الشعب (٧١٠٣) عن ابن عمر .

(٤) البخارى فى الجهاد (٢٨٦٠) ومسلم فى الزكاة (٩٨٧/ ٢٤) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٨٨) .

تفسير سورة العاديات

هى إحدى عشرة آية . وهى مكية فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية فى قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة :﴿ والعاديات ﴾ بمكة .وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال:قال رسول الله ﷺ: « ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن ﴿والعاديات ﴾ تعدل نصف القرآن ». وهو مرسل. وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعًا مثله.وزاد:« و﴿قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن» .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾ .

العاديات : جمع عادية . وهى الجارية بسرعة من العدو ، وهو المشى بسرعة ، فأبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها ، كالغازيات من الغزو . والمراد بها : الخيل العادية فى الغزو نحو العدو . وقوله : ﴿ ضبحًا ﴾ مصدر مؤكد لاسم الفاعل. فإن الضبح نوع من السير ، ونوع من العدو . يقال : ضبح الفرس : إذا عدا بشدة، مأخوذ من الضبع، وهو الدفع ، وكأن الحاء بدل من العين . قال أبو عبيدة والمبرد : الضبح من إضباحها فى السير، ومنه قول عنترة :

والخيل تكدح فى حياض الموت ضبحا

ويجوز أن يكون مصدرًا فى موضع الحال ، أى ضابحات ، أو ذوات ضبح . ويجوز أن يكون مصدرًا لفعل محذوف، أى تضبح ضبحًا . وقيل : الضبح : صوت حوافرها إذا عدت . وقال الفراء : الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت . قيل : كانت تكعم لئلا تصهل ، فيعلم العدو بهم ، فكانت تتنفس فى هذه الحالة بقوة . وقيل : الضبح : صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ، ليس بصهيل . وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن ﴿العاديات ضبحًا﴾ : هى الخيل. وقال عبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدى : هى الإبل ، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع بأيديها إذا سطع الغبار

ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب ، فاستعير للخيل ، ومنه قول الشاعر :

تضبح فى الكف ضباح الثعلب

﴿ فالموريات قدحًا ﴾ هى الخيل حين تورى النار بسنابكها . والإيراء : إخراج النار . والقدح : الصك . فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد . قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل ، وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران. والكلام فى انتصاب ﴿ قدحا ﴾ كالكلام فى انتصاب ﴿ ضبحًا ﴾ والخلاف فى كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذى تقدم فى العاديات . والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة فى هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتى ، فإنها فى الخيل أوضح منها فى الإبـل ، وسيأتى مـا فـى ذلك من الخلاف بين الصحابة . ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ أى التى تغير على العدو وقت الصباح . يقال : أغار يغير إغارة : إذا باغت عدوه بقتل، أو أسر ، أو نهب . وأسند الإغارة إليها ، وهى لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم فى إغارتهم ، وانتصاب ﴿ صبحًا ﴾ على الظرفية .

﴿ فأثرن به نقعًا ﴾ معطوف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتى عدون فأثرن ، أو على اسم الفاعل نفسه ، لكونه فى تأويل الفعل ، لوقوعه صلة للموصول ، فإن الألف واللام فى الصفات أسماء موصولة. فالكلام فى قـوة : واللاتى عدون فأورين ، فأغرن ، فأثرن . والنقع : الغبار الذى أثرته فى وجه العدو عند الغزو وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه وقت الإغارة ، ولكونه لا يظهر أثر النقع فى الليل الذى اتصل به الصبح . وقيل: المعنى: فأثرن بمكان عدوهن نقعًا . يقال : ثار النقع وأثرته ، أى هاج ، أو هيجته . قرأ الجمهور : ﴿فأثرن﴾ بتخفيف المثلثة . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالتشديد ، أى فأظهرن به غبارًا . وقال أبو عبيدة : النقع : رفع الصوت ، وأنشد قول لبيد :

فمـتى ينقـع صـراخ صـادق ... يجلبوها ذات جرس وزجل

يقول : حين سمعوا صراخًا ، أجلبوا الحرب ، أى جمعوا لها . قال أبو عبيدة : وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم . انتهى . والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع: الغبار ، ومنه قول الشاعر :

يخرجن من مستطار النقع دامية ... كأن أذنـابـها أطـراف أقـلام

وقول عبد الله بن رواحة :

عـدمنـا خيـلنا إن لـم تـروهـا ... تثير النـقع مـن كنـفى كداء

وقول الآخر :

كأن مثار النقع فـوق رؤوسنـا ... وأسيـافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا هو المناسب لمعنى الآية ، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى . فإن قولك:

أغارت الخيل على بنى فلان صبحًا ، فأثرن به صوتًا ، قليل الجدوى ، مغسول المعنى ، بعيد من بلاغة القرآن المعجزة . وقيل : النقع : شق الجيوب. وقال محمد بن كعب : النقع ما بين مزدلفة إلى منى . وقيل : إنه طريق الوادى . قال فى الصحاح : النقع : الغبار. والجمع أنقاع. والنقع : محبس الماء . وكذلك ما اجتمع فى البئر منه . والنقع : الأرض الحرة الطين ينقع فيها الماء. ﴿ فوسطن به جمعًا ﴾ أى توسطن بذلك الوقت ، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعًا من جموع الأعداء ، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء . والباء إما للتعدية ، أو للحالية ، أو زائدة . يقال : وسطت المكان، أى صرت فى وسطه . وانتصاب ﴿ جمعًا ﴾ على أنه مفعول به . والفاءات فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتيب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها . قرأ الجمهور : ﴿فوسطن﴾ بتخفيف السين . وقرئ بالتشديد .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ هذا جواب القسم . والمراد بالإنسان : بعض أفراده ، وهو الكافر . والكنود : الكفور للنعمة . وقوله : ﴿ لربه ﴾ متعلق بكنود . قدم لرعاية الفواصل ، ومنه قول الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنودًا لنعماء الرجال يبعد

أى كفور لنعماء الرجال . وقيل : هو الجاحد للحق . قيل : إنها إنما سميت كندة ؛ لأنها جحدت أباها . وقيل : الكنود مأخوذ من الكند ، وهو القطع ، كأنه قطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر . يقال : كند الحبل : إذا قطعه ، ومنه قول الأعشى :

وصول حبال وكنادها

وقيل : الكنود : البخيل ، وأنشد أبو زيد :

إن نفسى لم تطب منك نفسا غير أنى أمسى بدين كنود

وقيل : الكنود : الحسود . وقيل : الجهول لقدره . وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام . والجاحد للنعمة كافر لها . ولا يناسب المقام سائر ما قيل . ﴿ وإنه على ذلك لشهيد﴾ أى وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه . وقيل : المعنى : وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . وبه قال الجمهور . وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب . وهو أرجح من قول الجمهور لقوله : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان. والمعنى : إنه لحب المال قوى مجد فى طلبه وتحصيله ، متهالك عليه ، يقال : هو شديد لهذا الأمر ، وقوى له : إذا كان مطيقًا له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن ترك خيرًا ﴾ [البقرة : ١٨٠] ومنه قول عدى بن حاتم :

ماذا ترجى النفوس من طلب الـ ـخير وحب الحياة كاربها

وقيل : المعنى : وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل . والأول أولى . واللام فى

﴿الحب﴾ متعلقة بشديد . قال ابن زيد : سمى الله المال خيرًا ، وعسى أن يكون شرًا ؛ ولكن الناس يجدونه خيرًا ، فسماه خيرًا . قال الفراء : أصل نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير . فلما قدم الحب قال : لشديد . وحذف من آخره ذكر الحب ؛ لأنه قد جرى ذكره. ولرؤوس الآى كقوله : ﴿ فى يوم عاصف ﴾ [إبراهيم : ١٨] والعصوف للريح ، لا لليوم ، كأنه قال : فى يوم عاصف الريح .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ﴾ الاستفهام للإنكار . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى يفعل ما يفعل من القبائح ، فلا يعلم . و ﴿ بعثر ﴾ معناه : نثر وبحث ، أى نثر ما فى القبور من الموتى ، وبحث عنهم وأخرجوا . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع : جعلت أسفله أعلاه . قال الفراء : سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول : « بحثر » بالحاء مكان العين . وقد تقدم الكلام على هذا فى قوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ [الانفطار: ٤]. ﴿وحصل ما فى الصدور﴾ أى ميز وبين ما فيها من الخير والشر . والتحصيل : التمييز ، كذا قال المفسرون . وقيل: حصل :أبرز . قرأ الجمهور : ﴿حصل﴾ بضم الحاء ، وتشديد الصاد مكسورًا مبنيًا للمفعول . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم: « حصل » بفتح الحاء والصاد وتخفيفها مبنيًا للفاعل، أى ظهر . ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أى إن رب المبعوثين بهم لخبير ، لا تخفى عليه منهم خافية ، فيجازيهم بالخير خيرًا ، وبالشر شرًا . قال الزجاج : الله خبير بهم فى ذلك اليوم وفى غيره ، ولكن المعنى : إن الله يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم . ومثله قوله تعالى : ﴿أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ [النساء : ٦٣] معناه : أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم . قرأ الجمهور : ﴿إن ربهم ﴾ بكسر الهمزة وباللام فى ﴿ لخبير ﴾ . وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة ، وإسقاط اللام من ﴿لخبير ﴾ .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلا ، فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر ، فنزلت: ﴿والعاديات ضبحا ﴾: ضبحت بأرجلها. ولفظ ابن مردويه : ضبحت بمناخيرها .. ﴿فالموريات قدحا ﴾ : قدحت بحوافرها الحجارة ، فأورت نارًا . ﴿فالمغيرات صبحا﴾ : صبحت القوم بغارة . ﴿ فأثرن به نقعًا ﴾ : أثارت بحوافرها التراب . ﴿ فوسطن به جمعا ﴾ : صبحت القوم جميعًا . وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو ، فأبطأ خبرها ، فشق ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم ، وما كان من أمرهم ، فقال: ﴿والعاديات ضبحا﴾. قال : هى الخيل . والضبح : نخير الخيل حين تنخر . ﴿فالموريات قدحًا ﴾ ، قال : حين تجرى الخيل تورى نارًا أصابت بسنابكها الحجارة . ﴿فالمغيرات صبحا ﴾ قال : هى الخيل أغارت فصبحت العدو . ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ قال : هى الخيل أثرن بحوافرها ، يقول : تعدو الخيل ، والنقع : الغبار . ﴿ فوسطن به جمعًا ﴾ قال : الجمع : العدو .

وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال : تقاولت أنا وعكرمة فى شأن العاديات ، فقال : قال ابن عباس : هى الخيل فى القتال ، وضبحها : حين ترخى مشافرها إذا عدت . **﴿فالموريات قدحا﴾**: أرت المشركين مكرهم . **﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾** قال : إذا صبحت العدو. **﴿ فوسطن به جمعًا ﴾** قال : إذا توسطت العدو . وقال أبو صالح : فقلت : قال على : هى الإبل فى الحج . ومولاى كان أعلم من مولاك .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : بينما أنا فى الحجر جالس ، إذ أتانى رجل يسأل عن **﴿ العاديات ضبحا ﴾** فقلت : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم ، فانفتل عنى ، فذهب إلى على بن أبى طالب ، وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن **﴿ العاديات ضبحًا ﴾** فقال : سألت عنها أحدًا قبلى ؟ قال: نعم ، سألت عنها ابن عباس ، فقال : هى الخيل حين تغير فى سبيل الله . فقال : اذهب ، فادعه لى . فلما وقفت على رأسه ، قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة فى الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير ، وفرس للمقداد ابن الأسود ، فكيف تكون العاديات ضبحًا ، إنما العاديات ضبحًا من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة ، أوقدوا النيران، والمغيرات صبحًا من المزدلفة إلى منى . فذلك جمع . وأما قوله : **﴿ فأثرن به نقعا ﴾** فهى نقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها . قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ، ورجعت إلى الذى قال على . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : **﴿ والعاديات ضبحا﴾** قال : الإبل . أخرجه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعى . قال إبراهيم : وقال على بن أبى طالب: هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل . فبلغ على قول ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كانت تلك فى سرية بعثت . وأخرج عبد بن حميد ، عن عامر الشعبى ، قال : تمارى على وابن عباس فى **﴿ العاديات ضبحًا ﴾** ، فقال ابن عباس : هى الخيل . وقال على : كذبت يابن فلانة . والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق . قال : وكان يقول : هى الإبل . فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعًا ، فما شىء تثيره إلا بحوافرها .

وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس : **﴿والعاديات ضبحًا ﴾** قال : الخيل. **﴿ فالموريات قدحا ﴾** قال : الرجل إذا أورى زنده . **﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾** قال : الخيل تصبح العدو . **﴿فأثرن به نقعًا﴾** قال : التراب . **﴿ فوسطن به جمعًا ﴾** قال : العدو . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : **﴿والعاديات ضبحًا﴾** قال : قال ابن عباس: القتال . وقال ابن مسعود : الحج . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس : **﴿ والعاديات ضبحًا﴾** ، قال: ليس شىء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس. **﴿ فالموريات قدحًا ﴾** قال : هو مكر

الرجل قـدح فـأورى. ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ قـال : غـارة الخيل صبحًا . ﴿ فأثرن به نقعًا ﴾ قال : غبار وقع سنابك الخيل . ﴿فوسطن به جمعًا ﴾ قال : جمع العدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والعاديات ضبحًا ﴾ قال : الخيل ضبحها زحيرها . ألم تر أن الفرس إذا عدا قال : أح أح . فذلك ضبحها . وأخرج ابن المنذر عن على قال: الضبح من الخيل : الحمحمة . ومن الإبل : النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود : ﴿والعاديات ضبحا﴾ قال : هى الإبل فى الحج . ﴿ فالموريات قدحًا ﴾ : إذا سفت الحصى بمناسمها ، فضرب الحصى بعضه بعضًا ، فيخرج منه النار . ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ : حين يفيضون من جمع . ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ قال : إذا سرن يثرن التراب .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد : الكفور . وأخرج ابن عساكر عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ قال : « لكفور » . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب ، والحكيم الترمذى وابن مردويه عن أبى أمامة قال : الكنود الذى يمنع رفده ، وينزل وحده ، ويضرب عبده . ورواه عنه ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والديلمى وابن عساكر مرفوعًا ، وضعف إسناده السيوطى . وفى إسناده جعفر بن الزبير . وهو متروك . والموقوف أصح لأنه لم يكن من طريقه [1] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال : الإنسان . ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ قال : المال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ إذا بعثر ما فى القبور ﴾ قال : بحث . ﴿وحصل ما فى الصدور ﴾ قال : أبرز .

---

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٨٠ والطبرانى (٧٩٥٨) .

تفسير سورة القارعة

هى إحدى عشرة آية . وقيل : عشر آيات . وهى مكية بلا خلاف . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة القارعة بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

القارعة من أسماء القيامة ؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب . والعرب تقول : قرعتهم القارعة : إذا وقع بهم أمر فظيع ، قال ابن أحمر :

وقارعة من الأيام لولا ... سبيلهم لراحت عنك حينا

وقال آخر :

متى نقرع بمروتكم نسؤكم ... ولما يوقد لنا فى القدر نار

و ﴿ القارعة ﴾ مبتدأ ، وخبرها قوله : ﴿ ما القارعة ﴾ . وبالرفع قرأ الجمهور . وقرأ عيسى بنصبها على تقدير : احذروا القارعة . والاستفهام للتعظيم والتفخيم لشأنها ، كما تقدم بيانه فى قوله : ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ١ـ٣] . وقيل : معنى الكلام على التحذير . قال الزجاج : والعرب تحذر وتغرى بالرفع كالنصب ، وأنشد قول الشاعر :

لجديرون بالوفاء إذا قال ... أخو النجدة السلاح السلاح

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير ، فإنه أدل على هذا المعنى . ويؤيده أيضا قوله : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ، ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تنالها دراية أحد منهم . و« ما » الاستفهامية مبتدأ ، و ﴿ أدراك ﴾ خبرها . و﴿ ما القارعة ﴾ مبتدأ وخبر . والجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى ، والمعنى : وأى شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة ، فقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ . وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة ، أى تقرعهم يوم يكون الناس . . . إلخ . ويجوز

أن يكون منصوبًا بتقدير : اذكر . وقال ابن عطية ومكى وأبو البقاء : هو منصوب بنفس القارعة . وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف ، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل . فالفتحة فتحة بناء، لا فتحة إعراب ، أى هى يوم يكون . . . إلخ . وقيل : التقدير : ستأتيكم القارعة . يوم يكون . وقرأ زيد بن على برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر . و﴿الفراش﴾ الطير الذى تراه يتساقط فى النار والسراج . والواحدة فراشة كذا قال أبو عبيدة وغيره. قال الفراء : الفراش هو الطائر من بعوض وغيره . ومنه الجراد . قال : وبه يضرب المثل فى الطيش والهوج . يقال: أطيش من فراشة ، وأنشد :

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن ... يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقول آخر :

وقد كان أقوام رددت حلومهم ... عليهم وكانوا كالفراش من الجهل

والمراد بالمبثوث : المتفرق المنتشر . يقال : بثه : إذا فرقه . ومثل هذا قوله سبحانه فى آية أخرى : ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر : ٧] وقال : ﴿ المبثوث ﴾ ولم يقل : المبثوثة ؛ لأن الكل جائز كما فى قوله : ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] و ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : ٧] وقد تقدم بيان وجه ذلك . ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذى نفش بالندف . والعهن عند أهل اللغة : الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة . وقد تقدم بيان هذا فى سورة ﴿ سأل سائل ﴾ وقد ورد فى الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة . وقد قدمنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية ﴾ . قد تقدم القول فى الميزان فى سورة الأعراف ، وسورة الكهف، وسورة الأنبياء . وقد اختلف فيها هنا . فقيل: هى جمع موزون ، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله . وبه قال الفراء وغيره . وقيل : هى جمع ميزان ، وهو الآلة التى توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع ، كما يقال : لكل حادثة ميزان. وقيل : المراد بالموازين : الحجج والدلائل ، كما فى قول الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة ... عندى لكل مخاصم ميزانه

ومعنى ﴿ عيشة راضية ﴾ : مرضية يرضاها صاحبها . قال الزجاج : أى ذات رضى يرضاها صاحبها . وقيل: ﴿عيشة راضية ﴾ أى فاعلة للرضى . وهو اللين ، والانقياد لأهلها ، والعيشة كلمة تجمع النعم التى فى الجنة . ﴿وأما من خفت موازينه ﴾ أى رجحت سيئاته على حسناته ، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ﴿ فأمه هاوية ﴾ أى فمسكنه جهنم . وسماها أمه ، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه . والهاوية من أسماء جهنم . وسميت هاوية، لأنه يهوى

فيها مع بعد قعرها ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا　　　　فيها مقابرنا وفيها نولد

وقول الآخر :

يا عمرو لو نالتك أرماحنا　　　　كنت كمن تهوى به الهاويه

والمهوى والمهواة : ما بين الجبلين ، وتهاوى القوم فى المهواة : إذا سقط بعضهم فى إثر بعض . قال قتادة : معنى ﴿فأمه هاوية﴾ : فمصيره إلى النار . قال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه . قال الأخفش : أمه : مستقره . ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ ؟ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدرى كنهها . ثم بينها سبحانه فقال : ﴿ نار حامية ﴾ أى قد انتهى حرها ، وبلغ فى الشدة إلى الغاية ، وارتفاع ﴿نار﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هى نار حامية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال : القارعة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ فأمه هاوية ﴾ قال : كقوله : هوت أمه. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿فأمه هاوية﴾ قال : أم رأسه هاوية فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات المؤمن ، تلقته أرواح المؤمنين يسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا : خولف به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأم، وبئست المربية » . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى نحوه . وأخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضًا .

تفسير سورة التكاثر

هى ثمان آيات . وهى مكية عند الجميع ، وروى البخارى أنها مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزل بمكة : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ . وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ » قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قال : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ﴿**ألهاكم التكاثر** ﴾ ؟ » (١) .

وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق ، والديلمى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه ﷺ: « من قرأ فى ليلة ألف آية ، لقى اللّه ، وهو ضاحك فى وجهه » . قيل : يا رسول اللّه، ومن يقوى على ألف آية ؟ فقرأ : بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية » .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عبد اللّه بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول اللّه ﷺ ، وهو يقرأ: ﴿**ألهاكم التكاثر** ﴾ . وفى لفظ : وقد أنزلت عليه : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ . وهو يقول : « ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت»(٢).
وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ، ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة، ولا نزولها بلفظ: « يقول العبد مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاثة ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأقنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »(٣) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبيهقى فى الشعب وضعفه عن جرير بن عبد اللّه ، قال : قال لنا رسول اللّه ﷺ : «إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر ، فمن بكى فله الجنة »، فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك . فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يارسول الله أن نبكى فلم نقدر عليه. فقال: «إنى قارئها عليكم الثانية، فمن بكى فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكى، فليتباكى»(٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧

---

(١) صححه الحاكم ١/٥٦٧ وقال : « رواة الحديث كلهم ثقات ، وعقبة هذا غير مشهور » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٨٧) ورجاله موثقون .

(٢) مسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٥٨/ ٣) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٧١٦) .

(٣) مسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٥٩/ ٤) وقال الحافظ ابن كثير ٧/ ٣٦٠ : « تفرد به مسلم » .

(٤) البيهقى فى الشعب (١٨٩٤) .

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ .

قوله : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ أى شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بكثرتها ، والتغالب فيها . يقال : ألهاه عن كذا ، وألهاه : إذا شغله . ومنه قول امرئ القيس :

فألهيتها عن ذى تمائم محول

وقال الحسن : معنى ﴿ **ألهاكم** ﴾ : أنساكم . ﴿ **حتى زرتم المقابر** ﴾ أى حتى أدرككم الموت ، وأنتم على تلك الحال . وقال قتادة : إن التكاثر : التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : ألهاكم التشاغل بالمعاش . وقال مقاتل وقتادة أيضًا وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا. وقال الكلبى : نزلت فى حيين من قريش : بنى عبد مناف ، وبنى سهم ، تعادوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف فى الإسلام . فقال كل حى منهم : نحن أكثر سيدًا ، وأعز عزيزًا ، وأعظم نفرًا ، وأكثر قائدًا . فكثر بنو عبد مناف بنى سهم. ثم تكاثروا بالأموات ، فكثرتهم بهم ، فنزلت : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ فلم ترضوا ﴿ **حتى زرتم المقابر** ﴾ مفتخرين بالأموات . وقيل : نزلت فى حيين من الأنصار . والمقابر : جمع مقبرة بفتح الباء وضمها . وفى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا ، والمكاثرة بها ، والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة . وقال سبحانه : ﴿**ألهاكم التكاثر** ﴾ ، ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذم ، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام . ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم كما تقرر فى علم البيان . والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شىء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة اللّه والعمل للآخرة . وعبر عن موتهم بزيارة المقابر ؛ لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذى يزوره . هذا على قول من قال : إن معنى ﴿ **زرتم المقابر** ﴾: متم . وأما على قول من قال : إن معنى ﴿**زرتم المقابر** ﴾ : ذكرتم الموتى، وعددتموهم للمفاخرة والمكاثرة ، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم . وقيل : إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون: هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان ، يفتخرون بذلك .

﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر ، وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة . وفيه وعيد شديد . قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر . ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال : ﴿**ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ و « ثم » للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول . وقيل : الأول عند الموت أو فى القبر . والثانى يوم القيامة . قال الفراء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد . قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد. وكذا قال الحسن ومجاهد . ﴿ **كلا لو تعلمون علم اليقين**﴾ أى لو تعلمون الأمر الذى أنتم صائرون إليه علمًا يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا . وجواب « لو » محذوف ، أى لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير ، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم

فيه. و ﴿ كلا ﴾ فى هذا الموضع الثالث للزجر والردع ، كالموضعين الأولين . وقال الفراء : هى بمعنى « حقا » . وقيل : هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا . قال قتادة : اليقين هنا : الموت . وروى عنه أيضًا أنه قال : هو البعث . قال الأخفش : التقدير : لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم .

وقوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب قسم محذوف . وفيه زيادة وعيد وتهديد ، أى والله لترون الجحيم فى الآخرة. قال الرازى : وليس هذا جواب « لو » ؛ لأن جواب « لو » يكون منفيًا . وهذا مثبت . ولأنه عطف عليه ﴿ ثم لتسألن ﴾ وهو مستقبل لابد من وقوعه . قال : وحذف جواب « لو » كثير . والخطاب للكفار . وقيل : عام كقوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] ، قرأ الجمهور : ﴿ لترون ﴾ بفتح التاء مبنيًا للفاعل . وقرأ الكسائى وابن عامر بضمها مبنيًا للمفعول . ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال : ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى ثم لترون الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين ، وهى المشاهدة والمعاينة . وقيل : المعنى : لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم . ثم لترونها مشاهدة على القرب. وقيل : المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، والثانى رؤيتها حال دخولها . وقيل : هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار، أى هى رؤية دائمة متصلة . وقيل : المعنى : لوتعلمون اليوم علم اليقين ، وأنتم فى الدنيا ، لترون الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهوالها.

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أى عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للآخرة . قال قتادة : يعنى كفار مكة ، كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به . قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه. وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ، لأن تعريفه للجنس ، أو الاستغراق ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التى يُسأل عنها . فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فيم صرفها ؟ وبم عمل فيها ؟ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر . وقيل : السؤال عن الأمن والصحة . وقيل: عن الصحة والفراغ . وقيل : عن الإدراك بالحواس . وقيل : عن ملاذ المأكول والمشروب . وقيل : عن الغداء والعشاء . وقيل: عن بارد الشراب وظلال المساكن . وقيل : عن اعتدال الخلق . وقيل: عن لذة النوم . والأولى العموم كما ذكرنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ، قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان . يشيرون إلى القبر، ومثل

فلان. وفعل الآخرون كذلك ، فأنزل الله : ﴿ **ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر** ﴾ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ قال : فى الأموال والأولاد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ : « ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ يعنى عن الطاعة . ﴿**حتى زرتم المقابر** ﴾ يقول: حتى يأتيكم الموت . ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ يعنى : لو قد دخلتم قبوركم . ﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ يقول : لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم . ﴿ **كلا لو تعلمون علم اليقين** ﴾ قال : لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدى ربكم . ﴿ **لترون الجحيم**﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكدوش فى نار جهنم . ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ يعنى : شبع البطون ، وبارد الشرب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم » . وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعًا نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء : ٣٦] . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ : ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال : الأمن والصحة . وأخرج البيهقى عن على بن أبى طالب ، قال : النعيم : العافية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال : من أكل خبز البر ، وشرب ماء الفرات مبردا ، وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذى يُسأل عنه . وأخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية : « أكل خبز البر ، والنوم فى الظل ، وشرب ماء الفرات مبردا ». ولعل رفع هذا لا يصح ، فربما كان من قول أبى الدرداء . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن مردويه عن أبى قلابة عن النبى ﷺ فى الآية ، قال : « ناس من أمتى يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه » (١) . وهذا مرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية ، قال الصحابة: يا رسول الله ، أى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير . فأوحى الله إلى نبيه ﷺ أن قل لهم : « أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم » . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن محمود بن لبيد قال : لما نزلت : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ فقرأ حتى بلغ :﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قالوا: يا رسول الله ، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان ، الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال : « أما إن ذلك سيكون»(٢).

---

(١) أحمد فى الزهد (١٦٦) .

(٢) ابن أبى شيبة (١٦١٩٢) وأحمد ٥/٤٢٩ وابن جرير ٣٠/١٨٦ والبيهقى فى الشعب (٤٢٧٨) ورجاله موثقون .

وأخرجه عبد بن حميد والترمذى وابن مردويه من حديث أبى هريرة(١) . وأخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه، وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه من حديث الزبير بن العوام (٢) . وأخرج أحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير ،وابن حبان وابن مردويه والحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسدك ، ونروك من الماء البارد » (٣) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن جابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، فأطعمناهم رطبًا ، وسقيناهم ماء . فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه »(٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقى من حديث جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : خرج النبى ﷺ ، فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال : «ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ » قالا : الجوع يا رسول الله . قال : « والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، فقوما » . فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته . فلما رأته المرأة ، قالت : مرحبا. فقال النبى ﷺ : «أين فلان ؟ » قالت : انطلق يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى ، فنظر إلى النبى ﷺ وصاحبيه فقال : الحمد لله ماأحد اليوم أكرم أضيافًا منى . فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال : كلوا من هذا . وأخذ المدية ، فقال له رسول الله ﷺ : «إياك والحلوب » . فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا . فلما شبعوا ورووا ، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : « والذى نفسى بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ». وفى الباب أحاديث (٥) .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٥٧) وفيه أبو بكر بن عياش ، قال الحافظ فى التقريب ٢/ ٣٩٩ : « ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح ».

(٢) أحمد ١/ ١٦٤ والترمذى فى التفسير (٣٣٥٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الزهد (٤١٥٨) .

(٣) أحمد فى الزهد (١٦٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٥٨) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٣٠/ ١٨٦ وابن حبان (٧٣٢٠) وهو مروى عن عبد الرحمن الأشعرى ، وصححه الحاكم ٤/ ١٣٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٤٢٨٧) وإسناده ضعيف .

(٤) أحمد ٣/ ٣٣٨ والنسائى فى الوصايا (٦٤٦٦) وابن جرير ٣٠/ ١٨٥ والبيهقى فى الشعب (٤٢٧٩) ورجاله ثقات .

(٥) مسلم فى الأشربة (٢٠٣٨/ ١٤٠) وابن جرير ٣٠/ ١٨٥ والبيهقى فى الشعب (٤٢٨٤) ورجاله موثقون .

تفسير سورة العصر

هى ثلاث آيات ، وهى مكية عند الجمهور . وقال قتادة : هى مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة العصر بمكة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب عن أبى مزينة الدارمى ، وكانت له صحبة، قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا ، لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

أقسم سبحانه بالعصر ، وهو الدهر ، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار ، على تقدير الأدوار ، وتعاقب الظلام والضياء ، فإن فى ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده . ويقال لليل : عصر ، وللنهار : عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولم ينته العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ماتمنيا

ويقال للغداة والعشى : عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملنى ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقال قتادة والحسن : المراد به فى الآية : العشى ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، ومنه قول الشاعر :

تروح بنا يا عمرو وقد قصر العصر وفى الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وروى عن قتادة أيضًا : أنه آخر ساعة من ساعات النهار . وقال مقاتل : إن المراد به : صلاة العصر ، وهى الصلاة الوسطى التى أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها . وقيل : هو قسم[2] بعصر النبى ﷺ . قال الزجاج : قال بعضهم : معناه: ورب العصر . والأول أولى. ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ هذا جواب القسم . الخسر والخسران: النقصان وذهاب رأس المال . والمعنى : أن كل إنسان فى المتاجر والمساعى وصرف الأعمار فى أعمال الدنيا لفى نقص وضلال عن الحق حتى يموت . وقيل : المراد بالإنسان : الكافر . وقيل : جماعة من الكفار . وهم :

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/٢٣٦ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح » والبيهقى فى الشعب (٩٠٥٧) .ط . دار الكتب العلمية.

(٢) فى المطبوعة : « قسما » بالنصب ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد . والأول أولى ، لما في لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه . قال الأخفش: ﴿ في خسر ﴾ : في هلكة. وقال الفراء : عقوبة . وقال ابن زيد : لفي شر . قرأ الجمهور : ﴿ والعصْر ﴾ بسكون الصاد. وقرؤوا أيضا : ﴿ خُسْر ﴾ بضم الخاء وسكون السين . وقرأ يحيى بن سلام: « والعصر » بكسر الصاد. وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى : « خُسُر » بضم الخاء والسين . ورويت هذه القراءة عن عاصم .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم فى ربح لا فى خسر ؛ لأنهم عملوا للآخرة ، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها . والاستثناء متصل . ومن قال : إن المراد بالإنسان : الكافر فقط ، فيكون منقطعًا ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة . ولا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح . ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ أى وصى بعضهم بعضًا بالحق الذى يحق القيام به ، وهو الإيمان بالله والتوحيد ، والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه . قال قتادة : ﴿ بالحق ﴾ : أى بالقرآن . وقيل : بالتوحيد ، والحمل على العموم أولى . ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أى بالصبر عن معاصى الله سبحانه والصبر على فرائضه . وفى جعل التواصى بالصبر قرينًا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦] . وأيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق . فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ، ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والعصر ﴾ قال : الدهر . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو ساعة من ساعات النهار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشى . وأخرج الفريابى ، وأبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن على بن أبى طالب ؛ أنه كان يقرأ: «والعصر ونوائب الدهر ، إن الإنسان لفى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر». وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر ، وإنه لفيه إلى آخر الدهر » .

تفسير سورة الهمزة

هى تسع آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت : ﴿ ويل لكل همزة لمزة﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨ ﴾ .

الويل : هو مرتفع على الابتداء . وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم . وخبره : ﴿ لكل همزة لمزة﴾ ، والمعنى : خزى ، أو عذاب ، أو هلكة ، أو واد فى جهنم . ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ : قال أبو عبيدة والزجاج : الهمزة اللمزة : الذى يغتاب الناس . وعلى هذا هما بمعنى . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة : الذى يغتاب الرجل فى وجهه. واللمزة : الذى يغتابه من خلفه . وقال قتادة عكس هذا . وروى عن قتادة ، ومجاهد أيضًا أن الهُمزة :الذى يغتاب الناس فى أنسابهم. وروى عن مجاهد أيضا أن الهمزة : الذى يهمز الناس بيده. واللمزة :الذى يلمزهم بلسانه. وقال سفيان الثورى : يهمزهم بلسانه ، ويلمزهم بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة : الذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذى يكسر عينه على جليسه ، ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، والأول أولى، ومنه قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا ... وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقول الآخر :

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنى ... وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وأصل الهمز: الكسر . يقال : همز رأسه : كسره، ومنه قول العجاج :

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل : أصل الهمز واللمز : الضرب والدفع . يقال : همزه يهمزه همزًا . ولمزه يلمزه لمزًا : إذا دفعه وضربه ، ومنه قول الشاعر :

ومن همزنا عزه تبركعا ... على استه زوبعة أو زوبعا

البركعة : القيام على أربع . يقال : بركعه فتبركع ، أى صرعه فوقع على استه. كذا فى

الصحاح . وبناء فعله يدل على الكثرة . ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيرًا ، وأنه قد صار ذلك عادة له ، ومثله ضحكة ولعنة . قرأ الجمهور: ﴿همزة لمزة﴾ بضم أولهما وفتح الميم فيهما. وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما . وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش: « ويل للهمزة اللمزة » . والآية تعم كل من كان متصفا بذلك . ولا ينافيه نزولها على سبب خاص . فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ﴿ الذى جمع مالا وعدده ﴾ الموصول بدل من كل ، أو فى محل نصب على الذم ، وهذا أرجح ؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه فى حكم الطرح ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب ، والعلة فى الهمز واللمز ، وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل ، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور: ﴿ جمع﴾ مخففًا . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بالتشديد . وقرأ الجمهور: ﴿وعدده ﴾ بالتشديد. وقرأ الحسن والكلبى ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف . والتشديد فى الكلمتين يدل على التكثير . وهو جمع الشىء بعد الشىء ، وتعديده مرة بعد أخرى . قال الفراء : معنى ﴿ عدده ﴾ : أحصاه . وقال الزجاج : وعدده لنوائب الدهور . يقال : أعددت الشىء وعددته : إذا أمسكته . قال السدى : أحصى عدده . وقال الضحاك : أعد ماله لمن يرثه. وقيل : المعنى : فاخر بكثرته وعدده . والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه ، وعدم إنفاقه فى سبيل الخير . وقيل : المعنى على قراءة التخفيف فى « عدده » : أنه جمع عشيرته وأقاربه . قال المهدوى : من خفف « وعدده » فهو معطوف على المال ، أى وجمع عدده .

وجملة : ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال ، أى يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حيا مخلدًا لا يموت . وقال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد فى عمره . والإظهار فى موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ . وقيل : هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذى يخلد صاحبه فى الحياة الأبدية لا المال. وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان ، أى ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذى جمع المال وعدده . واللام فى ﴿ لينبذن فى الحطمة ﴾ جواب قسم محذوف ، أى ليطرحن فى النار ، وليلقين فيها . قرأ الجمهور : ﴿ لينبذن ﴾ . وقرأ على والحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيصن : « لينبذان » بالتثنية ، أى لينبذ هو وماله فى النار . وقرأ الحسن أيضًا : ﴿لينبذن ﴾ أى : لينبذن ماله فى النار . ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ ؟ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام . ثم بينها سبحانه فقال : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ أى هى نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه .وفى إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ؛ وكذلك فى وصفها بالإيقاد . وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه ، ومنه :

إنا حطمنا بالقضيب مصعبا يوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل : هى الطبقة السادسة من طبقات جهنم . وقيل : الطبقة الثانية منها . وقيل : الطبقة

الرابعة . ﴿ **التى تطلع على الأفئدة** ﴾ أى يخلص حرها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها . وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم ؛ لأنها محل العقائد الزائفة ، أى لكون الألم إذا وصل إليها ، مات صاحبها ، أى أنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون . وقيل: معنى ﴿**تطلع على الأفئدة**﴾ : أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بأمارات عرّفها الله بها . ﴿**إنها عليهم مؤصدة**﴾ أى مطبقة مغلقة كما تقدم بيانه فى سورة البلد . يقال: أصدت الباب : إذا أغلقته ، ومنه قول عبيد الله بن قيس بن الرقيات :

إن فى القصر لو دخلنا غزالا مصفقًا موصدًا عليه الحجاب

﴿ **فى عمد ممدة** ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ **عليهم** ﴾ أى كائنين فى عمد ممدة ، موثقين فيها . أو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى عمد أو صفة لمؤصدة ، أى مؤصدة بعمد ممددة . قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولايدخل عليهم روح . ومعنى كون العمد ممددة : أنها مطولة . وهى أرسخ من القصيرة . وقيل : العمد : أغلال فى جهنم . وقيل : القيود . قال قتادة : المعنى : هم فى عمد يعذبون بها ، واختار هذا ابن جرير . قرأ الجمهور : ﴿ **فى عمد**﴾ بفتح العين والميم . وقيل : هو اسم جمع لعمود . وقيل : جمع له . قال الفراء : هى جمع لعمود ، كأديم وأدم . وقال أبو عبيدة : هى جمع عماد . وقرأ حمزة والكسائى وأبوبكر بضم العين والميم جمع عمود . قال الفراء : هما جمعان صحيحان لعمود . واختارأبوعبيد وأبوحاتم قراءة الجمهور . قال الجوهرى : العمود : عمود البيت . وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد. وقرئ بهما . قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ قال : هو المشاء بالنميمة ، المفرق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **ويل لكل همزة** ﴾ قال : طعان . ﴿ **لمزة** ﴾ قال : مغتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **إنها عليهم مؤصدة** ﴾ قال : مطبقة . ﴿ **فى عمد ممددة** ﴾ قال : عمد من نار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : هى الأدهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأبواب هى الممددة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : أدخلهم فى عمد، فمدت عليهم فى أعناقهم ، فشدت بها الأبواب .

تفسير سورة الفيل

هى خمس آيات . وهى مكية بلا خلاف وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ .

الاستفهام فى قوله : ﴿ ألم تر ﴾ لتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها . قال الفراء : المعنى : ألم تخبر . وقال الزجاج : ألم تعلم . وهو تعجيب له ﷺ . ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة . و ﴿ كيف ﴾ منصوبة بالفعل الذى بعدها ، ومعلقة لفعل الرؤية . والخطاب لرسول الله ﷺ . ويجوز أن يكون لكل من يصلح له ، والمعنى : قد علمت يا محمد ، أو علم الناس الموجودون فى عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله بهم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ والفيل هو الحيوان المعروف وجمعه أفيال.وفيول وفيلة . قال ابن السكيت : ولا تقول : أفيلة . وصاحبه فيال . وسيأتى ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله . ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ أى ألم يجعل مكرهم وسعيهم فى تخريب الكعبة ، واستباحة أهلها فى تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم . والهمزة للتقرير ، كأنه قيل : قد جعل كيدهم فى تضليل . والكيد هو إرادة المضرة بالغير . لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشًا بالقتل والسبى ، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

﴿ وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ﴾ أى أقاطيع يتبع بعضها بعضًا كالإبل المؤبلة . قال أبو عبيدة : ﴿ أبابيل ﴾ : جماعات فى تفرقة . يقال : جاءت الخيل أبابيل ، أى جماعات من ههنا وههنا . قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام . يقال : فلان توبل على فلان ، أى تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذى لا واحد له . وقال بعضهم: واحده « أبول » مثل « عجول » . وقال بعضهم أبيل . قال الواحدى : ولم نر أحدًا يجعل لها واحدًا ، قال الفراء لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسى ، وكان ثقة ، أنه سمع فى واحدها : «أبالة » مشددا . وحكى الفراء أيضا « أبالة » بالتخفيف . قال سعيد بن جبير : كانت طيرًا من السماء ، لم ير قبلها ولا بعدها . قال قتادة : هى طير سود جاءت من قبل البحر فوجًا

فوجًا ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره لا يصيب شيئًا إلا هشمه . وقيل : كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع . وقيل : كان لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب . وقيل فى صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل فى الطير ، كما فى قول الشاعر:

تراهم إلى الداعى سرعًا كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسجن

وتستعملها فى غير الطير كقول الآخر :

كانت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتى أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل

﴿ **ترميهم بحجارةٍ من سجيل** ﴾ الجملة فى محل نصب صفة لطير قرأ الجمهور : ﴿**ترميهم**﴾ بالفوقية . وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحتية . واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل : الضمير فى القراءة الثانية لله عز وجل . قال الزجاج : ﴿ **من سجيل** ﴾ أى مما كتب عليهم العذاب به مشتقًا من السجل . قال فى الصحاح : قالوا : هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم ، مكتوب فيها أسماء القوم . قال عبد الرحمن بن أبزى : ﴿ **من سجيل** ﴾: من السماء ، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط . وقيل : من الجحيم التى هى سجين ، ثم أبدلت النون لامًا ، ومنه قول ابن مقبل:

ضربا تواصت به الأبطال سجيلا

وإنما هو سجينا . قال عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها . فإذا أصاب أحدهم حجر منها ، خرج به الجدرى . وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة . وقد قدمنا الكلام فى : ﴿**سجيل** ﴾ فى سورة هود . ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ أى جعل اللّه أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب ، فرمت به من أسفل . شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه . وقيل : المعنى : أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب ، وبقى منه بقايا ، أو أكلت حبه فبقى بدون حبه . والعصف جمع عصفة وعصافة وعصيفة .وقد قدمنا الكلام فى العصف فى سورة الرحمن ، فارجع إليه .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح ، فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت اللّه ، لم يسلط عليه أحدا . قالوا : لا نرجع حتى نهدمه . وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر ، فدعا اللّه الطير الأبابيل ، فأعطاها حجارة سودًا عليها الطين . فلما حاذتهم رمتهم ، فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكة ، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده ، إلا تساقط لحمه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة

استقبلهم عبد المطلب ، فقال لملكهم : ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شيء فقال : أخبرت بهذا البيت الذى لا يدخله أحد إلا أمن ، فجئت أخيف أهله . فقال : إنَّا نأتيك بكل شيء تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله . وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله . فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر ، حتى أظلتهم طير أبابيل التى قال اللّه : ﴿ **ترميهم بحجارة من سجيل** ﴾ فجعل الفيل يعج عجًا ﴿**فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ . وقصة أصحاب الفيل مبسوطة مطولة فى كتب التاريخ والسير فلا نطول بذكرها .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ترميهم بحجارة من سجيل** ﴾ قال : حجارة مثل البندق ، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره ، حلقت عليهم من السماء، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم . وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل اللّه عليهم طيرًا أبابيل ، يريد مجتمعة ، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها وحصاتين فى رجليها ، ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ، ويبقى عظامًا خاوية لا لحم عليها ، ولا جلد ، ولا دم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضًا : ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ ، يقول : كالتبن . وأخرج ابن إسحاق فى السيرة ، والواقدى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . وأخرج الواقدى نحوه عن أسماء بنت أبى بكر . وأخرج أبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : ولد النبى ﷺ عام الفيل . وأخرج ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقى عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول اللّه ﷺ عام الفيل .

تفسير سورة قريش

ويقال : سورة ﴿ لإيلاف ﴾ . وهى أربع آيات . وهى مكية عند الجمهور . وقال الضحاك والكلبى : هى مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿لإيلاف ﴾ بمكة. وأخرج البخارى فى تاريخه ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : فضل اللّه قريشًا بسبع خصال لم يعطها أحدًا قبلهم ، ولا يعطيها أحدًا بعدهم ، أنى فيهم . وفى لفظ : النبوة فيهم . والخلافة فيهم . والحجابة فيهم . والسقاية فيهم . ونصروا على الفيل . وعبدوا اللّه سبع سنين . وفى لفظ عشر سنين . لم يعبده أحد غيرهم . ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ (١) . قال ابن كثير : هو حديث غريب . ويشهد له ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال : قال رسول اللّه ﷺ : فضل اللّه قريشًا بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا اللّه عشر سنين لا يعبده إلا قريش، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم ، وهى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية (٢) . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعا نحوه . وهو مرسل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

اللام فى قوله : ﴿ لإيلاف ﴾ قيل : هي متعلقة بآخر السورة التى قبلها . كأنه قال سبحانه : أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش . قال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة . ثم قال : ﴿لإيلاف قريش ﴾ أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك أن قريشًا كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يغار عليها فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت اللّه عز وجل. حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتًا فى اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم اللّه عز وجل ، فذكرهم بنعمته ، أى فعل ذلك لإيلاف قريش ، أى ليألفوا الخروج

(١) الطبرانى ١٠/٤٠٩ (٩٩٤) والحاكم ٤/٥٤ وسكت عنه .
(٢) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/٢٧، ٢٨ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه من ضُعِّف ، ووثقهم ابن حبان » .

ولا يجترأ عليهم . وذكر نحو هذا ابن قتيبة . قال الزجاج : والمعنى : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، أى أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف . وقال فى الكشاف : إن اللام متعلق بقوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ . أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى: أما لا فليعبدوه . وقد تقدم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد ، والمعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . وقال الكسائى والأخفش : اللام لام التعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل : هى بمعنى « إلى » . قرأ الجمهور : « لإيلاف» بالياء مهموزاً من ألفت أؤلف إئلافا . يقال : ألفت الشىء آلافا وألفا . وألفته إيلافا بمعنى ، ومنه قول الشاعر :

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

وقرأ ابن عامر : « لإلاف » بدون الياء . وقرأ أبو جعفر : « لإلف » . وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر ، فقال :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف .

وقرأ عكرمة : « ليألف قريش » بفتح اللام على أنها لام الأمر . وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود ، وفتح لام الأمر لغة معروفة . وقرأ بعض أهل مكة : « إلاف قريش » ، واستشهد بقول أبى طالب :

تذود الورى من عصبة هاشمية إلافهم فى الناس خير إلاف

وقريش هم بنو النضير بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشى . وقريش يأتى منصرفاً إن أريد به الحى ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ، ومنه قول الشاعر:

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقيل : إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر . والأول أصح . وقوله : ﴿ إيلافهم ﴾ بدل من إيلاف قريش . و﴿رحلة ﴾ مفعول به لإيلافهم ، وأفردها ولم يقل رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس . وقيل : إن ﴿ إيلافهم ﴾ تأكيد للأول لا بدل . والأول أولى . ورجحه أبو البقاء . وقيل : إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر ، أى ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف. وقيل : هى منصوبة على الظرفية . والرحلة : الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حارة . والرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة، وروى أنهم كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف . والأول أولى ، فإن ارتحال قريش للتجارة

معلوم معروف فى الجاهلية والإسلام . قال ابن قتيبة : إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان فى كل سنة ، رحلة فى الشتاء إلى اليمين ورحلة فى الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام . ولولا الأمن بجوارهم البيت ، لم يقدروا على التصرف .

﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت** ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكرلهم ما أنعم به عليهم ، أى إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة . والبيت : الكعبة . وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها . وقيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك تذكيرًا لنعمته . ﴿**الذى أطعمهم من جوع** ﴾ أى أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما . وقيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبى ﷺ ، دعا عليهم فقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاشتد القحط . فقالوا : يا محمد ، ادع الله لنا ، فإنّا مؤمنون . فدعا ، فأخصبوا ، وزال عنهم الجوع ، وارتفع القحط (١) . ﴿ **وآمنهم من خوف** ﴾ أى من خوف شديد كانوا فيه قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها بعضًا فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل .

وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ **لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾ ويحكم يا قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف» (٢). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ قال : نعمتى على قريش . ﴿**إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾ كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف . ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت**﴾ قال : الكعبة . ﴿ **الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ قال : الجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ **لإيلاف قريش . إيلافهم** ﴾ قال : لزومهم . ﴿ **الذى أطعمهم من جوع** ﴾ يعنى : قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ [البقرة : ١٢٦] ﴿ **وآمنهم من خوف** ﴾ حيث قال إبراهيم: ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ [إبراهيم : ٣٥] وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **لإيلاف قريش** . . . ﴾ الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة ، وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة . وكانت رحلتهم فى الشتاء والصيف ، ولم يكن لهم

---

(١) مسلم فى المساجد (٦٧٥/ ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٢) أحمد ٦/ ٤٦٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٦/٧ : « فيه عبيد الله بن أبى زياد القداح وشهر بن حوشب وقد وثقا ، وفيهما ضعف ، وبقية رجال أحمد ثقات » .

راحة فى شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع ، وآمنهم من خوف ، فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة الله عليهم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف . وقد وردت أحاديث فى فضل قريش، وأن الناس تبع لهم فى الخير والشر ، وأن هذا الأمر ، يعنى الخلافة ، لا يزال فيهم ما بقى منهم اثنان ، وهى فى دواوين الإسلام .

تفسير سورة أرأيت

ويقال : سورة الدين . ويقال : سورة الماعون . ويقال : سورة اليتيم . وهي سبع آيات. وهي مكية في قول عطاء وجابر ، وأحد قولي ابن عباس ومدنية في قول قتادة وآخرين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ .

الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له . والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين . والرؤية بمعنى : المعرفة . والدين : الجزاء والحساب في الآخرة . قيل : وفي الكلام حذف ، والمعنى : أرأيت الذي يكذب بالدين ، أمصيب هو أم مخطئ ؟ قال مقاتل والكلبي : نزلت في العاص بن وائل السهمي . وقال السدي : في الوليد بن المغيرة . وقال الضحاك : في عمرو بن عائذ . وقال ابن جريج : في أبي سفيان . وقيل : في رجل من المنافقين. قرأ الجمهور : ﴿أرأيت ﴾ بإثبات الهمزة الثانية . وقرأ الكسائي بإسقاطها . قال الزجاج : لا يقال في « رأيت » : ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا . وقيل : الرؤية هي البصرية ، فيتعدى إلى مفعول واحد وهو الموصول ، أي أبصرت المكذب. وقيل : إنها بمعنى أخبرني . فيتعدى إلى اثنين ، الثاني محذوف ، أي من هو ؟

﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أي إن تأملته أو طلبته فذلك الذي يدع اليتيم ، ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكذب إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة . فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبراً لمبتدأ محذوف ، أي فهو ذلك . والموصول صفته . وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب . ومعنى ﴿ يدع ﴾ : يدفع دفعًا بعنف وجفوة ، أي يدفع اليتيم عن حقه دفعًا شديدًا . ومنه قوله سبحانه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ [الطور : ١٣] وقد قدمنا أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان . ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلا بالمال ، أو تكذيبا بالجزاء وهو مثل قوله في سورة الحاقة : ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ [الحاقة : ٣٤] .

﴿ **فويل** ﴾ يومئذ ﴿ **للمصلين** ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل : إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أى عذاب لهم أو هلاك ، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل . ومعنى ﴿ **ساهون** ﴾ : غافلون غير مبالين بها . ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر . قال الواحدى: نزلت فى المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثوابًا إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها . وإذا كانوا مع المؤمنين ، صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم ، لم يصلوا . وهو معنى قوله : ﴿**الذين هم يراؤون** ﴾ أى يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم. قال النخعى : ﴿ **الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾ : هو الذى إذا سجد ، قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتًا . وقال قطرب : هو الذى لا يقرأ ولا يذكر الله . وقرأ ابن مسعود : الذين هم عن صلاتهم لاهون . ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ قال أكثر المفسرين : ﴿ **الماعون**﴾ : اسم لما يتعاوزه الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر . وما لا يمنع كالماء والملح . وقيل : هو الزكاة ، أى يمنعون زكاة أموالهم . وقال الزجاج وأبو عبيد والمبرد: الماعون فى الجاهلية : كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بأجود منه بماعونه ... إذا ما سماؤهم لم تغم

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد أيضًا : والماعون فى الإسلام :الطاعة ، والزكاة ، وأنشدوا قول الراعى :

أخليفة الرحمن إنا معشرٌ ... حُنَفَاء نسجدُ بُكرةً وأصيلا
عرب نرى لله من أموالنا ... حقَّ الزكاةِ منزَّلا تَنْزيلاً
قومٌ على الإسلامِ لَمَّا يَمْنَعُوا ... ماعُونَهم ويُضيِّعُوا التهليلا

وقيل : ﴿ **الماعون** ﴾ : الماء. قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون : الماء. وأنشدنى :

تمج صبيرة الماعون صبًا

والصبيرة : السحاب . وقيل : ﴿ **الماعون** ﴾ : هو الحق على العبد على العموم . وقيل : هو المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من المعن وهو القليل . قال قطرب : أصل الماعون من القلة . والمعنى : الشيء القليل . فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعونا ؛ لأنه قليل من كثير . وقيل : هو ما لا يبخل به ، كالماء والملح والنار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ قال : يكذب بحكم اللّه . ﴿فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ قال : يدفعه عن حقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عنه : ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضًا لهم ، وهى الماعون .وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضًا : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يتركون الصلاة فى السر ، ويصلون فى العلانية . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبى: أرأيت قول اللّه : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال : إنه ليس ذلك . إنه إضاعة الوقت .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال :« هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » (١) . قال الحاكم والبيهقى: الموقوف أصح . قال ابن كثير : وهذا يعنى الموقوف أصح إسنادا . قال : وقد ضعف البيهقى رفعه وصحح وقفه ، وكذلك الحاكم (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه قال السيوطى : بسند ضعيف، عن أبى برزة الأسلمى قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال رسول اللّه ﷺ : «اللّه أكبر ، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه.» وفى إسناده جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم (٣) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول اللّه ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم ، فأنزل اللّه : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ .

وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن عساكر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « ما تعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه » . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن قرة بن دعموص النميرى ؛ أنهم وفدوا إلى رسول ﷺ فقالوا : يا رسول اللّه ، ما تعهد إلينا ؟

---

(١) أبو يعلى (٨٢٢) وابن جرير ٣٠/ ٢٠٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٦ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عكرمة بن إبراهيم وهو ضعيف جدًا ».

(٢) ابن كثير ٧/ ٣٨٠.

(٣) ابن جرير ٣٠/ ٢٠٢.

قال : « لا تمنعوا الماعون » . قالوا : وما الماعون ؟ قال : « فى الحجر والحديدة وفى الماء » . قالوا : فأى الحديدة ؟ قال : « قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذى تمتهنون به » . قالوا : وما الحجر ؟ قال: « قدوركم الحجارة » . قال ابن كثير : غريب جدًا ، ورفعه منكر ، وفى إسناده من لا يعرف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبى ﷺ : ﴿ الماعون ﴾ : الفأس والقدر والدلو [١] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى ، والضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس فى الآية قال : عارية متاع البيت . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى طالب قال : ﴿الماعون ﴾ : الزكاة المفروضة ﴿ يراؤون ﴾ بصلاتهم ﴿ويمنعون ﴾ زكاتهم .

---

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٣ وابن جرير ٣٠/ ٢٠٥.

تفسير سورة الكوثر

هى ثلاث آيات . وهى مكية فى قول ابن عباس والكلبى ومقاتل . ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة : أنها نزلت سورة الكوثر بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

قرأ الجمهور: ﴿ إنا أعطيناك ﴾.وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفرانى: « أنطيناك » بالنون . قيل: هى لغة العرب العاربة ، قال الأعشى :

حباؤك خير حبا الملوك يصان الحلال وتنطى الحلولا

والكوثر فوعل من الكثرة ، وصف به للمبالغة فى الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شىء كثير فى العدد أو القدر أو الخطر : كوثرا ، ومنه قول الشاعر :

وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا

فالمعنى على هذا : إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ فى الكثرة إلى الغاية . وذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدى إلى أن الكوثر نهر فى الجنة. وقيل: هو حوض النبى ﷺ فى الموقف ، قاله عطاء . وقال عكرمة : الكوثر : النبوة. وقال الحسن : هو القرآن . وقال الحسن ابن الفضل : هو تفسير القرآن ، وتخفيف الشرائع . وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة . وقال ابن كيسان : هو الإيثار . وقيل: هو الإسلام . وقيل : رفعة الذكر . وقيل : نور القلب. وقيل : الشفاعة . وقيل : المعجزات . وقيل : إجابة الدعوة . وقيل : لا إله إلا الله . وقيل : الفقه فى الدين. وقيل : الصلوات الخمس. وسيأتى بيان ما هو الحق. ﴿ فصل لربك ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والمراد : الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة . ﴿ وانحر ﴾ البدن التى خيار أموال العرب . قال محمد بن كعب : إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له. وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد : صلاة العيد، ونحر الأضحية . وقال سعيد بن جبير : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن فى منى . وقيل : النحر : وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب . وقيل : هو أن يرفع يديه فى الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره . وقيل : هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبى وأبو الأحوص . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : نتناحر ، أى نتقابل نحر

هذا إلى نحر هذا ، أى قبالته ، ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنتَ عمٌّ مُجالدِ وسيدٌ أهلِ الأَبطحِ المُتَنَاحِرِ

أى المتقابل . وقال ابن الأعرابى : هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإذاء المحراب . من قولهم : منازلهم تتناحر: تتقابل. وروى عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التيمى : المعنى : ارفع يديك بالدعاء إلى نحرك . وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلها لله عز وجل لا لغيره. وما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له. وسيأتى إن شاء الله . ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ أى إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم . فيعم خيرى الدنيا والآخرة ، أو الذى لا عقب له ، أوالذى لا يبقى ذكره بعد موته . وظاهر الآية العموم ، وأن هذا شأن كل من يبغض النبى ﷺ ، ولا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما مر غير مرة . قيل :كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل ، قالوا : قد بتر فلان . فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد [١] . فنزلت الآية . وقيل : القائل بذلك عقبة ابن أبى معيط . قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال : الذى لا ولد له . ومن الدواب : الذى لا ذنب له . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر . وأصل البتر : القطع . يقال : بترت الشىء بترا: قطعته .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أنس قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسمًا فقال : « إنه أنزل علىَّ آنفا سورة » فقرأ :﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها. قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير . ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته كعدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدث بعدك » [٢] .

وأخرج أيضًا مسلم فى صحيحه. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاكه الله» [٣] . وقد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة .

(١) هذا القول فيه نظر ، فقد ولد إبراهيم بعد الحديبية ومات أبو جهل فى غزوة بدر . ابن هشام ٢٧٨/٢ .ط. الريان للتراث .

(٢) ابن أبى شيبة (١١٧٠١) وأحمد ١٠٢/٣ وأبو داود فى السنة (٤٧٤٧) والنسائى فى التفسير (٧٢٢) وابن جرير ٢٠٩/٣٠ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٦٤) ومسلم فى الصلاة (٤٠٠/٥٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن جرير وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سئلت عن قوله: ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قالت : هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ فى بطنان الجنة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن حذيفة فى قوله : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قال: نهر فى الجنة . وحسن السيوطى إسناده . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعا ؛ أنه قيل لرسول الله ﷺ : إنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر ؟ فقال : « أجل، وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ » (١) . وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما الكوثر ؟ قال : « هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله ». فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة ، فيتعين المصير إليها وعدم التعويل على غيرها. وإن كان معنى الكوثر هو الخير الكثير فى لغة العرب ، فمن فسره بما هو أعم مما ثبت عن النبى ﷺ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوى .

كما أخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار: قال سعيد بن جبير فى الكوثر : قلت :حدثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير. فقال : صدق ، إنه للخير الكثير . ولكن حدثنا ابن عمر قال : نزلت ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : «الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك، وماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل » (٢) . وأخرج البخارى وابن جرير والحاكم من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناسًا يزعمون أنه نهر فى الجنة قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه . وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوى كما عرفناك ، ولكن رسول الله ﷺ قد فسره فيما صح عنه أنه النهر الذى فى الجنة . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبى ﷺ : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر** ﴾ قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى » ، فقال: إنها ليست بنحيرة ، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ،وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم فى السموات السبع ، وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة . قال النبى ﷺ : « رفع اليدين من الاستكانة التى قال الله : ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ » [المؤمنون : ٧٦] وهو طريق مقاتل بن

(١) ابن جرير ٣٠/ ٢١٠ .
(٢) ابن ماجة فى الزهد (٤٣٣٤) .

حيان عن الأصبغ بن نباته عن على[(١)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى طالب فى قوله: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ قال : وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ، ثم وضعهما على صدره فى الصلاة [(٢)] . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه عن أنس عن النبى ﷺ مثله [(٣)].

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن شاهين فى سننه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ قال: إذا صليت فرفعت رأسك من الركوع ، فاستو قائما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : الصلاة المكتوبة ، والذبح يوم الأضحى . وأخرج البيهقى فى سننه عنه : ﴿ **وانحر** ﴾ قال : يقول : واذبح يوم النحر . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابئ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السدانة. قال: أنتم خير منه ، فنزلت: ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ونزلت : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ فلن تجد له نصيرًا ﴾ [النساء :٥١ ، ٥٢] [(٤)] . قال ابن كثير : وإسناده صحيح . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب قال : لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابئ قد بتر الليلة ، فأنزل الله: ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ إلى آخر السورة [(٥)] . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، فمات القاسم ، وهو أول ميت من أهله وولده بمكة . ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمى : قد انقطع نسله ، فهو أبتر ، فأنزل الله : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ . وفى إسناده الكلبى. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ قال : أبو جهل. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **إن شانئك** ﴾ يقول : عدوك [(٦)] .

---

(١) الحاكم ٢/ ٥٣٨ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « فيه إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه ، وأصبغ شيعى متروك عند النسائى » والبيهقى ٢/ ٧٥.

(٢) ابن جرير ٣٠/ ٢١٠ والحاكم ٢/ ٥٣٧ وسكت عنه ، ولم يتكلم فيه الذهبى ، والبيهقى ٢/ ٣٠ .

(٣) البيهقى ٢/ ٣١ .

(٤) ابن جرير ٣٠/ ٢١٣ وصحح إسناده ابن كثير ٧/ ٣٨٩ .

(٥) الطبرانى (٤٠٧١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٦ : « فيه واصل بن السائب ، وهو متروك » .

(٦) ابن جرير ٣٠/ ٢١٢ .

تفسير سورة « الكافرون »

هى ست آيات . وهى مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة ﴿ **يأيها الكافرون** ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال : أنزلت ﴿ **يأيها الكافرون** ﴾ بالمدينة. وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر أن رسول اللّه ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قل هو اللّه أحد ﴾ فى ركعتى الطواف [(١)] . وفى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر [(٢)] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول اللّه ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ و﴿ قل هو اللّه أحد ﴾[(٣)] . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى قال : كان رسول اللّه ﷺ يوتر بـ ﴿ سبح ﴾ و ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ و ﴿قل هو اللّه أحد ﴾ [(٤)].

وأخرج محمد بن نصر ، والطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «﴿ قل هو اللّه أحد﴾ تعدل ثلث القرآن ، و ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ تعدل ربع القرآن » . وكان يقرأ بهما فى ركعتى الفجر . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من قرأ :﴿ **يأيها الكافرون**﴾ كانت له عدل ربع القرآن ». وأخرج الطبرانى فى الصغير، والبيهقى فى الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ : ﴿ **قل يأيها الكافرون**﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ :﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن » [(٥)] . وأخرج أحمد وابن الضريس والبغوى وحميد بن زنجويه فى ترغيبه عن شيخ أدرك النبى ﷺ قال : خرجت معْ النبى ﷺ فى سفر فمر برجل يقرأ :﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ فقال: « أما هذا فقد برئ من الشرك » ، وإذا آخر يقرأ : ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ فقال النبى ﷺ: « بها وجبت له الجنة » [(٦)] . وفى رواية :« أما هذا فقد غُفر له » .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى ،وابن الأنبارى فى المصاحف، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعى عن أبيه ؛ أنه قال: يا رسول اللّه ، علمنى ما أقول إذا أويت إلى فراشى. قال:

(١) مسلم فى الحج (١٢١٨ / ١٤٧) . (٢) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٦/ ٩٨) .
(٣) أحمد ٢/ ٢٤ والترمذى فى الصلاة (٤١٧) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى ٢/ ١٧٠ وابن ماجة فى الصلاة (١١٤٩) وابن حبان (٢٤٥٠) .
(٤) صححه الحاكم ٢/٢٥٧ وقال الذهبى : « محمد رازى تفرد بأحاديث » .
(٥) الطبرانى فى الصغير ١/ ٦١ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/١٤٩: « فيه من لم أعرفهم » والبيهقى فى الشعب (٢٢٩٧) وإسناده ضعيف .
(٦) أحمد ٤/ ٦٣ ، ٦٤.

« اقرأ: ﴿ قل يأيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك » [١] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعى عن أبيه مرفوعا مثله. وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعى: « إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ : ﴿ قل يأيها الكافرون﴾ ، فإنك إذا قلتها، فقد برئت من الشرك » . وأخرج أحمد ، والطبرانى فى الأوسط عن الحارث بن جبلة ،وقال الطبرانى: عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة،قال: قلت: يا رسول الله ،علمنى شيئًا أقوله عند منامى ، قال: « إذا أخذت مضجعك من الليل ، فاقرأ: ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك ». وأخرج البيهقى فى الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ : « اقرأ :﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ عند منامك ، فإنها براءة من الشرك » [٢] .

وأخرج أبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرؤون ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ عند منامكم » . وأخرج البزار والطبرانى وابن مردويه عن خباب ؛ أن النبى ﷺ قال: « إذا أخذت مضجعك ، فاقرأ : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ وإن النبى ﷺ لم يأت فراشه قط ، إلا قرأ :﴿ قل يأيها الكافرون﴾ حتى يختم » [٣] . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقى الله بسورتين فلا حساب عليه: ﴿ قل يأيها الكافرون﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ » . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن الضريس عن أبى مسعود الأنصارى قال : من قرأ :﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فى ليلة فقد أكثر وأطاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ .

الألف واللام فى : ﴿ يأيها الكافرون ﴾ للجنس ، ولكنها لما كانت الآية خطابًا لمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره ، كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك ؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه . وسبب نزول هذه السورة : أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فأمره الله سبحانه أن يقول

---

(١) ابن أبى شيبة (٦٥٧٩) وأحمد ٥/ ٤٥٦ وأبو داود فى الأدب (٥٠٥٥) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٣) والنسائى فى التفسير (٧٢٩)، وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٩٠) ورجاله ثقات .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٩١) .

(٣) الطبرانى (٣٧٠٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٢٤ : « فيه جابر الجعفى وهو ضعيف » .

لهم: ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ [(١)] أى لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبدون من الأصنام. قيل : والمراد فيما يستقبل من الزمان ؛ لأن « لا » النافية لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع الذى فى معنى الاستقبال ، كما أن « ما » لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال. ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى. ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ أى ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه. والمعنى: أنه لم يعهد منى ذلك.

﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا قيل ، وهذا على قول من قال : إنه لا تكرار فى هذه الآيات ؛ لأن الجملة الأولى لنفى العبادة فى المستقبل ، لما قدمنا من أن « لا » لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال والدليل على ذلك أن « لن » : تأكيد لما تنفيه « لا » . قال الخليل فى « لن »: إن أصله « لا» فالمعنى : لا أعبد ما تعبدون فى المستقبل . ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى . ثم قال: ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ أى ولست فى الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم فى الحال بعابدين معبودى . وقيل بعكس هذا ، وهو أن الجملتين الأوليين للحال والجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ كما لو قال القائل : أنا ضارب زيدًا، وأنا قاتل عمرا ، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال . قال الأخفش والفراء : المعنى: لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ، ولا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه فى الحال وفيما يستقبل ونفى عنهم عبادة الله فى الحال وفيما يستقبل . وقيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال ، ولكنا نخص أحدهما بالحال ، والثانى بالاستقبال رفعًا للتكرار . وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لايخفى على منصف فإن جعل قوله : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ للاستقبال وإن كان صحيحًا على مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتم جعل قوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ للاستقبال ؛ لأن الجملة إسمية تفيد الدوام والثبات فى كل الأوقات . ولو كان حملها على الاستقبال صحيحًا ، للزم مثله فى قوله : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ ، وفى قوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس ؛ لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل إسمية مصدرة بالضمائر التى هى المبتدأ فى كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده ، منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ « لا » فى كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى الحال والاستقبال مختلفة؟ وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو إقرار منه بالتكرار ؛ لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذى لا يدل عليه دليل .

---

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٦١ .

وإذا تقرر لك هذا ، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التى لا تجحد ، واستعمالاتهم التى لاتنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا ، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا . هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه، وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ، ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل ، غير محتاج إلى تكثير القال والقيل . وقد وقع فى القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن . وربما يكثر فى بعض السور كما فى سورة الرحمن ، وسورة المرسلات ، وفى أشعار العرب من هذا ما لا يأتى عليه الحصر . ومن ذلك قول الشاعر :

يالبكر أنشروا لى كليبا ... يا لبكر أين أين الفرار

وقول الآخر :

هلا سألت جموع كنـ ... ـدة يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمةٌ يا علقمة ... خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى ... ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول آخر :

يا جعفر يا جعفر يا جعفر ... إن أك دحداحًا فأنت أقصر

وقول الآخر :

أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس

وقد ثبت عن الصادق المصدوق ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة ، أعادها ثلاث مرات . وإذا عرفت هذا ، ففائدة ما وقع فى السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم . وإنما عبر سبحانه بـ « ما » التى لغير العقلاء فى المواضع الأربعة ؛ لأنه يجوز ذلك كما فى قوله : سبحان ما سخركن لنا ، ونحوه . والنكتة فى ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد ولا يختلف . وقيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . وقيل : إن « ما » فى المواضع الأربعة هى المصدرية لا الموصولة، أى لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى . . . إلخ ، وجملة : ﴿ لكم دينكم ﴾ مستأنفة لتقرير قوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ . كما أن قوله : ﴿ ولى دين ﴾ تقرير لقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

فى الموضعين ، أى إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بدينى ، كما فى قوله : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ [الشورى : ١٥] والمعنى: أن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لى كما تطمعون . ودينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم . وقيل : المعنى : لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدين الجزاء . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل ليست بمنسوخه لأنها أخبار ، والأخبار لا يدخلها النسخ . قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله : ﴿ ولى ﴾ . وقرأ نافع وهشام وحفص والبزى بفتحها. وقرأ الجمهور أيضًا بحذف الياء من « دينى » وقفًا ووصلا . وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلا ووقفًا . قالوا : لأنها اسم فلا تحذف . ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسمًا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس ؛ أن قريشًا دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : « ما هى ؟ » قالوا : تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة . قال: « حتى أنظر ما يأتينى من ربى ». فجاء الوحى من عند الله: ﴿ **قل يأيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون** ﴾ إلى آخر السورة . وأنزل الله : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى: ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [الزمر : ٦٤ ـ ٦٦] (١) .وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن سعيد بن مينا مولى أبى البحترى قال : لقى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ، قالوا : يامحمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فإن كان الذى نحن عليه أصح من الذى أنت عليه ، كنت قد أخذت منه حظا ، وإن كان الذى أنت عليه أصح من الذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظًا ، فأنزل الله: ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ إلى آخر السورة (٢). وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن قريشا قالت : لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنزل الله : ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ السورة كلها .

(١ ، ٢) ابن جرير ٣٠/ ٢١٤ .

تفسير سورة النصر

وتسمى سورة التوديع . هى ثلاث آيات . وهى مدنية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بالمدينة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى ، وهو فى حجة الوداع : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ حتى ختمها ، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع [١] . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت :﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعيت إلىّ نفسى »[٢] . وأخرج ابن مردويه عنه قال: لما نزلت : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعيت إلى نفسى ، وقرب إلىّ أجلى » . وأخرج النسائى وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا قال: لما نزلت : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ نعيت لرسول الله نفسه حين أنزلت ، فأخذ فى أشد ما كان قط اجتهادا فى أمر الآخرة [٣] .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت : لما أنزل : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ قال رسول الله ﷺ: « إن الله لم يبعث نبيا إلا عمر فى أمته شطر ما عمر النبى الماضى قبله ، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة فى بنى إسرائيل، وهذه لى عشرون سنة ، وأنا ميت فى هذه السنة » . فبكت فاطمة ، فقال النبى ﷺ : «أنت أول أهلى بى لحوقا». فتبسمت . وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: « إنه قد نعيت إلىّ نفسى » فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، فقال : «اصبرى فإنك أول أهلى لحاقا بى » فضحكت[٤] . وقد تقدم فى سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾ .

النصر : العون ، مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض : إذا أعان على نباتها ، ومنع من قحطها ، ومنه قول الشاعر :

إذا انصرف الشهر الحرام فودعى ... بلاد تميم وانصرى أرض عامر

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٤٤٧ .
(٢) أحمد ١/ ٢١٧ وابن جرير ٣٠/ ٢١٦ .
(٣) النسائى فى التفسير (٧٣٢) والطبرانى (١١٩٠٣) .
(٤) البيهقى فى الدلائل ٧/ ١٦٧ .

يقال : نصره على عدوه ينصره نصرًا : إذا أعانه . والاسم النصرة . واستنصره على عدوه : إذا سأله أن ينصره عليه. قال الواحدى : قال المفسرون : إذا جاءك يا محمد نصر الله على من عاداك وهم قريش ﴿ والفتح ﴾ فتح مكة . وقيل : المراد : نصره ﷺ على قريش من غير تعيين . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار . وقيل : هو فتح سائر البلاد . وقيل هو ما فتحه الله عليه من العلوم . وعبر عن حصول النصر والفتح بالمجىء ؛ للإيذان بأنهما متوجهان إليه ﷺ . وقيل : «إذا» بمعنى « قد » . وقيل : بمعنى « إذ » . قال الرازى : الفرق بين النصر والفتح : أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذى كان منغلقًا، والنصر كالسبب للفتح . فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح . أو يقال : النصر : كمال الدين ، والفتح : إقبال الدنيا الذى هو تمام النعمة. أو يقال : النصر: الظفر، والفتح : الجنة . هذا معنى كلامه . ويقال : الأمر أوضح من هذا وأظهر ، فإن النصر هو التأييد الذى يكون به قهر الأعداء وغلبهم، والاستعلاء عليهم ، والفتح : هو فتح مساكن الأعداء ، ودخول منازلهم .

﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا ﴾ أى أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون فى دين الله الذى بعثك به جماعات فوجًا بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة ،قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون فى دين الله أفواجًا ، أى جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام . قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس : أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين . وانتصاب ﴿أفواجًا ﴾ على الحال من فاعل يدخلون . ومحل قوله : ﴿ يدخلون فى دين الله ﴾ النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، وإن كانت بمعنى العلم فهو فى محل نصب على أنه المفعول الثانى .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو العامل فيه ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله، وقال مكى : العامل فى : « إذا » هو ﴿ جاء ﴾ . ورجحه أبو حيان ، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها . وقوله : ﴿ بحمد ربك ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى فقل : سبحان الله ملتبسًا بحمده ، أو حامدًا له . وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس . وبين الحمد له على جميل صنعه له ، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التى هى النصر والفتح لأم القرى التى كان أهلها قد بلغوا فى عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم : هو مجنون ، هو ساحر ، هو شاعر ، هو كاهن ، ونحو ذلك . ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار ، أى اطلب منه المغفرة لذنبك هضمًا لنفسك واستقصارًا لعملك ، واستدراكًا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله ، ويكثر من الاستغفار والتضرع ، وإن كان

قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقيل : إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به ، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم . وقيل : إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهًا لأمته وتعريضًا بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار . وقيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. وقيل : المراد بالتسبيح هنا : الصلاة . والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورًا بالنعمة ، وفرحًا بما هيأه الله من نصر الدين ، وكبت أعدائه ، ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم . قال الحسن : أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله ، فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول : «سبحانك اللهم وبحمدك ، اغفر لى إنك أنت التواب » . قال قتادة ومقاتل : وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين . وجملة : ﴿ إنه كان توابًا ﴾ تعليل لأمره ﷺ بالاستغفار، أى من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم . وتواب من صيغ المبالغة . ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين . وقد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعى رسول الله ﷺ .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن عمر سألهم عن قول الله :﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾، فقالوا : فتح المدائن والقصور . قال : فأنت يا ابن عباس ما تقول : قال: قلت مثل ضرب لمحمد ﷺ نعيت له نفسه . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال:لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم . فقال : ما تقولون فى قول الله عز وجل : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا . فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له . قال : ﴿ إذاجاء نصرالله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبى بكر ؛ أن سورة ﴿ إذا جاء نصرالله والفتح﴾ حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعيت إليه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، وأستغفره وأتوب إليه » . فقلت: يا رسول الله ، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده ، و أستغفر الله وأتوب إليه . فقال : « خبرنى ربى أنى سأرى علامة من أمتى . فإذا رأيتها ، أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه . فقد رأيتها: ﴿ إذا

جاء نصر اللّه والفتح ﴾ فتح مكة . ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجًا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ » [١] . وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة وغيرهم عن عائشة قالت : كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن . يعنى : ﴿ إذا جاء نصر اللّه والفتح﴾ . وفى الباب أحاديث [٢] .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت :﴿ إذا جاء نصر اللّه والفتح ﴾ قال رسول اللّه ﷺ :« جاء أهل اليمن ، هم أرق قلوبا ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : بينما رسول اللّه ﷺ فى المدينة إذ قال : « اللّه أكبر ، قد جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ، قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية »[٣]. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا فى دين اللّه أفواجًا ، وسيخرجون منه أفواجًا» . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : تلا رسول اللّه ﷺ : ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجا ﴾ قال : « ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا » [٤] .

---

(١) ابن جرير ٢١٦/٣٠ .

(٢) أحمد ٤٣/٦ والبخارى فى التفسير (٤٩٦٨) ومسلم فى الصلاة (٢١٧/٤٨٤) وأبو داود فى الصلاة (٨٧٧) والنسائى فى التفسير (٧٣٠) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٩) .

(٣) الطبرانى (١١٩٠٣).

(٤) صححه الحاكم ٤٩٦/٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

تفسير سورة تبت

هى خمس آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة قالوا : نزلت ﴿تبت يدا أبى لهب﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾ .

معنى ﴿ تبت ﴾ : هلكت . وقال مقاتل : خسرت . وقيل : خابت . وقال عطاء : ضلت . وقيل: صفرت من كل خير . وخص اليدين بالتباب ؛ لأن أكثر العمل يكون بهما . وقيل : المراد باليدين : نفسه . وقد يعبر باليد عن النفس، كما فى قوله: ﴿ بما قدمت يداك ﴾ [الحج : ١٠] أى نفسك . والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله ، كقولهم : أصابته يد الدهر ، وأصابته يد المنايا ، كما فى قول الشاعر :

لما أكبت يد الرزايا عليه نادى ألا مخبر

وأبو لهب : اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم . وقوله: ﴿ وتب ﴾ أى هلك . قال الفراء : الأول دعاء عليه، والثانى خبر كما تقول : أهلكه اللّه ، وقد هلك . والمعنى : أنه قد وقع ما دعا به عليه ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : «وقد تب» . وقيل : كلاهما إخبار . أراد بالأول : هلاك عمله ، وبالثانى :هلاك نفسه . وقيل : كلاهما دعاء عليه . ويكون فى هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة . وذكره سبحانه بكنيته؛ لاشتهاره بها ، ولكون اسمه كما تقدم : عبد العزى . والعزى اسم صنم . ولكون فى هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار ؛ لأن اللهب هى لهب النار وإن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا ، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار . قرأ الجمهور : ﴿لهب ﴾ بفتح اللام والهاء . وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء . واتفقوا على فتح الهاء فى قوله : ﴿ ذات لهب ﴾ . وروى صاحب الكشاف أنه قرئ :« تبت يدا أبو لهب » ، وذكر وجه ذلك . ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أى ما دفع عنه ما حل به من التباب ، وما نزل به من عذاب اللّه ما جمع من المال ولا ما كسب من الأرباح والجاه . أو المراد بقوله: ﴿ ماله ﴾ : ما ورثه من أبيه ، وبقوله : ﴿ وما كسب﴾ الذى كسبه بنفسه . قال مجاهد : ﴿ وما كسب ﴾ من ولد ، وولد الرجل من كسبه. ويجوز أن تكون « ما » فى قوله : ﴿ما أغنى ﴾ استفهامية ، أى أىّ شيء أغنى عنه ؟ وكذا يجوز فى قوله : ﴿ وما كسب ﴾ أن تكون استفهامية ، أى وأىّ شيء كسب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى وكسبه . والظاهر أن

« ما » الأولى نافية ، والثانية موصولة .

ثم أوعده سبحانه بالنار فقال : ﴿ سيصلى نارًا ذات لهب ﴾ . قرأ الجمهور: ﴿ سيصلى ﴾ بفتح الياء ، وإسكان الصاد ، وتخفيف اللام ، أى سيصلى هو بنفسه . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة وابن مقسم والأشهب العقيلى وأبو السماك والأعمش ومحمد بن السميفع بضم الياء ، وفتح الصاد ، وتشديد اللام . ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . والمعنى : سيصليه الله . ومعنى ﴿ ذات لهب ﴾ : ذات اشتعال وتوقد . وهى نار جهنم . ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ معطوف على الضمير فى « يصلى » . وجاز ذلك للفصل ، أى وتصلى امرأته نارًا ذات لهب . وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان . وكانت تحمل الغضى والشوك ، فتطرحه بالليل على طريق النبى ﷺ ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمدانى . وقال مجاهد وقتادة والسدى : إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس ، والعرب تقول : فلان يحطب على فلان : إذا نم به ، ومنه قول الشاعر :

إن بنى الأدرم حَمَّالُوا الحطب
هُمْ الوُشاةُ فى الرِّضَا والغَضَبْ
عليهم اللَّعنةُ تَتْرَى والحَرَب

وقال آخر :

من البيضِ لم يُصْطد على ظَهْرِ لأمةٍ ... ولم يَمْشِ بينَ الناس بالحَطَب الرطِب

وجعل الحطب فى هذا البيت رطبًا ؛ لما فيه من التدخين الذى هو زيادة فى الشر ، ومن الموافقة للمشى بالنميمة . وقال سعيد بن جبير : معنى ﴿ حمالة الحطب ﴾ : أنها حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، كما فى قوله : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] . وقيل : المعنى : حمالة الحطب فى النار . قرأ الجمهور: « حمالة » بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب . وأما على ما قدمنا من عطف ﴿ وامرأته ﴾ على الضمير فى ﴿ تصلى ﴾ فيكون رفع « حمالة » على النعت لامرأته . والإضافة حقيقية ؛ لأنها بمعنى : المضى ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى حمالة . وقرأ عاصم بنصب : ﴿ حمالة ﴾ على الذم ، أو على أنه حال من ﴿ امرأته ﴾ . وقرأ أبو قلابة : « حاملة الحطب » . ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال من ﴿ امراته ﴾ . والجيد : العنق . والمسد : الليف الذى تفتل منه الحبال ، ومنه قول النابغة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها ... له صريفٌ صريفَ القَعْوِ بالمسد

وقول الآخر :

يامسد الخوص تعوذ مني إن كنت لدناً ليناً فإني

وقال أبو عبيدة : المسد : هو الحبل يكون من صوف . وقال الحسن : هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد . وقد تكون الحبال من جلود الإبل ، أو من أوبارها . قال الضحاك وغيره : هذا فى الدنيا ، كانت تعير النبى ﷺ بالفقر ، وهى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها ، فخنقها الله به فأهلكها . وهو فى الآخرة حبل من نار . وقال مجاهد وعروة بن الزبير : هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها . وقال قتادة : هو قلادة من ودع كانت لها . قال الحسن : إنما كان خرزًا فى عنقها. وقال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللات والعزى لأنفقنها فى عداوة محمد . فيكون ذلك عذابًا فى جسدها يوم القيامة . والمسد : الفتل . يقال : مسد حبله يمسده مسدًا : أجاد فتله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ، قال : لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] خرج النبى ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : « ياصباحاه » . فاجتمعوا إليه فقال: « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ،أكنتم مصدقىّ ؟» قالوا : ما جربنا عليك كذبًا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» . فقال أبو لهب تبًا لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت هذه السورة : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ قال : خسرت . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ابنه من كسبه ، ثم قرأت : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ ، قالت: وما كسب: ولده . وأخرج عبد الرزاق والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ وما كسب ﴾ قال: كسبه : ولده . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه على طريق النبى ﷺ ليعقره وأصحابه . وقال : ﴿ حمالة الحطب ﴾ : نقالة الحديث .﴿ حبل من مسد ﴾ قال: هى حبال تكون بمكة . ويقال : المسد : العصا التى تكون فى البكرة . ويقال: المسد: قلادة من ودع. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت: لما نزلت: ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال: يارسول الله ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٧٢) ومسلم فى الإيمان (٢٠٨ / ٣٥٥) والنسائى فى التفسير (٤٤٦) .

قد أقبلت ، وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى » . وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ،ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت : يا أبا بكر ، إنى أخبرت أن صاحبك هجانى قال : لا ورب البيت ما هجاك ، فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها . وأخرجه البزار بمعناه ، وقال : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد .

تفسير سورة الإخلاص

هى أربع آيات . وهى مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى . وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وابن جرير وابن خزيمة ، وابن أبى عاصم فى السنة ، والبغوى فى معجمه ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى ابن كعب ؛ أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يامحمد ، انسب لنا ربك . فأنزل الله : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ﴾ [(١)] إلخ ، ليس شىء يولد إلا سيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث [(٢)] . ﴿ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ قال : لم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شىء . ورواه الترمذى من طريق أخرى عن أبى العالية مرسلا ، ولم يذكر أبيا ، ثم قال : وهذا أصح [(٣)]. وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى عن جابر قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: انسب لنا ربك ،فأنزل اللّه:﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ إلى آخر السورة [(٤)]. وحسن السيوطى إسناده . وأخرج الطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول اللهّ ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة : ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن عدى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ؛ أن اليهود جاءت إلى النبىّ ﷺ ، منهم كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب ، فقالوا : يامحمد ، صف لنا ربك الذى بعثك ، فأنزل اللّه : ﴿ قل هو اللّه أحد . اللّه الصمد . لم يلد ﴾ فيخرج منه الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج منه شىء [(٥)]. وأخرج أبو عبيد فى فضائله، وأحمد، والنسائى فى اليوم والليلة وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول اللّه ﷺ : « من قـرأ :﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»[(٦)]. وأخرج ابن الضريس والبزار ، والبيهقى فى الشعـب عـن أنس عـن النبىّ ﷺ : « من قرأ : ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ مائتى مرة غفر له ذنب مائتى سنة » [(٧)]. قال البزار :لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبى جعفر والأغلب بن تميم ، وهما يتقاربان فى سوء الحفظ .

(١) فى المخطوطة : ﴿ قل هو اللّه أحد . . . لم يلد ولم يولد ﴾ والصواب إثبات السورة كاملة .

(٢) أحمد ٥/ ١٣٤ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٤) وابن جرير ٣٠/ ٢٢١ ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الأسماء والصفات ٤١٩/١ ، ٤٢٠ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٣٦٥) .

(٤) أبو يعلى (٢٠٤٤) وابن جرير ٣٠ / ٢٢١ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٩ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو يعلى إلا أنه قال:إن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : انسب الله ، وفيه مجالد بن سعيد . قال ابن عدى: له عن الشعبى عن جابر وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ١ / ٤١٩ .

(٦) أحمد ٥ / ١٤١ والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٢١ ، ١٠٥٢٢) .

(٧) البيهقى فى الشعب (٢٣١١).

وأخرج أحمد والترمذى وابن الضريس، والبيهقى فى سننه عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى أحبّ هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : «حبك إياها أدخلك الجنة » (١). وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ :﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرّات فى ليلة ؟ فإنها تعدل ثلث القرآن » وإسناده ضعيف .

وأخرج محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ خمسين مرّة غفر له ذنوب خمسين سنة » وإسناده ضعيف . وأخرج الترمذى وابن عدّى ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتى مرة ، كتب الله له ألفا وخمسمائة حسنة ، ومحا عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين »(٢) ، وفى إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخارى وغيره ، ولفظ الترمذى : «من قرأ فى يوم مائتى مرة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ محى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » ، وفى إسناده حاتم بن ميمون المذكور . وأخرج الترمذى ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عدّى والبيهقى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه ، ثم قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الربّ : ياعبدى ، ادخل على يمينك الجنة » (٣) وفى إسناده أيضا حاتم بن ميمون المذكور . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب من حديث ثابت ، وقد روى من غير هذا الوجه عنه . وأخرج ابن سعد وابن الضريس وأبو يعلى ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال: كان النبىّ ﷺ بالشام ، وفى لفظ : بتبوك ، فهبط جبريل فقال : يامحمد ، إن معاوية بن معاوية المزنى هلك ، أفتحبّ أن تصلى عليه ؟ قال : «نعم » ، فضرب بجناحه الأرض فتضعضع له كل شىء ولزق بالأرض ورفع له سريره فصلى عليه ، فقال النبىّ ﷺ : «من أىّ شىء أوتى معاوية هذا الفضل ، صلى عليه صفان من الملائكة فى كل صف ستة آلاف ملك ؟» قال : بقراءة : ﴿قل هو الله أحد ﴾ كان يقرؤها قائما وقاعدا وجائيا وذاهبا ونائما (٤) . وفى إسناده العلاء بن محمد الثقفى وهو متهم بالوضع . وروى عنه من وجه آخر بأطول من هذا ، وفى إسناده هذا المتهم . وفى الباب أحاديث فى هذا المعنى وغيره .

وقد روى من غير هذا الوجه أنها تعدل ثلث القرآن،وفيها ماهو صحيح وفيها ماهو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم ، والترمذى وصححه وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ: « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث

(١) أحمد ٣/ ١٥٠ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠١) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .
(٢) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٨) وقال : « حديث غريب » والبيهقى فى الشعب (٢٣١٦) .
(٣) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٨) والبيهقى فى الشعب (٢٣١٨) .
(٤) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦ وفى الشعب (٢٣٢٠ ، ٢٣٢١) وقال : مرسل .

القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » (١) . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » . يعنى: ﴿قل هو الله أحد﴾ (٢) . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » فشق ذلك عليهم، وقالوا : أينا يطيق ذلك ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » (٣) . وأخرج مسلم وغيره من حديث أبى الدرداء نحوه (٤) . وقد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة ، وحديث ابن مسعود ، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وروى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن ، وبعضها ضعيف .

ولو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى ومسلم وغيرهما أن النبى ﷺ بعث رجلا فى سرية ، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، فلما رجعوا ، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : «سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ » فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد (٥) . وأخرج البخارى أيضًا فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به ، افتتح بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يفرغ منها .ثم يقرأ سورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك فى كل ركعة . فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ،وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، قال : ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك ، فعلت ، وإن كرهتم ، تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، فكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : « يافلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟ » فقال : إنى أحبها . قال : « حبك إياها أدخلك الجنة » (٦) . وقد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى (٧) .

---

(١) مسلم فى صلا المسافرين وقصرها (٨١٢/ ٢٦١) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٠) وأحمد ٢/ ٤٢٩.

(٢) مالك ١/ ٢٠٨ . ط . دار الحديث ، وأحمد ٣/ ١٥ والبخارى فى التوحيد (٧٣٧٤) .

(٣) أحمد ٣/ ٨ والبخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٥) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » .

(٤) مسلم فى صلاة المسافرين (٨١١ / ٢٥٩) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٦) .

(٥) البخارى فى التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٣ / ٢٦٣) .

(٦) البخارى فى الأذان (٧٧٤) .

(٧) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠١) وقال : «حسن غريب صحيح من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ .

قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائدًا إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول ، وأن المشركين قالوا : يامحمد ، انسب لنا ربك . فيكون مبتدأ ، و﴿ الله ﴾ مبتدأ ثان . و ﴿ أحد ﴾ خبر المبتدأ الثانى ، والجملة خبر المبتدأ الأول . ويجوز أن يكون ﴿ الله ﴾ بدلا من ﴿ هو ﴾ والخبر ﴿ أحد ﴾. ويجوز أن يكون الله خبرًا أولاً، و﴿ أحد﴾ خبرًا ثانيًا ويجوز أن يكون ﴿ أحد ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف ، أى هو أحد . ويجوز أن يكون ﴿هو ﴾ ضمير شأن لأنه موضع تعظيم . والجملة بعده مفسرة له، وخبر عنه . والأول أولى . قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله ، والمعنى : إن سألتم تبيين نسبته ،هو الله أحد . قيل : وهمزة ﴿ أحد ﴾ بدل من الواو . وأصله : واحد . وقال أبو البقاء: همزة ﴿ أحد ﴾ أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد . ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهرى : أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال : رجل أحد ، ولا درهم أحد . كما يقال : رجل واحد ، ودرهم واحد . قيل : والواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لا يدخل فيه ، فإذا قلت : لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان ، بخلاف قولك : لا يقاومه أحد . وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد : بأن الواحد يدخل فى العدد ، وأحد لا يدخل فيه . ورد عليه أبو حيان بأنه يقال : أحد وعشرون ، ونحوه ، فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى. ومن جملة القائلين بالقلب الخليل .قرأ الجمهور: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بإثبات ﴿ قل ﴾. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى : « الله أحد » بدون ﴿ قل ﴾ . وقرأ الأعمش : « قل هو الله الواحدى » . وقرأ الجمهور بتنوين ﴿ أحد ﴾ ، وهو الأصل . وقرأ زيد بن على وأبان بن عثمان وابن أبى إسحاق والحسن وأبو السماك وأبو عمرو فى رواية عنه بحذف التنوين للخفة، كما فى قول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقيل : إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف ، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين . ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر . ﴿ الله الصمد ﴾ الاسم الشريف مبتدأ ، و ﴿الصمد﴾ خبره . والصمد : هو الذى يصمد إليه فى الحاجات ، أى يقصد لكونه قادرًا على قضائها . فهو فعل بمعنى مفعول . كالقبض بمعنى المقبوض ؛ لأنه مصمود إليه ، أى مقصود إليه . قال الزجاج : الصمد : السند الذى انتهى إليه السؤدد . فلا سيد فوقه ، قال الشاعر :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل : معنى الصمد : الدائم الباقى الذى لم يزل ، ولا يزول .وقيل : معنى الصمد : ما ذكر بعده من أنه الذى لم يلد ولم يولد . وقيل : هو المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وقيل : هو المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب . وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول . وقيل : هو الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . وقيل : هوالكامل الذى لا عيب فيه ، وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعطاء وعطية العوفى والسدى : الصمد : هو المصمت الذى لا جوف له ، ومنه قول الشاعر :

شهاب حروب لا تزال جياده عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لا ينافى القول الأول ؛ لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ، ثم استعمل فى السيد المصمود إليه فى الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر :

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر :

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل ؛ للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة ؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى . وقيل : إن الصمد صفة للاسم الشريف ، والخبر هو ما بعده . والأول أولى ؛ لأن السياق يقتضى استقلال كل جملة . ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ أى لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقًا ولا حقًا . قال قتادة : إن مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : ﴿ عزير ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] وقالت النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] فأكذبهم الله فقال : ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ . قال الرازى : قدم ذكر نفى الولد مع أن الولد مقدم؛ للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين : إن الملائكة بنات الله . واليهود : عزير ابن الله . والنصاري : المسيح ابن الله . ولم يدّع أحد له والدًا ، فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال : ﴿ **لم يلد** ﴾ ، ثم أشار إلى الحجة فقال : ﴿ **ولم يولد** ﴾ كأنه قيل : الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد فى الماضى ، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك فى المستقبل ؛ لأنه ورد جوابًا عن قولهم : ولد الله ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله ﴾ [الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] فلما كان المقصود

من هذه الآية تكذيب قولهم ، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفى فيما مضى ، ووردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ : هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفًا بالصفات المتقدمة ، كان متصفًا بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله ولا يشاركه فى شيء . وأخر اسم كان لرعاية الفواصل . وقوله : ﴿ **له** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **كفوا** ﴾ قدم عليه لرعاية الاهتمام ؛ لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته . وقيل : إنه فى محل نصب على الحال . والأول أولى . وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدم الظرف ، كان هو الخبر، وها هنا لم يجعل خبراً مع تقدمه . وقد رد على المبرد بوجهين : أحدهما : أن سيبويه لم يجعل ذلك حتمًا ، بل جوزه . والثانى : أنّا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر ، بل يجوز أن يكون خبرًا ، ويكون ﴿ **كفوًا** ﴾ منتصبًا على الحال . وحكى فى الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقر ، واقتصر فى هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ، ولم ينظر إلى آخره . فإنه قال فى آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربى جيد كثير. انتهى . قرأ الجمهور :﴿ **كفوا** ﴾ بضم الكاف والفاء ، وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع فى رواية عنه بإسكان الفاء . وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واوًا وصلا ووقفًا . وقرأ نافع فى رواية عنه :« كفأ » بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد . وقرأ سليمان بن على بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد ، وأنشد قول النابغة :

لا تقذفنى بركن لا كفاء له

والكفء فى لغة العرب : النظير . يقول : هذا كفؤك ، أى نظيرك . والاسم : الكفاءة بالفتح .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والمحاملى فى أماليه ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن بريد ، لا أعلمه إلا رفعه ، قال : الصمد : الذى لا جوف له ، ولا يصح رفع هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الصمد : الذى لا جوف له . وفى لفظ : ليس له أحشاء . وأخرج ابن أبى عاصم وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عنه قال : الصمد : الذى لا يطعم ، وهو المصمت . وقال : أو ما سمعت النائحة وهى تقول :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لا يطعم عند القتال . وقد روى عنه أنه الذى يصمد إليه فى الحوائج ، وأنه أنشد البيت ، واستدل به على هذا المعنى ، وهو أظهر فى المدح ، وأدخل فى الشرف . وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،

وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : الصمد : السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد . وهو الله سبحانه . هذه صفة لا تنبغى إلا له ، ليس له كفو ، وليس كمثله شىء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود قال : الصمد : هو السيد الذى قد انتهى سؤدده فلا شىء أسود منه . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : الصمد : الذى تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء . وأخرج ابن جرير من طرق عنه فى قوله : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ قال : ليس له كفو ولا مثل .

تفسير سورة الفلق

هى خمس آيات . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة . وأخرج أحمد والبزار والطبرانى وابن مردويه من طرق ، قال السيوطى: صحيحة ، عن ابن مسعود ؛ أنه كان يحك المعوذتين فى المصحف يقول : لا تخلطوا القرآن بما ليس منه ، إنهما ليستا من كتاب الله ، إنما أمر النبى ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما (١) . قال البزار : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة . وقد صح عن النبى ﷺ أنه قرأ بهما فى الصلاة ، وأثبتتا فى المصحف (٢) . وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن زر بن حبيش قال : أتيت المدينة فلقيت أبى بن كعب ، فقلت له : أبا المنذر إنى رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ، فقال : أما والذى بعث محمداً بالحق لقد سألت رسول الله ﷺ عنهما ، وما سألنى عنهما أحد منذ سألته (٣) غيرك . قال : « قيل لى : قل ، فقلت، فقولوا » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ(٤) . وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ سئل عن هاتين السورتين فقال : « قيل لى ، فقلت، فقولوا كما قلت » (٥) .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أنزلت على الليلة آيات لم أر مثلهن قط : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ »(٦) . وأخرج ابن الضريس وابن الأنبارى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ، أقرئنى سورة يوسف ، وسورة هود . قال: « يا عقبة اقرأ بـ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فإنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك ، فافعل » (٧) . وأخرج ابن سعد والنسائى والبغوى والبيهقى عن أبى حابس الجهنى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا حابس ، أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ هما المعوذتان » (٨) . وأخرج الترمذى وحسنه وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى، قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان ، ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورة المعوذتين ، أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك(٩) . وأخرج أبو داود والنسائى ، والحاكم

---

(١) أحمد ٥/ ١٢٩ ، ١٣٠ و الطبرانى (٩١٤٨ ، ٩١٥٢) .
(٢) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥١) عن عقبة بن عامر .
(٣) فى المطبوعة : « سأله » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٤) أحمد ٥/ ١٢٩ والبخارى فى التفسير (٧٩٧٦ / ٧٩٧٧) والنسائى فى التفسير (٧٦٤) وابن حبان (٧٩٤) .
(٥) الطبرانى (٩١٥١ ، ٩١٥٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٣ : « فيه إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف » .
(٦) أحمد ٤ / ١٤٤ ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٤ / ٢٦٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٧) والنسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥٥) .
(٧) صححه الحاكم ٢/ ٥٤٠ ووافقه الذهبى .
(٨) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٤١) والبيهقى فى الشعب (٢٣٣٩) ورجاله موثقون .
(٩) الترمذى فى الطب (٢٠٥٨) وقال : « حسن غريب » والبيهقى فى الشعب (٢٣٢٩) ورجاله ثقات .

وصححه عن ابن مسعود ؛ أن النبى ﷺ كان يكره عشرخصال، ومنها أنه كان يكره الرقى إلا بالمعوذتين .

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب السور إلى الله: ﴿ **قل أعوذ برب الفلق**﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ».وأخرج النسائى وابن الضريس ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن الأنبارى وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ، قال: أخذ بمنكبى رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اقرأ » . قلت : ما أقرأ بأبى أنت وأمى ؟ قال : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ . ثم قال : « اقرأ » . قلت : بأبى أنت وأمى ما أقرأ ؟ قال : «﴿قل أعوذ برب الناس ﴾ ولم تقرأ بمثلهما» [(١)] . وأخرج مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه ، كنت أقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتهما [(٢)] . وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور [(٣)] .

وأخرج عبد بن حميد فى مسنده عن زيد بن أرقم قال: سحر النبى ﷺ رجل من اليهود ، فاشتكى فأتاه جبريل ، فنزل عليه بالمعوذتين ، وقال : إن رجلاً من اليهود سحرك ، والسحر فى بئر فلان ، فأرسل عليا فجاء به ، فأمره أن يحل العقد ، ويقرأ آية ويحل ، حتى قام النبى ﷺ كأنما نشط من عقال . وأخرجه ابن مردويه والبيهقى من حديث عائشة مطولا. وكذلك أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس . وقد ورد فى فضل المعوذتين وفى قراءة رسول الله ﷺ لهما فى الصلاة وغيرهما أحاديث . وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج الطبرانى فى الصغير عن على بن أبى طالب قال : لدغت النبى ﷺ عقرب وهو يصلى . فلما فرغ قال : « لعن الله العقرب ، لا تدع مصلياً ولا غيره» ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ : ﴿قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾[(٤)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ .

الفلق : الصبح . يقال : هو أبين من فلق الصبح . وسمى فلقا ؛ لأنه يفلق عنه الليل . وهو فعل بمعنى مفعول . قال الزجاج : لأن الليل ينفلق عنه الصبح ، ويكون بمعنى مفعول .

(١) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥٤) وابن حبان (٧٩٣) .
(٢) مالك ٢/ ٩٤٣ . ط . دار الحديث .
(٣) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٦) ومسلم فى السلام (٢١٩٢ / ٥١) .
(٤) قال الهيثمى فى المجمع ٥/ ١١٤ : « رواه الطبرانى فى الصغير وإسناده حسن » .

يقال : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح . وهذا قول جمهور المفسرين ، ومنه قول ذى الرمة :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق هادئة فى أخريات الليل منتصب

وقول الآخر :

يا ليلة لم أنمها بت مرتفقا أرعى النجوم إلى أن نور الفلق

وقيل : هو سجن فى جهنم . وقيل : هو اسم من أسماء جهنم . وقيل : شجرة فى النار . وقيل : هو الجبال والصخور؛ لأنها تفلق بالمياه ، أى تشقق . وقيل : هو التفليق بين الجبال ؛ لأنها تنشق من خوف الله . قال النحاس : يقال لكل ما اطمأن من الأرض : فلق ، ومنه قول زهير :

مازلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدى الركاب بهم من راكس فلقا

والراكس : بطن الوادى ، ومثله قول النابغة :

أتانى ودونى راكس فالضواجع

وقيل : هو الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان ، والصبح ، والحب ، والنوى ، وكل شىء من نبات وغيره . قال الحسن والضحاك : قال القرطبى : هذا القول يشهد له الانشقاق ، فإن الفلق : الشق. فلقت الشىء فلقاً : شققته. والتفليق مثله . يقال : فلقته فانفلق وتفلق . فكل ما انفلق عن شىء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق . قال الله سبحانه: ﴿ فالق الإصباح ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وقال: ﴿ فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام : ٩٥] . انتهى . والقول الأول أولى ؛ لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه ، لكنه المتبادر عند الإطلاق. وقد قيل فى وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه . وقيل : طلوع الصبح ، كالمثال لمجىء الفرح . فكما أن الإنسان فى الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح . وقيل : غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

﴿ من شر ما خلق ﴾ متعلق بـ ﴿ أعوذ ﴾ أى من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته ، فيعم جميع الشرور. وقيل : هو إبليس وذريته . وقيل : جهنم . ولا وجه لهذا التخصيص ، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية . وقد حرَّف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرؤوا بتنوين : «شرٍ» على أن « ما » نافية ، والمعنى : من شر لم يخلقه . ومنهم عمرو بن عبيد ، وعمرو بن عائذ . ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الغاسق: الليل . والغسق : الظلمة. يقال : غسق الليل يغسق : إذا

أظلم . قال الفراء : يقال : غسق الليل وأغسق : إذا أظلم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

وقال الزجاج : قيل : ليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغسق : البرد . ولأن فى الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد،كذا قال .وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين . ووقوبه : دخول ظلامه ، ومنه قول الشاعر :

وقب العذاب عليهم فكأنهم لحقتهم نار السموم فأخمدوا

أى دخل العذاب عليهم . ويقال : وقبت الشمس : إذا غابت . وقيل: الغاسق : الثريا. وذلك أنها إذا سقطت ، كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد. وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق . وقال الزهرى : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ، ولم يلاحظ معنى الغسوق . وقيل: هو القمر إذا خسف . وقيل : إذا غاب . وبهذا قال قتادة وغيره . واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لما طلع فقال : « يا عائشة ، استعيذى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » (١) . قال الترمذى بعد إخراجه : حسن صحيح . وهذا لا ينافى قول الجمهور ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه . وهكذا يقال فى جواب من قال : إنه الثريا . قال ابن الأعرابى فى تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر . وقيل : الغاسق : الحية إذا لدغت . وقيل : الغاسق : كل هاجم يضر كائناً ما كان ، من قولهم : غسقت القرحة : إذا جرى صديدها. وقيل : الغاسق : هو السائل. وقد عرفناك أن الراجح فى تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول. ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر ، والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم : الليل أخفى للويل . ﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾ النفاثات : هن السواحر ، أى ومن شر النفوس النفاثات ، أو النساء النفاثات . والنفث: النفخ .كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر. قيل : مع ريق .وقيل بدون ريق . والعقد : جمع عقدة . وذلك أنهن لن ينفثن فى عقد الخيوط حين يسحرن بها ، ومنه قول عنترة :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يعقد فحق له العقود

وقول متمم بن نويرة :

(١) أحمد ٦/ ٢٣٧ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٦) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٣٠/ ٢٢٧ ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٠ ، ٥٤١ ووافقه الذهبى .

نفث في الخيط شبيه الرقى   من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة : النفاثات : هن بنات لبيد الأعصم اليهودي ، سحرن النبي ﷺ . قرأ الجمهور : ﴿ النفاثات ﴾ جمع نفاثة على المبالغة . وقرأ يعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر : « النافثات » جمع نافثة . وقرأ الحسن : «النُفاثات » بضم النون . وقرأ أبو الربيع : « النفثات » بدون ألف . ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد﴾ الحسد : تمنى زوال النعمة التى أنعم الله بها على المحسود . ومعنى ﴿ إذا حسد ﴾ : إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه ، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود . قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد . وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة   يا ظالماً وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه فى هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شركل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره ، ومزيد ضره ، وهو الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ؛ فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال: «يا ابن عبسة ، أتدرى ما الفلق ؟ » قلت: الله ورسوله أعلم. قال : « بئر فى جهنم » . وأخرجه ابن أبى حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع . وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ :﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ هل تدرى ما الفلق ؟ باب فى النار إذا فتحت ، سعرت جهنم » . وأخرج ابن مردويه والديلمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال:« هو سجن فى جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتتعوذ بالله منه » . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « الفلق : جب فى جهنم » (١) . وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، لكان المصير إليها واجباً ، والقول بها متعيناً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفلق : سجن فى جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : الفلق : الصبح .وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الفلق :الخلق . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ومن شر

(١) ابن جرير ٣٠/٢٢٧.

غاسق إذا وقب ﴾ قال [١] : « النجم هو الغاسق ، وهو الثريا » [٢] . وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع . وقد قدمنا تأويل هذا ، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا ارتفعت النجوم ، رفعت كل عاهة عن كل بلد » . وهذا لو صح ، لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : **﴿ومن شر غاسق إذا وقب ﴾** قال : الليل إذا أقبل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : **﴿ ومن شر النفاثات فى العقد﴾** قال : الساحرات . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو ما خالط السحر من الرقى . وأخرج النسائى وابن مردويه عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها ، فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً ،وكل إليه» [٣] . وأخرج ابن سعد وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن أبى هريرة قال :جاء النبى ﷺ يعودنى فقال : « ألا أرقيك برقية رقانى بها جبريل ؟ » فقلت : بلى بأبى أنت وأمى. قال : « بسم الله أرقيك ،والله يشفيك من كل داء فيك، من شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد » . فرقى بها ثلاث مرات [٤] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾** قال : نفس ابن آدم وعينه .

---

(١) فى المطبوعة : « وقال » والصحيح حذف الواو كما بالمخطوطة .
(٢) ابن جرير ٣٠/ ٢٢٧ .
(٣) النسائى فى الكبرى فى المحاربة (٣٥٤٢) .
(٤) ابن ماجة فى الطب (٣٥٢٤) والحاكم ٢/ ٥٤١ .

تفسير سورة الناس

هى ست آيات . والخلاف فى كونها مكية أو مدنية كالخلاف الذى تقدم فى سورة الفلق . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : أنزل بمكة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزل بالمدينة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . وقد قدمنا فى سورة الفلق ما ورد فى سبب نزول هذه السورة ، وما ورد فى فضلها فارجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ قل أعوذ ﴾ بالهمزة . وقرئ بحذفها ونقل حركتها إلى اللام . وقرأ الجمهور بترك الإمالة فى الناس. وقرأ الكسائى بالإمالة . ومعنى ﴿ رب الناس ﴾ : مالك أمرهم ، ومصلح أحوالهم . وإنما قال : ﴿رب الناس﴾ مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ، ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس فى صدورهم . وقوله : ﴿ملك الناس﴾ عطف بيان جىء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل ، والسلطان القاهر . ﴿ إله الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان كالذى قبله ، لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى بالاتحاد والإعدام . وأيضا الرب قد يكون ملكاً ، وقد لا يكون ملكاً ، كما يقال : رب الدار ، ورب المتاع ، ومنه قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة : ٣١] فبين أنه ملك الناس، ثم الملك قد يكون إلهاً ، وقد لا يكون، فبين أنه إله ؛ لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد . وأيضا بدأ باسم الرب ، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك ، فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه،وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إله معبود ،بين سبحانه أنه إله الناس ،وكرر لفظ الناس فى الثلاثة المواضع ؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار ، ولأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس.

﴿ من شر الوسواس ﴾ قال الفراء : هو بفتح الواو ، بمعنى الاسم ، أى الموسوس ، وبكسرها المصدر ، أى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة . وقيل : هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة . والوسوسة : هى حديث النفس . يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة ، أى حدثته حديثاً ، وأصلها الصوت الخفى . ومنه قيل لأصوات الحلى : وسواس ، ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت

قال الزجاج : الوسواس : هو الشيطان ، أى ذى الوسواس . ويقال : إن الوسواس :ابن لإبليس . وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة فى تفسير قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ [الأعراف : ٢٠] ﴿ **الخناس** ﴾ : كثير الخنس ، وهو التأخر . يقال : خنس يخنس : إذا تأخر ، ومنه قول العلاء بن الحضرمى يمدح رسول الله ﷺ :

فإن دخسوا بالشر فاعف تكرماً وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد : إذا ذكر الله ، خنس وانقبض . وإذا لم يذكر ، انبسط على القلب . ووصف بالخناس ؛ لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ [التكوير: ١٥] يعنى : النجوم ؛ لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم. وقيل : الخناس : اسم لابن إبليس كما تقدم فى الوسواس . ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾ الموصول يجوز أن يكون فى محل جر نعتاً للوسواس ، ويجوز أن يكون منصوبا على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ . وقد تقدم معنى الوسوسة . قال قتادة : إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان ، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له . وإذا ذكر العبد ربه ، خنس . قال مقاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه، سلطه الله على ذلك . ووسوسته : هى الدعاء إلى طاعته بكلام خفى يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

ثم بين سبحانه الذى يوسوس بأنه ضربان : جنى ، وإنسى ، فقال : ﴿ **من الجنة والناس**﴾ أما شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته فى صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فيوقع فى الصدر من كلامه الذى أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه : ﴿شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام: ١١٢] ويجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ **يوسوس** ﴾ أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنة ، ومن جهة الناس . ويجوز أن يكون بياناً للناس . قال الرازى : وقال قوم : ﴿ **من الجنة والناس**﴾ قسمان مندرجان تحت قوله : ﴿ **فى صدور الناس** ﴾؛ لأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنسانا . والإنسان أيضاً يسمى إنسانا ، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس والنوع بالاشتراك . والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روى أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم : من أنتم ؟ قالوا : ناس من الجن . وأيضا قد سماهم الله رجالاً فى قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ [الجن : ٦] . وقيل : يجوز أن يكون المراد : أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس . وقيل : المراد بالناس : الناسى ، وسقطت الباء كسقوطها فى قوله : ﴿ يوم يدع الداع﴾ [القمر : ٦] ثم بين بالجنة والناس ؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين فى الغالب مبتلى

بالنسيان . وأحسن من هذا أن يكون قوله : ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس ، أى من شر الوسواس ، ومن شر الناس ، كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس . قال الحسن : أما شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتى علانية . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فتعوذ بالله من شياطين الجن والإنس . وقيل : إن إبليس يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الإنس ، وواحد الجنة جنى ، كما أن واحد الإنس إنسى . والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال . وإن كان وسوسة الإنس فى صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذى قدمنا . ويكون هذا البيان تذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ، ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وقد أخرج ابن أبى داود عن معاوية (١) فى قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس ، وإن سكت عاد إليه ، فهو الوسواس الخناس . وأخرج ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان ، وأبو يعلى وابن شاهين ، والبيهقى فى الشعب عن أنس عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسيه التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس» (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿الوسواس الخناس ﴾ قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة ، والبيهقى عنه قال : ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله : ﴿ الوسواس الخناس﴾ . وقد ورد فى معنى هذا غيره ، وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان ، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة. ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن على بن محمد الشوكانى ، غفر الله له ذنوبه . وكان الفراغ منه فى ضحوة يوم السبت ، لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين ، بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية .

اللهم كما مننت على بإكمال هذا التفسير ، وأعنتنى على تحصيله ، وتفضلت على بالفراغ منه ، فامنن على بقبوله، واجعله لى ذخيرة خير عندك ، وأجزل لى المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب فى تحريره وتقريره ، وانفع به من شئت من عبادك ليدوم لى الانتفاع به بعد موتى ، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف ، واجعله خالصاً لك ، وتجاوز عنى إذا خطر لى من

---

(١) فى المخطوطة : « ابن عباس » وفى الدر المنثور ٦/ ٤٢٠ : « معاوية » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٥٢ : « رواه أبو يعلى ، وفيه عدى بن عمارة وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (٥٣٦) وإسناده ضعيف .

خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص ، واغفر لى ما لا يطابق مرادك ، فإنى لم أقصد فى جميع أبحاثى فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه ، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات ، ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، ياباريئ البريات ، وأحمدك لا أحصى حمداً لك ، وأشكرك لا أحصى شكرك، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأصلى وأسلم على رسولك وآله . ا هـ .

تم سماعاً على مؤلفه ، حفظ الله عزته يوم الإثنين صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٤١ هـ .

كتبه

يحيى بن على الشوكانى

غفر الله لهما

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد

تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

تفسير سورة الحشر

تفسير سورة الممتحنة

تفسير سورة الصف

تفسير سورة الجمعة

تفسير سورة المنافقون

تفسير سورة التغابن

تفسير سورة الطلاق

تفسير سورة التحريم

تفسير سورة تبارك

تفسير سورة القلم

تفسير سورة الحاقة

تفسير سورة المعارج

تفسير سورة نوح

تفسير سورة الجن

تفسير سورة المزمل

تفسير سورة المدثر

تفسير سورة القيامة

تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

تفسير سورة النبأ

تفسير سورة النازعات

تفسير سورة عبس

تفسير سورة التكوير

تفسير سورة الانفطار

تفسير سورة المطففين

تفسير سورة الانشقاق

تفسير سورة البروج

تفسير سورة الطارق

تفسير سورة الأعلى

تفسير سورة الغاشية

تفسير سورة الفجر

تفسير سورة البلد

تفسير سورة الشمس

تفسير سورة الليل

تفسير سورة الضحى

تفسير سورة ألم نشرح

تفسير سورة التين

تفسير سورة العلق

تفسير سورة القدر

تفسير سورة البينة

تفسير سورة الزلزلة

تفسير سورة العاديات

تفسير سورة القارعة

تفسير سورة التكاثر

تفسير سورة العصر

تفسير سورة الهمزة

تفسير سورة الفيل

تفسير سورة قريش

تفسير سورة الماعون

تفسير سورة الكوثر

تفسير سورة الكافرون

تفسير سورة النصر

تفسير سورة تبت

تفسير سورة الإخلاص

تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م

I.S.B.N:977-15-0122-4